

١٧
١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله

الحمد لله

الحمد لله

الحمد لله

الحمد لله

الحمد لله

الحمد لله

الحمد لله

الحمد لله

الحمد لله

الحمد لله

الحمد لله

الحمد لله

الحمد لله

الحمد لله

الحمد لله

الحمد لله

الحمد لله

الحمد لله

الحمد لله

الحمد لله

الحمد لله

الحمد لله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَفْسِيرُ كَلَامِ الْمَنَانِ

الحمد لله الذي هدانا لهذا...

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

غاية في كلمة



للطباعة والنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة للناس

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

وطن المصطفية

شارع حبيب أبي غزالة

بناية المسكن

فأق: ٣١٩٠٣٩ - ٨١٥١١٢

فكس: ٨١٨٦١٥ - (٩٦١١)

ص: ١١٧٤٦٠

بيروت - لبنان

Resalah
Publishers

Tel: 319039 - 815112

Fax: (9611) 818615

P.O.Box: 117460

Beirut - Lebanon

Email:

resalah@resalah.com

Web Location:

Http://www.resalah.com

حقوق الطبع محفوظة © ٢٠٠٠ م. لا يُسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه. ولا يُسمح باقتباس أي جزء من الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

تفسير الكبرياء الحبيب

في تفسير كلام المثنان

تأليف
العلامة الشيخ
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
١٣٠٧ هـ - ١٣٧٦ هـ بحمد الله تعالى

قدم له

فضيلة الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عجيل فضيلة الشيخ محمد صالح العثيمين

اعتنى به تحقيقاً ومقابلة
عبد الرحمن بن معاذ اللويحي

مؤسسة الرسالة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده
 فإن من نعم الله عز وجل ما بين به على والدنا الشيخ : عبد الرحمن بن ناصر
 السعدي من تأليف تفسيره المعروف بتفسير الكريم الرحمن من تفسير كلام
 المنان) فقد كتب الله لهذا التفسير القبول فانتفع به الجسم الفقير من القاصي
 فطبع مرات عديدة أولاها : طبعة المكتبة السلفية وطبعة لمحمد بن
 الطيب - رحمه الله - أعقبتها طبعة المؤسسة السعيدة بمراجه وتصحيح
 محمد هري النجار ، ولكن كثيرا من العلماء وطلبة العلم لاحظوا
 على هاتين الطبعتين - خاصة طبعة النجار - ملاحظات عديدة ، جرت
 عليها الطباعات اللاحقة جميعها ، وقد تبين صدق هذه الملاحظات
 وظهرت أضعافها عند مراجعة التفسير على نسخته المخطوطتين ، مناب
 ما في المطبع من الأخطاء والنقص والزيادة .
 ولقد علمنا جهد : عبد الرحمن بن معلا اللويجه - الاستاذ المساعد في كلية الشريعة
 بالرياض - في تصحيح تفسير والدنا ، ومقابلته على النسختين الخطيتين مع
 إخراج في مجلد واحد على هامش المصحف ، فرأينا أن هذا العمل
 قد سلم من عوار الأفعال السابقة فقمنا بطباعة التفسير على
 النسخة التي بخط الوالد رحمه الله - ومراجعة على النسخة الخطية التي اعتمدنا
 الطبعة السلفية ، فصار التفسير بهذا أمر ما يكون لما أراد مؤلفه
 رحمه الله - فأهذه الاعتبار فرائضا نعقد هذه الطبعة بتحقيق ومقابلة
 عبد الرحمن بن معلا اللويجه ، ونعدها الطبعة التي يجب أن تكون أصلا
 لغيرها من الطباعات اللاحقة ، ونأمل أن تكف المطابع ودور النشر عن
 إعادة طباعة الطباعات السابقة لما فيها من أخطاء تقين ببراءة صحة
 هذا العمل المبارك .

مع وعائنا الله عز وجل أن يفر للموالد الشيخ : عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، وأن
 يجزل له الأجر والثوبة وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم
 محمد بن عبد الرحمن السعدي
 أحمد بن عبد الرحمن السعدي
 ٢/٤
 ١٤٢٤

المقدمات

مقدمة فضيلة الشيخ: عبد الله بن عبد العزيز بن عقيـل.

مقدمة فضيلة الشيخ: محمد بن صالح العثيمين.

مقدمة المحقق.

مقدمة

صاحب الفضيلة الشيخ: عبد الله بن عبد العزيز بن عجيل

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً.
أما بعد:

فإن الله بحكمته ورحمته أنزل كتابه تبياناً لكل شيء، وجعله هدى وبرهاناً لهذه الأمة، ويسره للذكر والتلاوة والهداية بجميع أنواعها ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ أنزله بلسان عربي مبين، وتكفل بحفظه وإبلاغه لجميع البشر، وقبض له من العلماء من يفسرونه، ويبلغونه للناس ألفاظه ومعانيه، لتتم بذلك الهداية وتقوم به الحجة. وقد أكثر العلماء من التأليف في تفسير القرآن العظيم كل بما أوتي من علم، فمنهم من يفسر القرآن بالقرآن، ومنهم من يفسره بالأخبار والآثار، ومنهم من يفسره من حيث اللغة العربية بأنواعها، ومنهم من يعتني بآيات الأحكام إلى غير ذلك.

وقد كان لشيخنا العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي - رحمه الله - من ذلك حظ وافر وذلك بتفسيره المسمى: (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) حيث جاء هذا التفسير سهل العبارة، واضح الإشارة، وصاغه على نمط بديع بعبارات قريبة لا خفاء فيها ولا غموض، فهو يعتني بإيضاح المعنى المقصود من الآية بكلام مختصر مفيد، مستوعب لجميع ما تضمنته الآية من معنى أو حكم سواء من منطوقها أو مفهومها، دون إطالة أو استطراد أو ذكر قصص أو إسرائيليّات، أو حكاية أقوال تخرج عن المقصود، أو ذكر أنواع الإعراب إلا في النادر الذي يتوقف عليه المعنى، بل يركز على المعنى المقصود من الآية بعبارة واضحة يفهمها كل من يقرأها مهما كان مستواه العلمي فهو في الحقيقة سهل ممتنع يفهم معناه من مجرد تلاوة لفظه، وقد اهتم بترسيخ العقيدة السلفية، والتوجه إلى الله، واستنباط الأحكام الشرعية، والقواعد الأصولية، والفوائد الفقهية إلى غير ذلك من الفوائد الأخرى التي لا توجد في غير تفسيره مع اهتمامه بتفسير آيات الصفات بمقتضى عقيدة السلف خلافاً لما يؤولها بعض المفسرين.

وقد منّ الله عليّ فسمعت منه بعض تفسيره شفهاً في حلقات الدروس في مسجد الجامع بعنيزة، كما أنني ممن أشار عليه بطبعه فطبع الجزء الخامس فقط في حياته عام ١٣٧٥هـ في المطبعة السلفية بمصر، وبعد ذلك تشاورنا في طبع بقيته، وساهمت في ذلك أيام كنت قاضياً في عنيزة فطبع باقيه بعد وفاته في عامي ٧٦ و ٧٧، وبعد تمام طبعه تداوله الناس بالقراءة والتدريس، ودرسناه لإخواننا وأبنائنا الطلاب وحصل بذلك خير كثير وقرأه أئمة المساجد على جماعاتهم لوضوح عباراته. وقد طبع بعد ذلك طبعات أخرى لا يخلو كل منها من ملاحظة أو مؤاخذه.

ولما صارت طبعاته بهذه المثابة مع حاجة الناس إليه سمت همة ابننا الشيخ الفاضل: عبد الرحمن بن معلا اللويحي الأستاذ بكلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية إلى طبعه على هامش المصحف الموجه كل جزء (٢٠) صفحة مراعيّاً في كل صفحة وضع ما يتعلق بتفسيرها. وقد عرض عليّ النماذج الأولى لهذه الطبعة فأعجبني، وسررت بها جداً مؤملاً أن تكون هذه الطبعة خير معين على فهم كتاب الله تعالى، والاعتناء به تلاوة وحفظاً وفهماً، لأنه بهذا الصنيع يقرب الاستفادة لتالي القرآن لسهولة

التناول وسرعة الرجوع إلى تفسير الآية من نفس الصفحة بدلاً من الرجوع إليها من كتب التفسير البعيدة. كما أنه سيعتني بتصحيح الأصل وجودة الطبع، فأسأل الله أن يشكر للابن الشيخ عبد الرحمن بن معلا اللويحق هذا الصنيع المبارك وأن يجزيه أفضل الجزاء وأن ينفع بهذه الطبعة كما نفع بسابقاتها وأن يجزي كل من ساهم في إخراج هذا المشروع النافع أفضل الجزاء وأن يتغمد الجميع ومؤلف التفسير برحمته إنه جواد كريم وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

حرر في ٩/٢٧ / ١٤١٦ هـ

وكتبه الفقير إلى الله

عبد الله بن عبد العزيز بن عجيل

رئيس الهيئة الدائمة بمجلس القضاء الأعلى سابقاً

وعضو بمجلس القضاء الأعلى (متقاعد)

مقدمة

صاحب الفضيلة الشيخ: محمد بن صالح العثيمين

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن تفسير شيخنا عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى المسمى (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) من أحسن التفاسير حيث كان له ميزات كثيرة:

منها سهولة العبارة ووضوحها حيث يفهمها الراسخ في العلم ومن دونه.

ومنها تجنب الحشو والتطويل الذي لا فائدة منه إلا إضاعة وقت القارئ وتبليبل فكره.

ومنها تجنب ذكر الخلاف إلا أن يكون الخلاف قوياً تدعو الحاجة إلى ذكره وهذه ميزة مهمة بالنسبة للقارئ حتى يثبت فهمه على شيء واحد.

ومنها السير على منهج السلف في آيات الصفات فلا تحريف ولا تأويل يخالف مراد الله بكلامه فهو عمدة في تقرير العقيدة.

ومنها دقة الاستنباط فيما تدل عليه الآيات من الفوائد والأحكام والحكم وهذا يظهر جلياً في بعض الآيات كآية الوضوء في سورة المائدة حيث استنبط منها خمسين حكماً وكما في قصة داود وسليمان في سورة ص.

ومنها أنه كتاب تفسير وتربية على الأخلاق الفاضلة كما يتبين في تفسير قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾

ومن أجل هذا أشير على كل مرید لاقتناء كتب التفسير أن لا تخلو مكتبته من هذا التفسير القيم.

وأسأل الله تعالى أن ينفع به مؤلفه وقارؤه إنه كريم جواد وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان.

كتبه محمد الصالح العثيمين

في ١٥ / رمضان ١٤١٦ هـ

1. The first part of the paper is devoted to the study of the properties of the function $f(x)$ defined by the equation

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt.$$

It is shown that the function $f(x)$ is continuous and differentiable on the interval $(-\infty, \infty)$ and that its derivative is equal to $\frac{1}{1+x^2}$.

2. In the second part of the paper, we consider the function $F(x)$ defined by the equation

$$F(x) = \int_0^x \frac{t}{1+t^2} dt.$$

It is shown that the function $F(x)$ is continuous and differentiable on the interval $(-\infty, \infty)$ and that its derivative is equal to $\frac{x}{1+x^2}$.

3. In the third part of the paper, we consider the function $G(x)$ defined by the equation

$$G(x) = \int_0^x \frac{t^2}{1+t^2} dt.$$

It is shown that the function $G(x)$ is continuous and differentiable on the interval $(-\infty, \infty)$ and that its derivative is equal to $\frac{t^2}{1+t^2}$.

4. In the fourth part of the paper, we consider the function $H(x)$ defined by the equation

$$H(x) = \int_0^x \frac{t^3}{1+t^2} dt.$$

It is shown that the function $H(x)$ is continuous and differentiable on the interval $(-\infty, \infty)$ and that its derivative is equal to $\frac{t^3}{1+t^2}$.

5. In the fifth part of the paper, we consider the function $I(x)$ defined by the equation

$$I(x) = \int_0^x \frac{t^4}{1+t^2} dt.$$

It is shown that the function $I(x)$ is continuous and differentiable on the interval $(-\infty, \infty)$ and that its derivative is equal to $\frac{t^4}{1+t^2}$.

6. In the sixth part of the paper, we consider the function $J(x)$ defined by the equation

$$J(x) = \int_0^x \frac{t^5}{1+t^2} dt.$$

It is shown that the function $J(x)$ is continuous and differentiable on the interval $(-\infty, \infty)$ and that its derivative is equal to $\frac{t^5}{1+t^2}$.

7. In the seventh part of the paper, we consider the function $K(x)$ defined by the equation

$$K(x) = \int_0^x \frac{t^6}{1+t^2} dt.$$

It is shown that the function $K(x)$ is continuous and differentiable on the interval $(-\infty, \infty)$ and that its derivative is equal to $\frac{t^6}{1+t^2}$.

8. In the eighth part of the paper, we consider the function $L(x)$ defined by the equation

$$L(x) = \int_0^x \frac{t^7}{1+t^2} dt.$$

It is shown that the function $L(x)$ is continuous and differentiable on the interval $(-\infty, \infty)$ and that its derivative is equal to $\frac{t^7}{1+t^2}$.

9. In the ninth part of the paper, we consider the function $M(x)$ defined by the equation

$$M(x) = \int_0^x \frac{t^8}{1+t^2} dt.$$

It is shown that the function $M(x)$ is continuous and differentiable on the interval $(-\infty, \infty)$ and that its derivative is equal to $\frac{t^8}{1+t^2}$.

مقدمة المحقق

الحمد لله نعمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإن إنزال القرآن الكريم على هذه الأمة منة عظيمة؛ لأنه سبيل الهداية، وطريق السلامة من الضلال والغواية: ﴿فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً﴾.

ولكن الاستفادة الحقة من هذا الكتاب الكريم تكون بدوام الصلة به علماً وعملاً، تلاوة وتديراً، وفهماً: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾ ومن سبل ذلك التدبر، والفهم: النظر فيما كتب أهل العلم في تفسير القرآن العظيم؛ فإن من كمال حفظ الله عز وجل لهذا الذكر الحكيم أن فيض له جهابذة فهموا مراد الله عن الله وعن رسوله ﷺ فألفوا في ذلك كتباً بسطوا فيها ألفاظ القرآن، وأبانوا ما يعسر فهمه، وفصلوا ما جاء فيه من القواعد والكلييات، ودفعوا التعارضات المتوهمه، وبينوا مراجع الضمائر، وعينوا المعاني المرادة إذا احتمل الكلام أوجهاً متعددة وكانوا طرائق قدداً في عنايتهم بهذا الكتاب العظيم حتى جاء شيخ مشايخنا العلامة: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي رحمه الله فجعل جل عنايته بالمعاني التي هي المراد الأعظم، فكان كتابه فتحاً في هذا العلم؛ إذ أوقف القارئ على المراد، وأعانته على تدبر التنزيل، دون أن يقف به على المشغلات الصارفات عن ذلك كالبحوث اللغوية الصرفة، والإسرائيليات ونحوها، وليس ذلك عن قصور إذ لا يبلغ هذا المبلغ من القدرة على تسهيل المعاني، وبيان المراد إلا من ملك من علوم الآلة، وسعة الاطلاع على كتب التفسير ما يؤهله للقيام بهذه المهمة العظيمة.

ولقد من الله علي بالعناية بهذا التفسير، ومحبة صاحبه رحمه الله وقراءة التفسير وإقرائه، والنصح بقراءته، ومن الله علي بالعناية بطبعه في مجلد واحد يهدم الحواجز النفسية الصادة عن قراءته في مجلداته السبعة التي كان عليها في أشهر طبعاته السابقة، وكان الهم منصرفاً إلى ذلك، ولم يكن الذهن ملتفتاً إلى طبعات الكتاب وما فيها من أخطاء حتى هاتفتني بعض أفاضل طلبة العلم من المشايخ الكرام كان منهم: فضيلة الدكتور: عبد الرزاق بن الشيخ عبد المحسن العباد البدر، وفضيلة الدكتور: خالد بن عثمان السبت، حيث جرت مهاتفات معهما ومقابلة للشيخ: عبد الرزاق كانت فاتحة خير للاهتمام بالتفسير وينسخه المخطوطة، وطبعاته فتبين أن في الطبعات عواراً كثيراً، وأن التفسير لم يخرج حتى الآن على الصورة التي تركها الشيخ - رحمه الله - وبيان ذلك يحتاج إلى تفصيل تاريخي لكتابة الشيخ لهذا التفسير، وما وقع من طباعته، فرأيت أن أعرض الأمر مفصلاً في هذه المقدمة حتى يستبين الأمر للقارئ الكريم، ويرى ما يمكن أن يفعله الكتييون والناشرون في الكتب.

تأليف الشيخ للتفسير:

بدأ الشيخ - رحمه الله - تأليفه لهذا التفسير المبارك في عام ١٣٤٢هـ وأنهاء في عام ١٣٤٤هـ.

وبهذا يظهر أنه قد بدأه وله من العمر خمسة وثلاثون عاماً وأتمه وله من العمر سبعة وثلاثون عاماً.

والذي يقرأ التفسير يحسب أنه لا يمكن لمن كان في هذا السن أن يكتبه إذ يمثل كتابة عالمٍ ناضج متمكن من العلم وآلاته، واسع الاطلاع ﴿وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾.

وقد كتب نسخة واحدة ثم أمر من ينسخ له نسخة أخرى، وبالتتبع والسؤال يبدو لي أنه لم ينسخ من التفسير إلا هاتان النسختان: نسخة الشيخ - رحمه الله - والنسخة التي أمر النساخ بنسخها.

وابتغاء توضيح الأمر أبين تفاصيل متعلقة بهاتين النسختين مع وصف لهما:

النسخة الأولى:

هذه النسخة هي التي كانت في حوزة الشيخ وملكه، وهي في جملتها كما سيظهر بخط الشيخ - رحمه الله - وهذا وصف لها:

تتكون هذه النسخة من تسعة أجزاء، جعلها الشيخ رحمه الله في تسعة مجلدات:

المجلد الأول:

وقد كتب على غلافه (المجلد الأول من تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، من منن الله على عبده، وابن عبده، وابن أمته: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي)^(١) وفوقها بخط الشيخ - رحمه الله - وبحرف صغير (هذه التسمية مأخوذة من قوله: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ وقوله: ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾ وفي وسط الصفحة وبخط الشيخ أيضاً: «شرعت في هذا التفسير المبارك غرة شهر () سنة ١٣٤٢ هـ أرجو الله أن يتمه بنعمته».

وهذا المجلد بخط الشيخ - رحمه الله - وعليه هوامش وتعديلات بخطه أيضاً، ويقع في (١٥٠) صفحة، في كل صفحة (٣٠) سطراً تقريباً أوله المقدمة، ثم تفسير الفاتحة إلى تفسير قوله تعالى: ﴿والله ما في السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم﴾ الآية (١٢٩) من سورة آل عمران.

المجلد الثاني:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (١٩٢) صفحة في كل صفحة (٣٠) سطراً تقريباً، أوله تفسير الآية (١٣٠) من سورة آل عمران وهي قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعكم تفلحون﴾ وآخره: آخر تفسير سورة الأنعام.

المجلد الثالث:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (٢١٤) صفحة في كل صفحة (٢٥) سطراً تقريباً أوله أول تفسير سورة الأعراف، وآخره آخر تفسير سورة هود.

المجلد الرابع:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (١٢٩) صفحة في كل صفحة (٢٦) سطراً تقريباً أوله أول تفسير سورة يوسف، وآخره آخر تفسير سورة الإسراء.

(١) يلاحظ أن هذه العبارة كتبت على طرة كل مجلد بعد ذكر رقمه، مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ، ففي طرة المجلد الثاني جاءت العبارة هكذا: (المجلد الثاني من تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن لجامعه: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي غفر الله له ولوالديه وللمسلمين... أمين) وفي المجلد الثالث: (المجلد الثالث من تيسير الرحمن في تفسير القرآن لجامعة الفقير إلى الله: عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي).

(٢) الكلمة غير واضحة في الأصل والذي يبدو أنه شهر صفر أو محرم لأن الشيخ أتم هذا الجزء في نهاية شهر ربيع الأول.

المجلد الخامس:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (٢٢٩) صفحة في كل صفحة (٢٨) سطراً تقريباً، أوله تفسير سورة الكهف وآخره آخر تفسير سورة النمل.

المجلد السادس:

وهذا المجلد بخط الشيخ: محمد بن منصور بن إبراهيم بن زامل - رحمه الله - أتم كتابته في ٢٤ رجب سنة (١٣٤٥هـ) وهو خط جميل، ولكنه كثير الأخطاء، ويفصل بين جزئي الكلمة في سطرين، ويكثر هذا منه مما يربك القارى.

وعلى هذا الجزء هوامش وتعليقات بخط الشيخ عبد الرحمن بن سعدي - رحمه الله - ويقع في (١٤٢) صفحة في كل صفحة (٢٩) سطراً تقريباً، أوله تفسير سورة القصص، وآخره آخر تفسير سورة الصافات.

المجلد السابع:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (١٥٣) صفحة في كل صفحة (٢٨) سطراً تقريباً، أوله: تفسير سورة (ص) وآخره: آخر تفسير سورة الفتح.

المجلد الثامن:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (١٤٦) صفحة في كل صفحة (٢٩) سطراً، أوله أول تفسير سورة الحجرات، وآخره آخر تفسير سورة القيامة.

المجلد التاسع:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (٥٠) صفحة في كل صفحة (٣٠) سطراً تقريباً، أوله تفسير سورة الإنسان، وآخره آخر تفسير سورة الناس.

النسخة الثانية:

المجلد الأول:

وقد كتب عليه: (المجلد الأول من تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن لمعلقه الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر السعدي غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين) وهكذا كتبت هذه العبارة أو قريباً منها باختلاف يسير على طرة كل مجلد.

وفي وسط الصفحة ما يلي: (تنبيه: اعلم أن طريقتي في هذا التفسير أنني أذكر عند كل آية ما يحضرني من معانيها، ولا أكتفي بذكر ما يتعلق بالمواضع السابقة عن ذكر ما تعلق بالمواضع اللاحقة؛ لأن الله وصف هذا الكتاب أنه «مثنى» ثنى فيه الأخبار، والقصص، والأحكام، وجميع المواضيع النافعة، لحكم عظيمة، وأمر بتدبره جميعه؛ لما في ذلك من زيادة العلوم والمعارف، وصلاح الظاهر والباطن، وإصلاح الأمور كلها).

وكثير من هذا المجلد بخط الشيخ - رحمه الله - إلا الصفحات ما بين الصفحة (٣٦) والصفحة (٩٦) فهي بخط مغاير لخط الشيخ - رحمه الله - وبداية المجلد ونهايته كالنسخة الأولى.

المجلد الثاني:

وهو بخط الشيخ علي الحسن العلي البريكان، وبداية المجلد ونهايته مثل النسخة الأولى، وللشيخ

عبد الرحمن السعدي رحمه الله عليه تصويبات مما يدل على أنه قرأه ويقع في (١٧٧) صفحة في كل صفحة (٣١) سطرًا تقريباً.

المجلد الثالث:

وقد نسخ هذا المجلد ناسخان بدأ الأول بنسخ اثني عشرة صفحة ولكن خطه سقيم، وأخطاه كثيرة ولذلك كتب الشيخ رحمه الله بخطه على الصفحة الثانية: (الصحائف الأولى من هذا الجزء خطها سقيم، الأمل الثاني فيها عند تصحيحها) ثم نسخت الصحائف التالية إلى آخر الجزء بخط مغاير أمثل من الخط الأول، ولم يكتب على هذا الجزء اسماً للناسخين.

ويقع هذا الجزء في (١٥٢) صفحة كل صفحة (٣١) سطرًا. وبداية المجلد ونهايته كمثيله في النسخة الأولى.

المجلد الرابع:

وهذا الجزء بخط الشيخ سليمان الحمد البسام وللشيخ عبد الرحمن السعدي عليه بعض تصويبات بخط يده رحمه الله ويقع في (١٠٣) صفحات في كل صفحة (٢٨) سطرًا وبداية المجلد ونهايته كما في النسخة الأولى.

المجلد الخامس:

وهذا المجلد هو الذي بعث به الشيخ رحمه الله للطباعة أول الأمر. وكتب الشيخ بخط يده المقدمة التي طبعت مع هذا الجزء أول ما طبع، وهي مقدمة أثبتتها في هامش هذه الطبعة عند أول تفسير سورة الكهف، وهذا المجلد نقل عن خط الشيخ المؤلف رحمه الله وليس عليه اسم كاتبه، وقد ألحق الشيخ رحمه الله به أصول من أصول التفسير، وتفسير ألفاظ عامة يكثر في القرآن ورودها ويحتاج إلى معرفتها) وهي بخط الشيخ رحمه الله وقد جعلتها ملحقة بهذه الطبعة في آخر التفسير. وفي آخر الجزء فهرس لمحتوياته، ثم نقل للخطاب الموجه من الشيخ رحمه الله إلى الشيخ محمد نصيف رحمه الله وقد أרך في ٣١/٢/ ١٣٧٤ هـ ونص الخطاب تجده في هذه المقدمة وعدد صفحات هذا المجلد (٢١٤) صفحة في كل صفحة من صفحات هذا الجزء (٣٠) سطرًا، أوله تفسير سورة الكهف، وآخره آخر تفسير سورة النمل ثم بعدها أصول من أصول التفسير وتفسير الأسماء الحسنى.

المجلد السادس:

وهذا المجلد بخط الشيخ رحمه الله وبدايته من أول سورة القصص ونهايته بنهاية تفسير سورة الصافات. وعدد صفحات هذا الجزء (١٥٤) صفحة في كل صفحة ما بين (٢٥-٢٨) سطرًا وبدايته ونهايته كمثيله في النسخة الأخرى.

المجلد السابع:

وهو بخط الشيخ: سليمان بن حمد العبد الله البسام رحمه الله وعدد صفحات هذا الجزء (١٢٢). صفحة في كل صفحة (٢٢) سطرًا، وبداية الجزء ونهايته كمثيله في النسخة الأخرى.

المجلد الثامن:

وهو بخط الشيخ رحمه الله وعدد صفحات هذا الجزء (٢٠١) صفحة..

ويبدأ من أول تفسير سورة الحجرات وينتهي بتفسير سورة الناس.

وبهذا فإن هذه النسخة تحتوي على ثمانية أجزاء بينما النسخة الأخرى على تسعة أجزاء.

هذا عن نسخ التفسير المخطوطة وأما طباعته فقد كانت فاتحتها طباعة الجزء الخامس منه، إذ بعث الشيخ رحمه الله إلى الشيخ محمد نصيف رحمه الله برسالة مدونة في خاتمة المجلد الخامس من النسخة (ب) مؤرخة في ١٣٧٤ هـ / ٢ / ٣٠. وقد نقلت من خط الشيخ بخط مغاير هذا نصها: بسم الله الرحمن الرحيم، حضرة محترم المقام الشيخ محمد نصيف حفظه الله آمين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. سبق جواب كتابكم الآمل وصوله، ثم إننا نكلفكم حيث أرسلت لكم تفسيرنا الكبير المجلد الخامس منه وقع النظر على الاقتصار على طبعه فجعلنا له مقدمة وختمناه بأصول وكتليات من أصول وكتليات التفسير، ونريد أن يطبع منه خمسة آلاف نسخة، وأحببت أن يكون الاختيار لجنابكم في اختيار من يتولى طبعه، إما محب الدين الخطيب أو الشيخ حامد أو من ترجح وتحثه على العناية التامة فيه، ولو زاد علينا المصروف، وقد وصيت الشيخ: عبد الله المحمد العوهلي يسلم لكم كل الذي تطلبون لأجل طبعه وأرجو الله أن يثيكم الثواب الجزيل، ويشكر مساعيك ويجزيك عنا أفضل الجزاء فأنت طال عمرك عوض النفس في كل شيء والله الموفق والسلام.

محبتك^(١) عبد الرحمن الناصر السعدي

وتنبه الطابع على طبع خاتمة

الأصول وكتليات التفسير للحاجة الشديدة إليها

وقد أبان الشيخ - رحمه الله - عن مقصوده من أفراد هذا الجزء بالطباعة في المقدمة التي كتبها لهذا الجزء^(٢) فقال: وقد تكرر علي السؤال من كثير من الأصحاب في نشر تفسيرنا هذا جميعه وألحوا لما يرونه من الفائدة الكبيرة فاعتذرت بأن ذلك يصعب جداً؛ لأنه مبسوط، وأيضاً في هذه الأوقات قلت رغبات الناس في الكتب المطولة، لذلك أحببت إجابتهم لنشر بعض ما طلبوا وهو الاقتصار على جزء واحد من أجزاء هذا التفسير، ووقع الاختيار على الجزء الأوسط من سورة الكهف إلى آخر النمل فما لا يحصل جميعه لا يترك جميعه). وقد طبع هذا المجلد عام ١٣٧٥ هـ، ثم بعث الشيخ - رحمه الله - ببقية أجزاء الكتاب للشيخ محب الدين الخطيب - رحمه الله - فأتم طباعة الكتاب كله، فطبع الكتاب في عام ١٣٧٦ هـ، وقبل وفاته بشهر تقريباً بعث إلى شيخنا عبد الله بن عقيل رسالة قال فيها: (التفسير مثل ما ذكرت لك، وصلني منه الجزء الأول عدة ملازم من زمان، وبعد ذلك ما جاءنا عنه خبر)^(٣) وبعدها بعشرة أيام بعث برسالة أخرى قال فيها: (أفيدكم وصلني ملازم أيضاً من الجزء الثاني، وبقية الجزء الأول من التفسير، ويذكر الشيخ نصيف أنهم إن شاء الله مجتهدون في إنجازه، يسر الله ذلك وسهله)^(٤). وبهذا يتبين أن الشيخ رحمه الله لم ير الكتاب كاملاً ويبدو أنه لم يبد ملاحظات على ما طبع منه، إذ توفي بعد رسالته السابقة بشهر تقريباً.

وتتميز هذه الطبعة أولاً بالسبق الزمني فإنها أول الطبوعات، وهي أصل جميع الطبوعات السابقة فليس هناك طبعة إلا وكان أصلها عائداً إلى هذه الطبعة. وهي بذلك أسلم من غيرها، وأقل في الأخطاء والتصحيقات والتحريفات، وهذا لا يعني جودتها، وموافقتها للأصل، إذ ثم ملاحظ لا بد من بيانها:

(١) تصحفت الكلمة في النسخة إلى: (محمد)، لأن الخطاب فيما يظهر منقول عن كتابة الشيخ - رحمه الله - فهو بخط مغاير لخط .

(٢) انظر نص المقدمة عند أول تفسير سورة الكهف من هذه الطبعة.

(٣) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة (٢٩٦).

(٤) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة (٢٩٨).

الملحظ الأول:

التصرف في طريقة الشيخ في تفسير الآيات، حيث يعتمد الشيخ - رحمه الله - إلى ذكر الآيات أحياناً، وأحياناً يقول إلخ القصة، إذا كانت قصة من القصص وأحياناً يورد كلاماً في سياق التفسير لا يقصد به ذكر الآية فيغير المصححون ذلك فيقومون بإيراد الآيات كاملة، ويغيرون كلامه ويشطبون في المخطوطة، ويضعون الآية أو الآيات بدلاً منه.

ومن أمثلة ذلك:

إن الشيخ رحمه الله أورد قصة قارون هكذا: (إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم) إلى آخر القصة فشطب المصححون على قوله: (إلى آخر القصة)، وأوردوا الآيات كاملة، وهي في هامش النسخة بخط المصحح.

وكذا عند إيراد قصة لوط في سورة العنكبوت حيث أورد الآيات من قوله تعالى: ﴿ولوطاً إذ قال لقومه﴾ إلى قوله: ﴿قال رب انصرنني على القوم المفسدين﴾ فأتموا الآيات إلى قوله: ﴿ولقد تركنا منها آية بيّنة لقوم يعقلون﴾ وهي في هامش النسخة بخط المصحح.

الملحظ الثاني:

التصرف في تقسيم الكتاب، حيث قسم الشيخ التفسير إلى ثمانية أجزاء في إحدى النسخ وتسعة في الأخرى، وكانت النسخة التي اعتمدت عليها المطبعة السلفية في ثمانية أجزاء ينتهي الأول منها بنهاية تفسير قوله تعالى: ﴿والله ما في السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم﴾ في سورة آل عمران (١٢٩) فجعلوا نهاية الجزء بنهاية تفسير سورة آل عمران، وكتبوا في نهاية الجزء (تم المجلد الأول من تفسير الرحيم الرحمن في تفسير القرآن عن نسخة مؤلفه العلامة الجليل الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ويليهِ المجلد الثاني وأوله تفسير سورة النساء، والحمد لله رب العالمين)^(١) وليس الأمر كما قالوا بل تقسيم النسخة التي اعتمدها على خلاف ما ذكروا.

الملحظ الثالث:

الزيادات، لقد زاد القارئون على هذه الطبعة في التفسير زيادات وإن كانت يسيرة إلا أنه لم يتم الإشارة إليها لا في المقدمة، ولا في مواضع الزيادات فمن ذلك:

١- زيادة رقم الجزء من أجزاء القرآن الكريم قبل بدايته فقبل بداية الجزء الثالث كتبوا عنواناً في وسط الصفحة (الجزء الثالث)^(٢) وكذا عند الجزء الرابع وليس في النسخة المخطوطة شيء من ذلك، ولم يثيروا إلى كونها ليست من كلام الشيخ رحمه الله.

٢- زيادة جملة: (قوله تعالى) أو: (قال تعالى) في مواضع كثيرة ومن أمثلة ذلك زيادتها في أول سورة النساء مع أن عادة الشيخ - رحمه الله - أن يبدأ الكلام بذكر الآيات المفسرة بعد البسملة^(٣).

٣- زيادة قوله من ديارهم، وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وإذا أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم﴾ الآية، حيث قال الشيخ: (فترض عليهم أن لا يسفك بعضهم دم بعض، ولا يخرج بعضهم بعضاً وإذا وجدوا أسيراً منهم وجب عليهم فداؤه) فزادوا جملة من ديارهم فصار النص

(١) (٢٨٨/١).

(٢) (١٤٩/١).

(٣) المخطوطة ب (٢٣/٢) وطبعة السلفية (٣/٢).

هكذا: (ولا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم).

٤- ومن أمثلة ذلك قال رحمه الله: (أي (و) أرسلنا (إلى مدين) القبيلة المعروفة المشهورة (شعياً) فأمرهم).
فعدل النص حتى صار بزيادته هكذا: (أي: (و): أرسلنا (إلى مدين) القبيلة المعروفة المشهورة أخاهم شعياً الذي أمرهم).

وبعدها بقليل قال الشيخ (فكذبوه) فأخذهم عذاب الله فعدلت فصارت (فكذبوه فأخذتهم الرجفة) أي: عذاب الله^(١).

وهذا كثيراً جداً، وبعض التصرف تصرف مقبول في الأصل؛ للحاجة إليه، أو لخطأ في سياق الكلام، إما يعود الضمير المذكور على مؤنث أو نحو ذلك، وإما ينقص أو نحوه، ولكن هذا التصرف وإن كان مقبولاً في الأصل إلا إنه لم ينبه عليه، ولم يشر المصحح إلى شيء من التغيير.

الملحظ الرابع:

التصحيح في بعض الجمل تصحيحاً خاطئاً - بل ظاهر الخطأ - ومن ذلك:

١- قال الشيخ رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾: (﴿لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ بأن كان عنه مسافة قصر فأكثر، أو بعيداً عنه عرفاً، فهذا الذي يجب عليه الهدى).

وقد جاء التعديل عجيباً من العجب حيث غيرت عنه إلى عند أو كلمة (عرفاً) إلى (عرفات) فجاء النص هكذا: (بأن كان عند مسافة قصر فأكثر أو بعيداً عند عرفات فهذا الذي يجب عليه الهدى)^(٢).

وقد تتابعت كل الطباعات مقلدة هذا الخطأ.

٢- ومن التعديل ما يكون بدون مسوغ ظاهر أو بمسوغ من وجهة نظر المصحح دون إشارة للتعديل ومثال ذلك:

قال الشيخ رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا﴾ الآية، (وأنتم تعرفونه منذ نشأ بينكم لا يكتب ولا يقرأ فاتاكم بكتاب زعم أنه من عند الله). غيرت كلمة زعم إلى: (أخبركم أنه من عند الله)^(٣).

الملحظ الخامس:

بعض الأخطاء الظاهرة مثل:

قال الشيخ رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾.
(فالشرك لا يغفره الله إلا بالتوبة) هكذا في المخطوطتين وجاء في طبعة السلفية (فالشرك لا يغفره الله بالتوبة)^(٤) وهذا خطأ شنيع، وعلى ذلك تتابعت الطباعات^(٥).

وبعد ظهور هذه الطبعة بسنتين طبع التفسير طبعة أخرى عن طريق المؤسسة السعيدية، التي كلفت الأستاذ

(١) ينظر الطبعة السلفية (٤٣/٦)، والمخطوطة ب (٣٣/٦).

(٢) المخطوطة ب (٨٢)، طبعة السلفية (١١٧/١).

(٣) انظر ص ٢٨ من المخطوط (ب) من الطبعة السلفية (٢٧/١).

(٤) (١٣٨/١).

(٥) ينظر طبعة التجار (٢٨٧/١).

محمد زهري النجار بتصحيح الكتاب، والنجار يوصف بأنه من علماء الأزهر، وله بعض الأعمال الأخرى كتصحيحه لكتاب الأم للشافعي، وهذه الطبعة طبعة تميزت بأنها أضحت الطبعة المعتمدة لسائر طبعات التفسير بعدها بل اعتمدت طبعها الرئاسة العامة للافتاء والدعوة والإرشاد في المملكة العربية السعودية، وقد كان ذلك لإحسانهم الظن في المؤسسة ومصححها، ولقد تبين لي جملة من الملاحظات تظهر غوار تلك الطبعة أذكر هنا جملة منها:

الملحظ الأول:

اعتماد هذه الطبعة اعتماداً كلياً على الطبعة السلفية، دون الإشارة إلى ذلك في مقدمة الطبعة، وهذا الاعتماد جعل الملاحظ المذكورة سابقاً على الطبعة السلفية تصدق على هذه الطبعة أيضاً، بل قد زادت طبعة النجار الأمر فجمعت إلى ذلك ملاحظ أخرى أشد وأخطر، ولو أن الطبعة السلفية صورت بدل أن يعهد بتصحيحها إلى النجار لكان الأمر أهون.

الملحظ الثاني:

التصرف في مواقع الآيات من التفسير:

لقد جرت عادة الشيخ - رحمه الله - أن يبدأ فيذكر الآيات التي يريد تفسيرها كاملة ثم يشرع في تفسيرها مجزأة عقب ذلك، وفي بعض الأحيان يقوم رحمه الله بذكر الآيات إذا كانت قصصاً للأنبياء فيقول إلى آخر القصة، وفي أحيان قليلة يغفل ذكر الآيات كاملة فيشرع في تفسيرها مباشرة، وعلى ذلك يجري سياق التفسير، ولكن النجار عمد إلى جعل الآيات في أعلى الصفحة، وجعل بينها وبين التفسير خطأ ثم حذف الآيات في التفسير، ومن هنا يأتي اضطراب السياق في بعض الأحيان فيضطر إلى حذف بعض الكلمات أو الإضافة أو نحو ذلك.

الملحظ الثالث:

التصرف بالزيادة:

إن من أعجب ما عمل النجار أن زاد في التفسير ففي بعض المواضع ترك الشيخ - رحمه الله - تفسير بعض الآيات سهواً، فيقوم النجار بتفسيرها من عنده.

وفي مواضع أخرى تكون النسخة التي اعتمدت عليها الطبعة السلفية ناقصة؛ لأن الناسخ تجاوز الآيات فيقوم النجار من قبله بتفسير هذه الآيات. وهذه المواضع كثيرة جداً تصل في بعض المواقع إلى صفحات، وفي بعضها إلى أسطر، وفي أخرى إلى كلمات، وهذه أمثلة لها:

١- سقط من النسخة الخطية (ب) تفسير الآية (٢٠٧) من سورة البقرة وهي قول الله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ وبناء على سقوطها من النسخة سقطت من الطبعة السلفية فجاء النجار ففسر الآية من عنده، وبدأ بمعاني المفردات، ورجع إلى جملة مراجع؛ كالقاموس والصاحح، وتفسير ابن كثير، ولم يشر إلى أن الكلام من كلامه، وليس من كلام الشيخ - رحمه الله - وقد وقع هذا في صفتين ونصف من طبعته ابتداء من منتصف الصفحة (٢٥٢) من المجلد الأول إلى نهاية ص (٢٥٤)، والقارى للكلام يعلم أنه ليس من كلام الشيخ - رحمه الله - لأن الشيخ لا يتنقل من مصادر، وإنما يفسر بما فتح الله عليه كما قرر ذلك في أول الكتاب.

٢- ومن الزيادات الطويلة التي زادها النجار زيادته في تفسير الآيات رقم (١٠٥ - ١٠٧) من سورة الأنعام حيث تجاوزها الشيخ فلم يفسرها ففسرها النجار في الصفحات ذوات الأرقام (٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢) من

الجزء الثاني، ولم يشر إلى التصرف، وظاهر من أسلوبه أنه ليس أسلوب الشيخ حيث أتى ببعض الإعرابات والمعاني اللفظية ثم ذكر المعنى الإجمالي. ومن عجيب أمره أنه في الصفحة (٤٤٩) تصرف تصرفاً يسيراً بأن قدم كلمة على أخرى، وأشار في الهامش إلى ذلك التصرف، ولم يشر إلى تصرفه بزيادة ثلاث صفحات.

٣- في تفسير الآيتين (٥٠، ٥١) من سورة الحج سبق قلم الشيخ - رحمه الله - إلى الآية رقم ٥٦ فجمع بينهما وبين هذه الآية فكتب ﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك أصحاب الجحيم﴾، ثم فسر الآية على وفق ما كتب، فعمد النجار إلى تغيير التفسير وزيادة طويلة يصل مجموعها إلى صفحة ونصف الصفحة تقريباً^(١) ولم يشر إلى شيء من التعديل.

٤- ومن الزيادات العجيبة أن الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله - أورد قوله سبحانه: ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين﴾ من الآية رقم (٢٩) من سورة الدخان، في سياق تفسيره للآية رقم (٤١) من سورة المؤمنون، مستشهداً بها، ولكن يبدو أن النجار ظنها من السورة نفسها ففسرها تفسيراً من عند نفسه ونسبها إلى الشيخ، ولم يعلق، ولم يبين أنه من كلامه، وهذه الزيادة تقع في صفحة تقريباً^(٢).

ومن عجيب حاله أنه يعلق أحياناً في الهامش على زياداته وكأنها تعليق على كلام الشيخ رحمه الله^(٣).

الملحظ الرابع:

الحواشي والتعقيبات:

لقد قام النجار بتعقيب الشيخ رحمه الله في مواضع كثيرة من التفسير ووضع هامش لتلك التعقيبات فتعدى (مهمته، وتجاوز طوره، فراح يعلق على هذا التفسير القيم بآراء بعثت عن الضوابط، وجانب الحق في أجلى معانيه مما شوه به هذا الكتاب، وأساء إلى المؤلف، وغش القراء، وأضل الناشئة كما أنه اعترض على المؤلف، وزد أقواله بآراء من عنده لم يوفق فيها إلى الحق والصواب، مع أنه ليس من حقه ذلك، ولا من مهمته أن يعترض على المؤلف فيما اختاره، وإنما مهمته هي تحقيق النص وتصحيحه)^(٤).

(والذي في أول الكتاب من هذه التعقيبات اعتراضات بسيطة على عبارة، أو لفظة أو نحوها، أما الذي في وسطه وآخره فهي اعتراضات وخيمة تحريف لكلام الله، وغلو في الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وتقص للعلماء وكذب عليهم)^(٥).

ولقد كان في معظم تعليقاته متهماً للشيخ وأسلوبه وهذه بعض تعبيراته التي تظهر ذلك قال: (والعبارة قلقة كما ترى)^(٦)، (العبارة مبهمه تحتاج إلى إيضاح)^(٧)، (العبارة فيها شيء من الاضطراب فالأوضح أن يقال)^(٨)، (وفي العبارة غموض كما ترى)^(٩).

(١) انظر طبعة النجار ٣٠٨/٥، ٣٠٩، وقارنه بما في هذه الطبعة.

(٢) ينظر طبعة النجار (٣٥٠/٥).

(٣) ينظر طبعة النجار (٢٥٤/١).

(٤) الشيخ محمد سليمان البسام: كشف الستار عن تلفيق وتعليق النجار على تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي (٧).

(٥) المصدر السابق (٩).

(٦) (١٠٤/١).

(٧) (١٥٩/١).

(٨) (٢٤٠/١).

(٩) (٣٤٦/١).

ولقد أبان الشيخ محمد بن سليمان البسام عوار تلك التعقبات بياناً شافياً في رسالة مستقلة عنوانها: (كشف الستار عن تلفيق وتعليق النجار على تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي).

وذكر أمثلة كثيرة دالة على أخطاء النجار فيما زعمه من أخطاء وقع فيها الشيخ - رحمه الله - وأكتفي بالإحالة على تلك الرسالة الماتعة، ففيها نقد علمي قوي لأخطاء ظاهرة وقع فيها النجار وأشير هنا إلى ثلاث تعقبات فقط أبين من خلالها شيئاً يسيراً من سوء صنيع النجار، وأما التعقبات التي تحتاج إلى نقد علمي فأحيل فيها إلى رسالة الشيخ محمد البسام.

١ - وقوع النجار في الخطأ ثم تخطئة الشيخ رحمه الله به:

قال الشيخ - رحمه الله - في تفسيره قوله تعالى: «فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره» «أي نكاحاً صحيحاً ويطأها؛ لأن النكاح الشرعي لا يكون إلا صحيحاً، ويدخل فيه العقد والوطء، وهذا بالاتفاق) هكذا في النسختين وفي الطبعة السلفية التي اعتمد عليها النجار، ولكنه أسقط (إلا) فصارت العبارة: «لأن النكاح الشرعي لا يكون صحيحاً» وهذا فعله، وليس فعل الشيخ - رحمه الله - ثم قال النجار في الهامش قوله: «لأن النكاح الشرعي الخ» في العبارة اضطراب، والصواب أن يقال: «لأن النكاح الشرعي الصحيح، يدخل فيه العقد والوطء بإجماع العلماء» فأخطأ النجار ثم خطأ الشيخ، وعدل خطأ الشيخ بزعمه.

٢ - إقحام تعليقات لا محل لها فمن ذلك. قال الشيخ - رحمه الله - «والظلم الذي بين العبد وربه فيما دون الشرك تحت المشيئة والحكمة». قال النجار: (وفي هذا المعنى قال صاحب جوهرة التوحيد:

ومن يمت ولم يتب من ذنبه فأمره مفوض لربه»

٣ - الاستدراك في غير محله: قال الشيخ - رحمه الله - «فالشكر فيه بقاء النعمة الموجودة وزيادة في النعم المفقودة». قال في الهامش قوله: «فالشكر فيه بقاء النعم». الخ» عبر العلماء عن هذا المعنى بقولهم: «الشكر قيد للموجود، وصيد للمفقود»^(١) فكانه خطأ الشيخ في اختيار اللفظ وليس هذا بخطأ بل الأمر واسع في اختيار اللفظ المناسب.

الملحظ الخامس:

سوء توزيع النص

حيث قام بإعادة توزيع النص إلى فقرات وعمد إلى أن تكون تلك الفقرات قصيرة جداً وعليه فقد فرق أجزاء الجملة بين الأسطر، وقطع الكلام عن سياقه إذ نجد فعل الشرط في سطر وجوابه في آخر، والمعلول في سطر وتعليقه في آخر، ولذلك تضخم التفسير جداً مع أن صفحاته يمكن أن تكون أقل من ذلك بكثير، والله أعلم بالهدف من وراء ذلك التضخيم.

إن هذه الملاحظ ليست إلا أمثلة دالة على أن عمل النجار لم يكن عملاً أميناً على هذا التفسير.

وبمجممل هذا العرض يتضح أن التفسير لم يخرج بصورته التي كتبها الشيخ - رحمه الله - إذ جميع الطبعات كانت نسخاً مكرورة عن طبعة النجار، التي اعتمد فيها صاحبها على الطبعة السلفية، والطبعة السلفية اعتمدت على النسخة الثانية التي لم تكن بخط الشيخ وكان فيها بعض النقص وبعض التحريف من النسخ.

ولما كان الأمر بهذه الصورة التي تظهر الحاجة الماسة إلى إخراج هذا التفسير المبارك إخراجاً علمياً مصححاً كما أراده الشيخ رحمه الله فقد عمدت إلى العمل ثلاث سنين في هذا الكتاب راجياً أن يكون العمل

سأداً للثلثة ومبرئاً للذمة .

العمل الذي قمت به :

لقد من الله علي بأمر لم يتوفر لمن اعتنى بهذا التفسير من قبل وهو الحصول على النسخة (أ) التي كانت بحوزة الشيخ - رحمه الله - وتحت نظره ومحل عنايته إلى أن توفي، وهي في الجملة أسلم من النسخة (ب) التي كانت أصل جميع الطبعات، ولما بدأت في العمل كان الهدف الذي سعيت إليه جاهداً هو : إخراج التفسير كما كتبه الشيخ - رحمه الله - دون تعديل أو تبديل، أو زيادة أو نقص، وعلى ذلك قمت بما يلي :

أولاً: نسخ التفسير كما هو ويتضمن ذلك : إثبات الآيات المفسرة كما كتبها الشيخ - رحمه الله - فحين يورد الآيات كاملة، أو ردها كاملة كما فعل، وحين يورد جزءاً منها ويقول : إلخ القصة، أثبتها على هذا الوجه، وحين تفترق النسختان أطبق قواعد المقابلة التي سأبينها لاحقاً بحول الله، وقد راعيت في النسخ ما يلي :

١- توزيع النص توزيعاً جيداً، بحيث يكون تقسيم فقرات الكلام وأجزائه متصلاً بمعانية، واجتهدت ألا أقطع السياق الواحد بين فقرتين مختلفتين، وأن أبداً تفسير الآية أو الآيات من أول السطر .

٢- ترقيم الآيات المفسرة في بداية تفسيرها، وهذا لم يكن من عمل الشيخ - رحمه الله - ولكن وجدته مهماً لأجل سهولة معرفة مواضع الآيات .

٣- تصحيح بعض الأخطاء الإملائية الظاهرة التي لا تخفى على الشيخ - رحمه الله - ولكنها سبق قلم .

ولقد حرصت على عدم التدخل في التفسير والتعديل فيه بأي وجه من الوجوه إلا في ثلاث حالات :

الأولى : أن يكون الخطأ في الآيات فهنا أثبت الصواب ولا ألفت إلى الخطأ، ولكن في بعض الأحيان يحدث أن يكون قلم الشيخ سبق إلى آيات في غير السورة، أو في السورة نفسها، وليست في ذلك الموضع، ثم يفسر الآيات التي كتب، فأثبت الصواب في الآيات، وأبقي التفسير كما هو، وأشير إلى ما عملت في الهامش .

الثانية : أن يكون الخطأ ظاهراً، ولا يمكن أن يقبل به المؤلف - رحمه الله - فهنا أثبت التعديل الذي أراه صواباً، وأشير في الهامش إلى ما في الأصل من خطأ، أو سبق قلم .

الثالثة : أن يكون التعديل طفيفاً كأن يكون تعديلاً في ضمير فيقول : (خالقهما) والصواب (خالقها) أو العكس أو يقول (التي) والصواب (الذي) ونحو ذلك، فهنا أصوب الكلام، وأشير في أحيان يسيرة إلى ما عملت، خاصة وأن الشيخ - رحمه الله - : (كان سريع الكتابة، ويكتب بخط دقيق، وبدون نظارة، لكنه على قاعدة صحيحة)^(١) وكانت جل عنايته بالمعاني، ولذلك قال في رسالة للشيخ عبد الله بن عقيل - حفظه الله - (فحسن الإملاء والجري مع المعاني أولى من اعتبار حسن الخط، فذاك أهميته بالنسبة لحسن الإنشاء قليلة)^(٢) .

ثانياً - المقابلة :

وابتغاء توضيح الأمر أبين ما قمت به في نقاط :

أولاً: اعتمدت النسخة (أ) وجعلتها أصلاً لأمر :

الأول : أن معظمها بخط الشيخ - رحمه الله - .

والثاني : أنها النسخة التي كانت بيد الشيخ - رحمه الله - إلى حين وفاته .

(١) الشيخ عبد الله بن عقيل : الأجوبة النافعة (المقدمة) (٧) .

(٢) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة (٦٧) .

الثالث: أنها سالمة من التعديل والشطب اللذين وقعا من النساخ أو الطابعين أو المصححين بعكس النسخة (ب) فإن هذه النسخة سلمت للمطبعة السلفية، فكان المصححون للطبعة يعدلون عليها ويشطبون، بل تجد على هوامشها أسماء (عمال الصنف) فنجد اسم (محمود) أو فلان منهم وذلك لتوزيع العمل عليهم، بينما النسخة (أ) لم تمشها الأيدي بشطب أو تعديل.

الرابع: سلامة هذه النسخة من الخروم والنقص لأن معظمها بخط الشيخ - رحمه الله - بينما النسخة (ب) كتب معظمها بخطوط النساخ فوقع فيها بعض النقص والخروم.

الخامس: أنها أجود كثيراً من النسخة الأخرى في إملائها بينما تجد في النسخة (ب) أخطاء ظاهرة.

ثانياً: يلاحظ أنني ذكرت في وصف النسختين أن معظم النسخة الأولى كان بخط الشيخ - رحمه الله - وأن النسخة الثانية في جملتها بخطوط النساخ وهذا توضيح تفاوت الكتابة على التفصيل مع بيان ما قمت به حيال ذلك التفاوت:

١- أجزاء كانت في النسختين بخط الشيخ - رحمه الله - وذلك مثل كثير من المجلد الأول، والمجلد الثامن، والتاسع، وفي هذه الأجزاء يلاحظ وجود الاشكالات الآتية:

(أ) أن الشيخ - رحمه الله - في المجلد فسر الآيات من قوله تعالى: ﴿حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾ سورة البقرة، الآية: ٢٣٨، إلى نهاية تفسير قوله تعالى: ﴿والله ما في السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم﴾ سورة آل عمران، الآية: ١٢٩ تفسيراً جديداً فليس ما في النسختين متوافقاً بل هو متغاير من حيث الألفاظ والصياغة والأسلوب وكان الشيخ - رحمه الله - كتب ذلك مرتين، ولم يكن هناك احتمال لأن يكون الكلام ليس بكلامه، لأن ما في النسختين بخطه - رحمه الله - وروح الكلام وأسلوبه هو ذات أسلوب الشيخ - رحمه الله - وقد قلبت النظر بين خيارات عدة، وكان ما استقر الرأي عليه أن أجعل في صلب التفسير ما كان في النسخة (أ) وهي النسخة التي توفي الشيخ - رحمه الله - وهي في بيته، وأما ما في النسخة (ب) وهو المطبوع في طبقات الكتاب السابقة فقد جعلته في ملحق في آخر التفسير.

(ب) أن الشيخ - رحمه الله - في المجلد الثامن من بداية سورة الحجرات وحتى نهاية التفسير نسخ التفسير بخطه نسخة ثانية، ولكنه كان يعدل في الألفاظ ويزيد في الكلمات وينقص منها، ولذلك تفاوت حجم المقابلة بين بعض أجزاء الكتاب بشكل واضح، حيث تجد فروقاً كبيرة بين النسختين في أجزاء ولا تجد إلا اليسير من الفروق في أجزاء أخرى.

(ج) أن بعض الأجزاء كانت في النسخة (أ) بغير خط الشيخ - رحمه الله - وفي النسخة (ب) بخط الشيخ - رحمه الله - كما في المجلد السادس وهنا كثرت الأخطاء في النسخة (أ) وقلت في (ب) فاستفدت من (ب) في المقابلة وجعلت جل اعتمادي عليها إذ هي أصح لولا ما عابها من تعديلات مصححي المطبعة السلفية عليها.

ثالثاً: الزيادات: جاءت زيادات في إحدى النسختين عن الأخرى وقد جعلت الزيادات بين قوسين مركنين [] وهي على ثلاثة أنواع:

الأول: الزيادات التي في الأصل على (ب) وقد جعلتها بين قوسين مركنين، دون إشارة في الهامش إلى شيء.

الثاني: الزيادات التي في (ب) وقد جعلتها بين قوسين مركنين، وأشارت إلى الزيادة في الهامش بقولي: زيادة في ب، وهذا النوع من الزيادات يكثر في الأجزاء التي كانت بخط الشيخ - رحمه الله - في النسختين كليهما.

الثالث: الزيادات التي جعلتها لاقتضاء السياق وعدم استقامته بدونها فقد جعلتها بين قوسين مركنين وأشرت إلى الزيادة في الهامش بقولي: (زيادة يقتضيها السياق).

وبعد، فيلاحظ إنني لم أثبت تخريج الأحاديث في الكتاب، لأن ما في الكتاب من الأحاديث ليس بالكثير، ومعظم ما نقل - رحمه الله - هو من صحيح البخاري ومسلم، كما لم أفهرس فهرسة تفصيلية، لأن الفهرسة التي يمكن أن يستفاد منها هي الفهرسة الموضوعية للفوائد الإيمانية، والتربوية، والسلوكية، والعلمية، ونحوها التي في الكتاب، وإذا نظرنا إلى الفهرسة بهذا الاعتبار فإن الكتاب يحتاج إلى فهرسة كبيرة وطويلة جداً يمكن الاستغناء عنها بقراءة الكتاب لمزيد الاستفادة، وأما الفهارس التفصيلية للآيات والأحاديث والاعلام أو القبائل . . ونحوها، فإن طبيعة التفسير لا تدل على الحاجة لذلك، وإن عمل على هذا التفسير فإنما هذا العمل نوع من التزويد والتكثُر لا حاجة له.

وبعد فهذا الجهد الذي بذلت وهو جهد استغرق ثلاثة أعوام قرأت فيها التفسير قراءة مقابلة ثلاث مرات واجتهدت في إخراج التفسير على أتم الوجوه - قدر الإمكان - وما كان لي أن أصل إلى هذا لولا فضل الله عز وجل فله الحمد أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

ثم الشكر من بعد لمن كان عوناً لي في إخراج هذا التفسير بأي وجه من أوجه العون وأخص بالذكر صاحبي الفضيلة العالمين الجليلين الشيخ محمد بن صالح العثيمين، والشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عجيل. وفضيلة والدي الكريم الشيخ معلا اللويحق، والمشايخ الفضلاء الدكتور عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر الذي أعانني على الحصول على النسخة الثانية (ب) لمخطوط التفسير، وأبدى من جميل الملاحظات ما كان عوناً لي على ضبط العمل، والدكتور خالد السبت، الذي كانت مهاتفاته بداية حفز لإعادة العمل في التفسير، والشيخ صالح الهبدان، والشيخ عبد الرحمن الراجحي، والشيخ محمد الخضير، والاخوة الذين عملوا معي في المقابلة فأَمْضَوْا وقتاً طويلاً في سبيل ذلك، وبذلوا جهداً لا أنساه في إعانتني الشيخ إدريس حامد محمد، والشيخ تراوري مامادوا، والأخ فيصل بن طلع المطيري فلجميع مني الشكر والعرفان والدعاء بالتوفيق والتسديد.

وأَسْأَلُ اللهَ المَغْفِرَةَ عما وقع من تقصير، واستمد منه العون فهو وحده المستعان.

والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه.

وكتب

عبد الرحمن بن معلا اللويحق المطيري

بعد عشاء ليلة الثامن والعشرين

من شهر ذي القعدة عام ١٤١٩هـ

تنبيه

اعلم أن طريقتي في هذا التفسير أني أذكر عند كل آية ما يحضرني من معانيها، ولا أكتفي بذكر ما تعلق بالمواضع السابقة عن ذكر ما تعلق بالمواضع اللاحقة، لأن الله وصف هذا الكتاب أنه (مثنى) تثنى فيه الأخبار والقصص والأحكام، وجميع المواضيع النافعة لحكم عظيمة، وأمر بتدبره جميعه، لما في ذلك من زيادة العلوم والمعارف وصلاح الظاهر والباطن، وإصلاح الأمور كلها^(١).

(١) هذا التنبيه جعله الشيخ - رحمه الله - على غلاف المجلد الأول فصدرت به التفسير كما فعل - رحمه الله - .

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل على عبده الفرقان الفارق بين الحلال والحرام، والسعداء والأشقياء، والحق والباطل.

وجعله برحمته هدى للناس عموماً، وللمتقين خصوصاً، من ضلال الكفر والمعاصي والجهل، إلى نور الإيمان والتقوى والعلم، وأنزله شفاء للصدور من أمراض الشبهات والشهوات، ويحصل به اليقين والعلم في المطالب العاليات، وشفاء للأبدان من أمراضها وعللها وآلامها وسقمها^(١). وأخبر أنه لا ريب فيه ولا شك بوجه من الوجوه، وذلك لاشتماله على الحق العظيم في أخباره، وأوامره، ونواهيه، وأنزله مباركاً، فيه الخير الكثير، والعلم الغزير، والأسرار البديعة، والمطالب الرفيعة، فكل بركة وسعادة تنال في الدنيا والآخرة، فسببها الاهتداء به واتباعه، وأخبر أنه مصدق ومهيمن على الكتب السابقة، فما يشهد له فهو الحق، وما رده فهو المردود، لأنه تضمنها وزاد عليها، وقال تعالى فيه: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾، فهو هادٍ لدار السلام، مبينٌ لطريق الوصول إليها، وحاتٌ عليها، كاشف عن الطريق الموصلة إلى دار الآلام ومحذّر عنها، وقال تعالى مخبراً عنه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْأَيَاتُ فَاصْلُحْ﴾، فبين آياته أكمل تبين، وأتقنها أي إتقان، وفصلها بتبيين^(٢) الحق من الباطل والرشد من الضلال، تفصيلاً كاشفاً للبس، لكونه صادراً من حكيم خبير، فلا يخبر إلا بالصدق والحق واليقين، ولا يأمر إلا بالعدل والإحسان والبر، ولا ينهى إلا عن المضار الدينية والدنيوية.

وأقسم تعالى بالقرآن ووصفه بأنه «مجيد»، والمجد: سعة الأوصاف وعظمتها، وذلك لسعة معاني القرآن وعظمتها، ووصفه بأنه «ذو الذكر» أي: يُتذكر به العلوم الإلهية والأخلاق الجميلة والأعمال الصالحة، ويتعظ به من يخشى.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فأنزله^(٣) بهذا اللسان لنعقله وتفهمه، وأمرنا بتدبره، والتفكر فيه، والاستنباط لعلومه، وما ذاك إلا لأن تدبره مفتاح كل خير، محصل للعلوم والأسرار. فله الحمد والشكر والثناء، الذي جعل كتابه هدى وشفاء ورحمة ونوراً، وتبصرة وتذكراً، وبركة، وهدى وبشرى للمسلمين.

فإذا علم هذا، علم افتقار كل مكلف لمعرفة معانيه والاهتداء بها.

وكان حقيقاً بالعبد أن يبذل جهده، ويستفرغ وسعه في تعلمه وتفهمه بأقرب الطرق الموصلة إلى ذلك.

وقد كثرت تفاسير الأئمة رحمهم الله لكتاب الله، فمن مطوّل خارج في أكثر بحوثه عن المقصود، ومن مُقْصِرٍ، يقتصر على حل بعض الألفاظ اللغوية. [بقطع النظر عن المراءى^(٤)].

(١) في ب: وأسقامها.

(٢) في ب: وأنزله..

(٣) في ب: بتميز.

(٤) زيادة من هامش ب، مشطوبة من أ.

وكان الذي ينبغي في ذلك، أن يجعل المعنى هو المقصود، واللفظ وسيلة إليه. فينظر في سياق الكلام، وما سيق لأجله، ويقابل بينه وبين نظيره في موضع آخر؛ ويعرف أنه سيق لهداية الخلق كلهم، عالمهم وجاهلهم، حضريهم وبدوهم، فالنظر لسياق الآيات مع العلم بأحوال الرسول وسيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله، من أعظم ما يُعين على معرفته وفهم المراد منه، خصوصاً إذا انضم إلى ذلك معرفة علوم العربية على اختلاف أنواعها.

فمن وفق لذلك، لم يبق عليه إلا الإقبال على تدبره وتفهمه وكثرة التفكير في ألفاظه ومعانيه ولوازمها، وما تتضمنه، وما تدل عليه منطقاً ومفهوماً، فإذا بذل وسعه في ذلك، فالرب أكرم من عبده، فلا بد أن يفتح عليه من علومه أموراً لا تدخل تحت كسبه.

ولما منَّ الباري عليّ وعلى إخواني بالاشتغال بكتابه العزيز بحسب الحال اللائقة [بنا] أحبت أن أرسم من تفسير كتاب الله ما ييسر، وما منَّ به الله علينا، ليكون تذكرة للمحصلين، وآلة للمستبصرين، ومعوذة للسالكين، ولأقيدة خوف الضياع، ولم يكن قصدي في ذلك إلا أن يكون المعنى هو المقصود، ولم أشتغل في حل الألفاظ والعقود، للمعنى الذي ذكرت، ولأن المفسرين قد كفوا من بعدهم، فجأهم الله عن المسلمين خيراً.

والله أرجو، وعليه أعتمد، أن ييسر ما قصدت، ويذلل ما أردت، فإنه إن لم ييسره الله، فلا سبيل إلى حصوله، وإن لم يعن عليه، فلا طريق إلى نيل العبد مأموله.

وأسأله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به النفع العظيم، إنه جواد كريم. اللهم صل على محمد وآله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً.

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين

والله أعلم بالصواب والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين

والله أعلم بالصواب والحمد لله رب العالمين

والله أعلم بالصواب

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين

والله أعلم بالصواب والحمد لله رب العالمين

والله أعلم

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين

والله أعلم بالصواب والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين

والله أعلم بالصواب والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين

والله أعلم بالصواب والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين

والله أعلم بالصواب والحمد لله رب العالمين

فوائد مهمة تتعلق بتفسير القرآن من
بدائع الفوائد
لابن القيم رحمه الله تعالى^(١)

[قال: فصل] التَّكْرَرُ في سياق النفي تَعْمٌ، مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلَمُ رِبْكَ أَحَدًا﴾ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قَرَّةٍ أَعْيَنَ﴾، وفي الاستفهام من قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾، وفي الشرط من قوله: ﴿فَإِنَّمَا تَرِيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ وفي النهي من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾.

وفي سياق الإثبات، بعموم العلة والمقتضى كقوله: ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرْتَ﴾. وإذا أضيف إليها «كل» نحو ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾، ومن عمومها بعموم المقتضى ﴿وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا﴾.

فصل

ويستفاد عموم المفرد المحلَّى باللام من قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خَسْرٍ﴾ وقوله: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ﴾ وعموم المفرد المضاف من قوله: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكِتَابِهِ﴾ (وكتابه)^(٢).

وقوله: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يُنْطَقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ والمراد جميع الكتب التي أحصيت فيها أعمالهم، وعموم الجمع المحلَّى باللام من قوله: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْبَتْ﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ إلى آخرها. والمضاف من قوله: ﴿كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾.

وعن أدوات الشرط من قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظِلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾، وقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾، [وقال] ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾، وقوله ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ﴾، وقوله: ﴿وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلَوْا وَجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ هذا إذا كان الجواب طلباً مثل هاتين الآيتين.

فإن كان خبراً ماضياً، لم يلزم العموم، كقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَاقِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾.

وإن كان مستقبلاً، فالتزموا ردَّ العموم، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

وقد لا يعم، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾.

(١) جاءت هذه الفوائد في: أ بعد تفسير سورة الفاتحة، وقد كتب الشيخ - رحمه الله - في هامش النسخة: (حق هذه المقدمة أن تنقد على الفاتحة).

(٢) كتبت الكلمة مرتين مرة بالإنفراد، ومرة بالجمع، وجاء في هامش ما نصه: (قرأ أهل البصرة وحفص - وكتبه). وقرأ الآخرون (وكتابه) على التوحيد).

فصل

ويستفاد كون الأمر المطلق للوجوب، من ذمّه لمن خالفه، وتسميته إياه عاصياً، وترتيبه عليه العقاب بالعاجل أو الآجل.

ويستفاد كون النهي للتحريم، من ذمّه لمن ارتكبه، وتسميته عاصياً، وترتيبه العقاب على فعله.

ويستفاد الوجوب بالأمر تارة، وبالتصريح بالإيجاب والفرض والكثب، ولفظة «على»، ولفظة: حق على العباد وعلى المؤمنين.

ويستفاد التحريم من النهي، والتصريح بالتحريم والحظر، والوعيد على الفعل، وذم الفاعل، وإيجاب الكفارة بالفعل.

وقوله: «لا ينبغي» فإنها في لغة القرآن والرسول للممتنع عقلاً وشرعاً.

ولفظة «ما كان لهم كذا وكذا» و«لم يكن لهم»، وترتيب الحدّ على الفعل، ولفظة «لا يحل» و«لا يصلح»، ووصف الفعل بأنه فساد، وأنه من تزيين الشيطان وعمله، وأن الله تعالى لا يحبه ولا يرضاه لعباده، ولا يزيكي فاعله ولا يكلمه ولا ينظر إليه ونحو ذلك.

وتستفاد الإباحة من الإذن والتخيير، والأمر بعد الحظر، ونفي الجُنَاح والجرم والإثم والمؤاخذه، والإخبار بأنه يغفو عنه، والإقرار على فعله في زمن الوحي، وبالإلتهام على من حرّم الشيء، والإخبار بأنه خلق لنا كذا وجعله لنا، وامتنانه علينا به، وإخباره عن فعل من قبلنا، غير ذام لهم عليه.

فإن اقترن بإخباره مدح، دلّ على رجحانه استحباباً أو وجوباً.

فصل

وكل فعل عظّمه الله ورسوله، أو مدحه، أو مدح فاعله لأجله، أو فرح به، أو أحبه، أو أحبّ فاعله، أو رضي به، أو رضي عن فاعله، أو وصفه بالطيب، أو البركة، أو الحُسْن، أو نصبه سبباً لمحبة أو لثواب عاجل أو آجل^(١)، أو نصبه سبباً لذكره لعبده، أو لشكره له، أو لهدايته إياه، أو لإرضاء فاعله، أو وصف فاعله^(٢) بالطيب، أو وصف الفعل بأنه معروف، أو نفى الحُزْنَ والخوف عن فاعله، أو وعده بالأمن، أو نصبه سبباً لولايته، أو أخبر عن دعاء الرسل بحصوله، أو وصفه بكونه قربة، أو أقسم به أو بفاعله، كالقسم بخيل المجاهدين وإغارتها^(٣)، أو ضحك الرب جل جلاله من فاعله، أو عجبه به، فهو دليل على مشروعته المشتركة بين الوجوب والندب.

فصل

وكل فعل طلب الشارع تركه، أو ذم فاعله، أو عيب عليه، أو مقت فاعله، أو لعنه، أو نفى محبته إياه، أو محبة فاعله، أو نفى الرضا به، أو الرضا عن فاعله، أو شبه فاعله بالبهائم أو الشياطين، أو جعله مانعاً من الهدى، أو وصفه بسوء أو كراهة، أو استعاذ الأنبياء منه أو أبغضوه، أو جعل سبباً لنفي الفلاح، أو لعذاب عاجل أو آجل، أو لدم أو لوم، أو ضلالة أو معصية، أو وصفه بخيبت^(٤)، أو رجس، أو نجس، أو بكونه فسقاً أو إثمًا، أو سبباً لإثم أو رجس، أو لعن أو غضب، أو زوال نعمة، أو حلول نقمة، أو حد من الحدود، أو قسوة، أو خزي، أو ارتهان نفس، أو لعداوة الله أو محاربتة، أو الاستهزاء به وسخريته، أو جعله سبباً لنسيانه لفاعله، أو وصف نفسه بالصبر عليه، أو الصفح أو الحلم عنه، أو دعا إلى التوبة منه، أو وصف فاعله بخيبت أو احتقار، أو نسب إلى الشيطان وتزيينه، أو تولي الشيطان لفاعله، أو وصفه بصفة ذم، مثل كونه ظملاً أو بغياً، أو عدواناً أو إثمًا، أو تبرأ الأنبياء منه أو من فاعله، أو شكوا

(١) في ب: أو لثواب عاجلاً أو آجلاً.

(٢) في ب: وإثارتها.

(٢) في ب: فاعليه.

(٤) في ب: بالخيبت.

إلى الله من فاعله، أو جاهرُوا فاعله بالعداوة، أو نصب سبباً لخبيّة فاعله عاجلاً أو آجلاً، أو رتب عليه حرمان الجنة، أو وصف فاعله بأنه عدو لله أو الله عدوه، أو أعلم فاعله بخرب من الله ورسوله، أو حمل فاعله إثم غيره، أو قيل فيه «لا ينبغي هذا» أو «لا يصلح» أو أمر بالتقوى عند السؤال عنه، أو أمر بفعل يضاده، أو هجر فاعله، أو تلاعن فاعله في الآخرة، أو تبرأ بعضهم من بعض، أو وصف فاعله بالضلالة، أو أنه «ليس من الله في شيء» أو أنه ليس من الرسول وأصحابه، أو قرّن بمحرم ظاهر التحريم في الحكم والخبر عنهما^(١) بخبر واحد، أو جعل اجتنابه سبباً للفلاح، أو جعل سبباً لإيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين، أو قيل لفاعله «هل أنت منتو» أو نهى الأنبياء عن الدعاء لفاعله، أو رتب عليه إبعاد، أو طرد، أو لفظة «قتل من فعله»، أو «قاتل الله من فعله»، أو أخبر أن فاعله «لا يكلمه الله يوم القيامة، ولا ينظر إليه، ولا يزكّيه»، أو أن الله لا يصلح عمله، ولا يهدي كيده، أو أن فاعله لا يفلح، ولا يكون يوم القيامة من الشهداء ولا من الشفعاء، أو أن الله يغار من فعله، أو نبّه على وجه المفسدة فيه، أو أخبر أنه لا يقبل من فاعله صرفاً ولا عدلاً، أو أخبر أن من فعله قبض له الشيطان فهو له قرين، أو جعل الفعل سبباً لإزاغة الله قلب فاعله، أو صرفه عن آياته وفهم آلائه، أو سؤال الله سبحانه عن علة الفعل «لم فعل» نحو: «لم تصدون عن سبيل الله من آمن»، «لم تلسون الحق بالباطل»، «ما منعك أن تسجد»، «لم تقولون ما لا تفعلون» ما لم يقترون به جواب من المسؤول^(٢) فإذا قرن به جواب، كان بحسب جوابه.

فهذا ونحوه، يدل على المنع من الفعل، ودلالته على التحريم أطرّد من دلالته على مجرد الكراهة. وأما لفظة يكرهه الله ورسوله، أو مكروهه، فأكثر ما يستعمل في المحرّم، وقد يستعمل في كراهة التنزيه.

وأما لفظة «وأما أنا فلا أفعل» فالمحقق^(٣) منه الكراهة كقوله: «أما أنا فلا أكل متكئاً». وأما لفظة «ما يكون لك» و «ما يكون لنا» فاطرّد استعمالها في المحرّم، نحو «ما يكون لك أن تكبر فيها»، «ما يكون لنا أن نعود فيها»، «ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق».

فصل

وتستفاد الإباحة من لفظ الإحلال، ورفع الجناح، والإذن، والعفو، و «إن شئت فافعل» و «إن شئت فلا تفعل»، ومن الامتنان بما في الأعيان من المنافع، وما يتعلق بها من الأفعال، نحو: «ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين» ونحو «وبالنجم هم يهتدون». ومن السكوت عن التحريم، ومن الإقرار على الفعل في زمن الوجي.

فائدة

التعجب كما يدل على محبة الله تعالى للفعل نحو «عجب ربك من شاب ليست له صبوة» ونحوه، قد يدل على بغض الفعل كقوله: «وإن تعجب فعجب قولهم» وقوله: «بل عجب ويسخرون». وقوله: «وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله». وقد يدل على امتناع الحكم، وعدم حسنه، كقوله: «كيف يكون للمشركين عهد عند الله». ويدل على حسن المنع منه قدرأ، وأنه لا يليق به فعله، كقوله تعالى: «كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم».

(٣) في ب: فالمحقق.

(١) في ب: عنه.

(٤) كذا في ب، وفي أ: بعد.

(٢) في ب: من السؤال.

فائدة

نفي التساوي في كتاب الله، قد يأتي بين الفعلين، كقوله تعالى: ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر﴾ الآية.

وقد يأتي بين الفاعلين كقوله: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله﴾.

وقد يأتي بين الجزائين كقوله: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾.

وقد جمع الله بين الثلاثة في آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور﴾ الآيات.

فائدة

في ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور:

التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقريب، وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبه للعقل، كنسبة المحسوس إلى الحس.

وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر، وإبطال أمر.

فائدة

السياق يرشد إلى بيان المفضل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم^(١) احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته، فانظر إلى قوله: ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ كيف تجد سياقه يدل على أنه الدليل الحقيق.

فائدة

إخبار الرب عن المحسوس الواقع له عدة فوائد:

منها: أن يكون توطئة وتقدمة لإبطال ما بعده.

ومنها: أن يكون موعظة وتذكيرة.

ومنها: أن يكون شاهداً على ما أخبر به من توحيده، وصدق رسوله، وإحياء الموتى.

ومنها: أن يذكر في معرض الامتنان.

ومنها: أن يذكر في معرض اللوم والتوبيخ.

ومنها: أن يذكر في معرض المدح والذم.

ومنها: أن يذكر في معرض الإخبار عن اطلاع الرب عليه. وغير ذلك من الفوائد.

انتهى كلامه رحمه الله، وهو في غاية النفاسة، والاشتمال على كثير من القواعد والضوابط المتعلقة بتفسير القرآن، فجزاه الله خيراً.

قلت: وقد اشتمل القرآن على عدة علوم قد ثبتت فيه وأعيدت:

فمنها: ضرب الأمثال، وقد ذكر ابن القيم فيما تقدم فوائدها.

ومنها ذكر صفات أهل السعادة والشقاوة، وفي ذلك فوائد عديدة:

(١) في ب: نظر إلى.

منها: أن الأوصاف التي يوصف بها أهل الخير، تدل على محبة الله ورضاه وأنها محمودة، والصفات التي يوصف بها أهل الشر، تدل على بغض الله لها وأنها مذمومة.

ومنها: ما يكرم الله به أوليائه من الثناء الحسن بين عباده، فهو ثواب معجل، ويهين به أعداءه من الأوصاف القبيحة، فيكون عقاباً معجلاً.

ومنها: أن فيه حثاً للنفوس على الاقتداء بأهل الخير ومنافستهم، وتنشيط العمال على الأعمال ببيان من عملها من أولياء الله.

وفيه الترهيب من أفعال أهل الشر، وتبغيض المعاصي التي أثرت مع عاملها ما أثرت.

ومنها: الاعتبار بصفات أهل الخير والشر، وأن مَنْ فعل مثل فعلهم ناله ما نالهم.

وقد حثَّ تعالى على الاعتبار، في غير موضع من كتابه. وحقيقته: العبور من شيء إلى شيء، وقياس الشيء على نظيره.

ومنها: أن العبد إذا رأى^(١) أعمال أهل الخير وعجزه عن القيام بها، أوجب له ذلك الإضرار على نفسه واحتقارها، وهذا هو عين صلاحه، كما أن رؤيته نفسه بعين الإعجاب والتكبر هو عين فساد، إلى غير ذلك من الفوائد.

ومنها: ذكر صفات الله وأسمائه وأفعاله، وتقديسه عن النقائص، وفي ذلك فوائد عظيمة:

منها: أن هذا العلم - وهو العلم المتعلق بالله تعالى - أشرف العلوم وأجلها على الإطلاق.

فالاشتغال بفهمه والبحث التام عنه، اشتغال بأعلى المطالب، وحصوله للعبد من أشرف المواهب.

ومنها: أن معرفة الله تعالى تدعو إلى محبته وخشيته، وخوفه ورجائه، وإخلاص العمل له، وهذا عين سعادة العبد، ولا سبيل إلى معرفة الله، إلا بمعرفة أسمائه وصفاته، والتفقه في فهم معانيها.

وقد اشتمل القرآن من ذلك على ما لم يشتمل عليه غيره، من تفاصيل ذلك وتوضيحها، والتعرف بها إلى عباده، وتعريفهم لنفسه كي يعرفوه.

ومنها: أن الله خلق الخلق ليعبده ويعرفوه، فهذا هو الغاية المطلوبة منهم، فالاشتغال بذلك اشتغال بما خلق له العبد، وتركه وتضييعه إهمال لما خلق له. وقبيح بعيد، لم تزل نعم الله عليه متواترة، وفضله عليه عظيم من كل وجه، أن يكون جاهلاً بربه معرضاً عن معرفته.

ومنها: أن أحد أركان الإيمان، بل أفضلها وأصلها الإيمان بالله، وليس الإيمان بمجرد قوله: «آمنت بالله» من غير معرفة بربه.

بل حقيقة الإيمان، أن يعرف الرب الذي يؤمن به، ويبذل جهده في معرفة أسمائه وصفاته، حتى يبلغ درجة اليقين، وبحسب معرفته بربه يكون إيمانه، فكلما ازداد معرفة بربه ازداد إيمانه وكلما نقص، نقص.

وأقرب طريق يوصله إلى ذلك، تدبر صفاته وأسمائه من القرآن.

والطريق في ذلك، إذا مر به اسم من أسماء الله، أثبت^(٢) له ذلك المعنى وكماله وعمومه، ونزهه^(٣) عما يضاد ذلك.

ومنها: أن العلم به تعالى أصل الأشياء كلها، حتى إن العارف به حقيقة المعرفة، يستدل بما عرف من صفاته وأفعاله على ما يفعله، وعلى ما يشرعه من الأحكام، لأنه لا يفعل إلا ما هو مقتضى أسمائه وصفاته، فأفعاله دائرة

(١) في ب: أن يثبت.

(٢) في ب: وينزهه.

بين العدل والفضل والحكمة.

وكذلك لا يشرع ما يشرعه من الأحكام، إلا على حسب ما اقتضاه حمده وحكمته وفضله وعدله. فأخبره كلها حق وصدق، وأوامره ونواهيه عدل وحكمة.

وهذا العلم أعظم وأشهر من أن ينه عليه لوضوحه:

وكيف يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

ومنها: ذكر الأنبياء والمرسلين، وما أرسلوا به، وما جرى لهم مع أممهم. وفي ذلك عدة فوائد:

منها: أن من تمام الإيمان بهم معرفتهم بصفاتهم وسيرهم وأحوالهم. وكلما كان المؤمن بذلك أعرف، كان أعظم إيماناً بهم، ومحبة لهم، وتعظيماً لهم، وتعزيزاً وتوقيراً.

ومنها: أن من بعض حقوقهم علينا - خصوصاً النبي محمد ﷺ - معرفتهم ومحبتهم محبة صادقة، ولا سبيل لذلك إلا بمعرفة أحوالهم.

ومنها: أن معرفة الأنبياء موجبة لشكر الله تعالى على ما من به على المؤمنين، إذ بعث فيهم رسولاً منهم يزيكهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، بعد أن كانوا في ضلال مبين.

ومنها: أن الرسل هم المربون للمؤمنين، الذين ما نال المؤمنون^(١) مثقال ذرة من الخير، ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر، إلا على أيديهم وبسببهم.

فقيح بالمؤمن أن يجهل حالة مربيه ومزيه ومعلمه.

وإذا كان من المستنكر جهل الإنسان بحال أبويه ومباعدته لذلك، فكيف بحالة الرسول، الذي هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو أبوهم الحقيقي، الذي حقه مقدم على سائر الحقوق بعد حق الله تعالى!!؟

ومنها: أن في معرفة ما جرى لهم وجرى عليهم، تحصيل للمؤمن^(٢) الأسوة والقدوة، وتخف عنه كثير من المقلقات والمزعجات، لأنها مهما بلغت من الثقل والشدة، فلا تصل إلى بعض ما جرى على الأنبياء. قال تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾.

ومن أعظم الاقتداء بهم، الاقتداء بتعليماتهم، وكيفية إلقاء العلم على حسب مراتب الخلق، والصبر على التعليم، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وبهذا وأمثاله كان العلماء ورثة الأنبياء.

ومن فوائد معرفة الرسول ﷺ، معرفة الآيات القرآنية المنزلة عليه وفهم المعنى. والمراد منها موقوف على معرفة أحوال الرسول، وسيرته مع قومه وأصحابه وغيرهم من الناس، فإن الأزمنة والأمكنة والأشخاص تختلف اختلافاً كثيراً.

فلو أراد إنسان^(٣) أن يصرف همه لمعرفة معاني القرآن من دون معرفة منه لذلك، لحصل من الغلط على الله وعلى رسوله، وعلى مراد الله من كلامه، شيء كثير.

وهذا إنما يعرفه من عرف ما في أكثر التفاسير من الأغلاط القبيحة التي ينزه عنها كلام الله^(٤)، وغير

(١) كذا في ب، وفي أ: المؤمن.

(٢) في ب: للمؤمنين.

(٣) في ب: الإنسان.

(٤) في ب جاءت الجملة هكذا (ما في كثير من التفاسير من الأغلاط التي ينزه عنها كلام الله) وقد شطبت هذه الجملة، وكتب الشيخ - رحمه الله - في الهامش بدلاً عنها ما يلي (كيف كثر حمل مراد الله ورسوله على العرف الحادث فوقع الخلل الكثير).

ذلك من الفوائد المفيدة والنتائج السديدة.

ومن علوم القرآن: الأمر والنهي الموجه لهذه الأمة وغيرها، وهذا هو المقصود منهم، وفي معرفة ذلك عدة فوائد:

منها: أن الله تعالى حث على معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، وذم من لم يعرف ذلك. ومن أعظم ما يجب معرفة حدوده؛ الأوامر والنواهي التي كلفنا بها، وألزمنا بالقيام بها وتعلمها وتعليمها.

ولا سبيل إلى امتثالها، [أو اجتنابها،^(١)] إلا بمعرفتها، ليتأتى فعلها [أو تركها]^(٢) وذلك أن المكلف إذا أمر بأمر، وجب عليه أولاً معرفة ما هو الذي أمر به، وما يدخل به وما لا يدخل. فإذا عرف ذلك استعان بالله، واجتهد في امتثاله بحسب القدرة والإمكان.

وكذلك إذا نهي عن أمر من الأمور، وجب عليه معرفة ذلك المنهي وحقيقته، ثم يبذل جهده مستعيناً بربه على تركه، امتثالاً لأمر الله، واجتناباً لنهييه، وامتنال الأمر، واجتناب النهي، كل منهما واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. فعرفت أن العلم بها قبل العمل، ومتقدم عليه.

ومنها: أن الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يمكن حصولها وتحصيلها إلا بعد معرفة الخير ليدعوه، ومعرفة المعروف ليأمر به، ومعرفة المنكر لينهى عنه، والقرآن مشتمل على ذلك أعظم اشتمال، ومتضمن له أكمل تضمن.

ومن علوم القرآن أحوال اليوم الآخر، وهو ما يكون بعد الموت مما أخبر به الله في كتابه، أو أخبر به رسوله من أهوال الموت، والقبر والموقف، والجنة والنار، وفي العلم بذلك فوائد كثيرة:

منها: أن الإيمان باليوم الآخر، أحد أركان الإيمان الستة، التي لا يصح الإيمان بدونها، وكلما ازدادت معرفته بتفاصيله، ازداد إيمانه^(٣).

ومنها: أن العلم بذلك^(٤) حقيقة المعرفة، يفتح للإنسان باب الخوف والرجاء، اللذين إن خلا القلب منهما خرب كل الخراب، وإن عمر بهما أوجب له الخوف الانكفاف عن المعاصي، والرجاء تيسير الطاعة وتسهيلها، ولا يتم ذلك إلا بمعرفة تفاصيل الأمور التي يخاف منها وتحذر؛ كأحوال القبر وشدته، وأحوال الموقف الهائلة، وصفات النار المفضعة.

وبمعرفة تفاصيل الجنة وما فيها من النعيم المقيم، والحيرة والسرور، ونعيم القلب والروح والبدن، فيحدث بسبب ذلك الاشتياق الداعي للاجتهاد في السعي للمحبوب المطلوب، بكل ما يقدر عليه.

ومنها: أنه يعرف بذلك فضل الله وعدله، في المجازاة على الأعمال الصالحة، والسيئة، الموجب لكمال حمده والثناء عليه بما هو أهله.

وعلى قدر علم العبد بتفاصيل الثواب والعقاب، يعرف بذلك فضل الله وعدله وحكمته.

ومن علوم القرآن: مجادلة المبطلين، ودفع شبه الظالمين، وإقامة البراهين العقلية الموافقة للأدلة النقلية.

وهذا الفن من علوم القرآن من خواص العلماء الربانيين، والجهابذة الراسخين، والعقلاء المستبصرين، وقد اشتمل القرآن من الأدلة العقلية، والقواطع البرهانية، ما لو جمع ما عند جميع

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) زيادة من هامش ب.

(٣) في ب: إيمان العبد به.

(٤) في ب: أن معرفة ذلك.

المتكلمين من حق، لكان بالنسبة إليه كثرة عصفور بالنسبة لماء البحر؛ ذلك بأن القرآن هو الحق، وقد اشتمل على الحق والصدق والعدل والميزان العادل والقيسط والصلاح والفلاح، فإن ذكر التوحيد والشرك، وأمر بالأول ونهى عن الثاني، أقام من البراهين القاطعة على صحة التوحيد وحسنه وتعينه طريقاً للنجاة، وقبح الشرك وبطلانه، وكونه هو الطريق للهلاك، ما يجعل ذلك للبصيرة كالشمس في نحر الظهيرة.

وإن أمر بالأوامر الشرعية، وحث على الآداب ومكارم الأخلاق، رأته بينه العقول النيرة على ما اشتملت عليه من المصالح الضرورية، التي يحتاجونها في معاشهم ومعادهم، ما يجزم بأنه^(١) لا أحسن منها، وأن حكمته تقتضي الأمر بها أشد اقتضاء.

وإن نهى عن المحارم والقبايح والخبائث، أخبر بما في ضمنها من الفساد والضرر، والشر الحاصل بتناولها، وأن نعمة الله عليهم بتحريمها عليهم وتنزيههم عنها، وتكريمهم وتعليه أقدارهم عن التلبس بها فوق كل نعمة، فالمأمورات مشتملات^(٢) على الصلاح، والمحرمات مشتملات^(٣) على المفساد.

وإن شرع في الحجاج للمبطلين، وتزييف شبه المشبهين، وبطلان مذاهب الضالين، فقل ما شئت من إحقاق حق، ودمغ باطل، وإرشاد ضال، وإقامة الحجة على المعاند، وبيان أن الباطل لا يقوم لأقل شيء من الحق، بل هو على اسمه باطل لا حقيقة له، إن هي إلا أسماء يسمون بها الباطل إذا جردت، تبينت هباء منثوراً.

ورأيته يسوق البراهين العقلية، بأوضح عبارة وأوجزها وأسلمها من الاعتراض والنقض والخفاء، فيجمع بين الدليل العقلي والتقلي في كلمة واحدة، إيجازاً غير مخل بالمطلوب، وتارة يفصل ذلك، ويسرد من البراهين ما يكفي بعضه بالبيان. فله الحمد والشكر.

فهذه مقدمة نافعة، إن شاء الله، ينبغي استقراؤها في [كل] موارد، والتنبيه لكل ما يرد من هذه المطالب على وجه التفصيل، فمن استعملها في كل ما يرد عليه من الآيات، انتفع بها نفعاً عظيماً. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

(٣) في ب: مشتملة.

(١) كذا في ب، وفي أ: به أنه.

(٢) في ب: مشتملة.

تفسير الفاتحة وهي مكية

﴿١-٧﴾ «بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين * إياك نعبد وإياك نستعين * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ * غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ» أي: أبتدئ بكل اسم لله تعالى، لأن لفظ «اسم» مفرد مضاف، فيعُمُّ جميع الأسماء [الحسنى]، «الله»: هو المألوه العبود، المستحق لإفراده بالعبادة لما اتصف به من صفات الألوهية، وهي صفات الكمال، «الرحمن الرحيم»: اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله، فهو لاء لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم فلهم نصيب منها.

واعلم أن من القواعد المتفق عليها بين سلف الأمة وأئمتها، الإيمان بأسماء الله وصفاته، وأحكام الصفات، فيؤمنون مثلاً بأنه رحمن رحيم، ذو الرحمة التي اتصف بها، المتعلقة بالرحوم، فالنعم كلها أثر من آثار رحمته، وهكذا في سائر الأسماء. يقال في العليم: إنه عليم ذو علم يعلم [به] كل شيء، قدير ذو قدرة يقدر على كل شيء.

«الحمد لله»: [هـ] الثناء على الله بصفات الكمال، وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل، فله الحمد الكامل بجميع الوجوه. «رب العالمين»: الرب: هو المربي جميع العالمين - وهم من سوى الله - بخلقه لهم، وإعداده لهم الآلات، وإنعامه عليهم بالنعم العظيمة، التي لو فقدوها لم يمكن لهم البقاء، فما بهم من نعمة فمنه تعالى. وتربيته تعالى لخلقه نوعان: عامة وخاصة.

فالعامة: هي خلقه للمخلوقين، ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم، التي فيها بقاؤهم في الدنيا.

والخاصة: تربيته لأوليائه، فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكمله لهم، ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه، وحقيقتها: تربية التوفيق لكل خير، والعصمة عن كل شر، ولعل هذا [المعنى] هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب، فإن مطالبهم كلها داخلية تحت ربوبيته الخاصة.

فدلّ قوله: «رب العالمين» على انفراده بالخلق والتدبير والنعم، وكمال غناه، وتام فقر العالمين إليه، بكل وجه واعتبار.

«مالك يوم الدين»: المالك: هو من اتصف بصفة الملك التي من آثارها أنه يأمر وينهى، ويشيب ويعاقب، ويتصرف بمماليكه بجميع أنواع التصرفات، وأضاف الملك ليوم الدين، وهو يوم القيامة، يوم يُدان الناس فيه بأعمالهم خيراً وشرها، لأن في ذلك اليوم يظهر للخلق تمام الظهور كمال ملكه وعدله وحكمته، وانقطاع أملاك الخلاق، حتى [إنه] يستوي في ذلك اليوم الملوك والراعياء والعبيد والأحرار، كلهم مذعنون لعظمته خاضعون لعزته، منتظرون لمجازاته، راجون ثوابه، خائفون من عقابه، فلذلك خصّه بالذكر، وإلا فهو المالك ليوم الدين ولغيره من الأيام.

وقوله: «إياك نعبد وإياك نستعين» أي: نخصّك وحدك بالعبادة والاستعانة، لأن تقديم المعلوم يفيد الحصر، وهو إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه، فكأنه يقول: نعبدك، ولا نعبد غيرك، ونستعين بك، ولا نستعين بغيرك.

وقدّم (٢) العبادة على الاستعانة، من باب تقديم العام على الخاص، واهتماماً بتقديم حقه تعالى على حق عبده،

و «العبادة»: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، و «الاستعانة»: هي الاعتماد على الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك.

والقيام بعبادة الله والاستعانة به هو الوسيلة للسعادة الأبدية، والنجاة من جميع الشور، فلا سبيل إلى النجاة إلا بالقيام بهما، وإنما تكون العبادة عبادة إذا كانت مأخوذة عن رسول الله ﷺ مقصوداً بها وجه الله، فبهذين الأمرين تكون عبادة، وذكر «الاستعانة» بعد «العبادة» مع دخولها فيها، لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى، فإنه إن لم يعنه الله، لم يحصل له ما يريد من فعل الأوامر واجتناب النواهي.

ثم قال تعالى: «اهدنا الصراط المستقيم» أي: دلّنا وأرشدنا ووفقنا للصراط المستقيم، وهو الطريق الواضح الموصل إلى الله وإلى جنّته، وهو معرفة الحق والعمل به، فاهدنا إلى الصراط واهدنا في الصراط، فالهداية إلى الصراط: لزوم دين الإسلام، وترك ما سواه من الأديان، والهداية في الصراط تشمل الهداية لجميع التفاصيل الدينية علماً وعملاً: فهذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد، ولهذا وجب على الإنسان أن يدعو الله به في كل ركعة من صلاته، لضرورته إلى ذلك.

وهذا الصراط المستقيم هو: «صراط الذين أنعمت عليهم» من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، «غير» صراط «المغضوب عليهم» الذين عرفوا الحق وتركوه كاليهود ونحوهم، وغير صراط «الضالين» الذين تركوا الحق على جهل وضلال، كالنصارى ونحوهم.

فهذه السورة على إيجازها، قد

(٢) في ب: وتقديم.

(١) في ب: فله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝
الرَّحِيمِ ۝ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝
اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝
الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝

وَاللَّهُ يَهْدِي الْقَوْمَ الْيَاقِينِ

الهدايان، وغيرهم لم تحصل لهم هداية التوفيق، وهداية البيان بدون توفيق للعمل بها ليست هداية حقيقية [تامة].

ثم وصف المتقين بالعقائد والأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، لتضمن التقوى لذلك، فقال: «الذين يؤمنون بالغيب»، حقيقة الإيمان: هو التصديق الثام بما أخبر به الرسل، المتضمن لانقياد الجوارح، وليس الشأن في الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحواس، فإنه لا يتميز بها المسلم من الكافر، إنما الشأن في الإيمان بالغيب، الذي لم تره ولم تشاهده، وإنما يؤمن به بخبر الله وخبر رسوله، فهذا الإيمان الذي يُميز به المسلم من الكافر، لأنه تصديق مجرد لله ورسله، فالؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به، أو أخبر به رسوله، سواء شاهده أو لم يشاهده، وسواء فهمه وعقله أو لم يهتد إليه عقله وفهمه، بخلاف الزنادقة المكذبين للأمور الغيبية؛ لأن عقولهم القاصرة المقصورة لم تهتد إليها، فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، ففسدت عقولهم، ومَرَجَتْ أحوالهم، وزكت عقول المؤمنين المصدقين المهتدين بهدى الله.

ويدخل في الإيمان بالغيب [الإيمان بـ] جميع ما أخبر الله به من الغيوب الماضية والمستقبلية، وأحوال الآخرة، وحقائق أوصاف الله وكيفياتها، [وما أخبر به الرسل من

وقوله: «ذلك الكتاب» أي: هذا الكتاب العظيم الذي هو الكتاب على الحقيقة، المشتمل على ما لم تشتمل عليه كتب المتقدمين والمتأخرين من العلم العظيم، والحق المبين، ف «لا ريب فيه» ولا شك بوجه من الوجوه، ونفي الريب عنه يستلزم ضده، إذ ضد الريب والشك اليقين، فهذا الكتاب مشتمل على علم اليقين المزيل للشك والريب، وهذه قاعدة مفيدة أن النفي المقصود به المدح لا يد أن يكون متضمناً لضده، وهو الكمال، لأن النفي عدم، والعدم المحض لا مدح فيه.

فلما اشتمل على اليقين وكانت الهداية لا تحصل إلا باليقين قال: «هدى للمتقين»، والهدى ما تحصل به الهداية من الضلالة والشبه، وما به الهداية إلى سلوك الطرق النافعة، وقال: «هدى» وحذف المعمول، فلم يقل هدى للمصلحة الفلانية، ولا للشيء الفلاني، لإرادة العموم، وأنه هدى لجميع مصالح الدارين، فهو مرشد للعباد في المسائل الأصولية والفروعية، ومبين للحق من الباطل، والصحيح من الضعيف، ومبين لهم كيف يسلكون الطرق النافعة لهم في دنياهم وأخراهم.

وقال في موضع آخر: «هدى للناس» فعظم، وفي هذا الموضع وغيره «هدى للمتقين» لأنه في نفسه هدى لجميع الخلق، فالأشقياء لم يرفعوا به رأساً، ولم يقبلوا هدى الله، فقامت عليهم به الحجة، ولم ينتفعوا به لشقائهم، وأما المتقون الذين أتوا بالسبب الأكبر لحصول الهداية وهو التقوى، التي حقيقتها: اتخاذ ما يقي سخط الله وعذابه بامتنال أوامره واجتناب النواهي، فاهتدوا به، وانتفعوا غاية الانتفاع، قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إن تقوا الله يجعل لكم فرقانا» فالمتقون هم المنتفعون بالآيات القرآنية والآيات الكونية.

ولأن الهداية نوعان: هداية البيان، وهداية التوفيق، فالمتقون حصلت لهم

احتوت على ما لم تحتو عليه سورة من سور القرآن، فنضممت أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية يؤخذ من قوله: «رب العالمين»، وتوحيد الإلهية، وهو أفراد الله بالعبادة، يؤخذ من لفظ: «الله» ومن قوله: «إياك نعبد»، وتوحيد الأسماء والصفات، وهو إثبات صفات الكمال لله تعالى، التي أثبتنا لنفسه، وأثبتنا له رسوله من غير تعطيل ولا تمثيل ولا تشبيه، وقد دل على ذلك لفظ «الحمد» كما تقدم. وتضمنت إثبات النبوة في قوله: «اهدنا الصراط المستقيم» لأن ذلك متنع بدون الرسالة.

وإثبات الجزاء على الأعمال في قوله: «مالك يوم الدين»، وأن الجزاء يكون بالعدل، لأن الدين معناه الجزاء بالعدل.

وتضمنت إثبات القدر، وأن العبد فاعل حقيقة، خلافاً للقدرة والجبرية. بل تضمنت الرد على جميع أهل البدع [والضلال] في قوله: «اهدنا الصراط المستقيم» لأنه معرفة الحق والعمل به، وكل مبتدع [وضال] فهو مخالف لذلك.

وتضمنت إخلاص الدين لله تعالى عبادة واستعانة في قوله: «إياك نعبد وإياك نستعين» فالحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة البقرة وهي مدنية

١-٥ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون * تقدم الكلام على السملة، وأما الحروف المقطعة في أوائل السور، فالأسلم فيها السكوت عن التعرض لمعانها، [من غير مستند شرعي] مع الجزم بأن الله تعالى لم ينزلها عبثاً بل لحكمة لا نعلمها.



ذلك فيؤمنون بصفات الله ووجودها، ويتفنونها وإن لم يفهموا كيفيتها.

ثم قال: ﴿ويقيمون الصلاة﴾ لم يقل: يفعلون الصلاة، أو يأتون بالصلاة، لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة، فإقامة الصلاة، إقامتها ظاهراً بإتمام أركانها وواجباتها وشروطها، وإقامتها باطناً بإقامة روحها، وهو حضور القلب فيها، وتدبر ما يقوله ويفعله منها، فهذه الصلاة هي التي قال الله فيها: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ وهي التي يترتب عليها الثواب، فلا ثواب للإنسان^(١) من صلاته إلا ما عقل منها، ويدخل في الصلاة فرائضها ونوافلها.

ثم قال: ﴿وما رزقناهم ينفقون﴾، يدخل فيه النفقات الواجبة كالزكاة والنفقة على الزوجات والأقارب والمماليك، ونحو ذلك، والنفقات المستحبة بجميع طرق الخير، ولم يذكر المنفق عليه، لكثرة أسبابه وتنوع أهله، ولأن الثقة من حيث هي قرينة إلى الله، وأتى بـ «من» الدالة على التبعية، لينبههم أنه لم يرد منهم إلا جزءاً يسيراً من أموالهم، غير ضار لهم ولا مثقل، بل ينتفعون هم بإنفاقه، وينتفع به

(١) كذا في ب، وفي أ: وباطنها.

(٢) في ب: للعبد.

(٣) في ب: بجميع الكتب.

(٤) في ب: بالكتب السماوية كلها.

إخوانهم. وفي قوله: ﴿ورزقناهم﴾ إشارة إلى أن هذه الأموال التي بين أيديكم، ليست حاصلة بقوتكم وملكتكم، وإنما هي رزق الله الذي حوّل لكم، وأنعم به عليكم، فكما أنعم عليكم وفضلكم على كثير من عباده، فاشكروه بإخراج بعض ما أنعم به عليكم، وواسوا إخوانكم المعديمين.

وكثيراً ما يجمع تعالى بين الصلاة والزكاة في القرآن، لأن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة والنفقة متضمنة للإحسان على عبده، فعنوان سعادة العبد إخلاصه للمعبود، وسعيه في نفع الخلق، كما أن عنوان شقاوة العبد عدم هذين الأمرين منه، فلا إخلاص ولا إحسان.

ثم قال: ﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك﴾ وهو القرآن والسنة، قال تعالى: ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾ فالتقون يؤمنون بجميع ما جاء به الرسول، ولا يفرقون بين بعض ما أنزل إليه، فيؤمنون ببعضه، ولا يؤمنون ببعضه، إما يحجده أو تأويله على غير مراد الله ورسوله، كما يفعل ذلك من يفعله من المبتدعة، الذين يؤولون النصوص الدالة على خلاف قولهم، بما حاصله عدم التصديق بمعناها، وإن صدقوا بلفظها، فلم يؤمنوا بها إيماناً حقيقياً.

وقوله: ﴿وما أنزل من قبلك﴾ يشمل الإيمان بالكتب^(٣) السابقة، ويتضمن الإيمان بالكتب الإيمان بالرسول وبما اشتملت عليه، خصوصاً التوراة والإنجيل والزبور، وهذه خاصية المؤمنين يؤمنون بجميع الكتب السماوية^(٤)، وبجميع الرسل فلا يفرقون بين أحد منهم.

ثم قال: ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾، و «الآخرة»: اسم لما يكون بعد الموت، وخصّه بالذكر بعد العموم، لأن الإيمان باليوم الآخر أحد أركان

الإيمان؛ ولأنه أعظم باعث على الرغبة والرهبة والعمل، و «القيين»: هو العلم التام الذي ليس فيه أدنى شك، الموجب للعمل. ﴿أولئك﴾ أي: الموصوفون بتلك الصفات الحميدة ﴿على هدى من ربهم﴾ أي: على هدى عظيم، لأن التنكير للتعظيم، وأي هداية أعظم من تلك الصفات المذكورة المتضمنة للعقيدة الصحيحة والأعمال المستقيمة، وهل الهداية [الحقيقية] إلا هدايتهم، وما سواها [عما خالفها]، فهو^(٥) ضلالة.

وأتى بـ «على» في هذا الموضع، الدالة على الاستعلاء، وفي الضلالة يأتي بـ «في» كما في قوله: ﴿وإننا أو إياكم لعللى هدى أو في ضلال مبين﴾ لأن صاحب الهدى مستعمل بالهدى، مزتفع به، وصاحب الضلال منغمس فيه محقق.

ثم قال: ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ والفلاح [هو] الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، حضر الفلاح فيهم؛ لأنه لا سبيل إلى الفلاح إلا بسلوك سبيلهم، وما عدا تلك السبيل فهي سبيل الشقاء والهلاك والخسار التي تفضي بسالكها إلى الهلاك، فلهذا لما ذكر صفات المؤمنين حقاً، ذكر صفات الكفار المظهرين لكفرهم، المعاندين للرسول، فقال:

﴿٦-٧﴾ ﴿إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرتهم لا يؤمنون﴾ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم، أي: اتصفوا بالكفر، وانصغوا به، وصار وصفاً لهم لازماً لا يزدهم عنه رادع، ولا ينفع فيهم وعظ، إنهم مستمرون على كفرهم، فسواء عليهم أأنذرتهم، أم لم تنذرتهم لا يؤمنون، وحقيقة الكفر: هو الجحود لما جاء به الرسول، أو جحد بعضه، فهو لا الكفار لا تفيدهم

(٥) في ب: فهي ضلالة.

يضر المؤمنين أن أظهر المنافقون الإيمان، فسلمت بذلك أموالهم وحقت دماؤهم، وصار كيدهم في نحورهم، وحصل لهم بذلك الحزني والفضيحة في الدنيا، والحزن المستمر بسبب ما يحصل للمؤمنين من القوة والنصرة.

ثم في الآخرة لهم العذاب الأليم الموجه المفجع، بسبب كذبهم وكفرهم وفجورهم، والحال أنهم من جهلهم وحققتهم لا يشعرون بذلك.

وقوله: ﴿ففي قلوبهم مرض﴾ والمراد بالمرض هنا: مرض الشك والشبهات والنفاق، لأن القلب يعرض له مرضان يخرجانه عن صحته واعتداله: مرض الشبهات الباطلة، ومرض الشهوات المردية، فالكفر والنفاق والشكوك والبذع، كلها من مرض الشبهات، والزنا ومحبة الفواحش [المعاصي وفعلها من مرض الشهوات، كما قال تعالى: ﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾ وهي شهوة الزنا، والمعاق من عوفي من هذين المرضين، فحصل له اليقين والإيمان، والصبر عن كل معصية، فقل في أثواب العافية.

وفي قوله عن المنافقين: ﴿ففي قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً﴾ بيان لحكمته تعالى في تقدير المعاصي على العاصين، وأنه بسبب ذنوبهم السابقة، يبتليهم بالمعاصي اللاحقة الموجبة لعقوباتها كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ وقال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ وقال تعالى: ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ فعقوبة المعصية المعصية بعدها، كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، قال تعالى: ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾.

خاصم فجر.

وأما النفاق الاعتقادي المخرج عن دائرة الإسلام، فهو الذي وصف الله به المنافقين في هذه السورة وغيرها، ولم يكن النفاق موجوداً قبل هجرة الرسول ﷺ [من مكة إلى المدينة، وبعد أن هاجر، فلما كانت وقعة بدر^(١) وأظهر الله المؤمنين وأعزهم، ذل^(٢) من في المدينة عن لم يسلم، فأظهر بعضهم الإسلام خوفاً ومخادعة، ولتحقق دماؤهم، وتسلم أموالهم، فكانوا بين أظهر المسلمين في الظاهر أنهم منهم، وفي الحقيقة ليسوا منهم.

فمن لطف الله بالمؤمنين أن جلا أحوالهم ووصفهم بأوصاف يتميزون بها، لئلا يغتر بهم المؤمنون، ولينقموا أيضاً عن كثير من فجورهم [قال تعالى: ﴿يخذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم﴾ فوصفهم الله بأصل النفاق، فقال: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ فإنهم يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم، فأكذبهم الله بقوله: ﴿وما هم بمؤمنين﴾ لأن الإيمان الحقيقي ما توطأ عليه القلب واللسان، وإنما هذا مخادعة لله ولعباده المؤمنين.

والمخادعة: أن يظهر المخادع لمن يخادعه شيئاً ويُبطن خلافه، لكي يتمكن من مقصوده عن مخادع، فهؤلاء المنافقون سلكوا مع الله وعباده هذا المسلك، فعاد خداعهم على أنفسهم، فإن^(٣) هذا من العجائب؛ لأن المخادع إما أن ينتج خداعه ويحصل ما يريد^(٤)، أو يسلم لا له ولا عليه، وهؤلاء عاد خداعهم عليهم، وكأنهم^(٥) يعملون ما يعملون من المكر لإهلاك أنفسهم وإضرارها وكيدها؛ لأن الله تعالى لا يتضرر بخداعهم، [شيئاً] وعباده المؤمنون لا يضرهم كيدهم شيئاً، فلا

الدعوة إلا إقامة الحجة عليهم، وكان في هذا قطعاً لطمع الرسول ﷺ في إيمانهم، وأنت لا تأس عليهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات.

ثم ذكر الموانع المانعة لهم من الإيمان، فقال: ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم﴾ أي: طبع عليها بطابع لا يدخلها الإيمان، ولا ينفذ فيها، فلا يعون ما يتفهم، ولا يسمعون ما يفيدهم.

﴿وعلى أبصارهم غشاوة﴾ أي: غشاء وغطاء وأكثت تمنعها عن النظر الذي يتفهم، وهذه طرق العلم والخير قد سدت عليهم، فلا مطمع فيهم، ولا خير يرجى عندهم، وإنما منعوا ذلك، وسدت عنهم أبواب الإيمان بسبب كفرهم وجحودهم ومعاندتهم بعدما تبين لهم الحق، كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ وهذا عقاب عاجل.

ثم ذكر العقاب الآجل، فقال: ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ وهو عذاب النار، وسخط الجبار المستمر الدائم.

ثم قال تعالى في وصف المنافقين الذين ظاهروهم الإسلام وباطنهم الكفر، فقال:

﴿٨-١٠﴾ ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴿ففي قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾ وأعلم أن النفاق هو: إظهار الخير وإبطان الشر، ويدخل في هذا التعريف النفاق الاعتقادي والنفاق العملي، فالنفاق العملي كالذي ذكر النبي ﷺ في قوله: «آية النفاق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»، وفي رواية: «وإذا

(٦) في ب: وذلك أن.

(٤) في ب: ويحصل له مقصوده.

(٥) في ب: عاد خداعهم على أنفسهم

فكانهم.

(١) في ب: ولا بعد الهجرة حتى كانت

وقعة بدر.

(٢) في ب: فذل.

(٣) في ب: وهذا.

مستهزؤون بالمؤمنين بإظهارنا لهم أننا على طريقتهم، فهذه حالهم الباطنة والظاهرة، ولا يقيق المكر السيئ إلا بأهله.

قال تعالى: ﴿الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾ وهذا جزاء لهم على استهزائهم بعباده، فمن استهزأه بهم أن زين لهم ما كانوا فيه من الشقاء والحالة الخبيثة، حتى ظنوا أنهم مع المؤمنين لما لم يسلط الله المؤمنين عليهم، ومن استهزأه بهم يوم القيامة أنه يعطيهم مع المؤمنين نوراً ظاهراً، فإذا مشى المؤمنون بنورهم طفيء نور المنافقين، وبُقيوا في الظلمة بعد النور متحيرين، فما أعظم اليأس بعد الطمع، «ينادونهم ألم نكن معكم، قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم الآية».

قوله: ﴿ويمدهم﴾ أي: يزيدهم «في طغيانهم» أي: فجورهم وكفرهم، «يعمهون» أي: حاثرون مترددون، وهذا من استهزائه تعالى بهم.

ثم قال تعالى كاشفاً عن حقيقة أحوالهم:

﴿١٦﴾ «أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين» أولئك، أي: المنافقون الموصوفون بتلك الصفات «الذين اشتروا الضلالة بالهدى» أي: رغبوا في الضلالة رغبة المشتري بالسلعة، التي من رغبته فيها يبذل فيها الأثمان^(١٠) النفيسة، وهذا من أحسن الأمثلة، فإنه جعل الضلالة التي هي غاية الشر كالسلعة، وجعل الهدى الذي هو غاية الصلاح بمنزلة الثمن، فبذلوا الهدى رغبة عنه بالضلالة، رغبة فيها، فهذه تجارتهم، فبئس التجارة، وبئس الصفقة صفقتهم^(١١).

وإخراياً لها عما خلقت له.

﴿١٣﴾ «وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون» أي: إذا قيل للمنافقين آمنوا كما آمن الناس، أي: كإيمان الصحابة رضي الله عنهم، وهو الإيمان بالقلب واللسان، قالوا بزعمهم الباطل: أنؤمن كما آمن السفهاء؟ يعنون - قبحهم الله - الصحابة رضي الله عنهم، بزعمهم أن سفههم أوجب لهم الإيمان، وترك الأوطان، ومعاداة الكفار، والعقل عندهم يقتضي ضد ذلك، فنسبوه إلى السفه؛ وفي ضمنه^(٨) أنهم هم العقلاء أرباب الحجي والنهي.

فرد الله ذلك عليهم، وأخبر أنهم هم السفهاء على الحقيقة، لأن حقيقة السفه^(٩): جهل الإنسان بمصالح نفسه، وسعيه فيما يضرها، وهذه الصفة منطبقة عليهم وصادقة عليهم، كما أن العقل والحجا، مُعرفة الإنسان بمصالح نفسه، والسعي فيما ينفعه وفي ما يضره، وهذه الصفة منطبقة على [الصحابة و] المؤمنين وصادقة عليهم، فالعبرة بالأوصاف والبرهان، لا بالدعاوى المجردة والأقوال الفارغة.

ثم قال تعالى: ﴿١٤ - ١٥﴾ «وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤون» الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون هذا من قولهم بالستتهم ما ليس في قلوبهم، [وذلك] أنهم إذا اجتمعوا بالمؤمنين أظهروا أنهم على طريقتهم وأنهم معهم، فإذا خلوا إلى شياطينهم - أي: رؤسائهم وكبرائهم في الشر - قالوا: إنا معكم في الحقيقة، وإنما نحن

﴿١١ - ١٢﴾ «وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون» ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون» أي: إذا بُي هؤلاء المنافقون عن الإفساد في الأرض، وهو العمل بالكفر والمعاصي، ومنه إظهار سرائر المؤمنين لعدوهم وموالاة الكافرين «قالوا إنما نحن مصلحون» فجمعوا بين العمل بالفساد في الأرض، وإظهارهم أنه ليس بإفساد بل هو إصلاح، قلباً للحقائق وجمعاً بين فعل الباطل واعتقاده حقاً، وهذا أعظم جناية ممن يعمل بالمعصية، مع اعتقاد أنها معصية^(١)، فهذا أقرب للسلامة، وأرجى لرجوعه.

ولما كان في قولهم: ﴿إنما نحن مصلحون﴾ حصر للإصلاح في جانبهم. وفي ضمنه أن المؤمنين ليسوا من أهل الإصلاح - قلب الله عليهم دعواهم بقوله: ﴿ألا إنهم هم المفسدون﴾ فإنه لا أعظم فساداً^(٢) ممن كفر بآيات الله، وصد عن سبيل الله، وخمداد الله وأوليائه، ووالى المحاربين لله ورسوله، وزعم مع ذلك أن هذا إصلاح، فهل بعد هذا الفساد فساداً؟! ولكن لا يعلمون علماً ينفعهم، وإن كانوا قد علموا بذلك علماً تقوم به عليهم حجة الله، وإنما كان العمل بالمعاصي في الأرض إفساداً، لأنه يتضمن فساداً^(٣) ما على وجه الأرض من الحبوب والثمار والأشجار والنبات، بما^(٤) يحصل فيها من الآفات بسبب^(٥) المعاصي، ولأن الإصلاح في الأرض أن تعمّر بطاعة الله والإيمان به، لهذا خلق الله الخلق، وأسكنهم في الأرض، وأدر لهم^(٦) الأرزاق، ليستعينوا بها على طاعته [وعبادته]، فإذا عمل فيها بضده، كان سعيًا بالفساد فيها،

(٩) كذا في ب، وفي أ: النسقة.

(١٠) في ب: الأموال.

(١١) في ب: وهذه صفقتهم فبئس الصفقة.

(٥) في ب: التي سبها.

(٦) في ب: عليهم.

(٧) في ب: لزعمهم.

(٨) في ب: وفي ضمن ذلك.

(١) ممن يعمل بالمعاصي مع اعتقاد تحريمها.

(٢) كذا في ب، وفي أ: فساداً.

(٣) في ب: لأنه سبب فساد.

(٤) في ب: لما.



الإحراق، فبقي في ظلمات متعددة: ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، والظلمة الحاصلة بعد النور، فكيف يكون حال هذا الموصوف؟ فكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ، اسْتَوْقَدُوا نَارَ الْإِيمَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَمْ تَكُنْ صِفَةً لَهُمْ، فَانْتَفَعُوا بِهَا^(٣) وَحَقَّنْتَ بِذَلِكَ دِمَاؤَهُمْ، وَسَلَّمْتَ أَمْوَالَهُمْ، وَحَصَلْ لَهُمْ نَوْعٌ مِنَ الْأَمْنِ فِي الدُّنْيَا، فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ^(٤) إِذْ هَجَمَ عَلَيْهِمُ الْمَوْتُ، فَسَلِمَهُمُ الْإِنْتِفَاعُ بِذَلِكَ النُّورِ، وَحَصَلْ لَهُمْ كُلُّ هُمْ وَغَمٌ وَعَذَابٌ، وَحَصَلْ لَهُمْ ظَلْمَةُ الْقَبْرِ وَظَلْمَةُ الْكُفْرِ وَظَلْمَةُ التَّفَاقُ، وَظَلَمَ^(٥) الْمَعَاصِي عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا، وَبَعْدَ ذَلِكَ ظَلْمَةُ النَّارِ [وَبِئْسَ الْقَرَارُ] فَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى [عَنِهِمْ: صَمٌّ] أَي: عَنْ سَمَاعِ الْخَيْرِ، [بِكُمْ] [أَي]: عَنِ التَّنَطُّقِ بِهِ، [عَمِي] عَنِ رُؤْيَا الْحَقِّ، [فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ] لِأَنَّهُمْ تَرَكُوا الْحَقَّ بَعْدَ أَنْ عَرَفُوهُ، فَلَا يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ، بِخِلَافٍ مَنْ تَرَكَ الْحَقَّ عَنْ جَهْلٍ وَضَلَالٍ، فَلِئَنَّهُ لَا يَعْقِلُ، وَهُوَ أَقْرَبُ رَجُوعاً عَنْهُمْ.

ثم قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ يعني: أَوْ مِثْلَهُمْ كَصَيِّبٍ، أَي: كَصَاحِبِ صَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ، وَهُوَ الْمَطَرُ الَّذِي يَصُوبُ، أَي: يَنْزِلُ بِكَثْرَةٍ، ﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ﴾: ظَلْمَةُ اللَّيْلِ، وَظَلْمَةُ السَّحَابِ، وَظَلْمَةُ الْمَطَرِ، ﴿وَرَعْدٌ﴾: وَهُوَ الصَّوْتُ الَّذِي يَسْمَعُ مِنَ السَّحَابِ، ﴿وَيُبْرِقُ﴾: وَهُوَ الضُّوءُ [اللامع] الْمَشَاهِدُ مَعَ^(٦) السَّحَابِ، ﴿كَلِمًا أَضَاءَ لَهُمْ﴾ الْبَرْقُ فِي تِلْكَ الظُّلُمَاتِ ﴿مَشَافِئِهِ، وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ أَي: وَقَفُوا.

فَهَكَذَا حَالُ^(٧) الْمُنَافِقِينَ، إِذَا سَمِعُوا الْقُرْآنَ وَأَوَامِرَهُ وَنَوَاهِيَهُ وَوَعْدَهُ وَوَعِيدَهُ، جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ، وَأَعْرَضُوا عَنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، فَيُرْوِعُهُمْ وَعِيدُهُ وَتَزْعَجُهُمْ

وَإِذَا كَانَ مِنْ بَذَلٍ^(٨) دِينَاراً فِي مَقَابِلَةِ دَرَاهِمٍ خَاسِراً، فَكَيْفَ مِنْ بَذَلِ جَوْهَرَةٍ وَأَخَذَ عَنْهَا دَرَاهِمًا؟ فَكَيْفَ مِنْ بَذَلِ الْهَدْيِ فِي مَقَابِلَةِ الضَّلَالَةِ، وَاخْتَارَ الشَّقَاءَ عَلَى السَّعَادَةِ، وَرَغِبَ فِي سَافِلِ الْأُمُورِ عَنْ أَعَالِيهَا^(٩)؟ فَمَا رِبَحَتْ تِجَارَتُهُ، بَلْ خَسِرَ فِيهَا أَعْظَمَ خَسَارَةً. ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمَيِّنُ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ تحقيق لضلالهم، وَأَنَّهُمْ لَمْ يَحْصِلْ لَهُمْ مِنَ الْهَدَايَةِ شَيْءٌ، فَهَذِهِ أَوْصَافُهُمُ الْقَيِّحَةِ. ثُمَّ ذَكَرَ مِثْلَهُمُ الْكَاشِفَ لَهَا غَايَةَ الْكُشْفِ، فَقَالَ:

﴿١٧ - ٢٠﴾ ﴿مِثْلَهُمْ كَمِثْلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ صَمٌّ بِكُمْ عَمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ * أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ، وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَي: مِثْلَهُمُ الْمُنَافِقِينَ لَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ كَمِثْلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً، أَي: كَانَ فِي ظَلْمَةِ عَظِيمَةٍ وَحَاجَةٍ إِلَى النَّارِ شَدِيدَةٍ فَاسْتَوْقَدَهَا مِنْ غَيْرِهِ، وَلَمْ تَكُنْ عَنْده مَعْدَةٌ، بَلْ هِيَ خَارِجَةٌ عَنْهُ، فَلَمَّا أَضَاءَتْ النَّارُ مَا حَوْلَهُ، وَنَظَرَ الْمُحِلُّ الَّذِي هُوَ فِيهِ، وَمَا فِيهِ مِنَ الْخَوَافِ وَأَمْنِهَا، وَانْتَفَعَ بِتِلْكَ النَّارِ، وَقَرَّتْ بِهَا عَيْنُهُ، وَظَنَّ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَيْهَا، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِ، فَذَهَبَ عَنْهُ النُّورُ وَذَهَبَ مَعَهُ السَّرُورُ، وَبَقِيَ فِي الظُّلْمَةِ الْعَظِيمَةِ وَالنَّارِ الْمَحْرِقَةِ، فَذَهَبَ مَا فِيهَا مِنَ الْإِشْرَاقِ، وَبَقِيَ مَا فِيهَا مِنْ

وعوده، فهم يعرضون عنها غاية ما يمكنهم، ويكرهونها كراهة صاحب الصيب الذي يسمع الرعد، ويجعل^(٨) أصابعه في أذنيه^(٩) خشية الموت، فهذا تمكن له^(١٠) السلامة. وأما المنافقون فأنتي لهم السلامة، وهو تعالى محيط بهم، قدرةً وعلماً، فلا يفوتونه ولا يعجزونه، بل يحفظ عليهم أعمالهم، ويجازيهم عليها أتم الجزاء.

ولما كانوا مبتلين بالصمم والبكم والعَمَى الْمُعْتَوِي، وَمَسْدُودَةٌ عَلَيْهِمْ طَرِيقُ الْإِيمَانِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ أَي: الْحَسِيَّةُ، فَبِهِ تَحْذِيرٌ لَهُمْ وَتَحْوِيفٌ بِالْعُقُوبَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ لِيَحْذَرُوا، فَيَرْتَدُّعُوا عَنْ بَعْضِ شُرُوعِهِمْ وَتَفَاقِهِمْ، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فَلَا يَعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَمَنْ قُدْرَتُهُ أَنَّهُ إِذَا شَاءَ شَيْئاً فَعَلَهُ مِنْ غَيْرِ مَنَاعٍ وَلَا مَعَارِضٍ.

وفي هذه الآية وما أشبهها رد على القدرية القائلين بأن أفعالهم غير داخلية في قدرة الله تعالى، لأن أفعالهم من جملة الأشياء الداخلة في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿٢١ - ٢٢﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا

(٨) في ب: فيجعل.

(٩) كذا في ب، وفي أ: أذنه.

(١٠) في ب: ربما حصلت له.

(٤) في ب: هم كذلك.

(٥) في ب: وظلمة.

(٦) في ب: من.

(٧) في ب: حالة.

(١) في ب: يذل.

(٢) في ب: وترك أعاليها.

(٣) في ب: ما ستضاءوا بها مؤقتاً

وانتفعوا فحققت.



صحيح، وهما متلازمان، فمن أتى بالعبادة كاملة كان من المتقين ومن كان من المتقين، حصلت له النجاة من عذاب الله وسخطه ثم قال تعالى :

﴿٢٣ - ٢٤﴾ «وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين» وهذا دليل عقلي على صدق رسول الله ﷺ وصحة ما جاء به، فقال :

﴿وإن كنتم﴾ معشر المعاندين للرسول، الرادين دعوته، الزاعمين كذبه في شك واشتباه عما نزلنا على عبدنا، هل هو حق أو غيره؟ فهاهنا أمر نَصَف، فيه الفصلة بينكم وبينه، وهو أنه بشر مثلكم، ليس بأفصحكم ولا بأعلمكم^(١)، وأنتم تعرفونه منذ نشأ بينكم لا يكتب ولا يقرأ، فأناكم بكتاب زعم أنه من عند الله، وقلتم أنتم أنه تقوله وافتراه، فإن كان الأمر كما تقولون، فأتوا بسورة من مثله، واستعينوا بمن تقدرزون عليه من أعوانكم وشهادتكم، فإن هذا أمر يسير عليكم، خصوصاً وأنتم أهل الفصاحة والخطابة والعداوة العظيمة للرسول، فإن جئتم بسورة من مثله، فهو كما زعمتم، وإن لم تأتوا بسورة من مثله وعجزتم غاية العجز، ولن تأتوا بسورة من مثله، ولكن هذا التقييم^(٢) على وجه الإنصاف والتنزل معكم، فهذا آية كبرى ودليل واضح [جلي] على صدقه وصدق ما جاء به، فيتعين عليكم اتباعه، واتقاء النار التي بلغت في الحرارة العظيمة [والشدة]، أن كانت وقودها الناس والحجارة، ليست كبار الدنيا التي إنما تنقد

﴿وأنزل من السماء ماء﴾ والسماء : [هو] كل ما علا فوقك فهو سماء، ولهذا قال المفسرون : المراد بالسماء هاهنا : السحاب، فأنزل منه تعالى ماء، ﴿فأخرج به من الثمرات﴾ كالجوب والثمار من نخيل وفواكه [وزروع] وغيرها، ﴿ورزقاً لكم﴾ به ترتزقون وتقوتون، وتعيشون وتفكهون.

﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾ أي : نظراء وأشباهاً من المخلوقين، فتعبدونهم كما تعبدون الله، وتحبونهم كما تحبون الله، وهم مثلكم مخلوقون مرزوقون مدبرون، لا يملكون مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض، ولا ينفعونكم ولا يضررون، ﴿وأنتم تعلمون﴾ أن الله ليس له شريك، ولا نظير، لا في الخلق والرزق والتدبير، ولا في العبادة^(٣)، فكيف تعبدون معه إلهة أخرى مع علمكم بذلك؟ هذا من أعجب العجب، وأسفه السفه.

وهذه الآية جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه، وبيان الدليل الباهر على وجوب عبادته، وبطلان عبادة من سواه، وهو [ذكر] توحيد الربوبية المتضمن لانفراده بالخلق والرزق والتدبير، فإذا كان كل أحد مقراً بأنه ليس له شريك في ذلك، فكذلك فليكن إقراره بأن [الله] لا شريك له في العبادة، وهذا أوضح دليل عقلي على وحدانية الباري، وبطلان الشرك.

وقوله تعالى : ﴿لعلكم تتقون﴾ يحتمل أن المعنى : أنكم إذا عبدتم الله وحده، اتقيتم بذلك سنخه وعذابه، لأنكم أنتم بالسبب الدافع لذلك، ويحتمل أن يكون المعنى : أنكم إذا عبدتم الله، صرتم من المتقين الموصوفين بالتقوى، وكلا المعنيين

ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون * هذا أمر عام لكل^(١) الناس، وهو العبادة الجامعة لامثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وتصديق خبره، فأمرهم تعالى بما خلقهم له، قال تعالى : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾.

ثم استدلل على وجوب عبادته وحده، بأنه ربكم الذي رباكم بأصناف النعم، فخلقكم بعد العدم، وخلق الذين من قبلكم، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، فجعل لكم الأرض فراشاً تستقرون عليها، وتتفنعون بالأبنية والزراعة والحراثة، والسلوك من محل إلى محل، وغير ذلك من أنواع^(٢) الانتفاع بها، وجعل السماء بناءً لمسكنكم، وأودع فيها من المنافع ما هو من ضروراتكم وحاجاتكم كالشمس والقمر والنجوم.

(١) في ب : لجميع .

(٢) في ب : وجه .

(٣) في ب : ولا في الألوهية والكمال .

(٤) هكذا في أ، وفي ب : شطب قوله [بأفصحكم ولا بأعلمكم] وفي هامش المؤلف جملة أخرى هي (من جنس آخر) فتكون

الجملة هكذا (ليس من جنس آخر).

(٥) هكذا وردت الكلمة في هامش أ، وهي ليست في ب، ويبدو أن المراد وهذا العرض.

﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ وهذا يدخل فيه أشياء كثيرة، فإن الله أمرنا أن نصل ما بيننا وبينه بالإيمان به والقيام بعبوديته، وما بيننا وبين رسوله بالإيمان به ومحبة وتعزيره والقيام بحقوقه، وما بيننا وبين الوالدين والأقارب والأصحاب، وسائر الخلق بالقيام بتلك الحقوق^(١) التي أمر الله أن نصلها.

فأما المؤمنون فوصلوا ما أمر الله به أن يوصل من هذه الحقوق، وقاموا بها أتم القيام، وأما الفاسقون فقطعوها ونبدوها وراء ظهورهم معاتزين عنها بالفسق والقطيعة، والعمل بالمعاصي، وهو: الإفساد في الأرض.

فـ ﴿أولئك﴾ أي: من هذه صفته ﴿هم الخاسرون﴾ في الدنيا والآخرة، فحصر الخسارة فيهم، لأن خسراهم عام في كل أحوالهم، ليس لهم نوع من الربح؛ لأن كل عمل صالح شرطه الإيمان، فمن لا إيمان له لا عمل له، وهذا الخسار هو خسار الكفر، وأما الخسار الذي قد يكون كفراً، وقد يكون معصية، وقد يكون تفریطاً في ترك مستحب، المذكور في قوله تعالى: ﴿إن الإنسان لفي خسر﴾ فهذا عام لكل مخلوق، إلا من اتصف بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، وحقيقته فوات الخير الذي [كان] العبد يصدد تحصيله وهو تحت إمكانه.

﴿٢٨﴾ ثم قال تعالى: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميّتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾ هذا استفهام بمعنى التعجب والتوبيخ والإنكار، أي: كيف يحصل منكم الكفر بالله الذي خلقكم من العدم؛ وأنعم عليكم بأصناف النعم، ثم يميّتكم عند استكمال أجالكم، ويجازيكم في القبور، ثم يحييكم بعد البعث والنشور، ثم إليه ترجعون،

فيجازيكم الجزاء الأوفى، فإذا كنتم في تصرفه وتديبره وبزه، وتحت أوامره الدينية، ومن بعد ذلك تحت دينه الجزائي، أفيلق بكم أن تكفروا به، وهل هذا إلا جهل عظيم وسفه وهاقة؟^(٢) بل الذي يليق بكم أن تؤمنوا به وتتقوه وتشكروه، وتخافوا عذابه وترجوا ثوابه.

﴿٢٩﴾ ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ أي: خلق لكم برأبكم ورحمة، جميع ما على الأرض، للارتفاع والاستمتاع والاعتبار.

وفي هذه الآية العظيمة^(٣) دليل على أن الأصل في الأشياء الإباحة والطهارة، لأنها سبقت في معرض الامتنان، يخرج بذلك الخبائث، فإن [تحريمها أيضاً] يؤخذ من فحوى الآية، ومعرفة المقصود منها، وأنه خلقها لنفعنا، فما فيه ضرر فهو خارج من ذلك، ومن تمام نعمته منعنا من الخبائث تنزيهاً لنا.

وقوله: ﴿ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم﴾

﴿استوى﴾: ترد في القرآن على ثلاثة معاني: فتارة لا تعدى بالحرف، فيكون معناها الكمال والتمام، كما في قوله عن موسى: ﴿ولما بلغ أشده واستوى﴾ وتارة تكون بمعنى «علا» و«ارتفع»، وذلك إذا عديت بـ «على» كما في قوله تعالى: ﴿ثم استوى على العرش﴾^(٤)، «لستوى على ظهوره» وتارة تكون بمعنى «قصد» كما إذا عديت بـ «إلى» كما في هذه الآية، أي: لما خلق تعالى الأرض قصد إلى خلق السموات ﴿فسواهن سبع سموات﴾ فخلقها وأحكمها وأتقنها، وهو بكل شيء عليم. فـ ﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها﴾، و «يعلم ما تسرون وما تعلنون» يعلم السرّ

وأخفى.

وكثيراً ما يقرن بين خلقه للمخلوق وإثبات علمه كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿ألا يعلم من خلقه وهو اللطيف الخبير﴾ لأن خلقه للمخلوقات أدل دليل على علمه وحكمته وقدرته.

﴿٣٠-٣٤﴾ ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا اتعمل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴿قالوا سيحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾ ﴿قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾

وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴿هذا شروع في ذكر فضل آدم عليه السلام أبي البشر﴾^(٥)، أن الله حين أراد خلقه أخبر الملائكة بذلك، وأن الله مستخلفه في الأرض، فقالت الملائكة عليهم السلام: ﴿اتعمل فيها من يفسد فيها﴾ بالمعاصي ﴿ويسفك الدماء﴾ [و] هذا تخصيص بعد تعميم، لبيان [شدة] مفسدة القتل، وهذا بحسب ظنهم أن الخليفة المجعل في الأرض سيحدث منه ذلك، فنزهوا الباري عن ذلك، وعظموه، وأخبروا أنهم قائمون بعبادة الله على وجه خال من المفسدة، فقالوا: ﴿ونحن نسبح بحمدك﴾ أي: ننزهك التنزيه اللائق بحمدك وجلالك، ونقدس لك، يحتمل أن معناها: ونقدسك، فتكون اللام مفيدة للتخصيص والإخلاص، ويحتمل أن يكون: ونقدس لك أنفسنا، أي:

(٤) في ب: أورد آية أخرى هي: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾.

(٥) في ب: هذا شروع في ابتداء خلق آدم عليه السلام أبي البشر وفضله.

(١) في ب: بحقوقهم.

(٢) في ب: وسفه كبير، بل.

(٣) في ب: الكريمة.

تظهرها بالأخلاق الجميلة، كمحبة الله وخشيته وتعظيمه، ونظهرها من الأخلاق الرذيلة.

قال الله تعالى للملائكة: ﴿إني أعلم﴾ من هذا الخليفة ﴿ما لا تعلمون﴾؛ لأن كلامكم بنسب ما ظننتم، وأنا عالم بالظواهر والنسائر، وأعلم أن الخير الحاصل بخلق هذا الخليفة أضعاف أضعاف ما في ضمن ذلك من الشر، فلو لم يكن في ذلك إلا أن الله تعالى أراد أن يجتبي منهم الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين، ولتظهر آياته لخلقه، ويحصل من العبوديات التي لم تكن تحصل بدون خلق هذا الخليفة كالجهاد وغيره، وليظهر ما كمن في غرائز بني آدم^(١) من الخير والشر بالامتحان، ولتبين عدوه من وليه، وحزبه من حربه، وليظهر ما كمن في نفس إبليس من الشر الذي انطوى عليه واتصف به، فهذه حكم عظيمة يكفي بعضها في ذلك.

ثم لما كان قول الملائكة عليهم السلام، فيه إشارة إلى فضلهم على الخليفة الذي يجعله الله في الأرض، أراد الله تعالى أن يبين لهم من فضل آدم ما يعرفون به فضله، وكمال حكمة الله وعلمه، ف ﴿علم آدم الأسماء كلها﴾ أي: أسماء الأشياء، ومن هو مسمى بها، فعلمه الاسم والمسمى، أي: الألفاظ والمعاني، حتى المكبر من الأسماء كالقصعة، والمصغر كالقصبة.

﴿ثم عرضهم﴾ أي: عرض المسميات ﴿على الملائكة﴾ امتحاناً لهم، هل يعرفونها أم لا؟

﴿فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾ في قولكم وظننكم، أنكم أفضل من هذا الخليفة.

﴿قالوا سبحانك﴾ أي: نُبِّئْناكَ عن الاعتراض منا عليك ومخالفة أمرك، ﴿ولا علم لنا﴾ بوجه من الوجوه، ﴿ولا ما علمتنا﴾ إياه، فضلاً منك وجوداً،

﴿إنك أنت العليم الحكيم﴾ العليم الذي أحاط علماً بكل شيء، فلا يغيب عنه ولا يعزب مثقال ذرة في السماوات والأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر. الحكيم: من له الحكمة التامة التي لا يخرج عنها مخلوق، ولا يشذ عنها مأمور، فما خلق شيئاً إلا لحكمة، ولا أمر بشيء إلا لحكمة، والحكمة: وضع الشيء في موضعه اللائق به، فأقروا واعترفوا بعلم الله وحكمته، وقصورهم عن معرفة أدنى شيء، واعتراؤهم بفضل الله عليهم، وتعليمه إياهم ما لا يعلمون.

فحيث قال الله: ﴿يا آدم أنبئهم بأسمائهم﴾ أي: أسماء المسميات التي عرضها الله على الملائكة فعجزوا عنها. ﴿فلما أنباهم بأسمائهم﴾ تبيين للملائكة فضل آدم عليهم، وحكمة الباري وعلمه في استخلاف هذا الخليفة، ﴿قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض﴾ وهو ما غاب عنا فلم نشاهده، فإذا كان عالماً بالغيب، فالشهادة من باب أولى، ﴿وأعلم ما تبدون﴾ أي: تظهرون ﴿وما كنتم تكتمون﴾.

ثم أمرهم تعالى بالسجود لآدم، إكراماً له وتعظيماً، وعبودية لله تعالى، فامتثلوا أمر الله وبادروا كلهم بالسجود، ﴿إلا إبليس أبى﴾ امتنع عن السجود، واستكبر عن أمر الله وعلى آدم، قال: ﴿أسجد لمن خلقت طيناً﴾ وهذا الإباء منه والاستكبار نتيجة الكفر الذي هو منطوق عليه، فتبينت حيثئذ عداوته لله ولآدم، وكفره واستكباره.

وفي هذه الآيات من العبر والآيات إثبات الكلام لله تعالى، وأنه لم يزل متكلاً يقول ما شاء ويتكلم بما شاء، وأنه عليم حكيم، وفيه أن العبد إذا خفيت عليه حكمة الله في بعض المخلوقات والمأمورات فالواجب عليه التسليم، واتهام عقله، والإقرار لله بالحكمة، وفيه اعتناء الله بشأن الملائكة، وإحسانه بهم، بتعليمهم ما

جهلوا، وتبهيهم على ما لم يعلموه. وفيه فضيلة العلم من وجوه:

منها: أن الله تعرف للملائكة بعلمه وحكمته، ومنها: أن الله عرفهم فضل آدم بالعلم، وأنه أفضل صفة تكون في العبد، ومنها: أن الله أمرهم بالسجود لآدم إكراماً له لما بان فضل علمه، ومنها: أن الامتحان للغير، إذا عجزوا عما امتحنوا به، ثم عرفه صاحب الفضيلة، فهو أكمل مما عرفه ابتداء، ومنها: الاعتبار بحال أبوي الإنس والجن، وبيان فضل آدم، وإفضال الله عليه، وعداوة إبليس له، إلى غير ذلك من العبر.

﴿٣٥-٣٦﴾ ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلامنا فيها الشجرة حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ فازلها الشيطان عنها فأخرجهما مما كان فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ لما خلق الله آدم وفضله، أتم نعمته عليه بأن خلق منه زوجة ليسكن إليها ويستأنس بها، وأمرهما يسكنن الجنة والأكل منها ﴿ورعداً﴾ أي: واسعاً هنيئاً، ﴿حيث شئتما﴾ أي: من أي أضناقت الشمار والفواكه، وقال الله له: ﴿إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى﴾، وأنت لا تظلم فيها ولا تضحي.

﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ نوع من أنواع شجر الجنة الله أعلم بها، وإنما نهاهما عنها امتحاناً وابتلاء لآل حكمة غير معلومة لنا^(٢)، ﴿فتكونا من الظالمين﴾ دل على أن النهي للتحريم، لأنه رتب عليه الظلم.

فلم يزل عدوهما يوسوس لهما، ويزين لهما تناول ما نهيأ عنه، حتى أزلهما، أي: حملهما على الزلل بتزيينه، ﴿وقاسمهما﴾ بالله ﴿إني لكما لمن الناصحين﴾ فاغترأ به وأطاعاه، فأخرجهما بما كائنا فيه من النعيم والرغد، وأهبطوا إلى دار التعب والنصب والمجاهدة.

أتى من بعدهم، فأمرهم بأمر عام، فقال: ﴿اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ وهو يشمل سائر النعم التي سيذكر في هذه السورة بعضها، والمراد بذكرها بالقلب اعترافاً، وباللسان ثناءً، وبالجوارح باستعمالها فيما يحبه ويرضيه:

﴿وأوفوا بعهدي﴾ وهو ما عهده إليهم من الإيمان به وبرسله وإقامة شرعه، ﴿أوف بعهدكم﴾ وهو المجازاة على ذلك.

والمراد بذلك: ما ذكره الله في قوله: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نبياً، وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة [وأتيتم الزكاة وأمنتم برسلي] إلى قوله: ﴿فقد ضل سواء السبيل﴾.

ثم أمرهم بالسبب الحامل لهم على الوفاء بعهده، وهو الرهبة منه تعالى، وخشيته وحده، فإن من خشية أوجبت له خشية امتثال أمره واجتناب نهيه.

ثم أمرهم بالأمر الخاص الذي لا يتم إيمانهم، ولا يصح إلا به، فقال: ﴿وآمنوا بما أنزلت﴾ وهو القرآن الذي أنزل على عبده ورسوله محمد ﷺ، فأمرهم بالإيمان به واتباعه، ويستلزم ذلك الإيمان بمن أنزل عليه، وذكر الداعي لإيمانهم به، فقال: ﴿مصدقاً لما معكم﴾ أي: موافقاً له لا مخالفاً ولا مناقضاً، فإذا كان موافقاً لما معكم من الكتب غير مخالف لها، فلا مانع لكم من الإيمان به، لأنه جاء بما جاء به المرسلون، فأنتم أولى من آمن به وصدق به، لكونكم أهل الكتب والعلم.

وأيضاً فإن في قوله: ﴿مصدقاً لما معكم﴾ إشارة إلى أنك إن لم تؤمنوا به، عاد ذلك عليكم بتكذيب ما معكم، لأن ما جاء به هو الذي جاء به موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء، فتكذيبكم له تكذيب لما معكم:

وأيضاً فإن في الكتب التي بأيديكم صفة هذا النبي الذي جاء بهذا القرآن والبيشارة به، فإن لم تؤمنوا به كذبتم ببعض ما أنزل إليكم، ومن كذب

والاجتناب للنهي، ﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

وفي الآية الأخرى: ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾.

فرتب على اتباع هداي أربعة أشياء: نفي الخوف والحزن، والفرق بينهما أن المكروه إن كان قد مضى أحدث الحزن، وإن كان منتظراً أحدث الخوف، فنفاهما عن اتباع هداي، وإذا انتفيا حصل ضدهما وهو الأمن التام، وكذلك نفي الضلال والشقاء عمن اتبع هداي وإذا انتفيا ثبت ضدهما، وهو الهدى والسعادة، فمن اتبع هداي، حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدى، وانتفى عنه كل مكروه من الخوف والحزن والضلال والشقاء، فحصل له المرغوب واندفع عنه المروء، وهذا عكس من لم يتبع هداي فكفر به وكذب بآياته.

ف ﴿أولئك أصحاب النار﴾ أي: الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه، والغريم لغريمه، ﴿هم فيها خالدون﴾ لا يخرجون منها، ولا يفترون عنهم العذاب ولا هم ينصرون.

وفي هذه الآيات وما أشبهها، انقسام الخلق من الجن والإنس إلى أهل السعادة وأهل الشقاوة، وفيها صفات الفريقين والأعمال الموجبة لذلك، وأن الجن كالإنس في الثواب والعقاب، كما أنهم مثلهم في الأمر والنهي.

ثم شرع تعالى يذكر بني إسرائيل نعمة عليهم وإحسانه، فقال:

﴿٤٠ - ٤٣﴾ ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون﴾ وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافرينه ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتُموا الحق وأنتم تعلمون﴾ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ﴿يا بني إسرائيل﴾ المراد بإسرائيل: يعقوب عليه السلام، والخطاب مع فرق بني إسرائيل، الذين بالمدينة وما حولها، ويدخل فيهم من

﴿بعضكم لبعض عدو﴾ أي: آدم وذريته أعداء لإبليس وذريته، ومن المعلوم أن العدو يجتهد في ضرر عدوه وإيصال الشر إليه بكل طريق، وحرمانه الخير بكل طريق، ففي ضمن هذا، تحذير بني آدم من الشيطان، كما قال تعالى: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً﴾.

ثم ذكر منتهى الإهباط إلى الأرض، فقال: ﴿ولكم في الأرض مستقر﴾ أي: مسكن وقرار، ﴿ومتاع إلى حين﴾ انقضاء آجالكم، ثم تنتقلون منها للدار التي خلقتكم لها، وخلقت لكم، ففيها أن مدة هذه الحياة مؤقتة عارضة، ليست مسكناً حقيقياً، وإنما هي معبر يتزود منها لتلك الدار، ولا تعمّر للاستقرار.

﴿٣٧﴾ ﴿فتلقى آدم﴾ أي: تلقف وتلقن، وألهمه الله ﴿من ربه كلمات﴾ وهي قوله: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ الآية، فاعترف بذنبه وسأل الله مغفرته ﴿فتاب﴾ الله ﴿عليه﴾ ورحمه ﴿إنه هو الثواب﴾ لمن تاب إليه وأتاب.

وتوبته نوعان: توبيقه أولاً، ثم قبوله للتوبة إذا اجتمعت شروطها ثانياً.

﴿الرحيم﴾ بعباده، ومن رحمته بهم أن وفقهم للتوبة وعفا عنهم وصفح.

﴿٣٨ - ٣٩﴾ ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿كرّر الإهباط ليرتب عليه ما ذكر وهو قوله: ﴿فإما يأتينكم مني هدى﴾ أي: أي وقت وزمان جاءكم مني - يا معشر الثقلين - هدى، أي: رسول وكتاب يهديكم لما يقربكم مني، ويدينكم من رضائي، ﴿فمن تبع هداي﴾ منكم، بأن آمن برسلي وكتبي واهتدى بهم، وذلك بتصديق جميع أخبار الرسل والكتب، والامتنال للأمر

بعض ما أنزل إليه فقد كذب بجميعه، كما أن من كفر برسول، فقد كذب الرسل جميعهم.

فلما أمرهم بالإيمان به، نهاهم وحذرهم من ضده وهو الكفر به، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ﴾ أي: بالرسول والقرآن.

وفي قوله: ﴿أُولَٰ كَافِرٍ﴾ أبلغ من قوله: ﴿وَلَا تَكْفُرُوا بِهِ﴾ لأنهم إذا كانوا أول كافر به، كان فيه مبادرتهم إلى الكفر به، عكس ما ينبغي منهم، وصار عليهم إثمهم وإثم من اقتدى بهم من بعدهم.

ثم ذكر المانع لهم من الإيمان، وهو اختيار العرض الأدنى على السعادة الأبدية، فقال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وهو ما يحصل لهم من المناصب والمآكل، التي يتوهمون انقطاعها إن آمنوا بالله ورسوله، فاشتروها بآيات الله واستحبوها وآثروها.

﴿وَأَيُّ﴾ أي: لا غيري ﴿فَاتَّقُونَ﴾ فإنكم إذا اتقيتم الله وحده، أوجبت لكم تقواه تقديم الإيمان بآياته على الثمن القليل، كما أنكم إذا اخترتم الثمن القليل، فهو دليل على ترحل التقوى من قلوبكم.

ثم قال: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا﴾ أي: تخلطوا ﴿الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ فنهاهم عن شيئين، عن خلط الحق بالباطل وكتتمان بيان الحق؛ لأن المقصود من أهل الكتب والعلم، تمييز الحق من الباطل وإظهار الحق، ليهتدي بذلك المهتدون، ويرجع الضالون، وتقوم الحجة على المعاندين؛ لأن الله فصل آياته وأوضح بيناته، ليميز الحق من الباطل، ولتستبين سبيل المهتدين من سبيل المجرمين، فمن عمل بهذا من أهل العلم فهو من خلفاء الرسل وهداة الأمم.

ومن لبس الحق بالباطل، فلم يميز هذا من هذا مع علمه بذلك، وكتّم الحق الذي يعلمه، وأمر بإظهاره، فهو

من دعا جهنم، لأن الناس لا يقتدون في أمر دينهم بغير علمائهم، فاختاروا لأنفسكم إحدى الحالتين.

ثم قال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: ظاهرأ وباطناً ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ مستحقيها، ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي: صلوا مع المصلين، فإنكم إذا فعلتم ذلك مع الإيمان برسول الله وآيات الله، فقد جمعتم بين الأعمال الظاهرة والباطنة، وبين الإخلاص للمعبود والإحسان إلى عبده، وبين العبادات القلبية والبدنية والمالية.

وقوله: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي: صلوا مع المصلين، ففيه الأمر بالجماعة للصلاة ووجوبها، وفيه أن الركوع ركن من أركان الصلاة لأنه عبر عن الصلاة بالركوع، والتعبير عن العبادة بجزئها يدل على فرضيته فيها.

﴿٤٤﴾ ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ أي: بالإيمان والخير ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تتركونها عن أمرها بذلك، والخال: ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وأسمى العقل^(١) عقلاً لأنه يعقل به ما ينفعه من الخير، وينعقل به عما يضره، وذلك أن العقل يحث صاحبه أن يكون أول فاعل لما يأمر به، وأول تارك لما ينهى عنه، فمن أمر غيره بالخير ولم يفعله، أو نهاه عن الشر فلم يتركه، دل على عدم عقله وجهله، خصوصاً إذا كان عالماً بذلك، قد قامت عليه الحجة.

وهذه الآية وإن كانت نزلت في سبب بني إسرائيل، فهي عامة لكل أحد، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ، كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ وليس في الآية أن الإنسان إذا لم يقم بما أمر به أنه يترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لأنها دلت على التوبيخ بالنسبة إلى الواجبين، وإلا فمن المعلوم أن على الإنسان واجبين: أمر غيره ونهيه، وأمر نفسه ونهيه، فترك

أحدهما لا يكون رخصة في ترك الآخر، فإن الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين، والنقص الكامل أن يتركهما، وأما قيامه بأحدهما دون الآخر، فليس في رتبة الأول، وهو دون الآخر، وأيضاً فإن النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعله، فاقتداؤهم بالأفعال أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجردة.

﴿٤٥ - ٤٨﴾ ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ كُنَّا نَعْمِتُ لَكَاتِي أَنْعَمْتَ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون ﴿أَمَرَهُمُ اللَّهُ أَنْ يَسْتَعِينُوا فِي أَمْرِهِمْ كُلِّهَا بِالصَّبْرِ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِهِ، وَهُوَ الصَّبْرُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ حَتَّى يُؤَدِّيَهَا، وَالصَّبْرُ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ حَتَّى يَتْرُكَهَا، وَالصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ الْمُؤَلَّةِ فَلَا يَتَسَخَّطُهَا، فَبِالصَّبْرِ وَحَسِبَ النَّفْسُ عَلَى مَا أَمَرَ اللَّهُ بِالصَّبْرِ عَلَيْهِ مَعُونَةٌ عَظِيمَةٌ عَلَى كُلِّ أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يَصْبِرْهُ اللَّهُ، وَكَذَلِكَ الصَّلَاةُ الَّتِي هِيَ مِيزَانُ الْإِيمَانِ، وَتَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، يَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى كُلِّ أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ ﴿وَإِنَّهَا﴾ أي: الصلاة ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ أي: شاقة ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ فإنها سهلة عليهم خفيفة؛ لأن الخشوع وخشية الله ورجاء ما عنده يوجب له فعلها، منشراح صدره لترقبه للثواب، وخشيته من العقاب، بخلاف من لم يكن كذلك، فإنه لا داعي له يدعوه إليها، وإذا فعلها صارت من أثقل الأشياء عليه.

والخشوع هو: خضوع القلب وطمأنينته وسكونه لله تعالى، وانكساره بين يديه ذلاً وافتقاراً، وإيماناً به وبقائه.

لنا بما ثبتت الأرض من بقلها أي : نباتها الذي ليس بشجر يقوم على ساقه ، «وقثائها» وهو الخيار «وفومها» أي : ثومها ، والعدس والبصل معروف ، قال لهم موسى «أستبدلون الذي هو أدنى» وهو الأطمعة المذكورة ، «بألذي هو خير» وهو المن والسلوى ، فهذا غير لائق بكم ، فإن هذه الأطمعة التي طلبتم ، أي مصر هبطتموه وجدعوها ، وأما طعامكم الذي من الله به عليكم ، فهو خير الأطمعة وأشرفها ، فكيف تطلبون به بدلاً ؟

ولما كان الذي جرى منهم فيه أكبر دليل على قلة صبرهم واحتقارهم لأوامر الله ونعمه ، جازاهم من جنس عملهم ، فقال : «وضربت عليهم الذلة» التي تشاهد على ظاهر أبدانهم «والمسكنة» بقلوبهم ، فلم تكن أنفسهم عزيزة ، ولا لهم همم عالية ، بل أنفسهم أنفس مهينة ، وهمهم أردأ الهمم ، «وبأواؤا بغضب من الله» أي : لم تكن غنيمتهم التي رجعوا بها وفازوا ، إلا أن رجعوا يسخطه عليهم ، فبشتت الغنيمة غنيمتهم ، وبشتت الحالة حالتهم .

«ذلك» الذي استحقوا به غضبه «بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله» الدالات على الحق الموضحة لهم ، فلما كفروا بها عاقبهم بغضبه عليهم ، وبما كانوا «يقتلون النبيين بغير الحق»

وقوله : «بغير الحق» زيادة شناعة ، وإلا فمن المعلوم أن قتل النبي لا يكون بحق ، لكن لثلا يظن جهلهم وعدم علمهم .

«ذلك بما عصوا» بأن ارتكبوا معاصي الله «وكانوا يعتدون» على عباد الله ، فإن المعاصي يجر بعضها بعضاً ، فالعقلة ينشأ عنها الذنب الصغير ، ثم ينشأ عنه الذنب الكبير ، ثم ينشأ عنها أنواع البدع والكفر وغير ذلك ، فنسأل الله العافية من كل بلاء .

واعلم أن الخطاب في هذه الآيات لأمة بني إسرائيل الذين كانوا موجودين وقت نزول القرآن ، وهذه الأفعال

فبدلوا لأنهم لم يكونوا كلهم بدلوا «قولا غير الذي قيل لهم» فقالوا بدل حطة : حبة في حنطة ، استهانة بأمر الله واستهزاء ، وإذا بدلوا القول مع خفته فتبدلهم للفعل من باب أولى وأحرى ، ولهذا دخلوا يزحفون على أديبارهم ، ولما كان هذا الطغيان أكبر سبب لوقوع عقوبة الله بهم ، قال : «فأنزلنا على الذين ظلموا» منهم «رجزاً» أي : عذاباً «من السماء» بسبب فيسقم وبغيهم .

«٦٠» «وإذا استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين» استسقى أي : طلب لهم ماء يشربون منه ، «فقلنا اضرب بعصاك الحجر» إما حجر مخصوص معلوم عنده ، وإما اسم جنس ، «فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا» وقبائل بني إسرائيل اثنتا عشرة قبيلة ، «قد علم كل أناس» منهم «مشربهم» أي : محلهم الذي يشربون عليه من هذه الأعين ، فلا يزاحم بعضهم بعضاً ، بل يشربونه متعئين لا متكدرين ، ولهذا قال : «كلوا واشربوا من رزق الله» أي : الذي آتاكم من غير سعي ولا تعب ، «ولا تعثوا في الأرض» أي : تخربوا على وجه الإفساد .

«٦١» «وإذا قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وبأواؤا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون» أي : واذكروا ، إذ قلتم لموسى على وجه التملل لنعم الله والاحتقار لها : «لن نصبر على طعام واحد» أي : جنس من الطعام ، وإن كان كما تقدم أنواعاً ، لكنها لا تتغير ، «فادع لنا ربك يخرج



ويقيتهم» «كلوا من طيبات ما رزقناكم» أي : رزقاً لا يحصل نظيره لأهل المدن المترفين ، فلم يشكروا هذه النعم ، واستمروا على قساوة القلوب وكثرة الذنوب .

«وما ظلمونا» يعني بتلك الأفعال المخالفة لأوامرنا لأن الله لا تضره معصية العاصين ، كما لا تنفع طاعات الظالمين ، «ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» فيعود ضرره عليهم .

«٥٨ - ٥٩» «وإذا قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة تغفر لكم خطاياكم وستنزيذ المحسنين» فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ، وهذا أيضاً من نعمته عليهم بعد معصيتهم إياه ، فأمرهم بدخول قرية تكون لهم عزاً ووطناً وسكناً ، ويحصل لهم فيها الرزق الرغد ، وأن يكون دخولهم على وجه خاضعين لله فيه بالفعل ، وهو دخول الباب «سجداً» أي : خاضعين ذليلين ، وبالقول وهو أن يقولوا : «حطة» أي : أن يخط عنهم خطاياهم بسؤالهم إياه مغفرتة .

«تغفر لكم خطاياكم» بسؤالكم المغفرة ، «وستنزيذ المحسنين» بأعمالهم ، أي : جزاء عاجلاً وآجلاً ، «فبدل الذين ظلموا» منهم ، ولم يقل



المذكورة خوطبوا بها وهي فعل أسلافهم، ونسبت إليهم لفوائد عديدة، منها: أنهم كانوا يتمدحون ويزكون أنفسهم، ويزعمون فضلهم على محمد ومن آمن به، فبين الله من أحوال سلفهم التي قد تفرزت عندهم، ما يبين به لكل أحد [منهم] أنهم ليسوا من أهل الصبر ومكارم الأخلاق ومعالي الأعمال، فإذا كانت هذه حالة سلفهم، مع أن المظنة أنهم أولى وأرفع حالة عن بعدهم فكيف الظن بالمخاطبين!!

ومنها: أن نعمة الله على المتقدمين منهم نعمة واصله إلى المتأخرين، والنعمة على الآباء نعمة على الأبناء، فخطبوا بها، لأنها نعم تشملهم وتعمهم.

ومنها: أن الخطاب لهم بأفعال غيرهم، مما يدل على أن الأمة المجتمعة على دين تتكافل وتتساعد على مصالحها، حتى كان متقدمهم ومتأخرهم في وقت واحد، وكان الحادث من بعضهم حادثاً من الجميع؛ لأن ما يعمل بعضهم من الخير يعود بمصلحة الجميع، وما يعمل من الشر يعود بضرر الجميع.

ومنها: أن أفعالهم أكثرها لم يتكروها، والراضي بالعصية شريك للعاصي، إلى غير ذلك من الحكم التي لا يعلمها إلا الله.

﴿٦٢﴾ ثم قال تعالى حاكماً بين الفرق الكتابية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وهذا الحكم على أهل الكتاب خاصة، لأن الصابئين، الصحيح أنهم من جملة فرق النصاري، فأخبر الله أن المؤمنين من هذه الأمة، واليهود والنصارى والصابئين، من آمن منهم بالله واليوم الآخر، وصدقوا وسلمهم، فإن لهم

الأجر العظيم والأمن، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأما من كفر منهم بالله ورسله واليوم الآخر، فهو بضد هذه الحال، فعليه الخوف والحزن. والصحيح أن هذا الحكم بين هذه الطوائف من حيث هم، لا بالنسبة إلى الإيمان بمحمد، فإن هذا إخبار عنهم قبل بعثة محمد ﷺ، وأن هذا مضمون أحوالهم، وهذه طريقة القرآن إذا وقع في بعض النفوس عند سياق الآيات بعض الأوهام، فلا بد أن تجد ما يزيل ذلك الوهم، لأنه تنزيل من يعلم الأشياء قبل وجودها، ومن رحمته وسعت كل شيء.

وذلك والله أعلم - أنه لما ذكر بني إسرائيل وذمهم، وذكر معاصيهم وقياساتهم، ربما وقع في بعض النفوس أنهم كلهم يشملهم الذم، فأراد الباري تعالى أن يبين من لم يلحقه الذم منهم بوصفه، ولما كان أيضاً ذكر بني إسرائيل خاصة يوهم الاختصاص بهم. ذكر تعالى حكماً عاماً يشمل الطوائف كلها، ليتضح الحق، ويحول التوهم والإشكال، فسبحان من أودع في كتابه ما يبهق عقول العالمين.

ثم عاد تبارك وتعالى يُوبِّخ بني إسرائيل بما فعل سلفهم.

﴿٦٣ - ٦٤﴾ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ثم توليتهم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين ﴿أي: واذكروا﴾ إذ أخذنا ميثاقكم وهو العهد الثقيل المؤكد بالتخويف لهم، برفع الطور فوقهم^(١)، وقيل لهم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ من التوراة ﴿بقوة﴾ أي: بجِدِّ واجتهاد، وصبر على أوامر الله، ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أي: ما في كتابكم بأن تتلوه وتعلموه، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله وسخطه، أو لتكونوا من

أهل التقوى.

فبعد هذا التأكيد البليغ ﴿توليتهم﴾ وأعرضتم، وكان ذلك موجباً لأن يحل بكم أعظم العقوبات، ولكن ﴿لولا﴾ فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين.

﴿٦٥ - ٦٦﴾ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ فجعلناهم نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين ﴿أي: ولقد تقرر عندهم حالة﴾ الذين اعتدوا منكم في السبت ﴿وهم الذين ذكر الله قصتهم مبسوطاً في سورة الأعراف في قوله: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ الآيات. فأوجب لهم هذا الذنب العظيم، أن غضب الله عليهم وجعلهم ﴿قردة﴾ خاسئين.

وجعل الله هذه العقوبة ﴿نكالاً﴾ لما بين يديها ﴿أي: لمن حضرها من الأمم، وبلغ خبرها من هوفي وقتهم، ﴿وما خلفها﴾ أي: من بعدهم، فتقوم على العباد حجة الله، وليرتدعوا عن معاصيه، ولكنها لا تكون موعظة نافعة إلا للمتقين، وأما من عداهم فلا يتفنون بالآيات.

(١) كذا في ب، وفي آ: برفع الطور

القتيل ببعضها، أي: بعضو منها، إما معين أو أي: عضو منها، فليس في تعيينه فائدة، فضربوه ببعضها فأحياء الله، وأخرج ما كانوا يكتمون، فأخبر بقاتله، وكان في إحيائه وهم يشاهدون ما يدل على إحياء الله الموتى، ﴿لعلكم تعقلون﴾ فتتجزرون عن ما يضركم.

﴿ثم قست قلوبكم﴾ أي: اشتدت وغلظت فلم تؤثر فيها الموعظة، ﴿من بعد ذلك﴾ أي: من بعد ما أنعم عليكم بالنعمة العظيمة وأراكم الآيات، ولم يكن ينبغي أن تقسو قلوبكم لأن ما شاهدتم مما يوجب رقة القلب وانقياده، ثم وصف قسوتها بأنها ﴿كالحجارة﴾ التي هي أشد قسوة من الحديد، لأن الحديد والبرصاص إذا أذيب في النار ذاب بخلاف الأحجار.

وقوله: ﴿أو أشد قسوة﴾ أي: إنها لا تقصر عن قسوة الأحجار، وليست «أو» بمعنى «بل». ثم ذكر فضيلة الأحجار على قلوبهم، فقال: ﴿وإن من الحجرة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾. فبهذه الأمور فضلت قلوبكم، ثم توعدهم تعالى أشد الوعيد، فقال: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ بل هو عالم بها حافظ لصغيرها وكبيرها، وسيجازيكم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

واعلم أن كثيراً من المفسرين رهبهم الله قد أكثروا في حشو تفاسيرهم من قصص بني إسرائيل، ونزلوا عليها الآيات القرآنية، وجعلوها تفسيراً لكتاب الله، محتجين بقوله ﷺ: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج».

والذي أرى أنه وإن جاز نقل أحاديثهم على وجه تكون مفردة غير مقرونة، ولا منزلة على كتاب الله، فإنه لا يجوز جعلها تفسيراً لكتاب الله قطعاً إذا لم تصح عن رسول الله ﷺ، وذلك أن مرتبتها كما قال ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب

وكان من الواجب المبادرة إلى امتثال أمره وعدم الاعتراض عليه، ولكنهم أبوا إلا الاعتراض، فقالوا: ﴿انتخذنا هزوا﴾ فقال نبي الله: ﴿أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾. فإن الجاهل هو الذي يتكلم بالكلام الذي لا فائدة فيه، وهو الذي يستهزئ بالناس، وأما العاقل فيرى أن من أكبر العيوب المزرية بالدين والعقل، استهزاء بمن هو آدمي مثله، وإن كان قد فضل عليه، ففضليه يقتضي منه الشكر لربه والرحمة لعباده. فلما قال لهم موسى ذلك، علموا أن ذلك صدق، فقالوا: ﴿ادع لنا ربك يبين لنا ما هي﴾ أي: ما سنها؟ قال إنه يقول: إنها بقرة لا قارض﴾ أي: كبيرة ولا بكر صغيرة ﴿عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون﴾ واتركوا التشديد والتعنت.

﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها، قال إنه يقول: إنها بقرة صفراء فاقع لونها﴾ أي: شديد تسر الناظرين من حسنها.

﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا﴾ فلم نهت إلى ما تريد ﴿وإننا إن شاء الله لمهتدون﴾ قال إنه يقول: إنها بقرة لا ذلول﴾ أي: مذلة بالعمل، ﴿تشير الأرض بالحرثة، ولا تسقي الحرث﴾ أي: ليست بساقية، ﴿مسلمة﴾ من العيوب أو من العمل ﴿لا شية فيها﴾ أي: لا لون فيها غير لونها الموصوف المتقدم.

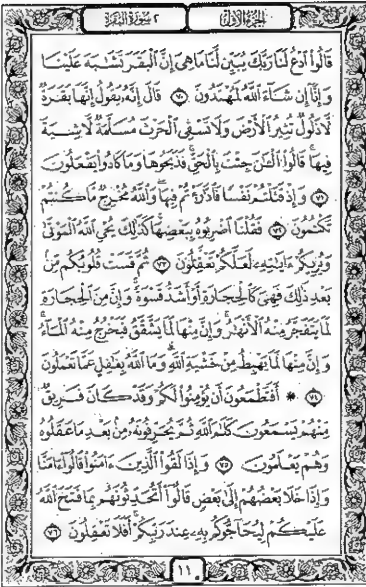
﴿قالوا الآن جئت بالحق﴾ أي: بالبيان الواضح، وهذا من جهلهم، وإلا فقد جاءهم بالحق أول مرة، فلو أنهم اعترضوا أي: بقرة لحصل المقصود، ولكنهم شددوا بكثرة الأسئلة فشدد الله عليهم، ولو لم يقولوا «إن شاء الله» لم يهتدوا أيضاً إليها، ﴿فذبحوها﴾ أي: البقرة التي وصفت بتلك الصفات، ﴿وما كادوا يفعلون﴾ بسبب التعنت الذي جرى منهم.

فلما ذبحوها، قلنا لهم اضربوا



٦٧ - ٧٤﴾ وإذ قال موسى

لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا انتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال إنه يقول إنها بقرة لا قارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون﴾ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإننا إن شاء الله لمهتدون﴾ قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تشير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴿وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكهم آياته لعلكم تعقلون ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون﴾ أي: واذكروا ما جرى لكم مع موسى، حين قتلتم قتيلاً وادارأتم فيه، أي: تدافعتم واختلقتم في قاتله، حتى تفاقم الأمر بينكم وكاد - لولا تبين الله لكم - يحدث بينكم شر كبير، فقال لكم موسى في تبين القاتل: اذبحوا بقرة،



ذلك حجة لهم عليكم؟
يقولون: إنهم قد أقروا بأن ما نحن عليه حق، وما هم عليه باطل، فيحتجون عليكم بذلك عند ربكم ﴿أفلا تعقلون﴾ أي: أفلا يكون لكم عقل فتتركون ما هو حجة عليكم؟ هذا يقوله بعضهم لبعض.

﴿أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ فهم وإن أسروا ما يعتقدونه فيما بينهم، وزعموا أنهم بإسرارهم لا يتطرق عليهم حجة للمؤمنين، فإن هذا غلط منهم وجهل كبير، فإن الله يعلم سرهم وعلمهم، فيظهر لعباده ما أتم عليه.

﴿ومنهم﴾ أي: من أهل الكتاب ﴿أميون﴾ أي: عوام، ليسوا من أهل العلم، ﴿لا يعلمون الكتاب إلا أماني﴾ أي: ليس لهم حظ من كتاب الله إلا التلاوة فقط، وليس عندهم خبر بما عند الأولين الذين يعلمون حق المعرفة حالهم، وهؤلاء إنما معهم ظنون وتقاليد لأهل العلم منهم.

فذكر في هذه الآيات علماء هم وعوامهم، ومنافقيهم ومن لم ينافق منهم، فالعلماء منهم متمسكون بما هم عليه من الضلال، والعوام مقلدون لهم لا بصيرة عندهم، فلا طمع لكم في الطائفتين.

﴿٧٩﴾ ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾ توعّد تعالى المخرفين للكتاب، الذين يقولون لتحريفهم وما يكتبون: ﴿هذا من عند الله﴾ وهذا فيه إظهار الباطل وكنم الحق، وإنما فعلوا ذلك مع علمهم ﴿ليشتروا به ثمناً قليلاً﴾ والدنيا كلها من أولها إلى آخرها ثمن قليل، فجعلوا باطلهم شركاً يصطادون به ما في أيدي الناس، فظلموهم من وجهين: من جهة تلبيس دينهم عليهم، ومن جهة أخذ أموالهم

ولا تكذبوهم، فإذا كان مرتبتها أن تكون مشكوكاً فيها، وكان من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن القرآن يجب الإيمان به، والقطع بالفاظه ومعانيه، فلا يجوز أن تجعل تلك القصص المنقولة بالروايات المجهولة، التي يغلب على الظن كذبها أو كذب أكثرها، معاني لكتاب الله، مقطوعاً بها ولا يستريب هذا أحد، ولكن بسبب الغفلة عن هذا حصل ما حصل، والله الموفق.

﴿٧٥-٧٨﴾ ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾ وإذا لقوا

الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون ﴿أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون ﴿هذا قطع لأطماع المؤمنين من إيمان أهل الكتاب، أي: فلا تطمعوا في إيمانهم وحالتهم﴾ لا تقتضي الطمع فيهم، فإنهم كانوا يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وعلموه، فيضعون له معاني ما أرادها الله، ليوهوا الناس أنها من عند الله، وما هي من عند الله، فإذا كانت هذه حالهم في كتابهم الذي يرونه شرفهم ودينهم، يصدون به الناس عن سبيل الله، فكيف يرجى منهم إيمان لكم؟! فهذا من أبعد الأشياء.

ثم ذكر حال منافقي أهل الكتاب فقال: ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا﴾ فأظهروا لهم الإيمان قولاً بالستهم، ما ليس في قلوبهم، ﴿وإذا خلا بعضهم إلى بعض﴾ فلم يكن عندهم أحد من غير أهل دينهم، قال بعضهم لبعض: ﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ أي: أتظهرون لهم الإيمان وتخبرونهم أنكم مثلهم، فيكون

بغير حق، بل بأبطل الباطل، أعظم ممن يأخذها غصباً وسرقة ونحوهما، ولهذا توعدهم بهذين الأمرين، فقال: ﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم﴾ أي: من التحريف والباطل، ﴿وويل لهم مما يكسبون﴾ من الأموال، والويل: شدة العذاب والحسرة، وفي ضمنها الوعيد الشديد.

قال شيخ الإسلام لما ذكر هذه الآيات من قوله: ﴿أفتطمعون﴾ إلى ﴿يكسبون﴾: فإن الله ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، وهو متناول لمن حمل الكتاب والسنة، على ما أصله من البدع الباطلة.

وذم الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، وهو متناول لمن ترك تدبر القرآن ولم يعلم إلا مجرد تلاوة حروفه، ومتناول لمن كتب كتاباً بيده مخالفاً لكتاب الله لينال به دنیا، وقال: إنه من عند الله، مثل أن يقول: هذا هو الشرع والدين، وهذا معني الكتاب والسنة، وهذا معقول السلف والأئمة، وهذا هو أصول الدين الذي يجب اعتقاده على الأعيان والكفاية، ومتناول لمن كنتم ما عنده من الكتاب والسنة، لئلا يحتاج به مخالفته في الحق الذي يقوله.

يدفع عنهم مكروه.

﴿٨٧﴾ «ولقد آتينا موسى الكتاب وبقينا من بعده بالرسول وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأتدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون» يمتن تعالى على بني إسرائيل أن أرسل إليهم كلمه موسى وآتاه التوراة، ثم تابع من بعده بالرسول الذين يحكمون بالتوراة، إلى أن ختم أنبياءهم بعيسى ابن مريم عليهم السلام، وآتاه من الآيات البينات ما يؤمن على مثله البشر، «وأتدناه بروح القدس» أي: قواه الله بروح القدس.

قال أكثر المفسرين: إنه جبريل عليه السلام، وقيل: إنه الإيمان الذي يؤيد الله به عباده.

ثم مع هذه النعم التي لا يقدر قدرها، لما أتوكم «بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم» عن الإيمان بهم، «ففريقاً» منهم «كذبتم وفريقاً تقتلون» فقدمتم الهوى على الهدى، وأترتم الدنيا على الآخرة، وفيها من التوبيخ والتشديد ما لا يخفى.

﴿٨٨﴾ «وقالوا قلوبنا غلفت بل لعنهم الله بكفرهم قليلاً ما يؤمنون» أي: اعتذروا عن الإيمان لما دعوتهم إليه، يا أيها الرسول، بأن قلوبهم غلفت، أي: عليها غلاف وأغطية، فلا تفقه ما تقول، يعني فيكون لهم - بزعمهم - عذر لعدم العلم، وهذا كذب منهم، فلماذا قال تعالى: «بل لعنهم الله بكفرهم» أي: أنهم مطردون ملعونون بسبب كفرهم، قليلاً المؤمنين منهم، أو قليلاً إيمانهم، وكفرهم هو الكثير.

﴿٨٩ - ٩٠﴾ «ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين» يتسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فيأثروا

بقتلهم على عادة الجاهلية، فنزلت عليهم الفرق الثلاث من فرق اليهود: بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، فكل فرقة منهم حالفت فرقة من أهل المدينة.

فكانوا إذا اقتتلوا أعان اليهودي حليفه على مقاتليه الذين تعينهم^(١) الفرق الأخرى من اليهود، فيقتل اليهودي اليهودي، ويخرج من دياره إذا حصل جلاء ونهب، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها، وكان قد حصل أسارى بين الطائفتين فدى بعضهم بعضاً.

والأمور الثلاثة كلها قد فرضت عليهم، ففرض عليهم أن لا يسفك بعضهم دم بعض، ولا يخرج بعضهم بعضاً، وإذا وجدوا أسيراً منهم وجب عليهم فداؤه، فعملوا بالأخير وتركوا الأولين، فأنكر الله عليهم ذلك، فقال: «أفتؤمنون ببعض الكتاب» وهو فداء الأسير، «وتكفرون ببعض» وهو القتل والإخراج.

وفيها أكبر دليل على أن الإيمان يقتضي فعل الأوامر واجتناب النواهي، وأن المأمورات من الإيمان، قال تعالى: «فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا» وقد وقع ذلك فأخزاهم الله، وسلط رسوله عليهم، فقتل من قتل، وسبى من سبى منهم، وأجل من أجل. «ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب» أي: أعظمه «وما الله بغافل عما تعملون»

ثم أخبر تعالى عن السبب الذي أوجب لهم الكفر ببعض الكتاب والإيمان ببعضه، فقال: «أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة» توهموا أنهم لم يعينوا حلفاءهم حصل لهم عار، فاختاروا النار على العار، فلماذا قال: «فلا يخفف عنهم العذاب» بل هو باق على شدته، ولا يحصل لهم راحة بوقت من الأوقات، «ولا هم يتنبصرون» أي:

عباده، أن يكون الإنسان نزيهاً في أقواله وأفعاله، غير فاحش ولا بذي ولا شاتم، ولا مخاصم، بل يكون حسن الخلق، واسع الحلم، مجاملاً لكل أحد، صبوراً على ما يناله من أذى الخلق، امتثالاً لأمر الله ورجاءاً لثوابه.

ثم أمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، لما تقدم أن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة متضمنة للإحسان إلى العبيد.

﴿ثم﴾ بعد هذا الأمر لكم بهذه الأوامر الحسنة التي إذا نظر إليها البصير العاقل، عرف أن من إحسان الله إلى عباده أن أمرهم بها، وتفضل بها عليهم، وأخذ المواعيق عليكم «توليتم» على وجه الإعراض، لأن المتولي قد يتولى وله نية رجوع إلى ما تولى عنه، وهؤلاء ليس لهم رغبة ولا رجوع في هذه الأوامر، فتعوز بالله من الخذلان.

وقوله: «إلا قليلاً منكم» هذا استثناء لثلاث يوهم أنهم تولوا كلهم، فأخبر أن قليلاً منهم عصمهم الله وثبتهم.

﴿٨٤ - ٨٦﴾ «وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون» ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى فتادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون» أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون» وهذا الفعل المذكور في هذه الآية فعل للذين كانوا في زمن الوحي بالمدينة، وذلك أن الأوس والخزرج - وهم الأنصار - كانوا قبل مبعث النبي ﷺ مشركين، وكانوا

واستجابة، ﴿قَالُوا: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي: صارت هذه حالتهم ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ أي: صنع حب العجل وحب عبادته في قلوبهم، وتشربها^(٢) بسبب كفرهم.

﴿قُلْ بِسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: أنتم تدعون الإيمان وتمتدحون بالدين الحق، وأنتم قتلتم أنبياء الله، واتخذتم العجل إلهاً من دون الله لما غاب عنكم موسى، نبي الله، ولم تقبلوا أوامره ونواهيه إلا بعد التهديد ورفع الطور فوقكم، فالتزمتهم بالقول ونقضتم بالفعل، فما هذا الإيمان الذي ادعيتهم، وما هذا الدين؟

فإن كان هذا إيماناً على زعمكم، فبئس الإيمان الداعي صاحبه إلى الطغيان والكفر برسول الله، وكثرة العصيان، وقد عهد أن الإيمان الصحيح يأمر صاحبه بكل خير، وينهاه عن كل شر، فوضح بهذا كذبهم، وتبين تناقضهم.

﴿٩٤-٩٦﴾ ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمْنُوا الْوَيْدَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين * ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ لهم على وجه تصحيح دعواهم: ﴿إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ يعني الجنة ﴿خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ كما زعمتم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة، فإن كنتم صادقين بهذه الدعوى ﴿فَتَمْنُوا الْوَيْدَ﴾ وهذا نوع مباهلة بينهم وبين رسول الله ﷺ.

وليس بعد هذا الإلجاء والمضايقة لهم بعد العناد منهم، إلا أحد أمرين: إما أن يؤمنوا بالله ورسوله، وإما أن يباهلوا على ما هم عليه بأمر يسير

ورغم الإيمان ببعضها دون بعض، فهذا ليس بإيمان، بل هو الكفر بعينه ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَقُولُونَ نُوْمَنُ بَعْضُ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً، أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾.

ولهذا رد عليهم تبارك وتعالى هنا رداً شافياً، وألزمهم إلزاماً لا محيد لهم عنه، فرد عليهم بكفرهم بالقرآن بأمرين، فقال: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ فإذا كان هو الحق في جميع ما اشتمل عليه من الأخبار والأوامر والنواهي، وهو من عند ربهم، فالكفر به بعد ذلك كفر بالله، وكفر بالحق الذي أنزله.

ثم قال: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ أي: موافقاً له في كل ما دل عليه من الحق ومهيماً عليه.

فلم تؤمنوا بما أنزل عليكم، وتكفرون بنظيره؟ هل هذا إلا لتعصب واتباع للهوى لا للهدى؟

وأيضاً فإن كون القرآن مصدقاً لما معهم، يقتضي أنه حجة لهم على صدق ما في أيديهم من الكتب، فلا سبيل لهم إلى إثباتها إلا به، فإذا كفروا به وجحدوه، صاروا بمنزلة من ادعى دعوى بحجة وبينة ليس له غيرها، ولا تتم دعواه إلا بسلامة بيئته، ثم يأتي هو لبنته وحجته فيدفع فيها ويكذب بها، أليس هذا من الحماقة والجنون؟ فكان كفرهم بالقرآن كفراً بما في أيديهم ونقضاً له.

ثم نقض عليهم تعالى دعواهم الإيمان بما أنزل إليهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوا أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ * ولقد جاءكم موسى بالبينات﴾ أي: بالأدلة الواضحات المبينة للحق ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: بعد مجيئه ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ في ذلك ليس لكم عذر.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ، خِذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾ أي: سماع قبول وطاعة

بغضب على غضب وللكاثرين عذاب مهين﴾ أي: ولما جاءهم كتاب من عند الله على يد أفضل الخلق وخاتم الأنبياء، المشتمل على تصديق ما معهم من التوراة، وقد علموا به وتيقنوه، حتى إنهم كانوا إذا وقع^(١) بينهم وبين المشركين في الجاهلية حروب، استنصروا بهذا النبي، وتوعدوهم بخروجه، وأنهم يقاتلون المشركين معه، فلما جاءهم هذا الكتاب والنبي الذي عرفوا كفروا به، بغياً وحسداً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، فلعنهم الله وغضب عليهم غضباً بعد غضب، لكثرة كفرهم وتوالي شكهم وشركهم.

ولهم في الآخرة عذاب مهين، أي: مؤلم موجع، وهو صلي الجحيم، وفوت النعيم المقيم، فبئس الحال حالهم، وبئس ما استعاضوا واستبدلوا من الإيمان بالله وكتبه ورسله، الكفر به وكتبه ورسله، مع علمهم وتيقنهم، فيكون أعظم لعابهم.

﴿٩١-٩٣﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَأْمِنُوا بِمَا نَحْنُ مُؤْمِنُونَ﴾ * وإذا أمر اليهود بالإيمان استكبروا وعتوا، و﴿قَالُوا نُوْمَنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا، وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ أي: بما سواه من الكتب، مع أن الواجب أن يؤمن بما أنزل الله مطلقاً، سواء أنزل عليهم أو على غيرهم، وهذا هو الإيمان النافع، الإيمان بما أنزل الله على جميع رسل الله.

وأما التفريق بين الرسل والكتب،

(١) في ب: على أنهم إذا كان وقع. (٢) في ب: وشربها.

تبين بهذا أن هذا الفريق من أهل الكتاب لم يبق في أيديهم شيء حيث يؤمنوا بهذا الرسول، فصار كفرهم بـ كُفراً بكتابتهم من حيث لا يشعرون . ولما كان من العوائد القدرية والحكمة الإلهية أن من ترك ما ينفعه وأمكنه الانتفاع به فلم ينتفع ، ابتلي بالاشتغال بما يضره ، فمن ترك عباد الرحمن ، ابتلي بعبادة الأوثان ، ومن ترك محبة الله وخوفه ورجاءه ، ابتلي بمحبة غير الله وخوفه ورجاءه ، ومن لم يتفقه في طاعة الله ، أتفقه في طاعة الشيطان ، ومن ترك الذل لربه ، ابتلي

حجة .

استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة .

﴿وليس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون﴾ علماً يثمر العمل ما فعلوه .

﴿١٠٤ - ١٠٥﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا زاعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم﴾ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ كان المسلمون يقولون حين خطابهم للرسول عند تعلمهم أمر الدين: ﴿راعنا﴾ أي: راع أحرارنا، فيقصدون بها معنى صحيحاً، وكان اليهود يريدون بها معنى فاسداً، فانتهزوا الفرصة، فصاروا يخاطبون الرسول بذلك، ويقصدون المعنى الفاسد، فتهدى الله المؤمنين عن هذه الكلمة سداً لهذا الباب، ففيه النهي عن الجائز إذا كان وسيلة إلى محرم، وفيه الأدب واستعمال الألفاظ، التي لا تحتمل إلا الحسن، وعدم الفحش، وترك الألفاظ القبيحة، أو التي فيها نوع تشويش أو احتمال لأمر غير لائق، فأمرهم بلفظة لا تحتمل إلا الحسن، فقال: ﴿وقولوا انظرنا﴾ فإنها كافية يحصل بها المقصود من غير محذور، ﴿واسمعوا﴾ لم يذكر المسموع ليعلم ما أمر باستماعه، فيدخل فيه سماع القرآن، وسماع السنة التي هي الحكمة لفظاً ومعنى واستجابة، ففيه الأدب والطاعة .

ثم توعد الكافرين بالعذاب المؤلم المرجع، وأخبر عن عداوة اليهود والمشركين للمؤمنين، أنهم ما يودون ﴿أن ينزل عليكم من خير﴾ أي: لا قليلاً ولا كثيراً ﴿من ربكم﴾ حسداً منهم، وبغضاً لكم أن يحتصمكم بفضلهم، فإنه ﴿ذو الفضل العظيم﴾ . ومن فضله عليكم إنزال الكتاب على رسولكم، ليزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون، فله الحمد والمنة .

﴿١٠٦ - ١٠٧﴾ ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها لم

فهؤلاء اليهود يتبعون السحر الذي تعلمه الشياطين، والسحر الذي يعلمه الملكان، فتركوا علم الأنبياء والمرسلين وأقبلوا على علم الشياطين، وكل يصبو إلى ما يناسبه .

ثم ذكر مفساد السحر، فقال: ﴿فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾ ومع أن محبة الزوجين لا تقاس بمحبة غيرهما، لأن الله قال في حقهما: ﴿وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ وفي هذا دليل على أن السحر له حقيقة، وأنه يضر بإذن الله، أي: بإرادة الله، والإذن نزعان: إذن قدرتي، وهو المتعلق بمشيئة الله، كما في هذه الآية، وإذن شرعي كما في قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿فإنه نزله على قلبك بإذن الله﴾ وفي هذه الآية وما أشبهها أن الأسباب مهما بلغت في قوة التأثير، فإنها تابعة للقضاء والقدر ليست مستقلة في التأثير، ولم يخالف في هذا الأصل أحد من فرق الأمة غير القدرية في أفعال العباد، زعموا أنها مستقلة غير تابعة للمشيئة، فأخرجوها عن قدرة الله، فخالفوا كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة والتابعين .

ثم ذكر أن علم السحر مفسدة محضة، ليس فيه منفعة لا دينية ولا دنيوية كما يوجد بعض المنافع الدنيوية في بعض المعاصي، كما قال تعالى في الحمر والميسر: ﴿قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ فهذا السحر مفسدة محضة، فليس له داع أصلاً، فالمنهيات كلها إما مفسدة محضة، أو شرها أكبر من خيرها .

كما أن المأمورات إما مصلحة محضة، أو خيرها أكثر من شرها . ﴿ولقد علموا﴾ أي: اليهود ﴿لن اشتراه﴾ أي: رغب في السحر رغبة المشتري في السلعة .

﴿ماله في الآخرة من خلاق﴾ أي: نصيب، بل هو موجب للعقوبة، فلم يكن فعلهم إياه جهلاً، ولكنهم



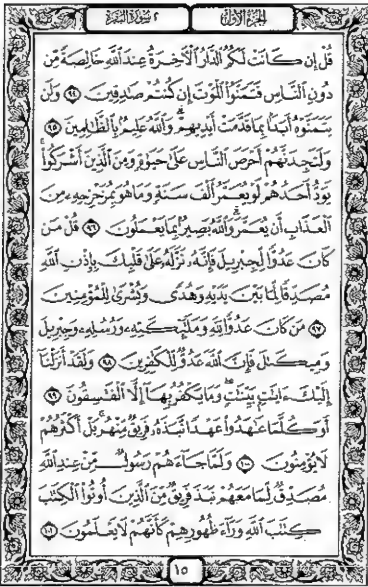
بالذل للعبيد، ومن ترك الحق ابتلي بالباطل .

كذلك هؤلاء اليهود لما نسبوا كتاب الله اتبعوا ما تلو الشياطين وتخلق من السحر على ملك سليمان حيث أخرجت الشياطين للناس السحر، وزعموا أن سليمان عليه السلام كان يستعمله، وبه حصل له الملك العظيم .

وهم كذبة في ذلك، فلم يستعمله سليمان، بل نزهه الصادق في قوله: ﴿وما كفر سليمان﴾ أي: بتعلم السحر، فلم يتعلمه، ﴿ولكن الشياطين كفروا﴾ بذلك .

﴿يعلمون الناس السحر﴾ من إضلالهم وحرصهم على إغواء بني آدم، وكذلك اتبع اليهود السحر الذي أنزل على الملكين الكائنين بأرض بابل من أرض العراق، أنزل عليهما السحر امتحاناً وابتلاء من الله لعباده فيعلمانهم السحر .

﴿وما يعلمان من أحد حتى ينصحا، و يقولوا إنما نحن فتنه فلا تكفر﴾ أي: لا تتعلم السحر فإنه كفر، فينهيه عن السحر، ويخبره عن مرتبته، فتعليم الشياطين للسحر على وجه التدليس والإضلال، ونسبته وترويجه إلى من برأه الله منه وهو سليمان عليه السلام . وتعليم الملكين امتحاناً مع نصحهما لئلا يكون لهم



حتى يأتي الله بأمره.

ثم بعد ذلك أتى الله بأمره إياهم بالجهاد، فشفي الله أنفس المؤمنين منهم، فقتلوا من قتلوا، واسترقوا من استرقوا، وأجلوا من أجلوا **﴿إن الله على كل شيء قدير﴾**.

ثم أمرهم [الله] بالاشتغال في الوقت الحاضر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وفعل كل القربات، ووعدهم أنهم مهما فعلوا من خير، فإنه لا يضيع عند الله، بل يجوده عنده وافرأموفاً قد حفظه **﴿إن الله بما تعملون بصير﴾**.

﴿١١١ - ١١٢﴾ **﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾** * يلي من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون **﴿أي: قال اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، فحكموا لأنفسهم بالجنة وخدمهم، وهذا مجرد أماني غير مقبولة إلا بحجة وبرهان، فأتوا بها إن كنتم صادقين، وهكذا كل من ادعى دعوى لا بد أن يقيم البرهان على صحة دعواه، وإلا فلو قلبت عليه دعواه، وادعى مدعى عكس ما ادعى بلا برهان**

قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل * ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير * وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير * ينهى الله المؤمنين أو اليهود، بأن يسألوا رسولهم **﴿كما سئل موسى من قبل﴾** والمراد بذلك أسئلة التعنت والاعتراض، كما قال تعالى: **﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك، فقالوا أرى الله جهرة﴾**.

وقال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾** فهذه ونحوها هي المنهي عنها.

وأما سؤال الاسترشاد والتعلم، فهذا محمود قد أمر الله به، كما قال تعالى: **﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾**. ويقرهم ^(١) عليه، كما في قوله: **﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾** و **﴿يسألونك عن اليتامى﴾** ونحو ذلك.

ولما كانت المسائل المنهي عنها مذمومة، قد تصل بصاحبها إلى الكفر، قال: **﴿ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل﴾**.

ثم أخبر عن حسد كثير من أهل الكتاب، وأنهم بلغت بهم الحال أنهم ودوا **﴿لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً﴾** وسعوا في ذلك، وأعملوا المكائد، وكيدهم راجع عليهم، [كما] قال تعالى: **﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾** وهذا من حسدهم الصادر من عند أنفسهم.

فأمرهم الله بمقابلة من أساء إليهم غاية الإساءة بالعفو عنهم والصفح

تعليم أن الله على كل شيء قدير * ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير * النسخ: هو النقل، فحقيقة النسخ نقل المكلفين من حكم مشروع إلى حكم آخر، أو إلى إسقاطه، وكان اليهود ينكرون النسخ ويؤمنون أنه لا يجوز، وهو مذكور عندهم في التوراة، فإنكارهم له كفر وهوى محض.

فأخبر الله تعالى عن حكمته في النسخ، وأنه ما ينسخ من آية **﴿أو نسيها﴾** أي: نسيها العباد، فنزيلها من قلوبهم، **﴿نات بخير منها﴾** وأنفع لكم **﴿أو مثلاً﴾**.

قدل على أن النسخ لا يكون لأقل مصلحة لكم من الأول، لأن فضله تعالى يزداد خصوصاً على هذه الأمة، التي سهل عليها دينها غاية التسهيل.

وأخبر أن من قدح في النسخ فقد قدح في ملكه وقدرته، فقال: **﴿ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير﴾** * ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض **﴿فيأذا كان مالكا لكم، متصرفاً فيكم تصرف المالك الجبر الرحيم في أقداره وأوامره ونواهي، فكما أنه لا حجب عليه في تقدير ما يقدره على عباده من أنواع التقادير، كذلك لا يعترض عليه فيما يشعه لعباده من الأحكام. فالعبد مدبر مسخر تحت أوامر ربه الدينية والقدرة، فما له والاعتراض؟**

وهو أيضاً ولي عباده ونصيرهم، فيتولاهم في تحصيل منافعهم، وينصرهم في دفع مضارهم، فمن ولايته لهم أن يشرع لهم من الأحكام ما تقتضيه حكمته ورحمته بهم.

ومن تأمل ما وقع في القرآن والسنة من النسخ، عرف بذلك حكمة الله ورحمته عباده، وإيصالهم إلى مصالحهم من حيث لا يشعرون بلفظه.

﴿١٠٨ - ١١٠﴾ **﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من**

إثبات الوجه لله تعالى، على الوجه اللائق به تعالى، وأن لله وجهاً لا تشبیه الوجوه، وهو - تعالى - واسع الفضل والصفات عظيمها، علم بسر أترككم ونياتكم.

فمن سعته وعلمه، وسع لكم الأمر، وقبل منكم المأمور، فله الحمد والشكر.

﴿١١٦-١١٧﴾ «وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون * بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون»، «وقالوا أي: اليهود والنصارى والمشركون، وكل من قال ذلك: «اتخذ الله ولداً»، فسبوه إلى ما لا يليق بجلاله، وأسأوا كل الإساءة، وظلموا أنفسهم.

وهو - تعالى - صابر على ذلك منهم، قد حلم عليهم، وعافاهم، ورزقهم مع تنقصهم إياه.

﴿سبحانه﴾، أي: تنزهه وتقدس عن كل ما وصفه به المشركون والظالمون مما لا يليق بجلاله. فسبحان من له الكمال المطلق، من جميع الوجوه، الذي لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه.

ومع زده لقولهم، أقام الحجة والبرهان على تنزيهه عن ذلك، فقال: ﴿بل له ما في السماوات والأرض﴾، أي: جميعهم ملكه وعبيده، يتصرف فيهم تصرف المالك بالممالك، وهم قانتون له مسخرون تحت تدبيره، فإذا كانوا كلهم عبيده، مفتقرين إليه، وهو غني عنهم، فكيف يكون منهم أحد، يكون له ولداً، والولد لا بد أن يكون من جنس والده، لأنه جزء منه.

والله تعالى المالك القاهر، وأنتم المملوكون المقهورون، وهو الغني وأنتم الفقراء، فكيف مع هذا، يكون له ولد؟ هذا من أبطل الباطل وأسنجه.

والقنوت نوعان: قنوت عام: وهو قنوت الخلق كلهم، تحت تدبير الخالق، وخاص: وهو قنوت العبادة.

فالنوع الأول كما في هذه الآية، والنوع الثاني: كما في قوله تعالى:

﴿وقوموا لله قانتين﴾.

ثم قال: ﴿بديع السماوات والأرض﴾، أي: خالقهما على وجه قد أتقنهما وأحسنهما على غير مثال سبق.

﴿وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾، فلا يستعصى عليه، ولا يمتنع منه.

﴿١١٨-١١٩﴾ «وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون * إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم»، أي: قال الجهلة من أهل الكتاب وغيرهم: هلا يكلمنا، كما كلم الرسل. «أو تأتينا آية»، يعنون آيات الاقتراح، التي يقترحونها بعقولهم الفاسدة، وآرائهم الكاسدة، التي تجرأوا بها على الخالق، واستكبروا على رسله كقولهم: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾، «يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك» الآية وقالوا: ﴿لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً، أو يلقى إليه كنز، أو تكون له جنة﴾، الآيات وقوله: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾، الآيات.

فهذا دأبهم مع رسلهم، يطلبون آيات التعتت، لا آيات الاسترشاد، ولم يكن قنصدهم تبين الحق، فإن الرسل قد جاؤوا من الآيات، بما يؤمن بمثله النشر، ولهذا قال تعالى: ﴿قد بينا الآيات لقوم يوقنون﴾.

فكل موقن، فقد عرف من آيات الله الباهرة، وبراهينه الظاهرة، ما حصل له به اليقين، وأندفع عنه كل شك وريب.

ثم ذكر تعالى بعض آية موجزة مختصرة جامعة للآيات الدالة على صدقه ﷺ، وصحة ما جاء به، فقال: ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً﴾، فهذا مشتمل على الآيات التي جاء بها، وهي ترجع إلى ثلاثة أمور:

الأول: في نفس إرساله، والثاني: في سيرته، وهديه ودله، والثالث: في معرفة ما جاء به من القرآن والسنة. فالأول والثاني قد دخلا في قوله: ﴿إنا أرسلناك﴾، والثالث دخل في قوله: ﴿بالحق﴾.

وبيان الأمر الأول وهو - نفس إرساله - أنه قد علم حالة أهل الأرض قبل بعثته ﷺ، وما كانوا عليه من عبادة الأوثان والنيران، والصلبان، وتبديلهم للآديان، حتى كانوا في ظلمة من الكفر، قد غمتهم وشملتهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، قد انقرضوا قبيل البعثة.

وقد علم أن الله تعالى لم يخلق خلقه سدى، ولم يتركهم هملأ، لأنه حكيم عليم، قدير رحيم، فمن حكمته ورحمته بعباده أن أرسل إليهم هذا الرسول العظيم، يأمرهم بعبادة الرحمن وحده لا شريك له، فيمجرد رسالته يعرف العاقل صدقه، وهو آية كبيرة على أنه رسول الله وأما الثاني: فمن عرف النبي ﷺ معرفة تامة، وعرف سيرته وهديه قبل البعثة، ونشوءه على أكمل الخصال، ثم من بعد ذلك قد ازدادت مكارمه وأخلاقه العظيمة الباهرة للنظرين، فمن عرفها وسبر أحواله، عَرَفَ أنها لا تكون إلا أخلاق الأنبياء الكاملين، لأن الله تعالى جعل الأوصاف أكبر دليل على معرفة أصحابها وصدقهم وكذبهم.

وأما الثالث: فهو معرفة ما جاء به ﷺ من الشرع العظيم، والقرآن الكريم المشتمل على الإخبارات الصادقة، والأوامر الحسنة، والنهي عن كل قبيح، والمعجزات الباهرة، فجميع الآيات تدخل في هذه الثلاثة.

قوله: ﴿بشيراً﴾ أي: لمن أطاعك بالسعادة الدنيوية والأخروية، ﴿نذيراً﴾ لمن عصاك بالشقاوة والهلاك الدنيوي والأخروي.

﴿ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾ أي: لست مسؤولاً عنهم، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب.

﴿١٢٠﴾ «ولن ترضى عنك اليهود

جانب عظيم من الإيمان والأعمال الصالحة، والأخلاق الجميلة، والشمائل السديدة، والمحبة التامة، والخشية والإنابة، فأين الظلم وهذا المقام؟

ودل مفهوم الآية أن غير الظالم سينال الإمامة، ولكن مع إتيانه بأسبابها.

ثم ذكر تعالى، نموذجاً باقياً دالاً على إمامة إبراهيم، وهو هذا البيت الحرام الذي جعل قيصده ركناً من أركان الإسلام، خاطئاً للذنوب والآثام.

وفيه من آثار الخليل وذريته، ما عرف به إمامته، وتذكرت به حالته، فقال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: مرجعاً يثوبون إليه، لحصول منافعهم الدينية والدنيوية، يترددون إليه ولا يقضون منه وطراً، ﴿وَوَجَعَلْنَاهُ أَمْنًا﴾ يأمن به كل أحد، حتى الوحش، وحتى الجمادات كالأشجار.

ولهذا كانوا في الجاهلية - على شركهم - يحترمون أشد الاحترام، ويحذرون أخطر الخوف، فلما جاء الإسلام زاده حرمة وتعظيماً وتشريفاً وتكريماً.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: مرجعاً يثوبون إليه، لحصول منافعهم الدينية والدنيوية، يترددون إليه ولا يقضون منه وطراً، ﴿وَوَجَعَلْنَاهُ أَمْنًا﴾ يأمن به كل أحد، حتى الوحش، وحتى الجمادات كالأشجار.

فيكون معنى قوله: ﴿مُصَلًّى﴾ أي: معبداً، أي: اقتدوا به في شعار الحج، ولعل هذا المعنى أولى، لدخول المعنى الأول فيه، واحتمال اللفظ له.

﴿وَعَهْدًا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أي: أوحينا إليهما، وأمرناهما بتطهير بيت الله من الشرك، والتكفر والمعاصي، ومن الرجز والنجاسات

إبراهيم ربه بكلمات فأمتهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين * وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأماناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدهنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود * فبشر إبراهيم خبير تعالى عن عبده وخليله إبراهيم عليه السلام، المتفق على إمامته وجلالته، الذي كل من طوائف أهل الكتاب تدعيه، بل وكذلك المشركون: أن الله ابتلاه وامتحنه بكلمات، أي: بأوامر ونواهي، كما هي عادة الله في ابتلائه لعباده، ليتين الكاذب الذي لا يثبت عند الابتلاء والامتحان، من الصادق الذي ترتفع درجته، ويزيد قدره ويزكو عمله، ويخلص ذنبه، وكان من أجلهم في هذا المقام الخليل عليه السلام.

فأتم ما ابتلاه الله به وأكمل ووفاه، فشكر الله له ذلك، ولم يزل الله شكوراً، فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي: يقتدون بك في الهدى، ويمشون خلفك إلى سعادتهم الأبدية، ويحصل لك الشناء الدائم والأجر الجزيل، والتعظيم من كل أحد.

وهذه - لعمر الله - أفضل درجة تنافس فيها المتنافسون، وأعلى مقام شمر إليه العاملون، وأكمل حالة حصلها أولو العزم من المرسلين وأتباعهم، من كل صديق متبع لهم، داع إلى الله وإلى سبيله.

فلما اغتبط إبراهيم بهذا المقام وأدرك هذا، طلب ذلك لذريته لتعلو درجته ودرجة ذريته، وهذا أيضاً من إمامته ونصحه لعباده، الله، ومحبه أن يكثر فيهم المرشدون، فله عظمة هذه الهمم العالية والمقامات السامية.

فأجابه الرحيم اللطيف، وأخبر بالمانع من نيل هذا المقام، فقال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا ينال الإمامة في الدين من ظلم نفسه وضرها، وحط قدرها، لمنافاة الظلم لهذا المقام، فإنه مقام آله الصبر واليقين، ونتيجته أن يكون صاحبه على

ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير * يخبر تعالى رسوله أنه لا يرضى منه اليهود ولا النصارى إلا باتباعه دينهم، لأنهم دعاة إلى الدين الذي هم عليه، ويزعمون أنه الهدى، فقل لهم: ﴿إِن هُدَىٰ اللَّهُ الْبَشَرَ لَلَّذِي أَرْسَلْتُ بِهِ هُوَ الْهَدَىٰ﴾

وأما ما أنتم عليه فهو الهوى، بدليل قوله: ﴿وَلئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير﴾

فهذا فيه النهي العظيم عن اتباع أهواء اليهود والنصارى، والتشبه بهم فيما يختص به دينهم، والخطاب وإن كان لرسول الله ﷺ فإن أمته داخلة في ذلك، لأن الاعتبار بعموم المعنى لا بخصوص المخاطب، كما أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ثم قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا هُم أَتَمُّ عَلَىٰ رَبِّكَ وَأَتَمُّ وَجْهًا لِّلنَّاسِ﴾ أي: يتبعونه حق تلوته أولئك يؤمنون به، ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون. * يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين * واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون.

يخبر تعالى أن الذين آتاهم الكتاب ومن عليهم به مئة مطلقه، أنهم يتبعونه حق تلوته، أي: يتبعونه حق اتباعه، والتلاوة: الاتباع، فيحلون خلاله، ويحرمون حرامه، ويعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، وهؤلاء هم السعداء من أهل الكتاب، الذين عرفوا نعمة الله وشكروها، وآمنوا بكل الرسل، ولم يفرقوا بين أحد منهم.

فهؤلاء هم المؤمنون حقاً، لا من قال منهم: ﴿نؤمن بما أنزل علينا﴾ ويكفرون بما وراءه.

ولهذا توعدهم بقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وقد تقدم تفسير الآية التي بعدها.

﴿١٢٤ - ١٢٥﴾ ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ



المصطفين الأخيار.

﴿وانه في الآخرة لمن الصالحين﴾

الذين لهم أعلى الدرجات.

﴿إذ قال له ربه أسلم قال﴾ اعتسلاً

لربه ﴿أسلمت لرب العالمين﴾ إخلاصاً وتنوحيداً، ومحبة وإنابة، فكان التوحيد لله نعته.

ثم ورثه في ذريته ووصاهم به، وجعلها كلمة باقية في عقبه وتوارثت فيهم، حتى وصلت ليعقوب فوصى بها بنيه، فأنتم - يا بني يعقوب - قد وصاكم أبوك بالخصوص، فيجب عليكم كمال الانقياد واتباع خاتم الأنبياء، قال: ﴿يا بني إن الله اصطفى لكم الدين﴾ أي: اختاره وتخير له لكم رحمة بكم، وإحساناً إليكم، فقوموا به واتصفوا بسرائعه، وانصبغوا بأخلاقه، حتى تستمروا على ذلك فلا يأتكم الموت إلا وأنتم عليه، لأن من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه.

ولما كان اليهود يزعمون أنهم على ملة إبراهيم، ومن بعده يعقوب، قال تعالى منكراً عليهم: ﴿أم كنتم شهداء﴾ أي: حضوراً ﴿إذ حضر يعقوب الموت﴾ أي: مقدماته وأسبابه، فقال لبنيه على وجه الاختيار، ولتقر عينه في حياته بامتثالهم ما وصاهم به: ﴿ما

(١) في ب: لا يؤخذ.

تعبدون من بعدي؟ فأجابوه بما قرأت به عينه، فقالوا: ﴿نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً﴾ فلا نشرك به شيئاً، ولا نعدل به أحداً، ﴿ونحن له مسلمون﴾ فجمعوا بين التوحيد والعمل.

ومن المعلوم أنهم لم يحضروا يعقوب، لأنهم لم يوجدوا بعد، فإذا لم يحضروا، فقد أخبر الله عنه أنه وصى بنيه بالحنيفية لا باليهودية.

ثم قال تعالى: ﴿تلك أمة قد خلت﴾ أي: مضت ﴿لها ما كسبت ولكم ما كسبتم﴾ أي: كل له عمله، وكل سيجازى بما فعله، لا يؤخذ أحد بذنب أحد، ولا ينفع أحد إلا إيمانه وتقواه فاشغالكم بهم وإدعائكم أنكم على ملتهم، والرضا بمجرد القول، أمر فارغ لا حقيقة له، بل الواجب عليكم أن تنظروا حالتكم التي أنتم عليها، هل تصلح للنجاة أم لا؟

﴿١٣٥﴾ ﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ أي: دعا كل من اليهود والنصارى المسلمين إلى الدخول في دينهم، زاعمين أنهم هم المهتدون وغيرهم ضال.

قل له ﴿١﴾ مجيباً جواباً شافياً: ﴿بل﴾ نُسبُ ﴿ملة إبراهيم حنيفاً﴾ أي: مقبلاً على الله، معرضاً عما سواه، قائماً بالتوحيد، تاركاً للشرك والتبديد.

فهذا الذي في اتباعه الهداية، وفي الإعراض عن ملته الكفر والغواية.

﴿١٣٦﴾ ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ هذه الآية الكريمة قد اشتملت على جميع ما يجب الإيمان به.

واعلم أن الإيمان الذي هو تصديق القلب التام بهذه الأصول، وإقراره المتضمن لأعمال القلوب والجوارح، وهو هذا الاعتبار يدخل فيه الإسلام،

(٢) في ب: قال له.

وتدخل فيه الأعمال الصالحة كلها، فهي من الإيمان وأثر من آثاره، فحيث أطلق الإيمان دخل فيه ما ذكر، وكذلك الإسلام، إذا أطلق دخل فيه الإيمان، فإذا قرن بينهما، كان الإيمان اسماً لما في القلب من الإقرار والتصديق، والإسلام اسماً للأعمال الظاهرة وكذلك إذا جمع بين الإيمان والأعمال الصالحة. فقله تعالى: ﴿قولوا﴾ أي: بالستكم متواطئة عليها قلوبكم، وهذا هو القول التام المترتب عليه الثواب والجزاء، فكما أن النطق باللسان بدون اعتقاد القلب، نفاق وكفر، فالقول الخالي من العمل عقل كان العبد يؤجر عليه، إذا كان خيراً ومعه أصل الإيمان، لكن فرق بين القول المجرد والمقترن به عمل القلب.

وفي قوله: ﴿قولوا﴾ إشارة إلى الإعلان بالعقيدة، والصدع بها والدعوة لها، إذ هي أصل الدين وأساسه.

وفي قوله: ﴿آمناً﴾ ونحوه مما فيه صدور الفعل منسوباً إلى جميع الأمة إشارة إلى أنه يجب على الأمة، الاعتصام بجبل الله جميعاً والحث على الائتلاف، حتى يكون داعيهم واحداً، وعملهم متحداً، وفي ضمنه النهي عن الافتراق، وفيه أن المؤمنين كالجسد الواحد.

وفي قوله: ﴿قولوا آمنا بالله﴾ الخ، دلالة على جواز إضافة الإنسان إلى نفسه الإيمان على وجه التقيد، بل على وجوب ذلك، بخلاف قوله: ﴿أنا مؤمن﴾ ونحوه، فإنه لا يقال إلا مقروناً بالاستثناء بالمشيئة لما فيه من تزكية النفس، والشهادة على نفسه بالإيمان.

فقوله: ﴿آمناً بالله﴾ أي: بأنه موجود، واحد أحد، متصف بكل صفة كمال، منزّه عن كل نقص وعيب، مستحق لإفراذه بالعبادة كلها، وعدم الإشراك به في شيء منها، بوجه من الوجوه.

شقاق فيسكفيهم الله وهو السميع العليم» أي: فإن آمن أهل الكتاب بمثل ما آمنتم به - يا معشر المؤمنين - من جميع الرسل وجميع الكتب، الذين أول من دخل فيهم، وأولى خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ والقرآن، وأسلموا الله وحده، ولم يفرقوا بين أحد من رسل الله «فقد اهتدوا» للصراط المستقيم، الموصل لجنات النعيم، أي: فلا سبيل لهم إلى الهداية إلا بهذا الإيمان، لا كما زعموا بقولهم: «كونوا يهوداً أو نصارى تهتدوا» فزعموا أن الهداية خاصة بما كانوا عليه، «والهدى» هو العلم بالحق والعمل به، وضده الضلال عن العلم والضلال عن العمل بعد العلم، وهو الشقاق الذي كانوا عليه، لما تولوا وأعرضوا، فالمشاق: هو الذي يكون في شق، والله ورسوله في شق، ويلزم من المشاقة المحادة، والعداوة البليغة، التي من لوازمها بذل ما يقدرون عليه من أذية الرسول، فلهذا وعد الله رسوله أن يكفيه إياهم، لأنه السميع لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، العليم بما بين أيديهم وما خلفهم، بالغيب والشهادة، بالظواهر والبواطن، فإذا كان كذلك، فكفك الله شرهم.

وقد أنجز الله لرسوله وعده، وسلطه عليهم حتى قتل بعضهم، وسبى بعضهم، وأجل بعضهم، وشردهم كل مشرد.

ففيه معجزة من معجزات القرآن، وهو الإخبار بالشيء قبل وقوعه، فوقع طبق ما أخبر.

﴿١٣٨﴾ «صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون» أي: الزموا صبغة الله، وهو دينه، وقوموا به قياماً تاماً بجميع أعماله الظاهرة والباطنة، وجميع عقائده في جميع الأوقات، حتى يكون لكم صبغة وصفة من صفاتكم، فإذا كان صفة من صفاتكم، أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره، طوعاً واختياراً ومجبة، وصار الدين طبيعة لكم بمنزلة الصبغ التام

عليهم الكتب، ويرسل إليهم الرسل، فلا تقتضي ربوبيته تركهم سدئ ولا هملاً.

وإذا كان ما أوتي النبيون إنما هو من ربهم، ففيه الفرق بين الأنبياء وبين من يدعي النبوة، وأنه يحصل الفرق بينهم بمجرد معرفة ما يدعون إليه، فالرسل لا يدعون إلا الخير، ولا ينهون إلا عن كل شر، وكل واحد منهم ينصدق الآخر ويشهد له بالحق، من غير تحالف ولا تناقض لكونه من عند ربهم «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً».

وهذا بخلاف من ادعى النبوة، فلا بد أن يتناقضوا في أخبارهم وأوامرهم ونواهيهم، كما يعلم ذلك من سير أحوال الجميع وعرف ما يدعون إليه.

فلما بين تعالى جميع ما يؤمن به، عموماً وخصوصاً، وكان القول لا يغني عن العمل، قال: «ونحن له مسلمون» أي: خاضعون لعظمته، متقادون لعبادته بباطننا وظاهرنا، مخلصون له العبادة بدليل تقديم المعمول، وهو «له» على العامل، وهو «مسلمون».

فقد اشتملت هذه الآية الكريمة - على إيجازها واختصارها - على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، واشتملت على الإيمان بجميع الرسل وجميع الكتب، وعلى تخصيص الدال على الفضل بعد التعميم، وعلى التصديق بالقلب واللسان والجوارح والإخلاص لله في ذلك، وعلى الفرق بين الرسل الصادقين، ومن ادعى النبوة من الكاذبين، وعلى تعليم الباري عباده كيف يقولون، ورحمته وإحسانه عليهم بالنعم الدينية المتصلة بسعادة الدنيا والآخرة، فسبحان من جعل كتابه تبياناً لكل شيء، وهدياً ورحمة لقوم يؤمنون.

﴿١٣٧﴾ «فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في

﴿وما أنزل إلينا﴾ يشمل القرآن والسنة لقوله تعالى: «وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة» فيدخل فيه الإيمان بما تضمنته كتاب الله وسنة رسوله، من صفات الباري، وصفات رسله، واليوم الآخر، والغيب الماضية والمستقبلية، والإيمان بما تضمنته ذلك من الأحكام الشرعية الأمرية، وأحكام الجزاء وغير ذلك.

﴿وما أنزل إلى إبراهيم﴾ إلى آخر الآية، فيه الإيمان بجميع الكتب المنزلة على جميع الأنبياء، والإيمان بالأنبياء عموماً، وخصوصاً ما نص عليه في الآية لشرفهم، ولإيمانهم بالشرائع الكبار فالواجب في الإيمان بالأنبياء والكتب أن يؤمن بهم على وجه العموم والشمول، ثم ما عرف منهم بالتفصيل، وجب الإيمان به مفصلاً.

وقوله: «لا نفرق بين أحد منهم» أي: بل نؤمن بهم كلهم، هذه خاصية المسلمين التي انفردوا بها عن كل من يدعي أنه على دين.

فاليهود والنصارى والصابئون وغيرهم - وإن زعموا أنهم يؤمنون بما يؤمنون به من الرسل والكتب - فإنهم يكفرون بغيره، فيفرقون بين الرسل والكتب، بعضها يؤمنون به، وبعضها يكفرون به، وينقض تكذيبهم تصديقهم، فإن الرسول الذي زعموا أنهم قد آمنوا به، قد صدق سائر الرسل وخصوصاً محمد ﷺ، فإذا كذبوا محمداً، فقد كذبوا رسولهم فيما أخبرهم به، فيكون كفراً برسولهم.

وفي قوله: «وما أوتي النبيون من ربهم» دلالة على أن عطية الدين هي العطية الحقيقية المتصلة بالسعادة الدنيوية والأخروية. لم يأمرنا أن نؤمن بما أوتي الأنبياء من الملك والمال ونحو ذلك، بل أمرنا أن نؤمن بما أعطوا من الكتب والشرائع.

وفيه أن الأنبياء مبلغون عن الله، ووسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ دينه، ليس لهم من الأمر شيء.

وفي قوله: «من ربهم» إشارة إلى أنه من كمال ربوبيته لعباده أن ينزل

أنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون ﴿١٣٨﴾ وهذه دعوى أخرى منهم، ومحاجة في رسل الله، زعموا أنهم أولى بهؤلاء الرسل المذكورين من المسلمين.

فرد الله عليهم بقوله: ﴿أأنتم أعلم أم الله﴾ فالله يقول: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾ وهم يقولون: بل كان يهودياً أو نصرانياً.

فلماذا أن يكونوا هم الصادقين العالمين، أو يكون الله تعالى هو الصادق العالم بذلك، فأحد الأمرين متعين لا محالة، وصورة الجواب مبهم، وهو في غاية الوضوح والبيان، حتى إنه من وضوحه لم يحتاج أن يقول بل الله أعلم وهو أصدق، ونحو ذلك، لانجلائه لكل أحد، كما إذا قيل: الليل أنور، أم النهار؟ والنار أحر أم الماء؟ والشرك أحسن أم التوحيد؟ ونحو ذلك.

وهذا يعرفه كل من له أدنى عقل، حتى إنهم بأنفسهم يعرفون ذلك، ويعرفون أن إبراهيم وغيره من الأنبياء لم يكونوا يهوداً ولا نصارى، فكتموا هذا العلم وهذه الشهادة، فلهذا كان ظلمهم أعظم الظلم. ولهذا قال تعالى: ﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله﴾ فهي شهادة عندهم، مودعة من الله، لا من الخلق، فيقتضي الاهتمام بإقامتها، فكتموها وأظهروا ضدها، جمعوا بين كتم الحق وعدم النطق به، وإظهار الباطل والدعوة إليه، أليس هذا أعظم الظلم؟ بل والله، وسيعاقبهم عليه أشد العقوبة، فلهذا قال: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ بل قد أحصى أعمالهم وعذبا وأخبر لهم جزاءها، فيس الجزاء جزاؤهم، ونسبت النار مثوى للظالمين، وهذه طريقة القرآن في ذكر العلم والقدرة، عقب الآيات المتضمنة للأعمال التي يجازى عليها.

فيفيد ذلك الوعد والوعيد،

وقال: ﴿ونحن له عابدون﴾ فوصفهم باسم الفاعل الدال على الثبوت والاستقرار ليدل على اتصافهم بذلك وكونه صار صيغة لهم ملازماً.

﴿١٣٩﴾ قل أتخاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون ﴿المحاجة﴾ هي المجادلة بين اثنين فأكثر، تتعلق في المسائل الخلافية، حتى يكون كل من الخصمين يريد نصرة قوله وإبطال قول خصمه، فكل واحد منهما يجتهد في إقامة الحجة على ذلك، والمطلوب منها أن تكون بالتي هي أحسن، بأقرب طريق يرد الضال إلى الحق، ويقسم الحجة على المعاند، ويوضح الحق ويبين الباطل، فإن خرجت عن هذه الأمور، كانت عماراة وتخاصمة لا خير فيها، وأحدثت من الشر ما أحدثت، فكان أهل الكتاب يزعمون أنهم أولى بالله من المسلمين، وهذا مجرد دعوى تفتقر إلى برهان ودليل. فإذا كان رب الجميع واحداً، ليس رباً لكم دوننا، وكل منا ومنكم له عمله، فاستوتنا نحن وإياكم بذلك، فهذا لا يوجب أن يكون أحد الفريقين أولى بالله من غيره؛ لأن التفريق مع الاشتراك في الشيء من غير فرق مؤثر دعوى باطلة، وتفرق بين متمثلين، ومكابرة ظاهرة، وإنما يحصل التفضيل بإخلاص الأعمال الصالحة لله وحده، وهذه الحالة وصف المؤمنين وحدهم، فتعين أنهم أولى بالله من غيرهم؛ لأن الإخلاص هو الطريق إلى الإخلاص، فهذا هو الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، بالأوصاف الحقيقية التي يسلمها أهل العقول، ولا يتنازع فيها إلا كل مكابر جهول، ففي هذه الآية إرشاد لطيف لطريق المحاجة، وأن الأمور مبنية على الجمع بين المتمثلين، والفرق بين المختلفين.

﴿١٤٠﴾ أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا يهوداً أو نصارى قل

للثوب الذي صار له صفة، فحصلت لكم السعادة الدنيوية والأخروية، لحث الدين على مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ومعالي الأمور، فلهذا قال - على سبيل التعجيب المنقحر للعقول الزكية -: ﴿ومن أحسن من الله صيغة﴾ أي: لا أحسن صيغة من صيغته^(١).

وإذا أردت أن تعرف نموذجاً يبين لك الفرق بين صيغة الله وبين غيرها من الصيغ، فقس الشيء بضده، فكيف ترى في عبد آمن بربه إيماناً صحيحاً، أثر معه خضوع القلب وانقياد الجوارح، فلم يزل يتحلى بكل وصف حسن، وفعل جميل، وخلق كامل، ونعت جليل، ويتحلى من كل وصف قبيح، ورذيلة وعيب، فوَصَفَهُ: الصادق في قوله وفعله، والصبر والحلم، والعفة، والشجاعة، والإحسان القوي والفعل، ومحبة الله وخشيته، وخوفه ورجاؤه، فجعله الإخلاص للمعبود، والإحسان لعبده، فقسه بعيد كفر بربه وشره عنه، وأقبل على غيره من المخلوقين فانصف بالصفات القبيحة، من الكفر، والشرك، والكذب، والخيانة، والمكر، والخذاع، وعدم العفة، والإساءة إلى الخلق في أقواله وأفعاله، فلا إخلاص للمعبود، ولا إحسان إلى عبده.

فإنه يظهر لك الفرق العظيم بينهما، ويتبين لك أنه لا أحسن صيغة من صيغة الله، وفي ضمنه أنه لا أقيس صيغة من انصغ بغير دينه.

وفي قوله: ﴿ونحن له عابدون﴾ بيان لهذه الصيغة، وهي القيام بهذين الأصلين: الإخلاص والتابعة، لأن «العبادة»: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال، والأقوال الظاهرة والباطنة، ولا تكون كذلك حتى يشرعها الله على لسان رسوله، والإخلاص: أن يقصد العبد وجه الله وحده في تلك الأعمال، فتقديم المعمول يؤذن بالخصر.

(١) كذا في ب، وفي أ: من صيغة.

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ أي: عدلاً خياراً، وما عدا الوسط فاطراف داخلة تحت الخطر، فجعل الله هذه الأمة وسطاً في كل أمور الدين، وسطاً في الأئبياء، بين من غلا فيهم كالنصارى، وبين من جفاهم كاليهود، بأن آمنوا بهم كلهم على الوجه اللائق بذلك، ووسطاً في الشريعة لا تشديدات اليهود وآصارهم، ولا تهاون النصارى.

وفي باب الطهارة والمطاعم، لا كاليهود الذين لا تصح لهم صلاة إلا في بيعهم وكنائسهم، ولا يظهرون الماء من النجاسات، وقد حرمت عليهم طيبات عقوبة لهم، ولا كالنصارى الذين لا ينحسون شيئاً، ولا يحرمون شيئاً، بل أباحوا ما دبر ودرج.

بل طهارتهم أكمل طهارة وأتها، وأباح الله لهم الطيبات من المطاعم والمشارب والملابس والمناكب، وحرّم عليهم الخبائث من ذلك، فلهذه الأمة من الدين أكملته، ومن الأخلاق أجملها، ومن الأعمال أفضلها.

ووهبهم الله من العلم والحلم والعدل والإحسان، ما لم يهبه لأمة سواهم، فلذلك كانوا «أمة وسطاً» [كاملين] ليكنوا «شهداء على الناس» بسبب عدالتهم وحكمهم بالقسط، يحكمون على الناس من سائر أهل الأديان، ولا يحكم عليهم غيرهم، فما شهدت له هذه الأمة بالقبول فهو مقبول، وما شهدت له بالرد فهو مردود، فإن قيل: كيف يقبل حكمهم على غيرهم، والحال أن كل مختصم غير مقبول قول بعضهم على بعض؟ قيل: إنما لم يقبل قول أحد المتخاصمين لوجود التهمة، فأما إذا انتفت التهمة، وحصلت العدالة التامة كما في هذه الأمة، فإنما المقصود الحكم بالعدل والحق، وشرط ذلك العلم والعدل، وهما موجودان في هذه الأمة، فقبل قولها.

فإن شكك في فضلها، وطلب مركزاً لها فهو أكمل الخلق نبهم ﷺ، فلهذا قال تعالى: ﴿ويكون الرسول

مصدر هذا الكلام، فالعاقل لا يبالي باعتراض السفه، ولا يلقي له ذهنه. ودلت الآية على أنه لا يعترض على أحكام الله إلا سفه جاهل معاند، وأما الرشيد المؤمن العاقل، فيتلقى أحكام ربه بالقبول والانقياد والتسليم، كما قال تعالى: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم» الآية، «إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا» وقد كان في قوله «السفهاء» ما يغني عن رد قولهم وعدم المبالاة به.

ولكنه تعالى مع هذا لم يترك هذه الشبهة، حتى أزالها وكشفها عما سيعرض لبعض القلوب من الاعتراض، فقال تعالى: ﴿قل لهم مجيباً: «الله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم» أي: فإذا كان المشرق والمغرب ملكاً لله، ليس جهة من الجهات خارجة عن ملكه، ومع هذا يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ومنه هدايتكم إلى هذه القبلية التي هي من ملة أبيكم إبراهيم، فلا شيء يعترض المعترض بتوليتكم قبله داخلة تحت ملك الله، لم تستقبلوا جهة ليست ملكاً له؟ فهذا يوجب التسليم لأمره بمجرد ذلك، فكيف وهو من فضل الله عليكم، وهدايته وإحسانه أن هداكم لذلك، فالمعترض عليكم، معترض على فضل الله خسداً لكم وبغياً.

ولما كان قوله: ﴿يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ والمطلق يحمل على المقيد، فإن الهداية والضلال لهما أسباب أوجبتها حكمة الله وعدله، وقد أخبر في غير موضع من كتابه بأسباب الهداية، التي إذا أتى بها العبد حصل له الهدى، كما قال تعالى: ﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام﴾ ذكر في هذه الآية السبب الموجب لهداية هذه الأمة مطلقاً بجميع أنواع الهداية، ومنه الله عليها، فقال:

والترغيب والترهيب، ويفيد أيضاً ذكر الأسماء الحسنی بعد الأحكام، أن الأمر الديني والجزائي أثر من آثارها، وموجب من موجباتها، وهي مقتضية له.

﴿١٤١﴾ ثم قال تعالى: ﴿تلك أمة قد خلت لهما ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ تقدم تفسيرها، وكررها لقطع التعلق بالمخلوقين، وأن المول عليه ما اتصف به الإنسان، لا عمل أسلافه وأبائه، فالنفع الحقيقي بالأعمال، لا بالانتساب المجرد للرجال.

﴿١٤٢-١٤٣﴾ «سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل الله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم» وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً» قد اشتملت الآية الأولى على: معجزة، وتسليية، وتطمين قلوب المؤمنين، واعتراض، وجوابه من ثلاثة أوجه، وصفة المعترض، وصفة المسلم لحكم الله ودينه.

فأخبر تعالى أنه سيعترض السفهاء من الناس وهم الذين لا يعرفون مصالح أنفسهم، بل يضيعونها ويبيعونها بأبخس ثمن، وهم اليهود والنصارى، ومن أشبههم من المعترضين على أحكام الله وشرائعه، وذلك أن المسلمين كانوا مأمورين باستقبال بيت المقدس مدة مقامهم بمكة، ثم بعد الهجرة إلى المدينة، نحو سنة ونصف - لما لله تعالى في ذلك من الحكم التي يشير إلى بعضها، وكانت حكمته تقتضي أمرهم باستقبال الكعبة، فأخبرهم أنه لا بد أن يقول السفهاء من الناس: «ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها» وهي استقبال بيت المقدس، أي: أي شيء صرفهم عنه؟ وفي ذلك الاعتراض على حكم الله وشرعه وفضله وإحسانه، فسلاهم وأخبر بوقوعه، وأنه إنما يقع ممن اتصف بالسفه قليل العقل والحلم والديانة، فلا تبالوا بهم؛ إذ قد علم

عليكم شهيداً

ومن شهادة هذه الأمة على غيرهم أنه إذا كان يوم القيامة وسأل الله المرسلين عن تبليغهم، والأسم المكدبة عن ذلك، وأنكروا أن الأنبياء بلغتهم، استشهدت الأنبياء بهذه الأمة، وزكاهما نبيها.

وفي الآية دليل على أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة، وأنهم معصومون عن الخطأ، لإطلاق قوله: ﴿وسطاً﴾ فلو قدر اتفاقهم على الخطأ لم يكونوا وسطاً إلا في بعض الأمور، ولقوله: ﴿ولتكونوا شهداء على الناس﴾ يقتضي أنهم إذا شهدوا على حكم أن الله أحله أو حرمه أو أوجبه، فإنها معصومة في ذلك. وفيها اشتراط العدالة في الحكم والشهادة والفتيا، ونحو ذلك.

﴿١٤٣﴾ يقول تعالى: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلمن من يتبع الرسول من ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ يقول تعالى: ﴿وما جعلنا القبلة التي كتبت عليها﴾ وهي استقبال بيت المقدس أولاً، ﴿إلا لنعلم﴾ أي: علماً يتعلق به الثواب والعقاب، وإلا فهو تعالى عالم بكل الأمور قبل وجودها.

ولكن هذا العلم لا يعلق عليه ثواباً ولا عقاباً، لتنام عدله وإقامة الحجة على عباده، بل إذا وجدت أعمالهم ترتب عليها الثواب والعقاب، أي: شرعنا تلك القبلة لنعلم ونمتحن من يتبع الرسول ويؤمن به، فيتبعه على كل حال، لأنه عبد مأمور مندب، ولأنه قد أخبرت الكتب المتقدمة أنه يستقبل الكعبة، فالمنصف الذي مقصوده الحق، مما يزيده ذلك إيماناً وطاعة للرسول.

وأما من انقلب على عقبيه، وأعرض عن الحق واتبع هواه، فإنه يزداد كفراً إلى كفره، وحيرة إلى حيرته، ويدلي بالحجة الباطلة، المبنية على شبهة لا حقيقة لها.

﴿وإن كانت﴾ أي: صرفك عنها

﴿لكبيرة﴾ أي: شاقة ﴿إلا على الذين هدى الله﴾ فعرفوا بذلك نعمة الله عليهم، وشكروا وأقروا له بالإحسان حيث وجههم إلى هذا البيت العظيم، الذي فضله على سائر الأرض، وجعل قصده ركناً من أركان الإسلام، وهادماً للذنوب والآثام، فلهذا خف عليهم ذلك، وشق على من سواهم.

ثم قال تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ أي: ما ينبغي له ولا يليق به تعالى، بل هي من الممتنعات عليه، فأخبر أنه ممتنع عليه ومستحيل أن يضيع إيمانكم، وفي هذا بشارة عظيمة لمن آمن بالله عليهم بالإسلام والإيمان، بأن الله سيحفظ عليهم إيمانهم فلا يضيعه، وحفظه نوعان:

حفظ عن الضياع والبطالان بعصمته ليهن عن كل مفسد ومزيل له ومنقص من المحن المقلقة، والأهواء الصادة، وحفظ له بتنميته لهم، وتوفيقهم لما يزداد به إيمانهم، ويتم به إيقانهم، فكما ابتدأكم بأن هداكم للإيمان، فسبحفظه لكم، ويتم نعمته بتنميته وتنمية أجره وثوابه، وحفظه من كل مكدر، بل إذا وجدت المحن التي المقصود منها تبيين المؤمن الصادق من الكاذب، فإنها تمحص المؤمنين وتظهر صدقهم، وكأن في هذا احترازاً عما يقال إن قوله: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلمن من يتبع الرسول من ينقلب على عقبيه﴾ قد يكون سبباً لترك بعض المؤمنين إيمانهم، فدفع هذا الوهم بقوله: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ بتقديره لهذه المحنة أو غيرها.

ودخل في ذلك من مات من المؤمنين قبل تحويل الكعبة، فإن الله لا يضيع إيمانهم، لكونهم امتثلوا أمر الله وطاعة رسوله في وقتها، وطاعة الله أمثال أمره في كل وقت بنحسب ذلك، وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان تدخل فيه أعمال الجوارح.

وقوله: ﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ أي: شديد الرحمة بهم

عظيمها، فمن رآفته ورحمته بهم أن يتم عليهم نعمته التي ابتدأهم بها، وأن ميّز عنهم من دخل في الإيمان بلسانه دون قلبه، وأن امتحنهم امتحاناً زاد به إيمانهم، وارتفعت به درجتهم، وأن وجههم إلى أشرف البيوت، وأجلها.

﴿١٤٤﴾ ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون﴾ يقول الله لنبيه: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾ أي: كثرة تردده في جميع جهاته، شرقاً وانتظاراً لنزول الوحي باستقبال الكعبة، وقال: ﴿وجهك﴾ ولم يقل: «بضرك» لزيادة اهتمامه، ولأن تقلب الوجه مستلزم لتقلب البصر.

﴿فلنولينك﴾ أي: نوجهك لولائتنا إياك، ﴿قبلة ترضاها﴾ أي: تحبها وهي الكعبة، وفي هذا بيان لفضله وشرفه ﷺ، حيث إن الله تعالى يسارع في رضا، ثم صرح له باستقبالها فقال: ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ والوجه: ما أقبل من بدن الإنسان، ﴿وحيثما كنتم﴾ أي: من بر وبحر، شرق وغرب، جنوب وشمال ﴿فولوا وجوهكم شطره﴾ أي: جهته.

ففيها اشتراط استقبال الكعبة للصلوات كلها، فرضها وتقبلها، وأنه إن أمكن استقبال عنها، وإلا فيكفي شطرها وجهتها، وأن الالتفات بالبدن مبطل للصلاة، لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده، ولما ذكر تعالى فيما تقدم المعترضين على ذلك من أهل الكتاب وغيرهم، وذكر جوابهم، ذكر هنا أن أهل الكتاب والعلم منهم يعلمون أنك في ذلك على حق وأمر، لما يجدونه في كتبهم، فيعترضون عناداً ونيحاً، فإذا كانوا يعلمون بخطئهم فلا تبالوا بذلك، فإن الإنسان إنما يعنه اعتراض من اعترض عليه، إذا كان الأمر مشتبهاً، وكان ممكناً أن يكون معه صواب.

ذلك منه، ولم يقل: «ولو أتوا بكل آية» لأنهم لا دليل لهم على قولهم. وكذلك إذا تبين الحق بأدلة اليقينية، لم يلزم الإتيان بأجوبة الشبه الواردة عليه، لأنه لا حد لها، ولأنه يعلم بطلانها، للعلم بأن كل ما نافي الحق الواضح فهو باطل، فيكون حل الشبه من باب التبرع.

«ولئن اتبعت أهواءهم» إنما قال:

«أهواءهم» ولم يقل «دينهم» لأن ما هم عليه مجرد أهوية^(١) نفس، حتى هم في قلوبهم يعلمون أنه ليس بدين، ومن ترك الدين اتبع الهوى ولا محالة، قال تعالى: «أفرأيت من اتخذ إلهه هواه»

«من بعد ما جاءك من العلم» بأنك على الحق، وهم على الباطل، «إنك إذا» أي: إن اتبعهم، فهذا احتراز لئلا تفصل هذه الجملة عما قبلها، ولو في الأفهام، «لمن الظالمين» أي: داخل فيهم، ومندرج في جملتهم، وأي: ظلم أعظم من ظلم من علم الحق والباطل، فأتى الباطل على الحق، وهذا وإن كان الخطاب له ﷺ، فإن أمته داخله في ذلك، وأيضاً فإذا كان هو ﷺ لو فعل ذلك - وحاشاه - صار ظالماً مع علو مرتبته، وكثرة حسناته^(٢)، فغيزه من باب أولى وأحرى.

«١٤٦ - ١٤٧» ثم قال تعالى: «الذين أتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكنتمون الحق وهم يعلمون» الحق من ربك فلا تكونن من الممترين

يخبر تعالى أن أهل الكتاب قد تقرر عندهم وعرفوا أن محمداً رسول الله، وأن ما جاء به حق وصدق، وتيقنوا ذلك كما تيقنوا أبناءهم بحيث لا يشبهون عليهم بغيرهم، فمعرفة بمحمد ﷺ، وصلت إلى حد لا يشكون فيه ولا يمترون، لكن فريقاً منهم - وهم أكثرهم - الذين كفروا به، كتبوا هذه الشهادة مع تيقنهم، وهم يعلمون «ومن أظلم ممن

فأما إذا تيقن أن الصواب والحق مع المعارض عليه، وأن المعارض معاند، عازف ببطلان قوله، فإنه لا محل للمبالاة، بل ينتظر بالمعارض العقوبة الدنيوية والأخرية، فلماذا قال تعالى: «وما الله بغافل عما يعملون» بل يحفظ عليهم أعمالهم، ويمجازيهم عليها، وفيها وعيد للمعارضين، وتسلية للمؤمنين.

«١٤٥» «ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين» كان النبي ﷺ من كمال حرصه على هداية الخلق ببذل لهم غاية ما يقدر عليه من النصيحة، ويتلطف بهديتهم، ويحزن إذا لم يتقادوا لأمر الله، فكان من الكفار من تمرد عن أمر الله واستكبر على رسل الله، وترك الهدى عمداً وعدواناً، فمنهم: اليهود والنصارى، أهل الكتاب الأول، الذين كفروا بمحمد ﷺ عن يقين لا عن جهل، فلهذا أخبره الله تعالى أنك لو «أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية» أي: بكل برهان ودليل يوضح قولك، «وبين ما تدعو إليه» ما تبعوك، لأن اتباع القبلة دليل على اتباعه، ولأن السبب هو شأن القبلة، وإنما كان الأمر كذلك لأنهم معاندون، عرفوا الحق وتركوه، فالآيات إنما تفيد وينفع بها من يتطلب الحق وهو مشتبه عليه، فتوضح له الآيات البينات، وأما من جزم بعدم اتباع الحق فلا حيلة فيه.

وأيضاً فإن اختلافهم فيما بينهم حاصل، وبعضهم غير تابع قبلة بعض، فليس بغريب منهم مع ذلك أن لا يتبعوا قبلتك يا محمد، وهم الأعداء حقيقة الحسدة، وقوله: «وما أنت بتابع قبلتهم» أبلغ من قوله: «ولا تتبع» لأن ذلك يتضمن أنه ﷺ اتصف بمخالفتهم، فلا يمكن وقوع



كنتم شهادة عنده من الله» وفي ضمن ذلك تسلية للرسول والمؤمنين: وتحذير لهم من شرهم وشبههم، وفريق منهم لم يكتسبوا الحق وهم يعلمون، فمنهم من آمن [به] ومنهم من كفر [به] جهلاً، فالعالم عليه إظهار الحق وتبيينه وتزيينه، بكل ما يقدر عليه من عبارة وبرهان ومثال، وغير ذلك، وإبطال الباطل وتمييزه عن الحق، وتشيينه وتقييحه للنفس، بكل طريق مؤد لذلك، فهؤلاء الكاظمون عكسوا الأمر، فانعكست أحوالهم.

«الحق من ربك» أي: هذا الحق الذي هو أحق أن يسمى حقاً من كل شيء، لما اشتمل عليه من المطالب العالية والأوامر الحسنة، وتركبة النفوس وحنها غلى تحصيل مصالحها ودفع مفاسدها، لصدوره من ربك، الذي من جملة تربيته لك أن أنزل عليك هذا القرآن الذي فيه تربية العقول والنفس، وجميع المصالح.

«فلا تكونن من الممترين» أي: فلا يحصل لك أدنى شك وريبة فيه، بل تفكر فيه وتأمل حتى تصل بذلك إلى اليقين، لأن التفكير فيه لا محالة دافع للشك، موصل لليقين.

«١٤٨» «ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أين ما تكونوا يأت

احتجاج الناس من أهل الكتاب والمشركون، فإنه لو بقي مستقبل بيت المقدس لتوجهت عليه الحجة، فإن أهل الكتاب يجحدون في كتابهم أن قبلته المستقرة هي الكعبة البيت الحرام، والمشركون يرون أن من مفاخرهم هذا البيت العظيم وأنه من ملة إبراهيم وأنه إذا لم يستقبله محمد ﷺ، توجهت نحوه حججهم، وقالوا: كيف يدعي أنه على ملة إبراهيم، وهو من ذريته، وقد ترك استقبال قبلته؟

فباستقبال الكعبة^(٢) قامت الحجة على أهل الكتاب والمشركون، وانقطعت حججهم عليه.

إلا ما ظلم منهم، أي: من احتج منهم بحجة هو ظالم فيها، وليس لها مستند إلا اتباع الهوى والظلم، فهذا لا سبيل إلى إقناعه والاحتجاج عليه، وكذلك لا معنى لجعل الشبهة التي يوردونها على سبيل الاحتجاج محلاً يؤبه لها، ولا يلقي لها بال، فلماذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْشَوْهُمْ﴾ لأن حججتهم باطلة، والباطل كاسمه مخذول، مخذول صاحبه، وهذا بخلاف صاحب الحق، فإن للحق صولة وعزاً، يوجب خشية من هو معه، وأمر تعالى بخشيته التي هي أصل^(٣) كل خير، فمن لم يخش الله لم ينكف عن معصيته، ولم يمثل أمره.

وكان صرف المسلمين إلى الكعبة مما حصلت فيها فتنة كبيرة، أشاعها أهل الكتاب والمنافقون والمشركون، وأكثروا فيها من الكلام والشبه، فلماذا بسطها الله تعالى وبينها أكمل بيان، وأكدها بأنواع من التأكيدات التي تضمنتها هذه الآيات.

منها: الأمر بها ثلاث مرات مع كفاية المرة الواحدة، ومنها: أن المعهود، أن الأمر إما أن يكون للرسول، فتدخل فيه الأمة تبعاً، أو للأمة عموماً، وفي هذه الآية أمر فيها الرسول بالخصوص في قوله: ﴿فَوَلِّهَا﴾ وجعلها: والأمة عموماً في قوله: ﴿فَوَلُّوا﴾ وجعلها.

المسارعة إلى الخير وينشطها، ما رتب الله عليها من الثواب، قال: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً﴾ إن الله على كل شيء قدير، فيجمعكم ليوم القيامة بقدرته، فيجازي كل عامل بعمله، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

ويستدل هذه الآية الشريفة على الإتيان بكل فضيلة يتصف بها العمل، كالصلاة في أول وقتها، والمبادرة إلى إبراء الذمة من الصيام والحج، والعمرة، وإخراج الزكاة، والإتيان بسنن العبادات وأدائها، فله ما أجمعها وأنفعها من آية!!

﴿١٤٩ - ١٥٠﴾ «ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون» * ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تحشوهم واخشوني ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون» أي: «ومن حيث خرجت» في أسفارك وغيرها، وهذا للعموم «فول وجهك شطر المسجد الحرام» أي: جهته.

ثم خاطب الأمة عموماً، فقال: ﴿وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ وقال: ﴿وإنه للحق من ربك﴾ أكدته بـ «إن» واللام، لئلا يقع لأحد فيه أدنى شبهة، ولئلا يظن أنه على سبيل التشبيهي لا الامتثال.

﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ بل هو مطلع عليكم في جميع أحوالكم، فتأدبوا معه، وراقبوه بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإن أعمالكم غير مغفول عنها، بل مجازون عليها أتم الجزاء، إن خيراً فخير وإن شراً فشر. وقال هنا: «لئلا يكون للناس عليكم حجة» أي: شرعنا لكم استقبال الكعبة المشرفة، لينقطع عنكم



بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير. أي: كبل أهل دين وملة له وجهة يتوجه إليها في عبادته، وليس الشأن في استقبال القبلة، فإنه من الشرائع التي تتغير بها الأزمنة والأحوال، ويدخلها النسخ والنقل من جهة إلى جهة، ولكن الشأن كل الشأن في امتثال طاعة الله والتقرب إليه، وطلب الزلفى عنده، فهذا هو عنوان السعادة ومنشور الولاية، وهو الذي إذا لم تتصف به النفوس، حصلت لها خسارة الدنيا والآخرة، كما أنها إذا اتصفت به فهي الرابحة على الحقيقة، وهذا أمر متفق عليه في جميع الشرائع، وهو الذي خلق الله له الخلق وأمرهم به.

والأمر بالاستباق إلى الخيرات قدر زائد على الأمر بفعل الخيرات، فإن الاستباق إليها يتضمن فعلها وتكميلها، وإيقاعها على أكمل الأحوال، والمبادرة إليها، ومن سبق في الدنيا إلى الخيرات، فهو السابق في الآخرة إلى الجنات، فالسابقون أعلى الخلق درجة، والخيرات تشمل جميع الفرائض والنوافل، من صلاة وصيام وزكوات^(١) وحج وعمرة وجهاد، ونفع متعد وقاصر.

ولما كان أقوى ما يحث النفوس على

(١) في ب: وزكاة.

(٢) في ب: القبلة.

(٣) في ب: رأس.

ومنها: أنه رد فيه جميع الاحتجاجات الباطلة التي أوردها أهل العناد، وأبطلها شبهة شبهة كما تقدم توضيحها، ومنها: أنه قطع الأطماع من اتباع الرسول قبله أهل الكتاب، ومنها قوله: «وإنه للحق من ربك» فمجرد إخبار الصادق العظيم كاف شاف، ولكن مع هذا قال: «وإنه للحق من ربك»

ومنها: أنه أخبر - وهو العالم بالخفيات - أن أهل الكتاب متقرر عندهم صحة هذا الأمر، ولكنهم يكتُمون هذه الشهادة مع العلم.

ولما كان توليته لنا إلى استقبال القبلة نعمة عظيمة، وكان لطفه بهذه الأمة ورحمته لم يزل يتزايد، وكلما شرع لهم شريعة فهي نعمة عظيمة، قال: «ولا تُم نعمتي عليكم»

فأصل النعمة الهداية لدينه، بإرسال رسوله وإنزال كتابه، ثم بعد ذلك، النعم المتممات لهذا الأصل، لا تعد كثرة ولا تحصر، منذ بعث الله رسوله إلى أن قرب رحيله من الدنيا، وقد أعطاه الله من الأحوال والنعم، وأعطى أمته، ما أتم به نعمته عليه وعليهم، وأنزل الله عليه: «اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً».

فلله الحمد على فضله، الذي لا نبلغ له عدأً، فضلاً عن القيام بشكره، «ولعلكم مهتدون» أي: تعلمون الحق وتعملون به، فالله تبارك وتعالى - من رحمته - بالعباد، قد يسر لهم أسباب الهداية غاية التيسير، ونههم على سلوك طرقها، وبينها لهم أتم تبين حتى إن من جملة ذلك أنه يقيض للحق المعاندين له فيجادلون فيه، فيتضح بذلك الحق، وتظهر آياته وأعلامه، ويتضح بطلان الباطل، وأنه لا حقيقة له، ولولا قيامه في مقابلة الحق، لربما لم يتبين حاله لأكثر الخلق، وبضدها تبين الأشياء، فلولا الليل ما عرف فضل النهار، ولولا القبيح ما عرف فضل الحسن، ولولا الظلمة ما عرف منفعة النور، ولولا الباطل ما

اتضح الحق تضاحاً ظاهراً، فلله الحمد على ذلك.

﴿١٥١ - ١٥٢﴾ «كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون» * فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون» يقول تعالى: إن إنعامنا عليكم باستقبال الكعبة وإقامتها بالشرائع والنعم المتممة، ليس ذلك ببدع من إحساننا، ولا بأوله، بل أنعمنا عليكم بأصول النعم ومتمماتها، فابلغها إرسالنا إليكم هذا الرسول الكريم منكم، تعرفون نسبه وصدقه وأمانته وكمالته ونصحه.

«يتلو عليكم آياتنا» وهذا يعم الآيات القرآنية وغيرها، فهو يتلو عليكم الآيات المبينة للحق من الباطل، والهدى من الضلال، التي دلتكم أولاً على توحيد الله وكمالته، ثم على صدق رسوله ووجوب الإيمان به، ثم على جميع ما أخبر به من المعاد والغيوب، حتى حصل لكم الهداية التامة والعلم اليقيني.

«ويزكيكم» أي: يطهر أخلاقكم ونفوسكم، بتربيتها على الأخلاق الجميلة، وتنزيهاها عن الأخلاق الرذيلة، وذلك كتزكيتهم من الشرك إلى التوحيد، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن الخيانة إلى الأمانة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الخلق إلى حسن الخلق، ومن التباغض والتهاجر والتقاطع إلى التحاب والتواصل والتوادد، وغير ذلك من أنواع التزكية.

«ويعلمكم الكتاب» أي: القرآن، ألفاظه ومعانيه، «والحكمة» قيل: هي السنة، وقيل: الحكمة: معرفة أسرار الشريعة والفقه فيها، وتنزيل الأمور منازلها.

فيكون - على هذا - تعليم السنة داخل في تعليم الكتاب، لأن السنة تبين القرآن وتفسره، وتعبّر عنه، «ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون» لأنهم كانوا قبل بعثته في ضلال مبين،

لا علم ولا عمل، فكل علم أو عمل نالته هذه الأمة فعله يده ﷺ وبسببه كان، فهذه النعم هي أصول النعم على الإطلاق، ولهي أكبر نعم ينعم بها على عباده، فوظيفتهم شكر الله عليها والقيام بها، فلهذا قال تعالى: «فاذكروني أذكركم» فأمر تعالى بذكره، ووعد عليه أفضل جزاء، وهو ذكره لمن ذكره، كما قال تعالى عليّ: لسان رسوله: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم».

وذكر الله تعالى أفضله ما تواظأ عليه القلب واللسان، وهو الذكر الذي يثمر معرفة الله ومحبه وكثرة ثوابه، والذكر هو رأس الشكر، فلهذا أمر به خصوصاً، ثم من بعده أمر بالشكر عموماً، فقال: «واشكروا لي» أي: على ما أنعمت عليكم بهذه النعم، ودفعت عنكم صنوف النقم، والشكر يكون بالقلب إقراراً بالنعم واعتراضاً، وباللسان ذكراً وثناءً، وبالجوارح طاعة لله وانقياداً لأمره واجتناباً لنهيهِ، فالشكر فيه بقاء النعمة الموجودة، وزيادة في النعم المفقودة، قال تعالى: «لئن شكرتم لأزيدنكم» وفي الإتيان بالأمر بالشكر، بعد النعم الدينية، من العلم وتزكية الأخلاق والتوفيق للأعمال، بيان أنها أكبر النعم، بل هي النعم الحقيقية التي تدوم إذا زال غيرها، وأنه ينبغي لمن وفقوا لعلم أو عمل، أن يشكروا الله على ذلك، ليزيدهم من فضله، وليندفع عنهم الإعجاب، فيشتغلوا بالشكر.

ولما كان الشكر ضده الكفر، نهى عن ضده، فقال: «ولا تكفرون» المراد بالكفر هاهنا ما يقابل الشكر، فهو كفر النعم وجحدها وعدم القيام بها، ويحتمل أن يكون المعنى عاماً، فيكون الكفر أنواعاً كثيرة، أعظمه الكفر بالله، ثم أنواع المعاصي على اختلاف أنواعها وأجناسها من الشرك فما دونه.

﴿١٥٣﴾ «يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع

يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون * يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين *

فهل أعظم من هذه الحياة المتضمنة للقرب من الله تعالى، وتمتعهم برزقه البدي من المأكولات والمشروبات اللذيذة، والرزق الروحي، وهو الفرح والاستبشار^(٣)، وزوال كل خوف وحزن، وهذه حياة برزخية أكمل من الحياة الدنيا، بل قد أخبر النبي ﷺ أن أرواح الشهداء في أجواف طيور^(٤) خضر ترد أنهار الجنة، وتأكُل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل معلقة بالعرش. وفي هذه الآية أعظم حث على الجهاد في سبيل الله وملازمة الصبر عليه، فلو شعر العباد بما للمقتولين في سبيل الله من الثواب لم يتخلف عنه أحد، ولكن عدم العلم اليقيني التام هو الذي فتر العزائم، وزاد نوم النائم، وأفات الأجور العظيمة والغنائم، لم لا يكون كذلك والله تعالى قد: «أشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون».

فوالله لو كان للإنسان ألف نفس تذهب نفساً بنفساً في سبيل الله، لم يكن عظيماً في جانب هذا الأجر العظيم، ولهذا لا يتمنى الشهداء بعدما عاينوا من ثواب الله وحسن جزائه إلا أن يردوا إلى الدنيا حتى يقتلوا في سبيله مرة بعد مرة.

وفي الآية دليل على نعيم البرزخ وعذابه، كما تكيأثرت بذلك النصوص.

﴿١٥٥ - ١٥٧﴾ «ولنبلوكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والشمرات وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك

في قوله تعالى: «وهو معكم أينما كنتم» وهذه عامة للخلق.

وأمر تعالى بالاستعانة بالصلاة لأن الصلاة هي عماد الدين ونور المؤمنين، وهي الصلة بين العبد وبين ربه، فإذا كانت صلاة العبد صلاة كاملة، مجتمعاً فيها ما يلزم فيها وما ينسن، وحصل فيها حضور القلب الذي هو لبها، فصار العبد إذا دخل فيها استشعر دخوله على ربه، ووقوفه بين يديه موقف العبد الخادم المتأدب، مستحضراً لكل ما يقوله وما يفعله، مستغرقاً بمناجاة ربه ودعائه لا جرم أن هذه الصلاة، من أكبر المعونة على جميع الأمور، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولأن هذا الحضور الذي يكون في الصلاة، يوجب للعبد في قلبه وصفاً، وداعياً يدعو به إلى امتثال أوامر ربه واجتناب نواهيه، هذه هي الصلاة التي أمر الله أن نستعين بها على كل شيء.

﴿١٥٤﴾ «ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون» لما ذكر تبارك وتعالى، الأمر بالاستعانة بالصبر على جميع الأمور^(٥)، ذكر نموذجاً عما يستعان بالصبر عليه، وهو الجهاد في سبيله، وهو أفضل الطاعات البدنية وأشقها على النفوس لمشقته في نفسه، ولكونه مؤدياً للقتل وعدم الحياة، التي إنما يرغب الراغبون في هذه الدنيا لحصول الحياة ولوازمها، فكل ما يتصرفون به فإنه سعي لها، ودفع لما يضادها.

ومن المعلوم أن المحبوب لا يتركه العاقل إلا لمحبوب أعلى منه وأعظم، فأخبر تعالى: أن من قتل في سبيله، بأن قاتل في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، ودينه الظاهر، لا لغير ذلك من الأغراض، فإنه لم تفته الحياة المحبوبة، بل حصل له حياة أعظم وأكمل مما تظنون وتحسبون.

فالشهداء «أحياء عند ربهم

الصابرين» أمر الله تعالى المؤمنين بالاستعانة على أمورهم الدينية والدنيوية «بالصبر والصلاة» فالصبر هو: حبس النفس وكفها على ما تكره، فهو ثلاثة أقسام: صبرها على طاعة الله حتى تؤديها، وعن معصية الله حتى تتركها، وعلى أقدار الله المؤلمة فلا تتسخطها، فالصبر هو المعونة العظيمة على كل أمر، فلا سبيل لغير الصابر أن يدرك مطلوبه، خصوصاً الطاعات الشاقة المستمرة، فلها مفتقرة أشد الافتقار إلى تحمل الصبر، وتجرح المراءة الشاقة، فإذا لازم صاحبها الصبر عن الصبر والملازمة عليها، لم يدرك شيئاً وحصل على الحرمان، وكذلك المعصية التي تشتد دواعي النفس ونوازعها إليها وهي في محل قدرة العبد، فهذه لا يمكن تركها إلا بصبر عظيم وكف لدواعي قلبه ونوازعها لله تعالى، واستعانة بالله على العصمة منها، فإنها من الفتن الكبار. وكذلك البلاء الشاق خصوصاً إن استمر، فهذا تضعف معه القوى النفسانية والجسدية، ويوجد مقتضاها وهو التسخط، إن لم يقاومها صاحبها بالصبر لله والتوكل عليه، واللجأ إليه والافتقار على الدوام.

فعلمت أن الصبر محتاج إليه العبد، بل مضطر في كل حالة من أحواله، فلهذا أمر الله تعالى به، وأخبر أنه «مع الصابرين» أي: مع من كان الصبر لهم خلقاً وصفة، وملكة بمعونته وتوقيفه وتسديده، فهانت عليهم بذلك المشاق والمكاره، وسهل عليهم كل عظيم، وزالت عنهم كل صعوبة، وهذه معية خاصة تقتضي عيته ومعونته ونصرة وقربه، وهذه «معية عظيمة»^(٦) للصابرين، فلو لم يكن للصابرين فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعية من الله لكفى بها فضلاً وشرفاً، وأما المعية العامة فهي معية العلم والقدرة، كما

(٣) في ب: وهو الاستبشار.

(٤) في ب: طير.

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) في ب: الأحوال.

عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون» أخبر تعالى أنه لا بد أن يتبلى عباده بالمحن، ليتبين الصادق من الكاذب، والجازع من الصابر، وهذه سنته تعالى في عباده؛ لأن السراء لو استمرت لأهل الإيمان ولم يحصل معها محنة لحصل الاختلاط الذي هو فساد، وحكمة الله تقتضي تمييز أهل الخير من أهل الشر. هذه فائدة المحن، لا إزالة ما مع المؤمنين من الإيمان، ولا ردهم عن دينهم، فما كان الله يضيّع إيمان المؤمنين، فأخبر في هذه الآية أنه سيبتلي عباده «بشيء من الخوف» من الأعداء «والجوع» أي: بشيء يسير منهما؛ لأنه لو ابتلاههم بالخوف كله أو الجوع لهلكوا، والمحن تمحص لا تهلك.

«ونقص من الأموال» وهذا يشمل جميع النقص المعتري للأموال من جوائح سماوية، وغرق وضياع، وأخذ الظلمة للأموال، من الملوكة الظالمة وقطاع الطريق، وغير ذلك.

«والأنفس» أي: ذهاب الأحباب من الأولاد والأقارب والأصحاب، ومن أنواع الأمراض في بدن العبد، أو بدن من يحبه، «والثمرات» أي: الحبوب، وثمار النخيل، والأشجار كلها، والخضر؛ ببرد أو بَرَد، أو حرق، أو آفة سماوية من جزاء ونحوه.

فهذه الأمور لا بد أن تقع، لأن العليم الخبير أخبر بها، فوقعت كما أخبر، فإذا وقعت انقسم الناس قسمين: جازعين وصابرين، فالجازع حصلت له المصيبة، وفوات المحبوب وهو وجود هذه المصيبة، وفوات ما هو أعظم منها، وهو الأجر بامثال أمر الله بالصبر، ففاز بالخسارة والجحيم، ونقص ما معه من الإيمان، وفاته الصبر والرضا والشكران، وحصل [له] السخط الدال على شدة النقصان.

وأما من وفقه الله للصبر عند وجود هذه المصائب، فحبس نفسه عن

التسخط قولاً وفعلاً، واحتسب أجرها عند الله، وعلم أن ما يدركه من الأجر بصبره أعظم من المصيبة التي حصلت له، بل المصيبة تكون نعمة في حقه، لأنها صارت طريقاً لحصول ما هو خير له وأنفع منها، فقد امثال أمر الله وفاز بالثواب، فلهذا قال تعالى: «وبشّر الصابرين» أي: بشّرهم بأنهم يوفون أجرهم بغير حساب، فالصابرون هم الذين فازوا بالبشارة العظيمة والمنحة الجسيمة، ثم وصفهم بقوله: «الذين إذا أصابتهم مصيبة» وهي كل ما يؤلم القلب أو البدن أو كليهما بما تقدم ذكره.

«قالوا إنا لله» أي: مملوكون لله، مدبرون تحت أمره وتصريفه، فليس لنا من أنفسنا وأموالنا شيء، فإذا ابتلانا بشيء منها فقد تصرف أرحم الراحمين بمماليكنا وأموالهم، فلا اعتراض عليه، بل من كمال عبودية العبد علمه بأن وقوع البلية من المالك الحكيم الذي أرحم بعبد من نفسه، فيوجب له ذلك الرضا عن الله، والشكر له على تدبيره، لما هو خير لعبده وإن لم يشعر بذلك، ومع أننا مملوكون لله، فإننا إليه راجعون يوم المعاد، فمجاز كل عامل بعمله، فإن صبرنا واحتسبنا وجدنا أجرنا موفراً عنده، وإن جزعنا وسخطنا لم يكن حظنا إلا السخط وفوات الأجر، فكون العبد لله وراجع إليه من أقوى أسباب الصبر.

«أولئك» الموصوفون بالصبر المذكور «عليهم صلوات من ربهم» أي: ثناء وتنويه بحالهم «ورحمة» عظيمة، ومن رحمته إياهم أن وفقهم للصبر الذي ينالون به كمال الأجر، «وأولئك هم المهتدون» الذين عرفوا الحق، وهو في هذا الموضع علمهم بأنهم لله وأنهم إليه راجعون، وعملوا به وهو هنا صبرهم لله.

ودلت هذه الآية على أن من لم يصبر فله ضد ما لهم، فحصل له الذم

من الله والعقوبة والضلال والخسار، فما أعظم الفرق بين الفريقين وما أقل تعب الصابرين، وأعظم عناء الجازعين، فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطئ النفوس على المصائب قبل وقوعها، لتخف وتسهل إذا وقعت، وبيان ما تقابل به إذا وقعت وهو الصبر، وبيان ما يعين على الصبر، وما للصابر من الأجر، ويعلم حال غير الصابر بضد حال الصابر.

وأن هذا الابتلاء والامتحان سنة الله التي قد خلت، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وبيان أنواع المصائب.

«١٥٨» «إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم» يخبر تعالى أن الصفا والمروة وهما معروفان «من شعائر الله» أي: أعلام دينه الظاهرة، التي تعبد الله بها عباده، وإذا كانا من شعائر الله، فقد أمر الله بتعظيم شعائره فقال: «ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب» فدل مجموع النصين أنهما من شعائر الله، وأن تعظيم شعائره من تقوى القلوب.

والتقوى واجبة على كل مكلف، وذلك يدل على أن السعي بهما فرض لازم للحج والعمرة كما عليه الجمهور، ودلت عليه الأحاديث النبوية وفعله النبي ﷺ، وقال: «خذوا عني مناسككم».

«فمن حج البيت أو اعتمر، فلا جناح عليه أن يطوف بهما» هذا دفع لوهم من توهم وتخرج من المسلمين عن الطواف بينهما، لكونهما في الجاهلية تعبد عندهما الأصنام، فنفى تعالى الجناح لدفع هذا الوهم، لا لأنه غير لازم.

ودل بتقييد نفي الجناح فيمن تطوف بهما في الحج والعمرة، أنه لا يتطوع بالسعي مفرداً إلا مع انضمامه لحج أو

(١) كذا في ب، معدلة في الهامش وفي

عمره، بخلاف الطواف بالبيت فإنه يشرع مع العمره والحج، وهو عبادة مفردة.

فأما السعي والوقوف بعرفة ومزدلفة ورمي الجمار، فإنها تتبع النسك، فلو فعلت غير تابعة للنسك كانت بدعة، لأن البدعة نوعان: نوع يتعبد لله بعبادة لم يشرعها أصلاً، ونوع يتعبد له بعبادة قد شرعها على صفة مخصوصة، فتفعل على غير تلك الصفة وهذا منه.

وقوله: ﴿ومن تطوع﴾ أي: فعل طاعة مخلصاً بها لله تعالى ﴿خيراً﴾ من حج، وعمره، وطواف، وصلاة، وصوم وغير ذلك ﴿فهو خير له﴾ فدل هذا على أنه كلما ازداد العبد من طاعة الله، ازداد خيره وكماله ودرجته عند الله، لزيادة إيمانه.

ودل تقييد التطوع بالخير، أن من تطوع بالبدع التي لم يشرعها الله ولا رسوله، أنه لا يحصل له إلا العناء، وليس بخير له، بل قد يكون شراً له إن كان متعمداً عالماً بعدم مشروعية العمل.

﴿فإن الله شاكر عليم﴾ الشاكر والشكور من أسماء الله تعالى، الذي يقبل من عباده السير من العمل، ويمجيزهم عليه العظيم من الأجر، الذي إذا قام عبده بأوامره وامتل طاعته، أعانه على ذلك، وأثنى عليه ومدحه، وجازاه في قلبه نوراً وإيماناً وسعة، وفي بدنه قوة ونشاطاً، وفي جميع أحواله زيادة بركة ونماء، وفي أعماله زيادة توفيق.

ثم بعد ذلك يقدم على الثواب الآجل عند ربه كاملاً موفراً، لم تنقصه هذه الأمور.

ومن شكره لعبده، أن من ترك شيئاً لله أعاضه خيراً منه، ومن تقرب منه شيئاً تقرب منه ذراعاً، ومن تقرب منه ذراعاً تقرب منه باعاً، ومن أتاه يمشي أتاه هرولة، ومن عامله ربح عليه أضعافاً مضاعفة.

ومع أنه شاكر فهو عليم بمن يستحق الثواب الكامل، بحسب نيته وإيمانه وتقواه، ممن ليس كذلك، عليم بأعمال العباد فلا يضعيها، بل يجدونها أوفر ما كانت، على حسب نياتهم التي أطلع عليها العليم الحكيم.

﴿١٥٩ - ١٦٢﴾ ﴿إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما يتناهى للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ إلا الذين تابوا وأصلحو وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم﴾ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾ خالدون﴾ ﴿ولا هم ينظرون﴾ هذه الآية وإن كانت نازلة في أهل الكتاب، وما كتموا من شأن الرسول ﷺ وصفاته، فإن حكمها عام لكل من اتصف بكتمان ما أنزل الله ﴿من البينات﴾ التدلالات على الحق المظهرات له، ﴿والهدى﴾ وهو العلم الذي تحصل به الهداية إلى الصراط المستقيم، ويتبين به طريق أهل النعيم من طريق أهل الجحيم، فإن الله أخذ الميثاق على أهل العلم بأن يبينوا للناس ما من الله به عليهم من علم الكتاب ولا يكتُمونه، فمن نبذ ذلك وجع بين المفسدين: كتم ما أنزل الله، والغش لعباد الله، فأولئك ﴿يلعنهم الله﴾ أي: يبعدهم ويطردهم عن قربه ورحته.

﴿ويلعنهم اللاعنون﴾ وهم جميع الخليقة، فتقع عليهم اللعنة من جميع الخليقة، لسعيهم في غش الخلق وفساد أديانهم، وإبعادهم من رحمة الله، فجوزوا من جنس عملهم، كما أن معلم الناس الخير يصلي الله عليه وملائكته، حتى الحوت في جوف الماء، لسعيه في مصلحة الخلق وإصلاح أديانهم، وقربهم من رحمة الله، فجوزي من جنس عمله، فالكاتم لما أنزله الله، مضاد لأمر الله

مشاق لله، يبين الله الآيات للناس ويوضحها وهذا يطمسها ويعميها^(١)، فهذا عليه هذا الوعيد الشديد.

﴿إلا الذين تابوا﴾ أي: رجعوا عما هم عليه من الذنوب ندماً وإقلاعاً، وعزموا على عدم المعادة، ﴿وأصلحو﴾ ما فسد من أعمالهم، فلا يكفي ترك القبيح حتى يحصل فعل الحسن.

ولا يكفي ذلك في الكاتم أيضاً، حتى يبين ما كتمه، ويبيد ضد ما أخفى، فهذا يتوب الله عليه، لأن توبة الله غير محجوب عنها، فمن أتى بسبب التوبة تاب الله عليه، لأنه ﴿التواب﴾ أي: الرجاء على عباده بالعتق والصفح بعد الذنب إذا تابوا، وبالإحسان والنعيم بعد المنع إذا رجعوا، ﴿الرحيم﴾ الذي اتصف بالرحمة العظيمة التي وسعت كل شيء، ومن رحمته أن وفقهم للتوبة والإنابة فتابوا وأتابوا، ثم رحمهم بأن قبل ذلك منهم لطفًا وبرًا، هذا حكم التائب من الذنب.

وأما من كفر واستمر على كفره حتى مات ولم يرجع إلى ربه، ولم ينب إليه ولم يتب عن قريب، فأولئك ﴿عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾ لأنه لما صار كفرهم وصفاً ثابتاً، صارت اللعنة عليهم وصفاً ثابتاً لا تزول، لأن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً، ﴿خالدون﴾ أي: في اللعنة أو في العذاب والمعنات^(٢) متلازمان.

﴿لا يخفف عنهم العذاب﴾ بل عذابهم دائم شديد مستمر، ﴿ولا هم ينظرون﴾ أي: يمهلون، لأن وقت الإمهال وهو الدنيا قد مضى، ولم يبق لهم عذر فيعتدرون.

﴿١٦٣﴾ ﴿والهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾ يخبر تعالى - وهو أصدق القائلين - أنه ﴿إله واحد﴾ أي: متوحد منفرد في ذاته، وأسمائه وصفاته وأفعاله، فليس له

(١) في ب: وهذا يسعى في طمسها

وإخفائها.

(٢) في ب: وهما متلازمان.

شريك في ذاته، ولا سمي له ولا كفؤ، ولا مثل ولا نظير، ولا خالق ولا مدبر غيره، فإذا كان كذلك فهو المستحق لأن يؤله ويعبد بجميع أنواع العبادة، ولا يشرك به أحد من خلقه، لأنه «الرحمن الرحيم» المتصف بالرحمة العظيمة التي لا يماثلها رحمة أحد، فقد وسعت كل شيء، وعمت كل حي، فبرحمته وجدت المخلوقات، وبرحمته حصلت لها أنواع الكمالات، وبرحمته اندفع عنها كل نقمة، وبرحمته عرّف عباده نفسه بصفاته وآلانه، وبين لهم كل ما يحتاجون إليه من مصالح دينهم ودنياهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

فإذا علم أن ما بالعباد من نعمة فمن الله، وأن أحداً من المخلوقين لا ينفع أحداً، علم أن الله هو المستحق لجميع أنواع العبادة، وأن يفرد بالمحبة والخوف والرجاء والتعظيم والتوكل، وغير ذلك من أنواع الطاعات.

وأن من أظلم الظلم وأقبح القبيح، أن يعدل عن عبادته إلى عبادة العبيد، وأن يشرك المخلوق^(١) من تراب برب الأرباب، أو يعبد المخلوق المدبر العاجز من جميع الوجوه مع الخالق المدبر القادر القوي، الذي قد قهر كل شيء ودان له كل شيء.

ففي هذه الآية إثبات وحدانية الباري وإلهيته، وتقريرها بنفيها عن غيره من المخلوقين، وبين أصل الدليل على ذلك وهو إثبات رحمته التي من آثارها وجود جميع النعم، واندفاع [جميع] النقم، فهذا دليل إجمالي على وحدانيته تعالى.

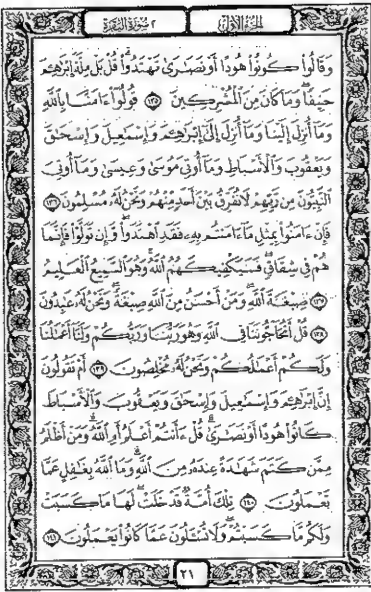
﴿١٦٤﴾ ثم ذكر الأدلة التفصيلية فقال: «إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب

المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون».

أخبر تعالى أن في هذه المخلوقات العظيمة آيات، أي: أدلة على وحدانية الباري وإلهيته، وعظيم سلطانه ورحمته، وسائر صفاته، ولكنها «لقوم يعقلون» أي: لمن لهم عقول يعملونها فيما خلقت له، فعلى حسب ما من الله على عبده من العقل، ينتفع بالآيات ويعرفها بعقله وفكره وتدبره، ففي «خلق السماوات» في ارتفاعها واتساعها، وإحكامها وإتقانها، وما جعل الله فيها من الشمس والقمر والنجوم، وتنظيمها لمصالح العباد.

وفي خلق «الأرض» مهاداً للخلق يمكنهم القرار عليها والانتفاع بما عليها، والاعتبار. ما يدل ذلك على انفراد الله تعالى بالخلق والتدبير، وبين قدرته العظيمة التي بها خلقها، وحكمته التي بها أتقنها وأحسنها ونظمها، وعلمه ورحمته التي بها أودع ما أودع، من منافع الخلق ومصالحهم، وضرووراتهم وحاجاتهم. وفي ذلك أبلغ الدليل على كماله واستحقاقه أن يفرد بالعبادة، لانفراده بالخلق والتدبير، والقيام بشؤون عباده، «و»

في «اختلاف الليل والنهار» وهو تعاقبهما على الدوام، إذا ذهب أحدهما خلفه الآخر، وفي اختلافهما في الحر والبرد والتوسط، وفي الطول والقصر والتوسط، وما ينشأ عن ذلك من الفصول التي بها انتظام مصالح بني آدم وحيواناتهم، وجميع ما على وجه الأرض من أشجار ونواب. كل ذلك بانتظام وتدبير، وتسخير تنبهر له العقول، وتعجز عن إدراكه من الرجال الفحول، ما يدل ذلك على قدرة مصرفها وعلمه وحكمته ورحمته الواسعة ولطفة الشامل، وتصريفه وتدبيره الذي تفرد به، وعظمته وعظمة ملكه وسلطانه، مما يوجب أن يؤله ويعبد، ويفرد بالمحبة والتعظيم،



واخوف والرجاء، وبذل الجهد في محابه ومراضيه.

«و» في «الفلك التي تجري في البحر» وهي السفن والمراكب ونحوها، مما ألهم الله عباده صنعتها، وخلق لهم من الآلات الداخلية والخارجية ما أقدرهم عليها.

ثم سخر لها هذا البحر العظيم، والرياح التي تحملها بما فيها من الزكبات والأموال، والبضائع التي هي من منافع الناس، وبما تقوم مصالحهم وتنظم معاشهم.

فمن الذي ألهمهم صنعتها وأقدرهم عليها، وخلق لهم من الآلات ما به يعملونها؟ أم من الذي سخر لها البحر تجري فيه بأذنه وتسخيره والرياح؟ أم من الذي خلق للمراكب البرية والبحرية النار والمعادن المعينة على حملها وحمل ما فيها من الأموال؟ فهل هذه الأمور حصلت اتفاقاً، أم استعمل بعملها هذا المخلوق الضعيف العاجز، الذي خرج من بطن أمه لا علم له ولا قدرة، ثم خلق له ربه القدرة وعلمه ما يشاء تعليمه، أم المسخر لذلك رب واحد حكيم عليم، لا يعجزه شيء، ولا يمتنع عليه شيء؟ بل الأشياء قد دانت لربوبيته، واستكانت لعظمته،

هذه المخلوقات، وتغلغل فكره في بدائع المبتدعات، وازداد تأمله للصنعة وما أودع فيها من لطائف البر والحكمة، علم بذلك أنها خلقت للحق وبالحق، وأنها صحائف آيات وكتب دلالات، على ما أخبر به الله عن نفسه ووحدانيته، وما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر، وأنها مسخرات، ليس لها تدبير ولا استعصاء على مدبرها ومصرفها.

فتعرف أن العالم العلوي والسفلي كلهم إليه مفتقرون، وإليه ضامدون، وأنه الغني بالذات عن جميع المخلوقات، فلا إله إلا الله، ولا رب سواه.

﴿١٦٥ - ١٦٧﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ وَلَوْ رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يُرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ * إذ تبرز الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب * وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبتزؤوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار * ما أحسن اتصال هذه الآية بما قبلها، فإنه تعالى لما بين وحدانيته وأدلتها القاطعة، وبرز أهيئها الساطعة الموصلة إلى علم اليقين، المزيلة لكل شك، ذكر هنا أن ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ مع هذا البيان التام من يتخذ من المخلوقين أنداداً لله، أي: نظراء ومثلاء، يساويهم في الله بالعبادة والمحبة، والتعظيم والطاعة.

ومن كان بهذه الحالة - بعد إقامة الحجة، وبيان التوحيد - علم أنه معاند لله مشاق له، أو معرض عن تدبر آياته، والتفكر في مخلوقاته، فليس له أدنى عذر في ذلك، بل قد حقت عليه كلمة العذاب.

وهؤلاء الذين يتخذون الأنداد

فمنها: ما يأكلون من لحمه، ويشربون من دمه، ومنها: ما يركبون، ومنها: ما هو ساع في مصالحهم وخراساتهم، ومنها: ما يعتبر به، ومع^(١) أنه بث فيها من كل دابة، فإنه سبحانه هو القائم بأرزاقهم المتكفل بأقواتهم، فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها.

وفي «تصريف الرياح» باردة وحارة، وجنوباً وشمالاً، وشرقاً ودبوراً، وبين ذلك، وتارة تشير السحاب، وتارة تؤلف بينه، وتارة تليقحه، وتارة تدبره، وتارة تمزقه، وتيزيل ضرره، وتارة تكون رحمة، وتارة ترسل بالعذاب.

فمن الذي صرفها هذا التصريف، وأودع فيها من منافع العباد ما لا يستغنون عنه؟ وسخرها ليعيش فيها جميع الحيوانات، وتصلح الأبدان والأشجار، والحبوب والنواب، إلا العزيز الحكيم الرحيم، اللطيف بعباده، المستحق لكل ذل وخضوع ومحبة وإناة وعبادة؟

وفي تسخير السحاب بين السماء والأرض على خفته ولطافته يحمل الماء الكثير، فيسوقه الله إلى حيث شاء، فيحيي به البلاد والعباد، ويروي التلول والنهاد، وينزله على الخلق وقت حاجتهم إليه، فإذا كان يضربهم كثرت أمسكه عنهم، فينزله رحمة ولطفاً، ويصرفه عناية وعطفاً، فما أعظم سلطانه وأغزر إحسانه، والطف امتنائه!!

اليس من القبيح بالعباد أن يتمتعوا برزقه، ويعيشوا ببه، وهم يستعینون بذلك على مساخطه ومعاصيه؟ اليس ذلك دليلاً على حلمه وصبره وعفوه وصفحه، وعيم لطفه؟

فله الحمد أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

والحاصل أنه كلما تدبر العاقل في



و غاية العبد الضعيف، أن جعله الله جزءاً من أجزاء الأسباب، التي بها وجدت هذه الأمور العظام، فهذا يدل على رحمة الله وعنايته بخلقه، وذلك يوجب أن تكون المحبة كلها له، والخوف والرجاء، وجميع الطاعة، والذل والتعظيم.

﴿وما أنزل الله من السماء من ماء﴾ وهو المطر النازل من السحاب.

﴿فأحيا به الأرض بعد موتها﴾ فأظهرت من أنواع الأقوات وأصناف النبات، ما هو من ضرورات الخلائق التي لا يعيشون بدونها.

اليس ذلك دليلاً على قدرة من أنزله وأخرج به ما أخرج، ورحمته ولطفه بعباده، وقيامه بمصالحهم، وشدة افتقارهم وضرورتهم إليه من كل وجه؟ أما يوجب ذلك أن يكون هو معبودهم وإلههم؟ اليس ذلك دليلاً على إحياء الموتى ومجازاتهم بأعمالهم؟ ﴿وبث فيها﴾ أي: في الأرض ﴿من كل دابة﴾ أي: نشر في أقطار الأرض من الدواب المتنوعة، ما هو دليل على قدرته وعظمته، ووحدانيته وسلطانه العظيم، وسخرها للناس، ينتفعون بها بجميع وجوه الانتفاع.

يتمنونها، حنفاً وغيظاً على المتبوعين لما تبرؤوا منهم والذنب ذنبهم، فرأس المتبوعين على الشر إبليس، ومع هذا يقول لأتباعه لما قُضي الأمر: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ﴾.

﴿١٦٨ - ١٧٠﴾ **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾** **﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾** وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما آلفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون. هذا خطاب للناس كلهم، مؤمنهم وكافرهم، فامتن عليهم بأن أمرهم أن يأكلوا من جميع ما في الأرض، من حبوب وثمار وفواكه وخيوانات، حالة كونها **﴿حلالاً﴾** أي: محلاً لكم تناولها، ليس بغصب ولا سرقة، ولا محصلاً بمعاملة محرمة أو على وجه محرم، أو معيناً على محرم.

﴿طَيِّباً﴾ أي: ليس بخبيث كالهيئة والدم ولحم الخنزير، والخبائث كلها، ففي هذه الآية دليل على أن الأصل في الأغنياء الإباحة، أكلاً وانتفاعاً، وأن المحرم نوعان: إما محرم لذاته، وهو الخبيث الذي هو ضد الطيب، وإما محرم لما عرض له، وهو المحرم لتعلق حق الله، أو حق عباده به، وهو ضد الحلال.

وفيه دليل على أن الأكل بقدر ما يقيم البنية واجب، يأثم تاركه لظاهر الأمر، ولما أمرهم باتباع ما أمرهم به - إذ هو عين صلاحهم - نهاهم عن اتباع **﴿خطوات الشيطان﴾** أي: طريقه التي يأمر بها، وهي جميع المعاصي من كفر وفسوق وظلم، ويدخل في ذلك تحريم السوايب والحام، ونحو ذلك، ويدخل فيه أيضاً تناول المأكولات المحرمة، **﴿إنه لكم عدو مبين﴾** أي: ظاهر العداوة، فلا يريد بأمركم إلا غشكم،

ضعفها وعجزها، لا كما اشتبه عليهم في الدنيا وظنوا أن لها من الأمر شيئاً، وأنها تقربهم إليه وتوصلهم إليه، فخاب ظنهم وبطل سعيهم، وحق عليهم شدة العذاب، ولم تدفع عنهم أندادهم شيئاً، ولم تغن عنهم مثقال ذرة من النفع، بل يحصل لهم الضرر منها من حيث ظنوا نفعها.

وتبرأ المتبوعون من التابعين، وتقطعت بينهم الوُصْل التي كانت في الدنيا، لأنها كانت لغير الله، وعلى غير أمر الله، ومتعلقة بالباطل الذي لا حقيقة له، فاضمحلت أعمالهم وتلاشت أحوالهم، وتبين لهم أنهم كانوا كاذبين، وأن أعمالهم التي يؤملون نفعها وحصول نتيجتها انقلبت عليهم حسرة وندامة، وأنهم خالذون في النار لا يخرجون منها أبداً، فهل بعد هذا الخسار خسران؟ ذلك بأنهم اتبعوا الباطل، فعملوا العمل الباطل ورجوا غير مرجو، وتعلقوا بغير متعلق، فبطلت الأعمال بطلان متعلقها، ولما بطلت وقعت الحسرة بما فاتهم من الأمل فيها، فضررتهم غاية الضرر، وهذا بخلاف من تعلق بالله الملك الحق المبين، وأخلص العمل لوجهه ورجا نفعه، فهذا قد وضع الحق في موضعه، فكانت أعماله حقاً لتعلقها بالحق، ففاز بنتيجة عمله، ووجد جزاءه عند ربّه غير منقطع، كما قال تعالى: **﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾** **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾** **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾**.

وحيث يمتنى التابعون أن يردوا إلى الدنيا فيتبرؤوا من متبوعيه، بأن يتركوا الشرك بالله ويقبلوا على إخلاص العمل لله، وهيئات، فأت الأمر، وليس الوقت وقت إمهال وإنظار، ومع هذا فهم كذبة، فلورادوا لعادوا لما نهوا عنه، وإنما هو قول يقولونه وأما

مع الله، لا يسوونهم بالله في الخلق والرزق والتدبير، وإنما يسوونهم به في العبادة، فيعبدونهم ليقربوهم إليه، وفي قوله: **﴿اتَّخَذُوا﴾** دليل على أنه ليس لله ند وإنما المشركون جعلوا بعض المخلوقات أنداداً له، تسمية مجردة، ولفظاً فارغاً من المعنى، كما قال تعالى: **﴿وجعلوا لله شركاء قل سموهم أم تنبتونهم بما لا يعلم في الأرض أم بظاهر من القول﴾**.

﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن﴾ فالمخلوق ليس نداً لله لأن الله هو الخالق وغيره مخلوق، والرب الرازق ومن عداه مرزوق، والله هو الغني وأنتم الفقراء، وهو الكامل من كل الوجوه، والعبيد ناقصون من جميع الوجوه، والله هو النافع الضار، والمخلوق ليس له من النفع والضرر والأمر شيء، فعلم علماً يقيناً بطلان قول من اتخذ من دون الله آلهة وأنداداً، سواء كان ملكاً أو نبياً أو صالحاً أو صنماً أو غير ذلك، وأن الله هو المستحق للمحبة الكاملة والذل التام، فلهذا مدح الله المؤمنين بقوله: **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشْدَّ حُبّاً لِلَّهِ﴾** أي: من أهل الأنداد لأندادهم، لأنهم أخلصوا محبتهم له، وهؤلاء أشركوا بها، ولأنهم أحيوا من يستحق المحبة على الحقيقة، الذي محبته هي عين صلاح العبد وسعادته وفوزه، والمشركون أحيوا من لا يستحق من الحب شيئاً، ومحبته عين شقاء العبد وفساده، وتشتت أمره.

فلهذا توعدهم الله بقوله: **﴿ولو يرى الذين ظلموا﴾** **﴿باتخاذ الأنداد والانقياد لغير رب العباد وظلموا الخلق بصدقه عن سبيل الله، وسعيهم فيما يضرهم﴾**.

﴿إذ يرون العذاب﴾ أي: يوم القيامة عياناً بأبصارهم، **﴿أن القوة﴾** الله جميعاً وأن الله شديد العذاب أي: لعلوا علماً جازماً أن القوة والقدرة الله كلها، وأن أندادهم ليس فيها من القوة شيء، فيستبين لهم في ذلك اليوم

والسبب الموجب لذلك كله أنه ليس لهم عقل صحيح، بل هم أسفه السفهاء، وأجهل الجهلاء.

فهل يستريب العاقل أن من دعي إلى الرشاد، وذيد عن الفساد، ونهي عن اقتحام العذاب، وأمر بما فيه صلاحه وفلاحه وفوزه ونعيمه، فعصى الناصح وتولى عن أمر ربه، واقتحم النار على بصيرة، واتبع الباطل ونبد الحق. أن هذا ليس له مسكة من عقل، وأنه لو اتصف بالمكر والخديعة والدهاء أنه من أسفه السفهاء.

﴿١٧٢ - ١٧٣﴾ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون * إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم * هذا أمر للمؤمنين خاصة بعد الأمر العام، وذلك أنهم هم المتفجعون على الحقيقة بالأوامر والنواهي بسبب إيمانهم، فأمرهم بأكل الطيبات من الرزق، والشكر لله على إنعامه باستعمالها بطاعته، والتقوي بها على ما يوصل إليه، فأمرهم بما أمر به المرسلين في قوله: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾. فالشكر في هذه الآية هو العمل الصالح، وهنا لم يقل «حلالاً» لأن المؤمن أباح الله له الطيبات من الرزق خالصة من التبعة، ولأن إيمانه يحجزه عن تناول ما ليس له.

وقوله: ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ أي: فاشكروه، فدل على أن من لم يشكر الله فلم يعبد وحده، كما أن من شكره فقد عبده وأتى بما أمر به، ويدل أيضاً على أن أكل الطيب سبب للعمل الصالح وقبوله، والأمر بالشكر عقيب النعم؛ لأن الشكر يحفظ النعم الموجودة، ويوجب النعم المفقودة، كما أن الكفر ينقر النعم المفقودة ويزيل النعم الموجودة.

ولما ذكر تعالى إباحة الطيبات ذكر تحريم الخبائث، فقال: ﴿إنما حرم

والأخروية، الذي كل الفلاح بطاعته، وكل الفوز في خدمته، وجميع الأرباح في معاملته المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، الذي لا يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر، أم تتبع داعي الشيطان الذي هو عدو الإنسان، الذي يريد لك الشر، ويسعى بجهده على إهلاكك في الدنيا والآخرة؟ الذي كل الشر في طاعته، وكل الخسران في ولايته، الذي لا يأمر إلا بشر، ولا ينهى إلا عن خير. ثم أجبر تعالى عن حال المشركين؛ إذا أمروا باتباع ما أنزل الله على رسوله - مما تقدم وصفه - رغبوا عن ذلك، وقالوا:

﴿بل تتبع ما ألقينا عليه آباءنا﴾. فافتكروا بتقليد الآباء، وزهدوا في الإيمان بالأنبياء، ومع هذا فابأؤهم أجهل الناس وأشداهم ضلالاً، وهذه شبهة لرد الحق واهية، فهذا دليل على إعراضهم عن الحق ورغبتهم عنه، وعدم إنصافهم، فلو هدوا لرشدهم وحسن قصدهم، لكان الحق هو القصد، ومن جعل الحق قصده، ووازن بينه وبين غيره، تبين له الحق قطعاً، واتبعه إن كان متصفاً.

ثم قال [تعالى]: ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً، صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾.

لما بين تعالى عدم انقيادهم لما جاء به الرسل، وردهم لذلك بالتقليد، علم من ذلك أنهم غير قابلين للحق ولا مستجيبين له، بل كان معلوماً لكل أحد أنهم لن يزولوا عن عنادهم، أخبر تعالى أن مثلهم عند دعاء الداعي لهم إلى الإيمان كمثل البهائم التي ينعق لها راعيها، وليس لها علم بما يقول داعيها ومناديها، فهم يسمعون مجرد الصوت الذي تقوم به عليهم الحجة، ولكنهم لا يفقهونه فقهاً يتفهمهم، فلماذا كانوا صماً لا يسمعون الحق سماع فهم وقبول، عمياً لا ينظرون نظر اعتبار، بكماً فلا ينطقون بما فيه خير لهم.

وأن تكونوا من أصحاب السعير، فلم يكتف ربنا بنهيها عن اتباع خطواته، حتى أخبرنا - وهو أصدق القائلين - بعداوتة الداعية للحذر منه، ثم لم يكتف بذلك، حتى أخبرنا بتفصيل ما يأمر به، وأنه أفتح الأشياء وأعظمها مفسدة، فقال: ﴿إنما يأمركم بالسوء﴾ أي: الشر الذي يسوء صاحبه، فيدخل في ذلك جميع المعاصي، فيكون قوله: ﴿والفحشاء﴾ من باب عطف الخاص على العام، لأن الفحشاء من المعاصي، ما تنأى قبحه، كالزنا وشرب الخمر، والقتل، والقذف، والبخل، ونحو ذلك مما يستفحشه من له عقل، ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ فيدخل في ذلك القول على الله بلا علم، في شرعه وقدره، فمن وصف الله بغير ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، أو نفى عنه ما أثبت له نفسه، أو أثبت له ما نفاه عن نفسه، فقد قال على الله بلا علم، ومن زعم أن الله نداء، وأوثاناً تقرب من عبدها من الله، فقد قال على الله بلا علم، ومن قال: إن الله أحل كذا أو حرم كذا، أو أمر بكذا، أو نهى عن كذا، بغير بصيرة، فقد قال على الله بلا علم، ومن قال: إن الله خلق هذا الضف من المخلوقات للعلّة الفلانية بلا برهان له بذلك، فقد قال على الله بلا علم، ومن أعظم القول على الله بلا علم، أن يتأول المتأول كلامه أو كلام رسوله على معان اصطلاح عليها طائفة من طوائف الضلال، ثم يقول: إن الله أرادها، فالقول على الله بلا علم من أكبر المحرمات وأشملها وأكبر طرق الشيطان التي يدعو إليها، فهذه طرق الشيطان التي يدعو إليها هو وجنوده، ويبدلون مكرهم وخداهم على إغواء الخلق بما يقدر على.

وأما الله تعالى فإنه يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، فلينظر العبد نفسه مع أي: الداعين هو، ومن أي: الحزبين؟ أتتبع داعي الله الذي يريد لك الخير والسعادة الدنيوية

والعذاب على المغفرة، فهؤلاء لا يصلح لهم إلا النار، فكيف يصبرون عليها، وأنى لهم الجلد عليها؟ ١١٩ ﴿ذلك﴾ المذكور، وهو مجازاته بالعدل ومنعه أسباب الهداية، من أباهما واختار سواها.

﴿بأن الله نزل الكتاب بالحق﴾ ومن الحق مجازاة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

وأيضاً في قوله: ﴿نزل الكتاب بالحق﴾ ما يدل على أن الله أنزله لهداية خلقه، وتبيين الحق من الباطل، والهدى من الضلال، فمن صرفه عن مقصوده فهو حقيق بأن يجازى بأعظم العقوبة.

﴿وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد﴾ أي: وإن الذين اختلفوا في الكتاب، فأمنا ببعضه وكفروا ببعضه، أو الذين حرقوه وصرفوه على أهوائهم ومراداتهم ﴿لفي شقاق﴾ أي: محادة، ﴿بعيد﴾ عن الحق لأنهم قد خالفوا الكتاب الذي جاء بالحق الموجب للاتفاق وعدم التناقض، فمرج أمرهم، وكثر شقاقهم، وترتب على ذلك افتراقهم، بتخلاف أهل الكتاب الذين آمنوا به وحكموه في كل شيء، فإنهم اتفقوا وارتفقوا بالمحبة والاجتماع عليه.

وقد تضمنت هذه الآيات الوعيد للكافرين لما أنزل الله، المؤثرين عليه عرض الدنيا بالعذاب والسخط، وأن الله لا يظهرهم بالتوفيق ولا بالمغفرة، وذكر السبب في ذلك بإيثارهم الضلالة على الهدى، فترتب على ذلك اختيار العذاب على المغفرة. ثم توجع لهم بشدة صبرهم على النار، لعملهم بالأسباب التي يعلمون أنها موصلة لها، وأن الكتاب مشتمل على الحق الموجب للاتفاق عليه وعدم الافتراق، وأن كل من خالفه فهو في غاية البعد عن الحق، والمنازعة

ربما لا يستقصي تمام الاستقصاء في تحقيقها. أخبر تعالى أنه غفور، فيغفر له ما أخطأ فيه في هذه الحال، خصوصاً وقد غلبته الضرورة، وأذهبت حواسه المشقة.

وفي هذه الآية دليل على القاعدة المشهورة: «الضرورات تبيح المحظورات»، فكل محظور اضطر له الإنسان، فقد أباحه له الملك الرحمن [قله الحمد والشكر أولاً وآخرأ، وظاهراً وباطناً].

﴿١٧٤ - ١٧٦﴾ ﴿إن الذين يكتفون ما أنزل الله من الكتاب ويشترئون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار ﴿ذلك﴾ بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد ﴿هذا عيد شديد لمن كتب ما أنزل الله على رسله، من العلم الذي أخذ الله الميثاق على أهله، أن يبينوه للناس ولا يكتفوه، فمن تعرض عنه بالحطام الدنيوي ونبذ أمر الله، فأولئك: ﴿ما يأكلون في بطونهم إلا النار﴾ لأن هذا الثمن الذي اكتسبوه، إنما حصل لهم بأقبح المكاسب وأعظم المحرمات، فكان جزاؤهم من جنس عملهم، ﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة﴾ بل قد سخط عليهم وأعرض عنهم، فهذا أعظم عليهم من عذاب النار، ﴿ولا يزكيهم﴾ أي: لا يظهرهم من الأخلاق الرذيلة، وليس لهم أعمال تصلح للمدح والرضا والجزاء عليها، وإنما لم يزكهم لأنهم فعلوا أسباب عدم التزكية التي أعظم أسبابها العمل بكتاب الله، والاهتداء به، والدعوة إليه، فهؤلاء نبذوا كتاب الله وأعرضوا عنه، واختاروا الضلالة على الهدى،

عليكم الميتة﴾ وهي ما مات بغير تذكية شرعية، لأن الميتة خبيثة مضرّة لردائها في نفسها، ولأن الأغلب أن تكون عن مرض، فيكون زيادة ضرراً^(١)، واستثنى الشارع من هذا العموم ميتة الجراد وسماك البحر، فإنه جلال طيب.

﴿والدم﴾ أي: المسفوح كما قيد في الآية الأخرى.

﴿وما أهل به لغير الله﴾ أي: ذبح لغير الله، كالذي يذبح للأصنام والأوثان من الأحجار، والقبور ونحوها، وهذا المذكور غير حاصر للمحرمات، جيء به لبيان أجناس الخبائث المدلول عليها بمفهوم قوله: ﴿طيبات﴾ فعموم المحرمات تستفاد من الآية السابقة، من قوله: ﴿حلالاً طيباً﴾ كما تقدم.

وإنما حرم علينا هذه الخبائث ونحوها، لطفاً بنا وتنزيهاً عن المضر، ومع هذا ﴿فمن اضطر﴾ أي: ألجئ إلى الحرّم بجوع وعدم، أو إكراه، ﴿فغير باع﴾ أي: غير طالب للمحرم مع قدرته على الحلال، أو مع عدم جوعه، ﴿ولا عاد﴾ أي: متجاوز الحد في تناول ما أبيع له اضطراراً، فمن اضطر وهو غير قادر على الحلال، وأكل بقدر الضرورة فلا يزيد عليها، فلا إثم [أي: جناح] عليه، وإذا ارتفع الجناح^(٢) رجع الأمر إلى ما كان عليه، والإنسان بهذه الحالة مأمور بالأكل، بل منهي أن يلقي بيده إلى التهلكة، وأن يقتل نفسه.

فيجب إذاً عليه الأكل، ويأثم إن ترك الأكل حتى مات، فيكون قاتلاً لنفسه، وهذه الإباحة والتوسعة من رحمته تعالى بعباده، فلماذا ختمها بهذين الاسمين الكريمين المناسبين غاية المناسبة، فقال: ﴿إن الله غفور رحيم﴾.

ولما كان الحيل مشروطاً بهذين الشرطين، وكان الإنسان في هذه الحالة

(١) في ب: مرض.

(٢) في أ: (وإذا ارتفع الجناح) وفوق كلمة الجناح كلمة (الإثم) وفي ب، وردت الجملة هكذا (وإذا ارتفع الإثم).

والمخاصمة، والله أعلم.

﴿١٧٧﴾ «ليس البر أن تولوا

وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون» يقول تعالى: «ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب» أي: ليس هذا هو البر المقصود من العباد، فيكون كثرة البحث فيه والجدال من العناء الذي ليس تحته إلا الشقاق والخلاف، وهذا نظير قوله ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» ونحو ذلك.

﴿ولكن البر من آمن بالله﴾ أي: بأنه إله واحد، موصوف بكل صفة كمال، منزّه عن كل نقص.

﴿واليوم الآخر﴾ وهو كل ما أخبر الله به في كتابه أو أخبر به الرسول مما يكون بعد الموت.

﴿والملائكة﴾ الذين وصفهم الله لنا في كتابه، ووصفهم رسوله ﷺ، ﴿والكتاب﴾ أي: جنس الكتب التي أنزلها الله على رسله، وأعظمها القرآن، فيؤمن بما تضمنته من الأخبار والأحكام، ﴿والنبيين﴾ عموماً، خصوصاً خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ.

﴿وآتى المال﴾ وهو كل ما يتموله الإنسان من مال، قليلاً كان أو كثيراً، أي: أعطى المال «على حبه» أي: حب المال، بين به أن المال محبوب للنفس، فلا يكاد يخرج العبد.

فمن أخرج مع حبه له تقريباً إلى الله تعالى، كان هذا برهاناً لإيمانه، ومن إيتاء المال على حبه أن يتصدق وهو صحيح شحيح، يأمل الغنى، ويخشى الفقر، وكذلك إذا كانت الصدقة عن قلة كانت أفضل، لأنه في هذه الحال

يحب إمساكه، لما يتوهمه من العدم والفقر.

وكذلك إخراج النفيس من المال، وما يحبه من ماله كما قال تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ فكل هؤلاء ممن آتى المال على حبه.

ثم ذكر المنفق عليهم، وهم أولى الناس ببرك وإحسانك. من الأقارب الذين تتوجع لمصائبهم، وتفرح بسرورهم، الذين يتناصرون ويتعاضدون، فمن أحسن البر وأوفقه تعاضد الأقارب بالإحسان المالي والقولي، على حسب قربهم واحتجهم. ومن يتامى الذين لا كاسب لهم، وليس لهم قوة يستغنون بها، وهذا من رحمته [تعالى] بالعباد، الدالة على أنه تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده، فالله قد أوصى العباد، وفرض عليهم في أموالهم الإحسان إلى من فقده أبائهم ليصيروا كمن لم يفقد والديه، ولأن الجزء من جنس العمل، فمن رحم يتيم غيره رجم يتيمه.

﴿والمساكين﴾: وهم الذين أسكنتهم الحاجة وأذلهم الفقر، فلهم حق على الأغنياء بما يدفع مسكنتهم أو يخففها، بما يقدرون عليه وبما يتيسر، ﴿وابن السبيل﴾: وهو الغريب المنقطع به في غير بلده، فحث الله عباده على إعطائه من المال ما يعينه على سفره، لكونه مظنة الحاجة، وكثرة المصارف، فعلى من أنعم الله عليه بوطنه وراحته وخوله من نعمته، أن يرحم أخاه الغريب الذي بهذه الصفة على حسب استطاعته، ولو بتزويده أو إعطائه آلة لسفره، أو دفع ما ينويه من المظالم وغيرها.

﴿والسائلين﴾ أي: الذين تعرض لهم حاجة من الخواصج توجب السؤال، كمن ابتلى بأرض جناية، أو ضريبة عليه من ولادة الأمور، أو يسأل الناس لتعمير المصالح العامة، كالمساجد والمدارس والقناطر، ونحو ذلك، فهذا له حق وإن كان غنياً ﴿وفي الرقاب﴾ فيدخل فيه العتق والإعانة

عليه، وبذل مال للمكاتب ليوفي سيده، وفداء الأسرى عند الكفار أو عند الظلمة.

﴿وأقام الصلاة وآتى الزكاة﴾ قد تقدم مراراً أن الله تعالى يقرن بين الصلاة والزكاة، لكونهما أفضل العبادات وأكمل القربات، عبادات قلبية وبدنية ومالية، وبهما يوزن الإيمان، ويعرف ما مع صاحبه من الإيقان.

﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾ والعهد: هو الالتزام بالزام الله أو الزام العبد لنفسه. فدخل في ذلك حقوق الله كلها، لكون الله أكرم بها عباده والتزموها، ودخلوا تحت عهدها، ووجب عليهم أداؤها، وحقوق العباد التي أوجها الله عليهم، والحقوق التي التزمها العبد كالإيمان والنذور، ونحو ذلك.

﴿والصابرين في البأساء﴾ أي: الفقر، لأن الفقير يحتاج إلى الصبر من وجوه كثيرة، لكونه يحصل له من الآلام القلبية والبدنية المستمرة ما لا يحصل لغيره.

فإن تنعم الأغنياء بما لا يقدر عليه تألم، وإن جاع أو جاعت عياله تألم، وإن أكل طعاماً غير موافق لهواه تألم، وإن عري أو كاد تألم، وإن نظر إلى ما بين يديه وما يتوهمه من المستقبل الذي يستعد له تألم، وإن أصابه البرد الذي لا يقدر على دفعه تألم.

فكل هذه ونحوها مصائب يؤمر بالصبر عليها والاحتساب، ورجاء الثواب من الله عليها.

﴿والضراء﴾ أي: المرض على اختلاف أنواعه، من حمى وقروح وزناخ ووجع عضو، حتى الضرس والإصبع ونحو ذلك، فإنه يحتاج إلى الصبر على ذلك؛ لأن النفس تضعف والبدن يألم، وذلك في غاية المشقة على النفوس، خصوصاً مع تطاول ذلك، فإنه يؤمر بالصبر احتساباً لثواب الله [تعالى].

«وحيث البأس» أي: وقت القتال للأعداء المأمور بقتالهم، لأن الجلال يشق غاية المشقة على النفس، ويجزع الإنسان من القتل أو الجراح أو الأسر، فاحتيج إلى الصبر في ذلك احتساباً، ورجاء لشواب الله [تعالى] الذي منه النصر والمعونة التي وعدّها الصابرين.

«أولئك» أي: المتصفون بما ذكر من العقائد الحسنة، والأعمال التي هي آثار الإيمان وبرهانه ونوره، والأخلاق التي هي جمال الإنسان وحقيقته الإنسانية، فأولئك هم «الذين صدقوا» في إيمانهم، لأن أعمالهم صدقت إيمانهم، «وأولئك هم المتقون»؛ لأنهم تركوا المحظور وفعلوا المأمور؛ لأن هذه الأمور مشتملة على كل خصال الخير تضيماً ولزوماً، لأن الوفاء بالعهد يدخل فيه الدين كله، ولأن العبادات المنصوص عليها في هذه الآية أكبر العبادات، ومن قام بها كان بما سواها أقوم، فهو لأهم الأبرار الصادقون المتقون.

وقد علم ما رتب الله على هذه الأمور الثلاثة من الثواب الديني والأخروي، مما لا يمكن تفصيله في [مثل] هذا الموضوع.

«١٧٨ - ١٧٩» «يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم» ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون» يمتن تعالى على عباده المؤمنين، بأنه فرض عليهم «القصاص في القتلى» أي: المساواة فيه، وأن يقتل القاتل على الصفة التي قتل عليها المقتول، إقامة للعدل والقسط بين العباد.

وتوجيه الخطاب لعموم المؤمنين،

فيه دليل على أنه يجب عليهم كلهم، حتى أولياء القاتل، حتى القاتل بنفسه، إعانة ولي المقتول إذا طلب القصاص، وتمكينه^(١) من القاتل، وأنه لا يجوز لهم أن يحولوا بين هذا الحد ويمنعوا الولي من الاقتصاص، كما عليه عادة الجاهلية ومن أشبههم من إيواء المحدثين.

ثم بين تفصيل ذلك، فقال: «الحر بالحر» يدخل بمنطوقها الذكر بالذكر، «والأنثى بالأنثى» والأنثى بالذكر، والذكر بالأنثى، فيكون منطوقها مقدماً على مفهوم قوله: «الأنثى بالأنثى» مع دلالة السنة، على أن الذكر يقتل بالأنثى، وخرج من عموم هذا الأبوان وإن علوا، فلا يقتلان بالولد، لورود السنة بذلك، مع أن في قوله: «القصاص» ما يدل على أنه ليس من العدل أن يقتل الوالد بالولد، ولأن ما في قلب الوالد من الشفقة والرحمة، ما يمنعه من القتل لولده إلا بسبب اختلال في عقله، أو أذية شديدة جداً من الولد له.

وخرج من العموم أيضاً الكافر بالسنة، مع أن الآية في خطاب المؤمنين خاصة.

وأيضاً فليس من العدل أن يقتل ولي الله بعدوه، والعبد بالعبد، ذكر أو كان أو أنثى، تساوت قيمتهما أو اختلفت، ودل بمفهومها على أن الحر لا يقتل بالعبد، لكونه غير مساو له، والأنثى بالأنثى، أخذ بمفهومها بعض أهل العلم، فلم يميز قتل الرجل بالمرأة، وتقدم وجه ذلك.

وفي هذه الآية دليل على أن الأصل وجوب القود في القتل، وأن الدية بدل عنه، فلهاذا قال: «فمن عفي له من أخيه شيء» أي: عفا ولي المقتول عن القاتل إلى الدية، أو عفا بعض الأولياء، فإنه يسقط القصاص وتحجب الدية، وتكون الخيرة في القود واختيار

(٢) في ب: بالإحسان.

(١) في ب: ويمكنه.



الدية إلى الولي.

فإذا عفا عنه وجب على الولي [أي: ولي المقتول] أن يتسبع القاتل «بالمعروف» من غير أن يشق عليه، ولا يحمله ما لا يطيق، بل يحسن الاقتضاء والطلب، ولا يخرج.

وعلى القاتل «إداء إليه بإحسان» من غير مطلق ولا نقص ولا إساءة فعلية أو قولية، فكل جزاء الإحسان إليه بالعفو إلا الإحسان بحسن القضاء، وهذا مأمور به في كل ما ثبت في ذم الناس للإنسان، مأمور من له الحق بالاتباع بالمعروف، ومن عليه الحق بالأداء بإحسان^(٢).

وفي قوله: «فمن عفي له من أخيه» تريق وحب على العفو إلى الدية، وأحسن من ذلك العفو مجاًناً.

وفي قوله: «أخيه» دليل على أن القاتل لا يكفر، لأن المراد بالأخوة هنا أخوة الإيمان، فلم يخرج بالقتل منها، ومن باب أولى أن سائر المعاصي التي هي دون الكفر لا يكفر بها فاعلمها، وإنما يتقص بذلك إيمانه.

وإذا عفا أولياء المقتول، أو عفا بعضهم، احتقن دم القاتل، وصار معصوماً منهم ومن غيرهم، ولهذا قال: «فمن اعتدى بعد ذلك» أي:

في هذا أن يقال: إن هذه الوصية للوالدين والأقربين مجملة، ردها الله تعالى إلى العرف الجاري.

ثم إن الله تعالى قدر للوالدين الوارثين وغيرهما من الأقارب الوارثين هذا المعروف في آيات الموارث بعد أن كان مجملاً، وبقي الحكم فيمن لم يرثوا من الوالدين الممنوعين من الإرث وغيرهما ممن حجب بشخص أو وصف، فإن الإنسان مأمور بالوصية لهؤلاء، وهم أحق الناس ببره، وهذا القول تتفق عليه الأمة، ويحصل به الجمع بين القولين المتقدمين، لأن كلاً من القائلين بهما كل منهما لخط ملحظاً، واختلف المورد.

فهذا الجمع يحصل الاتفاق والجمع بين الآيات، لأنه^(١) مهما أمكن الجمع كان أحسن من ادعاء النسخ، الذي لم يدل عليه دليل صحيح.

ولما كان الموصي قد يستمتع من الوصية، لما يتوهمه أن من بعده قد يبدل ما وصى به، قال تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَلَهُ﴾ أي: الإيضاء للمذكورين أو غيرهم ﴿بَعْدَ مَا سَمِعَهُ﴾ [أي: بعدما عقله، وعرف طرقة وتفهيده، فإنما إثمه على الذين يبدلون]، وإلا فالموصي وقع أجره على الله، وإنما الإثم على المبدل المغير.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يستمع سائر الأصوات، ومنه سماعه لمقالة الموصي ووصيته، فينبغي له أن يراقب من يسمعه ويراه، وأن لا يجوز في وصيته، ﴿عَلِيمٌ﴾ بيته، وعليم بعمل الموصي إليه، فإذا اجتهد الموصي وعلم الله من نيته ذلك، أثابه ولو أخطأ، وفيه التحذير للموصي إليه من التبدل، فإن الله عليم به، مطلع على ما فعله، فليحذر من الله، هذا حكم الوصية العادلة، وأما الوصية التي فيها حيف وجنث وإثم، فينبغي لمن حضر الموصي وقت الوصية بها، أن ينصحه بما هو الأحسن والأعدل، وأن ينهاه

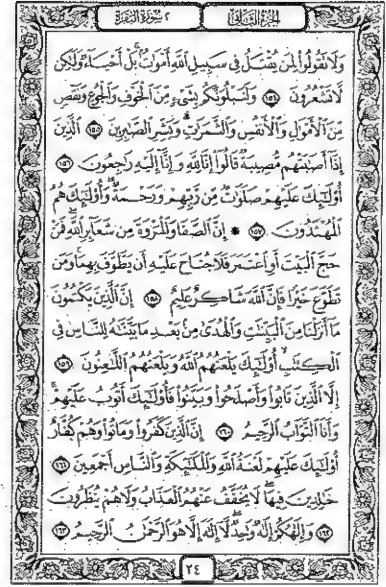
وعقولهم، في تدبير ما في أحكامه من الحكم، والمصالح الدالة على كماله، وكمال حكمته وحجده، وعدله ورحمته الواسعة، وأن من كان بهذه المثابة فقد استحق المدح بأنه من ذوي الألباب الذين وجه إليهم الخطاب، وناداهم رب الأرباب، وكفى بذلك فضلاً وشرفاً لقوم يعقلون.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وذلك أن من عرف ربه وعرف ما في دينه وشرعه من الأسرار العظيمة والحكم البديعة والآيات الرفيعة، أوجب له ذلك أن ينقاد لأمر الله، ويعظم معاصيه فيتركها، فيستحق بذلك أن يكون من المتقين.

﴿١٨٠ - ١٨٢﴾ ﴿كَتَبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم * فمن خاف من موص جتنًا أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم * أي: فرض الله عليكم يا معشر المؤمنين ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي: أسنابه، كالمرض المشرف على الهلاك، وحضور أسباب المهالك، وكان قد ترك خيراً [أي: مالاً] وهو المال الكثير عرفاً، فغلبه أن يوصي لوالديه وأقرب الناس إليه بالمعروف، على قدر حاله من غير سرف ولا اقتصار على الأبعد دون الأقرب، بل يرتبهم على القرب والحاجة، ولهذا أتى فيه بأفعال التفضيل.

وقوله: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ دل على وجوب ذلك، لأن الحق هو الثابت، وقد جعله الله من موجبات التقوى.

واعلم أن جمهور المفسرين يرون أن هذه الآية منسوخة بآية الموارث وبعضهم يرى أنها في الوالدين والأقربين غير الوارثين، مع أنه لم يدل على التخصيص بذلك دليل، والأحسن



بعد العفو ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الآخرة، وأما قتله وعدمه فيؤخذ مما تقدم، لأنه قتل مكافئاً له، فيجب قتله بذلك.

وأما من فسر العذاب الأليم بالقتل، فإن الآية تدل على أنه يتعين قتله، ولا يجوز العفو عنه، وبذلك قال بعض العلماء والصحيح الأول، لأن جانيته لا تزيد على جناية غيره.

ثم بين تعالى حكمته العظيمة في مشروعية القصاص، فقال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ أي: تتحقق بذلك الدماء، وتنقمع به الأشقياء، لأن من عرف أنه مقتول إذا قتل، لا يكاد يصدر منه القتل، وإذا روي القاتل مقتولاً اندفع بذلك غيره وانزجر، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل، لم يحصل انكفاف الشر الذي يحصل بالقتل، وهكذا سائر الحدود الشرعية، فيها من النكاية والانزجار ما يدل على حكمة الحكيم الغفار، ونكر «الحياة» لإفادة التعظيم والتكثير.

ولما كان هذا الحكم لا يعرف حقيقته إلا أهل العقول الكاملة، والألباب الثقيلة، خصهم بالخطاب دون غيرهم، وهذا يدل على أن الله تعالى يحب من عباده أن يعملوا أفكارهم

عن الجور والجنتف، وهو الميل بها عن خطأ، من غير تعمد، والإثم: وهو التعمد لذلك.

فإن لم يفعل ذلك، فينبغي له أن يصلح بين الموصى إليهم، ويتوصل إلى العدل بينهم على وجه التراضي والمصالحة، ووعظهم بتبrette ذمة ميتهم، فهذا قد فعل معروفاً عظيماً، وليس عليه إثم، كما على مبدل الوصية الجائزة، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ أي: يغفر جميع الزلات، ويصفح عن التبعات لمن تاب إليه، ومنه مغفرته لمن غص من نفسه وترك بعض حقه لأخيه، لأن من سامح سامحه الله، غفور لميتهم الجائز في وصيته إذا احتسبوا بمسامحة بعضهم بعضاً لأجل براءة ذمته، رحيم بعباده، حيث شرع لهم كل أمر به يتراحمون ويتعاطفون، فدللت هذه الآيات على الخث على الوصية، وعلى بيان من هي له، وعلى وعيد المبدل للوصية العادلة، والترغيب في الإصلاح في الوصية الجائزة.

﴿١٨٣ - ١٨٥﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لِعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ * أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * يُخَبِّرُ تَعَالَى بِمَا مِنْ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ، أَنَّهُ فَرَضَ عَلَيْهِمُ الصِّيَامَ، كَمَا فَرَضَهُ عَلَى الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، لِأَنَّهُ مِنَ الشَّرَائِعِ وَالْأَوَامِرِ الَّتِي هِيَ مُصْلِحَةٌ لِلخَلْقِ فِي كُلِّ زَمَانٍ.

وفيه تشييط لهذه الأمة بأنه ينبغي

لكم أن تنافسوا غيركم في تكميل الأعمال، والمسارة إلى صالح الخصال، وأنه ليس من الأمور الثقيلة التي اختصتكم بها.

ثم ذكر تعالى حكمته في مشروعية الصيام، فقال: ﴿لِعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى، لأن فيه امتثال أمر الله واجتناب نهيه.

فمما اشتمل عليه من التقوى: أن الصائم يترك ما حرم الله عليه من الأكل والشرب والجماع ونحوها، التي تميل إليها نفسه، متقرباً بذلك إلى الله، راجياً بتركها ثوابه، فهذا من التقوى.

ومنها: أن الصائم يدرب نفسه على مراقبة الله تعالى، فيترك ما تهوى نفسه مع قدرته عليه، ليعلمه باطلاع الله عليه، ومنها: أن الصيام يضيق مجاري الشيطان، فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فبالصيام يضعف نفوذه، وتقل منه المعاصي، ومنها: أن الصائم في الغالب تكثر طاعته، والطاعات من خصال التقوى، ومنها: أن الغني إذا ذاق ألم الجوع أوجب له ذلك مواساة الفقراء المعدمين، وهذا من خصال التقوى.

ولما ذكر أنه فرض عليهم الصيام، أخبر أنه أيام معدودات، أي: قليلة في غاية السهولة.

ثم سهل تسهلاً آخر، فقال: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ وذلك للمشقة في الغالب، رخص الله لهما في الفطر.

ولما كان لا بد من حصول مصلحة الصيام لكل مؤمن، أمرهما أن يقضياه في أيام أخر إذا زال المرض، وانقضى السفر، وحصلت الراحة.

وفي قوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ﴾ فيه دليل على أنه يقضي عدد أيام رمضان، كاملاً كان أو ناقصاً وعلى أنه يجوز أن يقضي أياماً قصيرة باردة، عن أيام طويلة حارة كالعكس.

وقوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾

أي: يطيقون الصيام ﴿فِدْيَةٌ﴾ عن كل يوم يفطرونه ﴿طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾ وهذا في ابتداء فرض الصيام، لما كانوا غير معتادين للصيام، وكان فرضه جتماً فيه مشقة عليهم، درجهم الرب الحكيم بأسهل طريق، وخير المطيق للصوم بين أن يصوم وهو أفضل أو يطعم، ولهذا قال: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾

ثم بعد ذلك جعل الصيام جتماً على المطيق، وغير المطيق يفطر ويقضيه في أيام أخر لأوقيل: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ أي: يتكلفونه، ويشق عليهم مشقة غير محتملة كالشيخ الكبير فدية عن كل يوم مسكين^(١)، وهذا هو الصحيح^(٢).

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ أي: الصوم المفروض عليكم هو شهر رمضان، الشهر العظيم الذي قد حصل لكم فيه من الله الفضل العظيم، وهو القرآن الكريم، المشتل على الهداية لمصالحكم الدينية والدنيوية، وتبيين الحق بأوضح بيان، والفرقان بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وأهل السعادة وأهل الشقاوة.

فحقيق بشهر هذا فضله، وهذا إحسان الله عليكم فيه أن يكون موسماً للعباد مفروضاً فيه الصيام.

فلما قرره وبين فضيلته، وحكمة الله تعالى في تخصيصه، قال: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ هذا فيه تعيين الصيام على القادر الصحيح الحاضر.

ولما كان النسخ للتخيير بين الصيام والفداء خاصة، أعاد الرخصة للمريض والمسافر، لئلا يتوهم أن الرخصة أيضاً منسوخة، [فقال] ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ أي: يريد الله تعالى أن ييسر عليكم الطرق الموصلة إلى رضوانه أعظم تسير، ويسهلها أشد^(٣) تسهيل، ولهذا كان جميع ما أمر الله به عباده في غاية

(٣) في ب: أبلغ تسهيل.

(٢) زيادة من هامش ب.

(١) ظاهر أن المراد عن كل يوم طعام

مسكين.

وتضيئوها، فاللذة مدركة، وليلة القدر إذا فاتت لم تدرك.

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ هذا غاية للأكل والشرب والجماع، وفيه أنه إذا أكل ونحوه شاكاً في طلوع الفجر فلا بأس عليه.

وفيه: دليل على استحباب السحور للأمر، وأنه يستحب تأخيره أخذاً من معنى رخصة الله وتسهيله على العباد.

وفيه: أيضاً دليل على أنه يجوز أن يذكره الفجر وهو جنب من الجماع قبل أن يغتسل، ويصح صيامه، لأن لازم إباحة الجماع إلى طلوع الفجر، أن يذكره الفجر وهو جنب، ولازم الحق حق.

﴿ثُمَّ﴾ إذا طلع الفجر ﴿أَتَمُّوا الصِّيَامَ﴾ أي: الإمساك عن المفطرات ﴿إِلَى اللَّيْلِ﴾ وهو غروب الشمس ولما كان إباحة الوطء في ليالي الصيام ليست بإباحته^(١) عامة لكل أحد، فإن المعتكف لا يحل له ذلك، استثناه بقوله: ﴿وَلَا تَبَاشَرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ أي: وأنتم متصرفون بذلك، ودلت الآية على مشروعية الاعتكاف، وهو لزوم المسجد لطاعة الله [تعالى]، وانقطاعاً إليه، وأن الاعتكاف لا يصح إلا في مسجد.

ويستفاد من تعريف المساجد، أنها المساجد المعروفة عندهم، وهي التي تقام فيها الصلوات الخمس.

وفيه أن الوطء ممن مفسدات الاعتكاف.

﴿تِلْكَ﴾ المذكورات - وهو تحريم الأكل والشرب والجماع ونحوه من المفطرات في الصيام، وتحريم الفطر على غير العذور، وتحريم الوطء على المعتكف، ونحو ذلك من المحرمات ﴿حُدُودِ اللَّهِ﴾ التي حذها لعباده، ونهاهم عنها، فقال: ﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ أبلغ من قوله: ﴿فَلَا تَفْعَلُوهَا﴾ لأن القرآن، يشمل النهي عن فعل المحرم بنفسه، والنهي عن وسائله الموصلة

الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة، ويزول عنهم الغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة. ولأن الإيمان بالله والاستجابة لأمره سبب لحصول العلم، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾.

﴿١٨٧﴾ ثم قال تعالى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَنَابَ عَلَيْكُمْ وَعَقَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تَبَاشَرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ كان في أول فرض الصيام، يحرم على المسلمين في الليل بعد النوم الأكل والشرب والجماع، فحصلت المشقة لبعضهم، فخفف الله تعالى عنهم ذلك، وأباح في ليالي الصيام كلها الأكل والشرب والجماع، سواء نام أو لم يتم، لكونهم يختانون أنفسهم بترك بعض ما أمروا به.

﴿فَتَنَابَ﴾ الله ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بأن وسع لكم أمراً كان - لولا توسعته - موجباً للإثم ﴿وَعَقَا عَنْكُمْ﴾ ما سلف من التخون.

﴿فَالآنَ﴾ بعد هذه الرخصة والسعة من الله ﴿بَاشِرُوهُنَّ﴾ وطأ وقبلة ولساً وغير ذلك.

﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: انووا في مباشرتكم لزوجاتكم التقرب إلى الله تعالى والمقصود الأعظم من الوطء، وهو حصول الذرية وإعفاف فرجه وفرج زوجته، وحصول مقاصد النكاح.

ومما كتب الله لكم ليلة القدر، الموافقة لليالي صيام رمضان، فلا ينبغي لكم أن تشتغلوا بهذه اللذة عنها

السهولة في أصله. وإذا حصلت بعض العوارض الموجبة لثقله سهله تسهلاً آخر، إما بإسقاطه، أو تخفيفه بأنواع التخفيفات. وهذه جملة لا يمكن تفصيلها لأن تفاصيلها جميع الشرعيات، ويدخل فيها جميع الرخص والتخفيفات.

﴿وَلْتَكْمَلُوا الْعِدَّةَ﴾ وهذا - والله أعلم - لئلا يتوهم متوهم أن صيام رمضان يحصل المقصود منه ببغضه، رفع هذا الزهيم بالأمر بتكميل عدته، ويشكر الله [تعالى] عند إتمامه على توفيقه وتسهيله وتبينه لعباده، وبالتكبير عند انقضائه، ويدخل في ذلك التكبير عند رؤية هلال شوال إلى فراغ خطبة العيد.

﴿١٨٦﴾ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ هذا جواب سؤال، سأل النبي ﷺ بعض أصحابه فقالوا: يا رسول الله، أقرب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فنزل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ لأنه تعالى الرقيب الشهيد، المطلع على السر وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فهو قريب أيضاً من داعيه بالإجابة، ولهذا قال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ والدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة.

والقرب نوعان: قرب بعلمه من كل خلقه، وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق.

فمن دعا ربه بقلب حاضر ودعاء مشروع، ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء، كأكل الحرام ونحوه، فإن الله قد وعده بالإجابة، وخصوصاً إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء، وهي الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية، والإيمان به الموجب للاستجابة، فلهذا قال: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أي: يحصل لهم الرشاد

إليه .

والعبد مأمور بترك المحرمات ، والبعد منها غاية ما يمكنه ، وترك كل سبب يدعو إليها ، وأما الأوامر فيقول الله فيها : ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها ﴾ فينهاى عن مجاوزتها .

﴿ كذلك ﴾ أي : بين [الله] لعباده الأحكام السابقة أتم تبين ، وأوضحها لهم أكمل إيضاح .

﴿ يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون ﴾ فإنهم إذا بان لهم الحق اتبعوه ، وإذا تبين لهم الباطل اجتنبوه ، فإن الإنسان قد يفعل المحرم على وجه الجهل بأنه محرم ، ولو علم تحريره لم يفعله ، فإذا بين الله للناس آياته ، لم يبق لهم عذر ولا حجة ، فكان ذلك سبباً للتقوى .

﴿ ١٨٨ ﴾ ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون ﴾ أي : ولا تأخذوا أموالكم ، أي : أموال غيركم ، أضافها إليهم ؛ لأنه ينبغي للمسلم أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويحترم ماله كما يحترم ماله ؛ ولأن أكله مال غيره يجزئ غيرة على أكل ماله عند القدرة .

ولما كان أكلها نوعين : نوعاً بحق ، ونوعاً بباطل ، وكان المحرم إنما هو أكلها بالباطل ، قيده تعالى بذلك ، ويدخل في ذلك أكلها على وجه الغضب والسرقة والخيانة في ودیعة أو عارية ، أو نحو ذلك ، ويدخل فيه أيضاً أخذها على وجه المعاوضة ، بمعاوضة محرمة ، كعقود الربا والقمار كلها ، فإنها من أكل المال بالباطل ، لأنه ليس في مقابلة عوض مباح ، ويدخل في ذلك أخذها بسبب غش في البيع والشراء والإجارة ، ونحوها ، ويدخل في ذلك استعمال الأجراء وأكل أجرتهم ، وكذلك أخذهم أجره على عمل لم يقوموا بواجبه ، ويدخل في ذلك أخذ الأجرة على العبادات والتقربات التي لا تصح ، حتى يقصد بها وجه الله

تعالى ، ويدخل في ذلك الأخذ من الزكوات والصدقات والأوقاف ، والوصايا لمن ليس له حق منها ، أو فوق حقه .

فكل هذا ونحوه من أكل المال بالباطل ، فلا يحل ذلك بوجه من الوجوه حتى ولو حصل فيه النزاع وحصل الارتفاع إلى حاكم الشرع ، وأدلى من يريد أكلها بالباطل بحجة غلبت حجة الحق ، وحكم له الحاكم بذلك . فإن حكم الحاكم لا يبيح محرماً ولا يحلل حراماً ، إنما يحكم على نحو مما يسمع ، وإلا فحقائق الأمور باقية ، فليس في حكم الحاكم للمبطل راحة ولا شبهة ، ولا استراحة .

فمن أدلى إلى الحاكم بحجة باطلة وحكم له بذلك ، فإنه لا يحل له ، ويكون أكلاً مال غيره بالباطل والإثم وهو عالم بذلك . فيكون أبلغ في عقوبته وأشد في نكاله .

وعلى هذا فالوكيل إذا علم أن مؤكله مبطل في دعواه ، لم يحل له أن يخاصم عن الخائن ، كما قال تعالى : ﴿ ولا تكن للخائنين خصيماً ﴾ .

﴿ ١٨٩ ﴾ ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ يقول (١) تعالى : ﴿ يسألونك عن الأهلة ﴾ جمع هلال ، ما فائدتها وحكمتها؟ أو عن ذاتها ، ﴿ قل هي مواقيت للناس ﴾ أي : جعلها الله تعالى بلطفه ورحمته على هذا التدبير يبدو الهلال ضعيفاً في أول الشهر ، ثم يتزايد إلى نصفه ، ثم يشرع في النقص إلى كماله ، وهكذا يعرف الناس بذلك مواقيت عباداتهم من الصيام ، وأوقات الزكاة ، والكفارات ، وأوقات الحج .

ولما كان الحج يقع في أشهر معلومات ، ويستغرق أوقاتاً كثيرة ، قال : ﴿ والحج ﴾ وكذلك تعرف بذلك أوقات السديون المؤجلات ، ومدة

(٢) في ب : ليس من البر .

(١) في ب : فقول .



الإجازات ، ومدة العدد والحمل ، وغير ذلك مما هو من حاجات الخلق ، فجعله تعالى حساباً يعرفه كل أحد من صغير وكبير ، وعالم وجاهل ، فلو كان الحساب بالسنة الشمسية لم يعرفه إلا النادر من الناس .

﴿ وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ﴾ وهذا كما كان الأنصار وغيرهم من العرب إذا أحرموا لم يدخلوا البيوت من أبوابها ، تعبدوا بذلك ، وظناً أنه بر ، فأخبر الله أنه ليس ببر (٢) ، لأن الله تعالى لم يشرعه لهم ، وكل من تعبد بعبادة لم يشرعها الله ولا رسوله ، فهو متعبد ببدعة ، وأمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها لما فيه من السهولة عليهم ، التي هي قاعدة من قواعد الشرع .

ويستفاد من إشارة الآية أنه ينبغي في كل أمر من الأمور أن يأتيه الإنسان من الطريق السهل القريب ، الذي قد جعل له موصلاً ، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ينبغي أن ينظر في حالة المأمور ، ويستعمل معه الرفق والسياسة التي بها يحصل المقصود أو بعضه ، والمتعلم والمعلم ينبغي أن يسلك أقرب طريق وأسهله ، يحصل به مقصوده ، وهكذا كل من حاول أمراً من الأمور وأثابه من أبوابه وثابر عليه ،



فلا بد أن يحصل له المقصود بعون الملك المعبود .

﴿واتقوا الله﴾ هذا هو البر الذي أمر الله به، وهو لزوم تقواه على الدوام، بامتنال أو امره واجتناب نواهيه، فإنه سبب للفلاح الذي هو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المهرب، فمن لم يثق الله تعالى لم يكن له سبيل إلى الفلاح، ومن اتقاه فاز بالفلاح والنجاح.

﴿١٩٠ - ١٩٣﴾ «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين» وقاتلوهم حيث ثقتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم» وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين»

هذه الآيات، تتضمن الأمر بالقتال في سبيل الله، وهذا كان بعد الهجرة إلى المدينة، لما قوي المسلمون للقتال أمرهم الله به، بعدما كانوا مأمورين بكف أيديهم، وفي تخصيص القتال

(١) في ب: ويستدل في هذه.

(٢) كذا في ب، وفي أ: بالشهر الحرام.

﴿في سبيل الله﴾ حث على الإخلاص، ونهي عن الاقتتال في الفتن بين المسلمين.

﴿الذين يقاتلونكم﴾ أي: الذين هم مستعدون لقتالكم، وهم المكلفون الرجال، غير الشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال.

والنهي عن الاعتداء يشمل أنواع الاعتداء كلها، من قتل من لا يقاتل من النساء والمجانين والأطفال والرهبان ونحوهم، والتمثيل بالقتل، وقتل الحيوانات، وقطع الأشجار [ونحوها] لغير مصلحة تعود للمسلمين.

ومن الاعتداء مقاتلة من تقبل منهم الجزية إذا بذلوا، فإن ذلك لا يجوز.

﴿واقتلوهم حيث ثقتموهم﴾ هذا أمر بقتالهم أينما وجدوا، في كل وقت، وفي كل زمان، قتال مدافعة، وقتال مهاجمة ثم استثنى من هذا العموم قتالهم «عند المسجد الحرام» وأنه لا يجوز إلا أن يبدؤوا بالقتال، فإنهم يقاتلون جزاء لهم على اعتدائهم، وهذا مستمر في كل وقت، حتى ينتهوا عن كفرهم فيسلموا، فإن الله يتوب عليهم، ولو حصل منهم ما حصل من الكفر بالله والشرك في المسجد الحرام، وصد الرسول والمؤمنين عنه، وهذا من رحمة وكرمه بعباده.

ولما كان القتال عند المسجد الحرام يتوهم أنه مفسدة في هذا البلد الحرام، أخبر تعالى أن المفسدة بالفتنة عنده بالشرك والصد عن دينه، أشد من مفسدة القتل، فليس عليكم - أيها المسلمون - حرج في قتالهم.

ويستدل بهذه الآية على القاعدة المشهورة، وهي: أنه يزكب أخف المفسدتين لدفع أعلاهما.

ثم ذكر تعالى المقصود من القتال في سبيله، وأنه ليس المقصود به سفك دماء الكفار وأخذ أموالهم، ولكن المقصود به أن «يكون الدين لله» تعالى فيظهر دين الله [تعالى]، على سائر الأديان،

ويدفع كل ما يعارضه من الشرك وغيره، وهو المراد بالفتنة، فإذا حصل هذا المقصود فلا قتل ولا قتال، ﴿فإن انتهوا﴾ عن قتالكم عند المسجد الحرام ﴿فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ أي: فليس عليهم منكم اعتداء إلا من ظلم منهم، فإنه يستحق المعاقبة بقدر ظلمه.

﴿١٩٤﴾ «الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين» يقول تعالى: «الشهر الحرام بالشهر الحرام» يحتمل أن يكون المراد به ما وقع من صد المشركين للنبي ﷺ وأصحابه عام الحديبية عن الدخول لمكة، وقاضوهم على دخولها من قابل، وكان الصد والقضاء في شهر حرام، وهو ذو القعدة، فيكون هذا بهداء، فيكون فيه تطيب لقلوب الصحابة بتمام نسكهم وكماله.

ويحتمل أن يكون المعنى: إنكم إن قاتلتموهم في الشهر الحرام (٢) فقد قاتلوكم فيه، وهم المعتدون، فليس عليكم في ذلك حرج وعلى هذا فيكون قوله: «والحرمات قصاص» من باب عطف العام على الخاص، أي: كل شيء يحترم من شهر حرام، أو بلد حرام، أو إحرام، أو ما هو أعم من ذلك، جميع ما أمر الشرع باحترامه، فمن تجرأ عليها فإنه يقتص منه، فمن قاتل في الشهر الحرام قاتل، ومن هتك البلد الحرام أخذ منه الحد ولم يكن له حرمة، ومن قتل مكافئاً له قتل به، ومن جرحه أو قطع عضواً منه اقتص منه، ومن أخذ مال غيره المحترم أخذ منه بدله، ولكن هل لصاحب الحق أن يأخذ من ماله بقدر حقه أم لا؟ خلاف بين العلماء، الراجح من ذلك أنه إن كان سبب الحق ظاهراً كالضيف إذا لم يقره غيره، والزوجة والقريب إذا امتنع من تجب عليه النفقة، [من الإنفاق عليه] فإنه يجوز أخذه من ماله.

وإن كان السبب خفياً كمن جحد دين غيره، أو خافه في وديعة، أو سرق منه ونحو ذلك، فإنه لا يجوز له أن يأخذ من ماله مقابلة له، جمعاً بين الأدلة، ولهذا قال تعالى تأكيداً وتقوية لما تقدم: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ هذا تفسير لصفة المقاصة، وأنها هي المائلة في مقابلة المعتدي.

ولما كانت النفوس في الغالب لا تقف على حدها إذا رخص لها في المعاقبة لطلبها التشفي، أمر تعالى بلزوم تقواه، التي هي الوقوف عند حدوده وعدم تجاوزها، وأخبر تعالى أنه ﴿مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: بالعون، والنصر، والتأييد، والتوفيق.

ومن كان الله معه حصل له السعادة الأبدية، ومن لم يلزم التقوى تخلى عنه وليه وخذله، فوكله إلى نفسه، فصار هلاكه أقرب إليه من حبل الوريد.

﴿١٩٥﴾ وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿يَأْمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِالنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِهِ، وَهُوَ إِخْرَاجُ الْأَمْوَالِ فِي الطَّرِيقِ الْمَوْصِلَةِ إِلَى اللَّهِ، وَهِيَ كُلُّ طَرِيقٍ الْخَيْرِ مِنْ صَدَقَةٍ عَلَى مُسْكِينٍ، أَوْ قَرِيبٍ، أَوْ إِتِّفَاقٍ عَلَى مِنْ تَجِبُ مَوْتُهُ.

وأعظم ذلك وأول ما دخل في ذلك الإتيان في الجهاد في سبيل الله، فإن النفقة فيه جهاد بالمال، وهو فرض كالجهاد بالبدن، وفيها من المصالح العظيمة الإعانة على تقوية المسلمين، وعلى توهية الشرك وأهله، وعلى إقامة دين الله وإعزازة، فبالجهاد في سبيل الله لا يقوم إلا على سباق النفقة، فالنفقة له كالزواج، لا يمكن وجوده بدونها، وفي ترك الإتيان في سبيل الله إبطال للجهاد، وتسلط للأعداء، وشدة تكاليفهم، فيكون قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾

كالتعليل لذلك، والإلقاء باليد إلى التهلكة يرجع إلى أمرين: ترك ما أمر به العبد، إذا كان تركه موجباً أو مقارباً

لهلاك البدن أو الروح، وفعل ما هو سبب موصول إلى تلف النفس أو الروح، فيدخل تحت ذلك أمور كثيرة، فمن ذلك ترك الجهاد في سبيل الله أو النفقة فيه، الموجب لتسلط الأعداء، ومن ذلك تغزير الإنسان بنفسه في مقاتلة أو سفر خوف، أو محل مسيعة أو حيات، أو يصعد شجراً أو بنياناً خطراً، أو يدخل تحت شيء فيه خطر، ونحو ذلك، فهذا ونحوه ممن ألقى بيده إلى التهلكة.

ومن الإلقاء باليد إلى التهلكة (١) الإقامة على معاصي الله، واليأس من التوبة، ومنها ترك ما أمر الله به من الفرائض، التي تركها هلاك للروح والدين.

ولما كانت النفقة في سبيل الله نوعاً من أنواع الإحسان، أمر بالإحسان عموماً، فقال: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان، لأنه لم يقيد بشيء دون شيء، فيدخل فيه الإحسان بالمال كما تقدم.

ويدخل فيه الإحسان بالجناه بالشفاعات ونحو ذلك، ويدخل في ذلك الإحسان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم العلم النافع، ويدخل في ذلك قضاء حوائج الناس من تفريغ كرباتهم وإزالة شداتهم، وعيادة مرضاهم، وتشجيع جنائزهم، وإرشاد ضالهم، وإعانة من يعمل عملاً، والعمل لمن لا يحسن العمل، وتحو ذلك مما هو من الإحسان الذي أمر الله به، ويدخل في الإحسان أيضاً الإحسان في عبادة الله تعالى، وهو كما ذكر النبي ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

فمن اتصف بهذه الصفات، كان من الذين قال الله فيهم: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وكان الله معه يسدده ويرشده ويعينه على كل أموره.

ولما فرغ تعالى من ذكر أحكام الصيام فالجهاد، ذكر أحكام الحج

فقال:

﴿١٩٦﴾ وَأَتُوا الْحَجَّ وَالْعَمْرَةَ

فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فإذا أمنت من فمتم بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعت تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب يستدل بقوله [تعالى]: ﴿وَأَتُوا الْحَجَّ وَالْعَمْرَةَ﴾ على أمور أحدها: وجوب الحج والعمرة، وفرضيتهما.

الثاني: وجوب إتمامهما بأركانهما وواجباتهما التي قد دل عليها فعل النبي ﷺ وقوله: «خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ».

الثالث: أن فيه حجة لمن قال بوجوب العمرة.

الرابع: أن الحج والعمرة يجب إتمامهما بالشروع فيهما، ولو كانا نفلاً.

الخامس: الأمر بإتقانتهما وإحسانهما، وهذا قدر زائد على فعل ما يلزم لهما.

السادس: وفيه الأمر بإخلاصهما لله تعالى.

السابع: أنه لا يخرج المحرم بهما بشيء من الأشياء حتى يكملهما، إلا بما استثناه الله وهو الحصر، فلهذا قال: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ﴾ أي: منعتم من الوصول إلى البيت لتكميلهما، بمرض أو ضلالة أو عدو، ونحو ذلك من أنواع الحصر، الذي هو المنع.

﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي: فاذبحوا ما استيسر من الهدى، وهو سبغ بدنة، أو سبغ بقرة، أو شاة يذبحها المحصر، ويحلق ويحل من إحرامه بسبب الحصر، كما فعل النبي ﷺ وأصحابه لما صدقهم

المشركون عام الحديبية، فإن لم يجد الهدى، فليصم بدله عشرة أيام كما في المتن، ثم يحل.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ وهذا من محظورات الإحرام، إزالة الشعر بخلق أو غيره، لأن المعنى واحد، من الرأس أو من البدن، لأن المقصود من ذلك حصول الشعث والمنع من الترفه بإزالته، وهو موجود في بقية الشعر.

وقاس كثير من العلماء على إزالة الشعر تقليم الأظفار بجامع الترفه، ويستمر المنع عما ذكر حتى يبلغ الهدى محله، وهو يوم النحر، والأفضل أن يكون الحلق بعد النحر، كما تدل عليه الآية.

ويستدل بهذه الآية على أن المتمتع إذا ساق الهدى لم يتحلل من عمرته قبل يوم النحر، فإذا طاف وسعى للعمرة أحرم بالحج، ولم يكن له إحلال بسبب سوق الهدى، وإنما منع تبارك وتعالى من ذلك لما فيه من الذل والخضوع لله والانكسار له، والتواضع الذي هو عين مصلحة العبد، وليس عليه في ذلك من ضرر، فإذا حصل الضرر بأن كان به أذى من مرض يتفتح لخلق رأسه له، أو قروح، أو قمل ونحو ذلك، فإنه يحل له أن يخلق رأسه، ولكن يكون عليه فدية من صيام ثلاثة أيام، أو صدقة على ستة مساكين^(١)، أو نسك ما يجزىء في أضحية، فهو خير، والنسك أفضل، فالصدقة، فالصيام.

ومثل هذا كل ما كان في معنى ذلك من تقليم الأظفار، أو تغطية الرأس، أو لبس المخيط، أو التطيب، فإنه يجوز عند الضرورة، مع وجوب الفدية المذكورة لأن القصد من الجميع إزالة ما به يترفه.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَمْتُمْ﴾ أي: بأن قدرتم على البيت من غير مانع عدو وغيره ﴿فَمَنْ مَتَعَ بِالْعِمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ بأن توصل بها إليه، وانفع بتمتعه بعد الفراغ منها.

﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي: فعليه ما تيسر من الهدى، وهو ما يجزىء في أضحية، وهذا دم نسك، مقابلة لحصول النسكين له في سفرة واحدة، ولإنعام الله عليه بحصول الانتفاع بالمتعة بعد فراغ العمرة وقبل الشروع في الحج، ومثلها القرآن لحصول الثنكين له.

وبدل مفهوم الآية على أن المفرد للحج ليس عليه هدي، ودلت الآية على جواز بل فضيلة المتعة، وعلى جواز فعلها في أشهر الحج.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ أي: الهدى أو ثمنه ﴿فَصِيَامٌ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ أول جوازها من حين الإحرام بالعصرة، وآخرها ثلاثة أيام بعد النحر، أيام رمي الجمار، والمبيت بـ «منى» ولكن الأفضل منها أن يصوم السابع والثامن والتاسع، وسبعة إذا رجعتم^(٢) أي: فرغتم من أعمال الحج، فيجوز فعلها في مكة وفي الطريق، وعند وصوله إلى أهله.

﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من وجوب الهدى على المتمتع ﴿لَنْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ بأن كان عنه مسافة قصر فأكثر، أو بعيداً عنه عرفاً، فهذا الذي يجب عليه الهدى لحصول النسكين له في سفر واحد، وأما من كان أهله من حاضري المسجد الحرام، فليس عليه هدي لعدم الموجب لذلك ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: فني جميع أموركم، بامتنال أوامره واجتناب نواهيه، ومن ذلك امتثالكم لهذه الأمور، واجتناب هذه المحظورات المذكورة في هذه الآية.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: لمن عصاه، وهذا هو الموجب للتقوى، فإن من خاف عقاب الله، انكف عما يوجب العقاب، كما أن من رجا ثواب الله عمل لما يوصله إلى الثواب، وأما من لم يخف العقاب ولم يرج الثواب، اقتحم المحارم وتحجراً على ترك الواجبات.

﴿١٩٧﴾ ﴿الْحَجَّ أَشْهَرُ مَعْلُومَاتٍ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَزَادْهُ تَقْوَى وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يخبر تعالى أن ﴿الحج﴾ واقع في أشهر معلومات عند المخاطبين، مشهورات بحيث لا تحتاج إلى تخصيص، كما احتاج الصيام إلى تعيين شهره، وكما بين تعالى أوقات الصلوات الخمس.

وأما الحج فقد كان من ملة إبراهيم التي لم تزل مستمرة في ذريته: معروفة بينهم.

والمراد بالأشهر المعلومات عند جمهور العلماء: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة، فهي التي يقع فيها الإحرام بالحج غالباً. ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ أي: أحرم به، لأن الشروع فيه يصيره فرضاً ولو كان نفلاً.

واستدل بهذه الآية الشافعي ومن تابعه على أنه لا يجوز الإحرام بالحج قبل أشهره، قلت: لو قيل: إن فيها دلالة لقول الجمهور بصحة الإحرام [بالحج] قبل أشهره لكان قريباً، فإن قوله: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ دليل على أن الفرض قد يقع في الأشهر المذكورة، وقد لا يقع فيها، وإلا لم يقيد.

وقوله: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ أي: يجب أن تعظموا الإحرام بالحج، وخصوصاً الواقع في أشهره، وتصونوه عن كل ما يفسده أو ينقصه من الرفث، وهو الجماع ومقدماته الفعلية والقولية، خصوصاً عند النساء بحضرتن.

والفسوق وهو: جميع المعاصي، ومنها محظورات الإحرام. والجidal وهو: المارة والمنازعة والمخاصمة، لكونها تثير الشر، وتوقع العداوة.

والمقصود من الحج: البذل

(١) في ب: أو إطعام ستة مساكين.

والانكسار لله، والتقرب إليه بما أمكن من القربات، والتزهد عن مقارفة السيئات، فإنه بذلك يكون مبروراً، والمبرور ليس له جزء إلا الجنة، وهذه الأشياء وإن كانت متنوعة في كل مكان وزمان، فإنها^(١) يتغلظ المنع عنها في الحج.

واعلم أنه لا يتم التقرب إلى الله بترك المعاصي حتى يفعل الأوامر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ أتى بـ «من» لتخصيص العموم، فكل خير وقربة وعبادة، داخل في ذلك، أي: فإن الله به عليم، وهذا يتضمن غاية الحث على أفعال الخير، وخصوصاً في تلك البقاع الشريفة والحرمات المنيفة، فإنه ينبغي تدارك ما أمكن تداركه فيها، من صلاة وصيام وصدقة وطواف وإحسان قولي وفعلي.

ثم أمر تعالى بالتزود لهذا السفر المبارك، فإن التزود فيه الاستغناء عن المخلوقين، والكف عن أموالهم سؤالا واستشرافاً، وفي الإكثار منه نفع وإعانة للمسافرين، وزيادة قربة لرب العالمين، وهذا الزاد الذي المراد منه إقامة البنية بلغة ومتاع.

وأما الزاد الحقيقي المستمر نفعه لصاحبه في دنياه وآخره، فهو زاد التقوى الذي هو زاد إلى دار القرار، وهو الموصل لأكمل لذة، وأجل نعيم دائم أبداً، ومن ترك هذا الزاد، فهو المنقطع به الذي هو عرضة لكل شر، وممنوع من الوصول إلى دار المتقين، فهذا مدح للتقوى.

ثم أمر بها أولى الأبواب فقال: ﴿وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: يا أهل العقول الرزينة، اتقوا ربكم الذي تقواه أعظم ما تأمر به العقول، وتركها دليل على الجهل وفساد الرأي.

﴿١٩٨ - ٢٠٢﴾ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن

كنتم من قبله لمن الضالين * ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم * فإذا قضيتُم مناسككم فاذكروا الله كذا ذكركم أباءكم أو أشد ذكراً فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق * ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار * أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب * لما أمر تعالى بالتقوى، أخبر تعالى أن ابتغاء فضل الله بالتكسب في مواسم الحج وغيره ليس فيه حرج إذا لم يشغل عما يجب إذا كان المقصود هو الحج، وكان الكسب حلالاً منسوباً إلى فضل الله، لا منسوباً إلى حقد العبد، والوقوف مع السبب ونسيان المسبب، فإن هذا هو الحرج بعينه.

وفي قوله: ﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام﴾ دلالة على أمور:

أحدها: الوقوف بعرفة، وأنه كان معروفاً أنه ركن من أركان الحج، فالإفاضة من عرفات لا تكون إلا بعد الوقوف.

الثاني: الأمر بذكر الله عند المشعر الحرام وهو المزدلفة، وذلك أيضاً معروف، يكون ليلة النحر بائناً بها، وبعد صلاة الفجر يقف في المزدلفة داعياً حتى يسفر جداً، ويدخل في ذكر الله عنده، إيقاع الفرائض والتوافل فيه.

الثالث: أن الوقوف بمزدلفة متأخر عن الوقوف بعرفة، كما تدل عليه الفاء والترتيب.

الرابع والخامس: أن عرفات ومزدلفة كلاهما من مشاعر الحج المقصود فعلها وإظهارها.

السادس: أن مزدلفة في الحرم كما قيده بالحرام.

السابع: أن عرفة في الحل كما هو مفهوم التقييد بـ «مزدلفة».

«واذكروه كما هداكم وإن كنتم من

لَيْسَ الْإِسْلَامُ دِينًا يُعْبَدُ فِيهِ الشَّرْقُ وَالْمَغْرِبُ وَلَكِنَّهُ دِينٌ مِمَّنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِلَّهِ كُفٌّ وَكَاتِبٌ وَالْيَمِينُ وَهُوَ الَّذِي مَالَكُ عَلَى جُنُودِ الْعَرْشِ وَالْأَشْيَاءِ وَالْمُسْكِينِ وَالْأَكْبَابِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالنُّفُوسَ بَعْدَهُمْ إِذَا عَمِدُوا وَالصَّيْرُوفَ فِي النَّبَاةِ وَالنَّجْمَ وَبَيْنَ النَّاسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ سَبَّوْا وَلَئِنْ كُنْتُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢٠٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُفُّوا عَنكُمُ الْفِتْنَةَ الَّتِي فِي الرِّقَابِ وَالْحُرِّ وَالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عَمِلَ مِنَّكُمْ شَيْئًا فَاسْتِغْثِثْ بِالْعَرْشِ وَأَدِّهِ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْتِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مِّنْ فَتْنَةٍ يَسْتَدْبِرُ بَعْدَ ذَلِكَ قُلُوبَ عِبَادِكُمْ أَلَيْسَ كَذَلِكَ بَعْدَ مَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٠٣﴾ كَيْفَ تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذِهِ الْأُمُورُ لَكُمْ وَلِلَّهِ الْأُمُورُ وَاللَّهُ يَخْتَارُ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ فَتَنَّا بِهِ مَنَّا نَشَاءُ وَفِي ذَلِكَ لَعْنَةٌ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٢٠٤﴾ قُلْ إِنَّ هَذِهِ سَاعَاتُ الَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ فِيهَا مَن يُشَاءُ اللَّهُ إِنَّ هَذِهِ سَاعَاتُ الْغَيْبِ إِنَّكُمْ فِيهَا كَانُوا لَمَشْهُورِينَ ﴿٢٠٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِمَا عَلَّمْتُ الْإِسْلَامَ أَن يَسْبُحُوا اللَّهَ مَاضٍ مُّحْسِنِينَ ﴿٢٠٦﴾

قبله لمن الضالين» أي: اذكروا الله تعالى كما من عليكم بالهداية بعد الضلال، وكما علمكم ما لم تكونوا تعلمون، فهذه من أكبر النعم التي يجب شكرها ومقابلتها بذكر المنعم في القلب واللسان.

«ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس» أي: ثم أفيضوا من مزدلفة من حيث أفاض الناس، من لدن إبراهيم عليه السلام إلى الآن، والمقصود من هذه الإفاضة كان معروفاً عندهم، وهو رمي الجمار، وذبح الهدايا، والطواف، والسعي، والمبيت بـ «منى» ليالي التشريق، وتكميل باقي المناسك.

ولما كانت [هذه] الإفاضة يقصد بها ما ذكر، والمذكورات آخر المناسك، أمر تعالى عند الفراغ منها باستغفاره والإكثار من ذكره، فالاستغفار للخلل الواقع من العبد في أداء عبادته وتقصيره فيها، وذكر الله شكر الله على إنعامه عليه بالتوفيق لهذه العبادة العظيمة والمئة الجسيمة.

وهكذا ينبغي للعبد كلما فرغ من عبادة، أن يستغفر الله عن التقصير، ويشكره على التوفيق، لا كمن يرى أنه قد أكمل العبادة، ومن بها على ربه، وجعلت له محلاً ومنزلة رفيعة، فهذا حقيق بالمقت ورد العمل، كما أن

ومن لم يتقه عاقبه أشد العقوبة، فالعلم بالجزاء من أعظم الدواعي لتقوى الله، فلهذا حث تعالى على العلم بذلك.

﴿٢٠٤ - ٢٠٦﴾ «ومن الناس من يُعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام * وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد * وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبس المهادر».

لما أمر تعالى بالإكثار من ذكره، وخصوصاً في الأوقات الفاضلة الذي هو خير ومصلحة وبر، أخبر تعالى بحال من يتكلم بلسانه ويخالف فعله قوله، فالكلام إما أن يرفع الإنسان أو يخفضه، فقال: «ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا» أي: إذا تكلم راق كلامه السامع، وإذا نطق ظننته يتكلم بكلام نافع، ويؤكد ما يقول بأنه «يشهد الله على ما في قلبه» بأن يخبر أن الله يعلم أن ما في قلبه موافق لما نطق به، وهو كاذب في ذلك، لأنّه يخالف قوله فعله.

فلو كان صادقاً لتوافق القول والفعل، كحال المؤمن غير المنافق، فلهذا قال: «وهو ألد الخصام» أي: إذا خاسمته، وجذبت فيه من اللدد والصعوبة والتعصب، وما يترتب على ذلك ما هو من مقايخ الصفات، ليس كأخلاق المؤمنين الذين جعلوا السهولة مركبهم، والانقياد للحق وظيفتهم، والسماحة سجيته.

﴿وإذا تولى﴾ هذا الذي يعجبك قوله إذا حضر عنك «سعى في الأرض ليفسد فيها» أي: يجتهد على أعمال المعاصي التي هي إفساد في الأرض «ويهلك الحرث والنسل» فالزروع والثمار والمواشي تلتف وتنقص وتقل بركتها، بسبب العمل في المعاصي، «والله لا يحب الفساد» وإذا كان لا يحب الفساد فهو يبغض العبد المفسد في الأرض غاية البغض، وإن قال بلسانه قولاً حسناً.

وحصول رضا الله، والفوز بالنعيم، المقرب من الرب الرحيم، فصار هذا الدعاء أجمع دعاء وأكملها، وأولاه بالإيثار، ولهذا كان النبي ﷺ يكثر من الدعاء به، ويحث عليه.

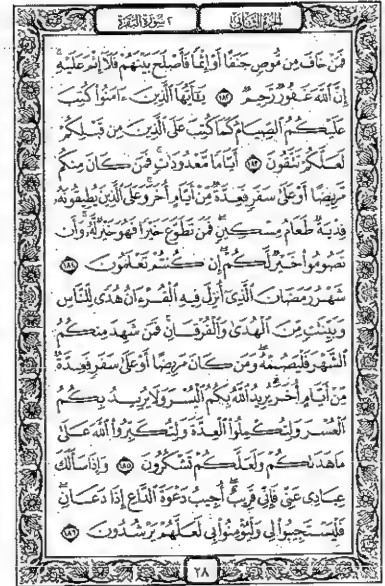
﴿٢٠٣﴾ «واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون» يأمر تعالى بذكره في الأيام المعدودات، وهي أيام التشريق الثلاثة بعد العيد، لمزيتها وشرفها، وكون بقية أحكام المناسك تفعل بها، ولكون الناس أضيافاً لله فيها، ولهذا حرم ضياعها، فللذكر فيها مزية ليست لغيرها، ولهذا قال النبي ﷺ: «أيام التشريق، أيام أكل وشرب، وذكر الله».

ويدخل في ذكر الله فيها ذكره عند رمي الجمار، وعند الذبح، والذكر المقيد عقب الفرائض، بل قال بعض العلماء: إنه يستحب فيها التكبير المطلق كالعشر، وليس ببعيد.

﴿فمن تعجل في يومين﴾ أي: خرج من «منى» ونفر منها قبل غروب شمس اليوم الثاني «فلا إثم عليه، ومن تأخر» بأن بات بها ليلة الثالث ورمى من الغد «فلا إثم عليه» وهذا تخفيف من الله [تعالى] على عباده في إباحة كلا الأمرين، ولكن من المعلوم أنه إذا أباح كلا الأمرين، فالتأخر أفضل لأنه أكثر عبادة.

ولما كان نفي الحرج قد يفهم منه نفي الحرج في ذلك المذكور وفي غيره، والحاصل أن الحرج منفي عن المتقدم، والمتأخر فقط قيده بقوله: «لمن اتقى» أي: اتقى الله في جميع أموره وأحواله الحرج، فمن اتقى الله في كل شيء، حصل له نفي الحرج في كل شيء، ومن اتقاه في شيء دون شيء، كان أجزاء من جنس العمل.

﴿واتقوا الله﴾ بامتنال أوامره واجتناب معاصيه، «واعلموا أنكم إليه تحشرون» فمجازيكم بأعمالكم، فمن اتقاه وجد جزاء التقوى عنده،



الأول حقيق بالقبول والتوفيق لأعمال آخر.

ثم أخبر تعالى عن أحوال الخلق، وأن الجميغ يسألونه مطالبهم، ويستدفعونه ما يضرهم، ولكن مقاصدهم تختلف، فمنهم: «من يقول ربنا آتنا في الدنيا» أي: يسأله من مطالب الدنيا ما هو من شهواته، وليس له في الآخرة من نصيب لرغبته عنها، وقصر همهته على الدنيا، ومنهم من يدعو الله لمصلحة الدارين، ويفتقر إليه في مهمات دينه ودنياه، وكل من هؤلاء وهؤلاء لهم نصيب من كسبهم وعملهم، وسيجازيهم تعالى على حسب أعمالهم وهماهم ونياتهم، جزاء دائراً بين العدل والفضل، يحمد عليه أكمل حمد وأتمه، وفي هذه الآية دليل على أن الله يجيب دعوة كل داع، مسلماً أو كافراً أو أفساقاً، ولكن ليست إجابته دعاء من دعاه دليلاً على محبته له وقربه منه، إلا في مطالب الآخرة ومهمات الدين.

والحسنة المطلوبة في الدنيا يدخل فيها كل ما يحسن وقعه عند العبد، من رزق هنيئ واسع حلال، وزوجة صالحة، وولد تقربه العين، وراحة، وعلم نافع، وعمل صالح، ونحو ذلك من المطالب المحبوبة والمباحة.

وحسنة الآخرة هي السلامة من العقوبات في القبر والموقف، والنار،

وذلك أن الله تعالى يطوي السموات والأرض، وتشر الكواكب، وتكور الشمس والقمر، وتنزل الملائكة الكرام فتحيط بالخالق، وينزل الباري [تبارك] تعالى: ﴿فِي ظِلِّهِ مِنَ الْغَمَامِ﴾ ليفصل بين عباديه بالقضاء العدل.

فتوضع الموازين، وتشر الدواوين، وتبيض وجوه أهل السعادة، وتسود وجوه أهل الشقاوة، ويتميز أهل الخير من أهل الشر، وكل يجازى بعمله، فهناك بعض الظالم على يديه إذا علم حقيقة ما هو عليه.

وهذه الآية وما أشبهها دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، المثبتين للصفات الاختيارية، كالاستواء والتزول والمجيء، ونحو ذلك من الصفات التي أخبر بها تعالى عن نفسه، أو أخبر بها عنه رسوله ﷺ، فيثبتونها على وجه يليق بجلال الله وعظمته، من غير تشبيه ولا تحريف، خلافاً للمعطلة على اختلاف أنواعهم، من الجهمية والمعتزلة والأشعرية، ونحوهم، ممن ينفي هذه الصفات، ويتأول لأجلها الآيات بتأويلات ما أنزل الله عليها من سلطان، بل حقيقتها القدح في بيان الله وبيان رسوله، والزعم بأن كلامهم هو الذي تحصل به الهداية في هذا الباب، فهؤلاء ليس معهم دليل نقلي، بل ولا دليل عقلي، أما النقلي فقد اعترفوا أن النصوص الواردة في الكتاب والسنة، ظاهرها بل صريحها، دال على مذهب أهل السنة والجماعة، وأنها تحتاج لدلائلها على مذهبهم الباطل، أن تخرج عن ظاهرها، ويزاد فيها وينقص، وهذا كما ترى لا يرضيه من في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

وأما العقل فليس في العقل ما يدل على نفي هذه الصفات، بل العقل دل على أن الفاعل أكمل من الذي لا يقدر

فإن زلتم من بعد ما جاءكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم ﴿هذا أمر من الله تعالى للمؤمنين أن يدخلوا﴾ ﴿ففي السلم كافة﴾ أي: في جميع شرائع الدين، ولا يتركوا منها شيئاً، وأن لا يكونوا ممن اتخذ إلهه هواه، وإن وافق الأمر المشروع هواه فعله، وإن خالفه تركه، بل الواجب أن يكون الهوى تبعاً للدين، وأن يفعل كل ما يقدر عليه من أفعال الخير، وما يعجز عنه، يلتزمه وينويه، فيدركه نيته.

ولما كان الدخول في السلم كافة لا يمكن ولا يتصور إلا بمخالقة طرق الشيطان، قال: ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي: في العمل بمعاصي الله ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ والعدو المبين لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء وما به الضرر عليكم. ولما كان العبد لا بد أن يقع منه خلل وزلل، قال تعالى: ﴿فإن زلتم من بعد ما جاءكم البينات﴾ أي: على علم ويقين ﴿فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾.

وفيه من الوعيد الشديد والتخويف ما يوجب ترك الزلل، فإن العزيز القاهر^(٣) الحكيم إذا عصاه العاصي قهره بقوته، وعذبه بمقتضى حكمته، فإن من حكمته تعذيب العصاة والجناة.

﴿٢١٠﴾ ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور﴾ وهذا فيه من الوعيد الشديد والتهديد ما تنخلع له القلوب. يقول تعالى: هل ينتظر الساعون في الفساد في الأرض، المتبعون لخطوات الشيطان، النابذون لأمر الله، إلا يوم الجزاء بالأعمال، الذي قد حشي من الأهوال والشدائد والفظائع ما يقلقل قلوب الظالمين، ويحق به الجزاء السيئ على المفسدين،

ففي هذه الآية دليل على أن الأقوال التي تصدر من الأشخاص ليست دليلاً على صدق ولا كذب، ولا بر ولا فجور، حتى يوجد العمل المصدق لها المزمكي لها، وأنه ينبغي اختبار أحوال الشهود، والمحقق والمبطل من الناس بسبر أعمالهم، والنظر لقرائن أحوالهم، وأن لا يغتر بتمويههم وتركيتهم أنفسهم.

ثم ذكر أن هذا المفسد في الأرض بمعاصي الله، إذا أمر بتقوى الله تكبر وأنف، و﴿أخذته العزة بالإثم﴾ فيجمع بين العمل بالمعاصي والكبر على الناسحين.

﴿فحسبه جهنم﴾ التي هي دار العاصين والتكبرين، ﴿وليس المهاد﴾ أي: المستقر والمسكن عذاب دائم، وهم لا ينقطع، ويأس مستمر، لا يخفف عنهم العذاب ولا يرجون الثواب، جزاء لجناياتهم ومقابلة لأعمالهم، فعياً بالله من أحوالهم.

﴿٢٠٧﴾ ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد﴾ هؤلاء هم الموفقون الذين باعوا أنفسهم وأرخصوها وبذلوا طلباً لمرضاة الله ورجاءاً لثوابه، فهم بذلوا الثمن للمليء الوفي الرؤوف بالعباد، الذي من رأفته ورحمته أن وفقهم لذلك، وقد وعد الوفاء بذلك، فقال: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ إلى آخر الآية. وفي هذه الآية أخبر أنهم اشترى أنفسهم وبذلوا، وأخير برأفته الموجبة لتحصيل ما طلبوا، وبذل ما به رغبوا، فلا تسأل بعد هذا عن ما يحصل لهم من الكريم، وما ينالهم من الفوز والتكريم^(٢).

﴿٢٠٨ - ٢٠٩﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾

(١) في ب: والتكبر.

(٢) من أول الآية إلى هنا ساقط من: ب، وقد قام التجار بتفسير الآية من عند نفسه انظر طبعة التجار (١/ ٢٥٢ - ٢٥٤) ولم يبين أن هذا ليس من كلام الشيخ - رحمه الله -.

(٣) في ب: العزيز المقام.

على الفعل، وأن فعله تعالى المتعلق بنفسه والمتعلق بخلقه هو كمال، فإن زعموا أن إثباتها يدل على التشبيه بخلقه، قيل لهم: الكلام على الصفات يتبع الكلام على الذات، فكما أن الله ذاتاً لا تشبهها الذوات، فله صفات لا تشبهها الصفات، فصفاته تبع لذاته، وصفات خلقه تبع لذواتهم، فليس في إثباتها ما يقتضي التشبيه بوجه.

ويقال أيضاً لمن أثبت بعض الصفات ونفى بعضاً، أو أثبت الأسماء دون الصفات: إما أن تثبت الجميع كما أثبتته الله لنفسه وأثبتته رسوله، وإما أن تنفي الجميع وتكون منكراً لرب العالمين، وأما إثباتك بعض ذلك ونفيك لبعضه، فهذا تناقض، ففرق بين ما أثبتته وما نفيت، ولن تجد إلى الفرق سبيلاً، فإن قلت: ما أثبتته لا يقتضي تشبيهاً، قال لك أهل السنة: والإثبات لما نفيت لا يقتضي تشبيهاً، فإن قلت: لا أعقل من الذي نفيت إلا التشبيه، قال لك النفاة: ونحن لا نعقل من الذي أثبتته إلا التشبيه، فما أجبت به النفاة، أجابك به أهل السنة، لما نفيت.

والحاصل أن من نفى شيئاً وأثبت شيئاً ما دل الكتاب والسنة على إثباته، فهو متناقض، لا يثبت له دليل شرعي ولا عقلي، بل قد خالف المعقول والمقول.

﴿٢١١﴾ «سَلِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَم آتِيَانَهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُدِلْ نِعْمَةً اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» يقول تعالى: «سَلِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَم آتِيَانَهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ» تدل على الحق وعلى صدق الرسل، فتيقنوها وعرفوها، فلم يقوموا بشكر هذه النعمة التي تقتضي القيام بها. بل كفروا بها وبدلوا نعمة الله كفرةً، فلهذا استحقوا أن ينزل الله عليهم عقابه ويحرمهم من ثوابه، وسمى الله

تعالى كفر النعمة تبديلاً لها، لأن من أنعم الله عليه بنعمة دينية أو دنيوية فلم يشكرها ولم يقر بواجبها، اضمحلت عنه وذهبت، وتبدلت بالكفر والمعاصي، فصار الكفر بذل النعمة، وأما من شكر الله تعالى وقام بحقوقها، فإنها تثبت وتستمر، ويزيده الله منها.

﴿٢١٢﴾ «زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ» يجز تعالى أن الذين كفروا بالله وآياته ورسله ولم يتقادوا لشريعته، أنهم زين لهم الحياة الدنيا، فزينت في أعينهم وقلوبهم، فرضوا بها واطمأنوا بها، وصارت أهواؤهم وإراداتهم وأعمالهم كلها لها، فأقبلوا عليها، وأكبوا على تحصيلها، وعظموها وعظموا من شاركهم في صنيعهم، واحتقروا المؤمنين واستهزأوا بهم، وقالوا: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا؟

وهذا من ضعف عقولهم ونظرهم القاصر، فإن الدنيا دار ابتلاء وامتحان، وسيحصل الشقاء فيها لأهل الإيمان والكفران، بل المؤمن في الدنيا وإن ناله مكروه، فإنه يصبر ويحتسب، فيخفف الله عنه بإيمانه، وصبره ما لا يكون لغيره.

وإنما الشأن كل الشأن والتفضيل الحقيقي في الدار الباقية، فلهذا قال تعالى: «وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» فيكون المتقون في أعلى الدرجات، متمتعين بأنواع النعيم والسرور والبهجة والحبور.

والكفار تحتم في أسفل الدرجات، معذبين بأنواع العذاب والإهانة والشقاء السرمدي الذي لا ينتهي له، ففي هذه الآية تسلية للمؤمنين، ونعي على الكافرين: ولما كانت الأزواق الدنيوية والأخروية لا تحصل إلا بتقدير الله، ولئن تنال إلا بمشيئة الله، قال تعالى: «وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ

حِسَابٍ» فالرزق الدنيوي يحصل للمؤمن والكافر، وأما رزق القلوب من العلم والإيمان، ونعمة الله وخشيته ورجائه، ونحو ذلك، فلا يعطيها إلا من يحب.

﴿٢١٣﴾ «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» (أي: كان الناس) [أي: كانوا مجتمعين على الهدى، وذلك عشرة قرون بعد نوح عليه السلام، فلما اختلفوا في الدين فكفر فريق منهم وبقي الفريق الآخر على الدين، وحصل النزاع، وبعث الله الرسل ليفصلوا بين الخلاق ويقوموا بالحجة عليهم، وقيل بل كانوا^(١) مجتمعين على الكفر والضلال والشقاء، ليس لهم نور ولا إيمان، فرحمهم الله تعالى بإرسال الرسل إليهم «مبشرين» من أطاع الله بثمرات الطاعات، من الرزق والقوة في البدن والقلب والحياة الطيبة، وأعلى ذلك الفوز برضوان الله والجنة.

«ومنذرين» من عصى الله بثمرات المعصية، من حرمان الرزق، والضعف والإهانة، والحياة الضيقة، وأشد ذلك سخط الله والنار.

«وأنزل معهم الكتاب بالحق» وهو الإخبارات الصادقة والأوامر العادلة، فكل ما اشتملت عليه الكتب، فهو حق يفصل بين المختلفين في الأصول والفروع، وهذا هو الواجب عند الاختلاف والتنازع، أن يرد الاختلاف إلى الله وإلى رسوله، ولولا أن في كتابه وسنة رسوله فصل النزاع لما أمر بالرد إليهما.

ولما ذكر نعمته العظيمة بإنزال الكتب على أهل الكتاب، وكان هذا

(١) زيادة في هامش ب، لم يحدد محلها، وبالنظر إلى السياق يظهر أن الأقرب أن هذا محلها، ولهذا وليسق الكلام يكون آخره هكذا (وقيل بل كانوا مجتمعين على الكفر) ويكون قوله: (أي كان الناس) مكرراً.

أبدانهم **﴿وزلزلوا﴾** بأنواع المخاوف من التهديد بالقتل، والنفي، وأخذ الأموال، وقتل الأحبة، وأنواع المضار حتى وصلت بهم الحال وآل بهم الزلزال، إلى أن استبطأوا نصر الله مع يقينهم به.

ولكن لشدة الأمر وضيقه قال **﴿الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾**.

فلما كان الفرج عند الشدة، وكلما ضاق الأمر اتسع، قال تعالى: **﴿إلا إن نصر الله قريب﴾** فهكذا كل من قام بالحق فإنه يمتحن.

فكلما اشتدت عليه وصعبت، إذا صبر وثابر على ما هو عليه انقلبت

المحنة في حقه منحة، والمشقات راحت، وأعقبه ذلك الانتصار على الأعداء، وشفاء ما في قلبه من الداء، وهذه الآية نظير قوله تعالى: **﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾**.

وقوله [تعالى: **﴿آلم﴾** * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين] فعند الامتحان، يكرم المرء أو يهان.

﴿٢١٥﴾ **﴿يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فلولو الدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم﴾** أي: يسألونك عن النفقة، وهذا يتم السؤال عن المنفق والمنفق عليه، فأجابهم عنهما، فقال: **﴿قل ما أنفقتم من خير﴾** أي: مال قليل أو كثير، فأولى الناس به وأحقهم بالتقديم، أعظمهم حقاً عليكم، وهم الوالدان الواجب برهما والمحرم عقوقهما، ومن أعظم برهما، النفقة عليهما، ومن أعظم العقوق ترك الإنفاق عليهما، ولهذا كانت النفقة عليهما واجبة، على الولد الموسر، ومن بعد الوالدين الأقربون على اختلاف طبقاتهم، الأقرب فالأقرب، على حسب القرب

بقتضي اتفاقهم عليها واجتماعهم، فأخبر تعالى أنهم بغنى بعضهم على بعض، وحصل النزاع والخصام وكثرة الاختلاف.

فاختلفوا في الكتاب الذي ينبغي أن يكونوا أولى الناس بالاجتماع عليه، وذلك من بعد ما علموه وتيقنوه بالآيات البينات والأدلة القاطعات، فضلوا بذلك ضلالاً بعيداً.

﴿فهدى الله الذين آمنوا﴾ من هذه الأمة **﴿لما اختلفوا فيه من الحق﴾** فكل ما اختلف فيه أهل الكتاب، وأخطأوا فيه الحق والصواب، هدى الله للحق فيه هذه الأمة **﴿بآذنه﴾** تعالى وتيسيره لهم ورحمته.

﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ فعمَّ الخلق تعالى بالدعوة إلى الصراط المستقيم، عدلاً منه تعالى، وإقامة حجة على الخلق، لثلاث يقولوا: **﴿ما جاءنا من بشير ولا نذير﴾** وهدى - بفضلته ورحمته، وإعانتة ولطفه - من شاء من عباده، فهذا فضله وإحسانه، وذاك عدله وحكمته.

﴿٢١٤﴾ **﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب﴾** يخبر تبارك وتعالى أنه لا بد أن يمتحن عباده بالبأساء والضراء والمشقة كما فعل بمن قبلهم، فهي سنته الجارية التي لا تتغير ولا تتبدل، أن من قام بدينه وشرعه لا يد أن يبتليه، فإن صبر على أمر الله ولم يبال بالمكاره الواقفة في سبيله، فهو الصادق الذي قد نال من السعادة كمالها، ومن السيادة ألتها.

ومن جعل فتنة الناس كعذاب الله، بأن صلبته المكاره عما هو بصدد، وثنته المحن عن مقصده، فهو الكاذب في دعوى الإيمان، فإنه ليس الإيمان بالتخلي والتمني ومجرد الدعاوى، حتى تصدق الأعمال أو تكذبه.

فقد جرى على الأمم الأقدمين ما ذكر الله عنهم **﴿مستمهم البأساء﴾** أي: الفقر **﴿والضراء﴾** أي: الأمراض في

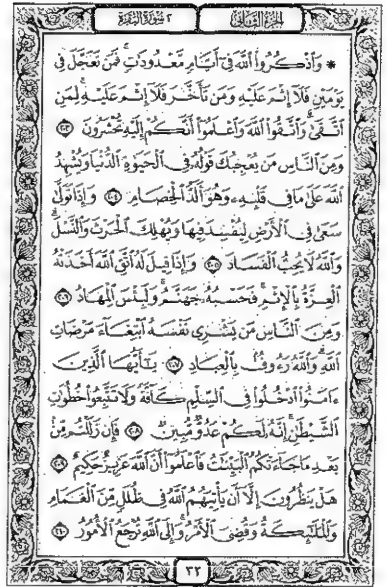


والحاجة، فالإنفاق عليهم صدقة وصلة، **﴿واليتامى﴾** وهم الصغار الذين لا كاسب لهم، فهم في مظنة الحاجة لعدم قيامهم بمصالح أنفسهم، وفقد الكاسب، فوصى الله بهم العباد رحمة منه بهم ولطفاً، **﴿والمساكين﴾** وهم أهل الحاجات وأرباب الضرورات الذين أسكنتهم الحاجة، فينفق عليهم لدفع حاجاتهم وإغنائهم.

﴿وابن السبيل﴾ أي: الغريب المنقطع به في غير بلده، فيعان على سفره بالنفقة التي توصله إلى مقصده.

ولما خصص الله تعالى هؤلاء الأصناف لشدة الحاجة، عمم تعالى، فقال: **﴿وما تفعلوا من خير﴾**: من صدقة على هؤلاء وغيرهم، بل ومن جميع أنواع الطاعات والقربات، لأنها تدخل في اسم الخير، **﴿فإن الله به عليم﴾** فيجازيكم عليه ويحفظه لكم، كل على حسب نيته وإخلاصه، وكثرة نفقته وقلتها، وشدة الحاجة إليها، وعظم وقعها ونفعها.

﴿٢١٦﴾ **﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾** هذه الآية فيها فرض القتال في سبيل الله، بعدما كان المؤمنون مأمورين بتركه، لضعفهم وعدم احتمالهم لذلك، فلما هاجم النبي ﷺ إلى المدينة وكثر



كل أحد بحسبه، من غني وفقير ومتوسط، كل له قدرة على إنفاق ما عفا من ماله، ولو شق عمرة.

ولهذا أمر الله رسوله ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس وصدقاتهم، ولا يكلفهم ما يشق عليهم. ذلك بأن الله تعالى لم يأمرنا بما أمرنا به حاجة منه لنا أو تكليفاً لنا [بما يشق] ^(١)، بل أمرنا بما فيه سعادتنا، وما يسهل علينا، وما به النفع لنا وإخواننا، فيستحق على ذلك أتم الحمد.

ولما بين تعالى هذا البيان الشافي، وأطلع العباد على أسرار شرعه، قال: ﴿كَذَلِكَ يبين الله لكم الآيات﴾ أي: الدالات على الحق، المحصلات للعلم النافع والفرقان، ﴿لعلكم تفكرون في الدنيا والآخرة﴾ أي: لكي تستعملوا أفكاركم في أسرار شرعه، وتعرفوا أن أوامره فيها مصالح الدنيا والآخرة، وأيضاً لكي تفكروا في الدنيا وسرعة انقضائها، فتفرقوها، وفي الآخرة وبقاتها، وأنها دار الجزاء فتعمروها.

﴿٢٢٠﴾ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمَصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنْ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ

في بطونهم ناراً، وسيصلون سعيراً﴾ شق ذلك على المسلمين، وعزلوا طعامهم عن طعام اليتامى خوفاً على أنفسهم من تناولها، ولو في هذه الحالة التي جرت العادة بالمشاركة فيها، وسألوا النبي ﷺ عن ذلك، فأخبرهم تعالى أن المقصود إصلاح أموال اليتامى بحفظها وصيانتها والاتجار فيها، وأن خلطتهم بإياهم في طعام أو غيره جائز على وجه لا يضر باليتامى، لأنهم إخوانكم، ومن شأن الأخ مخالطة أخيه، والمرجع في ذلك إلى النية والعمل، فمن علم الله من نيته أنه مصلح لليتيم، وليس له طمع في ماله، فلو دخل عليه شيء من غير قصد لم يكن عليه بأس، ومن علم الله من نيته أن قصده بالمخالطة التوصل إلى أكلها وتناولها، فذلك الذي خرج وأثم، و «الوسائل لها أحكام المقاصد».

وفي هذه الآية دليل على جواز أنواع المخالطات في المأكول والمشرب، والعقود وغيرها، وهذه الرخصة لطف من الله [تعالى] وإحسان، وتوسعة على المؤمنين، وإلا ف «لو شاء الله لأعنتكم» أي: شق عليكم بعدم الرخصة بذلك فخرجتم، وشق عليكم وأثمت، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ أَيْ: لَهُ الْقُوَّةُ الْكَامِلَةُ وَالْقَهْرُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ «حَكِيمٌ» لَا يَفْعَلُ إِلَّا مَا هُوَ مُقْتَضِي حِكْمَتِهِ الْكَامِلَةِ وَعَنَائَتِهِ التَّامَّةِ، فَعَزَّزَهُ لَا تَنَافِي حِكْمَتُهُ، فَلَا يَقَالُ: إِنَّهُ مَا شَاءَ فَعَلَ، وَافِقُ الْحِكْمَةِ أَوْ خَالِفُهَا، بَلْ يَقَالُ: إِنَّ أَعْمَالَهُ وَكَذَلِكَ أَحْكَامَهُ تَابِعَةٌ لِحِكْمَتِهِ، فَلَا يَخْلُقُ شَيْئاً عَبَثاً، بَلْ لَا بَدْلَ لَهُ مِنْ حِكْمَةٍ عَرَفْنَاهَا أَمْ لَمْ نَعْرِفْهَا، وَكَذَلِكَ لَمْ يَشْرَعْ لِعِبَادِهِ شَيْئاً مَجْرَداً عَنِ الْحِكْمَةِ، فَلَا يَأْمُرُ إِلَّا بِمَا فِيهِ مَصْلَحَةٌ خَالِصَةٌ أَوْ رَاجِحَةٌ، وَلَا يَنْهَى إِلَّا عَمَّا فِيهِ مَفْسَدَةٌ خَالِصَةٌ أَوْ رَاجِحَةٌ، لِتَمَامِ حِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ.

﴿٢٢١﴾ ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ

حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِآذَنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا﴾ النساء ﴿الْمُشْرِكَاتِ﴾ ما دمن على شركهن ﴿حَتَّى يُؤْمِنَ﴾، لأن المؤمنين ولو بلغت من الذمامة ما بلغت خير من المشركة ولو بلغت من الحسن ما بلغت، وهذه عامة في جميع النساء المشركات، وخصصها آية المائدة في إباحة نساء أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا

﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ وهذا عام لا تخصيص فيه. ثم ذكر تعالى الحكمة في تحريم نكاح المسلم أو المسلمة لمن خالفهما في الدين، فقال: ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي: في أقوالهم أو أفعالهم وأحوالهم، فمخالطتهم على خطر منهم، والخطر ليس من الأخطار الدنيوية، إنما هو الشقاء الأبدي.

ويستفاد من تعليل الآية، النهي عن مخالطة كل مشرك ومبتدع، لأنه إذا لم يجز التزوج مع ^(١) أن فيه مصالح كثيرة فاخلطه المجردة من باب أولى، وخصوصاً الخلطة التي فيها ارتفاع المشرك ونجوه على المسلم، كالخدمة ونحوها.

وفي قوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ دليل على اعتبار الولي [في النكاح].

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ﴾ أي: يدعو عباده لتحصيل الجنة والمغفرة التي من آثارها دفع العقوبات، وذلك بالدعوة إلى أسبابها من الأعمال الصالحة، والتوبة النصوح، والعلم النافع، والعمل الصالح.

﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ﴾ أي: أحكامه وحكمها ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيوجب لهم ذلك التذكير لما نسوه، وعلم ما جهلوه، والامتنال لما ضيعوه.

فصدور الكتمان منهن دليل على عدم إيمانهن بالله واليوم الآخر، وإلا فلو آمن بالله واليوم الآخر، وعرفن أنهن مجزيات عن أعمالهن، لم يصدر منهن شيء من ذلك.

وفي ذلك دليل على قبول خبر المرأة عما تخبر به عن نفسها، من الأمر الذي لا يطلع عليه غيرها، كالحيض والحمل ونحوه^(١).

ثم قال تعالى: ﴿وَيَعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: لأزواجهن ما دامت متربصة في تلك العدة، أن يردوهن إلى نكاحهن ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ أي: رغبة وألفة ومودة.

ومفهوم الآية أنهم إن لم يريدوا الإصلاح فليسوا بأحق بردهن، فلا يحل لهم أن يراجعوهن لقصد المضارة لها، وتطويل العدة عليها، وهل يملك ذلك مع هذا القصد؟ فيه قولان.

الجمهور على أنه يملك ذلك مع التحريم، والصحيح أنه إذا لم يرد الإصلاح لا يملك ذلك، كما هو ظاهر الآية الكريمة، وهذه حكممة أخرى في هذا الترتيب، وهي: أنه ربما أن زوجها ندم على فراقه لها، فجعلت له هذه المدة، ليتروى بها ويقطع نظره.

وهذا يدل على محبته تعالى للألفة بين الزوجين، وكرامته للفراق، كما قال النبي ﷺ: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»، وهذا خاص في الطلاق الرجعي، وأما الطلاق البائن فليس البعل بأحق برجعته، بل إن تراضيا على التراجع فلا بد من عقد جديد يجمع الشروط.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: وللنساء على بعولتهن من الحقوق والواجبات مثل الذي عليهن لأزواجهن من الحقوق اللازمة والمستحقة.

ومرجع الحقوق بين الزوجين يرجع

إلى المعروف، وهو: العادة الجارية في ذلك البلد، وذلك الزمان من مثلها لمثله، ويختلف ذلك باختلاف الأزمنة والأمكنة، والأحوال، والأشخاص، والعوائد.

وفي هذا دليل على أن النفقة والكسوة والمعاشرة والسكن وكذلك الوطء - الكل يرجع إلى المعروف، فهذا موجب العقد المطلق.

وأما مع الشرط، فعلى شرطهما، إلا شرطاً أحل حراماً أو حرم حلالاً.

﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ أي: رفعة ورياسة، وزيادة حق عليها، كما قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النَّسَاءِ﴾ بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم.

ومنصب النبوة والقضاء، والإمامة الصغرى والكبرى، وسائر الولايات مختص بالرجال، وله ضعف ما لها في كثير من الأمور، كالإيراث ونحوه.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: له العزة القاهرة والسلطان العظيم، الذي دانت له جميع الأشياء، ولكنه مع عزته حكيم في تصرفه.

ويخرج من عموم هذه الآية الحوامل، فعدهن وضع الحمل، واللاتي لم يدخل بهن فليس لهن عدة، والإماء فعدهن حيضتان، كما هو قول الصحابة رضي الله عنهم، وسياق الآيات^(٢) يدل على أن المراد بها الحرة.

﴿٢٢٩﴾ ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يَقِيمَا حَدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَفْتَقِدَا اللَّهَ فَمَا تَعُدُّوهُمَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حَدُودَ اللَّهِ فَاُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ كان الطلاق في الجاهلية، واستمر أول الإسلام، يُطلق الرجل زوجته بلا نهاية، فكان إذا أراد مضاربتها طلقها، فإذا شارفت انقضاء عدتها راجعها، ثم طلقها، وصنع بها مثل

ذلك أبداً، فيحصل عليها من الضرر ما الله به عليم، فأخبر تعالى أن ﴿الطَّلَاقُ﴾ أي: الذي تحصل به الرجعة ﴿مَرَّتَانٍ﴾ ليمكن الزوج إن لم يرد المضارة من ارتجاعها، ويراجع رأيه في هذه المدة، وأما ما فوقها فليس محلاً لذلك، لأن من زاد على الشئتين فيما متجرىء على المحرم، أو ليس له رغبة في إمساكها، بل قصده المضارة، فلماذا أمر تعالى الزوج أن يمسك زوجته أمر تعالى الزوج أن يمسك زوجته، ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: عشرة حسنة، ويجري مجرى أمثاله مع زوجاتهم، وهذا هو الأرجح، وإلا يسرحها ويفارقها ﴿بِإِحْسَانٍ﴾ ومن الإحسان أن لا يأخذ على فراقه لها شيئاً من مالها، لأنه ظلم، وأخذ للمال في غير مقابلة شيء، فلماذا قال: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَنْ لَا يَقِيمَا حَدُودَ اللَّهِ﴾ وهي المخالعة بالمعروف، بأن كرهت الزوجة زوجها خلقه أو خلقه أو نقص دينه، وخافت أن لا تطيع الله فيه، ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا يَقِيمَا حَدُودَ اللَّهِ فَلَاحِجَّاحٍ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ؟﴾ لأنه عوض لتحصيل مقصودها من الفقرة، وفي هذا مشروعية الخلع، إذا وجدت هذه الحكمة.

﴿تِلْكَ﴾ أي: ما تقدم من الأحكام الشرعية ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: أحكامه التي شرعها لكم، وأمر بالوقوف معها، ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حَدُودَ اللَّهِ فَاُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وأي: ظلم أعظم ممن اقتحم الحلال، وتعدي منه إلى الحرام، فلم يسعه ما أحل الله؟ والظلم ثلاثة أقسام:

ظلم العبد فيما بينه وبين الله، وظلم العبد الأكبر الذي هو الشرك، وظلم العبد فيما بينه وبين الخلق، فالشرك لا يغفره الله إلا بالتوبة، وحقوق العباد لا يترك الله منها شيئاً، والظلم الذي بين العبد وربيه فيما دون الشرك، تحت المشيئة والحكمة.

﴿٢٣٠ - ٢٣١﴾ ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا

تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون * وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضراراً لاعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزواً واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب وأن الله بكل شيء عليم * يقول تعالى: ﴿فإن طلقها﴾ أي: الطلقة الثالثة ﴿فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره﴾ أي: نكاحاً صحيحاً ويطؤها، لأن النكاح الشرعي لا يكون إلا صحيحاً، ويدخل فيه العقد والوطء، وهذا بالاتفاق.

ويشترط^(١) أن يكون نكاح الثاني نكاح رغبة، فإن قصد به تحليلها للأول فليس بنكاح، ولا يفيد التحليل، ولا يفيد وطء السيد لأنه ليس بزواج، فإذا تزوجها الثاني رغباً ووطئها ثم فارقها وانقضت عدتها ﴿فلا جناح عليهما﴾ أي: على الزوج الأول والزوجة ﴿أن يتراجعا﴾ أي: يجعدا عقداً جديداً بينهما، لإضافته التراجع إليهما، فدل على اعتبار التراضي.

ولكن يشترط في التراجع أن يظنا ﴿أن يقيما حدود الله﴾ بأن يقوم كل منهما بحق صاحبه، وذلك إذا ندما على عسرتهما السابقة الموجبة للفراق، وعزما أن يبدلاها بعشرة حسنة، فهذا لا جناح عليهما في التراجع.

ومفهوم الآية الكريمة أنهما إن لم يظنا أن يقيما حدود الله، بأن غلب على ظنهما أن الحال السابقة باقية، والعشرة السيئة غير زائلة أن عليهما في ذلك جناحاً، لأن جميع الأمور إن لم يقم فيها أمر الله، ويسلك بها طاعته، لم يحل الإقدام عليها.

وفي هذا دلالة على أنه ينبغي للإنسان إذا أراد أن يدخل في أمر من

الأمور، خصوصاً الولايات الضغار والكبار، نظر في نفسه^(٢)، فإن رأى من نفسه قوة على ذلك ووثق بها، أقدم ولا أحجم.

ولما بين الله تعالى هذه الأحكام العظيمة، قال: ﴿وتلك حدود الله﴾ أي: شرائعه التي حددها وبيّنها ووضحها.

﴿يبينها لقوم يعلمون﴾ لأنهم هم المتفعون بها، النافعون لغيرهم.

وفي هذا من فضيلة أهل العلم ما لا يخفى، لأن الله تعالى جعل تبينه لحدوده خاصاً بهم، وأنهم المقصودون بذلك، وفيه أن الله تعالى يحب من عباده، معرفة حدود ما أنزل على رسوله والتفقه بها.

ثم قال تعالى: ﴿وإذا طلقتم النساء﴾ أي: طلاقاً رجعيّاً بواحدة أونتين.

﴿فبلغن أجلهن﴾ أي: قاربن انقضاء عدتهن.

﴿فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف﴾ أي: إما أن تراجعوهن وتبتكن القيام بحقوقهن، أو تتركوهن بلا رجعة ولا إضرار، ولهذا قال: ﴿ولا تمسكوهن ضراراً﴾ أي: مضارة بهن ﴿لاعتدوا﴾ في فعلكم هذا

الحلال، إلى الحرام، فالحلال: الإمساك بمعروف^(٣)، والحرام: المضارة، ﴿ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه﴾ ولو كان الحق يعود للمخلوق فالضرر عائد إلى من أراد الضرر.

﴿ولا تتخذوا آيات الله هزواً﴾ لما بين تعالى حدوده غاية التبيين، وكان المقصود العلم بها والعمل، والوقوف معها وعدم مجاوزتها، لأنه تعالى لم ينزلها عبثاً، بل أنزلها بالحق والصدق والجد، نهى عن اتخاذها هزواً، أي: لعباً بها، وهو التجرؤ عليها، وعدم الامتثال لواجبها، مثل استعمال المضارة في الإمساك أو الفراق، أو كثرة الطلاق، أو جمع الثلاث، والله من رحته جعل له واحدة بعد واحدة، وفقاً

به وسعياً في مصلحته. ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ عموماً، باللسان ثناءً وحداً، وبالقلب اعترافاً وإقراراً، وبالأركان بصرفها في طاعة الله، ﴿وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة﴾ أي: السنة، اللذين بين لكم بهما طرق الخير ورجبكم فيها، وطرق الشر وحذركم إياها، وعزفكم أنفسه ووقائعه في أولياته وأعدائه، وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.

وقيل: المراد بالحكمة أسرار الشريعة، فالكتاب فيه الحكم، والحكمة فيها بيان حكمه الله في أوامره ونواهيه، وكلا المعنيين صحيح، ولهذا قال: ﴿يعظكم به﴾ أي: بما أنزل عليكم، وهذا مما يقبوري أن المراد بالحكمة أسرار الشريعة، لأن الموعظة ببيان الحكم والحكمة، والترغيب أو التهيب، فالحكم به يزول الجهل، والحكمة مع الترغيب يوجب الرغبة، والحكمة مع التهيب يوجب الرهبة.

﴿واتقوا الله﴾ في جميع أموركم ﴿واعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾ فلهاذا بين لكم هذه الأحكام بغاية الإقتان والإحكام، التي هي جارية مع المصالح في كل زمان ومكان [فله الحمد والمنة].

﴿٢٣٢﴾ ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ هذا خطاب لأولياء المرأة المطلقة دون الثلاث، إذا خرجت من العدة، وأراد زوجها أن ينكحها ورضيت بذلك، فلا يجوز لوليها من أب وغيره أن يعضلها، أي: يمنعها من التزوج به حتماً عليه وغضباً، واشتمزازاً لما فعل من الطلاق الأول.

وذكر أن من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإيمانه يمنعه من العضل، فإن ذلك أزكى لكم وأطهر وأطيب مما يظن

(٢) في ب: أن ينظر.

(٣) في ب: بالمعروف.

(١) في ب: ويتعين.

الولي أن عدم تزويجه هو الرأي : واللاق، وأنه يقابل بطلانه الأول بعدم التزويج له^(١)، كما هو عادة المترفعين المتكبرين.

فإن كان يظن أن المصلحة في عدم تزويجه، فالله **«يعلم وأنتم لا تعلمون»** فامتثلوا أمر من هو عالم بمصالحكم، مريد لها، قادر عليها، ميسر لها من الوجه الذي تعرفون وغيره.

وفي هذه الآية دليل على أنه لا بد من الولي في النكاح، لأنه نهى الأولياء عن العضل، ولا ينهاهم إلا عن أمر هو تحت تدبيرهم ولهم فيه حق.

﴿٢٣٣﴾ ثم قال تعالى : **«والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك فإن أراداً فصلاً عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتكم بالمعروف واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير»**

هذا خبر بمعنى الأمر، تنزيلاً له منزلة المقرر الذي لا يحتاج إلى أمر بأن **«يرضعن أولادهن حولين»**.

ولما كان الحول يطلق على الكامل وعلى معظم الحول، قال : **«كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة»** فإذا تم للرضيع حولان فقد تم رضاعه، وضار اللبن بعد ذلك بمنزلة سائر الأغذية، فلهاذا كان الرضاع بعد الحولين غير معتبر لا يحرم.

ويؤخذ من هذا النص، ومن قوله تعالى : **«وحمله وفصاله ثلاثون شهراً»** أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وأنه يمكن وجود الولد بها. **«وعلى المولود له»** أي : الأب **«رزقهن وكسوتهن بالمعروف»** وهذا

شامل لما إذا كانت في حباله أو مطلقة، فإن على الأب رزقها، أي : نفقتها وكسوتها، وهي الأجرة للرضاع.

ودل هذا على أنها إذا كانت في حباله، لا يجب لها أجرة غير النفقة والكسوة، وكل بحسب حاله، فلهاذا قال : **«لا تكلف نفس إلا وسعها»** فلا يكلف الفقير أن ينفق نفقة الغني، ولا من لم يجد شيئاً بالنفقة حتى يجد، **«لا تضار والدة بولدها، ولا مولود له بولده»** أي : لا يحل أن تضار والدة بسبب ولدها، إما أن تمتنع من إرضاعه، أو لا تعطى ما يجب لها من النفقة والكسوة أو الأجرة، **«ولا مولود له بولده»** بأن تمتنع من إرضاعه على وجه المضارة له، أو تطلب زيادة عن الواجب، ونحو ذلك من أنواع الضرر.

ودل قوله : **«مولود له»** أن الولد لأبيه، لأنه موهوب له، ولأنه من كسبه، فلذلك جاز له الأخذ من ماله رضي أو لم يرض، بخلاف الأم. وقوله : **«وعلى الوارث مثل ذلك»** أي : على وارث النطفة إذا عدم الأب وكان الطفل ليس له مال، مثل ما على الأب من النفقة للمرضع والكسوة، فدل على وجوب نفقة الأقارب المعسرين على القريب الوارث المونسر، **«فإن أراداً»** أي : الأبوان **«فصلاً»** أي : فطام الصبي قبل الحولين، **«عن تراض منهما»** بأن يكونا راضيين **«وتشاور»** فيما بينهما، هل هو مصلحة للصبي أم لا؟ فإن كان مصلحة ورضيا **«فلا جناح عليهما»** في فطامه قبل الحولين. فدللت الآية بمفهومها على أنه إن رضي أحدهما دون الآخر، أو لم يكن مصلحة للطفل، أنه لا يجوز فطامه.

وقوله : **«وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم»** أي : تطلبوا لهم المراضع غير أمهاتهم على غير وجه المضارة، **«فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتكم بالمعروف»** أي : للمرضعات، **«والله**

في الدنيا والآخرة ويؤتيك من حيث لا تعلم» **﴿٢٣٤﴾** **«والذين يثرفون أموالهم يحذرون عرشاً فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير»** أي : إذا توفي الزوج مكثت زوجته مرتبة أربعة أشهر وعشرة أيام وجوياً، والحكمة في ذلك، ليتبين الحمل في مدة الأربعة، ويتحرك في ابتدائه في الشهر الخامس، وهذا العام مخصوص بالحوامل، فإن عدتهن بوضع الحمل، وكذلك الأمة عدتها على النصف من عدة الحرة، شهران وخمسة أيام. وقوله : **«فإذا بلغن أجلهن»** أي : انقضت عدتهن **«فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن»** أي : من مراجعتها للزينة والطيب، **«بالمعروف»** أي : على وجه غير محرم ولا مكروه. وفي هذا وجوب الإحداد مدة العدة على المتوفى عنها زوجها، دون غيرها من المطلقات والمفارقات، وهو مجمع عليه بين العلماء.

﴿٢٣٥﴾ **«والله بما تعملون خبير»** أي : عالم بأعمالكم ظاهرها وباطنها، جليها وخفيها، فمجازيكم عليها. وفي خطابه للأولياء بقوله : **«فلا**

والكرم، ولهذا قال ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ثم قال تعالى:

﴿٢٤٠﴾ ﴿وَالَّذِينَ يَتوفُونَ مِنْكُمْ

وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا

إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا

جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ

مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي:

الأزواج الذين يموتون ويتركون

خلفهم أزواجاً فعليهم أن يوصوا

﴿وصية لأزواجهم مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ

إِخْرَاجٍ﴾ أي: يوصون أن يلزم من بيوتهم

مدة سنة لا يخرجن منها ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾

من أنفسهن ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها

الأولياء ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ

مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: من

مراجعة الزينة والطيب ونحو ذلك

وأكثر المفسرين أن هذه الآية منسوخة

بما قبلها وهي قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَتوفُونَ

مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ

أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ وقيل لم تنسخها

بل الآية الأولى دلت على أن أربعة أشهر

وعشر واجبة، وما زاد على ذلك فهي

مستحبة ينبغي فعلها تكميلاً لحق

الزوج، ومراعاة للزوجة، والدليل على

أن ذلك مستحب أنه هنا نفى الجناح

عن الأولياء إن خرجن قبل تكميل

الحول، فلو كان لزوم المسكن واجباً لم

ينف الخرج عنهم.

﴿٢٤١-٢٤٢﴾ ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ

مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾

كذلك بين الله لكم آياته لعلكم

تعقلون﴾ أي: لكل مطلقة متاع

بالمعروف حقاً على كل متق، جبراً

لخاظرها وأداء لبعض حقوقها، وهذه

المتعة واجبة على من طلقت قبل

المنيس، والفرض سنة في حق غيرها

كما تقدم، هذا أحسن ما قيل فيها،

وقيل إن المتعة واجبة على كل مطلقة

احتجاجاً بعموم هذه الآية، ولكن

القاعدة أن المطلق محمول على المقيد،

وتقدم أن الله فرض المتعة للمطلقة قبل

الفرض والمنيس خاصة، ولما بين تعالى

هذه الأحكام العظيمة المشتملة على

﴿٢٣٨-٢٣٩﴾ ﴿حَافِظُوا عَلَى

الصَّلَاةِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ

قَانِتِينَ * فَإِنْ خَفْتُمْ فِرْجَالًا أَوْ رُكْبَانًا

فَإِذَا أَمَنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ

تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ يأمر بالمحافظة على

الصلوات عموماً وعلى الصلاة

الوسطى، وهي العصر خصوصاً،

والمحافظة عليها أداؤها بوقتها

وشروطها وأركانها وخشوعها وجميع

ما لها من واجب ومستحب،

وبالمحافظة على الصلوات تحصل

المحافظة على سائر العبادات، وتفيد

النهي عن الفحشاء والمنكر خصوصاً إذا

أكملها كما أمر بقوله: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ

قَانِتِينَ﴾ أي: ذليين خاشعين، ففيه

الأمر بالقيام والقنوت والنهي عن

الكلام، والأمر بالخشوع، هذا مع

الآمن والطمأنينة ﴿فَإِنْ خَفْتُمْ﴾ ^(١) لم

يذكر ما يخاف منه ليشمل الخوف من

كافر وظالم وسبع، وغير ذلك من أنواع

المخاوف، أي: إن خفتم بصلاتكم على

تلك الصفة فصلوها ﴿رُجَالًا﴾ أي:

على أقدامكم، ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ على الخيل

والإبل وغيرها، ويلزم على ذلك أن

يكونوا مستقبل القبلة وغير مستقبلها،

وفي هذا زيادة التأكيد على المحافظة على

وقتها حيث أمر بذلك ولو مع الإخلال

بكثير من الأركان والشروط، وأنه

لا يجوز تأخيرها عن وقتها ولو في هذه

الحالة الشديدة، فصلايتها على تلك

الصورة أحسن وأفضل بل أوجب من

صلاتها مطمئناً خارج الوقت ﴿فَإِذَا

أَسْنَمْتُمْ﴾ أي: زال الجنوف عنكم

﴿فَأَذْكُرُوا اللَّهَ﴾ وهذا يشمل جميع أنواع

الذكر ومنه الصلاة على كمالها وتمامها

﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾

فإنها نعمة عظيمة ومنة جسيمة،

تقتضي مقابلتها بالذكر والشكر ليعني

نعمته عليكم ويزيدكم عليها، ثم قال

وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

الحكمة والرحمة امتن بها على عباده فقال: ﴿كذلك بين الله لكم آياته﴾ أي: حدوده، وحلاله وحرامه والأحكام النافعة لكم، لعلكم تعقلونها فتعرفونها وتعرفون المقصود منها، فإن من عرف ذلك أوجب له العمل بها، ثم قال تعالى:

﴿٢٤٣-٢٤٥﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ

خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ

الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ

إِنَّ اللَّهَ لِلذِّكْرِ فَضْلٌ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ

النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ وقاتلوا في

سبيل الله واعلموا أن الله سميع

عليم﴾ من ذا الذي يقرض الله قرضاً

حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله

يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾ يقص

تعالى علينا قصة الذين خرجوا من

ديارهم على كثرتهم واتفاق مقاصدهم،

بأن الذي أخرجهم منها حذر الموت من

وباء أو غيره، يقصدون بهذا الخروج

السلامة من الموت، ولكن لا يغني

حذر عن قدر، ﴿فَقَالَ اللَّهُ لَهُمْ مُوتُوا﴾

فماتوا ﴿ثُمَّ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى﴾ ﴿أَحْيَاهُمْ﴾

إما بدعوة نبي أو بغير ذلك، رحمة بهم

ولطفاً وحلماً، وبياناً لآياته خلّقه

بأحياء الموتى، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ

يَحْيِي الْمَوْتَى﴾

﴿٢٤٦﴾ ﴿وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

﴿٢٤٧﴾ ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾

﴿٢٤٨﴾ ﴿وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

﴿٢٤٩﴾ ﴿وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

﴿٢٥٠﴾ ﴿وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

﴿٢٥١﴾ ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾

﴿٢٥٢﴾ ﴿وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

(١) من هنا بدأ الاختلاف بين النسخين، وقد أشرت إليه في المقدمة بشيء من التفصيل وقد أثبت التفسير المأخوذ من النسخة ب في



لذو فضل ﴿أي: عظيم﴾ على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴿فلا تزيدهم النعمة شكراً، بل ربما استعانوا بنعم الله على معاصيه، وقيل منهم الشكور الذي يعرف النعمة ويقرها ويصرفها في طاعة المنعم، ثم أمر تعالى بالقتال في سبيله، وهو قتال الأعداء الكفار لإعلاء كلمة الله ونصر دينه، فقال: ﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴾ أي: فأحسنوا نياتكم واقتصدوا بذلك وجه الله، واعلموا أنه لا يفيدكم القعود عن القتال شيئاً، ولو ظننتم أن في القعود حياتكم وبقاءكم، فليس الأمر كذلك، ولهذا ذكر القصة السابقة توطئة لهذا الأمر، فكما لم ينفع الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت وخروجهم: بل أتاهم ما حذروا من غير أن يحتسبوا، فاعلموا أنكم كذلك، ولما كان القتال في سبيل الله لا يتم إلا بالنفقة وبذل الأموال في ذلك، أمر تعالى بالإنفاق في سبيله ورغب فيه، وسماه قرضاً فقال: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ فينفق ما تيسر من أمواله في طرق الخيرات، خصوصاً في الجهاد، والحسن هو الحلال المقصود به وجه الله تعالى، ﴿فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾. الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، بحسب حالة المتفق ونيته ونفع نفقته والحاجة

اليها، ولما كان الإنسان ربما توهم أنه إذا أنفق افتقر دفع تعالى هذه الوهم بقوله: ﴿والله يقبض ويبسط﴾ أي: يوسع الرزق على من يشاء ويقبضه عن من يشاء، فالتصرف كله بيديه ومدار الأمور راجع إليه، فالإمساك لا يبسط الرزق، والإنفاق لا يقبضه، ومع ذلك فالإنفاق غير ضائع على أهله، بل لهم يوم يجدون ما قدموه كاملاً موفراً مضاعفاً، فلماذا قال ﴿والله يرجعون﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

ففي هذه الآيات دليل على أن الأسباب لا تنفع مع القضاء والقدر، وخصوصاً الأسباب التي تترك بها أوامر الله. وفيها: الآية العظيمة بإحياء الموتى أعياناً في هذه الدار. وفيها: الأمر بالقتال والنفقة في سبيل الله، وذكر الأسباب الداعية لذلك الحاة عليه، من تسميته قرضاً، ومضاعفته، وأن الله يقبض ويبسط وإليه ترجعون.

﴿٢٤٦ - ٢٤٨﴾ ﴿ألم تدر إلى الملاء من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم﴾ والله عليم بالظالمين ﴿وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم﴾ وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سَكِينَةٌ من ربكم ويكنية بها ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾ يقص تعالى على نبيه قصة الملاء من بني إسرائيل وهم الأشراف والرؤساء، وخص الملاء بالذكر، لأنهم في العادة هم الذين يبحثون عن مصالحهم ليتفقوا فيتبعهم غيرهم على ما يرونه، وذلك أنهم أتوا إلى نبي لهم بعد موسى عليه السلام

فقالوا له ﴿ابعث لنا ملكاً﴾ أي: عين لنا ملكاً ﴿نقاتل في سبيل الله﴾ ليجتمع متفرقنا ويقاوم بنا عدونا، ولعلمهم في ذلك الوقت ليس لهم رئيس يجمعهم، كما جرت عادة القبائل أصحاب البيوت، كل بيت لا يرضى أن يكون من البيت الآخر رئيساً، فالتمسوا من نبيهم تعيين ملك يرضي الطرفين ويكون تعيينه خاصاً لعوائدهم، وكانت أنبياء بني إسرائيل تسوسهم، كلما مات نبي خلفه نبي آخر، فلما قالوا لنبيهم تلك المقالة قال لهم نبيهم ﴿هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا﴾ أي: لعلمكم تطلبون شيئاً وهو إذا كتب عليكم لا تقومون به، فعرض عليهم العافية فلم يقبلوها، واعتمدوا على عزمهم ونيتهم، فقالوا: ﴿وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾ أي: أي شيء يمنعنا من القتال وقد ألجأنا إليه، بأن أخرجنا من أوطاننا وسبيت ذرائعنا، فهذا موجب لكوننا نقاتل ولو لم يكتب علينا، فكيف مع أنه فرض علينا وقد حصل ما حصل، ولهذا لما لم تكن نيابهم حسنة ولم يقو توكلمهم على ربهم ﴿فلما كتب عليهم القتال تولوا﴾ فجنبوا عن قتال الأعداء وضعفوا عن المصادمة، وزال ما كانوا عزموا عليه، وأستول على أكثرهم الخور والجبن ﴿إلا قليلاً منهم﴾ فعصمهم الله وثبتهم وقوى قلوبهم فالتزموا أمر الله ووطنوا أنفسهم على مقارعة أعدائه، فجازوا شرف الدنيا والآخرة، وأما أكثرهم فظلموا أنفسهم وتركوا أمر الله، فلماذا قال: ﴿والله عليم بالظالمين﴾ وقال لهم نبيهم ﴿مجيئاً لطلبتهن﴾ إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ﴿فكان هذا تعييناً من الله الواجب عليهم فيه القبول والانقياد وترك الاعتراض، ولكن أبوا إلا أن يعترضوا، فقالوا: ﴿أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال﴾ أي: كيف يكون ملكاً وهو دوننا في الشرف والنسب ونحن أحق بالملك منه. ومع هذا فهو

شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد ﴿٢٥٤﴾ يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض بما خصهم من بين سائر الناس بإيحاؤه وإرسالهم إلى الناس، ودعائهم الخلق إلى الله، ثم فضل بعضهم على بعض بما أودع فيهم من الأوصاف الحميدة والأفعال السنية والنفع العام، فمنهم من كلمه الله كموسى بن عمران خصه بالكلام، ومنهم من رفعه على سائرهم درجات كنبينا ﷺ الذي اجتمع فيه من الفضائل ما تفرق في غيره، وجمع الله له من المناقب ما فاق به الأولين والآخرين ﴿٢٥٥﴾ وآتينا عيسى ابن مريم البينات الدالات على نبوته وأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴿٢٥٦﴾ وأيدناه بروح القدس ﴿٢٥٧﴾ أي: بالإيمان واليقين الذي أيده به الله وقواه على ما أمر به، وقيل أيده بجبريل عليه السلام يلازمه في أحواله ﴿٢٥٨﴾ ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءهم البينات ﴿٢٥٩﴾ ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ﴿٢٦٠﴾ فكان موجب هذا الاختلاف التفرق والمعاداة والمقاتلة، ومع هذا فلو شاء الله بعد هذا الاختلاف ما اقتتلوا، فدل ذلك على أن مشيئة الله نافذة غالبية الأسباب، وإنما تنفع الأسباب مع عدم معارضة المشيئة، فإذا وجدت اضمحل كل سبب، وزال كل موجب، فلهذا قال ﴿٢٦١﴾ ولكن الله يفعل ما يريد ﴿٢٦٢﴾ فإذا تهيأت مشيئته نافذة، وفي هذا ونحوه دلالة على أن الله تعالى لم يزل يفعل ما اقتضته مشيئته وحكمته، ومن جملة ما يفعله ما أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسوله ﷺ من الاستواء والنزول والأقوال، والأفعال التي يعبرون عنها بالأفعال الاختيارية. فائدة: كما يجب على المكلف معرفته بربه، فيجب عليه معرفته برسله، ما يجب لهم ويمتنع عليهم ويجوز في حقهم، ويؤخذ جميع ذلك مما وصفهم الله به في آيات متعددة، منها: أنهم رجال لا نساء، فمن أهل

وفي هذه القصة من الآيات والعبر ما يتذكر به أولو الألباب، فمنها: أن اجتماع أهل الكلمة والحل والعقد وبحثهم في الطريق الذي تستقيم به أمورهم وفهمه، ثم العمل به، أكبر سبب لارتقائهم وحصول مقصودهم، كما وقع لهؤلاء الملأ عين راجعوا إليهم في تعيين ملك تجتمع به كلمتهم ويلم متفرقهم، وتحصل له الطاعة منهم، ومنها: أن الحق كلما عورض وأوردت عليه الشبه ازداد وضوحاً وتميز وحصل به اليقين التام كما جرى لهؤلاء، لما اعترضوا على استحقاق طالوت للملك أجيبوا بأجوبة حصل بها الإقناع وزوال الشبه والريب. ومنها: أن العلم والرأي: مع القوة المنفذة بهما كمال الولايات، ويفقد أحدهما أو فقد أحدهما نقصانها وضررها. ومنها: أن الاتكال على النفس سبب الفشل والخذلان، والاستعانة بالله والصبر والالتجاء إليه سبب النصر، فالأول كما في قولهم لنبئهم ﴿٢٦٣﴾ وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ﴿٢٦٤﴾ فكانه نتيجة ذلك أنه لما كتب عليهم القتال تولوا، والثاني في قوله: ﴿٢٦٥﴾ ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴿٢٦٦﴾ فهزمهم بإذن الله ﴿٢٦٧﴾ ومنها: أن من حكمه الله تعالى تمييز الخبيث من الطيب، والصادق من الكاذب، والصابر من الجبان، وأنه لم يكن ليدبر العباد على ما هم عليه من الاختلاط وعدم التمييز. ومنها: أن من رحمة وسنته الجارية أن يدفع ضرر الكفار والمنافقين بالمؤمنين المقاتلين، وأنه لولا ذلك لفسدت الأرض باستيلاء الكفر وشعاثه عليها، ثم قال تعالى:

﴿٢٥٣﴾ ﴿٢٥٤﴾ ﴿٢٥٥﴾ ﴿٢٥٦﴾ ﴿٢٥٧﴾ ﴿٢٥٨﴾ ﴿٢٥٩﴾ ﴿٢٦٠﴾ ﴿٢٦١﴾ ﴿٢٦٢﴾ ﴿٢٦٣﴾ ﴿٢٦٤﴾ ﴿٢٦٥﴾ ﴿٢٦٦﴾ ﴿٢٦٧﴾ ﴿٢٦٨﴾ ﴿٢٦٩﴾ ﴿٢٧٠﴾ ﴿٢٧١﴾ ﴿٢٧٢﴾ ﴿٢٧٣﴾ ﴿٢٧٤﴾ ﴿٢٧٥﴾ ﴿٢٧٦﴾ ﴿٢٧٧﴾ ﴿٢٧٨﴾ ﴿٢٧٩﴾ ﴿٢٨٠﴾ ﴿٢٨١﴾ ﴿٢٨٢﴾ ﴿٢٨٣﴾ ﴿٢٨٤﴾ ﴿٢٨٥﴾ ﴿٢٨٦﴾ ﴿٢٨٧﴾ ﴿٢٨٨﴾ ﴿٢٨٩﴾ ﴿٢٩٠﴾ ﴿٢٩١﴾ ﴿٢٩٢﴾ ﴿٢٩٣﴾ ﴿٢٩٤﴾ ﴿٢٩٥﴾ ﴿٢٩٦﴾ ﴿٢٩٧﴾ ﴿٢٩٨﴾ ﴿٢٩٩﴾ ﴿٣٠٠﴾ ﴿٣٠١﴾ ﴿٣٠٢﴾ ﴿٣٠٣﴾ ﴿٣٠٤﴾ ﴿٣٠٥﴾ ﴿٣٠٦﴾ ﴿٣٠٧﴾ ﴿٣٠٨﴾ ﴿٣٠٩﴾ ﴿٣١٠﴾ ﴿٣١١﴾ ﴿٣١٢﴾ ﴿٣١٣﴾ ﴿٣١٤﴾ ﴿٣١٥﴾ ﴿٣١٦﴾ ﴿٣١٧﴾ ﴿٣١٨﴾ ﴿٣١٩﴾ ﴿٣٢٠﴾ ﴿٣٢١﴾ ﴿٣٢٢﴾ ﴿٣٢٣﴾ ﴿٣٢٤﴾ ﴿٣٢٥﴾ ﴿٣٢٦﴾ ﴿٣٢٧﴾ ﴿٣٢٨﴾ ﴿٣٢٩﴾ ﴿٣٣٠﴾ ﴿٣٣١﴾ ﴿٣٣٢﴾ ﴿٣٣٣﴾ ﴿٣٣٤﴾ ﴿٣٣٥﴾ ﴿٣٣٦﴾ ﴿٣٣٧﴾ ﴿٣٣٨﴾ ﴿٣٣٩﴾ ﴿٣٤٠﴾ ﴿٣٤١﴾ ﴿٣٤٢﴾ ﴿٣٤٣﴾ ﴿٣٤٤﴾ ﴿٣٤٥﴾ ﴿٣٤٦﴾ ﴿٣٤٧﴾ ﴿٣٤٨﴾ ﴿٣٤٩﴾ ﴿٣٥٠﴾ ﴿٣٥١﴾ ﴿٣٥٢﴾ ﴿٣٥٣﴾ ﴿٣٥٤﴾ ﴿٣٥٥﴾ ﴿٣٥٦﴾ ﴿٣٥٧﴾ ﴿٣٥٨﴾ ﴿٣٥٩﴾ ﴿٣٦٠﴾ ﴿٣٦١﴾ ﴿٣٦٢﴾ ﴿٣٦٣﴾ ﴿٣٦٤﴾ ﴿٣٦٥﴾ ﴿٣٦٦﴾ ﴿٣٦٧﴾ ﴿٣٦٨﴾ ﴿٣٦٩﴾ ﴿٣٧٠﴾ ﴿٣٧١﴾ ﴿٣٧٢﴾ ﴿٣٧٣﴾ ﴿٣٧٤﴾ ﴿٣٧٥﴾ ﴿٣٧٦﴾ ﴿٣٧٧﴾ ﴿٣٧٨﴾ ﴿٣٧٩﴾ ﴿٣٨٠﴾ ﴿٣٨١﴾ ﴿٣٨٢﴾ ﴿٣٨٣﴾ ﴿٣٨٤﴾ ﴿٣٨٥﴾ ﴿٣٨٦﴾ ﴿٣٨٧﴾ ﴿٣٨٨﴾ ﴿٣٨٩﴾ ﴿٣٩٠﴾ ﴿٣٩١﴾ ﴿٣٩٢﴾ ﴿٣٩٣﴾ ﴿٣٩٤﴾ ﴿٣٩٥﴾ ﴿٣٩٦﴾ ﴿٣٩٧﴾ ﴿٣٩٨﴾ ﴿٣٩٩﴾ ﴿٤٠٠﴾ ﴿٤٠١﴾ ﴿٤٠٢﴾ ﴿٤٠٣﴾ ﴿٤٠٤﴾ ﴿٤٠٥﴾ ﴿٤٠٦﴾ ﴿٤٠٧﴾ ﴿٤٠٨﴾ ﴿٤٠٩﴾ ﴿٤١٠﴾ ﴿٤١١﴾ ﴿٤١٢﴾ ﴿٤١٣﴾ ﴿٤١٤﴾ ﴿٤١٥﴾ ﴿٤١٦﴾ ﴿٤١٧﴾ ﴿٤١٨﴾ ﴿٤١٩﴾ ﴿٤٢٠﴾ ﴿٤٢١﴾ ﴿٤٢٢﴾ ﴿٤٢٣﴾ ﴿٤٢٤﴾ ﴿٤٢٥﴾ ﴿٤٢٦﴾ ﴿٤٢٧﴾ ﴿٤٢٨﴾ ﴿٤٢٩﴾ ﴿٤٣٠﴾ ﴿٤٣١﴾ ﴿٤٣٢﴾ ﴿٤٣٣﴾ ﴿٤٣٤﴾ ﴿٤٣٥﴾ ﴿٤٣٦﴾ ﴿٤٣٧﴾ ﴿٤٣٨﴾ ﴿٤٣٩﴾ ﴿٤٤٠﴾ ﴿٤٤١﴾ ﴿٤٤٢﴾ ﴿٤٤٣﴾ ﴿٤٤٤﴾ ﴿٤٤٥﴾ ﴿٤٤٦﴾ ﴿٤٤٧﴾ ﴿٤٤٨﴾ ﴿٤٤٩﴾ ﴿٤٥٠﴾ ﴿٤٥١﴾ ﴿٤٥٢﴾ ﴿٤٥٣﴾ ﴿٤٥٤﴾ ﴿٤٥٥﴾ ﴿٤٥٦﴾ ﴿٤٥٧﴾ ﴿٤٥٨﴾ ﴿٤٥٩﴾ ﴿٤٦٠﴾ ﴿٤٦١﴾ ﴿٤٦٢﴾ ﴿٤٦٣﴾ ﴿٤٦٤﴾ ﴿٤٦٥﴾ ﴿٤٦٦﴾ ﴿٤٦٧﴾ ﴿٤٦٨﴾ ﴿٤٦٩﴾ ﴿٤٧٠﴾ ﴿٤٧١﴾ ﴿٤٧٢﴾ ﴿٤٧٣﴾ ﴿٤٧٤﴾ ﴿٤٧٥﴾ ﴿٤٧٦﴾ ﴿٤٧٧﴾ ﴿٤٧٨﴾ ﴿٤٧٩﴾ ﴿٤٨٠﴾ ﴿٤٨١﴾ ﴿٤٨٢﴾ ﴿٤٨٣﴾ ﴿٤٨٤﴾ ﴿٤٨٥﴾ ﴿٤٨٦﴾ ﴿٤٨٧﴾ ﴿٤٨٨﴾ ﴿٤٨٩﴾ ﴿٤٩٠﴾ ﴿٤٩١﴾ ﴿٤٩٢﴾ ﴿٤٩٣﴾ ﴿٤٩٤﴾ ﴿٤٩٥﴾ ﴿٤٩٦﴾ ﴿٤٩٧﴾ ﴿٤٩٨﴾ ﴿٤٩٩﴾ ﴿٥٠٠﴾ ﴿٥٠١﴾ ﴿٥٠٢﴾ ﴿٥٠٣﴾ ﴿٥٠٤﴾ ﴿٥٠٥﴾ ﴿٥٠٦﴾ ﴿٥٠٧﴾ ﴿٥٠٨﴾ ﴿٥٠٩﴾ ﴿٥١٠﴾ ﴿٥١١﴾ ﴿٥١٢﴾ ﴿٥١٣﴾ ﴿٥١٤﴾ ﴿٥١٥﴾ ﴿٥١٦﴾ ﴿٥١٧﴾ ﴿٥١٨﴾ ﴿٥١٩﴾ ﴿٥٢٠﴾ ﴿٥٢١﴾ ﴿٥٢٢﴾ ﴿٥٢٣﴾ ﴿٥٢٤﴾ ﴿٥٢٥﴾ ﴿٥٢٦﴾ ﴿٥٢٧﴾ ﴿٥٢٨﴾ ﴿٥٢٩﴾ ﴿٥٣٠﴾ ﴿٥٣١﴾ ﴿٥٣٢﴾ ﴿٥٣٣﴾ ﴿٥٣٤﴾ ﴿٥٣٥﴾ ﴿٥٣٦﴾ ﴿٥٣٧﴾ ﴿٥٣٨﴾ ﴿٥٣٩﴾ ﴿٥٤٠﴾ ﴿٥٤١﴾ ﴿٥٤٢﴾ ﴿٥٤٣﴾ ﴿٥٤٤﴾ ﴿٥٤٥﴾ ﴿٥٤٦﴾ ﴿٥٤٧﴾ ﴿٥٤٨﴾ ﴿٥٤٩﴾ ﴿٥٥٠﴾ ﴿٥٥١﴾ ﴿٥٥٢﴾ ﴿٥٥٣﴾ ﴿٥٥٤﴾ ﴿٥٥٥﴾ ﴿٥٥٦﴾ ﴿٥٥٧﴾ ﴿٥٥٨﴾ ﴿٥٥٩﴾ ﴿٥٦٠﴾ ﴿٥٦١﴾ ﴿٥٦٢﴾ ﴿٥٦٣﴾ ﴿٥٦٤﴾ ﴿٥٦٥﴾ ﴿٥٦٦﴾ ﴿٥٦٧﴾ ﴿٥٦٨﴾ ﴿٥٦٩﴾ ﴿٥٧٠﴾ ﴿٥٧١﴾ ﴿٥٧٢﴾ ﴿٥٧٣﴾ ﴿٥٧٤﴾ ﴿٥٧٥﴾ ﴿٥٧٦﴾ ﴿٥٧٧﴾ ﴿٥٧٨﴾ ﴿٥٧٩﴾ ﴿٥٨٠﴾ ﴿٥٨١﴾ ﴿٥٨٢﴾ ﴿٥٨٣﴾ ﴿٥٨٤﴾ ﴿٥٨٥﴾ ﴿٥٨٦﴾ ﴿٥٨٧﴾ ﴿٥٨٨﴾ ﴿٥٨٩﴾ ﴿٥٩٠﴾ ﴿٥٩١﴾ ﴿٥٩٢﴾ ﴿٥٩٣﴾ ﴿٥٩٤﴾ ﴿٥٩٥﴾ ﴿٥٩٦﴾ ﴿٥٩٧﴾ ﴿٥٩٨﴾ ﴿٥٩٩﴾ ﴿٦٠٠﴾ ﴿٦٠١﴾ ﴿٦٠٢﴾ ﴿٦٠٣﴾ ﴿٦٠٤﴾ ﴿٦٠٥﴾ ﴿٦٠٦﴾ ﴿٦٠٧﴾ ﴿٦٠٨﴾ ﴿٦٠٩﴾ ﴿٦١٠﴾ ﴿٦١١﴾ ﴿٦١٢﴾ ﴿٦١٣﴾ ﴿٦١٤﴾ ﴿٦١٥﴾ ﴿٦١٦﴾ ﴿٦١٧﴾ ﴿٦١٨﴾ ﴿٦١٩﴾ ﴿٦٢٠﴾ ﴿٦٢١﴾ ﴿٦٢٢﴾ ﴿٦٢٣﴾ ﴿٦٢٤﴾ ﴿٦٢٥﴾ ﴿٦٢٦﴾ ﴿٦٢٧﴾ ﴿٦٢٨﴾ ﴿٦٢٩﴾ ﴿٦٣٠﴾ ﴿٦٣١﴾ ﴿٦٣٢﴾ ﴿٦٣٣﴾ ﴿٦٣٤﴾ ﴿٦٣٥﴾ ﴿٦٣٦﴾ ﴿٦٣٧﴾ ﴿٦٣٨﴾ ﴿٦٣٩﴾ ﴿٦٤٠﴾ ﴿٦٤١﴾ ﴿٦٤٢﴾ ﴿٦٤٣﴾ ﴿٦٤٤﴾ ﴿٦٤٥﴾ ﴿٦٤٦﴾ ﴿٦٤٧﴾ ﴿٦٤٨﴾ ﴿٦٤٩﴾ ﴿٦٥٠﴾ ﴿٦٥١﴾ ﴿٦٥٢﴾ ﴿٦٥٣﴾ ﴿٦٥٤﴾ ﴿٦٥٥﴾ ﴿٦٥٦﴾ ﴿٦٥٧﴾ ﴿٦٥٨﴾ ﴿٦٥٩﴾ ﴿٦٦٠﴾ ﴿٦٦١﴾ ﴿٦٦٢﴾ ﴿٦٦٣﴾ ﴿٦٦٤﴾ ﴿٦٦٥﴾ ﴿٦٦٦﴾ ﴿٦٦٧﴾ ﴿٦٦٨﴾ ﴿٦٦٩﴾ ﴿٦٧٠﴾ ﴿٦٧١﴾ ﴿٦٧٢﴾ ﴿٦٧٣﴾ ﴿٦٧٤﴾ ﴿٦٧٥﴾ ﴿٦٧٦﴾ ﴿٦٧٧﴾ ﴿٦٧٨﴾ ﴿٦٧٩﴾ ﴿٦٨٠﴾ ﴿٦٨١﴾ ﴿٦٨٢﴾ ﴿٦٨٣﴾ ﴿٦٨٤﴾ ﴿٦٨٥﴾ ﴿٦٨٦﴾ ﴿٦٨٧﴾ ﴿٦٨٨﴾ ﴿٦٨٩﴾ ﴿٦٩٠﴾ ﴿٦٩١﴾ ﴿٦٩٢﴾ ﴿٦٩٣﴾ ﴿٦٩٤﴾ ﴿٦٩٥﴾ ﴿٦٩٦﴾ ﴿٦٩٧﴾ ﴿٦٩٨﴾ ﴿٦٩٩﴾ ﴿٧٠٠﴾ ﴿٧٠١﴾ ﴿٧٠٢﴾ ﴿٧٠٣﴾ ﴿٧٠٤﴾ ﴿٧٠٥﴾ ﴿٧٠٦﴾ ﴿٧٠٧﴾ ﴿٧٠٨﴾ ﴿٧٠٩﴾ ﴿٧١٠﴾ ﴿٧١١﴾ ﴿٧١٢﴾ ﴿٧١٣﴾ ﴿٧١٤﴾ ﴿٧١٥﴾ ﴿٧١٦﴾ ﴿٧١٧﴾ ﴿٧١٨﴾ ﴿٧١٩﴾ ﴿٧٢٠﴾ ﴿٧٢١﴾ ﴿٧٢٢﴾ ﴿٧٢٣﴾ ﴿٧٢٤﴾ ﴿٧٢٥﴾ ﴿٧٢٦﴾ ﴿٧٢٧﴾ ﴿٧٢٨﴾ ﴿٧٢٩﴾ ﴿٧٣٠﴾ ﴿٧٣١﴾ ﴿٧٣٢﴾ ﴿٧٣٣﴾ ﴿٧٣٤﴾ ﴿٧٣٥﴾ ﴿٧٣٦﴾ ﴿٧٣٧﴾ ﴿٧٣٨﴾ ﴿٧٣٩﴾ ﴿٧٤٠﴾ ﴿٧٤١﴾ ﴿٧٤٢﴾ ﴿٧٤٣﴾ ﴿٧٤٤﴾ ﴿٧٤٥﴾ ﴿٧٤٦﴾ ﴿٧٤٧﴾ ﴿٧٤٨﴾ ﴿٧٤٩﴾ ﴿٧٥٠﴾ ﴿٧٥١﴾ ﴿٧٥٢﴾ ﴿٧٥٣﴾ ﴿٧٥٤﴾ ﴿٧٥٥﴾ ﴿٧٥٦﴾ ﴿٧٥٧﴾ ﴿٧٥٨﴾ ﴿٧٥٩﴾ ﴿٧٦٠﴾ ﴿٧٦١﴾ ﴿٧٦٢﴾ ﴿٧٦٣﴾ ﴿٧٦٤﴾ ﴿٧٦٥﴾ ﴿٧٦٦﴾ ﴿٧٦٧﴾ ﴿٧٦٨﴾ ﴿٧٦٩﴾ ﴿٧٧٠﴾ ﴿٧٧١﴾ ﴿٧٧٢﴾ ﴿٧٧٣﴾ ﴿٧٧٤﴾ ﴿٧٧٥﴾ ﴿٧٧٦﴾ ﴿٧٧٧﴾ ﴿٧٧٨﴾ ﴿٧٧٩﴾ ﴿٧٨٠﴾ ﴿٧٨١﴾ ﴿٧٨٢﴾ ﴿٧٨٣﴾ ﴿٧٨٤﴾ ﴿٧٨٥﴾ ﴿٧٨٦﴾ ﴿٧٨٧﴾ ﴿٧٨٨﴾ ﴿٧٨٩﴾ ﴿٧٩٠﴾ ﴿٧٩١﴾ ﴿٧٩٢﴾ ﴿٧٩٣﴾ ﴿٧٩٤﴾ ﴿٧٩٥﴾ ﴿٧٩٦﴾ ﴿٧٩٧﴾ ﴿٧٩٨﴾ ﴿٧٩٩﴾ ﴿٨٠٠﴾ ﴿٨٠١﴾ ﴿٨٠٢﴾ ﴿٨٠٣﴾ ﴿٨٠٤﴾ ﴿٨٠٥﴾ ﴿٨٠٦﴾ ﴿٨٠٧﴾ ﴿٨٠٨﴾ ﴿٨٠٩﴾ ﴿٨١٠﴾ ﴿٨١١﴾ ﴿٨١٢﴾ ﴿٨١٣﴾ ﴿٨١٤﴾ ﴿٨١٥﴾ ﴿٨١٦﴾ ﴿٨١٧﴾ ﴿٨١٨﴾ ﴿٨١٩﴾ ﴿٨٢٠﴾ ﴿٨٢١﴾ ﴿٨٢٢﴾ ﴿٨٢٣﴾ ﴿٨٢٤﴾ ﴿٨٢٥﴾ ﴿٨٢٦﴾ ﴿٨٢٧﴾ ﴿٨٢٨﴾ ﴿٨٢٩﴾ ﴿٨٣٠﴾ ﴿٨٣١﴾ ﴿٨٣٢﴾ ﴿٨٣٣﴾ ﴿٨٣٤﴾ ﴿٨٣٥﴾ ﴿٨٣٦﴾ ﴿٨٣٧﴾ ﴿٨٣٨﴾ ﴿٨٣٩﴾ ﴿٨٤٠﴾ ﴿٨٤١﴾ ﴿٨٤٢﴾ ﴿٨٤٣﴾ ﴿٨٤٤﴾ ﴿٨٤٥﴾ ﴿٨٤٦﴾ ﴿٨٤٧﴾ ﴿٨٤٨﴾ ﴿٨٤٩﴾ ﴿٨٥٠﴾ ﴿٨٥١﴾ ﴿٨٥٢﴾ ﴿٨٥٣﴾ ﴿٨٥٤﴾ ﴿٨٥٥﴾ ﴿٨٥٦﴾ ﴿٨٥٧﴾ ﴿٨٥٨﴾ ﴿٨٥٩﴾ ﴿٨٦٠﴾ ﴿٨٦١﴾ ﴿٨٦٢﴾ ﴿٨٦٣﴾ ﴿٨٦٤﴾ ﴿٨٦٥﴾ ﴿٨٦٦﴾ ﴿٨٦٧﴾ ﴿٨٦٨﴾ ﴿٨٦٩﴾ ﴿٨٧٠﴾ ﴿٨٧١﴾ ﴿٨٧٢﴾ ﴿٨٧٣﴾ ﴿٨٧٤﴾ ﴿٨٧٥﴾ ﴿٨٧٦﴾ ﴿٨٧٧﴾ ﴿٨٧٨﴾ ﴿٨٧٩﴾ ﴿٨٨٠﴾ ﴿٨٨١﴾ ﴿٨٨٢﴾ ﴿٨٨٣﴾ ﴿٨٨٤﴾ ﴿٨٨٥﴾ ﴿٨٨٦﴾ ﴿٨٨٧﴾ ﴿٨٨٨﴾ ﴿٨٨٩﴾ ﴿٨٩٠﴾ ﴿٨٩١﴾ ﴿٨٩٢﴾ ﴿٨٩٣﴾ ﴿٨٩٤﴾ ﴿٨٩٥﴾ ﴿٨٩٦﴾ ﴿٨٩٧﴾ ﴿٨٩٨﴾ ﴿٨٩٩﴾ ﴿٩٠٠﴾ ﴿٩٠١﴾ ﴿٩٠٢﴾ ﴿٩٠٣﴾ ﴿٩٠٤﴾ ﴿٩٠٥﴾ ﴿٩٠٦﴾ ﴿٩٠٧﴾ ﴿٩٠٨﴾ ﴿٩٠٩﴾ ﴿٩١٠﴾ ﴿٩١١﴾ ﴿٩١٢﴾ ﴿٩١٣﴾ ﴿٩١٤﴾ ﴿٩١٥﴾ ﴿٩١٦﴾ ﴿٩١٧﴾ ﴿٩١٨﴾ ﴿٩١٩﴾ ﴿٩٢٠﴾ ﴿٩٢١﴾ ﴿٩٢٢﴾ ﴿٩٢٣﴾ ﴿٩٢٤﴾ ﴿٩٢٥﴾ ﴿٩٢٦﴾ ﴿٩٢٧﴾ ﴿٩٢٨﴾ ﴿٩٢٩﴾ ﴿٩٣٠﴾ ﴿٩٣١﴾ ﴿٩٣٢﴾ ﴿٩٣٣﴾ ﴿٩٣٤﴾ ﴿٩٣٥﴾ ﴿٩٣٦﴾ ﴿٩٣٧﴾ ﴿٩٣٨﴾ ﴿٩٣٩﴾ ﴿٩٤٠﴾ ﴿٩٤١﴾ ﴿٩٤٢﴾ ﴿٩٤٣﴾ ﴿٩٤٤﴾ ﴿٩٤٥﴾ ﴿٩٤٦﴾ ﴿٩٤٧﴾ ﴿٩٤٨﴾ ﴿٩٤٩﴾ ﴿٩٥٠﴾ ﴿٩٥١﴾ ﴿٩٥٢﴾ ﴿٩٥٣﴾ ﴿٩٥٤﴾ ﴿٩٥٥﴾ ﴿٩٥٦﴾ ﴿٩٥٧﴾ ﴿٩٥٨﴾ ﴿٩٥٩﴾ ﴿٩٦٠﴾ ﴿٩٦١﴾ ﴿٩٦٢﴾ ﴿٩٦٣﴾ ﴿٩٦٤﴾ ﴿٩٦٥﴾ ﴿٩٦٦﴾ ﴿٩٦٧﴾ ﴿٩٦٨﴾ ﴿٩٦٩﴾ ﴿٩٧٠﴾ ﴿٩٧١﴾ ﴿٩٧٢﴾ ﴿٩٧٣﴾ ﴿٩٧٤﴾ ﴿٩٧٥﴾ ﴿٩٧٦﴾ ﴿٩٧٧﴾ ﴿٩٧٨﴾ ﴿٩٧٩﴾ ﴿٩٨٠﴾ ﴿٩٨١﴾ ﴿٩٨٢﴾ ﴿٩٨٣﴾ ﴿٩٨٤﴾ ﴿٩٨٥﴾ ﴿٩٨٦﴾ ﴿٩٨٧﴾ ﴿٩٨٨﴾ ﴿٩٨٩﴾ ﴿٩٩٠﴾ ﴿٩٩١﴾ ﴿٩٩٢﴾ ﴿٩٩٣﴾ ﴿٩٩٤﴾ ﴿٩٩٥﴾ ﴿٩٩٦﴾ ﴿٩٩٧﴾ ﴿٩٩٨﴾ ﴿٩٩٩﴾ ﴿١٠٠٠﴾ ﴿١٠٠١﴾ ﴿١٠٠٢﴾ ﴿١٠٠٣﴾ ﴿١٠٠٤﴾ ﴿١٠٠٥﴾ ﴿١٠٠٦﴾ ﴿١٠٠٧﴾ ﴿١٠٠٨﴾ ﴿١٠٠٩﴾ ﴿١٠١٠﴾ ﴿١٠١١﴾ ﴿١٠١٢﴾ ﴿١٠١٣﴾ ﴿١٠١٤﴾ ﴿١٠١٥﴾ ﴿١٠١٦﴾ ﴿١٠١٧﴾ ﴿١٠١٨﴾ ﴿١٠١٩﴾ ﴿١٠٢٠﴾ ﴿١٠٢١﴾ ﴿١٠٢٢﴾ ﴿١٠٢٣﴾ ﴿١٠٢٤﴾ ﴿١٠٢٥﴾ ﴿١٠٢٦﴾ ﴿١٠٢٧﴾ ﴿١٠٢٨﴾ ﴿١٠٢٩﴾ ﴿١٠٣٠﴾ ﴿١٠٣١﴾ ﴿١٠٣٢﴾ ﴿١٠٣٣﴾ ﴿١٠٣٤﴾ ﴿١٠٣٥﴾ ﴿١٠٣٦﴾ ﴿١٠٣٧﴾ ﴿١٠٣٨﴾ ﴿١٠٣٩﴾ ﴿١٠٤٠﴾ ﴿١٠٤١﴾ ﴿١٠٤٢﴾ ﴿١٠٤٣﴾ ﴿١٠٤٤﴾ ﴿١٠٤٥﴾ ﴿١٠٤٦﴾ ﴿١٠٤٧﴾ ﴿١٠٤٨﴾ ﴿١٠٤٩﴾ ﴿١٠٥٠﴾ ﴿١٠٥١﴾ ﴿١٠٥٢﴾ ﴿١٠٥٣﴾ ﴿١٠٥٤﴾ ﴿١٠٥٥﴾ ﴿١٠٥٦﴾ ﴿١٠٥٧﴾ ﴿١٠٥٨﴾ ﴿١٠٥٩﴾ ﴿١٠٦٠﴾ ﴿١٠٦١﴾ ﴿١٠٦٢﴾ ﴿١٠٦٣﴾ ﴿١٠٦٤﴾ ﴿١٠٦٥﴾ ﴿١٠٦٦﴾ ﴿١٠٦٧﴾ ﴿١٠٦٨﴾ ﴿١٠٦٩﴾ ﴿١٠٧٠﴾ ﴿١٠٧١﴾ ﴿١٠٧٢﴾ ﴿١٠٧٣﴾ ﴿١٠٧٤﴾ ﴿١٠٧٥﴾ ﴿١٠٧٦﴾ ﴿١٠٧٧﴾ ﴿١٠٧٨﴾ ﴿١٠٧٩﴾ ﴿١٠٨٠﴾ ﴿١٠٨١﴾ ﴿١٠٨٢﴾ ﴿١٠٨٣﴾ ﴿١٠٨٤﴾ ﴿١٠٨٥﴾ ﴿١٠٨٦﴾ ﴿١٠٨٧﴾ ﴿١٠٨٨﴾ ﴿١٠٨٩﴾ ﴿١٠٩٠﴾ ﴿١٠٩١﴾ ﴿١٠٩٢﴾ ﴿١٠٩٣﴾ ﴿١٠٩٤﴾ ﴿١٠٩٥﴾ ﴿١٠٩٦﴾ ﴿١٠٩٧﴾ ﴿١٠٩٨﴾ ﴿١٠٩٩﴾ ﴿١١٠٠﴾ ﴿١١٠١﴾ ﴿١١٠٢﴾ ﴿١١٠٣﴾ ﴿١١٠٤﴾ ﴿١١٠٥﴾ ﴿١١٠٦﴾ ﴿١١٠٧﴾ ﴿١١٠٨﴾ ﴿١١٠٩﴾ ﴿١١١٠﴾ ﴿١١١١﴾ ﴿١١١٢﴾ ﴿١١١٣﴾ ﴿١١١٤﴾ ﴿١١١٥﴾ ﴿١١١٦﴾ ﴿١١١٧﴾ ﴿١١١٨﴾ ﴿١١١٩﴾ ﴿١١٢٠﴾ ﴿١١٢١﴾ ﴿١١٢٢﴾ ﴿١١٢٣﴾ ﴿١١٢٤﴾ ﴿١١٢٥﴾ ﴿١١٢٦﴾ ﴿١١٢٧﴾ ﴿١١٢٨﴾ ﴿١١٢٩﴾ ﴿١١٣٠﴾ ﴿١١٣١﴾ ﴿١١٣٢﴾ ﴿١١٣٣﴾ ﴿١١٣٤﴾ ﴿١١٣٥﴾ ﴿١١٣٦﴾ ﴿١١٣٧﴾ ﴿١١٣٨﴾ ﴿١١٣٩﴾ ﴿١١٤٠﴾ ﴿١١٤١﴾ ﴿١١٤٢﴾ ﴿١١٤٣﴾ ﴿١١٤٤﴾ ﴿١١٤٥﴾ ﴿١١٤٦﴾ ﴿١١٤٧﴾ ﴿١١٤٨﴾ ﴿١١٤٩﴾ ﴿١١٥٠﴾ ﴿١١٥١﴾ ﴿١١٥٢﴾ ﴿١١٥٣﴾ ﴿١١٥٤﴾ ﴿١١٥٥﴾ ﴿١١٥٦﴾ ﴿١١٥٧﴾ ﴿١١٥٨﴾ ﴿١١٥٩﴾ ﴿١١٦٠﴾ ﴿١١٦١﴾ ﴿١١٦٢﴾ ﴿١١٦٣﴾ ﴿١١٦٤﴾ ﴿١١٦٥﴾ ﴿١١٦٦﴾ ﴿١١٦٧﴾ ﴿١١٦٨﴾ ﴿١١٦٩﴾ ﴿١١٧٠﴾ ﴿١١٧١﴾ ﴿١١٧٢﴾ ﴿١١٧٣﴾ ﴿١١٧٤﴾ ﴿١١٧٥﴾ ﴿١١٧٦﴾ ﴿١١٧٧﴾ ﴿١١٧٨﴾ ﴿١١٧٩﴾ ﴿١١٨٠﴾ ﴿١١٨١﴾ ﴿١١٨٢﴾ ﴿١١٨٣﴾ ﴿١١٨٤﴾ ﴿١١٨٥﴾ ﴿١١٨٦﴾ ﴿١١٨٧﴾ ﴿١١٨٨﴾ ﴿١١٨٩﴾ ﴿١١٩٠﴾ ﴿١١٩١﴾ ﴿١١٩٢﴾ ﴿١١٩٣﴾ ﴿١١٩٤﴾ ﴿١١٩٥﴾ ﴿١١٩٦﴾ ﴿١١٩٧﴾ ﴿١١٩٨﴾ ﴿١١٩٩﴾ ﴿١٢٠٠﴾ ﴿١٢٠١﴾ ﴿١٢٠٢﴾ ﴿١٢٠٣﴾ ﴿١٢٠٤﴾ ﴿١٢٠٥﴾ ﴿١٢٠٦﴾ ﴿١٢٠٧﴾ ﴿١٢٠٨﴾ ﴿١٢٠٩﴾ ﴿١٢١٠﴾ ﴿١٢١١﴾ ﴿١٢١٢﴾ ﴿١٢١٣﴾ ﴿١٢١٤﴾ ﴿١٢١٥﴾ ﴿١٢١٦﴾ ﴿١٢١٧﴾ ﴿١٢١٨﴾ ﴿١٢١٩﴾ ﴿١٢٢٠﴾ ﴿١٢٢١﴾ ﴿١٢٢٢﴾ ﴿١٢٢٣﴾ ﴿١٢٢٤﴾ ﴿١٢٢٥﴾ ﴿١٢٢٦﴾ ﴿١٢٢٧﴾ ﴿١٢٢٨﴾ ﴿١٢٢٩﴾ ﴿١٢٣٠﴾ ﴿١٢٣١﴾ ﴿١٢٣٢﴾ ﴿١٢٣٣﴾ ﴿١٢٣٤﴾ ﴿١٢٣٥﴾ ﴿١٢٣٦﴾ ﴿١٢٣٧﴾ ﴿١٢٣٨﴾ ﴿١٢٣٩﴾ ﴿١٢٤٠﴾ ﴿١٢٤١﴾ ﴿١٢٤٢﴾ ﴿١٢٤٣﴾ ﴿١٢٤٤﴾ ﴿١٢٤٥﴾ ﴿١٢٤٦﴾ ﴿١٢٤٧﴾ ﴿١٢٤٨﴾ ﴿١٢٤٩﴾ ﴿١٢٥٠﴾ ﴿١٢٥١﴾ ﴿١٢٥٢﴾ ﴿١٢٥٣﴾ ﴿١٢٥٤﴾ ﴿١٢٥٥﴾ ﴿١٢٥٦﴾ ﴿١٢٥٧﴾ ﴿١٢٥٨﴾ ﴿١٢٥٩﴾ ﴿١٢٦٠﴾ ﴿١٢٦١﴾ ﴿١٢٦٢﴾ ﴿١٢٦٣﴾ ﴿١٢٦٤﴾ ﴿١٢٦٥﴾ ﴿١٢٦٦﴾ ﴿١٢٦٧﴾ ﴿١٢٦٨﴾ ﴿١٢٦٩﴾ ﴿١٢٧٠﴾ ﴿١٢٧١﴾ ﴿١٢٧٢﴾ ﴿١٢٧٣﴾ ﴿١٢٧٤﴾ ﴿١٢٧٥﴾ ﴿١٢٧٦﴾ ﴿١٢٧٧﴾ ﴿١٢٧٨﴾ ﴿١٢٧٩﴾ ﴿١٢٨٠﴾ ﴿١٢٨١﴾ ﴿١٢٨٢﴾ ﴿١٢٨٣﴾ ﴿١٢٨٤﴾ ﴿١٢٨٥﴾ ﴿١٢٨٦﴾ ﴿١٢٨٧﴾ ﴿١٢٨٨﴾ ﴿١٢٨٩﴾ ﴿١٢٩٠﴾ ﴿١٢٩١﴾ ﴿١٢٩٢﴾ ﴿١٢٩٣﴾ ﴿١٢٩٤﴾ ﴿١٢٩٥﴾ ﴿١٢٩٦﴾ ﴿١٢٩٧﴾ ﴿١٢٩٨﴾ ﴿١٢٩٩﴾ ﴿١٣٠٠﴾ ﴿١٣٠١﴾ ﴿١٣٠٢﴾ ﴿١٣٠٣﴾ ﴿١٣٠٤﴾ ﴿١٣٠٥﴾ ﴿١٣٠٦﴾ ﴿١٣٠٧﴾ ﴿١٣٠٨﴾ ﴿١٣٠٩﴾ ﴿١٣١٠﴾ ﴿١٣١١﴾ ﴿١٣١٢﴾ ﴿١٣١٣﴾ ﴿١٣١٤﴾ ﴿١٣١٥﴾ ﴿١٣١٦﴾ ﴿١٣١٧﴾ ﴿١٣١٨﴾ ﴿١٣١٩﴾ ﴿١٣٢٠﴾ ﴿١٣٢١﴾ ﴿١٣٢٢﴾ ﴿١٣٢٣﴾ ﴿١٣٢٤﴾ ﴿١٣٢٥﴾ ﴿١٣٢٦﴾ ﴿١٣٢٧﴾ ﴿١٣٢٨﴾ ﴿١٣٢٩﴾ ﴿١٣٣٠﴾ ﴿١٣٣١﴾ ﴿١٣٣٢﴾ ﴿١٣٣٣﴾ ﴿١٣٣٤﴾ ﴿١٣٣٥﴾ ﴿١٣٣٦﴾ ﴿١٣٣٧﴾ ﴿١٣٣٨﴾ ﴿١٣٣٩﴾ ﴿١٣٤٠﴾ ﴿١٣٤١﴾ ﴿١٣٤٢﴾ ﴿١٣٤٣﴾ ﴿١٣٤٤﴾ ﴿١٣٤٥﴾ ﴿١٣٤٦﴾ ﴿١٣٤٧﴾ ﴿١٣٤٨﴾ ﴿١٣٤٩﴾ ﴿١٣٥٠﴾ ﴿١٣٥١﴾ ﴿١٣٥٢﴾ ﴿١٣٥٣﴾ ﴿١٣٥٤﴾ ﴿١٣٥٥﴾ ﴿١٣٥٦﴾ ﴿١٣٥٧﴾ ﴿١٣٥٨﴾ ﴿١٣٥٩﴾ ﴿١٣٦٠﴾ ﴿١٣٦١﴾ ﴿١٣٦٢﴾ ﴿١٣٦٣﴾ ﴿١٣٦٤﴾ ﴿١٣٦٥﴾ ﴿١٣٦٦﴾ ﴿١٣٦٧﴾ ﴿١٣٦٨﴾ ﴿١٣٦٩﴾ ﴿١٣٧٠﴾ ﴿١٣٧١﴾ ﴿١٣٧٢﴾ ﴿١٣٧٣﴾ ﴿١٣٧٤﴾ ﴿١٣٧٥﴾ ﴿١٣٧٦﴾ ﴿١٣٧٧﴾ ﴿١٣٧٨﴾ ﴿١٣٧٩﴾ ﴿١٣٨٠﴾ ﴿١٣٨١﴾ ﴿١٣٨٢﴾ ﴿١٣٨٣﴾ ﴿١٣٨٤﴾ ﴿١٣٨٥﴾ ﴿١٣٨٦﴾ ﴿١٣٨٧﴾ ﴿١٣٨٨﴾ ﴿١٣٨٩﴾ ﴿١٣٩٠﴾ ﴿١٣٩١﴾ ﴿١٣٩٢﴾ ﴿١٣٩٣﴾ ﴿١٣٩٤﴾ ﴿١٣٩٥﴾ ﴿١٣٩٦﴾ ﴿١٣٩٧﴾ ﴿١٣٩٨﴾ ﴿١٣٩٩﴾ ﴿١٤٠٠﴾ ﴿١٤٠١﴾ ﴿١٤٠٢﴾ ﴿١٤٠٣﴾ ﴿١٤٠٤﴾ ﴿١٤٠٥﴾ ﴿١٤٠٦﴾ ﴿١٤٠٧﴾ ﴿١٤٠٨﴾ ﴿١٤٠٩﴾ ﴿١٤١٠﴾ ﴿١٤١١﴾ ﴿١٤١٢﴾ ﴿١٤١٣﴾ ﴿١٤١٤﴾ ﴿١٤١٥﴾ ﴿١٤١٦﴾ ﴿١٤١٧﴾ ﴿١٤١٨﴾ ﴿١٤١٩﴾ ﴿١٤٢٠﴾ ﴿١٤٢١﴾ ﴿١٤٢٢﴾ ﴿١٤٢٣﴾ ﴿١٤٢٤﴾ ﴿١٤٢٥﴾ ﴿١٤٢٦﴾ ﴿١٤٢٧﴾ ﴿١٤٢٨﴾ ﴿١٤٢٩﴾ ﴿١٤٣٠﴾ ﴿١٤٣١﴾ ﴿١٤٣٢﴾ ﴿١٤٣٣﴾ ﴿١٤٣٤﴾ ﴿١٤٣٥﴾ ﴿١٤٣٦﴾ ﴿١٤٣٧﴾ ﴿١٤٣٨﴾ ﴿١٤٣٩﴾ ﴿١٤٤٠﴾ ﴿١٤٤١﴾ ﴿١٤٤٢﴾ ﴿١٤٤٣﴾ ﴿١٤٤٤﴾ ﴿١٤٤٥﴾ ﴿١٤٤٦﴾ ﴿١٤٤٧﴾ ﴿١٤٤٨﴾ ﴿١٤٤٩﴾ ﴿١٤٥٠﴾ ﴿١٤٥١﴾ ﴿١٤٥٢﴾ ﴿١٤٥٣﴾ ﴿١٤٥٤﴾ ﴿١٤٥٥﴾ ﴿١٤٥٦﴾ ﴿١٤٥٧﴾ ﴿١٤٥٨﴾ ﴿١٤٥٩﴾ ﴿١٤٦٠﴾ ﴿١٤٦١﴾ ﴿١٤٦٢﴾ ﴿١٤٦٣﴾ ﴿١٤٦٤﴾ ﴿١٤٦٥﴾ ﴿١٤٦٦﴾ ﴿١٤٦٧﴾ ﴿١٤٦٨﴾ ﴿١٤٦٩﴾ ﴿١٤٧٠﴾ ﴿١٤٧١﴾ ﴿١٤٧٢﴾ ﴿١٤٧٣﴾ ﴿١٤٧٤﴾ ﴿١٤٧٥﴾ ﴿١٤٧٦﴾ ﴿١٤٧٧﴾ ﴿١٤٧٨﴾ ﴿١٤٧٩﴾ ﴿١٤٨٠﴾ ﴿١٤٨١﴾ ﴿١٤٨٢﴾ ﴿١٤٨٣﴾ ﴿١٤٨٤﴾ ﴿١٤٨٥﴾ ﴿١٤٨٦﴾ ﴿١٤٨٧﴾ ﴿١٤٨٨﴾ ﴿١٤٨٩﴾ ﴿١٤٩٠﴾ ﴿١٤٩١﴾ ﴿١٤٩٢﴾ ﴿١٤٩٣﴾ ﴿١٤٩٤﴾ ﴿١٤٩٥﴾ ﴿١٤٩٦﴾ ﴿١٤٩٧﴾ ﴿١٤٩٨﴾ ﴿١٤٩٩﴾ ﴿١٥٠٠﴾ ﴿١٥٠١﴾ ﴿١٥٠٢﴾ ﴿١٥٠٣﴾ ﴿١٥٠٤﴾ ﴿١٥٠٥﴾ ﴿١٥٠٦﴾ ﴿١٥٠٧﴾ ﴿١٥٠٨﴾ ﴿١٥٠٩﴾ ﴿١٥١٠﴾ ﴿١٥١١﴾ ﴿١٥١٢﴾ ﴿١٥١٣﴾ ﴿١٥١٤﴾ ﴿١٥١٥﴾ ﴿١٥١٦﴾ ﴿١٥١٧﴾ ﴿١٥١٨﴾ ﴿١٥١٩﴾ ﴿١٥٢٠﴾ ﴿١٥٢١﴾ ﴿١٥٢٢﴾ ﴿١٥

القرى لا من أهل البوادي، وأنهم مصطفون مختارون، جمع الله لهم من الصفات الحميدة ما به الاصطفاء والاختيار، وأنهم سالون من كل ما يقدح في رسالتهم من كذب وخيانة وكتيمان وعيوب مزرية، وأنهم لا يقرون على خطأ فيما يتعلق بالرسالة والتكليف، وأن الله تعالى خصهم بوحية، فلهذا وجب الإيمان بهم وطاعتهم ومن لم يؤمن بهم فهو كافر، ومن قدح في واحد منهم أو سبه فهو كافر يتحتم قتله، ودلائل هذه الجملة كثيرة، من تدبر القرآن تبين له الحق، ثم قال تعالى:

﴿٢٥٤﴾ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون وهذا من لطف الله عباده أن أمرهم بتقديم شيء مما رزقهم الله، من صدقة واجبة ومستحبة، ليكون لهم ذخراً وأجرأ موفراً في يوم يحتاج فيه العاملون إلى مثقال ذرة من الخير، فلا بيع فيه ولو افتدى الإنسان نفسه بملىء الأرض ذهباً ليفتدي به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منه، ولم ينفعه خليل ولا صديق لا بوجاهة ولا بشفاعة، وهو اليوم الذي فيه ينسر المبطلون ويحصل الخزي على الظالمين، وهم الذين وضعوا الشيء في غير موضعه، فتركوا الواجب من حق الله وحق عباده وتعدوا الحلال إلى الحرام، وأعظم أنواع الظلم الكفر بالله الذي هو وضع العبادة التي يتعين أن تكون لله فيصرفها الكافر إلى مخلوق مثله، فلهذا قال تعالى: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ وهذا من باب الحصر، أي: الذين ثبت لهم الظلم التام، كما قال تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾. ثم قال تعالى:

﴿٢٥٥﴾ الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات

والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم﴾ هذه الآية الكريمة أعظم آيات القرآن وأفضلها وأجلها، وذلك لما اشتملت عليه من الأمور العظيمة والصفات الكريمة، فلهذا كثرت الأحاديث في الترغيب في قراءتها وجعلها وزداً للإنسان في أوقاته صباحاً ومساءً وعند نومه وأدبار الصلوات المكتوبات، فأخبر تعالى عن نفسه الكريمة بأنه ﴿لا إله إلا هو﴾ أي: لا معبود بحق سواه، فهو الإله الحق الذي تتعين أن تكون جميع أنواع العبادة والطاعة والتأله له تعالى، لكماله وكمال صفاته وعظيم نعمه، ولكون العبد مستحقاً أن يكون عبداً لربه، ممثلاً لأوامره مجتنباً لنواهيه، وكل ما سوى الله تعالى باطل، فعبادة ما سواه باطلة، لكون ما سوى الله مخلوقاً ناقصاً مدبراً فقيراً من جميع الوجوه، فلم يستحق شيئاً من أنواع العبادة، وقوله: ﴿الحي القيوم﴾ هذان الاسمان الكريمان يدلان على سائر الأسماء الحسنى دلالة مطابقة وتضمناً ولزوماً، فالحي من له الحياة الكاملة المستمرة لجميع صفات الذات، كالسمع والبصر والعلم والقادرة، ونحو ذلك، والقيوم: هو الذي قام بنفسه وقام بغيره، وذلك مستلزم لجميع الأفعال التي اتصف بها رب العالمين من فعله بما يشاء من الاستواء والنزول والكلام والقول والخلق والرزق والإماتة والإحياء، وسائر أنواع التدبير، كل ذلك داخل في قيومية الباري، ولهذا قال بعض المحققين: إنهما الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب، وإذا سئل به أعطى، ومن تمام حياته وقيوميته أنه ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ والسنة النعاس ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ أي: هو المالك وما سواه مملوك وهو الخالق الرازق المدبر وغيره مخلوق مرزوق مدبر لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض فلهذا قال: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ أي: لا أحد يشفع عنده بدون إذنه،

فالشفاعة كلها لله تعالى، ولكنه تعالى إذا أراد أن يرحم من يشاء من عباده إذن لمن أراد أن يكرمه من عباده أن يشفع فيه، لا يبتدىء الشافع قبل الإذن، ثم قال: ﴿يعلم ما بين أيديهم﴾ أي: ما مضى من جميع الأمور ﴿وما خلفهم﴾ أي: ما يستقبل منها، فعلمه تعالى محيط بتفاصيل الأمور، متقدمها ومتأخرها، بالظواهر والبواطن، بالغيب والشهادة، والعباد ليس لهم من الأمر شيء ولا من العلم مثقال ذرة إلا ما علمهم تعالى، ولهذا قال: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض﴾ وهذا يدل على كمال عظمتهم وسعة سلطانه، إذا كان هذه حالة الكرسي أنه يسع السموات والأرض على عظمتها وعظمته من فيهما، والكرسي ليس أكبر مخلوقات الله تعالى، بل هنا ما هو أعظم منه وهو العرش، وما لا يعلمه إلا هو، وفي عظمة هذه المخلوقات تحير الأفكار وتكل الأبصار، وتقلقل الجبال وتكع عنها فحول الرجال، فكيف بعظمة خالقها ومبدعها، والذي أودع فيها من الحكم والأسرار ما أودع، والذي قد أمسك السموات والأرض أن تزولا من غير تعب ولا نصب، فلهذا قال: ﴿ولا يؤوده﴾ أي: يثقله ﴿حفظهما وهو العلي﴾ بذاته فوق عرشه، العلي بقهره لجميع المخلوقات، العلي بقدره لكمال صفاته ﴿العظيم﴾ الذي تتضائل عند عظمتهم جيروت الجبابرة، وتضغر في جانب جلاله أنوف الملوك القاهرة، فسبحان من له العظمة العظيمة والكبرياء الحسيمة والقهر والغلبة لكل شيء، فقد اشتملت هذه الآية على توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وعلى إحاطة ملكه وإحاطة علمه وسعة سلطانه وجلاله ومجده، وعظمتهم وكبريائهم وعلوهم على جميع مخلوقاته، فهذه الآية بمفرداتها عقيدة في أسماء الله وصفاته، متضمنة لجميع الأسماء الحسنى والصفات العلى، ثم قال تعالى:

وخص منه الأحياء والإماتة لكونهما أعظم أنواع التدابير. ولأن الأحياء مبدأ الحياة الدنيا والإماتة مبدأ ما يكون في الآخرة، فقال ذلك المحاج: «أنا أحيي وأميت». ولم يقل أنا الذي أحيي وأميت، لأنه لم يدع الاستقلال بالتصرف، وإنما زعم أنه يفعل كفعل الله ويصنع صنعه، فزعم أنه يقتل شخصاً فيكون قد أماته، ويستحيي شخصاً فيكون قد أحياه، فلما راه إبراهيم يغالط في مجادلته ويتكلم بشيء لا يصلح أن يكون شبهة فضلاً عن كونه حجة، اطرد معه في الدليل فقال إبراهيم: «فإن الله يأتي بالشمس من المشرق» أي: عياناً يقربه كل أحد حتى ذلك الكافر «فأت بها من المغرب» وهذا إلزام له بطرد دليله إن كان صادقاً في دعواه، فلما قال له أمراً لا قوة له في شبهة تشوش دليله، ولا قادحاً يقدر في سبيله «بهت الذي كفر» أي: تحير فلم يرجع إليه جواباً وانقطعت حجته وسقطت شبهته، وهذه حالة المبتل المعاند الذي يريد أن يقاوم الحق ويغالبه، فإنه مغلوب مقهور، فلذلك قال تعالى: «والله لا يهدي القوم الظالمين» بل يبيهم على كفرهم وضلالهم، وهم الذين اختاروا لأنفسهم ذلك، ولا فلو كان قصدهم الحق والهداية لهداهم إليه وسر لهم أسباب الوصول إليه، ففي هذه الآية برهان قاطع على تفرد الرب بالخلق والتدبير، ويلزم من ذلك أن يفرد بالعبادة والإنابة والتوكل عليه في جميع الأحوال، قال ابن القيم رحمه الله: وفي هذه المناظرة نكتة لطيفة جداً، وهي أن شرك العالم إنما هو مستند إلى عبادة الكواكب والقبور، ثم صورت الأصنام على صورها، فتضمن الدليلان اللذان استدلت بهما إبراهيم بإبطال إلهية تلك جملة بأن الله وحده هو الذي يحيي ويميت، ولا يصلح الحي الذي يموت للإلهية لا في حال حياته ولا بعد موته، فإن له رباً قادراً قاهراً متصرفاً فيه إحياء وإماتة، ومن كان كذلك فكيف يكون إلهاً حتى يتخذ الصنم على

منهما بحسب ما علمه منهم من الخير والشر، وهذا هو الغاية لمن استمسك بالعروة الوثقى ولمن لم يستمسك بها، ثم ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ذلك فقال: «الله ولي الذين آمنوا» وهذا يشمل ولايتهم لربهم، بأن تولوه فلا يبعون عنه بدلاً ولا يشركون به أحداً، قد اتخذوه حبيباً وولياً، والوالأولياءه وعادوا أعداءه، فتولاهم بلطفه ومن عليهم بإحسانه، فأخرجهم من ظلمات الكفر والمعاصي والجهل إلى نور الإيمان والطاعة والعلم، وكان جزاؤهم على هذا أن سلمهم من ظلمات القبر والحشر والقيامة إلى النعيم المقيم والراحة والفسحة والسرور «والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت» فتولوا الشيطان وحزبه، واتخذوه من دون الله ولياً والوه وتركوا ولاية ربهم وسيدهم، فسلطهم عليهم عقوبة لهم فكانوا يؤذونهم إلى المعاصي أژاً، ويزعجونهم إلى الشر إزعاجاً، فيخرجونهم من نور الإيمان والعلم والطاعة إلى ظلمة الكفر والجهل والمعاصي، فكان جزاؤهم على ذلك أن حرموا الخيرات، وفاتهم النعيم والبهجة والمسرات، وكانوا من حزب الشيطان وأولياءه في دار الخسرة، فلهمذا قال تعالى: «أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون».

﴿٢٥٨﴾ «ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين» يقول تعالى: «ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه» أي: إلى جرائته وتحامله وعناده ومجافته فيما لا يقبل التشكيك، وما حله على ذلك إلا «أن آتاه الله الملك» فطغى وبغى ورأى نفسه متزئناً على رعيته، فحمله ذلك على أن حاج إبراهيم في ربوبية الله فزعم أنه يفعل كما يفعل الله، فقال إبراهيم «ربي الذي يحيي ويميت» أي: هو المنفرد بأنواع التصرف،

﴿٢٥٦ - ٢٥٧﴾ «لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم» الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» يخبر تعالى أنه لا إكراه في الدين لعدم الحاجة إلى الإكراه عليه، لأن الإكراه لا يكون إلا على أمر خفية أعلامه، غامضة آثاره، أو أمر في غاية الكراهة للنفوس، وأما هذا الدين القويم والصراط المستقيم فقد تبين أعلامه للعقول، وظهرت طرقه، وتبين أمره، وعرف الرشد من الغي، فالوفق إذا نظر أدنى نظر إليه أثره واختاره، وأما من كان سبيء القصد فاسد الإرادة، خبيث النفس يرى الحق فيختار عليه الباطل، ويبصر الحسن فيميل إلى القبيح، فهذا ليس له حاجة في إكراهه على الدين، لعدم النتيجة والفائدة فيه، والمكره ليس إيمانه صحيحاً، ولا تدل الآية الكريمة على ترك قتال الكفار المخارزين، وإنما فيها أن حقيقة الدين من حيث هو موجب لقبوله لكل منصف قصده اتباع الحق، وأما القتال وعدمه فلم تتعرض له، وإنما يؤخذ فرض القتال من نصوص أخر، ولكن يستدل في الآية الكريمة على قبول الجزية من غير أهل الكتاب، كما هو قول كثير من العلماء، فمن يكفر بالطاغوت فيترك عبادة ما سوى الله وطاعة الشيطان، ويؤمن بالله إيماناً تاماً أوجب له عبادة ربه وطاعته «فقد استمسك بالعروة الوثقى» أي: بالدين القويم الذي ثبتت قواعده ورسخت أركانه، وكان التمسك به على ثقة من أمره، لكونه استمسك بالعروة الوثقى التي «لا انفصام لها» وأما من عكس القضية فكفر بالله وأمن بالطاغوت، فقد أطلق هذه العروة الوثقى التي بها العصمة والنجاة، واستمسك بكل باطل مآله إلى الجحيم «والله سميع عليم» فيجازي كلا

صورتها، ويعبد من دونه، وكذلك الكواكب أظهرها وأكبرها للحسن هذه الشمس وهي مربوبة مذبذبة مسخرة، لا تصرف لها بنفسها بوجه ما، بل ربها وخالقها سبحانه يأتي بها من مشرقها فتنقاد لأمره ومشيتها، فهي مربوبة مسخرة مذبذبة، لا إله يعبد من دون الله: «من مفتاح دار السعادة»، ثم قال تعالى:

﴿٢٥٩﴾ «أو كالذي مر على قرية

وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مئة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مئة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى همارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير» وهذا أيضاً دليل آخر على توحيد الله بالخلق والتدبير والإماتة والإحياء، فقال: «أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها» أي: قد باد أهلها وفني سكانها وسقطت خيطانها على عروشها، فلم يبق بها أنيس بل بقيت موحشة من أهلها مقفرة، فوقف عليها ذلك الرجل متعجباً و«قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها» استبعاداً لذلك وجهلاً بقدرة الله تعالى، فلما أراد الله به خيراً أراه آية في نفسه وفي حمارة، وكان معه طعام وشراب، «فأماته الله مئة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم» استقصاراً لتلك المدة التي مات فيها لكونه قد زالت مغرفته وخواسه وكان عهد خاله قبل موته، فقليل له «بل لبثت مئة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه» أي: لم يتغير بل بقي على حاله على تطاول السنين واختلاف الأوقات عليه، ففيه أكبر دليل على قدرته حيث أبقاؤه وحفظه عن التغير والفساد، مع أن الطعام والشراب من أسرع الأشياء فساداً «وانظر إلى همارك» وكان قد مات وتمزق لحمه وجلده وانتثرت عظامه، وتفرقت أوصاله «ولنجعلك آية

للناس» على قدرة الله وبعثه الأموات من قبورهم، لتكون أنموذجاً محسوساً مشاهداً بالأبصار، فيعلموا بذلك صحة ما أخبر به الرسل «وانظر إلى العظام كيف ننشزها» أي: ندخل بعضها في بعض، ونركب بعضها ببعض «ثم نكسوها لحماً» فنظر إليها عياناً كما وصفها الله تعالى، «فلما تبين له» ذلك وعلم قدرة الله تعالى «قال أعلم أن الله على كل شيء قدير» والظاهر من سياق الآية أن هذا رجل منكر للبعث أراد الله به خيراً، وأن يجعله آية ودليلاً للناس لثلاثة أوجه أحدها قوله «أنى يحيي هذه الله بعد موتها» ولو كان نبياً أو عبداً صالحاً لم

يقول ذلك، والثاني: أن الله أراه آية في طعامه وشرابه وحمارة ونفسه ليراه بعينه فيقر بما أنكره، ولم يذكر في الآية أن القرية المذكورة عسرت وعادت إلى حالتها، ولا في السياق ما يدل على ذلك، ولا في ذلك كثير فائدة، ما الفائدة الدالة على إحياء الله للموتى في قرية خربت ثم رجع إليها أهلها أو غيرهم فعمروها؟! وإنما الدليل الحقيقي في إحيائه وإحياء حمارة وإبقاء طعامه وشرابه بحاله، والثالث في قوله: «فلما تبين له» أي: تبين له أمر كان يحمله ويخفى عليه، فعلم بذلك صحة ما ذكرناه، والله أعلم. ثم قال تعالى:

﴿٢٦٠﴾ «وإذ قال إبراهيم رب

أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم» وهذا فيه أيضاً أعظم دلالة حسية على قدرة الله وإحيائه الموتى للبعث والجزاء، فأخبر تعالى عن خليله إبراهيم أنه سأل أن يريه بصره كيف يحيي الموتى، لأنه قد تيقن ذلك بخبر الله تعالى، ولكنه أحب أن يشاهده عياناً ليحصل له مرتبة عين اليقين، فلهذا قال الله له «أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي» وذلك أنه

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا جُنُودَهُ كَقَدْحَةٍ قُلُوبُهُمْ فَقَالَ أُولَئِكَ هِيَ طَائِفَةُ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِبُوا جُنُودَهُمْ وَبَرَأَوْا إِلَيَّ فَلَمْ يَنْتَهِبُوا إِلَّا يَدُهُمْ حَبَّةَ أَرْنَبٍ غَرَفَتْ بِهَا مِنْهُ وَبَرَأُوا إِلَيَّ فَاذْكُرُوا اللَّهَ الَّذِي بَدَأَكُمْ فَعِلَ بَالِكُمْ فَمَا تَصَرُّوْنَ أَتَقْتَصِرُونَ عَلَى الْقَدَرِ الَّذِي كُنْتُمْ عَلَى اللَّهِ وَرَاقِينَ ﴿٢٦١﴾ وَكَذَلِكَ دَرَجَاتُكَ يُدْرِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ وَمِنَ السَّمَاءِ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٦٢﴾

بتوارد الأدلة البقية مما يزداد به الإيمان ويكمل به الايقان ويسعى في نياله أولوا العرفان، فقال له ربه «فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك» أي: ضمهن ليكون ذلك بمراى منك ومشاهدة وعلى يديك. «ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً» أي: مزقهن، اخلط أجزاءهن بعضها ببعض، واجعل على كل جبل، أي: من الجبال التي في القرب منه، جزءاً من تلك الأجزاء «ثم ادعهن يأتينك سعياً» أي: تحصل لهن حياة كاملة، ويأتينك في هذه القوة وسرعة الطيران، ففعل إبراهيم عليه السلام ذلك وحصل له ما أراد وهذا من ملكوت السماوات والأرض الذي أراه الله إياه في قوله «وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين» ثم قال: «واعلم أن الله عزيز حكيم» أي: ذو قوة عظيمة سخر بها المخلوقات، فلم يستعص عليه شيء منها، بل هي منقادة لعزته خاضعة لجلاله، ومع ذلك فأفعاله تعالى تابعة لحكمته، لا يفعل شيئاً عبثاً، ثم قال تعالى:

﴿٢٦١﴾ «مثل الذين ينفقون

أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم» هذا بيان للمضاعفة التي ذكرها الله في



قوله ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾. وهنا قال: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله﴾ أي: في طاعته ومرضاته، وأولاهما إنفاقها في الجهاد في سبيله ﴿كمثل حبة أثبتت سبع سنابل في كل سنبلة منه حبة﴾. وهذا إحضار لصورة المضاعفة بهذا المثل، الذي كان العبد يشاهده ببصره فيشاهد هذه المضاعفة ببصيرته، فيقوى شهاد الإيمان مع شهاد العيان، فتستقام النفس مدعنة للإنفاق ساعية بها مؤملة لهذه المضاعفة الجزئية والمئة الجلية، ﴿والله يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء﴾ أي: بحسب حال المنفق وإخلاصه وصدقه وبحسب حال النفقة وحلها ونفعها ووقوعها موقوعها، ويحتمل أن يكون ﴿والله يضاعف﴾ أكثر من هذه المضاعفة ﴿من يشاء﴾ فيعطيهم أجرهم بغير حساب ﴿والله واسع﴾ الفضل، واسع العطاء، لا ينقصه نائل ولا يحفيه سائل، فلا يتوهم المنفق أن تلك المضاعفة فيها نوع مبالغة، لأن الله تعالى لا يتعاطمه شيء ولا ينقصه العطاء على كثرته، ومع هذا فهو ﴿عليم﴾ بمن يستحق هذه المضاعفة في موضعها لكمال علمه وحكمته. ﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم

أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم﴾ أي: الذين ينفقون أموالهم في طاعة الله وسبيله، ولا يتبعونها بما ينقصها ويفسدها من المن بها على المنفق عليه بالقلب أو باللسان، بأن يعدد عليه إحسانه ويطلب منه مقابلته، ولا أذية له قولية أو فعلية، فهؤلاء لهم أجرهم اللائق بهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فحصل لهم الخير واندمع عنهم الشر لأنهم عملوا عملاً خالصاً لله سالماً من المفسدات ﴿قول معروف﴾ أي: تعرفه القلوب ولا تنكره، ويدخل في ذلك كل قول كريم فيه إدخال السرور على قلب المسلم، ويدخل فيه رد السائل بالقول الجميل والدعاء له ﴿ومغفرة﴾ لمن أساء إليك بترك مؤاخذته والعفو عنه، ويدخل فيه العفو عما يصدر من السائل مما لا ينبغي، فالقول المعروف والمغفرة خير من الصدقة التي يتبعها أذى، لأن القول المعروف إحسان قولي، والمغفرة إحسان أيضاً بترك المؤاخذه، وكلاهما إحسان ما فيه مفسد، فهما أفضل من الإحسان بالصدقة التي يتبعها أذى بمن أو غيره، ومفهوم الآية أن الصدقة التي لا يتبعها أذى أفضل من القول المعروف والمغفرة، وإنما كان المن بالصدقة مفسداً لها محرماً، لأن المنه الله تعالى وحده، والإحسان كله لله، فالعبد لا يمن بنعمة الله وإحسانه وفضله وهو ليس منه، وأيضاً فإن المان مستعبد لمن يمن عليه، والذل والاستعباد لا ينبغي إلا لله، والله غني بذاته عن جميع مخلوقاته، وكلها مفتقرة إليه بالذات في جميع الحالات والأوقات، فصدقتكم وإنفاقكم وطاعاتكم يعود مصلحتها إليكم ونفعها إليكم، ﴿والله غني﴾ عنها، ومع هذا فهو ﴿حليم﴾ على من عصاه لا يعاجله بعقوبة مع قدرته عليه، ولكن رحمته وإحسانه وحلمه يمنعه من معاجلته للعاصين، بل يمهلهم ويصرف لهم الآيات لعلمهم يرجعون إليه وينيبون إليه، فإذا علم

تعالى أنه لا خير فيهم ولا تغني عنهم الآيات ولا تفيدهم المثالات أنزل بهم عقابه وحرهم جزيل ثوابه.

﴿٢٦٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثلُه كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ ينهى عباده تعالى لطفاً بهم ورحمة عن إبطال صدقاتهم بالمن والأذى وفيه أن المن والأذى يبطل السيئة، ويستدل بهذا على أن الأعمال السيئة تبطل الأعمال الحسنة، كما قال تعالى: ﴿ولا تجهروا به بالقول فتهزون على الصدقات﴾ تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾ فكما أن الحسنات يذهبن السيئات فالسيئات تبطل ما قبلها من الحسنات، وفي هذه الآية مع قوله تعالى: ﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾ حث على تكميل الأعمال وحفظها من كل ما يفسدها لئلا يضيع العمل سدى، وقوله: ﴿كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ أي: أنتم وإن قصدتم بذلك وجه الله في ابتداء الأمر، فإن المنه والأذى مبطلان لأعمالكم، فتصير أعمالكم بمنزلة الذي يعمل لمراعاة الناس ولا يريد به الله والدار الآخرة، فهذا لا شك أن عمله من أصله مردود، لأن شرط العمل أن يكون لله وحده وهذا في الحقيقة عمل للناس لا لله، فأعماله باطلة وشيعة غير مشكور، فمثلُه المطابق لحاله ﴿كمثل صفوان﴾ وهو الحجر الأملس الشديد عليه تراب فأصابه وابل﴾ أي: مطر غزير ﴿فتركه صلداً﴾ أي: ليس عليه شيء من التراب، فكذلك حال هذا المرائي، قلبه غليظ قاس بمنزلة الصفوان، وصدقه ونحوها من أعماله بمنزلة التراب الذي على الصفوان، إذا رآه الجاهل بحاله ظن أنه أرض زكية قابلة للنبات، فإذا انكشفت حقيقة حاله زال ذلك التراب وتبين أن عمله بمنزلة السراب، وأن قلبه غير صالح

لنبات الزرع وزكائه عليه، بل الرياء الذي فيه والإرادات الخبيثة تمتع من انتفاعه بشيء من عمله، فلهذا لا يقدرون على شيء من أعمالهم التي اكتسبوها، لأنهم وضعوها في غير موضعها وجعلوها لمخلوق مثلهم، لا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً وانصرفوا عن عبادة من تنفعهم عبادته، فصرف الله قلوبهم عن الهداية، فلهذا قال: ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾.

﴿٢٦٥﴾ ﴿وَمِثْلَ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ
أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ
أَنْفُسِهِمْ كَمِثْلِ جَنَّةِ بَرْبَوَءَ أَصَابَهَا وَابِلٌ
فَآتَتْ أَكْلَهَا ضَعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصْبِهَا وَابِلٌ
فَطُلَّ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ هذا مثل
المنفقين أموالهم على وجه تزكوا عليه
بنفقاتهم وتقبل به صدقاتهم فقال تعالى :
﴿وَمِثْلَ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ
مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾ أي : قصدهم بذلك رضی
رَبُّهم والفوز بقرية ﴿وَتَثْبِيتًا مِنْ
أَنْفُسِهِمْ﴾ أي : صدر الإنفاق على وجه
منشرجة له النفس سيخية به ، لا على
وجه التردد وضعف النفس في
إخراجها وذلك أن النفقة يعرض لها
أفتان إما أن يقصد الإنسان بها محمدا
الناس ومدحهم وهو الرياء ، أو يخرجها
على خور وضعف عزيمة وتردد ،
فهؤلاء سلموا من هاتين الأفتين فأنفقوا
ابتغاء مرضات الله لا لغير ذلك من
المقاصد ، وتثبيتاً من أنفسهم ، فمثل
نفقة هؤلاء ﴿كَمِثْلِ جَنَّةِ بَرْبَوَءَ﴾ أي : كثيرة
الأشجار غزيرة الظلال ، من الاجتنان
وهو الستر ، لستر أشجارها ما فيها ،
وهذه الجنة ﴿بَرْبَوَءَ﴾ أي : محل مرتفع
صاح للشمس في أول النهار ووسطه
وأخره ، فثماره أكثر الثمار وأحسنها ،
ليست بمحل نازل عن الرياح
والشمس ، ف ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ تلك
الجنة التي بربوة ﴿وَابِلٌ﴾ وهو المطر
الغزير ﴿فَآتَتْ أَكْلَهَا ضَعْفَيْنِ﴾ أي :
تضاعفت ثمراتها لطيب أرضها ووجود
الأسباب الموجبة لذلك ، وحصول الماء
الكثير الذي ينميتها ويكملها ﴿فَإِنْ لَمْ

بصيبتها وابل فطل ﴿أي: مطر قليل بكفيها لطيب منبتها، فهذه حالة للمنفقين أهل النفقات الكثيرة والقليلة كل على حسب حاله، وكل ينمي له ما أنفق أتم تنمية وأكملها والمُنْمَى لها هو الذي أرحم بك من نفسك، الذي يريد مصلحتك حيث لا تريدها، فيالله لو قدر وجود بستان في هذه الدار بهذه الصفة لأسرعت إليه الهمم وتراحم عليه كل أحد، ولحصل الاقتال عنده، مع انقضاء هذه الدار وفنائها وبكثرة أقاتها وشدة نصبها وعنائها، وهذا الثواب الذي ذكره الله كأن المؤمن يتظر إليه بعين بصيرة الإيمان، دائم مستمر فيه أنواع المسرات والفرحات، ومع هذا تجرد النفوس عنه راقدة، والعزائم عن طلبه خامدة، أترى ذلك زهداً في الآخرة ونعيمها، أم ضعف إيمان بوعد الله ورجاء ثوابه؟! وإلا فلو يتقن العبد ذلك حق اليقين وباشر الإيمان به بشاشة قلبه لا تبعثت من قلبه مرعجات الشوق إليه، وتوجهت همم عزائمه إليه، وطوعت نفسه له بكثرة النفقات رجاء الثواب، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بُرْهَانَ رَبِّهِمْ﴾ فيعلم عمل كل عامل ومصدر ذلك العمل، فيجازيه عليه أتم الجزاء ثم قال تعالى:

﴿٢٦٦﴾ ﴿أَيُّدَ أَحَدِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضَعُفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ وهذا المثل مضروب لمن عمل عملاً لوجه الله تعالى من صدقة أو غيرها ثم عمل أعمالاً تُفْسِدُهُ، فمثله كمثل صاحب هذا البستان الذي فيه من كل الثمرات، وخص منها النخل والعنب لفصلهما وكثرة منافعهما، لكونهما غذاءً وقوتاً وفاكهةً وحلوى، وتلك الجنة فيها^(١) الأنهار الجارية التي تسقيها من غير مؤنة، وكان صاحبها قد اغتبط بها وسرته، ثم إنه أصابه الكبر فضعف عن

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
 وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَا قُلُوبُهُم بِظُلُمَاتٍ يُخْرِجُهُم مِّنَ
 النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
 خَالِدُونَ ﴿٥٠﴾ الزُّمَرُ الزَّلَّى خَاتَمُ الزُّمَرِ يَعْقِلُ زَيْدُهُ
 أَنَّ أَمْرَهُ اللَّهُ الْخَالِقُ قَالَ زِلْ زَيْدُكَ زِلَّي الَّذِي يُعْنِي
 وَيُثْبِتُ قَالَ أَلَا أُنْعِي وَآيَتُهُ قَالَ زَيْدُكَ وَكَأَنَّ اللَّهَ يَأْتِي
 بِالْمُتَّبِعِينَ مِنَ الْمَشْرِقِ قَالُوا يَهَامِرُ لِمُعَرَّبٍ فَجَاءَ الَّذِي
 كَفَرَ بِاللَّهِ لَمْ يَهْدِ الْقَوْمُ الظُّلُمَاتِ ﴿٥١﴾ أَوْ كَالَّذِي
 مَرَّ عَلَى زَيْدٍ وَجَى تَابِيَهُ عَلَى زَيْدٍ مَا قَالَ أَتَى يُعْنِي
 هَذِهِ اللَّهُ يَعْدُوهُمَا كَأَنَّ اللَّهَ يَأْتِي سَابِيَهُ ثَبَتَهُ
 قَالَ كَمْ لَيْتَ قَالَ لَيْتَ يَوْمًا أَوْ يَعْصِي يَوْمًا قَالَ بَلْ
 لَيْتَ يَوْمًا سَابِيَهُ فَاسْطَرَّ إِلَى الْمَعْلَمِ وَتَرَكِبَهُ لَمْ
 يَتَسَنَّ وَأَسْطَرَّ إِلَى الْحَارِكِ وَتَجَمَّعَ لَهُ أَمْرُهُ لَيْتَ يَوْمًا
 وَأَسْطَرَّ إِلَى الْوَسْطِ كَيْفَ تَشِيرُهُمَا تَكُونُ جَمْعًا
 كَمَا تَبَيَّنَ لَمْ يَكُنْ أَمْرُهُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٢﴾

العمل وزاد حرصه، وكان له ذرية
ضعفاء ما فيهم معاونة له، بل هم كل
عليه، ونفقتة ونفقتهم من تلك الجنة،
بينما هو كذلك إذ أصاب تلك الجنة
إعصار وهو الريح القوية التي تستدير
ثم ترتفع في الجو، وفي ذلك الإعصار
نار فاحتقرت تلك الجنة، فلا تسأل عما
لقي ذلك الذي أصابه الكبير من الهم
والغم والحزن، فلو قدر أن الحزن يقتل
صاحبه لقتله الحزن، كذلك من عمل
عمالاً لوجه الله فإن أعماله بمنزلة البذر
للزروع والثمار، ولا يزال كذلك حتى
يحصل له من عمله جنة موصوفة بغاية
الحسن والبهاء، وتلك المفسدات التي
تفسد الأعمال بمنزلة الأعصار الذي
فيه نار، والعبد أحوج ما يكون لعمله
إذا مات وكان بحالة لا يقدر معها على
العمل، فيجد عمله الذي يؤمل نفعه
هباءً منثوراً، ووجد الله عنده فوفاه
حسابه.

والله سريع الحساب فلو علم
إنسان وتصور هذه الحال وكان له
أنى مسكة من عقل لم يقدم على ما فيه
مضرته ونهاية خسرتة ولكن ضعف
الإيمان والعقل وقلة البصيرة يصير
صاحبه إلى هذه الحالة التي لو صدرت
من مجنون لا يعقل إكأن ذلك عظيمأ
وخطره جسيماً، فلهذا أمر تعالى



بالتفكر وحث عليه، فقال: ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾.

﴿٢٦٧- ٢٦٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض ولا تبصموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخذه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد﴾ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالنفقة من طيبات ما يسر لهم من المكاسب، وما أخرج لهم من الأرض فكما من عليكم بتسهيل تحصيله فانفقوا منه شكراً لله وأداء بعض حقوق إخوانكم عليكم، وتطهيراً لأموالكم، واقتصدوا في تلك النفقة الطيب الذي تحبونه لأنفسكم، ولا تأخذونه إلا على وجه الإغماض والمساغة ﴿واعلموا أن الله غني حميد﴾ فهو غني عنكم ونفع صدقاتكم وأعمالكم عائد إليكم، ومع هذا فهو حميد على ما يأمركم به من الأوامر الحميدة والخصال السديدة، فعليكم أن تمثلوا أوامره لأنها قوت القلوب وحياة النفوس ونعيم الأرواح، وليأبى أن تتبعوا عدوكم الشيطان الذي يأمركم بالإمساك، ويخوفكم بالفقر والحاجة إذا أنفقتم، وليس هذا نصحاً لكم، بل

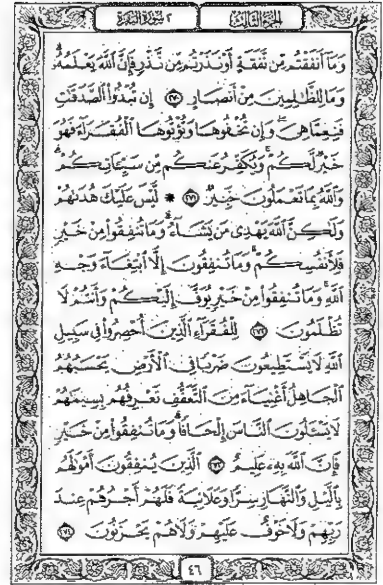
هذا غاية الغش ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ بل أطيعوا ربكم الذي يأمركم بالنفقة على وجه يسهل عليكم ولا يضركم، ومع هذا فهو ﴿يعيدكم مغفرة﴾ لذنوبكم وتطهيراً لعبوبكم ﴿وفضلاً﴾ وإحساناً إليكم في الدنيا والآخرة، من الخلف العاجل، وانسراح الصدر ونعيم القلب والروح والقبر، وحصول ثوابها وتوفيتها يوم القيامة، وليس هذا عظيماً عليه لأنه ﴿واسع﴾ الفضل عظيم الإحسان ﴿عليم﴾ بما يصدر منكم من النفقات قليلها وكثيرها، سرها وعلنها، فيجازيكم عليها من سعته وفضله وإحسانه، فليظفر العبد نفسه إلى أي: الداعين يميل، فقد تضمنت هاتان الآيتان أموراً عظيمة منها: الحث على الإنفاق، ومنها: بيان الأسباب الموجبة لذلك، ومنها: وجوب الزكاة من النقيدين وعروض التجارة كلها، لأنها داخلية في قوله: ﴿من طيبات ما كسبتم﴾ ومنها: وجوب الزكاة في الخارج من الأرض من الحبوب والثمار والمعادن، ومنها: أن الزكاة على من له الزرع والثمر لا على صاحب الأرض، لقوله ﴿أخرجنا لكم﴾ فمن أخرجت له وجبت عليه ومنها: أن الأموال المدة للاقتناء من العقارات والأواني ونحوها ليس فيها زكاة، وكذلك الديون والغصوب ونحوها إذا كانت مجهولة، أو عند من لا يقدر ربحها على استخراجها منه، ليس فيها زكاة، لأن الله أوجب النفقة من الأموال التي يحصل فيها النماء الخارج من الأرض، وأموال التجارة مواساة من نمائها، وأما الأموال التي غير معدة لذلك ولا مقدوراً عليها فليس فيها هذا المعنى، ومنها: أن الردء ينهى عن إخراجها ولا يجزىء في الزكاة ثم قال تعالى:

﴿٢٦٩﴾ ﴿يؤتي الحكمة من يشاء

ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب﴾ لما أمر تعالى بهذه الأوامر العظيمة المشتملة على الأسرار والحكم وكان ذلك لا يحصل لكل أحد، بل لمن من عليه وآتاه الله

الحكمة، وهي العلم النافع والعمل الصالح ومعرفة أسرار الشرائع وحكمها، وإن من آتاه الله الحكمة فقد آتاه خيراً كثيراً وأي: خير أعظم من خير فيه سعادة الدارين والنجاة من شقاوتها! وفيه التخصيص بهذا الفضل وكونه من ورثة الأنبياء، فكمال العبد متوقف على الحكمة، إذ كماله بتكميل قوته العلمية والعملية فتكميل قوته العلمية بمعرفة الحق ومعرفة المقصود به، وتكميل قوته العملية بالعمل بالخير وترك الشر، وبذلك يتمكن من الإصابة بالقول والعمل وتنزيل الأمور منازلها في نفسه وفي غيره، وبدون ذلك لا يمكن ذلك، ولما كان الله تعالى قد فطر عباده على عبادته ومحبة الخير والقصد للحق، فبعث الله الرسل مذكرين لهم بما ركز في قطرهم وعقولهم، ومفصلين لهم ما لم يعرفوه، انقسم الناس قسمين قسم أجابوا دعوتهم فتذكروا ما ينفعهم ففعلوه، وما يضرهم فتركوه، وهؤلاء هم أولو الألباب الكاملة، والعقول التامة، وقسم لم يستجيبوا لدعوتهم، بل أجابوا ما عرض لقطرهم من الفساد، وتركوا طاعة رب العباد، فهؤلاء ليسوا من أولي الألباب، فلهاذا قال تعالى: ﴿وما يذكر إلا أولو الألباب﴾

﴿٢٧٠﴾ ﴿وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار﴾ وهذا فيه المجازاة على النفقات، واجبتها ومستحبها، قليلها وكثيرها، التي أمر الله بها، والنذور التي ألزمها المكلف نفسه، وإن الله تعالى يعلمها فلا يخفى عليه منها شيء، ويعلم ما صدرت عنه، هل هو الإخلاص أو غيظه، فإن صدرت عن إخلاص وطلب لمرضاة الله جازى عليها بالفضل العظيم والثواب الجسيم، وإن لم تنفق العبد ما وجب عليه من النفقات ولم يوف ما أوجبه على نفسه من النذورات، أو قصد بذلك رضى المخلوقات، فإنه ظالم قد وضع الشيء في غير موضعه، واستحق



الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون * يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأتوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون * وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون * واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون * يخبر تعالى عن أكلة الربا وسوء مآلهم وشدة منقلبهم، أنهم لا يقومون من قبورهم ليوم نشورهم * إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس * أي: يصزره الشيطان بالجنون، فيقومون من قبورهم حيارى سكارى مضطربين، متوقعين لعظيم النكال وعسر الويل، فكما تقلبت عقولهم و * قالوا إنما البيع مثل الربا * وهذا لا يكون إلا من جاهل عظيم جهله، أو متجاهل عظيم عناده، جازاهم الله من جنس أحوالهم فصارت أحوالهم أحوال المجانين، ويحتمل أن يكون قوله: * لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس * أنه لما انسلبت عقولهم في طلب المكاسب الربوية خفت أحلامهم وضعت أراؤهم، وصاروا في هيتهم وحركاتهم يشبهون المجانين في عدم انتظامها وانسلاخ العقل الأدبي عنهم،

قال الله تعالى راداً عليهم ومبيناً حكمته العظيمة * وأحل الله البيع * أي: لما فيه من عنوم المصلحة وشدة الحاجة وحصول الضرر بتحريمه، وهذا أصل في حل جميع أنواع التصرفات الكسبية حتى يرد ما يدل على المنع * وحرم الربا * لما فيه من الظلم وسوء العاقبة، والربا نوعان: ربا نسيئة كييع الربا بما يشاركه في العلة نسيئة، ومنه جعل ما في الذمة رأس مال، سلم، وربا فضل، وهو بيع ما يجري فيه الربا بجنسه متفاضلاً، وكلاهما محرم بالكتاب والسنة، والإجماع على ربا النسيئة، وشذ من أباح ربا الفضل وخالف النصوص المستفيضة، بل الربا من كبائر الذنوب وموبقاتها * فمن جاءه موعظة من ربه * أي: وعظ وتذكير وترهيب عن تعاطي الربا على يد من قبضه الله لموعظته رحمة من الله بالموعوظ، وإقامة للحنجة عليه * فانتهي * عن فعله وانزجر عن تعاطيه * فله من سلف * أي: ما تقدم من المعاملات التي فعلها قبل أن تبلغه الموعظة جزاء لقبوله للنصيحة، دل مفهوم الآية أن من لم يتنه جوزي بالأول والآخر * وأمره إلى الله * في مجازاته وفيما يستقبل من أموره * ومن عاد * إلى تعاطي الربا ولم تنفعه الموعظة، بل أصر على ذلك * فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * اختلف العلماء رحمة الله في نصوص الرعيد التي طاهرها تخليد أهل الكبائر من الذنوب التي دون الشرك بالله، والأحسن فيها أن يقال هذه الأمور التي رتب الله عليها الخلود في النار موجبات ومقتضيات لذلك، ولكن الموجب إن لم يوجد ما يمنعه ترتب عليه مقتضاه، وقد علم بالكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة أن التوحيد والإيمان مانع من الخلود في النار، فلولا ما مع الإنسان من التوحيد لصار عمله صالحاً للخلود فيها بقطع النظر عن كفره، ثم قال تعالى: * يمحى الله الربا * أي: يذهبه ويذهب بركته ذاتاً ووصفاً، فيكون سبباً لوقوع الآفات فيه ونزع البركة عنه، وإن أنفق

منه لم يؤجر عليه بل يكون زاداً له إلى النار * ويرى الصدقات * أي: يتيمها وينزل البركة في المال الذي أخرجت منه وينمي أجر صاحبها وهذا لأن الجزء من جنس العمل، فإن المرابي قد ظلم الناس وأخذ أموالهم على وجه غير شرعي، فجوزي بذهاب ماله، والمحسن إليهم بأنواع الإحسان ربه أكرم منه، فيحسن عليه كما أحسن على عباده * والله لا يحب كل كفار * لنعم الله، لا يؤدي ما أوجب عليه من الصدقات، ولا يسلم منه ومن شره عباد الله * أثم * أي: قد فعل ما هو سبب لإثمه وعقوبته. لما ذكر أكلة الربا وكان من المعلوم أنهم لو كانوا مؤمنين إيماناً ينفعهم لم يصدر منهم ما صدر ذكر خالة المؤمنين وأجرهم، وخاطبهم بالإيمان، ونهاهم عن أكل الربا إن كانوا مؤمنين، وهؤلاء هم الذين يقبلون موعظة ربهم وينقادون لأمره، وأمرهم أن يتقوه، ومن جملة تقواه أن يذروا ما بقي من الربا أي: المعاملات الحاضرة الموجودة، وأما ما سلف، فمن اتعظ عفا الله عنه ما سلف، وأما من لم ينزجر بموعظة الله ولم يقبل نصيحته فإنه مشاق لربه محارب له، وهو عاجز ضعيف ليس له يدان في محاربة العزيز الحكيم الذي يمهل للظالم ولا يهمله حتى إذا أخذه، أخذه أخذ عزيز مقتدر * وإن تبتم * عن الربا * فلكم رؤوس أموالكم * أي: أنزلوا عليها * لا تظلمون * من عاملتموه بأخذ الزيادة التي هي الربا * ولا تظلمون * بنقص رؤوس أموالكم * وإن كان * المدين * ذو عسرة * لا يجد وفاء * فنظرة إلى ميسرة * وهذا واجب عليه أن ينظره حتى يجد ما يوفي به * وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون * إما بإسقاطها أو بعضها.

* واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون * وهذه الآية من آخر ما نزل من القرآن، وجعلت خاتمة لهذه الأحكام والأوامر والنواهي، لأن فيها الوعد على الخير، والوعيد على فعل



الاربع والأربعون والخامس والأربعون: السادس والأربعون أن ارتكاب هذه المحرمات من خصال الفسق لقوله: ﴿وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم﴾ السابع والأربعون أن الأوصاف كالفسق والإيمان والتفان والعداوة والولاية ونحو ذلك تشجزأ في الإنسان، فتكون فيه مادة فسق وغيرها، وكذلك مادة إيمان وكفر لقوله: ﴿فإنه فسوق بكم﴾ ولم يقل فأنتم فاسقون أو فساق. الثامن والأربعون: وحقه أن يتقدم على ما هنا لتقدم موضعه - اشتراط العدالة في الشاهد لقوله: ﴿ممن ترضون من الشهداء﴾. التاسع والأربعون أن العدالة يشترط فيها العرف في كل مكان وزمان، فكل من كان مرضياً معتبراً عند الناس قبلت شهادته، الخمسون: يؤخذ منها عدم قبول شهادة المجهول حتى يزكى، فهذه الأحكام مما يستنبط من هذه الآية الكريمة على حسب الحال الحاضرة والفهم القاصر، والله في كلامه حكيم وأسرار يخص بها من يشاء من عباده. وقوله تعالى:

﴿٢٨٣﴾ ﴿وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه أثم قلبه والله بما تعملون عليم﴾ أي: إن كنتم مسافرين ولم تجدوا كاتباً، يكتب بينكم ويحصل به التوثيق، فرهان مقبوضة، أي: يقبضها صاحب الحق، وتكون وثيقة عنده حتى يأتيه حقه، ودل هذا على أن الرهن غير المقبوضة لا يحصل منها التوثيق، ودل أيضاً على أن الزامن والمرتهن لو اختلفا في قدر ما رهن به، كان القول قول المرتهن، ووجه ذلك أن الله جعل الرهن غرضاً عن الكتابة في توثيق صاحب الحق، فلولا أن قول المرتهن مقبول في قدر الذي رهن به لم يحصل المعنى المقصود، ولما كان المقصود بالرهن التوثيق جاز حراً أو سقراً، وإنما نص الله على السفر، لأنه في مظنة الحاجة

شهادته في الحقوق الواجبة وجب عليه كتابتها، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، والخامس والثلاثون: أنه يجب على الشاهد إذا دعي للشهادة وهو غير معذور، لا يجوز له أن يأبى لقوله: ﴿ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا﴾ السادس والثلاثون: أن من لم يتصف بصفة الشهداء المقبولة شهادتهم، لم يجب عليه الإجابة لعدم الفائدة بها ولأنه ليس من الشهداء، السابع والثلاثون: النهي عن السأمة والضجر من كتابة الديون كلها من صغير وكبير وصفة الأجل وجميع ما احتوى عليه العقد من الشروط والقيود، الثامن والثلاثون بيان الحكمة في مشروعية الكتابة والإشهاد في العقود، وأنه ﴿أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا﴾ فإنها متضمنة للعدل الذي به قوام العباد والبلاد، والشهادة المقترنة بالكتابة تكون أقوم وأكمل وأبعد من الشك والريب والتنازع والتشاجر، التاسع والثلاثون: يؤخذ من ذلك أن من أشبه وشك في شهادته لم يجوز له الإقدام عليها بل لابد من اليقين، الأربعون: قوله: ﴿إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها﴾ فيه الرخصة في ترك الكتابة إذا كانت التجارة حاضراً يحاضر، لعدم شدة الحاجة إلى الكتابة، الحادي والأربعون: أنه وإن رخص في ترك الكتابة في التجارة الحاضرة، فإنه يشرع الإشهاد لقوله: ﴿وأشهدوا إذا تبايعتم﴾ الثاني والأربعون: النهي عن مضارة الكاتب بأن يدعى وقت اشتغال وحصول مشقة عليه، الثالث والأربعون: النهي عن مضارة الشهيد أيضاً بأن يدعى إلى تحمل الشهادة أو أدائها في مرض أو شغل يشق عليه، أو غير ذلك هذا على جعل قوله: ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾ مبنياً للمجهول، وأما على جعلها مبنياً للفاعل ففيه نهي الشاهد والكاتب أن يضارا صاحب الحق بالامتناع أو طلب أجره شاقة ونحو ذلك، وهذان هما

التصرف ولي يتيم أو وقف ونحو ذلك مما يجب حفظه تعين أن يكون الإشهاد الذي به يحفظ الحق واجباً، السابع والعشرون: أن نصاب الشهادة في الأموال ونحوها رجلان أو رجل وامرأتان، ودلت السنة أيضاً أنه يقبل الشاهد مع يمين المدعي، الثامن والعشرون: أن شهادة الصبيان غير مقبولة لمفهوم لفظ الرجل، التاسع والعشرون أن شهادة النساء منفردات في الأموال ونحوها لا تقبل، لأن الله لم يقبلهن إلا مع الرجل، وقد يقال إن الله أقام المراتين مقام رجل للحكمة التي ذكرها وهي موجودة سواء كن مع رجل أو منفردات والله أعلم. الثلاثون: أن شهادة العبد البالغ مقبولة كشهادة الحر لعموم قوله: ﴿فاستشهدوا شهيدين من رجالكم﴾ والعبد البالغ من رجالنا، الحادي والثلاثون: أن شهادة الكفار ذكراً كانوا أو نساء غير مقبولة، لأنهم ليسوا منا، ولأن مبنى الشهادة على العدالة وهو غير عدل، الثاني والثلاثون: فيه فضيلة الرجل على المرأة، وأن الواحد في مقابلة المراتين لقوة حفظه ونقص حفظها، الثالث والثلاثون: أن من نسي شهادته ثم ذكرها فذكر فشهادته مقبولة لقوله: ﴿فتذكر إحداها﴾ الأخرى الرابع والثلاثون: يؤخذ من المعنى أن الشاهد إذا خاف نسيان

إليه لعدم الكاتب فيه، هذا كله إذا كان صاحب الحق يحب أن يتوثق لحقه، فما كان صاحب الحق آمناً من غريمه وأحب أن يعامله من دون رهن فعل من عليه الحق أن يؤدي إليه كاملاً غير ظالم له ولا باخس حقه «وليتق الله ربه» في أداء الحق ويمجزي من أحسن به الظن بالإحسان «ولا تكتموا الشهادة» لأن الحق مبني عليها لا يثبت بدونها، فكتمها من أعظم الذنوب، لأنه يترك ما وجب عليه من الخير الصدق ويخبر بضده وهو الكذب، ويرتب على ذلك فوات حق من له الحق، ولهذا قال تعالى: «ومن يكتمها فإنه أثم قلبه» والله بما تعملون عليم. وقد اشتملت هذه الأحكام الحسنة التي أرشد الله عباده إليها على حكم عظيمة ومصالح عميمة دلت على أن الخلق لو اهتدوا بإرشاد الله لضلحت دنياهم مع صلاح دينهم، لاشتمالها على العدل والمصلحة، وحفظ الحقوق وقطع المشاجرات والمنازعات، وانتظام أمر المعاش، فله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه لا نحصي ثناء عليه.

﴿٢٨٤﴾ «لله ما في السماوات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير» هذا إخبار من الله أنه له ما في السماوات وما في الأرض، الجميع خلقهم ورزقهم ودبرهم لمصالحهم الدينية والدنيوية، فكأنوا ملكاً له وعبيداً، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وهو بهم ومالكهم الذي يتصرف فيهم بحكمته وعدله وإحسانه، وقد أمرهم ونهاهم وسبححاسبهم على ما أسروه وأعلنوه، «فيغفر لمن يشاء» وهو لمن أتى بأسباب الغفرة، ويعذب من يشاء بذنبه الذي لم يحصل له ما يكفره «والله على كل شيء قدير» لا يعجزه شيء، بل كل الخلق طوع قهره ومشيته وتقديره ونجازه.

﴿٢٨٥﴾ «أمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير» يخبر تعالى عن إيمان الرسول والمؤمنين معه، وانقيادهم وطاعتهم وسؤالهم مع ذلك المغفرة، فأخبر أنهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، وهذا يتضمن الإيمان بجميع ما أخبر الله به عن نفسه، وأخبرت به عنه رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله على وجه الإجمال والتفصيل، وتنزيهه عن التمثيل والتعطيل وعن جميع صفات النقص، ويتضمن الإيمان بالملائكة الذين نصت عليهم الشرائع جملة وتفصيلاً، وعلى الإيمان بجميع الرسل والكتب، أي: بكل ما أخبرت به الرسل وتضمنته الكتب من الأخبار والأوامر والنواهي، وأنهم لا يفرقون بين أحد من رسله، بل يؤمنون بجميعهم، لأنهم وسائط بين الله وبين عباده، فالكفر ببعضهم كفر بجميعهم بل كفر بالله «وقالوا سمعنا» ما أمرتنا به ونهيتنا «وأطعنا» لك في ذلك، ولم يكونوا ممن قالوا سمعنا وعصينا، ولما كان العبد لا بد أن يحصل منه تقصير في حقوق الله تعالى وهو محتاج إلى مغفرته على الدوام، قالوا «غفرانك» أي: نسألك مغفرة لما صدر منا من التقصير والذنوب، ومحو ما اتصفنا به من العيوب «وإليك المصير» أي: المرجع لجميع الخلائق فتجزئهم بما عملوا من خير وشر.

﴿٢٨٦﴾ «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين» لما نزل قوله تعالى «وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله» شق ذلك على المسلمين لما توهوا أن ما يقع في القلب من الأمور اللازمة والعارضة المستقرة وغيرها

• وإن كسبتم على أسفاركم وما كنتم فوقه من أموال إلا تنسوها فتنسوها الله ينشأ لكم عقوبة ما كنتم تتفكرون
• «وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير» هذا إخبار من الله أنه له ما في السماوات وما في الأرض، الجميع خلقهم ورزقهم ودبرهم لمصالحهم الدينية والدنيوية، فكأنوا ملكاً له وعبيداً، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وهو بهم ومالكهم الذي يتصرف فيهم بحكمته وعدله وإحسانه، وقد أمرهم ونهاهم وسبححاسبهم على ما أسروه وأعلنوه، «فيغفر لمن يشاء» وهو لمن أتى بأسباب الغفرة، ويعذب من يشاء بذنبه الذي لم يحصل له ما يكفره «والله على كل شيء قدير» لا يعجزه شيء، بل كل الخلق طوع قهره ومشيته وتقديره ونجازه.

مؤاخذون به، فأخبرهم بهذه الآية أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها أي: أمراً تسعه طاقتها، ولا يكلفها ويشق عليها، كما قال تعالى «ما جعل عليكم في الدين من حرج» فأصل الأوامر والنواهي ليست من الأمور التي تشق على النفوس، بل هي غذاء للأرواح ودواء للأبدان، وحماية عن الضرر، فله تعالى أمر العباد بما أمرهم به رحمة وإحساناً، ومع هذا إذا حصل بعض الأعذار التي هي مظنة المشقة حصل التخفيف والتسهيل، إما بإسقاطه عن المكلف، أو إسقاط بعضه كما في التخفيف عن المريض والمسافر وغيرهم، ثم أخبر تعالى أن لكل نفس ما كسبت من الخير، وعليها ما اكتسبت من الشر، فلا تزر وازرة وزر أخرى ولا تذهب حسنات العبد لغیره، وفي الإتيان بـ «كسب» في الخير الدال على أن عمل الخير يحصل للإنسان بأدنى سعي منه بل بمجرد نية القلب وأتى بـ «اكتسب» في عمل الشر للدلالة على أن عمل الشر لا يكتب على الإنسان حتى يعمل به ويحصل سعيه، ولما أخبر تعالى عن إيمان الرسول والمؤمنين، معه وأن كل عامل سيجازى بعمله، وكان الإنسان عرضة للتقصير والخطأ والنسيان، وأخبر أنه لا يكلفنا إلا ما نطيق وتسعه قوتنا، أخبر عن دعاء المؤمنين بذلك، وقد أخبر النبي ﷺ

فافتقرت إليه جميع مخلوقاته في الإيجاد والإعداد والإمداد، فهو الذي قام بتدبير الخلاق وتصريفهم، تدبير للأجسام وللقلوب والأرواح، ومن قيامه تعالى بعباده ورحمته بهم أن نزل على رسوله محمد ﷺ الكتاب، الذي هو أجل الكتب وأعظمها المشتمل على الحق في إخباره وأوامره ونواهيه، فما أخبر به صدق، وما حكم به فهو العدل، وأنزله بالحق ليقوم الخلق بعبادة ربهم ويتعلموا كتابه «مصدقاً لما بين يديه» من الكتب السابقة، فهو المزي لها، فما شهد له فهو المقبول، وما رده فهو المردود، وهو المطابق لها في جميع المطالب التي اتفق عليها المرسلون، وهي شاهدة بالصدق، فأهل الكتاب لا يمكنهم التصديق بكتبهم إن لم يؤمنوا به، فإن كفرهم به ينقض إيمانهم بكتبهم، ثم قال تعالى «وأنزل القرآن» هدى للناس الظاهر أن هذا راجع لكل ما تقدم، أي: أنزل الله القرآن والتوراة والإنجيل هدى للناس من الضلال، فمن قبل هدى الله فهو المهتدي، ومن لم يقبل ذلك بقي على ضلاله «وأنزل الفرقان» أي: الحجج والبينات والبراهين القاطعات الدالة على جميع المقاصد والمطالب، وكذلك فصل وفسر ما يحتاج إليه الخلق حتى بقيت الأحكام جليلة ظاهرة، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة لمن لم يؤمن به وبآياته، فلهاذا قال «إن الذين كفروا بآيات الله» أي: بعد ما بينها ووضحها وأزاح العليل «لهم عذاب شديد» لا يُقَدَّر قدره ولا يدرك وصفه «والله عزيز» أي: قوي لا يعجزه شيء «ذو انتقام» بمن عصاه «إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء» وهذا فيه تقرير إحاطة علمه بالمعلومات كلها، جليها وخفيها، ظاهرها وباطنها، ومن جملة ذلك الأجنة في البطون التي لا يدركها بصر المخلوقين، ولا ينالها علمهم، وهو تعالى يذبها بالطف تدبيراً، ويقدرها بكل تقدير، فلهاذا قال

ربنا وملكنا وإلهنا الذي لم تزل ولايتك إيانا منذ أوجدتنا وأنشأتنا فتعماك دارة علينا متصلة عدد الأوقات، ثم أنعمت علينا بالنعمة العظيمة والمنحة الجسيمة، وهي نعمة الإسلام التي جميع النعم تبع لها، فنسألك يا ربنا ومولانا تمام نعمتك بأن تنصربنا على القوم الكافرين، الذين كفروا بك وبرسلك، وقاموا أهل دينك ونبدوا أمرك، فأنصربنا عليهم بالحجة والبيان والسيوف والسنان، بأن تمكن لنا في الأرض وتحذلهم وترزقنا الإيمان والأعمال التي يحصل بها النصر، والحمد لله رب العالمين. تم تفسير سورة البقرة بعون الله وتوفيقه وصلى الله على محمد وسلم.

تفسير سورة آل عمران وهي مدنية

نزل صدرها إلى بضع وثمانين آية في مخاصمة التصاري وإبطال مذهبيهم ودعوتهم إلى الدخول في الدين الحق دين الإسلام كما نزل صدر البقرة في محاجة اليهود كما تقدم.

﴿١ - ٦﴾ «بسم الله الرحمن الرحيم ألم * الله لا إله إلا هو الحي القيوم * نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل * من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام * إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء * هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم * افتتحها تبارك وتعالى بالإخبار بالروحانية، وأنه الإله الذي لا إله إلا هو الذي لا ينبغي التأله والتعبد إلا لوجهه، فكل معبود سواه فهو باطل، والله هو الإله الحق المتصف بصفات الألوهية التي مرجعها إلى الحياة والقيومية، فالحي من له الحياة العظيمة الكاملة المستلزمة لجميع الصفات التي لا تتم ولا تكمل الحياة إلا بها كالسمع والبصر والقدرة والقوة والعظمة والبقاء والدوام والعز الذي لا يرام «القيوم» الذي قام بنفسه فاستغنى عن جميع مخلوقاته، وقام بغيره



أن الله قال: قد فعلت. إجابة لهذا الدعاء، فقال «ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا». والفرق بينهما: أن النسيان: ذهول القلب عن ما أمر به فيتركه نسياً، والخطأ: أن يقصد شيئاً يجوز له قصده ثم يقع فعله على ما لا يجوز له فعله: فهذان قد عفا الله عن هذه الأمة ما يقع بهما رحمة بهم وإحساناً، فعلى هذا من صلى في ثوب مغصوب، أو نجس، أو قد نسي نجاسة على بدنه، أو تكلم في الصلاة ناسياً، أو فعل مفطراً ناسياً، أو فعل محظوراً من محظورات الإحرام التي ليس فيها إتلاف ناسياً، فإنه معفو عنه، وكذلك لا يبحث من فعل المحلوف عليه ناسياً، وكذلك لو أخطأ فأتلف نفساً أو مالا فليس عليه إثم، وإنما الضمان مرتب على مجرد الإتلاف، وكذلك الموضع التي تجب فيها التسمية إذا تركها الإنسان ناسياً لم يضر. «ربنا ولا تحمل علينا إصراً» أي: تكاليف مشقة «كما حملته على الذين من قبلنا» وقد فعل تعالى فإن الله خفف عن هذه الأمة في الأوامر من الطهارات وأحوال العبادات ما لم يخففه على غيرها «ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به» وقد فعل وله الحمد «واعف عنا وابعفر لنا وارحمنا» فالعفو والمغفرة يجزئل هما دفع المكروه والشروع، والرحمة يحصل بها صلاح الأمور «أنت مولانا» أي:

«هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء» من كامل الخلق وناقصه، وحسن وقبيح، وذكر وأنثى «لا إله إلا هو العزيز الحكيم» تضمنت هذه الآيات تقرير إلهية الله وتعيينها، وإبطال إلهية ما سواه، وفي ضمن ذلك رد على النصراني الذين يزعمون إلهية عيسى ابن مريم عليه السلام، وتضمنت إثبات حياته الكاملة وقيوميته التامة، المتضمنتين جميع الصفات المقدسة كما تقدم، وإثبات الشرائع الكبار، وأنها رحمة وهداية للناس، وتقسيم الناس إلى مهتد وغيره، وعقوبة من لم يهتد بها، وتقرير سعة علم الباري ونفوذ مشيئته وحكمته.

﴿٧-٩﴾ «هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون أماناه كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الأبواب» * ربنا لا نزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب * ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد ﴿القرآن العظيم كله محكم كما قال تعالى ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ فهو مشتمل على غاية الإتقان والإحكام والغدل والإحسان ﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ وكله متشابه في الحسن والبلاغة وتصديق بعضه لبعضه ومطابقته لفظاً ومعنى، وأما الإحكام والتشابه المذكور في هذه الآية فإن القرآن كما ذكره الله ﴿منه آيات محكمات﴾ أي: واضحات الدلالة، ليس فيها شبهة ولا إشكال ﴿هن أم الكتاب﴾ أي: أصله الذي يرجع إليه كل متشابه، وهي معظمه وأكثره، ﴿و﴾ منه آيات ﴿آخر متشابهات﴾ أي:

يلتبس معناها على كثير من الأذهان: لكون دلالتها مجملة، أو يتبادر إلى بعض الأفهام غير المراد منها، فالخاصل أن منها آيات بينة واضحة لكل أحد، وهي الأكثر التي يرجع إليها، ومنه آيات تشكل على بعض الناس، فالواجب في هذا أن يرد المتشابه إلى المحكم والخفي إلى الجلي، فبهذه الطريق يصدق بعضه بعضاً ولا يحصل فيه مناقضة ولا معارضة، ولكن الناس انقسموا إلى فرقتين ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ﴾ أي: ميل عن الاستقامة بأن فسدت مقاصدهم، وصار قسدهم الغني والفضلال وانحرفت قلوبهم عن طريق الهدى والرشاد ﴿فيتبعون ما تشابه منه﴾ أي: يتركون المحكم الواضح ويذهبون إلى المتشابه، ويعكسون الأمر فيحملون المحكم على المتشابه ﴿ابتغاء الفتنة﴾ لمن يدعونهم لقولهم، فإن المتشابه تحصل به الفتنة بسبب الاشتباه الواقع فيه، وإلا فالمحكم الصريح ليس محلاً للفتنة، لوضوح الحق فيه لمن قصده اتباعه، وقوله ﴿وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله﴾ للمفسرين في الوقوف على ﴿الله﴾ من قوله ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ قولان، جمهورهم يقفون عندها، وبعضهم يعطف عليها ﴿والراسخون في العلم﴾ وذلك كله محتمل، فإن التأويل إن أريد به علم حقيقة الشيء وكنهه كان الصواب الوقوف على ﴿إلا الله﴾ لأن المتشابه الذي استأثر الله بعلم كنهه وحقيقته، نحو حقائق صفات الله وكيفيتها، وحقائق أوصاف ما يكون في اليوم الآخر ونحو ذلك، فهذه لا يعلمها إلا الله، ولا يجوز التعرض للتأويل عليها، لأنه تعرض لما لا يمكن معرفته، كما سئل الإمام مالك رحمه الله عن قوله ﴿الرحمن على العرش﴾ [استوى] ^(١) فقال السائل: كيف استوى؟ فقال مالك: الاستواء معلوم،

والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، فهكذا يقال في سائر الصفات لمن سأل عن كيفيةها أن يقال كما قال الإمام مالك، تلك الصفة معلومة، وكيفيةها مجهولة، والإيمان بها واجب، والسؤال عنها بدعة، وقد أخبرنا الله بها ولم يخبرنا بكيفيةها، فيجب علينا الوقوف على ما حدثنا، فأهل الزيغ يتبعون هذه الأمور المشبهة تعرضاً لما لا يعني، وتكلفاً لما لا سبيل لهم إلى علمه، لأنه لا يعلمها إلا الله، وأما الراسخون في العلم فيؤمنون بها ويكملون المعنى إلى الله فيؤمنون ويسلمون، وإن أريد بالتأويل التفسير والكشف والإيضاح، كان الصواب عطف ﴿الراسخون﴾ على ﴿الله﴾ فيكون الله قد أخبر أن تفسير المتشابه ورده إلى المحكم وإزالة ما فيه من الشبهة لا يعلمها إلا هو تعالى والراسخون في العلم يعلمون أيضاً، فيؤمنون بها ويردونها للمحكم ويقولون ﴿كل﴾ من المحكم والمتشابه ﴿من عند ربنا﴾ وما كان من عنده فليس فيه تعارض ولا تناقض بل هو متفق يصدق بعضه بعضاً ويشهد بعضه لبعض ^(٢): وفيه تنبيه على الأصل الكبير، وهو أنهم إذا علموا أن جميعه من عند الله، وأشكل عليهم يحمل المتشابه، علموا يقيناً أنه مزدود إلى المحكم، وإن لم يفهموا وجه ذلك. ولما رغب تعالى في التسليم والإيمان بأحكامه وزجر عن اتباع المتشابه قال ﴿وما يذكر﴾ أي: يتعظ بمواعظ الله ويقل نصحه وتعليمه إلا ﴿أولوا الأبواب﴾ أي: أهل العقول الرزينة لب العالم وخلاصة بني آدم يصل التذكير إلى عقولهم، فيتذكرون ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه، وأما من عداهم فهم القشور الذي لا حاصل له ولا نتيجة فته، لا ينفعهم الزجر والتذكير لخلوهم من العقول النافعة.

(١) سقطت كلمة استوى من الأصل وأضيفها؛ لأنها موضع الشاهد.

(٢) في هامش الأصل زيادة نصها: (وفي تنبيه على الأصل الكبير وهو أنهم إذا علموا أن جميعه من عند الله، وأشكل عليهم مجمل المتشابه علموا يقيناً أنه مزدود إلى المحكم وإن لم يفهموا وجه ذلك). ولم يبين لي مغلها إلا أن الأقرب أنها هنا.

ثم أخبر تعالى عن الراسخين في العلم أنهم يدعون ويقولون ﴿ربنا لا تنزع قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ أي: لا تملها عن الحق جهلاً وعناداً منا، بل اجعلنا مستقيمين هادين مهتدين، فثبتنا على هدايتك وعافنا عما^(١) ابتليت به الزائغين ﴿وهب لنا من ليلتك رحمة﴾ أي: عظيمة توفقنا بها للخيرات وتعصمنا بها من المنكرات ﴿إنك أنت الوهاب﴾ أي: واسع العطايا والهبات، كثير الإحسان الذي عم جودك جميع البريات.

﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إنك لا تخلف الميعاد﴾ فمجازيهم بأعمالهم حسناتها وسيئها، وقد أثنى الله تعالى على الراسخين في العلم بسبع صفات هي عنوان سعادة العبد: إحداها: العلم الذي هو الطريق الموصل إلى الله، المبين لأحكامه وشرائعه، الثانية: الرسوخ في العلم وهذا قدر زائد على مجرد العلم، فإن الراسخ في العلم يقتضي أن يكون عالماً محققاً، وعارفاً مدققاً، قد علمه الله ظاهر العلم وباطنه، فرسخ قدمه في أسرار الشريعة علماً وحالاً وعملاً، الثالثة: أنه وصفهم بالإيمان بجميع كتابه وردّ لتشابهه إلى محكمه، بقوله ﴿يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾ الرابعة: أنهم سألوا الله العفو والعافية مما ابتلي به الزائغون المنحرفون، الخامسة: اعترافهم بمنة الله عليهم بالهداية وذلك قوله ﴿ربنا لا تنزع قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ السادسة: أنهم مع هذا سألوه رحمة المتضمنة حصول كل خير واندفاع كل شر، وتوسلوا إليه باسمه الوهاب، السابعة: أنه أخبر عن إيمانهم وإيقانهم بيوم القيامة وخوفهم منه، وهذا هو الموجب للعمل الرادع عن الزلل، ثم قال تعالى:

﴿١٠ - ١٣﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ كذاب

الفرعون والذين من قبلهم كذبوا

بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب ﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد﴾ ﴿قد كان لكم آية في فتنتين التقتا فتقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يروهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء﴾ ﴿إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾ يخبر تعالى أن الكفار به وبرسله، الجاحدين بدينه وكتابه، قد استحقوا العقاب وشدة العذاب بكفرهم وذنوبهم وأنه لا يغني عنهم مالهم ولا أولادهم شيئاً، وإن كانوا في الدنيا يستدفعون بذلك النكبات التي ترد عليهم، ويقولون ﴿نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين﴾ فيوم القيامة يندو لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون ﴿ويدا لهم سيئات ما كسبوا وحق بهم ما كانوا به يستهزؤن﴾ وليس للأولاد والأموال قدر عند الله، إنما ينفع العبد إيمانه بالله وأعماله الصالحة، كما قال تعالى ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون﴾ وأخبر هنا أن الكفار هم وقود النار، أي: حطبها، الملازمون لها دائماً أبداً، وهذه الحال التي ذكر الله تعالى أنها لا تغني الأموال وأولاد عن الكفار شيئاً، سنته الجارية في الأمم السابقة، كما جرى لفرعون ومن قبله ومن بعدهم من الفراعنة العتاة الطغاة أرباب الأموال والجنود لما كذبوا بآيات الله وجحدوا ما جاءت به الرسل وعاندوا، أخذهم الله بذنوبهم عدلاً منه لا ظملاً والله شديد العقاب على من أتى بأسباب العقاب وهو الكفر والذنوب على اختلاف أنواعها وتعدد مراتبها، ثم قال تعالى ﴿قل﴾ يا محمد ﴿للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد﴾ وفي هذا إشارة للمؤمنين بالنصر والغلبة وتحذير للكفار، وقد وقع كما أخبر تعالى، فنصر الله المؤمنين على أعدائهم من كفار المشركين واليهود

والنصارى، وسيفعل هذا تعالى بعباده وجنده المؤمنين إلى يوم القيامة، ففي هذا عبرة وآية من آيات القرآن المشاهدة بالحس والعيان، وأخبر تعالى أن الكفار مع أنهم مغلوبون في الدار أنهم محشورون ومجموعون يوم القيامة لدار البوار، وهذا هو الذي مهدوه لأنفسهم فبئس المهاد مهادهم، وبئس الجزاء جزاؤهم، ﴿قد كان لكم آية﴾ أي: عبرة عظيمة ﴿في فتنتين التقتا﴾ وهذا يوم بدر ﴿فتة تقاتل في سبيل الله﴾ وهم الرسول ﷺ وأصحابه ﴿وأخرى كافرة﴾ أي: كفار قريش الذين خرجوا من ديارهم بطراً وفخراً ورتاء الناس، ويصدون عن سبيل الله، فجمع الله بين الطائفتين في بدر، وكان المشركون أضعاف المؤمنين، فلهذا قال ﴿يروهم مثليهم رأي العين﴾ أي: يرى المؤمنون الكافرين يزيدون عليها زيادة كثيرة، تبلغ المضاعفة وتزيد عليها، وأكد هذا بقوله ﴿رأي العين﴾ فنصر الله المؤمنين وأيدهم بنصره فهزمهم، وقتلوا صناديدهم، وأسروا كثيراً منهم، وما ذاك إلا لأن الله ناصر من نصره، وخاذل من كفر به، ففي هذا عبرة لأولي الأبصار، أي: أصحاب البصائر النافذة والعقول الكاملة، على أن الطائفة المنصورة معها الحق، والأخرى مبطلّة، وإلا فلو نظر الناظر إلى مجرد الأسباب الظاهرة والعدد والغدد لحزم بأن غلبة هذه الفئة القليلة لتلك الفئة الكثيرة من أنواع المحالات، ولكن وراء هذا السبب المشاهد بالأبصار سبب أعظم منه لا يدركه إلا أهل البصائر والإيمان بالله والتوكل على الله والثقة بكفائته، وهو نصره وإعزازه لعباده المؤمنين على أعدائه الكافرين.

﴿١٤ - ١٧﴾ ﴿زَيْنَ لِّلنَّاسِ حُبِّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَآبِ﴾ ﴿١٨﴾ ﴿قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا



المرجع في جميع الأمور الدينية خصوصاً في أعظم الأمور وأجلها وأشرفها وهو التوحيد، فكلهم من أولهم إلى آخرهم قد اتفقوا على ذلك ودعوا إليه وبنوا للناس الطرق الموصلة إليه، فوجب على الخلق التزام هذا الأمر المشهود عليه والعمل به، وفي هذا دليل على أن أشرف الأمور علم التوحيد لأن الله شهد به بنفسه وأشهد عليه خواص خلقه، والشهادة لا تكون إلا عن علم ويقين، بمنزلة المشاهدة للبصر، ففيه دليل على أن من لم يضل في علم التوحيد إلى هذه الحالة فليس من أولي العلم. وفي هذه الآية دليل على شرف العلم من وجوه كثيرة، منها: أن الله خصهم بالشهادة على أعظم مشهود عليه دون الناس، ومنها: أن الله قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وكفى بذلك فضلاً، ومنها: أنه جعلهم أولي العلم، فأضافهم إلى العلم، إذ هم القائمون به المتصفون بصفته، ومنها: أنه تعالى جعلهم شهداء وحجة على الناس، وألزم الناس العمل بالأمر المشهود به، فيكونون هم السبب في ذلك، فيكون كل من عمل بذلك نالهم من أجره، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ومنها: أن إشهادته تعالى لأهل العلم يتضمن ذلك تزكيتهم وتعديلهم، وأنهم أمتاء على ما استرعاهم عليه، ولما قرر توحيده قرر عدله، فقال: ﴿قَاتِلُوا

بالبسطة﴾ أي: لم يزل متصفاً بالبسطة في أفعاله وتدبيره بين عبادَه، فهو على صراط مستقيم في ما أمر به ونهى عنه، وفيما خلقه وقدره، ثم أعاد تقرير توحيده فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. واعلم أن هذا الأصل الذي هو توحيد الله وإفراده بالعبودية قد دلت عليه الأدلة العقلية والأدلة العقلية، حتى صار لذوي البصائر أجلى من الشمس، فأما الأدلة العقلية فكل ما في كتاب الله وسنة رسوله، من الأمر به وتقديره، ومحبة أهله وبغض من لم يقم به وعقوباتهم، وذم الشرك وأهله، فهو من الأدلة العقلية على ذلك، حتى كاد القرآن أن يكون كله أدلة عليه، وأما الأدلة العقلية التي تدرك بمجرد فكر العقل وتصورة للأمور فقد أرشد القرآن إليها ونبه على كثير منها، فمن أعظمها: الاعتراف بربوبية الله، فإن من عرف أنه هو الخالق الرازق المديّر لجميع الأمور أنتج له ذلك أنه هو المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ولما كان هذا من أوضح الأشياء وأعظمها أكثر الله تعالى من الاستدلال به في كتابه. ومن الأدلة العقلية على أن الله هو الذي يؤله دون غيره أفرادَه بالنعم ودفع النعم، فإن من عرف أن النعم الظاهرة والباطنة القليلة والكثيرة كلها من الله، وأنه ما من نعمة ولا شدة ولا كربة إلا وهو الذي يتفرد بدفعها وإن أحداً من الخلق لا يملك لنفسه - فضلاً عن غيره - جلب نعمة ولا دفع نعمة، يتقن أن عبودية ما سوى الله من أبطل الباطل وأن العبودية لا تنبغي إلا لمن انفرد بجلب المصالح ودفع المضار، فلهذا أكثر الله في كتابه من التنبيه على هذا الدليل جداً، ومن الأدلة العقلية أيضاً على ذلك: ما أخبر به تعالى عن المعبودات التي عبدت من دونه، بأنها لا تملك نفعا ولا ضرا، ولا تنصّر غيرها ولا تنصّر نفسها، وسلبها الأسماع والأبصار، وأنها على فرض سماعها لا تغني شيئاً، وغير ذلك من الصفات الدالة على نقصها غاية النقص، وما أخبر به عن نفسه العظيمة

من الصفات الجليلة والأفعال الجميلة، والقدرة والقهر، وغير ذلك من الصفات التي تعرف بالأدلة السمعية والعقلية، فمن عرف ذلك حق المعرفة عرف أن العبادة لا تليق ولا تحسن إلا بالرب العظيم الذي له الكمال كله، والمجد كله، والحمد كله، والقدرة كلها، والكبرياء كلها، لا بال مخلوقات المذّبرات الناقصات الضم البكم الذين لا يعقلون، ومن الأدلة العقلية على ذلك ما شاهده العباد بأبصارهم من قديم الزمان وحديثه، من الإكرام لأهل التوحيد، والإهانة والعقوبة لأهل الشرك، وما ذاك إلا لأن التوحيد جعله الله موصلاً إلى كل خير دافعاً لكل شر ديني ودنيوي، وجعل الشرك به والكفر سبباً للعقوبات الدينية والدنيوية، ولهذا إذا ذكر تعالى قصص الرسل مع أئمة المطيعين والعاصين، وأخبر عن عقوبات العاصين ونجاة الرسل ومن تبعهم، قال عقب كل قصة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي: لعلية يعتبر بها المعترفون فيعملون أن توحيده هو الموجب للنجاة، وتركه هو الموجب للهلاك، فهذه من الأدلة الكبار العقلية العقلية الدالة على هذا الأصل العظيم، وقد أكثر الله منها في كتابه وصرّفها ونوعها ليحیی من حيي عن بيته، ويهلك من هلك عن بيته فله الحمد والشكر والثناء.

ولما قرر أنه الإله الحق المعبود، بين العبادة والدين الذي يتعين أن يعبد به ويدان له، وهو الإسلام الذي هو الاستسلام لله بتوحيده وطاعته التي دعت إليها رسله، وحث عليها كتبه، وهو الذي لا يقبل من أحد دين سواه، وهو متضمن للإخلاص له في الحب والخوف والرجاء والإنابة والدعاء ومتابعة رسوله في ذلك، وهذا هو دين الرسل كلهم، وكل من تابعهم فهو على طريقهم، وإنما اختلف أهل الكتاب بعد ما جاءتهم كتبهم تحثهم على الاجتماع على دين الله، بغياً بينهم، وظلماً وعدواناً من أنفسهم، وإلا فقد جاءهم الشنب الأكبر الموجب أن يتبعوا

الحق ويتركوا الاختلاف، وهذا من كفرهم، فلهذا قال تعالى ﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾ فيجازي كل عامل بعمله، وخصوصاً من ترك الحق بعد معرفته، فهذا مستحق للوعيد الشديد والعقاب الأليم، ثم أمر تعالى رسوله ﷺ عند حاجة النصارى وغيرهم من يفضل غير دين الإسلام، عليه أن يقول لهم: قد أسلمت وجهي لله ومن اتبعن ﴿أي: أنا ومن اتبعني قد أقررتنا وشهدتنا وأسلمنا وجوهنا لرنا، وتركنا ما سوى دين الإسلام، وجزينا بيطلانه، ففي هذا تأسيس لمن طمع فيكم، وتقديد لدينكم عند ورود الشبهات، وحجة على من اشتبه عليه الأمر، لأنه قد تقدم أن الله أسشهد على توحيد به أهل العلم من عبادته ليكونوا حجة على غيرهم، وسيد أهل العلم وأفضلهم وأعلمهم هو نبينا محمد ﷺ، ثم من بعده أتباعه على اختلاف مراتبهم وتفاوت درجاتهم، فلهم من العلم الصحيح والعقل الرجيح ما ليس لأحد من الخلق ما يساويهم أو يقاربهم، فإذا ثبت وتقرر توحيد الله ودينه بأدلتها الظاهرة، وقام به أكمل الخلق وأعلمهم، حصل بذلك اليقين وانتهى كل شك وريب وقادح، وعرف أن ما سواه من الأديان باطلة، فلهذا قال ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب﴾ من النصارى واليهود ﴿والأمة﴾ مشركي العرب وغيرهم ﴿أسلمتم فإن أسلموا﴾ أي: بمثل ما أمنت به ﴿فقد اهتدوا﴾ كما اهتديتم وصاروا إخوانكم، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم ﴿وإن تولوا﴾ عن الإسلام ورضوا بالأديان التي تخالفه ﴿فإنما عليك البلاغ﴾ فقد وجب أجرك على ربك، وقامت عليهم الحجة، ولم يبق بعد هذا إلا مجازاتهم بالعقاب على جرمهم، فلهذا قال ﴿والله بصير بالعباد﴾

﴿٢١-٢٢﴾ إن الذين يكفرون

بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق

ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فيبشروهم بعذاب أليم * أولئك الذين حبست أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين * هؤلاء الذين أخبر الله عنهم في هذه الآية، أشد الناس جرماً وأي: جرم أعظم من الكفر بآيات الله التي تدل دلالة قاطعة على الحق الذي من كفر بها فهو في غاية الكفر والعناد ويقتلون أنبياء الله الذين حقهم أوجب الحقوق على العباد بعد حق الله، الذين أوجب الله طاعتهم والإيمان بهم، وتعزيرهم، وتوحيدهم، ونصرهم وهؤلاء قابلوهم بضد ذلك، ويقتلون أيضاً الذين يأمرون الناس بالقسط الذي هو العدل، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي حقيقته إحسان إلى المأمور ونصح له، فقابلوهم شر مقابلة، فاستحقوا بهذه الجنائيات المنكرات أشد العقوبات، وهو العذاب المؤلم البالغ في الشدة إلى غاية لا يمكن وصفها، ولا يقدر قدرها المؤلم للأبدان والقلوب والأرواح، وبطلت أعمالهم بما كسبت أيديهم، وما لهم أحد ينصبرهم من عذاب الله ولا يدفع عنهم من نقيته مثقال ذرة، بل قد أيسوا من كل خير، وحصل لهم كل شر وضير، وهذه الحالة صفة اليهود ونحوهم، قبحهم الله ما أجزأهم على الله وعلى أنبيائه وعباده الصالحين.

﴿٢٣-٢٥﴾ ألم تر إلى الذين أوتوا

نصيياً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون * ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات وغيرهم في دينهم ما كانوا يفترون * فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون * يخبر تعالى عن حال أهل الكتاب الذين أنعم الله عليهم بكتابه، فكان يجب أن يكونوا أقوم الناس به وأسرعهم انقياداً لأحكامه، فأخبر الله عنهم أنهم إذا دعوا إلى حكم الكتاب تولى فريق منهم وهم يعرضون، تولوا بأبدانهم، وأعرضوا بقلوبهم، وهذا غاية الذم، وفي ضمنها التحذير لنا أن نفعل كفعالهم، فيصيبنا



من الدم والعقاب ما أصابهم، بل الواجب على كل أحد إذا دعي إلى كتاب الله أن يسمع ويطيع وينقاد، كما قال تعالى ﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا﴾ والسبب الذي غر أهل الكتاب بتجرتهم على معاصي الله هو قولهم ﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات وغيرهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾ افتروا هذا القول فظنوه حقيقة فعملوا على ذلك ولم ينزجروا عن المحارم، لأن أنفسهم منتهم وغرتهم أن مآلهم إلى الجنة، وكذبوا في ذلك، فإن هذا مجرد كذب وإفراء، وإنما مآلهم شر مآل، وعاقبتهم عاقبة وخيمة، فلهذا قال تعالى ﴿فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه﴾ أي: كيف يكون حالهم وخيم ما يقدمون عليه، حالة لا يمكن وصفها ولا يتصور قبحها لأن ذلك اليوم يوم توفية النفوس ما كسبت ومجازاتها بالعدل لا بالظلم، وقد علم أن ذلك على قدر الأعمال، وقد تقدم من أعمالهم ما يبين أنهم من أشد الناس عذاباً.

﴿٢٦-٢٧﴾ قل اللهم مالك

الملك توتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير * تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج

﴿فتقبلها ربهما بقبول حسن﴾ أي: جعلها نذيرة مقبولة، وأجارها وذريتها من الشيطان ﴿وأنبتها نباتاً حسناً﴾ أي: نبتت نباتاً حسناً في بدنهما وخلقهما وأخلاقهما، لأن الله تعالى قبض لهما زكريا عليه السلام ﴿وكفلها﴾ إياه، وهذا من رفقه بهما ليزييهما على أكمل الأحوال، فنشأت في عبادة ربهما وفاقت النساء، وانقطعت لعبادة ربهما، ولزمت محرابها أي: مصلاها فكان كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ﴿أي: من غير كسب ولا تعب، بل رزق ساقه الله إليها، وكرامة أكرمها الله بها، فيقول لها زكريا: أني لك هذا قالت هو من عند الله﴾ فضلاً وإحساناً ﴿إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ أي: من غير حساب من العبد ولا كسب، قال تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ وفي هذه الآية دليل على إثبات كرامات الأولياء الخارقة للعادة كما قد تواترت الأخبار بذلك، خلافاً لمن نفى ذلك، فلندا رأى زكريا عليه السلام ما من الله به على مريم، وما أكرمها به من رزقه الهنيء الذي أتاها بغير سعي منها ولا كسب، طمعت نفسه بالولد، فلها قال تعالى:

﴿٣٨-٤١﴾ ﴿هاتيك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء﴾ فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصداقاً بكلمة من الله وسيداً وحصواً ونبياً من الصالحين ﴿قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأى عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء﴾ قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا زمراً واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار﴾ أي: دعا زكريا عليه السلام ربه أن يرزقه ذرية طيبة، أي: طاهرة الأخلاق، طيبة الآداب، لتكمل النعمة الدينية والدنيوية بهم، فاستجاب له

مستقيم ﴿والله سميع عليم﴾ يعلم من يستحق الاصطفاء فيصطفيه ومن لا يستحق ذلك فيخذله ويرديه، ودل هذا على أن هؤلاء اختارهم لما علم من أحوالهم الموجبة لذلك فضلاً منه وكرماً، ومن الفائدة والحكمة في قصه علينا أخبار هؤلاء الأصفياء أن تحبهم ونقتدي بهم، ونسال الله أن يوفقنا لما نفهم، وأن لا نزال نزري ﴿أنقشنا بتأخرنا عنهم وعدم انصافنا بأوصافهم ومزايهم الجميلة، وهذا أيضاً من لطفه بهم، وإظهاره الشناء عليهم في الأولين والآخرين، والتنويه بشرفهم، قلله ما أعظم جوده وكرمه وأكثر فوائده معاملته، لو لم يكن لهم من الشرف إلا أن أذكركم خلدة ومناقبهم مؤيدة لكفى بذلك فضلاً، ولما ذكر فضائل هذه البيوت الكريمة ذكر ما جرى لمريم والدة عيسى وكيف لطف الله بها في تربيتها ونشأتها، فقال: ﴿إذ قالت امرأة عمران﴾ أي: والدة مريم لما حملت ﴿رب إنى نذرت لك ما في بطني محرراً﴾ أي: جعلت ما في بطني خالصاً لوجهك، محرراً لخدمتك وخدمة بيتك ﴿فتقبل مني﴾ هذا العمل المبارك ﴿إنك أنت السميع العليم﴾ تسمع دعائي وتعلم نيتي وقصدي، هذا وهي في البطن قبل وضعها ﴿فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى﴾ كأنها تشوفت أن يكون ذكراً ليكون أقدر على الخدمة وأعظم موقعاً، ففي كلامها [نوع] ﴿عذر من ربه﴾ فقال الله: ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ أي: لا يحتاج إلى إعلامها، بل علمه متعلق بها قبل أن تعلم أمها ما هي ﴿وليس الذكر كالأنثى وإنى سميتها مريم﴾ فيه دلالة على تفضيل الذكر على الأنثى، وعلى التسمية وقت الولادة، وعلى أن للام تسمية الولد إذا لم يكره الأب ﴿وإنى أعيدنها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾ دغت لها ولذريتها أن يعيدهم الله من الشيطان الرجيم

والحلم والفضل ما فاق به سائر المخلوقات، ولهذا فضل بنيه، فقال تعالى: ﴿ولقد كرمتنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾

واصطفى نوحاً فجعله أول رسول إلى أهل الأرض حين عبدت الأوثان، ووقفه من الصبر والاحتمال والشكر والدعوة إلى الله في جميع الأوقات ما أوجب اصطفاؤه واجتباؤه، وأغرق الله أهل الأرض بدعوته، ونجاه ومن معه في الفلك المشحون، وجعل ذريته هم الباقين، وترك عليه ثناء يذكر في جميع الأحيان والأزمان.

واصطفى آل إبراهيم وهو إبراهيم خليل الرحمن الذي اختصه الله بخلته، وبذل نفسه للنيران وولده للقربان وماله للضيقات، ودعا إلى ربه ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، وجعله الله أسوة يقتدي به من بعده، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، ويدخل في آل إبراهيم جميع الأنبياء الذين بعثوا من بعده لأنهم من ذريته، وقد خصهم بأنواع الفضائل ما كانوا به صفوة على العالمين، ومنهم سيد ولد آدم نبينا محمد ﷺ فإن الله تعالى جمع فيه من الكمال ما تفرق في غيره، وفاق ﷺ الأولين والآخرين، فكان سيد المرسلين المصطفى من ولد إبراهيم

واصطفى الله آل عمران وهو والد مريم بنت عمران، أو والد موسى بن عمران عليه السلام، فهذه البيوت التي ذكرها الله هي صفوته من العالمين، وتسلسل الصلاح والتوفيق بذرياتهم، فلها قال تعالى ﴿ذرية بعضها من بعض﴾ أي: حصل التناسب والتشابه بينهم في الخلق والأخلاق الجميلة، كما قال تعالى لما ذكر جملة من الأنبياء الداخلين في ضمن هذه البيوت الكبار ﴿ومن آبائهم وإخوانهم وذرياتهم واجتبتيناهم وهديناهم إلى صراط

(١) في الأصل: ومن.

(٢) في الأصل: نزدي.

(٣) الكلمة غير واضحة في الأصل ويبدو

- والله أعلم - أنها كما أثبت.

دعائه، وبينما هو قائم في غرابه يتعبد لربه ويتضرع نادته الملائكة ﴿أَنْ اللهُ يبشرك ببشر مصداقاً بكلمة من الله﴾ أي: بعيسى عليه السلام، لأنه كان بكلمة الله ﴿وسيداً﴾ أي: يحصل له من الصفات الجميلة ما يكون به سيداً يرجع إليه في الأمور ﴿وحضوراً﴾ أي: ممنوعاً من إتيان النساء، فليس في قلبه لهن شهوة، اشتغالاً بخدمة ربه وطاعته ﴿ونبياً من الصالحين﴾ أي: بشارة أعظم من هذا الولد الذي حصلت البشارة بوجوده، وبكمال صفاته، وبكونه نبياً من الصالحين، فقال زكريا من شدة فرحه ﴿رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأى عاقر﴾ وكل واحد من الأمرين مانع من وجود الولد، فكيف وقد اجتمع، فأخبره الله تعالى أن هذا خارق للعادة، فقال: ﴿كذلك الله يفعل ما يشاء﴾ فكما أنه تعالى قدر وجود الأولاد بالأسباب التي منها التناسل، فإذا أراد أن يوجد من غير ما سبب فعل، لأنه لا يستعصي عليه شيء، فقال زكريا عليه السلام استعجلاً لهذا الأمن، وليحصل له كمال الطمأنينة ﴿رب اجعل لي آية﴾ أي: علامة على وجود الولد قال ﴿آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رموا﴾ أي: ينحس لسانك عن كلامهم من غير آفة ولا سوء، فلا تقدر إلا على الإشارة والرمز، وهذا آية عظيمة أن لا تقدر على الكلام، وفيه مناسبة عجبية، وهي أنه كما يمنع نفوذ الأسباب مع وجودها، فإنه يوجد بدون أسبابها ليدل ذلك أن الأسباب كلها مندرجة في قضائه وقدره، فامتنع من الكلام ثلاثة أيام، وأمره الله أن يشكره ويكثر من ذكره بالعشي والإبكار، حتى إذا خرج على قومه من المحراب ﴿فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا﴾ أي: أول النهار وآخره.

﴿٤٢ - ٤٤﴾ ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ﴾

يا مريم اسجدي واركعي مع لربك

الراكعين * ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون * ينوه تعالى بفضيلة مريم وعلو قدرها، وأن الملائكة خاطبتها بذلك فقالت ﴿يا مريم إن الله اصطفاك﴾ أي: اختارك ﴿وطهرك﴾ من الآفات المنقصة ﴿واصطفاك على نساء العالمين﴾ الاصطفاء الأول يرجع إلى الصفات الحميدة والأفعال السديدة، والاصطفاء الثاني يرجع إلى تفضيلها على سائر نساء العالمين، إما على عالمي زمانها، أو مطلقاً، وإن شاركها أفراد من النساء في ذلك كخديجة وعائشة وفاطمة، لم يناف الاصطفاء المذكور، فلما أخبرتها الملائكة باصطفاء الله إياها وتطهيرها، كان في هذا من النعمة العظيمة والمنحة الجسيمة ما يوجب لها القيام بشكرها، فلماذا قالت لها الملائكة: ﴿يا مريم اقتني لربك﴾ القنوت دوام الطاعة في خضوع وخشوع، ﴿واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ خص السجود والركوع لفضلهما ودلالتهما على غاية الخضوع لله، ففعلت مريم، ما أمرت به شكر الله تعالى وطاعة، ولما أخبر الله نبيه بما أخبر به عن مريم، وكيف تنقلت بها الأحوال التي يقضها الله لها، وكان هذا من الأمور الغيبية التي لا تعلم إلا بالوحي، قال ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم﴾ أي: عندهم ﴿إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم﴾ لما ذهبت بها أمها إلى من لهم الأمر على بيت المقدس، فتشاحوا وتخاصموا أيهم يكفل مريم، واقتربوا عليها بأن ألقوا أقلامهم في النهر، فأبهم لم يجز قلمه مع الماء فله كفالته، فوقع ذلك لزكريا نبيهم وأفضلهم، فلما أخبرتهم يا محمد بهذه الأخبار التي لا علم لك ولا لقومك بها دل على أنك صادق وأنتك رسول الله حقاً، فوجب عليهم الانقياد لك وامثال أوامرك، كما قال تعالى: ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ الآيات.

هَذَا مَعَاذَ كَرَامَةِ رَبِّهِ لِي مِنْ ذَلِكَ فَرِيَّةٌ لَيْسَ إِنَّكَ تَسْمَعُ الدُّعَاءَ ﴿٤٢﴾ فَإِنَّهُ لِلَّهِ حُكْمٌ وَهُوَ قَائِمٌ بِعِزِّ الْحَرْبِ إِنَّ اللَّهَ يُبَيِّنُ رِجْئِي مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنْ رَبِّهِ وَأَن لَّيُكُونَ لِي عِلْمٌ وَكَذَلِكَ يَكُونُ الْكُفْرُ وَالْإِسْلَامُ وَالْأَنبِيَاءُ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي ذِكْرًا مِّنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ إِنَّكَ عَلِيمٌ بِغُيُوبِ النَّاسِ ﴿٤٤﴾ وَكَذَلِكَ نَسُفُّكَ السَّعْيَ وَالْعَشْيَ وَالْإِكْرَارَ ﴿٤٥﴾ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لَمَرْيَمُ إِنَّكِ أَنتِ الْبَارِيَّةُ وَأَنَّكَ كَتَبَتْ كِتَابًا مَّكَامٍ شَرِيفٍ ﴿٤٦﴾ وَتَذَكَّرِ اسْمَ رَبِّكَ إِذْ قَامَتْ قَائِلَةً عَلَى الْحَصْبِ وَتَقَرَّبَ إِلَيْهَا رَبُّهَا بِمَرْيَمَ وَتَكَلَّمَ إِلَيْهَا بِرُوحِ قُدُّوسٍ ﴿٤٧﴾ وَتَذَكَّرِ اسْمَ رَبِّكَ إِذْ قَامَتْ قَائِلَةً عَلَى الْحَصْبِ وَتَقَرَّبَ إِلَيْهَا رَبُّهَا بِمَرْيَمَ وَتَكَلَّمَ إِلَيْهَا بِرُوحِ قُدُّوسٍ ﴿٤٨﴾ وَتَذَكَّرِ اسْمَ رَبِّكَ إِذْ قَامَتْ قَائِلَةً عَلَى الْحَصْبِ وَتَقَرَّبَ إِلَيْهَا رَبُّهَا بِمَرْيَمَ وَتَكَلَّمَ إِلَيْهَا بِرُوحِ قُدُّوسٍ ﴿٤٩﴾ وَتَذَكَّرِ اسْمَ رَبِّكَ إِذْ قَامَتْ قَائِلَةً عَلَى الْحَصْبِ وَتَقَرَّبَ إِلَيْهَا رَبُّهَا بِمَرْيَمَ وَتَكَلَّمَ إِلَيْهَا بِرُوحِ قُدُّوسٍ ﴿٥٠﴾

﴿٤٥ - ٥٨﴾ ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ ابْتِخَارَكَ بِكَلِمَةٍ مِّنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ وَمِنْ الْمُقَرَّبِينَ﴾

المسيح عيسى ابن مريم وجهها في الدنيا والآخرة ومن المقربين * ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين * قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون * ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل * ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنشئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين * ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون * إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم * فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الخواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأننا مسلمون * ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين * ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين * إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم



فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون * فأما الذين كفروا فاعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين * وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفى لهم أجورهم والله لا يحب الظالمين * ذلك نلتوه عليكم من الآيات والذكر الحكيم * يخبر تعالى أن الملائكة بشرت مريم عليها السلام بأعظم بشارة، وهو كلمة الله عبده ورسوله عيسى ابن مريم، سمي كلمة الله لأنه كان بالكلمة من الله، لأن حالته خارجة عن الأسباب، وجعله الله من آياته وعجائب مخلوقاته، فأرسل الله جبريل عليه السلام إلى مريم، فنفخ في جيب درعها فولجت فيها تلك النفخة الذكية من ذلك الملك الزكي، فأنشأ الله منها تلك الروح الزكية، فكان روحانياً نشأ من مادة روحانية، فلهاذا سمي روح الله * وجيهاً في الدنيا والآخرة * أي: له الوجهة العظيمة في الدنيا، جعله الله أحد أولي العزم من المرسلين أصحاب الشرائع الكبار والأنبياء، ونشر الله له من الذكر ما ملأ ما بين المشرق والمغرب، وفي الآخرة وجيهاً عند الله يشفع أسوة إخوانه من النبيين والمرسلين، ويظهر فضله على أكثر العالمين، فلهاذا كان من المقربين إلى الله، أقرب الخلق إلى ربهم، بل هو عليه السلام من سادات المقربين * ويكلم الناس في المهد وكهلاً * وهذا غير

التكليم المعتاد، بل المراد يكلم الناس بما فيه صلاحهم وفلاحهم، وهو تكليم المرسلين، ففي هذا إرساله ودعوته الخلق إلى ربهم، وفي تكليمهم في المهد آية عظيمة من آيات الله تنتفع بها المؤمنون، وتكون حجة على المعاندين، أنه رسول رب العالمين، وأنه عبد الله، وليكون نعمة وبراءة لو لدته مما رميت به * ومن الصالحين * أي: يمين عليه بالصلاح، من من عليهم، ويدخله في جملتهم، وفي هذا عدة بشارات لمريم مع ما تضمن من التنويه بذكر المسيح عليه السلام * قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسنني بشر * والولد في العادة لا يكون إلا من مس البشر، وهذا استغراب منها، لا شك في قدرة الله تعالى: * قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون * فأخبرها أن هذا أمر خارق للعادة، خلقه من يقول لكل أمر أراده: كن فيكون، فمن يقن ذلك زال عنه الاستغراب والتعجب، ومن حكمة الباري تعالى أن تدرج بأخبار العباد من الغريب إلى ما هو أغرب منه، فذكر وجود يحيى بن زكريا بين أبوين أحدهما كبير والآخر عاقر، ثم ذكر أغرب من ذلك وأعجب، وهو وجود عيسى عليه السلام من أم بلا أب ليدل عباده أنه الفعال لما يريد وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ثم أخبر تعالى عن منته العظيمة على عبده ورسوله عيسى عليه السلام، فقال * ويعلمه الكتاب * فيكون ذكر التوراة والإنجيل تخصيصاً لهما، لشرفهما وفضلهما واحتوائهما على الأحكام والشرائع التي يحكم بها أنبياء بني إسرائيل والتعليم، لذلك يدخل فيه تعليم ألفاظه ومعانيه، ويحتمل أن يكون المراد بقوله * ويعلمه الكتاب * أي: الكتابة، لأن الكتابة من أعظم نعم الله على عباده ولهذا امتن تعالى على عباده بتعليمهم بالقلم في أول سورة أنزلها فقال * اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم

والمراد بالحكمة معرفة أسرار الشرع، ووضع الأشياء مواضعها، فيكون ذلك امتناناً على عيسى عليه السلام بتعليمه الكتابة والعلم والحكمة، وهذا هو الكمال للإنسان في نفسه، ثم ذكر له كملاً آخر وفضلاً زائداً على ما أعطاه الله من الفضائل، فقال * ورسولاً إلى بني إسرائيل * فأرسله الله إلى هذا الشعب الفاضل الذين هم أفضل العالمين في زمانهم يدعوه إلى الله، وأقام له من الآيات ما دلهم أنه رسول الله حقاً ونبية صدقاً ولهذا قال * أنى قد جئتكم بأية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين طيراً، أي: أصوره على شكل الطير * فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله * أي: طيراله روح تطير بإذن الله * وأبرئ الأكمه * وهو الذي يولد أعمى * والأبرص * بإذن الله * وأحيى الموتى بإذن الله وأنبتكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية أعظم لكم إن كنتم مؤمنين * أي: آية أعظم من جعل الجماد حيواناً، وإبراء ذوي العاهات التي لا قدرة للأطباء في معالجتها، وإحياء الموتى، والإخبار بالأمور الغيبية، فكل واحدة من هذه الأمور آية عظيمة بمفردها، فكيف بها إذا اجتمعت وصدق بعضها بعضها؟ فإنها موجبة للإيقان وداعية للإيمان * ومصدقاً لما بين يدي من التوراة * أي: أتيت بنجس ما جاءت به التوراة وما جاء به موسى عليه السلام، وعلامة الصادق أن يكون خبره من جنس خبر الصادقين، يخبر بالصدق، ويأمر بالعدل من غير تحالف ولا تناقض، بخلاف من ادعى دعوى كاذبة، خصوصاً أعظم الدعوى وهي دعوى النبوة، فالكاذب فيها لا بد أن يظهر لكل أحد كذب صاحبه وتناقضه ومخالفته لأخبار الصادقين وموافقته لأخبار الكاذبين، هذا موجب السنن الماضية والحكمة الإلهية والرحمة الربانية بعباده، إذ لا يشبه الصادق بالكاذب في دعوى النبوة أبداً، بخلاف بعض الأمور الجزئية، فإنه قد يشبه فيها الصادق بالكاذب، وأما النبوة فإنه

يترتب عليها هداية الخلق أو ضلالهم وسعادتهم وشقاؤهم، ومعلوم أن الصياد فيهما من أكمل الخلق، والكاذب فيهما من أخس الخلق وأكذبهم وأظلمهم، فحكمة الله ورحمته بعباده أن يكون بينهما من الفروق ما يبين لكل من له عقل، ثم أخبر عيسى عليه السلام أن شريعة الإنجيل شريعة فيها سهولة ويسرة فقال **﴿وَلَا حُلْ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾** فدل ذلك على أن أكثر أحكام التوراة لم ينسخها الإنجيل بل كان متمماً لها ومقررراً **﴿وَجِئْتُمْكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾** تدل على صدقي ووجوب اتباعي، وهي ما تقدم من الآيات، والمقصود من ذلك كله قوله **﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾** بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه وأطيعوني فإن طاعة الرسول طاعة لله **﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾** استدلل بتوحيد الربوبية الذي يقر به كل أحد على توحيد الإلهية الذي ينكره المشركون، فكما أن الله هو الذي خلقنا ورزقنا وأنعم علينا نعماً ظاهرة وباطنة، فليكن هو معبودنا الذي نأله بالحب والخوف والرجاء والدعاء والاستعانة وجميع أنواع العبادة، وفي هذا رد على النصارى القائلين بأن عيسى إله أو ابن الله، وهذا إقراره عليه السلام بأنه عبد مبدئ مخلوق، كما قال **﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾** وقال تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ إِلَى قَوْلِهِ﴾** ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن أعبدوا الله ربي وربكم **﴿هَذَا﴾** أي: عبادة الله وتقواه وطاعة رسوله **﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾** موصل إلى الله وإلى جنته، وما عدا ذلك فهي طرق موصلة إلى الجحيم، **﴿فَلَمَّا أَحْسَنَ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ﴾** أي: رأى منهم عدم الانقياد له، وقالوا هذا سحر مبین، وهو ما يقتله وسعوا في ذلك **﴿قَالَ مِنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾** من يعاونني ويقوم معي بنصرة دين الله **﴿قَالَ الْخَوَارِيُّونَ﴾** وهم

الأنصار **﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾** أي: انتدبوا معه وقاموا بذلك، وقالوا: **﴿أَمَّا بِاللَّهِ﴾** **﴿فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾** أي: الشهادة النافعة، وهي الشهادة بتوحيد الله وتصديق رسوله مع القيام بذلك، فلما قاموا مع عيسى بنصر دين الله وإقامة شرعه أمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة، فاقترلت الطائفتان فأيد الله الذين آمنوا بنصره على عدوهم فأصبحوا ظاهرين، فلماذا قال تعالى هنا **﴿وَمَكْرُوا﴾** أي: الكفار بإرادة قتل نبي الله وإطفاء نوره **﴿وَسَكَرَ اللَّهُ﴾** بهم جزاء لهم على مكربهم **﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾** رد الله كيدهم في نحورهم، فاقبلوا خاسرين **﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَرَافِعُكَ إِلَى مَظْهَرِكِ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** فرفع الله عبده ورسوله عيسى إليه، وألقى شبهه على غيره، فأخذوا من ألقى شبهه عليه فقتلوه وصلبوه، وباؤوا بالآثم العظيم ينتهم أنه رسول الله، قال الله **﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾** وفي هذه الآية دليل على علو الله تعالى واستوائه على عرشه حقيقة، كما دلت على ذلك النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تلقاها أهل السنة بالقبول والإيمان والتسليم، وكان الله عزيزاً قوياً قاهراً، ومن عزته أن كف بني إسرائيل بعد عزمهم الجازم وعدم المانع لهم عن قتل عيسى عليه السلام، كما قال تعالى **﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾** حكيم يضع الأشياء مواضعها، وله أعظم حكمة في إلقاء الشبه على بني إسرائيل، فوقعوا في الشبه كما قال تعالى **﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾** ثم قال تعالى: **﴿وَجَاعَلَ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾** وتقديم أن الله أيد المؤمنين منهم على الكافرين، ثم إن النصارى المنتسبين لعيسى عليه السلام لم يزالوا قاهرين لليهود لكون النصارى أقرب إلى اتباع

عيسى من اليهود، حتى بعث الله نبينا محمداً **﴿ﷺ﴾** فكان المسلمون هم المتبعين لعيسى حقيقة، فأيدهم الله ونصرهم على اليهود والنصارى وسائر الكفار، وإنما يحصل في بعض الأزمان إدالة الكفار من النصارى وغيرهم على المسلمين، حكمة من الله وعقوبة على تركهم لاتباع الرسول **﴿ﷺ﴾** **﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾** أي: مصير الخلاق كلها **﴿فَأَحْكُم بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾** كل يدعي أن الحق معه وأنه المصيب وغيره مخطيء، وهذا مجرد دعاوى تحتاج إلى برهان، ثم أخبر عن حكمة بينهم بالقسط والعدل، فقال **﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** أي: بالله وآياته ورسله **﴿فَأَعَذِبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾** أما عذاب الدنيا، فهو ما أصابهم الله به من القوارع والعقوبات المشاهدة والقتل والذل، وغير ذلك مما هو نموذج من عذاب الآخرة، وأما عذاب الآخرة فهو الطامة الكبرى والمصيبة العظمى، ألا وهو عذاب النار وغضب الجبار وحرمانهم ثواب الأبرار **﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾** ينصرونهم من عذاب الله، لا من زعموا أنهم شفعاء لهم عند الله، ولا ما اتخذوهم أولياء من دونه، ولا أصدقائهم وأقربائهم، ولا أنفسهم ينصرون، **﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾** بالله وملائكته وكتبه ورسوله والبعث بعد الموت وغير ذلك مما أمر الله بالإيمان به **﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾** القلبية والقولية والبدنية التي جاءت بشريعها المرسلون، وقصدوا بها رضا رب العالمين **﴿فِيُوفِيهِمْ أَجُورَهُمْ﴾** دل ذلك على أنه يحصل لهم في الدنيا ثواب لأعمالهم من الإكرام والإعزاز والنصر والحياة الطيبة، وإنما توفية الأجور يوم القيامة، يجدون ما قدموه من الخيرات محضراً موفراً، فيعطي منهم كل عامل أجر عمله ويزيدهم من فضله وكرمه **﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾** بل يبغضهم ويحل عليهم سيخطه وعذابه **﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾** وهذا منة عظيمة على رسوله

بالعقوبة، فرضوا بدينهم مع جزمهم ببطالانه، وهذا غاية الفساد والعداد، فلهذا قال تعالى ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة، وأخبر تعالى ﴿إِنْ هَذَا الَّذِي قَضَىٰ اللَّهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ وكل قصص يقص عليهم مما يخالفه ويناقضه فهو باطل ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ فهو المألوه المعبود حقاً الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ولا يستحق غيره مثقال ذرة من العبادة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر كل شيء وخضع له كل شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، وله الحكمة التامة في ابتلاء المؤمنين بالكافرين، يقاتلونهم ويجاهدونهم ويجاهدونهم بالقول والفعل^(١).

﴿٦٤﴾ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴿٦٥﴾ قل يا أهل الكتاب من الله واليه المرجع والمآل ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴿٦٦﴾ قل يا أهل الكتاب من الله واليه المرجع والمآل ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴿٦٧﴾ قل يا أهل الكتاب من الله واليه المرجع والمآل ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴿٦٨﴾ قل يا أهل الكتاب من الله واليه المرجع والمآل ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴿٦٩﴾ قل يا أهل الكتاب من الله واليه المرجع والمآل ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴿٧٠﴾ قل يا أهل الكتاب من الله واليه المرجع والمآل ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴿٧١﴾ قل يا أهل الكتاب من الله واليه المرجع والمآل ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴿٧٢﴾ قل يا أهل الكتاب من الله واليه المرجع والمآل ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴿٧٣﴾ قل يا أهل الكتاب من الله واليه المرجع والمآل ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴿٧٤﴾ قل يا أهل الكتاب من الله واليه المرجع والمآل ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴿٧٥﴾ قل يا أهل الكتاب من الله واليه المرجع والمآل ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴿٧٦﴾ قل يا أهل الكتاب من الله واليه المرجع والمآل ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴿٧٧﴾ قل يا أهل الكتاب من الله واليه المرجع والمآل ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴿٧٨﴾ قل يا أهل الكتاب من الله واليه المرجع والمآل ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴿٧٩﴾ قل يا أهل الكتاب من الله واليه المرجع والمآل ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴿٨٠﴾ قل يا أهل الكتاب من الله واليه المرجع والمآل ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴿٨١﴾ قل يا أهل الكتاب من الله واليه المرجع والمآل ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴿٨٢﴾ قل يا أهل الكتاب من الله واليه المرجع والمآل ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴿٨٣﴾ قل يا أهل الكتاب من الله واليه المرجع والمآل ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴿٨٤﴾ قل يا أهل الكتاب من الله واليه المرجع والمآل ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴿٨٥﴾ قل يا أهل الكتاب من الله واليه المرجع والمآل ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴿٨٦﴾ قل يا أهل الكتاب من الله واليه المرجع والمآل ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴿٨٧﴾ قل يا أهل الكتاب من الله واليه المرجع والمآل ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴿٨٨﴾ قل يا أهل الكتاب من الله واليه المرجع والمآل ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴿٨٩﴾ قل يا أهل الكتاب من الله واليه المرجع والمآل ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴿٩٠﴾ قل يا أهل الكتاب من الله واليه المرجع والمآل ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴿٩١﴾ قل يا أهل الكتاب من الله واليه المرجع والمآل ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴿٩٢﴾ قل يا أهل الكتاب من الله واليه المرجع والمآل ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴿٩٣﴾ قل يا أهل الكتاب من الله واليه المرجع والمآل ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴿٩٤﴾ قل يا أهل الكتاب من الله واليه المرجع والمآل ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴿٩٥﴾ قل يا أهل الكتاب من الله واليه المرجع والمآل ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴿٩٦﴾ قل يا أهل الكتاب من الله واليه المرجع والمآل ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴿٩٧﴾ قل يا أهل الكتاب من الله واليه المرجع والمآل ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴿٩٨﴾ قل يا أهل الكتاب من الله واليه المرجع والمآل ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴿٩٩﴾ قل يا أهل الكتاب من الله واليه المرجع والمآل ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴿١٠٠﴾ قل يا أهل الكتاب من الله واليه المرجع والمآل ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً

بعدها دليل على قاعدة شريفة وهو أن ما قامت الأدلة على أنه حق وجزم به العبد من مسائل العقائد وغيرها، فإنه يجب أن يجزم بأن كل ما عارضه فهو باطل، وكل شبهة تورده عليه فهي فاسدة، سواء قدر العبد على حلها أم لا، فلا يوجب له عجزه عن حلها القدرح فيما علمه، لأن ما خالف الحق فهو باطل، قال تعالى ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ وبهذه القاعدة الشرعية تنحل عن الإنسان إشكالات كثيرة يوردها المتكلمون ويرتها المنطقيون، إن حلها الإنسان فهو تبرع منه، وإلا فوظيفته أن يبين الحق بادلته ويدعو إليه.

﴿٦٣ - ٦١﴾ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴿٦٢﴾ إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم ﴿٦١﴾ فإن تولوا فإن الله عليم بالفسدين ﴿٦٣﴾ أي: ﴿فمن﴾ جادلوك ﴿وحاجك﴾ في عيسى عليه السلام وزعم أنه فوق منزلة العبودية، بل رفعه فوق منزلته ﴿من بعد ما جاءك من العلم﴾ بأنه عبد الله ورسوله وبينت لمن جادلوك ما عندك من الأدلة الدالة على أنه عبد أنعم الله عليه، دل على عناد من لم يتبعك في هذا العلم اليقيني، فلم يبق في مجادلته فائدة تستفيدها ولا يستفيدها هو، لأن الحق قد تبين، فجذاله فيه جدال معاند مشاق لله ورسوله، قصده اتباع هواه، لا اتباع ما أنزل الله، فهذا ليس فيه حيلة، فأمر الله نبيه أن ينتقل إلى مباحثته وملاعبته، فيدعون الله ويستهلون إليه أن يجعل لعنته وعقوبته على الكاذب من الفريقين، هو وأحب الناس إليه من الأولاد والأبناء والنساء، فدعاهم النبي ﷺ إلى ذلك فتولوا وأعرضوا ونكلوا، وعلموا أنهم إن لاعتوه رجعوا إلى أهلهم وأولادهم فلم يجدوا أهلاً ولا مالا وعوجلوا

محمد ﷺ وعلى أمته، حيث أنزل عليهم هذا الذكر الحكيم، المحكم المتقن، الفصل للأحكام والحلال والحرام وإخبار الأنبياء الأقدمين، وما أجرى الله على أيديهم من الآيات البينات والمعجزات الباهرات، فهذا القرآن يقص علينا كل ما ينزعنا من الأخبار والأحكام، فيحصل فيها العلم والعبرة وتثبيت الفؤاد ما هو من أعظم رحمة رب العباد، ثم قال تعالى:

﴿٥٩ - ٦٠﴾ ﴿إِنْ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خُلِقَ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٦٠﴾ الحق من ربك فلا تكن من الممتريين ﴿٥٩﴾ يخبر تعالى محتجاً على النصارى الزاعمين بعيسى عليه السلام ما ليس له بحق، بخبر برهان ولا شبهة، بل بزعمهم أنه ليس له والد استحق بذلك أن يكون ابن الله أو شريكاً لله في الربوبية، وهذا ليس بشبهة فضلاً أن يكون حجة، لأن خلقه كذلك من آيات الله الدالة على تفرد الله بالخلق والتدبير وأن جميع الأسباب طوع مشيئته وتبع لإرادته، فهو على نقيض قولهم أدل، وعلى أن أحداً لا يستحق المشاركة لله بوجه من الوجوه أولى، ومع هذا فآدم عليه السلام خلقه الله من تراب لا من أب ولا أم، فإذا كان ذلك لا يوجب لآدم ما زعمه النصارى في المسيح، فالمسيح المخلوق من أم بلا أب من باب أولى وأحرى، فإن صح ادعاء البنوة والإلهية في المسيح، فادعوا في آدم من باب أولى وأحرى، فلهذا قال تعالى ﴿إِنْ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خُلِقَ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٦٠﴾ الحق من ربك ﴿٥٩﴾ أي: هذا الذي أخبرناك به من شأن المسيح عليه السلام هو الحق الذي في أعلى رتب الصدق، لكونه من ربك الذي من جملة تربيته الخاصة لك ولأمتك أن قص عليك ما قص من أخبار الأنبياء عليهم السلام ﴿فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ﴿٦٠﴾ أي: الشاكين في شيء مما أخبرك به ربك، وفي هذه الآية وما

(١) في تفسير هذه الآيات تقديم وتأخير يسير فقد أخرج تفسير قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ وقد أقيمتها على ما هي عليه.

أنكم مسلمون، ولعل الفائدة في ذلك أنكم إذا قلتم لهم ذلك وأنتم أهل العلم على الحقيقة، كان ذلك زيادة على إقامة الحجة عليهم كما استشهد تعالى بأهل العلم حجة على المعاندين، وأيضاً فإنكم إذا أسلمتم أنتم وأنتم فلا يعاب الله بعدم إسلام غيركم لعدم زكائهم ولخبث طريقتهم، كما قال تعالى ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً﴾ الآية وأيضاً فإن في ورود الشبهات على العقيدة الإيمانية مما يوجب للمؤمن أن يجدد إيمانه ويعلم بإسلامه، إخباراً بيقينه وشكراً للنعمة ربه.

﴿٦٥ - ٦٨﴾ يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون * ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون * ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين * إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين * لما ادعى اليهود أن إبراهيم كان يهودياً، والنصارى أنه نصراني، وجادلوا على ذلك، رد تعالى حاججتهم ومجادلتهم من ثلاثة أوجه، أحدها: أن جدالهم في إبراهيم جدال في أمر ليس لهم به علم، فلا يمكن لهم ولا يسمح لهم أن يحتجوا ويجادلوا في أمرهم أجنب عنه وهم جادلوا في أحكام التوراة والإنجيل سواء أخطأوا أم أصابوا فليس معهم المخاجة في شأن إبراهيم، الوجه الثاني: أن اليهود ينتسبون إلى أحكام التوراة، والنصارى ينتسبون إلى أحكام الإنجيل، والتوراة والإنجيل ما أنزل إلا من بعد إبراهيم، فكيف ينتسبون إبراهيم إليهم وهو قبلهم متقدم عليهم، فهل هذا يعقل؟! فلهذا قال ﴿أفلا تعقلون﴾ أي: فلو عقلتم ما تقولون لم تقولوا ذلك، الوجه الثالث: أن الله تعالى برأ خليله من اليهود والنصارى والمشركين، وجعله

حنيفاً مسلماً، وجعل أولى الناس به من آمن به من أمته، وهذا النبي وهو محمد ﷺ ومن آمن معه، فهم الذين اتبعوه وهم أولى به من غيرهم، والله تعالى وإليهم وناصرهم ومؤيدهم، وأما من نبذ ملته وراء ظهره كاليهود والنصارى والمشركين، فليسوا من إبراهيم وليس منهم، ولا ينفعهم مجرد الانتساب الخالي من الصواب. وقد اشتملت هذه الآيات على النهي عن المحاجة والمجادلة بغير علم، وأن من تكلم بذلك فهو متكلم في أمر لا يمكن منه ولا يسمح له فيه، وفيها أيضاً حث على علم التاريخ، وأنه طريق لرد كثير من الأقوال الباطلة والدعاوى التي تخالف ما علم من التاريخ، ثم قال تعالى:

﴿٦٩ - ٧٤﴾ وودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون * يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون * يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون * وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون * ولا تؤمنوا إلا بما نطق دينكم قل إن الهدى هدى الله أن يوتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم * يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم * يحذر تعالى عباده المؤمنين عن مكر هذه الطائفة الخبيثة من أهل الكتاب، وأنهم يودون أن يضلوكم، كما قال تعالى ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً﴾ ومن المعلوم أن من ود شيئاً سعى بجهد على تحصيل مراده، فهذه الطائفة تسعى وتبذل جهدها في رد المؤمنين وإدخال الشبه عليهم بكل طريق يقدرون عليه، ولكن من لطف الله أنه لا يحق المكر السيئ إلا بأهله فلهذا قال تعالى ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾ فسعيهم في إضلال المؤمنين زيادة في ضلال أنفسهم وزيادة

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تُشْهِدُونَ * أَيُّ مَا الَّذِي دَعَاكُم إِلَى الْكُفْرِ بآيَاتِ اللَّهِ مَعَ عِلْمِكُمْ أَنَّ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بَاطِلٌ، وَأَنَّ مَا جَاءَكُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا تَشْكُونَ فِيهِ، بَلْ تَشْهَدُونَ بِهِ وَيَسَّرَ بِهِ بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ فِي بَعْضِ الْأَوَاقَاتِ، فَهَذَا نَهْيُهُمْ عَنْ ضَلَالِهِمْ، ثُمَّ وَيُخَبِّرُ عَلَى إِضْلَالِهِمُ الْخَلْقَ، فَقَالَ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فَوَيْحُهُمْ عَلَى لُبْسِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ وَعَلَى كِتْمَانِ الْحَقِّ، لِأَنَّهُمْ يَهْدُونَ الْأَمْرَيْنِ يَضِلُّونَ مِنَ انْتِسَابِ إِلَيْهِمْ، فَإِنَّ الْعُلَمَاءَ إِذَا لَبَسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ فَلَمْ يَمِيزُوا بَيْنَهُمَا، بَلْ أَبْقَوْا الْأَمْرَ مِيبَهُمَا وَكْتَمُوا الْحَقَّ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِمْ إِظْهَارُهُ، تَرْتَبُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ خَفَاءِ الْحَقِّ وَظُهُورِ الْبَاطِلِ مَا تَرْتَبُ، وَلَمْ يَهْتَدِ الْعَوَامُّ الَّذِينَ يَرِيدُونَ الْحَقَّ لِمَعْرِفَتِهِ حَتَّى يُوَثِّرُوهُ، وَالْمَقْصُودُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يَظْهَرُوا لِلنَّاسِ الْحَقَّ وَيَعْلَمُوا بِهِ، وَيَمِيزُوا الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَيَظْهَرُوا الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ، وَالْحَلَالَ وَالْحَرَامَ، وَالْعَقَائِدَ الصَّحِيحَةَ مِنَ الْعَقَائِدِ الْفَاسِدَةِ، لِيَهْتَدِيَ الْمُهْتَدُونَ

عذاب لهم، قال تعالى ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾ ﴿وما يشعرون﴾ بذلك أنهم يسعون في ضرر أنفسهم وأنهم لا يضررونكم شيئاً ﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون﴾ أي: ما الذي دعاكم إلى الكفر بآيات الله مع علمكم بأن ما أنتم عليه باطل، وأن ما جاءكم به محمد ﷺ هو الحق الذي لا تشكون فيه، بل تشهدون به ويسر به بعضكم إلى بعض في بعض الأوقات، فهذا نهيبهم عن ضلالهم، ثم ويخبر على إضلالهم الخلق، فقال ﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾ فويحهم على لبس الحق بالباطل وعلى كتمان الحق، لأنهم يهذين الأمرين يضلون من انتسب إليهم، فإن العلماء إذا لبسوا الحق بالباطل فلم يميزوا بينهما، بل أبقوا الأمر ميبهما وكتموا الحق الذي يجب عليهم إظهاره، ترتب على ذلك من خفاء الحق وظهور الباطل ما ترتب، ولم يهتد العوام الذين يريدون الحق لمعرفة حتى يوثروه، والمقصود من أهل العلم أن يظهروا للناس الحق ويعلموا به، ويميزوا الحق من الباطل، ويظهروا الخبيث من الطيب، والحلال والحرام، والعقائد الصحيحة من العقائد الفاسدة، ليهتدي المهتدون

الدال على الحق على المعنى الفاسد، مع علمهم بذلك .

﴿٧٩-٨٠﴾ «ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون» * ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أي أياهم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون * وهذه الآية نزلت ردّاً لما قال من أهل الكتاب للنبي ﷺ لما أمرهم بالإيمان به ودعاهم إلى طاعته: أتريد يا محمد أن نعبدك مع الله، فقوله «ما كان لبشر» أي: يمتنع ويستحيل على بشر من الله عليه بإنزال الكتاب وتعليمه ما لم يكن يعلم وإرساله للخلق أن يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله، فهذا من أجل المحال صدوره من أحد من الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام، لأن هذا أفصح الأوامر على الإطلاق، والأنبياء أكمل الخلق على الإطلاق، فأوامرهم تكون مناسبة لأحوالهم، فلا يأمرهم إلا بمعالي الأمور وهم أعظم الناس شياً عن الأمور القبيحة، فلهذا قال «ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون» أي: ولكن يأمرهم بأن يكونوا ربانيين، أي: علماء حكماء حلماء معلمين للناس ومربيهم، بصغار العلم قبل كباره، عاملين بذلك، فهم يأمرهم بالعلم والعمل والتعليم التي هي مدار السعادة، وبفوات شيء منها يحصل النقص والخلل، والباء في قوله «وبما كنتم تعلمون» الخ، باء السببية، أي: بسبب تعليمكم لغيركم المتضمن لعلمكم ودرسكم لكتاب الله وسنة نبيه، التي بدرسها يرسخ العلم ويبقى، تكونون ربانيين «ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً» وهذا تعميم بغد تخصيص، أي: لا يأمركم بعبادة نفسه ولا بعبادة أحد من الخلق من الملائكة والنبيين وغيرهم «أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون» هذا ما لا يكون ولا يتصور أن يصدر من أحد

التجريء على الأموال المحترمة، كانوا هم المحبوبين لله، المتقين الذين أعدت لهم الجنة، وكانوا أفضل خلق الله وأجلهم، بخلاف الذين يقولون ليس علينا في الأميين سبيل، فإنهم داخلون في قوله: «إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً» ويدخل في ذلك كل من أخذ شيئاً من الدنيا في مقابلة ما تركه من حق الله أو حق عباده، وكذلك من حلف على يمين يقطع بها مال معصوم فهو داخل في هذه الآية، فهو لاء «لا خلاق لهم في الآخرة» أي: لا نصيب لهم من الخير «ولا يكلمهم الله» يوم القيامة غضباً عليهم وسخطاً، لتقديهم هوى أنفسهم على رضا ربهم «ولا يزكّيهم» أي: يظهرهم من ذنوبهم، ولا يزيل عيوبهم «ولهم عذاب أليم» أي: موجه للقلوب والأبدان، وهو عذاب السخط والحجاب، وعذاب جهنم، نسأل الله العافية.

﴿٧٨﴾ «وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون» يخبر تعالى أن من أهل الكتاب فريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب، أي: يميلونه ويحرفونه عن المقصود به، وهذا يشمل اللى والتحريف لألفاظه ومعانيه، وذلك أن المقصود من الكتاب حفظ ألفاظه وعدم تغييرها، وفهم المراد منها وإفهامه، وهؤلاء عكسوا القضية وأفهموا غير المراد من الكتاب، إما تعريضاً وإما تصريحاً، فالتعريض في قوله «لتحسبوه من الكتاب» أي: يلوون ألسنتهم ويوهمونكم أنه هو المراد من كتاب الله، وليس هو المراد، والتصريح في قولهم: «ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون» وهذا أعظم جرماً ممن يقول على الله بلا علم، هؤلاء يقولون على الله الكذب فيجمعون بين نفي المعنى الحق، وإثبات المعنى الباطل، وتنزيل اللفظ



من الله عليه بالنبوة، فمن قدح في أحد منهم بشيء من ذلك فقد ارتكب إثماً عظيماً وكفراً وخيماً.

﴿٨١-٨٢﴾ «وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين» * فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون * يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق النبيين وعهدهم المؤكد بسبب ما أعطاهم من كتاب الله المنزل، والحكمة الفاصلة بين الحق والباطل والهدى والضلال، إنه إن بعث الله رسلاً مصداقاً لما معهم أن يؤمنوا به ويصدقوه يأخذوا ذلك على أيمانهم، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد أوجب الله عليهم أن يؤمن بعضهم ببعض، ويصدق بعضهم بعضاً لأن جميع ما عندهم هو من عند الله، وكل ما من عند الله يجب التصديق به والإيمان، فهم كالشيء الواحد، فعلى هذا قد علم أن محمداً ﷺ هو خاتمهم، فكل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لو أدركوه لوجب عليهم الإيمان به واتباعه وتنصرته، وكان هو إمامهم ومقدمهم ومتبوعهم، فهذه الآية الكريمة من أعظم الدلائل على علو مرتبته وجلالة قدره، وأنه أفضل الأنبياء وسيدهم ﷺ لما قرره تعالى

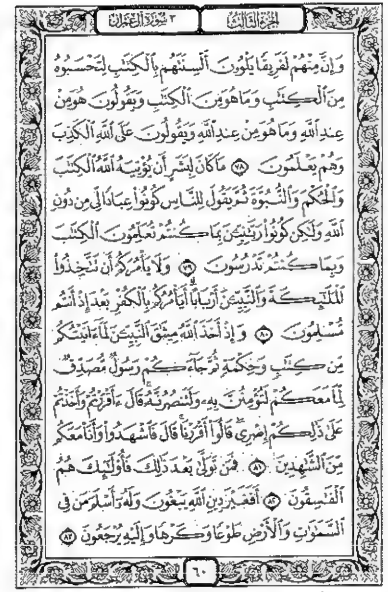
ينظرون ﴿٩٠﴾ أي: لا يفتر عنهم العذاب ساعة ولا لحظة، لا بإزالته أو إزالة بعض شدته، ﴿ولا هم ينظرون﴾ أي: يسهلون، لأن زمن الإمهال قد مضى، وقد أَعَدَّ الله منهم وعمرهم ما يتذكر فيه من تذكر، فلو كان فيهم خير لوجد، ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه.

﴿٩٠ - ٩١﴾ ﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون﴾ * إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أخذهم ملء الأرض ذهباً ولو اقتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ﴿يخبر تعالى أن من كفر بعد إيمانه، ثم ازداد كفراً إلى كفره بتمادي في الغي والضلال، واستمراره على ترك الرشد والهدى، أنه لا تقبل توبتهم، أي: لا يوفقون لتوبة تقبل بل يمدهم الله في طغيانهم يعمهون، قال تعالى ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ ﴿فلما زغوا أزواغ الله قلوبهم﴾ فالسيئات ينتج بعضها بعضاً، وخصوصاً لمن أقدم على الكفر العظيم وترك الصراط المستقيم، وقد قامت عليه الحجة ووضح الله له الآيات والبراهين، فهذا هو الذي سعى في قطع أسباب رحمة ربه عنه، وهو الذي سد على نفسه باب التوبة، ولهذا حصر الضلال في هذا الصنف، فقال ﴿وأولئك هم الضالون﴾ وأي: ضلال أعظم من ضلال من ترك الطريق عن بصيرة، وهؤلاء الكفرة إذا استمروا على كفرهم إلى الممات تعين هلاكهم وشقاؤهم الأبدى، ولم ينفعهم شيء، فلو أنفق أحدهم ملء الأرض ذهباً ليفتدي به من عذاب الله ما نفعه ذلك، بل لا يزالون في العذاب الأليم، لا شافع لهم ولا ناصر ولا مغيث ولا مجير ينقذهم من عذاب الله فأيسوا من كل خير، وجزموا على الخلود الدائم في العقاب والسخط، فعياداً بالله من حالهم.

﴿٨٤﴾ ﴿قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ تقدم نظير هذه الآية في سورة البقرة، ثم قال تعالى

﴿٨٥﴾ ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ أي: من يدين لله بغير دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده، فعمله مردود غير مقبول، لأن دين الإسلام هو المتضمن للاستسلام لله، إخلاصاً وانقياداً لرسله فما لم يأت به العبد لم يأت بسبب النجاة من عذاب الله والنور بشاربه، وكل دين سواه فياطل، ثم قال تعالى:

﴿٨٦ - ٨٨﴾ ﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ * أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين * خالدن فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ﴿هذا من باب الاستبعاد، أي: من الأمر البعيد أن يهدي الله قوماً اختاروا الكفر والضلال بعد ما آمنوا وشهدوا أن الرسول حق بما جاءهم به من الآيات البينات والبراهين القاطعات﴾ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴿فهؤلاء ظلموا وتركوا الحق بعدما عرفوه، واتبعوا الباطل مع علمهم ببطلانه ظلماً وبغياً واتباعاً لأهوائهم، فهؤلاء لا يوفقون للهداية، لأن الذي يرجى أن يهدي هو الذي لم يعرف الحق وهو حريص على التماسه، فهذا بالحرى أن ييسر الله له أسباب الهداية ويصونه من أسباب الغواية، ثم أخبر عن عقوبة هؤلاء المعاندين الظالمين الدنيوية والأخروية، فقال ﴿أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾ * خالدن فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم



﴿قالوا أقرنا﴾ أي: قبلنا ما أمرتنا به على الراس والعين ﴿قال﴾ الله لهم: ﴿فاشهدوا﴾ على أنفسكم وعلى أمكم بذلك، قال ﴿وأنا معكم من الشاهدين﴾ * فمن تولى بعد ذلك العهد والميثاق المؤكد بالشهادة من الله ومن رسله ﴿فاولئك هم الفاسقون﴾ فعل هذا كل من ادعى أنه من أتباع الأنبياء كاليهود والنصارى ومن تبعهم، فقد تولوا عن هذا الميثاق الغليظ، واستحقوا الفسق الموجب للخلود في النار إن لم يؤمنوا بمحمد ﷺ.

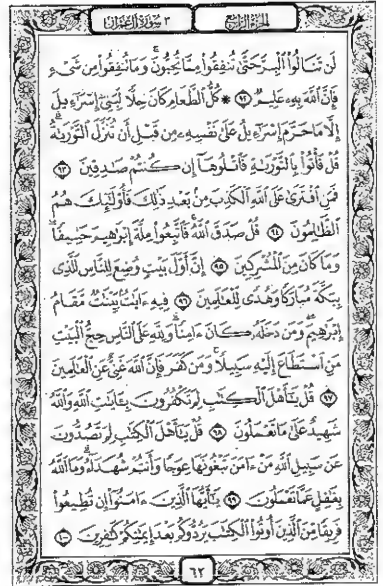
﴿٨٢﴾ ﴿أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون﴾ أي: يطلب الطالبون ويرغب الراغبون في غير دين الله؟ لا يحسن هذا ولا يليق، لأنه لا أحسن ديناً من دين الله ﴿وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً﴾ أي: الخلق كلهم منقادون بتسخيره مستسلمون له طوعاً واختياراً، وهم المؤمنون المسلمون المنقادون لعبادة ربهم، وكرهاً وهم سائر الخلق، حتى الكافرون مستسلمون لقضائه وقدره لا خروج لهم عنه، ولا امتناع لهم منه، وإليه مرجع الخلائق كلها، فيحكم بينهم ويجازيهم بحكمه الدائر بين الفضل والعدل.

والفائدة الثانية: أن الاسم المجرور من حيث كان اسماً لله سبحانه، وجب الاهتمام بتقديمه تعظيماً لحرمته هذا الواجب الذي أوجبه، وتخويفاً من تضييعه، إذ ليس ما أوجبه الله سبحانه بمثابة ما يوجبه غيره.

وأما قوله: «مَنْ» فهي بدل، وقد استهوى طائفة من الناس القول بأنها فاعل بالمصدر، كأنه قال: أن يحج البيت من استطاع إليه سبيلاً، وهذا القول يضعف من وجوه، منها: أن الحج فرض عين، ولو كان معنى الآية ما ذكره لأفهم فرض الكفائية، لأنه إذا حج المستطيعون برئت ذمم غيرهم، لأن المعنى يؤل إلى: والله على الناس حج البيت مستطيعهم، فإذا أدى المستطيعون الواجب لم يبق واجباً على غير المستطيعين، وليس الأمر كذلك، بل الحج فرض عين على كل أحد، حج المستطيعون أو قعدوا، ولكن الله سبحانه عذر غير المستطيع بعجزه عن أداء الواجب، فلا يؤاخذ به ولا يطالبه بأدائه، فإذا حج سقط الفرض عن نفسه، وليس حج المستطيعين بمسقط الفرض عن العاجزين، وإذا أردت زيادة إيضاح، فإذا قلت: واجب على أهل هذه الناحية أن يجاهد منهم الطائفة المستطيعون للجهاد، فإذا جاهدت تلك الطائفة انقطع تعلق الوجوب في غيرهم، وإذا قلت واجب على الناس كلهم أن يجاهد منهم المستطيع، كان الوجوب متعلقاً بالجميع وعذر العاجز بعجزه، ففي نظم الآية على هذا الوجه دون أن يقال: والله حج البيت على المستطيعين، هذه النكتة البديعة فتأملها.

الوجه الثاني: أن إضافة المصدر إلى الفاعل إذا وجد أول من إضافته إلى المفعول ولا يعدل عن هذا الأصل إلا بدليل متقول، فلو كان مَنْ هو الفاعل لأضيف المصدر إليه فكان يقال: «والله على الناس حج من استطاع» وحمله على

باحترامه وتأمين من دخله، وأن لا يهاج، حتى إن التحريم في ذلك شمل صيودها وأشجارها ونباتها، وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء أن من جنى جناية خارج الحرم ثم لجأ إليه أنه يأمن ولا يقام عليه الحد حتى يخرج منه، وأما تأمينها قدرأ فلأن الله تعالى بقضائه وقدره وضع في النفوس حتى نفوس المشركين به الكافرين برهم احترامه، حتى إن الواحد منهم مع شدة حميتهم ونعرتهم وعدم احتمالهم للضيم يجد أحدهم قاتل أبيه في الحرم فلا يبيحه، ومن جعله حراماً أن كل من أراده بسوء فلا بد أن يعاقبه عقوبة عاجلة، كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم، وقد رأيت لابن القيم هاهنا كلاماً حسناً أحببت إيراده لشدة الحاجة إليه قال فائدة: «والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً» «حج البيت» مبتدأ وخبره في أحد المجرورين قبله، والذي يقتضيه المعنى أن يكون في قوله: «على الناس» لأنه وجوب، والوجوب يقتضي «على»، ويجوز أن يكون في قوله: «والله» لأنه متضمن الوجوب والاستحقاق، ويرجح هذا التقدير أن الخبر محط الفائدة وموضعها، وتقديمه في هذا الباب في نية التأخير، فكان الأحسن أن يكون «والله على الناس»، ويرجح الوجه الأول بأن يقال قوله: «حج البيت على الناس» أكثر استعمالاً في باب الوجوب من أن يقال: «حج البيت لله» أي: حق واجب لله، فتأمله. وعلى هذا ففي تقديم المجرور الأول وليس بخير فائدتان: إحداهما: أنه اسم للموجب للحج، فكان أحق بالتقديم من ذكر الوجوب، فضمنت الآية ثلاثة أمور مرتبة بحسب الوقائع: أحدها: الموجب لهذا الفرض فيبدأ بذكره، والثاني: مؤدي الواجب وهو المفترض عليه وهم الناس، والثالث: النسبة، والحق المتعلق به إيجاباً وبهم وجوباً وأداء، وهو الحج.



«مقام إبراهيم» يحتمل أن المراد به المقام المعروف وهو الحجر الذي كان يقوم عليه الخليل لبنان الكعبة لما ارتفع البنيان، وكان ملصقاً في جدار الكعبة، فلما كان عمر رضي الله عنه وضعه في مكانه الموجود فيه الآن، والآية فيه قيل أثر قدمي إبراهيم، قد أثرت في الصخرة وبقي ذلك الأثر إلى أوائل هذه الأمة، وهذا من خوارق العادات، وقيل إن الآية فيه لما أودعه الله في القلوب من تعظيمه وتكريمه وتشريفه واحترامه، ويحتمل أن المراد بمقام إبراهيم أنه مفرد مضاف يراد به مقاماته في مواضع المناسك كلها، فيكون على هذا جميع أجزاء الحج ومفرداته آيات بينات، كالطواف والسعي ومواضعها، والوقوف بعرفة ومزدلفة، والرمي، وسائر الشعائر، والآية في ذلك ما جعله الله في القلوب من تعظيمها واحترامها وبذل نفائس النفوس والأموال في الوصول إليها وتحمل كل مشقة لأجلها، وما في ضمنها من الأسرار البديعة والمعاني الرفيعة، وما في أفعالها من الحكم والمصالح التي يعجز الخلق عن إحصاء بعضها، ومن الآيات البينات فيها أن من دخله كان آمناً شرعاً وقدرأ، فالشرع قد أمر الله ورسوله إبراهيم ثم رسوله محمد

هذا القرض العظيم.

وتأمل سر البذل في الآية المقتضي لذكر الإسناد مرتين، مرة بإسناده إلى عموم الناس، ومرة بإسناده إلى خصوص المستطيعين، وهذا من فوائد البذل تقوية المعنى وتأكيده بتكرار الإسناد ولهذا كان في نية تكرار العامل وإعادته.

ثم تأمل ما في الآية من الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال، وكيف تضمن ذلك إيراد الكلام في صورتين وخلتين، اعتناء به وتأكيده لشأنه، ثم تأمل كيف افتتح هذا الإيجاب بذكر محاسن البيت وعظم شأنه بما تدعوا النفوس إلى قصده ووجهه وإن لم يطلب ذلك منها، فقال: ﴿إِنْ أُولَ بَيْتٍ﴾ الخ، فوصفه بخمس صفات: أحدها كونه أسبق بيوت العالم وضع في الأرض، الثاني: أنه مبارك، والبركة كثرة الخير ودوامه، وليس في بيوت العالم أبرك منه ولا أكثر خيراً ولا أدم ولا أنفع للخلائق، الثالث: أنه هدى، ووصفه بالمصدر نفسه منبأغة، حتى كأنه نفس الهدى، الرابع ما تضمن من الآيات البينات التي تزيد على أربعين آية، الخامس: الأمن الحاصل لدخله، وفي وصفه بهذه الصفات دون إيجاب قصده ما يعث النفوس على حجه وإن شطت بالزائرين الديار وتناوت بهم الأقطار، ثم أتبع ذلك بصريح الوجوب المؤكد بتلك التأكيدات، وهذا يدل على الإعثناء منه سبحانه لهذا البيت العظيم، والتنويه بذكره، والتعظيم لشأنه، والرفعة من قدره، ولو لم يكن له شرف إلا إضافته إياه إلى نفسه بقوله ﴿وطهر بيتي﴾ لكفى بهذه الإضافة فضلاً وشرقاً، وهذه الإضافة هي التي أقبلت بقلوب العالمين إليه، وسلبت نفوسهم حباله وشوقاً إلى رؤيته، فهذه المثابة للمحبين يفرجون إليه ولا يقضون منه وطراً أبداً، كلما ازدادوا له زيارة ازدادوا له حباً وإليه اشتياقاً، فلا الوصال يشفيهم ولا البعاد يسليهم، كما قيل:

يقدمون في كلامهم ما هم به أهم وبيانه أعني هذا تقرير السهلي، وهذا بعيد جداً بل الصواب في متعلق الجار والمجرور وجه آخر أحسن من هذين، ولا يليق بالآية سواه، وهو الوجوب المفهوم من قوله «على الناس»، أي: يجب لله على الناس الحج، فهو حق واجب لله، وأما تعليقه بالسبيل وجعله حالاً منها، ففي غاية البعد فتأمل، ولا يكاد يخطر بالبال من الآية، وهذا كما تقول: لله عليك الصلاة والزكاة والصيام.

ومن فوائد الآية وأسرارها أنه سبحانه إذا ذكر ما يوجه ويحرمه يذكره بلفظ الأمر والنهي، وهو الأكثر، ولفظ الإيجاب والكتابة والتحريم نحو ﴿كتب عليكم الصيام﴾ ﴿حرمت عليكم الميتة﴾ ﴿قل تعالوا أتت ما حرم ربكم عليكم﴾ وفي الحج أتى بهذا اللفظ الدال على تأكد الوجوب من عشرة أوجه، أحدها أنه قدم اسمه تعالى وأدخل عليه لام الاستحقاق والاختصاص ثم ذكر من أوجبه عليهم بصيغة العموم الداخلة عليها حرف على أيدل منه أهل الاستطاعة، ثم نكز السبيل في سياق الشرط إيذاناً بأنه يجب الحج على أي: سبيل تيسرت، من قوت أو مال، فعلق الوجوب بحصول ما يسمى سبيلاً، ثم أتبع ذلك بأعظم التهديد بالكفر فقال ﴿ومن كفر﴾ أي: لعدم إلزامه هذا الواجب وتركه ثم عظم الشأن وأكد الوعيد بإخباره ما يستغنى به عنه، والله تعالى هو الغني الحميد، ولا حاجة به إلى حج أحد، وإنما في ذكر استغنائه عنه هنا من الإعلام بمقته له وسخطه عليه وإعراضه بوجهه عنه ما هو أعظم التهديد وأبلغه، ثم أكد ذلك بذكر اسم «العالمين» عمومياً، ولم يقل: فإن الله غني عنه، لأنه إذا كان غنياً عن العالمين كلهم فله الغنى الكامل التام من كل وجه بكل اعتبار، فكان أدل لعظم مقته لتارك حقه الذي أوجبه عليه، ثم أكد هذا المعنى بأداة «إن» الدالة على التأكيد، فهذه عشرة أوجه تقتضي تأكد

باب «يعجني ضرب زيد عمراً» وفيما يفصل فيه بين المصدر وفاعله المضاف إليه بالمفعول والظرف حمل على المكتوب المرجوح، وهي قراءة ابن عامر (قتل أولادهم شركائهم)، فلا يصار إليه. وإذا ثبت أن «من» بدل بعض من كل وجب أن يكون في الكلام ضمير يعود إلى «الناس» كأنه قيل: من استطاع منهم، وحذف هذا الضمير في أكثر الكلام لا يحسن، وحسنه هاهنا أمور منها: أن «من» واقعة على من لا يعقل، كالاسم المبدل منه فارتبطت به، ومنها: أنها موصولة بما هو أخص من الاسم الأول، ولو كانت الصلة أعم لفتح حذف الضمير العائد، ومثال ذلك إذا قلت: رأيت إختوتك من ذهب إلى السوق منهم، كان قبيحاً، لأن الذهاب إلى السوق أعم من الإخوة، وكذلك لو قلت: البس الثياب ما حسن وجمل، يريد منها، ولم يذكر الضمير كان أبعد في الجواز، لأن لفظ ما حسن أعم من الثياب.

وباب البعض من الكل أن يكون أخص من المبدل منه، فإذا كان أعم وأضفت إلى ضمير أو قيده بضمير يعود إلى الأول ارتفع العموم وبقي الخصوص، وما حسن حذف المضاف في هذه أيضاً مع ما تقدم طول الكلام بالصلة والموصول.

وأما المجزور من قوله «لله» فيحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون في موضع من سبيل، كأنه نعت نكرة قدم عليها، لأنه لو تأخر لكان في موضع النعت لسبيل، والثاني: أن يكون متعلقاً بسبيل، فإن قلت: كيف يتعلّق به وليس فيه معنى الفعل؟ قيل: السبيل لما كان عبارة هاهنا عن الموصول إلى البيت من قوت وزاد ونحوهما، كان فيه رائحة الفعل، ولم يقصد به السبيل الذي هو الطريق، فصح تعلق المجزور به، واقتضى حسن النظم وإعجاز اللفظ تقديم المجزور وإن كان موضعه التأخير، لأنه ضمير يعود على البيت، والبيت هو المقصود به الاعتناء، وهم

أطوف به والنفس بعد مشوقة إليه وهل بعد الطواف تداني وألثم منه الركن أطلب بزدما بقلبي من شوق ومن هيمان فوالله ما ازداد إلا أصباباً ولا القلب إلا كثرة الخفقان فيما جنة المأوى وبيا غايته المنى وبيا منيتي من ذون كل أمان أبت غليات الشوق إلا تقرباً إليك فما لي بالبعد يدان وما كان صدي عنك صدمالة ولي شاهد من مقلتي ولسان دعوت اصطباري عنك بعدك والبكا فلبى البكا والصبر عنك عصاني وقد زعموا أن المحب إذا نأى سبيلى هواه بعد طول زمان ولو كان هذا الزعم حقاً لكان ذا دواء الهوى في الناس كل زمان بلى إنه يبلى والهوى على حاله^(١) لم يبله اللئوان^(٢) وهذا عجب قادة الشوق والهوى بغير زمام قائد وغبان أتاك على بعد الزار ولو ننت مطيته جاءت به القدمان انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

﴿٩٨ - ١٠١﴾ قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون * قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون * يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين * وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله * أي : الرسول بين أظهركم يتلو عليكم آيات التي توجب القطع بموجها والحزم بمقتضاها وعدم الشك

رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم * يوبخ تعالى أهل الكتاب من اليهود والنصارى على كفرهم بآيات الله التي أنزلها الله على رسوله ، التي جعلها رحمة لعباده يهتدون بها إليه ، ويستدلون بها على جميع المطالب المهمة والعلوم النافعة ، فهؤلاء الكفرة جمعوا بين الكفر بها وصد من آمن بالله عنها وتحريفها وتوحيجها عما جعلت له ، وهم شاهدون بذلك عالمون بأن ما فعلوه أعظم الكفر الموجب لأعظم العقوبة * الذين كفروا وضدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون * فهذا توعدهم هنا بقوله : ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ بل عيط بأعمالكم ونياتكم ومكركم السيء ، فمجازيكم عليه أشر الجزاء لما توعدهم ووبخهم عطف برحمته وجوده وإحسانه وحذر عباده المؤمنين منهم ثلاثاً يكره بهم من حيث لا يشعرون ، فقال : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ وذلك لحسدكم وبغيتهم عليكم ، وشدة حرصهم على ردكم عن دينكم ، كما قال تعالى : ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾ ثم ذكر تعالى السبب الأعظم والموجب الأكبر لشبث المؤمنين على إيمانهم ، وعدم تزلزلهم عن إيمانهم ، وأن ذلك من أبعد الأشياء ، فقال : ﴿وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله﴾ أي : الرسول بين أظهركم يتلو عليكم آيات التي توجب القطع بموجها والحزم بمقتضاها وعدم الشك

فيما دلت عليه بوجه من الوجوه ، خصوصاً والمبين لها أفضل الخلق وأعلمهم وأفصحهم وأنصحهم وأرأفهم بالمؤمنين ، الجريص على هداية الخلق وإرشادهم بكل طريق يقدر عليه ، فضلووات الله وسلامه عليه ، فلقد نصح وبلغ البلاغ المبين ، فلم يبق في نفوس القائلين مقالاً ولم يترك لجائل في طلب الخير مجالاً ، ثم أخبر أن من اعتصم به فتوكل عليه وامتنع بقوته ورحمته عن كل شر ، واستعان به على كل خير * فقد هدي إلى صراط مستقيم * موصل له إلى غاية المرغوب ، لأنه جمع بين اتباع الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله وبين الاعتصام بالله .

﴿١٠٢ - ١٠٣﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون * هذا أمر من الله لعباده المؤمنين أن يتقوه حق تقواه ، وأن يستمروا على ذلك ويشتروا عليه ويستقيموا إلى الممات ، فإن من عاش على شيء مات عليه ، فمن كان في حال صحته ونشاطه وإمكانه مداوماً لتقوى ربه وطاعته ، منيباً إليه على الدوام ، ثبته الله عند موته ووزقه حسن الخاتمة ، وتقوى الله حق تقواه كما قال ابن مسعود : وهو أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر ، وهذه الآية بيان لما يستحقه تعالى من التقوى ، وأما ما يجب على العبد منها ، فكما قال تعالى : ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ وتفاصيل التقوى المتعلقة بالقلب والجوارح كثيرة جداً ، يجمعها

(١) في الهامش كتب : أي الهوى .

(٢) في الهامش : (لعل صواب هذا البيت قوله :

بلى إنه يبلى المحب وإنه

وبمراجعة بدائع الفوائد (٤٦/٢) تبين أن البيت كما يلي :

بلى إنه يبلى المتصبر والهوى

(٣) في الأصل : بأعمالهم ولعل الصواب ما أثبت .

على حاله لم يبله اللئوان

على حاله لم يبله اللئوان

لكان خيراً لهم ﴿ وفي هذا من دعوته بلطف الخطاب ما يدعوهم إلى الإيمان، ولكن لم يؤمن منهم إلا قليل، وأكثرهم الفاسقون الخارجون عن طاعة الله المعادون لأوليائه الله بأنواع العداوة، ولكن من لطف الله بعباده المؤمنين أنه رذ كيدهم في نحورهم،

فليس على المؤمنين منهم ضرر في أديانهم ولا أبنائهم، وإنما غاية ما يصلون إليه من الأذى أذية الكلام التي لا سبيل إلى السلامة منها من كل معادي، فلو قاتلوا المؤمنين لولوا الأديار فراراً ثم تستمر هزيمتهم ويذوم ذلهم ولا هم ينصرون في وقت من الأوقات، ولهذا أخبر تعالى أنه عاقبهم بالذلة في بواطنهم والمسكنة على ظواهرهم، فلا يستقرون ولا يطمثون

﴿ إلا بحبل ﴾ أي: عهد ﴿ من الله وحبل من الناس ﴾ فلا يكون اليهود إلا تحت أحكام المسلمين وعهدهم، تؤخذ منهم الجزية ويستدلون، أو تحت أحكام النصراني وقد ﴿ باؤوا ﴾ مع ذلك ﴿ بغضب من الله ﴾ وهذا أعظم العقوبات، والسبب الذي أوصلهم إلى هذه الحال ذكره الله بقوله: ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ﴾ التي أنزلها الله على رسوله محمد ﷺ الموجبة لليقين والإيمان، فكفروا بها بغياً وعناداً ﴿ ويقتلون الأنبياء بغير حق ﴾ أي: يقابلون أنبياء الله الذين يحسنون إليهم أعظم إحسان بأشهر مقابلة، وهو القتل، فهل بعد هذه الجراءة والحماية شيء أعظم منها، وذلك كله بسبب عصيانهم واعتدائهم، فهو الذي جرأهم على الكفر بالله وقتل أنبياء الله، ثم قال تعالى:

﴿ ١١٣ - ١١٥ ﴾ ﴿ ليسوا سوءاً من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ﴾ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويستأعون في الخيرات وأولئك من الصالحين ﴿ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين ﴾ لما بين تعالى الفرق الفاسقة من أهل الكتاب وبين أفعالهم وعقوباتهم،

على الحكمة والرحمة والعدل الخالي من الظلم، ولهذا قال: ﴿ وما الله يريد ظملاً للعالمين ﴾ نفى إرادته ظلمهم فضلاً عن كونه يفعل ذلك فلا ينقص أحد شيئاً من حسناته، ولا يزيد في ظلم الظالمين، بل يجازيهم بأعمالهم فقط، ثم قال تعالى:

﴿ ١٠٩ ﴾ ﴿ والله ما في السماوات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور ﴾ أي: هو المالك لما في السماوات وما في الأرض، الذي خلقهم ورزقهم ويتصرف فيهم بقدره وقضائه، وفي شرعه وأمره، وإليه يرجعون يوم القيامة فيجازيهم بأعمالهم حسناتها وسيئها.

﴿ ١١٠ - ١١٢ ﴾ ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾ لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون ﴾ ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴿ يمدح تعالى هذه الأمة ويخبر أنها خير الأمم التي أخرجها الله للناس، وذلك بتكميلهم لأنفسهم بالإيمان المستلزم للقيام بكل ما أمر الله به، وبتكميلهم لغيرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المتضمن دعوة الخلق إلى الله وجهادهم على ذلك وبذل المستطاع في زدهم عن ضلالهم وغيهم وعصيانهم، فهذا كانوا خير أمة أخرجت للناس، لما كانت الآية السابقة وهي قوله: ﴿ ولكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ أمراً من تعالى لهذه الأمة، والأمر قد يمثل المأمور ويقوم به، وقد لا يقوم به، أخير في هذه الآية أن الأمة قد قامت بما أمرها الله بالقيام به، وامثلت أمر ربه واستحقت الفضل على سائر الأمم ﴿ ولو آمن أهل الكتاب



والسرور والنعيم والحبور الذي ظهرت آثاره على وجوههم كما قال تعالى: ﴿ ولقاهم نصره وسرور ﴾ نصره في وجوههم وسرور في قلوبهم، وقال تعالى: ﴿ والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة كانوا أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ فأما الذين اسودت وجوههم ﴿ فيقال لهم على وجه التوبيخ والتفريع: ﴿ أكفرتم بعد إيمانكم ﴾ أي: كيف أترتم الكفر والضلال على الإيمان والهدى؟ وكيف تركتم سبيل الرشاد وسلكتم طريق الغي؟ ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ فليس يليق بكم إلا النار، ولا تستحقون إلا الخزي والفضيحة والعار ﴿ وأما الذين ابيضت وجوههم ﴾ فيهنئون أكمل تهنئة ويبشرون أعظم بشارة، وذلك أنهم يبشرون بدخول الجنات ورضى ربهم ورحمته ﴿ ففي رحمة الله هم فيها خالدون ﴾ وإذا كانوا خالدين في الرحمة، فالجنة أثر من آثار رحمته تعالى، فهم خالدون فيها بما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم، في جوار أرحم الراحمين، لما بين الله لرسوله ﷺ الأحكام الأمرية والأحكام الجزائية قال: ﴿ تلك آيات الله نتلوها ﴾ أي: نقصها ﴿ عليك بالحق ﴾ لأن أوامره ونواهيها مشتملة على الحكمة والرحمة وثوابها وعقابها، كذلك مشتمل

بين هاهنا الأمة المستقيمة، وبين أفعالها وثوابها، فأخبر أنهم لا يستوتون عنده، بل بينهم من الفرق ما لا يمكن وصفه، فأما تلك الطائفة الفاسقة فقد مضى وصفهم، وأما هؤلاء المؤمنون، فقال تعالى منهم «أمة قائمة» أي: مستقيمة على دين الله، قائمة بما أزمها الله به من الأمور، ومن ذلك قيامها بالصلاة «يتلون آيات الله أناء الليل وهم يسجدون» وهذا بيان لصلاتهم في أوقات الليل وطول تهجدهم وتلاوتهم لكتاب ربهم وإيثارهم الخضوع والركوع والسجود له «يؤمنون بالله واليوم الآخر» أي: كإيمان المؤمنين إيماناً يوجب لهم الإيمان بكل نبي أرسله، وكل كتاب أنزله الله، وخض الإيمان باليوم الآخر لأن الإيمان الحقيقي باليوم الآخر بحث المؤمن به على ما يقربه إلى الله، ويثاب عليه في ذلك اليوم، وترك كل ما يعاقب عليه في ذلك اليوم «ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر» فحصل منهم تكميل أنفسهم بالإيمان ولوازمه، وتكميل غيرهم بأمرهم بكل خير، ونهيهم عن كل شر، ومن ذلك حثهم أهل دينهم وغيرهم على الإيمان بمحمد ﷺ، ثم وصفهم بالهمم العالية «و» أنهم «يسارعون في الخيرات» أي: يبادرون إليها فيتنهزون الفرصة فيها، ويفعلونها في أول وقت إمكانها، وذلك من شدة رغبتهم في الخير ومعرفتهم بقوائده وحسن عوائده، فهؤلاء الذين وصفهم الله بهذه الصفات الجميلة والأفعال الجليلة «من الصالحين» الذين يدخلهم الله في رحمته ويتغمدهم بغفرانه وينيلهم من فضله وإحسانه، وأنهم مهما فعلوا «من خير» قليلاً كان أو كثيراً «فلن يكفروا» أي: لن يجرموا ويفوتوا أجره، بل يشيهم الله على ذلك أكمل ثواب، ولكن الأعمال ثوابها تبع لما يقوم بقلب صاحبها من الإيمان والتقوى، فلهذا قال «والله عليم بالمتقين» كما قال تعالى: «إنما يتقبل الله من المتقين».

﴿١١٦ - ١١٧﴾ «إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» * مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ربح فيها صرّ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون» يخبر تعالى أن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، أي: لا تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله، ولا تجدي عليهم شيئاً من ثواب الله، كما قال تعالى: «وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً» بل تكون أموالهم وأولادهم زادا لهم إلى النار، وحنة عليهم في زيادة نعم الله عليهم، تقتضي منهم شكرها، ويعاقبون على عدم القيام بها وعلى كفرها، ولهذا قال: «أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون».

ثم ضرب مثلاً ما ينفقه الكفار من أموالهم التي يصدون بها عن سبيل الله ويستعينون بها على إطفاء نور الله، بأنها تبطل وتضمحل، كمن زرع زرعاً يرجو نتيجته ويؤمل إدراك ريعه، فينما هو كذلك إذ أصابته ريح فيها صر، أي: برد شديد محرق، فأهلك زرع، ولم يحصل له إلا التعب والعناء وزيادة الأسف، فكذا هؤلاء الكفار الذين قال الله فيهم: «إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فستفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون» «وما ظلمهم الله» بإبطال أعمالهم «ولكن» كانوا «أنفسهم يظلمون» حيث كفروا بآيات الله وكذبوا رسوله وحرصوا على إطفاء نور الله، هذه الأمور هي التي أحبطت أعمالهم وذهبت بأموالهم، ثم قال تعالى:

﴿١١٨ - ١٢٠﴾ «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً وثراً ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون» * ها أنتم أولاء تحبونهم

إن الذين كفروا أن تتوسع عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ربح فيها صرّ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون * يخبر تعالى أن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، أي: لا تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله، ولا تجدي عليهم شيئاً من ثواب الله، كما قال تعالى: «وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً» بل تكون أموالهم وأولادهم زادا لهم إلى النار، وحنة عليهم في زيادة نعم الله عليهم، تقتضي منهم شكرها، ويعاقبون على عدم القيام بها وعلى كفرها، ولهذا قال: «أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون».

ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور * إن تمسّكم حسنة نسوهم وإن تصيبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط» ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يتخذوا بطانة من المنافقين من أهل الكتاب وغيرهم يظهرهم على سرائرهم أو يولونهم بعض الأعمال الإسلامية وذلك أنهم هم الأعداء الذين امتلأت قلوبهم من العداوة والبغضاء فظهرت على أفواههم «وما تخفي صدورهم أكبر» مما يسمع منهم فلهذا «لا يألونكم خبالاً» أي: لا يقصرون في حصول الضرر عليكم والمشقة وعمل الأسباب التي فيها ضرركم ومساعدة الأعداء عليكم قال الله للمؤمنين «قد بينا لكم الآيات» أي: التي فيها مصالحكم الدينية والدنيوية «لعلكم تعقلون» فتعرفونها وتفرون بين الصديق والعدو، فليس كل أحد يجعل بطانة، وإنما العاقل من إذا ابتلي بمخالطة العدو أن تكون مخالطة في ظاهره ولا يطلع به باطنه على شيء ولو تعلق له وأقسم أنه من أوليائه قال الله مهيباً للمؤمنين على الحذر من هؤلاء المنافقين من أهل الكتاب، ومبيناً شدة عداوتهم «ها أنتم



أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله ﴿٦١﴾ أي: جنس الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه وهم لا يؤمنون بكتابتكم، بل إذا لقوكم أظهروا لكم الإيمان ﴿٦٢﴾ وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل ﴿٦٣﴾ وهي أطراف الأصابع من شدة غيظهم عليكم ﴿٦٤﴾ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور ﴿٦٥﴾ وهذا فيه بشارة للمؤمنين أن هؤلاء الذين قصدوا ضرركم لا يضررون إلا أنفسهم، وإن غيظهم لا يقدرّون على تنفيذه، بل لا يزالون معذبين به حتى يموتوا فينتقلوا من عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة.

﴿إن تمسّكم حسنة﴾ كالنصر على الأعداء وحصول الفتح والغنائم ﴿تمسّوهم﴾ أي: تنعمهم وتحزنهم ﴿وإن تصيبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضرّكم كيدهم شيئا﴾ إن الله بما يعملون محيط ﴿فإذا أتيتم بالأسباب التي وعد الله عليها النصر - وهي الصبر والتقوى - لم يضرّكم مكرهم، بل يجعل الله مكرهم في نحورهم لأنه محيط بهم علمه وقدرته فلا منفذ لهم عن ذلك ولا يخفى عليهم منهم شيء.

﴿١٢١ - ١٢٢﴾ ﴿وإذ غدوت من أهلك تبوء المؤمنون مقاعد للقتال والله سميع عليم﴾ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل

المؤمنون ﴿١٢١﴾ هذه الآيات نزلت في وقعة «أحد»، وقصتها مشهورة في السير والتواريخ، ولعل الحكمة في ذكرها في هذا الموضع، وأدخل في أثنائها وقعة «بدر» لما أن الله تعالى قد وعد المؤمنين أنهم إذا صبروا واتقوا نصبرهم، ورد كيد الأعداء عنهم، وكان هذا حكماً عاماً ووعداً صادقاً لا يتخلف مع الإتيان بشرطه، فذكر نموذجاً من هذا في هاتين القصتين، وأن الله نصر المؤمنين في «بدر» لما صبروا واتقوا، وأدال عليهم العدو لما صدر من بعضهم من الإخلال بالتقوى ما صدر، ومن حكمة الجمع بين القصتين أن الله يحب من عباده إذا أصابهم ما يكرهون أن يتذكروا ما يحبون، فيخف عنهم البلاء ويشكروا الله على نعمه العظيمة التي إذا قوبلت بما ينالهم من المكروه الذي هو في الحقيقة خير لهم، كان المكروه بالنسبة إلى المحبوب نزرأ يسيراً، وقد أشار تعالى إلى هذه الحكمة في قوله ﴿وإنما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها﴾ وحاصل قضية «أحد» وإجمالها أن المشركين لما رجع فلهم من «بدر» إلى مكة، وذلك في سنة اثنتين من الهجرة، استعدوا بكل ما يقدرّون عليه من العدد بالأموال والرجال والعُدَد، حتى اجتمع عندهم من ذلك ما جزموا بحصول غرضهم وشفاء غيظهم، ثم وجها من مكة للمدينة في ثلاثة آلاف مقاتل، حتى نزلوا قرب المدينة، فخرج النبي ﷺ إليهم هو وأصحابه بعد المراجعة والمشاورة حتى استقر رأيهم على الخروج، وخرج في ألف، فلما ساروا قليلاً رجع عبد الله بن أبي المنافق بثلاث الجيش ممن هو على مثل طريقته، وهم طائفتان من المؤمنين أن يرجعوا وهم بنو سلمة وبنو حارثة فقتبهم الله، فلما وصلوا إلى أحد رتبهم النبي ﷺ في مواضعهم وأسندوا ظهورهم إلى أحد، ورتب النبي ﷺ خمسين رجلاً من أصحابه في خلة في جبل «أحد» وأمرهم أن يلزموا مكانهم ولا يبرزوا منه ليأمنوا أن يأتيهم أحد من ظهورهم، فلما التقى المسلمون

والمشركون انهزم المشركون هزيمة قبيحة وخلفوا معسكرهم خلف ظهورهم، واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، فلما راهم الرماة الذين جعلهم النبي ﷺ في الجبل، قال بعضهم لبعض: الغنيمة الغنيمة، ما يقعدنا هاهنا والمشركون قد انهزموا، ووعظهم أميرهم عبد الله بن جبير عن الغصبة فلم يلتفتوا إليه، فلما أخلوا موضعهم فلم يبق فيه إلا نفر يسير، منهم أميرهم عبد الله بن جبير، جاءت خبرت المشركين من ذلك الموضع واستدبرت المسلمين وقاتلت ساقطتهم، فجال المسلمون جولة ابتلاههم الله بها وكفر بها عنهم، وأدأقهم فيها عقوقه المخالفة، فحصل ما حصل من قتل من قتل منهم، ثم إنهم انحازوا إلى رأس جبل «أحد» وكف الله عنهم أيدي المشركين وانكفأوا إلى بلادهم، ودخل رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة قال الله تعالى ﴿وإذ غدوت من أهلك﴾ والغدو هاهنا مطلق الخروج، ليس المراد به الخروج في أول النهار، لأن النبي ﷺ وأصحابه لم يخرجوا إلا بعدما صلوا الجمعة ﴿تبوء المؤمنون مقاعد للقتال﴾ أي: تنزلهم وترتبهم كل في مقعده اللائق به، وفيها أعظم مدح للنبي ﷺ حيث هو الذي يباشر تدبيرهم وإقامتهم في مقاعد القتال، وما ذاك إلا لكمال علمه ورأيه، وسداد نظره وعلو همته، حيث يباشر هذه الأمور بنفسه وشجاعته الكاملة صلوات الله وسلامه عليه ﴿والله سميع﴾ لجميع المسموعات، ومنه أنه يسمع ما يقول ما في قلبه ﴿عليم﴾ بنيات العبيد، فيجازيهم عليها أتم الجزاء، وأيضاً فإنه سميع عليم بكم، يكلؤكم، ويتولى تدبير أموركم، ويؤيدكم بنصره كما قال تعالى لموسى وهارون ﴿إني معكما أسمع وأرى﴾ ومن لطفه بهم وإحسانه إليهم أنه، لما همت طائفتان من المؤمنين بالفشل وهم بنو سلمة وبنو حارثة كما تقدم ثبتهما الله تعالى نعمة عليهما وعلى سائر المؤمنين، فلماذا قال

﴿والله وليهما﴾ أي: بولايته الخاصة، التي هي لطفه بأوليائه، وتوفيقهم لما فيه صلاحهم وعصمتهم عما فيه مضرتهم، فمن توليه لهما أنهما بهذه العصية العظيمة وهي الفشل والفرار عن رسول الله عصمهما، لما معهما من الإيمان كما قال تعالى: ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ ثم قال ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ فيها الأمر بالتوكل الذي هو اعتماد القلب على الله في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة بالله، وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله، وأن المؤمنين أولى بالتوكل على الله من غيرهم، وخصوصاً في مواطن الشدة والقتال، فإنهم مضطرون إلى التوكل والاستعانة بربههم والاستنصار له، والتبري من حولهم وقوتهم، والاعتماد على حول الله وقوته، فبذلك يتصرهم ويدفع عنهم البلايا والمحن، ثم قال تعالى:

﴿١٧٣- ١٧٦﴾ ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾ * إذ تقول للمؤمنين ألن يكفئكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين﴾ * بل إن تصبروا وتقا وآتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾ * وما جعله الله إلا بشري لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾ * وهذا امتنان منه على عباده المؤمنين، وتذكير لهم بما نصرهم به يوم بدر وهم أذلة في قلة عددهم وعددهم مع كثرة عدد عدوهم وعددهم، وكانت وقعة بدر في السنة الثانية من الهجرة، خرج النبي ﷺ من المدينة بثلاث مئة وبضعة عشر من أصحابه، ولم يكن معهم إلا سبعون بعيراً وأفرسان لطلب عير لقريش قدمت من الشام، فسمع به المشركون فتجهزوا من مكة لفكاك عيرهم، وخرجوا في زهاء ألف مقاتل مع العدة الكاملة والسلاح العام والخيول الكثيرة، فالتقوا هم والمسلمون في ماء يقال له «بدر» بين مكة والمدينة

فاقتتلوا، ونصر الله المسلمين نصراً عظيماً، فقتلوا من المشركين سبعين قتيلاً من صناديد المشركين وشجعانهم، وأسروا سبعين، واحتسوا على معسكرهم ستاتي - إن شاء الله - القصة في سورة الأنفال، فإن ذلك موضعها، ولكن الله تعالى هنا أتى بها لتذكركم بها المؤمنون ليتفقدوا ربهم ويشكروه، فهذا قال ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكِرُونَ﴾ لأن من اتقى ربه فقد شكره، ومن ترك التقوى فلم يشكره، إذ تقول يا محمد للمؤمنين يوم بدر مبشراً لهم بالنصر ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَكُمْ رِبْكَم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ بلى إن تصبروا وتيقنوا ويأتوكم من فورهم هذا ﴿أَيُّ مَنِ مَقْصُدُهُمْ هَذَا، وَهُوَ وَقْعَةُ بَدْرٍ يُمَدِّدُكُمْ رِبْكَم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ أي: معلمين بعلامة الشجعان، فشرط الله لإمدادهم ثلاثة شروط: الصبر، والتقوى، وإتيان المشركين من فورهم هذا، فهذا الوعد بإنزال الملائكة المذكورين وإمدادهم بهم، وأما وعد النصر وقمع كيد الأعداء فشرط الله له الشرطين الأولين كما تقدم في قوله: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرِبَكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ أي: إمداده لكم بالملائكة ﴿لَا بَشَرِي﴾ تستبشرون بها وتفرحون ﴿وَلَنُظْمِنَنَّ قُلُوبَكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فلا تعتمدوا على ما معكم من الأسباب، بل الأسباب فيها طمأنينة لقلوبكم، وأما النصر الحقيقي الذي لا معارض له، فهو مشيئة الله لنصر من يشاء من عباده، فإنه إن شاء نصر من معه الأسباب كما هي سنته في خلقه، وإن شاء نصر المستضعفين الأذلين لبين لعباده أن الأمر كله بيديه، ومرجع الأمور إليه، ولهذا قال ﴿عِنْدَ اللَّهِ الْمَرْبُوعُ﴾ فلا يمتنع عليه مخلوق، بل الخلق كلهم أذلاء مدبرون تحت تدبيره وقهره ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، وله الحكمة في إدالة الكفار في بعض الأوقات على المسلمين إدالة غير مستقرة، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ

* وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَعَلَ عَذَابُهُ
 السَّعِيرَ ۝ وَالْأَرْضُ أَغْبَتَ السَّيِّئِينَ ۝ الَّذِينَ يَمْشُونَ
 فِي الْأَرْضِ وَالْقُرَى وَالْكَثَلِيطِ وَالْعُتَلِيطِ وَالْكَافِينَ
 عَمَ الْإِلَاسِ وَاللَّهُ جَبَّ الْجَنِينِ ۝ وَالَّذِينَ إِذَا
 تَمَارَوْا حَسِبُوا أَنْظَلَهُ السَّمَاءُ ذِكْرَ اللَّهِ فَاسْتَفْهَمُوا
 الْغُيُوبَ ۝ وَمَنْ يَغْفِرَ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَرُئِيسَ رَأْيٍ
 مَا عَمِلُوا وَأَهْلُ مَا كُتِبَ ۝ أُولَئِكَ جَزَاءُ مَنَافِقٍ
 مِنْ يَوْمِهِمْ وَمَنْتَ عَمْرِي مِنْ تَحْتِ الْأَفْهَرِ تَلْخِيطٍ وَمَا
 وَدَّعَ أَجْرَ الْعَمَلِينَ ۝ فَذَلِكُنَّ مِنْ قُلُوبِكُمْ شَأْنٌ
 قِيدَ رَأْفٍ ۝ وَالْأَرْضُ نَاطِلٌ رَأْفَتِ كَأَنَّ عَيْنَهُ
 لِلْعَمَلِينَ ۝ هَذَانِ الْبَائِسُ وَهَذِي وَنُوطَةُ
 السَّيِّئِينَ ۝ وَالْأَعْرَاسُ وَالْعَمْرُ وَالْمُتَعَلِّقُونَ إِنْ كُنْتُمْ
 مُؤْمِنِينَ ۝ إِنْ يَسْأَلُكُمْ فَرَسُ الْقَوْمِ عَنْ صَلَافِهِ
 وَعَنْهُ الْإِيمَانُ تَدَاوَلُوا لَهَا النَّاسِ وَبَعَثَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
 وَجَعَلَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ لِلَّذِينَ لَا حُبَّ لِلظَّالِمِينَ ۝

يشاء الله لا انتصر منهم ولكن ليلو
بعضكم ببعض .

﴿١٢٧﴾ ﴿لَيَقْطَعُ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُهُمْ فَيُقْبِلُوا خَائِبِينَ﴾ يخبر تعالى أن نصره عباده المؤمنين لأحد أمرين: إما أن يقطع طرفاً من الذين كفروا، أي: جانباً منهم وركناً من أركانهم، إما بقتل، أو أسر، أو استيلاء على بلد، أو غنيمة مال، فيقوى بذلك المؤمنون ويذل الكافرون، وذلك لأن مقاومتهم ومجاريبتهم للإسلام تتألف من أشخاصهم وسلاحهم وأموالهم وأرضهم فهذه الأمور تحصل منهم المقاومة والمقاتلة فقطع شيء من ذلك ذهب لبعض قوتهم، الأمر الثاني أن يريد الكفار بقتلهم وكثرتهم، طمعاً في المسلمين، ويمنوا أنفسهم ذلك، ويحرصوا عليه غاية الحرص، ويذلوا قواهم وأموالهم في ذلك، فينصر الله المؤمنين عليهم ويردهم خائبين لم ينالوا مقصودهم، بل يرجعون بخسارة وغم وحسرة، وإذا تأملت الواقع رأيت نصر الله لعباده المؤمنين دائراً بين هذين الأمرين، غير خارج عنهما إما نصر عليهم أو خذل لهم.

﴿١٢٨-١٢٩﴾ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾



من يشاء والله غفور رحيم» لما جرى يوم «أحد» ما جرى، وجرى على النبي ﷺ مصائب، رفع الله بها درجته، فشح رأسه وكسرت رباعيته، قال «كيف يفلح قوم شجبوا نبينهم» وجعل يدعو على رؤساء من المشركين مثل أبي سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، أنزل الله تعالى على رسوله نبياً له عن الدعاء عليهم باللعنة والطرده عن رحمة الله «ليس لك من الأمر شيء» إنما عليك البلاغ وإرشاد الخلق والحرص على مصالحهم، وإنما الأمر لله تعالى هو الذي يدبر الأمور، ويهدي من يشاء ويضل من يشاء، فلا تدع عليهم بل أمرهم راجع إلى ربهم، إن اقتضت حكمته ورحمته أن يتوب عليهم ويمن عليهم بالإسلام فعل، وإن اقتضت حكمته إبقائهم على كفرهم وعدم هدايتهم، فإنهم هم الذين ظلموا أنفسهم وضروها وتسبوا بذلك، فعل، وقد تاب الله على هؤلاء المعينين وغيرهم، فهداهم للإسلام رضي الله عنهم، وفي هذه الآية مما يدل على أن اختيار الله غالب على اختيار العباد، وأن العبد وإن ارتفعت درجته وعلا قدره قد يختار شيئاً وتكون الجزية والمصلحة في غيره، وأن الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء فغيره من باب أول، ففيها أعظم رد على من تعلق

بالأنبياء أو غيرهم من الصالحين وغيرهم، وأن هذا شرك في العبادة، نقص في العقل، يتركون من الأمر كله له ويدعون من لا يملك من الأمر مثقال ذرة، إن هذا لهو الضلال البعيد، وتأمل كيف لما ذكر تعالى توبته عليهم أسند الفعل إليه، ولم يذكر منهم سبباً موجباً لذلك، ليدل ذلك على أن النعمة محض فضله على عبده، من غير سبق سبب من العبد ولا وسيلة، ولما ذكر العذاب ذكر معه ظلمهم، ورتبه على العذاب بالفاء المفيدة للسببية، فقال «أو يعذبهم فأنهم ظالمون» ليدل ذلك على كمال عدل الله وحكمته، حيث وضع العقوبة موضعها، ولم يظلم عبده بل العبد هو الذي ظلم نفسه، ولما نفى عن رسوله أنه ليس له من الأمر شيء قرر من الأمر له فقال «والله ما في السماوات والأرض من الملائكة والإنس والجن والحيوانات والأفلاك والجمادات كلها، وجميع ما في السماوات والأرض، الكل ملك لله مخلوقون مدبرون متصرف فيهم تصرف الممالك، فليس لهم مثقال ذرة من الملك، وإذا كانوا كذلك فهم دائرون بين مغفرته وتعذيبه فيغفر لمن يشاء بأن يهديه للإسلام فيغفر شركه ويمن عليه بترك العصيان فيغفر له ذنبه، ويعذب من يشاء» بأن يكله إلى نفسه الجاهلة الظالمة المقتضية لعمل الشر فيعمل الشر ويعذبه على ذلك، ثم ختم الآية باسمين كريمين دالين على سعة رحمته وعموم مغفرته وسعة إحسانه وعميم إحسانه، فقال «والله غفور رحيم» ففيها أعظم بشارة بأن رحمته غلبت غضبه، ومغفرته غلبت مؤاخذته، فالآية فيها الإخبار عن حالة الخلق وأن منهم من يغفر الله له ومنهم من يعذبه، فلم يختصهما باسمين أحدهما دال على الرحمة، والثاني دال على النقمة، بل ختمها باسمين كليهما يدل على الرحمة، فله تعالى رحمة وإحسان سيرحم بها عباده لا تخطر ببال بشر، ولا يدرك لها وصف، فنسأله تعالى أن يتغمدنا ويدخلنا برحمته في عباده الصالحين. تم

السفر الأول من هذا التفسير المبارك يسر من الله وإعانة فله الحمد والشكر والثناء وأسأله المزيد من فضله وكرمه وإحسانه، ويليه المجلد الثاني، أوله قول الباري جل جلاله يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة الآية وذلك في تسع وعشرين من شهر ربيع الأول من سنة ١٣٤٣ ثالث وأربعين وثلاث مئة وألف من الهجرة النبوية وصلى الله على محمد وسلم تسليماً كثيراً بقلم جامعته عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي غفر الله له ولوالديه وإخوانه المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

المجلد الثاني من تفسير التكريم المنان في تفسير كلام الرحمن لجامعه الفقير إلى الله: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي غفر الله له ولوالديه والمسلمين آمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نعمه ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً كثيراً قال تعالى:

﴿١٣٠ - ١٣٦﴾ «يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون» * واتقوا النار التي أعدت للكافرين * وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون * وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين * الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين * والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون * أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين»

تقدم في مقدمة هذا التفسير أن العبد ينبغي له مراعاة الأوامر والنواهي



الخالق [١]

فسرها النبي ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وأما الإحسان إلى المخلوق، فهو إيصال النفع الديني والدنيوي إليهم، ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم، فيدخل في ذلك أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليم جاهلهم، ووعظ غافلهم، والنصيحة لعامتهم وخاصتهم، والسعي في جمع كلمتهم، وإيصال الصدقات والتفقات الواجبة والمستحبة إليهم، على اختلاف أحوالهم وتباين أوصافهم، فيدخل في ذلك بذل السدي وكف الأذى، وإحتمال الأذى، كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات، فمن قام بهذه الأمور، فقد قام بحق الله وحق عبده.

ثم ذكر اعتذارهم لربهم من جنائيتهم وذنوبهم، فقال: «والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم» أي: صدر منهم أعمال [سيئة] ^(٢) كبيرة، أو ما دون ذلك، بادروا إلى التوبة والاستغفار، وذكروا ربهم، وما توعد به العاصين ووعد به المتقين، فسألوه المغفرة لذنوبهم، والستر لعيوبهم، مع إقلاعهم عنها وندمهم عليها، فهذا

(١) زيادة من هامش ب.

قال: «ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون».

«أولئك» الموصوفون بتلك الصفات «جزاءهم مغفرة من ربهم» تزيل عنهم كل محذور، «وجنات تجري من تحتها الأنهار» فيها من النعيم المقيم، والبهجة والسرور والبهاء، والخير والسرور، والقصور والمنازل الأنيقة العاليات، والأشجار المثمرة البهية، والأنهار الجارية في تلك المساكن الطيبات، «خالدين فيها» لا يحولون عنها، ولا يغون بها بدلا، ولا يغير ما هم فيه من النعيم، «ونعم أجر العاملين» عملوا لله قليلا فأجروا كثيرا فـ «عند الصباح يحمد القوم السري»، وعند الجزاء يمد العامل أجره كاملا موفرا.

وهذه الآيات الكريمات من أدلة أهل السنة والجماعة، على أن الأعمال تدخل في الإيمان، خلافا للمرجئة، ووجه الدلالة إنما يتم بذكر الآية، التي في سورة الحديد، نظير هذه الآيات، وهي قوله تعالى: «سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله» فلم يذكر فيها إلا لفظ الإيمان به وبرسله، وهنا قال: «أعدت للمتقين». ثم وصف المتقين بهذه الأعمال المالية والبدينية، فدل على أن هؤلاء المتقين الموصوفين بهذه الصفات هم أولئك المؤمنون.

«١٣٧ - ١٣٨» ثم قال تعالى: «قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين» هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين.

وهذه الآيات الكريمات، وما بعدها في قصة «أحد» يعزي تعالى عباده المؤمنين ويسليم، ويخبرهم أنه مضى قبلهم أجيال وأمم كثيرة، امتحنوا، وابتلوا المؤمنون منهم بقتال الكافرين، فلم يزالوا في مداولة ومجاوله، حتى جعل الله العاقبة

(٢) زيادة من هامش ب.

للمتقين، والنصر لعباده المؤمنين، وآخر الأمر حصلت الدولة على المكذبين، وخذلهم الله بنصر رسله وأتباعهم.

«فسيروا في الأرض» بأبدانكم وقلوبكم «فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين» فإنكم لا تجدونهم إلا معذبين بأنواع العقوبات الدنيوية، قد خوت ديارهم، وتبين لكل أحد خسارهم، وذهب عزهم وملكتهم، وزال بذخهم وفخرهم، أفليس في هذا أعظم دليل، وأكبر شاهد على صدق ما جاءت به الرسل!!

وحكمة الله التي يمتحن بها عباده، ليلوهم ويتبين صادقهم من كاذبهم، ولهذا قال تعالى: «هذا بيان للناس» أي: دلالة ظاهرة، تبين للناس الحق من الباطل، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، وهو الإشارة إلى ما أوقع الله بالمكذبين.

«وهدى وموعظة للمتقين» لأنهم هم المتفكرون بالآيات فتهديم إلى سبيل الرشاد، وتعظمهم وتزجرهم عن طريق الغي، وأما باقي الناس فهي بيان لهم، تقوم [به] عليهم الحجة من الله، ليهلك من هلك عن بينة.

ويحتمل أن الإشارة في قوله: «هذا بيان للناس» للقرآن العظيم، والذكر الحكيم، وأنه بيان للتاس عموماً، وهدى وموعظة للمتقين خصوصاً، وكلا المعنيين حق.

«١٣٩ - ١٤٣» «ولا تنسوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين» إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام تداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين «وليمحض الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين» أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين «ولقد كنتم قومون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون» يقول تعالى مشجعاً

ثم ويخهم تعالى على عدم صبرهم بأمر كانوا يتمنونونه ويودون حصوله، فقال: ﴿ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه﴾ وذلك أن كثيراً من الصحابة رضي الله عنهم ممن فاته بدر يتمنون أن يحضرهم الله مشهداً يبذلون فيه جهدهم، قال الله [تعالى] لهم: ﴿فقد رأيتموه﴾ أي: رأيتم ما تمنيت بأعينكم ﴿وأنتم تنظرون﴾ فما بالكم وترك الصبر؟ هذه حالة لا تليق ولا تحسن، خصوصاً لمن تمنى ذلك، وحصل له ما تمنى، فإن الواجب عليه بذل الجهد، واستفراغ الوسع في ذلك.

وفي هذه الآية دليل على أنه لا يكره تمنى الشهادة، ووجه الدلالة أن الله تعالى أقرهم على أمنيتهم، ولم ينكر عليهم، وإنما أنكر عليهم عدم العمل بمقتضاها، والله أعلم.

﴿١٤٤ - ١٤٥﴾ ثم قال تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ويستجزي الشاكرين.

يقول تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ أي: ليس ببدع من الرسل، بل هو من جنس الرسل الذين قبله، وظيفتهم تبليغ رسالات ربهم وتنفيذ أوامره، ليسوا بمخلدين، وليس بقاؤهم شرطاً في امتثال أوامر الله، بل الواجب على الأمم عبادة ربهم في كل وقت وبكل حال، ولهذا قال: ﴿أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ بترك ما جاءكم به من إيمان أو جهاد، أو غير ذلك.

قال [الله] تعالى: ﴿ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً﴾ إنما يضر نفسه، وإلا فالله تعالى غني عنه، وسيقيم دينه، ويعز عباده المؤمنين، فلما وبخ تعالى من انقلب على عقبيه، مدح من ثبت مع رسوله، وامثل أمر ربه، فقال: ﴿وسيجزي الله

من أرفع المنازل، ولا سبيل لنيلها إلا بما يحصل من وجود أسبابها، فهذا من رحمة بعباده المؤمنين، أن قيض لهم من الأسباب ما تكرهه النفوس، لينيلهم ما يحبون من المنازل العالية والنعيم المقيم، والله لا يحب الظالمين الذين ظلموا أنفسهم، وتقاعدوا عن القتال في سبيله، وكان في هذا تعريضاً بدم المنافقين، وأنهم مبعوضون لله، ولهذا ثبتهم عن القتال في سبيله.

﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل أقعدوا مع القاعدين﴾.

﴿وليمحص الله الذين آمنوا﴾ وهذا أيضاً من الحكم أن الله يمحص بذلك المؤمنين من ذنوبهم وعيوبهم، يدل ذلك على أن الشهادة والقتال في سبيل الله يكفر الذنوب، وتزيل العيوب، وليمحص الله أيضاً المؤمنين من غيرهم من المنافقين، فيتخلصون منهم، ويعرفون المؤمن من المنافق، ومن الحكم أيضاً أنه يقدر ذلك، ليمحق الكافرين، أي: ليكون سبباً لمحقتهم واستئصالهم بالعقوبة، فإنهم إذا انتصروا، بغوا، وازدادوا طغياناً إلى طغيانهم، يستحقون به المعالجة بالعقوبة، رحمة بعباده المؤمنين.

ثم قال تعالى: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ هذا استفهام إنكاري، أي: لا تظنوا، ولا يحظر ببالكم أن تدخلوا الجنة من دون مشقة واحتمال المكاره في سبيل الله وابتغاء مرضاته، فإن الجنة أعلى المطالب، وأفضل ما به يتنافس المتنافسون، وكلما عظم المطلوب عظمت وسيلته، والعمل الموصل إليه، فلا يوصل إلى الراحة إلا بترك الراحة، ولا يدرك النعيم إلا بترك النعيم، ولكن مكاره الدنيا التي تصيب العبد في سبيل الله عند توطئ النفس لها، وتمرينها عليها ومعرفة ما تؤول إليه، تنقلب عند أبواب البصائر منحاً يسرون بها، ولا يبالون بها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

لعباده المؤمنين، ومقرباً لعزائمهم، ومنهضاً لهممهم: ﴿ولا تمنوا ولا تحزنوا﴾ أي: ولا تنهوا وتضعفوا في أبدانكم، ولا تحزنوا في قلوبكم، عندما أصابتكم المصيبة، وابتليتكم بهذه البلوى، فإن الحزن في القلوب، والوهن على الأبدان، زيادة مصيبة عليكم، وعون لعدوكم عليكم، بل شجعوا قلوبكم وصبروها، وادفعوا عنها الحزن وتصلبوا على قتال عدوكم، وذكر تعالى أنه لا ينبغي ولا يليق بهم الوهن والحزن، وهم الأعلون في الإيمان، ورجاء نصر الله وثوابه، فالؤمن المتيقن ما وعده الله من الثواب الدنيوي والآخري لا ينبغي منه ذلك، ولهذا قال [تعالى]: ﴿وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾.

ثم سألهم بما حصل لهم من الهزيمة، وبين الحكم العظيمة المترتبة على ذلك، فقال: ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله﴾ فأنتم وإياهم قد تساوت في القرح، ولكنكم ترجون من الله ما لا يرجون كما قال تعالى: ﴿إن تكونوا تآلمون فإنهم يآلمون كما تآلمون، وترجون من الله ما لا يرجون﴾.

ومن الحكم في ذلك أن هذه الدار يعطي الله منها المؤمن والكافر، والبر والفاجر، فيداول الله الأيام بين الناس، يوم لهذه الطائفة، ويوم للطائفة الأخرى، لأن هذه الدار الدنيا منقضية فانية، وهذا بخلاف الدار الآخرة، فإنها خالصة للذين آمنوا.

﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾ هذا أيضاً من الحكم أنه يتلى الله عباده بالهزيمة والابتلاء، ليتبين المؤمن من المنافق؛ لأنه لو استمر النصر للمؤمنين في جميع الوقائع لدخل في الإسلام من لا يريد، فإذا حصل في بعض الوقائع بعض أنواع الابتلاء، تبين المؤمن حقيقة الذي يرغب في الإسلام، في الضراء والسراء، واليسر والعسر، فمن ليس كذلك.

﴿ويتخذ منكم شهداء﴾ وهذا أيضاً من بعض الحكم، لأن الشهادة عند الله

الشاكرين ﴿ والشكر لا يكون إلا بالقيام بعبودية الله تعالى في كل حال .

وفي هذه الآية الكريمة إرشاد من الله تعالى لعباده أن يكونوا بحالة لا يزعمهم عن إيمانهم أو عن بعض لوازمه ، فقد رئيس ولو عظم ، وما ذاك إلا بالاستعداد في كل أمر من أمور الدين بعدة أناس من أهل الكفاءة فيه ، إذا فقد أحدهم قام به غيره ، وأن يكون عموم المؤمنين قصدهم إقامة دين الله ، والجهاد عنه ، بحسب الإمكان ، لا يكون لهم قصد في رئيس دون رئيس ، فهذه الحال يستتب لهم أمرهم ، وتستقيم أمورهم .

وفي هذه الآية أيضاً أعظم دليل على فضيلة الصديق الأكبر أبي بكر ، وأصحابه الذين قاتلوا المرتدين بعد رسول الله ﷺ ، لأنهم هم سادات الشاكرين .

ثم أخبر تعالى أن النفوس جميعها متعلقة بأجاليها بإذن الله وقدره وقضائه ، فمن حُثِمَ عليه بالقدر أن يموت ، مات ولو بغير سبب ، ومن أراد بقاءه ، فلو أتى ^(١) من الأسباب كل سبب ، لم يضره ذلك قبل بلوغ أجله ، وذلك أن الله قضاه وقدره وكتبه إلى أجل مسمى : ﴿ إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ .

ثم أخبر تعالى أنه يعطي الناس من ثواب الدنيا والآخرة ما تعلق به إرادتهم ، فقال : ﴿ ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ كلاً نمدّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾ * انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً .

﴿ وستجزي الشاكرين ﴾ ولم يذكر جزاءهم ليدل ذلك على كثرتهم وعظمتهم ، وليعلم أن الجزاء على قدر الشكر ، قلة وكثرة وحسناً .

﴿ ١٤٦ - ١٤٨ ﴾ ﴿ وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ﴾ * وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ * فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ﴿ هذا تسلية للمؤمنين ، وحث على الاقتداء بهم ، والفعل كفعالهم ، وأن هذا أمر قد كان متقدماً ، لم تزل سنة الله جارية بذلك ، فقال : ﴿ وكأين من نبي ﴾ أي : وكم من نبي ﴿ قاتل معه ربيون كثير ﴾ أي : جماعات كثيرون من أتباعهم ، الذين قد رتبهم الأنبياء بالإيمان والأعمال الصالحة ، فأصابهم قتل وجراح وغير ذلك .

﴿ فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا ﴾ أي : ما ضعفت قلوبهم ، ولا وهنت أبدانهم ، ولا استكانوا ، أي : ذلوا لعدوهم ، بل صبروا وثبتوا ، وشجعوا أنفسهم ، ولهذا قال : ﴿ والله يحب الصابرين ﴾ .

ثم ذكر قولهم واستنصروهم لربهم ، فقال : ﴿ وما كان قولهم ﴾ أي : في تلك المواطن الصعبة ﴿ إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا ﴾ والإسراف : هو مجاوزة الحد إلى ما حرم ، علموا أن الذنوب والإسراف من أعظم أسباب الخذلان ، وأن التخلي منها من أسباب النصر ، فسألوا ربهم مغفرتها .

ثم إنهم لم يتكلوا على ما بذلوا جهدهم به من الصبر ، بل اعتمدوا على الله ، وسألوه أن يثبت أقدامهم عند ملاقات الأعداء الكافرين ، وأن ينصرهم عليهم ، فجمعوا بين الصبر وترك ضده ، والتوبة والاستغفار ، والاستنصار بربهم ، لا جرم أن الله نصرهم ، وجعل لهم العاقبة في الدنيا والآخرة ، ولهذا قال : ﴿ فاتاهم الله ثواب الدنيا ﴾ من النصر والظفر

والغنيمة ، ﴿ وحسن ثواب الآخرة ﴾ وهو الفوز برضا ربهم ، والنعيم المقيم الذي قد سلم من جميع المنكذات ، وما ذاك إلا أنهم أحسنوا له الأعمال ، فجازاهم بأحسن الجزاء ، فلهذا قال : ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ في عبادة الخالق ومعاملة الخلق ، ومن الإحسان أن يفعل عند جهاد الأعداء ، كفعل هؤلاء الموصوفين ^(٢) .

﴿ ١٤٩ - ١٥١ ﴾ ﴿ ثم قال تعالى : يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين ﴾ * بل الله مولاكم وهو خير الناصرين ﴾ * سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وماوهم النار وبئس مثنوى الظالمين ^(٣) .

وهذا نهي من الله للمؤمنين أن يطيعوا الكافرين من المنافقين والمشركين ، فإنهم إن أطاعوهم لم يريدوا لهم إلا الشر ، وهم [قصدهم] ^(٣) ردهم إلى الكفر الذي عاقبه الخيبة والخسران .

ثم أخبر أنه مولاهم وناصرهم ، ففيه إخبار لهم بذلك ، وبشارة بأنه سيتولى أمورهم بلطفه ، ويعصمهم من أنواع الشرور .

وفي ضمن ذلك الحث لهم على اتخاذه وحده ولياً وناصراً من دون كل أحد ، فمن ولايته ونصره لهم أنه وعدمه أنه سيلقي في قلوب أعدائهم من الكافرين الرعب ، وهو الخوف العظيم الذي يمنعهم من كثير من مقاصدهم ، وقد فعل تعالى .

وذلك أن المشركين - بعدما انصرفوا من وقعة «أحد» - تشاوروا بينهم ، وقالوا : كيف ننصرف ، بعد أن قتلنا منهم من قتلنا ، وهزمناهم ولما نستأصلهم ؟ فهموا بذلك ، فالتقى الله الرعب في قلوبهم ، فانصرفوا خائبين ، ولا شك أن هذا من أعظم النصر ، لأنه قد تقدم أن نصر الله لعباده المؤمنين لا يخرج عن أحد أمرين : إما أن يقطع

(١) في ب : فلو وقع .

(٢) في ب : المؤمنين .

(٣) زيادة من هامش ب .

طرفاً من الذين كفروا، أو يكبتهم فيقلبوا خائبين، وهذا من الثاني.

﴿منكم من يريد الدنيا﴾ وهم الذين أوجب لهم ذلك ما أوجب، ﴿ومنكم من يريد الآخرة﴾ وهم الذين لزموا أمر رسول الله ﷺ وثبتوا حيث أمروا.

﴿ثم صرفكم عنهم﴾ أي: بعدما وجدت هذه الأمور منكم، صرف الله وجوهكم عنهم، فصار الوجه لعدوكم، ابتلاء من الله لكم وامتحاناً، ليتين المؤمنين من الكافر، والطائع من العاصي، وليكفر الله عنكم بهذه المصيبة ما صدر منكم، فلماذا قال: ﴿ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾ أي: ذو فضل عظيم عليهم، حيث من عليهم بالاسلام، وهداهم لشرائعهم، وعفا عنهم سيئاتهم، وأثابهم على مصيبتهم.

ومن فضله على المؤمنين أنه لا يقدر عليهم خيراً ولا مصيبة، إلا كان خيراً لهم. إن أصابتهم سراء فشكروا جازاهم جزاء الشاكرين، وإن أصابتهم ضراء فصبروا، جازاهم جزاء الصابرين.

﴿١٥٣- ١٥٤﴾ ﴿إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غماً بغم لكيلاً تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون﴾ ثم أنزل عليكم من بعد العم أمانة نعاساً يغشى طائفة منكم وطائفة قد أمهتكم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتال إلى مصاجعهم ولينبلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور. يذكرهم تعالى حالهم في وقت انهزامهم عن القتال، ويعاتبهم على ذلك، فقال: ﴿إذ تصعدون﴾ أي: تجذون في الهرب ﴿ولا تلوون على أحد﴾ أي: لا يلوي أحد منكم على أحد، ولا ينظر إليه، بل ليس لكم هم إلا الفرار والنجاء عن

ثم ذكر السبب الموجب للإلقاء الرعب في قلوب الكافرين، فقال: ﴿بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾ أي: ذلك بسبب ما اتخذوا من دونه من الأنداد والأصنام، التي اتخذوها على حسب أهوائهم وإرادتهم الفاسدة، من غير حجة ولا برهان، وانقطعوا من ولاية الواحد الرحمن، فمن ثم كان المشرك مرعوباً من المؤمنين، لا يعتمد على ركن وثيق، وليس له ملجأ عند كل شدة وضيق، هذا حاله في الدنيا، وأما في الآخرة فأشد وأعظم، ولهذا قال: ﴿وماوهم النار﴾ أي: مستقرهم الذي يأوون إليه وليس لهم عنها خروج، ﴿وبئس مثوى الظالمين﴾ بسبب ظلمهم وعدوانهم صارت النار مثواهم.

﴿١٥٢﴾ ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعد ما أراكم ما يحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾ أي: ﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ بالنصر، فنصركم عليهم، حتى ولوكم أكتافهم، وطفقتم فيهم قتلاً، حتى صرتم سبباً لأنفسكم، وعوناً لأعدائكم عليكم، فلما حصل منكم الفشل وهو الضعف والخور ﴿وتنازعتم في الأمر﴾ الذي فيه ترك أمر الله بالائتلاف وعدم الاختلاف، فاختلقت، فمن قائل نقيم في مركزنا الذي جعلنا فيه النبي ﷺ، ومن قائل: ما مقامنا فيه وقد انهزم العدو، ولم يبق محذور، فعصيتهم الرسول، وتركتم أمره من بعد ما أراكم الله ما يحبون وهو الانخزال أعدائكم؛ لأن الواجب على من أنعم الله عليه بما أحب، أعظم من غيره.

فالواجب في هذه الحال خصوصاً، وفي غيرها عموماً، امتثال أمر الله



القتال

والحال أنه ليس عليكم خطر كبير، إذ لستم آخر الناس مما يلي الأعداء، وبياشر الهيجا، بل ﴿الرسول يدعوكم في أخراكم﴾ أي: مما يلي القنوم يقول: «إلى عباد الله»، فلم تلتفتوا إليه، ولا عرجتم عليه، فالفرار نفسه موجب للوم، ودعوة الرسول الموجبة لتقدمه على النفس، أعظم لوماً بتخلفكم عنها، ﴿فأثابكم﴾ أي: جازاكم على فعلكم ﴿غماً بغم﴾ أي: غماً يتبع غماً، غم بفوات النصر وفوات الغنمة، وغم بانهزامكم، وغم أناسكم كل غم، وهو سماعكم أن محمداً ﷺ قد قتل.

ولكن الله - بلطفه وحسن نظره لعباده - جعل اجتماع هذه الأمور لعباده المؤمنين خيراً لهم، فقال: ﴿لكيلا تحزنوا على ما فاتكم﴾ من النصر والظفر، ﴿ولا ما أصابكم﴾ من الهزيمة والقتل والجراح، إذا تحققتم أن الرسول ﷺ لم يقتل هانت عليكم تلك المصيبات، واغتبظتم بوجوده المسلي عن كل مصيبة ومحنة، فله ما في ضمن البليات والمحن من الأسرار والحكم، وكل هذا صادر عن علمه وكمال خبرته بأعمالكم، وظواهركم وبواطنكم، ولهذا قال: ﴿والله خبير بما تعملون﴾

ويحتمل أن معنى قوله: ﴿لكيلا

من سلطان.

قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ ثم أخبر أنه عفا عنهم بعدما فعلوا ما يوجب المؤاخذه، وإلا فلو واخذهم لاستأصلهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ للمذنبين الخطائين بما يوفقهم له من التوبة والاستغفار، والمصائب المكفرة، ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل من عصاه، بل يستأني به، ويدعوه إلى الإنابة إليه، والإقبال عليه.

ثم إن تاب وأتاب قبل منه، وصبره كأنه لم يجر منه ذنب، ولم يصدر منه عيب، فله الحمد على إحسانه.

﴿١٥٦ - ١٥٨﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غَزَىٰ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْزِيَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لغفرة من الله ورحمة خير مما يجتمعون * ولئن متم أو قتلتم لإني الله تحشرون * ينهي تعالى عباده المؤمنين أن يشابهوا الكافرين، الذين لا يؤمنون بربهم، ولا بقضائه وقدره، من المنافقين وغيرهم.

ينهاهم عن مشابهتهم في كل شيء، وفي هذا الأمر الخاضع وهو أنهم يقولون لإخوانهم في الدين أو في النسب: ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: سافروا للتجارة، أو كانوا غزى أي: غزاة، ثم جرى عليهم قتل أو موت، يعارضون القدر ويقولون: ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ وهذا كذب منهم، فقد قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ ولكن هذا التكذيب لم يفدهم، إلا أن الله يجعل هذا القول، وهذه العقيدة حسرة في قلوبهم، فتزداد مصيبتهم، وأما المؤمنون بالله فيأنهم يعلمون أن ذلك بقدر الله، فيؤمنون ويسلمون،

يشمل الأمر القدري، والأمر الشرعي، فجميع الأشياء بقضاء الله وقدره، وعاقبة النصر والظفر لأوليائه وأهل طاعته، وإن جرى عليهم ما جرى.

﴿يُخْفُونَ﴾ يعني المنافقين ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ﴾ ثم بين الأمر الذي يخفونه، فقال: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا فِي هَذِهِ الْوَاقِعَةِ رَأْيٌ وَمَشُورَةٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ وهذا إنكار منهم وتكذيب بقدر الله، وتسفيه منهم لرأي رسول الله ﷺ، ورأي أصحابه، وتركه منهم لأنفسهم، فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ التي هي أبعد شيء عن مظان القتل لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم - فالأسباب - وإن عظمت - إنما تنفع إذا لم يعارضها القدر والقضاء، فإذا عارضها القدر لم تنفع شيئا، بل لا بد أن يمضي الله ما كتب في اللوح المحفوظ من الموت والحياة، وليستلي الله ما في صدوركم * أي: يختبر ما فيها من نفاق وإيمان وضعف إيمان، * وليلمح ما في قلوبكم * من وساوس الشيطان، وما تأثر غنها من الصفات غير الحميدة.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما فيها وما أكنته، فاقتضى علمه وحكمته أن قدر من الأسباب، ما به تظهر حجابات الصدور وسرائر الأمور.

﴿١٥٥﴾ ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ يخبر تعالى عن حال الذين اتهموا يوم «أحد» وما الذي أوجب لهم الفرار، وأنه من تسويل الشيطان، وأنه تسلط عليهم ببعض ذنوبهم. فهم الذين أدخلوه على أنفسهم، ومكنوه بما فعلوا من المعاصي، لأنها مركبة ومدخله، فلو اعتصموا بطاعة ربهم لما كان له عليهم



تخزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم يعني: أنه قدر ذلك الغم والمصيبة عليكم، لكي تتوطن نفوسكم، وتقرنوا على الصبر على المصائب، وتخفف عليكم تحمل المشقات: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ الَّذِي أَصَابَكُمْ أَمْنَةً نَاعَسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾.

ولا شك أن هذا رحمة بهم، وإحسان وتثبيت لقلوبهم، وزيادة طمأنينة؛ لأن الخائف لا يأتيه التعاس لما في قلبه من الخوف، فإذا زال الخوف عن القلب أمكن أن يأتيه التعاس.

وهذه الطائفة التي أنعم الله عليها بالتعاس هم المؤمنون الذين ليس لهم هم إلا إقامة دين الله، ورضا الله ورسوله، ومصالحة إخوانهم المسلمين. وأما الطائفة الأخرى الذين «قد أهتمهم أنفسهم» فليس لهم هم في غيرها، لنفاقهم أو ضعف إيمانهم، فلهذا لم يصيبهم من التعاس ما أصاب غيرهم، ويقولون هل لنا من الأمر من شيء؟ وهذا استفهام إنكاري، أي: ما لنا من الأمر - أي: النصر والظهور - شيء، فأسأوا الظن بربهم وبدينه ونبيه، وظنوا أن الله لا يتم أمر رسوله، وأن هذه الهزيمة هي الفصلة والقاضية على دين الله، قال الله في جوابهم: ﴿قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ الْأَمْرُ

فيهدي الله قلوبهم ويثبتها، ويخفف بذلك عنهم المصيبة .

قال الله رداً عليهم: ﴿والله يحیی ويمیت﴾ أي: هو المنفرد^(١) بذلك، فلا يغني حذر عن قدر.

﴿والله بما تعملون بصیر﴾ فيجازيكم بأعمالكم وتكذيبكم.

ثم أخبر تعالى أن القتل في سبيله أو الموت فيه، ليس فيه نقص ولا محذور، وإنما هو مما ينبغي أن يتنافس فيه المتنافسون، لأنه سبب مفض وموصل إلى مغفرة الله ورحمته، وذلك خير مما يجمع أهل الدنيا من دنياهم، وأن الخلق أيضاً إذا ماتوا أو قتلوا بأي حالة كانت، فإنما مرجعهم إلى الله، وما لهم إليه، فيجازي كلاً بعمله، فأين الفرار إلا إلى الله، وما للخلق عاصم إلا الاعتصام بحبل الله!!

﴿١٥٩﴾ ﴿فيما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾ أي: برحمة الله لك ولأصحابك، من الله عليك أن ألت^(٢) لهم جانبك، وخففت لهم جناحك، وترقت عليهم، وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك، وامثلوا أمرك.

﴿ولو كنت فظاً﴾ أي: سيئ الخلق ﴿غليظ القلب﴾ أي: قاسيه، ﴿لانفضوا من حولك﴾ لأن هذا ينفرهم ويبغضهم لمن قام به هذا الخلق السيئ.

فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين، تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص، فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول،

كفيع غيره؟!

أليس من أوجب الواجبات، وأهم المهمات، الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما يعاملهم به ﷺ، من اللين وحسن الخلق والتأليف، امثالاً لأمر الله، وجذباً لعباد الله لدين الله.

ثم أمره الله تعالى بأن يعفو عنهم ما صدر منهم من التقصير في حقه ﷺ، ويستغفر لهم في التقصير في حق الله، فيجمع بين العفو والإحسان.

﴿وشاورهم في الأمر﴾ أي: الأمور التي تحتاج إلى استشارة ونظر وفكر، فإن في الاستشارة من القوائد والمصالح الدينية والدنيوية ما لا يمكن حصره منها: أن المشاورة من العبادات المتقرب بها إلى الله.

ومنها: أن فيها تسميحاً لخواطرهم، وإزالة لما يضير في القلوب عند الحوادث، فإن من له الأمر على الناس - إذا جمع أهل الرأي: والفضل وشاورهم في خادعة من الحوادث - اطمأنت نفوسهم وأحبوه، وعلموا أنه ليس يستبد^(٣) عليهم، وإنما ينظر إلى المصلحة الكلية العامة للجميع، فيذلوا جهدهم ومقدورهم في طاعته، لعلمهم بسعيه في مصالح العموم، بخلاف من ليس كذلك، فإنهم لا يكادون يحبونه بحبة صادقة، ولا يطيعونه وإن أطاعوه فطاعة غير تامة.

ومنها: أن في الاستشارة تنور الأفكار، بسبب إعمالها فيما وضعت له، فصار في ذلك زيادة للعقول.

ومنها: ما تنتجه الاستشارة من الرأي: المصيب، فإن المشاور لا يكاد يخطئ في فعله، وإن أخطأ أولم يتم له مطلوب، فليس يملوم، فإذا كان الله يقول لرسوله ﷺ - وهو أكمل الناس عقلاً، وأغزرهم علماً، وأفضلهم رأياً -: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ فكيف بغيره؟!



ثم قال تعالى: ﴿فإذا عزمت﴾ أي: على أمر من الأمور بعد الاستشارة فيه، إن كان يحتاج إلى استشارة ﴿فتوكل على الله﴾ أي: اعتمد على حول الله وقوته، متبرئاً من حولك وقوتك، ﴿إن الله يحب المتوكلين﴾ عليه، اللاجئين إليه.

﴿١٦٠﴾ ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي: إن يمددكم الله بنصره ومعونته ﴿فلا غالب لكم﴾ فلو اجتمع عليكم من في أقطارها وما عندهم من العدد والعدد، لأن الله لا مغالب له، وقد قهر العباد وأخذ بنواصيهم، فلا تتحرك دابة إلا بإذنه، ولا تسكن إلا بإذنه.

﴿وإن يخذلكم﴾ وينكلكم إلى أنفسكم ﴿فمن ذا الذي ينصركم من بعده؟﴾ فلا بد أن تتخذوا ولو أعانكم جميع الخلق.

وفي^(٤) ضمن ذلك الأمر بالاستئصال بالله والاعتماد عليه، والبراءة من الخول والقوة، ولهذا قال: ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ تقدّم المعمول يؤذن بالخصر، أي: على الله

(٤) في ب: وقد.

(٣) في ب: يستبد.

(١) في ب: المنفرد.

(٢) في الأصل: (لنت).

حسب عمله، والله تعالى بصير بأعمالهم، لا يخفى عليه منها شيء، بل قد علمها، وأثبتها في اللوح المحفوظ، ووكل ملائكته الأسماء الكرام، أن يكتبوها ويحفظوها، ويضبطونها.

﴿١٦٤﴾ «لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين» هذه المنة التي امتن الله بها على عباده، أكبر النعم، بل أصلها، وهي الامتنان عليهم بهذا الرسول الكريم الذي أنقذهم الله به من الضلالة، وعصمهم به من الهلكة، فقال: «لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم» يعرفون نسبته، وحاله، ولسانه، من قومهم وقبيلتهم، ناصحا لهم، مشفقا عليهم، يتلو عليهم آيات الله، يعلمهم ألقاظها ومغانيها.

﴿يزكيهم﴾ من الشريك، والمعاصي، والردائل، وسائر مساوئ الأخلاق.

و «يعلمهم الكتاب» إما جنس الكتاب الذي هو القرآن، فيكون قوله: «يتلو عليهم آياته» المراد به الآيات الكونية، أو المراد بالكتاب - هنا - الكتابية، فيكون قد امتن عليهم، بتعليم الكتاب والكتابة، التي بها تدرك العلوم وتحفظ، «والحكمة» هي: السنة، التي هي شقيقة القرآن، أو وضع الأشياء مواضعها، ومعرفة أسرار الشريعة.

فجمع لهم بين تعليم الأحكام، وتما به تنفيذ الأحكام، وما به تدرك فوائدها وثمراتها، ففاقوا بهذه الأمور العظيمة جميع المخلوقين، وكانوا من العلماء الربانيين، «وإن كانوا من قبل» بعثة هذا الرسول «لفى ضلال مبين» لا يعرفون الطريق الموصل إلى ربهم، ولا ما يزيكي النفوس ويظهرها، بل ما زين لهم جهلهم ففعلوه، ولو ناقض

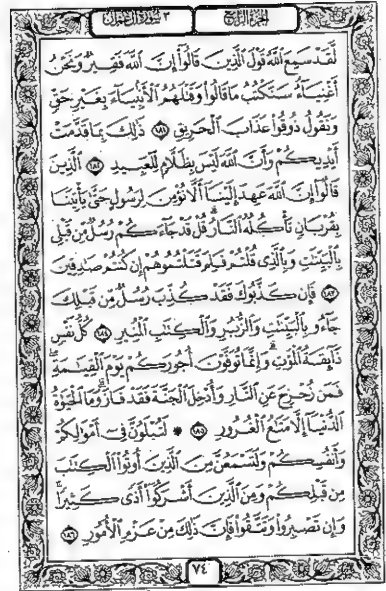
أعدائهم، لأن معرفته بنبوته، مستلزم لدفع ذلك، ولذلك أتى بصيغة يمتنع معها وجود الفعل منهم، فقال: «وما كان لنبى أن يغفل» أي: يمتنع ذلك ويستحيل على من اختارهم الله لنبوته.

ثم ذكر الوعيد على من غفل، فقال: «ومن يغفل يأت بما غل يوم القيامة» أي: يأت به حامله على ظهره، حيوانا كان أو متاعا، أو غير ذلك، ليعذب به يوم القيامة، «ثم توفي كل نفس ما كسبت» الغال وغيره، كل يوفى أجره ووزره على مقدار كسبه، «وهم لا يظلمون» أي: لا يزداد في سيئاتهم، ولا يهضمون شيئا من حسناتهم، وتأمل حسن هذا الاحتراز في هذه الآية الكريمة.

لما ذكر عقوبة الغال، وأنه يأتي يوم القيامة بما غله، ولما أراد أن يذكر توفيقته وجزاءه، وكان الاختصار على الغال يوهم - بالفهم - أن غيره من أنواع العاملين قد لا يوفون - أتى بلفظ عام جامع له ولغيره.

﴿١٦٢ - ١٦٣﴾ «أفمن اتبع رضوان الله كمن بئ بسخط من الله وماواه جهنم وبئس المصير» هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون» يخبر تعالى أنه لا يستوي من كان قصده رضوان ربه، والعمل على ما يرضيه، كمن ليس كذلك، ممن هو مكب على المعاصي، مسخط لربه، هذان لا يستويان في حكم الله، وحكمة الله، وفي فطر عباد الله. «أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا، لا يستويون» ولهذا قال هنا: «هم درجات عند الله» أي: كل هؤلاء متفاوتون في درجاتهم ومنازلهم بحسب تفاوتهم في أعمالهم.

فالمتبعون لرضوان الله يسعون في نيل الدرجات العاليات، والمنازل والغرفات، فيعطيه الله من فضله وجوده على قدر أعمالهم، والمتبعون لمساخط الله يسعون في النزول في الدرجات إلى أسفل سافلين، كل على



توكلوا لا على غيره، لأنه قد علم أنه هو الناصر وحده، فالاعتماد عليه توحيد محصل للمقصود، والاعتماد على غيره شرك غير نافع لصاحبه، بل ضار.

وفي هذه الآية الأمر بالتوكل على الله وحده، وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله.

﴿١٦١﴾ «وما كان لنبى أن يغفل ومن يغفل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون» الغلول هو: الكتان من الغنمية، [والخيانة في كل مال يتولاه الإنسان] وهو محرم إجماعا، بل هو من الكبائر، كما تدل عليه هذه الآية الكريمة وغيرها من النصوص، فأخبر الله تعالى أنه ما ينبغي ولا يليق بنبي أن يغفل، لأن الغلول - كما علمت - من أعظم الذنوب وأشر العيوب. وقد صان الله تعالى أنبياءه عن كل ما يندسهم ويقدح فيهم، وجعلهم أفضل العالمين أخلاقا، وأطهرهم نفوسا، وأزكاهم وأطيبهم، ونزههم عن كل عيب، وجعلهم على رسالته، ومعدن حكمته «الله أعلم حيث يجعل رسالته».

فيمجرد علم العبد بالواحد منهم، يجزم بسلامتهم من كل أمر يقدرح فيهم، ولا يحتاج إلى دليل على ما قيل فيهم من



بالتقال، ﴿وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله﴾ أي: ذنباً عن دين الله، وحماية له وطلباً لمرضاة الله، ﴿أو ادفعوا﴾ عن محارمكم وبلدكم، إن لم يكن لكم نية صالحة، فأبوا ذلك واعتذروا بأن ﴿قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾ أي: لو نعلم أنكم يصير بينكم وبينهم قتال لاتبعناكم، وهم كذبة في هذا. قد علموا ويتقنوا وعلم كل أحد أن هؤلاء المشركين، قد ملئوا من الحنق والغيط على المؤمنين بما أصابوا منهم، وأنهم قد بذلوا أموالهم، وجمعوا ما يقدرون عليه من الرجال والعدد، وأقبلوا في جيش عظيم قاصدين المؤمنين في بلدهم، متحرقين على قتالهم، فمن كانت هذه حالهم، كيف يتصور أنهم لا يصير بينهم وبين المؤمنين قتال؟ خصوصاً وقد خرج المسلمون من المدينة وبرزوا لهم، هذا من المستحيل، ولكن المنافقين ظنوا أن هذا العذر، يروج على المؤمنين، قال تعالى: ﴿هم للكفر يومئذ﴾ أي: في تلك الحال التي تركوا فيها الخروج مع المؤمنين ﴿أقرب منهم للإيمان﴾ يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، وهذه خاصة المنافقين، يظهرون بكلامهم وفعالهم ما يبطنون ضده في قلوبهم وسرائرهم.

ومنه قولهم: ﴿لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾ فإنهم قد علموا وقوع القتال. ويستدل بهذه الآية على قاعدة «ارتكاب أخف المفسدتين لدفع أعلاهما، وفعل أدنى المصلحتين، للعجز عن أعلاهما»؛ لأن المنافقين أمروا أن يقاتلوا للدين، فإن لم يفعلوا فللمدافعة عن العيال والأوطان^(١) ﴿والله أعلم بما يكتمون﴾ فيديه لعباده المؤمنين، ويعاقبهم عليه.

ثم قال تعالى: ﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا﴾ أي: جمعوا بين التخلف عن الجهاد، وبين الاعتراض والتكذيب بقضاء الله

ذلك عقول العالمين. ﴿١٦٥-١٦٨﴾ ﴿أو لمَّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير﴾ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فيأذن الله وليعلم المؤمنين * وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون * الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين * هذا تسلية من الله تعالى لعباده المؤمنين، حين أصابهم ما أصابهم يوم «أحد»، وقتل منهم نحو سبعين، فقال الله: إنكم * قد أصبتم * من المشركين * مثليها * يوم بدر فقتلتم سبعين من كبارهم وأسرتم سبعين، فليهن الأمر ولتخف المصيبة عليكم، مع أنكم لا تسترون أنتم وهم، فإن قتلكم في الجنة وقتلهم في النار.

﴿قلتم أنى هذا﴾ أي: من أين أصابنا ما أصابنا وهزمننا؟ ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ حين تنازعتم وعصيت من بعد ما أراكم ما تحبون، فعودوا على أنفسكم باللوم، واحذروا من الأسباب المردية.

﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ فإياكم وسوء الظن بالله، فإنه قادر على نصركم، ولكن له أنتم الحكمة في ابتلائكم ومصيبتكم. ﴿ذلك ولو يشاء الله، لانتصر منهم، ولكن ليلو بعضهم ببعض﴾

ثم أخبر أن ما أصابهم يوم التقى الجمعان، جمع المسلمين وجمع المشركين في «أحد» من القتل والهزيمة، أنه بإذنه وقضائه وقدره، لا مرد له ولا بد من وقوعه. والأمر القدري - إذا نفذ، لم يبق إلا التسليم له، وأنه قدزه لحكم عظيمة وفوائد جسيمة، وأنه ليتبين بذلك المؤمن من المنافق، الذين لما أمروا

وقدره، قال الله رداً عليهم: ﴿قل فادعوا﴾ أي: ادفعوا * عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين * إنهم لو أطاعوك ما قتلوا، لا تقدرون على ذلك ولا تستطيعونه.

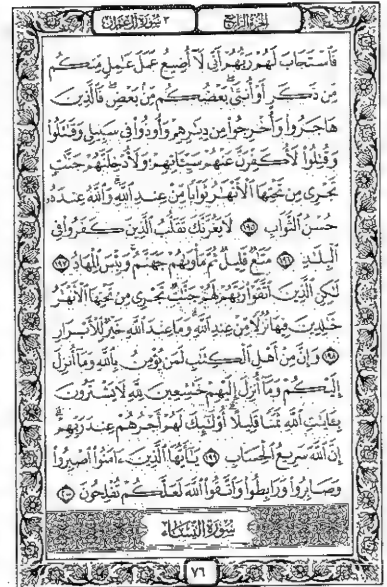
وفي هذه الآيات دليل على أن العبد قد يكون فيه خصلة كفر وخصلة إيمان، وقد يكون إلى أحدهما أقرب منه إلى الأخرى.

﴿١٦٩-١٧١﴾ ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ * فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون * يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين * هذه الآيات الكريمة^(٢) فيها فضيلة^(٣) الشهداء وكرامتهم، وما من الله عليهم به من فضله وإحسانه، وفي ضميمتها تسلية الأحياء عن قتالهم وتغزيهم، وتنشيطهم للقتال في سبيل الله والتعرض للشهادة، فقال: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله﴾ أي: في جهاد أعداء الدين، قاصدين بذلك إعلاء كلمة الله ﴿أمواتاً﴾ أي: لا يخطر ببالك وحسبانك أنهم ماتوا وفقدوا، وذهبت عنهم لذة الحياة الدنيا والتمتع بزهرتها،

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) في ب: الكريمات.

(٣) في ب: فضل.



به، وهو: نعمة ربهم، وفضله، وإحسانه، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بل ينميهم ويشكرهم، ويزيده من فضله، ما لا يصل إليه سعيهم.

وفي هذه الآيات إثبات نعيم البرزخ، وأن الشهداء في أعلى مكان عند ربهم، وفيه تلاقي أرواح أهل الخير، وزيارة بعضهم بعضاً، وتبشير بعضهم بعضاً.

﴿١٧٢ - ١٧٥﴾ ﴿الَّذِينَ

استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرع للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم﴾ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء

واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ لما رجع النبي ﷺ من «أحد» إلى المدينة، وسمع أن أبا سفيان ومن معه من المشركين قد هموا بالرجوع إلى المدينة، ندب أصحابه إلى الخروج، فخرجوا - على ما بهم من الجراح - استجابة لله ولرسوله، وطاعة لله ولرسوله، فوصلوا إلى «حراء الأسد»، وجاءهم من جاءهم وقال لهم: ﴿إن الناس قد جمعوا لكم﴾ وهموا باستئصالكم، تخوفاً لهم وترهيباً، فلم يزددهم ذلك إلا إيماناً بالله واتكالاً عليه.

﴿وقالوا حسبنا الله﴾ أي: كافينا كل ما أمنا ﴿ونعم الوكيل﴾ المفوض إليه تدبير عباده، والقائم بمصالحهم.

﴿فانقلبوا﴾ أي: رجعوا ﴿بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء﴾.

وجاء الخبر المشركين أن الرسول وأصحابه قد خرجوا إليكم، وندم من تخلف منهم، فالقَى الله الرعب في قلوبهم، واستمروا راجعين إلى مكة، ورجع المؤمنون بنعمة من الله وفضل،

حيث من عليهم بالتوفيق للخروج بهذه الحالة والاتكال على ربهم، ثم إنه قد كتب لهم أجر غزاة تامة، فيسبب إحسانهم بطاعة ربهم، وتقواهم عن معصيته، لهم أجر عظيم، وهذا فضل الله عليهم ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي: إن ترهيب من رهب من المشركين، وقال:

﴿إِنَّهُمْ جِئُوا بِكُم مِّنَ الدِّينِ فَدَعَا الشَّيْطَانُ إِلَى الْكُفْرِ﴾ دأب من دعا الشيطان، يخوف أولياءه الذين عدم إيمانهم، أو ضعف ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ خَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: فلا تخافوا المشركين أولياء الشيطان، فإن نواصيهم بيد الله، لا يتصرفون إلا بقدره، بل خافوا الله الذي ينصر أولياءه الخائفين منه (٢) المستجيبين لدعوته.

وفي هذه الآية وجوب الخوف من الله وخده، وأنه من لوازم الإيمان، فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله، والخوف محمود: ما حجز العبد عن محارم الله.

﴿١٧٦ - ١٧٧﴾ ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ

الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزْباً فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضرُوا الله شيئاً ولهم عذاب أليم﴾ كان النبي ﷺ حريصاً على الخلق، مجتهداً في هدايتهم، وكان يحزن إذا لم يبتدوا، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ من شدة رغبته فيهم، وحرصهم عليه ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُوا اللَّهَ شَيْئاً﴾ فالله ناصر دينه، ومؤيد رسوله، ومنفذ أمره من دونهم، فلا تبالهم ولا تحفل بهم، إنما يضررون وينسعون في ضرر أنفسهم، بفوات الإيمان في الدنيا، وحصول العذاب الأليم في الآخرة، من هوانهم على الله وسقوطهم من عهده، وإرادته أن لا يجعل لهم نصيباً في الآخرة من ثوابه. خذلهم فلم يوفقهم لما وفق له

الذي يحذر من فواته، من حين عن القتال، وزهد في الشهادة. ﴿بل﴾ قد حصل لهم أعظم مما يتنافس فيه المتنافسون. فهم ﴿أحياء عند ربهم﴾ في دار كرامته.

ولفظ: ﴿عند ربهم﴾ يقتضي علو درجتهم، وقربهم من ربهم، ﴿يرزقون﴾ من أنواع النعيم الذي لا يعلم وصفه، إلا من أنعم به عليهم، ومع هذا ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ أي: مغتبتين بذلك، قد قرت به عيونهم، وفرحت به نفوسهم، وذلك لحسنه وكثرته، وعظمته، وكمال اللذة في الوصول إليه، وعدم المنقص، فجمع الله لهم بين نعيم البدن بالرزق، ونعيم القلب والروح بالفرح بما آتاهم من فضله: فتم لهم (١) النعيم والسرور، وجعلوا ﴿يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم﴾ أي: يبشر بعضهم بعضاً، بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم، وأنهم سينالون ما نالوا، ﴿ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي: يستبشرون بزوال المحذور عنهم وعن إخوانهم المستلزم كمال السرور، ﴿يستبشرون بنعمة من الله وفضل﴾ أي: يبنى بعضهم بعضاً، بأعظم منها

(١) في النسختين: فتم له.

(٢) في النسختين: الخائفين له، ولعل الأقرب ما أثبت.



وتتقوا فلکم أجر عظیم ﴿١٧٨﴾ أي : ما كان في حکمة الله أن یترك المؤمنین علی ما أنتم علیہ من الاختلاط وعدم التميز ^(٢)، حتی یمیز الخبیث من الطیب، والمؤمن من المنافق، والصادق من الکاذب.

ولم یکن فی حکمته أيضاً أن یطلع عباده علی الغیب الذي یعلمه من عباده، فاقتضت حکمته الباهرة أن یتلی عباده، ویفتنهم بما به یتميز الخبیث من الطیب، من أنواع الابتلاء والامتحان، فأرسل [الله] رسله، وأمر بطاعتهم، والانتیاد لهم، والإیمان بهم، ووعدهم علی الإیمان والتقوی الأجر العظیم.

فانقسم الناس بحسب اتباعهم للرسل قسمین : مطیعین وعاصین، ومؤمنین ومنافقین، ومسلمین وكفارین، لیرتب علی ذلك الثواب والعقاب، ولیطهر عدله وفضله، وحکمته خلقه.

﴿١٨٠﴾ ﴿١٧٩﴾ ولا یحسبن الذین یسئلون بما آتاهم الله من فضله هو خیراً لهم بل هو شر لهم سیطقون ما یخلوا به یوم القیامة والله یمیز الخبیر ﴿١٨٠﴾ أي : لا یظن الذین یسئلون، أي : یمتنعون ما عندهم مما آتاهم الله من فضله، من المال والأجاء والعلم، وغیر ذلك مما منحهم الله، وأحسن إلیهم به، وأمرهم ببذل ما لا یضرهم منه لعباده، فیخلوا بذلك، وأمسكوه، وضنوا به علی عباد الله، وظنوا أنه خیر لهم، بل هو شر لهم، فی دینهم ودنیاهم، وعاجلهم وأجلهم ﴿سیطقون ما یخلوا به یوم القیامة﴾ أي : یجعل ما یخلوا به طوقاً فی أعناقهم، یعذبون به كما ورد فی الحدیث الصحیح، «إن البخیل یمثل له ماله یوم القیامة شجاعاً أقرع، له زبیتان، يأخذ بلهزمتیه یقول : أنا مالنک، أنا کننرک». وثلاً رسول الله ﷺ مصداق ذلك، هذه

أولیاءه ومن أراد به خیراً، عدلاً منه وحکمة، لعلمه بأنهم غیر زاکین علی الهدی، ولا قابیلین للرشاد، لفساد أخلاقهم وسوء قصدهم.

ثم أخبر أن الذین اختاروا الکفر علی الإیمان، ورغبوا فی رغبة من بذل ما یحب من المال، فی شراء ما یحب من السلع ﴿لن یضروا الله شیئاً﴾ بل ضرر فعلهم یعود علی أنفسهم، ولهذا قال : ﴿ولهم عذاب أليم﴾ וכیف یضرون الله شیئاً، وهم قد زهدوا أشد الزهد فی الإیمان، ورغبوا کل الرغبة بالکفر بالرحن ؟! فإله غنی عنهم، وقد قیض لدینہ من عباده الأبرار الأزکیاء سواهم، وأعد له - بمن ارتضاه لتصرته - أهل البصائر والعقول، وذوی الألباب من الرجال الفحول، قال الله تعالی : ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذین أوتوا العلم من قبله إذا بئلی علیهم یخرون للآذقان سجداً﴾ الآیات.

﴿١٧٨﴾ ﴿١٧٩﴾ ﴿١٨٠﴾ أنما نملي لهم خیر لأنفسهم إنما نملي لهم لیزدادوا إثماً ولهم عذاب مهین ﴿١٧٨﴾ أي : ولا یظن الذین کفروا بربهم ونابذوا دینہ، وحاربوا رسوله أن ترکنا إیاهم فی هذه الدنیا، وعدم استئصالنا لهم، وإملاءنا لهم خیر لأنفسهم، وحجة منا لهم.

کلا، لیس الأمر كما زعموا، وإنما ذلك لشر یریده الله بهم، وزیادة عذاب وعقوبة إلی عذابهم، ولهذا قال : ﴿إنما نملي لهم لیزدادوا إثماً ولهم عذاب مهین﴾ : فإله تعالی یملي للظالم، حتی یزداد طغیانه، ویتراذف کفرانه، حتی إذا أخذه أخذه ^(١) أخذ عزیز مقتدر، فلیحذر الظالمون من الإمهال، ولا یظنوا أن یفوتوا الکبیر المتعال.

﴿١٧٩﴾ ﴿١٨٠﴾ ﴿١٨١﴾ ﴿١٨٢﴾ ﴿١٨٣﴾ ﴿١٨٤﴾ ﴿١٨٥﴾ ﴿١٨٦﴾ ﴿١٨٧﴾ ﴿١٨٨﴾ ﴿١٨٩﴾ ﴿١٩٠﴾ ﴿١٩١﴾ ﴿١٩٢﴾ ﴿١٩٣﴾ ﴿١٩٤﴾ ﴿١٩٥﴾ ﴿١٩٦﴾ ﴿١٩٧﴾ ﴿١٩٨﴾ ﴿١٩٩﴾ ﴿٢٠٠﴾ ﴿٢٠١﴾ ﴿٢٠٢﴾ ﴿٢٠٣﴾ ﴿٢٠٤﴾ ﴿٢٠٥﴾ ﴿٢٠٦﴾ ﴿٢٠٧﴾ ﴿٢٠٨﴾ ﴿٢٠٩﴾ ﴿٢١٠﴾ ﴿٢١١﴾ ﴿٢١٢﴾ ﴿٢١٣﴾ ﴿٢١٤﴾ ﴿٢١٥﴾ ﴿٢١٦﴾ ﴿٢١٧﴾ ﴿٢١٨﴾ ﴿٢١٩﴾ ﴿٢٢٠﴾ ﴿٢٢١﴾ ﴿٢٢٢﴾ ﴿٢٢٣﴾ ﴿٢٢٤﴾ ﴿٢٢٥﴾ ﴿٢٢٦﴾ ﴿٢٢٧﴾ ﴿٢٢٨﴾ ﴿٢٢٩﴾ ﴿٢٣٠﴾ ﴿٢٣١﴾ ﴿٢٣٢﴾ ﴿٢٣٣﴾ ﴿٢٣٤﴾ ﴿٢٣٥﴾ ﴿٢٣٦﴾ ﴿٢٣٧﴾ ﴿٢٣٨﴾ ﴿٢٣٩﴾ ﴿٢٤٠﴾ ﴿٢٤١﴾ ﴿٢٤٢﴾ ﴿٢٤٣﴾ ﴿٢٤٤﴾ ﴿٢٤٥﴾ ﴿٢٤٦﴾ ﴿٢٤٧﴾ ﴿٢٤٨﴾ ﴿٢٤٩﴾ ﴿٢٥٠﴾ ﴿٢٥١﴾ ﴿٢٥٢﴾ ﴿٢٥٣﴾ ﴿٢٥٤﴾ ﴿٢٥٥﴾ ﴿٢٥٦﴾ ﴿٢٥٧﴾ ﴿٢٥٨﴾ ﴿٢٥٩﴾ ﴿٢٦٠﴾ ﴿٢٦١﴾ ﴿٢٦٢﴾ ﴿٢٦٣﴾ ﴿٢٦٤﴾ ﴿٢٦٥﴾ ﴿٢٦٦﴾ ﴿٢٦٧﴾ ﴿٢٦٨﴾ ﴿٢٦٩﴾ ﴿٢٧٠﴾ ﴿٢٧١﴾ ﴿٢٧٢﴾ ﴿٢٧٣﴾ ﴿٢٧٤﴾ ﴿٢٧٥﴾ ﴿٢٧٦﴾ ﴿٢٧٧﴾ ﴿٢٧٨﴾ ﴿٢٧٩﴾ ﴿٢٨٠﴾ ﴿٢٨١﴾ ﴿٢٨٢﴾ ﴿٢٨٣﴾ ﴿٢٨٤﴾ ﴿٢٨٥﴾ ﴿٢٨٦﴾ ﴿٢٨٧﴾ ﴿٢٨٨﴾ ﴿٢٨٩﴾ ﴿٢٩٠﴾ ﴿٢٩١﴾ ﴿٢٩٢﴾ ﴿٢٩٣﴾ ﴿٢٩٤﴾ ﴿٢٩٥﴾ ﴿٢٩٦﴾ ﴿٢٩٧﴾ ﴿٢٩٨﴾ ﴿٢٩٩﴾ ﴿٣٠٠﴾ ﴿٣٠١﴾ ﴿٣٠٢﴾ ﴿٣٠٣﴾ ﴿٣٠٤﴾ ﴿٣٠٥﴾ ﴿٣٠٦﴾ ﴿٣٠٧﴾ ﴿٣٠٨﴾ ﴿٣٠٩﴾ ﴿٣١٠﴾ ﴿٣١١﴾ ﴿٣١٢﴾ ﴿٣١٣﴾ ﴿٣١٤﴾ ﴿٣١٥﴾ ﴿٣١٦﴾ ﴿٣١٧﴾ ﴿٣١٨﴾ ﴿٣١٩﴾ ﴿٣٢٠﴾ ﴿٣٢١﴾ ﴿٣٢٢﴾ ﴿٣٢٣﴾ ﴿٣٢٤﴾ ﴿٣٢٥﴾ ﴿٣٢٦﴾ ﴿٣٢٧﴾ ﴿٣٢٨﴾ ﴿٣٢٩﴾ ﴿٣٣٠﴾ ﴿٣٣١﴾ ﴿٣٣٢﴾ ﴿٣٣٣﴾ ﴿٣٣٤﴾ ﴿٣٣٥﴾ ﴿٣٣٦﴾ ﴿٣٣٧﴾ ﴿٣٣٨﴾ ﴿٣٣٩﴾ ﴿٣٤٠﴾ ﴿٣٤١﴾ ﴿٣٤٢﴾ ﴿٣٤٣﴾ ﴿٣٤٤﴾ ﴿٣٤٥﴾ ﴿٣٤٦﴾ ﴿٣٤٧﴾ ﴿٣٤٨﴾ ﴿٣٤٩﴾ ﴿٣٥٠﴾ ﴿٣٥١﴾ ﴿٣٥٢﴾ ﴿٣٥٣﴾ ﴿٣٥٤﴾ ﴿٣٥٥﴾ ﴿٣٥٦﴾ ﴿٣٥٧﴾ ﴿٣٥٨﴾ ﴿٣٥٩﴾ ﴿٣٦٠﴾ ﴿٣٦١﴾ ﴿٣٦٢﴾ ﴿٣٦٣﴾ ﴿٣٦٤﴾ ﴿٣٦٥﴾ ﴿٣٦٦﴾ ﴿٣٦٧﴾ ﴿٣٦٨﴾ ﴿٣٦٩﴾ ﴿٣٧٠﴾ ﴿٣٧١﴾ ﴿٣٧٢﴾ ﴿٣٧٣﴾ ﴿٣٧٤﴾ ﴿٣٧٥﴾ ﴿٣٧٦﴾ ﴿٣٧٧﴾ ﴿٣٧٨﴾ ﴿٣٧٩﴾ ﴿٣٨٠﴾ ﴿٣٨١﴾ ﴿٣٨٢﴾ ﴿٣٨٣﴾ ﴿٣٨٤﴾ ﴿٣٨٥﴾ ﴿٣٨٦﴾ ﴿٣٨٧﴾ ﴿٣٨٨﴾ ﴿٣٨٩﴾ ﴿٣٩٠﴾ ﴿٣٩١﴾ ﴿٣٩٢﴾ ﴿٣٩٣﴾ ﴿٣٩٤﴾ ﴿٣٩٥﴾ ﴿٣٩٦﴾ ﴿٣٩٧﴾ ﴿٣٩٨﴾ ﴿٣٩٩﴾ ﴿٤٠٠﴾ ﴿٤٠١﴾ ﴿٤٠٢﴾ ﴿٤٠٣﴾ ﴿٤٠٤﴾ ﴿٤٠٥﴾ ﴿٤٠٦﴾ ﴿٤٠٧﴾ ﴿٤٠٨﴾ ﴿٤٠٩﴾ ﴿٤١٠﴾ ﴿٤١١﴾ ﴿٤١٢﴾ ﴿٤١٣﴾ ﴿٤١٤﴾ ﴿٤١٥﴾ ﴿٤١٦﴾ ﴿٤١٧﴾ ﴿٤١٨﴾ ﴿٤١٩﴾ ﴿٤٢٠﴾ ﴿٤٢١﴾ ﴿٤٢٢﴾ ﴿٤٢٣﴾ ﴿٤٢٤﴾ ﴿٤٢٥﴾ ﴿٤٢٦﴾ ﴿٤٢٧﴾ ﴿٤٢٨﴾ ﴿٤٢٩﴾ ﴿٤٣٠﴾ ﴿٤٣١﴾ ﴿٤٣٢﴾ ﴿٤٣٣﴾ ﴿٤٣٤﴾ ﴿٤٣٥﴾ ﴿٤٣٦﴾ ﴿٤٣٧﴾ ﴿٤٣٨﴾ ﴿٤٣٩﴾ ﴿٤٤٠﴾ ﴿٤٤١﴾ ﴿٤٤٢﴾ ﴿٤٤٣﴾ ﴿٤٤٤﴾ ﴿٤٤٥﴾ ﴿٤٤٦﴾ ﴿٤٤٧﴾ ﴿٤٤٨﴾ ﴿٤٤٩﴾ ﴿٤٥٠﴾ ﴿٤٥١﴾ ﴿٤٥٢﴾ ﴿٤٥٣﴾ ﴿٤٥٤﴾ ﴿٤٥٥﴾ ﴿٤٥٦﴾ ﴿٤٥٧﴾ ﴿٤٥٨﴾ ﴿٤٥٩﴾ ﴿٤٦٠﴾ ﴿٤٦١﴾ ﴿٤٦٢﴾ ﴿٤٦٣﴾ ﴿٤٦٤﴾ ﴿٤٦٥﴾ ﴿٤٦٦﴾ ﴿٤٦٧﴾ ﴿٤٦٨﴾ ﴿٤٦٩﴾ ﴿٤٧٠﴾ ﴿٤٧١﴾ ﴿٤٧٢﴾ ﴿٤٧٣﴾ ﴿٤٧٤﴾ ﴿٤٧٥﴾ ﴿٤٧٦﴾ ﴿٤٧٧﴾ ﴿٤٧٨﴾ ﴿٤٧٩﴾ ﴿٤٨٠﴾ ﴿٤٨١﴾ ﴿٤٨٢﴾ ﴿٤٨٣﴾ ﴿٤٨٤﴾ ﴿٤٨٥﴾ ﴿٤٨٦﴾ ﴿٤٨٧﴾ ﴿٤٨٨﴾ ﴿٤٨٩﴾ ﴿٤٩٠﴾ ﴿٤٩١﴾ ﴿٤٩٢﴾ ﴿٤٩٣﴾ ﴿٤٩٤﴾ ﴿٤٩٥﴾ ﴿٤٩٦﴾ ﴿٤٩٧﴾ ﴿٤٩٨﴾ ﴿٤٩٩﴾ ﴿٥٠٠﴾ ﴿٥٠١﴾ ﴿٥٠٢﴾ ﴿٥٠٣﴾ ﴿٥٠٤﴾ ﴿٥٠٥﴾ ﴿٥٠٦﴾ ﴿٥٠٧﴾ ﴿٥٠٨﴾ ﴿٥٠٩﴾ ﴿٥١٠﴾ ﴿٥١١﴾ ﴿٥١٢﴾ ﴿٥١٣﴾ ﴿٥١٤﴾ ﴿٥١٥﴾ ﴿٥١٦﴾ ﴿٥١٧﴾ ﴿٥١٨﴾ ﴿٥١٩﴾ ﴿٥٢٠﴾ ﴿٥٢١﴾ ﴿٥٢٢﴾ ﴿٥٢٣﴾ ﴿٥٢٤﴾ ﴿٥٢٥﴾ ﴿٥٢٦﴾ ﴿٥٢٧﴾ ﴿٥٢٨﴾ ﴿٥٢٩﴾ ﴿٥٣٠﴾ ﴿٥٣١﴾ ﴿٥٣٢﴾ ﴿٥٣٣﴾ ﴿٥٣٤﴾ ﴿٥٣٥﴾ ﴿٥٣٦﴾ ﴿٥٣٧﴾ ﴿٥٣٨﴾ ﴿٥٣٩﴾ ﴿٥٤٠﴾ ﴿٥٤١﴾ ﴿٥٤٢﴾ ﴿٥٤٣﴾ ﴿٥٤٤﴾ ﴿٥٤٥﴾ ﴿٥٤٦﴾ ﴿٥٤٧﴾ ﴿٥٤٨﴾ ﴿٥٤٩﴾ ﴿٥٥٠﴾ ﴿٥٥١﴾ ﴿٥٥٢﴾ ﴿٥٥٣﴾ ﴿٥٥٤﴾ ﴿٥٥٥﴾ ﴿٥٥٦﴾ ﴿٥٥٧﴾ ﴿٥٥٨﴾ ﴿٥٥٩﴾ ﴿٥٦٠﴾ ﴿٥٦١﴾ ﴿٥٦٢﴾ ﴿٥٦٣﴾ ﴿٥٦٤﴾ ﴿٥٦٥﴾ ﴿٥٦٦﴾ ﴿٥٦٧﴾ ﴿٥٦٨﴾ ﴿٥٦٩﴾ ﴿٥٧٠﴾ ﴿٥٧١﴾ ﴿٥٧٢﴾ ﴿٥٧٣﴾ ﴿٥٧٤﴾ ﴿٥٧٥﴾ ﴿٥٧٦﴾ ﴿٥٧٧﴾ ﴿٥٧٨﴾ ﴿٥٧٩﴾ ﴿٥٨٠﴾ ﴿٥٨١﴾ ﴿٥٨٢﴾ ﴿٥٨٣﴾ ﴿٥٨٤﴾ ﴿٥٨٥﴾ ﴿٥٨٦﴾ ﴿٥٨٧﴾ ﴿٥٨٨﴾ ﴿٥٨٩﴾ ﴿٥٩٠﴾ ﴿٥٩١﴾ ﴿٥٩٢﴾ ﴿٥٩٣﴾ ﴿٥٩٤﴾ ﴿٥٩٥﴾ ﴿٥٩٦﴾ ﴿٥٩٧﴾ ﴿٥٩٨﴾ ﴿٥٩٩﴾ ﴿٦٠٠﴾ ﴿٦٠١﴾ ﴿٦٠٢﴾ ﴿٦٠٣﴾ ﴿٦٠٤﴾ ﴿٦٠٥﴾ ﴿٦٠٦﴾ ﴿٦٠٧﴾ ﴿٦٠٨﴾ ﴿٦٠٩﴾ ﴿٦١٠﴾ ﴿٦١١﴾ ﴿٦١٢﴾ ﴿٦١٣﴾ ﴿٦١٤﴾ ﴿٦١٥﴾ ﴿٦١٦﴾ ﴿٦١٧﴾ ﴿٦١٨﴾ ﴿٦١٩﴾ ﴿٦٢٠﴾ ﴿٦٢١﴾ ﴿٦٢٢﴾ ﴿٦٢٣﴾ ﴿٦٢٤﴾ ﴿٦٢٥﴾ ﴿٦٢٦﴾ ﴿٦٢٧﴾ ﴿٦٢٨﴾ ﴿٦٢٩﴾ ﴿٦٣٠﴾ ﴿٦٣١﴾ ﴿٦٣٢﴾ ﴿٦٣٣﴾ ﴿٦٣٤﴾ ﴿٦٣٥﴾ ﴿٦٣٦﴾ ﴿٦٣٧﴾ ﴿٦٣٨﴾ ﴿٦٣٩﴾ ﴿٦٤٠﴾ ﴿٦٤١﴾ ﴿٦٤٢﴾ ﴿٦٤٣﴾ ﴿٦٤٤﴾ ﴿٦٤٥﴾ ﴿٦٤٦﴾ ﴿٦٤٧﴾ ﴿٦٤٨﴾ ﴿٦٤٩﴾ ﴿٦٥٠﴾ ﴿٦٥١﴾ ﴿٦٥٢﴾ ﴿٦٥٣﴾ ﴿٦٥٤﴾ ﴿٦٥٥﴾ ﴿٦٥٦﴾ ﴿٦٥٧﴾ ﴿٦٥٨﴾ ﴿٦٥٩﴾ ﴿٦٦٠﴾ ﴿٦٦١﴾ ﴿٦٦٢﴾ ﴿٦٦٣﴾ ﴿٦٦٤﴾ ﴿٦٦٥﴾ ﴿٦٦٦﴾ ﴿٦٦٧﴾ ﴿٦٦٨﴾ ﴿٦٦٩﴾ ﴿٦٧٠﴾ ﴿٦٧١﴾ ﴿٦٧٢﴾ ﴿٦٧٣﴾ ﴿٦٧٤﴾ ﴿٦٧٥﴾ ﴿٦٧٦﴾ ﴿٦٧٧﴾ ﴿٦٧٨﴾ ﴿٦٧٩﴾ ﴿٦٨٠﴾ ﴿٦٨١﴾ ﴿٦٨٢﴾ ﴿٦٨٣﴾ ﴿٦٨٤﴾ ﴿٦٨٥﴾ ﴿٦٨٦﴾ ﴿٦٨٧﴾ ﴿٦٨٨﴾ ﴿٦٨٩﴾ ﴿٦٩٠﴾ ﴿٦٩١﴾ ﴿٦٩٢﴾ ﴿٦٩٣﴾ ﴿٦٩٤﴾ ﴿٦٩٥﴾ ﴿٦٩٦﴾ ﴿٦٩٧﴾ ﴿٦٩٨﴾ ﴿٦٩٩﴾ ﴿٧٠٠﴾ ﴿٧٠١﴾ ﴿٧٠٢﴾ ﴿٧٠٣﴾ ﴿٧٠٤﴾ ﴿٧٠٥﴾ ﴿٧٠٦﴾ ﴿٧٠٧﴾ ﴿٧٠٨﴾ ﴿٧٠٩﴾ ﴿٧١٠﴾ ﴿٧١١﴾ ﴿٧١٢﴾ ﴿٧١٣﴾ ﴿٧١٤﴾ ﴿٧١٥﴾ ﴿٧١٦﴾ ﴿٧١٧﴾ ﴿٧١٨﴾ ﴿٧١٩﴾ ﴿٧٢٠﴾ ﴿٧٢١﴾ ﴿٧٢٢﴾ ﴿٧٢٣﴾ ﴿٧٢٤﴾ ﴿٧٢٥﴾ ﴿٧٢٦﴾ ﴿٧٢٧﴾ ﴿٧٢٨﴾ ﴿٧٢٩﴾ ﴿٧٣٠﴾ ﴿٧٣١﴾ ﴿٧٣٢﴾ ﴿٧٣٣﴾ ﴿٧٣٤﴾ ﴿٧٣٥﴾ ﴿٧٣٦﴾ ﴿٧٣٧﴾ ﴿٧٣٨﴾ ﴿٧٣٩﴾ ﴿٧٤٠﴾ ﴿٧٤١﴾ ﴿٧٤٢﴾ ﴿٧٤٣﴾ ﴿٧٤٤﴾ ﴿٧٤٥﴾ ﴿٧٤٦﴾ ﴿٧٤٧﴾ ﴿٧٤٨﴾ ﴿٧٤٩﴾ ﴿٧٥٠﴾ ﴿٧٥١﴾ ﴿٧٥٢﴾ ﴿٧٥٣﴾ ﴿٧٥٤﴾ ﴿٧٥٥﴾ ﴿٧٥٦﴾ ﴿٧٥٧﴾ ﴿٧٥٨﴾ ﴿٧٥٩﴾ ﴿٧٦٠﴾ ﴿٧٦١﴾ ﴿٧٦٢﴾ ﴿٧٦٣﴾ ﴿٧٦٤﴾ ﴿٧٦٥﴾ ﴿٧٦٦﴾ ﴿٧٦٧﴾ ﴿٧٦٨﴾ ﴿٧٦٩﴾ ﴿٧٧٠﴾ ﴿٧٧١﴾ ﴿٧٧٢﴾ ﴿٧٧٣﴾ ﴿٧٧٤﴾ ﴿٧٧٥﴾ ﴿٧٧٦﴾ ﴿٧٧٧﴾ ﴿٧٧٨﴾ ﴿٧٧٩﴾ ﴿٧٨٠﴾ ﴿٧٨١﴾ ﴿٧٨٢﴾ ﴿٧٨٣﴾ ﴿٧٨٤﴾ ﴿٧٨٥﴾ ﴿٧٨٦﴾ ﴿٧٨٧﴾ ﴿٧٨٨﴾ ﴿٧٨٩﴾ ﴿٧٩٠﴾ ﴿٧٩١﴾ ﴿٧٩٢﴾ ﴿٧٩٣﴾ ﴿٧٩٤﴾ ﴿٧٩٥﴾ ﴿٧٩٦﴾ ﴿٧٩٧﴾ ﴿٧٩٨﴾ ﴿٧٩٩﴾ ﴿٨٠٠﴾ ﴿٨٠١﴾ ﴿٨٠٢﴾ ﴿٨٠٣﴾ ﴿٨٠٤﴾ ﴿٨٠٥﴾ ﴿٨٠٦﴾ ﴿٨٠٧﴾ ﴿٨٠٨﴾ ﴿٨٠٩﴾ ﴿٨١٠﴾ ﴿٨١١﴾ ﴿٨١٢﴾ ﴿٨١٣﴾ ﴿٨١٤﴾ ﴿٨١٥﴾ ﴿٨١٦﴾ ﴿٨١٧﴾ ﴿٨١٨﴾ ﴿٨١٩﴾ ﴿٨٢٠﴾ ﴿٨٢١﴾ ﴿٨٢٢﴾ ﴿٨٢٣﴾ ﴿٨٢٤﴾ ﴿٨٢٥﴾ ﴿٨٢٦﴾ ﴿٨٢٧﴾ ﴿٨٢٨﴾ ﴿٨٢٩﴾ ﴿٨٣٠﴾ ﴿٨٣١﴾ ﴿٨٣٢﴾ ﴿٨٣٣﴾ ﴿٨٣٤﴾ ﴿٨٣٥﴾ ﴿٨٣٦﴾ ﴿٨٣٧﴾ ﴿٨٣٨﴾ ﴿٨٣٩﴾ ﴿٨٤٠﴾ ﴿٨٤١﴾ ﴿٨٤٢﴾ ﴿٨٤٣﴾ ﴿٨٤٤﴾ ﴿٨٤٥﴾ ﴿٨٤٦﴾ ﴿٨٤٧﴾ ﴿٨٤٨﴾ ﴿٨٤٩﴾ ﴿٨٥٠﴾ ﴿٨٥١﴾ ﴿٨٥٢﴾ ﴿٨٥٣﴾ ﴿٨٥٤﴾ ﴿٨٥٥﴾ ﴿٨٥٦﴾ ﴿٨٥٧﴾ ﴿٨٥٨﴾ ﴿٨٥٩﴾ ﴿٨٦٠﴾ ﴿٨٦١﴾ ﴿٨٦٢﴾ ﴿٨٦٣﴾ ﴿٨٦٤﴾ ﴿٨٦٥﴾ ﴿٨٦٦﴾ ﴿٨٦٧﴾ ﴿٨٦٨﴾ ﴿٨٦٩﴾ ﴿٨٧٠﴾ ﴿٨٧١﴾ ﴿٨٧٢﴾ ﴿٨٧٣﴾ ﴿٨٧٤﴾ ﴿٨٧٥﴾ ﴿٨٧٦﴾ ﴿٨٧٧﴾ ﴿٨٧٨﴾ ﴿٨٧٩﴾ ﴿٨٨٠﴾ ﴿٨٨١﴾ ﴿٨٨٢﴾ ﴿٨٨٣﴾ ﴿٨٨٤﴾ ﴿٨٨٥﴾ ﴿٨٨٦﴾ ﴿٨٨٧﴾ ﴿٨٨٨﴾ ﴿٨٨٩﴾ ﴿٨٩٠﴾ ﴿٨٩١﴾ ﴿٨٩٢﴾ ﴿٨٩٣﴾ ﴿٨٩٤﴾ ﴿٨٩٥﴾ ﴿٨٩٦﴾ ﴿٨٩٧﴾ ﴿٨٩٨﴾ ﴿٨٩٩﴾ ﴿٩٠٠﴾ ﴿٩٠١﴾ ﴿٩٠٢﴾ ﴿٩٠٣﴾ ﴿٩٠٤﴾ ﴿٩٠٥﴾ ﴿٩٠٦﴾ ﴿٩٠٧﴾ ﴿٩٠٨﴾ ﴿٩٠٩﴾ ﴿٩١٠﴾ ﴿٩١١﴾ ﴿٩١٢﴾ ﴿٩١٣﴾ ﴿٩١٤﴾ ﴿٩١٥﴾ ﴿٩١٦﴾ ﴿٩١٧﴾ ﴿٩١٨﴾ ﴿٩١٩﴾ ﴿٩٢٠﴾ ﴿٩٢١﴾ ﴿٩٢٢﴾ ﴿٩٢٣﴾ ﴿٩٢٤﴾ ﴿٩٢٥﴾ ﴿٩٢٦﴾ ﴿٩٢٧﴾ ﴿٩٢٨﴾ ﴿٩٢٩﴾ ﴿٩٣٠﴾ ﴿٩٣١﴾ ﴿٩٣٢﴾ ﴿٩٣٣﴾ ﴿٩٣٤﴾ ﴿٩٣٥﴾ ﴿٩٣٦﴾ ﴿٩٣٧﴾ ﴿٩٣٨﴾ ﴿٩٣٩﴾ ﴿٩٤٠﴾ ﴿٩٤١﴾ ﴿٩٤٢﴾ ﴿٩٤٣﴾ ﴿٩٤٤﴾ ﴿٩٤٥﴾ ﴿٩٤٦﴾ ﴿٩٤٧﴾ ﴿٩٤٨﴾ ﴿٩٤٩﴾ ﴿٩٥٠﴾ ﴿٩٥١﴾ ﴿٩٥٢﴾ ﴿٩٥٣﴾ ﴿٩٥٤﴾ ﴿٩٥٥﴾ ﴿٩٥٦﴾ ﴿٩٥٧﴾ ﴿٩٥٨﴾ ﴿٩٥٩﴾ ﴿٩٦٠﴾ ﴿٩٦١﴾ ﴿٩٦٢﴾ ﴿٩٦٣﴾ ﴿٩٦٤﴾ ﴿٩٦٥﴾ ﴿٩٦٦﴾ ﴿٩٦٧﴾ ﴿٩٦٨﴾ ﴿٩٦٩﴾ ﴿٩٧٠﴾ ﴿٩٧١﴾ ﴿٩٧٢﴾ ﴿٩٧٣﴾ ﴿٩٧٤﴾ ﴿٩٧٥﴾ ﴿٩٧٦﴾ ﴿٩٧٧﴾ ﴿٩٧٨﴾ ﴿٩٧٩﴾ ﴿٩٨٠﴾ ﴿٩٨١﴾ ﴿٩٨٢﴾ ﴿٩٨٣﴾ ﴿٩٨٤﴾ ﴿٩٨٥﴾ ﴿٩٨٦﴾ ﴿٩٨٧﴾ ﴿٩٨٨﴾ ﴿٩٨٩﴾ ﴿٩٩٠﴾ ﴿٩٩١﴾ ﴿٩٩٢﴾ ﴿٩٩٣﴾ ﴿٩٩٤﴾ ﴿٩٩٥﴾ ﴿٩٩٦﴾ ﴿٩٩٧﴾ ﴿٩٩٨﴾ ﴿٩٩٩﴾ ﴿١٠٠٠﴾

(١) فی ب : ثم أخذه.

(٢) فی ب : التميز.

الآية.
فهؤلاء حسبو أن یخلهم نافعهم، ومجد علیهم، فانقلب علیهم الأمر، وصار من أعظم مضارهم، وسبب عقابهم.

﴿والله میراث السماوات والأرض﴾ أي : هو تعالی مالک الملك، وترد جمیع الأملاك إلی مالکها، وینقلب العباد من الدنیا ما معهم درهم ولا دینار، ولا غیر ذلك من المال.

قال تعالی : ﴿إننا نحن نرث الأرض ومن علیها وإلینا یرجعون﴾ وتأمل کیف ذکر السبب الابتدائی والسبب الغائی، الموجب کل واحد منهما أن لا یبخل العبد بما أعطاه الله.

أخبر أولاً : أن الذي عنده وفي یده فضل من الله ونعمته، لیس مالکاً للعبد، بل لولا فضل الله علیه وإحسانه، لم یصل إلیه منه شیء، فتمتعه لذلك منع لفضل الله وإحسانه؛ ولأن إحسانه موجب للإحسان إلی عبیده كما قال تعالی : ﴿وأحسن كما أحسن الله إلیک﴾.

فمن تحقق أن ما بیده، فضل من الله، لم یمنع الفضل الذي لا یضره، بل ینفعه فی قلبه وماله، وزیادة إیمانه، وحفظه من الآفات.

ثم ذکر ثانیاً : أن هذا الذي بید

لهم: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قِبَلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الدالات على صدقهم ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ بأن أناكم بقربان تأكله النار ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ؟﴾ أي: في دعواهم^(١) الإيمان برسول يأتي^(٢) بقربان تأكله النار، فقد تبين بهذا كذبهم، وعنادهم وتناقضهم.

ثم سلى رسوله ﷺ، فقال: ﴿فإن كذبوك فقد كذب رسول من قبلك﴾ أي: هذه عادة الظالمين، ودأبهم الكفر بالله، وتكذيب رسول الله وليس تكذيبهم لرسول الله، عن قصور ما أتوا به، أو عدم تبين حجة، بل قد ﴿جاؤوا بالبينات﴾ أي: الحجج العقلية، والبراهين النقليّة، ﴿والزبر﴾ أي: الكتب المزبورة المنزلة من السماء، التي لا يمكن أن يأتي بها غير الرسل.

﴿والكتاب المنير﴾ للأحكام الشرعية، وبيان ما اشتملت عليه من المحاسن العقلية، ومنير أيضاً للأخبار الصادقة، فإذا كان هذا عادتهم في عدم الإيمان بالرسول، الذين هذا وصفهم، فلا يحزنك أمرهم، ولا يهيجك شأنهم.

﴿١٨٥﴾ ثم قال تعالى: ﴿كُلْ نَفْسٌ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾.

هذه الآية الكريمة فيها الترهيد في الدنيا بفنائها وعدم بقائها، وأنها متاع الغرور، تفتن بزخرفها، وتخدع بغرورها، وتغر بمحاسنها، ثم هي منتقلة، ومنتقل عنها إلى دار القرار، التي توفي فيها النفوس ما عملت في هذه الدار، من خير وشر.

﴿فمن زحزح﴾ أي: أخرج، ﴿عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾ أي: حصل له الفوز العظيم من العذاب الأليم، والنوصل إلى جنات النعيم، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ومفهوم الآية، أن من لم يزحزح عن

ظلاماً من الله لهم، فإنه ﴿ليس بظلام للعبيد﴾ فإنه منزّه عن ذلك، وإنما ذلك بما قدمت أيديهم من المخازي والقبائح، التي أوجبت استحقاقهم العذاب، وحرمانهم الثواب.

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت في قوم من اليهود، تكلموا بذلك، وذكروا منهم «فتاح بن عازوراء» من رؤساء علماء اليهود في المدينة، وأنه لما سمع قول الله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ وأقرضوا الله قرضاً حسناً قال: - على وجه التكبر والتجهر - هذه المقالة قبحة الله، فذكرها الله عنهم، وأخبر أنه ليس ببلد من شنائعهم، بل قد سبق لهم من الشنائع ما هو نظير ذلك، وهو: ﴿قتلهم الأنبياء بغير حق﴾ هذا القيد يراد به، أنهم تجرأوا على قتلهم مع علمهم بشناعته، لا جهلاً وضلالاً، بل تمرداً وعناداً.

﴿١٨٣ - ١٨٤﴾ «الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ؟» فإن كذبوك فقد كذب رسول من قبلك جاؤوا بالبينات والزبر والكتاب المنير يخبر تعالى عن حال هؤلاء المفتزين القائلين: ﴿إن الله عهد إلينا﴾ أي: تقدم إلينا وأوصى، ﴿ألا نؤمن لرسول، حتى يأتينا بقربان تأكله النار﴾ فجمعوا بين الكذب على الله، وحصر آية الرسل بما قالوه، من هذا الإفك المبين، وأنهم إن لم يؤمنوا برسول لم يأتيهم بقربان تأكله النار، فهم - في ذلك - مطيعون لربهم، ملتزمون وعهده، وقد علم أن كل رسول يرسله الله، يؤيده من الآيات والبراهين، ما على مثله آمن البشر، ولم يقصرها على ما قالوه، ومع هذا فقد قالوا إفاً لم يلتزموه، وباطلاً لم يعملوا به، ولهذا أمر الله رسوله أن يقول



العباد كلها ترجع إلى الله، ويرثها تعالى، وهو خير الوارثين، فلا معنى للبخل بشيء هو زائل عنك منتقل إلى غيرك.

ثم ذكر ثالثاً: السبب الجزائي، فقال: ﴿والله بما تعملون خبير﴾ فإذا كان خبيراً بأعمالكم جميعها - ويستلزم ذلك الجزاء الحسن على الخيرات، والعقوبات على الشر - لم يتخلف من في قلبه مشقة ذرة من إيمان عن الإنفاق الذي يجزى به الثواب، ولا يرضى بالإمساك الذي به العقاب.

﴿١٨١ - ١٨٢﴾ «لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق» ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد يخبر تعالى، عن قول هؤلاء المتمردين، الذين قالوا أقبح المقالة وأشنعها، وأسمجها، فأخبر أنه قد سمع ما قالوه وأنه سيكتبه ويحفظه، مع أفعالهم الشنيعة، وهو: قتلهم الأنبياء الناصحين، وأنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة، وأنه يقال لهم - بدل قولهم إن الله فقير ونحن أغنياء - ﴿ذوقوا عذاب الحريق﴾ المحرق النافذ من البدن إلى الأفئدة، وأن عذابهم ليس

(٢) في ب: بأيكم.

(١) في ب: دعواكم.

النار ويدخل الجنة، فإنه لم يقز، بل قد شقي الشقاء الأبدى، وابتلي بالعذاب السرمدي.

وفي هذه الآية إشارة لطيفة إلى نعيم البرزخ وعذابه، وأن العاملين يجوزون فيه بعض الجزاء مما عملوه، ويقدم لهم أنموذج مما أسلفوه، يفهم هذا من قوله: «وإنما توفون أجوركم يوم القيامة» أي: توفية الأعمال التامة، إنما يكون يوم القيامة، وأما ما دون ذلك فيكون في البرزخ، بل قد يكون قبل ذلك في الدنيا كقوله تعالى: «ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر».

﴿١٨٦﴾ «لتبليون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أدنى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور» يخبر تعالى ويخاطب المؤمنين أنهم سيبتلون في أموالهم من الشفقات الواجبة والمستحبة، ومن التعريض لإتلافها في سبيل الله، وفي أنفسهم من التكليف بأعباء التكليف الثقيلة على كثير من الناس، كالجهاد في سبيل الله، والتعرض فيه للتعب والقتل والأسر والجراح، وكالأمراض التي تصيبه في نفسه، أو فيمن يجب.

﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم، ومن الذين أشركوا أدنى كثيراً﴾ من الطعن فيكم، وفي دينكم وكتابتكم ورسولكم.

وفي إخباره لعباده المؤمنين بذلك، عدة فوائد:

منها: أن حكمته تعالى تقتضي

ذلك، لتمييز المؤمن الصادق من غيره.

ومنها: أنه تعالى يقدر عليهم هذه

الأمور، لما يريد به من الخير ليعلي

درجاتهم، ويكفر من سيئاتهم، ويزداد

بذلك إيمانهم، ويتم به إيقانهم، فإنه

إذا أخبرهم بذلك ووقع كما أخبر

قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله،

وصدق الله ورسوله، وما زادهم إلا

إيماناً وتسليماً.

ومنها: أنه أخبرهم بذلك لتتوطن

نفوسهم على وقوع ذلك، والصبر عليه

إذا وقع؛ لأنهم قد استعدوا لوقوعه، فيهنون عليهم حمله، وتخف عليهم مؤنته، ويلجأون إلى الصبر والتقوى،

ولهذا قال: «وإن تصبروا وتتقوا»

أي: إن تصبروا على ما نالكم في

أموالكم وأنفسكم، من الابتلاء

والامتحان وعلى أذية الظالمين،

وتتقوا الله في ذلك الصبر بأن تنووا به

وجه الله والتقرب إليه، ولم تتعدوا في

صبركم الحد الشرعي من الصبر في

موضع لا يحل لكم فيه الاحتمال، بل

وظيفتكم فيه الانتقام من أعداء الله.

﴿فإن ذلك من عزم الأمور﴾ أي:

من الأمور التي يعزم عليها، وينافس

فيها، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم

والهمم العالية كما قال تعالى: «وما

يلقاها إلا الذين صبروا، وما يلقاها إلا

ذو حظ عظيم».

﴿١٨٧ - ١٨٨﴾ «وإذا أخذ الله

ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبينه للناس

ولا تكتُمونه فنبذوه وراء ظهورهم

واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما

يشترون * لا تحسن الذين يفرحون

بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا

فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم

عذاب أليم» الميثاق هو العهد الثقيل

المؤكد، وهذا الميثاق أخذه الله تعالى

على كل من أعطاه [الله] الكتب وعلمه

العلم، أن يبين للناس ما يحتاجون إليه

مما علمه الله، ولا يكتُمهم ذلك،

ويخل عليهم به، خصوصاً إذا سألوه،

أو وقع ما يوجب ذلك، فإن كل من

عنده علم يجب عليه في تلك الحال أن

يبينه، ويوضح الحق من الباطل.

فأما الموفقون، فقاموا بهذا أتم

القيام، وعلموا الناس مما علمهم الله،

ابتغاء مرضاة ربهم، وشفقة على الخلق،

وخوفاً من إثم الكتمان.

وأما الذين أوتوا الكتاب، من

اليهود والنصارى ومن شابههم، فنبذوا

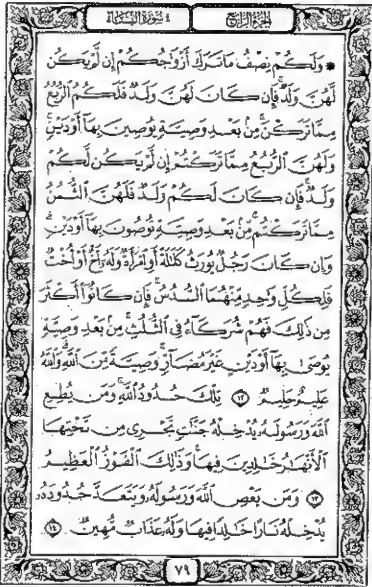
هذه العهود والمواثيق وراء ظهورهم،

فلم يعاؤا بها، فكتموا الحق، وأظهروا

الباطل، تجرؤاً على محارم الله، وتهاوناً

بحقوق الله، وحقوق الخلق، واشتروا

بذلك الكتمان ثمناً قليلاً، وهو ما



يحصل لهم إن حصل من بعض الرياضات، والأموال الحاضرة، من سقيلهم المتبعين أهواءهم، المقدمين شهواتهم على الحق، «فبئس ما يشترون» لأنه أخس العوض، والذي رغبوا عنه - وهو بيان الحق، الذي فيه السعادة الأبدية، والمضالحة الدينية والدينية - أعظم المطالب وأجلها، فلم يجتاروا الدين الخسيس ويتركوا العالي النفيس، إلا لسوء خطتهم وهوانهم، وكونهم لا يصلحون لغير ما خلقوا له.

ثم قال تعالى: «لا تحسن الذين يفرحون بما أتوا» أي: من القبائح والباطل القوي والقلي.

﴿ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾

أي: بالخير الذي لم يفعلوه، والحق

الذي لم يقولوه، فجمعوا بين فعل الشر

وقوله، والفرح بذلك ومجة أن يحمدا

على فعل الخير الذي ما فعلوه.

﴿فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب﴾

أي: بمحل نجوة منه وسلامة، بل قد

استحقوه، وسيصبرون إليه، ولهذا

قال: «ولهم عذاب أليم».

ويدخل في هذه الآية الكريمة أهل

الكتاب الذين فرخوا بما عندهم من

العلم، ولم يتفادوا للرسول، وزعموا

أنهم هم المحقون في حالهم ومقالهم،

وكذلك كل من ابتدع بدعة قولية أو

فعلية، وفرح بها، ودعا إليها، وزعنه



يستطع فعلى جنب، وأنهم **﴿يتفكرون﴾** في خلق السماوات والأرض **﴿أي﴾** : ليستدلوا بها على المقصود منها، ودل هذا على أن التفكير عبادة من صفات أولياء الله العارفين، فإذا تفكروا بها، عرفوا أن الله لم يخلقها عبثاً، فيقولون: **﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه﴾** عن كل ما لا يليق بجلالك، بل خلقتها بالحق وللحق، مشتملة على الحق.

﴿فقنا عذاب النار﴾ بأن تعصمنا من السيئات، وتوفقنا للأعمال الصالحات، لننال بذلك النجاة من النار.

ويتضمن ذلك سؤال الجنة، لأنهم إذا وقاهم الله عذاب النار حصلت لهم الجنة، ولكن لما قام الخوف بقلوبهم، دعوا الله بأهم الأمور عندهم، **﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أضررتني﴾** أي : لحصوله على السخط من الله، ومن ملائحته، وأوليائه، ووقوع الفضيحة التي لا نجاة منها، ولا منقذ منها، ولهذا قال: **﴿وما للظالمين من أنصار﴾** ينقذونهم من عذابه، وفيه دلالة على أنهم دخلوها بظلمهم.

﴿ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان﴾ وهو محمد ﷺ، أي : يدعو الناس إليه، ويرغبهم فيه، في أصوله وفروعه.

﴿فآمننا﴾ أي : أجبناه مبادزة، وسارعنا إليه، وفي هذا إخبار منهم بمنة الله عليهم، وتبجح بنعمته، وتوسل إليه بذلك، أن يغفر ذنوبهم ويكفر سيئاتهم، لأن الحسنات يذهبن السيئات، والذي منَّ عليهم بالإيمان، سيمن عليهم بالأمان التام.

﴿وتوفنا مع الأبرار﴾ يتضمن هذا الدعاء التوفيق لفعل الخير، وترك الشر، الذي به يكون العبد من الأبرار، والاستمرار عليه، والثبات إلى الممات.

ولما ذكرنا توفيق الله إيانهم للإيمان، وتوسلهم به إلى تمام النعمة، سأله الثواب على ذلك، وأن ينجز لهم ما وعدهم به على السنة رسله من النصر، والظهور في الدنيا، ومن الفوز

عذاب النار * ربنا إنك من تدخل النار فقد أضررتني وما للظالمين من أنصار * ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمننا ربنا فاعفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار * ربنا وآتينا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد * يخبر تعالى: **﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الأبصار﴾** وفي ضمن ذلك حث العباد على التفكير فيها، والتبصر بآياتها، وتدبر خلقها، وأهم قوله: **﴿آيات﴾** ولم يقل: **﴿على المطلب الفلاني﴾** إشارة لكثرتها وعمومها، وذلك لأن فيها من الآيات العجيبة ما

يبهر الناظرين، ويقنع المتفكرين، ويجذب أفئدة الصادقين، وينبه العقول النيرة على جميع المطالب الإلهية، فأما تفصيل ما اشتملت عليه، فلا يمكن لمخلوق أن يحصره، ويحيط ببعضه، وفي الجملة فما فيها من العظمة والسعة، وانتظام السير والحركة، يدل على عظمة خالقها، وعظمة سلطانه وشمول قدرته. وما فيها من الأحكام والإتقان، وبديع الصنع، ولطائف الفعل، يدل على حكمة الله ووضعها الأشياء مواضعها، وسعة علمه. وما فيها من المنافع للخلق، يدل على سعة رحمة الله، وعموم فضله، وشمول بره، ووجوب شكره.

وكل ذلك يدل على تعلق القلب بخالقها ومبدعها، وبذل الجهد في مرضاته، وأن لا يشرك به سواه، فمن لا يملك نفسه ولا لغيره مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

وخص الله بالآيات أولي الأبصار، وهم أهل العقول؛ لأنهم هم المنتفعون بها، الناظرون إليها بعقولهم لا بأبصارهم.

ثم وصف أولي الأبصار بأنهم **﴿يذكرون الله﴾** في جميع أحوالهم: **﴿قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾** وهذا يشمل جميع أنواع الذكر بالقول والقلب، ويدخل في ذلك الصلاة قائماً، فإن لم يستطع فقاعداً، فإن لم

أنت حق وغيره مبطل، كما هو الواقع من أهل البدع.

ودلت الآية بمفهومها على أن من أحب أن يحمّد ويشنى عليه بما فعله من الخير واتباع الحق، إذا لم يكن قصده بذلك الرياء والسمعة، أنه غير مذموم، بل هذا من الأمور المطلوبة، التي أخبر الله أنه يجزي بها المحسنين له الأعمال والأقوال، وأنه جازي بها خواص خلقه، وسألوا منه، كما قال إبراهيم عليه السلام: **﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾** وقال: **﴿سلام على نوح في العالمين﴾** إنا كذلك نجزي المحسنين **﴿وقد قال عباد الرحمن: ﴿واجعلنا للمتقين إماماً﴾ وهي من نعم الباري على عبده، ومنته التي تحتاج إلى الشكر.**

﴿١٨٩﴾ **﴿ولله ملك السماوات والأرض والله على كل شيء قدير﴾** أي : هو المالك للسماوات والأرض وما فيهما، من سائر أصناف الخلق، المتصرف فيهم بكمال القدرة، وبديع الصنعة، فلا يمتنع عليه منهم أحد، ولا يعجزه أحد.

﴿١٩٠ - ١٩٤﴾ **﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الأبصار﴾** الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فقنا

على ذلك .

والزوجات والقيام به ، لكون الزوجات مخلوقات من الأزواج ، فيبنيهم وبينهن أقرب نسب وأشد اتصال ، وأقرب (١) علاقة .

وقوله تعالى : ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ ، هذا أول ما أوصى به من حقوق الخلق في هذه السورة .

وهم اليتامى الذين فقدوا آباءهم الكافرين (٢) لهم ، وهم ضغار ضعاف لا يقومون بمصالحهم .

فأمر الزووف الرحيم عباده أن يحسنوا إليهم ، وأن لا يقرّبوا أموالهم إلا بالتي هي أحسن ، وأن يؤثروهم أموالهم إذا بلغوا ورشدوا ، كاملة موفرة ، وأن لا «تتبدلوا الخبيث»

الذي هو أكل مال اليتيم بغير حق . «بالتطيب» وهو الحلال الذي ما فيه حرج ولا تبعة . «ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم» أي : مع أموالكم ، ففيه تنبيه لفتح أكل مالهم بهذه الحالة ، التي قد استغنى بها الإنسان بما جعل الله له من الرزق في ماله . فمن تجرأ على هذه الحالة ، فقد أتى «حوباً كبيراً» أي : إثماً عظيماً ، ووزراً جسيماً .

ومن استبدال الخبيث بالطيب أن يأخذ الولي من مال اليتيم النفيس ، ويجعل بدله من ماله الخسيس . وفيه الولاية على اليتيم ، لأن من لازم إيتاء اليتيم ماله ، ثبوت ولاية الوالي على ماله .

وفيه الأمر بإصلاح مال اليتيم ، لأن تمام إيتائه ماله حفظه ، والقيام به بما يصلحه وينميّه ، وعدم تعريضه للمخاوف والأخطار .

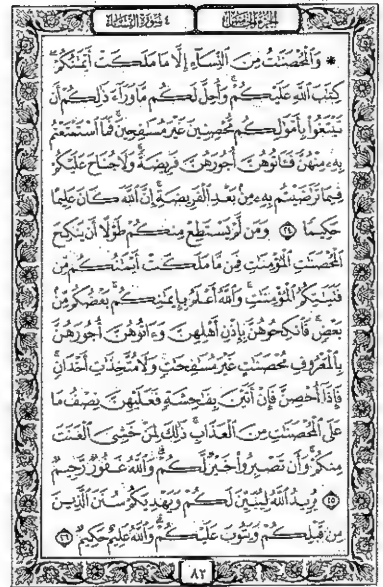
﴿٣ - ٤﴾ «وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا» * وأتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء

وبين السبب الداعي الموجب لكل من ذلك ، وأن الموجب لتقواه لأنه «ربكم الذي خلقكم» ورزقكم ، ورباكم بنعمه العظيمة ، التي من جلتها خلقكم «من نفس واحدة وخلق منها زوجها» ليناسبها ، فيسكن إليها ، وتتم بذلك النعمة ، ويحصل به السرور ، وكذلك من الموجب الداعي لتقواه تساؤلكم به وتعظيمكم ، حتى إنكم إذا أردتم قضاء حاجاتكم ومازركم ، توسلتم لها بالسؤال بالله . فيقول من يريد ذلك لغیره : أسألك بالله أن تفعل الأمر الفلاني ؛ لعلمه بما قام في قلبه من تعظيم الله الداعي أن لا يرد من سألته بالله ، فكما أعظمتموه بذلك فلتعظموه بعبادته وتقواه .

وكذلك الإخبار بأنه رقيب ، أي : مطلع على العباد في حال حركاتهم وسكنوتهم ، وسرهم وعلنهم ، وجميع أحوالهم ، مراقباً لهم فيها مما يوجب مراقبته ، وشدة الحياء منه ، يلزوم تقواه .

وفي الإخبار بأنه خلقهم من نفس واحدة ، وأنه بثهم في أقطار الأرض ، مع رجوعهم إلى أصل واحد - ليعطف بعضهم على بعض ، ويرق بعضهم على بعض . وقرن الأمر بتقواه بالأمر ببر الأرحام والنهي عن قطيعتها ، ليؤكد هذا الحق ، وأنه كما يلزم القيام بحق الله ، كذلك يجب القيام بحقوق الخلق ، خصوصاً الأقربين منهم ، بل القيام بحقوقهم هو من حق الله الذي أمر الله به ، وتأمل كيف افتتح هذه السورة بالأمر بالتقوى ، وصلة الأرحام والأزواج عموماً ، ثم بعد ذلك فصل هذه الأمور أتم تفصيل ، من أول الشورة إلى آخرها . فكأنها مبنية على هذه الأمور المذكورة ، مفصلة لما أجل منها ، موضحة لما أهم .

وفي قوله : «وخلق منها زوجها» تنبيه على مراعاة حق الأزواج



الذي يخاف من وصول العدو منه ، وأن يراقبوا أعداءهم ، ويمنعوه من الوصول إلى مقاصدهم ، لعلهم يفلحون : يفوزون بالمحبوب الديني والدنيوي والأخروي ، وينجون من المكروه كذلك .

فعلهم من هذا أنه لا شيبيل إلى الفلاح بدون الصبر والمصابرة والمرايطة المذكورات ، فلم يفلح من أفلح إلا بها ، ولم يفت أحداً الفلاح إلا بالإخلاق بها أو ببعضها .

والله الموفق ولا حول ولا قوة إلا به .

تم تفسير «سورة آل عمران» والحمد لله على نعمته ، ونسأله تمام النعمة .

تفسير سورة النساء وهي مدنية

﴿١﴾ «بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً» افتتح تعالى هذه السورة بالأمر بتقواه ، والحث على عبادته ، والأمر بصلة الأرحام ، والحث

(١) في ب : وأوتق .

(٢) كذا في ب ، وفي أ : الذين فقدت آباؤهم الكافلون .

منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً» أي: وإن ختمتم ألا تعدلوا في يتامى النساء اللاتي تحت حجوركم وولايتهن، وختمتم أن لا تقوموا بحقوقهن لعدم محبتكم إياهن، فاعدلوا إلى غيرهن، وانكحوا ما طاب لكم من النساء» أي: ما وقع عليهن اختياركم، من ذوات الدين، والمال، والجمال، والخسب، والنسب، وغير ذلك من الصفات الداعية لنكاحهن، فاختاروا على نظركم، ومن أحسن ما يختار من ذلك صفة الدين، كما قال النبي ﷺ: «تُنكح المرأة لأربع: لمالها، ولجمالها، ولحسبها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يمينك».

وفي هذه الآية - أنه ينبغي للإنسان أن يختار قبل النكاح، بل وقد أباح له الشارع النظر إلى من يريد تزوجها، ليكون على بصيرة من أمره. ثم ذكر العدد الذي أباحه من النساء فقال: «مثنى وثلاث ورباع» أي: من أحب أن يأخذ ثنتين فليفعل، أو ثلاثاً فليفعل، أو أربعاً فليفعل، ولا يزيد عليها، لأن الآية سبقت لبيان الامتنان، فلا يجوز الزيادة على غير ما سمى الله تعالى إجماعاً.

وذلك لأن الرجل قد لا تتدفق شهوته بالواحدة، فأبىح له واحدة بعد واحدة، حتى يبلغ أربعاً، لأن في الأربع غنية لكل أحد، إلا ما تندر، ومع هذا فإنما يباح له ذلك إذا أمن على نفسه الجور والظلم، ووثق بالقيام بحقوقهن.

فإن خاف شيئاً من هذا، فليقتصر على واحدة، أو على ملك يمينه، فإنه لا يجب عليه القسم، في ملك اليمين. «ذلك» أي: الاقتصار على واحدة، أو ما ملكت اليمين «أدنى ألا تعملوا» أي: تظلموا.

وفي هذا أن تعرض العبد للآمر الذي يخاف منه الجور والظلم، وعدم القيام بالواجب - ولو كان مباحاً - أنه لا ينبغي له أن يتعرض له، بل يلزم السعة والعافية، فإن العافية خير ما أعطي العبد.

ولما كان كثير من الناس يظلمون النساء، ويهضمونهن حقوقهن، خصوصاً الصداق الذي يكون شيئاً كثيراً، ودفعة واحدة، يشق دفعه للزوجة، أمرهم وحشهم على إيتاء النساء «صداقتهن» أي: مهورهن «نحلة» أي: عن طيب نفس، وحال طمأنينة، فلا تطلوهن أو تهنسوا منه شيئاً. وفيه: أن المهر يدفع إلى المرأة إذا كانت مكلفة، وأنها تملكه بالعقد، لأنه أضافه إليها، والإضافة تقتضي التملك.

«فإن طبن لكم عن شيء منه» أي: من الصداق «نفساً» بأن سمحن لكم عن رضا واختيار بإسقاط شيء منه، أو تأخيرها أو المعاوضة عنه. «فكلوه هنيئاً مريئاً» أي: لا حرج عليكم في ذلك ولا تعة.

وفيه دليل على أن للمرأة التصرف في مالها - ولو بالتبرع - إذا كانت رشيدة، فإن لم تكن كذلك، فليس لعظمتها حكم، وأنه ليس لوليها من الصداق شيء، غير ما طابت به.

وفي قوله: «فانكحوا ما طاب لكم من النساء» دليل على أن نكاح الخبيثة غير مأمور به، بل منهي عنه، كالمشركة، وكالفاجرة، كما قال تعالى: «ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن» وقال: «الزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك».

«ه» وقوله تعالى: «ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا» السفهاء، جمع «سفيه»، وهو من لا يحسن التصرف في المال، إما لعدم عقله كالمجنون والمتوه، ونحوهما، وإما لعدم رشده كالصغير وغير الرشيد. فمنهى الله الأولياء أن يؤتوا هؤلاء أموالهم، خشية إفسادها وتلافها، لأن الله جعل الأموال قياماً لعباده في مصالح دينهم ودنياهم، وهؤلاء لا يحسنون القيام عليها وحفظها، فأمر الولي أن لا يؤتيهم إياها بل يرزقهم منها ويكسوهم، ويبذل منها ما يتعلق

وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ أَنْ يَمُنَ
الْأَهْلُونَ أَنْ يَقُولُوا يَسَافِرُوا بَيْنَ يَدَيْهِ
عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ وَإِنَّهَا
أَشَدُّ لَكُنْ أَلَمْ تَكُنْ عَلَاقًا أَمْ تَكُنْ عَلَاقًا
أَنْ تَكُنْ نَجَسًا وَتَكُنْ نَجَسًا وَتَكُنْ نَجَسًا
إِنَّ اللَّهَ كَذِبٌ كَذِبٌ وَإِنَّ اللَّهَ كَذِبٌ كَذِبٌ
عَذَابًا وَطَعْنًا فَتُوبُوا عَلَيْهِ وَأَنْتُمْ عَلَى اللَّهِ
يَوْمًا ۝ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرَاجِيزًا غَيْرَ
عَنْكُمْ يَتَنَبَّهُونَ عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ
وَلَا تَسْتَوُوا أَعْيُنُ اللَّهِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ
يُحِبُّونَ يَوْمَ تَكُونُ الْأَنْفُسُ كَالْأَنْفُسِ
وَيَسْأَلُ اللَّهُ عَنْ نَفْسِهِ إِنْ كَانَتْ عَلَى شَيْءٍ
عِلْمًا ۝ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُمْ نَجَاسَةً لِكُلِّ
وَالْأَفْرُوتِ وَالْأَفْرُوتِ عَذَابٌ أَلِيمٌ فَتُوبُوا
يَوْمَ تَكُونُ الْأَنْفُسُ كَالْأَنْفُسِ كَالْأَنْفُسِ

بضروراتهم وحاجاتهم الدينية والدنيوية، وأن يقولوا لهم قولاً معروفاً، بأن يعدوهم - إذا طلبوها - أنهم سيدفعونها لهم بعد رشدهم، ونحو ذلك، ويلطفوا لهم في الأقوال جبراً لخواطهم.

وفي إضافته تعالى الأموال إلى الأولياء، إشارة إلى أنه يجب عليهم أن يعملوا في أموال السفهاء ما يفعلونه في أموالهم، من الحفظ والتصرف وعدم التعريض للأخطار. وفي الآية دليل على أن نفقة المجنون والصغير والسفيه في مالهم، إذا كان لهم مال، لقوله: «وارزقوهم فيها واكسوهم».

وفيه دليل على أن قول الولي مقبول فيما يدعيه من النفقة الممكنة والكسوة؛ لأن الله جعله مؤتمناً على مالهم، فلزم قبول قول الأمين.

«٦» «وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسراراً وبداراً أن يكبروا ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً» الابتلاء: هو الاختبار والامتحان. وذلك بأن يدفع لليتيم المازال للرشد، الممكن رشده، شيئاً من ماله، ويتصرف فيه التصرف اللائق بحاله، فيتبين بذلك رشده من سفهه. فإن



استمر غير محسن للتصرف، لم يدفع إليه ماله، بل هو باق على سفهه، ولو بلغ عمراً كثيراً.

فإن تبين رشده وصلاحه في ماله وبلغ النكاح **﴿فادفعوا إليهم أموالهم﴾** كاملة موفرة. **﴿ولا تأكلوها إسرافاً﴾** أي: مجاوزة للحد الحلال الذي أباحه الله لكم من أموالكم، إلى الحرام الذي حرّمه الله عليكم من أموالهم.

﴿وبنداراً أن يكبروا﴾ أي: ولا تأكلوها في حال صغرهم، التي لا يمكنهم فيها أخذها منكم، ولا منعكم من أكلها، تبادرون بذلك أن يكبروا، فيأخذوها منكم ويمنعوكم منها.

وهذا من الأمور الواقعة من كثير من الأولياء، الذين ليس عندهم خوف من الله، ولا رحمة ومحبة للمولى عليهم، يرون هذه الحال، حال فرصة، فيغتتمونها ويتعجلون ما حرّم الله عليهم، فنهى الله تعالى عن هذه الحالة بخصوصها.

﴿٧﴾ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً﴾ كان العرب في الجاهلية - من جبروتهم ^(١) وقسوتهم،

لا يورثون الضعفاء، كالنساء والصبيان، ويجعلون الميراث للرجال الأقوياء، لأنهم - بزعمهم - أهل الحرب والقتال، والنهب والسلب، فأراد الرب الرحيم الحكيم أن يشرع لعباده شرعاً، يستوي فيه رجالهم ونسأؤهم، وأقرباؤهم وضعفاؤهم. وقدم بين يدي ذلك أمراً مجملًا، لتوطن على ذلك النفوس.

فيأتي التفضيل بعد الإجمال، قد تشوّفت له النفوس، وزالت الوحشة التي منشؤها العادات القبيحة، فقال: **﴿للرجال نصيب﴾** أي: قسط وحصّة **﴿مما ترك﴾** أي: خلف **﴿الوالدان﴾** أي: الأب والأم **﴿والأقربون﴾** عموم بعد خصوص **﴿ولللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾**.

فكانه قيل: هل ذلك النصيب راجع إلى العرف والعادة، وأن يرضخوا لهم ما يشاؤون؟ أو شيئاً مقدراً؟ فقال تعالى: **﴿نصيباً مفروضاً﴾** أي: قد قدره العلّيم الحكيم. وسيأتي - إن شاء الله - تقدير ذلك.

وأيضاً فهانئ توهم آخر، لعل أحداً يتوهم أن النساء والوالدان ليس لهم نصيب إلا من المال الكثير، فأزال ذلك بقوله: **﴿مما قل منه أو كثر﴾** فتبارك الله أحسن الحاكمين.

﴿٨﴾ وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾ وهذا من أحكام الله الحسنة الجليلة الجابرة للقلوب، فقال: **﴿وإذا حضر القسمة﴾** أي: قسمة الموارث **﴿أولو القربى﴾** أي: الأقارب غير الوارثين، بقرينة قوله: **﴿القسمة﴾** لأن الوارثين من المرسوم عليهم. **﴿واليتامى والمساكين﴾** أي: المستحقون من الفقراء. **﴿فارزقوهم منه﴾** أي: أعطوهم ما تيسر من هذا المال الذي جاءكم بغير كد ولا تعب، ولا عناء ولا نصب، فإن نفوسهم متشوّفة إليه، وقلوبهم

متطلعة، فاجبروا خواطرهم بما لا يضرّكم وهو نافعهم. ويؤخذ من المعنى أن كل من له تطلع وتشوف إلى ما حضر بين يدي الإنسان، ينبغي له أن يعطيه منه ما تيسر، كما كان النبي ﷺ يقول: «إذا جاء أحدكم خادمه بطعامه فليجلسه معه، فإن لم يجلسه معه، فليناوله لقمة أو لقتماً» أو كما قال.

وكان الصحابة رضي الله عنهم - إذا بدأت باكورة أشجارهم - أتوا بها رسول الله ﷺ، فبرك عليها، ونظر إلى أصغر وليد عنده فأعطاه ذلك، علماً منه بشدة تشوّفه لذلك، وهذا كله مع إمكان الإعطاء، فإن لم يمكن ذلك - لكونه حق سفهاء، أو ثم أهم من ذلك - فليقولوا لهم قولاً معروفاً يردوهم ^(٢) رداً جيلاً، بقول حسن غير فاحش ولا قبيح.

﴿٩ - ١٠﴾ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً﴾ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾ قيل: إن هذا خطاب لمن يحضر من حضره الموت وأجف في وصيته، أن يأمره بالعدل في وصيته والمساواة فيها، بدليل قوله: **﴿وليقولوا قولاً سديداً﴾** أي: سداداً، موافقاً للقسط والمعروف. وأنهم يأمر من يريد الوصية على أولاده، بما يجون معاملة أولادهم بعدهم.

وقيل: إن المراد بذلك أولياء السفهاء من المجانين والصغار والضعاف، أن يعاملوهم في مصالحهم الدينية والدنيوية بما يجون أن يعامل به من بعدهم من ذريتهم الضعاف. **﴿فليتقوا الله﴾** في ولايتهم لغيرهم، أي: يعاملوهم بما فيه تقوى الله، من عدم إهانتهم، والقيام عليهم، وإلزامهم لتقوى الله.

ولما أمرهم بذلك، زجرهم عن أكل أموال اليتامى، وتوعد على ذلك أشد

(٢) في ب: يردوهم.

(١) في السنتين: جبروتهم.



ومثل ذلك بنت الابن، مع بنات الابن اللاتي أنزل منها.

وتدل الآية أنه متى استغرق البنات أو بنات الابن الثلثين، أنه يسقط من دونهن من بنات الابن، لأن الله لم يفرض لهن إلا الثلثين، وقد تم، فلم يسقطن، لزم من ذلك أن يفرض لهن أزيد من الثلثين، وهو خلاف النص. وكل هذه الأحكام مجمع عليها بين العلماء، والله الحمد.

ودل قوله: «مما ترك» أن الوارثين يرثون كل ما خلف الميت، من عقار، وأثاث، وذهب وفضة، وغير ذلك، حتى الدية التي لم تجب إلا بعد موته، وحتى الديون التي في الذمم^(١).

ثم ذكر ميراث الأبوين فقال: «ولأبويه» أي: أبوه وأمه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد^(٢) أي: ولد صلب أو ولد ابن، ذكراً كان أو أنثى، واحداً أو متعدداً. فأما الأم فلا تزيد على السدس مع أحد من الأولاد.

وأما الأب فمع المذكور منهم، لا يستحق أزيد من السدس، فإن كان

(١) في ب: الذمة.

الولد أنثى أو إنثاء، ولم يبق بعد الفرض شيء - كأبوين وابنتين - لم يبق له تعصيب. وإن بقي بعد فرض البنت أو البنات شيء، أخذ الأب السدس فرضاً، والباقي تعصبياً، لأننا ألحقنا الفروض بأهلها، فما بقي فلاولى رجل ذكر، وهو أولى من الأخ والعيم، وغيرهما.

«فإن لم يكن له ولد، وورثه أبواه، فلائمه الثلث» أي: والباقي للأب، لأنه أضاف المال إلى الأب والأم، إضافة واحدة، ثم قدر نصيب الأم، فدل ذلك، على أن الباقي للأب.

وعلم من ذلك أن الأب مع عدم الأولاد لا فرض له، بل يرث تعصبياً المال كله، أو ما أبقث الفروض، لكن لو وجد مع الأبوين أحد الزوجين - ويعبر عنهما بالعمريتين - فإن الزوج أو الزوجة يأخذ فرضه، ثم تأخذ الأم ثلث الباقي والأب الباقي.

وقد دل على ذلك قوله: «وورثه أبواه، فلائمه الثلث» أي: ثلث ما ورثه الأبوان. وهو في هاتين الصورتين، إما سدس في زوج وأم وأب، وإما ربع في زوجة وأم وأب. فلم تدل الآية على إرث الأم، ثلث المال كاملاً، منع عدم الأولاد حتى يقال: إن هاتين الصورتين قد استثنيتا من هذا.

ويوضح ذلك أن الذي يأخذه الزوج أو الزوجة بمنزلة ما يأخذه الغرماء، فيكون من رأس المال، والباقي بين الأبوين.

ولأننا لو أعطينا الأم ثلث المال، لزم زيادتها على الأب في مسألة الزوج، أو أخذ الأب في مسألة الزوجة زيادة عنها نصف السدس، وهذا لا نظير له، فإن المعهود مساواتها للاب، أو أخذه ضعف ما تأخذه الأم.

«فإن كان له إخوة فلائمه السدس» أشقاء، أو لأب، أو لأم، ذكوراً كانوا

أو إنثاء، وارثين أو محجوبين بالأب، أو الجد [لكن قد يقال: ليس ظاهر قوله: «فإن كان له إخوة» شاملاً لغير الوارثين بدليل عدم تناولها للمحجوب بالنصف، فعلى هذا لا يحجبها عن الثلث من الإخوة إلا الإخوة الوارثون. ويؤيده أن الحكمة في حجبتهم لها عن الثلث لأجل أن يتوفر لهم شيء من المال، وهو معدوم، والله أعلم^(٣)، ولكن بشرط كونهم اثنين فأكثر، ويشكل على ذلك إتيان لفظ «الإخوة» بلفظ الجمع. وأجيب عن ذلك بأن المقصود مجرد التعدد لا الجمع، ويصدق ذلك باثنين.

وقد يطلق الجمع ويراد به الاثنان، كما في قوله تعالى عن داود وسليمان. «وكنّا لحكمهم شاهدين» وقال في الإخوة للأم: «وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث»

فأطلق لفظ الجمع والمراد اثنان فأكثر بالإجماع. فعلى هذا لو خلف أم وأباً وإخوة، كان للأم السدس، والباقي للأب، فحجبوها عن الثلث، مع حجب الأب إياهم [إلا على الاحتمال الآخر فإن للأم الثلث والباقي للأب]^(٣).

ثم قال تعالى: «من بعد وصية يوصي بها أو دين» أي: هذه الفروض والأنصبة والموارث، إنما ترد وتستحق بعد نزع الديون التي على الميت لله أو للآدميين، وبعد الوصايا التي قد أوصى الميت بها بعد موته، فالباقي عن ذلك، هو التركة الذي يستحقه الورثة.

وقدم الوصية مع أنها مؤخرة عن الدين للاهتمام بشأنها، لكون إخراجها شاقاً على الورثة، وإلا فالديون مقدمة عليها، وتكون من رأس المال.

(٢) زيادة من هامش ب وهناك زيادة أخرى في هامش أ وإن لم يبين محلها، لكنها ذات صلة بهذا الموضوع وهي قوله: [وعند شيخ الإسلام إذا كان الإخوة غير وارثين فإنهم لا يحجبون الأم] وبعد كلمة الأم كلمة غير واضحة في الأصل.

(٣) زيادة من هامش ب.

لا احتمال ظلم مَنْ معه من الورثة، ولم تعطه الأقل، لا احتمال ظلمنا له. فوجب التوسط بين الأمرين، وسلوك أعدل الطرفين، قال تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ وليس لنا طريق إلى العُدل في مثل هذا أكثر من هذا الطريق المذكور. و﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ فاتقوا الله ما استطعتم.

وأما (ميراث الجدة) مع الإخوة
الأشقاء أو لأب، وهل يرثون معه أم
لا؟ فقد دل كتاب الله على قول أبي بكر
الصديق رضي الله عنه، وأن الجدة
يجب الإخوة أشقاء أو لأب أو لأم،
كما يحجبهم الأب.

وبيان ذلك: أن الجذاب في غير موضع من القرآن، كقوله تعالى: ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ﴾، إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسحاق الآية. وقال يوسف عليه السلام: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

فسمى الله الجند وجد الأب أبا. فدل ذلك على أن الجند بمنزلة الأب، يرث ما يرثه الأب، ويحجب مَنْ يحجبه.

وإذا كان العلماء قد أجمعوا على أن
الجد حكمه حكم الأب عند عدمه في
ميراثه مع الأولاد وغيرهم، من بني
الإخوة والأعمام وبنيتهم، وسائر
أحكام^(٢) الموارث، فينبغي أيضاً أن
يكون حكمه حكمه في حجب الإخوة
غير أم.

وإذا كان ابن الابن بمنزلة ابن
الصلب، فلم لا يكون الجد بمنزلة
الأب؟ وإذا كان جد الأب مع ابن
الأخ، قد اتفق العلماء على أنه يحجبه.
فلم لا يحجب جد الميت أخاه؟ فليس
مع من يورث الإخوة مع الجد، نص
ولا إشارة، ولا تنبيه ولا قياس
صحيح.

وأما مسائل (الحوال) فإنه يستفاد حكمها من القرآن، وذلك أن الله تعالى قد فرض وقدر لأهل الموازيت أنصاء،

تعالى: ﴿وَلَكُمْ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ

وأما (الزقيق) فإنه لا يرث
ولا يورث، أما كونه لا يورث
فواضح، لأنه ليس له مال يورث عنه،
بل كل ما معه فهو لسيده. وأما كونه
لا يرث، فلأنه لا يملك، فإنه لو
ملك لكان لسيده، وهو أجنبي من

الميت، فيكون مثل قوله تعالى ﴿لِلَّذِكْرِ﴾ مثل حظ الأنثيين - ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ - ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ﴾ ونحوها، لمن يتأتى منه التملك، فأما الرقيق فلا يتأتى منه ذلك، فعلم أنه لا ميراث له. وأما من بعضه حر وبعضه رقيق، فإنه تتبعض أحكامه. فما فيه من الحرية يستحق بها ما رتبته الله في الموارث، لكون ما فيه من الحرية قابلاً للتملك، وما فيه من الرق فليس يقابل لذلك، فإذا يكون البعض، يرث ويورث، وبحسب بقدر ما فيه من الحرية. وإذا كان العبد يكون محمّداً مذموماً، مثاباً ومعاقباً، بقدر ما فيه من موجبات ذلك، فهذا كذلك.

وأما (الخنثى) فلا يخلو إما أن يكون واضحاً ذكوريته أو أنوثيته، أو مشكلاً. فإن كان واضحاً فالأمر فيه واضح.

وَيُشْمَلُهُ النَّصْبُ الْوَاردُ فِيهِمْ .

وإن كان أنشى فله حكم الإناث،
ويشملها النص الوارد فيهن.

وإن كان مشكلاً، فإن كان الذكر والأنثى لا يختلف إرثهما - كالإخوة للأُم - فالأمر فيه واضح، وإن كان يختلف إرثه بتقدير ذكوريته وبتقدير أنثويته، ولم يبق لنا طريق إلى العلم بذلك، لم نعطه أكثر التقديرين،

(٢) كذا في ب، وفي أ: الأحكام.

[illegible]

رتب عليه الإرث. ففعل من ذلك أن القتل أكبر مانع يمنع الميراث، ويقطع الرحم الذي قال الله فيه: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾. مع أنه قد استقرت القاعدة الشرعية أن «من استعجل شيئاً قبل أوانه عوقب بخبرائه».

وهذا ونحوه يعرف أن المخالف
للبين الموروث لا إرث له، وذلك أنه
قد تعارض الموجب الذي هو اتصال
النسب الموجب للإرث، والمانع الذي
هو المخالفة في الدين، الموجبة للمباينة
من كل وجه، فقوي المانع، ومنع
موجب الإرث الذي هو النسب، فلم
يعمل الموجب لقيام المانع. يوضح ذلك
أن الله تعالى قد جعل حقوق المسلمين
أولى من حقوق الأقارب الكفار
الذينوية، فإذا مات المسلم انتقل ماله
إلى مَنْ هو أولى وأحق به. فيكون قوله
تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى
بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ إذا اتفقت
أديانهم، وأما مع تباينهم، فالأخوة
الدينية مقدمة على الأخوة النسبية
المجردة.

قال ابن القيم في «جلاء الأفهام»:
«وتأمل هذا المعنى في آية المواريث،
وتعليقه سبحانه التوارث فيها بلفظ
الزوجة، دون المرأة، كما في قوله

(١) في ب: العاقلين.

(٢) كذا في ب، وفي أ: الأحكام.

توباً رحيماً» أي: كثير التوبة على المذنبين الخطائين، عظيم الرحمة والإحسان، الذي - من إحسانه - وفهمه للتوبة وقبلها منهم، وسامحهم عن ما صدر منهم.

ويؤخذ من هاتين الآيتين أن بيعة الزنا، لا بد أن تكون أربعة رجال مؤمنين، ومن باب أولى وأحرى اشتراط عدالتهم؛ لأن الله تعالى شدد في أمر هذه الفاحشة، سترأ لعباده، حتى إنه لا يقبل فيها النساء منفردات، ولا مع الرجال، ولا ما دون أربعة.

ولا بد من التصريح بالشهادة، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة، وتبوءىء إليه هذه الآية لما قال: «فاستشهدوا عليهن أربعة منكم». لم يكف بذلك حتى قال: «فإن شهدوا» أي: لا بد من شهادة صريحة عن أمر يشاهد عياناً، من غير تعريض ولا كناية.

ويؤخذ منهما أن الأذية بالقول والفعل والخس، قد شرع الله تعزيراً لحسن المعصية الذي يحصل به الزجر.

﴿١٧ - ١٨﴾ «إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً» وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعثنا لهم عذاباً أليماً» توبة الله على عباده نوعان: توفيق منه للتوبة، وقبول لها بعد وجودها من العبد، فأخبر هنا - أن التوبة المستحقة على الله حق أحقه على نفسه، كرمأ منه وجوداً، لمن عمل السوء، أي: المعاصي «بجهالة» أي: جهالة منه بعاقبتها، وإيجابها لسخط الله وعقابه، وجهل منه بنظر الله ومراقبته له، وجهل منه بما تؤول إليه من نقص الإيمان أو إعدامه، فكل عاص لله، فهو جاهل بهذا الاعتبار، وإن كان عالماً بالتحريم. بل العلم بالتحريم شرط لكونها معصية معاقب عليها: «ثم يتوبون من قريب» يحتمل أن يكون المعنى: ثم

دخل النار وخلد فيها، ومن اجتمع فيه معصية وطاعة، كان فيه من موجب الثواب والعقاب بحسب ما فيه من الطاعة والمعصية. وقد دلت النصوص المتواترة على أن الموحدين الذين معهم طاعة التوحيد، غير مخلدين في النار، فما معهم من التوحيد مانع لهم من الخلود فيها.

﴿١٥ - ١٦﴾ «واللذان يأتين الفاحشة من نسائك فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سيلاً» واللذان يأتينها منكم فأدوها فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان تواباً رحيماً» أي: النساء «اللذان يأتين الفاحشة» أي: الزنا، ووصفها بالفاحشة لشناعتها وقبحها.

«فاستشهدوا عليهن أربعة منكم» أي: من رجالكم المؤمنين العدول. «فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت» أي: احبسوهن عن الخروج الموجب للريبة، وأيضاً فإن الحبس من جملة العقوبات «حتى يتوفاهن الموت» أي: هذا منتهى الحبس. «أو يجعل الله لهن سبيلاً» أي: طريقاً غير الحبس في البيوت، وهذه الآية ليست منسوخة، وإنما هي مغاية إلى ذلك الوقت، فكان الأمر في أول الإسلام كذلك، حتى جعل الله لهن سبيلاً، وهو رجم المحصن وجلد غير المحصن.

«وكذلك» «اللذان يأتينها» أي: الفاحشة «منكم» من الرجال والنساء «فأدوها» بالقول والتوبيخ والتعيير، والضرب الرادع عن هذه الفاحشة، فعلى هذا يكون الرجال إذا فعلوا الفاحشة يؤذون، والنساء يحسن ويؤذن.

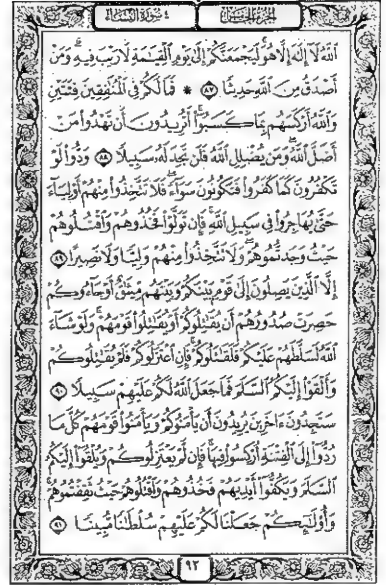
فالحبس غايته إلى الموت، والأذية نهايتها إلى التوبة والإصلاح، ولهذا قال: «فإن تابا» أي: رجعا عن الذنب الذي فعلاه وندما عليه، وعزما على أن لا يعودا «وأصلحا» العمل الدال على صدق التوبة «فأعرضوا عنهما» أي: عن أذاهما «إن الله كان



على حقه، يدخل في هذا التعدي، مع قوله «ولا وصية لوارث». ثم ذكر طاعة الله ورسوله ومعصيتهما عموماً، ليدخل في العموم لزوم حدوده في الفرائض، أو ترك ذلك، فيقال: «ومن يطع الله ورسوله» بامثال أمرها الذي أعظمه طاعتها في التوحيد، ثم الأوامر على اختلاف درجاتها، واجتناب نهيهما الذي أعظمه الشرك بالله، ثم المعاصي على اختلاف طبقاتها «يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها». فمن أدى الأوامر، واجتنب النواهي، فلا بد له من دخول الجنة والنجاة من النار. «وذلك الفوز العظيم» الذي حصل به النجاة من سخطه وعذابه، والفوز بثوابه ورضوانه بالتعميم المقيم الذي لا يصفه الراصفون.

«ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالداً فيها وله عذاب مهين» ويدخل في اسم المعصية الكفر فيما دونه من المعاصي، فلا يكون فيها شبهة للخوارج القائمين بكفر أهل المعاصي فإن الله تعالى رتب دخول الجنة على طاعته وطاعة رسوله. ورتب دخول النار على معصيته ومعصية رسوله، فمن أطاعه طاعة تامة دخل الجنة بلا عذاب.

ومن عصى الله ورسوله معصية تامة، يدخل فيها الشرك فما دونه،



للإمساك محل، فليس الإمساك بلازم بل متى «أردتم استبدال زوج مكان زوج» أي: تطليق زوجة، وتزوج أخرى. أي: فلا جناح عليكم في ذلك ولا حرج. ولكن إذا «أتيتم إحداهن» أي: المفارقة، أو التي تزوجها «قنطاراً» أي: مالاً كثيراً. «فلا تأخذوا منه شيئاً» بل وفروه لهن، ولا تمطلوا بهن.

وفي هذه الآية دلالة على عدم تحريم كثرة المهر، مع أن الأفضل واللائق الاقتداء بالنبي ﷺ في تخفيف المهر. ووجه الدلالة أن الله أخبر عن أمر يقع منهم، ولم ينكره عليهم. فدل على عدم تحريمه [لكن قد ينهى عن كثرة الصداق إذا تضمن مفسدة دينية وعدم مصلحة تقاوم]^(١).

ثم قال: «أناخذونه بيماناً وإيماناً ميبيناً» فإن هذا لا يحل، ولو تحيلتم عليه بأنواع الحيل، فإن إثمه واضح. وقد بين تعالى حكمة ذلك بقوله: «وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض، وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً». وبيان ذلك: أن الزوجة قبل عقد النكاح محرمة على الزوج، ولم ترض بحلها له إلا بذلك المهر الذي يدفعه لها، فإذا دخل بها وأفضى إليها، وباشرها المباشرة التي كانت حراماً قبل

ذلك، التي لم ترض ببذلها إلا بذلك العوض، فإنه قد استوفى المعوض، فثبت عليه العوض، فكيف يستوفي المعوض، ثم بعد ذلك يرجع على العوض؟ هذا من أعظم الظلم والجور، وكذلك أخذ الله على الأزواج ميثاقاً غليظاً بالعقد، والقيام بحقوقها. ثم قال تعالى:

﴿٢٢﴾ «ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً» أي: لا تتزوجوا من النساء ما تزوجهن آبائكم، أي: الأب وإن علا. «إنه كان فاحشة» أي: أمراً قبيحاً يفحش ويعظم قبحه «ومقتاً» من الله لكم ومن الخلق، بل يمقت بسبب ذلك الابن أباه، والأب ابنته، مع الأمر بيره. «وساء سبيلاً» أي: بشئ الطريق طريقاً لمن سلكه، لأن هذا من عوائد الجاهلية، التي جاء الإسلام بالتزهر عنها والبراءة منها.

﴿٢٣- ٢٤﴾ «حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائك وربائكم اللاتي في حجوركم من نسائك اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفوراً رحيماً * والمحصات من النساء إلا ما ملكت أيما نكح كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فاتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيت به من بعد الفريضة إن الله كان عليماً حكيماً» هذه الآيات الكريمة مشتملات على المحرمات بالنسب، والمحرمات بالرضاع، والمحرمات بالصهر، والمحرمات بالجمع، وعلى المحلات من النساء. فأما المحرمات

في النسب فهن السبع اللاتي ذكرهن الله.

الأم، يدخل فيها كل من لها عليك ولادة، وإن بعدت. ويدخل في البنت كل من لك عليها ولادة، والأخوات الشقيقات، أو لأب أو لأم. والعمة: كل أخت لأبيك، أو لجدك، وإن علا. والحالة: كل أخت لأمك، أو جدتك، وإن علت، وارثة أم لا. وبنات الأخ، وبنات الأخت، أي: وإن نزلت.

فهؤلاء هن المحرمات من النسب بإجماع العلماء، كما هو نص الآية الكريمة، وما عداهن فيدخل في قوله: «وأحل لكم ما وراء ذلكم» وذلك كبنات العمة والعمة، وبنات الخال والحالة.

وأما المحرمات بالرضاع فقد ذكر الله منهن الأم، والأخت. وفي ذلك تحريم الأم مع أن اللبن ليس لها، إنما هو لصاحب اللبن، دل بتبيينه على أن صاحب اللبن، يكون أباً للمرتضع فإذا ثبت الأبوة والأمومة، ثبت ما هو فرع عنهما، كإخوتها وأصولهم وفروعهم^(٢).

وقال النبي ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب». فينتشر التحريم من جهة الرضعة ومن له اللبن، كما ينتشر في الأقارب، وفي الطفل المرتضع إلى ذريته فقط. لكن بشرط أن يكون الرضاع خمس رضعات في الحولين، كما بينت السنة.

وأما المحرمات بالصهر، فهن أربع. حلائل الآباء وإن علوا، وحلائل الإبناء وإن نزلوا، وارثين أو محجوبين. وأمّهات الزوجة وإن علون، فهؤلاء الثلاث يحرم بمجرّد العقد.

والرابعة: الربية، وهي بنت زوجته وإن نزلت، فهذه لا تحرم حتى يدخل بزوجه كما قال هنا «وربائكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن» الآية.

وقد قال الجمهور: إن قوله: «اللاتي في حجوركم» قيد خرج مخرج

(٢) في ب: وأصولها وفروعها.

(١) زيادة من هامش پ.

أخذان إذا أحصن فإن أتيت بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم ﴿أي: ومن لم يستطع الطول الذي هو المهر لنكاح المحصنات، أي: الحرائر المؤمنات، وخاف على نفسه العنت، أي: الزنا أو المشقة الكثيرة، فيجوز له نكاح الإماء المملوكات المؤمنات.. وهذا بخسب ما يظهر، وإلا فالله أعلم بالمؤمن الصادق من غيره، فأمر الدنيا مبنية على ظواهر الأمور، وأحكام الآخرة مبنية على ما في البواطن.﴾
﴿فانكحوهن﴾ أي: المملوكات ﴿ياذن أهلهن﴾ أي: سيدهن، واحداً، أو متعدداً.

﴿وأتوهن أجورهن بالمعروف﴾ أي: ولو كن إماء، فإنه كما يجب المهر للحر، فكذلك يجب للإماء. ولكن لا يجوز نكاح الإماء إلا إذا كن محصنات ﴿أي: عفيفات عن الزنا﴾ غير مسافحات ﴿أي: زانيات علانية﴾ ولا متخذات أخذان ﴿أي: أخلاء﴾ في السر.

فالحاصل أنه لا يجوز للحر المسلم نكاح أمة، إلا بأربعة شروط ذكرها الله: الإيمان بهن، والعفة ظاهراً وباطناً، وعدم استطاعة طول الخرة، وخوف العنت، فإذا تمت هذه الشروط جاز له تكاثرهن.

ومع هذا فالصبر عن نكاحهن أفضل، لما فيه من تعريض الأولاد للرق، ولما فيه من الدناءة والعيب. وهذا إذا أمكن الصبر، فإن لم يمكن الصبر عن المحرم إلا يتكاثرهن وجب ذلك. ولهذا قال: ﴿وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم﴾.

وقوله: ﴿فإذا أحصن﴾ أي: تزوجن أو أسلمن، أي: الإماء فعليهن نصف ما على المحصنات ﴿أي: الحرائر﴾ من العذاب. وذلك الذي يمكن تنصيفه، وهو

﴿غير مسافحين﴾ والسفح: سفح الماء في الحلال والحرام، فإن الفاعل لذلك لا يحصن زوجته، لكونه وضع شهوته في الحرام، فتضعف داعيته للحلال، فلا يبقى محصناً لزوجته. وفيها دلالة على أنه لا يزوج غير العفيف، لقوله تعالى: ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة، والزانية لا ينكحها إلا زاناً أو مشركاً﴾.

﴿فما استمتعتم به منهن﴾ أي: بمن تزوجتموهن ﴿فآتوهن أجورهن﴾ أي: الأجور في مقابلة الاستمتاع. ولهذا إذا دخل الزوج بزوجه تقرر عليه صداقيها، ﴿فريضة﴾ أي: إتيانكم إياهن أجورهن، فرض فرضه الله عليكم، ليس بمنزلة التبرع الذي إن شاء أمضاه وإن شاء رده. أو معني قوله فريضة: أي: مقدرة قد قدرتموها فوجبت عليكم، فلا تنقصوا منها شيئاً.

﴿ولا جناح عليكم فيما تراضيت به من بعد الفريضة﴾ أي: بزيادة من الزوج، أو إسقاط من الزوجة عن رضا وطيب نفس [هذا قول كثير من المفسرين، وقال كثير منهم: إنها نزلت في متعة النساء التي كانت حلالاً في أول الإسلام، ثم حرمها النبي ﷺ، وأنه يؤمر بتوقيتها، وأجرها، ثم إذا انقضى الأمد الذي بينهما فتراضيا بعد الفريضة فلا حرج عليهما، والله أعلم^(١)].

﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾ أي: كامل العلم واسع، كامل الحكمة. فمن علمه وحكمته شرع لكم هذه الشرائع، وحد لكم هذه الحدود الفاصلة بين الحلال والحرام.

﴿٢٥﴾ ثم قال تعالى: ﴿ومن لم يستطع منكم طويلاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيما نكح من فتيانكم المؤمنات والله أعلم بآيما نكح بعضكم من بعض فانكحوهن ياذن أهلهن وأتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات

الغالب، لا مفهوم له، فإن الربية تحرم ولو لم تكن في حجره، ولكن للتقييد بذلك فائدتان:

إحداهما: فيه التنبيه على الحكمة في تحريم الربية، وأنها كانت بمنزلة البنت فمن المستقيم إباحتها. والثانية: فيه دلالة على جواز الخلوة بالربية، وأنها بمنزلة من هي في حجره من بناته ونحوهن. والله أعلم.

وأما المحرمات بالجمع، فقد ذكر الله الجمع بين الأختين وحرمه. وحرم النبي ﷺ الجمع بين المرأة وعمتها، أو خالتها، فكل امرأتين بينهما رحم محرم، لو قدر إحداهما ذكراً والأخرى أنثى، حرمت عليه، فإنه يحرم الجمع بينهما، وذلك لما في ذلك من أسباب التقاطع بين الأرحام.

ومن المحرمات في النكاح المحصنات من النساء ﴿أي: ذوات الأزواج﴾ فإنه يحرم نكاحهن ما دمن في ذمة الزوج، حتى تطلق وتنقضي عدتها. ﴿إلا ما ملكت أيما نكح﴾ أي: بالسبي، فإذا سببت الكافرة ذات الزوج حلت للمسلمين، بعد أن تستبرأ. وأما إذا بيعت الأمة الزوجة أو وهبت، فإنه لا يفسخ نكاحها لأن المالك الثاني نزل منزلة الأول، ولقصة بريرة حين خيرها النبي ﷺ.

وقوله: ﴿كتاب الله عليكم﴾ أي: الزموا واهتدوا به، فإن فيه الشفاء والنور، وفيه تفصيل الحلال من الحرام.

ودخل في قوله: ﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم﴾ كل ما لم يذكر في هذه الآية، فإنه حلال طيب. فالحرام محصور، والحلال ليس له حد ولا حصر، لطفاً من الله ورحمة، وتيسيراً للعباد.

وقوله: ﴿أن تبتغوا بأموالكم﴾ أي: تطلبوا من وقع عليه نظركم واختياركم، من اللاتي أباحهن الله لكم حالة كونكم محصنين ﴿أي: مستقيين عن الزنا، ومعفين نساءكم،

(١) زيادة من هامش ب، وزيادة غير واضحة، وقد أتممتها من طبعة السلفية.

وإحسانه الشامل، وعلمه وحكمته يضعف الإنسان من جميع الوجوه، ضعف البنية، وضعف الإرادة وضعف العزيمة، وضعف الإيمان، وضعف الصبر، فتناسب ذلك، أن يخفف الله عنه، ما يضعف عنه وما لا يطيقه إيمانه وصبره وقوته.

﴿٢٩ - ٣٠﴾ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ * وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عَدْوَانًا وَظُلْمًا فَسُوفَ نَصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * يَنْهَى تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ بَيْنَهُمْ بِالْبَاطِلِ، وَهَذَا يَشْمَلُ أَكْلَهَا بِالْغُصُوبِ وَالسَّرَقَاتِ، وَأَخْذَهَا بِالْقَمَارِ وَالْمَكَاسِبِ الرَّدِيئَةِ. بَلْ لَعَلَّه يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ أَكْلُ مَالِ نَفْسِكَ عَلَى وَجْهِ الْبَطَرِ وَالْإِسْرَافِ، لِأَنَّ هَذَا مِنَ الْبَاطِلِ وَلَيْسَ مِنَ الْحَقِّ.

ثم إنه - لما حرم أكلها بالباطل - أباح لهم أكلها بالتجارات والمكاسب الخالية من الموانع، المشتملة على الشروط من التراضي وغيره.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: لَا يَقْتُلْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَلَا يَقْتُلِ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ. وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْإِقْلَاءُ بِالنَفْسِ إِلَى التَّهْلُكَةِ، وَفَعَلَ الْأَخْطَارَ الْمُقْضِيَةَ إِلَى التَّلَفِ وَالْهَلَاكِ. «إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا» وَمَنْ رَحِمْتَهُ، أَنْ صَانَ نَفْسَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ، وَنَهَاكُمْ عَنْ إِضَاعَتِهَا وَإِتْلَافِهَا، وَرَتَّبَ عَلَى ذَلِكَ مَا رَتَّبَهُ مِنَ الْحُدُودِ.

وتأمل هذا الإيجاز والجمع في قوله: «لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ» «وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ» كيف شمل أموال غيرك ومال نفسك، بعبارة أخصر من نفسه، «لَا يَأْكُلُ بَعْضُكُمْ مَالَ بَعْضٍ» وَهَذَا الْعِبَارَةُ عَلَى مَالِ الْغَيْرِ، وَنَفْسِ الْغَيْرِ فَقَطْ.

مع أن إضافة الأموال والأنفس إلى

بسبب ما يسر الله عليكم، فهذا من توبته على عباده. ومن توبته عليهم أنهم إذا أذنبوا فتح لهم أبواب الرحمة، وأوزع قلوبهم الإنابة إليه، والتذلل بين يديه، ثم يتوب عليهم بقبول ما وفقهم له. فله الحمد والشكر على ذلك.

وقوله: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» أي: وَكَامِلُ الْحِكْمَةِ، فَمَنْ عَلِمَهُ أَنْ عَلِمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ، وَمِنْهَا هَذِهِ الْأَشْيَاءُ وَالْحُدُودُ. وَمَنْ حَكَمْتَهُ أَنَّهُ يَتُوبُ عَلَى مَنْ أَقْتَضَتْ حَكْمَتُهُ وَرَحْمَتُهُ التَّوْبَةَ عَلَيْهِ، وَيُحَذِلُ مَنْ أَقْتَضَتْ حَكْمَتُهُ وَعَدْلُهُ مَنْ لَا يَصْلَحُ لِلتَّوْبَةِ.

وقوله: «وَاللَّهُ يَرِيدُ أَنْ يُتُوبَ عَلَيْكُمْ» أي: تَوْبَةً تَلَمَّ شَعَثُكُمْ، وَتَجَمَعَ مَتَرُكُمْ، وَتَقَرَّبَ بَعْدُكُمْ. «وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ» أي: يَمِيلُونَ مَعَهَا حَيْثُ مَالَتْ، وَيَقْدُمُونَهَا عَلَى مَا فِيهِ رِضَا بِحَبِيبِهِمْ، وَيَعْبُدُونَ أَهْوَاءَهُمْ، مِنْ أَصْنَافِ الْكُفْرِ وَالْعَاصِيَيْنِ، الْمُقْدِمِينَ لِأَهْوَائِهِمْ عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِمْ، فَهَؤُلَاءِ يَرِيدُونَ «أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا» أي: [أَنْ] تَنْحَرِفُوا عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، إِلَى صِرَاطِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمُ وَالضَّالِّينَ.

يريدون أن يصرفوكم عن طاعة الرحمن إلى طاعة الشيطان، وعن التزام حدود من السعادة كلها في امتثال أوامره، إلى من الشقاوة كلها في اتباعه. فإذا عرفتم أن الله تعالى يأمركم بما فيه صلاحكم وفلاحكم وسعادتكم، وأن هؤلاء المتبعين لشهواتهم يأمرونكم بما فيه غاية الخسار والشقاء، فاختاروا لأنفسكم أولى الداعين، وتخيروا أحسن الطريقتين.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ أي: بِسَهُولَةٍ مَا أَمَرَكُمْ بِهِ. [مَا] نَهَاكُمْ عَنْهُ، ثُمَّ مَعَ حُصُولِ الْمُشَقَّةِ فِي بَعْضِ الشَّرَائِعِ، أَبَاحَ لَكُمْ مَا تَقْتَضِيهِ حِيَاجَتُكُمْ، كَالْمَيْتَةِ وَالدَّمِ وَنَحْوِهَا لِلْمُضْطَرِّ، وَكَتَزْوِجِ الْأُمَةِ لِلْحَرْبِ بِتِلْكَ الشَّرُوطِ السَّابِقَةِ. وَذَلِكَ لِرَحْمَتِهِ التَّامَةِ

الجلد، فيكون عليهم خمسون جلدة. وأما الرجم فليس على الإماء رجم، لأنه لا يتنصف، فعلى القول الأول إذا لم يتزوجن فليس عليهن حد، إنما عليهن تعزير يردعهن عن فعل الفاحشة.

وعلى القول الثاني: إن الإماء غير المسلمات، إذا فعلن فاحشة أيضاً عُزِّرْنَ.

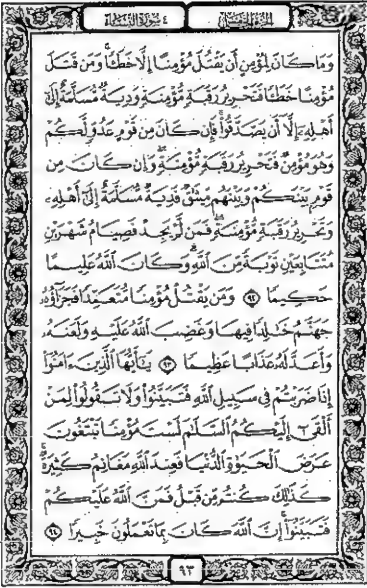
وختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين «الغفور الرحيم» لكون هذه الأحكام رحمة بالعباد، وكرماً وإحساناً إليهم، فلم يضيق عليهم، بل وسع غاية السعة.

ولعل في ذكر المغفرة بعد ذكر الحد إشارة إلى أن الحدود كفارات، يغفر الله بها ذنوب عباده، كما ورد بذلك الحديث. وحكم العبد الذكر في الحد المذكور حكم الأمة لعدم الفارق بينهما.

﴿٢٦ - ٢٨﴾ «يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يَرِيدُ أَنْ يُتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا * يُخَيِّرُ تَعَالَى بِمَنْتِهِ الْعَظِيمَةِ، وَمَنْحَتِهِ الْجَسِيمَةِ، وَحَسَنَ تَرْبِيَتِهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَسَهُولَةَ دِينِهِ، فَقَالَ: «يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ» أي: جَمِيعَ مَا تَحْتَاجُونَ إِلَى بَيَانِهِ مِنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، «وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ» أي: الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَأَتْبَاعِهِمْ، فِي سِيرَتِهِمُ الْحَمِيدَةِ، وَأَفْعَالِهِمُ السَّيِّدَةِ، وَشِمَائِلِهِمُ الْكَامِلَةِ، وَتَوْفِيقِهِمُ التَّامِ. فَلِذَلِكَ نَفَذَ مَا أَرَادَهُ، وَوَضَحَ لَكُمْ، وَبَيَّنَ بَيَانًا مَا بَيَّنَّ لِمَنْ قَبْلَكُمْ، وَهَدَاكُمْ هِدَايَةً عَظِيمَةً فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ.

﴿وَيَتُوبُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يُلَطِّفُ بِكُمْ فِي أَحْوَالِكُمْ وَمَا شَرَعَهُ لَكُمْ، حَتَّى تَمُكِّنُوا^(١) مِنَ الْوُقُوفِ عَلَى مَا حَلَّهَ اللَّهُ، وَالْإِكْتِفَاءَ بِمَا أَحَلَّهُ، فَتَقْتُلَ ذُنُوبَكُمْ

(١) في ب: تَمَكَّنُوا.



المشتملة على ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ويدخل في اجتناب الكبائر فعل الفرائض التي يكون تاركها مرتكباً كبيرة، كالصلوات الخمس، والجمعة وصوم رمضان، كما قال النبي ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهما، ما اجتنبت الكبائر».

وأحسن ما حُذرت به الكبائر، أن الكبيرة ما فيه حد في الدنيا، أو وعيد في الآخرة، أو نفي إيمان، أو ترتيب لعنة، أو غضب عليه.

﴿٣٢﴾ «ولا تمنموا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليماً» ينهى تعالى المؤمنين عن أن يتمنى بعضهم ما فضل الله به غيره، من الأمور الممكنة وغير الممكنة. فلا تتمنى النساء خصائص الرجال التي بها فضلهم على النساء، ولا صاحب الفقر والفقن حالة الغنى والكمال، تمنياً مجرداً، لأن هذا هو الحسد بعينه، تمنى نعمة الله على غيرك أن تكون لك ويسلب إياها.

ولأنه يقتضي السخط على قدر الله، والإخلال إلى الكسل والأمانى الباطلة، التي لا يفتقرن بها عمل ولا كسب. وإنما الم محمود أمران: أن يسعى العبد على حسب قدرته بما ينفعه من مصالحه الدينية والدنيوية، ويسأل الله تعالى من فضله، فلا يتكل على نفسه، ولا على غير ربه. ولهذا قال تعالى: «للرجال نصيب مما اكتسبوا» أي: من أعمالهم المنتجة للمطلوب.

«ولللنساء نصيب مما اكتسبن» فكل منهن لا يناله غير ما كسبه وتعب فيه. «واسألوا الله من فضله» أي: من جميع مصالحكم في الدين والدنيا. فهذا كمال العبد وعنوان سعادته، لا من يترك العمل، أو يتكل على نفسه غير مفتقر لربه، أو يجمع بين الأمرين، فإن هذا غفول خاسر.

عموم المؤمنين فيه دلالة على أن المؤمنين في توادهم وتراحهم وتعاطفهم ومصالحهم، كالجسد الواحد، حيث كان الإيمان يجمعهم على مصالحهم الدينية والدنيوية.

ولما نهى عن أكل الأموال بالباطل التي فيها غاية الضرر عليهم، على الأكل، ومن أخذ ماله، أباح لهم ما فيه مصلحتهم من أنواع المكاسب والتجارات، وأنواع الحرف والإجارات، فقال: «إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم» أي: فإنها مباحة لكم.

وشرط التراضي - مع كونها تجارة - للدلالة أنه يشترط أن يكون العقد غير عقد ربا، لأن الربا ليس من التجارة، بل مخالف لمقصودها، وأنه لا بد أن يرضى كل من المتعاقدين ويأتي به اختياراً.

ومن تمام الرضا أن يكون المعقود عليه معلوماً، لأنه إذا لم يكن كذلك لا يتصور الرضا مقدوراً على تسليمه، لأن غير المقدور عليه شبيه ببيع القمار، فبيع الخمر بجميع أنواعه خال من الرضا، فلا ينفذ عقده.

وفيها أنه تعقد العقود بما دل عليها من قول أو فعل، لأن الله شرط الرضا، فبأي طريق حصل الرضا انعقد به العقد. ثم ختم الآية بقوله: «إن الله كان بكم رحيماً» ومن رحمته أن عصم دماءكم وأموالكم وأصنامكم ونهاكم عن انتهاكها.

﴿٣٠﴾ ثم قال: «ومن يفعل ذلك» أي: أكل الأموال بالباطل، وقتل النفوس «عدواناً وظلماً» أي: لا جهلاً ونسياناً «فسوف نصليه ناراً» أي: عظمة كما يفيد التذكير «وكان ذلك على الله يسيراً».

﴿٣١﴾ «إن تمحبتوا كبائر ما تنهون عنه تكفروا عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً» وهذا من فضل الله وإحسانه على عباده المؤمنين وعدهم أنهم إذا اجتنبوا كبائر المنهيات غفر لهم جميع الذنوب والسيئات، وأدخلهم مدخلاً كريماً، كثير الخير وهو الجنة،

وقوله: «إن الله كان بكل شيء عليماً» فيعطي من يعلمه أهلاً لذلك، ويمنع من يعلمه غير مستحق.

﴿٣٣﴾ «ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شيء شهيداً» أي: «ولكل» من الناس «جعلنا موالى» أي: يتولونه ويتولاهم، بالتعز والنفرة، والمعاونة على الأمور. «بما ترك الوالدان والأقربون» وهذا يشمل سائر الأقارب، من الأصول والفروع والحواشي، هؤلاء الموالى من القرابة.

ثم ذكر نوعاً آخر من الموالى فقال: «والذين عقدت أيمانكم» أي: حالفتموهم بما عقدتم معهم من عقد المحالفة على النصرة والمساعدة، والاشتراك بالأموال، وغير ذلك. وكل هذا من نعم الله على عباده، حيث كان الموالى يتعاونون بما لا يقدر عليه بعضهم مفرداً.

قال تعالى: «فآتوهم نصيبهم» أي: آتوا الموالى نصيبهم، الذي يجب القيام به من النصرة والمعاونة والمساعدة، على غير معصية الله. والميراث للأقارب الأدين من الموالى.

«إن الله كان على كل شيء شهيداً» أي: مطلعاً على كل شيء، يعلمه لجميع الأمور، ويصره لخرات عباده، وسمعه لجميع أصواتهم.

أهلها إن يريد إصلاحاً يوفق الله بينهما
 إن الله كان عليماً خبيراً^{٣٧} أي: وإن
 ختم الشقاق بين الزوجين، والمباعدة
 والمجانبة، حتى يكون كل منهما في
 شق، **﴿فابعدوا حكماً من أهله وحكماً
 من أهلها﴾** أي: رجلين متكلفين،
 مسلمين عدلين عاقلين، يعرفان ما بين
 الزوجين، ويعرفان الجمع والتفريق.
 وهذا مستفاد من لفظ «الحكم» لأنه
 لا يصلح حكماً، إلا من اتصف بتلك
 الصفات. فيظن أن ما ينقم كل منهما
 على صاحبه، ثم يلزمان كلا منهما ما
 يجب، فإن لم يستطع أحدهما ذلك، فثنا
 الزوج الآخر بالرضا بما تيسر من
 الرزق والخلق، ومهما أمكنهما الجمع
 والإصلاح فلا يعدل عنه.

فإن وصلت الحال إلى أنه لا يمكن
 اجتماعهما وإصلاحهما، إلا على وجه
 المعادة والمقاطعة، ومعصية الله، ورأيا
 أن التفريق بينهما أصلح، فراق بينهما.
 ولا يشترط رضا الزوج، كما يدل
 عليه، أن الله شامها حَكَمِين،
 والحكم يحكم، ولو^(١) لم يرض
 المحكوم عليه، ولهذا قال: **﴿إن يريد
 إصلاحاً يوفق الله بينهما﴾** أي: بسبب
 الرأي: الميمون والكلام الذي يجذب
 القلوب، ويؤلف بين القريتين.

﴿إن الله كان عليماً خبيراً﴾ أي:
 عالماً بجميع الظواهر والبواطن، مطلعاً
 على خفايا الأمور وأسرارها. فمن
 علمه وخبره أن شرع لكم هذه الأحكام
 الجليلة، والشرائع الجميلة.

﴿٣٨-٣٦﴾ **﴿واعبدوا الله ولا
 تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً
 وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار
 ذي القربى والجار الجنب والصاحب
 بالجنب وابن السبيل وما ملكت
 أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً
 فخوراً﴾** الذين يبخلون ويأثمون الله
 من فضله وأعتدنا للكافرين عذاباً
 مهيناً^{*} والذين ينفقون أموالهم رثاء
 الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر

يختص بها الرجال، ويتميزون عن
 النساء.

ولعل هذا سر قوله: **﴿بما أنفقوا﴾**
 وحذف المفعول، ليدل على عموم
 النفقة. فنعلم من هذا كله أن الرجل
 كالوالي والسيد لامرأته، وهي عنده
 عانية أسيرة خادمة، فوظيفته أن يقوم
 بما استرعاه الله به.

ووظيفتها: القيام بطاعة ربها،
 وطاعة زوجها، فلهاذا قال:
﴿فالصالحات قانتات﴾ أي:
 مطيعات لله تعالى **﴿حافظات للغيب﴾**
 أي: مطيعات لأزواجهن حتى في
 الغيب، تحفظ بعلمها بنفسها وماله،
 وذلك بحفظ الله لهن، وتوقيه لهن،
 لا من أنفسهن، فإن النفس أمارة
 بالسوء، ولكن من توكل على الله،
 كفاه ما أمه من أمر دينه ودنياه.

ثم قال: **﴿واللاتي تخافون
 نشوزهن﴾** أي: ارتفاعهن عن طاعة
 أزواجهن، بأن تعصيه بالقرول أو
 الفعل، فإنه يؤديها بالأسهل فالأسهل،
﴿ففعظوهن﴾ أي: ببيان حكم الله في
 طاعة الزوج ومعصيته، والترغيب في
 الطاعة، والترهيب من معصيته، فإن
 انتهت فذلك المطلوب، وإلا فيهجرها
 الزوج في المضجع، بأن لا يضاجعها،
 ولا يجامعها بمقدار ما يحصل به
 المقصود، وإلا ضربها ضرباً غير مبرح،
 فإن حصل المقصود بواحد من هذه
 الأمور وأطعنكم **﴿فلا تبغوا عليهن
 سبيلاً﴾** أي: فقد حصل لكم ما
 تحبون، فاتركوا معاتبتها على الأمور
 الماضية، والتنقيب عن العيوب التي
 يضر ذكرها، ويحدث بسببه الشر.

﴿إن الله كان عليماً خبيراً﴾ أي: له
 العلو المطلق، بجميع الوجوه
 والاعتبارات، علو الذات، وعلو
 القدر، وعلو القهر، الكبير الذي
 لا أكبر منه ولا أجل ولا أعظم، كبير
 الذات والصفات.

﴿٣٥﴾ **﴿وإن خفتم شقاق بينهما
 فابعدوا حكماً من أهله وحكماً من**



﴿٣٤﴾ **﴿الرجال قوامون على
 النساء بما فضل الله بعضهم على بعض
 وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات
 قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله
 واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن
 واهجروهن في المضاجع واضربوهن
 فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً
 إن الله كان عليماً خبيراً﴾** يخبر تعالى **﴿أن
 الرجال قوامون على النساء﴾**، أي:
 قوامون عليهن بالزمام بحقوق الله
 تعالى، من المحافظة على فرائضه،
 وكفهن عن المفسد، والرجال عليهم
 أن يلزموهن بذلك، وقوامون عليهن
 أيضاً بالإتفاق عليهن، والكسوة
 والسكن، ثم ذكر السبب الموجب لقيام
 الرجال على النساء، فقال: **﴿بما
 فضل الله بعضهم على بعض وبما
 أنفقوا من أموالهم﴾** أي: بسبب فضل
 الرجال على النساء، وإفضالهم
 عليهن، ففضيل الرجال على النساء من
 وجوه متعددة: من كون الولايات
 مختصة بالرجال، والنبوة، والرسالة،
 واختصاصهم بكثير من العبادات
 كالجهاد والأعياد والجمع. وبما
 خصهم الله به من العقل والرزانة
 والصبر والجلد الذي ليس للنساء مثله.
 وكذلك خصهم بالنفقات على
 الزوجات، بل وكثير من النفقات

قال: «إن الله لا يحب من كان مختالاً» أي: معجباً بنفسه، متكبراً على الخلق. «فخوراً» يشني على نفسه ويمدحها، على وجه الفخر والبطر على عباد الله. فهو لا ما بهم من الاختيال والفخر، يمنعهم من القيام بالحقوق. ولهذا ذمهم بذلك، بقوله: «الذين يبخلون» أي: يمنعون ما عليهم من الحقوق الواجبة، ويأمرزون الناس بالبخل. «بأقوالهم وأفعالهم» ويكتمون ما آتاهم الله من فضله. أي: من العلم الذي يبتدي به الضالون ويسترشده الجاهلون، فيكتمونه عنهم، ويظهرون لهم من الباطل ما يحول بينهم وبين الحق. فجمعوا بين البخل بالمال، والبخل بالعلم، وبين السعي في خسارة أنفسهم وخسارة غيرهم، وهذه هي صفات الكافرين، فلهذا قال تعالى: «وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً» أي: كما تكبروا على عباد الله، ومنعوا حقوقه وتسبوا في منع غيرهم، من البخل وعدم الاهتمام، أهانهم بالعذاب الأليم، والحزني الدائم. فعباداً بك اللهم من كل سوء.

ثم أخبر عن الثقة الصادرة، عن رياء وسمعة، وعدم إيمان به، فقال: «والذين ينفقون أموالهم رياء الناس» أي: ليروهم ويمدحوهم، ويعظموهم، «ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر» أي: ليس إنفاقهم صادراً عن إخلاص وإيمان بالله، ورجاء ثوابه. أي: فهذا من خطوات الشيطان وأعماله التي يدعو حزبه إليها، ليكونوا من أصحاب السعير. وصدرت منهم بسبب مقارنته لهم وأزهم إليها، فلهذا قال: «ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً» أي: بشس المقارن والصاحب الذي يريد إهلاك من قارنه، ويسعى فيه أشد السعي.

فكما أن من بخل بما آتاه الله،

خلتهم، وبدفع فاقتهم، والحض على ذلك، والقيام بما يمكن منه.

«والجار ذي القربى» أي: الجار القريب الذي له حقان، حق الجوار وحق القرابة، فله على جاره حق وإحسان راجع إلى العرف. وكذلك «الجار الجنب» أي: الذي ليس له قرابة. وكلما كان الجار أقرب باباً، كان أكد حقاً، فينبغي للجار أن يتعاهد جاره بالهدية والصدقة، والدعوة، واللطفة بالأقوال والأفعال، وعدم أذيته بقول أو فعل.

«والصاحب الجنب» قيل: الرقيق بالسفر، وقيل: الزوجة، وقيل: الصاحب مطلقاً، ولعله أولى، فإنه يشمل الصاحب في الحضر والسفر، ويشمل الزوجة.

فعل الصاحب لصاحبه، حق زائد على مجرد إسلامه، من مساعدته على أمور دينه ودينه، والنصح له، والوفاء معه في اليسر والعسر، والمنشط والمكره، وأن يحب له ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، وكلما زادت الصحة تأكد الحق وزاد.

«وابن السبيل» وهو: الغريب الذي احتاج في بلد الغربة أو لم يحتاج، فله حق على المسلمين لشدة حاجته، وكونه في غير وطنه، بتبليغه إلى مقصوده، أو بعض مقصوده [ويكرامه وتأنسه]^(٢).

«وما ملكت أيمانكم» أي: من الآدميين والبهائم، بالقيام بكفائتهم وعدم تحميلهم ما يشق عليهم وإعانتهم على ما يتحملون، وتأديبهم لما فيه مصلحتهم: فمن قام بهذه الأمور فله المفاضل لربه، المتواضع لعباد الله، المنقاد لأمر الله وشرعه، الذي يستحق الثواب الجزيل والثناء الجميل، ومن لم يقيم بذلك فإنه عبد معرض عن ربه، غير منقاد لأوامره، ولا متواضع للخلق، بل هو متكبر على عباد الله، معجب بنفسه، فخور بقوله، ولهذا

ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً» يأمر تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له، وهو الدخول تحت رق عبوديته، والانقياد لأوامره ونواهيه، محبة وذلاً وإخلاصاً له، في جميع العبادات الظاهرة والباطنة.

وينهى عن الشرك به شيئاً، لا شركاً أصغر ولا أكبر، لا ملكاً ولا نبياً ولا ولياً ولا غيرهم من المخلوقين، الذين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، بل الواجب المتعين إخلاص العباد لئن له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وله التدبير الكامل الذي لا يشركه ولا يعينه عليه أحد. ثم بعد ما أمر بعبادته والقيام بخقه، أمر بالقيام بحقوق العباد، الأقرب فالأقرب. فقال: «وبالوالدين إحساناً» أي: أحسنوا إليهم بالقول الكريم، والخطاب اللطيف والفعل الجميل، بطاعة أمرهما، واجتناب نهيهما، والإنفاق عليهما، وإكرام من له تعلق بهما، وصلة الرحم التي لا رجم لك إلا بهما. وللإحسان ضيدان، الإساءة، وعدم الإحسان. وكلاهما منهي عنه.

«وبذي القربى» أيضاً إحساناً، ويشمل ذلك جميع الأقارب، قربوا أو بعدوا، بأن يحسن إليهم بالقول والفعل، وأن لا يقطع برحمه بقوله أو فعله.

«واليتامى» أي: الذين فقدوا آباءهم^(١) وهم صغار، فلم لهم حق على المسلمين، سواء كانوا أقارب أو غيرهم، بكفالتهم، وبرهم، وجبر خواطرهم، وتأديبهم، وتربيتهم أحسن تربية، في مصالح دينهم ودينهم.

«والمساكين» وهم الذين أسكتهم الحاجة والفقر، فلم يحصلوا على كفايتهم، ولا كفاية من يمولون. فأمر الله تعالى بالإحسان إليهم، بسد

(١) كذا في ب، وفي أ: الذين فقد آباؤهم.

(٢) زيادة من هامش ب.

يقولون، وهذا شامل لقربان مواضع الصلاة كالسجدة، فإنه لا يمكن السكران من دخوله. وشامل لنفس الصلاة، فإنه لا يجوز للسكران صلاة ولا عبادة، لاختلاط عقله، وعدم علمه بما يقول، ولهذا حذّر تعالى ذلك وغياه إلى وجود العلم، بما يقول السكران. وهذه الآية الكريمة متسوخة بتحريم الخمر مطلقاً، فإن الخمر - في أول الأمر - كان غير محرّم، ثم إن الله تعالى عرض لعباده بتحريمه، بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾.

ثم إنه تعالى نهاهم عن الخمر عند حضور الصلاة، كما في هذه الآية، ثم إنه تعالى حرّمه على الإطلاق في جميع الأوقات في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَصْبَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ الآية.

ومع هذا فإنه يشتد تحريمه وقت حضور الصلاة، لتضمنه هذه المفسدة العظيمة، بعد حصول مقصود الصلاة الذي هو روحها وليها، وهو الخشوع وحضور القلب، فإن الخمر يسكر القلب، ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة، ويؤخذ من المعنى منع الدخول في الصلاة في حال النعاس المفرط، الذي لا يشعر صاحبه بما يقول ويفعل، بل لعل فيه إشارة إلى أنه ينبغي لمن أراد الصلاة أن يقطع عنه كل شاغل يشغل فكره، كمدافعة الأخبثين، والتوقى لطعام ونحوه، كما ورد في ذلك الحديث الصحيح.

ثم قال: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ أي: لا تقربوا الصلاة حالة كون أحدكم جنباً، إلا في هذه الحال، وهو عابر السبيل، أي: تمرون في المسجد ولا تمكثون فيه، ﴿حتى تغتسلوا﴾ أي: فإذا اغتسلتم، فهو غاية المنع من قربان الصلاة للجنب، فيحل للجنب المرور في المسجد فقط.

﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم

كل أمة بشهيد وجننا بك على هؤلاء شهيد﴾ أي: كيف تكون تلك الأحوال، وكيف يكون ذلك الحكم العظيم، الذي جمع أن من حكم به كامل العلم، كامل العدل، كامل الحكمة، بشهادة أركى الخلق، وهم الرسل على أمهم، مع إقرار المحكوم عليه؟! فهذا - والله - الحكم الذي هو أعم الأحكام وأعدلها وأعظمها.

وهناك يبقى المحكوم عليهم مقربين له لكمال الفضل والعدل، والحمد والثناء. وهنالكَ يسعد أقوام بالفوز والفلاح والعز والنجاح. ويشقى أقوام بالخزي والفضيحة والعذاب المهين.

ولهذا قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَدْعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصْعَقُونَ فِي الْبُحْبُوحَةِ﴾ أي: جمعوا بين الكفر بالله وبرسوله، ومعصية الرسول ﴿لَوْ تَسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ أي: تتلعمهم ويكونون تراباً وعدماً، كما قال تعالى: ﴿ويقول الكافرون يا ليتني كنت تراباً﴾.

﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ أي: بل يقولون له بما عملوا، وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون. يومئذ يوفيههم الله جزاءهم الحق، ويعلمون أن الله هو الحق المبين.

فأما ما ورد من أن الكفار يكتمون كفرهم وجحودهم، فإن ذلك يكون في بعض مواضع القيامة، حين يظنون أن جحودهم مغن عنهم من عذاب الله، فإذا عرفوا الحقائق، وشهدت عليهم جوارحهم، حيثئذ ينجلي الأمر، ولا يبقى للكتمان موضع، ولا نفع ولا فائدة.

﴿٤٣﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ انتهى تعالى عباده المؤمنين أن يقربوا الصلاة وهم سُكَارَى، حتى يعلموا ما

وكنتم ما من به الله عليه عاصي آثم يخالف لربه، فكذلك من أنفق وتعبّد لغير الله، فإنه آثم عاصي لربه، مستوجب للعقوبة، لأن الله إنما أمر بطاعته وأمثال أمره، على وجه الإخلاص، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ فهذا العمل المقبول الذي يستحق صاحبه المدح والثواب، فلماذا حثّ تعالى عليه بقوله:

﴿٣٩﴾ ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لو آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأُنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ أي: أي شيء عليهم، وأي خرج ومشقة تلحقهم، لو حصل منهم الإيمان بالله، الذي هو الإخلاص، وأنفقوا من أموالهم التي رزقهم الله وأنعم بها عليهم، فجمعوا بين الإخلاص والإنفاق، ولما كان الإخلاص سرّاً بين العبد وبين ربه، لا يطلع عليه إلا الله، أخبر تعالى بعلمه بجميع الأحوال فقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾.

﴿٤٠ - ٤٢﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكْ حَسَنَةٌ يَضَاعَفْهَا وَيُؤْتِ مَنْ لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فكيف إذا جننا من كل أمة بشهيد وجننا بك على هؤلاء شهيداً * يومئذ يدع الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً * يخبر تعالى عن كمال عدله وفضله، وتنزهه عما يضاد ذلك من الظلم القليل والكثير، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أي: ينقصها من حسنات عبده، أو يزيد لها في سيئاته، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.

﴿وإن تك حسنة يضاعفها﴾ أي: إلى عشرة أمثالها، إلى أكثر من ذلك، بحسب حالها ونفعها، وحال صاحبها، إخلاصاً ومحبة وكمالاً.

﴿ويؤت من لَّدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: زيادة على ثواب العمل بنفسه، من التوفيق لأعمال آخر، وإعطاء البر الكثير والخير الغزير. ثم قال تعالى: ﴿فكيف إذا جننا من



وهذا هو الواقع، ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: طردهم عن رحمته، وأحل عليهم نقمته. ﴿وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فْلَنُ تَجِدْ لَهُ نَصِيرًا﴾ أي: يتولاه، ويقوم بمصلحته، ويحفظه عن المكازة، وهذا غاية الخذلان.

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ﴾ أي: فيفضلون مَنْ شَاءُوا على مَنْ شَاءُوا بمجرد أهوائهم، فيكونون شركاء الله في تدبير المملكة، فلو كانوا كذلك لشحوا وبخلوا أشد البخل، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا﴾ أي: لو كان لهم نصيب من الملك ﴿لَا يُوْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ أي: شيئاً، ولا قليلاً. وهذا وصف لهم بشدة البخل، على تقدير وجود ملكهم المشارك للملك الله. وأخرج هذا خرج الاستفهام المقرر إنكاره، عند كل أحد.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: هل الحامل لهم على قولهم كونهم شركاء الله، فيفضلون مَنْ شَاءُوا؟ أم الحامل لهم على ذلك الحسد للرسول وللمؤمنين على ما آتاهم الله من فضله؟ وذلك ليس ببدع ولا غريب على فضل الله.

﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ وذلك ما أنعم الله به على إبراهيم وذريته، من النبوة والكتاب والملك الذي أعطاه من

أعطاه من أنبيائه كـ «داود» و «سليمان». فإنعامه لم يزل مستمراً على عباده المؤمنين.

فكيف ينكرون إنعامه بالنبوة والنصر والملك لمحمد ﷺ أفضل الخلق وأجلهم، وأعظمهم معرفة بالله وأخشاهم له!!

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ أي: بمحمد ﷺ، فقال بذلك السعادة الدنيوية والفلاح الآخروي. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ عناداً وبغياً وحسداً، فحصل لهم من شقاء الدنيا ومصائبها، ما هو بعض آثار معاصيهم ﴿وَكُفِيَ بِهِمْ سَعِيرًا﴾ تسعراً على مَنْ كفر بالله، وجحد نبوة أنبيائه من اليهود والنصارى، وغيرهم من أصناف الكفرة.

ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ أي: عظمة الوقود، شديدة الحرارة، ﴿كَلِمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾ أي: احترقت بدلتناهم جلوداً غيرها ليدنقوا العذاب﴾ أي: ليلغ العذاب منهم كل مبلغ. وكما تكرر منهم الكفر والعناد، وصار وصفاً لهم وسجية؛ كرز عليهم العذاب جزاءً وفاقاً، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي: له العزة العظيمة، والحكمة في خلقه وأمره، وثوابه وعقابه.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: بالله، وما أوجب الإيمان به ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من الواجبات والمستحبات ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ أي: من الأخلاق الرذيلة، والخلق الذميمة، وما يكون من نساء الدنيا من كل دنس وعيب ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾

﴿٥٨ - ٥٩﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا بِعَظْمِكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله

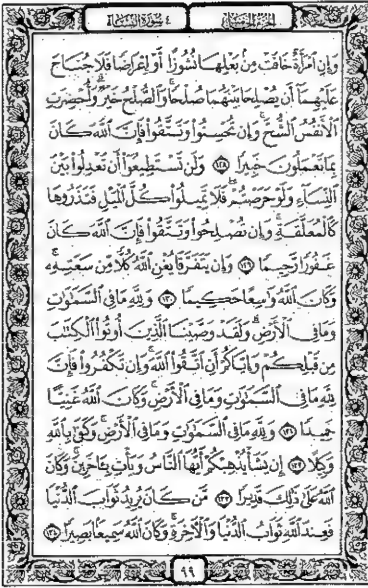
والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾ الأمانات كل ما أوثمن عليه الإنسان وأمر بالقيام به. فأمر الله عباده بأدائها أي: كاملة موفرة، لا منقوصة ولا منخوسة، ولا مطولاً بها، ويدخل في ذلك أمانات الولانيات والأموال والأسرار، والمأمورات التي لا يطلع عليها إلا الله.

وقد ذكر الفقهاء، على أن مَنْ أوثمن أمانة، وجب عليه حفظها في حرز مثلها. قالوا: لأنه لا يمكن أداؤها إلا بحفظها؛ فوجب ذلك وفي قوله: ﴿إِلَى أَهْلِهَا﴾ دلالة على أنها لا تدفع وتؤدي لغير المؤتمن، ووكيله بمنزلة؛ فلو دفعها لغير ربه لم يكن مؤدياً لها.

﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ وهذا يشمل الحكم بينهم في الدماء، والأموال، والأعراض، القليل من ذلك والكثير، على القريب والبعيد، والبر والفاجر، والولي والعدو.

والمراد بالعدل الذي أمر الله بالحكم به، هو ما شرعه الله على لسان رسوله من الحدود والأحكام، وهذا يستلزم معرفة العدل ليحكم به. ولما كانت هذه أوامر حسنة عادلة، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا بِعَظْمِكُمْ بِهِ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ وهذا مدح من الله لأمره ونواهي، لاشتمالها على مصالح الدارين ودفع مضارهما، لأن شارعها السميع البصير الذي لا تحفى عليه خافية، ويعلم بمصالح العباد ما لا يعلمون.

ثم أمر بطاعته وطاعة رسوله، وذلك بامتنثال أمرهما، الواجب والمستحب، واجتناب نهيهما. وأمر بطاعة أولي الأمر، وهم: الولاة على الناس، من الأمراء والحكام والفتن، فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلا بطاعتهم والانقياد لهم، طاعة الله، ورغبة فيما عنده، ولكن بشرط أن لا يأمرؤا بمعصية الله، فإن أمروا بذلك، فلا طاعة لمخلوق في



إلى الطاغوت وهو كل من حكم بغير شرع الله فهو طاغوت.

والحال أنهم قد أمروا أن يكفروا به فكيف يجتمع هذا والإيمان؟ فإن الإيمان يقتضي الانقياد لشرع الله وتحكيمه في كل أمر من الأمور، فمن زعم أنه مؤمن واختار حكم الطاغوت على حكم الله، فهو كاذب في ذلك. وهذا من إضلال الشيطان إياهم، ولهذا قال: «ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً» عن الحق.

فكيف يكون حال هؤلاء الضالين إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم من المعاصي، ومنها تحكيم الطاغوت؟

ثم جاؤوك معتردين^(١) لما صدر منهم، ويقولون: «إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً» أي: ما قصدنا في ذلك إلا الإحسان إلى الشخصين والتوفيق بينهما، وهم كذبة في ذلك. فإن الإحسان كل الإحسان تحكيم الله ورسوله «ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون».

ولهذا قال: «أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم» أي: من النفاق والقصد السيئ. «فأعرض عنهم» أي: لا تبال بهم ولا تقابلهم على ما فعلوه واقتروه. «وعظمهم» أي: بين لهم حكم الله تعالى، مع الترغيب في الانقياد لله، والترهيب من تركه، «وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً» أي: انصحهم سراً بينك وبينهم، فإنه أنجح لحصول المقصود، وبالع في زجرهم وقمعهم عما كانوا عليه، وفي هذا دليل على أن مقترف المعاصي وإن أعرض عنه، فإنه ينصح سراً، ويبالغ في وعظه بما يظن حصول المقصود به.

«٦٤-٦٥» وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً

معصية الخالق. ولعل هذا هو السر في حذف الفعل عند الأمر بطاعتهم، وذكره مع طاعة الرسول فإن الرسول لا يأمر إلا بطاعة الله، ومن يطعه فقد أطاع الله، وأما أولو الأمر فشرط الأمر بطاعتهم أن لا يكون معصية.

ثم أمر برد كل ما تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه، إلى الله وإلى رسوله، أي: إلى كتاب الله وسنة رسوله، فإن فيهما الفصل في جميع المسائل الخلافية، إما بصريحهما، أو عمومهما؛ أو إيماء، أو تنبيه، أو مفهوم أو عموم معنى يقاس عليه ما أشبهه، لأن كتاب الله وسنة رسوله عليهما بناء الدين، ولا يستقيم الإيمان إلا بهما.

فالرد إليهما شرط في الإيمان، فلهذا قال: «إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر» فدل ذلك على أن من لم يرد إليهما مسائل النزاع فليس بمؤمن حقيقة، بل مؤمن بالطاغوت، كما ذكر في الآية بعدها «ذلك» أي: الرد إلى الله ورسوله «خير وأحسن تأويلاً» فإن حكم الله ورسوله، أحسن الأحكام وأعدلها، وأصلحها للناس، في أمر دينهم ودنياهم وعاقبتهم.

«٦٠-٦٣» ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً * وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً * فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاؤوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً * أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظمهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً يعجب تعالى عباده من حالة المنافقين. «الذين يزعمون أنهم مؤمنون بما جاء به الرسول وبما قبله، ومع هذا يريدون أن يتحاكموا

رحيماً * فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً» يخبر تعالى خبراً في ضمنه الأمر والحث على طاعة الرسول والانقياد له. وأن الغاية من إرسال الرسل أن يكونوا مطاعين، يتقاد لهم المرسل إليهم في جميع ما أمروا به ونهوا عنه، وأن يكونوا معظمين، تعظيم المطيع^(٢) للمطاع.

وفي هذا إثبات عصمة الرسل فيما يبلغونه عن الله، وفيما يأمرهم به وينهون عنه؛ لأن الله أمر بطاعتهم مطليفاً، فلولا أنهم معصومون لا يشرعون ما هو خطأ، لما أمر بذلك مطلقاً.

وقوله: «بإذن الله» أي: الطاعة من المطيع، صادرة بقضاء الله وقدره. فيه إثبات القضاء والقدر، والحث على الاستعانة بالله، وبيان أنه لا يمكن الإنسان - إن لم يعنه الله - أن يطيع الرسول.

ثم أخبر عن كرمه العظيم وجوده، ودعوته لمن اقتترف السيئات، أن يعترفوا ويتوبوا ويستغفروا الله فقال: «ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك» أي: معترفين بذنوبهم، باخعين بها.

(١) في النسختين: متعتردين.

(٢) في النسختين: تعظيم المطاع للمطيع، وهو سبق قلم، وقد عدلت في ب عن طريق المطبعة السلفية إلى تعظيم المطاع من المطيع.



﴿فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾
أي: لتاب عليهم بمغفرته ظلمهم، ورحمهم بقبول التوبة والتوفيق لها، والشواب عليها، وهذا المجيء إلى الرسول ﷺ مختص بحياته؛ لأن السياق يدل على ذلك، لكون الاستغفار من الرسول لا يكون إلا في حياته، وأما بعد موته فإنه لا يطلب منه شيء، بل ذلك شرك.

ثم أقسم تعالى بنفسه الكريمة أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله فيما شجر بينهم، أي: في كل شيء يحصل فيه اختلاف، بخلاف مسائل الإجماع، فإنها لا تكون إلا مستندة للكتاب والسنة، ثم لا يكفي هذا التحكيم حتى ينتفي الحرج من قلوبهم والضيق، وكونهم يحكمونه على وجه الإغماض، ثم لا يكفي ذلك^(١) حتى يسلموا لحكمه تسليماً، بانسراح صدر، وطمأنينة نفس، وانقياد بالظاهر والباطن.

فالتحكيم في مقام الإسلام، وانتهاء الحرج في مقام الإيمان، والتسليم في مقام الإحسان. فمن استكمل هذه المراتب وكملها، فقد استكمل مراتب الدين كلها. فمن ترك هذا التحكيم المذكور غير ملتزم له فهو كافر، ومن

(١) في ب: هذا التحكيم.

تركه، مع التزامه فله حكم أمثاله من العصاة.

﴿٦٦- ٦٨﴾ ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد ثبثاً﴾ وإذا لايتناهم من لدنا أجراً عظيماً ﴿ولهديناهم صراطاً مستقيماً﴾ يحذر تعالى أنه لو كتب على عباده الأوامر الشاقة على النفوس من قتل النفوس، والخروج من الديار، لم يفعلها إلا القليل منهم والنادر، فليحمدوا ربهم وليشكروه على تيسير ما أمرهم به من الأوامر التي تسهل على كل أحد، ولا يشق فعلها، وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي أن يلاحظ العبد ضد ما هو فيه من المكروهات، لتخفف عليه العبادات، ويزداد حمداً وشكراً لربه.

ثم أخبر أنهم لو فعلوا ما يوعظون به، أي: ما وُظف عليهم في كل وقت بحسبه، فبذلوا همهم، ووفروا نفوسهم للقيام به وتكميله، ولم تطمح نفوسهم لما يصلوا إليه، ولم يكونوا بصدده، وهذا هو الذي ينبغي للعبد، أن ينظر إلى الحالة التي يلزمه القيام بها فيكملها، ثم يتدرج شيئاً فشيئاً، حتى يصل إلى ما قدر له من العلم والعمل في أمر الدين والدنيا، وهذا بخلاف من طمحت نفسه إلى أمر لم يصل إليه ولم يؤمر به بعد، فإنه لا يكاد يصل إلى ذلك بسبب تفريق الهمة، وحصول الكسل وعدم النشاط.

ثم رتب ما يحصل لهم على فعل ما يوعظون به، وهو أربعة أمور:

(أحدها) الخيرية في قوله: ﴿لكن خيراً لهم﴾ أي: لكانوا من الأخيار المتصفين بأوصافهم، من أفعال الخير، التي أمروا بها، أي: وانتفى عنهم بذلك صفة الأشرار، لأن ثبوت الشيء يستلزم نفي ضده.

(الثاني) حصول الثبوت والثبات وزيادته، فإن الله يثبت الذين آمنوا بسبب ما قاموا به من الإيمان، الذي

هو القيام بما وعظوا به، فيثبتهم في الحياة الدنيا، عند ورود الفتن في الأوامر والنواهي والمصائب، فيحصل لهم ثبات يوفقون لفعل الأوامر وترك النواهي، التي تقتضي النفس فعلها، وعند حلول المصائب، التي يكرهها العبد. فيوفى للثبوت بالتوفيق للصبر أو للرضا أو للشكر.

فيتزل عليه معونة من الله للقيام بذلك، ويحصل له الثبات على الدين، عند الموت وفي القبر.

وأيضاً فإن العبد القائم بما أمر به، لا يزال يتمرن على الأوامر الشرعية حتى يألّفها، ويشتاق إليها وإلى أمثالها، فيكون ذلك معونة له على الثبات على الطاعات.

(الثالث): قوله: ﴿وإذا لايتناهم من لدنا أجراً عظيماً﴾ أي: في العاجل والآجل، الذي يكون للروح والقلب والبدن، ومن النعيم المقيم بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

(الرابع) الهداية إلى صراط مستقيم. وهذا عموم بعد خصوص، لشرف الهداية إلى الصراط المستقيم، من كونها متضمنة للعلم بالحق، ومحبة وإيثاره والعمل به، وتوقف السعادة والفلاح على ذلك، فمن هدي إلى صراط مستقيم، فقد وفق لكل خير، واندفع عنه كل شر وضير.

﴿٦٩- ٧٠﴾ ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾ ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليمًا ﴿أي: كل من أطاع الله ورسوله على حسب حاله، وقدر الواجب عليه من ذكر وأنثى وصغير وكبير، فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾ أي: النعمة العظيمة التي تقتضي الكمال والفلاح والسعادة، ﴿من النبيين﴾ الذين فضّلهم الله بوحيه، واختصهم بتفضيلهم، بإرسالهم إلى الخلق،



منها: أنه بحسب إيمان العبد يكون جهاده في سبيل الله، وإخلاصه ومتابعته. فالجهاد في سبيل الله من آثار الإيمان ومقتضياته ولوازمه، كما أن القتال في سبيل الطاغوت من شعب الكفر ومقتضياته.

ومنها: أن الذي يقاتل في سبيل الله ينبغي له ويحسن منه من الصبر والجلد ما لا يقوم به غيره، فإذا كان أولياء الشيطان يصبرون ويقاتلون وهم على باطل، فأهل الحق أولى بذلك، كما قال تعالى في هذا المعنى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْمِنُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْمِنُونَ كَمَا تَأْمِنُونَ، وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ الآية.

ومنها: أن الذي يقاتل في سبيل الله معتمد على ركن وثيق، وهو الحق، والتوكل على الله. فصاحب القوة والركن الوثيق، يطلب منه من الصبر والشباب والنشاط ما لا يطلب ممن يقاتل عن الباطل، الذي لا حقيقة له ولا عاقبة حميدة. فهذا قال تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

والكيد: سلوك الطرق الخفية في ضرر العدو، فالشيطان وإن بلغ مكربه مهما بلغ فإنه في غاية الضعف، الذي لا يقوم لأدنى شيء من الحق، ولا لكيد الله لعباده المؤمنين.

﴿٧٧-٧٨﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كَفُوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تَظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ * أينما تكونوا يدر ككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة. كان المسلمون - إذ كانوا بمكة - مأمورين بالصلاة والزكاة، أي: مواساة الفقراء، لا الزكاة المعروفة ذات النصب والشروط، فإنها لم تفرض إلا بالمدينة، ولم يؤمروا بجهاد الأعداء، لعدة فوائد:

منها: أن من حكمه البارئ تعالى أن يشرع لعباده الشرائع على وجه لا يشق

وجه الله. ﴿فَيَقْتُلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. زيادة في إيمانه ودينه، وغنيمته، وثناء حسناً، وثواب المجاهدين في سبيل الله الذين أعد الله لهم في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿٧٥﴾ ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمُ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنَ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾. هذا حث من الله لعباده المؤمنين، وتهيب لهم على القتال في سبيله، وأن ذلك قد تعين عليهم، وتوجه اللوم العظيم عليهم بتركه فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. والحال أن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، ومع هذا فقد نالهم أعظم الظلم من أعدائهم، فهم يدعون الله أن يخرجهم من هذه القرية الظالم أهلها لأنفسهم بالكفر والشرك وللمؤمنين بالأذى والصد عن سبيل الله، ومنعهم من الدعوة لدينهم والهجرة.

ويدعون الله أن يجعل لهم ولياً ونصيراً، يستنقذهم من هذه القرية الظالم أهلها، فصار جهادكم على هذا الوجه من باب القتال، والذبح عن عيالاتكم وأولادكم ومحارمكم، لا من باب الجهاد الذي هو الطمع في الكفار، فإنه وإن كان فيه فضل عظيم، ويلازم التخلف عنه أعظم لوم، فالجهاد الذي فيه استنقاذ المستضعفين منكم أعظم أجراً، وأكبر فائدة بحيث يكون من باب دفع الأعداء.

﴿٧٦﴾ ثم قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

هذا إخبار من الله بأن المؤمنين يقاتلون في سبيله ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يقاتلون في سبيل الطاغوت﴾ الذي هو الشيطان. في ضمن ذلك عدة فوائد:

فلهذا أمر هؤلاء بالإخلاص، والخروج في سبيله، فقال: ﴿فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة﴾. هذا أحد الأقوال في هذه الآية، وهو أصحها.

وقيل: إن معناه: فليقاتل في سبيل الله المؤمنون الكاملو الإيمان، الصادقون في إيمانهم ﴿الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة﴾ أي: يبيعون الدنيا رغبة عنها، بالآخرة رغبة فيها.

فإن هؤلاء هم الذين يؤججه إليهم الخطأ، لأنهم الذين قد أعندوا أنفسهم ووطنوها على جهاد الأعداء، لما معهم من الإيمان التام المقتضي لذلك.

وأما أولئك المتشاكسون، فلا يعاب بهم، خرجوا أو قعدوا، فيكون هذا نظير قوله تعالى: ﴿قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ تُبَدِّلُوا﴾ لا تؤمنوا، إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً إلى آخر الآيات. وقوله: ﴿فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾. وقيل: إن معنى الآية: فليقاتل المقاتل والمجاهد للكفار، الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، فيكون على هذا الوجه «الذين» في محل نصب على المفعولية.

﴿ومن يقاتل في سبيل الله﴾ بأن يكون جهاداً، قد أمر الله به ورسوله، ويكون العبد مخلصاً لله فيه قاصداً

ذلك، فإن تدبر كتاب الله مفتاح للعلوم والمعارف، وبه يستنتج كل خير وتستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب، وترسخ شجرته.

فإنه يعرف بالرب المعنود، وما له من صفات الكمال وما ينزه عنه من سمات النقص، ويعرف الطريق الموصل إليه، وصفة أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويعرف العدو الذي هو العدو على الحقيقة، والفرق بين الموصل إلى العذاب، وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب العقاب.

وكلما ازداد العبد تأملاً فيه، ازداد علماً وعملاً وبصيرة، لذلك أمر الله بذلك، وحث عليه، وأخبر أنه [هو] المقصود بانزال القرآن، كما قال تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته، وليتذكر أولو الألباب﴾ وقال تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾.

ومن فوائد التدبر لكتاب الله: أنه بذلك يصل العبد إلى درجة اليقين، والعلم بأنه كلام الله، لأنه يراه يصدق بعضه بعضاً، ويوافق بعضه بعضاً. فترى الحكم والقصة والإخبارات تعاد في القرآن في عدة مواضع، كلها متوافقة متصادقة، لا ينقض بعضها بعضاً، فبذلك يعلم كمال القرآن، وأنه من عند مَنْ أحاط علمه بجميع الأمور، فلذلك قال تعالى: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا﴾ أي: فلما كان من عند الله لم يكن فيه اختلاف أصلاً.

﴿٨٣﴾ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً هذا تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق. وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة، والمصالح العامة ما يتعلق بالأمن، وسرور المؤمنين، أو بالخوف الذي فيه

مضية عليهم، أن يثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردونه إلى الرسول، وإلى أولي الأمر منهم، أهل الرأي: والعلم والنصح، والعقل والبرائة، الذين يعرفون الأمور، ويعرفون المصالح وضدها.

فإن رأوا في إداعته مصلحة ونشاطاً للمؤمنين وسروراً لهم وتحرزاً من أعدائهم، فعلوا ذلك: وإن رأوا أنه ليس فيه مصلحة^(١)، أو فيه مضلة ولكن مضرة تزيد على مصلحته، لم يذيعوه، ولهذا قال: ﴿لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ أي: يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة، وعلومهم الرشيدة.

وفي هذا دليل لقاعدة أدبية، وهي أنه إذا خصل بحث في أمر من الأمور، ينبغي أن يولى مَنْ هو أهل لذلك، ويعمل إلى أهله، ولا يتقدم بين أيديهم، فإنه أقرب إلى الصواب وأحرى للسلامة من الخطأ. وفيه النهي عن العجلة والتسرع لنشر الأمور من حين سماعها، والأمر بالتأمل قبل الكلام والنظر فيه، هل هو مصلحة، فيقدم عليه الإنسان، أم لا؟ فيخرج عنه؟

ثم قال تعالى: ﴿ولو لا فضل الله عليكم ورحمته﴾ أي: في توفيقكم وتأديبكم، وتعليمكم ما لم تكونوا تعلمون، ﴿لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً﴾ لأن الإنسان بطبعه ظالم جاهل، فلا تأمره نفسه إلا بالشر. فإذا لجأ إلى ربه واعتصم به، واجتهد في ذلك، لطف به ربه ووفقه لكل خير، وعصمه من الشيطان الرجيم.

﴿٨٤﴾ فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرّض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً هذه الحالة أفضل أحوال العبد، أن يجتهد في نفسه على امتثال أمر الله من الجهاد وغيره، ويحرض غيره عليه، وقد يقدم في العبد الأمران أو أحدهما، فهذا قال

(١) في ب: ما فيه مصلحة.

(٢) في النسختين: ليس عليك.



لرسوله: ﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك﴾ أي: ليس لك^(٢) قدرة على غير نفسك، فلن تكلف بفعل غيرك.

﴿وحرّض المؤمنين﴾ على القتال، وهذا يشمل كل أمر يحصل به نشاط المؤمنين وقوة قلوبهم، من تقويتهم، والإخبار بضعف الأعداء، وفشلهم، وبما أعد الله للمقاتلين من الثواب، وما على المتخلفين من العقاب، فهذا وأمثاله كله يدخل في التحريض على القتال.

﴿عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا﴾ أي: بقتالكم في سبيل الله، وتحريض بعضكم بعضاً. ﴿والله أشد بأساً﴾ أي: قوة وعزة ﴿وأشد تنكيلاً﴾ بالذنوب في نفسه وتنكيلاً لغيره، فلن شاء تعالى لانتصر من الكفار بقوته ولم يجعل لهم باقية.

ولكن من حكمته يبلو بعض عباده ببعض، ليقوم سوق الجهاد، ويحصل الإيمان النافع، إيمان الاختيار، لا إيمان الاضطراب والقهر الذي لا يفيد شيئاً.

﴿٨٥﴾ من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شيء مقيتاً المراد بالشفاعة هنا:



ويؤخذ من الآية الكريمة الحث على ابتداء السلام والتحية، من وجهين:

أحدهما: أن الله أمر بردها بأحسن منها، أو مثلها، وذلك يستلزم أن التحية مطلوبة شرعاً.

الثاني: ما يستفاد من أفعال التفضيل، وهو «أحسن» الدال على مشاركة التحية وردّها بالحسن، كما هو الأصل في ذلك.

ويستثنى من عموم الآية الكريمة مَنْ حَتَا بِحَالٍ غَيْرِ مَأْمُورٍ بِهَا، كـ «على مشغل بقرعة، أو استخاف خطبة، أو فصل ونحو ذلك» فإنه لا يطلب إجابة تحيته، وكذلك يستثنى من ذلك من أمر الشارع بهجره، وعدم تحيته، وهو العاصي غير التائب الذي يرتدع بالهجر، فإنه يهجر ولا يحيا، ولا ترد تحيته، وذلك لمعارضة المصلحة الكبرى.

ويدخل في رد التحية كل تحية اعتادها الناس، وهي غير محظورة شرعاً، فإنه مأمور بردها أو أحسن منها، ثم أوعد تعالى وتوعد على فعل الحسنات والسيئات بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً﴾ فيحفظ على العباد أعمالهم، حسناتها وسيئاتها، صغيرها وكبيرها، ثم يجازيهم بما اقتضاه فضله وعدله وحكمه المحمود.

﴿٨٧﴾ **اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً يخبر تعالى، عن انفراد بالوحدانية، وأنه لا معبود ولا مألوه إلا هو، لكماله في ذاته وأوصافه، ولكونه المنفرد بالخلق والتدبير، والتعم الظاهرة والباطنة.

وذلك يستلزم الأمر بتعبادته، والتقرب إليه بجميع أنواع العبودية. لكونه المستحق لذلك وحده، والمجازي للعباد بما قاموا به من عبوديته أو تركوه منها، ولذلك أقسم على وقوع محل الجزاء وهو: يوم القيامة، فقال: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ أي: أولكم

وآخركم في مقام واحد.

في ﴿يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك ولا شبهة بوجه من الوجوه، بالدليل العقلي والدليل السمعي، فالدليل العقلي ما نشاهده من إحياء الأرض بعد موتها، ومن وجود النشأة الأولى التي وقوع الثانية أولى منها بالإمكان، ومن الحكمة التي يجزم بأن الله لم يخلق خلقه عبثاً، فيكون ثم يموتون، وأما الدليل السمعي، فهو إخبار أصدق الصادقين بذلك، بل إقسامه عليه، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً﴾ كذلك أمر رسوله ﷺ أن يقسم عليه في غير موضع من القرآن، كقوله تعالى: ﴿زَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُغَيِّرَ قُلُوبَنَا﴾ وربي لتبعن ثم لتبئن بما عملتم وذلك على الله يسير.

وفي قوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً﴾ إخبار بأن حديثه وأخباره وأقواله في أعلى مراتب الصدق، بل أعلاها. فكل ما قيل في العقائد [والعلوم] والأعمال مما يناقض ما أخبر الله به، فهو باطل لمناقضته للخبر الصادق اليقيني، فلا يمكن أن يكون حقاً.

﴿٨٨ - ٩١﴾ **فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةً** والله أركسهم بما كسبوا أنريدون أن عبدوا من أضل الله ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً * وذو لؤ تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا تَصْغُرُوا بِأَلْسِنَتِكُمْ يُصْغُرُ الَّذِينَ يَصْلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِثَاقٌ أَوْ جَاؤُكُمْ حَصْرَتٌ صُدُّوهُمْ أَنْ يَقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمُ السَّلَامُ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً * سَتَجِدُونَ أَكْثَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدَّوْا إِلَى الْفِتْنَةِ

المعاونة على أمر من الأمور، فمن شفع غيره وقام معه على أمر من أمور الخير - ومنه الشفاعة للمظلومين لمن ظلمهم - كان له نصيب من شفاعته، بحسب سعيه وعمله ونفعه، ولا ينقص من أجر الأصيل والمباشر شيء، ومن عاون غيره على أمر من الشر، كان عليه كفل من الإثم بحسب ما قام به وعاون عليه. ففي هذا الحث العظيم على التعاون على البر والتقوى، والزجر العظيم عن التعاون على الإثم والعدوان وقرر ذلك بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْبِيتاً﴾ أي: شاهداً حفيظاً، حسيباً على هذه الأعمال، فيجازي كلا ما يستحقه.

﴿٨٦﴾ **وَإِذَا حِيْتُمْ بِتَحِيَةٍ فَعْنُوا** بأحسن منها. أو ردوها إن الله كان على كل شيء حسيباً التحية هي اللفظ الصادر من أحد المتلاقيين، على وجه الإكرام والدعاء، وما يقتضيه بذلك اللفظ من الباشاشة ونحوها.

وأعلى أنواع التحية ما ورد به الشرع، من السلام ابتداء ورداً. فأمر تعالى المؤمنين أنهم إذا حيوا بأي تحية كانت، أن يردوها بأحسن منها لفظاً وبشاشة، أو مثلها في ذلك. ومفهوم ذلك النهي عن عدم الرد بالكلية، أو ردّها بدونها.

أرکسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتهموهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً^(١) المراد بالنافقين المذكورين في هذه الآيات: المنافقون المظهرون إسلامهم، ولم يهاجروا مع كفرهم، وكان قد وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم فيهم اشتباه، فبعضهم تخرج عن قتالهم، وقطع موالاتهم بسبب ما أظهروه من الإيمان، وبعضهم علم أحوالهم بقرائن أفعالهم، فحكم بكفرهم، فأخبرهم الله تعالى أنه لا ينبغي لكم أن تشبهوا فيهم ولا تشكوا، بل أمرهم واضح غير مشكل، إنهم منافقون قد تكرر كفرهم، وودوا مع ذلك كفرهم، وأن تكونوا مثلهم. فإذا تحققت ذلك منهم **فلا تتخذوا منهم أولياء** وهذا يستلزم عدم محبتهم، لأن الولاية فرع المحبة.

ويستلزم أيضاً بغضهم وعداوتهم، لأن النهي عن الشيء أمر بضده، وهذا الأمر موقت بهجرتهم، فإذا هاجروا جرى عليهم ما جرى على المسلمين، كما كان النبي ﷺ يجري أحكام الإسلام لكل من كان معه وهاجر إليه، وسواء كان مؤمناً حقيقة أو ظاهر الإيمان.

وأنهم إن لم يهاجروا وتولوا عنها **فخذوهم واقتلوهم** حيث وجدتموهم^(٢) أي: في أي وقت، وأي محل كان، وهذا من جملة الأدلة الدالة على نسخ القتال في الأشهر الحرم، كما هو قول جمهور العلماء والمنازعون يقولون: هذه نصوص مطلقة، محمولة على تقييد التحريم في الأشهر الحرم.

ثم إن الله استثنى من قتال هؤلاء المنافقين ثلاث فرق:

فرقتين أمر بتركهم وحتم [على] ذلك، إحداهما^(٣) من يصل إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق بترك القتال، فينضم إليهم، فيكون له حكمهم في حق الدم والمال.

والفرقة الثانية قوم **حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم** أي: بقوا، لا تسمح أنفسهم بقتالكم، ولا بقتال قومهم، وأحبوا ترك قتال الفريقين، فهؤلاء أيضاً أمر بتركهم، وذكر الحكمة بذلك في قوله: **ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم** فإن الأمور الممكنة ثلاثة أقسام:

إما أن يكونوا معكم ويقاتلوا أعداءكم، وهذا متعذر من هؤلاء، فدار الأمر بين قتالكم مع قومهم، وبين ترك قتال الفريقين، وهو أهون الأمرين عليكم، والله قادر على تسليطهم عليكم، فاقبلوا العافية، واحمدوا ربكم الذي كف أيديهم عنكم مع التمكن من ذلك.

فهؤلاء **إن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً**.

الفرقة الثالثة: قوم يريدون مصلحة أنفسهم، بقطع النظر عن احترامكم، وهم الذين قال الله فيهم: **ستجدون آخرين** أي: من هؤلاء المنافقين. **يريدون أن يأمنوكم** أي: خوفاً منكم **ويأمنوا قومهم** كلما زدوا إلى الفتنة أركسوا فيها^(٤) أي: لا يزالون مقيمين على كفرهم ونفاقهم، وكلما عرض لهم عارض من عوارض الفتن، أعماهم ونكسهم على رؤوسهم، وازداد كفرهم ونفاقهم، وهؤلاء في الصورة كالفرقة الثانية، وفي الحقيقة مخالفة لها.

فإن الفرقة الثانية تركوا قتال المؤمنين

احتراماً لهم، لا خوفاً على أنفسهم، وأما هذه الفرقة فتركوه خوفاً لا احتراماً، بل لو وجدوا فرصة في قتال المؤمنين، فإنهم مستعدون^(٥) لانتهازها، فهؤلاء إن لم يتبين منهم، ويتضح انضاحاً عظيماً اعتزال المؤمنين وترك قتالهم، فإنهم يقاتلون، ولهذا قال: **فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم** أي: المسألة والمواعدة **ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم** حيث ثقتهموهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً^(٦) أي: حجة بينة واضحة، لكونهم معتدين ظالمين لكم تاركين للمسألة، فلا يلومون إلا أنفسهم.

﴿٩٢﴾ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله، وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليمًا حكيمًا هذه الصيغة من صيغ الامتناع، أي: يمتنع ويستحيل، أن يصدر من مؤمن قتل مؤمن، أي: متعمداً، وفي هذا الإخبار بشدة تحريره، وأنه منافي للإيمان أشد منافاة، وإنما يصدر ذلك إما من كافر، أو من فاسق قد نقص إيمانه نقصاً عظيماً، ويخشى عليه ما هو أكبر من ذلك، فإن الإيمان الصحيح يمنع المؤمن من قتل أخيه الذي قد عقد الله بينه وبينه الأخوة الإيمانية، التي من مقتضاها محبة وموالاته، وإزالة ما يعرض لأخيه من الأذى، وأي: أذى أشد من القتل؟

وهذا يصدق قوله ﷺ: **«لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب**

(١) في هامش أ: (وقد ثبت في الصحيحين من حديث زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ، خرج إلى أحد، فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين: فرقة تقول: تقتلهم، وفرقة تقول: لا. فأنزل الله: **﴿فما لكم في المنافقين فئتين﴾** فقال رسول الله ﷺ: **«إنها طيبة، وإنها تنفي الخبيث كما تنفي النار خبيث الحديد»**. وليس هناك علامة تدل على محل هذه الزيادة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: أهداه.

(٣) في ب: سيقدمون.

بعضكم رقاب بعض». فلعلم أن القتل من الكفر العملي، وأكبر الكبائر بعد الشرك بالله.

ولما كان قوله: «وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً» لفظاً عاماً لجميع الأحوال، وأنه لا يصدر منه قتل أخيه بوجه من الوجوه، استثنى تعالى قتل الخطأ فقال: «إلا خطأ» فإن المخطئ الذي لا يقصد القتل غير آثم، ولا متجرى على محارم الله، ولكنه لما كان قد فعل فعلاً شنيعاً، وصورته كافية في قبحه، وإن لم يقصد أمر تعالى بالكفارة والدية فقال: «ومن قتل مؤمناً خطأ» سواء كان القاتل ذكراً أو أنثى، حراً أو عبداً، صغيراً أو كبيراً، عاقلاً أو مجنوناً، مسلماً أو كافراً، كما يفيد لفظ «من» الدالة على العموم، وهذا من أسرار الإتيان بـ «من» في هذا الموضع، فإن سياق الكلام يقتضي أن يقول: فإن قتله، ولكن هذا لفظ لا يشمل ما تشمله «من».

وسواء كان المقتول ذكراً أو أنثى، صغيراً أو كبيراً، كما يفيد التذكير في سياق الشرط، فإن على القاتل «تحرير رقبة مؤمنة» كفارة لذلك، تكون في ماله، ويشمل ذلك الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والصحيح والمعيّب، في قول بعض العلماء.

ولكن الحكمة تقتضي أن لا يجزى عتق المعيب في الكفارة؛ لأن المقصود بالعتق نفع العتيق، وملكه منافع نفسه، فإذا كان يضيع بعته، وبقاؤه في الرق أنفع له، فإنه لا يجزى عتقه، مع أن في قوله: «تحرير رقبة» ما يدل على ذلك؛ فإن التحرير: تخليص من استحققت منافع لغيره أن تكون له، فإذا لم يكن فيه منافع، لم يتصور وجود التحرير. فتأمل ذلك، فإنه واضح.

وأما الدية فإنها تحبب على عاقلة القاتل في الخطأ وشبه العمد.

«مسلمة إلى أهله» جبراً لقلوبهم، والمراد بأهله هنا هم ورثته، فإن الورثة يرثون ما ترك الميت، فالدية داخله فيما

ترك، وللدية تفاصيل كثيرة مذكورة في كتب الفقه.

وقوله: «إلا أن يضدقوا» أي: يتصدق ورثة القاتل بالعفو عن الدية، فإنها تسقط، وفي ذلك حث لهم على العفو، لأن الله سماها صدقة، والصدقة مطلوبة في كل وقت. «فإن كان المقتول من قوم عدو لكم» أي: من كفار حربيين «وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة» أي: وليس عليكم لأهله دية، لعدم احترامهم في دمائهم وأموالهم.

«وإن كان المقتول من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله» وتحرير رقبة مؤمنة «وذلك لاحترام أهله بما لهم من العهد والميثاق».

«فمن لم يجد الرقبة ولا ثمنها، بأن كان معسراً بذلك، ليس عنده ما يفضل عن مؤنته وحوائجه الأصلية شيء يفي بالرقبة، «فصيام شهرين متتابعين» أي: لا يفطر بينهما من غير عذر، فإن أفطر لعذر، فإن العذر لا يقطع التتابع، كالمرض والحض ونحوهما. وإن كان لغير عذر، انقطع التتابع، ووجب عليه استئناف الصوم.

«توبة من الله» أي: هذه الكفارة التي أوجبها الله على القاتل توبة من الله على عباده، ورحمة بهم، وتكفير لما عساه أن يحصل منهم من تقصير وعدم احتراز، كما هو واقع كثيراً للقاتل خطأ.

«وكان الله عليمًا حكيمًا» أي: كامل العلم كامل الحكمة، لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، في أي وقت كان وأي محل كان.

ولا يخرج عن حكمته من المخلوقات والشرائع شيء، بل كل ما خلقه وشرعه، فهو متضمن لغاية الحكمة، ومن علمه وحكمته أن أوجب على القاتل كفارة مناسبة لما

صدر منه، فإنه تسبب لإعدام نفس محترمة، وأخرجها من الوجود إلى العدم، فناسب أن يعتق رقبة ويخرجها من رق العبودية للخلق إلى الحرية التامة، فإن لم يجد هذه الرقبة صام شهرين متتابعين، فأخرج نفسه من رق الشهوات واللذات الحسية القاطعة للعبد عن سعادته الأبدية إلى التعبد لله تعالى بتركها تقريباً إلى الله.

ومدها تعالى بهذه المدة الكثيرة الشاقة في عدها، وجوب التتابع فيها، ولم يشرع الإطعام في هذا الموضع لعدم المناسبة: بخلاف الظهار، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ومن حكمته أن أوجب في القتل الدية، ولو كان خطأ، لتكون رادعة وكافة عن كثير من القتل، باستعمال الأسباب العاصمة عن ذلك.

ومن حكمته أن وجبت على العاقلة في قتل الخطأ، بإجماع العلماء، لكون القاتل لم يذنب فيشق عليه أن يحمل هذه الدية الباهظة، فناسب أن يقوم بذلك من بينه وبينهم المعاونة والمناصرة، والمساعدة على تحصيل المصالح وكف الفساد ولعل ذلك من أسباب منعهم لمن يعقلون عنه من القتل حذراً من تحميلهم^(١)، ويخفف عنهم^(٢) بسبب توزيعه عليهم بقدر أحوالهم وطاقتهم، وخففت أيضاً بتأجيلها عليهم ثلاث سنين.

ومن حكمته وعلمه أن جبر أهل القاتل عن مضيبتهن، بالدية التي أوجبها على أولياء القاتل.

«٩٣» «ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها و غضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً» تقدم أن الله أخبر أنه لا يصدر قتل المؤمن من المؤمن، وأن القتل من الكفر العملي، وذكر هنا وعيد القاتل عمداً، وعيداً ترجف له القلوب، وتنصدع له الأفئدة، وتترزع منه أولو العقول.

فلم يزد في أنواع الكبائر أعظم من هذا الوعيد، بل ولا مثله، ألا وهو

(٢) في ب: عليهم.

(١) زيادة من هامش: ب.

مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتيبوا إن الله كان بما تعملون خبيراً يا أمر تعالى عباده المؤمنين إذا خرجوا جهاداً في سبيله، وابتغاه مرضاته أن يتيبوا ويثبتوا في جميع أمورهم المشبهة.

فإن الأمور قسمان: واضحة وغير واضحة.

فالواضحة البينة لا تحتاج إلى تثبت وتبين، لأن ذلك تحصيل حاصل.

وأما الأمور المشككة غير الواضحة، فإن الإنسان يحتاج إلى التثبت فيها والتبين، ليعرف هل يقدم عليها أم لا؟

فإن التثبت في هذه الأمور يحصل

فيه من الفوائد الكثيرة، والكف لشرو

عظيمة، ما به يعرف دين العبد وعقله

ورزاقته، بخلاف المستعجل للأمور في

بدايتها^(١)، قيل أن يتبين له حكمها،

فإن ذلك يؤدي إلى ما لا ينبغي، كما

جرى لهؤلاء الذين عاتبهم الله في

الآية، لما لم يثبتوا وقتلوا من سلم

عليهم، وكان معه غنيمة له أو مال

غيره، ظناً أنه يستكفي بذلك قتلهم،

وكان هذا خطأ في نفس الأمر، فلهذا

عاتبهم بقوله: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى

إليك السلام لست مؤمناً تبتغون عرض

الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة﴾

أي: فلا يحملنكم العرض الفاني

القليل، على ارتكاب ما لا ينبغي

فيفوتكم ما عند الله من الثواب الجزيل

الباقى، فما عند الله خير وأبقى.

وفي هذا إشارة إلى أن العبد ينبغي له

إذا رأى دواعي نفسه مائلة إلى حالة له

فيها هوى، وهي مضرة له أن يذكرها

ما أعد الله لمن نهى نفسه عن هواها،

وقدم مرضاة الله على رضا نفسه، فإن

في ذلك ترغيباً للنفس في امتثال

أمر الله، وإن شق ذلك عليها.

ثم قال تعالى مذكراً لهم بحالهم

الأولى، قبل هدايتهم إلى الإسلام:

﴿كذلك كنتم من قبل فمن الله

عليكم﴾ أي: فكما هذاكم بعد

ضلالكم، فكذلك يهذي غيركم،

وهو مقتضى الحكمة السارية في الوجود، وبه ارتباط الأسباب ومسبباتها، خلقاً وأمرأ، وقد جعل الله سبحانه لكل ضد ضداً يذافعه ويقاومه، ويكون الحكم للأغلب منهما.

فالقوة مقتضية للصحة والعافية،

وفساد الأخلاق وبغيها مانع من عمل

الطبيعية، وفعل القوة، والحكم للغالب

منهما، وكذلك قوى الأدوية

والأمراض. والعبد يكون فيه مقتض

للصحة، ومقتض للعطب، وأحدهما

يمنع كمال تأثير الآخر ويقاومه، فإذا

ترجح عليه وقهره، كان التأثير له.

ومن هنا يعلم انقسام الخلق إلى من

يدخل الجنة ولا يدخل النار،

وعكسه، ومن يدخل النار ثم يخرج

منها، ويكون مكانه فيها بحسب ما فيه

من مقتضى المكث في سرعة الخروج

ويطئه. ومن له بصيرة منورة يرى بها

كل ما أخبر الله به في كتابه، من أمر

المعاد وتفاصيله، حتى كأنه يشاهده

رأى: عين.

ويعلم أن هذا هو مقتضى إلهيته

سبحانه، وربوبيته، وعزته، وحكمته،

وأنه يستحيل عليه خلاف ذلك، ونسبة

ذلك إليه نسبة ما لا يليق به إليه،

فيكون نسبة ذلك إلى بصيرته، كنسبة

الشمس والنجوم إلى بصره.

وهذا يقين الإيمان، وهو الذي

يحرق السيئات، كما تحرق النار

الخطيب، وصاحب هذا المقام من

الإيمان يستحيل إضراره على السيئات،

وإن وقعت منه وكثرت، فإن ما معه

من نور الإيمان يأمره بتجديد التوبة كل

وقت بالرجوع إلى الله في عدد أنفاسه،

وهذا من أحب الخلق إلى الله. انتهى

كلامه، قدس الله روحه، وجزاه عن

الإسلام والمسلمين خيراً.

﴿٩٤﴾ يا أيها الذين آمنوا إذا

ضربتم في سبيل الله فتيبوا ولا تقولوا

لن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً

تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله

الإخبار بأن جزاء جهنم، أي: فهذا الذنب العظيم قد انتهض وحده أن يجازى صاحبه بجهنم، بما فيها من العذاب العظيم، والخزي المهين، وسخط الجبار وفوات الفوز والفلاح، وحصول الخيبة والخسار. فعياداً بالله من كل سبب يبعد عن رحته.

وهذا الوعيد له حكم أمثاله من نصوص الوعيد، على بعض الكياف والمعاضي بالخلود في النار، أو حرمان الجنة.

وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في تأويلها، مع اتفاقهم على بطلان قول الخوارج والمعتزلة الذين يخلدونهم في النار ولو كانوا موحدين. والصواب في تأويلها ما قاله الإمام المحقق: شمس الدين بن القيم رحمه الله في «المدارج» فإنه قال - بعدما ذكر تأويلات الأئمة في ذلك وانتقدها فقال:

وقالت فرقة: هذه النصوص وأمثالها ما ذكر فيه المقتضي للعقوبة، ولا يلزم من وجود مقتضى الحكم وجوده، فإن الحكم إنما يتم بوجود مقتضيه وانقضاء موانعه.

وغاية هذه النصوص الإعلام بأن كذا سبب للعقوبة ومقتض لها، وقد قام الدليل على ذكر الموانع، فبعضها بالإجماع، وبعضها بالنص. فالتوبة مانع بالإجماع، والتوحيد مانع بالنصوص المتواترة التي لا مدفع لها والخسرات العظيمة الماحية مانعة، والمصائب الكبار المكفرة مانعة، وإقامة الحدود في الدنيا مانع بالنص، ولا سبيل إلى تعطيل هذه النصوص، فلا بد من إعمال النصوص من الجنائين.

ومن هنا قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات، اعتباراً بمقتضى العقاب وموانعه، وإعمالاً لأرجحها.

قالوا: وعلى هذا بناء مصالح الدارين ومفاسدهما. وعلى هذا بناء الأحكام الشرعية، والأحكام القدرية،

المؤمنين». وكما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلٌ أَمْ لَا يَكُنْ كَذَلِكَ﴾. ثم قال: ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ وكما قال تعالى: ﴿فَفَهَّمَهَا سَلِيمَانَ وَكَلَّا آتَيْنَاهَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ فينبغي لمن بحث في التفضيل بين الأشخاص والطوائف والأعمال، أن يتفطن لهذه النكتة.

وكذلك لو تكلم في ذم الأشخاص والمقالات، ذكر ما تجتمع فيه عند تفضيل بعضها على بعض، لئلا يتوهم أن المفضل قد حصل له الكمال. كما إذا قيل: النصراني خير من المجوس، فليقل مع ذلك: وكل منهما كافر. والقتل أشنع من الزنا، وكل منهما معصية كبيرة، حرمها الله ورسوله وزجر عنها.

ولما وعد المجاهدين بالمغفرة والرحمة الصادقين عن اسميه الكريمين ﴿الغفور الرحيم﴾ ختم هذه الآية بهما فقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

﴿٩٧ - ٩٩﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ * إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً * فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً * هذا الوعيد الشديد لمن ترك الهجرة مع قدرته عليها حتى مات، فإن الملائكة الذين يقيضون روحه، يويخونه بهذا التوبيخ العظيم، ويقولون لهم: ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾ أي: على أي حال كنتم؟ وبأي شيء تميزتم عن المشركين؟ بل كثرتم سوادهم، وربما ظاهرتهم على المؤمنين، وفاتكم الخير الكثير والجهاد مع رسوله والكون مع المسلمين ومعاونتهم على أعدائهم.

﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ضعفاء مهقورين مظلومين، ليس لنا قدرة على الهجرة. وهم غير صادقين في ذلك، لأن الله وبخهم

سبيل الله لولا وجود المانع، يتمنى ذلك ويحدث به نفسه، فإنه بمنزلة من خرج للجهاد، لأن النية الجازمة إذا اقترن بها مقدورها من القول أو الفعل ينزل صاحبها منزلة الفاعل.

ثم صرح تعالى بتفضيل المجاهدين على القاعدين بالدرجة، أي: الرفعة، وهذا تفضيل على وجه الإجمال، ثم صرح بذلك على وجه التفصيل، ووعدهم بالمغفرة الصادرة من ربهم، والرحمة التي تشتمل على حصول كل خير، واندفاع كل شر.

والدرجات التي فصلها النبي ﷺ بالحديث الثابت عنه في «الصححين»، أن في الجنة مئة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله.

وهذا الثواب الذي رتبته الله على الجهاد، نظير الذي في سورة الصف في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُجْنِبُكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تَأْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ إلى آخر السورة.

وتأمل حسن هذا الانتقال، من حالة إلى أعلى منها، فإنه نفى التسوية أولاً بين المجاهد وغيره، ثم صرح بتفضيل المجاهد على القاعد بدرجة، ثم انتقل إلى تفضيله بالمغفرة والرحمة والدرجات.

وهذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها عند التفضيل والمدح، أو النزول من حالة إلى ما دونها، عند القدح والذم - أحسن لفظاً، وأوقع في النفس.

وكذلك إذا فضل تعالى شيئاً على شيء، وكل منهما له فضل، احرص بذكر الفضل الجامع للأمرين، لئلا يتوهم أحد ذم المفضل عليه كما قال هنا: ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾.

وكما [قال تعالى] في الآيات المذكورة في الصف في قوله: ﴿وَيُشْرُ

وَكَمَا أَنَّ الْهَدَايَةَ حَصَلَتْ لَكُمْ شَيْئاً فَشَيْئاً، فَكَذَلِكَ غَيْرُكُمْ.

فنظر الكامل لحاله الأولى الناقصة، ومعاملته لمن كان على مثله، بمقتضى ما يعرف من حاله الأولى، ودعاؤه له بالحكمة والموعظة الحسنة - من أكبر الأسباب لنفعه وانتفاعه، ولهذا أعاد الأمر بالتبين فقال: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾.

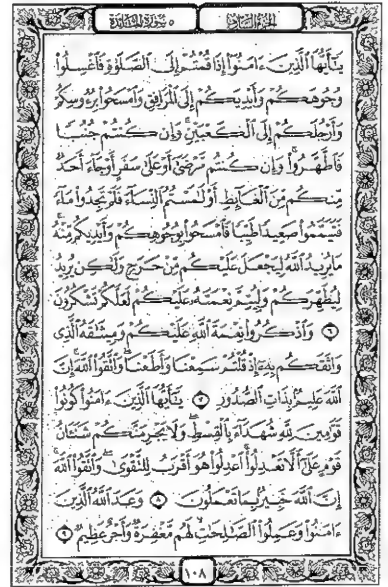
فإذا كان من خرج للجهاد في سبيل الله، ومجاهدة أعداء الله، وقد استعد بأنواع الاستعداد للإيقاع بهم، مأموراً بالتبين لمن ألقى إليه السلام، وكانت القرينة قوية، في أنه إنما سلم تعوداً من القتل، وخوفاً على نفسه - فإن ذلك يدل على الأمر بالتبين والتثبت في كل الأحوال التي يقع فيها نوع اشتباه، فثبتت فيها العبد، حتى يتضح له الأمر ويبين الرشد والصواب.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيجازي كل ما عمله ونواه، بحسب ما علمه من أحوال عباده ونياتهم.

﴿٩٥ - ٩٦﴾ ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ * درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً * أي: لا يستوي من جاهد من المؤمنين بنفسه وماله، ومن لم يخرج للجهاد ولم يقاتل أعداء الله، ففيه الحث على الخروج للجهاد، والترغيب في ذلك، والترهيب من التكاثر والقعود عنه من غير عذر.

وأما أهل الضرر كالمرضى والأعمى والأعرج، والذي لا يجد ما يتجهز به، فإنهم ليسوا بمنزلة القاعدين من غير عذر، فمن كان من أولي الضرر راضياً بقعوده، لا ينوي الخروج في سبيل الله لولا [وجود] المانع، ولا يحدث نفسه بذلك، فإنه بمنزلة القاعد لغير عذر.

ومن كان عازماً على الخروج في



«رحيماً» بجميع الخلق، رحمة أوجدتهم وعافتهم، ورزقهم من المال والبنين والقوة، وغير ذلك. رحيماً بالمؤمنين، حيث وفقهم للإيمان، وعلمهم من العلم ما يحصل به الإيقان، ويسر لهم أسباب السعادة والفلاح، وما به يدركون غاية الأرباح، وسيرون من رحمته وكرمه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فنسأل الله أن لا يحرمنا خيره بشر ما عندنا.

﴿١٠١-١٠٢﴾ «وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً» وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من وراءكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم وذ الذين كفروا لو تخفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذاباً مبيناً» هاتان الآيتان أصل في رخصة القصر، وصلاة

الخوف، يقول تعالى: «وإذا ضربتم في الأرض» أي: في السفر، وظاهر الآية: [أنه] يقتضي الترخص^(١) في أي: سفر كان، ولو كان سفر معصية، كما هو مذهب أبي حنيفة رحمه الله، وخالف في ذلك الجمهور، وهم الأئمة الثلاثة وغيرهم، فلم يجوزوا الترخص^(٢) في سفر المعصية، تخصيصاً للآية بالمعنى والمناسبة، فإن الرخصة سهولة من الله لعباده إذا سافروا أن يقصروا ويفطروا، والعاصي بسفره، لا يناسب حاله التخفيف.

وقوله: «فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة» أي: لا حرج ولا إثم عليكم في ذلك، ولا ينافي ذلك كون القصر هو الأفضل، لأن نفي الحرج إزالة لبعض الوهم الواقع في كثير من النفوس، بل ولا ينافي الوجوب، كما تقدم ذلك في سورة البقرة، في قوله: «إن الصفا والمروة من شعائر الله» إلى آخر الآية.

وإزالة الوهم في هذا الموضع ظاهرة، لأن الصلاة قد تقرر عند المسلمين وجوبها على هذه الصفة الشامة، ولا يزيل هذا عن نفوس أكثرهم إلا بذكر ما ينافيه.

ويدل على أفضلية القصر على الإتمام أمران:

أحدهما: ملازمة النبي ﷺ على القصر في جميع أسفاره.

والثاني: أن هذا من باب التوسعة والتخييص والرحمة بالعباد، والله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته.

وقوله: «أن تقصروا من الصلاة» ولم يقل أن تقصروا الصلاة، فيه فائدتان:

أحدهما: أنه لو قال أن تقصروا الصلاة، لكان القصر غير منضبط بحد من الحدود، فربما ظن أنه لو قصر معظم الصلاة وجعلها ركعة واحدة، لأجزأ، فإتيانه بقوله: «من الصلاة» يدل ذلك على أن القصر محدود

مضبوط، مرجوع فيه إلى ما تقرر من فعل النبي ﷺ وأصحابه.

الثانية: أن «من» تفيد التبعية، ليعلم بذلك أن القصر لبعض الصلوات المفروضة، لا جميعها، فإن الفجر والمغرب لا يقصران، وإنما الذي يقصر الصلاة الرباعية من أربع إلى ركعتين.

فيما تقرر أن القصر في السفر رخصة، فاعلم أن المفسرين قد اختلفوا في هذا القيد، وهو قوله: «إن خفتكم الذين كفروا» الذي يدل ظاهره أن القصر لا يجوز إلا بوجود الأئمة من كليهما، السفر مع الخوف.

ويرجع حاصل اختلافهم إلى أنه هل المراد بقوله: «أن تقصروا» قصر العدد فقط؟ أم قصر العدد والصفة؟ فالإشكال إنما يكون على الوجه الأول.

وقد أشكل هذا على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حتى سأل عنه النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، ما لنا نقصر الصلاة وقد أمنا؟ أي: والله يقول: «إن خفتكم الذين كفروا» فقال رسول الله ﷺ: «صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته» أو كما قال.

فعلى هذا يكون هذا القيد أي به نظراً لغالب الحال التي كان النبي ﷺ وأصحابه عليها، فإن غالب أسفارهم أسفار جهاد.

وفيه فائدة أخرى، وهي بيان الحكمة والمصلحة في مشروعية رخصة القصر، فبين في هذه الآية أنه ما يتصور من المشقة المناسبة للرخصة، وهي اجتماع السفر والخوف، ولا يستلزم ذلك أن لا يقصر مع السفر وحده، الذي هو مظنة المشقة.

وأما على الوجه الثاني، وهو أن المراد بالقصر: قصر العدد والصفة، فإن القيد على بابه، فإذا وجد السفر والخوف جاز قصر العدد، وقصر الصفة، وإذا وجد السفر وحده جاز

(٢) في ب: الترخيص.

(١) في ب: الترخيص.

قصر العدد فقط، أو الخوف وحده جاز قصر الصفة.

ولذلك أتى بصفة صلاة الخوف بعدها بقوله: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ أي: صليت بهم صلاة تقيمها، وتتم ما يجب فيها ويلزم، فعملهم ما ينبغي لك ولهم فعله.

ثم فسر ذلك بقوله: ﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾ أي: وطائفة قائمة بإزاء العدو، كما يدل على ذلك ما يأتي: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا﴾ أي: الذين معك، أي: أكملوا صلاتهم، وعبر عن الصلاة بالسجود، ليدل على فضل السجود، وأنه ركن من أركانها، بل هو أعظم أركانها.

﴿فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يَصَلُوا﴾ وهم الطائفة الذين قاموا إزاء العدو ﴿فَلْيَصَلُوا مَعَكَ﴾ دل ذلك على أن الإمام يبقى بعد انصراف الطائفة الأولى منتظراً للطائفة الثانية، فإذا حضروا صلى بهم ما بقي من صلاته، ثم جلس ينتظرهم حتى يكملوا صلاتهم، ثم يسلم بهم، وهذا أحد الوجوه في صلاة الخوف.

فإنها صحت عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة كلها جائزة، وهذه الآية تدل على أن صلاة الجماعة فرض عين من وجهين:

أحدهما: أن الله تعالى أمر بها في هذه الحالة الشديدة، وقت اشتداد الخوف من الأعداء وحذر مهاجمتهم، فإذا أوجبها في هذه الحالة الشديدة، فإيجابها في حالة الطمأنينة والأمن من باب أولى وأحرى.

والثاني: أن المصلين صلاة الخوف يتركون فيها كثيراً من الشروط واللوازم، ويعفى فيها عن كثير من الأفعال المبطلّة في غيرها، وما ذلك إلا لتأكد وجوب الجماعة، لأنه لا تعارض بين واجب ومستحب، فلولا وجوب الجماعة لم تترك هذه الأمور اللازمة لأجلها.

وتدل الآية الكريمة على أن الأولى والأفضل أن يصلوا بإمام واحد. ولو تضمن ذلك الإخلال بشيء، لا يخل به

لو صلوها بعدة أئمة، وذلك لأجل اجتماع كلمة المسلمين واتفاقهم، وعدم تفرق كلمتهم، وليكون ذلك أوقع هبة في قلوب أعدائهم، وأمر تعالى بأخذ السلاح، والحذر في صلاة الخوف، وهذا وإن كان فيه حركة واشتغال عن بعض أحوال الصلاة، فإن فيه مصلحة راجحة، وهو الجمع بين الصلاة والجهاد، والحذر من الأعداء الحريصين غاية الحرص على الإيقاع بالمسلمين، والميل عليهم وعلى أمتعتهم ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلَحَتِكُمْ وَأَمْتَعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾.

ثم إن الله عذر من له عذر، من مرض أو مطر، أن يضع سلاحه، ولكن مع أخذ الحذر فقال: ﴿وَلَا تُجَنَّحْ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً﴾.

ومن العذاب المهين ما أمر الله به جزبه المؤمنين وأنصار دينه الموحدين، من قتلهم وقتالهم جيشاً تقفوه، ويأخذوهم ويحصرهم، ويقعدوا لهم كل مرصد، ويحذروهم في جميع الأحوال، ولا يغفلوا عنهم، خشية أن ينال الكفار بعض مطلوبهم فيهم.

فله أعظم حمد وثناء على ما من به على المؤمنين، وأيدهم بمعونته وتعاليمه التي لو سلكوها على وجه الكمال لم تهزم لهم راية، ولم يظهر عليهم عدو في وقت من الأوقات.

وفي قوله: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ﴾ يدل على أن هذه الطائفة تكمل جميع صلاتها قبل ذهابهم إلى موضع الحارسين. وأن الرسول ﷺ يثبت منتظراً للطائفة الأخرى قبل السلام، لأنه أولاً ذكر أن الطائفة تقوم معه، فأخبر عن مصاحبتهم له. ثم أضاف الفعل بعد إليهم دون الرسول، فدل ذلك على ما ذكرناه.

وفي قوله: ﴿وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يَصَلُوا فَلْيَصَلُوا مَعَكَ﴾ دليل على أن الطائفة الأولى قد صلوا، وأن جميع

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَتَعْتَبُونَ مَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُسَلِّطُوا إِلَيْكُمْ إِلَهُكُمْ إِذْ أَنْتُمْ فُتِنْتُمْ بِهِمْ قُلْ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا فِيهِمْ رَسُولًا لِيَمْلِكُنَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَنَعْبُدَ إِلَهُكُمُ اللَّهُ فَأَخَذْتُمُ الْعَصَاةَ وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ ﴿١٠٤﴾ وَبَعَثْنَا فِيهِمْ رَسُولًا لِيَمْلِكُنَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَنَعْبُدَ إِلَهُكُمُ اللَّهُ فَأَخَذْتُمُ الْعَصَاةَ وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ وَبَعَثْنَا فِيهِمْ رَسُولًا لِيَمْلِكُنَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَنَعْبُدَ إِلَهُكُمُ اللَّهُ فَأَخَذْتُمُ الْعَصَاةَ وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ ﴿١٠٦﴾ وَبَعَثْنَا فِيهِمْ رَسُولًا لِيَمْلِكُنَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَنَعْبُدَ إِلَهُكُمُ اللَّهُ فَأَخَذْتُمُ الْعَصَاةَ وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ وَبَعَثْنَا فِيهِمْ رَسُولًا لِيَمْلِكُنَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَنَعْبُدَ إِلَهُكُمُ اللَّهُ فَأَخَذْتُمُ الْعَصَاةَ وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ ﴿١٠٨﴾ وَبَعَثْنَا فِيهِمْ رَسُولًا لِيَمْلِكُنَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَنَعْبُدَ إِلَهُكُمُ اللَّهُ فَأَخَذْتُمُ الْعَصَاةَ وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ ﴿١٠٩﴾ وَبَعَثْنَا فِيهِمْ رَسُولًا لِيَمْلِكُنَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَنَعْبُدَ إِلَهُكُمُ اللَّهُ فَأَخَذْتُمُ الْعَصَاةَ وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ ﴿١١٠﴾ وَبَعَثْنَا فِيهِمْ رَسُولًا لِيَمْلِكُنَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَنَعْبُدَ إِلَهُكُمُ اللَّهُ فَأَخَذْتُمُ الْعَصَاةَ وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ ﴿١١١﴾ وَبَعَثْنَا فِيهِمْ رَسُولًا لِيَمْلِكُنَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَنَعْبُدَ إِلَهُكُمُ اللَّهُ فَأَخَذْتُمُ الْعَصَاةَ وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ ﴿١١٢﴾ وَبَعَثْنَا فِيهِمْ رَسُولًا لِيَمْلِكُنَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَنَعْبُدَ إِلَهُكُمُ اللَّهُ فَأَخَذْتُمُ الْعَصَاةَ وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ ﴿١١٣﴾ وَبَعَثْنَا فِيهِمْ رَسُولًا لِيَمْلِكُنَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَنَعْبُدَ إِلَهُكُمُ اللَّهُ فَأَخَذْتُمُ الْعَصَاةَ وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ ﴿١١٤﴾ وَبَعَثْنَا فِيهِمْ رَسُولًا لِيَمْلِكُنَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَنَعْبُدَ إِلَهُكُمُ اللَّهُ فَأَخَذْتُمُ الْعَصَاةَ وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ ﴿١١٥﴾ وَبَعَثْنَا فِيهِمْ رَسُولًا لِيَمْلِكُنَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَنَعْبُدَ إِلَهُكُمُ اللَّهُ فَأَخَذْتُمُ الْعَصَاةَ وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ ﴿١١٦﴾ وَبَعَثْنَا فِيهِمْ رَسُولًا لِيَمْلِكُنَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَنَعْبُدَ إِلَهُكُمُ اللَّهُ فَأَخَذْتُمُ الْعَصَاةَ وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ ﴿١١٧﴾ وَبَعَثْنَا فِيهِمْ رَسُولًا لِيَمْلِكُنَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَنَعْبُدَ إِلَهُكُمُ اللَّهُ فَأَخَذْتُمُ الْعَصَاةَ وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ ﴿١١٨﴾ وَبَعَثْنَا فِيهِمْ رَسُولًا لِيَمْلِكُنَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَنَعْبُدَ إِلَهُكُمُ اللَّهُ فَأَخَذْتُمُ الْعَصَاةَ وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ ﴿١١٩﴾ وَبَعَثْنَا فِيهِمْ رَسُولًا لِيَمْلِكُنَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَنَعْبُدَ إِلَهُكُمُ اللَّهُ فَأَخَذْتُمُ الْعَصَاةَ وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ ﴿١٢٠﴾

صلاة الطائفة الثانية تكون مع الإمام حقيقة في ركعتهم الأولى، وحكماً في ركعتهم الأخيرة، فيستلزم ذلك انتظار الإمام إياهم حتى يكملوا صلاتهم، ثم يسلم بهم، وهذا ظاهر للشمائل.

﴿١٠٣﴾ ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا لِلَّهِ قِيَاماً وَقَعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً﴾ أي: فإذا فرغتم من صلاتكم، صلاة الخوف وغيرها، فادكروا الله في جميع أحوالكم وهيئاتكم، ولكن خصت صلاة الخوف بذلك لفوائده. منها: أن القلب صلاحه وفلاحه وسعادته، بالإجابة إلى الله تعالى في المحبة وامتلاء القلب من ذكره والثناء عليه.

وأعظم ما يحصل به هذا المقصود الصلاة، التي حقيقتها أنها صلة بين العبد وبين ربه.

ومنها: أن فيها من حقائق الإيمان ومعارف الإيقان، ما أوجب أن يفرضها الله على عباده كل يوم وليلة. ومن المعلوم أن صلاة الخوف لا تحصل فيها هذه المقاصد الحميدة بسبب اشتغال القلب والبدن والخوف فأمر بجبرها بالذكر بعدها.

ومنها: أن الخوف يوجب من قلق القلب وخوفه، ما هو مظنة لضعفه، وإذا ضعف القلب ضعف البدن عن مقاومة العدو، والذكر لله والإكثار منه

ها أنت تركت أمره كسلاً وتفریطاً، فما النفع الذي انتفعت به؟ وماذا فاتك من ثواب الآخرة؟ وماذا ترتب على هذا الترك من الشقاء والحمران والخيبة والحسران؟

وكذلك إذا دعت نفسه إلى ما تشتهي من الشهوات المحرمة، قال لها: هبك فعلت ما اشتيت، فإن لذته تنقضي، ويعقبها من التهموم والغصوم والحسرات، وفوات الثواب وحصول العقاب - ما بعضه يكفي العاقل في الإحجام عنها.

وهذا من أعظم ما ينفع العبد تدبره، وهو خاصة العقل الحقيقي. بخلاف الذي^(٤) يدعي العقل، وليس كذلك، فإنه بجهله وظلمه يؤثر اللذة الحاضرة، والراحة الراهنة، ولو ترتب عليها ما ترتب. والله المستعان.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ أي: مَنْ تَجَرَأَ عَلَى المعاصي واقتحم على الإثم، ثم استغفر الله استغفاراً تاماً، يستلزم الإقرار بالذنب والسند عليه، والإقلاع، والعزم على أن لا يعود. فهذا قد وعده مَنْ لا يخلف الميعاد، بالمغفرة والرحمة.

فيغفر له ما صدر منه من الذنب، ويزيل عنه ما ترتب عليه من النقص والعيب، ويعيد إليه ما تقدم من الأعمال الصالحة، ويوفقه فيما يستقبله من عمره، ولا يجعل ذنبه حائلاً عن توفيقه، لأنه قد غفره وإذا غفره، غفر ما يترتب عليه.

واعلم أن عمل السوء عند الإطلاق يشمل سائر المعاصي، الصغيرة والكبيرة، وسمي «سوءاً» لكونه يسوء عامله بعاقبته، ولكونه في نفسه سيئاً غير حسن.

وكذلك ظلم النفس عند الإطلاق يشمل ظلمها بالشرك فما دونه. ولكن

خافة الله، فيحرصون بالطرق المباحة والمحرمة على عدم الفضيحة عند الناس، وهم مع ذلك قد بارزوا الله بالعظائم، ولم يبالوا بنظره وإطلاعه عليهم.

وهو معهم بالعلم في جميع أحوالهم، خصوصاً في حال تبيينهم ما لا يرضيه من القول، من تبرئة الجاني، ورمي البريء بالجناية، والسعي في ذلك للرسول ﷺ، ليفعل ما يتيه.

فقد جمعوا بين عدة جنایات، ولم يراقبوا رب الأرض والسموات، المطلع على سرائرهم وضمائرهم، ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً﴾ أي: قد أحاط بذلك علماً، ومع هذا لم يعاجلهم بالعقوبة، بل استأنى بهم، وعرض عليهم التوبة وحذرهم من الإصرار على ذنبهم، الموجب للعقوبة البليغة.

﴿ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً﴾ أي: هيكم جادلتم عنهم في هذه الحياة الدنيا، ودفع عنهم جدلكم بعض ما تحذرون^(٢) من العار والفضيحة عند الخلق، فماذا يغني عنهم وينفعهم؟ ومن يجادل الله عنهم يوم القيامة حين تتوجه عليهم الحجة، وتشهد عليهم السنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون؟ ﴿يومئذ يوفيه الله دينهم الحق، ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾.

فمَنْ يجادل عنهم، مَنْ يعلم السر وأخفى، وَمَنْ أقام عليهم من الشهود ما لا يمكن معه الإنكار؟ وفي هذه الآية إرشاد^(٣) إلى المقابلة بين ما يتوهم من مصلح الدنيا المترتبة على ترك أوامر الله، أو فعل مناهيه، وبين ما يفوت من ثواب الآخرة، أو يحصل من عقوباتها.

فيقول مَنْ أمرته نفسه بترك أمر الله

وغيرها، وأنه يشترط في الحاكم^(١) العلم والعدل، لقوله: ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ ولم يقل: بما رأيت. ورتب أيضاً الحكم بين الناس على معرفة الكتاب، ولما أمر الله بالحكم بين الناس المتضمن للعدل والقسط، نهاه عن الجور والظلم الذي هو ضد العدل، فقال: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلخَائِثِينَ خَصِيماً﴾ أي: لا تخاصم عن مَنْ عرفت خيائته، من مدع ما ليس له، أو منكّر حقاً عليه، سواء علم ذلك أو ظنه. ففي هذا دليل على تحريم الخصومة في باطل، والنيابة عن المبطل في الخصومات الدينية والحقوق الدنيوية.

ويدل مفهوم الآية على جواز الدخول في نيابة الخصومة لمن لم يعرف منه ظلم.

﴿واستغفر الله﴾ مما صدر منك، إن صدر.

﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾ أي: يغفر الذنب العظيم لمن استغفره وتاب إليه وأتاب، ويوفقه للعمل الصالح بعد ذلك، الموجب لثوابه وزوال عقابه.

﴿ولا تجادل عن الذين يخاتنون أنفسهم﴾. «الاختيان» و«الخيانة» بمعنى الجناية والظلم والإثم، وهذا يشمل النهي عن المجادلة، عن مَنْ أذنب وتوجه عليه عقوبة، من جد أو تعزيز، فإنه لا يجادل عنه بدفع ما صدر منه من الخيانة، أو بدفع ما ترتب على ذلك من العقوبة الشرعية. ﴿إن الله لا يحب مَنْ كان خواناً أثيماً﴾ أي: كثير الخيانة والإثم، وإذا انتفى الحب ثبت ضده، وهو البغض، وهذا كالتعليل، للنهي المتقدم.

ثم ذكر عن هؤلاء الخائنين أنهم «يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول» وهذا من ضعف الإيمان، ونقصان اليقين، أن تكون خافة الخلق عندهم أعظم من

(١) في أ: الحكم.

(٢) في ب: ما يحذرون.

(٣) في ب: الإرشاد.

(٤) في ب: من.

تذكيراً وتبييناً لتلك الواقعة، وتحذيراً للرسول ﷺ من المخاضمة عن الخائنين، فإن المخاضمة عن المبطل من الضلال، فإن الضلال نوعان:

ضلال في العلم، وهو الجهل بالحق، وضلال في العمل، وهو العمل بغير ما يجب. فحفظ الله رسوله عن هذا النوع من الضلال كما حفظه عن الضلال في الأعمال^(١).

وأخبر أن كيدهم ومكرهم يعود على أنفسهم، كحالة كل مكر، فقال: «وما يضلون إلا أنفسهم» لكون ذلك المكرو، وذلك التحيل، لم يحصل لهم فيه مقصودهم، ولم يحصل لهم^(٢) إلا الخيبة والخمران والإثم والخسران. وهذه^(٣) نعمة كبيرة على رسوله ﷺ، يتضمن النعمة بالعمل، وهو التوفيق لفعل ما يجب، والعصمة له عن كل محرم.

ثم ذكر نعمته عليه بالعلم فقال: «وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة» أي: أنزل عليك هذا القرآن العظيم، والذكر الحكيم، الذي فيه تبيان كل شيء، وعلم الأولين والآخرين.

والحكمة: إمامة السنة التي قد قال فيها بعض السلف: إن السنة تنزل عليه كما ينزل القرآن.

وأما معرفة أسرار الشريعة الزائدة على معرفة أحكامها، وتنزيل الأشياء منازلها، وترتيب كل شيء بحسبه.

«وعلمك ما لم تكن تعلم» وهذا يشمل جميع ما علمه الله تعالى. فإنه ﷺ كما وصفه الله قبل النبوة بقوله: «ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان» «ووجدك ضالاً فهدى».

ثم لم يزل يوحي الله إليه ويعلمه ويكمله، حتى ارتقى مقاماً من العلم يتعذر وضوله على الأولين والآخرين،

له ويوقفه للتوبة. وإن صدر منه بتجرته على المحارم، استخفافاً بنظر ربه، وتهاوناً بعقابه، فإن هذا بعيد من المغفرة، بعيد من التوفيق للتوبة.

ثم قال: «ومن يكسب خطيئة» أي: ذنباً كبيراً «أو إثماً» ما دون ذلك «ثم يرم به» أن يتهم بذنبه «بريئاً» من ذلك الذنب، وإن كان مذنباً. «فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً» أي: فقد حمل فوق ظهره بهتاناً للبريء وإثماً ظاهراً بيناً، وهذا يدل على أن ذلك من كبائر الذنوب وموتقاتها، فإنه قد جمع عدة مفاصد: كسب الخطيئة والإثم، ثم رمي من لم يفعلها بفعلها، ثم الكذب الشنيع، بتبرئة نفسه واتهام البريء، ثم ما يترتب على ذلك، من العقوبة الدنيوية، تندفع عمن وجبت عليه، وتقام على من لا يستحقها.

ثم ما يترتب على ذلك أيضاً من كلام الناس في البريء، إلى غير ذلك من المفاصد التي نسال الله العافية منها، ومن كل شر.

ثم ذكر منته على رسوله بحفظه وعصمته ممن أراد أن يضلّه فقال: «ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك». وذلك أن هذه الآيات الكريزمات قد ذكر المفسرون، أن سبب نزولها: أن أهل بيت سرقوا في المدينة، فلما اطلع على سرقتهم خافوا الفضيحة، وأخذوا سرقتهم فرموها ببيت من هو بريء من ذلك.

واستعان السارق بقومه أن يأتوا رسول الله ﷺ، ويطلبوا منه أن يبرئ أصحابهم على رؤوس الناس، وقالوا: إنه لم يسرق، وإنما الذي سرق من وجدته السرقة ببيته، وهو البريء. فهم زسنول الله ﷺ أن يبرئ أصحابهم، فأنزل الله هذه الآيات

عند اقتران أحدهما بالآخر، قد يفسر كل واحد منهما بما يناسبه، فيفسر عمل السوء هنا بالظلم الذي يسوء الناس، وهو ظلمهم في دماءهم وأموالهم وأعراضهم.

ويفسر ظلم النفس بالظلم والمعاصي التي بين الله وبين عبده، وسمي ظلم النفس «ظلماً» لأن نفس العبد ليست ملكاً له، يتصرف فيها بما يشاء، وإنما هي ملك لله تعالى، قد جعلها أمانة عند العبد، وأمره أن يقيمها على طريق العدل، بإلزامها للصرط المستقيم، علماً وعملاً، فيسعى في تعليمها ما أمر به، ويسعى في العمل بما يجب، فسعيه في غير هذا الطريق ظلم لنفسه وخيانة، وعدول بها عن العدل، الذي ضده الجور والظلم.

ثم قال: «ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه» وهذا يشمل كل ما يؤثم من صغير وكبير، فمن كسب سيئة فإن عقوبتها الدنيوية والأخروية على نفسه، لا تتعداها إلى غيرها، كما قال تعالى: «ولا تزر وازرة وزر أخرى» لكن إذا ظهرت السيئات فلم تنكر، عمت عقوبتها، وشمل إثمها، فلا تخرج أيضاً عن حكم هذه الآية الكريمة، لأن من ترك الإنكار الواجب فقد كسب سيئة.

وفي هذا بيان عدل الله وحكمته، أنه لا يعاقب أحداً بذنب أخذ، ولا يعاقب أحداً أكثر من العقوبة الناشئة عن ذنبه، ولهذا قال: «وكان الله عليماً حكيماً» أي: له العلم الكامل، والحكمة التامة.

ومن علمه وحكمته أنه يعلم الذنب وما صدر منه، والسبب الداعي لفعله، والعقوبة المترتبة على فعله، ويعلم حالة المذنب، أنه إن صدر منه الذنب، بغلبة دواعي نفسه الأمارة بالسوء، منع إنابته إلى ربه في كثير من أوقاته، أنه سيغفر

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) في النسختين: له، وقد غيرتها للتوافق مع ما سبق من الضمان.

(٣) في النسختين: وهذا.

والرسول ﴿يقهم منها أن ما لم يتنازعوا فيه، بل اتفقوا عليه، أنهم غير مأمورين برده إلى الكتاب والسنة، وذلك لا يكون إلا موافقاً للكتاب والسنة، فلا يكون مخالفاً.

فهذه الأدلة ونحوها تفيد القطع، أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة، ولهذا بين الله فيج ضلال المشركين بقوله:

﴿١١٧ - ١٢١﴾ ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثَانًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ لعنه الله وقال لا تأخذن من عبادك نصيباً مفروضاً * ولأضلنهم ولأمنينهم ولأمرنهم فليفتكن آذان الأنعام ولأمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً * يعدهم ويمنهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً * أولئك مأواهم جهنم لا يجدون عنها محيصاً

أي: ما يدعو هؤلاء المشركون من دون الله إلا إنثاء، أي: أوثاناً وأصناماً، مسميات بأسماء الإناث، كـ «العزى» و «منة» ونحوهما، ومن المعلوم أن الاسم دال على المسمى. فإذا كانت أسماءها أسماء مؤنثة ناقصة، دل ذلك على نقص المسميات بتلك الأسماء، وفقدتها لصفات الكمال، كما أخبر الله تعالى في غير موضع من كتابه، أنها لا تخلق ولا ترزق، ولا تدفع عن عابديها، بل ولا عن نفسها؛ نفعاً ولا ضرراً، ولا تنصر أنفسها بمن يريد بها بسوء، وليس لها أسمع ولا أبصار ولا أفئدة، فكيف يُعبد من هذا وصفه، ويُترك الإخلاص لمن له الأسماء الحسنی والصفات العليا والحمد والكمال، والمجد، والجلال، والعز، والجمال، والرحمة، والبر، والإحسان، والانفراد بالخلق والتدبير، والحكمة العظيمة في الأمر والتقدير؟! هل هذا إلا من أقبح القبيح، الدال على نقص صاحبه، وبلوغه من الخسة والدناءة أدنى ما يتصوره متصور، أو يصفه واصف؟!!

الغنى، والفقر من جميع الوجوه. وأما ما دون الشرك من الذنوب والمعاصي، فهو تحت المشيئة، إن شاء الله غفره برحمته وحكمته، وإن شاء عذب عليه، وعاقب بعذله وحكمته، وقد استدل بهذه الآية الكريمة، على أن إجماع هذه الأمة حجة، وأنها معصومة من الخطأ.

ووجه ذلك: أن الله توعد من خالف سبيل المؤمنين بالخذلان والنار، و«سبيل المؤمنين» مفرد مضاف، يشمل سائر ما المؤمنون عليه من العقائد والأعمال.

فإذا اتفقوا على إيجاب شيء، أو استحبابه، أو تحريمه، أو كراهته، أو إباحته - فهذا سبيلهم، فمن خالفهم في شيء من ذلك بعد انعقاد إجماعهم عليه، فقد اتبع غير سبيلهم. ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾.

ووجه الدلالة منها: أن الله تعالى أخبر أن المؤمنين من هذه الأمة لا يأمرون إلا بالمعروف، فإذا اتفقوا على إيجاب شيء أو استحبابه، فهو مما أمروا به، فيتعين بنص الآية أن يكون معروفاً، ولا شيء بعد المعروف غير المنكر، وكذلك إذا اتفقوا على النهي عن شيء، فهو مما نهوا عنه، فلا يكون إلا منكراً، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس﴾. فأخبر تعالى أن هذه الأمة جعلها الله وسطاً، أي: عدلاً خياراً، ليكونوا شهداء على الناس، أي: فني كل شيء، فإذا شهدوا على حكم بأن الله أمر به أو نهى عنه أو أباحه، فإن شهادتهم معصومة، لكونهم عالمين بما شهدوا به، عادلين في شهادتهم، فلما كان الأمر بخلاف ذلك لم يكونوا عادلين في شهادتهم، ولا عالمين بها.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿فإن تنازعتم في شيء، فردوه إلى الله



مخلص، كما يدل عليه عموم التعليل. وقوله: ﴿ونصله جهنم﴾ أي: نعذبه فيها عذاباً عظيماً. ﴿وساءت مصيراً﴾ أي: مرجعاً له ومالاً.

وهذا الوعيد المرتب^(١) على الشقاق، ومخالفة المؤمنين، مراتب لا يحصيها إلا الله، بحسب حالة الذنب صغراً وكبراً فمنه ما يخلد في النار ويوجب جميع الخذلان. ومنه ما هو دون ذلك، فلعل الآية الثانية كال تفصيل لهذا المطلق.

وهو: أن البشر لا يغفره الله تعالى، لتضمنته القدح في رب العالمين وفي وحدانيته، وتسوية المخلوق الذي لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً، بمن هو مالك النفع والضرر، الذي ما من نعمة إلا منه، ولا يدفع النقم إلا هو، الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، والغنى التام بجميع وجوه الاعتبار.

فمن أعظم الظلم وأبعد الضلال، عدم إخلاص العباد لمن هذا شأنه وعظمته، وصرف شيء منها للمخلوق، الذي ليس له من صفات الكمال شيء، ولا له من صفات الغنى شيء، بل ليس له إلا العدم. عدم الوجود، وعدم الكمال، وعدم

(١) في ب: المرتب.

ومع ذلك ^(١) لعبادتهم إنما صورتها فقط لهذه الأوثان الناقصة. وبالحقيقة ما عبدوا غير الشيطان، الذي هو عدوهم، الذي يريد إهلاكهم، ويسعى في ذلك بكل ما يقدر عليه، الذي هو في غاية البعد من الله، لعنة الله وأبعده عن رحمته، فكما أبعده الله من رحمته، يسعى في إبعاد العباد عن رحمة الله. «إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير» ولهذا أخبر الله عن سعيه في إغواء العباد، وتزيين الشر لهم والفساد، وأنه قال لربه مقسماً: «**لأخذن من عبادك نصيباً مفروضاً**» أي: مقدراً. علم اللعين أنه لا يقدر على إغواء جميع عباد الله، وأن عباد الله المخلصين ليس له عليهم سلطان، وإنما سلطانه على مَنْ تولاه، وأثر طاعته على طاعة مولاه.

وأقسم في موضع آخر ليفوتهم «**لأغويهم أجمعين**»، إلا عبادك منهم المخلصين. فهذا الذي ظنه الخبيث وجزم به، أخبر الله تعالى بوقوعه بقوله: «**ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين**».

وهذا النصيب المفروض الذي أقسم الله إنه يتخذهم ^(٢)، ذكر ما يريد بهم، وما يقصده لهم بقوله: «**ولأضلنهم**» أي: عن الصراط المستقيم، ضلالاً في العلم، وضلالاً في العمل.

«**ولأمتينهم**» أي: مع الإضلال، لأمتينهم أن ينالوا ما ناله المهتدون. وهذا هو الغرور بعينه، فلم يقتصر على مجرد إضلالهم حتى زين لهم ما هم فيه من الضلال. وهذا زيادة شر إلى شرهم، حيث عملوا أعمال أهل النار الموجبة للعقوبة، وحسبوا أنها موجبة للجنة، واعتبر ذلك باليهود والنصارى ونحوهم، فإثمهم كما حكى الله عنهم، «**وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، تلك أمانيهم**» «**وكذلك زيننا لكل أمة عملهم**» قل

هل نبيكم بالأخسرين أعمالاً. الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا الآية. وقال تعالى عن المنافقين إنهم يقولون يوم القيامة للمؤمنين: «**ألم نكن معكم؟**» قالوا: بلى. ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور».

وقوله: «**ولأمرهم فليمتكن آذان الأنعام**» أي: بتقطيع آذانها، وذلك كالبحيرة، والسائبة والوصيلة، والحام، فنته ببعض ذلك على جميعه. وهذا نوع من الإضلال يقتضي تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله، ويلتحق بذلك من الاعتقادات الفاسدة والأحكام الجائرة، ما هو من أكبر الضلال. «**ولأمرهم فليغيرون خلق الله**» وهذا يتناول تغيير الخلقة الظاهرة بالوشم، والوشر، والتمص، والتفليج للحسن، ونحو ذلك، مما أغواهم به الشيطان فغيروا خلقة الرحمن.

وذلك يتضمن التسخط من خلقته، والقبح في حكمته، واعتقاد أن ما يصنعون بأيديهم أحسن من خلقة الرحمن، وعدم الرضا بتقديره وتدبيره، ويتناول أيضاً تغيير الخلقة الباطنة. فإن الله تعالى خلق عباده حنفاء، مفطورين على قبول الحق وإيثاره، فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن هذا الخلق الجميل، وزينت لهم الشر والشرك، والكفر والفسوق والعصيان.

فإن كل مولود يولد على الفطرة، ولكن أبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، ونحو ذلك مما يغرون به ما فطر الله عليه العباد، من توحيده، وحيه ومعرفته، فافتروا الشياطين في هذا الموضع افتراس السبع والذئب للغنم المنفردة.

لولا لطف الله وكرمه بعباده المخلصين، لجرى عليهم ما جرى على

هؤلاء المفتونين، وهذا الذي جرى عليهم من توليهم عن ربهم وفاطرمهم ^(٣)، وتوليهم لغدوهم المريد لهم الشر من كل وجه، فخسروا الدنيا والآخرة، ورجعوا بالخيبة والصفقة الخاسرة، ولهذا قال: «**ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً**» أي: خسر أبين وأعظم ممن خسر دينه ودنياه، وأوقته معاصيه وخطاياها!! فحصل له الشقاء الأبدي، وفاته النعيم السرمدى.

كما أن مَنْ تولى مولاه وأثر رضاه، ربح كل الربح، وأفلح كل الفلاح، وفاز بسعادة الدارين، وأصبح قريب العين، فلا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، اللهم تولنا فيمن توليت، وعافنا فيمن عافيت.

ثم قال: «**يعدهم ويمتتهم**» أي: يعد الشيطان من يسعى في إضلالهم. والوعد يشمل حتى الوعيد كما قال تعالى: «**الشيطان يعدكم الفقر**». فإنه يعدهم إذا أنفقوا في سبيل الله افتقروا، ويخوفهم إذا جاهدوا بالقتل وغيره، كما قال تعالى: «**إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه**» الآية. ويخوفهم عند إثارة مرضاة الله بكل ما يمكن وما لا يمكن، مما يدخله في عقولهم، حتى يكسبوا عن فعل الخير، وكذلك يمتتهم الأماني الباطلة التي هي عند التحقيق كالسراب الذي لا حقيقة له، ولهذا قال: «**وما يعدهم الشيطان إلا غروراً**»، أولئك ماؤاهم جهنم» أي: مَنْ انقاد للشيطان، وأعرض عن ربه، وصار من أتباع إبليس وحزبه، مستقرهم النار. «**ولا يجدون عنها محيصاً**» أي: خلاصاً ولا ملجأ، بل هم خالدون فيها أبد الآباد.

«**١٢٢**» ولما بين مآل الأشقياء أولياء الشيطان، ذكر مآل السعداء أوليائه فقال: «**والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، وعد الله حقاً، ومن صدق من الله**

(١) في ب: ومع هذا.

(٢) في النسختين: إنهم يتخذهم.

(٣) كذا في ب وفي أ: وفاطرم.

دون توبة جوزي بالخلود في العذاب الأليم.

وَمَنْ كَانَ عَمَلُهُ صَالِحًا، وَهُوَ مستقيم في غالب أحواله، وإنما يصدر منه بعض الأحيان بعض الذنوب الصغار، فما يصيبه من الهم والغم، والأذى، و [بعض] (٣) الآلام، في بدنه، أو قلبه، أو حبيبه، أو ماله، ونحو ذلك - فإنها مكفرات للذنوب، وهي عما يجزى به عن عمله، قيضها الله لطفًا بعباده، وبين هذين الحالين مراتب كثيرة.

وهذا الجزاء على عمل السوء العام، خصوص في غير التائبين، فإن التائب من الذنب كَمَنْ لا ذنب له، كما دلت على ذلك النصوص.

وقوله: ﴿وَلَا يَجْدِلُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ لإزالة بعض ما لعله يتوهم أن مَنْ استحق المجازاة على عمله، قد يكون له ولي، أو ناصر، أو شافع، يدفع عنه ما استحقه، فأخبر تعالى بانتفاء ذلك، فليس له ولي يحصل له المطلوب، ولا نصير يدفع عنه المروء، إلا ربه ومليكه.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ دخل في ذلك سائر الأعمال القلبية والبدنية، ودخل أيضاً كل عامل من إنس أو جن، صغير أو كبير، ذكر أو أنثى.

ولهذا قال: ﴿مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وهذا شرط لجميع الأعمال، لا تكون صالحة، ولا تقبل، ولا يترتب عليها الثواب، ولا يندفع بها العقاب، إلا بالإيمان.

فالأعمال بدون الإيمان، كأغصان شجرة قطع أصلها، وكبناء بني على مرج الماء، فالإيمان هو الأصل والأساس والقاعدة التي يبنى عليه كل شيء، وهذا القيد ينبغي التفطن له في كل عمل أطلق، فإنه مقيد به.

﴿فَأُولَئِكَ﴾ أي: الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، ﴿يَدْخُلُونَ

وحديثه في الصدق أعلى ما يكون، ولهذا لما كان كلامه صدقاً، وخبره حقاً كان ما يدل عليه مطابقة، وتضمناً، وملازمة، كل ذلك مراد من كلامه، وكذلك كلام رسوله ﷺ لكونه لا يخبر إلا بأمره ولا ينطق إلا عن وحيه.

﴿١٢٣ - ١٢٤﴾ ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ أي: ﴿لَيْسَ﴾ الأمر والنجاة والتزكية ﴿بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾. والأمانى: أحاديث النفس المجردة عن العمل، المقترن بها دعوى مجردة، لو عورضت بمثلها لكانت من جنسها. وهذا عام في كل أمر، فكيف بأمر الإيمان والسعادة الأبدية!؟

فإن أمانى أهل الكتاب قد أخبر الله بها، أنهم قالوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ وغيرهم عن ليس ينتسب لكتاب ولا رسول من باب أولى وأحرى.

وكذلك أدخل الله في ذلك مَنْ ينتسب إلى الإسلام لكمال العدل والإنصاف، فإن مجرد الانتساب إلى أي: دين كان، لا يفيد شيئاً إن لم يأت الإنسان ببرهان على صحة دعواه.

فالأعمال تصدق الدعوى أو تكذبها، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾ وهذا شامل لجميع العاملين، لأن السوء شامل، لأي: ذنب كان (٢)، من صغائر الذنوب وكبائرها، وشامل أيضاً لكل جزاء، قليل أو كثير، دنيوي أو أخروي.

والناس في هذا المقام درجات لا يعلمها إلا الله، فمستقبل ومستكثر، فمن كان عمله كله سوءاً، وذلك لا يكون إلا كافراً. فإذا مات من

قبلاً (١) أي: ﴿آمَنُوا﴾ بالله وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، على الوجه الذي أمروا به، علماً وتصديقاً وإقراراً. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الناشئة عن الإيمان.

وهذا يشمل سائر المأمورات، من واجب ومستحب، الذي على القلب، والذي على اللسان، والذي على بقية الجوارح. كل له من الثواب المرتب على ذلك بحسب حاله ومقامه، وتكميله للإيمان والعمل الصالح.

وفوته ما رتب على ذلك بحسب ما أحل به من الإيمان والعمل، وذلك بحسب ما علم من حكمة الله ورحمته، وكذلك وعده الصادق الذي يعرف من تتبع كتاب الله وسنة رسوله.

ولهذا ذكر الثواب المرتب على ذلك بقوله: ﴿سَنَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من أنواع المأكول والمشرب اللذيذة، والمناظر العجيبة، والأزواج الحسنة، والقصور والغرف المزخرفة، والأشجار المتدلية، والفواكه المستغرة، والأصوات الشجية، والبنم السابعة، وتزاور الإخوان، وتذكرهم ما كان منهم في رياض الجنان وأعلى من ذلك كله وأجل رضوان الله عليهم، وتمتع الأرواح بقرينه، والعيون برؤيته، والأسماع بخطابه، الذي ينسيهم كل نعيم وسرور، ولولا الثبات من الله لهم لطاروا وماتوا من الفرح والخبور، فله ما أحلى ذلك النعيم، وما أعلى ما أنالهم الرب الكريم، وماذا حصل لهم من كل خير وبهجة لا يصفه الواصفون، وتمام ذلك وكماله الخلود الدائم في تلك المنازل العليات، ولهذا قال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ وعد الله حقاً، ومن أصدق من الله قيلاً.

فصدق الله العظيم الذي بلغ قوله

(١) في ب: أورد الآية كاملة، بينما في أ، اقتصر على أولها.

(٢) كذا في ب، وفي أ: لأي سوء كان.

(٣) زيادة من هامش: ب.

الجنة» المشتعلة على ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين «ولا يظلمون نقيراً» أي: لا قليلاً ولا كثيراً بما عملوه من الخير، بل يجردونه كاملاً موفراً، مضاعفاً أضعافاً كثيرة.

﴿١٢٥﴾ «ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم خليلاً» أي: لا أخذ أحسن من دين من جمع بين الإخلاص للمعبود، وهو إسلام الوجه لله، الدال على استسلام القلب وتوجهه وإنابته وإخلاصه، وتوجه الوجه وسائر الأعضاء لله.

«وهو» مع هذا الإخلاص والاستسلام «محسن» أي: متبع لشريعة الله التي أرسل بها رسله، وأنزل كتبه، وجعلها طريقاً لحواصل خلقه وأتباعهم.

«واتبع ملة إبراهيم» أي: دينه وشرعه «حنيفاً» أي: مائلاً عن الشرك إلى التوحيد، وعن التوجه للخلق إلى الإقبال على الخالق، «واتخذ الله إبراهيم خليلاً» والخلة أعلى أنواع المحبة، وهذه المرتبة حصلت للخليلين محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وأما المحبة من الله، فهي لعموم المؤمنين، وإنما اتخذ الله إبراهيم خليلاً، لأنه وفى بما أمر به وقام بما ابتلي به، فجعله الله إماماً للناس، واتخذ خليلاً، ونوه بذكره في العالين.

﴿١٢٦﴾ «لله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطاً» وهذه الآية الكريمة فيها بيان إحاطة الله تعالى بجميع الأشياء، فأخبر أن له «ما في السماوات وما في الأرض» أي: الجميع ملكه وعبيده، فهم المملوكون، وهو المالك المتفرد بتدبيرهم، وقد أحاط علمه بجميع المعلومات، وبصره بجميع المبصرات، وسمعه بجميع المسموعات، ونفذت مشيئته وقدرته بجميع الموجودات، ووسعت رحمته أهل الأرض والسماوات، وقهر بعزه وقهره كل مخلوق، ودانت له جميع الأشياء.

﴿١٢٧﴾ «ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتوهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكهن والمستضعفين من ولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط وما فعلوا من خير فإن الله كان به عليماً» الاستفتاء: طلب السائل من المسؤول بيان الحكم الشرعي في ذلك المسؤول عنه. فأخبر عن المؤمنين أنهم يستفتون الرسول ﷺ في حكم النساء المتعلق بهم فتوى الله هذه الفتوى بنفسه، فقال: «قل الله يفتيكم فيهن» فاعملوا على ما أفتاكم به في جميع شؤون النساء، من القيام بحقوقهن وترك ظلمهن عموماً وخصوصاً.

وهذا أمر عام يشمل جميع ما شرع الله أمراً ونهيًا، في حق النساء الزوجات وغيرهن، الصغار والكبار، ثم خص - بعد التعميم - الوصية بالضعاف من يتامى والولدان، اهتماماً بهم، وزجراً عن التفريط في حقوقهم، فقال: «وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء» أي: ويفتيكم أيضاً بما يتلى عليكم في الكتاب في شأن يتامى من النساء. «اللاتي لا تؤتوهن ما كتب لهن» وهذا إخبار عن الحالة الموجودة الواقعة في ذلك الوقت، فإن اليتيمة إذا كانت تحت ولاية الرجل، بخسها حقها وظلمها، إما بأكل مالها الذي لها أو يعرضه، أو منعها من التزوج لينتفع بمالها، خوفاً من استخراجه من يده إن زوجها، أو يأخذ من مهرها الذي رغبها عنها، أو يرغب فيها وهي ذات جمال ومال، ولا يقسط في مهرها، بل يعطيها دون ما تستحق، فكل هذا ظلم يدخل تحت هذا النص، ولهذا قال: «وترغبون أن تنكهن» أي: ترغبون عن نكاحهن، أو في نكاحهن كما ذكرنا تمثيلاً.

«والمستضعفين من ولدان» أي: ويفتيكم في المستضعفين من الولدان الصغار، أن تعطوهم حقهم من الميراث

وغيره، وأن لا تستولوا على أموالهم على وجه الظلم والاستبداد. «وأن تقوموا لليتامى بالقسط» أي: بالعدل التام، وهذا يشمل القيام عليهم بإلزامهم أمر الله وما أوجبه على عباده، فيكون الأولياء مكلفين بذلك، يلزمونهم بما أوجبه الله.

ويشمل القيام عليهم في مصالحهم الدنيوية، بتنمية أموالهم، وطلب الأحظ لهم فيها، وأن لا يقربوها إلا بالتي هي أحسن، وكذلك لا يحايون فيهم صديقاً ولا غيره، في تزوج وغيره، على وجه الهضم لحقوقهم. وهذا من رحمة تعالى بعباده، حيث حث غاية الحث على القيام بمصالح من لا يقوم بمصلحة نفسه، لضعفه، وفقد أيبه.

ثم حث على الإحسان عموماً، فقال: «وما فعلوا من خير» لليتامى ولغيرهم، سواء كان الخير متعدداً أو لازماً، «فإن الله كان به عليماً» أي: قد أحاط علمه بعمل العالمين للخير، قلة وكثرة، حسناً وضده، فيجازي كلًا بحسب عمله.

﴿١٢٨﴾ «وإن امرأة خافت من بعلها نشوراً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتقوا فإِنَّ الله كان بما تعملون خبيراً» أي: إذا خافت المرأة نشور زوجها، أي: ترفعه عنها، وعدم رغبته فيها وإعراضه عنها، فلا حرج في هذه الحالة أن يصلحا بينهما صلحاً صلحاً، بأن تسمح المرأة عن بعض حقوقها اللازمة لزوجها، على وجه تبقى مع زوجها، إما أن ترضى بأقل من الواجب لها من النفقة، أو الكسوة، أو السكن، أو القسم، بأن تسقط حقها منه، أو تهب يومها وليتها لزوجها أو لغيرها.

فإذا اتفقا على هذه الحالة، فلا جناح ولا بأس عليهما فيها، لا عليها ولا على الزوج، فيجوز حينئذ لزوجها البقاء معها على هذه الحال، وهي خير من الفرقه، ولهذا قال: «والصلح

تعذر الاتفاق فإنه لا بأس بالفراق، فقال: ﴿وإن يتفرقا﴾ أي: بطلاق، أو فسخ، أو خلع، أو غير ذلك ﴿يغن الله كلا﴾ من الزوجين ﴿من سعة﴾ أي: من فضله وإحسانه الواسع الشامل. فيغني الزوج بزوجة خير له منها، ويغنيها من فضله وإن انقطع نصيبها من زوجها، فإن رزقها على التكفل بأرزاق جميع الخلق، القائم بمصالحهم، ولعل الله يرزقها زوجاً خيراً منه، ﴿وكان الله واسعاً﴾ أي: كثير الفضل، واسع الرحمة، وصلت رحمته وإحسانه إلى حيث وصل إليه علمه.

ولكنه مع ذلك ﴿حكيماً﴾ أي: يعطي بحكمة، ويمنع لحكمة. فإذا اقتضت حكمته منع بعض عياده من إحسانه، بسبب من العيد لا يستحق معه الإحسان حرمة عدلاً وحكمة.

﴿١٣١-١٣٢﴾ ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله وإن تكفروا فإن الله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً﴾ ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله كيلاً﴾ يخبر تعالى عن عموم ملكه العظيم الواسع، المستلزم تدبيره بجميع أنواع التدبير، وتصرفه بأنواع التصريف قدراً وشرعاً، فتصرفه الشرعي أن وصى الأولين والآخرين أهل الكتب السابقة واللاحقة بالتقوى المتضمنة للأمر والنهي، وتشريع الأحكام، والمجازاة لمن قام بهذه الوصية بالثواب، والمعاقبة لمن أهملها وضيعها بناليم العذاب. ولهذا قال: ﴿وإن تكفروا﴾ بأن تركوا تقوى الله، وتشكروا بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً، فإنكم لا تضرون بذلك إلا أنفسكم، ولا تضرون الله شيئاً، ولا تنقصون ملكه، وله عبيد خير منكم وأعظم، وأكثر مطيعون له خاضعون لأمره. ولهذا رتب على ذلك قوله: ﴿وإن تكفروا فإن الله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً﴾ له الجود الكامل والإحسان

المأمور، وتتقوا بترك المحظور ﴿فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ قد أحاط به علماً وخبراً، بظاهرة وباطنه، فيحفظه لكم، ويجازيكم عليه أتم الجزاء.

﴿١٢٩﴾ ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً﴾ يخبر تعالى: أن الأزواج لا يستطيعون، وليس في قدرهم العدل التام بين النساء، وذلك لأن العدل يستلزم وجود المحبة على السواء، والداعي على السواء، والميل في القلب إليهن على السواء، ثم العمل بمقتضى ذلك. وهذا متعذر غير ممكن، فلذلك عفا الله عما لا يستطيع، ونهى عما هو ممكن بقوله: ﴿فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة﴾ أي: لا تميلوا ميلاً كثيراً بحيث لا تؤدون حقوقهن الواجبة، بل افعلوا ما هو باستطاعتكم من العدل.

فالنفقة والكسوة والقسم ونحوها، عليكم أن تعدلوا بينهن فيها، بخلاف الحب، والوطة ونحو ذلك، فإن الزوجة إذا ترك زوجها ما يجب لها، صارت كالمعلقة التي لا زوج لها فتستريح وتستعد للزوج، ولا ذات زوج يقوم بحقوقها.

﴿وإن تصلحوا﴾ ما بينكم وبين زوجاتكم، بإخبار أنفسكم على فعل ما لا تمواه النفس، احتساباً وقياماً بحق الزوجة، وتصلحوا أيضاً فيما بينكم وبين الناس، وتصلحوا أيضاً بين الناس، فيما تنازعوا فيه، وهذا يستلزم الحث على كل طريق يوصل إلى الصلح مطلقاً كما تقدم.

﴿وتتقوا﴾ الله بفعل المأمور وترك المحظور، والصبر على المقدور. ﴿فإن الله كان غفوراً رحيماً﴾ يغفر ما صدر منكم من الذنوب والتقصير في الحق الواجب، ويرحمكم كما عطفتم على أزواجكم ورحمهم.

﴿١٣٠﴾ ﴿وإن يتفرقا يغن الله كلا﴾ من سعة وكان الله واسعاً حكيماً هذه الحالة الثالثة بين الزوجين، إذا

خير ﴿ويؤخذ من عموم هذا اللفظ والمعنى أن الصلح بين من بينهما حق أو منازعة في جميع الأشياء، أنه خير من استقصاء كل منهما على كل حقه، لما فيها من الإصلاح وبقاء الألفة، والاتصاف بصفة السماح.

وهو جائز في جميع الأشياء، إلا إذا أحل حراماً أو حرم حلالاً، فإنه لا يكون صلحاً، وإنما يكون جوراً. واعلم أن كل حكم من الأحكام لا يتم ولا يكمل، إلا بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه، فمن ذلك هذا الحكم الكبير الذي هو الصلح، فذكر تعالى المقتضي لذلك، ونهى على أنه خير، والخير كل عاقل يطلبه ويرغب فيه، فإن كان - مع ذلك - قد أمر الله به وحث عليه ازداد المؤمن طلباً له ورغبة فيه.

وذكر المانع بقوله: ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ أي: جبلت النفوس على الشح، وهو: عدم الرغبة في بذل ما على الإنسان، والحرص على الحق الذي له، فالنفوس مجبولة على ذلك طبعاً، أي: فينبغي لكم أن تحرضوا على قلع هذا الخلق الذي من نفوسكم، وتستبدلوا به ضده، وهو السماحة، وهو بذل الحق الذي عليكم، والاعتناع ببعض الحق الذي لك.

فمتى وفق الإنسان لهذا الخلق الحسن، سهل حيثئذ عليه الصلح بينه وبين خصمه ومعامله، وتسهلت الطريق للوصول إلى المطلوب. بخلاف من لم يجتهد في إزالة الشح من نفسه، فإنه يعسر عليه الصلح والموافقة، لأنه لا يرضيه إلا جميع ماله، ولا يرضى أن يؤدي ما عليه، فإن كان خصمه مثله اشتد الأمر.

ثم قال: ﴿وإن تحسنوا وتتقوا﴾ أي: تحسنوا في عبادة الخالق، بأن يعبد العبد ربه كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يراه، وتحسنوا إلى المخلوقين بجميع طرق الإحسان، من نفع بمال، أو علم، أو جاه، أو غير ذلك.

﴿وتتقوا﴾ الله بفعل جميع المأمورات، وترك جميع المحظورات. أو تحسنوا بفعل

﴿تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أي: حجة واضحة على عقوبتكم، فإنه قد أنذرنا وخذرننا منها؛ وأخبرنا بما فيها من الفساد، فسلوكها بعد هذا موجب للعقاب.

وفي هذه الآية دليل على كمال عدل الله، وأن الله لا يعذب أحداً؛ قبل قيام الحجة عليه، وفيها التحذير من المعاصي؛ فإن فاعلها يجعل لله عليه سلطاناً مبيناً.

﴿١٤٥ - ١٤٧﴾ «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا» * إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً * ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً * يخبر تعالى عن مآل المنافقين، أنهم في أسفل الدركات من العذاب، وأشر الحالات من العقاب. فهم تحت سائر الكفار، لأنهم شاركوهم بالكفر بالله ومعاداة رسله، وزادوا عليهم المكر والخديعة، والتمكن من كثير من أنواع العدواة للمؤمنين، على وجه لا يشعر به ولا يحسن. ورتبوا على ذلك خريان أحكام الإسلام عليهم، واستحقاق ما لا يستحقونه، فبذلك ونحوه استحقوا أشد العذاب، وليس لهم منقذ من عذابه، ولا ناصر يدفع عنهم بعض عقابه، وهذا عام لكل منافق، إلا من آمن بالله عليهم بالتوبة من السيئات. «وأصلحوا» له الظواهر والباطن «واعتصموا بالله» والتجأوا إليه، في جلب منافعهم ودفع المضار عنهم. «وأخلصوا دينهم» الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان لله.

فقصدوا وجه الله بأعمالهم الظاهرة والباطنة، وسلموا من الرياء والافتقار، فمن اتصف بهذه الصفات «فأولئك مع المؤمنين» أي: في الدنيا، والبرزخ، ويؤمن القيامة. «وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيماً» لا يعلم كنهه

متشاقلين لها، متبرمين من فعلها، والكسل لا يكون إلا من فقد الرغبة من قلوبهم، فلولا أن قلوبهم فارغة من الرغبة إلى الله وإلى ما عنده، عادمة للإيمان، لم يصدر منهم الكسل، «يرأؤون الناس» أي: هذا الذي انطوت عليه سرائرهم، وهذا مصدر أعمالهم، مراعاة الناس، يقصدون رؤية الناس وتعظيمهم واحترامهم، ولا يخلصون لله فلهذا «لا يذكرون الله إلا قليلاً» لامتلاء قلوبهم من الرياء، فإن ذكر الله تعالى وملازمته، لا يكون إلا من مؤمن مخلص قلبه بمحبة الله وعظمته.

«مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء» أي: متردد بين فريق المؤمنين وفريق الكافرين. فلا من المؤمنين ظاهراً وباطناً، ولا من الكافرين ظاهراً وباطناً. أعطوا باطنهم للكافرين، وظاهرهم للمؤمنين، وهذا أعظم ضلال يقدر. ولهذا قال: «ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً» أي: لن تجد طريقاً لهدايته، ولا وسيلة لترك غوايته، لأنه انغلق عنه باب الرحمة، وصار بدله كل نقمة.

فهذه الأوصاف المذمومة، تدل بتنبئها على أن المؤمنين متصفون بضدها، من الصدق ظاهراً وباطناً والإخلاص، وأنهم لا يجهل ما عندهم، ونشاطهم في صلاتهم وعبادتهم، وكثرة ذكرهم لله تعالى. وأنهم قد هداهم الله ووقفهم للضراط المستقيم. فليعرض العاقل نفسه على هذين الأمرين، وليختبر أيهما أولى به، وبالله المستعان.

﴿١٤٤﴾ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أْتَرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا» لما ذكر أن من صفات المنافقين اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، نهى عباده المؤمنين أن يتصفوا بهذه الحالة القبيحة، وأن يشابهوا المنافقين، فإن ذلك موجب لأن



بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً * يخبر تعالى عن المنافقين بما كانوا عليه، من قبيح الصفات، وشنائع السمات، وأن طريقتهم مخادعة الله تعالى، أي: بما أظهره من الإيمان، وأبطأه من الكفران، ظنوا أنه يروج على الله ولا يعلمه ولا يبيده لعباده، والحال أن الله خادعهم، فمجرد وجود هذه الحال منهم، ومشيهم عليها، خداع لأنفسهم. وأي: خداع أعظم ممن يسعى سعيًا يعود عليه بالهوان والذل والحرمان!!

ويدل بمجرد هذه على نقص عقل صاحبه، حيث جمع بين المعصية، ورأها حسنة، وظنها من العقل والمكر، فله ما يصنع الجاهل والخذلان بصاحبه!! ومن خداعه لهم يوم القيامة ما ذكره الله في قوله: «يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم» إلى آخر الآيات.

ومن صفاتهم أنهم «إذا قاموا إلى الصلاة» إن قاموا - التي هي أكبر الطاعات العملية، «قاموا كسالى»

إليه، فلهذا قال: ﴿فَإِنْ كَانَ عَقْوُ قَدِيرًا﴾ أي: يعفو عن زلات عباده وذنوبهم العظيمة، فيسدل عليهم سترة، ثم يعاملهم بعفوهم التام الصادر عن قدرته.

وفي هذه الآية إرشاد إلى التفقه في معاني أسماء الله وصفاته، وأن الخلق والأمور صادر عنها، وهي مقتضية له، ولهذا يعمل الأحكام بالأسماء الحسنى، كما في هذه الآية.

لما ذكر عمل الخير والعفو عن المسيء رتب على ذلك، بأن أحالنا على معرفة أسمائه، وأن ذلك يغتينا عن ذكر ثوابها الخاص.

﴿١٥٠ - ١٥٢﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ يُرِيدُونَ أَنْ يَفْرُقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضِ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أولئك هم الكافرون حقاً واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً * والذين آمنوا بالله ورسوله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً * هنا قسمان قد وضحا لكل أحد: مؤمن بالله وبرسوله كلهم، وكتبه، وكافر بذلك كله.

وبقي قسم ثالث: وهو الذي يزعم أنه يؤمن ببعض الرسل دون بعض، وأن هذا سبيل ينجيهم من عذاب الله، إن هذا إلا مجرد أمانى، فإن هؤلاء يريدون التفريق بين الله وبين رسوله.

فإن من تولى الله حقيقة تولى جميع رسله، لأن ذلك من تمام توليه، ومن عادى أحداً من رسله فقد عادى الله، وعادى جميع رسله كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ﴾ الآيات.

وكذلك من كفر برسول فقد كفر بجميع الرسل، بل بالرسول الذي يزعم أنه به مؤمن، ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ وذلك لثلاث يتوهم أن مرتبتهم متوسطة بين الإيمان والكفر.

ووجه كونهم كافرين - حتى بما

بعقابكم، بل العاصي لا يضر إلا نفسه، كما أن عمل الطمع لنفسه.

والشكر هو خضوع القلب، واعتراؤه بنعمة الله، وثناء اللسان على الم شكر، وعمل الجوارح بطاعته، وأن لا يستعين بنعمه على معاصيه.

﴿١٤٨ - ١٤٩﴾ ﴿لَا يَحْسِبُ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ إن تبدوا خيراً أو تحفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفواً قديرًا * يجزى تعالى أنه لا يحب الجهر بالسوء من القول، أي: يبغض ذلك ويمقته ويعاقب عليه، ويشمل ذلك جميع الأقوال السيئة التي تسوء وتحزن، كالشتم والقذف والسب ونحو ذلك، فإن ذلك كله من المنهي عنه الذي يبغضه الله.

ويدل مفهومها أنه يجب الحسن من القول كالذكر والكلام الطيب اللين. وقوله: ﴿لَا مَنْ ظَلَمَ﴾ أي: فإنه يجوز له أن يدعو على من ظلمه، ويشتكى^(٢) منه، ويجهر بالسوء لمن جهر له به، من غير أن يكذب عليه، ولا يزيد على مظلمته، ولا يتعدى بشتمه غير ظالمه، ومع ذلك فعفوه، وعدم مقابله أولى، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.

﴿وكان الله سميعاً عليماً﴾ ولما كانت الآية قد اشتملت على الكلام السني والحسن والمباح، أخبر تعالى أنه سميع، فيسمع أقوالكم، فاحذروا أن تتكلموا بما يبغض ربكم فيعاقبكم على ذلك.

وفيه أيضاً ترغيب على القول الحسن ﴿عليماً﴾ بنياتكم ومصدر أقوالكم. ثم قال تعالى: ﴿إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تَحْفَوْهُ﴾ وهذا يشمل كل خير قولي وفعلي، ظاهر وباطن، من واجب ومستحب.

﴿أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾ أي: عمن ساءكم في أبدانكم وأموالكم وأعراضكم، فتسمحوا عنه، فإن الجزاء من جنس العمل. فمن عفا الله عفا الله عنه، ومن أحسن أحسن الله

إلا الله، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وتأمل كيف خص الاعتصام والإخلاص بالذكر، مع دخولهما في قوله: ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ لأن الاعتصام والإخلاص من جملة الإصلاح، لشدة الحاجة إليهما، خصوصاً في هذا المقام الخرج الذي تمكن من القلوب التفاف، فلا يزيله إلا شدة الاعتصام بالله، ودوام اللجأ والافتقار إليه في دفعه، وكون الإخلاص منافياً لكل المنافاة للتفاف، فذكرهما لفضلهما وتوقف الأعمال الظاهرة والباطنة عليهما، ولشدة الحاجة في هذا المقام إليهما.

وتأمل كيف لما ذكر أن هؤلاء مع المؤمنين لم يقل: وسوف يؤتيهم أجراً عظيماً، مع أن السياق فيهم. بل قال:

﴿وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيماً﴾ لأن هذه القاعدة الشريفة - لم يزل الله يبدئ فيها ويعيد، إذا كان السياق في بعض الجزئيات، وأراد أن يرتب^(١) عليه ثواباً أو عقاباً وكان ذلك مشتركاً بينه وبين الجنس الداخِل فيه، رتب الثواب في مقابلة الحكم العام الذي تدرج تحته تلك القضية وغيرها، ولثلاث يتوهم اختصاص الحكم بالامر الجزئي، فهذا من أسرار القرآن البديعة، فالتائب من المنافقين، مع المؤمنين وله ثوابهم.

ثم أخبر تعالى عن كمال غناه وسعة حلمه، ورحمته وإحسانه، فقال:

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ والحال أن الله شاكر عليم. يعطي المتحمسين لأجله الأثقال الدائنين في الأعمال جزيل الثواب وواسع الإحسان. ومن ترك شيئاً لله أعطاه الله خيراً منه.

ومع هذا يعلم ظاهركم وباطنكم، وأعمالكم. وما تصدر عنه من إخلاص وصدق، وضد ذلك. وهو يريد منكم التوبة والإنابة والرجوع إليه، فإذا أنبت إليه، فأى شيء يفعل بعذابكم؟ فإنه لا يتشفى بعذابكم، ولا ينتفع

(١) في ب: يترتب.

(٢) في ب: ويشتكى.

عياناً، واتخاذهم العجل إلهاً يعبدونه، من بعد ما رأوا من الآيات بأبصارهم ما لم يره غيرهم.

ومن امتناعهم من قبول أحكام كتابهم وهو التوراة، حتى رفع الطور من فوق رؤوسهم، وهددوا أنهم إن لم يؤمنوا أسقط عليهم، فقبلوا ذلك على وجه الإغماض، والإيمان الشبيهة بالإيمان الضروري.

ومن امتناعهم من دخول أبواب القرية التي أمروا بدخولها سجداً مستغفرين، فخالقوا القول والفعل. ومن اعتداء من اعتدى منهم في السبت، فعاقبهم الله تلك العقوبة الشنيعة.

وبأخذ الميثاق الغليظ عليهم، فنبذوه وراء ظهورهم، وكفروا بآيات الله، وقتلوا رسله بغير حق. ومن قولهم: أنهم قتلوا المسيح عيسى وصابيوه، والحال أنهم ما قتلوه وما صلبوه، بل شبه لهم غيره، فقتلوا غيره وصابيوه.

وادعاهم أن قلوبهم غلف لا تفقه ما تقول لهم ولا تفهمه، وبصدهم الناس عن سبيل الله، فضدوهم عن الحق، ودعوههم إلى ما هم عليه من الضلال والغف. وبأخذهم السبت والربا مع نبي الله لهم عنه، والتشديد فيه.

فالأذين فعلوا هذه الأفاعيل، لا يستنكر عليهم أن يسألوا الرسول محمداً أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، وهذه الطريقة من أحسن الطرق لمحااجة الخصم المبطل، وهو أنه إذا صدر منه من الاعتراض الباطل ما جعله شبهة له ولغيره في رد الحق، أن يبين من حاله الخبيثة وأفعاله الشنيعة، ما هو من أقبح ما صدر منه، ليعلم كل أحد أن هذا الاعتراض من ذلك الوادي الخسيس، وأن له مقدمات يجعل هذا معها.

وكذلك كل اعتراض يعترضون به على نبوة محمد ﷺ يمكن أن يقابل بمثله، أو ما هو أقوى منه في نبوة من يدعون إيمانهم به، ليكتفى بذلك شرهم، وينقمع باطلهم، وكل حجة سلكوها في تقريرهم لنبوة من آمنوا

وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً * بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً * وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً * فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً * وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً * هذا السؤال الصادر من أهل الكتاب للرسول محمد ﷺ على وجه العناد والاقتراح، وجعلهم هذا السؤال يتوقف عليه تصديقهم أو تكذيبهم. وهو أنهم سأله أن ينزل عليهم القرآن جملة واحدة كما نزلت التوراة والإنجيل، وهذا غاية الظلم منهم والجهل، فإن الرسول بشر عبد مدبر، ليس في يده من الأمر شيء، بل الأمر كله لله، وهو الذي يرسل وينزل ما يشاء على عباده، كما قال تعالى عن الرسول، لما ذكر الآيات التي فيها اقتراح المشركين على محمد ﷺ، «قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً».

وكذلك جعلهم الفارق بين الحق والباطل مجرد إنزال الكتاب جملة أو مفرقاً، مجرد دعوى لا دليل عليها، ولا مناسبة، بل ولا شبهة، فمن أين يوجد في نبوة أحد من الأنبياء أن الرسول الذي يأتيكم بكتاب نزل مفرقاً فلا تؤمنوا به ولا تصدقوه؟

بل نزول هذا القرآن مفرقاً بحسب الأحوال، مما يدل على عظمتيه واعتناء الله بمن أنزل عليه، كما قال تعالى: «وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً. ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً».

فلما ذكر اعتراضهم الفاسد أخبر أنه ليس بغريب من أمرهم، بل سبق لهم من المقدمات القبيحة ما هو أعظم مما سلكوه مع الرسول الذي يزعمون أنهم آمنوا به، من سؤالهم له رؤية الله

زعموا الإيمان به - أن كل دليل دلهم على الإيمان بمن آمنوا به موجود هو أو مثله، أو ما فوقه للنبي الذي كفروا به، وكل شبهة يزعمون أنهم يقدحون بها في النبي الذي كفروا به موجود مثلها أو أعظم منها فيمن آمنوا به.

فلم يبق بعد ذلك إلا التشهي والهوى ومجرد الدعوى التي يمكن كل أحد أن يقابلها بمثلها، ولما ذكر أن هؤلاء هم الكافرون حقاً، ذكر عقاباً شاملاً لهم ولكل كافر، فقال: «وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيباً» كما تكبروا عن الإيمان بالله، أهانهم بالعذاب الأليم المخزي.

«والذين آمنوا بالله ورسله» وهذا يتضمن الإيمان بكل ما أخبر الله به عن نفسه، وبكل ما جاءت به الرسل من الأخبار والأحكام. «ولم يفرقوا بين أحد» من رسله، بل آمنوا بهم كلهم، فهذا هو الإيمان الحقيقي، واليقين المبني على البرهان.

«أولئك سوف يؤتيهم أجورهم» أي: جزاء إيمانهم، وما ترتب عليه من عمل صالح، وقول حسن، وخلق جميل، كل على حسب حاله. ولعل هذا هو السر في إضافة الأجور إليهم، «وكان الله غفوراً رحيماً» يغفر السيئات ويتقبل الحسنات.

﴿١٥٣ - ١٦١﴾ «يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنأ الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً * ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً وقلنا لهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً * فيما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً * وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً * وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم



العدد الكثير والجسم الغفير، فاستغراب رسالته لا وجه له إلا الجهل أو العناد.

ومنها: أنه أوحى إليه كما أوحى إليهم من الأصول والعدل الذي اتفقوا عليه، وأن بعضهم يصدق بعضاً، ويوافق بعضهم بعضاً.

ومنها: أنه من جنس هؤلاء الرسل، فليعتبره المعتبر بإخوانه المرسلين، فدعوته دعوتهم؛ وأخلاقهم متفقة؛ ومصدرهم واحد؛ وغايتهم واحدة، فلم يقرنه بالمجهولين؛ ولا بالكاذبين، ولا بالملوك الظالمين.

ومنها: أن في ذكر هؤلاء الرسل وتعدادهم، من التنويه بهم، والشأن الصادق عليهم، وشرح أحوالهم، مما يزداد به المؤمن إيماناً بهم، ومحبة لهم، واقتداء بهديهم، واستئناساً بسمتتهم، ومعرفة بحقوقهم، ويكون ذلك مصداقاً لقوله: ﴿سلام على نوح في العالمين﴾ ﴿سلام على إبراهيم﴾ ﴿سلام على موسى وهارون﴾ ﴿سلام على إيل ياسين﴾، إنا كذلك نجزي المحسنين.

فكل محسن له من الشأن الحسن بين الأنام بحسب إحسانه. والرسل - خصوصاً هؤلاء المسمون - في المرتبة العليا من الإحسان.

ولما ذكر اشتراكهم بوحية، ذكر تخصيص بعضهم، فذكر أنه أتى داود الزبور، وهو الكتاب المعروف، المزبور

عنه، فمنعوا المحتاجين ممن يبيعونه عن العدل، فعاقبهم الله من جنس فعلهم، فمنعهم من كثير من الطيبات التي كانوا بصدد حلها، لكونها طيبة، وأما التحريم الذي على هذه الأمة، فإنه تحريم تنزيه لهم عن الخبائث التي تضرهم في دينهم ودنياهم.

﴿١٦٢﴾ لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً لما ذكر معائب أهل الكتاب، ذكر الممدوحين منهم، فقال: ﴿لكن الراسخون في العلم﴾ أي: الذين ثبت العلم في قلوبهم، ورسخ الإيقان في أفئدتهم، فأنتم لهم الإيمان التام العام ﴿بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾.

وأثمر لهم الأعمال الصالحة، من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، اللذين هما أفضل الأعمال، وقد اشتملتا على الإخلاص للمعبود، والإحسان إلى العبيد. وآمنوا باليوم الآخر فخافوا الوعيد ورجوا الوعد.

﴿أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾ لأنهم جمعوا بين العلم والإيمان، والعمل الصالح، والإيمان بالكتب والرسل السابقة واللاحقة.

﴿١٦٣ - ١٦٥﴾ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً * ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً * رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكماً * يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله من الشرع العظيم والأخبار الصادقة ما أوحى إلى هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وفي هذا عدة فوائد:

منها: أن محمداً ﷺ ليس ببديع من الرسل، بل أرسل الله قبله من الرسلين

به، فإنها ونظيرها وما هو أقوى منها، دالة ومقررة لنبوته محمد ﷺ.

ولما كان المراد من تعدد ما عدد الله من قبائحهم هذه المقابلة، لم يسبها في هذا الموضع، بل أشار إليها، وأحال على مواضعها، وقد بسطها في غير هذا الموضع في المحل اللائق بسبها.

وقوله: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ يحتمل أن الضمير هنا في قوله: ﴿قبل موته﴾ يعود إلى أهل الكتاب، فيكون على هذا كل كتابي يحضره الموت، ويعاين الأمر حقيقة، فإنه يؤمن بعيسى عليه السلام، ولكنه إيمان لا يرفع، إيمان اضطراب، فيكون مضمون هذا التهديد لهم والوعيد، وأن لا يستمروا على هذه الحال التي سيندمون عليها قبل مماتهم، فكيف يكون خالهم يوم حشرهم وقيامهم!! ويحتمل أن الضمير في قوله: ﴿قبل موته﴾ راجع إلى عيسى عليه السلام، فيكون المعنى: وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بالمسيح عليه السلام قبل موت المسيح، وذلك يكون عند اقتراب الساعة وظهور علاماتها الكبار.

فإنه تكثر الأحاديث الصحيحة في نزوله عليه السلام في آخر هذه الأمة. يقتل الدجال، ويضع الجزية، ويؤمن به أهل الكتاب مع المؤمنين. ويوم القيامة يكون عيسى عليهم شهيداً، يشهد عليهم بأعمالهم، وهل هي موافقة لشرع الله أم لا؟

وحينئذ لا يشهد إلا بطلان كل ما هم عليه، مما هو مخالف لشرعة القرآن ولما دعاهم إليه محمد ﷺ، علمنا بذلك، لعلمنا بكمال عدالة المسيح عليه السلام وصدقه، وأنه لا يشهد إلا بالحق، إلا أن ما جاء به محمد ﷺ هو الحق، وما عداه فهو ضلال وباطل.

ثم أخبر تعالى أنه حرم على أهل الكتاب كثيراً من الطيبات التي كانت حلالاً عليهم وهذا تحريم عقوبة، بسبب ظلمهم واعتدائهم، وصددهم الناس عن سبيل الله، ومنعهم إياهم من الهدى، وبأخذهم الربا وقد نهوا

طريقاً * إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً * لما أخبر عن رسالة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وأخبر برسالة خاتمهم محمد، وشهد بها وشهدت ملائكته - لزم من ذلك، ثبوت الأمر المقرر والمشهود به، فوجب تصديقهم، والإيمان بهم واتباعهم.

ثم تواعد من كفر بهم فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: جمعوا بين الكفر بأنفسهم، وصددهم الناس عن سبيل الله. وهؤلاء هم أئمة الكفر ودعاة الضلال * قد ضلوا ضلالاً بعيداً * وأي: ضلال أعظم من ضلال من ضل بنفسه وأضل غيره، فباء بالإثمين، ورجع بالخصارتين، وفاته الهديتان، ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا﴾ وهذا الظلم هو زيادة على كفرهم، وإلا فالكفر عند إطلاق الظلم يدخل فيه.

والمراد بالظلم هنا أعمال الكفر والاستغراق فيه، فهؤلاء بعيدون من المغفرة والهداية للصراط المستقيم. ولهذا قال: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾.

وإنما تعذرت المغفرة لهم والهداية، لأنهم استمروا في طغيانهم، وازدادوا في كفرانهم^(١)، فطبع على قلوبهم وانسدت عليهم طرق الهداية بما كسبوا * وما ربك بظلام للعبيد *.

﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: لا يسالي الله بهم ولا يعيباً، لأنهم لا يصلحون للخير، ولا يليق بهم إلا الحالة التي اختاروها لأنفسهم.

﴿١٧٠﴾ يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم وإن تكفروا فإن الله ما في السماوات والأرض وكان الله عليماً حكيماً * يأمر تعالى جميع الناس أن يؤمنوا بعبده ورسوله محمد ﷺ. وذكر السبب الموجب للإيمان به، والفائدة من الإيمان به، والمضرة من عدم الإيمان به، فالسبب الموجب هو إخباره

الحمد وله الشكر. ونسأله كما ابتدأ علينا نعمته بإرسالهم، أن يتمها بالتوفيق لسلوك طريقهم، إنه جواد كريم.

﴿١٦٦﴾ ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ لما ذكر أن الله أوحى إلى رسوله محمد ﷺ كما أوحى إلى إخوانه من المرسلين، أخبر هنا بشهادته تعالى على رسالته وصحة ما جاء به، وأنه ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ يحتمل أن يكون المراد أنزله مستملاً على علمه، أي: فيه من العلوم الإلهية والأحكام الشرعية والأخبار الغيبية، ما هو من علم الله تعالى الذي علم به عباده.

ويحتمل أن يكون المراد: أنزله صادراً عن علمه، ويكون في ذلك إشارة وتنبيه على وجه شهادته، وأن المعنى: إذا كان تعالى أنزل هذا القرآن المشتمل على الأوامر والنواهي، وهو يعلم ذلك، ويعلم حالة الذي أنزله عليه، وأنه دعا الناس إليه، فمن أجابه وصدق كان وليه، ومن كذبه وعاداه كان عدوه واستباح ماله ودمه، والله تعالى يمكنه، ويوالي نصره، ويحجب دعواته، ويخذل أعداءه وينصر أوليائه، فهل توجد شهادة أعظم من هذه الشهادة وأكبر؟! ولا يمكن القبح في هذه الشهادة، إلا بعد القبح بعلم الله وقدرته وحكمته، وإخباره تعالى بشهادة الملائكة على ما أنزل على رسوله، لكمال إيمانهم وجلالة هذا المشهود عليه.

فإن الأمور العظيمة لا يستشهد عليها إلا الخواص، كما قال تعالى في الشهادة على التوحيد: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وكفى بالله شهيداً.

﴿١٦٧ - ١٦٩﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ



الذي خص الله به داود عليه السلام لفضله وشرفه، وأنه كلم موسى تكليماً، أي: مشافهة منه إليه، لا بواسطة، حتى اشتهر بهذا عند العالمين، فيقال: «موسى كلمم الرحمن».

وذكر أن الرسل منهم من قصه الله على رسوله، ومنهم من لم يقصصه عليه، وهذا يدل على كثرتهم وأن الله أرسلهم مبشرين لمن أطاع الله واتبعهم، بالسعادة الدنيوية والأخروية، ومنذرين من عصي الله وخالفهم بشقاوة الدارين، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل فيقولوا: ﴿ما جاءنا من بشير ولا نذير﴾. فقد جاءكم بشير ونذير.

فلم يبق للخلق على الله حجة لإرساله الرسل تترى، يبينون لهم أمر دينهم، ومراضى ربهم ومساخطه، وطرق الجنة وطرق النار، فمن كفر منهم بعد ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

وهذا من كمال عزته تعالى وحكمته، أن أرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وذلك أيضاً من فضله وإحسانه، حيث كان الناس مضطرين إلى الأنبياء أعظم ضرورة تقدر، فأزال هذا الاضطراب، فله

فننفع في فرج مريم عليها السلام، فحملت بإذن الله، يعيسى عليه السلام.

فلما بين حقيقة عيسى عليه السلام، أمر أهل الكتاب بالإيمان به وبرسله، ونهاهم أن يجعلوا الله ثالث ثلاثة، أحدهم عيسى، والثاني مريم، فهذه مقالة النصارى قبحهم الله.

فأمرهم أن ينتهوا، وأخبر أن ذلك خير لهم، لأنه الذي يتعين أنه سبيل النجاة، وما سواه فهو طريق الهلاك، ثم نزه نفسه عن الشريك والولد، فقال: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي: هو المنفرد بالالوهية، الذي لا تنبغي العبادة إلا له. ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي: تنزه وتقدس ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ لأن ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فالكل مملوكون له، مفتقرون إليه، فمحال أن يكون له شريك منهم أو ولد.

ولما أخبر أنه المالك للعالم العلوي والسفلي، أخبر أنه قائم بمصالحهم الدنيوية والأخروية وحافظهما، ومجازيهم عليها تعالى.

﴿١٧٢ - ١٧٣﴾ ﴿لَنْ يَسْتَنْكَفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكَفَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيههم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فיעذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً.

لما ذكر تعالى غلو النصارى في عيسى عليه السلام، وذكر أنه عبده ورسوله، ذكر هنا أنه لا يستنكف عن عبادة ربه، أي: لا يمتنع عنها رغبة عنها لا هو ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾. فنزههم عن الاستكاف، وتزبيهم عن الاستكبار من باب أولى، ونفي الشيء فيه إثبات ضده.

أي: فعيسى والملائكة المقربون، قد رغبوا في عبادة ربه، وأحبوا وسعوا فيها بما يليق بأحوالهم، فأوجب لهم ذلك الشرف العظيم، والفوز العظيم،

الهداية والغواية، الحكيم في وضع الهداية والغواية موضعهما.

﴿١٧١﴾ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهَوْا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو في الدين، وهو مجاوزة الحد والقدر المشروع، إلى ما ليس بمشروع. وذلك كقول النصارى في غلوهم بعيسى عليه السلام، ورفعوا عن مقام النبوة والرسالة إلى مقام الربوبية الذي لا يليق بغير الله، فكما أن التقصير والتفريط من المنهات، فالغلو كذلك، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ وهذا الكلام يتضمن ثلاثة أشياء:

أمرين منهي عنهما، وهما قول الكذب على الله، والقول بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله، وشرعه ورسله، والثالث: تأمور به وهو قول الحق في هذه الأمور.

ولما كانت هذه قاعدة عامة كلية، وكان السياق في شأن عيسى عليه السلام نص على قول الحق فيه، المخالف لطريقة اليهودية والنصرانية فقال: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي: غاية المسيح عليه السلام ومنتهى ما يصل إليه من مراتب الكمال، أعلى حالة تكون للمخلوقين، وهي درجة الرسالة التي هي أعلى الدرجات، وأجل المثوبات.

وأنه ﴿كَلِمَتُهُ﴾ التي ﴿أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ أي: كلمة تكلم الله بها فكان بها عيسى، ولم يكن تلك الكلمة، وإنما كان بها، وهذا من باب إضافة التشريف والتكريم.

وكذلك قوله: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أي: من الأرواح التي خلقها، وكمملها بالصفات الفاضلة والأخلاق الكاملة، أرسل الله روحه جبريل عليه السلام،

بأنه جاءهم بالحق. أي: فمجيئته نفسه حق، وما جاء به من الشرع حق، فإن العاقل يعرف أن بقاء الخلق في جهلهم يعمهون، وفي كفرهم يترددون، والرسالة قد انقطعت عنهم، غير لائق بحكمة الله ورحمته، فمن حكمته ورحمته العظيمة نفس إرسال الرسول إليهم، ليعرفهم الهدى من الضلال، والغنى من الرشد، فمجرد النظر في رسالته دليل قاطع على صحة نبوته.

وكذلك النظر إلى ما جاء به من الشرع العظيم والصراط المستقيم. فإن فيه من الإخبار بالغيوب الماضية والمستقبلية، والخبر عن الله وعن اليوم الآخر - ما لا يعرف إلا بالوحي والرسالة. وما فيه من الأمر بكل خير وصلاح، ورشد، وعدل، وإحسان، وصدق، وبر، وصلة، وحسن خلق، ومن النهي عن الشر والفساد، والبغي والظلم، وسوء الخلق، والكذب والعقوق، مما يقطع به أنه من عند الله.

وكما ازداد به العبد بصيرة، ازداد إيمانه ويقينه، فهذه السبب الداعي للإيمان.

وأما الفائدة في الإيمان، فأخبر أنه خير لكم والخير ضد الشر. فالإيمان خير للمؤمنين، في أبدانهم وقلوبهم وأرواحهم، وديانهم وأخراهم. وذلك لما يترتب عليه من المصالح والفوائد، فكل ثواب عاجل وأجل، فمن ثمرات الإيمان، فالنصر والهدى والعلم، والعمل الصالح، والسرور والأفراح، والجنة وما اشتملت عليه، من النعيم كل ذلك مسبب عن الإيمان.

كما أن الشقاء الدنيوي والأخروي من عدم الإيمان أو نقصه. وأما مضرة عدم الإيمان به ﷺ، فيعرف بضد ما يترتب على الإيمان به. وأن العبد لا يضر إلا نفسه، والله تعالى غني عنه، لا تضرة معصية العاصين، ولهذا قال: ﴿فَلَنْ تَكُونَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: الجميع خلقه ومملكه، وتحت تدبيره وتصريفه ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بكل شيء ﴿حَكِيمًا﴾ في خلقه وأمره. فهو العليم بمن يستحق

فلم يستنكفوا أن يكونوا عبيداً لربوبيته ولا لإلهيته، بل يرون افتقارهم لذلك فوق كل افتقار.

ولا يظن أن رفع عيسى أو غيره من الخلق، فوق مرتبته التي أنزله الله فيها، وترفعه عن العبادة كمالاً، بل هو النقص بعينه، وهو محل الذم والعقاب، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَسْتَكْفِرْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً﴾ أي: فسَيَحْشُرُ الخلق كلهم إليه، المستكفين والمستكبرين، وعِبَادَتِهِ المؤمنين، فيحكم بينهم بحكمه العدل، وجزائه الفضل.

ثم فصل حكمه فيهم فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان بالمأمور به، وعمل الصالحات من واجبات ومستحبات، من حقوق الله وحقوق عباده. ﴿فَيُوفِيهِمْ أَجُورَهُمْ﴾ أي: الأجور التي رتبها على الأعمال، كل بحسب إيمانه وعمله.

﴿وَيُزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من الثواب الذي لم تنله أعمالهم، ولم تصل إليه أفعالهم، ولم يخطر على قلوبهم. ودخل في ذلك كل ما في الجنة من المأكول والمشارب، والمناسك، والمناسظر، والسرور، ونعيم القلب والروح، ونعيم البدن، بل يدخل في ذلك كل خير ديني ودنيوي رتب على الإيمان والعمل الصالح.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾ أي: عن عبادة الله تعالى ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ وهو سخط الله وغضبه، والنار الموقدة التي تطلع على الأفئدة. ﴿وَلَا يُجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً﴾ أي: لا يجدون أحداً من الخلق يتولاهم فيحصل لهم المطلوب، ولا مَنْ ينصرهم فيدفع عنهم المروء، بل قد تغلّ عنهم أرحم الراحمين، وتركهم في عذابهم خالدين، وما حكم به تعالى فلا راد لحكمه، ولا مغير لقضائه.

﴿١٧٤ - ١٧٥﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مبيناً﴾ فأما الذين آمنوا بالله

واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً﴾ يحتمل تعالى على سائر الناس بما أوصل إليهم من البراهين القاطعة والأنوار الساطعة، ويقسم عليهم الحججة، ويوضح لهم المحجة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: حجج قاطعة على الحق تبينه وتوضحه، وتبين ضده.

وهذا يشمل الأدلة العقلية والنقلية، الآيات الأفقية والنفسية ﴿سُورِهِمْ آيَاتُهَا فِي الْآفَاقِ﴾ وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق.

وفي قوله: ﴿مَنْ رَبُّكُمْ﴾ ما يدل على شرف هذا البرهان وعظمته، حيث كان من ربكم الذي رباكم التربية الدينية والدينية، فمن تربيته لكم التي يحمدها عليها ويشكر، أن أوصل إليكم البينات، ليهديكم بها إلى الصراط المستقيم، والوصول إلى جنات النعيم.

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مبيناً﴾ وهو هذا القرآن العظيم، الذي قد اشتمل على علوم الأولين والآخرين، والأخبار الصادقة النافعة، والأمر بكل عدل وإحسان وخير، والنهي عن كل ظلم وشر، فالناس في ظلمة إن لم يستضيئوا بأنواره، وفي شقاء عظيم إن لم يقتبسوا من خير.

ولكن انقسم الناس - بحسب الإيمان بالقرآن، والانتفاع به - قسمين:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ﴾ أي: اعترفوا بوجوده، واتصافه بكل وصف كامل، وتنزيهه من كل نقص وعيب. ﴿وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ أي: لجأوا إلى الله واعتمدوا عليه، وتبرؤوا من حولهم وقوتهم، واستعانوا بربهم. ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةِ مِنْهُ وَفَضْلٍ﴾ أي: فسيتغمدهم بالرحمة الخاصة، فيوفقهم للخيرات، ويميز لهم المشويات، ويدفع عنهم البليات والمكروهات.

﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: يوفقهم للعلم والعمل، معرفة الحق والعمل به.

أي: وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْتَصِمْ بِهِ وَيَتَمَسَّكَ بِكِتَابِهِ، منعهم من رحمته، وحرّمهم من فضله، وخلق بينهم وبين أنفسهم، فلم يهتدوا، بل ضلوا ضلالاً مبيناً، عقوبة لهم على تركهم الإيمان، فحصلت لهم الخيبة والحرمان، نسأله تعالى العفو والعافية والمعافاة.

﴿١٧٦﴾ ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين بين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم﴾ أخبر تعالى أن الناس استفتوا رسوله ﷺ أي: في الكلاله بدليل قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ وهي الميت يموت وليس له ولد صلب ولا ولد ابن، ولا أب، ولا جد، ولهذا قال: ﴿إِنْ أَمْرُ هَلِكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي: لا ذكر ولا أنثى، لا ولد صلب ولا ولد ابن.

وكذلك ليس له والد، بدليل أنه ورث فيه الإخوة، والأخوات بالإجماع لا يرثون مع الوالد، فإذا هلك وليس له ولد، ولا والد ﴿وَلَهُ أُخْتٌ﴾ أي: شقيقة أو لأب، لا لأم، فإنه قد تقدم حكمها. ﴿فَلِهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ أي: نصف متروكات أخيها، من نقود وعقار وأثاث، وغير ذلك، وذلك من بعد الدين والوصية كما تقدم.

﴿وهو﴾ أي: أخوها الشقيق، أو الذي للأب ﴿يُرْثُهَا﴾ إن لم يكن لها ولد ولم يقدر له إرثاً لأنه عاصب، فيأخذ مالها كله، إن لم يكن صاحب فرض ولا عاصب يشاركه، أو ما أبقت الفروض.

﴿فَإِنْ كَانَتَا﴾ أي: الأختان ﴿اثنتين﴾ أي: فما فوق ﴿فَلَهُمَا الثَّلَاثُ﴾ عما ترك، وإن كانوا إخوة رجالاً ونساءً. أي: اجتمع الذكور من الإخوة لغير أم مع الإناث ﴿فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ فيسقط فرض الإناث ويعضهن إخوتهن.

﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ أي:



وبأن النبي ﷺ قاتل أهل الطائف
في ذي القعدة، وهو من الأشهر
الحرم.

وقال آخرون: إن النهي عن القتال
في الأشهر الحرم غير منسوخ لهذه الآية
وغيرها، مما فيه النهي عن ذلك
بخصوصه، وحملوا النصوص المطلقة
الواردة على ذلك، وقالوا: المطلق
يحمل على المقيد.

وفصل بعضهم فقال: لا يجوز
ابتداء القتال في الأشهر الحرم، وأما
استدامته وتكثيره إذا كان أوله في
غيرها، فإنه يجوز.

وحملوا قتال النبي ﷺ لأهل
الطائف على ذلك، لأن أول قتالهم في
«حنين» في «شوال». وكل هذا في
القتال الذي ليس المقصود منه الدفع.

فأما قتال الدفع إذا ابتدأ الكفار
المسلمين بالقتال، فإنه يجوز للمسلمين
القتال، دفعاً عن أنفسهم في الشهر
الحرام وغيره بإجماع العلماء.

وقوله: ﴿ولا الهدي ولا القلائد﴾
أي: ولا تحلوا الهدي الذي يهدي إلى
بيت الله في حج أو عمرة، أو غيرها
من نعم وغيرها، فلا تصدوه عن
الوصول إلى محله، ولا تأخذوه بسرقة
أو غيرها، ولا تقصروا به، أو تحمله
ما لا يطيق، خوفاً من تلفه قبل وصوله
إلى محله، بل عظموه وعظموا من جاء
به.

﴿ولا القلائد﴾ هذا نوع خاص من
أنواع الهدي، وهو الهدي الذي يقتل
له قلائد أو عرى، فيجعل في أعناقهم
إظهاراً لشعائر الله، وحملاً للناس على
الاعتداء، وتعليماً لهم للسنة، وليعرف
أنه هدي فيحترمه، ولهذا كان تقليد
الهدي من السنن والشعائر المسنونة.

﴿ولا آمين البيت الحرام﴾ أي:
قاصدين له «يتبنون فضلاً من ربهم
ورضواناً» أي: من قصد هذا البيت
الحرام، وقصد به فضل الله بالتجارة
والمكاسب المباحة، أو قصد به
رضوان الله بحجه وعمرته والطواف
به، والصلاة، وغيرها من أنواع
العبادات، فلا يتعرضوا له بسوء،
ولا تهينوه، بل أكرموا، وعظموا
الوافدين الزائرين لبيت ربكم.

ودخل في هذا الأمر الأمر بتأمين
الطرق الموصلة إلى بيت الله، وجعل
القاصدين له مطمئنين مستريحين، غير
خائفين على أنفسهم من القتل فما
دونه، ولا غلى أموالهم من المكس
والنهب ونحو ذلك.

وهذه الآية الكريمة مخصوصة بقوله
تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا إنما
المشركون نجس فلا يقربوا المسجد
الحرام بعد عامهم هذا﴾ فالمشرك
لا يمكن من الدخول إلى الحرم.

والتخصيص في هذه الآية بالنهي
عن التعرض لمن قصد البيت ابتغاء
فضل الله أو رضوانه - يدل على أن من
قصده ليلحد فيه بالمعاصي، فإن من
تمام احترام الحرم صد من هذه حالة عن
الإفساد ببيت الله، كما قال تعالى:
﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من
عذاب أليم﴾.

ولما نهاهم عن الصيد في حال
الإحرام قال: ﴿وإذا حللستم
فأصطادوا﴾ أي: إذا حللستم من
الإحرام بالحج والعمرة، وخرجتم من
الحرم حل لكم الاصطياد، وزال ذلك
التحريم. والأمر بعد التحريم يرد
الأشياء إلى ما كانت عليه من قبل.

﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم أن
صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا﴾

أي: لا يحملنكم بغض قوم وعداوتهم
واعتداؤهم عليكم، حيث صدوكم
عن المسجد على الاعتداء عليهم، طلباً
للاشتفاء منهم، فإن العبد عليه أن
يلتزم أمر الله، ويسلك طريق العدل،
ولو جنى عليه أو ظلم واعتدي عليه،
فلا يحل له أن يكذب على من كذب
عليه، أو يخون من خان.

﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ أي:
ليعن بعضكم بعضاً على البر. وهو:
اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه،
من الأعمال الظاهرة والباطنة، من
حقوق الله وحقوق الأدميين.

والتقوى في هذا الموضع: اسم
جامع لترك كل ما يكرهه الله ورسوله،
من الأعمال الظاهرة والباطنة. وكل
خصلة من خصال الخير المأمور بفعلها،
أو خصلة من خصال الشر المأمور
بتركها، فإن العبد مأمور بفعلها بنفسه،
وبمعاونة غيره من إخوانه المؤمنين
عليها، بكل قول يبعث عليها وينشط
لها، وبكل فعل كذلك.

﴿ولا تعاونوا على الإثم﴾ وهو
التجرؤ على المعاصي التي يائث
صاحبها، ويخرج: ﴿والعدوان﴾ وهو
التعدي على الخلق في دماءهم وأموالهم
وأعراضهم، فكل معصية وظلم يجب
على العبد، كف نفسه عنه، ثم إعانة
غيره على تركه.

﴿واقفوا الله إن الله شديد العقاب﴾
على من عصاه وتجراً على مجارمه،
فاحذروا المحارم لئلا يحل بكم عقابه
العاجل والآجل.

﴿٣﴾ ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ
وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِنَظِيرِ اللَّهِ بِهِ
وَالْمُنْتَخِنَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ
وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ
عَلَى النَّصَبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ
ذَلِكَ فُسْقٌ هَذَا الَّذِي حَوْلَنَا اللَّهُ عَلَيْهِ
فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَا يَتْلُو عَلَيْكُمْ﴾.
واعلم أن الله تبارك وتعالى لا يحرم ما
يحرّم إلا صيانة لعباده، وحماية لهم من
الضرر الموجود في المحرمات، وقد
بيّن للعباد ذلك وقد لا يبين.

فأخبر أنه حرم «الميتة» والمراد

نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً فمن اضطر في خمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم.

واليوم المشار إليه يوم عرفة، إذ أتم الله دينه، ونصر عبده ورسوله، وانخزل أهل الشرك انخزالاً بليغاً، بعدما كانوا حريصين على رد المؤمنين عن دينهم، طامعين في ذلك.

فلما رأوا عز الإسلام وانتصاره وظهوره، يئسوا كل اليأس من المؤمنين، أن يرجعوا إلى دينهم، وصاروا يخافون منهم ويخشون، ولهذا في هذه السنة التي حج فيها النبي ﷺ سنة عشر حجة الوداع - لم يحج فيها مشرك، ولم يطف بالبيت عريان.

ولهذا قال: «فلا تخشوهم واخشون» أي: فلا تخشوا المشركين، واخشوا الله الذي نصركم عليهم وخذلهم، ورد كيدهم في نحورهم.

«اليوم أكملت لكم دينكم» بتمام النصر، وتكميل الشرائع الظاهرة والباطنة، الأصول والفروع، ولهذا كان الكتاب والسنة كافيين كل الكفاية، في أحكام الدين أصوله وفروعه.

فكل متكلف يزعم أنه لا بد للناس في معرفة عقائدهم وأحكامهم إلى علوم غير علم الكتاب والسنة، من علم الكلام وغيره، فهو جاهل، مبطل في دعواه، قد زعم أن الدين لا يكمل إلا بما قاله ودعا إليه، وهذا من أعظم الظلم والتجهيل لله ورسوله.

«وأتممت عليكم نعمتي» الظاهرة والباطنة «ورضيت لكم الإسلام ديناً» أي: اخترته واصطفيته لكم ديناً، كما ارتضيتكم له، فقوموا به شكراً لربكم، واحمدوا الذي منَّ عليكم بأفضل الأديان وأشرفها وأكملها.

«فمن اضطر» أي: الجأته الضرورة إلى أكل شيء من المحرمات

وقوله: «إلا ما ذكيتم» راجع لهذه المسائل، من منخقة، وموقوفة، ومتردة، ونطيحة، وأكيلة سبع، إذا ذكيت وفيها حياة مستقرة لتحقيق الذكاة فيها، ولهذا قال الفقهاء: «لو أبان السبع أو غيره حشوتها، أو قطع حلقومها، كان وجود حياتها كعدمه، لعدم فائدة الذكاة فيها» [وبعضهم لم يعتبر فيها إلا وجود الحياة فإذا ذكأها وفيها حياة حلت ولو كانت مبانة الخشوة وهو ظاهر الآية الكريمة^(١)].

«وأن تستقسموا بالأزلام» أي: وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام. ومعنى الاستقسام: طلب ما يقسم لكم ويقدر بها، وهي قدام ثلاثة كانت تستعمل في الجاهلية، مكتوب على أحدها «افعل» وعلى الثاني «لا تفعل» والثالث غفل لا كتابة فيه.

فإذا هم أحدهم بسفر أو عرس أو نحوهما، أجال تلك القدام المتسارية في الحرم، ثم أخرج واحداً منها، فإن خرج المكتوب عليه «افعل» مضى في أمره، وإن ظهر المكتوب عليه «لا تفعل» لم يفعل ولم يمض في شأنه، وإن ظهر الآخر الذي لا شيء عليه، أعادها حتى يخرج أحد القدين فيعمل به.

فحرّمه^(٢) الله عليهم الذي في هذه الصورة وما يشبهه، وعوضهم عنه بالاستخارة لربهم في جميع أمورهم.

«ذلكم فسق» الإشارة لكل ما تقدم من المحرمات، التي حرمها الله صيانة لعباده، وأنها فسق، أي: خروج عن طاعته إلى طاعة الشيطان.

ثم امتنَّ على عباده بقوله:

«٣» «اليوم ينس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم

بالمية: ما فقدت حياته بغير ذكاة شرعية، فإنها تحرم لضررها، وهو احتقان الدم في جوفها ولحمها المضرب بآكلها. وكثيراً ما تموت بعلقة تكون سبباً لهلاكها، فتضرب بالآكل. ويستثنى من ذلك ميتة الجراد والسماك، فإنه حلال.

«والدم» أي: المسفوح، كما قيد في الآية الأخرى. «ولحم الخنزير» وذلك شامل لجميع أجزائه، وإنما نص الله عليه من بين سائر الخبائث من السباع، لأن طائفة من أهل الكتاب من النصاري يزعمون أن الله أحله لهم. أي: فلا تغتروا بهم، بل هو محرم من جملة الخبائث.

«وما أهل لغير الله به» أي: ذكر عليه اسم غير الله تعالى، من الأصنام والأولياء والكواكب وغير ذلك من المخلوقين. فكما أن ذكر الله تعالى يطيب الذبيحة، فذكر اسم غيره عليها، يفيدها خبثاً معنوياً، لأنه شرك بالله تعالى.

«والمنخقة» أي: الميتة بخنق، بيد أو حبل، أو ادخالها رأسها بشيء ضيق، فتعجز عن إخراجها حتى تموت.

«والموقوفة» أي: الميتة بسبب الضرب بعضاً أو حصى أو خشبة، أو هدم شيء عليها، يقصد أو غير قصد.

«والمتردية» أي: الساقطة من علو، كجبل أو جدار أو سطح ونحوه، فتموت بذلك.

«والنطيحة» وهي التي تنطحها غيرها فتموت.

«وما أكل السبع» من ذئب أو أسد أو نمر، أو من الطيور التي تفترس البصير، فإنها إذا ماتت بسبب أكل السبع، فإنها لا تحل.

(١) كذا في ب، وفي أ: كعدمه.

(٢) كذا في النسختين، ولعل الأقرب: فحرم.

السابقة، في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ﴾ «في شحمة» أي: مجاعة «غير متجانف» أي: مائل «لأنهم» بأن لا يأكل حتى يضطر، ولا يزيد في الأكل على كفايته «فإن الله غفور رحيم» حيث أباح له الأكل في هذه الحال، ورحمه بما يقيم به بنيت من غير نقص يلحقه في دينه.

﴿٤﴾ «يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله إن الله سريع الحساب» يقول تعالى لتنبه محمد ﷺ: «يسألونك ماذا أحل لهم» من الأطعمة؟ «قل أحل لكم الطيبات» وهي كل ما فيه نفع أو لذة، من غير ضرر بالبدن ولا بالعقل، فدخل في ذلك جميع الحبوب والثمار التي في القرى والبراري، ودخل في ذلك جميع حيوانات البحر وجميع حيوانات البر، إلا ما استثناه الشارع، كالسباع والخبائث منها.

ولهذا دلت الآية بمفهومها على تحريم الخبائث، كما صرح به في قوله تعالى: ﴿وَيَحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتُ وَيُحْرَمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثُ﴾.

﴿وما علمتم من الجوارح﴾ أي: أحل لكم ما علمتم من الجوارح إلى آخر الآية. دلت هذه الآية على أمور:

أحدها: لطف الله بعباده ورحمته لهم، حيث وسع عليهم طرق الحلال، وأباح لهم ما لم يذكره مما صادته الجوارح، والمراد بالجوارح: الكلاب، والفهود، والصقور، ونحو ذلك، مما يصيد بنابه أو بمخلبه.

الثاني: أنه يشترط أن تكون معلمة، بما يعد في الحرف تعليماً، بأن يسترسل إذا أرسل، وينزجر إذا زجر، وإذا أمسك لم يأكل، ولهذا قال: ﴿تَعْلَمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أمسكن من الصيد لأجلكم.

وما أكل منه الجارح فإنه لا يعلم أنه أمسكه على صاحبه، ولعله أن يكون أمسكه على نفسه.

الثالث: اشتراط أن يجرحه الكلب أو الطير ونحوهما، لقوله: ﴿مِنْ الْجَوَارِحِ﴾ مع ما تقدم من تحريم المنخقة. فلو خنقه الكلب أو غيره، أو قتله بثقله لم يباح [هذا بناء على أن الجوارح الثلاث يجرحن الصيد بأنبيائها أو مخالبيها، والمشهور أن الجوارح بمعنى الكواشب أي: المحصلات للصيد والمدركات لها فلا يكون فيها على هذا دلالة - والله أعلم -] (١).

الرابع: جواز اقتناء كلب الصيد، كما ورد في الحديث الصحيح، مع أن اقتناء الكلب محرم، لأن من لازم إباحة صيده وتعليمه جواز اقتنائه.

الخامس: طهارة ما أصابه فم الكلب من الصيد، لأن الله أباحه ولم يذكر له غسلاً، فدل على طهارته.

السادس: فيه فضيلة العلم، وأن الجارح المعلم - بسبب العلم - يباح صيده، والجاهل بالتعليم لا يباح صيده.

السابع: أن الاشتغال بتعليم الكلب أو الطير أو نحوهما، ليس مذموماً، وليس من العبث والباطل. بل هو أمر مقصود، لأنه وسيلة لحل صيده والانتفاع به.

الثامن: فيه حجة لمن أباح بيع كلب الصيد، قال: لأنه قد لا يحصل له إلا بذلك.

التاسع: فيه اشتراط التسمية عند إرسال الجارح، وأنه إن لم يسم الله متعمداً، لم يباح ما قتل الجارح.

العاشر: أنه يجوز أكل ما صاده الجارح، سواء قتله الجارح أم لا. وأنه إن أدركه صاحبه، وفيه حياة مستقرة فإنه لا يباح إلا بها.

ثم حث تعالى على تقواه، وحذر من إتيان الحساب في يوم القيامة، وأن ذلك أمر قد دنا واقترب، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

﴿٥﴾ «اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين» كرر تعالى إجلال الطيبات لبيان الامتنان، ودعوة للعباد إلى شكره والإكثار من ذكره، حيث أباح لهم ما تدعوهم الحاجة إليه، ويحصل لهم الانتفاع به من الطيبات.

﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم﴾ أي: ذبائح اليهود والنصارى حلال لكم - يا معشر المسلمين - دون باقي الكفار، فإن ذبائحهم لا تحل للمسلمين، وذلك لأن أهل الكتاب ينتسبون إلى الأنبياء والكتب.

وقد اتفق الرسل كلهم على تحريم الذبح لغير الله، لأنه شرك، فاليهود والنصارى يتدينون بتحريم الذبح لغير الله، فلذلك أبيحت ذبائحهم دون غيرهم. والدليل على أن المراد بطعامهم ذبائحهم، أن الطعام الذي ليس من الذبائح كالحبوب والثمار ليس لأهل الكتاب فيه خصوصية، بل يباح ذلك ولو كان من طعام غيرهم.

وأيضاً فإنه أضاف الطعام إليهم. فدل ذلك، على أنه كان طعاماً، بسبب ذبحهم. ولا يقال: إن ذلك للتمليك، وأن المراد: الطعام الذي يملكون. لأن هذا، لا يباح على وجه الغضب، ولا من المسلمين.

﴿وطعامكم﴾ أيها المسلمون «حل لهم» أي: يحل لكم أن تطعموهم إياه ﴿و﴾ أحل لكم «المحصنات» أي: الحرائر العفيفات «من المؤمنات» والحرائر العفيفات «من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم» أي: من اليهود والنصارى.

وهذا تخصيص لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾

الثالث والأربعون: أن الآية عامة في جواز التيمم، لجميع الأحداث كلها، الحدث الأكبر والأصغر، بل ولنجاسة البدن، لأن الله جعلها بدلا عن طهارة الماء، وأطلق في الآية فلم يقيد [وقد يقال أن نجاسة البدن لا تدخل في حكم التيمم لأن السياق في الأحداث وهو قول جمهور العلماء] (١).

الرابع والأربعون: أن محل التيمم في الحدث الأصغر والأكبر واحد، وهو الوجه واليدان.

الخامس والأربعون: أنه لو نوى من عليه حدثان التيمم عنهما، فإنه يجزئ أخذاً من عموم الآية وإطلاقها.

السادس والأربعون: أنه يكفي المسح بأي شيء كان، بيده أو غيرها، لأن الله قال: ﴿فامسحوا﴾ ولم يذكر الممسوح به، فدل على جوازه بكل شيء.

السابع والأربعون: اشتراط الترتيب في طهارة التيمم، كما يشترط ذلك في الوضوء، ولأن الله بدأ بمسح الوجه قبل مسح اليدين.

الثامن والأربعون: أن الله تعالى - فيما شرعه لنا من الأحكام - لم يجعل علينا في ذلك من حرج ولا مشقة ولا عسر، وإنما هو رحمة منه بعباده ليظهرهم، وليتم نعمته عليهم.

وهذا هو التاسع والأربعون: أن طهارة الظاهر بالماء والتراب، تكميل لطهارة الباطن بالتوحيد، والتوبة النصوح.

الخمسون: أن طهارة التيمم، وإن لم يكن فيها نظافة وطهارة تدرك بالحس والمشاهدة، فإن فيها طهارة معنوية ناشئة عن امتثال أمر الله تعالى.

الحادي والخمسون: أنه ينبغي للعبد أن يتدبر الحكم والأسرار في شرائع الله، في الطهارة وغيرها ليزداد معرفة وعِلما، ويزداد شُكراً لله وحباً له، على ما شرع من الأحكام التي توصل العبد إلى المنازل العالية الرفيعة.

﴿٧﴾ واذكروا نعمة الله عليكم

وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله إن الله عليكم بذات الصدور ﴿١﴾ يأمر تعالى عباده بذكر نعمة الدينية والدنيوية، بقلوبهم وألسنتهم. فإن في استدامة ذكرها داعياً لشكر الله تعالى ومحبة، وامتلاء القلب من إحسانه.

وفيه زوال للعجب من النفس بالنعم الدينية، وزيادة لفضل الله وإحسانه ﴿٢﴾ وميثاقه ﴿٣﴾ أي: واذكروا ميثاقه ﴿٤﴾ الذي واثقكم به ﴿٥﴾ أي: عهده الذي أخذه عليكم.

وليس المراد بذلك أنهم لفظوا ونطقوا بالعهد والميثاق، وإنما المراد بذلك أنهم بإيمانهم بالله ورسوله قد التزموا طاعتهم، ولهذا قال: ﴿إذ قلتم سمعنا وأطعنا﴾ أي: سمعنا ما دعوتنا به من آياتك القرآنية والكونية، سمع فهم وإذعان وانقياد. وأطعنا ما أمرتنا به بالامتناع، وما نهيتنا عنه بالاجتناب. وهذا شامل لجميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة.

وأن المؤمنين يذكرون في ذلك عهد الله وميثاقه عليهم، وتكون منهم على يال، ويحرضون على أداء ما أمروا به كاملاً غير ناقص.

﴿٨﴾ واتقوا الله ﴿٩﴾ في جميع أحوالكم ﴿١٠﴾ إن الله عليكم بذات الصدور ﴿١١﴾ أي: بما تنطوي عليه من الأفكار والأسرار والخواطر. فاحذروا أن يطلع من قلوبكم على أمر لا يرضاه، أو يصدر منكم ما يكرهه، واعمروا قلوبكم بمعرفته ومحبته والنصح لعباده. فإنكم - إن كنتم كذلك - غفر لكم السيئات، وضاعف لكم الحسنات، لعلمه بصلاح قلوبكم.

﴿٨﴾ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴿٩﴾ أي: يا أيها الذين آمنوا ﴿١٠﴾ بما أمروا بالإيمان به، قوموا بلازم إيمانكم، بأن تكونوا قوامين لله شهداء بالقسط ﴿١١﴾ بأن تنشط للقيام بالقسط حركاتكم الظاهرة

والباطنة

وأن يكون ذلك القيام لله وحده، لا لغرض من الأغراض الدنيوية، وأن تكونوا قاصدين للقسط، الذي هو العدل، لا الإفراط ولا التفريط، في أقوالكم ولا أفعالكم، وقوموا بذلك على القريب والبعيد، والصدق والعدو.

﴿١٢﴾ ولا يجرمنكم ﴿١٣﴾ أي: يحملنكم بغض ﴿١٤﴾ قوم على ألا تعدلوا ﴿١٥﴾ كما يفعل من لا عدل عنده ولا قسط، بل كما تشهدون لوليكم، فاشهدوا عليه، وكما تشهدون على عدوكم فاشهدوا له، ولو كان كافراً أو مبتدعاً، فإنه يجب العدل فيه، وقبول ما يأتي به من الحق، لأنه حق لا لأنه قاله، ولا يرد الحق لأجل قوله، فإن هذا ظلم للحق.

﴿١٦﴾ اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴿١٧﴾ أي: كلما حرصتم على العدل واجتهدتم في العمل به، كان ذلك أقرب لتقوى قلوبكم، فإن تم العدل كملت التقوى.

﴿١٨﴾ إن الله خبير بما تعملون ﴿١٩﴾ فمجازيكم بأعمالكم، خيرها وشرها، صغيرها وكبيرها، جزاء عاجلاً، وآجلاً.

﴿٩﴾ - ﴿١٠﴾ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم ﴿١١﴾ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴿١٢﴾ وعد الله الذي لا يخلف الميعاد وهو أصدق القائلين - المؤمنين به ويكتبه ورسله اليوم الآخر، وعملوا الصالحات ﴿١٣﴾ من واجبات ومستحبات - بالمغفرة لذنوبهم، بالعفو عنها وعن عواقبها، وبالأجر العظيم الذي لا يعلم عظمه إلا الله تعالى.

﴿١٤﴾ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴿١٥﴾

﴿١٦﴾ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا الدالة على الحق المبين، فكذبوا بها بعدما أبانت الحقائق. ﴿١٧﴾ أولئك أصحاب الجحيم ﴿١٨﴾ الملازمون لها ملازمة صاحب لصاحبه.

﴿١٩﴾ يا أيها الذين آمنوا اذكروا

نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿١٢﴾ يذكر تعالى عباده المؤمنين بنعمة العظيمة، ويحثهم على تذكرها بالقلب واللسان، وأنهم - كما أنهم يعدون قتلهم لأعدائهم، وأخذ أموالهم وبلادهم وسبيهم نعمة - فليعدوا أيضاً إنعامه عليهم بكف أيديهم عنهم، ورد كيدهم في نحورهم نعمة. فإنهم الأعداء قد هموا بآمر، وظنوا أنهم قادرون عليه.

فإذا لم يدركوا بالمؤمنين مقصودهم، فهو نصر من الله لعباده المؤمنين ينبغي لهم أن يشكروا الله على ذلك، ويعيدوه ويذكروه، وهذا يشمل كل من هم بالمؤمنين بشر، من كافر ومتناق وباغ، كف الله شره عن المسلمين، فإنه داخل في هذه الآية.

ثم أمرهم بما يستعينون به على الانتصار على عدوهم، وعلى جميع أمورهم، فقال: ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي: يعتمدوا عليه في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، وتبرؤوا من حولهم وقوتهم، ويثقوا بالله تعالى في حصول ما يحبون. وعلى حسب إيمان العبد يكون توكله، وهو من واجبات القلب المتفق عليها.

﴿١٢ - ١٣﴾ ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وأتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزضتموه وأقرضتم الله قرضاً حسناً لا كفرن عنكم سياتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل﴾ ﴿١٣﴾ فيما نقصهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين﴾ يخبر تعالى أنه أخذ على بني إسرائيل الميثاق الثقيل المؤكد، وذكر صفة الميثاق وأجزهم إن قاموا به، وإثمهم إن لم

يقوموا به، ثم ذكر أنهم ما قاموا به، وذكر ما عاقبهم به، فقال: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل﴾ أي: عهدهم المؤكد الغليظ، ﴿وبعنا منهم اثني عشر نقيباً﴾ أي: رئيساً وعريفاً على من تحته، ليكون ناظراً عليهم، حاثاً لهم على القيام بما أمروا به، مطالباً يدعوه.

﴿وقال الله﴾ للنقباء الذين تحملوا من الأعباء ما تحملوا: ﴿إني معكم﴾ أي: بالعون والنصر، فإن المعونة بقدر المؤنة.

ثم ذكر ما واثقهم عليه فقال: ﴿لئن أقمتم الصلاة﴾ ظاهراً وباطناً، بالإتيان بما يلزم وينبغي فيها، والمداومة على ذلك ﴿وآتيتم الزكاة﴾ لمستحقّيها ﴿وآمنتم برسلي﴾ جميعهم، الذين أفضّلهم وأكملهم محمد ﷺ، ﴿وعزضتموه﴾ أي: عظمتهموه، وأديتم ما يجب لهم من الاحترام والطاعة ﴿وأقرضتم الله قرضاً حسناً﴾ وهو الصدقة والإحسان، الضادر عن الصدق والإخلاص وطيب المكسب، فإذا قمتم بذلك ﴿لا كفرن عنكم سياتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾. فجمع لهم بين حصول المحبوب بالجنة وما فيها من النعيم، واندفاع المكروه بتكفير السيئات، ودفع ما يترتب عليها من العقوبات.

﴿فمن كفر بعد ذلك﴾ العهد والميثاق المؤكد بالأمان، والالتزامات المقرون بالترغيب بذكر ثوابه.

﴿فقد ضل سواء السبيل﴾ أي: عن عمد وعلم، فيستحق ما يستحقه الضالون من حرمان الثواب، وحصول العقاب. فكأنه قيل: ليت شعري ماذا فعلوا؟ وهل وفوا بما عاهدوا الله عليه، أم تكفوا؟

فبين أنهم نقضوا ذلك فقال: ﴿فما نقضهم ميثاقهم﴾ أي: بسببه عاقبناهم بعدة عقوبات:

الأولى: أننا ﴿لعناهم﴾ أي: طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا، حيث أغلقوا على أنفسهم أبواب الرحمة، ولم يقوموا بالعهد الذي أخذ عليهم، الذي

هو سببها الأعظم. الثانية: قوله: ﴿وجعلنا قلوبهم قاسية﴾ أي: غليظة لا تجدي فيها المواعظ، ولا تنفعها الآيات والنذر، فلا يرغبهم تشويق، ولا يزعجهم تخويف، وهذا من أعظم العقوبات على العبد، أن يكون قلبه بهذه الصفة التي لا يفيد الهدى والخير إلا شراً.

الثالثة: أنهم ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ أي: ابتلوا بالتفسير والتبديل، فيجعلون للكلم الذي أراد الله معنى غير ما أراده الله ولا رسوله.

الرابعة: أنهم ﴿نسوا حظاً مما ذكروا به﴾ فإنهم ذكروا بالتوراة، وبما أنزل الله على موسى، فنسوا حظاً منه، وهذا شامل لنسيان علمه، وأنهم نسوه وضاع عنهم، ولم يوجد كثير مما أساهم الله إياه عقوبة منه لهم.

وشامل لنسيان العمل الذي هو الترك، فلم يوفقوا للقيام بما أمروا به، ويستبدل بهذا على أهل الكتاب بإنكارهم بعض الذي قد ذكر في كتبهم، أو وقع في زمانهم، أنه مما نسوه.

الخامسة: الخيانة المستمرة التي ﴿لا تزال تطلع على خائنة منهم﴾ أي: خيانة الله لعباده المؤمنين.

ومن أعظم الخيانة منهم، كتهمهم [عن] من يعظهم ويحسن فيهم الظن الحق، وإيقاظهم على كفرهم، فهذه خيانة عظيمة. وهذه الخصال الذميمة، حاصلة لكل من اتصف بصفاتهم.

فكل من لم يرق بما أمر الله به، وأخذ به عليه الالتزام، كان له نصيب من اللعنة وقسوة القلب، والابتلاء بتحريف الكلم، وأنه لا يوفق للصواب، ونسيان حظ مما ذكر به، وأنه لا بد أن يتلى بالخيانة، نسأل الله العافية.

وسمى الله تعالى ما ذكروا به خطأ، لأنه هو أعظم الخطوط، وما عداه فإنما هي خطوط دنيوية، كما قال تعالى: ﴿فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما



من مذهبهم إلا مذهب النصارى في المسيح.

قال الله ردأ عليهم حيث ادعوا بلا برهان: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ؟﴾ فلو كنتم أحبابه ما عذبكم لآكون الله لا يحب إلا من قام بمراضيه^(٢).

﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ تجري عليكم أحكام العدل والفضل ﴿يَغْفِرْ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ إذا أتوا بأسباب المغفرة أو أسباب العذاب، ﴿وَاللَّهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: فأى شيء خضكم بهذه الفضيلة، وأنتم من جملة الممالك ومن جملة من يرجع إلى الله في الدار الآخرة، فيجازيكم بأعمالكم.

﴿١٩﴾ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرِّسَالِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يدعو تبارك وتعالى أهل الكتاب - بسبب ما من عليهم من كتابه - أن يؤمنوا برسوله محمد ﷺ، ويشكروا الله تعالى الذي أرسله إليهم على حين «فترة من الرسل» وشدة حاجة إليه.

وهذا ما يدعو إلى الإيمان به، وأنه يبين لهم جميع المطالب الإلهية والأحكام الشرعية.

وقد قطع الله بذلك حاجتهم، لثلا يقولوا: «ما جاءنا من بشير ولا نذير، فقد جاءكم بشير ونذير» يشر بالثواب العاجل والآجل، وبالأعمال المروجة لذلك، وصفة العاملين بها. وينذر بالعقاب العاجل والآجل، وبالأعمال المروجة لذلك، وصفة العاملين بها.

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ انقادت الأشياء طوعاً وإذعانا لقدرته، فلا يستعصي عليه شيء منها، ومن قدرته أن أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وأنه يثيب من أطاعهم ويعاقب من عصاهم.

﴿٢٠﴾ ﴿يَا قَوْمِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْت أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة ﴿إلى آخر القصة^(٣)﴾. لما امتن الله على موسى وقومه بنجاتهم من فرعون وقومه وأسرهم واستعبادهم، ذهبوا قاصدين لأوطانهم ومنساكنهم، وهي بيت المقدس وما حواله، وقاربوا وصول بيت المقدس، وكان الله قد فرض عليهم جهاد عدوهم ليخرجوه من ديارهم. فوعظهم موسى عليه السلام؛ وذكرهم ليقدّموا على الجهاد فقال لهم: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾

بقلوبكم وألستكم. فإن ذكرها داع إلى محبته تعالى ومنشط على العبادة، ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ يدعو نكم إلى الهدى، ويحذرونكم من الردى، ويحثونكم على سعادتهم الأبدية، ويعلمونكم ما لم تكونوا تعلمون ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ تملكون أمركم، بحيث إنه زال عنكم استعباد عدوكم لكم، فكنتم تملكون أمركم، وتمتكون من إقامة دينكم.

﴿وَأَتَاكُمْ﴾ من النعم الدينية والدنيوية ﴿مَا لَمْ يُوْت أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ فإنهم في ذلك الزمان خيرة الخلق، وأكرمهم على الله تعالى. وقد أنعم عليهم بنعم ما كانت لغيرهم.

فذكرهم بالنعم الدينية والدنيوية، الداعي ذلك لإيمانهم وثباتهم على الجهاد، وإقدامهم عليه، ولهذا قال: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ أي: المطهرة ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

فأخبرهم خبراً تطمئن به أنفسهم، إن كانوا مؤمنين مصدقين بخبر الله، وأنه قد كتب الله لهم دخولها، وانتصارهم على عدوهم.

﴿وَلَا تَرْتَدُّوا﴾ أي: ترجعوا ﴿عَلَى أَدْبَارِكُمْ، فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ قد

ولا قدرة لهم على ذلك - دل على بطلان الإهية من لا يمتنع من الإهلاك، ولا في قوته شيء من الفكاك.

ومن الأدلة أن ﴿اللَّهُ﴾ وحده ﴿مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يتصرف فيهم بحكمه الكوني والشرعي والجزائي، وهم مملوكون مدبرون، فهل يليق أن يكون المملوك العبد الفقير، إلهاً معبوداً غنياً من كل وجه؟ هذا من أعظم المحال.

ولا وجه لاستغرابهم لخلق المسيح عيسى ابن مريم من غير أب، فإن الله ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ إن شاء من أب وأم، كسائر بني آدم، وإن شاء من أب بلا أم، كحواء. وإن شاء من أم بلا أب، كعيسى. وإن شاء من غير أب ولا أم [كآدم]^(١).

فنوع خليقته تعالى بمشيئته النافذة، التي لا يستعصي عليها شيء، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ومن مقالات اليهود والنصارى أن كلا منهما ادعى دعوى باطلة، يزكون بها أنفسهم، بأن قال كل منهما: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾.

والابن في لغتهم هو الحبيب، ولم يريدوا البهوة الحقيقية، فإن هذا ليس

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) زيادة من هامش ب.

(٣) في ب: كتب الآيات إلى قوله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

ومواجهتهم لنبيهم فيه هذا المقام الحرج الضيق، الذي قد دعت الحاجة والضرورة إلى نصرته نبيهم، وإعزاز أنفسهم.

وهذا وأمثاله يظهر التفاوت بين سائر الأمم، وأمة محمد ﷺ حيث قال الصحابة لرسول الله ﷺ - حين شاورهم في القتال يوم «بدر» مع أنه لم يحتم عليهم: يا رسول الله، لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك، ولو بلغت بنا برك الغماد ما تخلف عنك أحد. ولا نقول كما قال قوم موسى لموسى: «أذهب أنت وربك فقاتل إنا هاهنا قاعدون» ولكن اذهب أنت وربك فقاتل إنا معكما مقاتلون، من بين يدك ومن خلفك، وعن يمينك وعن يسارك.

فلما رأى موسى عليه السلام عتوهم عليه: قال: رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي، أي: فلا يدان لنا بقتالهم، ولست بجبار على هؤلاء.

«فأفرق بيننا وبين القوم الفاسقين» أي: احكم بيننا وبينهم، بأن تنزل فيهم من العقوبة ما اقتضته حكمتك، ودل ذلك على أن قولهم وفعلهم من الكبائر العظيمة الموجبة للفسق.

«قال» الله عجباً لدعوة موسى: «فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض» أي: إن من عقوبتهم أن نحرم عليهم دخول هذه القرية التي كتبها الله لهم، مدة أربعين سنة، وتلك المدة أيضاً يتيهون في الأرض، لا يبتعدون إلى طريق ولا يسبقون مطمئنين، وهذه عقوبة دينوية، لعل الله تعالى كفر بها عنهم، ودفع عنهم عقوبة أعظم منها، وفي هذا دليل على أن العقوبة على الذنب قد تكون بزوال نعمة موجودة، أو دفع نعمة قد انعقد سبب وجودها أو تأخرها إلى وقت آخر.

ولعل الحكمة في هذه المدة أن يموت أكثر هؤلاء الذين قالوا هذه

خسرتم دنياكم بما فاتكم من التصرف على الأعداء وفتح بلادكم. وأخرتكم بما فاتكم من الثواب، وما استحققتكم - بمعصيتكم - من العقاب، فقالوا قولاً يدل على ضعف قلوبهم، وخور نفوسهم، وعدم اهتمامهم بأمر الله. ورسوله: «قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين» شديدي القوة والشجاعة، أي: فهذا من الموانع لنا من دخولها.

«وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون». وهذا من الجبن وقلة اليقين، وإلا فلو كان معهم رشدهم، لعلموا أنهم كلهم من بني آدم، وأن القوي من أئمانه الله بقوة من عنده، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، ولعلموا أنهم سينصرون عليهم، إذ وعدهم الله بذلك، وعداً خاصاً.

«قال رجلان من السذجين يخافون» الله تعالى، مشجعين لقومهم، منهضين لهم على قتال عدوهم واحتلال بلادهم. «أنعم الله عليهما» بالتوفيق، وكلمة الحق في هذا الموطن المحتاج إلى مثل كلامهم، وأنعم عليهم بالصبر واليقين.

«ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون» أي: ليس بينكم وبين نصركم عليهم إلا أن تجزموا عليهم، وتدخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه عليهم فإنهم سينهزمون، ثم أمرهم بعدة هي أقوى العدد، فقالوا: «وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين».

فإن في التوكل على الله - وخصوصاً في هذا الموطن - تيسيراً للأمر، ونصراً على الأعداء. ودل هذا على وجوب التوكل، وعلى أنه بحسب إيمان العبد يكون توكله، فلم ينتجع فيهم هذا الكلام، ولا نفع فيهم الملام، فقالوا قول الأذلين: «يا موسى، إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها، فاذهب أنت وربك فقاتل إنا هاهنا قاعدون».

فما أشنع هذا الكلام منهم،

(١) في ب: كتب الآيات إلى قوله تعالى: «فأصبح من التادمين».



المقالة، الصادرة عن قلوب لا صبر فيها ولا ثبات، بل قد ألفت الاستعداد لعدوها، ولم تكن لها همم ترقيها إلى ما فيه ارتقاؤها وعلوها، ولتظهر ناشئة جديدة تتربى بحقولهم على طلب قهر الأعداء، وعدم الاستعداد، والنذل المانع من السعادة.

ولما علم الله تعالى أن عبده موسى في غاية الرحمة على الخلق، خصوصاً قومه، وأنه ربما رق لهم، واحتملته الشفقة على الحزن عليهم في هذه العقوبة، أو الدعاء لهم بزوالها، مع أن الله قد حتمها، قال: «فلا تأسف على القوم الفاسقين» أي: لا تأسف عليهم ولا تحزن، فإنهم قد فسقوا، وفسقهم اقتضى وقوع ما نزل بهم لا ظلماً منا.

«٢٧ - ٣١» «واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق» إلى آخر القصة (١). أي: قص على الناس وأخبرهم بالقضية التي جرت على ابني آدم بالحق، تلاوة يعتبر بها المعتبرون، صدقاً لا كذباً، وجداً لا لعباً، والظاهر أن ابني آدم هما ابنه لصلبه، كما يدل عليه ظاهر الآية والسياق، وهو قول جمهور المفسرين. أي: اتل عليهم نبأهما في حال تربيتهما للقربان، الذي أداهما إلى الحال



المذكورة.

﴿إذ قربا قربانا﴾ أي: أخرج كل منهما شيئاً من ماله لتقصّد التقرب إلى الله، ﴿فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر﴾ بأن علم ذلك بخبر من السماء، أو بالعادة السابقة في الأمم، أن علامة تقبل الله للقربان، أن تنزل نار من السماء فتحرقه. ﴿قال﴾ الابن، الذي لم يتقبل منه للآخر حسداً وبغياً ﴿لاقتليك﴾. فقال له الآخر - مترفعاً له في ذلك - ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ فأى: ذنب لي وجناية توجب لك أن تقتلني؟ إلا أني اتقيت الله تعالى، الذي تقواه واجبة عليّ وعليك، وعلى كل أجد، وأصح الأقوال في تفسير المتقين هنا، أي: المتقين لله في ذلك العمل، بأن يكون عملهم خالصاً لوجه الله، متبعين فيه لسنة رسول الله ﷺ.

ثم قال له غبراً أنه لا يريد أن يتعرض لقتله، لا ابتداء ولا مدافعة فقال: ﴿لئن بسطت إلي يدك لتقتلني، ما أنا بسايط يدي إليك لأقتلك﴾ وليس ذلك جبناً مني ولا عجزاً. وإنما ذلك لأنني ﴿أخاف الله رب السعالمين﴾ والخائف لا يقدم^(١) على الذنوب، خصوصاً الذنوب الكبار، وفي هذا تحوير لمن يريد القتل،

(١) في ب: لا يقوم.

وأنه ينبغي لك أن تتقي الله وتحافه. ﴿إني أريد أن تبوء﴾ أي: ترجع ﴿بإثمي وإثمك﴾ أي: إنه إذا دار الأمر بين أن أكون قاتلاً أو تقتلني فإني أوشر أن تقتلني، فتبوء بالوزيرين ﴿فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين﴾ دل هذا على أن القتل من كبائر الذنوب، وأنه موجب لدخول النار. فلم يرتدع ذلك الجاني ولم ينزجر، ولم يزل يعزم نفسه ويحزمها، حتى طوعت له قتل أخيه الذي يقتضي الشرع والطبع احترامه. ﴿فقتله فأصبح من الخاسرين﴾ دنياهم وآخرتهم، وأصبح قد سن هذه السنة لكل قاتل. ﴿ومن سنّ سنة سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة﴾.

ولهذا ورد في الحديث الصحيح أنه «ما من نفس تقتل إلا كان على ابن آدم الأول شطر من دمه»، لأنه أول من سن القتل. فلما قتل أخاه لم يدر كيف يصنع به؛ لأنه أول ميت مات من بني آدم ﴿فبعث الله غريباً يبحث في الأرض﴾ أي: يثيرها ليفن غريباً آخر ميتاً ﴿ليريه﴾ بذلك ﴿كيف يوارى سوء أخيه﴾ أي: بدنه، لأن بدن الميت يكون عورة ﴿فأصبح من الخاسرين﴾ وهكذا عاقبة المعاصي الندامة والخسارة.

﴿٣٢﴾ ﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لسرفون﴾ يقول تعالى: ﴿من أجل ذلك﴾ الذي ذكرناه في قصة ابني آدم، وقتل أحدهما أخاه، وسنّه القتل لمن بعده، وأن القتل عاقبته وخيمة وخسارة في الدنيا والآخرة، ﴿كتبنا على بني إسرائيل﴾ أهل الكتب السماوية ﴿أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض﴾ أي: بغير حق ﴿فكأنما قتل الناس جميعاً﴾؛ لأنه ليس

معه داع يدعوه إلى التبين، وأنه لا يقدم على القتل إلا بحق، فلما تجرأ على قتل النفس التي لم تستحق القتل، علم أنه لا فرق عنده بين هذا المقتول وبين غيره، وإنما ذلك بحسب ما تدعوه إليه نفسه الأثارة بالسوء. فتجرؤ على قتله، كأنه قتل الناس جميعاً. وكذلك من أحيا نفساً أي: استبقى أحداً، فلم يقتله مع دعاء نفسه له إلى قتله، فمنعه خوف الله تعالى من قتله، فهذا كأنه أحيا الناس جميعاً. لأن ما معه من الخوف يمنعه من قتل من لا يستحق القتل.

ودلت الآية على أن القتل يجوز بأحد أمرين: إما أن يقتل نفساً بغير حق متعمداً في ذلك، فإنه يحل قتله، إن كان مكلفاً مكافئاً، ليس بوالد للمقتول. وإما أن يكون مفسداً في الأرض، بإفساده لأديان الناس أو أديانهم أو أموالهم، كالكفار المرتدين والمحاربين، والدعاة إلى البدع الذين لا ينكف شرمهم إلا بالقتل. وكذلك قطاع الطريق ونحوهم، ممن يصلون على الناس لقتلهم، أو أخذ أموالهم.

﴿ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات﴾ التي لا يبقى معها حجة لأحد. ﴿ثم إن كثيراً منهم﴾ أي: من الناس ﴿بعد ذلك﴾ البيان القاطع للحجة، الموجب للاستقامة في الأرض ﴿للسرفون﴾ في العمل بالمعاصي، ومخالفة الرسل الذين جاءوا بالبينات والحجج.

﴿٣٣ - ٣٤﴾ ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفقوا من الأرض ذلك لهم جزاء في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم. المحاربون لله ورسوله، هم الذين بارزوه بالعداوة، وأفسدوا في الأرض



فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم * فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم * ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير * السارق: هو من أخذ مال غيره المحترم خفية، بغير رضاه، وهو من كبائر الذنوب الموجبة لثرب العقوبة الشنيعة، وهو قطع اليد اليمنى، كما هو في قراءة بعض الصحابة.

وجد اليد عند الإطلاق من الكوع، فإذا سرق قطعت يده من الكوع، وخسمت في زيت لتتسد العروق فيقف الدم، ولكن السنة قيدت عموم هذه الآية من عدة أوجه:

منها: الخرز، فإنه لا بد أن تكون السرقة من حرز، وحرز كل مال: ما يحفظ به عادة، فلو سرق من غير حرز فلا قطع عليه.

ومنها: أنه لا بد أن يكون المسروق نصاباً، وهو ربح دينار، أو ثلاثة دراهم، أو ما يساوي أحدهما، فلو سرق دون ذلك فلا قطع عليه.

ولعل هذا يؤخذ من لفظ السرقة ومعناها، فإن لفظ «السرقة» أخذ الشيء على وجه لا يمكن الاحتراز

منه، وذلك أن يكون المال محرزاً، فلو كان غير محرز لم يكن ذلك سرقة شرعية.

ومن الحكمة أيضاً أن لا تقطع اليد في الشيء النزر التافه، فلما كان لا بد من التقدير، كان التقدير الشرعي مخصصاً للكتاب.

والحكمة في قطع اليد في السرقة، أن ذلك حفظ للأموال، واحتياط لها، وليقطع العضو الذي صدرت منه الجناية، فإن عاد السارق قطعت رجله اليسرى، فإن عاد، فقيل: تقطع يده اليسرى، ثم رجله اليمنى، وقيل: يجبس حتى يموت.

وقوله: «جزاء بما كسباً» أي: ذلك القطع جزاء للسارق بما سرقه من أموال الناس.

«نكالا من الله» أي: تنكيلاً وترهيباً للسارق ولغيره، ليرتدع السارق - إذا علموا - أنهم سيقطعون إذا سرقوا.

«والله عزيز حكيم» أي: عز وحكم فقطع السارق.

«فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح، فإن الله يتوب عليه، إن الله غفور رحيم» فيغفر لمن تاب فترك الذنوب، وأصلح الأعمال والعيوب. وذلك أن الله ملك السماوات والأرض، يتصرف فيهما بما شاء من التصاريح القدرية والشرعية، والمغفرة والعقوبة، بحسب ما اقتضته حكمته ورحمته الواسعة ومغفرته.

٤١ - ٤٤ ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنُوا بِأَفْوَهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ بِحَرْفٍ مِنَ الْكَلِمِ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمِنْ يَرُدَّ اللَّهُ فَتَنَهُ فُلْنِ مَلَكٍ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يَرِدْ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * سَمَاعُونَ

للكذب أكالون للسهة فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين * وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين * إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والزياتيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون * كان الرسول ﷺ من شدة حرصه على الخلق يشتد خزنه لمن يظهر الإيمان، ثم يرجع إلى الكفر، فأرشدته الله تعالى، إلى أنه لا يأسى ولا يحزن على أمثال هؤلاء. فإن هؤلاء لا في العير ولا في النكير. إن حضروا لم ينفعوا، وإن غابوا لم يفقدوا، ولهذا قال مبيناً للسبب الموجب لعدم الحزن عليهم - فقال: «من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم» فإن الذين يؤمن ويحزن عليهم، من كان معدوداً من المؤمنين، وهم المؤمنون ظاهراً وباطناً، وخاشعاً. أن يرجع هؤلاء عن دينهم ويزنوا، فإن الإيمان - إذا خالطت بشاشته القلوب - لم يعدل به صاحبه غيره، ولم يخف به بدلاً.

«ومن الذين هادوا» أي: اليهود «سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك» أي: مستجيبون ومقلدون لرؤسائهم، المبني أمرهم على الكذب والضلال والغنى. وهؤلاء الرؤساء المتبعون «لم يأتوك» بل أعرضوا عنك، وفرحوا بما عندهم من الباطل وهو تحزيف الكلم عن مواضعه، أي: جلب معانٍ للالفاظ ما أرادها الله. ولا يقصدها، لإضلال الخلق ولدفع الحق، فهؤلاء المنقادون للدغاة إلى الضلال، المتبعين للمحال، الذين يأتون بكل كذب، لا عقول لهم ولا

هذه ما أشبهها من الأطراف التي يمكن الاقتصاد منها بدون حيف .

﴿والجروح قصاص﴾
والاقتصاص : أن يفعل به كما فعل .
فمن جرح غيره عمداً أقتص من الجراح جرحاً مثل جرحه للمجروح ، حداً ، وموضِعاً ، وطولاً ، وعرضاً وعمقاً ، وللعلم أن شرع من قبلنا شرع لنا ، ما لم يرد شرعنا بخلافه .

﴿فمن تصدق به﴾ أي : بالقصاص في النفس ، وما دونها من الأطراف والجروح ، بأن عفا عمن جنى ، وثبت له الحق قبله .

﴿فهو كفارة له﴾ أي : كفارة للجاني ، لأن الأدمي عفا عن حقه . والله تعالى أحق وأولى بالعفو عن حقه ، وكفارة أيضاً عن العافي ، فإنه كما عفا عمن جنى عليه ، أو عفا من يتعلق به ، فإن الله يعفو عن زلاته وجناباته .

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ قال ابن عباس : كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق ، فهو ظلم أكبر ، عند استحلاله ، وعظيمة كبيرة عند فعله غير مستحل له .

﴿٤٦ - ٤٧﴾
يعيسى ابن مريم مصداقاً لما بين يديه من التوراة وأتيناها الإنجيل فيه هدى ونور ومصداقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين .
﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ أي : وأتينا هؤلاء الأنبياء والمرسلين ، الذين يحكمون بالتوراة بعبدنا ورسولنا عيسى ابن مريم ، روح الله وكلمته التي أتيناها إلى مريم .

بعثه الله مصداقاً لما بين يديه من التوراة ، فهو شاهد لموسى ولما جاء به من التوراة بالحق والصدق ، ومؤيد لدعوته ، وحاكم بشريعته ، وموافق له في أكثر الأمور الشرعية .

وقد يكون عيسى عليه السلام أخف في بعض الأحكام ، كما قال تعالى عنه

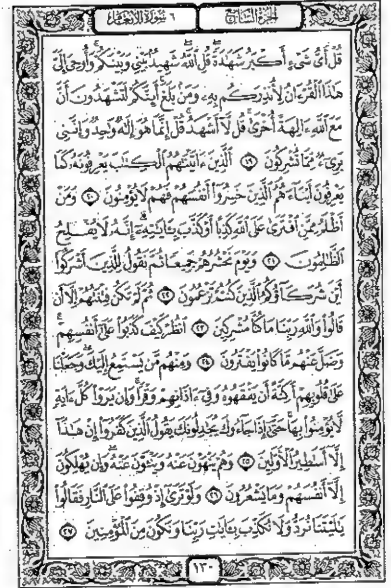
الباطل ، لأجل متاع الدنيا القليل ، وهذه الآفات إذا سلم منها العالم فهو من توفيقه وسعاده ، بأن يكون همه الاجتهاد في العلم والتعليم ، ويعلم أن الله قد استحفظه ما^(١) أودعه من العلم واستشهده عليه ، وأن يكون خائفاً من ربه ، ولا يمنعه خوف الناس وخشيته من القيام بما هو لازم له ، وأن لا يؤثر الدنيا على الدين .

كما أن علامة شقاوة العالم أن يكون مغلباً للبطالة ، غير قائم بما أمر به ، ولا مبال بما استحفظ عليه ، قد أهمله وأضاعه ، قد باع الدين بالدنيا ، قد ارتشى في أحكامه ، وأخذ المال على فتاويه ، ولم يعلم عباد الله إلا بأجرة وجعالة .

فهذا قد من الله عليه بمنة عظيمة ، كفرها ودفع حظاً جسيماً ، محروماً منه غيره ، فمسالك اللهم علماً نافعاً ، وعملاً متقبلاً ، وأن ترزقنا العفو والعافية من كل بلاء يا كريم .

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله﴾ من الحق المبين ، وحكم الباطل الذي يعلمه ، لغرض من أغراضه الفاسدة ﴿فأولئك هم الكافرون﴾ فالحكم بغير ما أنزل الله من أعمال أهل الكفر ، وقد يكون كفراً ينقل عن الملة ، وذلك إذا اعتقد حله وجوازه . وقد يكون كبيرة من كبائر الذنوب ، ومن أعمال الكفر قد اسحق من فعله العذاب الشديد .

﴿٤٥﴾
﴿وكتبت عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ هذه الأحكام من جملة الأحكام التي في التوراة ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار . إن الله أوجب عليهم فيها أن النفس - إذا قتلت - تقتل بالنفس بشرط العمد والمكافأة ، والعين تفلح بالعين ، والأذن تؤخذ بالأذن ، والسن ينزع بالسن . ومثل



وذلك الحكم الصادر منهم الموافق للحق ﴿بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء﴾ أي : بسبب أن الله استحفظهم على كتابه ، وجعلهم أمناء عليه ، وهو أمانة عندهم ، أوجب عليهم حفظه من الزيادة والنقصان والكتمان ، وتعليمه لمن لا يعلمه .

وهم شهداء عليه ، بحيث إنهم المرجوع إليهم فيه ، وفيما اشته على الناس منه ، فالله تعالى قد جعل أهل العلم ، ما لم يحمله الجهال ، فيجب عليهم القيام بأعباء ما حملوا .

وأن لا يقتدوا بالجهال ، بالإخلاق إلى البطالة والكسل ، وأن لا يقتصروا على مجرد العبادات القاصرة ، من أنواع الذكر ، والصلاة ، والزكاة ، والحج ، والصوم ، ونحو ذلك من الأمور ، التي إذا قام بها غير أهل العلم سلموا ونجوا .

وأما أهل العلم فكما أنهم مطالبون بالقيام بما عليهم أنفسهم ، فإنهم مطالبون أن يعلموا الناس وينبهمهم على ما يحتاجون إليه من أمور دينهم ، خصوصاً الأمور الأصولية والتي يكثر وقوعها وأن لا يخشوا الناس بل يخشون ربهم ، ولهذا قال : ﴿فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾ فتكتمون الحق ، وتظهرون

وقتها، وعلى أنه ينبغي أن لا يقتصر العبد على مجرد ما يجزىء في الصلاة وغيرها من العبادات من الأمور الواجبة، بل ينبغي أن يأتي بالمستحبات، التي يقدر عليها لتتم وتكمل، ويحصل بها سبق.

﴿إلى الله مرجعكم جميعاً﴾ الأُمم السابقة واللاحقة، كلهم سيجمعهم الله ليوم لا ريب فيه. ﴿فبينكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ من الشرائع والأعمال، فيثيب أهل الحق والعمل الصالح، ويعاقب أهل الباطل والعمل السيئ.

﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله﴾ هذه الآية هي التي قيل: إنها ناسخة لقوله: ﴿فاحكم بينهم﴾ أو أعرض عنهم.

والصحيح: أنها ليست بناسخة، وأن تلك الآية تدل على أنه ﷺ خير بين الحكم بينهم وبين عدمه، وذلك لعدم قصدهم بالتحاكم للحق.

وهذه الآية تدل على أنه إذا حكم، فإنه يحكم بينهم بما أنزل الله من الكتاب والسنة، وهو القسط الذي تقدم أن الله قال: ﴿وأن حكمت فاحكم بينهم بالقسط﴾ ودل هذا على بيان القسط، وأن مادته هو ما شرعه الله من الأحكام، فإنها المشتملة على غاية العدل والقسط، وما خالف ذلك فهو جور وظلم.

﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ كرر النهي عن اتباع أهوائهم لشدة التحذير منها. ولأن ذلك في مقام الحكم والفتوى، وهو أوسع، وهذا في مقام الحكم وحده، وكلاهما يلزم فيه أن لا يتبع أهواءهم المخالفة للحق، ولهذا قال: ﴿واحذرهم أن يفتنوك﴾ عن بعض ما أنزل الله إليك: أي: إياك والاغترار بهم، وأن يفتنوك فيصدوك عن بعض ما أنزل [الله] إليك، فصار اتباع أهوائهم سبباً موصلاً إلى ترك الحق الواجب، والفرض اتباعه.

﴿فإن تولوا﴾ عن اتباعك واتباع الحق ﴿فاعلم﴾ أن ذلك عقوبة عليهم وأن الله يريد ﴿أن يصيبهم ببعض

حق جاءت به الكتب فأمر به، وحث عليه، وأكثر من الطرق الموصلة إليه.

وهو الكتاب الذي فيه نبأ السابقين واللاحقين، وهو الكتاب الذي فيه الحكم والحكمة، والأحكام الذي عرضت عليه الكتب السابقة، فما شهد له بالصدق فهو المقبول، وما شهد له بالرد فهو مردود، قد دخله التحريف والتبديل، وإلا فلو كان من عند الله، لم يخالفه.

﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله﴾ من الحكم الشرعي الذي أنزله الله عليك. ﴿ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق﴾ أي: لا تجعل اتباع أهوائهم الفاسدة المعارضة للحق بدلاً عما جاءك من الحق فتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

﴿لكل جعلنا منكم﴾ أيها الأُمم جعلنا ﴿شرعة ومنهاجاً﴾ أي: سبيلاً وسنة، وهذه الشرائع التي تختلف باختلاف الأُمم، هي التي تتغير بحسب تغير الأزمنة والأحوال، وكلها ترجع إلى العدل في وقت شرعتها، وأما الأصول الكبار التي هي مصلحة وحكمة في كل زمان، فإنها لا تختلف، فتشرع في جميع الشرائع. ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾ تبعاً لشرعية واحدة، لا يختلف متأخرها ولا مقدمها.

﴿ولكن ليلوكم فيما آتاكم﴾ فيختبركم وينظر كيف تعملون، ويبتي كل أمة بحسب ما تقتضيه حكمته، ويؤتي كل أحد ما يليق به، وليحصل التنافس بين الأُمم فكل أمة تحرص على سبق غيرها، ولهذا قال: ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ أي: بادروا إليها وأكملوها، فإن الخيرات الشاملة لكل فرض ومستحب، من حقوق الله وحقوق عباده، لا يصير فاعلها سابقاً لغيره مستولياً على الأمر، إلا بأمرين:

المبادرة إليها، وانتهاز الفرصة حين يجيء وقتها ويعرض عارضها، والاجتهاد في أدائها كاملة على الوجه المأمور به. ويستدل بهذه الآية، على المبادرة لأداء الصلاة وغيرها في أول

أنه قال لبني إسرائيل: ﴿ولأخل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾.

﴿وآتيناه الإنجيل﴾ الكتاب العظيم المتمم للتوراة: ﴿فيه هدى ونور﴾ يهدي إلى الصراط المستقيم، وبين الحق من الباطل. ﴿ومصدقاً لما بين يديه من التوراة﴾ بثبوتها والشهادة لها والموافقة. ﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾ فإنهم الذين ينتفعون بالهدى، ويتعظون بالمواعظ، ويرتدعون عما لا يليق.

﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه﴾ أي: يلزمهم التقيد بكتابتهم، ولا يجوز لهم العدول عنه. ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾

﴿٤٨ - ٥٠﴾ ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون﴾ أفحكم الجاهلية يغفون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ يقول تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب﴾ الذي هو القرآن العظيم، أفضل الكتب وأجلها.

﴿بالحق﴾ أي: إنزالاً بالحق، ومشتماً على الحق في أخباره وأوامره وتواهيه. ﴿مصدقاً لما بين يديه من الكتاب﴾ لأنه شهد لها ووافقها، وطابقت أخباره أخبارها، وشرائعه الكبار شرائعها، وأخبرت به، فصار وجوده مصداقاً لخبرها.

﴿ومهيمناً عليه﴾ أي: مشتماً على ما اشتملت عليه الكتب السابقة، وزيادة في المطالب الإلهية والأخلاق النفسية. فهو الكتاب الذي تتبع كل

ذنوبهم ﴿فإن للذنوب عقوبات عاجلة وأجلة، ومن أعظم العقوبات أن يتبلى العبد ويترين له ترك اتباع الرسول، وذلك لفسقه.

﴿وإن كثيراً من الناس لفاسقون﴾ أي: طبعتهم الفسق والخروج عن طاعة الله واتباع رسوله.

﴿أنحكم الجاهلية يبغون﴾ أي: أفيطلبون بتوليهم وإعراضهم عنك حكم الجاهلية، وهو كل حكم خالف ما أنزل الله على رسوله. فلا ثم إلا حكم الله ورسوله أو حكم الجاهلية. فمن أعرض عن الأول ابتلى بالثاني المبني على الجهل والظلم والغنى، ولهذا أضافه الله للجاهلية، وأما حكم الله تعالى فمبني على العلم، والعدل والقسط، والنور والهدى.

﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ فالوقن هو الذي يعرف الفرق بين الحكمين ويميز - بإيقانه - ما في حكم الله من الحسن والبهاء، وأنه يتعين - عقلاً وشرعاً - اتباعه.

واليقين، هو العلم التام الموجب للعمل.

﴿٥١-٥٣﴾ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منهم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴿فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين﴾ ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين ﴿يرشد تعالى عباده المؤمنين حين بين لهم أحوال اليهود والنصارى وصفاتهم غير الحسنة، أن لا يتخذوهم أولياء. فإن بعضهم أولياء بعض يتناصرون فيما بينهم ويكونون يداً على من سواهم، فأنتم لا تتخذوهم أولياء، فإنهم الأعداء على الحقيقة ولا يبالون

بضرهم، بل لا يدخرون من مجهودهم شيئاً على إضلالكم، فلا يتولاهم إلا من هو مثلهم، ولهذا قال: ﴿ومن يتولهم منهم فإنه منهم﴾ لأن التولي التام يوجب الانتقال إلى دينهم. والتولي القليل يدعو إلى الكثير، ثم يتدرج شيئاً فشيئاً، حتى يكون العبد منهم.

﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي: الذين وصفهم الظلم، وإليه يرجعون، وعليه يعملون. فلو جتتهم بكل آية ما تبعوك، ولا انقادوا لك. ولما نهي الله المؤمنين عن توليهم، أخبر أن من يدعي الإيمان طائفة توليهم، فقال: ﴿فترى الذين في قلوبهم مرض﴾ أي: شك ونفاق، وضعف إيمان، يقولون: إن تولينا إياهم للحاجة، فإننا نخشى أن تصيبنا دائرة ﴿أي: تكون الدائرة لليهود والنصارى، فإذا كانت الدائرة لهم، فإذا لنا معهم يد يكاؤوننا عنها، وهذا سوء ظن منهم بالإسلام، قال تعالى - راداً لظنهم السيئ - : ﴿فَعَسَىٰ أَلَّا يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ الذي يعز الله به الإسلام على اليهود والنصارى، ويقهرهم المسلمون ﴿أو أمر من عنده﴾ يباس به المنافقون من ظفر الكافرين من اليهود وغيرهم ﴿فَيُصِيبُكُمْ عَلَىٰ مَا أَسْرَأْتُمْ﴾ أي: أضمرتم ﴿فِي أَنْفُسِكُمْ نَادِمِينَ﴾ على ما كان منهم وضرهم بلا نفع حصل لهم، فحصل الفتح الذي نصر الله به الإسلام والمسلمين، وأذل به الكفر والكافرين، فندموا وحصل لهم من الغم ما الله به عليم.

﴿ويقول الذين آمنوا﴾ متعجبين من حال هؤلاء الذين في قلوبهم مرض: ﴿أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم﴾ أي: حلفوا وأكدوا حلفهم، وغلطوه بأنواع التأكيدات: إنهم لمعكم في الإيمان، وما يلزمه من النصرة والمحبة والمواودة، ظهر ما أضمره، وتبين ما أسروه، وصار كيدهم الذي كادوه، وظنهم الذي ظنوه بالإسلام وأهله - باطلاً،

فيطل كيدهم ويطلت أعمالهم ﴿في الدنيا﴾ فأصبحوا خاسرين ﴿حيث فاتهم مقصودهم، وخضرهم الشقاء والعذاب.

﴿٥٤﴾ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴿يخبر تعالى أنه الغني عن العالمين، وأنه من يرتد عن دينه فلن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه. وأن الله عباداً لمخلصين، ورجالاً صادقين، قد تكفل الرحمن الرحيم بهديتهم، ووعد بالإتيان بهم، وأنهم أكمل الخلق أوصافاً، وأقوام نفوساً، وأحسنهم أخلاقاً، أجل صفاتهم أن الله يحبهم ويحبونه. فإن محبة الله للعبد هي أجل نعمة أنعم بها عليه، وأفضل فضيلة، تفضل الله بها عليه، وإذا أحب الله عبداً يسر له الأسباب، وهون عليه كل عسير، ووفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات، وأقبل بقلوب عباده إليه بالمحبة والوداد.

ومن لوازم محبة العبد لربه، أنه لا بد أن يتصف بمتابعة الرسول ﷺ ظاهراً وباطناً، في أقواله وأعماله وجميع أحواله، كما قال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾. كما أن من لازم^(١) محبة الله للعبد، أن يكثر العبد من التقرب إلى الله بالفرائض والتوافل، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح عن الله: «وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، ولا يزال [عبدي] يتقرب إلي بالتوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذته».



ولما مدحهم تعالى بما من به عليهم من الصفات الجليلة والمناقب العالية، المستلزمة لما لم يذكر من أفعال الخير - أخبر أن هذا من فضله عليهم وإحسانه لثلاثا يعجبوا بأنفسهم، ولشكروا الذي من عليهم بذلك ليزيدهم من فضله، وليعلم غيرهم أن فضل الله تعالى ليس عليه حجاب، فقال: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾ أي: واسع الفضل والإحسان، جزيل المن، قد عمت رحمته كل شيء، ويوسع على أوليائه من فضله، من لا يكون لغيرهم، ولكنه عليم بمن يستحق الفضل فيعطيه، فالله أعلم حيث يجعل رسالته أصلاً وفرعاً.

﴿٥٥-٥٦﴾ **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾** * ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴿لما نهى عن ولاية الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم، وذكر مال توليهم أنه الخسران المبين، أخبر تعالى من يجب ويستعين توليه، وذكر فائدة ذلك ومصلحته فقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾. فولاية الله تدرك بالإيمان والتقوى. فكل من كان مؤمناً تقياً كان لله ولياً، ومن كان ولياً لله فهو ولي لرسوله، ومن تولى الله ورسوله كان تمام ذلك تولى من تولاه، وهم المؤمنون الذين قاموا بالإيمان ظاهراً وباطناً، وأخلصوا للمعبود، بإقامتهم الصلاة بشروطها وفروضها ومكملاتها، وأحسنوا للخلق، وبذلوا الزكاة من أموالهم لمستحقّيها منهم. وقوله: ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ أي: خاضعون لله ذليلون. فائدة الخصر في قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ تدل على أنه يجب قصر الولاية على المذكورين، والتبري من ولاية غيرهم. ثم ذكر فائدة هذه الولاية فقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾

ومن لوازم محبة الله معرفته تعالى، والإكثار من ذكره، فإن المحبة بدون معرفة بالله ناقصة جداً، بل غير موجودة وإن وجدت دعواها، ومن أحب الله أكثر من ذكره، وإذا أحب الله عبداً قبل منه اليسير من العمل، وغفر له الكثير من الزلل، ومن صفاتهم أنهم **﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾** فهم للمؤمنين أذلة من محبتهم لهم، ونصحتهم لهم، ولينهم ورفقهم وراقتهم، ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم، وقرب الشيء الذي يطلب منهم وعلى الكافرين بالله، المعاندين لأياته، المكذبين لرسوله - أعزة قد اجتمعت همهم وعزائمهم على معاداتهم، وبذلوا جهدهم في كل سبب يحصل به الانتصار عليهم، قال تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾ وقال تعالى: ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ فالغلظة والشدة على أعداء الله مما يقرب العبد إلى الله، ويتوافق العبد به في سخطه عليهم، ولا تمنع الغلظة عليهم والشدة دعوتهم إلى الدين الإسلامي بالتي هي أحسن، فيجتمع الغلظة عليهم، واللين في دعوتهم، وكلا الأمرين من مصلحتهم ونفعه عائد إليهم. **﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾** بأموالهم وأنفسهم، بأقوالهم وأفعالهم. **﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾** بل يقدمون رضا ربهم والخوف من لومه على لوم المخلوقين، وهذا يدل على قوة همهم وعزائمهم، فإن ضعيف القلب ضعيف الهمة، تنتقض عزيمته عند لوم اللائمين، وتفترق قوته عند عدل العاذلين. وفي قلوبهم تعبد لغير الله، بحسب ما فيها من مراعاة الخلق وتقديم رضاهم ولومهم على أمر الله، فلا يسلم القلب من التعبد لغير الله، حتى لا يخاف في الله لومة لائم.

(١) كذا في ب، وفي أ: ويبدون إليهم.

فإن حزب الله هم الغالبون ﴿أي: فإنه من الحزب المضافين إلى الله إضافة عبودية وولاية، وحزبه هم الغالبون الذين لهم العاقبة في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾.

وهذه بشارة عظيمة لمن قام بأمر الله وصار من حزبه وجنده، أن له الغلبة، وإن أديب عليه في بعض الأحيان لحكمة يريد بها الله تعالى، فأخر أمره، الغلبة والانتصار، ومن أصدق من الله قيلاً.

﴿٥٧-٥٨﴾ **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤاً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمُ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾** وإذا ناديتهم إلى الصلاة اتخذوها هُزُؤاً ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴿ينهى عباده المؤمنين عن اتخاذ أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن سائر الكفار أولياءً يحبرتهم ويتولونهم، ويبدون لهم أسرار المؤمنين، ويعاونونهم على بعض أمورهم التي تضر الإسلام والمسلمين، وأن ما معهم من الإيمان يوجب عليهم ترك مواليتهم، ويمشهم على معاداتهم، وكذلك التزامهم لتقوى الله التي هي امتثال أوامره واجتناب زواجره مما

وهذا النوع من باب استعمال أفعال التفضيل في غير بابه وكذلك قوله: ﴿وَأُضِلَّ عَنْ سِوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي: وأبعد عن قصد السبيل.

﴿وَإِذَا جَاؤُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ نفاقاً ومكراً ﴿وَهُمْ قَدْ دَخَلُوا﴾ مشتملين على الكفر ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا﴾ به فمدخلهم ومخرجهم بالكفر - وهم يزعمون أنهم مؤمنون، فهل أشر من هؤلاء وأقبح حالاً منهم؟! ١١٩

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ فيجازيهم بأعمالهم خيراً وشرها.

ثم استمر تعالى يعدد معائبهم، انتصاراً لقدحهم في عباده المؤمنين، فقال: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ أي: من اليهود ﴿يَسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ أي: يحرضون، وينادون المعاصي المتعلقة في حق الخالق والعدوان على المخلوقين.

﴿وَأَكْلِهِمُ السَّحْتِ﴾ الذي هو الحرام. فلم يكف بمجرد الإخبار أنهم يفعلون ذلك، حتى أخبر أنهم يسارعون فيه، وهذا يدل على خبثهم وشرهم، وأن أنفسهم مجبولة على حب المعاصي والظلم، هذا وهم يدعون لأنفسهم المقامات العالية. ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهذا في غاية الذم لهم والقبح فيهم.

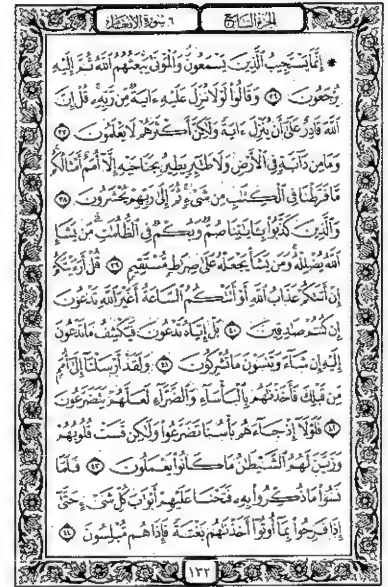
﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرِّبَايُونُ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتِ﴾ أي: هلا ينهاهم العلماء المتصدون لنفع الناس، الذين من الله عليهم بالعلم والحكمة عن المعاصي التي تصدر منهم، ليحول ما عندهم من الجهل، وتقوم حجة الله عليهم، فإن العلماء عليهم أمر الناس ونهيتهم، وأن يبينوا لهم الطريق الشرعي، ويرغبوهم في الخير ويرهبوهم من الشر. ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

﴿٦٤ - ٦٦﴾ وقال اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما

عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل * وإذا جاؤوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون * وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون * لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون * أي: قل يا أيها الرسول: يا أهل الكتاب! ملزمًا لهم، إن دين الإسلام هو الدين الحق، وإن قدحهم فيه قدح يأمر ينبغي المدح عليه: ﴿هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون﴾ أي: هل لنا عندكم من العيب إلا إيماننا بالله، وبكيتبه السابقة واللاحقة، وبأنبيائه المتقدمين والمتأخرين، وبأننا نجزم أن من لم يؤمن كهذا الإيمان فإنه كافر فاسق؟

فهل تنقمون منا بهذا الذي هو أوجب الواجبات على جميع المكلفين؟! ومع هذا فأكثركم فاسقون، أي: خارجون عن طاعة الله، متجرئون على معاصيه، فأولى لكم - أيها الفاسقون - السكوت، فلو كان عيبكم وأنتم سالمون من الفسق، وهيئات ذلك - لكان الشر أخف من قدحكم فيما مع فسقكم.

ولما كان قدحهم في المؤمنين يقتضي أنهم يعتقدون أنهم على شر، قال تعالى: ﴿قل﴾ لهم خبراً عن شناعة ما كانوا عليه: ﴿هل أنبئكم بشر من ذلك﴾ الذي نعمتم فيه علينا، مع التنزل معكم. ﴿من لعنة الله﴾ أي: أبعدته عن رحمته. ﴿وغيض عليه﴾ وعاقبه في الدنيا والآخرة. ﴿وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت﴾ وهو الشيطان، وكل ما عبد من دون الله فهو طاغوت. ﴿أولئك﴾ المذكورون بهذه الخصال القبيحة ﴿شر مكاناً﴾ من المؤمنين الذين رحمة الله قريب منهم، ورضي الله عنهم وأنابهم في الدنيا والآخرة، لأنهم أخلصوا له الدين.



تدعوهم إلى معاداتهم، وكذلك ما كان عليه المشركون والكفار المخالفون للمسلمين، من قدحهم في دين المسلمين، واتخاذهم إياه هزواً ولعباً، واحتقاره واستصغاره، خصوصاً الصلاة التي هي أظهر شعائر المسلمين، وأجل عباداتهم، إنهم إذا نادوا إليها اتخذوها هزواً ولعباً، وذلك لعدم عقلهم ولجهلهم العظيم، وإلا فلو كان لهم عقول خضعوا لها، ولعلموا أنها أكبر من جميع الفضائل التي تتصف بها النفوس.

فإذا علمتم - أيها المؤمنون - حال الكفار وشدة معاداتهم لكم ولدينكم، فمن لم يعادهم بعد هذا دل على أن الإسلام عنده رخيص، وأنه لا يبالي بمن قدح فيه أو قدح بالكفر والضلال، وأنه ليس عنده من المروءة والإنسانية شيء.

فكيف تدعي لنفسك ديناً قيماً، وأنه الدين الحق وما سواه باطل، وترضى بموالاة من اتخذهم هزواً ولعباً، وسخر به وبأهله، من أهل الجهل والحقم؟! ١٢٠

وهذا فيه من التهيج على عداوتهم ما هو معلوم لكل من له أدنى مفهوم.

﴿٥٩ - ٦٣﴾ ﴿قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون﴾ قل هل أنبئكم بشر من ذلك مشوية عند الله من لعنة الله وغيض

رجالاً نوحى إليهم». فإذا كان عيسى عليه السلام من جنس الأنبياء والرسل من قبله، وأمه صديقة، فلاي شيء اتخذهما النصارى الهين مع الله؟

وقوله: «كانا يأكلان الطعام» دليل ظاهر على أنهما عبدان فقيران، محتاجان كما يحتاج بنو آدم إلى الطعام والشراب، فلو كانا الهين لاستغنيا عن الطعام والشراب، ولم يحتاجا إلى شيء، فإن الإله هو الغني الحميد.

ولما بين تعالى البرهان قال: «انظر كيف نبين لهم الآيات» الموضحة للحق، الكاشفة لليقين، ومع هذا لا تفيد فيهم شيئاً، بل لا يزالون على إفكهم وكذبهم وإفترائهم، وذلك ظلم وعناد منهم.

﴿٧٦﴾ «قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم» أي: «قل لهم أيها الرسول: «أتعبدون من دون الله» من المخلوقين الفقراء المحتاجين، «من لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً» وتدعون من انفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع، «والله هو السميع لجميع الأصوات باختلاف اللغات، على نفن الحاجات.

﴿العليم﴾ بالظواهر والباطن، والغيب والشهادة، والأمور الماضية والمستقبلية، فالكامل تعالى الذي هذه أوصافه هو الذي يستحق أن يفرد بجميع أنواع العبادة، ويخلص له الدين.

﴿٧٧-٨١﴾ «قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل» لمن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون» كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون» ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن

بكل صفة كمال، متزه عن كل نقص، منفرد بالخلق والتدبير، ما بالخلق من نعمة إلا منه. فكيف يجعل معه إله غيره؟! تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

ثم توعدهم بقوله: «وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم» ثم دعاهم إلى التوبة عما صدر منهم، وبين أنه يقبل التوبة عن عباده فقال: «أفلا يتوبون إلى الله» أي: يرجعون إلى ما يحبه ويرضاه من الإقرار لله بالتوحيد، وبأن عيسى عبد الله ورسوله، عما كانوا يقولونه «ويستغفرونه» عن ما صدر منهم «والله غفور رحيم» أي: يغفر ذنوب التائبين، ولو بلغت عنان السماء ويرحمهم بقبول توبتهم، وتبديل سيئاتهم حسنات.

وصدر دعوتهم إلى التوبة بالعرض الذي هو في غاية اللطف واللين في قوله: «أفلا يتوبون إلى الله».

ثم ذكر حقيقة المسيح وأمه، الذي هو الحق، فقال: «ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل» أي: هذا غايته ومنتهاى أمره، أنه من عباد الله المرسلين، الذين ليس لهم من الأمر ولا من التشريع، إلا ما أرسلهم به الله، وهو من جنس الرسل قبله، لا مزية له عليهم، تخرجه عن البشرية إلى مرتبة الربوبية.

﴿وأمه﴾ مريم «صديقة» أي: هذا أيضاً غايتها، أن كانت من الصديقين الذين هم أعلى الخلق رتبة بعد الأنبياء والصديقية، هي العلم النافع المثمر لليقين، والعمل الصالح. وهذا دليل على أن مريم لم تكن نبيه، بل أعلى أحوالها الصديقية، وكفى بذلك فضلاً وشرفاً. وكذلك سائر النساء لم يكن منهن نبيه، لأن الله تعالى جعل النبوة في أكمل الصنفين، في الرجال كما قال تعالى: «وما أرسلنا من قبلك إلا

وربكم إنه من يشرك بالله فقد جرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار» لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم» أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم» ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون» يخبر تعالى عن كفر النصارى بقولهم: «إن الله هو المسيح ابن مريم» بشبهة أنه خرج من أم بلا أب، وخالف المذهب من الخلقة الإلهية، والحال أنه عليه الصلاة والسلام قد كذبهم في هذه الدعوى، وقال لهم: «يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم» فأثبت لنفسه العبودية التامة، ولربه الربوبية الشاملة لكل مخلوق.

﴿إنه من يشرك بالله﴾ أحداً من المخلوقين، لا عيسى ولا غيره. «فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار» وذلك لأنه سوى الخلق بالخالق، وصرف ما خلقه الله له - وهو العبادة الخالصة - لغير من هي له، فاستحق أن يخلد في النار.

﴿وما للظالمين من أنصار﴾ يتخذونهم من عذاب الله، أو يدفعون عنهم بعض ما نزل بهم.

﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ وهذا من أقوال النصارى المنصورة عندهم، زعموا أن الله ثالث ثلاثة: الله، وعيسى، ومريم، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

وهذا أكبر دليل على قلة عقول النصارى، كيف قبلوا هذه المقالة الشنعاء، والعقيدة القبيحة؟! كيف اشتبه عليهم الخالق بالمخلوقين؟! كيف خفي عليهم رب العالمين؟! قال تعالى - راداً عليهم وعلى أشباههم -: «وما من إله إلا إله واحد» متصف

سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون ﴿٨٥﴾ ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون ﴿٨٦﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق﴾ أي: لا تتجاوزوا وتتعدوا الحق إلى الباطل، وذلك كقولهم في المسيح، ما تقدم حكايته عنهم.

وكغلوهم في بعض المشايخ، اتباعاً لـ ﴿أهواء قوم قد ضلوا من قبل﴾ أي: تقدم ضلالهم.

﴿وأضلوا كثيراً﴾ من النباين بدعوتهم إياهم إلى الدين، الذين هم عليه ﴿وصلوا عن سواء السبيل﴾ أي: قصد الطريق، فجمعوا بين الضلال والإضلال، وهؤلاء هم أئمة الضلال الذين حذر الله عنهم وعن اتباع أهوائهم المردية، وآرائهم المضلة، ثم قال تعالى: ﴿لن الذين كفروا من بني إسرائيل﴾ أي: طردوا وأبعدوا عن رحمة الله ﴿على لسان داود وعيسى ابن مريم﴾ أي: بشهادتهما وإقرارهما، بأن الحجة قد قامت عليهم، وعاندوها، ﴿ذلك﴾ الكفر والنلع ﴿بما عصوا﴾ وكانوا يعتدون ﴿أي: بعصيانهم لله، وظلمهم لعباد الله، صار سبباً لكفرهم وبعدهم عن رحمة الله، فإن للذنوب والظلم عقوبات، ومن معاصيهم التي أخلت بهم المثلث، وأوقعت بهم العقوبات أنهم: ﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾ أي: كانوا يفعلون المنكر، ولا ينهي بعضهم بعضاً، فيشترك بذلك المباشر وغيره، الذي سكت عن النهي عن المنكر مع قدرته على ذلك، وذلك يدل على تهاونهم بأمر الله، وأن معصيته خفيفة عليهم، فلو كان لديهم تعظيم لربهم لغاروا محارمه، ولغضبوا لغضبه، وإنما كان السكوت عن المنكر - مع القدرة - موجباً للعقوبة، لما فيه من المفاصلة العظيمة: منها: أن مجرد السكوت، فعل

معصية، وإن لم يباشرها الساكت، فإنه - كما يجب اجتناب المعصية - فإنه يجب الإنكار على من فعل المعصية، ومنها: ما تقدم أنه يدل على التهاون بالمعاصي، وقلة الاكتراث بها، ومنها: أن ذلك يجريء العصاة والفسقة على الإكثار من المعاصي إذا لم يردعوا عنها، فيزداد الشر، وتعتظم المصيبة الدينية والدنيوية، ويكون لهم الشراكة والظهور، ثم بعد ذلك يضعف أهل الخير عن مقاومة أهل الشر، حتى لا يقدر على ما كانوا يقدرون عليه أولاً.

ومنها: أن - في ترك^(١) الإنكار للمنكر - يندرس العلم، ويكثر الجهل، فإن المعصية - مع تكررها - وصورها من كثير من الأشخاص، وعدم إنكار أهل الدين والعلم لها - يظن أنها ليست بمعصية، وربما ظن الجاهل أنها عبادة مستحسنة، وأي: مفسدة أعظم من اعتقاد ما حرم الله، حلالاً؟ وانقلاب الحقائق على النفوس ورؤية الباطل حقاً؟

ومنها: أن السكوت^(٢) على معصية العاصين، ربما تزينت المعصية في صدور الناس، واقتدى بعضهم ببعض، فالإنسان مولع بالاعتداء بأضرابه وبني جنسه، ومنها ومنها: فلما كان السكوت عن الإنكار بهذه المثابة، نص الله تعالى أن بني إسرائيل الكفار منهم لعنهم بمغاصيهم واعتدائهم، وخص من ذلك هذا المنكر العظيم.

﴿لبئس ما كانوا يفعلون﴾ ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا بالحق والموالاة والنصرة.

﴿لبئس ما قدمت لهم أنفسهم﴾ هذه البضاعة الكاسدة، والصفقة الخاسرة، وهي سخط الله الذي يسخط لسخطه كل شيء، والخلود الدائم في العذاب العظيم، فقد ظلمتهم أنفسهم حيث قدمت لهم هذا النزل غير الكريم، وقد ظلموا أنفسهم إذ فوتوها

التعظيم المقيم. ﴿ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء﴾، فإن الإيمان بالله وبالنبي وما أنزل إليه، يوجب على العبد موالاة ربه، وموالاة أوليائه، ومعاداة من كفر به وعياده، وأوضع في معاصيه، فشرط ولاية الله والإيمان به، أن لا يتخذ أعداء الله أولياء، وهؤلاء لم يوجد منهم الشرط، فدل على انتفاء الشرط. ﴿ولكن كثيراً منهم فاسقون﴾ أي: خارجون عن طاعة الله والإيمان به وبالنبي. ومن فسقهم موالاة أعداء الله.

ثم قال تعالى: ﴿٨٢-٨٦﴾ ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتمنا مع الشاهدين. ﴿وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾ فأتاهم الله بما قالوا جنت تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين. ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾

يقول تعالى في بيان أقرب الطائفتين إلى المسلمين، وإلى ولايتهم ومحبتهم، وأبعدهم من ذلك: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾. فهؤلاء الطائفتان على الإطلاق أعظم الناس معاداة للإسلام والمسلمين، وأكثرهم سعيًا في إيصال الضرر إليهم، وذلك لشدة بغضهم لهم، بغياً وحسداً وعناداً وكفراً. ﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى﴾ وذكر تعالى لذلك عدة أسباب: منها: أن ﴿منهم قسيسين ورهباناً﴾ أي: علماء متزهدين، وعبيد في

(١) كذا في ب، وفي أ: أن في ترك.

(٢) كذا في ب، وفي أ: السكوت.

وشراب، وسرية وأمة، ونحو ذلك، فإنه لا يكون حراماً بتحريمه، لكن لو فعله فعليه كفارة يمين، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ الآية. إلا أن تحريم الزوجة فيه بكفارة ظهار، ويدخل في هذه الآية أنه لا ينبغي للإنسان أن يتجنب الطيبات ويجرمها نفسه، بل يتناولها مستعيناً بها على طاعة ربه.

﴿٨٩﴾ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم^(١) أي: في أيمانكم التي صدرت على وجه اللغو، وهي الأيمان التي حلف بها المقسم من غير نية ولا قصد، أو عقدها يظن صدق بنفسه، فبان بخلاف ذلك. ﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾ أي: بما عزمتم عليه، وعقدت عليه قلوبكم. كما قال في الآية الأخرى: ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ فكفارتها^(٢) أي: كفارة اليمين الذي عقدتموها بقصدكم

﴿إطعام عشرة مساكين﴾ وذلك الإطعام من أوسط ما تطعمون أهلهم أو كسوتهم^(٣) أي: كنسوة عشرة مساكين، والكسوة هي التي تجزئ في الصلاة. أو تحرير رقبة^(٤) أي: عتق رقبة مؤمنة كما قيدت في غير هذا الموضع، فمضى فعل واحداً من هذه الثلاثة فقد انحلت يمينه. ﴿فمن لم يجد واحداً من هذه الثلاثة فصيام ثلاثة أيام ذلك﴾ المذكور كفارة أيمانكم إذا حلفتم تكفرها وتحوها وتمتع من الإثم.

﴿واحفظوا أيمانكم﴾ عن الحلف بالله كاذباً، وعن كثرة الأيمان، واحفظوها إذا حلفتم عن الحنث فيها، إلا إذا كان الحنث خيراً، فتمام الحفظ: أن يفعل الخير، ولا يكون يمينه عرضة لذلك الخير.

﴿كذلك يبين الله لكم آياته﴾ المبينة للحلال من الحرام، الموضحة للأحكام. ﴿لعلكم تشكرون﴾ الله حيث علمكم ما لم تكونوا تعلمون. فعلى العباد شكر الله تعالى على ما من به

من يختار دين الإسلام، ويتبين له بطلان ما كانوا عليه، وهم أقرب من اليهود والمشركون إلى دين الإسلام.

ولما ذكر ثواب المحسنين، ذكر عقاب المسيئين قال: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ لأنهم^(٥) كفروا بالله، وكذبوا بآياته المبينة للحق.

﴿٨٧-٨٨﴾ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين * وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون^(٦) يقول تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ من المطاعم والمشارب، فإنها نعم أنعم الله بها عليكم، فاحذروه إذا أحلها لكم، واشكروه ولا تردوا نعمته بكفرها أو عدم قبولها، أو اعتقاد تحريمها، فتجمعون بذلك بين القول على الله الكذب، وكفر النعمة، واعتقاد الحلال الطيب حراماً خبيثاً، فإن هذا من الاعتداء.

والله قد نهى عن الاعتداء فقال: ﴿ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ بل يبغضهم ويمقتهم ويعاقبهم على ذلك.

ثم أمر بضد ما عليه المشركون، الذين يحرمون ما أحل الله فقال: ﴿وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً﴾ أي: كلوا من رزقه الذي ساقه إليكم، بما يسره من الأسباب، إذا كان حلالاً لا سرقة ولا غصباً ولا غير ذلك من أنواع الأموال التي تؤخذ بغير حق، وكان أيضاً طيباً، وهو الذي لا خيث فيه، فخرج بذلك الخبيث من السباع والخبائث.

﴿واتقوا الله﴾ في امتثال أوامره، واجتناب نواهيه. ﴿الذي أنتم به مؤمنون﴾ فإن إيمانكم بالله يوجب عليكم تقواه ومراعاة حقه، فإنه لا يتم إلا بذلك. ودلت الآية الكريمة على أنه إذا حرم حلالاً عليه، من طعام

الصوامع متعددين. والعلم مع الزهد وكذلك العبادة مما يلطف القلب ويرققه، ويزيل عنه ما فيه من الجفاء والغلظة، فلذلك لا يوجد فيهم غلظة اليهود، وشدة المشركين.

ومنها: ﴿أنهم لا يستكبرون﴾ أي: ليس فيهم تكبر ولا عتو عن الانقياد للحق، وذلك موجب لقرههم من المسلمين ومن محبتهم، فإن المتواضع أقرب إلى الخير من المستكبر.

ومنها: أنهم ﴿إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول﴾ محمد ﷺ، أثر ذلك في قلوبهم وخشعوا له، وفاضت أعينهم بسبب ما سمعوا من الحق الذي تيقنوه، فلذلك آمنوا وأقروا به فقالوا: ﴿ربنا آمنا فاكتمنا مع الشاهدين﴾ وهم أمة محمد ﷺ، يشهدون لله بالتوحيد، ولرسله بالرسالة وصحة ما جاؤوا به، ويشهدون على الأمم السابقة بالتصديق والتكذيب.

وهم عدول، شهادتهم مقبولة، كما قال تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾. فكأنهم ليموا على إيمانهم ومسارعهم فيه، فقالوا: ﴿وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾ أي: وما الذي يمنعنا من الإيمان بالله، والحال أنه قد جاءنا الحق من ربنا، الذي لا يقبل الشك والريب، ونحن إذا آمنا واتبعنا الحق طمعنا أن يدخلنا الله الجنة مع القوم الصالحين، فأى مانع يمنعنا؟ أليس ذلك موجباً للمسارعة والانقياد للإيمان وعدم التخلف عنه.

قال الله تعالى: ﴿فأنا بهم الله بما قالوا﴾ أي: بما تفوهوا به من الإيمان ونطقوا به من التصديق بالحق ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وذلك جزاء المحسنين﴾. وهذه الآيات نزلت في النصاري الذين آمنوا بمحمد ﷺ، كالجاشي وغيره من أمم منهم. وكذلك لا يزال يوجد فيهم

(١) كذا في ب، وفي أ: لأنه.

(٢) في ب كتب الآية كاملة.

عليهم، من معرفة الأحكام الشرعية وتبيينها.

﴿٩٠ - ٩١﴾ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ** * **إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ** * يَذِمُّ تَعَالَى هَذِهِ الْأَشْيَاءَ الْقَبِيحَةَ، وَيُخَبِّرُ أَنَّهَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، وَأَنَّهَا رَجَسٌ. **﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾** أي: أتركوه **﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾** فإن الفلاح لا يتم إلا بترك ما حَرَّمَ اللَّهُ، خصوصاً هذه الفواحش المذكورة وهي الخمر وهي: كل ما خامر العقل أي: غطاه بسكره والميسر، وهو: جميع الغالبات التي فيها عوض من الجانبين، كالمراهنة ونحوها، والأنصاب، التي هي: الأصنام والانداد ونحوها، بما ينصب ويعبد من دون الله، والأزلام التي يستقسمون بها، فهذه الأربعة نهي الله عنها وزجر، وأخبر عن مفاسدها الداعية إلى تركها واجتنابها. فمنها: أنها رجس، أي: خبث، نجس معنى، وإن لم تكن نجسة حساً.

والأمور الخبيثة مما ينبغي اجتنابها وعدم التذنب بأضرارها.

ومنها: أنها من عمل الشيطان، الذي هو أعدى الأعداء للإنسان.

ومن المعلوم أن العدو يحذر منه، وتحذر مصايده وأعماله، خصوصاً الأعمال التي يعملها ليقع فيها عدوه، فإنها فيها هلاكه، فالخمر كل الحزم البعد عن عمل العدو المبين، والحذر منها، والخوف من الوقوع فيها.

ومنها: أنه لا يمكن الفلاح للعبد إلا باجتنابها، فإن الفلاح هو: الفوز بالمطلوب المحبوب، والنجاة من المهرب، وهذه الأمور مانعة من الفلاح ومعوقة له.

ومنها: أن هذه موجبة للعداوة والبغضاء بين الناس، والشيطان حريص على بثها، خصوصاً الخمر

والميسر، ليقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء.

فإن في الخمر من انغلاب العقل وذهاب حجاءه، ما يدعو إلى البغضاء بينه وبين إخوانه المؤمنين، خصوصاً إذا اقترن بذلك من السباب ما هو من لوازم شارب الخمر، فإنه ربما أوصل إلى القتل. وما في الميسر من غلبة أحدهما للآخر، وأخذ ماله الكثير في غير مقابلة، ما هو من أكبر الأسباب للعداوة والبغضاء.

ومنها: أن هذه الأشياء تصد القلب، ويتبعه البدن عن ذكر الله وعن الصلاة، اللذين خلق لهما العبد، وبهما سعادته، فالخمر والميسر، يصدانه عن ذلك أعظم صد، ويشغل قلبه، ويذهل له في الاشتغال بهما، حتى يمضي عليه مدة طويلة وهو لا يدري أين هو.

فأي: معصية أعظم وأقبح من معصية تدنس صاحبها، وتجعله من أهل الخبث، وتوقعه في أعمال الشيطان وشبابه، فيقاده كما تنقاد البهيمة الذليلة لزاعمها، وتحول بين العبد وبين فلاحه، وتوقع العداوة والبغضاء بين المؤمنين، وتصعد عن ذكر الله وعن الصلاة؟! فهل فوق هذه المفاسد شيء أكبر منها!!

ولهذا عرض تعالى على العقول السليمة النهي عنها، عرضاً بقوله: **﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾**. لأن العاقل - إذا نظر إلى بعض تلك المفاسد - انزجر عنها وكفت نفسه، ولم يحتج إلى وعظ كثير ولا زجر بليغ.

﴿٩٢﴾ **﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا إِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾** طاعة الله وطاعة رسوله واحدة، فمن أطاع الله فقد أطاع الرسول، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله. وذلك شامل للقيام بما أمر الله به ورسوله من الأعمال، والأقوال الظاهرة والباطنة، الواجبة والمستحبة، المتعلقة بحقوق الله وحقوق خلقه، والانتفاء عما نهى الله ورسوله عنه كذلك.

وهذا الأمر أعم الأوامر، فإنه كما ترى يدخل فيه كل أمر ونهي، ظاهر وباطن، وقوله: **﴿وَاحْذَرُوا﴾** أي: من معصية الله ومعصية رسوله، فإن في ذلك الشر والخسران المبين. **﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾** عما أمرتم به ونهيتم عنه. **﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾** وقد أدى ذلك. فإن اهتديتم فلا أنفسكم، وإن أسأتم فعليها، والله هو الذي يحاسبكم، والرسول قد أدى ما عليه وما حمل به.

﴿٩٣﴾ **﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يَجِبُ الْمُحْسِنِينَ﴾** لما نزل تحريم الخمر والنهي الأكيد والتشديد فيه، تمنى أناس من المؤمنين أن يعلموا حال إخوانهم الذين ماتوا على الإسلام قبل تحريم الخمر وهم يشربونها.

فأنزل الله هذه الآية، وأخبر تعالى أنه **﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ﴾** أي: خرج وإثم **﴿فِيمَا طَعِمُوا﴾** من الخمر والميسر قبل تحريمها.

ولما كان نفي الجناح يشمل المذكورات وغيرها، قيد ذلك بقوله: **﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾** أي: بشرط أنهم تاركون للمعاصي، مؤمنون بالله إيماناً صحيحاً، موجباً لهم عمل الصالحات، ثم استمروا على ذلك. وإلا فقد يتصف العبد بذلك في وقت دون آخر. فلا يكفي حتى يكون كذلك حتى يأتيه أجله، ويدوم على إحسانه، فإن الله يحب المحسنين في عبادة الخالق، المحسنين في نفع العبيد، ويدخل في هذه الآية الكريمة، من طعم المحرم، أو فعل غيره بعد التحريم، ثم اعترف بذنبه وتاب إلى الله، واتقى وأمن وعمل صالحاً، فإن الله يغفر له، ويرتفع عنه الإثم في ذلك.

﴿٩٤ - ٩٦﴾ **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْلِيُونَكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ**



لكم أنه لأجل انتفاعكم وانتفاع رفقتكم الذين يسبرون معكم. ﴿وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾. ويؤخذ من لفظ «الصيد» أنه لا بد أن يكون وحشياً، لأن الإنسي ليس بصيد. ومأكولاً، فإن غير المأكول لا يصاد ولا يطلق عليه اسم الصيد. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: اتقوه بفعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، واستعينوا على تقواه بعلمكم أنكم إليه تحشرون. فيجازيكم، هل قمتم بتقواه فيشيكم الشواب الجزيل، أم لم تقوموا بها فيعاقبكم؟

﴿٩٧-٩٩﴾ جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم * اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم * ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون * يخبر تعالى أنه جعل الكعبة البيت الحرام قياماً للناس. يقوم بالقيام بتعظيمه دينهم وديانهم، فبذلك يتم إسلامهم، وبه تحط أوزارهم، وتحصل لهم - بقصده - العطايا الجزيلة، والإحسان الكثير، ويسببه تنفق الأموال، وتتقمح^(١) - من أجله - الأهوال.

﴿١٠٠﴾ قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون﴾ أي: ﴿قل﴾ للناس عذراً عن الشر ومرغباً في الخير: ﴿لا يستوي الخبيث والطيب﴾ من كل شيء، فلا يستوي الإيمان والكفر، ولا الطاعة والمعصية، ولا أهل الجنة وأهل النار، ولا الأعمال الخبيثة والأعمال الطيبة، ولا المال الحرام بالمال الحلال.

﴿ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾ فإنه لا ينفع صاحبه شيئاً، بل يضره في دينه ودنياه.

﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون﴾ فأمر أولي الألباب، أي: أهل العقول الوافية، والآراء الكاملة، فإن الله تعالى يوجه إليهم الخطاب. وهم الذين يؤبه لهم، ويرجى أن يكون فيهم خير.

ثم أخبر أن الفلاح متوقف على التقوى التي هي موافقة الله في أمره ونهيه، فمن اتقاه أفلح كل الفلاح، ومن ترك تقواه حصل له الخسران وفاته الأرباح.

﴿١٠١-١٠٢﴾ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حلیم * قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين * ينهى عباده المؤمنين عن سؤال الأشياء التي إذا بينت لهم ساءتهم وأحزنتهم، وذلك كسؤال بعض المسلمين لرسول الله ﷺ عن آياتهم، وعن حالهم في الجنة أو النار، فهذا ربما أنه لو بين للسائل لم يكن له فيه خير، وكسؤالهم للأموال غير الواقعة.

وكالسؤال الذي يترتب عليه تشديدات في الشرع ربما أخرجت الأمة، وكالسؤال عما لا يعني، فهذه الأسئلة، وما أشبهها هي المنهي عنها، وأما السؤال الذي لا يترتب عليه شيء

ويجتمع فيه من كل فج عميق جميع أجناس المسلمين، فيتعارفون ويستعين بعضهم ببعض، ويتشاورون على المصالح العامة، وتتخذ بينهم الروابط في مصالحهم الدينية والدنيوية.

قال تعالى: ﴿لشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ ومن أجل كون البيت قياماً للناس قال من قال من العلماء: إن حج بيت الله فرض كفاية في كل سنة. فلو ترك الناس حجه لأثم كل قادر، بل لو ترك الناس حجه لزال ما به قوامهم، وقامت القيامة.

وقوله: ﴿والهدي والقلائد﴾ أي: وكذلك جعل الهدى والقلائد - التي هي أشرف أنواع الهدى - قياماً للناس، يتفقون بها ويثابون عليها. ﴿ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض، وأن الله بكل شيء عليم﴾.

فمن علمه أن جعل لكم هذا البيت الحرام، لما يعلمه من مصالحكم الدينية والدنيوية.

﴿اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم﴾ أي: ليكون هذان العلمان موجودين في قلوبكم على وجه الجزم واليقين، تعلمون أنه شديد العقاب العاجل والأجل على من عصاه، وأنه غفور رحيم لمن تاب إليه وأطاعه. فيثمر لكم هذا العلم الخوف من عقابه، والرجاء لمغفرته وثوابه، وتعملون على ما يقتضيه الخوف والرجاء.

ثم قال تعالى: ﴿ما على الرسول إلا البلاغ﴾ وقد بلغ كما أمر، وقام بوظيفته وما سوى ذلك، فليس له من الأمر شيء. ﴿والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾ فيجازيكم بما يعلمه تعالى منكم.

(١) في ب: وتقمح.



يكتب وصيته، ويشهد عليها اثنين ذوي عدل ممن تعتبر شهادتهما.

﴿أو آخران من غيركم﴾ أي: من غير أهل دينكم، من اليهود أو النصارى أو غيرهم، وذلك عند الحاجة والضرورة وعدم غيرهما من المسلمين.

﴿إن أنتم ضربتم في الأرض﴾ أي: سافرتم فيها ﴿فأصابتكم مصيبة الموت﴾ أي: فأشهدوهما، ولم يأمر بشهادتهما إلا لأن قولهما في تلك الحال مقبول، ويؤكد عليهما، بأن يحبسا ﴿من بعد الصلاة﴾ التي يعظمونها.

﴿فيقسمان بالله﴾ أي: فبما صدقا، وما غيرا ولا بدلا، هذا ﴿إن أرتبتم﴾ في شهادتهما، فإن صدقتموهما، فلا حاجة إلى القسم بذلك.

ويقولان: ﴿لا نشترى به﴾ أي: بأيماننا ﴿ثمنا﴾ بأن نكذب فيها، لأجل عرض من الدنيا. ﴿ولو كان ذا قربي﴾ فلا نراعيه لأجل قربه منا ﴿ولا نكتم شهادة الله﴾ بل نؤديها على ما سمعناها ﴿إننا إذا﴾ أي: إن كنتمناها ﴿لمن الآثمين﴾.

﴿فإن عشر على أنهما﴾ أي: الشاهدين ﴿استحقا إثمنا﴾ بأن وجد من القرائن ما يدل على كذبهما وأنهما

خانا ﴿فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان﴾.

أي: فليقسم رجلان من أولياء الميت، وليكونا من أقرب الأولياء إليه. ﴿فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما﴾ أي: أنهما كذبا، وغيرا وخانا. ﴿وما اعتدينا إننا إذا لمن الظالمين﴾ أي: إن ظلمنا واعتدينا، وشهدنا بغير الحق.

قال الله تعالى في بيان حكمة تلك الشهادة وتأكيدها، وردها على أولياء الميت حين تظهر من الشاهدين الخيانة: ﴿ذلك أدنى﴾ أي: أقرب ﴿أن يأتوا بالشهادة على وجهها﴾ حين تؤكد عليهما تلك التأكيدات. ﴿أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم﴾ أي: أن لا تقبل أيمانهم، ثم ترد على أولياء الميت.

﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي: الذين وصفهم الفسق، فلا يريدون الهدى والقصد إلى الصراط المستقيم.

وحاصل هذا، أن الميت - إذا حضره الموت في سفر ونحوه، مما هو مظنة قلة الشهود المعبرين - أنه ينبغي أن يوصي شاهدين مسلمين عدلين. فإن لم يجد إلا شاهدين كافرين، جاز أن يوصي إليهما، ولكن لأجل كفرهما فإن الأولياء إذا ارتابوا بهما فلمنهم يحلفونهما^(١) بعد الصلاة، أنهما ما خانا، ولا كذبا، ولا غيرا، ولا بدلا، فيبرأ بذلك من حق يتوجه إليهما.

فإن لم يصدقوهما ووجدوا قرينة تدل على كذب الشاهدين، فإن شاء أولياء الميت، فليقسم منهم اثنان، فيقسمان بالله: لشهادتهما أحق من شهادة الشاهدين الأولين، وأنهما خانا وكذبا، فيستحقون منهما ما يدعون. وهذه الآيات الكريمة نزلت في قصة «عيم الداري» و «عدي بن بداء» المشهورة حين أوصى لهما العدوي، والله أعلم.

ويستدل بالآيات الكريمات على

عدة أحكام:

منها: أن الوصية مشروعة، وأنه ينبغي لمن حضره الموت أن يوصي.

ومنها: أنها معتبرة، ولو كان الإنسان وصل إلى مقدمات الموت وعلاماته، ما دام عقله ثابتا.

ومنها: أن شهادة الوصية لا بد فيها من اثنين عدلين.

ومنها: أن شهادة الكافرين في هذه الوصية ونحوها مقبولة لوجود الضرورة، وهذا مذهب الإمام أحمد. وزعم كثير من أهل العلم: أن هذا الحكم منسوخ، وهذه دعوى لا دليل عليها.

ومنها: أنه ربما استفيد من تلميح الحكم ومعناه، أن شهادة الكفار - عند عدم غيرهم، حتى في غير هذه المسألة - مقبولة، كما ذهب إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية.

ومنها: جواز سفر المسلم مع الكافر إذا لم يكن محذور.

ومنها: جواز السفر للتجارة.

ومنها: أن الشاهدين - إذا ارتبب منهما، ولم تبد قرينة تدل على خيانتهم، وأراد الأولياء - أن يؤكدوا عليهم اليمين، ويحبسوهما من بعد الصلاة، فيقسمان بصفة ما ذكر الله تعالى.

ومنها: أنه إذا لم تحصل تهمة ولا ريب لم يكن حاجة إلى حبسهما، وتأكيذ اليمين عليهما.

ومنها: تعظيم أمر الشهادة حيث أضافها تعالى إلى نفسه، وأنه يجب الاعتناء بها والقيام بها بالقسط.

ومنها: أنه يجوز امتحان الشاهدين عند الرية منهما، وتفريقهما لينظر عن شهادتهما.

ومنها: أنه إذا وجدت القرائن الدالة على كذب الوصيين في هذه المسألة - قام اثنان من أولياء الميت فأقسما بالله: أن أيماننا أصدق من أيمانهما، ولقد خانا وكذبا.

ثم يدفع إليهما ما ادعياه، فتكون

(١) في النسختين: يحلفونهم.

القرينة - مع أيماهما - قائمة مقام
البيئة.

﴿١٠٩-١١٠﴾ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ
الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْقَوْلَ﴾
لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾
قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي
عَلَيْكَ وَعَلَى الْوَلَدِ إِنَّكَ إِذْ أَيْدَتُكَ بِرُوحِ
الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ
عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ

والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهينة
الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني
وتبصر الأكمة والأبرص بإذني وإذ
تخرج الموتى بإذني وإذ كففت بني
إسرائيل عنك إذ جثتهم بالينات فقال
الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر
مبين ﴿يخبر تعالى عن يوم القيامة وما فيه
من الأهوال العظام، وأن الله يجمع به
جميع الرسل فيسألهم: ﴿ماذا أجبتكم﴾
أي: ماذا أجبتكم به أمكم

ف ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ وإنما العلم لك يا ربنا، فأنت أعلم منا. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ﴾ أي: تعلم الأمور الغائبة والحاضرة.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ
اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى الْوَلَدِ
أَيُّ: اذكرها بقلبك ولسانك، وقم
بواجبها شكراً لربك، حيث أنعم
عليك نعماً ما أنعم بها على غيرك﴾

«إِذْ أَيْدَتِكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ» أَي: إِذْ قُوَّتِكَ بِالرُّوحِ وَالْوَحْيِ، الَّذِي طَهَّرَكَ وَزَكَّاكَ، وَصَارَ لَكَ قُوَّةٌ عَلَى الْقِيَامِ بِأَمْرِ اللَّهِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى سَبِيلِهِ. وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ «بِرُوحِ الْقُدُسِ» جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّ اللَّهَ أَغَانَهُ بِهِ وَمَلَأَ قَلْبَهُ بِهِ، وَتَشَبَّهَ فِي الْمَوَاطِنِ الْمَشَقَّةِ.

﴿تَكْلِمُ النَّاسِ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾
المراد بالتكليم هنا، غير التكليم المعهود
الذي هو مجرد الكلام، وإنما المراد
بذلك التكليم الذي يتفجع به المتكلم
والمخاطب، وهو الدعوة إلى الله.

ولعيسى عليه السلام من ذلك، ما
لأخوانه من أولي العزم من المرسلين،
من التكليم في حال الكهولة، بالرسالة
والدعوة إلى الخير، والنهي عن الشر،
وامتاز عنهم بأنه كلم الناس في المهدي،
فقال: ﴿إني عبد الله أتاني الكتاب
وجعلني نبياً، وجعلني مباركاً أينما
كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت
حياً﴾ الآية.

﴿وإذ علمتكم الكتاب والحكمة﴾
فالكتاب يشمل الكتب السابقة،
وخصوصاً التوراة، فإنه من أعلم أنبياء
بني إسرائيل - بعد موسى - بها.
ويشمل الإنجيل الذي أنزله الله عليه.

والحكمة هي : معرفة أسرار الشرع وفوائده وحكمه ، وحسن الدعوة والتعليم ، ومراعاة ما ينبغي ، على الوجه الذي ينبغي .

﴿وَأَوْخَلِقْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾
أي: طيراً مصوراً لا روح فيه. فتنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وتبرء الأكمة الذي لا يبصر له ولا عين.
﴿وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ وإذ تخرج الموتى بإذني ﴿هَذِهِ آيَاتُ بَنَاتٍ﴾، ومعجزات باهرات، يعجز عنها الأطباء وغيرهم، أيد الله بها عيسى وقوى بها دعوته.

﴿وَأَذْكُرْتُ لِلنَّاسِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ، إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ ﴿١﴾ لَمَا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مَوِيدًا ﴿٢﴾ بِالْبَيِّنَاتِ الْمُوحِيَةِ لِلْإِيمَانِ بِهِ. ﴿٣﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ. ﴿٤﴾ وَهُمْ أَوْبَعِيْسَى أَنْ يَقْتُلُوهُ، وَسَعَوْا فِي ذَلِكَ، فَكَفَّ اللَّهُ إِلَيْهِمْ عَنَّهُ، وَحَفِظَهُ مِنْهُمْ وَعَصَمَهُ.

فهذه من امتن الله بها على عبده
ورسوله عيسى ابن مريم، ودعاه إلى
شكرها والقيام بها، فقام بها عليه
السلام أتم القيام، وصبر كما صبر
إخوانه من أولي العزم.

﴿١١١ - ١٢٠﴾ ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى
الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا

[illegible]

أَمَنَّا ﴿ إلى آخر الآيات ^(١) أي : وأذكر
نعمتي عليك إذ يسرت لك أتباعاً
وأعواناً. فأوحيت إلى الخواريين أي :
الأنبياء عليهم، وأوزعت قلوبهم الإيمان بي
وإرسولي، أو أوحيت إليهم على
لسانك، أي : أمرتهم بالوحي الذي
جاءك من عند الله، فأجابوا لذلك
واقتادوا، وقالوا : آمنا بالله، واشهد
بأننا مسلمون، فجمعوا بين الإسلام
الظاهر، والالتقياد بالأعمال الصالحة،
والإيمان الباطن المخرج لصاحبه من
التناق ومن ضعف الإيمان

والحواریون هم: الأنصار، كما قال
تعالیٰ كما قال عیسیٰ ابن مریم
للحواریین: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟﴾
قال الحواریون: نحن أنصار الله ﴿﴾

﴿إِذْ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ نُنْزِلَ عَلَيْْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ۖ﴾ أي: مائدة فيها طعام، وهذا ليس منهم عن شك في قدرة الله، واستطاعته على ذلك. وإنما ذلك من باب العرض والأدب منهم.

ولما كان سؤال آيات الاقتراح منافياً
للانقياد للحق، وكان هذا الكلام
الصنادير من الحوارين ربما أوهم ذلك،
وعظّمهم غيبي عليه السلام فقال:

(٢) هكذا في الأصل والمراد بيّن وهو كما قال الله تعالى حكاية لقول عيسى ابن مريم للحواريين .

فيقول الله هذا الكلام لعيسى . فيتبرأ عيسى ويقول: ﴿سبحانك﴾ عن هذا الكلام القبيح، وعما لا يليق بك .

﴿ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ أي: ما ينبغي لي، ولا يليق أن أقول شيئاً ليس من أوصافي ولا من حقوقي، فإنه ليس أحد من المخلوقين، لا الملائكة المقربون ولا الأنبياء المرسلون ولا غيرهم له حق ولا استحقاق لمقام الإلهية وإنما الجميع عباد، مذبزون، وخلق مسخرون، وفقرء عاجزون ﴿إن كنت قلته فقد علمته، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾ فأنت أعلم بما صدر مني و﴿أنت علام الغيوب﴾ وهذا من كمال أدب المسيح عليه الصلاة والسلام في خطابه لربه، فلم يقل عليه السلام: ﴿لم أقل شيئاً من ذلك﴾، وإنما أخبر بكلام ينبغي عن نفسه أن يقول كل مقالة تنافي منصبه الشريف، وأن هذا من الأمور المحالة، ونزه ربه عن ذلك أتم تنزيهه، ورد العلم إلى عالم الغيب والشهادة.

ثم صرح بذكر ما أمر به بني إسرائيل، فقال: ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به﴾ فأنما عبد متبع لأمره، لا متجريء على عظمته، ﴿أن اعبدا الله ربي وربكم﴾ أي: ما أمرتهم إلا بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له، المتضمن للنهي عن اتخاذي وأمي إلهين من دون الله، وبيان أني عبيد مريوب، فكما أنه ربكم فهو ربي .

﴿وكنتم عليهم شهوداً ما دمت فيهم﴾ أشهد على من قام بهذا الأمر، ممن لم يقم به . ﴿فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم﴾ أي: المطلع على سرائرهم وضمائرهم . ﴿وأنت على كل شيء شهيد﴾ علماً وسمعاً وبصراً، فعلمك قد أحاط بالعلوم، وسمعك بالسموعات، وبصرك بالمصرات، فأنت الذي تجازي عبادك بما تعلمه فيهم من خير وشر .

﴿اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا آية منك﴾ أي: يكون وقت نزولها عيداً وموسماً، يتذكر به هذه الآية العظيمة، فتحفظ ولا تنسى على مرور الأوقات وتكرر السنين .

كما جعل الله تعالى أعياد المسلمين ومناسكهم مذكراً لآياته، ومتبهاً على سنن المرسلين وطرقهم القويمه، وفضله وإحسانه عليهم . ﴿وارزقنا وأنت خير الرازقين﴾ أي: اجعلها لنا رزقاً، فسأل عيسى عليه السلام نزولها وأن تكون لهاتين المصلحتين، مصلحة الدين بأن تكون آية باقية، ومصلحة الدنيا، وهي أن تكون رزقاً.

﴿قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد ميثاقك، فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين﴾ لأنه شاهد الآية الباهرة وكفر عناداً وظلماً، فاستحق العذاب الأليم والعقاب الشديد . واعلم أن الله تعالى وعد أنه سينزلها، وتوعدهم - إن كفروا - بهذا الوعد، ولم يذكر أنه أنزلها، فيحتمل أنه لم ينزلها بسبب أنهم لم يختاروا ذلك، ويبدل على ذلك، أنه لم يذكر في الإنجيل الذي بأيدي النصاري، ولا له وجود . ويحتمل أنها نزلت كما وعد الله، والله لا يخلف الميعاد، ويكون عدم ذكرها في الإنجيل التي بأيديهم من الحظ الذي ذكروا به فسوه .

أو أنه لم يذكر في الإنجيل أصلاً، وإنما ذلك كان متوارثاً بينهم، ينقله الخلف عن السلف، فاكتفى الله بذلك عن ذكره في الإنجيل، ويدل على هذا المعنى قوله: ﴿ونكون عليها من الشاهدين﴾ والله أعلم بحقيقة الحال .

﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ . وهذا توبيخ للنصاري الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة،



﴿اتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ فإن المؤمن يحمله ما معه من الإيمان على ملازمة التقوى، وأن ينقاد لأمر الله، ولا يطلب من آيات الاقتراح التي لا يدري ما يكون بعدها شيئاً .

فأخبر الحواريسون أنهم ليس مقصودهم هذا المعنى، وإنما لهم مقاصد صالحة، ولأجل الحاجة إلى ذلك فـ ﴿قالوا نريد أن نأكل منها﴾ وهذا دليل على أنهم محتاجون لها، ﴿وتطمئن قلوبنا﴾ بالإيمان حين نرى الآيات العنانية، فيكون الإيمان عين اليقين، كما كان قبل ذلك علم اليقين . كما سأل الخليل عليه الصلاة والسلام ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ﴿قال ألم تؤمن؟ قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ . فالعبد محتاج إلى زيادة العلم واليقين والإيمان كل وقت، ولهذا قال: ﴿ونعلم أن قد صدقتنا﴾ أي: نعلم صدق ما جئت به، أنه حق وصدق، ﴿ونكون عليها من الشاهدين﴾ فتكون مصلحة لمن بعدنا، نشهد لها لك، فتقوم الحجة، ويحصل زيادة البرهان بذلك .

فلما سمع عيسى عليه الصلاة والسلام ذلك، وعلم مقصودهم، أجابهم إلى طلبهم في ذلك، فقال:

(١) في ب: حتى يكون .

ويعلم ما تكسبون» أي: وهو المألوه المعبود في السماوات وفي الأرض، فأهل السماء والأرض، معبدون لربهم خاضعون لعظمته، مستكينون لعزته وجلاله، الملائكة المقربون، والأنبياء والمرسلون، والصديقون والشهداء والصالحون.

وهو تعالى يعلم سرركم وجهركم ويعلم ما تكسبون، فاحذروا معاصيه وارغبوا في الأعمال التي تقر بكم منه، وتذنيكم من رحمة، واحذروا من كل عمل يبعدكم منه ومن رحمة.

﴿٤-٦﴾ «وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين» فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون * ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحته فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين * هذا إخبار منه تعالى عن إعراض المشركين، وشدة تكذيبهم وعداوتهم، وأنهم لا تنفع فيهم الآيات حتى تحل بهم الملائات، فقال: «وما تأتيهم من آية من آيات ربهم» الدالة على الحق دلالة قاطعة، الداعية لهم إلى اتباعه وقبوله «إلا كانوا عنها معرضين» لا يلبقون لها بالاً، ولا يصغون لها سمعاً، قد انصرفت قلوبهم إلى غيرها، وولوها أدبارهم.

«فقد كذبوا بالحق لما جاءهم» والحق حقه أن يتبع، ويشكر الله على تيسيره لهم، وإتيانهم به، فقابلوه بضد ما يجب مقابلته به فاستحقوا العقاب الشديد «فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون» أي: فسوف يرون ما استهزؤوا به، أنه الحق والصدق، وبين الله للمكذبين كذبهم وإفترائهم، وكانوا يستهزؤون بالبعث والجنة والنار، فإذا كان يوم القيامة قيل للمكذبين: «هذه النار التي كنتم بها تكذبون».

وقال تعالى: «وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بل

والجلال عموماً، وعلى هذه المذكورات خصوصاً. فحمد نفسه على خلقه السماوات والأرض، الدالة على كمال قدرته، وسعة علمه ورحمته، وعموم حكمته، وانفراده بالخلق والتدبير، وعلى جعله الظلمات والنور، وذلك شامل للحسي من ذلك كالليل والنهار والشمس والقمر. والمعنوي كظلمات الجهل والشك، والشرك والمعصية، والغفلة، ونور العلم والإيمان واليقين والطاعة، وهذا كله يدل دلالة قاطعة أنه تعالى هو المستحق للعبادة وإخلاص الدين له، ومع هذا الدليل ووضوح البرهان «ثم الذين كفروا بربهم يعدلون» أي يعدلون به سواء، يسوونهم به في العبادة والتعظيم، مع أنهم لم ينساوا الله في شيء من الكمال، وهم فقراء عاجزون ناقصون من كل وجه.

«هو الذي خلقكم من طين» وذلك بخلق مادتك وأبيكم آدم عليه السلام. «ثم قضى أجلاً» أي: ضرب لمدة إقامتكم في هذه الدار أجلاً، تتمتعون به وتمتحنون، وتبتلون بما يرسل إليهم به رسله.

«لينالوكم أيكم أحسن عملاً» ويعمركم ما يتذكر فيه من تذكركم. «وأجل مسمى عنده» وهي: الدار الآخرة، التي ينتقل العباد إليها من هذه الدار، فيجازيهم بأعمالهم من خير وشر.

«ثم» مع هذا البيان التام وقطع الحجة «أنتم تمثرون» أي: تشكون في وعد الله ووعيده، ووقوع الجزاء يوم القيامة.

وذكر الله الظلمات بالجمع، لكثرة مرادها وتنوع طرقها. ووجد النور لكون الصراط الموصلة إلى الله واحدة لا تعدد فيها، وهي: الصراط المتضمنة للعلم بالحق والغفل به، كما قال تعالى: «وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله».

﴿٣﴾ «وهو الله في السماوات وفي الأرض يعلم سرركم وجهركم

إن تعذبهم فإنهم عبادك» وأنت أرحم بهم من أنفسهم وأعلم بأحوالهم، فلو لا أنهم عباد متمردون لم تعذبهم. «وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم» أي: فمغفرتك صادرة عن تمام عزة وقدره، لا كمن يغفر ويعفو عن عجز وعدم قدرة.

الحكيم حيث كان من مقتضى حكمتك أن تغفر لمن أتى بأسباب المغفرة.

«قال الله» مبيناً لحال عباده يوم القيامة، ومن الفائز منهم ومن الهالك، ومن الشقي ومن السعيد، «هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم» والصادقون هم الذين استقامت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم على الصراط المستقيم والهدى القويم، فيوم القيامة يجدون ثمرة ذلك الصدق، إذا أحلهم الله في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ولهذا قال: «لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم» والكاذبون بضدهم، سيجدون ضرر كذبهم وإفترائهم، وثمره أعمالهم الفاسدة.

«الله ملك السماوات والأرض» لأنه الخالق لهما والمذبر لذلك بحكمة القدر، وحكمة الشرعي، وحكمة الجزائي، ولهذا قال: «وهو على كل شيء قدير» فلا يعجزه شيء، بل جميع الأشياء منقادة لمشيئته، ومسخرة بأمره.

ثم تفسير سورة المائدة بفضل من الله وإحسان، والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الأنعام وهي مكية

﴿١-٢﴾ «بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون» هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمثرون» هذا إخبار عن حده والثناء عليه بصفات الكمال، ونعوت العظمة

وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون * ليين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين * ثم أمرهم أن يعتبروا بالأمر السالفة فقال:

﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن * أي: كم تتابع إهلاكنا للأمم المكذبين، وأمهلكناهم قبل ذلك الإهلاك، بأن * مكناهم في الأرض ما لم نمكن * لهؤلاء من الأموال والبنين والرفاهية

﴿وَأرسلنا السماء عليهم مدراراً، وجعلنا الأنهار تجري من تحته﴾ فينت لهم بذلك ما شاء الله من زروع وثمار، يتمتعون بها، ويتناولون منها ما يشتهون، فلم يشكروا الله على نعمه، بل أقبلوا على الشهوات، وألهمهم أنواع اللذات، فجاهتهم رسلهم بالبينات فلم يصدقوها، بل ردوها وكذبوها فأهلكهم الله بذنوبهم وأنشأ * من بعدهم قرناً آخرين * فهذه سنة الله ودأبه في الأمم السابقتين واللاحقين، فاعتبروا بمن قص الله عليكم بأنهم.

﴿٧-٩﴾ ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين * وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون * ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ هذا إخبار من الله لرسوله عن شدة عناد الكافرين، وأنه ليس تكذيبهم لقصور فيما جتهد به، ولا جهل منهم بذلك، وإنما ذلك ظلم وبغي، لا حيلة لكم فيه، فقال:

﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم﴾ وتيقنوه ﴿لقال الذين كفروا﴾ ظلماً وعلواً ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾ فأي: بينة أعظم من هذه البينة، وهذا قولهم الشنيع فيها، حيث كابروا المحسوس الذي لا يمكن من له أدنى مسكة من عقله دفعه!!

﴿وقالوا﴾ أيضاً تعنتاً مبيناً على الجهل، وعدم العلم بالمعقول. ﴿لولا

أنزل عليه ملك﴾ أي: هلا أنزل مع محمد ملك، يعاونه ويساعده على ما هو عليه بزعمهم أنه بشر، وأن رسالة الله، لا تكون إلا على أيدي الملائكة.

قال الله في بيان رحمته ولطفه بعباده، حيث أرسل إليهم بشراً منهم يكون الإيمان بما جاء به عن علم وبصيرة وغيب. ﴿ولو أنزلنا ملكاً﴾ برسالتنا، لكان الإيمان لا يصدر عن معرفة بالحق، ولكن إيماناً بالشهادة الذي لا ينفع شيئاً وحده، هذا إن آمنوا، والغالب أنهم لا يؤمنون بهذه الحالة، فإذا لم يؤمنوا قضى الأمر بتعجيل الهلاك عليهم وعدم إظهارهم، لأن هذه سنة الله فيمن طلب الآيات المقترحة فلم يؤمن بها، فإرسال الرسول البشري إليهم بالآيات البينات، التي يعلم الله أنها أصلح للعباد وأرفق بهم، مع إسهال الله للكافرين والمكذبين، خير لهم وأنفع، فطلبهم لأنزال الملك شر لهم لو كانوا يعلمون، ومع ذلك فالملك لو أنزل عليهم، وأرسل، لم يطبقوا التلقي عنه، ولا احتملوا ذلك، ولا أطاقتهم قواهم الغانية.

﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً﴾ لأن الحكمة لا تقتضي سوى ذلك. ﴿وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ أي: ولكان الأمر مختلطاً عليهم وملبوساً وذلك بسبب ما لبسوه على أنفسهم، فإنهم بنوا أمرهم على هذه القاعدة التي فيها اللبس، وبها عدم بيان الحق.

فلما جاءهم الحق بطرقه الصحيحة، وقواعده التي هي قواعده، لم يكن ذلك هداية لهم، إذا اهتدى بذلك غيرهم، والذنب ذنبهم، حيث أغلقوا على أنفسهم باب الهدى، وفتحوا أبواب الضلال.

﴿١٠-١١﴾ ﴿ولقد استهزىء برسول من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون﴾ قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ يقول تعالى - مسلياً لرسوله، ومضرباً ومتهدداً أعداءه

ومتوعداً. ﴿ولقد استهزىء برسول من قبلك﴾ لما جاؤوا أميهم بالبينات كذبوهم واستهزؤوا بهم وبما جاؤوا به. فأهلكهم الله بذلك الكفر والتكذيب، ووفى لهم من العذاب أكمل نصيب. ﴿فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون﴾ فاحذروا - أيها المكذبون - أن تستمروا على تكذيبكم، فيصيبكم ما أصابهم.

فإن شككتهم في ذلك أو ارتبتم، فسيروا في الأرض ثم انظروا، كيف كان عاقبة المكذبين، فلن تحذروا إلا قوماً مهلكين، وأما في المثالات تالفين، قد أوحشت منهم المنازل، وعدم من تلك الربوع كل متمتع بالسرور نازل، أبداهم الملك الجبار، وكان بناؤهم عبرة لأولي الألبصار. وهذا السير للمأمور به سير القلوب والأبدان، الذي يتولد منه الاعتبار. وأما مجرد النظر من غير اعتبار، فإن ذلك لا يفيد شيئاً.

﴿قل لمن ما في السماوات والأرض﴾ قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قل﴾ لهؤلاء المشركين بالله، مقررراً لهم وملزماً بالتوحيد: ﴿لمن ما في السماوات والأرض﴾ أي: من الخالق لذلك، المالك له المتصرف فيه؟

﴿قل﴾ لهم: ﴿الله﴾ وهم مقررون بذلك لا يتكرونها، أفلا حين اعترفوا بانفراد الله بالملك والتدبير، أن يعترفوا له بالإخلاص والتوحيد!!

وقوله: ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾ أي: العالم العلوي والسفلي تحت ملكه وتديريته، وهو تعالى قد بسط عليهم رحمته وإحسانه، وتغمدهم برحمته وامتنانه، وكتب على نفسه كتاباً أن رحمته تغلب غضبه، وأن العطاء أحب إليه من المنع، وأن الله قد فتح لجميع العباد أبواب الرحمة، إن لم يخلقوا عليهم أبواباً بذنوبهم، ودعاهم إليها إن لم تمنعهم من طلبها بمعاصيهم وعيوبهم، وقوله: ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾ وهذا قسم منه،



إلى إخلاص العبادة، والحب والخوف، والرجاء، لله رب العالمين؟!

﴿السميع﴾ لجميع الأصوات على اختلاف اللغات بتفنتن الحاجات.

﴿العليم﴾ بما كان، وما يكون، وما لم يكن، لو كان كيف كان يكون، المطلع على الظواهر والبواطن؟!

﴿قل﴾ لهؤلاء المشركين بالله:

﴿أغير الله أتخذ ولياً﴾ من هؤلاء المخلوقات العاجزة بثولاني وينصرتي؟!

فلا أتخذ من دونه تعالى ولياً لأنه فاطر السماوات والأرض، أي:

خالقهما ومديرهما. ﴿وهو يُطعم﴾ ولا يُطعمُ. أي: وهو الرزاق لجميع

الخلق، من غير حاجة منه تعالى إليهم، فكيف يليق أن أتخذ ولياً غير الخالق

الرزاق، الغني الحميد؟! ﴿قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم﴾ لله

بالتوحيد، وانقاد له بالطاعة، لأي أولي من غيري بامثال أوامر ربي.

﴿ولا تكونن من المشركين﴾ أي: وهيئت أيضاً عن أن أكون من

المشركين، لا في اعتقادهم ولا في مجالستهم، ولا في الاجتماع بهم،

فهذا أفرض الفروض علي، وأوجب الواجبات.

﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ فإن المعصية في

الشرك توجب الخلود في النار، وسخط الجبار، وذلك اليوم هو اليوم

الذي يخاف عذابه، ويجذر عقابه؛ لأنه من صرف عنه العذاب يومئذ فهو

المرحوم، ومن نجاه فيه فهو الفائز حقاً، كما أن من لم ينج منه فهو الهالك

الشقي.

ومن أدلة توحيده، أنه تعالى المنفرد بكشف النضراء، وجلب الخير

والسراء، ولهذا قال: ﴿وإن يمسسك الله بضر﴾ من فقر، أو

مرض، أو عسر، أو غم، أو هم أو نحوه. ﴿فلا كاشف له إلا هو، وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء

قدير﴾. فإذا كان وجهه النافع الضار، فهو الذي يستحق أن يفرد بالعبودية

وهو أصدق المخبرين، وقد أقام على ذلك من الحجج البينة والبراهين، ما

يجعله حق اليقين، ولكن أبي الظالمون إلا جحوداً، وأنكروا قدرة الله على

بعث الخلائق، فأوضعوا في معاصيه، وتجرؤوا على الكفر به، فخسروا دنياهم

وأخراهم، ولهذا قال: ﴿الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾

﴿١٣ - ٢٠﴾ ﴿وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم﴾ قل

أغير الله أتخذ ولياً فاطر السماوات والأرض وهو يُطعم ولا يُطعمُ قل إني

أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين ﴿قل إني أخاف

إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ من يصرف عنه يومئذ فقد رحه وذلك الفوز

المبين ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير

فهو على كل شيء قدير﴾ وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني

وبينكم وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أثنتكم لشهودن أن مع الله

آلته أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإني بريء مما تشركون ﴿الذين

آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾ اعلم أن هذه السورة

الكريمة قد اشتملت على تقرير التوحيد بكل دليل عقلي ونقل، بل كادت أن

تكون كلها في شأن التوحيد ومجادلة المشركين بالله الكذابين لرسوله

فهذه الآيات ذكر الله فيها ما يتبين به الهدى، وينقم به الشرك. فذكر أن

﴿لله﴾ تعالى ﴿ما سكن في الليل والنهار﴾ وذلك هو المخلوقات كلها،

من آدميها وجنّها، وملائكتها، وحيواناتها وجماداتها، فالكل خلق

مدبرون، وعبيد مسخرون لربهم العظيم القاهر المالك، فهل يصح في

عقل ونقل أن يعبد من هؤلاء المالك، الذي لا ينفع عنده

ولا ضرر؟ ويترك الإخلاص للخالق المدبر المالك، البضار التنافع؟ أم

العقول السليمة والفطر المستقيمة تدعو

والإلهية.

﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ فلا يتصرف متهم متصرف، ولا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن إلا بمشيئته، وليس للملوك

وغيرهم الخروج عن ملكه وسلطانه، بل هم مدبرون مقهورون، فإذا كان هو

القاهر وغيره مقهوراً، كان هو المستحق للعبادة.

﴿وهو الحكيم﴾ فيما أمر به ونهى، وأثاب وعاقب، وفيما خلق وقلّد.

﴿الخبير﴾ المطلع على السرائر والضمائر وخفايا الأمور، وهذا كله من أدلة

التوحيد.

﴿قل﴾ لهم - لما بينا لهم الهدى، وأوضحنا لهم المسالك -: ﴿أي:

شيء أكبر شهادة﴾ على هذا الأصل العظيم. ﴿قل الله﴾ أكبر شهادة، فهو

﴿شهيد بيني وبينكم﴾ فلا أعظم منه شهادة ولا أكبر، وهو يشهد لي بأقراره

وفعله، فيقرني على ما قلت لكم، كما قال تعالى: ﴿ولو تقول علينا بعض

الآقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين﴾ فالله حكيم قدير،

فلا يليق بحكمته وقدرته أن يقر كاذباً عليه، زاعماً أن الله أرسلته ولم يرسله،

وأن الله أمره بدعوة الخلق ولم يأمره، وأن الله أباح له دناءة من خالفه

وأموالهم ونساءهم، وهو مع ذلك يصدق به بأقراره ويفعله، فيؤيده على ما

ظلماً وعناداً ممن كان فيه أحد الوصفين، فكيف لو اجتماعا افتراء الكذب على الله، أو التكذيب بآياته، التي جاءت بها المرسلون، فإن هذا أظلم الناس، والظلم لا يقلح أبداً. ويدخل في هذا كل من كذب على الله، بادعاء^(٢) الشريك له والعزيم، أو [زعم] أنه ينبغي أن يعبد غيره أو اتخذ له صاحبة أو ولداً، وكل من رد الحق الذي جاءت به الرسل أو من قام مقامهم.

﴿٢٢ - ٢٤﴾ «ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون» ثم لم تكن فتنهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين * انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون * يخبر تعالى عن مال أهل الشرك يوم القيامة، وأبهم يسألون ويوبخون فيقال لهم: «أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون» أي: إن الله ليس له شريك، وإنما ذلك على وجه الزعم منهم والافتراء * ثم لم تكن فتنهم أي: لم يكن جوابهم حين يفتنون ويختبرون بذلك السؤال، إلا إنكارهم لشركهم وحلفهم أنهم ما كانوا مشركين * انظر * متعجباً منهم ومن أحوالهم * كيف كذبوا على أنفسهم * أي: كذبوا كذباً عاد بالخسار على أنفسهم وضرهم - والله - غاية الضر * وضل عنهم ما كانوا يفترون * من الشركاء الذين زعموهم مع الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

﴿٢٥﴾ «ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاؤوك مجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين» أي: ومن هؤلاء المشركين قوم يحملهم بعض الأوقات، بعض الدواعي إلى الاستماع لما يقول، ولكنه استماع خال من قصد الحق واتباعه، ولهذا لا ينتفعون بذلك الاستماع لعدم

الذين مرجحت عقولهم وأديانهم، وفسدت آراؤهم وأخلاقهم، وأضحكوا على أنفسهم العقلاء.

بل خالفوا بشهادة فطريهم، وتناقضت أقوالهم على إثبات أن مع الله آلهة أخرى، مع أنه لا يقوم على ما قالوه^(١) أدنى شبهة فضلاً عن الحجج، واختار لنفسك أي: الشهادتين إن كنت تعقل، ونحن نختار لأنفسنا ما اختاره الله لنبيه، الذي أمرنا الله بالافتداء به، فقال: «قل إنما هو إله واحد» أي: منفرد لا يستحق العبودية والإلهية سواه، كما أنه المنفرد بالخلق والتدبير.

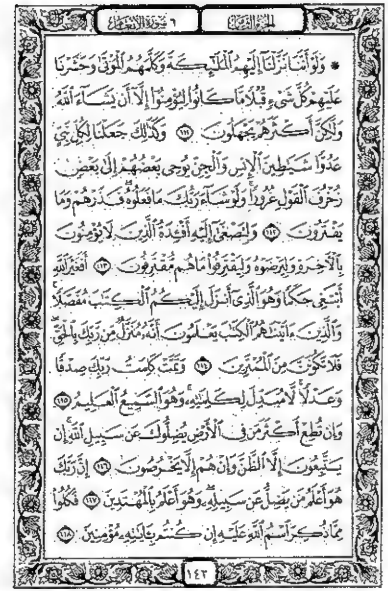
«ولاني بريء مما تشركون» به من الأوثان والأنداد، وكل ما أشرك به مع الله. فهذا حقيقة التوحيد، إثبات الإلهية لله ونفيها عما عداه.

لما بين شهادته وشهادة رسوله على التوحيد، وشهادة المشركين الذين لا علم لديهم على ضده، ذكر أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى * يعرفونه * أي: يعرفون صحة التوحيد * كما يعرفون أبناءهم * أي: لا شك عندهم فيه بوجه، كما أنهم لا يشتبهون بأولادهم، خصوصاً البنين الملازمين في الغالب لأبائهم.

ويحتمل أن الضمير عائد إلى الرسول محمد ﷺ، وأن أهل الكتاب لا يشتبهون بصحة رسالته ولا يمترون بها، لما عندهم من البشارات به، ونعوته التي تنطبق عليه ولا تصلح لغيره، والمعنيان متلازمان.

قوله: «الذين خسروا أنفسهم» أي: فوتوها ما خلقت له من الإيمان والتوحيد، وحرموها الفضل من الملك المجيد * فهم لا يؤمنون * فإذا لم يوجد الإيمان منهم، فلا تسأل عن الخسار والشر، الذي يحصل لهم.

﴿٢١﴾ «ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون» أي: لا أعظم



قال بالمعجزات الباهرة والآيات الظاهرة، وينصره ويخذل من خالفه وعاداه، فأى: شهادة أكبر من هذه الشهادة!!

وقوله: «وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ» أي: وأوحى الله إلي هذا القرآن الكريم لمنفعتكم ومصلحتكم، لأنذركم به من العقاب الأليم. والندارة إنما تكون بذكر ما ينذرهم به من الترغيب، والترهيب، وبيان الأعمال والأقوال، الظاهرة والباطنة، التي من قام بها فقد قبل الندارة، فهذا القرآن فيه الندارة لكم أيها المخاطبون، وكل من بلغه القرآن إلى يوم القيامة، فإن فيه بيان كل ما يحتاج إليه من المطالب الإلهية.

لما بين تعالى شهادته التي هي أكبر الشهادات على توحيده، قال: قل لهؤلاء المعارضين لخبر الله، والمكذبين لرسوله: «أنتم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى، قل لا أشهد» أي: إن شهدوا، فلا تشهد معهم.

فوازن بين شهادة أصدق القائلين ورب العالمين، وشهادة أركى الخلق المؤيدة بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة على توحيد الله وحده لا شريك له، وشهادة أهل الشرك

(١) في ب على ما خالفوه.

(٢) كذا في ب، وفي أ: الدعاء.

تفجر الأنهار خلالها تفيضاً أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً، أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً) الآيات .

﴿قل﴾ حبيباً لقولهم: ﴿إن الله قادر على أن ينزل آية﴾ فليس في قدرته قصور عن ذلك، كيف وجميع الأشياء متفاداة لعزته، مذعبة لسلطانه؟!

ولكن أكثر الناس لا يعلمون فهم لجهلهم وعدم علمهم يطلبون ما هو شر لهم من الآيات، التي لو جاءتهم فلم يؤمنوا بها، لعوجلوا بالعقاب، كما هي سنة الله التي لا تبدل لها، ومع هذا فإن كان قصدهم الآيات التي تبين لهم الحق، وتوضح السبيل، فقد أتى محمد ﷺ بكل آية قاطعة، وحجة ساطعة، دالة على ما جاء به من الحق، بحيث يتمكن العبد في كل مسألة من مسائل الدين، أن يجد فيما جاء به عدة أدلة عقلية ونقلية، بحيث لا تبقى في القلوب أدنى شك وارتياب، فتبارك الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، وأيده بالآيات البينات ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة، وإن الله لسميع عليم.

﴿٣٨﴾ ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾ أي: جميع الحيوانات الأرضية واليهوائية، من البهائم والوحوش والطيور، كلها أمم أمثالكم خلقناها كما خلقناكم، ورزقناها كما رزقناكم، ونفذت فيها مشيئتنا وقدرتنا كما كانت نافذة فيكم.

﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ أي: ما أهملنا ولا أغفلنا في اللوح المحفوظ شيئاً من الأشياء، بل جميع الأشياء، صغيرها وكبيرها، مثبتة في اللوح المحفوظ على ما هي عليه، فتقع جميع الحوادث طبق ما جرى به القلم. وفي هذه الآية دليل على أن الكتاب الأول قد حوى جميع الكائنات، وهذا أجد مراتب القضاء والقدر، فإنها أربع مراتب:

الهدى ﴿ولكن حكمته تعالى اقتضت أنهم يبقون على الضلال﴾ فلا تكونون من الجاهلين ﴿الذين لا يعرفون حقائق الأمور، ولا يتزولونها على منازلها﴾.

﴿٣٦-٣٧﴾ ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون﴾ وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿إنما يستجيب لدعوتك ويلي رسالتك وينقاد لأمرك ونهيك﴾ الذين يسمعون ﴿بقلوبهم ما ينفعهم، وهم أولو الأبواب والأسماع﴾.

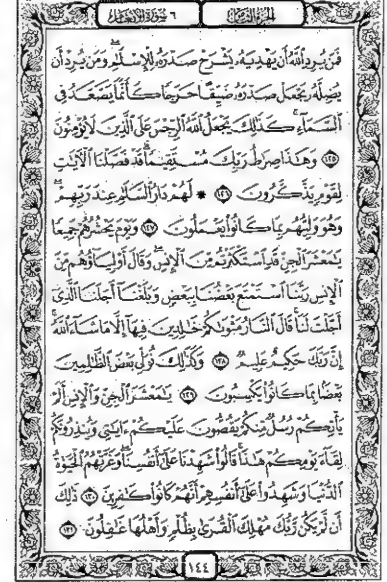
والمراد بالسماع هنا: سماع القلب والاستجابة، وإلا فمجرد سماع الأذن، يشترك فيه البر والفاجر. فكل المكلفين قد قامت عليهم حجة الله تعالى باستماع آياته، فلم يبق لهم عذر في عدم القبول.

﴿والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون﴾ يحتمل أن المعنى مقابل للمعنى المذكور. أي: إنما يستجيب لك أحياء القلوب، وأما أموات القلوب الذين لا يشعرون بسعادتهم، ولا يحسون بما ينجيهم، فإنهم لا يستجيبون لك ولا ينقادون، وموعدهم القيامة، يبعثهم الله ثم إليه يرجعون، ويحتمل أن المراد بالآية على ظاهرها، وأن الله تعالى يقرر المعاد، وأنه سيبعث الأموات يوم القيامة ثم ينبئهم بما كانوا يعملون.

ويكون هذا متضمناً للترغيب في الاستجابة لله ورسوله، والترهيب من عدم ذلك.

﴿وقالوا﴾ أي: المكذبون بالرسول تعنتاً وعناداً: ﴿لولا نزل عليه آية من ربه﴾ يعنون بذلك آيات الاقتراح، التي يقترحونها بعقولهم الفاسدة وآرائهم الكاسدة.

﴿كقولهم﴾: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب﴾



نأمرك بما أمرناك به من الصبر إلا لتحصل لك المنازل العالية والأحوال الغالية. فلا تظن أن قولهم صادر عن اشتباه في أمرك وشك فيك ﴿فإنهم لا يكذبونك﴾ لأنهم يعرفون صدقك ومدخلك ومخرجك، وجميع أحوالك، حتى إنهم كانوا يسمونه قبل البعثة الأمين. ﴿ولكن الظالمين بأيات الله يحسدون﴾ أي: فإن تكذيبهم لأيات الله التي جعلها الله على يدك^(١).

﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا﴾ فاصبر كما صبروا، تظفر كما ظفروا، ﴿ولقد جاءك من نبي المرسلين﴾ ما به ثبت فؤادك، ونطمئن به قلبك.

﴿وإن كان كبر عليك إعراضهم﴾ أي: شق عليك من حرصك عليهم ومحبتك لإيمانهم، فابذل وسعك في ذلك، فليس في مقدورك أن تهدي من لم يرد الله هدايته.

﴿فإن استطعت أن تبغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتهم بآية﴾ أي: فافعل ذلك، فإنه لا يفيدهم شيئاً، وهذا قطع لطمعه في هدايته أشباه هؤلاء المعاندين.

﴿ولو شاء الله لجمعهم على

(١) السياق يقتضي أن يأتي بخبر إن ومقصود الشيخ - رحمه الله - فإن تكذيبهم... جحد منهم لما علموه حقاً.

علم الله الشامل لجميع الأشياء، وكتابه المحيط بجميع الموجودات، ومشيته وقدرته النافذة العامة لكل شيء، وخالقه لجميع المخلوقات، حتى أفعال العباد.

ويحتمل أن المراد بالكتاب هذا القرآن، وأن المعنى كالمعنى في قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أي: جميع الأمم تحشر وتجمع إلى الله في موقف القيامة، في ذلك الموقف العظيم الهائل، فيجازيهم بعدله وإحسانه، ويمضي عليهم حكمه الذي يحمده عليه الأولون والآخرون، أهل السماء وأهل الأرض.

﴿٣٩﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا صُمُّوهُمْ﴾ وفي الظلمات من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ﴿٤٠﴾ هذا بيان لحال المكذبين بآيات الله المكذبين لرسوله، أنهم قد سدوا على أنفسهم باب الهدى، وفتحوا باب الردى، وأنهم صم عن سماع الحق ﴿٤١﴾ عن النطق به، فلا ينطقون إلا بباطل (١).

﴿في الظلمات﴾ أي: منغمسون في ظلمات الجهل والكفر، والظلم، والعناد، والمعاصي. وهذا من إضلال الله إياهم، ف﴿مَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلِّهِ وَمَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُسْتَقِيمْ﴾ لأنه المنفرد بالهداية والإضلال، بحسب ما اقتضاه فضله وحكمته.

﴿٤٠ - ٤١﴾ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرِ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون ﴿٤٢﴾ يقول تعالى لرسوله: ﴿قُلْ لِلْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ الْعَادِلِينَ بِهِ غَيْرُهُ﴾ ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرِ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: إذا حصلت هذه المشقات، وهذه الكروب

التي يضطر إلى دفعها، هل تدعون الهتك وأصنامكم، أم تدعون ربكم الملك الحق المبين.

﴿بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون﴾ فإذا كانت هذه حالكم مع أندادكم عند الشدائد، تنسونهم، لعلمكم أنهم لا يملكون لكم ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

وتخلصون لله الدعاء، لعلمكم أنه هو النافع الضار، المجيب لدعوة المضطر، فما بالكم في الرخاء تشركون به وتجعلون له شركاء؟ هل ذلكم على ذلك عقل أو نقل، أم عندكم من سلطان بهذا؟ بل ﴿تفترون على الله الكذب﴾.

﴿٤٢ - ٤٥﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ فلولاً إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون ﴿٤٤﴾ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴿٤٥﴾ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴿٤٦﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ من الأمم السالفين والقرون المتقدمين، فكذبوا رسلنا وجحدوا آياتنا ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾ أي: بالفقر والمرض والآفات والمصائب، راحة منا بهم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ إلينا، ويلجأون عند الشدة إلينا.

﴿فلولاً إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم﴾ أي: استحجرت فلا تلبس للحق، ﴿وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾ فظنوا أن ما هم عليه دين الحق، فتمتعوا في باطلهم برهة من الزمان، ولعب بقولهم الشيطان. ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾ من الدنيا ولذاتها وغفلاتها حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴿٤٧﴾

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٣﴾ فلولاً إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون ﴿٤٤﴾ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴿٤٥﴾ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴿٤٦﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ من الأمم السالفين والقرون المتقدمين، فكذبوا رسلنا وجحدوا آياتنا ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾ أي: بالفقر والمرض والآفات والمصائب، راحة منا بهم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ إلينا، ويلجأون عند الشدة إلينا.

أي: أيسون من كل خير، وهذا أشد ما يكون من العذاب، أن يؤخذوا على غرة وغفلة وطمأنينة، ليكون أشد لعقوبتهم وأعظم لمصيبتهم.

﴿فقطّع دابر القوم الذين ظلموا﴾ أي: اصطلموا بالعذاب، وتقطعت بهم الأسباب. ﴿والحمد لله رب العالمين﴾ على ما قضاه وقدره من هلاك المكذبين. فإن بذلك تتبين آياته، وإكرامه لأوليائه، وإهانته لأعدائه، وصدق ما جاءت به المرسلون.

﴿٤٦ - ٤٧﴾ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون﴾ ﴿٤٨﴾ قل أرايتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون ﴿٤٩﴾ يخبر تعالى أنه كما أنه المتفرد بخلق الأشياء وتديرها، فإنه المنفرد بالوحدانية والإلهية، فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتم على قلوبكم﴾ فبقيت بلا سمع ولا بصر ولا عقل ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ فإذا لم يكن غير الله يأتي بذلك، فلم عبدتم معه مَنْ لا قدرة له على شيء إلا إذا شاء الله. وهذا من أدلة التوحيد وبطلان الشرك، ولهذا قال: ﴿انظر كيف

عند الناس أذلاء.

﴿ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء﴾ أي: كل له حساب، وله عمله الحسن وعمله القبيح. ﴿فتطردهم فتكون من الظالمين﴾ وقد امتثل ﷺ هذا الأمر أشد امتثال، فكان إذا جلس الفقراء من المؤمنين صبر نفسه معهم، وأحسن معاملتهم، وألأن لهم جانبه، وحسن خلقه، وقربهم منه، بل كانوا هم أكثر أهل مجلسه رضي الله عنهم.

وكان سبب نزول هذه الآيات، أن أناساً [من قريش، أو] من أجلاف العرب قالوا للنبي ﷺ: إن أردت أن نؤمن لك ونتبعك، فاطرد فلاناً وفلاناً، أناساً من فقراء الصحابة، فإننا نستحي أن ترائنا العرب جالسين مع هؤلاء الفقراء، فحمله حبه لإسلامهم واتباعهم له، فحدثته نفسه بذلك. فعاتبه الله بهذه الآيات ونحوها.

﴿وكذلك فتننا بعضهم ببعض، ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا﴾ أي: هذا من ابتلاء الله لعباده، حيث جعل بعضهم غنياً، وبعضهم فقيراً، وبعضهم شريفاً، وبعضهم وضيعاً، فإذا من الله بالإيمان على الفقير أو الوضيع؛ كان ذلك محل محنة للغني والشريف فإن كان قصده الحق واتباعه آمن وأسلم، ولم يمتعه من ذلك مشاركة الذي يراه دونه بالغنى أو الشرف، وإن لم يكن صادقاً في طلب الحق، كانت هذه عقبة ترده عن اتباع الحق.

وقالوا محتقرين لمن يروهم دونهم: ﴿أهؤلاء من الله عليهم من بيننا﴾. فمنعهم هذا من اتباع الحق، لعدم زكائهم، قال الله محبباً لكلامهم المتضمن الاعتراض على الله في هداية هؤلاء، وعدم هدايتهم هم. ﴿أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ الذين يعرفون النعمة، ويقرون بها، ويقومون بما تقتضيه من العمل الصالح، فيضع فضله ومنته عليهم، دون من ليس

بشاكر، فإن الله تعالى حكيم لا يضع فضله عند من ليس له بأهل، وهؤلاء المعترضون بهذا الوصف، بخلاف من من الله عليهم بالإيمان من الفقراء وغيرهم فإنهم هم الشاكرون. ولما نهى الله رسوله عن طرد المؤمنين القانتين، أمره بمقابلتهم بالإكرام والإعظام، والتبجيل والاحترام، فقال: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم﴾ أي: وإذا جاءك المؤمنون، فحيهم ورحب بهم ولقهم منك تحية وسلام، وبشرهم بما ينشط عزائمهم وهمهم، من رحمة الله وسعة جوده وإحسانه، وحثهم على كل سبب وطريق يوصل لذلك.

ورهبهم من الإقامة على الذنوب، وأمرهم بالتوبة من المعاصي لينالوا مغفرة ربهم وجوده، ولهذا قال: ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح﴾ أي: فلا بد مع ترك الذنوب والإقلاع والندم عليها، من إصلاح العمل وأداء ما أوجب الله، وإصلاح ما فسد من الأعمال الظاهرة والباطنة.

فإذا وجد ذلك كله ﴿فأنه غفور رحيم﴾ أي: صب عليهم من مغفرته ورحمته، بحسب ما قاموا به بما أمرهم به.

﴿وكذلك نفصل الآيات﴾ أي: نوضحها ونبينها، ونميز بين طريق الهدى من الضلال، والغنى والرشاد، ليهتدي بذلك المهتدون، ويتبين الحق الذي ينبغي سلوكه. ﴿ولتستبين سبيل المجرمين﴾ الموصلة إلى سخط الله وعذابه، فإن سبيل المجرمين إذا استبان واتضحت أمكن اجتنابها والبعد منها، بخلاف ما لو كانت مشبهة ملتبسة، فإنه لا يحصل هذا المقصود الجليل.

﴿٥٦-٥٨﴾ ﴿قل إني نهي أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا وما أنا

من المهتدين﴾ ﴿قل إني على بينة من ربي وكذبتم به ما عندي ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين﴾ ﴿قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم والله أعلم بالظالمين﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قل﴾ لهؤلاء المشركين الذين يدعون مع الله آلهة أخرى: ﴿إني نهي أن أعبد الذين تدعون من دون الله﴾ من الأنداد والأوثان التي لا تملك نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فإن هذا باطل، وليس لكم فيه حجة بل ولا شبهة، إلا اتباع الهوى الذي اتباعه أعظم الضلال، ولهذا قال: ﴿قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا﴾ أي: إن اتبعت أهواءكم ﴿وما أنا من المهتدين﴾ بوجه من الوجوه، وأما أنا عليه من توحيد الله وإخلاص العمل له، فإنه هو الحق الذي تقوم عليه البراهين والأدلة القاطعة.

وأنا ﴿على بينة من ربي﴾ أي: على يقين مبين، بصحته وبطلان ما عداه، وهذه شهادة من الرسول جازمة لا تقبل التردد، وهو أعدل الشهود من الخلق على الإطلاق. فصديقها المؤمنون، وتبين لهم من صحتها وصدقها، بحسب ما من الله به عليهم.

﴿ولكنكم أيها المشركون - كذبتم به﴾ وهو لا يستحق هذا منكم، ولا يليق به إلا التصديق، وإذا استمررتم^(١) على تكذيبكم، فاعلموا أن العذاب واقع بكم لا محالة، وهو عند الله، هو الذي ينزله عليكم إذا شاء وكيف شاء، وإن استعجلتم به فليس بيدي من الأمر شيء ﴿إن الحكم إلا لله﴾ فكما أنه هو الذي حكم بالحكم الشرعي، فأمر ونهى، فإنه سيحكم بالحكم الجزائي، فيثيب ويعاقب، بحسب ما تقتضيه حكمته. فالاعتراض على حكمه مطلقاً مدفوع، وقد أوضح السبيل وقصص على عباده

(١) كذا في ب، وفي أ: استمررتم.

الحق قصاً، قطع به معاذيرهم، وانقطعت له حججهم، ليهلك مَنْ هلك عن بيته، ويحيى مَنْ حي عن بيته ﴿وهو خير الفاصلين﴾ بين عباده في الدنيا والآخرة، فيفصل بينهم فضلاً يحمده عليه، حتى مَنْ قضى عليه، ووجه الحق نحوه.

﴿قل﴾ للمستعجلين بالعذاب، جهلاً وعناداً وظلماً، ﴿لو أن عندي ما تستعجلون به لقضيت الأمر بيني وبينكم﴾ فأوقته بكم ولا خير لكم في ذلك، ولكن الأمر عند الخليم الصبور، الذي يعصيه العاصون، ويتجرأ عليه المتجرؤون، وهو يعاقبهم ويرزقهم ويسدي عليهم نعمه الظاهرة والباطنة. ﴿والله أعلم بالظالمين﴾ لا يخفى عليه من أحوالهم شيء، فيمهلهم ولا يمهلهم.

﴿٥٩﴾ ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ هذه الآية العظيمة من أعظم الآيات تفصيلاً لعلمه المحيط، وأنه شامل للغيوب كلها، التي يطلع منها ما شاء من خلقه. وكثير منها طوى علمه عن الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، فضلاً عن غيرهم من العالمين، وأنه يعلم ما في البراري والقفار من الحيوانات والأشجار، والرمال والحصى والتراب، وما في البحار من حيواناتها ومعادنها وصيدها، وغير ذلك مما تحتوي أرجاؤها، ويشتمل عليه ماؤها.

﴿وما تسقط من ورقة﴾ من أشجار البر والبحر، والبلدان والقرى، والدنيا والآخرة، إلا يعلمها. ﴿ولا حبة في ظلمات الأرض﴾ من حبوب الثمار والزرور، وحبوب البذور التي يبذر الخلق؛ وبذور النواكب البرية التي ينشئ منها أصناف النباتات.

﴿ولا رطب ولا يابس﴾ هذا عموم بعد خصوص ﴿إلا في كتاب مبين﴾ وهو اللوح المحفوظ قد حواها واشتمل

العامه، فليسوا يملكون من الأمر شيئاً، ولا يتحركون ولا يستكونون إلا بإذنه، ومع ذلك فقد وكل بالعباد حفظه من الملائكة، يحفظون العبد ويحفظون عليه ما عمل، كما قال تعالى: ﴿وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾. ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ فهذا حفظه لهم في حال الحياة.

﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا﴾ أي: الملائكة الموكلون بقبض الأرواح ﴿وهم لا يفرطون﴾ في ذلك، فلا يزيدون ساعة مما قدر الله وقضاه ولا يقصون، ولا ينفذون من ذلك إلا بحسب المراسيم الإلهية والتقدير الربانية.

﴿ثم﴾ بعد الموت والحياة البرزخية وما فيها من الخير والشر ﴿ردوا إلى الله مولاهم الحق﴾ أي: الذي تولاهم بحكمه القدري، فنفذ فيهم ما شاء من أنواع التدبير، ثم تولاهم بأمرة وتبيينه، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، ثم ردوا إليه ليتولى الحكم فيهم بالجزاء، ويشيهم على ما عملوا من الخيرات، ويعاقبهم على الشرور والسيئات، ولهذا قال: ﴿إلا له الحكم﴾ وحده لا شريك له ﴿وهو أسرع الحاسنين﴾ لكمال علمه وحفظه لأعمالهم، بما أثبتته في اللوح المحفوظ، ثم أثبتته ملائكته في الكتاب الذي بأيديهم، فإذا كان تعالى هو المنفرد بالخلق والتدبير، وهو القاهر فوق عباده، وقد اعتنى بهم كل الاعتناء في جميع أحوالهم، وهو الذي له الحكم القدري، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، فأين للمشركين العدول عن من هذا وصفه ونعته، إلى عبادة مَنْ ليس له من الأمر شيء، ولا عنده مثقال ذرة من النفع، ولا له قدرة وإرادة؟!.

أما والله لو علموا حلم الله عليهم وعفوه ورحمته بهم، وهم يبارزونهم بالشرك والكفران، ويتجرؤون على عظمتهم بالإفك والبهتان، وهو يعاقبهم

عليها، وبعض هذا المذكور يبهر عقول العقلاء، ويذهل أفئدة النبلاء، فدل هذا على عظمة الرب العظيم وسعته في أوصافه كلها.

وأن الخلق - من أولهم إلى آخرهم - لو اجتمعوا على أن يحيطوا ببعض صفاته، لم يكن لهم قدرة ولا وسع في ذلك، فتبارك الرب العظيم، الواسع، العليم، الحميد المجيد، الشهيد، المحيط.

﴿٦٠ - ٦٢﴾ ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴿ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسين﴾ هذا كله تقرير لإلوهيته، واحتجاج على المشركين به، وبين أن الله تعالى المستحق للحب والتعظيم، والإجلال والإكرام، فأخبر أنه وحده المنفرد بتدبير عباده، في يقظتهم ومنامهم، وأنه يتوفاهم بالليل وفاة النوم، فتهدأ حركاتهم، وتستريح أبدانهم، ويعيشهم في اليقظة من نومهم، ليتصرفوا في مصالحهم الدينية والدنيوية وهو - تعالى - يعلم ما جرحوا وما كسبوا من تلك الأعمال.

ثم لا يزال تعالى هكذا يتصرف فيهم، حتى يستوفوا أجلهم. فيقضى بهذا التدبير أجل مسمى، وهو: أجل الحياة، وأجل آخر فيما بعد ذلك، وهو البعث بعد الموت، ولهذا قال: ﴿ثم إليه مرجعكم﴾ لا إلى غيره ﴿ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾ من خير وشر.

﴿وهو﴾ تعالى ﴿القاهر فوق عباده﴾ ينفذ فيهم إرادته الشاملة ومشيئته

ويرزقهم، لانجذبت دواعيهم إلى معرفته، وذهلت عقولهم في حبه، ولما قتل بعضهم بعضاً.

فهو قادر على ذلك كله، فاحذروا من الإقامة على معاصيه، فيصيبكم من العذاب ما يتلفكم ويمحقكم، ومع هذا فقد أخبر أنه قادر على ذلك. ولكن من رحمته، أن رفع عن هذه الأمة العذاب من فوقهم بالرجم والحصب ونحوه، ومن تحت أرجلهم بالحسف.

ولكن عاقب من عاقب منهم بأن أذاق بعضهم بأس بعض، وسلط بعضهم على بعض، عقوبة عاجلة يراها المعتبرون، ويشعر بها العالمون^(١).

﴿انظر كيف تصرف الآيات﴾ أي: تنوعها، ونأتي بها على أوجه كثيرة وكلها دالة على الحق. ﴿لعلهم يفقهون﴾ أي: يفهمون ما خلقوا من أجله، ويفقهون الحقائق الشرعية والمطالب الإلهية.

﴿وكذب به﴾ أي: بالقرآن ﴿قومك﴾ وهو الحق الذي لا مزية فيه، ولا شك يعتريه. ﴿قل لست عليكم بوكيل﴾ أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها، وإنما أنا منذر ومبلغ.

﴿لكل نبأ مستقر﴾ أي: وقت يستقر فيه، وزمان لا يتقدم عنه ولا يتأخر ﴿وسوف تعلمون﴾ ما توعدون به من العذاب.

﴿٦٨ - ٦٩﴾ ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾ وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكري لعلهم يتقون ﴿المراد بالخوض في آيات الله: التكلم بما يخالف الحق، من تحسين المقالات الباطلة والدعوة إليها ومدح أهلها، والإعراض عن الحق والقدح فيه وفي أهله. فأمر الله رسوله أصلاً، وأمته تبعاً، إذا رأوا من يخوض بآيات الله بشيء عما ذكر بالإعراض عنهم، وعدم حضور مجالس الخائضين بالباطل، والاستمرار على ذلك حتى

ويرزقهم، لانجذبت دواعيهم إلى معرفته، وذهلت عقولهم في حبه، ولما قتل بعضهم أشد المقت، الموجب للنكزي والخسران، ولكنهم قوم لا يعقلون.

﴿٦٣ - ٦٤﴾ ﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾ قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون ﴿أي: قل﴾ للمشركين بالله الداعين معه آلهة أخرى، ملزماً لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية على ما أنكروا من توحيد الإلهية ﴿من ينجيكم من ظلمات البر والبحر﴾ أي: شدائدهما ومشقاتهما، وحين يتعذر أو يتعسر عليكم وجه الحيلة، فتدعون ربكم تضرعاً بقلب خاضع، ولسان لا يزال يلهج بحاجته في الدعاء، وتقولون وأنتم في تلك الحال: ﴿لئن أنجانا من هذه الشدة التي وقعنا فيها لنكونن من الشاكرين﴾ لله، أي: المعترفين بنعمته، الراضعين لها في طاعة ربهم، الذين حفظوها عن أن يذلوها في معصيته.

﴿قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب﴾ أي: من هذه الشدة الخاصة، ومن جميع الكروب العامة ﴿ثم أنتم تشركون﴾ لا تفون لله بما قبلتم، وتنسون نعمه عليكم، فأب: يرهان أوضح من هذا على بطلان الشرك، وضحة التوحيد!!

﴿٦٥ - ٦٧﴾ ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف تصرف الآيات لعلهم يفقهون﴾ وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل ﴿لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون﴾ أي: هو تعالى قادر على إرسال العذاب إليكم من كل جهة. ﴿من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم﴾ أي: يخلطكم شيعاً ويذيق

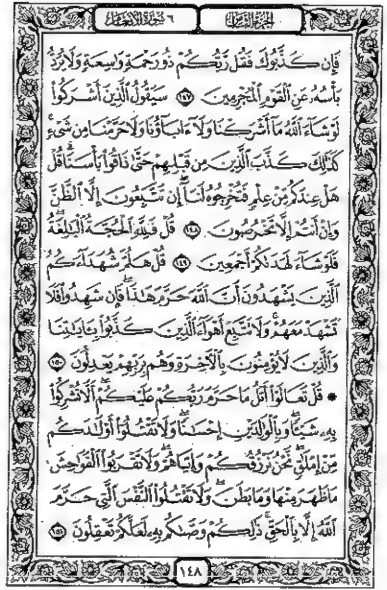
(١) في ب: العالمون.



يكون البحث والخوض في كلام غيره، فإذا كان في كلام غيره زال النهي المذكور.

فإن كان مصلحة كان مأموراً به، وإن كان غير ذلك كان غير مفيد ولا مأمور به، وفي ذم الخوض بالباطل، حث على البحث والنظر والمناظرة بالحق ثم قال: ﴿وإما ينسينك الشيطان﴾ أي: بأن جلست معهم، على وجه النسيان والغفلة. ﴿فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾ يشمل الخائضين بالباطل، وكل متكلم بمحرم، أو فاعل لمحرم، فإنه يحرم الجلوس والحضور عند حضور المنكر، الذي لا يقدر على إزالته.

هذا النهي والتحريم لمن جلس معهم، ولم يستعمل تقوى الله، بأن كان يشاركهم في القول والعمل المحرم، أو يسكت عنهم وعن الإنكار، فإن استعمل تقوى الله تعالى، بأن كان يأمرهم بالخير، وينهاهم عن الشر والكلام الذي يصدر منهم، فيترتب على ذلك زوال الشر أو تخفيفه، فهذا ليس عليه حرج ولا إثم، ولهذا قال: ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكري لعلهم يتقون﴾ أي: ولكن ليذكرهم ويعظهم، لعلهم يتقون الله تعالى.



وفي هذا دليل على أنه ينبغي أن يستعمل المذكر من الكلام ما يكون أقرب إلى حصول مقصود التقوى. وفيه دليل على أنه إذا كان التذكير والوعظ مما يزيد الموعوظ شراً إلى شره، إلى أن تركه هو الواجب^(١)، لأنه إذا ناقض المقصود، كان تركه مقصوداً.

﴿٧٠﴾ «وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون» المقصود من العباد أن يخلصوا لله الدين، بأن يعبدوه وحده لا شريك له، ويبدلوا مقدورهم في مرضاته ومحابه. وذلك متضمن لإقبال القلب على الله وتوجهه إليه، وكون سعي العبد نافعاً، وجدلاً لا هزلاً، وإخلاصاً لوجه الله لا رياء وسمعة، هذا هو الدين الحقيقي الذي يقال له دين، فأما من زعم أنه على الحق، وأنه صاحب دين وتقوى، وقد اتخذ دينه لعباً ولهواً. بأن لها قلبه عن محبة الله ومعرفته، وأقبل على كل ما يضره، ولها في باطله، ولعب فيه ببدنه، لأن العمل والسعي إذا كان

لغير الله فهو لعب، فهذا أمر الله تعالى أن يترك ويحذر، ولا يغتر به، وتنظر حاله، ويحذر من فعاله، ولا يغتر بتعويقه عما يقرب إلى الله.

﴿وذكر به﴾ أي: ذكر بالقرآن ما ينفع العباد، أمراً، وتفصيلاً، وتحسيناً له، بذكر ما فيه من أوصاف الحسن، وما يضر العباد تبياً عنه، وتفصيلاً لأنواعه، وبيان ما فيه من الأوصاف القبيحة الشنيعة الداعية لتركه، وكل هذا لئلا تبسل نفس بما كسبت، أي: قبل اقتحام العبد للذنوب وتجريه على علام الغيوب، واستمرارها على ذلك المروء، فذكرها، وعظها، لترتدع وتترجر وتكف عن فعلها.

وقوله: «ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع» أي: قبل [أن] تحيط بها ذنوبها، ثم لا ينفعها أحد من الخلق، لا قريب ولا صديق، ولا يتولاها من دون الله أحد، ولا يشفع لها شافع «وإن تعدل كل عدل» أي: تفتدي بكل فداء، ولو بملء الأرض ذهباً «لا يؤخذ منها» أي: لا يقبل ولا يفيد.

﴿أولئك﴾ الموصوفون بما ذكر «الذين أبسلوا» أي: أهلكوا وأيسوا من الخير، وذلك «بما كسبوا» لهم شراب من حميم» أي: ماء حار قد انتهى حره، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم «وعذاب أليم بما كانوا يكفرون».

﴿٧١-٧٣﴾ «قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا وترد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى إئتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين * وأن أقيموا الصلاة واتقوه وهو الذي إليه تحشرون * وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب

والشهادة وهو الحكيم الخبير» ﴿قل﴾ يا أيها الرسول للمشركين بالله، الداعين معه غيره، الذين يدعونكم إلى دينهم، مبيناً وشارحاً لوصف آلهتهم، التي يكفي العاقل بذكر وصفها عن النهي عنها، فإن كل عاقل إذا تصور مذهب المشركين جزم ببطلانه قبل أن تقام البراهين على ذلك، فقال: «أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا» وهذا وصف يدخل فيه، كل من عبد من دون الله، فإنه لا ينفع ولا يضر، وليس له من الأمر شيء، إن الأمر

إلا لله. «ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله» أي: وننقلب بعد هداية الله لنا إلى الضلال، ومن الرشد إلى الغي، ومن الصراط الموصل إلى جنات النعيم، إلى الطرق التي تقضي بسالكها إلى العذاب الأليم، فهذه حال لا يرتضيها ذورشد، وصاحبها «كالذي استهوته الشياطين في الأرض» أي: أضلته وتيهته عن طريقه ومنهجه، الموصل له إلى مقصده. فبقي «حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى» والشياطين يدعونه إلى الردى، فبقي بين الداعين جاثراً وهذه حال الناس كلهم، إلا من عصمه الله تعالى، فإنهم يجدون فيهم جواذب ودواعي متعارضة، دواعي^(٢) الرسالة والعقل الصحيح، والفتنة المستتمة «يدعونه إلى الهدى» والصعود إلى أعلى عِلين. ودواعي^(٣) الشيطان ومن سلك مسلكه، والنفس الأمارة بالسوء، يدعونه إلى الضلال، والتزول إلى أسفل سافلين، فمن الناس من يكون مع داعي الهدى في أموره كلها أو أغلبها، ومنهم من بالعكس من ذلك. ومنهم من يتساوى لديه الداعيان، ويتعارض عنده الجاذبان، وفي هذا الموضع تعرف أهل السعادة من أهل الشقاوة.

وقوله: «قل إن هدى الله هو الهدى» أي: ليس الهدى إلا الطريق

(١) في ب: كان تركه هو الواجب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: دواع.

(٣) كذا في ب، وفي أ: داع.

(٤) كذا في ب، وفي أ: داعي.

التي شرعها الله على لسان رسوله، وما عداه فهو ضلال وزدي وهلاك. **﴿وأمرنا لنسلم لرب العالمين﴾** بأن نقاد لتوحيد، ونستسلم لأوامره ونواهي، وندخل تحت ريق عبوديته، فإن هذا أفضل نعمة أنعم الله بها على العباد، وأكمل تربية أوصلها إليهم. **﴿وأن أقيموا الصلاة﴾** أي: وأمرنا أن نقيم الصلاة بآركانها وشروطها وسننها ومكملاتها. **﴿وأتقوه﴾** بفعل ما أمر به، واجتناب ما عنه نهي. **﴿وهو الذي إليه تحشرون﴾** أي: تجمعون ليوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم خيرها وشرها.

﴿وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق﴾ ليأمر العباد وينهاهم، ويشبههم ويعاقبهم، **﴿ويوم يقول كن فيكون قوله الحق﴾** الذي لا مرية فيه ولا مثنوية، ولا يقول شيئاً عبثاً. **﴿وله الملك يوم ينفخ في الصور﴾** أي: يوم القيامة، خضبه بالذكر - مع أنه مالك كل شيء - لأنه تنقطع فيه الأملاك، فلا يبقى ملك إلا الله الواحد القهار. **﴿عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير﴾** الذي له الحكمة التامة، والنعمة السابعة، والإحسان العظيم، والعلم المحيط بالسرائر والنبواطن والخفايا، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿٧٤-٨٣﴾ **﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه أزر أتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين﴾** وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين إلى آخر القصة. يقول تعالى: **﴿واذكر قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، مثنياً عليه ومعظماً في حال دعوته إلى التوحيد، ونبيه عن الشرك، إذ قال لأبيه أزر أتخذ أصناماً آلهة﴾** أي: لا تنفع ولا تضر وليس لها من الأمر شيء، **﴿إني أراك وقومك في ضلال مبين﴾** حيث عبدتم من لا يستحق من

العبادة شيئاً، وتركتم عبادة خالقكم، ورازقكم ومدبركم.

﴿وكذلك﴾ حين وفقناه للتوحيد والدعوة إليه **﴿نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض﴾** أي: ليرى ببصيرته ما اشتملت عليه من الأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة **﴿وليكون من الموقنين﴾** فإنه بحسب قيام الأدلة يحصل له الإيقان، والعلم التام بجميع المطالب.

﴿فلما جن عليه الليل﴾ أي: أظلم **﴿رأى كوكباً﴾** لعله من الكواكب المضئية، لأن تخصيصه بالذكر يدل على زيادته عن غيره، ولهذا - والله أعلم - قال من قال: إنه الزهرة.

﴿قال هذا ربي﴾ أي: على وجه التنزل مع الخصم، أي: هذا ربي، فهل ننظر، هل يستحق الربوبية؟ وهل يقوم لنا دليل على ذلك؟ فإنه لا ينبغي لعاقل أن يتخذ إلهه هواه بغير حجة ولا برهان.

﴿فلما أفل﴾ أي: غاب ذلك الكوكب **﴿قال لا أحب الآفلين﴾** أي: الذي يغيب ويختفي عمن عبده، فإن المعبود لا بد أن يكون قائماً بمصالح من عبده، ومدبراً له في جميع شؤونه، فأما الذي يمضي وقت كثير وهو غائب، فمن أين يستحق العبادة؟! وهل اتخذه إلهاً إلا من أسفه السفه، وأبطل الباطل؟! **﴿فلما رأى القمر بازغاً﴾** أي: طالعا، ورأى زيادته على نور الكواكب ومخالفته لها **﴿قال هذا ربي﴾** تنزلاً. **﴿فلما أفل قال﴾** لئن لم يهديني ربي لأكون من القوم الضالين **﴿فافتقر غاية الافتقار إلى هداية ربه، وعلم أنه إن لم يهده الله فلا هادي له، وإن لم يعنه على طاعته فلا معين له.**

﴿فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر﴾ من الكوكب ومن القمر. **﴿فلما أفلت﴾** تقرر حيثئذ الهدى، واضمحل الردى **﴿قال يا**

قوم إني بريء مما تشركون﴾ حيث قام البرهان الصادق الواضح على بطلانه.

﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً﴾ أي: لله وحده، مقبلاً عليه، معرضاً عن من سواه. **﴿وما أنا من المشركين﴾** فنبأ من الشرك، وأدعن بالتوحيد، وأقام على ذلك البرهان [وهذا الذي ذكرنا في تفسير هذه الآيات هو الصواب، وهو أن المقام مقام مناظرة من إبراهيم لقومه وبيان بطلان إلهية هذه الأجرام العلوية وغيرها. وأما من قال إنه مقام نظر في حال طفولته فليس عليه دليل^(١)]

﴿وحاجه قومه قال﴾ أتحاجوني في الله وقد هدى؟ أي فائدة لم حاجة من^(٢) لم يتبين له الهدى؟ فأما من هده الله، ووصل إلى أعلى درجات اليقين، فإنه - هو بنفسه - يدعو الناس إلى ما هو عليه.

﴿ولا أخاف ما تشركون به﴾ فإنها لن تضرني، ولن تمنع عني من النفع شيئاً. **﴿إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء عليم﴾** أعلم أنه وحده العبود المستحق للعبودية.

﴿وكيف أخاف ما أشركتم﴾ وحالها حال العجز وعدم النفع، **﴿ولا**

(١) زيادة من هامش: ب. وهي بخط الشيخ - رحمه الله -.

(٢) كذا في ب، وفي أ: المحاجة لمن.



وهذاية^(١) من أنواع الهدايات الخاصة التي لم تحصل إلا لأفراد من العالم؛ وهم أولو العزم من الرسل الذي هو أحدهم.

﴿ومن ذريته﴾ يحتمل أن الضمير عائد إلى نوح، لأنه أقرب مذكور، ولأن الله ذكر مع مَنْ ذكر لوطاً، وهو من ذرية نوح، لا من ذرية إبراهيم لأنه ابن أخيه.

ويحتمل أن الضمير يعود إلى إبراهيم، لأن السياق في مدحه والثناء عليه، ولوط وإن لم يكن من ذريته - فإنه ممن آمن على يده، فكان منقبة الخليل وفضيلته بذلك، أبلغ من كونه مجرد ابن له.

﴿داود وسليمان﴾ بن داود و﴿أيوب ويوسف﴾ بن يعقوب. و﴿موسى وهارون﴾ ابني عمران، وكذلك كما أصلحنا ذرية إبراهيم الخليل، لأنه أحسن في عبادة ربه، وأحسن في نفع الخلق كذلك نجزي المحسنين بأن نجعل لهم من الثناء الصدق، والذرية الصالحة بحسب إحسانهم.

﴿وزكريا ويحيى﴾ ابنه و﴿عيسى﴾ ابن مريم. و﴿إلياس كل﴾ من هؤلاء الصالحين فني أخلاقهم وأعمالهم وعلومهم، بل هم سادة الصالحين وقادتهم وأئمتهم.

﴿واسماعيل﴾ بن إبراهيم أبو الشعب الذي هو أفضل الشعوب، وهو الشعب العربي، ووالد نبي ولد آدم محمد ﷺ و﴿يونس﴾ بن متى و﴿لوطاً﴾ بن هاران، أخي إبراهيم. و﴿كل﴾ من هؤلاء الأنبياء والمرسلين فضلنا على العالمين لأن درجات الفضائل أربع - وهي التي ذكرها الله بقوله: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾ فهو هؤلاء من الدرجة العليا، بل هم أفضل الرسل على الإطلاق، فالرسل الذين قصهم الله

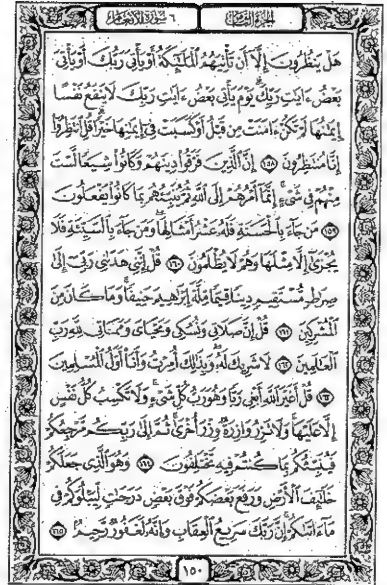
العالم العامل المعلم، فإنه يجعله الله إماماً للناس بحسب حاله، ترمق أفعاله، وتقتفى آثاره، ويستضاء بنوره، ويمشي بعلمه في ظلمة ديجوره.

قال تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾. إن ربك حكيم عليم فلا يضع العلم والحكمة، إلا في المحل اللائق بها، وهو أعلم بذلك المحل وبما ينبغي له.

﴿٨٤ - ٩٠﴾ ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك

نجزي المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين * وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين * ومن آياهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبتناهم وهديتناهم إلى صراط مستقيم * ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عبادة ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون * أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين * أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين * لما ذكر الله تعالى عبده وخليته إبراهيم عليه السلام، وذكر ما من الله عليه به من العلم والدعوة والصبر، ذكر ما أكرمه الله به من الذرية الصالحة، والنسل الطيب. وأن الله جعل صفوة الخلق من نسله، وأعظم بهذه المنقبة والكرامة الجسيمة، التي لا يدرك لها نظير فقال: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب﴾ ابنه، الذي هو إسرائيل، أبو الشعب الذي فضله الله على العالمين.

﴿كل﴾ منهما هدينا. الصراط المستقيم في علمه وعمله. ﴿ونوحاً هدينا﴾ من قبل



تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً أي: إلا بمجرد اتباع الهوى. ﴿فأي: الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون﴾.

قال الله تعالى فاصلاً بين الفريقين الذين آمنوا ولم يلبسوا أي: لم يخلطوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون. الأمن من المخاوف والعذاب والشقاء، والهداية إلى الصراط المستقيم، فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقاً، لا بشرك ولا بمعاصي، حصل لهم الأمن التام والهداية التامة. وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده ولكنهم يعملون السيئات، حصل لهم أصل الهداية وأصل الأمن، وإن لم يحصل لهم كمالها. ومفهوم الآية الكريمة، أن الذين لم يحصل لهم الأمن، لم يحصل لهم هداية ولا أمن، بل حظهم الضلال والشقاء.

ولما حكم لإبراهيم عليه السلام، بما بين به من البراهين القاطعة قال: ﴿وتلك حجتنا آتيناهم إبراهيم على قومه﴾ أي: علا بها عليهم، وفلجهم بها.

﴿ترفع درجات مَنْ نشاء﴾ كما رفعنا درجات إبراهيم عليه السلام في الدنيا والآخرة، فإن العلم يرفع الله به صاحبه فوق العباد درجات، خصوصاً

فِي كِتَابِهِ، أَفْضَلُ مَنْ لَمْ يَقْصُ عَلَيْنَا
نَبَاهِمُ بِلَا شَكٍّ.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِمْ﴾ أي: آباء هؤلاء المذكورين ﴿وَزَيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانَهُمْ﴾ أي: وهدينا من آباء هؤلاء وزرياتهم وإخوانهم. ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ أي: اخترناهم ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

﴿ذلِكَ﴾ الهدى المذكور
﴿هدى الله﴾ الذي لا هدى إلا هداة .
﴿يهدى به مَنْ يشاء من عباده﴾ فاطلبوا
منه الهدى فإنه إن لم يهدكم فلا هادي
لكم غيره ، ومن شاء هدايته هؤلاء
المذكورون . ﴿ولو أشركوا﴾ على
القرض والتقدير ﴿لحبط عنهم﴾ ما كانوا
يعملون ﴿فإن الشرك محبط للعمل﴾ ،
موجب للخلود في النار . فإذا كان
هؤلاء الصفوة الأخيار ، لو أشركوا -
وحاشاهم - لحبط أعمالهم ، فغيرهم
أولى .

﴿أولئك﴾ المذكورون ﴿الذين﴾ هدى الله فبهذا هم اقتده ﴿أي﴾ امش - أيها الرسول الكريم - خلف هؤلاء الأنبياء الأخيار، واتبع ملتهم. وقد امتثل ﷺ، فاهتدى بهدي الرسل قبله، وجمع كل كمال فيهم. فاجتمعت لديه فضائل وخصائص فاق بها جميع العالمين، وكان سيد المرسلين وإمام المتقين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، وبهذا الملحظ استدل بهذه من استدلل من الصحابة، أن رسول الله ﷺ أفضل الرسل كلهم.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ أَعْرَضُوا عَنْ
دَعْوَتِكَ: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا
أَيُّ: لَا أَطْلُبُ مِنْكُمْ مَغْرَمًا وَمَا لَ أَجْرًا
عَنْ إِبْلَاجِي إِيَّاكُمْ، وَدَعْوَتِي لَكُمْ فَيَكُونُ
مِنْ أَسْبَابِ امْتِنَاعِكُمْ، إِنْ أَجْرِي إِلَّا
عَلَى اللَّهِ.﴾
﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرِي لِلْعَالَمِينَ﴾

يتذكرون به ما ينفعهم في فعلونه، وما يضرهم في ذروونه ويتذكرون به معرفة ربهم بأسمائه وأوصافه. ويتذكرون به الأخلاق الحميدة، والطرق الموصلة

إليها، والأخلاق الرذيلة، والطرق
المفضية إليها، فإذا كان ذكرى للعائين،
كان أعظم نعمة أنعم الله بها عليهم،
ففعليهم قبولها والشكر عليها.

﴿٩١﴾ ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدي للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتحفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا أبائكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ هذا تشنيع على مَنْ نفي الرسالة، [من اليهود والمشركون] ^(١) وزعم أن الله ما أنزل على بشر من شيء، فمن قال هذا، فيما قدر الله حق قدره، ولا عظمه حق عظمته، إذ هذا قذح في حكيمته، وزعم أنه يترك عباده هملا، لا يأمرهم ولا ينهاهم، ونفي لأعظم منه امتن الله بها على عباده، وبهي الرسالة التي لا طريق للعباد إلى نيل السعادة، والكرامة، والفلاح، إلا بها، فأني قدح في الله أعظم من هذا؟!!

﴿قُلْ﴾ لهم - ملزماً بفساد قولهم وقرهم، بما به يقرون :- «مَنْ أُنْزِلَ الكتاب الذي جاء به موسى ﴿وهو التوراة العظيمة﴾ «نوراً» في ظلمات الجهل ﴿وهدى﴾ من الضلالة، وهادياً إلى الصراط المستقيم علماً وعملاً، وهو الكتاب الذي شاع وذاع، وملأ ذكره القلوب والأسماع. حتى إنهم جعلوا يتناسخونه في القراطيس، ويتصرفون فيه بما شاؤوا، فما وافق أهواءهم منه أبدوه وأظنهروه، وما خالف ذلك أخفوه وكتموه، وذلك كثير.

﴿وعلمتم﴾ من العلوم التي بسبب ذلك الكتاب الجليل ﴿ما لم تعلموا أنتم ولا آبائكم﴾ فإذا سألهم عن مَنْ أنزل هذا الكتاب الموصوف بتلك الصفات، فأجب عن هذا السؤال .. ﴿قل الله الذي أنزله، فحينئذ يتضح الحق وينجلي مثل الشمس، وتقوم عليهم الحجة، ثم إذا ألزمتهم بهذا الإلزام فذرهم في خوضهم يلعبون﴾ أي:

[illegible]

اتركهم يخوضوا في الباطل، ويلعبوا
بما لا فائدة فيه، حتى يلاقوا يومهم
الذي يوعدون.

﴿٩٢﴾ ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولننزلن أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون﴾
 أي: ﴿وهذا﴾ القرآن الذي ﴿أنزلناه﴾ إليك ﴿مبارك﴾ أي: وصفه البركة، وذلك لكثرة خيراته وسعة مبراته.
 ﴿مصدق الذي بين يديه﴾ أي: موافق للكتب السابقة، وشاهد لها بالصدق.
 ﴿ولننزلن أم القرى ومن حولها﴾ أي: وأنزلناه أيضاً لتنزل أم القرى، وهي: مكة المكرمة، بل ومن سائر البلدان. فتحذر الناس عقوبة الله، وأخذة الأمم، وتحذره مما يوجب ذلك.
 ﴿والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به﴾ لأن الخوف إذا كان في القلب عمريت أركانه، وانقاد لمراضى الله.

﴿وهم على صلاتهم يحافظون﴾ أي :
يبدؤمون عليها، ويحفظون أركانها
وحدودها وشروطها وآدابها،
ومكملاتها. جعلنا الله منهم -

﴿٩٣ - ٩٤﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ

وفي ذلك اليوم تنقطع جميع الأمور التي كانت مع العبد في الدنيا، سوى العمل الصالح والعمل السيئ، الذي هو مادة الدار الآخرة، الذي تنشأ عنه، ويكون حسننها وقبحها، وسرورها وغمومها، وعذابها ونعيمها، بحسب الأعمال. فهي التي تنفع أو تضر، وتسوء أو تسر، وما سواها من الأهل والولد، والمال والأنصار، فعواري خارجية، وأوصاف زائلة، وأحوال حائلة، ولهذا قال تعالى:

﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم﴾ أي: أعطيناكم وأنعمننا به عليكم ﴿وراء ظهوركم﴾ لا يغنون عنكم شيئاً ﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء﴾

فإن المشركين يشركون بالله، ويعبدون معه الملائكة والأنبياء والصالحين، وغيرهم، وهم كلهم لله، ولكنهم يجعلون لهذه المخلوقات نصيباً من أنفسهم، وشركة في عبادتهم، وهذا زعم منهم وظلم، فإن الجميع عبيد لله، والله مالكهم، والمستحق لعبادتهم. فشركهم في العبادة، وصرفها لبعض العبيد، تنزيل لهم منزلة الخالق المالك، فيؤخرون يوم القيامة ويقال لهم هذه المقالة.

﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء﴾ لقد تنقطع بينكم أي: تقطعت الروصل والاسباب بينكم وبين شركائكم، من الشفاعة وغيرها، فلم تنفع ولم تجد شيئاً. ﴿وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾ من الريخ والأمن، والسعادة والنجاة، التي زينها لكم الشيطان وحسنها في قلوبكم، فنقطت بها ألسنتكم. واغتررت بهذا الزعم الباطل الذي لا حقيقة له، حين تبين لكم نقيض ما كنتم تزعمون، وظهر أنكم الخاسرون لأنفسكم وأهلكم وأموالكم.

﴿٩٥-٩٨﴾ إن الله فائق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنسى

أنه يقدر على ما يقدر الله عليه، ويحاري الله في أحكامه، ويشرع من الشرائع كما شرعه الله، ويدخل في هذا كل من يزعم أنه يقدر على معارضة القرآن، وأنه في إمكانه أن يأتي بمثله.

وأي: ظلم أعظم من دعوى الفقير العاجز بالذات، الناقص من كل وجه، مشاركة القوي الغني الذي له الكمال المطلق، من جميع الوجوه، في ذاته وأسمائه وصفاته ١١٩

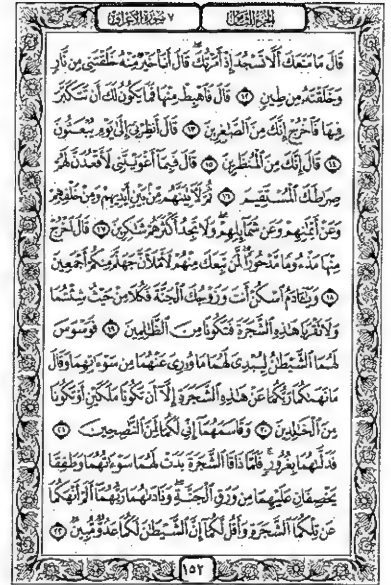
ولما ذم الظالمين ذكر ما أعد لهم من العقوبة في حال الاحتضار، ويوم القيامة، فقال: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت﴾ أي: شدائده وأهواله الفظيعة، وكرهه الشنيعة - لرأيت أمراً هائلاً، وحالة لا يقدر الواصف أن يصفها.

﴿والملائكة باسطو أيديهم﴾ إلى أولئك الظالمين المحتضرين بالضرب والعذاب، يقولون لهم عند منازعة أرواحهم وقلوبها، وتعصيتها للخروج من الأبدان: ﴿أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون﴾ أي: العذاب الشديد الذي يهينكم وبذلكم، والجزاء من جنس العمل، فإن هذا العذاب ﴿بما كنتم تقولون على الله غير الحق﴾ من كذبكم عليه، وردكم للحق، الذي جاءت به الرسل. ﴿وكنتم عن آياته تستكبرون﴾ أي: ترففون عن الانقياد لها، والاستسلام لأحكامها. وفي هذا دليل على عذاب البرزخ ونعيمه، فإن هذا الخطاب والعذاب الموجه إليهم، إنما هو عند الاحتضار وقبيل الموت وبعده.

وفيه دليل على أن الروح جسم يدخل ويخرج، ويخاطب، ويساكن الجسد ويفارقه، فهذه حالهم في البرزخ.

وأما يوم القيامة فإنهم إذا وردوها وردوها مفلسين فرادى بلا أهل ولا مال ولا أولاد ولا جنود ولا أنصار، كما خلقهم الله أول مرة، عازين من كل شيء.

فإن الأشياء، إنما تتمول وتحصل بعد ذلك بأسبابها التي هي أسبابها،



ما أنزل الله ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون * ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون يقول تعالى: لا أحد أعظم ظلماً ولا أكبر جرماً من كذب [على] الله، بأن نسب إلى الله قولاً أو حكماً وهو تعالى بريء منه، وإنما كان هذا أظلم الخلق، لأن فيه من الكذب وتغيير الأديان أصولها وفروعها، ونسبة ذلك إلى الله - ما هو من أكبر المفساد.

ويدخل في ذلك ادعاء النبوة، وإن الله يوحى إليه وهو كاذب في ذلك، فإنه - مع كذبه على الله، وجراته على عظمته وسلطانه - يوجب على الخلق أن يتبعوه، ويجاهدوهم على ذلك، ويستحل دماء من خالفه وأموالهم.

ويدخل في هذه الآية كل من ادعى النبوة، كمسيح الكذاب والأسود الغنسي والمختار، وغيرهم ممن اتصف بهذا الوصف.

﴿ومن قال سائزل مثل ما أنزل الله﴾ أي: ومن أظلم ممن زعم،

تؤفكون * فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسيباناً ذلك تقدير العزيز العليم * وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون * وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون * يخبر تعالى عن كماله، وعظيمة سلطانه، وقوة اقتداره، وسعة رحمته، وعموم كرمه، وشدة عنايته بنخلقه، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ﴾ شامل لسائر الحبوب التي يباشر الناس زرعها، والتي لا يباشرونها، كالحبوب التي يثبها الله في البراري والقفار، فيفلق الحبوب عن الزروع والنوابت، على اختلاف أنواعها وأشكالها ومنافعها، ويفلق النبوى عن الأشجار من النخيل والفواكه، وغير ذلك. فيتفع الخلق من الأدميين والأنعام والدواب. ويرتعون فيما فلق الله من الحب والنوى، ويقتاتون وينتفعون بجميع أنواع المنافع التي جعلها الله في ذلك. ويريم الله من بره وإحسانه ما يبهر العقول، ويذهل الفحول، ويريم من بدائع صنعته وكمال حكمته، ما به يعرفونه ويوحّدونه، ويعلمون أنه هو الحق، وأن عبادة ما سواه باطلة.

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كما يخرج من المني حيواناً، ومن البياضة فرخاً، ومن الحب والنوى زرعاً وشجراً.

﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ﴾ وهو الذي لا نمو فيه، أو لا روح ﴿مِنَ الْحَيِّ﴾ كما يخرج من الأشجار والزروع، النوى والحب، ويخرج من الطائر بيضاً، ونحو ذلك.

﴿ذَلِكُمْ﴾ الذي فعل ما فعل، وانفرد بخلق هذه الأشياء وتدبيرها ﴿اللَّهُ﴾ ربكم أي: الذي له الألوهية والعبادة على خلقه أجمعين، وهو الذي ربي جميع العالمين بنعمه، وغذاهم بكرمه. ﴿فَأَنى تَوْفُكُونَ﴾ أي: فأنى تصرفون، وتصدون عن عبادة من هذا شأنه، إلى عبادة من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً!!

ولما ذكر تعالى، مادة خلق الأقوات، ذكر منته بتهيئة المساكن، وخلق كل ما يحتاج إليه العباد، من الضياء والظلمة، وما يترتب على ذلك من أنواع المنافع والمصالح فقال: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ أي: كما أنه فالق الحب والنوى، كذلك هو فالق ظلمة الليل الداجي، الشامل لما على وجه الأرض، بضياء الصبح الذي يفلقه شيئاً فشيئاً، حتى تذهب ظلمة الليل كلها، ويخلفها الضياء والنور العام، الذي يتصرف به الخلق في مصالحهم ومعاشهم، ومنافع دينهم ودنياهم.

ولما كان الخلق محتاجين إلى السكون والاستقرار والراحة، التي لا تتم بوجود النهار والنور ﴿جَعَلَ اللَّهُ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ يسكن فيه الأدميون إلى دورهم ومتامهم، والأنعام إلى مأواها، والطيور إلى أوكارها، فتأخذ نصيبها من الراحة، ثم يزيل الله ذلك، بالضياء، وهكذا أبداً إلى يوم القيامة ﴿وَجَعَلَ تَعَالَى الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ حَسْبَانًا﴾ بهما تعرف الأزمنة والأوقات، فتتضبط بذلك أوقات العبادات، وأجال المعاملات، ويعرف بها مدة ما مضى من الأوقات التي لولا وجود الشمس والقمر وتناوبهما واختلافهما لما عرف ذلك عامة الناس، واشتركوا في علمه، بل كان لا يعرفه إلا أفراد من الناس بعد الاجتهاد، وبذلك يفوت من المصالح الضرورية ما يفوت.

﴿ذَلِكَ﴾ التقدير المذكور ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ الذي من عزته انقادت له هذه المخلوقات العظيمة، فجرت مثقلة مسخرة بأمره، بحيث لا تتعدى ما حده الله لها، ولا تتقدم عنه ولا تتأخر ﴿الْعَلِيمِ﴾ الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والأوائل والأواخر. ومن الأدلة العقلية على إحاطة علمه، تسخير هذه المخلوقات العظيمة، على تقدير ونظام يدبغ، تخير العقول في حسنه وكمالها وموافقتها للمصالح والحكم.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لَتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ حين تشبه عليكم المسالك، ويخبر في سيره السالك، فجعل الله النجوم هداية للخلق إلى السبل، التي يحتاجون إلى سلوكها لمصالحهم وتحاراتهم وأسفارهم.

منها: نجوم لا تزال ترى، ولا تسير عن محلها، ومنها ما هو مستمر السير، يعرف سيره أهل المعرفة بذلك، ويعرفون به الجهات والأوقات.

ودلت هذه الآية ونحوها على مشروعية تعلم سير الكواكب ومحالها الذي يسمى علم التسيير، فإنه لا تتم الهداية ولا تمكن إلا بذلك.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ أي: بينها، ووضحناها، وميزنا كل جنس ونوع منها عن الآخر، بحيث صارت آيات الله بادية ظاهرة. ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لأهل العلم والمعرفة، فإنهم الذين يوجه إليهم الخطاب، ويطلب منهم الجواب، بخلاف أهل الجهل والجفاء، المعرضين عن آيات الله وعن العلم الذي جاءت به الرسل، فإن البيان لا يفيدهم شيئاً، والتفصيل لا يزيل عنهم ملتبساً، والإيضاح لا يكشف لهم مشكلاً.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهو آدم عليه السلام. أنشأ الله منه هذا العنصر الآدمي؛ الذي قد ملأ الأرض. ولم يزل في زيادة ونمو، الذي قد تفاوتت في أخلاقه وخلقته وأوصافه تفاوتاً لا يمكن ضبطه، ولا يدرك وصفه، وجعل الله لهم مستقراً، أي: منتهى يتجهون إليه، وغاية يساقون إليها، وهي دار القرار التي لا مستقر وراءها، ولا نهاية فوقها، فهذه الدار هي التي خلق الخلق لسكنائها، وأوجدوا في الدنيا ليسعوا في أسبابها، التي تنشأ عليها وتعمر بها، وأودعهم الله في أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم، ثم في دار الدنيا، ثم في البرزخ، كل ذلك على وجه الوديدة، التي لا تستقر

ولا تثبت، بل ينتقل منها حتى يوصل إلى الدار، التي هي المستقر، وأما هذه الدار فإنها مستودع وعمر ﴿قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾ عن الله آياته، ويفهمون عنه حججه وبياناته.

﴿٩٩﴾ ﴿وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حياً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دائية وجنات من أعتاب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير مشتباه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾ وهذا من أعظم منه العظيمة، التي يضطر إليها الخلق من آدميين وغيرهم، وهو أنه أنزل من السماء ماء متتابعاً وقت حاجة الناس إليه، فأثبت الله به كل شيء مما يأكل الناس والأنعام، فرتع الخلق بفضل الله، وانسطوا برزقه، وفرحوا بإحسانه، وزال عنهم الجذب واليأس والقحط، وفرحت القلوب، وأسفرت الوجوه، وحصل للعباد من رحمة الرحمن الرحيم، ما به يتمتعون وبه يرتعون، ما يوجب لهم أن يبدلوا جهدهم في شكر من أسدى النعم، وعبادته والإجابة إليه، والمحبة له.

ولما ذكر عموم ما ينبت بالماء، من أنواع الأشجار والنبات، ذكر الزرع والنخل، لكثرة نفعهما وكونهما قوتا لأكثر الناس فقال: ﴿فأخرجنا منه خضراً نخرج منه﴾ أي: من ذلك النبات الأخضر، ﴿حياً متراكباً﴾ بعضه فوق بعض، من بر وشعير، وذرة، وأرز، وغير ذلك من أصناف الزروع، وفي وصفه بأنه متراكب، إشارة إلى أن حيوه متعددة، وجميعها تستمد من مادة واحدة، وهي لا تختلط، بل هي متفرقة الخيوط، مجتمعة الأصول، وإشارة أيضاً إلى كثرتها، وشمول ريعها وغلتها، ليبقى أصل البذر، ويبقى بقية كثيرة للأكل والادخار.

﴿ومن النخل﴾ أخرج الله ﴿من﴾ طلعها، وهو الكفري، والوعاء قبل ظهور القنو منه، فيخرج من ذلك الوعاء قنوان دائية﴾ أي: قريبة سهلة

التناول، متدلية على من أرادها، بحيث لا يعسر تناول من النخل وإن طالت، فإنه يوجد فيها كرت ومراقي يسهل صعودها.

﴿و﴾ أخرج تعالى بالماء ﴿جنات من أعتاب والزيتون والرمان﴾ فهذه من الأشجار الكثيرة النفع، العظيمة الوقع، فلذلك خصصها الله بالذكر بعد أن عم جميع الأشجار والنبات.

وقوله: ﴿مشتبهاً وغير مشتباه﴾ يحتمل أن يرجع إلى الرمان والزيتون، أي: مشتبهاً في شجره وورقه، غير متشابه في ثمره.

ويحتمل أن يرجع ذلك إلى سائر الأشجار والقواكه، وأن بعضها مشتبهاً، يشبه بعضه بعضاً، ويتقارب في بعض أوصافه، وبعضها لا مشابهاً بينه وبين غيره، والكل ينتفع به العباد، ويفقهون، ويقفون، ويعتبرون، ولهذا أمر تعالى بالاعتبار به، فقال: ﴿انظروا﴾ نظر فكر واعتبار ﴿إلى ثمره﴾ أي: الأشجار كلها، خصوصاً النخل إذا أثمر.

﴿وينعه﴾ أي: انظروا إليه وقت إطلاعه، ووقت نضجه وإيناعه، فإن في ذلك عبراً وآيات يستدل بها على رحمة الله، وسعة إحسانه وجوده وكمال اقتداره وعنايته بعباده.

ولكن ليس كل أحد يعتبر ويفكر، وليس كل من تفكر أدرك المعنى المقصود، ولهذا قيد تعالى الانتفاع بالآيات بالمؤمنين، فقال: ﴿إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾ فإن المؤمنين يحملهم ما معهم من الإيمان، على العمل بمقتضياته ولو أزمه، التي منها التفكير في آيات الله، والاستنتاج منها ما يراد منها، وما تدل عليه عقلاً وفطرة وشرعاً.

﴿١٠٠ - ١٠٤﴾ ﴿وجعلوا الله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون﴾

بديع السماوات والأرض أتى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ﴿ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو

خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾ قد جاءكم بآيات من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ﴾ يخبر تعالى أنه مع إحسانه لعباده وتعرفه إليهم بآياته البينات، وحججه الواضحات - أن المشركين به من قریش وغيرهم، جعلوا له شركاء يدعونهم ويعبدونهم من الجن والملائكة، الذين هم خلق من خلق الله، ليس فيهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء، ففعلوها شركاء لمن له الخلق والأمر، وهو المنعم بسائر أصناف النعم، الدافع لجميع النقم، وكذلك «خرق المشركون» أي: اتفكروا وافترؤا من تلقاء أنفسهم لله، بنين وبنات بغير علم منهم، ومن أظلم ممن قال على الله بلا علم، وافترى عليه أشنع النقص، الذي يجب تنزيه الله عنه!!!

ولهذا نزه نفسه عما افترأه عليه المشركون، فقال: ﴿سبحانه وتعالى عما يصفون﴾ فإنه تعالى الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل نقص وآفة وعيب.

﴿بديع السماوات والأرض﴾ أي: خالقهما، ومقتنضتهما، على غير مثال سبق، بأحسن خلق ونظام وبهاء، لا تقترح عقول أولي الألباب مثله، وليس له في خلقهما شريك.

﴿أنتى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة﴾ أي: كيف يكون لله الولد، وهو الإله السيد الصمد، الذي لا صاحبة له، أي: لا زوجة، وهو الغني عن مخلوقاته، وكلها فقيرة إليه، مضطرة في جميع أحوالها إليه، والولد لا بد أن يكون من جنس والده، والله خالق كل شيء وليس شيء من المخلوقات مشابهاً لله بنوجه من الوجوه.

ولما ذكر عموم خلقه للأشياء، ذكر إحاطة علمه بها، فقال: ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ وفي ذكر العلم بعد الخلق، إشارة إلى الدليل العقلي إلى

ثبوت علمه، وهو هذه المخلوقات، وما اشتملت عليه من النظام التام، والخلق الباهر فإن في ذلك دلالة على سعة علم الخالق، وكمال حكمته، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف الخبير﴾ وكما قال تعالى: ﴿وهو الخلاق العليم﴾ ذلكم الذي خلق ما خلق، وقدر ما قدر.

﴿الله وبكم﴾ أي: المألوه المعبود، الذي يستحق نهاية الذل، ونهاية الحب، الرب الذي ربي جميع الخلق بالتعظيم، وصرف عنهم صنوف النقم. ﴿لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه﴾ أي: إذا استقر وثبت أنه الله الذي لا إله إلا هو، فاصرفوا له جميع أنواع العبادة، وأخلصوها لله، واقصدوا بها وجهه. فإن هذا هو المقصود من الخلق الذي خلقوا لأجله ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾.

﴿وهو على كل شيء وكيل﴾ أي: جميع الأشياء تحت وكالة الله وتدبيره، خلقاً وتديراً وتصريفاً. ومن المعلوم أن الأمر المتصرف فيه يكون استقامته وتعامه وكمال انتظامه، بحسب حال الوكيل عليه. ووكانته تعالى على الأشياء ليست من جنس وكالة الخلق، فإن وكالة نياية، والوكيل فيها، تابع لموكله. وأما الباري تبارك وتعالى، فوكانته من نفسه لنفسه، متضمنة لكمال العلم، وحسن التدبير والإحسان فيه والعدل، فلا يمكن لأحد، أن يستدرك على الله، ولا يرى في خلقه خللاً ولا فطوراً، ولا في تدبيره نقصاً وعباً.

ومن وكرالته أنه تعالى، توكل ببيان دينه، وحفظه عن المزيلات والمغريات، وأنه تولى حفظ المؤمنين وعصمتهم عما يزيل إيمانهم ودينهم. ﴿لا تدركه الأبصار﴾ لعظمته

وجلاله وكماله، أي: لا تحيط به الأبصار، وإن كانت تراه وتفرح بالنظر إلى وجهه الكريم، فنفي الإدراك لا ينفي الرؤية، بل يشبهها بالمفهوم. فإنه إذا نفى الإدراك الذي هو أخص أوصاف الرؤية، دل على أن الرؤية ثابتة.

فإنه لو أراد نفى الرؤية، لقال: ﴿لا تراه الأبصار﴾ ونحو ذلك، فعلم أنه ليس في الآية حجة لمذهب المعطلة، الذين ينفون رؤية ربهم في الآخرة، بل فيها ما يدل على تقيض قولهم.

﴿وهو يدرك الأبصار﴾ أي: هو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، وسمعه، بجميع الأصوات الظاهرة والخفية، وبصره، بجميع المبصرات، صغارها وكبارها، ولهذا قال: ﴿وهو اللطيف الخبير﴾ الذي لطف علمه وخبرته، ودق حتى أدرك السرائر والنفائس، والخبائيا والبواطن.

ومن لطفه أنه يسوق عبده إلى مصالح دينه، ويوصلها إليه بالطرق التي لا يشعر بها العبد، ولا يسعى فيها، ويوصله إلى السعادة الأبدية، والفلاح السرمدي، من حيث لا يحتسب، حتى إنه يقدر عليه الأمور التي يكرهها العبد ويتألم منها، ويدعو الله أن يزيلها، لعلمه أن دينه أصلح، وأن كماله متوقف عليها، فسبحان اللطيف لما يشاء، الرحيم بالمؤمنين.

﴿قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ﴾ لما بين تعالى من الآيات البينات، والأدلة الواضحات، الدالة على الحق في جميع المطالب والمقاصد، نه العباد عليها، وأخبر أن هدايتهم وضدها لأنفسهم، فقال: ﴿قد جاءكم بصائر من ربكم﴾ أي: آيات تبين الحق، وتجعله للقلب بمنزلة الشمس للأبصار، لما اشتملت عليه من

فَصَاحَةُ اللَّفْظِ، وَبَيَانُهُ، وَوُضُوحُهُ، وَمُطَابَقَتُهُ لِلْمَعْنَى الْجَلِيلَةِ، وَالْحَقَائِقِ الْجَمِيلَةِ، لِأَنَّهَا صَادِرَةٌ مِنَ الرَّبِّ الَّذِي رَبَّى خَلْقَهُ بِصَنُوفِ نِعَمِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، الَّتِي مِنْ أَفْضَلِهَا وَأَجْلَاهَا تَبَيَّنَ الْآيَاتُ، وَتَوْضِيحُ الْمَشْكَلَاتِ. ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ بِتِلْكَ الْآيَاتِ مَوَاقِعَ الْعِبَرَةِ، وَعَمِلَ بِمَقْتَضَاهَا ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْخَمِيدُ. ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ بِأَنْ يَبْصُرَ، فَلَمْ يَتَبَصَّرْ، وَزَجَرَ، فَلَمْ يَتَزَجَرَ، وَبَيَّنَ لَهُ الْحَقَّ، فَمَا انْقَادَ لَهُ وَلَا تَوَاضَعَ، فَإِنَّمَا عَمَاهُ مَضَرَّتُهُ عَلَيْهِ. ﴿وَمَا أَنَا﴾ أَيُّهَا الرَّسُولُ ﴿عَلَيْكُمْ بِحَفِيزٍ﴾ أَحْفَظُ أَعْمَالَكُمْ وَأُرَاقِبُهَا عَلَى الدَّوَامِ، إِنَّمَا عَلِيَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ وَقَدْ أَدْبَتُهُ، وَبَلَّغْتُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيَّ، فَهَذِهِ وَظِيفَتِي، وَمَا عَدَا ذَلِكَ فَلَسْتُ مُوَظَّفًا فِيهِ.

فَصَاحَةُ اللَّفْظِ، وَبَيَانُهُ، وَوُضُوحُهُ، وَمُطَابَقَتُهُ لِلْمَعْنَى الْجَلِيلَةِ، وَالْحَقَائِقِ الْجَمِيلَةِ، لِأَنَّهَا صَادِرَةٌ مِنَ الرَّبِّ الَّذِي رَبَّى خَلْقَهُ بِصَنُوفِ نِعَمِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، الَّتِي مِنْ أَفْضَلِهَا وَأَجْلَاهَا تَبَيَّنَ الْآيَاتُ، وَتَوْضِيحُ الْمَشْكَلَاتِ.

﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ بِتِلْكَ الْآيَاتِ مَوَاقِعَ الْعِبَرَةِ، وَعَمِلَ بِمَقْتَضَاهَا ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْخَمِيدُ.

﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ بِأَنْ يَبْصُرَ، فَلَمْ يَتَبَصَّرْ، وَزَجَرَ، فَلَمْ يَتَزَجَرَ، وَبَيَّنَ لَهُ الْحَقَّ، فَمَا انْقَادَ لَهُ وَلَا تَوَاضَعَ، فَإِنَّمَا عَمَاهُ مَضَرَّتُهُ عَلَيْهِ.

﴿وَمَا أَنَا﴾ أَيُّهَا الرَّسُولُ ﴿عَلَيْكُمْ بِحَفِيزٍ﴾ أَحْفَظُ أَعْمَالَكُمْ وَأُرَاقِبُهَا عَلَى الدَّوَامِ، إِنَّمَا عَلِيَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ وَقَدْ أَدْبَتُهُ، وَبَلَّغْتُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيَّ، فَهَذِهِ وَظِيفَتِي، وَمَا عَدَا ذَلِكَ فَلَسْتُ مُوَظَّفًا فِيهِ.

﴿١٠٨﴾ ﴿وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يَنْبِئُهُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ أَمْرِ كَانَ جَانِزًا، بَلْ مَشْرُوعًا فِي الْأَصْلِ، وَهُوَ سَبُّ آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ، الَّتِي اتَّخَذَتْ أَوْثَانًا وَآلِهَةً

(١) انتقل الشيخ - رحمه الله - بعد تفسير هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْبُوا...﴾ فلم يفسر الآيات من قوله تعالى: (وكذلك

نصريف الآيات) إلى قوله: (وما أنت عليهم بوكيل) ذات الأرقام (١٠٥ - ١٠٧) فقام التجار بتفسيرها دون الإشارة إلى أنها ليست من

كلام الشيخ - رحمه الله - انظر طبعة التجار (٢/ ٤٥٠ - ٤٥٢).

عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴿يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ﴾ محذراً عن طاعة أكثر الناس: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾. فإن أكثرهم قد انحرفوا في أديانهم وأعمالهم وعلومهم - فآديانهم فاسدة، وأعمالهم تبع لأهوائهم، وعلومهم ليس فيها تحقيق، ولا إيصال لسواء الطريق.

بل غايتهم أنهم يتبعون الظن الذي لا يغني عن الحق شيئاً، ويخربون في القول على الله ما لا يعلمون، ومن كان بهذه المثابة، فحري أن يحذر الله منه عباده، ويصف لهم أحوالهم؛ لأن هذا - وإن كان خطاباً للنبي ﷺ - فإن أمته أسوة له في سائر الأحكام التي ليست من خصائصه.

والله تعالى أصدق قتيلاً، وأصدق حديثاً، و﴿هو أعلم من يضل عن سبيله﴾ وأعلم بمن يهتدي ويهدي. فيجب عليكم - أيها المؤمنون - أن تتبعوا نصائحه وأوامره ونواهيه لأنه أعلم بمصالحكم، وأرجم بكم من أنفسكم.

ودلت هذه الآية على أنه لا يستدل على الحق بكثرة أهله، ولا يدل قلة السالكين لأمر من الأمور أن يكون غير حق، بل الواقع بخلاف ذلك، فإن أهل الحق هم الأقلون عدداً، الأعظمون - عند الله - قدراً وأجرأ، بل الواجب أن يستدل على الحق والباطل، بالطرق الموصلة إليه.

﴿١١٨ - ١١٩﴾ ﴿فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين﴾ وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فضل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين ﴿يأمر تعالى عباده المؤمنين بمقتضى الإيمان، وأنهم، إن كانوا مؤمنين، فليأكلوا مما ذكر اسم الله عليه من بهيمة الأنعام، وغيرها من الحيوانات المحللة، ويعتقدوا حلها،

حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممتريين ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم﴾ أي: قل يا أيها الرسول ﴿أفغير الله أبغي حكماً﴾ أحاكم إليه، وأتقيد بأوامره ونواهيه. فإن غير الله محكوم عليه، لا حاكم، وكل تدبير وخبر للمخلوق فإنه مشتمل على النقص والعيب والجور، وإنما الذي يجب أن يتخذ حاكماً، فهو الله وحده لا شريك له، الذي له الخلق والأمر.

﴿الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً﴾ أي: موضحاً فيه الحلال والحرام، والأحكام الشرعية، وأصول الدين وفروعه، الذي لا بيان فوق بيانه، ولا برهان أجلى من برهانه، ولا أحسن منه حكماً، ولا أقوم قتيلاً، لأن أحكامه مشتملة على الحكمة والرحمة.

وأهل الكتب السابقة من اليهود والنصارى، يعترفون بذلك ﴿ويعلمون أنه منزل من ربك بالحق﴾ ولهذا تواطأت الأخبار ﴿فلا﴾ تشكك في ذلك ولا ﴿تكونن من الممتريين﴾.

ثم وصف تفصيلها فقال: ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾ أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأمر والنهي. فلا أصدق من أخبار الله التي أودعها هذا الكتاب العزيز، ولا أعدل من أوامره ونواهيه ﴿لا مبدل لكلماته﴾ حيث حفظها وأحكمها بأعلى أنواع الصدق وبغاية الحق، فلا يمكن تغييرها ولا اقتراح أحسن منها^(١).

﴿وهو السميع﴾ لسان الأصوات، باختلاف اللغات على تفنن الحاجات. ﴿العليم﴾ الذي أحاط علمه بالظواهر والباطن، والماضي والمستقبل.

﴿١١٦ - ١١٧﴾ ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾ إن ربك هو أعلم من يضل

باطلاً والباطل حقاً، ولهذا قال تعالى: ﴿ولتصغى إليه﴾ أي: ولتميل إلى ذلك الكلام المزخرف ﴿أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ لأن عدم إيمانهم باليوم الآخر وعدم عقولهم النافعة، يحملهم على ذلك، ﴿وليرضوه﴾ بعد أن يصغوا إليه فيصغون إليه أولاً، فإذا سألوا إليه ورأوا تلك العجائز المستحسنة رضوه، وزين في قلوبهم، وصار عقيدة راسخة، وصفة لازمة، ثم ينتج من ذلك، أن يقترفوا من الأعمال والأقوال ما هم مقترفون، أي: يأتون من الكذب بالقول والفعل، ما هو من لوازم تلك العقائد القبيحة، فهذه حال المغترين، بشياطين الإنس والجن، المستجيبين لدعوتهم، وأما أهل الإيمان بالآخرة، وأولو العقول الوافية والألباب الرزينة، فإنهم لا يغترون بتلك العجائز، ولا تحلبهم تلك التمثيلات، بل همتهم مصروفة إلى معرفة الحقائق، فينظرون إلى المعاني التي يدعو إليها الدعوة، فإن كانت حقاً قبلوها وانقادوا لها، ولو كسيت عبارات ردية، وألفاظاً غير وافية، وإن كانت باطلاً، ردوها على من قالها، كائنات من كان، ولو ألبست من العبارات المستحسنة، ما هو أرق من الحرير.

ومن حكمة الله تعالى في جعله للأنبياء أعداء، وللباطل أنصاراً قائمين بالدعوة إليه، أن يحصل لعباده الابتلاء والامتحان، لتمييز الصادق من الكاذب، والعاقل من الجاهل، والبصير من الأعمى.

ومن حكمته أن في ذلك بياناً للحق، وتوضيحاً له، فإن الحق يستير ويتضح إذا قام الباطل يصارعه ويقاومه فإنه - حيثئذ - يتبين من أدلة الحق، وشواهد الدالة على صدقه وحقيقته، ومن فساد الباطل وبطلانه، ما هو من أكبر المطالب التي يتنافس فيه المتنافسون.

﴿١١٤ - ١١٥﴾ ﴿أفغير الله أبغي

فإن المشركين - حين تستمعوا تحريم الله ورسوله الميتة، وتحليله للمذكاة، وكانوا يستحلون أكل الميتة - قالوا - معاندة لله ورسوله، ومجادلة بغير حجة وبرهان - أتأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله؟ يعنون بذلك: الميتة.

وهذا رأي: فاسد، لا يستند على حجة ولا دليل، بل يستند إلى آرائهم الفاسدة التي لو كان الحق تبعاً لها لفستت السماوات والأرض، ومن فيهن.

فتباً لمن قدم هذه العقول على شرع الله وأحكامه، الموافقة للمصالح العامة والمنافع الخاصة. ولا يستغرب هذا منهم، فإن هذه الآراء وأشباهاها صادرة عن وحي أوليائهم من الشياطين، الذين يريدون أن يضلوا الخلق عن دينهم، ويدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير.

﴿وإن أطمعتموه﴾ في شركهم وتحليلهم الحرام، وتحريمهم الحلال ﴿إنكم لمشركون﴾ لأنكم اتخذتموهم أولياء من دون الله، ووافقتهم على ما به فارقوا المسلمين، فلذلك كان طريقكم طريقهم.

ودلت هذه الآية الكريمة على أن ما يقع في القلوب من الإلهامات والكشوف، التي يكثر وقوعها عند الصوفية ونحوهم، لا تدل - بمجردها على أنها حق، ولا تصدق حتى تعرض على كتاب الله وسنة رسوله.

فإن شهدا لها بالقبول قبلت، وإن ناقضتهما ردت، وإن لم يعلم شيء من ذلك، توقف فيها ولم تصدق ولم تكذب، لأن الوحي والإلهام يكون من الرحمن، ويكون من الشيطان، فلا بد من التمييز بينهما والفرقان، ويعتمد التفريق بين الأمرين حصل من الغلط والضلال، ما لا يحصى إلا الله.

﴿١٢٢ - ١٢٤﴾ ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما

الأمور المتعلقة بحقوق الله وحقوق عباده. فنهى الله عباده عن اقتراح الإثم الظاهر والباطن، أي: السر والعلانية، المتعلقة بالبدن والجوارح، والمتعلقة بالقلب، ولا يتم للعبد ترك المعاصي الظاهرة والباطنة إلا بعد معرفتها والبحث عنها، فيكون البحث عنها، ومعرفة معاصي القلب والبدن، والعلم بذلك واجباً متعيناً على المكلف.

وكثير من الناس، تحفي عليه كثير من المعاصي، خصوصاً معاصي القلب، كالكبر والعجب والرياء، ونحو ذلك، حتى إنه يكون به كثير منها، وهو لا يحس به ولا يشعر، وهذا من الإعراض عن العلم وعدم البصيرة.

ثم أخبر تعالى أن الذين يكسبون الإثم الظاهر والباطن، سيجزون على حسب كسبهم، وعلى قدر ذنوبهم، قلت أو كثرت، وهذا الجزاء يكون في الآخرة، وقد يكون في الدنيا، يعاقب العبد، فيخفف عنه بذلك من سيئاته.

﴿١٢١﴾ ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطمعتموهم إنكم لمشركون﴾ ويدخل تحت هذا المنهي عنه ما ذكر عليه اسم غير الله، كالذي يذبح للأصنام وألتهم، فإن هذا مما أهل لغير الله به، المحرم بالنص عليه خصوصاً. ويدخل في ذلك متروك التسمية بما ذبح لله، كالضحايا والهدايا، أو للحم والأكل، إذا كان الذابح متعمداً ترك التسمية عند كثير من العلماء.

ويخرج من هذا العموم الناسي بالنصوص الأخرى، الدالة على رفع الحرج عنه، ويدخل في هذه الآية ما مات بغير ذكاة من الميتات، فإنها مما لم يذكر اسم الله عليه.

ونص الله عليها بخصوصها في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ﴾ ولعلها سبب نزول الآية، لقوله: ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم﴾ بغير علم.

ولا يفعلوا كما تفعله الجاهلية، من تحريم كثير من الحلال، ابتداءً من عند أنفسهم، وإضلالاً من شياطينهم، فذكر الله أن علامة المؤمن مخالفة أهل الجاهلية، في هذه العادة الدائمة، المتضمنة لتغيير شرع الله، وأنه أي شيء يمنعه من أكل ما ذكر اسم الله عليه، وقد فضل الله لعباده ما حرم عليهم، وبينه ووضحه؟ فلم يبق فيه إشكال ولا شبهة توجب أن يمتنع من أكل بعض الحلال، خوفاً من الوقوع في الحرام، وذلت الآية الكريمة على أن الأصل في الأشياء والأطعمة، الإباحة، وأنه إذا لم يرد الشرع بتحريم شيء منها، فإنه باق على الإباحة، فما سكنت الله عنه فهو حلال، لأن الحرام قد فضله الله فما لم يفضل الله، فليس بحرام.

ومع ذلك فالحرام الذي قد فضله الله وأوضحه، قد أباحه عند الضرورة والمخمصة، كما قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ﴾ إلى أن قال: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ثم حذر عن كثير من الناس، فقال: ﴿وإن كثيراً يضلون بأهوائهم﴾ أي: بمجرد ما تهوى أنفسهم ﴿بغير علم﴾ ولا حجة. فليحذر العبد من أمثال هؤلاء، وعلامتهم - كما وصفهم الله لعباده - أن دعوتهم غير مبنية على برهان، ولا لهم حجة شرعية، وإنما يوجد لهم شبهة، بحسب أهوائهم الفاسدة، وآرائهم القاصرة، فهؤلاء معتدون على شرع الله وعلى عباد الله، والله لا يحب المعتدين، بخلاف الهادين المهتدين، فإنهم يدعون إلى الحق والهدى، ويؤيدون دعوتهم بالحجج العقلية والنقلية، ولا يتبعون في دعوتهم إلا رضا ربهم والقرب منه.

﴿١٢٠﴾ ﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون﴾ المراد بالإثم: جميع المعاصي التي تؤثم العبد، أي: توقعه في الإثم والخروج، من

أولادهم، وهو: الوأد؛ الذين يدفنون أولادهم الذكور خشية الافتقار، والإناث خشية العار.

وكل هذا من خدع الشياطين، الذين يريدون أن يردوهم بالهلاك، ويلبسوا عليهم دينهم، فيفعلون الأفعال التي في غاية القبح، ولا يزال شركاؤهم يزيتونها لهم، حتى تكون عندهم من الأمور الحسنة والخصال المستحسنة، ولو شاء الله أن يمنع ويحول بينهم وبين هذه الأفعال، ومنع أولادهم عن قتل الأبرين لهم، ما فعلوه، ولكن اقتضت حكمته التخلية بينهم وبين أفعالهم، استدراجاً منه لهم، وإمهالاً لهم، وعدم مبالاة بما هم عليه، ولهذا قال: ﴿فذرهم وما يفترون﴾ أي: دعهم مع كذبهم وافتراءهم، ولا تحزن عليهم، فإنهم لن يضروا الله شيئاً.

ومن أنواع سفاهتهم أن الأنعام التي أحلها الله لهم عموماً، وجعلها رزقاً ورحمة، يتمتعون بها ويتنفعون، قد اخترعوا فيها بدعاً وأقوالاً من تلقاء أنفسهم، فعندهم اصطلاح في بعض الأنعام [والحرث] أنهم يقولون فيها: ﴿هذه أنعام وحرث حجر﴾ أي: محرم لا يطعمها إلا من نشاء﴾ أي: لا يجوز أن يطعمه أحد، إلا من أردنا أن يطعمه، أو وصفناه بوصف - من عندهم -

وكل هذا بزعمهم لا مستند لهم ولا حجة، إلا أهويتهم وآراءهم الفاسدة.

وأنعام ليست محزمة من كل وجه، بل يحرمون ظهورها أي: بالركوب والحمل عليها، ويحرمون ظهورها، ويسمونها الحام، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها، بل يذكرون اسم أصنامهم وما كانوا يعبدون من دون الله عليها، وينسبون تلك الأفعال إلى الله، وهم كذبة فجار في ذلك.

﴿سيجزيم بما كانوا يفترون﴾ على الله من إحلال الشرك، وتحريم الحلال من الأكل والمنافع. ومن آرائهم السخيفة أنهم يجعلون

محظورين، بل ثلاثة محاذير، منتهم على الله في جعلهم له نصيباً، مع اعتقادهم أن ذلك منهم تبرع، وإشراك الشركاء الذين لم يرزقوهم، ولم يوجدوا لهم شيئاً في ذلك، وحكمهم الجائر في أن ما كان لله لم يبالوا به ولم يهتموا، ولو كان واصلاً إلى الشركاء، وما كان لشركائهم اعتنوا به واحتفظوا به ولم يصل إلى الله منه شيء، وذلك أنهم إذا حصل لهم - من زروعهم وثمارهم وأنعامهم التي أوجدها الله لهم - شيء، جعلوه قسمين:

قسماً قالوا: هذا لله بقولهم وزعمهم، وإلا فالحق لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه، ولا يقبل عمل من أشرك به.

وقسماً جعلوه حصة شركائهم من الأوثان والأنداد.

فإن وصل شيء مما جعلوه لله، واختلط بما جعلوه لغيره، لم يبالوا بذلك، وقالوا: الله غني عنه، فلا يردونه، وإن وصل شيء مما جعلوه لأنهم إلى ما جعلوه لله، ردوه إلى محله، وقالوا: إنها فقراء، لا بد من رد نصيبها.

فهل أسوأ من هذا الحكم وأظلم؟! حيث جعلوا ما للمخلوق، يجتهد فيه وينصح ويحفظ، أكثر مما يفعل بحق الله.

ويحتمل أن تأويل الآية الكريمة، ما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «عني الله تعالى أنه قال: «أنا أغني الشركاء عن الشرك، من أشرك معي شيئاً تركته وشركه».

وأن معنى الآية أن ما جعلوه وتقرّبوا به لأوثانهم، فهو تقرب خالص لغير الله، ليس الله منه شيء، وما جعلوه لله - على زعمهم - فإنه لا يصل إليه لكونه شركاً، بل يكون حظ الشركاء والأنداد، لأن الله غني عنه، لا يقبل العمل الذي أشرك به معه أحد من الخلق.

ومن سفة المشركين وضلالهم أنه زين لكثير من المشركين شركاؤهم - أي: رؤساؤهم وشياطينهم - قتل



لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون * وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون * وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون * وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميثم فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم * قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرّموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين * يخبر تعالى عما عليه المشركون المكذبون للنبي ﷺ، من سفاهة العقل وخفة الأحلام، والجهل البليغ، وعند تبارك وتعالى شيئاً من خرافاتهم لينبه بذلك على ضلالهم والحذر منهم، وأن معارضة أمثال هؤلاء السفهاء للحق الذي جاء به الرسول، لا تقدر فيه أصلاً، فإنهم لا أهلية لهم في مقابلة الحق، فذكر من ذلك أنهم ﴿جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾ ولشركائهم من ذلك نصيباً، والحال أن الله تعالى هو الذي ذرأه للعباد، وأوجده رزقاً، فجمعوا بين محظورين

فقال: «وهو الذي أنشأ جنات» أي: بساتين، فيها أنواع الأشجار المتنوعة، والنباتات المختلفة.

«معروشات وغير معروشات» أي: بعض تلك الجنات، يجعل له عرش، تنتشر عليه الأشجار، ويعاونها في النهوض عن الأرض. وبعضها خال من العروش، تنبت على ساق، أو تنفرش في الأرض، وفي هذا تنبيه على كثرة منافعها وخيراتها، وأنه تعالى علم العباد كيف يعرضونها ويمونها.

«وأنشأ تعالى النخل والزرع مختلفاً أكله» أي: كله في محل واحد، ويشرب من ماء واحد، ويفضل الله بعضه على بعض في الأكل.

وخص تعالى النخل والزرع على اختلاف أنواعه لكثرة منافعها، ولكونها هي القوت لأكثر الخلق. «وأنشأ تعالى الزيتون والزيتون متشابهاً» في شجره «وغير متشابه» في ثمره وطعمه: كأنه قيل: لأي شيء أنشأ الله هذه الجنات، وما عطف عليها؟ فأخبر أنه أنشأها لمنافع العباد فقال: «كلوا من ثمره» أي: النخل والزرع «إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده» أي: أعطوا حق الزرع، وهو الزكاة ذات الأنصبة المقدرة في الشرع، أمرهم أن يعطوها يوم حصادها، وذلك لأن حصاد الزرع بمنزلة حوالان الحول، لأنه الوقت الذي تتشوف إليه نفوس الفقراء، ويسهل حيثئذ إخراجها على أهل الزرع، ويكون الأمر فيها ظاهراً لمن أخرجها، حتى يتميز المخرج بمن لا يخرج.

وقوله: «ولا تسرفوا» يعم النهي عن الإسراف في الأكل، وهو مجاوزة الحد والعادة، وأن يأكل صاحب الزرع أكلاً يضر بالزكاة، والإسراف في إخراج حق الزرع بحيث يخرج فوق الواجب عليه، ويضر نفسه أو عائلته أو غرماءه، فكل هذا من الإسراف الذي نهى الله عنه، الذي لا يحبه الله بل يغيضه ويمقت عليه.

وفي هذه الآية دليل على وجوب

بعض الأنعام ويعينوها - محرماً ما في بطنها على الإناث دون الذكور، فيقولون: «ما في بطن هذه الأنعام خالصة لذكورنا» أي: حلال لهم، لا يشاركهم فيها النساء، «ومحرم على أزواجنا» أي: نسائنا، هذا إذا ولد حياً، وإن يكن ما [في] بطنها يولد ميتاً، فهم فيه شركاء، أي: فهو حلال للذكور والإناث.

«سيجزيهم» الله «وصفهم» حيث وصفوا ما أحله الله بأنه حرام، ووصفوا الحرام بالحلal، فناقضوا شرع الله وخالفوه، ونسبوا ذلك إلى الله. «إنه حكيم» حيث أمهل لهم، ومكنهم بما هم فيه من الضلال «عليم» بهم، لا تخفى عليه خافية، وهو تعالى يعلم بهم وبما قاله عليه وافتروه، وهو يعافيه ويرزقهم جل جلاله.

«١٤٠» ثم بين خسارتهم وسفاهة عقولهم فقال: «قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم» أي: خسروا دينهم وأولادهم، وعقولهم، وصار وصفهم - بعد العقول الرزينة - السفه المردى والضلال.

«وحرّموا ما رزقهم الله» أي: ما جعله رحمة لهم، وساقه رزقاً لهم. فردوا كرامة ربهم، ولم يكتفوا بذلك، بل وصفوها بأنها حرام، وهي من أحل الحلال.

وكل هذا «افتراء على الله» أي: كذباً يكذب به كل معاند كفار. «قد ضلوا وما كانوا مهتدين» أي: قد ضلوا ضلالاً بعيداً، ولم يكونوا مهتدين في شيء من أمورهم.

«١٤١» «وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والزمان متشابهاً وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا» إنه لا يحب المسرفين كما ذكر تعالى تصرف المشركين في كثير مما أحله الله لهم من الحروث والأنعام، ذكر تبارك وتعالى نعمته عليهم بذلك، ووظيفتهم اللازمة عليهم في الحروث والأنعام



الزكاة في الشمار، وأنه لا حول لها، بل حولها حصادها في الزرع، وجذاذ النخل، وأنه لا تنكر فيها الزكاة، لو مكثت عند العبد أحوالاً كثيرة، إذا كانت لغير التجارة، لأن الله لم يأمر بالإخراج منه إلا وقت حصاده.

وأنه لو أصابها آفة قبل ذلك بغير تفريط من صاحب الزرع والثمر، أنه لا يضمناها، وأنه يجوز الأكل من النخل والزرع قبل إخراج الزكاة منه، وأنه لا يحسب ذلك من الزكاة، بل يزكى المال الذي يبقى بعده.

وقد كان النبي ﷺ يبعث خارساً يحرص للناس ثمارهم، ويأمره أن يدع لأهلها الثلث، أو الربع، بحسب ما يعتريها من الأكل وغيره من أهلها وغيرهم.

«١٤٢ - ١٤٤» «ومن الأنعام حولة وفرشاً كلوا مما رزقكم الله ولا تنبغوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين» ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل للذكركين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبؤوني بعلم إن كنتم صادقين * ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل للذكركين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم

وذنوبهم، فاحذروا الجرائم الموصلة لبأس الله، التي أعظمها ورأسها تكذيب محمد ﷺ

﴿١٤٨ - ١٤٩﴾ «سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تحرضون * قل فليله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين» هذا إخبار من الله أن المشركين سيحتجون على شركهم وتحريمهم ما أحل الله بالقضاء والقدر، ويجعلون مشيئة الله الشاملة لكل شيء من الخير والشر، حجة لهم في دفع اللوم عنهم.

وقد قالوا ما أخبر الله أنهم سيقولونه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء﴾ الآية.

فأخبر تعالى أن هذه الحجة لم تزل الأمم المكذبة تدفع بها عنهم دعوة الرسل ويحتجون بها، فلم تجد فيهم شيئاً ولم تنفعهم، فلم يزل هذا دأبهم حتى أهلكتهم الله وأذاقهم بأسه. فلو كانت حجة صحيحة، لدفعت عنهم العقاب، ولما أحل الله بهم العذاب، لأنه لا يحل بأسه إلا بمن استحقه، فعلم أنها حجة فاسدة، وشبهة كاسدة من عدة أوجه:

منها: ما ذكر الله من أنها لو كانت صحيحة لم تحل بهم العقوبة.

ومنها: أن الحجة لا بد أن تكون حجة مستندة إلى العلم والبرهان، فأما إذ كانت مستندة إلى مجرد الظن والخرص الذي لا يغني عن الحق شيئاً، فإنها باطلة، ولهذا قال: ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا﴾ فلو كان لهم علم - وهم خصوم الداء - لأخرجوه، فلما لم يخرجوه علم أنه لا علم عندهم. ﴿إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تحرضون﴾ ومن بنى خججه على الخرص والظن، فهو مبطل

به، وما سوى ذلك فحلال. ولعل مناسبة ذكر الخنزير هنا على هذا الاحتمال، أن بعض الجهال قد يدخله في بهيمة الأنعام، وأنه نوع من أنواع الغنم، كما قد يتوهمه جهلة النصارى وأشباههم، فيمنونها كما يمنون المواشي، ويستحلونها، ولا يفرقون بينها وبين الأنعام، فهذا المحرم على هذه الأمة كله^(١) من باب التنزيه لهم والصيانة.

وأما ما حرم على أهل الكتاب، فبعضه طيب ولكنه حرم عليهم عقوبة لهم ولهذا، قال: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر﴾ وذلك كالإبل وما أشبهها وحرمنا عليهم.

﴿من البقر والغنم﴾ بعض أجزائها، وهو: ﴿شحومهما﴾ وليس المحرم جميع الشحوم منها، بل شحم الآلية والثرث، ولهذا استثنى الشحم الحلال من ذلك، فقال: ﴿إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا﴾ أي: الشحم المخالط للامعاء ﴿أو ما اختلط بعظم﴾.

﴿ذلك﴾ التحريم على اليهود ﴿حزينا﴾ ببغيتهم: أي: ظلمهم وتعتديهم في حقوق الله وحقوق عباده، فحرم الله عليهم هذه الأشياء عقوبة لهم ونكالا. ﴿وإننا لصادقون﴾ في كل ما نقول ونفعل ونحكم به، ومن أصدق من الله حديثاً، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون.

﴿١٤٧﴾ ﴿فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين﴾ أي: فإن كذبك هؤلاء المشركون، فاستمر على دعوتهم، بالترغيب والترهيب، وأخبرهم بأن الله ﴿ذو رحمة واسعة﴾ أي: عامة شاملة [جميع] للمخلوقات كلها، فسارعوا إلى رحمته بأسبابها، التي رأسها وأساسها ومادتها تصديق محمد ﷺ فيما جاء به.

﴿ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين﴾ أي: الذين كثر إجرامهم

شيء منها، بأن لم يكن عنده شيء وخاف على نفسه التلف ﴿غير باغ ولا عاد﴾ أي: ﴿غير باغ﴾ أي: مريد لأكلها، من غير اضطرار ولا متعدي، أي: متجاوز للحد، بأن يأكل زيادة عن حاجته. ﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم﴾ أي: قاله قد سامح من كان بهذه الحال.

واختلف العلماء رحمهم الله في هذا الحصر المذكور في هذه الآية، مع أن ثم محررات لم تذكر فيها، كالسباع وكل ذي مخلب من الطير ونحو ذلك، فقال بعضهم: إن هذه الآية نازلة قبل تحريم ما زاد على ما ذكر فيها، فلا ينافي هذا الحصر المذكور فيها التحريم المتأخر بعد ذلك؛ لأنه لم يجده فيما أوحى إليه في ذلك الوقت، وقال بعضهم: إن هذه الآية مشتملة على سائر المحرمات، بعضها صريحاً، وبعضها يؤخذ من المعنى وعموم العلة.

فإن قوله تعالى في تعليل الميتة والدم ولحم الخنزير، أو الأخير منها فقط: ﴿فإنه رجس﴾ وصف شامل لكل محرّم، فإن المحرمات كلها رجس وخيث، وهي من الخبائث المستقرة التي حرمها الله على عباده، صيانة لهم وتكرمة عن مباشرة الخبيث الرجس.

ويؤخذ تفاصيل الرجس المحرم من السنة، فإنها تفسر القرآن، وتبين المقصود منه، فإذا كان الله تعالى لم يحرم من المطاعم إلا ما ذكره، والتحريم لا يكون مبيده إلا شرع الله - دل ذلك على أن المشركين، الذين حرموا ما رزقهم الله مفترون على الله، متقولون عليه ما لم يقل.

وفي الآية احتمال قوي، لولا أن الله ذكر فيها الخنزير، وهو أن السياق في نقض أقوال المشركين المتقدمة، في تحريمهم لما أحله الله وخوضهم بذلك، بحسب ما سولت لهم أنفسهم، وذلك في بهيمة الأنعام خاصة، وليس منها محرّم إلا ما ذكر في الآية: الميتة منها، وما أهل لغير الله

خاسر، فكيف إذا بناها على البغي والعناد والشر والفساد؟

ومنها: أن الحجج لله البالغة، التي لم تبق لأحد عذراً، التي اتفقت عليها الأنبياء والمرسلون، والكتب الإلهية، والآثار النبوية، والعقول الصحيحة، والفطر المستقيمة، والأخلاق القويمة، فعلم بذلك أن كل ما خالف هذه الأدلة^(١) القاطعة باطل، لأن نقض الحق لا يكون إلا باطلاً.

ومنها: أن الله تعالى أعطى كل مخلوق قدرة وإرادة يتمكن بها من فعل ما كُلف به، فلا أوجب الله على أحد ما لا يقدر على فعله، ولا حرم على أحد ما لا يتمكن على تركه، فالاحتجاج بعد هذا بالقضاء والقدر، ظلم محض وعناد صرف.

ومنها: أن الله تعالى لم يجبر العباد على أفعالهم، بل جعل أفعالهم تبعاً لاختيارهم، فإن شأؤوا ففعلوا، وإن شأؤوا كفوا. وهذا أمر مشاهد لا ينكره إلا من كابر وأنكر المحسوسات، فإن كل أحد يفرق بين الحركة الاختيارية والحركة القسرية، وإن كان الجميع داخلاً في مشيئة الله، ومندرجاً تحت إرادته.

ومنها: أن المحتجين على المعاصي بالقضاء والقدر يتناقضون في ذلك. فإنهم لا يمكنهم أن يطرّدوا ذلك، بل لو أساء إليهم منيء بضرب أو أخذ مال أو نحو ذلك، واحتج بالقضاء والقدر، لما قبلوا منه هذا الاحتجاج، ولغضبوا من ذلك أشد الغضب.

فيا عجباً كيف يحتجون به على معاصي الله ومساخطه، ولا يرضون من أحد أن يحتج به في مقابلة مساخطهم!!

ومنها: أن احتجاجهم بالقضاء والقدر ليس مقصوداً، ويعلمون أنه ليس بحاجة، وإنما المقصود منه دفع الحق، ويرون أن الحق بمنزلة الضائل، فهم يدفعونه بكل ما يخطر ببالهم من

الكلام وإن كانوا يعتقدونه خطأ^(٢).

﴿١٥٠﴾ قل لهم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا فإن شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون﴾ أي: قل لمن حرم ما أحل الله، ونسب ذلك إلى الله: أحضروا شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا، فإذا قيل لهم هذا الكلام، فهم بين أمرين:

إما: أن لا يحضروا أحداً يشهد بهذا، فتكون دعواهم إذا باطلة، خلية من الشهود والبرهان.

وإما: أن يحضروا أحداً يشهد لهم بذلك، ولا يمكن أن يشهد بهذا إلا كل أفاك أثيم غير مقبول الشهادة، وليس هذا من الأمور التي يصح أن يشهد بها العدول؛ ولهذا قال تعالى: - ناهياً نبيه وأتباعه عن هذه الشهادة: - ﴿فإن شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون﴾ أي: يستنون به غيره من الأنداد والأوثان.

فإذا كانوا كافرين باليوم الآخر غير موحدين لله، كانت أهويتهم مناسبة لعقيدتهم، وكانت دائرة بين الشرك والتكذيب بالحق، فحزري بهوى هذا شأنه، أن ينهى الله خيار خلقه عن اتباعه، وعن الشهادة مع أربابه، وعلم حيثذ أن تحريمهم لما أحل الله صادر عن تلك الأهواء المضلة.

﴿١٥١ - ١٥٣﴾ قل تعالوا أتتكم ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف

نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون﴾ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قل﴾ لهؤلاء الذين حرموا ما أحل الله: ﴿تعالوا أتتكم ما حرم ربكم عليكم﴾ تحريماً عاماً شاملاً لكل أحد، محتوياً على سائر المحرمات، من المأكّل والمشرب والأقوال والأفعال: ﴿ألا تشركوا به شيئاً﴾ أي: لا قليلاً ولا كثيراً.

وحقيقة الشرك بالله: أن يعبد المخلوق كما يعبد الله، أو يعظم كما يعظم الله، أو يصرف له نوع من خصائص الربوبية والإلهية، وإذا ترك العبد الشرك كله صار موحداً، مخلصاً لله في جميع أحواله، فهذا حق الله على عباده، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً.

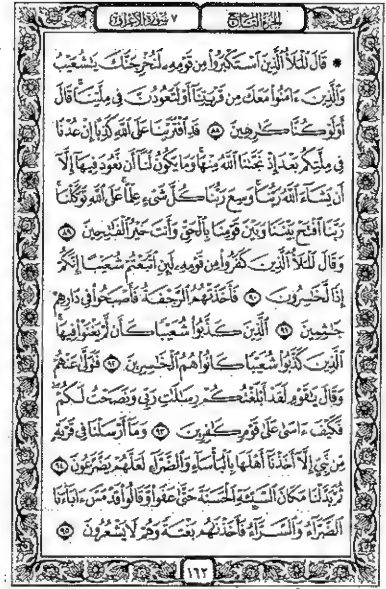
ثم بدأ بأكد الحقوق بعد حقه فقال: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ من الأقوال الكريمة الحسنة، والأفعال الجميلة المستحسنة، فكل قول وفعل يحصل به منفعة للوالدين أو سرور لهما، فإن ذلك من الإحسان، وإذا وجد الإحسان انتفى العقوق.

﴿ولا تقتلوا أولادكم﴾ من ذكور وإناث ﴿من إملاق﴾ أي: بسبب الفقر وضيقكم من رزقهم، كما كان ذلك موجوداً في الجاهلية القاسية الظالمة، وإذا كانوا منهيين عن قتلهم في هذه الحال وهم أولادهم، فنهيه عن قتلهم لغير موجب، أو قتل أولاد غيرهم من باب أولى وأحرى.

﴿نحن نرزقكم وإياهم﴾ أي: قد تكفلنا برزق الجميع، فلستم الذين ترزقون أولادكم، بل ولا أنفسكم، فليس عليكم منهم ضيق. ﴿ولا تقربوا الفواحش﴾ وهي: الذنوب العظام المستفحشة، «ما ظهر منها وما بطن»

(١) في ب: الآية.

(٢) في ب: من الكلام المصيب عندهم والمخطيء.



من أمة موسى، فإن الله أنعم على المحسنين منهم بنعم لا تحصى. من جملتها وتماها إنزال التوراة عليهم. فتمت عليهم نعمة الله، ووجب عليهم القيام بشكرها.

﴿وتفصيلاً لكل شيء﴾ يحتاجون إلى تفصيله، من الحلال والحرام، والأمر والنهي، والعقائد ونحوها. ﴿وهدى ورحمة﴾ أي: يهديهم إلى الخير، ويعرفهم بالشر، في الأصول والفروع. ﴿ورحمة﴾ يحصل به لهم السعادة والرحمة والخير الكثير. ﴿لعلهم﴾ بسبب إنزالنا الكتاب والبيانات عليهم ﴿بلقاء ربهم يؤمنون﴾ فإنه اشتمل من الأدلة القاطعة على البعث والجزاء بالأعمال، ما يوجب لهم الإيمان بقاء ربهم والاستعداد له.

﴿وهذا﴾ القرآن العظيم، والذكر الحكيم. ﴿كتاب أنزلناه مبارك﴾ أي: فيه الخير الكثير والعلم الغزير، وهو الذي تستمد منه سائر العلوم، وتستخرج منه البركات، فما من خير إلا وقد دعا إليه ورغب فيه، وذكر الحكم والمصالح التي تحت عليه، وما من شر، إلا وقد نهى عنه وحذر منه، وذكر الأسباب المنفرة عن فعله وعواقبها الوخيمة ﴿فاتبعوه﴾ فيما يأمر به وينهى، وابتوا أصول دينكم وفروعه عليه ﴿واتقوا﴾ الله تعالى أن تخالفوا له أمراً ﴿لعلكم﴾ إن اتبعتموه ﴿ترحمون﴾

فأكبر سبب لنيل رحمة الله اتباع هذا الكتاب علماً وعباداً.

﴿أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين﴾ أي: أنزلنا إليكم هذا الكتاب المبارك قطعاً لحجتكم، وخشية أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا، أي: اليهود والنصارى.

﴿وإن كنا عن دراستهم لغافلين﴾ أي: تقولون لم تنزل علينا كتاباً، والكتب التي أنزلتها على الطائفتين ليس لنا بها علم ولا معرفة، فأنزلنا إليكم كتاباً، لم ينزل من السماء كتاب أجمع ولا أوضح ولا أبين منه.

﴿أو تقولوا لو أننا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم﴾ أي: إما أن تعتذروا بعدم وصول أصل الهداية إليكم، وإما أن تعتذروا، [بعدم] بكمالها وتمامها، فحصل لكم بكتابتكم أصل الهداية وكمالها، ولهذا قال: ﴿فقد جاءكم بينة من ربكم﴾ وهذا اسم جنس يدخل فيه كل ما يبين الحق ﴿وهدى﴾ من الضلالة ﴿ورحمة﴾ أي: سعادة لكم في دينكم ودنياكم، فهذا يوجب لكم الانقياد لأحكامه والإيمان بأخباره، وأن من لم يرفع به رأساً وكذب به، فإنه أظلم الظالمين، ولهذا قال: ﴿فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها﴾ أي: أعرض ونأى بجانبه.

﴿سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب﴾ أي: العذاب الذي يسوء صاحبه ويشق عليه. ﴿بما كانوا يصدفون﴾ لأنفسهم ولغيرهم، جزاء لهم على عملهم السيئ ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾.

وفي هذه الآيات دليل على أن علم القرآن أجل العلوم وأبركها وأوسعها، وأنه به تحصل الهداية إلى الصراط المستقيم، هداية تامة لا يحتاج معها إلى تخرص المتكلمين، ولا إلى أفيكار المتفلسفين، ولا لغير ذلك من علوم الأولين والآخرين.

وأن المعروف أنه لم ينزل جنس الكتاب إلا على الطائفتين، [من] اليهود والنصارى، فهم أهل الكتاب عند

الإطلاق، لا يدخل فيهم سائر الطوائف، لا المجوس ولا غيرهم.

وفيه: ما كان عليه الجاهلية قبل نزول القرآن، من الجهل العظيم وعدم العلم بما عند أهل الكتاب، الذين عندهم مادة العلم وغفلتهم عن دراسة كتبهم.

﴿١٥٨﴾ ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً قل انتظروا إنا منتظرون﴾ يقول تعالى: هل ينظر هؤلاء الذين استمر ظلمتهم وعنادهم، ﴿إلا أن تأتيهم﴾ مقدمات العذاب، ومقدمات الآخرة بأن تأتيهم ﴿الملائكة﴾ لقبض أرواحهم، فإنهم إذا وصلوا إلى تلك الحال لم ينفعهم الإيمان ولا صالح الأعمال. ﴿أو يأتي ربك﴾ لفصل القضاء بين العباد، ومجازاة المحسنين والمسيئين. ﴿أو يأتي بعض آيات ربك﴾ الدالة على قرب الساعة.

﴿يوم يأتي بعض آيات ربك﴾ الخارقة للعادة، التي يعلم بها أن الساعة قد دنت، وأن القيامة قد اقتربت. ﴿لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً﴾ أي: إذا وجد بعض آيات الله لم ينفع الكافر إيمانه أن آمن، ولا المؤمن المقصر أن يزداد خيره بعد ذلك، بل ينفعه ما كان معه من الإيمان قبل ذلك، وما كان له من الخير المرجو قبل أن يأتي بعض الآيات.

والحكمة في هذا ظاهرة، فإنه إنما كان الإيمان ينفع إذا كان إيماناً بالغيب، وكان اختياراً من العبد، فأما إذا وجدت الآيات صار الأمر شهادة، ولم يبق للإيمان فائدة، لأنه يشبه الإيمان الضروري، كإيمان الغريق والحريق ونحوهما، ممن إذا رأى الموت أقبلع عما هو فيه، كما قال تعالى: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده، وكفرنا بما كنا به مشركين. فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا، سنة الله التي قد خلت في عباده﴾.

أديان أهل الانحراف، كاليهود والنصارى والمشرى.

وهذا عموم، ثم خصص من ذلك أشرف العبادات فقال: ﴿قل إن صلاتي ونسكي﴾ أي: ذبجي، وذلك لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ودلالتهما على محبة الله تعالى، وإخلاص الدين له، والتقرب إليه بالقلب واللسان والجوارح، وبالذبح الذي هو بذل ما تحبه النفس من المال، لما هو أحب إليها وهو الله تعالى.

ومن أخلص في صلاته ونسكه، استلزم ذلك إخلاصه لله في سائر أعماله. وقوله: ﴿ومحياي ومماتي﴾ أي: ما أتية في حياتي، وما يحريه الله علي، وما يقدر علي في مماتي الجميع ﴿الله رب العالمين لا شريك له﴾ في العبادة، كما أنه ليس له شريك في الملك والتدبير، وليس هذا الإخلاص لله ابتداءً مني، وبدعاً أتيت من تلقاء نفسي، بل ﴿بذلك أمرت﴾ أمراً حتماً، لا أخرج من التبعة إلا بامثاله ﴿وأنا أول المسلمين﴾ من هذه الأمة.

﴿قل أغير الله﴾ من المخلوقين ﴿أبغي رباً﴾ أي: أحسن ذلك ويليق بي، أن اتخذ غيره مربياً ومدبراً والله رب كل شيء، فالخلق كله داخلون تحت ربوبيته، متقادون لأمره!!

فتعين علي وعلى غيري، أن يتخذ الله رباً، ويرضى به، وألا يتعلق بأحد من المربوبين الفقراء العاجزين.

ثم رغب بذكر^(١) الجزء فقال: ﴿ولا تكسب كل نفس﴾ من خير وشر ﴿إلا عليها﴾ كما قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾.

﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ بل كل عليه وزر نفسه، وإن كان أحد قد تسبب في ضلال غيره وزوره، فإن عليه وزر التسبب من غير أن ينقص من وزر المباشر شيء.

﴿ثم إلى ربكم مرجعكم﴾ يوم

بالاجتماع والائتلاف، وينهى عن التفرق والاختلاف في أهل الدين، وفي سائر مسائل الأصول والفروع. وأمره أن يتبرأ ممن فرقوا دينهم فقال: ﴿لست منهم في شيء﴾ أي: لست منهم وليسوا منك، لأنهم خالفوك وعاندوك ﴿إنما أمرهم إلى الله﴾ يردون إليه فيجازيهم بأعمالهم ﴿ثم ينبتهم بما كانوا يفعلون﴾.

ثم ذكر صفة الجزاء، فقال: ﴿ومن جاء بالحسنة﴾ القولية والفعلية، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله أو حق خلقه ﴿فله عشر أمثالها﴾ هذا أقل ما يكون من التضعيف.

﴿ومن جاء بالسينة فلا يجزى إلا مثلها﴾ وهذا من تمام عدله تعالى وإحسانه، وأنه لا يظلم مثقال ذرة، ولهذا قال: ﴿وهم لا يظلمون﴾.

﴿١٦١ - ١٦٥﴾ ﴿قل إنني هادي ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ﴿لا شريك له﴾ وكذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴿قل أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها﴾

ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ يأمر تعالى نبيه ﷺ أن يقول ويعلن بما هو عليه من الهداية إلى الصراط المستقيم: الدين المعتدل المتضمن للعقائد النافعة، والأعمال الصالحة، والأمر بكل حسن، والنهي عن كل قبيح، الذي عليه الأنبياء والمرسلون، خصوصاً إمام الجنتاء، ووالد من بعث من بعد موته من الأنبياء، خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهو الدين الخفيف المائل عن كل دين غير مستقيم، من

وقد تكاثرت الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ أن المراد ببعض آيات الله، طلوع الشمس من مغربها، وأن الناس إذا رأوها آمنوا، فلم ينفعهم إيمانهم، ويعلق حينئذ باب التوبة.

ولما كان هذا وعيداً للمكذبين بالرسول ﷺ منتظراً، وهم ينتظرون بالنبي ﷺ وأتباعه قوارع الدهر ومصائب الأمور، قال: ﴿قل انتظروا إننا منتظرون﴾ فستعلمون أننا أحق بالأمن.

وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة في إثبات الأفعال الاختيارية لله تعالى، كالاستواء والنزول، والإتيان لله تبارك وتعالى، من غير تشبيه له بصفات المخلوقين.

وفي الكتاب والسنة من هذا شيء كثير، وفيه أن من جملة أشرار الساعة طلوع الشمس من مغربها. وأن الله تعالى حكيم قد جرت عادته وشئته، أن الإيمان إنما ينفع إذا كان اختيارياً لا اضطرارياً، كما تقدم.

وأن الإنسان يكتسب الخير بإيمانه. فالطاعة والبر والتقوى إنما تنفع وتنمو إذا كان مع العبد الإيمان. فإذا خلا القلب من الإيمان لم ينفعه شيء من ذلك.

﴿١٥٩ - ١٦٠﴾ ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبتهم بما كانوا يفعلون﴾ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسينة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴿يتوعد تعالى الذين فرقوا دينهم، أي: شتتوه وتفرقوا فيه، وكل أخذ لنفسه نصيباً من الأسماء التي لا تفيد الإنسان في دينه شيئاً، كاليهودية والنصرانية والمجوسية. أو لا يكمل بها إيمانه، بأن يأخذ من الشريعة شيئاً ويجعله دينه، ويدع مثله، أو ما هو أولى منه، كما هو حال أهل الفرقة من أهل البدع والضلال والمفرق للامة.

ودلت الآية الكريمة أن الدين يأمر

القيامة ﴿فَنبِئْكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من خير وشر، ويجازيكم على ذلك، أوفى الجزاء.

﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ أي: يخلف بعضكم بعضاً، واستخلفكم الله في الأرض، وسيُخرجكم جميع ما فيها، وابتلاككم، لينظر كيف تعملون.

﴿ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾ في القوة والعافية، والرزق والخلق والخلق. ﴿ليبلوكم فيما آتاكم﴾ فتفاوتت أعمالكم. ﴿إن ربك سريع العقاب﴾ لمن عصاه وكذب بآياته ﴿وإنه لغفور رحيم﴾ لمن آمن به وعمل صالحاً، وتاب من الموبقات.

آخر تفسير سورة الأنعام، فله الحمد والثناء وصلى الله وسلم على نبينا محمد [وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين] (١).

المجلد الثالث من تفسير الرحمن في تفسير القرآن لعامة الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر السعدي.

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الأعراف مكية

﴿١-٧﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم المص﴾ كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون﴾ وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون ﴿فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾ فلنسأل الذين أرسل إليهم ولنسأل المرسلين ﴿فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين﴾ يقول تعالى لرسوله

محمد ﷺ مبيناً له عظمة القرآن: ﴿كتاب أنزل إليك﴾ أي: كتاب جليل حوى كل ما يحتاج إليه العباد، وجميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، محكماً مفصلاً ﴿فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ أي: ضيق وشك واشتباه، بل لتعلم أنه تنزيل من حكيم حميد ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ وأنه أصدق الكلام فليشرح له صدرك، ولتطمئن به نفسك، ولتصدع بأوامره ونواهيه، ولا تحش لآثماً ومعارضاً.

﴿لتنذر به﴾ الخلق، فتعظهم وتذكرهم، فتقوم الحجة على المعاندين. ﴿و﴾ ليكون ﴿ذكرى للمؤمنين﴾ كما قال تعالى: ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ يتذكرون به الصراط المستقيم، وأعماله الظاهرة والباطنة، وما يحول بين العبد وبين سلوكه.

ثم خاطب الله العباد، وألّفهم إلى الكتاب فقال: ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم﴾ أي: الكتاب الذي أريد إنزاله لأجلكم، وهو ﴿من ربكم﴾ الذي يريد أن يتم تربيتكم لكم، فأنزل عليكم هذا الكتاب الذي، إن اتبعتموه كملت تربيتكم، ونمت عليكم النعمة، وهديتكم لأحسن الأعمال والأخلاق ومعاليتها ﴿ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾ أي: تتولونهم وتتبعون أهواءهم، وتتركون لأجلها الحق. ﴿قليلاً ما تذكرون﴾ فلو تذكروا وعرفتم المصلحة، لما أثرت الضار على النافع، والعدو على الولي.

ثم حذرهم عقوباته للأثم الذين كذبوا ما جاءهم به رسلهم، لئلا يشابههم (٢) فقال: ﴿وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا﴾ أي: عذابنا الشديد ﴿بياتاً أو هم قائلون﴾ أي: في

حين غفلتهم، وعلى غرتهم غافلون، لم يخطر الهلاك على قلوبهم. فحين جاءهم العذاب لم يدفعوه عن أنفسهم، ولا أغنت عنهم آلهتهم التي كانوا يرجونهم، ولا أنكروا ما كانوا يفعلونه من الظلم والمعاصي.

﴿فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾ كما قال تعالى: ﴿وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قومًا آخرين﴾ فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون ﴿لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون﴾ قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴿فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين﴾.

وقوله: ﴿فلنسأل الذين أرسل إليهم﴾ أي: لنسأل الأئمة الذين أرسل الله إليهم المرسلين، عما أجابوا به رسلهم ﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾ الآيات.

﴿ولنسأل المرسلين﴾ عن تبليغهم لرسالات ربهم، وعما أجابتهم به أمهم.

﴿فلنقصن عليهم﴾ أي: على الخلق كلهم ما عملوا ﴿بعلم﴾ منه تعالى لأعمالهم ﴿وما كنا غائبين﴾ في وقت من الأوقات، كما قال تعالى: ﴿أخصاه الله ونسوه﴾ وقال تعالى: ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين﴾.

﴿٨-٩﴾ ثم ذكر الجزاء على الأعمال، فقال: ﴿والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون﴾ ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴿أي: والوزن يوم القيامة يكون بالعدل والقيسط، الذي لا جور

(١) زيادة من ب، وقد جاء بعدها قول الناسخ: (وكان الفراغ من كتابته في يوم الجمعة الموافق خمس وعشرين من جمادى الآخرة، سنة ١٣٤٥هـ، بقلم الفقير إلى ربه المئتان: علي الحسن العلي الحسن البريكاني، وقد نسخته على نسخة المؤلف غفر الله له وأثابه على ذلك الثواب الجزيل، وخزاه الله عنا وعن جميع المسلمين أفضل الجزاء في دار الجزاء، وأدخله الله برحمته فسيح الجنان، ووفانا وإياه عذاب النيران بفضلهم وكرمهم، إنه قريب مجيب، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين آمين ثم آمين يا رب العالمين.

(٢) في ب: فلا يشابهونهم.

حَافِيَةً عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جُنِيتُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ
 مِنْ أَنْفُسِكُمْ فَذُرُونِي وَمِنْ يُبَرِّئُكُمْ فَلَيْسَ بِاللَّهِ الْعَاقِلُ ۖ قَالَ نَكُنْتَ
 حِينَئِذِينَ تَمْلِكُ مَا فِي بَنِي إِدْرِمَا نَكُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ قَالَ
 عَصَاكَ فَإِنَّا مِنْكَ مُعَذِّبُونَ ۝ وَنَزَعَ وَجْهَهُ فَإِذَا هُوَ بَصِيظٌ
 عَلَى السُّيُوفِ ۝ قَالَ الْكَلْبُ مِنَ قَوْمٍ يَمُوتُونَ فِي هَذَا السَّعْرِ
 عَلَيْهِمْ ۖ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَأَنَا كَأَنَّمَا رُيُوسُ
 الْعَصَا وَأَصْوَةٌ لَكُمْ وَأَصْلُكُمْ مِنَ الْغُلَاظِ حَبِشِينَ ۝
 يَا قَوْمِ لَيْسَ بِكُلِّ سَعْرِ عَلَيْهِ ۖ وَبِئْسَ الْمَسْكُونَةُ يَمُوتُونَ
 فَأُولَئِكَ لَنَا أَنْفُسُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَمُوتُوا لَنَا أَقَرُّ ۝ قَالَ قَوْمٌ
 لَوْ كُنَّا لَوْنُ الْقُرُونِ ۝ قَالَ أَيْسَرُكُمْ بِأَنَّ نَأْتِيَكُمْ رِجَالًا
 مُلَوَّنَ عَنْ التَّفَنُّيدِ ۖ قَالَ الْفَرَأْنَقُ فَمَا الْقَوْمُ اسْكُوتُوا
 أَفَعَلَيْتُمُ الْكَيْدَ لِوَصْفَةِ غَمْرَةٍ وَبِئْسَ مَا تَدْعُونَ ۝
 • وَأَمَّا بَنُو إِدْرِمَا فَهُمْ مِنْ آلِ عِمَّاكٍ فَلَا يَدْعُونَ تَمْلِكُنَّ إِلَّا ذِكْرُكُمْ
 وَفَعَلَ لَكُمُ الشَّيْءَ الَّذِي كُنْتُمْ تُفَكِّرُونَ ۖ فَلْيَبْزُوا فِئْجَاكُم
 وَأَتَيْنَاكُمْ بِآصَاتٍ ۖ وَالَّذِينَ لَا يَشْكُرُونَ سَيَكُونُونَ

ولما علم الخبيث أنهم ضعفاء قد تغلب الغفلة على كثير منهم، وكان جازماً ببذل مجهوده على إغوائهم، ظن وصدق ظنه فقال: ﴿ولا تحمد أكثرهم شاكرين﴾ فإن القيام بالشكر من سننك الصراط المستقيم، وهو يريد صدهم عنه، وعدم قيامهم به، قال تعالى: ﴿إنما يدعو حزيه ليقونوا من أصحاب السعير﴾.

وإنما نهيها الله على ما قال وعزم على فعله، لئلا يأخذ منه حذرنا ونستعد لعدونا، ونحترز منه بعلمنا، بالطرق التي يأتي منها، ومداخله التي ينفذ منها، فله تعالى علينا بذلك أكمل نعمة.

﴿١٨﴾ قال اخرج منها مذموماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين أي : قال الله لإبليس لما قال ما قال : ﴿اخرج منها﴾ خروج صغار واحتقار ، لا خروج إكرام بل ﴿مذموماً﴾ أي : مذموماً ﴿مدحوراً﴾ مبعداً عن الله وعن رحمته وعن كل خير .

﴿لَا مَلَأْنَ جَهَنَّمَ﴾ منك ومن تبعك منهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ وهذا قسم منه تعالى أن النار دار العصاة، لا بد أن يملأها من إبليس وأتباعه من الجن والإنس.

ثم حذر آدم شره وفتنته فقال:

﴿١٩ - ٢٣﴾ ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ
وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا
وَلَا تَقْرِبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ
الظَّالِمِينَ﴾ ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ
لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ
سَوَآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ
الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا
مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ
النَّاصِحِينَ﴾ ﴿فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا
الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا
يَخْتَصِفَانِ عَنْهُمَا مِنْ رُوقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا
رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ
لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿
قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا
وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿أَي:

أمر الله تعالى آدم وزوجته حواء، التي أنعم الله بها عليه ليسكن إليها، أن يأكلا من الجنة حيث شاءا ويتمتعاً فيها بما أَرَادَا، إلا أنه عين لهما شجرة، ونهاهما عن أكلها، والله أعلم ما هي، وليس في تعيينها فائدة لنا. وحُزِمَ عليهما أكلها، بدليل قوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فلم يَزَلَا عَمَلَيْنِ لأمر الله، حتى تغلبا إليها عدوها

إبليس بمكره، فوسوس لهما وسوسة خدعهما بها، وموه عليهما وقال: ﴿ها هنا كما ركبما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين﴾ أي: من جنس الملائكة ﴿أو تكونا من الخالدين﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾ ومع قوله هذا أقسم لهما بالله ﴿إني لكما لمن الناصحين﴾ أي: من جملة الناصحين حيث قلت لكما ما قلت، فاعترا بذلك، وغلبت الشهوة في تلك الحال على العقل.

﴿فلذالهما﴾ أي: نزلهما عن رتبتهما العالية، التي هي البعد عن الذنوب والمعاصي إلى التلوث بأوضارها، فأقهما على أكلها.

﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما
سوءاتهما﴾ أي : ظهرت عورة كل منهما
بعدما كانت مستورة ، فصار العربي
الباطن من التقوى في هذه الحال أثر في
اللباس الظاهر ، حتى انخلع فظهرت

عزواتهما، ولما ظهرت عورتهما خجلا
وجعلا يَخْصِفَانِ عَلَى عُورَاتِهِمَا مِنْ
أَوْرَاقِ شَجَرِ الْجَنَّةِ، لِيَسْتَعِرَا بِذَلِكَ.
﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ وهما بذلك الحال
موبخاً ومعاتباً: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا
الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا
عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ فلم اقتربتما المنهي،
وأطعتما عدوكما؟ فحيثُ مِنْ اللَّهِ
عليهما بالتوبة وقبولها، فاعترفا
بالذنب، وسألا من الله مغفرته فقالا:
﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا، وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا
وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: قد
فعلنا الذنب، الذي نهيتنا عنه، وضرينا
أنفسنا باقتراف الذنب، وقد فعلنا سبب
الخسار إن لم تغفر لنا، بمحو أثر الذنب
وعقوبته، وترحمنا بقبول التوبة والمعافة
من أمثال هذه الخطايا. فغفر الله لهما
ذلك ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى. ثُمَّ
اجْتَنَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾.

هذا وإبليس مستمر على طغيانه ،
غير مقلع من عصيانه ، فمن أشبه آدم
بالاعتراف وسؤال المغفرة والندم
والإقلاع - إذا صدرت منه الذنوب -
اجتياه الله وهده .

ومن أشبه إبليس - إذا صدر منه الذنب، لا يزال يزداد من المعاصي - فإنه لا يزداد من الله إلا بعداً.

﴿٢٥-٢٦﴾ قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون * يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون ﴿أي: لما أهبط الله آدم وزوجته وذريتهما إلى الأرض، أخبرهما بحال إقامتهم فيها، وأنه جعل لهم فيها حياة يتلوها الموت، مشحونة بالامتحان والابتلاء، وأنهم لا يزالون فيها، يرسل إليهم رسله، ويزل عليهم كتبه، حتى يأتيهم الموت، فيدفنون فيها، ثم إذا استكملوا بعثهم الله وأخرجهم منها إلى الدار التي هي الدار الحقيقية، التي هي دار المقامة.

ثم امتن عليهم بما يستر لهم من
اللباس الضروري، واللباس الذي

المقصود منه الجمال، وهكذا سائر الأشياء، كالطعام والشراب والمراكب، والمنائح ونحوها، قد يسر الله للعباد ضروريها، ومكمل ذلك، وإبين لهم^(١) أن هذا ليس مقصوداً بالذات، وإنما أنزله الله ليكون معونة لهم على عبادته وطاعته، ولهذا قال: ﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾ من اللباس الحسي، فإن لباس التقوى يستمر مع العبد، ولا يبلى ولا يبيد، وهو جمال القلب والروح.

وأما اللباس الظاهري، فغايتها أن يستر العورة الظاهرة في وقت من الأوقات، أو يكون جالاً للإنسان، وليس وراء ذلك منه نفع.

وأيضاً فيتقدير عدم هذا اللباس، تنكشف عورته الظاهرة التي لا يضره كشفها مع الضرورة، وأما بتقدير عدم لباس التقوى، فإنها تنكشف عورته الباطنة، ويناله الخزي والفضيحة.

وقوله: ﴿ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون﴾ أي: ذلك المذكور لكم من اللباس، مما تذكرون به ما ينفعكم ويضركم، وتشبهون^(٢) باللباس الظاهر على الباطن.

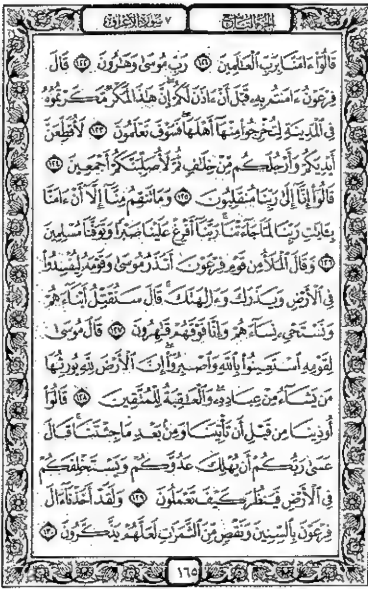
﴿٢٧﴾ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون يقول تعالى عزيزاً لنبي آدم أن يفعل بهم الشيطان كما فعل بأبيهم: ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان﴾ بأن يزين لكم العصيان، ويدعوكم إليه ويرغبكم فيه، فتتقادون له ﴿كما أخرج أبويكم من الجنة﴾ وأنزلهما من المحل العالي إلى أنزل منه، فأنتم يريد أن يفعل بكم كذلك، ولا يألو جهده عنكم، حتى يفتنكم إن استطاع، فعليكم أن تجعلوا الحذر منه في بالكيم، وأن تلبسوا لامة الحرب بينكم وبينه، وأن لا تغفلوا عن المواضع التي يدخل منها إليكم.

ف ﴿إنه﴾ يراقبكم على الدوام، و ﴿يراكم هو وقبيله﴾ من شياطين الجن ﴿من حيث لا ترونهم﴾، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون فعدم الإيمان هو الموجب لعقد الولاية بين الإنسان والشيطان.

﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ إنما سلطانه على الذين يتولونه، والذين هم به مشركون.

﴿٢٨ - ٣٠﴾ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴿قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تهودون﴾ فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ومحسبون أنهم مهتدون يقول تعالى منيباً لقبح حال المشركين الذين يفعلون الذنوب، وينسبون أن الله أمرهم بها. ﴿وإذا فعلوا فاحشة﴾ وهي: كل ما يستفحش ويستقبح، ومن ذلك طوافهم بالبيت عراة ﴿قالوا: وجدنا عليها آباءنا﴾ وصدقوا في هذا. ﴿والله أمرنا بها﴾ وكذبوا في هذا، ولهذا رد الله عليهم هذه النسبة فقال: ﴿قل إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾ أي: لا يليق بكماله وحكمته أن يأمر عباده بتعاطي الفواحش، لا هذا الذي يفعله المشركون ولا غيره ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ أي: افتراء أعظم من هذا!!

ثم ذكر ما يأمر به، فقال: ﴿قل أمر ربي بالقسط﴾ أي: بالعدل في العبادات والمعاملات، لا بالظلم والجور. ﴿وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد﴾ أي: توجهوا لله، واجتهدوا في تكميل العبادات، خصوصاً «الصلاة» أقيموها، ظاهراً وباطناً، ونقوها من كل نقص ومفسد. ﴿وادعوه مخلصين له الدين﴾ أي: قاصدين بذلك وجهه

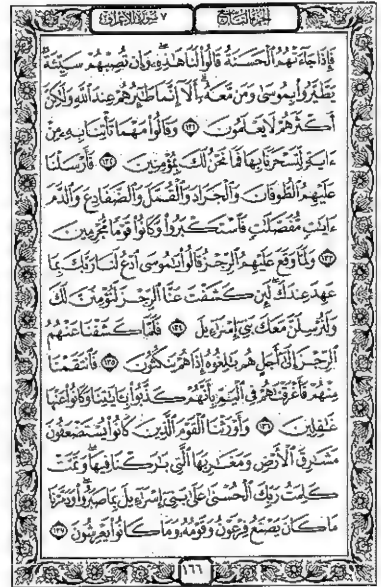


وحده لا شريك له. والدعاء يشمل دعاء المسألة، ودعاء العيادة، أي: لا تراؤا ولا تقصدوا من الأغراض في دعائكم سوى عبودية الله ورضاه.

﴿كما بدأكم﴾ أول مرة ﴿تعودون﴾ للبعث، فالقادر على بدء خلقكم، قادر على إعادته، بل الإعادة أهن من البداية.

﴿فريقاً﴾ منكم ﴿هدى﴾ الله، أي: وفقهم للهداية، ويسر لهم أسبابها، وصرف عنهم موانعها. ﴿وفريقاً حق عليهم الضلالة﴾ أي: وجبت عليهم الضلالة بما تسببوا لأنفسهم وعملوا بأسباب الغواية.

ف ﴿إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله﴾ ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً فحين انسلخوا من ولاية الرحمن، واستحبوا ولاية الشيطان، حصل لهم النصيب الوافر من الخذلان، ووكلوا إلى أنفسهم فخسروا أشد الخسران. وهم يحسبون أنهم مهتدون، لأنهم انقلبت عليهم الحقائق، فظنوا الباطل حقاً والحق باطلاً، وفي هذه الآيات دليل على أن الأوامر والنواهي تابعة للحكمة والمصلحة، حيث ذكر تعالى أنه لا يتصور أن يأمر بما تستفحشه وتنكره العقول، وأنه لا يأمر إلا



بالعدل والإخلاص، وفيه دليل على أن الهداية بفضل الله ومته، وأن الضلالة بخذلانه للعبد، إذا تولى - بجعله وظلمه - الشيطان، وتسبب لنفسه بالضلال، وأن من حسب أنه مهتد وهو ضال، أنه لا عذر له، لأنه متمكن من الهدى، وإنما آتاه حسبانته من ظلمه بترك الطريق الموصل إلى الهدى.

﴿٣١﴾ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين يقول تعالى - بعدما أنزل على بني آدم لباساً يوارى سواهم وریشاً: ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ أي: استروا عورتكم عند الصلاة كلها، فرضها ونفلها، فإن سترها زينة للبدن، كما أن كشفها يدع البدن قبيحاً مشوهاً.

ويحتمل أن المراد بالزينة هنا ما فوق ذلك من اللباس النظيف الحسن، ففي هذا الأمر بستر العورة في الصلاة، وبإستعمال التجميل فيها، ونظافة البستر من الأذناس والأنجاس.

ثم قال: ﴿وكلوا واشربوا﴾ أي: مما رزقكم الله من الطيبات ﴿ولا تسرفوا﴾ في ذلك، والإسراف إما أن يكون بالزيادة على القدر الكافي والشرة في المأكولات الذي يضر بالجسم، وإما أن يكون بزيادة الترفه والتثوق في المأكول والمشارب واللباس، وإما بتجاوز

الحلال إلى الحرام. البكار التي تستفحش وتستقبح لشاعتها وقبحها، وذلك كالزنا واللواط ونحوهما.

وقوله: ﴿ما ظهر منها وما بطن﴾ أي: الفواحش التي تتعلق بحركات البدن، والتي تتعلق بحركات القلوب، كالكبر والعجب والرياء والنفاق، ونحو ذلك، ﴿والإثم والبغي بغير الحق﴾ أي: الذنوب التي تؤثم وتوجب العقوبة في حقوق الله، والبغي على الناس في دماءهم وأموالهم وأعراضهم، فدخل في هذا الذنوب المتعلقة بحق الله، والمتعلقة بحق العباد.

﴿وأن تشرکوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾ أي: حجة، بل أنزل الحجة والبرهان على التوحيد. والشرك هو أن يشرك مع الله في عبادته أحد من الخلق، وربما دخل في هذا الشرك الأصغر كالرياء، والحلف بغير الله، ونحو ذلك.

﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعة، فكل هذه قد حرّمها الله، ونهى العباد عن تعاطيها، لما فيها من المفساد الخاصة والعامة، ولما فيها من الظلم والتجري على الله، والاستطالة على عباد الله، وتغيير دين الله وشرعه.

﴿٣٤﴾ ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ أي: وقد أخرج الله بني آدم إلى الأرض، وأسكنهم فيها، وجعل لهم أجلاً مسمى لا تتقدم أمة من الأمم على وقتها المسمى، ولا تأخر، لا الأمم المجتمعة ولا أفرادها.

﴿٣٥-٣٦﴾ يا بني آدم إنا أنزلناكم من قبلنا منكم بقصص عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ لما أخرج الله بني آدم من الجنة، ابتلاهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب عليهم يقصصون عليهم آيات الله ويبينون لهم

الحلال إلى الحرام. ﴿إنه لا يحب المسرفين﴾ فإن السرف يبغضه الله، ويضر بدن الإنسان ومعيشته، حتى إنه ربما أدت به الحال إلى أن يعجز عما يجب عليه من النفقات، ففي هذه الآية الكريمة الأمر بتناول الأكل والشرب، والنهي عن تركهما، وعن الإسراف فيهما.

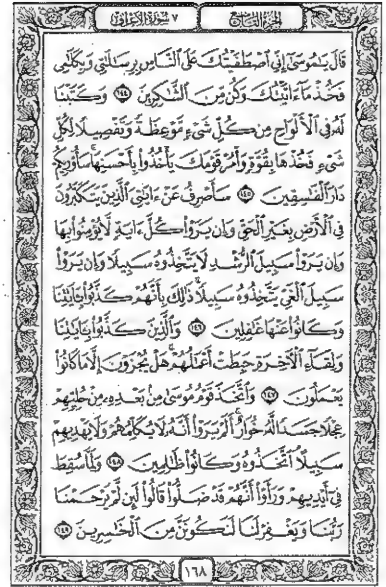
﴿٣٢-٣٣﴾ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك تفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشرکوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعملون﴾ يقول تعالى منكراً على من تعنت، وحرم ما أحل الله من الطيبات ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده﴾ من أنواع اللباس على اختلاف أصنافه، والطيبات من الرزق، من مأكول ومشرب بجميع أنواعه، أي: من هذا الذي يقدم على تحريم ما أنعم الله بها على العباد، ومن ذا الذي يضيق عليهم ما وسعه الله!!!

وهذا التوسيع من الله لعباده بالطيبات، جعله لهم ليستعينوا به على عبادته، فلم يبيحه إلا لعباده المؤمنين، ولهذا قال: ﴿قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾ أي: لا تبعة عليهم فيها.

ومفهوم الآية أن من لم يؤمن بالله، بل استعان بها على معاصيه، فإنها غير خالصة له ولا مباحة، بل يعاقب عليها وعلى التنعم بها، ويسأل عن النعيم يوم القيامة.

﴿كذلك تفصل الآيات﴾ أي: نوضحها ونبينها ﴿للقوم يعلمون﴾ لأنهم الذين ينتفعون بما فضله الله من الآيات، ويعلمون أنها من عند الله، فيعقلونها ويفهمونها.

ثم ذكر المحرمات التي حرمها الله في كل شريعة من الشرائع فقال: ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش﴾ أي: الذنوب



الظاهرة والباطنة ما لا يحصى المحصون، ولا يعده العادون، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ﴿أي﴾: ليس في نفوسنا قابلية للهدى، لولا أنه تعالى من هدايته واتباع رسله.

﴿لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ أي: حين كانوا يتمتعون بالنعيم الذي أخبرت به الرسل، وصار حق يقين لهم بعد أن كان علم يقين [لهم]، قالوا لقد تحققنا، وأرأينا ما وعدتنا به الرسل، وأن جميع ما جاؤوا به حق اليقين، لا مزية فيه ولا إشكال، ﴿ونودوا﴾ تهينة لهم وإكراماً، وتحية واحتراماً، ﴿أن تلکم الجنة أورشموها﴾ أي: كنتم الوارثين لها، وصارت إقطاعاً لكم، إذ كان إقطاع الكفار النار، أورشموها ﴿بما كنتم تعملون﴾.

قال بعض السلف: أهل الجنة نجوا من النار بعفو الله، وأدخلوا الجنة برحمة الله، واقتسموا المنازل وورثوها بالأعمال الصالحة، وهي من رحمته، بل من أعلى أنواع رحمته.

﴿٤٤ - ٤٥﴾ ﴿ونادي أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين﴾ الذين يصدون عن سبيل الله ويففون عوجاً وهم بالآخرة كافرون ﴿يقول تعالى لما ذكر استقرار كل من الفريقين في الدارين، ووجدوا ما أخبرت به الرسل ونطقت به الكتب، من الثواب والعقاب، أن أهل الجنة نادوا أصحاب النار بأن قالوا: ﴿أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً﴾ حين وعدنا على الإيمان والعمل الصالح الجنة، فأدخلناها، وأرأنا ما وصفه لنا ﴿فهل وجدتم ما وعد ربكم﴾ على الكفر والمعاصي ﴿حقاً قالوا نعم﴾ قد وجدناه حقاً، فتبين للخلق كلهم، بياناً لا شك فيه، صدق وعد الله، ومن أصدق من الله قيلاً، ودغبت عنهم الشكوك والشبه، وصار الأمر حق اليقين، وفرح المؤمنون بوعده الله واغتبطوا، وأيس الكفار من الخير، وأقروا على

الحال أن تتقي الله بحسب استطاعتها، وإذا عجزت عن بعض الواجبات التي يقدر عليها غيرها سقطت عنها، كما قال تعالى: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾. لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾. فاتقوا الله ما استطعتم ﴿فلا واجب مع العجز، ولا محرم مع الضرورة﴾.

﴿أولئك﴾ أي: المتصفون بالإيمان والعمل الصالح ﴿أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ أي: لا يتحولون عنها ولا يبعثون بها بدلاً، لأنهم يرون فيها من أنواع اللذات وأصناف المشتهايات ما تقف عنده الغايات، ولا يطلب أعلى منه.

﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ وهذا من كرمه وإحسانه على أهل الجنة، أن الغل الذي كان موجوداً في قلوبهم، والتنافس الذي بينهم، أن الله يقلعه ويزيله حتى يكونوا إخواناً متحابين، وأخلاء متصافين.

قال تعالى: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين﴾ ويخلق الله لهم من الكرامة ما به يحصل لكل واحد منهم الغبطة والسرور، ويرى أنه لا فوق ما هو فيه من النعيم نعيم، فبهذا يأمنون من التحاسد والتباغض، لأنه قد فقدت أسبابه.

وقوله: ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ أي: يفجرونها تفجيراً، حيث شاءوا، وأيسن أرادوا، إن شاءوا في خلال القصور، أو في تلك الغرف العاليات، أو في رياض الجنات، من تحت تلك الحدائق الزاهرات أنهار تجري في غير أخذود، وخيرات ليس لها حد محدود ﴿و﴾ لهذا لما رأوا ما أنعم الله عليهم وأكرمهم به ﴿قالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾ بأن من علينا وأوحى إلى قلوبنا، فأمنت به، وانقادت للأعمال الموصلة إلى هذه الدار، وحفظ الله علينا إيماننا وأعمالنا، حتى أوصلنا بها إلى هذه الدار، فنعم الرب الكريم، الذي ابتدأنا بالنعيم، وأسدى من النعم

وماواه النار ﴿وقال هنا وكذلك نجزي المحرمين﴾ أي: الذين كثر إجرامهم واشتد طغيانهم.

﴿لهم من جهنم مهاد﴾ أي: فراش من تحتهم ﴿ومن فوقهم غواش﴾ أي: ظلل من العذاب، تغشاهم. ﴿وكذلك نجزي الظالمين﴾ لأنفسهم، جزاء وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد.

﴿٤٢ - ٤٣﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا تكلف نفساً إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلکم الجنة أورشموها بما كنتم تعملون ﴿لما ذكر الله تعالى عقاب العاصين الظالمين، ذكر ثواب المطيعين فقال: ﴿والذين آمنوا﴾ بقلوبهم ﴿وعملوا الصالحات﴾ بجوارحهم، فجمعوا بين الإيمان والعمل، بين الأعمال الظاهرة والأعمال الباطنة، بين فعل الواجبات وترك المحرمات، ولما كان قوله: ﴿وعملوا الصالحات﴾ لفظاً عاماً يشمل جميع الصالحات الواجبة والمستحبة، وقد يكون بعضها غير مقدور للعبيد، قال تعالى: ﴿لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾ أي: بمقدار ما تسعه طاقتها، ولا يعسر على قدرتها، فعليها في هذه

إلى أن قال: ﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون﴾ * على الأرائك ينظرون ﴿واختلف أهل العلم والمفسرون، من هم أصحاب الأعراف، وما أعمالهم؟

والصحيح في ذلك، أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فلا رجحت سيئاتهم فدخلوا النار، ولا رجحت حسناتهم فدخلوا الجنة، فصاروا في الأعراف ما شاء الله، ثم إن الله تعالى يدخلهم برحمة الجنة، فإن رحمة تسبق وتغلب غضبه، ورحمة وسعت كل شيء.

﴿٥٠ - ٥٣﴾ * ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين * الذين اتخذوا ديتهم لهواً ولعباً وغرّبهم الحياة الدنيا فاليوم ننسأهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يمحذون * ولقد جفتاهم بكتاب فضّلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون * هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نردّ فعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وقصّل عنهم ما كانوا يفترون * أي: ينادي أصحاب النار أصحاب الجنة، حين يبلغ منهم العذاب كل مبلغ، وحين يمسه الجوع المفرط والظمأ المومع، يستغيثون بهم، فيقولون: ﴿أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله﴾ من الطعام، فأجابهم أهل الجنة بقولهم: ﴿إن الله حرمهما﴾ أي: ماء الجنة وطعامها ﴿على الكافرين﴾ وذلك جزاء لهم على كفرهم بآيات الله، واتخاذهم دينهم الذي أمروا أن يستقيموا عليه، ووعدوا بالجزاء الجزيل عليه.

﴿لهواً ولعباً﴾ أي: لهت قلوبهم وأعرضت عنه، ولعبوا واتخذوه سخرياً، أو أنهم جعلوا بدل دينهم اللهو واللعب، واستعاضوا بذلك عن

يطمعون في دخولها، ولم يجعل الله الطمع في قلوبهم إلا لما يريد بهم من كرامته.

﴿وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار﴾ ورأوا منظرأً شنيعاً، وهو لا فظيلاً ﴿قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾ فأهل الجنة. إذا رآهم أهل الأعراف^(١) يطمعون أن يكونوا معهم في الجنة، ويحيونهم ويسلمون عليهم، وعند انصراف أبصارهم بغير اختيارهم لأهل النار، يستجيرون بالله من حالهم هذا على وجه العموم.

ثم ذكر الخصوص بعد العموم فقال: ﴿ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم﴾ وهم من أهل النار، وقد كانوا في الدنيا لهم أبهة وشرف، وأموال وأولاد، فقال لهم أصحاب الأعراف، حين رأوهم منفردين في العذاب، بلا ناصر ولا منيئ: ﴿ما أغنى عنكم جمعكم﴾ في الدنيا، الذي تستدفعون به المكارة، وتتوسلون به إلى مطالبكم في الدنيا، فاليوم اضمحل، ولا أغنى عنكم شيئاً، وكذلك، أي شيء نفعكم استكباركم على الحق وعلى من جاء به وعلى من اتبعه، ثم أشاروا لهم إلى أناس من أهل الجنة كانوا في الدنيا فقراء ضعفاء يستهزئ بهم أهل النار، فقالوا لأهل النار: ﴿أهؤلاء﴾ الذين أدخلهم الله الجنة ﴿الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمته﴾ احتقاراً لهم وازدراء وإعجاباً بأنفسكم، قد حثثتم في إيمانكم، وبدا لكم من الله ما لم يكن لكم في حساب، ﴿ادخلوا الجنة﴾ بما كنتم تعملون، أي: قيل لهؤلاء الضعفاء إكراماً واحتراماً: ادخلوا الجنة بأعمالكم الصالحة ﴿لا خوف عليكم﴾ فيما يستقبل من المكارة ﴿ولا أنتم تحزنون﴾ على ما مضى، بل آمنون مطمئنون فرحون بكل خير.

وهذا كقوله تعالى: ﴿إن الذين أجزموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون﴾ وإذا مروا بهم يتغامزون

أنفسهم بأنهم مستحقون للعذاب. ﴿فأذن مؤذن بينهم﴾ أي: بين أهل النار وأهل الجنة، بأن قال ﴿إن لعنة الله﴾ أي: بعده وإقصاؤه عن كل خير ﴿على الظالمين﴾ إذ فتح الله لهم أبواب رحمته، فصدفوا أنفسهم عنها ظلماً، وصددوا عن سبيل الله بأنفسهم، وصددوا غيرهم، فضلوا وأضلوا.

والله تعالى يريد أن تكون مستقيمة، ويعتدل سير السالكين إليه، ﴿و﴾ هؤلاء يريدونها ﴿عوجاً﴾ منحرفة صادة عن سواء السبيل، ﴿وهم﴾ بالآخرة كافرون ﴿وهذا الذي أوجب لهم الانحراف عن الصراط، والإقبال على شهوات النفوس المحرمة، عدم إيمانهم بالبعث، وعدم خوفهم من العقاب ورجائهم للثواب، ومفهوم هذا النداء أن رحمة الله على المؤمنين وبره شامل لهم، وإحسانه متواتر عليهم.

﴿٤٦ - ٤٩﴾ * وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون * وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين * ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون * أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمته ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون * أي: وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار حجاب يقال له: ﴿الأعراف﴾ لا من الجنة ولا من النار، يشرف على الدارين، وينظر من عليه حال الفريقين، وعلى هذا الحجاب رجال يعرفون كلا من أهل الجنة والنار بسيماهم، أي: علاماتهم، التي بها يعرفون ويميزون، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوهم ﴿أن سلام عليكم﴾ أي: يحيونهم ويسلمون عليهم، وهم - إلى الآن - لم يدخلوا الجنة، ولكنهم

الدين القيم.

﴿وَعَرَّضْنَاهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ يزيئها وزخرفها وكثرة دعائها، فاطمأنوا إليها ورضوا بها وفرحوا، وأعرضوا عن الآخرة ونسوها.

﴿فَالْيَوْمَ نُنْصَاهُمْ﴾ أي: نتركهم في العذاب ﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ فكأنهم لم يخلقوا إلا للدنيا، وليس أمامهم عرض ولا جزاء.

﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْجِدُونَ﴾ والحال أن جحودهم هذا لا عن قصور في آيات الله وبيئته، بل قد جئتاهم بكتاب فصلناه ﴿أَي:﴾ بينا فيه جميع المطالب التي يحتاج إليها الخلق ﴿عَلَى﴾ علمهم من الله بأحوال العباد في كل زمان ومكان، وما يصلح لهم وما لا يصلح، ليس تفصيله تفصيل غير عالم بالأمور، فتجمله بعض الأحوال، فيحكم حكماً غير مناسب، بل تفصيل من أحاط علمه بكل شيء، ووسعت رحمته كل شيء.

﴿هَذِهِ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: تحصل للمؤمنين بهذا الكتاب الهداية من الضلال، وبيان الحق والباطل، والغني والرشد، ويحصل أيضاً لهم به الرحمة، وهي: الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، فينتفي عنهم بذلك الضلال والشقاء.

وهؤلاء الذين حق عليهم العذاب، لم يؤمنوا بهذا الكتاب العظيم، ولا انتقادوا لأوامره ونواهيه، فلم يبق فيهم حيلة إلا استحقاقهم أن يحل بهم ما أخبر به القرآن.

ولهذا قال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أي: وقوع ما أخبر به، كما قال يوسف عليه السلام حين وقعت رؤياه: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلِ﴾.

﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسَوْهُ مِنْ قَبْلِ﴾ متندمين متأسفين على ما مضى منهم، متشفعين في مغفرة ذنوبهم. مفرين بما أخبرت به الرسل: ﴿قَدْ جَاءَتْ وَبَلِّغْنَا بِالْحَقِّ فَبُلْ لَنَا مِنْ شَفْعَاءَ فَيُشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدِّ﴾ إلى الدنيا ﴿فَنُصَمِّلُ﴾ فنصمِّلُ غير الذي كنا نصمِّلُ. وقد فات الوقت عن الرجوع إلى الدنيا.

﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾.

وسؤالهم الرجوع إلى الدنيا، ليعملوا غير عملهم كذب منهم، مقصودهم به دفع ما حل بهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لَمَا نَهَوَا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ حين فوتوها الأرباح، وسلكوا بها سبيل الهلاك، وليس ذلك كخسران الأموال والأثاث أو الأولاد، إنما هذا خسران لا جبران لمصابه، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ في الدنيا مما تمنينهم أنفسهم به، ويعددهم به الشيطان، قدموا على ما لم يكن لهم في حساب، وتبين لهم باطلهم وضلالهم، وصدق ما جاءتهم به الرسل.

﴿٥٤﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجْمُ مَسْخَرَاتُ بَأْمَرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ يقول تعالى مبيناً أنه الرب المعبود وحده لا شريك له: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وما فيهما على عظمتهما وسعتهما، وإحكامهما وإتقانها، وبديع خلقهما.

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، فلما قضاهما وأودع فيهما من أمره ما أودع ﴿اسْتَوَىٰ﴾ تبارك وتعالى ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ العظيم الذي يسع السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، استوى استواء يليق بجلاله وعظمته وسلطانه، فاستوى على العرش، واحتوى على الملك، ودبر الممالك، وأجرى عليهم أحكامه الكونية، وأحكامه الدينية، ولهذا قال: ﴿يَغْشَى اللَّيْلُ الْمَظْلَمَ﴾ النهار المضيء، فيظلم ما على وجه الأرض، ويسكن الآدميون، وتأوي المخلوقات إلى مساكنها، ويستريحون من التعب والذهاب والإياب الذي حصل لهم في النهار.

﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ كلما جاء الليل ذهب النهار، وكلما جاء النهار ذهب

الليل، وهكذا أبداً على الدوام، حتى يطوي الله هذا العالم، ويتنقل العباد إلى دار غير هذه الدار.

﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجْمُ مَسْخَرَاتُ بَأْمَرِهِ﴾ أي: بتسخيره وتبديره، الدال على ماله من أوصاف الكمال، فخلقها وعظمها دال على كمال قدرته، وما فيها من الإحكام والانتظام والإتقان دال على كمال حكمته، وما فيها من المنافع والمصالح الضرورية وما دونها دال على سعة رحمته وذلك دال على سعة علمه، وأنه الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له.

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ أي: له الخلق الذي صدرت عنه جميع المخلوقات علويها وسفليها، أعيانها وأوصافها وأفعالها، والأمر المتضمن للشرائع والنبوات، فالخلق: يتضمن أحكامه الكونية القدريّة، والأمر: يتضمن أحكامه الدينية الشرعية، وثم أحكام الجزاء، وذلك يكون في دار البقاء، ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ﴾ أي: عظم وتعالى وكثر خيره وإحسانه، فتبارك في نفسه لعظمته أوصافه وكمالها، وبارك في غيظه بإحلال الخير الجزيل والبر الكثير، فكل بركة في الكون، فمن آثار رحمته، ولهذا قال: ﴿فَ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

ولما ذكر من عظمته وجلاله ما يذل ذوي الألباب على أنه وحده، المعبود المقصود في الحوائج كلها، أمر بما يترتب على ذلك، فقال:

﴿٥٥-٥٦﴾ ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿الدَّعَاءُ﴾ يدخل فيه دعاء المسألة، ودعاء العبادة، فأمر بدعائه ﴿تَضَرُّعًا﴾ أي: إلحاحاً في المسألة، ودؤوباً في العبادة، ﴿وَخُفْيَةً﴾ أي: لا جهرًا وعلانية يخاف منها الرياء، بل خفية وإخلاصاً لله تعالى.

﴿إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي: المتجاوزين للحد في كل الأمور، ومن الاعتداء كون العبد يسأل الله مسائل

أي: الرياح المبشرات بالغيث، التي تثيره بإذن الله من الأرض، فيستبشر الخلق برحمة الله، وترتاح لها قلوبهم قبل نزوله.

﴿حتى إذا أقلت﴾ الرياح ﴿سحاباً ثقالاً﴾ قد أثاره بعضها، وألفه ريح أخرى، وألقحه ريح أخرى ﴿سقناه لبلد ميت﴾ قد كادت تهلك حيواناته، وكاد أهله أن يياسوا من رحمة الله، ﴿فأنزلنا به﴾ أي: بذلك البلد الميت ﴿الماء﴾ الغزير من ذلك السحاب وسخر الله له ريحاً تدره وتفرقه بإذن الله.

﴿فأخرجنا به من كل الثمرات﴾ فأصبحوا مستبشرين برحمة الله، راتعين بخير الله، وقوله: ﴿كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون﴾ أي: كما أحيينا الأرض بعد موتها بالنبات، كذلك نخرج الموتى من قبورهم، بعدما كانوا رفاتاً متمزقين، وهذا استدلال واضح، فإنه لا فرق بين الأمرين، فمنكر البعث استبعاداً له - مع أنه يرى ما هو نظيره - من باب العناد، وإنكار المحسوسات.

وفي هذا الحث على التذكر والتفكير في آلاء الله، والنظر إليها بعين الاعتبار والاستدلال، لا بعين الغفلة والإهمال.

﴿٥٨﴾ ثم ذكر تفاوت الأراضي، التي ينزل عليها المطر، فقال: ﴿والبلد الطيب﴾ أي: طيب التربة والمادة، إذا نزل عليه مطر ﴿يخرج نباته﴾ الذي هو مستعد له ﴿بإذن ربه﴾ أي: بإرادة الله ومشيئته، فليست الأسباب مستقلة بوجود الأشياء، حتى يأذن الله بذلك. ﴿والذي خبيث﴾ من الأراضي ﴿لا يخرج إلا نكدا﴾ أي: إلا نباتاً خاساً لا نفع فيه ولا بركة.

﴿كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون﴾ أي: ننوعها ونبينها ونضرب فيها الأمثال ونسوقها لقوم يشكرون الله بالاعتراف بنعمة، والإقرار بها، وصرفها في مرضاة الله،

لا تصلح له، أو يتنطق في السؤال، أو يبلغ في رفع صوته بالدعاء، فكل هذا داخل في الاعتداء المنهي عنه.

﴿ولا تفسدوا في الأرض﴾ بعمل المعاصي ﴿بعد إصلاحها﴾ بالطاعات، فإن المعاصي تفسد الأخلاق والأعمال والأرزاق، كما قال تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس﴾ كما أن الطاعات تصلح بها الأخلاق، والأعمال، والأرزاق، وأحوال الدنيا والآخرة.

﴿وادعوه خوفاً وطمعاً﴾ أي: خوفاً من عقابه، وطمعاً في ثوابه، طمعاً في قبولها، وخوفاً من ردها، لا دعاء عبد مدل على ربه قد أعجبته نفسه، ونزل نفسه فوق منزلته، أو دعاء من هو غافل لاه.

وحاصل ما ذكر الله من آداب الدعاء: الإخلاص فيه لله وحده، لأن ذلك يتضمنه الخفية، وإخفاؤه وإسراره، وأن يكون القلب خائفاً طامعاً لا غافلاً، ولا آمناً ولا غير مبال بالإجابة، وهذا من إحسان الدعاء، فإن الإحسان في كل عبادة بذل الجهد فيها، وأداؤها كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه، ولهذا قال: ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ في عبادة الله، المحسنين إلى عباد الله، فكلما كان العبد أكثر إحساناً، كان أقرب إلى رحمة ربه، وكان ربه قريباً منه برحمته، وفي هذا من الحث على الإحسان ما لا يخفى.

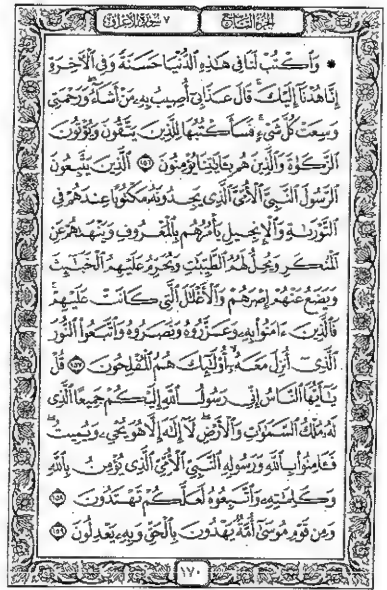
﴿٥٧ - ٥٨﴾ ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون﴾ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبيث لا يخرج إلا نكداً كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون﴾ يبين تعالى أثراً من آثار قدرته، ونفحة من نفحات رحمته فقال: ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾



فهم الذين ينتفعون بما فصل الله في كتابه من الأحكام والمطالب الإلهية، لأنهم يرونها من أكبر النعم الواصلة إليهم من ربهم، فيتلقونها مفقدين إليها فرحين بها، فيتدبرونها ويتأملونها، فيبين لهم من معانيها بحسب استعدادهم، وهذا مثال للقلوب حين ينزل عليها الوحي الذي هو مادة الحياة، كما أن الغيث مادة الحياة، فإن القلوب الطيبة حين يحييها الوحي، تقبله وتعلمه وتثبت بحسب طيب أصلها، وحسن عنصرها.

وأما القلوب الخبيثة التي لا خير فيها، فإذا جاءها الوحي لم يجد محلاً قابلاً، بل يجدها غافلة معرضة، أو معارضة، فيكون كالطر الذي يمر على السباخ والرمال والصخور، فلا يؤثر فيها شيئاً، وهذا كقوله تعالى: ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً﴾ الآيات.

﴿٥٩ - ٦٤﴾ ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ إلى آخر القصة^(١) لما ذكر تعالى من أدلة توحيده جملة صالحة، أيد ذلك بذكر ما جرى للأنبياء الداعين إلى توحيده مع أهم المنكرين لذلك، وكيف أيد الله أهل التوحيد، وأهلك من عاندتهم ولم ينقد لهم، وكيف اتفقت دعوة المرسلين على دين واحد



ومعتقد واحد، فقال عن نوح - أول المرسلين - ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ يدعوهم إلى عبادة الله وحده، حين كانوا يعبدون الأوثان ﴿فقال﴾ لهم: ﴿يا قوم اعبدوا الله﴾ أي: وحده ﴿مالكم من إله غيره﴾ لأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، وما سواه مخلوق مدبر، ليس له من الأمر شيء، ثم خزفهم إن لم يطيعوه عذاب الله، فقال: ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ وهذا من نصحه عليه الصلاة والسلام وشفقته عليهم، حيث خاف عليهم العذاب الأبدي، والشقاء السرمدي، كإخوانه من المرسلين الذين يشفقون على الخلق أعظم من شفقة آبائهم وأمهاتهم، فلما قال لهم هذه المقالة، ردوا عليه أقيح رد.

﴿٦٠﴾ ﴿قال الملأ من قومه﴾ أي: الرؤساء الأغنياء المتبعون الذين قد جرت العادة باستكبارهم على الحق، وعدم انقيادهم للرسول، ﴿إنا لنراك في ضلال مبين﴾ فلم يكفهم - قبحهم الله - أنهم لم ينقادوا له، بل استكبروا عن الانقياد له، وقدحوا فيه أعظم قدح، ونسبوه إلى الضلال، ولم يكتفوا بمجرد الضلال حتى جعلوه ضلالاً مبيناً، واضحاً لكل أحد. وهذا من أعظم أنواع المكابرة، التي

لا تروج على أضعف الناس عقلاً، وإنما هذا الوصف منطبق على قوم نوح، الذين جاؤوا إلى أصنام قد صوروها ونحتوها بأيديهم، من الجمادات التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تغني عنهم شيئاً، فنزلوها منزلة فاطر السماوات، وصرفوا لها ما أمكنهم من أنواع القربات، فلولا أن لهم أذهاناً تقوم بها حجة الله عليهم، لحكم عليهم بأن المجانين أهدى منهم، بل هم أهدى منهم وأ عقل، فرد نوح عليهم رداً لطيفاً، وترقق لهم لعلمهم ينقادون له فقال: ﴿يا قوم ليس بي ضلالة﴾ أي: لست ضالاً في مسألة من المسائل بوجه من الوجوه، وإنما أنا هاد مهتد، بل هدايته عليه الصلاة والسلام من جنس هداية إخوانه أولي العزم من المرسلين، أعلى أنواع الهدايات وأكملها وأتمها، وهي هداية الرسالة التامة الكاملة، ولهذا قال: ﴿ولكني رسول من رب العالمين﴾ أي: ربي وربكم ورب جميع الخلق، الذي ربي جميع الخلق بأنواع التربية، الذي من أعظم تربيته أن أرسل إلى عباده رسلاً تأمرهم بالأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والعقائد الحسنة وتنبهاهم عن أضدادها، ولهذا قال: ﴿أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم﴾ أي: وظيفتي تبليغكم، ببيان توحيد وأوامره ونواهيه، على وجه النصيحة لكم والشفقة عليكم، ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ فالذي يتعين أن تطيعوني وتنقادوا لأمري إن كنتم تعلمون، ﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم﴾ أي: كيف تعجبون من حالة لا ينبغي العجب منها، وهو أنه جاءكم التذكير والموعظة والنصيحة، على يد رجل منكم، تعرفون حقيقة وصدقه وحاله!!

فهذه الحال من عناية الله بكم وبره وإحسانه الذي يتلقى بالقبول والشكر، وقوله: ﴿لينذركم ولتتقوا، ولعلكم ترحون﴾ أي: لينذركم العذاب

الأيام، وتفعّلوا الأسباب المنجية من استعمال تقوى الله ظاهراً وباطناً، وبذلك تحصل عليهم وتنزل رحمة الله الواسعة، فلم ينفذ فيهم، ولا نجح ﴿فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك﴾ أي: السفينة التي أمر الله نوحاً عليه الصلاة والسلام بصنعها، وأوحى إليه أن يحمل من كل صنف من الحيوانات، زوجين اثنين وأهله ومن آمن معه، فحملهم فيها ونجاهم الله بها.

﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين﴾ عن الهدى، أبصروا الحق، وأراهم الله - على يد نوح - من الآيات البينات، ما بهم يؤمن أولوا الأبواب، فسخرها منه، واستهزؤا به وكفروا.

﴿٦٥ - ٧٢﴾ ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً﴾ إلى آخر القصة^(١). أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى عاد﴾ الأولى، الذين كانوا في أرض اليمن ﴿أخاهم﴾ في النسب ﴿هوداً﴾ عليه السلام، يدعوهم إلى التوحيد وينهاهم عن الشرك والطغيان في الأرض.

﴿قال﴾ لهم: ﴿يا قوم اعبدوا الله مالهكم من إله غيره أفلا تتقون﴾ سخطه وعذابه، إن أقمتهم على ما أنتم عليه، فلم يستجيبوا ولا انقادوا.

﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ رادين لدعوته، قادحين في رأيه: ﴿إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين﴾ أي: ما نراك إلا سفيهاً غير رشيد، ويغلب على ظننا أنك من جملة الكاذبين، وقد انقلبت عليهم الحقيقة، واستحكم عماهم حيث رموا نبيهم عليه السلام بما هم متصفون به، وهو أبعد الناس عنه، فإنهم السفهاء حقاً الكاذبون.

وأي سفه أعظم ممن قابل أحق الحق بالرد والإنكار، وتكبر عن الانقياد للمرشدين والنصحاء، وانقاد قلبه وقالبه لكل شيطان مريد، ووضع العبادة في غير موضعها، فعبد من

لا يغني عنه شيئاً من الأشجار والأحجار!!؟

وأني كذب أبلغ من كذب من نسب هذه الأمور إلى الله تعالى!!؟

قال يا قوم ليس بي سفاهة بوجه من الوجوه، بل هو الرسول المرشد الرشيد، ولكنني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين.

فالأوجب عليكم أن تعلقوا ذلك بالقبول والالتقاء وطاعة رب العباد.

أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم؟ أي: كيف تعجبون من أمر لا يتعجب منه، وهو أن الله أرسل إليكم رجلاً منكم تعرفون أمره، يذكركم بما فيه مصالحكم، ويحذركم على ما فيه النفع لكم، فتعجبتم من ذلك تعجب المنكرين.

واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح، أي: واحمدوا ربكم واشكروه، إذ مكن لكم في الأرض، وجعلكم تحلفون الأمم الهالكة الذين كذبوا الرسل، فأهلكهم الله وأبقاكم، لينظر كيف تعملون، واحذروا أن تقيموا على التكذيب كما أقاموا، فيصيبكم ما أصابهم، واذكروا نعمة الله عليكم التي خصكم بها، وهي أن زادكم في الخلق بسطة، في القوة وكبر الأجسام، وشدة البطش، فاذكروا آلاء الله، أي: نعمه الواسعة، وأياديه المتكررة لعلمكم.

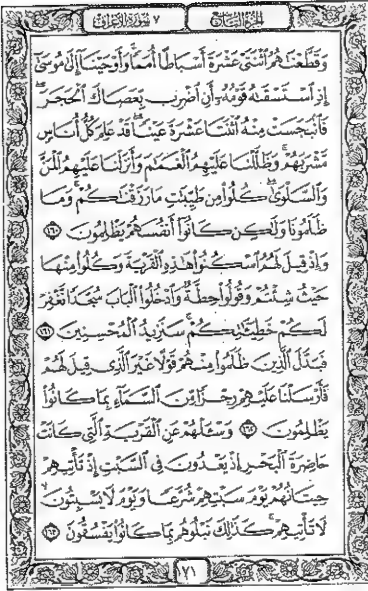
إذا ذكرتموها بشكرها وأداء حقها تفلقون، أي: تفوزون بالمطلوب، وتنجون من المهوب، فوعظهم وذكرهم، وأمرهم بالتوحيد، وذكر لهم وصف نفسه، وأنه ناصح أمين، وحذرهم أن يأخذهم الله كما أخذ من قبلهم، وذكرهم نعم الله عليهم وإدراك الأرزاق إليهم، فلم ينقادوا ولا استجابوا.

فقالوا متعجبين من دعوته، وخبرين له أنهم من المحال أن يطيعوه:

«أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آبائنا» فبهم الله، جعلوا الأمر الذي هو أوجب الواجبات وأكمل الأمور، من الأمور التي لا يعارضون بها ما وجدوا عليه آباءهم، فقدّموا ما عليه الآباء الضالون من الشرك وعبادة الأصنام، على ما دعت إليه الرسل من توحيد الله وحده لا شريك له، وكذبوا بنبيهم، وقالوا: «فأئتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين» وهذا استفتاح منهم على أنفسهم.

فقال لهم هود عليه السلام: «قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب» أي: لا بد من وقوعه، فإنه قد انعقدت أسبابه، وخان وقت الهلاك «أتجادلونني في أسماء سميتوها أنتم وآبائكم» أي: كيف تجادلون على أمور لا حقائق لها، وعلى أصنام سميتوها آلهة، وهي لا شيء من الآلهة فيها، ولا مثقال ذرة و«ما نزل الله بها من سلطان» فإنها لو كانت صحيحة لأنزل الله بها سلطاناً، فعدم إنزاله له دليل على بطلانها، فإنه ما من مطلوب ومقصود - وخصوصاً الأمور الكبار - إلا وقد بين الله فيها من الحجج ما يدل عليها، ومن السلطان ما لا تخفى معه «فانتظروا» ما يقع بكم من العقاب، الذي وعدتكم به «إني معكم من المنتظرين» وفرق بين الانتظرين، ومن انتظار من يخشى وقوع العقاب، ولهذا يرجو من الله النصر والثواب، ولهذا فتح الله بين الفريقين فقال: «فأنجيناه» أي: هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا، فإنه الذي هداهم للإيمان، وجعل إيمانهم سبباً ينالون به رحته فأنجاهم برحمته، وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا.

أي: استأصلناهم بالعذاب الشديد الذي لم يبق منهم أحداً، وسلط الله عليهم الريح العقيم، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالريم، فأهلكوا فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، فانظر كيف كان عاقبة المنذرين الذين أقيمت



عليهم الحجج، فلم ينقادوا لها، وأمروا بالإيمان فلم يؤمنوا فكان عاقبتهم الهلاك، والخزي والفضيحة. «وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة، ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود».

وقال هنا: «وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين» بوجه من الوجوه، بل وصفهم التكذيب والعناد، ونعتهم الكبر والفساد.

٧٣ - ٧٩ «وإلى ثمود أخاهم صالحاً» إلى آخر قصتهم (١). أي: «و» أرسلنا «إلى ثمود» القبيلة المعروفة الذين كانوا يسكنون الحجر وما حوله من أرض الحجاز وجزيرة العرب، أرسل الله إليهم «أخاهم صالحاً» نبياً يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد، وينهاهم عن الشرك والتنديد، ف«قال يا قوم اعبدوا الله مالم يكمن من إله غيره» دعوته عليه الصلاة والسلام من جنس دعوة إخوانه من المرسلين، الأمر بعبادة الله، وبيان أنه ليس للعباد إله غير الله، «قد جاءكم بينة من ربكم» أي: خارق من خوارق العادات، التي لا تكون إلا آية سماوية لا يقدر الناس عليها، ثم فسرها بقوله: «هذه ناقة الله لكم آية» أي: هذه ناقة شريفة فاضلة لإضافتها

سلط عليكم عدواً يبتاعكم ولا فرقكم في الأرض، بل أنعم عليكم باجتماعكم، وإدراك الأرزاق وكثرة النسل.

﴿وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾ فإنكم لا تجدون في جموعهم إلا الشتات، ولا في ربوعهم إلا الوحشة والانبثات ولم يورثوا ذكراً حسناً، بل أتبعوا في هذه الدنيا لعنة، ويوم القيامة أشد خزيًا وقضية.

﴿وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا وهم الجمهور منهم﴾ فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴿فينصر الحق، ويوقع العقوبة على المبطل.

﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه﴾ وهم الأشراف والكبراء منهم الذين اتبعوا أهواءهم ولهاوا بلذاتهم، فلما أتاهم الحق ورأوه غير موافق لأهوائهم الرديئة، ردوه واستكبروا عنه، فقالوا لنبههم شعيب ومن معه من المؤمنين المستضعفين: ﴿لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا﴾ استعملوا قوتهم السبعية، في مقابلة الحق، ولم يراعوا ديناً ولا ذمة ولا حقاً، وإنما راعوا واتباعوا أهواءهم وعقولهم السفهية التي دلتهم على هذا القول الفاسد، فقالوا: إما أن ترجع أنت ومن معك إلى ديننا أو لنخرجنك من قريتنا.

ف «شعيب» عليه الصلاة والسلام كان يدعوهم طامعاً في إيمانهم، والآن لم يسلم من شرهم، حتى توعده إن لم يتابعهم - بالجلاء عن وطنه، الذي هو ومن معه أحق به منهم.

ف «قال» لهم شعيب عليه الصلاة والسلام متعجباً من قولهم: ﴿أو لو كنا كارهين﴾ أي: أننا نكرهكم على دينكم وملتكم الباطلة، ولو كنا كارهين لها لعلمنا ببطلانها، فإنما يدعى إليها من له نوع رغبة فيها، أما من يعلن بالنبهية عنها، والتشنيع على من اتبعها فكيف

﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾ أي: حجارة حارة شديدة، من سجيل، وجعل الله عاليها سافلها، ﴿فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ الهلاك والخزي الدائم.

﴿٨٥ - ٩٣﴾ ﴿وإلى مدين آحاهم شعيباً﴾... إلى آخر القصة^(٢) أي: ﴿و﴾ أرسلنا إلى القبيلة المعروفة بمدين ﴿آحاهم﴾ في النسب ﴿شعيباً﴾ يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويأمرهم بإيفاء المكيال والميزان، وأن لا يبخسوا الناس أشياءهم، وأن لا يعضوا في الأرض مفسدين، بالكثارة من عمل المعاصي، ولهذا قال: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴿فإن ترك المعاصي أمثالاً لأمر الله وتقرباً إليه خير، وأنفع للعبد من ارتكابها الموجب لسخط الجبار، وعذاب النار.

﴿ولا تقعدوا﴾ للناس ﴿بكل صراط﴾ أي: طريق من الطرق التي يكثر سلوكها، تحذرون الناس منها و ﴿توعدون﴾ من سلوكها ﴿وتصدون﴾ عن سبيل الله ﴿من أراد الاهتداء به﴾ وتبينونها عوجاً ﴿أي: تبغون سبيل الله تكون معوجة، وتقبلونها اتباعاً لأهوائكم، وقد كان الواجب عليكم وعلى غيركم الاحترام والتعظيم للسبيل التي نصبها الله لعباده ليسلكوها إلى مرضاته ودار كرامته، ورحمهم بها أعظم رحمة، وتصدون لنصرتها والدعوة إليها، والذب عنها، لا أن تكونوا أنتم قطاع طريقتها، الصادين الناس عنها، فإن هذا كفر لنعمة الله ومحادة لله، وجعل أقوم الطرق وأعدلها مائلة، وتشنعون على من سلكها.

﴿واذكروا﴾ نعمة الله عليكم ﴿إذ كنتم قليلاً فكثركم﴾ أي: نماكم بما أنعم عليكم من الزوجات والنسل، والصحة، وأنه ما ابتلاكم ببوءاء أو أمراض من الأمراض المقللة لكم، ولا

الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا. وقد تقدم أنه لا يجوز تفسير كتاب الله بالأخبار الإسرائيلية، ولو على تجويز الرواية عنهم بالأمر التي لا يجوز بكذبها، فإن معاني كتاب الله يقينية، وتلك أمور لا تصدق ولا تكذب، فلا يمكن اتفاقهما.

﴿٨٠ - ٨٤﴾ ﴿ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ إلى آخر القصة^(١) أي: ﴿و﴾ اذكر عبدنا ﴿لوطاً﴾ عليه الصلاة والسلام، إذ أرسلناه إلى قومه يأمرهم بعبادة الله وحده، وينهاهم عن الفاحشة التي ما سبقهم بها أحد من العالمين، فقال: ﴿أتأتون الفاحشة﴾ أي: الخصلة التي بلغت - في العظم والشناعة - إلى أن استغرقت أنواع الفحش، ﴿ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ فكونها فاحشة من أشنع الأشياء، وكونهم ابتدعوها وابتكروها، وسنوها لمن بعدهم، من أشنع ما يكون أيضاً.

ثم بيّنها بقوله: ﴿إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء﴾ أي: كيف تذرون النساء اللاتي خلقهن الله لكم، وفيهن المستمتع الموافق للشهوة والفطرة، وتقبلون على أدبار الرجال، التي هي غاية ما يكون في الشناعة والحبيث، محل تخرج منه الإنسان والأخبار، التي يستحيى من ذكرها فضلاً عن ملامستها وقربها، ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ أي: متجاوزون لما حده الله متجرئون على محارمه.

﴿وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون﴾ أي: يتنزهون عن فعل الفاحشة: ﴿وما نقصموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾.

﴿فأنجيناه وأهلكنا﴾ أي: الباقين المعذبين، أمره الله أن يسري بأهلكه ليلاً، فإن العذاب مصبح قومه فسرى بهم، إلا امرأته أصابها ما أصابهم.

(٢) في ب: أورد الآيات كاملة.

(١) في ب: أورد الآيات كاملة.

يدعى إليها!!

«تد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها» أي: أشهدوا علينا أننا إن عدنا فيها بعدما نجانا الله منها وأنقذنا من شرها، أننا كاذبون مفترون على الله الكذب، فإننا نعلم أنه لا أعظم افتراء ممن جعل الله شريكاً، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يتخذ ولداً ولا صاحبة، ولا شريكاً في الملك. «وما يكون لنا أن نعود فيها» أي: يمتنع على مثلنا أن نعود فيها، فإن هذا من المحال، فأيسهم عليه الصلاة والسلام من كونه يوافقهم من وجوه متعددة، من جهة أنهم كارهون لها مبغضون لما هم عليه من الشرك. ومن جهة أنه جعل ما هم عليه كذباً، وأشهدهم أنه إن اتبعهم ومن معه فإنهم كاذبون.

ومنها: اعترافهم بمنة الله عليهم إذ أنقذهم الله منها. ومنها: أن عودهم فيها - بعدما هداهم الله - من المحالات، بالنظر إلى حالتهم الراهنة، وما في قلوبهم من تعظيم الله تعالى والاعتراف له بالعبودية، وأنه الإله وحده الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، وأن آلهة المشركين أبطل الباطل، وأحل المحال. وحيث إن الله من عليهم بعقول يعرفون بها الحق والباطل، والهدى والضلال.

وأما من حيث النظر إلى مشيئة الله وإرادته النافذة في خلقه، التي لا خروج لأحد عنها، ولو تواترت الأسباب وتوافقت القوى، فإنهم لا يحكمون على أنفسهم أنهم سيفعلون شيئاً أو يتركونه، ولهذا استثنى «وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا» أي: فلا يمكننا ولا غيرنا، الخروج عن مشيئته التابعة لعلمه وحكمته، وقد وسع ربنا كل شيء علماً، فيعلم ما يصلح للعباد وما

يدبرهم عليه. «على الله توكلنا» أي: اعتمدنا أنه سيثبتنا على الصراط المستقيم، وأن يعصمنا من جميع طرق الجحيم، فإن من توكل على الله كفاه، ويسر له أمر دينه ودنياه. «ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق» أي: انصر المظلوم وصاحب الحق، على الظالم المعاند للحق «وأنت خير الفاتحين» وفتحته تعالى لعباده نوعان: فتح العلم، بتبيين الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ومن هو من المستقيمين على الصراط، ممن هو منحرف عنه.

والنوع الثاني: فتحه بالجزاء وإيقاع العقوبة على الظالمين، والنجاة والإكرام للصالحين، فسألوا الله أن يفتح بينهم وبين قومهم بالحق والعدل، وأن يرهم من آياته وعبره، ما يكون فاصلاً بين الفريقين.

«وقال الملأ الذين كفروا من قومه» محذرين عن اتباع شعيب، «لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون» هذا ما سولت لهم أنفسهم أن الخسارة والشقاء في اتباع الرشد والهدى، ولم يدروا أن الخسارة كل الخسارة في لزوم ما هم عليه من الضلال والإضلال، وقد علموا ذلك حين وقع بهم النكال. «فأخذتهم الرجفة» أي: الزلزلة الشديدة «فأصبحوا في ديارهم جائمين» أي: صرعى ميتين هامدين، قال تعالى ناعياً حالهم «الذين كذبوا شعيباً كأن لم يفئوا فيها» أي: كأنهم ما أقاموا في ديارهم، وكأنهم ما تمتعوا في عرصاتها، ولا تغيثوا في ظلالها، ولا غنوا في مسارح أنهارها، ولا أكلوا من ثمار أشجارها، حين فاجأهم العذاب، فنقلهم من مورد اللهو واللعب واللذات، إلى مستقر الحزن والشقاء والعقاب والدركات ولهذا قال: «الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين» أي: الخسار محصور فيهم، لأنهم خسروا دينهم وأنفسهم وأهلهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران

المبين، لا من قالوا لهم: «لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون».

فحين هلكوا تولى عنهم نبيهم شعيب عليه الصلاة والسلام «وقال» معاتباً وموبخاً ومخاطباً بعد موتهم: «يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي» أي: أوصلتها إليكم، وبينتها حتى بلغت منكم أقصى ما يمكن أن تصل إليه، وخالطت أفئدتكم «ونصحت لكم» فلم تقبلوا نصحي، ولا انقذتم لإرشادي، بل فسقتم وطغيتم.

«فكيف آسى على قوم كافرين» أي: فكيف أحزن على قوم لا خير فيهم، أتاهم الخير فردوه ولم يقبلوه، ولا يليق بهم إلا الشر، فهؤلاء غير حقيقين أن يحزن عليهم، بل يفرح بإهلاكهم ومحققهم، فعياً بك اللهم من الخزي والفضيحة، وأي: شقاء وعقوبة أبلغ من أن يصلوا إلى حالة يتبرأ منهم أنصح الخلق لهم!!

«٩٤ - ٩٥» «وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون» ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس أباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون» يقول تعالى: «وما أرسلنا في قرية من نبي» يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عن ما هم فيه من الشر، فلم ينقادوا له: إلا ابتلاهم الله «بالبأساء والضراء» أي: بالفقر والمرض وأنواع البليات. «لعلهم» إذا أصابتهم، أخضعت نفوسهم فتضرعوا إلى الله واستكانوا للحق. «ثم» إذا لم يقد فيهم، واستمر استكبارهم، وازداد طغيانهم. «بدلنا مكان السيئة الحسنة» فأدركهم الأرزاق، وعافى أبدانهم، ورفع عنهم البلاء «حتى عفوا» أي: كثروا، وكثرت أرزاقهم وأنسطوا في نعمة الله وفضله، ونسوا ما مر عليهم من البلاء. «وقالوا قد مس أباءنا الضراء والسراء» أي: هذه عادة جارية لم تزل موجودة في الأولين واللاحقين، تارة

عذابنا الشديد ﴿بياتاً وهم نائمون﴾
أي: في غفلتهم، وغرتهم وراحتهم.
﴿أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا
ضحى وهم يلعبون﴾ أي: أي شيء
يؤمنهم من ذلك، وهم قد فعلوا
أسبابه، وارتكبوا من الجرائم العظيمة،
ما يوجب بعضه الهلاك؟!

﴿أفأمنوا مكر الله﴾ حيث
يستدرجهم من حيث لا يعلمون،
ويملئ لهم، إن كيدهم متين، ﴿فلا يأمن
مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾ فإن من
أمن من عذاب الله، فهو ^(١) لم يصدق
بالجزاء على الأعمال، ولا آمن بالرسول
حقيقة الإيمان.

وهذه الآية الكريمة فيها من
التخويف البليغ، على أن العبد لا ينبغي
له أن يكون آمناً على ما معه من
الإيمان.

بل لا يزال خائفاً وجللاً أن يبتلى
ببلية تسلب ما معه من الإيمان، وأن
لا يزال داعياً بقوله: «يا مقلب القلوب
ثبت قلبي على دينك»، وأن يعمل
ويسعى، في كل سبب يخلصه من الشر
عند وقوع الفتنة، فإن العبد - ولو
بلغت به الحال ما بلغت - فليس على
يقين من السلامة.

﴿١٠٠ - ١٠٢﴾ ﴿أولم يهد للذين
يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء
أصيناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم
فهم لا يسمعون﴾ تلك القرى نقص
عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم
بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من
قبل كذلك يطبع الله على قلوب
الكافرين ﴿وما وجدنا لأكثرهم من
عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾
يقول تعالى منبهاً للأمم الغابرين بعد
هلاك الأمم الغابرين ^(٢): ﴿أولم يهد
للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن
لو نشاء أصيناهم بذنوبهم﴾ أي: أو لم
يتبين ويتضح للأمم الذين ورثوا
الأرض، بعد إهلاك من قبلهم
بذنوبهم، ثم عملوا كأعمال أولئك

يكونون في سراء وتارة في ضراء،
وتارة في فرح، ومرة في ترح، على
حسب تقلبات الزمان وتداول الأيام،
وحسبوا أنها ليست للموعظة والتذكير،
ولا للاستدراج والنكير حتى إذا
اغتبطوا، وفرحوا بما أوتوا، وكانت
الدنيا، أسر ما كانت إليهم، أخذناهم
بالعذاب ﴿بغتة وهم لا يشعرون﴾
أي: لم يخطر لهم الهلاك على بال،
وظنوا أنهم قادرون على ما أتاهم الله،
وأنهم غير زائلين ولا متقلبين عنه.

﴿٩٦ - ٩٩﴾ ﴿ولو أن أهل القرى
آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من
السماء والأرض ولكن كذبوا
فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾ أفأمن
أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم
نائمون ﴿أو أمن أهل القرى أن يأتيهم
أسنا ضحى وهم يلعبون﴾ أفأمنوا
مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم
الخاسرون ﴿لما ذكر تعالى أن المكذبين
لرسل يبتلون بالضراء موعظة وإنذاراً،
وبالسراء استدراجاً ومكراً، ذكر أن
أهل القرى، لو آمنوا بقلوبهم إيماناً
صادقاً صدقته الأعمال، واستعملوا
تقوى الله تعالى ظاهراً وباطناً، بترك
جميع ما حرم الله، لفتح عليهم بركات
السماء والأرض، فأرسل السماء
عليهم مدراراً، وأنبت لهم من الأرض
ما به يعيشون وتعيش بهائمهم، في
أخضب عيش وأغزر رزق، من غير
عناء ولا تعب، ولا كد ولا نصب،
ولكنهم لم يؤمنوا ويتقوا: ﴿فأخذناهم
بما كانوا يكسبون﴾ بالعقوبات والبلايا
ونزع البركات، وكثرة الآفات، وهي
بعض جزاء أعمالهم، وإلا فلو
واخذهم بجميع ما كسبوا، ما ترك
عليها من دابة. ﴿ظهر الفساد في البر
والبحر بما كسبت أيدي الناس،
ليذيقهم بعض الذي عملوا، لعلهم
يرجعون﴾.

﴿أفأمن أهل القرى﴾ أي: المكذبة،
بقريته السياق ﴿أن يأتيهم بأسنا﴾ أي:

(١) في ب: فإنه.

(٢) في هامش ب في بيان معنى كلمة الغابرين المتكررة ما يلي: الغابرين: الباقين، الغابرين: الماضين.

وَأَذِّنْ لِلْعَذَابِ يَوْمَئِذٍ عَذَابُهُمْ أَشَدُّ مِنْ عَذَابِ الْيَوْمِ
خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَن كُرُوا تَأْلَفُوا لِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ
وَلَا تَحْزَنْ ذَلِكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ فَتُغْلَبُونَ
عَلَى أَشْجَرٍ الشَّيْءِ ذَرْبًا فَلَا يَكُنْ لَكُم مِّنْهُ مَقْصُودٌ حَتَّى تَقُولُوا لَوْ
أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدًا أَنَّ يَتَّخِذَ الْوَحْيَ عَلَيْهِمْ
أَلَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلُ رَكْبًا مِّنْ دُونِهِ وَمَا يَأْتِيهِمْ أَفْئِدَتُكَ يَأْتِيهِمْ
الْبَاطِلُونَ ﴿وَلَا يَكُنْ لَّكَ فِتْنَةٌ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدًا وَيُخَوِّدُ
وَأَلْهَىٰ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَاذْكُرُوا أَنَّهُمْ
فَالْجَنَّةُ الْخَالِدَةُ لَكَ مِنَ الْغَايِبِ ﴿وَلَا يَخْشَىٰ
لِقَاءَهُمْ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَفْئِدَتَهُم مَّلَأَتْ مِنَ الْغَايِبِ وَلَٰكِنَّ هَذِهِ لَفِتْنَةٌ
كُتِبَ لِلْكَافِرِينَ أَنْ يُجْعَلَ عَلَيْهِمْ فَلَتَةٌ أَوْ تَرْتُّبَةٌ يَأْتِيهِمْ
ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِرْ بَعْضَ الْأَقْصَصِ
لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿سَاءَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أَنفُسُهُمْ كَانُوا بِآيَاتِنَا أَغْفِلُونَ ﴿مَنْ يَهْدِ
اللَّهُ فَمَا لَكُم مِّنْ هُدًى مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَمَا تُحْكِمُونَ

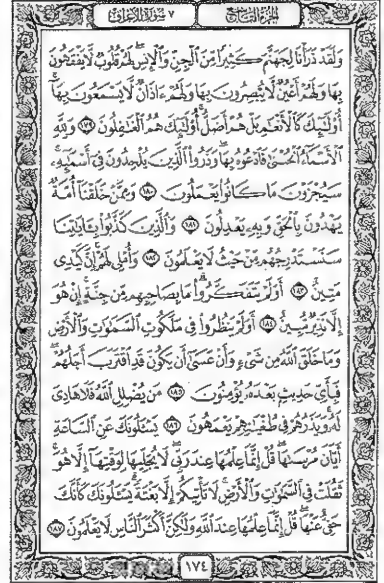
المهلكين؟

أو لم يهتدوا أن الله لو شاء لأصابهم
بذنوبهم، فإن هذه سنته في الأولين
والآخرين.

وقوله: ﴿ونطبع على قلوبهم فهم
لا يسمعون﴾ أي: إذا نبههم الله فلم
ينتبهوا، وذكرهم فلم يتذكروا،
وهدهم بالآيات والعبر فلم يهتدوا،
فإن الله تعالى يعاقبهم ويطبع على
قلوبهم، فيعلوها الران والدنس، حتى
يختم عليها، فلا يدخلها حق، ولا
يصل إليها خير، ولا يسمعون ما
ينفعهم، وإنما يسمعون ما به تقوم
الحجة عليهم.

﴿تلك القرى﴾ الذين تقدم ذكرهم
﴿نقص عليك من أنبائها﴾ ما يحصل به
عبرة للمعتبرين، وازدجار للظالمين،
وموعظة للمتقين.

﴿ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات﴾
أي: ولقد جاءت هؤلاء المكذبين
رسلهم تدعوهم إلى ما فيه سعادتهم،
وأبدهم الله بالمعجزات الظاهرة،
والبينات المبينات للحق بياناً كاملاً،
ولكنهم لم يفهموا هذا، ولا أغنى عنهم
شيئاً، ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من
قبل﴾ أي: بسبب تكذيبهم وردهم
الحق أول مرة، ما كان الله ليهديهم



للإيمان، جزاء لهم على ردهم الحق، كما قال تعالى: «ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لو يؤمنوا به أول مرة، ونذرهم في طغيانهم يعمهون». كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين عقوبة منه. وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم.

وما وجدنا لأكثرهم من عهد، أي: وما وجدنا لأكثر الأمم الذين أرسل الله إليهم الرسل من عهد، أي: من ثبات والالتزام لوصية الله التي أوصى بها جميع العالمين، ولا انقادوا لأوامره التي ساقها إليهم على السنة رسله.

وإن وجدنا أكثرهم لفساقين، أي: خارجين عن طاعة الله، متبعين لأهوائهم بغير هدى من الله، قاله تعالى امتحن العباد بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وأمرهم باتباع عهده وهده، فلم يمثل لأمره إلا القليل من الناس، الذين سبقت لهم من الله سابقة السعادة.

وأما أكثر الخلق فأعرضوا عن الهدى، واستكبروا عما جاءت به الرسل، فأحل الله بهم من عقوباته المتنوعة ما أحل.

﴿١٠٣ - ١٧١﴾ ثم بعثنا من

بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه إلى آخر قصته^(١). أي: ثم

بعثنا من بعد أولئك الرسل موسى الكليم، الإمام العظيم، والرسول الكريم، إلى قوم عتاة جبابة، وهم فرعون وملئه، من أشرفهم وكبرائهم، فأراهم من آيات الله العظيمة ما لم يشاهد له نظير فظلموا بها بأن لم يتقداوا لحقها الذي من لم يتقده له فهو ظالم، بل استكبروا عنها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين، كيف أهلكهم الله، وأتبعهم الذم واللعنة في الدنيا ويوم القيامة، بش الرشد المرفود، وهذا يحمل فصله بقوله: «وقال

موسى حين جاء إلى فرعون يدعوه إلى الإيمان يا فرعون إني رسول من رب عظيم، أي: إني رسول من مرسل عظيم، وهو رب العالمين، الشامل للعالم العلوي والسفلي، مربي جميع خلقه بأنواع التدابير الإلهية، التي من جللتها أنه لا يتركهم سدى، بل يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، وهو الذي لا يقدر أحد أن يتجرا عليه، ويدعي أنه أرسله ولم يرسله.

فإذا كان هذا شأنه، وأنا قد اختارني واصطفاني لرسالته، فحقيق علي أن لا أكذب عليه، ولا أقول عليه إلا الحق، فإني لو قلت غير ذلك لعاجلني بالعقوبة، وأخذني أخذ عزيز مقتدر.

فهذا موجب لأن يتقداوا له ويتبعوه، خصوصاً وقد جاءهم ببينة من الله واضحة على صحة ما جاء به من الحق، فوجب عليهم أن يعملوا بمقصود رسالته، ولها مقصودان عظيمان: إيمانهم به، واتباعهم له، وإرسال بني إسرائيل الشعب الذي فضله الله على العالمين، أولاد الأنبياء، وسلسلة يعقوب عليه السلام، الذي موسى عليه الصلاة والسلام واحد منهم.

فقال له فرعون: «إن كنت جئت بآية فات بها إن كنت من الصادقين» فألقى موسى عصاه في الأرض

﴿فإذا هي ثعبان مبين﴾ أي: حية ظاهرة تسعى، وهم يشاهدونها.

﴿ونزع يده﴾ من جيبه ﴿فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ من غير سوء، فهاتان آيتان كبيرتان دالتان على صحة ما جاء به موسى وصدقه، وأنه رسول رب العالمين، ولكن الذين لا يؤمنون لو جاءتهم كل آية لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم، فلهذا «قال الملا من قوم فرعون حين بهرهم ما رأوا من الآيات، ولم يؤمنوا، وطلبوا لها التأويلات الفاسدة: «إن هذا لساحر

عليم» أي: ماهر في سحره، ثم خوفوا ضعفاء الأحلام وسفهاء العقول، بأنه «يريد» موسى يفعله هذا «أن يخرجكم من أرضكم» أي: يريد أن يجليكم^(٢) عن أوطانكم «فماذا تأمرون» أي: إنهم تشاوروا فيما بينهم ما يفعلون بموسى، وما يندفع به ضرورة بزعمهم عنهم، فإن ما جاء به إن لم يقابل بما يطله ويدحضه، وإلا دخل في عقول أكثر الناس، فحينئذ انعقد رأيهم إلى أن قالوا لفرعون: «أرجه وأخاه» أي: احبسهما وأمهلهما، وابعث في المدائن أناساً يحشرون أهل المملكة ويأتون بكل سجار عليهم، أي: يجيئون بالسحرة المهرة، ليقابلوا ما جاء به موسى، فقالوا: يا موسى اجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى.

﴿قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشرون الناسضحى﴾ فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى وقال هنا: «وجاء السحرة فرعون طالبين منه الجزاء إن غلبوا» فقالوا: «إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين؟» ف «قال فرعون: نعم» لكم أجر «وإنكم لمن المقربين» فوعدهم الأجر والتقريب، وعلو المنزلة عنده، ليجتهدوا ويبدلوا وسعهم وطاقاتهم في مغالبة موسى، فلما حضروا مع موسى بحضرة الخلق العظيم «قالوا» على وجه التالي وعدم

(١) في ب: أورد الآيات كاملة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: يريد ليجليكم من.

المبالاة بما جاء به موسى: ﴿يَا موسى إما أن تلقني﴾ ما معك ﴿وإما أن تكون نحن الملقين﴾ ف ﴿قال﴾ موسى: ﴿ألقوا﴾ لأجل أن يرى الناس ما معهم وما مع موسى.

﴿فلما ألقوا﴾ حبالهم وعصيهم، إذا هي من سحرهم كأنها حيات تسعى، ف ﴿سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤوا بسحر عظيم﴾ لم يوجد له نظير من السحر.

﴿وأوحينا إلى موسى أن السح عصاك﴾ فألقاها ﴿فإذا هي حية تسعى﴾ ف ﴿تلقف﴾ جميع ﴿ما يأكون﴾ أي: يكذبون به ويموهون.

﴿فوقع الحق﴾ أي: تبين وظهر، واستعلن في ذلك المجمع، وبطل ما كانوا يعملون ﴿فغلبوا هنالك﴾ أي: في ذلك المقام ﴿وانقلبوا صاغرين﴾ أي: حقيرين قد اضمحل باطلهم، وتلاشى سحرهم، ولم يحصل لهم المقصود الذي ظنوا حصوله.

وأعظم من تبين له الحق العظيم أهل الصنف والسحر، الذين يعرفون من أنواع السحر وجزئياته ما لا يعرفه غيرهم، فعرفوا أن هذه آية عظيمة من آيات الله لا يدان لأحد بها.

﴿وألقى السحرة ساجدين﴾ قالوا آمنا برب العالمين ﴿رب موسى وهارون﴾ أي: وصندقنا بما بعث به موسى من الآيات البينات.

ف ﴿قال﴾ لهم ﴿فرعون﴾ متهدداً على الإيمان: ﴿أمنتكم به قبل أن أذن لكم﴾ كان الخبيث حاكماً مستبداً على الأبدان والأقوال، قد تقرر عنده وعندهم أن قوله هو المطاع، وأمره نافذ فيهم، ولا خروج لأحد عن قوله وحكمه، وبهذه الحالة تنحط الأمم، وتضعف عقولها ونفوذها، وتعجز عن المداخلة عن حقوقها، ولهذا قال الله عنه: ﴿فاستخف قومه فأطاعوه﴾ وقال هنا: ﴿أمنتكم به قبل أن أذن لكم﴾ أي: فهذا سوء أدب منكم وتجور على.

ثم موه على قومه وقال: ﴿إن هذا لكر مكرهوه في المدينة لتخرجوا منها أهلها﴾ أي: إن موسى كبيركم الذي علمكم السحر، فتواطأتم أنتم وهو على أن تغلبوا له، فيظهر فتبعوه، ثم يتبعكم الناس أو جمهورهم، فتخرجوا منها أهلها.

وهذا كذب يعلم هو ومن سير الأحوال، أن موسى عليه الصلوة والسلام لم يجتمع بأحد منهم، وأنهم جمعوا على نظر فرعون ورسله، وأن ما جاء به موسى آية إلهية، وأن السحرة قد بذلوا مجهودهم في مغالبة موسى، حتى عجزوا وتبين لهم الحق، فاتبعوه.

ثم توعدهم فرعون بقوله: ﴿فسوف تعلمون﴾ ما أحل بكم من العقوبة، ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ زعم الخبيث أنهم

مفسدون في الأرض، وسيصنع بهم ما يصنع بالمفسدين، من تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، أي: اليد اليمنى والرجل اليسرى. ﴿ثم لأصلبنكم﴾ في جذوع النخل، لتختزوا بزعمه ﴿أجمعين﴾ أي: لا أفعل هذا الفعل بأحد دون أحد، بل كلكن سيدوق هذا العذاب، فقال السحرة الذين آمنوا لفرعون حين تهددهم: ﴿إننا إلى ربنا منتقلون﴾ أي: فلا نبالي بعقوبتك، قاله خير وأبقى، فاقض ما أنت قاض.

﴿وما تنقم منا﴾ أي: وما تعيب منا على إنكارك علينا وتوعذك لنا؟ فليس لنا ذنب ﴿إلا أن آمنا﴾ [بآيات] ربنا [لما جاءتنا]^(١) فإن كان هذا ذنباً يعاب عليه، ويستحق صاحبه العقوبة، فهو ذنبنا.

ثم دعوا الله أن يثبتهم ويصبرهم فقالوا: ﴿ربنا أفرغ﴾ أي: أفض ﴿علينا صبراً﴾ أي: عظيماً، كما يدل عليه التنكير، لأن هذه محنة عظيمة، تؤدي إلى ذهاب النفس، فيحتاج فيها من الصبر إلى شيء كثير، ليثبت الشؤاد، ويطمئن المؤمن على إيمانه.

ويزول عنه الانزعاج الكثير. ﴿وتوفنا مسلمين﴾ أي: متقادين لأمرك، متبعين لرسولك، والظاهر أنه أوقع بهم ما توعدهم عليه، وأن الله تعالى ثبتهم على الإيمان.

هذا وفرعون وملاؤه وعامتهم المتبعون للملأ، قد استكبروا عن آيات الله، وجحدوا بها ظلماً وعلواً، وقالوا لفرعون مهيجين له على الإيقاع بموسى، وزاعمين أن ما جاء باطل وفساد: ﴿أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض﴾ بالدعوة إلى الله، وإلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، التي هي الصلاح في الأرض، وما هم عليه هو الفساد، ولكن الظالمين لا يبالون بما يقولون.

﴿ويذكر وألهمك﴾ أي: يدعك أنت وألهمك، وينهى عنك، ويصد الناس عن اتباعك.

ف ﴿قال﴾ فرعون مجيباً لهم، بأنه سيدع بني إسرائيل مع موسى بحالة لا ينمون فيها، ويأمن^(٢) فرعون وقومه - بزعمه - من ضررهم: ﴿ستقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم﴾ أي: نستبقهين فلا نقتلهن، فإذا قلنا ذلك آمناً من كثرتهم، وكنا مستخدمين لباقيهم، ومسخرين لهم على ما نشاء من الأعمال ﴿وإننا فوقهم قاهرون﴾ لا خروج لهم عن حكمنا ولا قدرة، وهذا نهاية الجبروت من فرعون والعتو والقسوة.

ف ﴿قال موسى لقومه﴾ موصياً لهم في هذه الحالة، - التي لا يقدرון معها على شيء، ولا مقاومة - بالمقاومة الإلهية، والاستعانة الربانية: ﴿استعينوا بالله﴾ أي: اعتمدوا عليه في جلب ما ينفعكم، ودفع ما يضركم، وثقوا بالله أنه سيم أمركم ﴿واصبروا﴾ أي: الزموا الصبر على ما يحل بكم، منظرين للفرج.

﴿إن الأرض لله﴾ ليست لفرعون ولا لقومه حتى يتحكموا فيها ﴿يورثها

(١) زيادة من هامش ب، وهي في أ: آمنا برنا.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ويؤمن.

من يشاء من عباده ﴿أي: يداولها بين الناس على حسب مشيئته وحكمته، ولكن العاقبة للمتقين، فإنهم - وإن امتحنوا مدة ابتلاء من الله وحكمة، فإن النصر لهم، والعاقبة الحميدة لهم على قومهم وهذه وظيفة العبد، أنه عند القدرة، أن يفعل من الأسباب الدافعة عنه أذى الغير، ما يقدر عليه، وعند العجز، أن يصبر ويستعين الله، وينتظر الفرج.

﴿قالوا﴾ لموسى متضرجين من طول ما مكثوا في عذاب فرعون، وأذيتة: ﴿أوذينا من قبل أن تأتينا﴾ فإنهم يسموننا سوء العذاب، يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا ﴿ومن بعد ما جئتنا﴾ كذلك ذ ﴿قال﴾ لهم موسى مرجياً لهم^(١) الفرج والخلاص من شرهم: ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض﴾ أي: يمكنكم فيها، ويجعل لكم التدبير فيها ﴿فينظر كيف تعملون﴾ هل تشكرون أم تكفرون؟. وهذا وعد أنجزه الله لما جاء الوقت الذي أراداه الله.

﴿١٣٠﴾ قال الله تعالى في بيان ما عامل به آل فرعون في هذه المدة الأخيرة، أنها على عادته وستته في الأمم، أن يأخذهم بالأساء والضراء، لعلمهم بضرعون. الآيات:

﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين﴾ أي: بالدهور والجذب، ونقص من الثمرات لعلمهم بذكرهم ﴿أي: يتعظون أن ما حل بهم وأصابتهم معاتبة من الله لهم، لعلمهم يرجعون عن كفرهم، فلم ينجع فيهم ولا أفاد، بل استمروا على الظلم والفساد.

﴿فلذا جاءتهم الحسنة﴾ أي: الخصب وإدراج الرزق ﴿قالوا لنا هذه﴾ أي: نحن مستحقون لها، فلم يشكروا الله عليها ﴿وإن تصيبهم سيئة﴾ أي: قحط وجذب ﴿يطيروا بموسى ومن معه﴾ أي: يقولوا: إنما جاءنا بسبب مجيء موسى، واتباع بني إسرائيل له.

قال الله تعالى: ﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾ أي: بقضائه وقدرته، ليس كما قالوا، بل إن ذنوبهم وكفرهم هو السبب في ذلك، بل ﴿أكثرتهم لا يعلمون﴾ أي: فلذلك قالوا ما قالوا.

﴿وقالوا﴾ مبينين لموسى أنهم لا يزالون، ولا يزولون عن باطلهم: ﴿مهما تأتينا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾ أي: قد تقرر عندنا أنك ساحر، فمهما جئت بآية جزمنا أنها سحر، فلا نؤمن لك ولا نصدق، وهذا غاية ما يكون من العناد، أن يبلغ بالكافرين إلى أن تستوي عندهم الحالات، سواء نزلت عليهم الآيات أم لم تنزل.

﴿فأرسلنا عليهم الطوفان﴾ أي: الماء الكثير الذي أغرق أشجارهم وزروعهم، وأضر بهم ضرراً كثيراً والجراد ﴿فأكل ثمارهم، وزروعهم، ونباتهم﴾ والقمل ﴿قيل: إنه الدباء، أي: صغار الجراد، والظاهر أنه القمل المعروف﴾ والصفاد ﴿فملاّت أوعيتهم، وأقلقتهم، وأذت أديّة شديدة﴾ والدم ﴿إما أن يكون الرعاف، أو كما قال كثير من المفسرين، أن ماءهم الذي يشربون انقلب دماً، فكانوا لا يشربون إلا دماً، ولا يطبخون إلا بدم.

﴿آيات مفصلات﴾ أي: أدلة وبيّنات على أنهم كانوا كاذبين ظالمين، وعلى أن ما جاء به موسى حق وصدق ﴿فاستكبروا﴾ لما رأوا الآيات ﴿وكانوا﴾ في سابق أمرهم ﴿قوماً مجرمين﴾ فلذلك عاقبهم الله تعالى، بأن أبقاهم على الغي والضلال.

﴿ولما وقع عليهم الرجز﴾ أي: العذاب، يحتمل أن المراد به: الطاعون، كما قاله كثير من المفسرين، ويحتمل أن يراد به ما تقدم من الآيات: الطوفان، والجراد، والقمل، والصفاد، والدم، فإنها رجز وعذاب، وأنهم كلّموا أصابهم واحد منها ﴿قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما

عهد عندك﴾ أي: تشفعوا بموسى بما عهد الله عنده من الوحي والشرع، ﴿لئن كشفت عنا الرجز، لنؤمنن لك ولترسلن معك بني إسرائيل﴾ وهم في ذلك كذبة، لا قصد لهم إلا زوال ما حل بهم من العذاب، وظنوا إذا رفع لا يصيبهم غيره.

﴿فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه﴾ أي: إلى مدة قدر الله بقاءهم إليها، وليس كشفاً مؤبداً، وإنما هو مؤقت، ﴿إذا هم ينكثون﴾ العهد الذي عاهدوا عليه موسى، ووعدوه بالإيمان به، وإرسال بني إسرائيل، فلا آمنوا به ولا أرسلوا معه بني إسرائيل، بل استمروا على كفرهم يعمهون، وعلى تعذيب بني إسرائيل دائنين.

﴿فانتقمنا منهم﴾ أي: حين جاء الوقت المؤقت لهلاكهم، أمر الله موسى أن يسري ببني إسرائيل ليلاً، وأخبره أن فرعون سيتبعهم هو وجنوده ﴿فأرسل فرعون في المذائن حاشرين﴾ يجمعون الناس ليتبعوا بني إسرائيل، وقالوا لهم: ﴿إن هؤلاء لشردمة قليلون﴾ وأنهم لنا لغائطون * وإنا لجميع حاذرون * فأخرجناهم من جنات وعيون * وكُنُوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بني إسرائيل فاتبعوهم مشرقين * فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون * قال كلا إن معي ربي سيهدين * فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم * وأزلفنا ثم الآخرين * وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين.

وقال هنا: ﴿فأغرقتهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا غافلين﴾ أي: بسبب تكذيبهم بآيات الله وإعراضهم عما دلت عليه من الحق. ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون﴾ في الأرض، أي: بني إسرائيل الذين كانوا خدماً لآل

بما يدعى من دونه.

ثم ذكرهم ما امتن الله به عليهم فقال: ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: من فرعون وآله يسومونكم سوء العذاب أي: يوجهون إليكم من العذاب أسوأه، وهو أنهم كانوا يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم النجاة من عذابهم ﴿بِإِلَاءِ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٍ﴾ أي: نعمة جليلة، ومنحة جزيلة، أو: وفي ذلك العذاب الصادر منهم لكم بلاء من ربكم عليكم عظيم، فلما ذكرهم موسى ووعظهم انتهوا عن ذلك. ولما أتم الله نعمته عليهم بالنجاة من عدوهم، وتمكينهم في الأرض، أراد تبارك وتعالى أن يتم نعمته عليهم، بإنزال الكتاب الذي فيه الأحكام الشرعية، والعقائد المرضية، فواعد موسى ثلاثين ليلة، وأتمها بعشر، فصارت أربعين ليلة، ليستعد موسى، ويتهيأ لوعده الله، ويكون لنزولها موقع كبير لديهم، وتشوق إلى إنزالها.

ولما ذهب موسى إلى ميقات ربه قال لهارون موصياً له على بني إسرائيل من حرصه عليهم وشقيقته: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ أي: كن خليفتي فيهم، واعمل فيهم بما كنت أعمل، ﴿وَأَصْلِحْ﴾ أي: اتبع طريق الإصلاح ولا تتبع سبيل المفسدين وهم الذين يعملون بالمعاصي.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ الذي وقتناه له لإنزال الكتاب ﴿وَوَكَلِمَةً رَبِّهِ﴾ بما كلمه من وحيه وأمره ونبيه، تشوق إلى رؤية الله، ونزعت نفسه لذلك، حباً لربه ومودة لرؤيته.

ف ﴿قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ قَالَ﴾ الله ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ أي: لن تقدر الآن على رؤيتي، فإن الله تبارك وتعالى أنشأ الخلق في هذه الدار على نشأة لا يقدرون بها، ولا يشبثون لرؤية الله، وليس في هذا دليل على أنهم لا يرونه في الجنة، فإنه قد دلت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية على أن أهل

فرعون، يسومونهم سوء العذاب أورثهم الله ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ والمراد بالأرض هاهنا، أرض مصر التي كانوا فيها مستضعفين، أذلين، أي: ملكهم الله جميعها، ومكنهم فيها التي باركنا فيها ﴿وَمَتَّ كَلِمَةً رَبِّكَ الْحَسَنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ حين قال لهم موسى: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

﴿وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمُهُ مِنَ الْبَنِيَةِ الْهَاتِلَةِ﴾ والمساكن المزخرفة ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا، إن في ذلك لآية لقوم يعلمون.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ بعدما أواجههم الله من عدوهم فرعون وقومه، وأهلكهم الله، وبنو إسرائيل ينظرون.

﴿فَأَنبَأُوا﴾ أي: مروا ﴿عَلَى قَوْمٍ يَمْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ أي: يقيمون عندها ويتبركون بها، ويعبدونها. ف ﴿قَالُوا﴾ من جهلهم وسفهمهم لنبيهم موسى بعدما أراههم الله من الآيات ما أراههم ﴿يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ أي: اشرع لنا أن نتخذ أصناماً آلهة كما اتخذها هؤلاء.

ف ﴿قَالَ﴾ لهم موسى: ﴿إِنكُمْ قَوْمٌ مِثْهَلُونَ﴾ وأي جهل أعظم من جهل من جهل ربه وخلقه وأراد أن يسوي به غيره، ممن لا يملك نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً؟! ولهذا قال لهم موسى: ﴿إِنْ هَؤُلَاءِ مِثْبَرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لأن دعاءهم إياها باطل، وهي باطلة بنفسها، فالعمل باطل وغايته باطلة.

﴿قَالَ أَغْيِرَ اللَّهُ إغْيَافَكُمْ﴾ أي: أأطلب لكم إلهاً غير الله المألوه، الكامل في ذاته وصفاته وأفعاله. ﴿وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ فيقتضي أن تقابلوا فضله وتفضيله بالشكر، وذلك بإفراده وحده بالعبادة، والكفر

(١) كلما في ب، وفي أ: وعدم ثبوت.

(٢) زيادة من هامش ب.



الجنة يرون ربهم تبارك وتعالى، ويتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وأنه ينشئهم نشأة كاملة، يقدرون معها على رؤية الله تعالى، ولهذا رتب الله الرؤية في هذه الآية على ثبوت الجبل، فقال - مقنعاً لموسى في عدم إجابته للرؤية - ﴿لَكِنِ أَنْظِرْ إِلَى الْجِبَلِ فَإِنَّ فِيهَا مَكَانَهُ﴾ إذا تجلَّى الله له ﴿فسوف تراه﴾.

﴿فلما تجلَّى ربه للجبل﴾ الأصم الغليظ ﴿جعلته دكاً﴾ أي: انهار مثل الرمل، انزعاجاً من رؤية الله وعدم ثبوته لها^(١)، ﴿وخضر موسى﴾ حين رأى ما رأى ﴿صعقاً﴾ فبين له حيثما أنه إذا لم يشبث الجبل لرؤية الله، فموسى أولى أن لا يشبث لذلك، واستغفر ربه لما صدر منه من السؤال، الذي لم يوافق موضعاً ﴿ولذلك﴾^(٢) ﴿قال سبحانه﴾ أي: تنزهاً لك، وتعظيماً عما لا يليق بجلالك ﴿تبت إليك﴾ من جميع الذنوب، وسوء الأدب معك ﴿وأنا أول المؤمنين﴾ أي: جدد عليه الصلاة والسلام إيمانه، بما كمل الله له مما كان يجهله قبل ذلك، فلما منعه الله من رؤيته - بعدما كان متشوقاً إليها - أعطاه خيراً كثيراً فقال: ﴿يا موسى إني اصطفتك على الناس﴾ أي: اخترتك واجتبيتك وفضلتك



في الأرض بغير الحق ﴿١﴾ أي: يتكبرون على عباد الله وعلى الحق، وعلى من جاء به، فمن كان بهذه الصفة، حرمه الله خيراً كثيراً وخذله، ولم يفقه من آيات الله ما ينتفع به، بل ربما انقلبت عليه الحقائق، واستحسن القبيح.

﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾ لإعراضهم واعتراضهم، ومعادتهم لله ورسوله، ﴿وإن يروا سبيل الرشدة﴾ أي: الهدى والاستقامة، وهو الصراط الموصل إلى الله، وإلى دار كرامته. ﴿لا يتخذوه﴾ أي: لا يسلكوه ولا يرغبوا فيه ﴿وإن يروا سبيل النفي﴾ أي: الغواية الموصل لصاحبه إلى دار الشقاء يتخلوه سبيلاً، والسبب في انحرافهم هذا الانحراف ﴿ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾ فردهم لآيات الله، وغفلتهم عما يزداد بها واحتقارهم لها - هو الذي أوجب لهم من سلوك طريق النفي، وترك طريق الرشاد ما أوجب.

﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾ العظيمة الدالة على صحة ما أرسلنا به رسلنا. ﴿ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم﴾ لأنها على غير أساس، وقد فقد شرطها وهو الإيمان بآيات الله، والتصديق بجزائه ﴿هل يجزؤون﴾ في بطلان أعمالهم وحصول ضد مقصودهم ﴿إلا ما كانوا يعملون﴾ فإن أعمالهم لا يؤمن باليوم الآخر، لا يرجو فيها ثواباً، وليس لها غاية تنتهي إليه، فلذلك اضمحلت وبطلت ﴿واخذ قوم موسى من بعده من حليهم حسداً﴾ صاغه السامري وألقى عليه قبضة من أثر الرسول فضاز ﴿له خوار﴾ وصوت، فعبذوه واتخذوه إلهاً.

وقال ﴿هذا إلهكم وإله موسى فنسي﴾ موسى، وذهب يطلبه، وهذا من سفههم، وقلة بصيرتهم، كيف اشتبه عليهم رب الأرض والسموات، بعجل من أنقص المخلوقات!!

ولهذا قال مبيناً أنه ليس فيه من الصفات الذاتية ولا الفعلية، ما يوجب أن يكون إلهاً ﴿لم يروا أنه

وخصصتك بفضائل عظيمة، ومناقب جليلة، ﴿برسالاتي﴾ التي لا أجعلها، ولا أخص بها إلا أفضل الخلق.

﴿وبكلامي﴾ إياك من غير واسطة، وهذه فضيلة اختص بها موسى الكليم، وعرف بها من بين إخوانه من المرسلين، ﴿فخذ ما آتيتك﴾ من النعم، وخذ ما آتيتك من الأمر والنهي بانسراح صدر، وتلقه بالقبول والانقياد، ﴿وكن من الشاكرين﴾ الله على ما خصك وفضلك.

﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء﴾ يحتاج إليه العباد ﴿موعظة﴾ ترغب النفوس في أفعال الخير، وترهبهم من أفعال الشر، ﴿وتفصيلاً لكل شيء﴾ من الأحكام الشرعية، والعقائد والأخلاق والآداب ﴿فخذها بقوة﴾ أي: بجهد واجتهاد على إقامتها، ﴿وأمر قومك يأخذوها بأحسنها﴾ وهي الأوامر الواجبة والمستحبة، فإنها أحسنها، وفي هذا دليل على أن أوامر الله - في كل شريعة كاملة - عادلة حسنة.

﴿سأريكم دار الفاسقين﴾ بعدما أهلكهم الله، وأبقى ديارهم عبرة بعدهم، يعتبر بها المؤمنون الموفقون المتواضعون، وأما غيرهم، فقال عنهم: ﴿سأصرف عن آياتي﴾ أي: عن الاعتبار في الآيات الأفقية والنفسية، والفهم لآيات الكتاب ﴿الذين يتكبرون

لا يكلمهم﴾ أي: وعدم الكلام نقص عظيم، فهم أكمل حالة من هذا الحيوان أو الجماد، الذي لا يتكلم ﴿ولا يهديهم سبيلاً﴾ أي: لا يدلهم طريقاً دينياً، ولا يحصل لهم مصلحة دنيوية، لأن من المتقرر في العقول والفطر، أن اتخاذ إله لا يتكلم ولا ينفع ولا يضر من أبطل الباطل، وأسمج السفه، ولهذا قال: ﴿اتخذوه وكانوا ظالمين﴾ حيث وضعوا العبادة في غير موضعها، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، وفيها دليل على أن من أنكر كلام الله، فقد أنكر خصائص إلهية الله تعالى، لأن الله ذكر أن عدم الكلام دليل على عدم صلاحية الذي لا يتكلم للإلهية.

﴿ولما﴾ رجع موسى إلى قومه، فوجدهم على هذه الحال، وأخبرهم بضلالهم ندموا و ﴿سقط في أيديهم﴾ أي: من الهم والندم على فعلهم، ﴿ورأوا أنهم قد ضلوا﴾ فتنصلوا، إلى الله وتضرعوا و ﴿قالوا: لئن لم يرحمنا ربنا﴾ فيدلنا عليه، ويرزقنا عبادته، ويوفقنا لصالح الأعمال، ﴿ويغفر لنا﴾ ما صدر منا من عبادة العجل ﴿لنكونن من الخاسرين﴾ الذين خسروا الدنيا والآخرة.

﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً﴾ أي: ممتلئاً غضباً وغيظاً عليهم، لتمام غيرته عليه الصلاة والسلام، وكمال نصحه وشفقته، ﴿قال بثسما خلفتموني من بعدي﴾ أي: بشس الحالة التي خلفتموني بها من بعد ذهابي عنكم، فإنها حالة تفضي إلى الهلاك الأبدي، والشقاء السرمدي.

﴿أعجلتم أمر ربكم﴾ حيث وعدكم بإنزال الكتاب. فبادرتم - برأيكم الفاسد - إلى هذه الخصلة القبيحة ﴿والقى الألواح﴾ أي: رامها من الغضب ﴿وأخذ برأس أخيه﴾ هارون ولحيته ﴿يجره إليه﴾ وقال له: ﴿ما منعك إذ رأيتهم ضلوا، أن لا تتبعن أفعصيت أمري﴾ لك بقولي: ﴿أخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ فـ ﴿قال يا ابن أم لا



والسلام، يتضرع إلى الله ويستبذل ويقول: «رب لو شئت أهلكتهم من قبل أن يحضروا ويكونوا في حالة يعتذرون فيها لقومهم، فصاروا هم الظالمين» أمهلكنما بما فعل السفهاء منا. أي: ضعفاء العقول، سفهاء الأحلام، فتضرع إلى الله واعتذر بأن المتجربين على الله ليس لهم عقول كاملة، تردعهم عما قالوا وفعلوا، وبأنهم حصل لهم فتنة يخطر بها الإنسان، ويخاف من ذهاب دينه فقال: «إن هي إلا فتنتك تفضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين» أي: أنت خير من غفر، وأولى من رحم، وأكرم من أعطى وتفضل، فكان موسى عليه الصلاة والسلام قال: المقصود يا رب بالقصد الأول لنا كلنا، هو التزام طاعتك والإيمان بك، وأن من حضره عقله ورشده، وتم على ما وهبته من التوفيق، فإنه لم يزل مستقيماً، وأما من ضعف عقله، وسفه رأيه، وصرفته الفتنة، فهو الذي فعل ما فعل، لذيتك السببين، ومع هذا فأنت أرحم الراحمين، وخير الغافرين، فاغفر لنا وارحمنا.

﴿١٥٦﴾ فأجاب الله سؤاله، وأحياهم من بعد موتهم، وغفر لهم

وكبائر، وصغائر، ثم تابوا من بعدها، بأن ندموا على ما مضى وألقوا عنها، وعزموا على أن لا يعودوا «وآمنوا» بالله وبما أوجب الله من الإيمان به، ولا يتم الإيمان إلا بأعمال القلوب، وأعمال الجوارح المترتبة على الإيمان «إن ربك من بعدها» أي: بعد هذه الحالة، حالة التوبة من السيئات والرجوع إلى الطاعات، «لغفور» يغفر السيئات ويمحوها، ولو كانت قراب الأرض «رحيم» بقبول التوبة، والتوفيق لأفعال الخير وقبولها.

﴿ولما سكت عن موسى الغضب﴾ أي: سكن غضبه، وتراجعت نفسه، وعرف ما هو فيه، اشتغل بأهم الأشياء عنده، ف «أخذ الألواح» التي ألهاها، وهي ألواح عظيمة المقدار، جليلة «وفي نسختها» أي: مشتملة ومتضمنة «هدى ورحمة» أي: فيها الهدى من الضلالة، وبيان الحق من الباطل، وأعمال الخير وأعمال الشر، والهدى لأحسن الأعمال، والأخلاق، والأداب، ورحمة وسعادة لمن عمل بها، وعلم أحكامها ومعانيها، ولكن ليس كل أحد يقبل هدى الله ورحمته، وإنما يقبل ذلك وينقاد له، ويتلقاه بالقبول الذين [هم] ^(٢) «لربهم يرهون» أي: يخافون منه ويخشونه، وأما من لم يخف الله ولا المقام بين يديه، فإنه لا يزداد بها إلا اعتواً ونفوراً، وتقوم عليه حجة الله فيها.

﴿و﴾ لما تاب بنو إسرائيل وتراجعوا إلى رشدهم «اختار موسى» منهم «سبعين رجلاً» من خيارهم، ليعتذروا لقومهم عند ربهم، ووعدهم الله ميقاناً يحضرون فيه، فلما حضروا، قالوا: يا موسى، «أرنا الله جهرة» فتجروا على الله جراءة كبيرة، وأسأوا الأدب معه، ف «أخذتهم الرجفة» فصعقوا وهلكوا.

فلم يزل موسى عليه الصلاة

تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل، ولم ترقب قولي» و «قال» هنا «ابن أم» هذا ترفيق لأخيه، بذكر الأم وحدها، وإلا فهو شقيقه لأمه وأبيه: «إن القوم استضعفوني» أي: احتقروني حين قلت لهم: «يا قوم إنما فتنتم به، وإن ربكم الرحمن، فاتبعوني وأطيعوا أمري» «وكادوا يقتلونني» أي: فلا تظن بي تقصيراً «فلا تشمت بي الأعداء» بنهرك لي، ومسك إياي بسوء، فإن الأعداء حريصون على أن يجهدوا علي عشرة، أو يطلعوا لي على زلة «ولا تجعلني مع القوم الظالمين» فتعاملني معاملة لهم.

فندم موسى عليه السلام على ما استعجل من صنعه بأخيه قبل أن يعلم براءته، مما ظنه فيه من التقصير، و «قال رب اغفر لي ولأخي» هارون «وأدخلنا في رحمتك» أي: في وسطها، واجعل رحمتك تحيط بنا من كل جانب، فإنها حصن حصين من جميع الشرور، وثم كل خير وسرور. «وأنت أرحم الراحمين» أي: أرحم بنا من كل راحم، أرحم بنا من آبائنا وأمهاتنا وأرلادنا وأنفسنا، قال الله تعالى مبيناً حال أهل العجل الذين عبدوه: «إن الذين اتخذوا العجل» أي: إلهاً «سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا» كما أغضبوا ربهم واستهانوا بأمره.

«وكذلك نجزي المقترين» فكل مفتر على الله كاذب على شرعه، متقول عليه ما لم يقل، فإن له نصيباً من الغضب من الله، والذل في الحياة الدنيا، وقد نالهم غضب الله، حيث أمرهم أن يقتلوا أنفسهم، وأنه لا يرضى الله عنهم إلا بذلك، فقتل بعضهم بعضاً، وانجلت المعركة عن كثير من القتلى ^(١)، ثم تاب الله عليهم بعد ذلك، ولهذا ذكر حكماً عاماً يدخلون فيه هم وغيرهم، فقال: «والذين عملوا السيئات» من شرك

(١) في السختين: قتلى كثيرة.

(٢) زيادة من هامش ب.



ذنوبهم، وقال موسى في تمام دعائه: ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة﴾ من علم نافع، ورزق واسع، وعمل صالح.

﴿وفي الآخرة﴾ حسنة وهي ما أعد الله لأوليائه الصالحين من الثواب. ﴿إننا هدنا إليك﴾ أي: رجعنا مقرين بتقصيرنا، مبينين في جميع أمورنا. ﴿قال﴾ الله تعالى: ﴿عذابي أصيب به من أشاء﴾ ممن كان شقياً، متعرضاً لأسبابه، ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ من العالم العلوي والسفلي، البر والفاجر، المؤمن والكافر، فلا مخلوق إلا وقد وصلت إليه رحمة الله، وغمره فضله وإحسانه، ولكن الرحمة الخاصة المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة، ليست لكل أحد، ولهذا قال عنها: ﴿فسأكتبها للذين يتقون﴾ المعاصي، صغارها وكبارها.

﴿ويؤتون الزكاة﴾ الواجبة مستحقها ﴿والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ ومن تمام الإيمان بآيات الله معرفة معناها، والعمل بمقتضاها، ومن ذلك اتباع النبي ﷺ ظاهراً وباطناً، في أصول الدين وفروعه.

﴿١٥٧﴾ ﴿الذين يتبعون الرسول﴾ النبي الأمي ﴿احترار عن سائر الأنبياء﴾ فإن المقصود بهذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ.

والسياق في أحوال بني إسرائيل

وأن الإيمان بالنبي محمد ﷺ شرط في دخولهم في الإيمان، وأن المؤمنين به المتبعين، هم أهل الرحمة المطلقة، التي كتبها الله لهم، ووصفه بالأمي لأنه من العرب الأمة الأمية، التي لا تقرأ ولا تكتب، وليس عندها قبل القرآن كتاب.

﴿الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ باسمه وصفته، التي من أعظمها وأجلها، ما يدعو إليه وينهى عنه. وأنه ﴿يأمرهم بالمعروف﴾ وهو كل ما عرف حسنه وصلاحه ونفعه.

﴿وينهاهم عن المنكر﴾ وهو: كل ما عرف قبحه في العقول والفطر، فيأمرهم بالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى الجار والمملوك، وبذل النفع لسائر الخلق، والصدق، والعفاف، والبر، والنصيحة، وما أشبه ذلك، وينهى عن الشرك بالله، وقتل النفوس بغير حق، والزنا، وشرب ما يسكر العقل، والظلم لسائر الخلق، والكذب، والفجور، ونحو ذلك.

فأعظم دليل يدل على أنه رسول الله، ما دعا إليه وأمر به، ونهى عنه، وأحلّه وحزّمه، فإنه ﴿يجلّ لهم الطيبات﴾ من المطاعم والمشارب، والمناكح.

﴿ويحرم عليهم الخبائث﴾ من المطاعم والمشارب والمناكح، والأفعال.

﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ أي: ومن وصفه أن دينه سهل سمح ميسر، لا إصر فيه ولا أغلال، ولا مشقات ولا تكاليف ثقلاً.

﴿فالذين آمنوا به وعزروه﴾ أي: عظموه وبجلوه ﴿ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه﴾ وهو القرآن، الذي يستضاء به في ظلمات الشك والجهالات، ويقتدى به إذا تعارضت المقالات، ﴿أولئك هم الفلاحون﴾ الظافرون بخير الدنيا والآخرة،

والناجون من شرهما، لأنهم أتوا بأكبر أسباب الفلاح.

وأما من لم يؤمن بهذا النبي الأمي، ويعززه وينصره، ولم يتبع النور الذي أنزل معه، فأولئك هم الخاسرون.

ولما دعا أهل التوراة من بني إسرائيل إلى اتباعه، وكان ربما توهّم متوهم أن الحكم مقصور عليهم، أتى بما يدل على العموم فقال: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ أي: عربكم، وعجمكم، أهل الكتاب منكم، وغيرهم.

﴿الذي له ملك السماوات والأرض﴾ يتصرف فيهما بأحكامه الكونية والتدابير السلطانية، وبأحكامه الشرعية الدينية التي من جملتها: أن أرسل إليكم رسولا عظيماً يدعوكم إلى الله وإلى دار كرامته، ويحذركم من كل ما يبعدكم منه، ومن دار كرامته.

﴿لا إله إلا هو﴾ أي: لا معبود بحق إلا الله وحده لا شريك له، ولا تعرف عبادته إلا من طريق رسله، ﴿يحيي ويميت﴾ أي: من جملة تدابير: الإحياء والإماتة، التي لا يشاركه فيها أحد، الذي جعل الموت جسراً ومنبراً يعبر منه إلى دار البقاء، التي من آمن بها صدق الرسول محمداً ﷺ قطعاً.

﴿فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي﴾ إيماناً في القلب، متضمناً لأعمال القلوب والجوارح ﴿الذي يؤمن بالله وكلماته﴾ أي: آمنوا بهذا الرسول المستقيم في عقائده وأعماله، ﴿واتبعوه لعلكم تهتدون﴾ في مصالحكم الدينية والدنيوية، فإنكم إذا لم تتبعوه ضللتهم ضلالاً بعيداً.

﴿١٥٩﴾ ﴿ومن قوم موسى أمة﴾ أي: جماعة ﴿يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ أي: يهدون به الناس في تعليمهم إياهم وفتواهم لهم، ويقضايهم، كما قال تعالى: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ وفي هذا فضيلة لامة موسى عليه الصلاة والسلام، وأن الله تعالى

بعدمهم خلف. زاد شرهم ﴿ورثوا﴾ بعدمهم ﴿الكتاب﴾ وصار المرجع فيه إليهم، وصاروا يتصرفون فيه بأهوائهم، وتبذل لهم الأموال، ليفتوا ويحكموا بغير الحق، وفشت فيهم الرشوة.

﴿ياأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون﴾ مقربين بأنه ذنب وأنهم ظلمة: ﴿سيغفر لنا﴾ وهذا قول خال من الحقيقة، فإنه ليس استغفاراً وطلباً للمغفرة على الحقيقة.

فلو كان ذلك لندموا على ما فعلوا، وعزموا على أن لا يعودوا، ولكنهم - إذا أتاهم عرض آخر، ورشوة أخرى - يأخذوه.

فاشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، قال الله [تعالى] في الإنكار عليهم، وبيان جرائعهم: ﴿لم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق﴾ فما بالهم يقولون عليه غير الحق اتباعاً لأهوائهم، وميلاً مع مطامعهم. ﴿والحال أنهم قد درسوا ما فيه﴾ فليس عليهم فيه إشكال، بل قد أتوا أمرهم متعمدين، وكانوا في أمرهم مستبصرين، وهذا أعظم للذنب، وأشد للوم، وأشنع للعقوبة، وهذا من نقص عقولهم، وسفاهة رأيهم، بإيثار الحياة الدنيا على الآخرة، ولهذا قال: ﴿والدار الآخرة خير للذين يتقون﴾ ما حرم الله عليهم، من المأكول التي تصاب، وتؤكل رشوة على الحكم بغير ما أنزل الله، وغير ذلك من أنواع المحرمات.

﴿أفلا تعقلون﴾ أي: أفلا يكون لكم عقول توازن بين ما ينبغي إيثاره، وما ينبغي الإيثار عليه، وما هو أولى بالسعي إليه، والتقديم له على غيره، فخاصية العقل النظر للعواقب.

وأما من نظر إلى عاجل طفيف منقطع، يفوت نعيماً عظيماً باقياً فأنى له العقل والرأي!!

وإنما العقلاء حقيقة من وصفهم الله بقوله: ﴿والذين يمسكون

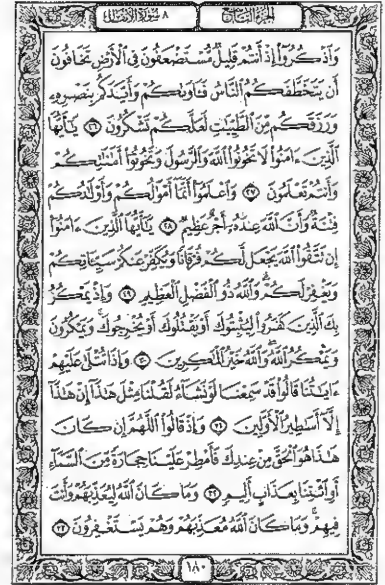
بالظالمين، وهو لم يذكر أنهم ظالمون، فدل على أن العقوبة خاصة بالمعتدين في السبت، ولأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن الآخرين، فاعتكفوا بإنكار أولئك، ولأنهم أنكروا عليهم بقولهم: ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً﴾ فابعدوا من غضبهم عليهم، ما يقتضي أنهم كارهون أشد الكراهة لفعلهم، وأن الله سيعاقبهم أشد العقوبة.

﴿١٦٦﴾ فلما عتوا عما نهوا عنه: أي: قسوا فلم يلبسوا ولا اعتظوا، ﴿فلنا لهم﴾ قولاً قديراً: ﴿كونوا قردة خاسئين﴾ فانتقلبوا بإذن الله قردة، وأبعدهم الله من رحمته، ثم ذكر ضرب الذلة والصغار على من بقي منهم فقال: ﴿وإذا تأذن ربك﴾ أي: أعلم إعلاماً صريحاً: ﴿ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾ أي: يبيتهم ويذلهم.

﴿إن ربك لسريع العقاب﴾ لمن عصاه، حتى إنه يجعل له العقوبة في الدنيا. ﴿وإنه لغفور رحيم﴾ لمن تاب إليه وأتاب، يغفر له الذنوب، ويستر عليه العيوب، ويرحمه بأن يتقبل منه الطاعات، ويثيبه عليها بأنواع المثوبات، وقد فعل الله بهم ما أوعدهم به، فلا يزالون في ذل وإهانة تحت حكم غيرهم، لا تقوم لهم راية، ولا ينصر لهم علم.

﴿١٦٨﴾ وقطعناهم في الأرض أمماً: أي: فرقناهم ومزقناهم في الأرض بعدما كانوا مجتمعين، ﴿منهم الصالحون﴾ القائمون بحقوق الله وحقوق عباده، ﴿ومنهم دون ذلك﴾ أي: دون الصلاح، إما مقتصدون، وإما ظالمون لأنفسهم، ﴿وبلوناهم﴾ على عادتنا وسنتنا، ﴿بالخسرات والسبيات﴾ أي: بالعسر واليسر.

﴿لعلهم يرجعون﴾ عما هم عليه مقيمون من الردى، يراجعون ما خلقوا له من الهدى، فلم يزالوا بين صالح وطالح ومقتصد، حتى خلف من



وعظ من اقتحم محارم الله، ولم يصغ للنصيح، بل استمر على اعتدائه وطغيانه، فإنه لا بد أن يعاقبهم الله، إما بهلاك أو عذاب شديد.

فقال الواعظون: تعظهم ونهاهم ﴿معذرة إلى ربكم﴾ أي: لنعذر فيهم. ﴿ولعلهم يتقون﴾ أي: يتركون ما هم فيه من العصية، فلا نياس من هدايتهم، فربما نجح فيهم الوعظ، وأثر فيهم اللوم.

وهذا المقصود الأعظم من إنكار المنكر ليكون معذرة، وإقامة حجة على المأمور المنهي، ولعل الله أن يهديه فيعمل بمقتضى ذلك الأمر والنهي. ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ أي: تركوا ما ذكروا به، واستمروا على غيهم واعتدائهم.

﴿أنجيناً﴾ من العذاب ﴿الذين ينهون عن النسوة﴾ وهكذا سنة الله في عباده، أن العقوبة إذا نزلت نجا منها الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر.

﴿وأخذنا الذين ظلموا﴾ وهم الذين اعتدوا في السبت ﴿بعذاب يثيب﴾ أي: شديد ﴿بما كانوا يفسقون﴾

وأما الفرقة الأخرى التي قالت لناهين: ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم﴾ فاختلف المفسرون في نجاتهم وهلاكهم، والظاهر أنهم كانوا من الناجين، لأن الله خص الهلاك

بالكتاب ﴿أي: يتمسكون به علماً وعملاً، فيعلمون ما فيه من الأحكام والأخبار التي علمها أشرف العلوم. ويعملون بما فيها من الأوامر التي هي قرة العيون وسرور القلوب، وأفراح الأرواح، وصلاح الدنيا والآخرة.

ومن أعظم ما يجب التمسك به من المأمورات إقامة الصلاة، ظاهراً وباطناً، ولهذا خصها الله بالذكر لفضلها وشرفها، وكونها ميزان الإيمان، وإقامتها داعية لإقامة غيرها من العبادات.

ولما كان عملهم كله إصلاحاً، قال تعالى: ﴿إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾ في أقوالهم وأعمالهم ونياتهم، مصلحين لأنفسهم ولغيرهم.

وهذه الآية وما أشبهها دلّت على أن الله بعث رسوله عليهم الصلاة والسلام بالصالح لا بالفاسد، وبالمنافع لا بالمضار، وأنهم بعثوا بصالح الدارين، فكل من كان أصلح، كان أقرب إلى اتباعهم.

﴿١٧١﴾ ثم قال تعالى: ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم﴾ حين امتنعوا من قبول ما في التوراة.

فألزمهم الله العمل ونتق فوق رؤوسهم الجبل، فصار فوقهم كآنية ظلة وظنوا أنه واقع بهم، وقيل لهم: ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ أي: بجدة واجتهاد.

﴿واذكروا ما فيه﴾ دراسة ومباحثة، واتصافاً بالعمل به ﴿لعلكم تتقون﴾ إذا فعلتم ذلك.

﴿١٧٢﴾ ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون﴾ يقول تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم﴾ أي: أخرج من أصلابهم ذريتهم، وجعلهم يتناسلون ويتوالدون

قرناً بعد قرن.

﴿و﴾ حين أخرجهم من بطون أمهاتهم وأصلاب آبائهم ﴿أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم﴾ أي: قررهم بإثبات ربوبيته، بما أودعه في فطرهم من الإقرار، بأنه ربهم وخالقهم ومليكمهم.

قالوا: بلى قد أقرنا بذلك، فإن الله تعالى فطر عباده على الدين الخفيف القيم.

فكل أحد فهو مفطور على ذلك، ولكن الفطرة قد تغير وتبدل بما يطرا عليها من العقائد الفاسدة، ولهذا قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين.

أي: إنما امتحناكم حتى أقررتم بما تقرز عندهم، من أن الله تعالى ربكم، خشية أن تنكروا يوم القيامة، فلا تقروا بشيء من ذلك، وتزعمون أن حجة الله ما قامت عليكم، ولا عندكم بها علم، بل أنتم غافلون عنها لاهون.

فاليوم قد انقطعت حججتكم، وثبتت الحجة البالغة لله عليكم، أو تحتجون أيضاً بحجة أخرى، فتقولون: ﴿إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم﴾ فحذونا حذوهم، وتبعناهم في باطلهم.

﴿أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾ فقد أودع الله في فطركم ما يدلّكم على أن ما مع آبائكم باطل، وأن الحق ما جاء به الرسل، وهذا يقاوم ما وجدتم عليه آباءكم، ويعلو عليه.

نعم قد يعرض للعبد من أقوال آبائه الضالين ومذاهبهم الفاسدة ما يظنه هو الحق، وما ذاك إلا لإعراضه، عن حجج الله وبيناته وآياته الأقفية والنفسية، فأعراضه عن ذلك، وإقباله على ما قاله المبطلون، ربما صيره بحالة يفضل بها الباطل على الحق، هذا هو الصواب في تفسير هذه الآيات.

وقد قيل: إن هذا يوم أخذ الله الميثاق على ذرية آدم، حين استخرجهم من ظهره وأشهدهم على أنفسهم، فشهدوا بذلك، فاحتج عليهم بما أقروا

وما لهم إلا أن يكفروا بالله وهم يصدّون عن المسجّد الحرام وما كانوا أولياءً له من أولياءٍ ولا القنّون ولكن أكفروا بأنهم لم يكونوا ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا لمسكة وقصد بكهلاً﴾ ﴿والله أعلم﴾ ﴿إن الذين كفروا لا يفقهون﴾ ﴿أولئك هم الذين كفروا عن سبيل الله فسيفعل ما لا تعرفون﴾ ﴿عليهم عسرة في نفوسهم﴾ ﴿والذين كفروا إلى جهنم يحسرون﴾ ﴿ليس لله الخبيث من القليل والليل الحبيث﴾ ﴿بعضهم لبعض﴾ ﴿فيعلمه﴾ ﴿في جهنم أولئك هم المفلحون﴾ ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما سلفوا﴾ ﴿وإن يؤذوا يغفرتم﴾ ﴿سبّك الأولاد﴾ ﴿وقيلوا﴾ ﴿حقاً لا تكفون﴾ ﴿فإنه لا يكون اليقين﴾ ﴿كأنهم كانوا﴾ ﴿استخروا الله في ما يمشكون﴾ ﴿يصدرون﴾ ﴿فإنهم كانوا﴾ ﴿الله من أولئك﴾ ﴿فإنهم كانوا﴾ ﴿فإنهم كانوا﴾

به في ذلك الوقت على ظلمهم في كفرهم، وعنادهم في الدنيا والآخرة، ولكن ليس في الآية ما يدل على هذا، ولا له مناسبة، ولا تقتضيه حكمة الله تعالى، والواقع شاهد بذلك.

فإن هذا العهد والميثاق، الذي ذكروا، أنه حين أخرج الله ذرية آدم من ظهره، حين كانوا في عالم كالذر، لا يذكره أحد، ولا يختر ببال آدمي، فكيف يحتج الله عليهم بأمر ليس عندهم به خبر، ولا له عين ولا أثر؟! ولهذا لما كان هذا أمراً واضحاً جلياً، قال تعالى: ﴿وكذلك نفصل الآيات﴾ أي: نبينها ونوضحها، ولعلهم يرجعون إلى ما أودع الله في فطرهم، وإلى ما عاهدوا الله عليه، فيرتدعون عن القبائح.

﴿١٧٤ - ١٧٨﴾ وأتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فقتله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ساء مثلاً للقوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وأتل عليهم نبأ الذي آتيناه



آياتنا ﴿أي: علمناه علم كتاب الله، فصار العالم الكبير والخبر التحرير.

﴿فانسلخ منها، فأتبعه الشيطان﴾ أي: انسلخ من الاتصاف الحقيقي بالعلم بآيات الله، فإن العلم بذلك، يصير صاحبه متصفاً بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ويرقى إلى أعلى الدرجات وأرفع المقامات، فترك هذا كتاب الله وراء ظهره، ونبد الأخلاق التي يأمر بها الكتاب، وخلعها كما يخلع اللباس.

فلما انسلخ منها أتبعه الشيطان، أي: تسلط عليه حين خرج من الحصن الحصين، وصار إلى أسفل سافلين، فآذنه إلى المعاصي أزرأ. ﴿فكان من القواوين﴾ بعد أن كان من الراشدين المرشدين، وهذا لأن الله تعالى خذله ووكله إلى نفسه، فلهاذا قال تعالى: ﴿ولو شئنا لرفعناه بها﴾ بأن توفقه للعمل بها، فيرتفع في الدنيا والآخرة، فيتحصن من أعدائه.

﴿ولكنه﴾ فعل ما يقتضي الخذلان، فأخذ إلى الأرض، أي: إلى الشهوات السفلية، والمقاصد الدنيوية، ﴿واتبع هواه﴾ وترك طاعة مولاه، ﴿فمثلته﴾ في شدة حرصه على الدنيا وانقطاع قلبه إليها، ﴿كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ أي: لا يزال لاهثاً في كل حال، وهذا لا يزال

حرصاً حرصاً قاطعاً قلبه، لا يسد فاقته شيء من الدنيا.

﴿ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ بعد أن ساقها الله إليهم، فلم ينقادوا لها، بل كذبوا بها وردوها، لهوانهم على الله، واتباعهم لأهوائهم، بغير هدى من الله.

﴿فانقص القصص لحلهم يتفكرون﴾ في ضرب الأمثال، وفي العبر والآيات، فإذا تفكروا علموا، وإذا علموا عملوا.

﴿١٧٧﴾ ﴿ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون﴾ أي: ساء وقبح، مثل من كذب بآيات الله، وظلم نفسه بأنواع المعاصي، فإن مثلهم مثل السوء، وهذا الذي آتاه الله آياته، يحتمل أن المراد به شخص معين، قد كان منه ما ذكره الله، فقص الله قصته تنبيهاً للعباد. ويحتمل أن المراد بذلك أنه اسم جنس، وأنه شامل لكل من آتاه الله آياته فانسلك منها.

وفي هذه الآيات الترغيب في العمل بالعلم، وأن ذلك رفعة من الله لصاحبه، وعصمة من الشيطان، والترهيب من عدم العمل به، وأنه نزول إلى أسفل سافلين، وتسليط للشيطان عليه، وفيه أن اتباع الهوى، وإخلاق العبد إلى الشهوات، يكون سبباً للخذلان.

﴿١٧٨﴾ ﴿ثم قال تعالى مبيناً أنه المنفرد بالهداية والإضلال: ﴿من يهد الله﴾ بأن يوفقه للخيرات، ويعصمه من المكروهات، ويعلمه ما لم يكن يعلم ﴿فهو المهتدي﴾ حقاً لأنه أثر هدايته تعالى، ﴿ومن يضل﴾ فيخذه ولا يوفقه للخير ﴿فأولئك هم الخاسرون﴾ لأنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين.

﴿١٧٩﴾ ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون﴾ أي: أنزلنا كثيراً من الجن والإنس لا يفقهون، فلم يسمعوا بها ولا يسمعون بها، لأنهم هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ يقول تعالى مبيناً كثرة الغاوين الضالين،

المتبعين إبليس اللعين: ﴿ولقد ذرأنا﴾ أي: أنشأنا وبثنا ﴿لجهنم كثيراً من الجن والإنس﴾ صارت البهائم أحسن حالة منهم.

﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ أي: لا يصل إليها فقه ولا علم، إلا مجرد قيام الحجة.

﴿ولهم أعين لا يبصرون بها﴾ ما يفقهون، بل فقدوا منفعتها وفائدتها.

﴿ولهم آذان لا يسمعون بها﴾ سماعاً يصل معناه إلى قلوبهم.

﴿أولئك﴾ الذين بهذه الأوصاف القبيحة ﴿كالأنعام﴾ أي: البهائم، التي فقدت العقول، وهؤلاء أثروا ما يفنى على ما يبقى، فسلبوا خاصية العقل.

﴿بل هم أضل﴾ من البهائم، فإن الأنعام مستعملة فيما خلقت له، ولها أذهان تدرك بها، مضرتها من منفعتها، فلذلك كانت أحسن حالاً منهم. ﴿أولئك هم الغافلون﴾ الذين غفلوا عن أنفع الأشياء، غفلوا عن الإيمان بالله وطاعته وذكره.

خلقت لهم الأفئدة والأسماع والأبصار، لتكون عوناً لهم على القيام بأوامر الله وحقوقه، فاستعانوا بها على ضد هذا المقصود.

فهؤلاء حقيقون بأن يكونوا من ذرأ الله لجهنم وخلقهم لها، فخلقهم للنار، وبأعمال أهلها يعملون.

وأما من استعمل هذه الجوارح في عبادة الله، وانصيف قلبه بالإيمان بالله ومحبه، ولم يغفل عن الله، فهؤلاء أهل الجنة، وبأعمال أهل الجنة يعملون.

﴿١٨٠﴾ ﴿والله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾ هذا بيان لعظيم جلاله وسعة أوصافه، بأن له الأسماء الحسنى، أي: له كل اسم حسن، وضابطه: أنه كل اسم دال على صفة كمال عظيمة، وبذلك كانت حسنى، فإنها لو دلت على غير صفة، بل كانت علماً محضاً لم تكن حسنى، وكذلك لو دلت على صفة ليست بصفة كمال، بل إما صفة نقص أو صفة

أتمها، ولا من العقل والرأي: إلا ما فاق به العالمين، ولا يدعو إلا لكل خير، ولا ينهى إلا عن كل شر.

أبهدا يا أولي الألباب من جنة؟! أم هو الإمام العظيم والنصاح المبين، والمجد الكريم، والرؤوف الرحيم؟! ولهذا قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مِّمَّنْ﴾ أي: يدعو الخلق إلى ما ينجيهم من العذاب، ويحصل لهم الثواب.

﴿١٨٥﴾ ﴿أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإنهم إذا نظروا إليها وجدوها أدلة دالة على توحيد ربها، وعلى ماله من صفات الكمال.

﴿و﴾ كذلك لينظروا إلى جميع ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ فإن جميع أجزاء العالم يدل أعظم دلالة على علم الله وقدرته وحكمته وسعة رحمته، وإحسانه، ونفوذ مشيئته، وغير ذلك من صفاته العظيمة، الدالة على تفرد بالخلق والتدبير، الموجه لأن يكون هو العبود المحمود، المسبح الموحد المحبوب.

وقوله: ﴿وَأَنْ حَسْبَى أَنْ يَكُونَ قَدْ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ﴾ أي: لينظروا في خصوص حالهم، وينظروا لأنفسهم قبل أن يقترب أجلهم، ويفجأهم الموت وهم في غفلة معرضون، فلا يتمكنون حينئذ من استدراك الفارط.

﴿فَبَأَى: حديث بعده يؤمنون﴾ أي: إذا لم يؤمنوا بهذا الكتاب الجليل، فبأى: حديث يؤمنون به؟! أكتب الكذب والضلال؟ أم بحديث كل مفتر دجال؟

ولكن الضلال لا حيلة فيه، ولا سبيل إلى هدايته، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: متحيرين^(١) يترددون، لا يخرجون منه ولا يهتدون إلى حق.

﴿١٨٧﴾ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسَاها قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي

﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ بين الناس في أحكامهم إذا حكموا في الأموال والدماء والحقوق والمقاتلات، وغير ذلك، وهؤلاء هم أئمة الهدى، ومصابيح الدجا، وهم الذين أنعم الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وهم الصديقون الذين مرتبتهم تلي مرتبة الرسالة، وهم في أنفسهم مراتب متفاوتة كل بحسب حاله وعلو منزلته، فسيحان من يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

﴿١٨٢﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ أُولَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مِّمَّنْ أُولَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبَأَى: حديث بعده يؤمنون﴾ من يضل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ أي: والذين كذبوا بآيات الله الدالة على صحة ما جاء به محمد ﷺ من الهدى فردوها ولم يقبلوها. ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بأن يدر لهم الأرزاق. ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: أمهلهم حتى يظنوا أنهم لا يؤخذون ولا يعاقبون، فيزدادون كفراً وطغياناً، وشرّاً إلى شرهم، وبذلك تزيد عقوبتهم، ويتضاعف عذابهم، فيضرون أنفسهم من حيث لا يشعرون، ولهذا قال: ﴿إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي: قوي بليغ.

﴿١٨٤﴾ ﴿أُولَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ محمد ﷺ ﴿مِنْ جَنَّةٍ﴾ أي: أُولَمْ يَعْمَلُوا أَفْكَارَهُمْ، وينظروا هل في صاحبهم الذي يعرفونه ولا يخفى عليهم من حاله شيء، هل هو مجنون؟ فلينظروا في أخلاقه وهديه، ودله وصفاته، وينظروا في ما دعا إليه، فلا يجدون فيه من الصفات إلا أكملها، ولا من الأخلاق إلا

منقسمة إلى المدح والقدح، لم تكن حسنى، فكل اسم من أسمائه دال على جميع الصفة التي اشتق منها، مستغرق لجميع معناها.

وذلك نحو «العليم» الدال على أن له علماً محيطاً عاماً لجميع الأشياء، فلا يخرج عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

و«الرحيم» الدال على أن له رحمة عظيمة واسعة لكل شيء.

و«القدير» الدال على أن له قدرة عامة، لا يعجزها شيء، ونحو ذلك.

ومن تمام كونها «حسنى» أنه لا يدعى إلا بها، ولذلك قال: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة، فيدعى في كل مطلوب بما يناسب ذلك المطلوب، فيقول الداعي مثلاً: اللهم اغفر لي وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم، وتب علي يا تواب، وارزقني يا رزاق، والطف بي يا لطيف ونحو ذلك.

وقوله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يَلْحَدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: عقوبة وعذاباً على إلحادهم في أسمائهم، وحقيقة الإلحاد الميل بها عما جعلت له، إما بأن يسمى بها من لا يستحقها، كتسمية المشركين بها لألتهم، وإما بنفي معانيها وتحريفها، وأن يجعل لها معنى ما أراده الله ولا رسوله، وإما أن يشبه بها غيرها، فالواجب أن يحذر الإلحاد فيها، ويحذر الملحدون فيها، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ «أَنَّ اللَّهَ تَسْعَةُ وَتَسْعِينَ اسْمًا، مِنْ أَحْصَاها دَخَلَ الْجَنَّةَ».

﴿١٨١﴾ وقوله: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ أي: ومن جملة من خلقنا أمة فاضلة كاملة في نفسها، مكملة لغيرها، يهدون أنفسهم وغيرهم بالحق، فيعلمون الحق ويعلمونه، ويدعون إليه وإلى العمل به.

نفعه ﷺ، الذي فاق نفع الآباء والأمهات، والأخلاء والإخوان بما حث العباد على كل خير، وحذرهم عن كل شر، وبينه لهم غاية البيان والإيضاح.

﴿١٨٩﴾ ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين﴾ فلما آتاها صالحاً جعلاً له شركاء فيما آتاها فتعالى الله عما يشركون ﴿أشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون﴾ ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ﴿وان تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتهم أم أنتم صامتون﴾ أي: ﴿هو الذي خلقكم﴾ أيها الرجال والنساء، المنتشرون في الأرض على كثرتكم وتفرقكم. ﴿من نفس واحدة﴾ وهو آدم أبو البشر ﷺ.

﴿وجعل منها زوجها﴾ أي: خلق من آدم زوجته حواء لأجل أن يسكن إليها لأنها إذا كانت منه حصل بينهما من المناسبة والموافقة ما يقتضي سكون أحدهما إلى الآخر، فانقاد كل منهما إلى صاحبة بزمام الشهوة.

﴿فلما تغشاها﴾ أي: تجللتها مجامعاً لها قدر الباري أن يوجد من تلك الشهوة وذلك الجماع النسل، [وحينئذ^(١)] حملت حملاً خفيفاً، وذلك في ابتداء الحمل، لا تحس به الأنثى، ولا يتقلها.

﴿فلما﴾ استمرت به و ﴿أثقلت﴾ به حين كبر في بطنها، فحينئذ صار في قلوبهما الشفقة على الولد، وعلى خروجه حياً صحيحاً، سالماً لا آفة فيه^(٢) [كذلك]، فدعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً ولدنا صالحاً أي: صالح

ويدعون ما يجب عليهم من العلم، ثم يذهبون إلى ما لا نبيل لأحد أن يدركه، ولا هم مطالبون بعلمه.

﴿١٨٨﴾ ﴿قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا﴾ فلاني فقير مدبر، لا يأتييني خير إلا من الله، ولا يدفع عني الشر إلا هو، وليس لي من العلم إلا ما علمني الله تعالى.

﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء﴾ أي: لفعلت الأسباب التي أعلم أنها تنتج لي المصالح والمنافع، ولحذرت من كل ما يفضي إلى سوء ومكره، لعلمي بالأشياء قبل كونها، وعلمي بما تقضي إليه.

ولكني - لعدم علمي - قد ينالني ما ينالني من السوء، وقد يفوتني ما يفوتني من مصالح الدنيا ومنافعها، فهذا أدل دليل على أي لا علم لي بالغيب.

﴿إن أنا إلا نذير﴾ أئذ العقوبات الدينية والدنيوية والأخروية، وأبين الأعمال المفضية إلى ذلك، وأحذر منها.

﴿وبشير﴾ بالشواب العاجل والآجل، ببيان الأعمال الموصلة إليه والترغيب فيها، ولكن ليس كل أحد يقبل هذه البشارة والنذارة، وإنما يتنفع بذلك ويقبله المؤمنون، وهذه الآيات الكريمات، مبنية جهل من يقصد النبي ﷺ ويدعوه لحصول نفع أو دفع ضرر.

فإنه ليس بيده شيء من الأمر، ولا ينفع من لم ينفعه الله، ولا يدفع الضرر عن من يدفعه الله عنه، ولا له من العلم إلا ما علمه الله تعالى، وإنما ينفع من قبل ما أرسل به من البشارة والنذارة، وعمل بذلك، فهذا

السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا﴾ إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴿يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: يسألونك﴾ أي: المكذوبون لك، المتعنتون ﴿عن الساعة﴾ أيان مراسها ﴿أي: متى وقتها الذي تحي به، ومتى تحل بالخلق؟﴾

﴿قل إنما علمها عند ربِّي﴾ أي: إنه تعالى مختص بعلمها، ﴿لا يعلِّمها لوقتها إلا هو﴾ أي: لا يظهرها لوقتها الذي قدر أن تقوم فيه إلا هو.

﴿أثقلت في السموات والأرض﴾ أي: خفي علمها على أهل السموات والأرض، واشتد أمرها أيضاً عليهم، فهم من الساعة مشفقون.

﴿لا تأتيكم إلا بغتة﴾ أي: فجأة من حيث لا تشعرون، لم يستعدوا لها، ولم يتهيؤوا لقيامها.

﴿يسألونك كأنك حفي عنها﴾ أي: هم حريصون على سؤالك عن الساعة، كأنك مستحف عن السؤال عنها، ولم يعلموا أنك - لكمال علمك بربك، وما ينفع السؤال عنه - غير مبال بالسؤال عنها، ولا حريص على ذلك، فليم لا يقتدون بك، ويكفون عن الاستحفاء عن هذا السؤال الخالي من المصلحة المتعذر علمه، فإنه لا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب. وهي من الأمور التي أخفاها الله عن الخلق، لكمال حكمته وسعة علمه.

﴿قل إنما علمها عند الله، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ فلذلك حرصوا على ما لا ينبغي الحرص عليه، وخصوصاً مثل حال هؤلاء الذين يتركون السؤال عن الأهم،

(١) زيادة من هامش ب، وفي أ: فحملت.

الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون * وإخوانهم يمدوهم في الغي ثم لا يقصرون *

أي: أي وقت، وفي أي: حال * ينزغك من الشيطان نزغ * أي: تحس منه بوسوسة وتثييط عن الخير، أو حث على الشر وإيعاز إليه. * فاستغذ بالله: أي: التجئ وأعتصم بالله، واحتم بحماه فإنه * سمع: لما تقول. * عليهم: بنيتك وضعفك، وقوة التجانك له، فسيحملك من فتنته، وقيك من وسوسته، كما قال تعالى * قل أعوذ برب الناس: إلى آخر السورة.

ولما كان العبد لا بد أن يغفل وينال منه الشيطان، الذي لا يزال مرابطاً ينتظر غرته وغفلته، ذكر تعالى علامة المتقين من الغاوين، وأن المتقي إذا أحس بذنب، فاذنب بفعل محرم أو ترك واجب - تذكر من أي: باب أي، ومن أي: مدخل دخل الشيطان عليه، وتذكر ما أوجب الله عليه، وما عليه من لوازم الإيمان، فأبصر واستغفر الله تعالى، واستدرك ما فرط منه بالتوبة النصوح والحسنات الكثيرة، فرد شيطانه خاسئاً حسيراً، قد أفسد عليه كل ما أدركه منه.

وأما إخوان الشياطين وأولياؤهم، فإنهم إذا وقعوا في الذنوب، لا يزالون يمدونهم في الغي ذنباً بعد ذنب، ولا يقصرون عن ذلك، فالشياطين لا تقصر عنهم بالإغواء، لأنها طمعت فيهم حين رآتهم سلسي القياد لها، وهم لا يقصرون عن فعل الشر.

﴿٢٠٣﴾ وإذا لم تأبهم بآية قالوا لولا اجتبتنا قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون * أي: لا يزال هؤلاء المكذبون لك في تعنت وعناد،

لرسول الله ﷺ، فتحسبهم ينظرون إليك يا رسول الله نظر اعتبار يتبين به الصادق من الكاذب، ولكنهم لا يبصرون حقيقتك وما يتوسمه المتوسمون فيك من الجمال والكمال والصدق.

﴿١٩٩﴾ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهل * هذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في معاملتهم، فالذي ينبغي أن يعامل به الناس، أن يأخذ العفو، أي: ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق؛ فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم، بل يشكر من كل أحد ما قابله به، من قول وفعل جميل، أو ما هو دون ذلك، ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض طرفه عن نقصهم، ولا يتكبر على الصغير لصغره، ولا ناقص العقل لنقصه، ولا الفقير لفقره، بل يعامل الجميع باللطف والمقابلة بما تقتضيه الحال وتشرح له صدورهم.

﴿وأمر بالعرف﴾ أي: بكل قول حسن وفعل جميل، وخلق كامل للقريب والبعيد، فاجعل ما يأتي إلى الناس منك، إما تعليم علم، أو حث على خير، من صلة رحم، أو بر والدین، أو إصلاح بين الناس، أو نصيحة نافعة، أو رأي: مصيب، أو معاون على بر وتقوى، أو زجر عن قبيح، أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية أو دنيوية، ولما كان لا بد من أذية الجاهل، أمر الله تعالى أن يقابل الجاهل، بالإعراض عنه وعدم مقابلته بجهله، فمن آذاك بقوله أو فعله لا تؤذه، ومن حرمك لا تحرمه، ومن قطعك فصله، ومن ظلمك فاعدل فيه.

وأما ما ينبغي أن يعامل به العبد شياطين الإنس والجن، فقال تعالى: ﴿٢٠٠﴾ وإما ينزغك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم * إن



لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون * وهذا أيضاً في بيان عدم استحقاق هذه الأصنام التي يعبدونها من دون الله لشيء من العبادة، لأنها ليس لها استطاعة ولا اقتدار في نصر أنفسهم، ولا في نصر عابديها، وليس لها قوة العقل والاستجابة، فلو دعوتها إلى الهدى لم تهتد، وهي صور لا حياة فيها، فتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون حقيقة، لأنهم صوروها على صور الحيوانات من آدميين أو غيرهم، وجعلوا لها أعضاراً وأعضاء، فإذا رايتها قلت: هذه حية، فإذا تأملت ما عرفت أنها جمادات لا حراك بها، ولا حياة، فبأي: رأي اتخذها المشركون آلهة مع الله؟ ولأي: مصلحة أو نفع عكفوا عندها وتقربوا لها بأنواع العبادات؟

فإذا عرف هذا، عرف أن المشركين وآلهتهم التي عبدوها، ولو اجتمعوا وأرادوا أن يكيدوا من تولاه فاطر الأرض والسماوات، متولي أحوال عباده الصالحين، لم يقدرُوا على كيدهم بمثقال ذرة من الشر، لكمال عجزهم وعجزها، وكمال قوة الله واقتداره، وقوة من احتوى بجلاله وتوكل عليه.

وقيل: إن معنى قوله: ﴿وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾ أن الضمير يعود إلى المشركين المكذبين



ولو جاءتهم الآيات الدالة على الهدى والرشاد، فإذا جئتهم بشيء من الآيات الدالة على صدقكم لم ينقادوا.

«وإذا لم تأتكم بآية» من آيات الاقتراح التي يعينونها «قالوا لولا اجتبيتها» أي: هلا اخترت الآية، فصارت الآية الفلانية، أو المعجزة الفلانية كأنك أثبت المنزل للآيات، المدير لجميع المخلوقات، ولم يعلموا أنه ليس لك من الأمر شيء، أو أن المعنى: لولا اخترعتها من نفسك.

«قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي» فإنا عبد متبع مدبر، والله تعالى هو الذي ينزل الآيات ويرسلها على حسب ما اقتضاه حمده وطلبته حكمته البالغة، فإن أردتم آية لا تضمحل على تعاقب الأوقات، وحجة لا تبطل في جميع الآتات، فهذا القرآن العظيم والذكر الحكيم «بصائر من ربكم» يستبصر به في جميع المطالب الإلهية والمقاصد الإنسانية، وهو الدليل والمدلول فمن تفكر فيه وتدبره، علم أنه تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبه قامت الحجة على كل من بلغه، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون، وإلا فمن آمن، فهو «هدى» له من الضلال «ورحمة» له من الشقاء، فالؤمن مهتد بالقرآن، متبع له، سعيد في دينه وأخراه.

وأما من لم يؤمن به، فإنه ضال شقي في الدنيا والآخرة.

«٢٠٤» «وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون» هذا الأمر عام في كل من سمع كتاب الله يتلى، فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات، والفرق بين الاستماع والإنصات، أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه.

وأما الاستماع له، فهو أن يلقي سمعه، ويحضر قلبه ويتدبر ما يستمع، فإن من لازم على هذين الأمرين حين

ومن أوكد ما يؤمر به مستمع القرآن، أن يستمع له وينصت في الصلاة الجهرية إذا قرأ إمامه، فإنه مأمور بالإنصات، حتى إن أكثر العلماء يقولون: إن اشتغاله بالإنصات، أولى من قراءته الفاتحة وغيرها.

«٢٠٥ - ٢٠٦» «واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين» إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون الذكر لله تعالى يكون بالقلب، ويكون باللسان، ويكون بهما، وهو أكمل أنواع الذكر وأحواله، فأمر الله عبده ورسوله محمداً أصلاً، وغيره تبعاً بذكر ربه، في نفسه، أي: مخلصاً خالياً.

«تضرعاً» أي: متضرعاً بلسانك، مكرراً لأنواع الذكر، «وخيفة» في قلبك بأن تكون خائفاً من الله، وجل القلب منه، خوفاً أن يكون عملك غير مقبول، وعلامة الخوف أن يسعى ويجتهد في تكميل العمل وإصلاحه، والنصح به.

«ودون الجهر من القول» أي: كن متوسطاً، لا تجهر بصلاتك، ولا تخافت بها، وابتغ بين ذلك سبيلاً. «بالغدو» أول النهار «والآصال» آخره، وهذان الوقتان لذكر الله فيهما مزية وفضيلة على غيرهما.

«ولا تكن من الغافلين» الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فاتهم حرموا خير الدنيا والآخرة، وأعرضوا عن كل السعادة والفوز في ذكره وعبوديته، وأقبلوا على كل الشقاوة

والخيبة في الاشتغال به، وهذه من الآداب التي ينبغي للعبد أن يراعيها حق رعايتها، وهي الإكثار من ذكر الله أثناء الليل والنهار، خصوصاً طرقي النهار، غلصاً خاشعاً متضرعاً، متذلاً، ساكناً، وتواطئاً عليه قلبه ولسانه، بأدب ووقار، وإقبال على الدعاء والذكر، وإحضار له بقلبه وعدم غفلة، فإن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه.

ثم ذكر تعالى أن له عباداً مستديمين لعبادته، ملازمين لخدمته وهم الملائكة، فلتعلموا أن الله لا يريد أن يتكثر لعبادته من قلة، ولا ليتعزز بها من ذلة، وإنما يريد نفع أنفسهم، وأن تربحوا عليه أضعاف أضعاف ما عملتم، فقال: «إن الذين عند ربك من الملائكة المقربين، وحمة العرش والكروبيين» لا يستكبرون عن عبادته بل يذعنون لها وينقادون لأوامر ربهم «ويسبحونه» الليل والنهار لا يفترون.

«وله» وحده لا شريك له «يسجدون» فليقتد العباد بهؤلاء الملائكة الكرام، وليداوموا [على] عبادة الملك العلام.

تم تفسير سورة الأعراف
والله الحمد والشكر والثناء
وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم

فرائض ونوافل، بأعمالها الظاهرة والباطنة، كحضور القلب فيها، الذي هو روح الصلاة ولبها، ﴿وما رزقناهم ينفقون﴾ النفقات الواجبة، كالزكوات، والكفارات، والنفقة على الزوجات والأقارب، وما ملكت أيماهم، والمستحبة كالصدقة في جميع طرق الخير.

﴿أولئك﴾ الذي اتصفوا بتلك الصفات ﴿هم المؤمنون حقاً﴾ لأنهم جمعوا بين الإسلام والإيمان، بين الأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، بين العلم والعمل، بين أداء حقوق الله وحقوق عباده.

وقدم تعالى أعمال القلوب، لأنها أصل لأعمال الجوارح وأفضل منها، وفيها دليل على أن الإيمان، يزيد وينقص، فيزيد بفعل الطاعة وينقص بضدها.

وأنه ينبغي للعبد أن يتعاهد إيمانه وينميه، وإن أولى ما يحصل به ذلك تدبر كتاب الله تعالى والتأمل لمعانيه. ثم ذكر ثواب المؤمنين حقاً فقال: ﴿لهم درجات عند ربهم﴾ أي: عالية بحسب علو أعمالهم ﴿ومغفرة﴾ لذنوبهم ﴿ورزق كريم﴾ وهو ما أعد الله لهم في دار كرامته، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ودل هذا على أن من لم يصل إلى درجتهم في الإيمان - وإن دخل الجنة - فلن ينال ما نالوا من كرامة الله التامة.

﴿٨﴾ ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾ يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين﴾ ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴿قدم تعالى - أمام هذه الغزوة الكبرى المباركة - الصفات التي على المؤمنين أن يقوموا بها، لأن من قام

أصلحوا ما بينكم من التشاحن والتقاطع والتدابير، بالتوادد والتحاب والتواصل. فبذلك تجتمع كلمتكم، ويزول ما يحصل - بسبب التقاطع - من التخاصم، والتشاجر والتنازع.

ويدخل في إصلاح ذات البين تحسين الخلق لهم، والعفو عن المسيئين منهم فإنه بذلك يزول كثير مما يكون في القلوب من البغضاء والتدابير، والأمر الجامع لذلك كله قوله: ﴿وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾ فإن الإيمان يدعو إلى طاعة الله ورسوله، كما أن من لم يطع الله ورسوله فليس بمؤمن.

ومن نقصت طاعته الله ورسوله، فذلك لنقص إيمانه، ولما كان الإيمان قسمين: إيماناً كاملاً يترتب عليه المدح والثناء، والفوز التام، وإيماناً دون ذلك ذكر الإيمان الكامل فقال: ﴿إنما المؤمنون﴾ الألف واللام للاستغراق لشرائع الإيمان.

﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ أي: خافت ورهبت، فأوجبت لهم خشية الله تعالى الانكفاف عن المحارم، فإن خوف الله تعالى أكبر علاماته أن يحجز صاحبه عن الذنوب.

﴿وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾ ووجه ذلك أنهم يلقبون له السمع ويحضرون قلوبهم لتدبره فعند ذلك يزيد إيمانهم، لأن التدبر من أعمال القلوب، ولأنه لا بد أن يبين لهم معنى كانوا يجهلون، أو يتذكرون ما كانوا نسوه، أو يحدث في قلوبهم رغبة في الخير، واشتياقاً إلى كرامة ربهم، أو وجلاً من العقوبات، وازدجاراً عن المعاصي، وكل هذا مما يزداد به الإيمان.

﴿وعلى ربهم﴾ وحده لا شريك له ﴿يتوكلون﴾ أي: يعتمدون في قلوبهم على ربهم في جلب مصالحهم ودفع مضارهم الدينية والدنيوية، ويثقون بأن الله تعالى سيفعل ذلك.

والتوكل هو الحامل للأعمال كلها، فلا توجد ولا تكمل إلا به.

﴿الذين يقيمون الصلاة﴾ من



تفسير سورة الأنفال وهي مدنية

﴿١ - ٤﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ﴿الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون﴾ أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴿الأنفال هي الغنائم التي ينفلها الله لهذه الأمة من أموال الكفار، وكانت هذه الآيات في هذه السورة قد نزلت في قصة «بدر» أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون من المشركين، فحصل بين بعض المسلمين فيها نزاع، فسألوا رسول الله ﷺ عنها، فأنزل الله: ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ كيف تقسم وعلى من تقسم؟

﴿قل﴾ لهم: الأنفال لله ورسوله يضعانها حيث شاءا، فلا اعتراض لكم على حكم الله ورسوله، بل عليكم إذا حكم الله ورسوله أن ترضوا بحكمهما، وتسلموا الأمر لهما، وذلك داخل في قوله: ﴿فاتقوا الله﴾ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه. ﴿وأصلحوا ذات بينكم﴾ أي:

بها استقامت أحواله وصلحت أعماله، التي من أكبرها الجهاد في سبيله .
فكما أن إيمانهم هو الإيمان الحقيقي، وجزاءهم هو الحق الذي وعدهم الله به، كذلك أخرج الله رسوله ﷺ من بيته إلى لقاء المشركين في «بدر» بالحق الذي يحبه الله تعالى، وقد قدره وقضاه .

وإن كان المؤمنون لم يخطر ببالهم في ذلك الخروج أنه يكون بينهم وبين عدوهم قتال .

فحين تبين لهم أن ذلك واقع، جعل فريق من المؤمنين يجادلون النبي ﷺ في ذلك، ويكرهون لقاء عدوهم، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون .

والحال أن هذا لا ينبغي منهم، خصوصاً بعدما تبين لهم أن خروجهم بالحق، وما أمر الله به ورضيه، فيهذه الحال ليس للجدال محل [فيها] ^(١)، لأن الجدال محله وفائدته عند اشتباه الحق والتباس الأمر، فأما إذا وضح وبان، فليس إلا الانقياد والإذعان .

هذا وكثير من المؤمنين لم يجر منهم من هذه المجادلة شيء، ولا كرهوا لقاء عدوهم، وكذلك الذين عاتبهم الله، انتقادوا للجهاد أشد الانقياد، وثبتهم الله، وقضض لهم من الأسباب ما تطمئن به قلوبهم كما سيأتي ذكر بعضها .

وكان أصل خروجهم يتعرضون لغير خرجت مع أبي سفيان بن حرب لقريش إلى الشام، قافلة كبيرة، فلما سمعوا برجوعها من الشام، ندب النبي ﷺ الناس، فخرج معه ثلاث مئة، وبضعة عشر رجلاً، معهم سبعون بعيراً، يعقبون عليها، ويحملون عليها متاعهم، فسمعت بخبرهم قريش، فخرجوا لمنع عيرهم، في عدد كثير وعدة وافرة من السلاح والخيول والرجال، يبلغ عددهم قريباً من الألف .

فوعده الله المؤمنين إحدى الطائفتين، إما أن يظفروا بالغير، أو

بالنفير، فأحبوا العير لقلة ذات يد المسلمين، ولأنها غير ذات شوكة، ولكن الله تعالى أحب لهم وأراد أمراً أعلى مما أحبوا .

أراد أن يظفروا بالنفير الذي خرج فيه كبراء المشركين وصناديدهم، **﴿ويريد الله أن يحق الحق بكلماته﴾** فينصر أهله **﴿ويقطع دابر الكافرين﴾** أي: يستأصل أهل الباطل، ويُبري عباده من نصره للحق أمراً لم يكن يخطر ببالهم .

﴿ليحق الحق﴾ بما يظهر من الشواهد والبراهين على صحته وصدقه، **﴿ويبطل الباطل﴾** بما يقيم من الأدلة والشواهد على بطلانه **﴿ولو كره المجرمون﴾** فلا يبالى الله بهم .

﴿٩ - ١٤﴾ **﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني مَدَّكُمْ بِالْف من الملائكة مردفين﴾** وما جعله الله إلا بشري وتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم * إذ يغشيكم النعاس أمانة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام * إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان * ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب * ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار * أي: اذكروا نعمة الله عليكم، لما قارب التقاؤكم بعدوكم، استغثتم بربكم، وطلبت منه أن يعينكم وينصركم **﴿فاستجاب لكم﴾** وأغاثكم بعدة أمور:

منها: أن الله أمدهم **﴿بألف من الملائكة مردفين﴾** أي: يردف بعضهم بعضاً، **﴿وما جعله الله﴾** أي: إنزال الملائكة **﴿إلا بشري﴾** أي: لتستبشر بذلك نفوسكم، **﴿ولتطمئن به قلوبكم﴾** وإلا فالنصر بيد الله، ليس بكثرة عدد ولا عُدَّة .

﴿إن الله عزيز﴾ لا يغالبه مغالب، بل هو القهار، الذي يخذل من بلغوا من الكثرة وقوة العدد والآلات ما بلغوا . **﴿حكيم﴾** حيث قدر الأمور بأسبابها، ووضع الأشياء مواضعها .

ومن نصره واستجابته لدعائكم أن أنزل عليكم نعاساً **﴿يعشيكم﴾** [أي] فيذهب ما في قلوبكم من الخوف والوجل، ويكون **﴿أمانة﴾** لكم وعلامة على النصر والطمأنينة .

ومن ذلك: أنه أنزل عليكم من السماء مطراً ليطهركم به من الحدث والخبث، ويطهركم به من وساوس الشيطان ورجزه .

﴿وليربط على قلوبكم﴾ أي: يثبتها فإن ثبات القلب، أصل ثبات البدن، **﴿ويثبت به الأقدام﴾** فإن الأرض كانت سهلة دهسة فلما نزل عليها المطر تلبدت، وثبتت به الأقدام .

ومن ذلك: أن الله أوحى إلى الملائكة **﴿أني معكم﴾** بالعون والنصر والتأييد، **﴿فثبتوا الذين آمنوا﴾** أي: ألقوا في قلوبهم، وألهموهم الجراءة على عدوهم، ورغبوهم في الجهاد وفضله .

﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ الذي هو أعظم جند لكم عليهم، فإن الله إذا ثبت المؤمنين وألقى الرعب في قلوب الكافرين، لم يقدر الكافرون على الثبات لهم، ومنحهم الله أكتافهم .

﴿فاضربوا فوق الأعناق﴾ أي: على الرقاب **﴿واضربوا منهم كل بنان﴾** أي: مفصل .

وهذا خطاب، إنما للملائكة الذين أوحى الله إليهم أن يثبتوا الذين آمنوا، فيكون في ذلك دليل أنهم باشروا القتال يوم بدر، أو للمؤمنين يشجعهم الله، ويعلمهم كيف يقتلون المشركين، وأنهم لا يرحمهم، وذلك لأنهم شاقوا الله ورسوله أي: جاربوها وبارزوها بالعداوة. **﴿ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب﴾** ومن عقابه

تسليط أوليائه على أعدائه وتقتيلهم.

﴿ذَلِكُمْ﴾ العذاب المذكور
﴿فَذَوْقُوهُ﴾ أيها المشاققون لله ورسوله
عذاباً معجلاً، ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ
النَّارِ﴾.

وفي هذه القصة من آيات الله
العظيمة ما يدل على أن ما جاء به
محمد ﷺ رسول الله حقاً.

منها: أن الله وعدهم وعداً،
فأنجزهموه.

ومنها: ما قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ
لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ التَّحْتَانِ: إِذِ اتَّقَا فِئَةَ مُوسَىٰ
سَبِيلَ اللَّهِ وَآخَرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ
رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ الآية.

ومنها: إجابة دعوة الله للمؤمنين لما
استغاثوه بما ذكره من الأسباب، وفيها
الاعتناء العظيم بحال عباده المؤمنين،
وتقييض الأسباب التي بها ثبت
إيمانهم، وثبتت أقدامهم، وزال عنهم
المكروه والوساوس الشيطانية.

ومنها: أن من لطف الله بعبده أن
يسهل عليه طاعته، ويسرهما بأسباب
داخلية وخارجية.

﴿١٥ - ١٦﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ
الْأَدْبَارَ﴾ ومن يولاهم يومئذ دبره إلا
متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء
بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس
المصير. يأمر تعالى عباده المؤمنين
بالشجاعة الإيمانية، والقوة في أمره،
والسعي في جلب الأسباب القوية
للقلوب والأبدان، ونهاهم عن الفرار
إذا التقى الزحفان، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا
زَحَفًا﴾ أي: في صف القتال،
وتزاحف الرجال، واقتراب بعضهم
من بعض، ﴿فَلَا تُولُوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ بل
اثبتوا لقتالهم، واصبروا على جلادهم،
فإن في ذلك نصرة لدين الله، وقوة
لقلوب المؤمنين، وإرهاباً للكافرين.

﴿وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ دَبْرُهُ إِلَّا مَنْ تَحَرَّفَ
لِقِتَالٍ أَوْ مَتَحِيزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ﴾ أي:
رجع ﴿بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ﴾ أي:
مقره ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.
وهذا يدل على أن الفرار من الزحف

من غير عذر من أكبر الكبائر، كما
وردت بذلك الأحاديث الصحيحة
وكما نص هنا على وعيده بهذا الوعيد
الشديد.

ومفهوم الآية: أن المتحرف للقتال،
وهو الذي ينحرف من جهة إلى أخرى،
ليكون أمكن له في القتال، وأنكى
لعدوه، فإنه لا بأس بذلك، لأنه لم
يول دبره فاراً، وإنما ولي دبره ليستعلي
على عدوه، أو يأتيه من محل يضيق فيه
غرته، أو ليخدعه بذلك، أو غير ذلك
من مقاصد المحاربين، وأن التحيز إلى
فئة تمنعه وتعيته على قتال الكفار، فإن
ذلك جائز، فإن كانت الفئة في
العسكر، فالأمر في هذا واضح، وإن
كانت الفئة في غير محل المعركة كانهزام
المسلمين بين يدي الكافرين والتجائهم
إلى بلد من بلدان المسلمين أو إلى عسكر
آخر من عسكر المسلمين، فقد ورد من
آثار الصحابة ما يدل على أن هذا جائز،
ولعل هذا يقيد بما إذا ظن المسلمون أن
الانهزام أحد عاقبة، وأبقى عليهم.

أما إذا ظنوا غلبتهم للكفار في
ثباتهم لقتالهم، فيبعد - في هذه
الحال - أن تكون من الأحوال المرحص
فيها، لأنه - على هذا - لا يتصور
الفرار المنهي عنه، وهذه الآية مطلقة،
وسبقي في آخر السورة تقييدها بالعدد.

﴿١٧ - ١٩﴾ ﴿فَلَمْ يَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنْ
اللَّهُ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُ إِذْ رَمَيْتُ وَلَكِنَّ اللَّهَ
رَمَىٰ وَلِيْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ
اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ذلكم وأن الله موهن
كيد الكافرين * إن تستفتحوا فقد
جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم
وإن تعودوا نعد ولن تغني عنكم فئتكم
شيئاً ولو كثرتم وأن الله مع المؤمنين *
يقول تعالى - لما انهزم المشركون يوم
بدر، وقتلهم المسلمون - ﴿فَلَمْ
تَقْتُلُوهُمْ﴾ بحولكم وقوتكم
﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ حيث أعانكم على
ذلك بما تقدم ذكره.

﴿وَمَا رَمَيْتُ إِذْ رَمَيْتُ وَلَكِنَّ اللَّهَ
رَمَىٰ﴾ وذلك أن النبي ﷺ وقت القتال
دخل العريش وجعل يدعو الله،
ويناشده في نصرته، ثم خرج منه،

فأخذ حفنة من تراب، فرماها في
وجوه المشركين، فأوصلها الله إلى
وجوههم، فما بقي منهم واحد إلا وقد
أصاب وجهه، وفمه وعينيه منها،
فحينئذ انكسر جدهم، وفتر زندهم،
وبان فيهم الفشل والضعف، فانهزموا.
يقول تعالى لنبيه: ﴿لَسْتَ بِقُوَّةٍ -
حِينَ رَمَيْتُ التَّرَابَ - أَوْصَلْتَهُ إِلَىٰ
أَعْيُنِهِمْ، وَإِنَّمَا أَوْصَلْنَاهُ إِلَيْهِمْ بِقُوَّتِنَا
وَإِقْتِدَارِنَا، وَلِيْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ
حَسَنًا﴾ أي: إن الله تعالى قادر على
انتصار المؤمنين من الكافرين، من دون
مباشرة قتال، ولكن الله أراد أن
يمتحن المؤمنين، ويوصلهم بالجهد إلى
أعلى الدرجات، وأرفع المقامات،
ويعطيهم أجراً حسناً وثواباً جزيلاً.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع تعالى
ما أسر به العبد وما أعلن، ويعلم ما في
قلبه من النيات الصالحة وضدها،
فيقدر على العباد أقداراً موافقة لعلمه
وحكمته ومصلحة عباده، ويجزي كلا
بحسب نيته وعمله.

﴿١٨﴾ ﴿ذَلِكُمْ﴾ النصر من الله
لكم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾
أي: مضعف كل مكر وكيد يكيدون به
الإسلام وأهله، وجاعل مكرهم خيقاً
بهم.

﴿١٩﴾ ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا﴾ أيها
المشركون، أي: تطلبوا من الله أن
يوقع بأسه وعذابه على المعتدين
الظالمين.

﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ حين
أوقع الله بكم من عقابه، ما كان نكالاً
لكم وعبرة للمعتدين ﴿وَأِنْ تَنْتَهُوا﴾ عن
الاستفتاح ﴿فَهُوَ خَيْرٌ﴾ لأنه ربما
أمهلتهم، ولم يعجل لكم النعمة. ﴿وَأِنْ
تَعُودُوا﴾ إلى الاستفتاح وقاتل
حزب الله المؤمنين ﴿نَعْدُ﴾ في نصرهم
عليكم.

﴿وَلَنْ تَغْنِي عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ﴾ أي:
أعوانكم وأنصاركم، الذين تحاربون
وتقاتلون، معتمدين عليهم، شيئاً
وأن الله مع المؤمنين.

ومن كان الله معه فهو المنصور وإن
كان ضعيفاً قليلاً عدده، وهذه المعية

الرابع: الأجر العظيم والثواب الجزيل لمن اتقاه وأثر رضاه على هوى نفسه. ﴿وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

﴿٣٠﴾ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرٌ الْمَاكِرِينَ﴾ أي: ﴿و﴾ اذكر أيها الرسول، ما من الله به (٢) عليك. ﴿إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حين تشاور المشركون في دار الندوة فيما يصنعون بالنبي ﷺ، إما أن يثبته عندهم بالحبس ويوثقوه.

﴿وَمَا أَنْ يَقْتُلُوهُ فَيَسْتَرْحِمُوا - بِزَعْمِهِمْ - مِنْ شَرِّهِ﴾

﴿وَمَا أَنْ يُخْرِجُوهُ وَيُجْلِبُوهُ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾

فكل أبدي من هذه الآراء رأياً رآه، فاتفق رأيهم على رأي: رآه شريهم أبو جهل لعنه الله، وهو أن يأخذوا من كل قبيلة من قبائل قريش فتى ويعطوه سيفاً صارماً، ويقتله الجميع قتلة رجل واحد، ليتفرق دمه في القبائل فيرضى بنو هاشم [لثم] بدميته، فلا يقدرون على مقاومة سائر قريش، فترصدوا للنبي ﷺ في الليل ليقعوا به إذا قام من فراشه.

فجاء الوحي من السماء، وخرج عليهم، فذّر على رؤوسهم التراب وخرج، وأعمى الله أبصارهم عنه، حتى إذا استبطؤوه جاءهم آت وقال: خيبكم الله، قد خرج محمد وذّر على رؤوسكم التراب.

فنفذ كل منهم التراب عن رأسه، ومنع الله رسوله منهم، وأذن له في الهجرة إلى المدينة، فهاجر إليها، وأيده الله بأصحابه المهاجرين والأنصار، ولم يزل أمره يعلو حتى دخل مكة عنوة، وقهر أهلها، فأذعنوا له وصاروا تحت حكمه، بعد أن خرج

الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً، فمن أدى الأمانة استحق من الله الثواب الجزيل، ومن لم يؤدها بل خانها استحق العقاب الويل، وصار خائناً لله وللرسول ولأمانته، منقصاً لنفسه بكونه اتصفت نفسه بأخص الصفات، وأقبح الشيات، وهي الخيانة مفوتاً لها أكمل الصفات وأعظمها، وهي الأمانة.

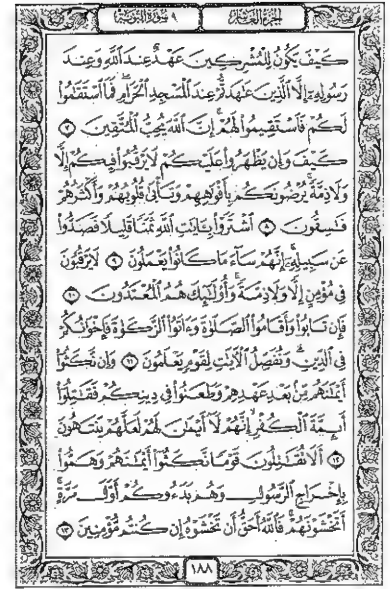
ولما كان العبد ممتحناً بأمواله وأولاده، فربما حمله حبه (١) ذلك على تقديم هوى نفسه على أداء أمانته، أخبر الله تعالى أن الأموال والأولاد فتنة يبتلي الله بهما عباده، وأنها عارية ستؤدى لمن أعطىها، وترد لمن استودعها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

فإن كان لكم عقل ورأي، فأثروا فضله العظيم على لذة صغيرة فانية مضمحلة، فالعقل يوازن بين الأشياء، ويؤثر أولاها بالإيثار، وأحقها بالتقديم.

﴿٢٩﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أمثال العبد لتقوى ربه عنوان السعادة، وعلامة الفلاح، وقد رتب الله على التقوى من خير الدنيا والآخرة شيئاً كثيراً، فذكر هنا أن من اتقى الله حصل له أربعة أشياء، كل واحد منها خير من الدنيا وما فيها:

الأول: الفرقان: وهو العلم والهدى الذي يفرق به صاحبه بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والحلال والحرام، وأهل السعادة من أهل الشقاوة.

الثاني والثالث: تكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، وكل واحد منهما داخل في الآخر عند الإطلاق وعند الاجتماع. يفسر تكفير السيئات بالذنوب البصائر، ومغفرة الذنوب بتكفير الكبائر.



يتخطفكم الناس فأواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴿يقول تعالى تمتنا على عباده في نصرهم بعد الذلة، وتكثيرهم بعد القلة، وإغنائهم بعد العيلة﴾

﴿واذكروا إذا أنتم قليل مستضعفون في الأرض﴾ أي: مقهورون تحت حكم غيركم ﴿تخافون أن يتخطفكم الناس﴾ أي: يأخذونكم.

﴿فأواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات﴾ فجعل لكم بلداً تأوون إليه، وانتصر من أعدائكم على أيديكم، وغنمتم من أموالهم ما كنتم به أغنياء.

﴿لعلكم تشكرون﴾ الله على منته العظيمة وإحسانه التام، بأن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً.

﴿٢٧ - ٢٨﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْزَنُوا وَاللهُ وَالرَّسُولُ يَخْبَرُونَا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم ﴿يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يؤدوا ما اتهمهم الله عليه من أوامره ونواهيه، فإن الأمانة قد عرضها الله على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها

(١) في ب: محبته.

(٢) في السخطين: ما بين الله بك عليك.

(٣) في ب: جميع.

مستخفياً منهم، خائفاً على نفسه. فسبحان اللطيف بعبد الذي لا يغال به مغالب.

﴿٣١-٣٤﴾ وقوله: «وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين» * وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم * وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون * وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أوليائهم إلا الملقون ولكن أكثرهم لا يعلمون* يقول تعالى في بيان عناد المكذبين للرسول ﷺ: «وإذا تتلى عليهم آياتنا الدالة على صدق ما جاء به الرسول.

﴿قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ وهذا من عنادهم وظلمهم، وإلا فقد تحداهم الله أن يأتوا بسورة من مثله، ويدعوا من استطاعوا من دون الله، فلم يقدروا على ذلك، وتبين عجزهم. فهذا القول الصادر من هذا القائل مجرد دعوى، كذبه الواقع، وقد علم أنه ﷺ أمي لا يقرأ ولا يكتب، ولا رحل ليدرس من أخبار الأولين، فأتى بهذا الكتاب الجليل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

﴿وإذا قالوا اللهم إن كان هذا الذي يدعوا إليه محمد ﷺ هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بلذاب أليم﴾ قالوه على وجه الجزم منهم بباطلهم، والجهل بما ينبغي من الخطاب.

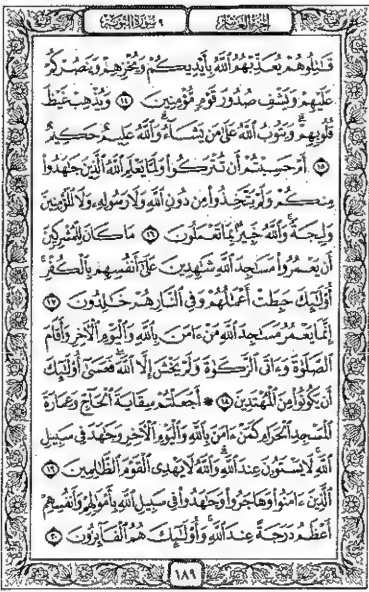
فلو أنهم إذ أقاموا على باطلهم من الشبه والتشويبات ما أوجب لهم أن يكونوا على بصيرة ويقين منه، قالوا لمن ناظرهم وادعى أن الحق معه: إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له، لكان أولى لهم وأستر لظلمهم.

فمذ قالوا: «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك الآية، علم بمجرد قولهم أنهم السفهاء الأغبياء، الجهلة الظالمون، فلو عاجلهم الله بالعقاب لما أبقى منهم باقية، ولكنه تعالى دفع عنهم العذاب بسبب وجود الرسول بين أظهرهم، فقال: «وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم» فوجوده ﷺ بين أظهرهم أمنة لهم من العذاب.

وكانوا مع قولهم هذه المقالة التي يظهرونها على رؤوس الأشهاد، يدرون بقبحها، فكانوا يخافون من وقوعها فيهم، فيستغفرون الله تعالى فلهاذا قال تعالى: «وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون».

فهذا مانع يمنع من وقوع العذاب بهم، بعدما انعقدت أسبابه، ثم قال: «وما لهم ألا يعذبهم الله؟ أي: أي شيء يمنعهم من عذاب الله، وقد فعلوا ما يوجب ذلك، وهو صد الناس عن المسجد الحرام، خصوصاً صدمهم النبي ﷺ وأصحابه، الذين هم أولى به منهم، ولهذا قال: «وما كانوا؟ أي: المشركون أولياءه» يحتمل أن الضمير يعود إلى الله، أي: أولياء الله. ويحتمل أن يعود إلى المسجد الحرام، أي: وما كانوا أولى به من غيرهم؟ إن أولياءه إلا الملقون وهم الذين آمنوا بالله ورسوله، وأفردوا الله بالتوحيد والعبادة، وأخلصوا له الدين، ولكن أكثرهم لا يعلمون، فلذلك ادعوا لأنفسهم أمراً غيرهم أولى به.

﴿٣٥﴾ «وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون» يعني أن الله تعالى إنما جعل بيته الحرام ليقام فيه دينه، وتخلص له فيه العبادة، فالؤمنون هم الذين قاموا بهذا الأمر، وأما هؤلاء المشركون الذي يصدون عنه، فما كان صلاتهم فيه التي هي أكبر أنواع العبادات ﷻ إلا مكاء وتصدية ﷻ أي: صفيراً وتصفيقاً، فعل الجهلة الأغبياء، الذين ليس في قلوبهم تعظيم لربهم، ولا معرفة بحقوقه، ولا احترام

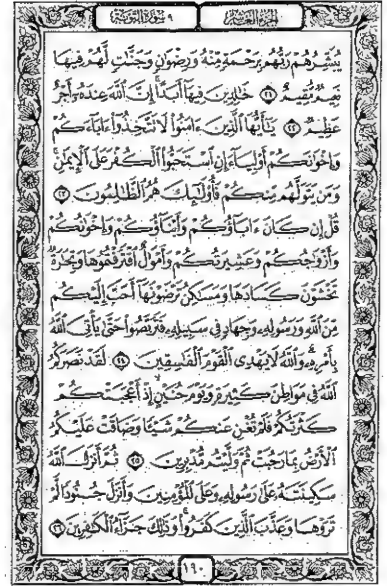


لأفضل البقاع وأشرفها، فإذا كانت هذه صلاتهم فيه، فكيف ببقية العبادات؟!!

فبأي شيء كانوا أولى بهذا البيت من المؤمنين الذين هم في صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون، إلى آخر ما وصفهم الله به من الصفات الحميدة، والأفعال السديدة.

لا جرم أورثهم الله بيته الحرام، ومكنهم منه، وقال لهم بعدما مكن لهم فيه «يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا» وقال هنا: «فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون»

﴿٣٦-٣٧﴾ «إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فيستبقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون * ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعلهم في جهنم أولئك هم الخاسرون» يقول تعالى مبيناً لعداوة المشركين وكيدهم ومكرهم، ومبارزتهم لله ولسوله، وسعيهم في إطفاء نوره وإخماد كلمته، وأن وبال مكرهم سيعود عليهم، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، فقال: «إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن



سبيل الله ﴿٤٠﴾ أي: ليطلوا الحق وينصروا
الباطل، ويطل توحيد الرحمن، ويقوم
دين عبادة الأوثان.

﴿فسيشقوئها﴾ أي: فسيصدرون
هذه النفقة، وتخف عليهم لتمسكهم
بالباطل، وشدة بغضهم للحق، ولكنها
ستكون عليهم حسرة، أي: ندامة
وخزياً وذلاً، ويغلبون فتذهب أموالهم
وما أملوا، ويعذبون في الآخرة أشد
العذاب، ولهذا قال: ﴿والذين كفروا
إلى جهنم يحشرون﴾ أي: يجمعون
إليها، ليدوقوا عذابها، وذلك لأنها دار
الخبث والخبثاء، والله تعالى يريد أن
يميز الخبيث من الطيب، ويجعل كل
واحدة على حدة، وفي دار تخصصه،
فيجعل الخبيث بعضه على بعض، من
الأعمال والأموال والأشخاص.
﴿فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم
أولئك هم الخاسرون﴾ الذين خسروا
أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، ألا ذلك
هو الخسران المين.

﴿٣٨ - ٤٠﴾ قل للذين كفروا إن
يتنخوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا
فقد مضت سنة الأولين ﴿وقاتلوهم
حتى لا تكون فتنة ويكون الدين
كله﴾ فإن انتهوا فإن الله بما يعملون
بصير ﴿وإن تولوا فاعلموا أن الله

مولاكم نعم المولى ونعم النصير﴾ هذا
من لطفه تعالى بعباده لا يمنعه كفر
العباد ولا استمرارهم في العناد، من
أن يدعوهم إلى طريق الرشاد والهدى،
وينهاهم عما يهلكهم من أسباب الغي
والردى، فقال: ﴿قل للذين كفروا إن
يتنخوا﴾ عن كفرهم، وذلك
بالإسلام لله وحده لا شريك له.

﴿يغفر لهم ما قد سلف﴾ منهم من
الجرائم ﴿وإن يعودوا﴾ إلى كفرهم
وعنادهم ﴿فقد مضت سنة الأولين﴾
بإهلاك الأمم المكذبة، فلينتظروا ما
حل بالمعاندن، فسوف يأتيهم آتاء ما
كانوا به يستهزئون، فهذا خطابه
للمكذبين، وأما خطابه للمؤمنين
عندما أمرهم بمعاملة الكافرين، فقال:
﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ أي:
شرك وصد عن سبيل الله، ويدعوا
لأحكام الإسلام، ﴿ويكون الدين
كله﴾ هذا المقصود من القتال
والجهاد لأعداء الدين، أن يدفع شرهم
عن الدين، وأن يذب عن دين الله
الذي خلق الخلق له، حتى يكون هو
العالى على سائر الأديان.

﴿فإن انتهوا﴾ عن ما هم عليه من
الظلم ﴿فإن الله بما يعملون بصير﴾
لا تخفى عليه منهم خافية.

﴿وإن تولوا﴾ عن الطاعة وأضعوا
في الإضاعة ﴿فاعلموا أن الله مولاكم
نعم المولى﴾ الذي يتولى عبادة المؤمنين،
ويوصل إليهم مضالحهم، وينصر^(١)
لهم منافعهم الدينية والدنيوية، ﴿ونعم
النصير﴾ الذي ينصرهم، فيدفع عنهم
كيد الفجار، وتكالب الأشرار.

ومن كان الله مولاه وناصره
فلا خوف عليه، ومن كان الله عليه
فلا عز له ولا قائمة له.

﴿٤١ - ٤٢﴾ ﴿واعلموا أنما غنمتم
من شيء فإن الله خمسه وللرسول ولذي
القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل
إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا

يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على
كل شيء قدير ﴿إذ أنتم بالعدوة الدنيا
وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل
منكم ولو تواعدتم لاختلقتن في الميعاد
ولكن ليقتضي الله أمراً كان مفعولاً
ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى
عن بينة وإن الله لسميع عليم﴾ يقول
تعالى: ﴿واعلموا أنما غنمتم من
شيء﴾ أي: أخذتم من مال الكفار
قهرأ بحق، قليلاً كان أو كثيراً،
﴿فإن الله خمسه﴾ أي: وباقيه لكم أيها
الغائبون، لأنه أضاف الغنمة إليهم،
وأخرج منها خمسها، فدل على أن
الباقى لهم، يقسم على ما قسمه
رسول الله ﷺ: للرجل سهم،
وللفارس سهمان لفارسه، وسهم له.

وأما هذا الخمس، فيقسم خمسة
أسهم، سهم لله ورسوله، يصرف في
مصالح المسلمين العامة، من غير تعيين
لمصلحة، لأن الله جعله له ورسوله،
والله ورسوله غنيان عنه، فعلم أنه
لعباد الله، فإذا لم يعين الله له مصرفاً،
دل على أن مصرفه للمصالح العامة.

والخمس الثاني: لذى القربى، وهم
قربة النبي ﷺ من بني هاشم وبني
المطلب، وأضافه الله إلى القرابة دليلاً
على أن العلة فيه مجرد القرابة، فيستوي
فيه غنيهم وفقيرهم، ذكرهم وأنثاهم.

والخمس الثالث لليتامى، وهم
الذين فقدت آباؤهم وهم صغار،
جعل الله لهم خمس الخمس رحمة بهم،
حيث كانوا عاجزين عن القيام
بمضالحهم، وقد فقد من يقوم
بمضالحهم.

والخمس الرابع للمساكين، أي:
المحتاجين الفقراء من صغار وكبار،
ذكور وإناث.

والخمس الخامس لابن السبيل،
وهو^(٢): الغريب المنقطع به في غير
بلده، أو بعض المفسرين يقول إن خمس
الغنمة لا يخرج عن هذه الأصناف ولا
يلزم أن يكونوا فيه على السواء بل ذلك

(٢) في ب: وهم.

(١) كذا في ب، وفي أ: وتيسر.



﴿ولا تنازعوا﴾ تنازعاً يوجب

تشتت القلوب وتفرقها، ﴿ففشلوا﴾ أي: تخبثوا ﴿وتذهب ويحكم﴾ أي: تنحل عزائمكم، وتفرق قوتكم، ويرفع ما وعدتم به من النصر على طاعة الله ورسوله.

﴿واصبروا﴾ نفوسكم على طاعة الله ﴿إن الله مع الصابرين﴾ بالعون والنصر والتأييد، واخضعوا لربكم واخضعوا له.

﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورثاء الناس ويصدون عن سبيل الله﴾ أي: هذا مقصدهم الذي خرجوا إليه، وهذا الذي أبرزهم من ديارهم لقصص الأشر والبطر في الأرض، وليراهم الناس ويفخروا لديهم.

والمقصود الأعظم أنهم خرجوا ليصدوا عن سبيل الله من أراد سلوكه، ﴿والله بما يعملون محيط﴾ فلذلك أخبركم بمقاصدهم، وحذركم أن تشبهوا بهم، فإنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

فليكن قصدكم في خروجكم وجه الله تعالى وإعلاء دين الله، والصد عن الطرق الموصلة إلى سخط الله وعقابه، وجذب الناس إلى سبيل الله القويم الموصول لجنت النعيم.

﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم﴾

حسنها في قلوبهم وخدعهم. ﴿وقال لا غالب لكم اليوم من الناس﴾ فإنكم في عديد وعديد وهيئة لا يقاومكم فيها محمد ومن معه.

﴿وإني جار لكم﴾ من أن يأتيكم أحد ممن تخشون غائلته، لأن إبليس قد تبدى لقريش في صورة سراقه بن مالك بن جعشم المدلجي، وكانوا يخافون من بني مدلج لعداوة كانت بينهم.

فقال لهم الشيطان: أنا جار لكم، فاطمأنت نفوسهم وأتوا على حرد قادرين.

﴿فلما ترأت الفئتان﴾ المسلمون والكافرون، فرأى الشيطان جبريل عليه السلام يزع الملائكة خاف خوفاً شديداً و ﴿نكص على عقبيه﴾ أي: ولى مدبراً، ﴿وقال﴾ لمن خدعهم وغرهم: ﴿إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون﴾ أي: أرى الملائكة الذين لا يدان لأحد بقتالهم.

﴿إني أخاف الله﴾ أي: أخاف أن يعاجلني بالعقوبة في الدنيا ﴿والله شديد العقاب﴾.

ومن المحتمل أن يكون الشيطان، قد سول لهم، ووسوس في صدورهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، وأنه جار لهم، فلما أوردتهم نوازلهم، نكص عنهم، وتبرأ منهم، كما قال تعالى: ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر، فلما كفر قال: إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين﴾ فكان عاقبتهم أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين.

﴿إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض﴾ أي: شك وشبهة، من ضعفاء الإيمان، للمؤمنين حين أقدموا - مع قلتهم - على قتال المشركين مع كثرتهم.

﴿غر هؤلاء دينهم﴾ أي: أوزدهم الدين الذي هم عليه هذه الموارد التي لا يدان لهم بها، ولا استطاعة لهم بها، يقولونه احتقاراً لهم واستخفافاً لعقولهم، وهم - والله - الأخفاء عقولاً، الضعفاء أحلاماً.

فإن الإيمان يوجب لصاحبه الإقدام على الأمور الهائلة التي لا يقدم عليها الجيوش العظام، فإن المؤمن المتوكل على الله، الذي يعلم أنه ما من حول ولا قوة ولا استطاعة لأحد إلا بالله تعالى، وأن الخلق لو اجتمعوا كلهم على نفع شخص بمشقة لم ينفعوه، ولو اجتمعوا على أن يضروه لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه، وعلم أنه على الحق، وأن الله تعالى حكيم رحيم في كل ما قدره وقضاه، فإنه لا يبالي بما أقدم عليه من قوة وكثرة، وكان وإثماً بربه، مطمئن القلب لا فرعاً ولا جباناً، ولهذا قال: ﴿ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز﴾ لا يغالب قوته قوة، ﴿حكيم﴾ فيما قضاه وأجره.

﴿٥٠-٥٢﴾ ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضرِبون وجوههم وأديارهم وذوقوا عذاب الحريق﴾ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴿كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم﴾ إن الله قوي شديد العقاب يقول تعالى: ﴿ولو ترى الذين كفروا بآيات الله حين توفاهم الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم وقد اشتد بهم القلق وعظم كربهم، و﴾ الملائكة يضرِبون وجوههم وأديارهم، ويقولون لهم: أخرجوا أنفسكم، ونفوسهم متمنعة مستعصية على الخروج، لعلمها ما أمامها من العذاب الأليم.

ولهذا قال: ﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾ أي: العذاب الشديد المحرق، ذلك العذاب حصل لكم، غير ظنم ولا جور من ربكم، وإنما هو بما قدمت أيديكم من المعاصي التي أثرت لكم ما أثرت، وهذه سنة الله في الأولين والآخرين، فإن دأب هؤلاء المكذبين أي: سنتهم وما أجرى الله عليهم من الهلاك بذنوبهم.

﴿كذاب آل فرعون والذين من قبلهم﴾ من الأمم المكذبة ﴿كفروا بآيات الله فأخذهم الله﴾ بالعقاب ﴿بذنوبهم﴾، إن الله قوي شديد العقاب لا يعجزه أحد يريد أخذه

﴿ما من دابة إلا هو أخذ ناصيتها﴾.

﴿٥٣ - ٥٤﴾ ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم﴾ كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين ﴿ذلك﴾ العذاب الذي أوقعه الله بالأمم المكذبين^(١)، وأزال عنهم ما هم فيه من النعم والنعيم، بنسب ذنوبهم وتغييرهم ما بأنفسهم، فإن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم من نعم الدين والدنيا، بل يبقئها ويزيدهم منها، إن ازدادوا له شكراً، ﴿حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ من الطاعة إلى العصية فيكفروا نعمة الله ويبدلوها كفرًا، فيسلبهم إياها ويغيرها عليهم كما غيروا ما بأنفسهم.

والله الحكمة في ذلك والعدل والإحسان إلى^(٢) عباده، حيث لم يعاقبهم إلا بظلمهم، وحيث جذب قلوب أوليائه إليه، بما يذيق العباد من النكال إذا خالفوا أمره.

﴿وأن الله سميع عليم﴾ يسمع جميع ما نطق به الناطقون، سواء من أسر القول ومن جهر به، ويعلم ما تنطوي عليه الضمائر، وتخفيه السرائر، فيجري على عباده من الأقدار ما اقتضاه علمه وجرت به مشيئته.

﴿كذاب آل فرعون﴾ أي: فرعون وقومه والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم حين جاءتهم ﴿فأهلكناهم بذنوبهم﴾ كل بحسب جرمه.

﴿وأغرقنا آل فرعون وكل﴾ من المهلكين المعذبين ﴿كانوا ظالمين﴾ لأنفسهم، ساعين في هلاكها، لم يظلمهم الله، ولا أخذهم بغير جرم اقترفوه، فليحذر المخاطبيون أن يشابهوهم في الظلم، فيحل الله بهم من عقابه ما أحل بأولئك الفاسقين.

﴿٥٥ - ٥٧﴾ ﴿إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون﴾ الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون ﴿فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون﴾ هؤلاء الذين جمعوا هذه الخصال الثلاث: الكفر، وعدم الإيمان، والخيانة، بحيث لا يثبتون على عهد عاهدوه ولا قول قالوه، هم شر الدواب عند الله فهم شر من الحمير والكلاب وغيرها، لأن الخير معدوم منهم، والشر متوقع فيهم، فإذا هاب هؤلاء ومحققهم هو المتعين، لثلا يسري داؤهم لغيرهم، ولهذا قال:

﴿فإما تثقفنهم في الحرب﴾ أي: تجدنهم في حال المحاربة، بحيث لا يكون لهم عهد وميثاق. ﴿فشرد بهم من خلفهم﴾ أي: نكل بهم غيرهم، وأوقع بهم من العقوبة ما يصيرون [به]^(٣) عبرة لمن بعدهم ﴿لعلهم﴾ أي: من خلفهم ﴿يذكرون﴾ صنيعهم، لثلا يصيبهم ما أصابهم، وهذه من فوائد العقوبات والحدود المرتبة على المعاصي، أنها سبب لازدجار من لم يعمل المعاصي، بل وزجر لمن عملها أن لا يعاودها. ودل تقييد هذه العقوبة في الحرب أن الكافر - ولو كان كثير الخيانة سريع الغدر - أنه إذا أعطي عهداً لا يجوز خيائته وعقوبته.

﴿٥٨﴾ ﴿وإنما تخافن من قوم خيانة فأنبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين﴾ أي: وإذا كان بينك وبين قوم عهد وميثاق على ترك القتال فخفت منهم خيانة، بأن ظهر من قرائن أحوالهم ما يدل على خيانتهم من غير تصريح منهم بالخيانة. ﴿فأنبذ إليهم﴾ عهدهم، أي: ارمه عليهم، وأخبرهم أنه لا عهد بينك

وبينهم ﴿على سواء﴾ أي: حتى يستري علمك وعلمهم بذلك، ولا يحل لك أن تخدرهم، أو تسعى في شيء مما منعه موجب العهد، حتى تخبرهم بذلك.

﴿إن الله لا يحب الخائنين﴾ بل يبغضهم أشد البغض، فلا بد من أمر بين يبرئكم من الخيانة.

ودلت الآية على أنه إذا وجدت الخيانة المحققة^(٤) منهم لم يحتج أن ينبذ إليهم عهدهم، لأنه لم يخف منهم، بل علم ذلك، ولعدم الفائدة ولقوله: ﴿على سواء﴾ وهنا قد كان معلوماً عند الجميع غدرهم.

ودل مفهومها أيضاً أنه إذا لم يخف منهم خيانة، بأن لم يوجد منهم ما يدل على ذلك، أنه لا يجوز نبذ العهد إليهم، بل يجب الوفاء إلى أن تتم مدته.

﴿٥٩﴾ ﴿ولا يحسن الذين كفروا سبقوا إثمهم لا يعجزون﴾ أي: لا يحسب الكافرون برهم المكذبون بآياته، أنهم سبقوا الله وفاته، فإنهم لا يعجزونه، والله لهم بالمرصاد.

وله تعالى الحكمة البالغة في إمهالهم وعدم معاجلتهم بالعقوبة، التي من جهلتها ابتلاء عباده المؤمنين وامتحانهم، وتزودهم من طاعته ومراضيه، ما يصلون به إلى المنازل العالية، واتصافهم بأخلاق وصفات لم يكونوا بغيره بالغيا، فلهاذا قال لعباده المؤمنين:

﴿٦٠﴾ ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ أي: ﴿وأعدوا﴾ لأعدائكم الكفار الساعين في هلاككم وإبطال دينكم، ﴿ما استطعتم من قوة﴾ أي: كل ما تقدر على عليه من القوة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة

(١) في ب: المكذبة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: على.

(٣) زيادة يقتضيها السياق ليست في النسخين.

(٤) في ب: المنقحة.

سماوية، وهو النصر منه الذي لا يقاومه شيء، ومعونة المؤمنين بأن قيصهم لنصرك.

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ فاجتمعوا واثتلفوا، وازدادت قوتهم بسبب اجتماعهم، ولم يكن هذا يسعى أحد، ولا بقوة غير قوة الله، فلو أنفقت ما في الأرض جميعاً من ذهب وفضة وغيرهما لتأليفهم بعد تلك النفقة والفرقة الشديدة ﴿مَا أَلَّفْتُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ لأنه لا يقدر على تقليب القلوب إلا الله تعالى.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ومن عزته أن ألف بين قلوبهم، وجمعها بعد الفرقة كما قال تعالى: ﴿وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ أي: كافيك ﴿وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وكافي أتباعك من المؤمنين، وهذا وعد من الله لعباده المؤمنين المتبعين لرسوله، بالكفاية والنصرة على الأعداء.

فإذا أتوا بالسبب الذي هو الإيمان والاتباع، فلا بد أن يكفيهم ما أهمهم من أمور الدين والدنيا، وإنما تتخلف الكفاية بتخلف شرطها.

﴿٦٥ - ٦٦﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين ﴿يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ أي: حثهم وأنهمهم إليه بكل ما يقوي عزائمهم وينشط همهم، من الترغيب في الجهاد ومقارعة الأعداء، والترهيب من ضد ذلك، وذكر فضائل

فاجتنب لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ﴿وَأَنْ يَرِيدُوا أَنْ يُخْدَعُوا فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدِكَ بِنَصْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول تعالى: ﴿وَأَنْ جُنُوحُوا﴾ أي: الكفار المحاربون، أي: مالوا للسلام ﴿أَي: الصلح وترك القتال﴾.

﴿فَاجْتَنِبْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: أجبهم إلى ما طلبوا متوكلاً على ربك، فإن في ذلك فوائد كثيرة.

منها: أن طلب العافية مطلوب كل وقت، فإذا كانوا هم المبتدئين في ذلك، كان أولى لإجابتهم ومنها: أن في ذلك إجماعاً لقواكم، واستعداداً منكم لقتالهم في وقت آخر، إن احتيج لذلك.

ومنها: أنكم إذا أصلحتهم وأمن بعضكم بعضاً، وتمكن كل من معرفة ما عليه الآخر، فإن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، فكل من له عقل وبصيرة إذا كان معه إنصاف فلا بد أن يؤثره على غيره من الأديان، لحسنه في أوامره ونواهيه، وحسنه في معاملته للخلق والعدل فيهم، وأنه لا جور فيه ولا ظلم بوجه، فحينئذ يكثر الراغبون فيه والمتبعون له، فصار هذا السلم عوناً للمسلمين على الكافرين، ولا يخاف من السلم إلا خصلة واحدة، وهي أن يكون الكفار قصدهم بذلك خدع المسلمين، وانتهاز الفرصة فيهم، فأخبرهم الله أنه حسبهم وكافيهم خداعهم، وأن ذلك يعود عليهم ضرره، فقال: ﴿وَأَنْ يَرِيدُوا أَنْ يُخْدَعُوا فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ أي: كافيك ما يؤذيك، وهو القائم بمصالحك ومهماتك، فقد سبق لك من كفايته لك ونصره ما يطمئن به قلبك.

فلـ ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدِكَ بِنَصْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أعانك بمعونة

ونحو ذلك، مما يعين على قتالهم، فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع والرشاشات، والبنادق، والطائرات الجوية، والمراكب البرية والبحرية، والحصون والقلل والجنادق، وآلات الدفاع، والرأي: والسياسة التي بها يتقدم المسلمون ويتدفع عنهم به شر أعدائهم، وتعلم الرمي، والشجاعة والتدبير.

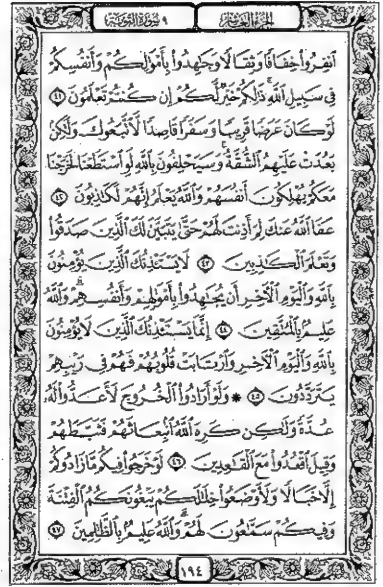
ولهذا قال النبي ﷺ: ﴿أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرُّمِّيَّ﴾ ومن ذلك: الاستعداد بالمراكب المحتاج إليها عند القتال، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ رِبَاطُ الْخَيْلِ تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وهذه العلة موجودة فيها في ذلك الزمان، وهي إرهاب الأعداء، والحكم يدور مع علته.

فإذا كان شيء موجوداً أكثر إرهاباً منها، كالسيارات البرية والهوائية، المعدة للقتال التي تكون النكاية فيها أشد، كانت مأموراً بالاستعداد بها، والسعي لتحصيلها، حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلم الصناعة، وجب ذلك، لأن «لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب».

وقوله: ﴿تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ممن تعلمون أنهم أعداؤكم. ﴿وَأَخْرَجَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ﴾ ممن سيقاتلونكم بعد هذا الوقت الذي يخاطبهم الله به ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ فلذلك أمرهم بالاستعداد لهم، ومن أعظم ما يعين على قتالهم بذل النفقات المالية في جهاد الكفار.

ولهذا قال تعالى مرغباً في ذلك: ﴿وَمَا تَنْفَقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قليلاً كان أو كثيراً ﴿يُوفَّ إِلَيْكُمْ أَجْرُهُ﴾ يوم القيامة مضاعفاً أضعافاً كثيرة، حتى إن النفقة في سبيل الله، تضاعف إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

﴿وَأَنْتُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾ أي: لا تنقصون من أجرها وثوابها شيئاً. ﴿وَأَنْ جُنُوحُوا لِلْسَّلَامِ﴾



عذاب يوم بدر، ما نجا منه إلا عمر.

﴿فكفوا عما غنمتم حلالاً طيباً﴾ وهذا من لطفه تعالى بهذه الأمة، أن أحل لها الغنائم ولم يجعلها لأمة قبلها.

﴿واتقوا الله﴾ في جميع أموركم ولازموها، شكرًا لنعم الله عليكم، ﴿إن الله غفور﴾ يغفر لمن تاب إليه جميع الذنوب، ويغفر لمن لم يشرك به شيئاً جميع المعاصي.

﴿رحيم﴾ بكم، حيث أباح لكم الغنائم وجعلها حلالاً طيباً.

﴿٧٠ - ٧١﴾ ﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويفقر لكم والله غفور رحيم﴾ وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم﴾ وهذه نزلت في أسارى يوم بدر، وكان في جملتهم العباس عم رسول الله ﷺ، فلما طلب منه الفداء، ادّعى أنه مسلم قبل ذلك، فلم يسقطوا عنه الفداء، فأنزل الله تعالى جبراً لحاظه ومن كان على مثل حاله.

﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم﴾ أي: من

المال، بأن يسر لكم من فضله، خيراً وأكثر^(١) مما أخذ منكم.

﴿ويغفر لكم﴾ ذنوبكم، ويدخلكم الجنة وقد أنجز الله وعده للعباس وغيره، فحصل له - بعد ذلك - من المال شيء كثير، حتى إنه مرة لما قدم على النبي ﷺ مال كثير، أنه العباس فأمره أن يأخذ منه بثوبه ما يطيق حمله، فأخذ منه ما كاد أن يعجز عن حمله.

﴿وإن يريدوا خيانتك﴾ في السعي لحربك ومناذرتك، ﴿فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم﴾ فليحذروا خيانتك، فإنه تعالى قادر عليهم وهم تحت قبضته، ﴿والله عليم حكيم﴾ أي: عليم بكل شيء، حكيم يضع الأشياء مواضعها، ومن علمه وحكمته أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة الجميلة، وأن تكفل^(٢) بكفائتكم شأن الأسرى وشرهم إن أرادوا خيانة.

﴿٧٢﴾ ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير﴾ هذا عقد موالاة وعجبة، عقدها الله بين المهاجرين الذين آمنوا وهاجروا في سبيل الله، وتركوا أوطانهم لله لأجل الجهاد في سبيل الله، وبين الأنصار الذين آووا رسول الله ﷺ وأصحابه وأعانوه في ديارهم وأموالهم وأنفسهم، فهؤلاء بعضهم أولياء بعض، لكمال إيمانهم وتعام اتصال بعضهم ببعض.

﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا﴾ فإنهم قطعوا ولايتكم بانفصالهم عنكم في وقت شدة الحاجة إلى الرجال، فلما

لم يهاجروا لم يكن لهم من ولاية المؤمنين شيء لكنهم ﴿إن استنصروكم في الدين﴾ أي: لأجل قتال من قاتلهم لأجل دينهم ﴿فعليكم النصر﴾ والقتال معهم، وأما من قاتلوهم لغير ذلك من المقاصد فليس عليكم نصرهم.

وقوله تعالى: ﴿إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ أي: عهد بترك القتال، فإنهم إذا أراد المؤمنون المتميزون الذين لم يهاجروا قتالهم، فلا تعينوهم عليهم، لأجل ما بينكم وبينهم من الميثاق.

﴿والله بما تعملون بصير﴾ يعلم ما أنتم عليه من الأحوال، فيشرع لكم من الأحكام ما يليق بكم.

﴿٧٣﴾ ﴿والذين كفروا بغضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنه في الأرض وفساد كبير﴾ لما عقد الولاية بين المؤمنين، أخبر أن الكفار حيث جمعهم الكفر فبعضهم أولياء لبعض^(٣)، فلا يواليتهم إلا كافر مثلهم.

وقوله: ﴿إلا تفعلوه﴾ أي: موالاة المؤمنين ومعاودة الكافرين، بأن واليتهم كلهم أو عاديتموهم كلهم، أو واليتهم الكافرين وعاديتم المؤمنين.

﴿تكن فتنه في الأرض وفساد كبير﴾ فإنه يحصل بذلك من الشر ما لا ينحصر من اختلاط الحق بالباطل، والمؤمن بالكافر، وعدم كثير من العبادات الكبار، كالجهاد والهجرة، وغير ذلك من مقاصد الشرع والدين التي تفوت إذا لم يتخذ المؤمنون وحدهم أولياء بعضهم لبعض.

﴿٧٤ - ٧٥﴾ ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم﴾ والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل

(١) في ب: كثيراً.

(٢) في ب: وقد تكفل.

(٣) في ب: بعض.

تفسير سورة براءة
ويقال: سورة التوبة،
وهي مدنية

شيء عليم ﴿الآيات السابقة في ذكر عقد المولاة بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار﴾.

وهذه الآيات في بيان مدحهم
وثوابهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا
وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَالَّذِينَ آوَوْا وَانصَرَوْا أُولَٰئِكَ أَيُّ
الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ
الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنهم صدقوا إيمانهم
بما قاموا به من الهجرة والنصرة
والمؤالة بعضهم لبعض، وجهادهم
لأعدائهم من الكفار والمنافقين.

﴿لهم مغفرة﴾ من الله تحى بها
سيئاتهم، وتضمحل بها زلاتهم، ﴿و﴾
لهم ﴿رزق كريم﴾ أي: خير كثير من
الرب الكريم في جنات النعيم.

وربما حصل لهم من الثواب المعجل ما تقرُّ به أعينهم، وتطمئن به قلوبهم، وكذلك من جاء بعد هؤلاء المهاجرين والأنصار، ممن اتبعهم بإحسان فأمن وهاجر وجاهد في سبيل الله. ﴿فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ﴾ لهم ما لكم وعليهم ما عليكم^(١)

فهذه الموالاة الإيمانية - وقد كانت في أول الإسلام - لها وقع كبير وشأن عظيم، حتى إن النبي ﷺ أخى بين المهاجرين والأنصار أخوة خاصة، غير الأخوة الإيمانية العامة، وحتى كانوا يتوارثون بها، فأنزل الله ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ فلا يترتب إلا أناربه من العصبات وأصحاب الفروض، فإن لم يكونوا، فأقرب قراباته من ذوي الأرحام، كما دل عليه عموم هذه الآية الكريمة، وقوله: ﴿في كتاب الله﴾ أي: في حكمه وشرعه.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وَمِنْهُ مَا يَعْلَمُهُ مِنْ أَحْوَالِكُمُ الَّتِي يَجْرِي مِنْ شَرَائِعِ الدِّينِيَّةِ عَلَيْكُمْ مَا يَنَاسُهَا .

تم تفسير سورة الأنفال والله الحمد

﴿١٦-٢﴾ ﴿بَرَاءةً مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ ﴿أَي: هَذِهِ بَرَاءةُ اللَّهِ وَمِنْ رَسُولِهِ إِلَى جَمِيعِ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُعَاهِدِينَ، أَنْ لَهُمْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ يَسِيحُونَ فِي الْأَرْضِ عَلَى اخْتِيَارِهِمْ، آمِنِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَبَعْدَ الْأَرْبَعَةِ الْأَشْهُرِ فَلَا عَهْدَ لَهُمْ وَلَا مِيثَاقَ﴾

وهذا لمن كان له عهد مطلق غير مقدر، أو مقدر بأربعة أشهر فأقل، أما من كان له عهد مقدر بزيادة على أربعة أشهر، فإنه يتعين أن يتم له عهده إذا لم يخف منه خيانة، ولم يبدأ بنقض العهد.

ثم أنذر المعاهدنين في مدة عهدهم، أنهم وإن كانوا آمنين، فإنهم لن يعجزوا الله ولن يفوتوه، وأنه من استمر منهم على شركة فإن الله لا بد أن يحزبه، فكان هذا مما يجلبهم إلى الدخول في الإسلام، إلا من عاند وأصر ولم ينال بوعده الله له.

﴿٣٤﴾ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى
النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ
الشُّرَكِيَّةِ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تَبَيَّنَ فَهُوَ خَيْرٌ
لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فاعلموا أَنَّكُمْ غَيْرُ
مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ
أَلِيمٍ ﴿٣٥﴾ هَذَا مَا وَعَدَ اللَّهُ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ، مِنْ
نَصْرِ دِينِهِ وَإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ، وَخِذْلَانِ
أَعْدَائِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ أَخْرَجُوا
الرَّسُولَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ مَكَّةَ، مِنْ
بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ، وَأَجْلَوْهُمْ، فَمَالَهُمْ
التَّسَلُّطَ عَلَيْهِ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ.

نصر الله رسوله والمؤمنين حتى
افتتح مكة، وأذل المشركين، وصار
للمؤمنين الحكم والغلبة على تلك
الديار.

(۱) کذا فی ب، وفي أ: له ما لکم وعليہ ما علیکم.

(۲) کذا فی ب، وفي أ: الله.

لَعَلَّاهُمْ الْفِتْنَةُ مِنْ قَبْلِ وَلَعَلَّاهُمْ الْآخِرُ حَرْبٌ ۝
جَلَّةَ الْوَعْدِ وَلَظِيفٌ أَلْفَاظُهُ وَهُوَ ذِكْرٌ بَشِيرٌ ۝
وَمِنْهُمْ مَن يَبُذَلُونَ أَنزَلُوهُ وَلَا تَنفَعُ الْآيَاتُ الْفِتْنَةَ
سَأَلُوا أَنِ يَأْتِيَهُمْ كُفْرًا يَكْفُرُوا ۝
إِنْ يَشِئْكَ اللَّهُ تَحَوَّلَ سَحَابُهُ وَإِنَّ فَصِيكَ فَصِيكَةٌ
يُؤْتِيهِ أَهْلَ عِلْمِهِ مَن يَشَاءُ قُلْ أُوذِيَ وَأُغْوِيَ وَفِرُّوا
۝ قُلْ إِن فَصِيكَ أَمَّا عَنِ اللَّهِ فَكُنْ لَكُمْ هُومًا مِّنْ كُنْ
وَعَنِ اللَّهِ فَلَمَّا كَلِّمَ لِّلْمُتُورِ ۝ قُلْ إِن مِّنْ مَّصْرُورٍ
يَسَّاءَ إِلَّا لِحُكْمِ الْمُتَشَكِّكِينَ وَتَجَنَّبَ وَتَعْذَرُ ۝
فَصَبِّحْ بِكَلِمَةِ رَبِّكَ فَانْبَسُ ۝ قُلْ أَتَدْعُونِي أَوْ أَنَا
مَعَهُمْ أَمْ يَدْعُونَ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَتَدْعُونَ إِلَهُاتٍ مِّنْ دُونِ
اللَّهِ لِيُقَلِّبَنَّكَ فَيُكْفِّرَ عَنْهُ ثُمَّ يَدْعُوا قَلِيلًا مِّنْهُمْ
۝ وَمَا مَعَهُمْ أَوْ لِيُقَلِّبَهُمْ فَيَكُونُوا لِي آلَ حَرْبٍ
كَمَا تَدْعُونَ رَبَّكُمْ وَلِيَ آلِ الْإِنسَانِ ۝
فَصَبِّحْ بِكَلِمَةِ رَبِّكَ فَانْبَسُ ۝ قُلْ أَدْرَأَيْكُمْ كَيْفَ
يُخَوِّلُ الْفِتْنَةَ مَن يَشَاءُ لَّيْلًا أَوْ نَهَارًا ۝

فأمر النبي ^(ﷺ) مؤذنه أن يؤذن يوم الحج الأكبر، وهو يوم النحر، وقت اجتماع الناس مسلمهم وكافرهم، من جميع جزيرة العرب، أن يؤذن بأن الله بريء ورسوله من المشركين، فليس لهم عنده عهد وميثاق، فأينما وجدوا قتلوا، وقيل لهم: لا تقربوا المسجد الحرام بعد عامكم هذا، وكان ذلك سنة تسع من الهجرة.

وحج بالناس أبو بكر الصديق
رضي الله عنه، وأذن ببراءة - يوم
النحر - ابن عم رسول الله ﷺ
علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ثم رغب تعالى المشركين بالتوبة،
ورهبهم من الاستمرار على الشرك
فقال: ﴿فَإِنْ تَبْتِمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَإِنْ
تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ
مُعْزِيٍّ مِنَ اللَّهِ﴾.

أي: فائتيه، بل أنتم في قبضته، قادر أن يسلط عليكم عباده المؤمنين.

﴿وبشر الذين كفروا يعذاب أليم﴾

أي: مؤلم مقطع في الدنيا بالقتل والأسر والجلاء، وفي الآخرة بالنار وبس القرار.

﴿٤﴾ ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ
يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتُوا إِلَيْهِمْ

فهيما كان استمرارهم على كفرهم لجهل منهم، إذا زال اختاروا عليه الإسلام، فلذلك أمر الله رسوله، وأتمته أسوته في الأحكام، أن يميروا من طلب أن يسمع كلام الله.

وفي هذا حجة صريحة لمذهب أهل السنة والجماعة، القائلين بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، لأنه تعالى هو التكلم به، وأضافه إلى نفسه إضافة الصفة إلى موصوفها، ويطان مذهب المعتزلة ومن أخذ بقولهم: أن القرآن مخلوق.

وكم من الأدلة الدالة على بطلان هذا القول، ليس هذا محل ذكرها.

﴿٧﴾ ﴿كيف يكون للمشركون عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين﴾ هذا بيان للحكمة الموجبة لأن يتبرأ الله ورسوله من المشركون، فقال: ﴿كيف يكون للمشركون عهد عند الله وعند رسوله؟﴾ هل قاموا بواجب الإيمان، أم تركوا رسول الله والمؤمنين من أذيتهم؟ أما حاربوا الحق ونصروا الباطل؟

أما سبوا في الأرض فساداً؟ فيحق لهم أن يتبرأ الله منهم، وأن لا يكون لهم عهد عنده ولا عند رسوله.

﴿إلا الذين عاهدتم﴾ من المشركون ﴿عند المسجد الحرام﴾ فإن لهم في العهد وخصوصاً في هذا المكان الفاضل حرمة، أوجب أن يراعوا فيها.

﴿فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم، إن الله يحب المتقين﴾ ولهذا قال:

﴿٨-١١﴾ ﴿كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون﴾ اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون * لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون * فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة

فهؤلاء ليسوا أهلاً لسكنائها، ولا يستحقون منها شيئاً، لأن الأرض أرض الله، وهم أعداؤه المناذرون له ولرسوله، المحاربة الذين يريدون أن يخلوا الأرض من دينه، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

﴿واقعدوا لهم كل مرصد﴾ أي: كل ثنية وموضع يمرّون عليه، ورايطوا في جهادهم وابدلوا غاية مجهودكم في ذلك، ولا تزالوا على هذا الأمر حتى يتوبوا من شركهم.

ولهذا قال: ﴿فإن تابوا﴾ من شركهم ﴿واقاموا الصلاة﴾ أي: أدوها بحقوقها ﴿وآتوا الزكاة﴾ لمستحقها ﴿فخلوا سبيلهم﴾ أي: أتركوهم، وليكونوا مثلكم، لهم مال لكم، وعليهم ما عليكم.

﴿إن الله غفور رحيم﴾ يغفر الشرك فما دونه للثائنين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة، ثم قبولها منهم.

وفي هذه الآية دليل على أن من امتنع من أداء الصلاة أو الزكاة، فإنه يقاتل حتى يؤدبهما، كما استدل بذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

﴿٦﴾ ﴿وإن أحد من المشركون استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾ لما كان ما تقدم من قوله: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركون حيث وجدتموهم وخذوهم واحضروهم واقعدوا لهم كل مرصد﴾ أمراً عاماً في جميع الأحوال، وفي كل الأشخاص منهم، ذكر تعالى أن المصلحة إذا اقتضت تقرب بعضهم جاز، بل وجب ذلك، فقال: ﴿وإن أحد من المشركون استجارك﴾ أي: طلب منك أن تحجّره وتمنعه من الضرر، لأجل أن يسمع كلام الله، وينظر حالة الإسلام.

﴿فأجره حتى يسمع كلام الله﴾ ثم إن أسلم فذاك، وإلا فأبلغه مأمنه، أي: المحل الذي يأمن فيه، والسبب في ذلك أن الكفار قوم لا يعلمون،



عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين. أي: هذه البراءة التامة المطلقة من جميع المشركون. ﴿إلا الذين عاهدتم من المشركون﴾ واستمروا على عهدهم، ولم يجز منهم ما يوجب النقص، فلا نقصوكم شيئاً، ولا عاونوا عليكم أحداً، فهؤلاء أتموا لهم^(١) عهدهم إلى مدتهم، قلت أو كثرت، لأن الإسلام لا يأمر بالخيانة وإنما يأمر بالوفاء.

﴿إن الله يحب المتقين﴾ الذين أدوا ما أمروا به، واتقوا الشرك والخيانة، وغير ذلك من المعاصي.

﴿٥﴾ ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركون حيث وجدتموهم وخذوهم واحضروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم﴾ يقول تعالى: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم﴾ أي: التي حرم فيها قتال المشركون المعاهدين، وهي أشهر التسيير الأربعة، وتمام المدة لمن له مدة أكثر منها، فقد برئت منهم الذمة.

﴿فاقتلوا المشركون حيث وجدتموهم﴾ في أي: مكان وزمان، وخذوهم أسرى واحضروهم أي: ضيقوا عليهم، فلا تدعوهم يتوسعون في بلاد الله وأرضه التي جعلها [الله] معبداً لعباده.

وَجُكِّمُوا وَجُكِّمُوا وَحِكْمَةٌ قَالُ: **﴿وَنَفْصِلُ الْآيَاتِ﴾** أي: نوضحها ونميزها **﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾** فإليهم سياق الكلام، وبهم تعرف الآيات والأحكام، وبهم عرف دين الإسلام وشرائع الدين.

اللهم اجعلنا من القوم الذين يعلمون، ويعملون بما يعلمون، برحمتك وجودك وكرمك [وإحسانك يا رب العالمين].

﴿١٢ - ١٥﴾ **﴿وَإِنْ نَكْثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَتَمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾** ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أول مرة اتخضوهم فالله أحق أن تحشوه إن كنتم مؤمنين * قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين * ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم * يقول تعالى بعدما ذكر أن المعاهدين من المشركين إن استقاموا على عهدهم فاستقيموا لهم على الوفاء: **﴿وَإِنْ نَكْثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾** أي: نقضوها وحلوا، أو فقاتلوهم أو أعانوا على قتالكم، أو نقضوكم، **﴿وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ﴾** أي: عابوه وسخروا منه.

ويدخل في هذا جميع أنواع الطعن الموجهة إلى الدين، أو إلى القرآن، **﴿فَقَاتِلُوا أَتَمَّةَ الْكُفْرِ﴾** أي: القادة فيه، الرؤساء الطاعنين في دين الرحمن، الناصرين لدين الشيطان، وخصهم بالذكر لعظم جانيتهن، ولأن غيرهم تبع لهم، وليلد على أن من طعن في الدين وتصدى للرد عليه، فإنه من أئمة الكفر.

﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ أي: لا عهد ولا موثيق يلازمون على الوفاء بها، بل لا يزالون خائنين،

فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون **﴿أي﴾** كيف يكون للمشركين عند الله عهد وميثاق **﴿و﴾** الحال أنهم **﴿إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾** بالقدرة والسلطة، لا يرحمكم، **﴿و﴾** لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة **﴿أي﴾** لا ذمة ولا قرابة، ولا يخافون الله فيكم، بل يسومونكم سوء العذاب، فهذه حالكم معهم لو ظهروا.

ولا يغرنكم منهم ما يعلمونكم به وقت الخوف منكم، فإنهم **﴿يَرْضَوْنَكُمْ﴾** بأفواههم وتأبى قلوبهم، الميل والمحبة لكم، بل هم الأعداء حقاً، المبعضون لكم صدقاً، **﴿وَكَثَرَهُمْ فَاسِقُونَ﴾** لا ديانة لهم ولا مروءة.

﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: اختاروا الحظ العاجل الخسيس في الدنيا على الإيمان بالله ورسوله، والانقياد لآيات الله.

﴿فَصَدَّوْا﴾ بأنفسهم، وصدوا غيرهم **﴿عَنْ سَبِيلِهِ﴾** إنهم ساء ما كانوا يعملون * لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة **﴿أي﴾** لأجل عداوتهم للإيمان وأهله.

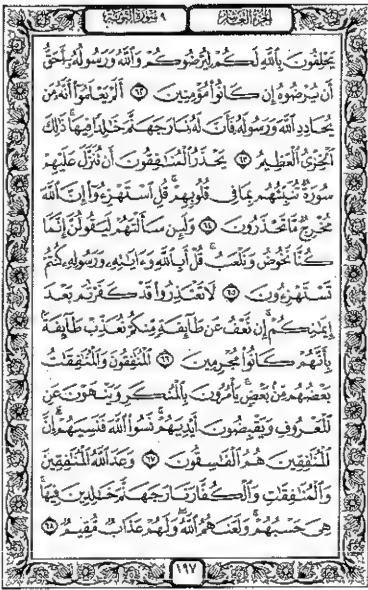
فالوصف الذي جعلهم ^(١) يعادونكم لأجله ويبغضونكم، هو الإيمان، فذبوا عن دينكم، وانصروه واتخذوا من عاداهم عدواً ومن نصره لكم ولياً، واجعلوا الحكم يدور معكم وجوداً وعدماً، لا تجعلوا الولاية والعداوة طبيعية ^(٢) تميلون بهما، حيثما مال الهوى، وتتبعون فيهما النفس الأمارة بالسوء، ولهذا: **﴿فَإِنْ تَابُوا﴾** عن شركهم، ورجعوا إلى الإيمان **﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾** فإخوانكم في الدين **﴿وَتَنَاسَوُا تِلْكَ الْعَدَاوَةَ﴾** إذ كانوا مشركين، لتكونوا عباد الله المخلصين، وبهذا يكون العبد عبداً حقيقة، لما بين من أحكامه العظيمة ما بين، ووضح منها ما وضح، أحكاماً

(١) في النسختين: جعلوهم، ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) في ب: طبيعية.

(٣) في ب: أعانت.

(٤) في ب: فالله.

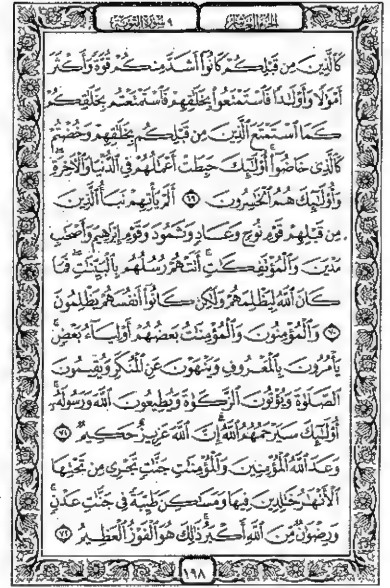


ناكثين للعهد، لا يوثق منهم.

﴿لَعَلَّهُمْ﴾ في قتالكم إياهم **﴿يَنْتَهُونَ﴾** عن الطعن في دينكم، وربما دخلوا فيه، ثم خث على قتالهم، وهيح المؤمنين بذكر الأوصاف التي صدرت من هؤلاء الأعداء، والتي هم موصوفون بها، المقتضية لقتالهم فقال: **﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾** الذي يجب احترامه وتوقيره وتعظيمه؟ وهم هموا أن يحلوه ويخرجوه من وطنه وسعوا في ذلك ما أمكنهم، **﴿وَهُمْ بَدَّؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾** حيث نقضوا العهد وأعانوا عليكم، وذلك حيث عاونت ^(٣) قریش - وهم معاهدون - بني بكر حلفاءهم على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ، وقاتلوا معهم كما هو مذكور مبسوط في السيرة.

﴿اتَّخَضُونَهُمْ﴾ في ترك قتالهم **﴿فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَحْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾** فإنه ^(٤) أمركم بقتالهم، وأكد ذلك عليكم غاية التأكيد.

فإن كنتم مؤمنين فامتثلوا لأمر الله، ولا تحشوهم فتتركوا أمر الله، ثم أمر بقتالهم وذكر ما يترتب على قتالهم من



يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خير بما تعملون ﴿١٧﴾ يقول تعالى لعباده المؤمنين بعدما أمرهم بالجهاد: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا﴾ من دون ابتلاء وامتحان، وأمر بما يبين به الصادق والكاذب.

﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾ أي: علماً يظهر مما في القوة إلى الخارج، ليترتب عليه الثواب والعقاب، فيعلم الذين يجاهدون في سبيله لإعلاء كلمته ﴿ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة﴾ أي: ولياً من الكافرين، بل يتخذون الله ورسوله والمؤمنين أولياء.

فشرع الله الجهاد ليحصل به هذا المقصود الأعظم، وهو أن يتميز الصادقون الذين لا يتحيزون إلا لدين الله، من الكاذبين الذين يزعمون الإيمان وهم يتخذون الولائج والأولياء من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين.

﴿والله خير بما تعملون﴾ أي: يعلم ما يصير منكم ويصدر، فينتليكم بما يظهر به حقيقة ما أنتم عليه، ويمجازيكم على أعمالكم خيرها وشرها.

﴿١٧ - ١٨﴾ ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ إنما يغمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴿يقول تعالى: ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق ﴿لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ بالعبادة والصلاة، وغيرها من أنواع الطاعات، والحال أنهم شاهدون ومقرون على أنفسهم بالكفر بشهادة حالهم وفطرتهم، وعلم كثير منهم أنهم على الكفر والباطل.

فإذا كانوا ﴿شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾ وعدم الإيمان الذي هو شرط لقبول الأعمال، فكيف يزعمون أنهم عمارة مساجد الله، والأصل منهم

مفقود، والأعمال منهم باطلة؟! ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: بطلت وضلت النار هم خالدون. ثم ذكر من هم عمارة مساجد الله فقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ بِالله واليوم الآخر وأقام الصلاة الواجبة والمستحبة، بالقيام بالظاهر منها والباطن.

﴿وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾ لأهلها ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: قصر خشيته على ربه، فكف عما حرم الله، ولم يقصر بحقوق الله الواجبة.

فوصفهم بالإيمان النافع، وبالقيام بالأعمال الصالحة التي أمها الصلاة والزكاة، وبخشية الله التي هي أصل كل خير، فهؤلاء عمارة المساجد على الحقيقة وأهلها الذين هم أهلها.

﴿فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ و«عسى» من الله واجبة. وأما من لم يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، ولا عنده خشية لله، فهذا ليس من عمارة مساجد الله، ولا من أهلها الذين هم أهلها، وإن زعم ذلك وادعاه.

﴿١٩ - ٢٢﴾ ﴿أَجْعَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون ﴿يُشْرَهُمْ بِهِمْ بَرَحْمَةً مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾ خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم ﴿لما اختلف بعض المسلمين، أو بعض المسلمين وبعض المشركين، في تفضيل عمارة المسجد الحرام، بالبناء والصلاة والعبادة فيه وسقاية الحاج، على الإيمان بالله والجهاد في سبيله، أخبر الله تعالى بالتفاوت بينهما، فقال: ﴿أَجْعَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ أي: سقيهم الماء من زمزم كما هو المعروف إذا أطلق هذا الاسم، أنه المراد ﴿وعِمارة المسجد

الفوائد، وكل هذا حث وإنهاض للمؤمنين على قتالهم، فقال: ﴿قَاتِلُوهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ بالقتل ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ إذا نصركم الله عليهم، وهم الأعداء الذين يطلب خزيهم ويحرص عليه، ﴿وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ هذا وعد من الله وبشارة قد أنجزها.

﴿ويكشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم﴾ فإن في قلوبهم من الحق والغيظ عليهم ما يكون قتالهم وقتلهم شفاء لما في قلوب المؤمنين من الغم والهَم، إذ يرون هؤلاء الأعداء محاربين لله ولرسوله، ساعين في إطفاء نور الله، وزوالاً للغيظ الذي في قلوبهم، وهذا يدل على محبة الله لعباده المؤمنين، واعتناؤه بأحوالهم، حتى إنه جعل - من جملة المقاصد الشرعية - شفاء ما في صدورهم وذهاب غيظهم.

ثم قال: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ من هؤلاء المحاربين، بأن يوفقه للدخول في الإسلام، ويزينه في قلوبهم، ويكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان.

﴿والله عليم حكيم﴾ يضع الأشياء مواضعها، ويعلم من يصلح للإيمان فيهديه، ومن لا يصلح فيبقيه في غيه وطمغياه.

﴿١٩﴾ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ

في تحصيلها، خصها بالذكر، لأنها أرغب عند أهلها، وصاحبها أشد حرصاً عليها من تأتية الأموال من غير تعب ولا كد.

﴿وتجارة تحشون كسادها﴾ أي: رخصها ونقصها، وهذا شامل لجميع أنواع التجارات والمكاسب من عروض التجارات، من الأثمان، والآواني، والأسلحة، والأمتعة، والحبوب، والحرث، والأنعام، وغير ذلك.

﴿ومساكن ترضونها﴾ من حسننها وزخرفتها وموافقتها لأهوائكم، فإن كانت هذه الأشياء أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فإنتم فسقة ظلمة.

﴿فتربصوا﴾ أي: انتظروا ما يحل بكم من العقاب (حتى يأتي الله بأمره) الذي لا مرد له.

﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي: الخارجين عن طاعة الله، المقدمين على حجة الله شيئاً من المذكورات.

وهذه الآية الكريمة أعظم دليل على وجوب محبة الله ورسوله، وعلى تقديمهما على محبة كل شيء، وعلى الوعيد الشديد والمقت الأكيد، على من كان شيء من هذه المذكورات أحب إليه من الله ورسوله وجهاد في سبيله.

وعلاوة ذلك أنه إذا عرض عليه أمران، أحدهما يحبه الله ورسوله، وليس لنفسه فيه هوى، والآخر تحبه نفسه وتشتهيه، ولكنه يقوُّ عليه محبواً لله ورسوله، أو ينقصه، فإنه إن قدم ما تهواه نفسه، على ما يحبه الله، دل ذلك على أنه ظالم تارك لما يجب عليه.

﴿٢٥ - ٢٧﴾ ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضائق عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين﴾ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ﴿ثم يتوب الله من بعد ذلك

واحدة منها لوسعتهم. ﴿خالدين فيها أبداً﴾ لا ينتقلون عنها، ولا يبتغون عنها جزواً، ﴿إن الله عنده أجسر عظيم﴾ لا تستغرب كثرتهم على فضل الله، ولا يتعجب من عظمه وحسنه على من يقول للشيء كن فيكون.

﴿٢٣ - ٢٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون﴾ قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تحشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ يقول تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ اعملوا بمقتضى الإيمان، بأن توالوا من قام به، وتعادوا من لم يقم به.

و ﴿لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم﴾ الذين هم أقرب الناس إليكم، وغيرهم من باب أولى وأحرى، فلا تتخذوهم ﴿أولياء إن استحبوا﴾ أي: اختاروا على وجه الرضا والمحبة ﴿الكفر على الإيمان﴾.

﴿ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون﴾ لأنهم تجرؤوا على معاصي الله، واتخذوا أعداء الله أولياء، وأصل الولاية: المحبة والنصرة، وذلك أن اتحادهم أولياء موجب لتقديم طاعتهم على طاعة الله، ومحبتهم على محبة الله ورسوله.

ولهذا ذكر السبب الموجب لذلك، وهو أن محبة الله ورسوله، يتعين تقديمهما على محبة كل شيء، وجعل جميع الأشياء تابعة لهما، فقال: ﴿قل إن كان آباؤكم وإخوانكم﴾ في النسب ﴿وأبنائكم وإخوانكم﴾ في النسب العشرة^(١) ﴿وأزواجكم وعشيرتكم﴾ أي: قراياتكم عموماً ﴿وأموال اقترفتموها﴾ أي: اكتسبتموها وتعتب

الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله.

فالجهاد والإيمان بالله أفضل من سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام بدرجات كثيرة، لأن الإيمان أصل الدين، وبه تقبل الأعمال وتزكو الخصال.

وأما الجهاد في سبيل الله فهو ذروة سنام الدين، الذي به يحفظ الدين الإسلامي ويتسع، وينصر الحق ويخذل الباطل.

وأما عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج، فهي وإن كانت أعمالاً صالحة، فهي متوقفة على الإيمان، وليس فيها من المصالح ما في الإيمان والجهاد، فلذلك قال: ﴿لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي: الذين وصفهم الظلم، الذين لا يصلحون لقبول شيء من الخير، بل لا يليق بهم إلا الشر.

ثم صرح بالفضل فقال: ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم﴾ بالنفقة في الجهاد وتجهيز الغزاة ﴿وأنفُسهم﴾ بالخروج بالنفس ﴿أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون﴾ أي: لا يفوز بالمطلوب ولا ينجو من المهوب، إلا من انصف بصفاتهم، وتحلق بأخلاقهم.

﴿يشرهم بهم﴾ جوداً منه، وكرماً وبراً بهم، واعتناء ومحبة لهم، ﴿برحمة منه﴾ أزال بها عنهم الشرور، وأوصل إليهم [بها] كل خير. ﴿ورضوان﴾ منه تعالى عليهم، الذي هو أكبر نعيم الجنة وأجله، فيحل عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم أبداً.

﴿وجنات لهم فيها نعيم مقيم﴾ من كل ما اشتتهه الأنفس، وتلد الأعين، مما لا يعلم وصفه ومقداره إلا الله تعالى، الذي منه أن الله أعد للمجاهدين في سبيله مئة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، ولو اجتمع الخلق في درجة

على من يشاء والله غفور رحيم ﴿١﴾ يمتن تعالى على عباده المؤمنين، بنصره إياهم في مواطن كثيرة من مواطن اللقاء، ومواضع الحروب والهيجهاء، حتى في يوم «حنين» الذي اشتدت عليهم فيه الأزمة، ورأوا من التخاذل والفرار، ما ضاقت عليهم به الأرض على رحبها وسعتها.

وذلك أن النبي ﷺ لما فتح مكة، سمع أن هوازن اجتمعوا لحربه، فسار إليهم ﷺ في أصحابه الذين فتحوا مكة، وبمن أسلم من الطلقاء أهل مكة، فكانوا اثني عشر ألفاً، والمشركون أربعة آلاف، فأعجب بعض المسلمين بكثرتهم، وقال بعضهم: لن تغلب اليوم من قلة.

فلما التقوا هم وهوازن، حملوا على المسلمين حملة واحدة، فانهمزوا لا يلوي أحد على أحد، ولم يبق مع رسول الله ﷺ إلا نحو مئة رجل، ثبتوا معه، وجعلوا يقاتلون المشركين، وجعل النبي ﷺ يركض بغلته نحو المشركين ويقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب».

ولما رأى من المسلمين ما رأى، أمر العباس بن عبد المطلب أن ينادي في الأنصار وبقية المسلمين، وكان رفيع الصوت، فناداهم: يا أصحاب السمرة، يا أهل سورة البقرة.

فلما سمعوا صوته، عطفوا عطفة رجل واحد، فاجتلدوا مع المشركين، فهزم الله المشركين هزيمة شنيعة، واستولوا على معسكرهم ونسائهم وأموالهم.

وذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين﴾ وهو اسم للمكان الذي كانت فيه الوقعة بين مكة والطائف.

﴿إذ أعجبكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً﴾ أي: لم تفدكم شيئاً، قليلاً ولا كثيراً ﴿وضاقت عليكم الأرض﴾ بما أصابكم من الهم والغم حين انهزمتم ﴿بما رحبت﴾ أي: على رحبها

وسعتها، ﴿ثم وليتم مدبرين﴾ أي: منهزمين.

﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ والسكينة ما يجعله الله في القلوب وقت القلاقل والزلازل والمفطعات، مما يشتها ويسكنها ويجعلها مطمئنة، وهي من نعم الله العظيمة على العباد.

﴿وأنزل جنوداً لم تروها﴾ وهم الملائكة، أنزلهم الله معونة للمسلمين يوم حنين، يشمتونهم ويبشرونهم بالنصر.

﴿وعذب الذين كفروا﴾ بالهزيمة والقتل، واستيلاء المسلمين على نسائهم وأولادهم وأموالهم.

﴿وذلك جزاء الكافرين﴾ يعذبهم الله في الدنيا، ثم يردهم في الآخرة إلى عذاب غليظ.

﴿ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء﴾ فتأب الله على كثير ممن كانت الوقعة عليهم، وأتوا إلى النبي ﷺ مسلمين تائبين، فرد عليهم نسائهم وأولادهم.

﴿والله غفور رحيم﴾ أي: ذو مغفرة واسعة، ورحمة عامة، يعفو عن الذنوب العظيمة للتائبين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة والطاعة، والصفح عن جرائمهم وقبول توباتهم، فلا يأسئ أحد من مغفرته ورحمته، ولو فعل من الذنوب والإجرام ما فعل.

﴿٢٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتهم غيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم﴾ يقول تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون﴾ بالله الذين عبدوا معه غيره ﴿نجس﴾ أي: خبثاء في عقائدهم وأعمالهم، وأي: نجاسة أبلغ من كان يعبد مع الله آلهة لا تنفع ولا تضر، ولا تغني عنه شيئاً!! وأعمالهم ما بين محاربة الله، وصد عن سبيل الله، ونصر للباطل، ورد للحق، وعمل بالفساد في الأرض

لا في الإصلاح، فعليكم أن تطهروا أشرف البيوت وأطهرها عنهم.

﴿فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ وهو سنة تسع من الهجرة، حين حج بالناس أبو بكر الصديق، وبعث النبي ﷺ ابن عمه علياً، أن يؤذن يوم الحج الأكبر بـ «براءة»، فنادى أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

وليس المراد هنا نجاسة البدن، فإن الكافر كغيره طاهر البدن، بدليل أن الله تعالى أباح وطء الكتابية ومباشرتها، ولم يأمر بغسل ما أصاب منها.

والمسلمون ما زالوا يباشرون أبدان الكفار، ولم ينقل عنهم أنهم تقدروا منها، تقدروا من النجاسات، وإنما المراد كما تقدم نجاستهم المعنوية، بالشرك، فكما أن التوحيد والإيمان، طهارة، فالشرك نجاسة.

وقوله: ﴿وإن خفتهم﴾ أيها المسلمون ﴿غيلة﴾ أي: فقرأ وأحاجة، من منع المشركين من قربان المسجد الحرام، بأن تنقطع الأسباب التي بينكم وبينهم من الأمور الدنيوية، ﴿فسوف يغنيكم الله من فضله﴾ فليس الرزق مقصوراً على باب واحد، وعمل واحد، بل لا ينغلق باب إلا وفتح غيره أبواب كثيرة، فإن فضل الله واسع، وجوده عظيم، خصوصاً لمن ترك شيئاً لوجهه الكريم، فإن الله أكرم الأكرمين.

وقد أنجز الله وعده، فإن الله أغنى المسلمين من فضله، وبسط لهم من الأرزاق ما كانوا من أكبر الأغنياء والملوك.

وقوله: ﴿إن شاء﴾ تعليق للإغناء بالمشيئة، لأن الغنى في الدنيا ليس من لوازم الإيمان، ولا يدل على محبة الله، فلهاذا علقه الله بالمشيئة، فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان والدين إلا من يحب.

﴿إن الله عليم حكيم﴾ أي: علمه

واسع، يعلم من يليق به الغنى، ومن لا يليق، ويضع الأشياء مواضعها ويتزلفها منازلها.

وتدل الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ أن المشركين بعدما كانوا هم الملوك والرؤساء بالبيت، ثم صار بعد الفتح الحكم لرسول الله والمؤمنين، مع إقامتهم في البيت، ومكة المكرمة، ثم نزلت هذه الآية.

ولما مات النبي ﷺ أمر أن يحلوا من الحجاز، فلا يبقى فيها دينان، وكل هذا لأجل بُعد كل كافر عن المسجد الحرام، فيدخل في قوله ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾.

﴿٢٩﴾ ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ هذه الآية أمر بقتال الكفار من اليهود والنصارى من الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر إيماناً صحيحاً يصدقونه بأفعالهم وأعمالهم. ولا يجرمون ما حرم الله، فلا يتبعون شرعه في تحريم المحرمات، ﴿ولا يتدينون دين الحق﴾ أي: لا يدينون بالدين الصحيح، وإن زعموا أنهم على دين، فإنه دين غير الحق، لأنه ما بين دين مبطل، وهو الذي لم يشرعه الله أصلاً، وإما دين منسوخ قد شرعه الله، ثم غيره بشريعة محمد ﷺ، فيبقى التمسك به بعد النسخ غير جائز.

فأمره بقتال هؤلاء وحث على ذلك، لأنهم يدعون إلى ما هم عليه، ويحصل الضرر الكثير منهم للناس، بسبب أنهم أهل كتاب.

وعبى ذلك القتال حتى يعطوا الجزية. أي: المال الذي يكون جزاء لترك المسلمين قتالهم، وإقامتهم آمنين على أنفسهم وأموالهم بين أظهر المسلمين، يؤخذ منهم كل عام، كل

على حسب حاله، من غني وفقير ومتوسط، كما فعل ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وغيره من أمراء المؤمنين.

وقوله: ﴿عن يد﴾ أي: حتى يبذلوها^(١) في حال ذلهم، وعدم اقتدارهم، ويعطونها بأيديهم، فلا يرسلون بها خادماً ولا غيره، بل لا تقبل إلا من أيديهم، وهم صاغرون.

فإذا كانوا بهذه الحال، وسألوا المسلمين أن يقروهم بالجزية، وهم تحت أحكام المسلمين وقهرهم، وحال الأمن من شرهم وفنتهم، واستسلموا للشروط التي أجراها عليهم المسلمون مما ينفي عزهم وتكبرهم، وتوجب ذلهم وصغارهم، وجب على الإمام أو نائبه أن يعقدها لهم.

ولا بأن لم يفوا، ولم يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، لم يجوز إقرارهم بالجزية، بل يقاتلون حتى يسلموا. واستدل بهذه الآية الجمهور الذين يقولون: لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب، لأن الله لم يذكر أخذ الجزية إلا منهم.

وأما غيرهم فلم يذكر إلا قتالهم حتى يسلموا، وألحق بأهل الكتاب في أخذ الجزية وإقرارهم في ديار المسلمين، المجوس، فإن النبي ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر، ثم أخذها أمير المؤمنين عمر من الفرس المجوس.

وقيل: إن الجزية تؤخذ من سائر الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، لأن هذه الآية نزلت بعد الفراغ من قتال العرب المشركين، والشروع في قتال أهل الكتاب ونحوهم، فيكون هذا القيد إخباراً بالواقع، لا مفهوم له.

ويدل على هذا أن المجوس أخذت منهم الجزية وليسوا أهل كتاب، ولأنه قد تواتر عن المسلمين من الصحابة ومن بعدهم أنهم يدعون من يقاتلونهم إلى إحدى ثلاث: إما الإسلام، أو أداء الجزية، أو السيف، من غير فرق بين

(١) كذا في ب، وفي أ: يبذلونها.

(٢) في ب: أنه لما تسلط الملوك.

يَأْتِيهَا الْكَيْدُ الْكَبِيرُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَأَنَّا فَاطَمْنَاهُمْ وَمَا وَدَّعْنَاهُمْ وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَتَفُوا بِرِيسَاوَا وَمَا تَشَاءُونَ أَتَى أَنْ تُغْنِيَهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُمْ يُنْكِرُونَ خَرَجْنَا مِنْ يَتْلُو آيَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيِّ وَلَا يُضِلُّهُمْ * وَهُمْ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِمَا نَدْعُوهُ وَأَقْبَلْنَا فَضْلَهُ وَوَقَعُوا فِي أَعْيُنِنَا قَالُوا هَذَا إِلَهُ رَبِّهِمْ قَالُوا إِنَّمَا أَخْلَقُوا اللَّهُ وَمَا وَعَدُوا وَكَانُوا يُكْفَرُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ عَلَّمَ الْقُرْآنَ * الْأَنْبِيَاءَ يَلْقَوْنَ أَلْفُورِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصِّدْقِ وَالْإِيمَانِ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جِدْمَ فَسَخَّرْنَاهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَلَى أَلِيمٍ

كتابي وغيره.

﴿٣٠ - ٣٣﴾

ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون * اتخذوا أبقارهم ورباهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون * يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون * هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون * لما أمر تعالى بقتال أهل الكتاب، ذكر من أقوالهم الخبيثة، ما يهيج المؤمنين الذين يثارون لربهم ولدينه على قتالهم، والاجتهاد وبذل الوسع فيه فقال: ﴿وقالت اليهود عزيز ابن الله﴾ وهذه المقالة وإن لم تكن مقالة لعائتهم فقد قالها فرقة منهم، فيدل ذلك على أن في اليهود من الخبيث والشر ما أوصلهم إلى أن قالوا هذه المقالة التي تجرؤوا فيها على الله، وتقصوا عظمته وجلاله.

وقد قيل: إن سبب ادعائهم في «عزيز» أنه ابن الله، أنه لما سلب الله الملوك^(٢) على بني إسرائيل، ومزقهم كل ممزق، وقتلوا حملة التوراة، وجدوا

وإبطاله، فإن سعيهم لا يضر الحق شيئاً.

ثم بين تعالى هذا النور الذي قد تكفل بإتمامه وحفظه فقال: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى﴾ الذي هو العلم النافع ﴿ودين الحق﴾ الذي هو العمل الصالح فكان ما بعث الله به محمداً ﷺ مشتملاً على بيان الحق من الباطل في أسماء الله وأوصافه وأفعاله، وفي أحكامه وأخباره، والأمر بكل مصلحة نافعة للقلوب، والأرواح والأبدان من إخلاص الدين لله وحده، ومحبة الله وعبادته، والأمر بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، والأعمال الصالحة والآداب النافعة، والنهي عن كل ما يصاد ذلك ويناقضه من الأخلاق والأعمال السيئة المضرّة للقلوب والأبدان والدنيا والآخرة.

فأرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. أي: ليعليه على سائر الأديان بالحجة والبرهان، والسيف والسنان، وإن كره المشركون ذلك، وبغواله الغوائل، ومكروا مكروهم، فإن المكر السيئ لا يضر إلا صاحبه، فوعد الله لا بد أن ينجزه، وما ضمنه لا بد أن يقوم به.

﴿٣٤-٣٥﴾ يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعبذاب أليم * يوم يحصى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴿٣٥﴾ هذا تحذير من الله تعالى لعباده المؤمنين عن كثير من الأحبار والرهبان، أي: العلماء والعباد الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، أي: بغير حق، ويصدون عن سبيل الله، فإنهم إذا كانت لهم رواتب من أموال الناس، أو بذل الناس لهم من أموالهم، فإنه لأجل علمهم وعبادتهم، ولأجل هدايتهم وهدايتهم، وهؤلاء يأخذونها

حزم الله فيحلونه، ويحرمون لهم ما أحل الله فيحرمونه، ويشرعون لهم من الشرائع والأقوال المنافية لدين الرسل فيتبعونهم عليها.

وكانوا أيضاً يغفلون في مشايخهم وعبادهم ويعظمونهم، ويتخذون قبورهم أوثاناً تعبد من دون الله، وتقصد بالذبايح والدعاء والاستغاثة.

﴿والمسيح ابن مريم﴾ اتخذوه إلهاً من دون الله، والحال أنهم خالفوا في ذلك أمر الله لهم على السنة رسله فما ﴿أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو﴾ فيخلصون له العبادة والطاعة، ويخصونه بالمحبة والدعاء، فنبذوا أمر الله وأشركوا به ما لم ينزل به سلطاناً.

﴿سبحانه﴾ وتعالى ﴿عما يشركون﴾ أي: تنزه وتقدس، وتعالى عظمتهم عن شركهم وافترائهم، فإنهم ينتقصونه في ذلك، ويصفونه بما لا يليق بجلاله، والله تعالى العلي في أوصافه وأفعاله عن كل ما نسب إليه، مما ينافي كماله المقدس.

فلما تبين أنه لا حجة لهم على ما قالوه، ولا برهان لما أصّلوه، وإنما هو مجرد قول قالوه وافتراء افتروه، أخبر أنهم ﴿يريدون﴾ بهذا ﴿أن يطفئوا نور الله بأقوالهم﴾.

ونور الله: دينه الذي أرسل به الرسل، وأنزل به الكتب، وسماء الله نوراً، لأنه يستنار به في ظلمات الجهل والأديان الباطلة، فإنه علم بالحق، وعمل بالحق، وما عداه فإنه بضده، فهو لاء اليهود والنصارى ومن ضاهوه من المشركين، يريدون أن يطفئوا نور الله بمجرد أقوالهم، التي ليس عليها دليل أصلاً.

﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره﴾ لأنه النور الباهر، الذي لا يمكن لجميع الخلق لو اجتمعوا على إطفائه أن يطفئوه، والذي أنزله جميع نواصي العباد بيده، وقد تكفل بحفظه من كل من يريد بسوء، ولهذا قال: ﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ وسعوا ما أمكنهم في رده



عزيراً بعد ذلك حافظاً لها أو لاكثرها، فأبلاها عليهم من حفظه، واستسخرها، فادعوا فيه هذه الدعوى الشنيعة.

﴿وقالت النصارى المسيح عيسى ابن مريم﴾ ابن الله. قال الله تعالى ﴿ذلك﴾ القول الذي قاله ﴿قولهم بأقوالهم﴾ لم يقيموا عليه حجة ولا برهاناً.

ومن كان لا يبالي بما يقول، لا يستغرب عليه أي: قول يقوله، فإنه لا دين ولا عقل يحجزه عما يريد من الكلام.

ولهذا قال: ﴿يضاهئون﴾ أي: يشابهون في قولهم هذا ﴿قول الذين كفروا من قبل﴾ أي: قول المشركين الذين يقولون: ﴿الملائكة بنات الله﴾ تشابهت قلوبهم، فتشابهت أقوالهم في البطلان.

﴿قاتلهم الله أتى يؤفكون﴾ أي: كيف يصرفون عن الحق الصرف الواضح المبين، إلى القول الباطل المبين. وهذا - وإن كان يستغرب على أمة كبيرة كثيرة أن تتفق على قول - يدل على بطلانه أدنى تفكر وتسلط للعقل عليه، فإن لذلك سبباً وهو أنهم: ﴿اتخذوا آحبارهم﴾ وهم علماءهم ﴿ورهبانهم﴾ أي: العباد المتجردين للعبادة.

﴿أرباباً من دون الله﴾ يحلون لهم ما

فيها منسوخ، أخذاً بعموم نحو قوله تعالى ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ أي قاتلوا جميع أنواع المشركين والكافرين برب العالمين.

ولا تخصوا أحداً منهم بالقتال دون أحد، بل اجعلوهم كلهم لكم أعداء كما كانوا هم معكم كذلك. قد اتخذوا أهل الإيمان أعداء لهم، لا يألونهم من الشر شيئاً.

ويحتمل أن «كافة» حال من الواو فيكون معنى هذا: وقاتلوا جميعكم المشركين، فيكون فيها وجوب التفير على جميع المؤمنين.

وقد نسخت على هذا الاختمال بقوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ الآية. «واعلموا أن الله مع المتقين» بعونه ونصره وتأييده، فلتحرصوا على استعمال تقوى الله في سركم وعلنكم، والقيام بطاعته، خصوصاً عند قتال الكفار، فإنه في هذه الحال، ربما ترك المؤمن العمل بالتقوى في معاملة الكفار الأعداء المحاربين.

﴿٣٧﴾ «إنما النسبي» زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين» النسبي: هو ما كان أهل الجاهلية يستعملونه في الأشهر الحرم، وكان من جملة بدعهم الباطلة، أنهم لما رأوا احتياجهم للقتال في بعض أوقات الأشهر الحرم، رأوا - بأرائهم الفاسدة - أن يحافظوا على عدة الأشهر الحرم، التي حرم الله القتال فيها، وأن يؤخروا بعض الأشهر الحرم، أو يقدموه، ويجعلوا مكانه من أشهر الحلال ما أرادوا، فإذا جعلوه مكانه أحلوا

الواجبات و «النهى عن الشيء، أمر بضده».

﴿٣٦﴾ وقوله: «إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين» يقول تعالى: «إن عدة الشهور عند الله» أي: في قضائه وقدره «اثنا عشر شهراً» وهي هذه الشهور المعروفة «في كتاب الله» أي: في حكمه القدري، «يوم خلق الله السماوات والأرض» وأجرى ليلها ونهارها، وقدر أوقاتها فقسما على هذه الشهور الاثني عشر [شهوراً].

«منها أربعة حرم»: وهي: رجب الفرد، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وبسميت حرمات لزيادة حرمتها، وتحريم القتال فيها.

«فلا تظلموا فيهن أنفسكم» يحتمل أن الضمير يعود إلى الاثني عشر شهراً، وأن الله تعالى بين أنه جعلها مقادير للعباد، وأن تعمّر بطاعته، ويشكر الله تعالى على منيته بها، وتقيضها لمصالح العباد، فلتحذروا من ظلم أنفسكم فيها.

ويحتمل أن الضمير يعود إلى الأربعة الحرم، وأن هذا نهى لهم عن الظلم فيها، خصوصاً مع النهي عن الظلم كل وقت، لزيادة تحريمها، وكون الظلم فيها أشد منه في غيرها.

ومن ذلك النهي عن القتال فيها، على قول من قال: إن القتال في الأشهر الحرم^(١) لم ينسخ تحريمه عملاً بالنصوص العامة في تحريم القتال فيها.

ومنهم من قال: إن تحريم القتال

ويصدون الناس عن سبيل الله، فيكون أخذهم لها على هذا الوجه سحتاً وظلماً، فإن الناس ما بذلوا لهم من أموالهم إلا ليدلّوهم إلى الطريق المستقيم.

ومن أخذهم لأموال الناس بغير حق، أن يعطوهم ليفتوهم أو يحكموا لهم بغير ما أنزل الله، فهو لاء الأخبار والرهبان، ليحذر منهم هاتان الحالتان: أخذهم لأموال الناس بغير حق، وصدّهم الناس عن سبيل الله.

«والذين يكنزون الذهب والفضة» أي: يمسكونها «ولا ينفقونها في سبيل الله» أي: طرق الخير الموصلة إلى الله، وهذا هو الكنز المحرم، أن يمسكها عن النفقة الواجبة، كان يمنع منها الزكاة أو النفقات الواجبة للزوجات أو الأقارب، أو النفقة في سبيل الله إذا وجبت.

«فيشرهم بعذاب اليم» ثم فسره بقوله: «يوم يحمى عليها» أي: على أموالهم، «في نار جهنم» فيحمى كل دينار أو درهم على حدته.

«فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم» في يوم القيامة كلما بردت أعيدت في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ويقال لهم توبيخاً ولوماً: «هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون» فما ظلمكم ولكنكم ظلمتم أنفسكم وعدبتموها بهذا الكنز.

وذكر الله في هاتين الآيتين انحراف الإنسان في ماله، وذلك بأحد أمرين:

إما أن ينفقه في الباطل الذي لا يجدي عليه نفعاً، بل لا يناله منه إلا الضرر المحض، وذلك كما يخرج الأموال في المعاصي والشهوات التي لا تعين على طاعة الله، وإخراجها للصد عن سبيل الله.

وإما أن يمسك ماله عن إخراجها في

القتال فيه، وجعلوا الشهر الحلال حراماً، فهذا - كما أخبر الله عنهم - أنه زيادة في كفرهم وضلالهم، لما فيه من المخاذير.

منها: أنهم ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، وجعلوه بمنزلة شرع الله ودينه، والله ورسوله بريئان منه.

ومنها: أنهم قلبوا الدين، فجعلوا الحلال حراماً، والحرام حلالاً.

ومنها: أنهم مؤهوا على الله بزعمهم وعلى عباده، ولبسوا عليهم دينهم، واستعملوا الخداع والحيلة في دين الله.

ومنها: أن العوائد المخالفة للشرع مع الاستمرار عليها، يزول قبحها عن النفوس، وربما ظن أنها عوائد حسنة، فحصل من الغلط والضلال ما حصل، ولهذا قال: ﴿يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطؤوا عدة ما حرم الله﴾ أي: ليوافقوها في العدد، فيحلوا ما حرم الله.

﴿زين لهم سوء أعمالهم﴾ أي: زينت لهم الشياطين الأعمال السيئة، فرأوها حسنة، بسبب العقيدة المزينة في قلوبهم.

﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ أي: الذين انصبغ الكفر والتكذيب في قلوبهم، فلو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا.

﴿٣٨ - ٣٩﴾ قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾ إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير. اعلم أن كثيراً من هذه السورة الكريمة نزلت في غزوة تبوك، إذ نذب النبي ﷺ المسلمين إلى غزو الروم، وكان الوقت حاراً، والزاد

قليلاً، والمعيشة عسرة، فحصل من بعض المسلمين من التثاقل ما أوجب أن يعاتبهم الله تعالى عليه ويستنهضهم، فقال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ ألا تعملون بمقتضى الإيمان، وداعي^(١) اليقين من المبادرة لأمر الله، والمسارة إلى رضاه، وجهاد أعدائه والنصرة لدينكم، ف: ﴿ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض﴾ أي: تكاسلتم، وملتم إلى الأرض والدعة والسكون فيها.

﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾ أي: ما حالكم إلا حال من رضي بالدنيا وسعى لها ولم يبال بالآخرة، فكأنه ما آمن بها.

﴿فما متاع الحياة الدنيا﴾ التي مالت بكم، وقدمتموها على الآخرة ﴿إلا قليل﴾ أفليس قد جعل الله لكم عقولاً تزنون بها الأمور، وأيا أحق بالإثارة؟

أفليست الدنيا - من أولها إلى آخرها - لا نسبة لها في الآخرة. فما مقدار عمر الإنسان القصير جداً من الدنيا حتى يجعله الغاية التي لا غاية وراءها، فيجعل سعيه وكده وهمه وإرادته لا يتعدى حياته الدنيا القصيرة المملوءة بالأكدار، المشحونة بالأخطار.

فبأي: رأي رأيتم إثارة على الدار الآخرة الجامعة لكل نعيم، التي فيها ما تشتهيhe الأنفس وتلد الأعين، وأنتم فيها خالدون، فوالله ما أثر الدنيا على الآخرة من وقر الإيمان في قلبه، ولا من جزل رأيه، ولا من عُد من أولى الأبواب، ثم توعدهم على عدم النفي فقال:

﴿إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً﴾ في الدنيا والآخرة، فإن عدم النفي في حال الاستنفار من كبائر الذنوب الموجبة لأشد العقاب، لما فيها من المضار الشديدة، فإن المتخلف قد

عصى الله تعالى وارتكب لنهي، ولم يساعد على نصر دين الله، ولا ذب عن كتاب الله وشرعه، ولا أعان إخوانه المسلمين على عدوهم الذي يريد أن يستأصلهم ويمحق دينهم، وربما اقتدى به غيره من ضعفاء الإيمان، بل ربما قُت في أعضاء من قاموا بجهاد أعداء الله، فحقيق بمن هذا حاله أن يتوعد الله بالوعيد الشديد، فقال:

﴿إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم﴾ ثم لا يكونوا أمثالكم ﴿ولا تضروه شيئاً﴾ فإنه تعالى متكفل بنصر دينه وإعلاء كلمته، فسواء امتثلتم لأمر الله، أو ألقيتموه وراءكم ظهرياً.

﴿والله على كل شيء قدير﴾ لا يعجزه شيء أراد، ولا يغالبه أحد.

﴿٤٠﴾ ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾ فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنوده لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم. أي: إلا تنصروا رسوله محمداً ﷺ، فبالله غني عنكم، لا تضربوه شيئاً، فقد نصره في أقل ما يكون وأذله ﴿إذ أخرجه الذين كفروا﴾ من مكة لما هموا بقتله، وسعوا في ذلك، وحرضوا أشد الحرص، فأجؤوه إلى أن يخرج.

﴿ثاني اثنين﴾ أي: هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه ﴿إذ هما في الغار﴾ أي: لما هربا من مكة، لجأ إلى غار ثور^(٢) في أسفل مكة، فمكثا فيه ليبرد عنهما الطلب.

فهما في تلك الحالة الحرجة الشديدة المشقة، حين انتشر الأعداء من كل جانب يطلبونهما ليقتلوهما، فأنزل الله عليهما من نصره ما لا ينظر على البال. ﴿إذ يقول النبي ﷺ﴾ لصاحبه، أبي بكر لما حزن واشتد قلقه،

(١) في ب، ودواعي.

(٢) في أ: (إلى غار حراء)، وفي ب: عدلت إلى: (غار ثور) وهو الضحيج فيبدو - والله أعلم - أنه سبق قلم.

التناول ﴿و﴾ كان السفر ﴿سفر﴾ قاصداً ﴿أي﴾ قريباً سهلاً ﴿لاتبعوك﴾ لعدم المشقة الكثيرة، ﴿ولكن بعدت عليهم الشقة﴾ أي: طالت عليهم المسافة، وصعب عليهم السفر، فلذلك تشاقلوا عنك، وليس هذا من أمارات العبودية، بل العبد حقيقة هو المتعبد لربه في كل حال، القائم بالعبادة السهلة والشاقة، فهذا العبد لله على كل حال.

﴿وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم﴾ أي: سيحلفون أن تخلفهم عن الخروج، أن لهم أعذاراً، وأنهم لا يستطيعون ذلك.

﴿يهلكون أنفسهم﴾ بالقعود والكذب والإخبار بغير الواقع، ﴿والله يعلم إنهم لكاذبون﴾.

وهذا العتاب إنما هو للمنافقين، الذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، وأبدوا من الأعذار الكاذبة ما أبدوا، فعفا النبي ﷺ عنهم بمجرد اعتذارهم، من غير أن يمتحنهم، فيتبين له الصادق من الكاذب، ولهذا عاتبه الله على هذه المسارعة إلى عذرهم فقال:

﴿٤٣-٤٥﴾ عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين * لا يستذكرك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين * إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون * يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿عفا الله عنك﴾ أي: سامحك وغفر لك ما أجريت.

﴿لم أذنت لهم﴾ في التخلف ﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾ بأن تمتحنهم، ليتبين لك الصادق من الكاذب، فتعذر من يستحق العذر من لا يستحق ذلك.

ثم أخبر أن المؤمنين بالله واليوم الآخر، لا يستأذنون في ترك الجهاد بأموالهم وأنفسهم، لأن ما معهم من الرغبة في الخير والإيمان، يحملهم على الجهاد من غير أن يبحثهم عليه حاث،

الجليلة، والصحية الجميلة، وقد أجمع المسلمون على أنه هو المراد بهذه الآية الكريمة، ولهذا عدوا من أنكر صحة أبي بكر للنبي ﷺ كافراً، لأنه منكر للقرآن الذي صرح بها.

وفيها فضيلة السكينة، وأنها من تمام نعمة الله على العبد في أوقات الشدائد والمخاوف التي تطيش بها الأفئدة، وأنها تكون على حسب معرفة العبد بربه، وثقته بوعده الصادق، وبحسب إيمانه وشجاعته.

وفيها: أن الحزن قد يعرض لخواص عباد الله الصديقين، مع أن الأولى - إذا نزل بالعبد - أن يسعى في ذهابه عنه، فإنه مضعف للقلب، موهن للعزيمة.

﴿٤١-٤٢﴾ ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون﴾ يقول تعالى لعباده المؤمنين - مهيجاً لهم على النفير في سبيله فقال: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ أي: في العسر واليسر، والنشط والمكره، والحر والبرد، وفي جميع الأحوال.

﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ أي: ابذلوا جهدكم في ذلك، واستفروا وسعكم في المال والنفس، وفي هذا دليل على أنه - كما يجب الجهاد في النفس - يجب الجهاد في المال، حيث اقتضت الحاجة ودعت لذلك.

ثم قال: ﴿ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي: الجهاد في النفس والمال، خير لكم من التقاعد عن ذلك، لأن فيه رضا الله تعالى، والفوز بالدرجات العاليات عنده، والنصر لدين الله، والدخول في جملة جنده وحزبه.

لو كان خروجهم لطلب العرض القريب، أي: منفعة دنيوية سهلة

﴿لا تحزن إن الله معنا﴾ بعونه ونصره وتأيدته.

﴿فأنزل الله سكينة عليه﴾ أي: الثبات والطمأنينة والسكون المثبتة للفؤاد، ولهذا لما قلق صاحبه سكنه وقال: ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾.

﴿وأيدته بجنود لم ترها﴾ وهي الملائكة الكرام، الذين جعلهم الله حرساً له، ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى﴾ أي: الساقطة المخدولة، فإن الذين كفروا قد كانوا على حرد قادرين، في ظنهم على قتل الرسول ﷺ وأخذة، حقيقين عليه، فعملوا غاية مجهودهم في ذلك، فخذلهم الله ولم يتم لهم مقصودهم، بل ولا أدركوا شيئاً منه.

ونصر الله رسوله بدفعه عنه، وهذا هو النصر المذكور في هذا الموضع، فإن النصر على قسمين: نصر المسلمين إذا طمعوا في عدوهم بأن يتم الله لهم ما طلبوا وقصدوا، ويستولوا على عدوهم ويظهروا عليهم.

والثاني نصر المستضعف الذي طمع فيه عدوه القادر، فنصر الله إياه أن يرد عنه عدوه، ويدافع عنه، ولعل هذا النصر أنفع النصرين، ونصر الله رسوله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين من هذا النوع.

وقوله: ﴿وكلمة الله هي العليا﴾ أي: كلماته القدرية وكلماته الدينية، هي العالية على كلمة غيره، التي من جملتها قوله: ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾ فدين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان، بالحجج الواضحة، والآيات الباهرة والسلطان الناصر.

﴿والله عزيز﴾ لا يغالبه مغالب، ولا يفوته هازب، ﴿حكيم﴾ يضع الأشياء مواضعها، ويؤخر نصر حربه إلى وقت آخر اقتضته الحكمة الإلهية.

وفي هذه الآية الكريمة فضيلة أبي بكر الصديق بخصيصه لم تكن لغيره من هذه الأمة، وهي الفوز بهذه المنقبة

فضلاً عن كونهم يستأذنون في تركه من غير عذر.

﴿والله عليم بالمتقين﴾ فيجازيهم على ما قاموا به من تقواه، ومن علمه بالمتقين، أنه أخيراً، أن من علاماتهم أنهم لا يستأذنون في ترك الجهاد.

﴿إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم﴾ أي: ليس لهم إيمان تام، ولا يقين صادق، فلذلك قلت رغبته في الخير، وجئوا عن القتال، واحتاجوا أن يستأذنوا في ترك القتال. ﴿فهم في ربهم يترددون﴾ أي: لا يزالون في الشك والحيرة.

﴿٤٦-٤٨﴾ ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين ﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون﴾ يقول تعالى مبيناً أن المتخلفين من المنافقين قد ظهر منهم من القرائن ما يبين أنهم ما قصدوا الخروج للجهاد بالكلية، وأن أعدائهم التي اعتذروها باطلة، فإن العذر هو المانع الذي يمنع إذا بذل العبد وسعه، وسعى في أسباب الخروج، ثم منعه مانع شرعي، فهذا الذي يعذر.

﴿و﴾ أما هؤلاء المنافقون فـ ﴿لو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة﴾ أي: لاستعدوا وعملوا ما يمكنهم من الأسباب، ولكن لما لم يعدوا له عدة، علم أنهم ما أرادوا الخروج.

﴿ولكن كره الله انبعاثهم﴾ معكم في الخروج للغزو ﴿فثبطهم﴾ قدراً وقضاء، وإن كان قد أمرهم وحثهم على الخروج، وجعلهم مقتدرين عليه، ولكن بحكمته ما أراد إعانتهم، بل خذلهم وثبطهم ﴿وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾ من النساء والمعدورين.

ثم ذكر الحكمة في ذلك فقال: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾ أي: نقصاً.

﴿ولأوضعوا خلالكم﴾ أي: لوسعوا في الفتنة والشر بينكم، وفرقوا جماعتكم المجتمعين، ﴿يبغونكم الفتنة﴾ أي: هم حريصون على فتنتكم وإلقاء العداوة بينكم.

﴿وفيكم﴾ أناس ضعفاء العقول ﴿سماعون لهم﴾ أي: مستجيبون لدعوتهم يغتروا بهم، فإذا كانوا هم حريصين على خذلانكم، وإلقاء الشر بينكم، وتشيطتكم عن أعنائكم، وفيكم من يقبل منهم ويستصحهم. فما ظنك بالشر الحاصل من خروجهم مع المؤمنين، والنقص الكثير منهم، فله أتم الحكمة حيث ثبطهم ومنعهم من الخروج مع عباده المؤمنين رحمة بهم، ولطفاً من أن يداخلهم ما لا ينفعهم بل يضرهم.

﴿والله عليم بالظالمين﴾ فيعلم عباده كيف يحذرونهم، ويبين لهم من المفساد الناشئة من مخالطتهم. ثم ذكر أنه قد سبق لهم سوابق في الشر فقال:

﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل﴾ أي: حين هاجرتكم إلى المدينة، بذلوا الجهد، ﴿واقبلوا لك الأمور﴾ أي: أداروا الأفكار، وأعملوا الخيل في إبطال دعوتكم وخذلان دينكم، ولم يقتصروا في ذلك، ﴿حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون﴾ فبطل كيدهم واضمحل باطلهم، فحقيق بمثل هؤلاء أن يحذر الله عباده المؤمنين منهم، وأن لا يبالي المؤمنون بتخلفهم عنهم.

﴿٤٩﴾ ﴿ومنهم من يقول أئذني لا يفتنني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين من يستأذن في التخلف، ويعتذر بعذر آخر عجيب، فيقول: ﴿أئذني لا يفتنني﴾ أي: في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين، فإني إذا خرجت، فرأيت نساء بني الأصفر لا أصبر عنهن، كما قال ذلك «الجد بن قيس».

ومقصوده «قبحه الله» الرياء والتناقض بأن مقصودي مقصود حسن، فإن في خروجي فتنة وتعرضاً للشر، وفي عدم خروجي عافية وكفاً عن

الشر.

قال الله تعالى مبيناً كذب هذا القول: ﴿ألا في الفتنة سقطوا﴾ فإنه على تقدير صدق هذا القائل في قصده، [فإن] في التخلف مفسدة كبرى وفتنة عظيمة محققة، وهي معصية الله ومعصية رسوله، والتجريء على الإثم الكبير، والوزر العظيم، وأما الخروج فمفسدة قليلة بالنسبة للتخلف، وهي متوهمة، مع أن هذا القائل قصده التخلف لا غير، ولهذا توعدهم الله بقوله: ﴿إن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ ليس لهم عنها مفر ولا مناص، ولا فكاك ولا خلاص.

﴿٥٠-٥١﴾ ﴿إن تصيبك حسنة فسرهم وإن تصيبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمراً من قبل ويتولوا وهم فرحون﴾ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿يقول تعالى مبيناً أن المنافقين هم الأعداء حقاً، المغضون للدين صرفاً: ﴿إن تصيبك حسنة﴾ كنصر وإدالة على العدو ﴿تسرهم﴾ أي: تحزنهم وتغمهم.

﴿وإن تصيبك مصيبة﴾ كإدالة العدو عليك ﴿يقولوا﴾ متبجحين بسلامتهم من الحضور معك. ﴿قد أخذنا أمراً من قبل﴾ أي: قد حذرنا وعملنا بما يتجنى من الوقوع في مثل هذه المصيبة.

﴿ويتولوا وهم فرحون﴾ فيفرحون بمصيبتك، وبعدد مشاركتهم إياك فيها. قال تعالى راداً عليهم في ذلك ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ أي: قدره وأجراه في اللوح المحفوظ.

﴿هو مولانا﴾ أي: متولي أمورنا الدينية والدنيوية، فعلينا الرضا بأقداره وليس في أيدينا من الأمر شيء.

﴿وعلى الله﴾ وحده ﴿فليتوكل المؤمنون﴾ أي: يعتمدوا عليه في جلب مصالحهم ودفع المضار عنهم، ويتقوا به في تحصيل مطلوبهم، فلا خاب من توكل عليه، وأما من توكل على غيره، فإنه مخذول غير مدرك لما أمل.

﴿٥٢﴾ ﴿قل هل تربصون بنا إلا

إحدى الحسنين ونحن نتريص بكم أن يصيبكم الله بعداذب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون ﴿٥٧﴾ أي: قل للمنافقين الذين يتربصون بكم الدوائر: أي: شيء تربصون بنا؟ فإنكم لا تربصون بنا إلا أمراً فيه غاية نفعنا، وهو إحدى الحسنين، إما الظفر بالأعداء والنصر عليهم ونيل الثواب الآخروي والديني. وإما الشهادة التي هي من أعلى درجات الخلق، وأرفع المنازل عند الله.

وأما تربصنا بكم - يا معشر المنافقين - فنحن نتريص بكم أن يصيبكم الله بعداذب من عنده، لا سبب لنا فيه، أو بأيدينا بأن يسלטنا عليكم فنقتلكم. ﴿٥٨﴾ فتربصوا بنا الخير إنا معكم متربصون بكم الشر.

﴿٥٣ - ٥٤﴾ قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين ﴿٥٥﴾ وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا يتفقون إلا وهم كارهون ﴿٥٦﴾ يقول تعالى مبيناً بطلان نفقات المنافقين، وذاكر السبب في ذلك ﴿٥٧﴾ قل لهم ﴿٥٨﴾ أنفقوا طوعاً من أنفسكم ﴿٥٩﴾ أو كرهاً على ذلك، بغير اختياركم. ﴿٦٠﴾ لن يتقبل منكم شيء من أعمالكم ﴿٦١﴾ إنكم كنتم قوماً فاسقين ﴿٦٢﴾ خارجين عن طاعة الله، ثم بين صفة فسقهم وأعمالهم، فقال: ﴿وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله﴾ والأعمال كلها شرط قبولها الإيمان، فهؤلاء لا إيمان لهم ولا عمل صالح، حتى إن الصلاة التي هي أفضل أعمال البدن، إذا قاموا إليها قاموا كسالى، قال: ﴿ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى﴾ أي: متثاقلون، لا يكادون يفعلونها من ثقلها عليهم.

﴿ولا يتفقون إلا وهم كارهون﴾ من غير انشراح صدر وثبات نفس، ففي هذا غاية الذم لمن فعل مثل فعلهم، وأنه ينبغي للعبد أن لا يأتي الصلاة إلا وهو نشيط البدن والقلب إليها، ولا يتفق إلا وهو منشرح الصدر ثابت

القلب، يرجو ذخرها وثوابها من الله وحده، ولا يتشبه بالمنافقين.

﴿٥٥ - ٥٧﴾ ﴿٥٧﴾ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهد أنفسهم وهم كافرون ﴿٥٨﴾ ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون ﴿٥٩﴾ لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلاً لولوا إليه وهم يمحسون ﴿٦٠﴾ يقول تعالى: فلا تعجبك أموال هؤلاء المنافقين ولا أولادهم، فإنه لا غبطة فيها، وأول بركانها عليهم أن قدموها على مرضي ربهم، وعصوا الله لأجلها ﴿٦١﴾ إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا والمراد بالعذاب هنا، ما ينالهم من المشقة في تحصيلها، والسعي الشديد في ذلك، وهم القلب فيها، وتعب البدن.

فلو قابلت لذاتهم فيها بمشقاتهم، لم يكن لها نسبة إليها، فهي - لما ألهمهم عن الله وذكره - صارت وبالأعلى عليهم حتى في الدنيا.

ومن وبالها العظيم الخطر، أن قلوبهم تتعلق بها، وإراداتهم لا تتعدها، فتكون منتهى مطلوبهم وغاية مرغوبهم، ولا يبقى في قلوبهم للأخرة نصيب، فيوجب ذلك أن يتنفقوا من الدنيا ﴿٦٢﴾ وتزهد أنفسهم وهم كافرون ﴿٦٣﴾.

فأي: عقوبة أعظم من هذه العقوبة الموجبة للشقاء الدائم والخسارة الملازمة.

﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم﴾ قصدهم في خلفهم هذا أنهم ﴿قوم يفرقون﴾ أي: يخافون الدوائر، وليس في قلوبهم شجاعة تحملهم على أن يبيتوا أحوالهم. فيخافون إن أظهروا حالهم منكم، ويخافون أن تبرؤوا منهم، فيتخطفهم الأعداء من كل جانب.

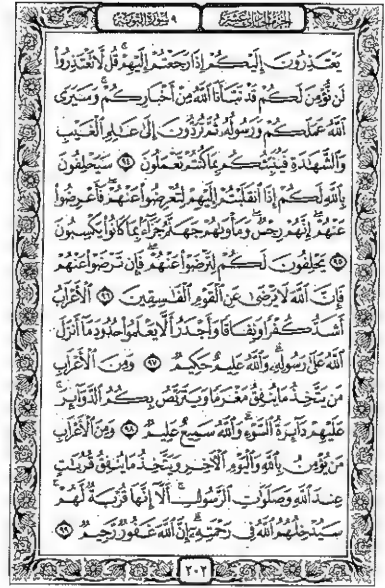
وأما حال قوي القلب ثابت الجنان، فإنه يحمله ذلك على بيان حاله، حسنة كانت أو سيئة، ولكن المنافقين خلغ عليهم خلعة الجبن، وجلوا بحلية الكذب.

﴿٥٨﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿٦١﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿٦٣﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿٧١﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿٨١﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿٨٣﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿٩١﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿٩٥﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿١٠٠﴾

ثم ذكر شدة جبنهم فقال: ﴿لو يجدون ملجأ﴾ يلجؤون إليه عندما تنزل بهم الشدائد، ﴿أو مغارات﴾ يدخلونها فيستقرون فيها ﴿أو مدخلاً﴾ أي: محلاً يدخلونه فيتحصنون فيه ﴿لولوا إليه﴾ وهم يمحسون ﴿أي: يسرعون ويهرعون، فليس لهم ملجأ يقتدرون بها على الثبات.

﴿٥٨ - ٥٩﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿٦١﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿٦٣﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿٧١﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿٨١﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿٨٣﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿٩١﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿٩٥﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿١٠٠﴾

وقال هنا: ﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله﴾ أي: أعطاهم من قليل وكثير. ﴿وقالوا حسبنا الله﴾



أي: كافينا الله، فرضى بما قسمه لنا، وليؤملوا فضله وإحسانه إليهم بأن يقولوا: ﴿سيؤتيها الله من فضله ورسوله إنما إلى الله راغبون﴾ أي: متضرعون في جلب منافعنا ودفع مضارنا، سلموا من التناق ولهدوا إلى الإيمان والأحوال العالية، ثم بين تعالى كيفية قسمة الصدقات الواجبة فقال:

﴿٦٠﴾ ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾ يقول تعالى: ﴿إنما الصدقات﴾ أي: الزكوات الواجبة، بدليل أن الصدقة المستحبة لكل أحد، لا يخص بها أحد دون أحد.

أي: إنما الصدقات لهؤلاء المذكورين دون من عداهم، لأنه حصرها فيهم، وهم ثمانية أصناف.

الأول والثاني: الفقراء والمساكين، وهم في هذا الموضع صنفان متفاوتان، فالفقير أشد حاجة من المسكين، لأن الله بدأ بهم، ولا يبدأ إلا بالآهم فالآهم، ففسر الفقير بأنه الذي لا يجد شيئاً، أو يجد بعض كفايته دون نصفها.

والمسكين: الذي يجد نصفها فأكثر،

ولا يجد تمام كفايته، لأنه لو وجدها لكان غنياً، فيعطون من الزكاة ما يزول به فقرهم ومسكنتهم.

والثالث: العاملون على الزكاة، وهم كل من له عمل وشغل فيها، من حافظ لها، أو جاب لها من أهلها، أو زاع، أو حامل لها، أو كاتب، أو نحو ذلك، فيعطون لأجل عملتهم، وهي أجرة لأعمالهم فيها.

والرابع: المؤلفة قلوبهم، المؤلف قلبه: هو السيد المطاع في قومه، ممن يرجى إسلامه، أو يخشى شره أو يرجى بعطيته قوة إيمانه، أو إسلام نظيره، أو جبايته ممن لا يعطيها، فيعطى ما يحصل به التآلف والمصلحة.

الخامس: الرقاب، وهم المكاتبون الذين قد اشتروا أنفسهم من ساداتهم، فهم يسعون في تحصيل ما يفك رقابهم، فيعانون على ذلك من الزكاة، وفك الرقبة المسلمة التي في حبس الكفار داخل في هذا، بل أولى، ويدخل في هذا أنه يجوز أن يعتق منها الرقاب استقلالاً، لدخوله في قوله: ﴿وفي الرقاب﴾.

السادس: الغارمون، وهم قسمان:

أحدهما: الغارمون لإصلاح ذات البين، وهو أن يكون بين طائفتين من الناس شر وفتنة، فيتوسط الرجل للإصلاح بينهم بما لا يذله لأحدهم أو لهما، فاجعل له نصيب من الزكاة، ليكون أنشط له وأقوى لعزمه، فيعطى ولو كان غنياً.

والثاني: من غرم لنفسه ثم أعسر، فإنه يعطى ما يؤتي به دينه.

والسابع: الغازي في سبيل الله، وهم الغزاة المتطوعة، الذين لا ديوان لهم، فيعطون من الزكاة ما يعينهم على غزوهم، من ثمن سلاح أو دابة، أو نفقة له ولعِياله، ليتوفر على الجهاد ويطمئن قلبه.

وقال كثير من الفقهاء: إن تغرغ

القادر على الكسب لطلب العلم، أعطي من الزكاة، لأن العلم داخل في الجهاد في سبيل الله.

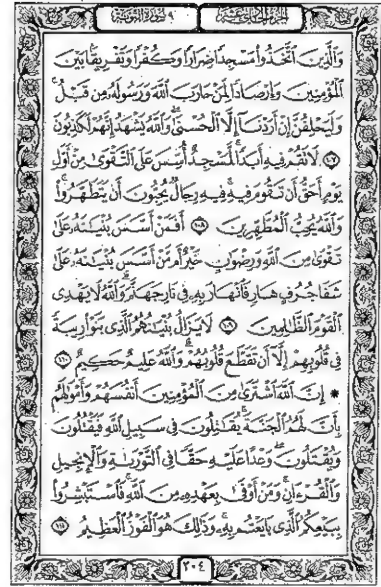
وقالوا أيضاً: يجوز أن يعطى منها الفقير لحج فرضه، [وفيه نظر].

والثامن: ابن السبيل، وهو الغريب المنقطع به في غير بلده، فيعطى من الزكاة ما يوصله إلى بلده، فهؤلاء الأصناف الثمانية الذين تدفع إليهم الزكاة وحدهم.

﴿فريضة من الله﴾ فرضها وقدرها، تابعة لعلمه وحكمه ﴿والله عليم حكيم﴾ واعلم أن هذه الأصناف الثمانية، ترجع إلى أمرين: أحدهما: من يعطى حاجته ونفعه، كالفقير والمسكين ونحوهما.

والثاني: من يعطى للحاجة إليه وانتفاع الإسلام به، فأوجب الله هذه الحصة في أموال الأغنياء، لسد الحاجات الخاصة والعامة للإسلام والمسلمين، فلو أعطى الأغنياء زكاة أموالهم على الوجه الشرعي، لم يبق فقير من المسلمين، ولحصل من الأموال ما يسد الشغور، ويجاهد به الكفار ويحصل به جميع المصالح الدينية.

﴿٦١ - ٦٣﴾ ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب ألیم﴾ * يخلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين * ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فإن له نار جهنم خالداً فيها ذلك الخزي العظيم﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين ﴿الذين يؤذون النبي﴾ بالأقوال الزدية، والعيب له ولدينه، ﴿ويقولون هو أذن﴾ أي: لا يبالون بما يقولون من الأذية للنبي، ويقولون: إذا بلغه عنا بعض ذلك، جئنا نعتذر إليه، فيقبل منا، لأنه أذن، أي: يقبل كل ما يقال له، لا يميز بين صادق وكاذب،



دينه ورسله، والاستهزاء بشيء من ذلك مناف لهذا الأصل، ومناقض له أشد المناقضة.

ولهذا لما جاؤوا إلى الرسول يعترضون بهذه المقالة، والرسول لا يزيدهم على قوله: «أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون» لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم.

وقوله: «إن نعف عن طائفة منكم لتوبتهم واستغفارهم وندمهم، تعذب طائفة منكم بأنهم بسبب أنهم كانوا مجرمين مقيمين على كفرهم ونفاقهم.

وفي هذه الآيات دليل على أن من أسر سريرة، خصوصاً السريرة التي يكر فيها بدينه، ويستهزئ به وبآياته ورسوله، أن الله تعالى يظهرها ويفضح صاحبها، ويعاقبه أشد العقوبة.

وأن من استهزأ بشيء من كتاب الله أو سنة رسوله الثابتة عنه، أو سخر بذلك، أو تنقصه، أو استهزأ بالرسول أو تنقصه، أنه كافر بالله العظيم، وأن التوبة مقبولة في كل ذنب وإن كان عظيماً.

٦٧-٦٨ «المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون» وعد الله المنافقين

والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم» يقول تعالى: «المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض» لأنهم اشتركوا في النفاق، فاشتركوا في تولي بعضهم بعضاً، وفي هذا قطع للمؤمنين من ولايتهم.

ثم ذكر وصف المنافقين العام، الذي لا يخرج منه صغير منهم ولا كبير، فقال: «يأمرون بالمنكر» وهو الكفر والفسوق والعصيان.

«وينهون عن المعروف» وهو الإيمان، والأخلاق الفاضلة، والأعمال الصالحة، والآداب الحسنة. «ويقبضون أيديهم» عن الصدقة وطرق الإحسان، فوضفهم البخل.

«نسوا الله» فلا يذكرونه إلا قليلاً، «فنسيهم» من رحمة، فلا يوفقهم خير، ولا يدخلهم الجنة، بل يتركهم في الدرك الأسفل من النار، خالدين فيها مخلدين.

«إن المنافقين هم الفاسقون» حصر الفسق فيهم، لأن فسقهم أعظم من فسق غيرهم، بدليل أن عذابهم أشد من عذاب غيرهم، وأن المؤمنين قد ابتلوا بهم، إذ كانوا بين أظهرهم، والاحتراز منهم شديد.

«وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم» جمع المنافقين والكفار في النار، واللعنة والخلود في ذلك، لاجتماعهم في الدنيا على الكفر، والمعاداة لله ورسوله والكفر بآياته.

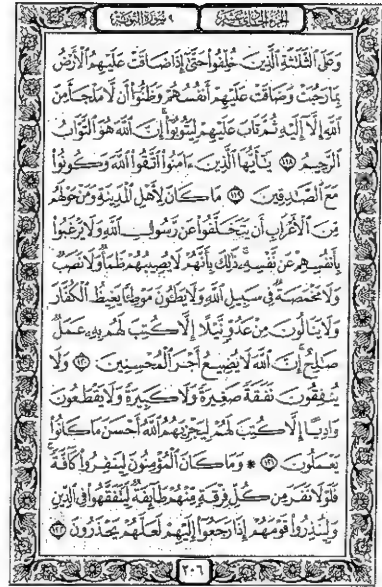
٦٩-٧٠ «كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقتهم فاستمتعتم بخلاقتهم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقتهم وخضتم كالذي خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون» ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين

والمؤثفات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» يقول تعالى عذراً للمنافقين أن يصيبهم ما أصاب من قبلهم من الأسم المذبذبة. «قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤثفات» أي: قري قوم لوط.

فكلهم «أتتهم رسلهم بالبينات» أي: بالحق الواضح الجلي، المبين لحقائق الأشياء، فكذبوا بها، فجرى عليهم ما قص الله علينا، فأنتم أعمالكم شبيهة بأعمالهم، استمتعتم بخلاقتكم، أي: بنصيبكم من الدنيا فتناولتموه على وجه اللذة والشهوة معرضين عن المراد منه، واستمتعتم به على معاصي الله ولم تتعد همتكم وإرادتكم ما خولتم من النعم كما فعل الذين من قبلكم، وخضتم كالذي خاضوا، أي: وخضتم بالباطل والزور وجادلتم بالباطل لتدحضوا به الحق، فهذه أعمالهم وعلومهم، استمتعوا بالخلاق وخوض بالباطل، فاستحقوا من العقوبة والإهلاك ما استحق من قبلهم من فعلوا كفعلهم، وأما المؤمنون فهم وإن استمتعوا بنصيبهم وما خولوا من الدنيا، فإنه على وجه الاستعانة به على طاعة الله، وأما علومهم فهني علوم الرسل، وهي الوصول إلى اليقين في جميع المطالب العالية، والمجادلة بالحق لإدحاض الباطل.

قوله: «فما كان الله ليظلمهم» إذ أوقع بهم من عقوبته ما أوقع «ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» حيث تجرؤوا على معاصيه، وعصوا رسلهم، واتبعوا أمر كل جبار عنيد.

٧١-٧٢ «والمؤمنسون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرهم الله إن الله عزيز حكيم» وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم» لما ذكر أن المنافقين



ثم عرض عليهم التوبة فقال: ﴿فإن يتوبوا يك خيراً لهم﴾ لأن التوبة أصل لسعادة الدنيا والآخرة.

﴿وإن يتولوا﴾ عن التوبة والإنابة ﴿يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة﴾ في الدنيا بما ينالهم من الهم والغم والحزن على نصرة الله لدينه، وإعزاز نبيه، وعدم حصولهم على مظلومهم، وفي الآخرة في عذاب السعير.

﴿وما لهم في الأرض من ولي﴾ يتولى أمورهم، ويحصل لهم المطلوب ﴿ولا نصير﴾ يدفع عنهم المكره، وإذا انقطعوا من ولاية الله تعالى، فمُ أصناف الشر والخسران، والشقاء والحرمان.

﴿٧٥ - ٧٨﴾ ﴿ومستهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين﴾ فلما آتاهم من فضله يخلوا به وتولوا وهم معرضون ﴿فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾ ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام

الغيوب ﴿أي: ومن هؤلاء المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه ﴿لئن آتانا من فضله﴾ من الدنيا فيسطها لنا ووسعها لنصدقن ولنكونن من الصالحين﴾ فصل الرحم، ونفري الضيف، ونعين على نوائب الحق، ونفعل الأفعال الحسنة الصالحة.

﴿فلما آتاهم من فضله﴾ لم يفوا بما قالوا، بل ﴿يخلوا به وتولوا﴾ عن الطاعة والانقياد ﴿وهم معرضون﴾ أي: غير ملتفتين إلى الخير.

فلما لم يفوا بما عاهدوا الله عليه، عاقبهم ﴿فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم﴾ مستمراً ﴿إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾.

فليحذر المؤمن من هذا الوصف الشنيع، أن يعاهد ربه، إن حصل مقصوده الفلاني ليفعلن كذا وكذا، ثم لا يفي بذلك، فإنه ربما عاقبه الله بالنفاق كما عاقب هؤلاء.

وقد قال النبي ﷺ في الحديث الثابت في الصحيحين: ﴿آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف﴾.

فهذا المنافق الذي وعده الله وعاهده، لئن أعطاه الله من فضله، ليصدقن وليكونن من الصالحين، حدث فكذب، وعاهد فغدر، ووعد فأخلف.

ولهذا توعد من صدر منهم هذا الصنيع بقوله: ﴿ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب﴾ وسيجازيهم على ما عملوا من الأعمال التي يعلمها الله تعالى، وهذه الآيات نزلت في رجل من المنافقين يقال له: «ثعلبة» جاء إلى النبي ﷺ وسأله أن يدعو الله له، أن يعطيه الله من فضله، وأنه إن أعطاه ليتصدقن، ويصل الرحم، ويعين على

النوائب، فدعا له النبي ﷺ، فكان له غنم، فلم تزل تنامي حتى خرج بها عن المدينة، فكان لا يحضر إلا بعض الصلوات الخمس، ثم أبعد، فكان لا يحضر إلا صلاة الجمعة، ثم كثرت فأبعد بها، فكان لا يحضر جمعة ولا جماعة.

ففقدته النبي ﷺ فأخبر بحاله، فبعث من يأخذ الصدقات من أهلها، فمروا على ثعلبة، فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، فلما لم يعطهم جاؤوا فأخبروا بذلك النبي ﷺ فقال: «يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة» ثلاثاً.

فلما نزلت هذه الآية فيه، وفي أمثاله، ذهب بها بعض أهله فبلغه إياها، فجاء بركاته، فلم يقبلها النبي ﷺ، ثم جاء بها لأبي بكر بعد وفاة النبي ﷺ فلم يقبلها، ثم جاء بها بعد أبي بكر لعمر فلم يقبلها، فيقال: إنه هلك في زمن عثمان^(١).

﴿٧٩ - ٨٠﴾ ﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم﴾ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين وهذا أيضاً من مخازي المنافقين، فكانوا - قبحهم الله - لا يدعون شيئاً من أمور الإسلام والمسلمين يرون لهم مقالاً، إلا قالوا وطعنوا بغياً وعدواناً، فلما حث الله ورسوله على الصدقة، بادر المسلمون إلى ذلك، وبذلوا من أموالهم كل على حسب حاله، منهم الكثير، ومنهم القليل، فيلمزون الكثير منهم، بأن قصده بنفقته الرياء والسعة، وقالوا

(١) قصة ثعلبة هذه ذكرها كثير من المفسرين، وقد ضعفها جهابذة أهل الحديث كابن حزم، والبيهقي، والقرطبي، والهيتمي، والعراقي، وابن حجر، والسيوطي والمنائوي وغيرهم - رحمهم الله -، وبينوا أن في إسنادها علي بن يزيد، وهو ضعيف كما أن من رواها: معاذ بن رفاع، والقاسم بن عبد الرحمن وهما ضعيفان، وذكر ابن حزم تضعيفها من جهة متنها أيضاً. ينظر المحلى: (٢٠٨/١)، والإصابة: ترجمة ثعلبة، ومجمع الزوائد (٣٢/٧)، والجامع لأحكام القرآن (٨/٢١٠)، وقبض التقدير (٤/٢٥٧)، وفتح الباري (٣/٨)، ولباب القول للسيوطي (١٢١) وتخريج الإحياء للعراقي (٣/٣٣٨).

من الإيمان، ولما يرجون من فضل الله وإحسانه وبره وأمانته.

﴿وقالوا﴾ أي: المنافقون ﴿لا تنفروا في الحر﴾ أي: قالوا: إن النفير مشقة علينا بسبب الحر، فقدموا راحة قصيرة منقضية على الراحة الأبدية الثابتة.

وحذروا من الحر الذي بقي منه الظلال، ويذهب البكر^(١) والآصال، على الحر الشديد الذي لا يقادر قدره، وهو النار الحامية.

ولهذا قال: ﴿قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون﴾ لما أثروا ما يفنى على ما يبقى، ولما فروا من المشقة الخفيفة المنقضية، إلى المشقة الشديدة الدائمة.

قال الله تعالى: ﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً﴾ أي: فليمتنعوا في هذه الدار المنقضية، ويفرحوا ببلداتها، ويلهوا بلعبها، فسيكون كثيراً في عذاب أليم ﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾ من الكفر والنفاق، وعدم الانقياد لأوامر ربهم.

﴿فإن رجعت الله إلى طائفة منهم﴾ وهم الذين تخلفوا من غير عذر، ولم يحزنوا على تخلفهم ﴿فاستأذنوك للخروج﴾ لغیر هذه الغزوة، إذا رأوا السهولة. ﴿فقل﴾ لهم عقوبة ﴿لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً﴾ فيسغني الله عنكم.

﴿إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين﴾ وهذا كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ فإن المتثاقل المتخلف عن الأمور به عند انتهاز الفرصة لا يوفق له بعد ذلك، ويحال بينه وبينه.

وفيه أيضاً تعزير لهم، فإنه إذا تقرر عند المسلمين أن هؤلاء من الممتنعين من الخروج إلى الجهاد لمعصيتهم، كان

جزاءهم أن سخر الله منهم، ولهم عذاب أليم.

﴿٨٠﴾ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة ﴿على وجه المبالغة، وإلا فلا مفهوم لها.

﴿فلن يغفر الله لهم﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم﴾ ثم ذكر السبب المانع لغفرة الله لهم فقال: ﴿ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله﴾ والكافر لا ينفعه الاستغفار ولا العمل ما دام كافراً.

﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي: الذين صار الفسق لهم وصفاً، بحيث لا يختارون عليه سواء ولا يغيثون به بدلاً، يأتيهم الحق الواضح فيردونه، فيعاقبهم الله تعالى بأن لا يوفقهم له بعد ذلك.

﴿٨١-٨٣﴾ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون * فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزءاً بما كانوا يكسبون * فإن رجعت الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين يقول تعالى مبيناً تبجح المنافقين يتخلفهم وعدم مبالاةهم بذلك، الدال على عدم الإيمان، واختيار الكفر على الإيمان.

﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله﴾ وهذا قدر زائد على مجرد التخلف، فإن هذا تخلف محرم، وزيادة رضا بفعل المعصية، وتبجح به.

﴿وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ وهذا بخلاف المؤمنين الذين إذا تخلفوا - ولو لعذر - حزنوا على تخلفهم وتأسفوا غاية الأسف، ويحبون أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، لما في قلوبهم

للمقل الفقير: إن الله غني عن صدقة هذا، فأنزل الله تعالى: ﴿الذين يلمزون﴾ أي: يعيبون ويطنعون ﴿المطوعين من المؤمنين في الصدقات﴾ فيقولون: مراؤون، قصدهم الفخر والرياء.

﴿و﴾ يلمزون ﴿الذين لا يجدون إلا جهدهم﴾ فيخرجون ما استطاعوا ويقولون: الله غني عن صدقاتهم ﴿فيسخرون منهم﴾.

فقابلهم الله على صنيعهم بأن ﴿سخر الله منهم ولهم عذاب أليم﴾ فإنهم جمعوا في كلامهم هذا بين عدة محاذير.

منها: تتبعهم لأحوال المؤمنين، وحرصهم على أن يجدوا مقالاً يقولونه فيهم، والله يقول: ﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم﴾.

ومنها: طعنهم بالمؤمنين لأجل إيمانهم، كفر بالله تعالى وبغض للدين. ومنها: أن اللمز محرم، بل هو من كبائر الذنوب في أمور الدنيا، وأما اللمز في أمر الطاعة، فأقبح وأقبح.

ومنها: أن من أطاع الله وتطوع بخصلة من خصال الخير، فإن الذي ينبغي [هو] إعانته وتنشيطه على عمله، وهؤلاء قصدوا تشييطهم بما قالوا فيهم وعابوهم عليه.

ومنها: أن حكمهم على من أنفق مالا كثيراً بأنه مراء، غلط فاحش، وحكم على الغيب، ورجم بالظن، وأي: شر أكبر من هذا؟؟!

ومنها: أن قولهم لصاحب الصدقة القليلة: ﴿الله غني عن صدقة هذا﴾، كلام مقصوده باطل، فإن الله غني عن صدقة المتصدق بالقليل والكثير، بل وغني عن أهل السماوات والأرض، ولكنه تعالى أمر العباد بما هم مفتقرون إليه، فالله - وإن كان غنياً عنهم - فهم فقراء إليه ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾ وفي هذا القول من التشبيط عن الخير ما هو ظاهر بين، ولهذا كان

(١) في ب، عدلت الكلمة إلى البكور.

ذلك توبيخاً لهم، وعاراً عليهم ونكالاً أن يفعل أحد كفعلهم.

﴿٨٤﴾ «ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون» يقول تعالى: «ولا تصل على أحد منهم مات أبداً» من المنافقين «ولا تقم على قبره» بعد الدفن لتدعوه له، فإن صلاته ووقوفه على قبورهم شفاعته منه لهم، وهم لا تنفع فيهم الشفاعة.

﴿إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون» ومن كان كافراً ومات على ذلك، فما تنفعه شفاعته الشافعين، وفي ذلك عبرة لغيرهم، وزجر ونكال لهم، وهكذا كل من علم منه الكفر والنفاق، فإنه لا يصلى عليه.

وفي هذه الآية دليل على مشروعية الصلاة على المؤمنين، والوقوف عند قبورهم للدعاء لهم، كما كان النبي ﷺ يفعل ذلك في المؤمنين، فإن تقييد النهي بالمنافقين يدل على أنه قد كان متقدراً في المؤمنين.

﴿٨٥﴾ «ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون» أي: لا تغتر بما أعطاهم الله في الدنيا من الأموال والأولاد، فليس ذلك لكرامتهم عليه، وإنما ذلك إهانة منه لهم. «إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا».

فيتعجبون في تحصيلها، ويخافون من زوالها، ولا يتهمون بها.

بل لا يزالون يعانون الشدائد والمشايق فيها، وتلهيهم عن الله والدار الآخرة، حتى ينتقلوا من الدنيا «وتزهق أنفسهم وهم كافرون» قد سلبهم حبها عن كل شيء، فماتوا وقلوبهم بها متعلقة، وأفندتهم عليها متحرقة.

﴿٨٦-٨٧﴾ «وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدین» رضوا بأن يكونوا مع

الحوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون» يقول تعالى: في بيان استمرار المنافقين على التناقل عن الطاعات، وأنها لا تؤثر فيهم السور والآيات: «وإذا أنزلت سورة» يؤمرون فيها بالإيمان بالله والجهاد في سبيل الله. «استأذنك أولوا الطول منهم» يعني: أولي الغنى والأموال، الذين لا عذر لهم، وقد أمدهم الله بأموال وبنيين، أفلا يشكرون الله ويمجدونه، ويقومون بما أوجبه عليهم، وسهل عليهم أمره، ولكن أبوا إلا التكاسل والاستئذان في القعود «وقالوا ذرنا نكن مع القاعدین».

﴿٨٧﴾ قال تعالى: «رضوا بأن يكونوا مع الحوالف» أي: كيف رضوا لأنفسهم أن يكونوا مع النساء المتخلفات عن الجهاد، هل معهم فقه أو عقل دلهم على ذلك؟ أم طبع الله على قلوبهم فلا تعي الخير، ولا يكون فيها إرادة لفعل ما فيه الخير والفلاح؟ فهم لا يفقهون مصالحهم، فلو فقهوا حقيقة الفقه، لم يرضوا لأنفسهم بهذه الحال التي تحطهم عن منازل الرجال.

﴿٨٨-٨٩﴾ «لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون» أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم» يقول تعالى: إذا تخلف هؤلاء المنافقون عن الجهاد، فالله سيغني عنهم، والله عباد وخواص من خلقه اختصهم بفضله يقومون بهذا الأمر، وهم «الرسول» محمد ﷺ «والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم» غير متناقلين ولا كسلين، بل هم فرحون مستبشرون، «وأولئك لهم الخيرات» الكثيرة في الدنيا والآخرة، «وأولئك هم المفلحون» الذين ظفروا بأعلى المطالب وأكمل الرغائب.

﴿٨٦﴾ أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم» فتباً لمن لم يرغب بما رغبوا فيه، وخسر دينه ودنياه وآخره، وهذا

نظير قوله تعالى: «قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً».

وقوله: «فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين».

﴿٩٠-٩٣﴾ «وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب اليم» ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا الله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم» ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون» إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الحوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون» يقول تعالى: «وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم» أي: جاء الذين تناؤنوا، وقصروا منهم في الخروج لأجل أن يؤذن لهم في ترك الجهاد، غير مباينين في الاعتذار لجفائهم وعدم حيائهم، وإتيانهم بسبب ما معهم من الإيمان الضعيف.

وأما الذين كذبوا الله ورسوله منهم، فقعدها وتركوا الاعتذار بالكلية، ويحتمل أن معنى قوله: «المعذرون» أي: الذين لهم عذر، أتوا إلى رسول الله ﷺ ليعذرهم، ومن عادته أن يعذر من له عذر.

﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾ في دعواهم الإيمان، المقتضي للخروج، وعدم عملهم بذلك، ثم توعدهم بقوله: «سيصيب الذين كفروا منهم عذاب اليم» في الدنيا والآخرة.

لما ذكر المعتذرين، وكانوا على قسمين، قسم معذور في الشرع، وقسم غير معذور، ذكر ذلك بقوله:

«ليس على الضعفاء» في أديانهم وأبصارهم، الذين لا قوة لهم على الخروج والقتال. «ولا على المرضى»

﴿ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، ﴿فبينكم بما كنتم تعملون﴾ من خير وشر، ويجازيكم بعدله أو بفضله، من غير أن يظلمكم مثقال ذرة.

واعلم أن المسيء المذنب له ثلاث حالات: إما [أن] يقبل قوله وعذره، ظاهراً وباطناً، ويعفى عنه بحيث يبقى كأنه لم يذنب. فهذه الحالة هي المذكورة هنا في حق المنافقين، أن عذرهم غير مقبول، وأنه قد تقررت أحوالهم الخبيثة وأعمالهم السيئة، وإما أن يعاقبوا بالعقوبة والتعزير الفعلي على ذنبهم، وإما أن يعرض عنهم، ولا يقابلوا بما فعلوا بالعقوبة الفعلية، وهذه الحال الثالثة هي التي أمر الله بها في حق المنافقين، ولهذا قال: ﴿سحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم﴾ أي: لا توبخوهم، ولا تجلدوهم أو تقتلوهم.

﴿إنهم رجس﴾ أي: إنهم قذر خبثاء، ليسوا بأهل لأن يبالي بهم، وليس التوبيخ والعقوبة مفيداً فيهم، ﴿و﴾ تكفيهم عقوبة جهنم جزاء بما كانوا يكسبون.

وقوله ﴿يحلِفون لكم لترضوا عنهم﴾ أي: ولهم أيضاً هذا المقصد الآخر منكم، غير مجرد الإعراض، بل يحبون أن ترضوا عنهم، كأنهم ما فعلوا شيئاً.

﴿فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ أي: فلا ينبغي لكم - أيها المؤمنون - أن ترضوا عن من لم يرض الله عنه، بل عليكم أن توافقوا ربه في رضاه وغيظه.

وتأمل كيف قال: ﴿فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ ولم يقل: ﴿فإن الله لا يرضى عنهم﴾ ليدل ذلك على أن باب التوبة مفتوح، وأنهم مهما تابوا هم أو غيرهم، فإن الله

وهو أن من نوى الخير، واقترب بنية الجازمة سعي فيما يقدر عليه، ثم لم يقدر، فإنه ينزل منزلة الفاعل التام.

﴿إنما السبيل﴾ يتوجه واللوم يتناول الذين (٣) يستأذنوك وهم أغنياء قادرون على الخروج لا عذر لهم، فهؤلاء ﴿رضوا﴾ لأنفسهم ومن دينهم ﴿بأن يكونوا مع الخولاف﴾ كالنساء والأطفال ونحوهم.

﴿و﴾ إنما رضوا بهذه الحال لأن الله طبع على قلوبهم أي: ختم عليها، فلا يدخلها خير، ولا يحسون بمصالحهم الدينية والدنيوية، ﴿فهم لا يعلمون﴾ عقوبة لهم على ما اقترفوا.

﴿٩٤ - ٩٦﴾ ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعت إليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فبينكم بما كنتم تعملون﴾ سحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس وما واهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون ﴿يحلِفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ لما ذكر تخلف المنافقين الأغنياء، وأنهم لا عذر لهم، أخبر أنهم س ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعت إليهم﴾ من غراتكم.

﴿قل﴾ لهم ﴿لا تعتذروا لن نؤمن لكم﴾ أي: لن نصدقكم في اعتذاركم الكاذب.

﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾ وهو الصادق في قوله، فلم يبق للاعتذار فائدة، لأنهم يعتذرون بخلاف ما أخبر الله عنهم، ومحال أن يكونوا صادقين فيما يخالف خبر الله الذي هو أعلى مراتب الصدق.

﴿وسيرى الله عملكم ورسوله﴾ في الدنيا، لأن العمل هو ميزان الصدق من الكذب، وأما مجرد الأقوال، فلا دلالة فيها على شيء من ذلك.

وهذا شامل لجميع أنواع المرض الذي (١) لا يقدر صاحبه معه على الخروج والجهاد، من عرج، وعمى، وحى، وذات الجنب، والفالج، وغير ذلك.

﴿ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون﴾ أي: لا يجدون زاداً، ولا راحلة يتبلغون بها في سفرهم، فهؤلاء ليس عليهم حرج، بشرط أن ينصحوا الله ورسوله، بأن يكونوا صادقي الإيمان، وأن يكون من نيتهم وعزمهم أنهم لو قدروا لجاهدوا، وأن يفعلوا ما يقدرون عليه من الحث والترغيب والتشجيع على الجهاد.

﴿ما على المحسنين من سبيل﴾ أي: من سبيل يكون عليهم فيه تبعة، فإنهم - بإحسانهم فيما عليهم من حقوق الله وحقوق العباد - أسقطوا توجه اللوم عليهم، وإذا أحسن العبد فيما يقدر عليه، سقط عنه ما لا يقدر عليه.

ويستدل بهذه الآية على قاعدة وهي: أن من أحسن على غيره، في نفسه (٢) أو في ماله، ونحو ذلك، ثم ترتب على إحسانه نقص أو تلف، أنه غير ضامن لأنه محسن، ولا سبيل على المحسنين، كما أنه يدل على أن غير المحسن - وهو المسيء - كالمرتد، أن عليه الضمان.

﴿والله غفور رحيم﴾ من مغفرته ورحمته، عفا عن العاجزين، وأنابهم بنبيتهم الجازمة ثواب القادرين الفاعلين.

﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم﴾ فلم يصادفوا عندك شيئاً ﴿قل﴾ لهم معتذراً: ﴿لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون﴾ فإنهم عاجزون باذلون لأنفسهم، وقد صدر منهم من الحزن والمشفقة ما ذكره الله عنهم.

فهؤلاء لا حرج عليهم، وإذا سقط الحرج عنهم، عاد الأمر إلى أصله،

(١) في النسختين: التي.

(٢) زيادة من هامش ب.

(٣) في ب واللوم يتأكد على الذين.

يتوب عليهم ويرضى عنهم.

وأما ما داموا فاسقين، فإن الله لا يرضى عليهم، لوجود المانع من رضاه، وهو خروجهم عن رضا الله لهم من الإيمان والطاعة، إلى ما يغضبه من الشرك والنفاق والمعاصي.

وحاصل ما ذكره الله أن المنافقين المتخلفين عن الجهاد من غير عذر، إذا اعتذروا للمؤمنين، وزعموا أن لهم أعذاراً في تخلفهم، فإن المنافقين يريدون بذلك أن تعرضوا عنهم، وترضوا وتقبلوا عذرهم، فأما قبول العذر منهم والرضا عنهم، فلا حباً ولا كرامة لهم.

وأما الإعراض عنهم، فيعرض المؤمنون عنهم، إعراضهم عن الأمور الردية الرجس، وفي هذه الآيات، إثبات الكلام لله تعالى في قوله: ﴿قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ وإثبات الأفعال الاختيارية لله، الواقعة بمشيئته [تعالى] وقدرته في هذا، وفي قوله: ﴿وَسِيرَى اللَّهِ عَمَلِكُمْ وَرَسُولِهِ﴾ أخبر أنه سيراه بعد وقوعه، وفيها إثبات الرضا لله عن المحسنين، والغضب والسخط على الفاسقين.

﴿٩٧-٩٩﴾ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليهم حكيم * ومن الأعراب من يتخذ ما يتفق مغراً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم * ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما يفتق قريبات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم * يقول تعالى: ﴿الأعراب﴾ وهم سكان البادية والبراري أشد كفراً ونفاقاً من الحاضرة الذين فيهم كفر ونفاق، وذلك لأسباب كثيرة:

منها: أنهم بعيدون عن معرفة الشرائع الدينية والأعمال والأحكام، فهم أحرى وأجدر ألا يعلموا حدود

ما أنزل الله على رسوله من أصول الإيمان وأحكام الأوامر والنواهي، بخلاف الحاضرة، فإنهم أقرب لأن يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، فيحدث لهم - بسبب هذا العلم - تصورات حسنة، وإرادات للخير، الذي يعلمون، ما لا يكون في البادية.

وفيه من لطافة الطبع والانقياد للداعي ما ليس في البادية، ويخالسون أهل الإيمان، ويخالطونهم أكثر من أهل البادية، فلذلك كانوا أحرى للخير من أهل البادية، وإن كان في البادية والحاضرة، كفار ومنافقون، ففي البادية أشد وأغلظ مما في الحاضرة. ومن ذلك أن الأعراب أحرص على الأموال وأشح فيها.

﴿٩٨﴾ فمنهم من يتخذ ما يفتق من الزكاة والنفقة في سبيل الله وغير ذلك، ﴿مغرمًا﴾ أي: يراها خسارة وتقصاً، لا يحتسب فيها، ولا يريد بها وجه الله، ولا يكاد يؤديها إلا كرهاً.

﴿ويتربص بكم الدوائر﴾ أي: من عداوتهم للمؤمنين ويغضهم لهم، أنهم يودون وينتظرون فيهم دوائر الدهر، وفجائع الزمان، وهذا سيتعكش عليهم، فعليهم دائرة السوء. وأما المؤمنون فلهم الدائرة الحسنة على أعدائهم، ولهم العقبي الحسنة، ﴿والله سميع عليم﴾ يعلم نيات العباد، وما صدرت عنه الأعمال من إخلاص وغيره.

وليس الأعراب كلهم مذمومين، بل منهم ﴿من يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ فيسلم بذلك من الكفر والنفاق ويعمل بمقتضى الإيمان.

﴿ويتخذ ما يفتق قريبات عند الله﴾ أي: يحتسب نفقته، ويتقصد بها وجه الله تعالى والقرب منه ﴿ويجعلها وسيلة لصلوات الرسول﴾ أي: دعائه لهم، وتبريكه عليهم، قال تعالى مبيناً لفتح صلوات الرسول: ﴿ألا إنها قربة لهم﴾ تقربهم إلى الله، وتنمي

أموالهم وتحل فيها البركة: ﴿سيدخلهم الله في رحمته﴾ في جملة عباده الصالحين إنه غفور رحيم، فيغفر السيئات العظيمة لمن تاب إليه، ويعم عباده برحمته، التي وسعت كل شيء، ويخص عباده المؤمنين برحمة يوفقهم فيها إلى الخيرات، ويمحيهم فيها من المخالفات، ويجزل لهم فيها أنواع الثواب.

وفي هذه الآية دليل على أن الأعراب كأهل الحاضرة، منهم المصدوح ومنهم المذموم، فلم يذمهم الله على مجرد تغريمهم وباديتهم، إنما ذمهم على ترك أوامر الله، وأنهم في مظنة ذلك.

ومنها: أن الكفر والنفاق يزيد وينقص ويغلظ ويخف بحسب الأحوال.

ومنها: فضيلة العلم، وأن فاقده أقرب إلى الشر من يعرفه، لأن الله ذم الأعراب، وأخبر أنهم أشد كفراً ونفاقاً، وذكر السبب الموجب لذلك، وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله.

ومنها: أن العلم النافع الذي هو أنفع العلوم، معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، من أصول الدين وفروعه، كمعرفة حدود الإيمان، والإسلام، والإحسان، والتقوى، والفلاح، والطاعة، والبر، والصلة، والإحسان، والكفر، والنفاق، والفسوق، والعصيان، والزنا، والجور، والربا، ونحو ذلك. فإن في معرفتها يتمكن من فعلها - إن كانت مأموراً بها^(١)، أو تركها إن كانت محظورة - ومن الأمر بها أو النهي عنها.

ومنها: أنه ينبغي للمؤمن أن يؤدي ما عليه من الحقوق، منشراح الصدر، مطمئن النفس، ويحرص أن تكون مغنماً، ولا تكون مغرمًا.

﴿١٠٠﴾ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم

(١) في ب: إن كانت مأمورة.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ جَلِيلًا غَفُورًا﴾.

ومن مغفرتة أن المسرفين على أنفسهم الذين قطعوا أعمارهم بالأعمال السيئة، إذا تابوا إليه وأتابوا ولو قبيل موتهم بأقل القليل، فإنه يغفو عنهم، ويتجاوز عن سيئاتهم، فهذه الآية دلت^(١) على أن المخلط المعترف النادم، الذي لم يتب توبة نصوحاً، أنه تحت الخوف والرجاء، وهو إلى السلامة أقرب.

وأما المخلط الذي لم يعترف ويندم على ما مضى منه، بل لا يزال مصراً على الذنوب، فإنه يخاف عليه أشد الخوف.

قال تعالى لرسوله ومن قام مقامه، أمر له بما يظهر المؤمنين، ويتمم إيمانهم: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ وهي الزكاة المفروضة، ﴿تَطْهَرُ مِنْهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ أي: تطهرهم من الذنوب والأخلاق الرذيلة.

﴿وَتُزَكِّيهِمْ﴾ أي: تنمّيهم، وتزيد في أخلاقهم الحسنة، وأعمالهم الصالحة، وتزيد في ثوابهم الدنيوي والأخروي، وتتمم أموالهم.

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ادع لهم، أي: للمؤمنين عموماً، وخصوصاً عندما يدفون إليك زكاة أموالهم.

﴿إِنْ صلاتك سكن لهم﴾ أي: طمأنينة لقلوبهم، واستيثار لهم، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لدعائك، سمع إجابة وقبول.

﴿عليهم﴾ بأحوال العباد ونياتهم، فيجازي كل عامل بعمله، وعلى قدر نيته، فكان النبي ﷺ يمثل لأمر الله، ويأمرهم بالصدقة، وينبئ عماله لجبايتها، فإذا أتاه أحد بصدقة دعا له وبركاً.

ففي هذه الآية دلالة على وجوب الزكاة في جميع الأموال، وهذا إذا كانت للتجارة ظاهرة، فإنها أموال

﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ بأعيانهم فتعاقبهم، أو تعاملهم بمقتضى نفاقهم، لما لله في ذلك من الحكمة الباهرة.

﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سِتْنَةً مَرَّتَيْنِ﴾ يحتمل أن التثنية على بابها، وأن عذابهم عذاب في الدنيا، وعذاب في الآخرة.

ففي الدنيا ما ينالهم من الهم والحزن^(٢)، والكرهية لما يصيب المؤمنين من الفتح والنصر، وفي الآخرة عذاب النار وبش القرار.

ويحتمل أن المراد سينغلظ عليهم العذاب، ونضاعفه عليهم وتكرره.

﴿١٠٢-١٠٣﴾ ﴿وَأَخْبَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخِرُ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾

إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يقول تعالى:

﴿وَأَخْرُوجُهُمْ مِنَ الْمَدِينَةِ وَفِي حَوْلِهَا، بَلْ وَمِنْ سَائِرِ الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ، اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أقرروا بها، وندموا عليها، وسعوا في التوبة منها، والتطهر من أدرانها.

﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخِرُ سَيِّئًا﴾ ولا يكون العمل صالحاً إلا إذا كان مع العبد أصل التوحيد والإيمان، المخرج عن الكفر والشرك، الذي هو شرط لكل عمل صالح، فهو لاء خلطوا الأعمال الصالحة، بالأعمال السيئة، من التجبرؤ على بعض المحرمات، والتقصير في بعض الواجبات، مع الاعتراف بذلك والرجاء بأن يغفر الله لهم، فهو لاء ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ وتوبته على عبده نوعان:

الأول: التوفيق للتوبة. والثاني: قبولها بعد وقوعها منهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: وصفه المغفرة والرحمة، اللتان لا يخلو خلوق منهما، بل لا بقاء للعالم العلوي والسفلي إلا بهما، فليؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة.

بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾ السابقون هم الذين سبقوا هذه الأمة ويدروها إلى الإيمان والهجرة والجهاد، وإقامة دين الله.

﴿مَنْ الْمُهَاجِرِينَ﴾ الذين، أخرجوا من ديارهم وأموالهم، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وينصرون الله ورسوله، أولئك هم الصادقون.

﴿وَمِنَ الْأَنْصَارِ﴾ الذين تبوأوا الدار والإيمان، [من قبلهم] يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ بالاعتقادات والأقوال والأعمال، فهو لاء هم الذين سلموا من الذم، وخصل لهم نهاية المدح، وأفضل الكرامات من الله.

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ ورضاه تعالى أكبر من نعيم الجنة، ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار الجارية التي تساق إلى سقي الجنات، والحدائق الزاهية الزاهرة، والرياض الناضرة.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ لا يبيغون عنها حولا، ولا يطلبون منها بدلاً، لأنهم مهما تمنوه أدر كوه، ومهما أرادوه، وجدوه.

﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي حصل لهم فيه، كل محبوب للنفوس، ولذة للأرواح، ونعيم للقلوب، وشهوة للأبدان، واندفع عنهم كل محذور.

﴿١٠١﴾ ﴿وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ منافقون ومن أهل المدينة تعلمهم نحن نعلمهم ستنذهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾ يقول تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ منافقون ومن أهل المدينة أيضاً منافقون﴾ مردوا على الشقاق أي: تمرنوا عليه، واستمروا وزادوا فيه طغياناً.

تنمى ويكتسب بها، فمن العدل أن يواسى منها الفقراء، بأداء ما أوجب الله فيها من الزكاة.

وما عدا أموال التجارة، فإن كان المال ينمى، كالحبوب، والثمار، والماشية المتخذة للنماء والدر والنسل، فإنها تجب فيها الزكاة، وإلا لم تجب فيها، لأنها إذا كانت للفتنة، لم تكن بمنزلة الأموال التي يتخذها الإنسان في العادة مالا يتمول، ويطلب منه المقاصد المالية، وإنما صرف عن المالية بالفتنة ونحوها.

وفيها: أن العبد لا يمكنه أن يتطهر ويتزكى حتى يخرج زكاة ماله، وأنه لا يكفرها شيء سوى أدائها، لأن الزكاة والتطهير متوقف على إخراجها.

وفيها: استحباب الدعاء من الإمام أو نائبه لمن أدى زكاته بالبركة، وأن ذلك ينبغي أن يكون جهراً، بحيث يسمعه المصدق فيسكن إليه.

ويؤخذ من المعنى، أنه ينبغي إدخال السرور على المؤمن بالكلام اللين، والدعاء له، ونحو ذلك مما يكون فيه طمأنينة، وسكون لقلبه. وأنه ينبغي تشييط من أنفق نفقة وعمل عملاً صالحاً بالدعاء له والثناء، ونحو ذلك.

﴿١٠٤﴾ «ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم» أي: أما علموا سعة رحمة الله وعموم كرمه وأنه يقبل التوبة عن عباده التائبين من أي: ذنب كان، بل يفرح تعالى بتوبة عبده إذا تاب أعظم فرح يقدر.

﴿ويأخذ الصدقات﴾ منهم، أي: يقبلها ويأخذها بيمينه، فيريها لأحداهم كما يربي الرجل فلوله، حتى تكون الثمرة الواحدة كالجبل العظيم، فكيف بما هو أكبر وأكثر من ذلك.

﴿وأن الله هو التواب﴾ أي: كثير التوبة على التائبين، فمن تاب إليه تاب عليه، ولو تكررت منه [المعصية^(١)] مراراً. ولا يحمل الله من التوبة على

عباده، حتى يملوا هم، ويأبوا إلا النفر والشروء عن بابه، وموالاةهم غدوهم.

﴿الرحيم﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، وكتبها للذين يتقون، ويؤتون الزكاة، ويؤمنون بآياته، ويتبعون رسوله.

﴿١٠٥﴾ «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون» يقول تعالى: «وقل» لهؤلاء المنافقين: «اعملوا» ما ترون من الأعمال، واستمروا على باطلكم، فلا تحسبوا أن ذلك سيخفى.

﴿فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ أي: لا بد أن يتبين عملكم ويتضح، «وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون» من خير وشر، ففي هذا التهديد والوعيد الشديد على من استمر على باطله وطغيانه وغيه وعصيانه.

ويحتمل أن المعنى: أنكم مهما عملتم من خير أو شر، فإن الله مطلع عليكم، وسيطلع رسوله وعباده المؤمنين على أعمالكم ولو كانت باطنة.

﴿١٠٦﴾ «وآخرن مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم» أي: «وآخرن» من المخلفين مؤخرون «لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم» ففي هذا التخويف الشديد للمتخلفين، والحث لهم على التوبة والندم.

﴿والله عليم﴾ بأحوال العباد ونياتهم «حكيم» يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، فإن اقتضت حكمته أن يغفر لهم ويتوب عليهم غفر لهم وتاب عليهم، وإن اقتضت حكمته أن يخذلهم ولا يوفقهم للتوبة، فعل ذلك.

﴿١٠٧ - ١١٠﴾ «والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا

الحسنى والله يشهد إثمهم لكاذبون * لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال مجنون أن يتطهروا والله يحب المطهرين * أقمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين * لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم * كان أناس من المنافقين من أهل قباء اتخذوا مسجداً إلى جنب مسجد قباء، يريدون به المضارة والمشاققة بين المؤمنين، ويعمدونه لمن يرجونه من المحاربين لله ورسوله، يكون لهم حصناً عند الاحتياج إليه، فيبن تعالى خزيم، وأظهر سرهم فقال: «والذين اتخذوا مسجداً ضراراً» أي: مضارة للمؤمنين ولمسجدهم الذي يجتمعون فيه «وكفراً» أي: قصدهم فيه الكفر، إذا قصد غيرهم الإيمان.

﴿وتفريقاً بين المؤمنين﴾ أي: ليتشعبوا ويتفرقوا ويختلفوا، «وإرصاداً» أي: إعدداً لمن حارب الله ورسوله من قبل» أي: إعاية للمحاربين لله ورسوله، الذين تقدم حراهم واشتدت عداوتهم، وذلك كأبي عامر الراهب، الذي كان من أهل المدينة، فلما قدم النبي ﷺ وهاجر إلى المدينة، كفر به، وكان متعبداً في الجاهلية، فذهب إلى المشركين يستعين بهم على حرب رسول الله ﷺ.

فلما لم يدرك مطلوبه عندهم ذهب إلى قيصر بزعمة أنه ينصره، فهلك اللعين في الطريق، وكان على وعد وملااة، هو والمنافقون: فكان مما أعدوا له مسجد الضرار، فنزل الوحي بذلك، فبعث إليه النبي ﷺ من يهدمه ويحرقه، فهدم وحرق، وصار بعد ذلك مزيل.

قال تعالى بعدما بين من مقاصدهم

الطاعة تؤثر في الأماكن كما أثرت في مسجد «قباء» حتى قال الله فيه: ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه﴾.

ولهذا كان لمسجد قباء من الفضل ما ليس لغيره، حتى كان ﷺ يزور قباء كل سبت يصلي فيه، وحب على الصلاة فيه. ومنها: أنه يستفاد من هذه التعاليل المذكورة في الآية، أربع قواعد مهمة، وهي:

كل عمل فيه مضارة لمسلم، أو فيه معصية لله، فإن المعاصي من فروع الكفر، أو فيه تفريق بين المؤمنين، أو فيه معاونة لمن عادى الله ورسوله، فإنه محرم ممنوع منه، وعكسه بعكسه. ومنها: أن الأعمال الحسنة الناشئة عن معصية الله لا تزال مبيحة لفاعلها عن الله بمنزلة الإصرار على المعصية حتى يزيلها ويتوب منها توبة تامة بحيث يتقطع قلبه من الندم والحسرات.

ومنها: أنه إذا كان مسجد قباء مسجداً أسس على التقوى، فمسجد النبي ﷺ الذي أسسه بيده المباركة وعمل فيه واختاره الله له من باب أولى وأحرى.

ومنها: أن العمل المبني على الإخلاص والتابعة، هو العمل المؤسس على التقوى، الموصل لعامله إلى جنات النعيم.

والعمل المبني على سوء القصد وعلى البدع والضلال، هو العمل المؤسس على شفا جرف هار، فانهار به في نار جهنم، والله لا يهدي القوم الظالمين.

﴿١١١﴾ «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» يخبر تعالى خبراً صدقاً، ويعد وعداً حقاً بمبايعة

فجمع في عمله بين الإخلاص والتابعة، «خير أم من أسس بنيانه على شفا» أي: على طرف «جرف هار» أي: بال، قد تدعى للانهدام، «فانهار به في نار جهنم» والله لا يهدي القوم الظالمين، لما فيه مصالح دينهم ودنياهم.

﴿١﴾ لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم» أي: شكاً وريباً ماكثاً في قلوبهم، «إلا أن تقطع قلوبهم» بأن يندموا غاية الندم ويتوبوا إلى ربهم، ويخافوه غاية الخوف، فبذلك يعفو الله عنهم، وإلا فبنيانهم لا يزيدهم إلا ريباً إلى ربهم، ونفاقاً إلى نفاقهم. ﴿٢﴾ والله عليهم بجميع الأشياء، ظاهرها وباطنها، خفيها وجليها، وبما أسره العباد، وأعلنه. ﴿٣﴾ حكيم لا يفعل ولا يخلق ولا يأمر ولا ينهى، إلا ما اقتضته الحكمة وأمر به فله الحمد. ﴿٤﴾ وفي هذه الآيات فوائد عدة:

منها: أن اتخاذ المسجد الذي يقصد به الضرر لمسجد آخر بقربه، أنه محرم، وأنه يجب هدم مسجد الضرار، الذي اطلع على مقصود أصحابه.

ومنها: أن العمل وإن كان فاضلاً تغيير النية، فيقلب منهياً عنه، كما قلبت نية أصحاب مسجد الضرار عملهم إلى ما ترى.

ومنها: أن كل حالة يحصل بها التفريق بين المؤمنين، فإنها من المعاصي التي يتعين تركها وإزالتها. كما أن كل حالة يحصل بها جمع المؤمنين واتلافهم، يتعين اتباعها والأمر بها والحث عليها، لأن الله علل اتخاذهم لمسجد الضرار بهذا المقصد الموجب للنهي عنه، كما يوجب ذلك الكفر والمحادرة لله ورسوله.

ومنها: النهي عن الصلاة في أماكن المعصية، والبعد عنها، وعن قربها.

ومنها: أن المعصية تؤثر في البقاع، كما أثرت معصية المنافقين في مسجد الضرار، ونهي عن القيام فيه، وكذلك

الفسادة في ذلك المسجد «وليحلفن إن أردنا» في بنائنا إياه «إلا الحسنى» أي: الإحسان إلى الضعيف، والعاجز والضرير.

﴿٥﴾ والله يشهد إنهم لكاذبون» فشهادة الله عليهم أصدق من حلفهم. ﴿٦﴾ لا تقم فيه أبداً» أي: لا تصل في ذلك المسجد الذي بني ضرراً أبداً، فإله يغنيك عنه، ولست بمضطر إليه.

﴿٧﴾ لمسجد أسس على التقوى من أول يوم» ظهر فيه الإسلام في «قباء»، وهو مسجد «قباء»، أسس على إخلاص الدين لله، وإقامة ذكره وشعائر دينه، وكان قديماً في هذا عريقاً فيه، فهذا المسجد الفاضل «أحق أن تقوم فيه» وتعبد، وتذكر الله تعالى فهو فاضل، وأهله فضلاء، ولهذا مدحهم الله بقوله: «فيه رجال يحبون أن يتطهروا» من الذنوب، ويتطهروا من الأوساخ، والنجاسات والأحداث.

ومن المعلوم أن من أحب شيئاً لا بد أن يسعى له ويجهد فيما يجب، فلا بد أنهم كانوا حريصين على التطهر من الذنوب والأوساخ والأحداث، ولهذا كانوا عن سبق إسلامه، وكانوا مقيمين للصلاة، محافظين على الجهاد مع رسول الله ﷺ، وإقامة شرائع الدين، وعمن كانوا يتحرزون من مخالفة الله ورسوله.

وسألهم النبي ﷺ بعدما نزلت هذه الآية في مدحهم عن طهارتهم، فأخبروه أنهم يتبعون الحجارة الماء، فحمدهم على صنيعهم.

﴿٨﴾ والله يحب المطهرين» الطهارة المعنوية، كالتنزه عن الشرك والأخلاق الرذيلة، والطهارة الحسية كإزالة الأنجاس ورفع الأحداث.

ثم فاضل بين المساجد بحسب مقاصد أهلها وموافقتها لرضاء فقال: «أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله» أي: على نية صالحة وإخلاص «ورضوان» بأن كان موافقاً لأمره،

ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم * وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم * يعني: ما يليق ولا يحسن للنبي وللمؤمنين به * أن يستغفروا للمشركين * أي: لمن كفر به وعبد معه غيره * ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم * فإن الاستغفار لهم في هذه الحال غلط غير مفيد، فلا يليق بالنبي والمؤمنين، لأهم إذا ماتوا على الشرك، أو علم أنهم يموتون عليه، فقد حقت عليهم كلمة العذاب، ووجب عليهم الخلود في النار، ولم تنفع فيهم شفاعة الشافعين، ولا استغفار المستغفرين.

وأيضاً فإن النبي والذين آمنوا معه، عليهم أن يوافقوا ربه في رضاه وغضبه، ويؤاؤوا من وإلاه الله، ويعادوا من عاداه الله، والاستغفار منهم لمن تبين أنه من أصحاب النار مناف لذلك، منافض له، ولئن وجد الاستغفار من خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام لأبيه فإنه * عن موعدة وعدها إياه * في قوله: * سأستغفر لك رب إنني كنت في حفيظ * وذلك قبل أن يعلم عاقبة أبيه.

فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله، سيموت على الكفر، ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير * تبرأ منه * موافقة لربه وتادباً معه.

إن إبراهيم لأواه * أي: رجأع إلى الله في جميع الأمور، كثير الذكر والدعاء والاستغفار والإنابة إلى ربه.

حليم * أي: ذو رحمة بالخلق، وصفح عما يصدر منهم إليه من الزلات، لا يستفزه جهل الجاهلين، ولا يقابل الجاني عليه بجرمه، فأبوه قال له: * لأرجمك * وهو يقول له: * سلام عليك سأستغفر لك رب *.

فعلیکم أن تقتدوا وتتبعوا ملة إبراهيم في كل شيء * إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك * كما نهكم الله عليها وعلى غيرها، ولهذا قال:

١١٥ - ١١٦ * وما كان الله

المؤمنين * كأنه قيل: من هم المؤمنون الذين لهم البشارة من الله بدخول الجنات ونيل الكرامات؟ فقال: هم * التائبون * أي: الملازمون للتوبة في جميع الأوقات عن جميع السيئات.

العابدون * أي: المتصفون بالعبودية لله، والاستمرار على طاعته من أداء الواجبات والمستحبات في كل وقت، فبذلك يكون العبد من العابدين.

الحامدون * الله في السراء والضراء، واليسر والعسر، المعترفون بما لله عليهم من النعم الظاهرة والباطنة، المثنون على الله بذكرها وبذكره في آناء الليل وآناء النهار.

السائحون * فسرت السياحة بالصيام، أو السياحة في طلب العلم، وفسرت بسياسة القلب في معرفة الله ومحبه، والإنابة إليه على الدوام، والصحيح أن المراد بالسياحة: السفر في القربات، كالحج، والعمرة، والجهاد، وطلب العلم، وصلة الأقارب، ونحو ذلك.

الراكون الساجدون * أي: المكثرون من الصلاة المشتملة على الركوع والسجود.

الأمرون بالمعروف * ويدخل فيه جميع الواجبات والمستحبات.

والناهون عن المنكر * وهي جميع ما نهى الله ورسوله عنه.

والحافظون لحدود الله * بتعلمهم حدود ما أنزل الله على رسوله، وما يدخل في الأوامر والنواهي والأحكام، وما لا يدخل، الملازمون لها فعلاً وتركاً.

ويشير المؤمنين * لم يذكر ما يبشرهم به، ليعم جميع ما رتب على الإيمان من ثواب الدنيا والدين والآخرة، فالبشارة متناولة لكل مؤمن.

وأما مقدارها وصفها فإنها بحسب حال المؤمنين، وإيمانهم، قوة، وضعفاً، وحبلاً بمقتضاء.

١١٣ - ١١٤ * ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين

عظيمة، ومعاوضة جسيمة، وهو أنه * اشترى * بنفسه الكريمة * من المؤمنين أنفسهم وأموالهم * فهي الثمن والسنة المبيعة.

بأن لهم الجنة * التي فيها ما تشبهه الأنفس، وتلد الأعين من أنواع اللذات، والأفراح، والمسترات، والخور الحسن، والمنازل الأنيقات.

وصفة العقد والمبايعة، بأن يبذلوا لله نفوسهم وأموالهم في جهاد أعدائه، لإعلاء كلمته وإظهار دينه * فيقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون * فهذا العقد والمبايعة، قد صدرت من الله مؤكدة بأنواع التأكيدات.

وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن * التي هي أشرف الكتب التي طرقت العالم، وأعلاها، وأكملها، وجاء بها أكمل الرسل أولو العزم، وكلها اتفقت على هذا الوعد الصادق.

ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا * أيها المؤمنون القائمون بما وعدهم الله، * ببيعكم الذي بايعتم به * أي: لتفروحو بذلك، وليبشر بعضكم بعضاً، ويحث بعضكم بعضاً.

وذلك هو الفوز العظيم * الذي لا فوز أكبر منه ولا أجل، لأنه يتضمن السعادة الأبدية، والنعيم المقيم، والرضا من الله الذي هو أكبر من نعيم الجنات، وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفة، فانظر إلى المشتري من هو؟ وهو الله جل جلاله، وإلى العوض، وهو أكبر الأعواض وأجلها، جنات النعيم، وإلى الثمن الميزول فيها، وهو النفس، والمال، الذي هو أحب الأشياء للإنسان.

وإلى من جرى على يديه عقد هذا التبايع، وهو أشرف الرسل، وبأي: كتاب رقم، وهي كتب الله الكبار المنزلة على أفضل الخلق.

١١٢ * التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكون الساجدون الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله ويشر

أمر مزعج، بلغ من الشدة والمشقة ما لا يمكن التعبير عنه، وذلك لأنهم قدموا رضا الله ورضا رسوله على كل شيء.

﴿وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه﴾ أي: تيقنوا وعرفوا بحالهم، أنه لا ينجي من الشدائد ويلجأ إليه، إلا الله وحده لا شريك له، فانقطع تعلقهم بالمخلوقين، وتعلقوا بالله ربهم، وفروا منه إليه، فمكثوا بهذه الشدة نحو خمسين ليلة.

﴿ثم تاب عليهم﴾ أي: أذن في توبتهم ووفقهم لها ﴿ليتوبوا﴾ أي: لتتق الله منهم، فيتوب الله عليهم، ﴿إن الله هو التواب﴾ أي: كثير التوبة والعفو، والغفران عن الزلات والعصيان، ﴿الرحيم﴾ وصفه الرحمة العظيمة التي لا تزال تنزل على العباد في كل وقت وحين، في جميع اللحظات، ما تقوم به أمورهم الدينية والدنيوية.

وفي هذه الآيات دليل على أن توبة الله على العبد أجل الغايات، وأعلى النهايات، فإن الله جعلها نهاية خواص عباده، وأتمم عليهم بها، حين عملوا الأعمال التي يحبها ويرضاها.

ومنها: لطف الله بهم وتبئتهم في إيمانهم عند الشدائد والنوازل المزعجة. ومنها: أن العبدادة الشاقة على النفس، لها فضل ومزية ليست لغيرها، وكلما عظمت المشقة عظم الأجر.

ومنها: أن توبة الله على عبده بحسب ندمه وأسفه الشديد، وأن من لا يبتلي بالذنوب ولا يخرج إذا فعله، فإن توبته مذكولة، وإن زعم أنها مقبولة.

ومنها: أن علامة الخير وزوال الشدة، إذا تعلق القلب بالله تعالى تعلقاً تاماً، وانقطع عن المخلوقين. ومنها: أن من لطف الله بالثلاثة، أن وسمهم بوسم، ليس بعار عليهم فقال: ﴿خلفوا﴾ إشارة إلى أن المؤمنين

الأرض بما رحبت وضائق عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم﴾ يحبر تعالى أنه من لطفه وإحسانه ﴿تاب على النبي﴾ محمد ﷺ ﴿والمهاجرين والأنصار﴾ فغفر لهم الزلات، ووفر لهم الحسنات، وراقهم إلى أعلى الدرجات، وذلك بسبب قيامهم بالأعمال الصعبة الشاقة، ولهذا قال: ﴿الذين أتبعوه في ساعة العسرة﴾ أي: خرجوا معه لقتال الأعداء في وقعة «تبوك»^(١) وكانت في حر شديد، وضيق من الزاد والركوب، وكثرة عدو، مما يدعو إلى التخلف.

فاستعانوا الله تعالى، وقاموا بذلك من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم﴾ أي: تنقلب قلوبهم، ويميلوا إلى الدعة والسكون، ولكن الله ثبتهم وأيدهم وقواهم. وزيغ القلب هو انحرافه عن الصراط المستقيم، فإن كان الانحراف في أصل الدين كان كفراً، وإن كان في شراعه كان يحسب تلك الشريعة التي زاغ عنها، إما قصر عن فعلها، أو فعلها على غير الوجه الشرعي.

وقوله: ﴿ثم تاب عليهم﴾ أي: قبل توبتهم ﴿إنه بهم رؤوف رحيم﴾ ومن رأفته ورحمته أن من عليهم بالتوبة، وقبلها منهم وثبتهم عليها.

﴿و﴾ كذلك لقد تاب الله على الثلاثة الذين خلفوا﴾ عن الخروج مع المسلمين في تلك الغزوة، وهم: «كعب بن مالك» وصاحبه، وقصتهم مشهورة معروفة في الصحاح والسنن.

﴿حتى إذا﴾ حزنوا حزناً عظيماً، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت﴾ أي: على سعتها ورحبتها ﴿وضاقت عليهم أنفسهم﴾ التي هي أحب إليهم من كل شيء، فضائق عليهم الفضاء الواسع، والمحجوب الذي لم تجز العادة بالضيق منه، وذلك لا يكون إلا من

ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون إن الله بكل شيء عليم﴾ إن الله له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ يعني أن الله تعالى إذا من على قوم بالهداية، وأمرهم بسلوك الصراط المستقيم، فإنه تعالى يتمم عليهم إحسانه، ويبين لهم جميع ما يحتاجون إليه، ويدعو إليه ضرورتهم، فلا يتركهم ضالين، جاهلين بأمور دينهم، ففي هذا دليل على كمال رحمته، وأن شريعته وافية بجميع ما يحتاجه العباد في أصول الدين وفروعه.

ويحتمل أن المراد بذلك ﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون﴾ فإذا بين لهم ما يتقون فلم ينقادوا له، عاقبهم بالإضلال جزاء لهم على ردهم الحق المبين، والأول أولى.

﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ فلكمال علمه وعمومه علمكم ما لم تكونوا تعلمون، وبين لكم ما به تنتفعون.

﴿إن الله له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت﴾ أي: هو المالك لذلك، المدبر لعباده بالإحياء والإماتة وأنواع التدابير الإلهية، فإذا كان لا يخل بتدبيره القدري فكيف يخل بتدبيره الديني المتعلق بالهيتة، ويترك عباده سدى مهملين، أو يدعهم ضالين جاهلين، وهو أعظم تولية لعباده!!

فلهذا قال: ﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ أي: ولي يتولاكم بجلب المنافع لكم، أو «نصير» يدفع عنكم المضار.

﴿١١٧-١١٨﴾ ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين أتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم﴾ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم

(١) في ب: غزوة تبوك.

عدوهم، فإنه يحصل عليهم المشقة بذلك، وتنفوت به كثير من المصالح الأخرى، ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم﴾ أي: من البلدان، والقبائل، والأفخاذ ﴿طائفة﴾ تحصل بها الكفاية والمقصود لكان أولى.

ثم نبه على أن إقامة المقيمين منهم وعدم خروجهم مصالح لو خرجوا لفاتتهم، فقال: ﴿ليتقوهوا﴾ أي: القاعدون ﴿في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم﴾ أي: ليتعلموا العلم الشرعي، ويعلموا معانيه، ويفقهوا أسرارها، وليعلموا غيرهم، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

ففي هذا فضيلة العلم، وخصوصاً الفقه في الدين، وأنه أهم الأمور، وأن من تعلم علماً، فعليه نشره وبثه في العباد، ونصيحتهم فيه فإن انتشار العلم عن العالم، من بركته وأجره الذي ينمى له.

وأما اقتصار العالم على نفسه، وعدم دعوته إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وترك تعليم الجهال ما لا يعلمون، فأى: منفعة حصلت للمسلمين منه؟ وأي: نتيجة نتجت من علمه؟ وغايته أن يموت، فيموت علمه وثمرته، وهذا غاية الحرمان، لمن آتاه الله علماً ومنحه فهماً.

وفي هذه الآية أيضاً دليل وإرشاد وتنبية لطيف، لفائدة مهمة، وهي: أن المسلمين ينبغي لهم أن يعدوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة من يقوم بها، ويوفر وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلى غيرها، لتقوم مصالحهم، وتتم منافعهم، ولتكون وجهة جميعهم، ونهاية ما يقصدون قصداً واحداً، وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم، ولو تفرقت الطرق وتعددت المشارب، فالأعمال متباينة، والقصد واحد، وهذه من الحكمة العامة النافعة في جميع الأمور.

﴿١٢٣﴾ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم

وراحتها، وسكونه ﴿عن نفسه﴾ الكريمة الزكية، بل النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فعلى كل مسلم أن يفدي النبي ﷺ بنفسه ويقدمه عليها، فعلامة تعظيم الرسول ﷺ وعيسته والإيمان التام به، أن لا يتخلفوا عنه، ثم ذكر الثواب الحامل على الخروج، فقال: ﴿ذلك بأنهم﴾ أي: المجاهدين في سبيل الله ﴿لا يصيبهم ظمأ ولا نصب﴾ أي: تعب ومشقة ﴿ولا غمصة في سبيل الله﴾ أي: مجاعة.

﴿ولا يطؤون موطئاً يغيظ الكفار﴾ من الخوض لديارهم والاستيلاء على أوطانهم، ﴿ولا ينالون من عدو نيلاً﴾ كالظفر بجيش أو سرية أو الغنيمة مال ﴿إلا كتب لهم به عمل صالح﴾ لأن هذه آثار ناشئة عن أعمالهم.

﴿إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ الذين أحسنوا في مبادرتهم إلى أمر الله، وقيامهم بما عليهم من حقه وحق خلقه، فهذه الأعمال آثار من آثار عملهم.

ثم قال: ﴿ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً﴾ في ذهابهم إلى عدوهم ﴿إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾.

ومن ذلك هذه الأعمال، إذا أخلصوا فيها لله، ونصخوا فيها، ففي هذه الآيات أشد ترغيب وتشويق للنفوس إلى الخروج إلى الجهاد في سبيل الله، والاحتساب لما يصيبهم فيه من المشقات، وأن ذلك لهم رفعة درجات، وأن الآثار المترتبة على عمل العبد له فيها أجر كبير.

﴿١٢٢﴾ وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾ يقول تعالى: - منبهاً لعباده المؤمنين على ما ينبغي لهم - ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ أي: جميعاً لقتال

خلفوهم، [أو خلفوا عن من بُت في قبول عذرهم أو في رده] ^(١) وأنهم لم يكن تخلفهم رغبة عن الخير، ولهذا لم يقل: ﴿تخلفوا﴾.

ومنها: أن الله تعالى من عليهم بالصدق، ولهذا أمر بالاعتداء بهم فقال:

﴿١١٩﴾ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ أي: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ بالله، وبما أمر الله بالإيمان به، قوموا بما يقتضيه الإيمان، وهو القيام بتقوى الله تعالى، واجتناب ما نهى الله عنه والبعد عنه.

﴿وكونوا مع الصادقين﴾ في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، الذين أقوالهم صدق، وأعمالهم، وأحوالهم لا تكون إلا صدقاً خلية من الكسل والفتور، سالمة من المقاصد السيئة، مشتملة على الإخلاص والنية الصالحة، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة.

قال الله تعالى: ﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ الآية.

﴿١٢٠ - ١٢١﴾ وما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا غمصة في سبيل الله ولا يطؤون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين * ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾ يقول تعالى - حاثاً لأهل المدينة المنورة من المهاجرين، والأنصار، ومن حولهم من الأعراب، الذين أسلموا فحسن إسلامهم -: ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله﴾ أي: ما ينبغي لهم ذلك، ولا يليق بأحوالهم.

﴿ولا يرغبوا بأنفسهم﴾ في بقائها

اغلظة واعلموا أن الله مع المتقين ﴿١٢٤﴾ وهذا

أيضاً إرشاد آخر، بعدما أرشدهم إلى التدبير فيمن يباشر القتال، أرشدهم إلى أنهم يبدوون بالأقرب فالأقرب من الكفار، والغلظة عليهم، والشدة في القتال، والشجاعة والثبات.

﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ أي: وليكن لديكم علم أن المعونة من الله تنزل بحسب التقوى، فلازموا على تقوى الله، يُعَنِّكُم وينصركم على عدوكم.

وهذا العموم في قوله: ﴿قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ خصوص بما إذا كانت المصلحة في قتال غير الذين يلوننا، وأنواع المصالح كثيرة جداً.

﴿١٢٤ - ١٢٦﴾ ﴿وإذا ما أنزلت سورة فممنهم من يقول أياكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادهم إيماناً وهم يستبشرون﴾ وأما الذين في قلوبهم مرض فزادهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴿١٢٦﴾ أولاً يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون ﴿١٢٧﴾ يقول تعالى: مبتلياً حال المنافقين، وحال المؤمنين عند نزول القرآن، وتفاوت ما بين الفريقين فقال: ﴿وإذا ما أنزلت سورة﴾ فيها الأمر والنهي، والخبر عن نفسه الكريمة، وعن الأمور الغائبة، والحث على الجهاد.

﴿فممنهم من يقول أياكم زادته هذه إيماناً﴾ أي: حصل الاستفهام لمن حصل له الإيمان بها من الطائفتين.

قال تعالى - مبيناً الحال الواقعة -: ﴿فأما الذين آمنوا فزادهم إيماناً﴾ بالتعلم بها، وفهمها واعتقادها، والعمل بها، والرغبة في فعل الخير، والانتكاف عن فعل الشر.

﴿وهم يستبشرون﴾ أي: يبشرون بعضهم بعضاً بما من الله عليهم من آياته، والتوفيق لفهمها والعمل بها. وهذا دال على انشراح صدورهم وآيات الله، وطمأنينة قلوبهم، وسرعة

انقيادهم لما تحثهم عليه. ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض﴾ أي: شك ونفاق ﴿فزادهم رجساً إلى رجسهم﴾ أي: مرضاً إلى مرضهم، وشكاً إلى شكهم، من حيث إنهم كفروا بها وعاندوها وأعرضوا عنها، فازداد لذلك مرضهم، وترامى بهم إلى الهلاك ﴿ور﴾ الطبع على قلوبهم، حتى ﴿ماتوا وهم كافرون﴾.

وهذا عقوبة لهم، لأنهم كفروا بآيات الله وعصوا رسوله، فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه.

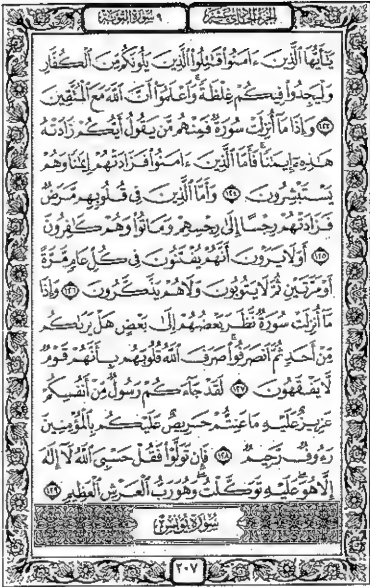
قال تعالى - موبخاً لهم على إقامتهم على ما هم عليه من الكفر والنفاق -: ﴿أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين﴾ بما يصيبهم من البلياء والأمراض، وبما يبتلون من الأوامر الإلهية التي يراد بها اختبارهم.

﴿ثم لا يتوبون﴾ عما هم عليه من الشر ﴿ولا هم يذكرون﴾ ما ينفعهم، فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه.

فالله تعالى يبتليهم - كما هي سنته في سائر الأمم - بالسراء والضراء وبالأوامر والنواهي ليرجعوا إليه، ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون.

وفي هذه الآيات دليل على أن الإيمان يزيد وينقص، وأنه ينبغي للمؤمن أن يتفقد إيمانه ويتعاهده، فيجده وينمي، ليكون دائماً في صعود.

﴿١٢٧﴾ وقوله: ﴿وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾ يعني: أن المنافقين الذين يجذرون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم، إذا نزلت سورة ليؤمنوا بها، ويعملوا بمضمونها ﴿نظر بعضهم إلى بعض﴾ جازمين على ترك العمل بها، ينتظرون الفرصة في الاختفاء عن أعين المؤمنين، ويقولون: ﴿هل يراكم من أحد ثم انصرفوا﴾



متسللين، وانقلبوا معرضين، فجازاهم الله بعقوبة من جنس عملهم، فكما انصرفوا عن العمل ﴿صرف الله قلوبهم﴾ أي: صدها عن الحق وخذلها.

﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾ فقهاً ينفعهم، فإنهم لو فقهوا، لكانوا إذا نزلت سورة آمنوا بها، وانقادوا لأمرها.

والمقصود من هذا بيان شدة نفورهم عن الجهاد وغيره من شرائع الإيمان، كما قال تعالى عنهم: ﴿فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر الغشي عليه من الموت﴾.

﴿١٢٨ - ١٢٩﴾ ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ فإن تولوا قتل حسبني الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴿يمتن﴾ [تعالى] على عباده المؤمنين بما بعث فيهم النبي الأمي الذي من أنفسهم، يعرفون حاله، ويتمكنون من الأخذ عنه، ولا يأفنون عن الانقياد له، وهو ﷺ في غاية النصح لهم، والسعي في مصالحهم.

﴿عزيز عليه ما عنتم﴾ أي: يشق عليه الأمر الذي يشق عليكم ويعتكم.

تفسير سورة يونس مكية

ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون * إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقا إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون * يقول تعالى مبينا لربوبيته وإلهيته وعظمته : ﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام﴾ مع أنه قادر على خلقها في لحظة واحدة، ولكن لما له في ذلك من الحكمة الإلهية، ولأنه رفيق في أفعاله.

ومن جملة حكمته فيها، أنه خلقها بالحق وللحق، ليعرف بأسمائه وصفاته ويرقد بالعبادة.

﴿ثم﴾ بعد خلق السماوات والأرض ﴿استوى على العرش﴾ استواء يليق بعظمته.

﴿يدبر الأمر﴾ في العالم العلوي والسفلي، من الإماتة والإحياء، وإنزال الأرزاق، ومداولة الأيام بين الناس، وكشف الضر عن المضورين، وإجابة سؤال السائلين.

فأنواع التدابير نازلة منه وصاعدة إليه، وجميع الخلق مدعون لعزه^(٢)، خاضعون لعظمته وسلطانه.

﴿ما من شفيع إلا من بعد إذنه﴾ فلا يقدم أحد منهم على الشفاعة، ولو كان أفضل الخلق، حتى يأذن الله ولا يأذن، إلا لمن ارتضى، ولا يرتضى إلا أهل الإخلاص والتوحيد له.

﴿ذلكم﴾ الذي هذا شأنه ﴿الله ربكم﴾ أي : هو الله الذي له وصف الإلهية الجامعة لصفات الكمال، ووصف الربوبية الجامع لصفات الأفعال.

﴿فاعبدوه﴾ أي : أفردوه بجميع ما تقدرون عليه من أنواع العبودية، ﴿أفلا تذكرون﴾ الأدلة الدالة على أنه وحده المعبود الم محمود، ذو الجلال والإكرام. فلما ذكر حكمه القدري وهو التدبير العام، وحكمه الديني وهو

﴿١ - ٢﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ آلت تلك آيات الكتاب الحكيم * أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين * يقول تعالى : ﴿آلر تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ وهو هذا القرآن، المشتمل على الحكمة والأحكام، الدالة آياته على الحقائق الإيمانية والأوامر والنواهي الشرعية، الذي على جميع الأمة تلقيه بالرضا والقبول والانقياد.

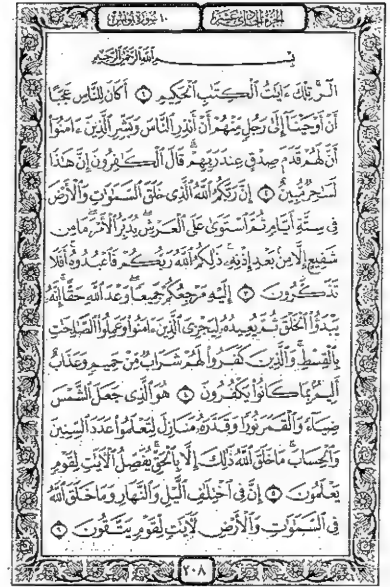
ومع هذا فأعرض أكثرهم فهم لا يعلمون، فتعجبوا ﴿أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس﴾ عذاب الله، وخوفهم نقم الله، وذكرهم بآيات الله.

﴿وبشر الذين آمنوا﴾ إيماناً صادقاً ﴿أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾ أي : لهم جزاء موفور^(١)، وثواب مذخور عند ربهم بما قدموه وأسلفوه من الأعمال الصالحة الصادقة.

فتعجب الكافرون من هذا الرجل العظيم تعجباً حملهم على الكفر به، ف ﴿قال الكافرون﴾ عنه : ﴿إن هذا لساحر مبين﴾ أي : بين السحجر، لا يخفى بزعمهم على أحد، وهذا من سفههم وعنادهم، فإنهم تعجبوا من أمر ليس مما يتعجب منه ويستغرب، وإنما يتعجب من جهالتهم وعدم معرفتهم بمصالحهم.

كيف لم يؤمنوا بهذا الرسول الكريم، الذي بعثه الله من أنفسهم، يعرفونه حق المعرفة، فردوا دعوته، وحرصوا على إبطال دينه، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

﴿٣ - ٤﴾ ﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله



﴿حريص عليكم﴾ فيجب لكم الخير، ويسعى جهده في إيصاله إليكم، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشر، ويسعى جهده في تنفيركم عنه. ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ أي : شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم.

ولهذا كان حقه مقدماً على سائر حقوق الخلق، وواجب على الأمة الإيمان به، وتعظيمه، وتعزيره، وتوقيره ﴿فإن آمنوا﴾ فذلك حظهم وتوفيقهم، وإن ﴿تولوا﴾ عن الإيمان والعمل، فامض على سبيلك، ولا تنزل في دعوتك، وقل ﴿حسبي الله﴾ أي : الله كافٍ في جميع ما أمسني، ﴿لا إله إلا هو﴾ أي : لا معبود بحق سواه.

﴿عليه توكلت﴾ أي : اعتمدت ووثقت به، في جلب ما ينفع، ودفع ما يضر، ﴿وهو رب العرش العظيم﴾ الذي هو أعظم المخلوقات. وإذا كان رب العرش العظيم، الذي وسع المخلوقات، ان رباً لما دونه من باب أولى وأحرى.

تم تفسير سورة التوبة بعون الله ومنه
فلله الحمد أولاً وآخراً
وظاهره وباطنه

شرعه، الذي مضمونه ومقصوده عبادته وحده لا شريك له، ذكر الحكم الجزائي، وهو مجازاته على الأعمال بعد الموت، فقال: ﴿إليه مرجعكم جميعاً﴾ أي: سيجمعكم بعد موتكم ليقام يوم معلوم.

﴿إنه يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ فالتقار على ابتداء الخلق قادر على إعادته، والذي يرى ابتداءه بالخلق، ثم ينكر إعادته للخلق، فهو فاقد العقل منكر لأحد المثليين مع إثبات ما هو أولى منه، فهذا دليل عقلي واضح على المعاد. ثم ذكر الدليل النقلي فقال:

﴿وعد الله حقاً﴾ أي: وعده صادق لا بد من إقامته.

﴿ليجزى الذين آمنوا﴾ بقلوبهم بما أمرهم الله بالإيمان به.

﴿وعملوا الصالحات﴾ بجوارحهم، من واجبات ومستحبات، ﴿بالقسط﴾

أي: بإيمانهم وأعمالهم، جزاء قد بينه لعباده، وأخبر أنه لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴿والذين كفروا﴾ بآيات الله وكذبوا رسل الله.

﴿لهم شراب من حميم﴾ أي: ماء حار، يشوي الوجوه ويقطع الأمعاء.

﴿وعذاب اليم﴾ من سائر أصناف العذاب ﴿بما كانوا يكفرون﴾ أي:

بسبب كفرهم وظلمهم، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون.

﴿٥-٦﴾ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل

لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴿إن في اختلاف الليل والنهار

وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون﴾ لما قرر ربوبيته

والهيته، ذكر الأدلة العقلية الأفقية الدالة على ذلك وعلى كماله، في

أسمائه وصفاته، من الشمس والقمر، والسماوات والأرض وجميع ما خلق

فيهما من سائر أصناف المخلوقات، وأخبر أنها آيات ﴿لقوم يعلمون﴾

﴿لقوم يتقون﴾.

فإن العلم يهدي إلى معرفة الدلالة فيها، وكيفية استنباط الدليل^(١) على أقرب وجه، والتقوى تحدث في القلب الرغبة في الخير، والرغبة من الشر، الناشئين عن الأدلة والبراهين، وعن العلم واليقين.

وحاصل ذلك أن مجرد خلق هذه المخلوقات بهذه الصفة، دال على كمال

قدرة الله تعالى، وعلمه، وحياته، وقيوميته، وما فيها من الأحكام

والإتقان والإبداع والحسن، دال على كمال حكمة الله، وحسن خلقه وسعة

علمه. وما فيها من أنواع المنافع والمصالح - كجعل الشمس ضياء،

والقمر نوراً، يحصل بهما من النفع الضروري وغيره ما يحصل - يدل ذلك

على رحمة الله تعالى واعتنائه بعباده وسعة بره وإحسانه، وما فيها من

التخصيصات دال على مشيئة الله وإرادته النافذة.

وذلك دال على أنه وحده المعبود المحبوب المحمود، ذو الجلال والإكرام

والأوصاف العظام، الذي لا تنبغي الرغبة والرغبة إلا إليه، ولا يصرف

خالص الدعاء إلا له، لا لغيره من المخلوقات المربوبات، المفترقات إلى الله في جميع شؤونها.

وفي هذه الآيات الحث والترغيب على التفكير في مخلوقات الله، والنظر

فيها بغين الاعتبار، فإن بذلك تنفتح البصيرة، ويزداد الإيمان والعقل،

وتقوى القرينة، وفي إجمال ذلك، تهاون بما أمر الله به، وإغلاق لزيادة الإيمان، وجود للذهن والقرينة.

﴿٧-٨﴾ ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها

والذين هم عن آياتنا غافلون﴾ أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون﴾ يقول

تعالى: ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا﴾ أي: لا يطمعون بلقاء الله، الذي هو

أكبر ما طمع فيه الطامعون، وأعلى ما أمله المؤمنون، بل أعرضوا عن ذلك،

وربما كذبوا به ﴿ورضوا بالحياة الدنيا﴾

بدلاً عن الآخرة.

﴿واطمأنوا بها﴾ أي: ركنوا إليها، وجعلوها غاية مرامهم^(٢) ونهاية

قصدهم، فسعوا لها وأكبوا على لذاتها وشهواتها، بأي: طريق حصلت

حصلوها، ومن أي: وجه لاحت ابتذروها، قد صرفوا إراداتهم ونياتهم

وأفكارهم وأعمالهم إليها. فكأنهم خلقوا للبقاء فيها، وكأنها

ليست دار عمر، يتزود منها المسافرون إلى الدار الباقية التي إليها يرحل

الأولون والآخرون، وإلى نعيمها ولذاتها شمر الموقنون.

﴿والذين هم عن آياتنا غافلون﴾ فلا ينتفعون بالآيات القرآنية،

ولاً بالآيات الأفقية والنفسية، والإعراض عن الدليل مستلزم

للإعراض والغفلة، عن المدلول المقصود.

﴿أولئك﴾ الذين هذا وصفهم ﴿مأواهم النار﴾ أي: مقرهم

ومسكنهم التي لا يرحلون عنها. ﴿بما كانوا يكسبون﴾ من الكفر

والشرك وأنواع المعاصي، فلما ذكر عقابهم ذكر ثواب المطيعين، فقال:

﴿٩-١٠﴾ ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم

تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم﴾ دعواهم فيها سبحانه اللهم

وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ يقول تعالى:

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي: جمعوا بين الإيمان، والقيام

بموجبه ومقتضاه من الأعمال الصالحة، المشتملة على أعمال القلوب

وأعمال الجوارح، على وجه الإخلاص والمتابعة.

﴿يهديهم ربهم بإيمانهم﴾ أي: بسبب ما معهم من الإيمان يشيهم الله

أعظم الثواب، وهو الهداية، فيعلمهم ما ينفعهم، ويمن عليهم بالأعمال

الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في هذه الدار إلى

(١) في ب: الدلائل.

(٢) في ب: أمرهم.

﴿١٣-١٤﴾ «ولقد أهلكنا القرون من قبلك لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا يؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين * ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون» يخبر تعالى أنه أهلك الأمم الماضية بظلمهم وكفرهم، بعدما جاءتهم البينات على أيدي الرسل تبين الحق فلم ينقادوا لها ولم يؤمنوا. فأحل بهم عقابه الذي لا يرد عن كل مجرم متجرب على محارم الله، وهذه سنته في جميع الأمم.

﴿ثم جعلناكم﴾ أيها المخاطبون «خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون» فإن أنتم اعتبرتم واتعظتم بمن قبلكم واتبعتم آيات الله وصدقتم رسله، نجوتم في الدنيا والآخرة. وإن فعلتم كفعل الظالمين قبلكم، أحل بكم ما أحل بهم، ومن أنذر فقد أعذر.

﴿١٥-١٧﴾ «وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بآله قل ما يكون لي أن أبذله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم * قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبث فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون * فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون» يذكر تعالى تعنت المكذبين لرسوله محمد ﷺ، وأنهم إذا تتلى عليهم آيات الله القرآنية المبينة للحق، أعرضوا عنها، وطلبوا وجوه التعنت فقالوا، جراءة منهم وظلماً: «أئت بقرآن غير هذا أو بآله» فبيحهم الله، ما أجرأهم على الله، وأشدهم ظلماً ورذاً لآياته.

فإذا كان الرسول العظيم بأمره الله أن يقول لهم: «قل ما يكون لي» أي: ما ينبغي ولا يليق «أن أبذله من تلقاء نفسي» فإني رسول محض، ليس لي من الأمر شيء، «إن أتبع إلا ما يوحى

ذلك، كما يجعل لهم الخير إذا أتوا بأسبابه» لقضي إليهم أجلهم» أي: لمحتهم العقوبة، ولكنه تعالى يمهلهم ولا يمهلهم، ويعفو عن كثير من حقوقه، فلو يؤخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة.

ويدخل في هذا أن العبد إذا غضب على أولاده أو أهله أو ماله، ربما دعا عليهم دعوة لو قبلت منه لهلكوا، ولأضره ذلك غاية الضرر، ولكنه تعالى حليم حكيم.

وقوله: «فنذر الذين لا يرجون لقاءنا» أي: لا يؤمنون بالآخرة، فلذلك لا يستعدون لها، ولا يعملون ما ينجيهم من عذاب الله، «ففي طغيانهم» أي: باطلهم، الذي جاوزوا به الحق والحد.

﴿يعمّهون﴾ يترددون حائرين، لا يهتدون السبيل ولا يوفقون لأقوم دليل، وذلك عقوبة لهم^(١) على ظلمهم، وكفرهم بآيات الله.

﴿١٢﴾ «وإذا من الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون» وهذا إخبار عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنه إذا مسه ضر، من مرض أو مصيبة، اجتهد في الدعاء، وسأل الله في جميع أحواله، قائماً وقاعداً ومضطجعاً، وألح في الدعاء ليكشف الله عنه ضره.

﴿فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره مسه﴾ أي: استمر في غفلته معرضاً عن ربه، كأنه ما جاءه ضره، فكشفه الله عنه، فأبى: ظلم أعظم من هذا الظلم!! يطلب من الله قضاء غرضه، فإذا أناله إياه لم ينظر إلى حق ربه، وكأنه ليس عليه الله حق. وهذا تزيين من الشيطان، زين له ما كان مستهجنًا مستقبحاً في العقول والقطر.

﴿كذلك زين للمسرفين﴾ أي: المتجاوزين للحد «ما كانوا يعملون».

الصرراط المستقيم وفي الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم، ولهذا قال: «تجري من تحتهم الأنهار» الجارية على الدوام «في جنات النعيم» أضافها الله إلى النعيم، لاشتمالها على النعيم التام، نعيم القلب بالفرح والسرور والبهجة والخيور، ورؤية الرحمن وسماع كلامه، والاعتباط برضاه وقربه، ولقاء الأحبة والإخوان، والتمتع بالاجتماع بهم، وسماع الأصوات الطربيات، والبنغيمات المشجيات، والمناسظر المفرجات. ونعيم البدن بأنواع المأكول والمشرب، والمناكح، ونحو ذلك، مما لا تعلمه النفوس، ولا خطر ببال أحد، أو قدر أن يصفه الواصفون.

﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم﴾ أي: عبادتهم فيها لله، أولها تسبيح لله وتنزيه له عن النقائص، وآخرها تحميد لله، فالتكاليف سقطت عنهم في دار الجزاء، وإنما بقي لهم أكمل اللذات، الذي هو ألد عليهم من المأكول اللذيذة، ألا وهو ذكر الله الذي تطمئن به القلوب، وتفرح به الأرواح، وهو لهم بمنزلة النفس، من دون كلفة ومشقة.

﴿و﴾ أما «تحييتهم» فيما بينهم عند التلاقي والتزاور، فهو السلام، أي: كلام سالم من اللغو والإثم، موصوف بأنه «سلام» وقد قيل في تفسير قوله: «دعواهم فيها سبحانك» إلى آخر الآية، أن أهل الجنة - إذا احتاجوا إلى الطعام والشراب ونحوهما - قالوا سبحانك اللهم، فأحضر لهم في الحال.

فإذا فرغوا قالوا: «الحمد لله رب العالمين».

﴿١١﴾ «ولو يجعل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون» وهذا من لطفه وإحسانه بعباده، أنه لو عجل لهم الشر إذا أتوا بأسبابه، وبأدبرهم بالعقوبة على

(١) كذا في ب، وفي أ: عقوبة منه.

للمتصربين، فصرت ترى لها منظراً عجيباً ما بين أخضر، وأصفر، وأبيض وغيره.

﴿وظن أهلها أنهم قادرون عليها﴾ أي: حصل معهم طمع بأن ذلك سيستمر ويدوم، لوقوف إرادتهم عنده، وانتهاء مطالبهم فيه.

فيبيناهم في تلك الحالة ﴿أناها﴾ أمرنا ليلاً أو نهاراً فجلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ﴿أي: كأنها ما كانت فهذه حالة الدنيا، سواء بسواء.

﴿كذلك نفصل الآيات﴾ أي: نبينها ونوضحها، بتقريب المعاني إلى الأذهان، وضرب الأمثال ﴿للقوم يفكرون﴾ أي: يعملون أفكارهم فيما ينفعهم.

وأما الغافل المعرض، فهذا لا تنفعه الآيات، ولا يزيل عنه الشك البيان، ولما ذكر الله حال الدنيا وحاصل نعيمها، شوق إلى الدار الباقية، فقال:

﴿٢٥-٢٦﴾ ﴿والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون.

عمّ تعالى عبادته بالدعوة إلى دار السلام والحث على ذلك والترغيب، وخص بالهداية من شاء استخلاصه واصطفاه، فهذا فضله وإحسانه، والله يختص برحمته من يشاء، وذلك عدله وحكمته، وليس لأحد عليه حجة بعد البيان والرسل، وسمى الله الجنة ﴿دار السلام﴾ لسلامتها من جميع الآفات والنقص، وذلك لكمال نعيمها وقامه وبقائه، وحسنه من كل وجه.

ولما دعينا إلى دار السلام، كأن النفوس تشوقت إلى الأعمال الموجبة

لها الموصلة إليها، فأخبر عنها بقوله: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ أي: للذين أحسنوا في عبادة الخالق، بأن عبوده على وجه المراقبة والنصيحة في عبادته، وقاموا بما قدروا عليه منها، وأحسنوا إلى عباد الله بما يقدرون عليه من الإحسان القولي والفعل، من بذل الإحسان المالي، والإحسان البدني، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهلين، ونصيحة المعرضين، وغير ذلك من وجوه البر والإحسان.

فهؤلاء الذين أحسنوا لهم ﴿الحسنى﴾ وهي الجنة الكاملة في حسناتها و﴿زيادة﴾ وهي النظر إلى وجه الله الكريم وسماع كلامه، والفوز برضاه والبهجة بقربه، فبهذا حصل لهم أعلى ما يتمناه المتمنون، ويسأله السائلون.

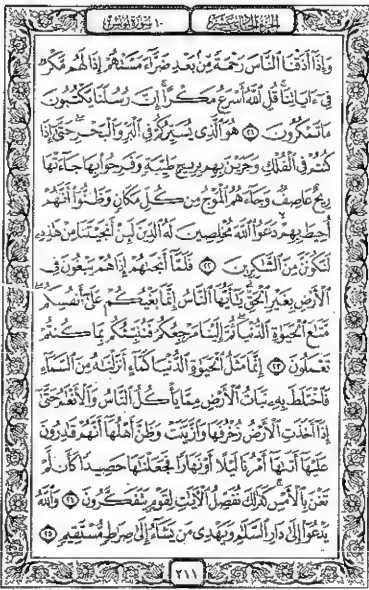
ثم ذكر اندفاع المجذور عنهم فقال: ﴿ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة﴾ أي: لا ينالهم مكروه بوجه من الوجوه، لأن المكروه إذا وقع بالإنسان، تبين ذلك في وجهه، وتغير وتكدر.

وأما هؤلاء - فهم كما^(١) قال الله عنهم - ﴿تعرف في وجوههم نضرة النعيم﴾ أولئك أصحاب الجنة الملائمون لها ﴿هم فيها خالدون﴾ لا يحولون ولا يزلون، ولا يتغيرون.

﴿٢٧﴾ ﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ لما ذكر أصحاب الجنة ذكر أصحاب النار، فذكر أن بضاعتهم التي اكتسبوها في الدنيا هي الأعمال السيئة المسخطة لله، من أنواع الكفر والتكذيب، وأصناف المعاصي، فجزاؤهم سيئة مثلها، أي:

(٢) في ب: في وجوههم.

(١) في ب: فكما.



جزاء يسوؤهم بحسب ما عملوا من السيئات على اختلاف أحوالهم.

﴿وترهقهم﴾ أي: تغشاهم ﴿ذلة﴾ في قلوبهم وخوف من عذاب الله، لا يدفعه عنهم دافع ولا يعصمهم منه عاصم، وتسري تلك الذلة الباطنة إلى ظاهرهم، فتكون سواداً في الوجه^(٢).

﴿كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ فكم بين الفريقين من الفرق، وما بعد ما بينهما من التفات؟!.

﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ إلى ربها ناظرة ﴿وجوه يومئذ باسرة﴾ تظن أن يفعل بها فاقرة ﴿وجوه يومئذ مسفرة﴾ ضاحكة مستبشرة ﴿وجوه يومئذ عليها غبرة﴾ ترهقها قفرة ﴿أولئك هم الكفرة الفجرة﴾.

﴿٢٨-٣٠﴾ ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فوزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيماناً تعبدون﴾ فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين ﴿هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا

كإخراج أنواع الأشجار والنبات من الحبوب والنوى، وإخراج المؤمن من الكافر، والطائر من البيضة، ونحو ذلك، **﴿ويخرج الميت من الحي﴾** عكس هذه المذكورات، **﴿ومن يدبر الأمر﴾** في العالم العلوي والسفلي، وهذا شامل لجميع أنواع التدابير الإلهية، فإنك إذا سألتهم عن ذلك **﴿فسيقولون الله﴾** لأنهم يعترفون بجميع ذلك، وأن الله لا شريك له في شيء من المذكورات.

﴿فقل﴾ لهم الزموا بالحجة **﴿أفلا تتقون﴾** الله فتخلصون له العبادة وحده لا شريك له، وتحلعون ما تعبدون من دونه من الأنداد والأوثان.

﴿فذلكم﴾ الذي وصف نفسه بما وصفها به **﴿الله ربكم﴾** أي: المألوه المعبود المحمود، المربي جميع الخلق بالنعمة وهو: **﴿الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾**.

فإنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير لجميع الأشياء، الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو، ذو الأسماء الحسنی والصفات الكاملة العظيمة والجلال والإكرام.

﴿فأني تصرفون﴾ عن عبادة من هذا وصفه، إلى عبادة الذي ليس له من وجوده إلا العدم، ولا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا.

فليس له من الملك مثقال ذرة، ولا شراكة له بوجه من الوجوه، ولا يشفع عند الله إلا بإذنه، فتبأ لمن أشرك به، ووبخأ لمن كفر به، لقد عدموا عقولهم بعد أن عدموا أديانهم، بل فقدوا دنياهم وأخرهم.

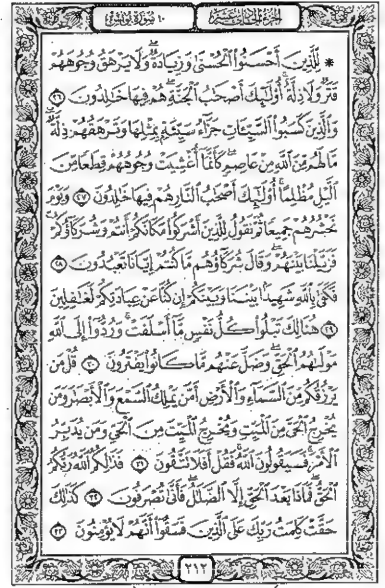
ولهذا قال [تعالى] عنهم: **﴿كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾** تعذ ما أراهم ^(١) الله من الآيات البينات والبراهين الثيرات ما فيه عبرة لأولي الألباب، وموعظة للمتقين وهدى للعالمين.

فالملائكة الكرام والأنبياء والأولياء ونحوهم يتبرؤون من عبدهم يوم القيامة ويتصلون من دعائهم إياهم إلى عبادتهم وهم الصادقون البارون في ذلك، فحينئذ يتحسر المشركون حسرة لا يمكن وصفها، ويعلمون مقدار ما قدموا من الأعمال، وما أسلفوا من رديء الخصال، ويتبين لهم يومئذ أنهم كانوا كاذبين، وأنهم مفترون على الله، قد ضلت عبادتهم، واضمحلت معبوداتهم، وتقطعت بهم الأسباب والوسائل.

ولهذا قال تعالى: **﴿هنالك﴾** أي: في ذلك اليوم **﴿تبلو كل نفس ما أسلفت﴾** أي: تتفقد أعمالها وكسبها، وتتبعه بالجزاء، وتجازى بحسبه، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وضل عنهم ما كانوا يفترون من قولهم بصحة ما هم عليه من الشرك وأن ما يعبدون من دون الله تنفعهم وتدفع عنهم العذاب.

﴿٣١-٣٣﴾ **﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر﴾** فسيقولون الله فقل **﴿أفلا تتقون﴾** فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأني تصرفون **﴿كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾** أي: **﴿قل﴾** لهؤلاء الذين أشركوا بالله، ما لم ينزل به سلطانا - محتجا عليهم بما أقروا به من توحيد الربوبية، على ما أنكروه من توحيد الإلهية - **﴿من يرزقكم من السماء والأرض﴾** بإنزال الأرزاق من السماء وإخراج أنواعها من الأرض، وتيسير أسبابها فيها؟

﴿أم من يملك السمع والأبصار﴾ أي: من هو الذي خلقهما وهو مالكهما؟ وخصهما بالذكر من باب التنبيه على الفضول بالفاضل، ولكمال شرفهما ونفعهما. **﴿ومن يخرج الحي من الميت﴾**



يفترون؟ **﴿يقول تعالى﴾** **﴿ويوم نحشرهم جميعا﴾** أي: نجتمع جميع الخلائق لميعاد يوم معلوم، ونحضر المشركين، وما كانوا يعبدون من دون الله.

﴿ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم﴾ أي: الزموا مكانكم لبقع التحاكم والفصل بينكم وبينهم. **﴿فزيلنا بينهم﴾** أي: فرقنا بينهم، بالبعد البدني والقلبي، وحصلت بينهم العداوة الشديدة، بعد أن بذلوا لهم في الدنيا خالص المحبة وصَفُّوا الوداد، فانقلبت تلك المحبة والولاية بعضاً وعداوة.

وتبرأ شركاؤهم منهم وقالوا: **﴿ما كنتم إيانا تعبدون﴾** فإننا ننزه الله أن يكون له شريك أو نديد. **﴿كفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لسفاهلين﴾** ما أمرناكم بها، ولا دعوناكم لذلك، وإنما عبدتم من دعاكم إلى ذلك، وهو الشيطان كما قال تعالى: **﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾**.

وقال: **﴿ويوم نحشرهم جميعا﴾** ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون **﴿قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم﴾** بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون.

(١) في ب: بعد أن أراهم.

العالمين، لعاجله بالعقوبة وبادره بالنكال.

﴿ولكن﴾ الله أنزل هذا الكتاب رحمة للعالمين، وحجة على العباد أجمعين.

أنزله ﴿تصديق الذي بين يديه﴾ من كتب الله السماوية، بأن وافقها وصدقها بما شهدت به، وبشرت بنزوله، فوقع كما أخبرت.

﴿وتفصيل الكتاب﴾ للحلال والحرام، والأحكام الدينية والقدرية، والإخبارات الصادقة.

﴿لا رب فيه من رب العالمين﴾ أي: لا شك ولا مرية فيه بوجه من الوجوه، بل هو الحق اليقين: تنزيل من رب العالمين الذي ربى جميع الخلق بنعمه.

ومن أعظم أنواع تربيته أن أنزل عليهم هذا الكتاب الذي فيه مصالحهم الدينية والدنيوية، المشتمل على سكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال.

﴿أم يقولون﴾ أي: المكذبون به عناداً وبغياً: ﴿افتراه﴾ محمد على الله، واختلقه، ﴿قل﴾ لهم - ملزماً لهم بشيء - إن قدروا عليه، أمكن ما ادعوه، وإلا كان قولهم باطلاً.

﴿فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ يعاونكم على الإتيان بسورة مثله، وهذا محال، ولو كان ممكناً لادعوا قدرتهم على ذلك، ولأتوا بمثله.

ولكن لما بان عجزهم تبين أن ما قاله باطل، لا حظ له من الحجة، والذي هلمهم على التكذيب بالقرآن المشتمل على الحق الذي لا حق فوقه، أنهم لم يحيطوا به علماً.

فلو أحاطوا به علماً وفهموه حتى فهمه، لأدعوا بالتصديق به، وكذلك إلى الآن لم يأتهم تأويله الذي وعدهم أن ينزل بهم العذاب ويحل بهم النكال، وهذا التكذيب الصادر منهم من جنس تكذيب من قبلهم، ولهذا قال: ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴿وهو الهالك

الشیطان للإنسان، أقبح البهتان، وأضل الضلال، حتى اعتقد ذلك وألفه وظنه حقاً، وهو لا شيء.

ولهذا قال: وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء أي: ما يتبعون في الحقيقة شركاء لله، فإنه ليس لله شريك أصلاً عقلاً ولا نقلاً، وإنما يتبعون الظن و ﴿إن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ فسموها آلهة وعبدوها مع الله، ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾.

﴿إن الله عليم بما يفعلون﴾ وسيجازيهم على ذلك بالعقوبة البليغة.

﴿٣٧-٤١﴾ ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا رب فيه من رب العالمين﴾ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين ﴿وإن كذبوك فقل لي عمل ولکم عملکم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾ يقول تعالى: ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله﴾ أي: غير ممكن ولا متصور، أن يفترى هذا القرآن على الله تعالى، لأنه الكتاب العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴿وهو الكتاب الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وهو كتاب الله الذي يتكلم به [رب العالمين]، فكيف يقدر أحد من الخلق أن يتكلم بمثله، أو بما يقاربه، والكلام تابع لعظمة المتكلم ووصفه؟!﴾

فإن كان أحد يماثل الله في عظمته وأوصاف كماله، أمكن أن يأتي بمثل هذا القرآن، ولو تنزلنا على الفرض والتقدير، فنقول أحد على رب

﴿٣٤-٣٦﴾ ﴿قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنتي تؤفكون﴾ قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدي فما لكم كيف تحكمون ﴿وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغني من الحق شيئاً إن الله عليم بما يفعلون﴾ يقول تعالى - مبيناً عجز آلهة المشركين وعدم اتصافها بما يوجب اتخاذها آلهة مع الله - ﴿قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق﴾ أي: مبتدئيه ﴿ثم يعيده﴾ وهذا استفهام بمعنى النفي والتقرير، أي: ما منهم أحد يبدأ الخلق ثم يعيده، وهي أضعف من ذلك وأعجز، ﴿قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ من غير مشارك ولا معاون له على ذلك.

﴿فأنتي تؤفكون﴾ أي: تصرفون، وتحرفون عن عبادة المنفرد بالابتداء، والإعادة إلى عبادة من لا يخلق شيئاً وهم يخلقون.

﴿قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق﴾ ببيانه وإرشاده أو بإلهامه وتوفيقه.

﴿قل الله﴾ وحده ﴿يهدي للحق﴾ بالأدلة والبراهين، وبالإلهام والتوفيق، والإعانة إلى سلوك أقوم طريق.

﴿أمن لا يهدي﴾ أي: لا يهدي إلا أن يهدي ﴿لعدم علمه ولضلاله، وهي شركاؤهم التي لا تهدي ولا تهدي إلا أن تهدي﴾ ﴿فما لكم كيف تحكمون﴾ أي: أي شيء جعلكم تحكمون هذا الحكم الباطل، بصحة عبادة أحد مع الله، بعد ظهور الحجة والبرهان أنه لا يستحق العبادة إلا الله وحده.

فإذا تبين أنه ليس في آلهتهم التي يعبدون مع الله أوصافاً معنوية ولا أوصافاً فعلية، تقتضي أن تعبد مع الله، بل هي متصفة بالنقائص الموجبة لبطلان إلهيتها، فلا شيء جعلت مع الله آلهة؟

فالجواب: أن هذا من تزوين

إلى الصراط المستقيم والدين القويم، حيث فاتهم النعيم، واستحقوا دخول النار.

﴿٤٦﴾ ﴿وإما نريتك بعض الذي نعدهم أو نتوفيتك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون﴾ أي: لا تحزن أيها الرسول على هؤلاء المكذبين، ولا تستعجل لهم، فإنهم لا بد أن يصيبهم الذي نعدهم من العذاب.

إما في الدنيا فتراه بعينك، وتقره بنفسك.

وإما في الآخرة بعد الوفاة، فإن مرجعهم إلى الله، وسينبتهم بما كانوا يعملون، أحصاه الله ونسوه، والله على كل شيء شهيد، ففيه الوعيد الشديد لهم، والتسلي للرسول الذي كذبه قومه وعاندوه.

﴿٤٧ - ٤٩﴾ ﴿ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴿قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ يقول تعالى: ﴿ولكل أمة﴾ من الأمم الماضية ﴿رسول﴾ يدعوهم إلى توحيد الله ودينه.

﴿فإذا جاءهم﴾ هم ﴿رسولهم﴾ بالآيات، صدقه بعضهم وكذبه آخرون، فيقضي الله بينهم بالقسط بنجاة المؤمنين، وإهلاك المكذبين ﴿وهم لا يظلمون﴾ بأن يعذبوا قبل إرسال الرسول وبيان الحجة، أو يعذبوا بغير جرمهم، فليحذر المكذبون لك من مشابة الأمن المهلكين، فيحل بهم ما حل بأولئك.

ولا يستبطئوا العقوبة ويقولوا: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ فإن هذا ظلم منهم، حيث طلبوه من النبي ﷺ، فإنه ليس له من الأمر شيء، وإنما عليه البلاغ والبيان للناس.

الذي لا يعقل للكلام، فهؤلاء المكذبون، كذلك تمتع إسماعك إياهم إسماعاً ينتفعون به.

وأما إسماع الحجة، فقد سمعوا ما تقوم عليهم به حجة الله البالغة، فهذا طريق عظيم من طرق العلم قد انسدت عليهم، وهو طريق المسموعات المتعلقة بالخير.

ثم ذكر انسداد الطريق الثاني، وهو: طريق النظر فقال: ﴿ومنهم من ينظر إليك﴾ فلا يفيد نظره إليك، ولا سبر أحوالك شيئاً، فكما أنك لا تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون، فكذلك لا تهدي هؤلاء.

فإذا فسدت عقولهم وأسماعهم وأبصارهم التي هي الطرق الموصلة إلى العلم ومعرفة الحقائق، فأين الطريق الموصل لهم إلى الحق؟

ودل قوله: ﴿ومنهم من ينظر إليك﴾ الآية، أن النظر إلى حالة النبي ﷺ وهديه وأخلاقه وأعماله وما يدعو إليه من أعظم الأدلة على صدقه وصحة ما جاء به، وأنه يكفي البصير عن غيره من الأدلة.

وقوله: ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً﴾ فلا يزيد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم.

﴿ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾ يجيئهم الحق فلا يقبلونه، فيعاقبهم الله بعد ذلك بالطبع على قلوبهم، واختم على أسماعهم وأبصارهم.

﴿٤٥﴾ ﴿ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذبوا بقاء الله وما كانوا مهتدين﴾ يخبر تعالى عن سرعة انقضاء الدنيا، وأن الله تعالى إذا حشر الناس وجمعهم ليوم لا ريب فيه، كأنهم ما لبثوا إلا ساعة من نهار، وكأنه ما مر عليهم نعيم ولا يؤس، وهم يتعارفون بينهم، كحالهم في الدنيا، ففي هذا اليوم يربح المتقون، ويخسر الذين كذبوا بقاء الله وما كانوا مهتدين

الذي لم يبق منهم أحد. فليحذر هؤلاء أن يستمروا على تكذيبهم، فيحل بهم ما أحل بالأمن المكذبين والقرون المهلكين.

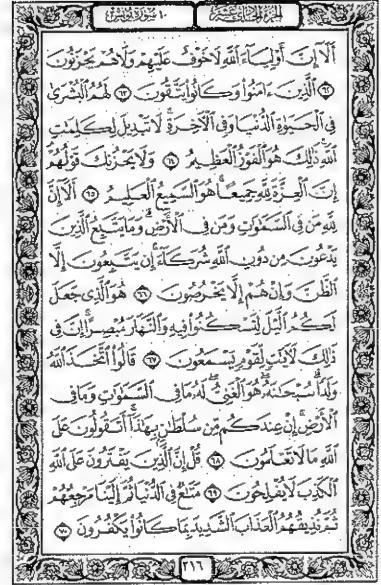
وفي هذا دليل على التثبيت في الأمور، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يبادر بقبول شيء أو رده قبل أن يحيط به علماً.

﴿ومنهم من يؤمن به﴾ أي: بالقرآن وما جاء به، ﴿ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمقسدين﴾ وهم الذين لا يؤمنون به على وجه العناد والظلم والفساد، فيسجازيهم على فسادهم بأشد العذاب.

﴿وإن كذبوك﴾ فاستمر على دعوتك، وليس عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء، لكل عمله. ﴿فقل لي عملكم ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾ كما قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾.

﴿٤٤ - ٤٦﴾ ﴿ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون﴾ ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾ يخبر تعالى عن بعض المكذبين للرسول ولما جاء به، ﴿و﴾ أن ﴿منهم من يستمعون﴾ إلى النبي ﷺ وقت قراءته للوحي، لا على وجه الاسترشاد، بل على وجه التفرج والتكذيب وتطلب العثرات، وهذا استماع غير نافع ولا مجد على أهله خيراً، لا جرم انسدت عليهم باب التوفيق، وحرموا من فائدة الاستماع، ولهذا قال: ﴿أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون﴾ وهذا الاستفهام بمعنى النفي التقرّر، أي: لا تسمع الصم الذين لا يستمعون القول ولو جهرت به، وخصوصاً إذا كان عقلهم معدوماً.

فإذا كان من المحال إسماع الأصم



ورافك ويهتان .

فإن كانوا صادقين في أنها شركاء لله، فليظهروا من أوصافها ما تستحق به مثقال ذرة من العبادة، فلن يستطيعوا، فهل منهم أحد يخلق شيئاً أو يرزق، أو يملك شيئاً من المخلوقات، أو يدبر الليل والنهار الذي جعله الله قياماً للناس؟

و ﴿هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه﴾ في النوم والراحة بسبب الظلمة، التي تغطي وجه الأرض، فلو استمر الضياء لما قرأوا ولما سكنوا.

و ﴿وجعل الله النهار مبصراً﴾ أي: مضيئاً، يبصر به الخلق، فيتصرفون في معاشهم، ومصالح دينهم ودنياهم.

﴿إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾ عن الله سمع فهم وقبول واسترشاد، لا سمع تعنت وعناد، فإن في ذلك لآيات لقوم يسمعون، يستدلون بها على أنه وحده المعبود وأنه الإله الحق، وأن إلهية ما سواه باطلة، وأنه الرؤوف الرحيم العليم الحكيم.

﴿٦٨ - ٧٠﴾ قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني له ما في السماوات وما في الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴿قل إن الذين يفترون على الله الكذب

لا يفلحون ﴿متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾ يقول تعالى خبراً عن بهت المشركين لرب العالمين ﴿قالوا اتخذ الله ولداً﴾ فنزه نفسه عن ذلك بقوله: ﴿سبحانه﴾ أي: تنزه عما يقول الظالمون في نسبة النقائص إليه علواً كبيراً، ثم برهن على ذلك بعبدة براهين:

أحدها: قوله: ﴿هو الغني﴾ أي: الغنى منحصر فيه، وأنواع الغنى مستغرقة فيه، فهو الغني الذي له الغنى التام بكل وجه واعتبار من جميع الوجوه، فإذا كان غنياً من كل وجه، فلا شيء يتخذ الولد؟

الحاجة منه إلى الولد، فهذا مناف لغناه فلا يتخذ أحد ولداً إلا لتقص في غناه.

البرهان الثاني، قوله: ﴿له ما في السماوات وما في الأرض﴾ وهذه كلمة جامعة عامة لا يخرج عنها موجود من أهل السماوات والأرض، الجميع مخلوقون عبيد ممالك.

ومن المعلوم أن هذا الوصف العام ينافي أن يكون له منهم ولد، فإن الولد من جنس والده، لا يكون مخلوقاً ولا مخلوكاً، فملكه ما في السماوات والأرض عموماً تنافي الولادة.

البرهان الثالث، قوله: ﴿إن عندكم من سلطان بهذا﴾ أي: هل عندكم من حجة وبرهان يدل على أن الله ولداً، فلو كان لهم دليل لأبدوه، فلما تعذروا وعجزهم عن إقامة الدليل، علم بطلان ما قالوه. وأن ذلك قول بلا علم، ولهذا قال: ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ فإن هذا من أعظم المحرمات.

﴿قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾ أي: لا ينالون مطلوبهم، ولا يحصل لهم مقصودهم، وإنما يتمتعون في كفرهم وكذبهم في الدنيا قليلاً، ثم ينتقلون إلى الله ويرجعون إليه، فيذيقهم العذاب

الشديد بما كانوا يكفرون. ﴿وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون﴾.

﴿٧١ - ٧٣﴾ وائل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبير عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون ﴿فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله

وأمرت أن أكون من المسلمين ﴿فكذبوه فنجيناها ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾ يقول تعالى لنبيه: وائل على قومك ﴿نبأ نوح﴾ في دعوته لقومه، حين دعاهم إلى الله مدة طويلة، فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلم يردم دعاؤه إياهم إلا طغياناً، فتملأوا منه وسموا، وهو عليه الصلاة والسلام غير متكاسل، ولا متوان في دعوتهم، فقال لهم: ﴿يا قوم إن كان كبير عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله﴾ أي: إن كان مقامي عندكم وتذكيري إياكم ما ينفعكم^(١) ﴿بآيات الله﴾ الأدلة الواضحة البينة، قد شق عليكم وعظم لديكم، وأردت أن تنالوني بسوء أو تردوا الحق. ﴿فعلى الله توكلت﴾ أي: اعتمدت على الله في دفع كل شريد

بي، وبما أددو إليه، فهذا جندي وعُدتي. وأنتم فاتوا بما قدرتم عليه، من أنواع العذو والعُدو. ﴿فأجمعوا أمركم﴾ كلمكم، بحيث لا يتخلف منكم أحد، ولا تدخروا^(٢) من مجهودكم شيئاً.

﴿و﴾ أحضروا ﴿شركاءكم﴾ الذي كنتم تعبدونهم وتوالونهم من دون الله رب العالمين.

﴿ثم لا يكن أمركم عليكم غمة﴾ أي: مشيتها خفياً، بل ليكن ذلك ظاهراً علانية.

﴿ثم اقضوا إلي﴾ أي: اقضوا علي بالعقوبة والسوء الذي في إمكانكم، ﴿ولا تنظرون﴾ أي: لا تمهلون ساعة

(١) في السخيتين: ما ينفعهم.

(٢) في السخيتين: ولا تدخرون.

وهكذا كل مفسد عمل عملاً،
واحتال كيداً، أو أتى بمكر، فإن عمله
سيبطل ويضمحل، وإن حصل لعمله
روجان في وقت ما، فإن ماله
الاضمحلال والمحق.

وأما المصلحون الذين قصدهم
بأعمالهم وجه الله تعالى، وهي أعمال
ووسائل نافعة وأمور بها، فإن الله
يصلح أعمالهم ويرقيها، وينميها على
الدوام، فألقى موسى عصاه، فتلقف
جميع ما صنعوا، فبطل سحرهم،
واضمحل باطلهم.

﴿٨٢﴾ ﴿ويحق الله الحق بكلماته
ولو كره المجرمون﴾ فألقى السحرة
شجداً حين تبين لهم الحق. فتوعدهم
فرعون بالصلب، وتقطع الأيدي
والأرجل، فلم يبالوا بذلك وثبتوا على
إيمانهم.

وأما فرعون وملؤه وأتباعهم، فلم
يؤمن منهم أحد، بل استمروا في
طغيانهم يعمهون.

ولهذا قال: ﴿فما آمن لموسى إلا
ذرية من قومه﴾ أي: شباب من بني
إسرائيل صبروا على الخوف، لما ثبت
في قلوبهم الإيمان.

﴿على خوف من فرعون وملأه أن
يفتنهم﴾ عن دينهم ﴿وإن فرعون لعال
في الأرض﴾ أي: له القهز والغلبة
فيها، فحقيق بهم أن يخافوا من بطشه.

﴿و﴾ خصوصاً ﴿إنه﴾ كان ﴿لمن
المسرفين﴾ أي: المتجاوزين للحد في
البيغي والعدوان.

والحكمة - والله أعلم - بكونه ما
آمن لموسى إلا ذرية من قومه، أن
الذرية والشباب أقبل للنحي، وأسرع له
انقياداً، بخلاف الشيوخ ونحوهم، ممن
تربى على الكفر فإنهم - بسبب ما مكث
في قلوبهم من العقائد الفاسدة - أبعد
من الحق من غيرهم.

﴿٨٤﴾ ﴿وقال موسى﴾ موصياً
لقومه بالصبر، ومذكراً لهم ما
يستعينون به على ذلك فقال: ﴿يا قوم
إن كنتم آمنتم بالله﴾ فقوموا بوظيفة

وهذا لا يجتج به من عرف الحقائق
وميز بين الأمور، فإن الحجج لا تدفع
إلا بالحجج والبراهين.

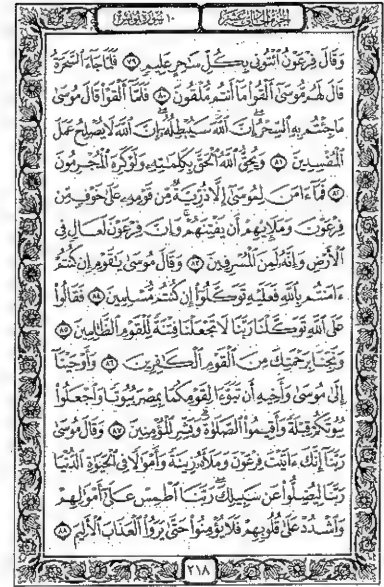
وأما من جاء بالحق فرد قوله بأمثال
هذه الأمور، فإنها تدل على عجز
موردها عن الإتيان بما يرد القول الذي
جاء به خصمه، لأنه لو كان له حجة
لأوردها، ولم يلجأ إلى قوله: قصدك
كذا، أو مرادك كذا، سواء كان صادقاً
في قوله وإخباره عن قصد خصمه أم
كاذباً، مع أن موسى عليه الصلاة
والسلام كل من عرف حاله وما يدعو
إليه، عرف أنه ليس له قصد في العلو
في الأرض، وإنما قصده كقصده
إخوانه المرسلين، هداية الخلق
وإرشادهم لما فيه نفعهم.

ولكن حقيقة الأمر كما نطقوا به
بقولهم: ﴿وما نحن لكما بمؤمنين﴾
أي: تكبراً وعناداً، لا لبطلان ما جاء
به موسى وهارون، ولا لاشتباه فيه،
ولا لغير ذلك من المعاني، سوى الظلم
والعدوان، وإرادة العلو الذي رما به
موسى وهارون.

﴿٧٩﴾ ﴿وقال فرعون﴾ معارضاً
للحق الذي جاء به موسى ومغالطاً^(٢)
لملئه وقومه: ﴿أئتوني بكل ساحر
عليم﴾ أي: ماهر بالسحر، متقن له.
فأرسل في مذائن مصر من أتاه
بأنواع السحرة، على اختلاف أجناسهم
وطبقاتهم.

﴿فلما جاء السحرة﴾ للمغالبة مع
موسى ﴿قال لهم موسى﴾^(٣) ﴿أنتم ملقون﴾ أي: أي: شيء أردتم لا
أعين لكم شيئاً، وذلك لأنه جازم
بغلبيته، غير مبال بهم وإنما جاؤوا به.

﴿فلما ألقوا﴾ جنابهم وعصبهم،
إذا هي كأنها حيات تسعى، فـ ﴿قال
موسى ما جئتم به السحر﴾ أي: هذا
السحر الحقيقي العظيم، ولكن مع
عظمته ﴿إن الله سيبطله﴾، إن الله
لا يصلح عمل المفسدين ﴿فإنهم
يريدون بذلك نصر الباطل على الحق،
وأي: فساد أعظم من هذا!!﴾



المين. ولهذا ﴿قال﴾ لهم ﴿موسى﴾ -
موضحاً لهم عن ردهم الحق الذي
لا يرده إلا أظلم الناس - : ﴿أتقولون
للحق لما جاءكم﴾ أي: أتقولون إنه
سحر مبین.

﴿أسحر هذا﴾ أي: فانظروا وصفه
وما اشتمل عليه، فيمجرد ذلك يجزم
بأنه الحق. ﴿ولا يفلح الساحرون﴾ لا
في الدنيا ولا في الآخرة، فانظروا لمن
تكون له العاقبة، ولن له الفلاح وعلى
يديه النجاح. وقد علموا بعد ذلك
وظهر لكل أحد أن موسى عليه السلام
هو الذي أفلح وفاز بظفر الدنيا
والآخرة.

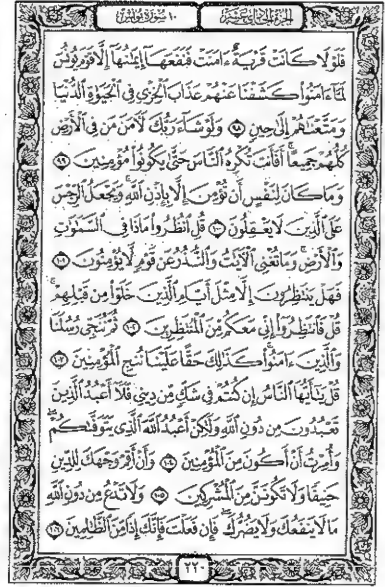
﴿٧٨﴾ ﴿قالوا﴾ لموسى راديين
لقوله بما لا يرده: ﴿أجئتنا لتلفتنا عما
وجدنا عليه آبائنا﴾ أي: أجئتنا لنصدنا
عما وجدنا عليه آبائنا من الشرك
وعبادة غير الله، وتأمرنا بأن نعبد الله
وحده لا شريك له؟ فجعلوا قول
آبائهم الضالين حجة، يردون بها الحق
الذي جاءهم به موسى عليه السلام.

وقولهم^(١): ﴿وتكون لكما
الكبرياء في الأرض﴾ أي: وجئتمونا
لتكونوا أنتم الرؤساء، ولتخرجونا من
أرضنا. وهذا تمويه منهم، وترويج على
جهالهم، وتبيح لعوامهم على معادة
موسى وعدم الإيمان به.

(٣) في ب: للمغالبة لموسى.

(٢) في ب: ومغالبا.

(١) في ب: وقوله.



هو موجب ذلك، ثم حصل من تضليل بعضهم لبعض، وعداوة بعضهم لبعض، ما هو قرة عين للعين.

والأ فإذا كان ربهم واحداً، ورسولهم واحداً، ودينهم واحداً، ومصالحهم العامة متفقة، فلا ي: شيء يختلفون اختلافاً يفرق شملهم، ويشتت أمرهم، ويحل رابطتهم ونظامهم، فيفوت من مصالحهم الدنيوية والدينية ما يفوت، ويموت من دينهم بسبب ذلك ما يموت؟

فنسألك اللهم لطفاً لعبادك المؤمنين، يجمع شملهم ويرأب صدعهم، ويرد قاصيهم على دانيهم، يا ذا الجلال والإكرام.

﴿٩٤ - ٩٥﴾ «فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين * ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكونن من الخاسرين» يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك﴾ هل هو صحيح أم غير صحيح؟

«فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك» أي: اسأل أهل الكتاب المنصفين، والعلماء الراشخين، فإنهم سيقرون لك بصدق ما أخبرت به، وموافقته لما معهم، فإن قيل: إن كثيراً من أهل الكتاب من اليهود والنصارى، بل ربما كان أكثرهم ومعظمهم كذبوا برسول الله وعاندهوه، وزدوا عليه دعوته:

والله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بهم، وجعل شهادتهم حجة لما جاء به، وبرهاناً على صدقه، فكيف يكون ذلك؟

فالجواب عن هذا من عدة أوجه: منها: أن الشهادة إذا أضيفت إلى طائفة، أو أهل مذهب، أو بلد ونحوهم، فإنها إنما تتناول العدول

لغافلون * لذلك تمر عليهم ولا يتفتنون بها لعدم إقبالهم عليها.

وأما من له عقل وقلب حاضر، فإنه يرى من آيات الله ما هو أكبر دليل على صحة ما أخبرت به الرسل.

﴿٩٣﴾ «ولقد بوأنا بني إسرائيل مبعوا صدق» أي: أنزلهم الله وأسكنهم في مساكن آل فرعون، وأورثهم أرضهم وديارهم.

«ورزقناهم من الطيبات» من المطاعم والمشارب وغيرهما «فما اختلفوا» في الحق «حتى جاءهم العلم» الموجب لاجتماعهم وإتلافهم، ولكن بغى بعضهم على بعض، وصار لكثير منهم أهوية وأغراض تخالف الحق، فحصل بينهم من الاختلاف شيء كثير.

«إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون» يحكمه العدل الناشئ عن علمه التام، وقدرته الشاملة، وهذا هو الداء الذي يعرض لأهل الدين الصحيح.

وهو: أن الشيطان إذا أعجزوه أن يطيعوه في ترك الدين بالكلية، سعى في التحريش بينهم، وإلقاء العداوة والبغضاء، فحصل من الاختلاف ما

الصادقين منهم وأما من عداهم، فلو كانوا أكثر من غيرهم فلا عبرة فيهم، لأن الشهادة مبنية على العدالة والصدق، وقد حصل ذلك بإيمان كثير من أخبارهم الريانيين، كـ «عبد الله بن سلام» [وأصحابه وكثير عن أسلم في وقت النبي ﷺ وخلفائه ومن بعده] ^(١) و «كعب الأحبار» وغيرهما.

ومنها: أن شهادة أهل الكتاب للرسول ﷺ مبنية على كتابهم التوراة الذي ينتسبون إليه.

فإذا كان موجوداً في التوراة ما يوافق القرآن ويصدق، ويشهد له بالصحة، فلو اتفقوا من أولهم لآخرهم ^(٢) على إنكار ذلك لم يقدر بما جاء به الرسول.

ومنها: أن الله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بأهل الكتاب على صحة ما جاءه، وأظهر ذلك وأعلنه على رؤوس الأشهاد.

ومن المعلوم أن كثيراً منهم من أحرص الناس على إبطال دعوة الرسول محمد ﷺ، فلو كان عندهم ما يرد ما ذكره الله، لأبدوه وأظهروه ويبنوه، فلما لم يكن شيء من ذلك، كان عدم رد المعادي، وإقرار المستجيب من أدل الأدلة على صحة هذا القرآن وصدقه.

ومنها: أنه ليس أكثر أهل الكتاب رد دعوة الرسول، بل أكثرهم استجاب لها وانقاد طوعاً واختياراً، فإن الرسول بعث وأكثر أهل الأرض المتدينين أهل كتاب ^(٣)

فلم يمكث دينه مدة غير كثيرة، حتى انتقاد للإسلام أكثر أهل الشام، ومصر والعراق وما جاورها من البلدان التي هي مقر دين أهل الكتاب، ولم يبق إلا أهل الرياسات الذين أثروا رياستهم على الحق، ومن تبعهم من العوام الجهلة، ومن تدين بدينهم اسماً لا معنى، كالإفرنج الذين حقيقة أمرهم

(١) زيادة من هامش ب، بخط المؤلف، وقد شطبت في ب الجملة التالية وهي قوله (وكعب الأحبار وغيرهما).

(٢) في النسختين: وأخبرهم ولعل الصواب ما أثبت.

(٣) في ب: أهل الكتاب.

تدركها أفهامنا.

قال الله تعالى: ﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾ إلى قوله: ﴿فأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون﴾ فآمنوا فممتنعهم إلى حين. ولعل الحكمة في ذلك أن غيرهم من المهلكين، لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه.

وأما قوم يونس فإن الله علم أن إيمانهم سيستمر، [بل قد استمر فعلاً وثبتوا عليه] (١) والله أعلم.

﴿٩٩ - ١٠٠﴾ ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويعمل الرجس على الذين لا يعقلون. يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾ بأن يلهمهم الإيمان، ويوزع قلوبهم للتقوى، فقدرته صالحة لذلك، ولكنه اقتضت حكمته أن كان بعضهم مؤمنين وبعضهم كافرين.

﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ أي: لا تقدر على ذلك، وليس في إمكانك، ولا قدرة لغير الله (٢) [على] (٣) شيء من ذلك.

﴿وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله﴾ أي: بإرادته ومشئته وإذنه القدري الشرعي، فمن كان من الخلق قابلاً لذلك، يتركه عنده الإيمان، وفقه وهده.

﴿ويعمل الرجس﴾ أي: الشر والضلال ﴿على الذين لا يعقلون﴾ عن الله أو أمره ونواهيته، ولا يلحقون بالآل لنصائحه ومواعظه.

﴿١٠١ - ١٠٣﴾ ﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴿ثم نتجى من ربنا والذين

وأسماعهم وأبصارهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم الذي وعدوا به. فحينئذ يعلمون حق اليقين أن ما هم عليه هو الضلال، وأن ما جاءتهم به الرسل هو الحق. ولكن في وقت لا يجدي عليهم إيمانهم شيئاً، فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون، وأما الآيات فإنها تنفع من له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

﴿٩٨﴾ ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾ يقول تعالى: ﴿فلولا كانت قرية﴾ من قرى المكذبين ﴿آمنت﴾ حين رأت العذاب ﴿فنفعها إيمانها﴾ أي: لم يكن منهم أحد انتفع بإيمانه حين رأى العذاب، كما قال تعالى عن فرعون ما تقدم قريباً، لما قال: ﴿آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾ فقبل له ﴿الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾.

وكما قال تعالى: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده، وكفرنا بما كنا به مشركين﴾ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده.

وقال تعالى: ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعوني﴾ لعلني أعمل صالحاً فيما تركت كلا.

والحكمة في هذا ظاهرة، فإن الإيمان الاضطرابي ليس بإيمان حقيقة، ولو صرف عنه العذاب والأمر الذي اضطره إلى الإيمان، لرجع إلى الكفران.

وقوله: ﴿إلا قوم يونس لما آمنوا﴾ بعدما رأوا العذاب، ﴿كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾ فهم مستنونون من العموم السابق، ولا بد لذلك من حكمة لعالم الغيب والشهادة لم تصل إلينا، ولم

أنهم دهرية منحلون عن جميع أديان الرسل، وإنما انتسبوا للدين المسيحي ترويحاً لملكهم، وترويحاً لباطلهم، كما يعرف ذلك من عرف أحوالهم البيئية الظاهرة.

وقوله: ﴿لقد جاءك الحق﴾ أي: الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه ولهذا قال: ﴿من ربك فلا تكونن من الممترين﴾ كقوله تعالى: ﴿كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه﴾.

﴿٩٥﴾ ﴿ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين﴾ وحاصل هذا أن الله نهى عن شيئين: الشك في هذا القرآن والامتراء فيه.

وأشد من ذلك التكذيب به، وهو آيات الله البينات التي لا تقبل التكذيب بوجه، ورتب على هذا الخسار، وهو عليم الريح أصلاً، وذلك بفوات الثواب في الدنيا والآخرة، وحصول العقاب في الدنيا والآخرة، والنهي عن الشيء أمر بضده، فيكون أمراً بالتصديق التام بالقرآن، وطمانينة القلب إليه، والإقبال عليه علماً وعملاً.

فبذلك يكون العبد من الراجحين الذين أدركوا أجل المطالب، وأفضل الرغائب وأتم المناقب، وانتفى عنهم الخسار.

﴿٩٦ - ٩٧﴾ ﴿إن الذين حققت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون﴾ ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم يقول تعالى: ﴿إن الذين حققت عليهم كلمة ربك﴾ أي: إنهم من الضالين الغاوين أهل النار، لا بد أن يصيروا إلى ما قدره الله وقضاه، فلا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية، فلا تزيدهم الآيات إلا طغياناً وغياً إلى غيهم.

وما ظلمهم الله، ولكن ظلموا أنفسهم بردهم للحق لما جاءهم أول مرة، فعاقبهم الله بأن طبع على قلوبهم

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) في النسختين: غير الله، وكان لا بد من زيادة اللام لتستقيم العبارة.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

للعادة، فإنه النافع الضار، المعطي المانع، الذي إذ من بضر، كفقر ومرض، ونحوها ﴿فلا كاشف له إلا هو﴾ لأن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوا بشيء، لم ينفعوا إلا بما كتبه الله، ولو اجتمعوا على أن يضروا أحداً لم يقدروا على شيء من ضرره، إذا لم يرد الله، ولهذا قال: ﴿وان يردك بخير فلا راد لفضله﴾ أي: لا يقدر أحد من الخلق، أن يرد فضله وإحسانه، كما قال تعالى: ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة، فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾.

﴿يصيب به من يشاء من عباده﴾ أي: يختص برحمته من شاء من خلقه، والله ذو الفضل العظيم، ﴿وهو الغفور﴾ لجميع الزلات، الذي يوفق عبده لأسباب مغفرته، ثم إذا فعلها العبد، غفر الله ذنوبه كبارها وصغارها.

﴿الرحيم﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، ووصل جنوده إلى جميع الموجودات، بحيث لا تستغني عن إحسانه طرفة عين، فإذا عرف العبد بالدليل البقايح أن الله هو المنفرد بالنعم، وكشف النقم، وإعطاء الحسنات، وكشف السيئات والكربات، وأن أحداً من الخلق، ليس بيده من هذا شيء إلا ما أجزاه الله على يده، جزم بأن الله هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل.

ولهذا - لما بين الدليل الواضح قال بعده: -

﴿١٠٨-١٠٩﴾ ﴿قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل﴾ واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ﴿أي: قل﴾ يا أيها الرسول، لما تبين البرهان ﴿يا أيها الناس قد جاءكم الحق

محمد ﷺ سيد المرسلين، وإمام المتقين وخير الموقنين: ﴿قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني﴾ أي: في ريب واشتباه، فإني لست في شك منه، بل لدي العلم اليقيني أنه الحق، وأن ما تدعون من دون الله باطل، ولي على ذلك الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة، ولهذا قال: ﴿فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله﴾ من الأنداد والأصنام وغيرها، لأنها لا تخلق ولا ترزق، ولا تدبر شيئاً من الأمور، وإنما هي مخلوقة مسخرة، ليس فيها ما يقتضي عبادتها.

﴿ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم﴾ أي: هو الله الذي خلقكم، وهو الذي يميّتكم ثم يعثركم ليجازيكم بأعمالكم، فهو الذي يستحق أن يعبد ويصل له ويخضع ويسجد.

﴿وأمرت أن أكون من المؤمنين﴾ وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ﴿أي: أخلص أعمالك الظاهرة والباطنة لله، وأقم جميع شرائع الدين حنيفاً، أي: مقبلاً على الله، معرضاً عما سواه، ولا تكون من المشركين﴾ لا في حالهم، ولا تكن معهم.

﴿١٠٦﴾ ﴿ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك﴾ وهذا وصف لكل مخلوق، أنه لا ينفع ولا يضر، وإنما النافع الضار هو الله تعالى.

﴿فإن فعلت﴾ بأن^(١) دعوت من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك ﴿فإنك إذا من الظالمين﴾ أي: الضارين أنفسهم بإهلاكها، وهذا الظلم هو الشرك كما قال تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ فإذا كان خير الخلق، لو دعا مع الله غيره، لكان من الظالمين المشركين فكيف بغيره؟! ﴿١٠٧﴾

﴿وان يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم﴾ هذا من أعظم الأدلة على أن الله وحده المستحق

أمتوا كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين ﴿يدعو تعالى عباده إلى النظر لما في السماوات والأرض، والمراد بذلك: نظر الفكر والاعتبار والتأمل، لما فيها وما تحتوي عليه، والاستبصار، فإن في ذلك آيات لقوم يؤمنون، وعبراً لقوم يوقنون، تدل على أن الله وحده المعبود المحمود، ذو الجلال والإكرام، والأسماء والصفات العظام.

﴿وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ فإنهم لا ينتفعون بالآيات لإعراضهم وعنادهم.

﴿فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم﴾ أي: فهل ينتظر هؤلاء الذين لا يؤمنون بآيات الله بعد وضوحها، ﴿إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم﴾ أي: من الهلاك والعقاب، فإنهم صنعوا كصنيعهم، وسنة الله جارية في الأولين والآخرين.

﴿قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ فستعلمون لمن تكون له العاقبة الحسنة، والنجاة في الدنيا والآخرة، وليست إلا للرسول وأتباعهم.

ولهذا قال: ﴿ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا﴾ من مكاره الدنيا والآخرة وشدائدها.

﴿كذلك حقاً علينا﴾ أوجبناه على أنفسنا ﴿ننجي المؤمنين﴾ وهذا من دفعه عن المؤمنين فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، فإنه - بحسب ما مع العبد من الإيمان - تحصل له النجاة من المكاره.

﴿١٠٤-١٠٦﴾ ﴿قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين﴾ وأن أقم وجهك للمدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين ﴿ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين﴾ يقول تعالى لنبيه

تفسير سورة هود عليه الصلاة والسلام، [وهي] مكية

﴿١-٤﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ * الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير * ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير * وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير * إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير * يقول تعالى: هذا كتاب عظيم، ونزل كريم، ﴿أحكمت آياته﴾ أي: أتقنت وأحسننت، صادقة أخبارها، عادلة وأمرها ونواهيها، فصيحة أفاضله بية معانيه.

﴿ثم فصلت﴾ أي: ميزت وبينت بياناً في أعلى أنواع البيان، ﴿من لدن حكيم﴾ يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، لا يأمر ولا ينهى إلا بما تقتضيه حكمته، ﴿خبير﴾ مطلع على الظواهر والبواطن.

﴿٢﴾ فإذا كان إحكامه وتفضيله من عند الله الحكيم الخبير، فلا تسأل بعد هذا عن عظمته وجلالته واشتماله على كمال الحكمة وسعة الرحمة. وإنما أنزل الله كتابه لـ ﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾ أي: لأجل إخلاص الدين كله لله، وأن لا يشرك به أحد من خلقه.

﴿إنني لكم﴾ أي: أنا الله ربكم ﴿نذير﴾ لمن تجرأ على المعاصي بعقاب الدنيا والآخرة، و﴿بشير﴾ للمطيعين لله بثواب الدنيا والآخرة.

﴿٣﴾ ﴿وأن استغفروا ربكم﴾ عن ما صدر منكم من الذنوب ﴿ثم توبوا إليه﴾ فيما تستقبلون من أعماركم بالرجوع إليه، بالإنابة والرجوع عما يكرهه الله إلى ما يحبه ويرضاه.

ثم ذكر ما يترتب على الاستغفار والتوبة فقال: ﴿يمتعكم متاعاً حسناً﴾ أي: يعطيكم من رزقه ما تتمتعون به

من ربكم * أي: الخبير الصادق المؤيد بالبراهين، الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه، وهو واصل إليكم من ربكم الذي من أعظم تزييته لكم، أن أنزل إليكم هذا القرآن الذي فيه تبيان لكل شيء، وفيه من أنواع الأحكام والمطالب الإلهية والأخلاق المرضية، ما فيه أعظم تربية لكم، وإحسان منه إليكم، فقد تبين الرشد من الغي ولم يبق لأحد شبهة.

﴿فمن اهتدى﴾ بهدى الله بأن علم الحق وتفهمه، وأثره على غيره، فلنفسه والله تعالى غني عن عبادته، وإنما ثمرة أعمالهم راجعة إليهم.

﴿ومن ضل﴾ عن الهدى بأن أعرض عن العلم بالحق، أو عن العمل به، ﴿فإنما يضل عليها﴾ ولا يضر الله شيئاً، فلا يضر إلا نفسه.

﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾ فأحفظ أعمالكم وأحاسبكم عليها، وإنما أنا لكم نذير مبين، والله عليكم وكيل. فانظروا لأنفسكم ما دمتم في مدة الإمهال.

﴿واتبع﴾ أيها الرسول ﴿ما يوحى إليك﴾ علماً وعملاً وحالاً، ودعوة إليه، و﴿واصبر﴾ على ذلك، فإن هذا أعلى أنواع الصبر، وإن عاقبته حيدة، فلا تكسل ولا تضجر، بل دم على ذلك واثبت، ﴿حتى يحكم الله﴾ بينك وبين من كذبك ﴿وهو خير الحاكمين﴾ فإن حكمه مشتمل على العدل التام والقسط الذي يحمد عليه.

وقد امتثل ﷺ أمر ربه، وثبت على الصراط المستقيم، حتى أظهر الله دينه على سائر الأديان، ونصره على أعدائه بالسيف والسنان، بعدما نصره [الله] عليهم بالحجة والبرهان، فله الحمد، والثناء الحسن، كما ينبغي لجلاله وعظمته وكماله وسعة إحسانه.

ثم تفسير سورة يونس

والحمد لله رب العالمين



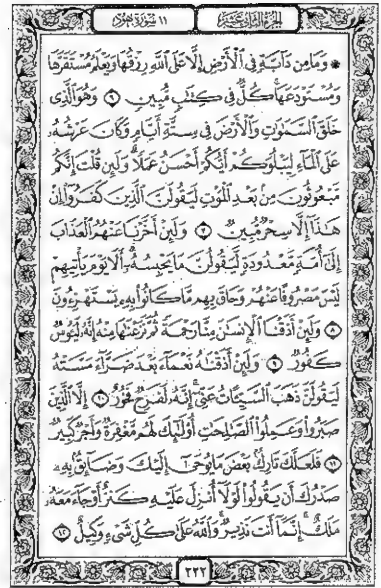
وتنتفون.

﴿إلى أجل مسمى﴾ أي: إلى وقت وفاتكم ﴿ويؤت﴾ منكم ﴿كل ذي فضل فضله﴾ أي: يعطي أهل الإحسان والبر من فضله وبره، ما هو جزاء لإحسانهم، من حصول ما يحبون، ودفع ما يكرهون.

﴿وإن تولوا﴾ عن ما دعوتكم إليه، بل أعرضتم عنه، وربما كذبتم به ﴿فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾ وهو يوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، فيجازيهم بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وفي قوله: ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ كالدليل على إحياء الله الموتى، فإنه قدير على كل شيء^(١)، ومن جملة الأشياء إحياء الموتى، وقد أخبر بذلك وهو أصدق القائلين، فيجب وقوع ذلك عقلاً ونقلاً.

﴿٥﴾ ﴿ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه إلا حين يستغيثون ويغيثهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور﴾ يخبر تعالى عن جهل المشركين، وشدة ضلالهم، أنهم يثنون صدورهم أي: يميلونها ليستخفوا من الله، ففتح صدورهم



حاجبة لعلم الله بأحوالهم، وبصره لهيئاتهم.

قال تعالى - مبيناً خطأهم في هذا الظن - ﴿الْأَحْيَاءُ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: يتغشون بها، يعلمهم في تلك الحال، التي هي من أخفى الأشياء.

بل ﴿يَعْلَمُ مَا يَسْرُونَ﴾ من الأقوال والأفعال ﴿وَمَا يَعْلَمُونَ﴾ منها، بل ما هو أبغ من ذلك، وهو: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما فيها من الإرادات، والوساوس، والأفكار التي لم ينطقوا بها، سرا ولا جهراً، فكيف تخفى عليه خالككم، إذا نثتم صدوركم لتستخفوا منه.

ويحتمل أن المعنى في هذا أن الله يذكر إعراض المكذبين للرسول الغافلين عن دعوته، أنهم - من شدة إعراضهم - يثنون صدورهم، أي: يحدودبون حين يرون الرسول ﷺ لثلا يراهم ويسمعهم دعوته، ويعظمهم بما ينفعهم، فهل فوق هذا الإعراض شيء؟!؟

ثم توعدهم بعلمه تعالى بجميع أحوالهم، وأنهم لا يخفون عليه، وسيجازيهم بصنيعهم.

﴿٦﴾ ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مَبِينٍ﴾ أي:

جميع ما دب على وجه الأرض، من آدمي، أو حيوان بري أو بحري، فالله تعالى قد تكفل بأرزاقهم وأقواتهم، فرزقها^(١) على الله.

﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا﴾ أي: يعلم مستقر هذه الدواب، وهو: المكان الذي تقيم فيه وتستقر فيه، وتأوي إليه، ومستودعها: المكان الذي تستقل إليه في ذهابها وبجسنتها، وعوارض أحوالها.

﴿كُلٌّ مِنْ تَفَاصِيلِ أَحْوَالِهَا﴾ في كتاب مبين^(٢) أي: في اللوح المحفوظ المحتوي على جميع الحوادث الواقعة، والتي تقع في السماوات والأرض. الجميع قد أحاط بها علم الله، وجرى بها قلمه، ونفذت فيها مشيئته، ووسعها رزقه، فلتطمئن القلوب إلى كفاية من تكفل بأرزاقها، وأحاط علماً بذواتها، وصفاتها.

﴿٧-٨﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ لَكُمْ مِعْوَتُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مَبِينٌ * وَلَئِنْ أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولَنَّ مَا يَجِبُهُ إِلَّا يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَخَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يخبر تعالى أنه ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ﴿وَ﴾ حين خلق السماوات والأرض ﴿كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ فوق السماء السابعة.

فبعد أن خلق السماوات والأرض استوى عليه، يدبر الأمور، ويصرفها كيف شاء من الأحكام القدريّة، والأحكام الشرعيّة. ولهذا قال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: ليمتحنكم، إذ خلق لكم ما فني السماوات والأرض بأمره ونهيه، فينظر أيكم أحسن عملاً.

قال الفضيل بن عياض رحمه الله:

(٢) كذا في ب، وفي أ: أشد الكذب.

﴿أَخْلَصَهُ وَأَصْوَبَهُ﴾.

فيل يا أبا علي: «ما أخْلَصَهُ وَأَصْوَبَهُ»؟

فقال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً، لم يقبل.

وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً.

والخالص: أن يكون لوجه الله، والصواب: أن يكون متبعاً فيه الشرع والسنة، وهذا كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ، لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فله تعالى خلق الخلق لعبادته ومعرفته بأسمائه وصفاته، وأمرهم بذلك، فمن انقاد، وأدى ما أمر به، فهو من المفلحين، ومن أعرض عن ذلك، فأولئك هم الخاسرون، ولا بد أن يجمعهم في دار يجازيهم فيها على ما أمرهم به ونهاهم.

ولهذا ذكر الله تكذيب المشركين بالجزاء، فقال: ﴿وَلَئِنْ قُلْتُمْ لَكُمْ مِعْوَتُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مَبِينٌ﴾.

أي: ولئن قلت لهؤلاء وأخبرتهم بالبعث بعد الموت، لم يصدقوك، بل كذبوك أشد الكذب^(١)، وقدحوا فيما جئت به، وقالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مَبِينٌ﴾ ألا وهو الحق المبين.

﴿وَلَئِنْ أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ أي: إلى وقت مقدر فتباطؤوه، لقالوا من جهلهم وظلمهم ﴿مَا يَجِبُهُ﴾ ومضمون هذا تكذيبهم به، فلمهم يستدلون بعدم وقوعه بهم عاجلاً على كذب الرسول المخبر بوقوع العذاب، فما أبعد هذا الاستدلال!!

﴿إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ العذاب ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ فيمتكئون من النظر في أمرهم.

﴿وَخَافَ بِهِمْ﴾ أي: نزل ﴿مَا كَانُوا

(١) في ب: فرزقهم.

دعوته، فإن كنتم صادقين، فأتوا بعشر سور مثله مفتريات.

﴿فإن لم يستجيبوا لكم﴾ على شيء من ذلكم ﴿فاعلموا أنما أنزل بعلم الله﴾ [من عند الله] ﴿لقيام الدليل والمقتضى، وانتفاء المعارض.

﴿وأن لا إله إلا هو﴾ أي: واعلموا أنه لا إله إلا هو أي: هو وحده المستحق للآلوهية والعبادة، ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ أي: منقادون للآلوهية، مستسلمون لعبوديته، وفي هذه الآيات إرشاد إلى أنه لا ينبغي للداعي إلى الله أن يصنعه اعتراض المعارضين، ولا قبح القادحين.

خصوصاً إذا كان القدح لا مستند له، ولا يقدح فيما دعا إليه، وأنه لا يضيق صدره، بل يطمئن بذلك، ماضياً على أمره، مقبلاً على شأنه، وأنه لا يجب إجابة اقتراحات المقترحين للأدلة التي يختارونها. بل يكفي إقامة الدليل السالم عن المعارض، على جميع المسائل والمطالب. وفيها أن هذا القرآن، معجز بنفسه، لا يقدر أحد من البشر أن يأتي بمثله، ولا بعشر سور من مثله، بل ولا بسورة من مثله، لأن الأعداء البلغاء الفصحاء، تحداهم الله بذلك، فلم يعارضوه، لعلمهم أنهم لا قدرة فيهم على ذلك.

وفيها: أن بما يطلب فيه العلم، ولا يكفي غلبة الظن، علم القرآن، وعلم التوحيد، لقوله تعالى: ﴿فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو﴾.

﴿١٥ - ١٦﴾ ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون﴾ أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحيط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴿يقول تعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها﴾ أي: كل إرادته مقصورة على الحياة الدنيا، وعلى زينتها

يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ فلم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴿يقول تعالى - مسلياً لنبيه محمد ﷺ عن تكذيب الكاذبين -: ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز﴾ أي: لا ينبغي هذا لملك، أن قولهم يؤثر فيك، ويصدك عما أنت عليه، فتترك بعض ما يوحى إليك، ويضيق صدرك لتعتهم بقولهم: ﴿لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك﴾ فإن هذا القول ناشئ من تعنت، وظلم، وعناد، وضلال، وجهل بمواقع الحجج والأدلة، فامض على أمرك، ولا تصدك هذه الأقوال الركيكة التي لا تصدر إلا من سفیه ولا يضيق لذلك صدرك.

فهل أوردوا عليك حجة لا تستطيع حلها؟ أم قدحوا ببعض ما جئت به قدحاً، يؤثر فيه وينقص قدره، فيضيق صدرك لذلك؟!

أم عليك حسابهم، ومطالب بهديتهم جبراً؟ ﴿إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل﴾ فهو الوكيل عليهم، يحفظ أعمالهم ويجازيهم بها أتم الجزاء.

﴿أم يقولون افتراه﴾ أي: افتري محمد هذا القرآن؟

فأجابهم بقوله: ﴿قل﴾ لهم ﴿فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ أنه قد افتراه ^(٢)، فإنه لا فرق بينكم وبينه في الفصاحة والبلاغة، وأنتم الأعداء حقاً، الحريصون بغاية ما يمكنكم على إبطال

به يستهزؤون﴾ من العذاب، حيث تهاوتوا به، حتى جزموا بكذب من جاء به.

﴿٩ - ١٠﴾ ﴿ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور﴾ ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور ﴿إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير﴾ يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان، أنه جاهل ظالم بأن الله إذا أذاقه منه رحمة كالصحة والرزق، والأولاد، ونحو ذلك، ثم نزعها منه، فإنه يستسلم لليأس، وينقاد للقنوط، فلا يرجو ثواب الله، ولا يخطر بباله أن الله سيردها أو مثلاً، أو خيراً منها عليه.

وأنه إذا أذاقه رحمة من بعد ضراء مسته، أنه يفرح ويبطر، ويظن أنه سيدوم له ذلك الخير، ويقول: ﴿ذهب السيئات عني، إنه لفرح فخور﴾ أي: فرح ^(١) بما أوتي مما يوافق هوى نفسه، فخور بنعم الله على عباد الله، وذلك يحمله على الأشتر والبطر والإعجاب بالنفس، والتكبر على الخلق، واحتقارهم وازدراؤهم، وأي عيب أشد من هذا؟!

وهذه طبيعة الإنسان من حيث هو، إلا من وفقه الله وأخرجه من هذا الخلق الذميم إلى ضده، وهم الذين صبروا أنفسهم عند الضراء فلم يياسوا، وعند السراء فلم يبطروا، وعملوا الصالحات من واجبات ومستحبات.

﴿أولئك لهم مغفرة﴾ لذنوبهم، يزول بها عنهم كل مخذور. ﴿وأجر كبير﴾ وهو: الفوز بجنات النعيم، التي فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين.

﴿١٢ - ١٤﴾ ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن

(١) في ب: يفرح.

(٢) في ب: أي: أنه قد افتراه.

(٣) في ب: ﴿فاعلموا أنما أنزل بعلم الله﴾ [من عند الله] والجملة الأخيرة قد شطبت في أ.

وَيَدْخُلُ فِي هَذَا كُلِّ مَنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ، بِنَسِيَةِ الشَّرِيكِ لَهُ، أَوْ وَصَفَهُ بِمَا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، أَوْ الْإِخْبَارِ عَنْهُ، بِمَا لَمْ يَقُلْ، أَوْ ادَّعَاءِ النُّبُوَّةِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْكُذْبِ عَلَى اللَّهِ، فَهَؤُلَاءِ أَعْظَمُ النَّاسِ ظُلْماً ﴿أُولَئِكَ يَعْرِضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ لِيَجْزِيَهُمْ بِظُلْمِهِمْ، فَعِنْدَمَا يُحْكَمُ عَلَيْهِمْ بِالْعِقَابِ الشَّدِيدِ يَقُولُ الشَّاهِدُ ﴿أَيُّ: الَّذِينَ شَهِدُوا عَلَيْهِمْ كَذِبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أَيُّ: لَعْنَةُ لَا تَنْقُطُ، لِأَنَّ ظُلْمَهُمْ ضَارٌّ وَصَفَاءُ لَهُمْ مَلْأَمًا، لَا يَقِلُّ التَّخْفِيفُ.

ثُمَّ وَصَفَ ظُلْمَهُمْ فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فَصَدُّوا بَأَنْفُسِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَهِيَ سَبِيلُ الرِّسَالِ الَّتِي دَعَا النَّاسَ إِلَيْهَا، وَصَدُّوا غَيْرَهُمْ عَنْهَا، فَصَارُوا أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ.

﴿وَيَسْغُونَهَا﴾ أَيُّ: سَبِيلِ اللَّهِ ﴿عُوجًا﴾ أَيُّ: يَجْتَهِدُونَ فِي مِيلِهَا، وَتَشْيِئُهَا، وَتَهْجِيئُهَا، لِتَصِيرَ عِنْدَ النَّاسِ غَيْرَ مُسْتَقِيمَةٍ، فَيُحْسِنُونَ الْبَاطِلَ وَيَقْبِضُونَ الْحَقَّ، فَيُجْهِمُ اللَّهُ ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أَيُّ: لَيْسُوا فَائِزِينَ مِنَ اللَّهِ، لِأَنَّهُمْ حَتَّ قَبْضَتَهُ وَفِي سُلْطَانِهِ.

﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ﴾ فَيَدْفَعُونَ عَنْهُمْ الْمَكْرَهُ، أَوْ يَحْصِلُونَ لَهُمْ مَا يَنْفَعُهُمْ، بَلْ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ.

﴿يَضَاعِفُ لَهُمْ الْعَذَابَ﴾ أَيُّ: يَغْلُظُ وَيَزَادُ، لِأَنَّهُمْ ضَلُّوا بَأَنْفُسِهِمْ وَأَضَلُّوا غَيْرَهُمْ.

﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ أَيُّ: مِنْ بَعْضِهِمْ لِلْحَقِّ وَنُفُورِهِمْ عَنْهُ، مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَسْمَعُوا آيَاتِ اللَّهِ سَمْعًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ ﴿فَمَا لَهُمْ مِنَ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ كَأَنَّهُمْ حَرَّضْتُمْ عَنْهُمْ ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ ﴿وَمَا كَانُوا يَبْصُرُونَ﴾ أَيُّ: يَنْظُرُونَ نَظْرَ

أَوْحَاهُ اللَّهُ وَشَرَعَهُ، وَعَلِمَ بِعَقْلِهِ حَسَنَتَهُ، فَازْدَادَ بِذَلِكَ إِيمَانًا إِلَى إِيْمَانِهِ.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ الْهُدَى﴾ تَمَّ شَاهِدُ ثَالِثٍ وَهُوَ ﴿كِتَابُ مُوسَى﴾ التَّوْرَةُ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ ﴿إِمَامًا﴾ لِلنَّاسِ ﴿وَوَحْيَةً﴾ لَهُمْ، يَشْهَدُ لِهَذَا الْقُرْآنِ بِالصِّدْقِ، وَيُؤَافِقُهُ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ.

أَيُّ: أَفَمَنْ كَانَ هَذَا الْوَصْفُ قَدْ تَوَارَدَتْ عَلَيْهِ شَوَاهِدُ الْإِيمَانِ، وَقَامَتْ لَدَيْهِ أَدْلَةُ الْيَقِينِ، كَمَنْ هُوَ فِي الظُّلُمَاتِ وَالْجَهَالَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا؟

لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَا عِنْدَ عِبَادِ اللَّهِ، ﴿أُولَئِكَ﴾ أَيُّ: الَّذِينَ وَفَّقُوا لِقِيَامَ الْأَدْلَةِ عِنْدَهُمْ، ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بِالْقُرْآنِ حَقِيقَةً، فَيُشِيرُ لَهُمْ إِيْمَانُهُمْ كُلَّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ أَيُّ: الْقُرْآنَ ﴿مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ أَيُّ: سَائِرِ طَوَائِفِ أَهْلِ الْأَرْضِ، الْمُتَحْزِبَةِ عَلَى رَدِّ الْحَقِّ، ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ لَا يَذْمُنُ وَرُودُهُ إِلَيْهَا ﴿فَلَا تَكُ فِي مَرِيَّةٍ مِنْهُ﴾ أَيُّ: فِي أَدْنَى شَكٍّ ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إِمَّا جَهْلًا مِنْهُمْ وَضَلَالًا، وَإِمَّا ظُلْمًا وَعِنَادًا وَبَغْيًا، وَإِلَّا فَمَنْ كَانَ قَصْدُهُ حَسَنًا وَفَهْمُهُ مُسْتَقِيمًا، فَلَا يَدَّ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ، لِأَنَّهُ يَرَى مَا يَدْعُوهُ إِلَى الْإِيمَانِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ.

﴿١٨ - ٢٢﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يَعْرِضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَسْغُونَهَا عُوجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يَضَاعِفُ لَهُمْ الْعَذَابَ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يَبْصُرُونَ﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿لَا جِزْمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا أَخْذَ أَظْلَمَ عَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا

مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ، مِنَ الذَّهَبِ، وَالْفُضَّةِ، وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ، وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ. قَدْ صَرَفَ رَغْبَتَهُ وَسَعِيَهُ وَعَمَلَهُ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، وَلَمْ يَجْعَلْ لِلدَّارِ الْقَرَارِ مِنْ إِرَادَتِهِ شَيْئًا، فَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا كَافِرًا، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ مُؤْمِنًا، لَكَانَ مَعَ مَعَهُ مِنَ الْإِيمَانِ يَمْنَعُهُ أَنْ تَكُونَ جَمِيعُ إِزَادَتِهِ لِلدَّارِ الدُّنْيَا، بَلْ نَفْسُ إِيْمَانِهِ وَمَا تَسَّرَ لَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ أَثَرٌ مِنْ أَثَارِ إِزَادَتِهِ الدَّارِ الْآخِرَةِ.

وَلَكِنْ هَذَا الشَّقِيُّ، الَّذِي كَانَهُ خَلَقَ لِلدُّنْيَا وَحْدَهَا ﴿ثَوْبُ الْيَوْمِ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا﴾ أَيُّ: نَعِطِيهِمْ مَا قَسَمَ لَهُمْ فِي أَمِّ الْكِتَابِ مِنْ ثَوَابِ الدُّنْيَا.

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَبْخَسُونَ﴾ أَيُّ: لَا يَنْقُصُونَ شَيْئًا عَمَّا قَدَّرَ لَهُمْ، وَلَكِنْ هَذَا مَتْنِي نَعِيمِهِمْ.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، لَا يَقْتَرُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ، وَقَدْ حَرَّمُوا جَزِيلَ الثَّوَابِ.

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ أَيُّ: فِي الدُّنْيَا، أَيُّ: بَطُلَ وَاضْمَحَلَّ مَا عَمِلُوهُ مِمَّا يَكِيدُونَ بِهِ الْحَقَّ وَأَهْلَهُ، وَمَا عَمِلُوهُ مِنْ أَعْمَالِ الْخَيْرِ الَّتِي لَا أَسَاسَ لَهَا، وَلَا وَجُودَ لَشَرْطِهَا، وَهُوَ الْإِيمَانُ.

﴿١٧﴾ ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرُوحَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مَرِيَّةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يَذْكُرُ تَعَالَى حَالَ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَمَنْ قَامَ مَقَامَهُ مِنْ وَرَثَتِهِ الْقَائِمِينَ بِدِينِهِ، وَحُجَّجِهِ الْمُوقِنِينَ بِذَلِكَ، وَأَنَّهُمْ لَا يُوَصِّفُ بِهِمْ غَيْرَهُمْ وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ مِثْلَهُمْ، فَقَالَ: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ بِالْوَحْيِ الَّذِي أَنْزَلَ^(١) اللَّهُ فِيهِ الْمَسَائِلَ الْمُهَمَّةَ، وَدَلَالَتِهَا الظَّاهِرَةَ، فَتَيَقَّنُ تِلْكَ الْبَيْتَةَ.

﴿وَيَتْلُوهُ﴾ أَيُّ: يَتْلُو هَذِهِ الْبَيْتَةَ وَالْبِرْهَانَ بِرَهَانٍ آخَرَ ﴿شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ وَهُوَ شَاهِدُ الْفُطْرَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ، وَالْعَقْلُ النَّصْحِيحُ، حِينَ شَهِدَ حَقِيقَةَ مَا

(١) كَذَا فِي ب، وَفِي أ: أَنْزَلَهُ.



عبرة وتفكر، فيما ينفعهم، وإنما هم كالصم البكم الذين لا يعقلون. ﴿أولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ حيث فوتوها أعظم الثواب، واستحقوا أشد العذاب، ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي: اضمحل دينهم الذي يدعون إليه ويحسنونه، ولم تغن عنهم آلهتهم التي يعبدون من دون الله لما جاء أمر ربك.

﴿لا جرم﴾ أي: حقاً وصدقاً ﴿أنهم في الآخرة هم الأخسرون﴾ حصر الخسار فيهم، بل جعل لهم منه أشده، لشدة حسرتهم وحرمانهم وما يعانون من المشقة من العذاب، نستجير بالله من حالهم.

ولما ذكر حال الأشقياء، ذكر أوصاف السعداء وما لهم عند الله من الثواب، فقال: ﴿٢٣- ٢٤﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً أفلا تذكرون؟ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِقُلُوبِهِمْ، أَي: صدقوا واعتبروا، لما أمر الله بالإيمان به من أصول الدين وقواعده.

﴿وعملوا الصالحات﴾ المشتملة على أعمال القلوب والجوارح وأقوال اللسان. ﴿وأخبتوا إلى ربهم﴾ أي: خضعوا له واستكانوا لعظمته، وذلوا لسلطانه، وأنابوا إليه بمحبته وخوفه ورجائه والتضرع إليه. ﴿أولئك﴾ الذين جمعوا تلك الصفات ﴿أصحاب الجنة﴾ هم فيها خالدون لأنهم لم يتركوا من الخير مطلباً، إلا أدركوه، ولا خيراً، إلا سبقوا إليه.

﴿مثل الفريقين﴾ أي: فريق الأتقياء وفريق السعداء، ﴿كالأعمى والأصم﴾ هؤلاء الأشقياء، ﴿والبصير والسميع﴾ مثل السعداء. ﴿هل يستويان مثلاً﴾ لا يستويان

مثلاً، بل بينهما من الفرق ما لا يأتي عليه الوصف، ﴿أفلا تذكرون﴾ الأعمال التي تنفعكم فتفعلونها، والأعمال التي تضركم فتتركوها. ﴿٢٥- ٤٩﴾ ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين﴾ إلى آخر القصة^(١) أي: ولقد أرسلنا رسولنا نوحاً أول المرسلين ﴿إلى قومه﴾ يدعوهم إلى الله وينهاهم عن الشرك فقال لهم: ﴿إني لكم نذير مبين﴾ أي: بينت لكم ما أنذركم به بيانا زال به الإشكال.

﴿أن لا تعبدوا إلا الله﴾ أي: أخلصوا العبادة لله وحده، واتركوا كل ما يعبد من دون الله. ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم اليم﴾ إن لم تقوموا بتوحيد الله وتطيعوني.

﴿٢٧﴾ ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ أي: الأشراف والرؤساء، رادين لدعوة نوح عليه السلام، كما جرت العادة لأمثالهم، أنهم أول من رد دعوة المرسلين. ﴿ما نراك إلا بشراً مثلاً﴾ وهذا مانع بزعمهم عن اتباعه، مع أنه في نفس الأمر هو الصواب الذي لا ينبغي غيره، لأن البشر يتمكن البشر أن يتلقوا عنه، ويراجعوه في كل أمر، بخلاف الملائكة.

﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا﴾ أي: ما نرى اتبعك منا إلا الأراذل والسفلة بزعمهم. وهم في الحقيقة الأشراف وأهل العقول الذين انقادوا للحق، ولم يكونوا كالأراذل الذين يقال لهم الملأ، الذين اتبعوا كل شيطان مريد، واتخذوا آلهة من الحجر والشجر، يتقربون إليها ويسجدون لها، فهل ترى أرذل من هؤلاء وأخس؟

وقولهم: ﴿يادي الرأي﴾ أي: إنما اتبعوك من غير تفكير وروية، بل بمجرد ما دعوتهم اتبعوك، يعنون بذلك أنهم ليسوا على بصيرة من أمرهم، ولم يعلموا أن الحق المبين تدعو

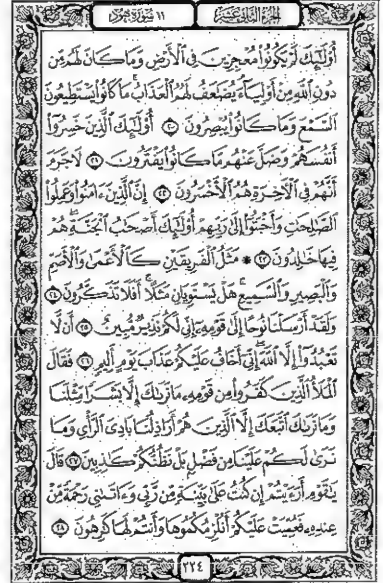
إليه بداهة العقول، وبمجرد ما يصل إلى أولى الآليات يعرفونه ويتحققونه، لا كالأمر الخفية التي تحتاج إلى تأمل وفكر طويل.

﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾ أي: لستم أفضل منا فنقد لكم، ﴿بل نظنكم كاذبين﴾ وكذبوا في قولهم هذا، فإنهم رأوا من الآيات التي جعلها الله مؤيدة لنوح، ما يوجب لهم الجزم التام على صدقه.

ولهذا ﴿قال﴾ لهم نوح مجاباً ﴿يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي﴾ أي: على يقين وجزم، يعني وهو الرسول الكامل القدوة، الذي يتقاده له أولو الآليات، ويضمحل في جنب عقله عقول الفحول من الرجال، وهو الصادق حقاً، فإذا قال: إني على بينة من ربي، فحسبك بهذا القول شهادة له وتصديقاً.

﴿وأتاني رحمة من عنده﴾ أي: أوجى إلي وأرسلني، ومن علي بالهداية، ﴿فعميت عليكم﴾ أي: خفيت عليكم، وبها تناقلتكم. ﴿أنزلكمكموها﴾ أي: أنكرهمكم على ما تحققناه، وشككتكم أنتم فيه؟ ﴿وأنتم لها كارهون﴾ حتى حرصتم على رد ما جئت به، ليس ذلك ضارنا، وليس بقادح من يقيننا فيه، ولا قولكم

(١) في ب: أكمل الآيات إلى قوله تعالى: ﴿فأصبر إن العاقبة للمتقين﴾.



السلام بقوله: ﴿إنما يأتيكم به الله إن شاء﴾ أي: إن اقتضت مشيئته وحكمته أن ينزله بكم، فعل ذلك. ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ لله، وأنا ليس بيدي من الأمر شيء.

﴿ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم﴾ أي: إن إرادة الله غالبية، فإنه إذا أراد أن يغويكم لردكم الحق، فلو حرصت غاية مجهودي، ونصحت لكم أتم النصح - وهو قد فعل عليه السلام - فليس ذلك ينفع لكم شيئاً، ﴿هو ربيكم﴾ يفعل بكم ما يشاء، ويحكم فيكم بما يريد ﴿وليه ترجعون﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

﴿أم يقولون افتراه﴾ هذا الضمير محتمل أن يعود إلى نوح كما كان السياق في قصته مع قومه، وأن المعنى أن قومه يقولون: افترى على الله كذباً، وكذب بالوحي الذي يزعم أنه من الله، وأن الله أمره أن يقول: ﴿قل إن افتريته فعلي إجرامي وأنا بريء مما تجرمون﴾ أي: كل عليه وزره ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾.

ويحتمل أن يكون عائداً إلى النبي محمد ﷺ، وتكون هذه الآية معترضة في أثناء قصة نوح وقومه، لأنها من الأمور التي لا يعلمها إلا الأنبياء، فلما شرع الله في قصصه على رسوله، وكانت من جملة الآيات الدالة على صدقه ورسالته، ذكر تكذيب قومه له مع البيان الثام، فقال: ﴿أم يقولون افتراه﴾ أي: هذا القرآن اختلقه محمد من تلقاء نفسه، أي: فهذا من أعجب الأقوال وأبطلها، فإنهم يعلمون أنه لم يقرأ ولم يكتب، ولم يرخل عنهم لدراسة على أهل الكتب، فجاء هذا الكتاب الذي تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله.

فإذا زعموا - مع هذا - أنه افتراه، علم أنهم معاندون، ولم يبق فائدة في حجاجهم، بل اللائق في هذه الحال الإعراض عنهم، ولهذا قال: ﴿قل إن افتريته فعلي إجرامي﴾ أي: ذنبي

والأصلح، وتدبرون الأمور.

﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك﴾ أي: غاييتي أني رسول الله إليكم، أبشركم وأنذركم، وأما ما عدا ذلك فليس بيدي من الأمر شيء، فليست خزائن الله عندي أدبرها أنا، وأعطي من أشاء وأحرم من أشاء، ﴿ولا أعلم الغيب﴾ فأخبركم بسر أئركم وبواطنكم ﴿ولا أقول إني ملك﴾ والمعنى: أني لا أدعي رتبة فوق رتبتي، ولا منزلة سوى المنزلة التي أنزلني الله بها، ولا أحكم على الناس بظني.

﴿ولا أقول للذين تزدري أعينكم﴾ أي: ضعفاء المؤمنين الذين يحتقرهم الملأ الذين كفروا ﴿لن يؤتهم الله خيراً الله أعلم بما في أنفسهم﴾ فإن كانوا صادقين في إيمانهم فلهم الخير الكثير، وإن كانوا غير ذلك فحسابهم على الله.

﴿إني إذا﴾ أي: إن قلت لكم شيئاً مما تقدم ﴿لن الظالمين﴾ وهذا تأييس منه عليه الصلاة والسلام لقومه، أن ينبذ فقراء المؤمنين أو يمتقهم، وتقنع لقومه بالطرق المقتنة للمنصف.

فلما رآه لا ينكف عما كان عليه من دعوتهم، ولم يدركوا منه مطلوبهم ﴿قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فاتنا بما تعدنا﴾ من العذاب ﴿إن كنت من الصادقين﴾ فما أجهلهم وأضلهم، حيث قالوا هذه المقالة ليسهم الناصح.

فهلا قالوا إن كانوا صادقين: يا نوح قد نصحتنا وأشفقت علينا، ودعوتنا إلى أمر لم يتبين لنا فتريد منك أن تبيته لنا لننقاد لك، وإلا فأنت مشكور في نصحك. لكان هذا الجواب المنصف، الذي قد دعي إلى أمر خفي عليه، ولكنهم في قولهم كاذبون، وعلى نبيهم متجرون. ولم يردوا ما قاله بأدنى شبهة، فضلاً عن أن يردوه بحجة.

ولهذا عدلوا - من جهلهم وظلمهم - إلى الاستعجال بالعذاب، وتعجيز الله، ولهذا أجابهم نوح عليه

وافترأكم علينا صادراً لنا عما كنا عليه. وإنما غايته أن يكون صادراً لكم أنتم، وموجباً لعدم انقيادكم للحق، الذي تزعمون أنه باطل، فإذا وصلت الحال إلى هذه الغاية، فلا نقدر على إكراهكم على ما أمر الله، ولا إلزامكم ما أنفرت من عنه، ولهذا قال: ﴿أنزل مكموها وأنتم لها كارهون﴾ ﴿ويا قوم لا أسألكم عليه﴾ أي: على دعوتي إياكم ﴿مالاً﴾ فستثقلون المغم.

﴿إن أجري إلا على الله﴾ وكأنهم طلبوا منه طرد المؤمنين الضعفاء، فقال لهم: ﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا﴾ أي: ما ينبغي لي ولا يليق بي ذلك، بل ألتفاهم بالرحب والإكرام، والإعزاز والإعظام ﴿إنهم ملائقوا ربهم﴾ فمشيهم على إيمانهم وتقواهم بجنت التيم.

﴿ولكنني أراكم قوماً تجهلون﴾ حيث تأمروني بطرد أولياء الله وإبعادهم عني، وحيث رددتم الحق لأنهم أتباعه، وحيث استدللتم على بطلان الحق بقولكم إني بشر مثلكم وإنه ليس لنا عليكم من فضل.

﴿ويا قوم من ينصرتي من الله إن طردتهم﴾ أي: من يمتنع من عذابه، فإن طردهم موجب للعذاب والنكال الذي لا يمنعه من دون الله مانع.

﴿أفلا تذكرون﴾ ما هو الأنفع لكم



فاحمد الله واشكره، واصبر على ما أنت عليه من الدين القويم، والصراط المستقيم والدعوة إلى الله **﴿إن العاقبة للمتقين﴾** الذين يتقون الشرك وسائر المعاصي، فستكون لك العاقبة على قومك، كما كانت لنوح على قومه.

﴿٥٠ - ٦٠﴾ **﴿وإلى عاد أخاهم هوداً﴾** إلى آخر القصة ^(١). أي: **﴿هو﴾** أرسلنا **﴿إلى عاد﴾** وهم القبيلة المعروفة في الأحقاف، من أرض اليمن، **﴿أخاهم﴾** في النسب **﴿هوداً﴾** ليتمكنوا من الأخذ عنه والعلم بصدقه.

ف **﴿قال﴾** لهم **﴿يا قوم اعبدوا الله﴾** المالك من إله غيره إن أنتم إلا مفترون **﴿أي: أمرهم بعبادة الله وحده، ونهاهم عما هم عليه من عبادة غير الله، وأخبرهم أنهم قد افترضوا على الله الكذب في عبادتهم لغيره، وتحيزهم لذلك، ووضح لهم وجوب عبادة الله، وفساد عبادة ما سواه.﴾**

ثم ذكر عدم المانع لهم من الانقياد فقال: **﴿يا قوم لا أسألكم عليه أجراً﴾** أي: غرامة من أموالكم على ما دعوتكم إليه، فتقولوا: هذا يريد أن يأخذ أموالنا، وإنما أَدْعُوكُمْ وأَعْلَمُكُمْ مجاناً.

﴿إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون﴾ ما أَدْعُوكُمْ إليه، وأنه موجب لقبوله، منتف المانع عن رده.

﴿ويا قوم استغفروا ربكم﴾ عما مضى منكم **﴿ثم توبوا إليه﴾** فيما تستقبلونه بالتوبة النصوح والإنابة إلى الله تعالى.

فإنكم إذا فعلتم ذلك **﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾** بكثرة الأمطار التي تهب بها الأرض، ويكثر خيرها.

﴿ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾ فإنهم كانوا من أقوى الناس، ولهذا قالوا: **﴿من أشد منا قوة؟﴾** فوعدهم أنهم

فيالمغفرة والرحمة ينجو العبد من أن يكون من الخاسرين، ودل هذا على أن نوحاً عليه السلام لم يكن عنده علم بأن سؤاله لربه في نجاة ابنه محرم، داخل في قوله **﴿ولا تحاطبني في الذين ظلموا﴾** إنهم مغرورون، بل تعارض عنده الأمران، وظن دخوله في قوله: **﴿وأهلك﴾**.

وبعد ذلك تبين له أنه داخل في المنهي عن الدعاء لهم والمراجعة فيهم.

﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك﴾ من الآدميين وغيرهم من الأرواح التي حملها معه، فبارك الله في الجميع، حتى ملأوا أقطار الأرض ونواحيها.

﴿وأمم ستمتعهم﴾ في الدنيا **﴿ثم يمسهم منا عذاب أليم﴾** أي: هذا الإنجاء ليس بمانع لنا من أن نكفر بعد ذلك أحللنا به العقاب، وإن متعوا قليلاً، فسؤخذون بعد ذلك.

قال الله لنبيه محمد ﷺ بعدما قص عليه هذه القصة المبسوطة التي لا يعلمها إلا من من عليه برسائه.

﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾ فيقولوا: إنه كان يعلمها.

إن آمنوا زادهم قوة إلى قوتهم. **﴿ولا تتولوا﴾** عنه، أي: عن ربكم **﴿مجرمين﴾** أي: مستكبرين عن عبادته، متجرئين على محارمه.

ف **﴿قالوا﴾** رادين لقوله: **﴿يا هود ما جئنا ببينة﴾** إن كان قصدهم بالبينة البينة التي يقترحونها، فهذه غير لازمة للنق، بل اللازم أن يأتي النبي بآية تدل على صحة ما جاء به، وإن كان قصدهم أنه لم يأتهم ببينة تشهد لما قاله بالصحة، فقد كذبوا في ذلك، فإنه ما جاء نبي ليقومه إلا وبعث الله على يديه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر.

ولو لم يكن له آية، إلا دعوته إليهم لإخلاص الدين لله وحده لا شريك له، والأمر بكل عمل صالح وخلق جميل، والنهي عن كل خلق ذميم من الشرك بالله، والفواحش والظلم، وأنواع المنكرات، مع ما هو مشتمل عليه هود عليه السلام من الصفات التي لا تكون إلا لخيار الخلق وأصدقهم، لكفى بها آيات وأدلة على صدقه.

بل أهل العقول وأولو الألباب، يرون أن هذه الآية أكبر من مجرد الخوارق التي يراها بعض الناس، هي المعجزات فقط. ومن آياته الدالة على صدقه، أنه شخص واحد، ليس له أنصار ولا أعوان، وهو يصرخ في قومه ويناديه، ويعجزهم، ويقول لهم: **﴿إني توكلت على الله ربي وربكم﴾**.

﴿إني أشهد الله وأشهدوا أنني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون﴾ وهم الأعداء الذين لهم السطوة والغلبة، ويزيدون إطفاء ما معه من النور، بأي: طريق كان وهو غير مكترث منهم، ولا مبال بهم، وهم عاجزون لا يقدر أن يتألمه بشيء من السوء، إن في ذلك آيات لقوم يعقلون.

وقولهم **﴿وما نحن بتاركي آلِهتنا﴾**

(١) في ب: ذكر الآيات كاملة إلى قوله تعالى: **﴿ألا بعداً لعاد قوم هود﴾**.

عن قولك ﴿أي: لا ترك عبادة الكهنة لمجرد قولك الذي ما أقمت عليه بيعة بزعمهم، ﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾ وهذا تأييس منهم لنبيهم هود عليه السلام في إيمانهم، وأنهم لا يزالون في كفرهم بعمهمون.

﴿إن نقول﴾ فيك ﴿إلا اعتراك بعض الكهنة بسوء﴾ أي: أصابتك بخبال وجنون فصرت تهذي بما لا يعقل. فسبحان من طبع على قلوب الظالمين، كيف جعلوا أصدق الخلق الذي جاء بأحق الحق، بهذه المرتبة التي يستحي العاقل من حكايتها عنهم لولا أن الله حكاهما عنهم.

ولهذا بين هود عليه الصلاة والسلام أنه واثق غاية الوثوق أنه لا يصيبه منهم، ولا من الكهنة أذى فقال: ﴿إني أشهد الله وأشهدوا أي برئ عما تشركون من دونه فكيدي جميعاً﴾ أي: اطلبوا لي الضرر كلكم، بكل طريق تشتملون بها مني ﴿ثم لا تنظرون﴾ أي: لا تهملوني.

﴿إني توكلت على الله﴾ أي: اعتمدت في أمري كله على الله ﴿وبريكم﴾ أي: هو خالق الجميع، ومديرنا وإياكم، وهو الذي ربانا.

﴿ما من دابة إلا هو أخذ بناصيتها﴾ فلا تتحرك ولا تسكن إلا بإذنه، فلو اجتمعتم جميعاً على الإيقاع بي، والله لم يسلطكم علي، لم تقدرُوا على ذلك، فإن سلطكم، فلحكمة أرادها.

﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾ أي: على عدل، وقسط، وحكمة، وحمد في قضائه وقدره، في شرعه وأمره، وفي جزائه وثوابه وعقابه، لا تخرج أفعاله عن الصراط المستقيم، التي يحمد ويثنى عليه بها.

﴿فإن تولوا﴾ عما دعوتكم إليه ﴿فقد أبليتكم ما أرسلت به إليكم﴾ فلم يبق علي تبعه من شأنكم. ﴿ويستخلف ربي قوماً غيركم﴾

يقومون بعبادته ولا يشركون به شيئاً ﴿ولا تضرونه شيئاً﴾ فإن ضرركم إنما يعود عليكم، فالله لا تضره معصية العاصين، ولا تنفعه طاعة المطيعين^(١) ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾ I ﴿إن ربي على كل شيء حفيظ﴾.

﴿ولما جاء أمرنا﴾ أي: عذابنا بإرسال الريح العقيم، التي ﴿ما تذر من شيء أنت عليه إلا جعلته كالرميم﴾.

﴿نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ أي: عظيم شديد، أحله الله بعباد، فأصبحوا لا يرى إلا مسكنهم.

﴿وتلك عاد﴾ الذين أوقع الله بهم ما أوقع يظلم منهم لأنهم ﴿جحدوا بآيات ربهم﴾ ولهذا قالوا لهود: ﴿ما جئتنا بيعة﴾ فبين هذا أنهم متيقنون لدعوتهم، وإنما عاندوا وجحدوا ﴿وعصوا رسله﴾ لأن من عصى رسولاً فقد عصى جميع المرسلين، لأن دعوتهم واحدة.

﴿واتبعوا أمر كل جبار﴾ أي: متسلط على عباد الله بالجبروت، ﴿عنيذ﴾ أي: معاند لآيات الله، فعصوا كل ناصح ومشفق عليهم، واتبعوا كل غاش لهم يريد إهلاكهم لا جرم أهلكهم الله.

﴿واتبعوا في هذه الدنيا لعنة﴾ فكل وقت وجيل، إلا ولأبنائهم القبيحة وأخبارهم الشنيعة، ذكر يذكرون به، وذم يلحقهم ﴿ويوم القيامة﴾ لهم أيضاً لعنة ﴿إلا إن عاداً كفروا ربهم﴾ أي: جحدوا من خلقهم ورزقهم ورباهم. ﴿ألا بعداً لعاد قوم هود﴾ أي: أبعدهم الله عن كل خير وقربهم من كل شر.

﴿٦٨-٦٩﴾ ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾ إلى آخر قصتهم^(٢)، أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى ثمود﴾ وهم: عاد الثانية، المعروفون الذين يسكنون



الحجر، ووادي القرى، ﴿أخاهم﴾ في النسب ﴿صالحاً﴾ عبد الله ورسوله ﷺ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده، ف ﴿قال يا قوم اعبدوا الله﴾ أي: وحدوه، وأخلصوا له الدين ﴿ما لكم من إله غيره﴾ لا من أهل السماء، ولا من أهل الأرض.

﴿هو أنشأكم من الأرض﴾ أي: خلقكم فيها ﴿واستعمركم فيها﴾ أي: استخلفكم فيها، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، ومكنكم في الأرض تبون وتغرسون وتزرعون، وتحراثون ما شئتم، وتنتفعون بمنافعها، وتستغلون مصالحها، فكما أنه لا شريك له في جميع ذلك، فلا تشركوا به في عبادته.

﴿فاستغفروه﴾ ما صدر منكم من الكفر والشرك والمعاصي، وأقلعوا عنها، ﴿ثم توبوا إليه﴾ أي: ارجعوا إليه بالتوبة النصوح والإنابة، ﴿إن ربي قريب مجيب﴾ أي: قريب ممن دعاه دعاء مسألة، أو دعاء عبادة، يجيبه بإعطائه سؤله، وقبول عبادته، وإثابته عليها، أجل الثواب، واعلم أن قربه تعالى نوعان: عام، وخاص، فالقرب العام: قربه بعلمه من جميع الخلق، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿ونحن

(١) في ب: الطائعين.

(٢) في ب: ذكر الآيات كاملة إلى قوله تعالى: ﴿ألا بعداً لثمود﴾.



أقرب إليه من جبل الوريد والقرب الخاص: قربه من عابديه وسائله ومحبيه، وهو المذكور في قوله تعالى: «واسجد واقترب».

وفي هذه الآية، وفي قوله تعالى: «وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع» وهذا النوع، قرب يقتضي إلطافه تعالى، وإجابته لدعواتهم، وتحقيقه لمراداتهم، ولهذا يقرن باسمه «القريب» اسمه «المجيب».

فلما أمرهم نبيهم صالح عليه السلام، ورغبهم في الإخلاص لله وحده، ردوا عليه دعوته، وقابلوه أشنع المقابلة.

«قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا» أي: قد كنا نرجوك ونؤمل فيك العقل والنفع، وهذا شهادة منهم لنبيهم صالح أنه ما زال معروفاً بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأنه من خيار قومه.

ولكنه لما جاءهم بهذا الأمر الذي لا يوافق أهواءهم الفاسدة، قالوا هذه المقالة التي مضمونها أنك [قد] كنت كاملاً، والآن أخلفت ظننا فيك، وصرت بحالة لا يرجى منك خير.

وذنبه ما قالوه عنه، وهو قولهم: «أنهنا أن نعبد ما يعبد آبائنا»

وبزعمهم أن هذا من أعظم القدح في صالح، كيف قدح في عقولهم وعقول آبائهم الضالين، وكيف ينهاتهم عن عبادة من لا ينفع ولا يضر، ولا يغني شيئاً من الأحجار والأشجار ونحوها.

وأمرهم بإخلاص الذين لله ربهم الذي لم تزل نعمه عليهم تنرى، وإحسانه عليهم دائماً ينزل، الذي ما بهم من نعمة إلا منه، ولا يدفع عنهم السيئات إلا هو.

«واننا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب» أي: ما زلنا شاكين فيما دعوتنا إليه شكاً مؤثراً في قلوبنا الريب.

وبزعمهم أنهم لو علموا صحة ما دعاهم إليه لاتبعوه، وهم كذبة في ذلك، ولهذا بين كذبهم في قوله:

«قال يا قوم أرايتم إن كنت على بيته من ربي» أي: برهان ويقين مني «وأتاني منه رحمة» أي: من علي برسالته ووحيه، أي: أفأتابعكم على ما أنتم عليه وما تدعونني إليه؟

«فمن ينصرتني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير» أي: غير خسارة وتباب وضرر «ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية» لها شرب من البئر يوماً، ثم يشربون كلهم من ضرعها، ولهم شرب يوم معلوم.

«فذروها تأكل في أرض الله» أي: ليس عليكم من مؤنتها وعلفها شيء، «ولا تمسوها بسوء» أي: بعقر «فياخذكم عذاب قريب، فعقروها فقال لهم صالح: «تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب» بل لا بد من وقوعه.

«فلما جاء أمرنا» بوقوع العذاب «نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ» أي: نجيناهم من العذاب والخزي والفضيحة.

«إن ربك هو القوي العزيز» ومن قوته وعزته أن أهلك الأمم الطاغية، ونجى الرسل وأتباعهم، «وأخذ الذين ظلموا الصبيحة» العظيمة فقطعت

قلوبهم، «فأصبحوا في ديارهم جائمين» أي: خامدين لا حراك لهم.

«كان لم يغثوا فيها» أي: كأنهم لما جاءهم العذاب ما تمتعوا في ديارهم ولا أنسوا بها^(١)، ولا تنعموا بها يوماً من الدهر، قد فارقهم النعيم، وتناولهم العذاب السرمد الذي لا ينقطع، الذي كأنه لم يزل.

«ألا إن ثمود كفروا بربهم» أي: جحدوه بعد أن جاءتهم الآية المبصرة، «ألا بعداً لثمود» فما أشقاهم وأذلهم، نستجير بالله من عذاب الدنيا وخزيها.

٦٩ - ٨٣ «ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى» إلى آخر القصة^(٢)

أي: «ولقد جاءت رسلنا» من الملائكة الكرام، رسولنا «إبراهيم» الخليل «بالبشرى» أي: بالبشارة بالولد، حين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، وأمرهم أن يمشوا على إبراهيم، فيبشروه بإسحاق، فلما دخلوا عليه «قالوا سلاماً قال سلام» أي: سلموا عليه، ورد عليهم السلام.

ففي هذا مشروعية السلام، وأنه لم يزل من ملة إبراهيم عليه السلام، وأن السلام قبل الكلام، وأنه ينبغي أن يكون الرد أبلغ من الابتداء، لأن سلامهم بالجملة الفعلية الدالة على التجدد، ورده بالجملة الاسمية، الدالة على الثبوت والاستمرار، وبينهما فرق كبير كما هو معلوم في علم العربية.

«فما لبث» إبراهيم لما دخلوا عليه «أن جاء يعجل حنيذ» أي: بادر لبيته، فاستحضر لأضيافه عجلًا مشويًا على الرضف سمينا، فقربه إليهم فقال: ألا تأكلون؟

«فلما رأى أيديهم لا تصل إليه» أي: إلى تلك الضيافة «نكرهم وأوجس منهم خيفة» وظن أنهم أتوه بشر ومكروه، وذلك قبل أن يعرف أمرهم.

(١) في ب: فيها.

(٢) في ب: أكمل الآيات إلى قوله تعالى: «وما هي من الظالمين ببيعد».

ف **﴿قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط﴾** أي : إنا رسل الله ، أرسلنا الله إلى إهلاك قوم لوط .

وامرأة إبراهيم **﴿قائمة﴾** تخدم أضيافه **﴿فضحككت﴾** حين سمعت بحالهم وما أرسلوا به ، تعجباً . **﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾** فتعجبت من ذلك و **﴿قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً﴾** فهذان مانعان من وجود الولد **﴿إن هذا لشيء عجيب﴾** . **﴿قالوا أتعجبين من أمر الله﴾** فإن أمره لا عجب فيه ، لنفوذ مشيئته التامة في كل شيء ، فلا يستغرب على قدرته شيء ، وخصوصاً فيما يدبره ويمضيه لأهل هذا البيت المبارك .

﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ أي : لا تزال رحمته وإحسانه وبركاته ، وهي : الزيادة من خيره وإحسانه ، وحلول الخير الإلهي على العبد **﴿عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾** أي : حميد الصفات ، لأن صفاته صفات كمال ، حميد الأفعال لأن أفعاله إحسان ، وجود ، وبر ، وخكمة ، وعدل ، وقسط .

مجيد ، والمجد : هو عظمة الصفات وسعتها ، فله صفات الكمال ، وله من كل صفة كمال أكملها وأتمها وأعمها . **﴿فلما ذهب عن إبراهيم الروح﴾** الذي أصابه من خيفة أضيافه **﴿وجاءته البشري﴾** بالولد التفت حينئذ إلى مجادلة الرسل في إهلاك قوم لوط ، وقال لهم : **﴿إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها ، لننجيته وأهله إلا امرأته﴾** .

﴿إن إبراهيم خليل﴾ أي : ذو خلق حسن وسعة صدر وعدم غضب عند جهل الجاهلين .

﴿أواه﴾ أي : متضرع إلى الله في جميع الأوقات ، **﴿منيب﴾** أي : رجّاع إلى الله بمعرفته ومحبه ، والإقبال عليه ، والإعراض عمن سواه ، فلذلك كان يجادل عمن حتم الله بهلاكهم . **﴿فقل لهما﴾** أي : يا إبراهيم أعرض عن

هذا **﴿الجدال﴾** إنه قد جاء أمر ربك **﴿بهلاكهم﴾** وإنهم أتيتهم عذاب غير مردود **﴿فلا فائدة في جدالك﴾** .

﴿ولما جاءت رسلنا﴾ أي : الملائكة الذين صدوروا من إبراهيم لما أتوا **﴿لوطاً﴾** سيء بهم **﴿أي : شق عليه مجيئهم ، وضاق بهم ذرعاً﴾** وقال هذا يوم عصيب **﴿أي : شديد حرج ، لأنه علم أن قومه لا يتركونهم ، لأنهم في صور شباب جرد مرد ، في غاية الكمال والجمال ، ولهذا وقع ما خطر بباله﴾** .

ف **﴿وجاءه قومه يهرعون إليه﴾** أي : يسرعون ويبادرون ، يريدون أضيافه بالفاحشة ، التي كانوا يعملونها ، ولهذا قال : **﴿ومن قبل كانوا يعلمون السيئات﴾** أي : الفاحشة التي ما سبقهم عليها أحد من العالمين .

﴿قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أظهر لكم﴾ من أضيافي [وهذا كما عرض لسليمان **﴿عليه السلام﴾** على المرأتين أن يشق الولد المختصم فيه لاستخراج الحق ولعلمه أن بناته تمتنع منالهن ولا حق لهن فيهن والمقصود الأعظم دفع هذه الفاحشة الكبرى **﴿١﴾** **﴿فاتقوا الله ولا تحزبون في ضيفي﴾** أي : إما أن تراعوا تقوى الله ، وإما أن تراعوني في ضيفي ، ولا تحزبون عندهم .

﴿أليس منكم رجل رشيد﴾ فينهاكم ويزجركم ، وهذا دليل على مروجهم وانحلالهم من الخير والمروءة .

ف **﴿قالوا﴾** له : **﴿لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد﴾** أي : لا نريد إلا الرجال ، ولا لنا رغبة في النساء .

فاشتد قلق لوط عليه الصلاة والسلام ، و **﴿قال لو أن لي بكم قوة أو أوي إلى ركن شديد﴾** كقبيلة مانعة لنتعكم .

وهذا بخسب الأسباب المحسوسة ، وإلا فإنه يأوي إلى أقوى الأركان وهو الله ، الذي لا يقوم لقوته أحد ، ولهذا لما بلغ الأمر منتهاه واشتد الكرب .



﴿قالوا﴾ له : **﴿إنا رسل ربك﴾** أي : أخبروه بحالهم ليطمئن قلبه ، **﴿لن يصلوا اليك﴾** بسوء .

ثم قال جبريل بجناحه ، فطمس أعينهم ، فانطلقوا يتوعدون لوطاً بمجيء الصبح ، وأمر الملائكة لوطاً أن يسري بأهله **﴿يقطع من الليل﴾** أي : بجانب منه قبل الفجر بكثير ، ليتمكنوا من البعد عن قرينتهم .

﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾ أي : بادروا بالخروج ، وليكن همكم النجاء ولا تلتفتوا إلى ما وراءكم .

﴿إلا امرأتك إنه مصيبتها﴾ من العذاب **﴿ما أصابهم﴾** لأنها تشارك قومها في الإثم ، فتدلهن على أضياف لوط إذا نزل به أضياف .

﴿إن موعدهم الصبح﴾ فكان لوطاً استعجل ذلك ، فقيل له : **﴿أليس الصبح بقريب﴾** **﴿فلما جاء أمرنا﴾** بنزل العذاب وإحلاله فيهم **﴿جعلنا﴾** ديارهم **﴿عليها سافلها﴾** أي : قلبنا عليها **﴿وأمطرنا عليها حجارة من سجيل﴾** أي : من حجارة النار الشديدة الحرارة **﴿منضود﴾** أي : متتابعة تتبع من شد عن القرية .

﴿مسومة عند ربك﴾ أي : معلمة ، عليها علامة العذاب والغضب ، **﴿وما هي من الظالمين﴾** الذين يشابهون لفعل



أشياءهم ﴿١﴾ أي: لا تنقصوا من أشياء الناس، فتسرقوها بأخذها بنقص المكيال والميزان.

﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ فإن الاستمرار على المعاصي، يفسد الأديان، والعقائد، والدين، والدنيا، ويهلك الحرث والنسل.

﴿بقيت الله خير لكم﴾ أي: يكفيكم ما أبقي الله لكم من الخير، وما هو لكم، فلا تطمعوا في أمر لكم عنه غنية، وهو ضار لكم جداً.

﴿إن كنتم مؤمنين﴾ فاعملوا بمقتضى الإيمان، ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ أي: لست بحافظ لأعمالكم ووكيل عليها، وإنما الذي يحفظها الله تعالى، وأما أنا فأبلغكم ما أرسلت به.

﴿قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا﴾ أي: قالوا ذلك على وجه التهكم بنبيهم، والاستبعاد لإجابتهم له.

ومعنى كلامهم: أنه لا موجب لنهيك لنا، إلا أنك تصلي لله وتتعبد له، أفإن كنت كذلك، أفوجب لنا أن نترك ما يعبد آباؤنا، لقول ليس عليه دليل إلا أنه موافق لك، فكيف نتبعك ونترك آباءنا الأقدمين أولي العقول والألباب؟! وكذلك لا يوجب قولك لنا: ﴿أن نفعل في أموالنا﴾ ما قلت لنا من وفاء الكيل والميزان، وأداء الحقوق الواجبة فيها، بل لا نزال نفعل فيها ما شئنا لأنها أموالنا، فليس لك فيها تصرف.

ولهذا قالوا: في تهكمهم: ﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾ أي: أنك أنت الذي الحلم والوقار لك خلق، والرشد لك سجية، فلا يصدر عنك إلا رشد، ولا تأمر إلا برشد، ولا تنهى إلا عن غي، أي: ليس الأمر كذلك.

وقصدهم أنه موصوف بعكس هذين الوصفين: بالسفه والغواية. أي: أن المعنى: كيف تكون أنت الحليم الرشيد، وآباؤنا هم السفهاء الغاؤون!!

وهذا القول الذي أخرجه بصيغة التهكم، وأن الأمر بعكسه، ليس كما ظنوه، بل الأمر كما قالوه. إن صلاته تأمره أن ينههم عما كان يعبد آباؤهم الضالون، وأن يفعلوا في أموالهم ما يشاؤون، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأي: فحشاء ومنكر أكبر من عبادة غير الله، ومن منع حقوق عباد الله، أو سرقها بالمكاييل والموازين، وهو عليه الصلاة والسلام الحليم الرشيد.

﴿قال﴾ لهم شعيب: ﴿يا قوم أريتم إن كنت على بينة من ربي﴾ أي: يقين وطمأنينة في صحة ما جئت به، ﴿ورزقني منه رزقاً حسناً﴾ أي: أعطاني الله من أصناف المال ما أعطانني.

﴿و﴾ أنا لا أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه، فلست أريد أن أنهاكم عن البخس في المكيال والميزان، وأفعله أنا، وحتى تنطرق إلي التهمة في ذلك. بل ما أنهاكم عن أمر إلا وأنا أول مبتدئ لتركه.

﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت﴾ أي: ليس لي من المقاصد إلا أن تصلح أحوالكم وتستقيم منافعكم، وليس لي من المقاصد الخاصة لي وحدي شيء بحسب استطاعتي.

ولما كان هذا فيه نوع تزكية للنفس، دفع هذا بقوله: ﴿وما توفيقي إلا بالله﴾ أي: وما يحصل لي من التوفيق لفعل الخير والانفكاك عن الشر إلا بالله تعالى، لا بحولي ولا بقوتي.

﴿عليه توكلت﴾ أي: اعتمدت في أموري ووثقت في كفايته، ﴿والإيه أتيت﴾ في أداء ما أمرني به من أنواع العبادات، وفي [هذا] التقرب إليه بسائر أفعال الخيرات.

ويهذين الأمرين تستقيم أحوال العبد، وهما الاستعانة بربه والإنابة إليه، كما قال تعالى: ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ وقال: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾.

قوم لوط ﴿ببعيد﴾ فليحذر العباد أن يفعلوا كفعلهم لئلا يصيبهم ما أصابهم.

﴿٨٤ - ٩٥﴾ ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾ إلى آخر القصة ^(١) أي: ﴿و﴾ أرسلنا [إلى مدين] القبيلة المعروفة الذين يسكنون مدين، في أدنى فلسطين ﴿أخاهم﴾ في النسب ﴿شعيباً﴾ لأنهم يعرفونه، ولتتمكنوا من الأخذ عنه.

ف ﴿قال﴾ لهم: ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ أي: اخلصوا له العبادة، فإنهم كانوا يشركون به، وكانوا - مع شركهم - يبخسون المكيال والميزان، ولهذا نهاهم عن ذلك فقال: ﴿ولا تنقصوا المكيال والميزان﴾ بل أوفوا الكيل والميزان بالقسط.

﴿إني أراكم بخير﴾ أي: بنعمة كثيرة وصحة، وكثرة أموال وبنين، فاشكروا الله على ما أعطاكم، ولا تكفروا نعمة الله فيزيها عنكم.

﴿وإني أخاف عليكم عذاب يوم حيط﴾ أي: عذاباً يحيط بكم، ولا يبقى منكم باقية.

﴿ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط﴾ أي: بالعدل الذي ترضون أن تعطوه، ﴿ولا تبخسوا الناس﴾

(١) في ب: أكمل الآيات إلى قوله تعالى: ﴿ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود﴾.



كما أنه ينبغي ذكر ما أكرم الله به أهل التقوى عند الترغيب والحث على التقوى.

ومنها: أن التائب من الذنب كما يسمح له عن ذنبه، ويعفى عنه فإن الله تعالى يجبه ويوده، ولا عبرة بقول من يقول: «إن التائب إذا تاب، فحسبه أن يغفر له، ويعود عليه العفو، وأما عود الود والخب فإنه لا يعود». فإن الله قال: «واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود».

ومنها: أن الله يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة، قد يعلمون بعضها وقد لا يعلمون شيئاً منها، وربما دفع عنهم بسبب قبيلتهم، أو أهل وطنهم الكفار، كما دفع الله عن شعيب رجم قومه بسبب رهطه، وأن هذه الروابط التي يحصل بها الدفع عن الإسلام والمسلمين، لا بأس بالسعي فيها، بل ربما تعين ذلك، لأن الإصلاح مطلوب على حسب القدرة والإمكان.

فعلى هذا لو ساعد المسلمون الذين تحت ولاية الكفار، وعملوا على جعل الولاية جمهورية يتمكن فيها الأفراد والشعوب من حقوقهم الدينية والدنيوية، لكان أولى من استسلامهم لدولة تقضي على حقوقهم الدينية والدنيوية، وتحرم على إبادتها، وجعلهم عملة وخدماء لهم.

نعم إن أمكن أن تكون الدولة للمسلمين وهم الحكام، فهو المتعين، ولكن لعدم إمكان هذه المرتبة، فالمرتبة التي فيها دفع ووقاية للدين والدنيا مقدمة، والله أعلم.

﴿٩٦-١٠١﴾ وقوله تعالى: «ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين» إلى آخر القصة^(١). يقول تعالى: «ولقد أرسلنا موسى» بن عمران «بآياتنا» الدالة على صدق ما جاء به، كالعصا واليد ونحوهما من الآيات التي أجراها الله على يدي موسى عليه السلام.

«وسلطان مبين» أي: حجة ظاهرة

تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون.

ومنها: أن وظيفة الرسل ومنتهم وملتهم، إرادة الإصلاح بحسب القدرة والإمكان، فيأتون بتحصيل المصالح وتكميلها، أو بتحصيل ما يقدر عليه منها، ويدفع المفساد وتقليلها، ويراعون المصالح العامة على المصالح الخاصة.

وحقيقة المصلحة هي التي تصلح بها أحوال العباد، وتستقيم بها أمورهم الدينية والدنيوية.

ومنها: أن من قام بما يقدر عليه من الإصلاح، لم يكن ملوماً ولا مذموماً في عدم فعله ما لا يقدر عليه، فعلى العبد أن يقيم من الإصلاح في نفسه وفي غيره ما يقدر عليه.

ومنها: أن العبد ينبغي له أن لا يتكل على نفسه طرفة عين، بل لا يزال مستعيناً بربه متوكلاً عليه، سائلاً له التوفيق، وإذا حصل له شيء من التوفيق، فلينسبه لمولاه ومسيديه، ولا يعجب بنفسه لقوله: «وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب».

ومنها: التهريب بأخذات الأمم وما جرى عليهم، وأنه ينبغي أن تذكر القصص التي فيها إيقاع العقوبات بالمجرمين في سياق الوعظ والزجر.

بينة، ظهرت ظهور الشمس، إلى فرعون وملئه* أي: أشرف قومه لأنهم المتبوعون وغيرهم تبع لهم، فلم يتقادوا لما مع موسى من الآيات التي أراهم إياها كما تقدم بسطها في سورة الأعراف، ولكنهم «فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد» بل هو ضال غاو، لا يأمر إلا بما هو ضرر محض، لا جرم - لما اتبعه قومه - أراهم وأهلكهم.

«يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود» * وأتبعوا في هذه* أي: في الدنيا «لعنة» واللعنة القيامة* أي: يلعنهم الله وملائكته والناس أجمعون في الدنيا والآخرة.

«بئس الرفد المرفود» أي: بئس ما اجتمع لهم، وترادف عليهم من عذاب الله، ولعنة الدنيا والآخرة.

ولما ذكر قصص هؤلاء الأمم مع رسلهم، قال الله تعالى لرسوله: «ذلك من أنباء القرى نقصه عليك» لتنذر به، ويكون آية على رسالتك، وموعظة وذكرى للمؤمنين.

«منها قائم» لم يلف، بل بقي من آثار ديارهم ما يدل عليهم، * «وحصيد» قد تهدمت مساكنهم، واضمحلت منازلهم، فلم يبق لها أثر، «وما ظلمناهم» بأخذهم بأنواع العقوبات «ولكن ظلموا أنفسهم بالشرك والكفر والعناد».

«فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك» وهكذا كل من التجأ إلى غير الله، لم ينفعه ذلك عند نزول الشدائد.

«وما زادوهم غير تنبيب» أي: خسار ودمار، بالضد مما خطر ببالهم. «١٠٢» وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد* أي: يقصمهم بالعذاب ويبيدهم، ولا ينفعهم ما كانوا يدعون من دون الله من شيء. «إن في ذلك» المذكور من أخذه

(١) في ب: أورد الآيات إلى قوله تعالى: «وما زادوهم غير تنبيب».

للظالمين بأنواع العقوبات، «لآية لمن خاف عذاب الآخرة» أي: لعبرة ودليلاً على أن أهل الظلم والإجرام لهم العقوبة الدنيوية، والعقوبة الأخروية، ثم انتقل من هذا إلى وصف الآخرة، فقال: «ذلك يوم مجموع له الناس» أي: جمعوا لأجل ذلك اليوم للمجازاة، ول يظهر لهم من عظمة الله وسلطانه وعدله العظيم ما به يعرفونه حق المعرفة.

«وذلك يوم مشهود» أي: يشهده الله وملائكته وجميع المخلوقين، «وما نؤخره» أي: إتيان يوم القيامة «إلا لأجل معدود» إذا انقضى أجل الدنيا وما قدر الله فيها من الخلق، فحيثما ينقلهم إلى الدار الآخرة، ويجري عليهم أحكامه الجزائية، كما أجرى عليهم في الدنيا أحكامه الشرعية.

«يوم يأت» ذلك اليوم، ويجتمع الخلق «لا تكلم نفس إلا بإذنه» حتى الأنبياء والملائكة الكرام، لا يشفعون إلا بإذنه، «فمنهم» أي: الخلق «شقي وسعيد» فالأشقياء هم الذين كفروا بالله وكذبوا رسله وعصوا أمره، والسعداء هم: المؤمنون المتقون.

وأما جزاؤهم «فأما الذين شقوا» أي: حصلت لهم الشقاوة والحزني والفضيحة، «ففي النار» منغمسون في عذابها، مشد عليهم عقابها، «لهم فيها» من شدة ما هم فيه «زفير وشهيق» وهو أشنع الأصوات وأقبحها.

«خالدين فيها» أي: في النار التي هذا عذابها «ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك» أي: خالدين فيها أبداً إلا المدة التي شاء الله أن لا يكونوا فيها، وذلك قبل دخولها، كما قاله جمهور المفسرين، فالاستثناء على هذا راجع إلى ما قبل دخولها، فهم خالدون فيها جميع الأزمان، سوى الزمن الذي قبل الدخول فيها.

«إن ربك فعال لما يريد» فكل ما أراد فعله واقتضته حكمته فعله تبارك وتعالى، لا يرده أحد عن مراده.

«وأما الذين سعدوا» أي: حصلت لهم السعادة، والفلاح والفوز، «ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك» ثم أكد ذلك بقوله: «عطاء غير مجدود» أي: ما أعطاهم الله من النعيم المقيم واللذة العالية، فإنه دائم مستمر، غير منقطع بوقت من الأوقات، نسأل الله الكريم من فضله.

«١٠٩» «فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل وإنما لموفوهم نصيبهم غير منقوص» يقول الله تعالى لرسوله محمد ﷺ: «فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء المشركون، أي: لا تشك في حالهم، وأن ما هم عليه باطل، فليس لهم عليه دليل شرعي ولا عقلي، وإنما دليلهم وشبهتهم أنهم «ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل».

ومن المعلوم أن هذا ليس بشبهة، فضلاً عن أن يكون دليلاً، لأن أقوال ما عدا الأنبياء محتج بها لا يحتج بها، خصوصاً أمثال هؤلاء الضالين الذين كثر خطأهم وفساد أقوالهم في أصول الدين، فإن أقوالهم وإن اتفقوا عليها، فإنها خطأ وضلال.

«وإنما لموفوهم نصيبهم غير منقوص» أي: لا بد أن ينالهم نصيبهم من الدنيا، مما كتب لهم وإن كثر ذلك النصيب، أو راق في عينك، فإنه لا يدل على صلاح حالهم، فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان والدين الصحيح إلا من يحب. والحاصل أنه لا يغتر باتفاق الضالين على قول الضالين من آباؤهم الأقدمين، ولا على ما خولهم الله وآتاهم من الدنيا.

«١١٠ - ١١٣» «ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وإنهم لفي

قدّم قومه يوم الفصحة فأوردهم النار ويبس أورد المورود» وأنشعوا في هذه لكثرة قومه القبيح يفسد أورد المورود» ذلك من آباء القري فقصه عليك منها قومه وحبيد» وما ظلمهم ولكن ظلموا أنفسهم فآخضت عنهم ألسنتهم التي دعوتهم من دون قومهم ثم آتاهم آياتهم وما زادهم غير نصيب» وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذهم إلى شريك» إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم تجتمع ألسنتهم وذلك يوم معلوم» وما يؤخرون إلا لأجل مددود» يوم لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد» فأما الذين شقوا في ألبهم فيما كذبوا به عن ربهم» فليكن نصيبهم من الدنيا والآخرة كما يشاء ربك إن ربك غافل عما يزيد» وأما الذين سجدوا في الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك غافل عما يزيد»

شك منه مريب * وإن كلا لما ليو فينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خير * فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير * ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون * يخبر تعالى أنه أتى موسى الكتاب الذي هو التوراة، الموجب للاتفاق على أوامره ونواهيه، والاجتماع، ولكن مع هذا فإن المتسبين إليه اختلفوا فيه اختلافاً أضر بعقائدهم وبجامعتهم الدينية.

«ولولا كلمة سبقت من ربك» بتأخيرهم وعدم معاجلتهم بالعذاب «لقضي بينهم» بإحلال العقوبة بالظالم، ولكنه تعالى اقتضت حكمته أن أخر القضاء بينهم إلى يوم القيامة، وبقوا في شك منه مريب.

وإذا كانت هذه حالهم مع كتابهم فمع القرآن الذي أوحاه الله إليك غير مستغرب من طائفة اليهود، أن لا يؤمنوا به، وأن يكونوا في شك منه مريب.

«وإن كلا لما ليو فينهم ربك أعمالهم» أي: لا بد أن الله يقضي بينهم ^(١) يوم القيامة بحكمه العدل فيجازي كلا بما يستحقه.

(١) في ب: لا بد أن يقضي الله بينهم.

فيهم بقايا مصلحون لما أفسد الناس، قاثمون بدين الله، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويصبرونهم من العمى.

وهذه الحالة أعلى حالة يرغب فيها الراغبون، وإذا جعل عمله خالصاً لرب العالمين.

﴿١١٧﴾ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴿١﴾ أي: وما كان الله ليهلك أهل القرى بظلم منه لهم، والحال أنهم مصلحون، أي: مقيمون على الصلاح، مستمرزون عليه، فما كان الله ليهلكهم إلا إذا ظلموا وقامت عليهم حجة الله.

ويحتمل أن المعنى: وما كان ربك ليهلك القرى بظلمهم السابق، إذا رجعوا وأصلحوا عملهم، فإن الله يعفو عنهم، ويمحو ما تقدم من ظلمهم.

﴿١١٨-١١٩﴾ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ﴿١﴾ إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴿٢﴾ يخبر تعالى أنه لو شاء لجعل الناس كلهم أمة واحدة على الدين الإسلامي، فإن منيئة غير قاصرة، ولا يمتنع عليه شيء، ولكنه اقتضت حكمته أن لا يزالون مختلفين مخالفين للضراط المستقيم، متبعين للسبل الموصلة إلى النار، كل يرى الحق فيما قاله، والضلال في قول غيره.

﴿٣﴾ إلا من رحم ربك ﴿٤﴾ فهذاهم إلى العلم بالحق والعمل به والاتفاق عليه، فهو لاء سبقت لهم سابقة السعادة، وتداركتهم العناية الربانية والتوفيق الإلهي.

وأما من عداهم فهم يخذلون موكلون إلى أنفسهم.

وقوله: ﴿ولذلك خلقهم﴾ أي: اقتضت حكمته أنه خلقهم، ليكون منهم السعداء والأشقياء، والمتفقون والمختلفون، والفريق الذين هدى الله،

والفريق الذين حقت عليهم الضلالة، ليتبين للعباد عدله وحكمته، وليظهر ما كمن في الطباع البشرية من الخير والشر، وليقوم سوق الجهاد والعبادات التي لا تتم ولا تستقيم إلا بالامتحان والابتلاء.

﴿٥﴾ لأنه تمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴿٦﴾ فلا بد أن ييسر للنار أهلاً، يعملون بأعمالها الموصلة إليها.

﴿١٢٠-١٢٣﴾ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴿١﴾ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون ﴿٢﴾ وانظروا إنا منتظرون ﴿٣﴾ والله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴿٤﴾ لما ذكر في هذه السورة من أخبار الأنبياء ما ذكر، ذكر الحكمة في ذكر ذلك، فقال: ﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾ أي: قلبك ليطمئن ويثبت، ويصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، فإن النفوس تأنس بالاعتداء، وتنشط على الأعمال، وتريد المنافسة لغيرها، ويتأيد الحق بذكر شواهد، وكثرة من قام به.

﴿٥﴾ وجاءك في هذه السورة ﴿الحق﴾ اليقين، فلا شك فيه بوجه من الوجوه، فالعلم بذلك من العلم بالحق الذي هو أكبر فضائل النفوس.

﴿٦﴾ وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴿٧﴾ أي: يتعظون به، فيرتدعون عن الأمور المكروهة، ويتذكرون الأمور المحبوبة لله فيفعلونها.

وأما من ليس من أهل الإيمان فلا تنفعهم الموعظ وأنواع التذكير، ولهذا قال: ﴿وقل للذين لا يؤمنون﴾ بعدما قامت عليهم الآيات، ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ أي: حالتكم التي أنتم

ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ﴿١﴾ إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴿٢﴾ ويخبر تعالى أنه لو شاء لجعل الناس كلهم أمة واحدة على الدين الإسلامي، فإن منيئة غير قاصرة، ولا يمتنع عليه شيء، ولكنه اقتضت حكمته أن لا يزالون مختلفين مخالفين للضراط المستقيم، متبعين للسبل الموصلة إلى النار، كل يرى الحق فيما قاله، والضلال في قول غيره.

﴿٣﴾ إلا من رحم ربك ﴿٤﴾ فهذاهم إلى العلم بالحق والعمل به والاتفاق عليه، فهو لاء سبقت لهم سابقة السعادة، وتداركتهم العناية الربانية والتوفيق الإلهي.

عليها ﴿إنا عاملون﴾ على ما كنا عليه ﴿وانظروا﴾ ما يحل بنا ﴿إنا منتظرون﴾ ما يحل بكم.

وقد فصل الله بين الفريقين، وأرى عباده نصره لعباده المؤمنين، وقمعه لأعداء الله المكذبين.

﴿٥﴾ والله غيب السماوات والأرض، أي: ما غاب فيهما من الخفايا، والأمور الغيبية.

﴿٦﴾ وإليه يرجع الأمر كله ﴿٧﴾ من الأعمال والعمال، فيميز الخبيث من الطيب ﴿٨﴾ فاعبده وتوكل عليه ﴿٩﴾ أي: قم بعبادته، وهي جميع ما أمر الله به مما تقدر عليه، وتوكل على الله في ذلك.

﴿١٠﴾ وما ربك بغافل عما تعملون ﴿١١﴾ من الخير والشر، بل قد أحاط علمه بذلك، وجرى به قلمه، وسيجري عليه حكمه وجزاؤه.

تم تفسير سورة هود

والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على محمد وسلم

[وكان الفراغ من نسخه في يوم السبت في ٢١ من شهر

ربيع الآخر ١٣٤٧هـ]

المجلد الرابع من تفسير الكرمي الرحمن في تفسير كلام الرب المنان لجوامع الفقير إلى الله: عبد الرحمن بن ناصر السعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين

لأبيه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام: يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين فكانت هذه الرؤيا مقدمة لما وصل إليه يوسف عليه السلام من الارتفاع في الدنيا والآخرة.

وهكذا إذا أراد الله أمراً من الأمور العظام قدم بين يديه مقدمة، توطئة له، وتسهيلاً لأمره، واستعداداً لما يرد على العبد من المشاق، لطفاً بعبد، وإحساناً إليه، فأولها يعقوب بأن الشمس: أمه، والقمر: أبوه، والكواكب: إخوته، وأنه ستنتقل به الأحوال إلى أن يصير إلى حال يخضعون له، ويسجدون له إكراماً وإعظاماً، وأن ذلك لا يكون إلا بأسباب تتقدمه من اجتباء الله له، واصطفائه له، وإتمام نعمته عليه بالعمل والعمل، والتمكين في الأرض.

وأن هذه النعمة ستشمل آل يعقوب، الذين سجدوا له وصاروا تبعاً له فيها، ولهذا قال:

﴿وكذلك يجتبيك ربك﴾ أي: يصطفيك ويختارك بما يمتن به عليك من الأوصاف الجليلة والمناقب الجميلة، ويعلمك من تأويل الأحاديث: أي: من تعبير الرؤيا، وبيان ما تؤول إليه الأحاديث الصادقة، كالكتب السماوية ونحوها، ويتم نعمته عليك في الدنيا والآخرة، بأن يؤتيك في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق حيث أنعم الله عليهما، ينعم عظمة واسعة، دينية، ودنيوية.

﴿إن ربك عليم حكيم﴾ أي: علمه محيط بالأشياء، وبما احتوت عليه ضمائر العباد من البر وغيره، فيعطي كل ما تقتضيه حكمته وحجته، فإنه حكيم يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها.

ولما بان تعبيرها ليوسف، قال له أبوه:

﴿يا بني لا تقصص رؤياك على

عبارتها وروث معانيها، بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾ أي: بما اشتمل عليه هذا القرآن الذي أوحينا إليك، وفضلناك به على سائر الأنبياء، وذلك محض منه من الله وإحسان.

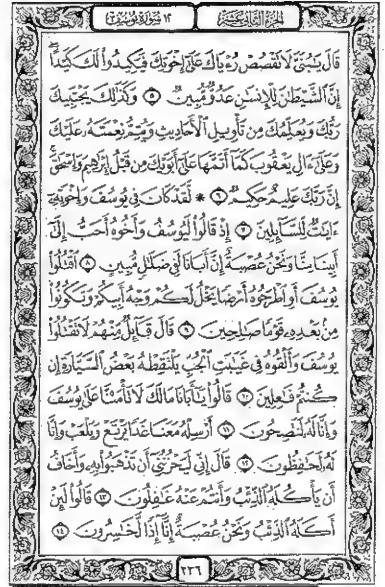
﴿وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ أي: ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان قبل أن يوحى الله إليك، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا.

ولما مدح ما اشتمل عليه هذا القرآن من القصص، وأنها أحسن القصص على الإطلاق، فلا يوجد من القصص في شيء من الكتب مثل هذا القرآن، ذكر قصة يوسف، وأبيه وإخوته، القصة العجيبة الحسنة، فقال:

﴿٤-٦﴾ إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين *

قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين * وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم * واعلم أن الله ذكر أنه يقص على رسوله أحسن القصص في هذا الكتاب، ثم ذكر هذه القصة وبسطها، وذكر ما جرى فيها، فعلم بذلك أنها قصة تامة كاملة حسنة، فمن أراد أن يكملها أو يحسنها بما يذكر في الإسرائيليات التي لا يعرف لها سند ولا ناقل وأغلبها كذب، فهو مستدرك على الله، ومكمل لشيء يزعم أنه ناقص، وحسيك بأمر ينتهي إلى هذا الحد قبلاً، فإن تضاعف هذه السورة قد ملئت في كثير من التفسير، من الأكاذيب والأمور الشيعة المناقضة لما قصه الله تعالى بشيء كثير. فحلى العبد أن يفهم عن الله ما قصه، ويدع ما سوى ذلك مما ليس عن النبي ﷺ، ينقل.

فقرله تعالى: ﴿إذ قال يوسف



تفسير سورة يوسف بن يعقوب عليهما الصلاة والسلام وهي مكية

﴿١-٣﴾ بسم الله الرحمن الرحيم الر تلك آيات الكتاب المبين * إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون * نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين * يخبر تعالى أن آيات القرآن هي آيات الكتاب المبين * أي: البين الواضحة ألفاظه ومعانيه، ومن بيانه وإيضاحه:

أنه أنزله باللسان العربي، أشرف الألسنة، وأبينها، المبين لكل ما يحتاجه الناس من الحقائق النافعة^(١) وكل هذا الإيضاح والتبيين لعلكم تعقلون * أي: لتعقلوا حدوده وأصوله وفروعه، وأوامره ونواهيه.

فإذا عقلتم ذلك بإيقانكم، واتصفت قلوبكم بمعرفتها، أثمر ذلك عمل الجوارح والانقياد إليه، و لعلكم تعقلون * أي: تزداد عقولكم بتكرار المعاني الشريفة العالية، على أذهانكم، فتنتقلون من حال إلى أحوال أعلى منها وأكمل.

نحن نقص عليك أحسن القصص * وذلك لصدقتها وسلاسة

(١) زيادة من هامش: ب.

إخوتك فيكيدوا لك كيداً* أي: حسداً من عند أنفسهم، أن تكون أنت الرئيس الشريف عليهم.

﴿إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾ لا يفتر عنه ليلاً ولا نهاراً، ولا سراً ولا جهاراً، فالبعد عن الأسباب التي يتسلط بها على العبد أولى، فامتثل يوسف أمر أبيه، ولم يخبر إخوته بذلك، بل كتبها عنهم.

﴿٧-٩﴾ * لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين * إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين * اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين * يقول تعالى: * لقد كان في يوسف وإخوته آيات * أي: عبر وأدلة على كثير من المطالب الحسنة، * للسائلين * أي: لكل من سأل عنها بلسان الحال أو بلسان المقال، فإن السائلين هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر، وأما المعرضون فلا ينتفعون بالآيات، ولا في القصص والبيانات.

﴿إذ قالوا﴾ فيما بينهم: * ليوسف وأخوه * بنيامين، أي: شقيقه، وإلا فكلهم إخوة، * أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة * أي: جماعة، فكيف يفضلهما علينا بالمحبة والشفقة، * إن أبانا لفي ضلال مبين * أي: لفي خطأ بين، حيث فضلهما علينا من غير موجب نراه، ولا أمر نشاهده.

﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً﴾ أي: غيبوه عن أبيه في أرض بعيدة لا يتمكن من رؤيته فيها.

فإنكم إذا فعلتم أحد هذين الأمرين * يخل لكم وجه أبيكم * أي: يتفرغ لكم، ويقبل عليكم بالشفقة والمحبة، فإنه قد اشتغل قلبه بيوسف شغلاً لا يتفرغ لكم، * وتكونوا من بعده * أي: من بعد هذا الصنيع * قوماً صالحين * أي: تتوبون إلى الله، وتستغفرون من بعد ذنبكم.

فقدموا العزم على التوبة قبل صدور الذنب منهم تسهلاً لفعله، وإزالة لشناعته، وتنشيطاً من بعضهم لبعض.

﴿١٠﴾ * قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين * أي: * قال قائل * من إخوة يوسف الذين أرادوا قتله أو تبيعيده: * لا تقتلوا يوسف * فإن قتله أعظم إثماً وأشنع، والمقصود يحصل بتبيعه عن أبيه من غير قتل، ولكن توصلوا إلى تبيعه بأن تلقوه * في غيابة الجب * وتتوعدوه على أنه لا يخبر بشأنكم، بل على أنه عبد مملوك أبق منكم، لأجل أن يلتقطه بعض السيارة * الذين يريدون مكاناً بعيداً، فيحفظون فيه.

وهذا القائل أحسنهم رأياً في يوسف، وأبرهم وأتقاهم في هذه القضية، فإن بعض الشر أهون من بعض، والضرر الخفيف يدفع به الضرر الثقيل، فلما اتفقوا على هذا الرأي.

﴿١١-١٤﴾ * قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وإننا له لناصحون * أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإننا له لحافظون * قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون * قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون * أي: قال إخوة يوسف، متوصلين إلى مقصدهم لأبيهم: * يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإننا له لناصحون * أي: لأي شيء يدخلك الخوف منا على يوسف، من غير سبب ولا موجب؟ * والحق * إننا له لناصحون * أي: مشفقون عليه، نود له ما نود لأنفسنا، وهذا يدل على أن يعقوب عليه السلام لا يترك يوسف يذهب مع إخوته للبرية ونحوها.

فلما نفوا عن أنفسهم التهمة المانعة من عدم إرساله معهم، ذكروا له من مصلحة يوسف وأنسه الذي يحبه أبوه له، ما يقتضي أن يسمح بإرساله معهم، فقالوا:

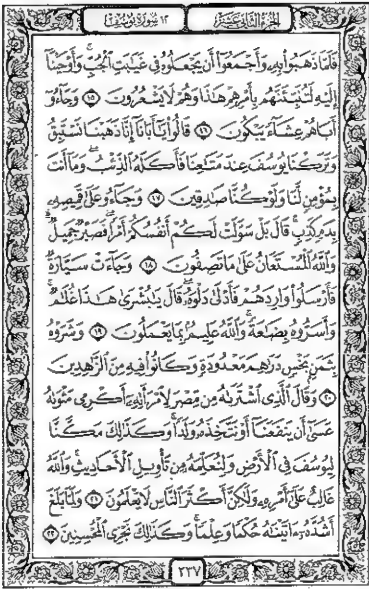
﴿أرسله معنا غداً يرتع ويلعب﴾ أي: يتنزه في البرية ويستأنس، * وإننا له لحافظون * أي: سنراعيه، ونحفظه من أذى يريده.

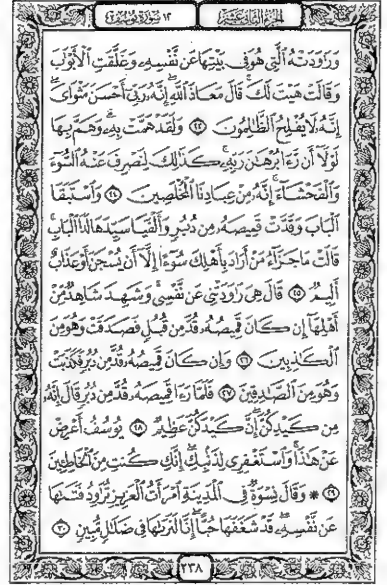
فأجابهم بقوله: ﴿إني ليحزنني أن

تذهبوا به﴾ أي: مجرد ذهابكم به يحزنني ويشق علي، لأنني لا أقدر على فراقه، ولو مدة يسيرة، فهذا مانع من إرساله * و﴿و﴾ مانع ثان، وهو أني * أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون * أي: في حال غفلتكم عنه، لأنه صغير لا يمتنع من الذئب. * قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة * أي: جماعة، حريصون على حفظه، * إنا إذا لخاسرون * أي: لا خير فينا ولا نفع يرجى منا إن أكله الذئب وغلبنا عليه.

فلما مهدوا لأبيهم الأسباب الداعية لإرساله، وعدم الموانع، سمح حينئذ بإرساله معهم لأجل أنسه.

﴿١٥-١٨﴾ * فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا إليه لتبينهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون * وجاؤوا أباهم عشاء يبكون * قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستيق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين * وجاؤوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون * أي: لما ذهب إخوة يوسف بيوسف بعد ما أذن له أبوه، وعزموا على أن يجعلوه في غيابة الجب، كما قال قائلهم السابق ذكره، وكانوا قادرين على ما أجمعوا عليه، فنفذوا فيه قدرتهم، وألقوه في





الجب، ثم إن الله لطف به بأن أوحى إليه وهو في تلك الحال الحرجة، **﴿لَتَنبَغَنَّهُمْ بَأْمَرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾** أي: سيكون منك معاتبة لهم، وإخبار عن أمرهم هذا، وهم لا يشعرون بذلك الأمر، ففيه بشارة له، بأنه سينجو مما وقع فيه، وأن الله سيجمعه بأهله وإخوته على وجه العز والتمكين له في الأرض.

﴿وَجَاؤُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ ليكون إتيانهم متأخراً عن عادتهم، وبكائهم دليلاً لهم، وقربة على صدقهم، فقالوا - متعذرين ^(١) - بعذر كاذب - **﴿يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾** إما على الأقدام، أو بالرمي والنضال، **﴿وَوَتَرَكْنَا يَوْسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا﴾** توفيراً له وراحة، **﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾** في حال غيبتنا عنه في استيقاننا، **﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾** أي: تعذرنا بهذا العذر، والظاهر أنك لا تصدقنا لما في قلبك من الحزن على يوسف، والركة الشديدة عليه.

ولكن عدم تصديقك إيانا، لا يمنعنا أن نعذر بالعذر الحقيقي، وكل هذا تأكيد لعذرهم، **﴿وَمَا أَكْدُوا بِهِ قَوْلَهُمْ﴾** أنهم **﴿جَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾** زعموا أنه دم يوسف حين أكله الذئب، فلم يصدقهم

(١) في ب: عدلت إلى (متعذرين).

أبوهم بذلك، و **﴿قَالَ﴾**: **﴿يَلِ سَوَلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْ﴾** أي: زينت لكم أنفسكم أمراً قبيحاً في التفريق بيني وبينه، لأنه رأى من القرائن والأحوال لومين رؤيا يوسف التي قصها عليه ^(٢) ما دلّه على ما قال.

﴿فَصَبِّرْ جَبِيلَ اللَّهِ وَالْمُسْتَعَانَ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ أي: أما أنا فوظيفتي سأحرص على القيام بها، وهي أني أصبر على هذه المحنة صبراً جليلاً، سالماً من السخط والشكوى إلى الخلق، وأستعين الله على ذلك، لا على حولي وقوتي، فوعد من نفسه هذا الأمر وشكى إلى خالقه في قوله: **﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾** لأن الشكوى إلى الخالق لا تنافي الصبر الجميل، لأن النبي إذا وعد وفى.

﴿١٩ - ٢٠﴾ **﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَتَاهُمُ فَارُسُلُوا أَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَتَاهُمُ فَارُسُلُوا أَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَتَاهُمُ فَارُسُلُوا﴾** يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون * وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين **﴿﴾** أي: مكث يوسف في الحب ما مكث، حتى **﴿جَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾** أي: قافلة تريد مصر، **﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾** أي: فرطهم ومقدمهم، الذي يعس لهم المياه ويسبرها ويستعد لهم بتهيئة الحياض ونحو ذلك، **﴿فَأَتَاهُ﴾** ذلك الوارد **﴿دَلُوهُ﴾** فتعلق فيه يوسف عليه السلام وخرج، **﴿قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غِلَامٌ﴾** أي: استبشر وقال: هذا غلام نفيس، **﴿وَأَسْرَوْهُ بَضَاعَةً﴾** وكان إخوته قريباً منه، فاشتراه السيارة منهم، **﴿بِثْمَنٍ بَخْسٍ﴾** أي: قليل جداً، فشره بقوله: **﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾** وكانوا فيه من الزاهدين.

لأنه لم يكن لهم قصد إلا تغييبه وإبعاده عن أبيه، ولم يكن لهم قصد في أخذ ثمنه، والمعنى في هذا: أن السيارة لما وجدوه، عزموا أن يسروا أمره، ويجعلوه من جملة بضائعهم التي معهم، حتى جاءهم إخوته فزعموا أنه عبد أبى

(٢) زيادة من هامش: ب.

منهم، فاشتروه منهم بذلك الثمن، واستوثقوا منهم فيه لئلا يهرب، والله أعلم.

﴿٢١﴾ **﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾** أي: لما ذهب به السيارة إلى مصر وباعوه بها، فاشتراه عزيز مصر، فلما اشتراه، أعجب به، ووصى عليه امرأته وقال: **﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾** أي: إما ينفعنا كنعف العبيد بأنواع الخدم، وإما أن نستمتع فيه استمتاعنا بأولادنا، ولعل ذلك أنه لم يكن لهما ولد، **﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾** أي: كما يسرنا أن يشتريه عزيز مصر، ويكرمه هذا الإكرام، جعلنا هذا مقدمة لتمكينه في الأرض من هذا الطريق.

﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ إذا بقي لا شغل له ولا هم له سوى العلم صار ذلك من أسباب تعلمه علماً كثيراً، من علم الأحكام، وعلم التعبير، وغير ذلك، **﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾** أي: أمره تعالى نافذ، لا يبطله مبطل، ولا يغلبه مغالب، **﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾** فلذلك يجري منهم ويصدر ما يصدر، في مغالبة أحكام الله القدريّة، وهم أعجز وأضعف من ذلك.

﴿٢٢﴾ **﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾** أي: **﴿لَمَّا بَلَغَ﴾** يوسف **﴿أَشُدَّهُ﴾** أي: كمال قوته المعنوية والحسية، وصلاح لأن يتحمل الأحوال الثقيلة، من النبوة والرسالة، **﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾** أي: جعلناه نبياً رسولاً، وعالماً ربانياً، **﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾** في عبادة الخالق ببذل الجهد والنصح فيها، وإلى عباد الله ببذل النفع والإحسان إليهم، نؤتيهم من جملة الجزاء على إحسانهم

علماً نافعاً .

ودل هذا، على أن يوسف وفي مقام الإحسان، فأعطاه الله الحكم بين الناس، والعلم الكثير والنبوة .

﴿٢٣ - ٢٩﴾ «ورأوته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون * ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين * واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألقيا سيدهما لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم * قال هي روادنتي عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين * وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين * فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم * يوسف عرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين * هذه المخنة العظيمة أعظم على يوسف من مخنة إخوته، وصبره عليها أعظم أجراً، لأنه صبر اختياراً مع وجود الدواعي الكثيرة، لوقوع الفعل، فقدم محبة الله عليها، وأما مخنته بإخوته، فصبره صبر اضطرار، بمنزلة الأمراض والمكاره التي تصيب العبد بغير اختياره وليس له ملجأ إلا الصبر عليها، طائعاً أو كارهاً، وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام بقي مكرماً في بيت العزيز، وكان له من الجمال والكمال والبهاء ما أوجب ذلك، أن «ورأوته التي هو في بيتها عن نفسه» أي: هو غلامها، وتحت تدبيرها، والمسكن واحد، يتيسر إيقاع الأمر المكروه من غير إشعار أحد، ولا إحساس بشئ .

«و» زادت المصيبة، بأن «غلقت الأبواب» وصار المحل خالياً، وهما آمنان من دخول أحد عليهما، بسبب تغليق الأبواب، وقد دعت إلى نفسها «وقالت: هيت لك» أي: افعل الأمر المكروه وأقبل إلي، ومع هذا، فهو

غريب، لا يحتشم مثله ما يحتشمه إذا كان في وطنه وبين معارفه، وهو أسير تحت يدها، وهي سيدهته، وفيها من الجمال ما يدعو إلى ما هنالك، وهو شاب عذب، وقد توعده، إن لم يفعل ما تأمره به بالسجن، أو العذاب الأليم .

فصبر عن معصية الله، مع وجود الداعي القوي فيه، لأنه قد هم فيها هماً تركه الله، وقدم مراد الله على مراد النفس الأمارة بالسوء، ورأى من برهان ربه - وهو ما معه من العلم والإيمان، المرجح لترك كل ما حرم الله - ما أوجب له البعد والانكفاف، عن هذه المعصية الكبيرة، و «قال: معاذ الله» أي: أعوذ بالله أن أفعل هذا الفعل القبيح، لأنه مما يسخط الله ويبعد منه، ولأنه خيانة في حق سيدي الذي أكرم مثواي .

فلا يليق بي أن أقبله في أهله بأقبح مقابلة، وهذا من أعظم الظلم، والظالم لا يفلح، والحاصل أنه جعل الموانع له من هذا الفعل تقوى الله، ومراعاة حق سيده الذي أكرمه، وضيانة نفسه عن الظلم الذي لا يفلح من تعاطاه، وكذلك ما من الله عليه من برهان الإيمان الذي في قلبه، يقتضي منه امتثال الأوامر، واجتناب الزواجر، والجامع لذلك كله أن الله صرف عنه السوء والفحشاء، لأنه من عباده المخلصين له في عباداتهم، الذين أخلصهم الله واختارهم، واختصهم لنفسه، وأسدى عليهم من النعم، وصرف عنهم من المكاره ما كانوا به من خيار خلقه .

ولما امتنع من إجابة طلبها بعد المراودة الشديدة، ذهب ليهرب عنها وبيادر إلى الخروج من الباب ليخلص، ويهرب من الفتنة، فبادرت إليه، وتعلقت بثوبه، فشقت قميصه، فلما وصلا إلى الباب في تلك الحال، ألقيا سيدها، أي: زوجها لدى الباب، فرأى أمراً شق عليه، فبادرت إلى الكذب، أن المراودة قد كانت من يوسف، وقالت: «ما جزاء من أراد

بأهلك سوءاً» ولم تقل «من فعل بأهلك سوءاً» تبرئة لها وتبرئة له أيضاً من الفعل .

وإنما النزاع عند الإرادة والمراودة، «إلا أن يسجن أو عذاب أليم» أي: أو يعذب عذاباً أليماً .

فبرأ نفسه مما رمت به، وقال: «هي روادنتي عن نفسي» فحيثما احتملت الحال صدق كل واحد منهما ولم يعلم أيهما .

ولكن الله تعالى جعل للحق والصدق علامات وأمارات تدل عليه، قد يعلمها العباد وقد لا يعلمونها، فمن الله في هذه القضية بمعرفة الصادق منهما، تبرئة لنبيه وصفيه يوسف عليه السلام، فانبعث شاهد من أهل بيتها، يشهد بقربته من وجدت معه، فهو الصادق، فقال: «إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين» لأن ذلك يدل على أنه هو المقبل عليها، المارود لها المعالج، وأنها أرادت أن تدفعه عنها، فشقت قميصه من هذا الجانب .

«وإن كان قميصه قد من دبر، فكذبت وهو من الصادقين» لأن ذلك يدل على هزوبية منها، وأنها هي التي طلبته فشقت قميصه من هذا الجانب، «فلما رأى قميصه قد من دبر» عرف بذلك صدق يوسف وبرأته، وأنها هي الكاذبة .

فقال لها سيدها: «إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم» وهل أعظم من هذا الكيد، الذي برأت به نفسها مما أرادت وفعلت، ورمت به نبي الله يوسف عليه السلام، ثم إن سيدها لما تحقق الأمر، قال ليوسف: «يوسف أعرض عن هذا» أي: اترك الكلام فيه وتناسه ولا تذكره لأحد، طلباً للستر على أهله، «واستغفري» أي: أيتها المرأة «لذنبك إنك كنت من الخاطئين» فأمر يوسف بالإعراض، وهي بالاستغفار والتوبة .

﴿٣٠ - ٣٥﴾ «وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إننا لنراها في ضلال

ميين * فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئا وأتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم * قالت فذلكم الذي لمكنتي فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره لميسجنن وليكونا من الصاغرين * قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين * فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم * ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين * يعني : أن الخبر اشتهر وشاع في البلد، وتحدث به النسوة فجعلن يلتمها، ويقلن : « امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حيا » أي : هذا أمر مستقيم، هي امرأة كبيرة القدر، وزوجها كبير القدر، ومع هذا لم تزل تراود فتاها الذي تحت يدها وفي خدمتها عن نفسه، ومع هذا فإن حبه قد بلغ من قلبها مبلغاً عظيماً .

« قد شغفها حياً » أي : وصل حبه إلى شغاف قلبها، وهو باطنه وسويداؤه، وهذا أعظم ما يكون من الحب، « إنها لئراها في ضلال مبين » حيث وجدت منها هذه الحالة التي لا تنبغي منها، وهي حالة تحط قدرها وتضعه عند الناس، وكان هذا القول منهن مكرأ، ليس المقصود به مجرد اللوم لها والقدح فيها، وإنما أردن أن يتوصلن بهذا الكلام إلى رؤية يوسف الذي فتنت به امرأة العزيز لتحقق امرأة العزيز، وترين إياه ليعدنها، ولهذا سماه مكرأ، فقال : « فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن » تدعوهم إلى منزلها للضيافة .

« وأعتدت لهن متكأ » أي : حملاً مهياً بأنواع الفرش والوسائد، وما يقصد بذلك من المأكول اللذيذة، وكان في جملة ما أتت به وأحضرت في تلك الضيافة طعام يحتاج إلى سكين، إما أترج، أو غيره، « وأتت كل واحدة منهن سكينا » ليقطعن فيها ذلك الطعام

« وقالت » ليوسف : « اخرج عليهن » في حالة جماله وبهائه .

« فلما رأينه أكبرنه » أي : أعظمته في صدورهن، ورأين منظرأ فائقاً لم يشاهدن مثله، « وقطعن » من الدهش « أيديهن » بتلك السكاكين اللاتي معهن، « وقلن : حاش لله » أي : تنزهاً لله « ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم » وذلك أن يوسف أعطي من الجمال الفائق والنور والبهاء، ما كان به آية للناظرين، وعبرة للمتأملين،

فلما تقرر عندهن جمال يوسف الظاهر، وأعجبهن غاية، وظهر منهن من العذر لامرأة العزيز، شيء كثير - أرادت أن تريهن جماله الباطن بالعفة التامة فقالت معلنة لذلك ومبينة لحبه الشديد غير مبالية، ولأن اللوم انقطع عنها من النسوة : « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم » أي : امتنع وهي مقيمة على مراودته، لم تزدها مرور الأوقات إلا قلقاً ومحبة وشوقاً لوصاله وتوقاً .

ولهذا قالت له بحضرتن : « ولئن لم يفعل ما أمره لميسجنن وليكونا من الصاغرين » لتلجته بهذا الوعيد إلى حصول مقصودها منه، فعند ذلك اعتصم يوسف بربه، واستعان به على كيدهن و « قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه » وهذا يدل على أن النسوة، جعلن يشرن على يوسف في مطاوعة سيدته، وجعلن يكذبنه في ذلك .

فاستحب السجن والعذاب الدنيوي على لذة حاضرة توجب العذاب الشديد، « وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن » أي : أمل إليهن، فياني ضعيف عاجز، إن لم تدفع عني سوء، « وأكن » إن صبوت إليهن « من الجاهلين » فإن هذا جهل، لأنه أثر لذة قليلة منغصة، على لذات متتابعات وشهوات متنوعة في جنات النعيم، ومن أثر هذا على هذا، فمن أجهل منه !! فإن العلم والعقل يدعو إلى تقديم أعظم المصلحتين وأعظم اللذتين، ويؤثر ما كان محمود العاقبة .

« فاستجاب له ربه » حين دعاه « فصرف عنه كيدهن » فلم تزل تراوده وتستعين عليه بما تقدر عليه من الوسائل، حتى آيسها، وصرف الله عنه كيدها، « إنه هو السميع » لدعاء الداعي « العليم » بنيته الصالحة، وبنيته الضعيفة المقتضية لإمداده بمعاونته ولطفه، فهذا ما نجى الله به يوسف من هذه الفتنة الملمة والمحنة الشديدة، وأما أسياده فإنه لما اشتهر الخبر ويان، وصار الناس فيها بين عاذر ولائم وقادح .

« بدا لهم » أي : ظهر لهم « من بعد ما رأوا الآيات » الذالة على براءته، « ليسجننه حتى حين » أي : لينقطع بذلك الخبر ويتناساه الناس، فإن الشيء إذا شاع لم يزل يذكر ويشاع مع وجود أسبابه، فإذا عدمت أسبابه نسي، فرأوا أن هذا مصلحة لهم، فأدخلوه في السجن .

« ٣٦ - ٤٠ » « ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراي أعصر خيراً وقال الآخر إني أراي أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه تبشاً يتأويله إنا نراك من المحسنين * قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربّي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون * واتبع ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون * يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار * ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » أي : « و » لما دخل يوسف السجن، كان في جملة من « دخل معه السجن فتيان » أي : شبان، فرأى كل واحد منهما رؤيا، فقصصها على يوسف ليخبرها، ف « قال أحدهما : إني أراي أعصر خيراً، وقال الآخر : إني أراي أحمل فوق رأسي خبزاً » وذلك الخبز « تأكل الطير منه

نبتنا بتأويله ﴿أي﴾: بتفسيره، وما يؤول إليه أمرهما، وقولهما: ﴿إنا نراك من المحسنين﴾: أي: من أهل الإحسان إلى الخلق، فأحسن إلينا في تعبيرك لرؤيانا، كما أحسنت إلى غيرنا، فتوسلا ليوسف بإحسانه.

ف ﴿قال﴾ لهما مجيباً لطلبتهما: ﴿لا يأتیکما طعام ترزقانه إلا نباتکما بتأويله قبل أن يأتیکما﴾: أي: فلتطمئن قلوبكما، فإني سأبادر إلى تعبير رؤياكما، فلا يأتیکما غداؤكما أو عشاؤكما، أول ما يجيء إليكما، إلا نباتکما بتأويله قبل أن يأتیکما.

ولعل يوسف عليه الصلاة والسلام قصد أن يدعوهم إلى الإيمان في هذه الحال التي بدت حاجتهما إليه، ليكون أنجع لدعوته، وأقبل لهما.

ثم قال: ﴿ذلكما﴾ التعبير الذي سأعبره لكما ﴿مما علمني ربي﴾: أي: هذا من علم الله علمنيه وأحسن إلي به، وذلك ﴿إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون﴾ والترك كما يكون للداخل في شيء ثم ينتقل عنه، يكون لمن لم يدخل فيه أصلاً.

فلا يقال: إن يوسف كان من قبل، على غير ملة إبراهيم ﴿وأتبعته ملة آباي إبراهيم وإسحاق ويعقوب﴾ ثم فسر تلك الملة بقوله: ﴿ما كان لنا﴾: أي: ما ينبغي ولا يليق بنا ﴿أن نشرك بالله من شيء﴾ بل نفرد الله بالتوحيد، ونخلص له الدين والعبادة.

﴿ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس﴾: أي: هذا من أفضل ميثقه وإحسانه وفضله علينا، وعلى من هداه الله كما هدانا، فإنه لا أفضل من يثقه الله على العباد بالإسلام والدين القويم، فمن قبله وإنقاد له فهو حظه، وقد حصل له أكبر النعم وأجل الفضائل.

﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ فلذلك تأتيهم المنة والإحسان، فلا يقبلونها ولا يقومون لله بحقه، وفي هذا من الترغيب للطريق التي هو عليها ما لا يخفى، فإن الفتين لما تقرر عنده

أنهما رأياه بعين التعظيم والإجلال، وأنه محسن معلم - ذكر لهما أن هذه الحالة التي أنا عليها، كلها من فضل الله وإحسانه، حيث من علي بترك الشرك واتباع ملة آباءه، فبهذا وصلت إلى ما رأيتم، فينبغي لكما أن تسلكا ما سلكت.

ثم صرح لهما بالدعوة، فقال: ﴿يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾: أي: أرباب عاجزة ضعيفة لا تنفع ولا تضر، ولا تعطي ولا تمنع، وهي متفرقة ما بين أشجار وأحجار وملائكة وأموات وغير ذلك من أنواع المعبودات التي يتخذها المشركون، أثلك ﴿خير أم الله﴾ الذي له صفات الكمال، ﴿الواحد﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله فلا شريك له في شيء من ذلك.

﴿القهار﴾ الذي انقادت الأشياء لقهره وسلطانه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها﴾ ومن المعلوم أن من هذا شأنه ووصفه خير من الآلهة المتفرقة التي هي مجرد أسماء، لا كمال لها ولا أفعال لديها، ولهذا قال: ﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم﴾.

أي: كسوموها أسماء، وسميتموها آلهة، وهي لا شيء، ولا فيها من صفات الألوهية شيء، ﴿ما أنزل الله بها من سلطان﴾ بل أنزل الله السلطان بالنهاي عن عبادتها وبيان بطلانها، وإذا لم ينزل الله بها سلطاناً، لم يكن طريق ولا وسيلة ولا دليل لها.

لأن الحكم لله وحده، فهو الذي يأمر وينهى، ويشرع الشرائع ويسن الأحكام، وهو الذي أمركم ﴿أن لا تعبدوا إلا إياه﴾، ذلك الدين القيم ﴿أي: المستقيم الموصل إلى كل خير، وما سواه من الأديان، فإنها غير مستقيمة، بل معوجة توصل إلى كل شر..

﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ حقائق الأشياء، وإلا فإن الفرق بين عبادة الله وحده لا شريك له، وبين الشرك به، أظهر الأشياء وأبينها.

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَبِّرًا
وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ رِيكًا فَقَالَتْ لِمَ تَعْبُدْنَ مَا يَتَّبِعُونَ
أَكْبَرَهُ وَقُلْنَ لِيَأْمُرُنَّكَ وَفَلَن تَصِفُوهُنَّ إِن كَانَ هَذَا
أَلَمًا لَّكُمْ ﴿قَالَ ذَلِكَ الَّذِي أَلْهَيْتُ بِهِ وَقَدْ وَدِدْتُ
عَنْ نَّفْسِي أَنْ أَسْتَعِصِمَ وَلَئِنْ لَّمْ أَفْعَلْ مَا أُمِرْتُ لَأَكُونَنَّ
مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا
يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِنْ أَتَاكَ الْغَيُّ فَاصْبِرْ سَبْعِينَ نَجْمًا
وَأَكْبَرْنَ لِمَنْ جَعَلَهُنَّ أَصْحَابًا لَهُنَّ قُرُونٌ ثُمَّ دَارَ
إِلَيْهِنَّ السَّبْعُ الْعَظِيمُ ﴿فَوَدَّ بَعْضُهُمْ أَلَّا يَكُونُوا
لِلْآخَرِينَ سَاجِدِينَ ﴿وَوَدَّ بَعْضُهُمْ أَلَّا يَكُونُوا
لِلْآخَرِينَ أَقْبَرُ مَحَلًّا وَقَالَ الْآخَرُونَ لِمَ تُحِبُّونَ
مَنْ تَكْفُرُ أَكُلُّكُمْ لَعَنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمُ
طَعَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا ذُنُوبَكُمْ يُؤَلَّفُهَا
بِأَيْدِيهِمْ قُلْ لَّيْسَ لِي بِلِقَاءِ رَبِّي شَيْءٌ وَلكم
بِأَيْدِيكُمْ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي
يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٩﴾

ولكن لعدم العلم من أكثر الناس بذلك، حصل منهم ما حصل من الشرك، فيوسف عليه السلام دعا صاحبي السجن لعبادة الله وحده، وإخلاص الدين له، فيحتمل أنهما استجابا وإنقادا، فتمت عليهما النعمة، ويحتمل أنهما لم يزالا على شركهما، فقامت عليهما - بذلك - الحجة، ثم إنه عليه السلام شرع يعبر رؤياهما، بعد ما وعدهما ذلك، فقال:

﴿٤١﴾ ﴿يا صاحبي السجن أما أحذركم﴾ وهو الذي رأى أنه يعصر خراً، فإنه يخرج من السجن ﴿فيسقي ربه خيراً﴾: أي: يسقي سيده الذي كان يخدمه خيراً، وذلك مستلزم لخروجه من السجن، ﴿وأما الآخر﴾ وهو: الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه.

﴿فيصلب فتأكل الطير من رأسه﴾ فإنه عبر [عن] الخبز الذي تأكله الطير، بلحم رأسه وشحمه، وما فيه من المخ، وأنه لا يقبر ويستتر عن الطيور، بل يصلب ويجعل في محل، تتمكن الطيور من أكله، ثم أخبرهما بأن هذا التأويل الذي تأوله لهما، أنه لا بد من وقوعه فقال: ﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾: أي: تسألان عن تعبيره وتفسيره.

﴿٤٢﴾ ﴿وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان

تأويلها، وهذا من الأمور التي لا تنبغي لأهل الدين والحجاء، وهذا أيضاً من لطف الله بيوسف عليه السلام. فإنه لو عبرها ابتداء - قبل أن يعرضها على الملأ من قومه وعلمائهم، فيعجزوا عنها - لم يكن لها ذلك الموقع، ولكن لما عرضها عليهم فعجزوا عن الجواب، وكان الملك مهتماً لها غاية، فعبّر بها يوسف - وقعت عندهم موقعاً عظيماً، وهذا نظير إظهار الله فضل آدم على الملائكة بالعلم، بعد أن سألهم فلم يعلموا. ثم سأل آدم، فعلمهم أسماء كل شيء، فحصل بذلك زيادة فضله، وكما يظهر فضل أفضل خلقه محمد ﷺ في القيامة، أن يلهم الله الخلق أن يشفعوا بآدم، ثم بنوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى عليهم السلام، فيعتدرون عنها، ثم يأتون محمداً ﷺ فيقول: «أنا لها أنا لها»، فيشفع في جميع الخلق، ويتال ذلك المقام المحمود الذي يغط به الأولون والآخرون.

فسبحان من خفيت لطافته، ودثت في إيصاله البر والإحسان، إلى خواص أصفيائه وأوليائه، «وقال الذي نجا منهما» أي: من الفتيين، وهو: الذي رأى أنه يعصر خراً، وهو الذي أوصاه يوسف أن يذكره عند ربه «وإذا ذكر بعد أمة» أي: وتذكر يوسف، وما جرى له في تعبيرة لرؤياهما، وما وصاه به، وعلم أنه كفيلاً بتعبير هذه الرؤيا بعد مدة من السنين، فقال: «أنا أنبئكم بتأويله فأرسلوه» إلى يوسف لأسأله عنها.

فأرسلوه، فجاء إليه، ولم يعنفه يوسف على نسيانه، بل استمع ما يسأله عنه، وأجاب عن ذلك، فقال: «يوسف أيها الصديق» أي: كثير الصدق في أقواله وأفعاله، «أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون» فإنهم متشوقون لتعبيرها، وقد أهتمهم.

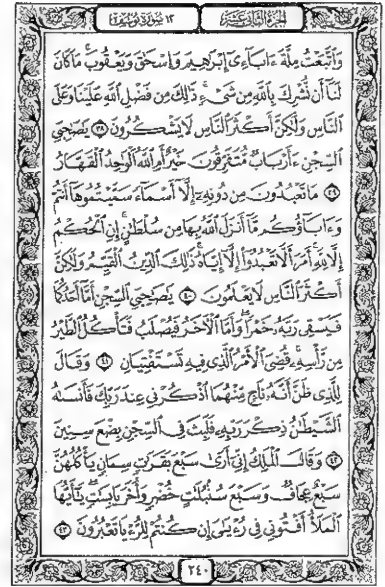
يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون * قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم قدروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون * ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون * ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون * لما أراد الله تعالى أن يخرج يوسف من السجن، أرى الله الملك هذه الرؤيا العجيبة، الذي تأويلها يتناول جميع الأمة، ليكون تأويلها على يد يوسف، فيظهر من فضله، ويبين من علمه ما يكون له رفعة في الدارين، ومن التقادير المناسبة أن الملك الذي ترجع إليه أمور الرعية هو الذي رآها، لارتباط مصالحها به.

وذلك أنه رأى رؤيا حالته، فجمع لها علماء قومه وذوي الرأي: منهم وقال: «إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع» أي: سبع من البقرات «عجاف» وهذا من العجب، أن السبع العجاف الهزيلات اللاتي سقطت قوتهن، يأكلن السبع السمان التي كُرُت نهاية في القوة.

«و» رأيت «سبع سنبلات خضر» يأكلن سبع سنبلات «يابسات» «يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي» لأن تعبير الجميع واحد، وتأويله شيء واحد، «إن كنتم للرؤيا تعبرون» فتحيروا، ولم يعرفوا لها وجهاً. و «قالوا: أضغاث أحلام» أي: أحلام لا حاصل لها، ولا لها تأويل.

وهذا جزم منهم بما لا يعلمون، وتعذر منهم، [بما ليس بعذراً^(١)] ثم قالوا: «وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين» أي: لا نعبر إلا الرؤيا، وأما الأحلام التي هي من الشيطان، أو من حديث النفس، فإننا لا نعبرها.

فجمعوا بين الجهل والجزم، بأنها أضغاث أحلام، والإعجاب بالنفس، بحيث إنهم لم يقولوا: لا نعلم



ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين * أي: «وقال» يوسف عليه السلام: «للذي ظن أنه ناج منهما» وهو: الذي رأى أنه يعصر خراً: «أذكرني عند ربك» أي: أذكر له شأني وقصتي، لعله يرق لي، فيخرجني مما أنا فيه، «فأنسى الشيطان ذكر ربه» أي: فأنسى الشيطان ذلك الناجي ذكر الله تعالى، وذكر ما يقرب إليه، ومن جملة ذلك نسيانه ذكر يوسف الذي يستحق أن يجازى بأتم الإحسان، وذلك ليتم الله أمره وقضاه: «فلبث في السجن بضع سنين» والبضع من الثلاث إلى التسع، ولهذا قيل: إنه لبث سبع سنين، ولما أراد الله أن يتم أمره، وبأذن بإخراج يوسف من السجن، قدر لذلك سبباً، كان سبباً لإخراج يوسف وارتفاع شأنه وإعلاء قدره، وهو رؤيا الملك:

«٤٣ - ٤٩» «وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون * قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين * وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلوه» يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان

يوسف عن نفسه ﴿فهل رأيته منته ما يريب؟﴾

فَبَرَأْتَهُ و ﴿قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء﴾ أي: لا قليل ولا كثير، فحينئذ زال السبب الذي تبتني عليه التهمة، ولم يبق إلا ما عند امرأة العزيز، ف ﴿قالت امرأة العزيز الآن جحش الحق﴾ أي: تمحض وتبين، بعد ما كنا ندخل معه من سوء والتهمة، ما أوجب له السجن^(١). ﴿أنا رادوته عن نفسه، وإنه لمن الصادقين﴾ في أقواله وبرأته، ﴿فذلك الإقرار الذي أقررت أني راودت يوسف﴾، ﴿ليعلم أي لم أخنه بالغيب﴾.

يُحْتَمَلُ أَنْ مَرَادَهَا بِذَلِكَ زَوْجَهَا أَي: ليعلم أي حين أقررت أني راودت يوسف، أي لم أخنه بالغيب، أي: لم يجر مني إلا مجرد المراءدة، ولم أفسد عليه فراشه، ويحتمل أن المراد بذلك ذلك ليعلم يوسف حين أقررت أني أنا الذي راودته، وأنه صادق أني لم أخنه في حال غيبته عني، ﴿وأن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ فإن كل خائن، لا بد أن تعود خيائته ومكره على نفسه، ولا بد أن يتبين أمره.

ثُمَّ لَمَّا كَانَ فِي هَذَا الْكَلَامِ نَوْعَ تَزْكِيَةٍ لِنَفْسِهَا، وَأَنَّهُ لَمْ يَجْرَ مِنْهَا ذَنْبٌ فِي شَأْنِ يَوْسُفَ، اسْتَدْرَكَتْ فَقَالَتْ: ﴿وَمَا أَبْرَىءُ نَفْسِي﴾ أي: من المراءدة والهَمِّ، والحرص الشديد، والكيد في ذلك، ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾، أي: لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء، أي: الفاحشة، وسائر الذنوب، فإنها مركب الشيطان، ومنها يدخل على الإنسان ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ فنجاه من نفسه الأمارة، حتى صارت نفسه مطمئنة إلى ربها، متقادة لداعي الهدى، متعاضية عن داعي الردى، فذلك ليس من النفس، بل من فضل الله ورحمته بعده.

﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: هو غفور لمن تجرأ على الذنوب والمعاصي، إذا تاب وأناب، ﴿وَرَحِيمٌ﴾ بقبول توبته، وتوفيقه للأعمال الصالحة، وهذا هو الصواب أن هذا من قول امرأة العزيز، لا من قول يوسف، فإن السياق في كلامها، ويوسف إذ ذاك في

الشداد، أن العام الذي يليها يزول به شدتها، ومن المعلوم أنه لا يزول الجذب المستمر سبع سنين متواليات، إلا بعام مخصب جداً، وإلا لما كان للتقدير فائدة، فلما رجع الرسول إلى الملك والناس، وأخبرهم بتأويل يوسف للرؤيا، عجبوا من ذلك، وفرحوا بها أشد الفرح.

﴿٥٠ - ٥٧﴾ ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن جحش الحق أننا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴿ذلك ليعلم أي لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ وما أبرء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربِّي إن ربِّي غفور رحيم ﴿وقال الملك ائتنوني به استخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين﴾ قال اجعلني على خزائن الأرض إني جفيف عليم ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين﴾ ولا أجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴿يقول تعالى: ﴿وقال الملك﴾ لمن عنده ائتنوني به﴾ أي: بيوسف عليه السلام، بأن يخرجوه من السجن ويحضروه إليه، فلما جاء يوسف الرسول وأمره بالحضور عند الملك، امتنع عن المبادرة إلى الخروج، حتى تبين براءته التامة، وهذا من صبره وعقله ورأيه التام.

ف ﴿قال﴾ للرسول: ﴿ارجع إلى ربك﴾ يعني به الملك، ﴿فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن﴾ أي: أسأله ما شأنهن وقصتهن، فإن أمرهن ظاهر متضح ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ فأحضرهن الملك، وقال: ﴿ما خطبكن﴾ أي: شأنكن ﴿إذ راودتن

فعبير يوسف، السبع البقرات السمان والسبع السنبلات الخضراء، بأنهن سبع سنين مخصبات، والسبع البقرات العجاف والسبع السنبلات اليابسات، بأنهن سبع سنين مجذبات، ولعل وجه ذلك - والله أعلم - أن الخصب والجذب لما كان الحارث مبنياً عليه، وأنه إذا حصل الخصب قويت الزروع والحروث، وحسن منظرها، وكثرت غلالها، والجذب بالعكس من ذلك. وكانت البقر هي التي تحرث عليها الأرض، وتسقى عليها الحروث في الغالب، والسنبلات هي أعظم الأقوات وأفضلها، عبرها بذلك لوجود المناسبة، فجمع لهم في تأويلها بين التعبير والإشارة لما يفعلونه، ويستعدون به من التدبير في سني الخصب، إلى سني الجذب فقال: ﴿تزرعون سبع سنين دأباً﴾ أي: متتابعات.

﴿فما حصدم﴾ من تلك الزروع ﴿فذروه﴾ أي: اتركوه ﴿في سنبلة﴾ لأنه أبقى له وأبعد عن الالتفات إليه ﴿إِلَّا قَلِيلًا مَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي: دبروا أيضاً أكلكم في هذه السنين الخصبة، وليكن قليلاً، ليكثر ما تدخرون ويعظم نفعه ووقعه.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: بعد تلك السنين السبع المخصبات، ﴿سبع شداد﴾ أي: مجذبات جداً ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي: يأكلن جميع ما ادخرتموه ولو كان كثيراً، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مَّا تَحْصِنُونَ﴾ أي: تمنعونه من التقديم

لهن. ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: بعد السبع الشداد ﴿عام فيه يفاث الناس وفيه يعصرون﴾ أي: فيه تكثر الأمطار والسيول، وتكثر الغلات، وتزيد على أقواتهم، حتى إنهم يعصرون العنب ونحوه زيادة على أكلهم، ولعل استدلاله على وجود هذا العام الخصب، مع أنه غير مصرح به في رؤيا الملك، لأنه فهم من التقدير^(١) بالسبع

(٢) كذا في ب وفي أ: لسجن يوسف.

(١) في ب: التعبير.

السجن لم يحضر.

فلما تحقق الملك والناس براءة يوسف الثامنة، أرسل إليه الملك وقال: «اثقوني به أستخلصه لنفسي» أي: أجعله خصيصة لي ومقرباً لدي فأتوه به مكرماً محترماً، «فلما كلمه» أعجبه كلامه، وزاد موقعه عنده فقال له: «إنك اليوم لدينا» أي: عندنا «مكين أمين» أي: متمكن، أمين على الأسرار، فـ «قال» يوسف طلباً للمصلحة العامة: «اجعلني على خزائن الأرض» أي: على خزائن جبايات الأرض وغلالها، وكيلاً حافظاً مدبراً.

«إني حفيظ عليهم» أي: حفيظ للذي أتولاه، فلا يضيع منه شيء في غير محله، وضابط للداخل والخارج، عليهم بكيفية التدبير والإعطاء والمنع، والتصرف في جميع أنواع التصرفات، وليس ذلك حرصاً من يوسف على الولاية، وإنما هو رغبة منه في النفع العام، وقد عرف من نفسه من الكفاءة والأمانة والحفظ ما لم يكونوا يعرفونه.

فلذلك طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض، فجعله الملك على خزائن الأرض وولاه إياها، قال تعالى: «وكذلك» أي: بهذه الأسباب والمقدمات المذكورة، «مكننا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء» في عيش رغد، ونعمة واسعة، وجاء عريض، «نصيب برحمتنا من نشاء» أي: هذا من رحمة الله بيوسف التي أصابه بها وقدرها له، وليست مقصورة على نعمة الدنيا.

«ولا نضيع أجر المحسنين» ويوسف عليه السلام من سادات المحسنين، فله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، ولهذا قال: «ولأجر الآخرة خير» من أجر الدنيا «للدنّين آمنوا وكانوا يتقون» أي: لمن جمع بين التقوى والإيمان، فبالتقوى تترك الأمور المحرمة من كبائر الذنوب وصغائرها، وبالإيمان التام يحصل تصديق القلب، بما أمر الله بالتصديق به، وتنبه أعمال القلوب وأعمال

الجوارح، من الواجبات والمستحبات.

«٥٨ - ٦٨» «وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون» ولما جهّزهم بجهازهم قال اثقوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين * فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون * قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون * وقال لفتيانہ اجمعوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون * فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون * قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فإله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين * ولما فتحو متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير * قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتني به إلا أن يحاط بكم فلما أتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل * وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتكمل التوكلون * ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وإنه للو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون * أي: لما تولى يوسف عليه السلام خزائن الأرض، دبرها أحسن تدبير، فزرع في أرض مصر جميعها في السنين المخصبة زروعاً هائلة، واتخذ لها المحلات الكبار، وجبا من الأطنمة شيئاً كثيراً وحفظه، وضبطه ضبطاً تاماً، فلما دخلت السنون المجدية، وسرى الجذب حتى وصل إلى فلسطين، التي يقيم فيها يعقوب وبنوه، فأرسل يعقوب بنيه لأجل الميرة إلى مصر، «وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون» أي: لم يعرفوه.

«ولما جهّزهم بجهازهم» أي: كال

لهم كما كان يكيل لغيرهم، وكان من تدبيره الحسن أنه لا يكيل لكل واحد أكثر من حل بعير، وكان قد سألهم عن حالهم، فأخبروه أن لهم أخاً عند أبيه، وهو بنيامين.

فـ «قال» لهم: «اثقوني بأخ لكم من أبيكم» ثم رغبهم في الإتيان به فقال: «ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين» في الضيافة والإكرام. ثم رغبهم بعدم الإتيان به، فقال: «فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون» وذلك لعلهم باضطراهم إلى الإتيان إليه، وأن ذلك يحملهم على الإتيان به.

فـ «قالوا سنراود عنه أباه» دلّ هذا على أن يعقوب عليه السلام كان مولعاً به لا يصبر عنه، وكان يتسلل به بعد يوسف، فلذلك احتاج إلى مرادة في بعثه معهم «وإنا لفاعلون» لما أمرتنا به.

«وقال» يوسف «لفتيانہ الذين في خدمته: «اجعلوا بضاعتهم» أي: الثمن الذي اشتروا به من الميرة.

«في رحالهم لعلهم يعرفونها» أي: بضاعتهم إذا رأوها بعد ذلك في رحالهم، «لعلهم يرجعون» لأجل التخرج من أخذها على ما قيل، والظاهر أنه أراد أن يرغبهم في إحسانه إليهم بالكيل لهم كيلاً وافياً، ثم إعادة بضاعتهم إليهم على وجه لا يحسون بها، ولا يشعرون لما يأتي، فإن الإحسان يوجب للإنسان تمام الوفاء للمحسن.

«فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا: يا أبانا منع منا الكيل» أي: إن لم ترسل معنا أخانا، «فأرسل معنا أخانا نكتل» أي: ليكون ذلك سبباً لكيلنا، ثم التزموا له بحفظه، فقالوا: «وإنا له لحافظون» من أن يعرض له ما يكره، «قال» لهم يعقوب عليه السلام: «هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل» أي: تقدم منكم التزام أكثر من هذا في حفظ يوسف، ومع هذا لم تفوا بما عقدتم من التأكد، فلا أثق بالتزامكم وحفظكم، وإنما أثق

بالله تعالى.

قضاؤه، والأمر أمره، فما قضاه وحكم به لا بد أن يقع، عليه توكلت أي: اعتمدت على الله، لا على ما وصيتكم به من السبب، وعليه فليتوكل المتوكلون، فإن بالتوكل يحصل كل مطلوب، ويندفع كل مرهوب.

﴿ولما ذهبوا ودخلوا من حيث أمرهم أبوه﴾ ما كان ذلك الفعل يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها، وهو موجب الشفقة والمحبة للأولاد، فحصل له في ذلك نوع طمأنينة، وقضاء لما في خاطره.

وليس هذا قصوراً في علمه، فإنه من الرسل الكرام والعلماء الربانيين، ولهذا قال عنه: ﴿وإنه لذو علم﴾ أي: لصاحب علم عظيم ﴿لما علمناه﴾ أي: لتعليمنا إياه، لا بحوله وقوته أدركه، بل بفضل الله وتعليمه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون عواقب الأمور ودقائق الأشياء وكذلك أهل العلم منهم، يخفى عليهم من العلم وأحكامه ولوازمه شيء كثير.

﴿٦٩-٧٩﴾ ﴿ولما دخلوا على يوسف أوى إليه أخاه قال إني أنا أخوك فلا تبتس بما كانوا يعملون﴾ فلما جهّزهم بجهّازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أبيها العير إنكم لسارقون ﴿قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون﴾ قالوا تفقد صواع الملك ولمن جاء به حل يعير وأنا به زعيم ﴿قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفْسِدَ في الأرض وما كنا سارقين﴾ قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ﴿قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين﴾ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم ﴿قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم

﴿فاله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين﴾ أي: يعلم حالي، وأرجو أن يرحمني، فيحفظه ويرده علي، وكأنه في هذا الكلام قد لَان لإرساله معهم، ثم إنهم ﴿لما فتحو متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم﴾ هذا دليل على أنه قد كان معلوماً عندهم أن يوسف قد ردها عليهم بالقصد، وأنه أراد أن يملكهم إياها، ف ﴿قالوا لأبيهم - ترغيباً في إرسال أخيه معهم -: يا أبانا ما تبغى﴾ أي: أي شيء نطلب بعد هذا الإكرام الجميل، حيث وقى لنا الكيل، ورد علينا بضاعتنا على الوجه الحسن، المتضمن للإخلاص ومكارم الأخلاق؟

﴿هذه بضاعتنا ردت إلينا وتمير أهلنا﴾ أي: إذا ذهبنا بأخيها صار سبباً لكيله لنا، فمرنا^(١) أهلنا، وأتينا^(٢) لهم، بما هم مضطرون إليه من القوت، ونحفظ أختانا ونزداد كيل بعير، بإرساله معنا، فإنه يكيل لكل واحد حمل بعير، ﴿ذلك كيل يسير﴾ أي: سهل لا ينالك ضرر، لأن المدة لا تطول، والمصلحة قد تبينت.

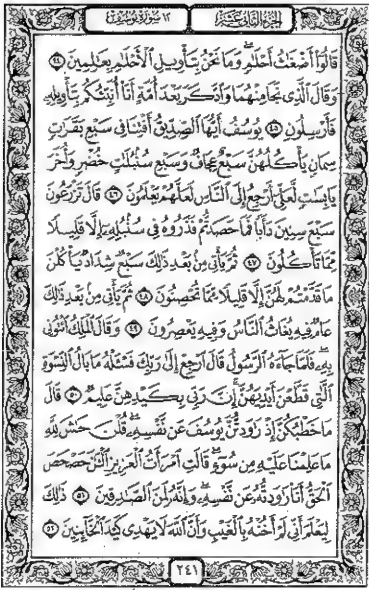
ف ﴿قال لهم يعقوب﴾: ﴿لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله﴾ أي: عهداً ثقيلاً، وتحلفون بالله ﴿لئلا نتي به إلا أن يحاط بكم﴾ أي: إلا أن يأتيكم أمر لا قبل لكم به، ولا تقدرّون دفعه، ﴿فلما أتوه موثقهم﴾ على ما قال وأراد ﴿قال: الله على ما نقول وكيل﴾ أي: تكفينا شهادته علينا وحفظه وكفائه، ثم لما أرسله معهم وصاحبهم إذا هم قدموا مصر، أن لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة، وذلك أنه خاف عليهم العين، لكثرتهم وبهاء منظرهم، لكونهم أبناء^(٣) رجل واحد، وهذا سبب.

﴿ولا﴾ أي: ﴿ما أغني عنكم من الله من شيء﴾ فالقدر لا بد أن يكون، ﴿إن الحكم إلا لله﴾ أي: القضاء

(١) في ب: فتمير.

(٢) في ب: وثاني.

(٣) كذا في ب، وفي أ: ابن.



بيدها لهم قال أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون ﴿قالوا يا أبا العزیز إنا أبا شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين﴾ قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون ﴿أي: لما دخل إخوة يوسف على يوسف ﴿أوى إليه أخاه﴾ أي: شقيقه وهو «بنيامين» الذي أمرهم بالإتيان به [و] ضمه إليه، واختصه من بين إخوته، وأخبره بحقيقة الحال، و ﴿قال: إني أنا أخوك فلا تبتس﴾ أي: لا تحزن ﴿بما كانوا يعملون﴾ فإن العاقبة خير لنا، ثم خبره بما يريد أن يصنع ويتحيل لبقائه عنده إلى أن ينتهي الأمر.

﴿فلما جهّزهم بجهّازهم﴾ أي: كان لكل واحد من إخوته، ومن جلتهم أخوه هذا، ﴿جعل السقاية وهو: الإناء الذي يشرب به، ویکال فيه﴾ في رحل أخيه ثم أوعروا متاعهم، فلما انطلقوا ذاهبين، ﴿أذن مؤذن أبيها العير إنكم لسارقون﴾ ولعل هذا المؤذن لم يعلم بحقيقة الحال، ﴿قالوا﴾ أي: إخوة يوسف ﴿وأقبلوا عليهم﴾ لإبعاد التهمة، فإن السارق ليس له هم إلا البعد والانطلاق عمن سرق منه، لتسلم لهم سرقة، وهؤلاء جاءوا مقبلين إليهم، ليس لهم هم إلا



إزالة التهمة التي رموا بها عنهم، فقالوا في هذه الحال: ﴿ماذا تفقدون﴾ ولم يقولوا: «ما الذي سرقنا» لجزمهم بأنهم براء من السرقة، ﴿قالوا نفقد صواع الملك ولن جاء به حمل بعير﴾ أي: أجرة له على وجدانه ﴿وأننا به زعيم﴾ أي: كفيل، وهذا يقوله المؤذن المتفقد.

﴿قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض﴾ بجميع أنواع المعاصي، ﴿وما كنا سارقين﴾ فإن السرقة من أكبر أنواع الفساد في الأرض، وإنما أقسموا على علمهم أنهم ليسوا مفسدين ولا سارقين، لأنهم عرفوا أنهم سبروا من أحوالهم ما يدلهم على عفتهم وورعهم، وأن هذا الأمر لا يقع منهم بعلم من اتهموهم، وهذا أبلغ في نفي التهمة، من أن لو قالوا: «تالله لم نفسد في الأرض ولم نسرق».

﴿قالوا فما جزاؤه﴾ أي: جزاء هذا الفعل ﴿إن كنتم كاذبين﴾ بأن كان معكم؟ ﴿قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو﴾ أي: الموجود في رحله ﴿جزاؤه﴾ بأن يملكه صاحب السرقة، وكان هذا في دينهم أن السارق إذا ثبتت عليه السرقة كان ملكاً لصاحب المال المسروق، ولهذا قالوا: ﴿كذلك نجزي الظالمين﴾.

﴿فبدا المفتش﴾ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ﴿وذلك لتزول الريبة التي

يظن أنها فعلت بالقصد، فلما لم يجد في أوعيتهم شيئاً ﴿استخرجها من وعاء أخيه﴾ ولم يقل «وجدها» أو سرقها أخوه» مراعاة للحقيقة الواقعة.

فحينئذ تم ليوسف ما أراد من بقاء أخيه عنده، على وجه لا يشعر به إخوته، قال تعالى: ﴿كذلك كدنا ليوسف﴾ أي: يسرنا له هذا الكيد، الذي توصل به إلى أمر غير مذموم ﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾ لأنه ليس من دينه أن يملك السارق، وإنما له عندهم جزاء آخر، فلو ردت الحكومة إلى دين الملك، لم يتمكن يوسف من إبقاء أخيه عنده، ولكنه جعل الحكم منهم، ليطمأن له ما أراد.

قال تعالى: ﴿نرفع درجات من نشاء﴾ بالعلم النافع، ومعرفة الطرق الموصلة إلى مقصدها، كما رفعنا درجات يوسف، ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾ فكل عالم، فوقه من هو أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى عالم الغيب والشهادة، فلما رأى إخوة يوسف ما رأوا ﴿قالوا إن يسرق﴾ هذا الأخ، فليس هذا غريباً منه، ﴿فقد سرق أخ له من قبل﴾ يعنون: يوسف عليه السلام، ومقصودهم تبرئة أنفسهم وأن هذا وأخاه قد يصدر منهما ما يصدر من السرقة، وهما ليسا شقيقتين لنا.

وفي هذا من الغضب عليهما ما فيه، ولهذا: أسرها يوسف في نفسه ﴿ولم يبد لها﴾ أي: لم يقابلهم على ما قالوه بما يكرهون، بل كظم الغيظ، وأسر الأمر في نفسه، و ﴿قال﴾ في نفسه ﴿أنتم شر مكاناً﴾ حيث ذمتمونا بما أنتم على أشرم منه، ﴿والله أعلم بما تصفون﴾ منا، من وصفنا بالسرقة، يعلم الله أنا براء منها، ثم سلكوا معه مسلك التملق، لعله يسمح لهم بأخيه.

ف ﴿قالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً﴾ أي: وإنه لا يصبر عنه، وسيشق عليه فراقه، ﴿فخذ أحدنا مكانه إننا نراك من المحسنين﴾ فأحسن إلينا وإلى أبينا بذلك، ف ﴿قال﴾ يوسف ﴿معاذ الله أن نأخذ إلا من

وجدنا متاعنا عنده﴾ أي: هذا ظلم منا، لو أخذنا البريء بذنوب من وجدنا متاعنا عنده، ولم يقل «من سرق» كل هذا تحرز من الكذب، ﴿إننا إذا﴾ أي: إن أخذنا غير من وجد في رحله ﴿لظالمون﴾ حيث وضعنا العقوبة في غير موضعها.

﴿٨٠ - ٨٣﴾ ﴿فلما استياسوا منه خلصوا نجياً﴾ قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ﴿ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين﴾ واصل القرية التي كنا فيها والبير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون ﴿قال بل سؤلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم﴾ أي: فلما استياس إخوة يوسف من يوسف أن يسمح لهم بأخيهم ﴿خلصوا نجياً﴾ أي: اجتمعوا وحدهم، ليس معهم غيرهم، وجعلوا يتناجون فيما بينهم، ف ﴿قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله﴾ في حفظه، وأنكم تأتون به إلا أن يحاط بكم ﴿ومن قبل ما فرطتم في يوسف﴾ فاجتمع عليكم الأمران، تفرطكم في يوسف السابق، وعدم إتيانكم بأخيه باللاحق، فليس لي وجه أواجه به أبي.

﴿فلن أبرح الأرض﴾ أي: سأقيم في هذه الأرض ولا أزال بها ﴿حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي﴾ أي: يقدر لي المجيء وحدي، أو مع أخي ﴿وهو خير الحاكمين﴾ ثم وصاهم بما يقولون لأبيهم، فقال: ﴿ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق﴾ أي: وأخذ بسرقة، ولم يحصل لنا أن تأتيك به، مع ما بذلنا من الجهد في ذلك. والحال أنا ما شهدنا بشيء لم نعلمه، وإنما شهدنا بما علمنا، لأننا رأينا الصواع استخرج من رحله، ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾ أي: لو كنا نعلم الغيب لما حرصنا وبذلنا المجهود في

فلما انتهى الأمر، وبلغ أشده، رُق لهم يوسف رقة شديدة، وعرفهم بنفسه، وعاتبهم.

﴿٨٩ - ٩٢﴾ قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون * قالوا أأنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين * قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين * قال لا تشرب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين * قال: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه * أما يوسف فظاهر فعلهم فيه، وأما أخوه، فلعله والله أعلم قولهم: * إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل * أو أن الحادث الذي فرق بينه وبين أبيه، هم السبب فيه، والأصل الموجب له، * إذ أنتم جاهلون * وهذا نوع اعتذار لهم بجهلهم، أو توبيخ لهم إذ فعلوا فعل الجاهلين، مع أنه لا ينبغي ولا يليق منهم.

فعرفوا أن الذي خاطبهم هو يوسف، فقالوا: * أأنك لأنت يوسف؟ قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا * بالإيمان والتقوى، والتمكين في الدنيا، وذلك بسبب الصبر والتقوى، * إنه من يتق ويصبر * أي: يتقي فعل ما حرم الله، ويصبر على الآلام والمصائب، وعلى الأوامر بامتثالها * فإن الله لا يضيع أجر المحسنين * فإن هذا من الإحسان، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

﴿قالوا تالله لقد آثرك الله علينا﴾ أي: فضلك علينا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأسأنا إليك غاية الإساءة، وحرصنا على إيصال الأذى إليك، والتباعد لك عن أبيك، فأثرك الله تعالى ومكنك مما تريد * وإن كنا لخاطئين * وهذا غاية الاعتراف منهم بالجرم الحاصل منهم على يوسف.

ف ﴿قال﴾ لهم يوسف عليه السلام، كرمًا وجوداً:

أحوالك، * حتى تكون حراً * أي: فانياً لا حراك فيك ولا قدرة على الكلام.

﴿أو تكون من الهالكين﴾ أي: لا تترك ذكره مع قدرتك على ذكره أبداً، * قال﴾ يعقوب * إنما أشكو بثي * أي: ما أبث من الكلام * وحرني * الذي في قلبي * إلى الله * وحده، لا إليكم ولا إلى غيركم من الخلق، فقولوا ما شئتم * وأعلم من الله ما لا تعلمون * من أنه سيردهم علي ويقر عيني بالاجتماع بهم.

﴿٨٧ - ٨٨﴾ يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون * فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين * أي: قال يعقوب عليه السلام لبنيه: * يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه * أي: احرصوا واجتهدوا على التفتيش عنهما * ولا تيأسوا من روح الله * فإن الرجاء يوجب للعبد السعي والاجتهاد فيما رجاه، والإياس: يوجب له التثاقل والتباطؤ، وأولى ما رجا العباد، فضل الله وإحسانه ورحمته وروحه، * إنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون * فإنهم لكفرهم يستبعدون رحمته، ورحمته بعيدة منهم، فلا تشبهوا بالكافرين.

ودل هذا على أنه بحسب إيمان العبد يكون رجاؤه لرحمة الله وزوجه، فذهبوا * فلما دخلوا عليه * أي: على يوسف * قالوا * متضرعين إليه: * يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا * أي: قد اضطررنا نحن وأهلنا * وجئنا ببضاعة مزجاة * أي: مدفوعة مرغوب عنها لقلتها، وعدم وقوعها الموقع، * فأوف لنا الكيل * أي: مع عدم وفاء العرض، وتصدق علينا بالزيادة عن الواجب. * إن الله يجزي المتصدقين * بثواب الدنيا والآخرة.

ذهابه معنا، ولما أعطيناك عهدنا ومواثيقنا، فلم نظن أن الأمر سيبلغ ما بلغ، * وإسأل * إن شككت في قولنا القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها * فقد اطلعوا على ما أخبرناك به * وإنا لصادقون * لم نكذب ولم نغتر ولم نبدل، بل هذا الواقع.

فلما رجعوا إلى أبيهم وأخبروه بهذا الخبر، اشتد حزنه وتضاعف كمده، واتهمهم أيضاً في هذه القضية، كما اتهمهم في الأولى، و * قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل * أي: ألقا في ذلك إلى الصبر الجميل، الذي لا يصحبه تسخط ولا جزع، ولا شكوى للخلق، ثم لجأ إلى حصول الفرج لما رأى أن الأمر اشتد، والكرية انتهت فقال: * عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً * أي: يوسف و * بنيامين *، وأخوهم الكبير الذي أقام في مصر.

﴿إنه هو العليم﴾ الذي يعلم حالي، واحتياجي إلى تفرجه وميئته، واضطراري إلى إحسانه، * الحكيم * الذي جعل لكل شيء قدراً، ولكل أمر منتهى، بحسب ما اقتضته حكمته الربانية.

﴿٨٤ - ٨٦﴾ وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم * قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حراً أو تكون من الهالكين * قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون * أي: وتولى يعقوب عليه الصلاة والسلام عن أولاده بعدما أخبروه هذا الخبر، واشتد به الأسف والأسى، وابيضت عيناه من الحزن الذي في قلبه، والكمد الذي أوجب له كثرة البكاء، حيث ابيضت عيناه من ذلك.

﴿فهو كظيم﴾ أي: ممتلئ القلب من الحزن الشديد، * وقال يا أسفى على يوسف * أي: ظهر منه ما كمن من الهم القديم والشوق المقيم، وذكرته هذه المصيبة الخفيفة بالنسبة للأولى، المصيبة الأولى، فقال له أولاده متعجبين من حاله: * تالله تفتأ تذكر يوسف * أي: لا تزال تذكر يوسف في جميع

﴿لا تشرب عليكم اليوم﴾ أي: لا أشرّب عليكم ولا ألهمكم. يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين. فسمح لهم سماحاً تاماً، من غير تعيير لهم على ذكر الذنب السابق، ودعا لهم بالمغفرة والرحمة، وهذا نهاية الإحسان الذي لا يتأتى إلا من خواص الخلق وخيار المصطفين.

﴿٩٣-٩٨﴾ ﴿أذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين﴾ * ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفقدون * قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم * فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون * قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين * قال سوف أستغفر لكم ري إنّه هو الغفور الرحيم﴾ أي: قال يوسف عليه السلام لإخوته: ﴿أذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً﴾ لأن كل داء يداوى بضده، فهذا القميص - لما كان فيه أثر ريح يوسف، الذي أودع قلب أبيه من الحزن والشوق ما الله به عليم - أراد أن يشمه، فترجع إليه روحه، وتراجع إليه نفسه، ويرجع إليه بصره، والله في ذلك حكم وأسرار، لا يطلع عليها العباد، وقد اطلع يوسف من ذلك على هذا الأمر.

﴿وأتوني بأهلكم أجمعين﴾ أي: أولادكم وعشيرتكم وتوابعكم كلهم، ليحصل تمام اللقاء، ويحول عنكم نكد المعيشة، وضنك الرزق.

﴿ولما فصلت العير﴾ عن أرض مصر مقبلة إلى أرض فلسطين، شَمَّ يعقوب ريح القميص، فقال: ﴿إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفقدون﴾ أي: تسخرون مني، وتزعمون أن هذا الكلام صدر مني من غير شعور، لأنه رأى منهم من التعجب من حاله ما أوجب له هذا القول، فوقع ما ظنّه بهم فقالوا:

﴿تالله إنك لفي ضلالك القديم﴾ أي: لا تزال تائهاً في بحر الحب لا تدري ما تقول.

﴿فلما أن جاء البشير﴾ بقرب الاجتماع بيوسف وإخوته وأبيهم، ﴿ألقاه﴾ أي: القميص ﴿على وجهه فارتد بصيراً﴾ أي: رجع على حاله الأولى بصيراً، بعد أن ابضت عيناه من الحزن، فقال لمن حضره من أولاده وأهله الذين كانوا يفقدون رأيه، ويتعجبون منه منتصراً عليهم، متبجحاً بنعمة الله عليه: ﴿ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون﴾ حيث كنت مترجياً للقاء يوسف، مترقباً لزيوالهم والغم والحزن.

﴿فأقروا بذنوبهم ونجعوا بذلك﴾ و ﴿قالوا: يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين﴾ حيث فعلنا معك ما فعلنا.

ف ﴿قال﴾ مجيباً لطلبته، ومسرّعاً لإجابته: ﴿سوف أستغفر لكم ري، إنّه هو الغفور الرحيم﴾ أي: ورجائي به أن يغفر لكم ويرحمكم، ويتغمدكم برحمته، وقد قيل: إنه أخر الاستغفار لهم إلى وقت السحر الفاضل، ليكون أتم للاستغفار، وأقرب للإجابة.

﴿٩٩-١٠٠﴾ ﴿فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمين﴾ * ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزعت الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم﴾ أي: ﴿فلما﴾ تجهز يعقوب وأولاده وأهلهم أجمعون، وارتحلوا من بلادهم قاصدين الوصول إلى يوسف في مصر وسكنائها، فلما وصلوا إليه، و ﴿دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه﴾ أي: ضمهما إليه، واختصهما بقربه، وأبدى لهما من البر والإكرام^(١) والتبجيل والإعظام شيئاً

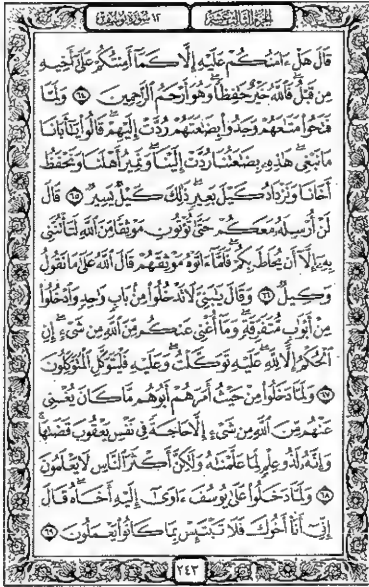
عظيماً، ﴿وقال﴾ لجميع أهله: ﴿ادخلوا مصر إن شاء الله آمين﴾ من جميع المكارة والمخاوف، فدخلوا في هذه الحال السارة، وزال عنهم النصب ونكد المعيشة، وحصل السرور والبهجة.

﴿ورفع أبويه على العرش﴾ أي: على سرير الملك، وجلس العزيز، ﴿وخروا له سجداً﴾ أي: أبوه، وأمه وإخوته، سجدوا على وجه التعظيم والتبجيل والإكرام، ﴿وقال﴾ لما رأى هذه الحال، ورأى سجدتهم له: ﴿يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل﴾ حين رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين، فهذا وقوعها الذي آلت إليه ووصلت ﴿قد جعلها ربي حقاً﴾ فلم يجعلها أضغاث أحلام.

﴿وقد أحسن بي﴾ إحساناً جسيماً ﴿إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو﴾ وهذا من لطفه وحسن خطابه عليه السلام، حيث ذكر حاله في السجن، ولم يذكر حاله في الحب، لتمام عفوه عن إخوته، وأنه لا يذكر ذلك الذنب، وأن إتيانكم من البادية من إحسان الله إلي.

فلم يقل: جاء بكم من الجوع والنصب، ولا قال: ﴿أحسن بكم﴾ بل قال ﴿أحسن بي﴾ جعل الإحسان عائداً إليه، فتبارك من يختص برحمته من يشاء من عباده، ويهب لهم من لذه رحمة إنه هو الوهاب، ﴿من بعد أن نزعت الشيطان بيني وبين إخوتي﴾ فلم يقل ﴿نزعت الشيطان إخواني﴾ بل كان الذنب والجهل صدر من الطرفين، فالحمد لله الذي أخزى الشيطان ودحره، وجعنا بعد تلك الفقرة الشاقة.

﴿إن ربي لطيف لما يشاء﴾ يوصل بره وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر، ويوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها، ﴿إنّه هو العليم﴾ الذي يعلم ظواهر الأمور وبواطنها، وسرائر العباد وضمائرهم، ﴿الحكيم﴾ في وضعه الأشياء مواضعها، وسوقه



عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين * وكأين من آية في السماوات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون * وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون * أقاموا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون * يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت﴾ على إيمانهم ﴿بمؤمنين﴾ فإن مداركهم ومقاصدهم قد أصبحت فاسدة، فلا ينفعهم حرص الناصحين عليهم ولو عدت الموانع، بأن كانوا يعلمونهم ويدعونهم إلى ما فيه الخير لهم، ودفع الشر عنهم، من غير أجر ولا عوض، ولو أقاموا لهم من الشواهد والآيات الدالات على صدقهم ما أقاموا. ولهذا قال:

﴿وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ يتذكرون به ما ينفعهم ليفعلوه، وما يضرهم لتركوه. ﴿وكأين﴾ أي: وكم ﴿من آية في السماوات والأرض يمرّون عليها﴾ دالة لهم على توحيد الله ﴿وهم عنها معرضون﴾.

ومع هذا إن وجد منهم بعض الإيمان فلا يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴿فهم وإن أقروا ببروبية الله تعالى، وأنه الخالق الرازق المدير لجميع الأمور، فإنهم يشركون في ألوهية الله وتوحيده، فهؤلاء الذين وصلوا إلى هذه الحال لم يبق عليهم إلا أن يحل بهم العذاب، ويفجأهم العقاب وهم آمنون، ولهذا قال:

﴿أقامتوا﴾ أي: الفاعلون لتلك الأفعال، المعرضون عن آيات الله ﴿أن تأتيهم غاشية من عذاب الله﴾ أي: عذاب يغشاهم ويعمهم ويستأصلهم، ﴿أو تأتيهم الساعة بغتة﴾ أي: فجأة ﴿وهم لا يشعرون﴾ أي: فإنهم قد استوجبوا لذلك، فليتوبوا إلى الله، وتركوا ما يكون سبباً في عقابهم.

﴿١٠٨-١٠٩﴾ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين * وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي

الأمور إلى أوقاتها المقدرة لها.

﴿١٠١﴾ ﴿رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾ لما أتم الله ليوسف ما أتم من التمكين في الأرض والملك، وأقر عينه بأبويه وإخوته، وبعد العلم العظيم الذي أعطاه الله إياه، قال مقراً بنعمة الله شاكراً لها داعياً بالثبات على الإسلام:

﴿رب قد آتيتني من الملك﴾ وذلك أنه كان على خزائن الأرض وتديرها ووزيراً كبيراً للملك ﴿وعلمتني من تأويل الأحاديث﴾ أي: من تأويل أحاديث الكتب المنزلة وتأويل الرؤيا وغير ذلك من العلم ﴿فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً﴾ أي: أدم علي الإسلام وثبتني عليه حتى توفياني عليه، ولم يكن هذا دعاء باستعجال الموت، ﴿واللحقني بالصالحين﴾ من الأنبياء الأبرار والأصفياء الأخيار.

﴿١٠٢﴾ ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾ لما قص الله هذه القصة على محمد ﷺ قال الله له: ﴿ذلك﴾ الأنبياء الذي أخبرناك به ﴿من أنباء الغيب﴾ الذي لولا إيماننا إليك لما وصل إليك هذا الخبر الجليل، فإنك لم تكن حاضراً لديهم ﴿إذ أجمعوا أمرهم﴾ أي: لإخوة يوسف ﴿وهم يمكرون﴾ به حين تعاهدوا على التفريق بينه وبين أبيه، في حالة لا يطلع عليها إلا الله تعالى، ولا يمكن أحداً أن يصل إلى علمها، إلا بتعليم الله له إياها.

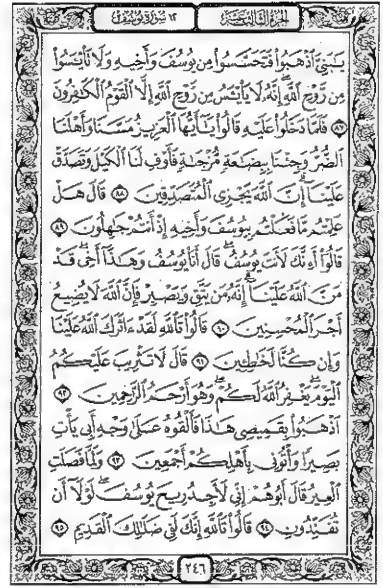
كما قال تعالى لما قص قصة موسى وما جرى له، ذكر الحال التي لا سبيل للخلق إلى علمها إلا بوحية ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر، وما كنت من الشاهدين﴾ الآيات، فهذا أدل دليل على أن ما جاء به رسول الله حقاً.

﴿١٠٣-١٠٧﴾ ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ وما تسألهم

اليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون ﴿يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قل﴾ للناس ﴿هذه سبيلي﴾ أي: طريقي التي أدعو إليها، وهي السبيل الموصلة إلى الله وإلى دار كرامته، المتضمنة للعلم بالحق والعمل به وإيثاره، وإخلاص الدين لله وحده لا شريك له، ﴿أدعوا إلى الله﴾ أي: أحب الخلق والعباد إلى الوصول إلى ربهم، وأرغبهم في ذلك وأرغبهم بما يعدهم عنه.

ومع هذا فأننا ﴿على بصيرة﴾ من ديني، أي: على علم يقين من غير شك ولا امتراء ولا مرية، ﴿و﴾ كذلك ﴿من اتبعني﴾ يدعو إلى الله كما أدعو، على بصيرة من أمره ﴿وسبحان الله﴾ عما نسب إليه مما لا يليق بجلاله، أو ينافي كماله.

﴿وما أنا من المشركين﴾ في جميع أموري، بل أعبد الله خلاصاً له الدين. ثم قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً﴾ أي: لم نرسل ملائكة ولا غيرهم من أصناف الخلق، فلا شيء يستغرب قومك رسالتك، ويزعمون أنه ليس لك عليهم فضل، فلك فيمن قبلك من المرسلين أسوة حسنة ﴿نوحى إليهم من أهل القرى﴾ أي: لا من البادية، بل من أهل القرى



لا إثم على من باشره ببيع أو شراء، أو خدمة أو انتفاع أو استعمال، فإن يوسف عليه السلام باعه إخوته بيعاً حراماً، لا يجوز، ثم ذهبت به السيارة إلى مصر فباعوه بها، وبقي عند سيده غلاماً رقيقاً، وسماه الله شراً^(١)، وكان عندهم بمنزلة الغلام الرقيق المكرم.

ومنها: الحذر من الخلوة بالنساء التي يخشى منهن الفتنة، والحذر أيضاً من المحبة التي يخشى ضررها، فإن امرأة العزيز جرى منها ما جرى، بسبب توخدها بيوسف، وحبها الشديد له، الذي ما تركها حتى راودته تلك المراودة، ثم كذبت عليه، فسجن بسببها مدة طويلة.

ومنها: أن الإثم الذي هم به يوسف بالمرأة، ثم تركه الله، بما يقربه إلى الله زلفى، لأن الإثم داع من دواعي النفس الأمارة بالسوء، وهو طبيعة لأغلب الخلق، فلما قابل بينه وبين محبة الله وخشيته، غلبت محبة الله وخشيته داعي النفس والهوى، فكان ممن «خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى» ومن السبعة الذين يظلمهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، أحدهم: «رجل دعت امرأة ذات

منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله» وإنما الهم الذي يلام عليه العبد، الهم الذي يساكنه، ويصير عزماً، ربما اقترن به الفعل.

ومنها: أن من دخل الإيمان قلبه، وكان خالصاً لله في جميع أموره فإن الله يدفع عنه ببرهان إيمانه، وصدق إخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه لقوله: «وهم بها لولا أن رأى برهان ربه، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين» على قراءة من قرأها بكسر اللام، ومن قرأها بالفتح، فإنه من إخلص الله إياه، وهو متضمن لإخلاصه هو بنفسه، فلما أخلص عمله لله أخلصه الله، وخلصه من السوء والفحشاء.

ومنها: أنه ينبغي للعبد إذا رأى محلاً فيه فتنة وأسباب معصية، أن يفر منه ويهرب غاية ما يمكنه، ليتمكن من التخلص من المعصية، لأن يوسف عليه السلام - لما راودته التي هو في بيتها - فر هارباً، يطلب الباب ليتخلص من شرها، ومنها: أن القرأتين يعمل بها عند الاشتباه، فلو تخاصم رجل وامرأته في شيء من أواني الدار، فما يصلح للرجل فإنه للرجل، وما يصلح للمرأة فهو لها، إذا لم يكن بينة، وكذا لو تنازع نجار وحداد في آلة حرفتهما من غير بينة، والعمل بالقافة في الأشياء والأثر، من هذا الباب، فإن شاهد يوسف شهد بالقرينة، وحكم بها في قد القميص، واستدل بقده من دبره على صدق يوسف وكذبها.

ومما يدل على هذه القاعدة، أنه استدل بوجود الصواع في رحل أخيه على الحكم عليه بالسرقة، من غير بينة شهادة ولا إقرار، فعلى هذا إذا وجد المسروق في يد السارق، خصوصاً إذا كان معروفاً بالسرقة، فإنه يحكم عليه بالسرقة، وهذا أبلغ من الشهادة،

وكذلك وجود الرجل يتقياً الخمر، أو وجود المرأة التي لا زوج لها ولا سيد حاملاً فإنه يقام بذلك الحد، ما لم يقم مانع منه، ولهذا سمى الله هذا الحاكم شاهداً فقال: «وشهد شاهد من أهلها».

ومنها: ما عليه يوسف من الجمال الظاهر والباطن، فإن جماله الظاهر، أوجب للمرأة التي هو في بيتها ما أوجب، وللنساء اللاتي جمعتن حين لئمتها على ذلك أن تقعن أيديهن وقلن «ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم» أما جماله الباطن، فهو العفة العظيمة عن المعصية، مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوعها، وشهادة امرأة العزيز والنسوة بعد ذلك براءته، ولهذا قالت امرأة العزيز: «ولقد راودته عن نفسه فاستعصم» وقالت بعد ذلك: «الآن حصص الحق أنا وراودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين» وقالت النسوة: «حاش الله ما علمنا عليه من سوء».

ومنها: أن يوسف عليه السلام اختار السجن على المعصية، فهكذا ينبغي للعبد إذا ابتلي بين أمرين - إما فعل معصية، وإما عقوبة دنيوية - أن يختار العقوبة الدنيوية على موازنة الذنب الموجب للعقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة، ولهذا من علامات الإيمان، أن يكره العبد أن يعود في الكفر، بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى الله، ويحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية، ويتبرأ من حوله وقوته، لقول يوسف عليه السلام: «ولا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين».

ومنها: أن العلم والعقل يدعوان صاحبهما إلى الخير، وينهيانه عن الشر، وأن الجاهل يدعو صاحبه إلى موافقة هوى النفس، وإن كان معصية ضاراً لصاحبه.

(١) كذا في أ، وفي ب: سيداً، ويبدو والله أعلم أن مراد الشيخ - رحمه الله - أن الله قال: (وشروه) فسمى الله فعلهم شراً مع كونه حراماً.



يوسف عليه السلام قد قال، ووصى أحد الفتين أن يذكره عند ربه، فلم يذكره ونسي، فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف أرسلوا ذلك الفتى، وجاءه سائلاً مستفتياً عن تلك الرؤيا، فلم يعنفه يوسف، ولا وبخه، لتركه ذكره بل أجابه عن سؤاله جواباً تاماً من كل وجه.

ومنها: أنه ينبغي للمسؤول أن يدل السائل على أمر يفقه مما يتعلق بسؤاله، ويرشده إلى الطريق التي ينتفع بها في دينه ودنياه، فإن هذا من كمال نصحه وفطنته، وحسن إرشاده، فإن يوسف عليه السلام لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك، بل دلهم - مع ذلك - على ما يصنعون في تلك السنين المخصبات من كثرة الزرع، وكثرة جبايته.

ومنها: أنه لا يلام الإنسان على السعي في دفع التهمة عن نفسه، وطلب البراءة لها، بل يحمد على ذلك، كما امتنع يوسف عن الخروج من السجن حتى تتبين لهم براءته بحال النسوة اللاتي قطعن أيديهن، ومنها: فضيلة العلم، علم الأحكام والشرع، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم التدبير والتربية؛ وأنه أفضل من الصورة الظاهرة، ولو بلغت في الحسن جمال يوسف، فإن يوسف - بسبب جماله - حصلت له تلك المحنة والسجن، ويسبب علمه حصل له العز والرفعة والتمكين في الأرض، فإن كل خير في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته.

ومنها: أن علم التعبير من العلوم الشرعية، وأنه يثاب الإنسان على تعلمه وتعليمه، وأن تعبير المرائي داخل في الفتوى، لقوله للفتين: «قضي الأمر الذي فيه تستفتيان» وقال الملك: «أفتوني في رؤياي» وقال الفتى ليوسف: «أفتنا في سبع بقرات» الآيات، فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا من غير علم.

ومنها: أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عما في نفسه من صفات الكمال من علم أو عمل، إذا كان في ذلك

ومنها: أنه كما على العبد عبودية لله في الرخاء، فعليه عبودية في الشدة، ف«يوسف» عليه السلام لم يزل يدعو إلى الله، فلما دخل السجن، استمر على ذلك، ودعا الفتين إلى التوحيد، ونهاهما عن الشرك، ومن فطنته عليه السلام أنه لما رأى فيهما قابلية لدعوته، حيث ظنا فيه الظن الحسن وقال له: «إنا نراك من المحسنين» وآتياه لأن يعبر لهما رؤياهما، فأرهما متشوفين لتعبيرها عنده - رأى ذلك فرصة فانتهازها، فدعاهما إلى الله تعالى قبل أن يعبر رؤياهما ليكون أنجح لقصوده، وأقرب لحصول مطلوبه، وبين لهما أولاً، أن الذي أوصله إلى الحال التي رآها فيها من الكمال والعلم، إيمانه وتوحيده، وتركه ملة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، وهذا دعاء لهما بالحال، ثم دعاهما بالقال، وبين فساد الشرك وبرهن عليهما، وحقيقة التوحيد وبرهن عليه.

ومنها: أنه يبدأ بالأهم فالأهم، وأنه إذا سئل المفتي، وكان السائل حاجته في غير سؤاله أشد أنه ينبغي له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله، فإن هذا علامة على نصيح المعلم وفطنته، وحسن إرشاده وتعليمه، فإن يوسف - لما سأله الفتيان عن الرؤيا - قدم لهما قبل تعبيرها دعوتهما إلى الله وحده لا شريك له.

ومنها: أن من وقع في مكروه وشدة، لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه، أو الإخبار بحاله، وأن هذا لا يكون شكوى للمخلوق، فإن هذا من الأمور العادية التي جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض، ولهذا قال يوسف للذي ظن أنه ناج من الفتين: «اذكري عند ربك».

ومنها: أنه ينبغي ويتأكد على المعلم استعمال الإخلاص التام في تعليمه وأن لا يجعل تعليمه وسيلة لمعاوضة أحد في مال أو جاه أو نفع، وأن لا يمتنع من التعليم، أولاً ينصح فيه، إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم، فإن

مصلحة، ولم يقصد به العبد الرياء، وسلم من الكذب، لقول يوسف: «اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم» وكذلك لا تدم الولاية، إذا كان المتولي فيها يقوم بما يقدر عليه من حقوق الله وحقوق عباده، وأنه لا بأس بطليها، إذا كان أعظم كفاءة من غيره، وإنما الذي يذم، إذا لم يكن فيه كفاية، أو كان موجوداً غيره مثله، أو أعلى منه، أو لم يرد بها إقامة أمر الله، فهذه الأمور، ينهي عن طلبها، والتعرض لها.

ومنها: أن الله واسع الجود والكرم، يوجد على عبده بخير الدنيا والآخرة، وأن خير الآخرة له سببان: الإيمان والتقوى، وأنه خير من ثواب الدنيا وملكها، وأن العبد ينبغي له أن يدعو نفسه، ويشوقها لثواب الله، ولا يدعها تحزن إذا رأت أهل الدنيا ولذاتها، وهي غير قادرة عليها، بل يسليها بثواب الله الأخروي، وفضله العظيم لقوله تعالى: «ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون».

ومنها: أن جباية الأرزاق - إذا أريد بها التوسعة على الناس من غير ضرر يلحقهم - لا بأس بها، لأن يوسف أمرهم بجباية الأرزاق والأطعمة في السنين المخصبات، للاستعداد للسنين المجدة، وأن هذا غير منافض للتمسك بالله، بل يتوكل العبد على الله،

ويعقوب لم يفارق الحزن قلبه في هذه المدة «وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم» ثم ازداد به الأمر شدة، حين صار الفراق بينه وبين ابنه الثاني شقيق يوسف، وهذا وهو صابر لأمر الله، محتسب الأجر من الله، قد وعد من نفسه الصبر الجميل، ولا شك أنه وفي بما وعده به، ولا ينافي ذلك، قوله: «إنما أشكو بشي وحزني إلى الله» فإن الشكوى إلى الله لا تنافي الضبر، وإنما الذي ينافيته، الشكوى إلى المخلوقين.

ومنها: أن الفرج مع الكرب؛ وأن مع العسر يسراً، فإنه لما طال الحزن على يعقوب واشتد به إلى أنه ما يكون، ثم حصل الاضطراب لآل يعقوب وسهم الضر، أذن الله حينئذ بالفرج، فحصل التلاقي في أشد الأوقات إليه حاجة واضطراراً، فتم بذلك الأجر وحصل السرور، وعلم من ذلك أن الله يتبلي أوليائه بالشدة والرخاء، والعسر واليسر ليمتحن صبرهم وشكرهم، ويزداد - بذلك - إيمانهم ويقينهم وعرفاتهم.

ومنها: جواز إخبار الإنسان بما يجده، وما هو فيه من مرض أو فقر ونحوهما، على غير وجه التسلط، لأن إخوة يوسف قالوا: «يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر» ولم ينكر عليهم يوسف.

ومنها: فضيلة التقوى والصبر، وأن كل خير في الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر، وأن عاقبة أهلها أحسن العواقب، لقوله: «قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين».

ومنها: أنه ينبغي لمن أنعم الله عليه بنعمة بعد شدة وفقر وسوء حال، أن يعترف بنعمة الله عليه، وأن لا يزال ذاكراً حاله الأولى، ليحدث ليل ذلك شكراً كلما ذكرها، لقول يوسف عليه السلام: «وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو».

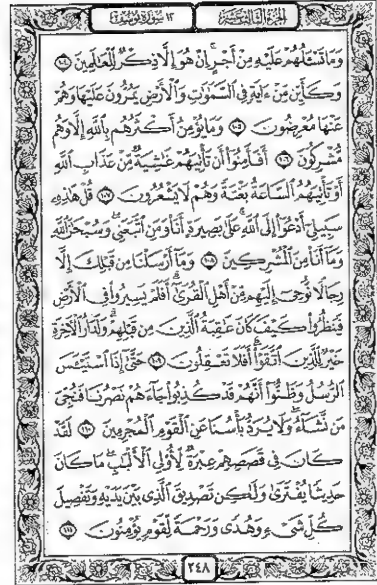
إثم عليه ولا حرج. ومنها: أن استعمال الأسباب الدافعة للعين أو غيرها من المكارة، أو الرافعة لها بعد نزولها، غير ممنوع، بل جائز، وإن كان لا يقع شيء إلا بقضاء وقدر، فإن الأسباب أيضاً من القضاء والقدر، لأمر يعقوب حيث قال لبيه: «يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة».

ومنها: جواز استعمال المكاييد التي يتوصل بها إلى الحقوق، وأن العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها مما يحمد عليه العبد، وإنما الممنوع، التحيل على إسقاط واجب، أو فعل محرم.

ومنها: أنه ينبغي لمن أراد أن يوهب غيره، بأمر لا يجب أن يطلع عليه، أن يستعمل المعارض القولية والفعلية المانعة له من الكذب، كما فعل يوسف حيث ألقى الصواع في رحل أخيه، ثم استخرجها منه، موهماً أنه سارق، وليس فيه إلا القرينة الموهمة لإخوته، وقال بعد ذلك: «معاذ الله أن تأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده» ولم يقل «من سرق متاعنا» وكذلك لم يقل «إنا وجدنا متاعنا عنده» بل أتى بكلام عام يصلح له ولغيره، وليس في ذلك محذور، وإنما فيه إيهام أنه سارق ليحصل المقصود الحاضر، وأنه يبقى عند أخيه^(١)، وقد زال عن الأخ هذا الإيهام بعد ما تبينت الحال.

ومنها: أنه لا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علمه، وتحققه إما بمشاهدة أو خبر من يثق به، وتطمئن إليه النفس لقولهم: «وما شهدنا إلا بما علمنا».

ومنها: هذه المحنة العظيمة التي امتحن الله بها نبيه وصفيه يعقوب عليه السلام، حيث قضى بالتفريق بينه وبين ابنه يوسف، الذي لا يقدر على فراقه ساعة واحدة، ويحزنه ذلك أشد الحزن، فحصل التفريق بينه وبينه مدة طويلة، لا تقصر عن خمسة عشر سنة،



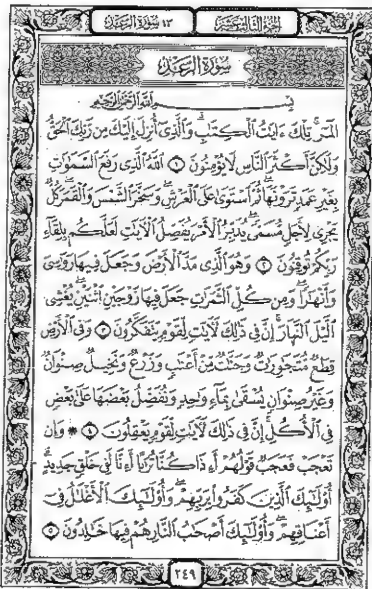
ويعمل بالأسباب التي تنفعه في دينه ودنياه.

ومنها: حسن تدبير يوسف لما تولى خزائن الأرض، حتى كثرت عندهم الغلات جداً حتى صار أهل الأقطار يقصدون مصر لطلب الميرة منها، لعلمهم بفورها فيها، وحتى إنه كان لا يكيل لأحد إلا بمقدار الحاجة الخاصة أو أقل، لا يزيد كل قادم على كيل بعير وحمله.

ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن المرسلين، وإكرام الضيف لقول يوسف لإخوته «لا ترواني أوفى الكيل وأنا خير المنزلين».

ومنها: أن سوء الظن مع وجود القرائن الدالة عليه غير ممنوع ولا محرم، فإن يعقوب قال لأولاده - بعدما امتنع من إرسال يوسف معهم حتى عاجلوه أشد المعالجة، ثم قال لهم بعد ما أتوه، وزعموا أن الذئب أكله «بل سولت لكم أنفسكم أمراً» وقال لهم في الأخ الآخر: «هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل» ثم لما احتسبه يوسف عنده، وجاء إخوته لأبيهم قال لهم: «بل سولت لكم أنفسكم أمراً» فهم في الأخيرة - وإن لم يكونوا مفرطين - فقد جرى منهم ما أوجب لأبيهم أن قال ما قال، من غير

(١) لعل المراد والله أعلم: (وأن يبقى عنده أخوه).



الأقدار في أوقاتها التي سبق بها علمه،
وجرى بها قلمه، ويرسل ملائكته
الكرام لتدبير ما جعلهم على تدبيره.

وينزل الكتب الإلهية على رسله،
ويبين ما يحتاج إليه العباد من الشرائع
والأوامر والنواهي، ويفصلها غاية
التفصيل ببيانها وإيضاحها وتمييزها،
﴿لعلكم﴾ بسبب ما أخرج لكم من
الآيات الأفقية، والآيات القرآنية،
﴿بلى﴾ ربيكم توفقون ﴿فإن كثرة الأدلة
وبيانها ووضوحها، من أسباب حصول
اليقين في جميع الأمور الإلهية،
خصوصاً في العقائد الكبار، كالبعث
والنشور والإخراج من القبور.

وأيضاً فقد علم أن الله تعالى حكيم
لا يخلق الخلق سدى، ولا يتركهم
عبثاً، فكما أنه أرسل رسله وأنزل كتبه
لأمر العباد ونهيتهم، فلا بد أن ينقلهم
إلى دار يحل فيهم جزاءه، فيجازي
المحسنين بأحسن الجزاء، ويجازي
المسيئين بإساءتهم.

﴿وهو الذي مد الأرض﴾ أي:

خلقها للعباد، ووسعها، وبارك فيها،
ومهدا للعباد، وأودع فيها من
مصلحتهم ما أودع، ﴿وجعل فيها
رواسي﴾ أي: جبلاً عظيماً، لثلا عميد
بالخلق، فإنه لو لا الجبال لمادت بأهلها،
لأنها على تيار ماء، لا ثبوت لها ولا
استقرار إلا بالجبال الرواسي، التي
جعلها الله أوتاداً لها.

يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل
الآيات لعلكم بقاء ربيكم توفقون *
وهو الذي مد الأرض وجعل فيها
رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل
فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن
في ذلك لآيات لقوم يتفكرون * وفي
الأرض قطع متجاورات وجنات من
أعشاب وزرع ونخيل صنوان وغير
صنوان يسقى بماء واحد ونفضل
بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك
لآيات لقوم يعقلون * يخبر تعالى عن
انفراده بالخلق والتدبير، والعظمة
والسلطان الدال على أنه وحده المعبود،
الذي لا تنبغي العبادة إلا له، فقال:
﴿الله الذي رفع السماوات﴾ على
عظمتها واتساعها بقدرته العظيمة،
﴿بغير عمد ترونها﴾ أي: ليس لها
عمد من تحتها، فإنه لو كان لها عمد،
لرايتموها، ﴿ثم﴾ بعد ما خلق
السماوات والأرض ﴿استوى على
العرش﴾ العظيم الذي هو أعلى
المخلوقات، استواء يليق بجلاله
ويناسب كماله.

﴿وسخر الشمس والقمر﴾ لمصالح

العباد ومصالح مواشيهم وثمارهم،
﴿كل﴾ من الشمس والقمر ﴿يجري﴾
بتدبير العزيز العليم، ﴿لأجل مسمى﴾
يسير منتظم، لا يفتران ولا ينثان،
حتى يجيء الأجل المسمى وهو طي الله
هذا العالم، ونقلهم إلى الدار الآخرة
التي هي دار القرار، فعند ذلك
يطوي الله السماوات، ويبدلها، ويغير
الأرض ويبدلها. فتكور الشمس
والقمر، ويجمع بينهما، فيلقيان في
النار، ليرى من عبدهما أنهما غير أهل
للعبادة؛ فيتحسر بذلك أشد الحسرة،
ويلعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين.

وقوله: ﴿يدبر الأمر يفصل
الآيات﴾ هذا جمع بين الخلق والأمر،
أي: قد استوى الله العظيم على سرير
الملك، يدبر الأمور في العالم العلوي
والسفلي، فيخلق ويرزق، ويغني
ويغفر، ويرفع أقواماً ويضع آخرين،
ويعز ويذل، ويخفض ويرفع، ويقل
العشرات، ويفرج الكربات، وينفذ

ومنها: لطف الله العظيم بيوسف،
حيث نقله في تلك الأحوال، وأوصل
إليه الشدائد والمحن، ليوصله بها إلى
أعلى الغايات ورفيع الدرجات.

ومنها: أنه ينبغي للعباد أن يتملّق
إلى الله دائماً في تثبيت إيمانه، ويعمل
الأسباب الموجبة لذلك، ويسأل الله
حسن الخاتمة، وتمام النعمة لقول
يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿رب
قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل
الأحاديث فاطر السماوات والأرض
أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني
مسلياً وأخفني بالصالحين﴾.

فهذا ما يسر الله من الفوائد والعبر
في هذه القصة المباركة، ولا بد أن
يظهر للتدبر المتفكر غير ذلك
فنسأله تعالى علماً نافعاً وعملاً
متقيلاً، إنه جواد كريم.

تم تفسير سورة يوسف وأبيه وإخوته

عليهم الصلاة والسلام،

والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة السعد، وهي مدنية، وقيل: مكية

﴿١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الم
تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك
من ربك الحق ولكن أكثر الناس
لا يؤمنون﴾ يخبر تعالى أن هذا القرآن
هو آيات الكتاب الدالة على كل ما
يحتاج إليه العباد من أصول الدين
وقروعه، وأن الذي أنزل إلى الرسول
من ربه هو الحق المبين، لأن أخباره
صدق، وأوامره ونواهيه عدل، مؤيدة
بالأدلة والبراهين القاطعة، فمن أقبل
عليه وعلى علمه، كان من أهل العلم
بالحق، الذي يوجب لهم علمهم،
العمل بما أحب الله.

﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾
بهذا القرآن، إما جهلاً وإعراضاً عنه
وعدم اهتمام به، وإما عناداً وظلماً،
فلذلك أكثر الناس غير منتفعين به،
لعدم السبب الموجب للانتفاع.

﴿٢﴾ ﴿الله الذي رفع
السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى
على العرش وسخر الشمس والقمر كل



﴿و﴾ جعل فيها «أنهاراً» تسقي
الآدميين وبهائمهم وحروثهم، فأخرج
بها من الأشجار والزرع والثمار خيراً
كثيراً، ولهذا قال: «ومن كل الثمرات
جعل فيها زوجين اثنين» أي: صنفين
تحتاج إليهما العباد.

﴿يعشي الليل النهار﴾ فتظلم
الآفاق، فيسكن كل حيوان إلى مأواه،
ويستريحون من التعب والنصب في
النهار، ثم إذا قضوا مأربهم من النوم،
غشى النهار الليل، فإذا هم مصبحون
منتشرون في مصالحهم وأعمالهم في
النهار.

﴿ومن رحمته جعل لكم الليل
والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله
ولعلكم تشكرون﴾.

﴿إن في ذلك لآيات﴾ على المطالع
الإلهية «للقوم يتفكرون» فيها،
وينظرون فيها نظر اعتبار دالة على أن
الذي خلقها ودبرها وصرفها، هو الله
الذي لا إله إلا هو، ولا معبود سواه،
وأنة عالم الغيب والشهادة، الرحمن
الرحيم، وأنه القادر على كل شيء،
الحكيم في كل شيء، المحمود على ما
خلقه وأمر به تبارك وتعالى.

ومن الآيات على كمال قدرته وبديع
صنعه، أن جعل «في الأرض قطع
متجاورات وجنات» فيها أنواع

(١) في ب: شركهم.

قولهم وتكذيبهم للبعث، فإن ذلك من
العجائب، فإن الذي توضح له
الآيات، ويرى من الأدلة القاطعة على
البعث ما لا يقبل الشك والريب، ثم
ينكر ذلك، فإن قوله من العجائب.

ولكن ذلك لا يستغرب على
«الذين كفروا بربهم» وجمحدوا
وحدانيته، وهي أظهر الأشياء
وأجلاها، «وأولئك الأغلال» المانعة
لهم من الهدى «في أعناقهم» حيث
دعوا إلى الإيمان فلم يؤمنوا، وعرض
عليهم الهدى فلم يتدوا، فقلبت
قلوبهم وأشدتهم عقوبة على أنهم لم
يؤمنوا به أول مرة، «وأولئك أصحاب
النار هم فيها خالدون» لا يخرجون
منها أبداً.

﴿٦﴾ «ويستعجلونك بالسيئة قبل
الحسنة» وقد خلت من قبلهم الثلاث وإن
ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن
ربك لشديد العقاب» يخبر تعالى عن
جهل المكذبين لرسوله، المشركين به،
الذين وعظوا فلم يتعظوا، وأقيمت
عليهم الأدلة فلم ينقادوا لها، بل
جاهروا بالإنكار، واستدلوا بحلم
[الله] الواحد القهار عنهم، وعدم
معاجلتهم بذنوبهم، أنهم على حق،
وجعلوا يستعجلون الرسول بالعذاب،
ويقول قائلهم: «اللهم إن كان هذا هو
الحق من عندك، فأمطر علينا حجارة
من السماء، أو اتنا بعذاب أليم».

﴿و﴾ الحال أنه «قد خلت من
قبلهم الثلاث» أي: وقائع الله وأيامه
في الأمم المكذبين، أفلا يتفكرون في
حالهم ويتركون جهلهم، «وإن ربك
لذو مغفرة للناس على ظلمهم» أي:
لا يزال خيره إليهم، وإحسانه وبره
وعفوه نازلاً إلى العباد، وهم لا يزال
شرهم^(١) وعصيانهم إليه صاعداً.

يعصونه فيدعوههم إلى بابه،
ويجزمون، فلا يجرمهم خيره وإحسانه،
فإن تابوا إليه فهو حبيبهم، لأنه يحب
التوابين، ويجب المتطهرين وإن لم يتوبوا
فهو ظبيهم، يبتليهم بالمصائب،

الأشجار «من أعناب وزرع ونخيل»
وغير ذلك، والنخيل التي بعضها
«صنوان» أي: عدة أشجار في أصل
واحد، «وغير صنوان» بأن كان كل
شجرة على حدتها، والجميع «يسقى
بماء واحد» وأرضه واحدة «وتفضل
بعضها على بعض في الأكل» لونا،
وطعماً، ونفعاً، ولذة؛ فهذه أرض
طيبة تنبت الكلاً والغشب الكثير،
والأشجار والزرع، وهذه أرض
تلاصقها لا تنبت كلاً ولا تمسك ماء
وهذه تمسك الماء، ولا تنبت الكلاً،
وهذه تنبت الزرع والأشجار، ولا
تنبت الكلاً، وهذه الثمرة حلوة، وهذه
مرة، وهذه بين ذلك.

فهل هذا التنوع في ذاتها وطبيعتها؟
أم ذلك تقدير العزيز الرحيم؟
﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾
أي: لقوم لهم عقول تهديهم إلى ما
ينفعهم، وتقودهم إلى ما يرشدهم
وعقلون عن الله وصاياه وأوامره
ونواهيه، وأما أهل الإعراض، وأهل
البلادة فهم في ظلماتهم يعمهون، وفي
غيهم يترددون، لا يهتدون إلى ربهم
سبيلاً ولا يعون له قبيلاً.

﴿٥﴾ «وإن تعجب فعجب قولهم
إذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد أولئك
الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في
أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها
خالدون» يحتمل أن معنى قوله «وإن
تعجب» من عظمة الله تعالى وكثرة
أدلة توحيده، فإن العجب - مع هذا -
إنكار المكذبين، وتكذيبهم بالبعث،
وقولهم «إذا كنا تراباً أئنا لفي خلق
جديد» أي: هذا بعيد في غاية الامتناع
بزعمهم، أنهم بعد ما كانوا تراباً،
أن الله يعيدهم، فإنهم - من جهلهم -
قاسوا قدرة الخالق بقدرة المخلوق...
فلما رأوا هذا محتجاً في قدرة
المخلوق، ظنوا أنه ممتنع على قدرة
الخالق، ونسوا أن الله خلقهم أول مرة
ولم يكونوا شيئاً.

ويحتمل أن معناه: وإن تعجب من



وسعة اطلاعه، وإحاطته بكل شيء فقال: ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى﴾ من بني آدم وغيرهم، ﴿وما تغضب الأرحام﴾ أي: تنقص مما فيها، إما أن يهلك الحمل، أو يتضاءل أو يضمحل، ﴿وما تزداد الأرحام وتكبر الأجنة التي فيها﴾، وكل شيء عنده بمقدار لا يتقدم عليه ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص إلا بما تقتضيه حكمته وعلمه. فإنه ﴿عالم الغيب والشهادة الكبير﴾ في ذاته وأسمائه وصفاته ﴿المتعال﴾ على جميع خلقه، بذاته وقدره وقهره. ﴿سواء منكم﴾ في علمه وسمعته، وبصره.

﴿من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل﴾ أي: مستقر بمكان خفي فيه، ﴿وسارب بالنهار﴾ أي: داخل سره في النهار، والسرب هو ما يختفي فيه الإنسان، إما جوف بيته، أو غار، أو مغارة، أو نحو ذلك. ﴿١١﴾ ﴿له﴾ أي: للإنسان ﴿معقبات﴾ من الملائكة، يتعاقبون في الليل والنهار.

﴿من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾ أي: يحفظون بدنه وروحه من كل من يريد به بسوء، ويحفظون عليه أعماله، وهم ملازمون له دائماً، فكما أن علم الله محيط به، فالله قد أرسل هؤلاء الحفظة على العباد، بحيث لا تخفى أحوالهم ولا أعمالهم، ولا ينسى منها شيء، ﴿إن الله لا يغير ما بقوم﴾ من النعمة والإحسان ورغد العيش ﴿حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ بأن يتقلوا من الإيمان إلى الكفر، ومن الطاعة إلى المعصية، أو من شكر نعم الله إلى البطر بها، فيسلبهم الله عند ذلك إياها.

وكذلك إذا غير العباد ما بأنفسهم من المعصية، فانتقلوا إلى طاعة الله، غير الله عليهم ما كانوا فيه من الشقاء إلى الخير والسرور والغبطة والرحمة، وإذا أراد الله بقوم سوءاً ﴿أي: عذاباً﴾

ليظهرهم من المعاييب ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾، إنه هو الغفور الرحيم.

﴿وإن ربك لشديد العقاب﴾ على من لم يزل مصراً على الذنوب، قد أبى التوبة والاستغفار والالتجاء إلى العزيز الغفار، فليحذر العباد من عقوباته بأهل الجرائم، فإن أخذه أليم شديد.

﴿٧﴾ ﴿ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾ أي: ويقترح الكفار عليك من الآيات، التي يعينونها ويقولون: ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ ويجعلون هذا القول منهم، عذراً لهم في عدم الإجابة إلى الرسول، والحال أنه منذر ليس له من الأمر شيء، والله هو الذي ينزل الآيات.

وقد أيده بالأدلة البينات التي لا تخفى على أولي الألباب، وبها يتندي من قصده الحق، وأما الكافر الذي - من ظلمه وجهله - يقتصر على الله الآيات، فهذا اقتراح منه باطل وكذب وافتراء^(١).

فإنه لو جاءته أي: آية كانت لم يؤمن ولم ينقد، لأنه لم يتمتع من الإيمان، لعدم ما يدل على صحته، وإنما ذلك لهوى نفسه، واتباع شهوته، ﴿ولكل قوم هاد﴾ أي: داع يدعوهم إلى الهدى من الرسل وأتباعهم، ومعهم من الأدلة والبراهين ما يدل على صحة ما معهم من الهدى.

﴿٨ - ١١﴾ ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيب الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار﴾ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴿سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار﴾ معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من والي ﴿يغير تعالى بعموم علمه،

(١) كذا في ب، وفي أ: وافتراه.

وشدة، وأمرأ يكرهونه، فإن إرادته لا بد أن تنفذ فيهم.

﴿ف﴾ إنه ﴿لا مرد له﴾ ولا أحد يمنعهم منه، ﴿وما لهم من دونه من وال﴾ يتولى أمورهم، فيجلب لهم المحبوب، ويدفع عنهم المكروه، فليحذروا من الإقامة على ما يكره الله، خشية أن يحل بهم من العقاب ما لا يرد عن القوم المجرمين.

﴿١٢ - ١٣﴾ ﴿هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشئ السحاب الثقيل﴾ وينسج الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال﴾ يقول تعالى: ﴿هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً﴾ أي: يخاف منه الصواعق والهدم، وأنواع الضرر، على بعض الثمار ونحوها، ويطمع في خيره ونفعه، ﴿وينشئ السحاب الثقيل﴾ بالمطر الغزير الذي به نفع العباد والبلاد.

﴿وينسج الرعد بحمده﴾ وهو الصوت، الذي يسمع من السحاب المزعج للعباد، فهو خاضع لربه مسبح بحمده، ﴿و﴾ تنسج الملائكة من خيفته أي: خشعاً لربهم، خائفين من سطوته، ﴿ويرسل الصواعق﴾ وهي هذه النار التي تخرج من السحاب،

لربها طوعاً وكرهاً، كان هو الإله حقاً، المعبود المحمود حقاً، وإلهية غيره باطلة، ولهذا ذكر بطلانها وبرهن عليه بقوله:

﴿١٦﴾ قل من رب السماوات والأرض قل الله قل أفأنتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرراً قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ﴿١٧﴾ أي: قل لهؤلاء المشركين به أوثاناً وأنذاً يحبون كما يحبون الله، ويذلون لها أنواع التقربات والعبادات: أفأنتأهت عقولكم حتى أنتخذتم من دونه أولياء تتولونهم بالعبادة، وليسوا بأهل لذلك؟

فإنهم ﴿لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرراً﴾ وتكون ولاية من هو كامل الأسماء والصفات، المالك للأحياء والأموات، الذي بيده الخلق والتدبير والنفع والضرر؟ فما تستوي عبادة الله وحده، وعبادة المشركين به، كما لا يستوي الأعمى والبصير، وكما لا تستوي الظلمات والنور.

فإن كان عندهم شك واشتباه، وجعلوا له شركاء زعموا أنهم خلقوا كخلقه، وفعلوا كفعله، فأزل عنهم هذا الاشتباه واللبس، بالبرهان الدال على توحيد الإله بالوحدانية، فقل لهم: ﴿الله خالق كل شيء﴾ فإنه من المحال أن يخلق شيء من الأشياء نفسه.

ومن المحال أيضاً أن يوجد من دون خالق، فتعين أن لها إلهاً خالقاً لا شريك له في خلقه، لأنه الواحد القهار، فإنه لا توجد الوحدة والقهر إلا لله وحده، فالمخلوقات كل مخلوق فوقه مخلوق يقهره، ثم فوق ذلك القاهر قاهر أعلى منه، حتى ينتهي القهر للواحد القهار، فالقهر والتوحيد متلازمان، متعينان لله وحده، فتبين بالدليل العقلي القاهر، أن ما يدعى من دون الله ليس له شيء من خلق المخلوقات، وبذلك كانت عبادته باطلة.

الذي لا تناله كفاه لبعده، ﴿ليبلغ﴾ ببسط كفيه إلى الماء ﴿فاه﴾ فإنه عطشان، ومن شدة عطشه يتناول بيده ويبسطها إلى الماء الممتنع وصولها إليه، فلا يصل إليه.

كذلك الكفار الذين يدعون معه آلهة، لا يستجيبون لهم بشيء ولا ينفعونهم في أشد الأوقات إليهم حاجة، لأنهم فقراء، كما أن من دعواهم فقراء، لا يملكون مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وما لهم فيهما من شرك، وما له منهم من ظهير.

﴿وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ لبطلان ما يدعون من دون الله، فبطلت عباداتهم ودعائهم، لأن الوسيلة تبطل ببطلان غايتها، ولما كان الله تعالى هو الملك الحق المبين، كانت عبادته حقاً متصلة النفع لصاحبها في الدنيا والآخرة.

وتشبيه دعاء الكافرين لغير الله بالذي يبسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه من أحسن الأمثلة؛ فإن ذلك تشبيه بأمر محال، فكما أن هذا محال، فالشبيه به محال، والتعليق على المحال من أبلغ ما يكون في نفي الشيء، كما قال تعالى: ﴿إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾.

﴿١٥﴾ ﴿والله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال﴾ أي: جميع ما احتوت عليه السماوات والأرض كلها خاضعة لربها، تسجد له ﴿طوعاً وكرهاً﴾ فالطوع لمن يأتي بالسجود والخضوع اختياراً كالؤمنين، والكره لمن يستكبر عن عبادة ربه، وحاله وفطرته تكذبه في ذلك، ﴿وظلالهم بالغدو والآصال﴾ أي: ويسجد له ظلال المخلوقات أول النهار وآخره، وسجود كل شيء بحسب حاله، كما قال تعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾.

فإذا كانت المخلوقات كلها تسجد



﴿فيصيب بها من يشاء﴾ من عباده، بحسب ما شاء وأراده ﴿وهو شديد المحال﴾ أي: شديد الحول والقوة، فلا يريد شيئاً إلا فعله، ولا يتعاضى عليه شيء، ولا يفوته هارب.

فإذا كان هو وحده، الذي يسوق للعباد الأمطار والسحب التي فيها مادة أرزاقهم، وهو الذي يدير الأمور، وتخضع له المخلوقات العظام التي يخاف منها، وتزعج العباد، وهو شديد القوة - فهو الذي يستحق أن يعبد وحده لا شريك له، ولهذا قال:

﴿١٤﴾ ﴿له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ أي: لله وحده ﴿دعوة الحق﴾ وهي: عبادته وحده لا شريك له، وإخلاص دعاء العبادة ودعاء المسألة له تعالى، أي: هو الذي ينبغي أن يصرف له الدعاء، والخوف والرجاء، والحب، والرغبة، والرغبة، والإنابة، لأن ألوهيته هي الحق، وألوهية غيره باطلة، ﴿والذين يدعون من دونه﴾ من الأوثان والأنداد التي جعلوها شركاء لله.

﴿لا يستجيبون لهم﴾ أي: لمن يدعوها ويعبدها، بشيء قليل ولا كثير، لا من أمور الدنيا ولا من أمور الآخرة، ﴿إلا كباسط كفيه إلى الماء﴾

عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صيرتم فنعيم عقبي الدار * يقول تعالى : مفرقا بين أهل العلم والعمل وبين ضدهم : ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق﴾ فهم ذلك وعمل به . ولا يعمل به ، فبينهما من الفرق ، كما بين السماء والأرض ، فحقيق بالبعد أن يتذكر ويتفكر ، أي الفريقين أحسن حالاً وخيراً مآلاً ، فيؤثر طريقها ، ويسلك خلف فريقها ، ولكن ما كل أحد يتذكر ما ينفعه ويضره .

﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾ أي : أولو العقول الرزينة ، والآراء الكاملة ، الذين هم لب العالم ، وصفوة بني آدم ، فإن سألت عن وصفهم ، فلا تجد أحسن من وصف الله لهم بقوله :

﴿الذين يوفون بعهد الله﴾ الذي عهده إليهم ، والذي عاهدهم عليه من القيام بحقوقه كاملة موفرة ، فالوفاء بها توفيتها حقها من التتميم لها ، والنصح فيها ، ﴿و﴾ من تمام الوفاء بها أنهم ﴿لا ينقضون الميثاق﴾ أي : العهد الذي عاهدوا عليه الله ، فدخل في ذلك جميع الموائيق والعهود والأيمان والنذور ، التي يعقدها العباد . فلا يكون العبد من أولي الألباب الذين لهم الثواب العظيم ، إلا بأدائها كاملة ، وعدم نقضها وبخسها .

﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾ وهذا عام في كل ما أمر الله بوصله ، من الإيمان به ورسوله ، ومحبة ومحبة رسوله ، والانقياد لعبادته وحده لا شريك له ، ولطاعة رسوله .

ويصلون آباءهم وأمهاتهم ، ببرهم بالقول والفعل ، وعدم عقوبتهم ، ويصلون الأقارب والأرحام ، ويصلون بالإحسان إليهم قولاً وفعلًا . ويصلون ما بينهم وبين الأزواج والأصحاب والممالك ، بأداء حقوقهم كاملاً موفراً ، من الحقوق الدينية والدنيوية .

والسبب الذي يجعل العبد أصلاً ما أمر الله به أن يوصل ، خشية الله وخوف يوم الحساب ، ولهذا قال : ﴿ويخشون ربهم﴾ أي : يخافونه ،

ثوابه ، وغير مستجيب ، فذكر عقابه فقال : ﴿للذين استجابوا لربهم﴾ أي : انقادوا قلوبهم للعلم والإيمان ، وجوارحهم للأمر والنهي ، وصاروا موافقين لربهم فيما يريد منهم ، فلههم ﴿الحسن﴾ أي : الحالة الحسنة ، والثواب الحسن .

فلههم من الصفات أجلها ، ومن المناقب أفضلها ومن الثواب العاجل والآجل ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ﴿والذين لم يستجيبوا له﴾ بعد ما ضرب لهم الأمثال ، وبين لهم الحق ، لهم الحالة غير الحسنة ، ف﴿لو أن لهم ما في الأرض جميعاً﴾ من ذهب وفضة وغيرها ، ﴿ومثله معه لافتدوا به﴾ من عذاب يوم القيامة ، ما تقبل منهم ، وآتئ لهم ذلك !!؟

﴿أو لئنك لهم سوء الحساب﴾ وهو الحساب الذي يأتي على كل ما أسلفوه من عمل سيئ ، وما ضيعوه من حقوق الله وحقوق عباده قد كتب ذلك وسطر عليهم ، وقالوا : ﴿ينا ويلتنا﴾ مالهذا الكتاب ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴿و﴾ بعد هذا الحساب السيئ ﴿مأواهم جهنم﴾ الجامعة لكل عذاب ، من الجوع الشديد ، والعطش الوجيع ، والنار الحامية ، والزقوم ، والزمهرير ، والضريع ، وجميع ما ذكره الله من أصناف العذاب ، ﴿ويش المهاد﴾ أي : المقر والمسكن مسكنهم .

﴿١٩ - ٢٤﴾ ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعشى﴾ إنما يتذكر أولو الألباب * الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق * والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب * والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويذرون بالחסنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار * جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون

﴿١٧﴾ ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً وما ينقذون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زيد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال﴾ شبه تعالى الهدى الذي أنزله على رسوله حياة القلوب والأرواح ، بالماء الذي أنزله حياة الأشباح ، وشبه ما في الهدى من النفع العام الكثير الذي يضطر إليه العباد ، بما في المطر من النفع العام الضروري ، وشبه القلوب الحاملة للهدى وتفاوتها بالأودية التي تسيل فيها السيول ، فواد كبير يسع ماء كثيراً ، كقلب كبير يسع علماً كثيراً ، وواد صغير يأخذ ماء قليلاً ، كقلب صغير ، يسع علماً قليلاً ، وهكذا .

وشبه ما يكون في القلوب من الشهوات والشبهات عند وصول الحق إليها ، بالزبد الذي يعلو الماء ، ويعلو ما يوقد عليه النار من الحلية التي يراد تخليصها وسبكها ، وأنها لا تزال فوق الماء طافية مكدرة له ، حتى تذهب وتضمحل ، ويبقى ما ينفع الناس من الماء الصافي والحلية الخالصة .

كذلك الشبهات والشهوات ، لا يزال القلب يكرهها ، ويمجاهدها بالبراهين الصادقة ، والإرادات الجازمة ، حتى تذهب وتضمحل ويبقى القلب خالصاً صافياً ، ليس فيه إلا ما ينفع الناس من العلم بالحق وإيثاره ، والرغبة فيه ، فالباطل يذهب ويمحقه الحق ﴿إن الباطل كان زهوقاً﴾ وقال هنا : ﴿كذلك يضرب الله الأمثال﴾ ليتضح الحق من الباطل والهدى من الضلال .

﴿١٨﴾ ﴿للذين استجابوا لربهم الحسنى﴾ والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم ويش المهاد * لما بين تعال الحق من الباطل ، ذكر أن الناس على قسمين : مستجيب لربه ، فذكر

فيمتنعهم خوفهم منه، ومن القدرم عليه يوم الحساب، أن يتجسروا على معاصي الله، أو يقصروا في شيء مما أمر الله به، خوفاً من العقاب ورجاءاً للثواب.

﴿والذين صبروا﴾ على المأمورات بالامتنال، وعن المنهيات بالانكفاف عنها والبعد منها، وعلى أقدار الله المؤلة بعدم تسخطها.

ولكن بشرط أن يكون ذلك الصبر ابتغاء وجه ربه، لا لغير ذلك من المقاصد والأغراض الفاسدة، فإن هذا الصبر النافع الذي يحبس به العبد نفسه، طلباً لمَرْضَاة ربه، ورجاءاً للقرّب منه، والخطوة بثوابه، وهو الصبر الذي من خصائص أهل الإيمان، وأما الصبر المشترك الذي غايته التجلّد، ومنتهاه الفخر، فهذا يصدر من البر والفاجر، والمؤمن والكافر، فليس هو الممدوح على الحقيقة.

﴿وأقاموا الصلاة﴾ بأركانها، وشروطها ومكملاتها، ظاهراً وباطناً، ﴿وأنفقوا﴾ مما رزقناهم سرّاً وعلانيةً دخل في ذلك النفقات الواجبة كالزكوات والكفارات، والنفقات المستحبة، وأنهم ينفقون حيث دعت الحاجة إلى النفقة، سرّاً وعلانيةً، ﴿ويبدؤون بالحسنة السيئة﴾ أي: من أساء إليهم بقول أو فعل، لم يقابلوه بفعله، بل قابلوه بالإحسان إليه.

فيعطون من حرمهم، ويعفون عن ظلمهم، ويصلون من قطعهم، ويحسنون إلى من أساء إليهم، وإذا كانوا يقابلون المسيء بالإحسان، فما ظنك بغير المسيء؟!

﴿أولئك﴾ الذين وصفت صفاتهم الجليلة ومناقبهم الجميلة ﴿لهم عقي الدار﴾ فسرّها بقوله: ﴿جنان عدن﴾ أي: إقامة لا يزولون عنها، ولا يبعون عنها جزواً، لأنهم لا يرون فوقها غاية لما اشتملت عليه من النعيم والسرور، الذي تنتهي إليه المطالب والغايات.

ومن تمام نعيمهم وقرة أعينهم، أنهم يدخلونها ومن صلح من آبائهم، من

الذكور والإناث ﴿وأزواجهم﴾ أي: الزوج أو الزوجة وكذلك النظراء والأشباه، والأصحاب والأحباب، فإنهم من أزواجهم وذرياتهم، ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب﴾ يمتثلونهم بالسلامة، وكرامة الله لهم ويقولون: ﴿سلام عليكم﴾ أي: حلّت عليكم السلامة والتحية من الله وحصلت لكم، وذلك متضمن لزوال كل مكروه، ومستلزم لحصول كل محبوب.

﴿بما صبرتم﴾ أي: صبركم هو الذي أوصلكم إلى هذه المنازل العالية، والجنان العالية، ﴿فنعلم عقي الدار﴾.

فحقيق بمن نصح نفسه وكان لها عنده قيمة، أن يجاهدها، لعلها تأخذ من أوصاف أولي الأبواب بنصيب، لعلها تحظى بهذه الدار، التي هي منية النفوس، وسرور الأرواح الجامعة لجميع اللذات والأفراح، فلمثلها فليعمل العاملون، وفيها فليتنافس المتنافسون.

﴿٢٥﴾ ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ لما ذكر حال أهل الجنة، ذكر أن أهل النار بعكس ما وصفهم به، فقال عنهم:

﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾ أي: من بعد ما أكدّه عليهم على أيدي رسله، وغلظه عليهم، فلم يقابلوه بالانقياد والتسليم، بل قابلوه بالإعراض والنقض، ﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ فلم يصلوا ما بينهم وبين ربهم بالإيمان والعمل الصالح، ولا وصلوا الأرحام ولا أدوا الحقوق، بل أفسدوا في الأرض بالكفر والمعاصي، والصّد عن سبيل الله، وابتغائها عوجاً، ﴿أولئك لهم اللعنة﴾ أي: البعد والذم، من الله وملائكته وعباده المؤمنين، ﴿ولهم سوء الدار﴾ وهي: الجحيم، بما فيها من العذاب الأليم.

﴿٢٦﴾ ﴿الله ينسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة

الدنيا في الآخرة إلا متاعاً، أي: هو وحده يوسع الرزق ويبسطه على من يشاء، ويقدره ويضيقه على من يشاء، ﴿وفرحوا﴾ أي: الكفار بالحياة الدنيا فرحاً، أوجب لهم أن يطمثوا بها، ويغفلوا عن الآخرة، وذلك لنقصان عقولهم، ﴿وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع﴾ أي: شيء حقير، يتمتع به قليلاً، ويفارق أهله وأصحابه، ويعقبهم ويلا طويلاً.

﴿٢٧-٢٩﴾ ﴿ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب﴾ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا يذكّر الله تطمئن القلوب؟ ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم طوبى وحسن مآب﴾ يحجز تعالى أن الذين كفروا بآيات الله، يتعتنون على رسول الله، ويقترحون ويقولون: ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ وبزعمهم أنها لو جاءت لآمنوا، فأجابهم الله بقوله: ﴿قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب﴾ أي: طلب رضوانه، فليست الهداية والضلال بأيديهم، حتى يجعلوا ذلك متوقفاً على الآيات، ومع ذلك فهم كاذبون، ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى، وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله، ولكن أكثرهم يجهلون﴾.

ولا يلزم أن يأتي الرسول بالآية التي يعينونها ويقترحونها، بل إذا جاءهم بآية تبين ما جاء به من الحق، كفى ذلك، وحصل المقصود، وكان أنفع لهم من طلبهم الآيات التي يعينونها، فإنها لو جاءتهم طبق ما اقترحوا، فلم يؤمنوا بها لعاجلهم العذاب، ثم ذكر تعالى علامة المؤمنين فقال:

﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾ أي: يزول قلقها واضطرابها، وتحضرها أفراسها ولذاتها.

﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ أي: حقيق بها، وحرّى أن لا تطمئن لشيء سوى ذكره، فإنه لا شيء ألد

من قبلها أمم ﴿ أرسلنا فيهم رسلاً، فلست بدع من الرسل حتى يستكروا رسالتك، ولست تقول من تلقاء نفسك، بل تتلو عليهم آيات الله التي أوحاها الله إليك، التي تطهر القلوب وتزكي النفوس. »

والحال أن قومك يكفرون بالرحمن، فلم يقابلوا رحمة وإحسانه - التي أعظمها أن أرسلناك إليهم رسولاً، وأنزلنا عليك كتاباً - بالقبول والشكر، بل قابلوها بالإنكار والرد، أفلا يعتبرون بمن خلا من قبلهم من القرون المكذبة، كيف أخذهم الله بذنوبهم، ﴿ قل هوري لا إله إلا هو ﴾ وهذا متضمن للتوحيد، توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية.

فهو ربي الذي رباني بنعمه منذ أوجدني، وهو إلهي الذي ﴿ عليه توكلت ﴾ في جميع أموري ﴿ وإليه متاب ﴾ أي: أرجع في جميع عباداتي وفي حاجاتي.

﴿ ٣١ ﴾ ﴿ ولو أن قرأنا سيرت به الجبال أو قطعتم به الأرض أو كلف الموتى بل الله الأمر جميعاً أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتي وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ يقول تعالى مبيناً فضل القرآن الكريم على سائر الكتب المنزلة: ﴿ ولو أن قرأنا ﴾ من الكتب الإلهية ﴿ سيرت به الجبال ﴾ عن أماكنها ﴿ أو قطعتم به الأرض ﴾ جنائاً وأنهاراً ﴿ أو كلف الموتى ﴾ لكان هذا القرآن - بل الله الأمر جميعاً - فيأتي بالآيات التي تقتضيها حكمته، فما بال المكذبين يقترحون من الآيات ما يقترحون؟ فهل لهم أو لغيرهم من الأمر شيء؟

﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ﴾ فليعلموا أنه قادر على هدايتهم جميعاً، ولكنه لا يشاء ذلك، بل يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ﴿ ولا يزال الذين كفروا ﴾ على كفرهم، لا يعتبرون ولا يتعظون، والله تعالى يوالي عليهم

للقلوب ولا أشهى ولا أحلى من محبة خالقها، والأنس به ومعرفته، وعلى قدر معرفتها بالله ومحبتها له، يكون ذكرها له، هذا على القول بأن ذكر الله، ذكر العبد لربه، من تسبيح وتهليل وتكبير وغير ذلك.

وقيل: إن المراد بذكر الله كتابه الذي أنزله ذكرى للمؤمنين، فعلى هذا معنى طمأنينة القلوب بذكر الله: أنها حين تعرف معاني القرآن وأحكامه تطمئن لها، فإنها تدل على الحق المبين المؤيد بالأدلة والبراهين، وبذلك تطمئن القلوب، فإنها لا تطمئن إلا باليقين والعلم، وذلك في كتاب الله، مضمون على أتم الوجوه وأكملها، وأما ما سواه من الكتب التي لا ترجع إليه، فلا تطمئن بها، بل لا تزال قلقة من تعارض الأدلة وتضاد الأحكام. ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ وهذا إنما يعرفه من خبر كتاب الله وتدبره، وتدبر غيره من أنواع العلوم، فإنه يجد بينها وبينه فرقاً عظيماً، ثم قال تعالى: ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي: آمنوا بقلوبهم بالله وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وصدقوا هذا الإيمان بالأعمال الصالحة، أعمال القلوب كمحبة الله وخشيته ورجائه، وأعمال الجوارح كالصلاة ونحوها، ﴿ طوبى لهم وحسن مآب ﴾ أي: لهم حالة طيبة، ومرجع حسن.

وذلك بما ينالون من رضوان الله وكرامته في الدنيا والآخرة، وأن لهم كمال الراحة وتمام الطمأنينة، ومن جملة ذلك شجرة طوبى التي في الجنة، التي يسير الراكب في ظلها مئة عام ما يقطعها، كما وردت بها الأحاديث الصحيحة.

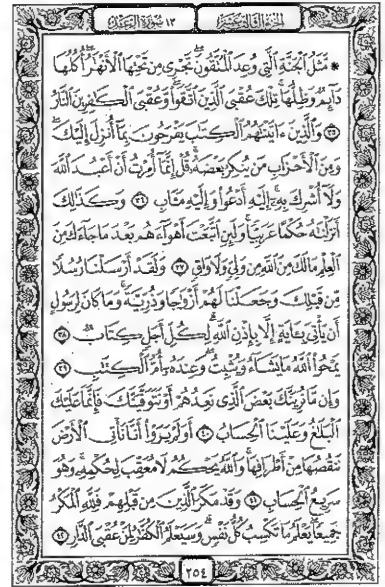
﴿ ٣٠ ﴾ ﴿ كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أُمم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب ﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿ كذلك أرسلناك ﴾ إلى قومك تدعوهم إلى الهدى، ﴿ قد خلت



القوارع التي تصيبهم في ديارهم، أو تحل قريباً منها، وهم مصزون على كفرهم ﴿ حتى يأتي وعد الله ﴾ الذي وعدهم به، لنزول العذاب المتصل الذي لا يمكن رفعه، ﴿ إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ وهذا تهديد لهم وتخويف من نزول ما وعدهم الله به على كفرهم وعنادهم وظلمهم.

﴿ ٣٢ ﴾ ﴿ ولقد استهزئ برسول من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب ﴾ يقول تعالى لرسوله - مبيناً له - ﴿ ولقد استهزئ برسول من قبلك ﴾ فلست أول رسول كذب وأوذى ﴿ فأمليت للذين كفروا ﴾ برسلمهم، أي: أمهلتهم مدة حتى ظنوا أنهم غير معذبين. ﴿ ثم أخذتهم ﴾ بأنواع العذاب ﴿ فكيف كان عقاب ﴾ كان عقاباً شديداً وعذاباً أليماً، فلا يغتر هؤلاء الذين كذبوك واستهزؤوا بك بإمهالنا، فلهم أسوة فيمن قبلهم من الأمم، فليحذروا أن يفعل بهم كما فعل بأولئك.

﴿ ٣٣ - ٣٤ ﴾ ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وجعلوا لله شركاء قل سموهم أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض أم ينظر من القول بل زين للذين كفروا مكرهم وصدقوا عن السبيل ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ لهم عذاب في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله



من واق ﴿٣٤﴾ يقول تعالى: ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ بالجزء العاجل والآجل، بالعدل والقسط، وهو الله تبارك وتعالى كمن ليس كذلك؟

ولهذا قال: ﴿وجعلوا لله شركاء﴾ وهو الله الأحد الفرد الصمد، الذي لا شريك له، ولا بُد ولا نظير، ﴿قل﴾ لهم إن كانوا صادقين: ﴿سموهم﴾ لتعلم حالهم، ﴿أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض﴾ فإنه إذا كان عالم الغيب والشهادة، وهو لا يعلم له شريكاً، علم بذلك بطلان دعوى الشريك له، وأنكم بمنزلة الذي يُعَلِّمُ الله أن له شريكاً، وهو لا يعلمه، وهذا أبطل ما يكون، ولهذا قال: ﴿أم بظاهر من القول﴾ أي: غاية ما يمكن من دعوى الشريك له تعالى، أنه بظاهر أقوالكم.

وأما في الحقيقة، فلا إله إلا الله، وليس أحد من الخلق يستحق شيئاً من العبادة، ولكن ﴿زين للذين كفروا مكرهم﴾ الذي مكروه، وهو كفرهم وشركهم، وتكذيبهم لآيات الله، ﴿وصدوا عن السبيل﴾ أي: عن الطريق المستقيمة الموصلة إلى الله وإلى دار كرامته، ﴿ومن يضل الله فما له من هاد﴾ لأنه ليس لأحد من الأمور شيء.

﴿لهم عذاب في الحياة الدنيا

ولعذاب الآخرة أشق﴾ من عذاب الدنيا لشدة ودوامه، ﴿ومألهم من الله من واق﴾ بقيهم من عذاب الله، فعذابه إذا وجهه إليهم لا مانع منه.

﴿٣٥﴾ ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار﴾ يقول تعالى: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ الذين تركوا ما نهاهم الله عنه، ولم يقصروا فيما أمرهم به، أي: صفتها وحقيقتها ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ أنهار العسل، وأنهار الخمر، وأنهار اللبن، وأنهار الماء التي تجري في غير أخدود، فتسقي تلك البساتين والأشجار، فتحمل من جميع أنواع الثمار.

﴿أكلها دائم وظلها﴾ دائم أيضاً، ﴿تلك عقبى الذين اتقوا﴾ أي: عاقبتهم ومآلهم التي إليها يصيرون ﴿وعقبى الكافرين النار﴾ فكم بين الفريقين من الفرق المين!!

﴿٣٦﴾ ﴿والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَأْبُ﴾ يقول تعالى: ﴿والذين آتيناهم الكتاب﴾ أي: متناً عليهم به وبمعرفته، ﴿يفرحون بما أنزل إليك﴾ فيؤمنون به ويصدقونه، ويفرحون بموافقة الكتب بعضها لبعض، وتصديق بعضها بعضاً، وهذه حال من آمن من أهل الكتابين، ﴿ومن الأحزاب من ينكر بعضه﴾ أي: ومن طوائف الكفار المنحرفين عن الحق، من ينكر بعض هذا القرآن ولا يصدق.

﴿فمن اهتدى فلنفسه﴾ ومن ضل فإنما يضل عليها، إنما أنت يا محمد منذر تدعو إلى الله، ﴿قل﴾ إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به، أي: يا خلاص الدين الله وحده، ﴿إليه أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَأْبُ﴾ أي: مرجعي الذي أرجع به إليه، فيجازيني بما قمت به من الدعوة إلى دينه، والقيام بما أمرت به.

﴿٣٧﴾ ﴿وكذلك أنزلناه حكماً

عربياً ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا واق﴾ أي: ولقد أنزلنا هذا القرآن والكتاب حكماً عربياً، أي: بحكماً متقناً، بأوضح الألسنة وأفصح اللغات، لئلا يقع فيه شك واشتباه، وليوجب أن يتبع وجده، ولا يداهن فيه، ولا يتبع ما يضاده ويناقضه من أهواء الذين لا يعلمون.

ولهذا توعد رسوله - مع أنه معصوم - ليمتن عليه بعضته، ولتكون أمته أسوته في الأحكام، فقال: ﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم﴾ البين الذي ينهاك عن اتباع أهوائهم، ﴿مالك من الله من ولي﴾ يتولاك فيحصل لك الأمر المحبوب، ﴿ولا واق﴾ يقيك من الأمر المكروه.

﴿٣٨﴾ ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب﴾ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ أي: لست أول رسول أرسل إلى الناس حتى يستغربوا رسالتك، ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية﴾ فلا يعينك أعداؤك بأن يكون لك أزواج وذرية، كما كان لإخوانك المرسلين، فلاي: شيء يقدحون فيك بذلك وهم يعلمون أن الرسل قبلك كذلك؛ إلا لأجل أغراضهم الفاسدة وأهوائهم؟، وإن طلبوا منك آية اقترحوها فليس لك من الأمر شيء.

﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله﴾ والله لا يأذن فيها إلا في وقتها الذي قدره وقضاه، ﴿لكل أجل كتاب﴾ لا يتقدم عليه ولا يتأخر عنه، فليس استعجالهم بالآيات أو بالعذاب موجباً لأن يقدم الله ما كتب أنه يؤخر، مع أنه تعالى فعال لما يريد.

﴿يمحو الله ما يشاء﴾ من الأقدار ﴿ويثبت﴾ ما يشاء منها، وهذا المحو والتغيير في غير ما سبق به علمه وكتبه قلمه، فإن هذا لا يقع فيه تبديل ولا تغيير، لأن ذلك محال على الله،

بذلك، أن أراضى هؤلاء المكذبين جعل الله يفتحها ويحتاحها، ويحل القوارع بأطرافها، تنبيهاً لهم قبل أن محتاحهم النقص، ويوقع الله بهم من القوارع ما لا يرده أحد، ولهذا قال: ﴿والله يحكم لا معقب لحكمه﴾ ويدخل في هذا حكمه الشرعي والقدري والجزائي.

فهذه الأحكام التي يحكم الله فيها، توجد في غاية الحكمة والإتقان، لا خلل فيها ولا نقص، بل هي مبنية على القسط والعدل والحمد، فلا يتعقبها أحد ولا سبيل إلى القدح فيها، بخلاف حكم غيره، فإنه قد يوافق الصواب، وقد لا يوافق، وهو سريع الحساب﴾ أي: فلا يستعجلوا بالعذاب، فإن كل ما هزأت، فهو قريب.

﴿٤٢ - ٤٣﴾ ﴿وقد مكر الذين من قبلهم فله المكر جميعاً يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار﴾ ويقول الذين كفروا لست مرسلًا قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾ يقول تعالى: ﴿وقد مكر الذين من قبلهم﴾ برسلمهم، وبالحق الذي جاءت به الرسل، فلم يغن عنهم مكرهم، ولم يصنعوا شيئاً، فإنهم يحاربون الله ويبارزونه ﴿فله المكر جميعاً﴾ أي: لا يقدر أحد أن يمكر مكرًا إلا بإذنه، وتحت قضائه وقدره، فإذا كانوا يمكرون بدينه، فإن مكرهم سيعود عليهم باخية والندم، فإن الله يعلم ما تكسب كل نفس﴾ أي: همومها وإراداتها وأعمالها الظاهرة والباطنة.

والمكر لا بد أن يكون من كسبها، فلا يخفى على الله مكرهم، فيمتنع أن يمكروا مكرًا يضر الحق وأهله، ويفيدهم شيئاً، وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار﴾ أي: ألهم أو لرسله؟ ومن المعلوم أن العاقبة للمتقين، لا للكفر وأعماله.

﴿ويقول الذين كفروا لست مرسلًا﴾ أي: يكذبونك، ويكذبون ما أرسلت به، ﴿قل﴾ لهم - إن طلبوا

أن يقع في علمه نقص أو خلل، ولهذا قال: ﴿وعنده أم الكتاب﴾ أي: اللوح المحفوظ الذي ترجع إليه سائر الأشياء، فهو أصلها، وهي فروع له وشعب.

فالتغيير والتبديل يقع في الفروع والشعب، كأعمال اليوم والليلة التي تكتبها الملائكة، ويجعل الله ثبوتها أسباباً، وملحوها أسباباً، لا تعدى تلك الأسباب، ما رسم في اللوح المحفوظ، كما جعل الله البر والصلة والإحسان من أسباب طول العمر وسعة الرزق، وكما جعل المعاصي سبباً لمحق بركة الرزق والعمر، وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب سبباً للسلامة. وجعل التعرض لذلك، سبباً للعطب، فهو الذي يدبر الأمور بحسب قدرته وإرادته، وما يدبره منها لا يخالف ما قد علمه وكتبه في اللوح المحفوظ.

﴿٤٠ - ٤١﴾ ﴿وإن ما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ أولم يروا أننا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: لا تعجل عليهم بإصابتهم ما يوعدون به من العذاب، فهم إن استمروا على طغيانهم وكفرهم، فلا بد أن يصيبهم ما وعدوا به، ﴿إما نرينك﴾ إياه في الدنيا، فتقر بذلك عينك، ﴿أو نتوفينك﴾ قبل إصابتهم، فليس ذلك شغلاً لك ﴿فإنما عليك البلاغ﴾ والتبيين للخلق.

﴿وعلينا الحساب﴾ فنحاسب الخلق على ما قاموا به، بما عليهم، وضيوعه، ونشيبهم أو تعاقبهم.

ثم قال متوعداً للمكذبين: ﴿أو لم يروا أننا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ قيل بإهلاك المكذبين واستئصال الظالمين، وقيل: بفتح بلدان المشركين، ونقصهم في أموالهم وأبدانهم، وقيل غير ذلك من الأقوال. والظاهر - والله أعلم - أن المراد



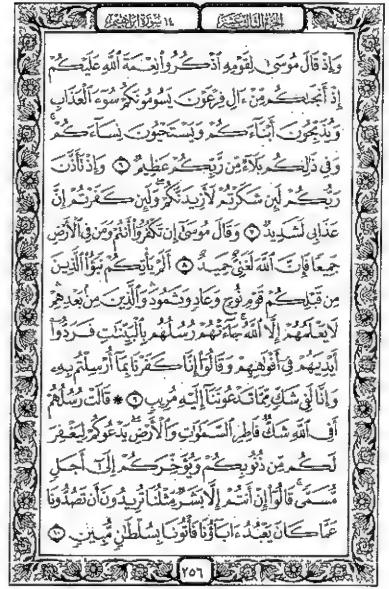
على ذلك شهيداً: ﴿كفى بالله شهيداً بيني وبينكم﴾ وشهادته بقوله وفعله وإقراره، أما قوله فيما أوحاه الله إلى أصدق خلقه، مما ثبت به رسالته.

وأما فعله فلأن الله تعالى أيد رسوله، ونصره نصرًا خارجاً عن قدرته وقدرة أصحابه وأتباعه، وهذا شهادة منه له بالفعل والتأييد.

وأما إقراره، فإنه أخبر الرسول عنه أنه رسوله، وأنه أمر الناس باتباعه، فمن اتبعه فله رضوان الله وكرامته، ومن لم يتبعه فله النار والسخط، وحل له ماله ودمه، والله يقره على ذلك، فلو تقول عليه بعض الأقاويل لعاجله بالعقوبة.

﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ وهذا شامل لكل علماء أهل الكتابين، فإنهم يشهدون للرسول، من آمن، واتباع الحق، صرح بتلك الشهادة التي عليه، ومن كتم ذلك، فإخبار الله عنه أن عنده شهادة، أبلغ من خبره، ولو لم يكن عنده شهادة، لرد استشهاده بالبرهان، فسكوته يدل على أن عنده شهادة مكتومة.

وإنما أمر الله باستشهاد أهل الكتاب، لأنهم أهل هذا الشأن، وكل أمر إنما يستشهد فيه أهله، ومن هم أعلم به من غيرهم، بخلاف من هو أجنبي عنه، كالأميين من مشركي العرب وغيرهم، فلا فائدة في



استشهدهم لعدم خبرتهم ومعرفتهم .
والله أعلم .

تم تفسير سورة الرعد ،
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهي مكية

﴿١-٣﴾ **بسم الله الرحمن الرحيم** الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد * الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد * الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويغونها عوجاً أولئك في ضلال بعيد * يخبر تعالى أنه أنزل كتابه على رسوله محمد ﷺ لنفع الخلق، ليخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر والأخلاق السيئة وأنواع المعاصي، إلى نور العلم والإيمان والأخلاق الحسنة، وقوله: ﴿يؤذّن ربهم﴾ أي: لا يحصل منهم المراد المحبوب لله، إلا بإرادة من الله ومعونه، ففيه حث للعباد على الاستعانة بربهم .

ثم فسر النور الذي يهديهم إليه هذا الكتاب، فقال: ﴿إلى صراط العزيز الحميد﴾ أي: الموصول إليه وإلى دار كرامته، المشتغل على العلم بالحق والعمل به، وفي ذكر «العزيز

الحميد» بعد ذكر الصراط الموصول إليه إشارة إلى أن من سلكه فهو عزيز بعز الله، قوي، ولو لم يكن له أنصار إلا الله، محمود في أموره، حسن العاقبة .

وليدل ذلك على أن صراط الله، من أكبر الأدلة على ما لله من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وأن الذي نصبه لعباده، عزيز السلطان، حميد في أقواله وأفعاله وأحكامه، وأنه مألوه معبود بالعبادات التي هي منازل الصراط المستقيم، وأنه كما أن له ملك السماوات والأرض خلقاً ورزقاً وتديراً، فله الحكم على عباده بأحكامه الدينية، لأنهم ملكه، ولا يليق به أن يتركهم سدى، قلما بين الدليل والبرهان، توعدهم من لم يتقذ لذلك، فقال: ﴿ويل للكافرين من عذاب شديد﴾ لا يقدر قدره، ولا يوصف أمره، ثم وصفهم بأنهم «الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة» فرضوا بها واطمأنوا، وغفلوا عن الدار الآخرة .

﴿ويصدون﴾ الناس **عن سبيل الله** التي نصبها لعباده، وبينها في كتبه وعلى السنة رسله، فهو لا قد تابذوا مولاهم بالمعاداة والمجازاة، ﴿ويغونها﴾ أي: سبيل الله **عوجاً** أي: يحرضون على تهجينها وتضييقها، للتفسير عنها، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

﴿أولئك﴾ الذين ذكر وصفهم **في ضلال بعيد** لأنهم ضلوا وأضلوا، وشاقوا الله ورسوله وحاربهما، فأبى ضلال أبعد من هذا!!، وأما أهل الإيمان فبعكس هؤلاء، يؤمنون بالله وآياته، ويستحبون الآخرة على الدنيا، ويدعون إلى سبيل الله ويحسنونها مهما أمكنهم، ويبينون استقامتها .

﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم﴾ وهذا من لطفه بعباده، أنه ما أرسل رسولاً **إلا بلسان قومه**، ليبين لهم ما يحتاجون إليه، ويتمكنون من

تعلم ما أتى به، بخلاف ما لو كانوا على غير لسانهم، فإنهم يحتاجون إلى أن يتعلموا تلك اللغة التي يتكلم بها، ثم يفهمون عنه، فإذا بين لهم الرسول ما أمروا به، ونهوا عنه، وقامت عليهم حجة الله **«فضل الله من يشاء»** من لم يتقذ للهدى، ويهدي من يشاء من اختصه برحمته .

﴿وهو العزيز الحكيم﴾ الذي - من عزته - أنه انفرد بالهداية والإضلال، وتقليب القلوب إلى ما شاء، ومن حكمته أنه لا يضع هدايته ولا إضلاله إلا بالمحل اللائق به .

ويستدل هذه الآية الكريمة على أن علوم العربية الموصلة إلى تبين كلامه وكلام رسوله أمور مطلوبة محبوبة لله، لأنه لا يتم معرفة ما أنزل على رسوله إلا بها .

إلا إذا كان الناس بحالة لا يحتاجون إليها، وذلك إذا تمرنوا على العربية، ونشأ عليها صغيرهم، وصارت طبيعة لهم، فحيث قد اكتفوا المؤنة، وصلحوا لأن يتلقوا عن الله وعن رسوله ابتداء، كما تلقى عنهم الصحابة رضي الله عنهم .

﴿٥-٨﴾ **«ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور»** * وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم * وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد * وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد * يخبر تعالى: أنه أرسل موسى بآياته العظيمة الدالة على صدق ما جاء به وصحته، وأمره بما أمر الله به رسوله محمداً ﷺ، بل وبما أمر به جميع الرسل قومهم، **«أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور»** أي: ظلمات الجهل والكفر وفروعه، إلى نور العلم والإيمان وتوابعه، **«وذكرهم**

بأيام الله ﴿أي﴾: بنعمه عليهم، وإحسانه إليهم وبأيامه في الأمم المكذبين، ووقائعه بالكافرين، ليذكروا نعمه، وليحذروا عقابه، ﴿إن في ذلك﴾: أي: في أيام الله على العباد ﴿لآيات لكل صبار شكور﴾: أي: صبار في الضراء والعسر والضييق، شكور على السراء والنعمة.

فإنه يستدل بأيامه على كمال قدرته وعميم إحسانه، وتمام عدله وحكمته، ولهذا امتثل موسى عليه السلام أمر ربه، فذكرهم نعم الله فقال: ﴿اذكروا نعمة الله عليكم﴾: أي: بقلوبكم وألسنتكم. ﴿إذ أنجاهم من آل فرعون يسومونكم﴾: أي: يولونكم ﴿سوء العذاب﴾: أي: أشده، وفسر ذلك بقوله: ﴿ويذبون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾: أي: يبقونهم فلا يقتلونهم، ﴿وفي ذلك﴾: الإنجاء ﴿بلاء من ربكم عظيم﴾: أي: نعمة عظيمة، أو وفي ذلك العذاب الذي ابتليتم به من فرعون وملئه ابتلاء من الله عظيم لكم، لينظر هل تصيرون أم لا؟

وقال لهم حاثاً على شكر نعم الله: ﴿وإذ تأذن ربكم﴾: أي: أعلم ووعد، ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾: من نعمي ﴿ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾: ومن ذلك أن يزيل عنهم النعمة التي أنعم بها عليهم. والشكر: هو اعتراف القلب بنعم الله، والثناء على الله بها، وصرفها في مرضاة الله تعالى. وكفر النعمة ضد ذلك.

﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً﴾: فلن تضروا الله شيئاً، ﴿فإن الله لغني حميد﴾: فالطاعات لا تزيد في ملكه، والمعاصي لا تنقصه، وهو كامل الغنى، حميد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، ليس له من الصفات إلا كل صفة حمد وكمال، ولا من الأسماء إلا كل اسم حسن، ولا من الأفعال إلا كل فعل جميل.

﴿٩- ١٢﴾: ﴿ألم يأتكم نبي الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في

أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعونا إليه مريب﴾: قالت رسلهم أفني الله شك فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين﴾: قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن تأتكم سلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾: ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾: يقول تعالى خوفاً عباده ما أحله بالأمم المكذبة حين جاءتهم الرسل، فكذبوهم، فعاقبهم بالعقاب العاجل الذي رآه الناس وسمعوه فقال: ﴿ألم يأتكم نبي الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود﴾: وقد ذكر الله قصصهم في كتابه وبسطها، ﴿والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله﴾: من كثرتهم، وكون أخبارهم اندرست.

فهؤلاء كلهم ﴿جاءتهم رسلهم بالبينات﴾: أي: بالأدلة الدالة على صدق ما جاؤوا به، فلم يرسل الله رسولا إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، فحين أنتهم رسلهم بالبينات لم ينقادوا لها، بل استكبروا عنها، ﴿فردوا أيديهم في أفواههم﴾: أي: لم يؤمنوا بما جاؤوا به، ولم يثفوها بشيء مما يدل على الإيمان كقوله ﴿جعلوا أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت﴾.

﴿وقالوا﴾: صريحاً لرسلهم: ﴿إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعونا إليه مريب﴾: أي: موقع في الرية، وقد كذبوا في ذلك وظلموا.

ولهذا ﴿قالت لهم﴾: رسلهم ﴿أفني الله شك﴾: أي: فإنه أظهر الأشياء وأجلاها، فمن شك في الله ﴿فاطر السماوات والأرض﴾: الذي وجود الأشياء مستند إلى وجوده، لم يكن عنده ثقة بشيء من المعلومات، حتى الأمور

قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن تأتكم سلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿وقال الذين كفروا﴾: أي: كفروا ﴿أفني الله شك﴾: أي: فإنه أظهر الأشياء وأجلاها، فمن شك في الله ﴿فاطر السماوات والأرض﴾: الذي وجود الأشياء مستند إلى وجوده، لم يكن عنده ثقة بشيء من المعلومات، حتى الأمور

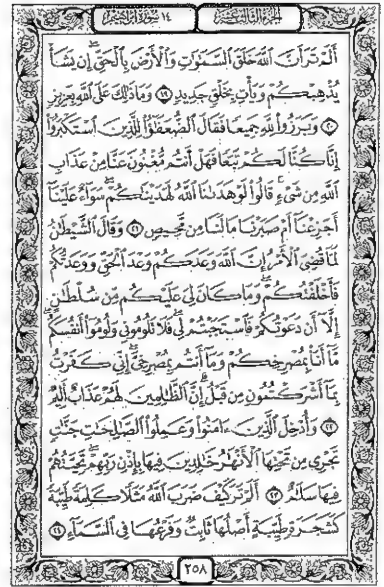
المحسوسة، ولهذا خاطبتهم الرسل خطاب من لا يشك فيه ولا يصلح الريب فيه ﴿يدعوكم﴾: إلى منافعكم ومصالحكم ﴿ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى﴾: أي: ليثيبكم على الاستجابة لدعوته بالثواب العاجل والأجل، فلم يدعكم ليتنفع بعبادتكم، بل النفع عائد إليكم.

فردوا على رسلهم رد السفهاء الجاهلين ﴿وقالوا﴾: لهم: ﴿إن أنتم إلا بشر مثلنا﴾: أي: فكيف تفضلوننا بالنبوة والرسالة، ﴿تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا﴾: فكيف نترك رأي: الآباء وسيرتهم لرأيكم؟ وكيف نطيعكم وأنتم بشر مثلنا؟

﴿فأتونا بسلطان مبين﴾: أي: بحجة وبينة ظاهرة، ومرادهم بينة يقتضونها هم، وإلا فقد تقدم أن رسلهم جاءتهم بالبينات.

﴿قالت لهم رسلهم﴾: محبين عن اقتراحهم واعتراضهم: ﴿إن نحن إلا بشر مثلكم﴾: أي: صحيح وحقيقة، أننا بشر مثلكم، ﴿ولكن﴾: ليس في ذلك ما يدفع ما جئنا به من الحق، فإن ﴿الله﴾: أي: الله ﴿يمن على من يشاء من عباده﴾: فإذا من الله علينا بوحيه ورسالته، فذلك فضله وإحسانه، وليس لأحد أن يحجر على الله فضله ويمتنع من تفضله.

فانظروا ما جئناكم به، فإن كان حقاً فاقبلوه، وإن كان غير ذلك فردوه



ذلك، وعدم مللهم، ذكر منتهمي ما وصلت بهم الحال مع قومهم فقال: ﴿وقال الذين كفروا لرسولهم﴾ متوعدين لهم - ﴿لننخرجنكم من أرضنا أو لنعودن في ملتنا﴾ وهذا أبلغ ما يكون من الرد، وليس بعد هذا فيهم مطمع، لأنه ما كفاهم أن أعرضوا عن الهدى، بل توعدهم بالإخراج من ديارهم ونسبوا إلى أنفسهم، وزعموا أن الرسل لا حق لهم فيها، وهذا من أعظم الظلم، فإن الله أخرج عباده إلى الأرض وأمرهم بعبادته، وسخر لهم الأرض وما عليها يستعينون بها على عبادته.

فمن استعان بذلك على عبادة الله، حل له ذلك وخرج من التبعة، ومن استعان بذلك على الكفر وأنواع المعاصي، لم يكن ذلك خالصاً له، ولم يحل له، فعلم أن أعداء الرسل في الحقيقة ليس لهم شيء من الأرض التي توعدها الرسل بإخراجهم منها. وإن رجعنا إلى مجرد العادة فإن الرسل من جملة أهل بلادهم، وأفراد منهم، فلا شيء يمتنعونهم حقاً لهم صريحاً واضحاً؟ هل هذا إلا من عدم الدين والمروءة بالكلية؟

ولهذا لما انتهى مكرهم بالرسول إلى هذه الحال، ما بقي حينئذ إلا أن يمضي الله أمره، وينصر أوليائه، ﴿فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين﴾ بأنواع العقوبات.

﴿ولنسكننكم الأرض من بعدهم﴾ ذلك أي: العاقبة الحسنة التي جعلها الله للرسول ومن تبعهم جزاء لمن خاف مقامه عليه في الدنيا، وراقب الله مراقبة من يعلم أنه يراه، ﴿وخاف وعيد﴾ أي: ما توعدت به من عصاني، فأوجب له ذلك الانكفاف عما يكرهه الله، والمبادرة إلى ما يحبه الله.

﴿واستفتحوا﴾ أي: الكفار، أي: هم الذين طلبوا واستعجلوا فتح الله ورفقائه بين أوليائه وأعدائه، فجاءهم ما استفتحوا به، وإلا فالله حلیم

عليهم الصلاة والسلام لقومهم، بآية عظيمة، وهو أن قومهم - في الغالب - لهم القهر والغلبة عليهم، فتحدثهم رسالهم بأنهم متوكلون على الله، في دفع كيدكم ومكركم، وجازمون بكفائته إياهم، وقد كفاهم الله شرهم مع حرصهم على إتلافهم وإطفاء ما معهم من الحق، فيكون هذا كقول نوح لقومه: ﴿يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري فأجمعوا أمركم وشركائكم، ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة، ثم اقبضوا إلي ولا تنظرون﴾ الآيات.

وقول هود عليه السلام قال: ﴿إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيّدوني جميعاً ثم لا تنظرون﴾.

﴿ولنصبرن على ما آذيتونا﴾ أي: ولنستمرن على دعوتكم ووعظكم وتذكيركم، ولا نبالي بما يأتينا منكم من الأذى، فإننا سنوطن أنفسنا على ما ينالنا منكم من الأذى، احتساباً للأجر، ونصحاً لكم، لعل الله أن يهديكم مع كثرة التذكير.

﴿وعلى الله﴾ وحده لا على غيره ﴿فليتوكل المتوكلون﴾ فإن التوكل عليه مفتاح لكل خير.

واعلم أن الرسل عليهم الصلاة والسلام توكلهم في أعلى المطالب وأشرف المراتب، وهي التوكل على الله في إقامة دينه ونصره، وهداية عبيده، وإزالة الضلال عنهم، وهذا أكمل ما يكون من التوكل.

﴿١٣ - ١٧﴾ ﴿وقال الذين كفروا لرسولهم لننخرجنكم من أرضنا أو لنعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين﴾ ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد * واستفتحوا وخاب كل جبار عتيد * من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد * يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ﴾ لما ذكر دعوة الرسل لقومهم ودوامهم على

ولا تجعلوا حالنا حجة لكم على رد ما جئناكم به، وقولكم: ﴿فأتأونا بسلطان مين﴾ فإن هذا ليس بأيدينا، وليس لنا من الأمر شيء.

﴿وما كان لنا أن تأتيناكم بسلطان إلا بإذن الله﴾ فهو الذي إن شاء جاءكم به، وإن شاء لم يأتكم به، وهو لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته ورحمته، ﴿وعلى الله﴾ لا على غيره ﴿فليتوكل المؤمنون﴾ فيعتمدون عليه في جلب مصالحهم ودفع مضارهم، لعلمهم بتمام كفايته وكمال قدرته، وعميم إحسانه، ويشقون به في تفسير ذلك، ويحسب ما معهم من الإيمان يكون توكلهم.

فعلم بهذا وجوب التوكل، وأنه من لوازم الإيمان، ومن العبادات الكبار التي يحبها الله ويرضاها، لتوقف سائر العبادات عليه، ﴿وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هذان سبلنا﴾.

أي: شيء يمنعنا من التوكل على الله، والحال أننا على الحق والهدى، ومن كان على الحق والهدى، فإن هذاه يوجب له تمام التوكل، وكذلك ما يعلم من أن الله متكفل بمعونة المهدي وكفايته، يدعو إلى ذلك، بخلاف من لم يكن على الحق والهدى، فإنه ليس ضامناً على الله، فإن حاله مناقضة لحال المتوكل.

وفي هذا كإشارة من الرسل

يسعون ويكدحون في ذلك، ومكرهم عائد عليهم، ولن يضروا الله. ورسله وجنده وما معهم من الحق شيئاً.

﴿١٩ - ٢١﴾ «ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وما ذلك على الله بعزيز * وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تيعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هذان الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص * ينبه تعالى عباده بأنه «خلق السماوات والأرض بالحق» أي: ليعبده الخلق ويعرفوه، ويأمرهم وينهاهم، وليستدلوا بهما وما فيهما على ماله من صفات الكمال، وليعلموا أن الذي خلق السماوات والأرض - على عظمهما وسعتهما - قادر على أن يعيدهم خلقاً جديداً، ليجازيهم بإحسانهم وإساءتهم، وأن قدرته ومشيئته لا تقصر عن ذلك، ولهذا قال: ﴿إِنْ يَشَاءُ يَذْهَبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾

يحتمل أن المعنى: إن يشأ يذهبكم ويأت بقوم غيركم، يكونون أطوع لله منكم، ويحتمل أن المراد أنه: إن يشأ يفتنكم ثم يعيدهم بالبعث خلقاً جديداً، ويدل على هذا الاحتمال ما ذكره بعده من أحوال القيامة.

﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾ أي: بممتنع بل هو سهل عليه جداً، ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه.

﴿وبرزوا﴾ أي: الخلائق لله جميعاً حين ينفخ في الصور، فيخرجون من الأجداث إلى ربهم، فيقفون في أرض مستوية قاع صفصف، لا ترى فيها عرجاً ولا أفتاً، ويرزون له لا يخفى [عليه] منهم خافية، فإذا برزوا صاروا يتحاجون، وكل يدفع عن نفسه، ويدافع ما يقدر عليه، ولكن أنى لهم ذلك؟

فيقول «الضعفاء» أي: التابعون

لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، ﴿وخاب كل جبار عنيد﴾ أي: خسر في الدنيا والآخرة من تجبر على الله وعلى الحق وعلى عباد الله، واستكبر في الأرض، وعاند الرسل وشاقهم.

﴿من ورثه جهنم﴾ أي: جهنم لهذا الجبار العنيد بالمرصاد، فلا بد له من ورودها، فيذاق حيثذ العذاب الشديد، «ويسقى من ماء صديد» في لونه وطعمه ورائحته الخبيثة، وهو في غاية الحرارة.

﴿يتجرعه﴾ من العطش الشديد ﴿ولا يكاد يسيغه﴾ فإنه إذا قرب إلى وجهه شواه، وإذا وصل إلى بطنه قطع ما أتى عليه من الأمعاء، «ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت» أي: يأتيه العذاب الشديد من كل نوع من أنواع العذاب، وكل نوع منه من شدته يبلغ إلى الموت، ولكن الله قضى أن لا يموتوا كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ وهم يصطرون فيها.

﴿ومن ورثه﴾ أي: الجبار العنيد «عذاب غليظ» أي: قوي شديد، لا يعلم وصفه وشدته إلا الله تعالى.

﴿١٨﴾ «مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد» يخبر تعالى عن أعمال الكفار التي عملوها: إما أن المراد بها الأعمال التي عملوها لله، بأنها في ذهابها وبطلانها واضمحلالها كاضمحلال الرماد، الذي هو أدق الأشياء وأخفها، إذا اشتدت به الريح في يوم عاصف شديد الهبوب، فإنه لا يبقى منه شيئاً، ولا يقدر منه على شيء يذهب ويضمحل، فكَذَلِكَ أعمال الكفار «لا يقدرون مما كسبوا على شيء» ولا على مثقال ذرة منه، لأنه مبني على الكفر والتكذيب.

﴿ذلك هو الضلال البعيد﴾ حيث بطل سعيهم، واضمحل عملهم، وإما أن المراد بذلك أعمال الكفار التي عملوها ليكيدوا بها الحق، فإنهم



والمقلدون «للذين استكبروا» وهم: المتبوعون الذين هم قادة في الضلال: ﴿إنا كنا لكم تبعاً﴾ أي: في الدنيا، أمرتونا بالضلال، وزينتموه لنا فأغويتمونا، ﴿فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء﴾ أي: ولو مثقال ذرة، ﴿قالوا﴾ أي: المتبوعون والرؤساء «أغويناكم كما غوينا» و «لو هذان الله لهديناكم» فلا يغني أحد أحداً، «سواء علينا أجزعنا» من العذاب «أم صبرنا» عليه، «ما لنا من محيص» أي: من ملجأ نلجأ إليه، ولا مهرب لنا من عذاب الله.

﴿٢٢ - ٢٣﴾ «وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم * وأدخل الذين آمنوا و عملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحبهم فيها سلام» أي: وقال الشيطان الذي هو سبب لكل شر يقع ووقع في العالم، مخاطباً لأهل النار ومتبرئاً منهم «لما قضي الأمر» ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار. «إن الله وعدكم وعد الحق» على ألسنة رسله، فلم تطيعوه، فلو أطيعتموه



لأدركنم الفوز العظيم، ﴿ووعدتكم﴾

الخير ﴿فأخلفتنكم﴾ أي: لم يحصل ولن يحصل لكم ما منيتكم به من الأمانى الباطلة.

﴿وما كان لي عليكم من سلطان﴾

أي: من حجة على تأييد قولي، ﴿إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾ أي: هذا نهاية

ما عندي، أي دعوتكم إلى مرادي وزينت لكم، فاستجبتم لي اتباعاً

لأهوائكم وشهواتكم، فإذا كانت الحال بهذه الصورة ﴿فلا تلموني

ولوموا أنفسكم﴾ فأنتم السبب، وعليكم المدار في موجب العقاب،

﴿ما أنا بمصرخكم﴾ أي: بمغيثكم من الشدة التي أنتم بها ﴿وما أنتم

بمصرخي﴾ كل له قسط من العذاب.

﴿إني كفرت بما أشركنتمون من

قبل﴾ أي: تراءت من جعلكم لي

شريكاً مع الله، فلست شريكاً لله،

ولا تجب طاعتي، ﴿إن الظالمين

لأنفسهم بطاعة الشيطان﴾ لهم عذاب

أليم﴾ خالدين فيه أبداً.

وهذا من لطف الله بعباده، أن

حذرهم من طاعة الشيطان، وأخبر

بمداخله التي يدخل منها على الإنسان

ومقاصده فيه، وأنه يقصد أن يدخله

النيران، وهنا بين لنا أنه إذا دخل النار

وحزبه^(١)، أنه يتبرأ منهم هذه البراءة،

ويكفر بشركهم ﴿ولا ينبتك مثل خبير﴾.

واعلم أن الله ذكر في هذه الآية أنه

ليس له سلطان، وقال في آية أخرى

﴿إنما سلطانه على الذين يتولونه،

والذين هم به مشركون﴾ فالسلطان

الذي نفاه عنه هو سلطان الحجة

والدليل، فليس له حجة أصلاً على ما

يدعو إليه، وإنما نهاية ذلك أن يقيم

لهم من الشبه والتزيينات ما به

يتجروون على المعاصي.

وأما السلطان الذي أثبتته، فهو

التسلط بالإغراء على المعاصي لأوليائه

يؤزهم إلى المعاصي أژاً، وهم الذين

سلطوه على أنفسهم بمواليته والاتحاق

بحزبه، ولهذا ليس له سلطان على

الذين آمنوا وعلى ربهم يتكلمون.

ولما ذكر عقاب الظالمين ذكر ثواب

الطائعين فقال: ﴿وأدخل الذين آمنوا

وعملوا الصالحات﴾ أي: قاموا

بالدين، قولاً، وعملًا، واعتقاداً،

﴿جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ فيها

من اللذات والشهوات، ما لا عين

رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على

قلب بشر، ﴿خالدين فيها بإذن ربهم﴾

أي: لا يحولهم وقوتهم بل يحول الله

وقوته ﴿نحيتهم فيها سلام﴾ أي: يجي

بعضهم بعضاً بالسلام، والتحية،

والكلام الطيب.

﴿٢٤-٢٦﴾ ﴿ألم تر كيف

ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة

أصلها ثابت وفرعها في السماء ﴿تؤتي

أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله

الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ﴿ومثل

كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من

فوق الأرض ما لها من قرار﴾ يقول

تعالى: ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً

كلمة طيبة﴾ وهي شهادة أن لا إله

إلا الله، وفروعها، ﴿كشجرة طيبة﴾

وهي النخلة ﴿أصلها ثابت﴾ في

الأرض ﴿وفرعها﴾ منتشر ﴿في

السماء﴾ وهي كثيرة النفع دائماً،

﴿تؤتي أكلها﴾ أي: ثمرتها ﴿كل حين

بإذن ربها﴾ فكذلك شجرة الإيمان،

أصلها ثابت في قلب المؤمن، علماً

واعتقاداً. وفرعها من الكلام الطيب،

والعمل الصالح، والأخلاق المرضية،

والآداب الحسنة، في السماء دائماً،

يصعد إلى الله منه من الأعمال

والأقوال التي تخرجها شجرة الإيمان،

ما يستفيع به المؤمن وينفع غيره،

﴿ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم

يتذكرون﴾ ما أمرهم به ونهاهم عنه،

فإن في ضرب الأمثال تقريباً للمعاني

المعقولة من الأمثال المحسوسة، ويتبين

المعنى الذي أراد الله غاية البيان،

ويتضح غاية الوضوح، وهذا من رحمته

وحسن تعليمه. فله أتم الحمد وأكمله

وأعمه، فهذه صفة كلمة التوحيد

وثباتها، في قلب المؤمن.

ثم ذكر ضدها وهي كلمة الكفر

وفروعها، فقال: ﴿ومثل كلمة خبيثة

كشجرة خبيثة﴾ المأكول والمطعم،

وهي: شجرة الجنظل ونحوها،

﴿اجتثت﴾ هذه الشجرة ﴿من فوق

الأرض ما لها من قرار﴾ أي: من

ثبوت، فلا عروق تمسكها، ولا ثمرة

صالحة، تنتجها، بل إن وجد فيها

ثمرة، فهي ثمرة خبيثة، كذلك كلمة

الكفر والمعاصي، ليس لها ثبوت نافع

في القلب، ولا تثمر إلا كل قول

خبيث وعمل خبيث، يستضر به

صاحبه ولا ينتفع، فلا يصعد إلى الله

منه عمل صالح، ولا ينفع نفسه ولا

ينتفع به غيره.

﴿٢٧﴾ ﴿يثبت الله الذين آمنوا

بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي

الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله

ما يشاء﴾ يخبر تعالى أنه يثبت عباده

المؤمنين، أي: الذين قاموا بما عليهم

من إيمان القلب التام، الذي يستلزم

أعمال الجوارح ويشمرها، فيثبتهم الله

في الحياة الدنيا، عند ورود الشبهات

بالهداية إلى اليقين، وعند عروض

الشهوات بالإرادة الجازمة، على تقديم

ما يحبه الله على هوى النفس ومراداتها.

(١) في ب: وجنده.

وفي الآخرة عند الموت بالثبات على الدين الإسلامي، والخاتمة الحسنة، وفي القبر عند سيؤال الملكين، للجواب الصحيح، إذا قيل للميت: «من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟» هداهم للجواب الصحيح، بأن يقول المؤمن: «الله ربي، والإسلام ديني، ومحمد نبي».

﴿ويضل الله الظالمين﴾ عن الضواب في الدنيا والآخرة، وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم، وفي هذه الآية دلالة على فتنة القبر وغذابه، ونعيمه، كما تواترت بذلك النصوص عن النبي ﷺ في الفتنة وصفتها، ونعيم القبر وعذابه.

﴿٢٨ - ٣٠﴾ ﴿ألم تر إلى الذين بذلوا نعمة الله كفوفاً وأحلوا قومهم دار البوار﴾ جهنم يصلونها وبئس القرار ﴿وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار﴾ يقول تعالى - مبيناً حال المكذبين لرسوله من كفار قريش، وما آل إليه أمرهم: ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً﴾ ونعمة الله هي إرسال محمد ﷺ إليهم، يدعوه إلى إدراك الخيرات في الدنيا والآخرة، وإلى النجاة من شرور الدنيا والآخرة، فبدلوا هذه النعمة بردها، والكفر بها والصد عنها بأنفسهم.

﴿و﴾ صددهم غيرهم حتى أحلوا قومهم دار البوار﴾ وهي النار، حيث تسبوا لإضلالهم، فصاروا وبالأعلى قومهم، من حيث يظن نفعهم، ومن ذلك أنهم زينوا لهم الخروج يوم «بدر» ليحاربوا الله ورسوله، فجري عليهم ما جرى، وقتل كثير من كبرائهم وضناديدهم في تلك الواقعة.

﴿جهنم يصلونها﴾ أي: يحيط بهم حرها من جميع جوانبهم ﴿وبئس القرار﴾.

﴿وجعلوا لله أنداداً﴾ أي: نظراء وشركاء ﴿ليضلوا عن سبيله﴾ أي: ليضلوا العباد عن سبيل الله، بسبب ما جعلوا لله من الأنداد، ودعوه إلى عبادتها، ﴿قل﴾ لهم متوعداً:

﴿تمتعوا﴾ بكفركم وضلالكم قليلاً، فليس ذلك بنافعكم ﴿فإن مصيركم إلى النار﴾ أي: مآلكم ومقركم ومأواكم فيها وبئس المصير.

﴿٣١﴾ ﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلاق﴾ أي: قل لعبادي المؤمنين أمراً لهم بما فيه غاية صلاحهم، وأن ينتهزوا الفرصة، قبل أن لا يمكنهم ذلك: ﴿يقيموا الصلاة﴾ ظاهراً وباطناً ﴿وينفقوا مما رزقناهم﴾ أي: من النعم التي أنعمنا بها عليهم، قليلاً أو كثيراً ﴿سراً وعلانية﴾ وهذا يشمل النفقة الواجبة، كالزكاة ونفقة من تجب [عليه] نفقته، والمستحبة كالصدقات ونحوها.

﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلاق﴾ أي: لا ينفع فيه شيء، ولا سبيل إلى استبدالك ما فات، لا بمعاوضة بيع وشراء، ولا بهبة خليل وصديق، فكل امرئ له شأن يتعنه، فليقدم العبد لنفسه، ولينظر ما قدمه لغد، وليتفقد أعماله ويحاسب نفسه، قبل الحساب الأكبر.

﴿٣٢ - ٣٤﴾ ﴿الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار﴾ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ﴿وأتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ إن الإنسان لظلول كفار ﴿يخبر تعالى: أنه وحده الذي خلق السماوات والأرض﴾ على اتساعهما وعظمتها، ﴿وأنزل من السماء ماء﴾ وهو: المطر الذي ينزله الله من السحاب ﴿فأخرج﴾ بذلك الماء ﴿من الثمرات﴾ المختلفة الأنواع ﴿رزقاً لكم﴾ ورزقاً لأنعامكم ﴿وسخر لكم الفلك﴾ أي: السفن والمراكب، ﴿لتجري في البحر﴾ بأمره ﴿فهو الذي يسر لكم صفتها، وأقدركم عليها، وحفظها على تيار الماء لتحملكم، وتحمل تجارتكم وأمتعكم إلى بلد تقصدونه﴾.

﴿وسخر لكم الأنهار﴾ لتسقي حروثكم وأشجاركم، وتشربوا منها. ﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين﴾ لا يفتران، ولا ينيان، يسعيان لمصالحكم، من حساب أزمنتكم ومصالح أبدانكم، وحيواناتكم، وزروعكم، وثماركم، ﴿وسخر لكم الليل﴾ لتسكنوا فيه ﴿والنهار﴾ مبصراً، لتبتغوا من فضله.

﴿وأتاكم من كل ما سألتموه﴾ أي: أعطاكم من كل ما تعلق به أمانيتكم وحاجتكم، بما تسألونه إياه بلسان الحال، أو بلسان المقال، من أنعام، وآلات، وصناعات وغير ذلك، ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ فضلاً عن قيامكم بشكرها ﴿إن الإنسان لظلول كفار﴾ أي: هذه طبيعة الإنسان من حيث هو ظالم متجرب على المعاصي، مقصر في حقوق ربه، كفار لنعم الله، لا يشكرها ولا يعترف بها، إلا من هداه الله فشكر نعمه، وعرف حق ربه وقام به.

ففي هذه الآيات من أصناف نعم الله على العباد شيء عظيم، مجمل ومفصل، يدغو الله به العباد إلى القيام بشكره وذكره، ويخففهم على ذلك، ويرغبهم في سؤاله ودعائه، أثناء الليل والنهار، كما أن نعمه تتكرر عليهم في جميع الأوقات.

﴿٣٥﴾ ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً﴾ أي: ﴿و﴾ اذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام في هذه الحالة الجميلة، إذ قال: ﴿رب اجعل هذا البلد﴾ أي: الحرم ﴿آمناً﴾ فاستجاب الله دعاءه شرعاً وقدرراً، فحرمه الله في الشرع، ويسر من أسباب حرمة قدرراً بما هو معلوم، حتى إنه لم يرده ظالم بسوء إلا قصمه الله كما فعل بأصحاب القبل وغيرهم.

ولما دعا له بالأمن، دعا له ولبنيه بالأمن فقال: ﴿واجبني وبني أن نعبد الأصنام﴾ أي: اجعلني وإياهم، جانباً بعيداً عن عبادتها، والإلام بها، ثم ذكر الموجب لخوفه عليه وعلى بنيه، بكثرة من افتنن وابتلي بعبادتها، فقال:

تعالى إلى نفسه المقدسة.

﴿وَارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ فأجاب الله دعاءه، فصار يجبي إليه ثمرات كل شيء، فإنك ترى مكة المشرفة كل وقت، والثمار فيها متوفرة، والأرزاق تتوالى إليها من كل جانب.

﴿٣٨﴾ ﴿ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن﴾ أي: أنت أعلم بنا منا، فنسألك من تدبيرك وتربيتك لنا أن تيسر لنا من الأمور التي نعلمها والتي لا نعلمها، ما هو مقتضى علمك ورحمتك، ﴿وما يخفي على الله من شيء في الأرض ولا في السماء﴾ ومن ذلك هذا الدعاء الذي لم يقصد به الخليل إلا الخير، وكثرة الشكر لله رب العالمين.

﴿٣٩﴾ ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق﴾ فهبتهم من أكبر النعم، وكونهم على الكبر في حال الإيأس من الأولاد نعمة أخرى، وكونهم أنبياء صالحين، أجل وأفضل، ﴿إن ربي لسميع الدعاء﴾ أي: لقريب الإجابة عن دعاءه، وقد دعوته، فلم يخيب رجائي، ثم دعا نفسه ولذريته، فقال: ﴿رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء﴾ ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴿فاستجاب الله له في ذلك كله، إلا أن دعاءه لأبيه إنما كان عن موعدة وعده إياه، فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه.

﴿٤٢ - ٤٣﴾ ثم قال تعالى: ﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ﴿هذا وعيد شديد للظالمين، وتسليية للمظلومين، يقول تعالى: ﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون﴾ حيث أمهلهم وأدّر عليهم الأرزاق، وتركهم يتقلبون في البلاد آمنين مطمئنين، فليس في هذا ما يدل على حسن حالهم، فإن الله يُملي للظالم ويمهله ليزداد إثماً، حتى إذا أخذه لم يفلته﴾ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ

﴿٣٦﴾ ﴿رب إنهم أضلّلن كثيراً من الناس﴾ أي: ضلّوا بسببها، ﴿فمن تبعني﴾ على ما جئت به من التوحيد والإخلاص لله رب العالمين ﴿فإنه مني﴾ لتمام الموافقة، ومن أحب قوماً وتبعهم الحق بهم.

﴿ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾ وهذا من شفقة الخليل عليه الصلاة والسلام حيث دعا للعاصين بالمغفرة والرحمة من الله، والله تبارك وتعالى أرحم منه بعباده، لا يعذب إلا من ترد عليه.

﴿٣٧﴾ ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم﴾ وذلك أنه أتى بـ «هاجر» أم إسماعيل وبناها إسماعيل عليه الصلاة والسلام، وهو في الرضاع، من الشام حتى وضعهما في مكة، وهي - إذ ذاك - ليس فيها سكن، ولا دأع ولا مجيب، فلما وضعهما دعا ربه بهذا الدعاء، فقال - متضرعاً متوكلاً على ربه: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي﴾ أي: لا كل ذريتي، لأن إسحاق في الشام، وباقي بنيته كذلك، وإنما أسكن في مكة إسماعيل وذريته، وقوله: ﴿بواد غير ذي زرع﴾ أي: لأن أرض مكة لا تصلح للزراعة.

﴿ربنا ليقيموا الصلاة﴾ أي: اجعلهم موحدين مقيمين الصلاة، لأن إقامة الصلاة من أخص وأفضل العبادات الدينية، فمن أقامها كان مقيماً لدينه، ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾ أي: تحبهم وتحب الموضع الذي هم ساكنون فيه.

فأجاب الله دعاءه، فأخرج من ذرية إسماعيل محمداً ﷺ، حتى دعا ذريته إلى الدين الإسلامي، وإلى ملة أبيهم إبراهيم، فاستجابوا له وصاروا مقيمي الصلاة.

وافترض الله حج هذا البيت الذي أسكن به ذرية إبراهيم، وجعل فيه سرّاً عجيماً جاذباً للقلوب، فهي تحجه، ولا تقضي منه وطراً على الدوام، بل كلما أكثر العبد التردد إليه ازداد شوقه، وعظم ولعه وتوقّعه، وهذا سرّ إضافته

القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴿والظلم - هاهنا - يشمل الظلم فيما بين العبد وربّه، وظلمه لعباد الله، ﴿إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ أي: لا تُطرّف من شدة ما ترى من الأحوال وما أزعجها من القلاقل.

﴿مهطعين﴾ أي: مسرعين إلى إجابة الداعي حين يدعوهم إلى الحضور بين يدي الله للحساب، لا امتناع لهم ولا محيص ولا ملجأ، ﴿مقنعي رؤوسهم﴾ أي: رافعيها قد غلّت أيديهم إلى الأذقان، فارتفعت لذلك رؤوسهم، ﴿لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء﴾ أي: أفئدتهم فارغة من قلوبهم، قد صعدت إلى الخناجر، لكنها مملوءة من كل هم وغم وحزن وقلق.

﴿٤٤ - ٤٦﴾ ﴿وأُنذِر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونسبح الرسل أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال * وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال * وقد مكروا مكروهم وغند الله مكروهم وإن كان مكروهم لتزول منته الجنات﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وأُنذِر الناس يوم يأتيهم العذاب﴾ أي: صف لهم صفة تلك الحال، وحذّرهم من الأعمال الموجبة للعذاب، الذي حين يأتي في شدائده وقلاقله، ﴿فيقول الذين ظلموا﴾ بالكفر والتكذيب وأنواع المعاصي، نادمين على ما فعلوا، سائلين للرجعة في غير وقتها، ﴿ربنا أخرنا إلى أجل قريب﴾ أي: زُدنا إلى الدنيا، فإننا قد أبصرنا، ﴿نجب دعوتك﴾ والله يدعو إلى دار السلام ﴿ونسبح الرسل﴾ وهذا كله لأجل التخلص من العذاب، وإلا فهم كذّبة في هذا الوعد ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾.

ولهذا يوبخون ويقال لهم: ﴿أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال﴾ عن الدنيا وانتقال إلى الآخرة، فها قد تبين جنثكم في إقسامكم،

والآخرة، فهذا لا بد من وقوعه، لأنه وعد به الصادق قولاً، على السنة أصدق خلقه، وهم الرسل، وهذا أعلى ما يكون من الأخبار، خصوصاً وهو مطابق للحكمة الإلهية، والسنة الربانية، وللعقول الصحيحة، والله تعالى لا يعجزه شيء، فإنه «عزيز ذو انتقام».

أي: إذا أراد أن ينتقم من أحد، فإنه لا يفوته ولا يعجزه، وذلك في يوم القيامة، «يوم تبدل الأرض غير السماوات» تبدل غير السماوات، وهذا التبديل تبديل صفات، لا تبديل ذات، فإن الأرض يوم القيامة تسوى وغد كمد الأديم، ويلقى ما على ظهرها من جبل ومعلم، فتصير قاعاً صافئاً، لا ترى فيه عوجاً ولا أمثاً، وتكون السماء كالمهل، من شدة أهوال ذلك اليوم، ثم يطويها الله تعالى بيمينه.

«ويسرزوا» أي: الخلائق من قبورهم إلى يوم بعثهم، ونشورهم في محل لا يخفى منهم على الله شيء، «الواحد القهار» أي: المتفرد بعظمته وأسمائه وصفاته وأفعاله العظيمة، وقهره لكل العوالم، فكلها تحت تصرفه وتديره، فلا يتحرك منها متحرك ولا يسكن ساكن إلا بإذنه.

«وترى المجرمين» أي: الذين وصفهم الإجماع، وكثرة الذنوب، في ذلك اليوم «مقرنين في الأصفا» أي: يسلسل كل أهل عمل من المجرمين بسلاسل من نار، فيقادون إلى العذاب في أذل صورة وأشنعها وأبشعها.

«سرايلهم» أي: نياهم «من قطران» وذلك لشدة اشتعال النار فيهم وحرارتها، وتنن ريحها، «وتغشى وجوههم» التي هي أشرف ما في أبدانهم «النار» أي: تحيط بها، وتصلها من كل جانب، وغير الوجوه من باب أولى وأحرى، وليس هذا ظلاماً من الله لهم، وإنما هو جزاء لما قدموا وكسبوا، ولهذا قال تعالى: «ليجزى الله كل نفس ما كسبت» من

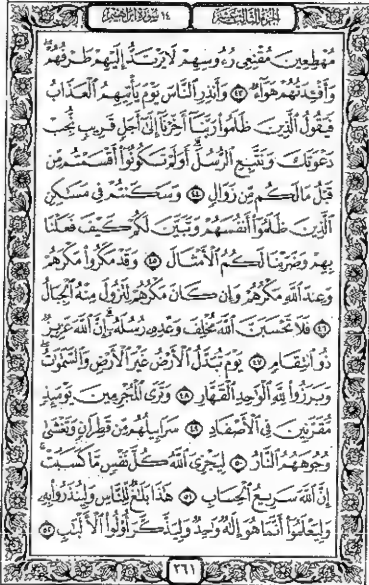
وكذبكم فيما تدعون، «و» ليس عليكم قاصر في الدنيا من أجل الآيات البينات، بل «سكتكم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم» من أنواع العقوبات؟ وكيف أحل الله بهم العقوبات، حين كذبوا بالآيات البينات، وضربنا لكم الأمثال الواضحة التي لا تدع أدنى شك في القلب إلا أزالته، فلم تنفع فيكم تلك الآيات، بل أعرضتم ودمتم على باطلكم، حتى صار ما صار، ووصلتم إلى هذا اليوم الذي لا ينفع فيه اعتذار من اعتذر بباطل.

«وقد مكروا» أي: المكذبون للرسل «مكرهم» الذي وصلت إراداتهم، وقدر لهم عليه، «وعند الله مكرهم» أي: هو محيط به علماً وقدره، فإنه عاد مكرهم عليهم «ولا يحق المكر السيء إلا بأهله».

«وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال» أي: ولقد كان مكر الكفار المكذبين للرسل بالحق، وبمن جاء به - من عظمه - لتزول الجبال الراسيات بسببه عن أماكنها، أي: «مكروا مكرأ كُبَاراً» لا يقادر قدره ولكن الله رد كيدهم في نحورهم.

ويدخل في هذا كل من مكر من المخالفين للرسل، لينصر باطلاً، أو يطل حقاً، والقصد أن مكرهم لم يغن عنهم شيئاً، ولم يضروا الله شيئاً، وإنما ضروا أنفسهم.

«٤٧- ٥٢» «فلا تحسبن الله مخلف وعده ورسله إن الله عزيز ذو انتقام» * يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ويسرزوا «وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفا» * سرايلهم من قطران وتغشى وجوههم النار * ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب * هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو الله وأحد وليذكر أولو الألباب * يقول تعالى: «فلا تحسبن الله مخلف وعده ورسله» بنجاتهم، ونجاة أتباعهم وسعادتهم، وإهلاك أعدائهم وخذلانهم في الدنيا، وعقابهم في



خير وشر بالعدل والقسط، الذي لا جور فيه بوجه من الوجوه.

«إن الله سريع الحساب» كقوله تعالى: «أقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون» ويحتمل أن معناه: سريع المحاسبة، فيحاسب الخلق في ساعة واحدة، كما يزرهم ويدبرهم بأنواع التدابير في لحظة واحدة، لا يشغله شأن عن شأن، وليس ذلك بعسير عليه.

فلما بين البيان المبين في هذا القرآن، قال في مدحه:

«هذا بلاغ للناس» أي: يتبلغون به، ويتزودون إلى الوصول إلى أعلى المقامات وأفضل الكرامات، لما اشتمل عليه من الأصول والفروع، وجميع العلوم التي يحتاجها العباد.

«ولينذروا به» لما فيه من الترهيب من أعمال الشر، وما أعد الله لأهلها من العقاب، «وليعلموا أنما هو إله واحد» حيث صرف فيه من الأدلة والبراهين على ألوهيته ووحديته، ما صار ذلك حق اليقين، «وليذكر أولو الألباب» أي: العقول الكاملة، ما ينفعهم في فعلونه، وما يضرهم فيتركونه، وبذلك صاروا أولي الألباب والبصائر.

إذ بالقرآن ازدادت معارفهم وآراؤهم، وتنورت أفكارهم لما أخذوه غصاً طرياً، فإنه لا يدعو إلا إلى أعلى



الأخلاق والأعمال وأفضلها، ولا يستدل على ذلك إلا بأقوى الأدلة وأبينها.

وهذه القاعدة إذا تدرب بها العبد الذكي، لم يزل في صعود ورفي على الدوام في كل خصلة حميدة. والحمد لله رب العالمين.

تم تفسير سورة إبراهيم الخليل
عليه الصلاة والسلام

تفسير سورة الحجر وهي مكية

١- ٥ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾
الرحيم الر تلك آيات الكتاب وقرآن
مبين * ربما يؤذ الذين كفروا لو كانوا
مسلمين * ذرهم يأكلوا ويتمتعوا
ويلههم الأمل فسوف يعلمون * وما
أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب
معلوم * ما تسبق من أمة أجلها وما
يستأخرون * يقول تعالى معظماً لكتابه،
مادحاً له: ﴿تلك آيات الكتاب﴾ أي:
الآيات الدالة على أحسن المعاني،
وأفضل المطالب، ﴿وقرآن مبين﴾
للعقائق بأحسن لفظ وأوضحه وأدله
على المقصود، وهذا مما يوجب على
الخلق الانقياد إليه، والتسليم لحكمه
وتلقيه بالقبول والفرح والسرور.

فأما من قابل هذه النعمة العظيمة
بردها والكفر بها، فإنه من المكذبين
الضالين، الذين سيأتي عليهم وقت

يتمنون أنهم مسلمون، أي: متقادون
لأحكامه، وذلك حين ينكشف
الغطاء، وتظهر أوائل الآخرة،
ومقدمات الموت، فإنهم في أحوال
الآخرة كلها يتمنون أنهم مسلمون،
وقد فات وقت الإمكان، ولكنهم في
هذه الدنيا مغترون.

ف ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا﴾
بلذاتهم ﴿ويلههم الأمل﴾ أي: يؤملون
البقاء في الدنيا، فيلهيهم عن الآخرة،
﴿فسوف يعلمون﴾ أن ما هم عليه
باطل، وأن أعمالهم ذهبت خسراناً
عليهم، ولا يغتروا بإمهال الله تعالى،
فإن هذه سنته في الأمم،

﴿وما أهلكنا من قرية﴾ كانت
مستحقة للعذاب ﴿إلا ولها كتاب
معلوم﴾ مقدر لإهلاكها.

﴿ما تسبق من أمة أجلها وما
يستأخرون﴾ وإلا فالذنوب لا بد من
وقوع أثرها، وإن تأخر.

٦- ٩ ﴿وقالوا يا أيها الذي
نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ * لوما
تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين *
ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً
منظرين * إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له
لحافظون﴾ أي: وقال المكذبون
لمحمد ﷺ استهزاء وسخرية: ﴿يا أيها
الذي نزل عليه الذكر﴾ على زعمك
﴿إنك لمجنون﴾ إذ تظن أنا سنبتعك،
ونترك ما وجدنا عليه آباءنا لمجرد
قولك.

﴿لوما تأتينا بالملائكة﴾ يشهدون
لك بصحة ما جئت به ﴿إن كنت من
الصادقين﴾ فلما لم تأت بالملائكة فلست
بصادق، وهذا من أعظم الظلم
والجهل.

أما الظلم فظاهر، فإن هذا تجرؤ
على الله وتعنت بتعيين الآيات التي لم
يجئها، وحصل المقصود والبرهان
بدونها من الآيات الكثيرة، الدالة على
صحة ما جاء به، وأما الجهل، فإنهم
جهلوا مصلحتهم من مضرتهم، فليس
في إنزال الملائكة خير لهم، بل
لا ينزل الله الملائكة إلا بالحق الذي
لا إمهال على من لم يتبعه وينقذ له.

﴿وما كانوا إذا﴾ أي: حين تنزل
الملائكة، إن لم يؤمنوا، ولن يؤمنوا
بـ ﴿منظرين﴾ أي: بمهملين، فصار
طلبهم لإنزال الملائكة تعجلاً لأنفسهم
بالبهالك والدمار، فإن الإيمان ليس في
أيديهم، وإنما هو بيد الله، ﴿ولو أننا
نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى
وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا
ليؤمنوا إلا أن يشاء الله، ولكن أكثرهم
يجهلون﴾ وكيفيهم من الآيات إن كانوا
صادقين، هذا القرآن العظيم ولهذا قال
هنا:

﴿إنا نحن نزلنا الذكر﴾ أي: القرآن
الذي فيه ذكرى لكل شيء، من المسائل
والدلائل الواضحة، وفيه يتذكر من
أراد التذكر، ﴿وإنا له لحافظون﴾ أي:
في حال إنزاله، وبعد إنزاله، ففي حال
إنزاله حافظون له من استراق كل
شيطان رجيم، وبعد إنزاله أودعه الله
في قلب رسوله، واستودعه فيها ثم في
قلوب أمته، وحفظ الله ألفاظه من
التغيير فيها والزيادة والنقص، ومعانيه
من التبديل، فلا يحرف محرف معنى من
معانيه، إلا وقبض الله له من يبين الحق
المبين، وهذا من أعظم آيات الله ونعمه
على عباده المؤمنين، ومن حفظه أن الله
يحفظ أهله من أعدائهم، ولا يسلط
عليهم عدواً يحتاجهم.

١٠- ١٣ ﴿ولقد أرسلنا من
قبلك في شيع الأولين﴾ * وما يأتيهم
من رسول إلا كانوا به يستهزؤون *
كذلك نسلكه في قلوب المجرمين *
لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين﴾
يقول تعالى لنبيه إذ كذبه المشركون: لم
ينزل هذا دأب الأمم الخالية والقرون
الماضية: ﴿ولقد أرسلنا من قبلك في
شيع الأولين﴾ أي: فرقمهم وجماعتهم،
رسلاً.

﴿وما يأتيهم من رسول﴾ يدعوهم
إلى الحق والهدى ﴿إلا كانوا به
يستهزؤون﴾ كذلك نسلك: أي:
ندخل التكذيب ﴿في قلوب المجرمين﴾
أي: الذين وصفهم الظلم والبهت،
عاقبتهم لما اشتبهت قلوبهم بالكفر
والتكذيب، تشابهت معاملتهم

الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فأتقون ﴿١٦﴾ يقول تعالى - مقرباً لما وعد به محققاً لوقوعه - : ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ فإنه آت، وما هو آت فإنه قريب، ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ من نسبة الشريك والولد والصاحبة، والكفاءة، وغير ذلك مما نسبته إليه المشركون، مما لا يليق بجلاله، أو ينافي كماله، ولما نزه نفسه عما وصفه به أعداؤه، ذكر الوحي الذي ينزل على أنبيائه، مما يجب اتباعه في ذكر ما ينسب لله، من صفات الكمال فقال:

﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره﴾ أي: بالوحي الذي به حياة الأرواح ﴿على من يشاء من عباده﴾ من يعلمه صالحاً، لتحمل رسالته.

وزيدة دعوة المرسلين كلهم ومدارها على قوله: ﴿أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فأتقون﴾ أي: على معرفة الله تعالى وتوحيده في صفات العظمة، التي هي صفات الألوهية، وعبادته وحده لا شريك له، فهي التي أنزل الله بها كتبه، وأرسل رسله، وجعل الشرائع كلها تدعو إليها، وتحث وتجاهد من حاربها وقام بضدها، ثم ذكر الأدلة والبراهين على ذلك. فقال:

﴿٣-٩﴾ ﴿خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون﴾ * خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين * والأنعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ومنها تأكلون * ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون * وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشئ الأثقل إن ركبكم لرؤوف رحيم * والخيول والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون * وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين * هذه السورة تسمى سورة النعم، فإن الله ذكر في

ولا بغيرهم، وأن يصنع بما أمر الله، ويعلم بذلك لكل أحد ولا يعوقه عن أمره عائق ولا تصدّه أقوال المتوكلين، وأعرض عن المشركين ﴿أي: لا تبال بهم، واترك مشاعتهم ومسابقتهم، مقبلاً على شأنك، إنا كفيناك المستهزئين﴾ بك وبما جئت به، وهذا وعد من الله لرسوله، أن لا يضره المستهزؤون، وأن يكفيه الله إياهم بما شاء من أنواع العقوبة.

وقد فعل تعالى، فإنه ما تظاهر أحد بالاستهزاء برسول الله ﷺ وبما جاء به إلا أهلكه الله وقته شر قتلة.

ثم ذكر وصفهم وأنهم كما يؤذونك يا رسول الله، فإنهم أيضاً يؤذون الله ويجعلون معه ﴿إلهاً آخر﴾ وهو ربهم وخالقهم ومدبرهم ﴿فسوف يعلمون﴾ غيب أفعالهم إذا وردوا القيامة، ﴿ولقد تعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾ لك من التكذيب والاستهزاء.

فنحن قادرون على استئصالهم بالعذاب، والتعجيل لهم بما يستحقون، ولكن الله يمهلهم ولا يمهلهم.

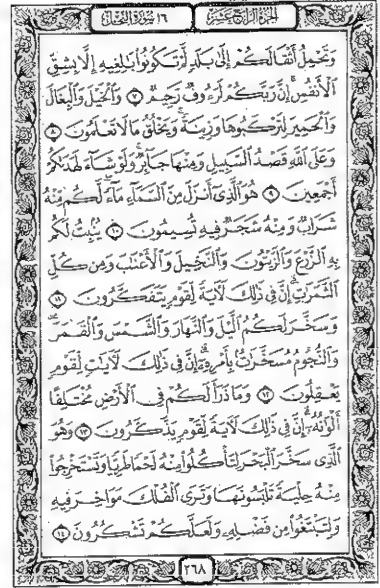
فأنت يا محمد ﴿فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين﴾ أي: أكثر من ذكر الله وتسيبته وتحميده والصلاة، فإن ذلك يوسع الصدر ويشرحه، ويعينك على أمورك.

﴿٩٩﴾ ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ أي: الموت، أي: استمر في جميع الأوقات على التقرب إلى الله بأنواع العبادات، فامتثل ﷺ أمر ربه، فلم يزل دائماً في العبادة، حتى أتاه اليقين من ربه ﷻ، تسليماً كثيراً.

تم تفسير سورة الحجر

تفسير سورة النحل وهي مكية

﴿١-٢﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ ينزل



البدل، وأفضل العوض، ﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾ أي: ألن لهم جانبك، وحسن لهم خلقك، محبة وإكراماً، وتوذكراً، ﴿وقل إني أنا النذير المبين﴾ أي: قم بما عليك من النذارة، وأداء الرسالة، والتبليغ للقريب والبعيد، والعدو، والصدق، فإنك إذا فعلت ذلك، فليس عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء.

وقوله: ﴿كما أنزلنا على المقتسمين﴾ أي: كما أنزلنا العقوبة على المقتسمين على بطلان ما جئت به، الساعين لصد الناس عن سبيل الله.

﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ أي: أصنافاً وأعضاء وأجزاء، يصرفونه بحسب ما يهتونه، فمنهم من يقول: سحر، ومنهم من يقول: كهانة، ومنهم من يقول: مفتري، إلى غير ذلك من أقوال الكفرة المكذبين به، الذين جعلوا قديحهم فيه ليصدوا الناس عن الهدى.

﴿فوريك لنسألتهم أجمعين﴾ أي: جميع من قدح فيه وعابه، وحرفه وبذله ﴿عما كانوا يعملون﴾ وفي هذا أعظم تهريب وزجر لهم عن الإقامة على ما كانوا عليه^(١). ثم أمر الله رسوله أن لا يبالي بهم

(١) في ب: يعملون.



وقت راحتها وسكونها، ووقت حركتها وسرحها، وذلك أن جمالها لا يعود إليها منه شيء، فإنكم أنتم الذين تتجملون بها، كما تتجملون بثيابكم وأولادكم وأموالكم، وتعجبون بذلك، **﴿وتحمل أثقالكم﴾** من الأحمال الثقيلة، بل وتحملكم أنتم إلى بلد لم تكونوا بالغية إلا بشق الأنفس، ولكن الله ذلها لكم.

فمنها ما تركبونه، ومنها ما تحملون عليه ما تشاؤون من الأثقال إلى البلدان البعيدة والأقطار الشاسعة، **﴿إن ربكم لروؤف رحيم﴾** إذ سخر لكم ما تضطرون إليه وتحتاجونه، فله الحمد، كما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سلطانه، وسعة جوده وبره.

﴿والخيل والبغال والحمير﴾ سخرناها لكم **﴿لتركبوها وزينة﴾** أي: تارة تستعملونها للضرورة في الركوب، وتارة لأجل الجمال والزينة، ولم يذكر الأكل، لأن البغال والحمير محرم أكلها، والخيل لا تستعمل - في الغالب - للأكل، بل ينهى عن ذبحها لأجل الأكل، خوفاً من انقطاعها، ولا فقد ثبت في الصحيحين، أن النبي ﷺ أذن في لحوم الخيل.

﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ عما يكون بعد نزول القرآن من الأشياء، التي يركبها الخلق في البر والبحر والجو، ويستعملونها في منافعهم ومصالحهم، فإنه لم يذكرها بأعيانها، لأن الله تعالى لا يذكر في كتابه إلا ما يعرفه العباد، أو يعرفون نظيره، وأما ما ليس له نظير، فإنه لو ذكر لم يعرفوه، ولم يفهموا المراد منه، فيذكر أصلاً جامعاً يدخل فيه ما يعلمون وما لا يعلمون، كما ذكر نعيم الجنة، وسمى منه ما نعلم ونشاهد نظيره، كالنخل والأعناب والرمان، وأجمل ما لا نعرف له نظيراً في قوله: **﴿فيها من كل فاكهة زوجان﴾**.

أولها أصول النعم وقواعدها، وفي آخرها متمماتها ومكملاتها، فأخبر أنه خلق السماوات والأرض بالحق، ليستدل بها العباد على عظمة خالقهما، وما له من نعوت الكمال، ويعلموا أنه خلقهما مسكناً لعباده الذين يعبدونه، بما يأمرهم به من الشرائع التي أنزلها على ألسنة رسله، ولهذا نزه نفسه عن شرك المشركين به فقال: **﴿تعالى عما يشركون﴾** أي: تنزهه وتعاضم عن شركهم، فإنه الإله حقاً، الذي لا تنبغي العبادة، والحب والذل إلا له تعالى، ولما ذكر خلق السماوات والأرض^(١)، ذكر خلق ما فيهما.

وبدا بأشرف ذلك وهو الإنسان فقال: **﴿خلق الإنسان من نطفة﴾** لم يزل يدبرها، ويرقيها وينميها، حتى صارت بشراً تاماً، كامل الأعضاء الظاهرة والباطنة، قد غمره بنعمه الغزيرة، حتى إذا استتم فخر بنفسه وأعجب بها **﴿فإذا هو خصيم مبين﴾** يحتمل أن المراد: فإذا هو خصيم لربه، يكفر به، ويجادل رسله، ويكذب بآياته. ونسي خلقه الأول، وما أنعم الله عليه به، من النعم، فاستعان بها على معاصيه، ويحتمل أن المعنى: أن الله أنشأ الأدمي من نطفة، ثم لم يزل ينقله من طور إلى طور، حتى صار عاقلاً متكلماً، ذا ذهن ورأي، يخاصم ويجادل، فليشكر العبد ربه الذي أوصله إلى هذه الحال، التي ليس في إمكانه القدرة على شيء منها.

﴿والأنعام خلقها لكم﴾ أي: لأجلكم، ولأجل منافعكم ومصالحكم، من جملة منافعها العظيمة أن لكم **﴿فيها دواء﴾** مما تتخذون من أصوافها وأوبارها، وأشعارها، وجلودها، من الثياب، والفرش، والبيوت.

﴿ولكم فيها﴾ منافع غير ذلك **﴿ومنها تأكلون﴾** **﴿ولكم فيها جبال حين تريحون وحين تسرحون﴾** أي: في

فكذلك هنا، ذكر ما نعرفه من المراكب، كالخيل، والبغال، والحمير، والإبل، والسفن، وأجمل الباقي في قوله: **﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾** ولما ذكر تعالى الطريق الحسي، وأن الله قد جعل للعباد ما يقطعونه به من الإبل وغيرها، ذكر الطريق المعنوي الموصل إليه فقال:

﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ أي: الصراط المستقيم، الذي هو أقرب الطرق وأخصرها، موصل إلى الله.

وأما الطريق الجائر في عقائده وأعماله، وهو كل ما خالف الصراط المستقيم، فهو قاطع عن الله، موصل إلى دار الشقاء، فسلك المهتدون الصراط المستقيم بإذن ربهم، وضل الغاؤون عنه، وسلكوا الطرق الجائرة، **﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾** ولكنه هدى بعضاً كرمافضلاً، ولم يهد آخرين، حكمة منه وعدلاً.

﴿١٠ - ١١﴾ هو الذي أنزل من السماء ماءً لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسميون * ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون * بذلك على كمال قدرة الله، الذي أنزل هذا الماء من السحاب الرقيق اللطيف، وروحته حيث جعل فيه ماء

(١) زيادة يقتضيها السياق.

وتضطرب بالخلق، فيتمكنون من
حرث الأرض والبناء والسير عليها،
ومن رحمته تعالى أن جعل فيها أنهاراً،
يسوقها من أرض بعيدة إلى أرض
مضطرة إليها لسقيهم وسقي مواشيهم
وحرثهم، أنهاراً على وجه الأرض،
وأنهاراً في بطنها يستخرجونها بحفرها،
حتى يصلوا إليها فيستخرجونها بما
سخر الله لهم من الدوالي والآلات
ونحوها، ومن رحمته أن جعل في
الأرض سبلاً، أي: طرقاً توصل إلى
الديار المتناحية، ﴿لعلكم تهتدون﴾
السبيل إليها، حتى إنك تجد أرضاً
مشتبكة بالجبال مسلسلّة فيها، وقد
جعل الله فيما بينها منافذ ومسالك
للسالكين.

﴿١٣﴾ ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلَفًا أَلَوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ أي: فيما ذرأ الله ونشر للعباد، من كل ما على وجه الأرض، من حيوان، وأشجار، ونبات، وغير ذلك، مما تختلف ألوانه، وتختلف منافعه، آية على كمال قدرة الله، وعميم إحسانه، وسعة بره، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، ﴿لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ أي: يستحضرون في ذكركم ما ينفعهم من العلم النافع، ويتأملون ما دعاهم الله إلى التأمل فيه، حتى يتذكروا بذلك ما هو دليل عليه.

﴿١٤﴾ ﴿وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تذكرون﴾ أي: هو وحده لا شريك له ﴿الذي سخر البحر﴾ وهباً لمنافعكم المتنوعة، ﴿لتأكلوا منه لحماً طرياً﴾ وهو السمك والحوت الذي يصطادونه منه، ﴿وتستخرجوا منه حلية تلبسونها﴾ فتزيدكم جالاً وحسناً إلى حسنكم، ﴿وترى الفلك﴾ أي: السفن والمراكب ﴿مواخر فيه﴾ أي: تمخر البحر العجاج الهائل بمقدمها، حتى تسلك فيه من قطر إلى آخر، تحمل المسافرين وأرزاقهم وأمتعتهم وتجاراتهم التي يطلبون بها الأرزاق وفضل الله عليهم.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الذي يسر
لكم هذه الأشياء وهياها، وتشنون
على الله الذي مَنَّ بها، فله تعالى الحمد
والشكر والثناء، حيث أعطى العباد من
مصلحتهم ومنافعهم فوق ما يطلبون،
وأعلى مما يمتنون، وآتاهم من كل ما
سألوه، لا نحصي ثناء عليه، بل هو
كما أثنى على نفسه.

﴿١٥-١٦﴾ ﴿وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تُمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَوَسِيلًا لَعَلَّكُمْ تُهْتَدُونَ﴾ * وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ أَي: ﴿وَالْقَى﴾ اللَّهُ تَعَالَى لِأَجْلِ عِبَادِهِ ﴿فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي﴾ وَهِيَ: الْجِبَالُ الْعِظَامُ لِئَلَّا تُمِيدَ بِهِمُ

﴿١٧ - ٢٣﴾ ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن
لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ * وَإِن تَعْدُوا
نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ
رَّحِيمٌ * وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَسْرَوْنَ وَمَا
تَعْلَنُونَ * وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ
لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَصَوَاتُ
غَيْرِ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يَبْعَثُونَ *
إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * إِلَهُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّتَكَبِّرَةٌ وَهُمْ
مُسْتَكْبِرُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا
يَسْرَوْنَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الْمُسْتَكْبِرِينَ * لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا خَلَقَهُ مِنْ
الْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةِ ، وَمَا أَنْعَمَ بِهِ مِنْ
النِّعَمِ الْعَمِيمَةِ ، ذَكَرَ أَنَّهُ لَا يَشَبِّهُهُ أَحَدٌ
وَلَا كُفَّاءَ لَهُ وَلَا نَدْلَهُ ، فَقَالَ :
﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ جَمِيعَ الْمَخْلُوقَاتِ ، وَهُوَ
الْفَاعِلُ لِمَا يَرِيدُ ﴿كَمَن لَا يَخْلُقُ﴾ شَيْئًا ،
لَا قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا ، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾
فَتَعْرِفُونَ أَنَّ الْمُنْفَرِدَ بِالْخَلْقِ أَحَقُّ بِالْعِبَادَةِ
كُلِّهَا ، فَكَمَا أَنَّهُ وَاحِدٌ فِي خَلْقِهِ
وَتَدْبِيرِهِ ، فَإِنَّهُ وَاحِدٌ فِي إِلَهِيَّتِهِ وَتَوْحِيدِهِ
وَعِبَادَتِهِ .

وكما أنه ليس له مشارك إذ أنشأكم
وأنشأ غيركم، فلا تجعلوا له أنداداً في
عبادته، بل اخلصوا له الدين، ﴿وَإِنْ
تَعْلَمُوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ عذراً مجرداً عن الشكر
﴿لَا تَحْصَوْهَا﴾ فضلاً عن كونكم
تشكرونها، فإن نعمه الظاهرة والباطنة
على العباد بعدد الأنفاس واللحظات،

ثُمَّ يَرْجِعُ الْفَيْصَةَ بِجَنَدِهِ وَيَقُولُ إِنَّ شُرَكَاءَ الَّذِينَ
 كُفُّوا قُتِلُوا فَيَعْلَمُ الَّذِينَ قَالُوا الَّذِينَ أُورُوا الْعِلْمَ أَنَّ هَؤُلَاءِ
 الَّذِينَ رَوَوْاهُ عَلَى الْحَقِّ بُيِّنٌ ﴿٥﴾ الَّذِينَ يُتَوَقَّعُهُمُ
 لِلْهَيْكَةِ طَرَفُ اللَّهِ هَهُنَا قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ أَنَّ
 مِنْ مَوَاقِبِ اللَّهِ إِلَهًا عِلْمُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦﴾ فَأَدْخَلُوا
 أَبْرَئِيَهُمْ فَكَذَّبُوا بِهَا فَوَيْلٌ لِلْمُصَدِّقِينَ ﴿٧﴾
 • وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَجْلَبَ بِكُمْ فَأَوْرَاكَ لِلَّذِينَ
 أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الشَّيْءِ حَسَنَةً وَإِنَّا لَنَجْزِي عَمِلَكُمْ وَلِيُحَمِّدَ
 قَالَ الْمُفْضِرُونَ ﴿٨﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَوْنَ فِيهَا
 الْأَنْهَارُ فِيهَا مِنْ أَمْثَلِ ذُرِّ الْقُرَىٰ إِنَّ اللَّهَ لَجَزِيلٌ
 الَّذِينَ يُتَوَقَّعُهُمُ لِلْهَيْكَةِ بُيِّنٌ يَقُولُونَ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ
 أَذْهَبَ الْخَيْرُ بِكُمْ بَشَرْتُمْ قَالُوا قُلْ تَابِعُونِي إِنِّي نَذِيرٌ
 لِلْمَلَائِكَةِ أَوْ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكَ كَذَلِكَ يَكُنُ الْإِنْسَانُ
 مَاسِئَةً وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذَا نَسْرٍ قَالُوا أَلَمْ نَقُلْ لَكَ
 سُبْحَانَ مَا عَمِلُوا أَتَقُولُ بِهِمْ مَا كَانَ يُعْمَلُ بِهِمْ وَنَدُونَ

غزيراً منه يشربون، وتشرب
مواشيهم، ويسقون منه حروثهم،
فتخرج لهم الثمرات الكثيرة والنعم
الغزيرة.

﴿١٢﴾ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ
وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْمُوسَ مَسْخُورَاتٍ
بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾
أي : سخر لكم هذه الأشياء لنافعكم
وأأنوع مصالحكم، بحيث لا تستغنون
عنها أبداً، فبالليل تسكنون وتنامون
وتسترجون، وبالنهار تنتشرون في
معاشكم ومنافع دينكم ودنياكم،
وبالشمس والقمر، من الضياء
والنور، والإشراق، وإصلاح الأشجار
والثمار، والنبات، وتخفيف
الرطوبات، وإزالة البرودة الضارة
للأرض وللايدان، وغير ذلك من
الضروريات والحاجيات، التابعة
لوجود الشمس والقمر.

وفيهما وفي النجوم، من الزينة
للسماء والهداية، في ظلمات البر
والبحر، ومعرفة الأوقات، وحساب
الأزمنة، ما تتنوع دلائلها، وتتصرف
آياتها، ولهذا جمعها في قوله ﴿إِنْ فِي
ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لمن
لهم عقول يستعملونها في التدبر
والفكر، فيما هي مهياة له مستعينة،
تعقل ما تراه وتسمعه، لا كنظر
الغافلين الذين حظهم من النظر حظ
البهائم التي لا عقل لها.

لديهم، ولهذا يعطي الله أهل الجنة كل ما تمنوه عليه، حتى إنه يذكرهم أشياء من النعم لم تخطر على قلوبهم.

فتبارك الذي لا نهاية لكرمه، ولا حد لجوده، الذي ليس كمثله شيء في صفات ذاته، وصفات أفعاله، وأثار تلك النعمت، وعظمة الملك والملكوت، كذلك يجزي الله المتقين لسخط الله وعذابه، بأداء ما أوجبه عليهم من الفروض والواجبات، المتعلقة بالقلب والبدن واللسان، من حقه وحق عباده، وترك ما نهاهم الله عنه.

﴿الذين تتوفاهم الملائكة﴾ مستمرين على تقواهم ﴿طيبين﴾ أي: طاهرين مطهرين من كل نقص وذنس يتطرق إليهم، ويخل في إيمانهم، فطابت قلوبهم بمعرفة الله ومحبه، وألستهم بذكره والثناء عليه، وجوارحهم بطاعته والإقبال عليه، ﴿يقولون سلام عليكم﴾ أي: التحية الكاملة حاصلة لكم، والسلامة من كل آفة.

وقد سلمتم من كل ما تكرهون ﴿ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ من الإيمان بالله والانقياد لأمره، فإن العمل هو السبب والمادة والأصل في دخول الجنة والنجاة من النار، وذلك العمل حصل لهم برحمة الله ومنته عليهم، لا بحولهم وقوتهم.

﴿٣٣ - ٣٤﴾ ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك كذلك فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ فأصابعهم سيئات ما عملوا وحق بهم ما كانوا به يستهزؤون ﴿يقول تعالى: هل ينتظر هؤلاء الذين جاءتهم الآيات فلم يؤمنوا، وذكروا فلم يتذكروا، إلا أن تأتيهم الملائكة﴾ لقبض أرواحهم ﴿أو يأتي أمر ربك﴾ بالعذاب الذي سيحل بهم، فإنهم قد استحقوا لوقوعه فيهم، ﴿كذلك فعل الذين من قبلهم﴾ كذبوا وكفروا، ثم لم يؤمنوا حتى نزل بهم العذاب.

﴿وما ظلمهم الله﴾ إذ عذبهم، ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ فإنها

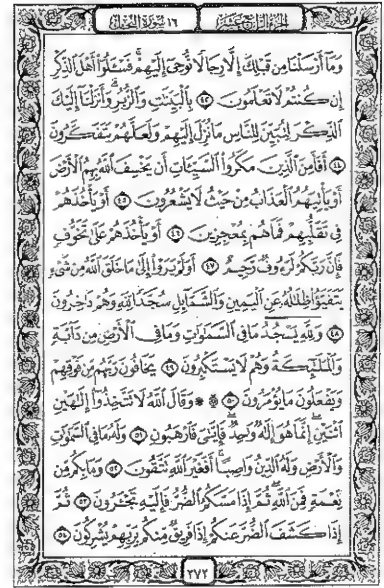
لا يدخلون النار حتى يعترفوا بذنوبهم.

﴿فادخلوا أبواب جهنم﴾ كل أهل عمل يدخلون من الباب اللاتق بحالهم، ﴿فلبس مثوى المتكبرين﴾ نار جهنم، فإنها مثوى الحسرة والندم، ومنزل الشقاء والألم، ومحل الهموم والغموم، وموضع السخط من الخي القيوم، لا يُفْتَر عنهم من عذابها، ولا يرفع عنهم يوماً من أليم عقابها، قد أعرض عنهم الرب الرحيم، وأذاقهم العذاب العظيم.

﴿٣٠ - ٣٢﴾ ﴿وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين﴾ جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاؤون كذلك يجزي الله المتقين ﴿الذين تتوفاهم الملائكة طيبين﴾ يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴿لما ذكر الله قيل المكذبين بما أنزل الله، ذكر ما قاله المتقون، وأنهم اعترفوا وأقروا بأن ما أنزله الله نعمة عظيمة، وخير عظيم امتن الله به على العباد، فقبلوا تلك النعمة، وتلقوها بالقبول والانقياد، وشكروا الله عليها، فعملوها، وعملوا لها﴾ للذين أحسنوا ﴿في عبادة الله تعالى، وأحسنوا إلى عباد الله، فلمهم﴾ في هذه الدنيا حسنة ﴿رزق واسع، وعيشة هنية، وطمأنينة قلب، وأمن وسرور.

﴿ولدار الآخرة خير﴾ من هذه الدار، وما فيها من أنواع اللذات والمشتهيات، فإن هذه نعيمها قليل، محشو بالآفات منقطع، بخلاف نعيم الآخرة، ولهذا قال: ﴿ولنعم دار المتقين﴾

﴿جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاؤون﴾ أي: مهما تمنته أنفسهم، وتعلقت به إرادتهم، حصل لهم على أكمل الوجوه وأتمها، فلا يمكن أن يطلبوا نوعاً من أنواع النعيم الذي فيه لذة القلوب وسرور الأرواح، إلا وهو حاضر



وتعادون الله وحزبه لأجلهم، وتزعمون أنهم شركاء الله، فإذا سألهم هذا السؤال، لم يكن لهم جواب إلا الإقرار بضلالهم، والاعتراف بعنادهم فيقولون ﴿ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ قال الذين أوتوا العلم: أي: العلماء الربانيون ﴿إن الخزي اليوم﴾ أي: يوم القيامة ﴿والسوء﴾ أي: العذاب ﴿على الكافرين﴾

وفي هذا فضيلة أهل العلم، وأنهم الناطقون بالحق في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وأن لقولهم اعتباراً عند الله وعند خلقه، ثم ذكر ما يفعل بهم عند الوفاة وفي القيامة فقال:

﴿الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾ أي: تتوفاهم في هذه الحال التي كثر فيها ظلمهم وغيثهم، وقد علم ما يلقي الظلمة في ذلك المقام، من أنواع العذاب والخزي والإهانة.

﴿فألقوا السلم﴾ أي: استسلموا، وأنكروا ما كانوا يعبدونهم من دون الله وقالوا: ﴿ما كنا نعمل من سوء﴾ فيقال لهم: ﴿بلى﴾ كنتم تعملون السوء، ف ﴿إن الله عليم بما كنتم تعملون﴾ فلا يفيدكم الجحود شيئاً، وهذا في بعض مواقف القيامة، ينكرون ما كانوا عليه في الدنيا ظناً أنه ينفعهم، فإذا شهدت عليهم جوارحهم، وتبين ما كانوا عليه أقروا واعترفوا، ولهذا

مخلوقة لعبادة الله، ليكون مآلها إلى
كرامة الله، فظلموها وتركوا ما خلقت
له، وعرضوها للإهانة الدائمة والشقاء
الملازم.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي : عقوبات أعمالهم وأثارها ، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي : نزل ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فإنهم كانوا إذا أخبرتهم رسلهم بالعذاب استهزؤوا به ، وسخروا من أخبر به ، فحل بهم ذلك الأمر الذي سخروا منه .

﴿٣٥﴾ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آبائنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ﴿٣٦﴾ أي: احتج المشركون على شركهم بمشيئة الله، وأن الله لو شاء ما أشركوا، ولا حرموا شيئاً من [الأنعام] التي أحلها كالبحيرة والوصيلة والحام، ونحوها، من دونه، وهذه حجة باطلة، فإنها لو كانت حقاً ما عاقب الله الذين من قبلهم حيث أشركوا به، فعاقبهم أشد العقاب. فلو كان يجب ذلك منهم لما عذبهم، وليس قصدهم بذلك إلا رد الحق الذي جاء به الرسل، وإلا فعندهم علم أنه لا حجة لهم على الله.

فإن الله أمرهم ونهاهم، ومكنهم من^(١) القيام بما كلفهم، وجعل لهم قوة ومشية تصدر عنها أفعالهم. فاحتجاجهم بالقضاء والقدرة من أبطل الباطل، هذا وكل أحد يعلم بالحس، قدرة الإنسان على كل فعل يريده، من غير أن ينازعه منازع، فجمعوا بين تكذيب الله وتكذيب رسله، وتكذيب الأمور العقلية والحسية، ﴿فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾ أي: البين الظاهر، الذي يصل إلى القلوب، ولا يبقى لأحد على الله حجة، فإذا بلغتهم الرسل أمر ربهم ونهيه، واحتجوا عليهم بالقدرة، فليس للرسل

من الأمر شيء، وإنما حسابهـم على الله عز وجل.

﴿٣٦ - ٣٧﴾ ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * إِنَّ تَحْرِصَ عَلَى هِدَايِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ يُخَيِّرُ تَعَالَى أَنْ حُجَّتْ قَامَتْ عَلَى جَمِيعِ الْأُمَمِ، وَأَنَّهُ مَا مِنْ أُمَّةٍ مُتَقَدِّمَةٍ أَوْ مُتَأَخِّرَةٍ إِلَّا وَبَعَثَ اللَّهُ فِيهَا رَسُولًا، وَكُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى دَعْوَةِ وَاحِدَةٍ وَدِينٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ فَانْقَسَمَتِ الْأُمَمُ بِحَسَبِ اسْتِجَابَتِهَا لِدَعْوَةِ الرُّسُلِ وَعَدَمِهَا قَسَمِينَ، ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾ فَاتَّبَعُوا الْمُرْسَلِينَ عُلَمَاءَ وَعَمَلَاءَ، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ فَاتَّبَعَ سَبِيلَ الْغَيِّ.

﴿فسيروا في الأرض﴾ بأبدانكم وقلوبكم ﴿فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ فإنكم سترون من ذلك العجائب، فلا تجدون مكذباً إلا كان عاقبته الهلاك.

﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ﴾ وتبذل
جهدك في ذلك ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
مَنْ يُضِلُّ﴾ ولو فعل كل سبب لم يهده
إلا الله، ﴿وَمَا لَهُمْ نَاصِرِينَ﴾
ينصرونهم من عذاب الله ويقوّمهم
بأسه.

﴿٣٨ - ٤٠﴾ ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَلَا يَجْعَلُ لَكُم مِّنْ دُونِهِ سُلَاطَةً﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿لِيَبْلُوَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَهَمُّ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٤١﴾ ﴿يُخَبِّرُ تَعَالَى عَنْ الْمُرْسَلِينَ الْمُنَافِقِينَ لِرَسُولِهِ، أَهَمُّ﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ ﴿٤٣﴾

[illegible]

حلفوا أيماناً مؤكدة مغلفة على تكذيب الله، وأن الله لا يبعث الأموات، ولا يقدر على إحيائهم بعد أن كانوا تراباً، قال تعالى مكذباً لهم: ﴿بلى﴾ سيبعثهم ويجمعهم، ليوم لا ريب فيه ﴿وعداً عليه حقاً﴾ لا يخلفه ولا يغيره ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ ومن جهالهم العظيم إنكارهم للبعث والجزاء، ثم ذكر الحكمة في الجزاء والبعث، فقال: ﴿ليبين لهم الذي يتخلفون فيه﴾ من المسائل الكبار والصغار، فبين حقائقها ووضحها.

﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَآذِبِينَ﴾ حين يرون أعمالهم حسرات عليهم، وما نفعتهم آلهتهم التي يدعون مع الله من شيء لما جاء أمر ربك، وحين يرون ما يعبدون خطباً لجهنم، وتكور الشمس والقمر، وتتناثر النجوم، ويتضح لمن يعبدها أنها عبيد مسخرات، وأنهن مفتقرات إلى الله في جميع الحالات، وليس ذلك على الله بصعب ولا شديد، فإنه إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، من غير منازعة ولا امتناع، بل يكون على طبق ما أراه وشاء.

﴿٤١-٤٢﴾ ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾

من التبعة، فدل على أن الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم، والاتصاف بصفات الكمال.

وأفضل أهل الذكر أهل هذا القرآن العظيم، فإنهم أهل الذكر على الحقيقة، وأولى من غيرهم بهذا الاسم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ أي: القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم ودنياهم، الظاهرة والباطنة، ﴿لَتَبِينَ لِلنَّاسِ مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ﴾ وهذا شامل لتبيين ألفاظه، وتبيين معانيه، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيه، فيستخرجون من كنوزه وعلموه بحسب استعدادهم، وإقبالهم عليه.

﴿٤٥ - ٤٧﴾ ﴿أَفَأَمَّنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ * أو يأخذهم في ثقلبهم فما هم بمعجزين * أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤوف رحيم * هذا تخويف من الله تعالى لأهل الكفر والتكذيب وأنواع المعاصي، من أن يأخذهم بالعذاب على غرة وهم لا يشعرون، إما أن يأخذهم العذاب من فوقهم، أو من أسفل منهم بالخسف وغيره، وإما في حال ثقلبهم وشغلهم، وعدم خطور العذاب ببالهم، وإما في حال تخوفهم من العذاب، فليسوا بمعجزين لله، في حالة من هذه الأحوال، بل هم تحت قبضته ونواصيهم بيده.

ولكنه رؤوف رحيم، لا يعاجل العصاة بالعقوبة، بل يمهلهم ويعافيههم ويرزقهم وهم يؤذونه ويؤذون أوليائه، ومع هذا يفتح لهم^(١) أبواب التوبة، ويدعوهم إلى الإنقاذ من السيئات التي تضربهم، ويعدهم بذلك أفضل الكرامات، ومغفرة ما صدر منهم من الذنوب، فَلْيَسْتَحِجْ المجرم من ربه أن تكون نعم الله عليه نازلة في جميع اللحظات^(٢)، ومعاصيه

بما عند الله من الأجر والثواب لمن آمن به وهاجر في سبيله، لم يتخلف عن ذلك أحد.

ثم ذكر وصف أوليائه فقال: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على أوامر الله وعن نواهيه، وعلى أقدار الله المؤلة، وعلى الأذى فيه والمحن ﴿وَعَلَىٰ رِبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: يعتمدون عليه في تنفيذ محابه، لا على أنفسهم. وبذلك تنجح أمورهم، وتستقيم أحوالهم، فإن الصبر والتوكل ملاك الأمور كلها، فما فات أحداً شيء من الخير إلا لعدم صبره، وبذل جهده فيما أريد منه، أو لعدم توكله واعتماده على الله.

﴿٤٣ - ٤٤﴾ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ * بالبينات والزبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون * يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا﴾ أي: لست ببدع من الرسل، فلم ترسل قبلك ملائكة، بل رجالاً كامليين لا نساء، ﴿نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ من الشرائع والأحكام ما هو من فضله وأحسانه على العبيد، من غير أن يأتوا بشيء من قِبَلِ أنفسهم، ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ أي: الكتب السابقة ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ نبي الأولين، وشككتهم هل بعث الله رجالاً؟

فاسألوا أهل العلم بذلك، الذين نزلت عليهم الزبر والبينات، فعلموها وفهموها، فإنهم كلهم قد تقرروا عندهم، أن الله ما بعث إلا رجالاً يوحى إليهم من أهل القرى، وعموم هذه الآية فيها مدح أهل العلم، وأن أعلى أنواعه العلم بكتاب الله المنزل.

فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم، حيث أمر بسؤالهم، وأن بذلك يخرج الجاهل



في الله من بعد ما ظلموا لئبؤنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون * الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون * يخبر تعالى بفضل المؤمنين المتحسين * الذين هاجروا في الله * أي: في سبيله وابتغاء مرضاته * من بعد ما ظلموا * بالأذى والمحنة من قومهم، الذين يفتنهم ليردوهم إلى الكفر والشرك، فتركوا الأوطان والخلان، وانتقلوا عنها لأجل طاعة الرحمن، فذكر لهم ثوابين، ثواباً عاجلاً في الدنيا من الرزق الواسع والعيش الهنيء، الذي رآه عياناً، بعدما هاجروا، وانتصروا على أعدائهم، وافتتحو البلدان، وغنموا منها الغنائم العظيمة، فتمولوا، وآتاهم الله في الدنيا حسنة.

﴿وَلَا جُرَ الْآخِرَةِ﴾ الذي وعدهم الله على لسان رسوله ﴿أكبر﴾ من أجر الدنيا، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ * يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنت لهم فيها نعيم مقيم * خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم * وقوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كان لهم علم ويقين

یرضون أن یکون عبیدہم - وہم
مخلوقون من جنسہم - شرکاء لہم فیما
رزقہم اللہ، فکیف یجعلون لہ شرکاء
من عبیدہ!!

﴿و﴾ هم مع هذه الإساءة العظيمة ﴿تصف السنتهم الكذب أن لهم الحسن﴾ أي: أن لهم الحالة الحسنة في الدنيا والآخرة، رد عليهم بقوله: ﴿لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون﴾ مقدمون إليها، مأكثون فيها، غير خارجين منها أبداً.

بين تعالى لرسوله ﷺ أنه ليس هو
أول رسول كُذِّب فقال [تعالى]: ﴿تَاللَّهِ
لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ رسلاً
يدعونهم إلى التوحيد، ﴿فَزِينَ لَهُمُ
الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ فكذبوا الرسل،
وزعموا أن ما هم عليه، هو الحق
المنجي من كل مكروه، وأن ما دعت
إليه الرسل فهو بخلاف ذلك، فلما
زين لهم الشيطان أعمالهم، صار
وليهم في الدنيا، فأطاعوه واتبعوه،
وتولوه.

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي
وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾
﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة،
حيث تولوا عن ولاية الرحمن، ورفضوا
بولاية الشيطان، فاستحقوا لذلك
عذاب الهوان.

﴿٦٥﴾ ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ عن الله مواعظه وتذكيره، فيستدلون بذلك على أنه وحده المعبود، الذي لا تتبغي العبادة إلا له وحده، لأنه المنعم بإنزال المطر وإنبات جميع أصناف النبات، وعلى أنه على كل شيء قدير، وأن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الأموات، وأن الذي تشر هذا الإحسان للروح واسعة، وجود عظيم.

﴿٦٦ - ٦٧﴾ ﴿وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ نَتَسَكِّمُ بِمَا فِي بَطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبِنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ * وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

ولما كان هذا من أمثال السوء التي نسبها إليه أعداؤه المشركون، قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلٌ السَّوِّءِ﴾ أي: المثل الناقص والعييب التام، ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ وهو كل صفة كمال، وكل كمال في الوجود، فالله أحق به، من غير أن يستلزم ذلك نقصاً بوجه، وله المثل الأعلى في قلوب أوليائه، وهو التعظيم والإجلال والمحبة والإنابة والمعرفة.

﴿وهو العزيز﴾ الذي فهر جميع الأشياء، وانقادت له المخلوقات بأسرها، ﴿الحكيم﴾ البذي يضع الأشياء مواضعها، فلا يأمر ولا يفعل، إلا ما محمد عليه وثمنه علم كماله فيه.

﴿٦١﴾ ﴿وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُوَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَيَأْخُذُهُمْ فَبِأَظْلَمٍ لَا يُسْتَأْذِنُونَ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا أَفْتَرَاهُ الظَّالِمُونَ عَلَيْهِ، ذَكَرَ كِمَالَ حِلْمِهِ وَصَبْرِهِ فَقَالَ: ﴿وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ﴾ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصٍ، ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مِنْ دَابَّةٍ﴾ أَي: لَاهْلِكَ الْمُبَاشِرِينَ لِلْمَعْصِيَةِ وَغَيْرِهِمْ، مِنْ أَنْوَاعِ الدَّوَابِّ وَالْحَيَوَانَاتِ، فَإِنَّ شَوْءَ الْمَعَاصِي يَهْلِكُ بِهِ الْحَرْثَ وَالتَّنْبُلَ.

﴿وَلَكِنْ يُؤْخِرْهُمْ﴾ عن تعجيل العقوبة عليهم إلى أجل مسمى، وهو يوم القيامة ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ فليحذروا ما داموا في وقت الإنهال، قبل أن يجيء الوقت الذي لا إمهال فيه.

﴿٦٢ - ٦٣﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جُرْمَ أَنَّ لَهُمُ الثَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ * تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * نَجْزِيكَ تَعَالَى أَنْ الْمُسْرِكِينَ * يَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ * مِنَ الْبَنَاتِ، وَمِنَ الْأَوْصَافِ الْقَبِيحَةِ، وَهُوَ الشِّرْكَ، بِصَرْفِ شَيْءٍ مِنَ الْعِبَادَاتِ إِلَى بَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي هِيَ عِبِيدُ اللَّهِ، فَكَمَا أَنَّهُمْ يَكْرَهُونَ، وَلَا

[illegible]

وهذا لشركائنا، فما كان لشركائهم فلا
يصل إلى الله ﴿الآية﴾: ﴿تسألن عما
كنتم تفترون﴾ ويقال: ﴿الله أذن لكم
أم على الله تفترون﴾ وما ظن الذين
يفترون على الله الكذب يوم القيامة
فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتَ﴾ حيث قالوا
عن الملائكة العبياد المقربين: إنهم
بنات الله، ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي:
لأنفسهم الذكور، حتى إنهم يكرهون
البنات كراهة شديدة، فكان أحدهم
﴿إِذَا بَشَّرَ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾
من الغم الذي أصابه ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾
أي: كاظم على الحزن والأسف إذ بشر
بأنثى، وحتى إنه يفتضح عند أبناء
جنسه، ويتوارى منهم من سوء ما بشر
به.

ثم يعمل فكره ورأيه الفاسد فيما يصنع بتلك البنت التي بشر بها ﴿أُبْسِكَ عَلَى هُونٍ﴾ أي: يتركها من غير قتل على إهانة وذل ﴿أَمْ يَدِينُهُ فِي الثَّرَابِ﴾ أي: يدفنها وهي حية، وهو الواد الذي ذم الله به المشركين، ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ إذ وصفوا الله بما لا يليق بجلاله، من نسبة الولد إليه.

ثم لم يكفهم هذا، حتى نسبوا له
أزداً القسمين، وهو الإناث، اللاتي
يأنفون بأنفسهم عنها ويكرهونها،
فكيف ينسبونها لله تعالى؟! فينس
الحكم حكمهم.

أي: ﴿إِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ﴾ التي سخرها الله لنافعكم ﴿لَعِبْرَةٌ﴾ تستدلون بها على كمال قدرة الله وسعة إحسانه، حيث أسقاكم من بطونها المشتملة على الفرث والدم، فأخرج من بين ذلك لبناً خالصاً من الكدر سائغاً للشاربين، لذته، ولأنه يسقي ويغذي، فهل هذه إلا قدرة إلهية لا أمور طبيعية.

فأي: شيء في الطبيعة يقلب العلف الذي تأكله البهيمة، والشراب الذي تشربه من الماء العذب والملح، لبناً خالصاً سائغاً للشاربين؟

وجعل تعالى لعباده من ثمرات النخيل والأعناب منافع للعباد ومصالح، من أنواع الرزق الحسن الذي يأكله العباد، طرياً ونضيجاً، وحاضراً ومدخراً، وطعاماً، وشراباً يتخذ من عصيرها وتبيذها، ومن السكر الذي كان حلالاً قبل ذلك، ثم إن الله نسخ جل المسكرات، وأعاض عنها بالطيبات من الأنبذة، وأنواع الأشرية اللذيذة المباحة.

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ عن الله كمال اقتداره، حيث أخرجها من أشجار شبيهة بالخطب، فصارت ثمرة لذيذة وفاكهة طيبة، وعلى شمول رحمة، حيث عم^(١) بها عباده ويسرها لهم، وأنه الإله المعبود وحده، حيث إنه المنفرد بذلك.

﴿٦٨ - ٦٩﴾ ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ في خلق هذه النحلة الصغيرة، التي هداها الله هذه الهداية العجيبة، ويسر لها المراعي، ثم الرجوع إلى بيوتها التي أصلحتها بتعليم الله لها وهدايته لها، ثم يخرج من بطونها هذا العسل اللذيذ، مختلف الألوان بحسب اختلاف أرضها

ومراعيها، فيه شفاء للناس من أمراض عديدة. فهذا دليل على كمال عناية الله تعالى، وتعام لطفه بعباده، وأنه الذي لا ينبغي أن يحب غيره ويدعى سواه.

﴿٧٠﴾ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يَردُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمَرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ يخبر تعالى أنه الذي خلق العباد وتقلهم في الخلقة، طوراً بعد طور، ثم بعد أن يستكملوا آجالهم، يتوفاهم، ومنهم من يعمره حتى ﴿يَردُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمَرِ﴾ أي: أخسه الذي يبلغ به الإنسان إلى ضعف القوى الظاهرة والباطنة، حتى العقل الذي هو جوهر الإنسان، يزيد ضعفه حتى إنه ينسى ما كان يعلمه، ويصير عقله كعقل الصبي، ولهذا قال: ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾، إن الله عليم قدير. أي: قد أحاط علمه وقدرته بجميع الأشياء، ومن ذلك ما يتقل به الأدمي من أطوار الخلقة، خلقاً بعد خلق، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾.

﴿٧١﴾ ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ وهذا من أدلة توحيده، وقبح الشرك به، يقول تعالى: كما أنكم مشتركون بأنكم مخلوقون مرزوقون، إلا أنه تعالى ﴿فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ فجعل منكم أحراراً لهم مال وثروة، ومنكم أرقاء لهم، لا يملكون شيئاً من الدنيا، فكما أن سادتهم الذين فضلهم الله عليهم بالرزق ليسوا ﴿بِرَادِي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ فهم فيه سواء، ويرون هذا من الأمور الممتنعة، فكذلك من أشركتم بها مع الله، فإنها عبيد ليس لها من الملك مثقال ذرة، فكيف تجعلونها شركاء لله تعالى؟

هل هذا إلا من أعظم الظلم، والاحود لنعم الله!! ولهذا قال: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ فلو أقروا بالنعمة ونسبوها إلى من أولأها، لما أشركوا به أحداً.

﴿٧٢﴾ ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَالِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ يخبر تعالى عن ميثه العظيمة على عباده، حيث جعل لهم أزواجاً ليسكنوا إليها، وجعل لهم من أزواجهم أولاداً تقر بهم أعينهم ويخدمونهم، ويقضون حوائجهم، ويستفعلون بهم من وجوه كثيرة، ورزقهم من الطيبات، من جميع المأكول والمشرب، والنعم الظاهرة التي لا يقدر العباد أن يحصوها.

﴿أَفَالِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي: أيؤمنون بالباطل الذي لم يكن شيئاً مذكوراً، ثم أوجده الله، وليس له من وجوده سوى العدم، فلا تخلق، ولا ترزق، ولا تدبر من الأمر شيئاً، وهذا عام لكل ما عبيد من دون الله، فإنها باطلة، فكيف يتخذها المشركون من دون الله!!

﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ يجحدونها، ويستعينون بها على معاصي الله والكفر به، هل هذا إلا من أظلم الظلم، وأفجر الفجور، وأسفه السفه!!

﴿٧٣ - ٧٦﴾ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ فلا تضربوا الله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون * ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سرا وجهراً هل يستوتون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون * وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه

إياها، وجعل ينميها فيهم شيئاً فشيئاً إلى أن يصل كل أحد إلى الحالة اللائقة به، وذلك لأجل أن يشكروا الله، باستعمال ما أعطاهم من هذه الجوارح في طاعة الله، فمن استعملها في غير ذلك كانت حجة عليه، وقابل النعمة بأقبح المقابلة.

﴿٧٩﴾ ﴿ألم يسيروا إلى السطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ أي: لأنهم المنتفعون بآيات الله، المتفكرون فيما جعلت آية عليه، وأما غيرهم فإن نظرهم نظر لُهو وغفلة، ووجه الآية فيها أن الله تعالى خلقها بخلقه تصلح للطيران، ثم سخر لها هذا الهواء اللطيف ثم أودع فيها من قوة الحركة وما قدرت به على ذلك، وذلك دليل على كمال حكمته وعلمه الواسع وعنايته الربانية بجميع مخلوقاته وكمال اقتداره، تبارك الله رب العالمين.

﴿٨٠ - ٨٣﴾ ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين﴾ * والله جعل لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعل لكم سرايل تقيكم الحر وسرايل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون * فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين * يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون * يذكر تعالى عبادة نعمه، ويستدعي منهم شكرها والاعتراف بها فقال: ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً﴾ في الدور والقصور ونحوها، تُكِنُّكم من الحر والبرد وتستركم، أنتم وأولادكم وأمتعتكم، وتتخذون فيها الغرف^(١) والبيوت التي هي لأنواع منافعكم ومصالحكم، وفيها حفظ لأموالكم وحرملك، وغير ذلك من الفوائد المشاهدة، ﴿وجعل لكم من جلود

العلم لم يتجرؤوا على الشرك العظيم. والمثل الثاني مثل ﴿رجلين أحدهما أبكم﴾ لا يسمع ولا ينطق و ﴿لا يقدر على شيء﴾ لا قليل ولا كثير ﴿وهو كل على مولاه﴾ أي: يُخِذمه مولاه، ولا يستطيع هو أن يخدم نفسه، فهو ناقص من كل وجه، فهل يستوي هذا ومن كان يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم، فأقواله عدل، وأفعاله مستقيمة، فكما أنهما لا يستويان، فلا يستوي من عُبد من دون الله وهو لا يقدر على شيء من مصالحه، فلولاً قيام الله بهما لم يستطع شيئاً منها، لا يكون كفواً ونذاً لمن لا يقول إلا الحق، ولا يفعل إلا ما يحمد عليه.

﴿٧٧﴾ ﴿والله غيب السماوات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير﴾ أي: هو تعالى المنفرد بغيب السماوات والأرض، فلا يعلم الخفايا والباطن والأسرار إلا هو، ومن ذلك علم الساعة، فلا يدري أحد متى تأتي إلا الله، فإذا جاءت وتجلت، لم تكن إلا كلمح البصر أو هو أقرب من ذلك، فيقوم الناس من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم، وتفوت الفرص لمن يريد الإمهال، ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ فلا يستغرب على قدرته الشاملة إحياءه للموتى.

﴿٧٨﴾ ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾ أي: هو المنفرد بهذه النعم حيث أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ولا تقدرون على شيء ثم إنه ﴿جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ خص هذه الأعضاء الثلاثة لشرفها وفضلها، ولأنها مفتاح لكل علم، فلا وصل للعبد علم إلا من أحد هذه الأبواب الثلاثة، وإلا فسائر الأعضاء والقوى الظاهرة والباطنة، هو الذي أعطاهم

لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم﴾ يخبر تعالى عن جهل المشركين وظلمهم، أنهم يعبدون من دونه آلهة اتخذوها شركاء لله، والحال أنهم لا يملكون لهم رزقاً من السماوات والأرض، فلا ينزلون مطراً ولا رزقاً، ولا ينتون من نبات الأرض شيئاً، ولا يملكون مثقال ذرة في السماوات والأرض، ولا يستطيعون لو أرادوا، فإن غير المالك للشيء ربما كان له قوة واقتدار على ما ينفع من يتصل به، وهؤلاء لا يملكون ولا يقدرون.

فهذه صفة آلهتهم، كيف جعلوها مع الله، وشبهوها بمالك الأرض والسماوات، الذي له الملك كله، والحمد كله، والقوة كلها!!

ولهذا قال: ﴿فلا تضربوا الله الأمثال﴾ المتضمنة للتسوية بينه وبين خلقه ﴿إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ فعلينا أن لا نقول عليه بلا علم، وأن نسمع ما ضربه العليم من الأمثال، فلهذا ضرب تعالى مثلين له ولمن يعبد من دونه، أحدهما عبد مملوك، أي: رقيق لا يملك نفسه، ولا يملك من المال والدنيا شيئاً، والثاني حرٌ عتيق قد رزقه الله منه رزقاً حسناً، من جميع أصناف المال وهو كريم محب للإحسان، فهو ينفق منه سراً وجهراً، هل يستوي هذا وذاك؟! لا يستويان مع أنهما مخلوقان، غير محال استوائهما.

فإذا كانا لا يستويان، فكيف يستوي المخلوق العبد الذي ليس له ملك ولا قدرة، ولا استطاعة، بل هو فقير من جميع الوجوه، بالرب الخالق المالك لجميع الممالك، القادر على كل شيء!!

ولهذا حمد نفسه، واختص بالحمد بأنواعه، فقال: ﴿الحمد لله﴾ فكأنه قيل: إذا كان الأمر كذلك فلم سؤى المشركون آلهتهم بالله؟ قال: ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ فلو علموا حقيقة

(١) في الأصل: البيوت والغرف والبيوت.

الأنعام ﴿إِذَا مِنْ الْجِلْدِ نَفْسُهُ، أَوْ مِمَّا نَبَتْ عَلَيْهِ، مِنْ صَوْفٍ وَشَعْرٍ وَوَبِيرٍ.

﴿بَيُوتًا تَسْتَخْفُونَهَا﴾ أي: خفيفة المحمل، تكون لكم في السفر والمنازل التي لا قصد لكم في استيطانها، فتقيكم من الحر والبرد والمطر، وتقي متاعكم من المطر، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَصْوَانِهَا﴾ أي: الأنعام ﴿وَأَوْبَارَهَا وَأَشْعَارَهَا أَثَانًا﴾ وهذا شامل لكل ما يتخذ منها، من الأتية والأوعية والفرش والألبسة والأجلة، وغير ذلك.

﴿وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ أي: تمتعون بذلك في هذه الدنيا، وتنتفعون بها، فهذا مما سخر الله العباد لصنعتة وعمله.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ﴾ أي: من مخلوقاته التي لا صنعة لكم فيها ﴿ظِلَالًا﴾ وذلك، كأظلة الأشجار والجبال، والأكام ونحوها، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ أي: مغارات، تكنكم من الحر والبرد والأمطار والأعداء.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ﴾ أي: الألبسة وثياباً ﴿تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ ولم يذكر الله البرد، لأنه قد تقدم أن هذه السورة أولها في أصول النعم، وآخرها في مكملاتها ومتمماتها، ووقاية البرد من أصول النعم، فإنه من الضرورة، وقد ذكره في أولها في قوله ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعٌ﴾.

﴿وَتَقِيكُمْ بِأَسْكَمٍ﴾ أي: وثياباً تقيكم وقت البأس والحرب، من السلاح، وذلك، كالدرع والزرذ، ونحوها، كذلك يتم نعمته عليكم حيث أسبغ عليكم من نعمه ما لا يدخل تحت الحصر ﴿لِعَلَّكُمْ﴾ إذا ذكرتم نعمة الله، ورأيتموها غامرة لكم من كل وجه ﴿تَسْلُمُونَ﴾ لعظمته وتنقادون لأمره، وتصرفونها في طاعة موليا ومسددا، فكثرة النعم من الأسباب الجالية من العباد مزيد الشكر، والثناء بها على الله تعالى، ولكن أبا الظالمون إلا تمرداً وعناداً.

ولهذا قال الله عنهم: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الله وعن طاعته بعد ما ذكروا بنعمه وآياته، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي: ليس عليك من هدايتهم وتوفيقهم شيء بل أنت مطالب بالوعظ والتذكير والإنذار والتحذير، فإذا أدبت ما عليك، فحسابهم على الله، فإنهم يرون الإحسان، ويعرفون نعمة الله، ولكنهم ينكرونها ويحذونها، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ لا خير فيهم، وما ينفعهم توالي الآيات، لفساد مشاعرهم وسوء قسودهم، وسيرون جزاء الله لكل جبار عنيد، كفور للنعم، متمرد على الله وعلى رسوله.

﴿٨٤-٨٧﴾ ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يَسْتَعْتَبُونَ﴾ وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون ﴿وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك فآلقوا إليهم القول إنكم لكاذبون﴾ وألقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴿يخبر تعالى عن حال الذين كفروا في يوم القيامة، وأنه لا يقبل لهم عذر، ولا يرفع عنهم العقاب، وأن شركاءهم تتبرأ منهم، ويقرون على أنفسهم بالكفر والافتراء على الله، فقال: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يشهد عليها بأعمالهم، وماذا أجابوا به الداعي إلى الهدى، وذلك الشهيد الذي يبعثه الله أركى الشهداء وأعدلهم، وهم الرسل الذين إذا شهدوا تم عليهم الحكم.

ف ﴿لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الاعتذار، لأن اعتذارهم بعد ما علم يقيناً بظلمهم ما هم عليه، اعتذار كاذب لا يفيدهم شيئاً، وإن طلبوا أيضاً الرجوع إلى الدنيا، ليستدركوا لم يجابوا ولم يعبوا، بل يبادرهم العذاب الشديد الذي لا يخفف عنهم من غير أنظار ولا إمهال من حين يرونه، لأنهم لا حساب عليهم لأنهم لا حسنات لهم، وإنما تعد أعمالهم وتحصى، ويوقفون عليها ويقررون بها ويفضحون.



﴿وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم﴾ يوم القيامة وعلموا بظلمهم، ولم يمكنهم الإنكار.

﴿قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك﴾ ليس عندها نفع ولا شفع، فهووا بأنفسهم بظلمهم، وكفروا بها، وبدت البغضاء والعداوة بينهم وبينها، ﴿فآلقوا إليهم القول﴾ أي: ردت عليهم شركاؤهم قولهم، فقالت لهم: ﴿إنكم لكاذبون﴾ حيث جعلتمونا شركاء لله، وعبدقونا معه، فلم تأمركم بذلك، ولا زعمن أن فينا استحقاقاً للألوهية، فاللوم عليكم.

فحيث استسلموا لله، وخضعوا لحكمة، وعلموا أنهم مستحقون للعذاب.

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ فدخلوا النار، وقد امتلأت قلوبهم من مقت أنفسهم، ومن حذرهم، وأنه لم يعاقبهم إلا بما كسبوا.

﴿٨٨﴾ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زُجَّاجًا عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ حيث كفروا بأنفسهم، وكذبوا بآيات الله، وحاربوا رسوله، وصدوا الناس عن سبيل الله، وصاروا دعاة إلى الضلال، فاستحقوا مضاعفة العذاب، كما تضاعف جرمهم، وكما أفسدوا في أرض الله.

﴿٨٩﴾ ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ

مستحب، وذلك كنفخ الناس بالمال والبدن والعلم، وغير ذلك من أنواع النفع، حتى إنه يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيمة المأكول وغيره.

وخص الله إيتاء ذي القربى - وإن كان دخلاً في العموم - لتأكيد حقهم، وتعين صلتهم وبرهم، والحرص على ذلك.

ويدخل في ذلك جميع الأقارب، قريبتهم وبعيدهم، لكن كل ما كان أقرب كان أحق بالبر.

وقوله: ﴿ويهيئ عن الفحشاء﴾ وهو كل ذنب عظيم استفحشته الشرائع والفطر، كالشرب بالله، والقتل بغير حق، والزنا، والسرقه، والعجب، والكبر، واحتقار الخلق، وغير ذلك من الفواحش.

ويدخل في المنكر كل ذنب ومعصية متعلق بحق الله تعالى.

وبالغني كل عدوان على الخلق، في الدماء والأموال والأعراض.

فصارت هذه الآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات، لم يبق شيء إلا دخل فيها، فهذه قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات، فكل مسألة مشتملة على عدل أو إحسان أو إيتاء ذي القربى، فهي بما أمر الله به.

وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر أو بغى، فهي مما نهى الله عنه. وبها يعلم حسن ما أمر الله به، وقبح ما نهى عنه، وبها يعتبر ما عند الناس من الأقوال، وترد إليها سائر الأحوال، فتبارك من جعل في كلامه، الهدى، والشفاء، والنور، والفرقان بين جميع الأشياء.

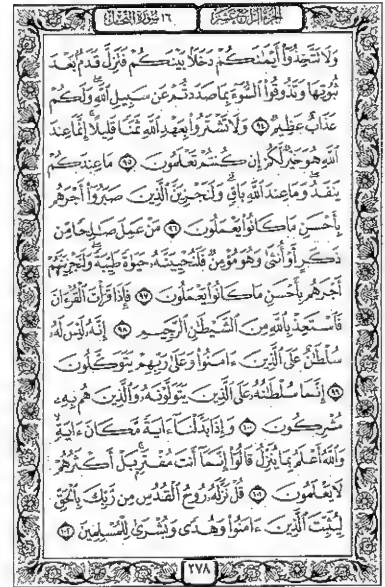
ولهذا قال: ﴿يعظكم﴾ به أي: بما بينه لكم في كتابه، بأمركم بما فيه غاية صلاحكم، ونهيكم عما فيه مضرركم. ﴿لعلكم تذكرون﴾ ما يعظكم به، ففهمونه وتعللونه، فإنكم إذا تذكروهم وعقلمتموه، عملتم بمقتضاه، فسدتم سعادة لا شقاوة معها.

فلما أمر بما هو واجب في أصل الشرع، أمر بوفاء ما أوجبه العبد على نفسه فقال:

الخير والبر بحسب ثبوتها في القلب، وحتى إنه تعالى يجمع في اللفظ القليل الواضح معاني كثيرة، يكون اللفظ لها كالقاعدة والأساس، واعتبر هذا بالآية التي بعد هذه الآية، وما فيها من أنواع الأوامر والنواهي التي لا تحصى، فلما كان هذا القرآن تبياناً لكل شيء، صار حجة الله على العباد كلهم. فانقطعت به حجة الظالمين، وانتفع به المسلمون، فصار هدى لهم يبتدون به إلى أمر دينهم ودنياهم، ورحمة ينالون به كل خير في الدنيا والآخرة. فالهدى ما نالوه به من علم نافع، وعمل صالح، والرحمة ما ترتب على ذلك من ثواب الدنيا والآخرة، كصلاح القلب وبره وطمانينته، وتمام العقل الذي لا يتم إلا بتربيته على معانيه، التي هي أجل المعاني وأعلاها، والأعمال الكريمة والأخلاق الفاضلة، والرزق الواسع، والنصر على الأعداء بالقول والفعل، ونيل رضا الله تعالى، وكرامته العظيمة التي لا يعلم ما فيها من النعيم المقيم إلا الرب الرحيم.

﴿٩٠﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فالعدل الذي أمر الله به، يشتمل العدل في حقه، وفي حق عباده، فالعدل في ذلك، أداء الحقوق كاملة موفرة بأن يؤدي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدينية، والمركبة منهما، في حقه وحق عباده، ويعامل الخلق بالعدل التام، فيؤدي كل وال ما عليه تحت ولايته، سواء في ذلك ولاية الإمامة الكبرى، وولاية القضاء، ونواب الخليفة ونواب القاضي.

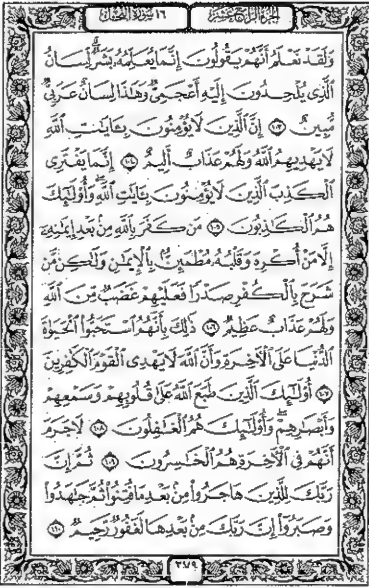
والعدل هو ما فرضه الله عليهم في كتابه، وعلى لسان رسوله، وأمرهم بسلوكة، ومن العدل في المعاملات، أن تعاملهم في عقود البيع والشراء وسائر المعاوضات، بإيفاء جميع ما عليك، فلا تبخس لهم حقاً، ولا تغشهم، ولا تتخذهم وتظلمهم. فالعدل واجب، والإحسان فضيلة



شهاداً على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴿لما ذكر فيما تقدم أنه يعث في كل أمة شهيداً﴾ ذكر ذلك أيضاً هنا، وخص منهم هذا الرسول الكريم فقال: ﴿وجئنا بك شهيداً على هؤلاء﴾ أي: على أمتك، تشهد عليهم بالخير والشر، وهذا من كمال عدل الله تعالى، أن كل رسول يشهد على أمته، لأنه أعظم اطلاعاً من غيره على أعمال أمته، وأعدل وأشفق من أن يشهد عليهم إلا بما يستحقون.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾.

وقال تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ﴿وقوله: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾ في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين، وكل ما يحتاج إليه العباد، فهو مبين فيه أتم تبين، بالآفاظ واضحة، ومعان جلية، حتى إنه تعالى يثني فيه الأمور الكبار، التي يحتاج القلب لمروها عليه كل وقت، وإعدادها في كل ساعة، ويعيدها ويبدئها بالآفاظ مختلفة وأدلة متنوعة، لتستقر في القلوب فتثمر من



أي: لا تنبغي هذه الحالة منكم، تعقدون الأيمان المؤكدة، وتنتظرون فيها الفرص، فإذا كان العاقد لها ضعيفاً غير قادر على الآخر، أتمها، لا لتعظيم العقد واليمين، بل لعجزه. وإن كان قوياً، يرى مصلحته الدنيوية في نقضها، نقضها غير مبال بعهد الله ويمينه.

كل ذلك دوراناً مع أهوية النفوس، وتقديمها على مراد الله منكم، وعلى المروءة الإنسانية، والأخلاق المرضية، لأجل أن تكون أمة أكثر عدداً وقوة من الأخرى.

وهذا ابتلاء من الله وامتحان يتليكم الله به حيث فيض من أسباب المحن الذي يمتحن به الصادق الوفي من الفاجر الشقي.

«وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون» فيجازي كلا بما عمل، ويحزي الغادر.

«٩٣» «ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون» أي: «لو شاء الله» لجمع الناس على الهدى وجعلهم «أمة واحدة» ولكنه تعالى المنفرد بالهداية والإضلال، وهدايته وإضلاله من أفعاله التابعة لعلمه وحكمته، يعطي الهداية من يستحقها فضلاً، ويمنعها من لا يستحقها عدلاً. «ولتسألن عما كنتم تعملون» من خير وشر، فيجازيكم عليها أتم الجزاء وأعدله.

«٩٤» «ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم فتنزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم» أي: «ولا تتخذوا أيمانكم» وعهودكم وموائيقكم تبعاً لأهوائكم، متى شئتم وفيتهم بها، ومتى شئتم نقضتموها، فإنكم إذا فعلتم ذلك، نزل أقدامكم بعد ثبوتها على الصراط المستقيم. «وتذوقوا السوء» أي: العذاب الذي يسوءكم ويحزنكم «بما صددتم عن سبيل الله» حيث ضللتكم وأضللتكم غيركم «ولكم عذاب عظيم» مضاعف.

«٩١- ٩٢» «وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون» ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون».

وهذا يشمل جميع ما عاهد العبد عليه ربه، من العبادات والسدور والأيمان التي عقدتها، إذا كان الوفاء بها براً، ويشمل أيضاً ما تعاهد عليه هو وغيره، كالعهود بين المتعاقدين، وكالوعد الذي يعده العبد لغيره، ويؤكد على نفسه، فعليه في جميع ذلك الوفاء وتمميمها مع القدرة، ولهذا نهى الله عن نقضها فقال: «ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها» بعقدتها على اسم الله تعالى: «وقد جعلتم الله عليكم» أيها المتعاقدان «كفيلاً» فلا يحل لكم أن لا تحكموا ما جعلتم الله عليكم كفيلاً، فيكون ذلك ترك تعظيم لله واستهانة به، وقد رضي الآخر منك باليمين، والتوكيد الذي جعلت الله فيه كفيلاً. فكما اتتمنتك وأحسن ظنه فيك، فلتف له بما قلت وأكدته.

«إن الله يعلم ما تفعلون» يجازي كل عامل بعمله، على حسب نيته ومقصده.

«ولا تكونوا» في نقضكم للعهود بأسوأ الأمثال وأفحها وأدلها على سفه متعاطيها، وذلك «كالتي» تغزل غزلاً قوياً، فإذا استحكم وتم ما أريد منه نقضته فجعلته «أنكاثاً» فتعبت على الغزل، ثم على النقض، ولم تستفد سوى الخيبة والعناء، وسفاهة العقل، ونقص الرأي، فكذاك من نقض ما عاهد عليه، فهو ظالم جاهل سفيه، ناقص الدين والمروءة.

وقوله: «تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة»

«٩٥- ٩٧» «ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون» ما عندكم ينقد وما عند الله باقي ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون» من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون» يحذر تعالى عباده من نقض العهود والأيمان، لأجل متاع الدنيا وحطامها، فقال:

«ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً» تنالونه بالنقض وعدم الوفاء «إنما عند الله» من الثواب العاجل والأجل لمن آثر رضاه، وأوفى بما عاهد عليه الله «هو خير لكم» من حطام الدنيا الزائلة «إن كنتم تعلمون»

فأثروا ما يبقى على ما يفنى، فإن الذي عندكم ولو كثر جداً، لا بد أن «ينفد» ويفنى، «وما عند الله باقي» ببقائه، لا يفنى ولا يزول، فليس يعاقل من آثر الفاني الخسيس على الباقي النفيس، وهذا كقوله تعالى: «بل تؤثرون الحياة الدنيا» والآخرة خير وأبقى» «وما عند الله خير للآبرار» وفي هذا الحث والترغيب على الزهد في الدنيا. خصوصاً الزهد المتعين، وهو الزهد فيما يكون ضرراً على العبد، ويوجب له الاشتغال عما أوجب الله عليه، وتقديمه على

ولاية الله، ودخولهم في طاعة الشيطان وانضمامهم لحزبه، فهم الذين جعلوا له ولاية على أنفسهم، فازمهم إلى المعاصي أزا، وقادهم إلى النار قودا.

﴿١٠١ - ١٠٢﴾ وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون ﴿١٠٢﴾ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴿١٠٣﴾ يذكر تعالى أن المكذبين بهذا القرآن، يتتبعون ما يروونه حجة لهم، وهو أن الله تعالى هو الحاكم الحكيم، الذي يشرع الأحكام، ويبدل حكما مكان آخر، لحكمته ورحمته، فإذا رآوه

كذلك، قذحوا في الرسول وبما جاء به، و ﴿قالوا إنما أنت مفتر﴾ قال الله تعالى: ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ فهم جهال لا علم لهم بربههم ولا بشرعه، ومن المعلوم أن قذح الجاهل بلا علم لا عبرة به، فإن القذح في الشيء فرع عن العلم به، وما يشتمل عليه مما يوجب المدح أو القذح.

ولهذا ذكر تعالى حكمته في ذلك فقال: ﴿قل نزله روح القدس﴾ وهو جبريل الرسول المقدس المنزه عن كل عيب وخيانة وأفة.

﴿بالحق﴾ أي: نزوله بالحق، وهو مشتمل على الحق في أخباره، وأوامره ونواهيه، فلا سبيل لأحد أن يقذح فيه قذحا صحيحا، لأنه إذا علم أنه الحق، علم أن ما عارضه وناقضه باطل.

﴿ليثبت الذين آمنوا﴾ عند نزول آياته وتواردها عليهم، وقتا بعد وقت، فلا يزال الحق يصل إلى قلوبهم شيئا فشيئا، حتى يكون إيمانهم أثبت من الجبال الرواسي، وأيضاً فإنهم يعلمون أنه الحق، وإذا شرع حكماً [من الأحكام] ثم نسخه، علموا أنه أبدله بما هو مثله، أو خير منه لهم، وأن نسخه هو المناسب للحكمة الربانية، والمناسبة العقلية.

﴿وهدى وبشرى للمسلمين﴾ أي: يهديهم إلى حقائق الأشياء، ويبين لهم

التصديق الجازم المثمر لأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات، فمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فلنحيينه حياة طيبة﴾ وذلك بطمأنينة قلبه، وسكون نفسه، وعدم التفاته لما يشوش عليه قلبه، ويرزقه الله رزقاً حلالاً طيباً، من حيث لا يحتسب. ﴿ولنجزيهم﴾ في الآخرة ﴿أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ من أصناف اللذات، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فيؤتيه الله في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة.

﴿٩٨ - ١٠٠﴾ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿٩٨﴾ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴿٩٩﴾ إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴿١٠٠﴾ أي: فإذا أزدت القراءة لكتاب الله، الذي هو أشرف الكتب وأجلها، وفيه صلاح القلوب، والعلوم الكثيرة، فإن الشيطان أحرص ما يكون على العبد عند شروعه في الأمور الفاضلة، فيسعى في صرفه عن مقاصدها ومعانيها.

فالطريق إلى السلامة من شره الالتجاء إلى الله، والاستعاذة به من شره، فيقول القاريء: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» متديراً لمعناها، معتمداً بقلبه على الله في صرفه عنه، مجتهداً في دفع وساوس وأفكاره الرديئة، مجتهداً على السبب الأقوى في دفعه، وهو التحلي بحلية الإيمان والتوكل.

فإن الشيطان ﴿ليس له سلطان﴾ أي: تسلط ﴿على الذين آمنوا وعلى ربهم﴾ وحده لا شريك له ﴿يتوكلون﴾ فيدفع الله عن المؤمنين المتوكلين عليه شر الشيطان، ولا يبقى له عليهم سبيل.

و ﴿إنما سلطانه﴾ أي: تسلطه ﴿على الذين يتولونه﴾ أي: يجعلونه لهم ولياً، وذلك بتخليهم عن



حق الله، فإن هذا الزهد واجب.

ومن الدواعي للزهد أن يقابل العبد لذات الدنيا وشهواتها بخيرات الآخرة، فإنه يجد من الفرق والتفاوت ما يدعوه إلى إيثار أعلى الأمرين أوليس الزهد المدح هو الانقطاع للعبادات القاصرة كالصلاة والصيام والذكر، ونحوها، بل لا يكون العبد زاهداً زهداً صحيحاً حتى يقوم بما يقدر عليه من الأوامر الشرعية الظاهرة والباطنة، ومن الدعوة إلى الله وإلى دينه بالقول والفعل، فالزهد الحقيقي هو الزهد فيما لا ينفع في الدين والدنيا، والرغبة والسعي في كل ما ينفع^(١).

﴿ولنجزي الذين صبروا﴾ على طاعة الله، وعن معصيته، وقطموا نفوسهم عن الشهوات الدنيوية المضرة بدينهم ﴿أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ولهذا ذكر جزاء العاملين في الدنيا والآخرة، فقال:

﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن﴾ فإن الإيمان شرط في صحة الأعمال الصالحة وقبولها، بل لا تسمى أعمالاً صالحة، إلا بالإيمان، والإيمان مقتضى لها، فإنه

الخاسرون ﴿الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهلهم يوم القيامة﴾ وفاتهم النعيم المقيم، وحصلوا على العذاب الأليم.

وهذا بخلاف من أكره على الكفر وأجبر عليه، وقلبه مطمئن بالإيمان، راغب فيه، فإنه لا حرج عليه ولا إثم، ويجوز له النطق بكلمة الكفر عند الإكراه عليها.

ودل ذلك، على أن كلام المكرة على الطلاق، أو العتاق، أو البيع، أو الشراء، أو سائر العقود، أنه لا عبرة به، ولا يترتب عليه حكم شرعي، لأنه إذا لم يعاقب على كلمة الكفر إذا أكره عليها، فغيرها من باب أولى وأحرى.

﴿١١٠ - ١١١﴾ ﴿ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فشتوا ثم جامدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفي كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴿أي: ثم إن ربك الذي ربي عبادة المخلصين بلطفه وإحسانه لغفور رحيم لمن هاجر في سبيله، وخلي دياره وأمواله، طلباً لمرضاة الله، وفُتِنَ على دينه ليرجع إلى الكفر، فثبت على الإيمان، وتخلص ما معه من اليقين، ثم جاهد أعداء الله ليدخلهم في دين الله، بلسانه ويده، وصبر على هذه العبادات الشاقة، على أكثر الناس.

فهذه أكبر الأسباب التي تنال بها أعظم العطايا، وأفضل المواهب، وهي مغفرة الله للذنوب صغارها وكبارها، المتضمن ذلك زوال كل أمر مكروه، ورحمته العظيمة التي بها صلحت أحوالهم واستقامت أمور دينهم ودنياهم، فلهم الرحمة من الله في يوم القيامة حين ﴿تأتي كل نفس تجادل عن نفسها﴾ كل يقول نفسي نفسي لا يمه سوى نفسه، ففي ذلك اليوم يقتقر العبد إلى حصول مثقال ذرة من الخير.

﴿وتوفي كل نفس ما عملت﴾ من خير وشر ﴿وهم لا يظلمون﴾ فلا يزداد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم. ﴿فالיום لا تظلم نفس شيئاً ولا تحزون

لا يؤمنون بآيات الله﴾ كالمعاندين لرسوله من بعد ما جاءتهم البينات. ﴿وأولئك هم الكاذبون﴾ أي: الكذب منحصر فيهم وعليهم أولى بأن يطلق من غيرهم. وأما محمد ﷺ المؤمن بآيات الله، الخاضع لربه، فمحال أن يكذب على الله، ويتقول عليه ما لم يقل، فأعداؤه رموه بالكذب الذي هو وصفهم، فأظهر الله خزيهم وبين فضائحتهم، فله تعالى الحمد.

﴿١٠٦ - ١٠٩﴾ ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدر أفعليه غضب من الله ولهم عذاب عظيم﴾ ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون﴾ لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون ﴿يخبر تعالى عن شناعة حال من كفر بالله من بعد إيمانه﴾ فعمي بعد ما أبصر، ورجع إلى الضلال بعد ما اهتدى، وشرح صدره بالكفر، راضياً به مطمئناً، أن لهم الغضب الشديد من الرب الرحيم، الذي إذا غضب لم يقم لغضبه شيء، وغضب عليهم كل شيء. ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ أي: في غاية الشدة، مع أنه دائم أبداً.

وذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ﴿حيث ارتدوا على أديارهم، طمعاً في شيء من حطام الدنيا، ورغبة فيه، وزهداً في خير الآخرة، فلما اختاروا الكفر على الإيمان، منعهم الله الهداية، فلم يهدم، لأن الكفر وصفهم، فطبع على قلوبهم فلا يدخلها خير، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم فلا ينفذ منها ما ينفعهم، ويصل إلى قلوبهم. فشملتهم الغفلة، وأحاط بهم الخذلان، وحرموها رحمة الله التي وسعت كل شيء، وذلك أنها أتتهم فردوها، وعرضت عليهم فلم يقبلوها.

﴿لا جرم أنهم في الآخرة هم

الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ويبشرهم أن لهم أجراً حسناً، ما كثر في أبدأ. وأيضاً فإنه كلما نزل شيئاً فشيئاً، كان أعظم هداية وبشارة لهم مما لو أتاهم جملة واحدة، وتفرق الفكر فيه، بل ينزل الله حكماً وبشارة، [أكثر] ^(١) فإذا فهموه وعقلوه وعرفوا المراد منه، وترووا منه، أنزل نظيره وهكذا. ولذلك بلغ الصحابة رضي الله عنهم به مبلغاً عظيماً، وتغيرت أخلاقهم وطبائعهم، وانتقلوا إلى أخلاق وعوائد وأعمال، فاقوا بها الأولين والآخرين.

وكان أعلى وأولى لمن بعدهم، أن يتربوا بعلومه، ويتخلقوا بأخلاقه، ويستضيؤوا بنوره في ظلمات الغي والجهالات، ويجعلوه إمامهم في جميع الحالات، فبذلك تستقيم أمورهم الدينية والدنيوية.

﴿١٠٣ - ١٠٥﴾ ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾ إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم ﴿إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون﴾ يخبر تعالى عن قيل المشركين المكذبين لرسوله ﴿أنهم يقولون إنما يعلمه﴾ هذا الكتاب الذي جاء به ﴿بشر﴾ وذلك البشر، الذي يشيرون إليه أعجمي اللسان ﴿وهذا﴾ القرآن ﴿لسان عربي مبين﴾ هل هذا القول ممكن؟ أو له حظ من الاحتمال؟ ولكن الكاذب يكذب ولا يفكر فيما يؤول إليه كذبه، فيكون في قوله من التناقض والفساد ما يوجب رده بمجرد تصوره.

﴿إن الذين لا يؤمنون بآيات الله الدالة دلالة صريحة على الحق المبين، فيردونها ولا يقبلونها. لا يهديهم الله﴾ حيث جاءهم الهدى، فردوه، فعوقبوا بحزمائه، وخذلان الله لهم. ﴿ولهم﴾ في الآخرة ﴿عذاب أليم﴾.

﴿إنما يفترى الكذب﴾ أي: إنما يصدر افتراء الكذب من الذين

إلا ما كنتم تعملون ﴿١١٢﴾

قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون * ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون * وهذه القرية هي مكة المشرفة، التي كانت آمنة مطمئنة، لا يهاج فيها أحد، وتحترمها الجاهلية الجهلاء، حتى إن أحدهم يجد قاتل أبيه وأخيه، فلا يهيجه مع شدة الحمية فيهم والنعرة العربية، فحصل لها من الأمن التام ما لم يحصل لسواها، وكذلك الرزق الواسع.

كانت بلدة ليس فيها زرع ولا شجر، ولكن يسر الله لها الرزق يأتيها من كل مكان، فجاءهم رسول منهم يعرفون أمانته وصدقه، يدعوهم إلى أكمل الأمور، وينهاهم عن الأمور السيئة، فكذبوه وكفروا بنعمة الله عليهم، فأذاقهم الله ضد ما كانوا فيه، وألبسهم لباس الجوع الذي هو ضد الرغد، والخوف الذي هو ضد الأمن، وذلك بسبب صنيعهم وكفرهم وعدم شكرهم * وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴿١١٣﴾

﴿١١٤﴾ * فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون * إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم * ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع قليل ولهم عذاب أليم * وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون * يأمر تعالى عباده بأكل ما رزقهم الله من الحيوانات والحبوب والثمار، وغيرها. ﴿حلالاً طيباً﴾ أي: حالة كونها متصفة

بهذين الوصفين، بحيث لا تكون مما حرم الله، أو أثيراً عن غضب ونحوه. فتمتعوا بما خلق الله لكم من غير إسراف ولا تعبد * واشكروا نعمة الله * بالاعتراف بها بالقلب، والثناء على الله بها، وصرفها في طاعة الله. ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ أي: إن كنتم مخلصين له العبادة، فلا تشكروا إلا إياه، ولا تنسوا المنعم.

﴿إنما حرم عليكم﴾ الأشياء المضرة تنزيهاً لكم، وذلك: كـ ﴿الميتة﴾ ويدخل في ذلك كل ما كان موته على غير ذكاة مشروعة، ويستثنى من ذلك، ميتة الجراد والسملك.

﴿والدم﴾ المسفوح، وأما ما يبقى في العروق واللحم فلا يضر. ﴿ولحم الخنزير﴾ لقذارته وخيئه، وذلك شامل للحمه وشحمه وجميع أجزائه. ﴿وما أهل لغير الله به﴾ كالذي يذبح للأصنام والقبور ونحوها، لأنه مقصود به الشرك.

﴿فمن اضطر﴾ إلى شيء من المحرمات - بأن حملته الضرورة، وخاف إن لم يأكل أن يهلك - فلا جناح عليه إذا لم يكن باغياً أو عادياً، أي: إذا لم يزد أكل المحرم، وهو غير مضطر، ولا متعد الحلال إلى الحرام، أو متجاوز لما زاد على قدر الضرورة، فهذا الذي حرمه الله من المباحات.

﴿١١٦﴾ * ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام أي: لا تحرموا وتحللوا من تلقاء أنفسكم، كذباً وافترافاً على الله وتقولوا عليه.

﴿لتفتروا على الله الكذب﴾، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * لا في الدنيا، ولا في الآخرة، ولا بد أن يظهر الله خزيمهم وإن تمتعوا في الدنيا، فإنه ﴿متاع قليل﴾ ومصيرهم إلى النار ﴿ولهم عذاب أليم﴾. فالله تعالى ما حرم علينا إلا

الحيثات، تفضلاً منه، وصيانة عن كل مستقذر.

وأما الذين هادوا فحرم الله عليهم طيبات أحلت لهم بسبب ظلمهم عقوبة لهم، كما قصه في سورة الأنعام في قوله: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم، ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون﴾.

﴿١١٩﴾ * ثم إن ربك للذنين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم * وهذا حض من لعباده على التوبة، ودعوة لهم إلى الإنابة، فأخبر أن من عمل سوءاً بجهالة، بعاقبة ما تحيي عليه، ولو كان متعمداً للذنوب، فإنه لا بد أن ينقص ما في قلبه من العلم وقت مقارفة الذنب. فإذا تاب وأصلح، بأن ترك الذنب وندم عليه^(١) وأصلح أعماله، فإن الله يغفر له ويرحمه، ويتقبل توبته ويعيده إلى حالته الأولى، أو أعلى منها.

﴿١٢٠﴾ * إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتياه وهذاه إلى صراط مستقيم * وأتيناها في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين * ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين * يخبر تعالى عما فضل به خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وخصه به من الفضائل العالية والمناقب الكاملة فقال:

﴿إن إبراهيم كان أمة﴾ أي: إماماً جامعاً لخصال الخير، هادياً مهتدياً. ﴿قانتاً لله﴾ أي: مديماً لطاعة ربه، مخلصاً له الدين. ﴿حنيفاً﴾: مقبلاً على الله بالمحبة، والإنابة، والعبودية، معرضاً عن سواه. ﴿ولم يك من المشركين﴾ في قوله وعمله، وجميع أحواله، لأنه إمام الموحدين الختفاء. ﴿شاكراً لأنعمه﴾ أي: آتاه الله في الدنيا حسنة، وأتعم عليه بنعم ظاهرة

(١) كذا في ب، وفي أ: عزم.

وباطنة، فقام بشكرها، فكان نتيجة هذه الخصال الفاضلة أن **﴿اجتباها﴾** ربه، واختصه بخلته وجعله من صفوة خلقه، وخيار عباده المقربين.

﴿وهده إلى صراط مستقيم﴾ في علمه وعمله، فعلم بالحق وأثره على غيره.

﴿وأتيناه في الدنيا حسنة﴾ رزقاً واسعاً، وزوجة حسناء، وذرية صالحين، وأخلاقاً مرضية **﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾** الذين لهم المنازل العالية، والقرب العظيم من الله تعالى.

ومن أعظم فضائله أن الله أوحى لسيد الخلق وأكملهم، أن يتبع ملة إبراهيم، ويقتدي به هو وأمته.

﴿١٢٤﴾ **﴿إنما جعل السبب على الذين اختلفوا فيه وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾**.

يقول تعالى: **﴿إنما جعل السبب﴾** أي: فرضاً على الذين اختلفوا فيه حين ضلوا عن يوم الجمعة، وهم اليهود، فصار اختلافهم سبباً لأن يجب عليهم في السبت احترامه وتعظيمه، وإلا فالفضيلة الحقيقية ليوم الجمعة، الذي هدى الله هذه الأمة إليه.

﴿وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ فيبين لهم المحق من المبطل، والمستحق للثواب من استحق العقاب ^(١).

﴿١٢٥﴾ **﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾** أي: ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم، إلى سبيل ربك المستقيم، المشتغل على العلم النافع، والعمل الصالح **﴿بالحكمة﴾** أي: كل أحد على

حسب حاله وفهمه وقبوله وانقياده. ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل، والبداء بالأهم فالأهم، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين، فإن انقاد بالحكمة، وإلا فينتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة، وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب.

إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها، والنواهي من المضار وتعدادها، وإما بذكر إكرام من قام بدين الله، وإهانة من لم يقم به.

وإما بذكر ما أعد الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل، وما أعد

للعاصين من العقاب العاجل والآجل، فإن كان [المدعو] يرى أن ما هو عليه حق. أو كان داعية إلى الباطل، فيجادل بالتي هي أحسن، وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلاً ونقلاً.

ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقدها، فإنه أقرب إلى حصول المقصود، وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاقة تذهب بمقصودها، ولا تحصل الفائدة منها، بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها.

وقوله: **﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله﴾** علم السبب الذي أداه إلى الضلال، وعلم أعماله المترتبة على ضلالته، وسيجازه عليها.

﴿وهو أعلم بالمهتدين﴾ علم أنهم يصلحون للهداية، فهداهم، ثم من عليهم فاجتباهم.

﴿١٢٦-١٢٨﴾ **﴿وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾** وأصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون **﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾** يقول تعالى - مبيحاً للعدل، ونادياً للفضل والإحسان - **﴿وإن عاقبتهم﴾** من أساء إليكم بالقول والفعل **﴿فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾** من غير زيادة منكم، على

﴿وإن ربك للذكي﴾

﴿وإن ربك للذكي﴾

﴿وإن ربك للذكي﴾

﴿وإن ربك للذكي﴾

﴿وإن ربك للذكي﴾

﴿وإن ربك للذكي﴾

﴿وإن ربك للذكي﴾

﴿وإن ربك للذكي﴾

﴿وإن ربك للذكي﴾

﴿وإن ربك للذكي﴾

نفس المسجد، وأن الإسراء بروحه وجسده معاً، وإلا لم يكن في ذلك آية كبرى، ومنقبة عظيمة.

وقد تكاثرت الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في الإسراء، وذكر تفاصيل ما رأى، وأنه أسرى به إلى بيت المقدس، ثم عرج به من هناك، إلى السماوات، حتى وصل إلى ما فوق السماوات العلى، ورأى الجنة والنار، والأنبياء على مراتبهم، وفرض الله عليه الصلوات خمسين، ثم ما زال يراجع ربه بإشارة موسى الكليم، حتى صارت خمساً بالفعل، وخمسين بالأجر والشواب، وحاز من المفاخر تلك الليلة، هو وأمه، ما لا يعلم مقداره إلا الله عز وجل.

وذكره هنا وفي مقام الإنزال للقرآن، ومقام التحدي بصفة العبودية، لأنه نال هذه المقامات الكبار، بتكميله لعبودية ربه.

وقوله: ﴿الذي باركنا حوله﴾ أي: بكثرة الأشجار والأنهار، والخصب الدائم.

ومن بركته، تفضيله على غيره من المساجد، سوى المسجد الحرام، ومسجد المدينة، وأنه يطلب شد الرحل إليه للعبادة والصلاة فيه، وأن الله اختصه محلاً لكثير من أنبيائه وأصفياه.

﴿٢-٨﴾ ﴿وأتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلاً﴾ ذرية من حملنا مع نوح، إنه كان عبداً شكوراً* ففيه التنويه بالشأن على نوح عليه السلام، بقيامه بشكر الله، واتصافه بذلك، والحث لذريته أن يقتدوا به في شكره ويتابعوه عليه، وأن يتذكروا نعمة الله عليهم، إذ^(١) أبقاهم واستخلفهم في الأرض، وأغرق غيرهم.

﴿وقضينا إلى بني إسرائيل﴾ أي: تقدما وعهدنا إليهم، وأخبرناهم في كتابهم، أنهم لا بد أن يقع منهم إفساد في الأرض مرتين بعمل المعاصي، والبطر لنعم الله، والعلو في الأرض والتكبر فيها، وأنه إذا وقع واحدة منهما، سلط الله عليهم الأعداء، وانتقم منهم، وهذا تحذير لهم وإنذار، لعلمهم يرجعون فيتذكرون.

﴿فإذا جاء وعد أولاهما﴾ أي: أولى المرتين اللتين يفسدون فيهما. أي: إذا وقع منهم ذلك الفساد ﴿بعثنا عليكم﴾ بعثنا قديراً، وسلطنا عليكم تسليطاً كونياً جزائياً ﴿عباداً لنا أولي بأس شديد﴾ أي: ذوي شجاعة وعدد وعدة

نفس المسجد، وأن الإسراء بروحه وجسده معاً، وإلا لم يكن في ذلك آية كبرى، ومنقبة عظيمة.

وقد تكاثرت الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في الإسراء، وذكر تفاصيل ما رأى، وأنه أسرى به إلى بيت المقدس، ثم عرج به من هناك، إلى السماوات، حتى وصل إلى ما فوق السماوات العلى، ورأى الجنة والنار، والأنبياء على مراتبهم، وفرض الله عليه الصلوات خمسين، ثم ما زال يراجع ربه بإشارة موسى الكليم، حتى صارت خمساً بالفعل، وخمسين بالأجر والشواب، وحاز من المفاخر تلك الليلة، هو وأمه، ما لا يعلم مقداره إلا الله عز وجل.

وذكره هنا وفي مقام الإنزال للقرآن، ومقام التحدي بصفة العبودية، لأنه نال هذه المقامات الكبار، بتكميله لعبودية ربه.

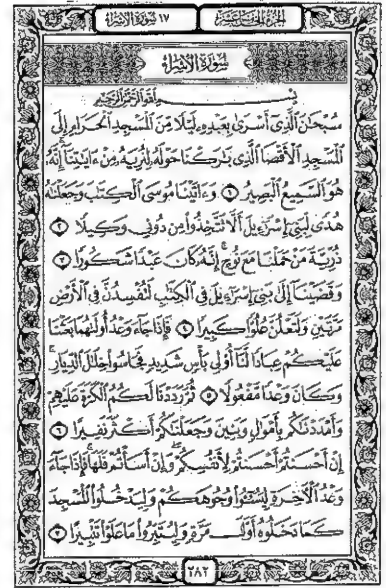
وقوله: ﴿الذي باركنا حوله﴾ أي: بكثرة الأشجار والأنهار، والخصب الدائم.

ومن بركته، تفضيله على غيره من المساجد، سوى المسجد الحرام، ومسجد المدينة، وأنه يطلب شد الرحل إليه للعبادة والصلاة فيه، وأن الله اختصه محلاً لكثير من أنبيائه وأصفياه.

﴿٢-٨﴾ ﴿وأتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلاً﴾ ذرية من حملنا مع نوح، إنه كان عبداً شكوراً* ففيه التنويه بالشأن على نوح عليه السلام، بقيامه بشكر الله، واتصافه بذلك، والحث لذريته أن يقتدوا به في شكره ويتابعوه عليه، وأن يتذكروا نعمة الله عليهم، إذ^(١) أبقاهم واستخلفهم في الأرض، وأغرق غيرهم.

﴿وقضينا إلى بني إسرائيل﴾ أي: تقدما وعهدنا إليهم، وأخبرناهم في كتابهم، أنهم لا بد أن يقع منهم إفساد في الأرض مرتين بعمل المعاصي، والبطر لنعم الله، والعلو في الأرض والتكبر فيها، وأنه إذا وقع واحدة منهما، سلط الله عليهم الأعداء، وانتقم منهم، وهذا تحذير لهم وإنذار، لعلمهم يرجعون فيتذكرون.

﴿فإذا جاء وعد أولاهما﴾ أي: أولى المرتين اللتين يفسدون فيهما. أي: إذا وقع منهم ذلك الفساد ﴿بعثنا عليكم﴾ بعثنا قديراً، وسلطنا عليكم تسليطاً كونياً جزائياً ﴿عباداً لنا أولي بأس شديد﴾ أي: ذوي شجاعة وعدد وعدة



تفسير سورة بني إسرائيل وهي مكية

﴿١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم سبحانه الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾ ينزه تعالى نفسه المقدسة ويعظمها، لأن له الأفعال العظيمة والمنن الجسيمة، التي من جعلنا أن ﴿أسرى بعبده﴾ ورسوله محمد ﷺ، ﴿من المسجد الحرام﴾ الذي هو أجل المساجد على الإطلاق ﴿إلى المسجد الأقصى﴾ الذي هو من المساجد الفاضلة، وهو محل الأنبياء.

فأسرى به في ليلة واحدة إلى مسافة بعيدة جداً، ورجع في ليلته، وأراه الله من آياته، ما ازداد به هدى وبصيرة وثباتاً وفرقاً، وهذا من اعتناؤه تعالى به ولطفه، حيث يسره لليسرى في جميع أموره، وخوله نعماً فاق بها الأولين والآخرين، وظاهر الآية أن الإسراء كان في أول الليل، وأنه من نفس المسجد الحرام، لكن ثبت في الصحيح، أنه أسرى به من بيت أم هانئ، فعلى هذا، تكون الفضيلة في المسجد الحرام لسائر الحرم، فكله تتضاعف فيه العبادة كتضاعفها في

فنصرهم الله عليكم، فقتلوكم وسبوا أولادكم، ونهبوا أموالكم، وجاسوا خلال دياركم فهتكوا الدور، ودخلوا المسجد الحرام وأفسدوه. ﴿وكان وعداً مفعولاً﴾ لا بد من وقوعه، لوجود سببه منهم. واختلف المفسرون في تعيين هؤلاء المسلمين، إلا أنهم اتفقوا على أنهم قوم كفار.

إما من أهل العراق، أو الجزيرة، أو غيرها، سلطهم الله على بني إسرائيل لما كثرت فيهم المعاصي، وتركوا كثيراً من شريعتهم، وطغوا في الأرض. ﴿ثم ردنا لكم الكرة عليهم﴾ أي: على هؤلاء الذين سلطوا عليكم، فأجلبتموهم من دياركم. ﴿وأمددناكم بأموال وبنين﴾ أي: أكثرنا أرزاقكم، وكثرناكم، وقويناكم عليهم، ﴿وجعلناكم أكثر نفيراً﴾ منهم، وذلك بسبب إحسانكم وخضوعكم لله.

﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم﴾ لأن النفع عائد إليكم، حتى في الدنيا كما شاهدتم من انتصاركم على أعدائكم. ﴿وإن أسأتم فلها﴾ أي: فلا تنفسم يعود الضرر، كما أراكم الله من تسلط الأعداء. ﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾ أي: المرة الآخرة^(١) التي تفسدون فيها في الأرض، سلطنا أيضاً عليكم الأعداء. ﴿ليسووا وجوهكم﴾ بانتصارهم عليكم وسبيكم وليدخلوا المسجد الحرام كما دخلوه أول مرة، والمراد بالمسجد، مسجد بيت المقدس.

﴿وليتبروا﴾ أي: يخربوا ويدمروا ﴿ما علوا﴾ عليه ﴿تنبيرا﴾ فيخربوا بيوتكم ومساجدكم وحرثكم. ﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾ فيدبل لكم الكرة عليهم، فرحمهم وجعل لهم الدولة.

وتوعدهم على المعاصي فقال: ﴿وإن علمتم﴾ إلى الإفساد في الأرض ﴿عدنا﴾ إلى عقوبتكم، فعادوا لذلك، فسلط الله عليهم رسوله محمداً ﷺ،

(١) في ب: الأخرى.

(٢) في ب: من لطفه.



ولكن الله - بلطفه^(٢) - يستجيب له في الخير، ولا يستجيب له بالشر. ﴿ولويعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم﴾.

﴿١٢﴾ ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً﴾ يقول تعالى: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين﴾ أي: دالتين على كمال قدرة الله وسعة رحمته، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له. ﴿فمحونا آية الليل﴾ أي: جعلناه مظلماً، للسكون فيه والراحة، ﴿وجعلنا آية النهار مبصرة﴾ أي: مضيئة، لتبتغوا فضلاً من ربكم في معاشكم وصنائعكم وتحاركتكم وأسفاركم.

﴿ولتعلموا﴾ بتوالي الليل والنهار واختلاف القمر وعدد السنين والحساب ﴿فتبتون عليها ما تشاؤون من مصالحكم﴾. ﴿وكل شيء فصلناه تفصيلاً﴾ أي: بينا الآيات وصرفناه، لتتميز الأشياء، ويستبين الحق من الباطل، كما قال تعالى: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾.

﴿٩ - ١٠﴾ ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً﴾ وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً ﴿يغير تعالى عن شرف القرآن وجلالته، وأنه يهدي للتي هي أقوم﴾ أي: أعدل وأعلى، من العقائد والأعمال والأخلاق، فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن، كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع أموره.

﴿وبيشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات﴾ من الواجبات والسنن، ﴿أن لهم أجراً كبيراً﴾ أعده الله لهم في دار كرامته، لا يعلم وصفه إلا هو.

﴿وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾ فالقرآن مشتمل على البشارة والندارة، وذكر الأسباب التي تنال بها البشارة، وهو الإيمان، والعمل الصالح، والتي تستحق بها الندارة وهو ضد ذلك.

﴿١١﴾ ﴿ويدع الإنسان بالشكر﴾ دعاء بالخير وكان الإنسان عجولاً وهذا من جهل الإنسان وعجلته، حيث يدعو على نفسه وأولاده وماله بالشر عند الغضب، ويبادر بذلك الدعاء، كما يبادر بالدعاء في الخير،



﴿١٣﴾ «وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً» * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً * وهذا إخبار عن كمال عدله، أن كل إنسان يلزمه طائره في عنقه، أي: ما عمل من خير وشر، يجعله الله ملازماً له، لا يتعداه إلى غيره، فلا يحاسب بعمل غيره، ولا يحاسب غيره بعمله.

«ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً» فيه ما عمله من الخير والشر حاضر، صغيره وكبيره، ويقال له: «اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً».

وهذا من أعظم العدل والإنصاف، أن يقال للعبد: حاسب نفسك، ليعترف بما عليه من الحق الموجب للعقاب.

﴿١٥﴾ «من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً» أي: هداية كل أحد وضلاله لنفسه، لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يدفع عنه مثقال ذرة من الشر، والله تعالى عادل العادلين، لا يعذب أحداً حتى تقوم عليه الحجة بالرسالة، ثم يعاند الحجة.

وأما من انقاد للحجة، أو لم تبلغه حجة الله تعالى، فإن الله تعالى لا يعذبه.

واستدل هذه الآية على أن أهل الفترات، وأطفال المشركين، لا يعذبهم الله حتى يبعث إليهم رسولاً، لأنه منزّه عن الظلم.

﴿١٦ - ١٧﴾ «وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً» * وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً» * يخبر تعالى أنه إذا أراد أن يهلك قرية من القرى الظالمة، ويستأصلها بالعذاب، أمر مترفيها أمراً قديراً، ففسقوا فيها، واشتد طغيانهم، «فحق عليها القول» أي: كلمة العذاب التي لا مرد لها «فدمرناها تدميراً».

وهؤلاء أمم كثيرة أبادهم الله بالعذاب، من بعد قوم نوح، كعاد، وثمود، وقوم لوط، وغيرهم ممن عاقبهم الله لما كثر بغيهم، واشتد كفرهم، أنزل [الله] بهم عقابه العظيم. «وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً» فلا يخافوا منه ظملاً، وأنه يعاقبهم على ما عملوه.

﴿١٨ - ٢١﴾ «من كان يريده العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً» * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً * كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً» * انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً» * يخبر تعالى أن «من كان يريد الدنيا «العاجلة» المنقضية الزائلة، فعمل لها وسعى، ونسي المبتدأ والمنتهى، أن الله يجعل له من حظائها ومتاعها ما يشاءه ويريده، مما كتب [الله] له في اللوح المحفوظ، ولكنه متاع غير نافع ولا دائم له.

ثم يجعل له في الآخرة «جهنم» يصلها» أي: يباشر عذابها، «مذموماً مدحوراً» أي: في حالة الخزي والفضيحة والذم من الله ومن خلقه، والبعد عن رحمة الله، فيجتمع له بين العذاب والفضيحة.

«ومن أراد الآخرة» فرضيها وآثرها على الدنيا «وسعى لها سعيها» الذي دعت إليه الكتب السماوية، والآثار النبوية، فعمل بذلك على قدر إمكانه «وهو مؤمن» بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

«فأولئك كان سعيهم مشكوراً» أي: مقبولاً مئتم، مدحراً لهم أجرهم وثوابهم عند ربهم.

ومع هذا، فلا يفوتهم نصيبهم من الدنيا، فكلما يمدد الله منها، لأنه غطاؤه وإحسانه. «وما كان عطاء ربك محظوراً» أي: ممنوعاً من أحد، بل جميع الخلق راتعون بفضلته وإحسانه.

«انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض» في الدنيا، بسنة الأرزاق وقلتها، واليسر والعسر، والعلم والجهل، والعقل والسفه، وغير ذلك من الأمور التي فضل الله العباد بعضهم على بعض بها.

«وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً» فلا نسبة لنعيم الدنيا ولذاتها إلى الآخرة بوجه من الوجوه.

فكم بين من هو في الغرف العليات، واللذات المتنوعات، والسزور والخيرات والأفراح، ممن هو يتقلب في الجحيم، ويعذب بالعذاب الأليم، وقد حل عليه سخط الرب الرحيم، وكل من الدارين بين أهلها من التفاوت ما لا يمكن أحداً عده.

﴿٢٢﴾ «لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً» أي: لا تعتقد أن أحداً من المخلوقين يستحق شيئاً من العبادة، ولا تشرك بالله أحداً منهم، فإن ذلك داع للذم والخذلان، قاله وملائكته ورسله، قد نبهوا عن الشرك، وذموا من عمله أشد الذم، ورتبوا عليه من الأسماء المذمومة، والأوصاف المقبوحة، ما كان به متعاطيه، أشنع الخلق وصفاً، وأقبحهم نمياً.

وله من الخذلان في أمر دينه ودنياه، بحسب ما تركه من التعلق بربه، فمن تعلق بغيره فهو مخذول، قد وكل إلى من تعلق به، ولا أحد من الخلق يتفقد

والإكرام، الواجب والمستنون، وذلك الحق، يتفاوت بتفاوت الأحوال، والأقارب، والحاجة وعدمها، والأزمة.

﴿والمسكين﴾ آتة حقه من الزكاة ومن غيرها، لتزول مسكنته، ﴿وابن السبيل﴾ وهو الغريب المنقطع به عن بلده، فيعطى الجميع من المال، على وجه لا يضر المعطي، ولا يكون زائداً على المقدار اللائق، فإن ذلك تبذير، وقد نهى الله عنه وأخبر:

﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾ لأن الشيطان لا يدعو إلا إلى كل خصلة ذميمة، فيدعو الإنسان إلى البخل والإمساك، فإذا عصاه، دعاه إلى الإسراف والتبذير. والله تعالى، إنما يأمر بأعدل الأمور وأقسطها ويمدح عليه، كما في قوله عن عباد الرحمن الأبرار ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾.

وقال هنا: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك﴾ كناية عن شدة الإمساك والبخل. ﴿ولا تبسطها كل البسط﴾ فتتفق فيما لا ينبغي، أو زيادة على ما ينبغي.

﴿فتقصد﴾ إن فعلت ذلك ﴿ملوماً﴾ أي: تلام على ما فعلت ﴿محسوراً﴾ أي: حاسر اليد فارغها، فلا بقي ما في يدك من المال ولا خلفه مدح وثناء.

وهذا الأمر بإيتاء ذي القربى، مع القدرة والغنى، فأما مع العدم، أو تعمس النفقة الحاضرة، فأمر تعالى أن يرُدُّوا رداً جميلاً فقال: ﴿وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها﴾ أي: تعرض عن إعطائهم إلى وقت آخر، ترجو فيه من الله تيسير الأمر.

﴿فقل لهم قولاً ميسوراً﴾ أي: لطيفاً برفق، ووعداً بالجميل، عند سنوح الفرصة واعتذار بعدم الإمكان في الوقت الحاضر، لينقلبوا عنك مطمئنة خواطرهم، كما قال تعالى: ﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى﴾.

وهذا أيضاً من لطف الله تعالى

﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾ أي: تواضع لهما، ذلاً لهما ورحمة، واحتساباً للأجر، لا لأجل الخوف منهما، أو الرجاء لما لهما، ونحو ذلك من المقاصد التي لا يؤجر عليها العبد.

﴿وقل رب ارحمهما﴾ أي: ادع لهما بالرحمة أحياء وأمواتاً، جزاء على تربيتكما إياك صغيراً.

وفهم من هذا، أنه كلما ازدادت التربية ازداد الحق، وكذلك من تولي تربية الإنسان في دينه ودينه، تربية صالحة غير الأبوين، فإن له على من رباه حق التربية.

﴿٢٥﴾ ﴿ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً﴾ أي: ربكم تعالى مطلع على ما أكتته سرائركم من خير وشر، وهو لا ينظر إلى أعمالكم وأبدانكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وما فيها من الخير والشر.

﴿إن تكونوا صالحين﴾ بأن تكون إراداتكم ومقاصدكم دائرة على مرضاة الله، ورغبتكم فيما يقربكم إليه، وليس في قلوبكم إرادات مستقرة لغير الله.

﴿فإنه كان للأوابين﴾ أي: الرجاعين إليه في جميع الأوقات ﴿غفوراً﴾ فمن أطلع الله على قلبه، وعلم أنه ليس فيه إلا الإنابة إليه ومحبة وحب ما يقرب إليه، فإنه، وإن جرى منه في بعض الأوقات ما هو مقتضى الطباع البشرية، فإن الله يعفو عنه، ويغفر له الأمور العارضة غير المستقرة.

﴿٢٦ - ٣٠﴾ ﴿وأت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً﴾ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً * وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً * ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً * إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴿يقول تعالى: ﴿وأت ذا القربى حقه﴾ من البر

أحداً إلا بإذن الله، وكما أن من جعل مع الله إلهاً آخر له الذم والخذلان، فمن وحده، وأخلص دينه لله، وتعلق به دون غيره، فإنه محمود معان في جميع أحواله.

﴿٢٣ - ٢٤﴾ ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾ إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً * واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾ لما نهى تعالى عن الشرك به، أمر بالتوحيد، فقال: ﴿وقضى ربك﴾ قضاء دينياً، وأمر أمراً شرعياً ﴿أن لا تعبدوا﴾ أحداً من أهل الأرض والسموات الأحياء والأموات.

﴿إلا إياه﴾ لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي له كل صفة كمال، وله من تلك الصفة أعظمها، على وجه لا يشبهه أحد من خلقه، وهو المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، الدافع لجميع النقم، الخالق، الرازق، المدبر لجميع الأمور، فهو المتفرد بذلك كله، وغيره ليس له من ذلك شيء.

ثم ذكر بعد حقه القيام بحق الوالدين، فقال: ﴿وبالوالدين﴾ إحساناً أي: أحسنوا إليهما بجميع وجوه الإحسان، القوي والفعلي، لأنهما سبب وجود العبد، ولهما من المحبة للولد والإحسان إليه، والقرب، ما يقتضي تأكيد الحق ووجوب البر.

﴿إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما﴾ أي: إذا وصلا إلى هذا السن، الذي تضعف فيه قواهما، ويحتاجان من اللطيف والإحسان ما هو معروف. ﴿فلا تقل لهما أف﴾ وهذا أدنى مراتب الأذى، نه به على ما سواه، والمعنى لا تؤذهما أدنى أذى.

﴿ولا تنهرهما﴾ أي: تزجرهما، وتكلم لهما كلاماً خشناً، ﴿وقل لهما قولاً كريماً﴾ بلفظ يحببانه، وتادب وتلطف بكلام لين حسن يلد على قلوبهما، وتطمئن به نفوسهما، وذلك يختلف باختلاف الأحوال والعوائد والأزمان.

بالعباد، أمرهم بانتظار الرحمة والرزق منه، لأن انتظار ذلك عبادة، وكذلك وعَدُهُمْ بالصدقة والمعروف عند التيسر، عبادة حاضرة، لأن الله يفعل الحسنة حسنة، ولهذا ينبغي للإنسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير، ويتوكل على ما لم يقدر عليه، ليثاب على ذلك، ولعل الله يسره له [سبب رجائه] (١).

ثم أخبر تعالى أنه ينسبط الرزق لمن يشاء من عباده، ويقدره ويضيقه على من يشاء حكمته منه، «إِنَّه كَانَ بعبادته خبيراً بصيراً» فيجزئهم على ما يعلمه صالحاً لهم، ويدبرهم، بلفظه وكرمه. ﴿٣١﴾ «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَقَوْلِهِمْ فَنَزَحْنَا عَنْهُمْ إِنْ قَتَلْتُمْهُمْ كَانَ خَطِئًا كَبِيرًا» وهذا من رحمته بعباده، حيث كان أرحم بهم من والديهم، فنهى الوالدين أن يقتلوا أولادهم خوفاً من الفقر والإملاق، وتكفل برزق الجميع.

وأخبر أن قتلهم كان خطأ كبيراً، أي: من أعظم كبائر الذنوب، لزوال الرحمة من القلب، والعقوق العظيم والتجروء على قتل الأطفال، الذين لم يجز منهم ذنب ولا معصية.

﴿٣٢﴾ «وَلَا تَقْرَبُوا الزَّنى إِنَّه كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا» والنهي عن قربانه أبلغ من النهي عن مجرد فعله، لأن ذلك يشمل النهي عن جميع مقدماته ودواعيه، فإن: «من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه»، خصوصاً هذا الأمر، الذي في كثير من النفوس أقوى داع إليه.

ووصف الله الزنى وقبحه بأنه «كَانَ فَاحِشَةً» أي: إثمًا يستفحش في الشرع والعقل والفطر، لتضمنته التجري على الحرمة في حق الله، وحق المرأة، وحق أهلها، أو زوجها، وإفساد الفرائض، واختلاط الأنساب وغير ذلك من المفساد.

وقوله: «وَسَاءَ سَبِيلًا» أي: بش السبيل، سبيل من تجرأ على هذا الذنب العظيم.

﴿٣٣﴾ «وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلَاهُ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّه كَانَ مَنْصُورًا» وهذا شامل لكل نفس «حَرَّمَ اللَّهُ» قتلها من صغير وكبير، وذكر وأنثى، وحر وعبد، ومسلم وكافر له عهد.

﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ كالنفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة، والباغي في حال بغيه إذا لم يدفع إلا بالقتل.

﴿وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا﴾ أي: بغير حق «فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلَاهُ» وهو أقرب عصباته وورثته إليه «سُلْطَانًا» أي: حجة ظاهرة على القصاص من القاتل، وجعلنا له أيضاً تسلطاً قديراً على ذلك، وذلك حين تجتمع الشروط الموجبة للقصاص، كالعميد العدوان، والمكافأة.

﴿فَلَا يَسْرِفُ﴾ الولي «فِي الْقَتْلِ» إِنَّه كَانَ مَنْصُورًا» والإسراف مجاوزة الحد، إما أن يمثل بالقاتل، أو يقتله بغير ما قتل به، أو يقتل غير القاتل. وفي هذه الآية دليل على أن الحق في القتل للولي، فلا يقتص إلا بإذنه، وإن عفا سقط القصاص.

وَأَنْ وَلِيَ الْمُقْتُولِ، يعينه الله على القاتل ومن أعانه حتى يتمكن من قتله.

﴿٣٤﴾ «وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا» وهذا من لطفه ورحمته تعالى باليتيم، الذي فقد والده وهو صغير، غير عارف بمصلحة نفسه، ولا قائم بها، أن أمر أولياءه بحفظه وحفظ ماله وإصلاحه، وأن لا يقربوه «إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» من التجارة فيه، وعدم تعريضه للأخطار، والحرص على تنميته، وذلك ممتد إلى أن «يَبْلُغَ» اليتيم «أَشُدَّهُ» أي: بلوغه، وعقله، ورشدته، فإذا بلغ أشده، زالت عنه الولاية، وصار ولي نفسه، ودفع إليه ماله.

كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ

رشدًا فادفعوا إليهم أموالهم﴾ «وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ» الذي عاهدتم الله عليه، والذي عاهدتم الخلق عليه. «إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا» أي: مسؤولين عن الوفاء به وعدمه، فإن وفيتم، فلکم الثواب الجزيل، وإن لم تفوا (٢)، فعليكم الإثم العظيم.

﴿٣٥﴾ «وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» وهذا أمر بالعدل وإيفاء المكاييل والموازين بالقسط، من غير بخس ولا نقص، ويؤخذ من عموم المعنى، النهي عن كل غش في ثمن أو مئتمن أو معقود عليه، والأمر بالنصح والصدق في المعاملة.

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ من عدمه «وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» أي: أحسن عاقبة، به يسلم العبد من التبعات، وبه تنزل البركة.

﴿٣٦﴾ «وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا» أي: ولا تتبع ما ليس لك به علم، بل تثبت في كل ما تقوله وتفعله، فلا تظن ذلك يذهب لا لك ولا عليك، «إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا» فحقيق بالعبد الذي يعرف أنه مسؤول عما قاله وفعله، وعما استعمل به جوارحه التي خلقها الله لعبادته، أن يُعَدَّ للسؤال جواباً، وذلك لا يكون إلا باستعمالها بعبودية الله، وإخلاص الدين له، وكفها عما يكرهه الله تعالى.

﴿٣٧ - ٣٩﴾ «وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا» كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهًا «ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً» يقول تعالى: «وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا» أي: كبراً وتهاً وبطراً، متكبراً على الحق، ومتعاضماً على الخلق.

﴿إِنَّكَ﴾ في فعلك ذلك «لَنْ تَخْرِقَ

(٢) في ب: تفعلوا.

(١) زيادة من هامش: ب.

الولد المتضمن لحاجته، واستغناء بعض المخلوقات عنه، وحكموا له بأردأ القسمين، وهنّ الإناث، وهو الذي خلقكم، واضطفاكم بالذكر، فتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

﴿٤١ - ٤٤﴾ * ولقد صرفنا في هذا القرآن ليزكروا وما يزيدهم إلا نفوراً * قل لو كان مع آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً * سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً * تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً * يخبر تعالى أنه صرف لعباده في هذا القرآن، أي: نوع الأحكام ووضوحها، وأكثر من الأدلة والبراهين على ما دعا إليه، ووعظ وذكر، لأجل أن يتذكروا ما ينفعهم فيسلبكوه، وما يضرهم فيدعوه.

ولكن أبى أكثر الناس إلا نفوراً عن آيات الله، لبغضهم للحق، ومحبتهم ما كانوا عليه من الباطل، حتى تعصبوا لباطلهم، ولم يعيزوا آيات الله لهم سمعاً، ولا ألقوا لها بالاً. ومن أعظم ما صرف فيه الآيات والأدلة، التوحيد الذي هو أصل الأصول، فأمر به، ونهى عن ضده، وأقام عليه من الحجج العقلية والنقلية شيئاً كثيراً، بحيث من أصغى إلى بعضها، لا تدع في قلبه شكاً ولا ريباً.

ومن الأدلة على ذلك هذا الدليل العقلي الذي ذكره هنا، فقال: ﴿قل﴾ للمشركين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر: ﴿لو كان مع آلهة كما يقولون﴾ أي: على موجب زعمهم واقترائهم، ﴿إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً﴾ أي: لا اتخذوا سبيلاً إلى الله بعبادته والإنابة إليه، والتشرب وابتغاء الوسيلة، فكيف يجعل العبد الفقير الذي يرى شدة افتقاره لعبودية ربه،

الأرض ولن تبلغ الجبال طولا﴾ في تكبرك بل تكون حقيراً عند الله ومحتقراً عند الخلق، مبعوضاً ممقوتاً، قد اكتسبت أشر الأخلاق، واكتسبت أرذلها، من غير إدراك لبعض ما تروم.

﴿كل ذلك﴾ المذكور الذي نهى الله عنه فيمة تقدم من قوله: ﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر﴾ والنهي عن عقوق الوالدين، وما عطف على ذلك، ﴿كان سيئه عند ربك مكروهاً﴾ أي: كل ذلك يسوء العاملين ويضرهم، والله تعالى يكرهه ويأباه.

﴿ذلك﴾ الذي بيناه ووضحناه من هذه الأحكام الجلية، ﴿ما أوحى إليك ربك من الحكمة﴾ فإن الحكمة، الأمر بمحاسن الأعمال، ومكارم الأخلاق، والنهي عن أرذل الأخلاق، وأسوأ الأعمال.

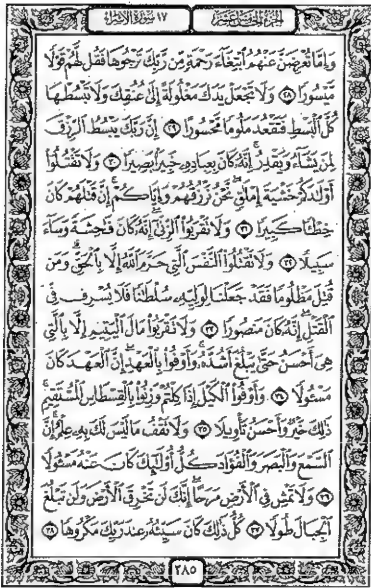
وهذه الأعمال المذكورة في هذه الآيات، من الحكمة العالية، التي أوحاها رب العالمين لسيد المرسلين في أشرف الكتب، ليأمر بها أفضل الأمم، فهي من الحكمة التي من أوتيتها فقد أوتي خيراً كثيراً.

ثم ختمها بالنهي عن عبادة غير الله، كما افتتحها بذلك فقال: ﴿ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم﴾ أي: خالداً مخلداً، فإنه من يشرك بالله، فقد حرم الله عليه الجنة وماواه النار.

﴿ملوماً مدحوراً﴾ أي: قد لحقتك اللائمة واللعة والذم من الله وملائكته والناس أجمعين.

﴿٤٥﴾ * أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً إنكم لتقولون قولاً عظيماً * وهذا إنكار شديد على من زعم أن الله اتخذ من خلقه بنات فقال: ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين﴾ أي: اختار لكم الصفوة والقسم الكامل، واتخذ لنفسه من الملائكة إناثاً، حيث زعموا أن الملائكة بنات الله.

﴿إنكم لتقولون قولاً عظيماً﴾ فيه أعظم الجراءة على الله، حيث نسبتهم له



إلهاً مع الله؟! هل هذا إلا من أظلم الظلم وأسفه السفه؟! ..

فعلى هذا المعنى، تكون هذه الآية كقوله تعالى: ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب﴾.

وقوله تعالى: ﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل﴾ قالوا سبحانه ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء.

ويحتمل أن المعنى في قوله: ﴿قل لو كان مع آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً﴾ أي: لطلبوا السبيل، وسعوا في مغالبة الله تعالى، فإما أن يعلو عليه فيكون من علا وقهر هو الرب الإله، فأما وقد علموا أنهم يقرون أن آلهتهم التي يعبدون^(١) من دون الله مقهورة مغلوبة، ليس لها من الأمر شيء، فلم اتخذوها وهي بهذه الحال؟ فيكون هذا كقوله تعالى: ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض﴾.

﴿سبحانه وتعالى﴾ أي: تقدس وتنزه وعلت أوصافه ﴿عما يقولون﴾ من الشرك به، واتخاذ الأنداد معه ﴿علواً كبيراً﴾ علواً قدره وعظم، وجعلت كبرياؤه، التي لا تقادر أن



يكون معه آلهة، فقد ضل من قال ذلك ضلالاً مبيناً، وظلم ظلماً كبيراً.

لقد تضاءلت لعظمته المخلوقات العظيمة، وصغرت لدى كبريائه السماوات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهن، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة، والسماوات مطويات بيمينه.

وافتقر إليه العالم العلوي والسفلي، فقرأ ذاتياً، لا ينفك عن أحد منهم في وقت من الأوقات.

هذا الفقر بجميع وجوهه، فقر من جهة الخلق والرزق والتدبير، وفقر من جهة الاضطراب، إلى أن يكون محبوبهم ومحبوهم، الذي إليه يتقربون، وإليه في كل حال يفزعون، ولهذا قال:

﴿تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ بلسان ناطق، ومن أشجار ونبات وجامد وحَيٍّ وميت ﴿إلا يسبح بحمده﴾ بلسان الحال، ولسان المقال. ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ أي: تسبيح باقي المخلوقات التي على غير لغتكم بل يحيط بها علام الغيوب.

﴿إنه كان حليماً غفوراً﴾ حيث لم يعاجل بالعقوبة من قال فيه قولاً تكاد السماوات والأرض تنفطر منه وخر له الجبال ولكنه أمهلهم، وأنعم عليهم،

وعافاهم، ورزقهم، ودعاهم إلى بابه ليتوبوا من هذا الذنب العظيم، ليعطيهم الثواب الجزيل، ويغفر لهم ذنبيهم، فلولاً حلمه ومغفرته، لسقطت السماوات على الأرض، ولما ترك على ظهرها من دابة.

﴿٤٨ - ٤٩﴾ ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً﴾ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً ﴿نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تنصتوا إلا رجلاً مسحوراً﴾ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلو فلا يستطيعون سبيلاً يخبر تعالى عن عقوبته للمكذبين بالحق الذين ردوه وأعرضوا عنه، أنه يحول بينهم وبين الإيمان، فقال:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ الَّذِي فِيهِ الْوَعْدُ وَالتَّذْكِيرُ، وَالْهُدَى وَالْإِيمَانُ، وَالْخَيْرُ وَالْعِلْمُ الْكَثِيرُ.

﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً﴾ يستترهم عن فهمه حقيقة، وعن التحقق بحقائقه والانقياد لما يدعو إليه من الخير.

﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة﴾ أي: أغطية وأغشية، لا يفقهون معها القرآن، بل يسمعون سماعاً تقوم به عليهم الحجة، ﴿وفي آذانهم وقراً﴾ أي: صمماً عن سماعه، ﴿وإذا ذكرت ربك في القرآن دعاءاً لثوحيده، ناهياً عن الشرك به. ﴿ولوا على أدبارهم نفوراً﴾ من شدة بغضهم له، وعيبتهم لما هم عليه من الباطل، كما قال تعالى: ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾.

﴿نحن أعلم بما يستمعون به﴾ أي: إنما منعناهم من الانتفاع عند سماع القرآن، لأننا نعلم أن مقاصدهم سيئة،

يريدون أن يعشروا على أقل شيء ليقذحوا به، وليس استماعهم لأجل الاسترشاد وقبول الحق، وإنما هم معتمدون على عدم اتباعه، ومن كان بهذه الحالة، لم يفده الاستماع شيئاً، ولهذا قال: ﴿إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى﴾ أي: متناجين ﴿إن تنصتوا الظالمون﴾ في مناجاتهم: ﴿إلا رجلاً مسحوراً﴾ فإذا كانت هذه مناجاتهم الظالمة فيما بينهم، وقد بنوها على أنه مسحور، فهم جازمون أنهم غير معتبرين لما قال، وأنه يهذي، لا يدري ما يقول.

قال تعالى: ﴿انظر﴾ متعجباً ﴿كيف ضربوا لك الأمثال﴾ التي هي أضل الأمثال، وأبعدها عن الصواب ﴿فضلو﴾ في ذلك، أو فصارت سبباً لضلالهم، لأنهم بنوا عليها أمرهم، والمبني على فاسد أفسد منه. ﴿فلا يستطيعون سبيلاً﴾ أي:

لا يبتدون أي ابتداء، فنصيبهم الضلال المحض، والظلم الصَّرف.

﴿٤٩ - ٥٢﴾ ﴿وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيداً﴾ قل كونوا حجارة أو حديداً، أو خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسينفضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً﴾ يخبر تعالى عن قول المنكرين للبعث، وتكذيبهم به، واستعدادهم بقولهم: ﴿إإذا كنا عظاماً ورفاتاً﴾ أي: أجساداً بالية، ﴿إنا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾ أي: لا يكون ذلك، وهو محال بزعمهم، فجعلوا أشد الجهل، حيث كذبوا رسل الله، وجحدوا آيات الله، وقاسوا قدرة خالق السماوات والأرض بقدرتهم الضعيفة العاجزة، فلما رأوا أن هذا ممنوع عليهم لا يقدر الله عليه، جعلوا قدرة الله كذلك.

فسبحان من جعل خلقاً من خلقه،

(١) سبق قلم الشيخ - رحمه الله - إلى آية أخرى فكتب: فلا يهتدون وعلى ذلك فسرها، فأبقت التفسير كما هو، وصوبت الآية.

يزعمون أنهم أولو العقول والآليات، مثلاً في جهل أظهر الأشياء وأجلاها، وأوضحها براهين وأعلاها، ليرى عباده أنه ما ثمَّ إلا توفيقه وإعانتة، أو الهلاك والضلال.

﴿ربنا لا تنزع قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لذك رحمة إنك أنت الوهاب﴾.

ولهذا أمر رسوله ﷺ أن يقول لهؤلاء المنكرين للبعث استبعاداً:

﴿قل كونوا حجارة أو حديداً * أو خلقاً مما يكبر* أي: يعظم * في صدوركم﴾ لتسلموا بذلك على زعمكم، من أن تالكم قدرة الله، أو تنفذ فيكم مشيئته، فإنكم غير معجزى الله، في أي: حالة تكونون، وعلى أي: وصف تتحولون، وليس لكم في أنفسكم تدبير في حالة الحياة وبعد الممات.

قدعوا التدبير والتصريف لمن هو على كل شيء قدير، وبكل شيء محيط. ﴿فسيقولون﴾ حين تقيم عليهم الحجة في البعث: ﴿من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة﴾ فكما فطركم، ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، فإنه سيعيدكم خلقاً جديداً ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾.

﴿فسيغضبون إليك رؤوسهم﴾ أي: يهزونها، إنكاراً وتعجباً مما قلت، ﴿ويقولون متى هو﴾ أي: متى وقت البعث الذي تزعمه على قولك؟ لا إقراراً منهم لأصل البعث، بل ذلك سقّة منهم، وتعجيز. ﴿قل عسى أن يكون قريباً﴾ فليس في تعيين وقته فائدة، وإنما الفائدة والمدار على تقريره والإقرار به وإثباته، وإلا فكل ما هو آت فإنه قريب.

﴿يوم يدعوكم﴾ للبعث والنشور، وينفخ في الصور، ﴿فتستجيبون بحمده﴾ أي: تستقادون لأمره، ولا تستعصون عليه. وقوله: ﴿يحمده﴾ أي: هو المحمود تعالى على ما يفعله ويميزي به العباد، إذا جمعهم ليوم التتاد.

﴿وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً﴾ من

سرعة وقوعه، وأن الذي مر عليكم من النعيم كأنه ما كان.

فهذا الذي يقول عنه المنكرون: ﴿متى هو﴾؟ يندمون غاية الندم عند وروده، ويقال لهم: ﴿هذا الذي كنتم به تكذبون﴾.

﴿٥٣ - ٥٥﴾ ﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً * ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم وما أرسلناك عليهم وكيلاً * وربك أعلم بمن في السماوات والأرض ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتيناه داود زبوراً﴾ وهذا من لطفه بعباده، حيث أمرهم بأحسن الأخلاق والأعمال والأقوال، الموجبة للسعادة في الدنيا والآخرة، فقال:

﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن﴾ وهذا أمر بكل كلام يقرب إلى الله، من قراءة، وذكر، وعلم، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وكلام حسن لطيف مع الخلق على اختلاف مراتبهم ومنازلهم، وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين، فإنه يؤمر بإيثار أحسنهما إن لم يمكن الجمع بينهما.

والقول الحسن داع لكل خلق جميل، وعمل صالح، فإن من ملك لسانه، ملك جميع أمره.

وقوله: ﴿إن الشيطان ينزغ بينهم﴾ أي: يسعى بين العباد بما يفسد عليهم دينهم ودنياهم.

فدواء هذا، أن لا يطيعوه في الأقوال غير الحسنة التي يدعوههم إليها، وأن يلينوا فيما بينهم، لينقمع الشيطان الذي ينزغ بينهم، فإنه عدوهم الحقيقي الذي ينبغي لهم أن يجاربوه، فإنه يدعوهم ﴿ليكونوا من أصحاب السعير﴾.

وأما إخوانهم، فإنهم وإن نزغ الشيطان فيما بينهم، وسعى في العداوة، فإن الحزم كل الحزم، السعي في ضد عدوهم، وأن يقيموا أنفسهم الأمانة بالسوء، التي يدخل الشيطان

من قلوبها، فبذلك يطيعون ربهم، ويستقيم أمرهم، ويهدون لرشدهم.

﴿ربكم أعلم بكم﴾ من أنفسكم، فلذلك لا يريد لكم إلا ما هو الخير، ولا يأمركم إلا بما فيه مصلحة لكم، وقد تريدون شيئاً الخير في عكمه.

﴿إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم﴾ فيوفق من شاء لأسباب الرحمة، ويخذل من شاء، فيضل عنها، فيستحق العذاب.

﴿وما أرسلناك عليهم وكيلاً﴾ تدبر أمرهم، وتقوم بمجازاتهم، وإنما الله هو الوكيل، وأنت مبلغ هاد إلى صراط مستقيم.

﴿وربك أعلم بمن في السماوات والأرض﴾ من جميع أصناف الخلائق، فيعطي كل منهم ما يستحقه تقتضيه حكمته، ويفضل بعضهم على بعض في جميع الخصال، الحسنة والمعنوية، كما فضل بعض النبيين المشتركين بوحية على بعض بالفضائل والخصائص الراجعة إلى ما من به عليهم، من الأوصاف المدوحة، والأخلاق المرضية، والأعمال الصالحة، وكثرة الاتباع، ونزول الكتب على بعضهم، المشتملة على الأحكام الشرعية والعقائد المرضية، كما أنزل على داود زبوراً، وهو الكتاب المعروف.

فإذا كان تعالى قد فضل بعضهم على بعض، وآتى بعضهم كتاباً، فلم ينكر المكذبون لمحمد ﷺ ما أنزله الله عليه وما فضله به من النبوة والكتاب.

﴿٥٦ - ٥٧﴾ ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضّر عنكم ولا تحويلاً * أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان مخذوراً﴾ يقول تعالى: ﴿قل﴾ للمشركين بالله الذين اتخذوا من دونه أنداداً يعبدهونهم كما يعبدون الله، ويدعونهم كما يدعونه، ملزماً لهم بتصحيح ما زعموه واعتقدوه إن كانوا صادقين.

﴿ادعوا الذين زعمتم﴾ آلهة من دون الله فانظروا هل ينفعونكم، أو

لا يحصل إلا بها، بل المقصود منها التخويف والترهيب، ليرتدعوا عن ما هم عليه.

﴿وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس﴾ علماً وقدره، فليس لهم ملجأ يلجؤون إليه، ولا ملاذ يلوذون به عنه، وهذا كاف لمن له عقل في الانكشاف عما يكرهه الله الذي أحاط بالناس.

﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة﴾ أكثر المفسرين على أنها في ليلة الإسراء.

﴿والشجرة الملعونة﴾ التي ذكرت في القرآن، وهي شجرة الزقوم، التي تنبت في أصل الجحيم.

والعنى، إذا كان هذان الأمران، قد صارا فتنة للناس حتى استلج الكفار بكفرهم، وازداد شرهم، وبعض من كان إيمانه ضعيفاً، رجع عنه بسبب أن ما أخبرهم به من الأمور التي كانت ليلة الإسراء، ومن الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، كان خارقاً للعادة.

والإخبار بوجود شجرة تنبت في أصل الجحيم أيضاً، من الخوازيق، فهذا الذي أوجب لهم التكذيب، فكيف لو شاهدوا الآيات العظيمة والخوازيق الجسيمة!!

أليس ذلك أولى أن يزداد بسببه شرهم؟! فلذلك رحمهم الله وصرفها عنهم، ومن هنا تعلم أن عدم التصريح في الكتاب والسنة، بذكر الأمور العظيمة التي حدثت في الأزمنة المتأخرة، أولى وأحسن، لأن الأمور التي لم يشاهد الناس لها نظيراً، ربما لا تقبلها عقولهم لو أخبروا بها قبل وقوعها، فيكون ذلك ريباً في قلوب بعض المؤمنين، ومانعاً يمنع من لم يدخل الإسلام، ومنفراً عنه. بل ذكر الله ألفاظاً عامة، تناول جميع ما يكون.

﴿ونخوفهم﴾ بالآيات ﴿فما يزيدهم﴾ التخويف ﴿إلا طغياناً كبيراً﴾ وهذا أبلغ ما يكون في التمليل بالشر ومحبطه، وبغض الخير وعدم

كلها لله، والنصح فيها، وإيقاعها على أكمل الوجوه المقدور عليها، فمن زعم أنه يجب الله بغير ذلك، فهو كاذب.

﴿٥٨﴾ ﴿وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾ أي: ما من قرية من القرى المكذبة للرسول، إلا لا بد أن يصيبهم هلاك قبل يوم القيامة، أو عذاب شديد، كتاب كتبه الله، وقضاء أمره، لا بد من وقوعه، فليأذر المكذبون بالإجابة إلى الله وتصديق رسله، قبل أن تتم عليهم كلمة العذاب، ويحق عليهم القول.

﴿٥٩ - ٦٠﴾ ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وأتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً﴾ ﴿وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً﴾ يذكر تعالى رحمة بعدم إنزاله الآيات التي يقترح بها المكذبون، وأنه ما منعه أن يرسلها إلا خوف من تكذيبهم لها، فإذا كذبوا بها، عاجلهم العقاب، وحل بهم من غير تأخير، كما فعل بالآولين الذين كذبوا بها.

ومن أعظم الآيات، الآية التي أرسلها الله إلى ثمود، وهي الناقة العظيمة الباهرة، التي كانت تصدر عنها جميع القبيلة بأجمعها، ومع ذلك كذبوا بها، فأصابهم ما قص الله علينا في كتابه، وهؤلاء كذلك، لو جاءتهم الآيات الكبار لم يؤمنوا، فإنه ما منعهم من الإيمان خفاء ما جاء به الرسول واشتباهه، هل هو حق أو باطل؟ فإنه قد جاء من البراهين الكثيرة، ما دل على صحة ما جاء به، الموجب لهداية من طلب الهداية، فغيرها مثلاً، فلا بد أن يسلكوا بها ما سلكوا بغيرها، فترك إنزالها والحالة هذه، خير لهم وأنفع.

وقوله: ﴿وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً﴾ أي: لم يكن القصد بها أن تكون داعية وموجبة للإيمان، الذي

يدفعون عنكم الضر، فإنهم لا يملكون كشف الضر عنكم من مرض، أو فقر، أو شدة، ونحو ذلك، فلا يدفعونه بالكلية، ﴿ولا﴾ يملكون أيضاً تحويله من شخص إلى آخر، ومن شدة إلى ما دونها.

فإذا كانوا بهذه الصفة فلا شيء تدعونهم من دون الله؟ فإنهم لا كمال لهم، ولا فعال ناعمة، فاتخاذهم نقص في الدين والعقل، وسفه في الرأي.

ومن العجيب، أن السفه عند الاعتقاد والممارسة، وتلقيه عن الآباء الضالين بالقبول، يراه صاحبه هو الرأي: السديد، والعقل المفيد.

ويرى إخلاص الدين لله الواحد الأحد، الكامل المنعم بجميع النعم الظاهرة والباطنة، هو السفه، والأمر المتعجب منه، كما قال المشركون: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾.

ثم أخبر أيضاً، أن الذين يعبدونهم من دون الله، في شغل شاغل عنهم، باهتمامهم بالافتقار إلى الله، وابتغاء الوسيلة إليه، فقال:

﴿أولئك الذين يدعون﴾ من الأنبياء والصالحين والملائكة ﴿يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب﴾ أي: يتنافسون في القرب من ربهم، ويبدلون ما يقدرون عليه من الأعمال الصالحة المقربة إلى الله تعالى وإلى رحمته، ويخافون عذابه، فيجتنبون كل ما يوصل إلى العذاب.

﴿إن عذاب ربك كان محذوراً﴾ أي: هو الذي ينبغي شدة الحذر منه والتوقي من أسبابه.

وهذه الأمور الثلاثة، الخوف والرجاء والمحبة، التي وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده، هي الأصل والمادة في كل خير.

فمن تمت له، تمت له أموره، وإذا خلا القلب منها، ترحلت عنه الخيرات، وأحاطت به الشرور.

وعلاوة المحبة ما ذكره الله، أن يجتهد العبد في كل عمل يقربه إلى الله ويتنافس في قربه بإخلاص الأعمال

الانقياد له.

﴿٦١-٦٥﴾ «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أسجد لمن خلقت طيناً * قال أأرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً * قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً * واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً * إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً * بينه تبارك وتعالى عباده على شدة عداوة الشيطان، وحرصه على إضلالهم، وأنه لما خلق الله آدم، استكبر عن السجود له، وقال: متكبراً: «السجد لمن خلقت طيناً» أي: من طين، ويزعم أنه خير منه، لأنه خلق من نار. وقد تقدم فساد هذا القياس الباطل من عدة أوجه.

فلما تبين لإبليس تفضيل الله لآدم قال: مخاطباً لله: «أأرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته» أي: لأستأصلنهم بالإضلال، ولأغروينهم «إلا قليلاً» عرف الخبيث، أنه لا بد أن يكون منهم من يعاديه ويعصيه.

فقال الله له: «إذهب فمن تبعك منهم» واختارك على ربه ووليه الحق، «فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً» أي: مدخراً لكم، موفراً جزاء على أعمالكم.

ثم أمره الله أن يفعل كل ما يقدر عليه من إضلالهم، فقال: «واستفزز من استطعت منهم بصوتك» ويدخل في هذا كل داع إلى المعصية.

«وأجلب عليهم بخيلك ورجلك» ويدخل فيه كل راكب وماش في معصية الله، فهو من خيل الشيطان ورجله.

والمقصود أن الله ابتلى العباد بهذا العدو المبين، الداعي لهم إلى معصية الله، بأقواله وأفعاله. «وشاركهم في الأموال والأولاد» وذلك شامل لكل معصية تعلقت بأموالهم وأولادهم، من منع الزكاة والكفارات والحقوق الواجبة، وعدم تأديب الأولاد وتربيتهم على الخير وترك الشر، وأخذ الأموال بغير حقها، أو وضعها بغير حقها، أو استعمال المكاسب الرديئة.

بل ذكر كثير من المفسرين، أنه يدخل في مشاركة الشيطان في الأموال والأولاد، ترك التسمية عند الطعام والشراب والجماع، وأنه إذا لم يسم الله في ذلك، شارك فيه الشيطان، كما ورد فيه الحديث.

«وعدهم» الوعود^(١) المزخرفة التي لا حقيقة لها، ولهذا قال: «وما يعدهم الشيطان إلا غروراً» أي: باطلاً مضمحلاً، كأن يزين لهم المعاصي والعقائد الفاسدة، ويعدهم عليها الأجر، لأنهم يظنون أنهم على الحق، وقال تعالى: «الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً».

ولما أخبر عما يريد الشيطان أن يفعل بالعباد، وذكر ما يعتصم به من فتنته، وهو عبودية الله، والقيام بالإيمان والتوكل، فقال:

«إن عبادي ليس لك عليهم سلطان» أي: تسلط وإغواء، بل الله يدفع عنهم - بقيامهم بعبوديته - كل شر، ويحفظهم من الشيطان الرجيم، ويقوم بكفائتهم. «وكفى بربك وكيلاً» لمن توكل عليه، وأدى ما أمر به.

﴿٦٦-٦٩﴾ «ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيماً * وإذا مستكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً * أفأنتم أن تجسف

(١) في النسخين: الأوعاد.



بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً ثم لا تجدوا لكم وكيلاً * أم أنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً * يذكر تعالى نعمته على العباد، بما سخر لهم من الفلك، والسفن والمراكب، وألهمهم كيفية صنعها، وسخر لها البحر الملتطم، يحملها على ظهره، لينتفع العباد بها في الركوب والحمل للأمتعة والتجارة. وهذا من رحمته بعباده، فإنه لم يزل بهم رحيماً رؤوفاً، يؤتيهم من كل ما تعلقت به إرادتهم ومنافعهم.

ومن رحمته الدالة على أنه وحده المعبود دون ما سواه، أنهم إذا مسهم الضر في البحر فخافوا من الهلاك لتراكم الأمواج، ضل عنهم ما كانوا يدعون من دون الله في حال الرخاء من الأحياء والأموات، فكانهم لم يكونوا يدعونهم في وقت من الأوقات لعلمهم أنهم ضعفاء عاجزون عن كشف الضر، وصرخوا بدعوة فاطر الأرض والسموات الذي تستغيث به في شوائدها جميع المخلوقات، وأخلصوا له الدعاء والتضرع في هذه الحال.

فلما كشف الله عنهم الضر،

فتيلاً * ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً * يخبر تعالى عن حال الخلق يوم القيامة، وأنه يدعو كل أناس، معهم إمامهم وهاديهم إلى الرشد، وهم الرسل ونوابهم، فتعرض كل أمة، ويحضرها رسولهم الذي دعاهم، وتعرض أعمالهم على الكتاب الذي يدعو إليه الرسول، هل هي موافقة له أم لا؟ فيقسمون بهذا قسمين:

﴿فمن أوتي كتابه بيمينه﴾ لكونه اتبع إمامه، الهادي إلى صراط مستقيم، واحتدى بكتابه، فكشرت حسنة، وقلت سيئاته ﴿فأولئك يقرؤون كتابهم﴾ قراءة سرور وبهجة، على ما يرون فيها مما يفرحهم ويسرهم.

﴿ولا يظلمون فتيلاً﴾ مما غملوه من الحسنات.

﴿ومن كان في هذه﴾ الدنيا ﴿أعمى﴾ عن الحق فلم يقبله، ولم ينقد له، بل اتبع الضلال. ﴿فهو في الآخرة أعمى﴾ عن سلوك طريق الجنة كما لم يسلكه في الدنيا، ﴿وأضل سبيلاً﴾ فإن الجزء من جنس العمل، وكما تدين تدان.

وفي هذه الآية دليل على أن كل أمة تدعى إلى دينها وكتابتها، وهل عملت به أم لا؟

وأنهم لا يؤخذون بشرع نبي لم يؤمروا باتباعه، وأن الله لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ومخالفته لها.

وأن أهل الخير، يعطون كتبهم بإيمانهم، ويحصل لهم من الفرح والسرور شيء عظيم، وأن أهل الشر بعكس ذلك، وأنهم لا يقدرّون على قراءة كتبهم، من شدة غمهم وحزنهم وثبورهم.

البحر.

وإن ظننتم ذلك، فأنتم آمنون^(١) من ﴿أن يعيدكم﴾ في البحر ﴿تارة أخرى﴾ فيرسل عليهم قاصفاً من الريح: أي: ريحاً شديدة جداً تقصف ما أتت عليه.

﴿فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً﴾ أي: تبعة ومطالبة، فإن الله لم يظلمكم مثقال ذرة.

﴿٧٠﴾ ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾ وهذا من كرمه عليهم وإحسانه، الذي لا يقادر قدره، حيث كرم بني آدم بجميع وجوه الإكرام، فكرمهم بالعلم والعقل، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وجعل منهم الأولياء والأصفياء، وأنعم عليهم بالنعمة الظاهرة والباطنة.

﴿وحملناهم في البر﴾ على الركاب، من الإبل، والخيال، والحمير، والمراكب البرية. ﴿وفي﴾ البحر ﴿في السفن والمراكب﴾ وورزقناهم من الطيبات من المأكّل والمشارب، والملابس، والمناجح. فيما من طيب تتعلق به حوائجهم، إلا وقد أكرمهم الله به، ويسره لهم غاية التيسير.

﴿وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾ بما خصهم به من المناقب، وفضلهم به من الفضائل، التي ليست لغيرهم من أنواع المخلوقات.

أفلا يقومون بشكر من أولى النعم ودفع النقم، ولا تحجّجهم النعم عن المنعم فيشتغلوا بها عن عبادة ربهم، بل ربما استعانوا بها على معاصيه.

﴿٧١ - ٧٢﴾ ﴿يوم ندعوا كل أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم ولا يظلمون

وَمَنْعًا أَنْ يُرْسِلَ إِلَيْنَا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ
وَمَنْعًا لِقَوْمٍ آتَيْنَهُمْ بَصِيرَةً فَلَمْ يُبْصِرُوا وَفِي سُبُلِ
الْآيَاتِ الْغُفْيَةِ ۚ وَلَا تَقْنَأُكَ رِجْلُكَ نَحْنُ أَعْلَمُ
بِالْقَائِمِ وَمَنْعًا لِقَوْمٍ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِزْبَ
لِلْمَعُونَةِ فِي الْقُرْآنِ وَتَحْمِيهِمْ فَأَيُّكُمْ أَلْفَتُنَا كَيْفَا
وَأَزَقْنَا لِلْمَلَكِ كَوْنَهُمْ سَجَدُوا لِأَمْرٍ فَكَذَّبُوا
إِلَيْنَا قَالَ أَسْجُدُوا فَخَلَّتْ طِينًا ۖ قَالَ أَرَأَيْتَ
هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ عَلَىٰ نَفْسٍ أَنْ تُخْزِرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ
لَا تُخْزِعُكُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ وَلَا أَطْفَالُهُمْ ۖ قَالَ أَتَذَرُ
فِيهِمْ فَإِنْ جَعَلْتُمْ جُرْحَكُمْ جُرْحًا مَوْفُورًا ۖ وَأَسْتَفْزِرُ
مَنْ أَسْأَلُكُمْ فِيهِمْ يَصُدُّكُمْ وَأُولَٰئِكَ عَلَىٰ رِجْلَيْكُمْ
وَنَحْنُ كَعَمَلِكُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَبِالْأَعْيُنِ
لَا تُدْرِكُهَا ۚ أَنْ يَكُونُوا لَكُمْ عَلَىٰ سُلْطَانٍ وَكَفَىٰ
بِرَبِّكَ وَكَيْلًا ۚ نَزَّكَرَ الَّذِي يُرْسِلُ لَكُمْ الْغَلَّكَ
فِي الْبَحْرِ لَتَسْتَوْفُوا قَضَائَهُ إِنْ كُنْتُمْ بِرَبِّكُمْ حَاسِبِينَ

ونجاهم إلى البر، نسوا ما كانوا يدعون إليه من قبل وأشركوا به، من لا يتفع ولا يضر، ولا يعطي ولا يمنع، وأعرضوا عن الإخلاص لربهم ومليكتهم، وهذا من جهل الإنسان وكفره، فإن الإنسان كفر للنعم، إلا من هدى الله، فمن عليه بالعقل السليم، واحتدى إلى الصراط المستقيم، فإنه يعلم، أن الذي يكشف الشدائد، وينجي من الأهوال، هو الذي يستحق أن يفرد وتخلص له سائر الأعمال، في الشدة والرخاء، واليسر والعسر.

وأما من خذل، ووكل إلى عقله الضعيف، فإنه لم يلحظ وقت الشدة إلا مصلحته الحاضرة، وإنجاهه في تلك الحال.

فلما حصلت له النجاة، وزالت عنه المشقة، ظن بجهله أنه قد أعجز الله، ولم يخطر بقلبيه شيء من البعواقب الدنيوية، فضلاً عن أمور الآخرة.

ولهذا ذكرهم الله ذلك بقوله: ﴿أفأنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً﴾ أي: فهو على كل شيء قدير، إن شاء أنزل عليكم عذاباً، من أسفل منكم بالخسف، أو من فوقكم بالحاصب، وهو العذاب الذي يحصبهم، فيصبجوا هالكين، فلا تظنوا أن الهلاك لا يكون إلا في

أحد، وإنما ذلك للمؤمنين به، المصدقين بآياته، العالمين به، أما الظالمون بعدم التصديق به أو عدم العمل به، فلا تزيدهم آياته إلا خساراً، إذ به تقوم عليهم الحجة، فالشفاء الذي تضمنه القرآن عام لشفاء القلوب، من الشبه، والجهالة، والآراء الفاسدة، والانحراف السيئ، والقصود السيئة^(١).

فإنه مشتمل على العلم اليقيني، الذي تزول به كل شبهة وجهالة، والوعظ والتذكير، الذي يزول به كل شبهة تخالف أمر الله، ولشفاء الأبدان من الآمها وأسقامها.

وأما الرحمة، فإن ما فيه من الأسباب والوسائل التي يحث عليها، متى فعلها العبد فاز بالرحمة والسعادة الأبدية، والثواب العاجل والأجل.

﴿٨٣﴾ ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسًا﴾ هذه طبيعة الإنسان من حيث هو، إلا من هداه الله، فإن الإنسان - عند إنعام الله عليه - يفرح بالنعم ويبطر بها، ويعرض وينأى بجانبه عن ربه، فلا يشكره ولا يذكره.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ كالمرض ونحوه ﴿كَانَ يَؤُوسًا﴾ من الخير، قد قطع عن ربه رجاءه، وظن أن ما هو فيه دائم أبداً.

وأما من هداه الله، فإنه عند النعم يخضع لربه، ويشكر نعمته، وعند الضرر يتضرع، ويرجو من الله عافيته، وإزالة ما وقع فيه، وبذلك يخف عليه البلاء.

﴿٨٤﴾ ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ أي: ﴿قُلْ كُلٌّ﴾ من الناس ﴿يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ أي: على ما يليق به من الأحوال، إن كان من الصفوة الأبرار، لم يشاكلهم إلا عملهم لزب العالمين. ومن كان من غيرهم من المخدولين، لم يناسبهم إلا العمل للمخلوقين، ولم

غيرك، وليكثر ثوابك، وتنال بذلك المقام المحمود، وهو المقام الذي يحمده فيه الأولون والآخرون، مقام الشفاعة العظمى، حين يستشفع الخلائق بآدم، ثم بنوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، وكلهم يعتذر ويتأخر عنها، حتى يستشفعوا بسيد ولد آدم، ليرحمهم الله من هم الموقف وكرهه، فيشفع عند ربه فيشفعه، وقيمه مقاماً يغبطه به الأولون والآخرون، وتكون له المنة على جميع الخلق.

وقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِي مَدْخِلَ صَدَقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صَدَقٍ﴾ أي: اجعل مداخلتي ومخارجي كلها في طاعتك وعلى مرضاتك، وذلك لتضمنها الإخلاص وموافقة الأمر.

﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ أي: حجة ظاهرة، وبرهاناً قاطعاً على جميع ما أتبه وأذره.

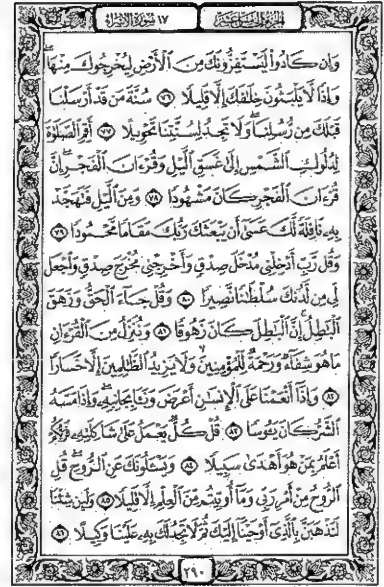
وهذا أعلى حالة ينزلها الله العبد، أن تكون أحواله كلها خيراً، ومقربة له إلى ربه، وأن يكون له - على كل حالة من أحواله - دليلاً ظاهراً، وذلك متضمن للعلم النافع، والعمل الصالح، للعلم بالمسائل والدلائل.

وقوله: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ والحق هو ما أوحاه الله إلى رسوله محمد ﷺ، فأمره الله أن يقول ويعلم، قد جاء الحق الذي لا يقوم له شيء، وزهق الباطل أي: اضمحل وتلاشى.

﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ أي: هذا وصف الباطل، ولكنه قد يكون له صولة وروجان إذا لم يقابله الحق، فعند مجيء الحق يضمحل الباطل، فلا يبقى له حراك.

ولهذا لا يروج الباطل إلا في الأزمان والأمكنة الخالية من العلم بآيات الله وبياناته.

﴿٨٥﴾ وقوله: ﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ فالقرآن مشتمل على الشفاء والرحمة، وليس ذلك لكل



الليل وملائكة النهار.

ففي هذه الآية، ذكر الأوقات الخمسة، للصلوات المكتوبات، وأن الصلوات الموقعة فيها فرائض، لتخصيصها بالأمم.

وفيها: أن الوقت شرط لصحة الصلاة، وأنه سبب لوجوبها، لأن الله أمر بإقامتها لهذه الأوقات.

وأن الظهر والعصر يجتمعان، والمغرب والعشاء كذلك، للعذر، لأن الله جمع وقتها جميعاً.

وفيه: فضيلة صلاة الفجر، وفضيلة إطالة القراءة فيها، وأن القراءة فيها ركن، لأن العبادة إذا سميت ببعض أجزائها، دل على فرضية ذلك.

وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾ أي: صل به في سائر أوقاته. ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي: لتكون صلاة الليل زيادة لك في علو القدر، ورفع الدرجات، بخلاف غيرك، فإنها تكون كفارة لسيئاته.

ويحتمل أن يكون المعنى: أن الصلوات الخمس فرض عليك وعلى المؤمنين، بخلاف صلاة الليل، فإنها فرض عليك بالخصوص، لكرامتك على الله، أن جعل وظيفتك أكثر من



وهذا السبب الذي منع أكثر الناس من الإيمان، حيث كانت الرسل التي ترسل إليهم من جنسهم بشراً.

وهذا من رحمة بهم، أن أرسل إليهم بشراً منهم، فإنهم لا يطيقون التلقي من الملائكة.

فلو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين، يثبتون على رؤية الملائكة والتلقي عنهم، لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً، ليمنكنهم التلقي عنه.

قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم إنه كان بعباده خبيراً بصيراً، فمن شهادته لرسوله ما أيده به من المعجزات، وما أنزله عليه من الآيات، ونصره على من عاداه وناواه.

فلو تقول عليه بعض الأقاويل، لأخذ منه باليمين، ثم لقطع منه الوتين، فإنه خير بصير، لا تخفى عليه من أحوال العباد خافية.

﴿٩٧ - ١٠٠﴾ ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً ماؤاهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً * ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا إذا كنا عظاماً ورُفَاتاً إنا لمبعوثون خلقاً جديداً * أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه فأبى الظالمون إلا كفوراً * قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لمأسكنكم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتوراً * يخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية والإضلال، فمن يهده، فييسره لليسرى ويخيه العسرى، فهو المهتدي على الحقيقة، ومن يضله، فيخذله، ويكله إلى نفسه، فلا هادي له من دون الله، وليس له ولي ينصره من عذاب الله، حين يحشرهم الله على وجوههم خزيًا وإهانة، عمياً وبكماً،

جميع النعم، وجعلوا يتعننون عليه [باقتراح] آيات غير آياته، يخترعونها من تلقاء أنفسهم الظالمة الجاهلة.

فيقولون لرسول الله الذي أتى بهذا القرآن المشتمل على كل برهان وآية: ﴿لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ أي: أنهاراً جارية.

﴿أو تكون لك جنة من نخيل وعنب﴾ فتستغني بها عن المشي في الأسواق والذهاب والمجيء.

﴿أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً﴾ أي: قطعاً من العذاب، ﴿أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً﴾ أي: جميعاً، أو مقابلة ومعابنة، يشهدون لك بما جئت به.

﴿أو يكون لك بيت من زخرف﴾ أي: مزخرف بالذهب وغيره ﴿أو ترقى في السماء رقياً حسياً﴾ و﴿مع هذا﴾ لن نؤمن لرفيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه.

ولما كانت هذه تعذبات وتعجزات، وكلام أسفه الناس وأظلمهم، المتضمنة لرد الحق وسوء الأدب مع الله، وأن الرسول هو الذي يأتي بالآيات، أمره الله أن ينزله فقال: ﴿قل سبحان ربي﴾ عما يقولون علواً كبيراً، وسبحانه أن تكون أحكامه وآياته تابعة لأهوائهم الفاسدة، وآرائهم الضالة.

﴿هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾ ليس بيلي شيء من الأمر.

لا يبصرون ولا ينطقون.

﴿ماؤاهم﴾ أي: مقرهم ودارهم ﴿جهنم﴾ التي جمعت كل هم وعذب وعذاب.

﴿كلما خبت﴾ أي: تميات للانطفاء ﴿زدناهم سعيراً﴾ أي: سعرتها بهم لا يفتر عنهم العذاب، ولا يقضى عليهم فيموتوا، ولا يخفف عنهم من عذابها، ولم يظلمهم الله تعالى، بل جازاهم بما كفروا بآياته وأنكروا البعث الذي أخبر به الرسل ونطقت به الكتب وعجزوا بهيم وأنكروا تمام قدرته.

﴿وقالوا إذا كنا عظاماً ورُفَاتاً إنا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾ أي: لا يكون هذا لأنه في غاية البعد عند عقولهم الفاسدة.

﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض﴾ وهي أكبر من خلق الناس. ﴿قادر على أن يخلق مثلهم﴾ بلى، إنه على ذلك قدير.

﴿و﴾ لكنه قد جعل لذلك أجلاً لا ريب فيه ولا شك، وإلا فلو شاء لجاءهم به بغتة، ومع إقامته الحجج والأدلة على البعث.

﴿فأبى الظالمون إلا كفوراً﴾ ظلماً منهم وافتراء.

﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي﴾ التي لا تنفذ ولا تبسد. ﴿إذا لمأسكنكم خشية الإنفاق﴾ أي: خشية أن ينفد ما تنفقون منه، مع أنه من المحال أن تنفذ خزائن الله، ولكن الإنسان مطبوع على الشح والبخل.

﴿١٠١ - ١٠٤﴾ ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذا جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحوراً * قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مشبوراً * فأراد أن يستقرهم

من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعاً *
 وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا
 الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم
 لفيفاً * أي : لست أيها الرسول المؤيد
 بالآيات، أول رسول كذبه الناس،
 فلقد أرسلنا قبلك موسى بن عمران
 الكليم، إلى فرعون وقومه، وآتيناه
 ﴿تسع آيات نينات﴾ كل واحدة منها
 تكفي لمن قصده اتباع الحق، كالخية،
 والعصا، والظوفان، والجراد،
 والقمل، والضفادع، والدم، والرجز،
 وفلق البحر.

فإن شككت في شيء من ذلك ﴿فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون﴾ مع هذه الآيات ﴿إني لأظنك يا موسى مسحوراً﴾ .

ف قال له موسى لقد علمت يا فرعون ما أنزل هؤلاء الآيات إلا رب السموات والأرض بصائر منه لعباده، فليس قولك هذا بالحقيقة، وإنما قلت ذلك ترويحاً على قومك، واستخفافاً لهم.

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾
أي: محقوتاً، ملقى في العذاب، لك
الويل والذم واللعنة.

﴿فَأَرَادَ﴾ فرعون ﴿أَن يَسْتَفْزِمَهُمْ﴾ من الأرض ﴿أَن يَجْلِبَهُمْ﴾ ويخْرِجَهُمْ مِنْهَا. ﴿فَاغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ.

ولهذا قال: ﴿وَقُلْنَا مَنْ بَعْدَهُ لَبِئْسَ إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي: جميعاً، ليجازي كل عامل بعمله.

﴿١٠٥﴾ ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ بِالْحَقِّ﴾ نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً ﴿أَي: وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ هَذَا الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ، لِأَمْرِ الْعِبَادِ وَنَهْيِهِمْ، وَثَوَابِهِمْ وَعِقَابِهِمْ، ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أَي: بِالصِّدْقِ وَالْعَدْلِ وَالْحَقِّظْ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ

بِالثَّوَابِ الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ ﴿وَنَذِيرًا﴾ لِمَنْ عَصَى اللَّهَ بِالْعِقَابِ الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ ، وَيَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ بَيَانُ مَا بَشَّرَهُ وَأَنْذَرَهُ .

﴿١٠٦-١٠٩﴾ ﴿وَقَرَأْنَا فَرَقَانَا﴾
لنقرأه على الناس على مكث ونزلناه
تنزيلاً * قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن
الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى
عليهم يخرون للأذقان سجداً *
ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا
لمفعولاً * ويخرون للأذقان يسبحون
ويزيدهم خشوعاً ﴿أي: وأزلنا هذا
القرآن مفزقاً، فارقاً بين الهدى
والضلال، والحق والباطل. ﴿لنقرأه
على الناس على مكث﴾ أي: على مهل،
لنتدبروه ويتفكروا في معانيه،
ويستخرجوا علومه.

﴿ونزلناه تمزيلاً﴾ أي: شيئاً فشيئاً،
مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ فإذا تبين أنه الحق، الذي لا شك فيه ولا ريب، بوجه من الوجوه فـ:

﴿قُلْ﴾: لمن كذب به وأعرض عنه: ﴿أمنوا به أو لا تؤمنوا﴾ فليس لله حاجة فيكم، ولستم بضاربه شيئاً، وإنما ضرر ذلك عليكم، فإن الله عبداً غيركم، وهم الذين آتاهم الله العلم النافع: ﴿إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً﴾ أي: يتأثرون به غاية التأثر، ويخضعون له.

﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ عما
لا يليق بجلاله، مما نسب به إليه
المشركون. ﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا﴾
بالبعث والجزاء بالأعمال ﴿مُفْعُولًا﴾
لا خُلف فيه ولا شك.

﴿وَيَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ أي: على
وجوههم ﴿يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمُ﴾ القرآن
﴿خُسْرًا﴾.

وهؤلاء كالذين آمنوا بالله عليهم من
مؤمني أهل الكتاب كعبد الله بن سلام
وغيره، ممن آمن^(١) في وقت
النبي ﷺ وبعد ذلك.

[illegible]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الحمد لله الذي أنزل على عبد الكتب ولا يجعل له عوجاً
فيما لا يدرك بأساً يبدى كأنه واهٍ وميضاً للمفصّلين الذين
يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ملكين
في أولها وسيراً في آيات قالوا الحمد لله ولا

﴿١١٠ - ١١١﴾ ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا يَهْوِيَ رَبَابُكُمْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ الْمُلْكُ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا﴾ يَقُولُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ:

﴿ادعوا لله أو ادعوا الرحمن﴾: أي: أيها شتم. ﴿إِنَّمَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أي: ليس له اسم غير حسن، حتى ينتهي عن دَعَائِهِ به، بل أي: اسم دَعَوْتِهِ به، حصل به المقصود، والذي ينبغي أن يدعى في كل مطلوب، بما يناسب ذلك الاسم. ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ أي:

قراءتك ﴿ولا تخافت بها﴾ فإن في كل من الأمرين محذوراً. أما الجهر، فإن المشركين المكذابين به إذا سمعوه سيئوه، ونسبوا من جاء به.



«الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك» بل الملك كله لله الواحد القهار، فالعالم العلوي والسفلي، كلهم مملوكون لله، ليس لأحد من الملك شيء.

«ولم يكن له ولي من الدن» أي: لا يتولى أحداً من خلقه ليتعزز به ويعاونه، فإنه الغني الحميد، الذي لا يحتاج إلى أحد من المخلوقات، في الأرض ولا في السماوات، ولكنه يتخذ أولياء إحساناً منه إليهم ورحمة بهم

«الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور»
«وكبره تكبيرا» أي: عظمه وأجله بالإخبار بأوصافه العظيمة، وبالشأن عليه، بأسمائه الحسنى، وبتمجيده بأفعاله المقدسة، وبتعظيمه وإجلاله بعبادته وحده لا شريك له، وإخلاص الدين كله له.

تم تفسير سورة الإسراء والله الحمد والمنة والثناء الحسن على يد جامع عبد الرحمن ابن ناصر بن عبد الله بن سعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين وصلى الله على محمد وسلم تسليماً وذلك في ٧ جمادى الأولى ١٣٤٤.

المجلد الخامس من تفسير الكريم الرحمن من تفسير كلام المنان لجامعه الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر السعدي^(١)

تفسير سورة الكهف وهي مكية

«١ - ٦» «بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً» قتيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً «ما كثرين فيه أبداً» وينذر

(١) كان الشيخ - رحمه الله - قد طلب في ١٣٧٤/٢/٣١ من الشيخ محمد نصيف - رحمه الله - أن يختار من يتولى طباعة خمسة آلاف نسخة من المجلد الخامس من التفسير، وذكر محب الدين الخطيب والشيخ حامد الفقي - رحمهما الله - فبعث الشيخ محمد نصيف - رحمه الله - بالكتاب إلى الأستاذ: محب الدين الخطيب لطباعته، وطبع بالفعل عام ١٣٧٥هـ، وقد جعل الشيخ - رحمه الله - لهذا الجزء مقدمة، واتباعه بخاتمة فيها أصول وكتليات من أصول وكتليات التفسير، وهذه هي مقدمة الشيخ لهذا الجزء، وأما الخاتمة فقد جعلتها في آخر التفسير، قال - رحمه الله -:

(بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله، وأصلي وأسلم على محمد وآله وصحبه. أما بعد فلما كان علم التفسير للقرآن أشرف العلوم على الإطلاق وأهمها وأحقها بتحقيق معانيه وفهم مبانيه، لكونه تنزيلاً من حكيم حميد أنزله هدى ورحمة للعباد وتبياناً لكل شيء وتفصيلاً لكل ما يحتاجونه في دينهم ودنياهم وأخراهم، وكان من خاصة علم القرآن أن فهم بعضه وطائفة منه يعين على فهم جميعه، لأن القرآن من أوله إلى آخره يدور على تقرير الأصول النافعة والحقائق والشرائع الكبار والأحكام الحسنة والعقائد الصحيحة، ويوجه العباد إلى كل خير ويحذرهم من كل شر، ويعيد تقرير هذه الأمور ويبيدها بأساليب متنوعة وتصاريح مناسبة في غاية اليسر والسهولة والإحكام والحسن الذي لا مزيد عليه. وقد تكرر عليّ السؤال من كثير من الأصحاب في نشر تفسيرنا هذا جميعه وألجوا لما يروونه من الفائدة الكبيرة، فاعتذرت بأن ذلك يصعب جداً لأنه مبسوط، وأيضاً في هذه الأوقات قلت رغبات الناس في الكتب المطولة، لذلك أحببت إجابتهم لنشر بعض ما طلبوا وهو الاختصار على جزء واحد من أجزاء هذا التفسير، ووقع الاختيار على الجزء الأوسط من سورة الكهف إلى آخر النمل، فما لا يحصل جميعه لا يترك جميعه. وأرجو الله وأسأله أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه، نافعاً لنا ولاخواننا، وأن يمدنا بعونه وعنايته وتوفيقه إنه جواد كريم رءوف رحيم. وأتبعته بكتليات وأصول من كتليات التفسير لاستدراك ما لعله يقوت القارئ في غير هذا الجزء، فإن الأصول والكتليات تبنى عليها الفروع والجزئيات، ويحصل بها من النفع والفائدة على اختصارها ما لا يحصل في الكلام الطويل، وهو حسناً ونعم الوكيل.

(٢) في ب: مقيم.

وتطهرها وتنميتها وتكملها، لا شتمالها على كمال العدل والقسط، والإخلاص، والعبودية لله رب العالمين وحده لا شريك له. وحقيق بكتاب موصوف بما ذكر، أن يمدح الله نفسه على إنزاله، وأن يتمدح إلى عباده به.

وقوله: ﴿لينذر بأساً شديداً من لدنه﴾ أي: لينذر بهذا القرآن الكريم، عقابه الذي عنده، أي: قدره وقضاه، على من خالف أمره، وهذا يشمل عقاب الدنيا وعقاب الآخرة، وهذا أيضاً من نعمه، أن خوف عباده، وأنذرهم ما يضرهم ويهلكهم.

كما قال تعالى - لما ذكر في هذا القرآن وصف النار - قال: ﴿ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون﴾. فمن رحمته بعباده، أن يقض العقوبات الغليظة على من خالف أمره، ويبتليها لهم، وبين لهم الأسباب الموصلة إليها.

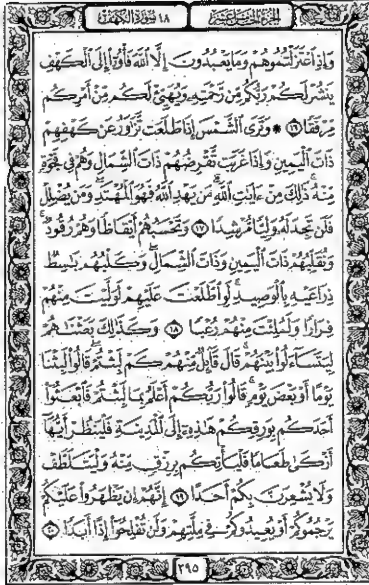
﴿ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً﴾ أي: وأنزل الله على عبده الكتاب، ليبشر المؤمنين به، ويرسله، وكتبه، الذين كمل إيمانهم، فأوجب لهم عمل الصالحات، وهي الأعمال الصالحة، من واجب ومستحب، التي جمعت الإخلاص والتابعة، ﴿أن لهم أجراً حسناً﴾ وهو الثواب الذي رتبته الله على الإيمان والعمل الصالح، وأعظمه وأجله، الفوز برضا الله ودخول الجنة، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وفي وصفه بالحسن، دلالة على أنه لا مكدر فيه ولا منغص بوجه من الوجوه، إذ لو وجد فيه شيء من ذلك، لم يكن حسنة تاماً، ومع ذلك فهذا الأجر الحسن ﴿ما كثر فيه أبداً﴾ لا يزول عنهم، ولا يزولون عنه، بل نعيمهم في كل وقت متزايد، وفي ذكر التبشير ما يقتضي ذكر الأعمال الموجبة

للمبشر به، وهو أن هذا القرآن قد اشتمل على كل عمل صالح، موصل لما تستبشر به النفوس، وتفرح به الأرواح.

﴿ولينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً﴾ من اليهود والنصارى والمشركين، الذين قالوا هذه المقالة الشنيعة، فإنهم لم يقولوها عن علم ولا يقين، لا علم منهم، ولا علم من آبائهم الذين قلدهم واتبعوهم، بل إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس، ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم﴾ أي: عظمت شناعتها واشتدت عقوبتها، وأي: شناعة أعظم من وصفه بالاتخاذ للولد^(١) الذي يقتضي نقصه،

ومشاركة غيره له في خصائص الربوبية والإلهية، والكذب عليه!!! ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ ولهذا قال هنا: ﴿إن يقولون إلا كذباً﴾ أي: كذباً محضاً ما فيه من الصدق شيء، وتأمل كيف أبطل هذا القول بالتدريج، والانتقال من شيء إلى أبطل منه، فأخبر أولاً: أنه ﴿ما لهم به من علم ولا آياتهم﴾ والقول على الله بلا علم، لا شك في منعه وبطلانه، ثم أخبر ثانياً، أنه قول قبيح شنيع فقال: ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم﴾ ثم ذكر ثالثاً مرتبته من القبح، وهو الكذب المنافي للصدق.

ولما كان النبي ﷺ حريصاً على هداية الخلق، ساعياً في ذلك أعظم السعي، فكان ﷺ يفرح ويسر بهداية المهتدين، ويحزن ويأسف على المكذبين الضالين، شفقة منه ﷺ عليهم، ورحمة بهم، أرشده الله أن لا يشغل نفسه بالأسف على هؤلاء، الذين لا يؤمنون بهذا القرآن، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لعلك باخع نفسك أن لا تكونوا مؤمنين﴾ وقال: ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ وهنا قال ﴿فلعلك باخع نفسك﴾ أي: مهلكها غماً وأسفاً عليهم، وذلك أن أجرك قد وجب على الله، وهؤلاء لو



علم الله فيهم خيراً لهداهم، ولكنه علم أنهم لا يصلحون إلا للنار، فلذلك خذلهم فلم يثبتوا، فإشغالك نفسك غماً وأسفاً عليهم، ليس فيه فائدة لك. وفي هذه الآية ونحوها عبرة، فإن المأمور بدعاء الخلق إلى الله، عليه التبليغ والسعي بكل سبب يوصل إلى الهداية، وسد طرق الضلال والغواية بغاية ما يمكنه، مع التوكل على الله في ذلك، فإن اهتدوا فيها ورغبتم، وإلا فلا يحزن ولا يأسف، فإن ذلك مُضعف للنفس، هادم للقوى، ليس له فيه فائدة، بل يمضي على فعله الذي كُلف به وتوجه إليه، وما عدا ذلك، فهو خارج عن قدرته، وإذا كان النبي ﷺ يقول الله له: ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾ وموسى عليه السلام يقول: ﴿رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي﴾ الآية، فمن عداهم، من باب أولى وأحرى، قال تعالى: ﴿فذكر إنما أنت مذكر﴾ * لست عليهم بمسيطر.

﴿٧-٨﴾ ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيمهم أحسن عملاً﴾ وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً ﴿نحبر تعالى﴾ أنه جعل جميع ما على وجه الأرض، من مأكَل لذيذة، ومشارب، ومسكن^(٢) طيبة،

(١) كذا في ب، وفي أ: الولد.

(٢) في ب: وملابس.



الدنيا منزل عبور، لا محل عبور، وشقة سفر، لا منزل إقامة، فبذل جهده في معرفة ربه، وتنفيذ أوامره، وإحسان العمل، فهذا بأحسن المنازل عند الله، وهو حقيق منه بكل كرامة ونعيم، وسرور وتكريم، فنظر إلى باطن الدنيا، حين نظر المغتر إلى ظاهرها، وعمل لآخرته، حين عمل الباطل لدنياه، فشتان ما بين الفريقين، وما أبعد الفرق بين الطائفتين!!

﴿٩٦ - ١٢﴾ * أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً * إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهىء لنا من أمرنا رشداً * فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً * ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً * وهذا الاستفهام بمعنى النفي والتعجب أي: لا تظن أن قصة أصحاب الكهف، وما جرى لهم، غريبة على آيات الله، وبديعة في حكمته، وأنه لا نظير لها، ولا مجانس لها، بل لله تعالى من الآيات العجيبة الغريبة ما هو كثير، من جنس آياته، في أصحاب الكهف وأعظم منها، فلم يزل الله يُري عباده من الآيات في الأفق وفي أنفسهم، ما يتبين به الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وليس المراد بهذا النفي عن أن تكون قصة أصحاب الكهف من العجائب، بل هي من آيات الله العجيبة، وإنما المراد، أن جنسها كثير جداً، فالوقوف معها وحدها، في مقام العجب والاستغراب، نقص في العلم والعقل، بل وظيفة المؤمن التفكير بجميع آيات الله، التي دعا الله العباد إلى التفكير فيها، فإنها مفتاح الإيمان، وطريق العلم والإيقان. وأضافهم إلى الكهف، الذي هو الغار في الجبل، والرقيم، أي: الكتاب الذي قد رقت فيه أسماؤهم وقصتهم، ملازمهم له دهر طويلاً، ثم ذكر قصتهم مجملة، وفصلها بعد ذلك فقال: ﴿إذ أوى الفتية﴾ أي: الشباب، ﴿إلى الكهف﴾ يريدون بذلك التحصن والتحرز من

فتنة قومهم لهم، ﴿فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة﴾ أي: تثبتنا بها وتحفظنا من الشر، وتوفقنا للخير ﴿وهىء لنا من أمرنا رشداً﴾ أي: يسر لنا كل سبب موصل إلى الرشd، وأصلح لنا أمر ديننا ودنيانا، فجمعوا بين السعي والفرار من الفتنة، إلى محل يمكن الاستخفاء فيه، وبين تضرعهم وسؤالهم لله تيسير أمورهم، وعدم اتكالهم على أنفسهم وعلى الخلق، فلذلك استجاب الله دعاءهم، وقض لهم ما لم يكن في حسابهم، قال: ﴿فضربنا على آذانهم في الكهف﴾ أي: أنمناهم ﴿سنين عدداً﴾ وهي ثلاث مئة سنة وتسع سنين، وفي النوم المذكور حفظ لقلوبهم من الاضطراب والخوف، وحفظ لهم من قومهم، وليكون آية بينة، ﴿ثم بعثناهم﴾ أي: من نومهم ﴿لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً﴾ أي: لنعلم أيهم أحصى لمدار مدتهم، كما قال تعالى: ﴿وكذلك بعثناهم لنبشروا لبيسهم﴾، وفي العلم بمقدار لكمال قدرة الله تعالى وحكمته ورحمته، فلو استمروا على نومهم، لم يحصل الاطلاع على شيء من ذلك من قصتهم.

﴿١٣ - ١٤﴾ * نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى * وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذا شططاً * هذا شروع في تفصيل قصتهم، وأن الله يقصها على نبيه بالحق والصدق، الذي ما فيه شك ولا شبهة بوجه من الوجوه، ﴿إنهم فتية آمنوا بربهم﴾ وهذا من جموع القلة، يدل ذلك على أنهم دون العشرة، ﴿آمنوا﴾ بالله وحده لا شريك له من دون قومهم، فشكر الله لهم إيمانهم، فزادهم هدى، أي: بسبب أصل اهتدائهم إلى الإيمان، زادهم الله من الهدى، الذي هو العلم النافع، والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾.

وأشجار، وأنهار، وزروع، وثمار، ومناظر بهيجة، ورياض أنيقة، وأصوات شجية، وصور مليحة، وذهب وفضة، وخيل وإبل ونحوها، الجميع جعله الله زينة لهذه الدار، فتنة واختياراً. ﴿لنبشروهم أهم أحسن عملاً﴾ أي: أخلصه وأصوبه، ومع ذلك سيجعل الله جميع هذه المذكورات، فانية مضمحلة، وزائلة متفضية، وستعود الأرض صعيداً جرداً قد ذهبت لذاتها، وانقطعت أنهارها، واندرست آثارها، وزال نعيمها، هذه حقيقة الدنيا، قد جلاها الله لنا كأنها رأي عين، وحذرنا من الاغترار بها، وورغنا في دار يدوم نعيمها، ويسعد مقيمها، كل ذلك رحمة بنا، فاعتر بزخرف الدنيا وزينتها، من نظر إلى ظاهر الدنيا، دون باطنها، فصحبوا الدنيا صحبة البهائم، وتمتعوا بها تمتع السوائم، لا ينتظرون في حق ربهم، ولا يشتمون لعرفته، بل همهم تناول الشهوات، من أي وجه حصلت، وعلى أي حالة اتفتت، فهو لا إذا حضر أحدهم الموت، قلق لخراب ذاته، وفوات لذاته، لا لما قدمت يداه من التفریط والسيئات..

وأما من نظر إلى باطن الدنيا، وعلم المقصود منها ومنه، فإنه تناول منها، ما يستعين به على ما خلق له، وانتهاز الفرصة في عمره الشريف، فجعل

﴿وربطنا على قلوبهم﴾ أي: صبرناهم وثبتناهم، وجعلنا قلوبهم مطمئنة في تلك الحالة المزعجة، وهذا من لطفه تعالى بهم وبره، أن وفقهم للإيمان والهدى، والصبر والثبات، والطمأنينة.

﴿إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض﴾ أي: الذي خلقنا ورزقنا، ودبرنا وربانا، هو خالق السموات والأرض، المنفرد بخلق هذه المخلوقات العظيمة، لا تلك الأوثان والأصنام، التي لا تخلق ولا ترزق، ولا تملك نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فاستدلوا بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية، ولهذا قالوا: ﴿لن ندعو من دونه إلهاً﴾ أي: من سائر المخلوقات ﴿لقد قلنا إذا﴾ أي: إن دعونا معه آلهة، بعد ما علمنا أنه الرب الإله، الذي لا تجوز ولا تنبغي العبادة إلا له ﴿شططاً﴾ أي: ميلاً عظيماً عن الحق، وطريقاً بعيدة عن الصواب، فجمعوا بين الإقرار بتوحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، والتزام ذلك، وبيان أنه الحق وما سواه باطل، وهذا دليل على كمال معرفتهم بربهم، وزيادة الهدى من الله لهم.

﴿١٥﴾ ﴿هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ لما ذكروا ما من الله به عليهم من الإيمان والهدى، التفقروا^(١) إلى ما كان عليه قومهم، من اتخاذ الآلهة من دون الله، فمقتوهم، وبينوا أنهم ليسوا على يقين من أمرهم، بل هم في غاية الجهل والضلال فقالوا: ﴿لولا يأتون عليهم بسلطان بين﴾ أي: بحجة وبرهان، على ما هم عليه من الباطل، ولا يستطيعون سبيلاً إلى ذلك، وإنما ذلك افتراء منهم على الله وكذب عليه، وهذا أعظم الظلم، ولهذا قال: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾

﴿١٦﴾ ﴿وإذا اعتزلتموهم وما

يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً﴾ أي: قال بعضهم لبعض، إذ حصل لكم اعتزال قومكم في أجسامكم وأديانكم، فلم يبق إلا النجاء من شرهم، والتسبب بالأسباب المفضية لذلك، لأنهم لا سبيل لهم إلى قتالهم، ولا بقائهم^(٢) بين أظهرهم، وهم على غير دينهم، ﴿فأووا إلى الكهف﴾ أي: انضموا إليه واختفوا فيه ﴿ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً﴾ وفيما تقدم، أخبر أنهم دعوه بقولهم: ﴿ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً﴾ فجمعوا بين التبري من حولهم وقوتهم، والاتجاه إلى الله في صلاح أمرهم، ودعائه بذلك، وبين الثقة بالله أنه سيفعل ذلك، لا جرم أن الله نشر لهم من رحمته، وهبنا لهم من أمرهم مرفقاً، فحفظ أديانهم وأبدانهم، وجعلهم من آياته على خلقه، ونشر لهم من الثناء الحسن، ما هو من رحمته بهم، ويسر لهم كل سبب، حتى المحل الذي ناموا فيه، كان على غاية ما يمكن من الصيانة، ولهذا قال:

﴿١٧-١٨﴾ ﴿وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾ وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً﴾ أي: حفظهم الله من الشمس فيسر لهم غاراً إذا طلعت الشمس تميل عنه يمينا، وعند غروبها تميل عنه شمالاً، فلا ينالهم حرها فتفسد أبدانهم بها، ﴿وهم في فجوة منه﴾ أي: من الكهف أي: مكان متسع، وذلك ليطرقهم الهواء والنسيم، ويوزل عنهم الزخم والتأذي بالمكان الضيق، خصوصاً مع طول

المكث، وذلك من آيات الله الدالة على قدرته ورحمته بهم، وإجابة دعائهم وهدايتهم حتى في هذه الأمور، ولهذا قال: ﴿من يهد الله فهو المهتد﴾ أي: لا سبيل إلى نيل الهداية إلا من الله، فهو الهادي المرشد لمصالح الدارين، ﴿ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾ أي: لا تجد من يتولاه ويديره، على ما فيه صلاحه، ولا يرشده إلى الخير والصلاح، لأن الله قد حكم عليه بالضلال، ولا راد لحكمه.

﴿وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود﴾ أي: تحسبهم أينما التناظر إليهم كأنهم^(٣) أيقاظ، والحال أنهم نيام، قال المفسرون: وذلك لأن أعينهم مفتوحة، لئلا تفسد، فالتناظر إليهم يحسبهم أيقاظاً، وهم رقود، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال﴾ وهذا أيضاً من حفظه لأبدانهم، لأن الأرض من طبيعتها أكل الأجسام المتصلة بها، فكان من قدر الله، أن قلبهم على جنوبهم يمينا وشمالاً، بقدر ما لا تفسد الأرض أجسامهم، والله تعالى قادر على حفظهم من الأرض، من غير تقليب، ولكنه تعالى حكيم، أراد أن تجري سته في الكون، ويربط الأسباب بمسبباتها.

﴿وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد﴾ أي: الكلب الذي كان مع أصحاب الكهف، أصابه ما أصابهم من النوم وقت حراسته، فكان باسطاً ذراعيه بالوصيد، أي: الباب، أو فتاته، هذا حفظهم من الأرض. وأما حفظهم من الآدميين، فأخبر أنه جاهد بالرب، الذي نشره الله عليهم، فلو اطلع عليهم أحد، لامتلا قلبه رعباً، وولي منهم فراراً، وهذا الذي أوجب أن يبقوا كل هذه المدة الطويلة، وهم لم يعثر عليهم أحد، مع قربهم من المدينة جداً، والدليل على قربهم، أنهم لما استيقظوا، أرسلوا أحدهم يشتري لهم طعاماً من المدينة، ويقوا في انتظاره، فدل ذلك على شدة قربهم منها.

(٣) في النسخين: كأنه.

(٢) في النسخين: ولا بقاؤهم.

(١) في ب: والتقوى وهو تصحيف.

﴿١٩- ٢٠﴾ وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعدوا أحدهم بوركتم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحداً * إنهم إن يظهروا عليكم يرمجوكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا أبداً يقول تعالى: ﴿وكذلك بعثناهم﴾ أي: من نومهم الطويل ﴿ليتساءلوا بينهم﴾ أي: ليتباحثوا للوقوف على الحقيقة من مدة لبثهم.

﴿قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم﴾ وهذا مبني على ظن القائل، وكأنهم وقع عندهم اشتباه في طول مدتهم، فلهذا ﴿قالوا ربكم أعلم بما لبثتم﴾. فردوا العلم إلى المحيط علمه بكل شيء، جملة وتفصيلاً، ولعل الله تعالى - بعد ذلك - أطلعهم على مدة لبثهم، لأنه بعثهم ليتساءلوا بينهم، وأخبر أنهم تساءلوا، وتكلموا بمبلغ ما عندهم، وصار آخر أمرهم الاشتباه، فلا بد أن يكون قد أخبرهم يقيناً، علمنا ذلك من حكمته في بعثهم، وأنه لا يفعل ذلك عبثاً. ومن رحمته بمن طلب علم الحقيقة في الأمور المطلوب علمها، وسعى لذلك ما أمكنه، فإن الله يوضح له ذلك، وبما ذكر فيما بعده من قوله: ﴿وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها﴾ فلو أنه حصل العلم بحالهم، لم يكونوا دليلاً على ما ذكر، ثم إنهم لما تساءلوا بينهم، وجزى منهم ما أخبر الله به، أرسلوا أحدهم بوركهم، أي: بالدرهم، التي كانت معهم، ليشتري لهم طعاماً يأكلونه، من المدينة التي خرجوا منها، وأمره أن يتخير من الطعام أزكاه، أي: أطيبه وألذ، وأن يتلطف في ذهابه وشرائه وإيابه، وأن يختفي في ذلك، ويخفي حال إخوانه، ولا يشعرن بهم أحداً. وذكروا المحذور من اطلاع غيرهم عليهم، وظهورهم عليهم، أنهم بين أمرين، إما

الرجم بالحجارة، فيقتلونهم أشنع قتلة، لحقهم عليهم وعلى دينهم، ولما أن يفتنوه عن دينهم، ويردوهم في ملتهم، وفي هذه الحال، لا يفلحون أبداً، بل يخسرون في دينهم وديناهم وأخراهم، وقد دلت هاتان الآيتان على عدة فوائد:

ومنها: الحث على العلم، وعلى المباحة فيه، لكون الله بعثهم لأجل ذلك.

ومنها: الأدب فيمن اشتبه عليه العلم، أن يرده إلى عالمه، وأن يقف عند حده.

ومنها: صحة الوكالة في البيع والشراء، وصحة الشركة في ذلك.

ومنها: جواز أكل الطيبات، والمطاعم اللذيذة، إذا لم تخرج إلى حد الإسراف المنهي عنه لقوله: ﴿فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه﴾. وخصوصاً إذا كان الإنسان لا يلائمه إلا ذلك ولعل هذا عمدة كثير من المفسرين، القائلين بأن هؤلاء أولاد ملوك، لكونهم أمره بأزكى الأطعمة، التي جرت عادة الأغنياء الكبار بتناولها.

ومنها: الحث على التحرز، والاستخفاء، والبعد عن مواقع الفتن في الدين، واستعمال الكتمان في ذلك على الإنسان وعلى إخوانه في الدين.

ومنها: شدة رغبة هؤلاء الفتية في الدين، وفرارهم من كل فتنة، في دينهم، وتركهم أوطانهم في الله.

ومنها: ذكر ما اشتمل عليه الشر من المضار والمفاسد، الداعية لبعثه، وتركه، وأن هذه الطريقة، هي طريقة المؤمنين المتقدمين والمتأخرين، لقولهم: ﴿ولن تفلحوا إذا أبداً﴾.

﴿٢١﴾ وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً يخبر الله تعالى، أنه

أطلع الناس على حال أهل الكهف، وذلك - والله أعلم - بعدما استيقظوا، وبعثوا أحدهم يشتري لهم طعاماً، وأمره بالاستخفاء والإخفاء، فأراد الله أمراً فيه صلاح للناس، وزيادة أجر لهم، وهو أن الناس رأوا منهم آية من آيات الله، المشاهدة بالعيان، على أن وعد الله حق لا شك فيه ولا مزية ولا بُعد، بعدما كانوا يتنازعون بينهم أمرهم، فمن مثبت للوعد والجزاء، ومن ناف لذلك، فجعل قصتهم زيادة بصيرة ويقين للمؤمنين، وحجة على الجاحدين، وصار لهم أجر هذه القضية، وشهر الله أمرهم، ورفع قدرهم حتى عظمهم الذين اطلعوا عليهم.

و ﴿قالوا ابنوا عليهم بنياناً﴾ الله أعلم بحالهم ومآلهم، وقال من غلب على أمرهم، وهم الذين لهم الأمر:

﴿لنتخذن عليهم مسجداً﴾ أي: نعبد الله تعالى فيه، ونذكر به أحوالهم، وما جرى لهم، وهذه الحالة محظورة، نهي عنها النبي ﷺ، وذم فاعليها، ولا يدل ذكرها هنا على عدم ذمها، فإن السياق في شأن تعظيم أهل الكهف والثناء عليهم، وأن هؤلاء وصلت بهم الحال إلى أن قالوا: ابنوا عليهم مسجداً، بعد خوف أهل الكهف الشديد من قومهم، وحذرهم من الاطلاع عليهم، فوصلت الحال إلى ما ترى.

وفي هذه القصة، دليل على أن من فرّ بدينه من الفتن سلمه الله منها، وأن من حرص على العافية عافاه الله ومن أوى إلى الله، آواه الله، وجعله هداية لغيره، ومن تحمل الذل في سبيله وابتغاء مرضاته، كان آخر أمره وعاقبته العز العظيم من حيث لا يحتسب ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾.

﴿٢٢﴾ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعبادهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً

ولا تستفت فيهم منهم أحداً* يخبر تعالى عن اختلاف أهل الكتاب في عدة أصحاب الكهف، اختلافاً صارداً عن رجمهم بالغيب، وتقولهم بما لا يعلمون، وأنهم فيهم على ثلاثة أقوال:

منهم: من يقول: ثلاثة، رابعهم كلبهم، ومنهم من يقول: خمسة، سادسهم كلبهم. وهذان القولان، ذكر الله بعدهما، أن هذا رجم منهم بالغيب، فدل على بطلانها.

ومنهم من يقول: سبعة، وثامنهم كلبهم، وهذا - والله أعلم - الصواب، لأن الله أبطل الأولين ولم يبطله، فدل على صحته، وهذا من الاختلاف الذي لا فائدة تحته، ولا يحصل بمعرفة عددهم مصلحة للناس، دينية ولا دنيوية، ولهذا قال تعالى:

﴿قل ري أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل﴾ وهم الذين أصابوا الصواب وعلموا إصابتهم. ﴿فلا تمار﴾ أي: تجادل وتجادل وتحتاج ﴿فيهم إلا مراء ظاهراً﴾ أي: مبنياً على العلم واليقين، ويكون أيضاً فيه فائدة، وأما المارة المبنية على الجهل والرجم بالغيب، أو التي لا فائدة فيها، إما أن يكون الخصم معانداً، أو تكن المسألة لا أهمية فيها، ولا تحصل فائدة دينية بمعرفتها، كعدد أصحاب الكهف ونحو ذلك، فإن في كثرة المناقشات فيها، والبحوث المتسلسلة، تضيقاً للزمان، وتأثيراً في مودة القلوب بغير فائدة.

﴿ولا تستفت فيهم﴾ أي: في شأن أهل الكهف ﴿منهم﴾ أي: من أهل الكتاب ﴿أحداً﴾ وذلك لأن مبنی كلامهم فيهم على الرجم بالغيب والظن، الذي لا يغني من الحق شيئاً، ففيها دليل على المنع من استفتاء من لا يصلح للفتوى، إما لقصوره في الأمر المستفتى فيه، أو لكونه لا يبالي

بما تكلم به، وليس عنده ورع يحجزه، وإذا غي عن استفتاء هذا الجنس، فنهيه هو عن الفتوى، من باب أولى وأحرى.

وفي الآية أيضاً، دليل على أن الشخص، قد يكون منهياً عن استفتاءه في شيء دون آخر. فيستفتي فيما هو أهل له، بخلاف غيره، لأن الله لم ينه عن استفتاءهم مطلقاً، إنما نهى عن استفتاءهم في قصة أصحاب الكهف، وما أشبهها.

﴿٢٣ - ٢٤﴾ ﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً﴾ * إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً* هذا النهي كغيره، وإن كان لسبب خاص وموجهاً للرسول ﷺ، فإن الخطاب عام للمكلفين، فنهى الله أن يقول العبد في الأمور المستقبلية: ﴿إني فاعل ذلك﴾ من دون أن يقرنه بمشيئة الله، وذلك لما فيه من المحذور، وهو:

الكلام على الغيب المستقبل، الذي لا يدري هل يفعله أم لا؟ وهل يكون أم لا؟ وفيه رد الفعل إلى مشيئة العبد استقلالاً، وذلك محذور محذور، لأن المشيئة كلها لله ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ ولما في ذكر مشيئة الله، من تيسير الأمر وتسهيله، وحصول البركة فيه، والاستعانة من العبد لربه، ولما كان العبد بشراً، لا بد أن يسهو^(١) فيترك ذكر المشيئة، إذا أمره الله أن يستثني بعد ذلك، إذا ذكر، ليحصل المطلوب، ويندفع المحذور، ويؤخذ من عنوم قوله: ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾ الأمر بذكر الله عند النسيان، فإنه يزيله ويذكر العبد ما سها عنه، وكذلك يؤمر السامي الناسي لذكر الله، أن يذكر ربه، ولا يكون من الغافلين، ولما كان العبد مفتقراً إلى الله في توفيقه للإصابة، وعدم الخطأ في أقواله وأفعاله، أمره الله أن يقول: ﴿عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً﴾

(١) كذا في ب، وفي أ: يسي.



فأمره أن يدعو الله ويرجوه، ويثق به أن يهديه لأقرب الطرق الموصلة إلى الرشد. وحرثي بعبد تكون هذه حاله، ثم يبذل جهده، ويستفرغ وسعه في طلب الهدى والرشد، أن يوفق لذلك، وأن تأتيه المعونة من ربه، وأن يسدده في جميع أموره.

﴿٢٥ - ٢٦﴾ ﴿وليثوا في كهفهم ثلاث مئة سنين وأزادوا تسعاً﴾ * قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السماوات والأرض أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحداً* لما نهاه الله عن استفتاء أهل الكتاب، في شأن أهل الكهف، لعدم علمهم بذلك، وكان الله عالم الغيب والشهادة، العالم بكل شيء، أخبره بمدة لبثهم، وأن علم ذلك عنده وحده، فإنه من غيب السماوات والأرض، وغيبها تختص به، فما أخبر به عنها على السنة رسله، فهو الحق اليقين، الذي لا يشك فيه، وما لا يطلع رسله عليه، فإن أحداً من الخلق لا يعلمه.

وقوله: ﴿أبصر به وأسمع﴾ تعجب من كمال سمعه وبصره، وإحاطتهما بالمسموعات والمبصرات، بعدما أخبر بإحاطة علمه بالمعلومات. ثم أخبر عن

وذلت الآية الكريمة وما أشبهها، على أن الحلية عامة للذكور والإناث، كما ورد في الأحاديث الصحيحة لأنه أطلقها في قوله «يُحْلَوْنَ». وكذلك الحرير ونحوه.

﴿٣٢-٣٤﴾ «واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً * كلتا الجنتين آتت أكلهما ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلالهما نهراً * وكان له ثمر» يقول تعالى لنبيه ﷺ: اضرب للناس مثل هذين الرجلين، الشاكر لنعمة الله، والكافر لها، وما صدر من كل منهما، من الأقوال والأفعال، وما حصل بسبب ذلك من العقاب العاجل والآجل، والثواب، ليعتبرا بخالهما، ويتعظوا بما حصل عليهما، وليس معرفة أعيان الرجلين، وفي أي: زمان أو مكان هما فيه فائدة أو نتيجة، فالنتيجة تحصل من قصتهما فقط، والتعرض لما سوى ذلك من التكلف. فأحد هذين الرجلين الكافر لنعمة الله الجليلة، جعل الله له جنتين، أي: بستانين جنتين، من أعناب.

«وحففناهما بنخل» أي: في هاتين الجنتين من كل الثمرات، وخصتوصاً أشرف الأشجار، العنب والنخل، فالعنب في وسطها، والنخل قد حُفَّ بذلك، وذاً به، فحصل فيه من حسن المنظر وبهائه، وبروز الشجر والنخل للشمس والرياح، التي تكمل بها الثمار، وتنضج وتنضج، ومع ذلك جعل بين تلك الأشجار زرعاً، فلم يبق عليهما إلا أن يقال: كيف ثمار هاتين الجنتين؟ وهل لهما ماء يكفيهما؟ فأخبر تعالى أن كلا من الجنتين آتت أكلها، أي: ثمرها وزرعها ضعفين، أي: متضاعفاً ﴿٣٢﴾ أنها «لم تظلم منه شيئاً» أي: لم تنقص من أكلها أدنى شيء، ومع ذلك، فالأنهار في جوانبهما سارحة، كثيرة غزيرة.

«وكان له» أي: لذلك الرجل ثمر» أي: عظيم كما يفيد التثنية، أي: قد استكملت جنتاه ثمارها،

وشره، وعمل الصالحات من الواجبات والمستحبات «إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً» وإحسان العمل: أن يريد العبد العمل لوجه الله، متبعاً في ذلك شرع الله. فهذا العمل لا يضيعه الله، ولا شيئاً منه، بل يحفظه للعاملين، ويوفيه من الأجر، بحسب عملهم وفضله وإحسانه، وذكر أجرهم بقوله:

«أولئك لهم جنان عدن تجري من تحتهم الأنهار يحولون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك». أي: أولئك الموصوفون بالإيمان والعمل الصالح، لهم الجنان العالياً التي قد كثرت أشجارها، فأجنت من فيها، وكثرت أنهارها، فصارت تجري من تحت تلك الأشجار الأنينة، والمنازل الرفيعة، وحللتهم فيها الذهب، ولباسهم فيها الحرير الأخضر من السندس، وهو الغليظ من الديباج، والإستبرق، وهو ما رق منه. متكئين فيها على الأرائك، وهي السرر المزينة، المجدلة بالثياب الفاخرة، فإنها لا تسمى أريكة حتى تكون كذلك، وفي اتكائهم على الأرائك، ما يدل على كمال الراحة، وزوال التعب والتعب، وكون الخدم يسعون عليهم بما يشتهون، وتقام ذلك الخلود الدائم والإقامة الأبدية، فهذه الدار الجليلة «نعم الثواب» للعاملين «وحسنت مرتفعاً» يرتفعون بها، ويتمتعون بما فيها، مما تشتهيه الأنفس وتلد الأعين، من الخيرة والسرور، والفرح الدائم، واللذات المتواترة، والنعم المتوافرة، وأي: مرتفع أحسن من دار، أدنى أهلها يسير في ملكه ونعيمه وقصوره وبساتينه ألقي سنة، ولا يرى فوق ما هو فيه من النعيم، قد أعطي جميع أمانيه ومطالبه، وزيد من المطالب، ما قصرت عنه الأمان، ومع ذلك، فنعيمهم على الدوام متزايد في أوصافه وحسنه، فنسأل الله الكريم، أن لا يجرمنا خير ما عنده من الإحسان، بشر ما عندنا من التقصير والعصيان.

«فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر» أي: لم يبق إلا سبوك أحد الطريقين، بحسب توفيق العبد، وعدم توفيقه، وقد أعطاه الله مشيئة بها يقدر على الإيمان والكفر، والخير والشر، فمن آمن فقد وفق للصواب، ومن كفر فقد قامت عليه الحجة، وليس بمكره على الإيمان، كما قال تعالى «لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي» وليس في قوله: «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر» الإذن في كلا الأمرين، وإنما ذلك تهديد ووعيد لمن اختار الكفر بعد البيان التام، كما ليس فيها ترك قتال الكافرين. ثم ذكر تعالى مال الفريقين فقال: «إنا اعتدنا للظالمين» بالكفر والفسوق والعصيان «ناراً أحاط بهم سرادقها» أي: سورها المحيط بها، فليس لهم منفذ ولا طريق ولا مخلص منها، تصلاهم النار الحامية.

«وإن يستغيثوا» أي: يطلبوا الشراب، ليطفئ ما نزل بهم من العطش الشديد.

«يسأئوا بماء كالمهل» أي: كالرصاص المذاب، أو كعكر الزيت، من شدة حرارته.

«يشوي الوجوه» أي: فكيف بالأمعاء والبطون، كما قال تعالى «يصهر به ما في بطونهم والجلود» ولهم مقامع من حديد.

«يش الشراب» الذي يراد ليطفئ العطش، ويدفع بعض العذاب، فيكون زيادة في عذابهم، وشدة عقابهم.

«وساءت» النار «مرتفعاً» وهذا ذم لحالة النار، أنها ساءت المحل، الذي يرتفع به، فإنها ليس فيها ارتفاق، وإنما فيها العذاب العظيم الشاق، الذي لا يفتقر عنهم ساعة، وهم فيه مبلسون، قد أيسوا من كل خير، ونسيهم الرحيم في العذاب كما نسوه

ثم ذكر الفريق الثاني فقال: «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات» أي: جمعوا بين الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره

من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً * أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً * وأحيط بشمره فأصبح بقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً * ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً * هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقاباً.

أي: قال للكافر صاحبه المؤمن: أنت - وإن فخرت علي بكثرة مالك وولديك، ورأيتني أقل منك مالاً وولداً - فإن ما عند الله، خير وأبقى، وما يرجي من خيره وإحسانه، أفضل من جميع الدنيا، التي يتنافس فيها المتنافسون.

﴿فَعَسَى ربي أن يوثقني خيراً من جنتك ويرسل عليها﴾ أي: على جنتك التي طغيت بها وغرتك ﴿حسباناً من السماء﴾ أي: عذاباً، بمطر عظيم أو غيره، ﴿فتصبح﴾ بسبب ذلك ﴿صعيداً زلقاً﴾ أي: قد اقلعت أشجارها، وتلفت ثمارها، وغرق زرعها، وزال نفعها، ﴿أو يصبح ماؤها﴾ الذي مادتها منه ﴿غوراً﴾ أي: غائراً في الأرض ﴿فلن تستطيع له طلباً﴾ أي: غائراً لا يستطيع الوصول إليه بالمعاول ولا بغيرها، وإنما دعا على جنته المؤمن غضباً لربه، لكونها غرته وأطفته، واطمان إليها، لعله ينيب، ويراجع رشده، ويبصر في أمره.

فاستجاب الله دعاءه ﴿وأحيط بشمره﴾ أي: أصابه عذاب أحاط به، واستهلكه، فلم يبق منه شيء، والإحاطة بالشمر يستلزم تلف جميع أشجاره، وثمارها، وزرعه، فندم كل الندامة، واشتد لذلك أسفه، ﴿فأصبح بقلب كفيه على ما أنفق فيها﴾ أي: على كثرة نفقاته الدنيوية عليها، حيث اضمحلت وتلاشت، فلم يبق لها عوض، وندم أيضاً على شركه،

قال هذا الكلام على وجه التهكم والاستهزاء، بدليل قوله: ﴿ودخل جنته وهو ظالم لنفسه﴾. فإثبات أن وصفه الظلم، في حال دخوله، الذي جرى منه، من القول ما جرى، يدل على تمرده وعناده.

﴿٣٧ - ٣٩﴾ قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً * لئن كان هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً * ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله﴾ أي: قال له صاحبه المؤمن، ناصحاً له، ومذكراً له حاله الأولى، التي أوجده الله فيها في الدنيا ﴿من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً﴾ فهو الذي أنعم عليك بنعمة الإيجاد والإمداد، وواصل عليك النعم، ونقلك من طور إلى طور، حتى سواك رجلاً، كامل الأعضاء والجوارح المحسوسة والمعقولة، وبذلك يسر لك الأسباب، وهياً لك ما هياً من نعم الدنيا، فلم تحصل لك الدنيا بحولك وقوتك، بل بفضل الله تعالى عليك، فكيف يليق بك أن تكفر بالله الذي خلقك من تراب، ثم من نطفة ثم سواك رجلاً، وتحيد^(١) نعمته، وتزعم أنه لا يبعثك، وإن بعثك أنه يعطيك خيراً من جنتك؟! هذا ما لا ينبغي ولا يليق. ولهذا لما رأى صاحبه المؤمن حاله واستمراره على كفره وطغيانه، قال خيراً عن نفسه، على وجه الشكر لربه، والإعلان بدينه، عند ورود المجادلات والشبه: ﴿لكننا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً﴾ فأقر بربوبيته لربه، وانفراده فيها، والتزم^(٢) طاعته وعبادته، وأنه لا يشرك به أحداً من المخلوقين، ثم أخبره أن نعمة الله عليه بالإيمان والإسلام، ولو مع قلة ماله وولده، أنها هي النعمة الحقيقية، وأن ما عداها معرض للزوال والعقوبة عليه والتكال، فقال:

﴿٣٩ - ٤٤﴾ ﴿إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً﴾ فعسى ربي أن يوثقني خيراً

وارجحت أشجارهما، ولم تعرض لهما آفة أو نقص، فهذا غاية منتهى زينة الدنيا في الحرث، ولهذا اغتر هذا الرجل بهما، وتبجح وافتخر، ونسي آخرته.

﴿٣٤ - ٣٦﴾ فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً * ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبعد هذه أبداً * وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً﴾ أي: فقال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن، وهما يتحاوران، أي: يتراجعان بينهما في بعض المجاديات المتعادة، مفتخرأ عليه:

﴿أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً﴾ فخر بكثرة ماله، وعزة أنصاره من عبيد، وخدم، وأقارب، وهذا جهل منه، وإلا فأي: افتخار بأمر خارجي ليس فيه فضيلة نفسية، ولا صفة معنوية، وإنما هو بمنزلة فخر الصبي بالأماني، التي لا حقائق تحتها، ثم لم يكفه هذا الافتخار على صاحبه، حتى حكم بجهله وظلمه، وظن لما دخل جنته، في ﴿قال ما أظن أن تبعد﴾ أي: تنقطع وتضمحل ﴿هذه أبداً﴾ فاطمان إلى هذه الدنيا، ورضي بها، وأنكر البعث، فقال: ﴿وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي﴾ على ضرب المثل ﴿لأجدن خيراً منها منقلباً﴾ أي: ليعطيني خيراً من هاتين الجنتين، وهذا لا يخلو من أمرين: إما أن يكون عالماً بحقيقة الحال، فيكون كلامه هذا على وجه التهكم والاستهزاء فيكون زيادة كفر إلى كفر، وإما أن يكون هذا ظنه في الحقيقة، فيكون من أجهل الناس، وأبخسهم حظاً من العقل، فأبي: تلازم بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة، حتى يظن بجهله أن من أعطى في الدنيا أعطي في الآخرة، بل الغالب أن الله تعالى يزوي الدنيا عن أوليائه وأصفيائه، ويوسعها على أعدائه، الذين ليس لهم في الآخرة نصيب، والظاهر أنه يعلم حقيقة الحال، ولكنه

قال :

﴿٥٥﴾ «وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قليلاً» أي : ما منع الناس من الإيمان ، والحال أن الهدى الذي يحصل به الفرق ، بين الهدى والضلال ، والحق والباطل ، قد وصل إليهم ، وقامت عليهم حجة الله ، فلم يمنعهم عدم البيان ، بل منعهم الظلم والعدوان عن الإيمان ، فلم يبق إلا أن تأتيهم سنة الله ، وعادته في الأولين من أنهم إذا لم يؤمنوا عوجلوا بالعذاب ، أو يرون العذاب قد أقبل عليهم ، ورأوه مقابلة ومعاناة ، أي : فليخافوا من ذلك ، وليثوبوا من كفرهم ، قبل أن يكون العذاب الذي لا مرد له .

﴿٥٦﴾ «وما ترسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزواً» أي : لم ترسل الرسل عبثاً ، ولا ليتخذهم الناس أرباباً ، ولا ليدعوا إلى أنفسهم ، بل أرسلناهم يدعون الناس إلى كل خير ، ويهتدون عن كل شر ، ويبشرونهم على امتثال ذلك بالثواب العاجل والأجل ، وينذرونهم على معصية ذلك بالعقاب العاجل والأجل ، فقامت بذلك حجة الله على العباد ، ومع ذلك يأبى الظالمون الكافرون ، إلا المجادلة بالباطل ، ليدحضوا به الحق ، فسعوا في نصر الباطل مهما أمكنهم ، وفي دحض الحق وإبطاله ، واستهزؤوا برسول الله وآياته ، وفرحوا بما عندهم من العلم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، ويظهر الحق على الباطل «بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق» ومن حكمة الله ورحمته ، أن تقيضه المبطلين المجادلين الحق بالباطل ، من أعظم الأسباب إلى وضوح الحق وتبين شواهد وأدلته ، وتبين الباطل فساداً ، فيبطلها وتبين الأشياء .

﴿٥٧-٥٩﴾ «ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما

يفرق بينهم وبينهم ، ويبعد بعضهم عن بعض ، ويتبين حيثى عدواة الشركاء لشركائهم ، وكفرهم بهم ، وتبرهم منهم ، كما قال تعالى : «وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين» .

﴿٥٣﴾ «ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً» أي : لما كان يوم القيامة وحصل من الحساب ما حصل ، وتميز كل فريق من الخلق بأعمالهم ، وحققت كلمة العذاب على المجرمين ، فرأوا جهنم قبل دخولها ، فانزعجوا واشتد قلقهم لظنهم أنهم مواقعوها ، وهذا الظن قال المفسرون : إنه بمعنى اليقين ، فأيقنوا أنهم داخلوها «ولم يجدوا عنها مصرفاً» أي : معدلاً يعدلون إليه ، ولا شافع لهم من دون إذنه ، وفي هذا من التخويف والترهيب ، ما ترعد له الأفتدة والقلوب .

﴿٥٤﴾ «ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شئاً جدلاً» يخبر الله تعالى عن عظمة القرآن ، وجلالته ، وعمومه ، وأنه صرف فيه من كل مثل ، أي : من كل طريق موصل إلى العلوم النافعة ، والسعادة الأبدية ، وكل طريق يعصم من الشر والهلاك ، ففيه أمثال الحلال والحرام ، وجزاء الأعمال ، والترغيب والترهيب ، والأخبار الصادقة النافعة للقلوب ، اعتقاداً ، وطمأنينة ، ونوراً ، وهذا مما يوجب التسليم لهذا القرآن وتلقيه بالانقياد والطاعة ، وعدم المنازعة له في أمر من الأمور ، ومع ذلك ، كان كثير من الناس يجادلون في الحق بعد ما تبين ، ويجادلون بالباطل «ليدحضوا به الحق» ولهذا قال : «وكان الإنسان أكثر شئاً جدلاً» أي : مجادلة ومنازعة فيه ، مع أن ذلك غير لائق بهم ، ولا عدل منهم ، والذي أوجب له ذلك وعدم الإيمان بالله ، إنما هو الظلم والعدوان ، لا لقصور في بيانه وحجته وبرهانه ، وإلا فلو جاءهم العذاب ، وجاءهم ما جاء قبلهم ، لم تكن هذه حالهم ، ولهذا

قال تعالى : «الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات» .

وقال تعالى : «إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله» .

﴿٥١-٥٢﴾ «ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً» * ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوه فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقاً يقول تعالى : ما أشهدت الشياطين [وهؤلاء المضلين] ، «خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم» أي : ما أحضرهم ذلك ، ولا شاورهم عليه ، فكيف يكونون خالقين لشيء من ذلك ؟ بل المنفرد بالخلق والتدبير ، والحكمة والتقدير ، هو الله ، خالق الأشياء كلها ، المتصرف فيها بحكمته ، فكيف يجعل له شركاء من الشياطين ، يوالون ويपाعون ، كما يطاع الله ، وهم لم يخلقوا ولم يشهدوا خلقاً ، ولم يعاونوا الله تعالى ؟ ولهذا قال : «وما كنت متخذ المضلين عضداً» أي : معاونين ، مظاهرين لله على شأن من الشؤون ، أي : ما ينبغي ولا يليق بالله ، أن يجعل لهم قسطين من التدبير ، لأنهم ساعون في إضلال الخلق والعداوة لربهم ، فاللائق أن يقصهم ولا يندبهم .

ولما ذكر حال من أشرك به في الدنيا ، وأبطل هذا الشرك غاية الإبطال ، وحكم بجهل صاحبه وسفه ، أخبر عن حالهم مع شركائهم يوم القيامة ، وأن الله يقول لهم : «نادوا شركائي» بزعمكم أي : على موجب زعمكم الفاسد ، وإلا فبالحقيقة ليس الله شريك في الأرض ، ولا في السماء ، أي : نادوهم ، لينفعوكم ، ويخلصوكم من الشدائد ، «فدعوه» فلم يستجيبوا لهم ، لأن الحكم والملك يومئذ لله ، لا أحد يملك مثقال ذرة من النفع لنفسه ولا غيره .

«وجعلنا بينهم» أي : بين المشركين وشركائهم «موبقاً» أي : مهلكاً ،

قدمت يده إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبداً * ورتك القصور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً * وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً * يخبر تعالى أنه لا أعظم ظلماً، ولا أكبر جرماً، من عبد دُكر بآيات الله ويُنن له الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وخُوف ورُعب ورُعب، فأعرض عنها، فلم يتذكر بما دُكر به، ولم يرجع عما كان عليه، ونسي ما قدمت يده من الذنوب، ولم يراقب علام الغيوب، فهذا أعظم ظلماً من المعرض الذي لم تأت آيات الله ولم يذكر بها، وإن كان ظالماً، فإنه أخف ^(١) ظلماً من هذا، لكون العاصي على بصيرة وعلم، أعظم ممن ليس كذلك، ولكن الله تعالى عاقبه بسبب إعراضه عن آياته، ونسيانه لذنوبه، ورضاه لنفسه، حالة الشر مع علمه بها، أن سند عليه أبواب الهداية بأن جعل على قلبه أكنة، أي: أغطية محكمة تمنعه أن يفقه الآيات وإن سمعتها، فليس في إمكانها الفقه الذي يصل إلى القلب، * وفي آذانهم وقراً * أي: صمماً يمنعهم من وصول الآيات، ومن سماعها على وجه الانتفاع وإذا كانوا بهذه الحالة، فليس لهدايتهم سبيل، * وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبداً * لأن الذي يرجى أن يجيب الداعي للهدى من ليس عالماً، وأما هؤلاء الذين أبصروا ثم عموا، ورأوا طريق الحق حقاً فتركوه، وطريق الضلال ضلالاً فسلكوه، وعاقبهم الله بإقفال القلوب والطبع عليها، فليس في هدايتهم حيلة ولا طريق. وفي هذه الآية من التخويف لمن ترك الحق بعد علمه، أن يحال بينهم وبينه، ولا يتمكن منه بعد ذلك، ما هو أعظم مرعب وزاجر عن

ذلك. ثم أخبر تعالى عن سعة مغفرته ورحمته، وأنه يغفر الذنوب، ويتوب الله على من يتوب، فيغفده برحمته، ويشمله بإحسانه، وأنه لو أخذ ^(٢) العباد على ما قدمت أيديهم من الذنوب، لعجل لهم العذاب، ولكنه تعالى حلیم لا يعجل بالعقوبة، بل يمهل ولا يهمل، والذنوب لا بد من وقوع آثارها، وإن تأخر عنها مدة طويلة، ولهذا قال:

«بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً» أي: لهم موعد، يجازون فيه بأعمالهم، لا بد لهم منه، ولا مندوحة لهم عنه، ولا ملجأ، ولا محيد عنه، وهذه سنته في الأولين والآخرين، أن لا يعاجلهم بالعقاب، بل يستدعيهم إلى التوبة والإنابة، فإن تابوا وأنبأوا، غفر لهم ورحمهم، وأزال عنهم العقاب، وإلا، فإن استمروا على ظلمهم وعنادهم، وجاء الوقت الذي جعله موعداً لهم، أنزل بهم بأسه، ولهذا قال: «وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا» أي: بظلمهم، لا بظلم منا «وجعلنا لمهلكهم موعداً» أي: وقتاً مقدراً، لا يستقدمون عنه ولا يتأخرون.

﴿٦٠ - ٨٢﴾ «وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقاً * فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سرباً * فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً * قال أرأيت إذ أوتينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً * قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً * فوجدا عبداً من عبادنا آتياه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً * قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً * قال إنك لن تستطيع معي صبراً * وكيف تصبر على ما لم

تحط به خبراً * قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً * قال فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً * فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها * إلى قوله: «ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً» يخبر تعالى عن نبية موسى عليه السلام، وشدة رغبته في الخير وطلب العلم، أنه قال لفتاه - أي: خادمه الذي يلازمه في حضره وسفره، وهو «يوشع بن نون» الذي نبأه الله بعد ذلك: - «لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين» أي: لا أزال مسافراً وإن طالت علي الشقة، ولحقنتي المشقة، حتى أصل إلى مجمع البحرين، وهو المكان الذي أوحى إليه أنك ستجد فيه عبداً من عباد الله العالمين، عنده من العلم ما ليس عندك، «أو أمضي حقاً» أي: مسافة طويلة، المعنى: أن الشوق والرغبة، حمل موسى أن قال لفتاه هذه المقالة، وهذا عزم منه جازم، فلذلك أمضاه.

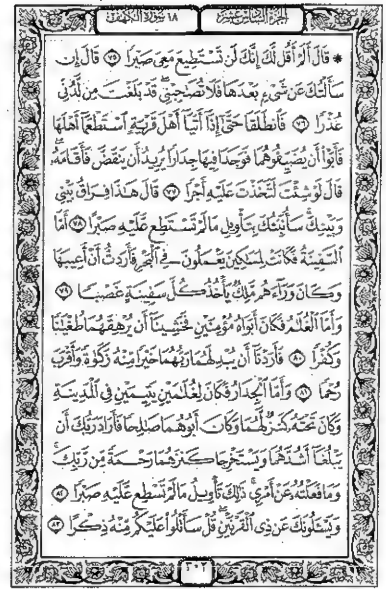
﴿فلما بلغا﴾ أي: هو وفتاه ﴿مجمع بينهما نسيا حوتهما﴾ وكان معهما حوت يتزودان منه ويأكلان، وقد وعد أنه متى فقد الحوت قُتِم ذلك العبد الذي قصده، فاتخذ ذلك الحوت سبيله، أي: طريقه في البحر سرباً وهذا من الآيات.

قال المفسرون: إن ذلك الحوت الذي كانا يتزودان منه، لما وصلا إلى ذلك المكان، أصابه بطل البحر، فانسرب بإذن الله في البحر، وصار مع حيواناته حياً.

فلما جاوز موسى وفتاه مجمع البحرين، قال موسى لفتاه: «آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً» أي: لقد تعبنا من هذا السفر المجاوز فقط، وإلا فالسفر الطويل الذي وصلا به إلى مجمع البحرين لم يجدنا من التعب فيه، وهذا من الآيات والعلامات الدالة لموسى على وجود مطلبه، وأيضاً فإن

(١) في ب: فإنه أشد، والسياق يدل على ما أثبت.

(٢) في الأصل واخذ.



الخضر منه، فقال له:

«هذا فراق بيني وبينك» فإنك شرطت ذلك على نفسك، فلم يبق الآن عذر، ولا موضع للصعبة، «سأنتك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً» أي: سأخبرك بما أنكرت علي، وأنتك بما لي في ذلك من المآرب، وما يؤول إليه الأمر.

«أما السفينة» التي خرقتها «فكانت لمساكين يعملون في البحر» يقتضي ذلك الرقة عليهم، والرأفة بهم. «فأردت أن أعيها» وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا» أي: كان مرورهم على ذلك الملك الظالم، فكل سفينة صالحة تمر عليه ما فيها عيب غصبها وأخذها ظلماً، فأردت أن أخرقها ليكون فيها عيب، فتسلم من ذلك الظالم.

«وأما الغلام» الذي قتلته «فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً» وكان ذلك الغلام قد قدر عليه أنه لو بلغ لأرهق أبويه طغياناً وكفراً، أي: لحملهما على الطغيان والكفر، إما لأجل محبتهم إياه، أو للحاجة إليه أو يحدهما على ذلك، أي: فقتلته، لإطلاعي على ذلك، سلامة لدين أبويه المؤمنين، وأي: فائدة أعظم من هذه الفائدة الجليلة!! وهو وإن كان فيه

إساءة إليهما، وقطع لذريتهما، فإن الله تعالى سيعطيهما من الذرية ما هو خير منه، ولهذا قال: «فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً» أي: ولدًا صالحاً، زكياً، وأصلاً لرحمه، فإن الغلام الذي قتل لو بلغ لعقهما أشد العقوق بحملهما على الكفر والطغيان.

«وأما الجدار» الذي أقمته «فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً» أي: حالهما تقتضي الرأفة بهما ورحتهما، لكونهما صغيرين عداً أباهما، وحفظهما الله أيضاً بصلاح والدهما.

«فأراد ربك أن يبلغنا أشدهما ويستخرجا كنزهما» أي: فلهذا هدمت الجدار، واستخرجت ما تحته من كنزهما، وأعدته مجاًناً. «رحمة من ربك» أي: هذا الذي فعلته رحمة من الله، أتاهما الله عبده الخضر «وما فعلته عن أمري» أي: أتيت شيئاً من قبل نفسي، ومجرد إرادتي، وإنما ذلك من رحمة الله وأمره.

«ذلك» الذي فسرت لك «تأويل ما لم تستطع عليه صبراً» وفي هذه القصة العجبية الجليلة، من الفوائد والأحكام والقواعد شيء كثير، نبه على بعضه بعون الله. فمنها فضيلة العلم، والرحلة في طلبه، وأنه أهم الأمور، فإن موسى عليه السلام رحل مسافة طويلة، ولقي النصب في طلبه، وترك القعود عند بني إسرائيل، لتعليمهم وإرشادهم، واختار السفر لزيادة العلم على ذلك.

ومنها: البداء بالأهم فالأهم، فإن زيادة العلم وعلم الإنسان أهم من ترك ذلك، والاشتغال بالتعليم من دون تزود من العلم، والجمع بين الأمرين أكمل.

ومنها: جواز أخذ الخادم في السفر والسفر لكفاية المؤنة وطلب الراحة، كما فعل موسى.

ومنها: أن المسافر لطلب علم أو جهاد أو نحوه، إذا اقتضت المصلحة الإخبار بمطلبه، وأين يريد، فإنه أكمل من كتمه، فإن في إظهاره فوائد من الاستعداد له عدته، وإتيان الأمر على بصيرة، وإظهاراً لشرف هذه العبادة الجليلة، كما قال موسى: «لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقاً»

وكما أخبر النبي ﷺ أصحابه حين غزا تبوك بوجهه، مع أن عادته التورية، وذلك تبع للمصلحة. ومنها: إضافة الشر وأسبابه إلى الشيطان، على وجه التسويل والتزيين، وإن كان الكل بقضاء الله وقدره، لقول فتى موسى: «وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره».

ومنها: جواز إخبار الإنسان عما هو من مقتضى طبيعة النفس، من نصب أو جوع أو عطش، إذا لم يكن على وجه التسلط وكان صدقاً، لقول موسى: «لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً»

ومنها: استحباب كون خادم الإنسان، ذكياً فطناً كيساً، ليتم له أمره الذي يريد.

ومنها: استحباب إطعام الإنسان خادمه من مأكله، وأكلهما جميعاً، لأن ظاهر قوله: «أتينا غداءنا» إضافة إلى الجميع، أنه أكل هو وهو جميعاً.

ومنها: أن المعونة تنزل على العبد على حسب قيامه بالمأمور به، وأن الموافق لأمر الله، يعان ما لا يعان غيره لقوله: «لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً» والإشارة إلى السفر المجاوز، لمجمع البحرين، وأما الأول، فلم يشك منه التعب مع طوله، لأنه هو السفر على الحقيقة. وأما الأخير، فالظاهر أنه بعض يوم، لأنهم فقدوا الحوت حين أووا إلى الصخرة، فالظاهر أنهم باتوا عندها، ثم ساروا من الغد، حتى إذا جاء وقت الغداء قال موسى لفتاه: «أتينا غداءنا» فحينئذ تذكر أنه

نسيه في الموضع الذي إليه انتهى قصده.

ومنها: أن ذلك العبد الذي لقيه، ليس نبياً، بل عبداً صالحاً، لأنه وصفه بالعبودية، وذكر مئة الله عليه بالرحمة والعلم، ولم يذكر رسالته ولا نبوته، ولو كان نبياً، لذكر ذلك كما ذكر غيره.

وأما قوله في آخر القصة: ﴿وما فعلته عن أمري﴾ فإنه لا يدل على أنه نبي، وإنما يدل على الإلهام والتحديث، كما يكون لغير الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه﴾ ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذ من الجبال بيوتاً﴾.

ومنها: أن العلم الذي يَعْلَمُهُ الله [لعباده] ^(١) نوعان:

علم مكتسب يدرسه العبد بجده واجتهاده. ونوع علم لدني، يهبه الله لمن يمتن عليه من عباده لقوله: ﴿وعلمناه من لدنا علماً﴾.

ومنها: التأدب مع المعلم، وخطاب المتعلم إياه ألطف خطاب، لقول موسى عليه السلام:

﴿هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً﴾ فأخرج الكلام بصورة الملاطفة والمشاورة، وأنت هل تأذن لي في ذلك أم لا، وإقراره بأنه يتعلم منه، بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو الكبر، الذي لا يظهر للمعلم افتقاره إلى علمه، بل يدعي أنه يتعاون هو وإياه، بل ربما ظن أنه يعلم معلمه، وهو جاهل جداً، فالذل للمعلم، وإظهار الحاجة إلى تعليمه، من أنفع شيء للمتعلم.

ومنها: تواضع الفاضل للمتعلم من دونه، فإن موسى - بلا شك - أفضل من الخضر.

ومنها: تعلم العالم الفاضل للعلم الذي لم يتمه فيه، بمن مهر فيه، وإن كان دونه في العلم بدرجات كثيرة.

فإن موسى عليه السلام من أولي العزم من المرسلين، الذين منحهم الله وأعطاهم من العلم ما لم يعط سواهم، ولكن في هذا العلم الخاص كان عند الخضر ما ليس عنده، فلهذا حرص على التعلم منه.

فعلى هذا، لا ينبغي للفقهاء المحدث، إذا كان قاصراً في علم النحو، أو الصرف، أو نحوه من العلوم، أن لا يتعلمه ممن مهر فيه، وإن لم يكن محدثاً ولا فقيهاً.

ومنها: إضافة العلم وغيره من الفضائل لله تعالى، والإقرار بذلك، وشكر الله عليها لقوله:

﴿تعلمن مما علمت﴾ أي: مما علمك الله تعالى.

ومنها: أن العلم النافع، هو العلم المرشد إلى الخير، فكل علم يكون فيه رشد وهداية لطريق ^(٢) الخير، وتحذير عن طريق الشر، أو وسيلة لذلك، فإنه من العلم النافع، وما سوى ذلك، فإذا أن يكون ضاراً، أو ليس فيه فائدة لقوله: ﴿أن تعلمن مما علمت رشداً﴾.

ومنها: أن من ليس له قوة الصبر على صحبة العالم والعلم، وحسن الثبات على ذلك، أنه يفوته بحسب عدم صبره كثير من العلم ^(٣)، فمن لا صبر له لا يدرك العلم، ومن استعمل الصبر ولازمه، أدرك به كل أمر سعى فيه، لقول الخضر - يعتذر من موسى بذكر المانع لموسى من الأخذ عنه - إنه لا يصبر معه.

ومنها: أن السبب الكبير لحصول الصبر، إحاطة الإنسان علماً وخبرة بذلك الأمر الذي أمر بالصبر عليه، وإلا فالذي لا يدرسه، أو لا يدرى غايته ولا نتيجه، ولا فائدته وثمرته ليس عنده سبب الصبر لقوله: ﴿وكيف تصبر على ما لم تحط به﴾ خبراً. فجعل الموجب لعدم صبره، عدم إحاطته خبراً بالأمر.

ومنها: الأمر بالتأني والتثبت، وعدم المبادرة إلى الحكم على الشيء، حتى يعرف ما يراد منه، وما هو المقصود.

ومنها: تعليق الأمور المستقبلية التي من أفعال العباد بالمشيئة، وأن لا يقول الإنسان للشيء: إني فاعل ذلك في المستقبل، إلا أن يقول: «إن شاء الله».

ومنها: أن العزم على فعل الشيء، ليس بمنزلة فعله، فإن موسى قال: ﴿ستجدني إن شاء الله صابراً﴾ فوطن نفسه على الصبر ولم يفعل.

ومنها: أن المعلم إذا رأى المصلحة في إيزاعه للمتعلم أن يترك الابتدء في السؤال عن بعض الأشياء، حتى يكون المعلم هو الذي يوقفه عليها، فإن المصلحة تتبع، كما إذا كان فهمه قاصراً، أو نهاه عن الدقيق في سؤال الأشياء التي غيرها أهم منها، أو لا يدركها ذهنه، أو يسأل سؤالاً، لا يتعلق في موضوع البحث.

ومنها: جواز ركوب البحر، في غير الحالة التي يخاف منها.

ومنها: أن الناسي غير مؤاخذ بنسيانه، لا في حق الله، ولا في حقوق العباد، لقوله: ﴿لا تؤاخذني بما نسيت﴾.

ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يأخذ من أخلاق الناس ومعاملاتهم، العفو منها، وما سمحت به أنفسهم، ولا ينبغي له أن يكلفهم ما لا يطيقون، أو يشق عليهم ويرهقهم، فإن هذا مدعاة إلى النفور منه والسأمة، بل يأخذ المتيسر ليتيسر له الأمر.

ومنها: أن الأمور تجري أحكامها على ظاهرها، وتعلق بها الأحكام الدنيوية في الأموال والدماء وغيرها، فإن موسى عليه السلام أنكر على الخضر خرقه السفينة، وقتل الغلام، وأن هذه الأمور ظاهرها أنها من المنكر، وموسى عليه السلام لا يسعه

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) في ب: لطريق.

(٣) بدلاً من الجملة: (أنه يفوته... كثير من العلم) جاء في ب: (أنه ليس بأهل لتلقي العلم) وجاءت هذه الجملة في: أ مشطوبة.

ومنها: أن القتل قصاصاً غير منكر لقوله: ﴿بغير نفس﴾.



ربه على تمكينه واقتداره، فقال لهم: ﴿ما مكنتي فيه ربي خير﴾ أي: بما تبذلون لي وتعطوني، وإنما أطلب منكم أن تعينوني بقوة منكم بأيديكم ﴿أجعل بينكم وبينهم ردماً﴾ أي: مانعاً من عبورهم عليكم.

﴿أتوني زبر الحديد﴾ أي: قطع الحديد، فأعطوه ذلك.

﴿حتى إذا ساوى بين الصدفين﴾ أي: الجبلين اللذين بني بينهما السد ﴿قال انفخوا﴾ النار أي: أوقدوها بإقادة عظيماً، واستعملوا لها المنافع لتشتد، فتذيب النحاس، فلما ذاب النحاس، الذي يريد أن يلقه بين زبر الحديد ﴿قال أتوني أفرغ عليه قطراً﴾ أي: نحاساً مذاباً، فأفرغ عليه القطر، فاستحكم السد استحكاماً هائلاً، وامتنع به من وراءه من الناس، من ضرر يأجوج ومأجوج.

﴿فما استطاعوا أن يظهره وما استطاعوا له نقباً﴾ أي: فما لهم استطاعة، ولا قدرة على الصعود عليه لارتفاعه، ولا على نقبه لإحكامه وقوته، فلما فعل هذا الفعل الجميل والأثر الجليل، أضاف النعمة إلى مولياها وقال: ﴿هذا رحمة من ربي﴾ أي: من فضله وإحسانه علي، وهذه حال الخلفاء الصالحين، إذا من الله عليهم بالنعمة الجليلة، ازداد شكرهم وإقرارهم، واعترفهم بنعمة الله، كما

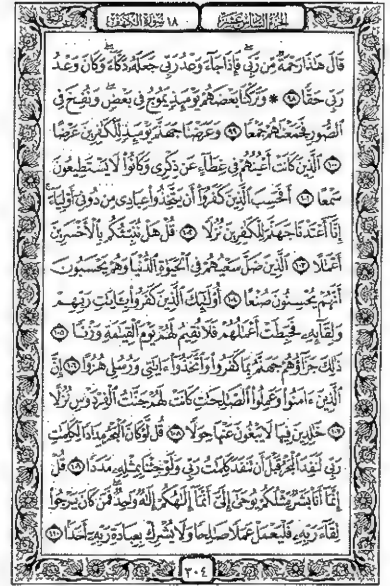
تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً﴾ أي: إما أن تعذبهم بقتل، أو ضرب، أو أسر ونحوه، وإما أن تحسن إليهم، فخير بين الأمرين، لأن الظاهر أنهم إما كفار أو فساق، أو فيهم شيء من ذلك، لأنهم لو كانوا مؤمنين غير فساق، لم يرخص له في تعذيبهم، فكان عند ذي القرنين من السياسة الشرعية ما استحق به الملدح والثناء، لتوفيق الله له لذلك، فقال: سأجعلهم قسمين: ﴿أما من ظلم﴾ بالكفر ﴿فسوف تعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً﴾ أي: تحصل له العقوبتان، عقوبة الدنيا، وعقوبة الآخرة، ﴿وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى﴾ أي: فله الجنة والحالة الحسنة عند الله جزاء يوم القيامة، ﴿وستنقل له من أمرنا يسراً﴾ أي: وستحسن إليه، ونلطف له بالقول، ونيسر له المعاملة، وهذا يدل على كونه من الملوك الصالحين والأولياء العادلين العالمين، حيث وافق مرضاة الله في معاملة كل أحد، بما يليق بحاله.

﴿ثم أتبع سبباً حتى إذا بلغ بين السدين﴾ قال المفسرون: ذهب متوجهاً من المشرق، قاصداً للشمال، فوصل إلى ما بين السدين، وهما سدان، كانا سلاسل جبال معروفين في ذلك الزمان، سداً بين يأجوج ومأجوج وبين الناس، وجد من دون السدين قوماً لا يكادون يفقهون قولاً، لعجمة ألسنتهم، واستعجاب أذهانهم وقلوبهم، وقد أعطى الله ذا القرنين من الأسباب العلمية، ما فقه به السنة أولئك القوم وفقههم، وراجعهم وراجعوه، فاشتكوا إليه ضرر يأجوج ومأجوج، وهما: أمتان عظيمتان من بني آدم، فقالوا:

﴿إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض بالقتل وأخذ الأموال وغير ذلك.

﴿فهل نجعل لك خرجاً﴾ أي: جُعلاً ﴿على أن نجعل بيننا وبينهم سبباً﴾ ودل ذلك على عدم اقتدارهم بأنفسهم على بنيان السد، وعرفوا اقتدار ذي القرنين عليه، فبدلوا له أجره ليفعل ذلك، وذكروا له السبب الداعي، وهو: إفسادهم في الأرض، فلم يكن ذو القرنين ذا طمع، ولا رغبة في الدنيا، ولا تاركاً لإصلاح أحوال الرعية، بل كان قصده الإصلاح، فلذلك أجاب طلبتهم لما فيها من المصلحة، ولم يأخذ منهم أجره، وشكر

٨٩ - ٩٨ ﴿ثم أتبع سبباً﴾ حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً * كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً * ثم أتبع سبباً * حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً * قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن نجعل بيننا وبينهم سداً * قال ما مكنتي فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً * أتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال أتوني أفرغ عليه قطراً * فما استطاعوا أن يظهره وما استطاعوا له نقباً * قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقاً * أي: لما وصل إلى مغرب الشمس كَرَّ راجعاً، قاصداً مطلعها، متبعاً للأسباب التي أعطاه الله، فوصل إلى مطلع الشمس فوجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم



قال سليمان عليه السلام، لما حضر عنده عرش ملكة سبأ مع البعد العظيم، قال: «هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر» بخلاف أهل التجبر والتكبر والعلو في الأرض فإن النعم الكبار تزيدهم أشراً وطرأ.

كما قال قارون - لما آتاه الله من الكنوز، ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة - قال: «إنما أوتيته على علم عندي».

وقوله: «فيذا جاء وعد ربي» أي: لخروج يأجوج ومأجوج «جمله» أي: ذلك السد المحكم المثنى «دكاء» أي: دكه فانهدم، واستوى هو والأرض «وكان وعد ربي حقاً».

«٩٩» «وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض» يحتمل أن الضمير، يعود إلى يأجوج ومأجوج، وأنهم إذا خرجوا على الناس - من كثرتهم واستيعابهم للأرض كلها - يموج بعضهم ببعض، كما قال تعالى: «حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون». ويحتمل أن الضمير يعود إلى الخلائق يوم القيامة، وأنهم يمتعون فيه فيكثرون ويموج بعضهم ببعض، من الأهوال والزلازل العظام، بدليل قوله: «ونفخ

في الصور فجمعناهم جمعاً وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً» أي: إذا نفخ إسرافيل في الصور، أعاد الله الأرواح إلى الأجساد، ثم خشرهم وجمعهم لموقف القيامة، الأولين منهم والآخرين، والكافرين والمؤمنين، ليسألوا ويحاسبوا ويجزون بأعمالهم، فاما الكافرون - على اختلافهم - فإن جهنم جزاؤهم، خالدين فيها أبداً.

«١٠١» ولهذا قال: «وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً» كما قال تعالى: «وبرزت الجحيم للغاوين» أي: عرضت لهم لتكون مأواهم ومنزلهم، ولتتمتعوا بأغلالها وسعيرها، وحيمها، وزمهريرها، وليذوقوا من العقاب، ما تبكى له القلوب، وتصفم الآذان، وهذا آثار أعمالهم، وجزاء أفعالهم، فإنهم في الدنيا «كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى» أي: معرضين عن الذكر الحكيم، والقرآن الكريم، وقالوا: «قلوبنا في أكنة عما تدعوننا إليه» وفي أعينهم أغطية تمنعهم من رؤية آيات الله النافعة، كما قال تعالى: «وعلى أبصارهم غشاوة».

«وكانوا لا يستطيعون سمعاً» أي: لا يقدرون على سماع آيات الله الموصلة إلى الإيمان، لبعثهم القرآن والرسول، فإن البغض لا يستطيع أن يلقي سمعه إلى كلام من أبغضه، فإذا انحجبت عنهم طرق العلم والخير، فليس لهم (٢) سمع ولا بصر، ولا عقل نافع، فقد كفروا بالله ووجدوا آياته، وكذبوا رسله، فاستحقوا جهنم، وساءت مصيراً.

«١٠٢» «أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلاً» وهذا برهان وبيان، لبطلان دعوى المشركين الكافرين، الذين اتخذوا بعض الأنبياء

والأولياء شركاء لله يعبدونهم، ويزعمون أنهم يكونون لهم أولياء، ينجونهم من عذاب الله، وينيلونهم ثوابه، وهم قد كفروا بالله وبرسله.

يقول الله لهم على وجه الاستفهام الإنكاري المتقرر بطلانه في العقول: «أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء» أي: لا يكون ذلك ولا يزال ولي الله معادياً لله أبداً، فإن الأولياء موافقون لله في محبته ورضاه، وسخطه وبغضه، فيكون على هذا المعنى مشابهاً لقوله تعالى: «ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون» قالوا سيحانك أنت ولينا من دونهم.

فمن زعم أنه يتخذ ولي الله ولياً له، وهو معاد لله، فهو كاذب، ويحتمل - وهو الظاهر - أن المعنى: أفحسب الكفار بالله، المنانيدون لرسله، أن يتخذوا من دون الله أولياء ينصرونهم، ويتفجعونهم من دون الله، ويدفعون عنهم الأذى؟ هذا حسان باطل، وظن قاسد، فإن جميع المخلوقين، ليس بيدهم من النفع والضرر، شيء، ويكون هذا كقوله تعالى: «قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً» «ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة» ونحو ذلك من الآيات التي يذكر الله فيها، أن المتخذ من دونه ولياً ينصره ويؤاليه، ضال خائب الرجاء، غير نائل لبعض مقصوده.

«إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلاً» أي: ضيافة وقرى، فيبثس النزول نزلهم، وبثست جهنم ضيافتهم.

«١٠٣ - ١٠٦» «قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً» الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً «أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً» ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا

(١) في النسختين: (وإذا الجحيم برزت) وهو سبق قلم.

(٢) في النسختين: له.

وانخذوا آياتي ورسلي هزوا^(١) أي: قل يا محمد، للناس - على وجه التحذير والإنذار -: هل أخبركم بأخسر الناس أعمالاً على الإطلاق؟ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا؟ أي: بطل واضمحل كل ما عملوه من عمل، يحسبون أنهم محسنون في صنعه، فكيف بأعمالهم التي يعلمون أنها باطلة، وأنها محادة لله ورسله ومعاداة^(٢)؟ فمن هم هؤلاء الذين خسرت أعمالهم، ف «خسروا أنفسهم وأهلبيهم يوم القيامة؟ ألا ذلك هو الخسران المبين».

يحتمل أن المراد بجنات الفردوس، أعلى الجنة، وأوسطها، وأفضلها، وأن هذا الثواب لمن كمل الإيمان والعمل الصالح، وهم الأنبياء والمقربون.

ويحتمل أن يراد بها، جميع منازل الجنان، فيشمل هذا الثواب، جميع طبقات أهل الإيمان، من المقربين، والأبرار، والمقتصدين، كل بحسب حاله، وهذا أولى المعنيين لعمومه، ولذكر الجنة بلفظ الجمع المضاف إلى الفردوس، ولأن الفردوس يطلق على البستان، المحتوي على الكرم، أو الأشجار الملتهفة، وهذا صادق على جميع الجنة، فجنة الفردوس نُزِّل، وضيافة لأهل الإيمان والعمل الصالح، وأي: ضيافة أجل وأكبر، وأعظم من هذه الضيافة، المحتوية على كل نعيم، للقلوب، والأرواح، والأبدان، وفيها ما تشتهيhe الأنفس، وتلذ الأعين، من المنازل الأنيقة، والرياض الناضرة، والأشجار المثمرة، والطيور المفردة المشجية، والمأكَل اللذيذة، والمشارب الشهية، والنساء الحسان، والخدم، والولدان، والأنهار السارحة، والمناظر الرائقة، والجمال الحسي والمعنوي، والتعنة الدائمة، وأعلى ذلك وأفضله وأجله، التمتع بالقرب من الرحمن ونيل رضاه، الذي هو أكبر نعيم الجنان، والتمتع برؤية وجهه الكريم، وسماع كلام الرؤوف الرحيم، فله تلك الضيافة، ما أجلها وأجلها وأدومها وأكملها^(٣)، وهي أعظم من أن يحيط بها وصف أحد من الخلائق، أو تحيط

بها الفردوس نزلاً * خالدين فيها لا يغيون عنها حولاً^(٤) أي: إن الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم، وشمل هذا الوصف جميع الدين، عقائده، وأعماله، أصوله، وفروعه الظاهرة والباطنة، فهؤلاء - على اختلاف طبقاتهم من الإيمان والعمل الصالح، لهم جنات الفردوس.

ولقائه^(٥) أي: جحدوا الآيات القرآنية والآيات العيانة، الدالة على وجوب الإيمان به وبملائكته، ورسله، وكتبه، واليوم الآخر.

فحبطت^(٦) بسبب ذلك أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً^(٧) لأن الوزن فائدته، مقابلة الحسنات بالسيئات، والنظر في الراجح منها والمرجوح، وهؤلاء لا حسنات لهم لعدم شرطها، وهو الإيمان، كما قال تعالى: «ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً^(٨)» لكن تعد أعمالهم وتحصى، ويقروون بها، ويخزون بها على رؤوس الأشهاد، ثم يعذبون عليها، ولهذا قال: «ذلك جزاؤهم^(٩)» أي: حبوط أعمالهم، وأنه لا يقيم لهم يوم القيامة، «وزناً^(١٠)» لحقارتهم وخستهم، بكفرهم بآيات الله، واتخاذهم آياته ورسله، هزوا يستهزئون بها، ويسخرون^(١١) منها، مع أن الواجب في آيات الله ورسله، الإيمان التام بها، والتعظيم لها، والقيام بها أتم القيام، وهؤلاء عكسوا القضية، فانعكس أمرهم، وتعمسوا، وانتكسوا في العذاب. ولما بين مآل الكافرين وأعمالهم، بين أعمال المؤمنين ومآلهم فقال:

﴿١٠٧-١٠٨﴾ «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات

(١) في النسختين: ويستخرون.

(٢) كذا في أ، وفي ب: وهت.

﴿١٠٩﴾ «قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً^(١)» أي: قل لهم تخبراً عن عظمة الباري، وسعة صفاته، وأنها لا يحيط العباد بشيء منها: «لو كان البحر^(٢)» أي: هذه الأبحر الموجودة في العالم «مداداً

على القلوب، فلو علم العباد بعض ذلك النعيم علماً حقيقياً يصل إلى قلوبهم، لطارت إليها قلوبهم بالأشواق، ولتقطعت أرواحهم من ألم الفراق، ولساروا إليها زرافات ووحدانا، ولم يؤثروا عليها دنيا فانية، ولذات منغصة متلاشية، ولم يفوتوا أوقاً تذهب ضائعة خاسرة، يقابل كل لحظة منها من النعيم من الحقب آلاف مؤلفة، ولكن الغفلة شملت، والإيمان ضعف، والعلم قل، والإرادة نفدت^(٣)، فكان ما كان، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقوله: «خالدين فيها^(٤)» هذا هو تمام النعيم، إن فيها النعيم الكامل، ومن تمامه أنه لا ينقطع «لا يغيون عنها حولاً^(٥)» أي: تحولا ولا انتقالاً، لأنهم لا يرون إلا ما يعجبهم ويبهجهم، ويسرهم ويفرحهم، ولا يرون نعيماً فوق ما هم فيه.

﴿١٠٩﴾ «قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً^(١)» أي: قل لهم تخبراً عن عظمة الباري، وسعة صفاته، وأنها لا يحيط العباد بشيء منها: «لو كان البحر^(٢)» أي: هذه الأبحر الموجودة في العالم «مداداً

ومعرفته، والسبب الموصل إليه. وذلك أن الله تعالى اجتنبى واصطفى زكريا عليه السلام لرسالته، وخصه بوحيه، فقام بذلك قيام أمثاله من المرسلين، ودعا العباد إلى ربه، وعلمهم ما علمه الله، ونصح لهم في حياته وبعد مماته، كإخوانه من المرسلين ومن اتبعهم، فلما رأى من نفسه الضعف، وخاف أن يموت، ولم يكن أحد يتوب منابه في دعوة الخلق إلى ربهم والنصح لهم، شكا إلى ربه ضعفه الظاهر والباطن، وناداه نداء خفياً، ليكون أكمل وأفضل وأتم إخلاصاً، فقال:

﴿رب إني وهن العظم مني﴾ أي: وهى وضعف، وإذا ضعف العظم، الذي هو عماد البدن، ضعف غيره، واشتعل الرأس شيباً، لأن الشيب دليل الضعف والكبر، ورسول الموت ورائده ونذيره، فتوسل إلى الله تعالى بضعفه وعجزه، وهذا من أحب الوسائل إلى الله، لأنه يدل على التبري من الحول والقوة، وتعلق القلب بحول الله وقوته.

﴿ولم أكن بدعائك رب شقياً﴾ أي: لم تكن يا رب تردني خائباً ولا محروماً من الإجابة، بل لم تزل بي حفيماً ولبدعائي مجيباً، ولم تزل أطفافك تتوالى علي، وإحسانك واصلًا لي، وهذا توسل إلى الله بإنعامه عليه، وإجابة دعواته السابقة، فسأل الذي أحسن سابقاً، أن يتم إحسانه لاحقاً.

﴿وإني خفت الموالى من ورائي﴾ أي: وإني خفت من يتولى على بني إسرائيل من بعد موتي، أن لا يقوموا بدينك حق القيام، ولا يدعوا عبادك إليك، وظاهر هذا، أنه لم ير فيهم أحداً فيه لياقة للإمامة في الدين، وهذا فيه شفقة زكريا عليه السلام ونصحه، وأن طلبه للولد، ليس بطلب غيره، قصده مجرد المصلحة الدنيوية، وإنما قصده مصلحة الدين، والخوف من ضياعه، ورأى غيره غير صالح لذلك، وكان بيته من البيوت المشهورة في الدين، ومعدن الرسالة، ومطنة للخير، فدعا الله أن يرزقه ولداً، يقوم بالدين

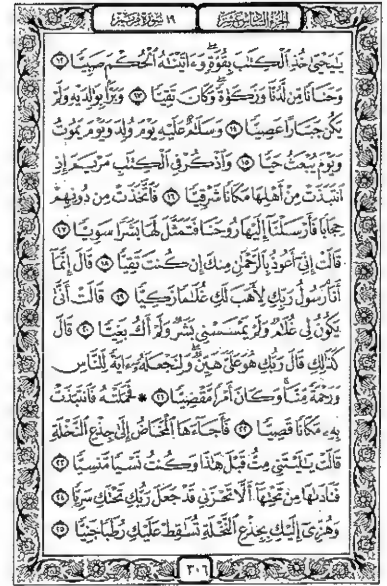
﴿قل﴾ يا محمد للكفار وغيرهم: ﴿إنما أنا بشر مثلكم﴾ أي: لست بآله، ولا لي شركة في الملك، ولا علم بالغيب، ولا عندى خزائن الله، و ﴿إنما أنا بشر مثلكم﴾ عبد من عبيد ربي، ﴿يوحى إلي أنما إليكم إله واحد﴾ أي: فضلت عليكم بالوحي، الذي يوحى الله إلي، الذي أجله الإخبار لكم: أنما إليكم إله واحد، أي: لا شريك له، ولا أحد يستحق من العبادة مثقال ذرة غيره، وأدعوكم إلى العمل الذي يقربكم منه، وينيلكم ثوابه، ويدفع عنكم عقابه. ولهذا قال:

﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً﴾ وهو الموافق لشرع الله، من واجب ومستحب، ﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ أي: لا يرأى بعمله، بل يعمل خالصاً لوجه الله تعالى، فهذا الذي جمع بين الإخلاص والمتابعة، هو الذي ينال ما يرجو ويطلب، وأما من عدا ذلك، فإنه خاسر في دنياه وأخراه، وقد فاته القرب من مولاه ونيل رضاه.

آخر تفسير سورة الكهف، والله الحمد

تفسير سورة مريم وهي مدنية

﴿١-٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم كهيعص﴾ ذكر رحمة ربك عبده زكريا ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾ قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً ﴿وإني خفت الموالى من ورائي وكانت امرأتى عاقراً فهب لي من لدنك ولياً﴾ يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً ﴿أي: هذا ذكر رحمة ربك عبده زكريا﴾ سنقصه عليك، ونقصه تفصيلاً يعرف به حالة نبيه زكريا، وأثاره الصالحة، ومتاقبه الجميلة، فإن في قصصها عبرة للمعتبرين، وأسوة للمقتدين، ولأن في تفصيل رحمته ولأليائه، وبأي سبب حصلت لهم، مما يدعو إلى محبة الله تعالى، والإكثار من ذكره



لكلمات ربي﴾ أي: وأشجار الدنيا من أولها إلى آخرها، من أشجار البلدان والبراري، والبحار أقلام، لنفد البحر، وتكسرت الأقلام قبل أن تنفذ كلمات ربي، وهذا شيء عظيم، لا يحيط به أحد.

وفي الآية الأخرى: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾. وهذا من باب تقريب المعنى إلى الأذهان، لأن هذه الأشياء مخلوقة، وجميع المخلوقات منقضية منتهية، وأما كلام الله فإنه من جملة صفاته، وصفاته غير مخلوقة، ولا لها حد ولا منتهى، فأني سعة وعظمة تصورتها القلوب فالله فوق ذلك، وهكذا سائر صفات الله تعالى، كعلمه، وحكمته، وقدرته، ورحمته، فلو جمع علم الخلائق من الأولين والآخرين، أهل السماوات وأهل الأرض، لكان بالنسبة إلى علم العظيم، أقل من نسبة عصافير وقع على حافة البحر، فأخذ بمنقاره من البحر بالنسبة للبحر وعظمته، ذلك بأن له الصفات العظيمة الواسعة الكاملة، وأن إلى ربك المنتهى.

﴿١١٠﴾ ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إليكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ أي:

وجود الولد، موجود بي وبزوجتي؟ وكأنه وقت دعائه، لم يستحضر هذا المانع لقوة الوارد في قلبه، وشدة الحرص العظيم على الولد، وفي هذه الحال، حين قبلت دعوته، تعجب من ذلك، فأجابه الله بقوله: ﴿كذلك قال ربك هو علي هين﴾ أي: الأمر مستغرب في العادة، وفي سنة الله في الخليقة، ولكن قدرة الله تعالى صالحة لإيجاد الأشياء بدون أسبابها فذلك هين عليه، ليس بأصعب من إيجاده قبل ولم يكن شيئاً.

﴿قال رب اجعل لي آية﴾ أي:

يطمئن بها قلبي، وليس هذا شكاً في خبر الله، وإنما هو، كما قال الخليل عليه السلام: ﴿رب أرني كيف تخيي الموتى﴾ قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴿فطلب زيادة العلم، والوصول إلى عين اليقين بعد علم اليقين، فأجابه الله إلى طلبته رحمة به، ف ﴿قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً﴾ وفي الآية الأخرى ﴿ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا﴾ والمعنى واحد، لأنه تارة يعبر بالليالي، وتارة بالأيام وموذاها واحد، وهذا من الآيات العجيبة، فإن منعه من الكلام مدة ثلاثة أيام، وعجزه عنه من غير خرس ولا أفة، بل كان سوياً، لا نقص فيه، من الأدلة على قدرة الله الخارقة للعوائد، ومع هذا، ممنوع من الكلام الذي يتعلق بالآدميين وخطابهم، وأما التسبيح والتهليل، والذكر ونحوه، فغير ممنوع منه، ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار﴾ فاطمأن قلبه، واستبشر بهذه البشارة العظيمة، وامتلأ لأمرك له بالشكر بعبادته وذكره، فعكف في محرابه، وخرج على قومه منه فأوحى إليهم، أي: بالإشارة والرمز ﴿أن سبحوا بكرة وعشيا﴾ لأن البشارة بـ «يحيى» في حق الجميع، مصلحة دينية.

﴿١٢-١٥﴾ ﴿يا يحيى خذ

الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً﴾ وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً وبراً

من بعده، واشتكى أن امرأته عاقرة، أي: ليست تلد أصلاً، وأنه قد بلغ من الكبر عتياً، أي: عمراً يندر معه وجود الشهوة والولد، ﴿فهب لي من لدنك ولياً﴾ وهذه الولاية، ولاية الدين، وميراث النبوة والعلم والعمل، ولهذا قال: ﴿يربني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً﴾ أي: عبداً صالحاً ترضاه وتحبه إلى عبادك، والحاصل أنه سأل الله ولداً، ذكراً، صالحاً، يبقى بعد موته، ويكون ولياً من بعده، ويكون نبياً مرضياً عند الله وعند خلقه، وهذا أفضل ما يكون من الأولاد، ومن رحمة الله بعبده أن يرزقه ولداً صالحاً، جامعاً لمكارم الأخلاق ومحامد الشيم، فرحمه ربه، واستجاب دعوته، فقال:

﴿٧-١١﴾ ﴿يا زكريا إنا نبشرك

بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً﴾ قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً ﴿قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً﴾ قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً ﴿فخرج على قومه من المخراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا﴾ أي: بشره الله تعالى على يد الملائكة بـ «يحيى» وسماء الله له «يحيى»، وكان اسماً موافقاً لسمائه: يحيى حياة خسية، فتمت به المنة، ويحيى حياة مغنوية، وهي حياة القلب والروح، بالوحي والعلم والدين، ﴿لم نجعل له من قبل سمياً﴾ أي: لم يسم هذا الاسم قبله أحد، ويحتمل أن المعنى: لم نجعل له من قبل مثيلاً ومسامياً، فيكون ذلك بشارة بكماله، واتصافه بالصفات الحميدة، وأنه فاق من قبله، ولكن على هذا الاحتمال، هذا العموم لا بد أن يكون مخصوصاً بإبراهيم، وموسى، ونوح عليهم السلام، ونحوهم، ممن هو أفضل من يحيى قطعاً، فحينئذ لما جاءته البشارة بهذا المولود الذي طلبه، استغرب وتعجب وقال: ﴿رب أنى يكون لي غلام﴾ والحال أن المانع من



بوالديه ولم يكن جباراً عصياً * وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً * دل الكلام السابق على ولادة يحيى، وشبابه، وتربيته، فلما وصل إلى حالة يفهم فيها الخطاب أمره الله أن يأخذ الكتاب بقوة، أي: بسجد واجتهاد، وذلك بالاجتهاد في حفظ ألفاظه، وفهم معانيه، والعمل بأوامره ونواهيه، هذا تمام أخذ الكتاب بقوة، فامتثل أمر ربه، وأقبل على الكتاب، فحفظه وفهمه، وجعل الله فيه من الذكاء والفطنة، ما لا يوجد في غيره، ولهذا قال: ﴿وآتيناه الحكم صبياً﴾ أي: معرفة أحكام الله والحكم بها، وهو في حال صغره وصباه، ﴿و﴾ آتيناه أيضاً ﴿حناناً من لدنا﴾ أي: رحمة ورأفة، تيسرت بها أموره، وصلاح بها أحواله، واستقامت بها أفعاله.

﴿وزكاة﴾ أي: طهارة من الآفات والذنوب، فطهر قلبه وتزكى عقله، وذلك يتضمن زوال الأوصاف المذمومة، والأخلاق الرديئة، وزيادة الأخلاق الحسنة، والأوصاف المحمودة، ولهذا قال: ﴿وكان تقياً﴾ أي: فاعلاً للأمر، تاركاً للمحظور، ومن كان مؤمناً تقياً كان لله ولياً، وكان من أهل الجنة التي أعدت للمتقين، وحصل له من الثواب الدنيوي والأخروي، ما رتبته الله على التقوى.

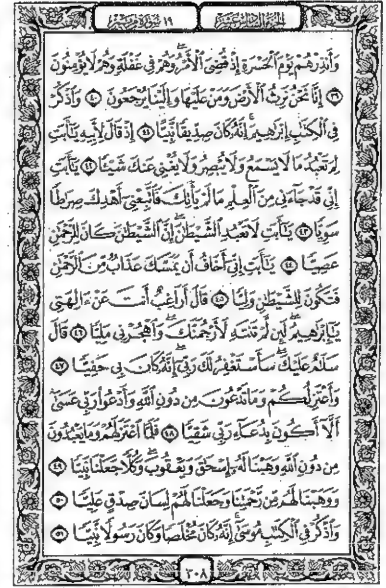
﴿و﴾ كان أيضاً ﴿براً بوالديه﴾ أي:

وهذا أبلغ ما يكون من العفة، والبعد عن الشر وأسبابه. وهذه العفة - خصوصاً مع اجتماع الدواعي، وعدم المنع - من أفضل الأعمال.

ولذلك أثنى الله عليها فقال: ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا﴾ ﴿والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾ فأعاضها الله بعفتها، ولداً من آيات الله، ورسولاً من رسله، فلما رأى جبريل منها الروح والحيقة، قال: ﴿إنما أنا رسول ربك﴾ أي: إنما وظيفتي وشغلي تنفيذ رسالة ربي فيك ﴿لأهب لك غلاماً زكياً﴾ وهذه بشارة عظيمة بالولد وزكائه، فإن الزكاء يستلزم تطهيره من الخصال الذميمة، واتصافه بالخصال الحميدة، فتعجبت من وجود الولد من غير أب، فقالت: ﴿أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً﴾ والولد لا يوجد إلا بذلك؟! قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس. تدل على كمال قدرة الله تعالى، وعلى أن الأسباب جميعها، لا تستقل بالتأثير، وإنما تأثيرها بتقدير الله، فيري عباده خرق العوائد في بعض الأسباب العادية، لئلا يقفوا مع الأسباب، ويقطعوا النظر عن مقدرها ومسببها ﴿ورحمة منا﴾ أي: ولنجعله رحمة منا به، وبوالدته، وبالناس.

أما رحمة الله به، فلما خصه الله بوحيه ومنَّ عليه بما منَّ به على أولي العزم، وأما رحمته بوالدته، فلما حصل لها من الفخر، والثناء الحسن، والمنافع العظيمة. وأما رحمته بالناس، فإن أكبر نعمه عليهم، أن بعث فيهم رسولاً، يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، فيؤمنون به، ويطيعونه، وتحصل لهم سعادة الدنيا والآخرة، ﴿وكان﴾ أي: وجود عيسى عليه السلام على هذه الحالة أمراً مقضياً. قضاء سابقاً، فلا بد من نفوذ هذا التقدير والقضاء، فنفس جبريل عليه السلام في جيها.

انتقل منها إلى ما هو أعجب منها، تدريجاً من الأدنى إلى الأعلى فقال: ﴿واذكر في الكتاب الكريم مريم﴾ عليها السلام، وهذا من أعظم فضائلها، أن تذكر في الكتاب العظيم، الذي يتلوه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، تذكر فيه بأحسن الذكر، وأفضل الثناء، جزاء لعملها الفاضل، وسعيتها الكامل، أي: واذكر في الكتاب مريم، في حالها الحسنة، حين انتبذت أي: تباعدت عن أهلها مكاناً شرقياً أي: مما يلي الشرق عنهم، فانخذت من دونهم حجاباً أي: سترأ ومانعاً، وهذا التباعد منها، واتخاذ الحجاب، لتعزل، وتفرد بعبادة ربها، وتقت له في حالة الإخلاص والخضوع والذل لله تعالى، وذلك امتثال منها لقوله تعالى: ﴿واذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين﴾ يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين. وقوله: ﴿فأرسلنا إليها روحنا﴾ وهو: جبريل عليه السلام ﴿فتمثل لها بشراً سوياً﴾ أي: كاملاً من الرجال، في صورة جميلة، وهيئة حسنة، لا عيب فيه ولا نقص، لكونها لا تحتمل رؤيته على ما هو عليه، فلما رآته في هذه الحال، وهي معترلة عن أهلها، منفردة عن الناس، قد انخذت الحجاب عن أعز الناس عليها وهم أهلها، خافت أن يكون رجلاً قد تعرض لها بسوء، وطمع فيها، فاعتصمت بربها، واستعاذت منه فقالت له: ﴿إني أعوذ بالرحمن منك﴾ أي: ألتجئ به وأعتصم برحمته، أن تنالني بسوء، ﴿إن كنت تقياً﴾ أي: إن كنت تخاف الله، وتعمل بتقواه، فاترك التعرض لي، فجعلت بين الاعتصام بربها، وبين تخويفه وترهيبه، وأمره بلزوم التقوى، وهي في تلك الحالة الخالية، والشباب، والبعد عن الناس، وهو في ذلك الجمال الباهر، والبشرية الكاملة السوية، ولم ينطق لها بسوء، أو يتعرض لها، وإنما ذلك خوف منها،



لم يكن عاقباً، ولا مسيئاً إلى أبويه، بل كان محسناً إليهما بالقول والفعل.

﴿ولم يكن جباراً عصياً﴾ أي: لم يكن متجبراً متكبراً عن عبادة الله، ولا مترفعاً على عباد الله، ولا على والديه، بل كان متواضعاً، متذللاً، مطيعاً، أواباً لله على الدوام، فجمع بين القيام بحق الله، وحق خلقه، ولهذا حصلت له السلامة من الله، في جميع أحواله، مبادئها وعواقبها، فلهاذا قال: ﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً﴾ وذلك يقتضي سلامته من الشيطان، والشر، والعقاب في هذه الأحوال الثلاثة وما بينها، وأنه سالم من النار والأهوال، ومن أهل دار السلام، فصولات الله وسلامه عليه وعلى والده وعلى سائر المرسلين، وجعلنا الله من أتباعهم، إنه جواد كريم.

﴿١٦ - ٢١﴾ ﴿واذكر في الكتاب مريم﴾ إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً. فانخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً. قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً. قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً. قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً. قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً. لما ذكر قصة زكريا ويحيى، وكانت من الآيات العجيبة،

تقول: ﴿إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً﴾ فلما أشارت إليهم بتكليمه، تعجبوا من ذلك وقالوا: ﴿كيف نكلم من كان في المهد صيباً﴾ لأن ذلك لم يجر به عادة، ولا حصل من أحد في ذلك السن، فحيث قال عيسى عليه السلام، وهو في المهد صبي: ﴿إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ فخطبهم بوصفه بالعبودية، وأنه ليس فيه صفة يستحق بها أن يكون إلهاً، أو ابناً للإله، تعالى الله عن قول النصارى المخالفين لعيسى في قوله ﴿إني عبد الله﴾ ومدعون موافقته.

﴿أتاني الكتاب﴾ أي: قضى أن يؤتيني الكتب ﴿وجعلني نبياً﴾ فأخبرهم بأنه عبد الله، وأن الله علمه الكتاب، وجعله من جملة أنبيائه، فهذا من كماله لنفسه، ثم ذكر تكميله لغيره فقال: ﴿وجعلني مباركا أينما كنت﴾ أي: في أي مكان، وأي زمان، فالبركة جعلها الله في من تعليم الخير والدعوة إليه، والنهي عن الشر، والدعوة إلى الله في أقواله وأفعاله، فكل من جالسه، أو اجتمع به، نالته بركته، وسعده بمصاحبه.

﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾ أي: أوصاني بالقيام بحقوقه، التي من أعظمها الصلاة، وحقوق عباده، التي أجلها الزكاة، مدة حياتي، أي: فأنا ممثّل لوصية ربي، عامل عليها، منفذ لها، ووصاني أيضاً، أن أبر والدتي فأحسن إليها غاية الإحسان، وأقوم بما ينبغي لها، لشرفها وفضلها، ولكونها والدّة لها حق الولادة وتوابعها.

﴿ولم يجعلني جباراً﴾ أي: متكبراً على الله، مترفعاً على عباده ﴿شقياً﴾ في دنياي أو أخراي، فلم يجعلني كذلك بل جعلني مطيعاً له خاضعاً خاشعاً متذليلاً، متواضعاً لعباد الله، سعيدياً في الدنيا والآخرة، أنا ومن اتبعني، فلما تم له الكمال، ومحمد الخصال قال: ﴿والسلام علي يوم

الناس لا يصدقونها، ولا فيه فائدة، وليكون تبرئتها بكلام عيسى في المهد، أعظم شاهد على براءتها، فإن إتيان المرأة بولد من دون زوج، ودعواها أنه من غير أحد، من أكبر الدعاوى، التي لو أقسم عدة من الشهود، لم تصدق بذلك، فجعلت بينة هذا الخارق للعادة، أمراً من جنسه، وهو كلام عيسى في حال صغره جداً، ولهذا قال تعالى:

﴿٢٧-٣٣﴾ ﴿فأنت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً﴾ يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صيباً ﴿قال إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ﴿وبرأ والدتي ولم يجعلني جباراً شقياً﴾ والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً ﴿أي: فلما تعلت مريم من نفاسها، أتت بعيسى قومها تحمله، وذلك لعلمها ببراءة نفسها وطهارتها، فأنت غير مبالة ولا مكترثة، فقالوا: ﴿لقد جئت شيئاً فرياً﴾ أي: عظيماً وخيماً، وأرادوا بذلك البغاء^(١)، حاشاها من ذلك، ﴿يا أخت هارون﴾ الظاهر، أنه أخ لها حقيقي، فنسبوا إليه، وكانوا يسمون بأسماء الأنبياء، وليس هو هارون بن عمران أخا موسى، لأن بينهما قروناً كثيرة، ﴿ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً﴾ أي: لم يكن أبواك إلا صالحين سالمين من الشر، وخصوصاً هذا الشر، الذي يشيرون إليه، وقصدهم: فكيف كنت على غير وصفهما؟ وأتيت بما لم يأتيا به؟، وذلك أن الذرية - في الغالب - بعضها من بعض، في الإصلاح وضده، فتعجبوا - بحسب ما قام بقلوبهم - كيف وقع منها، فأشارت لهم إليه، أي: كلموه، وإنما أشارت لذلك، لأنها أمرت عند مخاطبة الناس لها، أن

﴿٢٢-٢٦﴾ ﴿فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً﴾ فأجأها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ﴿فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً﴾ وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ﴿فكلي واشربي وقري عينا فإما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً﴾ أي: لما حلت بعيسى عليه السلام، خافت من الفضيحة، فتباعدت عن الناس ﴿مكاناً قصياً﴾ فلما قرب ولادها، أجاها المخاض إلى جذع نخلة، فلما ألما وجع الولادة، ووجع الانفراد عن الطعام والشراب، ووجع قلبها من حالة الناس، وخافت عدم صبرها، تمت أنها ماتت قبل هذا الحادث، وكانت نسياً منسياً فلا تذكر، وهذا التمني بناء على ذلك المزعج، وليس في هذه الأمنية خير لها ولا مصلحة، وإنما الخير والمصلحة بتقدير ما حصل، فحيث سكن الملك روعها وثبت جأشها وناداهما من تحتها، لعله في مكان أنزل من مكانها، وقال لها: لا تحزني، أي: لا تحزعي ولا تهتمي، ﴿قد جعل ربك تحتك سرياً﴾ أي: نهراً تشربين منه، ﴿وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً﴾ أي: طرياً لذيذاً نافعاً ﴿فكلي﴾ من التمر، ﴿واشربي﴾ من النهر ﴿وقري عينا﴾ بعيسى، فهذا طمأنينتها من جهة السلامة من ألم الولادة، وحصول المأكّل والمشرب والهنى.

وأما من جهة قالة الناس، فأمرها أنها إذا رأت أحداً من البشر، أن تقول على وجه الإشارة: ﴿إني نذرت للرحمن صوماً﴾ أي: سكوتاً ﴿فلن أكلم اليوم إنسياً﴾ أي: لا تخاطبهم بكلام تسترجمي من قولهم وكلامهم. وكان معروفاً عندهم أن السكوت من العبادات المشروعة، وإنما لم تؤمر بخطابهم في نفي ذلك عن نفسها لأن

(١) كذا في ب، وفي أ: البغي، وما في ب يبدو أنه معدل من البغي فصار (البغاء) هو الأقرب المتوافق مع القصة.

وأقوالهم، ويقولون: ﴿ربنا أبصرنا
وسمعنا فارجعنا لنعمل صالحاً إنا
موقنون﴾ ففي القيامة، يستيقنون
حقيقة ما هم عليه.

﴿لكن الظالمون اليوم في ضلال
مبين﴾ وليس لهم عذر في هذا
الضلال، لأنهم بين معاند ضال على
بصيرة، عازف بالحق صادف عنه،
وبين ضال عن طريق الحق، متمكن من
معرفة الحق والصواب، ولكنه راض
بضلاله وما هو عليه من سوء أعماله،
غير ساع في معرفة الحق من الباطل،
وتأمل كيف قال: ﴿فويل للذين
كفروا﴾ بعد قوله ﴿فاختلف الأحزاب
من بينهم﴾ ولم يقل ﴿فويل لهم﴾ ليعود
الضمير إلى الأحزاب، لأن من
الأحزاب المختلفين، طائفة أصابت
الصواب، ووافقت الحق، فقالت في
عيسى: ﴿إنه عبد الله ورسوله﴾ فآمنوا
به، واتبعوه، فهؤلاء مؤمنون، غير
داخلين في هذا الوعيد، فلهذا
خص الله بالوعيد الكافرين.

﴿٣٩-٤٠﴾ ﴿وأنذرهم يوم
الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة
وهم لا يؤمنون﴾ إنا نحن نرث
الأرض ومن عليها وإنا يرجعون﴾
الإنذار هو: الإعلام بالخوف على وجه
الترهيب، والإخبار بصفاته، وأحق ما
ينذر به ويخوف به العباد، يوم الحسرة
حين يقضى الأمر، فيجمع الأولون
والآخرون في موقف واحد، ويسألون
عن أعمالهم، فمن آمن بالله، واتبع
رسله، سعد سعادة لا يشقى بعدها،
ومن لم يؤمن بالله ويتبع رسله شقى
شقاوة لا سعادة^(١) بعدها، وخسر
نفسه وأهله، فحينئذ يتحسر، ويندم
ندامة تنقطع منها القلوب، وتنصدع
منها الأفتدة، وأي: حسرة أعظم من
فوات رضا الله وجنته، واستحقاق
سخطه والنار، على وجه لا يتمكن من
الرجوع ليستأنف العمل، ولا سبيل له
إلى تغيير حاله بالعود إلى الدنيا؟ فهذا
قدامهم، والحال أنهم في الدنيا في

ربي وربكم﴾ الذي خلقنا، وصورنا،
ونفذ فينا تدبيره، وصرفنا تقديره.

﴿فاعبدوه﴾ أي: أخلصوا له
العبادة، واجتهدوا في الإنابة، وفي
هذا الإقرار بتوحيد الربوبية، وتوحيد
الإلهية، والاستدلال بالأول على
الثاني، ولهذا قال: ﴿هذا صراط
مستقيم﴾ أي: طريق معتدل، موصل
إلى الله، لكونه طريق الرسل
وأتباعهم، وما عدا هذا، فإنه من طرق
الغنى والضلال.

﴿٣٧-٣٨﴾ ﴿فاختلف الأحزاب
من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد
يوم عظيم﴾ أسمع بهم وأبصر يوم
يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال
مبين﴾ لما بين تعالى حال عيسى ابن
مريم الذي لا يشك فيها ولا يمتري،
أخبر أن الأحزاب، أي: فرق
الضلال، من اليهود والنصارى
وغيرهم، على اختلاف طبقاتهم
اختلفوا في عيسى عليه السلام، فمن
غبال فيه وجاف، فمنهم من قال:
إنه الله، ومنهم من قال: إنه ابن الله
ومنهم من قال: إنه ثالث ثلاثة. ومنهم
من لم يجعله رسولا، بل رماه بأنه ولد
بغى كاليهود. وكل هؤلاء أقوالهم
باطلة، وآراؤهم فاسدة، مبنية على
الشك والعناد، والأدلة الفاسدة،
والشبه الكاسدة، وكل هؤلاء
مستحقون للوعيد الشديد، ولهذا
قال: ﴿فويل للذين كفروا﴾ بالله
ورسله وكتبه، ويدخل فيهم اليهود
والنصارى، القائلون بعيسى قول الكفر
﴿من مشهد يوم عظيم﴾ أي: مشهد
يوم القيامة، الذي يشهده الأولون
والآخرون، أهل السماوات وأهل
الأرض، الخالق والمخلوق، المتلى
بالزلازل والأحوال، المشتمل على
الجزاء بالأعمال، فحينئذ يتبين ما كانوا
يخفون ويدون، وما كانوا يكتمون.

﴿أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا﴾
أي: ما أسمعهم وما أبصرهم في ذلك
اليوم! فيقرون بكفرهم وشركهم

ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا﴾
أي: من فضل ربي وكرمه، حصلت لي
السلامة يوم ولادتي، ويوم موتي، ويوم
بعثي، من الشر والشيطان والعقوبة،
وذلك يقتضي سلامته من الأحوال،
ودار الفجاء، وأنه من أهل دار
السلام، فهذه معجزة عظيمة، وبرهان
باهر، على أنه رسول الله، وعبد الله
حقاً.

﴿٣٤-٣٦﴾ ﴿ذلك عيسى ابن
مريم قول الحق الذي فيه يمترون﴾ ما
كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا
قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾
وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط
مستقيم﴾ أي: ذلك الموصوف بتلك
الصفات، عيسى ابن مريم، من غير
شك ولا مرية، بل قول الحق
وكلام الله، الذي لا أصدق منه قبلاً،
ولا أحسن منه حديثاً، فهذا الخبر
اليقيني عن عيسى عليه السلام، وما
قيل فيه مما يخالف هذا، فإنه مقطوع
ببطلانه، وغايته أن يكون شكاً من قائله
لا علم له به، ولهذا قال: ﴿الذي فيه
يمترون﴾ أي: يشكون فيما رآوا
بشكهم، ويجادلون بخبرهم، فمن
قائل عنه: إنه الله، أو ابن الله، أو
ثالث ثلاثة، تعالى الله عن إفكهم
وتقولهم علواً كبيراً، ف ﴿ما كان لله أن
يتخذ من ولد﴾ أي: ما ينبغي ولا
يليق، لأن ذلك من الأمور المستحيلة،
لأنه الغني الحميد، المالك لجميع
الممالك، فكيف يتخذ من عباده
ومعاليكه ولداً؟! ﴿سبحانه﴾ أي: تنزه
وتقدس عن الولد والنقص، ﴿إذا
قضى أمراً﴾ أي: من الأمور الصغار
والكبار، لم يمتنع عليه ولم يستصعب
﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾ فإذا كان
قدره ومشيتته نافذاً في العالم العلوي
والسفلي، فكيف يكون له ولد؟! وإذا
كان إذا أراد شيئاً قال له: ﴿كن
فيكون﴾ فكيف يستبعد إيجاد عيسى
من غير أب؟! ولهذا أخبر عيسى أنه
عبد مريبوب كغيره، فقال: ﴿وإن الله

(١) في ب: لا يسعد.



أدعو الله لك بالهداية والمغفرة، بأن يهديك للإسلام، الذي تحصل به المغفرة، ف ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ أي: رحيمًا رؤوفًا بحالي، معتنيًا بي، فلم يزل يستغفر الله له رجاء أن يهديه الله، فلما تبين له أنه عدو الله، وأنه لا يفيد فيه شيئاً، ترك الاستغفار له، وتبرأ منه.

وقد أمرنا الله باتباع ملة إبراهيم، فمن اتباع ملته، سلوك طريقه في الدعوة إلى الله، بطريق العلم والحكمة واللين والسهولة، والانتقال من مرتبة إلى مرتبة^(١)، والصبر على ذلك، وعدم السأمة منه، والصبر على ما ينال الداعي من أذى الخلق بالقول والفعل، ومقابلة ذلك بالصنع والعفو، بل بالإحسان القوي والفعل.

فلما أيس من قومه وأبيه قال: ﴿واعتزلكم وما تدعون من دون الله﴾ أي: أنتم وأصنامكم. وأدعوني وهذا شامل لدعاء العبادة، ودعاء المسألة ﴿عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقيًّا﴾ أي: عسى الله أن يسعدني بإجابة دعائي، وقبول أعمالي، وهذه وظيفة من أيس من دعاهم، فاتبعوا أهواءهم، فلم تنجح فيهم المواعظ، فأصبروا في طغيانهم يعمهون، أن يشتغل بإصلاح نفسه، ويرجو القبول من ربه، ويعتزل الشر وأهله، ولما كان مفارقة الإنسان لوطنه ومألفه وأهله وقومه، من أشق شيء على النفس، لأمر كثيرة معروفة، ومنها انفراجه عمن يتعزز بهم ويتكثر، وكان من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، واعتزل إبراهيم قومه، قال الله في حقه: ﴿فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلاً﴾ من إسحق ويعقوب ﴿جعلنا نبيًّا﴾ فحصل له هبة هؤلاء الصالحين^(٢) المرسلين إلى الناس، الذين خصهم الله بوحيه، واختارهم لرسالته، واصطفاهم من العالمين.

﴿وهبنا لهم﴾ أي: لإبراهيم وابنيه ﴿من رحمتنا﴾ وهذا يشمل جميع ما وهب الله لهم من الرحمة، من العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والذرية الكثيرة المنتشرة، الذين قد كثر فيهم الأنبياء والصالحون، ﴿وجعلنا لهم لسان صدق عليًّا﴾ وهذا أيضاً من الرحمة التي وهبها لهم، لأن الله وعد كل محسن، أن ينشر له ثناء صادقاً بحسب إحسانه، وهؤلاء من أئمة المحسنين، فنشر الله الثناء الحسن الصادق غير الكاذب: العالي غير الخفي، فذكرهم ملاً الخافقين، والثناء عليهم ومحبتهم، امتلأت بها القلوب، وفاضت به الألسنة، فصاروا قدوة للمقتدين، وأئمة للمهتدين، ولا تزال أذكارهم في سائر العصور، متجددة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

﴿٥١ - ٥٣﴾ ﴿وذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولا نبيا﴾ وناديه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً * ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً * أي: وأذكر في هذا القرآن العظيم موسى بن عمران، على وجه التبجيل له والتعظيم، والتعريف بمقامه الكريم، وأخلاقه الكاملة، ﴿إنه كان مخلصاً﴾ قرئ بفتح اللام، على معنى أن الله تعالى اختاره واستخلصه، واصطفاه على العالمين. وقرئ بكسرها، على معنى أنه مخلص لله تعالى، في جميع أعماله، وأقواله، ونياته، فوصفه الإخلاص في جميع أحواله، والمعنيين متلازمان، فإن الله أخلصه لإخلاصه، وإخلاصه موجب لاستخلاصه، وأجل حالة يوصف بها العبد، الإخلاص منه، والاستخلاص من ربه، ﴿وكان رسولا نبياً﴾ أي: جمع الله له بين الرسالة والنبوة، فالرسالة تقتضي تبليغ كلام المرسل، وتبليغ جميع ما جاء به من

الذميمة، وترتع في مراتعه الوحيمة، فتدرج الخليل عليه السلام بدعوة أبيه، بالأسهل فالأسهل، فأخبره بعلمه، وأن ذلك موجب لاتباعك إياي، وأنتك إن أطعني، اهتديت إلى صراط مستقيم، ثم نهاه عن عبادة الشيطان، وأخبره بما فيها من المضار، ثم حذره عقاب الله ونقمته إن أقام على حاله، وأنه يكون ولياً للشيطان، فلم ينجع هذا الدعاء بذلك الشقي، وأجاب بجواب جاهل وقال: ﴿أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم﴾ فتبجح بآلهته [التي هي] من الحجر والأصنام، ولأم إبراهيم عن رغبته عنها، وهذا من الجهل المفرط، والكفر الوحيم، يتمدح بعبادة الأوثان، ويدعو إليها.

﴿لئن لم تنته﴾ أي: عن شتم آلهتي، ودعوتي إلى عبادة الله ﴿لأرجنك﴾ أي: قتلاً بالحجارة ﴿واهجرتي ملياً﴾ أي: لا تكلمني زماناً طويلاً، فأجابه الخليل جواب عباد الرحمن عند خطاب الجاهلين، ولم يشتمه، بل صبر، ولم يقابل أباه بما يكره، وقال: ﴿سلام عليك﴾ أي: ستسلم من خطايي إياك بالشتم والسب وبما تكره، ﴿سأستغفر لك رب إنني كنت بى حفيًّا﴾ أي: لا أزال

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) في ب: من رتبة إلى رتبة.

(٣) في ب: فحصل له ولهؤلاء الصالحين.

الشرع، دقه وجله. والنبوة تقتضي إحياء الله إليه وتخصيصه بإنزال الوحي إليه، فالنبوة بينه وبين ربه، والرسالة بينه وبين الخلق، بل خصه الله من أنواع الوحي، بأجل أنواعه وأفضلها، وهو: تكليمه تعالى وتقريبه مناجياً لله تعالى، وبهذا اختص من بين الأنبياء، بأنه كليم الرحمن، ولهذا قال: ﴿وَبَادِيَانِهِ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾

أي: الأيمن من موسى في وقت مسيره، أو الأيمن: أي: الأبرك من اليُسرى والبركة. ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أَنْ بَوْرُكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمِنْ حَوْلِهَا﴾ ﴿وَقَرِينَاهُ نَجِيًّا﴾ والفرق بين النداء والنجاء، أن النداء هو الصوت الرفيع، والنجاء ما دون ذلك، وفي هذه إثبات الكلام لله تعالى وأنواعه، من النداء، والنجاء، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافاً لمن أنكر ذلك، من الجهمية، والمعتزلة، ومن نحا نحوهم.

وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ هذا من أكبر فضائل موسى وإحسانه، ونصحه لأخيه هارون، أنه سأل ربه أن يشركه في أمره، وأن يجعله رسولاً مثله، فاستجاب الله له ذلك، ووهب له من رحمته أخاه هارون نبياً. فنبوة هارون تابعة لنبوة موسى عليهما السلام، فساعده على أمره، وأعانه عليه.

﴿٥٤-٥٥﴾ ﴿وَإِذْ ذَكَرْنَا فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾ وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً أي: واذكر في القرآن الكريم، هذا النبي العظيم، الذي خرج منه الشعب العربي، أفضل الشعوب وأجلها، الذي منهم سيد ولد آدم.

﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ أي: لا يعد وعداً إلا وفي به، وهذا شامل

للوعد الذي يعقده مع الله أو مع العباد، ولهذا لما وعد من نفسه الصبر على ذبح أبيه [له] (١) وقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ وفي ذلك ومكن أباه من الذبح، الذي هو أكبر مصيبة تضيق الإنسان، ثم وصفه بالرسالة والنبوة، التي [هي] أكبر منن الله على عبده، وأهلها (٢) من الطبقة العليا من الخلق.

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ أي: كان مقيماً لأمر الله على أهله، فيأمرهم بالصلاة المتضمنة للأخلاص للمعبود، وبالزكاة المتضمنة للإحسان إلى العبيد، فأكمل نفسه، وكمل غيره، وخصوصاً أخص الناس عنده وهم أهله، لأنهم أحق بدعوته من غيرهم.

﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ وذلك بسبب امتثاله لمراضي ربه واجتهاده فيما يرضيه، ارتضاء الله وجعله من خواص عباده وأوليائه المقربين، فرضي الله عنه، ورضي [هو] عن ربه.

﴿٥٦-٥٧﴾ ﴿وَإِذْ ذَكَرْنَا فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ نَبِيًّا﴾ ورفعناه مكاناً علياً أي: اذكر في الكتب (٣) على وجه التعظيم والإجلال، والوصف بصفات الكمال ﴿إِدْرِيسَ﴾ إنه كان صديقاً نبياً جمع الله له بين الصديقية، الجامعة للتصديق التام، والعلم الكامل، واليقين الثابت، والعمل الصالح، وبين اصطفاؤه لوحيه، واختياره لرسالته، ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيًّا﴾ أي: رفع الله ذكره في العالمين، ومنزلته بين المقربين، فكان عالي الذكر، عالي المنزلة.

﴿٥٨﴾ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجُوداً وَبُكْيَا﴾ لما ذكر هؤلاء الأنبياء المكرمين،

وخواص المرسلين، وذكر فضائلهم ومراتبهم قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾. أي: أنعم الله عليهم نعمة لا تلحق، ومئة لا تسبق، من النبوة والرسالة، وهم الذين أمرنا أن ندعو الله أن يهدينا صراط الذين أنعمت عليهم، وأن من أطاع الله: كان مع الذين أنعم الله عليهم، من النبيين الآية. وأن بعضهم من ذرية آدم ومن حملنا مع نوح: أي: من ذريته ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل فهذه خير بيوت العالم، اصطفاهم الله، واختارهم، واجتباهم، وكان حالهم عند تلاوة آيات الرحمن عليهم، المتضمنة للإخبار بالغيوب وصفات علام الغيوب، والإخبار باليوم الآخر، والوعد والوعيد.

﴿خَرَوْا سُجُوداً وَبُكْيَا﴾ أي: خضعوا لآيات الله، وخشعوا لها، وأثرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرهبة، ما أوجب لهم البكاء والإنابة، والسجود لربهم، ولم يكونوا من الذين إذا سمعوا آيات الله خروا عليها صماً وعمياناً.

وفي إضافة الآيات إلى اسمه ﴿الرَّحْمَنِ﴾ دلالة على أن آياته، من رحمته بعباده وإحسانه إليهم، حيث هداهم بها إلى الحق، وبصرهم من العمى، وأنقذهم من الضلالة، وعلمهم من الجهالة.

﴿٥٩-٦٣﴾ ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ لما ذكر تعالى هؤلاء الأنبياء

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) في ب: وجعله.

(٣) في ب: في الكتاب.

المخلصون^(١) المتبعون لمراضي ربهم، المتببون إليه، ذكر من أتى بعدهم، وبدلوا ما أمروا به، وأنه خلف من بعدهم خلف، رجعوا إلى الخلف والوراء، فأضاعوا الصلاة التي أمروا بالمحافظة عليها وإقامتها، فتهاونوا بها وضيعوها، وإذا ضيعوا الصلاة التي هي عماد الدين، وميزان الإيمان والإخلاص لرب العالمين، التي هي أكد الأعمال، وأفضل الخصال، كانوا لما سواها من دينهم أضيغ، وله أرفض، والسبب الداعي لذلك، أنهم اتبعوا شهوات أنفسهم وإراداتها فصارت همهم منصرفة إليها، مقدمة لها على حقوق الله، فنشأ من ذلك التضييع لحقوقه، والإقبال على شهوات أنفسهم، مهما لاحت لهم حصلوها، وعلى أي: وجه اتفقت تناولوها.

﴿فسوف يلقون غياً﴾ أي: عذاباً مضاعفاً شديداً، ثم استثنى تعالى فقال: ﴿إلا من تاب﴾ عن الشرك والبدع والمعاصي، فأقلع عنها وندم عليها، وعزم عزمًا جازماً أن لا يعاودها، ﴿وآمن﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ﴿وعمل صالحاً﴾ وهو العمل الذي شرعه الله على السنة رسله، إذا قصد به وجهه، ﴿فأولئك﴾ الذين جمعوا بين التوبة والإيمان، والعمل الصالح، ﴿يدخلون الجنة﴾ المشتملة على النعيم المقيم، والعيش السليم، وجوار الرب الكريم، ﴿ولا يظلمون شيئاً﴾ من أعمالهم، بل يجودها كاملة، موفرة أجورها، مضاعفاً عددها.

ثم ذكر أن الجنة التي وعدهم بدخولها، ليست كسائر الجنات، وإنما هي جنات عدن، أي: جنات إقامة، لا ظعن فيها، ولا جَوْل ولا زوال، وذلك لسعتها، وكثرة ما فيها من الخيرات والسرور، والبهجة والخبور. ﴿التي وعد الرحمن عباده بالغيب﴾ أي: التي وعدها الرحمن، أضافها إلى

اسمه ﴿الرحمن﴾ لأنها فيها من الرحمة والإحسان، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وسماها تعالى رحته، فقال: ﴿وأما الذين ابضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾. وأيضاً ففي إضافتها إلى رحته، ما يدل على استمرار سرورها، وأنها باقية ببقاء رحته، التي هي أثرها وموجبها، والعباد في هذه الآية، المراد: عباد إلهيته، الذين عبدوه، والتزموا شرائعه، فصارت العبودية وصفاً لهم كقوله: ﴿وعباد الرحمن﴾ ونحوه، بخلاف عباده المماليك فقط، الذين لم يعبدوه، فهؤلاء وإن كانوا عبيداً لربوبيته، لأنه خلقهم ورزقهم ودبرهم، فليسوا داخلين في عبيد إلهيته العبودية الاختيارية، التي يمدح صاحبها، وإنما عبوديتهم عبودية اضطرار، لا مدح لهم فيها.

وقوله: ﴿بالغيب﴾ يحتمل أن تكون متعلقة بـ ﴿وعد الرحمن﴾ فيكون المعنى على هذا، أن الله وعدهم إياها وعداً غائباً، لم يشاهدوه ولم يروه، فآمنوا بها، وصدقوا غيبها، وسعوا لها سعيها، مع أنهم لم يروها، فكيف لو رأوها، لكانوا أشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبة، وأكثر لها سعيًا، ويكون في هذا، مدح لهم بإيمانهم بالغيب، الذي هو الإيمان النافع. ويحتمل أن تكون متعلقة بعباده، أي: الذين عبدوه في حال غيبهم وعدم رؤيتهم إياه، فهذه عبادتهم ولم يروه، فلو رأوه، لكانوا أشد له عبادة، وأعظم إنابة، وأكثر حباً، وأجل شوقاً، ويحتمل أيضاً، أن المعنى: هذه الجنات التي وعدها الرحمن عباده، من الأمور التي لا تدركها الأوصاف، ولا يعلمها أحد إلا الله، ففيه من التشويق لها، والوصف المجمل، ما يهيج النفوس، ويزعج الساكن إلى طلبها، فيكون هذا مثل قوله: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم﴾

من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾ والمعاني كلها صحيحة ثابتة، ولكن الاحتمال الأول أولى، بدليل قوله: ﴿إنه كان وعده مائتياً﴾ لا بد من وقوعه، فإنه لا يخلف الوعد، وهو أصدق القائلين.

﴿لا يسمعون فيها لغواً﴾ أي: كلاماً لا غياً لا فائدة فيه، ولا ما يؤثم، فلا يسمعون فيها شتماً، ولا عيباً، ولا قولاً فيه معصية الله، أو قولاً مكدرًا، ﴿إلا سلاماً﴾ أي: إلا الأقوال السالمة من كل عيب، من ذكر الله، وتحمية، وكلام سرور، وبشارة، ومطاحة الأحاديث الحسنة بين الإخوان، وسماع خطاب الرحمن، والأصوات الشجية، من الحور والملائكة والولدان، والنفحات المطرية، والألفاظ الرخيمة، لأن الدار دار السلام، فليس فيها إلا السلام التام من جميع الوجوه، ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا﴾ أي: أرزاقهم من المأكول والمشرب، وأنواع اللذات، مستمرة حيشما طلبوا، وفي أي: وقت رغبوا، ومن تمامها ولذتها وحسنها، أن تكون في أوقات معلومة.

﴿بكرة وعشيا﴾ يعظم وقعها ويتم نفعها، فتلك الجنة التي وصفناها بما ذكر ﴿التي تورث من عبادنا من كان تقياً﴾ أي: نورثها المتقين، ونجعلها منزلهم الدائم، الذي لا يظعنون عنه، ولا يبعون عنه جولا، كما قال تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين﴾.

﴿٦٤ - ٦٥﴾ ﴿وما تنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً﴾ رب السماوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً﴾ استبطأ النبي ﷺ جبريل عليه السلام مرة في نزوله إليه فقال له: ﴿لو تأتينا أكثر مما تأتينا﴾ - تشوقاً إليه، وتوحشاً

(١) جعل الشيخ هذه الكلمات بالرفع، وجعل فوق كلمة (المخلصون) بخط صغير كلمة (قطع) وفي هذا إشارة إلى أنه من باب القطع

لفراقه، وليطمئن قلبه بنزوله - فأنزل الله تعالى على لسان جبريل: ﴿وما ننزّل إلا بأمر ربك﴾ أي: ليس لنا من الأمر شيء، إن أمرنا، ابتدرنا أمره، ولم نعص له أمراً، كما قال عنهم: ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ ﴿له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك﴾ أي: له الأمور الماضية والمستقبلية والحاضرة، في الزمان والمكان، فإذا تبين أن الأمر كله لله، وأنتا عبيد مدبرون، فيبقى الأمر دائراً بين: «هل تقتضيه الحكمة الإلهية فينفذه؟ أم لا تقتضيه فيؤخره؟» ولهذا قال: ﴿وما كان ربك نسياً﴾ أي: لم يكن الله لينساك وهملك، كما قال تعالى: ﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾ بل لم يزل معتنياً بأمرك، مجرباً لك على أحسن عوائده الجميلة، وتدابيره الجميلة.

أي: فإذا تأخر نزولنا عن الوقت المعتاد، فلا يجزئك ذلك ولا يهيك، واعلم أن الله هو الذي أراد ذلك، لما له من الحكمة فيه، ثم علل إحاطة علمه، وعدم نسيانه، بأنه «رب السموات والأرض» فربوبيته للسموات والأرض، وكونهما على أحسن نظام وأكمل، ليس فيه غفلة ولا إهمال، ولا سدى، ولا باطل، برهان قاطع على علمه الشامل، فلا تشغل نفسك بذلك، بل اشغليها بما ينفعك ويعود عليك طائفة، وهو: عبادته وحده لا شريك له، «واضطرب لعبادته» أي: اصبر نفسك عليها واجهدوها، وقم عليها أتم القيام وأكملها بحسب قدرتك، وفي الاشتغال بعبادة الله تسلية للعابدين عن جميع التعلقات والمشتبهات، كما قال تعالى: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه﴾ إلى أن قال: ﴿وأمر أهلك بالصلاة واضطرب عليها﴾ الآية. «هل تعلم له سمياً» أي: هل تعلم الله مسامياً ومشابهاً ومماثلاً من المخلوقين. وهذا استفهام بمعنى الثقي، المعلوم

بالعقل. أي: لا تعلم له مسامياً ولا مشابهاً، لأنه الرب، وغيره مربوب، الخالق، وغيره مخلوق، الغني من جميع الوجوه، وغيره فقير بالذات من كل وجه، الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وغيره ناقص ليس فيه من الكمال إلا ما أعطاه الله تعالى، فهذا برهان قاطع على أن الله هو المستحق لإفراده بالعبودية، وأن عبادته حق، وعبادة ما سواه باطل، فلماذا أمر بعبادته وحده، والاضطراب لها، وعلل ذلك بكماله وانفراده بالعظمة والأسماء الحسنى.

﴿٦٦-٦٧﴾ «ويقول الإنسان إذا مات لسوف أخرج حياً» * أولاً يذكر الإنسان أننا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً. المراد بالإنسان هاهنا، كل منكر للبعث، مستبعد لوقوعه، فيقول - مستفهماً على وجه النفي والعناد والكفر - «إذا مات لسوف أخرج حياً». أي: كيف يعيدني الله حياً بعد الموت، وبعد ما كنت رميمًا؟! هذا لا يكون ولا يتصور، وهذا بخسب عقله الفاسد ومقصده السيئ، وعناده لرسل الله وكتبه، فلو نظر أدنى نظر، وتأمل أدنى تأمل، لرأى استنعاذه للبعث، في غاية السخافة، ولهذا ذكر تعالى برهاناً قاطعاً، ودليلاً واضحاً، يعرفه كل أحد على إمكان البعث فقال: ﴿أولاً يذكر الإنسان أننا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً﴾ أي: أولاً يلفت نظره، ويستذكر حالته الأولى، وأن الله خلقه أول مرة، ولم يك شيئاً، فمن قدر على خلقه من العدم، ولم يكن شيئاً، مذكوراً، أليس بقادر على إنشائه بعد ما تمزق، وجمعه بعد ما تفرق؟ وهذا كقوله: «وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه».

وفي قوله: ﴿أولاً يذكر الإنسان﴾ دعوة للنظر، بالدليل العقلي، باللطيف خطاب، وأن إنكار من أنكرك ذلك، مبني على غفلة منه عن حاله الأولى، وإلا فلو تذكرها وأحضرها في ذهنه، لم ينكر ذلك.

﴿٦٨-٧٠﴾ «فوريك لنحضرنهم

والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً» * ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً * ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً. أقسم الله تعالى وهو أصدق القائلين - بربوبيته، ليحشرن هؤلاء المنكرين للبعث، هم وشياطينهم فيجمعهم لميقات يوم معلوم، * ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً. أي: جاثين على ركبهم من شدة الأهوال، وكثرة الزلزال، وفظاعة الأحوال، منتظرين لحكم الكبير المتعال، ولهذا ذكر حكمه فيهم فقال: ﴿ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً﴾ أي: ثم لننزعن من كل طائفة وفرقة من الظالمين المشتركين في الظلم والكفر، والعنوا أشدهم عتواً، وأعظمهم ظملاً، وأكبرهم كفراً، فيقدمهم إلى العذاب، ثم هكذا يقدم إلى العذاب، الأغلظ إثماً، فالأغلظ، وهم في تلك الحال متلاعنون، يلعن بعضهم بعضاً، ويقول أخراهم لأولاهم: «ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار» قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون. * وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل؟ وكل هذا تابع لعبدله وحكمته وعلمه الواسع، ولهذا قال: ﴿ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً﴾ أي: علمنا محيط بمن هو أولى صلياً بالنار، قد علمناهم، وعلمنا أعمالهم واستحقاقها وقسطها من العذاب.

﴿٧١-٧٢﴾ «وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً» * ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً. وهذا خطاب لسائر الخلائق، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، أنه ما منهم من أحد، إلا سيرد النار، حكماً حتمه الله على نفسه، وأوعد به عباده، فلا بد من نفوذه، ولا تحيد عن وقوعه.

واختلف في معنى الورود، فقيل: ورودها، حضورها للخلائق كلهم، حتى يحصل الانزعاج من كل أحد، ثم بغد، ينجي الله التقيين. وقيل: ورودها، دخولها، فتكون على المؤمنين

برداً وسلاماً. وقيل: الورد، هو المرور على الصراط، الذي هو على متن جهنم، فيمر الناس على قدر أعمالهم، فمنهم من يمر كضخ البصر، وكالرياح، وكأجاويد الخيل، وكأجاويد الركاب، ومنهم من يسعى، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يزحف زحفاً، ومنهم من يحطف فيلقى في النار، كل بخسب تقواه، ولهذا قال: ﴿ثم ننجي الذين اتقوا﴾ الله تعالى بفعل المأمور، واجتناب المحظور ﴿ونذر الظالمين﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿فيها جثياً﴾ وهذا بسبب ظلمهم وكفرهم، وجب لهم ^(١) الخلود، وحق عليهم العذاب، وتقطعت بهم الأسباب.

﴿٧٣ - ٧٤﴾ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً * وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورثياً﴾ أي: وإذا تتلى على هؤلاء الكفار آياتنا بينات، أي: واضحات الدلالة على وحدانية الله وصدق رسله، توجب لمن سمعها صدق الإيمان وشدة الإيقان، قابلوها بضد ما يجب لها، واستهزؤوا بها وبمن آمن بها، واستدلوا بحسن حالهم في الدنيا، على أنهم خير من المؤمنين، فقالوا معارضين للحق: ﴿أي الفريقين﴾ أي: نحن والمؤمنون ﴿خير مقاماً﴾ أي: في الدنيا، من كثرة الأموال والأولاد، وتوفر الشهوات ﴿وأحسن ندياً﴾ أي: مجلساً. أي: فاستنتجوا من هذه المقدمة الفاسدة، أنهم أكثر مالا وأولاداً، وقد حصلت لهم أكثر مطالبهم من الدنيا، ومجالسهم وأنديتهم مزخرفة مزوقة.

والمؤمنون بخلاف هذه الحال، فهم خير من المؤمنين، وهذا دليل في غاية الفساد، وهو من باب قلب الحقائق، وإلا فكثرة الأموال والأولاد، وحسن المنظر، كثيراً ما يكون سبباً لهلاك صاحبه، وشقائه، وشره، ولهذا قال

تعالى:

﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً﴾ أي: متاعاً، من أوان وفرش، وبيوت، وزخارف، وأحسن رثياً، أي: أحسن مرأى ومنظراً، من غضارة العيش، وسرور اللذات، وحسن الصور، فإذا كان هؤلاء المهلكون أحسن منهم أثاثاً ورثياً، ولم يمنعهم ذلك من حلول العقاب بهم، فكيف يكون هؤلاء، وهم أقل منهم وأذل، معتصمين من العذاب ﴿أكفركم خير من أولكم أم لكم براءة في الزبر؟﴾ وعلم من هذا، أن الاستدلال على خير الآخرة بخير الدنيا من أفسد الأدلة، وأنه من طرق الكفار.

﴿٧٥﴾ قل من كان في الضلالة فليمد له الرحمن مداً حتى إذا رآوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً﴾ لما ذكر دليلهم الباطل، الدال على شدة عنادهم، وقوة ضلالهم، أخبر هنا، أن من كان في الضلالة، بأن رضيها لنفسه وسعى فيها، فإن الله يمدّه منها، ويزيده فيها خباً، عقوبة له على اختيارها على الهدى، قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ حتى إذا رآوا﴾ أي: القائلون: ﴿أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً﴾ ما يوعدون إما العذاب، يقتل أو غيره ﴿وإما الساعة﴾ التي هي باب الجزاء على الأعمال ﴿فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً﴾ أي: فحينئذ يتبين لهم بطلان دعواهم، وأنها دعوى مضحكة، ويتيقنون أنهم أهل الشر، ﴿وأضعف جنداً﴾ ولكن لا يفيدهم هذا العلم شيئاً، لأنه لا يمكنهم الرجوع إلى الدنيا، فيعملون غير عملهم الأول. ﴿٧٦﴾ ويزيد الله الذين اهتدوا

هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير مرداً﴾ لما ذكر أنه يمد للمظالمين في ضلالهم، ذكر أنه يزيد المهتدين هداية من فضله عليهم ورحته، والهدى يشمل العلم النافع، والعمل الصالح، فكل من سلك طريقاً في العلم والإيمان والعمل الصالح، زاده الله منه، وسهله عليه ويسره له، ووهب له أموراً أخرى، لا تدخل تحت كسبه، وفي هذا دليل على زيادة الإيمان ونقصه، كما قاله السلف الصالح، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ليزداد الذين آمنوا إيماناً﴾ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً.

ويدل عليه أيضاً الواقع، فإن الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، والمؤمنون متفاوتون في هذه الأمور، أعظم تفاوت، ثم قال: ﴿والباقيات الصالحات﴾ أي: الأعمال الباقية، التي لا تنقطع إذا انقطع غيرها، ولا تضمحل، هي الصالحات منها، من صلاة وزكاة، وصوم، وحج، وعمرة، وقراءة، وتسبيح، وتكبير، وتحميد، وتهليل، وإحسان إلى المخلوقين، وأعمال قلبية وبدنية، فهذه الأعمال خير عند ربك ثواباً وخير مرداً﴾ أي: خير عند الله، ثوابها وأجرها، وكثير للعاملين نفعها وردّها، وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل في غير باب، فإنه ما تم غير الباقيات الصالحات، عمل ينفع، ولا يبقى لصاحبه ثوابه ولا ينجع، ومناسبة ذكر الباقيات الصالحات - والله أعلم - أنه لما ذكر أن الظالمين جعلوا أحوال الدنيا من المال والولد، وحسن المقام ونحو ذلك، علامة لحسن حال صاحبها، أخبر هنا أن الأمر ليس كما زعموا، بل العمل الذي هو عنوان السعادة ومنشور الفلاح، هو العمل بما يحبه الله ويرضاه.

﴿٧٧ - ٨٠﴾ أفرايت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولداً * أطلع

الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً * كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مداً * وترثه ما يقول ويأتينا فرداً * أي: أفلا تتعجب من حالة هذا الكافر، الذي جمع بين كفره بآيات الله ودعواه الكبيرة، أنه سيؤتى في الآخرة مالاً وولداً، أي: يكون من أهل الجنة، هذا من أعجب الأمور، فلو كان مؤمناً بالله وادعى هذه الدعوى، لسهل الأمر.

وهذه الآية - وإن كانت نازلة في كافر معين - فإنها تشمل كل كافر، زعم أنه على الحق، وأنه من أهل الجنة، قال الله توبيخاً له وتكديباً: ﴿أطلع الغيب﴾ أي: أحاط علمه بالغيب، حتى علم ما يكون، وأن من جملة ما يكون، أنه يؤتى يوم القيامة مالاً وولداً؟ ﴿أم اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ أنه نائل ما قاله، أي: لم يكن شيء من ذلك، فعلم أنه مَشْقُوقٌ، قاتل ما لا علم له به. وهذا التقسيم والترديد، في غاية ما يكون من الإلزام وإقامة الحجة؛ فإن الذي يزعم أنه حاصل له خير عند الله في الآخرة، لا يخلو: إما أن يكون قوله صادراً عن علم بالغيوب المستقبل، وقد علم أن هذا الله وحده، فلا أحد يعلم شيئاً من المستقبلات الغيبية، إلا ما أطلعه الله إليه من رسله.

وإما أن يكون متخذاً عهداً عند الله، بالإيمان به، واتباع رسله، الذي عهد الله لأهله، وأوزع أنهم أهل الآخرة، الناجون الفائزون: فإذا انتفى هذان الأمران، علم بذلك بطلان الدعوى، ولهذا قال تعالى: ﴿كلا﴾ أي: ليس الأمر كما زعم، فليس للقاتل اطلاع على الغيب، لأنه كافر، ليس عنده من علم الرسل شيء، ولا اتخذ عند الرحمن عهداً، لكفره وعدم إيمانه، ولكنه يستحق ضد ما تقوله، وأن قوله مكتوب محفوظ، ليجازى عليه ويعاقب، ولهذا قال: ﴿سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مداً﴾ أي: نزيده من أنواع العقوبات،

كما ازداد من الغي والضلال، ﴿وترثه ما يقول﴾ أي: نرثه ماله وولده، فينتقل من الدنيا فرداً، بلا مال ولا أهل ولا أنصار ولا أعوان ﴿ويأتينا فرداً﴾ فيرى من وخيم العذاب وأليم العقاب، ما هو جزاء أمثاله من الظالمين.

﴿٨٣ - ٨٤﴾ ﴿ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا * فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عداً * وهذا من عقوبة الكافرين أنهم - لما لم يعصموا بالله، ولم يتمسكوا بحبل الله، بل أشركوا به والوا أعداءه، من الشياطين - سلطهم عليهم، وقبضهم لهم، فجعلت الشياطين تؤزهم إلى المعاصي أزا، وتزعجهم إلى الكفر إزعاجاً، فيوسوسون لهم، ويوحون إليهم، ويزينون لهم الباطل، ويقبحون لهم الحق، فيدخل حب الباطل في قلوبهم ويتشرّبها، فيسعى فيه سعي المحق في حقه، فينصره بجهده ويحارب عنه، ويجاهد أهل الحق في سبيل الباطل، وهذا كله، جزاء له على توليه من وليه وتوليه لعدوه، جعل له عليه سلطاناً، وإلا فلو آمن بالله، وتوكل عليه، لم يكن له عليه سلطان، كما قال تعالى: ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون.

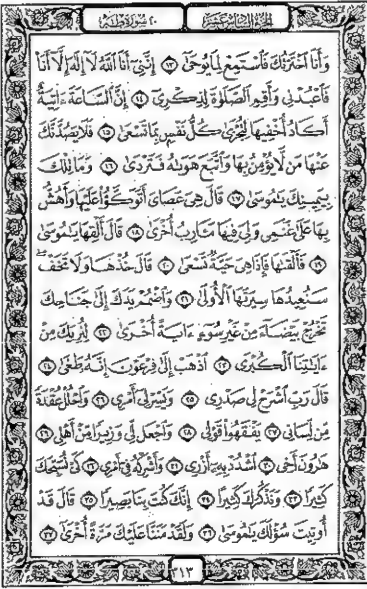
﴿فلا تعجل عليهم﴾ أي: على هؤلاء الكفار المستعجلين بالعذاب ﴿إنما نعد لهم عداً﴾ أي: أن لهم أياماً معدودة لا يتقدمون عنها ولا يتأخرون، نمهلهم ونحلم عنهم مدة ليراجعوا أمر الله، فإذا لم ينتجع فيهم ذلك أخذناهم أخذ عزيز مقتدر.

﴿٨٥ - ٨٧﴾ ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً * ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً * لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ يخبر تعالى عن تفاوت الفريقين المتقين،

أفترى الله كذباً وتعالى وقال لا تؤمنوا بالله ولولاكم * أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً * كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مداً * وترثه ما يقول ويأتينا فرداً * أي: أفلا تتعجب من حالة هذا الكافر، الذي جمع بين كفره بآيات الله ودعواه الكبيرة، أنه سيؤتى في الآخرة مالاً وولداً، أي: يكون من أهل الجنة، هذا من أعجب الأمور، فلو كان مؤمناً بالله وادعى هذه الدعوى، لسهل الأمر.

والمجرمين، وأن المتقين له - باتباع الشرك والبدع والمعاصي - يحشرهم إلى موقف القيامة مكرمين، مبجلين معظمين، وأن مآلهم الرحمن، وقصدهم المنان، وفوداً إليه، والوافد لا بد أن يكون في قلبه من الرجاء، وحسن الظن بالوافد [إليه]، ما هو معلوم، فالتحقون يفتدون إلى الرحمن، راجعين منه رحمته وعميم إحسانه، والفوز بعطاياه في دار رضوانه، وذلك بسبب ما قدموه من العمل بتقواه، واتباع مراضيه، وأن الله عهد إليهم بذلك الشواب على السنة رسله، فترجوهوا إلى ربهم مطمئنين به، واثقين بفضله.

وأما المجرمون، فإنهم يساقون إلى جهنم ورداً، أي: عطاشاً، وهذا أشنع ما يكون من الحالات، سوقهم على وجه الذل والصغار إلى أعظم سجن وأفظع عقوبة، وهو جهنم، في حال ظمأهم ونصبهم يستغيثون فلا يغاثن، ويدعون فلا يستجاب لهم، ويستشفعون فلا يشفع لهم، ولهذا قال: ﴿لا يملكون الشفاعة﴾ أي: ليست الشفاعة ملكهم، ولا لهم منها شيء، وإنما هي لله تعالى ﴿قل لله الشفاعة جميعاً﴾. وقد أخبر أنه لا تنفعهم شفاعة الشافعين، لأنهم



باطلة، فقل: ﴿الله لا إله إلا هو﴾ أي: لا معبود بحق، ولا مألوه بالحب والذل، والخوف والرجاء، والمحبة والإنابة والدعاء، إلا هو.

﴿له الأسماء الحسنى﴾ أي: له الأسماء الكثيرة الكاملة الحسنى، من حسننها أنها كلها أسماء دالة على المدح، فليس فيها اسم لا يدل على المدح والحمد، ومن حسننها أنها ليست أعلاماً محضة، وإنما هي أسماء وأوصاف، ومن حسننها أنها دالة على الصفات الكاملة، وأن له من كل صفة أكملها وأعمها وأجلها، ومن حسننها أنه أمر العباد أن يدعوه بها، لأنها وسيلة مقربة إليه يحبها، ويحب من يحبها، ويجب من يحفظها، ويجب من يبحث عن معانيها ويتعبد له بها، قال تعالى: ﴿والله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾.

﴿٩ - ١٢﴾ ﴿وهل أتاك حديث موسى﴾ إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إني أتست نارا لعل آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ﴿فلما أتاهم نوري يا موسى﴾ إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى ﴿يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ على وجه الاستهزاء التقريري والتعظيم لهذه القصة والتفخيم لها﴾ هل أتاك حديث موسى ﴿في حاله التي هي مبدأ سعادته، ومنشأ نبوته، أنه رأى نارا من بعيد، وكان قد ضل الطريق، وأصابه

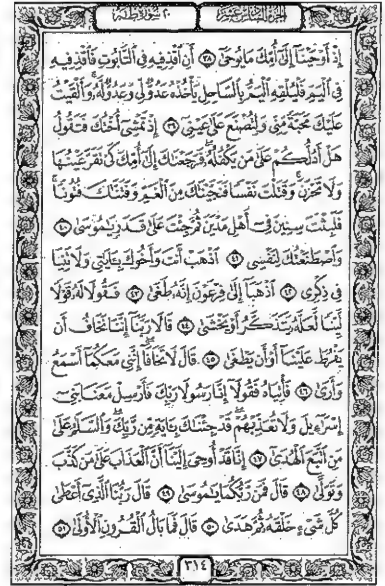
كما في هذه الآية، وكما في قوله: ﴿إلا له الخلق والأمر﴾ وفي قوله: ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ينزل الأمر بينهما﴾ وذلك أنه الخالق الأمر الناهي، فكما أنه لا خالق سواه، فليس على الخلق إلزام ولا أمر ولا نهي إلا من خالقهم، وأيضاً فإن خلقه للخلق فيه التدبير القدري الكوني، وأمره فيه التدبير الشرعي الديني، فكما أن الخلق لا يخرج عن الحكمة، فلم يخلق شيئاً عبثاً، فكذلك لا يأمر ولا ينهى إلا بما هو عدل وحكمة وإحسان. فلما بين أنه الخالق المدير، الأمر الناهي، أخبر عن عظمته وكبرائه، فقال: ﴿الرحمن على العرش﴾ الذي هو أرفع المخلوقات وأعظمها وأوسعها، ﴿استوى﴾ استواء يليق بجلاله، ويناسب عظمته وجماله، فاستوى على العرش، واحتوى على الملك، ﴿له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما﴾ من ملك وإنسي وجني، وحيوان، وجماد، ونبات، ﴿وما تحت الثرى﴾ أي: الأرض، فالجميع ملك لله تعالى، عبيد مدبرون، مسخرون تحت قضائه وتدبيره، ليس لهم من الملك شيء، ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر﴾ الكلام الخفي ﴿وأخفى﴾ من السر، الذي في القلب، ولم ينطق به، أو السر: ما خطر على القلب. ﴿وأخفى﴾ ما لم يخطر. يعلم تعالى أنه يخطر في وقته، وعلى صفته، المعنى: أن علمه تعالى محيط بجميع الأشياء، دقيقها، وجليلها، خفيها، وظاهرها، فسواء جهرت بقولك أو أسرته، فالكل سواء، بالنسبة لعلمه تعالى.

فلما قرر كماله المطلق، بعموم خلقه، وعموم أمره ونهيه، وعموم رجمته، وسعة عظمته، وعلوه على عرشه، وعموم ملكه، وعموم علمه، نتج من ذلك، أنه المستحق للعبادة، وأن عبادته هي الحق التي يوجبها الشرع والعقل والفطرة، وعبادة غيره

السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى * وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى * الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى * طه * من جملة الحروف المقطعة، المفتحة بها كثير من السور، وليست اسماً للنبي ﷺ، ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ أي: ليس المقصود بالوحي، وإنزال القرآن عليك، وشرع الشريعة، لتشقى بذلك، ويكون في الشريعة تكليف يشق على المكلفين، وتعجز عنه قوى العاملين. وإنما الوحي والقرآن والشرع، شرعه الرحيم الرحمن، وجعله موصلاً للسعادة والفلاح والفوز، وسهله غاية التسهيل، ويسر كل طريقه وأبوابه، وجعله غذاء للقلوب والأرواح، وراحة للأبدان، فتلقته الفطر السليمة والعقول المستقيمة بالقبول والإذعان، لعلمها بما احتوى عليه من الخير في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿إلا تذكرة لمن يخشى﴾ إلا ليتذكر به من يخشى الله تعالى، فيتذكر ما فيه من الترغيب إلى أجل المطالب، فيعمل بذلك، ومن الترهيب عن الشقاء والخسران، فيهرب منه، ويتذكر به الأحكام الحسنة الشرعية المفصلة، التي كان مستقراً في عقله حسنهما مجملًا، فوافق التفصيل ما يحده في فطرته وعقله، ولهذا سماه الله ﴿تذكرة﴾ والتذكرة لشيء كان موجوداً، إلا أن صاحبه غافل عنه، أو غير مستحضر لتفصيله، وخص بالتذكرة ﴿من يخشى﴾ لأن غيره لا ينتفع به، وكيف ينتفع به من لم يؤمن بجنة ولا نار، ولا في قلبه من خشية الله مثقال ذرة؟ هذا ما لا يكون، ﴿سيدكر من يخشى﴾ ويتجنبها الأشقى * الذي يصلّي النار الكبرى * ثم ذكر جلالة هذا القرآن العظيم، وأنه تنزيل خالق الأرض والسموات، المدير لجميع المخلوقات، أي: فاقبلوا تنزيله بغاية الإذعان والمحبة والتسليم، وعظموه نهاية التعظيم.

وكثيراً ما يقرن بين الخلق والأمر،



البرد، ولم يكن عنده ما يتدفأ به في سفره، فقال لأهله إني أنست، أي: أبصرت «ناراً» وكان ذلك في جانب الطور الأيمن، «لعل آتيكم منها بقبس» تصطلون به «أو أجند على النار هدى» أي: من يهديني الطريق. وكان مطلبه، النور الجسي والهداية الحسية، فوجد ثم النور المعنوي، نور الوحي، الذي تستنير به الأرواح والقلوب، والهداية الحقيقية، هداية الصراط المستقيم، الموصلة إلى جنات النعيم، فحصل له أمر لم يكن في حسابه، ولا خطر بباله.

﴿١١﴾ «فلما أتاها» أي: النار التي أنساها من بعيد، وكانت - في الحقيقة - نوراً، وهي نار تحرق وتشرق، ويدل على ذلك قوله ﷺ: «حجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره»، فلما وصل إليها نودي منها، أي: ناداه الله، كما قال: «وناديناها من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً» «إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى» أخبره أنه ربه، وأمره أن يستبعد ويتبهاً لمناجاته، ويهتم لذلك، ويلقي نعليه، لأنه بالوادي المقدس المطهر المعظم، ولو لم يكن من تقدسه، إلا أن الله اختاره لمناجاته

(١) كذا في ب، وفي أ: وتدخيله.

كليمه موسى لكفى، وقد قال كثير من المفسرين: «إن الله أمره أن يلقي نعليه، لأنهما من جلد حمار»، فإله أعلم بذلك. «وأنا اخترتك» أي: تخيرتك واصطفيتك من الناس، وهذه أكبر نعمة ومنة أنعم الله بها عليه، تقتضي من الشكر ما يليق بها، ولهذا قال: «فاستمع لما يوحى» أي: ألق سمعك للذي أوحى إليك، فإنه حقيق بذلك، لأنه أصل الدين ومبدئه، وعماد الدعوة الإسلامية، ثم بين الذي يوحى إليه بقوله: «إني أنا الله لا إله إلا أنا» أي: الله المستحق الألوهية المتصف بها، لأنه الكامل في أسمائه وصفاته، المنفرد بأفعاله، الذي لا شريك له ولا مثل ولا كفو ولا سمي، «فَاعِذْنِي» بجميع أنواع العبادة، ظاهرها وباطنها، أصولها وفروعها، ثم خص الصلاة بالذكر وإن كانت داخلة في العبادة، لفضلها وشرفها، وتضمنها عبودية القلب واللسان والجوارح.

وقوله: «لذكري» اللام للتعليل أي: أتم الصلاة لأجل ذكرك إياي، لأن ذكره تعالى أجل المقاصد، وهو عبودية القلب، وبه سعادته، فالقلب المعطل عن ذكر الله، معطل عن كل خير، وقد خرب كل الخراب، فشرع الله للعباد أنواع العبادات، التي المقصود منها إقامة ذكره، وخصوصاً الصلاة.

قال الله تعالى: «اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر» أي: ما فيها من ذكر الله أكبر من نهيها عن الفحشاء والمنكر، وهذا النوع يقال له توحيد الألوهية، وتوحيد العبادة، فالألوهية وصفه تعالى، والعبودية وصف عبده.

﴿١٢﴾ «إنا الساعة آتية» أي: لا بد من وقوعها «أكاد أخفيها» أي: عن نفسي كما في بعض القراءات، كقوله تعالى: «يسألك الناس عن الساعة قل

﴿١٦﴾ «فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى» أي: فلا يصدك ويشغلك عن الإيمان بالساعة، والجزاء، والعمل لذلك، من كان كافراً بها، غير معتقد لوقوعها.

يسعى في الشك فيها والتشكيك، ويجادل فيها بالباطل، ويقين من الشبه بما يقدر عليه، متبعاً في ذلك هواه، ليس قصده الوصول إلى الحق، وإنما قصاره اتباع هواه، فإياك أن تصغي إلى من هذه خاله، أو تقبل شيئاً من أقواله وأعماله الصادرة عن الإيمان بها والسعي لها سعيها، وإنما حذر الله تعالى عمن هذه حاله لأنه من أخوف ما يكون على المؤمن بوسوسته وتدجيله^(١)، وكون النفوس مجبولة على التشبه، والاقتران بأبناء الجنس، وفي هذا تنبيه وإشارة إلى التحذير عن كل داع إلى باطل، يصد عن الإيمان الواجب، أو عن كماله، أو يقع التشبه في القلب، وعن النظر في الكتب المشتملة على ذلك، وذكر في هذا الإيمان به، وعبادته، والإيمان باليوم الآخر، لأن هذه الأمور الثلاثة أصول الإيمان، وركن الدين، وإذا تمت تم أمر الدين، ونقصه أو فقدته بنقصها، أو نقص شيء منها.

وهذه نظير قوله تعالى في الأخبار عن ميزان سعادة الفرق، الذين أوتوا الكتاب وشقاوتهم: «إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

وقوله: «فتردى» أي: تهلك وتشقى، إن اتبعت طريق من يصد

عنها، وقوله تعالى:

﴿١٧ - ٢٣﴾ ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾ قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى ﴿قال ألقها يا موسى﴾ فآلقها فإذا هي حية تسعى ﴿قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى﴾ واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى ﴿لنريك من آياتنا الكبرى﴾.

لما بين الله لموسى أصل الإيمان، أراد أن يبين له ويريه من آياته ما يطمئن به قلبه، وتقربه عينه، ويقوى إيمانه، بتأييد الله له على عدوه فقال: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾ هذا، مع علمه تعالى، ولكن لزيادة الاهتمام في هذا الموضع، أخرج الكلام بطريق الاستفهام، فقال موسى: ﴿هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي﴾ ذكر فيها هاتين المنفعتين، منفعة لجنس الآدمي، وهو أنه يعتمد عليها في قيامه ومشيه، فيحصل فيها معونة، ومنفعة للبهائم، وهو أنه كان يرعى الغنم، فإذا رعاها في شجر الخط ونحوه، هش بها، أي: ضرب الشجر، ليتساقط ورقه، فيرعاها الغنم. هذا الخلق الحسن من موسى عليه السلام، الذي من آثاره، حسن رعاية الحيوان البهيمة، والإحسان إليه دل على عناية من الله له واصطفاء، وتخصيص تقتضيه رحمة الله وحكمته.

﴿ولي فيها مآرب﴾ أي: مقاصد أخرى غير هذين الأمرين.

ومن أدب موسى عليه السلام، أن الله لما سأله عما في يمينه، وكان السؤال محتملاً عن السؤال عن عينها، أو منفعتها أجا به بعينها، ومنفعتها فقال الله له: ﴿ألقها يا موسى﴾ فآلقها فإذا هي حية تسعى. انقلبت بإذن الله ثعباناً عظيماً، فولى موسى هارباً خائفاً، ولم يعقب، وفي وصفها بأنها تسعى، إزالة لوهم يمكن وجوده، وهو أن يظن أنها تحييل

لا حقيقة، فكونها تسعى يزيل هذا الوهم.

فقال الله لموسى: ﴿خذها ولا تخف﴾ أي: ليس عليك منها بأس. ﴿سنعيدها سيرتها الأولى﴾ أي: هيئتها وصفتها، إذ كانت عصا، فامتثل موسى أمر الله إيماناً به وتسليماً، فأخذها، فعادت عصاه التي كان يعرفها هذه - آية، ثم ذكر الآية الأخرى، فقال: ﴿واضمم يدك إلى جناحك﴾ أي: أدخل يدك في جيبك، وضم عليك عضدك، الذي هو جناح الإنسان ﴿تخرج بيضاء من غير سوء﴾ أي: بياضاً ساطعاً، من غير عيب ولا برص ﴿آية أخرى﴾.

قال الله: ﴿فذا لك برهانان من ربك إلى فرعون وملئيه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾.

﴿لنريك من آياتنا الكبرى﴾ أي: فعلنا ما ذكرنا، من انقلاب العصا حية تسعى، ومن خروج اليد بيضاء للناظرين، لأجل أن نريك من آياتنا الكبرى، الدالة على صحة رسالتك وحقيقة ما جئت به، فيطمئن قلبك ويزداد علمك، وتثق بوعده الله لك بالحفظ والنصرة، ولتكون حجة ويزهناً لمن أرسلت إليهم.

﴿٢٤ - ٣٦﴾ ﴿أذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ قال رب اشرح لي صدري ﴿ويسر لي أمري﴾ واحلل عقدة من لساني ﴿يفقهوا قولي﴾ واجعل لي وزيراً من أهلي ﴿هارون أخي﴾ اشد به أوزري ﴿وأشركه في أمري﴾ كي نسبحك كثيراً ﴿وذكرك كثيراً﴾ إنك كنت بنا بصيراً ﴿قال قد أوتيت سؤالك يا موسى﴾ لما أوحى الله إلى موسى، ونباه، وأراه الآيات الباهرات، أرسله إلى فرعون، ملك مصر، فقال: ﴿أذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ أي:

تمرد وزاد على الحد في الكفر والفساد والعلو في الأرض، والقفهر للضعفاء، حتى إنه ادعى الربوبية والألوهية -

قبحه الله - أي: وطغيانه سبب لهلاكه، ولكن من رحمة الله وحكمته وعدله، أنه لا يعذب أحداً، إلا بعد قيام الحجة بالرب، فحينئذ علم موسى عليه السلام أنه تحمل حملاً عظيماً، حيث أرسل إلى هذا الجبار العنيد، الذي ليس له منازع في مضر من الخلق، وموسى عليه السلام، وحده، وقد جرى منه ما جرى من القتل، فامتثل أمر ربه، وتلقاه بالانشراح والقبول، وسأله المعونة وتيسير الأسباب، التي [هي] من تمام الدعوة، فقال: ﴿رب اشرح لي صدري﴾ أي: وسعه وأفسحه، لأتحمل الأذى القبولي والفعلية، ولا يتكدر قلبي بذلك، ولا يضيق صدري، فإن الصدر إذا ضاق، لم يصلح صاحبه لهداية الخلق ودعوتهم.

قال الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ وعسى الخلق يقبلون الحق مع اللين وسعة الصدر وانشراحه عليهم.

﴿ويسر لي أمري﴾ أي: سهل علي كل أمر أسلكه وكل طريق أقضده في سبيلك، وهون علي ما أمامي من الشدائد، ومن تيسير الأمر أن يسر للداعي أن يأتي جميع الأمور من أبوابها، ويخاطب كل أحد بما يناسب له، ويدعوه بأقرب الطرق الموصلة إلى قبول قوله.

﴿واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي﴾ وكان في لسانه ثقل لا يكاد يفهم عنه الكلام، كما قاله المفسرون، كما قال الله عنه أنه قال: ﴿وأخي هارون هو أفصح مني لساناً﴾ فسأل الله أن يحل منه عقدة، يفقهوا ما يقول فيحصل المقصود التام من المخاطبة والمراجعة والبيان عن المعاني.

﴿واجعل لي وزيراً من أهلي﴾ أي: معيناً^(٢) يعاوانني، ويؤازرن، ويساعدني على من أرسلت إليهم، وسأل أن يكون من أهله، لأنه من باب

البر، وأحق ببر الإنسان قرابته، ثم عينه بسؤاله فقال: ﴿هارون أخى﴾ أشد به أزرى؟ أي: قوني به، وشده به ظهري، قال الله: ﴿سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً﴾ ﴿وأشركه في أمري﴾ أي: في النبوة، بأن تجعله نبياً رسولاً، كما جعلتني.

ثم ذكر الفائدة في ذلك فقال: ﴿كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً﴾ علم عليه الصلاة والسلام، أن مدار العبادات كلها والدين، على ذكر الله، فسأل الله أن يجعل أخاه معه، يتساعدان ويتعاونان على البر والتقوى، فيكثر منهما ذكر الله من التسييح والتهيل، وغيره من أنواع العبادات.

﴿إنك كنت بنا بصيراً﴾ تعلم حالنا وضعفنا وعجزنا وافتقارنا إليك في كل الأمور، وأنت أبصر بنا من أنفسنا وأرحم، فمن علينا بما سألناك، وأجب لنا فيما دعوناك.

فقال الله: ﴿قد أوتيت سؤلِكَ يا موسى﴾ أي: أعطيت جميع ما طلبت، فسنبشرك صدرك، ونيسر أمرك، ونحل عقدة من لسانك، يفقهوا قولك، ونشد عضدك بأخيك هارون، ﴿ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالون﴾.

وهذا السؤال من موسى عليه السلام، يدل على كمال معرفته بالله، وكمال فطنته ومعرفته للأمور، وكمال نصحه، وذلك أن الداعي إلى الله، المرشد للخلق، خصوصاً إذا كان المدعو من أهل العناد والتكبر والطغيان^(١)، يحتاج إلى سعة صدر، وحلم تام، على ما يصيبه من الأذى، ولسان فصيح، يتمكن من التعبير به عن ما يريد ويقصده، بل الفصاحة والبلاغة لصاحب هذا المقام، من ألزم ما يكون، لكثرة المراجعات والمراوضات، ول حاجته لتحسين الحق، وتزيينه بما يقدر عليه، ليحببه إلى النفوس، وإلى تقبيح الباطل وتهجينه،

لينفر عنه، ويحتاج مع ذلك أيضاً، أن يتيسر له أمره، فيأتي البيوت من أبوابها، ويدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، يعامل الناس كلأ بحسب حاله، وتعام ذلك، أن يكون لمن هذه صفته، أعوان ووزراء، يساعدونه على مطلوبه، لأن الأصوات إذا كثرت، لا بد أن تؤثر، فلذلك سأل عليه الصلاة والسلام هذه الأمور فأعطيه.

وإذا نظرت إلى حالة الأنبياء المرسلين إلى الخلق، رأيهم بهذه الحال، بحسب أحوالهم خصوصاً، خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ، فإنه في الذروة العليا من كل صفة كمال، وله من شرح الصدر، وتيسير الأمر، وفصاحة اللسان، وحسن التعبير والبيان، والأعوان على الحق من الصحابة، فمن بعدهم، ما ليس لغيره.

﴿٣٧-٤١﴾ ﴿ولقد مننا عليك مرة أخرى﴾ إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى ﴿أن أقدفيه في التابوت فاقذفه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له وألقيت عليك حبة مني ولتصنع على عيني﴾ إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفسها ففجيناك من الغم وفتناك فتونا فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى واصطنعتك لنفسك لما ذكر منته على عبده ورسوله، موسى بن عمران، في الدين، والوحي، والرسالة، وإجابة سؤاله، ذكر نعمته عليه، وقت التربية، والتنقلات في أطواره، فقال: ﴿ولقد مننا عليك مرة أخرى﴾ حيث ألهمنا أمك أن تقذفك في التابوت وقت الرضاع، خوفاً من فرعون، لأنه أمر يذبح أبناء بني إسرائيل، فأخفته أمه، وخافت عليه خوفاً شديداً فقذفته في التابوت، ثم قذفته في اليم، أي: شط نيل مصر، فأمر الله اليم، أن يلقيه في الساحل، وقبض أن يأخذه، أعدي

الأعداء لله وللموسى، ويتربى في أولاده، ويكون قرة عين لمن رآه، ولهذا قال: ﴿وألقيت عليك حبة مني﴾ فكل من رآه أحبه ﴿ولتصنع على عيني﴾ ولتربى على نظري وفي حفظي وكلاعي، وأي: نظره وكفالة، أجل وأكمل، من ولاية البر الرحيم، القادر على إيصال مصالح عبده، ودفع المضار عنه؟! فلا يتنقل من حالة إلى حالة، إلا والله تعالى هو الذي دبر ذلك لمصلحة موسى، ومن حسن تدبيره، أن موسى لما وقع في يد عدوه، قلقته أمه قلقاً شديداً، وأصبح فؤادها فارغاً، وكادت تحبسه، لولا أن الله ثبتها وربط على قلبها، ففي هذه الحالة، حرم الله على موسى المراضع، فلا يقبل ثدي امرأة قط، ليكون ماله إلى أمه فترضغه، ويكون عندها، مطمئنة ساكنة، قريرة العين، فجعلوا يعرضون عليه المراضع، فلا يقبل ثدياً، فجاءت أخت موسى، فقالت لهم: ﴿هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون﴾.

﴿فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفسها﴾ وهو القبطي، لما دخل المدينة وقت غفلة من أهلها، وجد رجلين يقتتلان، واحد من شيعة موسى، والآخر من عدوه قبطي ﴿فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكله موسى فقضى عليه﴾ فدعا الله وسأله المغفرة، فغفر له، ثم فر هارباً لما سمع أن الملاً طلبوه، يريدون قتله.

فنجاه الله من الغم من عقوبة الذنب، ومن القتل، ﴿وفتناك فتونا﴾ أي: اختبرناك، وبلوناك، فوجدناك مستقيماً في أحوالك أو نقلناك في أحوالك، وأطوارك، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه، ﴿فلبثت سنين في أهل مدين﴾ حين فر هارباً من فرعون وملئه، حين أرادوا قتله، فتوجه إلى مدين، ووصل إليها، وتزوج هناك، ومكث عشر سنين، أو ثمان سنين،

(١) كذا في ب، وفي أ: عناد وتكبر وطغيان.



الدليل القاطع، عدل إلى المشاغبة،
وحد عن المقصود فقال لموسى: ﴿فما
بال قرون الأولى﴾ أي: ما شأنهم
وما خبرهم؟ وكيف وصلت بهم
الحال، وقد سبقونا إلى الإنكار
والكفر، والظلم، والعناد، ولنا فيهم
أسوة؟ فقال موسى: ﴿علمها عند ربّي
في كتاب لا يضل ربّي ولا ينسى﴾
أي: قد أحصى أعمالهم من خير
وشر، وكتبه في كتاب، وهو اللوح
المحفوظ، وأحاط به علماً وخبراً؛ فلا
يضل عن شيء منها، ولا ينسى ما
علمه منها.

ومضمون ذلك، أنهم قدموا إلى ما
قدموا، ولاقوا أعمالهم، وسيجازون
عليها، فلا معنى لسؤالك واستفهامك
يا فرعون عنهم، فذلك أمة قد خلت،
لها ما كسبت ولكم ما كسبتم، فإن كان
الدليل الذي أوردناه عليك، والآيات
التي أريناكها، قد تحققت صدقها
ويقينها، وهو الواقع، فانقد إلى الحق،
ودع عنك الكفر والظلم، وكثرة
الجدال بالباطل، وإن كنت قد شككت
فيها أو رأيتها غير مستقيمة، فالطريق
مفتوح وباب البحث غير مغلق، فرد
الدليل بالدليل، والبرهان بالبرهان،
ولن تجد لذلك سبيلاً، ما دام الملوان.

كيف وقد أخبر الله عنه، أنه
جحدها مع استيقانها، كما قال تعالى:
﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً
وعلوّاً﴾ وقال موسى: ﴿لقد علمت ما
أنزل هؤلاء إلا رب السماوات
والأرض بصائر﴾ فعلم أنه ظالم في
جداله، قصده العلو في الأرض.

ثم استطرد في هذا الدليل القاطع،
بذكر كثير من نعمه وإحسانه
الضروري، فقال: ﴿الذي جعل لكم
الأرض مهداً﴾ أي: فرأشاً بحالة
تتمكنون من السكون فيها، والقرار،
والبناء، والغراس، وإنارتها للزادراع
وغيره، وذلكها لذلك، ولم يجعلها محتعة
عن مصلحة من مصالحكم.

﴿وسلك لكم فيها سبلاً﴾ أي: نفذ
لكم الطرق الموصلة، من أرض إلى
أرض، ومن قطر إلى قطر، حتى كان
الآدميون يتمكنون من الوصول إلى
جميع الأرض بأسهل ما يكون،
ويتنفعون بأسفارهم، أكثر مما يتفنون
بإقامتهم.

﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به
أزواجا من نبات شتى﴾ أي: أنزل المطر
﴿فأحيا به الأرض بعد موتها﴾ وأنبث
بذلك جميع أصناف النوايت على
اختلاف أنواعها، وتشتت أشكالها،
وتباين أحوالها، فساقه، وقدره،
ويسره، رزقنا ولأنعامنا، ولولا ذلك
لهلك من عليها من آدمي وحيوان،
ولهذا قال: ﴿كلوا وارعوا أنعامكم﴾
وسياقها على وجه الامتنان، ليدل ذلك
على أن الأصل في جميع النوايت على
الإباحة، فلا يجرم منهم إلا ما كان
مضراً، كالسوم ونحوه.

﴿إن في ذلك لآيات لأولي النهى﴾
أي: لذوي العقول الرزينة، والأفكار
المستقيمة على فضل الله وإحسانه،
ورحمته، وسعة جوده، وتبام عنايته،
وعلى أنه الرب المعبود، المالك
المحمود، الذي لا يستحق العبادة
سواه، ولا الحمد والمدح والثناء، إلا
من امتن بهذه النعم، وعلى أنه على كل
شيء قدير، فكما أحيا الأرض بعد
موتها، إن ذلك لمحبي الموتى.

وخض الله أولي النهى بذلك،
لأنهم المنتفعون بها، الناظرون إليها نظر
اعتبار، وأما من عداهم، فإنهم بمنزلة
البهائم السارحة، والأنعام السائمة، لا
ينظرون إليها نظر اعتبار، ولا تنفذ
بصائرهم إلى المقصود منها، بل حظهم
حظ البهائم، يأكلون ويشربون،
وقلوبهم لاهية، وأجسامهم معرضة:
﴿وكأين من آية في السماوات
والأرض يمعرون عليها وهم عنها
معرضون﴾.

ولما ذكر كرم الأرض، وحسن

أي: قال فرعون لموسى على وجه
الإنكار: ﴿فمن ريكما يا موسى﴾
فأجاب موسى بجواب شاف كاف
واضح، فقال: ﴿ربنا الذي أعطى كل
شيء خلقه ثم هدى﴾ أي: ربنا الذي
خلق جميع المخلوقات، وأعطى كل
مخلوق خلقه اللائق به، الدال على
حسن صنعه من خلقه، من كبر الجسم
وصغره وتوسطه، وجميع صفاته، ﴿ثم
هدى﴾ كل مخلوق إلى ما خلقه له،
وهذه الهداية العامة^(١) المشاهدة في
جميع المخلوقات فكل مخلوق، تجده
يسعى لما خلق له من المنافع، وفي دفع
المضار عنه، حتى إن الله تعالى أعطى
الحيوان البهيمن من العقل، ما يتمكن^(٢)
به على ذلك.

وهذا كقوله تعالى: ﴿الذي أحسن
كل شيء خلقه﴾ فالذي خلق
المخلوقات، وأعطاه خلقها الحسن،
الذي لا تقتصر العقول فوق حسنه،
وهبها لمصالحها، هو الرب على
الحقيقة، فإنكاره إنكار لأعظم الأشياء
وجوداً، وهو ميكابرة ومجاهرة
بالكذب، فلو قدر أن الإنسان، أنكر
من الأمور المعلومة ما أنكر، كان
إنكاره لرب العالمين أكبر من ذلك،
ولهذا لما لم يمكن فرعون، أن يعاند هذا

(١) في ب: الكاملة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ما يتمكن.

شكرها لما ينزله الله عليها من المطر، وأنها ياذن ربها، تخرج البُتات المختلف الأنواع، أخبر أنه خلقتنا منها، وفيها يعبدنا إذا متنا فدفننا فيها، ومنها يخرجنا تارة أخرى، فكما أوجدنا منها من العدم، وقد علمنا ذلك وتحققناه، فسيعيدنا بالبعث منها بعد موتنا، ليجازينا بأعمالنا التي عملناها عليها.

وهذان دليلان على إعادة عقليان واضحيان: إخراج البُتات من الأرض بعد موتها، وإخراج المكلفين منها في إيجادهم.

﴿٥٦ - ٦١﴾ ﴿ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى﴾ قال أجيئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ﴿فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى﴾ قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشركم ضحى ﴿فتولى فرعون فجمع كيدته ثم أتى قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افتري﴾ يخبر تعالى، أنه أرى فرعون من الآيات والعجز والقواطع، جميع أنواعها العيانة، والأفقية والنفسية، فما استقام ولا ازعوى، وإنما كذب وتولى، كذب الخبز، وتولى عن الأمر والنهي، وجعل الحق باطلاً، والباطل حقاً، وجادل بالباطل ليضل الناس، فقال: ﴿أجيئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك﴾ زعم أن هذه الآيات التي أراه إياها موسى، سحر وتمويه، المقصود منها إخراجهم من أرضهم، والاستيلاء عليها، ليكون كلامه مؤثراً في قلوب قومه، فإن الطباع تميل إلى أوطانها، ويصعب عليها الخروج منها ومفارقتها.

فأخبرهم أن موسى هذا قصده، ليعضوه، ويسعوا في محاربتة، فلنأتينك بسحر مثل سحرك فأمهلنا، واجعل لنا ﴿موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى﴾ أي: مستو علمنا وعلمك به، أو مكاناً مستوياً معتدلاً، ليتمكن من رؤية ما فيه.

فقال موسى: ﴿موعدكم يوم

الزينة﴾ وهو عيدهم، الذي يتفرغون فيه ويقطعون شواغلهم، ﴿وأن يحشركم الناس ضحى﴾ أي: يجمعون كلهم في وقت الضحى، وإنما سأل موسى ذلك، لأن يوم الزينة ووقت الضحى منه يحصل فيه من كثرة الاجتماع، ورؤية الأشياء على حقائقها، ما لا يحصل في غيره، ﴿فتولى فرعون فجمع كيدته﴾ أي: جميع ما يقدر عليه، مما يكيد به موسى، فأرسل في مدائنه من يحشركم السحرة الماهرين في سحرهم، وكان السحر إذ ذاك متوفراً، وعلمه علماً مرغوباً فيه، فجمع خلقاً كثيراً من السحرة، ثم أتى كل منهما للموعد، واجتمع الناس للموعد.

فكان الجمع حافلاً، حضره الرجال والنساء، والملا، والأشراف، والعوام، والصغار، والكبار، وحضروا الناس على الاجتماع، وقالوا للناس: ﴿هل أنتم مجتمعون﴾ لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين، فحين اجتمعوا من جميع البلدان، وعظهم موسى عليه السلام، وأقام عليهم الحجة، وقال لهم: ﴿ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب﴾ أي: لا تنصروا ما أنتم عليه من الباطل بسحركم وتغالبون الحق، وتفترون على الله الكذب، فيستأصلكم بعذاب من عنده، ويخيب سعيكم وافتراؤكم، فلا تدركون ما تطلبون من النصر والجاه عند فرعون وملئه، ولا تسلمون من عذاب الله، وكلام الحق لا يد أن يؤثر في القلوب، لا جرم ارتفع الخصام والنزاع بين السحرة لما سمعوا كلام موسى، وارتبكوا، ولعل من جملة نزاعهم، الاشتباه في موسى، هل هو على الحق أم لا؟ ولكن هم إلى الآن، ما تم أمرهم، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، ﴿لهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة﴾ فحينئذ أسروا فيما بينهم النجوى، وأنهم يتفقون على مقالة واحدة، لينجحوا في مقالهم وفعالهم، وليتمسك الناس بدينهم، والنجوى التي أسروها فسرّها بقوله: ﴿قالوا إن هذان لساحران يريدان أن

يخرجاكم من أرضكم بسحرهما﴾ كمقالة فرعون السابقة، فإما أن يكون ذلك توافقاً من فرعون والسحرة على هذه المقالة من غير قصد، وإما أن يكون تلقيناً منه لهم مقالته، التي صمم عليها وأظهرها للناس، وزادوا على قول فرعون أن قالوا: ﴿ويذهب بطريقكم المثل﴾ أي: طريقة السحر حسدكم عليها، وأراد أن يظهر عليكم، ليكون له الفخر والصيت والشهرة، ويكون هو المقصود بهذا العلم، الذي أشغلتكم زمانكم فيه، ويذهب عنكم ما كنتم تأكلون بسببه، وما يتبع ذلك من الرياسة، وهذا حض من بعضهم على بعض على الاجتهاد في مغالبتة، ولهذا قالوا: ﴿فأجمعوا كيدكم﴾ أي: أظهروه دفعة واحدة متظاهرين متساعدين فيه، متناصرين، متفقاً رأيكم وكلمتكم، ﴿ثم اتشوا صفاً﴾ ليكون أسكن لعملكم، وأهيب لكم في القلوب، ولكلا يترك بعضكم بعض مقدوره من العمل، واعلموا أن من أفلح اليوم ونجح وغلب غيره، فإنه المفلح الفائز، فهذا يوم له ما بعده من الأيام، فله دهره ما أصليهم في باطلهم، وأشدهم فيه، حيث أتوا بكل سبب ووسيلة وممكن، ومكيدة يكيدون بها الحق، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ويظهر الحق على الباطل، فلما تمت مكيدتهم، وانحصر مقصدهم، ولم يبق إلا العمل ﴿قالوا يا موسى إما أن تلقي عصاك﴾ وإما أن تكون أول من ألقى خيره، مومنين أنهم على جزم من ظهورهم عليه بأي: حالة كانت، فقال لهم موسى: ﴿بل ألقوا﴾ فألقوا حبالهم وعصيهم، ﴿فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه﴾ أي: إلى موسى ﴿من سحرهم﴾ البليغ ﴿أنها تسعى﴾ أي: أنها حيات تسعى فلما خيل إلى موسى ذلك، ﴿أوجس في نفسه خيفة موسى﴾ كما هو مقتضى الطبيعة البشرية، وإلا فهو جازم بوعده الله ونصره، ﴿قلنا﴾ له تثبيتاً وتطميناً: ﴿لا تخف إنك أنت الأعلى﴾ عليهم، أي: ستعلو عليهم وتقهرهم، ويدلوا

لك ويخضعوا.

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ أي: عصاك
﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ
سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾
أي: كيدهم ومكرهم، ليس بمثير لهم
ولا ناجح، فإنه من كيد السحرة،
الذين يموهون على الناس، ويلبسون
الباطل، ويخيلون أنهم على الحق،
فألقى موسى عصاه، فتلقفت ما صنعوا
كله وأكلته، والناس ينظرون لذلك
الصنيع، فعلم السحرة علماً يقيناً أن
هذا ليس بسحر، وأنه من الله، فبادروا
للإيمان.

﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ قالوا آمنا
برب العالمين رب موسى وهارون
فوقع الحق وظهر وسطع، وبطل
السحر والمكر والكيد، في ذلك المجمع
العظيم.

فصارت بينة ورحمة للمؤمنين،
وحجة على المعاندين في ﴿قَالَ﴾ فرعون
للسحرة: ﴿أَمْتُمْ لَهُ قَبْلُ أَنْ أَذِّنَ لَكُمْ﴾
أي: كيف أقدمتم على الإيمان من دون
مراجعة مني ولا إذن؟

استغرب ذلك منهم، لأدبهم معه،
وذلهم، وانقيادهم له في كل أمر من
أمرهم، وجعل هذا من ذاك.

ثم استلج فرعون في كفره وظغيانه
بعد هذا البرهان، واستخف عقول
قومه، وأظهر لهم أن هذه الغلبة من
موسى للسحرة، ليس لأن الذي معه
الحق، بل لأنه تملاً هو والسحرة،
ومكروا، ودبروا أن يخرجوا فرعون
وقومه من بلادهم، فقبل قومه هذا
المكر منه، ووطنوه صدقاً ﴿فَاسْتَخَفَّ
قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ﴾ إنهم كانوا قوماً فاسقين
مع أن هذه المقالة التي قالها، لا تدخل
عقل من له أدنى مسكة من عقل
ومعرفة بالواقع، فإن موسى أتى من
مدین وحيداً، وحين أتى لم يجمع بأحد
من السحرة ولا غيرهم، بل ينادي إلى
دعوة فرعون وقومه، وأراهم الآيات،
فأراد فرعون أن يعارض ما جاء به
موسى فسعى ما أمكنه، وأرسل في
مدائنه من يجمع له كل ساحر عليم.

فجاءوا إليه، ووعدهم الأجر

والمنزلة عند الغلبة، وهم حرصوا غاية
الحرص، وكادوا أشد الكيد، على
غلبتهم لموسى، وكان منهم ما كان،
فهل يمكن أن يتصور مع هذا أن
يكونوا دبروا، هم وموسى واتفقوا على
ما صدر؟ هذا من أمحل المحال، ثم
توعد فرعون السحرة فقال: ﴿فَلَا تَطْعَنَ
أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾
كما يفعل بالمحارب الساعي
بالفساد، يقطع يده اليمنى، ورجله
اليسرى، ﴿وَلَا صِلْبَكُمْ فِي جَذْعٍ﴾
النخل، أي: لأجل أن تستهروا
وتحتزوا، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا
وَأَبْقَى﴾ يعني بزعمه هو أو الله، وأنه
أشد عذاباً من الله وأبقى، قلباً
للحقائق، وترهيباً لمن لا عقل له.

ولهذا لما عرف السحرة الحق،
ورزقهم الله من العقل ما يدركون به
الحقائق، أجابوه بقولهم:

﴿لَنْ نُوْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ
الْبَيِّنَاتِ﴾ أي: لن نخشاك وما وعدتنا
به من الأجر والتقريب، على ما أرانا الله
من الآيات البينات الدالات على أن الله
هو الرب المعبود وحده، المعظم المبجل
وحده، وأن ما سواه باطل، ونوثرك
على الذي فطرنا وخلقنا، هذا لا يكون
﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ مما أوعدتنا به
من القطع، والصلب، والعذاب.

﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾
أي: إنما توعدنا به غاية ما يكون في
هذه الحياة الدنيا، ينقضي ويزول ولا
يضرنا، بخلاف عذاب الله، لمن استمر
على كفره، فإنه دائم عظيم.

وهذا كأنه جواب منهم، لقوله:
﴿وَلَتَعْلَمُنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ وفي
هذا الكلام، من السحرة، دليل على أنه
ينبغي للعاقل، أن يوازن بين لذات
الدنيا، ولذات الآخرة، وبين عذاب
الدنيا، وعذاب الآخرة.

﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيُغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾
أي: كفرنا ومعاصينا، فإن الإيمان
مكفر للسيئات، والثوبة تحب ما قبلها،
وقولهم، ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ
السَّحَرِ﴾ الذي عارضنا به الحق، هذا
دليل على أنهم غير مختارين في عملهم

المتقدم، وإنما أكرههم فرعون إكراهاً.
والظاهر - والله أعلم - أن موسى
لما وعظهم كما تقدم في قوله: ﴿وَلْيَكُمُ
بِعَذَابٍ أَثَرٌ مَعَهُمْ﴾، ووقع منهم مرقعاً
كثيراً، ولهذا تنازعوا بعد هذا الكلام
والموعظة، ثم إن فرعون ألزمهم ذلك،
وأكرههم على المكر الذي أجروه،
ولهذا تكلموا بكلامه السابق قبل
إتيانهم، حيث قالوا: ﴿إِنَّ هَٰذَانِ
لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ
أَرْضِكَ بِسِحْرِهِمَا﴾ فجروا على ما سئله
لهم، وأكرههم عليه، ولعل هذه النكتة
التي قامت بقلوبهم من كراهتهم
لمعارضة الحق بالباطل وفعلهم، ما
فعلوا على وجه الإغماض، هي التي
أثرت معهم، ورحمهم الله بسببها،
ووقفهم للإيمان والتوبة، ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ
مِمَّا وَعَدْتَنَا مِنَ الْأَجْرِ وَالْمَنْزِلَةِ وَالْجَاهِ،
وَأَبْقَى ثَوَابًا وَإِحْسَانًا لَا مَا يَقُولُ
فِرْعَوْنُ﴾ ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا
وَأَبْقَى﴾ يريد أنه أشد عذاباً وأبقى.
وجميع ما أتى من قصص موسى مع
فرعون، يذكر الله فيه إذا أتى على قصة
السحرة، أن فرعون توعدهم بالقطع
والصلب، ولم يذكر أنه فعل ذلك، ولم
يأت في ذلك حديث صحيح، والجزم
بوقوعه أو عدمه، يتوقف على الدليل،
والله أعلم بذلك وغيره، ولكن توخذه
إياهم بذلك مع اقتداره، دليل على
وقوعه، ولأنه لو لم يقع لذكره الله،
ولاتفاق الناقلين على ذلك.

﴿٧٤ - ٧٦﴾ ﴿إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبِّهِ
مَجْرَماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا
يَحْيَا﴾ ومن ياتيه مؤمناً قد عمل
الصالحات فأولئك لهم الدرجات
العلي ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ
تَزَكَّى﴾ يخبر تعالى أن من أتاه، وقدم
عليه مجرماً - أي: وصفه الجرم من كل
وجه، وذلك يستلزم الكفر - واستمر
على ذلك حتى مات، فإن له نار
جهنم، الشديد نكالها، العظيمة
أغللالها، البعيد قعرها، الألم حرها
وقرها، التي فيها من العقاب ما يذيب

الأكباد والقلوب، ومن شدة ذلك أن العذب فيها لا يموت ولا يحيا، لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة يتلذذ بها، وإنما حياته محسوة بعذاب القلب والروح والبدن، الذي لا يقدر قدره، ولا يفتر عنه ساعة، يستغيث فلا يغاث، ويدعو فلا يستجاب له.

نعم، إذا استغاث، أغيث بماء كالمهل يشوي الوجوه، وإن دعا، أجيب بـ «أخسروا فيها ولا تكلمون». ومن يأت ربه مؤمناً به مصداقاً لرسله، متبعاً لكتبه «قد عمل الصالحات» الواجبة والمستحبة، «فأولئك لهم الدرجات العلى» أي: المنازل العاليات، وفي الغرف المزخرفات، واللذات المتواصلات، والأنهار السارحات، والخلود الدائم، والسرور العظيم، فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

«وذلك الثواب، جزاء من تركي» أي: تطهر من الشرك والكفر والفسوق والعصيان، إما أن لا يفعلها بالكلية، أو يتوب مما فعله منها، وزكى أيضاً نفسه، ونماها بالإيمان والعمل الصالح، فإن للتزكية معنيين، التبتية، وإزالة الخبيث، والزيادة بحصول الخير، وسميت الزكاة زكاة، لهذين الأمرين.

«٧٧- ٧٩» «ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر عبادي فأضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى» فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم * وأضل فرعون قومه وما هدى * لما ظهر موسى بالبراهين على فرعون وقومه، مكث في مصر يدعوهم إلى الإسلام، ويسعى في تخليص بني إسرائيل من فرعون وعذابه، وفرعون في عتو ونفور، وأمره شديد على بني إسرائيل ويريه الله من الآيات والعبر، ما قصه الله علينا

في القرآن، وبنو إسرائيل لا يقدر أن يظهر إيمانهم ويعلنوه، قد اتخذوا بيوتهم مساجد، وصبروا على فرعون وأذاه، فأراد الله تعالى أن ينجيهم من عذوبهم، ويمكن لهم في الأرض ليعبدوه جهرًا، وقيموا أمره، فأوحى إلى نبيه موسى^(١)، أن يزر أو سيروا أول الليل، ليتمادوا^(٢) في الأرض، وأخبره أن فرعون وقومه سينبعونه، فخرجوا أول الليل، جميع بني إسرائيل هم ونساؤهم وذريتهم، فلما أصبح أهل مصر إذا ليس فيها منهم داع ولا محجب، فحنق عليهم عدوهم فرعون، وأرسل في المداين، من يجمع له الناس ويحضهم على الخروج في أثر بني إسرائيل ليوقع بهم وينفذ غيظه، والله غالب على أمره، فتكاملت جنود فرعون فصار بهم يتبع بني إسرائيل، فأتبعوهم مشرقين، «فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون» وقلقوا وخافوا، البحر أمامهم، وفرعون من ورائهم، قد امتلأ عليهم غيظاً وحنقاً، وموسى مطمئن القلب، ساكن البال، قد وثق بوعد ربه، فقال: «كلا إن معي ربي سيهدين» فأوحى الله إليه أن يضرب البحر بعصاه، ففرضه، فانفرد اثني عشر طريقاً، وصار الماء كالجبال العالية، عن يمين الطرق ويسارها، وأيسر الله طرقهم التي انفرد عنها الماء، وأمرهم الله أن لا يخافوا من إدراك فرعون، ولا يخشوا من الغرق في البحر، فسلكوا في تلك الطرق، فجاء فرعون وجنوده، فسلكوا وراءهم، حتى إذا تكامل قوم موسى خارجين وقوم فرعون داخلين، أمر الله البحر فالتطم عليهم، وغشيهم من اليم ما غشيهم، وغرقوا كلهم، ولم ينجح منهم أحد، وبنو إسرائيل ينظرون إلى عدوهم، قد أقر الله آعينهم بهلاكه^(٣). وهذا عاقبة الكفر

(١) هنا زيادة في ب: أن يواعد بني إسرائيل ويبدو أنها مشطوبة في أ.

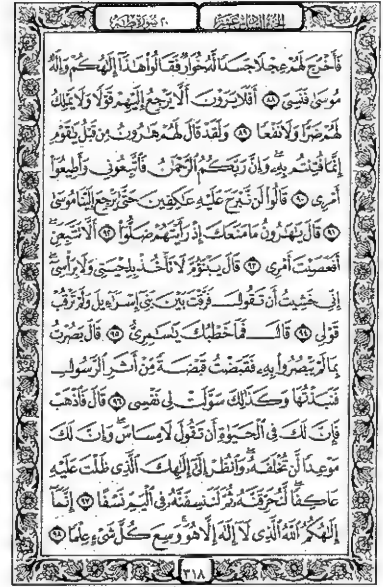
(٢) كذا في ب، وفي أ: الكلمة غير واضحة.

(٣) كذا في ب، وفي أ: بهلاكهم.



والضلال، وعدم الهداء بهدي الله، ولهذا قال تعالى: «وأضل فرعون قومه» بما زين لهم من الكفر، وتمجين ما أتى به موسى، واستخفافه بإياه، وما هذاهم في وقت من الأوقات، فأوردتهم موارد الغي والضلال، ثم أوردتهم مورد العذاب والنكال.

«٨٠- ٨٢» «يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم ووعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى * كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يجلل عليه غضبي فقد هوى * وإني لغفار لمن تاب وعمل صالحاً ثم اهتدى» يُذكر تعالى بني إسرائيل مِنَّةَ العظيمة عليهم بإهلاك عدوهم، ومواعده لموسى عليه السلام بجانب الطور الأيمن، لينزل عليه الكتاب، الذي فيه الأحكام الخلية، والأخبار الجميلة، بعد النعمة الدنيوية، ويذكر مِنَّةَ أيضاً عليهم في التيه، بإنزال المن والسلوى، والرزق الرغد الهني الذي يحصل لهم بلا مشقة، وأنه قال لهم: «كلوا من طيبات ما رزقناكم» أي: واشكروه على ما



أسدى إليكم من النعم ﴿ولا تطغوا فيه﴾ أي: في رزقه، فتستعملونه في معاصيه، وتبطرون النعمة، فإنكم إن فعلتم ذلك، حل عليكم غضبي أي: غضبت عليكم، ثم عذبتكم، ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى ﴿أي: ردى وهلك، وخاب وخسر، لأنه عديم الرضا والإحسان، وحل عليه الغضب والخسران.

ومع هذا، فالتوبة معروضة، ولو عمل العبد ما عمل من المعاصي، فلهذا قال: ﴿وإني لغفار﴾ أي: كثير المغفرة والرحمة، لمن تاب من الكفر والبدة والفسوق، وآمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعمل صالحاً من أعمال القلب والبدن، وأقوال اللسان.

﴿ثم اهتدى﴾ أي: سلك الصراط المستقيم، وتابع الرسول الكريم، واقتدى بالدين القويم، فهذا يغفر الله أوزاره، ويعفو عما تقدم من ذنبه وإصراره، لأنه أتى بالسبب الأكبر، للمغفرة والرحمة، بل الأسباب كلها منحصرة في هذه الأشياء فإن التوبة نجب ما قبلها، والإيمان والإسلام يهدم ما قبله، والعمل الصالح الذي هو الحسنات، يذهب السيئات، وملوك طرق الهداية بجميع أنواعها، من تعلم علم، وتدبر آية أو حديث، حتى يتبين له معنى من المعاني يهتدي به، ودعوة

إلى دين الحق، ورد بدعة أو كفر أو ضلالة، وجهاد، وهجرة، وغير ذلك من جزئيات الهداية، كلها مكفرات للذنوب محصلات لغاية المطلوب.

﴿٨٣ - ٨٦﴾ ﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى﴾ قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى ﴿قال فإنا قد فتننا قومك من بعدك وأضلهم السامري﴾ ﴿فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا﴾ قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً أظال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي ﴿كان الله تعالى، قد واعد موسى أن يأتيه لينزل عليه التوراة ثلاثين ليلة، فأتهاهم بعشر، فلما تم الميعات، بادر موسى عليه السلام إلى الحضور للموعود شوقاً لربه، وحرصاً على موعوده، فقال الله له: ﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى﴾ أي: ما الذي قدمك عليهم؟ ولم لم تصبر حتى تقدم أنت وهم؟ قال: ﴿هم أولاء على أثري﴾ أي: قريباً مني، وسيصلون في أثري والذي عجلني إليك يا رب طلباً لقربك ومسارة في رضاك، وشوقاً إليك، فقال الله له: ﴿فإنا قد فتننا قومك من بعدك﴾ أي:

بعبادتهم للعجل، إبليس، واختبرناهم، فلم يصبروا، وحين وصلت إليهم المحنة، كفروا ﴿وأضلهم السامري﴾

﴿فأخرج لهم عجلاً جسداً﴾ وصاغه فصار ﴿له خوار فقالوا﴾ لهم ﴿هذا إلهكم وإله موسى﴾ فنسبه موسى، فافتتن به بنو إسرائيل، فعبدوه، ونهاهم هارون فلم ينتهوا، فلما رجع موسى إلى قومه وهو غضبان أسف، أي: ممتلئ غيظاً وحنقاً وغماً، قال لهم موبخاً ومقبحاً لفعالهم: ﴿يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً﴾ وذلك بإنزال التوراة، ﴿أظال عليكم العهد﴾ أي: المدة، فتطاوَلتم غيبتني وهي مدة قصيرة؟ هذا قول كثير من المفسرين، ويحتمل أن معناه: أظال عليكم عهد النبوة والرسالة، فلم يكن لكم بالنبوة علم ولا أثر، واندرست

آثارها، فلم تقفوا منها على خبر، فانمحت آثارها لبعد العهد بها، فعيذتم غير الله، لغلبة الجهل، وعدم العلم بآثار الرسالة؟ أي: ليس الأمر كذلك، بل النبوة بين أظهركم، والعلم قائم، والعذر غير مقبول؟ أم أردتم بفعلكم، أن يحل عليكم غضب من ربكم؟ أي: فتعرضتم لأسبابه واقتحمتم موجب عذابه، وهذا هو الواقع، ﴿فأخلفتم موعدي﴾ حين أمرتكم بالاستقامة، ووصيت بكم هارون، فلم ترقبوا غائباً، ولم تحترموا حاضراً.

﴿٨٧ - ٨٩﴾ ﴿قالوا ما أخلفنا موعداً بملكنا ولكننا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقدفناها فكذلك ألقى السامري﴾ ﴿فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي﴾ ﴿أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً﴾ أي: قالوا له: ما فعلنا الذي فعلنا عن تعمد منا، وملك منا لأنفسنا، ولكن السبب الداعي لذلك، أننا تأمنا من زينة القوم التي عندنا، وكانوا فيما يذكرون استعاروا حلياً كثيراً من القبط، فخرجوا وهو معهم وألقوه، وجعوه حين ذهب موسى ليراجعوه فيه إذ رجع.

وكان السامري قد بصر يوم الغرق بأثر الرسول، فسولت له نفسه أن يأخذ قبضة من أثره، وأنه إذا ألقاها على شيء خبي، فتنه وامتحاناً، فألقاها على ذلك العجل الذي صاغه بصورة عجل، فتحرك العجل، وضار له خوار وصوت، وقالوا: إن موسى ذهب يطلب ربه، وهو هاهنا فنسيه، وهذا من بلادهم، وسخافة عقولهم، حيث رأوا هذا الغريب الذي صار له خوار، بعد أن كان جامداً، فظنوه إله الأرض والسموات.

﴿أفلا يرون﴾ أن العجل ﴿لا يرجع إليهم قولا﴾ أي: لا يتكلم ويراجعهم ويراجعون، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، فالعادم للكمال والكلام والفعال لا يستحق أن يعبد وهو أنقص من عابديه، فإنهم يتكلمون ويقدر

ولا يُجَافُ، ولا يُدْعَى إلا هو، لأنه الكامل الذي له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، المحيط علمه بجميع الأشياء، الذي ما من نعمة بالعباد إلا منه، ولا يدفع السوء إلا هو، فلا إله إلا هو، ولا معبود سواه.

﴿٩٩-١٠١﴾ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكراً * من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً * خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة خلا * يمتن الله تعالى على نبيه ﷺ بما قصه عليه من أنباء السابقين، وأخبار السالفين، كهذه القصة العظيمة، وما فيها من الأحكام وغيرها، التي لا ينكرها أحد من أهل الكتاب، فأتت لم تدرس أخبار الأولين، ولم تتعلم من دراهم، فأخبارك بالحق اليقين من أخبارهم، دليل على أنك رسول الله حقاً، وما جئت به صدق، ولهذا قال: ﴿وقد آتيناك من لدنا﴾ أي: عطية نفيسة، ومنحة جزيلة من عندنا. ﴿ذكر﴾ وهو هذا القرآن الكريم، ذكر للأخبار السابقة واللاحقة، وذكر يتذكر به ما لله تعالى من الأسماء والصفات الكاملة، ويتذكر به أحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء، وهذا مما يدل على أن القرآن مشتمل على أحسن ما يكون من الأحكام، التي تشهد العقول والفطر بحسنها وكمالها، ويذكر هذا القرآن ما أودع الله فيها، وإذا كان القرآن ذكراً للرسول ولأمته، فيجب تلقيه بالقبول والتسليم والانقياد والتعظيم، وأن يستدى بنوره إلى الصراط المستقيم، وأن يقبلوا عليه بالتعلم والتعليم.

وأما مقابله بالأعراض، أو ما هو أعظم منه من الإنكار، فإنه كفر لهذه النعمة، ومن فعل ذلك، فهو مستحق للعقوبة، ولهذا قال: ﴿من أعرض عنه﴾ فلم يؤمن به، أو تهاون بأوامره ونواهي، أو تعلم معانيه الواجبة ﴿فإنه﴾ يحمل يوم القيامة وزراً. وهو ذنبه، الذي بسببه أعرض عن القرآن، وأولاه الكفر والهجران، ﴿خالدين فيه﴾ أي:

يا سامري * قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي * قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعداً لن تخلفه وانظر إلى الهك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفته في اليم نسفاً * أي: ما شأنك يا سامري، حيث فعلت ما فعلت؟ فقال: ﴿بصرت بما لم يبصروا به﴾ وهو جبريل عليه السلام، على فرس رآه وقت خروجهم من البحر، وغرق فرعون وجنوده على ما قاله المفسرون، فقبضت قبضة من أثر حافر فرسه، فنبذتها على العجل، ﴿وكذلك سولت لي نفسي﴾ أن أقبضها، ثم أنبذها، فكان ما كان، فقال له موسى: ﴿فاذهب﴾ أي: تباعد عني واستأخر مني ﴿فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس﴾ أي: تعاقب في الحياة عقوبة، لا يدنو منك أحد، ولا يمسك أحد، حتى إن من أراد القرب منك، قلت له: لا تمسني، ولا تقرب مني، عقوبة على ذلك، حيث مس ما لم يمسه غيره، وأجرى ما لم يجره أحد، ﴿وإن لك موعداً لن تخلفه﴾ فتجاوزي بعملك، من خير وشر، ﴿وانظر إلى الهك الذي ظلت عليه عاكفاً﴾ أي: العجل ﴿لنحرقنه ثم لننسفته في اليم نسفاً﴾ ففعل موسى ذلك، فلو كان إلهاً، لامتنع ممن يريده بأذى ويسعى له بالإتلاف، وكان قد أشرب العجل في قلوب بني إسرائيل، فأراد موسى عليه السلام إتلافه وهم ينظرون، على وجه لا تمكن إعادته بالإحراق والسحق وذربه في اليم ونسفه، ليزول ما في قلوبهم من حبه، كما زال شخصه، ولأن في إبقائه محنة، لأن في النفوس أقوى ذاع إلى الباطل، فلما تبين لهم بطلانه، أخبزهم بمن يستحق العبادة وحده لا شريك له، فقال:

﴿٩٨﴾ ﴿إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً﴾ أي: لا معبود إلا وجهه الكريم، فلا يؤله، ولا يحب، ولا يُرَجَى

على بعض الأشياء، من النفع والدفع، بإقدار الله لهم.

﴿٩٠-٩٤﴾ ﴿ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري﴾ قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى * قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا * ألا تتبعن أفعصيت أمري * قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي﴾ أي: إن اتخاذهم العجل، ليسوا معذورين فيه، فإنه وإن كانت عرضت لهم الشبهة في أصل عبادته، فإن هارون قد نهاهم عنه، وأخبرهم أنه فتنة، وأن ربهم الرحمن، الذي منه النعم الظاهرة والباطنة، الدافع للنقم وأنه أمرهم أن يتبعوه ويعتزلوا العجل، فأبوا وقالوا: ﴿لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى﴾

فأقبل موسى على أخيه لاثماً له، وقال: ﴿يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن﴾ فتخبرني لأبادر للرجوع إليهم؟ ﴿أفعصيت أمري﴾ في قولي ﴿أخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع نسيب المتسدين﴾.

فأخذ موسى برأس هارون ولحيته، يحرقه من الغضب والعتب عليه، فقال هارون: ﴿يا ابن أم﴾ تريق له، وإلا فهو شقيقه ﴿لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي﴾ فإنك أمرتني أن أخلفك فيهم، فلو تبعتك، لشركت ما أمرتني بلزومه وخشيت لا تمتك، و ﴿أن تقول فرقت بين بني إسرائيل﴾ حيث تركتهم، وليس عندهم راع ولا خليفة، فإن هذا يفرقهم ويشتت شملهم، فلا تجعلني مع القوم الظالمين، ولا تشمت فينا الأعداء، فنقدم موسى على ما صنع بأخيه، وهو غير مستحق لذلك ف ﴿قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين﴾ ثم أقبل على السامري.

﴿٩٥-٩٧﴾ ف ﴿قال فما خطبك

في وزرهم، لأن العذاب هو نفس الأعمال، تنقلب عذاباً على أصحابها، بحسب صغرها وكبرها.

﴿وساء لهم يوم القيامة حملاً﴾ أي: بش الحمل الذي يحملونه، والعذاب الذي يعذبونه يوم القيامة، ثم استطرد، فذكر أحوال يوم القيامة وأحواله فقال:

﴿١٠٢-١٠٤﴾ «يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً * يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً * نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً»

أي: إذا نفخ في الصور وخرج الناس من قبورهم، كُلُّ على حسب حاله، فالتقون يحشرون إلى الرحمن وفداً، والمجرمون يحشرون زرقاً ألوانهم من الخوف والقلق والعطش، يتناجون بينهم، ويتخافتون في قصر مدة الدنيا، وسرعة الآخرة، فيقول بعضهم: ما لبثتم إلا عشرة أيام، ويقول بعضهم غير ذلك، والله يعلم تخافتهم، ويسمع ما يقولون ﴿إذ يقول أمثلهم طريقة﴾ أي: أعدلهم وأقربهم إلى التقدير ﴿إن لبثتم إلا يوماً»

والمقصود من هذا، الندم العظيم، كيف ضيعوا الأوقات القصيرة، وقطعوا ساهمين لا هين، معرضين عما ينفعهم، مقبلين على ما يضرهم، فما قد حضر الجزاء، وحق الوعيد، فلم يبق إلا الندم، والدعاء بالويل والثبور.

كما قال تعالى: ﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين * قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين﴾ قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون».

﴿١٠٥-١١٢﴾ «ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً * فيذرهما قاعاً صفصفاً * لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً * يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له * خشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً * يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً * وعنت الوجوه

للحجي القيوم وقد خاب من حمل ظلماً * ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً» يخبر تعالى عن أحوال القيامة، وما فيها من الزلازل والفتن، فقال: ﴿ويسألونك عن الجبال﴾ أي: ماذا يصنع بها يوم القيامة، وهل تبقى بحالها أم لا؟ ﴿فقل ينسفها ربي نسفاً﴾ أي: يزيلها ويقلعها من أماكنها فتكون كالعهن وكالرمل، ثم يدكها فيجعلها هباء منبثاً، فتضمحل وتلاشى، ويسويها بالأرض، ويجعل الأرض قاعاً صفصفاً، مستوياً لا ترى فيه أيها الناظر عوجاً، هذا من تمام استوائها ﴿ولا أمناً﴾ أي: أودية وأماكن منخفضة، أو مرتفعة تبرز الأرض، وتوسع للخلائق، ويمدها الله مد الأديم، فيكونون في موقف واحد، يسمعون الداعي، وينفذهم البصر، ولهذا قال:

﴿يومئذ يتبعون الداعي﴾ وذلك حين يبعثون من قبورهم ويقومون منها، يدعوه الداعي إلى الحضور والاجتماع للموقف، فيتبعونه مهطعين إليه، لا يلتفتون عنه، ولا يعرجون يمنة ولا يسرة، وقوله: ﴿لا عوج له﴾ أي: لا عوج لدعوة الداعي، بل تكون دعوته حقاً وصدقاً، لجميع الخلق، يسمعون جميعهم، ويصيح بهم أجمعين، فيحضرون لموقف القيامة، خاشعة أصواتهم للرحمن، ﴿فلا تسمع إلا همساً﴾ أي: إلا وطء الأقدام، أو المخافة سراً بتحريك الشفتين فقط، يملكهم الخشوع والسكون والإنصات، انتظاراً لحكم الرحمن فيهم، وتعنو وجوههم، أي: تذلل وتخضع، فتري في ذلك الموقف العظيم، الأغنياء والفقراء، والرجال والنساء، والأحرار والأرقاء، والملوك والسوقة، ساكتين منصتين، خاشعة أبطارهم، خاضعة رقابهم، جاثين على ركبهم، عانية وجوههم، لا يندرون ماذا ينفصل كل منهم به، ولا ماذا

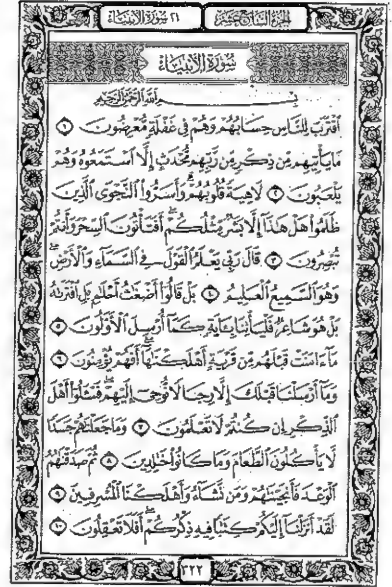
يفعل به، قد اشتغل كُلُّ بنفسه وشأنه، عن أبيه وأخيه، وصديقه وحببيه ﴿لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ فحيثما يحكم فيهم الحاكم العدل الديان، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بالحرمان.

والأمل بالرب الكريم، الرحمن الرحيم، أن يري الخلائق منه، من الفضل والإحسان، والعفو والصفح والغفران، ما لا تعبر عنه الألسنة، ولا تتصوره الأفكار، ويتطلع لرحمته إذ ذاك جميع الخلق لما يشاهدونه [فيختص المؤمنون به ورسله بالرحمة] ^(١)، فإن قيل: من أين لكم هذا الأمل؟ وإن شئت قلت: من أين لكم هذا العلم بما ذكر؟

قلنا: لما تعلمه من غلبة رحمته لغضبه، ومن سعة جوده، الذي عم جميع البرايا، وما نشأه في أنفسنا وفي غيرنا، من النعم المتواترة في هذه الدار، وخصوصاً في فصل القيامة، فإن قوله: ﴿وخشعت الأصوات للرحمن﴾ ﴿إلا من أذن له الرحمن﴾ مع قوله ﴿الملك يومئذ الحق للرحمن﴾ مع قوله ﷺ: ﴿إن لله مئة رحمة، أنزل لعباده رحمة، بها يتراحمون ويتعاطفون، حتى إن البهيمة ترفع جافرها عن ولدها خشية أن تطأه - أي: - من الرحمة المودعة في قلبها، فإذا كان يوم القيامة، ضم هذه الرحمة إلى تسع وتسعين رحمة، فرحم بها العباد».

مع قوله ﷺ: ﴿لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها﴾، فقل ما شئت عن رحمته، فإنها فوق ما تقول، وتصور ما شئت، فإنها فوق ذلك، فسبحان من رحم في عدله وعقوبته، كما رحم في فضله وإحسانه ومثوبته، وتعالى من وسعت رحمته كل شيء، وعم كرمه كل حي، وجَلَّ من غيبي عن عباده، رحيم بهم، وهم مفتقرون إليه على الدوام، في جميع أحوالهم، فلا غنى لهم عنه طرفة عين.

وقوله: ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا



بتعليمهم، ما يصلح الصلاة ويفسدها ويكملها.

﴿واصطبر عليها﴾ أي: على الصلاة بإقامتها، بحدودها وأركانها وأدائها وخشوعها، فإن ذلك مشق على النفس، ولكن ينبغي إكراهها وجهادها على ذلك، والصبر معها دائماً، فإن العبد إذا أقام صلاته على الوجه المأمور به، كان لما سواها من دينه أحفظ وأقوم، وإذا ضيعها كان لما سواها أضيع، ثم ضمن تعالى لرسوله الرزق، وأن لا يشغله الاهتمام به عن إقامة دينه، فقال:

﴿نحن نرزقك﴾ أي: رزقك علينا قد تكفلنا به، كما تكفلنا بأرزاق الخلائق كلهم، فكيف بمن قام بأمرنا، واشتغل بذكرنا؟! ورزق الله عام للمتقي وغيره، فينبغي الاهتمام بما يجلب السعادة الأبدية، وهو: التقوى، ولهذا قال: ﴿والعاقبة﴾ في الدنيا والآخرة ﴿للتقوى﴾ التي هي فعل المأمور وترك المنهي، فمن قام بها، كان له العاقبة، كما قال تعالى: ﴿والعاقبة للمتقين﴾.

﴿١٣٣ - ١٣٥﴾ ﴿وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى﴾ ولولا أنا أهلكتهم بعباد من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلنا إليك رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى * قل كل متريص فتريصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اعتدى * أي: قال الكاذبون للرسول ﷺ: هلا يأتينا بآية من ربه؟ يعنون آيات الاقتراح كقولهم: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها فتجيراً * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً.

وهذا تعنت منهم وعناد وظلم،

فإنهم، هم والرسول، بشر عبيد لله، فلا يليق منهم الاقتراح بحسب أهوائهم، وإنما الذي ينزلها ويختار منها ما يختار بحسب حكمته، هو الله.

ولأن^(١) قولهم: ﴿لولا أنزل عليه آيات من ربه﴾ يقتضي أنه لم يأتهم بآية على صدقه، ولا بينة على حقه، وهذا كذب وافتراء، فإنه أتى من المعجزات الباهرات، والآيات القاهرات، ما يحصل ببعضه المقصود، ولهذا قال: ﴿أولم تأتهم﴾ إن كانوا صادقين في قولهم، وأنهم يطلبون الحق بدليله، ﴿بينة ما في الصحف الأولى﴾ أي: هذا القرآن العظيم، المصدق لما في الصحف الأولى، من التوراة والإنجيل، والكتب السابقة المطابق لها، المخبر بما أخبرت به، وتصديقه أيضاً مذكور فيها، ومبشر بالرسول بها، وهذا كقولہ تعالى:

﴿أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾ فالآيات تنفع المؤمنين، ويزداد بها إيمانهم وإيقانهم، وأما المعرضون عنها المعارضون لها، فلا يؤمنون بها، ولا ينتفعون بها، ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون﴾ * ولو جاءهم كل آية حتى يروا العذاب ﴿وإنما الفائدة في سوقها إليهم ومخاطبتهم بها، لتقوم عليهم حجة الله، ولتلا يقولوا حين ينزل بهم العذاب: ﴿لولا أرسلنا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى﴾ بالعقوبة، فهذا جاءكم رسولي ومعه آياتي وبراهيني، فإن كنتم كما تقولون، فصدقوه.

قل يا محمد مخاطباً للمكذبين لك الذين يقولون تربصوا به ريب المتون ﴿قل كل متريص﴾ فتريصوا بي الموت، وأنا أتريص بكم العذاب ﴿قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين﴾ أي: الظفر أو الشهادة ﴿ونحن نتريص بكم أن يصيبكم الله بحذاب من عنده أو

محبيها وعشاقها، فيندمون حيث لا تنفع الندامة، ويعلمون ما هم عليه إذا قدموا في القيامة، وإنما جعلها الله فتنة واختباراً، ليعلم من يقف عندها ويغتر بها، ومن هو أحسن عملاً، كما قال تعالى: ﴿إننا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾ * وإننا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً.

﴿ورزق ربك﴾ العاجل من العلم والإيمان، وحقائق الأعمال الصالحة، والأجل من النعيم المقيم، والعيش السليم في جوار الرب الرحيم ﴿خير﴾ مما متعنا به أزواجاً، في ذاته وصفاته ﴿وأبقى﴾ لكونه لا ينقطع، أكلها دائم وظلها، كما قال تعالى: ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا﴾ * والآخرة خير وأبقى.

وفي هذه الآية، إشارة إلى أن العبد إذا رأى من نفسه طموحاً إلى زينة الدنيا، وإقبالاً عليها، أن يذكرها ما أمامها من رزق ربه، وأن يوازن بين هذا وهذا.

﴿١٣٢﴾ ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى﴾ أي: حث أهلك على الصلاة، وأزعجهم إليها من فرض ونفل. والأمر بالشيء، أمر بجميع ما لا يتم إلا به، فيكون أمراً

(١) في ب: ولما كان.

بأيدينا». «فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي» أي: المستقيمين، «ومن اهتدى» بسلوكه، أنا أم أنتم؟ فإن صاحبه هو الفائز الراشد، الناجي المفلح، ومن حاد عنه خاسر خائب معذب، وقد علم أن الرسول هو الذي بهذه الحالة، وأعداؤه بخلافه، والله أعلم.

تفسير سورة الأنبياء عليهم السلام، وهي مكية

١ - ٤ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ اقترَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَعْرُضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةٌ قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَاوُ الشَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرِ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ * قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * هَذَا تَعْجِبُ مِنْ حَالَةِ النَّاسِ، وَأَنَّهُ لَا يَنْجَعُ فِيهِمْ تَذْكِيرٌ، وَلَا يَرْعَوْنَ إِلَى نَذِيرٍ، وَأَنَّهُمْ قَدْ قَرَّبَ حِسَابَهُمْ، وَجَازَاهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ وَالظَّالِحَةِ، وَحَالِ أَنَّهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَعْرُضُونَ، أَي: غَفْلَةٌ عَمَّا خَلَقُوا لَهُ، وَإِعْرَاضٌ عَمَّا زَجَرُوا بِهِ. كَأَنَّهُمْ لِلدُّنْيَا خَلَقُوا، وَلِلْمَتَاعِ بِهَا وَلِدُوا، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَزَالُ يُجِدُّ لَهُمُ التَّذْكِيرَ وَالْوَعْظَ، وَلَا يَزَالُونَ فِي غَفْلَتِهِمْ وَإِعْرَاضِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ﴾ يَذْكُرُهُمْ مَا يَنْفَعُهُمْ وَيُحْشِرُهُمْ عَلَيْهِ وَمَا يَضُرُّهُمْ، وَيُرْهِبُهُمْ مِنْهُ ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ﴾ سَمَاعًا، تَقُومُ عَلَيْهِمْ بِهِ الْحُجَّةُ، وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةٌ قُلُوبُهُمْ * أَي: قُلُوبُهُمْ غَافِلَةٌ مُعْرِضَةٌ لَاهِيَةٌ بِمَطَالِبِهَا الدُّنْيَوِيَّةِ وَأُبْدَانِهِمْ لَاعِبَةٌ، قَدْ اسْتَغْلَوْا بِتَنَاقُلِ الشَّهَوَاتِ وَالْعَمَلِ بِالْبَاطِلِ، وَالْأَقْوَالِ الرَّدِيَّةِ، مَعَ أَنَّ الَّذِي يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَكُونُوا بِغَيْرِ هَذِهِ الصِّفَةِ، تَقْبِلُ قُلُوبُهُمْ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيِهِ، وَتَسْتَمِعُهُ اسْتِمَاعًا، تَفْقَهُ الْمُرَادَ مِنْهُ، وَتَسْعَى جَوَارِحُهُمْ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِمْ، الَّتِي خَلَقُوا لِأَجْلِهَا،

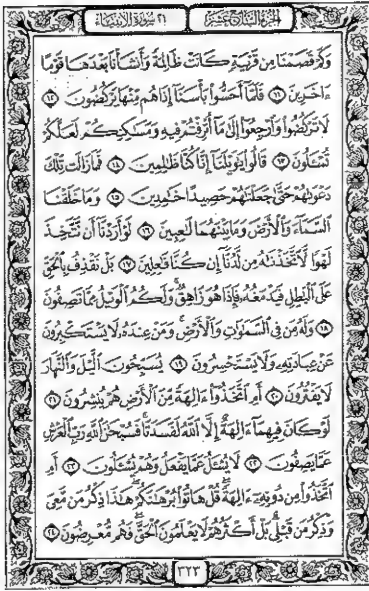
وَيَجْعَلُونَ الْقِيَامَةَ وَالْحِسَابَ وَالْجَزَاءَ مِنْهُمْ عَلَى بَالٍ، فَبِذَلِكَ يَتِمُّ لَهُمْ أَمْرُهُمْ، وَتُسْتَقِيمُ أَحْوَالُهُمْ، وَتَزْكُو أَعْمَالُهُمْ، وَفِي مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿اقْتَرِبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ هِيَ آخِرُ الْأُمَمِ، وَرَسُولُهَا آخِرُ الرُّسُلِ، وَعَلَى أُمَّتِهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، فَقَدْ قَرَّبَ الْحِسَابَ مِنْهَا بِالنِّسْبَةِ لِمَا قَبِلَهَا مِنَ الْأُمَمِ، لِقَوْلِهِ ﷺ «بَعَثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» وَقَرَنَ بَيْنَ إصْبَعِيهِ، السَّيَابَةِ وَالَّتِي تَلِيهَا.

والقول الثاني: أَنَّ الْمُرَادَ بِقَرَّبِ الْحِسَابِ الْمَوْتِ، وَأَنَّ مِنْ مَاتَ، قَامَتْ قِيَامَتُهُ، وَدَخَلَ فِي دَارِ الْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ، وَأَنَّ هَذَا تَعْجِبُ مِنْ كُلِّ غَافِلٍ مُعْرِضٍ، لَا يَدْرِي مَتَى يَفْجُوهُ الْمَوْتُ، صَبَاحًا أَوْ مَسَاءً، فَهَذِهِ حَالَةُ النَّاسِ كُلِّهِمْ، إِلَّا مَنْ أَدْرَكَتْهُ الْعَنَاءَةُ الرَّبَّانِيَّةُ، فَاسْتَعَدَّ لِلْمَوْتِ وَمَا بَعْدَهُ.

ثُمَّ ذَكَرَ مَا يَتَنَاجَى بِهِ الْكَافِرُونَ الظَّالِمُونَ عَلَى وَجْهِ الْعِنَادِ، وَمُقَابِلَةِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ، وَأَنَّهُمْ تَنَاجَوْا، وَتَوَاطَوْا فِيمَا بَيْنَهُمْ، أَنْ يَقُولُوا فِي الرَّسُولِ ﷺ إِنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، فَمَا الَّذِي فَضَّلَهُ عَلَيْكُمْ، وَخَصَّهُ مِنْ بَيْنَكُمْ، فَلَوْ ادَّعَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِثْلَ دَعْوَاهُ، لَكَانَ قَوْلُهُ مِنْ جِنْسٍ قَوْلِهِ، وَلَكِنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يُفَضِّلَ عَلَيْكُمْ، وَيُرَاسَ فَيْكُمْ، فَلَا تَطْغِيهِمْ، وَلَا تُصَدِّقُوهُ، وَأَنَّهُ سَاحِرٌ، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ الْقُرْآنِ سِحْرٌ، فَانْفِرُوا عَنْهُ، وَتَفَرُّوا النَّاسِ، وَقُولُوا: ﴿أَفْتَأْتُونَ السَّحَرِ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾ هَذَا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا بِمَا شَاهَدُوا^(١) مِنْ الْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ مَا لَمْ يَشَاهِدْ غَيْرُهُمْ، وَلَكِنْ جَلَّاهُمْ عَلَى ذَلِكَ الشَّقَاءِ وَالظُّلْمِ وَالْعِنَادِ، وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ أَحَاطَ عِلْمًا بِمَا تَنَاجَوْا بِهِ، وَسَيَجَازِيهِمْ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ﴾ أَي: الْخَفِيِّ وَالْجَلِيِّ ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي: فِي جَمِيعِ مَا أَحْتَوَتْ عَلَيْهِ أَقْطَارُهُمَا ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لِسَائِرِ الْأَصْوَاتِ، بِاخْتِلَافِ اللُّغَاتِ، عَلَى تَفْتِنِ الْحَاجَاتِ ﴿الْعَلِيمُ﴾ بِمَا فِي الضَّمَائِرِ، وَأَكْنَتِهِ

(١) فِي ب: بِمَا يَشَاهِدُونَ.

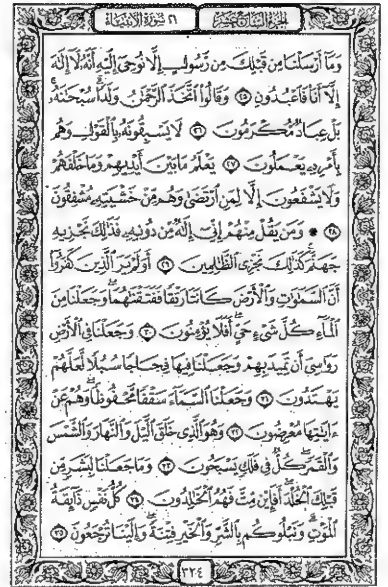
(٢) فِي ب: تَقُولُوهُ فِيهِ.



السراير.

٥ - ٦ ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ * مَا آمَنَتْ قُلُوبُهُمْ مِنْ قُرْيَةٍ أُهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يَوْمَتُونَ * يَذْكُرُ تَعَالَى انْتِفَاكُ الْمَكِيدِينَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَأَنَّهُمْ سَفَهُوهُ^(٢)، وَقَالُوا فِيهِ الْأَقْوَالُ الْبَاطِلَةُ الْمُخْتَلَفَةُ، فَتَارَةً يَقُولُونَ: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ بِمَنْزِلَةِ كَلَامِ النَّائِمِ الْهَازِي، الَّذِي لَا يَحْسُ بِمَا يَقُولُ، وَتَارَةً يَقُولُونَ: ﴿افْتَرَاهُ﴾ وَخَتْلَقَهُ وَتَقَوْلُهُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ، وَتَارَةً يَقُولُونَ: إِنَّهُ شَاعِرٌ وَمَا جَاءَ بِهِ شَعْرٌ.

وَكُلٌّ مِنْ لَهُ أَدْنَى مَعْرِفَةٍ بِالْوَاقِعِ، مِنْ حَالَةِ الرُّسُولِ، وَنَظَرُ فِي هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ، جَزْمٌ جَزْمًا لَا يَقْبَلُ الشَّكَّ، أَنَّهُ أَجَلُ الْكَلَامِ وَأَعْلَاهُ، وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَنَّ أَحَدًا مِنَ الْبَشَرِ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْإِتْيَانِ بِمِثْلِ بَعْضِهِ، كَمَا تَحْدَى اللَّهُ أَعْدَاءَهُ بِذَلِكَ، لِيَعَارِضُوا مَعَ تَوْفُرِ دَوَاعِيهِمْ لِمُعَارَضَتِهِ وَعِدَاوَتِهِ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى شَيْءٍ مِنْ مُعَارَضَتِهِ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ. وَإِلَّا فَمَا الَّذِي أَقَامَهُمْ وَأَعَدَّهُمْ وَأَقْضَى مُضَاجِعَهُمْ وَبَلَّلَ أَلْسِنَتَهُمْ إِلَّا الْحَقُّ الَّذِي لَا يَقْرُمُ لَهُ شَيْءٌ، وَإِنَّمَا يَقُولُونَ هَذِهِ الْأَقْوَالُ فِيهِ - حَيْثُ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ - تَنْفِيرًا عَنْهُ لَمْ يَلْمِ



يعرفه، وهو أكبر الآيات المستمرة، الدالة على صحة ما جاء به الرسول ﷺ وصدقه، وهو كاف شاف، فمن طلب دليلاً غيره، أو اقترح آية من الآيات سواء، فهو جاهل ظالم مشبه لهؤلاء المعاندين الذين كذبوه وطلبوا من آيات الاقتراح ما هو أضر شيء عليهم، وليس لهم فيها مصلحة، لأنهم إن كان^(١) قصدهم معرفة الحق إذا تبين دليله، فقد تبين دليله بدونها، وإن كان قصدهم التعجيز وإقامة العذر لأنفسهم، إن لم يأت بما طلبوا فإنهم بهذه الحالة - على فرض إتيان ما طلبوا من الآيات - لا يؤمنون قطعاً، فلو جاءهم كل آية، لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم.

ولهذا قال الله عنهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ﴾ أي: كمناسبة صالح، وعصا موسى، ونحو ذلك، قال الله: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي: بهذه الآيات المقترحة، وإنما سنته تقتضي أن من طلبها، ثم حصلت له، فلم يؤمن أن يعاجله بالعقوبة. فالأولون ما آمنوا بها، أفؤمن هؤلاء بها؟ ما الذي فضلهم على أولئك، وما الخير الذي فيهم، يقتضي الإيمان عند وجودها؟ وهذا الاستفهام بمعنى النفي، أي: لا يكون ذلك منهم

(١) كذا في ب، وفي أ: كانوا.

(٢) في ب: من أهل.

الأمر ثم لا ينظرون * ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون *.

وأن البشر لا طاقة لهم بتلقي الوحي من الملائكة ﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾ فإن حصل معكم شك وعدم علم بحالة الرسل المتقدمين ﴿فاسألوا أهل الذكر﴾ من الكتب السالفة، كأهل التوراة والإنجيل، يخبرونكم بما عندهم من العلم، وأنهم كلهم يشر من جنس المرسل إليهم.

وهذه الآية وإن كان سببها خاصاً بالسؤال عن حالة الرسل المتقدمين لأهل الذكر^(١)، وهم أهل العلم، فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين، أصوله وفروعه، إذا لم يكن عند الإنسان علم منها، أن يسأل من يعلمها، ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم، إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه.

وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم، نهي عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم، ونهي له أن يتصدى لذلك، وفي هذه الآية دليل على أن النساء ليس منهن نبي، لا مريم ولا غيرها، لقوله ﴿إِلَّا رَجَالاً﴾.

﴿١٠﴾ ﴿لَقَدْ أُنْزِلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذَكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ لقد أنزلنا إليكم - أيها المرسل إليهم، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب - كتاباً جليلاً، وقرآناً مبيناً ﴿فيه ذكركم﴾ أي: شرفكم وفخركم وارتفاعكم، إن تذكروا به ما فيه من الأخيار الصادقة فاعتقدوها، وامثلتم ما فيه من الأوامر، واجتنبتم ما فيه من التواهي، ارتفع قدركم، وعظم أمركم، ﴿أفلا تعقلون﴾ ما ينفعكم وما يضركم؟ كيف لا ترضون ولا تعملون على ما فيه ذكركم وشرفكم في الدنيا والآخرة، فلو كان لكم عقل، لسلكتكم هذا

أبدأ. ﴿٧-٩﴾ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجَالاً نُوحي إِلَيْهِمْ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين * ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين * هذا جواب لشبه المكذبين للرسول القائلين: هلاً كان ملكاً، لا يحتاج إلى طعام وشراب، وتصرف في الأسواق، وهلاً كان خالداً؟ فإذا لم يكن كذلك، دل على أنه ليس برسول.

وهذه الشبه ما زالت في قلوب المكذبين للرسول، تشابهوا في الكفر، فتشابهت أقوالهم، فأجاب تعالى عن هذه الشبه لهؤلاء المكذبين للرسول، المقرين بآيات الرسل قبله - ولو لم يكن إلا إبراهيم عليه السلام، الذي قد أقر بنبوته جميع الطوائف، والمشركون يزعمون أنهم على دينه وملته - بأن الرسل قبل محمد ﷺ، كلهم من البشر، الذين يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، وتطأ عليهم العوارض البشرية، من الموت وغيره، وأن الله أرسلهم إلى قومهم وأممهم، فصدقهم من صدقهم، وكذبهم من كذبهم، وأن الله صدقهم ما وعدهم به من النجاة والسعادة لهم ولأتباعهم، وأهلك المسرفين المكذبين لهم.

فما بال محمد ﷺ، تقام الشبه الباطلة على إنكار رسالته، وهي موجودة في إخوانه المرسلين، الذين يُقرُّ بهم المكذبون لمحمد؟ فهذا إلزام لهم في غاية الوضوح، وأنهم إن أقروا برسول من البشر، ولن يقرؤا برسول من غير البشر، إن شبههم باطلة، قد أبطلوها هم بإقرارهم بفسادها، وتناقضهم بها، فلو قدر انتقالهم من هذا إلى إنكار نبوة البشر رأساً، وأنه لا يكون نبي إن لم يكن ملكاً مخلداً، لا يأكل الطعام، فقد أجاب [الله] تعالى عن هذه الشبهة بقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ

الحكيم في تنزيله الأشياء منازلها .

﴿١٨ - ٢٠﴾ ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون﴾ * وله من في السماوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون * يستبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ * يخبر تعالى، أنه تكفل بإحقاق الحق وإبطال الباطل، وإن كل باطل قيل وجوده، فإن الله ينزل من الحق والعلم والبيان، ما يدمغه فيضمحل، ويتبين لكل أحد بطلانه ﴿فإذا هو زاهق﴾ * أي: مضمحل فإن، وهذا عام في جميع المسائل الدينية، لا يورد مبطل شبهة عقلية ولا نقلية، في إحقاق باطل، أو رد حق، إلا وفي أدلة الله، من القواطع العقلية والنقلية، ما يذهب ذلك القول الباطل ويقمعه، فإذا هو متبين بطلانه لكل أحد.

وهذا يتبين باستقراء المسائل، مسألة مسألة، فإنك تجدها كذلك ثم قال: ﴿ولكم﴾ أيها الواصفون الله، بما لا يليق به، من اتخاذ الولد والصاحبة، ومن الأنداد والشركاء، حظكم من ذلك، ونصيبكم الذي تدركون ﴿الويل﴾ والندامة والخسران.

ليس لكم مما قلتم فائدة، ولا يرجع عليكم بعائدة تؤملونها، وتعملون لأجلها، وتسعون في الوصول إليها، إلا عكس مقصودكم، وهو الخيبة والحرمان، ثم أخبر أنه له ملك السماوات والأرض وما بينهما، فالكل عبيده وماليكه، فليس لأحد منهم ملك ولا قسط من الملك، ولا معاونة عليه، ولا يشفع إلا بإذن الله، فكيف يتخذ من هؤلاء الهة، وكيف يجعل الله منها ولداً؟ فتعالى وتقدس المالك العظيم، الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الصعاب، وخشعت له الملائكة المقربون، وأذعنوا له بالعبادة الدائمة المستمرة أجمعون، ولهذا قال: ﴿ومن عنده﴾ أي: من الملائكة ﴿لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون﴾ * أي: لا يملون ولا يسأمونها، لشدة رغبتهم، وكمال محبتهم، وقوة

معظمين، لعلكم أن تكونوا مقصودين في أموركم كما كنتم سابقاً، مسؤولين من مطالب الدنيا كحالتكم الأولى، وهيهات، أين الوصول إلى هذا؟ وقد فات الوقت، وحل بهم العقاب والمقت، وذهب عنهم عزمهم وشرفهم ودنياهم، وحضرهم ندمهم وتحسرهم؟

ولهذا ﴿قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين﴾ * فما زالت تلك دعواهم أي: الدعاء بالويل والثبور والندم، والإقرار على أنفسهم بالظلم، وأن الله عادل فيما أحل بهم، ﴿حتى جعلناهم حصيداً خامدين﴾ * أي: بمنزلة النبات الذي قد حصد وأقيم، قد خدعت منهم الحركات، وسكنت منهم الأصوات، فاحذروا - أيها المخاطبون - أن تستمروا على تكذيب أشرف الرسل، فيحل بكم كما حل بأولئك.

﴿١٦ - ١٧﴾ ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لابين﴾ * لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾ * يخبر تعالى أنه ما خلق السماوات والأرض عبثاً ولا لعباً من غير فائدة، بل خلقها بالحق وللحق، ليستدل بها العباد على أنه الخالق العظيم، المدبر الحكيم، الرحمن الرحيم، الذي له الكمال كله، والحمد كله، والعزة كلها، الصادق في قوله، الصادقة رسله فيما يخبر عنه، وأن القادر على خلقهما مع سعتهما وعظمتها، قادر على إعادة الأجساد بعد موتها، ليجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً﴾ على الفرض والتقدير المحال ﴿لاتخذناه من لدنا﴾ أي: من عندنا ﴿إن كنا فاعلين﴾ * ولم نطلعكم على ما فيه عبث ولهو، لأن ذلك نقص ومثل سوء، لا نحب أن نريه إياكم، فالسماوات والأرض اللذان بمرأى منكم على الدوام، لا يمكن أن يكون القصد منهما العبث والهوى، كل هذا تنزل مع العقول الصغيرة وإقناعها بجميع الوجوه المقنعة، فسبحان الخليم الرحيم،

السبيل، فلما لم تسلكوه، وسلكتم غيره من الطرق، التي فيها ضعتكم وخسرتكم في الدنيا والآخرة وشقاوتكم فيهما، علم أنه ليس لكم معقول صحيح، ولا رأي: رجيح.

وهذه الآية، مصداقها ما وقع، فإن المؤمنين بالرسول، الذين تذكروا بالقرآن، من الصحابة فمن بعدهم، حصل لهم من الرفعة والعلو الباهر، والصيت العظيم، والشرف على الملوك، ما هو أमز معلوم لكل أحد، كما أنه معلوم ما حصل، لمن لم يرفع بهذا القرآن رأساً، ولم يهتد به ويترك به، من المقت والضعفة والتدسية، والشقاوة، فلا سبيل إلى سعادة الدنيا والآخرة إلا بالتذكر بهذا الكتاب.

﴿١١ - ١٥﴾ ﴿وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين﴾ * فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون﴾ * لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون﴾ * قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين﴾ * فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين﴾ * يقول تعالى - محذراً لهؤلاء الظالمين، المكذبين للرسول، بما فعل بالأمم المكذبة لغيره من الرسل - ﴿وكم قصصنا﴾ أي: أهلكنا بعذاب مستأصل ﴿من قرية﴾ * تلفت عن آخرها ﴿وأنشأنا بعدها قوماً آخرين﴾ * وأن هؤلاء المهلكين، لما أحسوا بعذاب الله وعقابه، وبأشرفهم نزوله، لم يمكن لهم الرجوع، ولا طريق لهم إلى النزوع، وإنما ضربوا الأرض بأرجلهم، ندماً وقلقاً، وتحسراً على ما فعلوا وهربوا من وقوعه، فقل لهم على وجه التهكم بهم: ﴿لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم به ومساكنكم لعلكم تسألون﴾ * أي: لا يفيدكم الركض والندم، ولكن إن كان لكم اقتدار، فارجعوا إلى ما أترفتم فيه، من اللذات والمشتهيات، ومساكنكم المزخرفات، ودنياكم التي غرتكم وألهتكم، حتى جاءكم أمر الله، فكونوا فيها متمكنين، وللذات جاني، وفي منازلكم مطمئنين

أبدانهم. ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ أي: مستغرقين في العبادة والتسبيح في جميع أوقاتهم، فليس في أوقاتهم وقت فارغ منها ولا حال منها، وهم على كثرتهم بهذه الصفة، وفي هذا من بيان عظمتهم وجلالة سلطانه وكمال علمه وحكمته، ما يوجب أن لا يعبد إلا هو، ولا تُصرف العبادة لغيره.

﴿٢١-٢٥﴾ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون * لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا فسبحان الله رب العرش عما يصفون * لا يسأل عما يفعل وهم يسألون * أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون * وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون * لما بين تعالى كمال اقتداره وعظمتهم، وخضوع كل شيء له، أنكر على المشركين الذين اتخذوا من دون الله آلهة من الأرض، في غاية العجز وعدم القدرة * هم ينشرون * استفهام بمعنى النفي، أي: لا يقدرُونَ على نشرهم وحشرهم، يفسرها قوله تعالى: ﴿واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون﴾ ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً * واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم يتصرفون * لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون * فالمشرك يعبد المخلوق الذي لا ينفع ولا يضر، ويدع الإخلاص لله، الذي له الكمال كله ويديه الأمر والنفع والضر، وهذا من عدم توفيقه، وسوء حظه، وتوَقُّر جهله، وشدة ظلمه، فإنه لا يصلح الوجود، إلا على إله واحد، كما أنه لم يوجد إلا برب واحد.

ولهذا قال: ﴿لو كان فيهما﴾ أي: في السماوات والأرض * آلهة إلا الله لفسدنا * في ذاتهما، وفسد من فيهما، من المخلوقات. وبيان ذلك: أن العالم العلوي

والسفلي، على ما يرى، في أكمل ما يكون من الصلاح والانتظام، الذي ما فيه خلل ولا عيب، ولا ممانعة ولا معارضة، فدل ذلك على أن مدبره واحد، ورب واحد، وإله واحد، فلو كان له مدبران وربان أو أكثر من ذلك، لاختل نظامه، وتقوضت أركانه، فإنهما يتمانعان ويتعارضان، وإذا أراد أحدهما تدبير شيء، وأراد الآخر عدمه، فإنه محال وجود مرادهما معاً، ووجود مراد أحدهما دون الآخر، يدل على عجز الآخر وعدم اقتداره، واتفاقهما على مراد واحد في جميع الأمور غير ممكن، فإذا يتعين أن القاهر الذي يوجد مراده وحده، من غير مانع ولا مدافع، هو الله الواحد القهار، ولهذا ذكر الله دليل التمانع في قوله: ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه﴾ الله عما يصفون.

ومنه - على أحد التأويلين - قوله تعالى: ﴿قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لا ابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً﴾ سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً * ولهذا قال هنا: ﴿فسبحان الله﴾ أي: تنزه وتقدس عن كل نقص لكماله وحده، ﴿رب العرش﴾ الذي هو سقف المخلوقات وأوسعها وأعظمها، فربوبية^(١) ما دونه من باب أولى، ﴿عما يصفون﴾ أي: الجاحدون الكافرون، من اتخاذ الولد والصاحبة، وأن يكون له شريك بوجه من الوجوه. ﴿لا يسأل عما يفعل﴾ لعظمتهم وعزته، وكمال قدرته، لا يقدر أحد أن يمانعه أو يعارضه، لا يقول، ولا بفعل، ولكمال حكمته ووضع الأشياء مواضعها وإتقانها، أحسن شيء يقدره العقل، فلا يتوجه إليه سؤال، لأن خلقه ليس فيه خلل ولا إخلال.

﴿وهم﴾ أي: المخلوقون كلهم * ﴿يسألون﴾ عن أفعالهم وأقوالهم،

لعجزهم وفقرهم، ولكونهم عبيداً، قد استحققت أفعالهم وحركاتهم، فليس لهم من التصرف والتدبير في أنفسهم، ولا في غيرهم مثقال ذرة.

ثم رجع إلى تهجين حال المشركين، وأنهم اتخذوا من دونه آلهة فقل لهم موبخاً ومقرعاً: ﴿أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم﴾ أي: خجنتكم ودليلكم على صحة ما ذهبتم إليه، ولن يجدوا لذلك سبيلاً، بل قد قامت الأدلة القطعية على بطلانه، ولهذا قال: ﴿هذا ذكر من معي وذكر من قبلي﴾ أي: قد اتفقت الكتب والشرائع على صحة ما قلت لكم، من إبطال الشرك، فهذا كتاب الله الذي فيه ذكر كل شيء، بأدلتها العقلية والنقلية، وهذه الكتب السابقة كلها، برهان وأدلة لما قلت.

ولما علم أنهم قامت عليهم الحجة والبرهان على بطلان ما ذهبوا إليه علم أنه لا برهان لهم، لأن البرهان القاطع، يجزم أنه لا معارض له، وإلا لم يكن قطعياً، وإن وجد معارضات، فإنها شبه لا تغني من الحق شيئاً.

وقوله: ﴿بل أكثرهم لا يعلمون الحق﴾ أي: وإنما أقاموا على ما هم عليه، تقليداً لأسلافهم يجادلون بغير علم ولا هدى، وليس عدم علمهم الحق لخفاؤه وغموضه، وإنما ذلك لإعراضهم عنه، وإلا فلو التفقوا إليه أدنى التفات، تبين لهم الحق من الباطل تبيناً واضحاً جلياً، ولهذا قال: ﴿فهم معرضون﴾.

ولما حول تعالى على ذكر المتقدمين، وأمر بالرجوع إليها في بيان هذه المسألة، بيّنها أتم تبين في قوله: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ فكل الرسل، الذين من قبلك مع كتبهم، زينة رسالتهم وأصلها، الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وبيان أنه الإله الحق المعبود، وأن عبادة ما سواه باطلة.

﴿٢٦-٢٩﴾ قالوا اتخذ الرحمن

رسول الله ﷺ، استهزؤا به، وقالوا: ﴿أهذا الذي يذكر آلهتكم﴾ أي: أهذا المحقر بزعمهم، الذي يسب آلهتكم ويذمها ويقع فيها، أي: فلا تبالوا به، ولا تحتفلوا به.

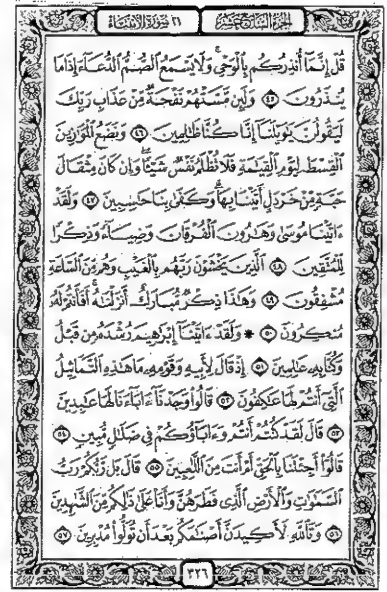
هذا استهزاءهم واحتقارهم له، بما هو من كماله، فانه الأكمل الأفضل، الذي من فضائله ومكارمه، إخلاص العبادة لله، وذم كل ما يعبد من دونه وتنقصه، وذكر محله ومكانته، ولكن محل الازدراء والاستهزاء هؤلاء الكفار، الذين جمعوا كل خلق ذميم، ولو لم يكن إلا كفرهم بالرب وجحدهم لرسله، فصاروا بذلك من أخس الخلق وأرذلهم، ومع هذا، فذكرهم للرحمن، الذي هو أعلى حالاتهم، كافرون بها؛ لأنه لا يذكرونه، ولا يؤمنون به إلا وهم مشركون، فذكرهم كفر وشرك، فكيف بأحوالهم بعد ذلك؟ ولهذا قال: ﴿وهم بذكر الرحمن هم كافرون﴾ وفي ذكر اسمه ﴿الرحمن﴾ هنا، بيان لقباحة حالهم، وأنهم كيف قابِلوا الرحمن - مسدي النعم كلها، ودافع النعم الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع السوء إلا إياه - بالكفر والشرك.

﴿خلق الإنسان من عجل﴾ أي: خلق عَجولاً، يبادر الأشياء، ويستعجل بوقوعها، فالمؤمنون يستعجلون عقوبة الله للكافرين، ويتباطؤونها، والكافرون يقولون^(١) ويستعجلون بالعذاب، تكذيباً وعناداً، ويقولون: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ والله تعالى يمهّل ولا يهمل، ويهمل لهم أجلاً مؤقتاً ﴿إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ ولهذا قال: ﴿سأريكم آياتي﴾ أي: في انتقامي بمن كفر بي وعصاني ﴿فلا تستعجلون﴾ ذلك، وكذلك الذين كفروا يقولون: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ قالوا هذا القول، اغتراراً، ولما يحق عليهم

والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾ لما كان أعداء الرسول يقولون^(٢) تريضوا به ريب المنون. قال الله تعالى: هذا طريق مسلوك، ومعيد منهوك، فلم نجعل لبشر ﴿من قبلك﴾ يا محمد ﴿الخلد﴾ في الدنيا، فإذا مت، فسيب أمثالك، من الرسل والأنبياء والأولياء، وغيرهم.

﴿أفإن مت فهم الخالدون﴾ أي: فهل إذا مت خلّدوا بعدك، فلتيهنهم الخلود إذا كان، وليس الأمر كذلك، بل كل من عليها فان، ولهذا قال: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ وهذا يشمل سائر نفوس الخلائق، وإن هذا كأس لا بد من شربه وإن طال بالعبد المدى، وعمر سنين، ولكن الله تعالى أوجد عباده في الدنيا، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالخير والشر، بالغنى والفقر، والعز والذل، والحياة والموت، فتنة منه تعالى ليلوهم أنهم أحسن عملاً، ومن يفتتن عند مواقع الفتن ومن ينجو، ﴿وإلينا ترجعون﴾ فتجازيكم بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿وما ريك بظلام للعبيد﴾ وهذه الآية، تدل على بطلان قول من يقول بقاء الخضر، وأنه تجلّد في الدنيا، فهو قول لا دليل عليه، ومناقض للأدلة الشرعية.

﴿٣٦ - ٤١﴾ ﴿وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً﴾ هذا الذي يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ سأريكم آياتي فلا تستعجلون ﴿يستعجلون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون ﴿بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون﴾ ولقد استهزى برسول من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون ﴿وهذا من شدة كفرهم، فإن المشركين إذا رأوا

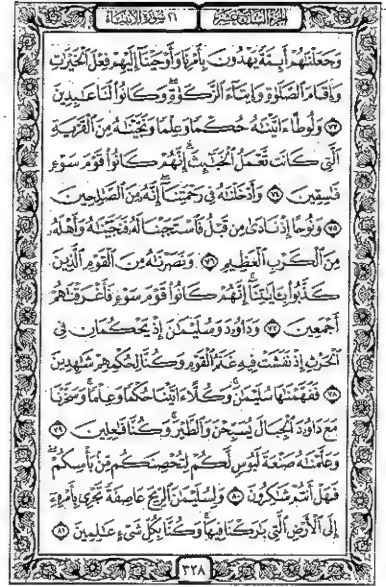


وعظمتها، ولونها الحسن، وإتقانها العجيب، وغير ذلك من المشاهد فيها، من الكواكب الثوابت والسيارات، وشمسها وقمرها النيرات، المتولد عنهما الليل والنهار، وكونهما دائماً في فلكهما سابحين، وكذلك النجوم، فتقوم بسبب ذلك منافع العباد من الحر والبرد، والفصول، ويعرفون حساب عباداتهم ومنعاملاتهم، ويستريحون في ليلهم، ويصدون ويسكنون، وينتشرون في نهارهم، ويسعون في معاشهم، كل هذه الأمور إذا تدبرها اللبيب، وأمعن فيها النظر، جزم جزماً لا شك فيه، أن الله جعلها مؤقتة في وقت معلوم، إلى أجل محتوم، يقضي العباد منها ما ربه، وتقوم بها منافعهم، وليستمتعوا ويتفعموا، ثم بعد هذا، ستزول وتضمحل، وفينها الذي أوجدها، ويسكنها الذي حركها، وينتقل المكلّفون إلى دار غير هذه الدار، يجدون فيها جزاء أعمالهم، كاملاً موفراً، ويعلم أن المقصود من هذه الدار أن تكون مزرعة لدار القرار، وأنها منزل سفر، لا محل إقامة.

﴿٣٤ - ٣٥﴾ ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون﴾ كل نفس ذائقة الموت وتبلوكم بالشر

(١) في النسختين: يقولون قل تريضوا.

(٢) في أ الكلمة أقرب إلى أن تكون يقولون وفي ب غير واضحة وكلمة (يتولون) أقرب مناسبة للسياق.



والسيئات، ﴿فلا تظلم نفس﴾ مسلمة أو كافرة ﴿شيئاً﴾ بأن تنقص من حسناتها، أو يزداد في سيئاتها.

﴿وإن كان مثقال حبة من خردل﴾ التي أصغر الأشياء وأحقرها، من خير أو شر ﴿أتينا بها﴾ وأحضرناها، ليجازى بها صاحبها، كقوله: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره.

وقالوا ﴿يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾.

﴿وكفى بنا حاسبين﴾ يعني بذلك نفسه الكريمة، فكفى به حاسباً، أي: عالماً بأعمال العباد، حافظاً لها، مثبِتاً لها في الكتاب، عالماً بمقاديرها ومقادير ثوابها وعقابها واستحقاقها، موصلاً للعمال جزاءها.

﴿٤٨ - ٥٠﴾ ﴿ولقد أتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وللمتقين﴾ الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون ﴿وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون﴾ كثيراً ما يجمع تعالى بين هذين الكتابين الجليلين، اللذين لم يطرُق العالم أفضل منهما، ولا أعظم ذكراً، ولا أبرك، ولا أعظم هدى وبياناً لهما التوراة

والقرآن^(١)، فأخبر أنه أتى موسى أصلاً، وهارون تبعاً ﴿الفرقان﴾ وهو التوراة الفارقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وأنها ﴿ضياء﴾ أي: نور يهتدي به المهتدون، ويأتى به السالكون، وتعرف به الأحكام، ويميز به بين الحلال والحرام، وينير في ظلمة الجهل والبدع والغواية، ﴿وذكراً للمتقين﴾ يتذكرون به ما ينفعهم وما يضرهم، ويتذكرون به الخير والشر، وخص ﴿المتقين﴾ بالذكر، لأنهم المتفكرون بذلك، علماء وعملاً، ثم فسر المتقين فقال: ﴿الذين يخشون ربهم بالغيب﴾ أي: يخشونه في حال غيبتهم، وعدم مشاهدة الناس لهم، فمع المشاهدة أولى، فيتورعون عما حرم، ويقومون بما أئزم، ﴿وهم من الساعة مشفقون﴾ أي: خائفون وجلون، لكمال معرفتهم بربهم، فجمعوا بين الإحسان والخوف، والعطف هنا من باب عطف الصفات المتغايرات، الواردة على شيء واحد وموصوف واحد.

﴿وهذا﴾ أي: القرآن ﴿ذكر مبارك أنزلناه﴾ فوصفه بوصفين جليلين، كونه ذكراً يتذكر به جميع المطالب، من معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، ومن صفات الرسل والأولياء وأحوالهم، ومن أحكام الشرع من العبادات والمعاملات وغيرها، ومن أحكام الجزاء والجنة والنار، فيتذكر به المسائل والدلائل العقلية والنقلية، وسماه ذكراً، لأنه يذكر ما ركزه الله في العقول والفطر، من التصديق بالأخبار الصادقة، والأمر بالحسن عقلاً، والنهي عن القبيح عقلاً، وكونه ﴿مباركاً﴾ يقتضي كثرة خيراته^(٢) ونماها وزادها، ولا شيء أعظم بركة من هذا القرآن، فإن كل خير ونعمة، وزيادة دينية أو دنيوية أو أخروية، فإنها بسببه، وأثر عن العمل به، فإذا كان ذكراً مباركاً، وجب تلقيه بالقبول

والانقياد والتسليم، وشكر الله على هذه المنحة الجليلة، والقيام بها، واستخراج بركته، بتعلم ألفاظه ومعانيه، وأما مقابلته بضد هذه الحالة، من الإعراض عنه، والإضراب عنه صفحاً، وإنكاره، وعدم الإيمان به، فهذا من أعظم الكفر وأشد الجهل والظلم، ولهذا أنكر تعالى على من أنكره، فقال: ﴿أفأنتم له منكرون﴾.

﴿٥١ - ٧٣﴾ ﴿ولقد أتينا إبراهيم﴾ رشه من قبل وكنا به عاينين ﴿إلى آخر هذه القصة، وهو قوله: ﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾ لما ذكر تعالى موسى ومحمداً صلى الله عليهما وسلم وكتابهما، قال: ﴿ولقد أتينا إبراهيم﴾ رشه من قبل ﴿أي: من قبل إرسال موسى ومحمد ونزول كتابيهما، فأراه الله ملكوت السماوات والأرض، وأعطاه من الرشد، الذي كمل به نفسه، ودعا الناس إليه، ما لم يؤته أحداً من العالمين غير محمد، وأضاف الرشد إليه، لكونه رشداً بحسب حاله وعلو مرتبته، وإلا فكل مؤمن له من الرشد بحسب ما معه من الإيمان. ﴿وكنا به عاينين﴾ أي: أعطيناه رشده، واختصناه بالرسالة والخلعة، واصطفيناه في الدنيا والآخرة، لعلمنا أنه أهل لذلك، وكفاه له، لذكائه وذكائه، ولهذا ذكر حاجته لقومه، ونهيهم عن الشرك، وتكسير الأصنام، وإلزامهم بالحجة، فقال: ﴿إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل﴾ التي مثلتموها، نحتموها بأيديكم، على صور بعض المخلوقات ﴿التي أنتم لها عاكفون﴾ مقيمون على عبادتها، ملازمون لذلك، فما هي؟ وأي: فضيلة ثبتت لها؟ وأين عقولكم التي ذهبت حتى أفنيتم أوقاتكم بعبادتها؟ والحال أنكم مثلتموها، ونحتموها بأيديكم، فهذا من أكبر العجايب، تعبدون ما تحتون.

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) في النسختين خيره، وغيرت الكلمة لتوافق مع الضمائر التي بعدها.

عبادة الخالق الرازق المدير؟

وأما الدليل السمعي، فهو المنقول عن الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإن ما جاؤوا به معصوم، لا يغلط ولا يغير بغير الحق، ومن أنواع هذا القسم، شهادة أحد من الرسل على ذلك، فلماذا قال إبراهيم: ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ﴾ أي: أن الله وحده المعبود وأن عبادة ما سواه باطل ﴿من الشاهدين﴾ أي: شهادة بعد شهادة الله أعلى من شهادة الرسل؟ خصوصاً أولي العزم منهم، خصوصاً خليل الرحمن.

ولما بين أن أصنامهم ليس لها من التدبير شيء أراد أن يريهم بالفعل عجزها وعدم انتصارها وليكيد كيداً يحصل به إقرارهم بذلك فلماذا قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَا أَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ أي: أكسرها على وجه الكيد ﴿بعد أن تولوا مدبرين﴾ عنها إلى عيد من أعيادهم، فلما تولوا مدبرين، ذهب إليها بخفية ﴿فجعلهم جذاذاً﴾ أي: كسراً وقطعاً، وكانت مجموعة في بيت واحد، فكسرها كلها، ﴿إلا كبيراً لهم﴾ أي: إلا صنمهم الكبير، فإنه تركه لمقصد سببته، وتأمل هذا الاحتراز العجيب، فإن كل عمقوت عند الله، لا يطلق عليه ألفاظ التعظيم، إلا على وجه إضافته لأصحابه، كما كان النبي ﷺ إذا كتب إلى ملوك الأرض المشركين يقول: ﴿إلى عظيم الفرس﴾ إلى عظيم الروم ﴿ونحو ذلك﴾، ولم يقل ﴿إلى العظيم﴾، وهنا قال تعالى: ﴿إلا كبيراً لهم﴾ ولم يقل: ﴿كبيراً من أصنامهم﴾، فهذا ينبغي التنبيه له، والاحتراز من تعظيم ما حقره الله، إلا إذا أضيف إلى من عظمه.

وقوله: ﴿لعلهم إليه يرجعون﴾ أي: ترك إبراهيم تكسير صنمهم هذا لأجل أن يرجعوا إليه، ويستعملوا حجته، ويلتفتوا إليها، ولا يعرضوا عنها، ولهذا قال في آخرها: ﴿فرجعوا إلى أنفسهم﴾

فحين رأوا ما حل بأصنامهم من الإهانة والخزي ﴿قالوا من فعل هذا بالهتنا إنه لمن الظالمين﴾ فرموا إبراهيم

فأجابوا بغير حجة، جواب العاجز، الذي ليس بيده أدنى شبهة، فقالوا: ﴿وجدنا آباءنا﴾ كذلك يفعلون، فسلكتنا سبيلهم، وتبعناهم على عبادتها، ومن المعلوم أن فعل أحد من الخلق سوى الرسل ليس بحجة، ولا يجوز به القدوة، خصوصاً في أصل الدين، وتوحيد رب العالمين، ولهذا قال لهم إبراهيم مضلاً للجميع: ﴿لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين﴾ أي: ضلال بين واضح، وأي: ضلال أبغ من ضلالهم في الشرك، وترك التوحيد؟! أي: فليس ما قلتم، يصلح للتمسك به، وقد اشتركتم وإياهم في الضلال الواضح، البين لكل أحد، ﴿قالوا﴾ على وجه الاستغراب لقوله، والاستعظام لما قال، وكيف بادأهم بتسفيهم وتسفيه آبائهم: ﴿أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعين﴾ أي: هذا القول الذي قلته، والذي جئتنا به، هل هو حق وجد؟ أم كلامك لنا، كلام لاعب مستهزئ، لا يدري ما يقول؟ وهذا الذي أرادوا، وإنما ردوا الكلام بين الأمرين، لأنهم نزلوه منزلة المتقرر المعلوم عند كل أحد، أن الكلام الذي جاء به إبراهيم كلام سفيه لا يعقل ما يقول، فرد عليهم إبراهيم رداً بين به وجه سفههم وقلة عقولهم فقال: ﴿بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين﴾ فجمع لهم بين الدليل العقلي والدليل السمعي.

أما الدليل العقلي، فإنه قد علم كل أحد حتى هؤلاء الذين جادلهم إبراهيم، أن الله وحده الخالق لجميع المخلوقات، من بني آدم، والملائكة، والجن، والبهائم، والسماوات، والأرض، المدبر لهن بجميع أنواع التدبير، فيكون كل مخلوق مفضولاً مدبراً متصرفاً فيه، ودخل في ذلك جميع ما عبد من دون الله.

أفيلق عند من له أدنى مسكة من عقل وتمييز، أن يعبد مخلوقاً متصرفاً فيه، لا يملك نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ويدع

بالظلم الذي هم أولى به حيث كسرها ولم يدروا أن تكسيه لها من أفضل مناقبه ومن عدله وتوحيده، وإنما الظالم من اتخذها آلهة، وقد رأى ما يفعل بها ﴿قالوا سمعنا فتى يذكرهم﴾ أي: يعيهم ويذمهم، ومن هذا شأنه لا بد أن يكون هو الذي كسرها أو أن بعضهم سمعه يذكر أنه سيكيدها ﴿يقال له إبراهيم﴾ فلما تحققوا أنه إبراهيم ﴿قالوا فأتوا به﴾ أي: بإبراهيم ﴿على عين الناس﴾ أي: بمرأى منهم وسماع لعلهم يشهدون﴾ أي: يحضرون ما يصنع بمن كسر آلهتهم، وهذا الذي أراد إبراهيم وقصد أن يكون بيان الحق بمشهد من الناس ليشاهدوا الحق وتقوم عليهم الحجة، كما قال موسى حين واعد فرعون: ﴿موعدكم يوم الزينة وأن يحشركم الناس ضحى﴾ فحين حضر الناس وأحضر إبراهيم قالوا له: ﴿أأنت فعلت هذا﴾ أي: التكسير ﴿بالهتنا يا إبراهيم؟﴾ وهذا استفهام تقرير، أي: فما الذي جرأك، وما الذي أوجب لك الإقدام على هذا الأمر؟

فقال إبراهيم والناس شاهدون: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ أي: كسرها غضباً عليها، لما عبدت معه، وأراد أن تكون العبادة منكم لصنمكم الكبير وحده، وهذا الكلام من إبراهيم، القصد منه إلزام الخصم وإقامة الحجة عليه، ولهذا قال: ﴿فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾ وأراد الأصنام المكسرة، أسألوهم كسرت؟ والصنم الذي لم يكسر، أسألوه لأي: شيء كسرها، إن كان عندهم نطق، فسيجيبونكم إلى ذلك، وأنا وأنتم، وكل أحد يدري أنها لا تنطق ولا تتكلم، ولا تنفع ولا تضر، بل ولا تنص نفسها عن يريدها بأذى.

﴿فرجعوا إلى أنفسهم﴾ أي: ثابت عليهم عقولهم، ورجعت إليهم أحوالهم، وعلموا أنهم ضالون في عبادتها، وأقروا على أنفسهم بالظلم والشرك، ﴿فقالوا إنكم أنتم الظالمون﴾ فحصل بذلك المقصود، ولزمته

﴿٧٤-٧٥﴾ «ولوطاً أتيناها حكماً وعلماً ونَجَّيناه من القرية التي كانت تحمِل الخبائث إثمهم كانوا قوم سوء فاسقين» * وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين ﴿٧٥﴾ هذا ثناء من الله على رسوله (لوط) عليه السلام بالعلم الشرعي، والحكم بين الناس، بالصواب والسادد، وأن الله أرسله إلى قومه، يدعوهم إلى عبادة الله وينهاهم عما هم عليه من الفواحش، فلبث يدعوهم، فلم يستجيبوا له، فقلب الله عليهم ديارهم وعذبهم عن آخرهم، لأنهم ﴿قوم سوء فاسقين﴾ كذبوا الداعي، وتوعده بالإخراج، ونجى الله لوطاً وأهله، فأمره أن يسري بهم ليلاً، ليعبدوا عن القرية، فسروا ونجوا، من فضل الله عليهم وميثقه.

﴿وأدخلناه في رحمتنا﴾ التي من دخلها، كان من الأمنين، من جميع المخاوف، النائلين كل خير وسعادة وبر وسرور ونساء، وذلك لأنه من الصالحين، الذين صلحت أعمالهم، وزكت أحوالهم، وأصلح الله فاسدهم والصالح هو السبب لدخول العبد برحمة الله، كما أن الفساد سبب لجرماته الرحمة والخير، وأعظم الناس صلاحاً الأنبياء عليهم السلام، ولهذا يصفهم بالصلاح، وقال سليمان عليه السلام: «وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين»

﴿٧٦-٧٧﴾ «ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنَجَّيناه وأهله من الكرب العظيم» * ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إثمهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين ﴿٧٦﴾ أي: وأذكر غيبتنا ورسولنا نوحاً عليه السلام، مثنياً مادحاً، حين أرسله الله إلى قومه، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عن الشرك به، ويُبَيِّن فيهم ويعيد، ويدعوهم سراً وجهاراً، وليلاً ونهاراً، فلما رأهم لا ينتجع فيهم الوعظ، ولا يفيد لديهم الزجر، نادى ربه وقال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ * إنك إن تذرهم

هو العزيز الحكيم ﴿٧٦﴾ ومن بركة الشام، أن كثيراً من الأنبياء كانوا فيها، وأن الله اختارها مهاجراً لخليله، وفيها أحد بيوت الثلاثة المقدسة، وهو بيت المقدس. ﴿ووهبنا له﴾ حين اعتزل قومه ﴿إسحاق ويعقوب﴾ ابن إسحق ﴿نافلة﴾ بعدما كبر، وكانت زوجته عاقراً، فبشرته الملائكة بإسحاق، ﴿ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ ويعقوب هو إسرائيل، الذي كانت منه الأمة العظيمة، وإسماعيل بن إبراهيم، الذي كانت منه الأمة الفاضلة العربية، ومن ذريته سيد الأولين والآخرين. ﴿وكلاً﴾ من إبراهيم وإسحق ويعقوب ﴿جعلنا صالحين﴾ أي: قائمين بحقوقه وحقوق عباده، ومن صلاحهم، أنه جعلهم أئمة يهدون بأمره، وهذا من أكبر نعم الله على عبده أن يكون إماماً يهتدي به المهتدون، ويمشي خلفه السالكون، وذلك لما صبروا، وكانوا بآيات الله يوقنون.

وقوله: ﴿يهدون بأمرتنا﴾ أي: يهدون الناس بديننا، لا يأمرهم بأهواء أنفسهم، بل بأمر الله ودينه، واتباع مرضاته، ولا يكون العبد إماماً حتى يدعو إلى أمر الله.

﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات﴾ يفعلونها ويدعون الناس إليها، وهذا شامل لجميع الخيرات، من حقوق الله وحقوق العباد.

﴿واقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾ هذا من باب عطف الخاص على العام، لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ولأن منكملهما كما أمر، كان قائماً بدينه، ومن ضيعهما، كان لما سواهما أضيع، ولأن الصلاة أفضل الأعمال، التي فيها حقه، والزكاة أفضل الأعمال، التي فيها الإحسان لخلقه.

﴿وكانوا لنا﴾ أي: لا نغيرنا ﴿عابدين﴾ أي: مديمين على العبادات القلبية والقلبية والبندنية في أكثر أوقاتهم، فاستحقوا أن تكون العبادة وصفهم، فاتصفوا بما أمر الله به الخلق، وخلقهم لأجله.

الحجة بإقرارهم أن ما هم عليه باطل، وأن فعلهم كفر وظلم، ولكن لم يستمروا على هذه الحالة، ولكن ﴿نكسوا على رؤوسهم﴾ أي: انقلب الأمر عليهم، وانتكست عقولهم، وضلت أحلامهم، فقالوا لإبراهيم: ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾ فكيف تهكم بنا وتستعزى بنا وتأمزنا أن نسألها وأنت تعلم أنها لا تنطق؟

فقال إبراهيم - موبخاً لهم ومعلنًا بشركهم على رؤوس الأشهاد، ومبينًا عدم استحقاق الكهنة للعبادة -: ﴿أنتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم﴾ فلا نفع ولا دفع، ﴿أف لكم ولما تعبدون من دون الله﴾ أي: ما أضلكم وأخسر صفقتكم، وما أخسكم، أنتم وما عبدتم من دون الله، إن كنتم تعقلون عرفتم هذه الحال، فلما عدمتم العقل، وارتكبتم الجهل والضلال على بصيرة، صارت البهائم أحسن حالاً منكم.

فحيثما لما أحمهم، ولم يبينوا حجة، استعملوا قوتهم في معاقبته، ف﴿قالوا حرِّقوه وانصروا آلهم﴾ إن كنتم فاعلين ﴿أي: اقتلوه﴾ أشنع القتلات، بالإحراق، غضباً لآلهتهم، ونصرة لها. فتعساً لهم تعساً، حيث عبدوا من أفروا أنه يحتاج إلى نصرهم، واتخذوه إلهاً، فانتصر الله لخليله لما ألقوه في النار وقال لها: ﴿كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ فكانت عليه برداً وسلاماً، لم يتله فيها أذى، ولا أحس بمكره.

﴿وآرادوا به كيداً﴾ حيث عزموا على إحراقه، ﴿فجعلناهم الأخسرين﴾ أي: في الدنيا والآخرة، كما جعل الله خليله وأتباعه هم الراجحين المفلحين.

﴿ونجينا لوطاً﴾ وذلك أنه لم يؤمن به من قومه إلا لوط عليه السلام، قيل: إنه ابن أخيه، فتجاه الله، وهاجر ﴿إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين﴾ أي: الشام، فغادر قومه في «بابل» من أرض العراق، وقال إني مهاجر إلى ربي إنه

يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً. فاستجاب الله له، فأغرقهم، ولم يبق منهم أحدًا، ونجى الله نوحاً وأهله ومن معه من المؤمنين في الفلك المشحون، وجعل ذريته هم الباقين، ونصره الله على قومه المستهزين.

﴿٧٨ - ٨٢﴾ وداود وسليمان إذ

يحكمان في الحث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين * ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين * وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون * ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين * ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك وكنا لهم حافظين * أي: واذكر هذين النبيين الكريمين «داود» و«سليمان» مثنياً مبيحاً، إذ آتاهما الله العلم الواسع، والحكم بين العباد، بدليل قوله: ﴿إذ يحكمان في الحث إذ نفشت فيه غنم القوم﴾ أي: إذ تحاكم إليهما صاحب حث، نفشت فيه غنم القوم الآخرين، أي: ورعت ليلاً، فأكلت ما في أشجاره، ورعت زرعه، ففضى فيه داود عليه السلام، بأن الغنم تكون لصاحب الحث، نظراً إلى تفریط أصحابها، فعاقبهم بهذه العقوبة، وحكم فيها سليمان بحكم موافق للصواب، بأن أصحاب الغنم يدفعون غنمهم إلى صاحب الحث فينتفع بذرّها وصوفها، ويقومون على بستان صاحب الحث حتى يعود إلى حاله الأولى، فإذا عاد إلى حاله، تراذاً ورجع كل منهما بماله، وكان هذا من كمال فهمه وفطنته عليه السلام، ولهذا قال: ﴿ففهمناها سليمان﴾ أي: فهمناه هذه القضية، ولا يدل ذلك أن داود لم يفهمه الله في غيرها، ولهذا خصها بالذكر بدليل قوله: ﴿وكلا﴾ من داود وسليمان ﴿آتينا حكماً وعلماً﴾ وهذا دليل على أن الحاكم قد يصيب الحق والصواب، وقد يخطئ ذلك، وليس

بمعلوم إذا أخطأ مع بذل اجتهاده.

ثم ذكر ما خص به كلا منهما فقال: ﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير﴾ وذلك أنه كان من أعبد الناس وأكثرهم لله ذكراً وتسبيحاً وتعجيداً، وكان قد أعطاه [الله] من حسن الصوت ورقته ورخامته، ما لم يؤته أحدًا من الخلق، فكان إذا سبح وأثنى على الله، جاوبته الجبال الصم والطير البهيم، وهذا فضل الله عليه وإحسانه، فلهاذا قال: ﴿وكنا فاعلين﴾

﴿وعلمناه صنعة لبوس لكم﴾ أي: علم الله داود عليه السلام، صنعة الدروع، فهو أول من صنعها وعلمها، وسرت صناعته إلى من بعده، فالآن الله له الحديد، وعلمه كيف يسردها، والفائدة فيها كبيرة، ﴿لتحصنكم من بأسكم﴾ أي: هي وقاية لكم، وحفظ عند الحرب واشتداد البأس.

﴿فهل أنتم شاكرون﴾ نعمة الله عليكم، حيث أجزاها على يد عبده داود، كما قال تعالى: ﴿وجعل لكم سرايل تقيكم الحر وسرايل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون﴾.

يحتمل أن تعليم الله لداود صنعة الدروع وإلانتها أمر خارق للعادة، وأن يكون - كما قاله المفسرون -: إن الله الآن له الحديد، حتى كان يعمل به كالعجين والطين، من دون إذابة له على النار، ويحتمل أن تعليم الله له، على جاري العادة، وأن إلانة الحديد له، بما علمه الله من الأسباب المعروفة الآن لإذابتها، وهذا هو الظاهر، لأن الله امتنّ بذلك على العباد وأمرهم بشكرها، ولولا أن صنعتها من الأمور التي جعلها الله مقدورة للعباد، لم يمتن عليهم بذلك، ويذكر فائدتها، لأن الدروع التي صنع داود عليه السلام، متعذر أن يكون المراد أعيانها، وإنما أئنة بالجنس، والاحتمال الذي ذكره المفسرون، لا دليل عليه إلا قوله: ﴿وألنا له الحديد﴾ وليس فيه أن الإلانة من دون سبب، والله أعلم بذلك.

وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغْوِيكَ أَتَى لُوطٌ زَيْنَبَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٧٩﴾ وَأَوَّلُ ذِكْرٍ لَّنَا بِمُؤْمِنِي آلِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٨٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ ابْنُ مَرْيَمَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذْ قَالُوا لِمَ نَجْعَلُ الْبَيْتَ عَلَى مَنَافٍ لَّنَا يُجِيبُوا أَنَّا كُنَّا نَكْفُرُ ﴿٨١﴾ وَأَنزَلْنَا إِلَهُكَ بِالْحَقِّ وَوَعَدُكَ لَآتٍ ﴿٨٢﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاهْوَا فِي أَعْيُنِنَا ﴿٨٣﴾ وَفَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ أَفْعَالًا مَّا يُبْصَرُ ﴿٨٤﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاهْوَا فِي أَعْيُنِنَا ﴿٨٥﴾ وَفَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ أَفْعَالًا مَّا يُبْصَرُ ﴿٨٦﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاهْوَا فِي أَعْيُنِنَا ﴿٨٧﴾ وَفَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ أَفْعَالًا مَّا يُبْصَرُ ﴿٨٨﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاهْوَا فِي أَعْيُنِنَا ﴿٨٩﴾ وَفَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ أَفْعَالًا مَّا يُبْصَرُ ﴿٩٠﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاهْوَا فِي أَعْيُنِنَا ﴿٩١﴾ وَفَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ أَفْعَالًا مَّا يُبْصَرُ ﴿٩٢﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاهْوَا فِي أَعْيُنِنَا ﴿٩٣﴾ وَفَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ أَفْعَالًا مَّا يُبْصَرُ ﴿٩٤﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاهْوَا فِي أَعْيُنِنَا ﴿٩٥﴾ وَفَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ أَفْعَالًا مَّا يُبْصَرُ ﴿٩٦﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاهْوَا فِي أَعْيُنِنَا ﴿٩٧﴾ وَفَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ أَفْعَالًا مَّا يُبْصَرُ ﴿٩٨﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاهْوَا فِي أَعْيُنِنَا ﴿٩٩﴾ وَفَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ أَفْعَالًا مَّا يُبْصَرُ ﴿١٠٠﴾

﴿ولسليمان الريح﴾ أي: سخرناها عاصفة * أي: سريعة في مرورها، تجري بأمره * حيث ذُبرت امتثلت أمره، غدوها شهر ورواحها شهر * إلى الأرض التي باركنا فيها * وهي أرض الشام، حيث كان مقره، فيذهب على الريح شرقاً وغرباً، ويكون مأواها ورجوعها إلى الأرض المباركة، ﴿وكنا بكل شيء عالمين﴾ قد أحاط علمنا بجميع الأشياء، وعلمنا من داود وسليمان ما أوصلناهما به إلى ما ذكرنا.

﴿ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك﴾ وهذا أيضاً من خصائص سليمان عليه السلام، أن الله سخر له الشياطين والعفاريت، وسلطه على تسخيرهم في الأعمال، التي لا يقدر على كثير منها غيرهم، فكان منهم من يغوص له في البحر، ويستخرج الدر واللؤلؤ وغير ذلك، ومنهم من يعمل له محاريب وغنائيل وجفان كالجواب وقدور راسيات * وسخر طائفة منهم لبناء بيت المقدس ومات، وهم على عمله، ويقربا بعده سنة، حتى علموا موته، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

﴿وكنا لهم حافظين﴾ أي: لا يقدرون على الامتناع منه وعصيانه، بل حفظهم الله له، بقوته وعزته، وسلطانه.

﴿٨٣ - ٨٤﴾ ﴿وأيوب إذ نادى



عبرة للعابدين، الذين ينتفعون بالصبر، فإذا رأوا ما أصابه من البلاء، ثم ما أتاه الله بعد زواله، ونظروا السبب، وجدوه الصبر، ولهذا أنبئ الله عليه به في قوله: ﴿إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب﴾ فجعلوه أسوة وقدوة عندما يصيبهم الضرر.

﴿٨٥-٨٦﴾ وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين * وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين * أي: واذكر عبادنا المصطفين وأنبياءنا المرسلين بأحسن الذكر، وأثن عليهم أبلغ الثناء، إسماعيل بن إبراهيم، وإدريس، وذا الكفل، نبيين من أنبياء بني إسرائيل، ﴿كل﴾ من هؤلاء المذكورين * من الصابرين * والضرر: هو حيس النفس ومنعها، مما تميل بطبعها إليه، وهذا يشمل أنواع الصبر الثلاثة: الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصية الله، والصبر على أقدار الله المؤلمة، فلا يستحق العبد اسم الصبر التام، حتى يوفي هذه الثلاثة حقها. فهؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، قد وصفهم الله بالصبر، فدل أنهم وفوها حقها، وقاموا بها كما ينبغي، ووصفهم أيضاً بالصلاح، وهو يشمل صلاح القلوب، بمعرفة الله ومحبة، والإنابة إليه كل وقت، وصلاح اللسان، بأن يكون رطباً من ذكر الله، وصلاح الجوارح، باشتغالها بطاعة الله وكفها عن المعاصي. فبصبرهم وصلاحهم، أدخلهم الله برحمته، وجعلهم مع إخوانهم من المرسلين، وأثابهم الثواب العاجل والأجل. ولو لم يكن من ثوابهم، إلا أن الله تعالى ثوّه بذكرهم في العالمين، وجعل لهم لسان صدق في الآخرين، لكفى بذلك شرفاً وفضلاً.

﴿٨٧-٨٨﴾ وذا النون إذ ذهب مغاضياً فظن أن لن نقدر عليه فتدأى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين * فاستجبنا له

ونجّيناه من الغم وكذلك نجّي المؤمنين * أي: واذكر عبادنا ورسولنا ذا النون، وهو: يونس، أي: صاحب النون، وهي الحوت، بالذكر الجميل، والثناء الحسن، فإن الله تعالى أرسله إلى قومه، فدعاهم، فلم يؤمنوا، فوعدهم بنزول العذاب بأمد سماه لهم.

[فجاءهم العذاب]، ورأوه عياناً، فعرجوا إلى الله، وضجوا وتابوا، فرفع الله عنهم العذاب، كما قال تعالى: ﴿فلولا كانت قرية آمنت ففجعنا إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾. وقال: ﴿وأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتعناهم إلى حين﴾. وهذه الأمة العظيمة، الذين آمنوا بدعوة يونس، من أكبر فضائله، ولكنه عليه الصلاة والسلام ذهب مغاضياً، وأبق عن ربه لذنب من الذنوب التي لم يذكرها الله لنا في كتابه، ولا حاجة لنا إلى تعيينها [لقولته: ﴿إذ أبقى إلى الفلك... وهو مليم﴾ أي: فاعل ما يلام عليه^(١)] والظاهر أن^(٢) عجلته ومغاضبته لقومه وخروجه من بين أظهرهم قبل أن يأمره الله بذلك، وظن أن الله لا يقدر عليه، أي: يضيق عليه في بطن الحوت، أو ظن أنه سيفوت الله تعالى، ولا مانع من عروض هذا الظن للكامل من الخلق على وجه لا يستقر ولا يستمر عليه، فركب في السفينة مع أناس، فاقترعوا، ممن يلقون منهم في البحر؟ لما خافوا الغرق إن بقوا كلهم، فأصابته القرعة يونس، فالتقمة الحوت، وذهب به إلى ظلمات البحار، فتدأى في تلك الظلمات: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ فأقر الله تعالى بكمال الألوهية، ونزّهه عن كل نقص وعيب وأفة، واعترف بظلم نفسه وجنابته، قال الله تعالى: ﴿فلولا أنه كان من المسبحين، لبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ ولهذا قال هنا:

ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين * فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضرر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين *، أي: واذكر عبادنا ورسولنا أيوب - مثنياً معظماً له، رافعاً لقدرة - حين ابتلاه ببلاء شديد، فوجده صابراً راضياً عنه، وذلك أن الشيطان سلط على جسده، ابتلاء من الله وامتحاناً، فتنفخ في جسده، فتقرح قروحاً عظيمة، ومكث مدة طويلة، واشتد به البلاء، ومات أهله، وذهب ماله، فتدأى ربه: رب ﴿أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين﴾ فتوسل إلى الله بالإخبار عن حال نفسه، وأنه بلغ الضر منه كل مبلغ، وبرحمة ربه الواسعة العامة فاستجاب الله له، وقال له: ﴿اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾ فركض برجله، فخرجت من ركضته عين ماء باردة، فاغتسل منها وشرب، فأذهب الله ما به من الأذى، ﴿وآتيناه أهله﴾ أي: رددنا عليه أهله وماله.

﴿ومثلهم معهم﴾ بأن منحه الله مع العافية من الأهل والمال شيئاً كثيراً، ﴿رحمة من عندنا﴾ به، حيث صبر ورضي، فأثابه الله ثواباً عاجلاً قبل ثواب الآخرة. ﴿وذكرى للعابدين﴾ أي: جعلناه

(٢) في الأصل: أنه.

(١) زيادة من هامش: ب.

﴿فاستجبنا له ونجيناها من الغم﴾ أي: الشدة التي وقع فيها.

﴿وكذلك نجى المؤمنين﴾ وهذا وعد وبشارة لكل مؤمن وقع في شدة وغم، أن الله تعالى سينجيه منها، ويكشف عنه ويخفف، لإيمانه كما فعل بـ «يونس» عليه السلام.

﴿٨٩ - ٩٠﴾ ﴿وزكريا إذ نادى ربه رب لا تدركني فرداً وأنت خير الوارثين﴾ فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهياً وكانوا لنا خاشعين﴾ أي: وأذكر عبدنا ورسولنا زكريا، منوهاً بذكره، ناشراً لمناقبه وقضائله، التي من حملتها هذه النعمة العظيمة المتضمنة لتصلحه للخلق، ورحمة الله إياه، وأنه «نادى ربه رب لا تدركني فرداً﴾ أي: ﴿قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً﴾ ولم أكن بدعائك رب شقياً﴾ وإني خفت الموالى من ورائي وكانت امرأتى عاقراً فهب لي من لدنك ولياً﴾ يرثني ويرث من آل يعقوب وأجعله رب رضياً﴾.

من هذه الآيات علمنا أن قوله ﴿رب لا تدركني فرداً﴾ أنه لما تقارب أجله، خاف أن لا يقوم أحد بعده مقامه في الدعوة إلى الله، والنصح لعباد الله، وأن يكون في وقته فرداً، ولا يخلف من يشفعه ويعينه، على ما قام به، ﴿وأنت خير الوارثين﴾ أي: خير الباقين، وخير من خلفني بخير، وأنت أرحم بعبادك مني، ولكنني أريد ما يطمئن به قلبي، وتسكن له نفسي، ويجري في موازيني ثوابه، ﴿فاستجبنا له ووهبنا له يحيى﴾ النبي الكريم، الذي لم يجعل الله له من قبل سمياً.

﴿وأصلحنا له زوجه﴾ بعدما كانت عاقراً، لا يصلح رحمها للولادة، فأصلح الله رحمها للحمل لأجل نبيه زكريا، وهذا من فوائد الجليس والقرين الصالح، أنه مبارك على قرينه، فصار يحيى مشتركاً بين الوالدين.

ولما ذكر هؤلاء الأنبياء والمرسلين،

كلاً على انفراده، أثنى عليهم عموماً فقال: ﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات﴾ أي: يبادرون إليها ويفعلونها في أوقاتها الفاضلة، ويكملونها على الوجه اللائق الذي ينبغي، ولا يتركون فضيلة يقدرون عليها إلا انتهزوا الفرصة فيها، ﴿ويدعوننا رغباً ورهياً﴾ أي: يسألوننا الأمور المرغوب فيها، من مصالح الدنيا والآخرة، ويتعذون بنا من الأمور المرهوب منها، من مضار الدارين، وهم راغبون راهبون لا غافلون، لاهون ولا مدلون، ﴿وكانوا لنا خاشعين﴾ أي: خاضعين متذللين متضرعين، وهذا للكمال معرفتهم بربهم.

﴿٩١ - ٩٤﴾ ﴿والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنتها آية للعالمين﴾ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾ وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون﴾ فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون﴾ أي: وأذكر مريم عليها السلام مثنياً عليها مبيناً لقدرها، شاهراً لشرفها فقال: ﴿والتي أحصنت فرجها﴾ أي: حفظته من الحرام وقربانه، بل ومن الحلال، فلم تتزوج لاشتغالها بالعبادة، واستغراق وقتها بالخدمة لربها.

وحين جاءها جبريل في صورة بشر سوي تام الخلق والحسن قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً﴾ فجازاها الله من جنس عملها، ورزقها ولداً من غير أب، بل نفخ فيها جبريل عليه السلام، فحملت بإذن الله.

﴿وجعلناها وابنتها آية للعالمين﴾ حيث حملت به، ووضعته من دون مسيس أحد، وحيث تكلم في المهد، وبرأها مما ظن بها المتهمون، وأخبر عن نفسه في تلك الحالة، وأجرى الله على يديه من الخوارق والمعجزات ما هو معلوم، فكانت وابنتها آية للعالمين، يتحدث بها جيلاً بعد جيل، ويعتبر بها المعتبرون.

ولما ذكر الأنبياء عليهم السلام، قال مخاطباً للناس: و﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة﴾ أي: هؤلاء المرسل المذكورون، هم أمتكم وأئمتكم الذين بهم تأتون، وبهديم تقتدون، كلهم على دين واحد، وصراط واحد، والرب أيضاً واحد.

ولهذا قال: ﴿وأنا ربكم﴾ الذي خلقتكم، وربيتكم بنعمتي، في الدين والدنيا، فإذا كان الرب واحداً، والنبي واحداً، والدين واحداً، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، بجميع أنواع العبادة كان وظيفتكم والواجب عليكم القيام بها، ولهذا قال: ﴿فاعبدون﴾ فرتب العبادة على ما سبق بالفاء ترتيب المسبب على سببه.

وكان اللائق، الاجتماع على هذا الأمر وعدم التفرق فيه، ولكن البغي والاعتداء، آتيا إلا الافتراق والتقطع. ولهذا قال: ﴿وتقطعوا أمرهم بينهم﴾ أي: تفرق الأحزاب المنتسبون لاتباع الأنبياء فزقاً، وتشتتوا، كل يدعي أن الحق معه، والباطل مع الفريق الآخر و﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾.

وقد علم أن المصيب منهم، من كان سالكاً للدين القويم والصراط المستقيم، مؤتماً بالأنبياء، وسيظهر هذا إذا انكشف الغطاء، وبرح الخفاء، وحشر الله الناس لفصل القضاء، فحينئذ يتبين الصادق من الكاذب، ولهذا قال: ﴿كل﴾ من الفرق المتفرقة وغيرهم ﴿إلينا راجعون﴾ أي: فنجازيهم أتم الجزاء.

ثم فصل جزاءه فيهم، متطوقاً ومفهوماً، فقال: ﴿فمن يعمل من الصالحات﴾ أي: الأعمال التي شرعتها الرسل، وحثت عليها الكتب ﴿وهو مؤمن﴾ بالله وبرسله، وما جأزوا به ﴿فلا كفران لسعيه﴾ أي: لا نضيع سعيه ولا نبطله، بل نضاعفه له أضعافاً كثيرة.

﴿وإنا له كاتبون﴾ أي: مثبتون له في اللوح المحفوظ، وفي الصحف

التي مع الحفظة . أي : ومن لم يعمل من الصالحات ، أو عملها وهو ليس بمؤمن ، فإنه محروم خاسر في دينه ودينه .

﴿٩٥﴾ «وحرّام على قرية أهلكتها أنهم لا يرجعون» أي : يمتنع على القرى المهلكة المعذبة الرجوع إلى الدنيا ليستذكروا ما فرطوا فيه ، فلا سبيل إلى الرجوع لمن أهلك وعذب ، فليحذر المخاطبون ، أن يستمروا على ما يوجب الإهلاك فيقع بهم ، فلا يمكن رفعه ، وليقلعوا وقت الإمكان والإدراك .

﴿٩٦ - ٩٧﴾ «حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون» واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين هذا تحذير من الله للناس ، أن يقيموا على الكفر والمعاصي ، وأنه قد قرب انفتاح يأجوج ومأجوج ، وهما قبيلتان عظيمتان من بني آدم ، وقد سد عليهم ذو القرنين ، لما شكى إليه إفسادهم في الأرض ، وفي آخر الزمان يفتح السد عنهم ، فيخرجون إلى الناس في هذه الحالة والوصف ، الذي ذكره الله ، من كل مكان مرتفع ، وهو الخدب ، ينسلون أي : يسرعون . وفي هذا دلالة على كثرتهم الباهرة ، وإسراعهم في الأرض ، إما بذواتهم ، وإما بما خلق الله لهم من الأسباب التي تقرب لهم البعيد ، وتسهل عليهم الصعب ، وأنهم يقهرون الناس ، ويعلون عليهم في الدنيا ، وأنه لا يدان لأحد بقتالهم .

«واقترب الوعد الحق» أي : يوم القيامة الذي وعد الله بآتيانه ، ووعد حق وصدق ، ففي ذلك اليوم ترى أبصار الكفار شاخصة من شدة الأفراع والأهوال المزعجة والقلال المنقطعة ، وما كانوا يعرفون من جنائياتهم وذنوبهم ، وأنهم يدعون بالويل والثبور والندم والحسرة على ما فات ، ويقولون : «قد كنا في غفلة من هذا» اليوم العظيم ، فلم نزل فيها مستغرقين ، وفي

لهو الدنيا متمتعين ، حتى أتانا اليقين ، ووردنا القيامة ، فلو كان يموت أحد من الندم والحسرة ، لما أتوا . «بل كنا ظالمين» اعترفوا بظلمهم وعدل الله فيهم ، فحينئذ يؤمر بهم إلى النار ، هم وما كانوا يعبدون ، ولهذا قال :

﴿٩٨ - ١٠٣﴾ «إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون» لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون * لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون * إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون * لا يسمعون حسيها وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون * لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون * أي : إنكم أيها العابدون مع الله آلهة غيره «حصب جهنم» أي : وقودها وحطبها «أنتم لها واردون» وأصنامكم .

والحكمة في دخول الأصنام النار ، وهي جمد لا تعقل ، وليس عليها ذنب ، بيان كذب من اتخذها آلهة ، وليزداد عذابهم ، فلهاذا قال : «لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها» وهذا كقولته تعالى : «لبيّن لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين» وكل من العابدين والمعبودين فيها خالدون ، لا يخرجون منها ، ولا ينتقلون عنها .

«لهم فيها زفير» من شدة العذاب «وهم فيها لا يسمعون» صم بكم عمي ، أو لا يسمعون من الأصوات غير صوتها ، لشدة غلبانها واشتداد زفيرها وتغيظها .

ودخول آلهة المشركين النار ، إنما هو الأصنام ، أو من عُبِدَ وهو راض بعبادته ، وأما المسيح ، وعزير ، والملائكة ونحوهم ، ممن عبد من الأولياء ، فإنهم لا يعبدون فيها ، ويدخلون في قوله : «إن الذين سبقت لهم منا الحسنى» أي : سبقت لهم سابقة السعادة في علم الله ، وفي اللوح المحفوظ وفي تيسيرهم في الدنيا ليسرى الأعمال الصالحة .

«أولئك عنها» أي : عن النار «مبعدون» فلا يدخلونها ، ولا يكونون قريباً منها ، بل يبعدون عنها غاية البعد ، حتى لا يسمعوا حسيها ، ولا يروا شخصها ، «وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون» من المأكّل ، والمشرب ، والمناكح والمناظر ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، مستمر لهم ذلك ، يزداد حسنه على الأحقاب ، «لا يحزنهم الفزع الأكبر» أي : لا يقلقهم إذا فزع الناس أكبر فزع ، وذلك يوم القيامة ، حين تقرب النار ، تنغيط على الكافرين والعاصين فيفزع الناس لذلك الأمر وهؤلاء لا يحزنهم ، لعلمهم بما يقدمون عليه ، وأن الله قد أمنهم بما يخافون ، «وتلقاهم الملائكة» إذا بعثوا من قبورهم ، وأتوا على النجائب وفدأ لنشورهم ، مهتئين لهم قائلين : «هذا يومكم الذي كنتم توعدون» فلْيَهْنِكُمْ ما وعدكم الله ، وليعظم استبشاركم بما أمأنكم من الكرامة ، وليكثر فرحكم وسروركم بما أمأنكم الله من المخاوف والمكاره .

﴿١٠٤ - ١٠٥﴾ «يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين» ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون . يخبر تعالى أنه يوم القيامة يطوي السماوات - على عظمتها واتساعها - كما يطوي الكاتب للسجل أي : الورقة المكتوب فيها ، فتنتشر نجومها ، ويكور شمسها وقمرها ، وتزول عن أماكنها «كما بدأنا أول خلق نعيده» أي : إعادتنا للخلق ، مثل ابتدائها لخلقهم ، فكما ابتدأنا خلقهم ولم يكونوا شيئاً ، كذلك نعيدهم بعد موتهم .

«وعداً علينا إنا كنا فاعلين» ننفذ ما وعدنا ، لكمال قدرته ، وأنه لا تمتنع منه الأشياء .

«ولقد كتبنا في الزبور» وهو الكتاب المزبور ، والمراد : الكتب المنزلة ، كالطورا ونحوها «من بعد

الذكر* أي: كتبناه في الكتب المنزلة، بعد ما كتبنا في الكتاب السابق، الذي هو اللوح المحفوظ، وأم الكتاب الذي توافقه جميع التقادير المتأخرة عنه والمكتوب في ذلك: ﴿أَنْ الْأَرْضُ﴾ أي: أرض الجنة ﴿يُورِثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ﴾ الذين قاموا بالأمورات، واجتنبوا المنهيات، فهم الذين يورثهم الله الجنات، يقول أهل الجنة: ﴿الحمد لله الذي صدقنا وعده وأوزننا الأرض نبتوا من الجنة حيث نشاء﴾.

ويحتمل أن المراد: الاستخلاف في الأرض، وأن الصالحين يمكن الله لهم في الأرض، ويوليهم عليها كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ...﴾ الآية.

﴿١٠٦-١١٢﴾ ﴿إِنْ فِي هَذَا لِبَلَاغٍ لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين* قل إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون* فإن تولوا فقل أذنتكم على سواء وإن أدري أقرب أم بعيد ما توعدون* إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون* وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين* قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون* يشي الله تعالى على كتابه العزيز «القرآن» ويبين كفايته التامة عن كل شيء، وأنه لا يستغنى عنه فقال: ﴿إِنْ فِي هَذَا لِبَلَاغٍ لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ أي: يتبلغون به في الوصول إلى ربهم، وإلى دار كرامته، فيوصلهم إلى أجل المطالب، وأفضل الرغائب. وليس للعابدين، الذين هم أشرف الخلق، وزاء غاية، لأنه الكفيل بمعرفة ربهم، بأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وبالإخبار بالغيوب الصادقة، وبالدعوة لحقائق الإيمان، وشواهد الإيقان، المبين للأمورات كلها، والمنهيات جميعها، المعروف بعبود النفس والعمل، والطرق التي ينبغي سلوكها في دقيق الدين وجليله، والتحذير من طرق الشيطان وبيان مداخله على الإنسان، فمن لم يغتنه

القرآن فلا أغناه الله، ومن لا يكفيه فلا كفاه الله.

ثم أثنى على رسوله الذي جاء بالقرآن، فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ فهو رحمة المهداة لعباده، فالؤمنون به قبلوا هذه الرحمة وشكروها وقاموا بها، وغيرهم كفرها، وبدلوا نعمة الله كفرًا، وأبوا رحمة الله ونعمته.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ الذي لا يستحق العبادة إلا هو، ولهذا قال: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: متقادون لعبوديته مستسلمون لألوهيته، فإن فعلوا فليحمدوا ربهم على ما من عليهم بهذه النعمة التي فاقت المن.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الانقياد لعبودية ربهم، فحذرهم حلول المثلثات، ونزول العقوبة.

﴿فَقُلْ أَذْنَتُكُمْ﴾ أي: أعلمتكم بالعقوبة ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي: علمي وعلمكم بذلك مستو، فلا تقولوا - إذا نزل بكم العذاب: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ بل الآن، استوى علمي وعلمكم لما أذنتكم وحذرتكم، وأعلمتكم بمآل الكفر، ولم أكنم عنكم شيئاً.

﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تَوَعَّدُونَ﴾ أي: من العذاب، لأن علمه عند الله، وهو بيده، ليس لي من الأمر شيء.

﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: لعل تأخير العذاب الذي استعجلتموه شر لكم، وأن تمتعوا في الدنيا إلى حين، ثم يكون أعظم لعقوبتكم.

﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ أي: بيننا وبين القوم الكافرين، فاستجاب الله هذا الدعاء، وحكم بينهم في الدنيا قبل الآخرة، بما عاقب الله به الكافرين من وقعة «بدر» وغيرها.

﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: نسأل ربنا الرحمن،

لأنهم حجبوا وجهي عما أشبهت أنفسهم خلدوت* لا يحذرهم من تركها، وهو الإخبار بالحوال القيامة، فقال: ﴿إِنْ زَلْزَلَةُ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقدر قدره، ولا يبلغ كنهه، ذلك بأنها إذا وقعت الساعة، رجفت الأرض وارتجت، وزلزلت زلزالها،

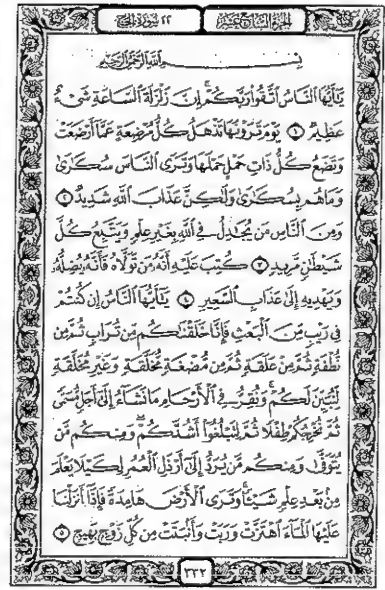
ونستعين به على ما تصفون، من قولكم ستظهر عليكم، وسيضمحل دينكم، فنحن في هذا، لا نعجب بأنفسنا، ولا نتكل على حولنا وقوتنا، وإنما نستعين بالرحمن، الذي ناصية كل مخلوق بيده، ونرجوه أن يتم ما استعناه به من رحمة، وقد فعل، والله الحمد.

تفسير سورة الحج قيل: مكية، وقيل: مدنية

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم* يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد* يخاطب الله الناس كافة، بأن يتقوا ربهم، الذي رباهم بالنعم الظاهرة والباطنة، فحقيق بهم أن يتقوه، بترك الشرك والفسوق والعصيان، ويمثلوا أمرهم مهما استطاعوا.

ثم ذكر ما يعينهم على التقوى، ويحذرهم من تركها، وهو الإخبار بأحوال القيامة، فقال:

﴿إِنْ زَلْزَلَةُ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقدر قدره، ولا يبلغ كنهه، ذلك بأنها إذا وقعت الساعة، رجفت الأرض وارتجت، وزلزلت زلزالها،



منهم يومئذ شأن يغنيه ﴿١﴾

يدعون إلى النار .

وهناك ﴿بعض الظالم على يديه﴾ ، يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً * يا ويلتي ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً * وتسود حيثذ وجوه وتبيض وجوه، وتنصب الموازين التي يوزن بها مثاقيل الذر، من الخير والبشر، وتنشر صحائف الأعمال وما فيها من جميع الأعمال والأقوال والنيات، من صغير وكبير، وينصب الصراط على متن جهنم، وتزلف الجنة للمتقين، وبرزت الجحيم للغافرين. ﴿إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾ * وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً ﴿وقال لهم﴾ : ﴿لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً﴾ * وإذا نادوا ربهم ليخرجهم منها، قال : ﴿اخشوا فيها ولا تكلمون﴾ . قد غضب عليهم الرب الرحيم، وحضرهم العذاب الأليم، وأيسوا من كل خير، ووجدوا أعمالهم كلها، لم يفقدوا منها نقيراً ولا قطميراً .

هذا، والمتقون في روضات الجنات يجبرون، وفي أنواع اللذات يتفكهون، وفيما اشتبهت أنفسهم خالدين، فحقيق بالعاقل الذي يعرف أن كل هذا أمامه، أن يعد له عذته، وأن لا يلهمه الأمل، فيترك العمل، وأن تكون تقوى الله شعاره، وخوفه دثاره، ومحبة الله وذكره، روح أعماله .

﴿٣ - ٤﴾ ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد﴾ * كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضلّه ويهديه إلى عذاب السعير ﴿أي﴾ : ومن الناس طائفة ورفقة، سلكوا طريق الضلال، وجعلوا يجادلون بالباطل الحق، يريدون إحقاق الباطل وإبطال الحق، والحال أنهم في غاية الجهل ما عندهم من العلم شيء، وغاية ما عندهم، تقليد أئمة الضلال، من كل شيطان مريد، متمرد على الله وعلى رسله، معاند لهم، قد شاق الله ورسوله، وصار من الأئمة الذين

﴿٥ - ٧﴾ ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب مما نزلنا من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ * ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير * وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴿يقول تعالى﴾ : ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث﴾ أي : شك واشتباه، وعدم علم بوقوعه، مع أن الواجب عليكم أن تصدقوا ربكم، وتصدقوا رسله في ذلك، ولكن إذا أبيتم إلا الريب، فهاكم دليلين عقليين تشاهدونهما، كل واحد منهما، يدل دلالة قطعية على ما شككتم فيه، ويزيل عن قلوبكم الريب .

أحدهما : الاستدلال بابتداء خلق الإنسان، وأن الذي ابتدأه سيغيده، فقال فيه : ﴿فإننا خلقناكم من تراب﴾ وذلك بخلق أبي البشر آدم عليه السلام، ﴿ثم من نطفة﴾ أي : مني،

وتصدعت الجبال واندكت، وكانت كثيباً مهيلاً، ثم كانت هباء منبثاً، ثم انقسم الناس ثلاثة أزواج .

فهناك تنفطر السماء، وتكور الشمس والقمر، وتنتشر النجوم، ويكون من القلائق والبالابل ما تصدع له القلوب، وتجل منه الأفتدة، وتشيب منه الولدان، وتذوب له الصم الصلاب، ولهذا قال : ﴿يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت﴾ مع أنها مجبولة على شدة محبتها لولدها، خصوصاً في هذه الحال، التي لا يعيش إلا بها .

﴿وتضع كل ذات حمل حملها﴾ من شدة الفزع والهول، ﴿وترى الناس سكارى وما هم بسكارى﴾ أي : تحسبهم - أيها الرائي لهم - سكارى من الخمر، وليسوا سكارى .

﴿ولكن عذاب الله شديد﴾ : فلذلك أذهب عقولهم، وفرغ قلوبهم، وملاها من الفزع، وبلغت القلوب الحناجر، وشخصت الأبصار، وفي ذلك اليوم، لا يميزي والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً .

ويومئذ يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرئ

وهذا ابتداء أول التخليق، **﴿ثم من علققة﴾** أي: تنقلب تلك النطفة، بإذن الله دماً أحمر، **﴿ثم من مضغة﴾** أي: ينتقل الدم مضغة، أي: قطعة لحم، بقدر ما يمزج، وتلك المضغة تارة تكون **﴿مخلقة﴾** أي: مصور منها خلق الأدمي، **﴿وغير مخلقة﴾** تارة، بأن تقذفها الأرحام قبل تخليقها، **﴿لئين لكم﴾** أصل نشأتكم، مع قدرته تعالى على تكميل خلقه في لحظة واحدة، ولكن لبين لنا كمال حكمته، وعظيم قدرته، وسعة رحمته.

﴿ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى﴾ أي: ونقر، أي: نبقي في الأرحام من الحمل، الذي لم تقذفه الأرحام، ما نشاء إنقائه إلى أجل مسمى، وهو مدة الحمل. **﴿ثم نخرجكم﴾** من بطون أمهاتكم **﴿طفلاً﴾** لا تعلمون شيئاً، وليس لكم قدرة، وسخرنا لكم الأمهات، وأجرينا لكم في ثديها الرزق، ثم تنتقلون طوراً بعد طور، حتى تبلغوا أشدكم، وهو كمال القوة والعقل.

﴿ومنكم من يتوفى﴾ من قبل أن يبلغ سن الأشد، ومنكم من يتجاوزهُ فيرد إلى أرذل العمر، أي: أخسبه وأرذله، وهو سن الهرم والتخريف، الذي به يزول العقل ويضمحل، كما زالت باقي القوى، وضعفت.

﴿لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً﴾ أي: لأجل أن لا يعلم هذا العمر شيئاً مما كان يعلمه قبل ذلك، وذلك لضعف عقله، فقوة الأدمي محفوفة بضعفين، ضعف الطفولية ونقصها، وضعف الهرم ونقصه. كما قال تعالى: **﴿الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾** والدليل الثاني، إحياء الأرض بعد موتها، فقال الله فيه: **﴿وترى الأرض هامدة﴾** أي: خاشعة مغيرة لا نبات فيها، ولا خضر، **﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت﴾** أي: تحركت بالنبات **﴿ورويت﴾** أي: ارتفعت بعد خشوعها وذلك لزيادة نباتها، **﴿وأنبتت﴾**

من كل زوج **﴿أي: صنف من أصناف النبات﴾** **﴿يهيج﴾** أي: يبهج الناظرين، ويسر المتأملين، فهذان الدليلان القاطعان، يدلان على هذه المطالب الخمسة، وهي هذه.

﴿ذلك﴾ الذي أنشأ الأدمي من ما وصف لكم، وأحيا الأرض بعد موتها، **﴿بأن الله هو الحق﴾** أي: الرب المعبود، الذي لا تبغي العبادة إلا له، وعبادته هي الحق، وعبادة غيره باطلة، **﴿وأنه يحيي الموتى﴾** كما ابتداء الخلق، وكما أحيا الأرض بعد موتها، **﴿وأنه على كل شيء قدير﴾** كما أشهدكم من بديع قدرته وعظيم صنعته ما أشهدكم.

﴿وأن الساعة آتية لا ريب فيها﴾ فلا وجه لاستبعادها، **﴿وأن الله يبعث من في القبور﴾** فيجازيكم بأعمالكم حسنهما وسيئها.

﴿٨-٩﴾ **﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾** ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق **﴿المجادلة المتقدمة للمقلد، وهذه المجادلة للشيطان المرید، الداعي إلى البدع، فأخبر أنه يجادل في الله﴾** أي: يجادل رسل الله وأتباعهم بالباطل ليدحض به الحق، **﴿بغير علم﴾** صحيح **﴿ولا هدى﴾** أي: غير متبع في جداله هذا من يديه، لا عقل مرشد، ولا متبوع مهتد، **﴿ولا كتاب منير﴾** أي: واضح بين، أي: فلا له حجة عقلية ولا نقلية، إن هي إلا شبهات، يوحىها إليه الشيطان **﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم﴾** ومع هذا **﴿ثاني عطفه﴾** أي: لأوي جانبه وعنفه، وهذا كناية عن كبره عن الحق، واحتقاره للخلق، فقد فرح بما معه من العلم غير النافع، واحتقر أهل الحق وما معهم من الحق، **﴿ليضل﴾** الناس، أي: ليكون من دعاة الضلال، ويدخل تحت هذا جميع أئمة الكفر والضلال، ثم ذكر عقوبتهم الدنيوية والأخروية فقال: **﴿له في الدنيا خزي﴾** أي: يفتضح هذا في الدنيا قبل الآخرة، وهذا من

ذلك **﴿بأن الله هو الحق﴾** والله على كل شيء قدير **﴿وأن الساعة آتية لا ريب فيها﴾** والله يبعث من في القبور **﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾** ثانياً عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق **﴿ذلك﴾** الذي أنشأ الأدمي من ما وصف لكم، وأحيا الأرض بعد موتها، **﴿بأن الله هو الحق﴾** أي: الرب المعبود، الذي لا تبغي العبادة إلا له، وعبادته هي الحق، وعبادة غيره باطلة، **﴿وأنه يحيي الموتى﴾** كما ابتداء الخلق، وكما أحيا الأرض بعد موتها، **﴿وأنه على كل شيء قدير﴾** كما أشهدكم من بديع قدرته وعظيم صنعته ما أشهدكم.

آيات الله العجيبة، فإنك لا تجد داعياً من دعاة الكفر والضلال، إلا وله من المقت بين العالمين، واللعنة، والبغض، والذم، ما هو حقيق به، وكل بحسب حاله.

﴿ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق﴾ أي: نذيقه حرها الشديد، وسعيرها البليغ، وذلك بما قدمت يداها، **﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾**

﴿١١-١٣﴾ **﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾** يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد **﴿يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير﴾** أي: ومن الناس من هو ضعيف الإيمان، لم يدخل الإيمان قلبه، ولم تحالطه بشاشته، بل دخل فيه، إما خوفاً، وإما عادة على وجه لا يثبت عند المحن، **﴿فإن أصابه خير اطمأن به﴾** أي: إن استمر رزقه رغداً، ولم يحصل له من المكار شيء، اطمأن بذلك الخير، لا بإيمانه.. فهذا، ربما أن الله يعاقبه، ولا يقيض له من الفتن ما ينصرف به عن دينه، **﴿وإن أصابته فتنة﴾** من حصول مكروه، أو زوال محبوب **﴿انقلب على وجهه﴾** أي: ارتد عن دينه، **﴿خسر الدنيا والآخرة﴾** أما في

تتمكن به من شفاء غيظك، ومن قطع
النصر عن الرسول - إن كان ممكناً -
أثت الأمر مع بابه، وارتق إليه بأسبابه،
اعمد إلى جبل من ليف أو غيره، ثم
علقه في السماء، ثم اصعد به حتى
تصل إلى الأبواب التي ينزل منها
النصر، فشدّها وأغلقها واقطعها،
فبهذه الحال تشفي غيظك، فهذا هو
الرأي: والمكيدة، وأما ما سوى هذه
الحال فلا يخطر ببالك أنك تشفي بها
غيظك، ولو ساعدك من ساعدك من
الخلق.

وهذه الآية الكريمة ، فيها من الوعد
والبشارة بنصر الله لدينه ورسوله
وعباده المؤمنين ما لا يخفى ، ومن
تأسيس الكافرين ، الذين يريدون أن
يطغوا نور الله بأفواههم ، والله متم
نوره ولو كره الكافرون ، أي : وسعوا
مهما أمكنهم .

﴿١٦﴾ وكذلك أنزلناه آيات
بينات وأن الله يهدي من يريد أي :
وكذلك لما فصلنا في هذا القرآن ما
فصلنا، جعلناه آيات بينات
واضحات، دالات على جميع المطالب
والمسائل النافعة، ولكن الهداية
بيد الله، فمن أراد الله هدايته، اهتدى
بهذا القرآن، وجعله إماماً له وقوده،
واستضاء بنوره، ومن لم يزد الله
هدايته، فلو جاءته كل آية ما آمن، ولم
ينفعه القرآن شيئاً، بل يكون حجة
عليه.

﴿١٧ - ٢٤﴾ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا**
وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالنَّصَارَى
وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ
بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدٌ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي
السَّمَاوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ
وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ
وَالْدَوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ
عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ
مَكْرَمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُشَاءُ * هَٰذَا
خَصِمَانِ اخْتَصِمَا فِي رَبِّهِمْ إِلَىٰ قَوْلِهِ:

﴿١٤﴾ ﴿إِنْ اللَّهُ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَرِيدُ﴾ لما
ذكر تعالى المجادل بالباطل، وأنه على
قسمين، مقلد، وداع؛ ذكر أن المتسمي
بالإيمان أيضاً على قسمين، قسم لم
يدخل الإيمان قلبه كما تقدم، والقسم
الثاني: المؤمن حقيقة، صدق ما معه من
الإيمان بالأعمال الصالحة، فأخبر تعالى
أنه ^(١) يدخلهم جنات تجري من تحتها
الأنهار، وسميت الجنة جنة، لاشتغالها
على المنازل والقصور والأشجار
والنوابت التي تجرُّ مَنْ فيها، ويستريح بها
من كثرتها، ﴿إِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَرِيدُ﴾
فما أرادته تعالى ففعله من غير ممانع ولا
معارض، ومن ذلك، إيصال أهل
الجنة إليها، جعلنا الله منهم بمته
وكرمه.

﴿٥٥﴾ ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبْنَ كَيْدَهُ مَا يَغِطُّ﴾ أَي: مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ، وَأَنْ دِينَهُ سَيُضْمَحَلُّ، فَإِنَّ النُّصْرَ مِنَ اللَّهِ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ ذَلِكَ الظَّانُّ ﴿بِسَبَبٍ﴾ أَي: حَبْلٍ ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ وَلِيُرْقِيَ إِلَيْهَا ﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ النُّصْرَ النَّازِلَ عَلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ ^(٧)

﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبْنَ كَيْدَهُ﴾ أَي: مَا يَكِيدُ بِهِ الرَّسُولَ، وَيَعْمَلُهُ مِنْ حَارِجَتِهِ، وَالْحَرَصَ عَلَى إِيْطَالِ دِينِهِ، مَا يَغِطُّهُ مِنْ ظَهْرِ دِينِهِ، وَهَذَا اسْتِهْجَامٌ بِمَعْنَى النَّفْيِ [وَأَنَّهُ]، لَا يَقْدِرُ عَلَى شَفَاءِ غِيْظِهِ نِمْمَا يَعْمَلُهُ مِنَ الْأَسْبَابِ.

ومعنى هذه الآية الكريمة: يا أيها المعادي للرسول محمد ﷺ، الساعي في إطفاء ديتي، الذي يقطن بجهله، أن سعية سيفيده شيئاً، أعلم أنك مهما فعلت من الأسباب، وسعيت في كيد الرسول، فإن ذلك لا يذهب غيظك، ولا يشفي كمدك، فليس لك قدرة في ذلك، ولكن سنشير عليك برأي

وَكَلَّمَ اللَّهُ آدَمَ أَنْ يَقُولَ يَا رَبِّ إِنَّ اللَّهَ يَدْعُوكَ مِنْ رَبِّهِ ۖ
 يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ۚ فَالَّذِينَ هَؤُلَاءِ وَآلِ عَادٍ وَالنَّاصِرُونَ
 وَالْمَجْرِسُ وَالْأَزْدُ أَتَىٰ جَعْلَانُ الْإِلَهَ يَقْبَلُ مِنْهُمْ هَوْمَ
 الْيَمِينَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَّمَ كُلَّ شَيْءٍ حَقًّا ۖ ﴿١٠﴾ أَوَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ
 يَسْخَرُكَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالنَّجَسِ وَالْقَضَرِ
 وَالْأَشْوَرِ وَالْجُنَّ وَالْمَجْرُومِ وَالْأَوْدَابِ ۚ وَكَفَىٰ عَنِ النَّاسِ
 وَكَفَىٰ حَقًّا عَيْدَ الْعِلَابِ وَمَنْ مَنِ اللَّهُ مَا لَا تَدْرِي ۚ ﴿١١﴾
 إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُنْكِرُ ۖ ﴿١٢﴾ * هَكَذَا خَصَمَانُ الْمُخَصَّمَا
 فِي رِيحِهِمَا ۚ فَأَلْفَرُ كَرُوا وَأَفْطَلَتْ لَهُمَا يَتَابُ مِنْ كَرَارِ
 يَصْبُ مِنْ قَوْقُورٍ وَسَهْلُ الْخَيْبِ ۖ ﴿١٣﴾ يَصْهَرُ بِهِ سَاقِي
 بَطْلُونُهُ وَالْجُلُودُ ۖ ﴿١٤﴾ وَهُوَ مَقْعٌ مِنْ عَدِيدِ ۖ كَلَّمَ
 أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا لِمَنْ عَمَّ أَعْيَدَ دَوْلَاهَا وَذَوَّارِ عَدَابِ
 الْغَرِيقِ ۖ ﴿١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ الْآيَاتِ ۚ وَأَمَّا وَتَحُولُ الْمَلَائِكَةِ
 حَيْثُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْفُسُ فَتُحْكَوْنَ فِيهَا مَا كَانَتْ
 أَسْوَارُهَا مِنْ دَهَبٍ وَلَوْ أَنَّ رَبَّهَا شَهِدَ بِهَا كَرِي ۖ ﴿١٦﴾

الدنيا، فإنه لا يحصل له بالردة ما أملة الذي جعل الردة رأساً لماله، وعضواً عما يظن إدراكه، فخاب سعيه، ولم يحصل له إلا ما قسم له، وأما الآخرة، فظاهر، حزم اللجنة التي عرضها السماوات والأرض، واستحق النار، ﴿ذلك هو الخسران المبين﴾ أي: الواضح البين.

﴿يَدْعُو﴾ هذا الراجع على وجهه
﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُ وَمَا لَا
يَنْفَعُهُ﴾ وهذا صفة كل مدعو ومعبود
مِنْ دُونِ اللَّهِ، فإنه لا يملك لنفسه ولا
لغيره نفعا ولا ضرا، ﴿ذَلِكَ هُوَ
الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ الذي قد بلغ في البعد
إلى حد النهاية، حيث أعرض عن عبادة
النافع الضار، الغني المغني، وأقبل على
عبادة مخلوق مثله أو دونه، ليس بيده
من الأمر شيء، بل هو إلى حصول
ضد مقصوده أقرب، ولهذا قال:
﴿يَدْعُو لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ فإن
ضرره في العقل والبدن والدين والدينيا
والآخرة معلوم ﴿لَيْسَ الْمَوْلَى﴾ أي:
هذا العبود ﴿وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾ أي:
القرين الملازم على صحبته، فإن
المقصود من المولى والعشير، حصول
النفع، ودفع الضرر، فإذا لم يحصل
شيء من هذا، فإنه مذموم مذموم.

(١) فى النسختين : أنهم .

(٢) في هامش ب ﴿فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع﴾ النصر عن الرسول.



تشوش على المتعبدین، بالصلاة والطواف، وقدم الطواف على الاعتكاف والصلاة، لاختصاصه بهذا البيت، ثم الاعتكاف، لاختصاصه بجس المساجد.

قبله وسائل إليه. ولعله - والله أعلم أيضاً - لفائدة أخرى، وهو: أن الطواف مشروع كل وقت، وسواء كان تابعاً لنسك، أم مستقلاً بنفسه.

﴿وأذن في الناس بالحج﴾ أي: أعلمهم به، وأدعهم إليه، وبلغ دانيهم وقاصيهم، فرضه وفضيلته، فإنك إذا دعوتهم، أتوك حجاجاً وعمّاراً، رجالاً، أي: مشاة على أرجلهم من الشوق، وعلى كل ضامر، أي: ناقة ضامر، تقطع الهامه والمناز، وتواصل السير، حتى تأتي إلى أشرف الأماكن، ﴿من كل فج عميق﴾ أي: من كل بلد بعيد، وقد فعل الخليل عليه السلام، ثم من بعده ابنه محمد ﷺ، فدعيا الناس إلى حج هذا البيت، وأبديا في ذلك وأعادا، وقد حصل ما وعد الله به، أناه الناس رجالاً وركباناً من مشارق الأرض ومغاربها، ثم ذكر فوائد زيارة بيت الله الحرام، مرغبا فيه فقال: ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾ أي: لينالوا ببيت الله منافع دينية، من العبادات الفاضلة، والعبادات التي لا تكون إلا فيه، ومنافع دنيوية، من التكسب، وحصول الأرباح الدنيوية، وكل هذا أمر مشاهد كل يعرفه، ﴿ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ وهذا من المنافع الدينية والدنيوية، أي: ليذكروا اسم الله عند ذبح الهدايا، شكر الله على ما رزقهم منها، ويسرها لهم، فإذا ذبحتموها ﴿فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير﴾ أي: شديد الفقر، ﴿ثم ليقضوا تقشهم﴾ أي: يقضوا نسكهم، ويزيلوا الوسخ والأذى، الذي لحقهم في حال الإحرام، ﴿وليوفوا نذورهم﴾ التي أوجبوها على أنفسهم، من الحج، والعمرة والهدايا، ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ أي: القديم، أفضل المساجد على الإطلاق، المعتق: من تسلط الجبابرة عليه. وهذا أمر بالطواف، خصوصاً بعد الأمر بالناسك عموماً، لفضله، وشرفه، ولكونه المقصود، وما

منها وأطعموا البائس الفقير * ثم ليقضوا تقشهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق * يذكر تعالى عظمة البيت الحرام وجلالته وعظمه بانيه، وهو خليل الرحمن، فقال: ﴿وإذ يوأنا لإبراهيم مكان البيت﴾ أي: هيأناه له، وأنزلناه إياه، وجعل قسماً من ذريته من سكانه، وأمره الله ببنيانه، فبناه على تقوى الله، وأسس على طاعة الله، وبناه هو وابنه إسماعيل، وأمره أن لا يشرك به شيئاً، بأن يخلص لله أعماله، وبينه على اسم الله.

﴿وطهر بيتي﴾ أي: من الشرك والمعاصي، ومن الأنجاس والأذناس وأضافه الرحمن إلى نفسه، لشرفه، وفضله، ولتعظيم محبته في القلوب، وتنصب إليه الأفئدة من كل جانب، وليكون أعظم لتطهيره وتعظيمه، لكونه بيت الرب للطائفين به والعاكفين عنده، المقيمين لعبادة من العبادات من ذكر، وقراءة، وتعلم علم وتعليمه، وغير ذلك من أنواع القرب، ﴿والركع السجود﴾ أي: المصلين، أي: طهره لهؤلاء الفضلاء، الذين همهم طاعة مولاهم وخدمته، والتقرب إليه عند بيته، فهو لأهم الحق، ولهم الإكرام، ومن إكرامهم تطهير البيت لأجلهم، ويدخل في تطهيره، تطهيره من الأصوات اللاغية المرتفعة التي

﴿٣٠-٣١﴾ ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحلّت لكم الأنعام إلا ما يثل عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور * حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق * ذلك الذي ذكرنا لكم من تلكم الأحكام، وما فيها من تعظيم حرمات الله وإجلالها وتكريمها، لأن تعظيم حرمات الله، من الأمور المحبوبة لله، المقربة إليه، التي من عظمها وأجلها، أثناه الله ثواباً جزيلًا، وكانت خيراً له في دينه، ودنياه وأخراه عند ربه.

وحرمات الله: كل ماله حرمة، وأمر باحترامه، بعبادة أو غيرها، كالمناسك كلها، والحرم والإحرام، والهدايا، والعبادات التي أمر الله العباد بالقيام بها، فتعظيمها وإجلالها بالقلب، ومحبتها، وتكميل العبودية فيها، غير متهاون، ولا متكاسل، ولا متناقل، ثم ذكر منته وإحسانه بما أحله لعباده، من بهيمة الأنعام، من إبل وبقرة وغنم، وشرعها من جملة المناسك، التي يتقرب بها إليه، فعظمت منته فيها من الوجهين، ﴿إلا ما يثل عليكم﴾ في القرآن تحريمه من قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الميتة والدم ولحم الخنزير﴾ الآية، ولكن الذي من رحمة بعباده، أن حرمه عليهم، ومنعهم منه، تزكية لهم، وتطهيراً من الشرك به وقول الزور، ولهذا قال: ﴿فاجتنبوا الرجس﴾ أي: الخبث القذر ﴿من الأوثان﴾ أي: الأنداد، التي جعلتموها آلهة مع الله، فإنها أكبر أنواع الرجس، والظاهر أن ﴿من﴾ هنا ليست لبيان الجنس، كما قاله كثير من المفسرين، وإنما هي للتبعية، وأن الرجس عام في جميع المنهيات المحرمات، فيكون

وجوهها، وأتى بـ ﴿من﴾ المفيدة للتبعية، ليعلم سهولة ما أمر الله به ورغب فيه، وأنه جزء يسير مما رزق الله، ليس للعبد في تحصيله قدرة، لولا تيسير الله له ورزقه إياه. فيا أيها المرزوق من فضل الله، أنفق بما رزقك الله ينفق الله عليك، ويزدك من فضله.

﴿٣٦-٣٧﴾ «وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ إِذَا وَجِبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطَعُوا الْقَانِعَ وَالْمَعْتَرِ كَذَلِكَ يَسْخَرُنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * لَنْ يَبَالِ اللَّهُ حُلُمَهَا وَلَا دِمَاقَهَا وَلَكِنْ يَبَالِهِ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ يَسْخَرُهَا لَكُمْ لَتَكْتَبُرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَيُسِرُّ الْمَحْسِنِينَ * هَذَا دَلِيلٌ أَنْ الشَّعَائِرَ عَامٌ فِي جَمِيعِ أَعْلَامِ الدِّينِ الظَّاهِرَةِ. وَتَقْدَمُ أَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّ مِنْ عَظَمِ شَعَائِرِهِ، فَإِنْ ذَلِكَ مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ، وَهَذَا أَخْبَرَ أَنَّ مِنْ جَمَلَةِ شَعَائِرِهِ، الْبَدَنُ، أَيُّ: الْإِبِلِ، وَالْبَقَرِ، عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ، فَتَعْظُمُ وَتَسْتَسْمِنُ، وَتَسْتَحْسِنُ، ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أَيُّ: الْمَهْدِيِّ وَغَيْرِهِ، مِنَ الْأَكْلِ، وَالصَّدَقَةِ، وَالْإِسْتِفَاعِ، وَالشَّوَابِ، وَالْأَجْرِ، ﴿فَإِذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أَيُّ: عِنْدَ ذَبْحِهَا قَوْلُوا «بِسْمِ اللَّهِ» وَادْبَحُوهَا، ﴿صَوَافٍ﴾ أَيُّ: قَائِمَاتٍ، بَأَن تَقَامَ عَلَى قَوَائِمِهَا الْأَرْبَعِ، ثُمَّ تَعْقِلَ يَدَهَا الْيَسْرَى، ثُمَّ تَنْحَرُ.

﴿فَإِذَا وَجِبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أَيُّ: سَقَطَتْ فِي الْأَرْضِ جُنُوبُهَا، حِينَ تَسْلُخُ، ثُمَّ يَسْقُطُ الْجَزَارُ جُنُوبُهَا عَلَى الْأَرْضِ، فَحَيْثُ قَدْ اسْتَعْدَتْ لِأَن يُؤْكَلَ مِنْهَا، ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ وَهَذَا خُطَابٌ لِلْمَهْدِيِّ، فَيَجُوزُ لَهُ الْأَكْلُ مِنْ هَدْيِهِ، ﴿وَأَطَعُوا الْقَانِعَ وَالْمَعْتَرِ﴾ أَيُّ: الْفَقِيرَ الَّذِي لَا يَسْأَلُ، تَقْنَعًا، وَتَعَفُّا، وَالْفَقِيرَ الَّذِي يَسْأَلُ، فَكُلْ مِنْهَا لَهُ حَقٌّ فِيهَا.

﴿كَذَلِكَ يَسْخَرُنَاهَا لَكُمْ﴾ أَيُّ: الْبَدَنَ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ اللَّهُ عَلَى تَسْخِيرِهَا، فَإِنَّهُ لَوْلَا تَسْخِيرُهَا لَهَا، لَمْ يَكُنْ لَكُمْ بِهَا طَاقَةٌ، وَلَكِنَّهُ ذَلَّلَهَا لَكُمْ وَسَخَّرَهَا، رَحْمَةً بِكُمْ وَإِحْسَانًا إِلَيْكُمْ،

مَسْمًى ﴿مَقْدَرٌ، مَوْقَتْ وَهُوَ ذَبْحُهَا إِذَا وَصَلَتْ مَحَلَّهَا وَهُوَ الْبَيْتُ الْعَتِيقُ، أَيُّ: الْحَرَمِ كُلِّهِ «مَنًى» وَغَيْرِهَا، فَإِذَا ذُبِحَتْ، أَكَلُوا مِنْهَا وَأَهْدَوْا، وَأَطَعُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ.

﴿٣٤-٣٥﴾ «وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيُذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلَمُوا وَبَشَرِ الْخَبِيثِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أَيُّ: وَلِكُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ جَعَلْنَا مَنْسَكًا، أَيُّ: فَاسْتَبِقُوا إِلَى الْخَيْرَاتِ وَتَسَارِعُوا إِلَيْهَا، وَلِنَنْظُرَ أَيْكُم أَحْسَنُ عَمَلًا، وَالْحِكْمَةُ فِي جَعَلِ اللَّهِ لِكُلِّ أُمَّةٍ مَنْسَكًا، لِإِقَامَةِ ذِكْرِهِ، وَالْإِتِّفَاقِ لَشُكْرِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِيُذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ وَإِنْ اخْتَلَفَتْ أَجْنَاسُ الشَّرَائِعِ، فَكُلُّهَا مُتَّفَقَةٌ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ، وَهُوَ الْوَهْيَةُ اللَّهِ، وَإِفْرَادُهُ بِالْعِبَادَةِ، وَتَرْكُ الشَّرِكِ بِهِ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَلَهُ أَسْلَمُوا﴾ أَيُّ: انْقَادُوا وَاسْتَسْلَمُوا لَهُ لَا لْغَيْرِهِ، فَإِنَّ الْإِسْلَامَ لَهُ طَرِيقٌ إِلَى الْوُصُولِ إِلَى دَارِ السَّلَامِ. ﴿وَبَشَرِ الْخَبِيثِينَ﴾ بَخِيرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْمَخِيتِ: الْخَاضِعُ لِرَبِّهِ، الْمُسْتَسْلِمُ لِأَمْرِهِ، الْمُتَوَاضِعُ لِعِبَادَةِ.

ثُمَّ ذَكَرَ صِفَاتِ الْخَبِيثِينَ فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أَيُّ: خَوْفًا وَتَعْظِيمًا، فَتَرَكُوا لِلذِّكْرِ الْحَرَمَاتِ، لَخَوْفِهِمْ وَوَجَلِهِمْ مِنَ اللَّهِ وَحْدِهِ، ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾ مِنَ الْبَاسِ وَالضَّرِّ وَأَنْوَاعِ الْأَذَى، فَلَا يَجْرِي مِنْهُمْ التَّسَخُّطُ لَشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ، مُحْتَسِنِينَ ثَوَابِهِ، مُرْتَقِينَ أَجْرَهُ، ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ أَيُّ: الَّذِينَ جَعَلُوهَا قَائِمَةً مُسْتَقِيمَةً كَامِلَةً، بِأَن أَدَّوْا الْإِلَازِمَ فِيهَا وَالْمُسْتَحَبَّ، وَعِبَادَتِهَا الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ وَهَذَا يَشْمَلُ جَمِيعَ النِّفَقَاتِ الزَّاجِبَةِ، كَالزَّكَاةِ، وَالْكَفَّارَةِ، وَالنِّفَقَةِ عَلَى الزَّوْجَاتِ وَالْمَمَالِكِ، وَالْأَقَارِبِ، وَالتَّقَاتِ الْمُسْتَحَبَّةِ، كَالصَّدَقَاتِ بِجَمِيعِ

مَنْهَاجٍ عَنْهَا عَمُومًا، وَعَنِ الْأَوْثَانِ الَّتِي هِيَ بَعْضُهَا خُصُوصًا، ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ أَيُّ: جَمِيعَ الْأَقْوَالِ الْحَرَمَاتِ، فَإِنَّهَا مِنْ قَوْلِ الزُّورِ الَّذِي هُوَ الْكَذِبُ، وَمِنْ ذَلِكَ شَهَادَةُ الزُّورِ فَلَمَّا نَهَاهُمْ عَنِ الشَّرِكِ وَالرَّجْسِ وَقَوْلِ الزُّورِ.

أَمْرُهُمْ أَن يَكُونُوا ﴿حَنَفَاءَ اللَّهِ﴾ أَيُّ: مُقْبِلِينَ عَلَيْهِ وَعَلَى عِبَادَتِهِ، مُعْرِضِينَ عَمَّا سِوَاهُ.

﴿غَيْرِ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ فَمِثْلُهُ ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أَيُّ: سَقَطَ مِنْهَا ﴿فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ﴾ بِسُرْعَةٍ ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أَيُّ: بَعِيدٍ، كَذَلِكَ الْمُشْرِكُ، فَالْإِيمَانُ بِمَنْزِلَةِ السَّمَاءِ، مَحْفُوظَةٌ مَرْفُوعَةٌ.

وَمَنْ تَرَكَ الْإِيمَانَ، بِمَنْزِلَةِ السَّاقِطِ مِنَ السَّمَاءِ، عَرْضَةً لِلْآفَاتِ وَالْبَلِيَّاتِ، فَمَا أَنْ تَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ فَتَقْطَعَهُ أَعْضَاءُ، كَذَلِكَ الْمُشْرِكُ إِذَا تَرَكَ الْإِعْتَصَامَ بِالْإِيمَانِ تَخَطَّفَتْهُ الشَّيَاطِينُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَمَزَقُوهُ، وَأَذْهَبُوا عَلَيْهِ دِينَهُ وَدِينَهُ.

﴿٣٢-٣٣﴾ «ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ * لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ * أَيُّ: ذَلِكَ الَّذِي ذَكَّرْنَا لَكُمْ مِنْ تَعْظِيمِ حُرَمَاتِهِ وَشَعَائِرِهِ، وَالْمَرَادُ بِالشَّعَائِرِ: أَعْلَامُ الدِّينِ الظَّاهِرَةِ، وَمِنْهَا الْمَنَاسِكُ كُلُّهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الصِّفَا وَالْمُرُوءَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ وَمِنْهَا الْهَدَايَا وَالْقُرْبَانُ لِلْبَيْتِ، وَتَقْدَمُ أَنَّ مَعْنَى تَعْظِيمِهَا، إِجْلَالُهَا، وَالْقِيَامُ بِهَا، وَتَكْمِيلُهَا عَلَى أَكْمَلِ مَا يَقْدَرُ عَلَيْهِ الْعَبْدُ، وَمِنْهَا الْهَدَايَا، فَتَعْظِيمُهَا بِاسْتِحْسَانِهَا وَاسْتِسْمَانِهَا، وَأَنْ تَكُونَ مَكْمَلَةً مِنْ كُلِّ وَجْهِ، فَتَعْظِيمُ شَعَائِرِ اللَّهِ صَادِرٌ مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ، فَالْعَظَمُ لَهَا يَبْرَهُنَّ عَلَى تَقْوَاهُ وَصِحَّةِ إِيمَانِهِ، لِأَن تَعْظِيمَهَا تَابِعٌ لَتَعْظِيمِ اللَّهِ وَإِجْلَالِهِ.

﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أَيُّ: [فِي] فِي الْهَدَايَا ﴿مَنَافِعٌ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ هَذَا فِي الْهَدَايَا الْمُسَوَّقَةِ، مِنَ الْبَدَنِ وَنَجْوَاهَا، يَنْتَفِعُ بِهَا أَرْبَابُهَا، بِالرُّكُوبِ، وَالْحَلَبِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، مِمَّا لَا يَضُرُّهَا ﴿إِلَى أَجَلٍ

فاحدوه .

وقوله : ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دَمَافُهَا﴾ أي : ليس المقصود منها ذبحها فقط . ولا ينال الله من لحومها ولا دماها شيء ، لكونه الغني الحميد ، وإنما يناله الإخلاص فيها ، والاحتساب ، والنية الصالحة ، ولهذا قال : ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ فقي هذا حث وترغيب على الإخلاص في الشرح ، وأن يكون القصد وجه الله وحده ، لا فخراً ولا رياء ، ولا سمعة ، ولا مجرد عادة ، وهكذا سائر العبادات ، إن لم يقترن بها الإخلاص وتقوى الله ، كانت كالكشور الذي لا ثب في ، والجسد الذي لا روح فيه .

﴿كذلك سخرها لكم لتكبروا الله﴾ أي : تعظموه وتحملوه ، ﴿على ما هداكم﴾ أي : مقابلة لهديته إياكم ، فإنه يستحق أكمل الثناء وأجل الحمد ، وأعلى التعظيم ، ﴿وبشر المحسنين﴾ بعبادة الله بأن يعبدوا الله ، كأنهم يرونه ، فإن لم يصلوا إلى هذه الدرجة فليعبده ، معتقدين وقت عبادتهم اطلاعه عليهم ، ورويته إياهم ، والمحسنين لعباد الله ، بجميع وجوه الإحسان من نفع مال ، أو علم ، أو جاة ، أو نصيح ، أو أمر بمعروف ، أو نهي عن منكر ، أو كلمة طيبة ونحو ذلك ، فالمحسنون لهم البشارة من الله ، بسعادة الدنيا والآخرة وسيحسن الله إليهم ، كما أحسنوا في عبادته ولعباده ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة .

﴿٣٨﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ هذا إخبار ووعد وبشارة من الله ، للذين آمنوا ، أن الله يدافع عنهم كل مكروه ، ويدفع عنهم كل شر . بسبب إيمانهم بمن شر الكفار ، وشر وسوسة الشيطان ، وشرور أنفسهم ، وسيئات أعمالهم ، ويحمل عنهم عند نزول المكروه ، ما لا يتحملون ، فيخفف عنهم غاية التخفيف . كل مؤمن له من هذه المدافعة والفضيلة بحسب إيمانه ، فمستقل ومستكثر .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ أي : خائن في أمانته التي حمله الله إياها ، فيخس حقوق الله عليه ، ويخون الخلق .

﴿كفور﴾ لنعم الله ، يوالي عليه الإحسان ، ويتوالى منه الكفر والعصيان ، فهذا لا يحبه الله ، بل يبغضه ويمقتة ، وسيجازهه على كفره وخيانتة ، ومفهوم الآية ، أن الله يحب كل أمين قائم بأمانته ، شكور لمولاه .

﴿٣٩ - ٤١﴾ ﴿أَذِّنْ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور﴾ كان المسلمون في أول الإسلام ممنوعين من قتال الكفار ، وأمورين بالصبر عليهم ، لحكمة إلهية ، فلمنا هاجروا إلى المدينة ، وأوذوا ، وحصل لهم منعة وقوة ، أذن لهم بالقتال ، قال تعالى : ﴿أَذِّنْ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ﴾ يفهم منه أنهم كانوا قبل ممنوعين ، فأذن الله لهم بقتال الذين يُقاتلون ، وإنما أذن لهم ، لأنهم ظلموا ، بمنعهم من دينهم ، وأذيتهم عليه ، وإخراجهم من ديارهم .

﴿وإن الله على نصرهم لقدير﴾ فليستصروه ، وليستعينوا به ، ثم ذكر صفة ظلمهم فقال : ﴿الذين أخرجوا من ديارهم﴾ أي : أخرجوا إلى الخروج بالأذية والفتنة بغير حق إلا أن ذنبهم الذي نقم منهم أعداؤهم ﴿أن يقولوا ربنا الله﴾ أي : إلا أنهم وخذوا الله ، وعبدوه مخلصين له الدين ، فإن كان هذا ذنباً ، فهو ذنبهم كقوله تعالى : ﴿وما نقصوا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ وهذا يدل على حكمة الجهاد ، وأن المقصود منه إقامة دين الله ، وذب الكفار المؤذنين للمؤمنين ، البادئين لهم بالاعتداء ، عن

ظلمهم واعتدائهم ، والتمسك من عبادة الله ، وإقامة الشرائع الظاهرة ، ولهذا قال : ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض﴾ فيدفع الله بالمجاهدين في سبيله ضرر الكافرين ، لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد﴾ أي : لهدمت هذه المعابد الكبار ، لطوائف أهل الكتاب ، معابد اليهود والنصارى ، والمساجد للمسلمين ، ﴿يذكر فيها﴾ أي : في هذه المعابد اسم الله كثيراً ﴿تقام فيها الصلوات ، وتلى فيها كتب الله ، ويذكر فيها اسم الله بأنواع الذكر ، فيلولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ، لاستولى الكفار على المسلمين ، فخرّبوا معابدهم ، وقتنهم عن دينهم ، فدل هذا ، أن الجهاد مشروع ، لأجل دفع الصائل والمؤذي ، ومقصود لغيره ، ودل ذلك على أن البلدان التي حصلت فيها الطمأنينة بعبادة الله ، وعمرت مساجدها ، وأقيمت فيها شعائر الدين كلها ، من فضائل المجاهدين وبركتهم ، دفع الله عنها الكافرين ، قال الله تعالى : ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ .

فإن قلت : ترى الآن مساجد المسلمين عامرة لم تحرب ، مع أنها كثير منها إمارة صغيرة ، وحكومة غير منظمة ، مع أنهم لا يدان لهم بقتال من جاورهم من الإفرنج ، بل ترى المساجد التي تحت ولايتهم وسيطرتهم عامرة ، وأهلها آمنون مطمئنون ، مع قدرة ولايتهم من الكفار على هدمها ، والله أخبر أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ، لهدمت هذه المعابد ، ونحن لا نشاهد دفعا .

أجيب بأن هذا السؤال والاستشكال ، داخل في عموم هذه الآية وفرد من أفرادها ، فإن من عرف أحوال الدول الآن ونظامها ، وأنها تعتبر كل أمة وجنس تحت ولايتها ، ودخل في حكمها ، تعتبره عضواً من أعضاء المملكة ، وجزء من أجزاء الحكومة ، سواء كانت تلك الأمة

كلامه ﴿والذين كفروا﴾ أي: جحدوا نعمة ربهم وكذبوا رسله وآياته فأولئك أصحاب الجحيم أي: الملازمون لها، المصاحبون لها في كل أوقاتهم، فلا يخفف عنهم من عذابها ولا يفتر عنهم لحظة من عقابها.

﴿٥٢-٥٧﴾ ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم﴾ ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد * وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم * ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيتهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم * الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين * يخبر تعالى بحكمته البالغة، واختياره لعباده، وأن الله ما أرسل قبل محمد ﴿من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى﴾ أي: قرأ قراءته، التي يذكر بها الناس، ويأمرهم وينهاهم، ﴿ألقى الشيطان في أمنيته﴾ أي: في قراءته، من طرقة ومكايده، ما هو مناقض لتلك القراءة، مع أن الله تعالى قد عصم الرسل بما يبلغون عن الله، وحفظ وحيه أن يشتبه، أو يختلط بغيره. ولكن هذا الإلقاء من الشيطان، غير مستقر ولا مستمر، وإنما هو عارض يعرض، ثم يزول، وللعوارض أحكام، ولهذا قال: ﴿فينسخ الله ما يلقي الشيطان﴾ أي: يزيله ويدهيه وينبطله، ويبين أنه ليس من آياته، و ﴿يحكم الله آياته﴾ أي: يتقنها، ويحررها، ويحفظها، فتبقى خالصة من مخالطة إلقاء الشيطان، ﴿والله عزيز﴾ أي: كامل القوة

والاقتدار، فبكمال قوته، يحفظ وحيه، ويزيل ما تلقيه الشياطين، ﴿حكيم﴾ يضع الأشياء مواضعها، فمن كمال حكمته، مكن الشياطين من الإلقاء المذكور، ليحصل ما ذكره بقوله: ﴿ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة﴾ لطائفتين من الناس، لا يبالي الله بهم، وهم الذين ﴿في قلوبهم مرض﴾ أي: ضعف وعدم إيمان تام وتصديق جازم، فيؤثر في قلوبهم أدنى شبهة تطرأ عليها، فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان، داخلهم الريب والشك، فصار فتنة لهم.

﴿والقاسية قلوبهم﴾ أي: الغليظة، التي لا يؤثر فيها زجر ولا تذكير، ولا تفهم عن الله وعن رسوله لقسوتها، فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان، جعلوه حجة لهم على باطلهم، وجادلوا به وشاقوا الله ورسوله، ولهذا قال: ﴿وإن الظالمين لفي شقاق بغيد﴾ أي: مشاقة لله، ومعاندة للحق، ومخالفة له، بعيد من الصواب، فما يلقيه الشيطان، يكون فتنة لهؤلاء الطائفتين، فيظهر به ما في قلوبهم، من الخبث الكامن فيها، وأما الطائفة الثالثة، فإنه يكون رحمة في حقها، وهم المذكورون بقوله: ﴿وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك﴾ لأن الله منحهم من العلم، ما به يعرفون الحق من الباطل، والرشد من الغي، فيميزون بين الأمرين، الحق المستقر، الذي يحكمه الله، والباطل العارض الذي ينسخه الله، بما على كل منهما من الشواهد، وليعلموا أن الله حكيم، يقضي بعض أنواع الابتلاء، ليظهر بذلك كمال النفوس الخيرة والشريرة، ﴿فيؤمنوا به﴾ بسبب ذلك، ويزداد إيمانهم عند دفع المعارض والشبه.

﴿فتخبت له قلوبهم﴾ أي: تخشع وتخضع، وتسلم لحكمته، وهذا من هدايته إياهم، ﴿وإن الله لهادي الذين

الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين * يخبر تعالى بحكمته البالغة، واختياره لعباده، وأن الله ما أرسل قبل محمد ﴿من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى﴾ أي: قرأ قراءته، التي يذكر بها الناس، ويأمرهم وينهاهم، ﴿ألقى الشيطان في أمنيته﴾ أي: في قراءته، من طرقة ومكايده، ما هو مناقض لتلك القراءة، مع أن الله تعالى قد عصم الرسل بما يبلغون عن الله، وحفظ وحيه أن يشتبه، أو يختلط بغيره. ولكن هذا الإلقاء من الشيطان، غير مستقر ولا مستمر، وإنما هو عارض يعرض، ثم يزول، وللعوارض أحكام، ولهذا قال: ﴿فينسخ الله ما يلقي الشيطان﴾ أي: يزيله ويدهيه وينبطله، ويبين أنه ليس من آياته، و ﴿يحكم الله آياته﴾ أي: يتقنها، ويحررها، ويحفظها، فتبقى خالصة من مخالطة إلقاء الشيطان، ﴿والله عزيز﴾ أي: كامل القوة

آمنوا﴾ بسبب إيمانهم ﴿إلى صراط مستقيم﴾ علم بالحق، وعمل بمقتضاه، فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة. وهذا النوع من تثبيت الله لعبده.

وهذه الآيات، فيها بيان أن للرسول ﷺ أسوة بإخوانه المرسلين، لما وقع منه عند قراءته ﷺ: ﴿والنجم﴾ فلما بلغ ﴿أفرأيتم اللات والعزى﴾ ومناة الثالثة الأخرى ألقى الشيطان في قراءته: ﴿تلك العرائق العلى، وإن شفاعتهم﴾^(١) لترجي، فحصل بذلك للرسول حزن وللناس فتنة، كما ذكر الله، فأنزل الله هذه الآيات.

﴿٥٥-٥٧﴾ ﴿ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيتهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم﴾ الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين * يخبر تعالى عن حالة الكفار، وأهم لا يزالون في شك مما جنتهم به يا محمد، لعنادهم، وإعراضهم، وأهم^(٢) لا يبرحون مستمرين على هذه الحال ﴿حتى تأتيتهم

(١) كذا في ب، وفي أ: شفاعتهم.

(٢) في النسختين: وأنه.

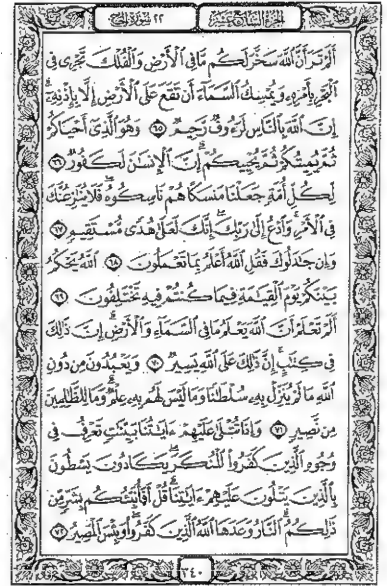
عليه وظلم، فإنه يجوز له مقابلة الجاني بمثل جنايته، فإن فعل ذلك، فليس عليه سبيل، وليس بملوم، فإن يُعْجَى عليه بعد هذا، فإن الله ينصره، لأنه مظلوم، فلا يجوز أن يُعْجَى عليه، بسبب أنه استوفى حقه، وإذا كان المجازي غيره، بإساءته إذا ظلم بعد ذلك، نصره الله، فالذي بالأصل لم يعاقب أحداً إذا ظلم وجني عليه، فالتصبر إليه أقرب.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُو غَفُورٌ﴾ أي: يعفو عن المذنبين، فلا يعاجلهم بالعقوبة، ويغفر ذنوبهم فيزيلها، ويزيل آثارها عنهم، فالله هذا وصفه المستقر اللازم الذاتي، ومعاملته لعباده في جميع الأوقات بالعفو والمغفرة، فينبغي لكم أيها المظلومون المجني عليهم، أن تغفروا وتصفحوا وتغفروا ليعاملكم الله كما تعاملون عباده ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.

﴿٦١ - ٦٢﴾ ﴿ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ذلك الذي شرع لكم تلك الأحكام الحسنة العادلة، هو حسن التصرف، في تقديره وتبديره، الذي ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ أي: يدخل هذا على هذا، وهذا على هذا، فيأتي بالليل بعد النهار، وبالنهار بعد الليل، ويزيد في أحدهما ما ينقصه في الآخر، ثم بالعكس، فيترتب على ذلك، قيام الفصول، ومصالح الليل والنهار، والشمس والقمر، التي هي من أجل نعمه على العباد، وهي من الضروريات لهم. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع ضجيج الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، ﴿بَصِيرٌ﴾ يرى ديب النملة السوداء، تحت الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾.

خير الرازقين * ليدخلنهم مدخلا يرضونه وإن الله لعليم حلیم هذه بشارة كبرى، لمن هاجر في سبيل الله، فخرج من داره ووطنه وأولاده وماله، ابتغاء وجه الله، ونصرة لدين الله، فهذا قد وجب أجره على الله، سواء مات على فراشه، أو قتل مجاهداً في سبيل الله، ﴿لِيَرْزُقْنَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ في البرزخ، وفي يوم القيامة بدخول الجنة الجامعة للروح والريحان، والحسن والإحسان، ونعيم القلب والبدن، ويحتمل أن المعنى ^(١) أن المهاجر في سبيل الله، قد تكفل بزرقه في الدنيا، رزقاً واسعاً حسناً، سواء علم الله منه أنه يموت على فراشه، أو يقتل شهيداً، فكلهم مضمون له الرزق، فلا يتوهم أنه إذا خرج من دياره وأمواله، سيفتقر ويحتاج، فإن رازقه هو خير الرازقين، وقد وقع كما أخير، فإن المهاجرين السابقين، تركوا ديارهم وأبناءهم وأموالهم، نصرة لدين الله، فلم يلبثوا إلا يسيراً، حتى فتح الله عليهم البلاد، ومكنهم من العباد فاجتروا من أموالها، ما كانوا به من أغنى الناس، ويكون على هذا القول، قوله: ﴿لِيَدْخُلْنَهُمْ مَدْخَلَ يَرْضُونَهُ﴾ إما ما يفتح الله عليهم من البلدان، خصوصاً فتح مكة المشرفة، فإنهم دخلوها في حالة الرضا والسرور، وإما المراد به رزق الآخرة، وأن ذلك دخول الجنة، فتكون الآية جمعت بين الرزقين، رزق الدنيا، ورزق الآخرة، واللفظ صالح لذلك كله، والمعنى صحيح، فلا مانع من إرادة الجميع ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بالأمور، ظاهرها، وباطنها، متقدمها، ومتأخرها، ﴿حلیم﴾ يعصيه الخلائق، ويبارزونه بالعظائم، وهو لا يعاجلهم بالعقوبة مع كمال اقتداره، بل يواصل لهم رزقه، ويسدي إليهم فضله.

﴿٦٠﴾ ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عَاقَبَ بِهِ ثُمَّ بُنِيَ عَلَيْهِ لِتَنْصُرْتَهُ اللَّهُ﴾ إن الله لعفو غفور ﴿ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ جُنِي



الساعة بغتة﴾ أي: مفاجأة ﴿أَوْ يَأْتِيهِمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ﴾ أي: لا خير فيه، وهو يوم القيامة، فإذا جاءتهم الساعة، أو أتاهم ذلك اليوم، علم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، وندموا حيث لا ينفعهم التندم، وأبلسوا وأيسوا من كل خير، وودوا لو آمنوا بالرسول واتخذوا معه سبيلاً، ففي هذا تحذيرهم من إقامتهم على مرتبتهم وفريتهم. ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: يوم القيامة ﴿لِلَّهِ تَعَالَى، لَا لغيره﴾، يحكم بينهم ﴿يحكمه العدل، وقضائه الفصل﴾، ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسله، وما جاؤوا به ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ليصدقوا بذلك إيمانهم ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ نعيم القلب والروح والبدن، مما لا يصفه الوصفون، ولا تدركه العقول. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسله وكذبوا بآياته الهادية للحق والصواب فأعرضوا عنها، أو عاندوها، ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِهينٌ﴾ لهم، من شدته، وألمه، وبلغه للافئدة كما استهانوا برسله وآياته، أهانهم الله بالعذاب.

﴿٥٨ - ٥٩﴾ ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قَاتَلُوا أَوْ مَاتُوا لِيَرْزُقْنَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُو

والأموات، في صعيد واحد، فسأل كل منهم ما بلغت أمنيته، فأعطاهم فوق أمانيتهم، ما نقص ذلك من ملكه شيء، ومن غناه، أن يده سحاء بالخير والبركات، الليل والنهار، لم يزل إفضاله على الأنفاس، ومن غناه وكرمه، ما أودعه في داز كرامته، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿الحميد﴾ أي: المحمود في ذاته، وفي أسمائه، لكونها حسنى، وفي صفاته، لكونها كلها صفات كمال، وفي أفعاله، لكونها دائرة بين العدل والإحسان والرحمة والحكمة، وفي شرعه، لكونه لا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راجحة، الذي له الحمد، الذي يملأ ما في السماوات والأرض، وما بينهما، وما شاء بعدها، الذي لا يحصي العباد ثناء على حمده، بل هو كما أثني على نفسه، وفوق ما يشني عليه عباده، وهو المحمود على توفيق من يوفقه، وحذلان من يخذله، وهو الغني في حمده، الحميد في غناه.

﴿٦٥-٦٦﴾ ﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لَكفور ﴿أي: ألم تشاهد بصرك وقلبك نعمة ربك السابعة، وأياديه الواسعة، و﴿أن الله سخر لكم ما في الأرض﴾ من حيوانات، ونبات، وجادات، فجميع ما في الأرض، مسخر لسني آدم، حيواناتها، لركوبه، وحمله، وأعماله، وأكله، وأنواع انتفاعه، وأشجارها، وثمارها، يقتاتها، وقد سلط على غرسها واستغلالها، ومعادنها، يستخرجها، وينفع بها، ﴿والفلك﴾ أي: وسخر لكم الفلك، وهي السفن

وحداثيته، وكماله فقال: ﴿ألم تر﴾ أي: ألم تشاهد بصرك وبصيرتك ﴿أن الله أنزل من السماء ماء﴾ وهو: المطر، فينزل على أرض خاشعة مجربة، قد اغبرت أرجاؤها، وبس ما فيها، من شجر ونبات، فتصبح مخضرة قد اكتست من كل زوج كريم، وضار لها بذلك منظر بهيج، إن الذي أحياها بعد موتها وهموها لمحيي الموتى بعد أن كانوا رميماً.

﴿إن الله لطيف خبير﴾ اللطيف الذي يدرك بواطن الأشياء، وخفياتها، وسرائرها، الذي يسوق إلى عبده الخير، ويدفع عنه الشر^(١)، بطرق لطيفة تخفى على العباد، ومن لطفه، أنه يري عبده، عزته في انتقامه وكمال اقتداره، ثم يظهر لطفه بعد أن أشرف العبد على الهلاك، ومن لطفه، أنه يعلم مواقع القنطر من الأرض، ويذور الأرض في باطنها، فيسوق ذلك الماء إلى ذلك البذر، الذي خفي على علم الخلائق فنبت منه أنواع النبات، ﴿خبير﴾ بسرائر الأمور، وخبايا الصدور، وخفايا الأمور.

﴿له ما في السماوات وما في الأرض﴾ خلقاً وعبداً، يتصرف فيهم بملكه وحكمته وكمال اقتداره، ليس لأحد غيره من الأمر شيء.

﴿وإن الله لهو الغني﴾ بذاته الذي له الغنى المطلق التام، من جميع الوجوه، ومن غناه، أنه لا يحتاج إلى أحد من خلقه، ولا يواليهم من ذلة، ولا يتكثر بهم من قلة، ومن غناه، أنه اتخذ صاحبة ولا ولداً، ومن غناه، أنه صمد، لا يأكل ولا يشرب، ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه الخلق بوجه من الوجوه، فهو يُطعم ولا يُطعم، ومن غناه، أن الخلق كلهم مفتقرون إليه، في إيجادهم، وإعدادهم، وإمدادهم، وفي دينهم ودنياهم، ومن غناه، أنه لو اجتمع من في السماوات ومن في الأرض، الأحياء منهم

﴿ذلك﴾ صاحب الحكم والأحكام ﴿بأن الله هو الحق﴾ أي: الثابت، الذي لا يزال ولا يزول، الأول الذي ليس قبله شيء، الآخر الذي ليس بعده شيء، كامل الأسماء والصفات، صادق الوعد، الذي وعده حق ولقاؤه حق، ودينه حق، وعبادته هي الحق، النافعة الباقية على الدوام.

﴿وأن ما يدعون من دونه﴾ من الأصنام والأنداد، من الحيوانات والجمادات، ﴿هو الباطل﴾ الذي، هو باطل في نفسه، وعبادته باطلة، لأنها متعلقة بمضمحل فإن، فتبطل تبعاً لغايتها ومقصودها، ﴿وأن الله هو العلي الكبير﴾ العلي في ذاته، فهو عال على جميع المخلوقات وفي قدره، فهو كامل الصفات، وفي قهره لجميع المخلوقات، الكبير في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته، الذي من عظمته وكبريائه، أن الأرض قبضته يوم القيامة، والسماوات مطويات بيمينه، ومن كبريائه، أن كرسيه وسع السماوات والأرض، ومن عظمته وكبريائه، أن نواصي العباد بيده، فلا يتصرفون إلا بمشيئته، ولا يتحركون ويسكنون إلا بإرادته.

وحقيقة الكبرياء التي لا يعلمها إلا هو، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، أنها كل صفة كمال وجلال وكبرياء وعظمة، فهي ثابتة له، وله من تلك الصفة أجلها وأكملها، ومن كبريائه، أن العبادات كلها، الصادرة من أهل السماوات والأرض، كلها المقصود منها، تكبيره وتعظيمه، وإجلاله وإكرامه، ولهذا كان التكبير شعاراً للعبادات الكبار، كالصلاة وغيرها.

﴿٦٣-٦٤﴾ ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير﴾ له ما في السماوات وما في الأرض وإن الله لهو الغني الحميد ﴿هذا حث منه تعالى، وترغيب في النظر بآياته الدالات على

﴿تجزي في البحر بأمره﴾ تحملكم، وتحمل تجارتكم، وتوصلكم من محل إلى محل، وتستخرجون من البحر حلية تلبسونها، ومن رحمته بكم أنه ﴿يمسك السماء أن تقع على الأرض﴾ فلولا رحمته وقدرته، لسقطت السماء على الأرض، فتلف ما عليها، وهلك من فيها ﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً﴾.

﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ أرحم بهم من والديهم، ومن أنفسهم، ولهذا يريد لهم الخير، ويريدون لها الشر والضرر، ومن رحمته، أن سخر لهم ما سخر من هذه الأشياء.

﴿وهو الذي أحياكم﴾ أوجدكم من العدم ﴿ثم يميتكم﴾ بعد أن أحياكم، ﴿ثم يحييكم﴾ بعد موتكم، ليجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ﴿إن الإنسان﴾ أي: جنسه، إلا من عصمه الله ﴿لكفور﴾ لنعم الله، كفور بالله، لا يعترف بإحسانه، بل ربما كفر بالبعث وقدرته ربه.

﴿٦٧ - ٧٠﴾ ﴿لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازعك في الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم﴾ وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون ﴿الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون﴾ ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير ﴿يخبر تعالى أنه جعل لكل أمة ﴿منسكاً﴾ أي: معبداً وعبادة، قد تختلف في بعض الأمور، مع اتفاقها على العدل والحكمة، كما قال تعالى: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلوكم فيما آتاكم﴾ الآية، ﴿هم ناسكوه﴾ أي: عاملون عليه، بحسب أحوالهم، فلا اعتراض على شريعة من الشرائع، خصوصاً من الأميين أهل الشرك والجهل المبين، فإنه إذا ثبتت رسالة الرسول بأدلتها، وجب أن يتلقى جميع ما جاء به بالقبول

والتسليم، وترك الاعتراض، ولهذا قال: ﴿فلا ينازعك في الأمر﴾ أي: لا ينازعك المكذبون لك، ويعترضون على بعض ما جنتهم به، يعقولهم الفاسدة، مثل منازعتهم في حل الميتة، بقياسهم الفاسد، يقولون: ﴿تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله﴾، وكقولهم ﴿إنما البيع مثل الربا﴾ ونحو ذلك من اعتراضاتهم، التي لا يلزم الجواب عن أعيانها، وهم منكرون لأصل الرسالة، وليس فيها مجادلة وحاجة بانفرادها، بل لكل مقام مقال، فصاحب هذا الاعتراض، المنكر لرسالة الرسول، إذا زعم أنه يجادل ليسترشد، يقال له: الكلام معك في إثبات الرسالة وعدمها، وإلا فلاقتصار على هذه، دليل أن مقصوده التعنت والتعجيز، ولهذا أمر الله رسوله أن يدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، ويمضي على ذلك، سواء اعترض المعتضون أم لا، وأنه لا ينبغي أن يثنيك عن الدعوة شيء، لأنك ﴿على هدى مستقيم﴾ أي: معتدل موصل للمقصود، متضمن علم الحق والعمل به، فأنت على ثقة من أمرك، ويقين من دينك، فيوجب ذلك لك الصلابة والمضي لما أمرك به ربك، ولست على أمر مشكوك فيه، أو حديث مفترى، فتقف مع الناس ومع أهوائهم، وأرائهم، ويوقفك اعتراضهم، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿فتوكل على الله إنك على الحق المبين﴾. مع أن في قوله: ﴿إنك لعلى هدى مستقيم﴾ إرشاد لأجوبة المعارضين على جزئيات الشرع، بالعقل الصحيح، فإن الهدى وصف لكل ما جاء به الرسول، والهدى: ما تحصل به الهداية، من مسائل الأصول والفروع، وهي المسائل التي يعرف حسننها وعدلها وحكمتها بالعقل والفطرة السليمة، وهذا يعرف بتدبر تفاصيل المأمورات والمنهيات.

ولهذا أمره الله بالعدول عن جدالهم في هذه الحالة، فقال: ﴿وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون﴾

أي: هو عالم بمقاصدكم ونياتكم، فمجازيكم عليها في يوم القيامة الذي يحكم الله بينكم فيما كنتم فيه تختلفون، فمن وافق الصراط المستقيم، فهو من أهل النعيم، ومن زاغ عنه، فهو من أهل الجحيم، ومن تمام حكمه، أن يكون حكماً بعلم، فلذلك ذكر إحاطة علمه، وإحاطة كتابه فقال: ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض﴾ لا يخفى عليه منها خافية، من ظواهر الأمور وبواطنها، خفيها وجليها، متقدمها ومتأخرها، أن ذلك العلم المحيط بما في السماء والأرض قد أثبتته الله في كتاب، وهو اللوح المحفوظ، حين خلق الله القلم، قال له: ﴿اكتب﴾ قال: ما أكتب؟ قال: ﴿اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة﴾.

﴿إن ذلك على الله يسير﴾ وإن كان تصوره عندكم لا يحاط به، فالله تعالى يسير عليه أن يحيط علماً بجميع الأشياء، وأن يكتب ذلك في كتاب مطابق للواقع.

﴿٧١ - ٧٢﴾ ﴿ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً وما ليس لهم به علم وما للظالمين من نصير﴾ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدّها الله الذين كفروا وبش النصير﴾ يذكر تعالى حالة المشركين به، العادلين به غيره، وأن حالهم أقبح الحالات، وأنه لا مستند لهم على ما فعلوه، فليس لهم به علم، وإنما هو تقليد تلقوه عن آبائهم الضالين، وقد يكون الإنسان لا علم عنده بما فعله، وهو - في نفس الأمر - له حجة ما علمها، فأخبر هنا، أن الله لم ينزل في ذلك سلطاناً، أي: حجة تدل عليه وتجوّزه، بل قد أنزل البراهين القاطعة على فسادهم وبطلانهم، ثم توعد الظالمين منهم المعاندين للحق فقال: ﴿وما للظالمين من نصير﴾ ينصرونهم من عذاب الله إذا نزل بهم وحل. وهل هؤلاء الذين لا علم لهم بما هم عليه قصّد في اتباع

أولى، «ولو اجتمعوا له» بل أبلغ من ذلك لو «يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه» وهذا غاية ما يصير من العجز. «ضعف الطالب» الذي هو المعبود من دون الله «والمطلوب» الذي هو الذباب، فكل منهما ضعيف، وأضعف منهما، من يتعلق بهذا الضعيف، وينزله منزلة رب العالمين.

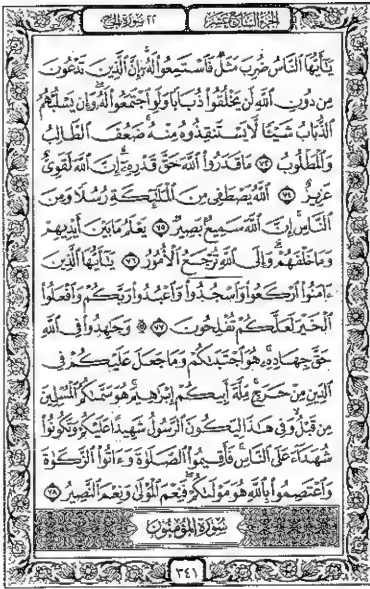
فهذا ما قدر «الله حق قدره» حيث سؤى الفقير العاجز من جميع الوجوه، بالغني القوي من جميع الوجوه، سؤى من لا يملك لنفسه، ولا لغيره نفعاً ولا ضرراً، ولا نشوراً، بمن هو النافع الضار، المعطي المانع، مالك الملك، والمتصرف فيه بجميع أنواع التصريف.

«إن الله لقوي عزيز» أي: كامل القوة، كامل العزة، من كمال قوته وعزته، أن نواصي الخلق بيديه، وأنه لا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن، إلا بإرادته ومشيئته، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ومن كمال قوته، أنه يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ومن كمال قوته، أنه يبعث الخلق كلهم، أولهم وآخرهم، بصنيخة واحدة، ومن كمال قوته، أنه أهلك الجبابرة والأمم العاتية، بشيء يسير، وسوط من عذابه.

«٧٥-٧٦» «الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس إن الله سميع بصير» يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور لما بين تعالى كماله وضعف الأصنام، وأنه المعبود حقاً، بين حالة الرسل، وتميزهم عن الخلق بما تميزوا به من الفضائل فقال: «الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس» أي: يختار ويختبى من الملائكة رسلاً، ومن الناس رسلاً، يكونون أركى ذلك النوع، وأجده لصفات المجد، وأجده بالأصطفاء، فالرسل لا يكونون إلا

الآيات والهدى إذا جاءهم؟ أم هم راضون بما هم عليه من الباطل؟ ذكر ذلك بقوله: «وإذا تتلى عليهم آياتنا» التي هي آيات الله الجليلة، المستلزمة لبيان الحق من الباطل، لم يلفتوا إليها، ولم يرفعوا بها رأساً، بل «تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر» من بغضها وكرهاتها، ترى وجوههم مغبسة، وأبشارهم مكفهرة، «يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا» أي: يكادون يوقعون بهم القتل والضرب البليغ، من شدة بغضهم وبغض الحق وعداوته، فهذه الحالة من الكفار بس الحالة، وشرها بس الشر، ولكن قم ما هو شر منها، حالتهم التي يؤولون إليها، فلهاذا قال: «قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدّها الله الذين كفروا وبئس المصير» فهذه شرها طويل عريض، ومكروها وآلامها تزداد على الدوام.

«٧٣-٧٤» «يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب» ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز» هذا مثل ضربه الله لقبح عبادة الأوثان، وبيان نقصان عقول من عبدها، وضعف الجميع، فقال: «يا أيها الناس» هذا خطاب للمؤمنين والكفار، المؤمنون يزدادون علماً وبصيرة، والكافرون تقوم عليهم الحجة، «ضرب مثل فاستمعوا له» أي: ألقوا إليه أسماعكم، وتفهموا ما احتوى عليه، ولا يصادف منكم قلوباً لاهية، وأسماعاً معرضة، بل ألقوا إليه القلوب والأسماع، وهو هذا: «إن الذين تدعون من دون الله» شمل كل ما يدعى من دون الله، «لن يخلقوا ذباباً» الذي هو من أحقر المخلوقات وأخسها، فليس في قدرتهم خلق هذا المخلوق الضعيف، فما فوقه من باب



صفوة الخلق على الإطلاق، والذي اختارهم وأصطفاهم^(١)، ليس جاهلاً بحقائق الأشياء، أو يعلم شيئاً دون شيء، وإنما المصطفى لهم، السميع، البصير، الذي قد أحاط علمه وسمعه وبصره بجميع الأشياء، فاخياره إياهم، عن علم منه، أنهم أهل لذلك، وأن الوحي يصلح فيهم كما قال تعالى: «الله أعلم حيث يجعل رسالته».

«وإلى الله ترجع الأمور» أي: هو يرسل الرسل، يدعو الناس إلى الله، فمنهم المجيب، ومنهم الراد لدعوتهم، ومنهم العامل، ومنهم التاكّل، فهذا وظيفة الرسل، وأما الجزاء على تلك الأعمال، فمصيبرها إلى الله، فلا تعدم منه فضلاً أو عدلاً.

«٧٧-٧٨» «يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون» وجهادها هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير» يأمر تعالى عبادة المؤمنين بالصلاة، وخص منها الركوع

تم تفسير سورة الحج،
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة المؤمنون^(١) وهي مكية

﴿١١-١﴾ «بسم الله الرحمن الرحيم قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم على وعدهم راعون * والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون» هذا تنويه من الله، يذكر عباده المؤمنين، وذكر فلاحهم وسعادتهم، وبأي شيء وصلوا إلى ذلك، وفي ضمن ذلك، الجث على الاتصاف بصفاتهم، والترغيب فيها. فليزّن العبد نفسه وغيره على هذه الآيات، يعرف بذلك ما معه وما مع غيره من الإيمان، زيادة ونقصاً، كثرة وقلة، فقول: «قد أفلح المؤمنون» أي: قد فازوا وسعدوا وتجنّحوا، وأدركوا كل ما يرام. المؤمنون الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين الذين من صفاتهم الكاملة أنهم «في صلاتهم خاشعون»

والخشوع في الصلاة: هو حضور القلب بين يدي الله تعالى، مستحضراً لقربه، فيسكن لذلك قلبه، وتطمئن نفسه، وتسكن حركاته، ويقل التفاته، متأدياً بين يدي ربه، مستحضراً جميع ما يقوله ويفعله في صلاته، من أول صلاته إلى آخرها، فيتشقى بذلك الوسواس والأفكار الرديئة، وهذا روح الصلاة، والمقصود منها، وهو الذي يكتب للعبد، فالصلاة التي لا خشوع فيها ولا حضور قلب، وإن كانت مجزئة مثاباً عليها، فإن الشواب على

ربما توهم متوهم أن هذا من باب تكليف ما لا يطاق، أو تكليف ما يشق، احترز منه بقوله: «وما جعل عليكم في الدين من حرج» أي: مشقة وعسر، بل يسره غاية التيسير، وسهله بغاية السهولة، فأولاً ما أمر وألزم إلا بما هو سهل على النفوس، لا يثقلها ولا يؤدها، ثم إذا عرض بعض الأسباب الموجبة للتخفيف، خفف ما أمر به، إما بإسقاطه، أو إسقاط بعضه. ويؤخذ من هذه الآية، قاعدة شرعية وهي أن «المشقة تجلب التيسير» و «الضرورات تبيح المحظورات»، فيدخل في ذلك من الأحكام الفرعية، شيء كثير معروف في كتب الأحكام.

﴿ملة أبيكم إبراهيم﴾ أي: هذه الملة المذكورة، والأوامر المزيورة، ملة أبيكم إبراهيم، التي ما زال عليها، فالزموها واستمسكوا بها. «هو سماكم المسلمين من قبل» أي: في الكتب السابقة، تذكرون ومشهورون، «وفي هذا» أي: هذا الكتاب، وهذا الشرع، أي: ما زال هذا الاسم لكم قديماً وحديثاً، «ليكون الرسول شهيداً عليكم» بأعمالكم خيرها وشرها «وتكونوا شهداء على الناس» لكونكم خير أمة أخرجت للناس، أمة وسطاً عدلاً خياراً، تشهدون للرسول أنهم بلغوا أمهم، وتشهدون على الأمم أن رسلهم بلغتهم بما أخبركم الله به في كتابه، «فأقيموا الصلاة» بأركانها وشروطها وحدودها، وجميع لوازمها، «وآتوا الزكاة» المفروضة لمستحقها شكراً لله على ما أولاكم، «واعتصموا بالله» أي: امتنعوا به وتوكلوا عليه في ذلك، ولا تتكلموا على حولكم وقوتكم، «هو مولاكم» الذي يتولى أموركم، فيدبركم بحسن تدبيره، ويصرفكم على أحسن تقديره، «فنعم المولى ونعم النصير» أي: نعم المولى لمن تولاه، فحصل له مطلوبه «ونعم النصير» لمن استنصره فدفع عنه المكروه.

والسجود، لفضلهما وركنيتهما، وعبادته التي هي قرة العيون، وسلوة القلب المحزون، وأن ربوبيته وإخسانه على العباد، يقتضي منهم أن يخلصوا له العبادة، ويأمرهم بفعل الخير عموماً.

وعلق تعالى الفلاح على هذه الأمور فقال: «لعلكم تفلحون». أي: تفوزون بالمطلوب المرغوب، وتنجون من المكروه المرهوب، فلا طريق للفلاح سوى الإخلاص في عبادة الخالق، والسعي في نفع عبيده، فمن وفق لذلك، فله القدر المعلن، من السعادة والنجاح والفلاح.

﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾ والجهاد بذل الوسع في حصول الغرض المطلوب، فالجهاد في الله حق جهاده، هو القيام التام بأمر الله، ودعوة الخلق إلى سبيله بكل طريق موصل إلى ذلك، من نصيحة وتعليم وقتال وأدب وزجر ووعظ، وغير ذلك.

﴿هو اجتباكم﴾ أي: اختاركم - يا معشر المسلمين - من بين الناس، واختار لكم الدين، ورضيه لكم، واختار لكم أفضل الكتب وأفضل الرسل، فقابلوا هذه المنحة العظيمة، بالقيام بالجهاد فيه حق القيام، ولما كان قوله: «وجاهدوا في الله حق جهاده»

حسب ما يعقل القلب منها .

﴿والذين هم عن اللغو﴾ والكلام الذي لا خير فيه ولا فائدة، ﴿معرضون﴾ رغبة عنه، وتنزهاً لأنفسهم، وترفعاً عنه، وإذا مروا باللغو مروا كراماً، وإذا كانوا معرضين عن اللغو، فأعراضهم عن المحرم من باب أولى وأحرى، وإذا ملك العبد لسانه وخزنه - إلا في الخير - كان مالكا لأمره، كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل حين وصاه بوصايا قال: «ألا أخبرك بملك ذلك كله؟» قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه وقال: «كفّ عليك هذا»، فالؤمنون من صفاتهم الحميدة، كفّ ألسنتهم عن اللغو والمحرمات .

﴿والذين هم للزكاة فاعلون﴾ أي: مؤدون لزكاة أموالهم، على اختلاف أجناس الأموال، مزيكين لأنفسهم من أدناس الأخلاق ومساوئ الأعمال التي تزكو النفس بتركها وتجنبها، فأحسنوا في عبادة الخالق، في الخشوع في الصلاة، وأحسنوا إلى خلقه بأداء الزكاة .

﴿والذين هم لقروضهم حافظون﴾ عن الزنا، ومن تمام حفظها تجنب ما يدعو إلى ذلك، كالنظر واللمس ونحوهما . فحفظوا فروجهم من كل أحد ﴿إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم﴾ من الإماء المملوكات ﴿فإنهم غير ملومين﴾ بقربيهما، لأن الله تعالى أحلها .

﴿فمن ابتغى وراء ذلك﴾ غير الزوجة والسرية ﴿فأولئك هم العادون﴾ الذين تعدوا ما أحل الله إلى ما حرمه، المتجرؤون على محارم الله . وعموم هذه الآية، يدل على تحريم نكاح المتعة، فإنها ليست زوجة حقيقة مقصوداً بقاؤها، ولا مملوكة، وتحريم نكاح المحلل لذلك .

ويدل قوله: ﴿أو ما ملكت أيمانهم﴾ أنه يشترط في حل المملوكة،

أن تكون كلها في ملكه، فلو كان له بعضها لم تحل، لأنها^(١) ليست مما ملكت يمينه، بل هي ملك له ولغيره، فكما أنه لا يجوز أن يشترك في المرأة الحرة زوجان، فلا يجوز أن يشترك في الأمة المملوكة سيدان .

﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ أي: مراعون لها، ضابطون، حافظون، حريصون على القيام بها وتنفيذها، وهذا عام في جميع الأمانات التي هي حق لله، والتي هي حق للعباد، قال تعالى: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان﴾ فجميع ما أوجبه الله على عبده أمانة، على العبد حفظها بالقيام التام بها، وكذلك يدخل في ذلك أمانات آدميين، كأمانات الأموال والأسرار ونحوهما، فعلى العبد مراعاة الأمرين، وأداء الأمانتين ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ وكذلك العهد، يشمل العهد الذي بينهم وبين ربهم والذي بينهم وبين العباد، وهي الالتزامات والعقود التي يعقدها العبد، فعليه مراعاتها والوفاء بها، ويحرم عليه التفريط فيها وإهمالها، ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ أي: يداومون عليها في أوقاتها وحدودها وأشرطها وأركانها، فمدحهم بالخشوع بالصلاة، وبالمحافظة عليها، لأنه لا يتم أمرهم إلا بالأمرين، فمن يداوم على الصلاة من غير خشوع، أو على الخشوع من دون محافظة عليها، فإنه مذموم ناقص .

﴿أولئك الموصوفون بتلك الصفات﴾ هم الوارثون ﴿الذين يرثون الفردوس﴾ الذي هو أعلى الجنة ووسطها وأفضلها، لأنهم حلوا من صفات الخير أعلاها وذروتها، أو المراد بذلك جميع الجنة، ليدخل بذلك عموم المؤمنين، على درجاتهم و^(٢) مراتبهم، كل بحسب حاله، ﴿هم فيها

(١) في أ: لأنه، وفي ب: لأن، ولعل الصواب ما أثبت .

(٢) في ب: في مراتبهم .



خالدون﴾ لا يظعنون عنها، ولا يبعون عنها جولا، لاشتمالها على أكمل النعيم وأفضله وأتمه، من غير مكدر ولا منقص .

﴿١٢ - ١٦﴾ ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ﴿ثم خلقنا النطفة علقة﴾ فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون﴾ ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴿ذكر الله في هذه الآيات أطوار الأدمي وتنقلاته، من ابتداء خلقه إلى آخر ما يصير إليه، فذكر ابتداء خلق أبي النوع البشري آدم عليه السلام، وأنه ﴿من سلالة من طين﴾ أي: قد سلت، وأخذت من جميع الأرض، ولذلك جاء بنوه على قدر الأرض، منهم الطيب والخبيث، وبين ذلك، والسهل والحزن، وبين ذلك .

﴿ثم جعلناه﴾ أي: جنس آدميين ﴿نطفة﴾ تخرج من بين الصلب والترائب، فتستقر ﴿في قرار مكين﴾ وهو الرحم، محفوظة من الفساد والريح وغير ذلك .

﴿ثم خلقنا النطفة﴾ التي قد استقرت قبل ﴿علقة﴾ أي: دماً أحر،

جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم
ظعنكم ويوم إقامتكم ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾
أفضل المأكَل من لحم وشحم.

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾
أي: جعلها سفناً لكم في البر، تحملون
عليها أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه
إلا بشق الأنفس، كما جعل لكم
السفن في البحر تحمّلكم، وتحمل
متاعكم، قليلاً [كان] أو كثيراً، فالذي
أنعم بهذه النعم، وصنف أنواع
الإحسان، وأدر علينا من خيره
المدار، هو الذي يستحق كمال
الشكر، وكمال الثناء، والاجتهاد في
عبوديته، وأن لا يستعان بنعمه على
معاصيه.

﴿٢٣ - ٣٠﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا
إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ
مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ إلى آخر القصة
وهي قوله ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا
لَمُبْتَلِينَ﴾ يذكر تعالى رسالة عبده
ورسوله نوح عليه السلام، أول رسول
أرسله لأهل الأرض، فأرسله إلى
قومه، وهم يعبدون الأصنام، فأمرهم
بعبادة الله وحده، فقال: ﴿يَا قَوْمِ
اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: أخلصوا له العبادة،
لأن العبادة لا تصح إلا بإخلاصها.
﴿مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ﴾ فيه إبطال ألوهية
غير الله، وإثبات الإلهية لله تعالى،
لأنه الخالق الرازق، الذي له الكمال
كله، وغيره بخلاف ذلك. ﴿أَفَلَا
تَتَّقُونَ﴾ ما أنتم عليه من عبادة الأوثان
والأصنام، التي صورت على صور قوم
صالحين، فعبدوها مع الله، فاستبصر
على ذلك، يدعوه سرّاً وجهاراً،
ولبلاً ونهاراً، ألف سنة إلا خمسين
عاماً، وهم لا يزدادون إلا عتواً
ونفوراً.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ﴾ من قومه الأشراف
والسادة المتبوعون - على وجه المعارضة
لنبيهم نوح، والتحذير من اتباعه - :
﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَرِيدُ أَنْ
يُفَضِّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ما هذا إلا بشر
مثلكم، قصده حين ادعى النبوة أن

يزيد عليكم فضيلة، ليكون متبوعاً،
وإلا فما الذي يفضل عليه، وهو من
جنسكم؟ وهذه المعارضة ما زالت
موجودة في مكذبي الرسل، وقد
أجاب الله عنها بجواب شاف، على
السنة رسله كما في قوله: ﴿قَالُوا﴾
أي: لرسولهم ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا
تَرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا
فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مَبِينٍ﴾ قالت لهم
رسولهم إن نحن إلا بشر مثلكم،
ولكن الله يمين على من يشاء من
عباده ﴿فَأَخْبَرُوا أَنْ هَذَا فَضْلُ اللَّهِ
وَمُنَّةٌ، فَلَيْسَ لَكُمْ أَنْ تَحْجَرُوا عَلَى اللَّهِ،
وَتَمْنَعُوا مِنْ إِصَالِ فَضْلِهِ عَلَيْنَا.

وقالوا هنا: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ
مَلَائِكَةً﴾ وهذه أيضاً معارضة بالمشيئة
باطلة، فإنه وإن كان لو شاء أنزل
ملائكة، فإنه حكيم رحيم، حكمته
ورحمته تقتضي أن يكون الرسول من
جنس الآدميين، لأن الملك لا قدرة
لهم على مخاطبته، ولا يمكن أن يكون
إلا بصورة رجل، ثم يعود اللبس
عليهم كما كان.

وقولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ أي:
بإرسال رسول ﴿فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ﴾
وأي حجة في عدم سماعهم إرسال
رسول في آبائهم الأولين؟ لأنهم لم
يحيطوا علماً بما تقدم، فلا يجعلوا
جهلهم حجة لهم، وعلى تقدير أنه لم
يرسل فيهم رسلاً، فلما أن يكونوا
على الهدى، فلا حاجة لإرسال
الرسول إذ ذاك، وإما أن يكونوا على
غيره، فليحمدوا ربهم ويشكروه أن
خصهم بنعمة لم تأت آباءهم،
ولا شعروا بها، ولا يجعلوا عدم
الإحسان على غيرهم سبباً لكفرهم
للإحسان إليهم.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ﴾ أي:
مجنون ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ﴾ أي: انتظروا به
﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى أن يأتيه الموت.
وهذه الشبهة التي أوردوها^(١)،
معارضة لنبوة نبيهم، دالة على شدة
كفرهم وعنادهم، وعلى أنهم في غاية

الجهل والضلال، فإنها لا تصلح
للمعارضة بوجه من الوجوه، كما
ذكرنا، بل هي في نفسها متناقضة
متعارضة. فقوله: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ
مِثْلُكُمْ يَرِيدُ أَنْ يُفَضِّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أثبتوا
أن له عقلاً يكيدهم به، ليعلوهم
ويسودهم، ويحتاج - مع هذا - أن
يحذر منه لئلا يغتر به، فكيف يلتزم مع
قولهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ﴾
وهل هذا إلا من شبه ضال، منقلب
عليه الأمر، قصده الدفع بأي طريق
اتفق له، غير عالم بما يقول!!
ويأبى الله إلا أن يظهر خزي من عاداه
وعادى رسله.

فلما رأى نوح أنه لا يفيدهم دعاؤه
إلا فرأى ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا
كُذِّبْتُ﴾ فاستنصر ربه عليهم،
غضباً لله، حيث ضيعوا أمره، وكذبوا
رسوله وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى
الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ * إنك إن
تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا
فاجراً كفاراً ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا
نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ عند استجابتنا له،
سبباً ووسيلة للنجاة، قبل وقوع
أسبابه، ﴿أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ﴾ أي:
السفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا﴾ أي: بأمرنا
لك ومعونتنا، وأنت في حفظنا
وكلاءتنا بحيث نراك ونسمعك.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بإرسال الطوفان
الذي غذبوا به ﴿وَفَارَ الْفُتُورُ﴾ أي:
فارت الأرض، وتفجرت عيوناً، حتى
محل النار، الذي لم تجر العادة إلا ببعده
عن الماء، ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ
اثنَيْنِ﴾ أي: أدخل في الفلك من كل
جنس من الحيوانات، ذكراً وأنثى،
تبقى مادة النسل لسائر الحيوانات، التي
اقتضت الحكمة الربانية إيجادها في
الأرض، ﴿وَأَهْلِكَ﴾ أي: أدخلهم
﴿إِلَّا مِنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ كابنه،
﴿وَلَا تَخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي:
لا تدعني أن أنجيهم، فإن القضاء
والقدر، قد حتم أنهم مغرقون.

بوحيه، وفضله برسالته، وابتلي بعبادة الشجر والحجر.

وهذا نظير قولهم: ﴿قالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذا لقي ضلال وسعر﴾ ألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشرف فلما أنكروا رسالته وردوها، أنكروا ما جاء به من البعث بعد الموت، والمجازاة على الأعمال فقتلوا: ﴿أبعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون﴾ هيهات هيهات لما توعدون﴾ أي: بعيد بعيد ما يعدكم به، من البعث، بعد أن تمزقتم وكنتم تراباً وعظاماً، فنظروا نظراً قاصراً، ورأوا هذا بالتسبية إلى قدرهم غير ممكن، فقاوسوا قدرة الخالق بقدرهم، تعالى الله. فأنكروا قدرته على إحياء الموتى، وعجزوه غاية التعجيز، ونسبوا خلقهم أول مرة، وأن الذي أنشأهم من العدم، فإعادته لهم بعد البلى أهون عليه، وكلاهما هين لديه، فلم لا ينكرون أول خلقهم، ويكابرون المحسوسات، ويقولون: إنا لم نزل موجودين، حتى يسلم لهم إنكارهم للبعث، وينتقلوا معهم إلى الاحتجاج على إثبات وجود الخالق العظيم؟.

وهنا دليل آخر، وهو: أن الذي أحيا الأرض بعد موتها، إن ذلك لمحيي الموتى، إنه على كل شيء قدير، وثم دليل آخر، وهو ما أجاب به المنكرين للبعث في قوله: ﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجب﴾ إذا متنا: وكنا تراباً ذلك رجع بعيد﴾ فقال في جوابهم: ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم﴾ أي: في البلى، و«عدنا كتاب حفيظ».

﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا﴾ أي: يموت أناس، ويحيا أناس ﴿وما نحن بمبعوثين﴾

﴿إن هو إلا رجل به جنة﴾ (٢) فلماذا أتى بما أتى به، من توخيد الله،

بمبعوثين * إن هو إلا رجل افتري على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين (١) قال رب انصرني بما كذبون * قال عما قليل ليصبحن نادمين * فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاءً فيبعدا للقوم الظالمين * لما ذكر نوحاً وقومه، وكيف أهلكهم قال: ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾ الظاهر أنهم «ثمود» قوم صالح عليه السلام، لأن هذه القصة تشبه قصتهم.

﴿فأرسلنا فيهم رسولاً منهم﴾ من جنسهم، يعرفون نسبه وحسبه وصدقه، ليكون ذلك أسرع لانقيادهم، إذا كان منهم، وأبعد عن اشمئزازهم، فدعا إلى ما دعت إليه الرسل أمهم ﴿أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ فكلهم اتفقوا على هذه الدعوة، وهي أول دعوة يدعون بها أمهم، الأمر بعبادة الله، والإخبار أنه المستحق لذلك، والنهي عن عبادة ما سواه، والإخبار ببطان ذلك وفساده، ولهذا قال: ﴿أفلا تتقون﴾ ربكم، فتجنبوا هذه الأوثان والأصنام.

﴿وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة، وأترفناهم في الحياة الدنيا﴾ أي: قال الرؤساء الذين جمعوا بين الكفر والمعاندة، وأطاعاهم ترفهم في الحياة الدنيا، معارضة لنبيهم، وتكذيباً وتحذيراً منه: ﴿ما هذا إلا بشر مثلكم﴾ أي: من جنسكم ﴿يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون﴾ فما الذي يفضله عليكم؟ فهلا كان ملكاً لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب، ﴿ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون﴾ أي: إن تبعتموه وجعلتموه لكم رئيساً، وهو مثلكم إنكم لمسلوبو العقل، نادمون على ما فعلتم. وهذا من العجب، فإن الخسارة والندامة حقيقة لمن لم يتابعه ولم يتقوله. والجهل والسفه العظيم لمن تكبر عن الانقياد لبشر، خصه الله

﴿فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك﴾ أي: علوتم عليها، واستقلت بكم في تيار الأمواج، ولجج اليم، فاحدوا الله على النجاة والسلامة. فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين، وهذا تعليم منه له ولن معه، أن يقولوا هذا شكراً له وحيداً على نجاتهم، من القوم الظالمين في عملهم وعذابهم.

﴿وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين﴾ أي: وبقيت عليكم نعمة أخرى، فادعوا الله فيها، وهي أن ينزل الله لكم منزلاً مباركاً، فاستجاب الله دعاءه، قال الله: ﴿وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ إلى أن قال: ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك﴾ الآية.

﴿إن في ذلك﴾ أي: في هذه القصة ﴿لآيات﴾ تدل على أن الله وحده المعبود، وعلى أن رسوله نوحاً صادق، وأن قومه كاذبون، وعلى رحمة الله بعباده، حيث حملهم في صلب أبيهم نوح، في الفلك لما غرق أهل الأرض. والفلك أيضاً من آيات الله، قال تعالى: ﴿ولقد تركناها آية فهل من مدكر﴾ ولهذا جمعها هنا لأنها تدل على عدة آيات ومطالب. ﴿ولن كنا لمبتلين﴾

﴿٣١-٤١﴾ ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾ فأرسلنا فيهم رسولاً منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون * وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون * ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون * أبعادكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون * هيهات هيهات لما توعدون * إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن

(١) كتب الشيخ هذه الآية فقال: (إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين) وهذا سبق قلم منه - رحمه الله -؛ وسيفسرها فيما يلي على نحو مما أثبت وقد تركت تفسيره للآيات كما هو.

(٢) ينظر التعليق السابق.

ورثبات المعاد ﴿فترصبوا به حتى حين﴾ أي: ارفعوا عنه العقوبة بالقتل وغيره، احتراماً له، ولأنه يجنون غير مؤاخذ بما يتكلم به، أي: فلم يبق بزعهم الباطل مجادلة معه، لصحة ما جاء به، فإنهم قد عرفوا^(١) بطلانه، وإنما بقي الكلام، هل يوقعون به أم لا؟، فزعهم أن عقولهم الرزينة، اقتضت الإبقاء عليه، وترك الإيقاع به، مع قيام الموجب، فهل فوق هذا العناد والكفر غاية؟! ولهذا لما اشتد كفرهم، ولم ينفع فيهم الإنذار، دعا عليهم نبيهم فقال: ﴿رب انصربي بما كذبون﴾ أي: بإهلاكهم، وخزيهم الدنيوي، قبل الآخرة. ﴿قال﴾ الله مجيباً لدعوته: ﴿عما قليل لأصبحن نادمين﴾ فأخذتهم الصيحة بالحق، لا بالظلم والجور، بل بالعدل وظلمهم، أخذتهم الصيحة، فأهلكتهم عن آخرهم.

﴿فجعلناهم غشاء﴾ أي: هشيماً يساً بمنزلة غشاء السيل الملقى في جنبات النوادي، وقال في الآية الأخرى ﴿إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر﴾.

﴿فبعداً للقوم الظالمين﴾ أي: أتبعوا مع عذابهم، البعد واللعنة والدم من العالمين ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين﴾.

﴿٤٢ - ٤٤﴾ ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾ ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ﴿ثم أرسلنا رسلنا تنرا كل ما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فيبعداً للقوم لا يؤمنون﴾ أي: ثم أنشأنا من بعد هؤلاء المكذبين المعاندين قرناً آخرين، كل أمة في وقت مسمى، وأجل محدود، لا تتقدم عنه ولا تتأخر، وأرسلنا إليهم رسلاً متتابعين، لعلمهم يؤمنون ويتوبون، فلم يزل الكفر والتكذيب دأب الأمم العصاة، والكفرة البغاة، كلما جاء أمة رسولها كذبوه، مع أن كل رسول يأتي

من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، بل مجرد دعوة الرسل وشرعهم، يدل على حقيقه ما جاؤوا به، ﴿فأتبعنا بعضهم بعضاً﴾ بالهلاك، فلم يبق منهم باقية، وتعطلت مساكنهم من بعدهم ﴿وجعلناهم أحاديث﴾ يتحدث بهم من بعدهم، ويكونون عيزة للمحتقين، ونكالا للمكذبين، وخزياً عليهم مقروناً بعبادهم.

﴿فبعداً للقوم لا يؤمنون﴾ ما أشقاهم!! وتعباً لهم، ما أخسر صفقتهم!!

﴿٤٥ - ٤٩﴾ ﴿ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين﴾ إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوماً عالين ﴿فقالوا أنؤمنن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون﴾ ﴿فكذبوها فكانوا من المهلكين﴾ ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون﴾ مر على منذ زمان طويل كلام لبعض العلماء لا يحضري الآن اسمه، وهو أنه بعد بعث موسى ونزول التوراة، رفع الله العذاب عن الأمم، أي: عذاب الاستئصال، وشرع للمكذبين المعاندين الجهاد، ولم أدر من أين أخذه، فلما تدبرت هذه الآيات، مع الآيات التي في سورة القصص، تبين لي وجهه، أما هذه الآيات، فلأن الله ذكر الأمم المهلكة المتتابعة على الهلاك، ثم أخبر أنه أرسل موسى بعدهم، وأنزل عليه التوراة فيها الهداية للناس، ولا يرد على هذا، إهلاك فرعون، فإنه قبل نزول التوراة، وأما الآيات التي في سورة القصص، فهي صريحة جداً، فإنه لما ذكر هلاك فرعون قال: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون﴾ فهذا صريح أنه آتاه الكتاب بعد هلاك الأمم الباغية، وأخبر أنه أنزله بصائر للناس وهدى ورحمة، ولعل من هذا، ما ذكر الله في سورة «يونس» من قوله:

﴿ماتسوق من أمة أهلكنا وما استعجزون﴾ ﴿ثم أرسلنا رسلنا تنرا كل ما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فيبعداً للقوم لا يؤمنون﴾ ﴿ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين﴾ ﴿فقالوا أنؤمنن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون﴾ ﴿فكذبوها فكانوا من المهلكين﴾ ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون﴾ ﴿ثم أرسلنا نوحاً وأبراهيم وإسماعيل وآلهم ولهم في الدين من قبلنا﴾ ﴿فقلنا إنا أنزلنا الكتاب بالبينات﴾ ﴿فكذبوها فكانوا من المهلكين﴾ ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون﴾ ﴿ثم أرسلنا نوحاً وأبراهيم وإسماعيل وآلهم ولهم في الدين من قبلنا﴾ ﴿فقلنا إنا أنزلنا الكتاب بالبينات﴾ ﴿فكذبوها فكانوا من المهلكين﴾ ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون﴾

﴿ثم بعثنا من بعده﴾ أي: من بعد نوح ﴿رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات﴾ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك تطع على قلوب المعتدين ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون﴾ الآيات والله أعلم.

فقوله: ﴿ثم أرسلنا موسى﴾ بن عمران، كلم الرحمن ﴿وأخاه هارون﴾ حين سأل ربه أن يشركه في أمره فأجاب سؤله.

﴿بآياتنا﴾ الدالة على صدقهما وصحة ما جاء به ﴿وسلطان مبين﴾ أي: حجة بينة، من قوتها، أن تقهر القلوب، وتسلط عليها لقوتها فتتقاد لها قلوب المؤمنين، وتقوم الحجة البينة على المعاندين، وهذا كقوله ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات﴾ ولهذا رئيس المعاندين عرف الحق وعاند ﴿فأسأل بني إسرائيل إذ جاءهم﴾ أي: بتلك الآيات البينات ﴿فقال﴾ له ﴿فرعون إني لأظنك يا موسى مسحوراً﴾ ﴿فقال﴾ موسى ﴿قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر، وإني لأظنك يا فرعون مشهوراً﴾ وقال تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ وقال هنا: ﴿ثم أرسلنا موسى

المهلكين ﴿ في الغرق في البحر ﴾، ويتو إسرائيل ينظرون.

﴿ولقد آتينا موسى﴾ بعدما أهلك الله فرعون، وخلص الشعب الإسرائيلي مع موسى، وتمكن حينئذ من إقامة أمر الله فيهم، وإظهار شعائره، وعده الله أن ينزل عليه التوراة أربعين ليلة، فذهب لميقات ربه، قال الله تعالى ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء﴾. ولهذا قال هنا: ﴿لعلهم يهتدون﴾ أي: بمعرفة تفاصيل الأمر والنهي، والثواب والعقاب، ويعرفون ربهم بأسمائه وصفاته.

ولهذا، الأعمال الصالحة، التي هي صلاح في جميع الأزمنة، قد اتفقت عليها الأنبياء والشرائع، كالأمر بتوحيد الله، وإخلاص الدين له، ومحبة، وخوفه، ورجائه، والبر، والصدق، والوفاء بالعهد، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى الضعفاء والمساكين واليتامى، والحنو والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك من الأعمال الصالحة، ولهذا كان أهل العلم، والكتب السابقة، والعقل، حين بعث الله محمداً ﷺ، يستدلون على نبوته بأجناس ما يأمر به، وينهى عنه، كما جرى لهرقل وغيره، فإنه إذا أمر بما أمر به الأنبياء، الذين من قبله، ونهى عما نهوا عنه، دل على أنه من جنسهم، بخلاف الكذاب، فلا بد أن يأمر بالشر، وينهى عن الخير.

ولهذا قال تعالى للرسول: ﴿وإن هذه أممكم أمة﴾ أي: جماعتكم - يا معشر الرسل - جماعة واحدة متفقة على دين واحد، وريكم واحد.

﴿فاتقون﴾ بامتثال أوامري، واجتناب زواجري. وقد أمر الله المؤمنين بما أمر به المرسلين، لأنهم بهم يقتدون، وخلفهم يسلكون، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾ فالواجب من كل المتسبين إلى الأنبياء وغيرهم، أن يمشثوا هذا، ويعملوا به، ولكن أبى الظالمون المفترون إلا عصياناً، ولهذا قال: ﴿فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً﴾ أي: تقطع المتسبون إلى اتباع الأنبياء ﴿أمرهم﴾ أي: دينهم ﴿بينهم زبراً﴾ أي: قطعاً كل حزب بما لديهم

﴿وجعلنا ابن مريم وأويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين﴾ أي: وامتتتاً على عيسى ابن مريم، وجعلناه وأمه من آيات الله العجيبة، حيث حملته وولذته من غير أب، وتكلم في المهد صبياً، وأجرى الله على يديه من الآيات ما أجرى، ﴿وأويناهما إلى ربوة﴾ أي: مكان مرتفع، وهذا - والله أعلم - وقت وضعها، ﴿ذات قرار﴾ أي: مستقر وراحة ﴿ومعين﴾ أي: ماء جار، دليل قوله: ﴿قد جعل ربك تحتك﴾ أي: تحت المكان الذي أنت فيه، لارتفاعه، ﴿سرياً﴾ أي: نهراً وهو المعين، وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنياً * فكل واشربي وقري عينا﴾.

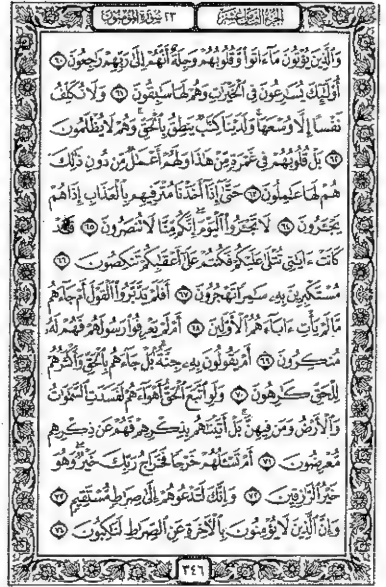
﴿٥١-٥٦﴾ ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم﴾ وإن هذه أممكم أمة واحدة وأنا ربيكم فاتقون * فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون * فذرهم في غمرتهم حتى حين * يحسبون أننا نمدهم به من مال وبني * نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون * هذا أمر منه تعالى لرسله بأكل الطيبات، التي هي الرزق الطيب الحلال، وشكر الله، بالعمل الصالح، الذي به يصلح القلب والبدن، والدنيا والآخرة. ويخبرهم أنه بما يعملون عليم، فكل عمل عملوه، وكل سعي

وأخاه هارون بأبائنا وسلطان مبین * إلى فرعون وملئیه * ك «هامان» وغيره من رؤسائهم، «فاستكبروا» أي: تكبروا عن الإيمان بالله، واستكبروا على أنبيائه، «وكانوا قوماً عالين» أي: وصفهم العلو، والقهر، والفساد في الأرض، فلهذا صدر منهم الاستكبار، ذلك غير مستكثر منهم.

﴿فقالوا﴾ كبراً وتبهاً، وتحذيراً للضعفاء العقول، وتحميماً: ﴿أنؤمن لبشرين مثلنا﴾ كما قاله من قبلهم سواء بسواء، تشابهت قلوبهم في الكفر، فتشابهت أقوالهم وأفعالهم، وجحدوا مئة الله عليهما بالرسالة.

﴿وقومهما﴾ أي: بنو إسرائيل عابدون، أي: معبدون بالأعمال والأشغال الشاقة، كما قال تعالى: ﴿وإذ نجيناكم من سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ فكيف نكون تابعين بعد أن كنا متبوعين؟! وكيف يكون هؤلاء رؤساء علينا؟! ونظير قولهم، قول قوم نوح: ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾ «وما نراك اتبعك إلا الذين هم أرذلنا بادي الرأي». من المعلوم أن هذا لا يصلح لدفع الحق، وأنه تكذيب ومعاندة.

ولهذا قال: ﴿فكذبوها فكانوا من



الخير، همهم ما يقرهم إلى الله، وإرادتهم مصروفة فيما ينجي من عذابه، فكل خير سمعوا به، أو سنحت لهم الفرصة إليه، انتهزوه وبادروه، قد نظروا إلى أولياء الله وأصفيائه، أمامهم، ويمنة، ويسرة، يسارعون في كل خير، وينافسون في الزلفى عند ربهم، فنافسوه. ولما كان السابق لغيره المسارع قد يسبق لجلده وتشميره، وقد لا يسبق لتقصيره، أخبر تعالى أن هؤلاء من القسم السابق فقال:

﴿وهم لها﴾ أي: للخيرات **﴿سابقون﴾** قد بلغوا ذروتها، وتباروا هم والرعييل الأول، ومع هذا، قد سبقت لهم من الله سابقة السعادة، أنهم سابقون. ولما ذكر مسارعهم إلى الخيرات وسبقهم إليها، ربما وهم وأهم أن المطلوب منهم ومن غيرهم أمر غير مقدور أو متعسر، أخبر تعالى أنه لا يكلف **﴿نفساً إلا وسعها﴾** أي: بقدر ما تسعه، ويفضل من قوتها عنه، ليس مما يستوعب قوتها، رحمة منه وحكمة، لتيسير طريق الوصول إليه، ولتعمر جادة السالكين في كل وقت إليه. **﴿ولدينا كتاب ينطق بالحق﴾** وهو الكتاب الأول، الذي فيه كل شيء، وهو يطابق كل واقع يكون، فلذلك كان حقاً، **﴿وهم لا يظلمون﴾** ينقص من إحسانهم، أو يزداد في عقوبتهم وعصيانهم.

﴿٦٣ - ٦٧﴾ **﴿بل قلوبهم في غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون﴾** حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون * لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون * قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون * مستكبرين به سامراً تهجرون * يخبر تعالى أن قلوب المكذبين في غمرة من هذا، أي: وسط غمرة من الجهل والظلم، والغفلة والإعراض، تمنعهم من الوصول إلى هذا القرآن، فلا يهتدون به، ولا يصل

أن يضع عليهم عدله، فلا يبقى لهم حسنة، وسوء ظن بأنفسهم، أن لا يكونوا قد قاموا بحق الله تعالى، وخوفاً على إيمانهم من الزوال، ومعرفة منهم برهم، وما يستحقه من الإجلال والإكرام، وخوفهم وإشفاقهم يوجب لهم الكف عما يوجب الأمر المخوف من الذنوب، والتقصير في الواجبات.

﴿والذين هم بآيات ربهم يؤمنون﴾ أي: إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً، وتفكرون أيضاً في الآيات القرآنية ويتدبرونها، فيبين لهم من معاني القرآن وجلالته واتفاقه، وعدم اختلافه وتناقضه، وما يدعو إليه من معرفة الله وخوفه ورجائه، وأحوال الجزاء، فيحدث لهم بذلك من تفاصيل الإيمان، ما لا يعبر عنه اللسان.

ويتفكرون أيضاً في الآيات الأفقية، كما في قوله: **﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لآولي الألباب﴾** إلى آخر الآيات.

﴿والذين هم برهم لا يشركون﴾ أي: لا شركاً جلياً، كاتخاذ غير الله معبوداً، يدعو ويرجوه ولا شركاً خفياً، كالرياء ونحوه، بل هم مخلصون لله، في أقوالهم وأعمالهم وسائر أحوالهم.

﴿والذين يؤتون ما آتوا﴾ أي: يعطون من أنفسهم مما أمروا به، ما أتوا من كل ما يقدر عليهم، من صلاة، وزكاة، وحج، وصدقة، وغير ذلك، **﴿و﴾** مع هذا **﴿قلوبهم وجل﴾** أي: خائفة **﴿أنهم إلى ربهم راجعون﴾** أي: خائفة عند عرض أعمالها عليه، والوقوف بين يديه، أن تكون أعمالهم غير منجية من عذاب الله، لعلمهم برهم، وما يستحقه من أصناف العبادات.

﴿أولئك يسارعون في الخيرات﴾ أي: في ميدان التسارع في أفعال

أي: بما عندهم من العلم والدين **﴿فرحون﴾** يزعمون أنهم المحقون، وغيرهم على غير الحق، مع أن المحق منهم، من كان على طريق الرسل، من أكل الطيبات، والعمل الصالح، وما عداهم فإنهم مبطلون.

﴿فذرهم في غمرتهم﴾ أي: في وسط جهلهم بالحق، ودعواهم أنهم هم ^(١) المحقون. **﴿حتى حين﴾** أي: إلى أن ينزل العذاب بهم، فإنهم لا ينفذ فيهم وعظ، ولا يفيدهم زجر، وكيف يفيد من يزعم أنه على الحق، ويطمع في دعوة غيره إلى ما هو عليه؟

﴿المجسبون﴾ أنما نمدهم به من مال وبئس * تسارع لهم في الخيرات **﴿أي:﴾** أي: يظنون أن زيادتنا إياهم بالأموال والأولاد، دليل على أنهم من أهل الخير والسعادة، وأن لهم خير الدنيا والآخرة؟ وهذا مقدم لهم، ليس الأمر كذلك.

﴿بل لا يشعرون﴾ أنما نملي لهم ونمهلهم ونمدهم بالنعم، ليزدادوا إثماً، ولتوفر عقابهم في الآخرة، وليغبطوا بما أوتوا **﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة﴾**.

﴿٥٧ - ٦٢﴾ **﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾** والذين هم بآيات ربهم يؤمنون * والذين هم برهم لا يشركون * والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون * أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون * ولا تكلف نفساً إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون * لما ذكر تعالى الذين جمعوا بين الإساءة والأمن، الذين يزعمون أن عطاء الله إياهم في الدنيا دليل على خيرهم وفضلهم، ذكر الذين جمعوا بين الإحسان والخوف، فقال: **﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾** أي: وجلون، مشفقة قلوبهم كل ذلك من خشية ربهم، خوفاً

(١) في النسختين: هو.

يقولون: لا نعرفه، ولا نعرف صدقه، دعونا حتى ننظر حاله ونسال عنه مَنْ له به خبرة، أي: لم يكن الأمر كذلك، فإنهم يعرفون الرسول ﷺ معرفة تامة، صغيرهم وكبيرهم يعرفون منه كل خلق جميل، ويعرفون صدقه وأمانته، حتى كانوا يسمونه قبل البعثة «الأمين» فلم لا يصندقونه، حين جاءهم بالحق العظيم، والصدق المبين؟

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي: جنون، فلهذا قال ما قال، والمجنون غير مسموع منه، ولا عبرة بكلامه، لأنه يهذي بالباطل والكلام السخيف.

قال الله في الرد عليهم في هذه المقالة: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي: بالأمر الثابت، الذي هو صدق وعدل، لا اختلاف فيه ولا تناقض، فكيف يكون من جاء به، به جنة؟! وهلا يكون إلا في أعلى درج الكمال، من العلم والعقل ومكارم الأخلاق، وأيضاً فإن في هذا الانتقال مما تقدم، أي: بل الحقيقة التي منعتهم من الإيمان أنه جاءهم بالحق ﴿وَأَوَّاهُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ وأعظم الحق الذي جاءهم به إخلاص العبادة لله وحده، وترك ما يعبد من دون الله. وقد علم كراحتهم لهذا الأمر وتعجبهم منه، فيكون الرسول أتى بالحق، وكونهم كارهين للحق بالأصل، هو الذي أوجب لهم التكذيب بالحق لا شكاً ولا تكديماً للرسول، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنِ الظَّالِمِينَ بَيِّنَاتٍ اللَّهُ يَكْذِبُونَ﴾ فإن قيل: لم لم يكن الحق موافقاً لأهوائهم لأجل أن يؤمنوا ويسرعوا الانقياد؟ أجاب تعالى بقوله: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَوَجْهَ ذَلِكَ أَنَّ أَهْوَاءَهُمْ مُتَعَلِّقَةٌ بِالظُّلْمِ وَالْكَفْرِ وَالْفُسَادِ مِنَ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ، فَلَوْ تَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، لِفُسَادِ التَّصَرُّفِ وَالتَّدْبِيرِ الْمُبْنِيِّ عَلَى الظُّلْمِ وَعَدَمِ الْعَدْلِ،

﴿مُتَجَرِّونَ﴾ [أي: تقولون الكلام الهجر الذي هو القبيح في] (٢) هذا القرآن. فالمكذبون كانت طريقتهم في القرآن، الإعراض عنه، ويوصي بعضهم بعضاً بذلك ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وقال الله عنهم: ﴿أَفَمَنْ هَذَا الْحَدِيثَ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ أَمْ يَقُولُونَ لقوله؟

فلما كانوا جامعين لهذه الرذائل، لا جرم حقت عليهم العقوبة، ولما وقعوا فيها، لم يكن لهم ناصر ينصرهم، ولا مغيث ينقذهم، ويريدون عند ذلك بهذه الأعمال الساقطة ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ أي: أفلا يتفكرون في القرآن ويتأملونه ويتدبرونه، أي: فإنهم لو تدبروه، لأوجب لهم الإيمان، ولمنعهم من الكفر، ولكن المصيبة التي أصابتهم بسبب إعراضهم عنه، ودل هذا على أن تدبر القرآن، يدعو إلى كل خير، ويعصم من كل شر، والذي منعهم من تدبره أن على قلوبهم أفتالها.

﴿أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: أن منعهم من الإيمان، أنه جاءهم رسول وكتاب، ما جاء آباءهم الأولين، فرضوا بسلوك طريق آبائهم الضالين، وعارضوا كل ما خالف ذلك، ولهذا قالوا، هم ومن أشبههم من الكفار، ما أخبر الله عنهم: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ فأجابهم بقوله: ﴿قَالَ أُولَئِكَ جِئْتَكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ فهل تتبعون إن كان قصدكم الحق، فأجابوا بحقيقة أمرهم ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾.

وقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ أي: أو منعهم من اتباع الحق، أن رسولهم محمداً ﷺ، غير معروف عندهم، فهم منكرون له؟

إلى قلوبهم منه شيء. ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا * فَلَمَّا كَانَتْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْهُ، عملوا بحسب هذا الحال، من الأعمال الكفرية، والمعاندة للشرع، ما هو موجب لعقابهم، ﴿وَوَلَّكَ لَكُمْ لَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ﴾ هذه الأعمال ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ أي: فلا يستغربوا عدم وقوع العذاب فيهم، فإن الله يمهلهم ليعملوا هذه الأعمال، التي بقيت عليهم مما كتب عليهم، فإذا عملوها واستوفوها، انتقلوا بشر حالة إلى غضب الله وعقابه.

﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ﴾ أي: متنعيمهم، الذين ما اعتادوا إلا الترف والرفاهية والنعيم، ولم تحصل لهم المكار، فإذا أخذناهم ﴿بِالْعَذَابِ﴾ ووجدوا مسه ﴿إِذَا هُمْ بِمِجَارٍ﴾ يصرخون ويتوجعون، لأنه أصابهم أمر خالف ما هم عليه، ويستغيثون، فيقال لهم: ﴿لَا تَجَارُوا الْيَوْمَ مِنْكُمْ مَنْ لَا تُنْصَرُونَ﴾ وإذا لم تأتهم النصرة من الله، وانقطع عنهم (١) الغوث من جانبه، لم يستطيعوا نصر أنفسهم، ولم ينصرهم أحد.

فكأنه قيل: ما السبب الذي أوصلهم إلى هذا الحال؟ قال: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تَتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ لتؤمنوا بها وتقبلوا عليها، فلم تفعلوا ذلك، بل ﴿كُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تُنْكَصُونَ﴾ أي: راجعين القهقري إلى الخلف، وذلك لأن باتباعهم القرآن يتقدمون، وبالإعراض عنه يستأخرون وينزلون إلى أسفل سافلين. ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجَرُونَ﴾ قال المفسرون معناه: مستكبرين به، الضمير يعود إلى البيت المعهود عند المخاطبين، أو الحرم، أي: متكبرين على الناس بسببه، تقولون: نحن أهل الحرم، فنحن أفضل من غيرنا وأعلى، ﴿سَامِرًا﴾ أي: جماعة يتحدثون بالليل حول البيت

(٢) زيادة من هامش: ب.

(١) كذا في ب، وفي أ: عنه.

فالسماوات والأرض ما استقامتا إلا بالحق والعدل ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾ أي: بهذا القرآن المذكر لهم بكل خير، الذي به فخرهم وشرفهم، حين يقومون به، ويكونون به سادة الناس.

﴿فَهِم عَنْ ذِكْرِهِمْ مَعْرُضُونَ﴾ شقاوة منهم، وعدم توفيق ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ فنسيهم ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ فالقرآن ومن جاء به، أعظم نعمة ساقها الله إليهم، فلم يقابلوها إلا بالرد والإعراض، فهل بعد هذا الحرمان حرمان؟ وهل يكون وراءه إلا نهاية الخسران؟

﴿٧٢﴾ ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخِرَاجَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي: أو منعمهم من اتباعك يا محمد، أنك تسألهم على الإجابة أجرًا ﴿فَهِم مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ يتكفلون من اتباعك، بسبب ما تأخذ منهم من الأجر والخراج، ليس الأمر كذلك ﴿فَخِرَاجَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ وهذا كما قال الأنبياء لأمتهم: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: ليسوا يدعون الخلق طمعاً فيما يصيبهم منهم من الأموال، وإنما يدعون نصحاً لهم، وتحصيلاً لمصالحهم، بل كان الرسل أنصخ للخلق من أنفسهم، فجزأهم الله عن أمتهم خير الجزاء، ووزقنا الاقتداء بهم في جميع الأحوال.

﴿٧٣ - ٧٤﴾ ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وإن الدين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكِبُونَ ﴿ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ، كُلِّ سَبَبٍ مُوجِبٍ لِلْإِيمَانِ، وَذَكَرَ الْمَوَانِعَ، وَبَيْنَ فَسَادِهَا، وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ، فَذَكَرَ مِنَ الْمَوَانِعِ أَنْ قُلُوبَهُمْ فِي غَمْرَةٍ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يَدْبِرُوا الْقَوْلَ، وَأَنَّهُمْ اقْتَدَوْا بِآيَاتِهِمْ، وَأَنَّهُمْ قَالُوا: بِرَسُولِهِمْ جَنَّةٌ، كَمَا تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا، وَذَكَرَ مِنَ الْأُمُورِ الْمَوْجِبَةِ لِلْإِيمَانِ، تَدْبِيرَ الْقُرْآنِ، وَتَلَقُّي نِعْمَةِ اللَّهِ بِالْقَبُولِ، وَمَعْرِفَةَ حَالِ

الرسول محمد ﷺ، وكمال صدقه وأمانته، وأنه لا يسألهم عليه أجرًا، وإنما سعيه لنفعهم ومصلحتهم، وأن الذي يدعوههم إليه صراط مستقيم، سهل على العاملين لاستقامته، موصل إلى المقصود، من قرب حنييفة سمحة، حنيفية في التوحيد، سمحة في العمل، فدعوتك إليهم إلى الصراط المستقيم، موجب لمن يريد الحق أن يتبعك، لأنه مما تشهد العقول والفطر بحسنه، وموافقته للمصالح، فأين يذهبون إن لم يتابعوك؟ فإنهم ليس عندهم ما يغنيهم ويكفيهم عن متابعتك، لأنهم ﴿عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّاكِبُونَ﴾ متجنبون منحرفون، عن الطريق الموصل إلى الله، وإلى دار كرامته، ليس في أيديهم إلا ضلالات وجهالات.

وهكذا كل من خالف الحق، لا بد أن يكون منحرفاً في جميع أموره، قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغْيَ هُدَى اللَّهِ﴾.

﴿٧٥ - ٧٧﴾ ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجَوَاءُ فِي طَغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ هذا بيان لشدة ترددهم وعنادهم، وأنهم إذا أصابهم الضر، دعوا الله أن يكشف عنهم ليؤمنوا، أو ابتلاهم بذلك ليرجعوا إليه. إن الله إذا كشف الضر عنهم لجأوا، أي: استمروا في طغيانهم يعمَهُونَ، أي: يجولون في كفرهم، حائرين مترددين.

كما ذكر الله حالهم عند زكوب الفلك، وأنهم يدعونه مخلصين له الدين، وينسون ما يشركون به، فلما أوجاههم إذا هم يبعثون في الأرض بالشرك وغيره.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ قال المفسرون: المراد بذلك: الجوع الذي أصابهم سبع سنين، وأن الله ابتلاهم

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجَوَاءُ فِي طَغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ولقد أخذناهم بالكتاب فما استكانوا ﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ وهو الذي أنشأكم السمسم والبصير والأفئدة قديماً ما تشكرون ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون ﴿بَلْ قَالُوا إِذَا فُتِنَّا بِالَّذِي قَالُوا بَدِثْنَا وَمَا نَكُنَّا بِبَدِثَةٍ إِنَّا كُنَّا مُتَعَبِينَ﴾ ولقد وعدنا نحن وآبائنا أن نبعث فيهم من هذا إلا أسطفاً للآخرين ﴿قُلْ لَّيْسَ الْأَرْضُ دِينٌ وَمَنْ دِينًا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ﴾ ﴿سَيَقُولُونَ يَدْعُوهم إِلَى الْقَدَرِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿قُلْ لَّيْسَ رَبُّنَا إِلَّا السَّمْعُ وَبَيْنَ يَدَيْهِ عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿سَيَقُولُونَ يَدْعُوهم إِلَى الْقَدَرِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿قُلْ لَّيْسَ رَبُّنَا إِلَّا السَّمْعُ وَبَيْنَ يَدَيْهِ عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿سَيَقُولُونَ يَدْعُوهم إِلَى الْقَدَرِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

بذلك، ليرجعوا إليه بالذل والاستسلام، فلم ينجع فيهم، ولا نجح منهم أحد، ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي: خضعوا وذلوا ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ إليه ويفتقرون، بل مرَّ عليهم ذلك ثم زال، كأنه لم يصبهم، لم يزلوا في غيهم وكفرهم، ولكن وراءهم العذاب الذي لا يرد، وهو قوله: ﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ كالقتل يوم بدر وغيره، ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أيسون من كل خير، قد حضرهم الشر وأسبابه، فَلْيَحْذَرُوا قَبْلَ نَزُولِ عَذَابِ اللَّهِ الشَّدِيدِ، الذي لا يرد، بخلاف مجرد العذاب، فإنه ربما أُلْقِعَ عنهم، كالعقوبات الدنيوية، التي يؤدب الله بها عباده. قال تعالى فيها: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿٧٨ - ٨٠﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون ﴿وَهُوَ الَّذِي يَحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يخبر تعالى بمنته على عباده الداعية^(١) لهم إلى شكره، والقيام بحقه فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمْ

ما يوعدون * رب فلا تجعلني في القوم الظالمين * وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون * لما أقام تعالى على المكذبين أدلته العظيمة، فلم يلتفتوا لها، ولم يدعوا لها، حتى عليهم العذاب، ووعدوا بنزوله، وأرشد الله رسوله أن يقول: ﴿قل رب إما تريني ما يوعدون﴾ أي: أي وقت أريتنى عذابهم، وأحضرتني ذلك، ﴿رب فلا تجعلني في القوم الظالمين﴾ أي: اعصمني واحمني، مما ابتليتهم به من الذنوب الموجبة للنقم، واحمني أيضاً من العذاب الذي ينزل بهم، لأن العقوبة العامة تعم - عند نزولها - العاصي وغيره، قال الله في تقريب عذابهم: ﴿وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون﴾ ولكن إن أخرته فليحكمة، وإلا، فقدرتنا صالحة لإيقاعه فيهم.

﴿٩٦ - ٩٨﴾ ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون * وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين * وأعوذ بك رب أن يحضرون * هذا من مكارم الأخلاق، التي أمر الله رسوله بها فقال: ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة﴾ أي: إذا أساء إليك أعداؤك، بالقول والفعل، فلا تقابلهم بالإساءة، مع أنه يجوز معاقبة المسيء بمثل إساءته، ولكن ادفع إساءتهم إليك بالإحسان منك إليهم، فإن ذلك فضل منك على المسيء، ومن مصالح ذلك، أنه تخف الإساءة عنك، في الحال، وفي المستقبل، وأنه أدعى لجلب المسيء إلى الحق، وأقرب إلى ندمه وأسفه، ورجوعه بالتوبة عما فعل، ولتتصف العاقبة بصفة الإحسان، ويظهر بذلك عدوه الشيطان، وليستوجب الثواب من الرب، قال تعالى: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ وقال تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ وما يلقاها﴾ أي: ما يوفق لهذا الخلق الجميل﴾ إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ

ما يعوضهم عنه، إلا الكذب والظلم، ولهذا قال: ﴿وإنهم لكاذبون﴾.

﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله﴾ كذب يعرف بخبر الله، وخبر رسله، ويعرف بالعقل الصحيح، ولهذا نبه تعالى على الدليل العقلي، على امتناع إلهين فقال: ﴿إِذَا﴾ أي: لو كان معه إلهة كما يقولون ﴿لذهب كل إله بما خلق﴾ أي: لا تفرد كل واحد من الإلهين بمخلوقاته واستقل بها، ولحرص على ممانعة الآخر ومغالبة، ﴿ولعل بعضهم على بعض﴾ فالغالب يكون هو الإله، وإلا فمع التمانع لا يمكن وجود العالم، ولا يتصور أن ينتظم هذا الانتظام المدهش للعقول، واعتبر ذلك بالشمس والقمر، والكواكب الثابتة، والسيارة، فإنها منذ خلقت، وهي تجري على نظام واحد، وترتيب واحد، كلها مسخرة بالقدر، مدبرة بالحكمة لمصالح الخلق كلهم، ليست مقصورة على مصلحة أحد دون أحد، ولن ترى فيها خللاً ولا تناقضاً، ولا معارضة في أدنى تصرف، فهل يتصور أن يكون ذلك، تقدير إلهين ربَّين!!

﴿سبحان الله عما يصفون﴾ قد نطقت بلسان خالها، وأفهمت ببدع أشكالها، أن المدبر لها إله واحد، كامل الأسماء والصفات، قد اقتقرت إليه جميع المخلوقات، في ربوبيته لها، وفي إلهيته لها، فكما لا وجود لها ولا دوام إلا بربوبيته، كذلك، لا صلاح لها ولا قوام إلا بعبادته وإفراده بالطاعة، ولهذا نبه على عظمة صفاته بأنموذج من ذلك، وهو علمه المحيط، فقال: ﴿عالم الغيب﴾ أي: الذي غاب عن أبصارنا وعلمنا، من الواجبات والمستحيلات والمستكنات، ﴿والشهادة﴾ وهو ما نشاهد من ذلك، ﴿فتعالى﴾ أي: ارتفع وعظم، ﴿عما يشركون﴾ به، من لا علم عنده، إلا ما علمه الله^(١).

﴿٩٣ - ٩٥﴾ قل رب إما تريني

وتتقون الرب العظيم، كامل القدرة، عظيم السلطان؟ وفي هذا من لطف الخطاب، من قوله: ﴿أفلا تذكرون﴾ ﴿أفلا تتقون﴾ والوعظ بأداة العرض الجاذبة للقلوب، ما لا يخفى. ثم انتقل إلى إقرارهم بما هو أعم من ذلك كله فقال: ﴿قل من بيده ملكوت كل شيء﴾ أي: ملك كل شيء، من العالم العلوي، والعالم السفلي، ما نصره، وما لا نصره؟

و «الملكوت»: صيغة مبالغة، بمعنى الملك. ﴿وهو يحير﴾ عبادته من الشر، ويدفع عنهم المكاره، ويحفظهم مما يضرهم، ﴿ولا يجار عليه﴾ أي: لا يقدر أحد أن يجير على الله، ولا يدفع الشر الذي قدره الله. بل ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، ﴿سيقولون لله﴾ أي: سيقرون أن الله المالك لكل شيء، المجير، الذي لا يجار عليه.

﴿قل﴾ لهم حين يقرون بذلك، ملزماً لهم، ﴿فأني تسحرون﴾ أي: فأين تذهب عقولكم، حيث عدتم من علمتم أنهم لا ملك لهم، ولا قسط من الملك، وأنهم عاجزون من جميع الوجوه، وتركتم الإخلاص للمالك العظيم القادر المدبر لجميع الأمور، فالعقول التي دلتكم على هذا، لا تكون إلا مسحورة، وهي - بلا شك - قد سحرها الشيطان، بما زين لهم، وحسن لهم، وقلب الحقائق لهم، فسحروا عقولهم، كما سحرت السحرة أعين الناس.

﴿٩٦ - ٩٧﴾ بل أنيناهم بالحق وإنهم لكاذبون * ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعل بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون * عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون * يقول تعالى: بل أنينا هؤلاء المكذبين بالحق، المتضمن للصدق في الأخبار، العدل في الأمر والنهي، فما بالهم لا يعترفون به، وهو أحق أن يتبع؟ وليس عندهم

(١) في ب: شطب حرف الجر (من) وغيرت الجملة فصارت (ولا علم عندهم إلا ما علمه الله).

عظيم.

وقوله: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي: بما يقولون من الأقوال المتضمنة للكفر والتكذيب بالحق، قد أحاط علمنا بذلك، وقد حلمنا عنهم، وأمهلناهم، وصبرنا عليهم، والحق لنا، وتكذيبهم لنا، فانت - يا محمد - ينبغي لك أن تصبر على ما يقولون، وتقابلهم بالإحسان، هذه (١) وظيفة العبد في مقابلة المسيء من البشر، وأما المسيء من الشياطين، فإنه لا يفيد فيه الإحسان، ولا يدعو حزبه إلا ليكونوا من أصحاب السعير، فالوظيفة في مقابلته، أن يسترشد ما أرشد الله إليه رسوله فقال: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ﴾ أي: اعتصم بحولك وقوتك متبرئاً من حولي وقوتي ﴿مَنْ هَزَاتِ الشَّيَاطِينُ﴾ وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴿أَي: أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ الَّذِي يَصْنَعُ بَيْنِي وَسَبَّابَهُمْ وَمَهْزُومَهُمْ وَمَسْتَهْمَهُ، وَمِنَ الشَّرِّ الَّذِي يَسْبَبُ حُضُورَهُمْ وَوَسْوَستِهِمْ، وَهَذِهِ (٢) استعاذة من مادة الشر كله وأصله، ويدخل فيها، الاستعاذة من جميع نزغات الشيطان، ومن مَسَبِهِ وَوَسْوَستِهِ، فإذا أعاذ الله عبده من هذا الشر، وأجاب دعاءه، سلم من كل شر، ووفق لكل خير.

﴿٩٩-١٠٠﴾ ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلاً إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴿يُخَبِّرُ تَعَالَىٰ عَنْ حَالٍ مِنْ حَضْرَةِ الْمَوْتِ، مِنَ الْمُرْطِينِ الظَّالِمِينَ، أَنَّهُ يَنْدَمُ فِي تِلْكَ الْحَالِ، إِذَا رَأَىٰ مَالَهُ، وَشَاهَدَ قَبْحَ أَعْمَالِهِ فَيُطَلَّبُ الرَّجْعَةُ إِلَى الدُّنْيَا، لَا لِلتَّمَتُّعِ بِلَذَائِهَا وَاقْتِطَافِ شَهَوَاتِهَا وَإِنَّمَا ذَلِكَ يَقُولُ:

﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ من العمل، وفرطت في جنب الله. ﴿كَلَّا﴾ أي: لا رجعة له ولا إسهال، قد قضى الله أنهم إليها لا يرجعون،

﴿إِنَّمَا﴾ أي: مقالته التي تمنى فيها الرجوع إلى الدنيا ﴿كَلِمَةً هُوَ قَائِلُهَا﴾ أي: مجرد قول باللسان، لا يفيد صاحبه إلا الحسرة والندم، وهو أيضاً غير صادق في ذلك، فإنه لو رُدَّ لعاد لما نَبَّي عنه.

﴿وَمِنْ ورائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: من أمامهم وبين أيديهم برزخ، وهو الحاجز بين الشيتين، فهو هنا: الحاجز بين الدنيا والآخرة، وفي هذا البرزخ، يتمتع المطيعون، ويعذب العاصون، من موتهم إلى يوم يبعثون، أي: فليُعدوا له عُدتَه، وليأخذوا له أهْبَتَه.

﴿١٠١-١١٤﴾ ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ ﴿تَلْفَحُ وَجُوهُهُمْ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالْحُلِيِّ﴾ ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تَتْلُو عَلَيْهِمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ﴾ ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ ﴿قَالَ اخْسَوْا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُوا﴾ ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ﴾ ﴿قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿يُخَبِّرُ تَعَالَىٰ عَنْ هَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، مِنَ الْمُرْجَعَاتِ وَالْمَقْلَقَاتِ، وَأَنَّهُ إِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةُ الْبَعْثِ، فَحُشِرَ النَّاسُ أَجْمَعُونَ، لِمَقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ، أَنَّهُ يَضِيهِمُ مِنَ الْهَوْلِ مَا يَنْسِيهِمْ أَنْسَابُهُمُ، الَّتِي هِيَ أَقْوَى الْأَسْبَابِ، فَغَيْرِ

الأنساب من باب أولى، وأنه لا يسأل أحد أحداً عن حاله، لاشتغاله بنفسه، فلا يدري هل ينجو نجاة لا شقاوة بعدها؟ أو يشقى شقاوة لا سعادة بعدها؟ قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ ﴿وَأُمِّهِ وَأُوبَيْهِ﴾ ﴿وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (٣)

وفي القيامة مواضع، يشتد كربها، ويعظم وقعها، كالميزان الذي يميز به أعمال العبد، وينظر فيه بالعدل ما له وما عليه، وتبين فيه ثاقيل الذر، من الخير والشر، ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ بأن رجحت حسناته على سيئاته ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ لنجاتهم من النار، واستحقاقهم الجنة، وفوزهم بالثناء الجميل، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ بأن رجحت سيئاته على حسناته، وأحاطت بها خطيئاته ﴿فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ كل خسارة، غير هذه الخسارة، فإنها - بالنسبة إليها - سهلة، ولكن هذه خسارة صعبة، لا يجبر مصابها، ولا يستدرك فائتها، خسارة أبدية، وشقاوة سرمدية، قد خسر نفسه الشريفة، التي يتمكن بها من السعادة الأبدية ففوتها هذا النعيم المقيم، في جوار الرب الكريم.

﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ لا يخرجون منها أبداً الأبدية، وهذا الوعيد، إنما هو كما ذكرنا، لمن أحاطت خطيئاته بحسناته، ولا يكون ذلك إلا كافراً، فعلى هذا، لا يحاسب محاسبة من توزن حسناته وسيئاته، فإنهم لا حسنات لهم، ولكن تُعَدُّ أَعْمَالُهُمْ وَتَحْصَى، فيوقفون عليها، ويقررون بها، ويخزون بها، وأما من معه أصل الإيمان، ولكن عظمّت سيئاته، فرجحت على حسناته، فإنه وإن دخل النار، لا يخلد فيها، كما دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة.

ثم ذكر تعالى، سوء مصير الكافرين

(١) في الموضعين في النسختين: هذا.

(٢) في الموضعين في النسختين: هذا.

(٣) في النسختين وقع تداخل بين آيات سورة عبس وآيات سورة المعارج فكانت أقرب إلى آيات سورة عبس فأثبتها منها.



قليلًا سواء عيشتم بعده، أم لا ﴿لو أنكم كنتم تعلمون﴾.

﴿١١٥ - ١١٦﴾ ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ ﴿فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾ ﴿أي: ﴿أفحسبتم﴾ أيها الخلق أنما خلقناكم عبثاً﴾ أي: سدى وباطلاً، تأكلون وتشربون وقرحون، وتتمتعون ببلذات الدنيا، وترككم لا نأمركم، ولا ننهاكم ولا نثيبكم، ونعاقبكم؟ ولهذا قال: ﴿وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ لا يخطر هذا ببالكم، ﴿فتعالى الله﴾ أي: تعظم وارتفع عن هذا الظن الباطل، الذي يرجع إلى القدر في حكمته. ﴿الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾ فكونه ملكاً للخلق كله حقاً، في صدقه، ووعده، ووعيده، مألوهاً معبوداً، لما له من الكمال ﴿رب العرش الكريم﴾ فما دونه من باب أولى، يمنع أن يخلقكم عبثاً.

﴿١١٧ - ١١٨﴾ ﴿ومن يسد مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون﴾ ﴿وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين﴾ أي: ومن دعا

خير الراحمين﴾ فجمعوا بين الإيمان المقتضي لأعماله الصالحة، والدعاء لربهم بالمغفرة والرحمة، والتوسل إليه بربوبيته، ومنته عليهم بالإيمان، والإخبار بسعة رحمته، وعموم إحسانه، وفي ضمنه، ما يدل على خضوعهم وخشوعهم، وانكسارهم لربهم، وخوفهم ورجائهم.

فهؤلاء سادات الناس وفضلاؤهم، ﴿فاتخذوهم﴾ أيها الكفرة الأتذال ناقصو العقول والأحلام ﴿سخرين﴾ تهزؤون بهم وتحقروهم، حتى اشتغلتم بذلك السفه.

﴿حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون﴾ وهذا الذي أوجب لهم نسيان الذكر، اشتغالهم بالاستهزاء بهم، كما أن نسيانهم للذكر، يحثهم على الاستهزاء، فكل من الأمرين يمد الآخر، فهل فوق هذه الجراءة جرأة؟! ﴿إني جزيتهم اليوم بما صبروا﴾ على طاعتي، وعلى أذاكم، حتى وصلوا إلي.

﴿أنهم هم الفائزون﴾ بالنعيم المقيم، والنجاة من الجحيم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون﴾ الآيات.

﴿قال﴾ لهم على وجه اللوم، وأنهم سفهاء الأحلام، حيث اكتسبوا في هذه المدة اليسيرة كل شر أوصلهم إلى غضبه وعقوبته، ولم يكتسبوا ما اكتسبه المؤمنون ﴿من﴾ الخير، الذي يوصلهم إلى السعادة الدائمة ورضوان ربهم.

﴿كم لبثتم في الأرض عدد سنين﴾ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم﴾ كلامهم هذا، مبني على استقصارهم جداً، لمدة مكثهم في الدنيا وأفاد ذلك، لكنه لا يفيد مقداره، ولا يعينه، فلماذا قالوا: ﴿فاسأل العادين﴾ أي: الضابطین لعدده، وأما هم، ففي شغل شاغل^(١)، وعذاب مذهل، عن معرفة عدده، فقال لهم: ﴿إن لبثتم إلا

فقال: ﴿تلفح وجوههم النار﴾ أي: تخشاهم من جميع جوانبهم، حتى تصيب أعضاءهم الشريفة، ويتقطع لهبها عن وجوههم، ﴿وهم فيها كالحون﴾ قد عبست وجوههم، وقلصت شفاههم، من شدة ما هم فيه، وعظيم ما يلقونه، فيقال لهم - توبيخاً ولوماً -: ﴿ألم تكن آياتي تتلى عليكم﴾ تدعون بها، لتؤمنوا، وتعرض عليكم لتنظروا، ﴿فكنتم بها تكذبون﴾ ظلمنا منكم وعناداً، وهي آيات بينات، دالات على الحق والباطل، مبيّنات للمحق والمبطل، فحيث أنفروا بظلمهم، حيث لا ينفع الإقرار ﴿قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا﴾ أي: غلبت علينا الشقاوة الناشئة عن الظلم والإعراض عن الحق، والإقبال على ما يضر، وترك ما ينفع ﴿وكننا قوماً ضالين﴾ في عملهم، وإن كانوا يدرون أنهم ظالمون، أي: فعلنا في الدنيا فعل التائه، الضال السفيه، كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾.

﴿ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾ وهم كاذبون في وعدهم هذا، فإنهم كما قال تعالى: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾ ولم يُبَيَّنْ الله لهم حجة، بل قطع أعدارهم، وعمَّهم في الدنيا، ما يتذكر فيه ﴿من﴾ المتذكر، ويرتدع فيه المجرم، فقال الله جواباً لنسوالهم: ﴿أخسؤوا فيها ولا تكلمون﴾ وهذا القول - نسأله تعالى العافية - أعظم قول على الإطلاق يسمعه المجرمون في التخييب، والتوبيخ، والذل، والخسار، والتأيس من كل خير، والبشرى بكل شر، وهذا الكلام والغضب من الرب الرحيم، أشد عليهم وأبلغ في نكايته من عذاب الجحيم، ثم ذكر الحال التي أوصلتهم إلى العذاب، وقطعت عنهم الرحمة فقال: ﴿إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا أنفأ غفر لنا وإرحنا وأنت

(١) كذا في ب، وفي أ: كلمة غير واضحة كأنها: مناغل.

صاحبه، وعرض من قارنه ومازجه، ما لا يفعله بقية الذنوب، فأخير أن الزاني لا يقدم على نكاحه من النساء، إلا أنثى زانية، تناسب حاله حالها، أو مشركة بالله، لا تؤمن ببعث ولا جزاء، ولا تلتزم أمر الله، والزانية كذلك، لا ينكحها إلا زان أو مشرك ﴿وحرم ذلك على المؤمنين﴾ أي: حرم عليهم أن ينكحوا زانياً، أو ينكحوا زانية.

ومعنى الآية: أن من اتصف بالزنا، من رجل أو امرأة، ولم يتب من ذلك، أن المقدم على نكاحه، مع تحريم الله لذلك، لا يخلو إما أن لا يكون ملتزماً لحكم الله ورسوله، فذاك لا يكون إلا مشركاً، وإما أن يكون ملتزماً لحكم الله ورسوله، فأقدم على نكاحه مع علمه بزناه، فإن هذا النكاح زنا، والنكاح زان مسافح، فلو كان مؤمناً بالله حقاً، لم يقدم على ذلك، وهذا دليل ضريح على تحريم نكاح الزانية حتى تتوب، وكذلك إنكاح الزاني حتى يتوب، فإن مقارنة الزوج لزوجته، والزوجة لزوجها، أشد الاقترانات والازدواجيات، وقد قال تعالى: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾ أي: قرنائهم، فحرم الله ذلك، لما فيه من الشر العظيم، وفيه من قلة الغيرة، وإلحاق الأولاد، الذين ليسوا من الزوج، وكون الزاني لا يعفها بسبب اشتغاله بغيرها، مما بعضه كاف للتحريم^(١)، وفي هذا دليل أن الزاني ليس مؤمناً، كما قال النبي ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» فهو وإن لم يكن مشركاً، فلا يطلق عليه اسم الملح، الذي هو الإيمان المطلق.

﴿٤-٥﴾ «والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون» * إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم» لما عظم تعالى أمر

رحمة منا بالعباد، وحفظناها من كل شيطان ﴿وفرضناها﴾ أي: قدرنا فيها ما قدرنا، من الحدود والشهادات وغيرها، ﴿وانزلنا فيها آيات بينات﴾ أي: أحكاماً جلية، وأوامر وزواجر، وحكماً عظيمة ﴿لعلكم تذكرون﴾ حين نبين لكم، ونعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.

ثم شرع في بيان تلك الأحكام المشار إليها، فقال:

﴿٢-٣﴾ «الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عداهما طائفة من المؤمنين».

هذا الحكم في الزاني والزانية البكرين، أنهما يجلد كل منهما مئة جلدة، وأما الثيب، فقد دلت السنة الصحيحة المشهورة، أن حده الرجم، ونهانا تعالى أن تأخذنا رأفة [بهما] في دين الله، تمنعنا من إقامة الحد عليهما، سواء رأفة طبيعية، أو لأجل قرابة أو صداقة أو غير ذلك، وأن الإيمان موجب لانتفاء هذه الرأفة المانعة من إقامة أمر الله، فرحمته حقيقة، بإقامة حد الله عليه، فتحن وإن رحمتها لجريان القدر عليه، فلا نرحمه من هذا الجانب، وأمر تعالى أن يحضر عذاب الزانين طائفة، أي: جماعة من المؤمنين، ليستهر ويحصل بذلك الخزي والارتداع، وليشهدوا الحد فعلاً، فإن مشاهدة أحكام الشرع بالفعل، مما يقوى بها العلم، ويستقر بها الفهم، ويكون أقرب لإصابة الصواب، فلا يزداد فيه ولا ينقص، والله أعلم.

«الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين» هذا بيان لرذيلة الزنا، وأنه يندنس عرض



مع الله آلهة غيره، بلا بينة من أمره ولا برهان يدل على ما ذهب إليه، وهذا قيد ملازم، فكل من دعا غير الله، فليس له برهان على ذلك، بل دلت البراهين على بطلان ما ذهب إليه، فأعرض عنها ظلماً وعناداً، فهذا سيقدم على ربه، فيجازيه بأعماله، ولا ينيله من الفلاح شيئاً، لأنه كافر، «إنه لا يفلح الكافرون» فكفرهم منعهم من الفلاح.

﴿وقل﴾ داعياً لربك مخلصاً له الدين ﴿رب اغفر﴾ لنا حتى نتجنبنا من المكروه، وارحمنا، لتوصلنا برحمتك إلى كل خير. «وأنت خير الراحمين» فكل راحم للعبد، فالله خير له منه، أرحم بعبده من الوالدة بولدها، وأرحم به من نفسه.

تم تفسير سورة المؤمنين، من فضل الله وإحسانه

تفسير سورة النور وهي مدنية

﴿١﴾ «بسم الله الرحمن الرحيم سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون» أي: هذه «سورة» عظيمة القدر «أنزلناها»

من ذلك، وقد حد النبي ﷺ منهم جماعة، «والذي تولى كبيره» أي: معظم الإنك، وهو المتأفق الخبيث، عبد الله بن أبي بن سلول - لعنه الله - «له عذاب عظيم» ألا وهو الخلود في الدرك الأسفل من النار.

ثم أرشد الله عباده عند سماع مثل هذا الكلام فقال: «لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً» أي: ظن المؤمنون بعضهم ببعض خيراً، وهو السلامة بما رموا به، وأن ما معهم من الإيمان المعلوم، يدفع ما قيل فيهم من الإفك الباطل، «وقالوا» بسبب ذلك الظن «سبحانك» أي: تنزيهاً لك عن كل سوء، وعن أن تبثلي أصفياءك بالأمور الشنيعة، «هذا إفك مبين» أي: كذب وبهت، من أعظم الأشياء، وأبينها. فهذا من الظن الواجب، حين سماع المؤمن عن أخيه المؤمن، مثل هذا الكلام، وأن يبرئه بلسانه، ويكذب القائل لذلك.

«لولا جاؤوا عليه بأربعة شهداء» أي: هلا جاء الرامون على ما رموا به، بأربعة شهداء أي: عدول مرضيين. «فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون» وإن كانوا في أنفسهم قد تيقنوا ذلك، فإنهم كاذبون في حكم الله، لأن الله حرم عليهم التكلم بذلك، من دون أربعة شهود، ولهذا قال: «فأولئك عند الله هم الكاذبون» ولم يقل: «فأولئك هم الكاذبون»، وهذا كله، من تعظيم حرمة عرض المسلم، بحيث لا يجوز الإقدام على زميه، من دون نصاب الشهادة بالصدق.

«ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة» بحيث شملكم إحسانه فيهما، في أمر دينكم ودنياكم، «لنكنتم فيما أنقضتم» أي: خضتم «فيه» من شأن الإفك «عذاب عظيم» لاستحقاقكم ذلك بما قلتم، ولكن من فضل الله عليكم ورحمته، أن

الجيش في الظهيرة، فلما رأى بعض المنافقين الذين في صحبة النبي ﷺ، في ذلك السفر مجيء صفوان بها في هذه الحال، أشاع ما أشاع، وورثى الحديث، وتلقفته الألسن، حتى اغتر بذلك بعض المؤمنين، وصاروا يتناقلون هذا الكلام، وانحسب الوحي مدة طويلة عن الرسول ﷺ.

وبلغ الخبر عائشة بعد ذلك بمدة، فحزنت حزناً شديداً، فأنزل الله تعالى براءتها في هذه الآيات، ووعظ الله المؤمنين، وأعظم ذلك، ووصاهم بالصواب النافعة. ف قوله تعالى: «إن الذين جاؤوا بالإفك» أي: الكذب الشنيع، وهو زمني أم المؤمنين «عصبة منكم» أي: جماعة منتسبون إليكم يا معشر المؤمنين، منهم المؤمن الصادق [في إيمانه ولكنه اغتر بترويج المنافقين] (١) ومنهم المتأفق.

«لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم» لما تضمن ذلك نبرة أم المؤمنين ونزاهتها، والتنويه بذكرها، حتى تناول عنوم المدح سائر زوجات النبي ﷺ، ولما تضمن من بيان الآيات المضطر إليها العباد، التي ما زال العمل بها إلى يوم القيامة، فكل هذا خير عظيم، لولا مقالة أهل الإفك لم يحصل ذلك، وإذا أراد الله أمراً جعل له سبباً، ولذلك جعل الخطاب عاماً مع المؤمنين كلهم، وأخبر أن قدح بعضهم ببعض كقدح في أنفسهم، ففيه أن المؤمنين في توادهم وتراحيمهم وتعاطفهم، واجتماعهم على مصالحهم، كالجسد الواحد، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، فكما أنه يكره أن يقدح أحد في عرضه، فليكره من كل أحد، أن يقدح في أخيه المؤمن، الذي بمنزلة نفسه، وما لم يصل العبد إلى هذه الحالة، فإنه من نقص إيمانه وعدم نصحه.

«لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم» وهذا وعيد للذين جاؤوا بالإفك، وأنهم سيعاقبون على ما قالوا



لكم شدة الزنا وفظاعته، وفضاعة القذف به، وأن شرع التوبة من هذه الكبائر وغيرها.

«١١ - ٢٦» «إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم» إلى آخر الآيات وهو قوله: «لهم مغفرة ورزق كريم» لما ذكر فيما تقدم، تعظيم الزماني بالزنا عموماً، صار ذلك كأنه مقدمة لهذه القصة، التي وقعت على أشرف النساء، أم المؤمنين رضي الله عنها، وهذه الآيات، نزلت في قصة الإفك المشهورة، الثابتة في الصحيح والسنن والمسانيد.

وحاصلها أن النبي ﷺ، في بعض غزواته، ومعه زوجته عائشة الصديقة بنت الصديق، فانقطع عقدها فأنجست في طلبه ورحلوا جملها وهو دجها، فلم يفقدوها، ثم استقل الجيش راحلاً، وجاءت مكانهم، وعلمت أنهم إذا فقدوها، رجعوا إليها فاستمروا في مسيرهم، وكان صفوان بن العطل السلمي، من أفاضل الصحابة رضي الله عنه، قد عرس في أخريات القوم ونام، فرأى عائشة رضي الله عنها فعرفها، فأناخ راحلته، فركبتها من دون أن يكلمها أو تكلمه، ثم جاء يقودها بعد ما نزل

شرع لكم التوبة، وجعل العقوبة مطهرة للذنوب.

﴿إذ تلقونه بالسنتكم﴾ أي: تلقفونه، ويلقيه بعضكم إلى بعض، وتستوشون حديثه، وهو قول باطل. ﴿وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم﴾ والأمران محطوران، التكلم بالباطل، والقول بلا علم، ﴿وتحسبونه هيناً﴾ فلذلك أقدم عليه من أقدم من المؤمنين الذين تابوا منه، وتطهروا بعد ذلك، ﴿وهو عند الله عظيم﴾ وهذا فيه الزجر البليغ، عن تعاطي بعض الذنوب على وجه الشهاون بها، فإن العبد لا يقبده حسباناً شيئاً، ولا يخفف من عقوبة الذنب، بل يضاعف الذنب، ويسهل عليه مواقفته مرة أخرى.

﴿ولولا إذ سمعتموه﴾ أي: وهلا إذ سمعتم - أيها المؤمنون - كلام أهل الإفك ﴿قلتم﴾ منكرين لذلك، معظمين لأمره: ﴿ما يكون لنا أن نتكلم بهذا﴾ أي: ما ينبغي لنا، وما يليق بنا الكلام، بهذا الإفك المبين، لأن المؤمن يمنعه إيمانه من ارتكاب القبائح ﴿هذا بهتان﴾ أي: كذب عظيم. ﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثله﴾ أي: لتظيره، من رمي المؤمنين بالفجور، فالله يعظكم وينصحكم عن ذلك، ونعم المواعظ والنصائح من ربنا فيجب علينا مقابلتها بالقبول والإذعان، والتسليم والشكر له، على ما بين لنا ﴿إن الله نعماً يعظكم به﴾. ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ دل ذلك على أن الإيمان الصادق، يمنع صاحبه من الإقدام على المحرمات. ﴿ويبين الله لكم الآيات﴾ المشتملة على بيان الأحكام، والوعظ، والزجر، والترغيب، والترهيب، يوضحها لكم توضيحاً جليلاً. ﴿والله عليم﴾ أي: كامل العلم عام الحكمة، فمن علمه وحكمته، أن علمكم من علمه، وإن كان ذلك راجعاً لمصالحكم في كل وقت.

﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة﴾ أي: الأمور الشنيعة المستقبحة المستعظمة، فيحبون أن تشيع الفاحشة ﴿في الذين آمنوا لهم عذاب أليم﴾ أي: موجع للقلب والبدن، وذلك لغشه لإخوانه المسلمين، ومحبة الشر لهم، وجراته على أعراضهم، فإذا كان هذا الوعيد، لمجرد محبة أن تشيع الفاحشة، واستحلاء ذلك بالقلب، فكيف بما هو أعظم من ذلك، من إظهاره، ونقله؟! وسواء كانت الفاحشة، صادرة أو غير صادرة.

وكيل هذا من رحمة الله بعباده المؤمنين، وصيانة أعراضهم، كما صان دماءهم وأموالهم، وأمرهم بما يقتضي المصافاة، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه. ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ فلذلك علمكم، وبين لكم ما تجهلون.

﴿ولولا فضل الله عليكم﴾ قد أحاط بكم من كل جانب ﴿ورحمته﴾ عليكم ﴿وأن الله رؤوف رحيم﴾ لما بين لكم هذه الأحكام والمواعظ، والحكم الجليلة، ولما أمهل من خالف أمره، ولكن فضله ورحمته، وأن ذلك وصفه اللازم أثر لكم من الخير الدنيوي والأخروي، ما لن تحصوه، أو تعدوه.

ولما نبه عن هذا الذنب بخصوصه، نبه عن الذنوب عموماً فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي: طريقه ووساوسه. وخطوات الشيطان، يدخل فيها سائر المعاصي المتعلقة بالقلب، واللسان والبدن، ومن حكمته تعالى، أن بين الحكم، وهو: النهي عن اتباع خطوات الشيطان.. والحكمة وهو بيان ما في المنهي عنه، من الشر المقتضي، والداعي لتركه فقال: ﴿ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه﴾ أي: الشيطان ﴿يأمر بالفحشاء﴾ أي: ما تستفحشه العقول والشرائع، من الذنوب

العظيمة، مع ميل بعض النفوس إليه. ﴿والمنكر﴾: هو ما تنكره العقول ولا تعرفه. فالمعاصي التي هي خطوات الشيطان، لا تخرج عن ذلك، فنهى الله عنها للعباد، نعمة منه عليهم أن يشكروه ويذكروه، لأن ذلك صيانة لهم عن التدنس بالردائل والقبائح، فمن إحسانه عليهم، أن نهاهم عنها، كما نهاهم عن أكل السموم القاتلة ونحوها، ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً﴾ أي: ما تطهر من اتباع خطوات الشيطان، لأن الشيطان يسعى هو وجنده، في الدعوة إليها وتحسينها، والنفس ميالة إلى السوء أمانة به، والنقص مستول على العبد من جميع جهاته، والإيمان غير قوي، فلو خلى وهذه الدواعي، ما زكى أحد بالتطهر من الذنوب والسيئات والنماء بفعل الحسنات، فإن الزكاء يتضمن الطهارة والنماء، ولكن فضله ورحمته أوجبا أن يترك منكم من تركي.

وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكائها، أنت وليها ومولاها»، ولهذا قال: ﴿ولكن الله يزكي من يشاء﴾ من يعلم منه أن يزكى بالتركية، ولهذا قال: ﴿والله سميع عليم﴾.

﴿ولا يأتل﴾ أي: لا يحلف ﴿أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا﴾ كان من جملة الخائفين في الإفك «مسطح بن أثانة» وهو قريب لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان مسطح فقيراً من المهاجرين في سبيل الله، فحلف أبو بكر أن لا ينفق عليه، لقوله الذي قال.

فنزلت هذه الآية، ينهاهم^(١) عن هذا الحلف المتضمن لقطع النفقة عنه، ويحثه على العفو والصفح، ويعدّه بمغفرة الله إن غفر له، فقال:

حيث قال «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر»، فبسبب الإخلال به، يقع البصر على العورات التي داخل البيوت، فإن البيت للإنسان في ستر عورة ما وراءه، بمنزلة الثوب في ستر عورة جسده.

ومنها: أن ذلك يوجب الريبة من الداخل، ويتهم بالسرقة أو غيرها، لأن الدخول خفية، يدل على الشر، ومنع الله المؤمنين من دخول غير بيوتهم حتى يستأنسوا أي: يستأذنوا. سمي الاستئذان استئناساً، لأن به يحصل الاستئناس، وبعدمه تحصل الوحشة، «وتسلموا على أهلها» وصفة ذلك، ما جاء في الحديث: «السلام عليكم، أَدْخِلْ؟»

«ذلكم» أي: الاستئذان المذكور «خير لكم لعلكم تذكرون» لاشتماله على عدة مصالح، وهو من مكارم الأخلاق الواجبة، فإن أذن، دخل المستأذن.

«فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا» أي: فلا تمتنعوا من الرجوع، ولا تغضبوا منه، فإن صاحب المنزل، لم يمنعكم حقاً واجباً لكم، وإنما هو متبرع، فإن شاء أذن أو منع، فأنتم لا تأخذ أحدكم الكبير والاشتمار من هذه الحال، «هو أذكى لكم» أي: أشد لتطهيركم من السيئات، وتنميتكم بالחסنات. «والله بما تعملون عليم» فيجازي كل عامل بعمله، من كثرة وقلة، وحسن وعدمه، هذا الحكم في البيوت المسكونة، سواء كان فيها متاع للإنسان أم لا، وفي البيوت غير المسكونة، التي لا متاع فيها للإنسان، وأما البيوت التي ليس فيها أهلها، وفيها متاع الإنسان المحتاج للدخول إليه، وليس فيها أحد يتمكن من استئذانه، وذلك كبيوت الكراء وغيرها، فقد ذكرها بقوله:

«ليس عليكم جناح» أي: حرج وإثم، دل على أن الدخول من غير استئذان في البيوت السابقة، أنه محرم،

للخبثات» أي: كل خبيث من الرجال والنساء، والكلمات والأفعال، مناسب للخبث، وموافق له، ومقترون به، ومشاكل له، وكل طيب من الرجال والنساء، والكلمات والأفعال، مناسب للطيب، وموافق له، ومقترون به، ومشاكل له، فهذه كلمة عامة وحصر، لا يخرج منه شيء، من أعظم مفرداته، أن الأنبياء - خصوصاً أولي العزم منهم، خصوصاً سيدهم محمد ﷺ، الذي هو أفضل الطيبين من الخلق على الإطلاق لا يناسبهم إلا كل طيب من النساء، فالقدح في عائشة رضي الله عنها بهذا الأمر قدح في النبي ﷺ، وهو المقصود بهذا الإفك، من قصد المنافقين، فمجرد كونها زوجة للرسول ﷺ، يعلم أنها لا تكون إلا طيبة طاهرة من هذا الأمر القبيح.

فكيف وهي هي!! صديقة النساء وأفضلهن وأعلمهن وأطيبهن، حبيبة رسول رب العالمين، التي لم ينزل الوحي عليه وهو في لحاف زوجة من زوجاته غيرها، ثم صرح بذلك، بحيث لا يبقى لبطل مقالا، ولا لشك وشبهة مجالا، فقال: «أولئك مبرؤون مما يقولون» والإشارة إلى عائشة رضي الله عنها أصلاً، وللمؤمنات المحصنات الغافلات تبعاً «لهم مغفرة» تستغرق الذنوب «ورزق كريم» في الجنة صادر من الرب الكريم.

«٢٧ - ٢٩» «يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون» * فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أذكى لكم والله بما تعملون عليم * ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون» يرشد الباري عباده المؤمنين، أن لا يدخلوا بيوتا غير بيوتهم بغير استئذان، فإن في ذلك عدة مفاسد: منها ما ذكره الرسول ﷺ،

«ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم» إذا عاملتم عبيده، بالعفو والصفح، عاملكم بذلك، فقال أبو بكر - لما سمع هذه الآية -: بلى، والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع النفقة إلى مسطح، وفي هذه الآية دليل على النفقة على القريب، وأنه لا تترك النفقة والإحسان بمعصية الإنسان، والحث على العفو والصفح، ولو جرى عليه ما جرى من أهل الجرائم.

ثم ذكر الوعيد الشديد على رمي المحصنات فقال: «إن الذين يرمون المحصنات» أي: العفاف عن الفجور «الغافلات» التي لم يخطر ذلك بقلوبهن «المؤمنات» «لعنوا في الدنيا والآخرة» واللعنة لا تكون إلا على ذنب كبير.

وأكد اللعنة بأنها متواصلة عليهم في الدارين «ولهم عذاب عظيم» وهذا زيادة على اللعنة، أبعدهم عن رحمته، وأحل بهم شدة نقمته.

وذلك العذاب يوم القيامة «يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون» فكل جارحة تشهد عليهم بما عملته، ينطقها الذي أنطق كل شيء، فلا يمكنه الإنكار، ولقد عدل في العباد، من جعل شهودهم من أنفسهم، «يومئذ يوفيهن الله دينهم الحق» أي: جزاءهم على أعمالهم، الجزاء الحق، الذي بالعدل والقسط، يجدون جزاءها موفراً، لم يفقدوا منها شيئاً، ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً» ويعلمون في ذلك الموقف العظيم، أن الله هو الحق المبين، فيعلمون انحصر الحق المبين في الله تعالى.

فأوصافه العظيمة حق، وأفعاله هي الحق، وعبادته هي الحق، ولقاؤه حق، ووعيده ووعيده، وحكمه الديني والجزائي حق، ورسله حق، فلا ثم حق، إلا في الله وما من الله.

«الخبثات للخبثين والخبثون

وفيه حرج ﴿أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾ وهذا من احترازا للقرآن العجيب، فإن قوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ لفظ عام في كل بيت ليس ملكاً للإنسان، أخرج منه تعالى البيوت التي ليست ملكه، وفيها متاعه، وليس فيها ساكن، فأسقط الحرج في الدخول إليها، والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴿أَحْوَالُكُمْ الظَّاهِرَةُ وَالْخَفِيَّةُ، وَعِلْمُ مَصَالِحِكُمْ، فَلِذَلِكَ شَرَعَ لَكُمْ مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ وَتَضْطَرُّونَ، مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ.﴾

﴿٣٠﴾ ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ أي: أرشد المؤمنين، وقيل لهم: الذين معهم إيمان، يمنعهم من وقوع ما يخل بالإيمان: ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ عن النظر إلى العورات وإلى النساء الأجنبية، وإلى المردان، الذين يخاف بالنظر إليهم الفتنة، وإلى زينة الدنيا التي تفتن، وتوقع في المحذور.

﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ عن البوطة الحرام، في قبل أو دبر، أو ما دون ذلك، وعن التمكين من مسها، والنظر إليها. ﴿ذَلِكَ﴾ الحفظ للأبصار والفروج ﴿أَزْكَى لَهُمْ﴾: أظهر وأطيب، وأمنى لأعمالهم، فإن من حفظ فرجه وبصره، طهر من الخبث الذي يتدنس به أهل الفواحش، وزكت أعماله، بسبب ترك المحرم، الذي تطلع إليه النفس وتدعو إليه، فمن ترك شيئاً لله، عوضه الله خيراً منه، ومن غص ببصره عن المحرم، أنار الله بصيرته، ولأن العبد إذا حفظ فرجه وبصره عن الحرام ومقدماته، مع داعي الشهوة، كان حفظه لغيره أبلغ، ولهذا سماه الله حفظاً، فالشيء المحفوظ إن لم يجتهد حافظه في مراقبته وحفظه، وعمل الأسباب الموجبة لحفظه، لم ينحفظ، كذلك البصر والفرج، إن لم يجتهد العبد في حفظهما، أوقعا في

بلايا وخن، وتأمل كيف أمر بحفظ الفرج مطلقاً، لأنه لا يباح في حالة من الأحوال، وأما البصر فقال: ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ أتى بأداة «من» الدالة على التبعض، فإنه يجوز النظر في بعض الأحوال لحاجة، ونحو الشاهد والعامل والمخاطب، ونحو ذلك. ثم ذكرهم بعلمه بأعمالهم، ليجتهدوا في حفظ أنفسهم من المحرمات.

﴿٣١﴾ ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولِي الْإِرَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلَ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يُضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ أَيُّهُنَّ مُمْتَنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لما أمر المؤمنين بغض الأبصار وحفظ الفروج، أمر المؤمنات بذلك، فقال: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ عن النظر إلى العورات والرجال، بشهوة ونحو ذلك من النظر الممنوع، ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ من التمكين من جماعها، أو مسها، أو النظر المحرم إليها. ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كالشباب الجميلة والحلي، وجميع البدن كله من الزينة، ولما كانت الثياب الظاهرة، لا بد لها منها، قال: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي: الثياب الظاهرة، التي جرت العادة بلبسها إذا لم يكن في ذلك ما يدعو إلى الفتنة بها، ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ وهذا لكمال الاستتار، ويدل ذلك على أن الزينة التي يحرم إبدائها، يدخل فيها جميع البدن، كما ذكرنا. ثم كرر النهي عن إبداء زينتتهن، ليستثني منه قوله: ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أي: أزواجهن ﴿أَوْ

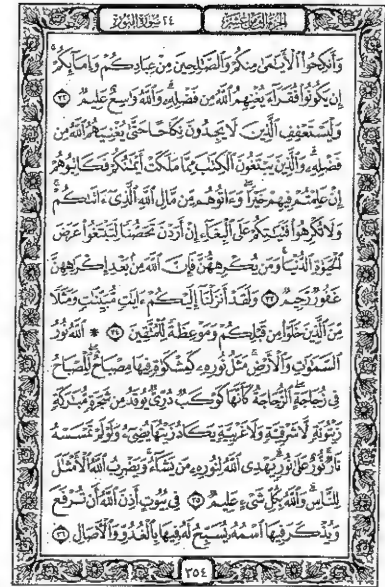
إِنْ لَمْ يَكُنْ دُونَ ذَلِكَ فَالْأَمْرُ بِحِفْظِ الْفُرُوجِ وَالْأَبْصَارِ وَتَأْمُلْ كَيْفَ أَمَرَ بِحِفْظِ الْفُرُوجِ مَطْلُقاً، لِأَنَّهُ لَا يَبَاحُ فِي حَالَةٍ مِنْ الْأَحْوَالِ، وَأَمَّا الْبَصَرُ فَقَالَ: ﴿يَغْضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ أَتَى بِأَدَاةٍ «مِنْ» الدَّالَّةِ عَلَى التَّبْعُضِ، فَإِنَّهُ يُجُوزُ النَّظَرَ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ لِحَاجَةٍ، وَنَحْوِ الشَّاهِدِ وَالْعَامِلِ وَالْمُخَاطَبِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. ثُمَّ ذَكَرَهُمْ بِعِلْمِهِ بِأَعْمَالِهِمْ، لِيَجْتَهِدُوا فِي حِفْظِ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْمَحْرُمَاتِ.

أَبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ﴾ يشمل الأب بنفسه، والجد وإن علا، ﴿أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ﴾ ويدخل فيه الأبناء وأبناء البعولة مهما نزلوا ﴿أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ﴾ أشقاء، أو لأب، أو لأُم. ﴿أَوْ بَنَاتِ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ أي: يجوز للنساء أن ينظر بعضهن إلى بعض مطلقاً، ويحتمل أن الإضافة تقتضي الجنسية، أي: النساء المسلمات، اللاتي من جنسكم، ففيه دليل لمن قال: إن المسلمة لا يجوز أن تنظر إليها الذمية.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ فيجوز للمملوك إذا كان كله للأنثى، أن ينظر لسيدته، ما دامت مالكة له كله، فإن زال الملك أو بعضه، لم يجز النظر.

﴿أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولِي الْإِرَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ أي: أو الذين يتبعونكم، ويتعلقون بكم، من الرجال الذين لا إربة لهم في هذه الشهوة، كالمعتوه الذي لا يذري ما هنالك، وكالعنينة الذي لم يبق له شهوة، لا في قرجه، ولا في قلبه، فإن هذا لا يحذور من نظره.

﴿أَوْ الطِّفْلَ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ أي: الأطفال الذين دون التمييز، فإنه يجوز نظرهم للنساء



الفلاح إلا بالتوبة، وهي الرجوع مما يكرهه الله، ظاهراً وباطناً، إلى: ما يحبه ظاهراً وباطناً، ودل هذا، أن كل مؤمن محتاج إلى التوبة، لأن الله خاطب المؤمنين جميعاً، وفيه الحث على الإخلاص بالتوبة في قوله: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: لا لمقصد غير وجهه، من سلامة من آفات الدنيا، أو رياء وسمعة، أو نحو ذلك من المقاصد الفاسدة.

﴿٣٢-٣٣﴾ **﴿وَأَنكَحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمُ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِيمَانِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾** وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله والذين يفتنون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفورٌ رحيمٌ

بأمر تعالى الأولياء والأسياء، بإنكاح من تحت ولايتهم من الأيامي وهم: من لا أزواج لهم، من رجال، ونساء ثيب، وأبكار، فيجب على القريب وولي التيسم، أن يزوج من يحتاج للزواج، ممن تحب نفقته عليه، وإذا كانوا مأمورين بإنكاح من تحت أيديهم، كان أمرهم بالنكاح بأنفسهم من باب أولى.

﴿والصالحين من عبادكم وإيمانكم﴾ يحتمل أن المراد بالصالحين، صلاح الدين، وأن الصالح من العبيد والإماء - وهو الذي لا يكون فاجراً زانياً - مأمور سيده بإنكاحه، جزاء له على صلاحه، وترغيباً له فيه، ولأن الفاسد بالزنا، منهى عن تزوجه، فيكون مؤيداً للمذكور في أول السورة، أن نكاح الزاني والزانية حرم حتى يتوب، ويكون التخصيص بالصلاح في العبيد والإماء دون الأحرار، لكثرة وجود ذلك في العبيد

عادة، ويحتمل أن المراد بالصالحين الصالحون للزواج المحتاجون إليه^(١)، من العبيد والإماء، يؤيد هذا المعنى، أن السيد غير مأمور بتزويج مملوكه، قبل حاجته إلى الزواج. ولا يبعد إرادة المعنيين كليهما، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ﴾ أي: الأزواج والمزوجين ﴿يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فلا يسعكم ما تتوهون، من أنه إذا تزوج، افتقر بسبب كثرة العائلة ونحوه، وفيه حث على الزواج، ووعد للمتزوج بالغنى بعد الفقر.

﴿والله واسع﴾ كثير الخير عظيم الفضل ﴿عليم﴾ بمن يستحق فضله الديني والدنيوي أو أحدهما، بمن لا يستحق، فيعطي كلاً ما علمه واقتضاه حكمه.

﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله﴾ هذا حكم العاجز عن النكاح، أمره الله أن يستعفف، أن يكف عن المحرم، ويفعل الأنساب التي تكفه عنه، من صرف دواعي قلبه بالأفكار التي تخطر بإيقاعه فيه، ويفعل أيضاً، كما قال النبي ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء».

وقوله: ﴿الذين لا يجدون نكاحاً﴾ أي: لا يقدرون نكاحاً، إما لفقرهم أو فقر أوليائهم وأسيادهم، أو امتناعهم من تزويجهم [وليس لهم]^(٢)، من قدرة على إجبارهم على ذلك، وهذا التقدير، أحسن من تقدير من قدر «لا يجدون مهر نكاح»، وجعلوا المضاف إليه نائباً مناب المضاف، فلان في ذلك محذوران: أحدهما: الحذف في الكلام، والأصل عدم الحذف.

والثاني: كون المعنى قاصراً على من له حالان، حالة غنى بماله، وحالة عدم، فيخرج العبيد والإماء ومن إنكاحه على وليه، كما ذكرنا.

﴿حتى يغنيهم الله من فضله﴾ وعد

الأجانب، وعلل تعالى ذلك، بأنهم لم يظهروا على عورات النساء، أي: ليس لهم علم بذلك، ولا وجدت فيهم الشهوة بعد ودل هذا، أن المميز تستتر منه المرأة، لأنه يظهر على عورات النساء.

﴿ولا يضرين بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن﴾ أي: لا يضرين الأرض بأرجلهن، ليُصَوِّرَ ما عليهن من حلي، كخلاخل وغيرها، فتعلم زينتها بسببه، فيكون وسيلة إلى الفتنة.

ويؤخذ من هذا ونحوه، قاعدة سد الوسائل، وأن الأمر إذا كان مباحاً، ولكنه يفضي إلى محرم، أو يخاف من وقوعه، فإنه يمنع منه، فالضرب بالرجل في الأرض: الأصل أنه مباح، ولكن لما كان وسيلة لعلم الزينة، منع منه.

ولما أمر تعالى بهذه الأوامر الحسنة، ووصى بالوصايا المستحسنة، وكان لا بد من وقوع تقصير من المؤمن بذلك، أمر الله تعالى بالتوبة، فقال:

﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون﴾ لأن المؤمن يدعوه إيمانه إلى التوبة ثم علق على ذلك الفلاح، فقال: ﴿لعلكم تفلحون﴾ فلا سبيل إلى

(١) في النسختين: الصالحين للزواج المحتاجين إليه.

(٢) زيادة من ب بخط مغاير، وقد حذف بعدها حرف (من).

للمستعفف أن الله سيغنيه ويسر له أمره، وأمر له بانتظار الفرج، لئلا يشق عليه ما هو فيه.

وقوله ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي: من ابتغى وطلب منكم الكتابة، وأن يشتري نفسه، من عبيد وإماء، فأجيبوه إلى ما طلب، وكتابوه، ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي: في الطالبين للكتابة ﴿خَيْرًا﴾ أي: قدرة على التكسب، وصلاًحاً في دينه، لأن في الكتابة تحصيل المصلحتين، مصلحة العتق والحرية، ومصلحة العوض الذي يبذله في فداء نفسه. وربما جد واجتهد، وأدرك لسيده في مدة الكتابة من المال ما لا يحصل في رقه، فلا يكون ضرر على السيد في كتابته، مع حصول عظيم المنفعة للعبد، فلذلك أمر الله بالكتابة على هذا الوجه أمر إيجاب، كما هو الظاهر، أو أمر استخياب على القول الآخر، وأمر بمعاونتهم على كتابتهم، لكونهم محتاجين لذلك، بسبب أنهم لا مال لهم، فقال: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ يدخل في ذلك أمر سيده الذي كاتبه، أن يعطيه من كتابته أو يسقط عنه منها، وأمر الناس بمعاونتهم.

ولهذا جعل الله للمكاتبين قسطاً من الزكاة، ورغب في إعطائه بقوله: ﴿مَنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ أي: فكما أن المال مال الله، وإنما الذي بأيديكم عطية من الله لكم ومحض منة، فأحسنوا العباد الله، كما أحسن الله إليكم.

ومفهوم الآية الكريمة، أن العبد إذا لم يطلب الكتابة، لا يؤمر سيده أن يبتدئ بكتابه، وأنه إذا لم يعلم منه خيراً، بأن علم منه عكسه، إما أنه يعلم أنه لا كسب له، فيكون بسبب ذلك كلاً على الناس، ضائعاً، وإما أن يخاف إذا عتق، وصار في حرية نفسه، أن يتمكن من الفساد، فهذا لا يؤمر

بكتابه، بل ينهى عن ذلك لما فيه من المحذور المذكور.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْرَهُوا فِتْيَانَكُمْ﴾ أي: إماءكم ﴿عَلَى الْبِغَاءِ﴾ أي: أن تكون زانية ﴿إِنْ أُرِدْنَ تَحَصُّنًا﴾ لأنه لا يتصور إكراهها إلا بهذه الحال، وأما إذا لم ترد تحصناً فإنها تكون بغياً، يجب على سيدها منعها من ذلك، وإنما هذا نهي لما كانوا يستعملونه في الجاهلية، من كون السيد يجبر أمتة على البغاء، ليأخذ منها أجرة ذلك، ولهذا قال: ﴿لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فلا يليق بكم أن تكون إماءكم خيراً منكم، وأعف عن الزنا، وأنتم تفعلون بهن ذلك، لأجل عرض الحياة، متاع قليل يعرض ثم يزول.

فكسبكم النزاهة، والنظافة، والمروءة - بقطع النظر عن ثواب الآخرة وعقابها - أفضل من كسبكم العرض القليل، الذي يكسبكم الرذالة والخسة.

ثم دعا من جرى منه الإكراه إلى التوبة، فقال: ﴿وَمَنْ يَكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فُلِّبَتْ إلى الله، ولُفِّلِغَ عما صدر منه مما يغضبه، فإذا فعل ذلك، غفر الله ذنوبه، ورحمه كما رحم نفسه بفكاكها من العذاب، وكما رحم أمتة بعدم إكراهها على ما يضرها.

﴿٣٤﴾ ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مَبِينَاتٍ وَمِثَالاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ هذا تعظيم وتفخيم لهذه الآيات، التي تلاها على عباد، ليعرفوا قدرها، ويقوموا بحققها فقال: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مَبِينَاتٍ﴾ أي: واضحات الدلالة، على كل أمر تحتاجون إليه، من الأصول والفروع، بحيث لا يبقى فيها إشكال ولا شبهة، ﴿و﴾ أنزلنا إليكم أيضاً ﴿مِثَالاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ من أخبار الأولين، الصالح منهم والظالم، وصفة أعمالهم، وما جرى لهم وجرى عليهم تعبيرونه مثلاً ومعتبراً، لمن فعل

مثل أفعالهم أن يجازى مثل ما جوزوا. ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: وأنزلنا

إليكم موعظة للمتقين، من الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، يتعظ بها المتقون، فينكفون عما يكره الله إلى ما يحبه الله.

﴿٣٥﴾ ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نَوْرِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يَضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الحسي والمعنوي، وذلك نه تعالى بذاته نور، وحجابه - الذي لولا لطفه، لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه - نور، وبه استنار العرش، والكروسي، والشمس، والقمر، والنور، وبه استنارت الجنة.

وكذلك النور المعنوي يرجع إلى الله، فكتابه نور، وشرعه نور، والإيمان والمعرفة في قلوب رسله وعباده المؤمنين نور. فلولا نوره تعالى، لتراكمت الظلمات، ولهذا، كل محل يفقد نوره قُتِمَ الظلمة والخصر، ﴿مِثْلُ نَوْرِهِ﴾ الذي يهدي إليه، وهو نور الإيمان والنوران في قلوب المؤمنين، ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ أي: كوة ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ لأن الكوة تجمع نور المصباح بحيث لا ينفرد ذلك ﴿المصباح في زجاجة الزجاج﴾ من صفاتها وبهاثها ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أي: مضيء إضاءة الدر. ﴿يُوقَدُ﴾ ذلك المصباح، الذي في تلك الزجاج الدرية ﴿مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ أي: يوقد من زيت الزيتون الذي تاره من أنور ما يكون، ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ﴾ فقط، فلا تصيبها الشمس آخر النهار، ﴿وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ فقط، فلا تصيبها الشمس [أول] (١)

(١) في النسختين آخر النهار، ولعل الصواب ما أثبت، ثم إن الكلمة معدلة من آخر إلى أول في ب، بقلم مغاير لما كتبت به النسخة.

لكثرة الاشتغال بالبيع على غيره، فهؤلاء الرجال، وإن تجروا، وباعوا، واشتروا، فإن ذلك، لا محذور فيه. لكنه لا تلهيهم تلك، بأن يقدموها ويؤثروها على «ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة» بل جعلوا طاعة الله وعبادته غاية مرادهم، ونهاية مقصدهم، فما حال بينهم وبينها رفضوه.

ولما كان ترك الدنيا شديداً على أكثر النفوس، وحب المكاسب بأنواع التجارات محبواً لها، ويشق عليها تركه في الغالب، وتتكلف من تقديم حق الله على ذلك، ذكر ما يدعوها إلى ذلك - ترغيباً وترهيباً - فقال: «يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار» من شدة هوله وإزعاجه للقلوب والأبدان، فلذلك خافوا ذلك اليوم، فسهل عليهم العمل، وترك ما يشغل عنه، «ليجزئهم الله أحسن ما عملوا» والمراد بأحسن ما عملوا: أعمالهم الحسنة الصالحة، لأنها أحسن ما عملوا، لأنهم يعملون المباحات وغيرها، فالثواب لا يكون إلا على العمل الحسن، كقوله تعالى: «ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويمجزهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون» «ويزيدهم من فضله» زيادة كثيرة عن الجزء المقابل لأعمالهم، «والله يرزق من يشاء بغير حساب» بل يعطيه من الأجر ما لا يبلغه عمله، بل ولا تبلغه أمنيته، ويعطيه من الأجر بلا عد ولا كيل، وهذا كناية عن كثرته جداً.

﴿٣٩ - ٤٠﴾ «والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب» أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور» هذان مثلاً، ضربهما الله لأعمال الكفار في بطلانها وذهابها سدى وتحسر عامليها منها

بالغدو والأصال * رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار * ليجزئهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب.

أي: يتعبد لله «في بيوت» عظيمة فاضلة، هي أحب البقاع إليه، وهي المساجد. «أذن الله» أي: أمر ووصى «أن ترفع» ويذكر فيها اسمه» هذان مجموع أحكام المساجد، فيدخل في رفعها، بناؤها، وكسها، وتنظيفها من النجاسة والأذى، وصونها عن المجانين والصبيان الذين لا يتحرزون عن النجاسة، وعن الكافر، وأن تصان عن اللغو فيها، ورفع الأصوات بغير ذكر الله.

«ويذكر فيها اسمه» يدخل في ذلك الصلاة كلها، فرضها، وتفلها، وقراءة القرآن، والتسبيح، والتهلل، وغيره من أنواع الذكر، وتعلم العلم وتعليمه، والمذاكرة فيها، والاعتكاف، وغير ذلك من العبادات التي تفعل في المساجد، ولهذا كانت عمارة المساجد على قسمين: عمارة بنيان، وصيانة لها، وعمارة بذكر اسم الله، من الصلاة وغيرها، وهذا أشرف القسمين، ولهذا شرعت الصلوات الخمس والجمعة في المساجد، وجوباً عند أكثر العلماء، أو استحباباً عند آخرين. ثم مدح تعالى عمارتها بالعبادة فقال: «يسبح له» إخلاصاً «بالغدو» أول النهار «والأصال» آخره «رجال». خص هذين الوقتين لشرفهما ولتيسر السير فيهما إلى الله وسهولته. ويدخل في ذلك، التسبيح في الصلاة وغيرها، ولهذا شرعت أذكار الصباح والمساء وأورادها عند الصباح والمساء. أي: يسبح فيها الله، رجال، وأي: رجال، ليسوا ممن يؤثر على ربه دنيا، ذات لذات، ولا تجارة ومكاسب، مشغلة عنه، «لا تلهيهم تجارة» وهذا يشمل كل تكسب يقصد به العوض، فيكون قوله: «ولا بيع» من باب عطف الخاص على العام،

تصيبها الشمس أول النهار وآخره، فتحسن وتطيب، ويكون أصفى لزيته، ولهذا قال: «يكاد زيتها» من صفاته «يضيء ولو لم تمسه نار» فإذا مسته النار، أضاء إضاءة بليغة «نور على نور» أي: نور النار، ونور الزيت.

وجوه هذا المثل الذي ضربه الله، وتطبيقه على حالة المؤمن، ونور الله في قلبه، أن فطرته التي فطر عليها، بمنزلة الزيت الصافي، ففطرته صافية، مستعدة للتعاليم الإلهية، والعمل المشروع، فإذا وصل إليه العلم والإيمان، اشتعل ذلك النور في قلبه، بمنزلة اشتعال النار في فتيلة ذلك المصباح، وهو صافي القلب من سوء القصد، وسوء الفهم عن الله، إذا وصل إليه الإيمان، أضاء إضاءة عظيمة، لصفاته من الكدورات، وذلك بمنزلة صفاء الزجاجاة الدرية، فيجتمع له نور الفطرة، ونور الإيمان، ونور العلم، وصفاء المعرفة، نور على نوره.

ولما كان هذا من نور الله تعالى، وليس كل أحد يصلح له ذلك، قال: «يهدي الله لنوره من يشاء» ممن يعلم زكاه وطهارته، وأنه يزكي معه وينمو. «ويضرب الله الأمثال للناس» ليعقلوا عنه ويفهموا، لطفاً منه بهم، وإحساناً إليهم، وليتضح الحق من الباطل، فإن الأمثال تقرب المعاني المعقولة من المحسوسة، فيعلمها العباد علماً واضحاً، «والله يكل شيء عليم» فعلمه محيط بجميع الأشياء، فلتعلموا أن ضربه الأمثال، ضرب من يعلم حقائق الأشياء وتفصيلها، وأنها مصلحة للعباد، فليكن اشتغالكم بتدبرها وتعقلها، لا بالاعتراض عليها، ولا بمعارضتها، فإنه يعلم وأنتم لا تعلمون.

ولما كان نور الإيمان والقرآن أكثر وقوع أسبابه في المساجد، ذكرها متوها بها فقال:

﴿٣٦ - ٣٨﴾ «في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها

فقال: ﴿والذين كفروا﴾ برهم وكذبوا رسله ﴿أعمالهم كسراب بقيعة﴾ أي: بقاع، لا شجر فيه ولا نبت.

﴿يحسبه الظمآن ماء﴾ شديد العطش، الذي يتوهم ما لا يتوهم غيره، بسبب ما معه من العطش، وهذا حسبان باطل، فيقصده ليزيل ظمأه، ﴿حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً﴾ فندم ندماً شديداً، وازداد ما به من الظمأ، بسبب انقطاع رجائه، كذلك أعمال الكفار، بمنزلة السراب، تَرَى ويظنها الجاهل الذي لا يدري الأمور، أعمالاً نافعة، فيغره صورتها، ويخليه خيالها، ويحسبها هو أيضاً أعمالاً نافعة لهواه، وهو أيضاً محتاج إليها بل مضطراً إليها، كاحتياج الظمآن للماء، حتى إذا قدم على أعماله يوم الجزاء، وجدها ضائعة، ولم يجدها شيئاً، والحال إنه لم يذهب، لا له ولا عليه، بل ﴿وجد الله عنده فوفاه حسابه﴾. لم يخف عليه من عمله نقير ولا قطمير، ولن يعدم منه قليلاً ولا كثيراً، ﴿والله سريع الحساب﴾ فلا يستبطيء الجاهلون ذلك الوعد، فإنه لا بد من إتيانه، ومثلها الله بالسراب الذي بقيعة، أي: لا شجر فيه ولا نبات، وهذا مثال لقلوبهم، لا خير فيها ولا بر، فتزكو فيها الأعمال وذلك للسبب المانع، وهو الكفر.

والمثل الثاني، لبطان أعمال الكفار ﴿كظلمات في بحر لجي﴾ بعيد قعره، طويل مدها ﴿ينشأ موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض﴾ ظلمة البحر اللجي، ثم فوقه ظلمة الأمواج المترامية، ثم فوق ذلك، ظلمة السحب المدلهمة، ثم فوق ذلك ظلمة الليل البهيم، فاشتدت الظلمة جداً، بحيث إن الكائن في تلك الحال ﴿إذا أخرج يده لم يكد يراها﴾ مع قربها إليه، فكيف بغيرها، كذلك الكفار، تراكمت على قلوبهم الظلمات، ظلمة الطبيعة، التي لا خير

فيها، وفوقها ظلمة الكفر، وفوق ذلك، ظلمة الجهل، وفوق ذلك، ظلمة الأعمال الصادرة عما ذكر، فبقوا في الظلمة متحيرين، وفي غمرتهم يعمهون، وعن الصراط المستقيم مدبرين، وفي طرق الغي والضلال يترددون، وهذا لأن الله تعالى خذلهم، فلم يعطهم من نوره، ﴿ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور﴾ لأن نفسه ظلمة جاهلة، فليس فيها من الخير والنور، إلا ما أعطاها مولاها، ومنحها ربه. يحتمل أن هذين المثالين، لأعمال جميع الكفار، كل منهما، منطبق عليها، وعددهما لتعدد الأوصاف، ويحتمل أن كل مثال، لطائفة وفرقة. فالأول، للمتبعين، والثاني، للتابعين، والله أعلم.

﴿٤١-٤٢﴾ ﴿ألم تر أن الله يستج له من في السماوات والأرض والطيور صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون﴾ * والله ملك السماوات والأرض وإلى الله المصير ﴿ينبه تعالى عباده على عظمتهم، وكمال سلطانه، واقتدار جميع المخلوقات له في ربوبيتها، وعبادتها فقال: ﴿ألم تر أن الله يستج له من في السماوات والأرض﴾ من حيوان وجماد ﴿والطيور صافات﴾ أي: صافات أجنحتها، في جو السماء، تسبح ربه. ﴿كل﴾ من هذه المخلوقات ﴿قد علم صلاته وتسبيحه﴾ أي: كل له صلاة وعبادة بحسب حاله اللاتفة به، وقد ألهمه الله تلك الصلاة والتسبيح، إما بواسطة الرسل، كالجن والإنس والملائكة، وإما بإلهام منه تعالى، كسائر المخلوقات غير ذلك، وهذا الاحتمال أرجح، بدليل قوله: ﴿والله عليم بما يفعلون﴾ أي: علم جميع أفعالها، فلم يخف عليه منها^(١) شيء، وسيجازيهم بذلك، فيكون على هذا، قد جمع بين علمه بأعمالها، وذلك بتعليمه، وبين علمه بأعمالهم المتضمن للجزاء.

(٣) في النسخين: خالقها، ولعل الصواب ما أثبت.

(١) في النسخين (منه).

(٢) كذا في ب، وفي أ: علمها.

(٤) زيادة من هامش: ب.



ويحتمل أن الضمير في قوله: ﴿قد علم صلاته وتسبيحه﴾ يعود إلى الله، وأن الله تعالى قد علم عباداتهم، وإن لم تعلموا - أيها العباد - منها، إلا ما أطلعكم الله عليه. وهذه الآية كقولها تعالى: ﴿تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾.

فلما بين عبوديتهم واقتدارهم إليه - من جهة العبادة والتوحيد - بين اقتدارهم، من جهة الملك والتربية والتدبير فقال:

﴿والله ملك السماوات والأرض﴾ خالقهما^(٣) ورازقهما، والمتصرف فيهما، في حكمه الشرعي [والقدر]، في هذه الدار، وفي حكمه الجزائي، بدار القرار، بدليل قوله: ﴿والى الله المصير﴾ أي: مرجع الخلق ومآلهم، ليجازيهم بأعمالهم.

﴿٤٣-٤٤﴾ ﴿ألم تر أن الله يزوجي سبحانه ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار﴾ * يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي



الأبصار أي: ألم تشاهد بصرك، عظيم قدرة الله، وكيف **يزجي** أي: يسوق **سحاباً** قطعاً متفرقة **ثم يولف** بين تلك القطع، فيجعله سحاباً متراكماً، مثل الجبال.

فتسرى الودق أي: النوايل والمطر، يخرج من خلال السحاب، نقطاً متفرقة، ليحصل بها الانتفاع من دون ضرر، فتمتلىء بذلك الغدران، وتندفق الخلجان، وتسيل الأودية، وتنبث الأرض من كل زوج كريم، وتارة ينزل الله من ذلك السحاب بزداً يُلَف ما يصيبه.

فيمصّب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء بحسب ما اقتضاه حكمه القدري، وحكمته التي يمد عليها، **يكاد سنا برقه** أي: يكاد ضوء برق ذلك السحاب، من شدته **يذهب بالأبصار** أليس الذي أنشأها وساقها لعباده المفتقرين، وأنزلها على وجه يحصل به النفع ويتفي به الضرر، كامل القدرة، نافذ الشئبة، واسع الرحمة؟

يقبّل الله الليل والنهار من حر إلى برد، ومن برد إلى حر، من ليل إلى نهار، ونهار إلى ليل، ويُدبّل الأيام بين عبادِه، **إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار** أي: لذوي البصائر، والعقول النافذة للأمور المطلوبة منها، كما تنفذ الأبصار إلى الأمور المشاهدة الحسية. فالبصير ينظر إلى هذه

المخلوقات نظر اعتبار وتفكر وتدبّر لما أريد بها ومنها، والمرعّض الجاهل نظره إليها نظر غفلة، بمنزلة نظر البهائم.

﴿٤٥﴾ «والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير» ينبه عباده على ما يشاهدونه، أنه خلق جميع الدواب التي على وجه الأرض، **«من ماء»** أي: مادتها كلها الماء، كما قال تعالى: **«وجعلنا من الماء كل شيء حي»**.

فالحيوانات التي تتولد، مادتها ماء النطفة، حين يلقح الذكر الأنثى. والحيوانات التي تتولد من الأرض، لا تتولد إلا من الرطوبات المائية، كالحشرات لا يوجد منها شيء، يتولد من غير ماء أبداً، فالمادة واحدة، ولكن الخلقة مختلفة من وجوه كثيرة، **«فمنهم من يمشي على بطنه»** كالحية ونحوها، **«ومنهم من يمشي على رجلين»** كالآدميين، وكثير من الطيور، **«ومنهم من يمشي على أربع»** كبهيمة الأنعام ونحوها. فاختلافها - مع أن الأصل واحد - يدل على نفوذ مشيئة الله، وعموم قدرته، ولهذا قال: **«يخلق الله ما يشاء»** أي: من المخلوقات، على ما يشاءه من الصفات، **«إن الله على كل شيء قدير»** كما أنزل المطر على الأرض، وهو لقاح واحد، والأم واحدة، وهي الأرض، والأولاد مختلفو الأصناف والأوصاف **«وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد وتفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون»**.

﴿٤٦﴾ «لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم» أي: لقد رحمتنا عبادنا، وأنزلنا إليهم آيات بينات، أي: واضحات الدلالة، على جميع المقاصد الشرعية، والآداب الحمودة، والمعارف الرشيدة، فاتضحت بذلك السبل، وتبين الرشد من الغي،

والهدى من الضلال، فلم يبق أدنى شبهة لمبطل يتعلق بها، ولا أدنى إشكال لمريد الصواب، لأنها تنزيل من كَمُل علمه، وكملت رحمته، وكمل بيانه، فليس بعد بيانه بيان **«لئلهلك»** بعد ذلك **«من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة»**، **«والله يهدي من يشاء»** ممن سبقت لهم سابقة الحسن، وقدم الصدق، **«إلى صراط مستقيم»** أي: طريق واضح مختصر، موصل إليه، وإلى دار كرامته، متضمن العلم بالحق وإيثاره والعمل به. عَم البيان التام لجميع الخلق، وخصص بالهداية من يشاء، فهذا فضله وإحسانه، وما فضل الكريم بممنون وذاك عدله، وقطع الحاجة للمحتج، والله أعلم حيث يجعل مواقع إحسانه.

﴿٤٧﴾ «٥٠» «ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين» وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون * وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مدعين * أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون * يخبر تعالى عن حالة الظالمين، ممن في قلبه مرض وضعف إيمان، أو نفاق وريب وضعف علم، أنهم يقولون **«بالسنتهم»** ويلتزمون الإيمان بالله والطاعة، ثم لا يقومون بما قالوا، ويتولى فريق منهم عن الطاعة تَوَلّياً عظيماً، بدليل قوله: **«وهم معرضون»** فإن التولي، قد يكون له نية عود ورجوع إلى ما تولى عنه، وهذا التولي معرض، لا التفات له، ولا نظر لما تولى عنه، وتجد هذه الحالة مطابقة لحال كثير من يدّعي الإيمان والطاعة لله وهو ضعيف الإيمان، تجده لا يقوم بكثير من العبادات، خصوصاً: العبادات التي تشق على كثير من النفوس، كالزكوات، والنفقات الزوجية والمستحبة، والجهاد في سبيل الله، ونحو ذلك.

«وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم» أي: إذا صار بينهم وبين أحد

حكومة، ودعوا إلى حكم الله ورسوله
﴿إذا فريق منهم معرضون﴾ يريدون
أحكام الجاهلية، ويفضلون أحكام
القوانين غير الشرعية على الأحكام
الشرعية، لعلمهم أن الحق عليهم،
وأن الشرع لا يحكم إلا بما يطابق
الواقع، ﴿وإن يكن لهم الحق يأتوا
إليه﴾ أي: إلى حكم الشرع ﴿مذعنين﴾
وليس ذلك لأجل أنه حكم شرعي،
وإنما ذلك لأجل موافقة أهوائهم،
فليسوا عمدوحين في هذه الحال، ولو
أتوا إليه مذعنين، لأن العبد حقيقة،
من يتبع الحق فيما يجب ويكره، وفيما
يسره ويحزنه، وأما الذي يتبع الشرع
عند موافقة هواه، وينبذه عند مخالفته،
ويقدم الهوى على الشرع، فليس بعبد
على الحقيقة، قال الله في لومهم على
الإعراض عن الحكم الشرعي: ﴿أنفي
قلوبهم مرض﴾ أي: علة، أخرجت
القلب عن صحته وأزالت حاسته،
فصار بمنزلة المريض، الذي يعرض
عما يفعه، ويقبل على ما يضره، ﴿أم
ارتابوا﴾ أي: شكوا، وقلقت قلوبهم
من حكم الله ورسوله، واتهموه أنه
لا يحكم بالحق، ﴿أم يخافون أن
يخيف الله عليهم ورسوله﴾ أي: يحكم
عليهم حكماً ظالماً جائراً، وإنما هذا
وصفهم ﴿بل أولئك هم الظالمون﴾

وأما حكم الله ورسوله، ففي غاية
العدالة والقسط، وموافقة الحكمة.
﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم
يوقنون﴾. وفي هذه الآيات، دليل على
أن الإيمان، ليس هو مجرد القول حتى
يقترن به العمل، ولهذا نفى الإيمان
عمن تولوا عن الطاعة، ووجوب
الانقياد لحكم الله ورسوله في كل
حال، وأن من ينقذه دل على مرض
في قلبه، وريب في إيمانه، وأنه يحرم
إساءة الظن بأحكام الشريعة، وأن يظن
بها خلاف العدل والحكمة.

ولما ذكر حالة المعرضين عن الحكم
الشرعي، ذكر حالة المؤمنين
الممدوحين، فقال:

﴿٥١-٥٢﴾ ﴿إنما كان قول
المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله
ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا
وأولئك هم المفلحون﴾ ومن يطع الله
ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم
الفائزون﴾.

أي: ﴿إنما كان قول المؤمنين﴾
حقيقة، الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم
حين يدعون إلى الله ورسوله ليحكم
بينهم، سواء وافق أهواءهم أو
خالفها، ﴿أن يقولوا سمعنا وأطعنا﴾
أي: سمعنا حكم الله ورسوله، وأجبنا
من دعانا إليه، وأطعنا طاعة تامة،
سالة من الحرج.

﴿وأولئك هم المفلحون﴾ حصر
الفلاح فيهم، لأن الفلاح: الفوز
بالمطلوب، والنجاة من المكروه،
ولا يفلح إلا من حكم الله ورسوله،
وأطاع الله ورسوله.

ولما ذكر فضل الطاعة في الحكم
خصوصاً، ذكر فضلها عموماً، في
جميع الأحوال، فقال: ﴿ومن يطع الله
ورسوله﴾ فيصدق خبرهما ويمثل
أمرهما، ﴿ويخش الله﴾ أي: يخافه
خوفاً مقروناً بمعرفة، فيترك ما نهى
عنه، ويكف نفسه عما تهوى، ولهذا
قال: ﴿ويتقه﴾ بترك المحظور، لأن
التقوى - عند الإطلاق - يدخل فيها،
فعل المأمور، وترك المنهي عنه، وعند
اقتنائها بالبر أو الطاعة - كما في هذا
الموضع - تفسر بتوقي عذاب الله،
بترك معاصيه، ﴿فأولئك﴾ الذين جمعوا
بين طاعة الله وطاعة رسوله،
وخشية الله وتقواه، ﴿هم الفائزون﴾
بنجاتهم من العذاب، لتركهم أسبابه،
ووصولهم إلى الثواب، لفعلهم أسبابه،
فالفوز محصور فيهم، وأما من لم يتصف
بوصفهم، فإنه يفوته من الفوز بحسب
ما قصر عنه من هذه الأوصاف
الحميدة، واشتملت هذه الآية، على
الحق المشترك بين الله وبين رسوله،
وهو الطاعة المستلزمة للإيمان، والحق
المختص بالله، وهو الخشية والتقوى،

وبقي الحق الثالث المختص بالرسول،
وهو التعزيز والتوقير، كما جمع بين
الحقوق الثلاثة في سورة الفتح في
قوله: ﴿لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه
وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً﴾.

﴿٥٣-٥٤﴾ ﴿وأقسموا بالله جهد
أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل
لا تقسموا طاعة معروفة إن الله خبير
بما تعملون﴾ قل أطيعوا الله وأطيعوا
الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل
وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا
وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ يخبر
تعالى عن حالة المتخلفين عن
الرسول ﷺ في الجهاد من المنافقين،
ومن في قلوبهم مرض وضعف إيمان
أنهم يقسمون بالله، ﴿لئن أمرتهم﴾ فيما
يستقبل، أولئن نصصت عليهم حين
خرجت ﴿ليخرجن﴾ والمعنى الأول
أولى. قال الله - راداً عليهم -: ﴿قل
لا تقسموا﴾ أي: لا نحتاج إلى
إقسامكم ولا إلى أعذاركم، فإن الله
قد نبأنا من أخباركم، وطاعتكم
معروفة، لا تخفى علينا، قد كنا نعرف
منكم التناقل والكسل من غير عذر،
فلا وجه لعذرهم وقسمكم، إنما يحتاج
إلى ذلك، من كان أمره محتماً، وحاله
مشتبهاً، فهذا ربما يفيد العذر براءة،
وأما أنتم فكلاً ولما، وإنما ينتظر بكم
ويخاف عليكم حلول بأس الله ونقمته،
ولهذا توعدهم بقوله: ﴿إن الله خبير
بما تعملون﴾ فيجازيكم عليها أتم
الجزاء، هذه حالهم في نفس الأمر،
وأما الرسول عليه الصلاة والسلام،
فوظيفته أن يأمركم وينهاكم، ولهذا
قال:

﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول
فإن استلبوا، كان حظكم
وسعادتكم^(١)، وإن تولوا فإنما عليه
ما حمل﴾ من الرسالة، وقد أداها.
﴿وعليكم ما حملتم﴾ من الطاعة، وقد
بانت حالكم وظهرت، فبان ضلالكم
وغيكم واستحقاقكم العذاب. ﴿وإن
تطيعوه تهتدوا﴾ إلى الصراط المستقيم،

(١) في ب: كان حظهم وسعادتكم.

قولاً وعملاً، فلا سبيل لكم إلى الهداية إلا بطاعته، وبدون ذلك، لا يمكن، بل هو محال.

﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ أي: تبليغكم البين الذي لا يَبْقَى لأحد شكاً ولا شبهة، وقد فعل ﷺ، بلغ البلاغ المبين، وإنما الذي يجاسبكم ويجازيكم هو الله تعالى، فالرسول ليس له من الأمر شيء، وقد قام بوظيفته.

﴿٥٥﴾ ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ هذا من أو عاده^(١) الصادقة، التي شوهده تأويلها وغبرها، فإنه وعد من قام بالإيمان والعمل الصالح من هذه الأمة، أن يستخلفهم في الأرض، يكونون هم الخلفاء فيها، المتصرفين في تدبيرها، وأنه يُمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وهو دين الإسلام، الذي فاق الأديان كلها، ارتضاه لهذه الأمة، لفضلها وشرفها ونعمته عليها، بأن يتمكنوا من إقامته، وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة، في أنفسهم وفي غيرهم، لكون غيرهم من أهل الأديان وسائر الكفار مغلوبين ذليلين، وأنه يبدلهم من بعد خوفهم الذي كان الواحد منهم لا يتمكن من إظهار دينه، وما هو عليه إلا بأذى كثير من الكفار، وكون جماعة المسلمين قليلين جداً بالنسبة إلى غيرهم، وقد رامهم أهل الأرض عن قوس واحدة، وبغوا لهم الغوائل.

فوعدهم الله هذه الأمور وقت نزول الآية، وهي لم تشاهد الاستخلاف في الأرض والتمكين فيها، والتمكين من إقامة الدين الإسلامي، والأمن التام، بحيث يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً، ولا يخافون أحداً إلا الله، فقام صدر هذه

الأمة، من الإيمان والعمل الصالح بما يفوقون على غيرهم، فمكنتهم من البلاد والعباد، وفتحت مشارق الأرض ومغاربها، وحصل الأمن التام والتمكين التام، فهذا من آيات الله العجبة الباهرة، ولا يزال الأمر إلى قيام الساعة، مهما قاموا بالإيمان والعمل الصالح، فلا بد أن يوجد ما وعدهم الله، وإنما يسلط عليهم الكفار والمنافقين، ويُبدلهم في بعض الأحيان، بسبب إخلال المسلمين بالإيمان والعمل الصالح.

﴿ومن كفر بعد ذلك﴾ التمكن والسلطنة التامة لكم، يا معشر المسلمين، ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ الذين خرجوا عن طاعة الله، وفسدوا، فلم يصلحوا للصالح، ولم يكن فيهم أهلية للخير، لأن الذي يترك الإيمان في حال عزه وقهره، وعدم وجود الأسباب المانعة منه، يدل على فساد نيته، وخبث طويته، لأنه لا داعي له لترك الدين إلا ذلك. ودلت هذه الآية، أن الله قد مكن من قبلنا، واستخلفهم في الأرض، كما قال موسى لقومه: ﴿ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ وقال تعالى: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الأرض﴾.

﴿٥٦ - ٥٧﴾ ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون﴾ لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض وماؤاهم النار وليئس المصير. يأمر تعالى بإقامة الصلاة، بأركانها وشروطها وأدائها، ظاهراً وباطناً، وبإيتاء الزكاة من الأموال التي استخلف الله عليها العباد، وأعطاهم إياها، بأن يؤتوها الفقراء وغيرهم، ممن ذكرهم الله لمصرف الزكاة، فهذان أكبر الطاعات وأجلهما، جامعتان لحقه وحق خلقه، للإخلاص للمعبود، وللإحسان إلى

العبيد، ثم عطف عليهما الأمر العام، فقال: ﴿وأطيعوا الرسول﴾ وذلك بامتنال أوامره واجتناب نواهيه ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ لعلكم ﴿ترحمون﴾ فمن أراد الرحمة، فهذا طريقها، ومن رجاها من دون إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وإطاعة الرسول، فهو مُتَمَنٍّ كاذب، وقد منته نفسه الأمان الكاذبة.

﴿لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض﴾ فلا يغركم ما متعوا به في الحياة الدنيا، فإن الله، وإن أهملهم فإنه لا يهملهم ﴿نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾.

ولهذا قال هنا: ﴿وماؤاهم النار وليئس المصير﴾ أي: بئس المآل، مآل الكافرين، مآل الشر والحسرة والعقوبة الأبدية.

﴿٥٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك بين الله لكم الآيات والله عليم حكيم﴾ أمر المؤمنين أن يستأذنتهم محاليتهم، والذين لم يبلغوا الحلم منهم: قد ذكر الله حكمته وأنه ثلاث عورات للمستأذن عليهم، وقت نومهم بالليل بعد العشاء، وعند انتباههم قبل صلاة الفجر، فهذا - في الغالب - أن النائم يستعمل للنوم في الليل ثوباً غير ثوبه المعتاد، وأما نوم النهار، فلما كان في الغالب قليلاً، قد ينام فيه العبد بثيابه المعتادة، فيده بقوله: ﴿وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة﴾ أي: للفاصلة، وسط النهار.

ففي ثلاثة هذه الأحوال، يكون المالئك والأولاد الصغار كثيرهم، لا يُمكنون من الدخول إلا بإذن، وأما

ما عدا هذه الأحوال الثلاثة فقال: **﴿ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن﴾** أي: ليسوا كغيرهم، فإنهم يحتاج إليهم دائماً، فيشق الاستئذان منهم في كل وقت، ولهذا قال: **﴿طوافون عليكم بعضكم على بعض﴾** أي: يشتردون عليكم في قضاء أشغالكم وحوائجكم.

﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾ بياناً مقروناً بحكمته، ليتأكد ويتقوى ويعرف به رحمة شارعها وحكمته، ولهذا قال: **﴿والله عليم حكيم﴾** له العلم المحيط بالواجبات والمستحبات والممكنات، والحكمة التي وضعت كل شيء موضعه، فأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، وأعطى كل حكم شرعي حكمه اللائق به، ومنه هذه الأحكام التي بينها وبين مآخذها وحسنها.

﴿٥٩﴾ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم، وهو إنزال المني يقطة أو مناماً، **﴿فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم﴾** أي: في سائر الأوقات، والذين من قبلهم، هم الذين ذكرهم الله بقوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا﴾** الآية.

﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾ ويوضحها، ويفصل أحكامها **﴿والله عليم حكيم﴾**.

وفي هاتين الآيتين فوائد، منها: أن السيد وولي الصغير، مخاطبان بتعليم عبيدهم ومن تحت ولايتهم من الأولاد، العلم والآداب الشرعية، لأن الله وجه الخطاب إليهم بقوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم﴾** الآية، ولا يمكن ذلك، إلا بالتعليم والتأديب، ولقوله: **﴿ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن﴾**.

ومنها: الأمر بحفظ العورات، والاحتياط لذلك من كل وجه، وأن

المحل والمكان، الذي مظنة لرؤية عورة الإنسان فيه، أنه منهي عن الاغتسال فيه والاستنجاء، ونحو ذلك.

ومنها: جواز كشف العورة لحاجة، كالحاجة عند النوم، وعند البول والغائط، ونحو ذلك.

ومنها: أن المسلمين كانوا معتادين للقليلة وسط النهار، كما اعتادوا نوم الليل، لأن الله خاطبهم ببيان حالهم الموجودة.

ومنها: أن الصغير الذي دون البلوغ، لا يجوز أن يُمكن من رؤية العورة، ولا يجوز أن تُرى عورته، لأن الله لم يأمر باستئذانهم، إلا عن أمر ما يجوز.

ومنها: أن المملوك أيضاً، لا يجوز أن يرى عورة سيده، كما أن سيده لا يجوز أن يرى عورته، كما ذكرنا في الصغير.

ومنها: أنه ينبغي للمواظب والمعلم ونحوهم، ممن يتكلم في مسائل العلم الشرعي، أن يقرن بالحكم، بيان مأخذه ووجهه، ولا يلقيه مجرداً عن الدليل والتعليل، لأن الله - لما بين الحكم المذكور - عليه بقوله: **﴿ثلاث عورات لكم﴾**.

ومنها: أن الصغير والعبد، مخاطبان، كما أن وليهما مخاطب لقوله: **﴿ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن﴾**.

ومنها: أن ريق الصبي طاهر، ولو كان بعد نجاسة، كالقيء، لقوله تعالى: **﴿طوافون عليكم﴾** مع قول النبي ﷺ حين سئل عن الهرة: «إنها ليست بتنجس، إنها من الطوافين عليكم والطوافات».

ومنها: جواز استخدام الإنسان من تحت يده، من الأطفال على وجهه

قَالَ اللَّهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الرَّسُولَ قَدْ قُولُوا مَا عَلَيْهِ مَا حُدِّثَ
وَعَلَيْكُمْ مَا حُدِّثَ وَأَنْ تَطِيعُوا وَتَعْتَدُوا وَأَنْ تَطِيعُوا
إِلَّا إِلَهُكُمْ الْيَوْمَ ۖ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَأَمَّا
وَعَلَيْكُمْ الصَّلَاةُ لَيْسَ عَلَيْكُمْ فِي الْأَرْضِينَ كَمَا اتَّخَذَتْ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ فِي دِينِهِمْ الَّذِي اتَّخَذَ لَهُمْ
وَلَيْسَ لَكُمْ مِنْ دِينِهِمْ شَيْءٌ وَأَمَّا يَوْمَ تَبْيَضُّ بُيُوتُ
شَاهِدًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۖ
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَالْحَقُّ الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ
ۖ لَا تَحْزَنْ لِمَنْ كَفَرَ مِنْكُمْ فِي الْأَرْضِ وَمَنْ كَفَرَ
الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ الضَّرِيرُ ۖ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَسْتُمْ نَكَرًا
الَّذِينَ تَلَكَ أَمْثَلَكُمْ وَالَّذِينَ لَا يَتْلُوا الْقُرْآنَ كُنْتُمْ تَرْتَدُّونَ
فِي الْمَكَّةَ وَالْقُرْآنَ وَحِينَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ وَهُوَ
بَعْدَ صَلَاةِ الْوُضُوءِ فَذَكِّرْ عَزَّ وَجَلَّ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ
وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ مِمَّا تَقْرَأُونَ عَلَيْهِمْ مِمَّا تَقْرَأُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ
كَرَاهِيَةً ۖ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۖ

معتاد، لا يشق على الطفل لقوله: **﴿طوافون عليكم﴾**.

ومنها: أن الحكم المذكور المفصل، إنما هو لما دون البلوغ، فأما ما بعد البلوغ، فليس إلا الاستئذان.

ومنها: أن البلوغ يحصل بالإنزال، فكل حكم شرعي رتب على البلوغ، حصل بالإنزال، وهذا مجمع عليه، وإنما الخلاف، هل يحصل البلوغ بالسن، أو الإنبات للعانة، والله أعلم.

﴿٦٠﴾ والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم والقواعد من النساء أي: اللاتي قعدن عن الاستمتاع والشهوة اللاتي لا يرجون نكاحاً أي: لا يطعن في النكاح، ولا يُطمع فيهن، وذلك لكونها عجوزاً لا تُشتهي، أو دميمة الخلقة لا تُشتهي ولا تُشتهي^(١)، **﴿فليس عليهن جناح﴾** أي: حرج وإثم **﴿أن يضعن ثيابهن﴾** أي: الثياب الظاهرة، كالخمار ونحوه، الذي قال الله فيه للنساء: **﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾**. فهؤلاء،

(١) كذا في النسخين، ولعل في الكلام قلباً فالأقرب أن يقال: (عجوزاً لا تُشتهي ولا دميمة الخلقة لا تُشتهي).



أخوانكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتيحه أو صديقكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴿٦٠﴾ يخبر تعالى عن مثبته على عباده، وأنه لم يجعل عليهم في الدين من حرج بل يسره غاية التيسير، فقال:

﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج﴾ أي: ليس على هؤلاء جناح، في ترك الأمور الواجبة، التي تتوقف على واحد منها، وذلك كالجهاد ونحوه، مما يتوقف على بصر للأعمى، أو سلامة للأعرج، أو صحة للمريض، ولهذا المعنى العام الذي ذكرناه، أطلق الكلام في ذلك، ولم يقيد، كما قيد قوله: ﴿ولا على أنفسكم﴾ أي: حرج «أن تأكلوا من بيوتكم» أي: بيوت أولادكم، وهذا موافق للحديث الثابت: «أنت ومالك لأبيك»، والحديث الآخر: «إن أطيب ما أكلتم من كسبكم»، وليس المراد من قوله: «من بيوتكم» بيت الإنسان نفسه، فإن هذا من باب تحصيل الحاصل، الذي ينزه عنه كلام الله، ولأنه نفى الحرج عما يظن أو يتوهم فيه الإثم من هؤلاء المذكورين، وأما بيت الإنسان نفسه فليس فيه أدنى توهم.

﴿أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم، أو بيوت إخوانكم، أو بيوت أخواتكم، أو بيوت أعمامكم، أو بيوت عماتكم، أو بيوت أخوالكم، أو بيوت خالاتكم﴾ وهؤلاء معروفون، ﴿أو ما ملكتم مفاتيحه﴾ أي: البيوت التي أنتم متصرفون فيها بوكالة، أو ولاية ونحو ذلك، وأما تفسيرها

بالمملوك، فليس بوجيه، لو جهين: أحدهما: أن المملوك لا يقال فيه «ملكتم مفاتيحه»، بل يقال: «ما ملكتموه» أو «ما ملكت إيمانكم» لأنهم مالكون له جملة، لا لمفاتيحه فقط.

والثاني: أن بيوت الممالك، غير خارجة عن بيت الإنسان نفسه، لأن المملوك وما ملكه لسيده، فلا وجه لنفي الحرج عنه.

﴿أو صديقكم﴾ وهذا الحرج المنفي عن الأكل^(١)، من هذه البيوت كل ذلك، إذا كان بدون إذن، والحكمة فيه معلومة من السياق، فإن هؤلاء المسمين^(٢)، قد جرت العادة والعرف، بالمساخة في الأكل منها، لأجل القرابة القريبة، أو التصرف التام، أو الصداقة، فلو قدر في أحد من هؤلاء عدم المساخة والشح في الأكل المذكور، لم يجرز الأكل، ولم يرتفع الحرج، نظراً للحكمة والمعنى.

وقوله: ﴿ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً﴾ فكل ذلك جائز، أكل أهل البيت الواحد جميعاً، أو أكل كل واحد منهم وحده، وهذا نفى للمحرج، لا نفى للفضيلة والا فالأفضل الاجتماع على الطعام.

﴿فإذا دخلتم بيوتاً﴾ نكرة في سياق الشرط، يشمل بيت الإنسان وبيت غيره، سواء كان في البيت ساكن أم لا، فإذا دخلها الإنسان ﴿فسلموا على أنفسكم﴾ أي: فليسلم بعضكم على بعض، لأن المسلمين كأنهم شخص واحد، من تواددهم، وتراحمهم، وتعاطفهم، فالسلام مشروع لدخول سائر البيوت، من غير فرق بين بيت وبيت، والاستئذان تقدم أن فيه تفضيلاً في أحكامه، ثم مدح هذا السلام فقال: ﴿تحية من عند الله مباركة

يجوز لهن أن يكشفن وجوههن لآمن المحذور منها وعليها، ولما كان نفى الحرج عنهن في وضع الثياب، ربما توهم منه جواز استعمالها لكل شيء، دفع هذا الاحتراز بقوله: «غير متبرجات بزينة» أي: غير مظهرات للناس زينة، من تحمل بثياب ظاهرة، وتستتر وجهها، ومن ضرب الأرض برجلها، ليعلم ما تخفي من زيتها، لأن مجرد الزينة على الأنثى، ولو مع تسترها، ولو كانت لا تشتهى يفتن فيها، ويوقع الناظر إليها في الحرج «وأن يستعففن خير لهن» والاستعفاف: طلب العفة، بفعل الأسباب المقتضية لذلك، من تزوج وترك لما يخشى منه الفتنة، «والله سميع» لجميع الأصوات «عليم» بالنيات والمقاصد، فليحذرن من كل قول وقصد فاسد، ويعلمن أن الله يجازي على ذلك.

﴿٦١﴾ «ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت

(١) في ب: من.

(٢) مراد الشيخ - رحمه الله - فإن بيوت هؤلاء المسمين، كما يبدو - والله أعلم -.

طيبة أي: سلامكم بقولكم: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» أو «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» إذ تدخلون البيوت، «تحية من عند الله» أي: قد شرعها لكم، وجعلها تحيتكم، «مباركة» لاشتمالها على السلامة من النقص، وحصول الرحمة والبركة والنماء والزيادة، «طيبة» لأنها من الكلم الطيب المحبوب عند الله، الذي فيه طيب نفس للمحيا، ومحبة وجلب مودة.

لما بين لنا هذه الأحكام الجليلة قال: **«كذلك يبين الله لكم الآيات»** الدالات على أحكامه الشرعية وحكمها، «لعلكم تعقلون» عنه فتفهمونها، وتعقلونها بقلوبكم، ولتكونوا من أهل العقول والألباب الرزينة، فإن معرفة أحكامه الشرعية على وجهها، يزيد به العقل، ويتمو به القلب، لكون معانيها أجل المعاني، وآدابها أجل الآداب، ولأن الجزء من جنس العمل، فكما استعمل عقله للتعقل عن ربه، وللتفكر في آياته التي دعاه إليها، زاده من ذلك.

وفي هذه الآيات دليل على قاعدة عامة كلية وهي: «أن العرف والعادة تخصص للألفاظ، كتخصيص اللفظ للفظ». فإن الأصل، أن الإنسان ممنوع من تناول طعام غيره، مع أن الله أباح الأكل من بيوت هؤلاء، للعرف والعادة، فكل مسألة تتوقف على الإذن من مالك الشيء، إذا علم إذنه بالقول أو العرف، جاز الإقدام عليه.

وفيها دليل على أن الأب يجوز له أن يأخذ ويتملك من مال ولده ما لا يضره، لأن الله سمى بيته بيتاً للإنسان.

وفيها دليل على أن المتصرف في بيت الإنسان، كزوجته، وأخته ونحوهما، يجوز لهما الأكل عادة، وإطعام السائل المعتاد.

وفيها دليل، على جواز المشاركة في الطعام، سواء أكلوا مجتمعين، أو

متفرقين، ولو أفضى ذلك إلى أن يأكل بعضهم أكثر من بعض.

﴿٦٢ - ٦٤﴾ «إنا المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنونك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم إن الله غفور رحيم * لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم * ألا إن الله ما في السماوات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه فينبتهم بما عملوا والله بكل شيء عليم» هذا إرشاد من الله لعباده المؤمنين، أنهم إذا كانوا مع الرسول ﷺ على أمر جامع، أي: من ضرورته أو من مصلحته، أن يكونوا فيه جميعاً، كالجهاد، والمشاورة، ونحو ذلك من الأمور التي يشترك فيها المؤمنون، فإن المصلحة تقتضي اجتماعهم عليه وعدم تفرقهم، فالمؤمن بالله ورسوله حقاً، لا يذهب لأمر من الأمور، لا يرجع لأهله، ولا يذهب لبعض الخواص التي يشذ بها عنهم، إلا بإذن من الرسول أو نائبه من بعده، فجعل موجب الإيمان، عدم الذهاب إلا بإذن، ومدحهم على فعلهم هذا وأدبهم مع رسوله وولي الأمر منهم، فقال: «إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله» ولكن هل يأذن لهم أم لا؟ ذكر لإذنه لهم شرطين:

أحدهما: أن يكون لشأن من شؤونهم، وشغل من أشغالهم، فأما من يستأذن من غير عذر، فلا يؤذن له.

والثاني: أن يشاء الإذن له فتقتضيه المصلحة، من دون مضرة بالآذن، قال:

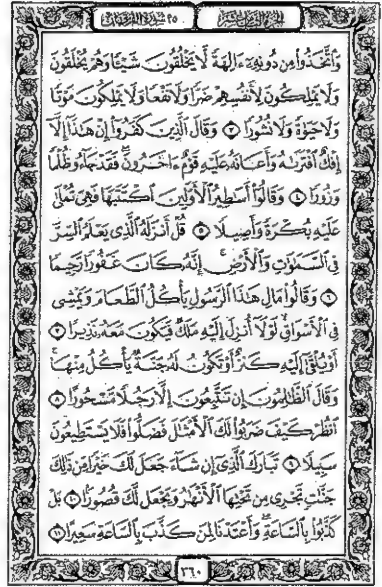
«فإذا استأذنونك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم» فإذا كان له عذر واستأذن، فإن كان في قعوده وعدم



ذهابه مصلحة برأيه، أو شجاعته، ونحو ذلك، لم يأذن له، ومع هذا إذا استأذن، وأذن له بشرطيه، أمر الله رسوله أن يستغفر له، لما عسى أن يكون مقصراً في الاستئذان، ولهذا قال: **«واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم»** يغفر لهم الذنوب ويرحمهم، بأن جوز لهم الاستئذان مع العذر.

«لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً» أي: لا تجعلوا دعاء الرسول إياكم ودعائكم للرسول كدعاء بعضكم بعضاً، فإذا دعاكم فأجيبوه وجوباً، حتى إنه يجب إجابة الرسول ﷺ في حال الصلاة، وليس أحد إذا قال قولاً لا يجب على الأمة قبول قوله والعمل به، إلا الرسول، لعصمته، وكوننا مخاطبين باتباعه، قال تعالى: **«يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم»** وكذلك لا تجعلوا دعاءكم للرسول كدعاء بعضكم بعضاً، فلا تقولوا: «يا محمد» عند نداءكم، أو «يا محمد بن عبد الله» كما يقول ذلك بعضكم لبعض، بل من شرفه وفضله وتميزه ﷺ عن غيره، أن يقال: يا رسول الله، يا نبي الله.

«قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً» لما مدح المؤمنين بالله ورسوله، الذين إذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنه، وتوعد من لم



ولما قيد علمه بأعمالهم، ذكر
العموم بعد الخصوص، فقال: ﴿والله
بكل شيء عليم﴾

تفسير سورة الفرقان وهي مكية عند الجمهور

﴿١- ٢﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى
عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * الَّذِي لَهُ
مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا
وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ
شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا * هَذَا بَيَانٌ لِعَظَمَتِهِ
الْكَامِلَةِ، وَتَفَرُّدِهِ [بِالْوَحْدَانِيَّةِ] ^(١) مِنْ
كُلِّ وَجْهِ، وَكَثْرَةِ خَيْرَاتِهِ وَإِحْسَانِهِ،
فَقَالَ: ﴿تَبَارَكَ﴾ أي: تعظيم، وكملت
أوصافه، وكثرت خيرات، الذي من
أعظم خيرات ونعمه، أن نزل هذا
القرآن الفارق بين الحلال والحرام،
والهدى والضلال، وأهل السعادة من
أهل الشقاوة، ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾ محمد ﷺ
الذي كمل مراتب العبودية، وفاق جميع
المرسلين، ﴿لِيَكُونَ﴾ ذلك الإنزال
للفرقان على عبده ﴿لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾
ينذرهم بأمر الله ونقمته، ويبين لهم
مواقع رضا الله من سخطه، حتى إن
من قبل نذارته وعمل بها، كان من
الناجين في الدنيا والآخرة، الذين
حصلت لهم السعادة الأبدية، والملك
السرمدى، فهل فوق هذه النعمة وهذا
الفضل والإحسان شيء؟ فتبارك الذي
هذا من بعض إحسانه وبركاته.

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ﴾ أي: له التصرف فيها
وحده، وجميع من فيها ممالك وعبيد
له، مذعنون لعظمته، خاضعون
لربوبيته، فقراء إلى رحمته، الذي ﴿لَمْ
يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي
الْمُلْكِ﴾ وكيف يكون له ولد أو
شريك، وهو المالك، وغيره مملوك،
وهو القاهر، وغيره مقهور، وهو
الغني بذاته من جميع الوجوه،
والمخلوقون مفتقرون إليه، فقرأ ذاتياً

من جميع الوجوه!!
وكيف يكون له شريك في الملك،
ونواصي العباد كلهم بيديه، فلا
يتحركون أو يسكنون، ولا يتصرفون
إلا بإذنه، فتعالى الله عن ذلك علواً
كبيراً، فلم يقدره حق قدره من قال فيه
ذلك، ولهذا قال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾
شمل العالم العلوي، والعالم السفلي،
من حيواناته، ونباتاته، وجاداته،
﴿فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ أي: أعطى كل
خلق منها ما يليق به، ويناسبه من
الخلق، وما تقتضيه حكمته من ذلك،
بحيث صار كل خلق لا يتصور العقل
الصحيح أن يكون بخلاف شكله
وصورته المشاهدة، بل كل جزء وعضو
من المخلوق الواحد، لا يناسبه غير
محله الذي هو فيه. قال تعالى: ﴿سُبْحِ
اسْمِ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ
فَسْوًى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهْدًى﴾ وقال
تعالى: ﴿رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ
خَلْقَهُ ثُمَّ هَدًى﴾ ولما بين كماله
وعظمته، وكثرة إحسانه، كان ذلك
مقتضياً لأن يكون وحده المحبوب
المألوه العظيم، المفرد بالإخلاص
وحده، لا شريك له ناسب أن يذكر
بطلان عبادة ما سواه، فقال:

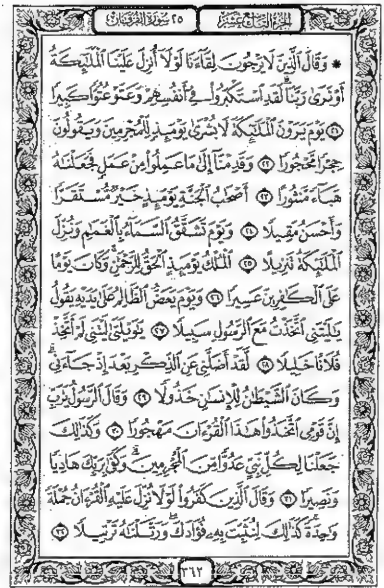
﴿٣﴾ ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً
لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا
يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضُرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا
يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً﴾
أي: من أعجب العجائب، وأدل
الدليل على سفاهتهم، ونقص عقولهم،
بل أدل على ظلمهم وجزائهم على
ربهم، أن اتخذوا آلِهَةً بهذه الصفة، في
كمال العجز، أنها لا تقدر على خلق
شيء، بل هم مخلوقون، بل بعضهم ما
عملته أيديهم. ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ
ضُرّاً وَلَا نَفْعاً﴾ أي: لا قليلاً ولا
كثيراً، لأنه نكرة في سياق النفي.

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا
نُشُوراً﴾ أي: بعثاً بعد الموت، فأعظم
أحكام العقل بطلان إلهيتها، وفسادها
وفساد عقل من اتخذها آلِهَةً وشركاء

يفعل ذلك وذهب من غير استئذان،
فهو وإن خفي عليكم بذهابه على وجه
خفي، وهو المراد بقوله: ﴿يَسْتَلْبِثُونَ
مِنْكُمْ لَوْأَدَّ﴾ أي: يلوذون وقت
تسللهم وانطلاقهم بشيء ينجبهم عن
العيون، فالله يعلمهم، وسيجازيهم على
ذلك أنم الجزاء، ولهذا ترعدهم
بقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ
أَمْرِ﴾ أي: يذهبون إلى بعض شؤونهم
عن أمر الله ورسوله، فكيف بمن لم
يذهب إلى شأن من شؤونهم!! وإنما
ترك أمر الله من دون شغل له.

﴿أَنْ تَصِيَّبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: شرك وشر
﴿أَوْ يَصِيَّبَهُمْ عَذَابُ الْيَمِّ﴾
﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَافِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ﴾ ملكاً وعبداً، يتصرف فيهم
بحكمه القدري، وحكمه الشرعي.
﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: قد أحاط
علمه بما أنتم عليه، من خير وشر،
وعلم جميع أعمالكم، أحصاها علمه،
وجرى بها قلمه، وكتبها عليكم
الحفظة الكرام الكاتبون.

﴿وَيَوْمَ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ﴾ في يوم
القيامة ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ يخبرهم
بجميع أعمالهم، دقيقها وجليلها،
إخباراً مطابقاً لما وقع منهم، ويستشهد
عليهم أعضاؤهم، فلا يعدمون منه
فضلاً أو عدلاً.



واستهزاء. «يا أكل الطعام» وهذا من خصائص البشر، فهلا كان ملكاً لا يأكل الطعام، ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر، «ويمشي في الأسواق» للبيع والشراء، وهذا - بزعمهم - لا يليق بمن يكون رسولاً، مع أن الله قال: «وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق».

«لولا أنزل إليه ملك» أي: هلا أنزل معه ملك يساعده ويعاونه، «فيكون معه نذيراً» وبزعمهم أنه غير كاف للرسالة، ولا بطوقه وقدرته القيام بها.

«أو يلقى إليه كنز» أي: مال مجموع من غير تعب، «أو تكون له جنة يأكل منها» فيستغني بذلك عن مشيه في الأسواق لطلب الرزق.

«وقال الظالمون» حلهم على القول، ظلمهم لا اشتباه منهم، «إن تبعون إلا رجلاً مسحوراً» هذا، وقد علموا كمال عقله، وحسن حديثه، وسلامته من جميع المطاعن. ولما كانت هذه الأقوال منهم، عجيبة جداً، قال تعالى: «انظر كيف ضربوا لك الأمثال» وهي: أنه هلا كان ملكاً، وزالت عنه خصائص البشر أو معه ملك، لأنه غير قادر على ما قال، أو أنزل عليه كنز، أو جعلت له جنة تغنيه عن المشي في الأسواق، أو أنه كان

مسحوراً.

«فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً»

قالوا أقوالاً متناقضة، كلها جهل وضلال وسفه، ليس في شيء منها هداية، بل ولا في شيء منها أدنى شبهة تقدر في الرسالة، فبمجرد النظر إليها وتصورها، يجزم العاقل ببطلانها، ويكفيه عن زدها، ولهذا أمر تعالى بالنظر إليها وتدبرها، والنظر: هل توجب التوقف عن الجزم للرسول بالرسالة والصدق؟ ولهذا أخبر أنه قادر على أن يعطيك خيراً كثيراً في الدنيا فقال: «تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك» أي: خيراً مما قالوا، ثم فسره بقوله: «جنان تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً» مرتفعة مزخرفة، فقدرته ومشيته، لا تقصر عن ذلك، ولكنه تعالى - لما كانت الدنيا عنده في غاية البعد والحقارة - أعطى منها أوليائه ورسله، ما اقتضته حكمته منها، واقترح أعدائهم بأنهم، هلا رزقوا منها رزقاً كثيراً جداً، ظلم وجراءة.

ولما كانت تلك الأقوال التي قالوها معلومة الفساد، أخبر تعالى أنها لم تصدر منهم لطلب الحق، ولا لاتباع البرهان، وإنما صدرت منهم تعنتاً وظلماً، وتكذيباً بالحق، فقالوا ما يقلوبهم من ذلك، ولهذا قال: «بل كذبوا بالساعة» والمكذب المتعنت، الذي ليس له قصد في اتباع الحق، لا سبيل إلى هدايته، ولا حيلة في مجادلته، وإنما له حيلة واحدة، وهي نزول العذاب به، فلهذا قال: «وأعدنا لمن كذب بالساعة سعيراً» أي: ناراً عظيمة، قد اشتد سعيرها، وتغيظت على أهلها، واشتد زفيرها. «إذا رأتهم من مكان بعيد» أي: قبل وصولهم ووصولها إليهم، «سمعوا لها تغيظاً» عليهم «وزفيراً» تعلق منه الأفئدة، وتتصدع القلوب، ويكاد الواحد منهم يموت خوفاً منها وذعراً، قد غضبت عليهم لغضب خالقها، وقد زاد لها لزيادة كفرهم وشركهم.

«وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً

مقرنين» أي: عذابهم، وهم في وسطها، جمع في مكان بين ضيق المكان، وتزاحم السكان، وتقرينهم بالسلاسل والأغلال، فإذا وصلوا لذلك المكان النحس، وحسوا في أثر حبس «دعوا هنالك ثبوراً» دعوا على أنفسهم بالثبور والخزي والفضيحة، وعلموا أنهم ظالمون معتدون، قد عدل فيهم الخالق، حيث أنزلهم بأعمالهم هذا المنزل، وليس ذلك الدعاء والاستغاثة بنافعة لهم، ولا مغنية من عذاب الله، بل يقال لهم: «لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً، وادعوا ثبوراً كثيراً» أي: لو زاد ما قلتم أضعاف أضعافه، ما أفادكم إلا الهم والغم والحزن.

لما بين جزاء الظالمين، ناسب أن يذكر جزاء المتقين فقال:

«١٥ - ١٦» قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيراً * لهم فيها ما يشاؤون خالدين كان على ربك وعداً مسؤولاً.

أي: قل لهم - مينا لسفاهة رأيهم، واختيارهم الضار على النافع -: «أذلك» الذي وصفت لكم من العذاب «خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون» التي زادها تقوى الله، فمن قام بالتقوى، فالله قد وعده إياها، «كانت لهم جزاء» على تقواهم «ومصيراً» موثلاً يرجعون إليها، ويستقرون فيها، ويخلدون دائماً أبداً.

«لهم فيها ما يشاؤون» أي: يطلبون، وتتعلق بهم أمانيتهم ومشيتهم، من المطاعم، والمشارب اللذيذة، والملابس الفاخرة، والنساء الجميلات، والقصور العاليات، والجنان، والحدايق المرجحنة، والفواكه التي تسر ناظرها وأكلها، من حسناتها وتنوعها، وكثرة أصنافها، والأنهار التي تجري في رياض الجنة وبساتينها، حيث شاؤوا يصرفونها، ويفجرونها أنهاراً من ماء غير آسن، وأنهاراً من لبن لم يتغير طعمه، وأنهاراً من خمر لذة للشاربين، وأنهاراً من عسل مصفى، وروائح طيبة، ومسكن

مزخرفة، وأصوات شجية، تأخذ من حسناتها بالقلوب، ومزاورة الإخوان، والتمتع بلقاء الأحباب، وأعلى من ذلك كله، التمتع بالنظر إلى وجه الرب الرحيم، وسماع كلامه، والحظوة بقربه، والسعادة برضاه، والأمن من سخطه، واستمرار هذا النعيم ودوامه، وزيادته على عمر الأوقات، وتعاقب الآتات **﴿كان دخولها والوصول إليها على ربك وعداً مسؤولاً﴾** يسأله إياها، عبادته المتقون بلسان حالهم، ولسان مقالهم، فأبي: الدارين المذكورتين خير وأولى بالإيثار؟ وأي: العاملين، عمال دار الشقاء، أو عمال دار السعادة، أولى بالفضل والعقل والفخر، يا أولى الألباب؟

لقد وضح الحق، واستنار السبيل، فلم يبق للمقرط عذر في تركه الدليل، فنجرك يا من قضيت على أقوام بالشقاء، وأقوام بالسعادة، أن تجعلنا ممن كتبت لهم الحسنى وزيادة، ونستغيث بك اللهم من حالة الأشقياء، ونسألك العفاة منها.

﴿١٧ - ٢٠﴾ ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل **﴿قالوا سبحانه ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً﴾** فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً **﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون﴾** وكان ربك بصيراً **﴿يغير تعالى عن حالة المشركين وشركائهم يوم القيامة، وتبريهم منهم، وبطلان سعيهم، فقال: ﴿ويوم يحشرهم﴾ أي: الكذابين المشركين ﴿وما يعبدون من دون الله فيقول﴾ الله خاطباً للمعبودين على وجه التقرير لمن عبدتهم: ﴿أنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا**

السبيل﴾ هل أمرعوهم بعبادتكم، وزينتم لهم ذلك، أم ذلك من تلقاء أنفسهم؟

﴿قالوا سبحانه﴾ نزهوا الله عن شرك المشركين به، وبرؤوا أنفسهم من ذلك، **﴿ما كان ينبغي لنا﴾** أي: لا يليق بنا، ولا يحسن منا، أن نتخذ من دونك من أولياء ننتولاهم، ونعبدهم وندعوهم، فإذا كنا محتاجين ومفتقرين إلى عبادتك، متبرئين من عبادة غيرك، فكيف نأمر أحداً بعبادتنا؟ هذا لا يكون. أو، سبحانه **﴿أن نتخذ من دونك من أولياء﴾** وهذا كقول المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام: **﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أتنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾** قال سبحانه ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب **﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾** الآية.

وقال تعالى: **﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾** قالوا سبحانه أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون **﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾** فلما نزهوا أنفسهم، أن يدعوا لعبادة غير الله، أو يكونوا أضلوهم، ذكروا السبب الموجب لإضلال المشركين فقالوا: **﴿ولكن متعتهم وآباءهم﴾** في لذات الدنيا وشهواتها، ومطالبها النفسية، **﴿حتى نسوا الذكر﴾** اشتغالا في لذات الدنيا، واكباباً على شهواتها، فحافظوا على دنياهم، وضيعوا دينهم **﴿وكانوا قوماً بوراً﴾** أي: بائرين لا خير فيهم، ولا يصلحون لصالح، لا يصلحون إلا للهلاك والبوار، فذكروا المانع من اتباعهم الهدى، وهو التمتع في الدنيا، الذي صرّفهم عن الهدى، وعدم المقتضي للهدى، وهو:

أنهم لا خير فيهم، فإذا عدم المقتضي، ووجد المانع، فلا تشاء من شر وهلاك، إلا وجدته فيهم، فلما تبرؤوا منهم، قال الله توبيخاً وتقريعاً للعبادين^(١): **﴿فقد كذبوكم بما تقولون﴾** إنهم أمروكم بعبادتهم، ورضوا فعلكم، وأنهم شفاء لكم عند ربكم، كذبوكم في ذلك الزعم، وضاروا من أكبر أعدائكم، فحق عليكم العذاب، **﴿فما تستطيعون صرفاً﴾** للعذاب عنكم بفعلكم، أو بقاء، أو غير ذلك، **﴿ولا نصراً﴾** لعجزكم، وعدم ناصركم. هذا حكم الضالين المقلدين الجاهلين، كما رأيت، أسوأ حكم، وأشر مصير.

وأما المعاند منهم، الذي عرف الحق وصدف عنه، فقال في حقه: **﴿ومن يظلم منكم﴾** بترك الحق ظمناً وعناداً **﴿نذقه عذاباً كبيراً﴾** لا يقادر قدره، ولا يبلغ أمره.

ثم قال تعالى جواباً لقول الكذابين: **﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾** **﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾** فما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام، وما جعلناهم ملائكة، فلك فيهم أسوة. وأما الغنى والفقر، فهو فتنة، وحكمة من الله تعالى، كما قال: **﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة﴾** الرسول فتنة للمرسل إليهم، واختبار للمطيعين من العصاة^(٢)، والرسول فتنةهم بدعوة الخلق، والغنى فتنة للفقير، والفقير فتنة للغني، وهكذا سائر أصناف الخلق في هذه الدار، دار الفتن والابتلاء والاختبار.

والقصد من تلك الفتنة **﴿أتصبرون﴾** فتقومون بما هو وظيفتكم اللازمة الراتبه، فيثيبكم مولاكم^(٣)، أم لا تضربون فتستحقون المعاقبة؟

﴿وكان ربك بصيراً﴾ يعلم أحوالكم، ويصطفى من يعلمه يصلح

(١) كذا في ب، وفي أ: مولاهم.

(٢) كذا في ب، وفي أ: المعاصي.

(٣) في ب: للمعاندنين.

منه شيء، لأنه لا خير في مقيل أهل النار ومستقرهم، كقوله: ﴿الله خير أما يشركون﴾.

﴿٢٥ - ٢٩﴾ ﴿يوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً * الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً * ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً * يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً * لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً﴾ يخبر تعالى عن عظمة يوم القيامة، وما فيه من الشدة والكره، ومزعجات القلوب فقال: ﴿ويوم تشقق السماء بالغمام﴾ وذلك الغمام الذي ينزل الله فيه، ينزل من فوق السماوات، فتنفطر له السماوات وتشقق، وتنزل الملائكة كل سماء فيقفون صفّاً صفّاً، إما صفّاً واحداً محيطاً بالخلائق، وإما كل سماء، يكونون صفّاً، ثم السماء التي تليها صفّاً، وهكذا.

القصد أن الملائكة - على كثرتهم وقوتهم - ينزلون محيطين بالخلق، مذعنين لأمر ربهم، لا يتكلم منهم أحد إلا بإذن من الله، فما ظنك بالآدمي الضعيف، خصوصاً الذي بارز ماله بالعبث، وأقدم على مساخطه، ثم قدم عليه بذنوب وخطايا لم يتب منها، فيحكم فيه الملك الحق بالحكم الذي لا يجوز، ولا يظلم مثقال ذرة، ولهذا قال: ﴿وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾ لصعوبته الشديدة، وتعسر أموره عليه، بخلاف المؤمن، فإنه يسير عليه، خفيف الحمل.

﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً * ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً﴾.

وقوله: ﴿الملك يومئذ﴾ أي: يوم القيامة ﴿الحق للرحمن﴾ لا يبقى لأحد من المخلوقين، مُلك ولا صورة مُلك، كما كانوا في الدنيا، بل قد تساوت الملوك ورعاياهم، والأحرار والعبيد، والأشراف وغيرهم، ومما يرتاح له القلب، وتطمئن به النفس، ويتشرح له

الموت، إذا تنزلت عليهم الملائكة، قال الله تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسهم اليوم يحزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾. ثم في القبر، حين يأتيهم منكر ونكير، فيسألهم عن ربهم ونبیهم ودينهم، فلا يجيبون جواباً ينجيهم، فيحلون بهم النعمة، وتزول عنهم بهم الرحمة، ثم يوم القيامة، حين تسوقهم الملائكة إلى النار، ثم يسلمونهم لخزنة جهنم، الذين يتولون عذابهم، ويباشرون عقابهم، فهذا الذي اقترحوه، وهذا الذي طلبوه، إن استمروا على إجرامهم لا بد أن يروه ويلقوه، وحيتث يتعوذون من الملائكة، ويفرون، ولكن لا مفر لهم.

﴿ويقولون حجراً محجوراً﴾ أي: معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان.

﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل﴾ أي: أعمالهم التي رجوا أن تكون خيراً وتعبوا فيها، ﴿فجعلناه هباء منثوراً﴾ أي: باطلاً مضحلاً، قد خسروه وحرّموا أجره، وعوقبوا عليه، وذلك لفساده الإيمان، وصدوره عن مكذب لله ورسله، فالعمل الذي يقبله الله، ما صدر عن المؤمن المخلص، المصدق للرسول، المتبع لهم فيه.

﴿٢٤﴾ ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً﴾ أي: في ذلك اليوم الهائل، كثير البلبال ﴿أصحاب الجنة﴾ الذين آمنوا بالله، وعملوا صالحاً، واثقوا ربهم ﴿خير مستقراً﴾ من أهل النار ﴿وأحسن مقيلاً﴾ أي: مستقرهم في الجنة، وراحتهم التي هي القبلولة، هو المستقر النافع، والراحة التامة، لاشتمال ذلك على تمام النعيم، الذي لا يشوبه كدر، بخلاف أصحاب النار، فإن جهنم ساءت مستقراً ومقيلاً وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل، فيما ليس في الطرف الآخر

لرسالته، ويختصه بتفضيله، ويعلم أعمالكم فيجازيكم عليها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

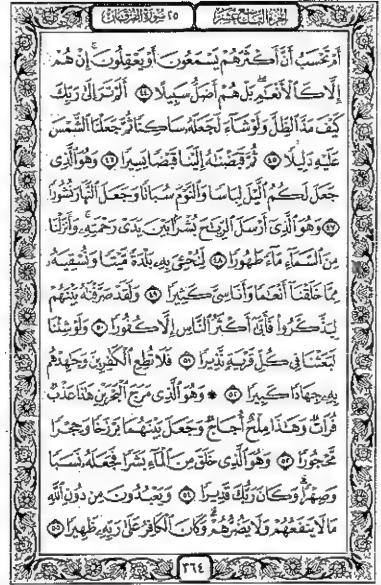
﴿٢١ - ٢٣﴾ ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً * يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً * وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾ أي: قال المكذبون للرسول، المكذبون بوعيد الله ووعيده، الذين ليس في قلوبهم خوف الوعيد، ولا رجاء لقاء الخالق.

﴿لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا﴾ أي: هلا نزلت الملائكة، تشهد لك بالرسالة، وتؤيدك عليها، أو تنزل رسلاً مستقلين، أو نرى ربنا فيكلمنا، ويقول: هذا رسولي فاتبعوه؟ وهذا معارضة للرسول بما ليس بمعارض، بل بالتكبر والعلو والعتو.

﴿لقد استكبروا في أنفسهم﴾ حيث اقترحوا هذا الاقتراح، وتجروّوا هذه الجرأة، فمن أنتم يا فقراء، ويا مساكين، حتى تطلبوا رؤية الله، وتزعّموا أن الرسالة متوقف ثبوتها على ذلك؟ وأي: كبر أعظم من هذا؟

﴿وعتوا عتواً كبيراً﴾ أي: قسوا وصلبوا عن الحق قساوة عظيمة، فقلوبهم أشد من الأحجار، وأصلب من الحديد، لا تلين للحق، ولا تصغي للناصحين، فلذلك لم ينجع فيهم وعظ ولا تذكير، ولا اتبعوا الحق حين جاءهم النذير، بل قابلو أصدق الخلق وأنصحبهم، وآيات الله البينات، بالإعراض والتكذيب والمعارضة، فأبى: عتوا أكبر من هذا العتو!! ولذلك، بطلت أعمالهم واضمحلت، وخسروا أشد الخسران، وحرّموا غاية الحرمان.

﴿يوم يرون الملائكة﴾ التي اقترحوا نزولها ﴿لا بشرى يومئذ للمجرمين﴾ وذلك أنهم لا يرونها، مع استمرارهم على جرمهم وعنادهم، إلا لعقوبتهم، وحلول البأس بهم، فأول ذلك عند



ومعلم، وواعظ، أن يقتدي بربه في تدبيره حال رسوله، كذلك العالم، يدبر أمر الخلق فكلما حدث موجب، أو حصل موسم، أتى بما يناسب ذلك من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والمواظم الموافقة لذلك.

وفيه رد على المتكلفين، من الجهمية ونحوهم، ممن يرى أن كثيراً من نصوص القرآن محمولة على غير ظاهرها، ولها معان غير ما يفهم منها، فإذا - على قولهم - لا يكون القرآن أحسن تفسيراً من غيره، وإنما التفسير الأحسن - على زعمهم - تفسيرهم الذي حرفوا له المعاني تحريفاً.

﴿٣٤﴾ الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً. يخبر تعالى عن حال المشركين الذين كذبوا رسوله، وسوء مآلهم، وأنهم يحشرون على وجوههم. أشنع مرأى، وأفظع منظر، تسحبهم ملائكة العذاب ويحرونهم إلى جهنم. الجامعة لكل عذاب وعقوبة. أولئك الذين بهذه الحالة شر مكاناً. ممن آمن بالله وصدق رسله، وأضل سبيلاً. وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل، فيما ليس في الطرف الآخر منه شيء، فإن المؤمنين حسن مكانهم ومستقرهم، واهتدوا في

الدنيا إلى الصراط المستقيم، وفي الآخرة إلى الوصول إلى جنات النعيم.

﴿٣٥ - ٤٠﴾ ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً. فقلنا اذهب إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميراً. وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذاباً أليماً. وعاداً وثمود وأصحاب الرّس وقرونا بين ذلك كثيراً. وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تبيراً. ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشوراً. أشار تعالى إلى هذه القصص، وقد بسطها في آيات آخر، ليحذر المخاطبين من استمرارهم على تكذيب رسولهم، فيصيبهم ما أصاب هؤلاء الأمم الذين قرباً منهم، ويعرفون قصصهم بما استفادوا واشتبه عنهم.

ومنهم من يرون آثارهم عياناً، يقوم صالح في الحجر، وكالقرية التي أمطرت مطر السوء، بحجارة من سجيل، يمرون عليهم مصبحين، وبالليل في أسفارهم، فإن أولئك الأمم ليسوا شراً منهم، ورسلم ليسوا خيراً من رسول هؤلاء. أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر. ولكن الذي منع هؤلاء من الإيمان - مع ما شاهدوا من الآيات - أنهم كانوا لا يرجون بعثاً ولا نشوراً، فلا يرجون لقاء ربهم، ولا يخشون نكاله، فلذلك استمروا على عنادهم، وإلا فقد جاءهم من الآيات، ما لا يبقى معه شك ولا شبهة، ولا إشكال، ولا ارتياب.

﴿٤١ - ٤٤﴾ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولا. إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرتنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً. أرايت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً. أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم

أضل سبيلاً. أي: وإذا رآك يا محمد، هؤلاء المكذبون لك، المعاندون لآيات الله^(١)، المستكبرون في الأرض، استهزؤوا بك واحتقروك، وقالوا - على وجه الاحتقار والاستصغار -: «أهذا الذي بعث الله رسولا». أي: غير مناسب ولا لائق، أن يبعث الله هذا الرجل، وهذا من شدة ظلمهم وعنادهم، وقلبهم الخفايق، فإن كلامهم هذا يفهم أن الرسول - حاشاه - في غاية الخسة والحقارة، وأنه لو كانت الرسالة لغيره، لكان أنسب.

﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ فهذا الكلام، لا يصدر إلا من أجهل الناس وأضلمهم، أو من أعظمهم عناداً، وهو متجاهل، قصده ترويع ما معه من الباطل بالقدح بالحق وبمن جاء به، وإلا فمن تدبر أحوال محمد بن عبد الله ﷺ، وجده رجل العالم وهماهم، ومقدمهم في العقل، والعلم، واللب، والرزانة، ومكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، والعفة، والشجاعة، والكرم، وكل خلق فاضل، وأن المحقر له، والشائن له، قد جمع من السفه والجهل، والضللال، والتناقض، والظلم، والعدوان، ما لا يحصى غيره، وحسبه جهلاً وضلالاً، أن يقدر بهذا الرسول العظيم، والهام الكريم.

والقصد من قدحهم فيه واستهزائهم به، تصلبهم على باطلهم، وغروراً لضغفاء العقول^(٢)، ولهذا قالوا: «إن كاد هذا الرجل ليضلنا عن آلهتنا». بأن يجعل الآلهة إلهاً واحداً. لولا أن صبرنا عليها. لأضلنا، زعموا - قبحهم الله - أن الضلال هو التوحيد، وأن الهدى ما هم عليه من الشرك، فهذا تواصل بالصبر عليه. وانطلق الملا منهم أن أمشوا وأصبروا على ألهتهم.

وهنا قالوا: «لولا أن صبرنا

(٢) المراد: (وتغريراً بضغفاء العقول).

(١) زيادة مني يقتضيها السياق.

الحق، وعبادة غيره باطلة، لقوله:

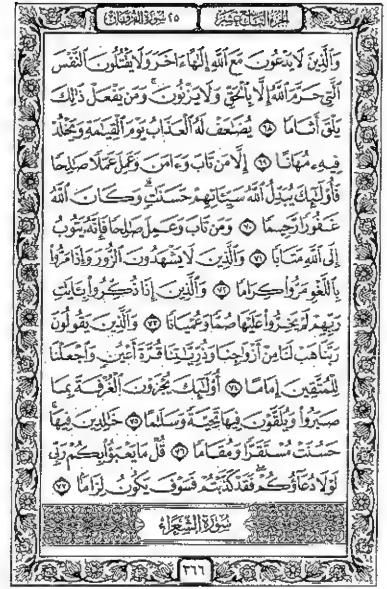
﴿٥٥﴾ «ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيراً أي: يعبدون أصناماً وأموالاً، لا تضر ولا تنفع، ويعملونها أنداداً لمالك النفع والضرر والغطاء والمنع، منع أن الواجب عليهم، أن يكونوا مقتدين بإرشادات ربهم، ذاببن عن دينه، ولكنهم عكسوا القضية.

﴿٥٦﴾ «وكان الكافر على ربه ظهيراً» فالباطل الذي هو الأوثان والأنداد، أعداء الله، فالكافر عاونها وظاهرها على ربها، وصار عدواً لربه، مبارزاً له في العداوة والحرب، هذا، وهو الذي خلقه ورزقه، وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة، وليس يخرج عن ملكه وسلطانه وقبضته، والله لم يقطع عنه إحسانه وبره، وهو - بهجته - مستمر على هذه المعادة والمبارزة.

﴿٥٦ - ٦٠﴾ «وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً * قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً * وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً * الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً * وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً * يخبر تعالى: أنه ما أرسل رسوله مبدءاً ^١، مسيطراً على الخلق، ولا جعله ملكاً، ولا عنده خزائن الأشياء، وإنما أرسله «مبشراً» يبشر من أطاع الله، بالثواب العاجل والآجل «ونذيراً» ينذر من عصى الله، بالعقاب العاجل والآجل، وذلك مستلزم لتبيين ما به البشارة، وما تحصل به النذارة، من الأوامر والنواهي، وإنك - يا محمد - لا تسألهم على إبلاغهم القرآن والهدى أجراً، حتى يمنهم ذلك من اتباعك، ويتكلفون من الغرامة. «إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً» أي: إلا من شاء، أن ينفق نفقة في مرضاة ربه وسبيله، فهذا وإن رغبتكم فيه، فلست

أجبركم عليه، وليس أيضاً أجراً لي عليكم، وإنما هو راجع لمصلحتكم، وسلوكم للسبيل الموصلة إلى ربكم، ثم أمره أن يتوكل عليه ويستعين به، فقال: «وتوكل على الحي الذي لا يموت الحياة الكاملة المطلقة» الذي لا يموت وسيخ بحمده: أي: اعبدوه وتوكل عليه في الأمور المتعلقة بك والمتعلقة بالخلق. «وكفى به بذنوب عباده خبيراً» يعلمها، ويجازي عليها، فأنت ليس عليك من هدام شيء، وليس عليك حفظ أعمالهم، وإنما ذلك كله، بيد الله «الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى» بعد ذلك «على العرش» الذي هو سقف المخلوقات، وأعلىها، وأوسعها، وأجلها. «الرحمن» استوى على عرشه، الذي وسع السماوات والأرض باسمه الرحمن، الذي وسعت رحمته كل شيء فاستوى على أوسع المخلوقات، بأوسع الصفات. فأثبت بهذه الآية، خلقه للمخلوقات، وإطلاعه على ظاهريهم وباطنيهم، وعليه فوق العرش، ومباينته إياهم.

﴿٦١﴾ «فاسأل به خبيراً» يعني بذلك نفسه الكريمة، فهو الذي يعلم أوصافه وعظمته وجلاله، وقد أخبركم بذلك، وأبان لكم من عظمته، ما تبعدون به من معرفته، فعرفه العارفون، وخضعوا لجلاله، واستكبر عن عبادته الكافرون، واستنكفوا عن ذلك، ولهذا قال: «وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن» أي: وحده، الذي أنعم عليكم بسائر النعم، ودفع عنكم جميع النقم. «قالوا» جحداً وكفراً: «وما الرحمن» بزعمهم القاسد، أنهم لا يعرفون الرحمن، وجعلوا من جملة قوادحهم في الرسول، أن قالوا: ينهانا عن اتخاذ آلهة مع الله، وهو يدعو معه إليها آخر، يقول: «يا رحمن» ونحو ذلك، كما قال تعالى: «قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى» فأسماءه تعالى كثيرة، لكثرة أوصافه، وتعدد كماله،



به، بل أبذل جهدك في تبليغ ما أرسلت به. «وجاهدكم» بالقرآن جهاداً كبيراً أي: لا تبق من مجهودك في نصر الحق وقمع الباطل، إلا بذلته، ولو رأيت منهم من التكذيب والجراءة ما رأيت، فابذل جهدك، واستفرغ وسعك، ولا تياس من هدايتهم، ولا تترك إبلاغهم لأهوائهم.

﴿٥٣﴾ «وهو الذي مرج البحرين جعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً» أي: وهو وحده الذي مرج البحرين يلتقيان، البحر العذب، وهي الأنهار السارحة على وجه الأرض، والبحر الملح، وجعل منفعة كل واحد منهما مصلحة للعباد، «وجعل بينهما برزخاً» أي: حاجزاً يحجز من اختلاط أحدهما بالآخر، فتذهب المنفعة المقصودة منهما «وحجراً محجوراً» أي: حاجزاً حصيناً.

﴿٥٤﴾ «وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً» أي: وهو الله وحده لا شريك له، الذي خلق الأدمي، من ماء مهين، ثم نشر منه ذرية كثيرة، وجعلهم أنساباً وأصهاراً، متفرقين ومجتمعين، والمادة كلها من ذلك الماء المهين، فهذا يدل على كمال اقتداره، لقوله: «وكان ربك قديراً» ويدل على أن عبادته هي

النوع، فوصفهم بأنهم ﴿يمشون على الأرض هونا﴾ أي: ساكنين متواضعين لله وللخلق، فهذا وصف لهم بالوقار، والسكينة، والتواضع لله وعباده. ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون﴾ أي: خطاب جهل، بدليل إضافة الفعل، وإسناده لهذا الوصف، ﴿قالوا سلاماً﴾ أي: خاطبهم خطاباً يسلمون فيه من الإثم، ويسلمون من مقابلة الجاهل بنجمله. وهذا مدح لهم، بالحلم الكثير، ومقابلة المسيء بالإحسان، والغفو عن الجاهل، ورزاة العقل الذي أوصلمهم إلى هذه الحال.

﴿والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً﴾ أي: يكثر من صلاة الليل، مخلصين فيها لربهم، متذللين له، كما قال تعالى: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون﴾ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون.

﴿والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم﴾ أي: ادفعه عنا، بالعصمة من أسبابه، ومغفرة ما وقع منا، مما هو مقتض للعذاب. ﴿إن عذابها كان غراماً﴾ أي: ملازماً لأهلها، بمنزلة ملازمة الغريم لغريمه. ﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾ وهذا منهم، على وجه التضرع لربهم، وبيان شدة حاجتهم إليه، وأنهم ليس في طاعتهم احتمال هذا العذاب، ولتذكروا مئة الله عليهم، فإن صرف الشدة، بحسب شدتها وفظاعتها، يعظم وقعها ويشد الفرح بصرفها.

﴿والذين إذا أنفقوا﴾ النفقات الواجبة والمستحبة ﴿لم يسرفوا﴾ بأن يزيدوا على الحد، فيدخلوا في قسم التبذير، وإهمال الحقوق الواجبة، ﴿ولم يقتصروا﴾ فيدخلوا في باب البخل والشح ﴿وكان﴾ إنفاقهم ﴿بين ذلك﴾ بين الإسراف والتقتير ﴿قواماً﴾ يبدلون في الواجبات من الزكوات، والكفارات، والنفقات الواجبة، وفيما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، من

ويعتبر، ويستدل بهما على كثير من المطالب الإلهية، ويشكر الله على ذلك، ولمن أراد أن يذكر الله ويشكره، وله ورد من الليل أو النهار، فمن فاته وزده من أحدهما، أدركه في الآخر، وأيضاً فإن القلوب تتقلب وتنتقل في ساعات الليل والنهار، فيحدث لها النشاط والكسل، والذكر والغفلة، والقبض والبسط، والإقبال والإعراض، فجعل الله الليل والنهار، يتوالى على العباد ويتكرران، ليحدث لهم الذكر والنشاط، والشكر لله في وقت آخر، ولأن أوراد العبادات، تتكرر بتكرار الليل والنهار، فكلما تكررت الأوقات، أحدث للعبادة غير همته التي كسلت في الوقت المتقدم، فزاد في تذكرها وشكرها، فوظائف الطاعات بمنزلة سقي الإيمان الذي يمد، فلولاً ذلك لذوى غرس الإيمان ويس. فله أتم حمد وأكمل على ذلك.

ثم ذكر من جملة كثرة خيره، منته على عباده الصالحين، وتوفيقهم للأعمال الصالحات، التي أكسبتهم المنازل العاليات، في غرف الجنات فقال:

﴿٦٣ - ٧٧﴾ ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ﴿والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً﴾ إنها ساءت مستقراً ومقاماً ﴿إلى آخر السورة الكريمة.

العبودية لله نوعان: عبودية لربوبيته، فهذه يشترك فيها سائر الخلق، مسلمهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، فكلهم عبيد الله مربيون مدبرون ﴿إن كل من في السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً﴾ وعبودية لألوهيته، وعبادته، ورحمته، وهي عبودية أنبيائه، وأوليائه، وهي المراد هنا، ولهذا أضافها إلى اسمه «الرحمن» إشارة إلى أنهم إنما وصلوا إلى هذه الحال بسبب رحمته، فذكر أن صفاتهم أكمل الصفات، ونعوتهم أفضل

فكل واحد منها، دل على صفة كمال. ﴿أنسجد لما تأمرنا﴾ أي: لمجند أمرك إيانا. وهذا مبني منهم على التكذيب بالرسول، واستكبارهم عن طاعته، ﴿وزادهم﴾ دعوتهم إلى السجود للرحمن ﴿نفوراً﴾ هرباً من الحق إلى الباطل، وزيادة كفر وشقاء.

﴿٦١ - ٦٢﴾ ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً متبيراً﴾ وهو الذي جعل الليل والنهار خلقاً لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ﴿كرز تعالى في هذه السورة الكريمة قوله: ﴿تبارك﴾ ثلاث مرات، لأن معناها كما تقدم، أنها تدل على عظمة الباري، وكثرة أوصافه، وكثرة خيرات وإحسانه. وهذه السورة، فيها من الاستدلال على عظمتهم، وسعة سلطانه، ونفوذ مشيئته، وعموم علمه وقدرته، وإحاطة ملكه في الأحكام الأمرية والأحكام الجزائية وكمال حكمته. وفيها، ما يدل على سعة رحمته، وواسع جوده، وكثرة خيرات، الدينية والدنيوية، ما هو مقتض لتكرار هذا الوصف الحسن، فقال: ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً﴾ وهي النجوم عمومها، أو منازل الشمس والقمر التي تنزلها منزلة منزلة، وهي بمنزلة البروج والقلاع للمدن في حفظها، كذلك النجوم بمنزلة البروج المجمولة للحراسة، فإنها رجوم للشياطين.

﴿وجعل فيه سراجاً﴾ فيه النور والحرارة، وهو: الشمس. ﴿وقمراً متبيراً﴾ فيه النور، لا الحرارة، وهذا من أدلة عظمتهم، وكثرة إحسانه، فإن ما فيها من الخلق الباهر، والتدبير المنتظم، والجمال العظيم، ذال على عظمة خالقها في أوصافه كلها، وما فيها من المصالح للخلق والمنافع، دليل على كثرة خيرات.

﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلقاً﴾ أي: يذهب أحدهما، فيخلق الآخر، هكذا أبداً، لا يجتمعان، ولا يرتفعان، ﴿لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً﴾ أي: لمن أراد أن يتذكر بهما

غير ضرر ولا ضرار، وهذا من عدلهم واقتصادهم.

﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر﴾ بل يعبدونه وحده، مخلصين له الدين، حنفاء، مقبلين عليه، معرضين عما سواه.

﴿ولا يقتلون النفس التي حرم الله﴾ وهي نفس المسلم، والكافر المعاهد، ﴿إلا بالحق﴾ كقتل النفس بالنفس، وقتل الزاني المحصن، والكافر الذي يحل قتله. ﴿ولا يزنون﴾ بل يحفظون فروجهم ﴿إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم﴾.

﴿ومن يفعل ذلك﴾ أي: الشرك بالله، أو قتل النفس التي حرم الله بغير حق، أو الزنا، فسوف ﴿يلقى أثاماً﴾ ثم فسره بقوله: ﴿يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه﴾ أي: في العذاب ﴿مهاناً﴾ فالوعيد بالخلود، لمن فعلها كلها، ثابت لا شك فيه، وكذا لمن أشرك بالله، وكذلك الوعيد بالعذاب الشديد، على كل واحد من هذه الثلاثة، لكونها إما شرك، وإما من أكبر الكبائر.

وأما خلود القتاتل والزاني في العذاب، فإنه لا يتناولهم الخلود، لأنه قد دلت النصوص القرآنية والسنة النبوية، أن جميع المؤمنين سيخرجون من النار، ولا يخلد فيها مؤمن، ولو فعل من المعاصي ما فعل، ونص تعالى على هذه الثلاثة، لأنها أكبر الكبائر: فالشرك فيه فساد الأديان، والقتل فيه فساد الأبدان، والزنا فيه فساد الأعراض.

﴿إلا من تاب﴾ عن هذه المعاصي وغيرها، بأن أقلع عنها في الحال، وندم على ما مضى له من فعلها، وعزم عزمًا جازمًا أن لا يعود، ﴿وآمن﴾ بالله إيماناً صحيحاً، يقتضي ترك المعاصي وفعل الطاعات، ﴿وعمل عملاً صالحاً﴾ مما أمر به الشارع، إذا قصد به وجه الله.

﴿فأولئك يبدل الله سيئاتهم

حسنات﴾ أي: تبدل أفعالهم وأقوالهم، التي كانت مستعدة لعمل السيئات، تبدل حسنات، فيتبدل شركهم إيماناً، ومعصيتهم طاعة، وتبدل نفس السيئات التي عملوها، ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة وإنابة وطاعة تبدل حسنات، كما هو ظاهر الآية.

ورود في ذلك حديث الرجل الذي حاسبه الله ببعض ذنوبه، فعذدها عليه، ثم أبدل مكان كل سيئة حسنة فقال: «يا رب، إن لي سيئات لا أراها هاتنا والله أعلم.

﴿وكان الله غفوراً﴾ لمن تاب، يغفر الذنوب العظيمة ﴿رحيماً﴾ بعباده حيث دعاهم إلى التوبة بعد مبارزته بالعصاة، ثم وفقهم لها، ثم قبلها منهم.

﴿ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً﴾ أي: فلينعلم أن توبته في غاية الكمال، لأنها رجوع إلى الطريق الموصل إلى الله، الذي هو عين سعادة العبد وفلاحه، فليخلص فيها، وليخلصها من شوائب الأغراض الفاسدة، فالقصد من هذا، الحث على تكميل التوبة، وإيقاعها على أفضل الوجوه وأجلها، ليقدم على من تاب إليه فيوفيه^(١) أجره، بحسب كمالها.

﴿والذين لا يشهدون الزور﴾ أي: لا يحضرون الزور، أي: القبول والفعل المحرم، فيجتنبون جميع المجالس، المشتملة على الأقوال المحرمة، أو الأفعال المحرمة، كالخوض في آيات الله، والجidal الباطل، والغيبة، والنميمة، والسب، والقذف، والاستهزاء، والغناء المحرم، وشرب الخمر، وفرش الحرير، والصور، ونحو ذلك، وإذا كانوا لا يشهدون الزور، فمن باب أولى وأحرى، أن لا يقولوه ويفعلوه.

وشهادة الزور داخلية في قول الزور، تدخل في هذه الآية بالأولية، ﴿وإذا مروا باللغو﴾ وهو الكلام الذي

لا خير فيه، ولا فيه فائدة دينية ولا دنيوية، ككلام السفهاء ونحوهم ﴿مروا كراماً﴾ أي: نزهوا أنفسهم وأكرموها عن الخوض فيه، ورأوا الخوض فيها، وإن كان لا إثم فيه، فإنه سفه ونقص للإنسانية والمروءة، فربؤوا بأنفسهم عنه.

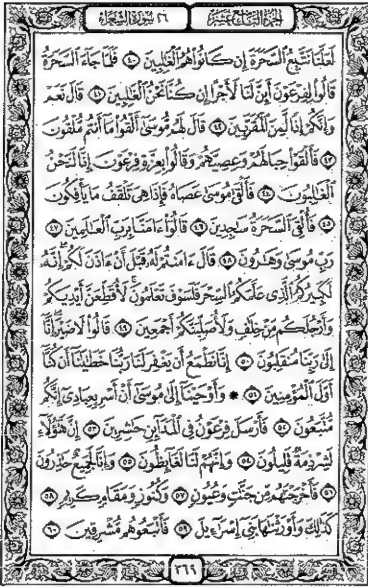
وفي قوله: ﴿وإذا مروا باللغو﴾ إشارة إلى أنهم لا يقصدون حضوره ولا سماعه، ولكن عند المصادفة التي من غير قصد، يكرمون أنفسهم عنه.

﴿والذين إذا ذكروا بآيات ربهم﴾ التي أمرهم باستماعها والاهتمام بها، ﴿لم يخروا عليها صماً وعمياناً﴾ أي: لم يقابلوها بالإعراض عنها، والصمم عن سماعها، وصرف النظر والقلوب عنها، كما يفعله من لم يؤمن بها ولم يصدق، وإنما حالهم فيها وعند سماعها، كما قال تعالى: ﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبّحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون﴾ يقابلونها بالقبول والانقياد إليها، والانقياد والتسليم لها، وتجد عندهم أذاناً سامعة، وقلوباً واعية، فيزداد بها إيمانهم، ويتم بها إيمانهم، وتحدث لهم نشاطاً، ويفرحون بها سروراً واعتباطاً.

﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا﴾ أي: قرنائنا من أصحاب وأقربان وزوجات، ﴿وذرياتنا قررة أعين﴾ أي: تقر بهم أعيننا.

وإذا استقرأنا حالهم وصفاتهم، عرفنا من همهم وعلو مرتبتهم، أنهم لا تقر أعينهم حتى يروهم مطيعين لربهم، عاملين عاملين، وهذا كما أنه دعاء لأزواجهم وذرياتهم في صلاحهم، فإنه دعاء لأنفسهم، لأن نفعه يعود عليهم، ولهذا جعلوا ذلك هبة لهم، فقالوا: ﴿هب لنا﴾ بل دعاؤهم يعود إلى نفع عموم المسلمين، لأن بصلاح من ذكر، يكون سبباً لصلاح كثير من يتعلق بهم، وينتفع بهم.

(١) في ب: فيوفيه.



لأنك سخرت بني إسرائيل، وجعلتهم لك بمنزلة العبيد، وأنا قد أسلمتني من تعبيدك وتسخيرك، وجعلتها علي نعمة، فعند التصور، يتبين أن الحقيقة، أنك ظلمت هذا الشعب الفاضل، وعذبتهم، وسخرتهم بأعمالك، وأنا قد سلمني الله من أذاك، مع وصول أذاك لقومي، فما هذه المنة التي تبت بها وتدلي بها؟

﴿قال فرعون وما رب العالمين﴾ وهذا إنكار منه لربه، ظلماً وعلواً، مع يقن صحة ما دعاه إليه موسى، قال: ﴿رب السماوات والأرض وما بينهما﴾ أي: الذي خلق العالم العلوي والسفلي، ودبره بأنواع التدبير، ورباه بأنواع التربية. ومن جملة ذلك، أنتم أيها المخاطبون، فكيف تنكرون خالق المخلوقات، وفاطر الأرض والسماوات، ﴿إن كنتم موقنين﴾ فقال فرعون متجرهما، ومعجباً لقومه: ﴿ألا تستمعون﴾ ما يقول هذا الرجل، فقال موسى:

﴿ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ تعجبتم أم لا، استكبرتم أم أذعنتم. فقال فرعون معانداً للحق، قادحاً بمن جاء به: ﴿إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ حيث قال خلاف ما نحن عليه، وخالفنا فيما ذهبنا إليه، فالعقل عنده وأهل العقل، من زعموا أنهم لم يخلقوا، أو أن السماوات والأرض ما زالتا موجودتين من غير موجد، وأنهم بأنفسهم خلقوا من غير خالق، والعقل عنده، أن يعبد المخلوق الناقص من جميع الوجوه، والمجنون عنده، أن يثبت الرب الخالق للعالم العلوي والسفلي، والمنعم بالنعمة الظاهرة والباطنة، ويدعو إلى عبادته، وزين لقومه هذا القول، وكانوا سفهاء الأحلام، خفيفي العقول ﴿فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ فقال موسى عليه السلام، مجيباً لإنكار فرعون وتعطيله لرب العالمين: ﴿رب المشرق والمغرب وما بينهما﴾ من سائر المخلوقات ﴿إن كنتم تعقلون﴾ فقد أدبت لكم من البيان والتبيين، ما يفهمه

صدقكم، وصحة ما جئتما به، ﴿إنا معكم مستمعون﴾ أحفظكم ما وأكلوكم، ﴿فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين﴾ أي: أرسلنا إليك، لتؤمن به وبنا، وتنقاد لعبادته، وتدع لتوحيد، ﴿أن أرسل معنا بني إسرائيل﴾ فكف عنهم عذابك، وأرفع عنهم يدك ليعبدوا ربهم ويقيموا أمر دينهم.

فلما جاء فرعون وقال له ما قال الله لهما، لم يؤمن فرعون ولم يلب، وجعل يعارض موسى، فـ ﴿قال ألم نريك فينا وليداً﴾ أي: ألم ننعـم عليك، ونشـم بـتـريـبـتـك، منذ كنت وليداً في مهدك، ولم ترزل كذلك.

﴿ولبثت فينا من عمرك ستين﴾ وفعلت فعلتك التي فعلت، وهي قتل موسى للقطي، حين استغاثه الذي من شيعته على الذي من عذره ﴿فوكزه موسى فقضى عليه﴾ الآية.

﴿وأنت من الكافرين﴾ أي: وأنت إذ ذاك طريقك طريقنا، وسبيلك سبيلنا، في الكفر، فأقر على نفسه بالكفر من حيث لا يدري.

فقال موسى: ﴿فعلتها إذا وأنا من الضالين﴾ أي: عن غير كفر، وإنما كان عن ضلال وسفه، فاستغفرت ربي فغفر لي، ﴿ففررت منكم لما خفتكم﴾ حين تراجعت بقتلي، فهربت إلى مدين، ومكثت سنين، ثم جئتكم. ﴿فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين﴾

فالحاصل أن اعتراض فرعون على موسى، اعتراض جاهل أو متجاهل، فإنه جعل المانع من كونه رسولاً، أن جرى منه القتل، فبين له موسى، أن قتله على وجه الضلال والخطأ، الذي لم يقصد نفس القتل، وأن فضل الله تعالى غير ممنوع منه أحد، فلم منعتم ما منحني الله، من الحكم والرسالة؟ بقي عليك يا فرعون إدلاؤك بقولك: ﴿ألم نريك فينا وليداً﴾ وعند التحقيق، يتبين أن لا منة لك فيها، ولهذا قال موسى: ﴿وتلك نعمة تمنها علي أن عبادت بني إسرائيل﴾ أي: تدلي علي بهذه المنة

كل من له أدنى مسكة من عقل، فما بالك تتجاهلون فيما أخاطبكم به؟ وفيه إيماء وتنبيه إلى أن الذي رمت به موسى من الجنون، أنه داؤكم فرميت به أركى الخلق عقلاً، وأكملهم علماً، بالجنون، والحال أنكم أنتم المجانين، حيث ذهبت عقولكم لإنكار أظهر الموجودات، خالق الأرض والسماوات وما بينهما، فإذا جحدتموه، فأى شيء تثبتون؟ وإذا جهلتموه، فأى شيء تعلمون؟ وإذا لم تؤمنوا به وبآياته، فبأي شيء - بعد الله وآياته - تؤمنون؟ تالله، إن المجانين الذين بمنزلة البهائم، أعقل منكم، وإن الأنعام السارخة، أهدى منكم.

فلما خنقت فرعون الحجة، وعجزت قدرته وبيانه عن المعارضة ﴿قال﴾ متوعداً لموسى بسلطانه ﴿لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾ زعم - فبحه الله - أنه قد طمع في إضلال موسى، وأن لا يتخذ إلهاً غيره، وإلا فقد تقرر أنه هو ومن معه، على بصيرة من أمرهم.

فقال له موسى: ﴿أو لو جئتكم بشيء مبين﴾ أي: آية ظاهرة جلية، على صحة ما جئت به، من خوارق العادات.

﴿قال فأت به إن كنت من الصادقين﴾ فأتى عصاه فإذا هي

﴿وَأَصْلَبْنَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لتختزوا، وتذلوا. فقال السحرة - حين وجدوا حلاوة الإيمان وذاقوا لذته - : ﴿لَا ضَيْرَ﴾ أي: لا نبالي بما توعدتنا به ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ * إِنَّا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا * من الكفر والسحر وغيرهما ﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بموسى، من هؤلاء الجنود، فثبتهم الله وصبرهم.

فيحتمل أن فرعون فعل بهم ما توعدهم به، لسلطانه واقتداره إذ ذلك، ويحتمل أن الله منعه منهم، ثم لم يزل فرعون وقومه مستمرين على كفرهم، يأتيهم موسى بالآيات البينات، وكلما جاءتهم آية، وبلغت منهم كل مبلغ، وعدوا موسى وعاهدوه، لئلا يكشف الله عنهم، ليؤمن به، وليرسلن معه بني إسرائيل، فيكشفه الله، ثم يكتفون، فلما يش موسى من إيمانهم، وحق عليهم كلمة العذاب، وأن لبني إسرائيل أن ينجيهم من أسرهم، ويمكن لهم في الأرض، أوحى الله إلى موسى: ﴿أَنْ أَسْرِ بَعِيَادِي﴾ أي: أخرج ببني إسرائيل أول الليل، ليتمادوا ويتمهلوا في ذهابهم. ﴿إِنَّكُمْ مَسْتَبْعُونَ﴾ أي: سيتبعكم فرعون وجنوده.

ووقع كما أخبر، فإنهم لما أصبحوا، وإذا بنو إسرائيل قد سروا كلهم مع موسى.

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ يجمعون الناس، ليوقع ببني إسرائيل، ويقول مشجعا لقومه: ﴿إِن هَؤُلَاءَ﴾ أي: بني إسرائيل ﴿لَشُرْمَذَةٌ قَلِيلُونَ﴾ * وإني لثاقظون * ونريد أن ننفذ غيظنا في هؤلاء العبيد، الذين أبغوا منا.

﴿وَأَنَا لَجَمِيعٌ حَاضِرُونَ﴾ أي: الحذر على الجميع منهم، وهم أعداء للجميع، والمصلحة مشتركة، فخرج فرعون وجنوده في جيش عظيم، وغير عام، لم يتخلف منهم سوى أهل الأعدار، الذين منعهم العجز.

قال الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْوْنَ﴾ أي: بساتين مصر

وجناتها الفائقة، وعبوها المتدفقة، وزروع قد ملأت أراضيتهم، وعمرت بها حاضرتهم وبواديهم.

﴿وَمَقَامٌ كَرِيمٌ﴾ يعجب الناظرين، ويلهي التاملين، تمتعوا به دهرًا طويلا، وقضوا بلذاته وشهوته عمرا مديدا، على الكفر والعناد، والتكبر على العباد والتهية العظيم.

﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ أي: هذه البساتين والعيون، والزروع، والمقام الكريم، ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الذين جعلوهم من قبل عبيدهم، وسخروا في أعمالهم الشاقة، فسبحان من يوتي الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء بطاعته، ويدل من يشاء بمعصيته.

﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مَشْرِقِينَ﴾ أي: اتبع قوم فرعون قوم موسى، وقت شروق الشمس، وساقوا خلفهم محثين، على غيظ وحق قادرين.

﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَ﴾ أي: رأى كل منهما صاحبه، ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى﴾ شاكين لموسى وحزنين: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ * ﴿قَالَ﴾ موسى مشتا لهم، وخيرا لهم بوعده الصادق: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما ذكرتم، أنكم مدركون، ﴿إِنْ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ * ما فيه نجاتي ونجاتكم، ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ فضربه ﴿فَانْفَلَقَ﴾ اثني عشر طريقا ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ﴾ أي: الجبل العظيم ﴿فَدَخَلَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ ﴿وَأَرْزَقْنَاهُمْ﴾ في ذلك المكان ﴿الْآخَرِينَ﴾ أي: فرعون وقومه، قربانهم، وأدخلناهم في ذلك الطريق، الذي سلك منه موسى وقومه.

﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ استكملوا خارجين، لم يتخلف منهم أحد.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ لم يتخلف منهم عن الغرق أحد، ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ عَظِيمَةٌ﴾ على صدق ما جاء به موسى عليه السلام، وبطلان ما عليه فرعون وقومه، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ مع هذه الآيات المقتضية



للإيمان، لفساد قلوبكم، ﴿وَلِنْ رِبِكْ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ يعزته أهلك الكافرين المكذبين، وبرحمته نجى موسى ومن معه أجمعين.

﴿٦٩ - ١٠٤﴾ ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ﴿إِلَى آخِرِ هَذِهِ الْقِصَّةِ﴾ ﴿وَلِنْ رِبِكْ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي: واطل يا محمد على الناس، نبأ إبراهيم الخليل، وخبره الجليل، في هذه الحالة بخصوصها، وإلا فله أنباء كثيرة، ولكن من أعجب أنبائه وأفضلها، هذا النبأ المتضمن لرسالته ودعوته وقومه، ومحاجته إياهم، وإبطاله ما هم عليه، ولذلك قيده بالظرف، فقال: ﴿إِذَا قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ قالوا: متبحجين بعبادتهم: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ نحتناها ونعملها بأيدينا. ﴿فَنَنْظُرُ لَهَا عَافِئِينَ﴾ أي: مقيمين على عبادتها في كثير من أوقاتنا، فقال لهم إبراهيم، مبينا لعدم استحقاقها للعبادة: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ فيستجيبون دعاءكم، ويفرجون كربكم، ويزيلون عنكم كل مكروه؟

﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ فأقروا أن ذلك كله غير موجود فيها، فلا تسمح دعاء، ولا تنفع، ولا تضر، ولهذا لما كسرها وقال: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطَلِقُونَ﴾ قالوا له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا

والفسق، **﴿إلا المجرمون﴾** وهم الأئمة الذين يدعون إلى النار، **﴿فما لنا﴾** حيثئذ **﴿من شافعين﴾** يشفعون لنا، لينقذونا^(١) من عذابه، **﴿ولا صديق حميم﴾** أي: قريب مضاف، ينفعنا بأدنى نفع، كما جرت العادة بذلك في الدنيا، فأيسوا من كل خير، وأبلسوا بما كسبوا، وتمنوا العودة إلى الدنيا ليعملوا صالحاً.

﴿فلو أن لنا كرة﴾ أي: رجعة إلى الدنيا، وإعادة إليها **﴿فنكون من المؤمنين﴾** لنسلم من العقاب، ونستحق الثواب، هيهات هيهات، قد حيل بينهم وبين ما يشتهون، وقد غلقت منهم الرهون.

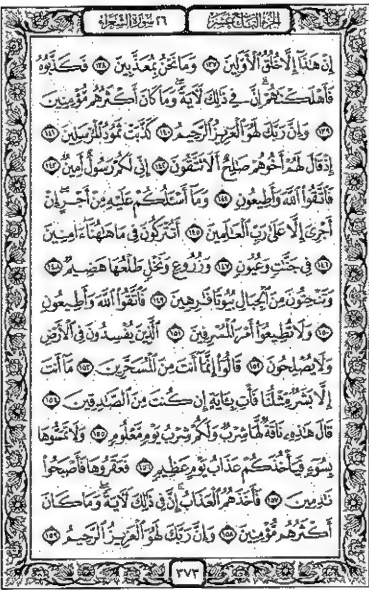
﴿إن في ذلك﴾ الذي ذكرنا لكم ووصفنا **﴿آية﴾** لكم **﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾** مع نزول الآيات.

﴿١٠٥ - ١٢٢﴾ **﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾** إلى آخر القصة. يذكر تعالى، تكذيب قوم نوح لرسولهم نوح، وما رد عليهم وردوا عليه، وعاقبة الجميع، فقال: **﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾** جميعهم، وجعل تكذيب نوح كتكذيب جميع المرسلين، لأنهم كلهم اتفقوا على دعوة واحدة، وأخبار واحدة، فتكذيب أحدهم، تكذيب بجمع ما جاؤوا به من الحق، كذبوه **﴿إذ قال لهم أخوهم﴾** في النسب **﴿نوح﴾** وإنما ابتعث الله الرسل من نسب من أرسل إليهم، لئلا يشتمزوا من الانقياد له، ولأنهم يعرفون حقيقته، فلا يحتاجون أن يبحثوا عنه، فقال لهم خاطباً بالطف خطاب - كما هي طريقة الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم - **﴿ألا تتقون﴾** الله تعالى، فتتركون ما أنتم مقيمون عليه من عبادة الأوثان، وتخلصون العبادة لله وحده، **﴿إني لكم رسول أمين﴾** فكونه رسولاً إليهم بالخصوص، يوجب لهم تلقي ما أرسل به إليهم، والإيمان به، وأن يشكروا الله تعالى على أن خصهم بهذا

الرسول الكريم، وكونه أميناً، يقتضي أنه لا يتقول على الله، ولا يزيد في وحيه ولا ينقص، وهذا يوجب لهم التصديق بخبره والطاعة لأمره.

﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ فيما أمركم به وأنهاكم عنه، فإن هذا هو الذي يترتب على كونه رسولاً إليهم، أميناً، فلذلك رتب به البقاء الدالة على السبب، فذكر السبب الموجب، ثم ذكر انتفاء المانع، فقال: **﴿وما أسألكم عليه من أجر﴾** فتكلفون من المغم الثقيل، **﴿إن أجري إلا على رب العالمين﴾** أرجو بذلك القرب منه، والثواب الجزيل، وأما أنتم فميتي، ومنتهى إرادتي منكم، النصح لكم وسلوكم الصراط المستقيم.

﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ كرر ذلك عليه السلام لتكريره دعوة قومه، وطول مكثه في ذلك، كما قال تعالى: **﴿فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً﴾** وقال: **﴿رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً﴾** فلم يزدتهم دعائي إلا فراراً **﴿الآيات﴾** فقالوا رداً لدعوته، ومعارضة له بما ليس يصلح للمعارضة: **﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾** أي: كيف نتبعك ونحن لا نرى أتباعك إلا أسافل الناس وأراذلهم وسقطتهم. بهذا يعرف تكبرهم عن الحق، وجهلهم بالحقائق، فإنهم لو كان قصدهم الحق، لقالوا - إن كان عندهم إشكال وشك في دعوته - بين لنا صحة ما جئت به بالطرق الموصلة إلى ذلك، ولو تأملوا حق التأمل، لعلموا أن أتباعه، هم الأعلون، خيار الخلق، أهل العقول الرزينة، والأخلاق الفاضلة، وأن الأرذل، من سلب خاصية عقله، فاستحسن عبادة الأحجار، ورضي أن يسجد لها ويدعوها، وأبى الانقياد لدعوة الرسل الكامل. وبمجرد ما يتكلم أحد الخصمين في الكلام الباطل، يعرف فساد ما عنده، بقطع

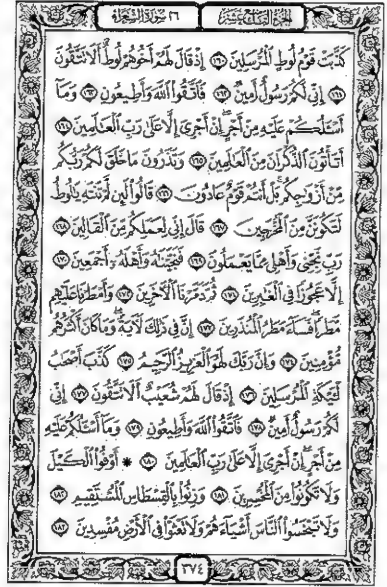


النظر عن صحة دعوى خصمه، فقوم نوح لما سمعنا عنهم، أنهم قالوا في ردهم دعوة نوح: **﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾** فبنوا على هذا الأصل، الذي كل أحد يعرف فساد زودعوته - عرفنا أنهم ضالون مخطؤون، ولو لم نشاهد من آيات نوح ودعوته العظيمة، ما يفيد الجزم واليقين بصدقه وصحة ما جاء به.

فقال نوح عليه السلام: **﴿وما علمني بما كانوا يعملون﴾** * **﴿إن حسابه﴾** إلا على ربي لو تشعرون **﴿أي: أعمالهم وحسابهم على الله، إنما على التبليغ، وأنتم دعوهم عنكم، إن كان ما جئتم به الحق، فانقادوا له، وكل له عمله﴾**.

﴿وما أنا بطارد المؤمنين﴾ كأنهم - قبحهم الله - طلبوا منه أن يطردهم عنه، تكبراً وتجبراً، ليؤمنوا، فقال: **﴿وما أنا بطارد المؤمنين﴾** فإنهم لا يستحقون الطرد والإهانة، وإنما يستحقون الإكرام القولي والفعل، كما قال تعالى: **﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم﴾** كتب ربيكم على نفسه الرحمة.

﴿إن أنا إلا نذير مبين﴾ أي: ما أنا إلا منذر ومبلغ عن الله، ومجتهد في نصيح العباد، وليس لي من الأمر شيء، إن الأمر إلا لله.



بعزه أعداءه، فأغرقهم بالطوفان
﴿الرحيم﴾ بأوليائه، حيث نجى نوحاً
ومن معه، من أهل الإيمان.

﴿١٢٣ - ١٤٠﴾ كذبت عاد
المرسلين ﴿إلى آخر القصة﴾ أي: كذبت
القبيلة المسماة عاداً، رسولهم هوداً،
وتكذيبهم له تكذيب لغيره، لاتفاق
الدعوة.

﴿إذ قال لهم أخوهم﴾ في النسب
﴿هود﴾ بلطف وحسن خطاب: ﴿ألا
تتقون﴾ الله، فتركوا الشرك وعبادة
غيره، ﴿إني لكم رسول أمين﴾ أي:
أرسلني الله إليكم، رحمة بكم، واعتناء
بكم، وأنا أمين، تعزفون ذلك مني،
رتب على ذلك قوله: ﴿فاتقوا الله
وأطيعون﴾ أي: أدوا حق الله تعالى،
وهو التقوى، وأدوا حقى، بطاعتي
فيما أمركم به وأنهاكم عنه، فهذا
موجب لأن تتبعوني وتطيعوني، وليس
ثم مانع يمنعكم من الإيمان، فلست
أسألكم على تبليغي إياكم ونصحي لكم
أجراً، حتى تستقلوا ذلك المغرم. ﴿إن
أجري إلا على رب العالمين﴾ الذي
رباهم بنعمه، وأدرّ عليهم فضله
وكرمه، خصوصاً ما ربى به أوليائه
وأتبياه.

﴿أتبينون بكل رب﴾ أي: مدخل
بين الجبال ﴿آية﴾ أي: علامة
﴿تمشون﴾ أي: تفعلون ذلك عبثاً لغير
فائدة تعود بمصالح دينكم ودنياكم.

﴿وتتخذون مصانع﴾ أي: بركاً
وجابي للمياه ﴿لعلكم تخلدون﴾ والحال
أنه لا سبيل إلى الخلود لأحد.

﴿وإذا بطشتم﴾ بالخلق ﴿بطشتم
جبارين﴾ قتلاً وضرباً، وأخذ أموال.
وكان الله تعالى قد أعطاهم قوة
عظيمة، وكان الواجب عليهم أن
يستعينوا بقوته على طاعة الله،
ولكنهم فخروا واستكبروا، وقالوا:
﴿من أشد منا قوة﴾ واستعملوا قوتهم
في معاصي الله، وفي العيث والسفه،
فلذلك نهاهم بنبيهم عن ذلك.

﴿فاتقوا الله﴾ واتركوا شرككم
ويطركم ﴿وأطيعون﴾ حيث علمتم أني
رسول الله إليكم، أمين ناصح،

﴿واتقوا الذي أمركم﴾ أي: أعطاكم
﴿بما تعلمون﴾ أي: أمركم بما
لا يجهل ولا ينكر من الإنعام،
﴿أمركم بأنعام﴾ من إبل وبقر وغنم
﴿وبئين﴾ أي: وكثرة نسل، كثير
أموالكم، وكثير أولادكم، خصوصاً
الذكور، أفضل القسمين.

هذا تذكيرهم بالنعم، ثم ذكرهم
حلول عذاب الله، فقال: ﴿إني أخاف
عليكم عذاب يوم عظيم﴾ أي: إني -
من شفقتي عليكم وبري بكم - أخاف
أن ينزل بكم عذاب عظيم، إذا نزل
لا يرد، إن استمريتم على كفركم
وبغيكم.

فقالوا معاندين للحق مكذبين
لنبيهم: ﴿سواء علينا أوعظت أم لم
تكن من الواعظين﴾ أي: الجميع على
حد سواء، وهذا غاية العتو، فإن قوماً
بلسنتهم هم الحال إلى أن صارت
مواعظ الله، التي تذيب الخيالات الضم
الصلاب، وتتصدع لها أفئدة أولي
الآليات، وجودها وعدمها - عندهم -
على حد سواء، لقوم انتهى ظلمهم،
واشتد شقاؤهم، وانقطع الرجاء من
هدايتهم، ولهذا قالوا: ﴿إن هذا إلا
خلق الأولين﴾ أي: هذه الأحوال
والنعم، ونحو ذلك، عادة الأولين،
تارة يستغنون، وتارة يفتقرون، وهذه
أحوال الدهر، لا أن هذه نحن ومنح
من الله تعالى، وإيتلاء لعباده ﴿وما
نحن بمعذبين﴾ وهذا إنكار منهم
للبعث، أو تنزل مع نبيهم وتهكم به،
إننا على فرض أننا نبعث، فإننا كما
أدرت علينا النعم في الدنيا، كذلك
لا تزال مستمرة علينا إذا بعثنا.

﴿فكذبوه﴾ أي: صار التكذيب
سجية لهم وخلقاً، لا يردعهم عنه
رادع. ﴿فأهلكناهم﴾ ﴿بريح صرصر
عاتية﴾ سخرها عليهم سبع ليال
وثمانية أيام جسوماً فترى القوم فيها
صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية.

﴿إن في ذلك لآية﴾ على صدق نبينا
هود عليه السلام، وصحة ما جاء به،
وبطلان ما عليه قومه، من الشرك
والجبروت، ﴿وما كان أكثرهم

فاستمر نوح عليه الصلاة والسلام
على دعوتهم ليلاً ونهاراً، سرّاً وجهاراً،
فلم يزدادوا إلا نفوراً، و ﴿قالوا لئن لم
تنهنا يا نوح عن دعوتك إيانا، إلى الله
وحده﴾ ﴿لتكونن من المرجومين﴾ أي:
لنقتلك شر قتلة، بالرمي بالحجارة،
كما يقتل الكلب. فتبأ لهم، ما أقبح
هذه المقابلة، يقابلون الناصح الأمين
الذي هو أشفق عليهم من أنفسهم،
بشر مقابلة. لا جرم لما انتهى ظلمهم،
واشتد كفرهم، دعا عليهم بنبيهم بدعوة
أحاطت بهم، فقال: ﴿رب لا تذر على
الأرض من الكافرين دياراً﴾ الآيات.
وهنا ﴿قال رب إن قومي كذبون﴾
فافتح بيني وبينهم فتحاً، أي: أهلك
الباغي منا، وهو يعلم أنهم البغاة
الظلمة، ولهذا قال: ﴿ونجني ومن
معي من المؤمنين﴾ ﴿فأنجيناه ومن
معه في السفك﴾ أي: السفينة
﴿المشحون﴾ من الخلق والحيوانات،
ثم أغرقنا بعد﴾ أي: بعد نوح، ومن
معه من المؤمنين ﴿الباقيين﴾ أي: جميع
قومه.

﴿إن في ذلك﴾ أي: نجاة نوح
وأتباعه، وإهلاك من كذبه ﴿لآية﴾ دالة
على صدق رسلنا، وصحة ما جاؤوا
به، وبطلان ما عليه أعداؤهم المكذبون

هم. ﴿وإن ربك لهو العزيز﴾ الذي قهر

طول المدة. القصد أن الحذر، من وقوع العذاب، واستحقاقهم له. وأما تعجيله أو تأخيره، فلا أهمية تحته، ولا جدوى عنده.

﴿٢٠٨-٢١٢﴾ ﴿وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون﴾ * ذكرى وما كنا ظالمين * وما تنزلت به الشياطين * وما ينبغي لهم وما يستطيعون * إنهم عن السمع لمعزولون﴾ يخبر تعالى عن كمال عدله في إهلاك المكذبين، وأنه ما أوقع بقية هلاكاً وعذاباً، إلا بعد أن يعذر منهم، ويبعث فيهم النذير بالآيات البينات، ويدعونهم إلى الهدى، وينهونهم عن الردى، ويذكرونهم بآيات الله، وينبهونهم على أيامه في نعمه ونقمه.

﴿ذكرى﴾ لهم وإقامة حجة عليهم. ﴿وما كنا ظالمين﴾ فنهلك القرى قبل أن ننذرهم، ونأخذهم وهم غافلون عن النذر، كما قال تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾.

ولما بين تعالى كمال القرآن وجلالته، نزهه عن كل صفة نقص، وحماه - وقت نزوله، وبعد نزوله - من شياطين الجن والإنس، فقال: ﴿وما تنزلت به الشياطين﴾ * وما ينبغي لهم﴾ أي: لا يليق بحالهم ولا يناسبهم * ﴿وما يستطيعون﴾ ذلك. ﴿إنهم عن السمع لمعزولون﴾ قد أبعدوا عنه، وأعدت لهم الرجوم لحفظه، ونزل به جبريل أقوى الملائكة، الذي لا يقدر شيطان أن يقربه، أو يحوم حول ساحته، وهذا كقوله: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

﴿٢١٣-٢١٦﴾ ﴿فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين﴾ * وأنذر عشيرتَك الأقرين * واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين * فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون﴾ ينهي تعالى رسوله أصلاً، وأمه أسوة له في ذلك، عن دعاء غير الله، من جميع المخلوقين، وأن ذلك موجب للعذاب الدائم، والعقاب السرمدى، لكونه

أفصح الخلق، وأقدرهم على التعبير عن المقاصد، بالعبارات الواضحة وأنصحهم، وليبادروا إلى التصديق به، وتلقّيه بالتسليم والقبول، ولكن تكذيبهم له عن غير شبهة، إن هو إلا محض الكفر والعناد، وأمر قد توارثه الأمم المكذبة، فلهذا قال: ﴿كذلك سلكناه في قلوب المجرمين﴾ أي: أدخلنا التكذيب، وأنظمناه في قلوب أهل الإجماع، كما يدخل السلك في الإبرة، فتشربته، وصار وصفاً لها، وذلك بسبب ظلمهم وجرمهم، فلذلك ﴿لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم﴾ على تكذيبهم، ﴿فيأتيهم بفتة وهم لا يشعرون﴾ أي: يأتيهم على حين غفلة، وعدم إحساس منهم، ولا استشعار بنزوله، ليكون أبلغ في عقوبتهم والنكال بهم.

﴿فيقولوا﴾ إذاك: ﴿هل نحن منظرون﴾ أي: يطلبون أن يُنظروا ويمهلوا، والحال إنه قد فات الوقت، وحل بهم العذاب الذي لا يرفع عنهم، ولا يفتر ساعة.

﴿٢٠٤-٢٠٧﴾ ﴿أفبعذابنا يستعجلون﴾ أفرايت إن متعناهم سنين * ثم جاءهم ما كانوا يوعدون * ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾ يقول تعالى: ﴿أفبعذابنا﴾ الذي هو العذاب الأليم العظيم، الذي لا يستهان به ولا يحتقر، ﴿يستعجلون﴾ فما الذي غرهم؟ هل فيهم قوة وطاقه للصبر عليه؟ أم عندهم قوة يقدر على دفعه أو رفعه إذا نزل؟ أم يُعجزوننا ويظنون أننا لا نقدر على ذلك؟

﴿أفرايت إن متعناهم سنين﴾ أي: أفرايت إذا لم نستعجل عليهم بإنزال العذاب، وأمهلناهم عدة سنين يمتعون في الدنيا * ثم جاءهم ما كانوا يوعدون﴾ من العذاب. ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾ من اللذات والشهوات، أي: شيء تغنى عنهم وتفيدهم، وقد مضت، وبطلت، واضمحلت، وأعقبت تبعاتها، وضوعف لهم العذاب عند

اشتغالهم على الخير الكثير، والبر الغزير، وفيه من الهداية لمصالح الدارين، والأخلاق الفاضلة، ما ليس في غيره، وفي قوله: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ من تعظيمة وشدة الاهتمام فيه، من كونه نزل من الله، لا من غيره، مقصوداً فيه نفعكم وهدايتكم، ﴿نزل به الروح الأمين﴾ وهو جبريل عليه السلام، الذي هو أفضل الملائكة وأقواهم، ﴿الأمين﴾ الذي قد آمن أن يزيد فيه أو ينقص.

﴿على قلبك﴾ يا محمد ﴿لتكون من المنذرين﴾ تهدي به إلى طريق الرشاد، وتنذر به عن طريق البغي.

﴿بلسان عربي﴾ وهو أفضل الألسنة، بلغة من بُعث إليهم، وياشر دعوتهم أصلاً، اللسان اللين الواضح. وتأمل كيف اجتمعت هذه الفضائل الفاخرة في هذا الكتاب الكريم، فإنه أفضل الكتب، نزل به أفضل الملائكة، على أفضل الخلق، على أفضل بضعة فيه وهي قلبه، على أفضل أمة أخرجت للناس، بأفضل الألسنة وأفصحها وأوسعها، وهو اللسان العربي المبين.

﴿وإنه لفي زبر الأولين﴾ أي: قد بشرت به كتب الأولين وصدقته، وهو لما نزل طبق ما أخبرت به، صدقها، بل جاء بالحق وصدق المرسلين.

﴿أولم يكن لهم آية﴾ على صحته، وأنه من الله ﴿أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾ الذي قد انتهى إليهم العلم، وصاروا أعلم الناس، وهم أهل الصنف، فإن كل شيء يحصل به اشتباه، يرجع فيه إلى أهل الخبرة والدراية، فيكون قولهم حجة على غيرهم، كما عرف السحرة الذين مهرؤا في غلم السحر، صدق معجزة موسى، وأنه ليس بسحر، فقول الجاهلين بعد هذا لا يؤبه به.

﴿ولو نزلناه على بعض الأعجمين﴾ الذين لا يفقهون لسانهم، ولا يقدرّون على التعبير لهم كما ينبغي ﴿فقراه﴾ عليهم ما كانوا به مؤمنين﴾ يقولون: ما نفقه ما يقول، ولا ندرى ما يدعو إليه، فليحمدوا ربهم، أن جاءهم على لسان

والشهادة. فاستحضر العبد رؤية الله له في جميع أحواله، وسمعه لكل ما ينطق به، وعلمه بما يتطوي عليه قلبه، من الهم والعزم والنيات، مما يعينه على منزلة الإحسان.

﴿٢٢١ - ٢٢٧﴾ ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ

مَنْ تَنْزِلُ الشَّيَاطِينُ * تَنْزِلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاقٍ ثَمِيمٍ * يَلْقَوْنَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ * وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَأَهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَمِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا

وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ * هَذَا جَوَابُ مَنْ قَالَ مَنْ مَكْذِبِي الرَّسُولَ : إِنْ مُحَمَّدًا يَنْزِلُ عَلَيْهِ شَيْطَانٌ . وَقَوْلُ مَنْ قَالَ : إِنَّهُ شَاعِرٌ ، فَقَالَ : ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ * أَيَّ : أَخْبِرْكُمْ الْخَبِيرَ الْحَقِيقِي الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا شُبُهَةَ ، عَلَى مَنْ تَنْزِلُ الشَّيَاطِينُ ، أَيَّ : بِصِفَةِ الْأَشْخَاصِ ، الَّذِينَ تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ .﴾ تَنْزِلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاقٍ * أَيَّ : كَذَابٍ ، كَثِيرِ الْقَوْلِ لِلزُّورِ ، وَالْإِفْكِ بِالْبَاطِلِ ، ﴿ثَمِيمٍ﴾ فِي فِعْلِهِ ، كَثِيرِ الْمَعَاصِي ، هَذَا الَّذِي تَنْزِلُ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ ، وَتَنَاسَبَ حَالُهُ حَالَهُمْ ؟

﴿يَلْقَوْنَ﴾ عَلَيْهِ ﴿السَّمْعَ﴾ الَّذِي يَسْتَرْقُونَهُ مِنَ السَّمَاءِ ، ﴿وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ أَيَّ : أَكْثَرُ مَا يَلْقَوْنَ إِلَيْهِ كَذِبٌ ^(٢) ، فَيَصْدُقُ وَاحِدَةً ، وَيَكْذِبُ مَعَهَا مِثَّةً ، فَيَخْتَلِطُ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ ، وَيُضْمِحِلُ الْحَقَّ بِسَبَبِ قَلْبَتِهِ ، وَعَدَمِ عِلْمِهِ . فَهَذِهِ ^(٣) صِفَةُ الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ ، وَهَذِهِ صِفَةُ وَجْهِهِمْ لَهُ .

وَأَمَّا مُحَمَّدٌ ﷺ ، فَحَالُهُ مَبَایِنَةٌ لِهَذِهِ الْأَحْوَالِ أَعْظَمُ مَبَایِنَةٍ ، لِأَنَّهُ الصَّادِقُ الْأَمِينُ ، الْبَارِ الرَّاشِدُ ، الَّذِي جَمَعَ بَيْنَ بَرِّ الْقَلْبِ وَصِدْقِ اللَّهْجَةِ وَتَزَاهَةِ الْأَفْعَالِ

وَرَفْعِهَا ، وَأَعْجَبَ بِعَمَلِهِ ، فَهَلْ هَذَا إِلَّا مِنْ جَهْلِهِ ، وَتَزْيِينِ الشَّيْطَانِ وَخُدْعِهِ لَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ : ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ فِي أَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ ، فَلَا تَتَّبِعْ مِنْهُمْ ، وَلَا تَتْرِكْ مُعَامَلَتَهُمْ ، بِخَفْضِ الْجَنَاحِ ، وَلِيْنِ الْجَانِبِ ، بَلْ تَبْرَأْ مِنْ عَمَلِهِمْ ، فَعِظْهُمْ عَلَيْهِ وَانصَحْهُمْ ، وَابْذُلْ قُدْرَتَكَ فِي رُدِّهِمْ عَنْهُ وَتَوْبَتِهِمْ مِنْهُ ، وَهَذَا لِدَفْعِ احْتِرَازِ وَهْمٍ مِنْ يَتَوَهَّمُ ، أَنْ قَوْلَهُ : ﴿وَإِخْفُضْ جَنَاحَكَ﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ ، يَقْتَضِي الرِّضَاءَ بِجَمِيعِ مَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ ، مَا دَامُوا مُؤْمِنِينَ ، فَدَفْعُ هَذَا هَذَا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

﴿٢١٧ - ٢٢٠﴾ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقْلِبُكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أَعْظَمُ مُسَاعِدٍ لِلْعَبْدِ عَلَى الْقِيَامِ بِمَا أَمُرُ بِهِ ، الْاعْتِمَادُ عَلَى رَبِّهِ ، وَالِاسْتِعَانَةُ بِمَوْلَاهُ عَلَى تَوْفِيقِهِ لِلْقِيَامِ بِالْأُمُورِ ، فَلِذَلِكَ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ وَالتَّوَكُّلُ هُوَ اعْتِمَادُ الْقَلْبِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي جَلْبِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ ، مَعَ ثِقَتِهِ بِهِ ، وَجَسْنِ ظَنِّهِ بِحُصُولِ مَطْلُوبِهِ ، فَإِنَّهُ عَزِيزٌ رَحِيمٌ ، بَعِزَّتُهُ يَقْدِرُ عَلَى إِصْصَالِ الْخَيْرِ وَدَفْعِ الشَّرِّ عَنْ عِبْدِهِ ، وَبِرَحْمَتِهِ بِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ . ثُمَّ نَبَّهَهُ عَلَى الْإِسْتِعَانَةِ بِاسْتِحْضَارِ قُرْبِ اللَّهِ ، وَالنُّزُولِ فِي مَنْزِلِ الْإِحْسَانِ فَقَالَ : ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقْلِبُكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ أَيَّ : يَرَاكَ فِي هَذِهِ الْعِبَادَةِ الْعَظِيمَةِ ، الَّتِي هِيَ الصَّلَاةُ ، وَقَتَ قِيَامِكَ وَتَقْلِبِكَ رَاكِعًا وَسَاجِدًا خَصَصَهَا بِالذِّكْرِ ، لِفَضْلِهَا وَشَرَفِهَا ، وَلِأَنَّ مِنْ اسْتِحْضَارِ قُرْبِ رَبِّهِ ، خُشْعَ وَذَلَّ ، وَأَكْمَلَهَا ، وَتَكْمِيلَهَا يَكْمَلُ سَائِرَ عَمَلِهِ ، وَيَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى جَمِيعِ أُمُورِهِ .

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لِسَائِرِ الْأَصْوَاتِ ، عَلَى اخْتِلَافِهَا وَتَشْتَتِهَا وَتَنَوُّعِهَا ، ﴿الْعَلِيمُ﴾ الَّذِي أَحَاطَ بِالظَّوَاهِرِ وَالْبَوَاطِنِ ، وَالْغَيْبِ

شَرَكًا ، ﴿وَمَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ وَالنَّهْيُ عَنِ الشَّيْءِ أَمْرٌ بِضَدِّهِ ، فَالْنَّهْيُ عَنِ الشَّرِّ ، أَمْرٌ بِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، مَحَبَّةً ، وَخَوْفًا ، وَرَجَاءً ، وَذَلًّا ، وَإِنَابَةً إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ . وَلَمَّا أَمَرَهُ بِمَا فِيهِ كِمَالُ نَفْسِهِ ، أَمَرَهُ بِتَكْمِيلِ غَيْرِهِ ، فَقَالَ : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ الَّذِينَ هُمْ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيْكَ ، وَأَحَقُّهُمْ بِإِحْسَانِكَ الدِّينِيِّ وَالْدُنْيَوِيِّ ، وَهَذَا لَا يَنَافِي أَمْرَهُ بِإِنْذَارِ جَمِيعِ النَّاسِ ، كَمَا إِذَا أَمَرَ الْإِنْسَانَ بِعَمَمِ الْإِحْسَانِ ، ثُمَّ قِيلَ لَهُ «أَحْسِنْ إِلَى قَرَابَتِكَ» ، فَيَكُونُ هَذَا خُصُوصًا ^(١) دَالًّا عَلَى التَّأَكِيدِ وَزِيَادَةِ الْحَقِّ ، فَامْتَثِلْ ﷺ هَذَا الْأَمْرَ الْإِلَهِيَّ ، فَدَعِ سَائِرَ بَظُرُونَ قَرِيشَ ، فَعَمَمَ وَخُصَّصَ ، وَذَكَرَهُمْ وَوَعِظَهُمْ ، وَلَمْ يُبْقِ ﷺ مِنْ مَقْدُورِهِ شَيْئًا ، مِنْ نَصَحِهِمْ وَهَدَايَتِهِمْ إِلَّا فَعَلَهُ ، فَاهْتَدَى مِنْ اهْتَدَى ، وَأَعْرَضَ مِنْ أَعْرَضَ ، ﴿وَإِخْفُضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بَلِّغْ جَانِبَكَ ، وَلَطْفِ خَطَابِكَ لَهُمْ ، وَتَوَدُّدِكَ وَتَحَبُّبِكَ إِلَيْهِمْ ، وَحَسَنَ خُلُقِكَ وَالْإِحْسَانَ التَّامَّ بِهِمْ ، وَقَدْ فَعَلَ ﷺ ذَلِكَ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿فِيمَا رَحِمَةً مِنَ اللَّهِ لَنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ فَهَذِهِ أَخْلَاقُهُ ﷺ ، أَكْمَلُ الْأَخْلَاقِ ، الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا مِنَ الْمَصَالِحِ الْعَظِيمَةِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ مَا هُوَ مُشَاهِدٌ . فَهَلْ يَلِيقُ بِمُؤْمِنٍ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَيَدَّعِي اتِّبَاعَهُ وَالِاقْتِدَاءَ بِهِ ، أَنْ يَكُونَ كَلَّا عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، شَرَسَ الْأَخْلَاقِ ، شَدِيدَ الشَّكِيمَةِ عَلَيْهِمْ ، غَلِيظَ الْقَلْبِ ، فَظًّا الْقَوْلِ ، فَظِيحَةً ؟ [وَأِنْ رَأَى مِنْهُمْ مَعْصِيَةً أَوْ سَوْءَ أَدَبٍ ، هَجَرَهُمْ وَمَقْتَهُمْ وَأَبْغَضَهُمْ ، لَا لِيْنٍ عِنْدَهُ ، وَلَا أَدَبٍ لَدَيْهِ ، وَلَا تَوْفِيقٍ ، قَدْ حَصَلَ مِنْ هَذِهِ الْمَعَامَلَةِ مِنَ الْمَافَسَدِ ، وَتَعْطِيلِ الْمَصَالِحِ مَا حَصَلَ ، وَمَعَ ذَلِكَ تَجِدُهُ مُحْتَقِرًا لِمَنْ اتَّصَفَ بِصِفَاتِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ، قَدْ رَمَاهُ بِالنِّفَاقِ وَالْمَدَاهِنَةِ ، وَقَدْ كَمَّلَ نَفْسَهُ

(١) وفي ب: الخصوص.

(٢) في النسختين: كذباً.

(٣) في النسختين: هذا.

من المحرم.

ولا نهي عن شيء إلا كان أول التاركين له.

فهل تناسب حاله حالة الشعراء، أو يقاربه؟ أم هو مخالف لهم من جميع الوجوه؟ فصلوات الله وسلامه على هذا الرسول الأكمل، والهمام الأفضل، أبد الأبديين، ودهر الداهرين، الذي ليس بشاعر، ولا ساحر، ولا مجنون، ولا يليق به إلا كل كمال.

ولما وصف الشعراء بما وصفهم به، استثنى منهم من آمن بالله ورسوله، وعمل صالحاً، وأكثر من ذكر الله، وانتصر من أعدائه المشركين من بعد ما ظلموهم.

فصار شعرهم من أعمالهم الصالحة وآثار إيمانهم، لاشتماله على مدح أهل الإيمان، والذِّب عن دين الله، وتبيين العلوم النافعة، والحث على الأخلاق الفاضلة، فقال:

﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ ينقلبون إلى موقف وحساب، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولا حقاً إلا استوفاه. والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة النمل وهي مكية

﴿١-٦﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين * هدى وبشرى للمؤمنين * الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون * إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زيننا لهم أعمالهم فهم يعمهون * أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون * وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾ ينبه تعالى عباده على عظمة القرآن، ويشير إليه إشارة دالة على التعظيم، فقال: ﴿تلك آيات القرآن وكتاب مبين﴾ أي: هي أعلى الآيات، وأقوى البينات، وأوضح

والوحي الذي ينزل عليه من عند الله، ينزل محروساً محفوظاً، مشتملاً على الصدق العظيم، الذي لا شك فيه ولا ريب، فهل يستوي - يا أهل العقول - هذا وأولئك؟ وهل يشتهان إلا على مجنون لا يميز ولا يفرق بين الأشياء؟

فلما نزهه عن نزول الشياطين عليه، برأه أيضاً من الشعر فقال: ﴿والشعراء﴾ أي: هل أنبئكم أيضاً عن حالة الشعراء، ووصفهم الثابت، فإنهم «يتبعهم الغاوون» عن طريق الهدى، المقلبون على طريق الغي والزدى، فهم في أنفسهم غاوون، وتجد أتباعهم كل غاو ضال فاسد.

﴿ألم تر﴾ غوايتهم وشدة ضلالهم «أنهم في كل وادٍ من أودية الشعر، «يهيمون» فتارة في مدح، وتارة في قبح، وتارة في صدق، وتارة في كذب، وتارة يتغزلون، وأخرى يسخرون، ومرة يمرحون، وأونة يحزنون، فلا يستقر لهم قرار، ولا يثبتون على حال من الأحوال.

﴿وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾ أي: هذا وصف الشعراء، أنهم يخالف أقوالهم أفعالهم، فإذا سمعت الشاعر يتغزل بالغزل الرقيق، قلت: هذا أشد الناس غراماً، وقلبه فارغ من ذلك، وإذا سمعته يمدح أو يذم، قلت: هذا صدق، وهو كذب، وتارة يتمدح بأفعال لم يفعلها، وتروك لم يتركها، وكرم لم يحم حول ساحته، وشجاعة يعلو بها على الفرسان، وتراه أجبن من كل جبان، هذا وصفهم.

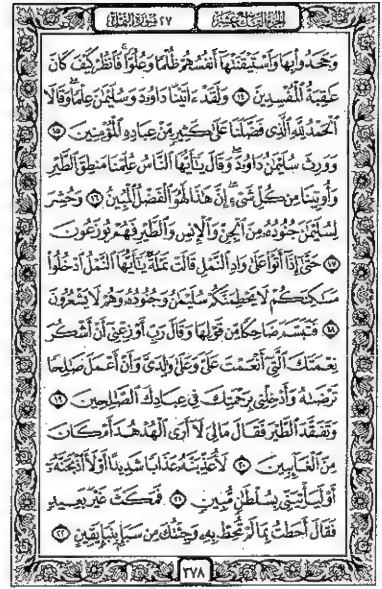
فانظر، هل يطابق حالة الرسول محمد ﷺ، الراشد البار، الذي يتبعه كل راشد ومهتد، الذي قد استقام على الهدى، وجانب الردى، ولم تتناقض أفعاله، ولم يخالف أقواله أفعاله؟ الذي لا يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر، ولا أخبر بشيء إلا صدق، ولا أمر بشيء إلا كان أول الفاعلين له،



الدلالات، وأبينها على أجل المطالب، وأفضل المقاصد، وخير الأعمال، وأزكى الأخلاق، آيات تدل على الأخبار الصادقة، والأوامر الحسنة، والنهي عن كل عمل وخيم، وخلق ذميم، آيات بلغت في وضوحها وبيانها للبصائر النيرة، مبلغ الشمس للابصار، آيات دلت على الإيمان، ودعت للوصول إلى الإيقان، وأخبرت عن الغيوب الماضية والمستقبلية، على طريقي ما كان ويكون. آيات دعت إلى معرفة الرب العظيم، بأسمائه الحسنى وصفاته العلى وأفعاله الكاملة، آيات عرفتنا برسله وأوليائه، ووصفتهم حتى كأننا ننظر إليهم بأبصارنا، ولكن مع هذا لم ينتفع بها كثير من العالمين، ولم يهتد بها جميع المعاندين، صوتاً لها من من لا خير فيه ولا صلاح، ولا زكاء في قلبه، وإنما اهتدى بها، من خصهم الله بالإيمان، واستنازت بذلك قلوبهم، وصفت سرائرهم.

فلهذا قال: ﴿هدى وبشرى للمؤمنين﴾ أي: تهديم إلى سلوك الصراط المستقيم، وتبين لهم ما ينبغي أن يسلكوه أو يتركوه، وتبشيرهم بشواب الله المرتب على الهداية لهذا الطريق.

ربما قيل: لعله يكثر مدعو الإيمان، فهل يقبل من كل أحد ادعى



﴿أولئك الذين لهم سوء العذاب﴾ أي: أشدّه وأسوأه وأعظمه، ﴿وهم في الآخرة هم الأخسرون﴾ حصر الخسار فيهم، لكونهم خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، وخسروا الإيمان الذي دعتهم إليه الرسل.

﴿وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾ أي: وإن هذا القرآن الذي ينزل عليك وتلقفه وتبلغه، ينزل من عند ﴿حكيم﴾ يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها. ﴿عليم﴾ بأسرار الأمور^(١) وبواطنها، كظواهرها. وإذا كان من عند ﴿حكيم عليم﴾^(٢) علم أنه كله حكمة ومصالح للعباد، من الذي [هو] أعلم بمصالحهم منهم؟

﴿إذ قال موسى لأهله إني آنست نارا﴾ إلى آخر قصته، يعني: أذكر هذه الحالة الفاضلة الشريفة من أحوال موسى بن عمران، ابتداء الوحي إليه، واصطفائه برسالته، وتكليم الله إياه، وذلك أنه لما مكث في مدين عدة سنين، وسار بأهله من مدين متوجهاً إلى مصر، فلما كان في أثناء الطريق ضل، وكان في ليلة مظلمة باردة، فقال لهم: ﴿إني آنست نارا﴾ أي: أبصرت نارا من بعيد ﴿سأتيكم منها بخبر﴾ عن الطريق، ﴿أو أتاكم بشهاب قيس لعنكم تصطلون﴾ أي: تستدفئون، وهذا دليل على أنه تائه، ومشتد برده، هو وأهله.

﴿فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها﴾ أي: ناداه الله تعالى وأخبره، أن هذا محل مقدس مبارك، ومن بركته، أن جعله الله موضعاً لتكليم الله لموسى وندائه وإرساله.

﴿وسبحان الله رب العالمين﴾ عن أن يُظن به نقص أو سوء، بل هو الكامل في وصفه وفعله. ﴿يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم﴾ أي: أخبره الله أنه الله المستحق للعبادة وحده لا شريك له، كما في الآية الأخرى ﴿إني أنا الله لا

أه مؤمن ذلك؟ أم لا بد لك من دليل؟ وهو الحق، فلذلك بين تعالى صفة المؤمنين، فقال: ﴿الذين يقيمون الصلاة﴾ فرضها ونفلها، فيأتون بأفعالها الظاهرة، من أركانها، وشروطها، وواجباتها، بل ومستحباتها، وأفعالها الباطنة، وهو الخشوع الذي روحها ولبها، باستحضار قرب الله، وتدبر ما يقول المصلي ويفعله.

﴿ويؤتون الزكاة﴾ المفروضة لمستحقيها. ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ أي: قد بلغ معهم الإيمان إلى أن وصل إلى درجة اليقين، وهو العلم التام، الواصل إلى القلب، الداعي إلى العمل. ويقينهم بالآخرة، يقتضي كمال سعيهم لها، وحذرهم من أسباب العذاب وموجبات العقاب، وهذا أصل كل خير.

﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ ويكذبون بها، ويكذبون من جاء بإثباتها، ﴿زيناً لهم أعمالهم﴾ فهم يعمهون حائزين مترددين، مؤثرين سخط الله على رضاه، قد انقلبت عليهم الحقائق، فرأوا الباطل حقاً، والحق باطلاً.

إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾ ﴿العزيز﴾ الذي فهر جميع الأشياء، وأذعنت له كل المخلوقات، ﴿الحكيم﴾ في أمره وخلقه. ومن حكمته، أن أرسل عبده موسى بن عمران، الذي علم الله منه أنه أهل لرسالته ووحيه وتكليمه. ومن عزته، أن تعتمد عليه، ولا تستوحش من انفردك وكثرة أعدائك وجبروتهم، فإن نواصيهم بيد الله، وحرركاتهم وسكونهم بتدبيره.

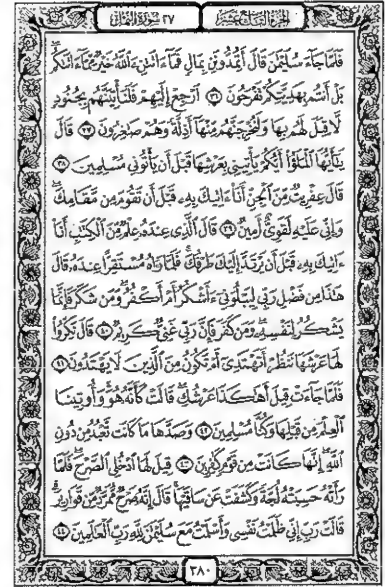
﴿وأتى عصاك﴾ فآلقها ﴿فلما رآها تهتز كأنها جان﴾ وهو ذكر الحيات، سريع الحركة، ﴿ولي مدبراً ولم يعقب﴾ ذعراً من الحية التي رأى، على مقتضى الطباع البشرية، فقال الله له: ﴿يا موسى لا تحف﴾ وقال في الآية الأخرى: ﴿أقبل ولا تحف إنك من الأمنين﴾ ﴿إني لا يخاف لدي المرسلون﴾ لأن جميع المخاوف مندرجة في قضائه وقدره وتصريفه وأمره، فالذين اختصهم الله برسالته، واصطفاهم لروحيه، لا ينبغي لهم أن يخافوا غير الله، خصوصاً عند زيادة القرب منه، والخطوة بتكليمه.

﴿إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء﴾ أي: فهذا الذي هو محل الخوف والوحشة بسبب ما أسدى من الظلم، وما تقدم له من الجرم، وأما المرسلون، فما لهم وللوحشة والخوف؟ ومع هذا، من ظلم نفسه بمعاصي الله، ثم تاب وأناب، فبدل سيئاته حسنات، ومعاصيه طاعات، فإن الله غفور رحيم، فلا يياس أحد من رحمته ومغفرته، فإنه يغفر الذنوب جميعاً، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها.

﴿وَادْخُلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضاً من غير سوء﴾ لا برص ولا نقص، بل بياض ينبر الناظرين شعاعاً. ﴿في تسع آيات إلى فرعون وقومه﴾ أي: هاتان الآيتان، انقلاب العصا حية تسعى، وإخراج اليد من

(١) في ب: الأحوال.

(٢) سبق قلم الشيخ - رحمه الله - فكتب: (حكيم خير) فصحتها، وأبقيت التفسير كما هو.



والجبروت . والرسل منزّهون عن ذلك .

وقال شاكرًا لله الذي أوصله إلى هذه الحال : ﴿رب أوزعني﴾ أي : ألهمني ووفني ﴿أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي﴾ فإن النعمة على الوالدين نعمة على الولد . فسأل ربه التوفيق للقيام بشكر نعمته ، الدينية والدنيوية ، عليه وعلى والديه ، ﴿وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾ أي : ووفني أن أعمل صالحاً ترضاه ، لكونه موافقاً لأمرك ، مخلصاً فيه ، سالماً من المفسدات والمنقصات ، ﴿وادخلني برحمتك﴾ التي منها الجنة ﴿فني﴾ جملة ﴿عبادك الصالحين﴾ فإن الرحمة مجعولة للصالحين على اختلاف درجاتهم ومنازلهم . فهذا نموذج ذكره الله من حالة سليمان عند سماع خطاب النملة ونداءها .

ثم ذكر نموذجاً آخر من مخاطبته للطير ، فقال : ﴿وتفقد الطير﴾ دل هذا على كمال عزمه وحزمه ، وحسن تنظيمه لجنوده ، وتديبه بنفسه للأمور الصغار والكبار ، حتى إنه لم يهمل هذا الأمر ، وهو تفقد الطيور ، والنظر : هل هي موجودة كلها ، أم مفقودة منها شيء ؟ وهذا هو المعنى للآية . ولم يصنع شيئاً من قال : إنه تفقد الطير ، لينظر أين الهدهد منها ^(١) ، ليدل على بعد الماء وقربه ، كما زعموا عن الهدهد ، أنه يبصر الماء تحت الأرض الكثيفة ، فإن هذا القول لا يدل عليه دليل ، بل الدليل العقلي واللفظي دال على بطلانه ، أما العقلي ، فإنه قد عرفت بالعادة والتجارب والملاحظات ، أن هذه الحيوانات كلها ، ليس منها شيء يبصر هذا البصر الخارق للعادة ، ينظر الماء تحت الأرض الكثيفة ، ولو كان كذلك ، لذكره الله ، لأنه من أكبر الآيات .

وأما الدليل اللفظي ، فلو أريد هذا المعنى ، لقال : ﴿وطلب الهدهد لينظر له الماء ، فلما فقده قال ما قال﴾ أو ﴿فتش عن الهدهد﴾ ، أو : ﴿بحث عنه﴾ ونحو

قالت نملة : منبهه لرفقتها وبني جنسها : ﴿يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾ فنصحت هذه النملة ، وأسمنت النمل ، إما بنفسها ، ويكون الله قد أعطى النمل أسماعاً خارقة للعادة ، لأن التنبيه للنمل ، الذي قد ملأ الوادي بصوت نملة واحدة ، من أعجب العجائب . وإما بأنها أخبرت من حولها من النمل ، ثم سرى الخبر من بعضهم لبعض حتى بلغ الجميع ، وأمرتين بالجذر ، والطريق في ذلك ، وهو دخول مساكنهن .

وعرفت حالة سليمان وجنوده ، وعظمة سلطانه ، واعتذرت عنهم ، أنهم إن حطموكم ، فليس عن قصد منهم ولا شعور ، فسمع سليمان عليه الصلاة والسلام قولها وفهمه ، ﴿فتبسم ضاحكاً من قولها﴾ إعجاباً منه بفصاحتها ^(٢) ونصحها ، وحسن تعبيرها . وهذا حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، الأدب الكامل ، والتعجب في موضعه ، وأن لا يبلغ بهم الضحك إلا إلى التبسم ، كما كان الرسول ﷺ جل ضحكه التبسم ، فإن الحقيقة تدل على خفة العقل وسوء الأدب . وعدم التبسم والعجب عما يتعجب منه ، يدل على شراسة الخلق

ذلك من العبارات ، وإنما تفقد الطير ، لينظر الحاضر منها والغائب ، ولزومها للمراكز والمواضع التي عينها لها . وأيضاً ، فإن سليمان عليه السلام ، لا يحتاج ولا يضطر إلى الماء ، بحيث يحتاج لهندسة الهدهد ، فإن عنده من الشياطين والعفاريت ، ما يخفرون له الماء ، ولو بلغ في العمق ما بلغ . وسخر الله له الريح غدوها شهر ورواجها شهر ، فكيف - مع ذلك - يحتاج إلى الهدهد؟! !

وهذه التفاسير التي توجد ، وتشتهر بها أقوال ، لا يعرف غيرها ، تنقل هذه الأقوال عن بني إسرائيل مجردة ، ويغفل الناقل عن مناقضتها للمعاني الصحيحة ، وتطبيقها على الأقوال ، ثم لا تزال تتناقل ، وينقلها المتأخر مسلماً للمتقدم ، حتى يظن أنها الحق ، فيقع من الأقوال الردية في التفاسير ما يقع ، واللبيب الفطن ، يعرف أن هذا القرآن الكريم ، العربي المبين ، الذي خاطب الله به الخلق كلهم ، عالمهم وجاهلهم ، وأمرهم بالتفكير في معانيه ، وتطبيقها على ألفاظه العربية المعروفة المعاني ، التي لا تجهلها العرب العرباء ، وإذا وجد أقوالاً منقولة عن غير رسول الله ﷺ ، ردها إلى هذا الأصل ، فإن وافقته قبلها ، لكون اللفظ دالاً عليها ، وإن خالفته لفظاً ومعنى ، أو لفظاً أو معنى ، ردها وجزم ببطلانها ، لأن عنده أصلاً معلوماً مناقضاً لها ، وهو ما يعرفه من معنى الكلام ودلالته .

والشاهد ، أن تفقد سليمان عليه السلام للطير ، وفقده الهدهد ، يدل على كمال حزمه وتديبه الملك بنفسه ، وكمال فطنته ، حتى فقد هذا الطائر الصغير ﴿فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائين﴾ أي : هل عدم رؤيتي إياه ، لقلة فطنتي به ، لكونه خفياً بين هذه الأمم الكثيرة ؟ أم على بابها ، بأن كان غائباً من غير إذني ولا أمري ؟ فحينئذ تغيب عليه وتوعده ، فقال :

(٢) في ب : منه .

(١) في ب : بنصح أمثها .

لعقلها ﴿أعندي﴾ للصواب، ويكون عندها ذكاء وفطنة تليق بملكها ﴿أم تكون من الذين لا يهتمون﴾.

﴿فلما جاءت﴾ قادمة على سليمان، عرض عليها عرشها، وكان عهدها به، قد خلفته في بلدها، و ﴿قيل لها أهكذا عرشك﴾ أي: أنه استقر عندنا أن لك عرشاً عظيماً، فهل هو كهذا العرش الذي أحضرناه لك؟ ﴿قالت كأنه هو﴾ وهذا من ذكائها وفطنتها، لم تقل «هو» لوجود التغيير فيه والتكبر، ولم تنف أنه هو، لأنها عرفت، فأتت بلفظ محتمل للأمرين، صادق على الحالين، فقال سليمان متعجباً من هدايتها وعقلها، وشاكراً لله أن أعطاه أعظم منها: ﴿وأوتينا العلم من قبلها﴾ أي: الهداية، والعقل، والحزم، من قبل هذه الملكة، ﴿وكننا مسلمين﴾ وهي الهداية النافعة الأصلية.

ويحتمل أن هذا من قول ملكة سبا: ﴿وأوتينا العلم من ملك سليمان وسلطانه، وزيادة اقتداره، من قبل هذه الحالة التي رأينا فيها قدرته على إحضار العرش من المسافة البعيدة، فأذعنا له، وجئنا مسلمين له، خاضعين لسلطانه﴾.

قال الله تعالى: ﴿وصدّها ما كانت تعبد من دون الله﴾ أي: عن الإسلام، والا، فلها من الذكاء والفطنة ما به تعرف الحق من الباطل، ولكن العقائد الباطلة تذهب بصيرة القلب ﴿إنها كانت من قوم كافرين﴾ فاستمرت على دينهم، وانفراد الواحد عن أهل الدين، والعادة المستمرة بأمر يراه بعقله من ضلالهم وخطئهم، من أندر ما يكون، فلها لا يستغرب بقاؤها على الكفر، ثم إن سليمان أراد أن ترى من سلطانه ما يبهّر العقول، فأمرها أن تدخل الصرح، وهي المجلس المرتفع المتسع، وكان مجلساً من قواريير، تجري تحته الأنهار.

ف ﴿قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبت لها﴾ ماء، لأن القواريير شائعة،

﴿أنا أتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين﴾ والظاهر أن سليمان إذ ذاك في الشام، فيكون بينه وبين سبا نحو مسيرة أربعة أشهر، شهران ذهاباً، وشهران إياباً، ومع ذلك، يقول هذا العفريت: أنا ألترم بالمجيء به، على كبره وثقله وبُعده، قبل أن تقوم من مجلسك الذي أنت فيه. والمعتاد من المجالس الطويلة، أن تكون معظم الضحى، نحو ثلث يوم، هذا نهاية المعتاد، وقد يكون دون ذلك، أو أكثر، وهذا الملك العظيم، الذي عند أحاد رعيته هذه القوة والقدرة، وأبلغ من ذلك أن ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب﴾: قال المفسرون: هو رجل عالم صالح، عند سليمان يقال له: «أصف بن برخيا» كان يعرف اسم الله الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى.

﴿أنا أتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ بأن يدعو الله بذلك الاسم، فيحضر حالاً، وأنه دعا الله فحضر. فالله أعلم [هل هذا المراد أن عنده علماً من الكتاب يقتدر به على جلب البعيد وتحصيل الشديد؟]

﴿فلما رآه﴾ سليمان ﴿مستقراً عنده﴾ حمد الله تعالى على إقداره وملكه، وتيسير الأمور له، و ﴿قال هذا من فضل ربي ليبلوني﴾ أشكر أم أكفر؟ أي: ليختبرني بذلك. فلم يغتر عليه السلام بملكه وسلطانه وقدرته، كما هو دأب الملوك الجاهلين، بل علم أن ذلك اختبار من ربه، فخاف أن لا يقوم بشكر هذه النعمة، ثم بين أن الشكر لا ينتفع الله به، وإنما يرجع نفعه إلى صاحبه، فقال: ﴿ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم﴾ غني عن أعماله، كريم، كثير الخير، يعم به الشاكر والكافر، إلا أن شكر نعمه داع للمزيد منها، وكفرها داع لزوالها، ثم قال لمن عنده: ﴿تكرروا لها عرشها﴾ أي: غيرهو بزيادة ونقص، ونحو ذلك ﴿نظروا﴾ ختبرين



وقوله؟ أم تخدعه الهدية، وتبدل فكرته، وكيف أحواله وجنوده؟

فأرسلت له هدية مع رسل من عقلاء قومها، وذوي الرأي: منهم، ﴿فلما جاء سليمان﴾ أي: جاءه الرسل بالهدية ﴿قال منكرأ عليهم ومتغيظاً على عدم إجابتهم: ﴿أتمدون بما لا آتاني الله خير مما آتاكم﴾ فليست تقع عندي موقعاً، ولا أفرح بها، قد أغناني الله عنها، وأكثر علي النعم، ﴿بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾ لحبكم للدنيا، وقلة ما بأيديكم بالنسبة لما أعطاني الله.

ثم أوصى الرسول من غير كتاب، لما رأى من عقله، وأنه سيتقل كلامه على وجهه، فقال: ﴿ارجع إليهم﴾ أي: بهديتك ﴿فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم﴾ أي: لا طاقة لهم ﴿ولنخرجنهم منها أدلة وهم صاغرون﴾ فرجع إليهم، وأبلغهم ما قال سليمان، وتجهزوا للمسير إلى سليمان، وعلم سليمان أنهم لا بد أن يسيروا إليه، فقال لمن حضره من الجن والإنس: ﴿أيكم يأتيني بعرضها قبل أن يأتوني مسلمين﴾ أي: لأجل أن تنصرف فيه قبل أن يسلموا، فتكون أموالهم محترمة، ﴿قال عفريت من الجن والعفريت: هو القوي النشيط جداً:

لفعل السيئات؟ ﴿لولا﴾ تستغفرون الله ﴿بأن تتوبوا﴾ من شرككم وعصيانكم، وتدعوه أن يغفر لكم، ﴿لملككم ثرؤن﴾ فإن رحمة الله تعالى قريب من المحسنين، والتائب من الذنوب، هو من المحسنين.

﴿قالوا﴾ لنبيهم صالح، مكذبين ومعارضين: ﴿اطيرنا بك وبمن معك﴾ زعموا - قبحهم الله - أنهم لم يروا على وجه صالح خيراً، وأنه هو ومن معه من المؤمنين، صاروا سبباً لمنع بعض مطالبهم الدنيوية، فقال لهم صالح: ﴿طائرکم عند الله﴾ أي: ما أصابكم إلا بذنوبكم، ﴿بل أنتم قوم تفتنون﴾ بالسراء والضراء، والخير والشر، لينظر هل تقلعون وتتبون، أم لا؟ فهذا دأبهم في تكذيب نبيهم وما قابله به.

﴿وكان في المدينة﴾ التي فيها صالح، الجامعة لعظم قومه ﴿تسعة﴾ رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴿أي: وصفهم الإفساد في الأرض، ولا لهم قصد ولا فعل بالإصلاح، قد استعدوا المعادة صالح والطعن في دينه، ودعوة قومه إلى ذلك، كما قال تعالى: ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ ولا تطيعوا أمر المسرفين ﴿الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾.

فلم يزالوا بهذه الحال الشيعة، حتى إنهم من عداوتهم ﴿تقاسموا﴾ فيما بينهم، كل واحد أقسم للآخر: ﴿لنبيته وأهله﴾ أي: نأتيه ^(١) ليلاً، هو وأهله، فلقتلهم، ﴿ثم لنقولن لوليه﴾ إذا قام علينا، وأدعى علينا أننا قتلناه، ننكر ذلك، وننفيه ونحلف ﴿إنا لصادقون﴾ فتواطؤوا على ذلك، ﴿ومكروا مكراً﴾ دبوا أمرهم على قتل صالح وأهله، على وجه الخفية، حتى آمن قومهم، خوفاً من أوليائه، ﴿ومكروا مكراً﴾ بنصر نبينا صالح عليه السلام، وتيسير أمره، وإهلاك قومه المكذبين ﴿وهم لا يشعرون﴾

يرى الماء الذي تحته، كأنه بذاته يجري، ليس دونه شيء، ﴿وكشفت عن ساقبها﴾ للخياضة، وهذا أيضاً من عقلها وأدبها، فإنها لم تمتنع من الدخول للمحل الذي أمرت بدخوله، لعلمها أنها لم تستدع إلا للإكرام، وأن ملك سليمان وتنظيمه، قد بناء على الحكمة، ولم يكن في قلبها أدنى شك من حالة السوء، بعد ما رأت ما رأت.

فلما استعدت للخوض قيل لها: ﴿إنه صرح بمرد﴾ أي: علس ﴿من قوارير﴾ فلا حاجة منك لكشف الساقين. فحيث لما وصلت إلى سليمان، وشاهدت ما شاهدت، وعلمت نبوته ورسالته، تابت ورجعت عن كفرها، و ﴿قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾

فهذا ما قصه الله علينا من قصة ملكة سبأ، وما جرى لها مع سليمان، وما عدا ذلك من الفروع المولدة، والقصص الإسرائيلية، فإنه لا يتعلق بالتفسير لكلام الله، وهو من الأمور التي يقف الجزم بها، على الدليل المعلوم المعصوم، والمتنولات في هذا الباب كلها، أو أكثرها، ليس كذلك، فأجزم كل الحزم، الإعراض عنها، وعدم إدخالها في التفاسير، والله أعلم.

﴿٤٥-٥٣﴾ ﴿ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون﴾ إلى آخر القصة. يخبر تعالى أنه أرسل إلى ثمود القبيلة المعروفة، أخاهم في النسب صالحاً، وأنه أمرهم أن يعبدوا الله وحده، ويتركوا الأنداد والأوثان، ﴿فإذا هم فريقان يختصمون﴾ منهم المؤمن، ومنهم الكافر، وهم معظمهم.

﴿قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة﴾ أي: لم تبادرون فعل السيئات وتحرضون عليها، قبل فعل الحسنات، التي بها تحسن أحوالكم وتصلح أموركم الدنيوية والدنيوية؟ والحال أنه لا موجب لكم إلى الذهاب



﴿فانظر كيف كان عاقبة مكرهم﴾ هل حصل مقصودهم؟ وأدركوا بذلك المكر مطلوبهم، أم انتقض عليهم الأمر، ولهذا قال: ﴿أنادمرناهم وقومهم أجمعين﴾ أهلكناهم، واستأصلنا شافتهم، فجاءتهم صيحة عذاب، فأهلكوا عن آخرهم.

﴿فتلك بيوتهم خاوية﴾ قد تهدمت جدرانها على سقوفها، وأوحشت من ساكنيها، وعطلت من نازليها، ﴿بما ظلموا﴾ أي: هذا عاقبة ظلمهم وشركهم بالله، وبغيهم في الأرض. ﴿إن في ذلك لآية لقوم يعلمون﴾ الحقائق، ويتدبرون وقائع الله، في أوليائه وأعدائه، فيعتبرون بذلك، ويعلمون أن عاقبة الظلم الدمار والهلاك، وأن عاقبة الإيمان والعدل النجاة والفوز.

ولهذا قال: ﴿وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ أي: أنجينا المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وكانوا يتقون الشرك بالله والمعباني، ويعملون بطاعته وطاعة رسله.

﴿٥٤-٥٨﴾ ﴿ولو طأ إذا قال لقومته أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون﴾ إلى آخر القصة. أي: وأذكر عبدنا وزبولنا لوطاً، ونبأه الفاضل، حين قال

السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون * بل أذكركم علمهم في الآخرة بل هم في شك منها إذا كنا تراباً وأبأؤنا أننا لمخرجون * لقد وعدنا هذا نحن وأبأؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين * يخبر تعالى أنه المنفرد بعلم غيب السموات والأرض، كقوله تعالى: ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ وكقوله: ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام﴾ إلى آخر السورة.

فهذه الغيوب ونحوها، اختص الله بعلمها، فلم يعلمها ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وإذا كان هو المنفرد بعلم ذلك، المحيط علمه بالسرائر والباطن والخفايا، فهو الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ثم أخبر تعالى عن ضعف علم المكذبين بالآخرة، منتقلاً من شيء إلى ما هو أبلغ منه، فقال:

﴿وما يشعرون﴾ أي: وما يدرون ﴿أيان يبعثون﴾ أي: متى البعث والنشور، والقيام من القبور، أي: فلذلك لم يستعدوا، ﴿بل أذكركم علمهم في الآخرة﴾ أي: بل ضعف، وقُلْ ولم يكن يقيناً، ولا علماً واصلًا إلى القلب، وهذا أقل وأدنى درجة للعلم، ضعفه ووهؤه، بل ليس عندهم علم، ولا ضعيف، وإنما هم في شك منها: أي: من الآخرة، والشك زال به العلم، لأن العلم بجميع مراتبه، لا يجامع الشك، ﴿بل هم منها﴾ أي: من الآخرة ﴿عمون﴾ قد غميت عنها بصائرهم، ولم يكن في قلوبهم من وقوعها ولا احتمال، بل أنكروها واستبعدوها، ولهذا قال: ﴿وقال الذين كفروا إذا كنا تراباً وأبأؤنا أننا لمخرجون﴾ أي: هذا بعيد غير ممكن، قاسوا قدرة كامل القدرة بقدرهم الضعيفة، ﴿لقد وعدنا هذا﴾ أي: البعث ﴿نحن وأبأؤنا من قبل﴾ أي:

تذكرون﴾ أي: قليل تذكركم وتذكركم للأمور، التي إذا تذكروها أذكرتم ورجعتم إلى الهدى، ولكن الغفلة والإعراض شامل لكم، فلذلك ما أروعيتهم ولا اهتديتم.

﴿٦٣﴾ ﴿أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته إله مع الله تعالى الله عما يشركون﴾ أي: من هو الذي يهديكم حين تكونون في ظلمات البر والبحر، حيث لا دليل، ولا معلم يرى، ولا وسيلة إلى النجاة إلا هدايته لكم، وتيسيره الطريق، وجعل ما جعل لكم من الأسباب التي تهتدون بها، ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾ أي: بين يدي المطر، فيرسلها، فتثير السحاب، ثم تؤلفه، ثم تجمعها، ثم تلقحها، ثم تدره، فيستبشر بذلك العباد، قبل نزول المطر. ﴿إله مع الله﴾ فعل ذلك؟ أم هو وحده، الذي انفرد به؟ فلم أشركتم معه غيره، وعبدتم سواه؟ ﴿تعالى الله عما يشركون﴾ تعظم وتزه وتقدس عن شركهم وتوسيتهم به غيره.

﴿٦٤﴾ ﴿أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض إله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ أي: من هو الذي يبدأ الخلق، وينشئ المخلوقات، ويبتدئ خلقها، ثم يعيد الخلق يوم البعث والنشور؟ ومن يرزقكم من السماء والأرض، بالمطر والنبات؟ ﴿إله مع الله﴾ يفعل ذلك، ويقدر عليه؟ ﴿قل هاتوا برهانكم﴾ أي: حجتكم ودليلكم على ما قلتم ﴿إن كنتم صادقين﴾ وإلا، فبتقدير أنكم تقولون: إن الأصنام لها مشاركة له، في شيء من ذلك، فذلك مجرد دعوى، صدقوها بالبرهان، وإلا، فاعرفوا أنكم مبطلون، لا حجة لكم، فارجعوا إلى الأدلة اليقينية والبراهين القطعية الدالة على أن الله هو المتفرد بجميع التصرفات، وأنه المستحق أن تصرف له جميع أنواع العبادات.

﴿٦٥ - ٦٨﴾ ﴿قل لا يعلم من في

وجعل بين البحرين حاجزاً إله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ أي: هل الأصنام والأوثان، الناقصة من كل وجه، التي لا فعل منها ولا رزق ولا نفع، خير؟ أم الله الذي جعل الأرض قراراً يستقر عليها العباد ويتمكنون من السكنى، والحرق، والبناء، والذهاب، والإياب. ﴿وجعل خلالها أنهاراً﴾ أي: جعل في خلال الأرض، أنهاراً ينتفع بها العباد، في زروعهم وأشجارهم، وشربهم وشرب مواشيهم.

﴿وجعل لها رواسي﴾ أي: جبالات ترسيها وتثبتها، لثلاقيد، وتكون أوتاداً لها، لثلا تضطرب. ﴿وجعل بين البحرين البحر المالح والبحر العذب حاجزاً﴾ يمنع من اختلاطهما، فتفوت المنفعة المقصودة من كل منهما، بل جعل بينهما حاجزاً من الأرض، جعل مجرى الأنهار في الأرض مبعدة عن البحار، فيحصل منها مقاصدها ومصالحها، ﴿إله مع الله﴾ فعل ذلك، حتى يعدل به الله ويشرك به معه. ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ فيشركون بالله، تقليداً لرؤسائهم، وإلا فلو علموا حق العلم، لم يشركوا به شيئاً.

﴿٦٦﴾ ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض إله مع الله قليلاً ما تذكرون﴾ أي: هل يجيب المضطر، الذي أقلفته الكروب، وتعسر عليه المطلوب، واضطر للخلاص مما هو فيه، إلا الله وحده؟ ومن يكشف السوء، أي: البلاء والشر والنقمة، إلا الله وحده؟ ومن يجعلكم خلفاء الأرض، يمكنكم منها، ويمد لكم بالرزق، ويوصل إليكم نعمته، وتكونون خلفاء من قبلكم، كما أنه سميئكم، ويأتي بقوم بعدكم، إله مع الله يفعل هذه الأفعال؟ لا أحد يفعل مع الله شيئاً من ذلك، حتى بإقراركم أيها المشركون، ولهذا كانوا إذا مسهم الضر، دعوا الله مخلصين له الدين، لعلهم أنه وحده المقتدر على دفعه وإزالته، ﴿قليلاً ما

معانيه، فهو لا تحصل لهم به الهداية إلى الصراط المستقيم، والرحمة المتضمنة للسعادة والفوز والفلاح.

﴿٧٨﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ

بحكمه وهو العزيز العليم﴾ أي: إن الله تعالى سيفصل بين المختصمين، وسيحكم بين المختلفين، بحكمه العدل، وقضائه القسط، فالأمور وإن حصل فيها اشتباه في الدنيا بين المختلفين، لحفاء الدليل، أو لبعض المقاصد، فإنه سيبين فيها الحق المطابق للواقع، حين يحكم الله فيها، وهو العزيز الذي قهر الخلائق فأذعنوا له، ﴿العليم﴾ بجميع الأشياء ﴿العليم﴾ بأقوال المختلفين، وعن ماذا صدرت، وعن غاياتها ومقاصدها، وسيجازي كل بما علمه فيه.

﴿٧٩﴾ ﴿أَنْتَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ * إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ

الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين * وما أنت بهادي العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾ أي: اعتمد على ربك في جلب المصالح ودفع المضار، وفي تبليغ الرسالة، وإقامة الدين، وجهاد الأعداء. ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ الواضح، والذي على الحق، يدعو إليه، ويقوم بنصرته، أحق من غيره بالتوكل، فإنه يسعى في أمر مجزوم به، معلوم صدقه، لا شك فيه ولا مرية. وأيضاً، فهو حق في غاية البيان، لا خفاء به ولا اشتباه، وإذا قمت بما حملت، وتوكلت على الله في ذلك، فلا يضرك ضلال من ضل، وليس عليك هداهم، فلهذا قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدَّعَاءَ﴾ أي: حين تدعوهم وتناديهم، وخصوصاً إذا ولوا مدبرين، فإنه يكون أبلغ في عدم إسماعهم.

﴿وما أنت بهادي العمى عن ضلالتهم﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. ﴿إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يَوْمَنَ بآيَاتِنَا فهم مسلمون﴾ أي: هؤلاء الذين ينتقدون لك، الذين يؤمنون

لهم وقوع ما استعجلوه: ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفَ لَكُمْ﴾ أي: قرب منكم، وأوشك أن يقع بكم بعض الذي تستعجلون من العذاب.

﴿٧٣﴾ ﴿وَأَنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ

عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَعَلِمَ مَا تَكُنْ صُدُورُهُمْ وَمَا يَعْلَنُونَ * وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مَبِينٍ * يَبْنِي عِبَادَهُ، عَلَى سَعَةِ جُودِهِ، وَكَثْرَةِ أَفْضَالِهِ، وَيَحْشُرُهُمْ عَلَى شُكْرِهِا، وَمَعَ هَذَا، فَأَكْثَرُ النَّاسِ قَدْ أَعْرَضُوا عَنِ الشُّكْرِ، وَاشْتَغَلُوا بِالنِّعَمِ عَنِ الْمُنْعَمِ. ﴿وَأَنَّ رَبَّكَ لَعَلِمَ مَا تَكُنْ﴾ أي: تنطوي عليه صُدُورُهُمْ وَمَا يَعْلَنُونَ، فليحذروا من عالم السرائر والظواهر، وليراقبوه.

﴿وما من غائبة في السماء والأرض﴾ أي: خفية، وسر من أسرار العالم العلوي والسفلي، ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مَبِينٍ﴾ قد أحاط ذلك الكتاب بجميع ما كان ويكون إلى أن تقوم الساعة، فكل حادث يحدث جلي أو خفي، إلا وهو مطابق لما كتب في اللوح المحفوظ.

﴿٧٦﴾ ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ

يَقْضَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ * وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ * وهذا خبر عن هيمنة القرآن، على الكتب السابقة، وتفصيله وتوضيحه، لما كان فيها قد وقع فيه اشتباه واختلاف عند بني إسرائيل، فقضاه هذا القرآن قصاً زال به الإشكال، وبيّن الصواب من المسائل المختلف فيها. وإذا كان بهذه المثابة، من الجلالة والوضوح، وإزالة كل خلاف، وفصل كل مشكل، كان أعظم نعم الله على العباد، ولكن ما كل أحد يقابل النعمة بالشكر. ولهذا بين أن نفعه ونوره وهذاه، يختص بالمؤمنين، فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَهْدَى﴾ من الضلالة والغي والشبه و﴿ورحمة﴾ تنلج له صُدُورُهُمْ، وتستقيم به أمورهم الدينية والدنيوية ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ به، المصدقين له، المتلقين له بالقبول، المقبلين على تدبره، المتفكرين في

فلم يحشوا، ولا رأينا منه شيئاً. ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: قصصهم وأخبارهم، التي تقطع بها الأوقات، وليس لها أصل، ولا صدق فيها.

فانتقل في الأخبار عن أحوال هؤلاء المكذبين بالأخبار أنهم لا يدرون متى وقت الآخرة، ثم الأخبار بضعف علمهم فيها، ثم الأخبار بأنه شك، ثم الأخبار بأنه عسى، ثم الأخبار بأنكارهم لذلك واستبعادهم وقوعه. أي: وبسبب هذه الأحوال ترجل خوف الآخرة من قلوبهم، فأقدموا على معاصي الله، وسهل عليهم تكذيب الحق، والتصديق بالباطل، واستحلوا الشهوات على القيام بالعبادات، ففسدوا دنياهم وآخرهم.

﴿٦٩﴾ ﴿ثُمَّ نَبْهَهُمْ عَلَى صَدْقِ مَا

أَخْبَرَتْ بِهِ الرُّسُلُ، فَقَالَ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ فلا تجدون مجزماً قد استمر على إجرامه، إلا وعاقبته شر عاقبة، وقد أحل الله به من الشر والعقوبة ما يليق بحاله.

﴿٧٠﴾ ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ

وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ * ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون﴾ أي: لا تحزن يا محمد على هؤلاء المكذبين، وعدم إيمانهم، فإنك لو علمت ما فهم من الشر، وأنهم لا يصلحون للخير، لم تأس ولم تحزن، ولا يضق صدرك، ولا تقلق نفسك بمكرهم، فإن مكرهم سيعود عاقبته عليهم، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ ويقول المكذبون بالمعاد، وبالخلق الذي جاء به الرسول، مستعجلين للعذاب: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذا من سفاهة رأيهم وجهلهم، فإن وقوعه ووقته، قد أجله الله بأجله، وقدره بقدر، فلا يدل عدم استعجاله على بعض مطلوبهم.

ولكن - مع هذا - قال تعالى مخذراً

السعدي غفر الله له ولوالديه والجميع المسلمين، وذلك في ٢٢ رمضان سنة ١٣٤٣.

المجلد السادس من تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، من من الله على الفقير إلى المعيد المبيدي: عبده وابن عبده وابن أمته: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدى غفر الله له آمين.

تفسير سورة القصص وهي مكية

﴿١- ٥١﴾ بسم الله الرحمن الرحيم طسم * تلك آيات الكتاب المبين * نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون * إلى آخر القصة. * تلك * الآيات المستحقة

للتعظيم والتفخيم * آيات الكتاب المبين * لكل أمر يحتاج إليه العباد، من معرفة ربهم، ومعرفة حقوقه، ومعرفة أوليائه وأعدائه، ومعرفة وقائعه وأيامه، ومعرفة ثواب الأعمال، وجزاء العمال، فهذا القرآن قد بينها غاية التبين، وجلالها للعباد ووضوحها.

من جملة ما أبان، قصة موسى وفرعون، فإنه أبداها، وأعادها في عدة مواضع، وبسطها في هذا الموضع فقال: * نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق * . فإن نبأها غريب، وخبرها عجيب.

﴿لقوم يؤمنون﴾ فإليهم يساق الخطاب، ويوجه الكلام، حيث إن منهم من الإيمان ما يقبلون به على تدبر ذلك، وتلقيه بالقبول والاهتداء بمواقع العبر، ويزدادون إيماناً و يقيناً، وخيراً إلى خيرهم، وأما من عداهم، فلا يستفيدون منه إلا إقامة الحجة عليهم، وصانته الله عنهم، وجعل بينهم وبينه حجاباً أن يفقهوه، فأول هذه القصة ﴿إن فرعون علا في الأرض﴾ في ملكه وسلطانه وجنوده وجبروته، فصار من أهل العلو فيها، لا من الأعلى فيها. ﴿وجعل أهلها

ألفاظه ومعانيه، فهذا الذي علي وقد أدبته، ﴿فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه﴾ نفعه يعود عليه، وثمرته عائدة إليه ﴿ومن ضل فقل إنما أنا من المذنبين﴾ وليس بيدي من الهداية شيء.

﴿وقل الحمد لله﴾ الذي له الحمد في الأولى والآخرة، ومن جميع الخلق، خصوصاً أهل الاختصاص والصفوة من عباده، فإن الذي ينبغي أن يقع منهم من الحمد والثناء على ربهم، أعظم مما يقع من غيرهم لرفعة درجاتهم، وكمال قربهم منه، وكثرة خيراته عليهم.

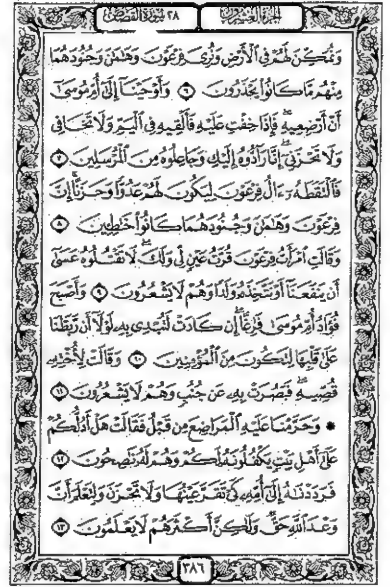
﴿سيريكم آياته فتعترفونها﴾ معرفة تدلکم على الحق والباطل، فلا بد أن يريكم من آياته ما تستنبطون به في الظلمات. ﴿إلهك من هلك عن بينة ويخيا من حي عن بينة﴾.

﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ بل قد علم ما أنتم عليه من الأعمال والأحوال، وعلم مقدار جزاء تلك الأعمال، وسيحكم بينكم حكماً تحمدونه عليه، ولا يكون لكم حجة بوجه من الوجوه عليه.

تم تفسير سورة النمل بفضل الله وإعانتة وتيسيره

ونسأله تعالى أن لا تزال ألطافه ومعونته مستمرة علينا، ومواصلة منة إلينا، فهو أكرم الأكرمين، وخير الراحمين، وموصل المنقطعين، ومجيب السائلين، ميسر الأمور العسيرة، وفتاح أبواب بركاته، ومجزل في جميع الأوقات هباته، ميسر القرآن للمتذكرين، ومسهل طرقه وأبوابه للمقبلين، ومعد مائدة خيراته ومبراته للمتفكرين، والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

على يد جامعته ومعلمه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله



﴿وهم من فزع يومئذ آمنون﴾ أي: من الأمر الذي فزع الخلق لأجله آمنون، وإن كانوا يفرعون معهم.

﴿ومن جاء بالسيئة﴾ اسم جنس، يشمل كل سيئة ﴿فكبت وجوههم في النار﴾ أي: القوا في النار على وجوههم، ويقال لهم: ﴿هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾.

﴿٩١ - ٩٣﴾ إنما أمرت أن أعيد رب هذه البلدة الذي حرّمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين * وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المذنبين * وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعترفونها وما ربك بغافل عما تعملون * أي: قل لهم يا محمد ﴿إنما أمرت أن أعيد رب هذه البلدة﴾ أي: مكة المكرمة التي حرّمها وأنعم على أهلها، فيجب أن يقابلوا ذلك بالشكر والقبول. ﴿وله كل شيء﴾ من العلويات والسفليات، أتى به لئلا يتوهم اختصاص ربوبيته بالبيت وحده. ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ أي: أبادر إلى الإسلام، وقد فعل ﷺ، فإنه أول هذه الأمة إسلاماً، وأعظمها استسلاماً، ﴿و﴾ أمرت أيضاً ﴿أن أتلو﴾ عليكم ﴿القرآن﴾ لتهتدوا به وتقتدوا وتعلموا

شيعاً^(١) أي: طوائف متفرقة، يتصرف فيهم بشهوته، ويتفذ فيهم ما أراد من قهره وسطوته.

«يستضعف طائفة منهم» وتلك الطائفة، هم بنو إسرائيل، الذين فضلهم الله على العالمين، الذين له أن يكرمهم ويخلصهم، ولكنه استضعفهم، بحيث إنه رأى أنهم لا منعة لهم تمنعهم مما أرادهم فيهم، فصار لا يبالي بهم، ولا يهتم بشأنهم، وبلغت به الحال إلى أنه «يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم» خوفاً من أن يكثروا، فيغمروهم في بلاده، ويصير لهم الملك.

«إنه كان من المفسدين» الذين لا قصد لهم في إصلاح الدين، ولا إصلاح الدنيا، وهذا من إفساده في الأرض.

«ونريد أن نمنع على الذين استضعفوا في الأرض» بأن نزيل عنهم مواد الاستضعاف، ونهلك من قاومهم، ونخذل من ناوأمهم. «ونجعلهم أئمة» في الدين، وذلك لا يحصل مع الاستضعاف، بل لا بد من تمكين في الأرض، وقدره تامة، «ونجعلهم الوارثين» للأرض، الذين لهم العاقبة في الدنيا قبل الآخرة. «ونمكن لهم في الأرض» فهذه الأمور كلها، قد تعلقت بها إرادة الله، وجرت بها مشيئته، «و» كذلك تريد أن «نري فرعون وهامان» ووزيره «وجنودهما» التي بها صالوا وجالوا، وعلوا وبغوا «منهم» أي: من هذه الطائفة المستضعفة. «ما كانوا

يحدرون» من إخراجهم من ديارهم، ولذلك كانوا يسعون في تمعهم، وكسر شوكتهم، وتقتيل أبنائهم، الذين هم محل ذلك، فكل هذا قد أراد الله، وإذا أراد أمراً سهّل أسبابه، ونجح طريقه، وهذا الأمر كذلك، فإنه قدّر وأجرى من الأسباب - التي لم يشعر بها لا أولياؤه ولا أعداؤه - ما هو سبب موصل إلى هذا المقصود، فأول ذلك، لما أوجد الله رسوله

موسى، الذي جعل استنقاذ هذا الشعب الإسرائيلي على يديه وسببه، وكان في وقت تلك المخافة العظيمة، التي يذبحون بها الأبناء، أرحى إلى أمه أن ترضعه، ويمكث عندها.

«فلماذا خفت عليه» بأن أحسست أحداً تخافين عليه منه أن يوصله إليهم، «فألقيه في اليم» أي: نيل مصر، في وسط تابوت مغلق، «ولا تخافي المرسلين» فبشرها بأنه سيرده عليها، وأنه سيكبر ويسلم من كيدهم، ويجعله الله رسولا.

وهذا من أعظم البشائر الجلية، وتقديم هذه البشائر لأم موسى، ليطمئن قلبها، ويسكن روعها، فإنها خافت عليه، وفعلت ما أمرت به، ألقته في اليم، فساقه الله تعالى حتى «التقطه آل فرعون» فصار من لقطهم، وهم الذين يأسروا وجدانه، «ليكون لهم عدواً وحزناً» أي: لتكون العاقبة والمآل من هذا الالتقاط، أن يكون عدواً لهم وحزناً يحزنهم، بسبب أن الحذر لا ينفع من القدر، وأن الذي خافوا منه من بني إسرائيل، قيض الله أن يكون زعيمهم، يترى تحت أيديهم، وعلى نظرهم، وبكفالتهم.

وعند التدبير والتأمل، تجد في طي ذلك من المصالح لبني إسرائيل، ودفع كثير من الأمور الفادحة بهم، ومنع كثير من التعديات قبل رسالته، بحيث إنه صار من كبار المملكة.

وبالطبع، إنه لا بد أنه يحصل منه مدافعة عن حقوق شعبه هذا، وهو هو ذو الهمة العالية والغيرة المتوقدة، ولهذا وصلت الحال بذلك الشعب المستضعف - الذي بلغ بهم الذل والإهانة إلى ما قص الله علينا بعضه - أن صار بعض أفرادهم، ينازع ذلك الشعب القاهر العالي في الأرض، كما سيأتي بيانه.

وهذا مقدمة للظهور، فإن الله تعالى

وَلَمَّا لَمْ أَشَدُّمْ أَسْمَوْا أَتَيْنَهُمْ حُمْكًا وَجَاءَ وَكَذَلِكَ تَجَرَّى
لِلْحَيَوَيْنِ ﴿١٠﴾ وَكَانَ الْكِبَرُ عَلَى عَيْنِ عَقْلِهِمْ وَأَهْلِيهَا
فَوَضَعَهَا رِجْلَيْنِ يَتَقَلَّبَانِ هَذَا مِنْ شَيْعَةٍ وَهَذَا مِنْ عَدُوٍّ
فَأَسْتَعَفَّ الْكِبَرُ مِنْ شَيْعَةٍ عَلَى الْكِبَرِ مِنْ عَدُوٍّ فَوَضَعَهُ
مَوْجِي قَفْصِي عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ
مُؤْمِلٌ مُبِينٌ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَقَدْ كُنْتُ
إِنَّمَا أَتَقَرُّ بِالْحَقِّ وَالْحَقُّ بِالْحَقِّ وَالْحَقُّ بِالْحَقِّ وَالْحَقُّ بِالْحَقِّ
عَلَى الْكِبَرِ ﴿١٢﴾ فَأَصْبَحَ لِلْكَبَرِ عَاقِبَةً قَبْلَ الْكِبَرِ
أَسْتَعَفُّوا بِالْكَبَرِ يَسْتَعَفُّونَ قَالَ لِمَوْجِي إِنَّكَ لَتَوَيْبٌ مُبِينٌ
﴿١٣﴾ لَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَطْرُقَ الْكِبَرُ هُوَ عَدُوٌّ قَالَ يَتَوَكَّرُ
أَرِيدُ أَنْ تَقْضَى كَمَا كُنْتَ تَقْضَى بِالْكَبَرِ إِنَّ الْكِبَرِ يُرِيدُ إِلَى
أَنْ تَكُونَ جَنَازِي الْأَرْضِ وَمَا أَرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْكَلْبِ
وَكَمْ تَصِلُ إِلَى أَهْلِ الْكِبَرِ يَتَوَكَّرُ الْكِبَرُ إِلَى الْكِبَرِ
يَكْذِبُ لِقَوْلِهِ فَاصْبِرْ إِلَى الْكِبَرِ مِنَ الْكِبَرِ ﴿١٤﴾ فَجَعَلَ خَلْقًا
كَأَنَّ الْكِبَرِ قَالَ رَبِّ إِنِّي مِمَّنْ كَلَّمَكَ الْكَلْبُ ﴿١٥﴾

من سنته الجارية، أن جعل الأمور تمشي على التدريج شيئاً فشيئاً، ولا تأتي دفعة واحدة.

وقوله: «إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين» أي: فأردنا أن نعاقبهم على خطئهم^(١) ونكيدهم جزاء على مكرهم وكيدهم.

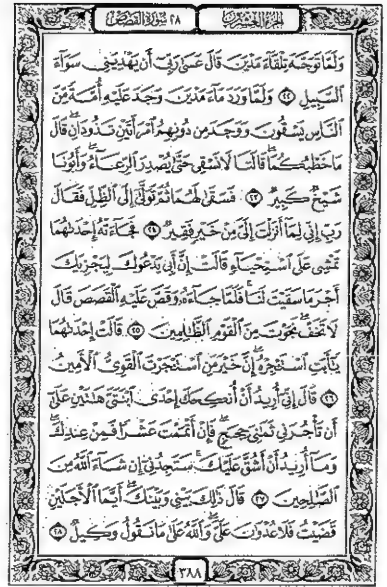
فلما التقطه آل فرعون، حزن الله عليه امرأة فرعون الفاضلة الجلية المؤمنة «آسية» بنت مزاحم «وقالت» هذا الولد «قرة عين لي ولك لا تقتلوه» أي: أبقيه لنا، ليقر به أعيننا، ونستره في حياتنا.

«عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً» أي: لا يخلو، إما أن يكون بمنزلة الخدم، الذين يسعون في نفعنا وخدمتنا، أو نرقبه بمنزلة أعلى من ذلك، نجعله ولداً لنا، ونكرمه، ونجعله.

فقدر الله تعالى، أنه نفع امرأة فرعون، التي قالت تلك المقالة، فإنه لما صار قرة عين لها، وأحبه حباً شديداً، فلم يزل لها بمنزلة الولد الشفيق حتى كبر ونباه الله وأرسله، فبادرت إلى الإسلام والإيمان به، رضي الله عنها وأرضاه.

قال الله تعالى عن هذه المراجعات

(١) كذا في ب، وفي أ: نعاقبهما على خطئهما.



[والمقالات] في شأن موسى: **﴿وهم لا يشعرون﴾** ما جرى به القلم، ومضى به القدر، من وصوله إلى ما وصل إليه، وهذا من لطفه تعالى، فإنهم لو شعروا، لكان لهم وله شأن آخر.

ولما فقدت موسى أمه، حزن حزناً شديداً، وأصبح فؤاده فارغاً من القلق الذي أزعجها، على مقتضى الحالة البشرية، مع أن الله تعالى نهاها عن الحزن والخوف، ووعدها برده.

﴿إن كادت لتبدي به﴾ أي: بما في قلبها **﴿لولا أن ربطنا على قلبها﴾** فشبثناها، فصبرت، ولم تبد به. **﴿لنكون﴾** بذلك الصبر والثبات **﴿من المؤمنين﴾** فإن العبد إذا أصابته مصيبة فصبر وثبت، ازداد بذلك إيمانه، ودل ذلك على أن استمرار الجزع مع العبد، دليل على ضعف إيمانه.

﴿وقالت﴾ أم موسى **﴿لأخته قصيه﴾** أي: اذهبي [فقصي الأثر عن أخيك] وابحثي عنه من غير أن يحس بك أحد أو يشعروا بمقصودك فذهبت تقصيه **﴿فصبرت به عن جنب وهم لا يشعرون﴾** أي: أبصرت على وجه، كأنها مارة لا قصد لها فيه.

وهذا من تمام الحزم والحذر، فإنها لو أبصرت، وجاءت إليهم قاصدة، لظنوا بها أنها هي التي ألقته، فربما عزموا على ذبحه، عقوبة لأهله. ومن لطف الله بموسى وأمّه، أن

منعه من قبول ثدي امرأة، فأخرجوه إلى السوق رحمة به، ولعل أحداً يطلبه، فبجأت أخته، وهو بتلك الحال **﴿فقال هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون﴾**

وهذا جلّ غرضهم، فإنهم أحبه حباً شديداً، وقد منعه الله من المراضع فخافوا أن يموت، فلما قالت لهم أخته تلك المقالة، المشتعلة على الترسيع في أهل هذا البيت، بتمام حفظه وكفالاته والنصح له، بادروا إلى إجابتها، فأعلمتهم ودلتهم على أهل هذا البيت.

﴿فرددناه إلى أمه﴾ كما وعدناها بذلك **﴿كي تقر عينها ولا تحزن﴾** بحيث إنه تربى عندها على وجه تكون فيه أمنة مطمئنة، تفرح به، وتأخذ الأجرة الكثيرة على ذلك، **﴿ولتعلم أن وعد الله حق﴾** فأربناها بعض ما وعدناها به عياناً، ليطمئن بذلك قلبها، ويزداد إيمانها، ولتعلم أنه سيحصل وعد الله في حفظه ورسالته، **﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾** فإذا رأوا السبب متشوشاً، شوش ذلك إيمانهم، لعدم علمهم الكامل، أن الله تعالى يجعل المحن الشاقة والعقبات الشاقة، بين يدي الأمور العالية والمطالب الفاضلة، فاستمر موسى عليه الصلاة والسلام عند آل فرعون، يتربى في سلطانهم، ويركب مراكبهم، ويلبس ملايسهم، وأمّه بذلك مطمئنة، قد استقر أنها أمه من الرضاع، ولم يستنكر ملازمته إياها وحنوها عليه.

وتأمل هذا اللطف، وصيانة نبية موسى من الكذب في منطق، وتيسير الأمر، الذي صار به التعلق بينه وبينها، الذي بان للناس أنه هو الرضاع، الذي بسببه يسميها أمّاً، فكان الكلام الكثير منه ومن غيره في ذلك كله صدقاً وحقاً.

﴿ولما بلغ أشده﴾ من القوة والعقل واللب، وذلك نحو أربعين سنة في الغالب، **﴿واستوى﴾** كملت فيه تلك الأمور، **﴿أتيناه حكماً وعلماً﴾** أي: حكماً يعرف به الأحكام الشرعية، ويحكم به بين الناس، وعلماً كثيراً.

﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ في عبادة الله، المحسنين لخلق الله، نعطيههم علماً وحكماً بحسب إحسانهم، ودل هذا على كمال إحسان موسى عليه السلام.

﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها﴾ إما وقت القائلة، أو غير ذلك من الأوقات التي بها يغفلون عن الانتشار. **﴿فوجد فيها رجلين يقتتلان﴾** أي: يتخاصمان ويتضاربان **﴿هذا من شيعته﴾** أي: من بني إسرائيل **﴿وهذا من عدوه﴾** القبط.

﴿فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه﴾ لأنه قد اشتهر، وعلم الناس أنه من بني إسرائيل، واستغاثه لموسى، دليل على أنه بلغ موسى عليه السلام مبلغاً يخاف منه، ويرجى من بيت المملكة والسلطان.

﴿فوكزه موسى﴾ أي: وكز الذي من عدوه، استجابة لاستغاثته الإسرائيلي، **﴿فقضى عليه﴾** أي: أمانه من تلك الوكزة، لشدتها وقوة موسى. فندم موسى عليه السلام على ما جرى منه، **﴿قال هذا من عمل الشيطان﴾** أي: من تزيينه ووسوسته، **﴿إنه عدو مضل مبين﴾** فلذلك أجزيت ما أجزيت بسبب عداوته البينة، وحرصه على الإضلال.

ثم استغفر ربه **﴿قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له﴾** إنه هو الغفور الرحيم، خصوصاً للمخبتين، المبادرين للإنيابة والتوبة، كما جرى من موسى عليه السلام.

﴿قال﴾ موسى **﴿رب بما أنعمت عليّ بالتوبة والمغفرة والنعيم الكثيرة﴾** **﴿فلن أكون ظهيراً﴾** أي: معيناً ومساعداً **﴿للمجرمين﴾** أي: لا أعين أحداً على معصية، وهذا وعد من موسى عليه السلام، بسبب منّة الله عليه، أن لا يعين مجرماً، كما فعل في قتل القبطي. وهذا يفيد أن النعم تقتضي من العبد فعل الخير وترك الشر.

﴿ف﴾ لما جرى منه قتل الذي هو من عدوه **﴿أصبح في المدينة خائفاً﴾**

يترقب ﴿ هل يشعر به آل فرعون أم لا ؟
 وإنما خاف ، لأنه قد علم ، أنه
 لا يتجرأ أحد على مثل هذه الحال
 سوى موسى من بني إسرائيل .

فبينما هو على تلك الحال ﴿فإذا﴾
الذي استنصره بالأسس ﴿على عدوه﴾
﴿يستصرخه﴾ على قبضي آخر. ﴿قال﴾
له موسى ﴿موبخاً له على حاله﴾ إنك
لغوئي مبين ﴿أي: بين الغواية، ظاهر﴾
الجرأة، ﴿فلما أن أراد أن يبطش﴾
موسى ﴿بالذي هو عدو لهما﴾ أي: له
وللمخاضم المستصرخ، أي: لم يزل
اللاجج بين القبطي والإسرائيلي، وهو
يستغيث بموسى، فأخذته الحمية،
حتى هم أن يبطش بالقبطي، ﴿قال﴾
له القبطي زاجراً له عن قتله: ﴿أتريد﴾
أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأسس إن
تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض
لأن من أعظم آثار الجبار في الأرض،
قتل النفس بغير حق.

﴿وَمَا تَرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلُحِينَ﴾
والأ، فلو أردت الإصلاح لحلت بيني
وبينه من غير قتل أحد، فانكف موسى
عن قتله، وارعوى لوعظه وزجره،
وشاع الخبر بما جرى من موسى في
هاتين القضيتين، حتى تراود ملا
فرعون وفرعون على قتله، وتشاوروا
على ذلك، وقبض الله ذلك الرجل
الناصح، وبادرهم إلى الإخبار لموسى
بما اجتمع عليه رأي ملئهم. فقال:
﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْمُكَ﴾
أي: ركضا على قدميه من نصيحة
لموسى، وخوفه أن يوقعوا به قبل أن
يشعر، ف ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنْ الْمَلَأُ﴾
بِائْتُرُونَ﴾ أي: يتشاورون فيك
﴿لِيَسْتَلُوكَ فَاخْرُجْ﴾ عن المدينة ﴿إِنِّي﴾
لك من الناصحين﴾ فامثل نصحه،
﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أن يوقع
به القتل، ودعا الله، و ﴿قَالَ رَبِّ﴾
نجني من القوم الظالمين﴾ فإنه قد تاب
من ذنبه وفعله غضبا من غير قصد منه
للقتل، فتروعه لهم له ظلم منهم
وجراءة.

﴿ولما توجه تلقاء مدين﴾ أي :
قاصداً بوجهه مدين، وهو جنوبى

فلسطين، حيث لا ملك لفرعون،
 قال عسى ربي أن يهديني سواء
 السبيل. أي: وسط الطريق المختصر،
 الموصل إليها بسهولة ورفق، فهداه الله
 سواء السبيل، فوصل إلى مدين.

﴿ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة
من الناس يسقون﴾ مواشيهم، وكانوا
أهل ماشية كثيرة ﴿ووجد من دونهم﴾
أي: من دون تلك الأمة ﴿أمرأتين
تندودان﴾ غنمهما عن حياض الناس،
لعجزهما عن مزاحمة الرجال ويخلفهم،
وعدم مروءتهم عن السقي لهما.

﴿قَالَ﴾ لهما موسى ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾
أي: ما شأنكما بهذه الحالة، ﴿قَالَتَا﴾
لا نسقي حتى يصدر الرعاء، أي: قد
جرت العادة أنه لا يحصل لنا سقي
حتى يصدر الرعاء مواشيهم، فإذا خلا
لنا الجو سقينا، ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾
أي: لا قوة له على السقي، فليس فينا
قوة نتقدر بها، ولا لنا رجال يزاحمون
الرعاء. فرق لهما موسى عليه السلام
ورحهما ﴿فَسَقَى لهما﴾ غير طالب
منهما الأجرة، ولا له قصد غير
وجهه الله تعالى، فلما سقى لهما، وكان
ذلك وقت شدة حر، وسط النهار،
بديل قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾
مستريحاً لذلك الظلال بعد التعب.

﴿فَقَالَ﴾ في تلك الحالة، مستزقاً ربه ﴿وَرَبِّ إِنِّي لَأَمُزِلْتُ إِلَىٰ مِنْ خَيْرٍ مُنْقِصٍ﴾ أي: إني مفتقر للخير الذي تنسوقه إلي وتيسره لي. وهذا سؤال منه بحاله، والسؤال بالحال أبلغ من السؤال بلسان المقال، فلم يزل في هذه الحالة داعياً ربه متملقاً.

وأما المرأتان، فذهبتا إلى أبيهما، وأخبرتاه بما جرى، فأرسل أبوهما أحدهما إلى موسى، فجاءته ﴿عَمْسِي﴾ على استحياء ﴿وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ كَرَمِ عَنصرها، وخلقتها الحسن، فإن الحياء من الأخلاق الفاضلة، وخصوصاً في النساء.

ويدل على أن موسى عليه السلام،
لم يكن فيما فعله من السقي لهما بمتزلة
لأجير والخادم الذي لا يستجى منه
عادة، وإنما هو عزيز النفس، رأى من

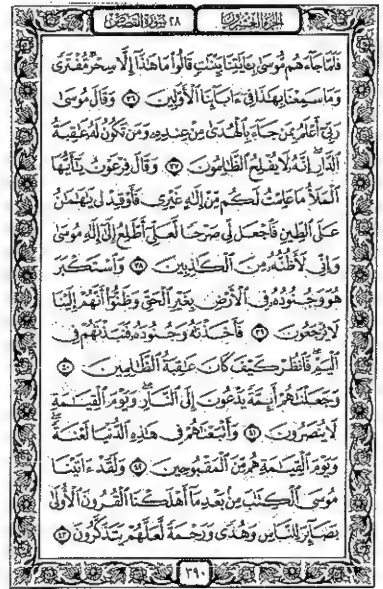
* فَمَا أَصْبَحَ مَوْسَى الْكَلِمَلُ وَسَكَرَ بِأَخِيهِ هَارُونَ
 جَانِبَ الطُّورِ تَارًا قَالَ لِأَخِيهِ أَمْسِكْ نَزْلًا إِلَى بَنَاتِ
 قَالِ الْعَمَلِ عَلَيْهِ عَلَيْهِمَا خَيْرٌ مِنْ نَجْدٍ وَوَدَّ أَنْ لَا يَمَسُّهُ
 فَتَضَلُّوا ❶ فَلَمَّا أَتَاهَا نُورُكَ مِنْ شَيْطَانِ الْوَلَدِ الْخَمِينِ
 فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَكُونُوا مِنْ آتِي
 الْكَافَّةِ الْعَالَمِيَّةِ ❷ وَأَنَّ أَلِيَّ عَمَلِهِ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهَنَّ
 كَلَامًا جَانِبًا فِي مَنِيْرِكَ وَلَوْ تَعَبٌ يَتَوَسَّى أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ
 الْكَافَّةِ الْكَافِيَّةِ ❸ أَمْسَكَ يَدَكَ فِي حَيْكَلِ الْخَمِينِ
 خَصْمَةً مِنْ غَيْرِ مَوْتٍ وَأَقْبَسَهُمْ إِلَيْكَ جَانِحًا مِنَ الرَّغْبِ
 فَتَنَكَّ عَنْ مَعْنَى مَنْ تَوَلَّى الْإِلَهَ وَغَوَى وَمَا يَرَى الْبُحْرَ كَأَنَّ
 تَوَلَّى أَصْبَحَ ❹ قَالَ رَبِّي فَتَنَتْ بَيْنَهُمْ نَفْسًا فَتَنَاتِ
 وَأَيُّهَا كَلِمَتُهُ هُوَ أَصْحَبُ مَحْيٍ لِسَانِ
 أَيْدِيهِ مَعَ رَدِّهَا بِصَدْقَةٍ فِي آيَاتِ الْكَلَامِ أَنْ يَكُونَ دُونَ
 قَالَ سَمِعْتُ عَنْ عَمَلِهِ وَأَخِيكَ وَتَجَمَّلَ كَيْسًا سَاطِعًا
 لِيَصْلَحَ إِلَيْكَ يَا كَلِمَةً أَنْصَارًا مِنْ حُكْمِكَ الْعَالَمِيِّ ❺

حسن خلقه ومكارم أخلاقه، ما أوجب لها الحياء منه، ف ﴿قَالَتْ﴾ له: ﴿إِنْ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أي: لا لِمَنْ عَلَيْكَ، بل أنت الذي ابتدأتنا بالإحسان، وإنما قصده أن يكافئك على إحسانك، فأجابها موسى.

﴿فلما جاءه وقصّ عليه القصص﴾
من ابتداء السبب الموجب لهربه، إلى أن
وصل إليه ﴿قال﴾ له مسكناً روعه،
جابر أقيه: ﴿لا تخف نجوت من الظوم
الظالمين﴾ أي: ليذهب خوفك
وروعك، فإن الله نجاك منهم، حيث
وصلت إلى هذا المحل، الذي ليس لهم
عليه سلطان.

﴿تَالْتِ إِحْدَاهُمَا﴾ أي : إحدى ابنتيه
﴿يَا أَيَّتُهَا اسْتَأْجِرْهُ﴾ أي : اجعله أجيراً
عندك، يرعى الغنم ويسقيها، ﴿إِنْ
خَيْرٌ مِّنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيَ الْأَمِينُ﴾ أي :
إن موسى أولى من استؤجر فإنه جمع
القوة والأمانة، وخير أجير استؤجر،
من جمعهما، أي : القوة والقدرة على ما
استؤجر عليه، والأمانة فيه بعدم
الخيانة، وهذان الوصفان، ينبغي
اعتبارهما في كل من يتولى لإيصال
عملاً، باجارة أو غيرها .

فإن الخلل لا يكون إلا بفقد هـما أو فقد إحداهما، وأما اجتماعهما، فإن العمل يتم ويكمل، وإنما قالت ذلك، لأنها شاهدت من قوة موسى عند



على ما نقول وكيل ﴿ حافظ يراقبنا، ويعلم ما تعاقدا عليه .

وهذا الرجل، أبو المراتين، صاحب مدين، ليس بشعيب النبي المعروف، كما اشتهر عند كثير من الناس، فإن هذا قول لم يندك عليه دليل، وغاية ما يكون، أن شعيباً عليه السلام، قد كانت بلده مدين، وهذه القضية جرت في مدين، فأين الملازمة بين الأمرين .

وأيضاً، فإنه غير معلوم أن موسى أدرك زمان شعيب، فكيف بشخصه ١١٩ ولو كان ذلك الرجل شعيباً، لذكره الله تعالى، ولسمته المراتان، وأيضاً فإن شعيباً عليه الصلاة والسلام، قد أهلك الله قومه بتكذيبهم إياه، ولم يبق إلا من آمن به، وقد أعاد الله المؤمنين أن يرضوا البنتي نبيهم، بمنعهما عن الماء، وصد ماشيتهما، حتى يأتيهما رجل غريب، فيحسن إليهما، ويسقي ماشيتهما، وما كان شعيب ليرضى أن يرعى موسى عنده ويكون خادماً له، وهو أفضل منه وأعلى درجة، والله أعلم، إلا أن يقال: هذا قبل نبوة موسى فلا منافاة وعلى كل حال لا يعتمد على أنه شعيب النبي ﷺ [١] .

﴿ فلما قضى موسى الأجل ﴾ يحتمل أنه قضى الأجل الواجب، أو الزائد عليه، كما هو الظن بموسى ووفاته، اشتاق إلى الوصول إلى أهله والدة وعشيرته ووطنه، وعلم من طول المدة، أنهم قد تناسوا ما صدر منه .

﴿ سار بأهله ﴾ قاصداً مصر، ﴿ آتس ﴾ أي: أبصر ﴿ من جانب الطور نارا ﴾ قال لأهله امكثوا إني آتست نارا لعلي آتيكم منها بخير أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾ وكان قد أصابهم البرد، وتأهوا الطريق .

﴿ ٣٠ ﴾ فلما أتاه نودي ﴿ يا موسى إني أنا الله رب العالمين ﴾ فأخبره بألوهيته وربوبيته، ويلزم من ذلك، أن

السقي لهما ونشاطه، ما عرفت به قوته، وشاهدت من أمانته وديانته، وأنه رحمهما في حالة لا يرجى نفعهما، وإنما قصده [بذلك] وجه الله تعالى، ﴿ قال ﴾ صاحب مدين لموسى: ﴿ إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تاجرني ﴾ أي: تصير أجيراً عندي ﴿ ثماني حجج ﴾ أي: ثماني سنين . ﴿ فإن آمنت عשרاً فمن عندك ﴾ تبرع منك، لا شيء واجب عليك . ﴿ وما أريد أن أشق عليك ﴾ فأحتم عشر السنين، أو ما أريد أن أستأجرك لأكلفك أعمالاً شاقة، وإنما أستأجرك لعمل سهل يسير لا مشقة فيه . ﴿ ستجدني إن شاء الله من الصالحين ﴾ فرغبه في سهولة العمل، وفي حسن المعاملة، وهذا يدل على أن الرجل الصالح، ينبغي له أن يحسن خلقه مهما أمكنه، وأن الذي يطلب منه، أبلغ من غيره .

﴿ قال ﴾ موسى عليه السلام - محبباً له فيما طلب منه - ﴿ ذلك بيني وبينك ﴾ أي: هذا الشرط، الذي أنت ذكرت، رضيت به، وقد تم فيما بيني وبينك . ﴿ أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي ﴾ سواء قضيت الثماني الواجبة، أم تبرعت بالزائد عليها والله

بأمره بعبادته وتألوه، كما صرح به في الآية الأخرى ﴿ فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ﴾ . ﴿ وأن ألق عصاك ﴾ فآلقها ﴿ فلما رآها همز ﴾ تسعى سعياً شديداً، ولها صورة مهيلة ﴿ كأنها جان ﴾ ذكر الحيات العظيم، ﴿ ولي مدبراً ولم يعقب ﴾ أي: يرجع لاستيلاء الروح على قلبه، فقال الله له: ﴿ يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الأمنين ﴾ . وهذا أبلغ ما يكون في التأمين وعدم الخوف .

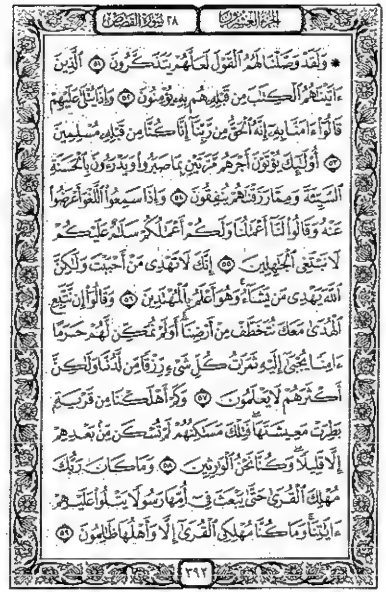
﴿ فإن قوله ﴾ ﴿ أقبل ﴾ يقتضي الأمر بإقباله، ويجب عليه الامتنال، ولكن قد يكون إقباله، وهو لم يزل الأمر المخوف، فقال: ﴿ ولا تخف ﴾ أمر له بشيئين: إقباله، وأن لا يكون في قلبه خوف، ولكن يبقى احتمالاً، وهو أنه قد يقبل وهو غير خائف، ولكن لا تحصل له الوقاية والأمن من المكروه، فقال: ﴿ إنك من الأمنين ﴾ فحيث اندفع المحذور من جميع الوجوه، فأقبل موسى عليه السلام غير خائف ولا مرعوب، بل مطمئناً، وثاقاً بخبر ربه، قد ازداد إيمانه، وتم يقينه، فهذه آية أراه الله إياها قبل ذهابه إلى فرعون، ليكون على يقين تام، فيكون ﴿ ٣١ ﴾ أجراً له وأقوى وأصلب، ثم أراه الآية الأخرى فقال: ﴿ اسلك يدك ﴾ أي: أدخلها ﴿ في جيبك فخرج بيضاء من غير سوء ﴾ فسلكتها وأخرجها، كما ذكره الله تعالى .

﴿ واضمم إليك جناحك من الرهب ﴾ أي: ضم جناحك وهو عضدك إلى جنبك يزول عنك الرهب والخوف . ﴿ فذاتك ﴾ انقلاب العصا حية، وخروج اليد بيضاء من غير سوء ﴿ برهانان من ربك ﴾ أي: حجتان قاطعتان من الله، إلى فرعون وملته إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ فلا يكفهم مجرد الإنذار وأمر الرسول إياهم، بل لا بد من الآيات الباهرة، إن نفعت .

﴿ قال ﴾ موسى عليه السلام،

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ليكون.



فانظر كيف كان عاقبة الظالمين كانت
أشر العواقب وأخبرها عاقبة أعقبتها
العقوبة الدنيوية المستمرة، المتصلة
بالعقوبة الأخروية.

﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار﴾
أي: جعلنا فرعون وماله من الأئمة
الذين يقتدى بهم ويمشى خلفهم إلى
دار الخزي والشقاء. ﴿ويوم القيامة
لا ينصرون﴾ من عذاب الله، فهم
أضعف شيء، عن دفعه عن أنفسهم،
وليس لهم من دون الله من ولي ولا
نصير.

﴿وأنبئناهم في هذه الدنيا لعنة﴾
أي: [وأنبئناهم زيادة في عقوبتهم
وخزيهم، في الدنيا لعنة يلعنون، ولهم
عند الخلق الثناء القبيح والمقت والذم،
وهذا أمر مشاهد، فهم أئمة الملعونين
في الدنيا ومقدمتهم، ﴿ويوم القيامة
هم من المقيوحين﴾ المبعدين، المستقرة
أفعالهم. الذين اجتمع عليهم
مقت الله، ومقت خلقه، ومقت
أنفسهم.

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ وهو
التوراة ﴿من بعد ما أهلكنا القرون
الأولى﴾ الذين كان خاتمهم في
الإهلاك العام، فرعون وجنوده. وهذا
دليل على أنه بعد نزول التوراة، انقطع
الهلاك العام، وشرع جهاد الكفار
بالسيف.

﴿بصائر للناس﴾ أي: كتاب الله،

الذي أنزل على موسى، فيه بصائر
للناس، أي: أمور يبصرون بها ما
ينفعهم وما يضرهم، فتقوم الحجة على
العاصي، وينتفع بها المؤمن، فتكون
رحمة في حقه، وهداية له إلى الصراط
المستقيم، ولهذا قال: ﴿وهدي ورحمة
لعلهم يتذكرون﴾.

ولما قص الله على رسوله ما قص،
من هذه الأخبار الغيبية، نبه العباد على
أن هذا خبر إلهي محض، ليس للرسول
طريق إلى علمه إلا من جهة الوحي،
ولهذا قال: ﴿وما كنت بجانب
الغربي﴾ أي: بجانب الطور الغربي
وقت قضائنا لموسى الأمر، ﴿وما كنت
من الشاهدين﴾ على ذلك، حتى يقال:

﴿ولكننا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم
العمر﴾ فاندرس العلم ونسيت آياته،
فبعثناك في وقت اشتدت الحاجة إليك
وإلى ما علمناك وأوحينا إليك. ﴿وما
كنت ثاوياً﴾ أي: مقيماً ﴿في أهل
مدين تتلو عليهم آياتنا﴾ أي: تعلمهم
وتتعلم منهم، حتى أخبرت بما
أخبرت من شأن موسى في مدين،
﴿ولكننا كنا مرسلين﴾ أي: ولكن ذلك
الخبر الذي جئت به عن موسى، أثر
من آثار إرسالنا إياك، ووحي لا سبيل
لك إلى علمه بدون إرسالنا.

﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾
موسى، وأمرناه أن يأتي القوم الظالمين،
ويبلغهم رسالتنا، ويريه من آياتنا
وعجائبنا ما قصصنا عليك.
والقصود: أن الماكرات التي جرت
لموسى عليه الصلاة والسلام في هذه
الأماكن، فقصصتها كما هي، من غير
زيادة ولا نقص، لا يخلو من أحد
أمرين:

إما أن تكون حضرته وشاهدتها، أو
ذهبت إلى محالها فتعلمتها من أهلها،
فحيث قد لا يدل ذلك على أنك
رسول الله، إذ الأمور التي تجر بها عن
شهادة ودراسة، من الأمور المشتركة
غير المختصة بالأنبياء، ولكن هذا قد
علم وتيقن أنه ما كان وما صار،
فأولياؤك وأعداؤك يعلمون عدم ذلك.

فتعين الأمر الثاني، وهو: أن هذا
جاءك من قبيل الله ووحيه وإرساله،
فثبت بالدليل القطعي صحة رسالتك،
ورحمة الله بك للعباد، ولهذا قال:
﴿ولكن رحمة من ربك لتنتذر قوماً ما
أنأهم من نذير من قبلك﴾ أي: العرب
وقريش، فإن الرسالة [عندهم]
لا تعرف وقت إرسال الرسول وقبله
بأزمان متطاولة، ﴿لعلهم يتذكرون﴾
تفصيل الخير. فيفعلونه، والشر
فيتركونه، فإذا كنت بهذه المنزلة، كان
الواجب عليهم، المبادرة إلى الإيمان
بك، وشكر هذه النعمة، التي لا يقادر
قدرها، ولا يدرك شكرها.

وإنذاره للعرب لا ينفي أن يكون
مرسلاً لغيرهم، فإنه عربي، والقرآن
الذي أنزل عليه عربي، وأول من باشر
بدعوته العرب، فكانت رسالته إليهم
أصلاً، ولغيرهم تبعاً، كما قال تعالى:
﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل
منهم أن أنذر الناس﴾ قل يا أيها
الناس إني رسول الله إليكم جميعاً.

﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة بما
قدمت أيديهم﴾ من الكفر والمعاصي
﴿فيقولوا ربنا لولا أرسلنا رسولاً
فتنتع آياتك ونكون من المؤمنين﴾ أي:
فأرسلناك يا محمد، لدفع حجتهم،
وقطع مقالتهم.

﴿فلما جاءهم الحق﴾ الذي لا شك
فيه ﴿من عندنا﴾ وهو القرآن، الذي
أوحيناك إليك ﴿قالوا﴾ مكذبين له،
ومعترضين بما ليس يعترض به: ﴿لولا
أوتي مثل ما أوتي موسى﴾ أي: أنزل
عليه كتاب من السماء جملة واحدة.
أي: فأما ما ينزل متفرقاً، فإنه ليس
من عند الله. وأي: دليل في هذا؟
وأي: شبهة أنه ليس من عند الله حين
نزل متفرقاً؟

بل من كمال هذا القرآن،
واعتناء الله بمن أنزل عليه، أن نزل
متفرقاً، ليثبت الله به فؤاد رسوله،
ويحصل زيادة الإيمان للمؤمنين ﴿ولا
يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن
تفسيراً﴾. وأيضاً، فإن قياسهم على
كتاب موسى، قياس قد نقضوه،

الأمر، خصوصاً إذا كانوا مظلومين، كما استنقذ الله أمة بني إسرائيل، الأمة الضعيفة، من أسر فرعون وملئه، ومكنهم في الأرض، وملكهم ببلادهم.

ومنها: أن الأمة ما دامت ذليلة مقهورة لا تأخذ حقها ولا تتكلم به، لا يقوم لها أمر دينها، [ولا دنياها] (٣) ولا يكون لها إمامة فيه.

ومنها: لطف الله بأم موسى، وتمييزه عليها المصيبة بالبشارة، بأن الله سيرد إليها ابنها، ويجعله من المرسلين.

ومنها: أن الله يقدر على عبده بعض المشاق، لينيله سروراً أعظم من ذلك، أو يدفع عنه شراً أكثر منه، كما قدر على أم موسى ذلك الحزن الشديد، والههم البالغ، الذي هو وسيلة إلى أن يصل إليها ابنها، على وجه تطمين به نفسها، وتقر به عينها، وترداد به غبطة وسروراً.

ومنها: أن الخوف الطبيعي من الخلق، لا ينافي الإيمان ولا يزيله، كما جرى لأم موسى ولوسى من تلك المخاوف.

ومنها: أن الإيمان يزيد وينقص، وأن من أعظم ما يزيد به الإيمان، ويتم به اليقين، الصبر عند المزعجات، والتثبيت من الله عند المقلقات، كما قال تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ رَطْبُنَا عَلَى قَلْبِهَا لَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليزداد إيمانها بذلك ويطمئن قلبها.

ومنها: أن من أعظم نعم الله على عبده، و [أعظم] معونة للعبد على أموره، تثبيت الله إياه، وربط جأشه وقلبه عند المخاوف، وعند الأمور المذهلة، فإنه بذلك يتمكن من القول الصواب، والفعل الصواب، بخلاف من استمر قلقه وروعه وانزعاجه، فإنه يضعف فكره، ويذهل عقله، فلا ينتفع بنفسه في تلك الحال.

ومنها: أن العبد - ولو عرف أن القضاء والقدر ووعده الله نافذ لا بد منه - فإنه لا يهمل فعل الأسباب التي

من هذا وصفه؟! ولكن ظلمه وعدوانه، وعدم محبته للحق، هو الذي أوجب له: أن يبقى على ضلاله ولا يهديه الله، فلهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الذين صار الظلم لهم وصفاً والعناد لهم نعتاً، جاءهم الهدى فرفضوه، وعرض لهم الهوى فتبعوه، سدوا على أنفسهم أبواب الهداية وطرقها، وفتحوا عليهم أبواب الغواية وسبلها، فهم في غيهم وظلمهم يعمهون، وفي شقاوتهم وهلاكهم يترددون.

وفي قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ دليل على أن كل من لم يستجب للرسول، وذهب إلى قول مخالف لقول الرسول، فإنه لم يذهب إلى هدى، وإنما ذهب إلى هوى.

﴿وَلَقَدْ وُضِعْنَا لَهُمُ الْقَوْلُ﴾ أي: تابعناه وواصلناه، وأنزلناه شيئاً فشيئاً، رحمة بهم ولطفاً ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ حين تتكرر عليهم آياته، وتنزل عليهم بيناته وقت الحاجة إليها. فصار نزوله متفرقاً رحمة بهم، فلم اعتراضوا بما هو من مصالحهم؟

فصل في ذكر بعض الفوائد والعبر في هذه القصة العجيبة

فمنها: أن آيات الله تعالى وغيره، وأيامه في الأمم السابقة، إنما يستفيد بها ويستنير المؤمنون، فعلى حسب إيمان العبد تكون عبرته، وإن الله تعالى إنما يسوق القصص لأجلهم، وأما غيرهم، فلا يعاب الله بهم، وليس لهم منها نور وهدى.

ومنها: أن الله تعالى إذا أراد أمراً هيباً أسبابه، وأتى بها شيئاً فشيئاً بالتدريج، لا دفعة واحدة.

ومنها: أن الأمة المستضعفة، ولو بلغت في الضعف ما بلغت، لا ينبغي لها أن يستولي عليها الكسل عن طلب حقها، ولا الإياس من ارتقائها إلى أعلى

فكيف يقيسونه على كتاب كفروا به ولم يؤمنوا؟ ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلِ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ أي: القرآن والتوراة، تعاونا في سحرهما وإضلال الناس ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُمْ كَافِرُونَ﴾ فثبت بهذا أن القوم يريدون إبطال الحق بما ليس ببرهان، وينقضونه بما لا ينقض، ويقولون الأقوال المتناقضة المختلفة، وهذا شأن كل كافر. ولهذا صرح أنهم كفروا بالكتابين والرسولين، ولكن هل كفرهم بهما طلباً للحق، واتباعاً لأمر عندهم خير منهما، أم مجرد هوى؟

قال تعالى ملزماً لهم بذلك: ﴿فَأْتَاوْا بَكْتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا﴾ أي: من التوراة والقرآن ﴿أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ولا سبيل لهم ولا لغيرهم أن يأتوا بمثلها، فإنه ما طرق العالم منذ خلقه الله، مثل هذين الكتابين، علماً، وهدى، وبياناً، ورحمة للخلق، وهذا من كمال الإنصاف من الداعي أن قال: أنا مقصودي الحق والهدى والرشد، وقد جئتكم بهذا الكتاب المشتمل على ذلك، الموافق لكتاب موسى، فيجب علينا جميعاً الإذعان لهما واتباعهما، من حيث كونهما هدى وحقاً، فإن جئتموني بكتاب من عند الله هو أهدى منهما اتبعته، وإلا فلا أترك هدى وحقاً قد علمته لغير هدى وحق (١).

﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ فلم يأتوا بكتاب أهدى منهما ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: فاعلم أن تركهم اتباعك، ليسوا ذاهبين إلى حق يعرفونه، ولا إلى هدى، وإنما ذلك مجرد اتباع لأهوائهم. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ فهذا من أضل الناس، حيث عرض عليه الهدى والصراط المستقيم، الموصل إلى الله وإلى دار كرامته، فلم يلتفت إليه ولم يقبل عليه، ودعاه هواه إلى سلوك الطرق الموصلة إلى الهلاك والشقاء (٢)، فاتبعه وترك الهدى، فهل أحد أضل

(١) كذا في ب، وفي أ: لغيره حق.

(٢) كذا في ب، وفي أ: الشقاق.

(٣) زيادة من هامش: ب.

[يعمل] للإنسان، أن يكون قوياً أميناً. ومنها: أن من مكارم الأخلاق، أن يُحسّن خلقه لأجيريه وخادمه، ولا يشق عليه بالعمل، لقوله: ﴿وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين﴾.

ومنها: جواز عقد الإجارة وغيرها من العقود من دون إشهاد، لقوله: ﴿والله على ما نقول وكيل﴾.

ومنها: ما أجرى الله على يد موسى من الآيات البينات، والمعجزات الظاهرة، من الحية، وانقلاب يده بيضاء من غير سوء، ومن عصمة الله لموسى وهارون، من فرعون، ومن الغرق.

ومنها: أن من أعظم العقوبات أن يكون الإنسان إماماً في الشر، وذلك بحسب معارضته لآيات الله وبياناته، كما أن من أعظم نعمة أنعم الله بها على عبده، أن يجعله إماماً في الخير هادياً مهدياً.

ومنها: ما فيها من الدلالة على رسالة محمد ﷺ، حيث أخبر بذلك تفصيلاً مطابقاً، وتأسيساً موافقاً، قصه قصاً، صدق به المرسلين، وأيد به الحق المبين، من غير حضور شيء من تلك الوقائع، ولا مشاهدة لموضع واحد من تلك المواضع، ولا تلاوة درس فيها شيئاً من هذه الأمور، ولا مجالسة أحد من أهل العلم، إن هو إلا رسالة الرحيم الرحمن، ووجي أنزله عليه الكريم المنان، لينذر به قوماً جاهلين، وعن النذر والرسول غافلين.

فصلوات الله وسلامه، على من مجرد خبره ينبيء أنه رسول الله، ومجرد أمره ونهيه ينه العقول النيرة، أنه من عند الله، كيف وقد تطابق على صحة ما جاء به وصدقه خبر الأولين والآخرين، والشرع الذي جاء به من رب العالمين، وما جُبل عليه من الأخلاق الفاضلة التي لا تناسب ولا تصلح إلا لأعلى الخلق درجة، والنصر المبين لدينه وأمته، حتى بلغ دينه مبلغ

ترتكب الأخف منهما والأسلم، كما أن موسى، لما دار الأمر بين بقاءه في مصر ولكنه يقتل، أو يذهب^(١) إلى بعض البلدان البعيدة التي لا يعرف الطريق إليها، وليس معه دليل [يد] له غير ربه، ولكن هذه الحالة أقرب للسلامة من الأولى، فتبعها موسى.

ومنها: أن الناظر في العلم عند الحاجة إلى التكلم فيه، إذا لم يترجح عنده أحد القولين، فإنه يستهدي ربه، ويسأله أن يهديه الصواب من القولين، بعد أن يقصد بقلبه الحق ويبحث عنه، فإن الله لا يخيب من هذه حاله. كما خرج موسى تلقاء مدين فقال: ﴿عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾.

ومنها: أن الرحمة بالخلق، والإحسان على من يعرف ومن لا يعرف، من أخلاق الأنبياء، وأن من الإحسان سقي الماشية الماء، وإعانة العاجز.

ومنها: استحباب الدعاء بتبيين الحال وشرحها، ولو كان الله عالماً بها، لأنه تعالى، يحب تضرع عبده وإظهار ذله ومسكنته، كما قال موسى: ﴿رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير﴾.

ومنها: أن الحياء - خصوصاً من الكرام - من الأخلاق المدحوة. ومنها: المكافأة على الإحسان لم يزل دأب الأمم السابقين.

ومنها: أن العبد إذا فعل العمل لله تعالى، ثم حصل له مكافأة عليه من غير قصد بالقصد الأول، أنه لا يلام على ذلك، كما قبل موسى مجازاة صاحب مدين عن معرفته الذي لم يتبع له، ولم يستشرف بقلبه على عوض.

ومنها: مشروعية الإجارة، وأنها تجوز على رعاية الغنم ونحوها، مما لا يقدر العمل، وإنما مرده الغرق. ومنها: أنه تجوز الإجارة بالمنفعة، ولو كانت المنفعة بضعاً.

ومنها: أن خطية الرجل لا بنبته الرجل الذي يتخير له يلام عليه. ومنها: أن خير أجير وعامل

أمر بها، ولا يكون ذلك منافياً لإيمانه بخبر الله، فإن الله قد وعد أم موسى أن يرده عليها، ومع ذلك، اجتهدت على رده، وأرسلت أخته لتقصه وتظليه.

ومنها: جواز خروج المرأة في حوائجها، وتكليمها للرجال من غير محذور، كما جرى لأخت موسى وابنتي صاحب مدين.

ومنها: جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع، والدلالة على من يفعل ذلك.

ومنها: أن الله من رحمته بعبيده الضعيف الذي يريد إكرامه، أن يريه من آياته، ويشهده من بيناته، ما يزيد به إيمانه، كما رد الله موسى على أمه، لتعلم أن وعد الله حق.

ومنها: أن قتل الكافر الذي له عهد بعقد أو عُرِف لا يجوز، فإن موسى عليه السلام عدّ قتله القبطي الكافر ذنباً، واستغفر الله منه.

ومنها: أن الذي يقتل النفوس بغير حق يُعد من الجبارين الذين يفسدون في الأرض.

ومنها: أن من قتل النفوس بغير حق، وزعم أنه يريد الإصلاح في الأرض، وتهيب أهل المعاصي، فإنه كاذب في ذلك، وهو مفسد كما حكى الله قول القبطي: ﴿إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين﴾ على وجه التقرر له، لا الإنكار.

ومنها: أن إخبار الرجل غيره بما قيل فيه، على وجه التحذير له من شر يقع فيه، لا يكون ذلك تميمة - بل قد يكون واجباً - كما أخبر ذلك الرجل لموسى، ناصحاً له ومخذراً.

ومنها: أنه إذا خاف القتل والتلف في الإقامة، لا يلقي بيده إلى التهلكة، ولا يستسلم لذلك، بل يذهب عنه، كما فعل موسى.

ومنها: أنه عند تراحم المفسدين، إذا كان لا بد من ارتكاب أحدهما، أنه

(١) كذا في ب، وفي أ: ويذهب.

قال تعالى: ﴿قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُمْنُوا إِنَّ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ الآيات.

وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ فلذلك ثبتنا على ما مَنَّ اللهُ به علينا من الإيمان، فصدقنا بهذا القرآن، آمنا بالكتاب الأول والكتاب الآخر، وغيرنا ينقض تكذيبه بهذا الكتاب، إيمانه بالكتاب الأول.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِينَ يَؤْتُونَ أُجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ أجرأ على الإيمان الأول، وأجرأ على الإيمان الثاني، ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ على الإيمان، وثبتوا على العمل، فلم تزعزعهم عن ذلك شبهة، ولا ثنائهم عن الإيمان رياسة ولا شهوة.

﴿وَمِنْ خَصَالِهِمُ الْفَاضِلَةُ﴾ التي من آثار إيمانهم الصحيح، أنهم يدروون بالحسنة السيئة أي: دأبهم وطريقتهم الإحسان لكل أحد، حتى للمسيء إليهم بالقول والفعل، يقابلونه بالقول الحميد والفعل الجميل، لعلمهم بفضيلة هذا الخلق العظيم، وأنه لا يوفق له إلا ذو حظ عظيم.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا لِلْغَوَىٰ مِنْ جَاهِلٍ خَاطِبِهِمْ بِهِ، وَقَالُوا﴾ مقالة عباد الرحمن أولي الألباب: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ أي: كل سيجازي بعمله الذي عمله وحده، ليس عليه من وزر غيره شيء. ولزم من ذلك، أنهم يتبرؤون مما عليه الجاهلون، من اللغو والباطل، والكلام الذي لا فائدة فيه.

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لا تسمعون منا إلا الخير، ولا نخاطبكم بمقتضى جهلكم، فإنكم وإن رضيتم لأنفسكم هذا المرتع اللثيم، فلأننا نزه أنفسنا عنه، ونصونها عن الخوض فيه، ﴿لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ من كل وجه.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ

الليل والنهار، وفتحت أمته معظم بلدان الأمصار، بالسيف والسنان، وقلوبهم بالعلم والإيمان.

ولم تزل الأمم المعاندة، والملوك الكفرة المتعاضدة، ترميه بقوس واحدة، وتكيد له المكائد، وتمكر لإطفائه وإخفائه، وإخماده من الأرض، وهو قد بهرها وعلاها، لا يزداد إلا نمواً، ولا آياته وبراهينه إلا ظهوراً، وكل وقت من الأوقات، يظهر من آياته ما هو عبرة للعالمين، وهداية للعالمين، ونور وبصيرة للمتوسمين. والحمد لله وحده.

﴿٥٢ - ٥٥﴾ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يئلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون * وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين * يذكر تعالى عظمة القرآن وضدقة وحقه، وأن أهل العلم بالحقيقة يعرفونه ويؤمنون به ويقررون بأنه الحق، فقال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ وهم أهل التوراة، والإنجيل، الذين لم يغيروا ولم يبدلوا هم به أي: بهذا القرآن ومن جاء به ﴿يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَإِذَا يَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ استمعوا له وأذعنوا و﴿قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا﴾ لموافقته ما جاءت به الرسل، ومطابقته لما ذكر في الكتب، واشتماله على الأخبار الصادقة، والأوامر والنواهي الموافقة لغاية الحكمة.

وهؤلاء الذين تفيد شهادتهم، وينفع قولهم، لأنهم لا يقولون ما يقولون إلا عن علم وبصيرة، لأنهم أهل الصنف^(١)، وأهل الكتب، وغيرهم لا يدل ردهم ومعارضتهم للحق على شبهة، فضلاً عن الحجة، لأنهم ما بين جاهل فيه أو متجاهل معاند للحق.

(١) في ب: الخبرة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: يززععهم من.



بالمهتدين. يخبر تعالى أنك يا محمد - وغيرك من باب أولى - لا تقدر على هداية أحد، ولو كان من أحب الناس إليك، فإن هذا أمر غير مقدور للخلق هداية التوفيق، وخلق الإيمان في القلب، وإنما ذلك بيد الله سبحانه تعالى، يهدي من يشاء، وهو أعلم بمن يصلح للهداية فيهديه، ممن لا يصلح لها فيقيه على ضلاله.

وأما إثبات الهداية للرسول في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فتلك هداية البيان والإرشاد، فالرسول يبين الصراط المستقيم، ويرغب فيه، ويبدل جهده في سلوك الخلق له، وأما كونه يخلق في قلوبهم الإيمان، ويفقههم بالفعل، فحاشا وكلا.

ولهذا، لو كان قادراً عليها، لهدى من وصل إليه إحسانه، ونصره ومنعه من قومه، عمه أبا طالب، ولكنه أوصل إليه من الإحسان بالدعوة للدين والنصح التام، ما هو أعظم مما فعله معه عمه، ولكن الهداية بيد الله تعالى.

﴿٥٧ - ٥٩﴾ وقالوا إن نشييع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرماً آمناً يجيبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون * وكم أمكننا من قرية

غير شك ولا ارتياب، لأنه وعد من كريم صادق الوعد، لا يخلف الميعاد، لعبد قام بمَرْضَاتِهِ وجَانِبِ سَخَطِهِ، ﴿كَمَنْ مَتَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فهو يأخذ فيها ويعطي، ويأكل ويشرب، ويتمتع كما تتمتع البهائم، قد اشتغل بدنيّاه عن آخرته، ولم يرفع يدهى الله رأساً، ولم يتنقذ للمرسلين، فهو لا يزال كذلك، لا يتزود من دنياه إلا الخسار والهلاك.

﴿ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾ للحساب، وقد علم أنه لم يقدم خيراً لنفسه، وإنما قدّم جميع ما يضره، وانتقل إلى دار الجزاء بالأعمال، فما ظنكم إلى ما يصير إليه؟ وما تحسبون ما يصنع به؟ فليختر العاقل لنفسه، ما هو أولى بالاختيار، وأحقّ الأمرين بالإيثار.

﴿٦٢-٦٦﴾ ﴿ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغويانا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيتاننا يعبدون ﴿وقيل ادعوا شركاءكم فمدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورواوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون﴾ ﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾ ﴿فعميت عليهم الأنبياء يومئذ فهم لا يتساءلون﴾ هذا إخبار من الله تعالى، عما يسأل عنه الخلائق يوم القيامة، وأنه يسألهم عن أصول الأشياء، وعن عبادة الله وإجابة رسله، فقال: ﴿ويوم يناديهم﴾ أي: ينادي من أشركوا به شركاء يعبدونهم، ويرجون نفعهم، ودفع الضرر عنهم، فيناديهم، ليبين لهم عجزها وضلالهم، ﴿فيقول أين شركائي﴾ وليس لله شريك، ولكن ذلك بحسب زعمهم واقتراحهم، ولهذا قال: ﴿الذين كنتم تزعمون﴾ فأين هم، يدعاتهم، وأين نفعهم وأين دفعهم؟ ومن المعلوم أنه^(١) يتبين لهم في تلك الحال، أن الذي عبدوه ورجوه باطل، مضمحل في ذاته، وما رجوا

منه، فيقرّون على أنفسهم بالضلالة والغواية، ولهذا ﴿قال الذين حق عليهم القول﴾ الرؤساء والقادة، في الكفر والشرك، مقرّين بغوايتهم وإغوائهم: ﴿ربنا هؤلاء التابعون الذين أغويانا أغويناهم كما غوينا﴾ أي: كلنا قد اشترك في الغواية، وحق عليه كلمة العذاب.

﴿تبرأنا إليك﴾ من عبادتهم، أي: نحن برآء منهم ومن عملهم. ﴿ما كانوا إيتاننا يعبدون﴾ وإنما كانوا يعبدون الشياطين.

﴿وقيل لهم﴾: ادعوا شركاءكم، على ما أملت فيهم من النفع فأمرؤا بدعائهم في ذلك الوقت الحرج، الذي يضطر فيه العابد إلى من عبده.

﴿فمدعوهم﴾ لينفعوهم، أو يدفعوا عنهم من عذاب الله من شيء. ﴿فلم يستجيبوا لهم﴾ فلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين مستحقين للعقوبة، ﴿ورأوا العذاب﴾ الذي سيحل بهم عياناً، بأبصارهم بعدما كانوا مكذبين به منكرين له.

﴿لو أنهم كانوا يهتدون﴾ أي: لما حصل عليهم ما حصل، ولهدوا إلى صراط الجنة، كما اهتدوا في الدنيا، ولكن لم يهتدوا، فلم يهتدوا.

﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾ هل صدقتموهم، أو اتبعتموهم؟ أم كذبتهموهم وخالفتموهم؟

﴿فعميت عليهم الأنبياء يومئذ فهم لا يتساءلون﴾ أي: لم يخبروا عن هذا السؤال جواباً، ولم يهتدوا إلى الصواب.

ومن المعلوم أنه لا ينجلي في هذا الموضع إلا التصريح بالجواب الصحيح، المطابق لأحوالهم، من أننا أجبناهم بالإيمان والانقياد، ولكن لما علموا تكذيبهم لهم وعنادهم لأمرهم، لم ينطقوا بشيء، ولا يمكن أن يتساءلوا ويتراجعوا بينهم في ماذا

يجيئون به، ولو كان كذباً. ﴿٦٧﴾ ﴿فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المقبلين﴾ لما ذكر تعالى سؤال الخلق عن معبودهم وعن رسلهم، ذكر الطريق الذي ينجو به العبد من عقاب الله تعالى، وأنه لا نجاة إلا لمن اتصف بالتوبة من الشرك والمعاصي، وآمن بالله فعيده، وآمن برسله فصدقهم، وعمل صالحاً متبعاً فيه للرسل، ﴿فعسى أن يكون﴾ من جمع هذه الخصال، من المقبلين الناجحين بالملبوس، الناجين من المهروب، فلا سبيل إلى الفلاح بدون هذه الأمور.

﴿٦٨-٧٠﴾ ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون﴾ وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ﴿وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون﴾ هذه الآيات، فيها عموم خلقه لسائر المخلوقات، ونفوذ مشيئته بجميع البريات، وانفراده باختيار من يختاره ويختصه، من الأشخاص، والأوامر، [والأزمان] والأماكن، وأن أحداً^(٢) ليس له من الأمر والاختيار شيء، وأنه تعالى منزّه عن كل ما يشركونه به، من الشريك، والظهير، والعوين، والولد، والصاحبة، ونحو ذلك، بما أشرك به المشركون، وأنه العالم بما أكتته الصدور وما أعلنوه، وأنه وحده المعبود المحمود في الدنيا والآخرة، على ما له من صفات الجلال والجمال، وعلى ما أسداه إلى خلقه من الإحسان والإفضال.

وأنه هو الحاكم في الدارين، في الدنيا، بالحكم القدري، الذي أثره جميع ما خلق وزرأ، والحكم الديني، الذي أثره جميع الشرائع، والأوامر والنواهي.

وفي الآخرة يحكم بحكمه القدري والجزائي، ولهذا قال: ﴿وإليه

(١) في ب: أنهم.

(٢) في هامش أ: كل.

ترجعون ﴿ فيجازي كلاً منكم بعمله، من خير وشر. ﴾

﴿٧١ - ٧٣﴾ ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون﴾ ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكون فيه أفلا تبصرون﴾ ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ ﴿هذا امتنان من الله على عباده، يدعوه به إلى شكره، والقيام بعبوديته وحقه، أنه جعل لهم من رحمته النهار ليتبتغوا من فضل الله، وينتشروا الطلب أرزاقهم ومعاشهم في ضيائه، والليل ليهذؤوا فيه ويسكنوا، وتستريح أبدانهم وأنفسهم من تعب التصرف في النهار، فهذا من فضله ورحمته بعباده.﴾

فهل أحد يقدر على شيء من ذلك؟ فلو جعل ﴿عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون﴾ مواضع الآيات، فتستنير بصائرهم، وتسلكون الطريق المستقيم.

وقال في الليل: ﴿أفلا تسمعون﴾ وفي النهار: ﴿أفلا تبصرون﴾ لأن سلطان السمع أبلغ في الليل من سلطان البصر، وعكسه النهار. وفي هذه الآيات، تنبيه إلى أن العبد ينبغي له أن يتدبر نعم الله عليه، ويتبصر فيها، ويقيسها بحال عدمها، فإنه إذا وازن بين حالة وجودها، وبين حالة عدمها، تنبه عقله لموضع المنّة، بخلاف من جرى مع العوائد، ورأى أن هذا أمر لم يزل مستمراً، ولا يزال. وعمي قلبه عن الشناء على الله، بنعمه، وروية افتقاره إليها في كل وقت، فإن هذا لا يحدث له فكرة شكراً ولا ذكراً.

﴿٧٤ - ٧٥﴾ ﴿ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ ﴿ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فعملوا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ ﴿أي: يوم ينادي الله المشركين به، العادلين به غيره، الذين يزعمون أن له شركاء، يستحقون أن يعبدوا، وينفعون ويضرون، فإذا كان يوم القيامة، أراد الله أن يظهر جراتهم وكذبهم في زعمهم وتكذيبهم^(١) لأنفسهم ف ﴿يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ ﴿أي: بزعمهم، لا بنفس الأمر، كما قال: ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يستبغون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾.

فإذا حضروا وإياهم، نزع ﴿من كل أمة﴾ من الأمم المكذبة ﴿شهاداً﴾ يشهد على ما جرى في الدنيا، من شركهم واعتقادهم، وهؤلاء بمنزلة المتخين.

أي: انتخبنا من رؤساء المكذبين من تصدى للخصومة عنهم، والمجادلة عن إخوانهم، ومن هم وإياهم على طريق واحد، فإذا برزوا للمحاكمة ﴿فقلنا هاتوا برهانكم﴾ حججتكم ودليلكم على صحة شرككم، هل أمرناكم بذلك؟ هل أمرتكم رسل؟ هل وجدتم ذلك في شيء من كتب؟ هل فيهم أحد يستحق شيئاً من الإلهية؟ هل ينفعونكم أو يدفعون عنكم من عذاب الله أو يغنون عنكم؟ فليفعلوا إذا [إن] كان فيهم أهلية^(٢)، وليرؤكم إن كان لهم قدرة، ﴿فعلموا﴾ حيثذ بطلان قولهم وفساده، و ﴿أن الحق لله﴾ تعالى، قد توجهت عليهم الخصومة، وانقطعت حججهم، وأفلجت حجة الله، ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ من الكذب والإفك، اضمحل وتلاشى وعدم، وعلموا أن الله قد عدل فيهم، حيث لم يضع العقوبة إلا بمن استحقها واستأهلها.

﴿٧٦ - ٨٢﴾ ﴿إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم﴾ ﴿إلى آخر القصة. يخبر تعالى عن حالة قارون وما [فعل] وفعل به ونصح ووعد، فقال: ﴿إن قارون كان من قوم موسى﴾ أي: من بني إسرائيل، الذين فضلوا على العالمين، وفاقوهم في زمانهم، وامتد الله عليهم بما امتد به، فكانت حالهم مناسبة للاستقامة، ولكن قارون هذا، بغى على قومه وطغى، بما أوتيته من الأموال العظيمة المطغية. ﴿وآتيناه من الكنوز﴾ أي: كنوز الأموال شيئاً كثيراً، ﴿ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة﴾ [أولي القوة] والعصبة من العشرة إلى التسعة إلى السبعة، ونحو ذلك. أي: حتى إن مفاتيح خزائن أمواله لتثقل الجماعة القوية عن حملها، هذه المفاتيح، فما ظنك بالخزائن؟ ﴿إذ قال له قومه﴾ ناصحين له محذرين له عن الطغيان: ﴿لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين﴾ أي: لا تفرح بهذه الدنيا العظيمة، وتفتخر بها، وتلهيك عن الآخرة، فإن الله لا يحب الفرحين بها، المكبين على محبتها.

﴿وابغ فيما آتاك الله الدار الآخرة﴾ أي: قد حصل عندك من وسائل الآخرة ما ليس عند غيرك من الأموال، فابتغ بها ما عند الله، وتصدق ولا تقتصر على مجرد نيل الشهوات، وتحصيل اللذات، ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ أي: لا تأمر أن تنصدق بجميع مالك وتبقى ضائعاً، بل أنفق لأخرك، واستمتع بدنياك استمتاعاً لا يثلم دينك، ولا يضر بأخرك، ﴿وأحسن﴾ إلى عباد الله ﴿كما أحسن الله﴾ عليك هذه الأموال، ﴿ولا تبغ الفساد في الأرض﴾ بالتكبر والعمل بمعاصي الله والاشتغال بالنعم عن النعم، ﴿إن الله لا يحب المفسدين﴾ بل يعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

فـ ﴿قال﴾ قنارون - راداً لنصيحتهم، كافراً لنعمة ربه -: ﴿إنما

(١) كذا في ب، وفي أ: وتكذيب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: فيهم إلهية.

أوتيته على علم عندي» أي: إنما أدركت هذه الأموال بكسبي ومعرفتي بوجوه المكاسب، وحذقي، أو على علم من الله بحالي، يعلم أني أهل لذلك، فلم تنصحنني على ما أعطاني الله تعالى؟ قال تعالى مبيناً أن عطائه ليس دليلاً على حسن حالة المعطي: ﴿أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً﴾ فما المانع من إهلاك قارون، مع مضي عادتنا وستنا بإهلاك من هو مثله وأعظم، إذ فعل ما يوجب الهلاك؟

﴿ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾ بل يعاقبهم الله، ويعذبهم على ما يعلمه منهم، فهم، وإن أثبتوا لأنفسهم حالة حسنة، وشهدوا لها بالنجاة، فليس قولهم مقبولاً، وليس ذلك دافعاً عنهم من العذاب شيئاً، لأن ذنوبهم غير خفية، فإنكارهم لا محل له، فلم يزل قارون مستمراً على عناده وبغيه، وعدم قبول نصيحة قومه، فرحاً بطراً قد أعجبته نفسه، وغره ما أوتيته من الأموال، ﴿فخرج﴾ ذات يوم ﴿في زينته﴾ أي: بحالة أرفع ما يكون من أحوال دنياه، قد كان له من الأموال ما كان، وقد استعد وتجهل بأعظم ما يمكنه، وتلك الزينة في العادة من مثله تكون هائلة، جمعت زينة الدنيا وزهرتها وبهجتها وغضارتها وفخرها، فرمقته في تلك الحالة العيون، وملأت برؤته القلوب، واختلبت زينته النفوس، فانقسم فيه الناظرون قسمين، كل تكلم بحسب ما عنده من الهمة والرغبة.

﴿قال الذين يريدون الحياة الدنيا﴾ أي: الذين تعلقت إرادتهم فيها، وصارت منتهى رغبتهم، ليس لهم إرادة في سواها، ﴿يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون﴾ من الدنيا ومتاعها وزهرتها ﴿إنه لئذو حظ عظيم﴾ وصدقوا إنه لئذو حظ عظيم، لو كان الأمر منتهيًا إلى رغباتهم، وأنه ليس

وراء الدنيا، دار أخرى، فإنه قد أعطي منها ما به غاية التنعم^(١) بنعيم الدنيا، واقتدر بذلك على جميع مطالبه، فصار هذا الحظ العظيم، بحسب همتهم، وإن همة جعلت هذا غاية مرادها ومنتهى مطلبها، لأن أدنى الهمم وأسفلها وأدناها، وليس لها أدنى صعود إلى المراتب العالية والمطالب الغالية.

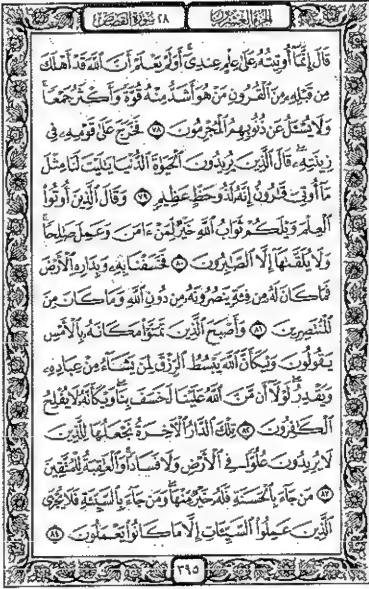
﴿وقال الذين أوتوا العلم﴾ الذين عرفوا حقائق الأشياء، ونظروا إلى باطن الدنيا، حين نظر^(٢) أولئك إلى ظاهرها: ﴿ويلكم﴾ متوجعين مما تمنوا لأنفسهم، راثين لحالهم، منكرين لمقالمهم: ﴿ثواب الله﴾ العاجل، من لذة العبادة ومحبتة، والإنابة إليه، والإقبال عليه. والآجل من الجنة وما فيها، مما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ﴿خير﴾ من هذا الذي تمينتم ورغبتم فيه، فهذا حقيقة الأمر، ولكن ما كل من يعلم ذلك يؤثر الأعلى على الأدنى، فما يُلْقَى ذلك ويوفق له ﴿الصابرون﴾ الذين حسبوا أنفسهم على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقذاره المؤلمة، وصبروا على جواذب الدنيا وشهواتها، أن تشغلهم عن ربهم، وأن تحول بينهم وبين ما خلقوا له، فهؤلاء الذين يؤثرون ثواب الله على الدنيا الفانية.

فلما انتهت بقارون حالة البغي والفخر، وأزنت الدنيا عنده، وكثر بها إعجابه، بغتة العذاب ﴿فخسفنا به وبداره الأرض﴾ جزاء من جنس عمله، فكما رفع نفسه على عباد الله، أنزله الله أسفل سافلين، هو وما اغتر به، من داره وأثائه ومتاعه.

﴿فما كان له من فئة﴾ أي: جماعة، وعصبة، وخدم، وجنود ﴿ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين﴾ أي: جاءه العذاب، فما نصّر

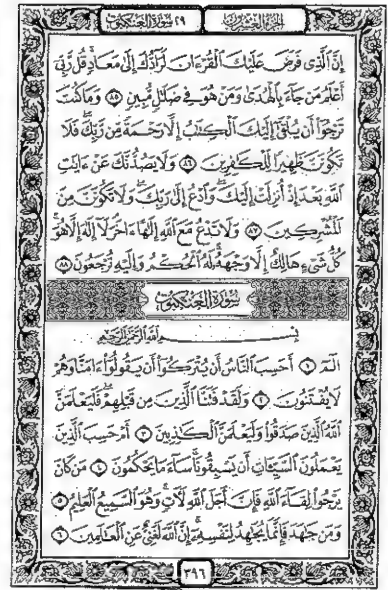
(١) كذا في ب، وفي أ: التنعيم.

(٢) كذا في ب، وفي أ: نظروا.



ولا انتصر. ﴿وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس﴾ أي: الذين يريدون الحياة الدنيا، الذين قالوا: ﴿يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون﴾ ويقولون ﴿متوجعين ومعتبرين، وخائفين من وقوع العذاب بهم: ﴿ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر﴾ أي: يضيق الرزق على من يشاء، فعلمنا حينئذ أن بسطه لقارون، ليس دليلاً على خير فيه، وأنا غالطون في قولنا: ﴿إنه لئذو حظ عظيم﴾. ﴿ولولا أن من الله علينا﴾ فلم يعاقبنا على ما قلنا، فلولا فضله ومنته ﴿لخسف بنا﴾ فصار هلاك قارون عقوبة له، وعبرة وموعظة لغيره، حتى إن الذين غبطوه، سمعت كيف ندموا، وتغير فكرهم الأول. ﴿ويكأنه لا يفلح الكافرون﴾ أي:

لا في الدنيا ولا في الآخرة. ﴿٨٣﴾ ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾ لما ذكر تعالى قارون وما أوتيته من الدنيا، وما صارت إليه عاقبة أمره، وأن أهل العلم قالوا: ﴿ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً﴾ رغب تعالى في الدار الآخرة، وأخبر بالنسب الموصّل إليها فقال: ﴿تلك الدار الآخرة﴾ التي أخبر الله بها



في كتبه وأخبرت [بها] رسله، التي [قد] جمعت كل نعيم، واندفع عنها كل منكدر ومنغص، ﴿فَجْعَلْهَا﴾ داراً وقراراً ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَاداً﴾ أي: ليس لهم إرادة، فكيف العمل للعلو في الأرض على عباد الله، والتكبر عليهم وعلى الحق، ﴿وَلَا فُسَاداً﴾ وهذا شامل لجميع المعاصي، فإذا كانوا لا إرادة لهم في العلو في الأرض والإفساد، لزم من ذلك أن تكون إرادتهم مصروفة إلى الله، وقصدهم الدار الآخرة، وحالهم التواضع لعباد الله، والانتقاد للحق والعمل الصالح.

وهؤلاء هم المتقون الذين لهم العاقبة، ولهذا قال: ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ أي: حالة الفلاح والنجاح، التي تستقر وتستمر، لمن اتقى الله تعالى، وغيرهم - وإن حصل لهم بعض الظهور والراحة - فإنه لا يطول وقته، ويزول عن قريب. وعلم من هذا الحصر في الآية الكريمة، أن الذين يريدون العلو في الأرض، أو الفساد، ليس لهم في الدار الآخرة نصيب، ولا لهم منها نصيب^(١).

﴿٨٤﴾ ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

يخبر تعالى عن مضاعفة فضله، وتعام عدله، فقال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ شرط فيها أن يأتي بها العامل، لأنه قد يعملها، ولكن يقتدر بها ما لا تقبل منه أو يبطلها، فهذا لم يجرى بالحسنة، والحسنة: اسم جنس يشمل جميع ما أمر الله به ورسوله، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله تعالى وحق عباده، ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ [أي: أعظم وأجل، وفي الآية الأخرى ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾]^(٢).

هذا التضعيف للحسنة، لا بد منه، وقد يقتدر بذلك من الأسباب ما تزيد به المضاعفة، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ بحسب حال العامل وعمله، ونفعه وعمله ومكانه، ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ وَهِيَ كُلُّ مَا نَهَى الشَّارِعُ عَنْهُ نَهَى تَحْرِيمٍ﴾ فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون، كقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾.

﴿٨٥-٨٨﴾ ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين * وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا راحة من ربك فلا تكونن ظهيراً للكافرين * ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين * ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ أي: أنزله، وفرض فيه الأحكام، وبين فيه الحلال والحرام، وأمرك بتبليغه للعالمين، والدعوة لأحكام جميع المكلفين، لا يليق بحكمته أن تكون الحياة هي الحياة الدنيا فقط، من غير أن يثاب العباد ويعاقبوا، بل لا بد أن يردك إلى معاد، يجازى فيه المحسنون بإحسانهم، والمسيئون بمعصيتهم.

وقد بينت لهم الهدى، وأوضحت لهم المنهج، فإن تبعوك، فذلك حظهم وسعادتهم، وإن أبوا إلا عصيانك والقصد بما جئت به من الهدى، وتفضيل ما معهم من الباطل على الحق، فلم يبق للمجادلة محل، ولم يبق إلا المجازاة على الأعمال من العالم بالغيب والشهادة، والمحق والمبطل. ولهذا قال: ﴿قُلْ ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين﴾ وقد علم أن رسوله هو المهتدي الهادي، وأن أعداءه هم الضالون المضلون.

﴿وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب﴾ أي: لم تكن متحزياً لنزول هذا الكتاب عليك، ولا مستعداً له، ولا متصدياً. ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ بك وبالعباد، فأرسلك بهذا الكتاب، الذي رحم به العالمين، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، وزكاهم وعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، فإذا علمت أنه أنزله إليك رحمة منه، [علمت] أن جميع ما أمر به ونهى عنه، فإنه رحمة وفضل من الله، فلا يكن في صدرك جرح من شيء منه، وتظن أن مخالفه أصلح وأنفع.

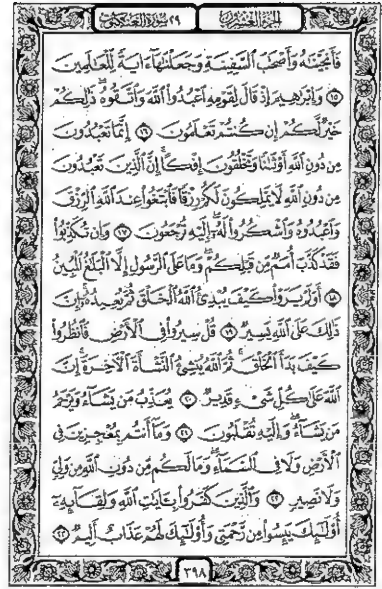
﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: معيماً لهم على ما هو من شعب كفرهم، ومن جملة مظاهرهم، أن يقال في شيء منه، إنه خلاف الحكمة والمصلحة والمنفعة. ﴿وَلَا يَصْدَنُكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ﴾ بل أبلغها وأنفذها، ولا تبال بمكرهم ولا يخدعك عنها، ولا تتبع أهواءهم.

﴿وَادْعَ إِلَى رَبِّكَ﴾ أي: اجعل الدعوة إلى ربك منتهى قصدك وغاية عملك، فكل ما خالف ذلك فإرضه، من رياء، أو سمعة، أو موافقة أغراض أهل الباطل، فإن ذلك داع إلى الكون معهم، ومساعدتهم على أمرهم، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لا في شركهم، ولا في فروعهم وشعبه، التي هي جميع المعاصي.

(١) في ب: حظ.

(٢) في ب: وحقوق العباد.

(٣) زيادة من هامش: ب.



الصحيح والعمل الصالح عنوان على سعادة صاحبه، وأنه من أهل الرحمن، والصالحين من عباد الله تعالى.

﴿١٠ - ١١﴾ ومن الناس من

يقول آمنا بالله فإذا أؤذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين * وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين * لما ذكر تعالى أنه لا بد أن يمتحن من ادعى الإيمان، ليظهر الصادق من الكاذب، بين تعالى أن من الناس فريقاً لا صبر لهم على المحن، ولا ثبات لهم على بعض الزلازل، فقال: ﴿ومن الناس من

يقول آمنا بالله فإذا أؤذي في الله بضرب، أو أخذ مال، أو تغيير، ليرتد عن دينه، وليراجع الباطل، ﴿جعل فتنة الناس كعذاب الله﴾ أي: يجعلها صادة له عن الإيمان والثبات عليه، كما أن العذاب صاء عما هو سببه.

﴿ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم﴾ لأنه موافق للهوى، فهذا الصنف من الناس من الذين قال الله فيهم: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾.

﴿أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين﴾ حيث خبركم بهذا الفريق، الذي حاله كما وصف لكم، فتعرفون بذلك كمال علمه وسعة حكمته.

﴿وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين﴾ أي: فلذلك قدّر محناً وابتلاء، ليظهر علمه فيهم، فيجازيهم بما ظهر منهم، لا بما يعلمه بمجرد، لأنهم قد يحتاجون على الله، أنهم لو ابتلوا لثبتوا.

﴿١٢ - ١٣﴾ وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون *

وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون * يخبر تعالى عن افتراء الكفار ودعوتهم للمؤمنين إلى دينهم، وفي ضمن ذلك، تحذير المؤمنين من الاعتراض بهم والوقوع في مكرهم، فقال: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا﴾ فاتركوا دينكم أو بعضه واتبعونا في ديننا، فإننا نضمن لكم الأمر ولنحمل خطاياكم. وهذا الأمر ليس بأيديهم، فلماذا قال: ﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء﴾ لا قليل ولا كثير. فهذا التحمل، ولو رضي به صاحبه، فإنه لا يفيد شيئاً، فإن الحق لله، والله تعالى لم يمكن العبد من التصرف في حقه إلا بأمره وحكمه، وحكمه «أن لا تزر وازرة وزر أخرى».

ولما كان قوله: ﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء﴾ قد يثوهم منه أيضاً، أن الكفار الداعين إلى كفرهم - ونحوهم ممن دعا إلى باطله - ليس عليهم إلا ذنبهم الذي ارتكبه، دون الذنب الذي فعله غيرهم، ولو كانوا متسببين فيه، قال: أخيراً عن هذا الوهم^(١) ﴿وليحملن أثقالهم﴾ أي: أثقال ذنوبهم التي عملوها وأثقالاً مع أثقالهم، وهي الذنوب التي بسببهم ومن جرائمهم، فالذنب الذي فعله التابع [لكل من التابع، والمتبوع حصته منه، هذا لأنه فعله وباشره، والمتبوع لأنه تسبب في فعله ودعا إليه، كما أن الحسنة إذا فعلها التابع له أجرها بالمباشرة، وللداعي أجره بالتسبب.

﴿وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون﴾ من الشر وتزيينه، [وقولهم]^(٢) ﴿ولنحمل خطاياكم﴾. ﴿١٤ - ١٥﴾ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فليتب عليهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون * فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين * يخبر تعالى عن حكمه وحكمته في عقوبة^(٣) الأمم المكذبة،

﴿١٦ - ١٧﴾ وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون *

كانوا يعملون * وهي أعمال الخير، من واجبات ومستحبات، فهي أحسن ما يعمل العبد، لأنه يعمل المباحات أيضاً، وغيرها.

﴿٨﴾ ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلى مرجعكم الإنسان، ووصينا بوالديه حسناً، أي: ببرهما والإحسان إليهما، بالقول والعمل، وأن يحافظ على ذلك، ولا يعقهما ويسيء إليهما في قوله وعمله.

﴿وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم﴾ وليس لأحد علم بصحة الشرك بالله، وهذا تعظيم لأمر الشرك، ﴿فلا تطعهما إلى مرجعكم فأنتبكم بما كنتم تعملون﴾ فأجازيكم بأعمالكم، فبروا والديكم وقدموا طاعتهم، إلا على طاعة الله ورسوله، فإنها مقدمة على كل شيء.

﴿٩﴾ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين أي: من آمن بالله وعمل صالحاً، فإن الله وعده أن يدخله الجنة في جملة عباده الصالحين، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، كل على حسب درجته ومرتبته عند الله، فالإيمان

(٣) في ب: عقوبات.

(٢) كذا في ب، وفي أ: وقوله.

(١) زيادة من هامش: ب.

وأن الله أرسل عبده ورسوله نوحاً عليه الصلاة والسلام إلى قومه، يدعوهم إلى التوحيد وإفراد الله بالعبادة، والنهي عن الأنداد والأصنام، ﴿فلبث فيهم نبياً داعياً ألف سنة إلا خمسين عاماً﴾ وهو لا يني بدعوتهم، ولا يفتر في نصيحهم، يدعوهم ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، فلم يرشدوا ولم يهتدوا، بل استمروا على كفرهم وطغيانهم، حتى دعا عليهم نبيهم نوح عليه الصلاة والسلام، مع شدة صبره وحلمه واحتماله، فقال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ ﴿فأخذهم الطوفان﴾ أي: الماء الذي نزل من السماء بكثرة، ونبع من الأرض بشدة ﴿وهم ظالمون﴾ مستحقون للعذاب.

﴿فأنجيناه وأصحاب السفينة﴾ الذين ركبوا معه، أهله ومن آمن به. ﴿وجعلناها﴾ أي: السفينة، أو قصة نوح ﴿آية للعالمين﴾ يعتبرون بها، على أن من كذب الرسل، آخر أمره الهلاك، وأن المؤمنين سيجعل الله لهم من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً.

وجعل الله أيضاً السفينة، أي: جنسها آية للعالمين، يعتبرون بها رحمة ربهم، الذي قيض لهم أسبابها، ونسز لهم أمرها، وجعلها تحملهم وتحمل متاعهم من محل إلى محل ومن قطر إلى قطر.

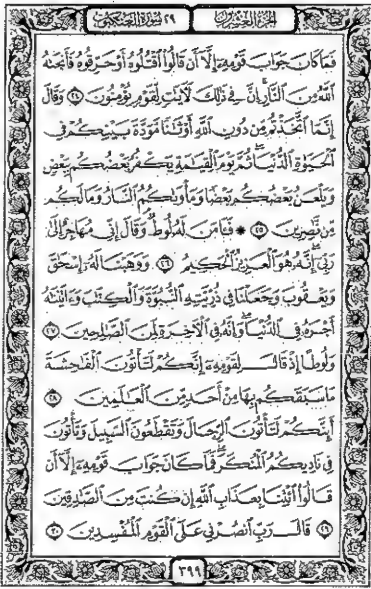
﴿١٦ - ٢٢﴾ ﴿وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ إنما تعبدون من دون الله آوثاناً وتخلقون فكأين الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابستوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون﴾ وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير﴾ قل سيروا في الأرض فأنظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل

شيء قدير﴾ يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون﴾ وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ يذكر تعالى أنه أرسل خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى قومه، يدعوهم إلى الله، فقال [لهم]: ﴿اعبدوا الله﴾ أي: وحده، وأخلصوا له العبادة، وامثلوا ما أكرم به، ﴿واتقوه﴾ أن يغضب عليكم، فيعذبكم، وذلك بترك ما يغضبه من المعاصي، ﴿ذلكم﴾ أي: عبادة الله وتقواه ﴿خير لكم﴾ من ترك ذلك، وهذا من باب إطلاق «أفعل التفضيل» بما ليس في الطرف الآخر منه شيء، فإن ترك عبادة الله، وترك تقواه، لا خير فيه بوجه، وإنما كانت عبادة الله وتقواه خيراً للناس، لأنه لا سبيل إلى نيل كرامته في الدنيا والآخرة إلا بذلك، وكل خير يوجد في الدنيا والآخرة، فإنه من آثار عبادة الله وتقواه. ﴿إن كنتم تعلمون﴾ ذلك، فاعلموا الأمور وانظروا ما هو أولى بالإيثار، فلما أمرهم بعبادة الله وتقواه، نهاهم عن عبادة الأصنام، وبين لهم نقصها وعدم استحقاقها للعبودية، فقال: ﴿إنما تعبدون من دون الله آوثاناً وتخلقون فكأين﴾ تحتونها وتخلقونها بأيديكم، وتخلقون لها أسماء الآلهة، وتخلقون الكذب بالآمر بعبادتها والتمسك بذلك، ﴿إن الذين تدعون من دون الله﴾ في نقصه، وأنه ليس فيه ما يدعو إلى عبادته، ﴿لا يملكون لكم رزقاً﴾ فكأنه قيل: قد بان لنا أن هذه الأوثان مخلوقة ناقصة، لا تحمل نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وأن من هذا وصفه، لا يستحق أدنى أدنى من هذا مقدار مثقال مثقال ذرة من العبادة والتأله، والقلوب لا بد أن تطلب معبوداً تأله وتسأل حوائجها، فقال - حاثاً لهم على من يستحق العبادة - ﴿فابستوا عند الله الرزق﴾ فإنه هو

الميسر له، المقدّر، المجيب لدعوة من دعاه في أمر دينه ودنياه^(١)، ﴿واعبدوه﴾ وحده لا شريك له، لكونه الكامل النافع الضار، المتفرد بالتدبير، ﴿واشكروا له﴾ وحده، لكون جميع ما وصل ويصل إلى الخلق من النعم فمنه، وجميع ما اندفع ويندفع من النقم عنهم فهو الدافع لها ﴿إليه ترجعون﴾ مجازيكم على ما عملتم، وينشئكم بما أسرتهم وأعلمتم، فاحذروا القدوم عليه وأنتم على شرككم، وارغبوا فيما يقرّبكم إليه، ويشيكم - عند القدوم - عليه.

﴿أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده﴾ يوم القيامة ﴿إن ذلك على الله يسير﴾ كما قال تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾. ﴿قل﴾ لهم، إن حصل معهم ريب وشك في الابتداء: ﴿سيروا في الأرض﴾ بأبداً نكم وقلوبكم ﴿فانظروا كيف بدأ الخلق﴾ فإنكم ستجدون أمماً من آدميين والحيوانات، لا تزال توجد شيئاً فشيئاً، وتجود النباتات والأشجار، كيف تحدث وقتاً بعد وقت، وتجود السحاب والرياح ونحوها، مستمرة في تجدها، بل الخلق دائماً في بدء وإعادة، فانظر

(١) في ب: لمصالح دينه ودنياه.



قومه، فقالوا له: ﴿لَا تَحْزَنْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ وأخبروه أنهم رسل الله. ﴿إِنَّا مَنجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًاكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ إِنَّا مَنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا أَي: عَذَابًا ﴿مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ فَأَمَرُوهُ أَنْ يَسْنِيَ بِأَهْلِهِ لَيْلًا، فَلَمَّا أَصْبَحُوا، قَلَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ دِيَارَهُمْ، فَجَعَلَ عَلَيْهَا سَافِلَهَا، وَأَمَطَرَهُمْ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سَجِيلٍ مُتَابَعَةٍ حَتَّى أَبَادَتْهُمْ وَأَهْلَكَتْهُمْ، فَصَارُوا سَمَرًا مِنَ الْأَسْمَارِ، وَعَبْرَةً مِنَ الْعِبَرِ، ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أَي: تَرَكْنَا مِنْ دِيَارِ قَوْمِ لُوطٍ، آثَارًا بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ الْعِبَرِ بِقُلُوبِهِمْ، [فَيَتَفَقَّهُونَ بِهَا]، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنكُمْ لَمُرُونَ عَلَيْهِمْ مُصْحِحِينَ﴾ وَاللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ.

﴿٣٦ - ٣٧﴾ ﴿وَالِى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْبُدُوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثَامِينَ أَي: ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَى مَدِينٍ الْقَبِيلَةَ الْمَعْرُوفَةَ الْمَشْهُورَةَ شُعَيْبًا﴾ فَأَمَرَهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالْإِيمَانَ بِالْبَعْثِ وَرَجَائِهِ، وَالْعَمَلَ لَهُ، وَنَهَاهُمْ عَنِ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ، بِبُخْسِ الْمَكَائِيلِ وَالْمَوَازِينِ، وَالسَّعْيِ بِقَطْعِ الطَّرِيقِ، فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ اللَّهِ ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثَامِينَ﴾

﴿٣٨ - ٤٠﴾ ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزِينِ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمَنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمَنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمَنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أَي: وَكَذَلِكَ مَا فَعَلْنَا بِعَادٍ وَثَمُودَ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ قِصَصَهُمْ، وَتَبَيَّنَ لَكُمْ بِشَيْءٍ

نَادِيَكُمْ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمَفْسِدِينَ﴾ إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ. تَقَدَّمَ أَنَّ لُوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ آمَنَ لِإِبْرَاهِيمَ، وَصَارَ مِنَ الْمُهْتَدِينَ بِهِ، وَقَدْ ذَكَرُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ، وَإِنَّمَا هُوَ ابْنُ أَخِي إِبْرَاهِيمَ.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ وَإِنْ كَانَ عَامًّا، فَلَا يَتَنَاقَضُ كَوْنُ لُوطٍ نَبِيًّا رَسُولًا وَهُوَ لَيْسَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، لِأَنَّ الْآيَةَ جِيءَ بِهَا لِسِيَاقِ الْمَدْحِ وَالثَّنَاءِ عَلَى الْخَلِيلِ، وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّ لُوطًا اهْتَدَى عَلَى يَدَيْهِ، وَمِنْ اهْتَدَى عَلَى يَدَيْهِ أَكْمَلَ مِمَّنْ اهْتَدَى مِنْ ذُرِّيَّتِهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى فَضِيلَةِ الْهَادِي، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فَأَرْسَلَ اللَّهُ لُوطًا إِلَى قَوْمِهِ، وَكَانُوا مَعَ شُرَكَاهُمْ، قَدْ جَمَعُوا بَيْنَ فِعْلِ الْفَاحِشَةِ فِي الذُّكُورِ، وَتَقَطُّعِ السَّبِيلِ، وَفُسْرِ الْمُنْكَرَاتِ فِي مَجَالِسِهِمْ، فَنَصَحَهُمْ لُوطٌ عَنْ هَذِهِ الْأُمُورِ، وَبَيَّنَّ لَهُمْ قَبَائِحَهَا فِي نَفْسِهَا، وَمَا تَوَوَّلَ إِلَيْهِ مِنَ الْعَقُوبَةِ الْبَلِيغَةِ، فَلَمْ يَرْجِعُوا وَلَمْ يَذْكُرُوا. ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

فَأَيَسَ مِنْهُمْ نَبِيَّهُمْ، وَعَلِمَ اسْتِحْقَاقَهُمُ الْعَذَابَ، وَجَزَعَ مِنْ شِدَّةِ تَكْذِيبِهِمْ لَهُ، فَدَعَا عَلَيْهِمْ وَ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمَفْسِدِينَ﴾ فَاسْتَجَابَ اللَّهُ دَعَاءَهُ، فَأَرْسَلَ الْمَلَائِكَةَ لِإِهْلَاكِهُمْ، فَمَرُّوا بِإِبْرَاهِيمَ قَبْلَ، وَبَشَرُوهُ بِإِسْحَاقَ، وَمِنْ رِوَاةِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ، ثُمَّ سَأَلَهُمْ إِبْرَاهِيمَ أَيْنَ يَرِيدُونَ؟ فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ يَرِيدُونَ إِهْلَاكَ قَوْمِ لُوطَ، فَجَعَلَ يَرِاجِعُهُمْ وَيَقُولُ: ﴿إِنْ فِيهَا لُوطًا﴾ فَقَالُوا لَهُ: ﴿لَنُتَجَيِّنَهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ ثُمَّ مَضُوا حَتَّى أَتَوْا لُوطًا، فَسَاءَ مَجِيئُهُمْ، وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا، بِحَيْثُ إِنَّهُ لَمْ يَعْرِفَهُمْ، وَظَنَّ أَنَّهُمْ مِنْ جِلَّةِ أَبْنَاءِ السَّبِيلِ الضُّيُوفِ، فَخَافَ عَلَيْهِمْ مِنْ

يَذْكُرُ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّهُ أَهْلَكَهُمْ بِعَذَابٍ، بَلْ ذَكَرَ اعْتِزَالَهُ إِيَّاهُمْ، وَهَجْرَتَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ.

فَأَمَّا مَا يَذْكُرُ فِي الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ، أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَتَحَ عَلَى قَوْمِهِ بَابَ الْبَعُوضِ، فَشَرِبَ دِمَاءَهُمْ، وَأَكَلَ لَحْمَهُمْ، وَأَتْلَفَهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ، فَهَذَا يَتَوَقَّفُ الْجُزْمُ بِهِ عَلَى الدَّلِيلِ الشَّرْعِيِّ، وَلَمْ يَوْجِدْ، فَلَوْ كَانَ اللَّهُ اسْتَأْصَلَهُمْ بِالْعَذَابِ لَذَكَرَهُ كَمَا ذَكَرَ إِهْلَاكَ الْأُمَمِ الْمَكْذُوبَةِ، وَلَكِنْ لَعَلَّ مِنْ أَسْرَارِ ذَلِكَ، أَنَّ الْخَلِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَرْحَمِ الْخَلْقِ وَأَفْضَلِهِمْ [وَأَوْحَلِهِمْ] وَأَجْلَهُمْ، فَلَمْ يَدْعُ عَلَى قَوْمِهِ كَمَا دَعَا غَيْرِهِ، وَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَجْرِيَ بِسَبَبِهِ عَذَابًا عَامًّا.

وَمَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، أَنَّهُ رَاجِعُ الْمَلَائِكَةِ فِي إِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطَ، وَجَادَلَهُمْ، وَدَافَعَ عَنْهُمْ، وَهَمَّ لَيْسُوا قَوْمَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْخَالِ.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أَي: بَعْدَمَا هَاجَرَ إِلَى الشَّامِ ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ فَلَمْ يَأْتْ بَعْدَهُ نَبِيٌّ إِلَّا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، وَلَا نَزَلَ كِتَابٌ إِلَّا عَلَى ذُرِّيَّتِهِ، حَتَّى خَتَمُوا بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

وَهَذَا [أَمِنْ] أَعْظَمِ الْمُنَاقَبِ وَالْمُفَاخِرِ، أَنَّ تَكُونَ مَوَادِّ الْهَدَايَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالسَّعَادَةِ وَالْفَلَاحِ فِي ذُرِّيَّتِهِ، وَعَلَى أَيْدِيهِمْ اهْتَدَى الْمُهْتَدُونَ، وَأَمِنَ الْمُؤْمِنُونَ، وَصَلَحَ الصَّالِحُونَ. ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ مِنَ الزَّوْجَةِ الْجَمِيلَةِ فَائِقَةِ الْجَمَالِ، وَالرِّزْقِ الْوَاسِعِ، وَالْأَوْلَادِ، الَّذِينَ بِهِمْ قَرَّتْ عَيْنُهُ، وَمَعْرِفَةِ اللَّهِ وَمَحَبَّتِهِ، وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ.

﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بَلْ هُوَ وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ أَفْضَلُ الصَّالِحِينَ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَأَعْمَالُهُمْ مَنْزِلَةٌ، فَجَمَعَ اللَّهُ لَهُ بَيْنَ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿٢٨ - ٣٥﴾ ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَنْتَوْنَ الْفَاحِشَةُ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أَتُنْكِمُ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي

تشاهدونه بأبصاركم من مساكنهم وأثارهم التي بانوا عنها، وقد جاءهم رسلهم بالآيات البينات، المفيدة للصيرة، فكذبوهم وجادلوهم.

﴿وَرَيْنَ لَهُمِ الشَّيْطَانَ أَعْمَالَهُمْ﴾ حتى ظنوا أنها أفضل مما جاءتهم به الرسل، وكذلك قارون، وفرعون، وهامان، حين بعث الله إليهم موسى بن عمران، بالآيات البينات، والبراهين الساطعات، فلم يتقادوا، واستكبروا في الأرض، [على عباد الله فأذلّوهم، وعلى الحق فردوه فلم يقدروا على النجاة حين نزلت بهم العقوبة] ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ الله، ولا فائتين، بل سلّموا واستسلموا.

﴿فَكَلَّا﴾ من هؤلاء الأيم المكدبة أخذنا بذنبه ﴿على قدره، وبعبوة مناسبة له، ﴿فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً﴾ أي: عذاباً يحصبهم، كقوم عاد، حين أرسل الله عليهم الريح العقيم، و ﴿سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ففري القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾.

﴿ومنهم من أخذته الصيحة﴾ كقوم صالح، ﴿ومنهم من خسفنا به الأرض﴾ كقارون، ﴿ومنهم من أغرقنا﴾ كفرعون وهامان وجنودهما.

﴿وما كان الله﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق به تعالى أن يظلمهم لكمال عدله، وغناه التام عن جميع الخلق. ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ منعوا حقها التي هي بصده، فإنها مخلوقة لعبادة الله وحده، فهؤلاء وضعوها في غير موضعها، وأشغلوا بالشهوات والمعاصي، ففروها غاية الضرر، من حيث ظنوا أنهم ينفعونها.

﴿٤١-٤٣﴾ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون * إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم * وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون * هذا مثل ضربه الله لمن عبد معه غيره، يقصد به التعزز والثَّقْوَى والنفع، وأن

الأمر بخلاف مقصوده، فإن مثله كمثل العنكبوت، اتخذت بيتاً يقبها من الحر والبرد والآفات، ﴿وإن أوهن البيوت﴾ أضعفها وأوهاها ﴿لبيت العنكبوت﴾. فالعنكبوت من الحيوانات الضعيفة، وبيتها من أضعف البيوت، فما ازدادت باتخاذها إلا ضعفاً، كذلك هؤلاء الذين يتخذون من دونه أولياء، فقراء عاجزون من جميع الوجوه، وحين اتخذوا الأولياء من دونه يتعززون بهم ويستنصرونهم، ازدادوا ضعفاً إلى ضعفهم، ووهناً إلى وهنهم.

فإنهم اتكلوا عليهم في كثير من مصالحهم، وألقوا عليها، وتحلواهم عنها، على أن أولئك سيقومون بها، فخذلوهم، فلم يحصلوا منهم على طائل، ولا أنالوهم من معرفتهم أقل نائل.

فلو كانوا يعلمون حقيقة العلم، حالهم وحال من اتخذوهم، لم يتخذوهم، ولتبرؤوا منهم، ولتولوا الرب القادر الرحيم، الذي إذا تولاه عبده وتوكل عليه، كفاه مؤونة دينه ودنياه، وازداد قوة إلى قوته، في قلبه وفي بدنه وحاله وأعماله.

ولما بين نهاية ضعف آلهة المشركين، ارتقى من هذا إلى ما هو أبلغ منه، وأنها ليست بشيء، بل هي مجرد أسماء سموها، وظنون اعتقدوها، وعند التحقيق، يتبين للعاقل بطلانها وعدمها، ولهذا قال: ﴿إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء﴾ أي: إنه تعالى يعلم - وهو عالم الغيب والشهادة - أنهم ما يدعون من دون الله شيئاً موجوداً، ولا إلهاً له حقيقة، كقوله تعالى: ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ وقوله: ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾.

﴿وهو العزيز الحكيم﴾ الذي له القوة جميعاً، التي قهر بها جميع المخلوقات، ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، الذي أحسن كل

شيء خلقه، وأتقن ما أمره.

﴿وتلك الأمثال نضربها للناس﴾ أي: لأجلهم ولانتفاعهم وتعليمهم، لكونها من الطرق الموضحة للعلوم، ولأنها تقرب الأمور المعقولة بالأمور المحسوسة، فيتضح المعنى المطلوب بسببها، فهي مصلحة لعموم الناس.

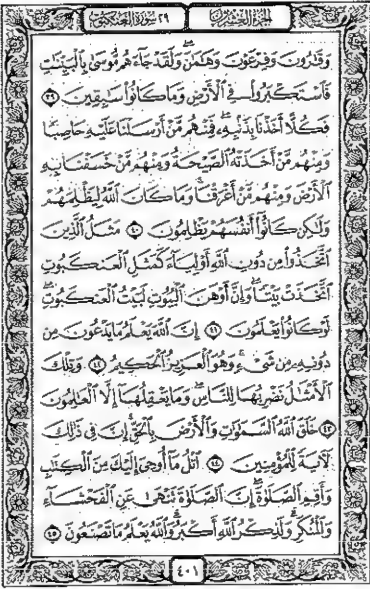
﴿و﴾ لكن ﴿ما يعقلها﴾ يفهمها وتذكرها، وتطبيقها على ما ضربت له، وعقلها في القلب ﴿إلا العالمون﴾ أي: أهل العلم الحقيقي، الذين وصل العلم إلى قلوبهم.

وهذا مدح للأمثال التي يضربها، وحث على تدبرها وتعقلها، ومدح لمن يعقلها، وأنه عنوان على أنه من أهل العلم، فعلم أن من لم يعقلها ليس من العالمين.

والسبب في ذلك، أن الأمثال التي يضربها الله في القرآن، إنما هي للأمور الكبار، والمطالب العالية، والمسائل الجلية، فأهل العلم يعرفون أنها أهم من غيرها، لاعتناء الله بها، وحثه عباده على تعقلها وتدبرها، فيبدلون جهدهم في معرفتها.

وأما من لم يعقلها، مع أهميتها، فإن ذلك دليل على أنه ليس من أهل العلم، لأنه إذا لم يعرف المسائل المهمة، فعدم معرفته غيرها من باب أولى وأحرى. ولهذا، أكثر ما يضرب الله الأمثال في أصول الدين ونحوها.

﴿٤٤﴾ ﴿خلق الله السماوات والأرض بالحق إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾ أي: هو تعالى المنفرد بخلق السماوات، على علوها وارتفاعها وسعتها وحسنها وما فيها من الشمس والقمر والكواكب والملائكة، والأرض وما فيها من الجبال والبحار والبراري والقفار والأشجار ونحوها، وكل ذلك خلقه بالحق، أي: لم يخلقها عبثاً ولا سدى، ولا لغبر فائدة، وإنما خلقها، ليقوم أمره وشرعه، ولتتم نعمته على عباده، وليرى من حكمته وفهرو تدبيره، ما يدلهم على أنه وحده مغبردهم ومحبوبهم وإلههم. ﴿إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾ على كثير من



مناظرة أهل الكتاب، على هذا الطريق، فيه إلزام لهم بالإقرار بالقرآن، وبالرسول الذي جاء به، فإنه إذا تكلم في الأصول الدينية التي اتفقت عليها الأنبياء والكتب، وتقررت عند المتناظرين، وثبتت حقائقها عندهما، وكانت الكتب السابقة والمرسلون مع القرآن ومحمد ﷺ، قد بينتها ودلت عليها وأخبرت بها، فإنه يلزم التصديق بالكتب كلها، والرسول كلهم، وهذا من خصائص الإسلام.

فأما أن يقال: نؤمن بما دل عليه الكتاب الفلاني، دون الكتاب الفلاني وهو الحق الذي صدق ما قبله، فهذا ظلم وجور، وهو يرجع إلى قوله بالتكذيب، لأنه إذا كذب القرآن الدال عليها، المصدق لما بين يديه من التوراة، فإنه مكذب لما زعم أنه به مؤمن.

وأيضاً، فإن كل طريق ثبتت به (٣) نبوة أي: نبي كان، فإن مثلاً وأعظم منها، دالة على نبوة محمد ﷺ، وكل شبهة يقدح بها في نبوة محمد ﷺ، فإن مثلاً أو أعظم منها، يمكن توجيهها إلى نبوة غيره، فإذا ثبت بطلانها في غيره، فثبت بطلانها في حقه ﷺ أظهر وأظهر.

وقوله: ﴿ونحن له مسلمون﴾ أي: منقادون مستسلمون لأمره. ومن آمن

الصلاة أكبر من الصلاة، كما هو قول جمهور المفسرين، لكن الأول أولى، لأن الصلاة أفضل من الذكر خارجها، ولأنها - كما تقدم - بنفسها من أكبر الذكر.

﴿والله يعلم ما تصنعون﴾ من خير وشر، فيجازيكم على ذلك أكمل الجزاء وأوفاه.

﴿٤٦﴾ ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي أحسن﴾ الآية الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾ ينهى تعالى عن مجادلة أهل الكتاب، إذا كانت من غير بصيرة من المجادل، أو بغير قاعدة مرضية، وأن لا يجادلوا إلا بالتي هي أحسن، بحسن خلق ولطف ولين كلام، ودعوة إلى الحق وتحسينه، وزد عن الباطل وتهجينه، بأقرب طريق موصل لذلك، وأن لا يكون القصد منها مجرد المجادلة والمغالبة وحسب العلو، بل يكون القصد بيان الحق وهداية الخلق، إلا من ظلم من أهل الكتاب، بأن ظهر من قصده وحاله، أنه لا إرادة له في الحق، وإنما يجادل على وجه المشاغبة والمغالبة، فهذا لا فائدة في جداله، لأن المقصود منها ضائع.

﴿وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد﴾ أي: ولتكن مجادلتكم لأهل الكتاب مبنية على الإيمان بما أنزل إليكم وأنزل إليهم، وعلى الإيمان برسولكم ورسولهم، وعلى أن الإله واحد، ولا تكن مناظرتكم إياهم [على وجه] يحصل به (٢) القبح في شيء من الكتب الإلهية، أو بأحد من الرسل، كما يفعله الجاهل عند مناظرة الخصوم، يقدح بجميع ما معهم، من حق وباطل، فهذا ظلم وخروج عن الواجب وآداب النظر، فإن الواجب، أن يرد ما مع الخصم من الباطل، ويقبل ما معه من الحق، ولا يرد الحق لأجل قوله، ولو كان كافراً. وأيضاً، فإن بناء

المطالب الإيمانية، إذا تدبرها المؤمن رأى ذلك فيها عياناً.

﴿٤٥﴾ ﴿اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون﴾ يأمر تعالى بتلاوة وحيه وتنزيله، وهو هذا الكتاب العظيم، ومعنى تلاوته اتباعه، بامتثال ما يأمر به، واجتناب ما ينهى عنه، والاهتداء بهداه، وتصديق أخباره، وتدبر معانيه، وتلاوة ألفاظه، فصار تلاوة لفظه جزء المعنى وبعضه، وإذا كان هذا معنى تلاوة الكتاب، علم أن إقامة الدين كله، داخله في تلاوة الكتاب. فيكون قوله: ﴿وأقم الصلاة﴾ من باب عطف الخاص على العام، لفصل الصلاة وشرفها، وأثارها الجميلة، وهي ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾.

والفحشاء: كل ما استعظم واستفحش من المعاصي التي تشتهيها النفوس. والمنكر: كل معصية تنكرها العقول والفطر.

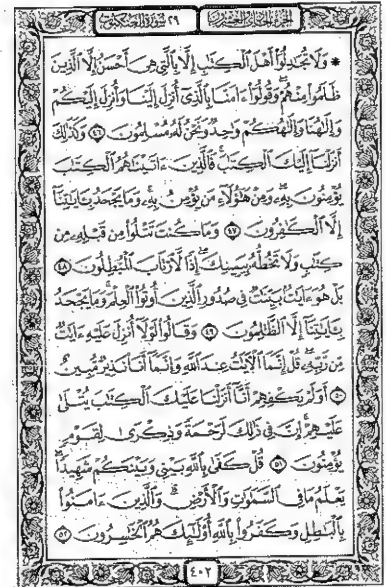
ووجه كون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، أن العبد المقيم لها، المتمسك لأركانها وشروطها وخشوعها، يستتير قلبه، ويتطهر فؤاده، ويزداد إيمانه، وتقوى رغبته في الخير، وتقل أو تعدم رغبته في الشر، فبالضرورة، مداومتها والمحافظة عليها على هذا الوجه، تنهى عن الفحشاء والمنكر، فهذا من أعظم مقاصدها وثمراتها. وثم في الصلاة مقصود أعظم من هذا وأكبر، وهو ما اشتملت عليه من ذكر الله، بالقلب واللسان والبدن. فإن الله تعالى، إنما خلق الخلق (١) لعبادته، وأفضل عبادة تقع منهم الصلاة، وفيها من عباديات الجوارح كلها، ما ليس في غيرها، ولهذا قال: ﴿ولذكر الله أكبر﴾.

ويحتمل أنه لما أمر بالصلاة ومدحها، أخبر أن ذكره تعالى خارج

(١) في ب: العباد.

(٢) في أ: بها.

(٣) وفي ب: بها.



به، واتخذها لها، وأمن بجميع كتبه ورسله، وانقاد لله واتبع رسله، فهو السعيد، ومن انحرف عن هذا الطريق، فهو الشقي.

﴿٤٧-٤٨﴾ وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون * وما كنت تنزل من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون ﴿٤٩﴾ أي: ﴿وكذلك أنزلنا إليك يا محمد، هذا الكتاب﴾ الكريم، المبين كل نبأ عظيم، الداعي إلى كل خلق فاضل، وأمر كامل، المصدق للكتب السابقة، المخبر به الأنبياء الأقدمون.

﴿فالذين آتيناهم الكتاب﴾ فعرفوه حق معرفته، ولم يداخلهم حسد وهوى. ﴿يؤمنون به﴾ لأنهم تيقنوا صدقه، بما لديهم من الموافقات، وبما عندهم من البشارات، وبما تميزوا به من معرفة الحسن والقبيح، والصدق والكذب.

﴿ومن هؤلاء﴾ الموجودين ﴿من يؤمن به﴾ إيماناً على بصيرة، لا عن رغبته ولا رهبة. ﴿وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون﴾ الذين دأبهم الجحود للحق والعناد له. وهذا حصن لمن كفر به، أنه لا يكون من أحد قصده متابعة الحق،

والأ، فكل من له قصد صحيح، فإنه لا بد أن يؤمن به، لما اشتمل عليه من البينات، لكل من له عقل، أولقى السمع وهو شهيد.

وبما يدل على صحته، أنه جاء به هذا النبي الأمين، الذي عرف قومه صدقه وأمانته ومدخله ومخرجه وسائر أحواله، وهو لا يكتب بيده خطأ، ولا يقرأ خطأ مكتوباً، فإتيانه به في هذه الحال، من أظهر البينات القاطعة، التي لا تقبل الارتياب، أنه من عند الله العزيز الحميد، ولهذا قال: ﴿وما كنت تتلو﴾ أي: تقرأ ﴿من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك﴾ إذا لم كنت بهذه الحال ﴿لارتاب المبطلون﴾ فقالوا: تعلمه من الكتب السابقة، أو استنسخه منها، فأما وقد نزل على قلبك، كتاباً جليلاً، تحدت به الفصحاء والبلغاء، الأعداء الألداء، أن يأتوا بمثله، أو بسورة من مثله، فعجزوا غاية العجز، بل ولا حدثهم أنفسهم بالمعارضة، لعلمهم ببلاغته وفصاحته، وأن كلام أحد من البشر، لا يبلغ أن يكون مجارياً له أو على منواله، ولهذا قال:

﴿٤٩﴾ ﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾. أي: ﴿بل﴾ هذا القرآن ﴿آيات بينات﴾ لا خفيات، ﴿في صدور الذين أوتوا العلم﴾ وهم سادة الخلق، وعقلاؤهم، وأولو الألباب منهم، والكامل منهم.

فإذا كان آيات بينات في صدور أمثال هؤلاء، كانوا حجة على غيرهم، وإنكار غيرهم لا يضر، ولا يكون ذلك إلا ظليماً، ولهذا قال: ﴿وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾ لأنه لا يجحدها إلا جاهل تكلم بغير علم، ولم يقتد بأهل العلم، وهو متمكن من معرفته على حقيقته، وإما متجاهل عرف أنه حق فعانده، وعرف صدقه فخالفه.

﴿٥٠-٥٢﴾ ﴿وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين﴾ * أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون * قل كفى بالله بئني وبينكم شهيداً يعلم ما في السماوات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ﴿٥١﴾ أي: واعترض هؤلاء الظالمون المكذوبون للرسول ولما جاء به، واقترحوا عليه نزول آيات عينوها، كقولهم: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ الآيات. فتعين الآيات ليس عندهم، ولا عند الرسول ﷺ، فإن في ذلك تدبيراً مع الله، وأنه لو كان كذلك، وينبغي أن يكون كذلك، وليس لأحد من الأمر شيء. ولهذا قال: ﴿قل إنما الآيات عند الله﴾ إن شاء أنزلها أو منعها ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾ وليس لي مرتبة فوق هذه المرتبة.

وإذا كان القصد بيان الحق من الباطل، فإذا حصل المقصود - بأي طريق - كان اقتراح الآيات المعينات على ذلك ظليماً وجوراً، وتكبراً على الله وعلى الحق.

بل لو قدر أن تنزل تلك الآيات، ويكون في قلوبهم أنهم لا يؤمنون بالحق إلا بها، كان ذلك ليس بإيمان، وإنما ذلك شيء وافق أهواءهم، فأمنوا، لا لأنه حق، بل لتلك الآيات.

فأي فائدة حصلت في إنزالها على التقدير الفرضي؟ ولما كان المقصود بيان الحق، ذكر تعالى طريقه، فقال: ﴿أولم يكفهم﴾ في علمهم بصدقك وصدق ما جئت به ﴿أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم﴾ وهذا كلام مختصر جامع، فيه من الآيات البينات، والدلالات الباهرات، شيء كثير، فإنه كما تقدم إتيان الرسول به بمجرد وهو أمني، من أكبر الآيات على صدقه.

على مقصودهم، فأهانهم^(٧) الله، وقتل كبارهم، واستوعب جملة أشرارهم، ولم يبق فيهم بيت إلا أصابته تلك المصيبة، فأناهم العذاب من حيث لم يحتسبوا، ونزل بهم وهم لا يشعرون.

هذا، وإن لم ينزل عليهم العذاب الدنيوي، فإن أمامهم العذاب الآخروي، الذي لا يخلص منهم أحد منه، سواء عوجل بعذاب الدنيا أو أمهل.

﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ ليس لهم عنها معدل ولا متصرف، قد أحاطت بهم من كل جانب، كما أحاطت بهم ذنوبهم وسيئاتهم وكفرهم، وذلك العذاب، هو العذاب الشديد.

﴿يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون﴾ فإن أعمالكم انقلب عليكم عذاباً، وشملكم العذاب كما شملكم الكفر والذنوب.

﴿٥٦ - ٥٩﴾ يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فيأيادي فاعبدون * كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون * والذين آمنوا وعملوا الصالحات لبئسنتهم من الجنة غرماً نجزي من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين * الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون * يقول تعالى: ﴿يا عبادي الذين آمنوا﴾ بي وصدقوا رسولي ﴿إن أرضي واسعة فيأيادي فاعبدون﴾ فإذا تعذرت عليكم عبادة ربكم في أرض، فارتحلوا منها إلى أرض أخرى، حيث كانت العبادة لله وحده، فأماكن العبادة ومواضعها، واسعة، والمعبود واحد، والموت لا بد أن ينزل بكم ثم ترجعون إلى ربكم، فيجازي من أحسن عبادته وجمع بين الإيمان والعمل الصالح بإنزاله الغرف العالية، والمنازل الأنيفة الجامعة لما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، وأتم فيها خالدون.

فلتكفيكم هذه الشهادة الجليلة من الله، فإن وقع في قلوبكم أن شهادته - وأنتم لم تسمعه ولم تروه - لا تكفي دليلاً، فإنه يعلم ما في السماوات والأرض. ومن جملة معلوماته جالي وحالككم، ومقالي لكم^(٥) فلو كنتم متقولاً عليه، مع علمه بذلك، وقدرته على عقوبي، لكان [قدحاً في علمه وقدرته وحكمته] كما قال تعالى: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين﴾.

﴿والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون﴾ حيث هم خسروا الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وحيث فاتهم النعيم المقيم، وحيث حصل لهم في مقابلة الحق الصحيح كل باطل قبيح، وفي مقابلة النعيم كل عذاب أليم، فخسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة.

﴿٥٣ - ٥٥﴾ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون * يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين * يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون * يخبر تعالى عن جهل المكذبين للرسول وما جاء به، وأنهم يقولون - استعجالاً للعذاب، وزيادة تكذيب - متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟

يقول تعالى: ﴿ولولا أجل مسمى﴾ مضروب لنزوله، ولم يأت بعد، ﴿لجاءهم العذاب﴾ بسبب تعجزهم لنا وتكذيبهم الحق، فلو أخذناهم بجهلهم، لكان كلامهم أسرع لبلائهم وعقوبتهم، ولكن - مع ذلك - فلا يستبطئون^(٦) نزوله، فإنه سيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون. فوقع كما أخبر الله تعالى، لما قدموا لـ «بدر» بطرين مفاخرين، طائنين أنهم قادرون

ثم عجزهم عن معارضته، وتحديه إياهم^(١)، آية أخرى، ثم ظهوره، وبروزه جهراً علانية، يتلى عليهم، ويقال: هو من عند الله، قد أظهره الرسول، وهو في وقت قل فيه أنصاره، وكثر مخالفوه وأعداؤه، فلم يخفه، ولم يثن ذلك عزمه، بل صرح به على رؤوس الأشهاد، ونادى به بين الحاضر والباد، بأن هذا كلام ربي، فهل أحد يقدر على معارضته، أو ينطق بمباراته أو يستطيع مجاراته؟

ثم إخباره عن قصص الأولين، وأنباء السابقين^(٢)، والغيوب المتقدمة والمتأخرة، مع مطابقته للواقع.

ثم هيئته على الكتب المتقدمة، وتصحيحه للصحيح، ونفي ما أدخل فيها من التحريف والتبديل، ثم هدايته لسواء السبيل، في أمره ونهي، فمما أمر بشيء فقال العقل «ليته لم يأمر به»، ولا نهى عن شيء فقال العقل: «ليته لم ينه عنه»، بل هو مطابق للعقل والميزان، والحكمة المعقولة لذوي البصائر والعقول [ثم مسارية إرشاداته وهدايته وأحكامه لكل حال وكل زمان بحيث لا تضلح الأمور إلا به]^(٣).

فجميع ذلك يكفي من أراد تصديق الحق، وعمل على طلب الحق، فلا كفى الله من لم يكفه القرآن، ولا شفى الله من لم يشفه الفرقان، ومن اهتدى به واكتفى، فإنه خير له^(٤)، فلذلك قال: ﴿إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾ وذلك لما يحصلون فيه من العلم الكثير، والخير الغزير، وتركبة القلوب والأرواح، وتطهير العقائد، وتكميل الأخلاق، والفتوحات الإلهية، والأسرار الربانية.

﴿قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً﴾ فأنا قد استشهدته، فإن كنت كاذباً، أحل بي ما به يعتبرون، وإن كان إنما يؤيدني وينصري ويسر لي الأمور،

(٧) في النسخين: فأهانهم، ولعلها كما أثبت والله أعلم.

(٤) في ب: فإنه رحمة له وخير.

(٥) كذا في ب، وفي أ: ومقالكم.

(٦) كذا في ب، وفي أ: يستعجلون.

(١) في ب: وتحديهم إياه.

(٢) في ب: السالفين.

(٣) زيادة من هامش: ب.

الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين * والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين * يغير تعالى عن حالة الدنيا والآخرة، وفي ضمن ذلك، التهديد في الدنيا والتشويق للآخرة، فقال: ﴿وما هذه الحياة الدنيا﴾ في الحقيقة ﴿إلا لهو ولعب﴾. تلهو بها القلوب، وتلعب بها الأبدان، بسبب ما جعل الله فيها من الزينة واللذات، والشهوات الخالية للقلوب المعرضة، الباهجة للعيون الغافلة، المفرحة للنفس الباطلة، ثم تزول سريعاً، وتنقضي جميعاً، ولم يحصل منها محبتها إلا على الندم والخسرة والخسران.

وأما الدار الآخرة، فإنها دار ﴿الحياة﴾ أي: الحياة الكاملة، التي من لوازمها، أن تكون أبدان أهلها في غاية القوة، وقواهم في غاية الشدة، لأنها أبدان وقوى خلقت للحياة، وأن يكون موجوداً فيها كل ما تكمل به الحياة، وتتم به اللذات، من مفرحات القلوب، وشهوات الأبدان، من المأكّل، والمشرب، والمناجح، وغير ذلك، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿لو كانوا يعلمون﴾ لما أتروا الدنيا على الآخرة، ولو كانوا يعلمون لما رغبوا عن دار الحيوان، ورغبوا في دار اللهو واللعب، فدل ذلك على أن الذين يعلمون، لا بد أن يؤثروا الآخرة على الدنيا، لما يعلمونه من حالة الدارين.

ثم ألزم تعالى المشركين بإخلاصهم لله تعالى، في حالة الشدة، عند ركوب البحر وتلاطم أمواجه وخوفهم الهلاك، يترون إذا أندادهم، ويخلصون الدعاء لله وحده لا شريك له، فلما زالت عنهم الشدة، ونجى^(٢) من أخلصوا له الدعاء إلى البر، أشركوا به من لا نجاهم من شدة، ولا أزال^(٣) عنهم مشقة.

فهلاً أخلصوا الله الدعاء في حال

موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون * هذا استدلال على المشركين المكذبين بتوحيد الإلهية والعبادة، وإلزام لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية، فأنت لو سألتهم من خلق السماوات والأرض، ومن نزل من السماء ماء فأجابه الأرض بعد موتها، ومن بيده تدبير جميع الأشياء؟ ﴿ليقولن الله﴾ وحده، ولا غترقوا بعجز الأوثان ومن عبدوه مع الله على شيء من ذلك.

فأعجب لإفكهم وكذبهم، وعدولهم إلى من أقروا بعجزه، وأنه لا يستحق أن يدبر شيئاً، وسجل عليهم بعدم العقل، وأنهم السفهاء ضعفاء الأحلام، فهل تجد أضعف عقلاً، وأقل بصيرة، من أتى إلى حجر، أو قبر ونحوه، وهو يدري أنه لا ينفع ولا ينضر، ولا يخلق ولا يبرق، ثم صرف له خالص الإخلاص، وصافي العبودية، وأشركه مع الرب، الخالق الرازق، النافع الضار.

وقل: الحمد لله الذي بين الهدى من الضلال، وأوضح بطلان ما عليه المشركون، ليحذره الموفقون.

وقل: الحمد لله، الذي خلق العالم العلوي والسفلي، وقام بتدبيرهم ورزقهم، ويسط الرزق على من يشاء، وضيقة على من يشاء، حكمة منه، ولعلمه بما يصلح عباده وما ينبغي لهم.

﴿٦٤ - ٦٩﴾ ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ فإذا ركبو في الفلك دعوا الله خالصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون * ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون * أولم يروا أننا جعلنا خرمًا آمنًا ويتخطف الناس من حولهم أفالباطل يؤمنون بنبعثة الله يكفرون * ومن أظلم ممن افترى على

ف ﴿نعم﴾ تلك المنازل، في جنات النعيم ﴿أجر العاملين﴾ الله، ﴿الذين صبروا﴾ على عبادة الله ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ في ذلك. فصبرهم على عبادة الله، يقتضي بذل الجهد والطاقة في ذلك، والمحاربة العظيمة للشيطان، الذي يدعوهم إلى الإخلال بشيء من ذلك.

وتوكلهم، يقتضي شدة اعتمادهم على الله، وحسن ظنهم به، أن يحقق ما عزموا عليه من الأعمال ويكملها، ونص على التوكل، وإن كان داخلياً في الصبر، لأنه يحتاج إليه في كل فعل وترك مأمور به، ولا يتم إلا به.

﴿٦٠﴾ ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم﴾ أي: الباري تبارك وتعالى، قد تكفل بأرزاق الخلائق كلهم، قويم وعاجزهم، فكهم ﴿من دابة﴾ في الأرض، ضعيفة القوى، ضعيفة العقل. ﴿لا تحمل رزقها﴾ ولا تدخره، بل لم تزل، لا شيء معها من الرزق، ولا يزال الله يسخر لها الرزق، في كل وقت بوقته.

﴿الله يرزقها وإياكم﴾ فكلكم عيال الله، القائم برزقكم، كما قام بخلقكم وتدبيركم، وهو السميع العليم فلا يخفى عليه خافية، ولا تهلك دابة من عدم الرزق بسبب أنها خافية عليه.

كما قال تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾.

﴿٦١ - ٦٣﴾ ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون﴾ الله يسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم * ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأجابه الأرض من بعد

(١) في ب: حال.

(٢) كذا في ب، وفي أ: نجاهم.

(٣) كذا في ب، وفي أ: زال..

ويحلوا بساحته. وهذه الأمور لو قارنها الإيمان وبنيت عليه لأثمرت الرقي العالي، والحياة الطيبة، ولكنها لما بنى كثير، منها على الإلحاد لم تثمر إلا هبوط الأخلاق وأسباب الفناء والتدمير^(١).

﴿٨-١٠﴾ ﴿أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس يلقاء بهم لكافرون﴾ * أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون * ثم كان عاقبة الذين أسأوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾ أي: أفلم يتفكر هؤلاء المكذبون لرسول الله ولقائه في أنفسهم؟ فإن في أنفسهم آيات يعرفون^(٢) بها، أن الذي أوجدهم من الغد، سيعدمهم بعد ذلك، وأن الذي نقلهم أطواراً من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى آدمي، قد نفخ فيه الروح، إلى طفل، إلى شاب، إلى شيخ، إلى هرم، غير لائق أن يتركهم سيدي مهملين، لا يهتمون ولا يؤمرون، ولا يثابون ولا يعاقبون.

﴿ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ [أي] ليلوكم أيكم أحسن عملاً. ﴿وأجل مسمى﴾ أي: مؤقت بقاؤهما إلى أجل تنقضي به الدنيا، وتجيء به القيامة، وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات.

﴿وإن كثيراً من الناس يلقاء بهم لكافرون﴾ فلذلك لم يستعدوا للقاءه، ولم يصدقوا رسله التي أخبرت به، وهذا الكفر عن غير دليل، بل الأدلة القاطعة، قد دلت على البعث والجزاء،

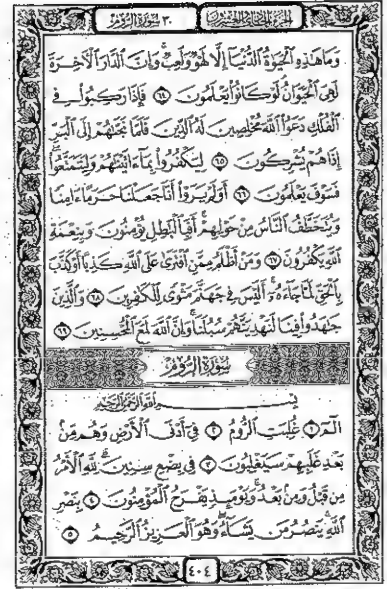
أسباب وجوده، ويتيقنون عدم الأمر الذي لم يشاهدوا له من الأسباب المقتضية لوجوده شيئاً، فهم واقفون مع الأسباب، غير ناظرين إلى مسببها، المتصرف فيها.

﴿وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ قد توجهت قلوبهم وأموالهم وإزاداتهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها، فعملت لها وسعت، وأقبلت بها وأدبرت، وغفلت عن الآخرة، فلا الجنة تشتاق إليها، ولا النار تخافها وتحشاها، ولا المقام بين يدي الله ولقائه يروعها ويزعجها، وهذا علامة الشقاء، وعنوان الغفلة عن الآخرة.

ومن العجب أن هذا القسم من الناس، قد بلغت بكثير منهم الفطنة والذكاء في ظاهر الدنيا، إلى أمر يحير العقول ويدهش الألباب.

وأظهروا من العجائب الذرية^(٣) والكهربائية، والمراكب البرية والبحرية والهوائية، ما فاقوا به وبرزوا، وأعجبوا بعقولهم، ورأوا غيرهم عاجزاً عما أقدرهم الله عليه، فظنوا إليهم بعين الاحتقار والازدراء، وهم مع ذلك، أبعد الناس في أمر دينهم، وأشدهم غفلة عن آخرتهم، وأقلهم مخرفة بالعواقب، قد رآهم أهل البصائر النافذة، في جهلهم يتخطون، وفي ضلالهم يعمهون، وفي باطلهم يترددون^(٤). نسوا الله فأنساهم أنفسهم، أولئك هم الفاسقون.

ثم^(٥) نظروا إلى ما أعطاهم الله وأقدرهم عليه، من الأفكار الدقيقة في الدنيا وظاهرها، و[ما] خرموا من العقل العالي، فعرفوا^(٦) أن الأمر لله، والحكم له في عباده، وإن هو إلا توفيقه وخذلانه، فخافوا^(٧) ربهم وسألوه أن يتم لهم ما وهبهم، من نور العقول والإيمان، حتى يصلوا إليه،



لا يدخل في الحساب.

﴿وعد الله لا يخلف الله وعده﴾ فتيقنوا ذلك، واجزموا به، واعلموا أنه لا بد من وقوعه.

فلما نزلت هذه الآيات، التي فيها هذا الوعد، صدق بها المسلمون، وكفر بها المشركون، حتى تراه من بعض المسلمين وبعض المشركين على مدة سنين عيونها، فلما جاء الأجل، الذي ضربه الله، انتصر الروم على الفرس، وأجلوهم من بلادهم التي أخذوها منهم، وتحقق وعد الله.

وهذا من الأمور الغيبية التي أخبر بها الله قبل وقوعها، ووجدت في زمان من أخبرهم الله بها، من المسلمين والمشركين. ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أن ما وعد الله به حق، فلذلك يوجد فريق منهم يكذبون بنوع الله، ويكذبون آياته، وهؤلاء الذين لا يعلمون، أي: لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقبها، وإنما يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، فينظرون إلى الأسباب، ويجزمون بوقوع الأمر الذي في رأيهم اعتقدت

(٧) كذا في ب، وفي أ: يعرف.

(٤) في ب: عدلت إلى: لعرفوا.

(٥) في ب: عدلت إلى ولخافوا.

(٦) زيادة من هامش ب، لم يتضح أولها وقد نقلته من طبعة السلفية.

(١) كذا في ب، وفي أ: النارية.

(٢) كذا في ب، وفي أ: يتردون.

(٣) هكذا في النسختين، وقد شطبت الكلمة في ب، وجعل بدلها (ولو).

ولهذا نهبهم على السير في الأرض، والنظر في عاقبة الذين كذبوا رسلهم وخالفوا أمرهم، ممن هم أشد من هؤلاء قوة، وأكثر آثاراً في الأرض، من بناء قصور ومصانع، ومن غرس أشجار، ومن زرع وإجراء أنهار، فلم تغن عنهم قوتهم، ولا نفعهم آثارهم، حين كذبوا رسلهم الذين جاؤوهم بالبيانات الدالات على الحق، وصحة ما جاؤوهم به، فإنهم حين ينظرون في آثار أولئك، لم يجدوا إلا أعماً بائدة، وخلقاً مهلكين، ومنازل بعدهم موحشة، وذم من الخلق عليهم متابع. وهذا جزاء معجل، نموذج للجزاء الأخرى ومبتدأ له.

وكل هذه الأسم المهلكة، لم يظلمهم الله بذلك الإهلاك، وإنما ظلموا أنفسهم، وتسبوا في هلاكها.

﴿ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأي﴾ أي: الحالة السيئة الشنيعة، وصار ذلك داعياً لهم لأن ﴿كذبوا﴾ بآيات الله وكانوا بها يستهزؤون ﴿فهذا عاقبة لسوءهم وذنوبهم﴾.

ثم ذلك الاستهزاء والتكذيب، يكون سبباً لأعظم العقوبات وأعضل المثالات.

﴿١١-١٦﴾ ﴿الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون﴾ * ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون * ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين * ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون * فأما الذين آمنوا واصلحوا فالصالحات فهم في روضة يحبرون * وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون * يخبر تعالى أنه المتفرد بإبداء المخلوقات، ثم يعيدهم، ثم إليه يرجعون بعد إعادتهم، ليجازيهم بأعمالهم، ولهذا ذكر جزاء أهل الشر، ثم جزاء أهل الخير، فقال: ﴿ويوم تقوم الساعة﴾ أي: يقوم الناس لرب العالمين،

ويردون القيامة عياناً، يومئذ يبلس المجرمون * أي: يأسون من كل خير. وذلك أنهم ما قدموا لذلك اليوم إلا الإجرام، وهي الذنوب، من كفر وشرك ومعاصي، فلما قدموا أسباب العقاب، ولم يخلطوها بشيء من أسباب الثواب، أيسوا وأبلسوا وأفلسوا، وضل عنهم ما كانوا يفترونه، من نفع شركائهم، وأنهم يشفعون لهم، ولهذا قال: ﴿ولم يكن لهم من شركائهم﴾ التي عبدوها مع الله ﴿شفعاء وكانوا﴾ بشركائهم كافرين ﴿تبرأ المشركون ممن أشركوهم مع الله، وتبرأ المعبودون، وقالوا: ﴿تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون﴾ والتعنوا وابتعدوا، وفي ذلك اليوم يفترق أهل الخير والشر، كما افرقت أعمالهم في الدنيا.

﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ آمنوا بقلوبهم، وصدقوا ذلك بالأعمال الصالحة ﴿فهم في روضة﴾ فيها سائر أنواع النبات وأصناف المشتبهات، ﴿يحبرون﴾ أي: يسرون، ويتعمون بالماكل اللذيذة، والأشربة، والخور الحسان، والخدم، والولدان، والأصوات المطربات، والسماع المشجي، والمناظر العجيبة، والروائح الطيبة، والفرح والسرور، واللذة والحبور، مما لا يقدر أحد أن يصفه.

﴿١٦﴾ ﴿وأما الذين كفروا﴾ وجحدوا نعمه، وقابلوها بالكفر ﴿وكذبوا بآياتنا﴾ التي جاءتهم بها رسلنا ﴿فأولئك في العذاب محضرون﴾ فيه، قد أحاطت بهم جهنم من جميع جهاتهم، وأطلع العذاب الأليم على أفئدتهم، وشوى الحميم وجوههم وقطع أمعاءهم، فأين الفرق بين الفريقين، وأين التساوي بين المنعمين والمعذبين!!

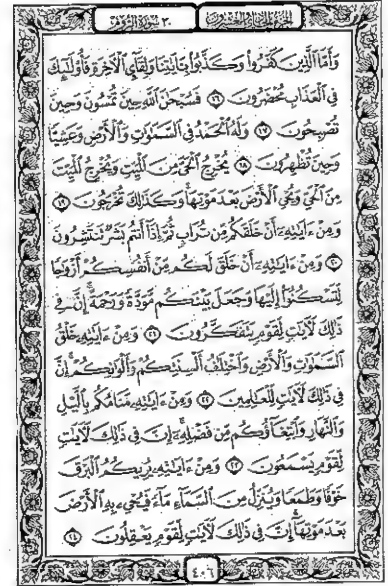
﴿١٧-١٩﴾ ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون﴾ * وله الحمد

﴿وحمده لا تحيط الله وعنده أولئك﴾ أي: أولئك المجرمون ﴿الذين كفروا﴾ * ﴿ولم يكن لهم من شركائهم﴾ التي عبدوها مع الله ﴿شفعاء وكانوا﴾ بشركائهم كافرين ﴿تبرأ المشركون ممن أشركوهم مع الله، وتبرأ المعبودون، وقالوا: ﴿تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون﴾ والتعنوا وابتعدوا، وفي ذلك اليوم يفترق أهل الخير والشر، كما افرقت أعمالهم في الدنيا.

في السماوات والأرض وعشياً وحين تظهرون * يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون * هذا إخبار عن تنزيهه عن السوء والنقص، وتقديسه عن أن يماثله أحد من الخلق، وأمر للعباد أن يستحوه حين يمسون وحين يصبحون، ووقت العشي، ووقت الظهيرة.

فهذه الأوقات الخمسة، أوقات الصلوات الخمس، أمر الله عباده بالتسبيح فيها والحمد، ويدخل في ذلك، الواجب منه، كالمشملة عليه الصلوات الخمس، والمستحب، كأذكار الصباح والمساء وأدبار الصلوات، وما يقترن بها من النوافل، لأن هذه الأوقات التي اختارها الله [لأوقات المفروضات هي] أفضل من غيرها [فالتسبيح والتحميد فيها والعبادة فيها أفضل من غيرها] ^(١) بل العبادة، وإن لم تشتمل على قول «سبحان الله» فإن الإخلاص فيها تنزيه لله بالفعل، أن يكون له شريك في العبادة، أو أن يستحق أحد من الخلق ما يستحقه من الإخلاص والإنابة.

﴿يخرج الحي من الميت﴾ كما يخرج



النبات من الأرض الميتة، والسنبلة من الحية، والشجرة من النواة، والفرخ من البيضة، والمؤمن من الكافر، ونحو ذلك.

﴿ويخرج الميت من الحي﴾ بعكس المذكور ﴿ويحيي الأرض بعد موتها﴾ فينزل عليها المطر وهي ميتة هامدة، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ﴿وكذلك تخرجون﴾ من قبوركم.

فهذا دليل قاطع، وبرهان ساطع، أن الذي أحيا الأرض بعد موتها، فإنه يحيي الأموات، فلا فرق في نظر العقل بين الأمرين، ولا موجب لاستبعاد أحدهما مع مشاهدة الآخر.

﴿٢٠ - ٢١﴾ ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ * ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ هذا شروع في تعداد آياته الدالة على انفراده بالإلهية، وكمال

عظمته، ونفوذ مشيئته، وقوة إقداره، وجعل صنعه، وسعة رحمته وإحسانه، فقال: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب﴾ وذلك بخلق أصل النسل، آدم عليه السلام، ﴿ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ [أي: الذي خلقكم من أصل واحد ومادة واحدة] ^(١) وبكم في أقطار الأرض أو أرجائها ففي ذلك آيات على أن الذي أنشأكم من هذا الأصل وبكم في أقطار الأرض ^(٢) هو الرب العبود، الملك المحمود، والرحيم الودود، الذي سيعيدكم بالبعث بعد الموت.

﴿ومن آياته﴾ الدالة على رحمته وعنايته بعباده، وحكمته العظيمة، وعلمه المحيط، ﴿أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا﴾ تناسبكم وتناسبونهم، وتشاكلكم وتشاكلونهم، ﴿لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ بما رتب على الزواج من الأسباب الجالبة للمودة والرحمة.

فحصل بالزوجة الاستمتاع واللذة، والمنفعة بوجود الأولاد وتربيتهم، والسكون إليها، فلا تجد بين أحد في الغالب، مثل ما بين الزوجين من المودة والرحمة، ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ يعملون أفكارهم، ويتدبرون آيات الله، وينتقلون من شيء إلى شيء.

﴿٢٢﴾ ﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف السنتكم وألوانكم﴾ إن في ذلك لآيات للعالمين، والعالمون هم أهل العلم، الذين يفهمون العبر، ويتدبرون الآيات. والآيات في ذلك كثيرة: فمن آيات خلق السماوات والأرض وما فيهما، أن ذلك دال على عظمة سلطان الله وكمال إقداره، الذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة،

وكمال حكمته، لما فيها من الإتيان، وسعة علمه، لأن الخالق لا بد أن يعلم ما خلقه ﴿ألا يعلم من خلق﴾ وعموم رحمته وفضله، لما في ذلك من المنافع الجليلة، وأنه المريد، الذي يختار ما يشاء، لما فيها من التخصيصات والمزايا، وأنه وحده، الذي يستحق أن يعبد ويوحّد، لأنه المنفرد بالخلق، فيجب أن يفرد بالعبادة، فكل هذه أدلة عقلية، نبه الله العقول إليها، وأمرها بالتفكير واستخراج العبرة منها.

﴿و﴾ كذلك في ﴿اختلاف السنتكم وألوانكم﴾ على كثرتكم وتباينكم مع أن الأصل واحد، ونحارج الحروف واحدة، ومع ذلك لا تجد صوتين متفقيين من كل وجه، ولا لونين متشابهين من كل وجه، إلا وتجد من الفرق بين ذلك ما به يحصل التمييز. وهذا دال على كمال قدرته، ونفوذ مشيئته.

﴿ومن﴾ ^(٣) عنايته بعباده ورحمته بهم، أن قدر ذلك الاختلاف، لثلا يقع التشابه فيحصل الاضطراب، ويقوت كثير من المقاصد والمطالب.

﴿٢٣﴾ ﴿ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يستمعون﴾ أي: سماع تدبر وتعقل للعناني والآيات في ذلك. إن ذلك دليل على رحمة الله تعالى، كما قال: ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ وعلى تمام حكمته، إذ حكمته اقتضت سكون الخلق في وقت، ليستريحوا به ^(٤) ويستجموا ^(٥)، وانتشارهم في وقت، لمضالحهم الدينية والدنيوية، ولا يتم ذلك إلا بتعاقب الليل والنهار عليهم، والمنفرد بذلك، هو المستحق للعبادة.

﴿٢٤﴾ ﴿ومن آياته يريكم البرق

(١) زيادة بخط المؤلف من هامش أ.

(٢) زيادة من ب.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

(٤) زيادة من أ.

(٥) الكلمة غير واضحة في النسختين وكأنها (ويجموا) وقد زيد عليها في نسخة ب حرفان فصارت يستجموا.

خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴿٢٥﴾ أي : ومن آياته ، أن ينزل عليكم المطر ، الذي تحيا به البلاد والعباد ، ويريكهم قبل نزوله مقدماته ، من الرعد والبرق ، الذي يخاف ويطمع فيه .

﴿إن في ذلك لآيات﴾ [دالة] على عموم إحسانه ، وسعة علمه ، وكمال إتقانه ، وعظيم حكمته ، وأنه يحيي الموتى ، كما أحيا الأرض بعد موتها . ﴿لقوم يعقلون﴾ أي : لهم عقول ، تعقل بها ما تسمعه ، وتراه وتحفظه ، وتستدل به على ما جعل دليلاً عليه .

﴿٢٥ - ٢٧﴾ ﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ * وله من في السماوات والأرض كل له قانتون ﴾ * وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ أي : ومن آياته العظيمة ، أن قامت السماوات والأرض واستقرتا ، وثبتتا بأمره فلم تتزلزلا ، ولم تسقط السماء على الأرض ، فقدرة العظيمة ، التي بها أمسك السماوات والأرض أن تزولا ، يقدر بها أنه إذا دعا الخلق دعوة من الأرض ، إذا هم يخرجون ﴿خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس﴾ .

﴿وله من في السماوات والأرض﴾ الكل خلقه ومماليكه ، المتصرف فيهم من غير منازع ولا معاون ولا معارض ، وكلهم قانتون لجلاله ، خاضعون لكماله .

﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو﴾ أي : الإعادة للخلق بعد موتهم ﴿أهون عليه﴾ من ابتداء خلقهم ، وهذا بالنسبة إلى الأذهان والعقول ، فإذا كان قادراً على الابتداء الذي تقرون به ، كانت ^(١) قدرته على الإعادة التي أهون أولى وأولى .

ولما ذكر من الآيات العظيمة ما به

يعتبر المعتبرون ، ويتذكر المؤمنون ويتبصر المهتدون ، ذكر الأمر العظيم والمطلب الكبير ، فقال : ﴿وله المثل الأعلى في السماوات والأرض﴾ وهو كل صفة كمال ، والكمال من تلك الصفة ، والمحبة ، والإنابة التامة الكاملة في قلوب عباده المخلصين ، والذكر الجليل ، والعبادة منهم . فالمثل الأعلى ، هو وصفه الأعلى ، وما ترتب عليه .

ولهذا كان أهل العلم يستعملون في حق الباري قياس الأولى ، فيقولون : كل صفة كمال في المخلوقات ، فخالقها أحق بالاتصاف بها ، على وجه لا يشاركه فيها أحد ، وكل نقص في المخلوق ينزه عنه ، فتزبه الخالق عنه من باب أولى وأحرى .

﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي : له العزة الكاملة ، والحكمة الواسعة ، فعزته ، أوجد بها المخلوقات وأظهر المأمورات ، وحكمته ، أتقن بها ما صنعه وأحسن فيها ما شرعه .

﴿٢٨ - ٢٩﴾ ﴿ضرب لكم مثلاً﴾ من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾ * بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين ﴾ هذا مثل ضربه الله تعالى ، لقبح الشرك وتبعيته ، مثلاً من أنفسكم ، لا يحتاج إلى حل وترحال ، وإعمال الجمال .

﴿هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم﴾ أي : هل أحد من عبيدكم وإمائكم الأرقاء يشارككم في رزقكم ، وترون أنكم وهم فيه على حد سواء .

﴿تخافونهم كخيفتكم أنفسكم﴾ أي : كالأحرار الشركاء في الحقيقة ، الذين يخاف من قسمه ، واختصاص كل شيء بحاله ؟

ليس الأمر كذلك ، فإنه ليس أحد مما ملكت أيمانكم شريكاً لكم فيما

رزقكم الله تعالى .

هذا ، ولستم الذين خلقتهم وهم ورزقتهمهم ، وهم أيضاً أماليك مثلكم ، فكيف ترضون أن تجعلوا لله شريكاً من خلقه ، وتجعلونه بمنزلته ، وعديلاً له في العبادة ، وأنتم لا ترضون مساواة ممالككم لكم ؟ هذا من أعجب الأشياء ، ومن أدل شيء على [سفه] ^(٢) من اتخذ شريكاً مع الله ، وأن ما اتخذ باطل مضمحل ، ليس مساوياً لله ، ولا له من العبادة شيء .

﴿كذلك نفصل الآيات﴾ بتوضيحها بأمثلها ﴿لقوم يعقلون﴾ الحقائق ويعرفون ، وأما من لا يعقل ، فلو فصلت له الآيات ، وبينت له البينات ، لم يكن له عقل يبصر به ما تبين ، ولا لب يعقل به ما توضح ، فأهل العقول والألباب ، هم الذين يساق إليهم الكلام ، ويوجه الخطاب .

وإذا علم من هذا المثال ، أن من اتخذ من دون الله شريكاً يعبد ويتوكل عليه في أموره ، فإنه ليس معه من الحق شيء ، فما الذي أوجب له الإقدام على أمر باطل ، توضح له بطلانه وظهر برهانه ؟ [لقد] ^(٣) أوجب لهم ذلك اتباع الهوى ، فلماذا قال : ﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم﴾ هويت أنفسهم الناقصة ، التي ظهر من نقصانها ما تعلق به هواها ، أمراً يجزم العقل بفساده ، والفطر برده ، بغير علم دلهم عليه ، ولا برهان قادهم إليه .

﴿فمن يهدي من أضل الله﴾ أي : لا تعجبوا من عدم هدايتهم ، فإن الله تعالى أضلهم بظلمهم ، ولا طريق لهداية من أضل الله ، لأنه ليس أحد معارضاً لله ، أو منازعاً له في ملكه .

﴿وما لهم من ناصرين﴾ ينصرونهم حين تحق عليهم كلمة العذاب ، وتنقطع بهم الوصل والأسباب .

﴿٣٠ - ٣٢﴾ ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم

(٣) زيادة من : ب .

(٢) زيادة من : ب .

(١) في السخيتين : كان .

ولكن أكثر الناس لا يعلمون * منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين * من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون * يأمر تعالى بالإخلاص له في جميع الأحوال، وإقامة دينه، فقال: **﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾** أي: انصبه ووجهه إلى الدين الذي هو الإسلام، والإيمان، والإحسان، بأن تتوجه بقلبك، وقصدك، وبدنك إلى إقامة شرائع الدين الظاهرة، كالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج ونحوها. وشرائعه الباطنة، كالمحبة، والخوف، والرجاء، والإنابة، والإحسان في الشرائع الظاهرة والباطنة، بأن تعبد الله فيها كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك.

وخص الله إقامة الوجه، لأن إقبال الوجه تبع لإقبال القلب، وترتب على الأمرين سعي البدن، ولهذا قال: **﴿حَنِيفًا﴾** أي: مقبلا على الله في ذلك، معرضاً عما سواه.

وهذا الأمر الذي أمرناك به، هو **﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾** ووضع في عقولهم حسنها، واستباح غيرها، فإن جميع أحكام الشرع، الظاهرة والباطنة، قد وضع الله في قلوب الخلق كلهم، الميل إليها، فوضع في قلوبهم محبة الحق، وإيثار الحق، وهذا حقيقة الفطرة.

ومن خرج عن هذا الأصل، فلعارض عرض لفطرته أفسدها، كما قال النبي ﷺ: **﴿كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه﴾**.

﴿لا تبديل لخلق الله﴾ أي: لا أحد يبدل خلق الله، فيجعل المخلوق على غير الوضع الذي وضعه الله. **﴿ذلك﴾** الذي أمرنا به **﴿الدين القيم﴾** أي: الطريق المستقيم الموصل إلى الله، وإلى كرامته، فإن من أقام وجهه للدين خنيفاً، فإنه سالك الصراط المستقيم، في جميع شرائعه وطرقه، **﴿ولكن أكثر**

الناس لا يعلمون﴾ فلا يتعرفون الدين القيم، وإن عرفوه لم يسلكوه. **﴿منيبين إليه واتقوه﴾** وهذا تفسير لإقامة الوجه للدين، فإن الإنابة إنابة القلب وانجذاب دواعيه لمراضي الله تعالى.

ويلزم من ذلك، حمل **﴿البدن﴾** بمقتضى ما في القلب، فشمّل ذلك العبادات الظاهرة والباطنة، ولا يتم ذلك إلا بترك المعاصي الظاهرة والباطنة، فلذلك قال: **﴿واتقوه﴾** فهذا يشمل فعل المأمورات وترك المنهيات، وخص من المأمورات الصلاة، لكونها تدعو إلى الإنابة والتقوى، لقوله تعالى: **﴿وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾** فهذا إعانتها على التقوى.

ثم قال: **﴿ولذكر الله أكبر﴾** فهذا حثها على الإنابة.

وخص من المنهيات أصلها، والذي لا يقبل معه عمل، وهو الشرك، فقال: **﴿ولا تكونوا من المشركين﴾** لكون الشرك مضاداً للإنابة، التي روحها الإخلاص من كل وجه.

ثم ذكر حالة المشركين مهجناً لها ومقبحاً، فقال: **﴿من الذين فرقوا دينهم﴾** مع أن الدين واحد، وهو إخلاص العبادة لله وحده، وهؤلاء المشركون فرقوه، منهم من يعبد الأوثان والأصنام، ومنهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الأولياء والصالحين، ومنهم يهود، ومنهم نصارى.

ولهذا قال: **﴿وكانوا شيعاً﴾** أي: كل فرقة من فرق الشرك تألفت وتعصبت، على نصر ما معها من الباطل، ومناوذة غيرهم ومحاربتهم.

﴿كل حزب بما لديهم﴾ من العلوم المخالفة لعلوم الرسل **﴿فرحون﴾** به، يحكمون لأنفسهم بأنه الحق، وأن غيرهم على باطل، وفي هذا تحذير للمسلمين من تشتتهم وتفرقهم فرقا، كل فريق يتعصب لما معهم من حق

وباطل، فيكونون مشابهيين بذلك للمشركين في التفرق، بل الدين واحد، والرسول واحد، والإله واحد.

وأكثر الأمور الدينية، وقع فيها الإجماع بين العلماء والأئمة، والأخوة الإيمانية، قد عقدتها الله وربطها أتم ربط، فما بال ذلك كله يلغى، ويبنى التفرق والشقاق بين المسلمين على مسائل خفية، أو فروع خلافية، يضل بها بعضهم بعضاً، ويتميز بها بعضهم عن بعض؟

فهل هذا إلا من أكبر نزغات الشيطان وأعظم مقاصده، التي كاد بها للمسلمين؟

وهل السعي في جمع كلمتهم، وإزالة ما بينهم من الشقاق، المبني على ذلك الأصل الباطل، إلا من أفضل الجهاد في سبيل الله، وأفضل الأعمال المقربة إلى الله؟

ولما أمر تعالى بالإنابة إليه - وكان المأمور بها، هي الإنابة الاختيارية، التي تكون في حالي العسر واليسر، والسعة والضيق - ذكر الإنابة الاضطرارية، التي لا تكون مع الإنسان إلا عند ضيقه وكربه، فإذا زال عنه الضيق، نبذها وراء ظهره، وهذه غير نافعة، فقال:

﴿٣٣-٣٥﴾ **﴿وإذا مسّ الناس ضرر﴾** دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون * ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون * أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون *

﴿وإذا مسّ الناس ضرر﴾ مرض، أو خوف من هلاك، ونحوه. **﴿دعوا ربهم منيبين إليه﴾** ونسوا ما كانوا به يشركون في تلك الحال، لعلمهم أنه لا يكشف الضر إلا الله.

﴿ثم إذا أذاقهم منه رحمة﴾ شفاهم من مرضهم، وأمنهم من خوفهم، **﴿إذا فريق منهم﴾** يقضون تلك الإنابة



أي: استعلن الفساد في البر والبحر، أي: فساد معاشهم ونقصها، وحلول الآفات بها، وفي أنفسهم من الأمراض والوباء، وغير ذلك، وذلك بسبب ما قدمت أيديهم من الأعمال الفاسدة، المفسدة بطبيعتها.

هذه المذكورة «ليذيقهم بعض الذي عملوا» أي: ليعلموا أنه المجازي على الأعمال، فعجل لهم نموذجاً من جزاء أعمالهم في الدنيا «لعلهم يرجعون» عن أعمالهم، التي أثرت لهم من الفساد ما أثرت، فتصلح أحوالهم، ويستقيم أمرهم.

فسبحان من أنعم ببلائه، وتفضل بعقوبته، وإلا فلو أذاقهم جميع ما كسبوا، ما ترك على ظهرها من دابة.

﴿٤٢﴾ «قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين» والأمر بالسير في الأرض، يدخل فيه السير بالأبدان^(٢)، والسير في القلوب، للنظر والتأمل بعواقب المتقدمين.

﴿٤٣﴾ «كان أكثرهم مشركين» تجدون عاقبتهم شر العواقب، ومآلهم شر مآل، عذاب استأصلهم، وذم ولعن من خلق الله يتبعهم، وخزي متواصل، فاجذروا أن تفعلوا فعالهم، تحذو بكم حذوهم، فإن عدل الله وحكمته في كل زمان ومكان.

﴿٤٣ - ٤٥﴾ «فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون» من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون * ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إنه لا يحب الكافرين» أي: أقبل بقلبك، وتوجه بوجهك، واسع بيدك، لإقامة الدين القيم المستقيم، فنفذ أوامره ونواهيه بجد واجتهاد، وقم بوظائفه الظاهرة والباطنة، وبادر زمانك وحياتك وشبابك، «من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله» وهو يوم القيامة، الذي إذا جاء لا يمكن رده، ولا يرجأ العاملون

أن يستأنفوا^(٣) العمل، بل فرغ من الأعمال، لم يبق إلا جزاء العمال. «يومئذ يصدعون» أي: ينفرون عن ذلك اليوم، ويصدرون أشتاتاً متفاوتين، ليُزروا أعمالهم.

﴿٤٤﴾ «من كفر» منهم «فعليه كفره» ويعاقب هو بنفسه، لا تزر وازرة وزر أخرى، «ومن عمل صالحاً» من الحقوق التي لله، أو التي للعباد، الواجبة والمستحبة، «فلأنفسهم» لا لغيرهم «يمهدون» أي: يهيئون، ولأنفسهم يعمرون آخرتهم، ويستعدون للفوز بمنازلتها وغرفاتها، ومع ذلك، جزاؤهم ليس مقصوراً على أعمالهم، بل يجزيهم الله من فضله الممدود، وكرمه غير المحدود، ما لا تبلغه أعمالهم. وذلك لأنه أحبهم، وإذا أحب الله عبداً صب عليه الإحسان صباً، وأجزل له العطايا الفاخرة، وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة.

وهذا بخلاف الكافرين، فإن الله لما أبغضهم ومقتهم، عاقبهم وعذبهم، ولم يزدهم كما زاد من قبلهم، فلماذا قال: «إنه لا يحب الكافرين».

﴿٤٦﴾ «ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون» أي: ومن الأدلة الدالة على رحمته وبعثه الموتى، وأنه الإله المعبود، والملك المحمود، «أن يرسل الرياح» أمام المطر «مبشرات» بإثارتها للسحاب ثم جمعها، فتبشر بذلك النفوس قبل نزوله.

«وليذيقكم من رحمته» فينزل عليكم من رحمته مطراً، تحيا به البلاد والعباد، وتذوقون من رحمته ما تعرفون أن رحمته هي المنقذة للعباد والجالبة لأرزاقهم، فتشتاقون إلى الإكثار من الأعمال الصالحة، الفاتحة لخزائن الرحمة.

«ولتجري الفلك» في البحر

ودل قوله: «وما اتبع من زكاة» أن الصدقة مع اضطرار من يتعلق بالمنفق، أو مع ذنب عليه لم يقضه، ويقدم عليه الصدقة، أن ذلك ليس بزكاة يؤجر عليه العبد، ويرد تصرفه شرعاً، كما قال تعالى في الذي يمدح: «الذي يؤتي ماله يتزكى» فليس مجرد إيتاء المال خيراً، حتى يكون بهذه الصفة، وهو: أن يكون على وجه يتزكى به المؤتي.

﴿٤٠﴾ «الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون» يخبر تعالى أنه وحده المنفرد بخلقكم ورزقكم، وإماتتكم وإحيائكم، وأنه ليس أحد من الشركاء التي يدعوههم المشركون، من يشارك الله في شيء من هذه الأشياء.

فكيف يشركون بمن انفرد بهذه الأمور، من ليس له تصرف فيها بوجه من الوجوه!

فسبحانه وتعالى، وتقدس وتزه، وعلا عن شركهم، فلا يضره ذلك، وإنما وبالهم^(١) عليهم.

﴿٤١﴾ «ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون»

(٢) - كذا في ب، وفي أ: في الأبدان. (٣) في ب: ليستأنفوا.

(١) في ب: وباله.

﴿بأمره﴾ القدري ﴿ولتبتغوا من
فضله﴾ بالتصرف في معاشكم
ومصالحكم.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ من سخر لكم الأسباب، وسير لكم الأمور. فهذا المقصود من النعم، أن تقابل بشكر الله تعالى، ليزيدكم الله منها، ويبقيها عليكم.

وأما مقابلة النعم بالكفر والمعاصي،
فهذه حال مَنْ بَدَّلَ نعمة الله كُفْرًا،
ونعمته حُكْمًا، وهو معرض لها للزوال،
والانتقال منه إلى غيره.

﴿٤٧﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ في الأمم السابقة ﴿رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ حين جحدوا توحيد الله، وكذبوا بالحق، فجاءتهم رسلهم يدعونهم إلى التوحيد والإخلاص، والتصديق بالحق، وبطلان ما هم عليه من الكفر والضلال، وجأؤهم بالبينات والأدلة على ذلك، فلم يؤمنوا، ولم يزلوا عن غيرهم. ﴿فَاَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ ونصرنا المؤمنين أتباع الرسل. ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أوجبنا ذلك على أنفسنا، وجعلناه من جملة الحقوق المتعينة وعدناهم به، فلا بد من وقوعه.

فأنتم أيها المكذبون لمحمد ﷺ ، إن بقيتم على تكذيبكم ، حلت بكم العقوبة ، ونصرناه عليكم .

﴿٤٨﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيسقطه في السماء كيف يشاء ويحمله كسفاً فوقى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون﴾ * وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبشرين * فانظر إلى أنار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحبي الموتى وهو على كل شيء قدير﴾ * **يُخبر** تعالى عن كمال قدرته، وتعام نعمته،

أنه ﴿يرسل الرياح فتنفث سحاباً﴾ من الأرض، ﴿فيبسطه في السماء﴾ أي: يمدده ونوسعه ﴿كيف يشاء﴾ أي: على أي: حالة أرادها من ذلك، ثم ﴿يجعله﴾ أي: ذلك السحاب الواسع ﴿كسفاً﴾ أي: سحاباً ثخيناً، قد طبق بعضه فوق بعض.

﴿فَنَزَّلُ الْوُدُقَ يُخْرِجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾
أي: السحاب، نقطاً صغاراً متفرقة،
لا تنزل جميعاً، فتفسد ما أتت عليه.

﴿إِذَا أَصَابَ بِهِ﴾ بذلك المطر ﴿مَنْ﴾
يشاء من عباده إذا هم يستبشرون
ببشر بعضهم بعضاً بنزوله، وذلك
لشدة حاجتهم وضرورتهم إليه، فلهذا
قال: ﴿وَأَنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَنْزَلَ﴾
عليهم من قبله لمبلسين ﴿أَيَ﴾ آيسين
قانتين لتأخر وقت مجيئه، أي: فلما
نزل في تلك الحال، صار له موقع
عظيم [عندهم] ^(١)، وفرح واستبشار.
﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي﴾
الأرض بعد موتها ﴿فَاهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ﴾
وأبتت من كل زوج كريم.

﴿إِنْ ذَلِكَ﴾ الذي أحيا الأرض بعد موتها ﴿للمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير﴾ فقدرته تعالى، لا يتعاصى عليها شيء، وإن تعاصى على قدر خلقه، وودق عن أفهامهم، وحارب فيه عقولهم.

﴿٥١- ٥٣﴾ ولئن أرسلنا ريحا
فأرأوه مصفرة لظلوا من بعده يكفرون *
فلنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم
لدعاء إذا ولوا مدبرين * وما أنت بهاد
العمي عن ضلالهم إن تسمع إلا من
يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴿ يجزب تعالى
عن حالة الخلق، وأنهم مع هذه النعم
عليهم بإحياء الأرض بعد موتها، ونشر
رحمة الله تعالى، لو أرسلنا على هذا
النبت الناشئ عن المطر، وعلى
زروعهم، ريحا مضرة متلفة أو منتقصة،
﴿فرأوه مصفرة﴾ قد تداعى إلى التلف
(لظلوا من بعده يكفرون) فينسبون
النعم الماضية، ويبادرون إلى الكفر.
وهؤلاء، لا ينغم فيههم وعظ ولا

قُلْ يَدْرِي وَاللَّهِ الْأَخْسَرُ فَأَغْلِبُوا أَكْثَرَ عَصَاكَ الَّذِينَ قِيلَ
كَانَ أَكْثَرُهُمْ شُرَكَاءَ ⑤ فَأَلْهَمَهُمُوهَا وَلِلَّذِينَ آمَنُوا
قِيلَ إِنَّ بَنِي إِدْرِيسَ ابْنُ الْعَدْنِ مِنَ الْمَوْتِ فِي رَجْعَةِ مَعُونٍ ⑥ مِنْكُمْ
فَصَلَّيْهِمْ كَمَا وَدَّ أَنْ يَعْمَلَ صَلَاحًا لَوْ كُنُوا عَادِينَ ⑦ يَهْدُونَ ⑧
الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَلَّوْا الصَّالِحِينَ مِنْ قَضَائِهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنِ الْكَافِرُونَ
⑨ وَفِي عَائِدَةٍ لَمْ يُرْسَلِ الْإِسْلَامُ مِنْهُمْ بَدِيلٌ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا
مِنْ تَمُودَ وَفِرْعَوْنَ الْأَنْفَكُ بَأْسُهُمْ وَلِيَّتْ خَلَوْا مِنْ قَضَائِهِ وَلَكِنْ قَدْ
تَنَكَّرُوا ⑩ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى الْقَوْمِ فَآجَرَهُمْ
يَا لَيْتَكَ أَتَفْقَهُنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ أَوْرَكُوا عَنْهُمْ أَنْتَاهُمْ
لِلْكَافِرِينَ ⑪ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُفْثِرُ سَحَابًا يَسْقُطُ
فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كَيْسًا قَدِيرًا ⑫ الْوَدُّ يَخْرُجُ
مِنْ خَلِيلِهِ إِذَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنْ كَيْسٍ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَنْتَبِهُونَ
⑬ تِلْكَ كَوَاكِبُ قَبْلِ أَنْ يُرْسَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لِيُجْلِبَهُنَّ
فَأَغْلِبُوا اللَّهَ وَأَكْفَرُوا حَسْبَ الْكَافِرِينَ ⑭ الْغَى الْأَرْضُ بَعْدَ
مَوْجِئِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَنَحْيِ الْقَوْمَ وَكُلَّ كَيْفٍ لَمْ يَزِدْ ⑮

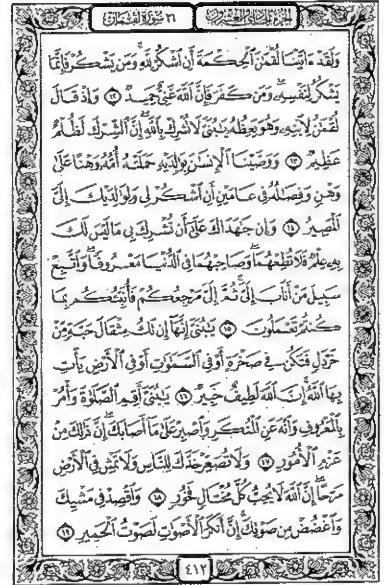
زجر ﴿فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء﴾ وبالأولى ﴿إذا ولوا مدبرين﴾ فإن الموانع قد توفرت فيهم عن الانقياد والسماع النافع، كتوفر هذه الموانع المذكورة عن سماع الصوت الحسي.

﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمِّيِّ عَنْ
ضَلَالَتِهِمْ﴾ لأنهم لا يقبلون الإِخبار
بسبب عماهم فليس منهم ^(٢) قابلية له .
﴿إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يَزُومُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ
مُسْلِمُونَ﴾ فهو لاء الذين ينفع فيهم
إِسماع الهدى، المؤمنون بآياتنا
يقبلوهم، المتقادون لأوامرنا، المسلمون
لنا، لأن معهم الداعي القوي لقبول
النصائح والمواظع، وهو استعدادهم
للإيمان بكل آية من آيات الله،
واستعدادهم لتنفيذ ما يقدرُونَ عليه من
أوامر الله ونواهيه . . .

﴿٥٤﴾ الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴿٥٥﴾ يخبر تعالى عن سعة علمه، وعظم اقتداره، وكمال حكمته، ابتداء خلق آدميين من ضعف، وهو الأطوار الأول من خلقه، من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى أن صار حيواناً في الأرحام، إلى أن وُلِدَ، وهو في سن الطفولية، وهو إذ

(۲) فی ب: فیہم.

(۱) زیادة من : ب ..



لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين * وإذا تتلى عليه آياتنا ولي مستكبراً كأن لم يسمعهما كأن في أذنيه وقراً فبشره بعذاب أليم * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار لا يفتنون فيها ولا يغيرون فيها ولا هم فيها يفتنون ولا هم فيها يغيرون ولا هم فيها يفتنون ولا هم فيها يغيرون

أي: «ومن الناس من» هو محروم غشول «يشترى» أي: يختار ويرغب رغبة من يبدل الثمن في الشيء. «لهو الحديث» أي: الأحاديث الملهية للقلوب، الصادة لها عن أجل مطلوب. فدخل في هذا، كل كلام محرم، وكل لغو وباطل، وهذيان من الأقوال المرغبة في الكفر والفسوق والعصيان، ومن أقوال الرادين على الحق، المجادلين بالباطل ليدحضوا به الحق، ومن غيبة، ونميمة، وكذب، وشتم، وسب، ومن غناء ومزامير شيطان، ومن الماكرات الملهية، التي لا تنفع فيها في دين ولا دنيا.

فهذا الصنف من الناس، يشتري «ليضل» الناس «بغير علم» أي: بعدما ضل بفعله، أضل غيره، لأن الإضلال ناشئ عن الضلال.

وإضلاله في هذا الحديث، صده

عن الحديث النافع، والعمل النافع، والحق المبين، والصراط المستقيم.

ولا يتم له هذا، حتى يقدح في الهدى والحق، ويتخذ آيات الله هزواً ويسخر بها ويمن جاء بها، فإذا جمع بين مدح الباطل والترغيب فيه، والقدح في الحق والاستهزاء به وبأهله، أضل من لا علم عنده، وخذعه بما يوحيه إليه من القول الذي لا يميزه ذلك الضال ولا يعرف حقيقته.

«أولئك لهم عذاب مهين» بما ضلوا وأضلوا، واستهزؤوا [آيات الله] ^(١) وكذبوا الحق الواضح، ولهذا قال: «وإذا تتلى عليه آياتنا» ليؤمن بها وينقاد لها، «ولي مستكبراً» أي: أدبر إدار مستكبر عنها، راداً لها، ولم تدخل قلبه ولا أثرت فيه، بل أدبر عنها «كأن لم يسمعهما» بل «كأن في أذنيه وقراً» أي: ضمناً لا تصل إليه الأصوات، فهذا لا حيلة في هدايته.

«فبشره» بشارة تؤثر في قلبه الحزن والغم، وفي بشرته السوء والظلمة والغبرة: «بعذاب أليم» مؤلم لقلبه ولبدنه، لا يقادر قدره، ولا يدرى بعظيم أمره، وهذه بشارة أهل الشر، فلا نعمت البشارة.

وأما بشارة أهل الخير فقال: «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات» جمعوا بين عبادة الباطن بالإيمان، والظاهر بالإسلام، والعمل الصالح.

«لهم جنات النعيم» بشارة لهم بما قدموه، وقرئ لهم بما أسلفوه.

«خالدين فيها» أي: في جنات النعيم، نعيم القلب والروح والبدن: «وعد الله حقاً» لا يمكن أن يخلف ولا يغير ولا يتبدل. «وهو العزيز الحكيم» كامل العزة، كامل الحكمة، من عزته وحكمته، وفق من وفق، وخذل من خذل، بحسب ما اقتضاه علمه فيهم وحكمته.

«١٠ - ١١» «خلق السماوات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسباً أن تميد بكم ويث فيها من كل

دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم * هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين» يتلو تعالى على عباده آثاراً من آثار قدرته، وبدائع من بدائع حكمته، ونعماً من آثار رحمته، فقال: «خلق السماوات» السبع، على عظمها، وسعتها، وكثافتها، وارتفاعها الهائل. «بغير عمد ترونها» أي: ليس لها عمد، ولو كان لها عمد لرؤيت، وإنما استقرت واستسكنت، بقدره الله تعالى.

«وألقى في الأرض رواسباً» أي: جبالاً عظيمة، ركزها في أرجائها وأنحائها، ثلثاً «تميد بكم» فلولا الجبال الراسيات لمادت الأرض، ولما استقرت بساكنيتها.

«ويث فيها من كل دابة» أي: نشر في الأرض الواسعة من جميع أصناف الدواب، التي هي مسخرة لبني آدم، ولصالحهم ومنافعهم. ولما بثها في الأرض، علم تعالى أنه لا بد لها من رزق تعيش به، فأنزل من السماء ماء مباركاً، «فأنبتنا فيها من كل زوج كريم» المنظر، نافع مبارك، فرتعت فيه الدواب المنبثثة، وسكن إليه كل حيوان.

«هذا» أي: خلق العالم العلوي والسفلي، من جاد، وحيوان، وسوق أرزاق الخلق إليهم. «خلق الله» وحده لا شريك له، كل مقبر بذلك حتى أنتم يا معشر المشركين.

«فأروني ماذا خلق الذين من دونه» أي: الذين جعلتموهم له شركاء، تدعونهم وتعبدونهم، يلزم على هذا، أن يكون لهم خلق كخلقه، ورزق كرزقه، فإن كان لهم شيء من ذلك فأروني، ليصح ما ادعيتهم فيهم من استحقاق العباد.

ومن المعلوم أنهم لا يقدر أن يروه شيئاً من الخلق لها، لأن جميع المذكورات، قد أقروا أنها خلق الله وحده، ولا ثم شيء يعلم غيرها،

فثبت عجزهم عن إثبات شيء لها تستحق به أن تعبد.

ولكن عبادتهم إياها عن غير علم وبصيرة، بل عن جهل وضلال، ولهذا قال: ﴿يَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي: جلي واضح حيث عبدوا من لا يملك نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وتركوا الإخلاص للخالق الرازق المالك لكل الأمور.

﴿١٢-١٩﴾ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لَقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌ حَمِيدٌ﴾ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴿١﴾ إلى آخر القصة. يخبر تعالى عن امتنانه على عبده الفاضل لقمان، بالحكمة، وهي العلم [بالحق] ^(١) على وجهه وحكمته، فهي العلم بالأحكام، ومعرفة ما فيها من الأسرار والإحكام، فقد يكون الإنسان عالماً ولا يكون حكيماً.

وأما الحكمة، فهي مستلزمة للعلم، بل وللعمل، ولهذا فسرت الحكمة بالعلم النافع والعمل الصالح.

ولما أعطاه الله هذه المنة العظيمة، أمره أن يشكره على ما أعطاه، ليبارك له فيه، وليزيد من فضله، وأخبره أن شكر الشاكرين، يعود نفعه عليهم، وأن من كفر فلم يشكر الله، عاد وبال ذلك عليه. والله غني [عنه] ^(٢) حميد فيما يقدره ويقضيه على من خالف أمره، فغنائه تعالى، من لوازم ذاته، وكونه حميداً في صفات كماله، حميداً في جميل صنعه، من لوازم ذاته، وكل واحد من الوصفين صفة كمال، واجتماع أحدهما إلى الآخر زيادة كمال إلى كمال.

واختلف المفسرون، هل كان لقمان نبياً، أو عبداً صالحاً؟ والله تعالى لم يذكر عنه إلا أنه أتاه الحكمة، وذكر بعض ما يدل على حكمته في وعظه لابنه، فذكر

أصول الحكمة وقواعدها الكبار، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ لَقْمَانُ لَابِنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾

أو قال له قولاً به يعظه بالأمر والنهي، المقرون بالترغيب والترهيب، فأمره بالإخلاص، ونهاه عن الشرك، وبين له السبب في ذلك فقال: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ لِّظُلْمٍ عَظِيمٍ﴾ ووجه كونه عظيماً، أنه لا أفظع وأبشع من سوء المخلوق من تراب بمالك الرقاب، وسوء الذي لا يملك من الأمر شيئاً بمن له الأمر كله، وسوء الناقص الفقير من جميع الوجوه بالرب الكامل الغني من جميع الوجوه، وسوء من لم ينعم بمثل ذرة [من النعم] ^(٣) بالذي ما بالخلق من نعمة في دينهم ودنياهم وأخراهم وقلوبهم وأبدانهم إلا منه، ولا يصرف سوء إلا هو، فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟! ^(٤)

وهل أعظم ظلماً ممن خلقه الله لعبادته وتوحيده، فذهب بنفسه الشريفة، [فجعلها في أحسن المراتب] ^(٥) جعلها عابدة لمن لا يسوى شيئاً، فظلم نفسه ظلماً كبيراً.

ولما أمر بالقيام بحقه، بترك الشرك الذي من لوازمه القيام بالتوحيد، أمر بالقيام بحق الوالدين، فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِأَيْ: عهدها إليه، وجعلناه وصية عنده، سنأله عن القيام بها، وهل حفظها أم لا؟ فوصيته ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾ وقلنا له: ﴿اشْكُرْ لِي﴾ بالقيام بعبوديتي وأداء حقوقي، وأن لا تستعين بنعمي على معصيتي، ﴿وَلِوَالِدَيْكَ﴾ بالإحسان إليهما بالقول اللين، والكلام اللطيف، والفعل الجميل، والتواضع لهما ﴿وَأَجْزَلَهُمَا﴾ ^(٦) وأجلاهما، والقيام بموؤنتهما، واجتناب الإساءة إليهما من كل وجه، بالقول والفعل.

فوصيته بهذه الوصية، وأخبرناه أن ﴿إِلَى الْمَصِيرِ﴾ أي: سترجع إليها الإنسان إلى من وصاك وكلفك بهذه

الحقوق، فيسألك: هل قيمت بها، فيشيبك الثواب الجزيل؟ أم ضيعتها، فيعاقبك العقاب الويل؟

ثم ذكر السبب الموجب لبر الوالدين في الأم، فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَتْأَ عَلَى وَهْنٍ﴾ أي: مشقة على مشقة، فلا تزال تلاقي المشاق، من حين يكون نطفة، من الوحم، والمرض، والضعف، والثقل، وتغير الحال، ثم وجع الولادة، ذلك الوجع الشديد.

ثم ﴿فَصَالَهُ فِي غَمٍّ﴾ وهو ملازم لحضانه أمه وكفالتها ورضاعها، أما يحسن بمن تحمل على ولده هذه الشدائد مع شدة الحب، أن يؤكد على ولده، ويوصي إليه بتمام الإحسان إليه؟

﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ﴾ أي: اجتهد والداك ﴿عَلَى أَنْ تَشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطَعِمَهُمَا﴾ ولا تظن أن هذا داخل في الإحسان إليهما، لأن حق الله مقدم على حق كل أحد، و «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

ولم يقل: «وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فعهما»، بل قال: ﴿فَلَا تُطَعِمَهُمَا﴾ أي: بالشرك، وأما برهما، فاستمر عليه، ولهذا قال: ﴿وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ أي: صحبة إحسان إليهما بالمعروف، وأما اتباعهما وهما بحالة الكفر والمعاصي، فلا تتبعهما.

﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ وهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله، المستسلمون لربه، المنيبون إليه.

واتباع سبيلهم، أن يسلك مسلكتهم في الإنابة إلى الله، التي هي انجذاب دواعي القلب وإراداته إلى الله، ثم يتبعها سعي البدن، فيما يرضي الله ويقرب منه.

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ الطائع والعاصي والنيب، وغيره ﴿فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فلا يخفى على الله من أعمالهم خافية.

(٥) زيادة من: ب.

(٣) زيادة من: ب.

(١) زيادة من: ب.

(٤) زيادة من: ب.

(٢) زيادة من: ب.

﴿يَا بُنَيَّ إِنَّا إِن تَكَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ التي هي أصغر الأشياء وأحقرها، ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ أي: في وسطها ﴿أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ﴾ في أي: جهة من جهاتهما ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ لسعة علمه، وتام خبرته، وكمال قدرته، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: لطف في علمه وخبرته، حتى أطلع على البواطن والأسرار، وخفايا القفار والبحار.

والمقصود من هذا، الحث على مراقبة الله والعمل بطاعته مهما أمكن، والترهيب من عمل القبيح، قل أو كثُر.

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ حثه عليها، وخصها لأنها أكبر العبادات البدنية، ﴿وَأَنزِلْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنهْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وذلك يستلزم العلم بالمعروف ليأمر به، والعلم بالمنكر لينهى عنه.

والأمر بما لا يتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا به، من الرفق، والصبر، وقد صرح به في قوله: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ ومن كونه فاعلاً لما يأمر به، كافاً لما ينهى عنه، فتضمن هذا، تكميل نفسه بفعل الخير وترك الشر، وتكميل غيره بذلك، بأمره ونهيّه.

ولما علم أنه لا بد أن يتبل إذا أمر ونهى، وأن في الأمر والنهي مشقة على النفوس، أمره بالصبر على ذلك، فقال: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ﴾ الذي وعظ به لقمان ابنه ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: من الأمور التي يعزم عليها ويهتم بها، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم.

﴿وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: لا تَجَلَّ وتعيس بوجهك للناس، تكبراً عليهم وتعاضماً.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا﴾ أي: بطراً، فخرًا بالنعم، ناسياً للنعم، معجباً بنفسك. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾^(١) في نفسه وهيئته وتعاضمه

﴿فَخُورٍ﴾ بقوله.

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي: امش متواضعاً مستكيناً، لا مَشْيَ البطر والتكبر، ولا مشي التماوت.

﴿وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ أدباً مع الناس ومع الله، ﴿إِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتُ﴾ أي: أقطعها وأبشعها ﴿لِلصَّوْتِ الْحَمِيرِ﴾ فلو كان في رفع الصوت البليغ فائدة ومصلحة، لما اختص بذلك الحمير، الذي قد علمت حسنة وبلادته.

وهذه الوصايا التي وصى بها لقمان لابنه، تجمع أمهات الحكم، وتستلزم ما لم يذكر منها، وكل وصية يقرن بها ما يدعو إلى فعلها إن كانت أمراً، وإلى تركها إن كانت نهياً.

وهذا يدل على ما ذكرنا في تفسير الحكمة، أنها العلم بالأحكام وحكمها ومناسباتها، فأمره بأصل الدين، وهو التوحيد، ونهاه عن الشرك، وبين له الموجب لتركه، وأمره ببر الوالدين، وبين له السبب الموجب لبرهما، وأمره بشكره وشكرهما، ثم احتز بأن محل برهما وامتنال أوامرهما ما لم يأمر بمعصية، ومع ذلك فلا يعقهما، بل يحسن إليهما، وإن كان لا يطيعهما إذا جاهدها على الشرك. وأمره بمراقبة الله، وخوفه القدوم عليه، وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من الخير والشر إلا أتى بها.

ونهاه عن التكبر، وأمره بالتواضع، ونهاه عن البطر والأشر والمرح، وأمره بالسكون في الحركات والأصوات، ونهاه عن ضد ذلك.

وأمره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة، وبالصبر اللذين يسهل بهما كل أمر، كما قال تعالى: ﴿فَحَقِّقْ بَيْنَ أَوْصِيَ إِلَيْهِ﴾ الوصايا، أن يكون مخصوصاً بالحكمة، مشهوراً بها. ولهذا من منة الله عليه وعلى سائر عباد، أن قص عليهم من حكمته، ما يكون لهم به أسوة حسنة.

﴿٢٠-٢١﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمَنِ النَّاسُ مِنْ مُجَادِلٍ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴿يَمُنْ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ نِعَمَهُ، ويدعوهم إلى شكرها ورويتها، وعدم الغفلة عنها فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: تشاهدوا وتبصروا بأبصاركم وقلوبكم، ﴿أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من الشمس والقمر والنجوم، كلها مسخرات لرفع العباد.

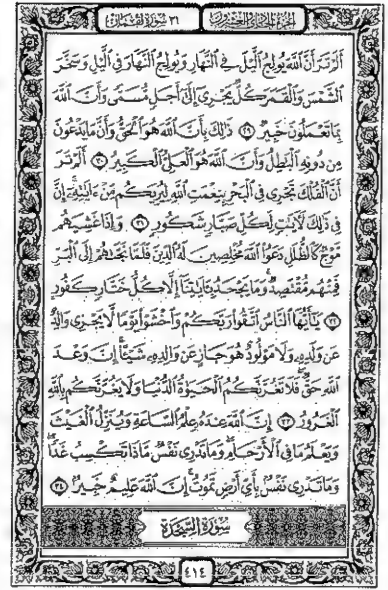
﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الحيوانات والأشجار والزرع، والأنهار والمعادن ونحوها، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: عممكم وغمركم نعمة الظاهرة والباطنة التي نعلم بها، والتي تحفى علينا، نعم الدنيا، ونعم الدين، حصول المنافع، ودفع المضار، فوظيفة تكم أن تقوموا بشكر هذه النعم، بمحبة النعم والخضوع له، وضرفها في الاستعانة على طاعته، وأن لا يستعان بشيء منها على معصيته.

﴿و﴾ لكن مع توالي هذه النعم، ﴿مَنِ النَّاسُ مَنٌّ﴾ لم يشكرها، بل كفرها وكفر بمن أنعم بها، ووجد الحق الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله، فجعل ﴿يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ أي: يجادل عن الباطل ليدحض به الحق، ويدفع به ما جاء به الرسول من الأمر بعبادة الله وحده، وهذا المجادل على غير بصيرة، فليس جداله عن علم، فيترك شأنه، ويسمح له في الكلام ﴿وَلَا هُدًى﴾ يقتدي به بالمهتدين ﴿وَلَا كِتَابٌ مُنِيرٌ﴾ [غير مبين للحق فلا معقول ولا منقول ولا اقتداء بالمهتدين]^(٢) وإنما جداله في الله مبني

(١) كذا في: ب، وزاد في: أ قوله تعالى: فخور.

(٢) زيادة من: ب.



القدرية، وأحكامه الأمرية. وأحكامه الجزائية، فكلهم عبيد ممالك، مدبرون مستخرون، ليس لهم من الملك شيء، وأنه واسع الغنى، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه أحد من الخلق. «ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون».

وأن أعمال النبيين والصديقين والشهداء والصالحين لا تنفع الله شيئاً وإنما تنفع عامليها، والله غني عنهم وعن أعمالهم، ومن غناه، أن أغناهم وأغناهم في دنياهم وأخرهم.

ثم أخبر تعالى عن سعة حمله، وأن حمله من لوازم ذاته، فلا يكون إلا حميداً من جميع الوجوه، فهو حميد في ذاته، وهو حميد في صفاته، فكل صفة من صفاته، يستحق عليها أكمل حمد وأتمه، لكونها صفات عظمة وكمال، وجميع ما فعله وخلقه يحمده عليه، وجميع ما أمر به ونهى عنه يحمده عليه، وجميع ما حكم به في العباد وبين العباد، في الدنيا والآخرة، يحمده عليه.

ثم أخبر عن سعة كلامه وعظمه قوله، بشرح يبلغ من القلوب كل مبلغ، وتنبهر له العقول، وتحير فيه الأفتلدة، وتيسح في معرفته أولو الألباب والبصائر، فقال: «ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام» يكتب بها

«والبحر يمدد من بعده سبعة أبحر» مداداً يستمد بها، لتكسرت تلك الأقلام، ولفني ذلك المداد، ولم تنفذ كلمات الله تعالى، وهذا ليس مبالغة لا حقيقة له، بل لما علم تبارك وتعالى أن العقول تنقاصر عن الإحاطة ببعض صفاته، وعلم تعالى أن معرفته لعباده أفضل نعمة أنعم بها عليهم، وأجل منقبة حصلوها، وهي لا تمكن على وجهها، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله، فنبههم تعالى تنبيهاً صدورهم، ويستدلون بما وصلوا إليه إلى ما لم يصلوا إليه، ويقولون كما قال أفضلهم وأعلمهم بربه: «لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»، وإلا فالأمر أجل من ذلك وأعظم.

وهذا التمثيل، من باب تقريب المعنى، الذي لا يطاق الوصول إليه إلى الأفهام والأذهان، وإلا فالأشجار، وإن تضاعفت على ما ذكر أضعافاً كثيرة، والبحور لو امتدت^(١) بأضعاف مضاعفة، فإنه يتصور نفادها وانقضاؤها، لكونها مخلوقة.

وأما كلام الله تعالى، فلا يتصور نفاده، بل لدينا الدليل الشرعي والعقلي، على أنه لا نفاد له ولا منتهى، وكل شيء ينتهي إلا الباري وصفاته «وأن إلى ربك المنتهى».

وإذا تصور العقل حقيقة أوليته تعالى وأخريته، وأنه كل ما فرضه الذهن من الأزمان السابقة، مهما تسلسل الفرض والتقدير، فهو تعالى قبل ذلك إلى غير نهاية، وأنه مهما فرضه الذهن والعقل، من الأزمان المتأخرة، وتسلسل الفرض والتقدير، وساعد على ذلك من ساعد بقلبه ولسانه، فالله تعالى بعد ذلك إلى غير غاية ولا نهاية.

والله في جميع الأوقات يحكم، ويتكلم، ويقول، ويفعل كيف أراد، وإذا أراد لا مانع له من شيء من أقواله

وأفعاله، فإذا تصور العقل ذلك، عرف أن المثل الذي ضربه الله لكلامه، ليدرك العباد شيئاً منه، وإلا فالأمر أعظم وأجل.

ثم ذكر جلالة عزته وكمال حكمته فقال: «إن الله عزيز حكيم» أي: له العزة جميعاً، الذي ما في العالم العلوي والسفلي من القوة إلا منه، أعطاهما للخلق، فلا حول ولا قوة إلا به، وبعزته قهر الخلق كله وتصرف فيهم ودبرهم، وبحكمته خلق الخلق، وجعل غايته والمقصود منه الحكمة، وكذلك الأمر والنهي وجد بالحكمة، وكانت غايته المقصودة الحكمة، فهو الحكيم في خلقه وأمره.

ثم ذكر عظمة قدرته وكمالها، وأنه لا يمكن أن يتصورها العقل، فقال:

«ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة» وهذا شيء يحير العقول، إن خلق جميع الخلق - على كثرتهم وبعثهم بعد موتهم، بعد تفرقهم في لمحة واحدة - كخلقه نفساً واحدة، فلا وجه لاستبعاد البعث والنشور والجزاء على الأعمال، إلا الجهل بعظمة الله وقوة قدرته.

ثم ذكر عموم سمعه جميع السموعات، ويضره لجميع المبصرات، فقال: «إن الله سميع بصير»

﴿٢٩ - ٣٠﴾ «ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير» ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير» وهذا فيه أيضاً، انفراده بالتصرف والتدبير، وسعة تصرفه بإيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، أي: إدخال أحدهما على الآخر، فإذا دخل أحدهما ذهب الآخر.

وتسخيره للشمس والقمر، يجريان بتدبير ونظام، لم يختل منذ خلقهما،

لوطفه وإحسانه، ﴿ليرىكم من آياته﴾ فيها الانتفاع والاعتبار^(١).

﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ فهم المنتفعون بالآيات، صبار على الضراء، شكور على السراء، صبار على طاعة الله وعن معصيته وعلى أقداره، شكور لله على نعمه الدينية والدنيوية.

وذكر تعالى حال الناس عند ركوبهم البحر وغشيان الأمواج كالظلم فوقهم، أنهم يخلصون الدعاء [الله]^(٢) والعبادة: ﴿فلما نجاهم إلى البر﴾ انقسموا فريقين:

فرقة مقتصدة، أي: لم تقم بشكر الله على وجه الكمال، بل هم مذنبون ظالمون لأنفسهم.

وفرقة كافرة بنعمة الله، جاحدة لها، ولهذا قال: ﴿وما يبيحذ بآياتنا إلا كل ختار﴾^(٣) أي: غدار، ومن غدره أنه غاهد ربه، لئن أنجيتنا من البحر وشدته، لنكونن من الشاكرين، فغدر، ولم يف بذلك، ﴿كفور﴾ يتعم الله. فهل يليق بمن نجاهم الله من هذه الشدة، إلا القيام التام بشكر نعم الله؟

﴿٣٣﴾ يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ يأمر تعالى الناس بتقواه، التي هي امتثال أوامره وترك زواجه، ويستلقتهم خشية يوم القيامة، اليوم الشديد، الذي فيه كل أحد لا يهيم إلا نفسه، ف ﴿لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً﴾ لا يزيد في حسناته ولا ينقص من سيئاته، قد تم على كل عبد عمله، وتحقق عليه جزاؤه.

ليقيم بذلك من مصالح العباد ومنافعهم، في دينهم ودنياهم، ما به يعتبرون ويتفكرون.

و ﴿كل﴾ منهما ﴿يجري إلى أجل مستقًى﴾ إذا جاء ذلك الأجل، انقطع جريانها، وتعطل سلطانها، وذلك في يوم القيامة، حين تكور الشمس، ويخسف القمر، وتنتهي دار الدنيا، وتبتدىء الدار الآخرة.

﴿وأن الله بما تعملون﴾ من خير وشر ﴿خبير﴾ لا يخفى عليه شيء من ذلك، وسيجازيكم على تلك الأعمال، بالشواب للمطيعين، والعقاب للعاصين.

و ﴿ذلك﴾ الذي بين لكم من عظمته وصفاته، ما بين ﴿بأن الله هو الحق﴾ في ذاته وفي صفاته، ودينه حق، ورسله حق، ووعدته حق، ووعيده حق، وعبادته هي الحق.

﴿وأن ما يدعون من دونه الباطل﴾ في ذاته وصفاته، فلولا إيجاد الله له لما وجد، ولولا إمداده لما بقي، فإذا كان باطلاً، كانت عبادته أبطل وأبطل.

﴿وأن الله هو العلي﴾ بذاته، فوق جميع مخلوقاته، الذي علت صفاته، أن يقاس بها صفات أحد من المخلوق، وعلا على المخلوق فقهرهم، ﴿الكبير﴾ الذي له الكبرياء في ذاته وصفاته، وله الكبرياء في قلوب أهل السماء والأرض.

﴿٣١-٣٢﴾ ﴿ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليرىكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ وإذا غشيه موج كالظلمل دعوا الله خالصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يبيحذ بآياتنا إلا كل ختار كفور﴾ أي: ألم تر من آثار قبرته ورجته وعنايته بعباده، أن سخر البحر، تجري فيه الفلك بأمره القدري

(١) زيادة من: ب.

(٢) في ب: كالظلمل.

(٣) زيادة من: ب.

(٤) كذا في ب، وزاد في أ: قوله تعالى: ﴿كفور﴾.



فلقت النظر في هذا لهذا اليوم المهيل، مما يقوي العبد ويسهل عليه تقوى الله، وهذا من رحمة الله بالعباد، يأمرهم بتقواه التي فيها سعادتهم، ويوعدهم عليها الثواب، ويحذرهم من العقاب، ويزعجهم إليه بالمواعظ والمخوفات، فلك الحمد يا رب العالمين.

﴿وأن وعد الله حق﴾ فلا تمترؤا فيه، ولا تعملوا عمل غير المصدق، فلهذا قال: ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ بزيبتها وزخارفها وما فيها من الفتن والمحن.

﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ الذي هو الشيطان، الذي ما زال يتدع الإنسان ولا يغفل عنه في جميع الأوقات، فإن الله على عباده حقاً، وقد وعدهم موعداً يجازيهم فيه بأعمالهم، وهل وفوا حقه أم قصروا فيه.

وهذا أمر يجب الاهتمام به، وأن يجعله العبد نصب عينيه، ورأس مال تجارته التي يسعى إليه.

ومن أعظم العوائق عنه والقواطع دونه، الدنيا الفتناء، والشيطان

بالأرحام ربه: هل هو ذكر أم أنثى؟
فيقضي الله ما يشاء.

﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غداً﴾
من كسب دينها ودنياها، ﴿وما تدري نفس بأي: أرض تموت﴾ بل الله تعالى هو المختص بعلم ذلك جميعه.

ولما خصص هذه الأشياء، عظم علمه بجميع الأشياء فقال: ﴿إن الله عليم خبير﴾ محيط بالظواهر والبواطن، والخفايا والخبائيا والسرائر، ومن حكمته التامة، أن أخفى علم هذه الخمسة عن العباد، لأن في ذلك من المصالح ما لا يخفى على من تدبر ذلك.

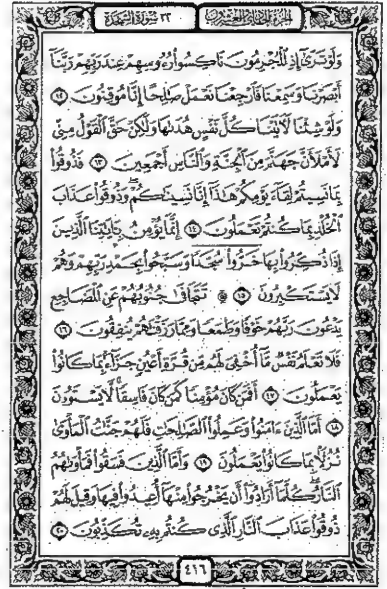
تم تفسير سورة لقمان
بفضل الله وعونه، والحمد لله

تفسير سورة السجدة وهي مكية

﴿١-٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم آمَنَ﴾ تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين * أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون * يخبر تعالى أن هذا الكتاب الكريم، أنه تنزيل نزل من رب العالمين، الذي رباهم بنعمته.

ومن أعظم ما رباهم به، هذا الكتاب، الذي فيه كل ما يصلح أحوالهم، ويتمم أخلاقهم، وأنه لا ريب فيه ولا شك ولا امتراء، ومع ذلك قال المكذبون للرسول الظالمون في ذلك: افتراه محمد، واختلقه من عند نفسه، وهذا من أكبر الجراءة على إنكار كلام الله، ورمي محمد ﷺ، بأعظم الكذب، وقدرة الخلق على كلام مثل كلام الخالق.

وكل واحد من هذه من الأمور العظام، قال الله - راداً على من قال: افتراه: - ﴿بل هو الحق﴾ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. ﴿من

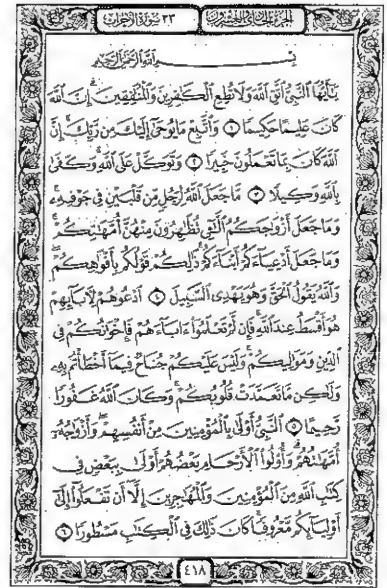


الموسوس المسؤل، فنهى تعالى عباده أن تغرهم الدنيا أو يغرهم بالله الغرور يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً.

﴿٣٤﴾ ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي: أرض تموت إن الله عليم خبير﴾ قد تقرر أن الله تعالى أحاط علمه بالغيب والشهادة، والظواهر والبواطن، وقد يطلع الله عباده على كثير من الأمور الغيبية، وهذه [الأمور] الخمسة، من الأمور التي طوى علمها عن جميع المخلوقات، فلا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب، فضلاً عن غيرهما، فقال: ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ أي: يعلم متى مرساها، كما قال تعالى: ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يحيلها لوقتها إلا هو ثقلت في السماوات والأرض لا تاتيكم إلا بغتة﴾ الآية.

﴿وينزل الغيث﴾ أي: هو المنفرد بإنزاله، وعلم وقت نزوله.

﴿ويعلم ما في الأرحام﴾ فهو الذي أنشأ ما فيها، وعلم ما هو، هل هو ذكر أم أنثى، ولهذا يسأل الملك الموكل



ثبوتاً لا تغير فيه .

«لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين» فهذا الوعد لا بد منه، ولا محيد عنه، فلا بد من تقدير أسبابه من الكفر والمعاصي .
«فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا» أي : يقال للمجرمين الذين ملكهم الذل، وسألوا الرجعة إلى الدنيا، ليستذكروا ما فاتهم، قد فات وقت الرجوع ولم يبق إلا العذاب، فذوقوا العذاب الأليم بما نسيتم لقاء يومكم هذا، وهذا النسيان نسيان ترك، أي : بما أعرضتم عنه وتركتم العمل له، وكأنكم غير قادمين عليه ولا ملاقيه .

«إنا نسيئناكم» أي : تركناكم بالعذاب، جزاء من جنس عملكم، فكما نسيئتم نسيئكم، «وذوقوا عذاب الخلد» أي : العذاب غير المنقطع، فإن العذاب إذا كان له أجل وغاية، كان فيه بعض التنفيس والتخفيف، وأما عذاب جهنم - أعاذنا الله منه - فليس فيه روح راحة، ولا انقطاع لعذابهم فيها .
«بما كنتم تعملون» من الكفر والفسوق والمعاصي .

«١٥ - ١٧» «إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبّحوا بحمدهم وهم

لا يستكبرون * تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً وما رزقناهم ينفقون * فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون» لما ذكر تعالى الكافرين بآياته، وما أعد لهم من العذاب، ذكر المؤمنين بها، ووصفهم، وما أعد لهم من الثواب، فقال : «إنما يؤمن بآياتنا» [أي :] إيماناً حقيقياً، من يوجد منه شواهد الإيمان، وهم : «الذين إذا ذكروا» بآيات ربهم فتلّت عليهم آيات القرآن، وأتهم النصائح على أيدي رسل الله، ودّعوا إلى التذكر، سمعوها فقبلوها، وانقادوا، و «خروا سجداً» أي : خاضعين لها، خضوع ذكر لله، وفرح بمعرفته .

«وسبّحوا بحمدهم وهم لا يستكبرون» لا يقلوبهم، ولا بأبدانهم، فيمتنعون من الانقياد لها، بل متواضعون لها، قد تلقوها بالقبول، والتسليم وقابلوها بالانشرح والتسليم، وتوصلوا بها إلى مرضاة الرب الرحيم، واهتدوا بها إلى الصراط المستقيم .

«تتجافى جنوبهم عن المضاجع» أي : ترتفع جنوبهم، وتزعج عن مضاجعها اللذيذة، إلى ما هو الذ عندهم منه وأحب إليهم، وهو الصلاة في الليل، ومتاجاة الله تعالى .

ولهذا قال : «يدعون ربهم» أي : في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، ودفع مضارهم . «خوفاً وطمعاً» أي : جامعين بين الوصفين، خوفاً أن ترد أعمالهم، وطمعاً في قبولها، خوفاً من عذاب الله، وطمعاً في ثوابه .

«وما رزقناهم» من الرزق، قليلاً كان أو كثيراً «ينفقون» ولم يذكر قيد النفقة، ولا المنفق عليه، ليدل على الغموم، فإنه يدخل فيه، النفقة الواجبة، كالزكوات، والكفارات، ونفقة الزوجات والأقارب، والنفقة المستحبة في وجوه الخير، والنفقة والإحسان المالي خير مطلقاً، سواء

رافق غنياً أو فقيراً، قريباً أو بعيداً، ولكن الأجر يتفاوت بتفاوت النفع، فهذا عملهم .

وأما جزاؤهم، فقال : «فلا تعلم نفس» يدخل فيه جميع نفوس الخلق، لكونها نكرة في سياق التثنية . أي : فلا يعلم أحد «ما أخفى لهم من قرة أعين» من الخير الكثير، والنعيم الغزير، والفرح والسرور، واللذة والحبور، كما قال تعالى على لسان رسوله : «أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» .

فكما صلوا في الليل ودعوا، وأخفوا العمل، جازاهم من جنس عملهم، فأخفى أجرهم، ولهذا قال : «جزاء بما كانوا يعملون»

«١٨ - ٢٠» «أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستؤمن * أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون * وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون» ينبه تعالى العقول على ما تقرر فيها، من عدم تساوي المتفاوتين المتباينين، وأن حكمته تقتضي عدم تساويهما، فقال : «أفمن كان مؤمناً» قد عمّر قلبه بالإيمان، وانقادت جوارحه لشرائعه، واقتضى إيمانه آثاره وموجباته، من ترك مساخط الله، التي ^(٢) يضر وجودها بالإيمان .

«كمن كان فاسقاً» قد خرب قلبه وتعطل من الإيمان، فلم يكن فيه وأزع ديني، فأسرعت جوارحه بموجبات الجهل والظلم، من كل إثم ومعصية، وخرج بقسقه عن طاعة الله .

أفيستوي هذان الشخصان ؟ «لا يستوي» عقلاً وشرعاً، كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلمة، وكذلك لا يستوي ثوابهما في الآخرة . «أما الذين آمنوا وعملوا

(٢) كذا في ب وفي أ : الذي .

(١) زيادة من : ب .

الصالحات» من فروض وتوافل «فلهم جنات المأوى» أي: الجنات التي هي مأوى اللذات، ومعدن الخيرات، ومحل الأفراح، ونعيم القلوب والنفوس والأرواح، ومحل الخلود، وجوار الملك المعبود، والتمتع بقربه، والنظر إلى وجهه، وسماع خطابه.

«نزل» لهم، أي: ضيافة وقرى «بما كانوا يعملون» فأعمالهم التي تفضل الله بها عليهم، هي التي أوصلتهم لتلك المنازل الغالية العالية، التي لا يمكن التوصل إليها ببذل الأموال، ولا بالجنود والخدم، ولا بالأولاد، بل ولا بالنفوس والأرواح، ولا يتقرب إليها بشيء أصلاً، سوى الإيمان والعمل الصالح.

«وأما الذين فسقوا فمأواهم النار» أي: مقرهم ومحل خلودهم، النار التي جمعت كل عذاب وشقاء، ولا يُقْتَر عنهم العقاب ساعة.

«كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدها فيها» فكلما حدثتهم إرادتهم بالخروج لبلوغ العذاب منهم كل مبلغ، ردوا إليها، فذهب عنهم روح ذلك الفرج، واشتد عليهم الكرب.

«وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون» فهذا عذاب النار، الذي يكون فيه مقرهم ومأواهم، وأما العذاب الذي قبل ذلك، ومقدمة له وهو عذاب البرزخ، فقد ذكر بقوله:

«٢١» «ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون»

أي: ولنذيقن الفاسقين المكذبين نموذجاً من العذاب الأدنى، وهو عذاب البرزخ، فنذيقهم طرفاً منه قبل أن يموتوا، إما بعذاب بالقتل ونحوه، كما جرى لأهل بدر من المشركين، وإما عند الموت، كما في قوله تعالى: «ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون» ثم

يكمل لهم العذاب الأدنى في برزخهم.

وهذه الآية من الأدلة على إثبات عذاب القبر، ودلالاتها ظاهرة، فإنه قال: «ولنذيقنهم من العذاب الأدنى» أي: بعض وجزء منه، فدل على أن ثم عذاباً أدنى قبل العذاب الأكبر، وهو عذاب النار.

ولما كانت الإذاقة من العذاب الأدنى في الدنيا، قد لا يتصل بها الموت، فأخبر تعالى أنه يذيقهم ذلك لعلهم يرجعون إليه ويتوبون من ذنوبهم كما قال تعالى: «ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون».

«٢٢» «ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون» أي: لا أحد أظلم وأزبد تعدياً، ممن ذكر بآيات ربه، التي أوصلها إليه ربه، الذي يريد تربيته، وتكميل نعمته عليه على يد رسله، تأمره وتذكره مصالحه الدينية والدنيوية، وتنهاه عن مضاره الدينية والدنيوية، التي تقتضي أن يقابلها بالإيمان والتسليم، والانقياد والشكر، فقابلها هذا الظالم بضد ما ينبغي، فلم يؤمن بها ولا اتبعها، بل أعرض عنها وتركها وراء ظهره، فهذا من أكبر المجرمين، الذين يستحقون شديد العقاب، ولهذا قال: «إنا من المجرمين منتقمون».

«٢٣-٢٥» «ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى ليني إسرائيل» وجعلناه هدى ليني إسرائيل «وكانوا منكم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون» إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون لما ذكر تعالى آياته التي ذكر بها عباده، وهو القرآن، الذي أنزله على محمد ﷺ، ذكر أنه ليس ببدع من الكتب، ولا من جاء به بغريب من الرسل، فقد أتى الله موسى الكتاب الذي هو التوراة المصدقة للقرآن، التي

قد صدقها القرآن، فتطابق حقهما، وثبت برهانهما، «فلا تكن في مرية من لقائه» لأنه قد تواردت أدلة الحق وبيناته، فلم يبق للشك والمرية محل.

«وجعلناه» أي: الكتاب الذي آتينا موسى «هدى ليني إسرائيل» يهدون به في أصول دينهم وفروعه^(١)، وشرائعه موافقة لذلك الزمان في بني إسرائيل.

وأما هذا القرآن الكريم، فجعله الله هداية للناس كلهم، لأنه هداية للخلق، في أمر دينهم ودنياهم إلى يوم القيامة، وذلك لكماله وعلوه وإثباته في أم الكتاب لدينا لعل حكيم.

«وجعلنا منهم» أي: من بني إسرائيل «أئمة يهدون بأمرنا» أي: علماء بالشرع وطرق الهداية، مهتدين في أنفسهم، يهدون غيرهم بذلك الهدى، فالكتاب الذي أنزل إليهم هدى، والمؤمنون به منهم على قسمين: أئمة يهدون بأمر الله، وأتباع مهتدون بهم.

والقسم الأول أرفع الدرجات بعد درجة النبوة والرسالة، وهي درجة الصديقين، وإنما نالوا هذه الدرجة العالية بالصبر على التعلم والتعليم، والدعوة إلى الله، والأذى في سبيله، وكفوا أنفسهم عن جماعها في المعاصي واسترسالها في الشهوات.

«وكانوا بآياتنا يوقنون» أي: وصلوا في الإيمان بآيات الله إلى درجة اليقين، وهو العلم التام الموجب للعمل، وإنما وصلوا إلى درجة اليقين، لأنهم تعلموا تعليماً صحيحاً، وأخذوا المسائل عن أدلتها المفيدة لليقين.

فما زالوا يتعلمون المسائل، ويستدلون عليها بكثرة الدلائل، حتى وصلوا لذلك، فبالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين.

وتم مسائل تختلف فيها بنو إسرائيل، منهم من أصاب فيها الحق، ومنهم من أخطأ خطأ أو عمداً، والله تعالى «يفصل بينهم يوم القيامة فيما

(١) في النسختين: وفروعه، ولعل الصواب - والله أعلم - ما أثبت.

كانوا فيه يختلفون ﴿ وهذا القرآن يقص على بني إسرائيل الذي يختلفون فيه، فكل خلاف وقع بينهم، ووجد في القرآن تصديق لأحد القولين، فهو الحق، وما عداه مما خالفه باطل.﴾

﴿ ٢٦ - ٢٧ ﴾ ﴿ أولم يبد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون ﴾ أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ﴿ يعني: أولم يتبين لهؤلاء المكذبين للرسول، ويهدم إلى الصواب. ﴾ كم أهلكنا من قبلهم من القرون الذين سلكوا مسلكهم، يمشون في مساكنهم ﴿ فيشاهدونها عياناً، كقوم هود وصالح، وقوم لوط.﴾

﴿ إن في ذلك لآيات ﴾ يستدل بها على صدق الرسل التي جاءتهم، ويظان ما هم عليه من الشرك والشر، وعلى أن من فعل مثل فعلهم، فُعل بهم كما فُعل بأشياعه من قبل.

وعلى أن الله تعالى مجازي العباد، وباعثهم للحشر والتناد. ﴿ أفلا يسمعون ﴾ آيات الله فيعوبها فينتفعون بها، فلو كان لهم سمع صحيح وعقل رجيح، لم يقيموا على حالة^(١) يجزم بها بالهلاك.

﴿ أولم يروا ﴾ بأبصارهم نعمتنا وكمال حكمتنا ﴿ أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ﴾ التي لا نبات فيها، فيسوق الله المطر الذي لم يكن قبل موجوداً فيها، فيفرغه فيها من السحاب أو من الأنهار. ﴿ فنخرج به زرعاً ﴾ أي: نباتاً مختلف الأنواع ﴿ تأكل منه أنعامهم ﴾ وهو نبات البهائم، ﴿ وأنفسهم ﴾ وهو طعام الآدميين.

﴿ أفلا يبصرون ﴾ تلك المنة، التي أحيا الله بها البلاد والعباد، فيستبصرون فيهدون بذلك البصر وتلك البصيرة، إلى الصراط المستقيم، ولكن غلب عليهم العمى، واستولت عليهم الغفلة، فلم يبصروا في ذلك

بصر الرجال، وإنما نظروا إلى ذلك نظر الغفلة، ومجرد العادة، فلم يوفقوا للخير.

﴿ ٢٨ - ٣٠ ﴾ ﴿ ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين ﴾ قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون ﴿ فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون ﴾ أي: يستعجل المجرمون بالعذاب الذي وعدوا به على التكذيب، جهلاً منهم ومعاندة.

﴿ ويقولون متى هذا الفتح ﴾ الذي يفتح بيننا وبينكم، بتعدينا على زعمكم ﴿ إن كنتم ﴾ أيها الرسل ﴿ صادقين ﴾ في دعواكم.

﴿ قل يوم الفتح ﴾ الذي يحصل به عقابكم، لا تستفيدون به شيئاً، فلو كان إذا حصل، حصل إهمالكم، لتستدركوا ما فاتكم، حين صار الأمر عندكم يقيناً، لكان لذلك وجه، ولكن إذا جاء يوم الفتح، انقضى الأمر، ولم يبق للمحنة محل ف ﴿ لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ﴾ لأنه صار إيمان ضرورة، ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أي: يمهلون، فيؤخر عنهم العذاب، فيستدركون أمرهم.

﴿ فأعرض عنهم ﴾ لما وصل خطابهم إلى حالة الجهل واستعجال العذاب. ﴿ وانتظر ﴾ الأمر الذي يحل بهم، فإنه لا بد منه، ولكن له أجل، إذا جاء لا يتقدم ولا يتأخر. ﴿ إنهم منتظرون ﴾ بك ريب المنون، ومتربصون بكم دوائر السوء، والعاقبة للتقوى.

تم تفسير سورة السجدة بحول الله
ومنه فله تعالى كمال الحمد
والثناء والمجد

تفسير سورة الأحزاب وهي مدنية

﴿ ١ - ٣ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ واتبع ما يوحى إليك من

ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً ﴿ وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ﴾ أي: يا أيها الذي من الله عليه بالنبوة، واختصه بوحيه، وفضله على سائر الخلق، اشكر نعمة ربك عليك باستعمال تقواه، التي أنت أولى بها من غيرك، والذي يجب عليك منها أعظم من سواك، فامتثل أوامره ونواهيه، وبلغ رسالاته، وأد إلى عبادته وحيه، وابدل النصيحة للخلق.

ولا يصدنك عن هذا المقصود صاد، ولا يزدك عنه راد، فلا تطع كل كافر قد أظهر العداوة لله ورسوله، ولا منافق قد استبطن التكذيب والكفر، وأظهر ضده.

فهؤلاء هم الأعداء على الحقيقة، فلا تطعمهم في بعض الأمور، التي تنقض التقوى وتناقضها، ولا تتبع أهواءهم، يضلوك عن الصواب.

﴿ ولكن ﴾ اتبع ما يوحى إليك من ربك ﴿ فإنه هو الهدى والرحمة، وأزج بذلك ثواب ربك، فإنه بما تعملون خبير، يجازيك بحسب ما يعلمه منكم من الخير والشر.

فإن وقع في قلبك، أنك إن لم تطعمهم في أهوائهم المضلة، حصل عليك منهم ضرر، أو حصل نقص في هداية الخلق، فادفع ذلك عن نفسك، واستعمل ما يقاومه ويقاوم غيره، وهو التوكل على الله، بأن تعتمد على ربك اعتماداً من لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، في سلامتك من شرهم، وفي إقامة الدين الذي أمرت به، وثق بالله في حصول ذلك الأمر على أي حال كان.

﴿ وكفى بالله وكيلاً ﴾ توكل إليه الأمور، فيقوم بها وبما هو أصلح للعبد، وذلك لعلمه بمصالح عبده، من حيث لا يعلم العبد، وقدرته على إيصالها إليه، من حيث لا يقدر عليها العبد، وأنه أرجح بعبده من نفسه، ومن والديه، وأراف به من كل أحد،

(١) كذا في ب، وفي أ: على حالة لم يجزم، والصواب - والله أعلم - حذف لم.



﴿ولكن﴾ يؤاخذكم بما ﴿تعمدت قلوبكم﴾ من الكلام بما لا يجوز. ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ غفر لكم ورحمكم، حيث لم يعاقبكم بما سلف، وسمح لكم بما أخطأتم به، ورحمكم حيث بين لكم أحكامه التي تصلح دينكم وديناكم، فله الحمد تعالى.

﴿٦﴾ ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تعملوا إلى أوليائكم معروفاً﴾ كان ذلك في الكتاب مسطوراً ﴿يخبر تعالى المؤمنين خبراً يعرفون به حالة الرسول ﷺ ومرتبته، فيعاملونه بمقتضى تلك الحالة، فقال: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ أقرب ما للإنسان، وأولى ما له نفسه، فالرسول أولى به من نفسه، لأنه عليه الصلاة والسلام، بذل لهم من النصيحة والشفقة والرأفة، ما كان به أرحم الخلق وأرفهم، فرسول الله أعظم الخلق مثقال ذرة من الخير، ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر، إلا على يديه ونسيه.

فلهذا، وجب عليه أنه إذا تعارض مراد النفس، أو مراد أحد من الناس،

مع مراد الرسول، أن يقدم مراد الرسول، وأن لا يعارض قول الرسول بقوله أحد، كائناً من كان، وأن يفدوه بأنفسهم وأموالهم وأولادهم، ويقدموا محبة على حبة الخلق كله، وألا يقولوا حتى يقول، ولا يتقدموا بين يديه. وهو ﷺ أب للمؤمنين، كما في قراءة بعض الصحابة، يريهم كما يري الولد أولاده.

فترتب على هذه الأبوة، أن كان نساؤه أمهاتهم، أي: في الحرمة والاحترام والإكرام، لا في الخلوة والمحرمية، وكان هذا مقدمة لما سيأتي في قصة زيد بن حارثة، الذي كان قبل يدعى: ﴿زيد بن محمد﴾ حتى أنزل الله ﴿ما كان محمد أباً أحد من رجالكم﴾ فقطع نسيبه وانتسابه منه، فأخبر في هذه الآية، أن المؤمنين كلهم أولاد للرسول، فلا مزية لأحد عن أحد وإن انقطع عن أحدهم انتساب الدعوة، فإن النسب الإيماني لم ينقطع عنه، فلا يحزن ولا يأسف.

وترتب على أن زوجات الرسول أمهات المؤمنين، أنهن لا يحملن لأحد من بعده، كما الله صرح^(١) بذلك: ﴿ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً﴾.

﴿وأولوا الأرحام﴾ أي: الأقارب، قربوا أو بعدوا ﴿بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ [أي: في حكمه، فيرتب بعضهم بعضاً، ويبر بعضهم بعضاً، فهم أولى من الخلف والنصرة.

والأدعياء الذين كانوا من قبل يرثون بهذه الأسباب، دون ذوي الأرحام، فقطع تعالى التوارث بذلك وجعله للأقارب، لطفاً منه وحكمة، فإن الأمر لو استمر على العادة السابقة، لحصل من الفساد والشر والتحليل لحرمان الأقارب من الميراث شيء كثير.

﴿من المؤمنين والمهاجرين﴾ أي: سواء كان الأقارب مؤمنين مهاجرين وغير مهاجرين، فإن ذوي الأرحام مقدمون في ذلك، وهذه الآية حجة

على ولاية ذوي الأرحام في جميع الولايات، كولايات النكاح والمال، وغير ذلك.

﴿إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً﴾ أي: ليس لهم حق مفروض، وإنما هو بإرادتهم، إن شئتم أن تبرعوا لهم تبرعاً تعطوهم معروفاً منكم، ﴿كان﴾ ذلك الحكم المذكور ﴿في الكتاب مسطوراً﴾ أي: قد سطر وكتب وقدره الله، فلا بد من نفوذه.

﴿٧-٨﴾ ﴿وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذاباً أليماً ﴿يخبر تعالى أنه أخذ من النبيين عموماً، ومن أولي العزم - وهم هؤلاء الخمسة المذكورون - خصوصاً، ميثاقهم الغليظ وعهدهم الثقيل المؤكد، على القيام بدين الله والجهاد في سبيله، وأن هذا سبيل قد مشى الأنبياء المتقدمون، حتى ختموا بسيدهم وأفضلهم، محمد ﷺ، وأمر الناس بالالتداء بهم.

وسيسأل الله الأنبياء وأتباعهم عن هذا العهد الغليظ، هل وفوا فيه وصدقوا؟ فيثيبهم جنات النعيم؟ أم كفروا، فيعذبهم العذاب الأليم؟ قال تعالى: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾.

﴿٩-١١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً﴾ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ﴿هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾ يذكر تعالى عباده المؤمنين نعمته عليهم، ويحشهم على شكرها، حين جاءتهم جنود أهل مكة والحجاز من فوقهم، وأهل نجد من أسفل منهم، وتعاقدوا

(٢) زيادة من: ب.

(١) في: ب: كما سيصرح بذلك.

والحال أنهم قد عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسؤولاً سيئاً لهم عن ذلك العهد، فيجدهم قد نقضوه، فما ظنهم إذا برهم؟

﴿١٦﴾ **﴿قُلْ لَهُمْ، لَانَّمَا عَلَى فِرَارِهِمْ، وَغَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَفِيدُهُمْ ذَلِكَ شَيْئاً لَّنْ يَتَفَعَّمُ الْقَرَارَ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾** فلو كنتم في بيوتكم، لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم.

والأسباب تنفع، إذا لم يعارضها القضاء والقدر، فإذا جاء القضاء والقدر، تلاشى كل سبب، وبطلت^(٥) كل وسيلة ظنها الإنسان تنجيه.

﴿وَإِذَا﴾ حين فررتם لتسلموا من الموت والقتل، ولتنعموا في الدنيا فإنكم **﴿لَا تَمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾** متاعاً لا يسوى فراركم، وترككم أمر الله، وتفويتكم على أنفسكم التمتع الأبدى، في النعيم السرمدى.

ثم بين أن الأسباب كلها لا تغني عن العبد شيئاً إذا أراد الله بسوءه، فقال: **﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ﴾** أي: يمنعكم **﴿مَنْ﴾** الله إن أراد بكم سوءاً **﴿أَي:﴾** شرّاً، **﴿أَوْ﴾** أراد بكم رحمة **﴿فَإِنَّهُ هُوَ الْمُعْطِي الْمَانِعُ، الضَّارُّ النَّافِعُ، الَّذِي لَا يَأْتِي بِالْخَيْرِ إِلَّا هُوَ، وَلَا يَدْفَعُ السُّوءَ إِلَّا هُوَ﴾**

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً﴾ يتولاهم، فيجلب لهم النفع^(٦) **﴿وَلَا نَصِيراً﴾** أي: ينصرهم، يدفع عنهم المضار.

فَلْيَمْتَحِلُوا طَاعَةَ الْمُنْفَرِدِ بِالْأَمْرِ كُلِّهَا، الَّذِي نَفَذَتْ مَشِئَتُهُ، وَمَضَى قُدْرُهُ، وَلَمْ يَنْفَعْ مَعَ تَرْكِ وَلايَتِهِ وَنَصْرَتِهِ وَلِيٌّ وَلَا نَاصِرٌ.

ثم توعد تعالى المخذلين المعوقين، وتهدهم فقال: **﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ﴾** عن الخروج لمن **﴿لَمْ﴾**^(٧) يخرجوا **﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ﴾** الذين خرجوا:

شرهم، فقالت هذه الطائفة: **﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾** يريدون: **﴿يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ﴾**، فتأذوهم باسم الوطن النبيي **﴿عَنْ التَّسْمِيَةِ﴾**^(٨)، فيه إشارة إلى أن الدين والأخوة الإيمانية، ليس له في قلوبهم قدر، وأن الذي حلهم على ذلك، مجرد الجور الطبيعي:

﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ﴾ أي: في موضعكم الذي خرجتم إليه خارج المدينة، وكانوا عسكروا دون الخندق وخارج المدينة، **﴿فَارْجِعُوا﴾** إلى المدينة، فهذه الطائفة تحذل عن الجهاد، وتبين أنهم لا قوة لهم بقتال عدوهم، ويأمرهم بترك القتال، فهذه الطائفة أشتر الطوائف وأضرها، وطائفة أخرى ذوتهم، أصابهم الجبن والجزع، وأحبوا أن ينخللوا عن الصفوف، فجعلوا يعتذرون بالأعداء الباطلة، وهم الذين قال الله فيهم: **﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾** أي: عليها الخطر، ونخاف عليها أن يهجم عليها الأعداء، ونحن غيبت عنها، فأذن لنا نرجع إليها، فنحرسها، وهم كذبة في ذلك.

﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يَرِيدُونَ﴾ أي: ما قصدهم **﴿إِلَّا قَرَاراً﴾** ولكن جعلوا هذا الكلام وسيلة وعذراً **﴿لَهُمْ﴾**^(٩) فهو لا قل إيمانهم، وليس له ثبوت عند اشتداد المحن.

﴿وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمُ الْمَدِينَةُ﴾ من أقطارها **﴿أَي:﴾** لو دخل الكفار إليها من نواحيها، واستولوا عليها - لا كان ذلك - **﴿ثُمَّ﴾** سئل هؤلاء **﴿الْفِتْنَةُ﴾** أي: الانقلاب عن دينهم، والرجوع إلى دين المستولين المتغلبين **﴿لَا تُؤْهِأُ﴾** أي: لا أعطوها مبادرين.

﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً﴾ أي: ليس لهم منعة ولا تصلب على الدين، بل بمجرد ما تكون الدولة للأعداء، يعطونهم ما طلبوا، ويوافقونهم على كفرهم، هذه حالهم.

وتعاهدوا على استئصال الرسول والصحابة، وذلك في وقعة الخندق. وما لأتيم [طوائف]^(١٠) اليهود الذين حوالى المدينة، فجاءوا بجنود عظيمة وأمم كثيرة.

وخندق رسول الله ﷺ على المدينة، فنحصروا المدينة، واشتد الأمر، وبلغت القلوب الحناجر، حتى بلغ الظن من كثير من الناس كل مبلغ، لما رأوا من الأسباب المستحكمة، والشدائد الشديدة، فلم يزل الحصار على المدينة مدة طويلة، والأمر كما وصف الله: **﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾** أي: الظنون السيئة، أن الله لا ينصر دينه ولا يتم كلمته.

﴿هَنَالِكِ ابْتَلَى الْمُؤْمِنُونَ﴾ بهذه الفتنة العظيمة **﴿وَزَلْزَلُوا زَلْزَالاً شَدِيداً﴾** بالخوف والقلق والجوع، ليتبين إيمانهم، ويزيد إيمانهم، فظهر - والله الحمد - من إيمانهم وشدة يقينهم، ما فاقوا فيه الأولين والآخرين.

وعندما اشتد الكرب، وتفاقمت الشدائد، صار إيمانهم عين اليقين، **﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَجْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾**

وهناك تبين نفاق المنافقين، وظهر ما كانوا يضمرون، قال تعالى:

﴿١٢﴾ **﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً﴾**

وهذه عادة المنافق عند الشدة والمحنة، لا يثبت إيمانه، وينظر بعقله القاصر، إلى الحالة القاصرة^(١١)، ويصدق ظنه.

﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ﴾ بعدما جزعوا وقُل صبرهم، صاروا أيضاً من المخذلين، فلا صبروا بأنفسهم، ولا تركوا الناس من

(٦) في ب: المنافع.

(٧) زيادة من: ب.

(٤) زيادة من: ب.

(٥) كذا في ب، وفي أ: بطل.

(١) زيادة من: ب.

(٢) في ب: الحاضرة.

(٣) زيادة من: ب.

وخوف الله، ورجاء ثوابه، وخوف عقابه، يحثه على التأسي بالرسول ﷺ. لما ذكر حالة المنافقين عند الخوف، ذكر حال المؤمنين، فقال: ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب﴾ الذين تحزبوا، ونزلوا منازلهم، وانتهى الخوف، فقالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله في قوله: ﴿أم حسبكم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب﴾.

﴿وصدق الله ورسوله﴾ فإننا رأينا ما أخبرنا به ﴿وما زادهم﴾ ذلك الأمر ﴿إلا إيماناً﴾ في قلوبهم ﴿وتسليماً﴾ في جوارحهم، وانقياداً لأمر الله.

ولما ذكر أن المنافقين عاهدوا الله، لا يولون الأديار، ونقضوا ذلك العهد، ذكر وفاء المؤمنين به، فقال: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ أي: وفوا به، وأتموه، وأكملوه، قبلوا مهجهم في مرضاته، وسبّوا أنفسهم في طاعته.

﴿فمنهم من قضى نحبه﴾ أي: إرادته ومطلوبه وما عليه من الحق، فقتل في سبيل الله، أو مات مؤدياً لحقه لم يقصه شيئاً.

﴿ومنهم من ينتظر﴾ تكميل ما عليه، فهو شارب في قضاء ما عليه، وفاء نحبه ولما يكمله، وهو في رجاء تكميله، سارع في ذلك مجد.

﴿وما يبذلوا تبديلاً﴾ كما يبذل غيرهم، بل لم يزلوا على العهد، لا يلوون ولا يتغيرون، فهؤلاء الرجال على الحقيقة، ومن عداهم فصورهم صور رجال، وأما الصفات فقد قصرت عن صفات الرجال.

﴿ليجزى الله الصادقين بصدقهم﴾ أي: بسبب صدقهم، في أقوالهم وأفعالهم، ومعاملتهم مع الله، واستواء ظاهرهم وباطنهم، قال الله تعالى: ﴿هذا يوم يتفع الصادقين

يظنون أن هؤلاء الأحزاب، الذين تحزبوا على حرب رسول الله ﷺ وأصحابه لم يذهبوا حتى يستأصلوهم، فخاب ظنهم، وبطل حسابهم.

﴿وإن يأت الأحزاب﴾ مرة أخرى ﴿يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبيائكم﴾ أي: لو أتى الأحزاب مرة ثانية مثل هذه المرة، وذو هؤلاء المنافقون، أنهم ليسوا في المدينة ولا في القرب منها، وأنهم مع الأعراب في البادية، يستخبرون عن أخباركم، ويسألون عن أنبيائكم، ماذا حصل عليكم؟

فتبأ لهم، وبعداً فليسوا عن بيال^(١) بحضورهم ﴿ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً﴾ فلا تبالوهم، ولا تأسوا عليهم.

﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ حيث حضر الهجاء بنفسه الكريمة، وباشر موقف الحرب، وهو الشريف الكامل، البطل الباسل، فكيف تشحون بأنفسكم عن أمر جاد رسول الله ﷺ بنفسه فيه؟! فتأسوا في هذا الأمر وغيره.

واستدل الأصوليون في هذه الآية، على الاحتجاج بأفعال الرسول ﷺ، وأن الأصل، أن أمته أسوته في الأحكام، إلا ما دلّ الدليل الشرعي على الاختصاص به.

فبالأسوة نوعان: أسوة حسنة، وأسوة سيئة.

فالأسوة الحسنة في الرسول ﷺ، فإن التأسي به، سالك الطريق المؤصل إلى كرامة الله، وهو الصراط المستقيم. وأما الأسوة بغيره إذا خالفه، فهو الأسوة السيئة، كقول الكفار^(٢) حين دعتهم الرسل للتأسي [بهم]^(٣): ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون﴾.

وهذه الأسوة الحسنة، إنما يسلكها ويوفق لها، من كان يرجو الله واليوم الآخر، فإن ما معه^(٤) من الإيمان،

﴿هلمّ إلينا﴾ أي: ارجعوا، كما تقدم من قولهم: ﴿يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا﴾.

وهم مع تعويقهم وتخذيّلهم ﴿لا يأتون إليّ﴾ القتال والجهاد بأنفسهم ﴿إلا قليلاً﴾ فهم أشد الناس حرصاً على التخلف، لعدم الداعي لذلك من الإيمان والصبر، ووجود المقتضي للجنب، من النفاق وعدم الإيمان.

﴿أشحة عليكم﴾ بأبدانهم عن القتال، وأموالهم عند النفقة فيه، فلا يجاهدون بأموالهم وأنفسهم. ﴿فإذا جاء الخوف﴾ رأيتهم ينظرون إليك ﴿نظر المغشي عليه﴾ من الموت من شدة الجبن الذي خلع قلوبهم، والقلق الذي أذهلهم، وخوفاً من إجبارهم على ما يكرهون من القتال.

﴿فإذا ذهب الخوف﴾ وصاروا في حال الأمن والطمأنينة، ﴿سلقوكم بالنسنة﴾ أي: خاطبوكم وتكلموا معكم بكلام حديد، ودعاوى غير صحيحة.

وحين تسمعهم، تظنهم أهل الشجاعة والإقدام، ﴿أشحة على الخير﴾ الذي يراد منهم، وهذا شر ما في الإنسان، أن يكون شحيحاً بما أمر به، شحيحاً بما له أن يتفقه في وجهه، شحيحاً في بدنه أن يجاهد أعداء الله، أو يدعو إلى سبيل الله، شحيحاً بجاهه، شحيحاً بعلمه ونصيحته ورأيه.

﴿ولئك﴾ الذين بتلك الحالة ﴿لم يؤمنوا﴾ بسبب عدم إيمانهم أحبط الله أعمالهم، ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾.

وأما المؤمنون، فقد وقاهم الله شح أنفسهم، ووقفهم لبذل ما أمروا به، من بذل لأبدانهم في القتال في سبيله، وإعلاء كلمته، وأموالهم للنفقة في طرق الخير، وجاههم وعلمهم.

﴿يحسبون الأحزاب لم يذهبوا﴾ أي:

(٥) في أ: وما عداهم، ولعل الصواب ما أثبت.

(٣) زيادة من: ب.

(٤) في ب: فإن ذلك ما معه.

(١) في ب: يغالي.

(٢) في ب: المشركين.

صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً الآية .

أي : قدرنا ما قدرنا من هذه الفتن والمحن والزلازل ، ليتبين الصادق من الكاذب ، فيجزي الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين الذين تغيرت قلوبهم وأعمالهم عند حلول الفتن ، ولم يفوا بما عاهدوا الله عليه .

﴿إن شاء﴾ تعذيبهم ، بأن لم يشأ هدايتهم ، بل علم أنهم لا خير فيهم فلم يوفقهم .

﴿أو يتوب عليهم﴾ بأن يوفقهم للتوبة والإنابة ، وهذا هو الغالب على كرم الكريم ، ولهذا ختم الآية باسمين دالين على المغفرة والفضل والإحسان فقال : ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾ غفوراً لذنوب السرفين على أنفسهم ، ولو أكثروا من العصيان إذا أتوا بالتائب . ﴿رحيماً﴾ بهم ، حيث وفقهم للتوبة ، ثم قبلها منهم وستر عليهم ما اجترحوه .

﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً﴾ أي : ردهم خائبين ، لم يحصل لهم الأجر الذي كانوا خائفين عليه ، مغتاظين قادرين [عليه] ^(١) جازمين ، بأن لهم الدائرة ، قد غرتهم جموعهم ، وأعجبوا بتعذيبهم ، وفرحوا بغيظهم وغديهم .

فأرسل الله عليهم ريحاً عظيمة ، وهي ^(٢) ريح الصبا ، فزعزعت مراكزهم ، وقوضت خيامهم ، وكفأت قذورهم وأزعجتهم ، وضربهم الله بالرعب ، فأنصرفوا بغيظهم ، وهذا من نصر الله لعباده المؤمنين .

﴿وكفى الله المؤمنين القتال﴾ بما صنع لهم من الأسباب العبادية والقدرية ، ﴿وكان الله قوياً عزيزاً﴾ لا يغالبه أحد إلا غلب ، ولا يستنصره أحد إلا غلب ، ولا يعجزه أمر أراد ، ولا ينفع أهل القوة والعزة قوتهم وعزتهم ، إن لم يعنهم يقوته وعزته .

﴿ وأنزل الذين ظاهروهم ﴾ أي : عاونوهم ﴿ من أهل الكتاب ﴾ أي : اليهود ﴿ من ضياعهم ﴾ أي : أنزلهم من حصونهم ، نزولاً مظفوراً بهم ، مجعولين تحت حكم الإسلام .

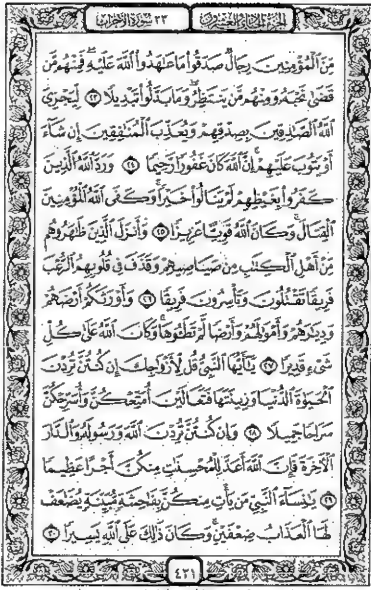
﴿ وقذف في قلوبهم الرعب ﴾ فلم يقروا على القتال ، بل استسلموا وخضعوا وذلوا . ﴿ فريقاً تقتلون ﴾ وهم الرجال المقاتلون ﴿ وفأسرون فريقاً ﴾ من عداهم من النساء والصبيان .

﴿ وأورثكم ﴾ أي : غنمكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطووها ﴾ أي : أرضاً كانت من قبل ، من شرفها وعزتها عند أهلها ، لا تتمكنون من وطئها ، فمكنكم الله وخذلهم ، وغنمتم أموالهم ، وقتلتموهم وأسرتموهم . ﴿ وكان الله على كل شيء قديراً ﴾ لا يعجزه شيء ، ومن قدرته قدر لكم ما قدر .

وكانت هذه الطائفة من أهل الكتاب ، هم بنو قريظة من اليهود ، في قرية خارج المدينة غير بعيد ، وكان النبي ﷺ [حين] ^(٣) هاجر إلى المدينة ووادعهم وهاذبهم ، فلم يقاتلهم ولم يقاتلوه ، وهم باقون على دينهم ، لم يغير عليهم شيئاً .

فلما رأوا يوم الخندق الأحزاب الذين تحزبوا على رسول الله وكرتهم ، وقلة المسلمين ، وظنوا أنهم سيستأصلون الرسول والمؤمنين ، وساعد على ذلك [تدجيل] ^(٤) بعض رؤسائهم عليهم ، فنقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ ، ومالوا والمشركين على قتاله .

فلما خذل الله المشركين ، تفرغ رسول الله ﷺ لقتالهم ، فحاصروهم في حصنهم ، فنزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه ، فحكم فيهم ، أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى



ذرايرهم ، وغنم أموالهم . فاتم الله لرسوله والمؤمنين المنة ، وأسبغ عليهم النعمة ، وأقر أعينهم بخذلان من انخزل من أعدائهم ، وقتل من قتلوا ، وأسر من أسروا ، ولم يزل لطف الله بعباده المؤمنين مستمراً .

﴿ ٢٨ - ٢٩ ﴾ ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحاً جميلاً ﴾ وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكم أجراً عظيماً ﴿ لا اجتمع نساء رسول الله ﷺ عليه في الغيرة ، وطلبن منه النفقة والكسوة ، طلبن منه أمراً لا يقدر عليه في كل وقت ، ولم يزلن في طلبهن متفتقات ، في مرادهن متعنتات ، فشئ ذلك على الرسول ، حتى وصلت به الحال إلى أنه آل منهن شهراً .

فأراد الله أن يسهل الأمر على رسوله ، وأن يرفع درجة زوجاته ، ويذهب عنهن كل أمر ينقص أجزن ، فأمر رسوله أن يخبرهن ^(٥) فقال : ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا ﴾ أي : ليس لكن في غيرها مطلب ، وصرتن ترضين لوجودها ،

(٥) في أ : يخبرهن .

(٣) زيادة من : ب .

(٤) زيادة من : ب .

(١) زيادة من : ب .

(٢) في أ : وهو . ولعل الصواب ما أثبت .



وتغضبن لفقدها، فليس لي فيكن أرب وحاجة، وأنش هذه الحال.

﴿فتعالين أمتعنن﴾ شيئاً مما عندي من الدنيا ﴿وأسرحن﴾ أي: أفاركن ﴿سراحاً جيلاً﴾ من دون مغاضبة ولا مشامة، بل بسعة صدر، وإشراح بال، قبل أن تبلغ الحال إلى ما لا ينغي.

﴿وإن كنتم تردن الله ورسوله والدار الآخرة﴾ أي: هذه الأشياء مرادكن، وغاية مقصودكن، وإذا حصل لكم الله ورسوله والجنة، لم تبالين بسعة الدنيا وضيقها، ويسرها وعسرها، وقتعن من رسول الله بما تيسر، ولم تطلبن منه ما يشق عليه، ﴿فإن الله أعدل للمحسنات منكم أجراً عظيماً﴾ رتب الأجر على وصفهن بالإحسان، لأنه السبب الموجب لذلك، لا لكونهن زوجات للرسول، فإن مجز ذلك لا يكفي، بل لا يفيد شيئاً مع عدم الإحسان، فخيرهن رسول الله ﷺ في ذلك، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة كلهن، ولم يتخلف منهن واحدة، رضي الله عنهن.

وفي هذا التخيير فوائد عديدة:

(١) في أ: نساء.

منها: الاعتناء برسوله وغيرته عليه، أن يكون بحالة يشق عليه كثرة مطالب زوجته الدنيوية.

ومنها: سلامته ﷺ بهذا التخيير من تبعه حقوق الزوجات، وأنه يبقى في حرية نفسه، إن شاء أعطى، وإن شاء منع ﴿ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له﴾.

ومنها: تنزيهه عن لو كان فيهن من تؤثر الدنيا على الله ورسوله والدار الآخرة عنها، وعن مقارنتها.

ومنها: سلامة زوجته رضي الله عنهن عن الإثم والتعرض لسخط الله ورسوله.

فحسم الله بهذا التخيير عنهن التسخط على الرسول، الموجب لسخطه، المسخط لربه، الموجب لعقابه.

ومنها: إظهار رفعتهن وعلو درجتهن، وبيان علو همهن، أن كان الله ورسوله والدار الآخرة مرادهن ومقصودهن، دون الدنيا وحطامها.

ومنها: استعدادهن بهذا الاختيار، للأمر الخيار، للوصول إلى خيار درجات الجنة، وأن يكن زوجاته في الدنيا والآخرة.

ومنها: ظهور المناسبة بينه وبينهن، فإنه أكمل الخلق، وأراد الله أن تكون نساؤه^(١) كاملات مكملات، طيبات مطيبات الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات.

ومنها: أن هذا التخيير داع، وموجب للقناعة التي يطمئن لها القلب، ويشرح لها الصدر، وعدم الرضا عنهن جشع الحرص، وعدم الرضا الموجب لقلق القلب واضطرابه، وهمه وغمه.

ومنها: أن يكون اختيارهن هذا، سبباً لزيادة أجرهن ومضاعفته، وأن يكن بمرتبة ليس فيها أحد من النساء، ولهذا قال:

﴿يا نساء النبي من

يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً﴾ ومن يقنت منكم ﷺ وتعمل صالحاً نؤمها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً

لما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، ذكر مضاعفة أجرهن، ومضاعفة وزرهن وإثمهن لو جرى منهن، ليزداد حذرهن، وشكرهن الله تعالى، فجعل من أتى منهن بفاحشة ظاهرة لها العذاب ضعفين.

﴿ومن يقنت منكم﴾ أي: تطيع الله ورسوله وتعمل صالحاً ﴿فليلاً أو كثيراً﴾ نؤمها أجرها مرتين ﴿أي: مثل ما تعطي غيرها مرتين، وأعتدنا لها رزقاً كريماً﴾ وهي الجنة، فقنتن الله ورسوله، وعملن صالحاً، فعلم بذلك أجرهن.

﴿٣٢-٣٤﴾ ﴿يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً﴾ ﴿وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ ﴿أذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً﴾ يقول تعالى: ﴿يا نساء النبي﴾ خطاب لهن كلهن ﴿لستن كأحد من النساء إن اتقيتن﴾ الله، فإنكن بذلك تفقن النساء، ولا يلحقكن أحد من النساء، فكملمن التقوى بجميع وسائلها ومقاصدها.

فلهذا أرشدن إلى قطع وسائل المحرم، فقال: ﴿فلا تخضعن بالقول﴾ أي: في مخاطبة الرجال، أو بحيث يسمعون فتلن في ذلك، وتتكلمن بكلام رقيق يدعو ويطمع ﴿الذي في قلبه مرض﴾ أي: مرض شهوة الزنا، فإنه مستعد، ينظر أدنى محرک يحركه، لأن قلبه غير صحيح، فإن القلب

أي: فاحمدوا ربكم واشكروه على هذه الأوامر والنواهي، التي أخبركم بمصلحتها وأنها محض مصلحتكم، لم يرد الله أن يجعل عليكم بذلك حرجاً ولا مشقة، بل لتتذكروا نفوسكم، ولتتطهر أخلاقكم، وتحسن أعمالكم، ويعظم بذلك أجركم.

ولما أمرهن بالعمل الذي هو فعل وترك، أمرهن بالعلم، وبين لهن طريقه، فقال: ﴿وَأَذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ والمراد بآيات الله، القرآن: والحكمة، أسرار الله، أو سنة رسوله. وأمرهن بذكره، يشمل ذكر لفظه، بتلاوته، وذكر معناه، بتدبره والتفكير فيه، واستخراج أحكامه وحكمه، وذكر العمل به وتأويله. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ يدرك أسرار^(٥) الأمور، وخفايا الصدور، وخبايا السماوات والأرض، والأعمال التي تبين وتسر.

فلطفه وخبرته، يقتضي حثهن على الإخلاص وإسراز الأعمال، ومجازاة الله على تلك الأعمال.

ومن معاني «اللطيف» الذي يسوق عبده إلى الخير، ويعصمه من الشر، بطرق خفية لا يشعر بها، ويسوق إليه من الرزق ما لا يدريه، ويريه من الأسباب التي تكرهها النفوس ما يكون ذلك طريقاً^(٦) آله إلى أعلى الدرجات وأرفع المنازل.

﴿٣٥﴾ ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا

إذا رأى من نفسه هذه الحالة، وأنه يش^(٧) لفعل المحرم عندما يرى أو يسمع كلام من يهواه، ويجد دواعي طمعه قد انصرفت إلى الحرام، فليُعرف أن ذلك مرض.

فليُجْتَهد في إضعاف هذا المرض وحسم الخواطر الرديئة، ومجاهدة نفسه على سلامتها من هذا المرض الخطر، وسؤال الله العصمة والتوفيق، وأن ذلك من حفظ الفرج المأمور به.

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أي: اقررن فيها، لأنه أسلم وأحفظ لكن، ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ أي: لا تكثرن الخروج متجملات أو متطيبات، كعادة أهل الجاهلية الأولى، الذين لا علم عندهم ولا دين، فكل هذا دفع للشر وأسبابه.

ولما أمرهن بالتقوى عموماً، وبجزئيات من التقوى، نص عليها [حاجة]^(٨) النساء إليها، كذلك أمرهن بالطاعة، خصوصاً الصلاة والزكاة، اللتان يحتاجهما ويضطر إليهما كل أحد، وهما أكبر العبادات، وأجل الطاعات، وفي الصلاة الإخلاص للمعبود، وفي الزكاة الإحسان إلى العبيد.

ثم أمرهن بالطاعة عموماً، فقال: ﴿وَأَطِيعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يدخل في طاعة الله ورسوله، كل أمر أمراً به أمر إيجاب أو استحباب.

﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ﴾ بأمركن بما أمركن به، ونهيكن بما^(٩) نهاكن عنه، ﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾ أي: الأذى والشر والخبث، يا أهل البيت ويطهركم تطهيراً حتى تكونوا طاهرين مطهرين.

الصحيح^(١٠)، ليس فيه شهوة لما حرم الله، فإن ذلك لا تكاد تميله ولا تحركه الأسباب، لصحة قلبه وسلامته من المرض.

بخلاف مريض القلب، الذي لا يتحمل ما يتحمل الصحيح، ولا يصبر على ما يصبر عليه، فأدنى سبب يوجد، يدعوه إلى الحرام، يجنب دعوته، ولا يتعاضى عليه، فهذا دليل على أن الوسائل لها أحكام المقاصد. فإن الخضوع بالقول واللين فيه، في الأصل مباح، ولكن لما كان وسيلة إلى المحرم، منع منه، ولهذا ينبغي للمرأة في مخاطبة الرجال، أن لا تلين لهم القول.

ولما نهاهن عن الخضوع في القول، فربما توهم أنهن مأمورات بإغلاظ القول، دفع هذا بقوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ أي: غير غليظ ولا جاف، كما أنه ليس بليّن خاضع.

وتأمل كيف قال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ ولم يقل: ﴿فَلَا تَلِينَ بِالْقَوْلِ﴾ وذلك لأن المنهي عنه القول اللين، الذي فيه خضوع المرأة للرجل، وانكسارها عنده، والخاضع هو الذي يطمع فيه، بخلاف من تكلم كلاماً ليناً ليس فيه خضوع، بل ربما صار فيه ترفع وقهر للخصم، فإن هذا لا يطمع فيه خصمه، ولهذا مدح الله رسوله باللين، فقال: ﴿فَمَا رَحْمَةً مِنْ اللَّهِ لَنتْ لَهُمْ﴾ وقال موسى وهارون: ﴿أَذْهَبْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ فقالوا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى.

ودلّ قوله: ﴿فَيُطَمِّعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ مع أمره بحفظ الفرج وثناؤه على الحافظين لفروجهم والحافظات، ونهيه عن قربان الزنا، أنه ينبغي للعبد

(١) زيادة من: ب، لا يستقيم الكلام بدونها.

(٢) كذا في: ب، وفي أ: يشتهي، والأقرب ما أثبت.

(٣) زيادة من: ب.

(٤) في ب: عفا.

(٥) في ب: سرائر.

(٦) زيادة من: ب.

وكان سبب نزول هذه الآيات، أن الله تعالى أراد أن يشرح شرعاً عاماً للمؤمنين، أن الأدعياء ليسوا في حكم الأبناء حقيقة، من جميع الوجوه وأن أزواجهم لا جناح على من تبناهم نكاحهن.

وكان هذا من الأمور المعتادة، التي لا تكاد تزول إلا بحادث كبير، فأراد أن يكون هذا الشرع قولاً من رسوله وفعلاً، وإذا أراد الله أمراً أجعل له سبباً، وكان زيد بن خثالة يدعى «زيد بن محمد» قد تبناه النبي ﷺ، فصار يدعى إليه حتى نزل: «أدعوهم لأبائهم» فقيل له: «زيد بن خثالة».

وكانت تحت زينب بنت جحش، ابنة عمه رسول الله ﷺ، وقد كان قد وقع في قلب الرسول، لو طلقها زيد، لتزوجها، فقدر الله أن يكون بينها وبين زيد ما اقتضى أن جاء زيد بن خثالة يستأذن النبي ﷺ في فراقها.

قال الله: «وإذ تقول للذي أنعم الله عليه» أي: بالإسلام «وأنعمت عليه» بالعق^(٣)، حين جاءك مشاوراً في فراقها: فقلت له ناصحاً ونخبراً بمصلحته^(٤)، مع وقوعها في قلبك: «أمسك عليك زوجك» أي: لا تفارقها، وأصبر على ما جاءك منها، «واتق الله» تعالى في أمورك عامة، وفي أمر زوجك خاصة، فإن التقوى تحت على الصبر وتأمر به.

«وتخفي في نفسك ما الله مبديه» والذي أخفاه، أنه لو طلقها زيد لتزوجها ﷺ.

«وتخشى الناس» في عدم إبداء ما في نفسك «والله أحق أن تخشاه»^(٥) وأن لا تباليهم شيئاً، «فلما قضى زيد منها وطراً» أي: طابت نفسه، ورغب عنها، وفارقها. «وزوجناكها» وإنما

لذنوبهم، لأن الحسنات يذهبن السيئات. «وأجر عظيم» لا يقدر قدره، إلا الذي أعطاه، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، نسأل الله أن يجعلنا منهم.

﴿٣٦﴾ «وما كان المؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً» أي: لا ينبغي ولا يليق بمن اتصف بالإيمان، إلا الإسراع في مرضاة الله ورسوله، والهرب من سخط الله ورسوله، وامثال أمرهما، واجتناب نهيهما، فلا يليق بمؤمن ولا مؤمنة «إذا قضى الله ورسوله أمراً» من الأمور، وحثاً به وألزماً به «أن يكون لهم الخيرة من أمرهم» أي: الخيار، هل يفعلونه أم لا؟ بل يعلم المؤمن والمؤمنة، أن الرسول أولى به من نفسه، فلا يجعل بعض أهواء نفسه حجاباً بينه وبين أمر الله ورسوله.

«ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً» أي: بيناً، لأنه ترك الضوابط المستقيمة الموصلة إلى كرامة الله، إلى غيرها من الطرق الموصلة للعذاب الأليم، فذكر أولاً السبب الموجب لعدم معارضته أمر الله ورسوله، وهو الإيمان، ثم ذكر المانع من ذلك، وهو التخويف بالضللال، الدال على العقوبة والنكال.

﴿٣٧﴾ «وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً»

عظيماً لما ذكر تعالى ثواب زوجات الرسول ﷺ وعقابهن لئلا قدر عدم الامتثال^(١) وأنه ليس مثلهن أحد من النساء، ذكر بقية النساء غيرهن.

ولما كان حكمهن والرجال واحداً، جعل الحكم مشتركاً، فقال: «إن المسلمين والمسلمات» وهذا في الشرائع الظاهرة، إذا كانوا قائمين بها. «والمؤمنين والمؤمنات» وهذا في الأمور الباطنة، من عقائد القلب وأعماله.

«والقانتين» أي: الطيبين لله ورسوله «والقانتات والصادقين» في مقالهم وفعالهم «والصادقات» «والصابرين» على الشدائد والمصائب «والصابرات والخاشعين» في جميع أحوالهم، خصوصاً في عباداتهم، خصوصاً في صلواتهم «والخاشعات» «والمصدقين» فرضاً ونقلاً «والمصدقات والصابئات» شمل ذلك الفرض والنفل. «والخافظين فروجهم» عن الزنا ومقدماته «والخافظات» «والذاكرين الله كثيراً» أي: [٣] في أكثر الأوقات، خصوصاً أوقات الأوراد المفيدة، كالصباح والمساء، وأدبار الصلوات المكتوبات «والذاكرات».

«أعد الله لهم» أي: لهؤلاء الموصوفين بتلك الصفات الجميلة، والمناقب الجليلة، التي هي ما بين اعتقادات، وأعمال قلوب، وأعمال جوارح، وأقوال لسان، وتنع متعد وقاصر، وما بين أفعال الخير، وترك الشر، الذي من قام بهن، فقد قام بالدين كله، ظاهره وباطنه، بالإسلام والإيمان والإحسان.

فجازاهم على عملهم بالمغفرة

(١) زيادة من: ب.

(٢) زيادة من: ب.

(٣) في هامش ب: والإرشاد والتعليم.

(٤) في هامش ب: مقدماً لها على رغبتك.

(٥) في هامش ب: فإن خشيت جالبة لكل خير، [مانعة] من كل شر (مع أن كلمة مانعة غير واضحة في الأصل).

فعلنا ذلك لفائدة عظيمة، وهي:
«لكيلا يكون على المؤمنين حرج في
أزواج أديانهم» حيث رآوك تزوجت
زوج زيد بن حارثة، الذي كان من
قبل ينتسب إليك.

ولما كان قوله: «لكي لا يكون على
المؤمنين حرج في أزواج أديانهم»
عاماً في جميع الأحوال وكان من
الأحوال، ما لا يجوز ذلك، وهي قبل
انقضاء وطره منها، قيد ذلك بقوله:
«إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله
مفعولاً» أي: لا بد من فعله، ولا
عائق له ولا مانع.

وفي هذه الآيات المشتملات على
هذه القصة فوائد، منها: الثناء على
زيد بن حارثة، وذلك من وجهين:
أحدهما: أن الله سماه في القرآن،
ولم يسم من الصحابة باسمه غيره.
والثاني: أن الله أخبر أنه أنعم عليه،
أي: بنعمة الإسلام والإيمان. وهذه
شهادة من الله له أنه مسلم مؤمن،
ظاهراً وباطناً، وإلا فلا وجه
لتخصيصه بالنعمة، لولا أن المراد بها
النعمة الخاصة.

ومنها: أن المُنْعَق في نعمة المُنْعَق.
ومنها: جواز تزوج زوجة الدَّعي،
كما صرح به.
ومنها: أن التعليم الفعلي أبلغ من
القول، خصوصاً إذا اقترن بالقول،
فإن ذلك نور على نور.

ومنها: أن المحبة التي في قلب
العبد، لغير زوجته ومملوكته ومحارمه،
إذا لم يقترب بها محذور، لا يَأْثَم عليها
العبد، ولو اقترن بذلك أمنيته، أن لو
طلّقها زوجها لتزوجها من غير أن
يسعى في فُرقة بينهما، أو يتسبب بأي:
سبب كان، لأن الله أخبر أن
الرسول ﷺ أحق ذلك في نفسه.

ومنها: أن الرسول ﷺ قد بلغ
البلاغ المبين، فلم يدع شيئاً مما أوحى
إليه إلا وبلغه، حتى هذا الأمر، الذي
فيه عتابه.

وهذا يدل على أنه رسول الله، ولا
يقول إلا ما أوحى إليه، ولا يريد
تعظيم نفسه.

ومنها: أن المستشار مؤتمن، يجب
عليه - إذا استشير في أمر من الأمور -
أن يشير بما يعلمه أصلح
للمستشير^(١)، ولو كان له حظ نفس،
فتقدم مصلحة المستشار على هوى نفسه
وغرضه.

ومنها: أن من الرأي: الحسن لمن
استشار في فراق زوجته أن يؤمر
بإمسакها مهما أمكن صلاح الحال،
فهو أحسن من الفُرقة.

ومنها: [أنه يتعين]^(٢) أن يقدم العبد
خشية الله على خشية الناس، وأنها
أحقّ منها وأولى.

ومنها: فضيلة زينب رضي الله
عنها أم المؤمنين، حيث تنوّى الله
تزيينها من رسوله ﷺ، من دون
خطبة ولا شهود، ولهذا كانت تفتخر
بذلك على أزواج رسول الله ﷺ،
وتقول: زوجكن أهاليكن،
وزوجني الله من فوق سبع سماوات.

ومنها: أن المرأة إذا كانت ذات
زوج، لا يجوز نكاحها، ولا السغي فيه
وفي أسبابه، حتى يقضي زوجها وطره
منها، ولا يقضي وطره، حتى تنقضي
عدتها، لأنها قبل انقضاء عدتها، وهي
في عصمتها، أو في حقه الذي له وطر
إليها، ولو من بعض الوجوه.

﴿٣٨ - ٣٩﴾ «ما كان على النبي
من حرج فيما فرض الله له سنة الله في
الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً
مقدوراً» الذين يبلغون رسالات الله
ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى
بالله حسيباً هذا دفع لظعن من ظعن
في الرسول ﷺ، في كثرة أزواجه،
وأنه ظعن بما لا مطعن فيه، فقال:
«ما كان على النبي من حرج» أي: إثم
وذنّب. «فيما فرض الله له» أي:
قدر له من الزوجات، فإن هذا قد
أباحه الله للأنبياء قبله، ولهذا قال:

وَمَا كَانَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَا مُؤْمِنِينَ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٣٨﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَالْمَسْكِينُ عَلَيْهِمْ أَصْبَحْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ فَطَمَنُوا وَأَتَىٰ اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَسْرَةً ﴿٣٩﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ لَاحِظًا قَدِيرًا ﴿٤٠﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ حَرَجٌ فِي أَرْوَاحِهِمْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَإِنَّا لَآتُونَكَ بَأْسًا شَدِيدًا مُّحْدِثِينَ وَكُلَّ يَوْمٍ تَخْرُجُ فِي الْقُرْآنِ فَتُحْذَرُ مِنْهُمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ مِنْ يَوْمٍ مُّجْزٍ ﴿٤١﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ لَاحِظًا قَدِيرًا ﴿٤٢﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ حَرَجٌ فِي أَرْوَاحِهِمْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَإِنَّا لَآتُونَكَ بَأْسًا شَدِيدًا مُّحْدِثِينَ وَكُلَّ يَوْمٍ تَخْرُجُ فِي الْقُرْآنِ فَتُحْذَرُ مِنْهُمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ مِنْ يَوْمٍ مُّجْزٍ ﴿٤٣﴾

«سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان
أمر الله قدراً مقدوراً» أي: لا بد من
وقوعه. ثم ذكر من هم الذين من قبل
قد خلوا، وهذه سنتهم وعاداتهم،
وأهم «الذين يبلغون رسالات الله»
فيتلون على العباد آيات الله وحججه
وبراهينه، ويدعونهم إلى الله
«ويخشونه» وحده لا شريك له «ولا
يخشون أحداً» إلا الله.

فإذا كان هذا سنة في الأنبياء
المعصومين، الذين وظيفتهم قد أدوها
وقاموا بها أتم القيام، وهو دعوة الخلق
إلى الله، والخشية منه وحده، التي
تقتضي فعل كل مأمور، وترك كل
محذور، دل ذلك على أنه لا نقص فيه
بوجه.

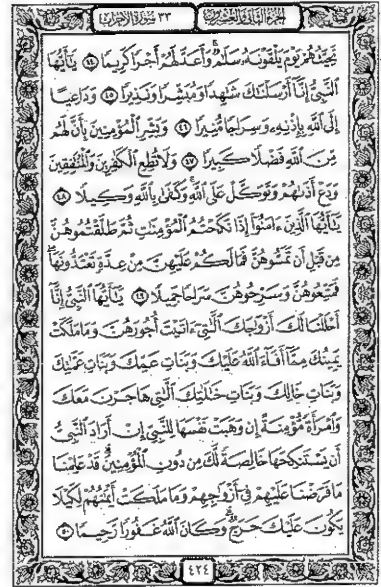
«وكفى بالله حسيباً» محاسباً عباده،
مراقباً أعمالهم. وعلم من هذا، أن
النكاح من سنن المرسلين.

﴿٤٠﴾ «ما كان محمد أباً أحد من
رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين
وكان الله بكل شيء عليماً» أي: لم
يكن الرسول «محمد» أباً أحد
من رجالكم، أيها الأمة فقطع انتساب
زيد بن حارثة منه، من هذا الباب.

ولما كان هذا النفي عاماً في جميع
الأحوال، إن حمل ظاهر اللفظ على

(١) كذا في ب، وفي أ: للمستشار، ولعل الصواب ما أثبت - والله أعلم -.

(٢) زيادة من: ب.



ظاهرة، أي: لا أبوة نسب، ولا أبوة ادعاء، وقد كان تقرر فيما تقدم أن الرسول ﷺ أب للمؤمنين كلهم، وأزواجه أمهاتهم، فاحترز أن يدخل في هذا النوع بعموم النهي المذكور، فقال: «ولكن رسول الله وخاتم النبيين» أي: هذه مرتبته مرتبة المطاع المتبوع، المهتدى به، المؤمن له، الذي يجب تقديم محبته على محبة كل أحد، الناصح الذي لهم، أي: للمؤمنين، من به [ونصحه]، كأنه أب لهم.

«وكان الله بكل شيء عليمًا» أي: قد أحاط علمه بجميع الأشياء، ويعلم حيث يجعل رسالاته، ومن يصلح لفضله ومن لا يصلح.

﴿٤١-٤٤﴾ «يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً * وسبحوه بكرة وأصيلاً * هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً * تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً * يأمر تعالى المؤمنين بذكره ذكراً كثيراً، من تهليل وتحميد وتسبيح وتكبير وغير ذلك، من كل قول فيه قربة إلى الله، وأقل ذلك، أن يلازم الإنسان أوراد الصباح والمساء، وأدبار الصلوات الخمس، وعند العوارض والأسباب.

وينبغي مداومة ذلك في جميع الأوقات، على جميع الأحوال، فإن ذلك عبادة يسبق بها العامل وهو مستريح، وداع إلى محبة الله ومعرفته، وعون على الخير، وكف اللسان عن الكلام القبيح.

«وسبحوه بكرة وأصيلاً» أي: أول النهار وآخره، لفضلها وشرفها، وسهولة العمل فيها.

«هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً» أي: من رحمته بالمؤمنين ولطفه بهم، أن جعل من صلاته عليهم وثنائه، وصلاة ملائكته ودعائهم، ما يخرجهم من ظلمات الذنوب والجهل، إلى نور الإيمان والتوفيق والعلم والعمل، فهذه أعظم نعمة أنعم بها على العباد الطائعين، تستدعي منهم شكرها، والإكثار من ذكر الله، الذي لطف بهم ورحمهم، وجعل حلة عرشه أفضل الملائكة، ومن حوله يسبحون بحمدهم ويستغفرون للذين آمنوا فيقولون: «ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم * ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم * وقهم السيئات ومن نقي السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم».

فهذه رحمته ونعمته عليهم في الدنيا. وأما رحمته بهم في الآخرة، فأجل رحمة، وأفضل ثواب، وهو الفوز برضا ربهم وتحيته، واستماع كلامه الجليل، ورؤية وجهه الجميل، وحصول الأجر الكبير، الذي لا يدري ولا يعرف كنهه، إلا من أعطاهم إياه، ولهذا قال: «تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً».

﴿٤٥-٤٨﴾ «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً *

وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً * وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً * ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذنهم وتوكل على الله وكفى بالله كيلاً * هذه الأشياء التي وصف الله بها رسوله محمداً ﷺ، هي المقصود من رسالته وزيدتها وأصولها التي اختص بها، وهي خمسة أشياء: أحدها: كونه «شاهداً» أي: شاهداً على أمته بما عملوه من خير وشر، كما قال تعالى: «لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً» «فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً» فهو ﷺ شاهد عدل مقبول.

الثاني، والثالث: كونه «مبشراً ونذيراً» وهذا يستلزم ذكر المبشر والمندر، وما يبشر به وينذر، والأعمال الموجبة لذلك.

فالمبشر هم: المؤمنون المتقون، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، وترك المعاصي، لهم البشري في الحياة الدنيا، بكل ثواب دنيوي ودني، رتب على الإيمان والتقوى، وفي الأخرى بالنعيم المقيم.

وذلك كله يستلزم ذكر تفصيل المذكور، من تفاصيل الأعتال، وخصال التقوى، وأنواع الثواب.

والمندر، هم: المجرمون الظالمون، أهل الظلم والجهل، لهم النذارة في الدنيا، من العقوبات الدنيوية والدينية المرتبة على الجهل والظلم، وفي الأخرى، بالعقاب الويل، والعذاب الطويل.

وهذه الجملة تفصيلها، ما جاء به ﷺ من الكتاب والسنة، المشتمل على ذلك.

الرابع: كونه «داعياً إلى الله» أي: أرسله الله يدعو الخلق إلى ربهم، ويسوقهم^(٢) لكرامته، ويأمرهم بعبادته التي خلقوا لها، وذلك يستلزم استقامته على ما يدعو إليه، وذكر تفاصيل ما يدعو إليه، بتعريفهم لربهم

الطلاق بعد النكاح، فدل على أنه قبل ذلك لا محل له.

وإذا كان الطلاق الذي هو فرقة تامة وتحريم تام، لا يقع قبل النكاح، فالتحريم الناقص، لظهور أو إيلاء ونحوه، من باب أولى وأحرى، أن لا يقع قبل النكاح، كما هو أوضح قولي العلماء.

ويدل على جواز الطلاق، لأن الله أخبر به عن المؤمنين، على وجه لم يلمهم عليه ولم يؤنبهم، مع تصدير الآية بخطاب المؤمنين.

وعلى جوازها قبل المسيس، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ وعلى أن المطلقة قبل الدخول لا عدة عليها، بل بمجرد طلاقها يجوز لها الزواج، حيث لا مانع، وعلى أن عليها العدة بعد الدخول.

وهل المراد بالدخول والمسيس الوطء، كما هو مجمع عليه؟ أو وكذلك الخلوة، ولو لم يحصل معها وطء، كما أفتى بذلك الخلفاء الراشدون، وهو الصحيح. فمن دخل عليها، وطئها أم لا، إذا خلا بها، وجب عليها العدة.

وعلى أن المطلقة قبل المسيس تمتع على الموسع قدره، وعلى المقتر قدره، ولكن هذا إذا لم يفرض لها مهر، فإن كان لها مهر مفروض، فإنه إذا طلق قبل الدخول تنصّف المهر، وكفى عن المتعة، وعلى أنه ينبغي لمن فارق زوجته قبل الدخول أو بعده، أن يكون الفراق جميلاً، يحمّد فيه كل منهما الآخر.

ولا يكون غير جميل، فإن في ذلك من الشر المرتب عليه، من قدح كل منهما بالآخر شيء كثير.

وعلى أن العدة حق للزوج، لقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدَةٍ﴾ دل مفهومه، أنه لو طلقها بعد المسيس، كان له عليها عدة [وعلى أن المفارقة

يستعينون على سلوك الصراط المستقيم، وهذا من جملة حكم الشرع، كما أن من حكمه، أن يذكر في مقام الترهيب، العقوبات المرتبة على ما يرهّب منه، ليكون عوناً على الكف عما حرم الله.

ولما كان ثم طائفة من الناس، مستعدة للقيام بصدد الداعين إلى الله من الرسل وأتباعهم، وهم المنافقون، الذين أظهروا الموافقة في الإيمان،

وهم كفرة فجرة في الباطن، والكفار ظاهراً وباطناً، نهي الله رسوله عن طاعتهم، وحذره ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَطْعَمُوا كَافِرِينَ وَنَافِقِينَ﴾ أي: في كل

أمر يصعد عن سبيل الله، ولكن لا يقتضي هذا أذاهم، [بل لا تطعمهم] ﴿وَدَعِ أَذَاهُمْ﴾ (٢) فإن ذلك جالب لهم، وداع إلى قبول الإسلام، وإلى

كف كثير من أذيتهم له ولأهله، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في إتمام أمرك، وخذلان عدوك، ﴿وَكُفَى بِاللهِ وَكِيلًا﴾

توكل إليه الأمور المهمة، فتقوم بها ويسهلها على عبده.

﴿٤٩﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدَةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسِرَّحُوهُنَّ سِرَاحًا جَمِيلًا﴾ يخبر تعالى المؤمنين، أنهم إذا

نكحوا المؤمنات، ثم طلقوهن من قبل أن يمسوهن، فليس عليهن في ذلك عدة يعتدّها (٣) أزواجهن عليهن، وأمرهم بتمتعّيهن (٤) بهذه الحالة،

بشيء من متاع الدنيا، الذي يكون فيه جبر لخاطرهن، لأجل فراقهن، وأن يفارقوهن فراقاً جميلاً، من غير خصامة ولا مشاقمة ولا مطالبة، ولا غير ذلك.

ويستدل بهذه الآية، على أن الطلاق لا يكون إلا بعد النكاح. فلو طلقها قبل أن ينكحها، أو علّق طلاقها على نكاحها، لم يقع، لقوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ فجعل

بصفاته المقدسة، وتنزيهه عما لا يليق بجلاله، وذكر أنواع العبودية، والدعوة إلى الله بأقرب طريق موصل إليه، وإعطاء كل ذي حق حقه، وإخلاص الدعوة إلى الله، لا إلى نفسه وتعظيمها، كما قد يعرض ذلك لكثير من النفوس في هذا المقام، وذلك كله بإذن الله تعالى له في الدعوة وأمره وإرادته وقدره.

الخامس: كونه ﴿سراجاً منيراً﴾ وذلك يقتضي أن الخلق في ظلمة عظيمة، لا نور يهتدي به في ظلماتها، ولا علم يستدل به في جهالاتها (١)، حتى جاء الله بهذا النبي الكريم، فأضاء الله به تلك الظلمات، وعلم به من الجهالات، وهدى به ضلالاً إلى الصراط المستقيم.

فأصبح أهل الاستقامة قد وضع لهم الطريق، فمشوا خلف هذا الإمام وعرفوا به الخير والشر، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، واستناروا به معرفة معبودهم، وعرفوه بأوصافه الحميدة، وأفعاله السديدة، وأحكامه الرشيدة.

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ ذكر في هذه الجملة المبشر، وهم المؤمنون، وعند ذكر الإيمان بمفرده، تدخل فيه الأعمال الصالحة.

وذكر المبشر به، وهو الفضل الكبير، أي: العظيم الجليل، الذي لا يقادر قدره، من النصر في الدنيا، وهداية القلوب، وغفران الذنوب، وكشف الكروب، وكثرة الأرزاق الدائرة، وحصول النعم السارة، والفوز برضا ربهم وثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه.

وهذا مما ينشط العاملين، أن يذكر لهم من ثواب الله على أعمالهم، ما به

(١) كذا في ب، وفي أ: جهاتها.

(٢) زيادة من: ب.

(٣) كذا في السختين ولعل الصواب تعتدّها.

(٤) كذا في ب، وفي أ: بتمتعن.

يزل متصفاً بالمغفرة والرحمة، وينزل على عباده من مغفرتة ورحمته وجوده وإحسانه، ما اقتضته حكمته، ووجدت منهم أسبابه.

﴿٥١﴾ ﴿ترجي من تشاء منهم وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتن كلهن والله يعلم ما في قلوبكن وكان الله عليماً حليماً﴾ وهذا أيضاً من توسعة الله على رسوله ورحمته به، أن أباح له ترك القسم بين زوجاته على وجه الوجوب، وأنه إن فعل ذلك فهو تبرع منه، ومع ذلك، فقد كان ﷺ يجتهد في القسم بينهن في كل شيء، ويقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك».

فقال هنا: ﴿ترجي من تشاء منهم﴾ [أي: تؤخر من أردت من زوجاتك فلا تؤويها إليك، ولا تبيت عندها]، ﴿وتؤوي إليك من تشاء﴾ أي: تضمها وتبيت عندها.

﴿و﴾ مع ذلك لا يتعين هذا الأمر ﴿من ابتغيت﴾ أي: تؤويها ﴿فلا جناح عليك﴾ والمعنى أن الخيرة بيدك في ذلك كله [وقال كثير من المفسرين إن هذا خاص بالوهابات له أن يرجي من يشاء ويؤوي من يشاء، أي: إن شاء قبل من وهبت نفسها له وإن شاء لم يقبلها والله أعلم] (٦).

ثم بين الحكمة في ذلك فقال: ﴿ذلك﴾ أي: التوسعة عليك، وكون الأمر راجعاً إليك وبيدك، وكون ما جاء منك إليهن تبرعاً منك ﴿أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتن كلهن﴾ لعلمهن أنك لم تترك واجباً، ولم تفرط في حق لازم.

النساء، فإنه لا يباح من الأقارب من النساء، غير هؤلاء الأربع، وما عداهن من الفروع مطلقاً، والأصول مطلقاً، وفروع الأب والأم، وإن نزلوا، وفروع من فوقهم لصلبه، فإنه لا يباح.

وقوله: ﴿اللاتي هاجرن معك﴾ قيد لخل هؤلاء للرسول، كما هو الصواب من القولين في تفسير هذه الآية، وأما غيره عليه الصلاة والسلام، فقد علم أن هذا قيد لغير الصحة.

﴿و﴾ أحللتنا لك ﴿امرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي﴾ بمجرد هبتها نفسها.

﴿إن أراد النبي أن يستنكحها﴾ أي: هذا تحت الإرادة والرغبة، ﴿خالصة لك من دون المؤمنين﴾ يعني: إباحة المؤهبة (٧). وأما المؤمنون، فلا يحل لهم أن يتزوجوا امرأة بمجرد هبتها نفسها لهم.

﴿قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم﴾ أي: قد علمنا ما على المؤمنين، وما يحل لهم، وما لا يحل من الزوجات وملك اليمين. وقد علمناهم بذلك، وبيننا فرائضه.

فما في هذه الآية، مما يخالف ذلك، فإنه خاص لك، لكون الله جعله خطاباً للرسول وحده بقوله: ﴿يا أيها النبي إنا أحللتنا لك﴾ إلى آخر الآية.

وقوله: ﴿خالصة لك من دون المؤمنين﴾ وأباحت لك يا أيها النبي ما لم نبح لهم، ووسعنا لك ما لم نوسع على غيرك، ﴿لكيلا يكون عليك حرج﴾ وهذا من زيادة اعتناء الله تعالى برسوله ﷺ.

﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي: لم

بالوفاة تعتد مطلقاً لقوله: ﴿ثم طلقتموهن﴾ الآية (٨).

وعلى أن من عدا غير المدخول بها، من الفارقات من الزوجات، بموت أو حياة، عليهن العدة.

﴿٥٠﴾ ﴿يا أيها النبي إنا أحللتنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفوراً رحيماً﴾ يقول تعالى، ممتناً على رسوله بإحلاله له ما أحل مما يشترك هو والمؤمنون، وما ينفرده ويختص: ﴿يا أيها النبي إنا أحللتنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن﴾ أي: أعطيتهن مهرهن، من الزوجات، وهذا من الأمور المشتركة بينه وبين المؤمنين [فإن المؤمنين] (٩)، كذلك يباح لهم ما (١٠) آتوهن أجورهن من الأزواج.

﴿و﴾ كذلك أحللتنا لك ﴿وما ملكت يمينك﴾ أي: الإماء التي ملكت ﴿مما أفاء الله عليك﴾ من غنمة الكفار من عبيدهم، والأحرار من لهن زوج منهم، ومن لا زوج لهن، وهذا أيضاً مشترك.

وكذلك من المشترك، قوله: ﴿وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك﴾ شمل العم والعمة، والخال والخالة، القريبين والبعيدين، وهذا حصر المحلات.

يؤخذ من مفهومه أن ما عداهن من الأقارب غير محلل، كما تقدم في سورة

(١) زيادة من: ب.

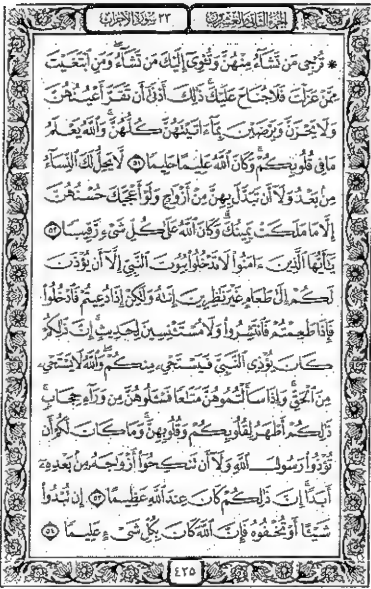
(٢) زيادة من: ب.

(٣) كذا في أ، وفي ب: من.

(٤) في ب: المؤهبة.

(٥) زيادة من: ب.

(٦) زيادة من هامش (ب) وفي بعض الكلمات عدم وضوح وتم تصويبها من طبعة السلفية.



وأما أدبهم معه في خطاب زوجاته، فإنه إما أن يحتاج إلى ذلك، أم لا يحتاج إليه، فإن لم يحتاج إليه فلا حاجة إليه، والأدب تركه، وإن احتيج إليه، كأن يسألن متاعاً، أو غيره من أواني البيت أو نحوها، فإنهن يسألن «من وراء حجاب» أي: يكون بينكم وبينهن ستر يستر عن النظر، لعدم الحاجة إليه.

فصار النظر إليهن ممنوعاً بكل حال، وكلامهن فيه التفصيل الذي ذكره الله، ثم ذكر حكمة ذلك بقوله: «ذلكم أظهر لقلوبكم وقلوبهن» لأنه أبعد عن الريبة، وكلما بعد الإنسان عن الأسباب الداعية إلى الشر، فإنه أسلم له، وأظهر لقلبه.

فلهذا، من الأمور الشرعية التي بين الله كثيراً من تفاصيلها، أن جميع وسائل الشر وأسبابه ومقدماته ممنوعة، وأنه مشروع البعد عنها بكل طريق.

ثم قال كلمة جامعة وقاعدة عامة: «وما كان لكم» يا معشر المؤمنين، أي: غير لائق ولا مستحسن منكم، بل هو أقبح شيء «أن تؤذوا رسول الله» أي: أذية قولية أو فعلية، بجميع ما يتعلق به، «ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً» هذا من جملة ما يؤذيه، فإنه ﷺ له مقام التعظيم والرفعة والإكرام، وتزوج زوجاته

النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أظهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً * إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليماً يا أمر تعالى عباده المؤمنين بالتأدب مع رسول الله ﷺ في دخول بيوته، فقال: «يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام» أي: لا تدخلوها بغير إذن للدخول فيها لأجل الطعام. وأيضاً لا تكونوا «ناظرين إناه» أي: منتظرين ومتأنين لانتظار نضجه، أو سعة صدر بعد الفراغ منه. والمعنى: أنكم لا تدخلوا بيوت النبي إلا بشرطين:

الإذن لكم بالدخول، وأن يكون جلوسكم بمقدار الحاجة، ولهذا قال: «ولكن إذا دعيت فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث» أي: قبل الطعام وبعده.

ثم بين حكمة النهي وفائدته فقال: «إن ذلكم» أي: انتظاركم الزائد على الحاجة، «كان يؤذي النبي» أي: يتكلف منه ويشق عليه حبسكم إياه عن شؤون بيته، واشتغاله فيه «فيستحيي منكم» أن يقول لكم: «اخرجوا» كما هو جاري العادة، أن الناس - وخصوصاً أهل الكرم منهم - يستحيون أن يخرجوا الناس من مساكنهم، «و» لكن «الله لا يستحيي من الحق».

فالأمر الشرعي، ولو كان يتوهم أن في تركه أدباً وحياءً، فإن الحزم كل الحزم، اتباع الأمر الشرعي، وأن يجزم أن ما خالفه ليس من الأدب في شيء. والله تعالى لا يستحيي أن يأمركم بما فيه الخير لكم، والرفق لرسوله كائن ما كان.

فهذا أدبهم في الدخول في بيوته،

«والله يعلم ما في قلوبكم» أي: ما يعرض لها عند أداء الحقوق الواجبة والمستحبة، وعند المزاحمة في الحقوق، فلذلك شرع لك التوسعة يا رسول الله، لتطمئن قلوب زوجاتك. «وكان الله عليماً حليماً» أي: واسع العلم، كثير الحلم. ومن علمه، أن شرع لكم ما هو أصلاح لأموركم، وأكثر لأجوركم. ومن حلمه، أن لم يعاقبكم بما صدر منكم، وما أصبرت عليه قلوبكم من الشر.

﴿٥٢﴾ «لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيباً» وهذا شكر من الله، الذي لم يزل شكوراً لزوجات رسوله، رضي الله عنهن، حيث احترن الله ورسوله والدار الآخرة، أن رحمن، وقصر رسوله عليهن، فقال: «لا يحل لك النساء من بعد» زوجاتك الموجودات «ولا أن تبدل بهن من أزواج» أي: ولا تطلق بعضهن، فتأخذ بدلها.

فحصل بهذا أمنهن من الضرائر، ومن الطلاق، لأن الله قضى أنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، لا يكون بينه وبينهن فرقة.

«ولو أعجبك حسنهن» أي: حسن غيرهن، فلا يحلن لك «إلا ما ملكت يمينك» أي: السراري، فذلك جائز لك، لأن المملوكات في كراهة الزوجات، لسن بمنزلة الزوجات في الإضرار للزوجات. «وكان الله على كل شيء رقيباً» أي: مراقباً للأموال، وعالماً بما إليه توول، وقائماً بتدبيرها على أكمل نظام وأحسن إحكام.

﴿٥٣ - ٥٤﴾ «يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيت فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي

مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد
كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد
مجيد». وهذا الأمر بالصلاة والسلام عليه
مشروع في جميع الأوقات، وأوجبه
كثير من العلماء في الصلاة.

وقوله: ﴿وَلَا نَسْأَلُهُنَّ﴾ أي: لا جناح عليهن ألا يحتجن عن نسائهن، أي: اللاتي من جنسهن في الدين، فيكون ذلك مخرجاً لنساء الكفار، ويحتمل أن المراد جنس النساء، فإن المرأة لا تحتجب عن المرأة. ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ ما دام العبد في ملكها جميعه. ولما رفع الجناح عن هؤلاء، شرط فيه وفي غيره لزوم تقوى الله، وأن لا يكون في مخدور شرعي، فقال: ﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ﴾ أي: استعملن تقواه في جميع الأحوال. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾ يشهد أعمال العباد، ظاهرها وباطنها، ويسمع أقوالهم، ويرى حركاتهم، ثم يجازيهم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

﴿٥٦﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ وهذا فيه تنبيه على كمال رسول الله ﷺ، ورفعة درجته، وعلم منزلته عند الله وعند خلقه، ورفع ذكره. و ﴿إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ﴾ عليه، أي: يثني الله عليه بين الملائكة، وفي الملائكة الأعلى، لمحبتة تعالى له، وتثني عليه الملائكة المقربون، ويدعون له ويتضرعون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ اقتداء بالله وملائكته، وجزاء له على بعض حقوقه عليكم، وتكميلاً لإيمانكم، وتعظيماً له ﷺ، ومحبة وإكراماً، وزيادة في حسناتكم، وتكفيراً من سيئاتكم وأفضل هبات الصلاة عليه عليه الصلاة والسلام، ما علم به أصحابه: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد

مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد». وهذا الأمر بالصلاة والسلام عليه مشروع في جميع الأوقات، وأوجبه كثير من العلماء في الصلاة.

﴿٥٩ = ٦٢﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ

لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي إِسَاءَتِكُمْ إِذَا لَمْ يَكُنَّ إِسَاءَةٌ بَيْنَكُمْ وَلَاسِيَاةٌ وَلَا أُنْتَهَاءُ الْإِسَاءَةِ بَيْنَكُمْ وَلَا تَكُونُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْفَاسِقِينَ

وقوله: ﴿وَلَا نَسْأَلُهُنَّ﴾ أي: لا جناح عليهن ألا يحتجن عن نسائهن، أي: اللاتي من جنسهن في الدين، فيكون ذلك مخرجاً لنساء الكفار، ويحتمل أن المراد جنس النساء، فإن المرأة لا تحتجب عن المرأة. ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ ما دام العبد في ملكها جميعه. ولما رفع الجناح عن هؤلاء، شرط فيه وفي غيره لزوم تقوى الله، وأن لا يكون في مخدور شرعي، فقال: ﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ﴾ أي: استعملن تقواه في جميع الأحوال. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾ يشهد أعمال العباد، ظاهرها وباطنها، ويسمع أقوالهم، ويرى حركاتهم، ثم يجازيهم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

﴿٥٦﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ وهذا فيه تنبيه على كمال رسول الله ﷺ، ورفعة درجته، وعلم منزلته عند الله وعند خلقه، ورفع ذكره. و ﴿إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ﴾ عليه، أي: يثني الله عليه بين الملائكة، وفي الملائكة الأعلى، لمحبتة تعالى له، وتثني عليه الملائكة المقربون، ويدعون له ويتضرعون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ اقتداء بالله وملائكته، وجزاء له على بعض حقوقه عليكم، وتكميلاً لإيمانكم، وتعظيماً له ﷺ، ومحبة وإكراماً، وزيادة في حسناتكم، وتكفيراً من سيئاتكم وأفضل هبات الصلاة عليه عليه الصلاة والسلام، ما علم به أصحابه: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد

مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد». وهذا الأمر بالصلاة والسلام عليه مشروع في جميع الأوقات، وأوجبه كثير من العلماء في الصلاة.



[بعده] (١) محل هذا المقام.

وأيضاً، فإنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، والزوجة باقية بعد موته، فلذلك لا يحل نكاح زوجاته بعده لأحد من أمته. ﴿إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً﴾ وقد امتثلت هذه الأمة هذا الأمر، واجتنبت ما نهى الله عنه منه، والله الحمد والشكر.

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ تَبَدَّلُوا شَيْئاً﴾ أي: تظهروه «أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليماً» يعلم ما في قلوبكم وما أظهرتموه، فيجازيكم عليه.

﴿٥٥﴾ ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا نَسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾ لما ذكر أنهم لا يسألن متاعاً إلا من وراء حجاب، وكان اللفظ عاماً لكل أحد (٢)، احتج أن يستثنى منه هؤلاء المذكورون من المحارم، وأنه ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ﴾ في عدم الاحتجاب عنهم.

ولم يذكر فيها الأعمام والأخوال، لأنهم إذا لم يحتجن عن عمن من عمامته ولا (٣) خالاته، من أبناء الإخوة والأخوات، مع رفعتهم عليهم، فعدم

(١) زيادة من: ب.

(٢) زيادة من: ب.

(٣) في ب: بدون (لا) وهو الأقرب.

(٤) زيادة من: ب.

(٥) في ب: يتحتم.

المسلمين.

ولم يذكر المعمول الذي يتتهون عنه، ليعم ذلك كل ما توحى به أنفسهم إليهم وتوسوس به وتدعو إليه من الشر، من التعريض بسبب الإسلام وأهله، والإرجاف بالمسلمين، وتوهين قواهم، والتعرض للمؤمنات بالسوء والفاحشة، وغير ذلك من المعاصي الصادرة من أمثال هؤلاء.

﴿لنغريئك بهم﴾ أي: نأمرك بعقوبتهم وقتالهم، ونسلطك عليهم، ثم إذا فعلنا ذلك، لا طاقة لهم بك، وليس لهم قوة ولا امتناع، ولهذا قال: ﴿ثم لا يحاورونك فيها إلا قليلاً﴾ أي: لا يحاورونك في المدينة إلا قليلاً، بأن تقتلهم أو تضفيهم.

وهذا فيه دليل لنفي أهل الشر، الذين يتضرر بإقامتهم بين أظهر المسلمين، فإن ذلك أحسن للشر وأبعد منه، ويكونون ﴿ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً﴾ أي: منبغدين أين (٣) وجدوا، لا يحصل لهم أمن، ولا يقر (٤) لهم قرار، يخشون أن يقتلوا، أو يجسوا، أو يعاقبوا.

﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل﴾ أن من عماد في العصيان، وتجراً على الأذى، ولم يتنه منه، فإنه يعاقب عقوبة بليغة. ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ أي: تغييراً، بل سنة الله تعالى وعادته جارية مع الأسباب المقتضية لأسبابها (٥).

﴿٦٣- ٦٨﴾ ﴿يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً﴾ إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً ﴿خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا نصيراً﴾ يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول ﴿وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا

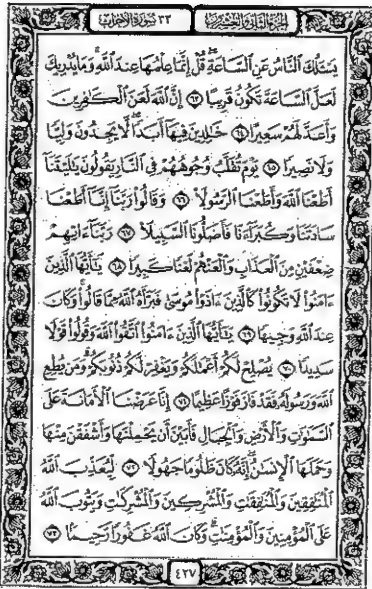
لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً﴾ لكن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ﴿ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً﴾ سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً هذه الآية التي تسمى آية الحجاب، فأمر الله نبيه أن يأمر النساء عموماً، ويبدأ بزواجهات وبناته، لأنهن أكد من غيرهن، ولأن الأمر [الغيره] (١) ينبغي أن يبدأ بأهله قبل غيرهم، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً﴾.

أن يدنين عليهن من جلابيبهن وهن اللاتي يكن فوق الثياب من ملحقه وخمار ورداء ونحوه، أي: يغطين بها وجوههن وصدورهن.

ثم ذكر حكمة ذلك، فقال: ﴿ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين﴾ دل على وجود أذية إن لم يحتججن، وذلك لأنهن إذا لم يحتججن، ربما ظن أنهن غير عفيفات، فيتعرض لهن من في قلبه مرض فيؤذين، وربما استهين بهن، وظن أنهن إماء، فتهاون بهن من يريد الشر. فالاحتجاب حاسم لطامع الطامعين فيهن.

﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ حيث غفر لكم ما سلف ورحكم، بأن بين لكم الأحكام، وأوضح الحلال والحرام، فهذا سد للباب من جهتين.

وأما من جهة أهل الشر فقد توعدهم بقوله: ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض﴾ أي: مرض شك أو شهوة ﴿والمرجفون في المدينة﴾ أي: المتخوفون المريبون الأعداء، المحدثون (٢) بكثرتهم وقوتهم، وضعف



وكبراءنا فأضلونا السبيلاً ﴿ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً﴾ أي: يستخبرك الناس عن الساعة استجلاً لها، وبعضهم تكذياً لوقوعها، وتعجزاً للذي أخبر بها. ﴿قل﴾ لهم: ﴿إنما علمها عند الله﴾ أي: لا يعلمها إلا الله، فليس لي ولا لغيري بها علم، ومع هذا، فلا تستبطوها.

﴿وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً﴾ ومجرد مجيء الساعة، قريباً وبعداً، ليس تحت نتيجة ولا فائدة، وإنما النتيجة والخسار والربح، والشقاء (٣) والسعادة، هل يستحق العبد العذاب، أو يستحق الثواب؟ فهذه سأخبركم بها، وأصف لكم مستحقها.

فوصف مستحق العذاب، ووصف العذاب، لأن الوصف المذكور منطبق على هؤلاء المكذبين بالساعة، فقال: ﴿إن الله لعن الكافرين﴾ [أي: (٨) الذين صار الكفر دأبهم وطريقتهم الكفر بالله وبرسله، وبما جاؤوا به من عند الله، فأبعدهم في الدنيا والآخرة من رحمته، وكفى بذلك عقاباً، وأعد لهم سعيراً﴾ أي: ناراً موقدة، تسعر

(٦) كذا في ب، وفي أ: قد.

(٧) في ب: والشقاوة.

(٨) زيادة من: ب.

(٤) كذا في ب، وفي أ: ولا يقر.

(٥) كذا في النسختين ولعله والله أعلم

المقتضية لمسيبتها.

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) في ب: المتحدثون.

(٣) في ب: حيث.

القول الموافق للصواب، أو المقارب له عند تعذر اليقين، من قراءة، وذكر، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وتعلم علم وتعليمه، والحرص على إصابة الصواب، في المسائل العلمية، وسلوك كل طريق موصل لذلك، وكل وسيلة تعين عليه.

ومن القول السديد، لين الكلام ولطفه في مخاطبة الأنام، والقول المتضمن للنصح والإشارة بما هو الأصح.

ثم ذكر ما يترتب على تقواه، وقول القول السديد فقال: ﴿يصلح لكم أعمالكم﴾ أي: يكون ذلك سبباً لصلاحها وطريقاً لقبولها، لأن استعمال التقوى، تتقبل به الأعمال كما قال تعالى: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾.

ويوفق فيه الإنسان للعمل الصالح، ويصلح الله الأعمال [أيضاً] بحفظها عما يفسدها، وحفظ ثوابها ومضاعفته، كما أن الإخلاص بالتقوى والأعمال السديد، سبب لفساد الأعمال وعدم قبولها، وعدم ترتب آثارها عليها.

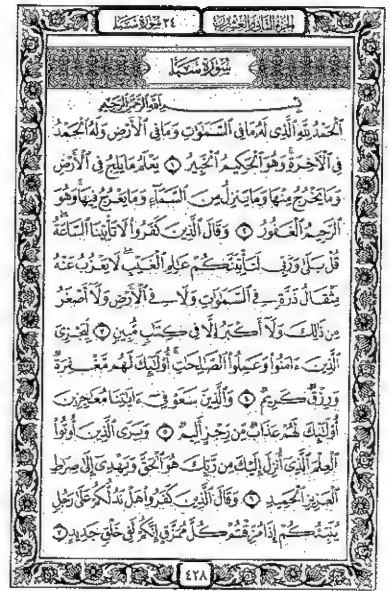
﴿ويغفر لكم﴾ أيضاً ﴿ذنوبكم﴾ التي هي السبب في هلاككم، فالتقوى تستقيم بها الأمور، ويندفع بها كل محذور ولهذا قال: ﴿ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾.

﴿٧٢-٧٣﴾ ﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً يعظم تعالى شأن الأمانة التي اتّمن الله عليها المكلفين، التي هي امتثال الأوامر، واجتناب المحارم، في حال السر والخفية، كحال العلانية، وأنه

مستحقون للعقاب، أرادوا أن يشتفوا عن أضلّهم، فقالوا: ﴿ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً﴾ فيقول الله لكل ضعف، فكلكم اشتركتم في الكفر والمعاصي، فتشركون في العقاب، وإن تفاوت عذاب بعضكم على بعض بحسب تفاوت الجرم.

﴿٦٩﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً﴾ يحذر تعالى عباده المؤمنين عن آذية رسولهم محمد ﷺ النبي الكريم، الرؤوف الرحيم، فيقابلوه بضد ما يجب له من الإكرام والاحترام، وأن لا يتشبهوا بحال الذين آذوا موسى بن عمران، كليم الرحمن، فبرأه الله مما قالوا من الأذية، أي: أظهر الله لهم براءته. والحال أنه عليه الصلاة والسلام، ليس محل التهمة والأذية، فإنه كان وجيهاً عند الله، مقرباً لديه، من خواص المرسلين، ومن عبادة المخلصين، فلم يترجرهم ما له من الفضائل عن أذيته والتعرض له بما يكره، فاحذروا أيها المؤمنون، أن تشبهوا بهم في ذلك، والأذية المشار إليها هي قول بني إسرائيل لموسى^(١) لما رأوا شدة حياته وتستره عنهم: ﴿إنه ما يمنعه من ذلك إلا أنه أدر﴾ أي: كبير الخصيتين، واشتهر ذلك عندهم، فأراد الله أن يبرئه منهم، فاعتسل يوماً، ووضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوبه، فأهوى موسى عليه السلام في طلبه، فمّز به على مجالس بني إسرائيل، فأروه أحسن خلق الله، فزال عنه ما رموه به.

﴿٧٠-٧١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقلوا قولا سديداً﴾ يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً يأمر تعالى المؤمنين بتقواه، في جميع أحوالهم، في السر والعلانية، ويخص منها، ويندب للقول السديد، وهو



في أجسامهم، ويبلغ العذاب إلى أفئدتهم، ويخلدون في ذلك العذاب الشديد، فلا يخرجون منه، ولا يغفر عنهم ساعة.

ولا يجدون لهم ولياً فيعطيهم ما طلبوه ﴿ولا نصيراً﴾ يدفع عنهم العذاب، بل قد تخلى عنهم الولي والتصير، وأحاط بهم عذاب السعير، وبلغ منهم مبلغاً عظيماً، ولهذا قال: ﴿يوم تقلب وجوههم في النار﴾ فيذوقون حرها، ويشند عليهم أمرها، ويتحسرون على ما أسلفوا.

﴿يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول﴾ فسلمنا من هذا العذاب، واستحققتنا كالطامعين جزيل الثواب. ولكن أمانة فات وقتها، فلم تدهم إلا حسرة وندماً، وهماً، وغماً، وألماً.

﴿وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا﴾ وقلدناهم على ضلالهم، ﴿فأضلونا السبيلاً﴾.

كقوله تعالى: ﴿يوم بعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً﴾ يا ليتني ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً ﴿لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني﴾ الآية.

ولما علموا أنهم هم وكبراءهم

يحمد عليه ويشكر، والعدل الذي يحمد عليه ويعترف بحكمته فيه.

وحدد نفسه هنا، على أن ﴿له ما في السماوات وما في الأرض﴾ ملكاً وعبيداً، يتصرف فيهم بحمده. ﴿وله الحمد في الآخرة﴾ لأن في الآخرة يظهر من حمده والثناء عليه، ما لا يكون في الدنيا، فإذا قضى الله تعالى بين الخلائق كلهم ورأى الناس والخلق كلهم، ما حكم به، وكمال عدله وقسطه وحكمته فيه، حمدوه كلهم على ذلك، حتى أهل العقاب ما دخلوا النار، إلا وقلوبهم ممتلئة من حمده، وأن هذا من جراء أعمالهم، وأنه عادل في حكمه بعقابهم.

وأما ظهور حمده في دار النعيم والشواب، فذلك شيء قد تواردت به الأخبار، وتوافق عليه الدليل السمعي والعقلي، فإنهم في الجنة، يرون من توالي نعم الله، وإدراك خيره، وكثرة بركاته، وسعة عطايه، التي لم يبق في قلوب أهل الجنة أمنية ولا إرادة، إلا وقد أعطي، فوق ما تمنى وأراد، بل يعطون من الخير ما لم يتعلق به أمانيتهم، ولم يخطر بقلوبهم.

فما ظنك بحمدهم لربهم في هذه الحال، مع أن في الجنة تضمحل العوارض والقواطع، التي تقطع عن معرفة الله ومحبة والثناء عليه، ويكون ذلك أحب إلى أهلها من كل نعيم، وألذ عليهم من كل لذة، ولهذا إذا رأوا الله تعالى، وسمعوا كلامه عند خطابه لهم، أذهلهم ذلك عن كل نعيم، ويكون الذكر لهم في الجنة كالنفس، متواصلاً في جميع الأوقات، هذا إذا أضفت ذلك إلى أنه يظهر لأهل الجنة في الجنة كل وقت، من عظمة ربهم وجلاله وجماله وسعة كماله، ما يوجب لهم كمال الحمد والثناء عليه.

﴿وهو الحكيم﴾ في ملكه وتدبيره، الحكيم في أمره ونهيهِ. ﴿الخبير﴾ المطلع على سرائر الأمور وخفاياها ولهذا فصل علمه بقوله: ﴿يعلم ما يلج في الأرض﴾ أي: من مطر، وبذر، وحيوان ﴿وما يخرج منها﴾ من

تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة، السماوات والأرض والجبال، عرض تخيير لا تخميم، وأنت إن قُمت بها وأديتها على وجهها فلك الثواب، وإن لم تقمومي بها [ولم تؤديها] فعليك العقاب.

﴿فأبين أن يحملنها وأشفقن منها﴾ أي: خوفاً أن لا يقمن بما حملن، لا عصبية لربهن، ولا زهداً في ثوابه، وعرضها الله على الإنسان على ذلك الشرط المذكور، فقبلها، وحمّلها مع ظلمه وجهله، وحمل هذا الحمل الثقيل. فانتقسم الناس - بحسب قيامهم بها وعدمه - إلى ثلاثة أقسام:

منافقون أظهروا أنهم قاموا بها ظاهراً لا باطناً، ومشركون تركوها ظاهراً وباطناً، ومؤمنون قاتمون بها ظاهراً وباطناً.

فذكر الله تعالى أعمال هذه الأقسام الثلاثة، وما لهم من الثواب والعقاب، فقال: ﴿ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً﴾. فله الحمد تعالى، حيث ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين، الدالين على تمام مغفرة الله، وسعة رحمته، وعموم جوده، مع أن المحكوم عليهم، كثير منهم لم يستحق المغفرة والرحمة، لنفاقه وشركه.

تم تفسير سورة الأحزاب بحمد الله وعونه

تفسير سورة سبأ وهي مكية

﴿١-٢﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير﴾ يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور الحمد: الثناء بالصفات الحميدة والأفعال الحسنة، فله تعالى الحمد، لأن جميع صفاته يحمد عليها، لكونها صفات كمال، وأفعاله يحمد عليها، لأنها دائرة بين الفضل الذي



أنواع النباتات وأصناف الحيوانات، ﴿وما ينزل من السماء﴾ من الأملاك والأرزاق والأقدار، ﴿وما يعرج فيها﴾ من الملائكة والأرواح وغير ذلك.

ولما ذكر مخلوقاته وحكمته فيها، وعلمه بأحوالها، ذكر مغفرته ورحمته لها، فقال: ﴿وهو الرحيم الغفور﴾ أي: الذي الرحمة والمغفرة وصفه، ولم تزل آثارها تنزل على عبادته كل وقت، بحسب ما قاموا به من مقتضياتها.

﴿٣-٥﴾ ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم * والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز اليم * لما بين تعالى عظمته بما وصف به نفسه، وكان هذا موجباً لتعظيمه وتقديسه والإيمان به، ذكر أن من أصناف الناس طائفة لم تقدر ربه حق قدره، ولم تعظمه حق عظمتهم، بل كفروا به، وأنكروا قدرته على إعادة الأموات وقيام الساعة، وعارضوا بذلك رسله، فقال: ﴿وقال الذين كفروا﴾ أي: بالله ويرسله، وبما جاؤوا به، فقالوا بسبب كفرهم: ﴿لا تأتينا الساعة﴾ أي: ما هي إلا هذه الحياة الدنيا نموت ونحيا.

من الشرك، والزنا، والربا، والظلم في الدماء والأموال والأعراض.

وهذه منقبة لأهل العلم وفضيلة، وعلامة لهم، وأنه كلما كان العبد أعظم علماً وتصديقاً بأخبار ما جاء به الرسول، وأعظم معرفة بحكم أوامره ونواهيه، كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حجة على ما جاء به الرسول، احتج الله بهم على المكذبين المعاندين، كما في هذه الآية وغيرها.

﴿٧-٩﴾ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد * أفترى على الله كذباً أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد * أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء إن في ذلك لآية لكل عبد منيب * أي: ﴿وقال الذين كفروا﴾ على وجه التكذيب والاستهزاء والاستبعاد، وذكر وجه الاستبعاد.

أي: قال بعضهم لبعض: هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد * يعنون بذلك الرجل، رسول الله ﷺ، وأنه رجل أتى بما يستغرب منه، حتى صار - بزعمهم - فرجة يتفرجون عليه، وأعجوبة يستخرون منه، وأنه كيف يقول: «إنكم مبعوثون» بعدما مزقكم البلي، وتفرقت أوصالكم، واضمحلت أعضاؤكم؟!

فهذا الرجل الذي يأتي بذلك، هل أفترى على الله كذباً؟ فتجراً عليه وقال ما قال، «أم به جنة؟» فلا يستغرب منه، فإن الجنون فتون، وكل هذا منهم، على وجه العناد والظلم، ولقد علموا أنه أصدق خلق الله وأعقلهم، ومن علمهم، أنهم أبدوا وأعادوا في معاداتهم، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في صد الناس عنه، فلو كان كاذباً مجنوناً لم ينبغ لكم

لايمانهم. ﴿أولئك لهم مغفرة﴾ لذنوبهم، بسبب إيمانهم وعملهم، يندفع بها كل شر وعقاب. ﴿ورزق كريم﴾ بإحسانهم، يحصل لهم به كل مطلوب ومرغوب وأمنية.

﴿والذين سعوا في آياتنا معاجزين﴾ أي: سعوا فيها كفراً بها، وتعجيزاً لمن جاء بها، وتعجيزاً لمن أنزلها، كما عجزوه في الإعادة بعد الموت. ﴿أولئك لهم عذاب من رجز اليم﴾ أي: مؤلم لأبدانهم وقلوبهم.

﴿ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾ لما ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث، وأنهم يرون ما أنزل على رسوله ليس بحق، ذكر حالة الموفقين من العباد، وهم أهل العلم، وأنهم يرون ما أنزل الله على رسوله من الكتاب، وما أشتمل عليه من الأخبار هو الحق، أي: الحق متحضر فيه، وما خالفه وناقضه فإنه باطل، لأنهم وصلوا من العلم إلى درجة اليقين.

ويرون أيضاً أنه في أوامره ونواهيه يهدي إلى صراط العزيز الحميد. وذلك أنهم جزموا بصدق ما أخبر به من وجوه كثيرة: من جهة علمهم بصدق من أخبر به، ومن جهة موافقته للأمور الواقعة، والكتب السابقة، ومن جهة ما يشاهدون من أخبارها، التي تقع عياناً، ومن جهة ما يشاهدون من الآيات العظيمة الدالة عليها في الآفاق وفي أنفسهم ومن جهة موافقتها لما دلت عليه أسماؤه تعالى وأوصافه.

ويرون في الأوامر والنواهي، أنها تهدي إلى الصراط المستقيم، المتضمن للأمر بكل صفة تركي النفس، وتنمي الأجر، وتفيد التعامل وغيرها، كالصدق، والإخلاص، وبر الوالدين، وضلة الأرحام، والإحسان إلى عموم الخلق، ونحو ذلك. وتنتهي عن كل صفة قبيحة، تدنس النفس، وتحبط الأجر، وتوجب الإثم والوزر،



فأمر الله رسوله أن يرد قولهم ويبطله، ويقسم على البعث، وأنه سيأتهم، واستدل على ذلك بدليل من أقر به، لزمه أن يصدق بالبعث ضرورة، وهو علمه تعالى الواسع العام، فقال: ﴿عالم الغيب﴾ أي: الأمور الغائبة عن أبصارنا وعن علمنا، فكيف بالشهادة؟!

ثم أكد علمه فقال: ﴿لا يغرب﴾ أي: لا يغيب عن علمه ﴿مشقال ذرة في السماوات ولا في الأرض﴾ أي: جميع الأشياء بذواتها وأجزائها، حتى أصغر ما يكون من الأجزاء، وهو المثاقيل منها.

﴿ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾ أي: قد أحاط به علمه، وجرى به قلمه، وتضمنته الكتاب المبين، الذي هو اللوح المحفوظ، فالذي لا يخفى عن علمه مشقال الذرة فما دونه، في جميع الأوقات، ويعلم ^(١) ما تنبض الأرض من الأموات، وما يبقى من أجسادهم، قادر على بعثهم، من باب أولى، وليس بعثهم بأعجب من هذا العلم المحيط.

ثم ذكر المقصود من البعث، فقال: ﴿ليجزى الذين آمنوا﴾ بقلوبهم، صدقوا الله، وصدقوا رسوله تصديقاً جازماً، ﴿وعملوا الصالحات﴾ تصديقاً

لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون؟

ولما ذكر ما امتنَّ به عليه وعلى آله، أمره بشكره، وأن يعملوا صالحاً، ويراقبوا الله تعالى فيه، بإصلاحه وحفظه من المفسدات، فإنه بصير بأعمالهم، مطلع عليهم، لا يخفى عليه منها شيء.

﴿١٢-١٤﴾ «ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير» * يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات عملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور * فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين * لما ذكر فضله على داود عليه السلام، ذكر فضله على ابنه سليمان عليه الصلاة والسلام، وأن الله سخر له الريح تجري بأمره وتحمله، وتحمل جميع ما معه، وتقطع المسافة البعيدة جداً في مدة يسيرة، فتسير في اليوم مسيرة شهرين. «غدوها شهر» أي: أول النهار إلى الزوال «ورواحاها شهر» من الزوال، إلى آخر النهار «وأسلنا له عين القطر» أي: سخرنا له عين النحاس، وسهلنا له الأسباب في استخراج ما يستخرج منها من الأواني وغيرها.

وسخر الله له أيضاً الشياطين والجن، لا يقدر أن يستعصوا عن أمره، «ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير» وأعمالهم، كل ما شاء سليمان عمله، «من محاريب» وهو كل بناء يعقد وتحكم به الأبنية، فهذا فيه ذكر الأبنية الفخمة، «وتماثيل» أي: صور الحيوانات والجمادات، من إتيان صنعتهن،

لأن المنيب مقبل إلى ربه، قد توجهت إراداته وهماته لربه، ورجع إليه في كل أمر من أموره، فصار قريباً من ربه، ليس له هم إلا الاشتغال بمَرْضاته، فيكون نظره للمخلوقات نظراً فكرياً وعبرة، لا نظراً غفلة غير نافعة.

﴿١٠-١١﴾ «ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد * أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير» أي: ولقد مننا على عبدنا ورسولنا داود عليه الصلاة والسلام، وآتيناه فضلاً من العلم النافع، والعمل الصالح، والنعم الدينية والدنيوية، ومن نعمه عليه، ما خصه به من أمره تعالى الجمادات، كالجبال والحيوانات، من الطيور، أن تؤوب معه، وتُرْجَع التسبيح بحمد ربها مجاوبة له، وفي هذا من النعمة عليه، أن كان ذلك من خصائصه التي لم تكن لأحد قبله ولا بعده، وأن ذلك يكون منهضاً له ولغيره على التسبيح إذا رأوا هذه الجمادات والحيوانات تتجاوب بتسبيح ربها وتمجيده وتكبيره وتحميده، كان ذلك مما يهيج على ذكر الله تعالى.

ومنها: أن ذلك - كما قال كثير من العلماء - أنه طرب لصوت داود، فإن الله تعالى قد أعطاه من حسن الصوت ما فاق به غيره، وكان إذا رجع التسبيح والتهليل والتحميد بذلك الصوت الرخيم الشجي المطرب، طرب كل من سمعه، من الإنس والجن، حتى الطيور والجنات، وسبحت بحمدها.

ومنها: أنه لعله ليحصل له أجر تسبيحها، لأنه سبب ذلك، وتسبيح تبعاً له. ومن فضله عليه، أن ألان له الحديد، ليعمل الدروع السابغات، وعلمه تعالى كيفية صنعته، بأن يقدره في السرد، أي: يقدره خلقاً، ويصنعه كذلك، ثم يدخل بعضها ببعض. قال تعالى: «وعلمناه صنعة لبوس

يا أهل العقول غير الزاكية - أن تصغوا لما قال، ولا أن تحتفلوا بدعوته، فإن المجنون، لا ينبغي للعاقل أن يلفت إليه نظره، أو يبلغ قوله منه كل مبلغ.

ولولا عنادكم وظلمكم، لبادرتم لإجابته، ولبيتم دعوته، ولكن «ما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون» ولهذا قال تعالى: «بل الذين لا يؤمنون بالآخرة» ومنهم الذين قالوا تلك المقالة، «في العذاب والضلال البعيد» أي: في الشقاء العظيم، والضلال البعيد، الذي ليس بقريب من الصواب، وأي: شقاء وضلال، أبلغ من إنكارهم لقدرة الله على البعث، وتكذيبهم لرسوله الذي جاء به، واستهزأهم به، وجزمهم بأن ما جاءوا به هو الحق، فرأوا الحق باطلاً، والباطل والضلال حقاً وهدى. ثم نههم على الدليل العقلي، الدال على عدم استبعاد البعث، الذي استبعدوه، وأنهم لو نظروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض فرأوا من قدرة الله فيهما ما يبهر العقول، ومن عظمتهم ما يذهل العلماء الفحول، وأن خلقهما وعظمتما وما فيهما من المخلوقات أعظم من إعادة الناس - بعد موتهم - من قبورهم، فما الحامل لهم على ذلك التكذيب، مع التصديق بما هو أكبر منه؟ نعم، ذاك خبر غيبي إلى الآن، ما شاهده، فلذلك كذبوا به.

قال الله: «إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء» أي: من العذاب، لأن الأرض والسماء تحت تدبيرنا، فإن أمرناهما لم يستعصيا، فاحذروا إصراركم على تكذيبكم، فتعاقبكم أشد العقوبة. «إن في ذلك» أي: خلق السماوات والأرض وما فيهما من المخلوقات «لآية لكل عبد منيب» فكلما كان العبد أعظم إنابة إلى الله، كان انتفاعه بالآيات أعظم،

وقدرتهم على ذلك وعملهم لسليمان،
﴿وجفان كالجواب﴾ أي: كالبرك
الكبار، يعملونها لسليمان للطعام،
لأنه يحتاج إلى ما لا يحتاج إليه غيره،
﴿و﴾ يعملون له قدوراً راسيات
لا تزول عن أماكنها، من عظمها.

فلما ذكر منته عليهم، أمرهم
بشكرها، فقال: ﴿اعملوا آل داود﴾
وهم داود وأولاده وأهله، لأن المنة على
الجميع، وكثير من هذه المصالح عائد
لكلهم. ﴿شكراً﴾ الله على ما أعطاهم،
ومقابلته لما أولاهم. ﴿وقليل من عبادي
الشكور﴾ فأكثرهم لم يشكروا الله تعالى
على ما أولاهم من نعمه، ودفع عنهم
من النقم.

والشكر: اعتراف القلب بمنة الله
تعالى، وتلقيها افتقاراً إليها، وصرفها
في طاعة الله تعالى، وصونها عن
صرفها في المعصية.

فلم يزل الشياطين يعملون لسليمان
عليه الصلاة والسلام كل بناء، وكانوا
قد موهوا على الإنس، وأخبروهم أنهم
يعلمون الغيب ويطلعون على
المكنونات، فأراد الله تعالى أن يري
العباد كذبهم في هذه الدعوى، فمكثوا
يعملون على عملهم، وقضى الله
الموت على سليمان عليه السلام، وأتكا
على عصاه وهي المنسأة، فصاروا إذا
مروا به وهو متكئ عليها، ظنوه حياً،
وهايوه.

فغدوا على عملهم كذلك سنة كاملة
على ما قيل، حتى سلطت دابة الأرض
على عصاه، فلم تزل ترعاه، حتى باد
وسقط، فسقط سليمان عليه السلام
وتفرقت الشياطين وتبينت الإنس أن
الجن ﴿لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا
في العذاب المهين﴾ وهو العمل الشاق
عليهم، فلو علموا الغيب، لعلموا
موت سليمان، الذي هم أحزص شيء
عليه، ليسلموا عما هم فيه.

﴿١٥ - ٢١﴾ ﴿لقد كان لسبأ في
مستكنهم آية جنتان عن يمين وشمال
كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة
طيبة ورب غفور﴾ فأعرضوا فأرسلنا

عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم
جنتين ذواتي أكل خط وأثل وشيء من
سدر قليل * ذلك جزيناهم بما كفروا
وهل تجازي إلا الكفور * وجعلنا
بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى
ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها
ليالي وأياماً آمنتين * فقالوا ربنا باعد
بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم
أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك
لآيات لكل صبار شكور * ولقد
صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا
فريقاً من المؤمنين * وما كان له عليهم
من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة
من هو منها في شك وربك على كل
شيء حفيظ * سبأ قبيلة معروفة في
أداني اليمن، ومسكنهم بلدة يقال لها
«مأرب»، ومن نعم الله ولطفه بالناس
عموماً، وبالعرب خصوصاً، أنه قص
في القرآن أخبار المهلكين والمعاقين،
من كان يجاور العرب ويشاهد آثاره
ويتناقل الناس أخباره، ليكون ذلك
أدعى إلى التصديق، وأقرب للموعظة
فقال: ﴿لقد كان لسبأ في مستكنهم﴾
أي: محلهم الذي يسكنون فيه ﴿آية﴾
والآية هنا: ما أدرك الله عليهم من
النعم، وصرف عنهم من النقم، الذي
يقتضي ذلك منهم، أن يعبدوا الله
ويشكروه. ثم فسر الآية بقوله:
﴿جنتان عن يمين وشمال﴾ وكان لهم
واد عظيم، تأتيه سيول كثيرة، وكانوا
بنوا سداً محكماً، يكون مجعاً للماء،
فكانت السيول تأتيه، فيجتمع هناك ماء
عظيم، فيفرونه على بساتينهم، التي
عن يمين ذلك الوادي وشماله. وتغل
لهم تلك الجنتان العظمتان، من الثمار
ما يكفيهم، ويحصل لهم به الغبطة
والسرور، فأمرهم الله بشكر نعمه التي
أدركها عليهم من وجوه كثيرة. منها:
هاتان الجنتان اللتان غالب أقواتهم
منهما.

ومنها: أن الله جعل بلدهم بلدة
طيبة، لحسن هوائها، وقلته وخصها،
وحصول الرزق الرغد فيها.

ومنها: أن الله تعالى وعدهم - إن
شكروه - أن يغفر لهم ويرحمهم،

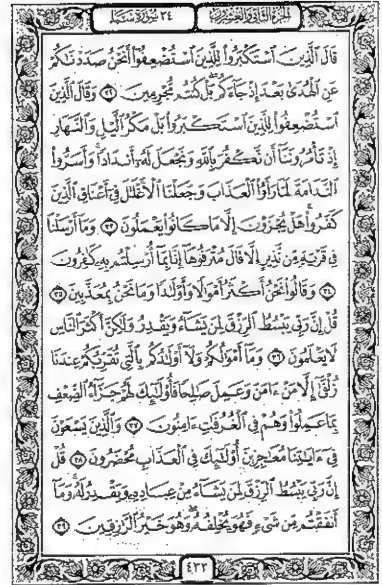
ولهذا قال: ﴿بلدة طيبة ورب غفور﴾.
ومنها: أن الله لما علم احتياجهم في
تجاراتهم ومكاسبهم إلى الأرض المباركة
- الظاهر أنها: [قرى صنعاء] قاله غير
واحد من السلف، وقيل إنها: الشام -
هيأ لهم من الأسباب ما به يتيسر
وصولهم إليها بغاية السهولة، من
الأمن، وعدم الخوف، وتواصل القرى
بينهم وبينها، بحيث لا يكون عليهم
مشقة بحمل الزاد والمزاد.

ولهذا قال: ﴿وجعلنا بينهم وبين
القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة
وقدرنا فيها السير﴾ أي: [سيراً] مقدراً
يعرفونه ويحكمون عليه، بحيث
لا يتيهون عنه ﴿ليالي وأياماً آمنتين﴾
أي: مطمئنين في السير، في تلك
الليالي والأيام، غير خائفين. وهذا من
تمام نعمة الله عليهم، أن أمنهم من
الخرف.

فأعرضوا عن النعم، وعن عبادته،
وبطروا النعمة وملوها، حتى إنهم
طلبوا وقتوا، أن تتباعد أسفارهم بين
تلك القرى التي كان السير فيها
متيسراً.

﴿وظلموا أنفسهم﴾ بكفرهم بالله
وبنعمته، فعاقبهم الله تعالى بهذه النعمة
التي أعطاهم، فأبادهما عليهم، فأرسل
عليها سيل العرم، أي: السيل المتوعر،
الذي خرب سددهم، وأتلف جنتاتهم،
وخرب بساتينهم، فتبدلت تلك الجنتات
ذات الحقائق العجيبة، والأشجار
الثمرة، وصار بدلها أشجار لا نفع
فيها، ولهذا قال: ﴿وبدلناهم بجنتيهم
جنتين ذواتي أكل﴾ أي: شيء قليل من
الأكل الذي لا يقع منهم موقعاً ﴿خط
وأثل وشيء من سدر قليل﴾ وهذا كله
شجر معروف، وهذا من جنس
عملهم.

فكما بدلوا الشكر الحسن بالكفر
القيح، بدلوا تلك النعمة بما ذكر،
ولهذا قال: ﴿ذلك جزيناهم بما كفروا
وهل تجازي إلا الكفور﴾ أي: وهل
تجازي جزاء العقوبة - بدليل السياق -
والأمن كفر بالله وبطرق النعمة؟
فلما أصابهم ما أصابهم تفرقوا



ومن علوه، أن حكمه تعالى يعلو، وتدعن له النفوس، حتى نفوس المتكبرين والمشركون.

وهذا المعنى أظهر، وهو الذي يدل عليه السياق، ويحتمل أن الضمير يعود إلى الملائكة، وذلك أن الله تعالى إذا تكلم بالوحي سمعته الملائكة، فصعقوا وخروا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، وإذا زال الصعق عن قلوب الملائكة، وزال الفزع، فيسأل بعضهم بعضاً عن ذلك الكلام الذي صعقوا منه: ماذا قال ربكم؟ فيقول بعضهم لبعض: قال الحق، إما إجمالاً، لعلمهم أنه لا يقول إلا حقاً، وإما أن يقولوا: قال كذا وكذا، للكلام الذي سمعوه منه، وذلك من الحق.

فيكون المعنى على هذا: أن المشركين الذين عبدوا مع الله تلك الآلهة، التي وصفنا لكم عجزها ونقصها، وعدم نفعها بوجه من الوجوه، كيف صدقوا وصرفوا عن إخلاص العبادة للرب العظيم، العلي الكبير، الذي - من عظيمته وجلاله - أن الملائكة الكرام والمقرئين من الخلق، يبلغ بهم الخضوع والصعق عند سماع كلامه هذا المبلغ، ويقولون كلهم لله، أنه لا يقول إلا الحق.

فما بال هؤلاء المشركين، استكبروا عن عبادة من هذا شأنه، وعظمة ملكه وسلطانه. فتعالى العلي الكبير عن شرك المشركين وإفكهم وكذبهم.

﴿٢٤ - ٢٧﴾ «قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله وإننا أو إياكم لمعل هدى أو في ضلال مبين» * قل لا تسألون عما أجرمتنا ولا تسأل عما تعملون * قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم * قل أروني الذين الحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز الحكيم * يأمر تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يقول لمن أشرك بالله ويسأله عن حجة شركه: «مَنْ يَرْزُقُكُمْ

من السماوات والأرض؟ فإنهم لا بد أن يقولوا أنه الله، ولئن لم يقولوا ف«قل الله» فإنك لا تجد من يدفع هذا القول، فإذا تبين أن الله وحده الذي يرزقكم من السماوات والأرض، وينزل لكم المطر، وينبت لكم النبات، ويفجر لكم الأنهار، ويطلع لكم من ثمار الأشجار، وجعل لكم الحيوانات جميعها، لنفعمكم ورزقكم، فليمن تعبدون معه من لا يرزقكم شيئاً، ولا يقيدكم نفعاً؟

وقوله: «وإنا أو إياكم لمعل هدى أو في ضلال مبين» أي: إحدى الطائفتين منا ومنكم، على الهدى، مستعجلة عليه، أو في ضلال مبين، منغمرة فيه، وهذا الكلام يقوله من تبين له الحق واتضح له الصواب، وجزم بالحق الذي هو عليه وبطلان ما عليه خصمه.

أي: قد تشرحنا من الأدلة الواضحة عندنا وعندكم، ما به يعلم علماً يقيناً لا شك فيه، من المحق منا ومن المبطّل، ومن المهتدي ومن الضال؟ حتى إنه يصير التعيين بعد ذلك لا فائدة فيه، فإنك (٢) إذا وازنت بين من يدعو إلى عبادة الخالق لساناً المخلوقات، المتصرف فيها بجميع أنواع التصرفات، المسدي جميع النعم، الذي رزقهم وأوصل إليهم كل نعمة، ودفع عنهم كل نقمة، الذي له الحمد كله والملك كله، وكل أحد من الملائكة فما دونهم خاضعون لهيئته، متذلّلون لعظمته، وكل الشفعاء تخافه، لا يشفع أحد منهم عنده إلا بإذنه العلي الكبير، في ذاته وأوصافه وأفعاله، الذي له كل كمال، وكل جلال، وكل جمال، وكل حمد وثناء ومجد، يدعو إلى التقرب لمن هذا شأنه، وإخلاص العمل له، وينهى عن عبادة من سواه، وبين من يتقرب إلى أوثان وأصنام وقبور، لا تخلق ولا ترزق، ولا تملك لأنفسها ولا لغير عبدها، نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً

والعجب، أن المشرك استكبر عن الانقياد للرسول بزعمه (١) أنهم بشر، ورضي أن يعبد ويدعو الشجر والحجر، استكبر عن الإخلاص للملك الرحمن الديان، ورضي عبادة من ضره أقرب من نفعه، طاعة لأعدى عدوه وهو الشيطان.

وقوله: «حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير» يحتمل أن الضمير في هذا الموضع يعود إلى المشركين، لأنهم مذكورون في اللفظ، والقاعدة في الضمائر، أن تعود إلى أقرب مذكور، ويكون المعنى: إذا كان يوم القيامة، وفزع عن قلوب المشركين، أي: زال الفزع، وسئلوا حين رجعت إليهم عقولهم، عن حالهم في الدنيا، وتكذيبهم للحق الذي جاءت به الرسل، أنهم يقولون أن ما هم عليه من الكفر والشرك باطل، وأن ما قال الله وأخبرت به عنه رسله، هو الحق فيدلهم ما كانوا يخفون من قبل وعلموا أن الحق لله، واعترفوا بذنوبهم.

«وهو العلي» بذاته، فوق جميع مخلوقاته وقهره لهم وعلو قدره، بما له من الصفات العظيمة، جليلة المقدار «الكبير» في ذاته وصفاته.

(١) في النسختين: يزعمهم، ولعل الأقرب - والله أعلم - ما أثبت.

(٢) ورد في الهامش هنا: فعل الشرط.

ولا حياة ولا نشوراً، بل هي جهادات لا تعقل ولا تسمع دعاء عابديها، ولو سمعته ما استجابت لهم، ويوم القيامة يكفرون بشركهم، ويثيرأون منهم، ويتلأعنون بينهم، ليس لهم قسط من الملك، ولا شركة فيه، ولا إعانة فيه، ولا لهم شفاعة يستقلون بها دون الله، فهو يدعو من هذا وصفه، ويتقرب إليه مهما أمكنه، ويعادي من أخلص الدين لله ويجاربه، ويكذب رسل الله الذين جاؤوا بالإخلاص لله وحده، تبيين^(١) لك أي: الفريقين، المهتدي من الضال، والشقي من السعيد؟ ولم يحتاج إلى أن يعين لك ذلك، لأن وصف الحال أوضح من لسان المقال.

﴿قل﴾ لهم [﴿لا تسألون عما أجرمنا، ولا نسأل عما تعملون﴾ أي: كل منا ومنكم له عمله أنتم] ﴿لا تسألون﴾ عن إجراننا وذنوبنا لو أذنبنا، ونحن لا نسأل عن أعمالكم، فليكن المقصود منا ومنكم طلب الحقائق، وسلوك طريق الإنصاف، ودعوا ما كنا نعمل، ولا يكن مانعاً لكم من اتباع الحق، فإن أحكام الدنيا تجري على الظواهر، ويتبع فيها الحق ويحتمل الباطل، وأما الأعمال، فلها دار أخرى، يحكم فيها أحكم الحاكمين، ويفصل بين المختصمين، أعدل العادلين.

ولهذا قال: ﴿قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا﴾ أي: يحكم بيننا حكماً، يتبين به الصادق من الكاذب، والمستحق للشواب من المستحق للعقاب، وهو خير الفاتحين. ﴿قل﴾ لهم يا أيها الرسول، ومن ناب منابك: ﴿أروني الذين ألحقتم به شركاء﴾ أي: أين هم؟ وأين السبيل إلى معرفتهم؟ وهل هم في الأرض، أم في السماء؟ فإن عالم الغيب والشهادة قد أخبرنا أنه ليس في الوجود له شريك. ﴿ويعبدون من دون الله ما

لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم﴾ الآية ﴿وما يتبع الذين يذعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا غرضون﴾ وكذلك خواص خلقه من الأنبياء والمرسلين، لا يعلمون له شريكاً، فيأبها المشركون أروني الذين ألحقتم بزعمكم الباطل بالله ﴿شركاء﴾.

وهذا السؤال لا يمكنهم الإجابة عنه، ولهذا قال: ﴿كلا﴾ أي: ليس لله شريك، ولا ند، ولا ضد. ﴿بل هو الله﴾ الذي لا يستحق التاله والتعبد إلا هو ﴿العزيز﴾ الذي قهر كل شيء، فكل ما سواه فهو مقهور مسخر مبدى. ﴿الحكيم﴾ الذي أتقن ما خلقه، وأحسن ما شرعه، ولو لم يكن في حكمته في شرعه إلا أنه أمر بتوحيده وإخلاص الدين له، وأحب ذلك، وجعله طريقاً للنجاة، ونهى عن الشرك به واتخاذ الأنداد من دونه، وجعل ذلك طريقاً للشقاء والهلاك، لكفى^(٢) بذلك برهاناً على كمال حكمته، فكيف، وجميع ما أمر به ونهى عنه مشتمل على الحكمة!!

﴿٢٨ - ٣٠﴾ ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴿قل﴾ لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون ﴿يخبر تعالى أنه ما أرسل رسوله﴾، إلا يبشر جميع الناس بشواب الله، وينذرهم عقاب الله، ويخبرهم بالأعمال الموجبة له، فليس لك من الأمر شيء، وكل ما اقترح عليك أهل التكذيب والعناد، فليس من وظيفتك، إنما ذلك بيد الله تعالى، ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي: ليس لهم علم صحيح، بل إما جهال، أو معاندون لم يعملوا بعلمهم، فكأنهم لا علم لهم. ومن عدم علمهم، جعلهم عدم

الإجابة لما اقترحوه على الرسول، موجباً لرد دعوته.

فما اقترحوه، استعجالهم العذاب الذي أنذروهم به، فقال: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ وهذا ظلم منهم. فأبى: ملازمة بين صدقه وبين الإخبار بوقت وقوعه؟ وهل هذا إلا رد للحق، وسفه في العقل؟ أليس النذير [في أمر] في أحوال الدنيا، لئلا جاء قوماً يعلمون صدقه ونصحه، ولهم عدو ينتهز الفرصة منهم ويعدو لهم، فقال لهم: تركت عدوكم قد سار، يريد اجتياحكم واستئصالكم. فلو قال بعضهم: إن كنت صادقاً، فأخبرنا بأية ساعة يصل إلينا، وأين مكانه الآن؟ فهل يعد هذا القائل عاقلاً، أم يحكم بسفهه وجنونه؟

هذا، والمخير يمكن صدقه وكذبه، والعدو قد يبدو له غيرهم، وقد تنخل عزمته، وهم قد يكون بهم منعة يدافعون بها عن أنفسهم، فكيف بمن كذب أصدق الخلق، المعصوم في خبره، الذي لا ينطق عن الهوى، بالعذاب اليقين، الذي لا مدفع له ولا ناصر منه؟! أليس رد خبره بحجة عدم بيانه وقت وقوعه من أسفه السفه!!

﴿قل﴾ لهم - مخبراً بوقت وقوعه الذي لا شك فيه - ﴿لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون﴾ فاحذروا ذلك اليوم، وأعدوا له عدته.

﴿٣١ - ٣٣﴾ ﴿وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يزجع بعضهم إلى بغض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكننا مؤمنين﴾ قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صدقناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين ﴿وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له

(١) ورد في الهامش هنا: جواب الشرط.

(٢) كذا في ب، وفي أ: يكفى، ولعل الصواب ما أثبت.

فإن يُعْثِنَا، فالذي أعطانا الأموال والأولاد في الدنيا، سيعطينا أكثر من ذلك في الآخرة ولا يعدبنا. فأجابهم الله تعالى، بأن يسط الرزق وتضييقه، ليس دليلاً على ما زعمتم، فإن الرزق تحت مشيئة الله، إن شاء يسطه لعبده، وإن شاء ضيقه.

وليسأت الأموال والأولاد بالتي تقرب إلى الله زلفى وتذني إليه، وإنما الذي يقرب منه زلفى، الإيمان بما جاءت به المرسلون، والعمل الصالح الذي هو من لوازم الإيمان، فأولئك لهم الجزاء عند الله تعالى مضاعفاً، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، لا يعلمها إلا الله، «وهم في الغرفات آمنون». أي: في المنازل العاليات المرتفعات جداً، ساكنين فيها مطمئنين، آمنون من المكدرات والمنغصات، لما هم فيه من اللذات وأنواع المشتهيات، وآمنون من الخروج منها والحزن فيها.

وأما الذين سعوا في آياتنا على وجه التعجيز لنا ولرسلنا، والتكذيب، فـ «أولئك في العذاب محضرون».

﴿٣٩﴾ ثم أعاد تعالى أنه «يسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له». ليرتب عليه قوله: «وما أنفقتم من شيء» نفقة واجبة أو مستحبة، على قريب، أو جار، أو مسكين، أو يتيم، وغير ذلك، «فهو» تعالى «يخلفه» فلا تشوهوا أن الإنفاق مما ينقص الرزق، بل وعد بالخلف للمنفق، الذي يسط الرزق لمن يشاء ويقدر «وهو خير الرازقين» فاطلبوا الرزق منه، واسعوا في الأسباب التي أمركم بها.

﴿٤٠ - ٤٢﴾ «ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهولاء إياكم كانوا يعبدون» قالوا سبحانه أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون «فالיום لا يملك بكم لبعض نفعاً ولا ضرراً نقول» للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون «ويوم يحشرهم جميعاً» أي: العابدين لغير الله

[وأنه] ترك الباطل الذي أوصله إلى هذا العذاب، سراً في أنفسهم، خوفاً من الفضيحة في إقرارهم على أنفسهم. وفي بعض مواقف القيامة، وعند دخولهم النار، يظهرون ذلك الندم جهراً.

«ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً» يا ليتني ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً» الآيات.

«وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير» فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير «وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا» يغنون كما يغل المسجون الذي سيهان في سجنه كما قال تعالى: «إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون» في الحميم ثم في النار يسجرون» الآيات.

«هل يجزون» في هذا العذاب والنكال، وتلك الأغلال الثقال «إلا ما كانوا يعملون» من الكفر والفسوق والعصيان.

﴿٣٩ - ٣٩﴾ «وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون» وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين «قل إن ربي يسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون» وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون «والذين يسعون في آياتنا معاجزين أولئك في العذاب محضرون» قل إن ربي يسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين» يخبر تعالى عن حالة الأمم الماضية المكذبة للرسل، أنها كحال هؤلاء الحاضرين المكذبين لرسولهم محمد ﷺ، وأن الله إذا أرسل رسولا في قرية من القرى كفر به مترفوها، وأبطلتهم نعمتهم وفخروا بها.

«وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً» أي: ممن اتبع الحق «وما نحن بمعذبين» أي: أولاً، لسنا بمبعوثين،

أنداداً وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون» لما ذكر تعالى أن معاد المستعجلين بالعذاب لا يد من وقوعه عند حلول أجله، ذكر هنا حالهم في ذلك اليوم، وأنت لو رأيت حالهم إذا وقفوا عند ربهم، واجتمع الرؤساء والأتباع في الكفر والضلال، لرأيت أمراً عظيماً وهو لا جسيماً، ورأيت كيف يتراجع، ويرجع بعضهم إلى بعض القول، فـ «يقول الذين استضعفوا» وهم الأتباع «للبذين استكبروا» وهم القادة: «لولا أنتم لكنا مؤمنين» ولكنكم حلثم بيننا وبين الإيمان، وزينتم لنا الكفر [إن]، فتبعنكم على ذلك، ومقصودهم بذلك أن يكون العذاب على الرؤساء دونهم.

«قال الذين استكبروا للذين استضعفوا» مستفهمين لهم ومخبرين أن الجميع مشتركون في الجرم: «أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم» أي: بقوتنا وقهرنا لكم. «بل كنتم مجرمين» أي: مختارين للإجرام، لستم مقهورين عليه، وإن كنا قد زيننا لكم، فما كان لنا عليكم من سلطان.

«وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً» أي: بل الذي دهانا منكم، ووصل إلينا من إضلالكم، ما دبّرتموه من المكر، في الليل والنهار، إذ تحشنون لنا الكفر وتدعوننا إليه، وتقولون: إنه الحق، وتقدحون في الحق وتهجنونه وتزعمون أنه الباطل، فما زال مكركم بنا وكيدكم إيانا، حتى أغويتمونا وقتلتمونا.

فلم تعد تلك المراجعة بينهم شيئاً إلا تبري بعضهم من بعض، والندامة العظيمة، ولهذا قال: «أسروا الندامة لما رأوا العذاب» أي: زال عنهم ذلك الاحتجاج الذي احتج به بعضهم على بعض لينجو من العذاب، وعلم أنه ظالم مستحق له، فندم كل منهم غاية الندم، وتمنى أن لو كان على الحق،

وعنادهم، وظهر الحق وسطع، وبطل الباطل وانقمع، وذلك بسبب بيان «علام الغيوب» الذي يعلم ما تنطوي عليه القلوب من الوسوس والشبه، ويعلم ما يقابل ذلك ويدفعه من الحجج.

فيعلم بها عباده، ويبتها لهم، ولهذا قال: «قل جاء الحق» أي: ظهر وبان، وصار بمنزلة الشمس، وظهر سلطانه «وما يبدى الباطل وما يعيد» أي: اضمحل وبطل أمره، وذهب سلطانه، فلا يبدى ولا يعيد.

ولما تبين الحق بما دعا إليه الرسول، وكان المكذبون له يرمونه بالضلال، أخبرهم بالحق ووضحه لهم، وبين لهم عجزهم عن مقاومته، وأخبرهم أن رميهم له بالضلال ليس بضائر الحق شيئاً، ولا دافع ما جاء به.

وأنه إن ضل - وحاشاه من ذلك، لكن على سبيل التنزل في المجادلة - فإنما يضل على نفسه، أي: ضلاله قاصر على نفسه، غير متعد إلى غيره.

«وإن اهتديت» فليس ذلك من نفسي وحولي وقوتي، وإنما هدايتي بما «يوحى إلى ربي» فهو مادة هدايتي، كما هو مادة هداية غيري. إن ربي «سميع» للأقوال والأصوات كلها «قريب» ممن دعا وسأله وعبده.

٥١ - ٥٤ «ولو ترى إذ فرعوا قلا فوث وأخذوا من مكان قريب» وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد» وقد كفروا به من قبل ويقدفون بالغيب من مكان بعيد» وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشباعهم من قبل إنهم كانوا في شك مريب» يقول تعالى: «ولو ترى» أيها الرسول، ومن قام مقامك، حال هؤلاء المكذبين، «إذ فرعوا» حين رأوا العذاب، وما أخبرتهم به الرسل وما كذبوا به، لرأيت أمراً هائلاً، ومنظراً مفضعاً، وحالة منكرة، وشدة شديدة، وذلك حين يحق عليهم العذاب.

الخلق، أدباً، وسكينة، وتواضعاً، ووقاراً، لا يكون [إلا] لأرزن الرجال عقلاً.

ثم [إذا] تأملوا كلامه الفصيح، ولفظه المليح، وكلماته التي غلا القلوب أمناً وإيماناً، وتزكي النفوس، وتطهر القلوب، وتبعث على مكارم الأخلاق، وتحث على محاسن الشيم، وترهب^(٢) عن مساوئ الأخلاق ورذائلها، إذا تكلم رفقته العيون، هبة وإجلالاً وتعظيماً.

فهل هذا يشبه هذيان المجانين وعريدهم، وكلامهم الذي يشبه أحوالهم!!

فكل من تدبر أحواله، ومقصده استعمال هل هو رسول الله أم لا؟ سواء تفكر وحده أو مع غيره، جزم بأنه رسول الله حقاً، ونبيه صدقاً، خصوصاً المخاطبين، الذي هو صاحبهم يعرفون أول أمره وآخره.

وتم مانع للنفوس آخر من اتباع الداعي إلى الحق، وهو أنه يأخذ أموال من يستجيب له، ويأخذ أجرة على دعوته. فبين الله تعالى نزاهة رسوله ﷺ عن هذا الأمر، فقال: «قل ما سألتكم من أجر» أي: على اتباعكم للحق «فهو لكم» أي: فأشهدكم أن ذلك الأجر - على التقدير - أنه لكم، «إن أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد» أي: محيط علمه بما أدعوا إليه، فلو كنت كاذباً، لأخذني بعقوبته، وشهيد أيضاً على أعمالكم، سيحفظها عليكم، ثم يجازيكم بها.

ولما بين البراهين الدالة على صحة الحق وبطلان الباطل، أخبر تعالى أن هذه سنته وعادته أن «يقذف بالحق» على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، لأنه بين من الحق في هذا الموضع، ورد به أقوال المكذبين، ما كان عبرة للمعتبرين، وآية للمتأملين.

فإنك كما ترى، كيف اضمحلت أقوال المكذبين، وتبين كذبهم



«قل» يا أيها الرسول، لهؤلاء المكذبين المعاندين، المتصددين لرد الحق وتكذيبه، والقدح بمن جاء به: «إنما أعظكم بواحدة» أي: بخصلة واحدة، أشير عليكم بها، وأنصح لكم في سلوكها، وهي طريق نصف، لست أدعوكم بها إلى اتباع قولي، ولا إلى ترك قولكم من دون موجب لذلك، وهي: «أن تقوموا لله مثنى وفرداً» أي: تنهضوا بهمة ونشاط، وقصد لاتباع الصواب، وإخلاص لله، مجتمعين، ومتباحثين في ذلك، ومتناظرين، وفرداً، كل واحد يخاطب نفسه بذلك.

فإذا قمتم لله مثنى وفرداً، استعملتم فكركم وأجلمتموه، وتدبرتم أحوال رسولكم، هل هو مجنون، فيه صفات المجانين من كلامه، وهيئته، وصفته؟ أم هو نبي صادق، منذر لكم ما يضركم، بما أمامكم من العذاب الشديد؟

فلو قبلوا هذه الموعظة واستعملوها، لتبين لهم أكثر من غيرهم، أن رسول الله ﷺ ليس بمجنون، لأن هيئاته^(١) ليست كهيات المجانين، في خنقهم، واختلاجهم، ونظرهم، بل هيئته أحسن الهيئات، وحركاته أجل الحركات، وهو أكمل

(٢) في ب: وتزجر.

(١) في ب: هيته.



السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور ﴿٨﴾ أي: يا من يريد العزة اطلبها من هي بيده، فإن العزة بيد الله، ولا تنال إلا بطاعته، وقد ذكرها بقوله: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ من قراءة وتسبيح وتحميد وتهليل، وكل كلام حسن طيب، فيرفع إلى الله ويعرض عليه، ويشي الله على صاحبه بين الملأ الأعلى، ﴿والعمل الصالح﴾ من أعمال القلوب وأعمال الجوارح ﴿يرفعه﴾ الله تعالى إليه أيضاً، كالكلم الطيب.

وقيل: والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب، فيكون رفع الكلم الطيب بحسب أعمال العبد الصالحة، فهي التي ترفع كلمه الطيب، فإذا لم يكن له عمل صالح، لم يرفع له قول إلى الله تعالى، فهذه الأعمال التي ترفع إلى الله تعالى، ويرفع الله صاحبها ويعزه.

وأما السيئات فإنها بالعكس، يريد صاحبها الرفعة بها، ويمكر ويكيد ويعود ذلك عليه، ولا يزداد إلا إهانة ونزولاً، ولهذا قال: ﴿والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد﴾ يهانون فيه غاية الإهانة. ﴿ومكر أولئك هو يبور﴾ أي: يهلك ويضمحل، ولا يفيدهم شيئاً، لأنه مكر بالباطل، لأجل الباطل.

﴿١١﴾ ﴿والله خلقكم أزواجاً﴾ ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾ يذكر تعالى خلقه الآدمي، وتنقله في هذه الأطوار، من تراب إلى نطفة وما بعدها.

﴿ثم جعلكم أزواجاً﴾ أي: لم يزل ينقلكم، طوراً بعد طور، حتى أوصلكم إلى أن كنتم أزواجاً، ذكراً يتزوج أنثى، ويزاد بالزواج، الذرية والأولاد، فهو وإن كان النكاح من الأسباب فيه، فإنه مقترون بقضاء الله وقدره وعلوه، ﴿وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه﴾ وكذلك أطوار الآدمي، كلها بعلمه وقضائه.

الأعمال ﴿الصالحات لهم مغفرة﴾ لذنوبهم، يزول بها عنهم الشر والمكروه ﴿أجر كبير﴾ يحصل به المطلوب.

﴿٨﴾ ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً﴾ فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليهم بما يصنعون﴾ يقول تعالى: ﴿أفمن زين له عمله السيئ القبيح، زين له الشيطان، وحسنه في عينه﴾. ﴿فرآه حسناً﴾ أي: كمن هداه الله إلى الصراط المستقيم والدين القويم، فهل يستوي هذا وهذا؟

فالأول: عمل السيء، ورأى الحق باطلاً، والباطل حقاً.

والثاني: عمل الحسن، ورأى الحق حقاً، والباطل باطلاً، ولكن الهداية والإضلال بيد الله تعالى، ﴿فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم﴾ أي: على الضالين الذين زين لهم سوء أعمالهم، وصددهم الشيطان عن الحق ﴿حسرات﴾ فليس عليك إلا البلاغ، وليس عليك من هداهم شيء، والله [هو] الذي يجازيهم بأعمالهم ﴿إن الله عليم بما يصنعون﴾.

﴿٩﴾ ﴿والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحينها به الأرض بعد موتها كذلك النشور﴾ يخبر تعالى عن كمال اقتداره، وسعة جوده، وأنه ﴿أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت﴾ فأنزله الله عليها ﴿فأحينها به الأرض بعد موتها﴾.

فحييت البلاد والعباد، وارتزقت الحيوانات، وزعت في تلك الخيرات، ﴿كذلك﴾ الذي أحيا الأرض بعد موتها، ينشر الله الأموات من قبورهم، بعدما مزقهم البلى، فيسوق إليهم مطراً، كما ساقه إلى الأرض الميتة، فينزل عليهم فتحي الأجساد والأرواح من القبور، ويأتون للقيام بين يدي الله ليحكم بينهم، ويفصل بحكمه العدل.

﴿١٠﴾ ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون

وعبد الله﴾ بالبعث والجزاء على الأعمال، ﴿حق﴾ أي: لا شك فيه، ولا مرية، ولا تردد، قد دلت على ذلك الأدلة السمعية والبراهين العقلية، فإذا كان وعده حقاً، فتهيؤوا له، وبادروا أوقاتكم الشريفة بالأعمال الصالحة، ولا يقطعكم عن ذلك قاطع، ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ بلذاتها وشهواتها ومطالبها النفسية، فتلهيكم عما خلقتم له، ﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ الذي هو ﴿الشيطان﴾ الذي هو عدوكم في الحقيقة ﴿فانخذوه عدوا﴾ أي: لتكن منكم عداوته على ببال، ولا تهملوا محاربته كل وقت، فإنه يراكم، وأنتم لا ترونه، وهو دائماً لكم بالمرصاد.

﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ هذا غايته ومقصوده فمن تبعه، أن يهان غاية الإهانة بالعذاب الشديد.

ثم ذكر أن الناس انقسموا بحسب طاعة الشيطان وعدمها إلى قسمين، وذكر جزاء كل منهما، فقال: ﴿الذين كفروا﴾ أي: جحدوا ما جاءت به الرسل، ودلت عليه الكتب ﴿لهم عذاب شديد﴾ في نار جهنم، شديد في ذاته ووصفه، وأتهم خالدون فيها أبداً.

﴿والذين آمنوا﴾ بقلوبهم، بما دعا الله إلى الإيمان به ﴿وعملوا﴾ بمقتضى ذلك الإيمان، بجوارحهم،

ومن غناه تعالى: أن أغني الخلق في الدنيا والآخرة، الحميد في ذاته، وأسمائه لأنها حسنى، وأوصافه لكونها غلبا، وأفعاله لأنها فضل وإحسان وعدل وحكمة ورحمة، وفي أوامره ونواهيه، فهو الحميد على ما فيه، وعلى ما منه، وهو الحميد في غناه [الغنى في حده].

﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد﴾. يحتمل أن المراد: إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بغيركم من الناس، أطوع الله منكم، ويكون في هذا تهديد لهم بالهلاك والإبادة، وأن مشيئة غير قاصرة عن ذلك.

ويحتمل أن المراد بذلك: إثبات البعث والنشور، وأن مشيئة الله تعالى نافذة في كل شيء، وفي إعادتك بعد موتكم خلقا جديدا، ولكن لذلك الوقت أجل قدره الله، لا يتقدم عنه ولا يتأخر.

﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾ أي: بممتنع، ولا معجز له.

وبدل على المعنى الأخير، ما ذكره بعده في قوله: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ أي: في يوم القيامة كل أحد يجازى بعمله، ولا يحمل أحد ذنب أحد. ﴿وإن تدع مثقلة﴾ أي: نفس مثقلة بالخطايا والذنوب، تستغيث بمن يحمل عنها بعض أوزارها ﴿لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾ فإنه لا يحمل عن قريب، فليست حال الآخرة بمنزلة حال الدنيا، يساعد الحميم حميمه، والصديق صديقه، بل يوم القيامة، يتمنى العبد أن يكون له حق على أحد، ولو على والديه وأقاربه.

﴿إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة﴾ أي: هؤلاء الذين يقبلون النذارة ويتفجعون بها، أهل الخشية لله بالغيب، أي: الذين يخشونه في حال السر والعلانية، والمشهد والمغيب، وأهل إقامة الصلاة، بحدودها وشروطها وأركانها وأوجباتها وخشوعها، لأن الخشية لله تستدعي من العبد العمل بما يخشى من تضييعه العقاب، والهرب مما يخشى من ارتكابه

ووصفهم، وأنهم فقراء إلى الله من جميع الوجوه: فقراء في إيجادهم، فلولا إيجاده إياهم، لم يوجدوا.

فقراء في إعدادهم بالقوى والأعضاء والجوارح، التي لولا إعداده إياهم [بها]، لما استعدوا لأي: عمل كان.

فقراء في إمدادهم بالأقوات والأرزاق والنعم الظاهرة والباطنة، فلولا فضله وإحسانه وتيسيره الأمور، لما حصل [لهم] من الرزق والتنعيم شيء.

فقراء في صرف النقم عنهم، ودفع المكاره، وإزالة الكروب والشدائد: فلولا دفعه عنهم، وتفرجه لكراباتهم، وإزالته لعسرهم، لاستمرت عليهم المكاره والشدائد.

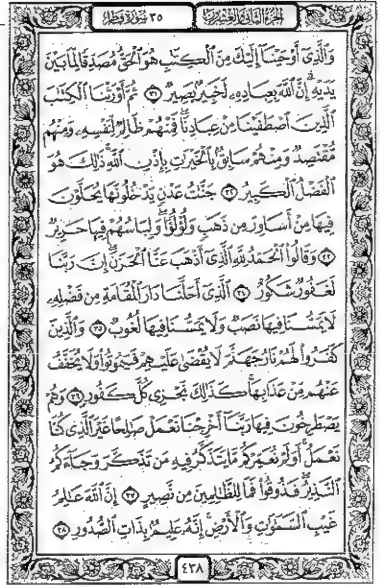
فقراء إليه في تربيتهم بأنواع التربية وأجناس التدبير.

فقراء إليه، في تالهم له، وحبهم له، وتعبدهم، وإخلاص العبادة له تعالى، فلولا يوفقهم لذلك لهلكوا، وفسدت أرواحهم وقلوبهم وأحوالهم.

فقراء إليه، في تعليمهم ما لا يعلمون، وعملهم بما يصلحهم، فلولا تعليمه لم يتعلموا، ولولا توفيقه لم يصلحوا.

فهم فقراء بالذات إليه، بكل معنى، وبكل اعتبار، سواء شعروا ببعض أنواع الفقر أم لم يشعروا، ولكن الموقف منهم، الذي لا يزال يشاهد فقره في كل حال من أمور دينه ودنياه، ويتضرع له، ويسأله أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين، وأن يعينه على جميع أموره، ويستصحب هذا المعنى في كل وقت، فهذا أحرى بالإعانة التامة من ربه وإلهه، الذي هو أرحم به من الوالدة بولدها.

﴿والله هو الغني الحميد﴾ أي: الذي له الغنى التام من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه خلقه، ولا يفتقر إلى شيء مما يفتقر إليه الخلق، وذلك لكمال صفاته، وكونها كلها صفات كمال، ونعوت وجلال.



ومع هذا ﴿إن تدعوهم﴾ لا يسمعونكم لأنهم ما بين جناد وأموات وملائكة مشغولين بطاعة ربهم. ﴿ولو سمعوا﴾ على وجه الفرض والتقدير ﴿ما استجابوا لكم﴾ لأنهم لا يملكون شيئا، ولا يرضى أكثرهم بعبادة من عبده، ولهذا قال: ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ أي: يتبرؤون منكم، ويقولون: ﴿سبحانك أنت ولينا من دونهم﴾.

﴿ولا ينبتك مثل خبير﴾ أي: لا أحد ينبتك، أصدق من الله الخبير، فاجزم بأن هذا الأمر، الذي نبأ به كأنه رأي عين، فلا تشك فيه ولا تتر. فتضمنت هذه الآيات، الأدلة والبراهين الساطعة، الدالة على أنه تعالى المألوه المعبود، الذي لا يستحق شيئا من العبادة سواه، وأن عبادة ما سواه باطلة متعلقة بباطل، لا تفيد عباده شيئا.

١٥ - ١٨ ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد﴾ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز * ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير يخاطب تعالى جميع الناس، ويخبرهم بحالهم

العذاب، والنصلا تدعو إلى الخير، وتتهى عن الفحشاء والمنكر.

﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ أي: وَمَنْ زَكَّى نَفْسَهُ بِالتَّزَكَّى مِنَ الْعِيوبِ، كَالزَّيِّاءِ وَالْكِبَرِ، وَالْكَذْبِ وَالْغَشِّ، وَالْمَكْرِ وَالْخِدَاعِ وَالنِّفَاقِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ، وَتَحَلَّى بِالْأَخْلَاقِ الْجَمِيلَةِ، مِنَ الصِّدْقِ، وَالْإِحْلَاصِ، وَالتَّوَّاضُعِ، وَلِئِنْ الْجَانِبِ، وَالتَّصَحُّعِ لِلْعِبَادِ، وَسَلَامَةِ الصِّدْرِ مِنَ الْحَقْدِ وَالْحَسَدِ وَغَيْرِهَا مِنْ مَسَاوِي الْأَخْلَاقِ، فَإِنَّ تَزَكِّيَهُ يَعُودُ نَفْعُهَا إِلَيْهِ، وَيَصِلُ مَقْصُودُهَا إِلَيْهِ، لَيْسَ يَضِيعُ مِنْ عَمَلِهِ شَيْءٌ.

﴿وَلِلَّهِ اللَّهُ الْمَصِيرُ﴾ فيجازي الخلائق على ما أسلفوه، ويحاسبهم على ما قدموه وعملوه، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

﴿١٩- ٢٤﴾ ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ ولا الظلمات ولا النور * ولا الظل ولا الحرور * وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور * إن أنت إلا نذير * إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير * يخبر تعالى أنه لا يتساوى الأضداد في حكمة الله، وفيما أودعه في فطر عباده، ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى فَاقِدَ الْبَصَرِ وَالْبَصِيرُ﴾ ولا الظلمات ولا النور * ولا الظل ولا الحرور * وما يستوي الأحياء ولا الأموات * فكما أنه من المقرر عنديكم، الذي لا يقبل الشك، أن هذه المذكورات لا تتساوى، فكذلك فلتعلموا أن عدم تساوي المتضادات المعنية أولى وأولى.

فلا يستوي المؤمن والكافر، ولا المهتدي والضال، ولا العالم والجاهل، ولا أصحاب الجنة وأصحاب النار، ولا أحياء القلوب وأمواتها، فبين هذه الأشياء من التفاوت والفرق ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فإذا علمت المراتب، وميزت الأشياء، وبأن الذي ينبغي أن يتنافس في تحصيله من ضده، فليختر الحازم لنفسه ما هو أولى به وأحقها بالإيثار.

﴿إِنْ اللَّهُ يَسْمَعُ مَنْ يَشَاءُ﴾ سماع فهم وقبول، لأنه تعالى هو الهادي الموفق ﴿وَمَا أَنْتَ بِمَسْمُوعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ أي: أموات القلوب، أو كما أن دعاءك لا يفيد سكان القبور شيئاً، كذلك لا يفيد المعرض المعاند شيئاً، ولكن وظيفتك النذارة، وإبلاغ ما أرسلت به، قبل منك أم لا.

ولهذا قال: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ إنا أرسلناك بالحق * أي: مجرد إرسالنا إياك بالحق، لأن الله تعالى بعثك على حين فترة من الرسل، وطموس من السبل، واندرا من العلم، وضرورة عظيمة إلى بعثتك، فبعثك الله رحمة للعالمين.

وكذلك ما بعثناك به من الدين القويم، والصرط المستقيم، حق لا باطل، وكذلك ما أرسلناك به، من هذا القرآن العظيم، وما اشتمل عليه من الذكر الحكيم، حق وصدق. ﴿بَشِيرًا﴾ لمن أطاعك، بثواب الله العاجل والآجل، ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن عصاك، بعقاب الله العاجل والآجل، ولست ببدع من الرسل.

فما ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ ﴿إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ يقيم عليهم حجة الله ﴿لِيَهْلِكَ مِنْ هَلَكٍ عَنْ بَيْتَةٍ وَيَحْيَا مِنْ حَيٍّ عَنْ بَيْتَةٍ﴾.

﴿٢٥- ٢٦﴾ ﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ وبالكتاب المنير * ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير * أي: وإن يكذبك أيها الرسول، هؤلاء المشركون، فلست أول رسول كُذِّبَ، ﴿فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الدالات على الحق، وعلى صدقهم فيما أخبروهم به، ﴿وَالزُّبُرِ﴾ أي: الكتب المكتوبة، المجموع فيها كثير من الأحكام، ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أي: المضيء في أخباره الصادقة، وأحكامه العادلة، فلم يكن تكذيبهم إياهم ناشئاً عن اشتباه، أو قصور بما جاءهم به الرسل، بل بسبب ظلمهم وعنادهم.

﴿٢٦﴾ ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

بأنواع العقوبات ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ عليهم؟ كان أشد النكير وأعظم التنكيل، فإياكم وتكذيب هذا الرسول الكريم، فيصيبكم كما أصاب أولئك، من العذاب الأليم والحزى الوخيم.

﴿٢٧- ٢٨﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مَخْتَلَفًا لَوَاقِحِهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ﴾ ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور * يذكر تعالى خلقه للأشياء المتضادات، التي أصلها واحد ومادتها واحدة، وفيها من التفاوت والفرق ما هو مشاهد معروف، ليدل العباد على كمال قدرته ويدفع حكيمته.

فمن ذلك: أن الله تعالى أنزل من السماء ماء، فأخرج به من الثمرات المختلفة، والنباتات المتنوعة، ما هو مشاهد للناظرين، والماء واحد، والأرض واحدة.

ومن ذلك: الجبال التي جعلها الله أوتاداً للأرض، تحميها جبلاً مشبكة، بل جبلاً واحداً، وفيها ألوان متعددة، فيها جدد بيض، أي: طرائق بيض، وفيها طرائق صفر وحر، وفيها غرايب سود، أي: شديدة السواد جداً.

ومن ذلك: التناس والدواب والأنعام، فيها من اختلاف الألوان والأوصاف والأصوات والهيئات، ما هو مرئي بالابصار، مشهود للنظار، والكل من أصل واحد ومادة واحدة.

فتفاوتها دليل عقلي على مشيئة الله تعالى، التي خصصت ما خصصت منها، بلونه، ووصفه، وقدرته الله تعالى حيث أوجدها كذلك، وحكمته ورحمته، حيث كان ذلك الاختلاف وذلك التفاوت، فيه من المصالح والمنافع، ومعرفة الطرق، ومعرفة الناس بعضهم بعضاً، ما هو معلوم.

وذلك أيضاً، دليل على سعة علم الله تعالى، وأنه يبعث مَنْ فِي الْقُبُورِ، ولكن الغافل ينظر في هذه الأشياء وغيرها نظر غفلة لا تحدث له

التذكر، وإنما ينتفع بها مَنْ يخشى الله تعالى، ويعلم بفكره الصائب وجه الحكمة فيها.

ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فكل مَنْ كان بالله أعلم، كان أكثر له خشية، وأوجب له خشية الله، الانكفاف عن المعاصي، والاستعداد للقاء مَنْ يخشاه، وهذا دليل على فضيلة العلم، فإنه داع إلى خشية الله، وأهل خشيته هم أهل كرامته، كما قال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ كامل العزة، ومن عزته خلق هذه المخلوقات المتضادات. ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوب التائبين.

﴿٢٩٩ - ٣٠﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ﴾ أيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ أي: يتبعونه في أوامره فيمتثلونها، وفي نواهيه فيتركونها، وفي أخبازه فيصدقونها ويعتقدونها، ولا يقدمون عليه ما خالفه من الأقوال، ويتلون أيضاً ألفاظه، بدراسته، ومعانيه، بتتبّعها واستخراجها.

ثم خص من التلاوة بعدما عم، الصلاة التي هي عماد الدين، ونور المسلمين، وميزان الإيمان، وعلامة صدق الإسلام، والنفقة على الأقارب والمساكين واليتامى وغيرهم، من الزكاة والكفارات والنذور والصدقات. ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ في جميع الأوقات.

﴿يَرْجُونَ﴾ [بذلك] تجارة لن تبور أي: لن تكسد وتفسد، بل تجارة، هي أجل التجارات وأعلاها وأفضلها، ألا وهي رضا ربهم، والفوز بجزيل ثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه، وهذا فيه أنهم يخلصون^(١) بأعمالهم، وأنهم لا يرجون بها من المقاصد السيئة والنيات الفاسدة شيئاً.

وذكر أنهم حصل لهم ما رجوه فقال: ﴿لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ﴾ أي: أجور أعمالهم، على حسب قلتها وكثرتها، وحسنها وعدمه، ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ زيادة عن أجورهم. ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ غفر لهم السيئات، وقبل منهم القليل من الحسنات.

﴿٣١ - ٣٥﴾ ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير ﴿جَنَّاتٌ عِدْنُ يَدْخُلُونَهَا يُجَلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ﴿الَّذِي أَحْلَلْنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ يذكر تعالى أن الكتاب الذي أوحاه إلى رسوله ﴿هو الحق﴾ من كثرة ما اشتمل عليه من الحق، كأن الحق منحصر فيه، فلا يمكن في قلوبكم حرج منه، ولا تبتغيوا منه، ولا تستهينوا به، فإذا كان هو الحق، لزم أن كل ما دل عليه من المسائل الإلهية والغيبية وغيرها، مطابق لما في الواقع، فلا يجوز أن يزاد به ما يخالف ظاهره وما دل عليه.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب والرسول، لأنها أخبرت به، فلما وجد وظهر، ظهر به صدقها، فهي بشرت به وأخبرت، وهو صدقها، ولهذا لا يمكن أحد أن يؤمن بالكتب السابقة، وهو كافر بالقرآن أبداً، لأن كفره به ينقض إيمانه بها، لأن من جملة أخبارها الخبر عن القرآن، ولأن أخبارها مطابقة لأخبار القرآن.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ فيعطي كل أمة وكل شخص، ما هو اللائق بحاله. ومن ذلك، أن الشرائع السابقة لا تليق إلا بوقتها وزمانها،

ولهذا، ما زال الله يرسل الرسل رسلاً بعد رسول، حتى ختمهم بمحمد ﷺ، فجاء بهذا الشرع، الذي يصلح لمصالح الخلق إلى يوم القيامة، ويتكفل بما هو أخير في كل وقت.

ولهذا، لما كانت هذه الأمة أكمل الأمم عقولاً، وأحسنهم أفكاراً، وأرقهم قلوباً، وأزكاهم أنفساً، اصطفاهم الله تعالى، واصطفى لهم دين الإسلام، وأورثهم الكتاب المهيمن على سائر الكتب، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم هذه الأمة. ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ بالمعاصي، [التي] هي دون الكفر. ﴿وَمِنْهُمْ مَّقْتَصِدٌ﴾ مقتصر على ما يجب عليه، تارك للمحرم. ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ أي: سارع فيها واجتهد، فسبق غيره، وهو المؤدي للفرائض، الكثير من النوافل، التارك للمحرم والمكروه.

فكلهم اصطفاه الله تعالى، لورثة هذا الكتاب، وإن تفاوتت مراتبهم، وتميزت أحوالهم، فلكل منهم قسط من وراثته، حتى الظالم لنفسه، فإن ما معه من أصل الإيمان، وعلوم الإيمان، وأعمال الإيمان، من وراثته الكتاب، لأن المراد بوراثته الكتاب، وراثته علمه وعمله، ودراسة ألفاظه، واستخراج معانيه.

وقوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ راجع إلى السابق بالخيرات، لئلا يفتخر بعمله، بل ما سبق إلى الخيرات إلا بتوفيق الله تعالى ومعونته، فينبغي له أن يشتغل بشكر الله تعالى على ما أنعم به عليه. ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أي: وراثته الكتاب الجليل لمن اصطفى تعالى من عباده، هو الفضل الكبير، الذي جميع النعم بالنسبة إليه، كالعدم، فأجل النعم على الإطلاق، وأكبر الفضل، وراثته هذا الكتاب.

ثم ذكر جزاء الذين أورثهم كتابه فقال: ﴿جَنَّاتٌ عِدْنُ يَدْخُلُونَهَا﴾ أي:

الدنيا، وأدركنا عليكم الأرزاق،
وقيضنا لكم أسباب الراحة، ومديننا^(١)
لكم في العمر، وتابعنا عليكم
الآيات، وأوصلنا إليكم النذر،
وابتليناكم بالسراء والضراء، لتنبؤا إلينا
وترجعوا إلينا، فلم ينجع فيكم إنذار،
ولم تفد فيكم موعظة، وأخرنا عنكم
العقوبة، حتى إذا انقضت آجالكم
وقمت أعماركم، ورحلتم عن دار
الإمكان بأشرف الحالات، ووصلتم إلى
هذه الدار دار الجزاء على الأعمال،
سألتم الرجعة؟ هيئات هيئات، فات
وقت الإمكان، وغضب عليكم
الرحيم الرحمن، واشتد عليكم عذاب
النار، ونسيكم أهل الجنة، فامكثوا فيها
خالدین خلدین، وفي العذاب مهانین،
ولهذا قال: ﴿فَذُوقُوا قِصَّةَ لِلْظَّالِمِينَ مِنْ
نَصِيرٍ﴾ ينصرونهم فيخرجهم منها، أو
يخفف عنهم من عذابها.

﴿٣٨﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ
الصُّدُورِ﴾ لما ذكر تعالى جزاء أهل
الدارين، وذكر أعمال الفريقين، أخبر
تعالى عن سعة علمه تعالى، وإطلاعه
على غيب السفوات والأرض، التي
غابت عن أبصار الخلق وعن علمهم،
وأنة عالم بالسرائر، وما تنطوي عليه
الصدور من الخير والشر والزكاء
وغیره، فيعطي كلا ما يستحقه، وينزل
كل أحد منزلته.

﴿٣٩﴾ ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ
فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا
يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مُقْتًا
وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾
يخبر تعالى عن كمال حكمته ورحمته
بعباده، أنه قدر بقضائه السابق، أن
يجعل بعضهم يخلف بعضاً في الأرض،
ويُرسل لكل أمة من الأمم النذر،
فينظر كيف يعملون، فمن كفر بالله
وبما جاءت به رسله، فإن كفره عليه،
وعليه إثم وعقوبته، ولا يحمل عنه
أحد، ولا يزداد الكافر بكفره إلا مقت
ربه له ويغضه إياه، وأي: عقوبة أعظم

فيها لغوب ﴿أي: لا تعب في الأبدان
ولا في القلب والقوى، ولا في كثرة
التمتع، وهذا يدل على أن الله تعالى
يجعل أبدانهم في نشأة كاملة، ويبقى
لهم من أسباب الراحة على الدوام، ما
يكونون بهذه الصفة، بحيث لا يمسه
نصب ولا لغوب، ولا هم
ولا حزن.

ويدل على أنهم لا ينامون في الجنة،
لأن النوم فائدته زوال التعب،
وحصول الراحة به، وأهل الجنة
بخلاف ذلك، ولأنه موت أصغر،
وأهل الجنة لا يمتوتون، جعلنا الله
منهم، بمنه وكرمه.

﴿٣٦ - ٣٧﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ
نَارُ جَهَنَّمَ لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا وَلَا
يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي
كُلَّ كَافٍ﴾ وهم يصطرخون فيها ربنا
أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا
نعمل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من
تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما
للظالمين من نصير ﴿لما ذكر تعالى حال
أهل الجنة ونعيمهم، ذكر حال أهل
النار وعذابهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾
أي: جحدوا ما جاءتهم به رسلهم من
الآيات، وأنكروا لقاء ربهم.

﴿لهم نار جهنم﴾ يعذبون فيها أشد
العذاب، وأبلغ العقاب. ﴿لا يقضى
عليهم﴾ بالموت ﴿فيموتوا﴾
فيستريحوا، ﴿ولا يخفف عنهم من
عذابها﴾ فشدّة العذاب وعظمه،
مستمر عليهم في جميع الآفات
واللحظات.

﴿كذلك نجزي كل كفور﴾ وهم
يصطرخون فيها ﴿أي: يصرخون
ويتصاحجون ويستغيثون ويقولون:
﴿ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي
كنا نعمل﴾ فاعترفوا بذنبهم، وعرفوا
أن الله عدل فيهم، ولكن سألوا
الرجعة في غير وقتها، فيقال لهم:
﴿أولم نعمركم ما﴾ أي: دهرأ وعمراً
﴿يتذكر فيه من تذكر﴾ أي: يتمكن فيه
من أراد التذكر من العمل، متعناكم في

جنات مشتملات على الأشجار،
والظل، والظليل، والحدائق الحسنة،
والأنهار المتدفقة، والقصور العالية،
والمنازل المزخرفة، في أبد لا يزول،
وعيش لا ينفد.

والعدن «الإقامة» فجنات عدن أي:
جنات إقامة، أضافها للإقامة، لأن
الإقامة والخلود وصفها ووصف
أهلها.

﴿يُحَلَّلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾
وهو الحلي الذي يجعل في اليدين، على
ما يحبون، ويرون أنه أحسن من غيره،
الرجال والنساء في الحلية في الجنة
سواء. ﴿وَيُحَلَّلُونَ فِيهَا لَوْلُؤًا﴾
ينظم في ثيابهم وأجسادهم.
﴿وليأسهم فيها حرير﴾ من سندس،
ومن إستبرق أخضر.

﴿وَيُحَلَّلُونَ فِيهَا لَوْلُؤًا﴾
﴿قالوا الحمد لله الذي أذهب عنا
الحزن﴾ وهذا يشمل كل حزن،
فلا حزن يعرض لهم بسبب نقص في
جمالهم، ولا في طعامهم وشرابهم،
ولا في لذاتهم ولا في أجسادهم،
ولا في دوام لبثهم، فهم في نعيم ما
يرون عليه مزيداً، وهو في تزايد أبد
الآباد.

﴿إِنَّ رَبَّنَا لِغَفُورٍ﴾ حيث غفر لنا
الزلات ﴿شكور﴾ حيث قبل منا
الحسنات وضاعفها، وأعطانا من فضله
ما لم تبلغه أعمالنا ولا أمانينا،
فبمغفرته نجوا من كل مكروه
ومرهوب، وبشكره وفضله حصل لهم
كل مزغوب محبوب.

﴿الذي أحلنا﴾ أي: أنزلنا نزول
حلل واستقرار، لا نزول معبر
واعتبار. ﴿دار المقامة﴾ أي: الدار التي
تدوم فيها الإقامة، والدار التي يرغب
في المقام فيها، لكثرة خيراتها، وتوالي
مسرراتها، وزوال كدوراتها، وذلك
الإحلال ﴿من فضله﴾ علينا وكرمه،
لا بأعمالنا، فلولوا فضله، لما وصلنا
إلى ما وصلنا إليه. . .
﴿لا يمسنها فيها نَصَبٌ وَلَا يَمْسَا

من مقت الرب الكريم؟!

﴿ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً﴾ أي: يخسرون أنفسهم وأهلهم وأعمالهم ومنازلهم في الآخرة، فالكافر لا يزال في زيادة من الشقاء والخسران، والحزني عند الله وعند خلقه الحرمان.

﴿٤٠﴾ قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً﴾ يقول تعالى مُعْجِزاً لآلهة المشركين، ومبيناً نقصها، وبطلان شركهم من جميع الوجوه.

﴿قل﴾ يا أيها الرسول لهم: ﴿أرأيتم﴾ أي: أخبروني عن شركائكم الذين تدعون من دون الله هل هم مستحقون للدعاء والعبادة، فـ ﴿أروني ماذا خلقوا﴾ من الأرض هل خلقوا بحراً أم خلقوا جبلاً أو خلقوا حيواناً، أو خلقوا جاداً؟ سيقرون أن الخالق لجميع الأشياء هو الله تعالى، أم لشركائكم شركة ﴿في السموات﴾ في خلقها وتبديلها؟ سيقولون: ليس لهم شركة.

إذا لم يخلقوا شيئاً، ولم يشاركوا الخالق في خلقه، فلم عبدتموهم ودعوتهم مع إقراركم بعجزهم؟ فانتفى الدليل العقلي على صحة عبادتهم، ودل على بطلانها.

ثم ذكر الدليل السمعي، وأنه أيضاً منتف، فلهذا قال: ﴿أم آتيناهم كتاباً﴾ يتكلم بما كانوا به يشركون، يأمرهم بالشرك وعبادة الأوثان. ﴿فهم﴾ في شركهم ﴿على بينة﴾ من ذلك الكتاب الذي نزل عليهم في صحة الشرك؟

ليس الأمر كذلك؟ فإنهم ما نزل عليهم كتاب قبل القرآن، ولا جاءهم نذير قبل رسول الله محمد ﷺ، ولو قدر نزول كتاب إليهم، وإرسال رسول إليهم، وزعموا أنه أمرهم بشركهم، فإننا نجزم بكذبهم، لأن الله قال: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا

نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ فالرسل والكتب، كلها متفقة على الأمر بإخلاص الدين لله تعالى، ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾.

فإن قيل: إذا كان الدليل العقلي والنقلي قد دلّ على بطلان الشرك، فما الذي حمل المشركين على الشرك، وفيهم ذوو العقول والذكاء والفطنة؟

أجاب تعالى بقوله: ﴿بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً﴾ أي: ذلك الذي مشوا عليه، ليس لهم فيه حجة، وإنما ذلك توصية بعضهم لبعض به، وتزيين بعضهم لبعض، واقتداء المتأخر بالتقدم الضال، وأمانى متأها الشيطان، وزين لهم [سوء] أعمالهم، فنشأت في قلوبهم، وصارت صفة من صفاتها، فعسر زوالها، وتعسر انفصالها، فحصل ما حصل من الإقامة على الكفر والشرك الباطل المضمحل.

﴿٤١﴾ إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته، وتام رحته، وسعة حلمه ومغفرته، وأنه تعالى يمسك السماوات والأرض عن الزوال، فإنهما لو زالتا أمسكهما أحد من الخلق، ولعجزت قدرهم وقواهم عنهما.

ولكنه تعالى، قضى أن يكونا كما وجدا، ليحصل للخلق القرار، والتفجع والاعتبار، وليعلموا من عظيم سلطانه وقوة قدرته، ما به تمتلئ قلوبهم له إجلالاً وتعظيماً، ومحبة وتكريماً، وليعلموا كمال حلمه ومغفرته، بامهال المذنبين، وعدم معاجلته للعاصين، مع أنه لو أمر السماء لحصبتهم، ولو أذن للأرض لابتلعتهم، ولكن وسعتهم مغفرته، وحلمه، وكرمه ﴿إنه كان حليماً غفوراً﴾.

﴿٤٢ - ٤٣﴾ ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكون أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما

زادهم إلا نفوراً﴾ استكباراً في الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله فهل ينظرون إلا ستة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ أي: وأقسم هؤلاء، الذين كذبوك يا رسول الله، قسماً اجتهدوا فيه بالآيمان الغليظة: ﴿لئن جاءهم نذير ليكون أهدى من إحدى الأمم﴾ أي: أهدى من اليهود والنصارى [أهل الكتب]، فلم يفوا بتلك الإقسامات والعهود.

﴿فلما جاءهم نذير﴾ لم يهتدوا، ولم يصيروا أهدى من إحدى الأمم، بل لم يدوموا على ضلالهم الذي كان، بل ﴿ما زادهم﴾ ذلك ﴿إلا نفوراً﴾ زيادة ضلال وبغي وعناد.

وليس إقسامهم المذكور، لقصد حسن، وطلب للحق، وإلا لوفقوا له، ولكنه صادر عن استكبار في الأرض على الخلق وعلى الحق، وبهرجة في كلامهم هذا، يريدون به المكر والخداع، وأنهم أهل الحق، الحريصون على طلبه، فيغتر به المغترون، ويمشي خلفهم المقتدون.

﴿ولا يحيق المكر السيئ﴾ الذي مقصوده مقصود سيئ، وماله وما يرمى إليه سيئ باطل ﴿إلا بأهله﴾ فمكرهم إنما يعود عليهم، وقد أبان الله لعباده في هذه المقالات وتلك الإقسامات، أنهم كذبة في ذلك مزورون، فاستبان خزيهم، وظهرت فضيحتهم، وتبين قصدهم السيئ، فعاد مكرهم في نجورهم، ورد الله كيدهم في صدورهم.

فلم يبق لهم إلا انتظار ما يجلب بهم من العذاب، الذي هو سنة الله في الأولين، التي لا تبدل ولا تغير، أن كل من سار في الظلم والعناد والاستكبار على العباد، أن يجلب به نقمته، وتسلب عنه نعمته، فلْيَتَرَفَّبْ هؤلاء، ما فعل بأولئك.

﴿٤٤ - ٤٥﴾ ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم و كانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا



بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون * وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرتهم لا يؤمنون * إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم * إنما نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين * هذا قسم من الله تعالى بالقرآن الحكيم، الذي وصفه الحكمة، وهي وضع كل شيء موضعه، وضع الأمر والنهي في الموضع ^(٢) اللائق بهما، ووضع الجزاء بالخير والشر في محلهاما اللائق بهما، فأحكامه الشرعية والجزائية كلها مشتملة على غاية الحكمة.

في الأرض إنه كان عليماً قديراً * ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً * يحض تعالى على السير في الأرض، في القلوب والأبدان، للاعتبار، لا لمجرد النظر والعفلة، وأن ينظروا إلى عاقبة الذين من قبلهم من كذبوا الرسل، وكانوا أكثر منهم أموالاً وأولاداً وأشد قوة، وعمرؤا الأرض ^(١) أكثر مما عمرها هؤلاء، فلما جاءهم العذاب، لم تنفعهم قوتهم، ولم تخن عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا، ونفذت فيهم قدرة الله ومشيئته.

ومن حكمة هذا القرآن، أنه يجمع بين ذكر الحكم وحكمته، فينبه العقول على المناصب والأوصاف المقتضية لترتيب الحكم عليها.

﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ هذا المقسم عليه، وهو رسالة محمد ﷺ، وإنك من جملة المرسلين، فلست ببدع من الرسل، وأيضاً فجئت بما جاء به الرسل من الأصول الدينية، وأيضاً فمن تأمل أحوال ^(٣) المرسلين وأوصافهم، وعرف الفرق بينهم وبين غيرهم، عرف أنك من خيار المرسلين، بما فيك من الصفات الكاملة، والأخلاق الفاضلة.

ولا يخفى ما بين المقسم به، وهو القرآن الحكيم، وبين المقسم عليه، [وهو] رسالة الرسول محمد ﷺ، من الاتصال، وأنه لو لم يكن لرسالته دليل ولا شاهد إلا هذا القرآن الحكيم، لكفى به دليلاً وشاهداً على رسالة محمد ﷺ، بل القرآن العظيم أقوى الأدلة المتصلة المستمرة على رسالة الرسول، فادلة القرآن كلها أدلة لرسالة محمد ﷺ.

ثم أخبر بأعظم أوصاف الرسول ﷺ، الدالة على رسالته، وهو أنه ﴿على صراط مستقيم﴾ معتدل، موصل إلى الله وإلى دار كرامته، وذلك

﴿وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض﴾ لكمال علمه وقدرته ﴿إنه كان عليماً قديراً﴾

ثم ذكر تعالى كمال حلمه، وشدة إمهاله وإنظاره أرباب الجرائم والذنوب، فقال: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا من الذنوب﴾ ما ترك على ظهرها من دابة أي: لاستوعبت العقوبة، حتى الحيوانات غير المكلفة.

﴿ولكن﴾ يمهلهم تعالى ولا يمهلهم و ﴿يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً﴾ فيجازيهم بحسب ما علمه منهم، من خير وشر.

ثم تفسير سورة فاطر، والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة يس وهي مكية

﴿١-١٢﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم يس * والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين * على صراط مستقيم * تنزيل العزيز الرحيم * لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون * لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون * إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون * وجعلنا من

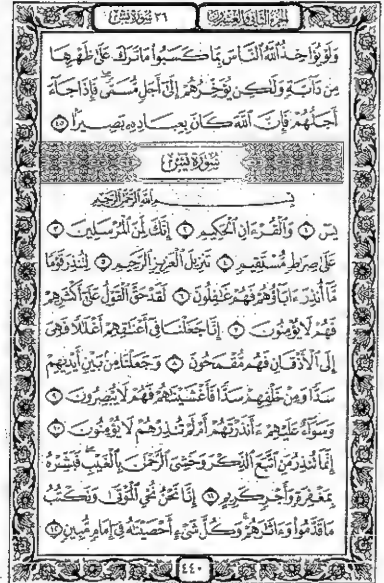
الصراط المستقيم، مشتمل على أعمال، وهي الأعمال الصالحة، المصلحة للقلب والبدن، والدنيا والآخرة، والأخلاق الفاضلة، المزكية للنفس، المطهرة للقلب، النامية للأجر، فهذا الصراط المستقيم، الذي هو وصف الرسول ﷺ، ووصف دينه الذي جاء به، فتأمل جلالة هذا القرآن الكريم، كيف جمع بين القسم بأشرف الأسماء، على أجل مقسم عليه، وخبر الله وحده كاف، ولكنه تعالى أقام من الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة في هذا الموضع على صحة ما أقسم عليه، من رسالة رسوله ما نهينا عليه، وأشرنا إشارة لطيفة لسلوك طريقه، وهذا الصراط المستقيم ﴿تنزيل العزيز الرحيم﴾ فهو الذي أنزل به كتابه، وأنزله طريقاً لعباده، موصلاً لهم إليه، فحمده بعزته عن التغيير والتبديل، ورحم به عباده رحمة اتصلت بهم، حتى أوصلتهم إلى دار رحمته، ولهذا ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين: العزيز الرحيم.

فلما أقسم تعالى على رسالته وأقام الأدلة عليها، ذكر شدة الحاجة إليها واقتضاء الضرورة لها فقال: ﴿لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون﴾ وهم العرب الأميون، الذين لم يزالوا خالين

(٣) كذا في ب، وفي أ: أصول.

(٢) في ب: في المحل.

(١) كذا في ب، وفي أ: وعمرؤا.



من الكتب، عادمين الرسل، قد عنتهم الجهالة، وعمرتهم الضلالة، وأضحكوا عليهم وعلى سفههم عقول العالمين، فأرسل الله إليهم رسولا من أنفسهم، يزيههم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، فينذر العرب الأميين، ومن لحق بهم من كل أمي، ويذكر أهل الكتب بما عندهم من الكتب، فنعمة الله به على العرب خصوصا، وعلى غيرهم عموما. ولكن هؤلاء الذين بعثت فيهم لإنذارهم بعدما أنذرتهم، انقسموا قسمين: قسم رد لما جئت به، ولم يقبل النذارة، وهم الذين قال الله فيهم «لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون» أي: نفذ فيهم القضاء والمشيئة، أنهم لا يزالون في كفرهم وشركهم، وإنما حق عليهم القول بعد أن عرض عليهم الحق فرفضوه، فحيث عوقبوا بالطبع على قلوبهم.

وذكر الموانع من وصول الإيمان لقلوبهم، فقال: «إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا» وهي جمع «غل» و «الغل»: ما يغل به العنق، فهو للعنق بمنزلة القيد للرجل، وهذه الأغلال التي في الأعناق^(١)، عزيمة قد وصلت إلى أذنانهم ورفعت

رؤوسهم إلى فوق، «فهم مقمحون» أي: رافعو رؤوسهم من شدة الغل الذي في أعناقهم، فلا يستطيعون أن يخفضوها.

«وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا» أي: حاجزا يحجزهم عن الإيمان، «فهم لا يبصرون» قد غمرهم الجهل والشقاء من جميع جوانبهم، فلم تفد فيهم النذارة. «وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون» وكيف يؤمن من طبع على قلبه، ورأى الحق باطلا والباطل حقاً! والقسم الثاني: الذين قبلوا النذارة، وقد ذكرهم بقوله: «إنما تنذر» أي:

إنما تنفع نذارتك، ويتعظ بتوصحك «من أتبع الذكر» [أي: من قصده اتباع الحق وما ذكر به، «وخشي الرحمن بالغيب» أي: من اتصف بهذين الأمرين، القصد الحسن في طلب الحق، وخشية الله تعالى، فهم الذين ينتفعون برسالتك، ويزكون بتعليمك، وهذا الذي وفق لهذين الأمرين «فيشره بمغفرة» لذنوبه، «وأجر كريم» لأعماله الصالحة، ونيته الحسنة.

«إنما نحن نحيي الموتى» أي: نبعثهم بعد موتهم لنجازهم على الأعمال، «ونكتب ما قدموا» من الخير والشر، وهو أعمالهم التي عملوها وياشروها في حال حياتهم، «وأنارهم» وهي آثار الخير وأثار الشر، التي كانوا هم السبب في إيجادها في حال حياتهم وبعد وفاتهم، وتلك الأعمال التي نشأت من أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، فكل خير عمل به أحد من الناس، بسبب علم العبد وتعليمه ونصحه، أو أمره بالمعروف، أو نهيه عن المنكر، أو علم أودعه عند المتعلمين، أو في كتب ينتفع بها في حياته وبعد موته، أو عمل خيراً، من صلاة أو زكاة أو صدقة أو إحسان، فاقبدي به غيره، أو عمل مسجداً، أو محلاً من المحال التي يرتفق بها الناس،

وما أشبه ذلك، فإنها من آثاره التي تكتب له، وكذلك عمل الشر.

ولهذا: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة».

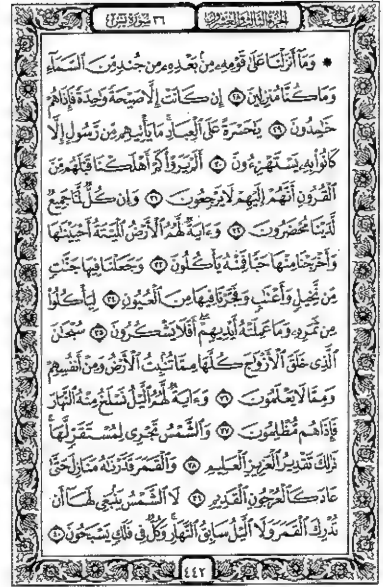
وهذا الموضع، يبين لك علو مرتبة الدعوة إلى الله والهداية إلى سبيله بكل وسيلة وطريق موصل إلى ذلك، ونزول درجة الداعي إلى الشر الإمام فيه، وأنه أسفل الخليفة، وأشدهم جرماً، وأعظمهم إثماً.

«وكل شيء» من الأعمال والنيات وغيرها «أحصيناه في إمام مبين» أي: كتاب هو أم الكتب وإليه مرجع الكتب، التي تكون بأيدي الملائكة، وهو اللوح المحفوظ.

«١٣ - ٣٠» «واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون» إلى آخر القصة. أي: واضرب لهؤلاء المكذبين برسالتك، الرادين لدعوتك، مثلاً يعتبرون به، ويكون لهم موعظة إن وفقوا للخير، وذلك المثل: أصحاب القرية، وما جرى منهم من التكذيب لرسل الله، وما جرى عليهم من عقوبته ونكاله.

وتعيين تلك القرية، لو كان فيه فائدة، لعينها الله، فالتعرض لذلك وما أشبهه من باب التكلف والتكلم بلا علم، ولهذا إذا تكلم أحد في مثل هذا تجد عنده من الخبط والخلط والاختلاف الذي لا يستقر له قرار، ما تعرف به أن طريق العلم الصحيح، الوقوف مع الحقائق، وترك التعرض لما لا فائدة فيه، وبذلك تزكو النفس، ويزيد العلم، من حيث يظن الجاهل أن زيادته بذكر الأقوال التي لا دليل عليها، ولا حجة عليها ولا يحصل منها من الفائدة إلا تشويش الذهن واعتياد الأمور المشكوك فيها.

والشاهد أن هذه القرية جعلها الله مثلاً للمخاطبين «إذ جاءها



بأنواع الثوبيات والمسرّات، أي: لو وصل علم ذلك إلى قلوبهم، لم يقيموا على شرّكهم.

قال الله في عقوبة قومه: [وما أنزلنا على قومه] من بعده من جند من السماء. أي: ما احتجنا أن نتكلف في عقوبتهم، فننزل جنداً من السماء لأنّلافهم، [وما كنّا منزلين] لعدم الحاجة إلى ذلك، وعظمة اقتدار الله تعالى، وشدة ضعف بني آدم، وأنهم أدنى شيء يصيبهم من عذاب الله يكفيهم. [إن كانت] أي: كانت عقوبتهم [إلا صيحة واحدة] أي: صوتاً واحداً، تكلم به بعض ملائكة الله، [فإذا هم خامدون] قد تقطعت قلوبهم في أجوافهم، وانزعجوا لتلك الصيحة، فأصبحوا خامدين، لا صوت ولا حركة، ولا حياة بعد ذلك العتو والاستكبار، ومقابلة أشرف الخلق بذلك الكلام القبيح، وتجبرهم عليهم.

قال الله متوجعاً للعباد: [يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن] أي: ما أعظم شقاءهم، وأطول عناءهم، وأشد جهلهم، حيث كانوا بهذه الصفة القبيحة، التي هي سبب لكل شقاء وعذاب ونكال!!

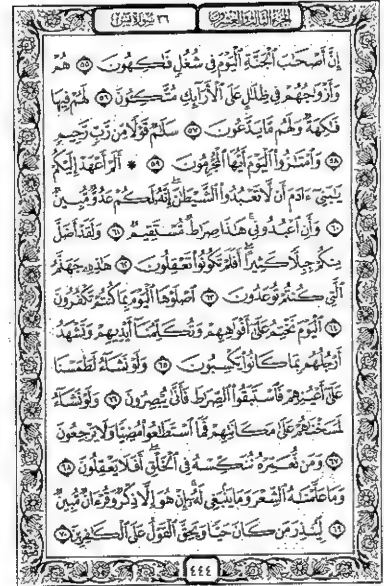
(١) كذا في ب، وفي أ: فأصابها.

﴿٣١-٣٢﴾ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون * وإن كل لما جميع لدينا محضرون. يقول تعالى: ألم ير هؤلاء ويعتبروا بمن قبلهم من القرون المكذبة، التي أهلكها الله تعالى وأوقع بها عقابها، وأن جميعهم قد باد وهلك، فلم يرجع إلى الدنيا، ولن يرجع إليها، وسيعيد الله الجميع خلقاً جديداً، ويبعثهم بعد موتهم، ويحضرون بين يديه تعالى، ليحكم بينهم بحكمه العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة، [وإن تك حسنة يضاعفها، ويؤت من لدنه أجراً عظيماً].

﴿٣٣-٣٦﴾ وآية لهم الأرض المينة أحييناهما وأخرجنا منها حياً فمنه ياكلون * وجعلنا فيها جنان من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون * ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون * سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون. أي: [آية لهم] على البعث والنشور، والقيام بين يدي الله تعالى للجزاء على الأعمال، هذه [الأرض المينة] أنزل الله عليها المطر، فأحيّاها^(١) بعد موتها، وأخرجنا منها حياً فمنه ياكلون. من جميع أصناف الزروع، ومن جميع أصناف النبات، التي تأكله أنعامهم، [وجعلنا فيها] أي: في تلك الأرض المينة [جنان] أي: بساتين، فيها أشجار كثيرة، وخصوصاً النخيل والأعناب، اللذان هما أشرف الأشجار، [وفجرنا فيها] أي: في الأرض [من العيون] جعلنا في الأرض تلك الأشجار، والنخيل والأعناب، [ليأكلوا من ثمره] قوتاً وفاكهة، وأدماً ولذة، [و] الحال أن تلك الثمار [ما عملته أيديهم] [وليس لهم فيه صنع، ولا عمل، إن هو إلا صنعة أحكم الحاكمين، وخير الرازقين، وأيضاً فلم تعمله أيديهم] بطبخ ولا غيره، بل

أوجد الله هذه الثمار، غير محتاجة لطبخ ولا شيء، تؤخذ من أشجارها، فتؤكل في الحال. [أفلا يشكرون] من ساق لهم هذه النعم، وأسبغ عليهم من جوده وإحسانه، ما به تصلح أمور دينهم ودنياهم، اليس الذي أحيا الأرض بعد موتها، فأثبت فيها الزروع والأشجار، وأودع فيها لذية الثمار، وأظهر ذلك الجنى من تلك الغصون، وفجر الأرض اليابسة الميتة بالعيون، بقادر على أن يحيي الموتى؟ بل، إنه على كل شيء قدير. [سبحان الذي خلق الأزواج كلها] أي: الأصناف كلها، [مما تنبت الأرض] فنوع فيها من الأصناف ما يعسر تعداده. [ومن أنفسهم] خلقهم وخلّقتهم، وأوصافهم الظاهرة والباطنة. [وما لا يعلمون] من المخلوقات التي قد خلقت وغابت عن علمنا، والتي لم تخلق بعد، فسبحانه وتعالى أن يكون له شريك، أو ظهير، أو عوين، أو وزير، أو صاحبة، أو ولد، أو سمّي، أو شبيه، أو مثيل في صفات كماله ونعوت جلاله، أو يعجزه شيء يريد.

﴿٣٧-٤٠﴾ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون. أي: [آية لهم] على نفوذ مشيئة الله، وكمال قدرته، وإحيائه الموتى بعد موتهم. [الليل نسلخ منه النهار] أي: نزيل الضياء العظيم الذي طبق الأرض، فببدله بالظلمة، ونحلها غلّه [فإذا هم مظلمون] وكذلك نزيل هذه الظلمة، التي عمتهم وشملتهم، فتطلع الشمس، فتضيء الأقطار، وينتشر الخلق لمعاشهم ومصالحهم، ولهذا قال: [والشمس تجري لمستقر



الغرق، و [لهذا] نهبهم على نعمته عليهم حيث ^(١) أنجاهم مع قدرته على ذلك، فقال: «وإن نشأ نفرقهم فلا صريخ لهم» أي: لا أحد يصرخ لهم فيعاونهم على الشدة، ولا يزيل عنهم المشقة، «ولا هم ينفذون» مما هم فيه، «إلا رحة منا ومناعاً إلى حين» حيث لم نفرقهم، لطفاً بهم، وعتيقاً لهم إلى حين، لعلهم يرجعون، أو يستدركون ما فرط منهم.

«وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم» أي: من أحوال البرزخ والقيامة، وما في الدنيا من العقوبات «لعلكم ترحمون» أعرضوا عن ذلك، فلم يرفعوا به رأساً، ولو جاءتهم كل آية، ولهذا قال: «وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين». وفي إضافة الآيات إلى ربهم، دليل على كمالها ووضوحها، لأنه ما أبين من آية من آيات الله، ولا أعظم بياناً.

وإن من جملة تربية الله لعباده، أن أوصل إليهم الآيات التي يستدلون بها على ما يتفهم في دينهم ودينامهم.

«وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله» أي: من الرزق الذي من به الله عليكم، ولو شاء لسلبكم إياه، «قال الذين كفروا للذين آمنوا»

معارضين للحق، محتجين بالمشيئة: «أنطعِم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم» أيها المؤمنون «إلا في ضلال مبين» حيث تأمرونا بذلك.

وهذا مما يدل على جهلهم العظيم، أو تجاهلهم الوخيم، فإن المشيئة ليست حجة لعاص أبداً، فإنه وإن كان ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فإنه تعالى مكن العباد، وأعطاهم من القوة ما يقدرون على فعل الأمر واجتناب النهي، فإذا تركوا ما أمروا به، كان ذلك اختياراً أمثهم، لا جبراً لهم وقهراً.

«ويقولون» على وجه التكذيب والاستعجال: «متى هذا الوعد إن كنتم صادقين» قال الله تعالى: لا يستبعدوا ذلك، فإنه [عن] قريب «ما ينظرون إلا صيحة واحدة» وهي نفخة الصور «تأخذهم» أي: تصيبهم «وهم يخصمون» أي: وهم لاهون عنها، لم تخطر على قلوبهم في حال خصومتهم، وتشاجرهم بينهم، الذي لا يوجد في الغالب إلا وقت الغفلة، وإذا أخذتهم وقت غفلتهم، فإنهم لا ينظرون ولا يمهلون «فلا يستطيعون توصية» أي: لا قليلة ولا كثيرة «ولا إلى أهلهم يرجعون»

«٥١ - ٥٤» «ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون» قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون * إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون * فالיום لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون. النفخة الأولى، هي نفخة الفزع والموت، وهذه نفخة البعث والنشور، فإذا نفخ في الصور، خرجوا من الأجداث والقبور، ينسلون إلى ربهم، أي: يسرعون للحضور بين يديه، لا يتمكنون من التأني والتأخر، وفي تلك الحال، يحزن المكذبون، ويظهرون الحسرة والندم، ويقولون:

«يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا» أي: من رقدتنا في القبور، لأنه وزد في بعض الأحاديث، أن لأهل القبور رقة قبيل النفخ في الصور، فيجابون، فيقال [لهم]: «هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون» أي: هذا الذي وعدكم الله به، ووعدتكم به الرسل، فظهر صدقهم رأي عين.

ولا تحسب أن ذكر الرحمن في هذا الموضع، لمجرد الخير عن وعده، وإنما ذلك للإخبار بأنه في ذلك اليوم العظيم، سيرون من رحمته ما لا يخطر على الظنون، ولا حسب به الحاسبون، كقوله: «الملك يومئذ الحق للرحمن» «وخشعت الأصوات للرحمن» ونحو ذلك، مما يذكر اسمه الرحمن في هذا.

«إن كانت» البعثة من القبور «إلا صيحة واحدة» ينفخ فيها إسرافيل في الصور، فتحيا الأجساد، «فإذا هم جميع لدينا محضرون» الأولون والآخرين، والإنس والجن، ليحاسبوا على أعمالهم.

«فاليوم لا تظلم نفس شيئاً» لا ينقص من حسناتها، ولا يزداد في سيئاتها، «ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون» من خير أو شر، فمن وجد خيراً فليحمد الله على ذلك، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

«٥٥ - ٥٨» «إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون» هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون * لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون * سلام قولاً من رب رحيم [لما ذكر تعالى] أن كل أحد لا يجازي إلا ما عمله، ذكر جزاء الفريقين، فبدأ بجزاء أهل الجنة، وأخبر أنهم في ذلك اليوم «في شغل فاكهون» أي: في شغل مفكه للنفس، مُلذ لها، من كل ما تنوّه النفوس، وتلذذ العيون، ويتمناه المتمنون.

ومن ذلك افتضاض العذارى الجميلات، كما قال: «هم وأزواجهم» من الجور العين، اللاتي قد

(١) كذا في ب، وفي أ: حين.

كانوا يكسبون ﴿أي﴾: تشهد عليهم أعضاؤهم بما عملوه، وينطقها الذي أنطق كل شيء.

﴿ولو نشاء لطمسنا على أعينهم﴾ بأن نذهب أبصارهم، كما طمسنا على نطقهم. ﴿فاستبقوا الصراط﴾ أي: فبادروا إليه، لأنه الطريق إلى الوصول إلى الجنة، ﴿فأني يبصرون﴾ وقد طمسنا أبصارهم.

﴿ولو نشاء لمسخناهم على مكائهم﴾ أي: لأذهبنا حركتهم ﴿فما استطاعوا مضياً﴾ إلى الأمام ﴿ولا يرجعون﴾ إلى ورائهم ليعبدوا عن النار. والمعنى: أن هؤلاء الكفار، حقت عليهم كلمة العذاب، ولم يكن بُدٌّ من عقابهم.

وفي ذلك الموطن، ما تمَّ إلا النار قد برزت، وليس لأحد نجاة إلا بالعبور على الصراط، وهذا لا يستطيعه إلا أهل الإيمان، الذين يمشون في نورهم، وأما هؤلاء، فليس لهم عند الله عهد في النجاة من النار؛ فإن شاء طمس أعينهم وأبقى حركتهم، فلم يهتدوا إلى الصراط لو استبقوا إليه وبادروه، وإن شاء أذهب حراكهم فلم يستطيعوا التقدم ولا التأخر. المقصود: أنهم لا يعبرونه، فلا تحصل لهم النجاة.

﴿٦٨﴾ ﴿ومن نعمه ننكسه في الخلق أفلا يعقلون﴾ يقول تعالى: ﴿ومن نعمه﴾ من بني آدم ﴿ننكسه في الخلق﴾ أي: يعود إلى الحالة التي ابتدأ حالة الضعف، ضعف العقل، وضعف القوة. ﴿أفلا يعقلون﴾ أن الأدمي ناقص من كل وجه، فيتداركوا قوتهم وعقولهم، فيستعملونها في طاعة ربهم.

﴿٦٩ - ٧٠﴾ ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾ لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين. ينزه تعالى نبيه محمداً ﷺ عما رماه به المشركون، من أنه شاعر، وأن الذي جاء به شعر فقال: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾ أن يكون شاعراً، أي: هذا من

المجرمون ﴿أي﴾: تميزوا عن المؤمنين، وكونوا على حدة، ليوبخهم ويقرعهم على رؤوس الأشهاد قبل أن يدخلهم النار، فيقول لهم: ﴿ألم أعهد إليكم﴾ أي: آمركم وأوصيكم، على السنة رسلي، [وأقول لكم]: ﴿يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان﴾ أي: لا تطيعوه؟ وهذا التوبيخ، يدخل فيه التوبيخ عن جميع أنواع الكفر والمعاصي، لأنها كلها طاعة للشيطان وعبادة له، ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ فحذرتكم منه غاية التحذير، وأنذرتكم عن طاعته، وأخبرتكم بما يدعوكم إليه، ﴿و﴾ أمرتكم ﴿أن اعبدوني﴾ بامثال أوامري وترك زواجري، ﴿هذا﴾ أي: عبادتي وطاعتي، ومعصية الشيطان ﴿صراط مستقيم﴾ فعلوم الصراط المستقيم وأعماله ترجع إلى هذين الأمرين، أي: فلم تحفظوا عهدي، ولم تعملوا بوصيتي، فواليتم عدوكم، ف﴿أضل منكم جبلاً كثيراً﴾ أي: خلقاً كثيراً. ﴿أفلم تكونوا تعقلون﴾ أي: فلا كان لكم عقل يأمركم بموااة ربكم ووليكم الحق، وينزجركم عن اتخاذ أعدى الأعداء لكم ولياً، فلو كان لكم عقل صحيح لما فعلتم ذلك، فإذا أطلعتم الشيطان، وعاديتهم الرحمن، وكذبتهم بلقائه، ووردتم القيامة دار الجزاء، وحق عليكم القول بالعذاب ف﴿هذه جهنم التي كنتم توعدون﴾ وتكذبون بها، فانظروا إليها عياناً، فهناك تنزعج منهم القلوب، وتزوغ الأبصار، ويحصل الفرع الأكبر.

ثم يكمل ذلك، بأن يؤمر بهم إلى النار، ويقال لهم: ﴿اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون﴾ أي: ادخلوها على وجه تصلاكم، ويحيط بكم حرها، ويبلغ منكم كل مبلغ، بسبب كفركم بآيات الله، وتكذيبكم لرسول الله.

قال الله تعالى في بيان وصفهم الفطيع في دار الشقاء: ﴿اليوم نخسف على أفواههم﴾ بأن نجعلهم خرساً فلا يتكلمون، فلا يقدرون على إنكار ما عملوه من الكفر والتكذيب. ﴿وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما

جمعن حسن الوجوه والأبدان وحسن الأخلاق. ﴿في ظلال على الأرائك﴾ أي: على السرر المزينة باللباس المزخرف الحسن. ﴿متكئون﴾ عليها، اتكاء على كمال الراحة والطمأنينة واللذة.

﴿لهم فيها فاكهة﴾ كثيرة، من جميع أنواع الثمار اللذيذة، من عنب وتين وزمان، وغيرها، ﴿ولهم ما يدعون﴾ أي: يطلبون، فمهما طلبوه وتمنوه أدركوه.

ولهم أيضاً ﴿سلام﴾ حاصل لهم من رب رحيم ﴿ففي هذا كلام الرب تعالى لأهل الجنة وسلامه عليهم، وأكده بقوله: ﴿قولا﴾ وإذا سلم عليهم الرب الرحيم، حصلت لهم السلامة التامة من جميع الوجوه، وحصلت لهم التحية، التي لا تحية أعلى منها، ولا نعيم مثليها، فما ظنك بتحية ملك الملوك، الرب العظيم، الرؤوف الرحيم، لأهل دار كرامته، الذي أحل عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم أبداً، فلولوا أن الله تعالى قدر أن لا يموتوا، أو تزول قلوبهم عن أماكنها من الفرح والبهجة والسرور، لحصل ذلك.

فترجوا ربنا أن لا يحرمنا ذلك النعيم، وأن يمتعنا بالنظر إلى وجهه الكريم.

﴿٥٩ - ٦٧﴾ ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴿وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم﴾ ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً ﴿أفلم تكونوا تعقلون﴾ هذه جهنم التي كنتم توعدون ﴿اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون﴾ اليوم نخسف على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴿ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأني يبصرون﴾ ولو نشاء لمسخناهم على مكائهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون ﴿لما ذكر تعالى جزاء المتقين، ذكر جزاء المجرمين ﴿و﴾ أنهم يقال لهم يوم القيامة ﴿امتازوا اليوم أيها

جنس المحال أن يكون شاعراً، لأنه
رشيد مهتد، والشعراء غاؤون، يتبعهم
الغاؤون، ولأن الله تعالى جسم جميع
الشبه التي يتعلّق بها الضالّون على
رسوله، فحسم أن يكون يكتب أو
يقرأ، وأخبر أنه ما علمه الشعر وما
ينبغي له، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ
مُبِينٌ﴾ أي: ما هذا الذي جاء به إلا
ذكر يتذكر به. وأولو الألباب، جميع
المطالب الدينية، فهو مشتمل عليها أتم
اشتimal، وهو يذكّر العقول، ما
ركّز الله في فطرها من الأمر بكل
حسن، والنهي عن كل فحش.

﴿وَقُرْآنَ مِيقَةٍ﴾ أي: مِيقَاتٍ لِمَا يُطَلَّبُ
بَيَانُهُ. وَلِهَذَا حَذَفَ الْعَمَلُ، لِيَدُلَّ عَلَى
أَنَّهُ مِيقَاتٌ لَجَمِيعِ الْحَقِّ، بِأَدَلَّتِهِ التَّفْصِيلِيَّةِ
وَالْإِجْمَالِيَّةِ، وَالْبَاطِلُ وَأَدَلَّةُ بَطْلَانِهِ،
أَنزَلَهُ اللَّهُ كَذَلِكَ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ.

﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي: حَيِّ
الْقَلْبِ وَاعِيهِ، فَهُوَ الَّذِي يَزْكُرُ عَلَى هَذَا
الْقُرْآنِ، وَهُوَ الَّذِي يَزِيدُ مِنَ الْعِلْمِ مِنْهُ
وَالْعَمَلِ، وَيَكُونُ الْقُرْآنُ لِقَلْبِهِ بِمَنْزِلَةِ
الْمَطَرِ لِلأَرْضِ الطَّيِّبَةِ الزَّاكِيَةِ. ﴿وَيُحْيِي
الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ لِأَنَّهُمْ قَامَتْ
عَلَيْهِمْ بِهِ خِجَّةُ اللَّهِ، وَانْقَطَعَ
اِحْتِجَاجُهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ أَدْنَى عِذْرٍ
وَشِبْهَةٍ يُدْعَوْنَ بِهَا.

﴿٧١-٧٣﴾ ﴿أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون﴾ * وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون * ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون﴾ * يأمر تعالى العباد بالنظر إلى ما سخر لهم من الأنعام وذللها، وجعلهم مالكين لها، مطاوعة لهم في كل أمر يريدونه منها، وأنه جعل لهم فيها منافع كثيرة من حملهم وحمل أثقالهم، وحمائلهم وأمتعتهم من محل إلى محل، ومن أكلهم منها، وفيها دفاء، ومن أوبئارها وأشعارها وأصوافها أثاثاً ومتاعاً إلى حين، وفيها زينة وجمال، وغير ذلك من المنافع المشاهدة منها، ﴿أفلا

(١) كذا في ب، وفي أ: الذي.

أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴿ هَذِهِ آيَاتُ الْكُرْمِ، فِيهَا إِذْكَرَ أَشْجَةَ مِنْكَرِي الْبَيْعِ، وَالْجَوَابَ عَنْهَا بِأَتَمِّ جَوَابٍ وَأَحْسَنِهِ وَأَوْضَحِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ ﴾ المَذْكَرَ لِلْبَيْعِ وَالشَّاكِّ فِيهِ، أَمْرًا يَفِيدُهُ الْيَقِينَ التَّامَّ بِوُقُوعِهِ، وَهُوَ ابْتِدَاءُ خَلْقِهِ ﴿ مِنْ نَظْفَةٍ ﴾ ثُمَّ نَقْلَهُ فِي الْأَطْوَارِ شَيْئًا فَشَيْئًا، حَتَّى كَبُرَ وَشَبَّ، وَتَمَّ عَقْلُهُ وَاسْتَبَّ، ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ بَعْدَ أَنْ كَانَ ابْتِدَاءَ خَلْقِهِ مِنْ نَظْفَةٍ، فَلْيَنْظُرِ التَّفَاوُتَ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ، وَلْيَعْلَمْ أَنَّ الَّذِي أَنْشَأَهُ مِنَ الْعَدَمِ، قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَعِيدَهُ بَعْدَمَا تَفَرَّقَ وَتَغَرَّقَ، مِنْ بَابِ أَوَّلَى.

«وضرب لنا مثلاً» لا ينبغي لأحد أن يضربه، وهو قياس قدرة الخالق بقدرة المخلوق، وأن الأمر المستبعد على قدرة المخلوق مستبعد على قدرة الخالق.

فسر هذا المثل [بقوله]: ﴿قَالَ﴾
ذلك الإنسان ﴿مَنْ يَحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ أي: هل أحد يحييها؟ استهزام
إنكار، أي: لا أحد يحييها بعدما بليت
وتلاشت.

هذا وجه الشبهة والمثل، وهو أن هذا أمر في غاية البعد على ما يعهد من قدرة البشر، وهذا القول الذي صدر من هذا الإنسان غفلة منه، ونسيان لابتداء خلقه، فلوقطن خلقه بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً فوجد عياناً، لم يضرب هذا المثل.

فأجاب تعالى عن هذا الاستبعاد بحجاب شاف كاف، فقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهذا بمجرد تصويره، يعلم به علماء يقيناً لا شبهة فيه، أن الذي أنشأها أول مرة

يشكروا لله تعالى الذي أنعم بهذه النعم، ويخلصون له العبادة ولا يمتنعون بها تمتعاً خالياً من العبرة والفكرة.

﴿٧٤-٧٥﴾ واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون * لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون ﴿٧٤﴾ هذا بيان لبطلان آلهة المشركين، التي ^(١) اتخذوها مع الله تعالى، ورجوا نصرها وشفعها، فإنها في غاية العجز ﴿٧٥﴾ لا يستطيعون نصرهم ﴿٧٤﴾ ولا أنفسهم ينصرون، فإذا كانوا لا يستطيعون نصرهم، فكيف ينصرونهم؟ والنصر له شرطان: الاستطاعة [والقدرة] ^(٢)، فإذا استطاع، يبقى: هل يريد نصره من عبده أم لا؟ فتنفي الاستطاعة، ينفي الأمرين كليهما.

﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحَضَّرُونَ﴾ أي: محضرون هم وهم في العذاب، ومتبرئ بعضهم من بعض، أفلا تبتروا في الدنيا من عبادة هؤلاء، وأخلصوا العبادة للذي بيده الملك والنفع والضر، والعطاء والمنع، وهو الولي النصير؟

﴿٧٦﴾ ﴿فَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يَسْمُرُونَ وَمَا يَحْشُرُونَ﴾ أي: فلا يحزنك قولهم يا أيها الرسول، قول المكذبين، والمراد بالقول: ما دل عليه السياق، كل قول يقدحون فيه في الرسول، أو فيما جاء به.

أي: فلا تشغل قلبك بالحزن عليهم ﴿إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ فتجازيهم على حسب علمنا بهم، وإلا فقولهم لا يضرك شيئاً.

﴿٧٧ - ٨٣﴾ ﴿أولم ير الإنسان أنا
خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين *
وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من
يعمى العظام وهي رميم * قل يحييها
الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق
عليم * الذي جعل لكم من الشجر
الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون *

(٢) زيادة من هامش ب، ويبدو - والله أعلم - أن الشرطين هما: الاستطاعة والإرادة، وبقيّة كلام الشيخ - رحمه الله - يدل على ذلك.

دار البرار، يقال: ﴿وقفوه﴾ قبل أن تصلوهم إلى جهنم ﴿إنهم مسؤولون﴾ عما كانوا يفترونه في الدنيا، ليظهر على رؤوس الأشهاد كذبهم وفضيحتهم.

فيقال لهم: ﴿مالك لا تناصرون﴾ أي: ما الذي جرى عليكم اليوم؟ وما الذي طرفكم لا ينصر بعضكم بعضاً، ولا يغيث بعضكم بعضاً، بعدما كنتم تزعمون في الدنيا، أن آلهتكم ستدفع عنكم العذاب وتغيثكم وتشفع لكم عند الله، فكأنهم لا يجيبون هذا السؤال، لأنهم قد علاهم الذل والصغار، واستسلموا للعذاب النار، وخشعوا وخضعوا وأبلسوا، فلم ينطقوا.

ولهذا قال: ﴿بل هم اليوم مستسلمون﴾.

﴿٢٧ - ٣٩﴾ ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتسائلون﴾ قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ﴿قالوا بل لم تكونوا مؤمنين﴾ وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين ﴿فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون﴾ فأغويناكم إنا كنا غاوين ﴿فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون﴾ إنا كذلك نفعل بالمجرمين ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله فدعوا إليها، وأمروا بترك إلهية ما سواه يستكبرون﴾ عنها وعلى من جاء بها. ﴿ويقولون﴾ معارضة لها: ﴿إنا لتاركوا آلِهتنا﴾ التي لم نزل نعبدنا نحن وآبائنا ﴿ل﴾ قول ﴿شاعر مجنون﴾ يعنون حمداً ﷺ. فلم يكفهم قبحهم الله - الإعراض عنه، ولا مجرد تكذيبه، حتى حكموا عليه بأظلم الأحكام، وجعلوه شاعراً مجنوناً، وهم يعلمون أنه لا يعرف الشعر والشعراء، ولا وصفه وصفهم، وأنه أعقل خلق الله، وأعظمهم رأياً.

ولهذا قال تعالى، ناقضاً لقولهم: ﴿بل جاء﴾ محمد ﴿بالحق﴾ أي: بحقيقة، وما جاء به من الشرع والكتاب حق. ﴿وصدق المرسلين﴾ أي: وبحيثه صدق المرسلين [فلولا بحيته وإرساله لم يكن الرسل صادقين، فهو آية ومعجزة لكل رسول قبله، لأنهم أخبروا به وبشروا، وأخذ الله عليهم العهد والميثاق، لئن جاءهم ليؤمنن به

﴿والحال أنه﴾ ما كان لنا عليكم من سلطان أي: قهر لكم على اختيار الكفر ﴿بل كنتم قوماً طاغين﴾ متجاوزين للحد (١).

﴿فحق علينا﴾ نحن وإياكم ﴿إنا لذائقون﴾ العذاب، أي: حق علينا قدر ربنا وقضاؤه، أنا وإياكم سندوق العذاب، ونشترك في العقاب ﴿ف﴾ لذلك ﴿أغويناكم إنا كنا غاوين﴾ أي: دعوناكم إلى طريقتنا التي نحن عليها، وهي الغواية، فاستجبتم لنا، فلا تلومونا ولوموا أنفسكم.

قال تعالى: ﴿فإنهم يومئذ﴾ يوم القيامة ﴿في العذاب مشتركون﴾ وإن تفاوتت مقادير عذابهم بحسب جرمهم، كما اشتركوا في الدنيا على الكفر، اشتركوا في الآخرة بجزائهم، ولهذا قال: ﴿إنا كذلك نفعل بالمجرمين﴾ ثم ذكر أن إجرامهم قد بلغ الغاية وجاوز النهاية، فقال: ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله فدعوا إليها، وأمروا بترك إلهية ما سواه يستكبرون﴾ عنها وعلى من جاء بها.

﴿ويقولون﴾ معارضة لها: ﴿إنا لتاركوا آلِهتنا﴾ التي لم نزل نعبدنا نحن وآبائنا ﴿ل﴾ قول ﴿شاعر مجنون﴾ يعنون حمداً ﷺ. فلم يكفهم قبحهم الله - الإعراض عنه، ولا مجرد تكذيبه، حتى حكموا عليه بأظلم الأحكام، وجعلوه شاعراً مجنوناً، وهم يعلمون أنه لا يعرف الشعر والشعراء، ولا وصفه وصفهم، وأنه أعقل خلق الله، وأعظمهم رأياً.

ولهذا قال تعالى، ناقضاً لقولهم: ﴿بل جاء﴾ محمد ﴿بالحق﴾ أي: بحقيقة، وما جاء به من الشرع والكتاب حق. ﴿وصدق المرسلين﴾ أي: وبحيثه صدق المرسلين [فلولا بحيته وإرساله لم يكن الرسل صادقين، فهو آية ومعجزة لكل رسول قبله، لأنهم أخبروا به وبشروا، وأخذ الله عليهم العهد والميثاق، لئن جاءهم ليؤمنن به

ما كنتم تصرون ﴿بل هم اليوم مستسلمون﴾ وأقبل بعضهم على بعض يتسائلون ﴿قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين﴾ قالوا بل لم تكونوا مؤمنين ﴿وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين﴾ فحق علينا ﴿فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون﴾ إنا كذلك نفعل بالمجرمين ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله فدعوا إليها، وأمروا بترك إلهية ما سواه يستكبرون﴾ عنها وعلى من جاء بها. ﴿ويقولون﴾ معارضة لها: ﴿إنا لتاركوا آلِهتنا﴾ التي لم نزل نعبدنا نحن وآبائنا ﴿ل﴾ قول ﴿شاعر مجنون﴾ يعنون حمداً ﷺ. فلم يكفهم قبحهم الله - الإعراض عنه، ولا مجرد تكذيبه، حتى حكموا عليه بأظلم الأحكام، وجعلوه شاعراً مجنوناً، وهم يعلمون أنه لا يعرف الشعر والشعراء، ولا وصفه وصفهم، وأنه أعقل خلق الله، وأعظمهم رأياً.

ولينصرنه، وأخذوا ذلك على أعينهم، فلما جاء ظهر صدق الرسل الذين قبله، وتبين كذب من خالفهم، فلو قدر عدم بحيته، وهم قد أخبروا به، لكان ذلك قادحاً في صدقهم. وصدق أيضاً المرسلين، بأن جاء بما جاؤوا به، ودعا إلى ما دعوا إليه، وآمن بهم، وأخبر بصحة رسالتهم ونبوتهم وشرعهم.

ولما كان قولهم السابق: ﴿إنا لذائقون﴾ قولاً صادراً منهم، يحتمل أن يكون صدقاً أو غيره، أخبر تعالى بالقول الفصل الذي لا يحتمل غير الصدق واليقين، وهو الخبر الصادر منه تعالى، فقال: ﴿إنكم لذائقوا العذاب الأليم﴾ أي: المؤلم الموجه، ﴿وما تجزون﴾ في إذاقة العذاب الأليم ﴿إلا ما كنتم تعملون﴾ فلم نظلمكم، وإنما عدلنا فيكم؟

ولما كان هذا الخطاب لفظه عاماً، والمراد به المشركون، استثنى تعالى المؤمنين فقال:

﴿٤٠ - ٤٩﴾ ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ أولئك لهم رزق معلوم ﴿فواكه وهم مكرمون﴾ في جنات النعيم ﴿على سرر متقابلين﴾ يطاف عليهم بكأس من معين ﴿بيضاء لذة للشاربين﴾ لا فيها غول ولا هم عنها

(١) كذا في ب، وفي أ: للحق.



ينزفون * وعندهم قاصرات الطرف
عين * كأنهن بيض مكنون .

يقول تعالى : «إلا عباد الله
المخلصين» فإنهم غير ذائقي العذاب
الآليم، لأنهم أخلصوا الله الأعمال،
فأخلصهم، واختصهم برحمته، وجاد
عليهم بلطفه، «أولئك لهم رزق
معلوم» أي : غير مجهول، وإنما هو
رزق عظيم جليل، لا يجهل أمره،
ولا يبلغ كنهه، فسرّه بقوله :
«فواكه» من جميع أنواع الفواكه التي
تتفكه بها النفس، للذتها في لونها
وطعمها . «وهم مكرمون» لا مهانون
محتقرون، بل معظمون مجلون
موقرون، قد أكرم بعضهم بعضاً،
وأكرمتهم الملائكة الكرام، وصاروا
يدخلون عليهم من كل باب،
ويشئونهم ببلوغ أهنا الثواب، وأكرمهم
أكرم الأكرمين، وجاد عليهم بأنواع
الكرامات، من نعيم القلوب والأرواح
والأبدان، «ففي جنات النعيم» أي :
الجنات التي النعيم وصفها، والسرور
نعتها، وذلك لما جمعتها، مما لا عين
رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر
على قلب بشر، وسلمت من كل خلل
بنعيمها، من جميع المكدرات
والمغصات .

ومن كرامتهم عند ربهم، وإكرام
بعضهم بعضاً، أنهم على «سرور» وهي
المجالس المرتفعة، المزينة بأنواع الأكسية

الفاخرة، المزخرفة المجملية، فهم
متكثرون عليها على وجه الراحة
والطمأنينة والفرح . «متقابلين» فيما
بينهم، قد صفت قلوبهم ومحبتهم فيما
بينهم، ونعموا باجتماع بعضهم مع
بعض، فإن مقابلة وجوههم، تدل على
تقابل قلوبهم، وتآدب بعضهم مع
بعض، فلم يستدبره أو يجعله إلى
جانبه، بل من كمال السرور والأدب
ما دل عليه ذلك التقابل .

«يطاف عليهم بكاس من معين»
أي : يتردد الولدان المستعدون لخدمتهم
بالأشربة اللذيذة، بالكاسات الجميلة
المنظر، المترعة من الرحيق المخترم
بالمسك، وهي كاسات الخمر .

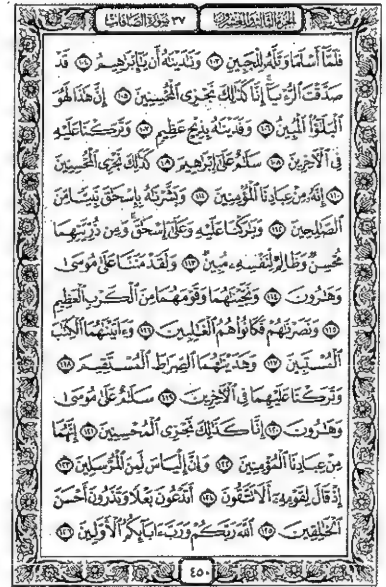
وتلك الخمر، تخالف خمر الدنيا من
كل وجه، فإنها في لونها «بيضاء» من
أحسن الألوان، وفي طعمها «لذة»
للشاربين، يتلذذ شاربها بها وقت
شربها وبعده، وأنها سالمة من غول
العقل وذهايه ونزفه وتنزف مال
صاحبها، وليس فيها صداغ ولا كدر،
فلما ذكر طعامهم وشرابهم ومجالسهم،
وعموم النعيم وتفاضيله داخلة في
قوله : «جنات النعيم» .

لكن فصل هذه الأشياء لتعلم
فتشاق النفوس إليها، ذكر أزواجهم
فقال : «وعندهم قاصرات الطرف
عين» أي : وعند أهل دار النعيم، في
محلاتهم القرية، حور حسان، كاملات
الأوصاف، قاصرات الطرف، إما أنها
قصرت طرفها على زوجها، لعفتها
وعدم مجاوزته لغيره، ولجمال زوجها
وكمالها، بحيث لا تطلب في الجنة
سواه، ولا ترغب إلا به، وإما لأنها
قصرت طرف زوجها عليها، وذلك
يدل على كمالها وجمالها الفائق، الذي
أوجب لزوجها أن يقصر طرفه عليها،
وقصر الطرف أيضاً، يدل على قصر
النفوس والمحبة عليها، وكلا المعنيين
محتمل، وكلاهما صحيح، و [كل]
هذا يدل على جمال الرجال والنساء في
الجنة، ومحبة بعضهم بعضاً، محبة
لا يطمح إلى غيره، وشدة غفتهم
كلهم، وأنه لا حسد فيها ولا تباعد

ولا تشاحن، وذلك لانتفاء أسبابه .
«عين» أي : حسن الأعين
جميلاً، ملاح الحديق، «كأنهن»
أي : الحور «بيض مكنون» أي :
مستور، وذلك من حسنهن وصفتهن
وكون ألوانهن أحسن الألوان وأبهاها،
ليس فيه كدر ولا شين .

«٥٠ - ٦١» «فأقبل بعضهم على
بعض يتساءلون» قال قائل منهم إني
كان لي قريين * يقول إليك لمن
المصدقين * إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً
أنا لمدنيون * قال هل أنتم مطلعون *
فاطلع فراه في سواء الجحيم * قال
تالله إن كدت لتردين * ولولا نعمة ربي
لكنت من المحضرين * أما نحن
بميتين * إلا موتنا الأولى وما نحن
بمعدنين * إن هذا لهو الفوز
العظيم * لئلا هذا فليعمل العاملون *
لما ذكر تعالى نعيمهم وتمام سرورهم،
بالمأكل والمشرب، والأزواج الحسان،
والمجالس الحسنة، ذكر تذاكرهم فيما
بينهم، ومطارحتهم للأحاديث عن
الأمور الماضية، وأنهم ما زالوا في
المحادثة والتساؤل، حتى أفضى ذلك
بهم، إلى أن قال قائل منهم : «إني كان
لي قريين» في الدنيا ينكر البعث،
ويلومني على تصديقي به، و «يقول»
لي «أأنك لمن المصدقين» إذا متنا وكنا
تراباً وعظاماً أنا لمدنيون» أي : مجازون
بأعمالنا؟ أي : كيف تصدق بهذا الأمر
البعيد، الذي في غاية الاستغراب،
وهو أننا إذا تمزقنا فصرنا تراباً وعظاماً،
أننا نبعث ونعاد، ثم نحاسب ونجازى
بأعمالنا؟!!

أي : يقول صاحب الجنة لإخوانه :
هذه قصتي، وهذا خبري، أنا
وقريتي، ما زلت أنا مؤمناً مصدقاً،
وهو ما زال مكذباً منكراً للبعث، حتى
متنا، ثم بعثنا، فوصلت أنا إلى ما ترون
من النعيم الذي أخبرتنا به الرسل،
وهو لا شك أنه قد وصل إلى العذاب .
ف «هل أنتم مطلعون» لنظر إليه،
فنزداد غبطة وسروراً بما نحن فيه،
ويكون ذلك رأي عين؟ والظاهر من
حال أهل الجنة، وسرور بعضهم



وقال: ﴿رَبِّ انصُرني على القوم
المفسدين﴾ فاستجاب الله له، ومدح
تعالى نفسه فقال: ﴿فَلْيَنْفَعِ الْمُجِبُونَ﴾
للدعاء الداعين، وسماع تبتلهم
وتضرعهم، أجابه إجابة طابق ما
سأل، نجاه وأهله من الكرب العظيم،
وأغرق جميع الكافرين، وأبقى نسله
وذريته متسلسلين، فجميع الناس من
ذرية نوح عليه السلام، وجعل له ثناء
حسناً مستمراً إلى وقت الآخرين،
وذلك لأنه محسن في عبادة الخالق،
محسن إلى الخلق، وهذه سنته تعالى في
المحسنين، أن ينشر لهم من الثناء على
حسب إحسانهم.

ودلّ قوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا
الْمُؤْمِنِينَ﴾ أن الإيمان أرفع منازل
العباد، وأنه مشتمل على جميع شرائع
الدين وأصوله وفروعه، لأن الله مدح
به خواص خلقه.

﴿٨٣-١١٣﴾ ﴿وَأَنْ مِنْ شِيعَتِهِ
لِإِبْرَاهِيمَ﴾ إلى آخر القصة، أي: وإن
من شيعه نوح عليه السلام، ومن هو
على طريقتة في النبوة والرسالة، ودعوة
الخلق إلى الله، وإجابة الدعاء، إبراهيم
الخليل عليه السلام. ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ
بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من الشرك والشبهة،
والشهوات المانعة من تصور الحق
والعمل به، وإذا كان قلب العبد
سليماً، سلم من كل شر، وحصل له
كل خير، ومن سلامته، أنه سليم من
غش الخلق وحسدهم، وغير ذلك من
مساوئ الأخلاق، ولهذا نصح الخلق
في الله، وبدأ بأبيه وقومه، فقال: ﴿إِذْ
قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ هذا
استفهام بمعنى (٢) الإنكار، والزام لهم
بالحجة.

﴿أَفَكُلَّ آلِهَةٍ دُونَ اللَّهِ تَرِيدُونَ﴾ أي:
أتعبدون [من دونه] آلهة كذباً، ليست
بالهة، ولا تصلح للعبادة، فما ظنكم
برب العالمين أن يفعل بكم وقد عبدتم
معه غيره؟ وهذا ترهيب لهم بالجزاء
بالعقاب على الإقامة على شركهم.
وما الذي ظننتم رب العالمين، من

يندرونهم عن غيرهم وضلالهم،
﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكِبِينَ﴾
كانت عاقبتهم الهلاك والخزي
والفضيحة، فليحذر هؤلاء أن يستمروا
على ضلالهم، فيصيبهم مثل ما
أصابهم.

ولما كان المنذرون ليسوا (١) كلهم
ضالين، بل منهم من آمن وأنخلص
الذين لله، استثناه الله من الهلاك
فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلُصِينَ﴾ أي:
الذين أخلصهم الله، وخصهم برحمته
لإخلاصهم، فإن عواقبهم صارت
حميدة.

ثم ذكر أنموذجاً من عواقب الأمم
المكذبة، فقال:

﴿٧٥-٨٢﴾ ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ
فَلْنَعْمِ الْمُجِيبُونَ﴾ ونجينا وأهله من
الكرب العظيم ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ
الْبَاقِينَ﴾ وتركنا عليه في الآخرين ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ إنا كذلك
نجزي المحسنين ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا
الْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم أغرقنا الآخرين ﴿يَخْبِرُ
تَعَالَى عَنْ عِبْدِهِ رَسُولَهُ﴾ نوح عليه
السلام أول الرسل، أنه لما دعا قومه
إلى الله تلك المدة الطويلة، فلم يزددهم
دعاؤه إلا فراراً، أنه نادى ربه فقال:
﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ
ذِيَاراً﴾ الآية.

النقص حتى جعلتم له أنداداً وشركاء.
فأراد عليه السلام أن يكسر
أصنامهم ويتمكن من ذلك، فانهز
الفرصة في حين غفلة منهم لما ذهبوا إلى
عيد من أعيادهم، فخرج معهم ﴿فَنَظَرَ
نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ فقال إني سقيم. في
الحديث الصحيح: ﴿لَمْ يَكْذِبْ
إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ:
قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ
كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وقوله عن زوجته ﴿إِنهَا
أَخْتِي﴾، والقصد أنه تخلف عنهم، ليتم
له الكيد بالكهنة ﴿ذَلِكَ لِهَذَا﴾ ﴿تَوَلَّوْا عَنْهُ
مُدْبِرِينَ﴾ فلما وجد الفرصة، ﴿فَوَاحٍ
إِلَى آلِهِمْ﴾ أي: أسرع إليها على وجه
الخفية والمراغة، ﴿فَقَالَ﴾ ﴿مُهَكِّمًا بِهَا
الْأَتَاكُلُونَ﴾ ما لكم لا تنطقون
أي: فكيف يليق أن تعبد، وهي أنقص
من الحيوانات التي تأكل أو تكلم؟ فهذه
جماد لا تأكل ولا تكلم. ﴿فَوَاحٍ عَلَيْهِمْ
ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ أي: جعل يضربها
بقوته ونشاطه، حتى جعلها جذاً، إلا
كبيراً لهم، لعلهم إليه يرجعون،
﴿فَاقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ﴾ أي: يسرعون
ويهرعون، أي: يريدون أن يوقعوا به،
بعدما بحشوا وقالوا: ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا
بَالِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾. وقيل لهم: ﴿سَمِعْنَا قَتْلَ يَذْكُرُهُمْ
يَقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ يقول: ﴿تَاللَّهِ لَا أَكِيدُنَّ
أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾
فوبخوه ولا موه، فقال: ﴿بَلْ فَعَلَهُ
كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا
يَنْطِقُونَ﴾ فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا
إنكم أنتم الظالمون ﴿ثُمَّ نَكَّسُوا عَلَى
رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ
يَنْطِقُونَ﴾ قال أتعبدون من دون الله
ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم
الآية. و ﴿قَالَ﴾ ﴿هَئِنَا﴾ ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا
تَحْتُونَ﴾ أي: تحتوته بأيديكم
وتصنعونه؟ فكيف تعبدونهم، وأنتم
الذين صنعتهم، وتركون
الإخلاص لله؟ الذي ﴿خَلَقَكُمْ وَمَا
تَعْمَلُونَ﴾ قالوا ابتوا له بنياناً أي:
عالياً مرتفعاً، وأوقدوا فيها النار

(٢) في ب: على وجه.

(١) كذا في: ب، وفي أ: ليس.

﴿فألقوه في الجحيم﴾ جزاء على ما فعل من تكسير ألهمهم.

﴿فأرادوا به كيداً﴾ ليقتلوه أشنع قتلة ﴿فجعلناهم الأسفلين﴾ رد الله كيدهم في نحورهم، وجعل النار على إبراهيم برداً وسلاماً.

﴿و﴾ لما فعلوا فيه هذا الفعل، وأقام عليهم الحجة، وأعذر منهم، ﴿قال إني ذاهب إلى ربي﴾ أي: مهاجر إليه، قاصد إلى الأرض المباركة أرض الشام. ﴿سبيهم﴾ يدلني إلى ما فيه الخير لي، من أمر ديني ودنياي، وقال في الآية الأخرى: ﴿وأعزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوري عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقياً﴾.

﴿رب هب لي﴾ ولداً يكون ﴿من الصالحين﴾ وذلك عندما أيس من قومه ولم يرَ فيهم خيراً، دعا الله أن يهب له غلاماً صالحاً ينفع الله به في حياته وبعد مماته، فاستجاب الله له وقال: ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾ وهذا إسماعيل عليه السلام بلا شك، فإنه ذكر بعده الإشارة ﴿بإسحاق﴾ ولأن الله تعالى قال في بشرناه بإسحاق ﴿فبشرناها﴾ بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴿فدل على أن إسحاق غير الذبيح، ووصف الله إسماعيل عليه السلام بالحلم، وهو ينضمّن الصبر، وحسن الخلق، وسعة الصدر، والعفو عمن جنى﴾.

﴿فلما بلغ الغلام معه السمي﴾ أي: أدرك أن يسعى معه، وبلغ سنّاً يكون في الغالب أحب ما يكون لوالديه، قد ذهبت مشقته، وأقبلت منفعته، فقال له إبراهيم عليه السلام: ﴿إني أرى في المنام أفي أذبحك﴾ أي: قد رأيت في النوم والرؤيا، أن الله يأمرني بذبحك، ورؤيا^(١) الأنبياء وحي، ﴿فانظر ماذا ترى﴾ فإن أمر الله تعالى لا بد من تنفيذه، ﴿قال﴾ إسماعيل صابراً محتسباً، مرضياً لربه، وباراً بوالده: ﴿يا أبت افعل ما تؤمر﴾ أي: [امض] لما أمرك الله ﴿ستجدني إن﴾

القيامة.

﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ سلاماً على إبراهيم ﴿أي: وأبقينا عليه ثناء صادقاً في الآخرين، كما كان في الأولين، فكل وقت بعد إبراهيم عليه السلام، فإنه [فيه] محبوب معظم مثني عليه﴾.

﴿سلام على إبراهيم﴾ أي: تحيته عليه كقوله: ﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى﴾.

﴿إننا كذلك نجزي المحسنين﴾ في عبادة الله، ومعاملة خلقه، أن نفرح عنهم الشدائد، ونجعل لهم العاقبة والثناء الحسن.

﴿إنه من عبادنا المؤمنين﴾ بما أمر الله بالإيمان به، الذين بلغ بهم الإيمان إلى درجة اليقين، كما قال تعالى: ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين﴾.

﴿١١٢﴾ ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾ هذه الإشارة الثانية بإسحاق، الذي من ورثته يعقوب، فبشر بوجوده وبقائه، ووجود ذريته، وكونه نبياً من الصالحين، فهي بشارات متعددة.

﴿وباركنا عليه وعلى إسحاق﴾ أي: أنزلنا عليهما البركة، التي هي النمو والزيادة في علمهما وعملهما وذريتهما، فنشر الله من ذريتهما ثلاث أمم عظيمة: أمة العرب من ذرية إسماعيل، وأمة بني إسرائيل، وأمة الروم من ذرية إسحاق. ﴿ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾ أي: منهم الصالح والطالح، والعاقل والظالم الذي تبين ظلمه بكفره وشركه، ولعل هذا من باب دفع الإيهام، فإنه لما قال: ﴿وباركنا عليه وعلى إسحاق﴾ اقتضى ذلك البركة في ذريتهما، وأن من تمام البركة، أن تكون الذرية كلهم محسنين، فأخبر الله تعالى أن منهم محسناً وظالماً، والله أعلم.

﴿١١٤ - ١٢٢﴾ ﴿ولقد منا على﴾

شاء الله من الصابرين﴾ أخبر أباه أنه موطن نفسه على الصبر، وقرن ذلك بمشيئة الله تعالى، لأنه لا يكون شيء بدون مشيئة الله تعالى.

﴿فلما أسلما﴾ أي: إبراهيم وابنه إسماعيل، جازماً بقتل ابنه وثمرة فؤاده، امتثالاً لأمر ربه، وخوفاً من عقابه، والابن قد وطن نفسه على الصبر، وهانت عليه في طاعة ربه، ورضا والده، ﴿وتله للبحرين﴾ أي: تل إبراهيم إسماعيل على جبينه، ليضجعه فيذبحه، وقد انكب لوجهه لئلا ينظر وقت الذبح إلى وجهه.

﴿ونادينا﴾ في تلك الحال المزعجة، والأمر المدهش: ﴿أن يا إبراهيم﴾ قد صدقت ﴿أي: قد فعلت ما أمرت به، فإنك وطنت نفسك على ذلك، وفعلت كل سبب، ولم يبق إلا إمرار السكين على حلقه، ﴿إننا كذلك نجزي المحسنين﴾ في عبادتنا، المقدمين رضانا على شهوات أنفسهم﴾.

﴿إن هذا﴾ الذي امتحنا به إبراهيم عليه السلام ﴿لهو البلاء المبين﴾ أي: الواضح، الذي تبين به صفاء إبراهيم، وكمال محبته لربه وخلته، فإن إسماعيل عليه السلام لما وهبه الله لإبراهيم، أحبه حباً شديداً، وهو خليل الرحمن، والخلة أعلى أنواع المحبة، وهو منصب لا يقبل المشاركة ويقضي أن تكون جميع أجزاء القلب متعلقة بالمحبيب، فلما تعلقت شعبة من شعب قلبه بابنه إسماعيل، أراد تعالى أن يصفى وده ويختبر خلته، فأمره أن يذبح من زاحم حبه حب ربه، فلما قدم حب الله، وآثره على هواه، وعزم على ذبحه، وزال ما في القلب من المزاحم، بقي الذبح لا فائدة فيه، فلماذا قال: ﴿إن هذا لهو البلاء المبين﴾ وفديناه بذبح عظيم﴾ أي: صار بدله ذبح من الغنم عظيم، ذبحه إبراهيم، فكان عظيماً من جهة أنه كان فداء لإسماعيل، ومن جهة أنه من جملة العبادات الجليلة، ومن جهة أنه كان قرباناً وسنة إلى يوم

(١) كذا في: ب، وفي أ: ورأي.

أي: من ربه مغاضباً له، طائفاً أنه لا يقدر عليه، ويحبسه في بطن الحوت، ولم يذكر الله ما غاضب عليه، ولا ذنبه الذي ارتكبه، لعدم فائدتنا بذكره، وإنما فائدتنا بما دُكرنا عنه أنه أذنب، وعاقبه الله مع كونه من الرسل الكرام، وأنه نجاه بعد ذلك، وأزال عنه الملام، وقبض له ما هو سبب صلاحه.

فلما أبقى لجأ ﴿إلى الفلك المشحون﴾ بالركاب والأمتعة، فلما ركب مع غيره، والفلك شاحن، ثقلت السفينة، فاحتاجوا إلى إلقاء بعض الركبان، وكأنهم لم يجدوا لأحد مزية في ذلك، فافتبروا على أن من قرع وغلب، أُلقي في البحر عدلاً من أهل السفينة، وإذا أراد الله أمراً هياً أسبابه.

فلما [افترعوا] أصابت القرعة يونس ﴿فكان من المدحضين﴾ أي: المغلوبين، فأُلقي في البحر ﴿فالتقمه الحوت وهو﴾ وقت التقامه ﴿مليماً﴾ أي: فاعل ما يلام عليه، وهو مغاضبته لربه.

﴿فلولا أنه كان من المسبحين﴾ أي: في وقته السابق بكثرة عبادته لربه وتسيحه وتحميده، وفي بطن الحوت حيث قال: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إنني كنت من الظالمين﴾.

﴿لئلي في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ أي: لكانت مقبرته، ولكن بسبب تسيحه وعبادته لله، نجاه الله تعالى، وكذلك ينجي الله المؤمنين عند وقوعهم في الشدائد. ﴿فنبذناه بالعماء﴾ بأن قذفه الحوت من بطنه بالعماء، وهي الأرض الخالية العارية من كل أحد، بل ربما كانت عارية من الأشجار والظلال. ﴿وهو سقيم﴾ أي: قد سقم ومرض، بسبب حبسه في بطن الحوت، حتى صار مثل الفرخ المعطوط من البنية.

﴿وأنبتنا عليه شجرة من يقطين﴾ تظله بظلها الظليل، لأنها بادرة باردة الظلال، ولا يسقط عليها ذباب، وهذا من لطفه به وبره.

في العذاب، ولم يذكر لهم عقوبة دنيوية. ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ أي: الذين أخلصهم الله ومن عليهم باتباع نبيهم، فإنهم غير محضرين في العذاب، وإنما لهم من الله جزيل الثواب. ﴿وتركنا عليه﴾ أي: على إلياس ﴿في الآخرين﴾ ثناء حسناً، ﴿سلام على إل ياسين﴾ أي: تحية من الله ومن عباده عليه.

﴿إننا كذلك نجزي المحسنين﴾ إنه من عبادنا المؤمنين ﴿فأثنى الله عليه كما أثنى على إخوانه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين﴾.

﴿١٣٣ - ١٣٨﴾ ﴿وإن لوطاً لمن المرسلين﴾ إذ نجيناه وأهله أجمعين. ﴿إلا صجوراً في الغابرين﴾ ثم دمرنا الآخرين. ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين﴾ وبالليل أفلا تعقلون. وهذا ثناء منه تعالى على عبده ورسوله لوط، بالنبوة والرسالة، ودعوته إلى الله قومه، ونهيهم عن الشرك وفعل الفاحشة، فلما لم ينتهوا، نجاه الله وأهله أجمعين، فسروا ليلاً فنجوا.

﴿إلا عجوراً في الغابرين﴾ أي: الباقين المذبذبين، وهي زوجة لوط لم تكن على دينه. ﴿ثم دمرنا الآخرين﴾ بأن قلنا عليهم ديارهم ﴿فجعلنا عاليها سافلها، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود﴾ حتى همدوا وخذوا.

﴿وإنكم لتمرون عليهم﴾ أي: على ديار قوم لوط ﴿مصبحين﴾ وبالليل. أي: في هذه الأوقات يكثُر ترددكم إليها ومروركم بها، فلم تقبل الشك والمزية. ﴿أفلا تعقلون﴾ الآيات والعبر، وتنزجرون عمقا يوجب الهلاك؟

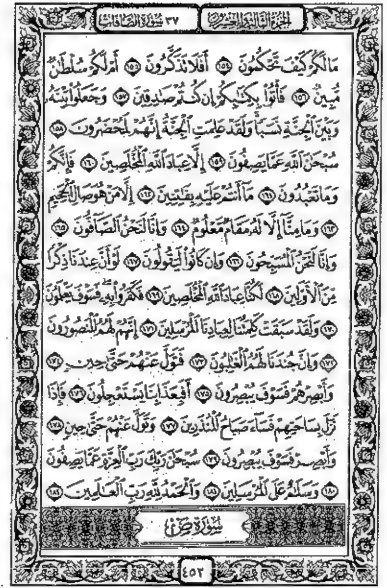
﴿١٣٩ - ١٤٨﴾ ﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾ إلى آخر القصة. وهذا ثناء منه تعالى على عبده ورسوله يونس بن متى، كما أثنى على إخوانه المرسلين، بالنبوة والرسالة، والدعوة إلى الله، وذكر تعالى عنه، أنه عاقبه عقوبة دنيوية، أنجاه منها بسبب إيمانه وأعماله الصالحة، فقال: ﴿إذ أبقى﴾

موسى وهارون ﴿إلى آخر القصة يذكر تعالى مثته على عبده ورسوله موسى وهارون ابني عمران، بالنبوة والرسالة، والدعوة إلى الله تعالى، ونجاتهما وقومهما من عدوهما فرعون، ونصرهما عليه، حتى أغرقه الله وهم ينظرون، وإنزال الله عليهما الكتاب المستبين، وهو التوراة التي فيها الأحكام والمواظف وتفصيل كل شيء، وأن الله هداهما الصراط المستقيم، بأن شرع لهما ديناً ذا أحكام وشرائع مستقيمة موصلة إلى الله، ومن عليهما بسلوكه.

﴿وتركنا عليهما في الآخرين﴾ سلام على موسى وهارون ﴿أي: أبقى عليهما ثناء حسناً، وتحية في الآخرين، ومن باب أولى وأحرى في الأولين﴾ إننا كذلك نجزي المحسنين ﴿إنهما من عبادنا المؤمنين﴾.

﴿١٢٣ - ١٣٢﴾ ﴿وإن إلياس لمن المرسلين﴾ إذ قال لقومه ألا تتقون. ﴿أتندسون بعملاً وتلدنون أحسن الخالقين﴾ الله ربكم ورب آبائكم الأولين. ﴿فكذبوه فإنهم لمحضرون﴾ إلا عباد الله المخلصين. ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ سلام على إل ياسين. ﴿إننا كذلك نجزي المحسنين﴾ إنه من عبادنا المؤمنين. ﴿يمدح تعالى عبده ورسوله إلياس عليه الصلاة والسلام، بالنبوة والرسالة، والدعوة إلى الله، وأنه أمر قومه بالتقوى وعبادة الله وحده، ونهاهم عن عبادتهم صنماً لهم يقال له «بعل»، وتركهم عبادة الله، الذي خلق الخلق، وأحسن خلقهم، ورياهم فأحسن تربيتهم، وأدرّ عليهم النعم الظاهرة والباطنة، وأنكم كيف تركتم عبادة الله من هذا شأنه، إلى عبادة صنم لا يضر ولا ينفع، ولا يخلق ولا يرزق، بل لا يأكل ولا يتكلم!! وهل هذا إلا من أعظم الضلال والسفه والغنى!!

﴿فكذبوه﴾ فيما دعاهم إليه، فلم يتقادوا له، قال الله متوعداً لهم: ﴿فإنهم لمحضرون﴾ أي: يوم القيامة



الأولين، لأخلصنا لله العباد، بل لكنا المخلصين على الحقيقة.

وهم كذبة في ذلك، فقد جاءهم أفضل الكتب فكفروا به، فعلم أنهم متمردون على الحق، فسوف يملعون العذاب حين يقع بهم، ولا يحسبوا أيضاً أنهم في الدنيا غالبون، بل قد سبقت كلمة الله التي لا مرد لها ولا مخالف لها لعباده المرسلين وجنده المفلحين، أنهم الغالبون لغيرهم، المنصورون من ربهم نصراً عزيزاً، يتمكنون فيه من إقامة دينهم، وهذه بشارة عظيمة لمن اتصف بأنه من جند الله، بأن كانت أحواله مستقيمة، وقاتل من أمر يقتالهم، أنه غالب منصور.

ثم أمر رسوله بالإعراض عمن عاندوا ولم يقبلوا الحق، وأنه ما بقي إلا انتظار ما يحل بهم من العذاب، ولهذا قال: «وأبصرهم فسوف يبصرون» من يحل به النكال، فإنه سيحل بهم. «فإذا نزل بساحتهم» أي: نزل عليهم، وقريباً منهم «فساء صباح المُنْذِرِينَ» لأنه صباح الشر والعقوبة والاستئصال. ثم كرر الأمر بالتوحي عنهم، وتهديدهم بوقوع العذاب.

ولما ذكر في هذه السورة كثيراً من

أقوالهم الشنيعة التي وصفوه بها، نزه نفسه عنها فقال: «سبحان ربك» أي: تنزه وتعالى «رب العزة» أي: الذي عز فقهر كل شيء، واعتز عن كل سوء يصقونه به، «وسلام على المرسلين» لسلامتهم من الذنوب والآفات، وسلامة ما وصفوا به فاطر الأرض والسموات.

«والحمد لله رب العالمين» الألف واللام للاستغراق، فجميع أنواع الحمد من الصفات الكاملة العظيمة، والأفعال التي ربي بها العالمين، وأدر عليهم فيها النعم، وصرف عنهم بها النقم، ودبرهم تعالى في حركاتهم وسكونهم، وفي جميع أحوالهم، كلها لله تعالى، فهو المقدس عن النقص، المحمود بكل كمال، المحبوب المعظم، ورسله سالمون مسلم عليهم، ومن اتبعهم في ذلك له السلامة في الدنيا والآخرة. [وأعداؤه لهم الهلاك والعطب في الدنيا والآخرة].

تم تفسير سورة الصفات

في ٦ شوال سنة ١٣٤٣هـ على يد جامعهم وكاتبه: عبد الرحمن بن ناصر السعدي وصلى الله على سيدنا محمد وسلم تسليماً والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

المجلد السابع من تيسير الكريم المنان في تفسير آيات القرآن لجامعه: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين

تفسير سورة ص وهي مكية

١- ١١ «بسم الله الرحمن الرحيم ص والقرآن ذي الذكر» بل الذين كفروا في عزة وشقاق «كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص» وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب «أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب» وانطلق الملائمة أن أمشوا واضربوا على ألحنتكم إن هذا

لشيء يراد * ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق * أنزل عليه الذكر من بينا بل هم في شك من ذكرى بل لما يدقوا عذاب * أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب * أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما فليبرقوا في الأسباب * جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب * هذا بيان من الله تعالى لحال القرآن، وحال المكذبين به معه ومع من جاء به، فقال: «ص والقرآن ذي الذكر» أي: ذي القدر العظيم والشرف، المذكر للعباد كل ما يحتاجون إليه من العلم، بأسماء الله وصفاته وأفعاله، ومن العلم بأحكام الله الشرعية، ومن العلم بأحكام المعاد والجزاء، فهو مذكر لهم في أصول دينهم وفروعه.

وهنا لا يحتاج إلى ذكر المقسم عليه، فإن حقيقة الأمر، أن المقسم به وعليه شيء واحد، وهو هذا القرآن، الموصوف بهذا الوصف الجليل، فإذا كان القرآن بهذا الوصف، علم ضرورة العباد إليه فوق كل ضرورة، وكان الواجب عليهم تلقينه بالإيمان والتصديق، والإقبال على استخراج ما يتذكر به منه.

فهدى الله من هدى لهذا، وأبى الكافرون به ويمن أنزله، وصار معهم «عزة وشقاق» عزة وامتناع عن الإيمان به، واستكبار وشقاق له، أي: مشاقة وخاصة في رده وإبطاله، وفي القبح بمن جاء به.

فتوعدهم بإهلاك القرون الماضية المكذبة بالرسول، وأنهم حين جاءهم الهلاك، نادوا واستغاثوا في صرف العذاب عنهم ولكن «لات حين مناص» أي: وليس الوقت وقت خلاص منا وقعوا فيه، ولا فرج لما أصابهم، فليحذر هؤلاء أن يدوموا على عزتهم وشقاقهم، فيصيبهم ما أصابهم.



وتستأصلهم إن أقاموا على ما هم عليه .

﴿١٦ - ١٧﴾ «وقالوا ربنا جعل لنا قطناً قبل يوم الحساب * أصبر على ما يقولون * أي : قال هؤلاء المكذبون ، من جهلهم ومعادتهم الحق ، مستعجلين للعذاب : ﴿ربنا عجل لنا قطناً﴾ أي : قسطنا وما قسم لنا من العذاب عاجلاً * قبل يوم الحساب * ولجوا في هذا القول ، وزعموا أنك يا محمد ، إن كنت صادقاً ، فعلامة صدقك أن تأتينا بالعذاب ، فقال لرسوله : «أصبر على ما يقولون» كما صبر من قبلك من الرسل ، فإن قولهم لا يضر الحق شيئاً ، ولا يضر نوك في شيء ، وإنما يضررون أنفسهم .

﴿١٧ - ٢٠﴾ «وإذك عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب * إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق * والطير محشورة كل له أواب * وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب * لما أمر الله رسوله بالصبر على قومه ، أمره أن يستعين على الصبر بالعبادة لله وحده ، ويتذكر حال العابدين ، كما قال في الآية الأخرى : «فأصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها» .

ومن أعظم العابدين ، نبي الله داود عليه الصلاة والسلام ﴿ذا الأيد﴾ (١) أي : القوة العظيمة على عبادة الله تعالى ، في بدنه وقلبه . ﴿إنه أواب﴾ أي : رجأع إلى الله في جميع الأمور بالإجابة إليه ، بالحب والتأله ، والخوف والرجاء ، وكثرة التضرع والدعاء . رجأع إليه عندما يقع منه بعض الخلل ، بالإقلاع والتوبة النصوح .

ومن شدة إجابته لربه وعبادته ، أن سخر الله الجبال معه ، تسبح معه بحمد ربه بالعشي والإشراق * أول النهار وآخره .

﴿٢٠﴾ «سخر * الطير محشورة * معه مجموعة * كل * من الجبال والطير ، الله تعالى ﴿أواب﴾ امتثالاً لقوله تعالى : ﴿يا جبال أوبي معه والطير﴾ فهذه مئة الله عليه بالعبادة ، ثم ذكر منته عليه بالملك العظيم فقال : ﴿وشددنا ملكه﴾ أي : قويناه بما أعطيناه من الأسباب وكثرة العدد والعدد التي بها قوى الله ملكه ، ثم ذكر منته عليه بالعلم ، فقال : ﴿وآتيناه الحكمة﴾ أي : النبوة والعلم العظيم ، ﴿وفصل الخطاب﴾ أي : الخصومات بين الناس .

﴿٢١ - ٢٦﴾ «وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب * إذ دخلوا على داود ففرع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط * إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب * قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأواب * فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب * يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن

سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب * لما ذكر تعالى أنه أتى نبيه داود الفصل في الخطاب بين الناس ، وكان معروفاً بذلك مقصوداً ، ذكر تعالى نبأ خصمين اختصما عنده في قضية جعلهما الله فتنة لداود ، وموعظة لخلل ارتكبه ، فتاب الله عليه وغفر له ، وقبض له هذه القضية ، فقال لنبيه محمد ﷺ : ﴿وهل أتاك نبأ الخصم﴾ فإنه نبأ عجيب : ﴿إذ تسوروا﴾ على داود المحراب * أي : محل عبادته من غير إذن ولا استئذان ، ولم يدخلوا عليه مع باب ، فلذلك لما دخلوا عليه بهذه الصورة ، فرع منهم وخاف ، فقالوا له : نحن «خصمان» فلا تخف * بقى بعضنا على بعض * بالظلم «فاحكم بيننا بالحق» أي : بالعدل ، ولا تقل مع أحدنا «ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط»

والمقصود من هذا ، أن الخصمين قد عرف أن قصدهما الحق الواضح الصريح ، وإذا كان ذلك ، فسيقضيان عليه نياهما بالحق ، فلم يشمت نبي الله داود من وعظهما له ، ولم يؤنبهما .

فقال أحدهما : ﴿إن هذا أخى﴾ نص على الأخوة في الدين أو النسب أو الصداقة ، لاقتضاها عدم البغى ، وأن بغية الصادر منه أعظم من غيره . ﴿له تسع وتسعون نعجة﴾ أي : زوجة ، وذلك خبز كثير ، يرجب عليه القناعة بما آتاه الله . ﴿ولي نعجة واحدة﴾ فطمع فيها ﴿فقال أكفلنيها﴾ أي : دعها لي ، وخليها في كفالتي . ﴿وعزني في الخطاب﴾ أي : غلبني في القول ، فلم يزل يي حتى أدركها أو كاد .

فقال داود - لما سمع كلامه - ومن المعلوم من السياق السابق من كلامهما ، أن هذا هو الواقع ، فلماذا لم يحتج أن يتكلم الآخر ، فلا وجه للاعتراض بقول القائل : ﴿لم حكم داود قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر؟﴾

(١) كذا في ب ، وفي الأصل : ذو الأيد .

(٢) في النسختين : فيقصفون .

أنه بحسب لب الإنسان وعقله يحصل له التذكر والانتفاع بهذا الكتاب.

﴿٣٠ - ٤٠﴾ «ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب» * إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد * فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب * ردها علي فطفق مسحاً بالسوق والأعناق * ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب * قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب * فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب * والشياطين كل بناء وغواص * وآخرين مقرنين في الأصفاد * هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب * وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب * لما أثنى تعالى على داود، وذكر ما جرى له ومنه، أثني على ابنه سليمان عليهما السلام فقال: «ووهبنا لداود سليمان» أي: أنعمنا به عليه، وأقرنا به عينه.

﴿نعم العبد﴾ سليمان عليه السلام، فإنه اتصف بما يوجب المدح، وهو «إنه أواب» أي: رجأع إلى الله في جميع أحواله، بالتأله والإنابة، والمجبة والذكر والدعاء والتضرع، والاجتهاد في مرضاة الله، وتقديمها على كل شيء.

ولهذا، لما عرضت عليه الخيل الجياد السبق الصافنات، أي: التي من وصفها الصفون، وهو رفع إحدى قوائمها عند الوقوف، وكان لها منظرٌ رائع، وجمال معجب، خصوصاً للمحتاج إليها كالمملوك، فما زالت تُعرض عليه حتى غابت الشمس في الحجاب، فألهته عن صلاة المساء وذكره، فقال ندماً على ما مضى منه، وتقرباً إلى الله بما ألهاه عن ذكره، وتقديماً لحب الله على حب غيره: «إني أحببت حب الخير» وضمن «أحببت» معنى «أثرت» أي: أثرت حب الخير، الذي هو المال عموراً، وفي هذا الموضع المراد الخيل. «عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب»

النار * أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار * كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب * يخبر تعالى عن تمام حكمته في خلقه السماوات والأرض، وأنه لم يخلقهما باطلاً، أي: عبثاً ولعباً من غير فائدة ولا مصلحة. «ذلك ظن الذين كفروا» برهم، حيث ظنوا ما لا يليق بجلاله. «فويل للذين كفروا من النار» فإنها التي تأخذ الحق منهم، وتبلغ منهم كل مبلغ.

وإنما خلق الله السماوات والأرض بالحق وللحق، فخلقهما ليعلم العباد كمال علمه وقدرته وسعة سلطانه، وأنه تعالى وحده المعبود، دون من لم يخلق مثقال ذرة من السماوات والأرض، وأن السبعث حق، وسيفصل الله بين أهل الخير والشر.

ولا يظن الجاهل بحكمة الله أن يسوي الله بينهما في حكمه، ولهذا قال: «أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار» هذا غير لائق بحكمتنا وحكمنا.

﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك﴾ فيه خير كثير، وعلم غزير، فيه كل هدى من ضلالة، وشفاء من داء، ونور يستضاء به في الظلمات، وكل حكم يحتاج إليه المكلفون، وفيه من الأدلة القطعية على كل مطلوب، ما كان به أجل كتاب طرق العالم منذ أنشأ الله.

﴿ليدبروا آياته﴾ أي: هذه الحكمة من إنزاله، ليتدبر الناس آياته، فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها، فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة، تدرك بركته وخيره، وهذا يدل على الحث على تدبر القرآن، وأنه من أفضل الأعمال، وأن القراءة المشتتة على التدبر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود.

﴿وليتذكر أولوا الألباب﴾ أي: أولو العقول الصحيحة، يتذكرون بتدبرهم لها كل علم ومطلوب، فدل هذا على

«لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه» وهذه عادة الخلقاء والقرناء الكثير منهم، فقال: «وإن كثيراً من الخطاء ليبغي بعضهم على بعض» لأن الظلم من صفة النفوس. «إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات» فإن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح، يمتنعهم من الظلم. «وقليل ما هم» كما قال تعالى: «وقليل من عبادي الشكور». «وظن داود» حين حكم بينهما «أنما فتناه» أي: اختبرناه ودبرناه عليه هذه القضية ليتنبه «فاستغفر ربه» لما صدر منه، «وخز راعياً» أي: ساجداً «وأناب» لله تعالى بالتوبة النصوح والعبادة.

«ففغرنا له ذلك» الذي صدر منه، وأكرمته الله بأنواع الكرامات، فقال: «وإن له عندنا لزلفى» أي: منزلة عالية، وقربة منا، «وحسن مآب» أي: مرجع.

وهذا الذنب الذي صدر من داود عليه السلام، لم يذكره الله لعدم الحاجة إلى ذكره، فقال تعرض له من باب التكلف، وإنما الفائدة ما قصه الله علينا من لطفه به وتوبته وإنابته، وأنه ارتفع عنه، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها.

﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ تنفذ فيها القضايا الدينية والدنيوية، «فاحكم بين الناس بالحق» أي: العدل، وهذا لا يتمكن منه، إلا بعلم بالواجب، وعلم بالواقع، وقدرة على تنفيذ الحق، «ولا تتبع الهوى» فتميل مع أحد، لقربة أو صداقة أو محبة، أو بغض لآخر «فيضلك الهوى» عن سبيل الله. «ويخرجك عن الصراط المستقيم»، «إن الذين يضلون عن سبيل الله» خصوصاً المتعمدين منهم، «لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب» فلو ذكروه ووقع خوفه في قلوبهم، لم يميلوا مع الهوى الفاتن.

﴿٢٧ - ٢٩﴾ «وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من

بربه، وتقر عينه بعبادته، وتعينه على الإخلاص في جميع أموره.

ومنها: أنه ينبغي استعمال الأدب في الدخول على الحكام وغيرهم، فإن الخصمين لما دخلا على داود في حالة غير معتادة ومن غير الباب المعهود، فزع منهم، واشتد عليه ذلك، ورآه غير لائق بالحال.

ومنها: أنه لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق سوء أدب الخصم وفعله ما لا ينبغي.

ومنها: كمال حلم داود عليه السلام، فإنه ما غضب عليهما حين جاءه بغير استئذان، وهو الملك، ولا انتهرهما ولا وبخهما.

ومنها: جواز قول المظلوم لمن ظلمه «أنت ظلمتني» أو «يا ظالم» ونحو ذلك أو «ياغ علي» لقولهما: «خصمان بغى بعضنا على بعض».

ومنها: أن الموعوظ والمنصوح، ولو كان كبير القدر، جليل العلم، إذا نصحه أحد أو وعظه، لا يغضب ولا يشتمن، بل يبادره بالقبول والشكر، فإن الخصمين نصحا داود فلم يشتمن ولم يغضب، ولم يشنه ذلك عن الحق، بل حكم بالحق الصرف.

ومنها: أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب، وكثرة التعلقات الدنيوية المالية، موجبة للتعادي بينهم، وبغى بعضهم على بعض، وأنه لا يرد عن ذلك إلا استعمال تقوى الله، والصبر على الأمور، بالإيمان والعنصل الصالح، وأن هذا من أقل شيء في الناس.

ومنها: أن الاستغفار والعبادة، خصوصاً الصلاة، من مكفريات الذنوب، فإن الله رتب مغفرة ذنب داود على استغفاره وسجوده.

ومنها: إكرام الله لعبده داود وسليمان، بالقرب منه، وحسن الثواب، وأن لا يظن أن ما جرى لهما منقص لذنوبهما عند الله تعالى، وهذا من تمام لطفه بعباده المخلصين، أنه إذا غفر لهم وأزال أثر ذنوبهم، أزال الآثار المترتبة عليه كلها، حتى ما يقع في

ومنها: أن الله تعالى يمدح ويحب القوة في طاعته، قوة القلب والبدن، فإنه يحصل منها من آثار الطاعة وحسنها وكثرتها، ما لا يحصل مع الوهن وعدم القوة، وأن العبد ينبغي له تعاطي أسبابها، وعدم الركون إلى الكسل والبطالة المخلة بالقوى المضعفة للنفس.

ومنها: أن الرجوع إلى الله في جميع الأمور، من أوصاف أنبياء الله وخواص خلقه، كما أثنى الله على داود وسليمان بذلك، فليقتد بهما المقتدون، وليهتد بهداهم السالكون، أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده.

ومنها: ما أكرم الله به نبيه داود عليه السلام، من حسن الصوت العظيم، الذي جعل الله بسببه الجبال الصم، والطيور البهيم، يجاوبنه إذا رجّع صوته بالتسبيح، ويسبحن معه بالعشي والإشراق.

ومنها: أن من أكبر نعم الله على عبده، أن يرزقه العلم النافع، ويعرف الحكم والفصل بين الناس، كما امتن الله به على عبده داود عليه السلام.

ومنها: اعتناء الله تعالى بأنبيائه وأصفياه عندما يقع منهم بعض الخلل بفتنته إياهم وابتلائهم بما به يزول عنهم المحذور، ويعودون إلى أكمل من حالتهم الأولى، كما جرى لداود وسليمان عليهما السلام.

ومنها: أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون من الخطأ فيما يبلغون عن الله تعالى، لأن مقصود الرسالة لا يحصل إلا بذلك، وأنه قد يجري منهم بعض مقتضيات الطبيعة من المعاصي، ولكن الله يتداركهم ويبادهم بلطفه.

ومنها: أن داود عليه السلام [كان] في أغلب أحواله لازماً بحراجه لخدمة ربه، ولهذا تسور الخصمان عليه الجحراب، لأنه كان إذا خلا في محرابه لا يأتيه أحد، فلم يجعل كل وقته للناس، مع كثرة ما يرد عليه من الأحكام، بل جعل له وقتاً يخلو فيه

﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ﴾ فردوها ﴿فطفت﴾ فيها ﴿مسحاً بالسوق والأعناق﴾ أي: جعل يعقرها بسيفه، في سوقها وأعناقها.

﴿ولقد فتنا سليمان﴾ أي: ابتليناه واختبرناه بذهاب ملكه وانفصاله عنه بسبب خلل اقتضته الطبيعة البشرية، ﴿وألقينا على كرسیه جسداً﴾ أي: شيطانياً قضى الله وقدر أن يجلس على كرسي ملكه، ويتصرف في الملك في مدة فتنة سليمان، ﴿ثم أناب﴾ سليمان إلى الله تعالى وناب.

﴿ف﴾ قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب ﴿فاستجاب الله له وغفر له، ورد عليه ملكه، وزاده ملكاً لم يحصل لأحد من بعده، وهو تسخير الشياطين له، يبنون ما يريد، ويغوصون له في البحر، يستخرجون الدر والحي، ومن عصاه منهم قرنه في الأصفاذ وأوتقه. وقلنا له: ﴿هذا عطاؤنا﴾ فقرر به عينا ﴿فمائتن﴾ على من شئت، ﴿أو أمسك﴾ من شئت ﴿بغير حساب﴾ أي: لا حرج عليك في ذلك ولا حساب، لعلمه تعالى بكمال عدله، وحسن أحكامه، ولا تحسبن هذا سليمان في الدنيا دون الآخرة، بل له في الآخرة خير عظيم، ولهذا قال: ﴿وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ أي: هو من المقربين عند الله المكرمين بأنواع الكرامات لله.

فصل فيما تبين لنا من الفوائد والحكم في قصة داود وسليمان عليهما السلام

فمنها: أن الله تعالى يقص على نبيه محمد ﷺ أخبار من قبله، ليثبت فؤاده وتطمئن نفسه، ويذكر له من عباداتهم وشدة صبرهم وإنابتهم، ما يشوقه إلى منافستهم، والتقرب إلى الله الذي تقرّبوا له، والصبر على أذى قومه، ولهذا في هذا الموضع لما ذكر الله ما ذكر من أذى قومه وكلامهم فيه وفيما جاء به، أمره بالصبر، وأن يذكر عبده داود فيستلّ به.

﴿هَذَا مَا توعدون﴾ أيها المتقون
﴿ليوم الحساب﴾ جزاء على أعمالكم
الصالحة.

﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا﴾ الذي أوردناه على
أهل دار النعيم ﴿مَالَهُ مِنْ نَفَائِدٍ﴾ أي:
انقطاع، بل هو دائم مستقر في جميع
الأوقات، متزايد في جميع الآثات.

وليس هذا يعظم على الرب
الكريم، الرؤوف الرحيم، البر
الجواد، الواسع الغني، الحميد اللطيف
الرحمن، الملك الديان، الجليل الجميل
المنان، ذي الفضل الباهر، والكرم
المتواتر، الذي لا تحصى نعمه،
ولا يحاط ببعض بزه.

﴿٥٥ - ٦٤﴾ ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ
لَشَرَّ مَأْبٍ﴾ جهنم يصلونها فيئس
المهاد ﴿هَذَا فليذوقوه حميم وغساق﴾
وآخر من شكله أزواج ﴿هَذَا فوج
مقتحم معكم لا مرحبا بهم إنهم صالوا
النار﴾ قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم
أنتم قدمتموه لنا فيئس القرار ﴿قالوا
ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في
النار﴾ وقالوا ما لنا لا نرى رجالاً كنا
نعدهم من الأشرار ﴿اتخذناهم سخرى
أم زأغت عنهم الأبصار﴾ إن ذلك لحق
تخاصم أهل النار ﴿هَذَا﴾ الجزاء
للمتقين ما وصفناه ﴿وَأَنَّ لِلطَّاغِينَ
أَي: المتجاوزين للحد في الكفر
والمعاصي ﴿لَشَرَّ مَأْبٍ﴾ أي: لشر
مرجع ومقلب، ثم فضله فقال:
﴿جهنم﴾ التي جمع فيها كل عذاب،
واشتد حرها، وانتهى قرها
﴿يصلونها﴾ أي: يعذبون فيها عذاباً
يحيط بهم من كل وجه، لهم من فوقهم
ظلل من النار ومن تحتهم ظلل.

﴿فيئس المهاد﴾ المعد لهم مسكناً
ومستقراً ﴿هَذَا﴾ المهاد، هذا العذاب
الشديد، والخزي والفضيحة والتكال.
﴿فليذوقوه حميم﴾ ماء حار، قد اشتد
حره، يشربونه فيقطع أمعاءهم.
﴿وغساق﴾ وهو أكره ما يكون من
الشراب، من قيح وصدید، مر المذاق،
كرهه الراحه.

﴿وآخر من شكله﴾ أي: من نوعه
﴿أزواج﴾ أي: عدة أصناف من

الزكية، وما نشر لهم من الشئ بين
البرية.

فهذا نوع من أنواع الذكر، وهو ذكر
أهل الخير، ومن أنواع الذكر، ذكر
جزاء أهل الخير وأهل الشر، ولهذا
قال:

﴿٤٩ - ٥٤﴾ ﴿وَأَنَّ لِلْمُتَّقِينَ لِحَسَنٍ
مَأْبٍ﴾ جنات عدن مفتحة لهم
الأبواب ﴿متكئين فيها يدعون فيها
بفاكهة كثيرة وشراب﴾ وعندهم
قاصرات الطرف أشراب ﴿هَذَا مَا
توعدون ليوم الحساب﴾ إن هذا لَرِزْقُنَا
مَالَهُ مِنْ نَفَائِدٍ أَي: ﴿وَأَنَّ لِلْمُتَّقِينَ
رَبِّهِمْ، بامتثال الأوامر واجتناب
النواهي، من كل مؤمن ومؤمنة،
﴿لِحَسَنٍ مَأْبٍ﴾ أي: لمأباً حسناً،
ومرجعاً مستحسناً.

ثم فسره وفضله، فقال: ﴿جنات
عدن﴾ أي: جنات إقامة، لا ينبغي
صاحبها يدلاً منها، من كمالها وتمام
نعيمها، وليسوا بخارجين منها
ولا يمتخرجون.

﴿مفتحة لهم الأبواب﴾ أي: مفتحة
لأجلهم أبواب منازلها ومسكنها،
لا يحتاجون أن يفتحوها هم، بل هم
مخدومون، وهذا دليل أيضاً على الأمان
الثام، وأنه ليس في جنات عدن، ما
يوجب أن تغلق لأجله أبوابها.

﴿متكئين فيها﴾ على الأرائك
المزينات، والمجالس المزخرفات.
﴿يدعون فيها﴾ أي: يأمررون
خدامهم، أن يأتوا بفاكهة كثيرة
وشراب من كل ما تشتهي نفوسهم،
وتلذه أعينهم، وهذا يدل على كمال
النعيم، وكمال الراحة والطمأنينة،
وتمام اللذة.

﴿وعندهم﴾ من أزواجهم، الحور
العین ﴿قاصرات﴾ طرفهن على
أزواجهن، وطرف أزواجهن عليهن،
لجمالهم كلهن، ومحبة كل منهما
للآخر، وعدم طموحه لغيره، وأنه
لا ينبغي بصاحب بدلاً، ولا عنه
عوضاً. ﴿أشراب﴾ أي: على سن
واحد، أعدل سن الشباب وأحسنه
والذو.



البصيرة في دين الله. فوصفهم بالعلم
النافع، والعمل الصالح الكثير.

﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ﴾ عظيمة،
وخصيصة جسيمة، وهي ﴿ذكرى
الدار﴾ جعلنا ذكرى الدار الآخرة في
قلوبهم، والعمل لها صفوة وقتهم،
والإخلاص والمراقبة لله وصفهم
الدائم، وجعلناهم ذكرى الدار يتذكر
بأحوالهم المتذكر، ويعتبر بهم المعبر،
ويذكرون بأحسن الذكر.

﴿وَأَنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفِينَ﴾ الذين
اصطفاهم الله من صفوة خلقه،
﴿الْأَخْيَارِ﴾ الذين لهم كل خلق كريم،
وعمل مستقيم.

﴿٤٨ - ٤٩﴾ ﴿وَإِذْ ذَكَرَ إِسْمَاعِيلُ
وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾
هذا ذكر أي: واذكر هؤلاء الأنبياء
بأحسن الذكر، وأثن عليهم أحسن
الثناء، فإن كلاً منهم من الأخيار الذين
اختارهم الله من الخلق، واختار لهم
أكمل الأحوال، من الأعمال
والأخلاق، والصفات الحميدة،
والخصال السنية.

﴿هَذَا﴾ أي: ذكر هؤلاء الأنبياء
الصفوة وذكر أوصافهم، ﴿ذكر﴾ في
هذا القرآن ذي الذكر، يتذكر بأحوالهم
المتذكرون، ويشتاق إلى الاقتداء
بأوصافهم الحميدة المقتدون، ويعرف
ما من الله عليهم به من الأوصاف

أصناف العذاب، يعذبون بها ويحزون بها.

وعند تواردهم على النار يشتتم بعضهم بعضاً، ويقول بعضهم لبعض: ﴿هذا فوج مقتحم معكم﴾ النار ﴿لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار﴾.

﴿قالوا﴾ أي: الفوج المقبل المقتحم: ﴿بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه﴾ أي: العذاب ﴿لنا﴾ بدعوتكم لنا، وفتنتكم وإضلالكم وتسبيكم: ﴿فبئس القرار﴾ قرار الجميع، قرار السوء والشر.

ثم دعوا على المغوين لهم فـ ﴿قالوا﴾ ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار. وقال في الآية الأخرى: ﴿قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾.

﴿وقالوا﴾ وهم في النار: ﴿مالنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار﴾ أي: كتبنا نزعهم من الأشرار، المستحقين لعذاب النار، وهم المؤمنون، تفقدهم أهل النار - قبحهم الله - هل يرونهم في النار؟

﴿أخذناهم سخرى﴾ أم زاغت عنهم الأبصار؟ أي: عدم رؤيتنا لهم دائر بين أمرين:

إما أننا غلطون في عدنا إياهم من الأشرار، بل هم من الأخيار، وإنما كلامنا لهم من باب السخرية والاستهزاء بهم، وهذا هو الواقع، كما قال تعالى لأهل النار: ﴿إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فأغفر لنا وارحمنا وأنت خير البراحين﴾ فاتخذوهم سخرى حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون.

والأمر الثاني: أنهم لعلهم زاغت أبصارنا عن رؤيتهم معنا في العذاب، وإلا فهم معنا معذبون ولكن تجاوزتهم أبصارنا، فيحتمل أن هذا الذي في قلوبهم، فتكون العقائد التي اعتقدوها في الدنيا، وكثرة ما حكموا لأهل الإيمان بالنار، غمكت من قلوبهم، وصارت صيغة لها، فدخلوا النار وهم بهذه الحالة، فقالوا ما قالوا.

ويحتمل أن كلامهم هذا كلام تمويه، كما موهوا في الدنيا، موهوا حتى في النار، ولهذا يقول أهل الأعراف لأهل النار: ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾.

قال تعالى مؤكداً ما أخبر به، وهو أصدق القائلين: ﴿إن ذلك﴾ الذي ذكرت لكم ﴿لحق﴾ ما فيه شك ولا مزية ﴿فخاصم أهل النار﴾.

﴿٦٥ - ٨٨﴾ ﴿قل إنما أنا نذير

وما من إله إلا الله الواحد القهار﴾ رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار ﴿قل هو نبي عظيم﴾ أنتم عنه معرضون ﴿ما كان لي من علم بالملا الأعلى إذ يختصمون﴾ إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين ﴿إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين﴾ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقموا له ساجدين ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾ إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ﴿قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي استكبرت أم كنت من العالين﴾ قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴿قال فاخرج منها فإنك رجيم﴾ وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين ﴿قال رب أنظرني إلى يوم يبعثون﴾ قال فإنك من المنظرين ﴿إلى يوم الوقت المعلوم﴾ قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ قال فالحق والحق أقول ﴿لأملأن جهنم منك ومنك﴾ تيممك منهم أجمعين ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين﴾ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴿ولتعلمن نبأه بعد حين﴾ ﴿قل﴾ يا أيها الرسول لهؤلاء الكاذبين، إن طلبوا منك ما ليس لك ولا بيدك: ﴿إنما أنا نذير﴾ هذا نهاية ما عندي، وأما الأمر فله تعالى، ولكني آمركم وأنهيكم، وأحثكم على الخير وأزجركم عن الشر فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليه. ﴿وما من إله

إلا الله﴾ أي: ما أحد يؤله ويعبد بحق إلا الله ﴿الواحد القهار﴾ هذا تقرير لألوهيته، بهذا البرهان القاطع، وهو وحدته تعالى، وقهره لكل شيء، فإن القهر ملازم للوحدة، فلا يكون قهارين متساويين في قهرهما أبداً، فالذي يقهر جميع الأشياء هو الواحد الذي لا نظير له، وهو الذي يستحق أن يُعبد وحده، كما كان قاهراً وحده، وقرر ذلك أيضاً بتوحيد الربوبية فقال:

﴿رب السماوات والأرض وما بينهما﴾ أي: خالقهما، ومربيهما، ومديرها ﴿بجميع أنواع التدابير﴾ العزيز الذي له القوة، التي بها خلق المخلوقات العظيمة: ﴿الفقار﴾ جميع الذنوب، صغيرها وكبيرها، لمن تاب إليه وأقلع منها.

فهذا الذي يحب ويستحق أن يعبد، دون من لا يخلق ولا يرزق، ولا يضرب ولا ينفع، ولا يملك من الأمر شيئاً، وليس له قوة الاقتدار، ولا بيده مغفرة الذنوب والأوزار.

﴿قل﴾ لهم، مخوفاً ومحذراً، ومنهضاً لهم ومنذراً: ﴿هو نبي عظيم﴾ أي: ما أنبأكم به من البعث والنشور والجزاء على الأعمال، خبر عظيم ينبغي الاهتمام الشديد بشأنه، ولا ينبغي إغفاله، ولكن أنتم عنه معرضون، لأنه ليس أمامكم حساب ولا عقاب ولا ثواب، فإن شككتهم في قولي، وامترستم في خبري، فإني أخبركم بأخبار لا علم لي بها ولا درستها في كتاب، فأخبرني بها على وجهها، من غير زيادة ولا نقص، أكبر شاهد لصدقي، وأدل دليل على حق ما جئتكم به، ولهذا قال: ﴿ما كان لي من علم بالملا الأعلى﴾ أي: الملائكة ﴿إذ يختصمون﴾ لولا تعليم الله إياي، وإجاءة إلي، ولهذا قال: ﴿إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين﴾ أي: ظاهر النذارة، جليها، فلا نذير أبليغ من نذارته ﷺ.

ثم ذكر اختصاص الملائكة فقال: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ عَلَى وَجْهِهٖ الْإِخْبَارَ﴾ [إني خالق بشرأ من طين] أي: مادته من طين ﴿فَإِذَا سَوَّيْتَهُ﴾ أي: سويت جسمه وتم، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ فوطن الملائكة الكرام أنفسهم على ذلك، حين يتم خلقه ونفخ الروح فيه، امتثالاً لربه، وإكراماً لآدم عليه السلام، فلما تم خلقه في بدنه وروحه، وامتنح الله آدم والملائكة في العلم، وظهر فضله عليهم، أمرهم الله بالسجود. فسجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس لم يسجد ﴿استكبر﴾ عن أمر ربه، واستكبر على آدم ﴿وكان من الكافرين﴾ في علم الله تعالى.

ق ﴿قَالَ﴾ الله موبخاً ومعانياً: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدِي﴾ أي: شرفته وكرمه واختصصته بهذه الخصيصة، التي اختص بها عن سائر الخلق، وذلك يقتضي عدم التكبر عليه.

﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ في امتناعك ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾.

﴿قَالَ﴾ إبليس معارضاً لربه ومناقضاً: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْ خَلْقَتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾. وبرغمه أن عنصر النار خير من عنصر الطين، وهذا من القياس الفاسد، فإن عنصر النار مادة الشر والفساد، والعلو والطيش والخفة وعنصر الطين مادة الرزاة والتواضع، وإخراج أنواع الأشجار والنباتات، وهو يغلب النار ويطفئها، والنار تحتاج إلى مادة تقوم بها، والطين قائم بنفسه، فهذا قياس شيخ القوم، الذي عارض به الأمر الشفاهي من الله، قد تبين غاية بطلانه وفساده، فما بالك بأقيسة التلاميذ الذين عارضوا الحق بأقيستهم؟ فإنها كلها أعظم بطلاناً وفساداً من هذا القياس.

ق ﴿قَالَ﴾ الله له: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: من السماء والمحل الكريم. ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي: مبعث مدحور. ﴿وإِنْ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ أي: طردي

وإبعادي ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي: دائماً أبداً.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَمُوتُونَ﴾ لشدة عداوته لآدم وذريته، ليتمكن من إغواء من قدر الله أن يغويه.

ق ﴿قَالَ﴾ الله مجيباً لدعوته، حيث اقتضت حكمته ذلك: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ إلى يوم الوقت المعلوم حين تستكمل الذرية، يتم الامتحان.

فلما علم أنه منظر، بادى ربه، من خبئه، بشدة العداوة لربه ولآدم وذريته فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يحتمل أن الباء للقسمة، وأنه أقسم بعزة الله ليغويهم كلهم أجمعين.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ علم أن الله سيحفظهم من كيده.

ويحتمل أن الباء للاستعانة، وأنه لما علم أنه عاجز من كل وجه، وأنه لا يفضل أحداً إلا بشيئة الله تعالى، فاستعان بعزة الله على إغواء ذرية آدم هذا، وهو عدو الله حقاً.

ونحن يا ربنا العاجزون المقصرون، المقرون لك بكل نعمة، ذرية من شرفته وكرمه، فنستعين بعزتك العظيمة وقدرتك، ورحمتك الواسعة لكل مخلوق، ورحمتك التي أوصلت إليناها ما أوصلت من النعم الدينية والدنيوية، وصرفت بها عنا ما صرفت من النقم، أن تغيبنا على محاربتة وعداوتة، والسلامة من شره وشره، وتحسن الظن بك أن تحيب دعاءنا، ونؤمن بوعدك الذي قلت لنا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فقد دعوناك كما أمرتنا، فاستجب لنا كما وعدتنا. ﴿إِنَّكَ لَا تَخْلُقُ الْمِعَادَ﴾.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ أي: الحق وصفي، والحق قولي ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ يَتَّبِعُكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فلما بين الرسول للناس الدليل ووضح لهم السبيل قال الله له: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على

دعائي إياكم ﴿مَنْ أَجْرُ مَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أدعي أمراً ليس لي، وأقفو ما ليس لي به علم، لا أتبع إلا ما يوحى إلي.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: هذا الوحي والقرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ يتذكرون به كل ما ينفعهم من مصالح دينهم ودنياهم، فيكون شرفاً ورفعة للعالمين به، وإقامة حجة على المعاندين.

فهذه السورة العظيمة، مشتملة على الذكر الحكيم، والنبأ العظيم، وإقامة الحجج والبراهين، على من كذب بالقرآن وعارضه، وكذب من جاء به، والإخبار عن عباد الله المخلصين، وجزاء المتقين والطاغين. فلهذا أقسم في أولها بأنه ذو الذكر، ووصفه في آخرها بأنه ذكر للعالمين.

وأكثر التذكير بها فيما بين ذلك، كقوله: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا﴾ - واذكر عبادنا - ﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدَنَا وَذِكْرَى﴾ - هذا ذكر -.

اللهم علمنا منه ما جهلنا، وذكرنا منه ما نسينا، نسيان غفلة ونسيان ترك. ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ﴾ أي: خبره ﴿بعد حين﴾ وذلك حين يقع عليهم العذاب وتقطع عنهم الأسباب.

تم تفسير سورة ص بمئه تعالى وعونه.

تفسير سورة الزمر وهي مكية

﴿١-٣﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم. ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ خَلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ ألا الله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار. يخبر تعالى عن عظمة القرآن، وجلالة من تكلم به ونزل منه، وأنه نزل من الله العزيز الحكيم، أي: الذي وصفه الألوهية للخلق، وذلك لعظمته وكماله، والعزة التي قهر بها كل مخلوق، وذو له كل شيء، والحكمة في خلقه وأمره.

فالقرآن نازل من هذا وصفه، والكلام وصف للمتكلم، والوصف يتبع الموصوف، فكما أن الله تعالى

الشقاء، فلذلك لما أمر بالتوحيد والإخلاص، نهى عن الشرك به، وأخبر بدم من أشرك به فقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: يتولونهم بعبادتهم ودعائهم، [معتذرين] ^(١) عن أنفسهم وقائلين: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ أي: لترفع جوانبنا لله، وتشفع لنا عنده، وإلا، فنحن نعلم أنها، لا تخلق، ولا ترزق، ولا تملك من الأمر شيئاً.

أي: فهؤلاء قد تركوا ما أمر الله به من الإخلاص، وتجرؤوا على أعظم المحرمات، وهو الشرك، وقاسوا الذي ليس كمثله شيء، الملك العظيم، بالملوك، وزعموا يعقلونهم الفاسدة ورأيهم السقيم، أن الملوك كما أنه لا يوصل إليهم إلا بوجهاء وشفعاء ووزراء يرفعون إليهم حوائج رعاياهم، ويستعطفونهم عليهم، ويمهدون لهم الأمر في ذلك، أن الله تعالى كذلك.

وهذا القياس من أفسد الأقيسة، وهو يتضمن التسوية بين الخالق والمخلوق، مع ثبوت الفرق العظيم، عقلاً ونقلاً وقطرة، فإن الملوك، إنما احتاجوا للوساطة بينهم وبين رعاياهم، لأنهم لا يعلمون أحوالهم. فيحتاج من يعلمهم بأحوالهم، وربما لا يكون في قلوبهم رحمة لصاحب الحاجة، فيحتاج من يعطفهم عليه [ويسترهم لهم] ^(٢)، ويحتاجون إلى الشفعاء والوزراء، ويخافون منهم، فيقضون حوائج من توسطوا لهم، ومراعاة لهم، ومداراة لخواطهم، وهم أيضاً فقراء، قد يمنعون لما يخشون من الفقر.

وأما الرب تعالى، فهو الذي أحاط علمه بظواهر الأمور وبواطنها، الذي لا يحتاج من يخبره بأحوال رعيته وعباده، وهو تعالى أرحم الراحمين، وأجود الأجودين، لا يحتاج إلى أحد

الكامل من كل وجه، الذي لا مثيل له، فكذلك كلامه كامل من كل وجه لا مثيل له، فهذا وحده كافٍ في وصف القرآن، دال على مرتبته.

ولكنه - مع هذا - زاد بياناً لكمالهم بمن نزل عليه، وهو محمد ﷺ، الذي هو أشرف الخلق فاعلم أنه أشرف الكتب، وبما نزل به، وهو الحق، فنزل بالحق الذي لا مزية فيه، لإخراج الخلق من الظلمات إلى النور، ونزل مشتملاً على الحق في أخباره الصادقة، وأحكامه العادلة، فكل ما دل عليه فهو أعظم أنواع الحق، من جميع المطالب العلمية، وما بعد الحق إلا الضلال.

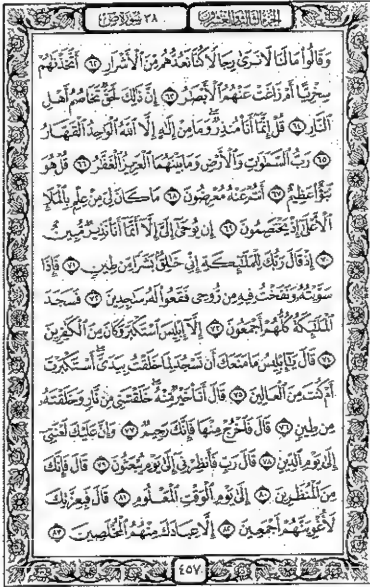
ولما كان نازلاً من الحق، مشتملاً على الحق لهداية الخلق، على أشرف الخلق، عظمت فيه النعمة وجلت، ووجب القيام بشكرها، وذلك بإخلاص الدين لله، فلهذا قال: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ أي: أخلص لله تعالى جميع دينك، من الشرائع الظاهرة والشرائع الباطنة: الإسلام والإيمان والإحسان، بأن تفرد الله وحده بها، وتقصد به وجهه لا غير ذلك من المقاصد.

﴿إِلَّا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ هذا تقرير للأمر بالإخلاص، وبيان أنه تعالى كما أنه له الكمال كله، وله التفضل على عباده من جميع الوجوه، فكذلك له الدين الخالص الصافي من جميع الشوائب، فهو الدين الذي ارتضاه لنفسه، وارتضاه لصفوة خلقه وأمرهم به، لأنه متضمن للتأله لله في حبه وخوفه ورجائه، ولإلانة إليه في عبوديته، والإلانة إليه في تحصيل مطالب عباده.

وذلك الذي يصلح القلوب ويزكيها ويطهرها، دون الشرك به في شيء من العبادة، فإن الله بريء منه، وليس لله فيه شيء، فهو أغنى الشركاء عن الشرك، وهو مفسد للقلوب والأرواح والدنيا والآخرة، مُشَقٌّ لِلنَّفُوسِ غَايَةً

(١) في أ: متعذرين.

(٢) كذا في النسختين ولعل الصواب (ويسترهم لهم).



من خلقه يجعله راحاً لعباده، بل هو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم، وهو الذي يحشهم ويدعوهم إلى الأسباب التي ينالون بها رحمته، وهو يريد من مصالحهم ما لا يريدونه لأنفسهم، وهو الغني، الذي له الغنى التام المطلق، الذي لو اجتمع الخلق من أولهم وآخرهم في صعيد وأخذ فسألوه، فأعطى كلّا منهم ما سأل وتمنى، لم ينقصوا غناه شيئاً، ولم ينقصوا مما عنده، إلا كما ينقص البحر إذا غمس فيه المخط.

وجميع الشفعاء يخافونه، فلا يشفع منهم أحد إلا بإذنه، وله الشفاعة كلها.

في هذه الفروق يعلم جهل المشركين به، وسفههم العظيم، وشدة جراتهم عليه.

ويعلم أيضاً الحكمة في كون الشرك لا يغفره الله تعالى، لأنه يتضمن القدح في الله تعالى، ولهذا قال - حاكماً بين الفريقين المخلصين والمشركون، وفي ضمنه التهديد للمشركون - ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

وقد علم أن حكمه أن المؤمنين المخلصين في جنات النعيم، ومن

رأى من آياته العظيمة، ثم تاب وأناب.

ومن عزته أن «خلقكم من نفس واحدة» على كثرتكم وانتشاركم، في أنحاء الأرض، «ثم جعل منها زوجها» وذلك ليسكن إليها وتسكن إليه، وتتم بذلك النعمة. «وأنزل لكم من الأنعام» أي: خلقها بقدر نازل منه، رحمة بكم. «ثمانية أزواج» وهي التي ذكرها في سورة الأنعام «ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين» «ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين».

وخصها بالذكر، مع أنه أنزل لمصالح عباده من البهائم غيرها، لكثرة نفعها، وعموم مصلحتها، ولشرفها، ولاختصاصها بأشياء لا يصلح غيرها، كالأضحية والهدي والعقيقة، ووجوب الزكاة فيها، واختصاصها بالدية.

ولما ذكر خلق أئنا وأمتنا، ذكر ابتداء خلقنا، فقال: «خلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق» أي: طوراً بعد طور، وأنتم في خال لا يد خلقكم تمسككم، ولا عين تنظر إليكم، وهو قد رباكم في ذلك المكان الضيق «في ظلمات ثلاث» ظلمة البطن، ثم ظلمة الرحم، ثم ظلمة المشيمة، «ذلكم» الذي خلق السموات والأرض، وسخر الشمس والقمر، وخلقكم وخلق لكم الأنعام والنعم «الله ربكم» أي: المألوه المعبود، الذي رباكم وديركم، فكما أنه الواحد في خلقه وتربيته لا شريك له في ذلك، فهو الواحد في ألوهيته لا شريك له، ولهذا قال: «لا إله إلا هو فأنى تصرفون» بعد هذا البيان ببيان استحقاقه تعالى للإخلاص وحده إلى عبادة الأوثان، التي لا تدبر شيئاً، وليس لها من الأمر شيء.

«إن تكفروا فإن الله غني عنكم» لا يضره كفركم، كما لا ينتفع بطاعتكم، ولكن أمره ونهيه لكم محض فضله وإحسانه عليكم. «ولا يرضى لعباده الكفر» لكمال إحسانه بهم،

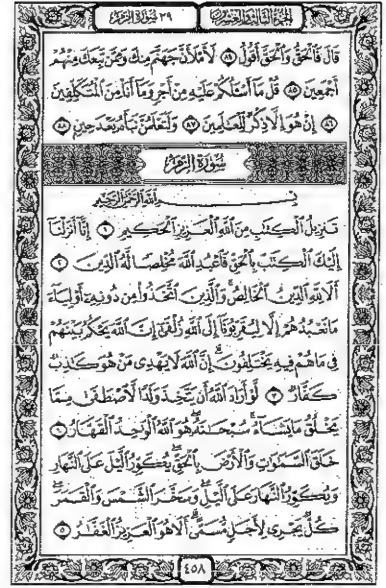
مقهوراً، ولكان له إدلال على أبنيه ومناسبة منه.

ووحده تعالى وقهره متلازمان، فالواحد لا يكون إلا قهاراً، والقهار لا يكون إلا واحداً، وذلك ينفي الشركة له من كل وجه.

«٥٧» «خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار» خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون * إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور» يخبر تعالى أنه «خلق السموات والأرض» أي: بالحكمة والمصلحة، وليأمر العباد وينهاهم، ويثيبهم ويعاقبهم.

«يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل» أي: يدخل كلاً منهما على الآخر، ويجعله محله، فلا يجتمع هذا وهذا، بل إذا أتى أحدهما انزعزل الآخر عن سلطانه. «وسخر الشمس والقمر» بتسخير منتظم، وسير مقنن. «كل» من الشمس والقمر «يجري» متأثراً عن تسخيره تعالى «لأجل مسمى» وهو انقضاء هذه الدار وخرابها، فيخرب الله آلائها وشمسها وقمرها، وينشئ الخلق نشأة جديدة ليستقروا في دار القرار، الجنة أو النار.

«ألا هو العزيز» الذي لا يغالب، القاهر لكل شيء، الذي لا يستعصى عليه شيء، الذي من عزته أوجد هذه المخلوقات العظيمة، وسخرها تجري بأمره. «الغفار» لذنوب عباده التوابين المؤمنين، كما قال تعالى: «وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى». الغفار لمن أشرك به بعدما



يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة وماواه النار. «إن الله لا يهدي» أي: لا يوفق للمهداية إلى الصراط المستقيم «من هو كاذب كفار» أي: وصفه الكذب أو الكفر، بحيث تأتبه المواعظ والآيات، ولا يزول عنه ما انتصف به، ويريه الله الآيات، فيجحدوها ويكفر بها ويكذب، فهذا أتى له الهدى وقد سد على نفسه الباب، وعوقب بأن طبع الله على قلبه، فهو لا يؤمن!!

«٤» «لو أراد الله أن يتخذ ولداً لأصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار» أي: لو أراد الله أن يتخذ ولداً كما زعم ذلك من زعمه، من سفهاء الخلق. «لأصطفى مما يخلق ما يشاء» أي: لأصطفى بعض مخلوقاته التي يشاء اصطفاؤه، واختصه لنفسه، وجعله بمنزلة الولد، ولم يكن حاجة إلى اتخاذ الصاحبة. «سبحانه» عما ظنه به الكافرون، أو نسبته إليه الملحدون. «هو الله الواحد القهار» أي: الواحد في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته، وفي أفعاله، فلا شبهة له في شيء من ذلك، ولا مماثل، فلو كان له ولد، لاقتضى أن يكون شبيهاً له في وحدته، لأنه بعضه، وجزء منه.

القهار لجميع العالم العلوي والسفلي، فلو كان له ولد لم يكن



الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك» تشير إليه هذه الآية، وترمي إليه من قريب، وهو أنه تعالى أخبر أن أرضه واسعة، فمهما شئتم من عبادته في موضع فهاجروا إلى غيرها، وهذا عام في كل زمان ومكان، فلا بد أن يكون لكل مهاجر، ملجأ من المسلمين يلجأ إليه، وموضع يتمكن من إقامة دينه فيه.

﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ وهذا عام في جميع أنواع الصبر، الصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها، والصبر عن معاصيه فلا يرتكبها، والصبر على طاعته حتى يؤديها، فوعد الله الصابرين أجرهم بغير حساب، أي: بغير حد ولا عد ولا مقدار، وما ذلك إلا لفضيلة الصبر وعمله عند الله، وأنه معين على كل الأمور.

﴿١٦-١٧﴾ **﴿قل إنني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين * وأمرت أن أكون أول المسلمين * قل إنني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم * قل الله أعبد مخلصاً له ديني * فاعبدوا ما شئتم من دونه قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين * لهم من**

فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون﴾ أي: **﴿قل﴾** يا أيها الرسول للناس: **﴿إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين﴾** في قوله في أول السورة: **﴿فاعبد الله مخلصاً له الدين﴾**

﴿وأمرت أن أكون أول المسلمين﴾ لأن الداعي الهادي للمخلق إلى ربهم، فيقتضي أني أول من ألتزم بما أمر به، وأول من أسلم، وهذا الأمر لا بد من إيقاعه من محمد ﷺ، ومن زعم أنه من أتباعه، فلا بد من الإسلام في الأعمال الظاهرة، والإخلاص لله في الأعمال الظاهرة والباطنة.

﴿قل إنني أخاف إن عصيت ربي﴾ فسي ما أمرني به من الإخلاص والإسلام. **﴿عذاب يوم عظيم﴾** يخلد فيه من أشرك، ويعاقب فيه من عصى. **﴿قل الله أعبد مخلصاً له ديني﴾** فاعبدوا ما شئتم من دونه كما قال تعالى: **﴿قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولي دين﴾**

﴿قل إن الخاسرين﴾ حقيقة هم **﴿الذين خسروا أنفسهم﴾** حيث حرموها الثواب، واستحققت بسببهم وخيم العقاب **﴿وأهليهم يوم القيامة﴾** أي: فرق بينهم وبينهم، واشتد عليهم الحزن، وعظم الخسران. **﴿ألا ذلك هو الخسران المبين﴾** الذي ليس مثله خسران، وهو خسران مستمر، لا ربح بعده، بل ولا سلامة.

ثم ذكر شدة ما يحصل لهم من الشقاء فقال: **﴿لهم من فوقهم ظلل من النار﴾** أي: قطع عذاب كإلحاح العظيم **﴿ومن تحتهم ظلل﴾**

﴿ذلك﴾ الوصف الذي وصفنا به عذاب أهل النار، سوط يسوق الله به عباده إلى رحته، **﴿يخوف﴾** الله به عباده، يا عباد فاتقون﴾ أي: جعل ما أعده لأهل الشقاء من العذاب داع يدعو

عباده إلى التقوى، وزاجر عما يوجب العذاب. فسبحان من رحم عباده في كل شيء، وسهل لهم الطرق الموصلة إليه، وحثهم على سلوكها، ورغبهم بكل مرغبت تشاق له النفوس وتطمئن له القلوب، وحذرهم من العمل لغيره^(١) غاية التحذير، وذكر لهم الأسباب الزاجرة عن تركه.

﴿١٧-١٨﴾ **﴿والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشري فيشتر عباد * الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب﴾** لما ذكر حال المجرمين ذكر حال المنيبين وثوابهم، فقال: **﴿والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها﴾** والمراد بالطاغوت في هذا الموضع، عبادة غير الله، فاجتنبوها في عبادتها. وهذا من أحسن الاحتراز من الحكيم العليم، لأن المدح إنما يتناول المجتنب لها في عبادتها.

﴿وأنابوا إلى الله﴾ بعبادته وإخلاص الدين له، فانصرفت دواعيهم من عبادة الأضنام إلى عبادة الملك العلام، ومن الشرك والمعاصي إلى التوحيد والطاعات، **﴿لهم البشري﴾** التي لا تقادر قدرها، ولا يعلم وصفها، إلا من أكرمهم بها، وهذا شامل للبشري في الحياة الدنيا بالثناء الحسن، والرؤيا الصالحة، والعناية الربانية من الله، التي يرون في خلالها، أنه مريد لإكرامهم في الدنيا والآخرة، ولهم البشري في الآخرة عند الموت، وفي القبر، وفي القيامة، وخاتمة البشري ما يشرهم به الرب الكريم، من دوام رضوانه وبره وإحسانه وحلول أمانه في الجنة.

ولما أخبر أن لهم البشري، أمره الله ببشارتهم، وذكر الوصف الذي استحقوا به البشارة فقال: **﴿فيشتر عباد * الذين يستمعون القول﴾** وهذا جنس يشمل كل قول، فهم يستمعون جنس القول ليميزوا بين ما ينبغي إثارة

(١) كذا في ب، وفي أ: وحذرهم من العمالة.

ما ينبغي اجتنابه، فهذا من حزمهم وعقلهم أنهم يتبعون أحسنه، وأحسنه على الإطلاق كلام الله وكلام رسوله، كما قال في هذه السورة: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً﴾ الآية.

وفي هذه الآية نكتة، وهي: أنه لما أخبر عن هؤلاء المدوحين أنهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه، كأنه قيل: هل من طريق إلى معرفة أحسنه حتى نتصف بصفات أولي الألباب، وحتى نعرف أن من أثره علمنا أنه من أولي الألباب؟

قيل: نعم، أحسنه ما نص الله عليه ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً﴾ الآية.

﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله﴾ لأحسن الأخلاق والأعمال ﴿وأولئك هم أولو الألباب﴾ أي: العقول الزاكية.

ومن لبهم وحزمهم، أنهم عرفوا الحسن من غيره، وأثروا ما ينبغي إثارة على ما سواه، وهذا علامة العقل، بل لا علامة للعقل سوى ذلك، فإن الذي لا يميز بين الأقوال، حسننها وقبحها، ليس من أهل العقول الصحيحة، أو الذي يميز، لكن غلبت شهوته عقله، فبقي عقله تابعاً لشهوته فلم يؤثر الأحسن، كان ناقص العقل.

﴿١٩ - ٢٠﴾ ﴿أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار﴾ لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار وعند الله لا يخلف الله الميعاد﴾ أي: أفمن وجبت عليه كلمة العذاب باستمراره على غيبه وعناده وكفره، فإنه لا حيلة لك في هدايته، ولا تقدر تنقذ من في النار لا محالة، لكن الغنى كل الغنى، والفوز كل الفوز، للمتقين الذين أعد لهم من الكرامة وأنواع النعيم ما لا يقادر قدره...

﴿لهم غرف﴾ أي: منازل عالية

مزخرفة، من حسننها وبهائها وصفاتها، أنه يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، ومن علوها وارتفاعها، [أنها] ترى كما يرى الكوكب الغابر في الأفق الشرقي أو الغربي، ولهذا قال: ﴿من فوقها غرف﴾ أي: بعضها فوق بعض ﴿مبنية﴾ بذهب وفضة، وملاطها المسك الأذفر.

﴿وعجري من تحتها الأنهار﴾ المتدفقة، المسقية للبساتين الزاهرة والأشجار الطاهرة، تغلغل بأنواع الثمار اللذيذة، والفاكهة النضيجة.

﴿وعند الله لا يخلف الله الميعاد﴾ وقد وعد المتقين هذا الثواب، فلا بد من الوفاء به، فايوفوا بخصال التقوى، ليوفهم أجورهم.

﴿٢١﴾ ﴿الم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاباً إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب﴾ يذكر تعالى أولي الألباب، ما أنزله من السماء من الماء، وأنه سلكه ينابيع في الأرض، أي: أودعه فيها ينبوعاً يستخرج بسهولة ويسر، ﴿ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه﴾ من بر وذرّة، وشعير وأرز، وغير ذلك. ﴿ثم يهيج﴾ عند استكمالها، أو عند حدوث آفة فيه ﴿فتراه مصفراً ثم يجعله حطاباً﴾ متكرساً ﴿إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب﴾ يذكرون به عناية ربهم ورحمته بعباده، حيث يسر لهم هذا الماء، وخزنته بخزائن الأرض تبعاً لمصالحهم. ويذكرون به كمال قدرته، وأنه يحيي الموتى، كما أحيا الأرض بعد موتها، ويذكرون به أن الفاعل لذلك هو المستحق للعبادة.

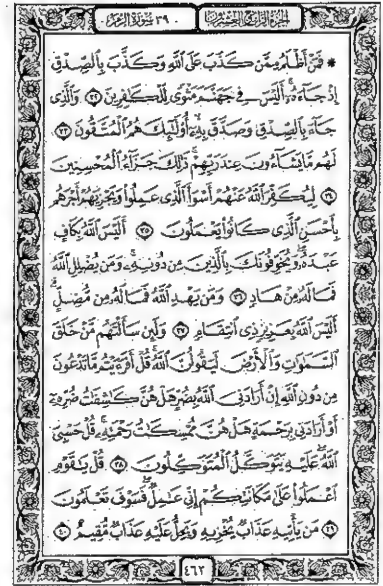
اللهم اجعلنا من أولي الألباب، الذين نوهت بذكرهم، وهديتهم بما أعطيتهم من العقول، وأريتهم من أسرار كتابك وبديع آياتك ما لم يصل إليه غيرهم، إنك أنت الوهاب.

﴿٢٢﴾ ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه قيل

للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين﴾ أي: أفسستوي من شرح الله صدره للإسلام، فاستع لتلقي أحكام الله والعمل بها، منشرحاً قريز العين، على بصيرة من أمره، وهو المراد بقوله: ﴿فهو على نور من ربه﴾ كمن ليس كذلك، بدليل قوله: ﴿قويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله﴾ أي: لا تلين لكتابته، ولا تتذكر آياته، ولا تطمئن بذكره، بل هي معرضة عن ربه، ملتفتة إلى غيره، فهو لأهلهم الويل الشديد، والشر الكبير.

﴿أولئك في ضلال مبين﴾ أي: ضلال أعظم من ضلال من أعرض عن ولية؟ ومن كل السعادة في الإقبال عليه، وقسا قلبه عن ذكره، وأقبل على كل ما يضره!!

﴿٢٣﴾ ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد﴾ يخرج تعالى عن كتابه الذي نزل أنه ﴿أحسن الحديث﴾ على الإطلاق، فأحسن الحديث كلام الله، وأحسن الكتب المنزلة من كلام الله هذا القرآن، وإذا كان هو الأحسن، علم أن ألفاظه



أفصح الألفاظ وأوضحها، وأن معانيه، أجل المعاني، لأنه أحسن الحديث في لفظه ومعناه، متشابهاً في الحسن والانتلاف وعدم الاختلاف بوجه من الوجوه. حتى إنه كلما تدبره المتدبر، وتفكر فيه المتفكر، رأى من اتفاقه، حتى في معانيه الغامضة، ما يبهز الناظرين، ويجزم بأنه لا يصدر إلا من حكيم عليم، هذا المراد بالتشابه في هذا الموضع.

وأما في قوله تعالى: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾ فالمراد بها، التي تشبه على فهم كثير من الناس، ولا يزول هذا الاشتباه إلا بردها إلى المحكم، ولهذا قال: ﴿منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾ فجعل التشابه لبعضه، وهنا جعله كله متشابهاً، أي: في حسنه، لأنه قال: ﴿أحسن الحديث﴾ وهو سور وآيات، والجميع يشبه بعضه بعضاً كما ذكرنا.

﴿مثنى﴾ أي: تثني فيه القصص والأحكام، والوعد والوعيد، وصفات أهل الخير، وصفات أهل الشر، وتثني فيه أسماء الله وصفاته، وهذا من جلالته وحسنه، فإنه تعالى لما علم احتياج الخلق إلى معانيه المزيكية للقلوب، المكملة للأخلاق، وأن تلك المعاني للقلوب، بمنزلة الماء لسقي

الأشجار، فكما أن الأشجار كلما بعد عهدها بسقي الماء نقصت، بل ربما تلفت، وكلما تكرر سقيها حسنت وأثمرت أنواع الثمار النافعة، فكذلك القلب يحتاج دائماً إلى تكرر معاني كلام الله تعالى عليه، وأنه لو تكرر عليه المعنى مرة واحدة في جميع القرآن، لم يقع منه موقعاً، ولم تحصل النتيجة منه، ولهذا سلكت في هذا التفسير هذا المسلك الكريم، إقتداء بما هو تفسير له، فلا تجد فيه الحوالة على موضع من المواضع، بل كل موضع تجد تفسيره كامل المعنى، غير مراعى لما مضى مما يشبهه، وإن كان بعض المواضع يكون أبسط من بعض وأكثر فائدة، وهكذا ينبغي للقارئ للقرآن، التدبر لمعانيه، أن لا يدع التدبر في جميع المواضع منه، فإنه يحصل له بسبب ذلك خير كثير ونفع غزير.

ولما كان القرآن العظيم بهذه الجلالة والعظمة، أثر في قلوب أولي الألباب المهتدين، فلهذا قال تعالى: ﴿تقشعر من جلود الذين يخشون ربهم﴾ لما فيه من التخويف والترهيب المزعج، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله أي: عند ذكر الرجاء والترغيب، فهو تارة يرغبهم لعمل الخير، وتارة يرهيبهم من عمل الشر.

﴿ذلك﴾ الذي ذكره الله من تأثير القرآن فيهم ﴿هذه﴾ أي: هداية منه لعباده، وهو من جملة فضله وإحسانه عليهم، ﴿يهدي به﴾ أي: بسبب ذلك ﴿من يشاء﴾ من عباده. ومحتمل أن المراد بقوله: ﴿ذلك﴾ أي: القرآن الذي وصفناه لكم.

﴿هذه﴾ الذي لا طريق يوصل إلى الله إلا منه ﴿يهدي به﴾ من يشاء من عباده، ممن حسن قصده، كما قال تعالى: ﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام﴾.

﴿ومن يضل الله فما له من هادٍ﴾ لأنه لا طريق يوصل إليه إلا توفيقه والتوفيق للإقبال على كتابه، فإذا لم يحصل هذا، فلا سبيل إلى الهدى، وما هو إلا الضلال المين والشقاء.

﴿٢٤ - ٢٦﴾ ﴿أمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون﴾ كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴿فأذاقهم الله الحزني في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾ أي: أفيستوي هذا الذي هداه الله، ووفقه لسلك الطريق الموصلة لدار كرامته، كمن كان في الضلال واستمر على عناده حتى قدم القيامة، فجاءه العذاب العظيم فجعل يتقي بوجهه الذي هو أشرف الأعضاء، وأدنى شيء من العذاب يؤثر فيه، فهو يتقي فيه سوء العذاب لأنه قد غلت يده ورجلاه، ﴿وقيل للظالمين﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي، توبيخاً وتقريعاً: ﴿ذوقوا ما كنتم تكسبون﴾.

﴿كذب الذين من قبلهم﴾ من الأمم كما كذب هؤلاء، ﴿فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾ جاءهم في غفلة أول نهار، أو هم قائلون، ﴿فأذاقهم الله﴾ بذلك العذاب ﴿الحزني في الحياة الدنيا﴾ فافتضحوا عند الله وعند خلقه ﴿ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾ فليحذر هؤلاء من المقام على التكذيب، فيصيبهم ما أصاب أولئك من التعذيب.

﴿٢٧ - ٣١﴾ ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون﴾ قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلمهم يتقون ﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ إنك ميت وإنهم ميتون ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ يخبر تعالى أنه ضرب في القرآن من جميع الأمثال، أمثال أهل الخير وأمثال أهل الشر، وأمثال التوحيد والشرك، وكل مثل يقرب حقائق الأشياء، والحكمة في ذلك ﴿لعلمهم يتذكرون﴾ عندما نوضح لهم الحق فيعلمون ويعملون.

﴿قرآناً عربياً غير ذي عوج﴾ أي: جعلناه قرآناً عربياً، واضح الألفاظ،

سهل المعاني، خصوصاً على العرب. **﴿غير ذي عوج﴾** أي: ليس فيه خلل ولا نقص بوجه من الوجوه، لا في ألفاظه ولا في معانيه، وهذا يستلزم كمال اعتداله واستقامته كما قال تعالى: **﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً﴾** * قيماً.

﴿لعلهم يتقون﴾ الله تعالى، حيث سهلنا عليهم طرق التقوى العلمية والعملية، بهذا القرآن العربي المستقيم، الذي ضرب الله فيه من كل مثل.

ثم ضرب مثلاً للشرك والتوحيد فقال: **﴿ضرب الله مثلاً رجلاً﴾** أي: عبداً **﴿فيه شركاء متشاكسون﴾** فهم كثيرون، وليسوا متفقين على أمر من الأمور وحالة من الحالات حتى تمكن راحته، بل هم متشاكسون متنازعون فيه، كل له مطلب يريد تنفيذه ويريد الآخر غيره، فما تظن حال هذا الرجل مع هؤلاء الشركاء المتشاكسين؟

﴿ورجلاً مسلماً لرجل﴾ أي: خالصاً له، قد عرف مقصود سيده، وحصلت له الراحة التامة. **﴿هل يستويان﴾** أي: هذان الرجلان **﴿مثلاً﴾**؟ لا يستويان.

كذلك المشرك، فيه شركاء متشاكسون، يدعو هذا، ثم يدعو هذا، فتراه لا يستقر له قرار، ولا يطمئن قلبه في موضع، والموحد مخلص لربه، قد خلصه الله من الشراكة لغيره، فهو في أتم راحة وأكمل طمأنينة، ف **﴿هل يستويان مثلاً﴾** الحمد لله **﴿على تبيين الحق من الباطل، وإرشاد الجهال﴾**. **﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾**

﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ أي: كلكم لا بد أن يموت **﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون﴾**.

﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ فيما تنازعتم فيه، فيفصل بينكم بحكمه العادل، ويجازي كل ما عمله **﴿أحصاه الله ونسوه﴾**.

﴿٣٢-٣٥﴾ فمن أظلم ممن

كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه **﴿ليس في جهنم مثوى للكافرين﴾** * والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون **﴿لهم ما يشاؤون عند ربهم﴾** ذلك جزاء المحسنين **﴿ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويميزهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون﴾** يقول تعالى، محذراً وخبراً: أنه لا أظلم وأشد ظلماً **﴿ممن كذب على الله﴾** إما بنسبته إلى ما لا يليق بجلاله، أو بادعاء النبوة، أو الإخبار بأن الله تعالى قال كذا، أو أخبر بكذا، أو حكم بكذا وهو كاذب، فهذا داخل في قوله تعالى: **﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾** إن كان جاهلاً، وإلا فهو أشنع وأشنع،

﴿وكذب بالصدق إذ جاءه﴾ (١) أي: ما أظلم ممن جاءه الحق المؤيد بالبينات فكذبه، فتكذبه ظلم عظيم منه، لأنه رد الحق بعدما تبين له، فإن كان جامعاً بين الكذب على الله والكذب بالحق، كان ظلماً على ظلم. **﴿ليس في جهنم مثوى للكافرين﴾** يحصل بها الاشتفاء منهم، وأخذ حق الله من كل ظالم وكافر. **﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾**.

ولما ذكر الكاذب المكذب وجنابته وعقوبته، ذكر الصادق المصدق وثوابه، فقال: **﴿والذي جاء بالصدق﴾** في قوله وعمله، فدخل في ذلك الأنبياء ومن قام مقامهم، ممن صدق فيما قاله عن خبر الله وأحكامه، وفيما فعله من خصال الصدق.

﴿وصدق به﴾ أي: بالصدق لأنه قد يحيي الإنسان بالصدق، ولكن قد لا يصدق به، بسبب استكباره، أو احتقاره لمن قاله وأتى به، فلا بد في الملح من الصدق والتصديق، فصدقه يدل على علمه وعدله، وتصديقه يدل على تواضعه وعدم استكباره.

﴿أولئك﴾ أي: الذين وفقوا للجمع بين الأمرين **﴿هم المتقون﴾** فإن جميع خصال التقوى ترجع إلى الصدق بالحق

والتصديق به.

إنا أنزلنا عليك الكتاب بالبينات والهدى، فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه **﴿ليس في جهنم مثوى للكافرين﴾** * والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون **﴿لهم ما يشاؤون عند ربهم﴾** ذلك جزاء المحسنين **﴿ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويميزهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون﴾** يقول تعالى، محذراً وخبراً: أنه لا أظلم وأشد ظلماً **﴿ممن كذب على الله﴾** إما بنسبته إلى ما لا يليق بجلاله، أو بادعاء النبوة، أو الإخبار بأن الله تعالى قال كذا، أو أخبر بكذا، أو حكم بكذا وهو كاذب، فهذا داخل في قوله تعالى: **﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾** إن كان جاهلاً، وإلا فهو أشنع وأشنع، **﴿وكذب بالصدق إذ جاءه﴾** (١) أي: ما أظلم ممن جاءه الحق المؤيد بالبينات فكذبه، فتكذبه ظلم عظيم منه، لأنه رد الحق بعدما تبين له، فإن كان جامعاً بين الكذب على الله والكذب بالحق، كان ظلماً على ظلم. **﴿ليس في جهنم مثوى للكافرين﴾** يحصل بها الاشتفاء منهم، وأخذ حق الله من كل ظالم وكافر. **﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾**.

﴿لهم ما يشاؤون عند ربهم﴾ من الشواب، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فكل ما تعلقت به إرادتهم ومشيتهم، من أصناف اللذات والمشتريات، فإنه حاصل لهم، معد مهياً، **﴿ذلك جزاء المحسنين﴾** الذين يعبدون الله كأنهم يروونه، فإن لم يكونوا يروونه فإنه يراهم **﴿المحسنين﴾** إلى عباد الله.

﴿ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويميزهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون﴾ عمل الإنسان له ثلاث حالات

إما أسوأ، أو أحسن، أو لا أسوأ ولا أحسن.

والقسم الأخير قسم المباحات وما لا يتعلق به ثواب ولا عقاب، والأسوأ المعاصي كلها، والأحسن الطاعات كلها، فهذا التفصيل يتبين معنى الآية، وأن قوله: **﴿ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا﴾** أي: ذنوبهم الصغار، بسبب إحسانهم وتقواهم، **﴿ويميزهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون﴾** أي: بحسناتهم كلها. **﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾**.

(١) في النسختين: أو كذب بالحق لما جاءه.

مَنْ كَانَ مَاتَ، أَوْ قُضِيَ أَنْ يَمُوتَ فِي مَتَامِهِ.

«وِيرْسِلُ» النفس «الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى» أَي: إِلَى اسْتِكْمَالِ رِزْقِهَا وَأَجَلِهَا. «إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» عَلَى كِمَالِ اقْتِدَارِهِ، وَإِحْيَائِهِ الْمَوْتَى بَعْدَ مَوْتِهِمْ.

وفي هذه الآية دليل على أن الروح والنفس جنس قائم بنفسه، يخالف جوهره جوهر البدن، وأنها مخلوقة مدبرة، يتصرف الله فيها في الوفاة والإمساك والإرسال، وأن أرواح الأحياء والأموات تتلاقى في البرزخ، فتجتمع فتتحدث، فيرسل الله أرواح الأحياء، ويمسك أرواح الأموات.

«٤٣- ٤٤» «أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلُوبُ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْلَمُونَ» قُلُوبُ اللَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تَرْجَعُونَ يَنْكُرُ تَعَالَى عَلَى مَنْ اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ شُفَعَاءَ يَتَعَلَّقُ بِهِمْ وَيَسْأَلُهُمْ وَيُعِيدُهُمْ. «قُلُوبُ» لَهُمْ - مِثْلًا جَهْلُهُمْ، وَأَنَّهُ لَا تَسْتَحِقُّ شَيْئًا مِنَ الْعِبَادَةِ -: «أُولَئِكَ كَانُوا» أَي: مَنْ اتَّخَذَ مِنَ الشُّفَعَاءِ «لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا» أَي: لَا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ، بَلْ وَلَيْسَ لَهُمْ عَقْلٌ يَسْتَحْقِقُونَ أَنْ يَمْدُخُوا بِهِ، لِأَنَّهُمَا جِبَادَاتُ مِنْ أَحْجَارٍ وَأَشْجَارٍ وَصُورٍ وَأَمْوَاتٍ، فَهَلْ يَقَالُ: إِنْ لَمْ نَتَّخِذْهَا عَقْلًا؟ أَمْ هُوَ مِنْ أَضَلِّ النَّاسِ وَأَجْهَلِهِمْ وَأَعْظَمِهِمْ ظُلْمًا؟

«قُلُوبُ» لَهُمْ: «لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا» لِأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ وَكُلُّ شَفِيعٍ فَهُوَ يَخَافُهُ، وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَشْفَعَ عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَإِذَا أَرَادَ رَحْمَةً عِنْدَهُ، أَذِنَ لِلشَّفِيعِ الْكَرِيمِ عِنْدَهُ أَنْ يَشْفَعَ، رَحْمَةً بِالْآثِنِينَ. ثُمَّ قَرَّرَ أَنَّ الشَّفَاعَةَ كُلَّهَا لَهُ يَقُولُ: «لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» أَي: جَمِيعُ مَا فِيهِمَا مِنَ الْبُذُوتِ وَالْأَفْعَالِ وَالصِّفَاتِ. فَالْوَاجِبُ أَنْ تَطْلُبَ الشَّفَاعَةَ مِمَّنْ يَمْلِكُهَا، وَتُخْلِصَ لَهُ الْعِبَادَةَ. «ثُمَّ إِلَيْهِ تَرْجَعُونَ» فِي جَزَائِ الْمَخْلُصِ لَهُ بِالشَّوَابِ الْجَزِيلِ، وَمَنْ

أَشْرَكَ بِهِ بِالْعَذَابِ الْوَبِيلِ.

«٤٥- ٤٦» «وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ» قُلُوبُ الَّذِينَ فَاطَرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ يَذْكُرُ تَعَالَى حَالَةَ الْمُشْرِكِينَ، وَمَا الَّذِي اقْتَضَاهُ شُرْكُهُمْ أَنَّهُمْ «إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ» تَوَحِيدًا لَهُ، وَأَمْرًا بِإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ، وَتَرْكُ مَا يَبْعُدُ مِنْ دُونِهِ، أَنَّهُمْ يَسْتَمْتِرُونَ وَيَنْفَرُونَ، وَيَكْرَهُونَ ذَلِكَ أَشَدَّ الْكَرَاهَةِ.

«وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ» مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ، وَدَعَا الدَّاعِيَ إِلَى عِبَادَتِهَا وَمَدْحِهَا، «إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ» بِذَلِكَ، فَرَحًا بِذِكْرِ مَعْبُودَاتِهِمْ، وَلِكُونِ الشَّرْكِ مُوَافِقًا لِأَهْوَائِهِمْ، وَهَذِهِ الْحَالُ أَشْرَ الْخِيَالَاتِ وَأَشْنَعُهَا، وَلَكِنْ مَوْعِدُهُمْ يَوْمَ الْجَزَاءِ. فَهَنَّاكَ يُوْخِذُ الْحَقُّ مِنْهُمْ، وَيَنْظُرُ: هَلْ تَنْفَعُهُمُ الْهَتَمُ الَّتِي كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شَيْئًا؟

ولهذا قال: «قُلُوبُ الَّذِينَ فَاطَرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» أَي: خَالِقَهُمَا وَمَدْبِرُهُمَا، «عَالِمِ الْغَيْبِ» الَّذِي غَابَ عَنْ أَبْصَارِنَا وَعِلْمِنَا، «وَالشَّهَادَةِ» الَّذِي نَشَاهِدُهُ.

«أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» وَإِنْ مِنْ أَعْظَمِ الْاِخْتِلَافِ اِخْتِلَافُ الْمُوحِدِينَ الْمُخْلِصِينَ الْقَائِلِينَ: إِنْ مَا هُمْ عَلَيْهِ هُوَ الْحَقُّ، وَإِنْ لَهُمْ الْحَسَنَى فِي الْآخِرَةِ دُونَ غَيْرِهِمْ، وَالْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِكَ الْأَنْدَادَ وَالْأَوْثَانَ، وَسَوَّاهُ فَبَيْنَ مَنْ لَا يَسُوْهُ شَيْئًا، وَتَنْقُصُوكَ غَايَةَ التَّنْقِصِ، وَاسْتَبْشَرُوا عِنْدَ ذِكْرِ الْهَتَمِ، وَاسْتَمْتَرُوا عِنْدَ ذِكْرِكَ، وَزَعَمُوا مَعَ هَذَا أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ وَغَيْرِهِمْ عَلَى الْبَاطِلِ، وَأَنْ لَهُمُ الْحَسَنَى.

قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ».

وقد أخبرنا بالفصل بينهم بعدها

بقوله: «هَذَانِ حَصْمَانِ اخْتَصِمُوا فِي رَيْبِهِمَا فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ» يَصْهَرُ بِهِ مَا فِي بَطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ * إِلَى أَنْ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجْلُونَ فِيهَا مِنْ أَسْبَاطٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْثًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ».

وقال تعالى: «الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ ظُلْمًا أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ» إِنَّهُ مَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ * فَبِئْسَ هَذِهِ الْآيَةُ، بَيَانُ عَمُومِ خَلْقِهِ تَعَالَى وَعَمُومِ حُكْمِهِ بَيْنَ عِبَادِهِ، فَقُدْرَتُهُ الَّتِي نَشَأَتْ عَنْهَا الْمَخْلُوقَاتِ، وَعِلْمُهُ الْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ، دَالٌ عَلَى حُكْمِهِ بَيْنَ عِبَادِهِ وَبَعْثُهُمْ، وَعِلْمُهُ بِأَعْمَالِهِمْ، خَيْرُهَا وَشَرُّهَا، وَبِمَقَادِيرِ جَزَائِهَا، وَخَلْقُهُ دَالٌ عَلَى عِلْمِهِ «أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ».

«٤٧- ٤٨» «وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» وَيَدَّاهُمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْسَبُونَ * وَيَدَّاهُمُ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ الْحَاكِمُ بَيْنَ عِبَادِهِ، وَذَكَرَ مَقَالَ الْمُشْرِكِينَ وَشَنَاعَتَهَا، كَانَتْ النُّفُوسُ تَشْرُوقُ إِلَى مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَخْبَرَ أَنَّ لَهُمْ «سُوءَ الْعَذَابِ» أَي: أَشَدَّهُ وَأَقْظَمَهُ، كَمَا قَالُوا أَشَدَّ الْكُفْرِ وَأَشْنَعَهُ، وَأَنَّهُمْ عَلَى - الْفُرْضِ وَالتَّقْدِيرِ - لَوْ كَانَ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا، مِنْ ذَهَبٍ وَفُضْتِهَا وَلَوْلُوهَا وَحَيَوَانَاتِهَا وَأَشْجَارُهَا وَزُرُوعُهَا وَجَمِيعُ أَوَانِهَا وَأَنْثَاهَا وَمِثْلَهُ مَعَهُ، ثُمَّ بَذَلُوهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنَ الْعَذَابِ وَيَنْجُوا مِنْهُ، مَا قُبِلَ مِنْهُمْ، وَلَا أَعْنَى عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ شَيْئًا، «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ» إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ.

«وَيَدَّاهُمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْسَبُونَ» أَي: يَظُنُّونَ مِنَ السَّخَطِ الْعَظِيمِ، وَالْمَقْتِ الْكَبِيرِ، وَقَدْ كَانُوا

يحكمون لأنفسهم بغير ذلك.

﴿وبدا لهم سيئات ما كسبوا﴾ أي: الأمور التي تسوؤهم، بسبب صنيعهم وكسبهم. ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ من الوعيد والعذاب الذي نزل بهم، وما حل عليهم العقاب.

﴿٤٩-٥٢﴾ ﴿فإذا مس الإنسان ضرر دنا ثم إذا خولته نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴿فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين﴾ أولم يعلموا أن الله ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴿يخبر تعالى عن حالة الإنسان وطبيعته، أنه حين يمسّه ضرر، من مرض أو شدة أو كرب، ﴿دعانا﴾ ملحاً في تفريج ما نزل به ﴿ثم إذا خولته نعمة منا﴾ فكشفنا ضره وأزلنا مشقته، عاد بربه كافراً، ولمعرفه منكراً، و ﴿قال إنما أوتيته على علم﴾ أي: علم من الله، أي له أهل، وأي مستحق له، لأي كريم عليه، أو على علم مني بطرق تحصيله.

قال تعالى: ﴿بل هي فتنة﴾ يتلى الله به عباده، لينظر من يشكره عن يكفره. ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ فلذلك يعدون الفتنة منحة، ويشبهه عليهم الخير المحض، بما قد يكون سبباً للخير أو للشر.

قال تعالى: ﴿قد قالها الذين من قبلهم﴾ أي: قولهم ﴿إنما أوتيته على علم﴾ فما زالت متواردة عند المكذبين، لا يقرون بنعمة ربهم، ولا يرون له حقاً، فلم يزل دأبهم حتى أهلكوا، ولم يغن عنهم ما كانوا يكسبون ﴿حين جاءهم العذاب﴾.

﴿فأصابهم سيئات ما كسبوا﴾ والسيئات في هذا الموضع: العقوبات، لأنها تسوء الإنسان وتحزنه. ﴿والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا﴾ فليسوا خيراً من أولئك، ولم يكتب لهم براءة في الزبر.

ولما ذكر أنهم اغتروا بالمال، وزعموا - بجهلهم - أنه يدل على حسن حال صاحبه، أخبرهم تعالى، أن رزقه لا يدل على ذلك، وأنه ﴿يسط الرزق لمن يشاء﴾ من عباده، سواء كان صالحاً أو طالحاً ﴿ويقدر﴾ الرزق، أي: يضيقة على من يشاء، صالحاً أو طالحاً، فزرقه مشترك بين البرية، والإيمان والعمل الصالح يخص به خير البرية. ﴿إن في ذلك، لآيات لقوم يؤمنون﴾ أي: يسط الرزق وقبضه، لعلمهم أن مرجع ذلك، عائد إلى الحكمة والرحمة، وأنه أعلم بحال عبده، فقد يضيقة عليهم الرزق لطفاً بهم، لأنه لو بسطه لبغوا في الأرض، فيكون تعالى مراعيّاً في ذلك صلاح دينهم الذي هو مادة سعادتهم وفلاحهم، والله أعلم.

﴿٥٣-٥٩﴾ ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ هو الغفور الرحيم ﴿وأنبئوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب﴾ ثم لا تنصرون ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بفتنة وأنتم لا تشعرون﴾ أن تقول نفس يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين ﴿أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين﴾ أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين ﴿بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين﴾ يخبر تعالى عباده المسرفين بسعة كرمه، ويحثهم على الإنابة قبل أن لا يمكنهم ذلك فقال: ﴿قل﴾ يا أيها الرسول ومن قام مقامه من الدعاة لدين الله، مخبراً للعباد عن ربهم: ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ باتباع ما تدعوهم إليه أنفسهم من الذنوب، والسعي في مساخط علام الغيوب.

﴿لا تقنطوا من رحمة الله﴾ أي: لا تياسوا منها، فتلقوا بأيديكم إلى التهلكة، وتقولوا قد كثرت ذنوبنا وتراكت عيوبنا، فليس لها طريق

يزيلها ولا سبيل يصرفها، فتبقون بسبب ذلك مصرين على العصيان، متزودين ما يغضب عليكم الرحمن، ولكن اعرفوا ربكم بأسمائه الدالة على كرمه وجوده، واعلموا أنه يغفر الذنوب جميعاً، من الشرك، والقتل، والزنا، والربا، والظلم، وغير ذلك من الذنوب الكبار والصغار. ﴿إنه هو الغفور الرحيم﴾ أي: وصفه المغفرة والرحمة، وصفان لازمان ذاتيان، لا تفك ذاته عنهما، ولم تزل آثارهما سارية في الوجود، ماثلة للوجود، تسح يده من الخيرات آتاء الليل والنهار، ويوالي النعم على العباد والفواضل في السر والجهار، والعطاء أحب إليه من المنع، والرحمة سبقت الغضب وغلبته، ولكن لمغفرته ورحمته وتليهما أسباب إن لم يأت بها العبد، فقد أغلق على نفسه باب الرحمة والمغفرة، أعظمها وأجلها، بل لا سبب لها غيره، الإنابة إلى الله تعالى بالتوبة النصوح، والدعاء والتضرع والتأله والتعبد، فهلم إلى هذا السبب الأجل، والطريق الأعظم، ولهذا أمر تعالى بالإنابة إليه، والمبادرة إليها فقال: ﴿وأنبئوا إلى ربكم﴾ بقلوبكم ﴿وأسلموا له﴾ بجوارحكم، إذا أفردت الإنابة، دخلت فيها أعمال الجوارح، وإذا جمع بينهما، كما في هذا الموضع، كان المعنى ما ذكرنا:

وفي قوله: ﴿إلى ربكم وأسلموا له﴾ دليل على الإخلاص، وأنه من دون إخلاص، لا تفيد الأعمال الظاهرة والباطنة شيئاً. ﴿من قبل أن يأتيكم العذاب﴾ مجيئاً لا يدفع ﴿ثم لا تنصرون﴾. فكأنه قيل: ما هي الإنابة والإسلام؟ وما جزئياتها وأعمالها؟

فأجاب تعالى بقوله: ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾ مما أمركم من الأعمال الباطنة، كمحبة الله، وخشيته، وخوفه، ورجائه، والنصح لعباده، ومحبة الخير لهم، وترك ما يضاد ذلك.

ومن الأعمال الظاهرة، كالصلاة،

والزكاة والصيام، والحج، والصدقة، وأنواع الإحسان، ونحو ذلك، بما أمر الله به، وهو أحسن ما أنزل إلينا من ربنا، فالمتبع لأوامر ربه في هذه الأمور ونحوها هو المتبسط المسلم، **«من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون»** وكل هذا جئت على المبادرة وانتهاز الفرصة.

ثم حذرهم **«أن»** لا يستمروا على غفلتهم، حتى يأتيهم يوم يندمون فيه، ولا تنفع الندامة، و**«تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله»** أي: في جانب حقه، **«وإن كنت في الدنيا لمن الساعرين»** في إتيان الجزاء، حتى رأيته عياناً.

«أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين» و**«لو»** في هذا الموضع للتمني، أي: ليت أن الله هداني فأكون متقياً له، فأسلم من العقاب وأستحق الثواب، وليست **«لو»** هنا شرطية، لأنها لو كانت شرطية، لكانوا محتجين بالقضاء والقدر على ضلالهم، وهو حجة باطلة، ويوم القيامة تضمحل كل حجة باطلة.

«أو تقول حين ترى العذاب وتجزم بوزوده» **«لو أن لي كربة»** أي: رجعة إلى الدنيا لكنت من المحسنين. قال تعالى: **«إن ذلك غير ممكن ولا مفيد، وإن هذه أمانى باطلة لا حقيقة لها، إذ لا يتجدد للعبدة لزؤد»**، بيان بعد البيان الأول.

«بل قد جاءك آياتي» الدالة دلالة لا يمتري فيها على الحق **«فكذبت بها واستكبرت»** عن اتباعها **«وكن من الكافرين»** فسؤال الرد إلى الدنيا، نوع عبث، **«ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون»**.

«٦٠ - ٦١» **«ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ليس في جهنم مثوى للمتكبرين»** وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون، يخبر تعالى عن خزي الذين كذبوا عليه، وأن وجوههم يوم القيامة مسودة كأنها الليل البهيم، يعرفهم بذلك أهل الموقف،

فالحق أبلغ واضح كأنه الصبح، فكما سؤدوا وجه الحق بالكذب، سود الله وجوههم، جزاء من جنس عملهم.

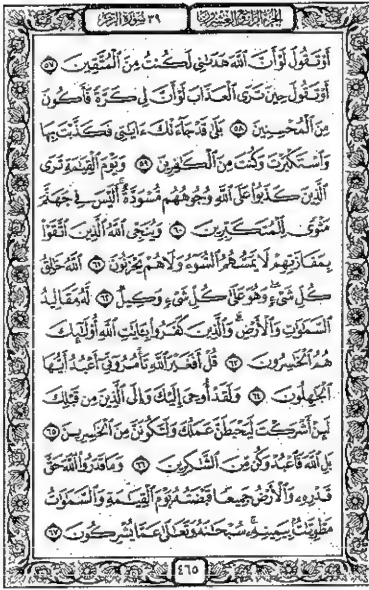
فلهم سواد الوجوه، ولهم العذاب الشديد في جهنم، ولهذا قال: **«ليس في جهنم مثوى للمتكبرين»** عن الحق، وعن عبادة ربهم، المتشربين عليه؟ بلى والله، إن فيها عقوبة وخزياً وسخطاً، يبلغ من المتكبرين كل مبلغ، ويؤخذ الحق منهم بها.

والكذب على الله يشمل الكذب عليه باتخاذ الشريك والولد والصاحبة، والإخبار عنه بما لا يليق بجلاله، أو ادعاء النبوة، أو القول في شرعه بما لم يقله، والإخبار بأنه قاله وشرعه.

ولما ذكر حالة المتكبرين، ذكر حالة المتقين، فقال: **«وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم»** أي: بنجاتهم، وذلك لأن معهم آلة النجاة، وهي تقوى الله تعالى، التي هي العدة عند كل هول وشدة. **«لا يمسهم السوء»** أي: العذاب الذي يسوؤهم **«ولا هم يحزنون»** فنفي عنهم مباشرة العذاب وخوفه، وهذا غاية الأمان.

فلهم الأمن التام، يصحبهم حتى يوصلهم إلى دار السلام، فحينئذ يأمنون من كل سوء ومكروه، وتجري عليهم نضرة النعيم، ويقولون: **«الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور»**.

«٦٢ - ٦٣» **«الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل»** له مقاليد السماوات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون، يخبر تعالى عن عظمتهم وكماله، الموجب لحسرتان من كفر به فقال: **«الله خالق كل شيء»** هذه العبارة وما أشبهها، مما هو كثير في القرآن، تدل على أن جميع الأشياء - غير الله - مخلوقة، ففيها رد على كل من قال بتقديم بعض المخلوقات، كالفلاسفة القائلين بتقديم الأرض والسماوات، وكالقائلين بتقديم الأرواح، ونحو ذلك من أقوال أهل الباطل، المتضمنة تعطيل الخالق عن خلقه.



وليس كلام الله من الأشياء المخلوقة، لأن الكلام صفة المتكلم، والله تعالى بأسمائه وصفاته أول ليس قبله شيء، فأخذ أهل الاعتزال من هذه الآية ونحوها أنه مخلوق، من أعظم الجهل، فإنه تعالى لم يزل بأسمائه وصفاته، ولم يحدث له صفة من صفاته، ولم يكن معطلاً عنها بوقت من الأوقات، والشاهد من هذا، أن الله تعالى أخبر عن نفسه الكريمة أنه خالق لجميع العالم العلوي والسفلي، وأنه على كل شيء وكيل، والوكالة التامة لا بد فيها من علم الوكيل بما كان وكيلاً عليه، وإحاطة بتفاصيله، ومن قدرة تامة على ما هو وكيل عليه، ليتمكن من التصرف فيه، ومن حفظ لما هو وكيل عليه، ومن حكمة، ومعرفة بوجوه التصرفات، ليصرفها ويدبرها على ما هو الأليق، فلا تتم الوكالة إلا بذلك كله، فما نقص من ذلك فهو نقص فيها.

ومن المعلوم المتقرر، أن الله تعالى منزه عن كل نقص في صفة من صفاته، فأخبره بأنه على كل شيء وكيل، يدل على إحاطة علمه بجميع الأشياء، وكمال قدرته على تدبيرها، وكمال تدبيره، وكمال حكيمته التي يضع بها الأشياء مواضعها.

«٦٣» **«له مقاليد السماوات والأرض»** أي: مفاتيحها، علماً

فسووا هذا المخلوق الناقص بالخالق
الرب العظيم، الذي من عظمته
الباهرة، وقدرته القاهرة، أن جميع
الأرض يوم القيامة قبضة للرحمن، وأن
السموات - على سعتها وعظمتها -
مطويات بيمينه، فلا عظمه حق عظمته
من سوى به غيره، ولا أظلم منه.

﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾
أي: تنزهه وتعظمه عن شركهم به.
﴿٦٨ - ٧٠﴾ ﴿ونفخ في الصور
فصعق من في السموات ومن في
الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه
أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾
وأشرفت الأرض بنور ربها ووضع
الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء
وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون
وفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم
بما يفعلون﴾ لما خوفهم تعالى من
عظمته، خوفهم بأحوال يوم القيامة،
ورغبهم ورهبهم فقال: ﴿ونفخ في
الصور﴾ وهو قرن عظيم، لا يعلم
عظمته إلا خالقه، ومن أطلعه الله على
علمه من خلقه، فينفخ فيه إسرافيل
عليه السلام، أحد الملائكة المقربين،
وأحد حلة عرش الرحمن.

﴿فصعق﴾ أي: غشي أوزمات،
على اختلاف القولين: ﴿من في
السموات ومن في الأرض﴾ أي:
كلهم، لما سمعوا نفخة الصور
أزعجتهم من شدتها وعظمتها، وما
يعلمون أنها مقدمة له. ﴿إلا من
شاء الله﴾ من ثبته الله عند النفخة،
فلم يصعق، كالشهداء أو بعضهم،
وغيرهم. وهذه النفخة الأولى، نفخة
الصعق ونفخة الفزع.

﴿ثم نفخ فيه﴾ النفخة الثانية نفخة
البعث ﴿فإذا هم قيام ينظرون﴾ أي:
قد قاموا من قبورهم لبعثهم وحسابهم،
قد تمت منهم الخلقة الجسدية
والأرواح، وشخصت أبصارهم
﴿ينظرون﴾ ماذا يفعل الله بهم.

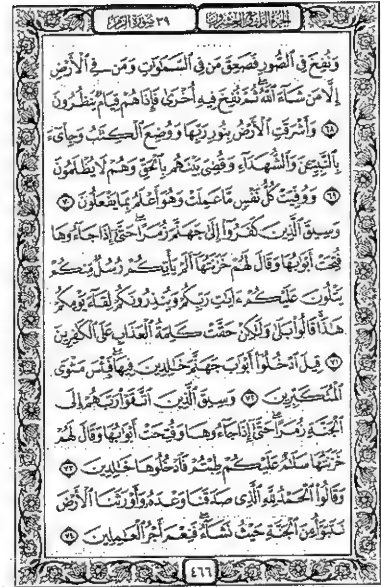
﴿وأشرفت الأرض بنور ربها﴾ علم
من هذا، أن الأنوار الموجودة تذهب
يوم القيامة وتضمحل، وهو كذلك،
فإن الله أخبر أن الشمس تكور،

من كل وجه، لا ينفع ولا يضر، لم
تأمروني بذلك، وذلك لأن الشرك بالله
محبط للأعمال، مفسد للأحوال،
ولهذا قال: ﴿ولقد أوحى إليك وإلى
الذين من قبلك﴾ من جميع الأنبياء
﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ هذا
مفرد مضاف، يعم كل عمل، ففي نبوة
جميع الأنبياء، أن الشرك محبط لجميع
الأعمال، كما قال تعالى في سورة
الأنعام - لما عدد كثيراً من أنبيائه ورسله
قال عنهم: ﴿ذلك هدى الله يهدي به
من يشاء من عباده ولو أشركوا حبط
عنهم ما كانوا يعملون﴾.

﴿ولتكونن من الخاسرين﴾ دينك
وأخرتك، فبالشرك تحبط الأعمال،
ويستحق العقاب والنكال.

ثم قال: ﴿بل الله فاعبد﴾ لما أخبر
أن الجاهلين يأمرونه بالشرك، وأخبر
عن شناعته، أمره بالإخلاص فقال:
﴿بل الله فاعبد﴾ أي: أخلص له
العبادة وحده لا شريك له، ﴿وكن من
الشاكرين﴾ لله على توفيق الله تعالى،
فكما أنه تعالى يشكر على النعم
الدنيوية، كصحة الجسم وعافيته،
وحصول الرزق وغير ذلك، كذلك
يشكر ويثنى عليه بالنعم الدينية،
كالتوفيق للإخلاص، والتقوى، بل
نعم الدين، هي النعم على الحقيقة،
وفي تدبر أنها من الله تعالى والشكر لله
عليها، سلامة من آفة العجب التي
تعرض لكثير من العاملين، بسبب
جهلهم، وإلا، فلو عرف العبد حقيقة
الحال، لم يعجب بنعمة تستحق عليه
زيادة الشكر.

﴿٦٧﴾ ﴿وما قدروا الله حق قدره
والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة
والسموات مطويات بيمينه سبحانه
وتعالى عما يشركون﴾ يقول تعالى: وما
قدر هؤلاء المشركون ربهم حق قدره،
ولا عظموه حق تعظيمه، بل فعلوا ما
يناقض ذلك، من إشرافهم به من هو
ناقص في أوصافه وأفعاله، فأوصافه
ناقصه من كل وجه، وأفعاله ليس عنده
نفع ولا ضرر، ولا عطاء ولا منع،
ولا يملك من الأمر شيئاً.



وتدبيراً، ف ﴿ما يفتح الله للناس من
رحمة فلا ممسك لها وما يمسك
فلا مرسل له من بعده، وهو العزيز
الحكيم﴾. فلما بين من عظمته ما
يقتضي أن تمتلئ القلوب له إجلالاً
وإكراماً، ذكر حال من عكس القضية
فلم يقدره حق قدره، فقال: ﴿والذين
كفروا بنآيات الله، الدالة على الحق
اليقين والبصراط المستقيم، أولئك هم
الخاسرون﴾ خسروا ما به تصلح
القلوب من التأله والإخلاص لله، وما
به تصلح الألسن من إشغالها
بذكر الله، وما تصلح به الجوارح من
طاعة الله، وتعرضوا عن ذلك كل
مفسد للقلوب والأبدان، وخسروا
جنات النعيم، وتعرضوا عنها بالعذاب
الأيام.

﴿٦٤ - ٦٦﴾ ﴿قل أفغير الله
تأمروني أعبد أيها الجاهلون﴾ ولقد
أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن
أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من
الخاسرين ﴿بل الله فاعبدون﴾ من
الشاكرين ﴿قل﴾ يا أيها الرسول
لهؤلاء الجاهلين، الذين دعوك إلى
عبادة غير الله: ﴿أفغير الله تأمروني
أعبد أيها الجاهلون﴾ أي: هذا الأمر
صدر من جهلكم، وإلا فلو كان لكم
علم بأن الله تعالى الكامل من جميع
الوجوه، مسدي جميع النعم، هو
المستحق للعبادة، دون من كان ناقصاً

بها، الدالة على الحق اليقين بأوضح البراهين.

﴿وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾ أي: وهذا يوجب عليكم اتباعهم والخذل من عذاب هذا اليوم، باستعمال تقواه، وقد كانت حالكم بخلاف هذه الحال؟

﴿قالوا﴾ مقرين بذنبهم، وأن حجة الله قامت عليهم. ﴿بلى﴾ قد جاءتنا رسل ربنا بآياته وبيناته، وبينوا لنا غاية التبيين، وخذرونا من هذا اليوم. ﴿ولكن حققت كلمة العذاب على الكافرين﴾ أي: بسبب كفرهم وجبت عليهم كلمة العذاب، التي هي لكل من كفر بآيات الله، وحجده ما جاء به المرسلون، فاعترفوا بذنبهم وقيام الحجة عليهم.

﴿ف قيل﴾ لهم على وجه الإهانة والإذلال: ﴿ادخلوا أبواب جهنم﴾ كل طائفة تدخل من الباب الذي يناسبها ويوافق عملها. ﴿خالدين فيها﴾ أبداً، لا يطعنون عنها، ولا يفترعونهم العذاب ساعة ولا ينظرون. ﴿فيئس مثوى المتكبرين﴾ أي: بئس المقر، النار مقرهم، وذلك لأنهم تكبروا على الحق، فجازاهم الله من جنس عملهم، بالإهانة والذل والخزي.

ثم قال عن أهل الجنة: ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم﴾ بتوجيه والعمل بطاعته، سوق إكرام وإعزاز، يحشرون وفداً على النجائب. ﴿إلى الجنة زمراً﴾ فرحين مستبشرين، كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها وتشاكله. ﴿حتى إذا جاؤوها﴾ أي: وصلوا لتلك الرحاب الرحبية والمنازل الأنيقة، وهب عليهم ريحها ونسيمها، وأن خلودها ونعيمها. ﴿وفتحت﴾ لهم ﴿أبوابها﴾ فتوح إكرام، لكرام الخلق، ليكرموا فيها. ﴿وقال لهم خزنتها﴾ تهنئة لهم وترحيباً: ﴿سلام عليكم﴾ أي: سلام من كل آفة وشر حال عليكم. ﴿طيبتم﴾ أي: طابت قلوبكم بمعرفة الله ومحبه وخشيته، وألستكم بذكره، وجوارحكم بطاعته. ﴿ف﴾ بسبب طيبكم ﴿ادخلوها خالدين﴾

وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حققت كلمة العذاب على الكافرين * قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فيئس مثوى المتكبرين * وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طيبتم فادخلوها خالدين * وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض تبتاً من الجنة حيث نشاء فنمض أجر العاملين * وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين * لما ذكر تعالى حكمه بين عباده، الذين جمعهم في خلقه ورزقه وتدبيره، واجتماعهم في الدنيا، واجتماعهم في موقف القيامة، فرقمهم تعالى عند جزائهم، كما افترقوا في الدنيا بالإيمان والكفر، والتقوى والفجور، فقال: ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم﴾ أي: سوقاً عنيماً، يُضربون بالسياط الموجعة، من الزبانية الغلاظ الشداد، إلى شر محبس وأفظع موضع، وهي جهنم التي قد جمعت كل عذاب، وحضرها كل شقاء، وزال عنها كل سرور، كما قال تعالى: ﴿يوم يدعون إلى نار جهنم دعا﴾ أي: يدفعون إليها دفعا، وذلك لامتاعهم من دخولها.

ويساقون إليها ﴿زمراً﴾ أي: فرقاً متفرقة، كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها، وتشاكل سعيها، يلعن بعضهم بعضاً، ويبرا بعضهم من بعض. ﴿حتى إذا جاؤوها﴾ أي: وصلوا إلى ساحتها ﴿فتبخت﴾ لهم أي: لأجلهم ﴿أبوابها﴾ لقدومهم وقرى لتزولهم.

﴿وقال لهم خزنتها﴾ مهنيين لهم بالشقاء الأبدي، والعذاب السرمدي، وموبخين لهم على الأعمال التي أوصلتهم إلى هذا المحل الفظيع: ﴿ألم يأتكم رسول منكم﴾ أي: من جنسكم تعرفونهم وتعترفون صدقهم، وتمكنون من التلقي عنهم؟ ﴿يتلون عليكم آيات ربكم﴾ التي أرسلهم الله

والقمر يحسف، والنجوم تندثر، ويكون الناس في ظلمة، فتشرق عند ذلك الأرض بنور ربها، عندما يتجلى وينزل للفصل بينهم، وذلك اليوم يجعل الله للخلق قوة، وينشئهم نشأة يَفْؤُونَ على أن لا يحرقهم نوره، ويتمكنون أيضاً من رؤيته، وإلا، فنوره تعالى عظيم، لو كشفه، لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

﴿ووضع الكتاب﴾ أي: كتاب الأعمال وديوانه، وضع ونشر، ليقرأ ما فيه من الحسنات والسيئات، كما قال تعالى: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾. ويقال للعامل من تمام العدل والإنصاف: ﴿أقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾.

﴿وجيء بالنبئين﴾ ليسألوا عن التبليغ، وعن أمهم، ويشهدوا عليهم. ﴿والشهداء﴾ من الملائكة، والأعضاء والأرض. ﴿وقضى بينهم بالحق﴾ أي: العدل التام والقسط العظيم، لأنه حساب صادر عن لا يظلم مثقال ذرة، ومن هو محيط بكل شيء، وكتابه الذي هو اللوح المحفوظ، محيط بكل ما عملوه، والحفظة الكرام، والذين لا يعصون ربهم، قد كتبت عليهم ما عملوه، وأعدل الشهداء قد شهدوا على ذلك الحكم، فحكم بذلك من يعلم مقادير الأعمال ومقادير استحقاقها للثواب والعقاب، فيحصل حكم يقر به الخلق، ويعترفون لله بالحمد والعدل، ويعترفون به من عظمتهم وعلمه وحكمته ورحمته ما لم يخطر بقلوبهم، ولا تعبر عنه ألسنتهم، ولهذا قال: ﴿وفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون﴾.

﴿٧١-٧٥﴾ ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم

لأنها الدار الطيبة، ولا يليق بها إلا الطيبون.

وقال في النار: ﴿فتحت أبوابها﴾ وفي الجنة: ﴿وفتحت﴾ بالواو، إشارة إلى أن أهل النار، بمجرد وصولهم إليها، فتحت لهم أبوابها من غير انتظار ولا إمهال، وليكون فتحها في وجوههم، وعلى وصولهم، أعظم لحرا، وأشد لعذابها.

وأما الجنة، فإنها الدار العالية الغالية، التي لا يوصل إليها ولا ينالها كل أحد، إلا من أتى بالسائل الموصلة إليها، ومع ذلك، فيحتاجون لدخولها لشفاعاة أكرم الشفعاء عليه، فلم تفتح لهم بمجرد ما وصلوا إليها، بل يستشفعون إلى الله بمحمد ﷺ حتى يشفع، فيشفعه الله تعالى.

وفي الآيات دليل على أن النار والجنة لهما أبواب تفتح وتغلق، وأن لكل منهما خزنة، وهما الداران الخالصتان اللتان لا يدخل فيهما إلا من استحقهما، بخلاف سائر الأمكنة والدور.

﴿وقالوا﴾ عند دخولهم فيها واستقرارهم، حامدين ربهم على ما أولاهم ومن عليهم وهذا هم: ﴿الحمد لله الذي صدقنا وعده﴾ أي: وعدنا الجنة على السنة رسله، إن آمنا وصلحنا، فوفى لنا بما وعدنا، وأنجز لنا ما مئانا. ﴿وأورثنا الأرض﴾ أي: أرض الجنة ﴿نستبشرون﴾ أي: ننزل منها أي: مكان شتنا، ونتناول منها أي: نعيم أردنا، ليس ممنوعاً عنا شيء نريده. ﴿فنعيم أجمع العالمين﴾ الذين اجتهدوا بطاعة ربهم، في زمن قليل منقطع، فنالوا بذلك خيراً عظيماً باقياً مستمراً.

وهذه الدار التي تستحق المدح على الحقيقة، التي يكرم الله فيها خراص خلقه، ورضيها الجواد الكريم لهم نزلاً، وبنى أعلاها وأحسنها، وغرسها بيده، وحشاها من رحمته وكرامته ما ببعضه يفرح الحزين، ويزول الكدر ويتم الصفاء.

﴿وترى الملائكة﴾ أيها الرائي ذلك

اليوم العظيم ﴿حافين من حول الصرخ﴾ أي: قد قاموا في خدمة ربهم، واجتمعوا حول عرشه، خاضعين لجلاله، معترفين بكماله، مستغرقين بجماله. ﴿يسبحون بحمد ربهم﴾ أي: ينزهونه عن كل ما لا يليق بجلاله، مما نسب إليه المشركون وما لم ينسبوا.

﴿وقضي بينهم﴾ أي: بين الأولين والآخرين من الخلق ﴿بالحق﴾ الذي لا اشتباه فيه ولا إنكار، ممن عليه الحق. ﴿وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ لم يذكر القائل من هو، ليدل ذلك على أن جميع الخلق نطقوا بحمد ربهم وحكمته على ما قضى به على أهل الجنة وأهل النار، حمد فضل وإحسان، وحمد عدل وحكمة.

تم تفسير سورة الزمر بحمد الله وعونه

تفسير سورة المؤمن مكية

﴿١-٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴿غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير﴾ يخبر تعالى عن كتابه العظيم، بأنه صادر ومنزل من الله المألوه المعبود، لكماله وانفرد به بأفعاله، العزيز الذي قهر بعزته كل مخلوق، العليم بكل شيء، ﴿غافر الذنب﴾ للمذنبين ﴿وقابل التوب﴾ من التائبين، ﴿شديد العقاب﴾ على من تجرأ على الذنوب ولم يتب منها، ﴿ذي الطول﴾ أي: التفضل والإحسان الشامل.

فلما قرر ما قرر من كماله، وكان ذلك موجياً لأن يكون وحده المألوه الذي تخلص له الأعمال، قال: ﴿لا إله إلا هو إليه المصير﴾.

ووجه المناسبة بذكر نزول القرآن من الله، الموصوف بهذه الأوصاف، أن هذه الأوصاف مستلزمة لجميع ما يشتمل عليه القرآن من المعاني.

فإن القرآن: إما إخبار عن أسماء الله وصفاته وأفعاله، وهذه

وإما إخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلية، فهي من تعليم العليم لعباده.

وإما إخبار عن نعمة العظيمة، وآلائه الجسيمة، وما يوصل إلى ذلك من الأوامر، فذلك يدل عليه قوله: ﴿ذي الطول﴾.

وإما إخبار عن يقوه الشديدة، وعما يوجبها ويقضيها من المعاصي، فذلك يدل عليه قوله: ﴿شديد العقاب﴾.

وإما دعوة للمذنبين إلى التوبة والإنابة، والاستغفار، فذلك يدل عليه قوله: ﴿غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب﴾.

وإما إخبار بأنه وحده المألوه المعبود، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على ذلك، والحث عليه، والنهي عن عبادة ما سوى الله، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على فسادها، والترهيب منها، فذلك يدل عليه قوله تعالى: ﴿لا إله إلا هو﴾.

وإما إخبار عن حكمه الجزائي العدل، وثواب المحسنين، وعقاب العاصين، فهذا يدل عليه قوله: ﴿إليه المصير﴾.

فهذا جميع ما يشتمل عليه القرآن من المطالب العاليات.

﴿٤-٦﴾ ﴿ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يفرق قلبهم في البلاد﴾ كذبت قلوبهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ﴿وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار﴾ يخبر تبارك وتعالى أنه ما يجادل في آياته إلا الذين كفروا والمراد بالمجادلة هنا، المجادلة لرد آيات الله ومقابلتها بالباطل، فهذا من صنيع الكفار، وأما المؤمنون، فيخضعون لله تعالى الذي يلقي الحق ليدحض به الباطل، ولا ينبغي للإنسان أن يغتر بحالة الإنسان الدنيوية، ويظن أن إعطاء الله إياه في الدنيا، دليل على محبته له وأنه على الحق، ولهذا قال: ﴿فلا يفرق

تفضل بالأسباب ومسبباتها.

وتضمن ذلك، أن المقارن من زوج وولد وصاحب، يسعد بقرينه، ويكون اتصاله به سبباً لخير يحصل له، خارج عن عمله وسبب عمله كما كانت الملائكة تدعو للمؤمنين ولمن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، وقد يقال: إنه لا بد من وجود صلاحهم لقوله: ﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾ فحينئذ يكون ذلك من نتيجة عملهم، والله أعلم.

﴿١٠-١٢﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون﴾ قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ﴿ذلكم بأنه إذا دُعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به ثؤمنا فالحكم لله العلي الكبير﴾ يخبر تعالى عن الفضيحة والخزي الذي يصيب الكافرين، وسؤالهم الرجعة، والخروج من النار، وامتناع ذلك عليهم وتوبيخهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أطلقه ليشمل أنواع الكفر كلها، من الكفر بالله، أو بكتبه، أو برسله، أو باليوم الآخر، حين يدخلون النار، ويقرون أنهم مستحقونها، لما فعلوه من الذنوب والأوزار، فيمقتون أنفسهم لذلك أشد المقت، ويغضبون عليها غاية الغضب، فينادون عند ذلك، ويقال لهم: ﴿لَقَدْ لَعَنَّ اللَّهُ﴾ أي: إياكم ﴿إِذْ تَدْعُونَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ أي: حين دعتكم الرسل وأتباعهم إلى الإيمان، وأقاموا لكم من البيئات ما تبين به الحق، فكفرتم وزهدتم في الإيمان الذي خلقكم الله له،

وخرجتم من رحمته الواسعة، فمقتكم وأبغضكم، فهذا أكبر من مقتكم أنفسكم﴾ أي: فلم يزل هذا المقت مستمراً عليكم، والسخط من الكريم حالاً بكم، حتى آلت بكم الحال إلى ما آلت، فالיום حل عليكم غضب الله وعقابه، حين نال المؤمنون رضوان الله وثوابه، فتمنوا الرجوع، و﴿قالوا ربنا أمتنا اثنتين﴾ يريدون الموت الأولى وما بين النفتين على ما قيل، أو العدم

واجتهدوا اجتهاد المحيين، ومن العمال الذين هم المؤمنون، الذين يحبهم الله تعالى من بين خلقه، فسائر الخلق المكلفين يبغضهم الله إلا المؤمنين منهم، فمن محبة الملائكة لهم دعوا الله، واجتهدوا في صلاح أحوالهم، لأن الدعاء للشخص من أدل الدلائل على محبته، لأنه لا يدعو إلا لمن يحبه.

وتضمن ما شرحه الله وفصله من دعائهم بعد قوله: ﴿يستغفرون للذين آمنوا﴾ التنبية اللطيف على كيفية تدبر كتابه، وأن لا يكون المتدبر مقتصراً على مجرد معنى اللفظ بمفرده، بل ينبغي له أن يتدبر معنى اللفظ، فإذا فهمه فهماً صحيحاً على وجهه، نظر بعقله إلى ذلك الأمر والطرق الموصلة إليه وما لا يتم إلا به وما يتوقف عليه، وجزم بأن الله أراد، كما يجزم أنه أراد المعنى الخاص، الدال عليه اللفظ.

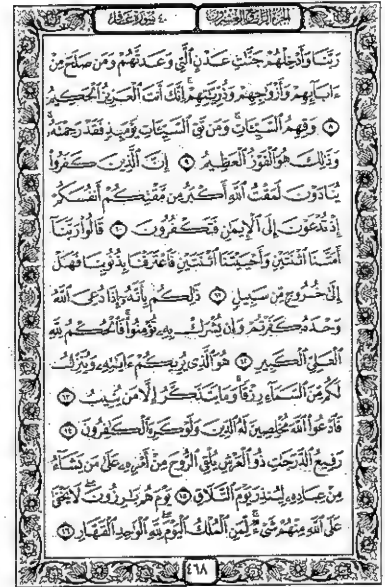
والذي يوجب له الجزم بأن الله أراد أمران:

أحدهما: معرفته وجزمه بأنه من توابع المعنى والمتوقف عليه.

الثاني: علمه بأن الله بكل شيء عليم، وأن الله أمر عباده بالتدبر والتفكر في كتابه.

وقد علم تعالى ما يلزم من تلك المعاني، وهو المخبر بأن كتابه هدى ونور وتبيان لكل شيء، وأنه أفصح الكلام وأجله أيضاً، فبذلك يحصل للعبد من العلم العظيم والخير الكثير، بحسب ما وفقه الله له وقد كان في تفسيرنا هذا، كثير من هذا من به الله علينا.

وقد يخفى في بعض الآيات مأخذه على غير المتأمل صحيح الفكرة، ونسأله تعالى أن يفتح علينا من خزائن رحمته ما يكون سبباً لصلاح أحوالنا وأحوال المسلمين، فليس لنا إلا التعلق بكرمه، والتوسل بإحسانه، الذي لا نزال نتقلب فيه في كل الآتات، وفي جميع اللحظات، ونسأله من فضله، أن يفتينا شر أنفسنا المانع والمعوق لوصول رحمته، إنك الكريم الوهاب، الذي

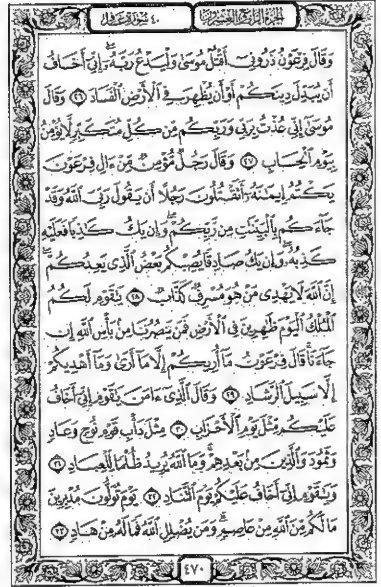


﴿فقد رحمته﴾ لأن رحمته لم تزل مستمرة على العباد، لا يمنعها إلا ذنوب العباد وسيئاتهم، فمن وقبته السيئات وفقته للحسنات وجزائها الحسن. ﴿وذلك﴾ أي: زوال المحذور بوقاية السيئات، وحصول المحبوب بحصول الرحمة، ﴿هو الفوز العظيم﴾ الذي لا فوز مثله، ولا يتنافس المتنافسون بأحسن منه.

وقد تضمن هذا الدعاء من الملائكة كمال معرفتهم بربهم، والتوسل إلى الله بأسمائه الحسنى، التي يحب من عباده التوسل بها إليه، والدعاء بما يناسب ما دعوا الله فيه، فلما كان دعاؤهم بحصول الرحمة، وإزالة أثر ما اقتضته النفوس البشرية التي علم الله نقصها واقتضاءها لما اقتضته من المعاصي، ونحو ذلك من المبادئ والأسباب التي قد أحاط الله بها علماً، توسلوا بالرحيم العليم.

وتضمن كمال أدبهم مع الله تعالى بإقرارهم بربوبيته لهم الربوبية العامة والخاصة، وأنه ليس لهم من الأمر شيء، وإنما دعاؤهم لربهم صدر من فقير بالذات من جميع الوجوه، لا يُدلي على ربه بحالة من الأحوال، إن هو إلا فضل الله وكرمه وإحسانه.

وتضمن موافقتهم لربهم تمام الموافقة، بمحبة ما يحبه من الأعمال التي هي العبادات التي قاموا بها،



نفع العباد ومصلحتهم.

﴿على من يشاء من عبادهم﴾ وهم الرسل الذين فضلهم الله واختصهم الله لوحيه ودعوة عباده. والفائدة في إرسال الرسل، هو تحصيل سعادة العباد في دينهم ودنياهم وآخرتهم، وإزالة الشقاوة عنهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم، ولهذا قال: ﴿لينذر﴾ من ألقى الله إليه الوحي ﴿يوم التلاق﴾ أي: يخوف العباد بذلك، ويحثهم على الاستعداد له بالأسباب المنجية مما يكون فيه.

وسماه ﴿يوم التلاق﴾، لأنه يلتقي فيه الخالق والمخلوق، والمخلوقون بعضهم مع بعض، والعاملون وأعمالهم وجزاؤهم.

﴿يوم هم يبرزون﴾ أي: يظهرون على الأرض، قد اجتمعوا في صعيد واحد، لا عوج ولا أمث فيه، يسمعون الداعي وينفذهم البصر.

﴿لا يخفى على الله منهم شيء﴾ لا من ذواتهم ولا من أعمالهم، ولا من جزاء تلك الأعمال.

﴿لمن الملك اليوم﴾ أي: من هو المالك لذلك اليوم العظيم، الجامع للآولين والآخرين، أهل السماوات وأهل الأرض، الذي انقطعت فيه الشراكة في الملك، وتقطعت الأسباب،

ولم يبق إلا الأعمال الصالحة أو السيئة؟ الملك ﴿الله الواحد القهار﴾ أي: المنفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا شريك له في شيء منها بوجه من الوجوه. ﴿القهار﴾ لجميع المخلوقات، الذي دانت له المخلوقات وذلت وخضعت، خصوصاً في ذلك اليوم الذي عنت فيه الوجوه للحي القيوم، يومئذ لا تكلم نفس إلا بإذنه، ﴿اليوم تحزى كل نفس بما كسبت﴾ في الدنيا، من خير وشر، قليل وكثير. ﴿لا ظلم اليوم﴾ على أحد، بزيادة في سيئاته، أو نقص من حسناته. ﴿إن الله سريع الحساب﴾ أي: لا تستطيعوا ذلك اليوم، فإنه آت، وكل آت قريب. وهو أيضاً سريع المحاسبة لعباده يوم القيامة، لإحاطة علمه وكمال قدرته.

﴿١٨-٢٠﴾ ﴿وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين﴾ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع * يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور * والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير * يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾ أي: يوم القيامة التي قد أزفت وقربت، وأن الوصول إلى أهوالها وقلاقلها وزلازلها، ﴿إذ القلوب لدى الحناجر﴾ أي: قد ارتفعت وبقيت أفئدتهم هواء، ووصلت القلوب من الروح والكرب إلى الحناجر، شاخصة أبصارهم. ﴿كاظمين﴾ لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً، وكاظمين على ما في قلوبهم من الروح الشديد والمزعجات الهائلة.

﴿ما للظالمين من حميم﴾ أي: قريب ولا صاحب، ﴿ولا شفيع يطاع﴾ لأن الشفعاء لا يشفعون في الظالم بنفسه بالشرك، ولو قدرت شفاعتهم، فإله تعالى لا يرضى شفاعتهم، فلا يقبلها. ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ وهو النظر الذي يخفيه العبد من جلسه ومقاربه، وهو نظر المسارقة، ﴿وما تخفي

الصدور﴾ مما لم يبينه العبد لغيره، فإله تعالى يعلم ذلك الخفي، فغيره من الأمور الظاهرة من باب أولى وأحرى.

﴿والله يقضي بالحق﴾ لأن قوله حق، وحكمه الشرعي حق، وحكمه الجزائي حق وهو المحيط علماً وكتابة وحفظاً بجميع الأشياء، وهو المنزه عن الظلم والنقص وسائر العيوب، وهو الذي يقضي قضاءه القدري، الذي إذا شاء شيئاً كان وما لم يشأ لم يكن، وهو الذي يقضي بين عباده المؤمنين والكافرين في الدنيا، ويفصل بينهم بفتح ينصر به أولياءه وأحبابه.

﴿والذين يدعون من دونه﴾ وهذا شامل لكل ما عبد من دون الله ﴿لا يقضون بشيء﴾ لعجزهم وعدم إرادتهم للخير وأستطاعتهم لفعله. ﴿إن الله هو السميع﴾ لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات. ﴿البصير﴾^(١) بما كان وما يكون، وما نبصر وما لا نبصر، وما يعلم العباد وما لا يعلمون.

قال في أول هاتين الآيتين ﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾ ثم وصفها بهذه الأوصاف مقتضية للاستعداد لذلك اليوم العظيم، لاشتغالها على الترهيب والترهيب.

﴿٢١-٢٢﴾ ﴿أولم يسيرا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأناروا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق﴾ ذلك بأنهم كانت تأنيبهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب. يقول تعالى: ﴿أولم يسيرا في الأرض﴾ أي: بقلوبهم وأبصارهم، سير نظر واعتبار، وتفكر في الآثار، ﴿فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم﴾ من المكذبين، فسيجدونها شر العواقب، عاقبة الهلاك والدمار والخزي والفضيحة، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء في العَدَد والمُدَد وكبر الأجسام. ﴿و﴾ أشد أناراً في

(١) في النسختين (العليم) وهو خطأ فالوارد في الآية: (البصير).

الأرض ﴿من البناء والغرس، وقوة الآثار تدل على قوة المؤثر فيها وعلى تمتعها بها. ﴿فأخذهم الله﴾ بعقوبته بذنوبهم حين أصروا واستمروا عليها، ﴿إنه قوي شديد العقاب﴾ فلم تغن قوتهم عند قوة الله شيئاً، بل من أعظم الأمم قوة، قوم عاد الذين قالوا: ﴿من أشد منا قوة﴾ أرسل الله إليهم ريحاً أضعفت قواهم، ودمرتهم كل تدمير.

ثم ذكر نموذجاً من أحوال المكذبين بالرسول، وهو فرعون وجنوده فقال:

﴿٢٣-٤٦﴾ ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين﴾ إلى آخر القصة.

﴿٢٣﴾ أي: ﴿ولقد أرسلنا﴾ إلى جنس هؤلاء المكذبين ﴿موسى﴾ ابن عمران، ﴿بآياتنا﴾ العظيمة، الدالة دلالة قطعية، على حقيقة ما أرسل به، وبطلان ما عليه من أرسل إليهم من الشرك وما يتبعه. ﴿وسلطان مبين﴾ أي: حجة بيّنة، تتسلط على القلوب فتدفع لها، كالحية والعصا ونحوهما من الآيات البينات، التي أيد الله بها موسى، ومكنه مما دعا إليه من الحق.

والمبعوث إليهم ﴿فرعون وهامان﴾ وزيره ﴿وقارون﴾ الذي كان من قوم موسى، فبغى عليهم بماله، وكلهم ردوا عليه أشد الرد ﴿فقالوا ساحر كذاب﴾ فلما جاءهم بالحق من عندنا وأيده الله بالمعجزات الباهرة، الموجبة لتمام الإذعان، لم يقابلوها بذلك، ولم يكفهم مجرد التترك والإعراض، بل ولا إنكارها ومعارضتها بباطلهم، بل وصلت بهم الحال الشنيعة إلى أن ﴿قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين﴾ حيث كادوا هذه المكيدة، وزعموا أنهم إذا قتلوا أبناءهم، لم يقبوا، ويقبوا في رقبهم وتحت عبوديتهم.

فما كيدهم إلا في ضلال، حيث لم يتم لهم ما قصدوا، بل أصابهم ضد ما

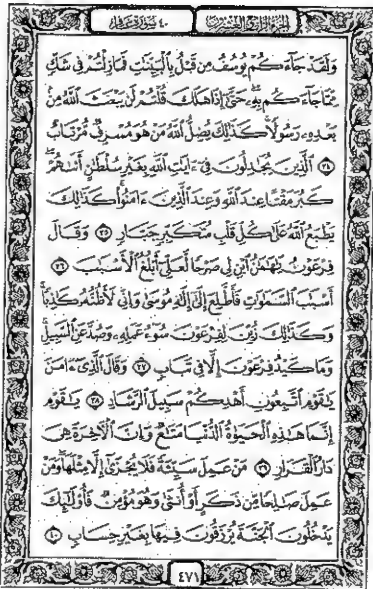
قصدوا، أهلكهم الله وأبادهم عن آخرهم.

وتدبر هذه النكتة التي يكثُر مرورها بكتاب الله تعالى: إذا كان السياق في قصة معينة أو على شيء معين، وأراد الله أن يحكم على ذلك المعين بحكم، لا يختص به ذكر الحكم، وعلقه على الوصف العام ليكون أعم، وتندرج فيه الصورة التي سبق الكلام لأجلها، وليندفع الإيهام باختصاص الحكم بذلك المعين.

فلهذا لم يقل ﴿وما كيدهم إلا في ضلال﴾ بل قال: ﴿وما كيد الكافرين إلا في ضلال﴾

و ﴿قال فرعون﴾ متكبراً متجبراً مغروراً لقومه السفهاء: ﴿ذروني أقتل موسى وليدع ربه﴾ أي: زعم - قبحه الله - أنه لولا مراعاة خواطر قومه لقتله، وأنه لا يمنعه من دعاء ربه، ثم ذكر الحامل له على إرادة قتله، وأنه نصح لقومه، وإزالة للشك في الأرض فقال: ﴿إني أخاف أن يبدل دينكم﴾ الذي أنتم عليه ﴿أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾. وهذا من أعجب ما يكون، أن يكون شر الخلق ينصح الناس عن اتباع خير الخلق هذا من التمويه والترويح، الذي لا يدخل إلا عقل من قال الله فيهم: ﴿فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾.

﴿وقال موسى﴾ حين قال فرعون تلك المقالة الشنيعة التي أوجبها له طغيانه، واستعان فيها بقوته واقتداره، مستعيناً بربه: ﴿إني عذتُ بربي وربكم﴾ أي: امتنعت بربوبيته التي دبر بها جميع الأمور ﴿من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب﴾ أي: يحمله تكبره وعدم إيمانه بيوم الحساب على الشر والفساد، يدخل فيه فرعون وغيره، كما تقدم قريباً في القاعدة، فمنعه الله تعالى بلطفه من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، وقبض له من الأسباب ما اندفع به عنه شر فرعون



وملئه.

ومن جملة الأسباب، هذا الرجل المؤمن، الذي من آل فرعون، من بيت الملكية، لا بد أن يكون له كلمة مسموعة، وخصوصاً إذا كان يظهر موافقتهم ويكتم إيمانه، فإنهم يراعونه في الغالب ما لا يراعونه لو خالفهم في الظاهر، كما منع الله رسوله محمداً ﷺ بعمه أبي طالب من قریش، حيث كان أبو طالب كبيراً عندهم، موافقاً لهم على دينهم، ولو كان مسلماً لم يحصل منه ذلك المنع.

فقال ذلك الرجل المؤمن الموفق العاقل الحازم، مقبلاً فعل قومه، وشناعة ما عزموا عليه: ﴿أنقتلون رجلاً أن يقول ربي الله﴾ أي: كيف تستحلون قتله، وهذا ذنبه وجرمه، أنه يقول ربي الله، ولم يكن أيضاً قولاً مجرداً عن البينات، ولهذا قال: ﴿وقد جاءكم بالبينات من ربكم﴾ لأن بيئته اشتهرت عندهم اشتهاراً علم به الصغير والكبير، أي: فهذا لا يوجب قتله.

فهلأ أبطلتم قبل ذلك ما جاء به من الحق، وقابلتم البرهان ببرهان يرده، ثم بعد ذلك نظرت: هل يحل قتله إذا ظهرت عليه بالحجة أم لا؟ فأما وقد ظهرت حجته، واستعلى برهانه،

ولا يوفق للصراط المستقيم، أي: وقد رأيتم ما دعا موسى إليه من الحق، وما هداه الله إلى بيانه من البراهين العقلية والخوارق السماوية، فالذي اهتدى هذا الهدى لا يمكن أن يكون مسرفاً ولا كاذباً، وهذا دليل على كمال علمه وعقله ومعرفته بربه.

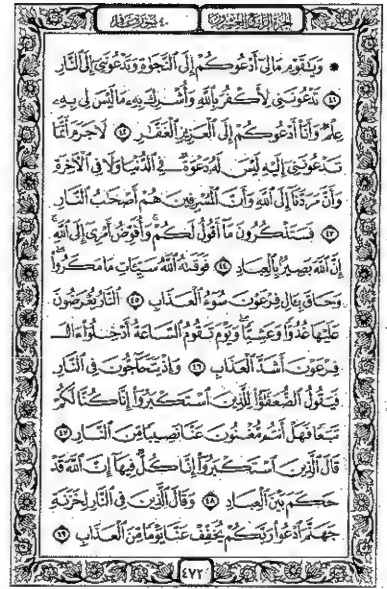
ثم حذر قومه ونصحهم، وخوفهم عذاب الآخرة، ونهاهم عن الاعتزاز بالملك الظاهر، فقال: ﴿يَا قَوْم لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ أي: في الدنيا ﴿ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ على رعييتكم، تنفذون فيهم ما شئتم من التدبير، فهبكم حصل لكم ذلك وتم، ولن يتم، ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ﴾ أي: عذابه ﴿إِنْ جَاءَنَا؟﴾ وهذا من حسن دعوته، حيث جعل الأمر مشتركاً بينه وبينهم بقوله: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا؟﴾ وقوله: ﴿إِنْ جَاءَنَا﴾ ليفهمهم أنه ينصح لهم كما ينصح لنفسه، ويرضى لهم ما يرضى لنفسه.

فـ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ معارضاً له في ذلك، ومغرضاً لقومه أن يتبعوا موسى: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ وصدق في قوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ ولكن ما الذي رأى أن يستخف قومه فيتابعوه، ليقم بهم رياسته، ولم ير الحق معه، بل رأى الحق مع موسى، وجحد به مستيقناً له.

وكذب في قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ فإن هذا قلب للحق، فلو أمرهم باتباعه اتباعاً مجرداً على كفره وضلاله، لكان الشر أهون، ولكنه أمرهم باتباعه، وزعم أن في اتباعه اتباع الحق وفي اتباع الحق، الضلال.

وقال الذي آمن ﴿مَكْرَراً دَعْوَةَ قَوْمِهِ، غَيْرَ آيِسٍ مِنْ هِدَايَتِهِمْ، كَمَا هِيَ حَالَةُ الدَّعَاةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، لَا يَزَالُونَ يَدْعُونَ إِلَى رَبِّهِمْ، وَلَا يَرْدُهُمْ عَنْ ذَلِكَ رَادٍّ، وَلَا يَثْنِيهِمْ عَتَوْهُمْ مِنْ دَعْوِهِ عَنْ تَكَرُّرِ الدَّعْوَةِ، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿يَا قَوْم إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾

يعني: ولقد جاءكم يوسف بن يعقوب عليهما السلام من قبل إتيان موسى، بالبينات الدالة على صدقه، وأمركم بعبادة ربكم وحده لا شريك له، ﴿فَمَا



فبينكم وبين حل قتلته مفاوز تنقطع بها أعناق المطي.

ثم قال لهم مقالة عقلية تقنع كل عاقل، بأي: حالة قدرت، فقال: ﴿وَأَنْ يَكْ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكْ صَادِقًا يَصْبِحْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ﴾ أي: موسى بين أمرين، إما كاذب في دعواه أو صادق فيها، فإن كان كاذباً فكذبه عليه، وضرره مختص به، وليس عليكم في ذلك ضرر حيث امتنعتم من إجابته وتصديقه، وإن كان صادقاً وقد جاءكم بالبينات، وأخبركم أنكم إن لم تحجبوه عذبكم الله عذاباً في الدنيا وعذاباً في الآخرة، فإنه لا بد أن يصيبكم بعض الذي يعدكم، وهو عذاب الدنيا.

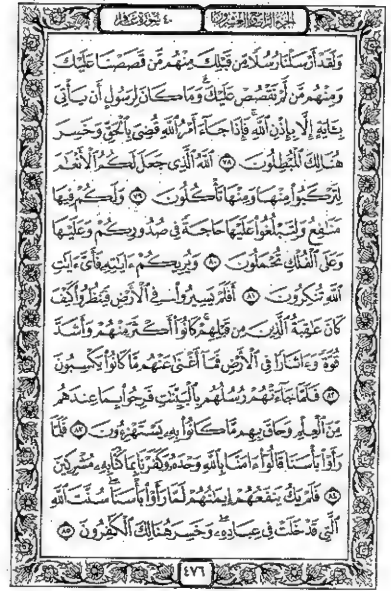
وهذا من حسن عقله، ولطف دفعه عن موسى، حيث أتى بهذا الجواب الذي لا تشويش فيه عليهم، وجعل الأمر دائراً بين تلك الحالتين، وعلى كل تقدير فقتله سفه وجهل منكم.

ثم انتقل رضي الله عنه وأرضاه وغفر له ورحمه - إلى أمر أعلى من ذلك، وبيان قرب موسى من الحق فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ أي: متجاوز الحد بترك الحق والإقبال على الباطل. ﴿كَذَابٌ﴾ بنسبته ما أسرف فيه إلى الله، فهذا لا يهديه الله إلى طريق الصواب، لا في مدلوله ولا في دليله،

وحين ينادي أهل النار مالكم ﴿لَيْقُضَ عَلَيْنَا رَيْكُ﴾ فيقول: ﴿إِنَّكُمْ مَكْثُونَ﴾. وحين ينادون ربهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عَذَبْنَا ظَالِمُونَ﴾ فيجيبهم: ﴿أَخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تَكْلِمُونَ﴾. وحين يقال للمشركين: ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾. فخوفهم رضي الله عنه هذا اليوم الممول، وتوقع لهم أن أقاموا على شركهم بذلك، ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ أي: قد ذهب بكم إلى النار ﴿مَالَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ لا من أنفسكم قوة تدفعون بها عذاب الله، ولا ينصركم من دونه من أحد ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾ فما له من قوة ولا ناصر.

ومن يضل الله فما له من هادٍ لأن الهدى بيد الله تعالى، فإذا منع عبده الهدى لعلمه أنه غير لائق به، لحبه، فلا سبيل إلى هدايته.

ولقد جاءكم يوسف بن يعقوب عليهما السلام من قبل إتيان موسى، بالبينات الدالة على صدقه، وأمركم بعبادة ربكم وحده لا شريك له، ﴿فَمَا



والإهانة، جزاء على استكبارهم.

﴿٦١-٦٥﴾ **﴿الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾** ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون * كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يمحذون * الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فبارك الله رب العالمين * هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين * تدبر هذه الآيات الكريمات، الدالة على سعة رحمة الله تعالى وجزيل فضله، ووجوب شكره، وكمال قدرته، وعظيم سلطانه، وسعة ملكه، وعموم خلقه لجميع الأشياء، وكمال حياته، واتصافه بالحمد على كل ما اتصف به من الصفات الكاملة، وما فعله من الأفعال الحسنة، وتعام ربوبيته وانفراده فيها، وأن جميع التدبير في العالم العلوي والسفلي في ماضي الأوقات وحاضرها ومستقبلها بيد الله تعالى، ليس لأحد من الأمور شيء، ولا من القدرة شيء، فينتج من ذلك، أنه تعالى المألوه المعبود وحده، الذي لا يستحق أحد من العبودية شيئاً، كما لم يستحق من الربوبية شيئاً، وينتج من ذلك، امتلاء القلوب بمعرفة الله تعالى

ومحبته وخوفه ورجائه، وهذان الأمران - وهما معرفته وعبادته - هما اللذان خلق الله الخلق لأجلهما، وهما الغاية المقصودة منه تعالى لعباده، وهما الموصولان إلى كل خير وفلاح وصلاح، وسعادة دنيوية وأخرية، وهما اللذان هما أشرف عطايا الكرم لعباده، وهما أشرف اللذات على الإطلاق، وهما اللذان إن فاتا فأت كل خير وحضر كل شر.

فتسأله تعالى أن يملأ قلوبنا بمعرفته ومحبته، وأن يجعل حرركاتنا الباطنة والظاهرة خالصة لوجهه، تابعة لأمره، إنه لا يتعاضمه سؤال، ولا يخفيه نوال.

فقوله تعالى: **﴿الله الذي جعل لكم الليل﴾** أي: لأجلكم جعل الله الليل مظلماً، **﴿لتسكنوا فيه﴾** من حرركاتكم، التي لو استمرت لضررت، فتأوون إلى فرشكم، ويلقي الله عليكم النوم الذي يستريح به القلب والبدن، وهو من ضروريات الآدمي لا يعيش بدونه، ويسكن أيضاً، كل حبيب إلى حبيبه، ويجتمع الفكر، وتقبل الشواغل.

﴿و﴾ جعل تعالى **﴿النهار مبصراً﴾** منيراً بالشمس المستمرة في الفلك، فتقومون من فرشكم إلى أشغالكم الدينية والدنيوية، هذا لذكره وقراءته، وهذا لصلاته، وهذا لطلبه العلم ودراسته، وهذا لبيعه وشرائه، وهذا لبنائه أو حدادته، أو نحوها من الصناعات، وهذا لسفره براً وبحراً، وهذا لفلاحته، وهذا لتصلح حيواناته.

﴿إن الله لذو فضل﴾ أي: عظيم، كما يدل عليه التثنية **﴿على الناس﴾**. حيث أنعم عليهم بهذه النعم وغيرها، وصرف عنهم النقم، وهذا يوجب عليهم تمام شكره وذكره، **﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾** بسبب جهلهم وظلمهم. **﴿وقليل من عبادي الشكور﴾** الذين يقرون بنعمة ربهم، ويخضعون لله ويحبونه، ويصرفونها في طاعة مولاهم ورضاه.

﴿ذلكم﴾ الذي فعل ما فعل **﴿الله ربكم﴾** أي: المنفرد بالإلهية، والمنفرد بالربوبية، لأن انفراده بهذه النعم من ربوبيته، وإيجابها للشكر من ألوهيته، **﴿لا إله إلا هو﴾** تقرير أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، **﴿خالق كل شيء﴾** تقرير لربوبيته.

ثم صرح بالأمر بعبادته فقال: **﴿فأنى تؤفكون﴾** أي: كيف تصرفون عن عبادته وحده لا شريك له، بعدما أبان لكم الدليل وأثار لكم السبيل!!

﴿كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يمحذون﴾ أي: عقوبة على جحدهم لآيات الله، وتعديهم على رسله، صرفوا عن التوحيد والإخلاص، كما قال تعالى: **﴿وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾**.

﴿الله الذي جعل لكم الأرض قراراً﴾ أي: قارة ساكنة، مهية لكل مصالحكم، تتمكنون من حرثها وغرسها والبناء عليها، والسفر والإقامة فيها.

﴿والسما بناء﴾ سقفاً للأرض التي أنتم فيها، قد جعل الله فيها ما تتفنون به من الأنوار والعلامات التي تحدي بها في ظلمات البر والبحر، **﴿وصوركم فأحسن صوركم﴾** فليس في جنس الحيوانات أحسن صورة من بني آدم، كما قال تعالى: **﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾**.

وإذا أردت أن تعرف حسن الآدمي وكمال حكمة الله تعالى فيه، فانظر إليه عضواً عضواً، هل تجد عضواً من أعضائه يليق به ويصلح أن يكون في غير محله؟ وانظر أيضاً، إلى الميل الذي في القلوب بعضهم لبعض، هل تجد ذلك في غير الآدميين؟ وانظر إلى ما خصه الله به من العقل والإيمان، والمحبة والمعرفة، التي هي أحسن الأخلاق المناسبة لأجل الصور.

﴿ورزقكم من الطيبات﴾ وهذا شامل لكل طيب، من مأكّل،

أعناقهم والسلاسل يسحبون * في الحميم ثم في النار يسجرون * ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون * من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا كذلك يضل الله الكافرين * ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون * ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين * ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله الواضحة البينة متعجبا من حالهم الشنيعة. ﴿أَتَى يَصْرَفُونَ﴾ أي: كيف يتعدلون عنها؟ وإلى أي شيء يذهبون بعد البيان التام؟ هل يجدون آيات بينات تعارض آيات الله؟ لا والله. أم يجدون شبهة توافق أهواءهم، ويصلون بها لأجل باطلهم؟ فبئس ما استبدلوا واختاروا لأنفسهم بتكذيبهم بالكتاب الذي جاءهم من الله، وبما أرسل الله به رسوله، الذين هم خير الخلق وأصدقهم، وأعظمهم عقولا، فهؤلاء لا جزاء لهم سوى النار الحامية، ولهذا توعدهم الله بعذابها فقال: ﴿فسوف يعلمون﴾ إذ الأغلال في أعناقهم التي لا يستطيعون معها حركة. ﴿والسلاسل﴾ التي يقرنون بها هم وشياطينهم ﴿يسحبون﴾ في الحميم أي: الماء الذي اشتد غليانه وحره. ﴿ثم في النار يسجرون﴾ يوقد عليهم اللهب العظيم فيصلون بها، ثم يوبخون على شركهم وكذبهم.

ويقال ﴿لهم أين ما كنتم تشركون﴾ من دون الله هل نفعوكم أو دفعوا عنكم بعض العذاب؟ ﴿قالوا ضلوا عنا﴾ أي: غابوا ولم يحضروا، ولو حضروا لم ينفعوا، ثم إنهم أنكروا فقالوا: ﴿بل لم نكن ندعو من قبل شيئا﴾ يحتمل أن مرادهم بذلك الإنكار، وظنوا أنه ينفعهم ويفدهم، ويحتمل - وهو الأظهر - أن مرادهم بذلك الإقرار على بطلان إلهية ما كانوا يعبدون، وأنه ليس لله شريك في الحقيقة، وإنما هم ضالون مخطئون بعبادة معدوم الإلهية، وزيد على هذا قوله تعالى: ﴿كذلك يضل الله

تدعون من دون الله﴾ من الأوثان والأصنام، وكل ما عبد من دون الله. ولست على شك من أمري، بل على يقين وبصيرة، ولهذا قال: ﴿لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين﴾ بقلبي ولساني وجوارحي، بحيث تكون منقادة لطاعته، مستسلمة لأمره، وهذا أعظم مأمور به على الإطلاق، كما أن النهي عن عبادة ما سواه أعظم منهي عنه على الإطلاق، ثم قرر هذا التوحيد بأنه الخالق لكم، والمطور لخلقكم، فكما خلقكم وحده فاعيدوه وحده، فقال: ﴿هو الذي خلقكم من تراب﴾ وذلك بخلقه أصلكم وأبيكم آدم عليه السلام. ﴿ثم من نقطة﴾ وهذا ابتداء خلق سائر النوع الإنساني ما دام في بطن أمه، فنبه بالابتداء على بقية الأطوار، من العلقه، فالمضغة، فالعظام، فنفخ الروح، ﴿ثم يخرجكم طفلا﴾ ثم هكذا تنتقلون في الخلقة الإلهية حتى تبلغوا أشدكم من قوة العقل والبدن، وجميع قواه الظاهرة والباطنة. ﴿ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل﴾ بلوغ الأشد ﴿ولتبلغوا﴾ بهذه الأطوار المقدرة إلى أجل مسمى تنتهي عنده أعماركم. ﴿ولعلكم تعقلون﴾ أحوالكم، فتعلمون أن المطور لكم في هذه الأطوار كامل الاقتدار، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وأنكم ناقصون من كل وجه.

﴿هو الذي يحيي ويميت﴾ أي: هو المنفرد بالإحياء والإماتة، فلا تموت نفس بسبب أو بغير سبب، إلا بإذنه. ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره﴾ إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير. ﴿فإذا قضى أمرا﴾ جليلا أو حقيرا ﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾ لا رد في ذلك، ولا مشورة، ولا تمتع.

﴿٦٩ - ٧٦﴾ ﴿ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أتى يصرفون﴾ الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون * إذ الأغلال في

ومشرب، ومنكح، وفليس، ومنظر، ومسمع، وغير ذلك من الطيبات التي يسرها الله لعباده، ويسر لهم أسبابها، ومنعهم من الخبايا التي تضادها، وتضر أبدانهم وقلوبهم وأديانهم، ﴿ذلكم﴾ الذي دبر الأمور وأنعم عليكم بهذه النعم ﴿الله ربكم﴾ ﴿فتبارك الله رب العالمين﴾ أي: تعظم وكثر خيره وإحسانه، المربي جميع العالمين بنعمه.

﴿هو الحي﴾ الذي له الحياة الكاملة التامة، المستلزمة لما تستلزمه من صفاته الذاتية، التي لا تتم حياته إلا بها، كالسمع، والبصر، والقدرة، والعلم، والكلام، وغير ذلك من صفات كماله ونعوت جلاله.

﴿لا إله إلا هو﴾ أي: لا معبود بحق إلا وجهه الكريم. ﴿فادعوه﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة ﴿مخلصين له الدين﴾ أي: اقصدوا بكل عبادة ودعاء وعمل وجه الله تعالى، فإن الإخلاص هو المأمور به، كما قال تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾.

﴿الحمد لله رب العالمين﴾ أي: جميع المحامد والمدائح والثناء، بالقول كنطق الخلق بذكره، والفعل، كعبادتهم له، كل ذلك لله تعالى وحده لا شريك له، لكماله في أوصافه وأفعاله، وتام نعمه.

﴿٦٦ - ٦٨﴾ ﴿قل إني نهيئت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين﴾ هو الذي خلقكم من تراب ثم من نقطة ثم من علقه ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون * هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾ لما ذكر الأمر بإخلاص العبادة لله وحده، وذكر الأدلة على ذلك والبيانات، صرح بالنهي عن عبادة ما سواه فقال: ﴿قل﴾ يا أيها النبي ﴿إني نهيئت أن أعبد الذين

تتكبرون ﴿ يمتن تغالى على عباده بما جعل لهم من الأنعام التي بها جملة من الإنعام :

منها : منافع الركوب عليها والحمل .

ومنها : منافع الأكل من لحومها والشرب من ألبانها .

ومنها : منافع الدفء ، واتخاذ الآلات والأمتعة من أصوافها وأوبارها وأشعارها ، إلى غير ذلك من المنافع .

﴿ ولتبلىغوا عليها حاجة في صدوركم ﴾ من الوصول إلى الأوطان البعيدة ، وحصول السرور بها ، والفرح عند أهلها . ﴿ وعليها وعلى الفلئلك تحمّلون ﴾ أي : على الرواحل البرية والفللك البحرية يحملكم الله الذي سخرها وهيا لها ما هيا من الأسباب التي لا تتم إلا بها .

﴿ ويرىكم آياته ﴾ الدالة على وحدانيته وأسمائه وصفاته ، وهذا من أكبر نعمه ، حيث أشهد عباده آياته النفسية ، وآياته الأفقية ، ونعمته الباهرة ، وعددها عليهم ، ليعرفوه ويشكروه ويذكروه .

﴿ فأي آيات الله تنكرون ﴾ أي : أي آية من آياته لا تعتبرونها ؟ فإنكم قد تقرّ عندكم ، أن جميع الآيات والنعم منه تعالى ، فلم يبق للإنكار محل ، ولا للإعراض عنها موضع ، بل أوجب لذوي الألباب بذل الجهد ، واستفراغ الوسع ، للاجتهاد في طاعته والتبذل في خدمته والانقطاع إليه .

﴿ ٨٢ - ٨٥ ﴾ ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وأكثر إثارة في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ﴾ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك

والآخرة ، ولهذا قال : ﴿ فإما نرينك بعض الذي نعدهم ﴾ في الدنيا فذلك ﴿ أو نتوفينك ﴾ قبل عقوبتهم ﴿ فإلينا يرجعون ﴾ فنجازهم بأعمالهم ، ﴿ فلا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون ﴾ . ثم سلّاه وصيّره بذكر إخوانه المرسلين فقال :

﴿ ٧٨ ﴾ ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون ﴾ أي : ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً ﴾ كثيرين إلى قومهم ، يدعوهم ويصبرون على أذاهم . ﴿ منهم من قصصنا عليك ﴾ خبرهم ﴿ ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ . وكل الرسل مدبرون ، ليس بيدهم شيء من الأمر .

وما كان لأحد منهم ﴿ أن يأتي بآية ﴾ من الآيات السمعية والعقلية ﴿ إلا بإذن الله ﴾ أي : بمشيئته وأمره ، فاقترح المقترح على الرسل الإتيان بالآيات ، ظلم منهم وتعنّت وتكذيب ، بعد أن أيدهم الله بالآيات الدالة على صدقهم وصحة ما جاؤوا به . ﴿ فإذا جاء أمر الله ﴾ بالفصل بين الرسل وأعدائهم ، والفتح . ﴿ قضي ﴾ بينهم ﴿ بالحق ﴾ الذي يقع الموقع ، ويوافق الصواب بإنجاء الرسل وأتباعهم ، وإهلاك الكاذبين ، ولهذا قال : ﴿ وخسر هنالك ﴾ أي : وقت القضاء المذكور ﴿ المبطلون ﴾ الذين وصفهم الباطل ، وما جاؤوا به من العلم والعمل باطل ، وغايتهم المقصودة لهم باطلة ، فليخذر هؤلاء المخاطبون أن يستمروا على باطلهم فيخسروا كما خسر أولئك ، فإن هؤلاء لا خير منهم ، ولا لهم براءة في الكتب بالنجاة .

﴿ ٧٩ - ٨١ ﴾ ﴿ الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ﴾ ولكم فيها منافع ولتبلىغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلئلك تحمّلون ﴿ ويرىكم آياته فأي آيات الله

الكافرين ﴾ أي : كذلك الضلال الذي كانوا عليه في الدنيا ، الضلال الواضح لكل أحد ، حتى إنهم بأنفسهم يقرون ببطلانه يوم القيامة ، ويتبين لهم معنى قوله تعالى : ﴿ وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن ﴾ ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ ويوم القيامة يكفرون بشرككم ﴾ ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ﴾ الآيات .

ويقال لأهل النار ﴿ ذلكم ﴾ العذاب الذي نوع عليكم ﴿ بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفرحون ﴾ أي : تفرحون بالباطل الذي أنتم عليه ، وبالعلوم التي خالفتكم بها علوم الرسل وتفرحون على عباد الله ، بغيا وعدوانا وظلماً وعصياناً ، كما قال تعالى في آخر هذه السورة : ﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم ﴾ .

وكما قال قوم قارون له : ﴿ لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ﴾ .

وهذا هو الفرح المذموم الموجب للعقاب ، بخلاف الفرح المدحوح الذي قال الله فيه : ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ وهو الفرح بالعلم النافع والعمل الصالح .

﴿ ادخلوا أبواب جهنم ﴾ كل طبقة من طبقاتها على قدر عمله . ﴿ خالدين فيها ﴾ لا يخرجون منها أبداً ﴿ فيس مشوى المتكبرين ﴾ مشوى يخزون فيه ويهانون ويحسبون ويعذبون ويترددون بين حرها وزمهريرها .

﴿ ٧٧ ﴾ ﴿ فاصبر إن وعد الله حق فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون ﴾ أي : ﴿ فاصبر ﴾ يا أيها الرسول على دعوة قومك وما ينالك منهم من أذى ، واستعن على صبرك بإيمانك ﴿ إن وعد الله حق ﴾ سينصر دينه ، وعلّى كلمته ، وينصر رسله في الدنيا والآخرة ، واستعن على ذلك أيضاً ، بتوقع العقوبة بأعدائك في الدنيا

بأسنا» أي: في تلك الحال، وهذه «سنة الله» وعادته «التي خلت في عبادته» أن المكذبين حين ينزل بهم بأس الله وعقابه إذا آمنوا، كان إيمانهم غير صحيح، ولا منجياً لهم من العذاب، وذلك لأنه إيمان ضرورة قد اضطروا إليه، وإيمان مشاهدة، وإنما الإيمان النافع الذي ينجي صاحبه، هو الإيمان الاختياري، الذي يكون إيماناً بالغيب، وذلك قبل وجود قرائن العذاب.

«وخسر هنالك» أي: وقت الإهلاك وإذابة اليأس «الكافرون» دينهم وديارهم وأخراهم، ولا يكفي مجرد الخسارة في تلك الدار، بل لا بد من خسران يشقي في العذاب الشديد، والخلود فيه، دائماً أبداً.

تم تفسير سورة المؤمن بحمد الله ولطفه ومعوته، لا بحولنا وقوتنا، فله الشكر والثناء.

تفسير سورة فصلت^(١) مكية

﴿١-٨﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ حم ﴿تنزيل من الرحمن الرحيم﴾ كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ﴿بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون﴾ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إليكم إله واحد﴾ فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين ﴿الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون﴾ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴿يجزى تعالى عبادهم أن هذا الكتاب﴾ من الرحمن الرحيم ﴿الذي وسعت رحمة كل شيء، الذي من أعظم رحمته وأجلها إنزال هذا الكتاب، الذي حصل به من العلم والهدى والنور والشفاء والرحمة والخير الكثير، ما هو

الكافرون﴾ بحيث تعالى المكذبين لرسولهم على السير في الأرض بأبدانهم وقلوبهم وسؤال العالمين. ﴿فينظروا﴾ نظر فكر واستبدال، لا نظر غفلة وإهمال.

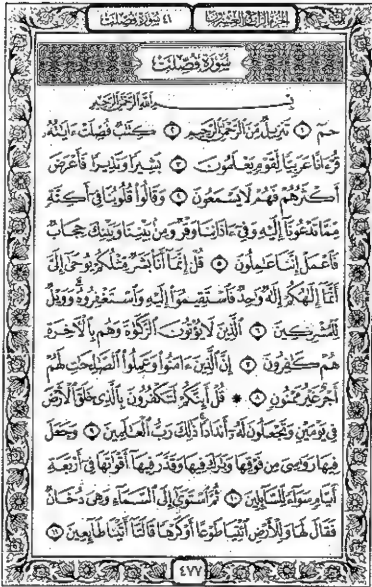
﴿كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ من الأمم السالفة، كعباد وثمود وغيرهم، ممن كانوا أعظم منهم قوة وأكثر أموالاً وأشد أثراً في الأرض من الأبنية الحصينة، والغراس الأنينة، والزروع الكثيرة ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ حين جاءهم أمر الله، فلم تغني عنهم قوتهم، ولا اقتدوا بأموالهم، ولا تحصنوا بحصونهم.

ثم ذكر جرمهم الكبير فقال: ﴿فلما جاءهم رسلهم بالبينات﴾ من الكتب الإلهية، والخوارق العظيمة، والعلم النافع المبين، للهدى من الضلال، والحق من الباطل ﴿فرحوا بما عندهم من العلم﴾ المناقض لدين الرسل.

ومن المعلوم، أن فرحهم به يدل على شدة رضاهم به وتمسكهم، ومعادة الحق الذي جاءت به الرسل، وجعل باطلهم حقاً، وهذا عام لجميع العلوم التي نوقض بها ما جاءت به الرسل، ومن أحققها بالدخول في هذا، علوم الفلسفة، والمنطق اليوناني، الذي رذت به كثير من آيات القرآن، ونقصت قدره في القلوب، وجعلت أدلته اليقينية القاطعة أدلة لفظية لا تفيد شيئاً من اليقين، ويقدم عليها عقول أهل السفة والباطل، وهذا من أعظم الإلحاد في آيات الله والمعارضة لها والمناقضة فالله المستعان.

﴿وحاق بهم﴾ أي: نزل ﴿ما كانوا به يستهزئون﴾ من العذاب. ﴿فلما رأوا بأسنا﴾ أي: عذابنا، أقروا حيث لا ينفعهم الإقرار ﴿قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين﴾ من الأصنام والأوثان، وتبرأنا من كل ما خالف الرسل من علم أو عمل. ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا﴾

(١) كذا في الأصل والاسم المشتهر للسورة هو (سورة فصلت).



من أجل نعيمه على العباد، وهو الطريق للسعادة في الدارين.

ثم أثنى على الكتاب بتمام البيان فقال: ﴿فصلت آياته﴾ أي: فصل كل شيء من أنواعه على حدته، وهذا يستلزم البيان التام، والتفريق بين كل شيء، وتمييز الحقائق: ﴿قرآناً عربياً﴾ أي: باللغة الفصحى أكمل اللغات، فصلت آياته وجعل عربياً. ﴿لقوم يعلمون﴾ أي: لأجل أن يتبين لهم معناه كما تبين لفظه، ويتضح لهم الهدى من الضلال، والغنى من الرشد.

وأما الجاهلون الذين لا يزيدهم الهدى إلا ضلالاً، ولا البيان إلا عمى فهو لاء لم يسبق الكلام لأجلهم، وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون.

﴿بشيراً ونذيراً﴾ أي: بشيراً بالشواب العاجل والآجل، ونذيراً بالعقاب العاجل والآجل، وذكر تفصيلهما، وذكر الأسباب والأوصاف التي تحصل بها البشارة والنذارة، وهذه الأوصاف للكتاب، مما يوجب أن يتلقى بالقبول والإذعان والإيمان والعمل به، ولكن أعرض أكثر الخلق عنه إعراض المستكبرين، فهم

دخان فقال لها وللأرض اثنيًا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمراً بمصاييح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم * ينكر تعالى ويعجب من كفر الكافرين به، الذين جعلوا معه أنداداً يشركونهم معه، ويبدلون لهم ما يشاؤون من عباداتهم، ويسوونهم بالرب العظيم، الملك الكريم، الذي خلق الأرض الكثيفة العظيمة في يومين، ثم دحاها في يومين، بأن جعل فيها رواسي من فوقها، ترسيها عن الزوال والتزلزل وعدم الاستقرار، فكمّل خلقها، ودحاها، وإخراج أقواتها، وتوابع ذلك * في أربعة أيام سواء للسائلين * عن ذلك، فلا يثبتك مثل خبير، فهذا الخبر الصادق الذي لا زيادة فيه ولا نقص.

ثم * بعد أن خلق الأرض * استوى * أي: قصد * إلى * خلق السماء وهي دخان * قد ثار على وجه الماء، * فقال لها * ولما كان هذا التخصيص يوهم الاختصاص، عطف عليه بقوله: * وللأرض اثنيًا طوعاً أو كرهاً * أي: انقادا لأمري طائعتين أو مكرهتين، فلا بد من نفوذه. * قالتا أتينا طائعين * ليس لنا إرادة تخالف إرادتك. * فقضاهن سبع سموات في يومين * فتمّ خلق السماوات والأرض في ستة أيام أو لها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، مع أن قدرة الله ومشيتته صالحة لخلق الجميع في لحظة واحدة، ولكن مع أنه قدير، فهو حكيم رفيق، فمن حكمته ورفقه، أن جعل خلقها في هذه المدة المقدرة.

واعلم أن ظاهر هذه الآية، مع قوله تعالى في النزاعات، لما ذكر خلق السماوات قال: * والأرض بعد ذلك دحاها * يظهر منها التعارض، مع أن كتاب الله لا تعارض فيه ولا اختلاف.

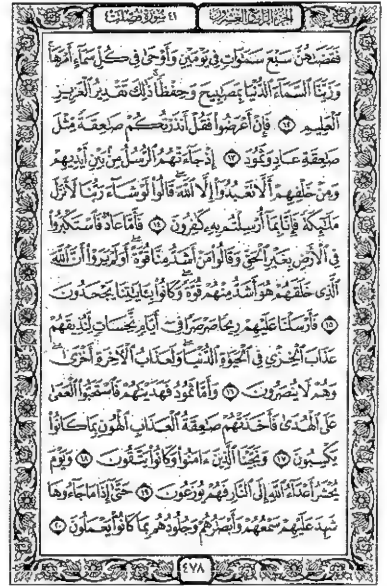
والجواب عن ذلك ما قاله كثير من السلف، أن خلق الأرض وصورتها

بتصديق الخبر الذي أخبر به، واتباع الأمر واجتناب النهي، هذه حقيقة الاستقامة، ثم الدوام على ذلك، وفي قوله: * إليه * تنبيه على الإخلاص، وأن العامل ينبغي له أن يجعل مقصوده وغايته التي يعمل لأجلها، الوصول إلى الله، وإلى دار كرامته، فبذلك يكون عمله خالصاً صالحاً نافعاً، وبفواته يكون عمله باطلاً.

ولما كان العبد - ولو حرص على الاستقامة - لا بد أن يحصل منه خلل بتقصير بمأمور، أو ارتكاب منهي، أمره بدواء ذلك بالاستغفار المتضمن للتوبة فقال: * واستغفروه * ثم توعّد من ترك الاستقامة فقال: * وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة * أي: الذين عبدوا من دونه من لا يملك نفعا ولا ضرا، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ودنسوا أنفسهم، فلم يزكوها بتوحيد ربهم والإخلاص له، ولم يصلوا ولا زكوا، فلا إخلاص للخالق بالتوحيد والصلاة، ولا نفع للخلق بالزكاة وغيرها. * وهم بالآخرة هم كافرون * أي: لا يؤمنون بالبعث ولا بالجنة والنار، فلذلك لما زال الخوف من قلوبهم، أقدموا على ما أقدموا عليه مما يضرهم في الآخرة.

ولما ذكر الكافرين ذكر المؤمنين، ووصفهم وجزاءهم، فقال: * إن الذين آمنوا * بهذا الكتاب، وما اشتمل عليه مما دعا إليه من الإيمان، وصدقوا بإيمانهم بالأعمال الصالحة الجامعة للإخلاص، والمتابعة. * لهم أجر * أي: عظيم * غير ممنون * أي: غير مقطوع ولا نافذ، بل هو مستمر مدى الأوقات، متزايد على الساعات، مشتمل على جميع اللذات والمشتبهات.

٩ - ١٢ * قل أئتكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهي



لا يسمعون * له سماع قبول وإجابة، وإن كانوا قد سمعوه سماعاً تقوم عليهم به الحجة الشرعية.

وقالوا * أي: هؤلاء المرضون عنه، مبينين عدم انتفاعهم به، بسد الأبواب الموصلة إليه: * قلوبنا في أكفئه * أي: أعطية مغلقة * بما تدعوننا إليه وفي آذاننا وقر * أي: صمم فلا نسمع لك * ومن بيننا وبينك حجاب * فلا نراك.

القصود من ذلك، أنهم أظهروا الإعراض عنه من كل وجه، وأظهروا بغضه والرضا بما هم عليه، ولهذا قالوا: * فاعمل إننا عاملون * أي: كما رضيت بالعمل بدينك، فإننا راضون كل الرضا بالعمل في ديننا، وهذا من أعظم الخذلان، حيث رضوا بالضلال عن الهدى، واستبدلوا الكفر بالإيمان، وباعوا الآخرة بالدنيا.

قل * لهم يا أيها النبي: * إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي * أي: هذه صفتي ووظيفتي، أي بشر مثلكم، ليس بيدي من الأمر شيء، ولا عندي ما تستعجلون به، وإنما فضّلني الله عليكم وميّزني وخصّني بالوحي الذي أوحاه إلي وأمرني باتباعه ودعوتكم إليه.

فاستقيموا إليه * أي: اسلكوا الصراط الموصل إلى الله تعالى،

عاد وثمود ﴿القبيلتين المعروفتين، حيث اجتاحتهم العذاب، وحل عليهم وبيل العقاب، وذلك بظلمهم وكفرهم.

حيث ﴿جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم﴾ أي: يتبع بعضهم بعضاً متوالين، ودعوتهم جميعاً واحدة. ﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾ أي: يأمرون بالإخلاص لله، وينهونهم عن الشرك، فردوا رسالتهم وكذبهم، و﴿قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة﴾ أي: وأما أنتم فبشر مثلنا ﴿فإننا بما أرسلتم به كافرون﴾ وهذه الشبهة لم تنزل متوارثة بين المكذبين [من الأمم]، وهي من أوهى الشبه، فإنه ليس من شرط الإرسال أن يكون المرسل ملكاً، وإنما شرط الرسالة، أن يأتي الرسول بما يدل على صدقه، فليَقْذَحُوا إن استطاعوا بصدقهم بقادح عقلي أو شرعي، ولن يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً.

﴿١٥ - ١٦﴾ ﴿فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون﴾ فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ﴿هذا تفصيل لقصة هاتين الأممين، عاد وثمود. ﴿فأما عاد﴾ فكانوا - مع كفرهم بالله، وجحدهم بآيات الله، وكفرهم برسله - مستكبرين في الأرض، ظالمين لهم، قد أعجبتهم قوتهم. ﴿وقالوا من أشد منا قوة﴾ قال تعالى ردأ عليهم بما يعرفه كل أحد: ﴿أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة﴾ فلو لا خلقه إياهم، لم يوجدوا فلو نظروا إلى هذه الحال نظراً صحيحاً، لم يغتروا بقوتهم، فعاقبهم الله عقوبة تناسب قوتهم التي اغتروا بها.

متقدم على خلق السماوات كما هنا، ودحي الأرض بأن ﴿أخرج منها ماءها ومرعاها﴾ والجبال أرساها ﴿متأخر عن خلق السماوات كما في سورة النازعات، ولهذا قال فيها: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ ﴿أخرج منها﴾ إلى آخره ولم يقل: ﴿والأرض بعد ذلك خلقها﴾.

وقوله: ﴿وأوحى في كل سماء أمرها﴾ أي: الأمر والتدبير اللائق بها، التي اقتضته حكمة أحكم الحاكمين. ﴿وزينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ هي النجوم يستنار بها ويتبدى، وتكون زينة وجالاً للسماء ظاهراً، وجالاً لها باطناً، يجعلها رجوماً للشياطين، لئلا يسترق السمع فيها. ﴿ذلك﴾ المذكور، من الأرض وما فيها، والسماء وما فيها ﴿تقدير العزيز العليم﴾ الذي عزته قهر بها الأشياء ودبرها، وخلق بها المخلوقات. ﴿العليم﴾ الذي أحاط علمه بالمخلوقات والغائب والشاهد.

فَتَرَكُ الْمُشْرِكِينَ الْإِخْلَاصَ لِهَذَا الرَّبِّ الْعَظِيمِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، الَّذِي انْقَادَتِ الْمَخْلُوقَاتُ لِأَمْرِهِ وَنَفَذَ فِيهَا قَدْرَهُ مِنْ أَعْجَبِ الْأَشْيَاءِ، وَاتَّخَذَهُمْ لَهُ أَنْدَاداً يَسُوونَهُمْ بِهِ، وَهُمْ نَاقِصُونَ فِي أَوْصَافِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ أَعْجَبُ وَأَعْجَبُ، وَلَا دَوَاءَ لَهُؤُلَاءِ إِنْ اسْتَمَرَّ إِعْرَاضُهُمْ، إِلَّا الْعُقُوبَاتُ الدُّنْيَوِيَّةُ وَالْآخِرِيَّةُ، فَلِهَذَا خَوْفُهُمْ يَقُولُهُ:

﴿١٣ - ١٤﴾ ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ﴿ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة﴾ فإنما بما أرسلتم به كافرون ﴿

أي: فإن أعرض هؤلاء المكذبون بعدما بين لهم من أوصاف القرآن الحميدة، ومن صفات الإله العظيم ﴿فقل أنذرتكم صاعقة﴾ أي: عذاباً يستأصلكم ويبتاححكم، ﴿مثل صاعقة



﴿فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً﴾ أي: ريحاً عظيمة، من قوتها وشدتها، لها صوت مزعج، كالرعد القاصف. فسخرها الله عليهم ﴿سبع ليال وثمانية أيام حسوماً﴾ فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴿نحسات﴾ فدمرتهم وأهلكتهم، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم. وقال هنا: ﴿لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا﴾ الذي اختروا به واقتضوا بين الخليفة. ﴿وللعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون﴾ أي: لا يمنعون من عذاب الله، ولا يمنعون أنفسهم.

﴿١٧ - ١٨﴾ ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستجبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ وأما ثمود وذهبهم القبيلة المعروفة الذين سكنوا الحجر وحواليه، الذين أرسل الله إليهم صالحاً عليه السلام، يدعوهم إلى توحيد ربهم، وينهاهم عن الشرك وآتاهم الله الناقة آية عظيمة، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم، يشربون لبنها يوماً، ويشربون من الماء يوماً، وليسوا يتفقون عليها، بل تأكل من أرض الله، ولهذا قال هنا: ﴿وأما ثمود فهديناهم﴾ أي:

بربكم ﴿الظن السيء﴾ حيث ظننتم به ما لا يليق بجلاله. ﴿أرداكم﴾ أي: أهلككم، ﴿فأصبحتم من الخاسرين﴾ لأنفسهم وأهليهم وأديانهم بسبب الأعمال التي أوجبها لكم ظنكم القبيح بربكم، فحقت عليكم كلمة العقاب والشقاء، ووجب عليكم الخلود الدائم في العذاب، الذي لا يفتر عنهم ساعة.

﴿فإن يصبروا فالنار مثوى لهم﴾ فلا جلدٌ عليها ولا صبر، وكل حالة قدر إمكان الصبر عليها، فالنار لا يمكن الصبر عليها، وكيف الصبر على نار قد اشتد حرها، وزادت على نار الدنيا بسبعين ضعفاً، وعظم غليان حميمها، وزادت نيران صديدها، وتضاعف برد زمهريرها وعظمت سلاسلها وأغلالها، وكبرت مقامعها، وغلظ خُرائبها، وزال ما في قلوبهم من رحمتهم، وختم ذلك شحط الجبار، وقوله لهم حين يدعونه ويستغيثون: ﴿اخشوا فيها ولا تكلمون﴾.

﴿وإن يستعتبوا﴾ أي: يطلبوا أن يزال عنهم العتب ويرجعوا إلى الدنيا ليستأنفوا العمل. ﴿فما هم من المعتبين﴾ لأنه ذهب وقته، وعمرها ما يعمر فيه من تذكر وجاءهم النذير وانقضت حجتهم مع أن استعتبهم كذب منهم ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾.

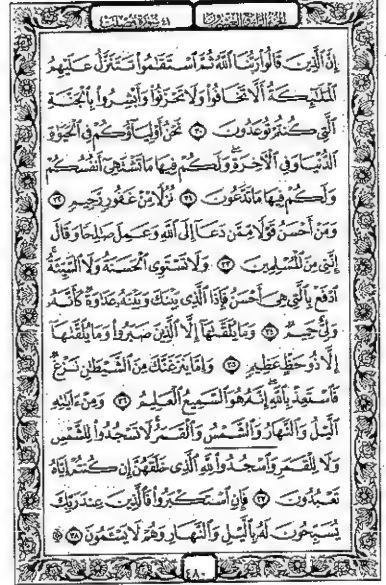
﴿٢٥﴾ ﴿وقيضنا لهم قرناء فزينا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين﴾ أي: وقيضنا لهؤلاء الظالمين الجاحدين للحق ﴿قرناء﴾ من الشياطين، كما قال تعالى: ﴿ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً﴾ أي: تزعجهم إلى المعاصي وتحتهم عليها، بسبب ما زينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم. فالدينا زخرفها بأعينهم، ودعواهم إلى لذاتها وشهواتها المحرمة حتى افتتنوا، فأقندموها على معاصي الله، وسلكوا ما شأوا من محاربة الله ورسله، والآخرة بتدووها

من المعتبين ﴿يخبر تعالى عن أعدائه، الذين بارزوه بالكفر به وبآياته، وتكذيب رسله ومعاداتهم ومحاربتهم، وحالهم الشنيعة حين يحشرون، أي: يجمعون. إلى النار فهم يوزعون﴾ [أي: يرد أولهم على آخرهم، ويتبع آخرهم أولهم، ويساقون إليها سوفاً غنياً، لا يستطيعون امتناعاً، ولا ينصرون أنفسهم ولا هم ينصرون، حتى إذا ما جاؤوها﴾ أي: حتى إذا وردوا على النار، وأرادوا الإنكار، أو أنكروا ما عملوه من المعاصي، ﴿شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم﴾ عموم بعد خصوص [بما كانوا يعملون] أي: شهد عليهم كل عضو من أعضائهم، فكل عضو يقول: أنا فعلت كذا وكذا يوم كذا وكذا. وخص هذه الأعضاء الثلاثة، لأن أكثر الذنوب إنما تقع بها أو بسببها.

﴿فإذا شهدت عليهم عاتبوها، وقالوا لجلودهم﴾ هذا دليل على أن الشهادة تقع من كل عضو كما ذكرنا: ﴿لم شهدتم علينا﴾ ونحن نناقض عنكم؟ ﴿قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء﴾ فليس في إمكاننا الامتناع عن الشهادة حين أنطقنا الذي لا يستعصي عن مشيئته أحد.

﴿وهو خلقكم أول مرة﴾ فكما خلقكم بذواتكم وأجسامكم، خلق أيضاً صفاتكم، ومن ذلك الإنطاق. ﴿وإليه ترجعون﴾ في جزيتكم بما عملتم، ويحتمل أن المراد بذلك، الاستدلال على البعث بالخلق الأول، كما هو طريقة القرآن.

﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم﴾ أي: وما كنتم تخفون عن شهادة أعضائكم عليكم، ولا تحاذرون من ذلك. ﴿ولكن ظننتم﴾ بإقدامكم على المعاصي ﴿أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون﴾. فلذلك صدر منكم ما صدر، وهذا الظن، صار سبب هلاكهم وشقائهم ولهذا قال: ﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم



هداية بيان، وإنما نص عليهم، وإن كان جميع الأمم المهلكة، قد قامت عليهم الحجة وحصل لهم البيان، لأن آية ثمود آية باهرة، قد رآها صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، وكانت آية ميصرة، فلهذا خصهم بزيادة البيان والهدى.

ولكنهم - من ظلمهم وشرهم - استحبوا العمى - الذي هو الكفر والضلال - على الهدى - الذي هو العلم والإيمان - فأخذهم العذاب بما كانوا يكسبون لا ظلماً من الله لهم. ونجيننا الذين آمنوا وكانوا يتقون. أي: نجى الله صالحاً عليه السلام ومن اتبعه من المؤمنين المتقين للشرك والمعاصي.

﴿٢٤ - ٢٥﴾ ﴿ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون﴾ حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ﴿وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون﴾ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾ فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم

عليهم وأنسوهم ذكرها، وربما أوقعوا عليهم الشبه بعدم وقوعها، فترحل خوفها من قلوبهم، فقادوهم إلى الكفر والبدع والمعاصي.

وهذا التسليط والتقييض من الله للمكذبين الشياطين، بسبب إعراضهم عن ذكر الله وآياته، وجحودهم الحق كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشَ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فُهِرَ لَهُ قَرِينٌ﴾ وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون.

﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: وجب عليهم، ونزل القضاء والقدر بعذابهم ﴿فِي﴾ جملة ﴿أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ لأديانهم وآخرتهم، ومن خسِر، فلا بد أن يذل ويشقى ويعذب.

﴿٢٦-٢٩﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون. ﴿ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يمحذون﴾ وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلنا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين. يخبر تعالى عن إعراض الكفار عن القرآن وتواصيهم بذلك، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ أي: أعرضوا عنه بأسماعكم، وإياكم أن تلتفتوا، أو تصغوا إليه ولا إلى من جاء به، فإن اتفق أنكم سمعتموه، أو سمعتم الدعوة إلى أحكامه، فـ ﴿الغوا فيه﴾ أي: تكلموا بالكلام الذي لا فائدة فيه، بل فيه المضرة، ولا تمكثوا - مع قدرتكم - أحداً يملك عليكم الكلام به وتلاوة ألفاظه ومعانيه، هذا لسان حالهم ولسان مقالهم في الإعراض عن هذا القرآن، ﴿لعلكم﴾ إن فلعتم ذلك ﴿تغلبون﴾ [وهذه] ^(١) شهادة من الأعداء، وأوضح الحق ما شهدت به الأعداء، فإنهم لم يحكموا بغلبتهم لكن

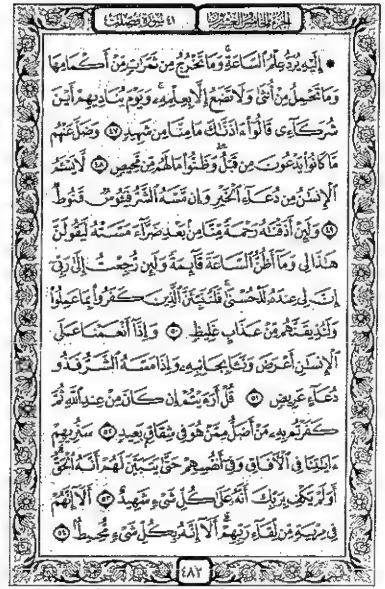
(١) في السختين (وهذا).

(٢) في (ب) (الشرك).



ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون. ﴿نزلا من غفور رحيم﴾ يخبر تعالى عن أوليائه، وفي ضمن ذلك تشييطهم والحث على الاقتداء بهم فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ أي: اعترفوا ونطقوا ورضوا بربوبية الله تعالى، واستسلموا لأمره، ثم استقاموا على الصراط المستقيم، علماً وعملاً، فلهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

﴿تنزل عليهم الملائكة﴾ الكرام، أي: يتكرر نزولهم عليهم، مبشرين لهم عند الاحتضار. ﴿ألا تخافوا﴾ على ما يستقبل من أمركم، ﴿ولا تحزنوا﴾ على ما مضى، فنفا عنهم المكروه الماضي والمستقبل، ﴿وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ فإنها قد وجبت لكم وثبتت، وكان وعد الله مفعولاً. ويقولون لهم أيضاً مثبتين لهم ومبشرين: ﴿نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ يخونهم في الدنيا على الخير، ويزبنونه لهم، ويرهبونهم عن الشر، ويقبحونه في قلوبهم، ويدعون الله لهم، ويشبثونهم عند المصائب والمخاوف، وخصوصاً عند الموت وشده، والقبر وظلمته، وفي القيامة وأهوالها، وعلى الصراط، وفي الجنة يهنئونهم بكرامة ربهم، ويدخلون



وتحسينه، ومجادلة أعدائه بالتي هي أحسن، والنهي عما يضاده من الكفر والشرك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ومن الدعوة إلى الله، تحبيبه إلى عباده بذكر تفاصيل نعمه، وسعة جوده، وكمال رحمته، وذكر أوصاف كماله، ونعوت جلاله.

ومن الدعوة إلى الله، الترغيب في اقتباس العلم والهدى من كتاب الله وسنة رسوله، والحث على ذلك بكل طريق موصل إليه، ومن ذلك، الحث على مكارم الأخلاق، والإحسان إلى عموم الخلق، ومقابلة المسيء بالإحسان، والأمر بصلة الأرحام، وبر

الوالدين. ومن ذلك، الوعظ لعموم الناس، في أوقات المواسم والعبوراض والمصائب، بما يناسب ذلك الحال، إلى غير ذلك مما لا تنحصر أفرادها، مما يشمل الدعوة إلى الخير كله، والترهيب من جميع الشر.

ثم قال تعالى: ﴿وَعَمِلْ صَالِحًا﴾ أي: مع دعوته الخلق إلى الله، يادر هو بنفسه، إلى امتثال أمر الله، بالعمل الصالح، الذي يرضي ربه. وقال إنني من المسلمين. أي: المتقادين لأمره، السالكين في طريقه، وهذه المرتبة، تمامها للصديقين، الذين عملوا على تكميل أنفسهم وتكميل غيرهم، وحصلت لهم الورثة التامة من الرسل، كما أن من أشرف الناس قولاً، من كان من دعاة الضالين^(١) السالكين لسبيله.

وبين هاتين المرتبتين المتباينتين، التي ارتفعت إحداها إلى أعلى عليين، ونزلت الأخرى إلى أسفل سافلين، مراتب لا يعلمها إلا الله، وكلها معمورة بالخلق، ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون. ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي

حيم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم * يقول تعالى: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة﴾ أي: لا يستوي فعل الحسنات والطاعات لأجل رضا الله تعالى، ولا فعل السيئات والمعاصي التي تسخطه ولا ترضيه، ولا يستوي الإحسان إلى الخلق ولا الإساءة إليهم، لا في ذاتها، ولا في وصفها، ولا في جزائها. هل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

ثم أمر بإحسان خاص، له موقع كبير، وهو الإحسان إلى من أساء إليك، فقال ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾ أي: فإذا أساء إليك مسيء من الخلق، خصوصاً من له حق كبير عليك، كالأقارب والأصحاب ونحوهم، إساءة بالقول أو بالفعل، فقابلته بالإحسان إليه، فإن قطعك قصصه، وإن ظلمك فاعف عنه، وإن تكلم فيك غائباً أو حاضراً فلا تقابلته، بل اعف عنه، وعامله بالقول اللين. وإن هجرك وترك خطابك فطُيب له الكلام، وابدل له السلام، فإذا قابلت الإساءة بالإحسان، حصل فائدة عظيمة.

﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حيم﴾ أي: كأنه قريب شفيق.

﴿وما يلقاها﴾ أي: وما يوفق لهذه الحصلة الحميدة ﴿إلا الذين صبروا﴾ أي: نفوسهم على ما تكره، وأجبروها على ما يحبه الله، فإن النفوس مجبولة على مقابلة المسيء بإساءته وعدم العفو عنه، فكيف بالإحسان!!

فإذا صبر الإنسان نفسه، وأمثلة أمر ربه، وغرف جزيل الثواب، وعلم أن مقابلته للمسيء بخسنة عمله لا يفيد شئاً، ولا يزيد العداوة إلا شدة، وأن إحسانه إليه ليس بواضع قدره، بل من تواضع لله رفعه، هان عليه الأمر، وفعل ذلك مثلاً مستحلياً له.

﴿وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾

عليهم من كل باب ﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ ويقولون لهم أيضاً: ﴿ولكم فيها﴾ أي: في الجنة ﴿ما تشتهي أنفسكم﴾ قد أعد وهيء. ﴿ولكم فيها ما تدعون﴾ أي: تطلبون من كل ما تشعق به إرادتكم وتطلبونه من أنواع اللذات والمشتهيات، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿نزلنا من غفور رحيم﴾ أي: هذا الثواب الجزيل، والتغيم المقيم، نُزِّلَ وضيافة ﴿من غفور﴾ غفر لكم السيئات، ﴿رحيم﴾ حيث وفقكم لفعل الحسنات ثم قبلها منكم. فبمغفرتة أزال عنكم المحذور، وبرحمته أنالكم المطلوب.

﴿٣٣﴾ ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾ هذا استفهام بمعنى النفي المقرر أي: لا أحد أحسن قولاً. أي: كلاماً وطريقة، وحالة ﴿ومن دعا إلى الله﴾ بتعليم الجاهلين، ووعظ الغافلين والمعرضين، ومجادلة المبطلين بالأمر بعبادة الله بجميع أنواعها، والحث عليها وتحسينها مهما أمكن، والزجر عما نهى الله عنه، وتقبيحه بكل طريق يوجب تركه، خصوصاً من هذه، الدعوة إلى أصل دين الإسلام

ظاهرة وباطنه، وسيجازه على إلحاده بما كان يعمل، ولهذا قال: ﴿أَقْمِن يُلْقَى فِي النَّارِ﴾ مثل الملحد بآيات الله ﴿خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمَنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ من عذاب الله مستحقاً لثوابه؟ من المعلوم أن هذا خير.

لما تبين الحق من الباطل، والطريق المنجي من عذابه من الطريق المهلك قال: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ إن شئتم فاسلكوا طريق الرشد الموصلة إلى رضا ربكم وجنته، وإن شئتم فاسلكوا طريق الغي المسخطة لربكم، الموصلة إلى دار الشقاء.

﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يجازيكم بحسب أحوالكم وأعمالكم، كقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾ أي: يحددون القرآن الكريم المذكر للعباد جميع مصالحهم الدينية والدنيوية والأخروية، المغلي بقدر من اتباعه، ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ نعمة من ربهم على يد أفضل الخلق وأكملهم. ﴿وَرَوْى الْحَالَ﴾ إنه لكتاب جامع لأوصاف الكمال ﴿عَزِيزٌ﴾ أي: منيع من كل من أراد به تحريف أو سوء، ولهذا قال: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أي: لا يقربه شيطان من شياطين الإنس والجن، لا بسرقة، ولا بإدخال ما ليس منه به، ولا بزيادة، ولا نقص، فهو محفوظ في تنزيله، محفوظة ألفاظه ومعانيه، قد تكفل من أنزله بحفظه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

﴿تَنْزِيلٍ مِنْ حَكِيمٍ﴾ في خلقه وأمره، يضع كل شيء موضعه، وينزلها منازلها. ﴿حَكِيمٌ﴾ على ما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وعلى ما له من العدل والإفضال، فهذا كان كتابه مشتملاً على تمام الحكمة، وعلى تحصيل المصالح والمنافع، ودفع المفاسد والمضار، التي يحمدها عليها.

﴿٤٣﴾ ﴿مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرَّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ

اعيدوه وحده لأنه الخالق العظيم، ودعوا عبادة ما سواه من المخلوقات، وإن كبر جرمه وكثرت مصالحه، فإن ذلك ليس منه، وإنما هو من خالقه تبارك وتعالى. ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فخصوه بالعبادة وإخلاص الدين له.

﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا﴾ عن عبادة الله تعالى، ولم ينقادوا لها، فإنهم لن يضروا الله شيئاً، والله غني عنهم، وله عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولهذا قال: ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعني: الملائكة المقربين ﴿يَسْبَحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ أي: لا يملون من عبادته، لقوتهم وشدة الداعي القوي منهم إلى ذلك.

﴿وَمَنْ آيَاتُهُ﴾ الدالة على كمال قدرته، وانفراده بالملك والتدبير والوحدانية، ﴿أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ أي: لا نبات فيها ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ أي: المطر ﴿اهْتَزَّتْ﴾ أي: تحركت بالنبات ﴿وَرَبَّتْ﴾ ثم: أثبتت من كل زوج بهيج، فيحيي به العباد والبلاد.

﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا﴾ بعد موتها وهو دها، ﴿لَمُحْيِي الْمَوْتِ﴾ من قبورها إلى يوم بعثهم، وشورهم ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فكما لم تعجز قدرته على إحياء الأرض بعد موتها، لا تعجز عن إحياء الموتى.

﴿٤٠ - ٤٢﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمَنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٍ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ الإلهاد في آيات الله: الميل بها عن الصواب بأي وجه كان: إما بإنكارها وجحودها، وتكذيب من جاء بها، وإما بتحريفها وتضريفها عن معناها الحقيقي، وإثبات معانٍ لها ما أرادها الله منها.

فتوعد تعالى من ألد فيها بأنه لا يخفى عليه، بل هو مطلع على

لكونها من خصال خواص الخلق، التي ينال بها العبد الرفعة في الدنيا والآخرة، التي هي من أكبر خصال مكارم الأخلاق.

﴿٣٥ - ٣٩﴾ ﴿وَأَمَّا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ﴾ إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير ﴿لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا يِقَابِلُ بِهِ الْعَدُوَّ مِنَ الْإِنْسِ، وَهُوَ مُقَابِلَةٌ إِسَاءَتِهِ بِالْإِحْسَانِ ذَكَرَ مَا يَدْفَعُ بِهِ الْعَدُوَّ الْخَفِيِّ، وَهُوَ الْاسْتِعَاذَةُ بِاللَّهِ وَالْإِحْتِمَاءُ مِنْ شَرِّهِ، فَقَالَ: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ أي: أي وقت من الأوقات، أحسنت بشيء من نزغات الشيطان، أي: من وساوسه وتزيينه للشّر، وتكسيه عن الخير، وإصابة ببعض الذنوب، وإطاعة له ببعض ما يأمر به ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أي: أسأله، مفتقراً إليه، أن يعيدك ويعصمك منه، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فإنه يسمع قولك وتضرعك، ويعلم حالك واضطراك إلى عصيته وحمايته.

ثم ذكر تعالى أن ﴿مِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على كمال قدرته، ونفوذ مشيئته، وسعة سلطانه، ورحمته بعباده، وأنه الله وحده لا شريك له ﴿اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾: هذا بمنفعة ضيائه وتصرف العباد فيه، وهذا بمنفعة ظلمته، وسكون الخلق فيه. ﴿وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ﴾ اللذان لا تستقيم معاش العباد ولا أبدانهم ولا أبدان حيواناتهم إلا بهما، وبهما من المصالح ما لا يحصى عدده.

﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ فإنهما مدبران مسخران مخلوقان. ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ أي:

وذو عقاب أليم ﴿أي: ﴿ما يقال لك﴾ أي: هدى وشفاء ﴿أي: يهديهم لطريق الرشد والصراف المستقيم، ويعلمهم من العلوم النافعة ما به تحصل الهداية التامة وشفاء لهم من الأسقام البدنية والأسقام القلبية، لأنه يزرع عن مساويء الأخلاق وأقبح الأعمال، ويحث على التوبة النصوح التي تغسل الذنوب وتشفى القلب. ﴿والذين لا يؤمنون﴾ بالقرآن ﴿في آذانهم وقرا﴾ أي: صمم عن استماعه وإعراض، وهو عليهم عمي ﴿أي: لا يبصرون به رشداً، ولا يهتدون به، ولا يزيدهم إلا ضلالاً فإنهم إذا ردوا الحق، ازدادوا عمى إلى عمائم، وغتاً إلى غتهم. ﴿أولئك ينادون من مكان بعيد﴾ أي: ينادون إلى الإيمان ويدعون إليه فلا يستجيبون، بمنزلة الذي ينادى وهو في مكان بعيد، لا يسمع داعياً ولا يجيب منادياً. والمقصود: أن الذين لا يؤمنون بالقرآن، لا يتفجعون بهدا، ولا يبصرون بنوره، ولا يستفيدون منه خيراً، لأنهم سدوا على أنفسهم أبواب الهدى، بإعراضهم وكفرهم. ﴿٤٥ - ٤٦﴾ ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولو لا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وإن في شك منه مرئب * من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد﴾ يقول تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ كما آتيناك الكتاب، فصنع به الناس ما صنعوا معك، اختلفوا فيه: فمنهم من آمن به واهتدى وانتفع، ومنهم من كذبه ولم ينتفع به، وإن الله تعالى، لو لا حلمه وكلمته السابقة بتأخير العذاب إلى أجل مسمى لا يتقدم عليه ولا يتأخر ﴿لقضي بينهم﴾ بمجرد ما يتميز المؤمنون من الكافرين، بإهلاك الكافرين في الحال، لأن سبب الهلاك قد وجب وحق. ﴿وإنهم لفي شك منه مرئب﴾ أي: قد بلغ بهم إلى الرب الذي يقلقهم، فلذلك كذبوه وجحدوه.

هدى وشفاء ﴿أي: يهديهم لطريق الرشد والصراف المستقيم، ويعلمهم من العلوم النافعة ما به تحصل الهداية التامة وشفاء لهم من الأسقام البدنية والأسقام القلبية، لأنه يزرع عن مساويء الأخلاق وأقبح الأعمال، ويحث على التوبة النصوح التي تغسل الذنوب وتشفى القلب.

﴿والذين لا يؤمنون﴾ بالقرآن ﴿في آذانهم وقرا﴾ أي: صمم عن استماعه وإعراض، وهو عليهم عمي ﴿أي: لا يبصرون به رشداً، ولا يهتدون به، ولا يزيدهم إلا ضلالاً فإنهم إذا ردوا الحق، ازدادوا عمى إلى عمائم، وغتاً إلى غتهم.

﴿أولئك ينادون من مكان بعيد﴾ أي: ينادون إلى الإيمان ويدعون إليه فلا يستجيبون، بمنزلة الذي ينادى وهو في مكان بعيد، لا يسمع داعياً ولا يجيب منادياً. والمقصود: أن الذين لا يؤمنون بالقرآن، لا يتفجعون بهدا، ولا يبصرون بنوره، ولا يستفيدون منه خيراً، لأنهم سدوا على أنفسهم أبواب الهدى، بإعراضهم وكفرهم.

﴿٤٥ - ٤٦﴾ ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولو لا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وإن في شك منه مرئب * من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد﴾ يقول تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ كما آتيناك الكتاب، فصنع به الناس ما صنعوا معك، اختلفوا فيه: فمنهم من آمن به واهتدى وانتفع، ومنهم من كذبه ولم ينتفع به، وإن الله تعالى، لو لا حلمه وكلمته السابقة بتأخير العذاب إلى أجل مسمى لا يتقدم عليه ولا يتأخر ﴿لقضي بينهم﴾ بمجرد ما يتميز المؤمنون من الكافرين، بإهلاك الكافرين في الحال، لأن سبب الهلاك قد وجب وحق. ﴿وإنهم لفي شك منه مرئب﴾ أي: قد بلغ بهم إلى الرب الذي يقلقهم، فلذلك كذبوه وجحدوه.

﴿من عمل صالحاً﴾ وهو العمل الذي أمر الله به ورسوله ﴿فلنفسه﴾

واقتراحهم على رسلهم الآيات، التي لا يلزمهم الإتيان بها، ونحو ذلك من أقوال أهل التكذيب، لما تشابهت قلوبهم في الكفر تشابهت أقوالهم، وصبر الرسل عليهم السلام على آذانهم وتكذيبهم، فاصبر كما صبر من قبلك.

ثم دعاهم إلى التوبة والإتيان بأسباب المغفرة، وحذرهم من الاستمرار على النقي فقال: ﴿إن ربك لذو مغفرة﴾ أي: عظيمة، يمحو بها كل ذنب لمن أفلح وتاب ﴿وذو عقاب أليم﴾ لمن أصر واستكبر.

﴿٤٤﴾ ﴿ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقرا وهو عليهم عمي أولئك ينادون من مكان بعيد﴾ يخبر تعالى عن فضله وكرمه، حيث أنزل كتابه عربياً، على الرسول العربي، بلسان قومه، ليبين لهم، وهذا مما يوجب لهم زيادة الاعتناء به، والتلقي له والتسليم، وأنه لو جعله قرآناً أعجمياً بلغة غير العرب، لاغترض المكذوبون وقالوا: ﴿لولا فصلت آياته﴾ أي: هلاً بينت آياته، ووضحت وفسرت. ﴿أعجمي وعربي﴾ أي: كيف يكون محمد عربياً، والكتاب أعجمي؟ هذا لا يكون فنفي الله تعالى كل أمر يكون فيه شبهة لأهل الباطل عن كتابه، ووصفه بكل وصف يوجب لهم الانقياد، ولكن المؤمنون المرفقون انتفعوا به، وارتفعوا، وغيرهم بالعكس من أحوالهم.

ولهذا قال: ﴿قل هو للذين آمنوا

تفعه وثوابه في الدنيا والآخرة، ﴿ومن أساء فعليها﴾ ضرره وعقابه في الدنيا والآخرة، وفي هذا حث على فعل الخير وترك الشر، وانتفاع العاملين بأعمالهم الحسنة، وضررهم بأعمالهم السيئة، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى. ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ فيحمل أحداً فوق سيناتهم.

﴿٤٧ - ٤٨﴾ ﴿إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ويوم يناديهم أين شركائي قالوا آذناك ما منا من شهيد * وضل عنهم ما كانوا يمدعون من قبل وظنوا ما لهم من محيص﴾ هذا إخبار عن سعة علمه تعالى واختصاصه بالعلم الذي لا يطلع عليه سواه فقال: ﴿إليه يرد علم الساعة﴾ أي: جميع الخلق ترد علمها إلى الله تعالى، ويقرون بالعجز عنه، الرسل، والملائكة، وغيرهم.

﴿وما تخرج من ثمرات من أكمامها﴾ أي: وعائها الذي تخرج منه، وهذا شامل لثمرات جميع الأشجار التي في البلدان والبراري، فلا تخرج ثمرة شجرة من الأشجار، إلا وهو يعلمها علماً تفصيلياً.

﴿وما تحمل من أنثى﴾ من بني آدم وغيرهم، من أنواع الحيوانات، إلا بعلمه ﴿ولا تضع﴾ أنثى حملها إلا بعلمه. فكيف سوى المشركون به تعالى من لا علم عنده ولا سمع ولا بصر؟

﴿ويوم يناديهم﴾ أي: المشركين به يوم القيامة توبيخاً وإظهاراً لكذبهم، فيقول لهم: ﴿أين شركائي﴾ الذين زعمتم أنهم شركائي، فعبدتوهم وجادلتم على ذلك، وعاديتهم الرسل لأجلهم؟ ﴿قالوا﴾ مقرين بظلال الهيئتهم وشركتهم مع الله: ﴿آذناك ما منا من شهيد﴾ أي: أعلمناك يا ربنا، واشهد علينا أنه ما منا أحد يشهد بصحة الهيئتهم وشركتهم، فكلنا الآن قد رجعنا إلى بظلال عبادتها، وتبرأنا منها، ولهذا قال: ﴿وضل عنهم ما كانوا يمدعون﴾ من دون الله، أي:

فإن قلتم، أو شككتهم بصحته وحقيقته، فسيقم الله لكم ويرىكم من آياته في الآفاق، كآيات التي في السماء وفي الأرض، وما يحدثه الله تعالى من الخوارث العظيمة الدالة للمستبصر على الحق.

﴿وفي أنفسهم﴾ ما اشتملت عليه أبدانهم من بديع آيات الله وعجائب صنعته، وباهر قدرته، وفي حلول العقوبات والمشكلات في المكذبين، ونصر المؤمنين. ﴿حتى يتبين لهم﴾ من تلك الآيات، بياناً لا يقبل الشك. ﴿أنه الحق﴾ وما اشتمل عليه حق.

وقد فعل تعالى، فإنه أرى عباده من الآيات ما به تبين لهم أنه الحق، ولكن الله هو الموفق للإيمان من شاء، والخاذل لمن يشاء.

﴿أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾ أي: أولم يكفهم على أن القرآن حق، ومن جاء به صادق، بشهادة الله تعالى، فإنه قد شهد له بالتصديق، وهو أصدق الشاهدين، وأيده ونصره نصراً متضمناً لشهادته القولية عند من شك فيها.

﴿ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم﴾ أي: في شك من البعث والقيامة، وليس عندهم دار سوى الدار الدنيا، فلذلك لم يعملوا للآخرة، ولم يلتفتوا لها. ﴿ألا إنه بكل شيء محيط﴾ علماً وقدره وعزة.

تم تفسير سورة السجدة

— بمته تعالى —

تفسير سورة الشورى مكية

﴿١ - ٩﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم عسق﴾ كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم. ﴿له ما في السماوات وما في الأرض وهو العلي العظيم﴾ تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم. ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم

ثم قال تعالى: ﴿ولئن أذقناه﴾ أي: الإنسان الذي لا يسأم من دعاء الخير، وإن منه الشر فيؤوس قنوط ﴿رحمة﴾ مثلاً أي: بعد ذلك الشر الذي أصابه، بأن عافاه الله من مرضه، أو أغناه من فقره، فإنه لا يشكر الله تعالى، بل يبغى ويطنى، ويقول: ﴿هذا لي﴾ أي: أنا لأنني له أهل وأنا مستحق له ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾ وهذا إنكار منه للبعث، وكفر للنعمة والرحمة التي أذاقها الله له. ﴿ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾ أي: على تقدير إتيان الساعة، وأني سأرجع إلى ربي، إن لي عنده للحسنى، فكما حصلت لي النعمة في الدنيا، فإنها ستحصل لي في الآخرة وهذا من أعظم الجراءة والقول على الله بلا علم، فلهاذا توعده الله بقوله: ﴿فلننبئ الذين كفروا بما صنعوا ولننذيقنهم من عذاب غليظ﴾ أي: شديد جداً.

﴿وإذا أنعمنا على الإنسان﴾ بصحة أو رزق أو غيرهما، ﴿أعرض﴾ عن ربه وعن شكره ﴿ونسأى﴾ أي: ترفع ﴿بجانبه﴾ عجباً وتكبراً. وإن ﴿مسه الشر﴾ أي: المرض، أو الفقر، أو غيرهما ﴿فدو دعاء عريض﴾ أي: كثير جداً، لعدم صبره، فلا صبر في الضراء، ولا شكر في الرخاء، إلا من هداه الله ومن عليه.

﴿٥٢ - ٥٤﴾ ﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد﴾ سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد. ﴿ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم﴾ ألا إنه بكل شيء محيط. ﴿أي: قل﴾ لهؤلاء المكذبين بالقرآن المسارعين إلى الكفران ﴿أرأيتم إن كان﴾ هذا القرآن ﴿من عند الله﴾ من غير شك ولا ارتياب، ﴿ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد﴾ أي: معاندة الله ولرسوله، لأنه تبين لكم الحق والصواب، ثم عدلتم عنه، لا إلى حق، بل إلى باطل وجهل، فإذا تكونون أضل الناس وأظلمهم.

ذهبت عقائدهم وأعمالهم، التي أفنوا فيها أعمارهم على عبادة غير الله، وظنوا أنها تفيدهم وتدفع عنهم العذاب وتشفع لهم عند الله، فخاب سعيهم، وانتقض ظنهم، ولم تغن عنهم شركاؤهم شيئاً ﴿وظنوا﴾ أي: أيقنوا في تلك الحال ﴿ما لهم من محيص﴾ أي: منقذ ينقذهم، ولا مغيث ولا ملجأ، فهذه عاقبة من أشرك بالله غيره، بينها الله لعباده ليحذروا الشرك به.

﴿٤٩ - ٥١﴾ ﴿لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيؤوس قنوط﴾ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى فلننبئ الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ. ﴿وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض وتأنى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض﴾ هذا إخبار عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وعدم صبره وجلده، لا على الخير ولا على الشر، إلا من نقله الله من هذه الحال إلى حال الكمال، فقال: ﴿لا يسأم الإنسان من دعاء الخير﴾ أي: لا يمل دائماً من دعاء الله، في الغنى والمال والولد، وغير ذلك من مطالب الدنيا، ولا يزال يعمل على ذلك، ولا يقتنع بقليل ولا كثير منها، فلو حصل له من الدنيا ما حصل، لم يزل طالباً للزيادة.

﴿وإن مسه الشر﴾ أي: المكره، كالمرض والفقر وأنواع البلاء ﴿فيؤوس قنوط﴾ أي: ييأس من رحمة الله تعالى، ويظن أن هذا البلاء هو القاضي عليه بالهلاك، ويتشوش من إتيان الأسباب على غير ما يجب ويطلب.

إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات، فإنهم إذا أصابهم الخير والنعمة والمحاب، شكروا الله تعالى، وخافوا أن تكون نعم الله عليهم استدرجاً وإمهالاً، وإن أصابتهم مصيبة في أنفسهم وأموالهم وأولادهم صبروا، ورجوا فضل ربهم، فلم ييأسوا.

بوكيل * وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير * ولو شاء الله لجمعهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير * أم اتخذوا من دونه أولياء فإله هو الولي وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير * يخبر تعالى أنه أوحى هذا القرآن العظيم إلى النبي الكريم، كما أوحى إلى من قبله من الأنبياء والمرسلين، ففيه بيان فضله، بإنزال الكتب، وإرسال الرسل، سابقاً ولاحقاً، وأن محمداً ﷺ ليس ببدع من الرسل، وأن طريقته طريقة من قبله، وأحواله تناسب أحوال من قبله من المرسلين. وما جاء به يشابه ما جاؤوا به، لأن الجميع حق وصدق، وهو تنزيل من انصف بالالوهية والعزة العظيمة والحكمة البالغة، وأن جميع العالم العلوي والسفلي ملكه وتحت تدبيره القدري والشرعي.

وأنه ﴿العلي﴾ بذاته، وقدره، وفهره. ﴿العظيم﴾ الذي من عظمته ﴿تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن﴾ على عظمها وكونها جهاداً، ﴿والملائكة﴾ الكرام المقربون خاضعون لعظمته، مستكينون لعزته، مذعنون بربوبيته. ﴿يسبحون بحمد ربهم﴾ ويعظمونه عن كل نقص، ويصفونه بكل كمال، ﴿ويستغفرون لمن في الأرض﴾ عما يصدر منهم، مما لا يليق بعظمة ربهم وكبريائه، مع أنه تعالى هو ﴿الغفور الرحيم﴾ الذي لولا مغفرته ورحمته، لعاجل الخلق بالعقوبة المستأصلة.

وفي وصفه تعالى هذه الأوصاف، بعد أن ذكر أنه أوحى إلى الرسل كلهم عموماً، وإلى محمد - صلى الله عليه وسلم - صلي الله عليهم أجمعين - خصوصاً، إشارة إلى أن هذا القرآن الكريم، فيه من الأدلة والبراهين، والآيات الدالة على كمال الباري تعالى، ووصفه بهذه الأسماء العظيمة الموجبة لامتلاء القلوب من

معرفته ومحبه وتعظيمه وإجلاله وإكرامه، وصرف جميع أنواع العبودية الظاهرة والباطنة له تعالى، وأن من أكبر الظلم وأفحش القول، اتخاذ أنداد لله من دونه، ليس بيدهم نفع ولا ضرر، بل هم مخلوقون مفتقرون إلى الله في جميع أحوالهم، ولهذا عقبه بقوله: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء﴾ يتولونهم بالعبادة والطاعة، كما يعبدون الله ويطيعونه، فإنما اتخذوا الباطل، وليسوا بأولياء على الحقيقة. ﴿الله حفيظ عليهم﴾ يحفظ عليهم أعمالهم، فيجازيهم بخيرها وشرها. ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ تسأل عن أعمالهم، وإنما أنت مبلغ أدبت وظيفتك.

ثم ذكر منته على رسوله وعلى الناس، حيث أنزل الله ﴿قرآناً عربياً﴾ بين الألفاظ والمعاني ﴿لتنذر أم القرى﴾ وهي مكة المكرمة ﴿ومن حولها﴾ من قرى العرب، ثم يسري هذا الإنذار إلى سائر الخلق. ﴿وتنذر﴾ الناس ﴿يوم الجمع﴾ الذي يجمع الله به الأولين والآخرين، وتجزيهم أنه ﴿لا ريب فيه﴾ وأن الخلق ينقسمون فيه فريقين ﴿فريق في الجنة﴾ وهم الذين آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين، ﴿وفريق في السعير﴾ وهم أصناف الكفرة المكذبين.

﴿٨﴾ ﴿و﴾ مع هذا ﴿لو شاء الله﴾ لجعل الناس، أي: جعل الناس أمة واحدة على الهدى، لأنه القادر الذي لا يمتنع عليه شيء، ولكنه أراد أن يدخل في رحمته من شاء من خواص خلقه.

وأما الظالمون الذين لا يصلحون لضالحي، فإنهم محرومون من الرحمة، ف ﴿ما لهم﴾ من دون الله ﴿من ولي﴾ يتولاهم، فيحصل لهم المحبوب ﴿ولا نصير﴾ يدفع عنهم المكروه.

والذين ﴿اتخذوا من دونه أولياء﴾ يتولونهم بعبادتهم وإياهم، فقد غلطوا أقبح غلط، فالله هو الولي الذي يتولاه عبده بعبادته وطاعته، والتقرب إليه بما

يمكن من أنواع التقربات، ويتولى عباده عموماً بتدبيره وتفوذ القدر فيهم، ويتولى عباده المؤمنين خصوصاً، بإخراجهم من الظلمات إلى النور، وتربيتهم بلطفه، وإعانتهم في جميع أمورهم.

﴿وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير﴾ أي: هو المتصرف بالإحياء والإماتة، وتفوذ المشيئة والقدرة، فهو الذي يستحق أن يعبد وحده لا شريك له.

﴿١٠ - ١٢﴾ ﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله﴾ ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب * فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يدرككم فيه ليس كمثل شيء وهو السميع البصير * له مقاليد السماوات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم * يقول تعالى: ﴿وما اختلفتم فيه من شيء﴾ من أصول دينكم وفروعه، مما لم تتفقوا عليه ﴿فحكمه إلى الله﴾ يرد إلى كتابه، وإلى سنة رسوله، كما حكما به فهو الحق، وما خالف ذلك فباطل. ﴿ذلكم الله ربي﴾ أي: فكما أنه تعالى الرب الخالق الرازق المذبر، فهو تعالى الحاكم بين عباده بشرعه في جميع أمورهم.

ومفهوم الآية الكريمة، أن اتفاق الأمة حجة قاطعة، لأن الله تعالى لم يأمرنا أن نرد إليه إلا ما اختلفنا فيه، فما اتفقنا عليه، يكفي اتفاق الأمة عليه، لأنها معصومة عن الخطأ، ولا بد أن يكون اتفاقها موافقاً لما في كتاب الله وسنة رسوله.

وقوله: ﴿عليه توكلت﴾ أي: اعتمدت بقلبي عليه في جلب المنافع ودفع المضار، واثقاً به تعالى في الإسعاف بذلك. ﴿وإليه أنيب﴾ أي: أتوجه بقلبي وبديني إليه، وإلى طاعته وعبادته.

وهذان الأصلان، كثير ما يذكرهما الله في كتابه، لأنهما يحصل بمجموعهما كمال العبد، ويفوته

الكمال بفوتهما أو فوت أحدهما، كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾. فاطر السماوات والأرض: أي: خالقهما بقدرته ومشيتته وحكمته.

﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ لتسكنوا إليها، وتنتشر منكم الذرية، ويحصل لكم من النفع ما يحصل.

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ أي: ومن جميع أصنافها نوعين، ذكرًا وأنثى، لثبقي وتنمو لمنافعكم الكثيرة، ولهذا عداها باللام الدالة على التعليل، أي: جعل ذلك لأجلكم، ولأجل النعمة عليكم، ولهذا قال: ﴿يَذُرْكُمْ فِيهِ﴾ أي: يبتكم ويكثركم ويكثر مواشيكم، بسبب أن جعل لكم من أنفسكم، وجعل لكم من الأنعام أزواجًا.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أي: ليس يشبهه تعالى ولا يماثله شيء من مخلوقاته، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، لأن أسمائه كلها حسنى، وصفاته صفة^(١) كمال وعظمة، وأفعاله تعالى أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك، فليس كمثله شيء، لانفراده وتوحيده بالكمال من كل وجه. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات. ﴿الْبَصِيرُ﴾ يرى ديب النملة السوداء، في الليلة الظلماء، على الصخرة الصماء، ويرى سريان القوت في أعضاء الحيوانات الصغيرة جدًا، وسريان الماء في الأغصان الدقيقة.

وهذه الآية ونحوها، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، من إثبات الصفات، ونفي مماثلة المخلوقات. وفيها رد على المشبهة في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وعلى المعطلة في قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

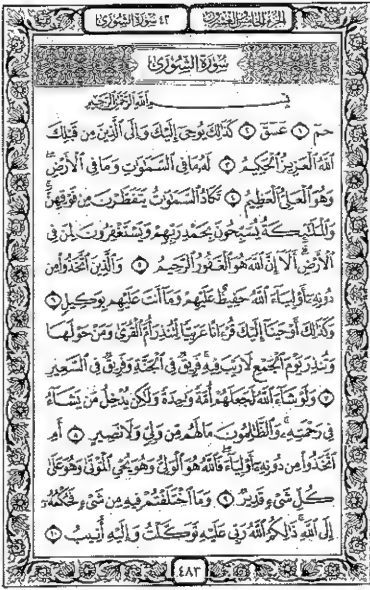
وقوله: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: له ملك السماوات والأرض، وبيده مفاتيح الرحمة

والله تعالى هو المعطي المانع، الضار النافع، الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع الشر إلا هو، و ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾.

ولهذا قال هنا: ﴿يَسِطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يوسع ويعطيه من أصناف الرزق ما شاء، ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيّق على مَنْ يَشَاءُ، حتى يكون بقدر حاجته، لا يزيد عنها، وكل هذا تابع لعلمه وحكمته، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيعلم أحوال عباده، فيعطي كل ما يليق بحكمته وتقضيه مشيئته.

﴿١٣﴾ ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ هذه أكبر منة أنعم الله بها على عباده، أن شرع لهم من الدين خير الأديان وأفضلها، وأزكاها وأطهرها، دين الإسلام، الذي شرعه الله للمصطفين المختارين من عباده، بل شرعه الله لخيار الخيار، وصفوة الصفوة، وهم أولو العزم من المرسلين المذكورون في هذه الآية، أعلى الخلق درجة، وأكملهم من كل وجه، فالدين الذي شرعه الله لهم، لا بد أن يكون مناسباً لأحوالهم، موافقاً لكمالهم، بل إنما كملهم الله واصطفاهم، بسبب قيامهم به، فلولا الدين الإسلامي، ما ارتفع أحد من الخلق، فهو روح السعادة، وقطب رحي الكمال، وهو ما تضمنته هذا الكتاب الكريم، ودعا إليه من التوحيد والأعمال والأخلاق والآداب.

(١) كذا في النسختين ولعل الصواب: (صفات).



ولهذا قال: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ أي: أمركم أن تقيموا جميع شرائع الدين أصوله وفروعه، تقيمونه بأنفسكم، وتجتهدون في إقامته على غيركم، وتعاونون على البر والتقوى ولا تعاونون على الإثم والعدوان. ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أي: ليحصل منكم الاتفاق على أصول الدين وفروعه، واخضعوا على أن لا تفرقكم المسائل وتحزبكم أحزاباً، وتكونون شيعاً يعادي بعضكم بعضاً مع اتفاقكم على أصل دينكم.

ومن أنواع الاجتماع على الدين وعدم التفرق فيه، ما أمر به الشارع من الاجتماعات العامة، كاجتماع الحج والأعياد، والجمع والصلوات الخمس والجهاد، وغير ذلك من العبادات التي لا تتم ولا تكمل إلا بالاجتماع لها وعدم التفرق.

﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: شق عليهم غاية المشقة، حيث دعوتهم إلى الإخلاص لله وحده، كما قال عنهم: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحِيدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وقولهم: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾.



﴿الله يجتبي إليه مَنْ يشاء﴾ أي يختار من خليفته مَنْ يعلم أنه يصلح للاجتماع لرسالته وولايته ومنه أن اجتبي هذه الأمة، وفضلها على سائر الأمم، واختار لها أفضل الأديان وخيرها.

﴿ويهدي إليه مَنْ يُوْتِيهِ﴾ هذا السبب الذي من العبد، يتوصل به إلى هداية الله تعالى، وهو إنبائه لربه، وانجذاب دواعي قلبه إليه، وكونه قاصداً وجهه، فحين مقصد العبد مع اجتهاده في طلب الهداية، من أسباب التيسير لها، كما قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾.

وفي هذه الآية، أن الله يهدي إليه مَنْ يُنِيبُ مع قوله: ﴿واتبع سبيل مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ مع العلم بأحوال الصحابة رضي الله عنهم، وشدة إنباتهم، دليل على أن قولهم حجة، خصوصاً الخلفاء الراشدين، رضي الله عنهم أجمعين.

﴿١٤ - ١٥﴾ ﴿وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم ببقيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب﴾ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا

وإليه المصير﴾ لما أمر تعالى باجتماع المسلمين على دينهم، ونهاهم عن التفرق، أخبرهم أنكم لا تغتروا بما أنزل الله عليكم من الكتاب، فإن أهل الكتاب لم يفرقوا حتى أنزل الله عليهم الكتاب الموجب للاجتماع، ففعلوا ضد ما يأمر به كتابهم، وذلك كله بغياً وعدواناً منهم، فإتهم تباغضوا وتحاسدوا، وحصلت بينهم المشاحنة والعداوة، فوقع الاختلاف، فاحذروا أيها المسلمون أن تكونوا مثلهم.

﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ أي: بتأخير العذاب القاضى إلى أجل مسمى لقضي بينهم﴾ ولكن حكمته وخلمه، اقتضى تأخير ذلك عنهم.

﴿وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم﴾ أي: الذين ورثوه وصاروا خلفاً لهم ممن ينتسب إلى العلم منهم ﴿لفي شك منه مريب﴾ أي: لفي اشتباه كثير يوقع في الاختلاف، حيث اختلف سلفهم بغياً وعدواناً، فإن خلفهم اختلفوا شكاً وارتباباً، والجميع مشتركون في الاختلاف المذموم.

﴿فلذلك فادع﴾ أي: فللذين القويم والصراط المستقيم، الذي أنزل الله به كتبه وأرسل رسله، فادع إليه أمتك وحضهم عليه، وجاهد عليه مَنْ لم يقبله، ﴿واستقم﴾ بنفسك كما أمرت ﴿أي: استقامة موافقة لأمر الله، لا تفرط ولا إفراط، بل امثالاً لأوامر الله واجتناباً لنواهيه، على وجه الاستمرار على ذلك، فأمره بتكميل نفسه بلزوم الاستقامة، وبتكميل غيره بالدعوة إلى ذلك.

ومن المعلوم أن أمر الرسول ﷺ أمر لأمته إذا لم يرد تخصيص له.

﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ أي: أهواء المنحرفين عن الدين، من الكفرة والمنافقين إما باتباعهم على بعض دينهم، أو بترك الدعوة إلى الله، أو بترك الاستقامة، فإنك إن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين، ولم يقل: ﴿ولا تتبع دينهم﴾ لأن حقيقة دينهم الذي شرعه الله لهم، هو دين الرسل كلهم،

ولكنهم لم يتبعوه، بل اتبعوا أهواءهم، واتخذوا دينهم لهواً ولعباً.

﴿وقل﴾ لهم عند جدالهم ومناظرتهم: ﴿آمنت بما أنزل الله من كتاب﴾ أي: لتكن مناظرتك لهم مبنية على هذا الأصل العظيم، الدال على شرف الإسلام وجلالته وهيمته على سائر الأديان، وأن الدين الذي يزعم أهل الكتاب أنهم عليهم جزء من الإسلام، وفي هذا إرشاد إلى أن أهل الكتاب إن ناظروا مناظرة مبنية على الإيمان ببعض الكتب، أو ببعض الرسل دون غيره، فلا يسلم لهم ذلك، لأن الكتاب الذي يدعون إليه، والرسول الذي ينتسبون إليه، من شرطه أن يكون مصدقاً بهذا القرآن وبمن جاء به، فكتابنا ورسولنا لم يأمرنا إلا بالإيمان بموسى وعيسى والتوراة والإنجيل، التي أخبر بها وصدق بها، وأخبر أنها مصدقة له ومقرة بصحتها.

وأما مجرد التوراة والإنجيل، وموسى وعيسى، الذين لم يوصفوا لنا، ولم يوافقوا لكتابنا، فلم يأمرنا بالإيمان بهم.

وقوله: ﴿وأمرت لأعدل بينكم﴾ أي: في الحكم فيما اختلفتم فيه، فلا تمنعني عداوتكم وبغضكم، يا أهل الكتاب من العدل بينكم، ومن العدل في الحكم، بين أهل الأقوال المختلفة، من أهل الكتاب وغيرهم، أن يقبل ما معهم من الحق، ويرد ما معهم من الباطل، ﴿الله ربنا وربكم﴾ أي: هو رب الجميع، لستم بأحق به منا. ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ من خير وشر ﴿لا حجة بيننا وبينكم﴾ أي: بعدما تبينت الحقائق، واتضح الحق من الباطل، والهدى من الضلال، لم يبق للجدال والمنازعة محل، لأن المقصود من الجدال، إنما هو بيان الحق من الباطل، ليهتدي الراشد، ولتقوم الحجة على الغاوي، وليس المراد بهذا أن أهل الكتاب لا يجادلون، كيف والله يقول: ﴿ولا يجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾ وإنما المراد ما ذكرنا.

لأنهم أتوا بالسبب السام موجب للعقاب، من غير معارض، من توبة ولا غيرها، ووصلوا موضعاً فات فيه الإنظار والإمهال.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم باله وكتبه ورسله وما جاؤوا به، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يشمل كل عمل صالح من أعمال القلوب، وأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات، فهولاء ﴿فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ أي: الروضات المضافة إلى الجنات، والمضاف يكون بحسب المضاف إليه، فلا تسأل عن بهجة تلك الرياض المونقة، وما فيها من الأنهار المتدفقة، والفياض المعشبة، والمناظر الحسنة، والأشجار المثمرة، والطيور المغردة، والأصوات الشجية، المطربة، والاجتماع بكل حبيب، والأخذ من العاشرة والمنادمة بأكمل نصيب، رياض لا تزداد على طول المدى إلا حسناً وبهاء، ولا يزداد أهلها إلا اشتياقاً إلى لذاتها ورداداً، ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ﴾ فيها، أي: في الجنات، فمهما أرادوا فهو حاصل، ومهما طلبوا حصل، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ وهل فوز أكبر من الفوز برضا الله تعالى، والتنعم بقربه في دار كرامته؟

﴿ذَلِكَ الَّذِي يَبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: هذه البشارة العظيمة، التي هي أكبر البشائر على الإطلاق، بشر بها الرحيم الرحمن، على يد أفضل خلقه لأهل الإيمان والعمل الصالح، فهي أجل الغايات، والوسيلة الموصلة إليها أفضل الوسائل.

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على تبليغي إياكم هذا القرآن ودعوتكم إلى أحكامه. ﴿أَجْرًا﴾ فليست أريد أخذ أموالكم، ولا التولي عليكم والترأس، ولا غير ذلك من الأغراض ﴿إِلَّا الْمُوَدَّةَ﴾ في القربى.

يحتمل أن المراد: لا أسألكم عليه أجراً إلا أجراً واحداً هو لكم، وعائد نفعه إليكم، وهو أن تودوني وتحبوني

وهذه الآية، شبهة بقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون. إلى آخر الآيات.

﴿٢١-٢٣﴾ ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير. ﴿ذَلِكَ الَّذِي يَبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمُوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْرِضْكُمْ حَسَنَةً تَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ يخبر تعالى أن المشركين اتخذوا شركاء يوالونهم ويشتركون هم وإياهم في الكفر وأعماله، من شياطين الإنس، الدعاة إلى الكفر ﴿شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ من الشرك والبدع، وتحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم الله ونحو ذلك مما اقتضته أهواؤهم.

مع أن السدين لا يكون إلا ما شرعه الله تعالى، ليدين به العباد ويتقربوا به إليه، فالأصل الحجر على كل أحد أن يشرع شيئاً ما جاء عن الله وعن رسوله، فكيف بهؤلاء الفسقة المشركين هم وأباؤهم على الكفر.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لولا الأجل المسمى الذي ضربه الله فاصلاً بين الطوائف المختلفة، وأنه سيؤخرهم إليه، لقضي بينهم في الوقت الحاضر بسعادة الحق وإهلاك المبطل، لأن مقتضى للإهلاك موجود، ولكن أمامهم العذاب الأليم في الآخرة، هؤلاء وكل ظالم.

وفي ذلك اليوم ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿مُشْفِقِينَ﴾ أي: خائفين وجلين ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ أن يعاقبوا عليه.

ولما كان الخائف قد يقع به ما أشفق منه وخافه، وقد لا يقع، أخبر أنه ﴿وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ العقاب الذي خافوه،



على الخير والرغبة فيه، واقتداء بعضهم ببعض.

ومن لطفه، أن قِيض لعبده كل سبب يعوقه ويحول بينه وبين المعاصي، حتى إنه تعالى إذا علم أن الدنيا والمال والرياسة ونحوها مما يتنافس فيه أهل الدنيا، تقطع عبده عن طاعته، أو تحمله على الغفلة عنه، أو على معصية صرفها عنه، وقدر عليه رزقه، ولهذا قال هنا: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ بحسب اقتضاء حكمته ولطفه. ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ الذي له القوة كلها، فلا حول ولا قوة لأحد من المخلوقين إلا به، الذي دانت له جميع الأشياء.

ثم قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ أي: أجرها وثوابها، فآمن بها وصدق، وسعى لها سعيها ﴿تَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ بأن تضاعف عمله وجزاءه أضعافاً كثيرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ ومع ذلك، فنصيبه من الدنيا لا بد أن يأتيه.

﴿وَمَنْ كَانَ يَرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا﴾ بأن: كانت الدنيا هي مقصوده وغاية مطلبه، فلم يقدم لآخرته، ولا رجا ثوابها، ولم يحش عقابها. ﴿تَنْوَتْهُ مِنْهَا﴾ نصيبه الذي قسم له، ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ قد حرم الجنة ونعيمها، واستحق النار وجحيمها.

الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير * وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد * هذا بيان لكمال كرم الله تعالى وسعة جوده وتعام لطفه، بقبول التوبة الصادرة من عباده حين يقلعون عن ذنوبهم ويندمون عليها، ويعزمون على أن لا يعاودوها إذا قصدوا بذلك وجه ربهم، فإن الله يقبلها بعدما انعقدت سببا للهلاك، ووقوع العقوبات الدنيوية والدنيية.

﴿ويعفو عن السيئات﴾ ويمحوها، ويمحو أثرها من العيوب، وما اقتضته من العقوبات، ويعود التائب عنده كريماً، كأنه ما عمل سوءاً قط، ويحبه ويربوه لما يقربه إليه.

ولما كانت التوبة من الأعمال العظيمة، التي قد تكون كاملة بسبب تمام الإخلاص والصدق فيها، وقد تكون ناقصة عند نقصهما، وقد تكون فاسدة إذا كان القصد منها بلوغ غرض من الأغراض الدنيوية، وكان حل ذلك القلب الذي لا يعلمه إلا الله، ختم هذه الآية بقوله: ﴿ويعلم ما تفعلون﴾ فإله تعالى دعا جميع العباد إلى الإنابة إليه والتوبة من التقصير، فانقشروا - بحسب الاستجابة له - إلى قسمين: مستجيبن وصفهم بقوله: ﴿ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي: يستجيبون لربهم لما دعاهم إليه وينقادون له ويلبون دعوته، لأن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح يحملهم على ذلك، فإذا استجابوا له، شكر الله لهم، وهو الغفور الشكور.

وزادهم من فضله توفيقاً ونشاطاً على العمل، وزادهم مضاعفة في الأجر زيادة عن ما تستحقه أعمالهم من الثواب والفوز العظيم.

وأما غير المستجيبين لله وهم المعاندون الذين كفروا به ورسله، فـ ﴿لهم عذاب شديد﴾ في الدنيا والآخرة، ثم ذكر أن من لطفه بعباده، أنه لا يوسع عليهم الدنيا سعة، تضر بأديانهم فقال: ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض﴾ أي: لغفلوا

على الله بادعاء النبوة والنسبة إلى الله ما هو بريء منه، وهم يعلمون صدقك وأمانتك، فكيف يتجروون على هذا الكذب الصراح؟

بل تجرؤوا بذلك على الله تعالى، فإنه قدح في الله، حيث مكنتك من هذه الدعوة العظيمة، المتضمنة - على موجب زعمهم - أكبر الفساد في الأرض، حيث مكنته الله من التصريح بالدعوة، ثم بنسبتها إليه، ثم يؤيده بالمعجزات البظاهرات، والأدلة القاهرات، والنصر المبين، والاستيلاء على من خالفه، وهو تعالى قادر على حسم هذه الدعوة من أصلها ومادتها، وهو أن يختم على قلب الرسول ﷺ فلا يعني شيئاً ولا يدخل إليه خير، وإذا ختم على قلبه انحسم الأمر كله وانقطع.

فهذا دليل قاطع على صحة ما جاء به الرسول، وأقوى شهادة من الله له على ما قال، ولا يوجد شهادة أعظم منها ولا أكبر، ولهذا من حكمته ورحمته، وسنته الجارية، أنه يمحو الباطل ويزيله، وإن كان له صولة في بعض الأوقات، فإن عاقبته الاضمحلال.

﴿ويحق الحق بكلماته﴾ الكونية، التي لا تغير ولا تبدل، ووعده الصادق، وكلماته الدينية التي تحقق ما شرعه من الحق، وتثبت في القلوب، وتبصر أولي الأبواب، حتى إن من جملة إحقاقه تعالى الحق، أن يقبض له الباطل ليقاومه، فإذا قاومه، صال عليه الحق ببراهينه وبيئاته، فظهر من نوره. وهذا ما به يضمحل الباطل وينقمع، ويتبين بطلانه لكل أحد، ويظهر الحق كل الظهور لكل أحد.

﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ أي: بما فيها، وما اتصفت به من خير وشر، وما أكتته ولم تبده.

﴿٢٥-٢٨﴾ ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون﴾ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكاफرون لهم عذاب شديد * ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في

في القرابة، أي: لأجل القرابة. ويكون على هذا المودة الزائدة على مودة الإيمان، فإن مودة الإيمان بالرسول، وتقدير محبته على جميع المحاب بعد محبة الله، فرض على كل مسلم، وهؤلاء طلب منهم زيادة على ذلك أن يحبوه لأجل القرابة، لأنه ﷺ، قد باشر بدعوته أقرب الناس إليه، حتى إنه قيل: إنه ليس في بطون قريش أحد، إلا ورسول الله ﷺ، فيه قرابة.

ويحتمل أن المراد بالمودة: الله تعالى الصادقة، وهي التي يصحبها التقرب إلى الله، والتوسل بطاعته الدالة على صحتها وصدقها، ولهذا قال: ﴿إلا المودة في القربى﴾ أي: في التقرب إلى الله، وعلى كلا القولين، فهذا الاستثناء دليل على أنه لا يسألهم عليه أجراً بالكلية، إلا أن يكون شيئاً يعود نفعه إليهم، فهذا ليس من الأجز في شيء، بل هو من الأجر منه لهم ﷺ، كقوله تعالى: ﴿وما نعموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ وقولهم: ﴿ما لفلان ذنب عندك، إلا أنه محسن إليك﴾.

﴿ومن يقترف حسنة﴾ من صلاة، أو صوم، أو حج، أو إحسان إلى الخلق ﴿نزد له فيها حسناً﴾ بأن يشرح الله صدره، ويبسر أمره، وتكون سبباً للتوفيق لعمل آخر، ويزداد بها عمل المؤمن، ويرتفع عند الله. وعند خلقه، ويحصل له الثواب العاجل والآجل.

﴿إن الله غفور شكور﴾ يغفر الذنوب العظيمة ولو بلغت ما بلغت عند التوبة منها، ويشكر على العمل القليل بالأجر الكثير، فبمغفرته يغفر الذنوب ويستز العيوب، وبشكره يتقبل الحسنات ويضاعفهاضاعفاً كثيرة.

﴿٢٤﴾ ﴿أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشأ الله نختم على قلبك ويصح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور﴾ يعني أم يقول المكذبون للرسول ﷺ جراً منهم وكذباً: ﴿افترى على الله كذباً﴾ فرموك بأشنع الأمور وأقبحها، وهو الافتراء

عن طاعة الله، وأقبلوا على التمتع بشهوات الدنيا، فأرجيت لهم الإكباب على ما تشتهي نفوسهم، ولو كان معصية وظلماً.

﴿ولكن ينزل بقدر ما يشاء﴾ بحسب ما اقتضاه لطفه وحكمته. إنه بعباده خبير بصير. كما في بعض الآثار أن الله تعالى يقول: «إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الصحة، ولو أمرضته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا المرض، ولو عافيته لأفسده ذلك، إني أدبر أمر عبادي بعلمي بما في قلوبهم، إني خير بصير».

﴿وهو الذي ينزل الغيث﴾ أي: المطر الغزير الذي به يغيث البلاد والعباد، «من بعد ما قنطوا» وانقطع عنهم مدة ظنوا أنه لا يأتيهم، وأيسروا وعملوا لذلك الجذب أعمالاً، فينزل الله الغيث «وينشر» به رحمته من إخراج الأقوات للآدميين وبهائمهم، فيقع عندهم موقعا عظيماً، ويستبشرون بذلك ويفرحون. ﴿وهو الولي﴾ الذي يتولى عباده بأنواع التدبير، ويتولى القيام بمصالح دينهم ودنياهم. ﴿الحميد﴾ في ولايته وتديره، الحميد على ما له من الكمال، وما أوصله إلى خلقه من أنواع الإفضال.

﴿٢٩﴾ ﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير﴾ أي: ومن أدلة قدرته العظيمة، وأنه سبحانه الموتى بعد موتهم، «خلق» هذه «السماوات والأرض» على عظمهما وسعتهما، الدال على قدرته وسعة سلطانه، وما فيهما من الاتقان والإحكام دال على حكمته وما فيهما من المنافع والمصالح دال على رحمته، وذلك يدل على أنه المستحق لأنواع العبادة كلها، وإن إلهية ما سواه باطلة.

﴿وما بث فيهما﴾ أي: نشر في السماوات والأرض من أصناف الدواب التي جعلها الله مصالح ومنافع لعباده. ﴿وهو على جمعهم﴾ أي: جمع الخلق بعد موتهم لموقف القيامة. ﴿إذا يشاء قدير﴾ فقدرته ومشيئته صالحان لذلك، ويتوقف وقوعه على وجود الخبر الصادق، وقد علم أنه قد تواترت أخبار المرسلين وكتبهم بوقوعه.

﴿٣٠-٣١﴾ ﴿وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ وما أنتم بمعجزين في الأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير. يخبر تعالى، أنه ما أصاب العباد من مصيبة في أديانهم وأموالهم وأولادهم وفيما يحبون ويكون عزيزاً عليهم، إلا بسبب ما قدمته أيديهم من السيئات، وأن ما يعفو الله عنه أكثر، فإن الله لا يظلم العباد، ولكن أنفسهم يظلمون. ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهورها من دابة﴾. وليس إله إلا الله تعالى تأخير العقوبات ولا عجزاً.

﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض﴾ أي: معجزين قدرة الله عليكم، بل أنتم عاجزون في الأرض، ليس عندكم امتناع عما ينفذه الله فيكم. ﴿وما لكم من دون الله من ولي نصير﴾ يدفع عنكم المضار.

﴿٣٢-٣٥﴾ ﴿ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام﴾ إن يشاء يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور. ﴿أو يوقهن بما كسبوا ويعف عن كثير﴾ ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص. أي: ومن أدلة رحمته وعنايته بعباده «الجوار في البحر» من السفن، والمراكب النارية والشرعية، التي من عظمها «كالأعلام» وهي الجبال الكبار، التي سخر لها البحر العجاج، وحفظها من التظام الأمواج، وجعلها تحملكم وتحمل أمعتكم الكثيرة، إلى البلدان والأقطار البعيدة، وسخر لها من الأسباب ما كان معجزة

على ذلك.

ثم نبه على هذه الأسباب بقوله: ﴿إن يشأ يسكن الريح﴾ التي جعلها الله سبباً لمشيتها، ﴿فيظللن﴾ أي: الجوار «رواكد» على ظهر البحر، لا تتقدم ولا تتأخر، ولا ينتقض هذا بالمراكب النارية، فإن من شرط مشيتها وجود الريح.

وإن شاء الله تعالى أوبق الجوار بما كسب أهلها، أي: أغرقها في البحر وأتلفها، ولكنه يحلم ويعفو عن كثير. ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ أي: كثير الصبر على ما تكرهه نفسه ويشق عليها، فيكرهها عليه، من مشقة طاعة، أو ردع داع إلى معصية، أو ردع نفسه عند المضايقات عن التسخط، ﴿شكور﴾ في الرضاء وعند النعم، يعترف بنعمة ربه ويخضع له، ويصرفها في مرضاته، فهذا الذي يتفجع بآيات الله.

وأم الذي لا صبر عنده، ولا شكر له على نعم الله، فإنه معرض أو معاند لا يتفجع بالآيات.

ثم قال تعالى: ﴿ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ليطلوها بإبطالهم﴾. ﴿ما لهم من محيص﴾ أي: لا يتقدم

منهم بما حل بهم من العقوبة. ﴿٣٦-٣٩﴾ ﴿فما أوتيتهم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ والذي يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون. ﴿والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم يتفكرون﴾ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون. هذا تزهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة، وذكر الأعمال الموصلة إليها فقال: ﴿فما أوتيتهم من شيء﴾ من ملك ورياسة، وأموال وبنين، وصحة وعافية بدنية. ﴿فمتاع الحياة الدنيا﴾ لذة منغصة منقطعة. ﴿وما عند الله﴾ من الثواب الجزيل، والأجر الجليل، والنعيم المقيم «خير» من لذات الدنيا، خيرية لا نسبة بينهما «وأبقى»



ظلمه من غير أن يقع منه شيء، فهذا لا يجازى بمثله، وإنما يؤدب تأديباً يردعه عن قول أو فعل صدر منه.

﴿إنما السبيل﴾ أي: إنما تتوجه الخجة بالعقوبة الشرعية ﴿على الذين يظلمون الناس ويغيثون في الأرض بغير الحق﴾ وهذا شامل للظلم والبغي على الناس، في دمائهم وأموالهم وأعراضهم. ﴿أولئك لهم عذاب أليم﴾ أي: موجه للقلوب والابدان، بحسب ظلمهم وبغيهم.

﴿ولن صبر﴾ على ما يناله من أذى الخلق ﴿وغفر﴾ لهم، بأن سمح لهم عما يصدر منهم، ﴿إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ أي: لمن الأمور التي حث الله عليها وأكدها، وأخبر أنه لا يلقاها إلا أهل الصبر والحظوظ العظيمة، ومن الأمور التي لا يوفق لها إلا أولو العزائم والهمم، وذوو الألباب والبصائر.

فإن ترك الانتصار للنفس بالقول أو الفعل، من أشق شيء عليها، والصبر على الأذى، والصفح عنه، ومغفرته، ومقابلته بالإحسان، أشق وأشق، ولكنه يسير على من يسره الله عليه، وجاهد نفسه على الاتصاف به، واستعان الله على ذلك، ثم إذا ذاق العبد حلاوته، ووجد آثاره، تلقاه برحب الصدر، وسعة الخلق، والتلذذ فيه.

﴿٤٤ - ٤٦﴾ ﴿ومن يضل الله فما له من ولي من بعده وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل﴾ وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين في عذاب مقيم ﴿وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ومن يضل الله فما له من سبيل﴾ يخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية والإضلال، وأنه ﴿من يضل الله﴾ بسبب ظلمه ﴿فما له من ولي من بعده﴾ يتولى أمره ويهديه.

﴿وترى الظالمين لما رأوا العذاب﴾ مرأى ومنظراً فظيلاً، ضعباً شنيعاً، يظهرون الندم العظيم، والحزن على ما سلف منهم، ﴿ويقولون هل إلى مرد من سبيل﴾ أي: هل لنا طريق أو حيلة إلى رجوعنا إلى الدنيا، لنعمل غير الذي كنا نعمل، وهذا طلب للأمر المحال الذي لا يمكن.

﴿وتراهم يعرضون عليها﴾ أي: على النار ﴿خاشعين من الذل﴾ أي: ترى أجسامهم خاشعة للذل الذي في قلوبهم، ﴿ينظرون من طرف خفي﴾ أي: ينظرون إلى النار مسارقة وشزراً، من هيئتها وخوفها.

﴿وقال الذين آمنوا﴾ حين ظهرت عواقب الخلق، وتبين أهل الصدق من غيرهم: ﴿إن الخاسرين﴾ على الحقيقة ﴿الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾ حيث فوتوا أنفسهم جزيل الثواب، وحصلوا على أليم العقاب وفرق بينهم وبين أهليهم، فلم يجتمعوا بهم، آخر ما عليهم. ﴿ألا إن الظالمين﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿في عذاب مقيم﴾ أي: في سوائه ووسطه، متغمرين لا يخرجون منه أبداً، ولا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون.

﴿وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله﴾ كما كانوا في الدنيا يمتنون بذلك أنفسهم، ففي القيامة يتبين لهم ولغيرهم أن أسياهم التي أملوها تقطعت، وأنه حين جاءهم

عذاب الله لم يدفع عنهم. ﴿ومن يضل الله فما له من سبيل﴾ تحصل به هدايته، فهو لا ضلوا حيث زعموا في شركائهم النفع ودفع الضر، فبين حينئذ ضلالهم.

﴿٤٧ - ٤٨﴾ ﴿استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير﴾ فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور﴾ يأمر تعالى عباده بالاستجابة له، بامتنال ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، وبالمبادرة بذلك وعدم التسويف، من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي إذا جاء لا يمكن رده واستدراك الفائت، وليس للعبد في ذلك اليوم ملجأ يلجأ إليه، فيفوت ربه، ويهرب منه.

بل قد أحاطت الملائكة بالخلق من خلفهم، ونودوا ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذوا إلا بسلطان﴾ وليس للعبد في ذلك اليوم نكير لما اقترفه وأجرمه، بل لو أنكر لشهدت عليه جوارحه.

وهذه الآية ونحوها، فيها ذم الأمل، والأمر بانتهاز الفرصة في كل عمل يعرض للعبد، فإن للتأخير آفات.

﴿فإن أعرضوا﴾ عما جتتهم به بعد البيان التام ﴿فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ تحفظ أعمالهم وتسال عنها، ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾ فإذا أدبت ما عليك، فقد وجب أجرك على الله، سواء استجابوا أم أعرضوا، وحسابهم على الله الذي يحفظ عليهم صغير أعمالهم وكبيرها، وظاهرها وباطنها.

ثم ذكر تعالى حالة الإنسان، وأنه إذا أذقه الله رحمة، من صحة بدن، ورزق رغد، وجه ونحوه ﴿فرح بها﴾ أي: فرح فرحاً مقصوراً عليها، لا يتعداها، ويلزم من ذلك طمأنينته بها، وإعراضه عن المنعم.

فخير، وإن شراً فشر. ثم تفسير سورة الشورى، والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، على تيسيره وتسهيله.

تفسير سورة الزخرف مكية

﴿١-٥﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حَمْدٌ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّ فِي أُمِّ الْقُرْآنِ لَعِلْمًا لِّدُنَا لَعَلَّكُمْ أَتَّضِرُّبَ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ هذا قسم بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين وأطلق، ولم يذكر المتعلق، ليدل على أنه مبين لكل ما يحتاج إليه العباد من أمور الدنيا والدين والآخرة.

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ هذا المقسم عليه، أنه جعل بأفصح اللغات وأوضحها وأبينها، وهذا من بيانه. وذكر الحكمة في ذلك فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ألفاظه ومعانيه لتيسرها وقربها من الأذهان.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: هذا الكتاب ﴿لَدُنَّا﴾ في الملأ الأعلى في أعلى الرتب وأفضلها ﴿لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾ أي: لعلي في قدره وشرفه وعمله، حكيم فينا يشتمل عليه من الأوامر والنواهي والأخبار، فليس فيه حكم مخالف للحكمة والعقل والميزان.

ثم أخبر تعالى أن حكمته وفضله يقتضي أن لا يترك عباده هملًا، لا يرسل إليهم رسولاً، ولا ينزل عليهم كتاباً، ولو كانوا مسرفين ظالمين فقال:

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ أي: أفنعرض عنكم، ونترك إنزال الذكر إليكم، ونضرب عنكم صفحاً، لأجل إعراضكم، وعدم انقيادكم له؟ بل ننزل عليكم الكتاب، ونوضح لكم فيه كل شيء، فإن آمنتم به واهتديتم، فهو من توفيقكم، وإلا قامت عليكم الحجة، وكنتم على بينة من أمركم.

﴿٦-٨﴾ ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا

إرسال ملك، ولا مخاطبة منه شفاهاً. ﴿أَوْ﴾ يكلمه منه شفاهاً، لكن ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ كما حصل لموسى بن عمران، كلمه الرحمن.

﴿أَوْ﴾ يكلمه الله بواسطة الرسول الملكي، ف﴿يُرْسِلُ رَسُولًا﴾ كجبريل أو غيره من الملائكة.

﴿فِيُوحِي بِإِذْنِهِ﴾ أي: بإذن ربه، لا بمجرد هواه، ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى على الذات، على الأوصاف، عظيمها، على الأفعال، قد قهر كل شيء، ودانت له المخلوقات. حكيم في وضعه كل شيء في موضعه، من المخلوقات والشرائع.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ حين أوحينا إلى الرسل قبلك ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ وهو هذا القرآن الكريم، سماه روحاً، لأن الروح يحيا به الجسد، والقرآن يحيا به القلوب والأرواح، وتحيا به مصالح الدنيا والدين، لما فيه من الخير الكثير والعلم الغزير.

وهو محض منة الله على رسوله وعباده المؤمنين، من غير سبب منهم، ولهذا قال: ﴿مَا كُنْتُ تَدْرِي﴾ أي: قبل نزوله عليك ﴿مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ أي: ليس عندك علم بأخبار الكتب السابقة، ولا إيمان وعمل بالشرائع الإلهية، بل كنت أُمياً لا تحيط ولا تقرأ، فجاءك هذا الكتاب الذي جعلناه نوراً نهيدي به من نشاء من عبادنا يستضيئون به في ظلمات الكفر والبدع، والأهواء المردية، ويعرفون به الحقائق، ويهتدون به إلى الصراط المستقيم.

﴿وَإِنَّا لَنَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: تبينه لهم وتوضحه، وتبينه وترغبهم فيه، وتنهاهم عن ضده، وترهبهم منه، ثم فسّر الصراط المستقيم فقال:

﴿صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الصراط الذي نصبه الله لعباده، وأخبرهم أنه موصل إليه وإلى دار كرامته، ﴿إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾

أي: ترجع جميع أمور الخير والشر، فيجازى كلاً بحسب عمله، إن خيراً

﴿وإن تصيبهم سبئة﴾ أي: مرض أو فقر، أو نحوهما ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ أي: طبيعته كفران النعمة السابقة، والتسخط لما أصابه من السبئة.

﴿٤٩-٥٠﴾ ﴿لِلَّهِ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ * أَوْ يَزْوَجَهُمْ ذَكَرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مِنْ يَشَاءٍ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ هذه الآية فيها الإخبار عن سعة ملكه تعالى، ونفوذ تصرفه في الملك في الخلق لما يشاء، والتدبير لجميع الأمور، حتى إن تدبيره تعالى، من عمومها، أنه يتناول المخلوقة عن الأسباب التي يباشرها العباد، فإن النكاح من الأسباب لولادة الأولاد، فالله تعالى هو الذي يعطيهم من الأولاد ما يشاء.

فمن الخلق من يهب له إناثاً، ومنهم من يهب له ذكوراً، ومنهم من يزوجه، أي: يجمع له ذكوراً وإناثاً، ومنهم من يجعله عقيماً لا يولد له.

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكل شيء ﴿قَدِيرٌ﴾ على كل شيء، فيتصرف بعلمه وإتقانه الأشياء، ويقدرته في مخلوقاته.

﴿٥١-٥٣﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يَرْسِلُ رَسُولًا فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَى حَكِيمٍ * وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّا لَنَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ لما قال المكذبون لرسول الله، الكافرون بالله: ﴿لَوْلَا يَكْلِمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ من كبرهم وتجبرهم، رد الله عليهم بهذه الآية الكريمة، وأن تكليمه تعالى لا يكون إلا لخواص خلقه، ولأنبياء والمرسلين، وصفوته من العالمين، وأنه يكون على أحد هذه الأوجه.

﴿إِنَّا يَكْلِمُهُ اللَّهُ وَحْيًا﴾ بأن يلقي الوحي في قلب الرسول، من غير

بالبنين * وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم * أومن ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين * وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقتهم ستكتب شهادتهم ويسألون * وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يغرصون * أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون * بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون * وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون * قال أولو جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلناهم به كافرون * فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عقوبة المكذبين * يخبر تعالى عن شناعة قول المشركين، الذين جعلوا لله تعالى ولداً، وهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له كفواً أحد، وإن ذلك باطل من عدة أوجه :

منها : أن الخلق كلهم عباده، والعبودية تنافي الولادة .

ومنها : أن الولد جزء من والده، والله تعالى بائن من خلقه، مبين لهم في صفاته ونعوت جلاله، والولد جزء من الوالد، فبحال أن يكون لله تعالى ولد .

ومنها : أنهم يزعمون أن الملائكة بنات الله، ومن المعلوم أن البنات أدون الصنفين، فكيف يكون لله البنات، ويصطفيهن بالبنين، ويفضلهم بها ؟ فإذا يكونون أفضل من الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ومنها : أن الصنف الذي نسبوه لله، وهو البنات، أدون الصنفين، وأكرهما لهم، حتى إنهم من كراهتهم لذلك «إذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً» من كراهته وشدة بغضه، فكيف يجعلون لله ما يكرهون ؟

ومنها : أن الأنثى ناقصة في

جعل منافذ بين سلاسل الجبال المتصلة، تنفذون منها إلى ما وراءها من الأقطار . «لعلكم تهتدون» في السير في الطرق ولا تضيعون، ولعلكم تهتدون أيضاً في الاعتبار بذلك والادكار فيه .

«والذي نزل من السماء ماء بقدر» لا يزيد ولا ينقص، ويكون أيضاً بمقدار الحاجة، لا ينقص بحيث لا يكون فيه نفع، ولا يزيد بحيث يضر العباد والبلاد، بل أغاث به العباد، وأنقذ به البلاد من الشدة، ولهذا قال : «فأنشرنا به بلدة ميتاً» أي : أحييناها بعد موتها، «كذلك تخرجون» أي : فكما أحيا الأرض الميتة الهامدة بالماء، كذلك يحييكم بعدما تستكملون في البرزخ، ليجازيكم بأعمالكم .

«والذي خلق الأزواج كلها» أي : الأصناف جميعها، مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون، من ليل ونهار، وحر وبرد، وذكر وأنثى، وغير ذلك . «وجعل لكم من الفلك» أي : السفن البحرية، الشراعية والنارية، ما تركبون «و» من «الأنعام ما تركبون» لتستووا على ظهوره، وهذا شامل لظهور الفلك ولظهور الأنعام، أي : لتستقروا عليها، «ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه» بالاعتراف بالنعمة لمن سخرها، والثناء عليه تعالى بذلك، ولهذا قال : «وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين» أي : لولا تسخيرنا لما سخر من الفلك، والأنعام، ما كنا مطيقين لذلك وقادرين عليه، ولكن من لطفه وكرمه تعالى، سخرها وذلها ويسر أسباها .

والمقصود من هذا، بيان أن الرب الموصوف بما ذكره، من إفاضة النعم على العباد، هو الذي يستحق أن يعبد، ويصلى له ويسجد .

«١٥ - ٢٥» «وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين» أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم

كانوا به يستهزؤون * فأهلكنا أشد منهم بطشاً ومضى مثل الأولين * يقول تعالى : إن هذه سنتنا في الخلق، أن لا نتركهم هملاً، فكم «أرسلنا من نبي في الأولين» يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ولم يزل التكذيب موجوداً في الأمم .

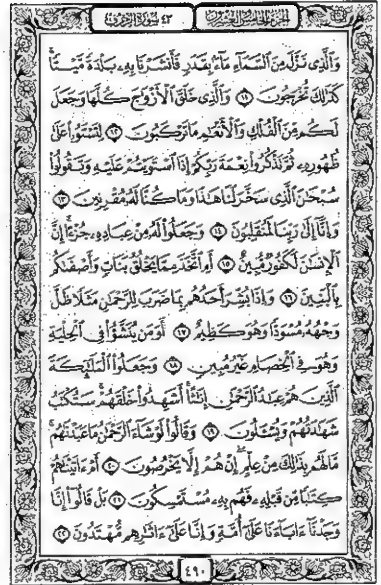
«وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزؤون» جحداً لما جاء به، وتكبيراً على الحق .

«فأهلكنا أشد» من هؤلاء «بطشاً» أي : قوة وأفعالاً وآثاراً في الأرض، «ومضى مثل الأولين» أي : مضت أمثالهم وأخبارهم، وبيناً لكم منها ما فيه عبرة ومزجر عن التكذيب والإنكار .

«٩ - ١٤» «ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم» الذي جعل لكم الأرض مهجداً وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون * والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون * والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون * لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون * يخبر تعالى عن المشركين، أنك لو «سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن» الله وحده لا شريك له، العزيز الذي دانت لعزته جميع المخلوقات، العليم بظواهر الأمور وبواطنها، وأوائلها وأواخرها، فإذا كانوا مقرين بذلك، فكيف يجعلون له الولد والصاحبة والشريك ؟ وكيف يشركون به من لا يخلق ولا يرزق، ولا يميت ولا يحيي ؟

ثم ذكر أيضاً من الأدلة الدالة على كمال نعمته واقتداره، بما خلقه لعباده من الأرض التي مهجداً وجعلها قراراً للعباد، يتمكنون فيها من كل ما يريدون .

«وجعل لكم فيها سبلاً» أي :



فقال تعالى: ﴿بل متعت هؤلاء وآباءهم﴾ بأنواع الشهوات، حتى صارت هي غايتهم ونهاية مقصودهم؛ فلم تزل يترى حبها في قلوبهم، حتى صارت صفات راسخة، وعقائد متأصلة. ﴿حتى جاءهم الحق﴾ الذي لا شك فيه ولا مريبة ولا اشتباه. ﴿ورسل مبين﴾ أي: بين الرسالة، قامت أدلة رسالته قياماً باهراً، بأخلاقه ومعجزاته، وبما جاء به، وبما صدق به المرسلين، وبفسد دعوته ﷺ.

﴿ولما جاءهم الحق﴾ الذي يوجب على مَنْ له أدنى دين ومعقول أن يقبله وينقاد له. ﴿قالوا هذا سحر وإنا به كافرون﴾ وهذا من أعظم المعاندة والمشاقة، فإنهم لم يكتفوا بمجرد الإعراض عنه، بل ولا جحده، فلم يرضوا حتى قدحوا به قدحاً شنيعاً، وجعلوه بمنزلة السحر الباطل، الذي لا يأتي به إلا أخيت الخلق وأعظمهم افتراء، والذي حملهم على ذلك، طغيانهم بما متعهم الله به وآباءهم.

﴿وقالوا﴾ مقترحين على الله بعقولهم الفاسدة: ﴿لو لا نزل هذا القرآن على رجل من القرينتين عظيم﴾ أي: معظم عندهم، مبيجل من أهل مكة، أو أهل الطائف، كالوليد بن المغيرة ونحوه، ممن هو عندهم عظيم.

قال الله ردّاً لاقتراحهم: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾ أي: أهم الخزان

لرحمة الله، ويذهب تدبيرها، فيعطون النبوة والرسالة مَنْ يشاؤون، ويمنعونها مَنْ يشاؤون؟

﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾ أي: في الحياة الدنيا، ﴿و﴾ الحال أن رحمة ربك خير مما يجمعون من الدنيا.

فإذا كانت معاش العباد وأرزاقهم الدنيوية بيد الله تعالى، هو الذي يقسمها بين عباده، فيبسط الرزق على مَنْ يشاء، ويضيقه على مَنْ يشاء، بحسب حكيمته، فرحمته الدنيوية، التي أعلاها النبوة والرسالة، أولى وأحرى أن تكون بيد الله تعالى، فالله أعلم حيث يجعل رسالته.

فعلم أن اقتراحهم ساقط لاغ، وأن التدبير للأمور كلها، دينيها ودنيويها، بيد الله وحده. هذا إقناع لهم، مَنْ جهة غلطهم في الاقتراح، الذي ليس في أيديهم منه شيء، إن هو إلا ظلم منهم ورد للحق.

وقولهم: ﴿لو لا نزل هذا القرآن على رجل من القرينتين عظيم﴾ لو عرفوا حقائق الرجال، والصفات التي بها يعرف علو قدر الرجل، وعظم منزلته عند الله وعند خلقه، لعلموا أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ، هو أعظم الرجال قدراً، وأعلاهم فخراً، وأكملهم عقلاً، وأغزهم علماً، وأجلهم رأياً، وعزماً وحزماً، وأكملهم خلقاً، وأوسعهم رحمة، وأشدهم شفقة، وأهداهم أمثالهم.

وهو قطب دائرة الكمال، وإليه المنتهى في أوصاف الرجال، ألا وهو رجل العالم على الإطلاق، يعرف ذلك أولياؤه وأعداؤه، فكيف يفضل عليه المشركون مَنْ لم يشم مثقال ذرة من كماله؟! ومن جرمة ومنتهى حقته، أن جعل إلهه الذي يعبده ويدعوه ويتقرب إليه، صنماً، أو شجراً، أو حجراً، لا يضر ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع، وهو كل على مولاه، يحتاج لمن يقوم بمصالحه، فهل هذا إلا مَنْ فعل

السفهاء والمجانين؟

فكيف يجعل مثل هذا عظيماً؟ أم كيف يفضل على خاتم الرسل وسيد ولد آدم ﷺ؟ ولكن الذين كفروا لا يعقلون.

وفي هذه الآية تنبيه على حكمة الله تعالى في تفضيل الله بعض العباد على بعض في الدنيا ﴿ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً﴾ أي: ليسخر بعضهم بعضاً، في الأعمال والحرف والصنائع.

فلو تساوى الناس في الغنى، ولم يحتاج بعضهم إلى بعض، لتعطلت كثير من مصالحهم ومنافعهم.

وفيها دليل على أن نعمته الدنيوية خير من النعمة الدنيوية كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾.

﴿٣٣-٣٥﴾ ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون﴾ * ولبسوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكثون * وزخرفاً وإن كل ذلك لا متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين﴾ يخبر تعالى بأن الدنيا لا تسوى عنده شيئاً، وأنه لو لا لطفه ورحمته بعباده، التي لا يقدم عليها شيئاً، لو سّع الدنيا على الذين كفروا توسيعاً عظيماً، وجعل ﴿لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج﴾ أي: درجاً من فضة ﴿عليها يظهرون﴾ على سطوحهم.

﴿ولبسوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكثون﴾ من فضة، ولجعل لهم ﴿زخرفاً﴾ أي: لزخرف لهم دنياهم بأنواع الزخارف، وأعطاهم ما يشتهون، ولكن منعه من ذلك رحمته بعباده خوفاً عليهم من التسارع في الكفر وكثرة المعاصي بسبب حب الدنيا، ففي هذا دليل على أنه يمنع العباد بعض أمور الدنيا منعاً عاماً أو خاصاً لمصالحهم، وأن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة، وأن كل هذه المذكورات متاع الحياة الدنيا، فتعصية، مكدره، فانية، وأن الآخرة عند الله تعالى خير للمتقين لربهم بامتثال أوامره



عليه، ويذكركم الشر ويرهبكم عنه،
«وسوف تسألون» عنه، هل قمتم به
فارتفعتم وانتفعتم، أم لم تقوموا به
فيكون حجة عليكم، وكفرا منكم بهذه
النعمة؟

«واسأل من أرسلنا من قبلك من
رسلنا أجمعين من دون الرحمن آلهة
يعبدون» حتى يكون للمشركين نوع
خجة، يتبعون فيها أحداً من الرسل،
فإنك لو سألتهم واستخبرتهم عن
أحوالهم، لم تجد أحداً منهم يدعو إلى
اتخاذ إله آخر منع الله مع أن كل
الرسل، من أولهم إلى آخرهم، يدعون
إلى عبادة الله، وحده لا شريك له.
قال تعالى: «ولقد بعثنا في كل أمة
رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا
الطواغوت» وكل رسول بعثه الله،
يقول لقومه: اعبدوا الله لا لكم من إله
غيره، فدل هذا، أن المشركين ليس لهم
مستند في شركهم، لا من عقل
صحيح، ولا نقل عن الرسل.

﴿٤٦- ٥٦﴾ «ولقد أرسلنا موسى
بآياتنا إلى فرعون وملئه، إلى آخر
القصة» لما قال تعالى:

«واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا
أجمعين من دون الرحمن آلهة يعبدون»
بين تعالى حال موسى ودعوته، التي
هي أشهر ما يكون من دعوات الرسل،

(١) وفي (ب) ذكر الآيات إلى آخرها.

ولأن الله تعالى أكثر من ذكرها في
كتابه، فذكر حاله مع فرعون، فقال:
«ولقد أرسلنا موسى بآياتنا» التي دلت
دلالة قاطعة على صحة ما جاء به،
كالعصا، والحية، وإرسال الجراد،
والقمل، إلى آخر الآيات.

«إلى فرعون وملئه فقال إني رسول
رب العالمين» فدعاهم إلى الإقرار
بربهم، ونهاهم عن عبادة ما سواه،
«فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها
يضحكون» أي: ردوها وأنكروها،
واستهزؤا بها، ظلماً وعلواً، فلم يكن
لقصور بالآيات، وعدم وضوح فيها،
ولهذا قال: «وما نرهب من آية إلا هي
أكبر من اختها» أي: الآية المتأخرة
أعظم من السابقة، «وأخذناهم
بالعذاب» كالجراد، والقمل،
والضفادع، والدم، آيات مفصلات.
«لعلهم يرجعون» إلى الإسلام،
ويذعنون له، ليزول شركهم وشرهم.

«وقالوا» عندما نزل عليهم
العذاب: «يا أيها الساحر» يعنون
موسى عليه السلام، وهذا، إما من
باب التهكم به، وإما أن يكون هذا
الخطاب عندهم مدحاً، فتضرعوا إليه
بأن خاطبوه بما يخاطبون به من يزعمون
أنهم علماؤهم، وهم السحرة، فقالوا:
«يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد
عندك» أي: بما خصك الله به،
وفضلك به، من الفضائل والمناقب، أن
يكشف عتاء العذاب «إننا لمهندون» إن
كشف الله عتاء ذلك، «فلما كشفنا
عنهم العذاب إذا هم ينكتون» أي: لم
يقفوا بما قالوا، بل غدروا، واستمروا
على كفرهم. وهذا كقوله تعالى:

«فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد
والقمل والضفادع والدم آيات
مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً
مجرمين» ولما وقع عليهم الرجز قالوا
يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك
لئن كشفت عتاء الرجز لنؤمنن لك
ولنرسلن معك بني إسرائيل فلما
كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه

إذا هم ينكتون»
«ونادى فرعون في قومه قال»
مستعجلاً بباطله، قد غره ملكه، وأطغاه
ماله وجنوده: «يا قوم أليس لي ملك
مضّر» أي: أأست المالك لذلك،
المتصرف فيه، «وهذه الأنهار تجري من
تحتي» أي: الأنهار المنسحبة من النيل،
في وسط القصور والبساتين. «أفلا
تبصرون» هذا الملك الطويل العريض،
وهذا من جهله البليغ، حيث افتخر
بأمر خارج عن ذاته، ولم يفخر
بأوصاف حميدة، ولا أفعال سديدة.

«أم أنا خير من هذا الذي هو
مهين» يعني - قبحه الله - بالهين،
موسى بن عمران، كليم الرحمن،
الوجيه عند الله، أي: أنا العزيز، وهو
الذليل المهان المحقر، فأينا خير؟ «و»
مع هذا فلا «يكاد يبين» عتاً في
ضميره بالكلام، لأنه ليس بفصيح
اللسان، وهذا ليس من العيوب في
شيء، إذا كان يبين ما في قلبه، ولو
كان ثقیلاً عليه الكلام.

ثم قال فرعون: «فلولا ألقى عليه
أسورة من ذهب» أي: فهل كان
موسى بهذه الحالة، أن يكون مزيناً
جماً بالحلي والأساور؟ «أو جاء معه
الملائكة مقبّرين» يعاونونه على
دعوته، ويؤيدونه على قوله.

«فاستخف قومه فأطاعوه» أي:
استخف عقولهم بما أبدى لهم من هذه
الشبه، التي لا تسمن ولا تخني من
جوع، ولا حقيقة تحتها، وليست دليلاً
على حق ولا على باطل، ولا تروج إلا
على ضعفاء العقول.

فأي: دليل يدل على أن فرعون
حق، لكون ملك مصر له، وأنها
تجري من تحته؟

وأي: دليل يدل على بطلان ما جاء
به موسى، لقلة أتباعه، وثقل لسانه،
وعدم تحلية الله له، ولكنه لقي ملاً
لا يعقول عندهم، فمهما قال اتبعوه،
من حق وباطل «إنهم كانوا قوماً
فاسقين» فيسبب فسقهم، فيض لهم

بها، وبما لا يتم التصديق إلا به، من العلم بمعناها والعمل بمقتضاها. **﴿وكانوا مسلمين﴾** الله متقادين له في جميع أحوالهم، فجمعوا بين الاتصاف بعمل الظاهر والباطن.

﴿ادخلوا الجنة﴾ التي هي دار القرار **﴿أنتم وأزواجكم﴾** أي: من كان على مثل عملكم، من كل مقارن لكم، من زوجة، وولد، وصاحب، وغيرهم. **﴿تجبرون﴾** أي: تنعمون وتكرمون، ويأتيكم من فضل ربكم من الخيرات والسرور والأفراح واللذات، ما لا تعبر الألسن عن وصفه.

﴿يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب﴾ أي: تدور عليهم خدامهم، من الرولدان المخلدين يطعمهم، بأحسن الأواني وأفخرها، وهي صحاف الذهب وشرابهم، بالطف الأواني، وهي الأكواب التي لا عرى لها، وهي من أصفى الأواني، من فضة أعظم من صفاء القوارير.

﴿وفيها﴾ أي: الجنة **﴿ما تشتهيہ الأنفس وتلذ الأعين﴾** وهذا لفظ جامع، يأتي على كل نعيم وفرح، وقرة عين، وسرور قلب، فكل ما اشتتهه النفوس، من مطاعم، ومشارب، وملابس، ومناجح، ولذته العيون، من مناظر حسنة، وأشجار محدقة، ونعم موفقة، ومبان مزخرفة، فإنه حاصل فيها، معد لأهلها، على أكمل الوجوه وأفضلها، كما قال تعالى: **﴿لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون﴾** **﴿وأنتم فيها خالدون﴾** وهذا هو تمام نعيم أهل الجنة، وهو الخلد الدائم فيها، الذي يتضمن دوام نعيمها وزيادته، وعدم انقطاعه.

﴿وتلك الجنة﴾ الموصوفة بأكمل الصفات، هي **﴿التي أوردتموها بما كنتم تعملون﴾** أي: أوردكم الله إياها بأعمالكم، وجعلها من فضله جزاء لها، وأودع فيها من رحمة ما أودع.

﴿لهم فيها فاكهة كثيرة﴾ كما في الآية الأخرى: **﴿فيها من كل فاكهة زوجان﴾**. **﴿منها تأكلون﴾** أي: مما تتخبرون من تلك الفواكه الشهية،

عليه السلام مقالة باطلة، ورد ما جاء به، إلا من هدى الله من المؤمنين، الذين شهدوا له بالرسالة، وصدقوا بكل ما جاء به، وقالوا: إنه عبد الله ورسوله.

﴿فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم﴾ أي: ما أشد حزن الظالمين وما أعظم خسارهم في ذلك اليوم!!

﴿٦٦-٧٣﴾ **﴿هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون﴾** * الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين * يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون * الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين * ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تجبرون * يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيہ الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون * وتلك الجنة التي أوردتموها كنزكم فاكهة بما كنتم تعملون * لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون * يقول تعالى: **﴿إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون﴾** أي: فإذا جاءت، فلا تسأل عن أحوال من كذب بها، واستهزأ بمن جاء بها، وإن الأخلاء يومئذ، أي: يوم القيامة، المتخالفين على الكفر والتكذيب ومعصية الله، **﴿بعضهم لبعض عدو﴾** لأن خلتهم ومحبتهم في الدنيا لغير الله، فانقلبت يوم القيامة عداوة. **﴿إلا المتقين﴾** وللشرك والمعاصي، فإن محبتهم تدوم وتتصل، بدوام من كانت المحبة لأجله، ثم ذكر ثواب المتقين، وأن الله تعالى يناديهم يوم القيامة بما يسر قلوبهم، ويذهب عنهم كل آفة وشر، فيقول: **﴿يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون﴾** أي: لا خوف يلحقكم فيما تستقبلونه من الأمور، ولا حزن يصيبكم فيما مضى منها، وإذا انتفى المكروه من كل وجه، ثبت المحبوب المطلوب.

﴿الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين﴾ أي: وصفهم الإيمان بآيات الله، وذلك ليشمل التصديق



من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأرصر، ونحو ذلك من الآيات. **﴿قال﴾** لبني إسرائيل: **﴿قد جئكم بالحقمة النبوة والعلم، بما ينبغي على الوجه الذي ينبغي.﴾** **﴿ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه﴾** أي: أبين لكم صوابه وجوابه، فيزول عنكم بذلك اللبس، فجاء عليه السلام مكملًا ومتممًا لشرعية موسى عليه السلام، ولأحكام التوراة. وأتى ببعض التسهيلات الموجبة للانقياد له، وقبول ما جاءهم به. **﴿فأتقوا الله وأطيعون﴾** أي: اعبدوا الله وحده لا شريك له، وامتلثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، وأمنوا بي وصدقوني وأطيعوني.

﴿إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ ففيه الإقرار بتوحيد الربوبية، بأن الله هو المربي جميع خلقه بأنواع النعم الظاهرة والباطنة، والإقرار بتوحيد العبودية، بالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وإخبار عيسى عليه السلام أنه عبد من عباد الله، ليس كما قال فيه النصارى: **﴿إنه ابن الله، أو ثالث ثلاثة﴾**، والإخبار بأن هذا المذكور صراط مستقيم، موصل إلى الله وإلى جنته.

فلما جاءهم عيسى عليه السلام بهذا **﴿اختلف الأحزاب﴾** المتحزبون على التكذيب **﴿من بينهم﴾** كل قال ببعيسى

والثمار اللذيذة تأكلون^(١).

ولما ذكر نعيم الجنة، عقبه بذكر عذاب جهنم، فقال:

﴿٧٤-٧٨﴾ **﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مَبْسُورُونَ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ * وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رِيْقَ قَالَ إِنَّكُمْ مَأْكُوثُونَ * لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمُ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾**

﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ﴾ الذين أجزموا بكفرهم وتكذيبهم **﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ﴾** أي: منغمرون فيه، محبطينهم العذاب من كل جانب، **﴿خَالِدُونَ﴾** فيه، لا يخرجون منه أبداً، و **﴿لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ﴾** العذاب ساعة، بإزالته، ولا بتحويل عذابه، **﴿وَهُمْ فِيهِ مَبْسُورُونَ﴾** أي: آيسون من كل خير، غير راجين للفرج، وذلك أنهم ينادون بهم فيقولون: **﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾** قال اخسؤوا فيها ولا تكلمون، وهذا العذاب العظيم، بما قدمت أيديهم، وبما ظلموا به أنفسهم، والله لم يظلمهم ولم يعاقبهم بلا ذنب ولا جرم.

﴿وَنَادَوْا﴾ وهم في النار، لعلهم يحصل لهم استراحة، **﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رِيْقَ﴾** أي: ليمتنا فنستريح، فإننا في غم شديد، وعذاب غليظ، لا صبر لنا عليه ولا جلد. **﴿قَالَ﴾** لهم مالك خازن النار: حين طلبوا منه أن يدعو الله لهم أن يقضي عليهم. **﴿إِنَّكُمْ مَأْكُوثُونَ﴾** أي: مقيمون فيها، لا تخرجون عنها أبداً، فلم يحصل لهم ما قصدوه، بل أجابهم بنقيض قصدهم، وزادهم غماً إلى غمهم، ثم وبخهم بما فعلوا، فقال: **﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ﴾** الذي يوجب عليكم أن تتبعوه فلو تبعتموه، لفترمت وسعدتم، **﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمُ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾** لذلك شقيتم شقاوة لا سعادة بعدها.

﴿٧٩-٨٠﴾ **﴿أَمْ أُبْرِمُوا أَمْ إِنَّا مِيرْمُونَ * أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ**

سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون﴾ يقول تعالى: أم أبرم المكذبون بالحق المعاندون له **﴿أَمْ أَرْأَى﴾** أي: كادوا كيداً، ومكروا للحق ولمن جاء بالحق، ليدحضوه، بما موهوا من الباطل المزخرف المزوق، **﴿فَإِنَّا مِيرْمُونَ﴾** أي: محكمون أمراً، ومديرون تدبيراً يعلم تدبيرهم، وينقضه ويبطله، وهو ما قَبَضَهُ الله من الأسباب والأدلة لإحقاق الحق وإبطال الباطل، كما قال تعالى: **﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾**

﴿أَمْ يَحْسِبُونَ﴾ بجهلهم وظلمهم **﴿أَنَا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾** الذي لم يتكلموا به، بل هو سر في قلوبهم **﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾** أي: كلامهم الخفي الذي يتناجون به، أي: فلذلك أقدموا على المعاصي، وظنوا أنها لا تبعة لها ولا مجازاة على ما خفي منها.

فرد الله عليهم بقوله: **﴿بَلَى﴾** أي: فرد إننا نعلم سرهم ونجواهم، **﴿وَرَسَلْنَا﴾** الملائكة الكرام، **﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾** كل ما عملوه، وسيحفظ ذلك عليهم، حتى يردوا القيامة، فيجدوا ما عملوا خاضراً، ولا يظلم ربك أحداً.

﴿٨١-٨٣﴾ **﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ * سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * قَدْ رَهْمَ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يَلِاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوْعَدُونَ﴾** أي: قل يا أيها الرسول الكريم: للذين جعلوا لله ولداً، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له كفواً أحد.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ لذلك الولد، لأنه جزء من والده، وأنا أولى الخلق انقياداً للأمور المحبوبة لله، ولكني أول المنكرين لذلك، وأشدهم له نفياً، فعلم بذلك بطلانه، فهذا احتجاج عظيم عند من عرف أحوال الرسل، وأنه إذا علم أنهم أكمل الخلق، وأن كل خير فهم أول الناس سبقاً إليه وتكميلاً له، وكل شر

فهم أول الناس تركاً له وإنكاراً له ويُعداً منه، فلو كان على هذا الرحمن ولد وهو الحق، لكان محمد بن عبد الله، أفضل الرسل أول من عبده، ولم يسبقه إليه المشركون.

ويحتمل أن معنى الآية: لو كان للرحمن ولد، فأنا أول العابدين لله، ومن عبادتي لله، إثبات ما أثبتته، ونفي ما نفاه، فهذا من العبادة القولية الاعتقادية، ويلزم من هذا، لو كان حقاً، لكنت أول مثبت له، فعلم بذلك بطلان دعوى المشركين وفسادها، عقلاً ونقلاً. **﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾** من الشريك والظهير، والعوين والولد، وغير ذلك، مما نسبته إليه المشركون. **﴿قَدْ رَهْمَ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾** أي: يخوضوا بالباطل، ويلعبوا بالمحال، فعلمهم ضارة غير نافعة، وهي الخوض والبحث بالعلوم التي يعارضون بها الحق وما جاءت به الرسل، وأعمالهم لعب وفسافة، لا تزكي النفوس، ولا تثمر المعارف.

ولهذا توعدهم بما أمامهم من يوم القيامة فقال: **﴿حَتَّى يَلِاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوْعَدُونَ﴾** فسيعلمون فيه ماذا حصلوا، وما حصلوا عليه من الشقاء الدائم، والعذاب المستمر.

﴿٨٤-٨٩﴾ **﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ * وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ * وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ * فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾** يخبر تعالى، أنه وحده المألوه المعبود في السماوات والأرض فأهل السماوات كلهم، والمؤمنون من أهل الأرض، يعبدونه، ويعظمونه، ويخضعون

(١) ما بين الحاصرتين جاء في نسخة (أ) مقدماً على تفسير الآية السابقة (وتلك الجنة التي أوردتموها بما كنتم تعملون).

لجلاله، ويفتقرون لكماله.

﴿تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ «والله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً».

فهو تعالى المألوه المعبود، الذي يألوه الخلائق كلهم، طائعتين مختارين، وكنارهن. وهذه كقوله تعالى: ﴿وهو الله في السماوات وفي الأرض﴾ أي: ألوهيته ومحبته فيهما. وأما هو فهو فوق عرشه، بائن من خلقه، متوحد بجلاله، متمجد بكماله، ﴿وهو الحكيم﴾ الذي أحكم ما خلقه، وأتقن ما شرعه، فما خلق شيئاً إلا لحكمة، ولا شرع شيئاً إلا لحكمة، وحكمه القدري والشرعي والجزائي مشتمل على الحكمة. ﴿العليم﴾ بكل شيء، يعلم السر وأخفى، ولا يغرب عنه مثقال ذرة في العالم العلوي والسفلي، ولا أصغر منها ولا أكبر.

﴿وتبارك الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما﴾ تبارك بمعنى تعالى وتعاظم، وكثر خيره، واتسعت صفاته، وعظم ملكه. ولهذا ذكر سعة ملكه للسماوات والأرض وما بينهما، وسعة علمه، وأنه بكل شيء عليم، حتى إنه تعالى، انفرّد بعلم كثير من الغيوب، التي لم يطلع عليها أحد من الخلق، لا نبي مرسل، ولا ملك مقرب، ولهذا قال: ﴿وعنده علم الساعة﴾ قدم الظرف، ليفيد الحصر، أي: لا يعلم متى تحيى الساعة إلا هو، ومن تمام ملكه وسعته، أنه مالك الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿وليه ترجعون﴾ أي: في الآخرة فيحكم بينكم بحكمه العدل، ومن تمام ملكه، أنه لا يملك أحد من خلقه من الأمر شيئاً، ولا يقدم على الشفاعة عنده أحد إلا بإذنه.

﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة﴾ أي: كل من دعي من دون الله، من الأنبياء والملائكة

وغيرهم، لا يملكون الشفاعة، ولا يشفعون إلا بإذن الله، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى، ولهذا قال: ﴿إلا من شهد بالحق﴾ أي: نطق بلسانه، مقراً بقلبه، عالماً بما شهد به، ويشترط أن تكون شهادته بالحق، وهو الشهادة لله تعالى بالوحدانية، ولرسله بالنبوة والرسالة، وصحة ما جاؤوا به، من أصول الدين وفروعه، وحقائقه وشرائعه، فهؤلاء الذين تنفع فيهم شفاعته الشافعين، وهؤلاء الناجون من عذاب الله، الحائزون لثوابه. ثم قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾ أي: ولئن سألت المشركين عن توحيد الربوبية، ومن هو الخالق، لأقروا أنه الله وحده لا شريك له.

﴿فأنتى يؤفكون﴾ أي: فكيف يصرفون عن عبادة الله والإخلاص له وحده؟! فيأقرارهم بتوحيد الربوبية، يلزمهم به الإقرار بتوحيد الألوهية، وهو من أكبر الأدلة على بطلان الشرك.

﴿وقيل له يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون﴾ هذا معطوف على قوله: ﴿وعنده علم الساعة﴾ أي: وعنده علم قيله، أي: الرسول ﷺ، شاكياً لربه تكذيب قومه، متحزناً على ذلك، متحسراً على عدم إيمانهم، والله تعالى عالم بهذه الحال، قادر على معاجلتهم بالعقوبة، ولكنه تعالى حلیم، يمهّل العباد ويستأني بهم، لعلهم يتوبون ويرجعون، ولهذا قال:

﴿فاصفح عنهم وقل سلام﴾ أي: اصفح عنهم ما يأتيك من أذيتهم القولية والفعلية، واعف عنهم، ولا يبدر منك لهم إلا السلام الذي يقابل به أولو الأبواب والبصائر المجاهلين، كما قال تعالى عن عباده الصالحين: ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون﴾ أي: خطاباً بمقتضى جهلهم ﴿قالوا سلاماً﴾ فامتثل ﷺ لأمر ربه، وتلقى ما يصدر إليه من قومه وغيرهم من الأذى، بالعفو والصفح، ولم يقابلهم عليه إلا بالإحسان إليهم والخطاب

الجميل.

فصلوات الله وسلامه على من خصه الله بالخلق العظيم، الذي فضل به أهل الأرض والسماء، وارتفع به أعلى من كواكب الجوزاء.

وقوله: ﴿فسوف يعلمون﴾ أي: غيب ذنوبهم، وعاقبة جرمهم.

تم تفسير سورة الزخرف

تفسير سورة الدخان مكية

﴿١-١٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم * والكتاب المبين * إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين * فيها يفرق كل أمر حكيم * أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين * رحمة من ربك إنه هو السميع العليم * رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين * لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين * بل هم في شك يلعبون * فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب اليم * ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون * أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين * ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون * إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون * يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون﴾ هذا قسم بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين لكل ما يحتاج إلى بيانه، أنه أنزله ﴿في ليلة مباركة﴾ أي: كثيرة الخير والبركة، وهي ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر، فأنزل أفضل الكلام بأفضل الليالي والأيام، على أفضل الأنام، بلغة العرب الكرام، لينذر به قوماً عمتهم الجهالة، وغلبت عليهم الشقاوة، فيستضيؤوا بنوره، ويقتبسوا من هداه، ويسيروا وراءه، فيحصل لهم الخير الدنيوي، والخير الآخروي، ولهذا قال: ﴿إنا كنا منذرين﴾ فيها: أي: في تلك الليلة الفاضلة التي نزل فيها القرآن ﴿يفرق كل أمر حكيم﴾ أي: يفصل ويميز، ويكتب كل أمر قدرتي وشرعي حكم الله به، وهذه الكتابة والفرقان،

الذي يكون في ليلة القدر، أحد^(١) الكتابات التي تكتب وتميز، فتطابق الكتاب الأول، الذي كتب الله به مقادير الخلائق وأجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وأحوالهم، ثم إن الله تعالى قد وكل ملائكة تكتب ما سيجري على العبد وهو في بطن أمه، ثم وكلهم بعد وجوده إلى الدنيا، وكل به كراماً كاتين، يكتبون ويحفظون عليه أعماله، ثم إنه تعالى يقدر في ليلة القدر ما يكون في السنة، وكل هذا من تمام علمه، وكمال حكمته، وإتقان حفظه، واعتناؤه تعالى بخلقه **﴿أمرأ من عندنا﴾** أي: هذا الأمر الحكيم، أمر صادر من عندنا، **﴿إنا كنا مرسلين﴾** للرسول، ومنزلين للكتب، والرسول يبلغ أوامر المرسل، وتخبر بأفكاره، **﴿رحمة من ربك﴾** أي: إن إرسال الرسل وإنزال الكتب، التي أفضلها القرآن، رحمة من رب العباد بالعباد، فما رحم الله عباده برحمة أجل من هدايتهم بالكتب والرسول، وكل خير ينالونه في الدنيا والآخرة، فإنه من أجل ذلك وسببه، **﴿إنه هو السميع العليم﴾** أي: يسمع جميع الأصوات، ويعلم جميع الأمور الظاهرة والباطنة، وقد علم تعالى ضرورة العباد إلى رسله وكتبه، فرحمهم بذلك، ومن عليهم، فله تعالى الحمد والمنة والإحسان.

﴿رب السماوات والأرض وما بينهما﴾ أي: خالق ذلك ومدبره، والمتصرف فيه بما يشاء.

﴿إن كنتم موقنين﴾ أي: عالمين بذلك علماً مفيداً لليقين، فاعلموا أن الرب للمخلوقات هو إلهها الحق، ولهذا قال: **﴿لا إله إلا هو﴾** أي: لا معبود إلا وجهه، **﴿يحيي ويميت﴾** أي: هو المتصرف وحده بالإحياء والإماتة، وسيجمعكم بعد موتكم فيجزئكم بعملكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، **﴿ويحكم ورب أيافكم الأولين﴾** أي: رب الأولين

والآخرين، مربيهم بالنعم، الدافع عنهم النقم.

فلما قرر تعالى ربوبيته وألوهيته، بما يوجب العلم التام ويدفع الشك، أخبر أن الكافرين مع هذا البيان **﴿في شك يلعبون﴾** أي: منغمرون في الشكوك والشبهات، غافلون عما خلقوا له، قد اشتغلوا باللعب الباطل، الذي لا يجدي عليهم إلا الضرر، **﴿فارتقب﴾** أي: انتظر فيهم العذاب، فإنه قد قرب وأن أوانه، **﴿يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾** يغشى الناس أي: يعمهم ذلك الدخان، ويقال لهم: **﴿هذا عذاب اليم﴾**

واختلف المفسرون في المراد بهذا الدخان، فقيل: إنه الدخان الذي يغشى الناس ويعممهم حين تقرب النار من المجرمين في يوم القيامة، وأن الله توعدهم بعذاب يوم القيامة، وأمر نبيه أن ينتظر بهم ذلك اليوم.

ويؤيد هذا المعنى، أن هذه الطريقة هي طريقة القرآن في توعدهم للكفر والتأني بهم، وترهيبهم بذلك اليوم وعذابه، وتسلية الرسول والمؤمنين بالانتظار بمن آذاهم، ويؤيده أيضاً، أنه قال في هذه الآية: **﴿أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين﴾** وهذا يقال يوم القيامة للكفار، حين يطلبون الرجوع إلى الدنيا، فيقال: قد ذهب وقت الرجوع.

وقيل: إن المراد بذلك، ما أصاب كفار قريش حين امتنعوا من الإيمان، واستكبروا على الحق، فدعا عليهم النبي ﷺ، فقال: **﴿اللهم أعني عليهم بسنين كسني يوسف﴾**، فأرسل الله عليهم الجوع العظيم، حتى أكلوا الميتات والعظام، وصاروا يرون الذي بين السماء والأرض كهيئة الدخان، وليس به، وذلك من شدة الجوع.

فيكون على هذا - قوله: **﴿يوم تأتي السماء بدخان﴾** أن ذلك بالنسبة

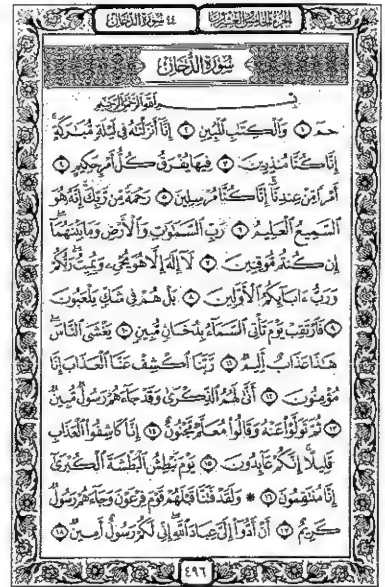


إلى أنصارهم وما يشاهدون، وليس بدخان حقيقة.

ولم يزالوا بهذه الحالة حتى استرجعوا رسول الله ﷺ، وسألوه أن يدعو الله لهم، أن يكشفه الله عنهم، فدعاه، فكشفه الله عنهم، وعلى هذا فيكون قوله: **﴿إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون﴾** إخبار بأن الله سيصرفه عنكم وتوعد لهم أن يعودوا إلى الاستكبار والتكذيب، وإخبار بوقوعه فوق، وأن الله سيعاقبهم بالبطشة الكبرى، قالوا: وهي وقعة «بدر» وفي هذا القول نظر ظاهر.

وقيل: إن المراد بذلك، أن ذلك من أشرط الساعة، وأنه يكون في آخر الزمان دخان يأخذ بأنفاس الناس، ويصيب المؤمنين منهم كهيئة الدخان، والقول هو الأول، وفي الآية احتمال أن المراد بقوله: **﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾** يغشى الناس هذا عذاب اليم **﴿ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون﴾** أي لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين **﴿ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون﴾** أن هذا كله يكون يوم القيامة، وأن قوله تعالى: **﴿إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون﴾** يوم تبطش البطشة الكبرى

(١) في النسختين (أحد) ولعل الصواب (إحدى).



إنا منتقمون ﴿١٧﴾ أن هذا ما وقع لقريش كما تقدم .

وإذا نزلت هذه الآيات على هذين المعنيين ، لم نجد في اللفظ ما يمنع من ذلك .

بل نجدها مطابقة لهما أتم المطابقة ، وهذا الذي يظهر عندي ويترجح ، والله أعلم .

﴿١٧ - ٣٣﴾ ﴿ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون﴾ إلى آخر القصة ^(١) لما ذكر تعالى تكذيب من كذب الرسول محمداً ﷺ ، ذكر أن لهم سلفاً من المكذبين ، فذكر قصتهم مع موسى ، وما أحل الله بهم ، ليرتدع هؤلاء المكذبون عن ما هم عليه ، فقال : ﴿ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون﴾ أي : ابتليناهم واختبرناهم بإرسال رسولنا موسى بن عمران إليهم ، الرسول الكريم ، الذي فيه من الكرم ومكارم الأخلاق ما ليس في غيره ، ﴿أن أدوا إلي عباد الله﴾ أي : قال لفرعون وملائته : أدوا إلي عباد الله ، يعني بهم : بني إسرائيل ، أي : أرسلوهم ، وأطلقوهم من عذابكم وسومكم إليهم سوء العذاب ، فإنهم عشتري ، وأفضل العالمين في زمانهم . وأنتم قد ظلمتموهم ،

واستعبدتموهم بغير حق ، فأرسلوهم ليعبدوا ربهم ، ﴿إني لكم رسول أمين﴾ أي : رسول من رب العالمين ، أمين على ما أرسلني به ، لا أكتكم منه شيئاً ، ولا أزيد فيه ولا أنقص ، وهذا يوجب تمام الانقياد له .

﴿وأن لا تعملوا على الله﴾ بالاستكبار عن عبادته ، والعلو على عباد الله ، ﴿إني أتاكم بسلطان مبين﴾ أي : بحجة بينة ظاهرة ، وهو ما أتى به من المعجزات الباهرات ، والأدلة القاهرات ، فكذبوه وهواهم يقتله ، فلجأ بالله من شرهم ، فقال : ﴿وإني عدت بربي وربيكم أن ترجون﴾ أي : تقتلوني أشر القتلات ، بالرجم بالحجارة .

﴿وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون﴾ أي : لكم ثلاث مراتب : الإيمان بي ، وهو مقصودي منكم ، فإن لم تحصل منكم هذه المرتبة ، فاعتزلوني ، لا علي ولا لي ، فاكفوني شركم ، فلم تحصل منهم المرتبة الأولى ولا الثانية ، بل لم يزالوا متمردين عاتين على الله ، محاربين لنبيه موسى عليه السلام ، غير عاكفين له من قومه بني إسرائيل ، ﴿فدعاهم أن هؤلاء قوم مجرمون﴾ أي : قد أخرجوا جرماً ، يوجب تعجيل العقوبة .

فأخبر عليه السلام بحالهم ، وهذا دعاء بالخال ، التي هي أبلغ من المقال ، كما قال عن نفسه عليه السلام ﴿رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير﴾ فأمره الله أن يسري بعباده ليلاً ، وأخبره أن فرعون وقومه سيتبعونه ، ﴿واترك البحر رهوا﴾ أي : بحاله وذلك أنه لما سرى موسى ببني إسرائيل كما أمره الله ، ثم تبعهم فرعون ، فأمر الله موسى أن يضرب البحر ، فضربه ، فصارت عشرين طريقاً ، وصار الماء من بين تلك الطرق كالجبال العظيمة ، فسلكه موسى وقومه .

فلما خرجوا منه ، أمره الله أن يتركه رهواً ، أي : بحاله ، ليسلكه فرعون وجنوده ﴿إنهم جند مغرقون﴾ فلما تكامل قوم موسى خارجين منه ، وقوم

فرعون داخلين فيه ، أمره الله تعالى أن يلتطم عليهم ، فغرقوا عن آخرهم ، وتركوا ما متعوا به من الحياة الدنيا ، وأورثه الله بني إسرائيل ، الذين كانوا مستعبدين لهم ، ولهذا قال : ﴿كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها﴾ أي : هذه النعمة المذكورة ﴿قوماً آخرين﴾ وفي الآية الأخرى : ﴿كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾ .

﴿فما بك عليهم السماء والأرض﴾ أي : لما أتلفهم الله وأهلكهم ، لم تبك عليهم السماء والأرض ، أي : لم تحزن عليهم ، ولم يؤس على فراقهم ، بل كل استبشر بهلاكهم وتلفهم ، حتى السماء والأرض ، لأنهم ما خلقوا من آثارهم إلا ما يسود وجوههم ، ويوجب عليهم اللعنة والمقت من العالمين .

﴿وما كانوا منظرين﴾ أي : مبهلين عن العقوبة ، بل اصطلمتهم في الحال . ثم امتنَّ تعالى على بني إسرائيل ، فقال : ﴿ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين﴾ الذي كانوا فيه ﴿من فرعون﴾ إذ يذبح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم .

﴿لأنه كان عالياً﴾ أي : مستكبراً في الأرض بغير الحق ، ﴿من المسرفين﴾ المتجاوزين لحدود الله ، المتجرئين على محارمه .

﴿ولقد اخترناهم﴾ أي : اصطفيناهم وانتقيناهم ﴿على علم﴾ منا بهم ، وباستحقاقهم لذلك الفضل ﴿على العالمين﴾ أي : عالمي زمانهم ومن قبلهم وبعدهم حتى أتى الله بأمة محمد ﷺ ، ففضلوا العالمين كلهم ، وجعلهم الله خير أمة أخرجت للناس ، وامتنَّ عليهم بما لم يمتن به على غيرهم .

﴿وأتيناهم﴾ أي : بني إسرائيل ﴿من الآيات﴾ الباهرة ، والمعجزات الظاهرة ، ﴿وما فيه بلاء مبين﴾ أي :

(١) في نسخة (ب) ذكر الآيات كاملة .

واضحات، على صدق هذا القرآن العظيم، وصحة ما اشتمل عليه من الحكم والأحكام، ودالات أيضاً على ما الله تعالى من الكمال، وعلى البعث والنشور.

ثم قسم تعالى الناس، بالنسبة إلى الانتفاع بآياته وعدمه، إلى قسمين:

قسم يستدلون بها، ويتفكرون بها، ويتفتنون فيرتفعون، وهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، إيماناً تاماً، وصل بهم إلى درجة اليقين، فزكى منهم العقول، وازدادت به مغارفهم وألباهم وعلومهم.

وقسم يسمع آيات الله سماعاً تقوم به الحجة عليهم، ثم يعرض عنها ويستكبر، كأنه ما سمعها، لأنها لم تترك قلبه، ولا طهرته، بل بسبب استكباره عنها ازداد طغيانه.

وأنه إذا علم من آيات الله شيئاً اتخذها هزواً، فتوعده الله تعالى بالويل فقال:

﴿ويل لكل أفلاك أثيم﴾ أي: كذاب في مقاله، أثيم في فعاله. وأخبر أن له غذاباً أليماً، وأن من ورائهم جهنم تكفي في عقوبتهم البليغة.

وأنه لا يغني عنهم ما كسبوا من الأموال ﴿ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء﴾ يستنصرون بهم فخذلهم، أحوج ما كانوا إليهم لو نفعوا.

فلما بين آياته القرآنية والعيانية، وأن الناس فيها على قسمين، أخبر أن القرآن المشتمل على هذه المطالب العالية، أنه هدى، فقال: ﴿هذا هدى﴾ وهذا وصف عام لجميع القرآن، فإنه يهدي إلى معرفة الله تعالى، بصفاته المقدسة، وأفعاله الحميدة، ويهدي إلى معرفة رسله، وأوليائه، وأعدائه، وأوصافهم، ويهدي إلى الأعمال الصالحة ويدعو إليها، ويبيّن الأعمال السيئة وينهي عنها، ويهدي إلى بيان الجزاء على الأعمال، ويبين الجزاء الدنيوي والأخروي، فالملتدون اهتدوا به، فأفلحوا وسعدوا، ﴿والذين كفروا

لعلهم يتذكرون﴾ ما فيه نفعهم فيعملونه، وما فيه ضررهم فيتركونه.

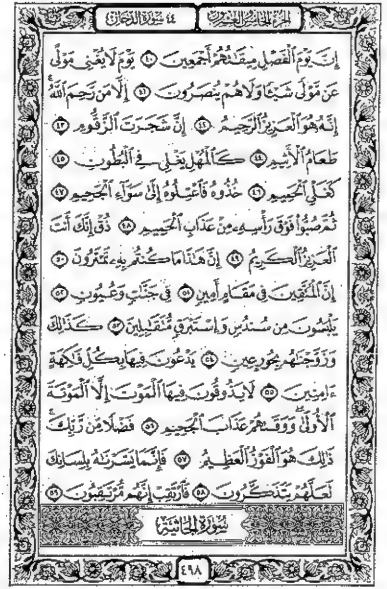
﴿فارتقب﴾ أي: انتظر ما وعدك ربك من الخير والنصر، ﴿إنهم مرتقبون﴾ ما يحل بهم من العذاب، وفرق بين الارتقابين: رسول الله وأتباعه يرتقبون الخير في الدنيا والآخرة، وضدهم يرتقبون الشر في الدنيا والآخرة.

تم تفسير سورة الدخان،
ولله الحمد والمنة

تفسير سورة الجاثية مكية

﴿١١-١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين * وفي خلقكم وما بينت من دابة آيات لقوم يوقنون * واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون * تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون * ويل لكل أفلاك أثيم * يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كان لم يسمعها فبشره بعذاب أليم * وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين * من ورائهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء لهم عذاب عظيم * هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم * يخبر تعالى خيراً يتضمن الأمر بتعظيم القرآن والاعتناء به، أنه ﴿تنزيل﴾ من الله المألوه المعبود، لما اتصف به من صفات الكمال، وانفرد به من النعم، الذي له العزة الكاملة والحكمة التامة، ثم أيد ذلك بما ذكره من الآيات الأفقية والنفسية، من خلق السماوات والأرض، وما بث فيهما من الدواب، وما أودع فيهما من المنافع، وما أنزل الله من الماء، الذي يحيي به الله البلاد والعباد.

فهذه كلها آيات بينات، وأدلة



يحار الطرف في حسنهن، وينهر العقل بجمالهن، وينقلب القلب لكمالهن، وعين أي: ضخام الأعين حسانها.

﴿يدعون فيها﴾ أي: الجنة بكل فاكهة، مما له اسم في الدنيا، ومما لا يوجد له اسم، ولا نظير في الدنيا، فمهما طلبوه من أنواع الفاكهة وأجناسها، أحضر لهم في الحال، من غير تعب ولا كلفة، آمنين من انقطاع ذلك، وآمنين من مضرتهم، وآمنين من كل مكدر، وآمنين من الخروج منها والموت، ولهذا قال: ﴿لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾ أي: ليس فيها موت بالكلية، ولو كان فيها موت يستثنى، لم يستثن الموت الأولى، التي هي الموتة في الدنيا، فتم لهم كل محبوب مطلوب، ووقاهم عذاب الجحيم * فضلاً من ربك أي: حصول النعيم واندفاع العذاب عنهم، من فضل الله عليهم وكرمه، فإنه تعالى هو الذي وفقهم للأعمال الصالحة، التي بها نالوا خير الآخرة، وأعطاهم أيضاً ما لم تبلغه أعمالهم، ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾ أي: فوز أعظم من نيل رضوان الله وجنته، والسلامة من عذابه وسخطه؟

﴿فإنما يسرناه﴾ أي: القرآن بلسانك * أي: سهلناه بلسانك الذي هو أنفصح الألسنة على الإطلاق وأجلها، فيسر به لفظه، وتيسر معناه.

بآيات ربهم ﴿الواضحة القاطعة، التي لا يكفر بها إلا من اشتد ظلمه، وتضاعف طغيانه، ﴿لهم عذاب من رجز أليم﴾

﴿١٢ - ١٣﴾ ﴿الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ يخبر تعالى بفضلله على عباده وإحسانه إليهم، بتسخير البحر لسير المراكب والسفن بأمره وتيسيره، ﴿لتبتغوا من فضله﴾ بأنواع التجارات والمكاسب، ﴿ولعلكم تشكرون﴾ الله تعالى، فإنكم إذا شكرتموه، زادكم من نعمه وأثابكم على شكركم أجراً جزيلاً.

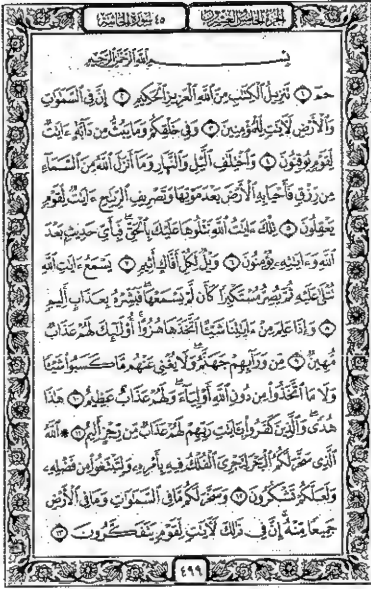
﴿وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه﴾ أي: من فضله وإحسانه، وهذا شامل لأجرام السماوات والأرض، ولما أودع الله فيهما، من الشمس والقمر، والكواكب، والثوابت، والسيارات، وأنواع الحيوانات، وأصناف الأشجار والثمار، وأجناس المعادن، وغير ذلك مما هو معد لمصالح بني آدم، ومصالح ما هو من ضروراته، فهذا يوجب عليهم أن يبذلوا غاية جهدهم في شكر نعمته، وأن تغلغل أفكارهم في تدبر آياته وحكمه، ولهذا قال: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ وجملة ذلك أن خلقها وتدبيرها وتسخيرها، دال على نفوذ مشيئة الله، وكمال قدرته، وما فيها من الإحكام والإتقان، وبديع الصنعة، وحسن الخلقة، دال على كمال حكمته وعلمه، وما فيها من السعة والعظمة والكثرة، دال على سعة ملكه وسلطانه، وما فيها من التخصيصات والأشياء المتضادات، دليل على أنه الفاعل لما يريد، وما فيها من المنافع، والمصالح الدينية والدنيوية، دليل على سعة رحمته، وشمول فضله وإحسانه، وبديع لطفه

وبره، وكل ذلك دال على أنه وحده المألوه المعبود، الذي لا تنبغي العبادة والذل والمحبة إلا له، وأن رسله صادقون فيما جاؤوا به، فهذه أدلة عقلية واضحة، لا تقبل ريباً ولا شكاً.

﴿١٤ - ١٥﴾ ﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون﴾ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بحسن الخلق، والصبر على أذية المشركين به، الذين لا يرجون أيام الله، أي: لا يرجون ثوابه، ولا يخافون وقائعه في العاصين، فإنه تعالى سيجزي كل قوم بما كانوا يكسبون. فأنتم يا معشر المؤمنين، يجزيكم على إيمانكم، وصفحكم وصبركم، ثواباً جزيلاً، وهم إن استمروا على تكذيبهم فلا يحل بكم (١) ما حل بهم من العذاب الشديد والخزي، ولهذا قال: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون﴾.

﴿١٦ - ١٧﴾ ثم قال تعالى: ﴿ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة وورقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين﴾ وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ أي: ولقد أنعمنا على بني إسرائيل نعماً لم تحصل لغيرهم من الناس، وآتيناهم ﴿الكتاب﴾ أي: التوراة والإنجيل، و ﴿الحكم﴾ بين الناس، و ﴿النبوة﴾ التي امتازوا بها، وصارت النبوة في ذرية إبراهيم عليه السلام، أكثرهم من بني إسرائيل، ﴿ورورقناهم من الطيبات﴾ من المأكول والمشرب والملابس، وإنزال المن والسلوى عليهم، ﴿وفضلناهم على العالمين﴾ أي: على الخلق بهذه النعم، ويخرج من هذا العموم اللفظي، هذه

(١) في أ: هذه الجملة غير واضحة وفيها شطب وتصويه من: ب.



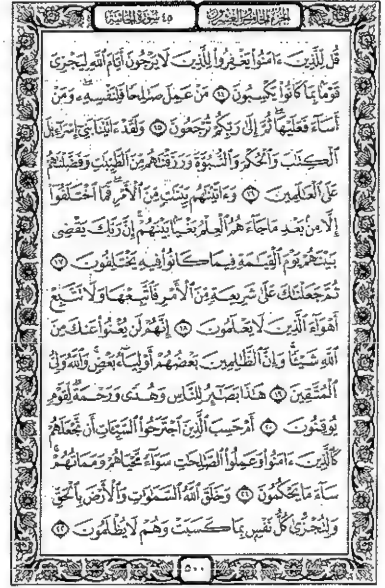
الأمه، فإنهم خير أمة أخرجت للناس.

والسياق يدل على أن المراد غير هذه الأمة، فإن الله يقص علينا ما امتن به على بني إسرائيل، ويميزهم عن غيرهم، وأيضاً فإن الفضائل التي فاق بها بنو إسرائيل من الكتاب والحكم والنبوة، وغيرها من النعمت، قد حصلت كلها لهذه الأمة، وزادت عليهم هذه الأمة فضائل كثيرة، فهذه الشريعة شريعة بني إسرائيل جزء منها، فإن هذا الكتاب مهيم على سائر الكتب السابقة، ومحمد ﷺ مصدق لجميع المرسلين.

﴿وآتيناهم﴾ أي: آتينا بني إسرائيل ﴿بينات﴾ أي: دلالات تبين الحق من الباطل ﴿من الأمر﴾ القدر الذي أوصله الله إليهم.

وتلك الآيات هي المعجزات التي رآوها على يد موسى عليه السلام، فهذه النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل، تقتضي الحال أن يقوموا بها على أكمل الوجوه، وأن يجتمعوا على الحق الذي بينه الله لهم، ولكن انعكس الأمر، فعاملوها بعكس ما يجب.

وافترقوا فيما أمروا بالاجتماع به، ولهذا قال: ﴿فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم﴾ أي: الموجب لعدم



الاختلاف، وإنما حملهم على الاختلاف البغي من بعضهم على بعض، والظلم.

﴿إِنَّ رَيْكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، فيميز الحق من المبطل، والذي حله على الاختلاف، الهوى أو غيره.

﴿١٨ - ١٩﴾ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَنْ يَغْنَوْا عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِي الْمُتَّقِينَ﴾ أي: ثم شرعنا لك شريعة كاملة تدعو إلى كل خير، وتنهى عن كل شر، من أمرنا الشرعي ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ فإن في اتباعها السعادة الأبدية، والصلاح والفلاح، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: الذين تكون أهويتهم غير تابعة للعلم، ولا ماثية خلفه، وهم كل من خالف شريعة الرسول ﷺ هواه وإرادته، فإنه من أهواء الذين لا يعلمون.

﴿أَنَّهُمْ لَنْ يَغْنَوْا عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: لا يتفنونك عند الله، فَيَحْضُرُوا لك الخير، ويدفعوا عنك الشر، إن اتبعتهم على أهوائهم، ولا تصلح أن توافقهم وتواليهم، فإنك وإياهم متباينون، وبعضهم ولي لبعض ﴿وَاللَّهُ وَلِي الْمُتَّقِينَ﴾ يخرجهم من الظلمات إلى النور، بسبب تقواهم وعملهم بطاعته.

﴿٢٠﴾ ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: ﴿هذا﴾ القرآن الكريم والذكر الحكيم ﴿بصائر للناس﴾ أي: يحصل به التبصرة في جميع الأمور للناس، فيحصل به الانتفاع للمؤمنين، والهدى والرحمة.

﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فيهدفون به إلى الصراط المستقيم، في أصول الدين وفروعه، ويحصل به الخير والسرور، والسعادة في الدنيا والآخرة، وهي الرحمة، فتزكو به نفوسهم، وتزداد به عقولهم، ويزيد به إيمانهم ويقينهم، وتقوم به الحاجة على من أصر وعاند.

﴿٢١﴾ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: أم حسب السيئون، المكشرون من الذنوب، المقصرون في حقوق ربهم.

﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بأن قاموا بحقوق ربهم، واجتنبوا مساخطه، ولم يزالوا مؤثرين رضاه على هوى أنفسهم؟ أي: أحسنوا أن يكونوا ﴿سواء﴾ في الدنيا والآخرة؟ ساء ما ظنوا وحسبوا، وساء ما حكموا به، فإنه حكم يخالف حكمة أحكم الحاكمين، وخير العادلين، ويناقض العقول السليمة، والفطر المستقيمة، ويضاد ما نزلت به الكتب، وأخبرت به الرسل، بل الحكم الواقع القطعي، أن المؤمنين العاملين الصالحات، لهم النصر والفلاح والسعادة والثواب، في العاجل والآجل، كل على قدر إحسانه، وأن المسيئين لهم الغضب والإهانة، والعذاب والشقاء، في الدنيا والآخرة.

﴿٢٢﴾ ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ أي: خلق الله السموات والأرض بالحكمة، وليعبد وحده لا شريك له، ثم يجازي بعد ذلك من أمرهم بعبادته، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة، هل شكروا الله تعالى، وقاموا بالأمور؟ أم كفروا، فاستحقوا جزاء الكفور؟

﴿٢٣ - ٢٦﴾ ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاءً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا انتوا بآياتنا إن كنتم صادقين﴾ ﴿قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ يقول تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ الرجل الضال الذي ﴿اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾

فما هويه سلكه، سواء كان يرضى الله أو يسخطه. ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ من الله تعالى، أنه لا تليق به الهداية، ولا يزكو عليها. ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ﴾ فلا يسمع ما ينفعه، ﴿وَقَلْبِهِ﴾ فلا يعي الخير، ﴿وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاءً﴾ تمنعه من نظر الحق، ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ أي: لا أحد يهديه، وقد سد الله عليه أبواب الهداية، وفتح له أبواب الغواية، وما ظلمه الله، ولكن هو ظلم نفسه، وتبب لنوع رحمة الله عليه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ما يتفكركم فتسلكونه، وما يضركم فتجتنبونه.

﴿وَقَالُوا﴾ أي: منكروا النعت ﴿ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾ أي: إن هي إلا عادات، وجُزْئِي على رسوم الليل والنهار، يموت أناس، ويحيا أناس، وما مات فليس يرجع إلى الله، ولا يجازي بعمله.

وقولهم هذا صادر عن غير علم ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ فأنكروا المعاد وكذبوا الرسل الصادقين، من غير دليل لهم على ذلك ولا برهان.

إن هي إلا ظنون، واستباعات خالية عن الحقيقة، ولهذا قال تعالى: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا انتوا بآياتنا إن كنتم صادقين﴾ وهذا جراءة منهم على الله،

أليم العقاب .

ثم وصف تعالى شدة يوم القيامة وهوله ليحذره العباد، ويستعد له العباد، فقال: ﴿وترى﴾ أي الرائي لذلك اليوم ﴿كل أمة جاثية﴾ على ركبها خوفاً وذعراً، وانتظاراً لحكم الملك الرحمن.

﴿كل أمة تدعى إلى كتابها﴾ أي: إلى شريعة نبيهم الذي جاءهم من عند الله، وهل قاموا بها فيحصل لهم الثواب والنجاة؟ أم ضيعوها فيحصل لهم الخسران؟ فأمة موسى، وأمة عيسى كذلك، وأمة محمد كذلك، وهكذا غيرهم، كل أمة تدعى إلى شرعها الذي كلفت به، هذا أحد الاحتمالات في الآية، وهو معنى صحيح في نفسه، غير مشكوك فيه، ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿كل أمة تدعى إلى كتابها﴾ أي: إلى كتاب أعمالها، وما سطر عليها من خير وشر، وأن كل أحد يجازى بما عمله بنفسه، كقوله تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾.

ويحتمل أن المعنيين كليهما مراد من الآية، ويدل على هذا قوله: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾ أي: هذا كتابنا الذي أنزلنا عليكم، يفصل بينكم بالحق الذي هو العدل، ﴿إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ فهذا كتاب الأعمال، ولهذا فصل ما يفعل الله بالفريقين فقال: ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ إيماناً صحيحاً، وصدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة، ومن واجبات ومستحبات، ﴿فدخلهم ربهم في رحمته﴾ التي محلها الجنة، وما فيها من النعيم المقيم، والعيش السليم، ﴿ذلك هو الفوز المبين﴾ أي: الفوز والنجاة والريح، والفلاح الواضح البين، الذي إذا حصل للعبد، حصل له كل خير، وانذفع عنه كل شر.

﴿وأما الذين كفروا﴾ بالله، فيقال لهم توبيخاً وتقريعاً: ﴿أفلم تكن آياتي تتلى عليكم﴾ وقد دللتكم على ما فيه صلاحكم، ونهتكم عما فيه ضرركم، وهي أكبر نعمة وصلت إليكم، لو

حيث اقترحوا هذا الاقتراح، وزعموا أن صدق رسل الله متوقف على الإتيان بآبائهم، وأنهم لو جاؤوهم بكل آية لم يؤمنوا، إلا إن تبعتهم الرسل على ما قالوا وهم كذبة فيما قالوا، وإنما قصدهم دفع دعوة الرسل، لا بيان الحق، قال تعالى: ﴿قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ وإلا فلر وصل العلم باليوم الآخر إلى قلوبهم، لعملوا له أعمالاً وتبرؤوا له.

﴿٢٧ - ٣٧﴾ ﴿والله ملك السموات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ ينصر المبطلون﴾ وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزؤون ما كنتم تعملون * هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين * وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين * وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين * وبدا لهم سينات ما عملوا وحق بهم ما كانوا به يستهزؤون * وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا وما أواكم النار وما لكم من ناصرين * ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً وغرتم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون * فله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين * وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم * يخبر تعالى عن سعة ملكه، وانفراده بالتصرف والتدبير في جميع الأوقات، وأنه ﴿يوم تقوم الساعة﴾ ويجمع الخلائق لموقف القيامة، يحصل الخسران على المبطلين، الذين أتوا بالباطل ليدحضوا به الحق، وكانت أعمالهم باطلة، لأنها متعلقة بالباطل، فبطلت في يوم القيامة، اليوم الذي تستبين به الحقائق، وازمحلحت عنهم، وفاتهم الثواب، وحصلوا على

وفقتهم لها، ولكن استكبرتم عنها، وأعرضتم، وكفرت بها، فجنيتهم أكبر جناية، وأجرمتهم أشد الجرم، فاليوم تجزؤون ما كنتم تعملون، ويوبخون أيضاً بقوله: ﴿وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة﴾ ﴿ما ندري ما الساعة﴾ إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين * فهذه حالهم في الدنيا، وحال البعث الإنكار له، ورده قول من جاء به. قال تعالى: ﴿وبدا لهم سينات ما عملوا﴾ أي: وظهر لهم يوم القيامة عقوبات أعمالهم، ﴿وحق بهم﴾ أي: نزل ﴿ما كانوا به يستهزؤون﴾ أي: نزل بهم العذاب، الذي كانوا في الدنيا يستهزؤون به وبوقوعه وبمن جاء به. ﴿وقيل اليوم ننساكم﴾ أي: نترككم في العذاب ﴿كما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ فإن الجزاء من جنس العمل، ﴿وما أواكم النار﴾ أي: هي مقركم ومصيركم، ﴿وما لكم من ناصرين﴾ ينصرونكم من عذاب الله، ويدفعون عنكم عقابه.

﴿ذلكم﴾ الذي حصل لكم من العذاب ﴿ب﴾ سبب ﴿أنكم اتخذتم آيات الله هزواً﴾ مع أنها موجهة للجد والاجتهاد، وتلقيها بالسرور والاستبشار والفرح.

﴿وغرتم الحياة الدنيا﴾ بزخارفها ولذاتها وشهواتها، فاطمأنتم إليها، وعملتم لها، وتركتم العمل للدار الباقية.

﴿فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون﴾ أي: ولا يمهلون، ولا يردون إلى الدنيا ليعملوا صالحاً.

﴿فله الحمد﴾ كما ينبغي لجلاله وعظيم سلطانه ﴿رب السموات ورب الأرض رب العالمين﴾ أي: له الحمد على ربوبيته لسائر الخلائق، حيث خلقهم ورباهم، وأنعم عليهم بالنعيم الظاهرة والباطنة، ﴿وله الكبرياء في السموات والأرض﴾ أي: له الجلال والعظمة والمجد.

فالحمد فيه الثناء على الله بصفات الكمال، وعبته تعالى وإكرامه،

أنتبوا أشجاراً؟ هل كان منهم معاونة على خلق شيء من ذلك؟

لا شيء من ذلك، بإقرارهم بأنفسهم، فضلاً عن غيرهم، فهذا دليل عقلي قاطع على أن كل من سوى الله، فعبادته باطلة.

ثم ذكر انتفاء الدليل النقلي، فقال: ﴿اتنوني بكتاب من قبل هذا﴾ الكتاب يدعو إلى الشرك، ﴿أو آثارة من علم﴾ موروثة عن الرسل يأمر بذلك. من المعلوم أنهم عاجزون أن يأتوا عن أحد من الرسل بدليل يدل على ذلك، بل تجزم وتيقن أن جميع الرسل دعوا إلى توحيد ربهم، ونهاوا عن الشرك به، وهي أعظم ما يؤثر عنهم من العلم، قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسلاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ وكل رسول قال لبقومه: ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ فعلم أن جدال المشركين في شركهم، غير مستندين فيه على برهان ولا دليل، وإنما اعتمدوا على ظنون كاذبة، وأراء كاسدة، وعقول فاسدة.

يدلُّك على فسادها استقرار أحوالهم، وتبعية علومهم وأعمالهم، والنظر في حال من أفنوا أعمارهم بعبادته، هل أفادهم شيئاً في الدنيا أو في الآخرة؟ ولهذا قال تعالى: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة﴾ أي: مدة مقامه في الدنيا، لا ينتفع به بمشقة ذرة، ﴿وهم عن دعائهم غافلون﴾ لا يسمعون منهم دعاء، ولا يجيبون لهم نداء، هذا حالهم في الدنيا، ويوم القيامة يكفرون بشركهم. ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء﴾ يلعن بعضهم بعضاً، ويتبرأ بعضهم من بعض ﴿وكانوا بعبادتهم كافرين﴾.

﴿٧-١٠﴾ ﴿وإذا تلى عليهم آياتنا بينات﴾ قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين ﴿أم يقولون افتراه قبيلاً إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم﴾ قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما

سيجدون ثوابها في تلك الدار كاملاً موفراً.

وأقام تعالى الأدلة الدالة على تلك الدار، وأذاق العباد نموذجاً من الثواب والعقاب العاجل، ليكون أدعى لهم إلى طلب المحبوب، والهرب من المرهوب، ولهذا قال هنا: ﴿ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ أي: لا عبثاً ولا سدى، بل ليعرف العباد عظمة خالقهما، ويستدلوا على كماله، ويعلموا أن الذي خلقهما على عظمتهما، قادر على أن يعيد العباد بعد موتهم للجزاء، وأن خلقهما بقاءهما مقدر إلى أجل مسمى.

فلما أخبر بذلك - وهو أصدق القائلين وأقام الدليل، وأثار السبيل أخير - مع ذلك - أن طائفة من الخلق قد أبوا إلا إغراضاً عن الحق، وصدوفاً عن دعوة الرسل، فقال: ﴿والذين كفروا عما أنذروا معرضون﴾ وأما الذين آمنوا، فلما علموا حقيقة الحال قبلوا وصايا ربهم، وتلقوها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالانقياد والتعظيم، ففازوا بكل خير، واندفع عنهم كل شر.

﴿٤-٦﴾ ﴿قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرأيتم ماذا خلقوا من السماوات أم لهم شرك في السماوات اتنوني بكتاب من قبل هذا أو آثارة من علم إن كنتم صادقين﴾ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ أي: ﴿قل﴾ لهؤلاء الذين أشركوا بالله، أوثاناً وأنداداً، لا تملك نفعا ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، قل لهم - مبيناً عجز أوثانهم، وأنها لا تستحق شيئاً من العبادة -: ﴿أروني ماذا خلقوا من السماوات أم لهم شرك في السماوات﴾ هل خلقوا من أجرام السماوات والأرض شيئاً؟ هل خلقوا جبالاً؟ هل أجروا أنهاراً؟ هل نشروا حيواناً؟ هل

والكبرياء فيها عظمتته وجلاله، والعبادة مبنية على ركنين، محبة الله، والذل له، وهما ناشتان عن العلم بمحمد الله وجلاله وكبريائه.

﴿وهو العزيز﴾ القاهر لكل شيء، ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فلا يشرع ما يشرعه إلا لحكمة ومصلحة، ولا يخلق ما يخلقه إلا لفائدة ومنفعة.

تم تفسير سورة الأحقاف، والله الحمد والنعمة والفضل

تفسير سورة الأحقاف مكية

﴿١-٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم﴾ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴿ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون﴾ هذا ثناء منه تعالى على كتابه العزيز وتعظيم له، وفي ضمن ذلك إرشاد العباد إلى الاهتداء بنوره، والإقبال على تدبر آياته، واستخراج كنوزه.

ولما بين إنزال كتابه المتضمن للأمر والنهي، ذكر خلقه السماوات والأرض، فجمع بين الخلق والأمر، ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ كما قال تعالى: ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهما﴾ وكما قال تعالى: ﴿يتنزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فأتقون﴾ خلق السماوات والأرض بالحق ﴿فالله تعالى هو الذي خلق المكلفين، وخلق مساكنتهم، وسخر لهم ما في السماوات وما في الأرض، ثم أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وأمرهم ونهاهم، وأخبرهم أن هذه الدار دار أعمال وعمر للعمال، لا دار إقامة لا يرحل عنها أهلها، وأنهم سيتنقلون منها إلى دار الإقامة والقرار، وموطن الخلود والدوام، وإنما أعمالهم التي عملوها في هذه الدار،

﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل﴾

أي: لست بأول رسول جاءكم، حتى تستغربوا رسالتي وتستنكروا دعوتي، فقد تقدم من الرسل والأنبياء من وافقت دعوتي دعوتهم، فلاي: شيء تنكر رسالتي؟ ﴿وما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾ أي: لست إلا بشراً، ليس بيدي من الأمر شيء، والله تعالى هو المتصرف بي وبكم، الحاكم علي وعليكم، ولست الآتي بالشيء من عندي، ﴿وما أنا إلا نذير مبين﴾ فإن قبلتم رسالتي، وأجبت دعوتي، فهو حظكم ونصيبيكم في الدنيا والآخرة، وإن رددتم ذلك علي فحسابكم على الله، وقد أنذرتكم، ومن أنذر فقد أعذر.

﴿قل أرايتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم﴾ أي: أخبروني، لو كان هذا القرآن من عند الله، وشهد على صحته الموفقون من أهل الكتاب، الذين عندهم من الحق ما يعرفون أنه الحق، فآمنوا به وأتباعهم النبلاء، واستكبرتم أي الجاهلاء الأغبياء، فهل هذا إلا أعظم الظلم وأشد الكفر؟ ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ ومن الظلم الاستكبار عن الحق بعد التمكن منه.

﴿١١ - ١٢﴾ ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم﴾ ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربياً لينذر الذين ظلموا ويشرى للمحسنين أي: قال الكفار بالحق معاندين له، وراذلين لدعوته: ﴿لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾ أي: ما سبقنا إليه المؤمنون، أي: لكننا أول مبادر به، وسابق إليه، وهذا من البهجة في مكان، فأي دليل يدل على أن علامة الحق سبق المكذبين به للمؤمنين؟ هل هم أذكى نفوساً؟ أم أكمل عقولاً؟ أم الهدى بأيديهم؟ ولكن هذا الكلام الذي صدر منهم، يُعزّون به أنفسهم

يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين * قل أرايتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين * أي: وإذا تتلى على المكذبين آياتنا بينات بحيث تكون على وجه لا يمتري بها، ولا يشك في وقوعها وحققها، لم تفدهم خيراً، بل قامت عليهم بذلك الحجة، ويقولون من إفكهم وافتراءهم * للحق لما جاءهم هذا سحر مبين * أي: ظاهر لا شك فيه، وهذا من باب قلب الحقائق، الذي لا يروج إلا على ضعفاء العقول، وإلا فبين الحق الذي جاء به الرسول ﷺ، وبين السحر من المنافاة والمخالفة، أعظم مما بين السماء والأرض، وكيف يقاس الحق - الذي علا وارتفع ارتقاعاً على الأفلاك، وفاق بضوته ونوره نور الشمس، وقامت الأدلة الأفقية والنفسية عليه، وأقربت به وأدعنت أولئ البصائر والعقول الرزينة - بالباطل الذي هو السحر، الذي لا يصدر إلا من ضال ظالم خبيث النفس، خبيث العمل؟! فهو مناسب له وموافق لحاله، وهل هذا إلا من البهجة؟

﴿أم يقولون افتراه﴾ أي: افترى محمد هذا القرآن من عند نفسه، فليس هو من عند الله.

﴿قل لهم:﴾ ﴿إن افتريته﴾ فالله علي قادر وبما تفيضون فيه عالم، فكيف لم يعاقبني على افترائي الذي زعمتم؟ فهل تملكون لي من الله شيئاً؟ إن أرادني الله بضراً، أو أرادني برحمة ﴿كفى به شهيداً بيني وبينكم﴾ فلو كنت متقولاً عليه، لأخذ مني باليمين، ولعاقبني عقاباً يراه كل أحد، لأن هذا أعظم أنواع الافتراء لو كنت متقولاً، ثم دعاهم إلى التوبة مع ما صدر منهم من معاندة الحق ومخاصمته، فقال: ﴿وهو الغفور الرحيم﴾ أي: فتوبوا إليه، وأقلعوا عما أنتم فيه، يغفر لكم ذنوبكم، ويرحمكم، فيوفقكم للخير، ويهيئكم جزيل الأجر.



بمثلة من لم يقدر على الشيء، ثم طفق يذمه، ولهذا قال: ﴿وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم﴾ أي: هذا السبب الذي دعاهم إليه، أنهم لما لم يهتدوا بهذا القرآن، وفاتهم أعظم المواهب، وأجل الرغائب، قدحوا فيه بأنه كذب، وهو الحق الذي لا شك فيه، ولا امتراء يعتريه، الذي قد وافق الكتب السماوية خصوصاً، أكملها وأفضلها بعد القرآن، وهي التوراة التي أنزلها الله على موسى ﴿إماماً ورحمة﴾ أي: يقتدي بها بنو إسرائيل، ويهتدون بها، فيحصل لهم خير الدنيا والآخرة.

﴿وهذا القرآن﴾ كتاب مصدق للكتب السابقة، شهد بصدقها، وصدقها، بموافقتها لها، وجعله الله لساناً عربياً ليسهل تناوله، وتيسر تذكره، ﴿لينذر الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والفسوق والعصيان، إن استمروا على ظلمهم بالعباد الويل، ويشر المحسنين في عبادة الخالق، وفي نفع المخلوقين، بالشواب الجزيل، في الدنيا والآخرة، ويذكر الأعمال التي ينذر عنها، والأعمال التي يشر بها.

﴿١٣ - ١٤﴾ ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون * أي: إن الذين أقروا بربهم، وشهدوا له بالوحدانية، والتزموا طاعته

غيرها: «ونتجاوز عن سيئاتهم» في جملة «أصحاب الجنة» فحصل لهم الخير والمحبوب، وزال عنهم الشر والمكروه.

«وعد الصدق الذي كانوا يوعدون» أي: هذا البوعد الذي وعدناهم هو وعد صادق من أصدق القائلين، الذي لا يخلف الميعاد.

١٧ - ١٩ «والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثن الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين» أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين * ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون * لما ذكر تعالى حال الصالح البار لوالديه، ذكر حال العاق، وأنها شر الحالات، فقال: «والذي قال لوالديه» إذ دعواه^(١) إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وخوفه الجزاء.

وهذا أعظم إحسان يصدر من الوالدين لولدهما، أن يدعوه إلى ما فيه سعاده الأبدية، وفلاحه السرمدي، فقابلهما بأفتح مقابلة، فقال: «أف لكما» أي: تبأ لكما ولما جتما به.

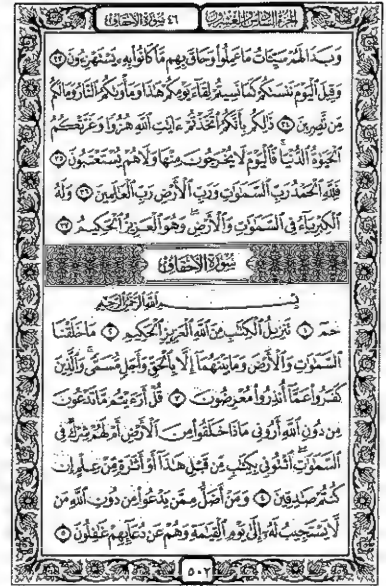
ثم ذكر وجه استبعاده وإنكاره لذلك فقال: «أتعدانني أن أخرج» من قبري إلى يوم القيامة «وقد خلت القرون من قبلي» على التكذيب، وسلفوا على الكفر، وهم الأئمة المقتدى بهم لكل كفور وجهول ومعاند؟ «وهما» أي: والداه «يستغيثن الله» عليه، ويقولان له: «ويلك آمن» أي: يبذلان غاية جهدهما، ويسعيان في هدايته أشد السعي، حتى إنهما - من حرصهما عليه - أنهما يستغيثن الله له، استغاثة الغريق، ويسألانه سؤال الشريك، ويعذلان ولدهما، ويتوجعان له، وبينان له الحق، فيقولان: «إن وعد الله حق» ثم يقيمان عليه من الأدلة ما أمكنهما، ولدهما لا يزداد

وما قاسته من المكارة وقت حملها، ثم مشقة ولادتها المشقة الكبيرة، ثم مشقة الرضاع وخدمة الحضانه، وليست المذكورات مدة يسيرة، ساعة أو ساعتين، وإنما ذلك مدة طويلة قدرها «ثلاثون شهراً»: للحمل تسعة أشهر ونحوها، والباقي للرضاع، هذا الغالب.

ويستدل بهذه الآية مع قوله: «والوالدان يرضعن أولادهن حولين كاملين» أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، لأن مدة الرضاع - وهي سنتان - إذا سقطت منها الستة أشهر، مدة للحمل، «حتى إذا بلغ أشده» أي: نهاية قوته وشبابه، وكمال عقله، «وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني» أي: ألهمني ووفقني «أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي» أي: نعم الدين، ونعم الدنيا، وشكره بصرف النعم في طاعة مسديها وموليها، ومقابلته بمثته، بالاعتراف والعجز عن الشكر، والاجتهاد في الشناء بها على الله، والنعم على الوالدين، نعم على أولادهم وذريتهم، لأنهم لا بد أن ينالهم منها ومن أساليبها وآثارها، خصوصاً نعم الدين، فإن صلاح الوالدين بالعلم والعمل، من أعظم الأسباب لصلاح أولادهم.

«وأن أعمل صالحاً ترضاه» بأن يكون جامعاً لما يصلحه، سالماً عما يفسده، فهذا العمل الذي يرضاه الله ويقبله، ويشب عليه. «وأصلح لي في ذريتي» لما دعا لنفسه بالصلاح، دعا لذريته أن يصلح الله أحوالهم، وذكر أن صلاحهم يعود نفعه على والديهم، لقوله: «وأصلح لي».

«إني تبت إليك» من الذنوب والمعاصي، ورجعت إلى طاعتك «وإني من المسلمين» الذين ذكرت أوصافهم «الذين تقبل عنهم أحسن ما عملوا» وهو الطاعات، لأنهم يعملون أيضاً



وداموا على ذلك، و «استقاموا» مدة حياتهم «فلا خوف عليهم» من كل شر أمامهم، «ولا هم يحزنون» على ما خلّفوا وراءهم، «أو لئلك أصحاب الجنة» أي: أهلها الملائمون لها، الذين لا يبغون عنها حولا، ولا يريدون بها بدلا، «خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون» من الإيمان بالله، المقتضي للأعمال الصالحة التي استقاموا عليها.

١٥ - ١٦ «ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهراً حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين» أولئك الذين تقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون» هذا من لطفه تعالى بعباده وشكره للوالدين، أن وصى الأولاد وعهد إليهم أن يحسنوا إلى والديهم بالقول اللطيف، والكلام اللين، وبذل المال والنفقة، وغير ذلك من وجوه الإحسان.

ثم نبّه على ذكر السبب الموجب لذلك، فذكر ما تحملته الأم من ولدها



أصل للإنجيل، وعمدة لبني إسرائيل في أحكام الشريعة، وإنما الإنجيل متم ومكمل ومغير لبعض الأحكام.

«مصدقاً لما بين يديه يهدي» هذا الكتاب الذي سمعناه «إلى الحق» وهو الصواب في كل مطلوب وخبر، «وإلى طريق مستقيم» موصل إلى الله، وإلى جنته، من العلم بالله، وبأحكامه الدينية، وأحكام الجزاء.

فلما مدحوا القرآن وبنوا محله ومرتبته، دعوهم إلى الإيمان به، فقالوا: «يا قومنا أجيئوا داعي الله» أي: النبي لا يدعوا إلا إلى ربه، لا يدعوكم إلى غرض من أغراضه ولا هوى، وإنما يدعوكم إلى ربهكم، ليثيبكم، ويزيل عنكم كل شر ومكره، ولهذا قالوا: «يقفر لكم من

ذنوبكم ويترككم من عذاب الأليم» وإذا أجازهم من العذاب الأليم، فما ثم بعد ذلك إلا النعيم، فهذا جزاء من أجاب داعي الله.

«ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض» فإن الله على كل شيء قدير، فلا يفوته هارب، ولا يغالبه مغالب. «وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين» وأي ضلال أبلغ من ضلال من نادته الرسل، ووصلت إليه النذر بالآيات البينات، والحجج المتواترات، فأعرض واستكبر!!

«٣٣» «أولم يروا أن الله السذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير» هذا استدلال منه تعالى على الإعادة بعد الموت، بما هو أبلغ منها، وهو أنه الذي خلق السماوات والأرض، على عظيمهما وسعتهما وإتقان خلقهما، من دون أن يكثر بذلك، ولم يغي بخلقهن فكيف تعجزه إعادته بعد موتكم، وهو على كل شيء قدير!!

«٣٤-٣٥» «ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون» فاصبر كما صبر أولو العزم

العرب، كعاد وثمود ونحوهم، وأن الله تعالى صرف لهم الآيات، أي: نوعها من كل وجه، «لعلمهم يرجعون» عما هم عليه من الكفر والتكذيب، فلما لم يؤمنوا، أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، ولم تنفعهم ألتهم التي يدعون من دون الله من شيء، ولهذا قال هنا: «فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً لالهة» أي: يتقربون إليهم، ويتألهونهم لرجاء نفعهم.

«بل ضلوا عنهم» فلم يجيبوهم، ولا دفعوا عنهم، «وذلك إنكم هم ما كنتمو يفترون» من الكذب، الذي يمتن به أنفسهم، حيث يزعمون أنهم على الحق، وأن أعمالهم ستنفعهم، فضلت وبطلت.

«٢٩-٣٢» «وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين» قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصداقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم * يا قومنا أجيئوا داعي الله وأمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويترككم من عذاب الأليم * ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين» كان الله تعالى قد أرسل رسوله محمداً ﷺ إلى الخلق، إنشهم وجنهم، وكان لا بد من إبلاغ الجميع لدعوة النبوة والرسالة.

فالإنس، يمكنه عليه الصلاة والسلام دعوتهم وإنذارهم، وأما الجن، فصرفهم الله إليه بقدرته، وأرسل إليه «نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا» أي: وصى بعضهم بعضاً بذلك، «فلما قضي» وقد وعوه، وأثر ذلك فيهم «ولوا إلى قومهم منذرين» نصحاً منهم لهم، وإقامة لحجة الله عليهم، وقضيمهم الله معونة لرسوله ﷺ في نشر دعوته في الجن.

«قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى» لأن كتاب موسى

وعمرناهم عمراً، يتذكر فيه من تذكر، ويتعظ فيه المهتدي، أي: ولقد مكنا عاداً كما مكناكم يا هؤلاء المخاطبون، أي: فلا تحسبوا أن ما مكناكم فيه مختص بكم، وأنه سيدفع عنكم من عذاب الله شيئاً، بل غيركم أعظم منكم تمكيناً، فلم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم ولا جنودهم من الله شيئاً.

«وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة» أي: لا قصور في أسماعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم، حتى يقال إنهم تركوا الحق جهلاً منهم، وعدم تمكن من العلم به، ولا خلل في عقولهم، ولكن التوفيق بيد الله. «فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء» لا قليل ولا كثير، وذلك بسبب أنهم «يخحدون بآيات الله» الدالة على توحيده وإفراده بالعبادة.

«وحاق بهم ما كانوا به يستهزون» أي: نزل بهم العذاب الذي يكذبون بوقوعه، ويستهزون بالرسول الذين حذروهم منه.

«٢٧-٢٨» «ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلمهم يرجعون» فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً لالهة بل ضلوا عنهم وذلك إنكم هم ما كنتمو يفترون» يحذر تعالى مشركي العرب وغيرهم بإهلاك الأمم المكذبين، الذين هم حول ديارهم، بل كثير منهم في جزيرة

إلى الدار الآخرة، ونعم الزاد والبلغة، زاد يوصل إلى دار النعيم، وبعض من العذاب الأليم، فهو أفضل زاد يتزوده الخلاق، وأجل نعمة أنعم الله بها عليهم.

«فهل يهلك» بالعقوبات «إلا القوم الفاسقون» أي: الذين لا خير فيهم، وقد خرجوا عن طاعة ربهم، ولم يقبلوا الحق الذي جاءهم به الرسل. وأعذر الله لهم وأنذرهم، فبعد ذلك إذ يستمرون على تكذيبهم وكفرهم، نسأل الله العصمة.

آخر تفسير سورة الأحقاف،
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة القتال، وهي مدنية

﴿١-٣﴾ «بسم الله الرحمن الرحيم الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم» والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم * ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم * هذه الآيات مشتملات على ذكر ثواب المؤمنين وعقاب العاصين، والسبب في ذلك، ودعوة الخلق إلى الاعتبار بذلك، فقال: **«الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله»** وهؤلاء رؤساء الكفر، وأئمة الضلال، الذين جعوا بين الكفر بالله وآياته، والصد لأنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، التي هي الإيمان بما دعت إليه الرسل واتباعه.

فهؤلاء **«أضل»** الله **«أعمالهم»** أي: أبطلها وأشقام بسببها، وهذا يشمل أعمالهم التي عملوها ليكيدوا بها الحق وأولياء الله، أن الله جعل كيدهم في نحورهم، فلم يدركوا مما قصدوا شيئاً، وأعمالهم التي يرجون أن يشابوا عليها، أن الله سيحبطها عليهم، والسبب في ذلك أنهم اتبعوا الباطل، وهو كل غاية لا يراد بها وجه الله من عبادة الأصنام والأوثان،

من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون * يخبر تعالى عن حال الكفار الفظيعة عند عرضهم على النار التي كانوا يكذبون بها، وأنهم يوبخون، ويقال لهم: **«أليس هذا بالحق»** فقد حضرته وشاهدته عياناً؟ **«قالوا بلى وربنا»** فاعترفوا بذنبهم، وتبين كذبهم **«قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون»** أي: عذاباً لازماً دائماً، كما كان كفركم صفة لازمة.

ثم أمر تعالى رسوله أن يصبر على أذية المكذبين المعادين له، وأن لا يزال داعياً لهم إلى الله، وأن يقتدي بصبر أولي العزم من المرسلين، سادات الخلق، أولي العزائم والهمم العالية، الذين عظم صبرهم، وتم يقينهم، فهم أحق الخلق بالأسوة بهم، والقفو لأنارهم، والاهتداء بمنارهم.

فامتثل ﷺ لأمر ربه، فصبر صبراً لم يصبره نبي قبله، حتى رماه المعادون له عن قوس واحدة، وقاموا جميعاً بصدده عن الدعوة إلى الله، وفعلوا ما يمكنهم من المعادة والمحاربة، وهو ﷺ لم يزل صادعاً بأمر الله، مقيماً على جهاد أعداء الله، صابراً على ما يناله من الأذى، حتى مكّن الله له في الأرض، وأظهر دينه على سائر الأديان، وأمهت على الأمم، فصلى الله عليه وسلم تسليماً.

وقوله: **«ولا تستعجل لهم»** أي: لهؤلاء المكذبين المستعجلين للعذاب، فإن هذا من جهلهم وحقهم، فلا يستحقنك بجهلهم، ولا يملك ما ترى من استعجالهم على أن تدعوا الله عليهم بذلك، فإن كل ما هو آت قريب، و **«كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا»** في الدنيا **«إلا ساعة من نهار»** فلا يحزنك تمتعهم القليل وهم صابرون إلى العذاب الويل.

«بلاغ» أي: هذه الدنيا، متاعها وشهواتها ولذاتها بلغة متغصنة، ودفع وقت حاضر قليل.

أوهذا القرآن العظيم، الذي بيّنّا لكم فيه البيان التام، بلاغ لكم، وزاد



والأعمال التي في نصر الباطل لما كانت باطلة، كانت الأعمال لأجلها باطلة.

وأما **«والذين آمنوا»** بما أنزل الله على رسوله عموماً، وعلى محمد ﷺ خصوصاً، **«وعملوا الصالحات»** بأن قاموا بما عليهم من حقوق الله، وحقوق العباد الواجبة والمستحبة.

«كفر» الله **«عنهم سيئاتهم»** صغارها وكبارها، وإذا كفرت سيئاتهم، نجوا من عذاب الدنيا والآخرة. **«وأصلح بالهم»** أي: أصلح دينهم ودنياهم، وقلوبهم وأعمالهم، وأصلح ثوابهم، بتنميته وتركته، وأصلح جميع أحوالهم، والسبب في ذلك أنهم: **«اتبعوا الحق»** الذي هو الصدق واليقين، وما اشتمل عليه هذا القرآن العظيم، الصادر من ربهم. الذي رباهم بتعمته، ودبرهم بلطفه فرباهم تعالى بالحق فاتبعوه، فصلحت أمورهم، فلما كانت الغاية المقصودة لهم، متعلقة بالحق النسوب إلى الله الباقي الحق المبين، كانت الوسيلة صالحة باقية، باقياً ثوابها.

«كذلك يضرب الله للناس أمثالهم» حيث بيّن لهم تعالى أهل الخير وأهل الشر، وذكر لكل منهم صفة يعرفون بها ويتميزون **«ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة»**.

تعالى للمؤمنين، أن يتصروا الله بالقيام بدينه، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه، والقصد بذلك وجه الله، فإنهم إذا فعلوا ذلك، نصرهم الله وثبت أقدامهم، أي: يربط على قلوبهم بالصبر والطمأنينة والثبات، ويصبر أجسامهم على ذلك، ويعينهم على أعدائهم، فهذا وعد من كريم صادق الوعد، أن الذي ينصره بالأقوال والأفعال سينصره مولاة، ويسر له أسباب النصر، من الثبات وغيره.

وأما الذين كفروا برهم، ونصروا الباطل، فإنهم في تعس، أي: انتكاس من أمرهم وخذلان.

﴿وأضل أعمالهم﴾ أي: أبطل أعمالهم التي يكيّدون بها الحق، فرجع كيدهم في نحورهم، وبطلت أعمالهم التي يزعمون أنهم يريدون بها وجه الله.

ذلك الإضلال والتعس للذين كفروا، بسبب أنهم ﴿كرهوا ما أنزل الله﴾ من القرآن الذي أنزله الله، صلاحاً للعباد، وفلاحاً لهم، فلم يقبلوه، بل أبغضوه وكرهوه، ﴿فأحبط أعمالهم﴾

﴿١٠-١١﴾ ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها﴾ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴿أي: أفلا يسيروا هؤلاء المكذبون بالرسول ﷺ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ فإنهم لا يجدون عاقبتهم إلا شر العواقب، فإنهم لا يلتفتون بمنة ولا يسرة إلا وجدوا ما حولهم، قد بادوا وهلكوا، واستأصلهم التكذيب والكفر، فخذلوا، ودمر الله عليهم أموالهم وديارهم، بل دمر أعمالهم ومكرهم، وللكافرين في كل زمان ومكان، أمثال هذه العواقب الوخيمة، والعقوبات الذميمة.

وأما المؤمنون، فإن الله تعالى ينجيهم من العذاب، ويجزل لهم كثير الثواب.

﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا﴾

كان قتال وحزب. فإذا كان في بعض الأوقات، لا حرب فيه لسبب من الأسباب، فلا قتل ولا أسر.

﴿ذلك﴾ الحكم المذكور في ابتلاء المؤمنين بالكافرين، ومداولة الأيام بينهم، وانتصار بعضهم على بعض ﴿ولو يشاء الله لانتصر منهم﴾ فإنه تعالى على كل شيء قدير، وقادر على أن لا ينتصر الكفار في موضع واحد أبداً، حتى يبيد المسلمون خضراءهم.

﴿ولكن ليلو بعضكم ببعض﴾ ليقوم سوق الجهاد، ويتبين بذلك أحوال العباد، الصادق من الكاذب، وليؤمن من آمن إيماناً صحيحاً عن بصيرة، لا إيماناً مبنياً على متابعة أهل الغلبة، فإنه إيمان ضعيف جداً، لا يكاد يستمر لصاحبه عند المحن والبلايا.

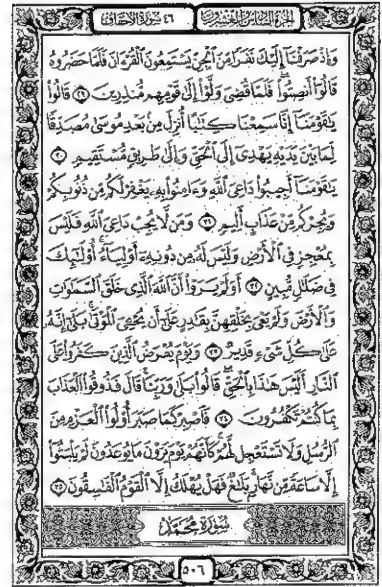
﴿والذين قتلوا في سبيل الله﴾ لهم ثواب جزيل، وأجر جليل، وهم الذين قاتلوا من أمروا بقتالهم، لتكون كلمة الله هي العليا.

فهؤلاء لن يضل الله أعمالهم، أي: لن يخطئها ويخطئها، بل يتقبلها ويتميها لهم، ويظهر من أعمالهم نتائجها، في الدنيا والآخرة.

﴿سيهديهم﴾ إلى سلوك الطريق الموصلة إلى الجنة، ﴿ويصلح بهم﴾ أي: حالهم وأمورهم، وثوابهم يكون صالحاً كاملاً لا نكد فيه ولا تنغيص بوجه من الوجوه.

﴿ويدخلهم الجنة عرفها لهم﴾ أي: عرفها أولاً، بأن شوقهم إليها، ونعتها لهم، وذكر لهم الأعمال الموصلة إليها، التي من جهلتها القتل في سبيله، ووفقههم للقيام بما أمرهم به ورغبهم فيه، ثم إذا دخلوا الجنة، عرفهم منازلهم، وما احتوت عليه من النعيم المقيم، والعيش السليم.

﴿٧-٩﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ والذين كفروا فتعسأ لهم وأضل أعمالهم ﴿ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم﴾ هذا أمرته



﴿٤-٦﴾ ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اثخنتموهم فشذوا الوثاق فإما متا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم﴾ سيهديهم ويصلح بالهم * ويدخلهم الجنة عرفها لهم * يقول تعالى - مرشداً عباده إلى ما فيه صلاحهم، ونصرهم على أعدائهم -: ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا﴾ في الحرب والقتال، فاصدقوهم القتال، واضربوا أيمنهم الأعناق، حتى تثخنوهم وتكسروا شوكتهم وتبطلوا شرهم، فإذا فعلتم ذلك، ورايتهم الأسر أولى وأصلح، ﴿فشذوا الوثاق﴾ أي: الرباط، وهذا احتياط لأسرهم لئلا يهربوا، فإذا شذ منهم الوثاق اطمأن المسلمون من هربهم ومن شرهم، فإذا كانوا تحت أسركم، فأنتم بالخيار بين المن عليهم، وإطلاقهم بلا مال ولا فداء، وإما أن تفدوهم بأن لا تطلقوهم حتى يشتروا أنفسهم، أو يشتريهم أصحابهم بمال، أو بأسير مسلم عندهم.

وهذا الأمر مستمر حتى تضع الحرب أوزارها * أي: حتى لا يبقى حرب، وتبقون في المسالمة والمهادنة، فإن لكل مقام مقالاً، ولكل حال حكماً، فالحال المتقدمة، إنما هي إذا



فكيف حال هؤلاء الضعفاء، أهل قريبتك، إذ أخرجوك عن وطنك وكذبوك، وعادوك وأنت أفضل المرسلين، وخير الأولين والآخرين؟! ألسوا بأحق من غيرهم بالإهلاك والعقوبة، لولا أن الله تعالى بعث رسوله بالرحمة والتأي بكل كافر وجاحد؟

[١٤] ﴿أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم﴾ أي: لا يستوي من هو على بصيرة من أمر دينه، عالما وعملا، قد علم الحق واتبعه، ورجا ما وعده الله لأهل الحق، كمن هو أعمى القلب، قد رفض الحق وأضله، واتبع هواه بغير هدى من الله، ومع ذلك، يرى أن ما هو عليه من الحق، فما أبعد الفرق بين الفريقين! وما أعظم التفاوت بين الطائفتين، أهل الحق وأهل الغي! (١)

[١٥] ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم﴾ أي: مثل الجنة التي أعدها الله لعباده، الذين اتقوا سخطه، واتبعوا رضوانه، أي: نعمتها وصفتها الجميلة.

﴿فيها أنهار من ماء غير آسن﴾ أي: غير متغير، لا يوخم ولا يريح منتنة، ولا بمرارة، ولا بكدورة، بل هو أعذب المياه وأصفاهم، وأطيبها ريحا، وألذها شربا.

﴿وأنهار من لبن لم يتغير طعمه﴾ بجموضة ولا غيرها، ﴿وأنهار من خمر لذة للشاربين﴾ أي: يلتذ به شاربه لذة عظيمة، لا كخمر الدنيا الذي يكره مذاقه ويصدع الرأس، ويغول العقل.

﴿وأنهار من عسل مصفى﴾ من شمهه ومبائر أوساخه.

﴿ولهم فيها من كل الثمرات﴾ من

فتولاهم برحمته، فأخرجهم من الظلمات إلى النور، وتولى جزاءهم ونصرهم، ﴿وأن الكافرين﴾ بالله تعالى، حيث قطعوا عنهم ولاية الله، وسدوا على أنفسهم رحمته ﴿لا مولى لهم﴾ يهديهم إلى سبيل السلام، ولا ينجيهم من عذاب الله وعقابه، بل أولياؤهم الطاغوت، يخرجونهم من النور إلى الظلمات، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

[١٦] ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون بها كلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم﴾ لما ذكر تعالى أنه ولي المؤمنين، ذكر ما يفعل بهم في الآخرة، من دخول الجنات، التي تجري من تحتها الأنهار، التي تسقي تلك البساتين الزاهرة، والأشجار الناضرة المثمرة، لكل زوج بهيج، وكل فاكهة لذيدة.

ولما ذكر أن الكافرين لا مولى لهم، ذكر أنهم وكّلوا إلى أنفسهم، فلم يتصفوا بصفات المروءة، ولا الصفات الإنسانية، بل نزلوا عنها دركات، وصاروا كالأنعام، التي لا عقل لها ولا فضل، بل جُلّ همهم ومقصدهم التمتع بلذات الدنيا وشهواتها، فترى حركاتهم الظاهرة والباطنة دائرة حولها، غير متعدية لها إلى ما فيه الخير والسعادة، ولهذا كانت النار مثوى لهم، أي: منزلا معدا، لا يخرجون منها، ولا يفر عنهم من عذابها.

[١٧] ﴿وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكتها فلا ناصر لهم﴾ أي: وكم من قرية من قرى المكذبين، هي أشد قوة من قريبتك، في الأموال والأولاد والأعوان، والأبنية والآلات.

﴿أهلكتها﴾ حين كذبوا رسلنا، ولم تنفذ فيهم المواعظ، فلم نجد لهم ناصرا، ولم تغن عنهم قوتهم من عذاب الله شيئا.

نخيل، وعنب، وتفاح، ورمان، وأترج، وتين، وغير ذلك مما لا نظير له في الدنيا، فهذا المحبوب المطلوب قد حصل لهم.

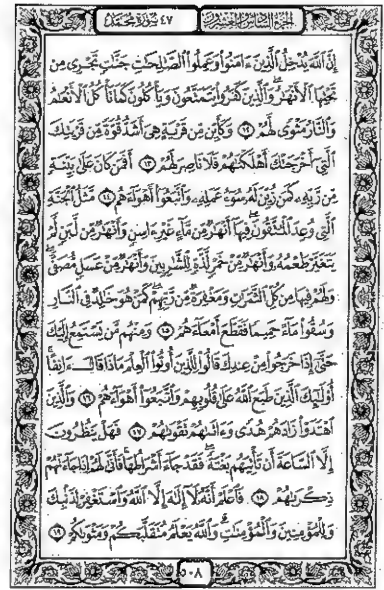
ثم قال: ﴿ومغفرة من ربهم﴾ يزول بها عنهم المرهوب، فأبى هؤلاء خير أم من هو خالد في النار التي اشتد حرها، وتضاعف عذابها، ﴿وسقوا﴾ فيها ﴿ماء حميما﴾ أي: حارا جذا، ﴿فقطع أمعاءهم﴾.

فسبحان من فاوت بين الدارين والجزاين، والعاملين والعاملين.

[١٦ - ١٧] ﴿ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم﴾ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم. يقول تعالى: ومن المنافقين ﴿من يستمع إليك﴾ ما تقول استماعا، لا عن قبول وانقياد، بل معرضة قلوبهم عنه، ولهذا قال: ﴿حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم﴾ مستفهمين عما قلت، وما سمعوا، بما لم يكن لهم فيه رغبة ﴿ماذا قال آنفا﴾ أي: قريبا، وهذا في غاية الذم لهم، فإنهم لو كانوا حريصين على الخير لآلقوا إليه

(١) في ب فلا تجد لهم ناصرا.

(٢) زيادة من هامش ب يخط المؤلف - رحمه الله -



ففي هذا الحث على الاستعداد قبل مفاجأة الموت، فإن موت الإنسان قيام ساعته.

﴿١٩﴾ «فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم» العلم لا بد فيه من إقرار القلب ومعرفة، بمعنى ما طلب منه علمه، وتماه أن يعمل بمقتضاه.

وهذا العلم الذي أمر الله به - وهو العلم بتوحيد الله - فرض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحد، كائنًا من كان، بل كل مضطر إلى ذلك. والطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا هو أمور: أحدها بل أعظمها: تدبر أسمائه وصفاته، وأفعاله الدالة على كماله وعظمته وجلالته^(١)، فإنها توجب بذل الجهد في التأمله له، والتعبد للرب الكامل الذي له كل حمد ومجد وجلال وجمال.

الثاني: العلم بأنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك أنه المنفرد بالالوهية.

الثالث: العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب به ومحبة، والتأله له وحده لا شريك له. الرابع: ما تراه وتسمعه من الثواب لأوليائه القائمين بتوحيده من النصر والنعم العاجلة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به، فإن هذا داع إلى العلم، بأنه تعالى وحده المستحق للعبادة كلها.

الخامس: معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عبدت مع الله، واتخذت آلهة، وأنها ناقصة من جميع الوجوه، فقيرة بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعبادها نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ولا ينصرون من عيدهم، ولا ينفعونهم بمقال ذرة، من جلب خير أو دفع شر، فإن العلم بذلك يوجب العلم بأنه لا إله إلا هو وبطلان إلهية ما سواه.

السادس: اتفاق كتب الله على

ذلك، وتواطؤها عليه.

السابع: أن خواص الخلق، الذين هم أكمل الخليقة أخلاقاً وعقولا، ورأياً وصواباً، وعلماً - وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون - قد شهدوا لله بذلك.

الثامن: ما أقامه الله من الأدلة الأفقية والنفسية، التي تدل على التوحيد أعظم دلالة، وتنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطائف صنعته، ويديع حكمته، وغرائب خلقه.

فهذه الطرق التي أكثر الله من دعوة الخلق بها إلى أنه لا إله إلا الله، وأبداها في كتابه وأعادها عند تأمل العبد في بعضها، لا بد أن يكون عنده يقين وعلم بذلك، فكيف إذا اجتمعت وتواطأت واتفقت، وقامت أدلة التوحيد من كل جانب، فهناك يرسخ الإيمان والعلم بذلك في قلب العبد، بحيث يكون كالجبال الرواسي، لا تزلزله الشبهة والخيالات، ولا يزداد - على تكرار الباطل والشبه - إلا نمواً وكمالاً.

هذا، وإن نظرت إلى الدليل العظيم، والأمر الكبير - وهو تدبر هذا القرآن العظيم، والتأمل في آياته - فإنه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد ويحصل به من تفاصيله وجملة ما لا يحصل في غيره.

وقوله: «واستغفر لذنبك» أي: اطلب من الله المغفرة لذنبك، بأن تفعل أسباب المغفرة من التوبة والدعاء بالمغفرة، والحسنات الماحية، وترك الذنوب والعفو عن الجرائم.

﴿٢٠﴾ «واستغفر أيضاً للمؤمنين والمؤمنات» أي: اطلب من الله المغفرة للمؤمنين والمؤمنات، بأن تفعل أسباب المغفرة من التوبة والدعاء بالمغفرة، والحسنات الماحية، وترك الذنوب والعفو عن الجرائم.

كان لهم حق على كل مسلم ومسلمة. ومن جملة حقوقهم أن يدعوا لهم ويستغفر لذنوبهم، وإذا كان مأموراً بالاستغفار لهم المتضمن لإزالة الذنوب وعقوباتها عنهم، فإن من لوازم ذلك النصح لهم، وأن يجب لهم من الخير ما

أسماعهم، ووعته قلوبهم، وانقادت له جوارحهم، ولكنهم بعكس هذه الحال، ولهذا قال: «أولئك الذين طبع الله على قلوبهم» أي: ختم عليها، وسد أبواب الخير التي تصل إليها بسبب اتباعهم أهواءهم، التي لا يهتدون فيها إلا بالباطل.

ثم بين حال المهتدين، فقال: «والذين اهتدوا» بالإيمان والانقياد، واتباع ما يرضي الله «زادهم هدى» شكراً منه تعالى لهم على ذلك، «وآتاهم تقواهم» أي: وفقهم للخير، وحفظهم من الشر، فذكر للمهتدين جزاءين: العلم النافع، والعمل الصالح.

﴿١٨﴾ «فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة» فقد جاء أشرطها فأتى لهم إذا جاءتهم ذكراهم» أي: فهل ينظر هؤلاء المكذبون أو ينتظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة» أي: فجأة، وهم لا يشعرون «فقد جاء أشرطها» أي: علاماتها الدالة على قربها.

﴿٢١﴾ «فأتاني لهم إذا جاءتهم ذكراهم» أي: من أين لهم، إذا جاءتهم الساعة وانقطعت آجالهم أن يتذكروا ويستعتبوا؟ قد فات ذلك، وذهب وقت التذكر، فقد عمروا ما يتذكر فيه من تذكر، وجاءهم النذير.



وقول معروف ﴿أي: فأولى لهم أن يمثلوا الأمر الحاضر المحتم عليهم، ويجمعوا عليه همهم، ولا يطلبوا أن يشرع لهم ما هو شاق عليهم، وليفرحوا بعافية الله تعالى وعفوه.

﴿فإذا عزم الأمر﴾ أي: جاءهم الأمر جدد، وأمر محتم، ففي هذه الحال لو صدقوا الله بالاستعانة به، وبذل الجهد في امثاله ﴿لكان خيراً لهم﴾ من حالهم الأولى، وذلك من وجوه:

منها: أن العبد ناقص من كل وجه، لا قدرة له إلا إن أعانه الله، فلا يطلب زيادة على ما هو قائم بصدده.

ومنها: أنه إذا تعلقت نفسه بالمستقبل، ضعف عن العمل، بوظيفة وقته، وبوظيفة المستقبل، أما الحال، فلأن الهمة انتقلت عنه إلى غيره، والعمل تبع للهمة، وأما المستقبل، فإنه لا يجيء حتى تفتقر الهمة عن نشاطها فلا يعان عليه.

ومنها: أن العبد المؤمل للأمال المستقبلية، مع كسله عن عمل الوقت الحاضر، شبيه بالمتألي الذي يجزم بقدرته، على ما يستقبل من أموره، فأحرى به أن يخذل ولا يقوم بما هم به ووطن نفسه^(١) عليه، فالذي ينبغي أن يجمع العبد همه وفكرته ونشاطه على وقته الحاضر، ويؤدي وظيفته بحسب قدرته، ثم كلما جاء وقت استقبله بنشاط وهمة عالية مجتمعة غير متفرقة، مستعيناً بربه في ذلك، فهذا حري بالتوفيق والتسديد في جميع أموره.

ثم ذكر تعالى حال المتولي عن طاعة ربه، وأنه لا يتولى إلى خير، بل إلى شر، فقال: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ أي: فهما أمران، إما التزام طاعة الله، وامتنال لأوامره، فثم الخير والرشد والفلاح، وإما إعراض عن ذلك، وتولي عن طاعة الله، فما ثم إلا الفساد في الأرض بالعمل بالمعاصي وقطيعة الأرحام.

﴿أولئك الذين﴾ أفسدوا في

موجب لنفسه، ويكره لهم من الشر ما يكره لنفسه، ويأمرهم بما فيه الخير لهم، وينهاهم عما فيه ضررهم، ويعفو عن مساوئهم ومعاصيهم، ويحرص على اجتماعهم اجتماعاً تتألف به قلوبهم، ويزول ما بينهم من الأحقاد المفضية للمعاداة والشقاق، الذي به تكثر ذنوبهم ومعاصيهم.

﴿والله يعلم متقلبكم﴾ أي: تصرفاتكم وحركاتكم، وذمايكم ومجيئكم، ﴿ومثواكم﴾ الذي به تستقرون، فهو يعلمكم في الحركات والسكنات، فيجازيكم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

﴿٢٠-٢٣﴾ ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المقيضي عليه من الموت فأولى لهم * طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم * فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم * أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم * يقول تعالى: ﴿ويقول الذين آمنوا﴾ استعجلاً ومبادرة للأوامر الشاقة: ﴿لولا نزلت سورة﴾ أي: فيها الأمر بالقتال.

﴿فإذا أنزلت سورة محكمة﴾ أي: ملزم العمل بها، ﴿وذكر فيها القتال﴾ الذي هو أشق شيء على النفوس، لم يثبت ضعفاء الإيمان على امتثال هذه الأوامر، ولهذا قال: ﴿رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المقيضي عليه من الموت﴾ من كراحتهم لذلك، وشدته عليهم.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية﴾.

ثم نديهم تعالى إلى ما هو الأليق بحالهم، فقال: ﴿فأولى لهم﴾ طاعة

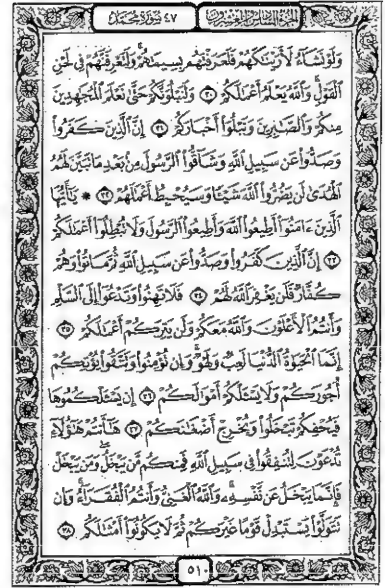
الأرض، وقطعوا أرحامهم ﴿لعنهم الله﴾ بأن أبعدهم عن رحمة، وقربوا من سخط الله.

﴿فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾ أي: جعلهم لا يسمعون ما ينفعهم ولا يبصرون، فلم أذان، ولكن لا تسمع سماع إذعان وقبول، وإنما تسمع سماعاً تقوم به حجة الله عليها، ولهم أعين، ولكن لا يبصرون بها العبر والآيات، ولا يلتفتون بها إلى البراهين والبيئات.

﴿٢٤﴾ ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ أي: فهل يتدبر هؤلاء المعرضون لكتاب الله، ويتأملونه حق التأمل، فإنهم لو تدبروه، لذئتهم على كل خير، ولحذروهم من كل شر، ولما قلوبهم من الإيمان، وأفشدتهم من الايقان، ولأوصلهم إلى المطالب العالية، والمواهب الغالية، ولبين لهم الطريق الموصلة إلى الله، وإلى جنته ومكلماتها ومفسداتها، والطريق الموصلة إلى العذاب، وبأي شيء تحذر، ولعزهم بربهم، وأسمائه وصفاته وإحسانه، ولشوقهم إلى الثواب الجزيل، ورهبهم من العقاب الويليل.

﴿أم على قلوب أقفالها﴾ أي: قد أغلق على ما فيها من الشر وأقفلت،

(١) في ب: وتوعد نفسه، وكذلك كانت في أ من قبل ثم شطبها الشيخ - رحمه الله - وعذله إلى: وطن نفسه.



فلا يدخلها خير أبداً؟ هذا هو الواقع.

﴿٢٥-٢٨﴾ **﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾** ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم **﴿يَضْرِبُونَ وجوههم وأدبارهم﴾** ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم **﴿يَجْرِي تَعَالَى حَالُهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْكُفْرَانِ، عَلَى أَعْقَابِهِمْ إِلَى الضَّلَالِ وَالْكُفْرَانِ، ذَلِكَ لَا عَنْ دَلِيلٍ دَلَّهِمْ وَلَا بِزَهَانٍ، وَإِنَّمَا هُوَ تَسْوِيلٌ مِنْ عَدُوِّهِمُ الشَّيْطَانِ وَتَزْيِينٌ لَهُمْ، وَإِمْلَاءٌ مِنْهُ لَهُمْ: ﴿يَعْدَهُمْ وَيُمْنِهِمْ وَمَا يَعْدَهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾**

وذلك أنهم قد تبين لهم الهدى، فزهّدوا فيه ورفضوه، و **﴿قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَلَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾** سنطيعكم في بعض الأمر **﴿أَي: الَّذِي يوافق أُنْهَاءَهُمْ، فَلِذَلِكَ عاقبهم الله بالضلال، والإقامة على ما يوصلهم إلى الشقاء الأبدي، والعذاب السرمدي﴾**

﴿وَالله يعلم إسرارهم﴾ فلذلك فضيحه، وبينها لعباده المؤمنين، لئلا يغتروا بها.

﴿فكيف﴾ ترى حالهم الشنيعة، ورويتهم الفظيعة **﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ**

الملائكة **﴿المركلون بقبض أرواحهم﴾** يضربون وجوههم وأدبارهم **﴿بالمقامع الشديدة؟﴾**

﴿ذلك﴾ العذاب الذي استحقوه ونالوه **﴿ب: سبب﴾** أنهم اتبعوا ما أسخط الله **﴿من كل كفر وفسوق وعصيان﴾**

﴿وكرهوا رضوانه﴾ فلم يكن لهم رغبة فيما يقرهم إليه، ولا يدنيه منهُ، **﴿فأحبط أعمالهم﴾** أي: أبطلها وأذهبها، وهذا بخلاف من اتبع ما يرضى الله وكره سخطه، فإنه سيكفر عنه سيئاته، ويضاعف أجره وثوابه.

﴿٢٩-٣١﴾ **﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾** ولو شاء لأريناكمهم **﴿فلعرفتهم بسيماهم﴾** ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم **﴿وليلوتكم حتى تعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم﴾** يقول تعالى **﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾** من شبهة أو شهوة، بحيث تخرج القلب عن حال صحته واعتداله، أن الله لا يخرج ما في قلوبهم من الأضغان والعداوة للإسلام وأهله؟ هذا ظن لا يليق بحكمة الله، فإنه لا بد أن يميز الصادق من الكاذب، وذلك بالابتلاء بالمحن، التي من ثبت عليها، ودام إيمانه فيها، فهو المؤمن حقيقة، ومن رده على عقبيه فلم يصبر عليها، وحين أباه الامتحان، جزع وضعف إيمانه، وخرج ما في قلبه من الضغن، وتبين نفاقه، هذا مقتضى الحكمة الإلهية، مع أنه تعالى قال: **﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾** أي: بعلاماتهم التي هي كالرسم في وجوههم **﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾** أي:

لا بد أن يظهر ما في قلوبهم، وتبين بفلتات ألسنتهم، فإن الألسن مغارف القلوب، يظهر منها ما في القلوب من الخير والشر **﴿والله يعلم أعمالكم﴾** فيجازيكم عليها.

ثم ذكر أعظم امتحان يمتحن به عباده، وهو الجهاد في سبيل الله،

فقال: **﴿وَلْيَلْبِغُواكُمْ﴾** أي: نختبر إيمانكم وصبركم، **﴿حتى تعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم﴾** فمن امتثل أمر الله وجاهد في سبيل الله لنصر دينه وإعلاء كلمته فهو المؤمن حقاً، ومن تكاسل عن ذلك، كان ذلك نقصاً في إيمانه.

﴿٣٢﴾ **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرُّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرَّوهُمُ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾** هذا وعيد شديد لمن جمع أنواع الشر كلها، من الكفر بالله، وصد الخلق عن سبيل الله الذي نصبه موصلاً إليه.

﴿وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى﴾ أي: عاندوه وخالفوه عن عمد وعناد، لا عن جهل وغي وضلال، فإنهم **﴿لَنْ يَضُرَّوهُمُ اللَّهُ شَيْئًا﴾** فلا يتقص به ملكه.

﴿وسيحبط أعمالهم﴾ أي: مساعيتهم التي بذلوها في نصر الباطل، بأن لا تثمر لهم إلا الخيبة والخسران، وأعمالهم التي يرجون بها الثواب، لا تقبل لعدم وجود شرطها.

﴿٣٣﴾ **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرُّسُولَ وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾** يأمر تعالى المؤمنين بأمر به تتم أمورهم، وتحصل سعادتهم الدينية والدنيوية، وهو طاعته وطاعة رسوله في أصول الدين وفروعه، والطاعة هي امتثال الأمر، واجتناب النهي على التوجه المأمور به بالإخلاص وتتمام المتابعة:

وقوله **﴿وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾** يشمل النهي عن إبطالها بعد عملها، بما يفسدها، من مَنِّ بها وإعجاب، وفخر وسمعة، ومن عمل بالمعاصي التي تضمحل معها الأعمال، ويحبط أجرها، ويشمل النهي عن إفسادها حال وقوعها بقطعها، أو الإتيان بمفسد من مفسداتها.

فمبطلات الصلاة والصيام والحج ونحوها، كلها داخلية في هذا، ومنتهى عنها، ويستدل الفقهاء بهذه الآية على تحريم قطع الفرض، وكراهة قطع

قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴿ هذا تزهيد منه لعباده في الحياة الدنيا بإخبارهم عن حقيقة أمرها، بأنها لعب ولهو، لعب في الأبدان ولهو في القلوب، فلا يزال العبد لاهياً في ماله، وأولاده، وزينته، ولذاته من النساء، والمأكّل والمشارب، والمساكن والمجالس، والمناظر والرياسات، لاهياً في كل عمل لا فائدة فيه، بل هو دائر بين البطالة والغفلة والمعاصي، حتى تستكمل دنياه، ويحضره أجله، فإذا هذه الأمور قد ولت وفارقت، ولم يحصل العبد منها على طائل، بل قد تبين له خسارته وحرمانه، وحضر عذابه، فهذا موجب للعقل الزهد فيها، وعدم الرغبة فيها، والاهتمام بشأنها، وإنما الذي ينبغي أن يتم به ما ذكره بقوله: ﴿وإن تؤمنوا وتتقوا﴾ بأن تؤمنوا بالله، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتقوموا بتقواه التي هي من لوازم الإيمان ومقتضياته، وهي العمل بمريضاته على الدوام، مع ترك معاصيه، فهذا الذي يتفق العبد، وهو الذي ينبغي أن يتنافس فيه، وتبذل الهمة والأعمال في طلبه، وهو مقصود الله من عباده رحمة بهم ولطفاً، ليثيبهم الثواب الجزيل، ولهذا قال: ﴿وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم﴾ أي: لا يريد تعالى أن يكلفكم ما يشق عليكم، ويعنتكم من أخذ أموالكم، ويقائكم بلا مال، أو ينقصكم نقصاً يضركم، ولهذا قال: ﴿إن يسألكموها فيحلفكم بخلها ويخرج أضغانكم﴾ أي: ما في قلوبكم من الضغن، إذا طلب منكم ما تكرهون بذله.

والدليل على أن الله لو طلب منكم أموالكم وأحقاكم بسؤالها، أنكم تمتنعون منها، أنكم ﴿تدعون لتنفقوا في سبيل الله﴾ على هذا الوجه، الذي فيه فصلتكم الدينية والدنيوية.

﴿فمنكم من يبخل﴾ أي: فكيف لو سألكم، وطلب منكم أموالكم في غير أمر ترويه مصلحة عاجلة؟ أليس من باب أولى وأحرى امتناعكم من ذلك.

الحال أنكم ﴿أنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم﴾ أي: ينقصكم أعمالكم.

فهذه الأمور الثلاثة، كل منها مقتضى للصبر وعدم الوهن كونهن الأعلين، أي: قد توفرت لهن أسباب النصر، ووعدوا من الله بالوعد الصادق، فإن الإنسان لا يهن إلا إذا كان أذل من غيره وأضعف عدداً وهدداً، وقوة داخلية وخارجية.

الثاني: أن الله معهم، فإنهم مؤمنون، والله مع المؤمنين، بالعون والنصر والتأييد، وذلك موجب لقوة قلوبهم، وإقدامهم على عدوهم.

الثالث: أن الله لا ينقصهم من أعمالهم شيئاً، بل سيوفهم أجورهم، ويزيدهم من فضله، خصوصاً عبادة الجهاد، فإن النفقة تضاعف فيه، إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، وقال تعالى:

﴿ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يظؤون موطئاً يغيظ الكفار ولا يتالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون.

فإذا عرفت الإنسان أن الله تعالى لا يضيع عمله وجهاده، أوجب له ذلك النشاط، وبذل الجهد فيما يترتب عليه الأجر والثواب، فكيف إذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة فإن ذلك يوجب النشاط التام، فهذا من ترغيب الله لعباده، وتنشيطهم وتقوية أنفسهم على ما فيه صلاحهم وفلاحهم.

﴿٣٦-٣٨﴾ ﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم﴾ إن يسألكموها فيحلفكم بخلها ويخرج أضغانكم ﴿ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل

النفل، من غير موجب لذلك، وإذا كان الله قد نهى عن إبطال الأعمال، فهو أمر بإصلاحها، وإكمالها وإتمامها، والإتيان بها، على الوجه الذي تصلح به علماً وعملاً.

﴿٣٤-٣٥﴾ ﴿إن الذين كفروا وضدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم﴾ فلا تمنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم ﴿هذه الآية والتي في البقرة قوله: ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾ مقيدتان، لكل نص مطلق، فيه إحباط العمل بالكفر، فإنه مقيد بالموت عليه، فقال هنا: ﴿إن الذين كفروا﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿وصلوا﴾ الخلق ﴿عن سبيل الله﴾ بتزهدهم إياهم بالحق، ودعوتهم إلى الباطل، وترزينه، ﴿ثم ماتوا وهم كفار﴾ لم يتوبوا منه، ﴿فلن يغفر الله لهم﴾ لا بشفاعة ولا غيرها، لأنه قد تحتم عليهم العقاب، وفاتهم الثواب، ووجب عليهم الخلود في النار، وسدت عليهم رحمة الرحيم الغفار.

ومفهوم الآية الكريمة أنهم إن تابوا من ذلك قبل موتهم، فإن الله يغفر لهم ويرحمهم، ويدخلهم الجنة، ولو كانوا مفين أعمالهم في الكفر به والصد عن سبيله، والإقدام على معاصيه، فسيحان من فتح لعباده أبواب الرحمة، ولم يغلقها عن أحد، ما دام حياً متمكناً من التوبة.

وسيحان الخليم، الذي لا يعاجل العاصين بالعقوبة، بل يعافيههم، ويرزقهم، كأنهم ما عصوه مع قدرته عليهم.

ثم قال تعالى: ﴿فلا تمنوا﴾ أي: لا تضعفوا عن قتال عدوكم، ويستولي عليكم الخوف، بل اصبروا وأثبتوا، ووطنوا أنفسكم على القتال والجلاد، طلباً لمرضاة ربكم، ونصيحة للإسلام، وإغصاباً للشيطان.

ولا تدعوا إلى المسألة والمشاركة بينكم وبين أعدائكم، طلباً للراحة، ﴿و﴾

ثم قال: ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ لأنه حرم نفسه ثواب الله تعالى، وفاته خير كثير، ولن يضر الله بترك الإنفاق شيئاً.

فإن الله هو ﴿الغني وأنتم الفقراء﴾ تحتاجون إليه في جميع أوقاتكم، جميع أموركم.

﴿وإن تتولوا﴾ عن الإيمان بالله، وامتثال ما يأمركم به ﴿يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ في التولي، بل يطيعون الله ورسوله، ويحبون الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾.

ثم تفسير سورة القتال،
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الفتح وهي مدنية

﴿١-٣﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ليفسر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً * وينصرك الله نصراً عزيزاً * هذا الفتح المذكور هو صلح الحديبية، حين صد المشركون رسول الله ﷺ لما جاء معتمراً في قصة طويلة، صار آخر أمرها أن صالحهم رسول الله ﷺ على وضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين، وعلى أن يعتمر من العام المقبل، وعلى أن من أراد أن يدخل في عهد قريش وحلفهم دخل، ومن أحب أن يدخل في عهد رسول الله ﷺ وعقده فعل.

وبسبب ذلك لما أمن الناس بعضهم بعضاً، اتسعت دائرة الدعوة لدين الله عز وجل، وصار كل مؤمن بأي محل كان من تلك الأقطار، يتمكن من ذلك، وأمكن الخريص على الوقوف على حقيقة الإسلام، فدخل الناس في تلك المدة في دين الله أفواجا، فلذلك سماه الله فتحاً، ووصفه بأنه فتح مبين أي: ظاهر جلي، وذلك لأن المقصود

في فتح بلدان المشركين إعزاز دين الله، وانتصار المسلمين، وهذا حصل بذلك^(١) الفتح، وزب الله على هذا الفتح عدة أمور، فقال: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ وذلك - والله أعلم - بسبب ما حصل بسببه من الطاعات الكثيرة، والدخول في الدين بكثرة، وبما تحمّل ﷺ من تلك الشروط التي لا يصبر عليها إلا أولو العزم من المرسلين، وهذا من أعظم مناقبه وكراماته ﷺ، أن غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

﴿ويتم نعمته عليك﴾ بإعزاز دينك، ونصرك على أعدائك، واتساع كلمتك، ﴿ويهديك صراطاً مستقيماً﴾ تنال به السعادة الأبدية، والفلاح السرمدى.

﴿وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾ أي: قوياً لا يتضعض فيه الإسلام، بل يحصل الانتصار التام، وقمع الكافرين، وذلهم ونقصهم، مع توفر قوى المسلمين ونموهم، ونمو أموالهم.

ثم ذكر آثار هذا الفتح على المؤمنين، فقال: ﴿٤-٦﴾ ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَهُوَ جَنُودَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ * يدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً * ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً.

يخبر تعالى عن مئته على المؤمنين بإزالة السكينة في قلوبهم، وهي السكون والطمأنينة، والثبات عند نزول المحن المقلقة، والأمر الصعبة، التي تشوش القلوب، وتزعج الألباب، وتضعف النفوس، فمن

نعمة الله على عبده في هذه الحال أن يشبته ويربط على قلبه، وينزل عليه السكينة، ليتلقى هذه المشقات بقلب ثابت ونفس مطمئنة، فيستعد بذلك لإقامة أمر الله في هذه الحال، فيزداد بذلك إيمانه، ويتم إيقانه، فالصحابه رضي الله عنهم لما جرى ما جرى بين رسول الله ﷺ والمشركين، من تلك الشروط التي ظاهرها أنها غصاصة عليهم، وخط من أقدارهم، وتلك لا تكاد تصبر عليها النفوس، فلما صبروا عليها ووطنوا أنفسهم لها، ازدادوا بذلك إيماناً مع إيمانهم. وقوله: ﴿وَاللَّهُ جُنُودَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: جميعها في ملكه، وتحت تدبيره وقهره، فلا يظن المشركون أن الله لا ينصر دينه ونبيه، ولكنه تعالى عليهم حكيم، فتقتضي حكمته المداولة بين الناس في الأيام، وتأخير نصر المؤمنين إلى وقت آخر. ﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم﴾ فهذا أعظم ما يحصل للمؤمنين، أن يحصل لهم المرغوب المطلوب بدخول الجنات، ويزيل عنهم المحذور بتكفير السيئات.

﴿وكان ذلك﴾ الجزء المذكور للمؤمنين ﴿عند الله فوزاً عظيماً﴾ فهذا ما يفعل بالمؤمنين في ذلك الفتح المبين.

وأما المنافقون والمنافقات، والمشركون والمشركات، فإن الله يعذبهم بذلك، ويريمهم ما يسؤوهم؛ حيث كان مقصودهم خذلان المؤمنين، وظنوا بالله الظن السوء، أنه لا ينصر دينه، ولا يعلي كلمته، وأن أهل الباطل، ستكون لهم الدائرة على أهل الحق، فأدار الله عليهم ظنهم، وكانت دائرة السوء عليهم في الدنيا،

﴿وغضب الله عليهم﴾ بما اقترفوه من المحادة لله ولرسوله، ﴿ولعنهم﴾ أي: أبعدهم وأقصاهم عن رحمته ﴿وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً﴾.

﴿٧﴾ ﴿وَاللَّهُ جُنُودَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ كرر

الإخبار بأن له ملك السماوات والأرض وما فيها من الجنود، ليعلم العباد أنه تعالى هو المعز المذل، وأنه سينصر جنوده المنسوبة إليه، كما قال تعالى: ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾. وكان الله عزيزاً أي: قوياً غالباً، قاهراً لكل شيء، وضع عزته وقوته فهو حكيم في خلقه وتديبه، يجزي على ما تقتضيه حكمته وإفانته.

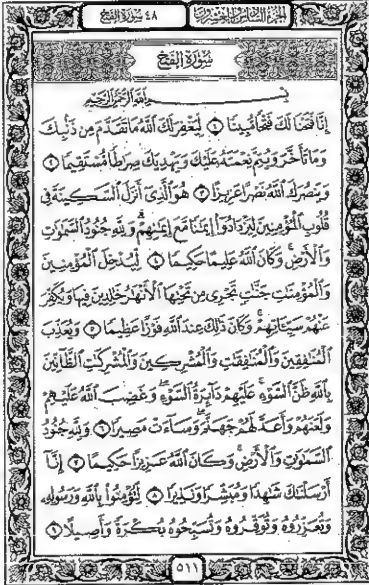
٨٩- ﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾ * لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً أي: ﴿إنا أرسلناك﴾ أيها الرسول الكريم شاهداً لأمتك بما فعلوه من خير وشر، وشاهداً على المقالات والمسائل، حقها وباطلها، وشاهداً لله تعالى بالوحدانية والانفراد بالكمال من كل وجه، ﴿ومبشراً﴾ من أطاعك وأطاع الله بالثواب الدنيوي والديني والأخروي، ومنذراً من عصى الله بالعقاب العاجل والآجل، ومن تمام البشارة والنذارة، بيان الأعمال والأخلاق التي يبشر بها وينذر، فهو المبين للخير والشر، والسعادة والشقاوة، والحق من الباطل، ولهذا رتب على ذلك قوله: ﴿لتؤمنوا بالله ورسوله﴾ أي: بسبب دعوة الرسول لكم، وتعليمه لكم ما ينفعكم، أرسلناه لتقوموا بالإيمان بالله ورسوله، المستلزم ذلك لطاعتها في جميع الأمور.

﴿وتعزروه وتوقروه﴾ أي: تعزروا الرسول ﷺ وتوقروه أي: تعظموه وتجلوه، وتقوموا بحقوقه، كما كانت له المنة العظيمة برقابكم، ﴿وتسبحوه﴾ أي: تسبحوا لله بكرة وأصيلاً أول النهار وآخره، فذكر الله في هذه الآية الحق المشترك بين الله وبين رسوله، وهو الإيمان بهما، والمختص بالرسول، وهو التعزيز والتوقير، والمختص بالله، وهو التسبيح له والتفديس بصلاته أو غيرها.

١٠- ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى

بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾ هذه المبايعة التي أشار الله إليها هي «بيعة الرضوان» التي بايع الصحابة رضي الله عنهم فيها رسول الله ﷺ، على أن لا يفروا عنه، فهي عقد خاص، من لوازمه أن لا يفروا، ولو لم يبق منهم إلا القليل، ولو كانوا في حال يجوز الفرار فيها، فأخبر تعالى: أن الذين يبايعون حقيقة الأمر أنهم «يبايعون الله» ويعقدون العقد معه، حتى إنه من شدة تأكده أنه قال: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ أي: كأنهم يبايعوا الله وصافحوه بثلث المبايعة، وكل هذا لزيادة التأكيد والتقوية، وحلهم على الوفاء بها، ولهذا قال: ﴿فمن نكث﴾ فلم يف بما عاهد الله عليه ﴿فإنما ينكث على نفسه﴾ أي: لأن وبال ذلك راجع إليه، وعقوبته وأصله له، ﴿ومن أوفى بما عاهد عليه الله﴾ أي: أتى به كاملاً موفراً، ﴿فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾ لا يعلم عظمه وقدره إلا الذي آتاه إياه.

١١- ١٣- ﴿سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً﴾ بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً * ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإننا اعتدنا للكافرين سعيراً﴾ يذم تعالى المتخلفين عن رسوله، في الجهاد في سبيله، من الأعراب الذين ضعف إيمانهم، وكان في قلوبهم مرض، وسوء ظن بالله تعالى، وأنهم سيعتدون بأن أموالهم وأهليهم شغلتهم عن الخروج في الجهاد، وأنهم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يستغفر لهم، قال الله تعالى: ﴿يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾ فإن طلبهم الاستغفار من رسول الله ﷺ يدل على ندمهم وإقرارهم على أنفسهم



بالذنوب، وأنهم تخلفوا تخلفاً يحتاج إلى توبة واستغفار، فلو كان هذا الذي في قلوبهم، لكان استغفار الرسول نافعاً لهم، لأنهم قد تابوا وأنابوا، ولكن الذي في قلوبهم، أنهم إنما تخلفوا لأنهم ظنوا بالله ظن السوء.

فظنوا ﴿أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً﴾ أي: إنهم سيقتلون ويستأصلون، ولم يزل هذا الظن يزين في قلوبهم، ويطمئنون إليه، حتى استحكمت، وسبب ذلك أمران:

أحدهما: أنهم كانوا قوماً بوراً أي: هلكت، لا خير فيهم، فلو كان فيهم خير لم يكن هذا في قلوبهم.

الثاني: ضعف إيمانهم ويقينهم بوعد الله، ونصر دينه، وإعلاء كلمته، ولهذا قال: ﴿ومن لم يؤمن بالله ورسوله﴾ أي: فإنه كافر مستحق للعقاب، ﴿فإننا اعتدنا للكافرين سعيراً﴾.

١٤- ﴿والله مملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي: هو تعالى المنفرد بملك السماوات والأرض، يتصرف فيهما بما يشاء من الأحكام القدريّة، والأحكام الشرعيّة، والأحكام الجزائيّة، ولهذا ذكر حكم الجزاء المرتب على الأحكام الشرعيّة، فقال: ﴿يغفر لمن يشاء﴾ وهو من قام

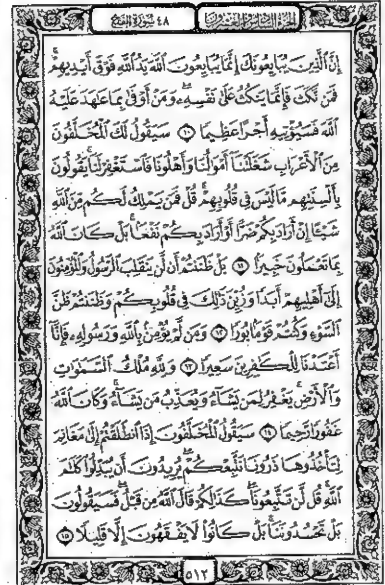
ثم ذكر الأعداء التي يعذر بها العبد عن الخروج إلى الجهاد، فقال: ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج﴾ أي: في التخلف عن الجهاد لعذرهم المانع.

﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ في امتثال أمرهما، واجتنب نهيهما ﴿يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، ﴿ومن يتول﴾ عن طاعة الله ورسوله ﴿يعذبه عذاباً أليماً﴾ فالسعادة كلها في طاعة الله، والشقاوة في معصيته وخالفته.

﴿١٨ - ٢١﴾ ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً﴾ ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً * وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديهم صراطاً مستقيماً * وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً * يخبر تعالى بفضلته ورحمته، برضاه عن المؤمنين إذ يبايعون الرسول ﷺ تلك المبايعة التي بيضت وجوههم، واكتسبوا بها سعادة الدنيا والآخرة، وكان سبب هذه البيعة - التي يقال لها «بيعة الرضوان» لرضا الله عن المؤمنين فيها، ويقال لها «بيعة أهل الشجرة» - أن رسول الله ﷺ لما دار الكلام بينه وبين المشركين يوم الحديبية في شأن مجيئه، وأنه لم يجيء لقتال أحد، وإنما جاء زائراً هذا البيت، معظماً له، فبحث رسول الله ﷺ عثمان بن عفان ملكة في ذلك، فجاء خبر غير صادق، أن عثمان قتله المشركون، فجمع رسول الله ﷺ من معه من المؤمنين، وكانوا نحواً من ألف وخمس مئة، فبايعوه تحت شجرة على قتال المشركين، وأن لا يقرؤا حتى يموتوا، فأخبر تعالى أنه رضي عن المؤمنين في تلك الحال، التي هي من أكبر الطاعات وأجل القربات، ﴿فعلم ما في قلوبهم﴾ من الإيمان، ﴿فأنزل

رشدكم، لعلموا أن حرمانهم بسبب عصيانهم، وأن المعاصي لها عقوبات دنيوية ودينية، ولهذا قال: ﴿بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً﴾.

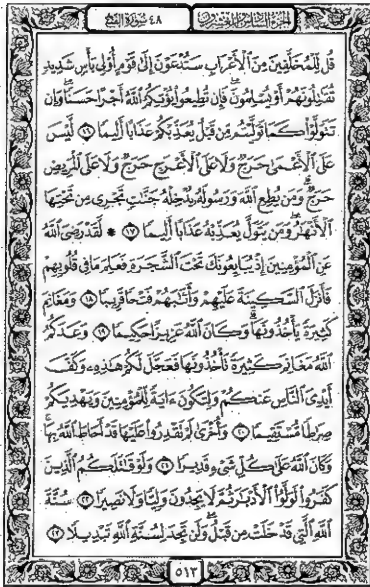
﴿١٦ - ١٧﴾ ﴿قل للمخلفين من الأعراب استدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تنولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً﴾ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذاباً أليماً لما ذكر تعالى أن المخلفين من الأعراب يتخلفون عن الجهاد في سبيله، ويعتذرون بغير عذر، وأنهم يطلبون الخروج معهم إذا لم يكن شوكة ولا قتال، بل لمجرد الغنمة، قال تعالى متحناً لهم: ﴿قل للمخلفين من الأعراب استدعون إلى قوم أولي بأس شديد﴾ أي: سيدعوكم الرسول ومن ناب مثابه من الخلفاء الراشدين والأئمة، وهؤلاء القوم فارس والروم ومن نحا نحوهم وأشبههم. ﴿تقاتلونهم أو يسلمون﴾ أي: إما هذا وإما هذا، وهذا هو الأمر الواقع، فإنهم في حال قتالهم ومقاتلتهم لأولئك الأقوام، إذ كانت شدتهم وبأسهم معهم، فإنهم في تلك الحال لا يقولون أن يبدلوا الجزية، بل إما أن يدخلوا في الإسلام، وإما أن يقاتلوا على ما هم عليه، فلما أئحتهم المسلمون، وضعفوا وذلوا، ذهب بأسهم، فصاروا إما أن يسلموا، وإما أن يبدلوا الجزية، ﴿فإن تطيعوا﴾ الداعي لكم إلى قتال هؤلاء ﴿يؤتكم الله أجراً حسناً﴾ وهو الأجر الذي رتبته الله ورسوله على الجهاد في سبيل الله، ﴿وإن تنولوا كما توليتم من قبل﴾ عن قتال من دعاكم الرسول إلى قتاله، ﴿يعذبكم عذاباً أليماً﴾. ودلت هذه الآية على فضيلة الخلفاء الراشدين، الداعين لجهاد أهل البأس من الناس، وأنه يجب طاعتهم في ذلك.



بما أمره الله به ﴿ويعذب من يشاء﴾ عن تهاون بأمر الله، ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي: وصفه اللازم الذي لا ينفك عنه المغفرة والرحمة، فلا يزال في جميع الأوقات يغفر للمذنبين، ويتجاوز عن الخطائين، ويتقبل توبة التائبين، وينزل خيره الممدار، آتاء الليل والنهار.

﴿١٥﴾ ﴿انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعوننا بل نمتسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً﴾ لما ذكر تعالى المخلفين وذمهم، ذكر أن من عقوبتهم الدنيوية، أن رسول الله ﷺ وأصحابه إذا انطلقوا إلى غنائم لا قتال فيها ليأخذوها، طلبوا منهم الصحبة والمشاركة، ويقولون: ﴿ذرونا نتبعكم تريدون﴾ بذلك ﴿أن يبدلوا كلام الله﴾ حيث حكم بعقوبتهم، واختصاص الصحابة المؤمنين بتلك الغنائم، شرعاً وقدرًا. ﴿قل﴾ لهم ﴿لن تتبعوننا كذلك قال الله من قبل﴾ إنكم محرومون منها بما جئتم على أنفسكم، وبما تركتم القتال أول مرة.

﴿فسيقولون﴾ مجيبين لهذا الكلام، الذي منعوا به عن الخروج: ﴿بل نمتسدوننا﴾ على الغنائم، هذا منتهى علمهم في هذا الموضع، ولو فهموا



بشارة من الله لعباده المؤمنين، بنصرهم على أعدائهم الكافرين، وأنهم لو قابلوهم وقاتلوهم ﴿لَوَلُوا الْأَدْبَارَ﴾، ثم لا يجِدُونَ وَلِيًّا يتولى أمرهم، ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم ويعينهم على قتالكم، بل هم مخذولون مغلوبون وهذه سنة الله في الأمم السابقة، أن جند الله هم الغالبون، ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

﴿٢٤ - ٢٥﴾ وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرًا * هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى مسكوناً أن يبلغ حمله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطوؤهم فتصبيكم منهم مرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً يقول تعالى ممثلاً على عباده بالعافية، من شر الكفار ومن قتالهم، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: أهل مكة ﴿عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: من بعد ما قدرتم عليهم، وصاروا تحت ولايتكم بلا عقد ولا عهد، وهم نحو ثمانين رجلاً، انحذروا على المسلمين ليصيبوا منهم غرة، فوجدوا المسلمين منتبهيين فأمسكوكم، فتركوهم ولم يقتلوهم، رحمة من الله بالمؤمنين إذ لم يقتلوهم، ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ فيجازي كل عامل بعمله، ويدبركم أيها المؤمنون بتدبيره الحسن.

ثم ذكر تعالى الأمور المهيجة على قتال المشركين، وهي كفرهم بالله ورسوله، وصددهم رسول الله ومن معه من المؤمنين، أن يأتوا للبيت الحرام زائرين معظمين له بالحج والعمرة، وهم الذين أيضاً صدوا الهدى معكوفاً أي: محبوساً أن يبلغ محله وهو محل ذبحه وهو مكة، فمنعوه من الوصول إليه ظلماً وعدواناً، وكل هذه أمور موجبة وداعية إلى قتالهم، ولكن ثم مانع هو: وجود رجال ونساء من أهل الإيمان بين أظهر المشركين،

السكينة عليهم ﴿شَكَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ شكرهم على ما في قلوبهم، زادهم هدى، وعلم ما في قلوبهم من الجزع من تلك الشروط التي شرطها المشركون على رسوله، فأنزل عليهم السكينة تثبتهم، وتطمئن بها قلوبهم، ﴿وَأَنَابَهُمْ فَتَحَّا قُريَّا﴾ وهو فتح خيبر، لم يحضره سوى أهل الحديبية، فاخضعوا بخيبر وغنائمها، جزاء لهم، وشكراً على ما فعلوه من طاعة الله تعالى والقيام بمرصاته.

﴿وَمَغْنَمًا كَثِيرَةً بِأِخْذِهَا﴾ وكان الله عزيزاً حكيمًا أي: له العزة والقدرة، التي قهر بها الأشياء، فلو شاء لانتصر من الكفار في كل وقعة تكون بينهم وبين المؤمنين، ولكنه حكيم، يبتي بعضهم ببعض، ويمتحن المؤمن بالكَافِر.

﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغْنَمًا كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ وهذا يشمل كل غنيمة غنمها المسلمين إلى يوم القيامة، ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ أي: غنيمة خيبر أي: فلا تحسبوا وحدها، بل ثم شيء كثير من الغنائم ستبعتها، ﴿وَأَحْمَدُوا اللَّهَ إِذْ كَفَّ أَيْدِي النَّاسِ﴾ القادرين على قتالكم، الحريصين عليه ﴿عَنْكُمْ﴾ فهي نعمة، وتخفيف عنكم. ﴿وَلَتَكُونَنَّ﴾ هذه الغنيمة آية للمؤمنين يستدلون بها على خبر الله الصادق، ووعدته الحق، وثوابه للمؤمنين، وأن الذي قدرها سيقدر غيرها، ﴿وَيَهْدِيكُمْ﴾ بما يقض لكم من الأسباب ﴿صَرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ من العلم والإيمان والعمل.

﴿وَأُخْرَى﴾ أي: وعدكم أيضاً غنيمة أخرى لم تقدرها عليها وقت هذا الخطاب، ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ أي: هو قادر عليها، وتحت تدبيره ومملكته، وقد وعدكموها، فلا بد من وقوع ما وعد به، لكمال اقتدار الله تعالى، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

﴿٢٢ - ٢٣﴾ ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً هذه

وليسوا متميزين بمحلة أو مكان يمكن أن لا ينالهم أذى، فلولا هؤلاء الرجال المؤمنون، والنساء المؤمنات، الذين لا يعلمهم المسلمون أن تطوؤهم أي: خشية أن تطوؤهم ﴿فَتَصْبِيَكُمْ مِنْهُمْ مَرَّةً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ والمرة: ما يدخل تحت قتالهم، من نيلهم بالأذى والمكره، وفائدة أخروية، وهو: أنه ليدخل في رحمته من يشاء فممن عليهم بالإيمان بعد الكفر، وبالهدى بعد الضلال، فيمنعكم من قتالهم لهذا السبب.

﴿لَوْ تَزِيلُوا﴾ أي: لو زلوا من بين أظهرهم ﴿لَعَذَبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بأن نبيح لكم قتالهم، ونأذن فيه، وننصرهم عليهم.

﴿٢٦﴾ ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حِمْيَ الْجَاهِلِيَّةِ فَانزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ يقول تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حِمْيَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ حيث أنفوا من كتابة «بسم الله الرحمن الرحيم»، وأنفوا من دخول رسول الله ﷺ والمؤمنين إليهم في تلك السنة، لثلا يقول الناس: «دخلوا مكة قاهرين لقريش»، وهذه الأمور ونحوها من أمور الجاهلية، لم تزل في قلوبهم حتى أوجبت لهم ما أوجبت



من كثير من المعاصي، **﴿فانزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾** فلم يحملهم الغضب على مقابلة المشركين بما قابلوهم به، بل صبروا لحكم الله، والتزموا الشروط التي فيها تعظيم حرمان الله ولو كانت ما كانت، ولم ينالوا بقول القائلين، ولا لوم اللاتمين.

﴿والزمهم كلمة التقوى﴾ وهي «لا إله إلا الله» وحقوقها، ألزمهم القيام بها، فالتزموها وقاموا بها، **﴿وكانوا أحق بها﴾** من غيرهم **﴿وكانوا أهلها﴾** الذين استأهلوها لما يعلم الله عندهم وفي قلوبهم من الخير، ولهذا قال: **﴿وكان الله بكل شيء عليماً﴾**

﴿٢٧-٢٨﴾ **﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً﴾** هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً **﴿يقول تعالى:﴾** **﴿لقد صدق الله رؤيا بالحق﴾** وذلك أن رسول الله ﷺ رأى في المدينة رؤيا أخبر بها أصحابه، أنهم سيدخلون مكة ويظفون بالبيت، فلما جرى يوم الحديبية ما جرى، ورجعوا من غير دخول لمكة، كثر في ذلك الكلام

منهم، حتى إنهم قالوا ذلك لرسول الله ﷺ: ألم تخبرنا أننا ستأتي البيت ونطوف به؟ فقال: **﴿أخبرتكم أنه العام؟﴾** قالوا: لا، قال: **﴿فإنكم ستأتونه وتطوفون به﴾**، قال الله هنا: **﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق﴾** أي: لا بد من وقوعها وصدقها، ولا يقدح في ذلك تأخر تأويلها، **﴿لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين﴾** أي: في هذه الحال المقتضية لتعظيم هذا البيت الحرام، وأدائكم للنسك، وتكميله بالخلق والتقصير، وعدم الخوف، **﴿فعلم﴾** من المصلحة والمنافع **﴿ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك﴾** الدخول بتلك الصفة **﴿فتحاً قريباً﴾**

ولما كانت هذه الواقعة مما تشوشت بها قلوب بعض المؤمنين، وخفيت عليهم حكمته، فبين تعالى حكمته ومنفعتيها، وهكذا سائر أحكامه الشرعية، فإنها كلها هدى ورحمة.

أخبر بحكم عام، فقال: **﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى﴾** الذي هو العلم النافع، الذي يهدي من الضلالة، ويبين طرق الخير والشر.

﴿ودين الحق﴾ أي: الدين الموصوف بالحق، وهو العدل والإحسان والرحمة.

وهو كل عمل صالح مُرَكَّبٌ للقلوب، مطهر للنفوس، مُرَبٌِّّ للأخلاق، مُغَلِّلٌ للأقدار.

﴿ليظهره﴾ بما بعثه الله به **﴿على الدين كله﴾** بالحجة والبرهان، ويكون داعياً لإخضاعهم بالسيف والستار.

﴿٢٩﴾ **﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيماً﴾** يخبر تعالى عن رسوله ﷺ وأصحابه من المهاجرين

والأنصار، أنهم بأكمل الصناعات، وأجل الأحوال، وأهم **﴿أشداء على الكفار﴾** أي: جادون ومجتهدون في عداوتهم، وساعون في ذلك بغاية جهدهم، فلم يروا منهم إلا الغلظة والشدة، فلذلك ذل أعداؤهم لهم، وانكسروا، وقهرهم المسلمون، **﴿رحماء بينهم﴾** أي: متحابون متراحمون متعاطفون، كالجسد الواحد، يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، هذه معاملتهم مع الخلق، وأما معاملتهم مع الخالق فإنك **﴿تراهم ركعاً سجداً﴾** أي: وصفهم كثرة الصلاة، التي أجل أركانها الركوع والسجود.

﴿يبتغون﴾ بتلك العبادة **﴿فضلاً من الله ورضواناً﴾** أي: هذا مقصودهم بلوغ رضا ربهم، والوصول إلى ثوابه.

﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾ أي: قد أثرت العبادة - من كثرتها وحسنها - في وجوههم، حتى استنارت، لما استنارت بالصلاة بواطنهم، استنارت **﴿أباجلالاً﴾** ظواهرهم.

﴿ذلك﴾ المذكور **﴿مثلهم في التوراة﴾** أي: هذا وصفهم الذي وصفهم الله به، مذكور بالتوراة هكذا.

وأما مثلهم في الإنجيل، فإنهم موصوفون بوصف آخر، وأنهم في كمالهم وتعاونهم **﴿كزرع أخرج شطأه فآزره﴾** أي: أخرج فراخه، فآزرته فراخه في الشباب والاستواء.

﴿فاستغلظ﴾ ذلك الزرع أي: قوي وغلظ **﴿فاستوى﴾** **﴿على سوقه﴾** جمع ساق، **﴿يعجب الزراع﴾** من كماله واستوائه، وحسنه واعتداله، كذلك الصحابة رضي الله عنه، هم كالزرع في نفعهم للخلق واحتياج الناس إليهم، فقهة إيمانهم وأعمالهم بمنزلة قوة عروق الزرع وسوقه، وكون الصغار والمتأخر إسلامه، قد لحق الكبير السابق وازاره وعاونته على ما هو عليه، من إقامة دين الله والدعوة إليه،

ولم نجى لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه، فقال النبي ﷺ: «فروحوا إذا»، فراحوا، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد بالغيم في خيل لقريش، فخذوا ذات اليمين»، فوالله ما شعر بهم خالد، حتى إذا هو بغيرة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش.

وسار النبي ﷺ، حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها، بركت راحلته، فقال الناس: حل حل، فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء»، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل، ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمت الله إلا أعطيتهموها»، ثم زجرها، فوثبت به، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية، على ثمد قليل الماء، إنما يتبرضه الناس تبرضاً، فلم يلبث الناس أن نزحوه، فشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش.

فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوها فيه، قال: فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنها، وفزعت قريش لنزوله عليهم، فأحب رسول الله ﷺ أن يبعث إليهم رجلاً من أصحابه، فدعا عمر بن الخطاب ليعثه إليهم، فقال: يا رسول الله، ليس بمكة أحد من بني كعب يغضب لي، إن أوديت، فأرسل عثمان بن عفان، فإن عشيرته بها، وإنه مبلغ ما أردت.

فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان، فأرسله إلى قريش، وقال: «أخبرهم أنا لم نأت لقتال، إنما جئنا عُمَّاراً، وادعهم إلى الإسلام».

وأمره أن يأتي رجلاً بمكة مؤمنين، ونساء مؤمنات، فيدخل عليهم ويبشرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة، حتى لا يستخفى فيها بالإيمان، فانطلق

عشرة مئة، قال: يرحمه الله وهم، وهو جدثني أنهم كانوا خمس عشرة مئة، قلت: وقد صح عن جابر القولان، وصح عنه أنهم نحروا عام الحديبية سبعين بدنة، البدنة عن سبعة، فقليل له: كم كنتم؟ قال: ألفاً وأربع مئة، بخيلنا ورجلنا، يعني: فازسهم وراجلهم.

والقلب إلى هذا أميل، وهو قول البراء بن عازب، ومعلق بن يسار، وسلمة بن الأكوع، في أصح الروايتين، وقول المسيب بن حزن، قال شعبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن أبيه: كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفاً وأربع مئة، وغلظ غلظاً بيتاً من قال: كانوا سبع مئة، وعذره^(١) أنهم نحروا يومئذ سبعين بدنة، والبدنة قد جاء إجزاؤها عن سبعة أو عشرة، وهذا لا يدل على ما قاله هذا القائل، فإنه قد صرح بأن البدنة كانت في هذه الغزوة عن سبعة، فلو كانت السبعون عن جميعهم، لكانوا أربع مئة وتسعين رجلاً، وقد قال بتمام الحديث بعينه، أنهم كانوا ألفاً وأربع مئة.

فصل

فلما كانوا بذي الحليفة، قبلد رسول الله ﷺ الهذلي وأشعره، وأحرم بالعمرة، وبعث عتيلاً به بين يديه من خزاعة، يخبره عن قريش، حتى إذا كانوا قريباً من عسفان، أتاه عتيه، فقال: إني قد تركت كعب بن لؤي، قد جمعوا لك الأخابيش، وجمعوا لك جمعاً، وهم مقاتلونك وصادوك عن البيت.

واستشار النبي ﷺ أصحابه: أترون أن نميل إلى ذراري هؤلاء الذين أعانواهم فنصيبهم، فإن قعدوا قعدوا موتورين محزونين، وإن نجوا تكن عتقاً قطعها الله، أم ترون أن نؤم البيت؟ فمن صدنا عنه قاتلناه؟ قال أبو بكر: الله ورسوله أعلم، إنما جئنا معتمرين،

كالزروع الذي أخرج شطأه، فأزره فاستغلظ، ولهذا قال: «ليغظ بهم الكفار» حين يرون اجتماعهم وشدهم على دينهم، وحين يتصادمون هم وهم في معارك التزال، ومعامع القتال.

«وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا» فالصحابة رضي الله عنهم، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، قد جمع الله لهم بين المغفرة، التي من لوازمها وقاية شرور الدنيا والآخرة، والأجر العظيم في الدنيا والآخرة.

ولنسق قصة الحديبية بطولها، كما ساقها الإمام شمس الدين ابن القيم في «الهدى النبوي»، فإن فيها إعانة على فهم هذه السورة، وتكليم على معانيها وأسرارها، قال - رحمه الله تعالى -:

فصل في قصة الحديبية

قال نافع: كانت سنة ست في ذي القعدة، وهذا هو الصحيح، وهو قول الزهري، وقاتادة، وموسى بن عقبة، ومحمد بن إسحاق وغيرهم.

وقال هشام بن عروة، عن أبيه: خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية في رمضان، وكانت في شوال، وهذا وهم، وإنما كانت غزاة الفتح في رمضان. قال أبو الأسود عن عروة: إنها كانت في ذي القعدة على الصواب.

وفي الصحيحين عن أنس، أن النبي ﷺ اعتمر أربع عمر، كلهن في ذي القعدة، فذكر منهن عمرة الحديبية، وكان معه ألف وخمس مئة، هكذا في الصحيحين عن جابر، وعنه فيهما: كانوا ألفاً وأربع مئة، وفيهما، عن عبد الله بن أبي أوفى: كنا ألفاً وثلاث مئة، قال قتادة: قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الجماعة الذين شهدوابيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مئة، قال: قلت: فإن جابر بن عبد الله قال: كانوا أربع

كلمه أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة على رأس النبي ﷺ، ومعه السيف، وعليه المغفر فكلما أهوى عروة إلى الحية النبي ﷺ، ضرب يده بنعل السيف، وقال: أخرب يسدك عن الحية رسول الله ﷺ، فرفع عروة رأسه، وقال: من ذا؟ قال: المغيرة بن شعبة، فقال: أي: غدر، أولست أسعى في غدرتك؟ وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية، فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء».

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب رسول الله ﷺ، فوالله ما تنخم النبي ﷺ نخامة، إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها جلده ووجهه. وإذا أمرهم ابتدروا إلى أمره، وإذا توضأ، كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم، خفصوا أصواتهم عنده، وما يُحدّثون إليه النظر، تعظيماً له.

فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أي: قوم، والله لقد وفدت على الملوك، على كسرى، وقيصر، والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه، ما يعظم أصحاب محمد، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم، خفصوا أصواتهم عنده، وما يُحدّثون إليه النظر تعظيماً له، وقد عرض عليكم خطبة رشيد فاقبلوها.

فقال رجل من بني كنانة: دعوني آته، فقالوا: آته.

فلما أشرف على النبي ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له»، فلما فبعثوها فاستقبله القوم يلبون، فلما رأى ذلك، قال: سبحان الله، لا ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت. فرجع إلى أصحابه، فقال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، وما أرى أن يصدوا عن البيت فقام مكرز بن

عن رسول الله ﷺ، وكان أول من بايعه، أبو سنان الأسدي، وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرات، في أول الناس، وأوسطهم، وآخرهم.

فبينما هم كذلك، إذ جاء بدليل بن ورقاء الخزاعي، في نفر من خزاعة، وكانوا عيبة نصح لرسول الله ﷺ، من أهل هامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي، وعامر بن لؤي، نزّلوا أعداد مياه الحديبية، معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلون، وصادوك عن البيت.

قال رسول الله ﷺ: «إنا لم نجيء لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرّت بهم، فإن شاؤوا أمادهم ويخلوا بيني وبين الناس، وإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن أبوا إلا القتال، فوالذي نفسي بيده، لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، أو لينفذن الله أمره»، قال بدليل: سأبلغهم ما تقول.

فانطلق حتى أتى قريشاً، فقال: إني قد جئتكم من عند هذا الرجل، وسمعت يقول قولاً، فإن شئتم عرضه عليكم، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تحدّثنا عنه شيء، وقال ذوو الرأي: منهم: هات ما سمعته، قال: سمعته يقول كذا وكذا، فقال عروة بن مسعود الثقفي: إن هذا قد عرض عليكم خطبة رشيد، فاقبلوها، ودعوني آته، فقالوا: آته، فأتاه، فجعل يكلمه، فقال له النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل، فقال له عروة عند ذلك: أي: محمد، أرايت لو استأصلت قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاحت أهله قبله؟ وإن تكن الأخرى، فوالله إني لأرى وجوهاً، وأرى أوباشاً من الناس، خليفاً أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات، أنحن نفر عنه وندعه؟ قال: من ذا؟ قال: أبو بكر، قال: أما والذي نفسي بيده، لولا يد كانت لك عندي لم أجرك بها، لأجبتك.

وجعل يكلم النبي ﷺ، وكلما

عثمان، فمر على قريش ببيلدح، فقالوا: أين تريد؟ فقال: بعثني رسول الله ﷺ أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، ونخبركم أنا لم نأت لقتال، وإنما جئنا غمّاراً، قالوا: قد سمعنا ما تقول، فانفذ لحاجتك.

وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص، فرحب به، وأسرج فرسه، فحمل عثمان على الفرس، فأجاره، وأردفه أبان حتى جاء مكة، وقال المسلمون قبل أن يرجع عثمان: خلص عثمان قبلنا إلى البيت وطاف به، فقال رسول الله ﷺ: «ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون»، فقالوا: وما يمنعه يا رسول الله وقد خلص؟ قال: «ذاك ظني به، أن لا يطوف بالكعبة حتى تطوف معه»، واختلط المسلمون بالمشركين في أمر الصلح، فرمى رجلٌ من أحد الفريقين رجلاً من الفريق الآخر، وكانت معركة، وتراموا بالنبل والحجارة، وصاح الفريقان كلاهما، وارتمن كل واحد من الفريقين بمن فيهم، وبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل، فدعا إلى البيعة.

فثار المسلمون إلى رسول الله ﷺ، وهو تحت الشجرة، فبايعوه على أن لا يفروا، فأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه، وقال: «هذه عن عثمان»، ولما تمت البيعة، رجع عثمان، فقال له المسلمون: اشتفت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت، فقال: بئسما ظننتم بي، والذي نفسي بيده، لو مكثت بها سنة، ورسول الله ﷺ مقيم بالحديبية، ما طفت بها حتى يطوف بها رسول الله ﷺ. ولقد دعيتي قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت، فقال المسلمون: رسول الله ﷺ، كان أعلمنا بالله، وأحسننا ظناً.

وكان عمر أخذ بيد رسول الله ﷺ للبيعة تحت الشجرة، فبايعه المسلمون كلهم إلا الجند بن قيس، وكان معقل بن يسار، أخذ بغصنها يرفعه

حفص، وقال: دعوني آتة، فقالوا: آتته، فلما أشرف عليهم، قال النبي ﷺ: «هذا مكرز بن حفص، وهو رجل فاجر»، فجعل يكلم رسول الله ﷺ، فبينما هو يكلمه، إذ جاء سهيل بن عمرو، فقال النبي ﷺ: «قد سهل لكم من أمركم»، فقال: هات، اكتب بيننا وبينك كتاباً، فدعا الكاتب، فقال: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: أما الرحمن، فوالله ما ندري ما هو، ولكن اكتب: «باسمك اللهم» كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال النبي ﷺ: «اكتب باسمك اللهم».

ثم قال: «اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»، فقال سهيل: فوالله لو نعلم أنك رسول الله، ما صدناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فقال النبي ﷺ: «إني رسول الله وإن كذبتهموني، اكتب: محمد بن عبد الله»، فقال النبي ﷺ: «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به»، فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة، ولكن لك من العام المقبل، فكتب.

فقال سهيل: على أن لا يأتيتك منا رجل، وإن كان على دينك، إلا رددته علينا.

فقال المسلمون: سبحان الله، كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟

فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل يرسف في قيوده، قد خرج من أسفل مكة، حتى رمى نفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما قاضيتك عليه، أن ترد، فقال النبي ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد»، فقال: فوالله إذا لا أصالحك على شيء أبداً، فقال

النبي ﷺ: «أفجزه لي»، فقال: ما أنا بمجزه، فقال: «بلى فافعل»، قال: ما أنا بفاعل، قال مكرز: قد أجزناه.

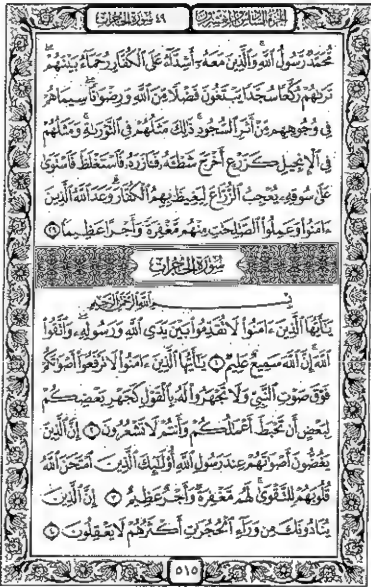
فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين، أريد إلى المشركين وقد جئت مسلماً، ألا ترون ما لقيت؟ وكان قد عذب في الله عذاباً شديداً.

قال عمر بن الخطاب: والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ، فأثيت النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله ألسنت نبي الله؟ قال: «بلى». قلت: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى» فقلت: علام نعطي الذنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا؟ فقال: «إني رسول الله، وهو ناصري، ولست أعصيه»، قلت: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه العام؟» قلت: لا، قال: «فإنك آتية ومطوف به».

قال: فأثيت أبا بكر، فقلت له كما قلت لرسول الله ﷺ، ورد عليه أبو بكر كما رد عليه رسول الله ﷺ سواء، وزاد: فاستمسك بخرزه حتى تموت، فوالله إنه لعل الحق، قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً.

فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله ﷺ: «قوموا وانحروا، ثم احلقوا»، فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ثلاث مرات، فلما لم يبق منهم أحد، قام فدخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت: يا رسول الله أتحب ذلك؟ أخرج، ثم لا تكلم أحداً كلمة حتى تنحر بذك، وتدعو حالقك فيحلق لك، فقام فخرج، فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر يذنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأى الناس ذلك، قاموا فتحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً، ثم جاءت نسوة مؤمنات، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مِهَاجِرَاتٌ﴾ حتى بلغ «بعصم الكوافر» فطلق عمر

فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله ﷺ: «قوموا وانحروا، ثم احلقوا»، فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ثلاث مرات، فلما لم يبق منهم أحد، قام فدخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت: يا رسول الله أتحب ذلك؟ أخرج، ثم لا تكلم أحداً كلمة حتى تنحر بذك، وتدعو حالقك فيحلق لك، فقام فخرج، فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر يذنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأى الناس ذلك، قاموا فتحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً، ثم جاءت نسوة مؤمنات، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مِهَاجِرَاتٌ﴾ حتى بلغ «بعصم الكوافر» فطلق عمر



يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية، والأخرى صفوان بن أمية، ثم رجع إلى المدينة.

وفي مرجعه أنزل الله عليه: ﴿إِنَّا نفتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ إلى آخرها، فقال عمر: أفتح هو يا رسول الله؟ فقال: «نعم»، فقال الصحابة: هنيئاً لك يا رسول الله، فما لنا؟

فأنزل الله عز وجل: ﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين﴾ الآية. انتهى.

وهذا آخر تفسير سورة الفتح والله الحمد والمئة.

لوصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه. نقلته من خط المفسر رحمه الله وعفا عنه، وكان الفراغ من كتابته في ١٣ ذي الحجة ١٣٤٥ وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين آمين. بقلم الفقير إلى ربه سليمان بن حمد العبد الله البسام. غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين. وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات^(١).

المجلد الثامن من تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان من به الله على عبده وابن عبده وابن أمته: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعد.

العبد وهو لا يشعر، كما أن الأدب معه من أسباب [حصول الثواب و] قبول الأعمال.

ثم مدح من غض صوته عند رسول الله ﷺ، بأن الله امتحن قلوبهم للتقوى أي: ابتلاها واختبرها، فظهرت نتيجة ذلك، بأن صلحت قلوبهم للتقوى، ثم وعدهم المغفرة لذنوبهم المتضمنة لزوال الشر والمكره، والأجر العظيم، الذي لا يعلم وصفه إلا الله تعالى، وفي الأجر العظيم وجود المحبوب^(٤)، وفي هذا دليل على أن الله يمتحن القلوب، بالأمر والنهي والمحن، فمن لازم أمر الله، واتبع رضاه، وسارع إلى ذلك، وقدمه على هواه، تمحض وتمحص للتقوى، وصار قلبه صالحاً لها ومن لم يكن كذلك، علم أنه لا يصلح للتقوى.

﴿٤-٥﴾ «إِنَّ الَّذِينَ يَتَذَكَّرُونَ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ» ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم. نزلت هذه الآيات الكريزمات في أناس من الأعراب، الذين وصفهم الله تعالى بالجفاء، وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، قدموا وافدين على رسول الله ﷺ، فوجدوه في بيته وحجرات نسائه، فلم يصبروا ويتأدبوا حتى يخرج، بل نادوه: يا محمد يا محمد [أي: أخرج إلينا]، فذمهم الله بعدم العقل، حيث لم يعقلوا عن الله الأدب مع رسوله واحترامه، كما أن من العقل وعلامته استعمال الأدب.

فأدب العبد، عنوان عقله، وأن الله يريد به الخير، ولهذا قال ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ والله غفور رحيم. أي: غفور لما صدر عن عباده من الذنوب والإخلال بالأدب، رحيم بهم، حيث لم يعاجلهم بذنوبهم بالعقوبات والمثالات.

وفلاحه، وفواته تفوته السعادة الأبدية والنعيم السرمدي، وفي هذا، النهي [الشديد] عن تقديم قول غير الرسول ﷺ على قوله، فإنه متى استبانت سنة رسول الله ﷺ، وجب اتباعها، وتقديمها على غيرها، كائنات ما كان^(١).

ثم أمر الله بتقواه عموماً، وهي كما قال طلق بن حبيب: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله، تخشى عقاب الله.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أي: لجميع الأصوات في جميع الأوقات، في خفي المواضع والجهات، ﴿عَلِيمٌ﴾ بالظواهر والبواطن، والسوابق واللواحق، والزاجيات والمستحيلات والممكنات^(٢).

وفي ذكر الاسمين الكريمين - بعد النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله والأمر بتقواه - حث على امثال تلك الأوامر الحسنة، والآداب المستحسنة، وترهيب عن عدم الامثال^(٣).

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ وهذا أدب مع رسول الله ﷺ في خطابه، أي: لا يرفع المخاطب له صوته معه فوق صوته، ولا يجهر له بالقول، بل يغض الصوت، ويخاطبه بأدب ولين، وتعظيم وتكریم، وإجلال وإعظام، ولا يكون الرسول كأحد، بل يميزوه في خطابهم، كما تميز عن غيره في وجوب حقه على الأمة، ووجوب الإيمان به، والحب الذي لا يتم الإيمان إلا به، فإن في عدم القيام بذلك مخذوراً، وخشية أن يحبط عمل



تفسير سورة الحجرات وهي مدنية

﴿١-٣﴾ «يَسْمِعُ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَمِيعٌ عَلِيمٌ» يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون. إن الذين يفضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم. هذا متضمن للأدب مع الله تعالى، ومع رسول الله ﷺ، والتعظيم له، واحترامه، وإكرامه، فأمر [الله] عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالله وبرسوله، من امثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وأن يكونوا ماشين خلف أوامر الله، متبعين لسنة رسول الله ﷺ في جميع أمورهم، و[أن] لا يتقدموا بين يدي الله ورسوله، ولا يقولوا حتى يقول، ولا يأمروا حتى يأمر، فإن هذا حقيقة الأدب الواجب مع الله ورسوله، وهو عنوان سعادة العبد

(١) في ب: من كان.

(٢) في ب: والجائزات.

(٣) في ب: عن ضده.

(٤) في ب: وفيه حصول كل محبوب.

إذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين، فإن على غيرهم من المؤمنين أن يتلافوا هذا الشر الكبير، بالإصلاح بينهم، والتوسط بذلك على أكمل وجه يقع به الصلح، ويسلكوا الطريق الموصلة إلى ذلك، فإن صلحتا فيها ونعمت، وإن **بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله** أي: ترجع إلى ما جده الله ورسوله، من فعل الخير وترك الشر، الذي من أعظمه الاقتتال، [وقوله] **«فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل»** هذا أمر بالصلح، وبالعدل في الصلح، فإن الصلح قد يوجد، ولكن لا يكون بالعدل، بل بالظلم والحيف على أحد الخصمين، فهذا ليس هو الصلح المأمور به، فيجب أن لا يراعى أحدهما لقربة، أو وطن، أو غير ذلك من المصائد والأغراض، التي توجب العدول عن العدل، **«إن الله يحب المقسطين»** أي: العادلين في حكمهم بين الناس وفي جميع الولايات التي تولوها، حتى إنه قد يدخل في ذلك عدل الرجل في أهله وعياله في أدائه حقوقهم، وفي الحديث الصحيح: «المقسطون عند الله على منابر من نور الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا».

«إنما المؤمنون إخوة» هذا عقد عقده الله بين المؤمنين، أنه إذا وجد من أي: شخص كان في مشرق الأرض ومغربها، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فإنه أخ للمؤمنين، أخوة توجب أن يحب له المؤمنون ما يحبون لأنفسهم، ويكرهون له ما يكرهون لأنفسهم، ولهذا قال النبي ﷺ **«أمرأ بأحقق الأخوة الإيمانية: (لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباعضوا، ولا يبع أحدكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المؤمن أخو المؤمن،**

وقبول القلوب والفطر له، وبما يفعله تعالى بكم من توفيقه للإنابة إليه، ويكره إليكم الكفر والفسوق أي: الذنوب الكبائر، والعصيان: هي ما دون ذلك من الذنوب^(١)، بما أودع في قلوبكم من كراهة الشر، وعدم إرادة فعله، وبما نصبه من الأدلة والشواهد على فساد وعدم قبول الفطر له، وبما يجعله الله من الكراهة في القلوب له^(٢).

«أولئك» أي: الذين زين الله الإيمان في قلوبهم، وحببه إليهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان **«هم الراشدون»** أي: الذين صلحت علومهم وأعمالهم، واستقاموا على الدين القويم، والضراط المستقيم. وضدهم الغاؤون، الذين حجب إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وكره إليهم الإيمان، والذنب ذنبهم، فإنهم لما فسقوا طبع الله على قلوبهم، ولما **«زاعوا أزاع الله قلوبهم»** ولما لم يؤمنوا بالحق لما جاءهم أول مرة، قلب الله أفئدتهم.

وقوله: **«فضلاً من الله ونعمة»** أي: ذلك الخير الذي حصل لهم، هو بفضل الله عليهم وإحسانه، لا بحولهم وقوتهم.

«والله عليم حكيم» أي: عليم بمن يشكر النعمة فيوقفه لها، ممن لا يشكرها، ولا تليق به، فيضع فضله حيث تقتضيه حكمته.

«٩-١٠» **«وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين»** إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون **«هذا متضمن لنهي المؤمنين [عن] أن يبعي بعضهم على بعض، ويقاتل^(٣) بعضهم بعضاً، وأنه**

«٦» **«يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بئاً فبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصيبوا على ما فعلتم نادمين»** وهذا أيضاً من الآداب التي على أولي الألباب التأدب بها واستعمالها، وهو أنه إذا أخبرهم فاسق بخبر أن يشبوا في خبره، ولا يأخذوه مجرداً، فإن في ذلك خطراً كبيراً، ووقوعاً في الإثم، فإن خبره إذا جعل بمنزلة خبر الصادق العدل، حكم بموجب ذلك ومقتضاه، فحصل من تلف النفوس والأموال بغير حق بسبب ذلك الخبر ما يكون سبباً للندامة، بل الواجب عند خبر الفاسق، التثبت والتبين، فإن دلت الدلائل والقرائن على صدقه، عمل به وصدق، وإن دلت على كذبه، كذب ولم يعمل به، ففيه دليل على أن خبر الصادق مقبول، وخبر الكاذب مردود، وخبر الفاسق متوقف فيه كما ذكرنا، ولهذا كان السلف يقبلون روايات كثير [من] الخوارج، المعروفين بالصدق، ولو كانوا فاسقاً.

«٧-٨» **«وأعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون»** فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم **«أي: ليكون لديكم معلوماً أن رسول الله ﷺ بين أظهركم، وهو الرسول الكريم، البار، الراشد، الذي يريد بكم الخير وينصح لكم، وتريدون لأنفسكم من الشر والمضرة ما لا يوافقكم الرسول عليه، ولو يطيعكم في كثير من الأمر لشق عليكم وأعنتكم، ولكن الرسول يرشدكم، والله تعالى يحب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم، بما أودع الله في قلوبكم من محبة الحق وإيثاره، وبما ينصب على الحق من الشواهد والأدلة الدالة على صحته،**

(١) في ب: أي: الذنوب الصغار.

(٢) في ب: وبما يجعل الله في القلوب من الكراهة له.

(٣) في ب: ويقتل.

لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره^(١). وقال ﷺ^(٢): «المؤمن للمؤمنين كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه.

ولقد أمر الله ورسوله بالقيام بحقوق المؤمنين بعضهم لبعض، وبما به يحصل التآلف والتوادد والتواصل بينهم، كل هذا تأييد لحقوق بعضهم على بعض، فمن ذلك، إذا وقع الاقتتال بينهم، الموجب لتفريق القلوب وتباغضها [وتدابرها]، فليصلح المؤمنون بين إخوانهم، وليسعوا فيما به يزول شنائهم.

ثم أمر بالتقوى عموماً، ورتب على القيام بحقوق المؤمنين ويتقوى الله، الرحمة [فقال: «لعلكم ترحمون»]، وإذا حصلت الرحمة حصل خير الدنيا والآخرة، ودل ذلك على أن عدم القيام بحقوق المؤمنين من أعظم حواجب الرحمة.

وفي هاتين الآيتين من الفوائد، غير ما تقدم: أن الاقتتال بين المؤمنين مناف للأخوة الإيمانية، ولهذا كان من أكبر الكبائر، وأن الإيمان والأخوة الإيمانية لا تزول مع وجود القتال كغيره من الذنوب الكبار التي دون الشرك، وعلى ذلك مذهب أهل السنة والجماعة، وعلى وجوب الإصلاح بين المؤمنين بالعدل، وعلى وجوب قتال البغاة حتى يرجعوا إلى أمر الله، وعلى أنهم لو رجعوا لغير أمر الله، بأن رجعوا على وجه لا يجوز الإقرار عليه والتزامه، أنه لا يجوز ذلك، وأن أموالهم معصومة، لأن الله أباح دمائهم وقت استمرارهم على بغيهم خاصة، دون أموالهم.

﴿١١﴾ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴿١٢﴾ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا يحسبوا ولا يفتب بعضهم بعضاً يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم ﴿١٣﴾ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا السوء^(١) بالظن، فـ ﴿١٢﴾ إن بعض الظن إثم وذلك كالظن الخالي من الحقيقة والقرينة، وكظن السوء، الذي يفتقر به كثير من الأقوال، والأفعال المحرمة، فإن بقاء ظن السوء بالقلب، لا يقتصر صاحبه على مجرد ذلك، بل لا يزال به، حتى يقول ما لا ينبغي، ويفعل ما لا ينبغي، وفي ذلك أيضاً إساءة الظن بالمسلم، وبغضه وعداوته المأمور بخلاف ذلك منه.

ثم قال: ﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾ أي: لا يعيب بعضكم على بعض، واللمز بالقول، والهمز بالفعل، وكلاهما منهي عنه حرام، متوعد عليه بالنار.

كما قال تعالى: ﴿ويل لكل همزة لمزة﴾ الآية، وسمى الأخ المؤمن^(٤) نفساً لأخيه، لأن المؤمن ينبغي أن يكون هكذا حالهم كالحسد الواحد، ولأنه إذا همز غيره، أوجب للغير أن يهمزه، فيكون هو المتسبب لذلك.

﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾ أي: لا يعير أحدكم أخاه، ويلقبه بلقب ذم يكره أن يطلق عليه^(٥)، وهذا هو التنابز، وأما الألقاب غير المذمومة، فلا تدخل في هذا.

﴿بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾ أي: بئسما تبدلتن عن الإيمان والعمل بشرائعه، وما تقتضيه بالإغراض عن أوامره ونواهيه، باسم الفسوق والعصيان، الذي هو التنابز بالألقاب.

﴿ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾ فهذا [هو] الواجب على العبد، أن يتوب إلى الله تعالى، ويخرج من حق أخيه المسلم، باستحلاله والاستغفار، والمدح له مقابلته [على] ذمته.

﴿ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾ فالناس قسمان: ظالم لنفسه غير تائب، وتائب مفلح، ولا تسم قسم ثالث غيرهما.

﴿١٢﴾ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا يحسبوا ولا يفتب بعضهم بعضاً يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم ﴿١٣﴾ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا السوء^(١) بالظن، فـ ﴿١٢﴾ إن بعض الظن إثم وذلك كالظن الخالي من الحقيقة والقرينة، وكظن السوء، الذي يفتقر به كثير من الأقوال، والأفعال المحرمة، فإن بقاء ظن السوء بالقلب، لا يقتصر صاحبه على مجرد ذلك، بل لا يزال به، حتى يقول ما لا ينبغي، ويفعل ما لا ينبغي، وفي ذلك أيضاً إساءة الظن بالمسلم، وبغضه وعداوته المأمور بخلاف ذلك منه.

﴿ولا يحسبوا﴾ أي: لا تفتشوا عن عورات المسلمين، ولا تتبعوها، واتركوا^(٧) المسلم على حاله، واستعملوا التغافل عن أحواله^(٨)، التي إذا فتشت ظهر منها ما لا ينبغي.

(١) في ب: أورد الشيخ الحديث كما يلي: (لا تحاسدوا ولا تناحشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، ولا يكذب) متفق عليه.

(٢) في ب: وفيهما عن النبي ﷺ.

(٣) في ب: وهو الغالب.

(٤) في ب: المسلم.

(٥) في ب: بلقب يكره أن يقال فيه.

(٦) في ب: السي.

(٧) في ب: ودعوا.

(٨) في ب: عن زلاته.

﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾
والغيبة كما قال النبي ﷺ «ذكرك أخاك بما يكره ولو كان فيه».

ثم ذكر مثلاً منفراً عن الغيبة، فقال: ﴿أحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾ شبه أكل لحم ميتاً المكروه للنفوس [أغاية الكراهة] باغتيابه، فكما أنكم تكرهون أكل لحمه، وخصوصاً إذا كان ميتاً، فاقد الروح، فكذلك [فلكرهوها] غيبته وأكل لحمه حياً.

﴿واتقوا الله إن الله تواب رحيم﴾ والتواب الذي يأذن بتوبة عبده فيوقفه لها، ثم يتوب عليه بقبول توبته، رحيم بعباده، حيث دعاهم إلى ما ينفعهم، وقبل منهم التوبة، وفي هذه الآية دليل على التحذير الشديد من الغيبة، وأن الغيبة من الكبائر، لأن الله شبهها بأكل لحم الميت، وذلك من الكبائر.

﴿١٣﴾ «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم إن الله عليم خبير» يخبر تعالى أنه خلق بني آدم من أصل واحد، وجنس واحد، وكلهم من ذكر وأنثى، ويرجعون جميعهم إلى آدم وخواء، ولكن الله [تعالى] ابتثما رجلاً كثيراً ونساءً، وفرقهم، وجعلهم شعوباً وقبائل أي: قبائل صغاراً وكباراً، وذلك لأجل أن يتعارفوا، فإنهم لو استقل كل واحد منهم بنفسه، لم يحصل بذلك التعارف الذي يترتب عليه التناصر والتعاون والتواضع، والقيام بحقوق الأقارب، ولكن الله جعلهم شعوباً وقبائل، لأجل أن تحصل هذه الأمور وغيرها مما يتوقف على التعارف، ولحق الأنساب، ولكن الكرم بالتقوى، فأكرمهم عند الله اتقاهم، وهو أكثرهم طاعة وانكفافاً عن المعاصي، لا أكثرهم قرابة وقوماً، ولا أكثرهم نسباً، ولكن الله تعالى عليم خبير، يعلم من يقوم منهم بتقوى الله ظاهراً وباطناً، ممن يقوم بذلك ظاهراً لا باطناً، فيجازي كلا بما يستحق.

وفي هذه الآية دليل على أن معرفة الأنساب مطلوبة مشروعة، لأن الله جعلهم شعوباً وقبائل لأجل ذلك.

﴿١٤-١٨﴾ «قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم» وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم» إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون» قل تعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض والله بكل شيء عليم» «يؤمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين» «إن الله يعلم غيب السماوات والأرض والله بصير بما تعملون» يخبر تعالى عن مقالة الأعراب الذين دخلوا في الإسلام في عهد رسول الله ﷺ ودخولاً من غير بصيرة، ولا قيام بما يجب ويقتضيه الإيمان، أنهم ادعوا مع هذا وقالوا: آمنا أي: إيماناً كاملاً، مستوفياً لجميع أموره هذا موجب هذا الكلام، فأمر الله رسوله أن يرد عليهم، فقال: ﴿قل لم تؤمنوا﴾ أي: لا تدعوا لأنفسكم مقام الإيمان، ظاهراً وباطناً، كاملاً.

﴿ولكن قولوا أسلمنا﴾ أي: دخلنا في الإسلام، واقتصروا على ذلك.

﴿و﴾ السبب في ذلك، أنه «لما يدخل الإيمان في قلوبكم» وإنما آمنت خوفاً أو رجاءً أو نحو ذلك، مما هو السبب في إيمانكم، فلذلك لم تدخل بشاشة الإيمان في قلوبكم، وفي قوله: ﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ أي: وقت هذا الكلام الذي صدر منكم، فكان فيه إشارة إلى أحوالهم بعد ذلك، فإن كثيراً منهم، من الله عليهم بالإيمان الحقيقي، والجهاد في سبيل الله، «وإن تطيعوا الله ورسوله» بفعل خير، أو ترك شر «لا يلتكم من أعمالكم شيئاً» أي: لا ينقصكم منها مثقال

ذرة، بل يوفيكهم إياها أكمل ما تكون لا تفقدون منها صغيراً ولا كبيراً، «إن الله غفور رحيم» أي: غفور لمن تاب إليه وأتاب، رحيم به، حيث قبل توبته.

﴿إنما المؤمنون﴾ أي: على الحقيقة «الذين آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا في سبيل الله» أي: من جمعوا بين الإيمان والجهاد في سبيله، فإن من جاهد الكفار، دل ذلك على الإيمان الثام في القلب، لأن من جاهد غيره على الإسلام، والقيام بشرائعه، فجهاده لنفسه على ذلك، من باب أولى وأحرى؛ ولأن من لم يقو على الجهاد، فإن ذلك دليل على ضعف إيمانه، وشرط تعالى في الإيمان عدم التريب، وهو الشك، لأن الإيمان النافع هو الجزم اليقيني بما أمر الله بالإيمان به، الذي لا يعتريه شك بوجه من الوجوه.

وقوله: «أولئك هم الصادقون» أي: الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الجميلة، فإن الصدق دعوى كبيرة في كل شيء يدعى يحتاج صاحبه إلى حجة وبرهان، وأعظم ذلك دعوى الإيمان الذي هو مبدآن السعادة، والفوز الأبدي، والفلاح السرمدي، فمن ادعاه وقام بواجباته ولوازمه، فهو الصادق المؤمن حقاً، ومن لم يكن كذلك، علم أنه ليس بصادق في دعواه، وليس لدعواه فائدة، فإن الإيمان في القلب لا يطلع عليه إلا الله تعالى.

فإثباته ونفيه من باب تعليم الله بما في القلب، وهذا سوء أدب، وظن بالله، ولهذا قال: «قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض» والله بكل شيء عليم» وهذا شامل للأشياء كلها، التي من جملتها ما في القلوب من الإيمان والكفران، والبر والفجور، فإنه تعالى يعلم ذلك كله ويجازي عليه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

هذه حالة من أحوال من ادعى لنفسه الإيمان وليس به، فإنه إما أن

تفسير سورة ق وهي مكية

﴿١ - ٤﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ * بَلْ عَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * إِذَا مَتَّأ وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ﴾^(١) يقسم تعالى بالقرآن المجيد أي: وسيع المعاني عظيمها، كثير الوجوه كثير البركات، جزيل المبرات. والمجد: سعة الأوصاف وعظمتها، وأحق كلام يوصف بهذا، هذا القرآن، الذي قد احتوى على علوم الأولين والآخرين، الذي خوى من الفصاحة أكملها، ومن الألفاظ أجزلها، ومن المعاني أعمها وأحسنها، وهذا موجب لكمال أتباعه [أسرعة] الانقياد له، وشكر الله على المنة به.

ولكن أكثر الناس لا يقدر نعم الله قدرها، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ عَجَبُوا﴾ أي: المكذبون للرسول ﷺ، ﴿أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ أي: ينذرهم ما يضرهم، ويأمرهم بما ينفعهم، وهو من جنسهم، يمكنهم التلقي عنه، ومعرفة أحواله وصدقته.

فتعجبوا من أمر لا ينبغي لهم التعجب منه، بل يتعجب من عقل من تعجب منه.

﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ الذين حملهم كفرهم وتكذيبهم، لا نقص بذكائهم وآرائهم^(٥).

﴿هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: مستغرب، وهم في هذا الاستغراب بين أمرين:

إما ضادقون في [استغرابهم و] تعجبهم، فهذا يدل على غاية جهلهم،

يكون ذلك تعليماً لله، وقد علم أنه عالم بكل شيء، وإما أن يكون قصدهم بهذا الكلام المنة على رسوله، وأنهم قد بذلوا له [وتبرعوا] بما ليس من مصالحهم، بل هو من حظوظه الدنيوية، وهذا تجمل بما لا يحمل، وفخر بما لا ينبغي لهم أن يفتخروا على رسوله به^(١)، فإن المنة لله تعالى عليهم، فكما أنه تعالى يمن^(٢) عليهم بالخلق والرزق، والنعم الظاهرة والباطنة، فمنته عليهم هدايتهم إلى الإسلام، ومنته عليهم بالإيمان، أعظم^(٣) من كل شيء، ولهذا قال تعالى: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِلَّا مَنَّا إِنَّكُمْ لَنِائِمُونَ عَلَى كُنُوفِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: الأمور الخفية فيها، التي تخفى على الخلق، كالذي في حجج البخار، ومهامه القفار، وما جئته الليل أو واره النهار، يعلم قطرات الأمطار، وحبات الرمال، ومكونات الصدور، وخبايا الأمور.

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مبین﴾.

﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يحصي عليكم أعمالكم، ويوفيكم إياها، ويميزكم عليها بما تقتضيه رحمته الواسعة وحكمته البالغة.

ثم تفسير سورة الحجرات، يعون الله ومنه وجوده وكرمه، فلك اللهم من الحمد أكمله وأتمه، ومن الجود أفضله وأغمه^(٤).

وضعف عقولهم، بمنزلة المجنون الذي يستغرب كلام العاقل، وبمنزلة الجبان الذي يشعجب من لقاء الفارس للمفرسان، وبمنزلة البخيل الذي يستغرب سخاء أهل السخاء، فأي: ضرر يلحق من تعجب من هذه حاله؟ وهل تعجبه إلا دليل على زيادة ظلمه وجهله؟ وإما أن يكونوا متعجبين، على وجه يعلمون خطأهم فيه، فهذا من أعظم الظلم وأشنع.

ثم ذكر وجه تعجبهم، فقال: ﴿إِذَا مَتَّأ وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ فقاوسا قدرة من هو على كل شيء قدير، الكامل من كل وجه، بقدرة العبد الفقير العاجز من جميع الوجوه، وقاوسا الجاهل الذي لا علم له، بمن هو بكل شيء عليم، الذي يعلم ما تنقص الأرض من أجسادهم مدة مقامهم في برزخهم، وقد أحصى في كتابه الذي هو عنده محفوظ عن التغيير والتبديل، كل ما يجري عليهم في حياتهم وماتهم، وهذا استدلال بكمال علمه، وسعته التي لا يحيط بها إلا هو، على قدرته على إحياء الموتي.

﴿٥﴾ ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ أي: ﴿بَلْ﴾ كلامهم الذي صدر منهم، إنما هو عناد وتكذيب للحق الذي هو أعلى أنواع الصدق ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ أي: مختلط مشتبه، لا يشتون على شيء، ولا يستقر لهم قرار، فتارة يقولون عنك إنك ساحر، وتارة مجنون، وتارة شاعر، وكذلك جعلوا القرآن عضين، كل قال فيه ما اقتضاه رأيه الفاسد، وهكذا كل من كذب بالحق، فإنه في أمر مختلط، لا يدرى له وجهة^(٦) ولا قرار، [فترى أموره] متناقضة متفككة [كما أن من أتبع الحق]

(١) في ب: لا ينبغي لهم الفخر به على رسوله.

(٢) في ب: هو المان.

(٣) في ب: أفضل.

(٤) في ب: بعد قوله وكرمه: والحمد لله.

(٥) كذا في ب، وفي أ: لا نقص بقلوبهم وعقولهم.

(٦) في ب: وجه.

وصدق به، قد استقام أمره، واعتدل سبيله، وصدق فعله قبله.

﴿١١-١٢﴾ «أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة وذكرى لكل عبد منيب * ونزلنا من السماء ماءً مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد * والنخل باسقات لها طلع نضيد * رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج» لما ذكر تعالى حالة المكذبين وما ذمهم به، دعاهم إلى النظر في آياته^(١) الأفقية، كي يعتبروا، ويستدلوا بها على ما جعلت أدلة عليه، فقال: «أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم» أي: لا يحتاج ذلك النظر إلى كلفة وشدة رحل، بل هو في غاية السهولة، فينظرون «كيف بنيناها» قبة مستوية الأرجاء، ثابتة البناء، مزينة بالنجوم الخنس، والجوار الكنس، التي ضربت من الأفق إلى الأفق في غاية الحسن والملاحة، لا تري فيها عيباً، ولا فروجاً، ولا خللاً، ولا إخلالاً.

قد جعلها الله سقفاً لأهل الأرض، وأودع فيها من مصالحهم الضرورية ما أودع.

﴿١٣﴾ «وإلى الأرض كيف مددناها * ووسعناها، حتى أمكن كل حيوان السكون فيها والاستقرار»^(٢)، والاستعداد لجميع مصالحه، وأرساها بالجبال، لتستقر من التزلزل والتلويح، «وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج» أي: من كل صنف من أصناف النبات التي تسر ناظرها، وتعجب مبصرها، وتقر عين راميها، لأكل بني آدم، وأكل بهائمهم ومنافعهم، وخص من تلك المنافع بالذكر، الجنات المشتملة على

الفواكه اللذيذة، من العنب والرمان والأنرج والتفاح، وغير ذلك من أصناف الفواكه، ومن النخيل الباسقات أي: الطوال، التي يطول^(٣) نفعها وترتفع إلى السماء حتى تبلغ مبلغاً لا يبلغه كثير من الأشجار، فتخرج من الطلع النضيد، في قناتها ما هو رزق للعباد قوتاً وأدماً وفاكهة، يأكلون منه ويدخرون، هم ومواسيهم وكذلك ما يخرج الله بالطرز، وما هو أثره من الأنهار التي على وجه الأرض، والتي تحتها من حب الحصيد، أي: من الزرع المحصود، من بُرٍّ وشعير، وذرة، وأرز، ودخن وغيره.

فإن في النظر في هذه الأشياء «تبصرة» يتبصر بها من عمى الجهل، «وذكرى» يتذكر بها ما ينفع في الدين والدنيا، ويتذكر بها ما أخبر الله به، وأخبرت به رسله، وليس ذلك لكل أحد، بل «لكل عبد منيب» إلى الله أي: مقبل عليه بالحب والخوف والرجاء، وإجابة داعيه، وأما المكذب أو المعرض، فما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون.

وحاصل هذا، أن ما فيها من الخلق الباهر، والشدة والقوة، دليل على كمال قدرة الله تعالى، وما فيها من الحسن والإتقان، وبديع الصنعة، وبديع الخلقة^(٤)، دليل على أن الله أحكم الحاكمين، وأنه بكل شيء عليم، وما فيها من المنافع والمصالح للعباد، دليل على رحمة الله التي وسعت كل شيء، وجوده الذي عم كل حي، وما فيها من عظم الخلقة وبديع النظام، دليل على أن الله تعالى هو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له كفواً

أحد، وأنه الذي لا تنبغي العبادة والذل [والحب] إلا له تعالى.

وما فيها من إحياء الأرض بعد موتها، دليل على إحياء الله الموتى، لجازيهم بأعمالهم، ولهذا قال: «وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج».

ولما ذكرهم هذه الآيات السماوية والأرضية، خوفهم أخذت الأمم، وألا يستمروا على ما هم عليه من التكذيب، فصيهم ما أصاب إخوانهم من المكذبين، فقال:

﴿١٢-١٥﴾ «كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود * وعاد وفرعون وإخوان لوط * والأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد * أفبعينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد» أي: كذب الذين من قبلهم من الأمم رسلهم الكرام وأنبياءهم العظام، ك «نوح» كذبه قومه [وثمود كذبوا صالحاً]^(٥)، وعاد كذبوا «هوداً»، وإخوان لوط كذبوا «لوطاً»، وأصحاب الأيكة كذبوا «شعيباً»، وقوم تبع، وتبع كل ملك ملك اليمن في الزمان السابق قبل الإسلام^(٦) فقوم تبع كذبوا الرسول الذي أرسله الله إليهم، ولم يخبرنا الله من هو ذلك الرسول، وأي: تبع من التبايع، لأنه - والله أعلم - كان مشهوراً عند العرب لكونهم من العرب العرباء، الذين لا تخفى ماجرياتهم على العرب خصوصاً مثل هذه الحادثة العظيمة.

فهؤلاء كلهم كذبوا الرسل، الذين أرسلهم الله إليهم، فحق عليهم وعيد الله وعقوبته، ولستم أيها المكذبون لمحمد ﷺ خيراً منهم، ولا

(١) كذا في ب، وفي أ: آيات الله.

(٢) كذا في ب، وفي أ: القرار.

(٣) كذا في ب، وفي أ: التي يستمر نفعها، ويطول حتى تبلغ مبلغاً لا يبلغ إليه.

(٤) كذا في ب، وفي أ: وعجيب الخلقة.

(٥) زيادة من هامش ب.

(٦) كذا في ب، وفي أ: وقوم تبع وهو كل ملك اليمن في الزمان السابق يقال له تبع.

رسلهم أكرم على الله من رسولكم، فاحذروا جرمهم، لئلا يصيبكم ما أصابهم.

ثم استدل تعالى بالخلق الأول - وهو المنشأ الأول^(١) - على الخلق الآخر، وهو النشأة الآخرة.

فكما^(٢) أنه الذي أوجدهم بعد العدم، كذلك يعيدهم بعد موتهم وصيرورتهم إلى الرفات والرمم، فقال: «أفعميتنا» أي: أفعمجنا وضعت قدرتنا «بالخلق الأول»؟ ليس الأمر كذلك، فلم نعجز ونعي عن ذلك، وليسوا في شك من ذلك، وإنما هم في لبس من خلق جديد هذا الذي شكوا فيه، والتبس عليهم أمره، مع أنه لا محل للبس فيه، لأن الإعادة أهون من الابتداء، كما قال تعالى: «وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه».

﴿١٦ - ١٨﴾ «ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد» إذ يتلقى الملقين عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد يخبر تعالى أنه المتفرد بخلق^(٣) جنس الإنسان، ذكورهم وإناثهم، وأنه يعلم أحواله وما يسره، ويوسوس في صدره^(٤)، وأنه أقرب إليه من حبل الوريد، الذي هو أقرب شيء إلى الإنسان، وهو العرق^(٥) المكتنف لثغرة النحر، وهذا مما يدعو الإنسان إلى مراقبة خالقه، المطلع على ضميره وباطنه، القريب منه^(٦) في جميع

أحواله، فيستحي منه أن يراه حيث نراه، أو يفقده حيث أمره، وكذلك ينبغي له أن يجعل الملائكة الكرام الكائنين منه على بال، فيجلهم ويقرهم، ويحذر أن يفعل أو يقول ما يكتب عنه، مما لا يرضي رب العالمين، ولهذا قال: «إذ يتلقى الملقين» أي: يتلقين عن العبد أعماله كلها، واحد «عن اليمين» يكتب الحسنات، «و» الآخر «عن الشمال» يكتب السيئات، وكل منهما «قعيد» بذلك متبهي لعمله الذي أعد له، ملازم له^(٧) «ما يلفظ من قول» خير أو شر «إلا لديه رقيب عتيد» أي: مراقب له، حاضر لحاله، كما قال تعالى: «وإن عليكم لحافظين * كراماً كاتبين * يعلمون ما تفعلون».

﴿١٩ - ٢٢﴾ «وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد» ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد * وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد * لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» أي: «وجاءت» هذا الغافل المكذب بآيات الله «سكرة الموت بالحق» الذي لا مرد له ولا مناص، «ذلك ما كنت منه تحيد» أي: تتأخر وتنكص^(٨) عنه، «ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد» أي: اليوم الذي يلحق الظالمين ما أوعدهم الله به من العقاب، والمؤمنين ما وعدهم به من الثواب، «وجاءت كل نفس معها سائق» يسوقها إلى موقف القيامة، فلا

يمكنها أن تتأخر عنه، «وشهيد» يشهد عليها بأعمالها، خيرها وشرها، وهذا يدل على اعتناء الله بالعباد، وحفظه لأعمالهم، ومجازاته لهم بالعدل، فهذا الأمر، مما يجب أن يجعله العبد منه على بال، ولكن أكثر الناس غافلون، ولهذا قال: «لقد كنت في غفلة من هذا» أي: يقال للمعرض المكذب يوم القيامة هذا الكلام توبيخاً، ولوماً وتعنيفاً أي: لقد كنت مكذباً بهذا، تاركاً للعمل له فالآن «كشفنا عنك غطاءك» الذي غطي قلبك، فكشرك اليوم حديد» ينظر ما يزججه ويروعه من أنواع العذاب والنبال.

أو هذا خطاب من الله للعبد فإنه في الدنيا في غفلة^(٩) عما خلق له، ولكنه يوم القيامة ينتبه ويحول عنه وسنه، ولكنه في وقت لا يمكنه أن يتدارك الفارط، ولا يستدرك الفائت، وهذا كله تخويف من الله للعباد، وترهيب بذكر ما يكون على المكذبين في ذلك اليوم العظيم.

﴿٢٣ - ٢٩﴾ «وقال قرينه هذا ما لدي عتيد * ألقيا في جهنم كل كفار عنيد * متاع للعبيد معتد مريب * الذي جعل مع الله إلهاً آخر فآلقياه في العذاب الشديد * قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد * قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد * ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد» يقول تعالى: «وقال قرينه» أي: قرين هذا المكذب

(١) في ب: النشأة الأولى.

(٢) كذا في ب، وفي أ: وأنه كما أنه.

(٣) كذا في ب، وفي أ: أنه الذي خلق.

(٤) في ب: وتوسوس به نفسه.

(٥) في ب: العظم.

(٦) في ب: إليه.

(٧) في ب: لذلك.

(٨) كذا في ب، وفي أ: تحيد.

(٩) كذا في ب، وفي أ: ودام.

(١٠) كذا في ب، وفي أ: أنه في غفلة في الدنيا.

تلموني ولو مواتكم... الآية^(٤)

قال الله تعالى مجيباً لاختصاصهم: ﴿لَا تَخْصِمُوا الَّذِي﴾ أي: لا فائدة في اختصاصكم^(٥) عندي، ﴿وَالْحَالُ أَنِي﴾ قد قدمت إليكم بالوعيد^(٦) أي: جاء تكم رسلي بالآيات البينات، والحجج الواضحات، والبراهين الساطعات، فقامت عليكم حجتي، وانقطعت حججتكم، وقدمتم علي بما أسلفتم من الأعمال التي وجب جزاؤها.

﴿مَا يَسْدِلُ الْقَوْلُ لَدِي﴾ أي: لا يمكن أن يخلف ما قاله الله وأخبر به، لأنه لا أصدق من الله قبلاً، ولا أصدق حديثاً.

﴿وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ بل أجزيم بما عملوا من خير وشر، فلا يزداد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم.

﴿٣٥-٣٠﴾ يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد * وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد * هذا ما توعدون لكل أبواب حفيظ * من خشني الرحمن الغيب وجاء بقلب منيب ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود * لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد * يقول تعالى خروا لعباده: ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت﴾ وذلك من كثرة ما ألقى فيها، ﴿وتقول هل من مزيد﴾ أي: لا تزال تطلب الزيادة من المجرمين العاصين، غضباً لربها، وغيضاً على الكافرين.

وقد وعدنا الله ملاها، كما قال تعالى: ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ حتى يضع رب العزة عليها قدمه الكريمة المنزهة عن التشبيه،

المعرض، من الملائكة، الذين وكلهم الله على حفظه وحفظ أعماله، فيحضره يوم القيامة ويحضر أعماله ويقول: ﴿هذا ما لدي عند﴾ أي: قد أحضرت ما جعلت عليه من حفظه وحفظ عمله، فيجازي بعمله.

ويقال لمن استحق النار: ﴿القيافي جهنم كل كفار عند﴾ أي: كثير الكفر والعناد لآيات الله، المكشرون من المعاصي، المجترئون على المحارم والمآثم.

﴿مناع للخير﴾ أي: يمنع الخير الذي عنده^(١)، الذي أعظمه الإيمان بالله ﴿وملائكته﴾^(٢) وكتبه ورسله مناع، لنفع ماله وبدنه، ﴿معتد﴾ على عباد الله، وعلى حدوده^(٣)، ﴿مريب﴾ أي: شاك في وعد الله ووعيده، فلا إيمان ولا إحسان ولكن وصفه الكفر والعدوان، والشك والريب والشح، واتخاذ الآلهة من دون الرحمن، ولهذا قال: ﴿الذي جعل مع الله الهاً آخر﴾ أي: عبد معه غيره، ممن لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ﴿فألقياه﴾ أيها الملكان القرينان ﴿في العذاب الشديد﴾ الذي هو معظمها وأشدّها وأشنعها.

﴿قال قرينه﴾ الشيطان، متبرئاً منه، حاملاً عليه إثمه: ﴿ربنا ما أطغيته﴾ لأنني لم يكن لي عليه سلطان ولا حجة ولا برهان، ولكن كان في الضلال البعيد، فهو الذي ضل وأبعد عن الحق باختياره، كما قال في الآية الأخرى:

﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا

(١) في ب: قَيْلَةٌ.

(٢) زيادة من هامش ب.

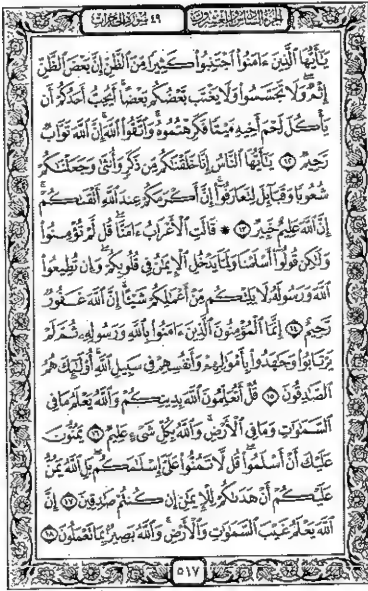
(٣) في أ زيادة هنا هي (أثم) أي كثير الإثم) ويبدو أن الشيخ سبق قلمه لآيات سورة القلم. وقد شطبت الزيادة من ب.

(٤) في ب وقف عند قوله: (فأخلفتكم).

(٥) كذا في ب، وفي أ: خصامكم.

(٦) كذا في ب، وفي أ: يزيد.

(٧) في ب: أثم.



فينزوي بعضها على بعض، وتقول قط، قد اكتفيت وامتألت، ﴿وأزلفت الجنة﴾ أي: قربت بحيث تشاهد وينظر ما فيها، من النعيم المقيم، والخبرة والسرور، وإنما أزلقت وقربت، لأجل المتقين لربهم، التاركين للشرك، صغيره وكبيره، المتشاكين لأوامر ربهم، المتقادين له، ويقال لهم على وجه التهنية: ﴿هذا ما توعدون لكل أبواب حفيظ﴾ أي: هذه الجنة وما فيها مما تشتهيهِ الأنفس وتلدُّ الأعين، هي التي وعد الله كل أبواب أي: رجاء إلى الله في جميع الأوقات، بذكره وحيه، والاستعانة به، ودعائه وخوفه وزجائه.

﴿حفيظ﴾ أي: يحافظ على ما أمر الله به، بامتناله على وجه الإخلاص والإكمال له، على أكمل^(٧) الوجوه، حفيظ حدوده، ﴿من خشني الرحمن﴾ أي: خافه على وجه المعرفة بربه، والرجاء لرحمته، ولازم على



أي : ثواب يمدهم به الرحمن الرحيم، بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وأعظم ذلك واجله وأفضله، النظر إلى وجه الله الكريم، والتمتع بسماع كلامه، والتنعم بقربه، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم.

﴿٣٦ - ٣٧﴾ «وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقبوا في البلاد هل من محيٍص * إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد» يقول تعالى - خوفاً للمشركين المكذبين للرسول - : «وكم أهلكنا قبلهم من قرن» أي : أما كثيرة هم أشد من هؤلاء بطشاً أي : قوة وأثراً في الأرض.

ولهذا قال : «فنبقبوا في البلاد» أي : بنوا الحصون المنيعة والمنازل الرفيعة، وغرسوا الأشجار، وأجروا الأنهار، وزرعوا، وعمروا، ودمروا، فلما كذبوا رسل الله، وجحدوا آيات الله، أخذهم الله بالعقاب الأليم، والعذاب الشديد، فـ «هل من محيٍص» أي : لا مفر لهم من عذاب الله حين نزل بهم ولا منقذ، فلم تغن عنهم قوتهم، ولا أموالهم، ولا أولادهم، «إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب» أي : قلب عظيم حي ذكي زكي، فهذا إذا ورد عليه شيء من آيات الله، تذكر بها، وانتفع فارتفع (٢)، وكذلك من ألقى سمعه إلى آيات الله، واستمعها استماعاً يسترشد به، وقلبه «شهيد» أي : حاضر، فهذا له أيضاً ذكرى وموعظة، وشفاء وهدى.

وأما المعرض، الذي لم يلق (٣) سمعه إلى الآيات، فهذا لا تقبده شيئاً، لأنه لا قبول عنده، ولا تقتضي حكمة الله هداية من هذا وصفه ونعته.

﴿٣٨ - ٤٠﴾ «ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب * فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب * ومن الليل فسبحه وأدبار السجود» وهذا إخبار منه تعالى عن قدرته العظيمة، ومشيتته النافذة، التي أوجد بها أعظم المخلوقات «السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام» أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، من غير تعب ولا نصب، ولا لغوب، ولا إعياء، فالذي أوجدنا - على كبرها وعظمتها - قادر على إحياء الموتى، من باب أولى وأحرى، «فاصبر على ما يقولون» من الذم لك والتكذيب بما جئت به، واشتغل عنهم واله بطاعة ربك وتسبيحه، أول النهار وآخره، وفي أوقات الليل، وأدبار الصلوات. فإن ذكر الله تعالى مُسَلِّبٌ للنفس، مؤنس لها، مَهْوٍ للنصير.

﴿٤١ - ٤٥﴾ «واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب * يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج * إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير * يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشرٌ علينا يسير * نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد» أي : «واستمع» بقلبك نداء المنادي وهو إسماعيل عليه السلام، حين ينفخ في الصور «من مكان قريب» من الخلق (٤) «يوم يسمعون الصيحة» أي : كل الخلائق يسمعون تلك الصيحة المزعجة المبهلة «بالحق» الذي لا شك فيه ولا امتراء.

«ذلك يوم الخروج» من القبور، الذي انفرد به القادر على كل شيء، ولهذا قال : «إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير * يوم تشقق الأرض

خشية الله في حال غيبه أي : مغيبه عن أعين الناس، وهذه هي الخشية الحقيقية، وأما خشيته في حال نظر الناس وحضورهم، فقد تكون رياء وسمعة، فلا تدل على الخشية، وإنما الخشية النافعة، خشية الله في الغيب والشهادة ويحتمل أن المراد بخشية الله بالغيب كالمراد بالإيمان بالغيب وأن هذا مقابل للشهادة حيث يكون الإيمان والخشية ضرورياً لا اختيارياً حيث يعاين العذاب وتأتي آيات الله وهذا هو الظاهر (١).

«وجاء بقلب منيب» أي : وصفه الإنابة إلى مولاه، وانجذاب نواحيه إلى مرضيه، ويقال لهؤلاء الأتقياء الأبرار : «ادخلوها بسلام» أي : دخولاً مقروناً بالسلامة من الآفات والشروء، مأموناً فيه جميع مكاره الأمور، فلا انقطاع لنعيمهم ولا كدر ولا تنغيص، «ذلك يوم الخلود» الذي لا زوال له ولا موت، ولا شيء من المكدرات، «لهم ما يشاؤون فيها» أي : كل ما تعلقت به مشيتهم فهو حاصل فيها ولهم فوق ذلك «مزيد»

(١) من قوله : ويحتمل إلى : هذا هو الظاهر ليس في ب.

(٢) كذا في ب، وفي أ : وارتفع.

(٣) في ب : لم يصغ.

(٤) في ب : من الأرض.

عنهم ﴿١﴾ أي: عن الأموات.

﴿سراعاً﴾ أي: يسرعون لإجابة الداعي لهم إلى موقف القيامة، ﴿ذلك حشر علينا يسيراً﴾ أي: حين على الله، يسير لا تعب فيه ولا كلفة، ﴿نحن أعلم بما يقولون﴾ لك عما يحزنك من الأذى، وإذا كنا أعلم بذلك، فقد علمت كيف اعتناؤنا بك، وتيسيرنا لأمرورك، ونصرنا لك على أعدائك، فليفرح قلبك، ولتطمئن نفسك، ولتعلم أننا أرحم بك وأرفق من نفسك، فلم يبق لك إلا انتظار وعد الله، والثأسي بأولي العزم من رسل الله، ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾ أي: مسلط عليهم ﴿إنما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾ ولهذا قال: ﴿فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ والتذكير [هو] تذكير ما تقرر في العقول والقطر، من حجة الخير وإثارة فعله، ومن بغض الشر ومجانبته، وإنما يذكر بالتذكير من يخاف وعيد الله، وأما من لم يخف الوعيد ولم يؤمن به، فهذا فائدة تذكيره إقامة الحجة عليه، لئلا يقول: ﴿ما جاءنا من بشير ولا نذير﴾.

آخر تفسير سورة ق، والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً

تفسير سورة الذاريات مكية

﴿٦-١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والذاريات ذروا﴾ فالخاملات وقرأ ﴿فالجاريات يسراً﴾ فالمقسمات أمراً ﴿إنما توعدون لصادق﴾ وإن الدين لواقع ﴿هذا قسم من الله الصادق في قوله، بهذه المخلوقات العظيمة التي جعل الله فيها من المصالح والمنافع ما جعل على أنه وعده صادق، وأن الدين الذي هو يوم الجزاء والمحاسبة على الأعمال، لواقع لا محالة، ما له من دافع، فإذا أخبر به الصادق العظيم وأقسم عليه، وأقام الأدلة والبراهين عليه، فلم يكذب به

المكذبون، ويعرض عن العمل له العاملون.

والمراد بالذاريات: هي الرياح التي تذر في هبوبها ﴿ذروا﴾ بليتها، ولطفها، وقوتها، وإزعاجها، ﴿والخاملات وقرأ﴾ السحاب، تحمل الماء الكثير، الذي ينفع الله به البلاد والعباد، و﴿الجاريات يسراً﴾: النجوم التي تجري على وجه النسر والسهولة، فتزين بها السماوات، ويمتد بها في ظلمات البر والبحر، ويتنفع بالاعتبار بها، و﴿المقسمات أمراً﴾: الملائكة التي تقسم الأمر وتدبره بإذن الله، فكل منهم قد جعله الله على تدبير أمر من أمور الدنيا وأمور الآخرة، لا يتعدى ما قدر له وما أخذ ورسم، ولا ينقص منه.

﴿٧-٩﴾ ﴿والسماء ذات الحيك﴾ إنكم لفي قول مختلف ﴿يؤفك عنه من أفك﴾ أي: والسماء ذات الطرائق الحسنة، التي تشبه حيك الرمال، ومياه الغدران، حين يحركها النسيم، ﴿إنكم﴾ أيها المكذبون لمحمد ﷺ، ﴿لفي قول مختلف﴾ منكم من يقول ساحر، ومنكم من يقول كاهن، ومنكم من يقول مجنون، إلى غير ذلك من الأقوال المختلفة، الدالة على حيرتهم وشكهم، وأن ما هم عليه باطل، ﴿يؤفك عنه من أفك﴾ أي: يصرف عنه من صرف عن الإيمان، وانصرف قلبه عن أدلة الله اليقينية وبراهينه، واختلاف قولهم دليل على فساده وبطلانه، كما أن الحق الذي جاء به محمد ﷺ، متفق [يصدق بعضه بعضاً] لا تناقض فيه ولا اختلاف، وذلك دليل على صحته، وأنه من عند الله ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾.

﴿١٠-١٤﴾ ﴿قتل الخراصون﴾ الذين هم في غمرة ساهون ﴿يسألون أيان يوم الدين﴾ يوم هم على النار يفتنون ﴿ذوقوا فنتنكم هذا الذي كنتم به تستعجلون﴾ يقول تعالى: ﴿قتل



الخراصون﴾ أي: قاتل الله الذين كذبوا على الله، وجحدوا آياته، وخاضوا بالباطل، ليدحضوا به الحق، الذين يقولون على الله ما لا يعلمون، ﴿الذين هم في غمرة﴾ أي: في لجة من الكفر والجهل والضلال، ﴿ساهون﴾ ﴿يسألون﴾ على وجه الشك والتكذيب أيان يبعثون أي: متى يبعثون، مستعجلين لذلك، فلا تسأل عن حالهم وسوء مآلهم ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾ أي: يعذبون بسبب ما انطوا عليه من خبث الباطن والظاهر، ويقال [لهم]: ﴿ذوقوا فنتنكم﴾ أي: العذاب والنار، الذي هو أثر ما افتنوا به، من الابتلاء الذي صيرهم إلى الكفر والضلال، ﴿هذا﴾ العذاب، الذي وصلت إليه، [هو] ﴿الذي كنتم به تستعجلون﴾ فالأن تمتعوا بأنواع العقاب والنكال، والسلاسل والأغلال، والسخط والوبال.

﴿١٥-١٩﴾ ﴿إن المتقين في جنات وعيون﴾ آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾ وبالأشجار هم يستغفرون ﴿وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾ يقول تعالى في ذكر ثواب المتقين وأعمالهم، التي أوصلتهم إلى

(٣) في ب: وصلوا بها.

(٢) في ب: سهل.

(١) في ب: عن الخلاق.

فصل في بعض ما تضمنته هذه القصة من الحكم والأحكام

منها: أن من الحكمة، قص الله على عباده نبأ الأخيار والفجار، ليعتبروا بحالهم^(٣)، وأين وصلت بهم الأحوال.

ومنها: فضل إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، حيث ابتدأ الله قصته بما يدل على الاهتمام بشأنها، والاعتناء بها.

ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن إبراهيم الخليل، الذي أمر الله هذا النبي^(٤) وأمته، أن يتبعوا ملته، وساقها الله في هذا الموضع، على وجه الملح له والثناء.

ومنها: أن الضيف يكرم بأنواع الإكرام، بالقول والفعل، لأن الله وصف أضياف إبراهيم بأنهم مكرمون أي: أكرمهم إبراهيم، ووصف الله ما صنع بهم من الضيافة قولاً وفعلًا، ومكرمون أيضاً عند الله تعالى.

ومنها: أن إبراهيم عليه السلام، قد كان بيته مأوى للطارقين والأضياف، لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان، وإنما سلكوا طريق الأدب في الابتداء بالسلام^(٥)، فرد عليهم إبراهيم سلاماً أكمل من سلامهم وأتم، لأنه أتى به جملة اسمية دالة على الشبوت والاستقرار.

ومنها: مشروعية تعرف من جاء إلى الإنسان، أو صار له فيه نوع اتصال، لأن في ذلك فوائد كثيرة.

ومنها: أدب إبراهيم ولطفه في الكلام، حيث قال: ﴿قوم منكرون﴾ ولم يقل: ﴿أنكرتكم﴾ [وبين اللفظين من الفرق ما لا يخفى].

ومنها: المبادرة إلى الضيافة والإسراع بها، لأن خير البر عاجله [ولهذا بادر إبراهيم بإحضار قري أضيافه].

ومنها: أن الذبيحة الحاضرة، التي

معه النساء، ومع ذلك، فأنا عقيم، غير صالح رهي للولادة أصلاً، فكأن مانعان، كل منهما مانع من الولد، وقد ذكرت المانع الثالث في سورة هود بقولها: ﴿وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب﴾.

﴿قالوا كذلك قال ربك﴾ أي: الله الذي قدر ذلك وأمضاه، فلا عجب في قدرة الله تعالى ﴿إنه هو الحكيم العليم﴾ أي: الذي يضع الأشياء مواضعها، وقد وسع كل شيء علماً فسلموا لحكمه، واشكروه على نعمته.

قال لهم إبراهيم عليه السلام: ﴿فما خطبكم أيها المرسلون﴾ الآيات، أي: ما شأنكم وما تريدون؟ لأنه استشعر^(١) أنهم رسل، أرسلهم الله لبعض الشؤون المهمة.

﴿٣٢﴾ ﴿قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين﴾ وهم قوم لوط، قد أجرموا، أشركوا بالله، وكذبوا رسولهم، وأتوا الفاحشة الشنعاء التي ما سبقهم إليها أحد من العالمين.

﴿لنرسل عليهم حجارة من طين﴾ مسؤمة عند ربك للمسرفين^(٢) أي: معلمة، على كل حجر منها سمة صاحبه^(٣)، لأنهم أسرفوا وتجاوزوا الحد، فجعل إبراهيم مجادلهم في قوم لوط، لعل الله يدفع عنهم العذاب، فقال الله: ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾.

﴿فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين﴾ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين^(٤) وهم بيت لوط عليه السلام، إلا امرأته، فإنها من المهلكين.

﴿وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم﴾ يعتبرون بها ويعلمون أن الله شديد العقاب، وأن رسله صادقون مصدوقون.

فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون ﴿فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشره بغلام عليم﴾ فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم ﴿قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم﴾ ﴿قال فما خطبكم أيها المرسلون﴾ ﴿قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين﴾ لنرسل عليهم حجارة من طين ﴿مسومة عند ربك للمسرفين﴾ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ﴿فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾ وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم ﴿يقول تعالى: هل أتاك﴾ أي: أما جاءك ﴿حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾. ونبأهم الغريب العجيب، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، وأمرهم بالمرور على إبراهيم، فجأؤوه في صورة أضياف.

﴿إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال﴾ مجيئاً لهم ﴿سلام﴾ أي: عليكم ﴿قوم منكرون﴾ أي: أنتم قوم منكرون، فأحب أن تعرفوني بأنفسكم، ولم يعرفهم إلا بعد ذلك.

ولهذا راغ إلى أهله أي: ذهب سريعاً في خفية، ليحضر لهم قراهم، ﴿فجاء بعجل سمين﴾ فقربه إليهم وعرض عليهم الأكل، ف ﴿قال ألا تأكلون﴾ فأوجس منهم خيفة ﴿حين رأى أيديهم لا تصل إليه﴾ ﴿قالوا لا تخف﴾ وأخبروه بما جاءوا له ﴿وبشره بغلام عليم﴾ وهو إسحاق عليه السلام، فلما سمعت المرأة البشارة ﴿أقبلت﴾ فرحة مستبشرة ﴿في صرة﴾ أي: صيحة ﴿فصكت وجهها﴾ وهذا من جش ما يجري من النساء عند السرور [ونحوه] من الأقوال والأفعال المخالفة للطبيعة والعادة، ووقالت عجوز عقيم ﴿أي: أتى لي الولد، وأنا عجوز، قد بلغت من السن، ما لا تلد

(٥) في ب: في ابتداء السلام.

(٣) في ب ليعتبروا بهم.

(٤) أمر الله محمداً وأمته.

(١) كذا في ب، وفي أ: علم.

(٢) في ب على كل حجر اسم صاحبه.

كالرميم ﴿أي: كالرمم البالية، فالذي أهلكهم على قوتهم وبطشهم، دليل على [كمال] قوته واقتداره، الذي لا يعجزه شيء، المنتقم من عصاه -

﴿٤٣ - ٤٥﴾ ﴿وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين﴾ * ففتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون * ﴿فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين﴾ ﴿أي: ﴿وفي ثمود﴾ [آية عظيمة]، حين أرسل الله إليهم صالحاً عليه السلام، فكذبوه وعاندوه، وبعث الله له الناقة آية مبصرة، فلم يزددهم ذلك إلا عتوا ونفروا -

﴿فيلهم تمتعوا حتى حين﴾ * ففتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة ﴿أي: الضيحة العظيمة المهلكة﴾ وهم ينظرون ﴿إلى عقربتهم بأعينهم، ﴿فما استطاعوا من قيام﴾ ينجون به من العذاب، ﴿وما كانوا منتصرين﴾ لأنفسهم.

﴿٤٦﴾ ﴿وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ ﴿أي: وكذلك ما فعل الله بقوم نوح، حين كذبوا نوحاً عليه السلام وفسقوا عن أمر الله، فأرسل الله عليهم السيوف والارض بالماء المنهمر، فأغرقهم الله تعالى [عن آخرهم]، ولم يبق من الكافرين دياراً، وهذه عادة الله وستته فيمن عصاه.

﴿٤٧ - ٥١﴾ ﴿والسمااء بنيناها بأيسر وإننا لموسعون﴾ * والارض فرشناها فنعلم الماهدون * ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون * ﴿فروا إلى الله إن لكم منه نذير مبين﴾ * ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إن لكم منه نذير مبين﴾ يقول تعالى مبيناً لقدرته العظيمة: ﴿والسمااء بنيناها﴾ ﴿أي: خلقناها وأتقناها، وجعلناها سقفاً للارض وما عليها.

﴿بأييدٍ﴾ ﴿أي: قوة وقدرة عظيمة

المعهودة.

ومنها: ما أكرم الله به إبراهيم وزوجته سارة، من البشارة بغلام عليم.

﴿٣٨ - ٤٠﴾ ﴿وقوله تعالى: ﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسطان منين﴾ * فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون﴾ * فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم﴾ ﴿أي: ﴿وفي موسى﴾ وما أرسله الله به إلى فرعون وملئيه بالآيات السينات، والمعجزات الظاهرات، آية للذين يخافون العذاب الأليم، فلما أتى موسى ﴿بذلك السلطان المبين، فتولى فرعون ﴿بركنه﴾ ﴿أي: أعرض بجانبه عن الحق ولم يلتفت إليه، وقدر فيه أعظم القدر، فقالوا: ﴿ساحر أو مجنون﴾ ﴿أي: إن موسى، لا يخلو إما أن يكون ساحراً وما أتى به شعيرة﴾ ﴿ليس من الحق في شيء، وإما أن يكون مجنوناً لا يؤاخذ بما صدر منه لعدم عقله.

هذا، وقد علموا، خصوصاً فرعون، أن موسى صادق، كما قال تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾ [ظلماً وغلوا] ﴿وقال موسى لفرعون: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والارض﴾ [بصائر﴾ الآية]، ﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم﴾ ﴿أي: مذهب طاع، عات على الله، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر.

﴿٤١ - ٤٢﴾ ﴿وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم﴾ * ما تذر من شيء أثبت عليه إلا جعلته كالرميم﴾ ﴿أي: ﴿وفي عاد﴾ القبيلة المعروفة آية عظيمة﴾ ﴿إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم﴾ ﴿أي: التي لا خير فيها، حين كذبوا نبيهم هوداً عليه السلام، ﴿ما تذر من شيء﴾ أثبت عليه إلا جعلته

قد أعدت لغير الضيف الحاضر^(١)، إذا جعلت له، ليس فيها أقل إهانة، بل ذلك من الإكرام، كما فعل إبراهيم عليه السلام، وأخبر الله أن ضيفه مكرمون.

ومنها: ما من الله به على خليله إبراهيم، من الكرم الكثير، وكون ذلك حاضراً عنده^(٢)، وفي بيته معداً، لا يحتاج إلى أن يأتي به^(٣) من السوق أو الجيران، ولا غير ذلك.

ومنها: أن إبراهيم، هو الذي خدم أضيافه، وهو خليل الرحمن، وكبير من ضيف الضيفان.

ومنها: أنه قرّبه إليهم في المكان الذي هم فيه، ولم يجعله في موضع، ويقول لهم: ﴿تفضلوا، أو اثثوا إليه﴾ لأن هذا أيسر عليهم وأحسن.

ومنها: حسن ملاطفة الضيف في الكلام اللين، خصوصاً عند تقديم الطعام إليه، فإن إبراهيم عرض عليهم عرضاً لطيفاً، وقال: ﴿ألا تأكلون﴾ ولم يقل: ﴿كلوا﴾ ونحوه من اللفاظ، التي غيرها أولى منها، بل أتى بأداة العرض، فقال: ﴿ألا تأكلون﴾ فينبغي للمقتدي به أن يستعمل من اللفاظ الحسنة، ما هو المناسب واللائق بالحال، كقوله لأضيافه: ﴿ألا تأكلون﴾ أو: ﴿ألا تفضلون علينا وتشرفونا وتحسنون إلينا﴾ ونحوه.

ومنها: أن من خاف من الإنسان^(٥) لسبب من الأسباب، فإن عليه أن يزيل عنه الخوف، ويذكر له ما يؤمن روعه، ويسكن جأشه، كما قالت الملائكة لإبراهيم [لما خافهم]: ﴿لا تخف﴾ وأخبروه بتلك البشارة السارة بعد الخوف منهم.

ومنها: شدة فرح سارة امرأة إبراهيم، حتى جرى منها ما جرى، من صك وجهها، وصرتها غير

(١) كذا في ب، وفي أ: الخاص. (٢) كذا في ب، لديه. (٣) كذا في ب، وفي أ: أن يستلحقه. (٤) في ب: وسيد. (٥) في ب: من أحد.

(٦) كذا في ب، مصححة في الهامش، وفي أ: فلما أتى فرعون. (٧) في ب: إما أن يكون ما أتى به سحراً وشعبذة.

﴿وإنا لموسعون﴾ لأرجائها وأنحائها، وإنا لموسعون [أيضاً] على عبادنا بالرزق الذي ما ترك الله دابة في مهامه القفار، ولجج البحار، وأقطار العالم العلوي والسفلي، إلا وأوصل إليها من الرزق، ما يكفيها، وساق إليها من الإحسان ما يغنيها.

فسبحان من عم بجوده جميع المخلوقات، وتبارك الذي وسعت رحمته جميع البريات، ﴿والأرض فرشناها﴾ أي: جعلناها فراشاً للخلق، يتمكنون فيها من كل ما تتعلق به مصالحهم، من مساكن وغراس وزرع وحرث وجلوس، وسلوك للطرق الموصلة إلى مقاصدهم ومآربهم، ولما كان الفراش قد يكون صالحاً للارتفاع من كل وجه، وقد يكون من وجه دون وجه، أخبر تعالى أنه مهدها أحسن مهاد، على أكمل الوجوه وأحسنها، وأثنى على نفسه بذلك، فقال: ﴿فتنعم الماهدون﴾ الذي مهد لعباده ما اقتضته [حكيمته و] رحمته وإحسانه، ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾ أي: صنفين، ذكر وأنثى، من كل نوع من أنواع الحيوانات، ﴿لعلكم تذكرون﴾ [لنعم الله التي أنعم بها عليكم] في تقدير ذلك، وحكيمته حيث جعل ما هو السبب لبقاء نوع الحيوانات كلها، لتقوموا بتميتها وخدمتها وتربيتها، فيحصل من ذلك ما يحصل من النافع.

فلما دعا العباد إلى النظر لآياته الموجبة لحشيتة والإنابة إليه، أمر بما هو المقصود من ذلك، وهو الفرار إليه أي: الفرار مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه، ظاهراً وباطناً، فرار من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الغفلة إلى ذكر الله، فمن استكمل هذه الأمور، فقد استكمل الدين كله وقد زال عنه المرهوب، وحصل له نهاية

المراد (٢) والمطلوب.

وسمى الله الرجوع إليه فراراً، لأن في الرجوع لغيره أنواع المخاوف والمكاره، وفي الرجوع إليه أنواع المحاب والأمن (أو السرور) والسعادة والفوز، فيفر العبد من قضائه وقدره إلى قضائه وقدره، وكل من خفت منه فررت منه إلا الله تعالى، فإنه بحسب الخوف منه يكون الفرار إليه، ﴿إني لكم منه نذير مبين﴾ أي: منذر لكم من عذاب الله، وخوف بين النذارة، ﴿ولا تعجلوا مع الله﴾ أي: هذا من الفرار إلى الله، بل هذا أصل الفرار إليه أن يفر العبد من اتخاذ آلهة غير الله من الأوثان والأنداد والقبور، وغيرها، مما عبد من دون الله، ويخلص العبد لربه العبادة والخوف والرجاء والدعاء والإنابة.

﴿٥٢-٥٣﴾ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴿أتواصوا به بل هم قوم طاغون﴾ يقول الله مسلماً لرسوله ﷺ عن تكذيب المشركين بالله، المكذبين له، القائلين فيه من الأقوال الشنيعة ما هو منزّه عنه، وأن هذه الأقوال ما زالت دأباً وعادة للمجرمين المكذبين للرسول، فما أرسل الله من رسول إلا رماه قومونه بالسحر أو الجنون.

يقول الله تعالى: هذه الأقوال التي صدرت منهم - الأولين والآخرين - هل هي أقوال اتواصوا بها، ولقن بعضهم بعضاً بها؟

فلا يستغرب - بسبب ذلك - اتفاقهم عليها: ﴿أم هم قوم طاغون﴾ تشابهت قلوبهم وأعمالهم بالكفر والطغيان، فتشابهت أقوالهم الناشئة عن طغيانهم؟ وهذا هو الواقع، كما قال تعالى: ﴿وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال

الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم﴾ وكذلك المؤمنون، لما تشابهت قلوبهم بالإذعان للحق وطلبه والسعي فيه، بادروا إلى الإيمان برسولهم وتعظيمهم وتوقيرهم وخطابهم بالخطاب اللائق بهم.

﴿٥٤-٥٥﴾ فتقول عنهم فما أنت بملوم * وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين يقول تعالى آمراً برسوله بالإعراض عن المعرضين المكذبين: ﴿فتقول عنهم﴾ أي: لا تبال بهم ولا تؤاخذهم، وأقبل على شأنك.

فليس عليك لوم في ذنبهم، وإنما عليك البلاغ، وقد أدبت ما حملت، وبلغت ما أرسلت به.

﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ والتذكير نوعان: تذكير بما لم يعرف تفصيله، مما عرف مجمله بالفطر والعقول (٣)، فإن الله فطر العقول على محبة الخير وإيثاره، وكراهة الشر والزهد فيه، وشرعه موافق لذلك، فكل ما أمر به ونهى من الشرع، فإنه من التذكير، وتقام التذكير، أن يذكر ما في الأمور به، من الخير والحسن والمصالح، وما في المنهي عنه من المضار.

والنوع الثاني من التذكير: تذكير بما هو معلوم للمؤمنين، ولكن انسحبت عليه الغفلة والذهول، فيذكرون لذلك، ويكرر عليهم ليرسخ في أذهانهم، وينتبهوا ويعملوا بما تذكروه من ذلك، وليحدث لهم نشاطاً وهمة، توجب لهم الانتفاع والارتفاع.

وأخبر الله أن الذكرى تنفع المؤمنين، لأن ما معهم من الإيمان والخشية والإنابة واتباع رضوان الله، يوجب لهم أن تنفع فيهم الذكرى، وتقع منهم الموعظة موقعها، كما قال تعالى: ﴿فذكر إن تفتت الذكرى﴾ سيذكر من يخشى * ويتجنبها

(١) كذا في ب، وفي أ: نعمة الله عليكم.

(٢) في ب: غاية المراد.

(٣) كذا في ب، وفي أ: مما عرف بالفطر والعقول مجمله.

(٤) كذا في ب، وفي أ: ما.

كلم الله عليه نبيه موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، وأوحى إليه ما أوحى من الأحكام، وفي ذلك من المنّة عليه وعلى أمته، ما هو من آيات الله العظيمة، ونعمه التي لا يقدر العباد لها على عد ولا ثمن.

﴿وكتاب مسطور﴾ يحتمل أن المراد به اللوح المحفوظ، الذي كتب الله به كل شيء، ويحتمل أن المراد به القرآن الكريم، الذي هو أفضل كتاب^(٤)، أنزله الله محتويًا على نبأ الأولين والآخرين، وعلوم السابقين واللاحقين.

وقوله: ﴿في رق﴾ أي: ورق ﴿منشور﴾ أي: مكتوب مسطر، ظاهر غير خفي، لا تحفى حاله على كل عاقل بصير.

﴿والبيت المعمور﴾ وهو البيت الذي فوق السماء السابعة، المعمور مدى الأوقات بالملائكة الكرام، الذي يدخله كل يوم سبعون ألف ملك يتعبدون فيه لربهم ثمًا، لا يعودون إليه إلى يوم القيامة وقيل: إن البيت المعمور هو بيت الله الحرام، المعمور بالطائفين والمصلين والذاكرين كل وقت، وبالوفود إليه بالحج والعمرة.

كما أقسم الله به في قوله: ﴿وهذا البلد الأمين﴾ وحقيق بيت أفضل بيوت الأرض، الذي قصده بالحج والعمرة، أخذ أركان الإسلام، ومنايه العظام، التي لا يتم إلا بها، وهو الذي بناه إبراهيم وإسماعيل، وجعله الله مثابة للناس وأمنًا، أن يقسم الله به، ويبين من عظمت ما هو اللائق به وبحرمته.

﴿والسقف المرفوع﴾ أي: السماء، التي جعلها الله سقفاً للمخلوقات، وبناءً للأرض، تستمد منها أنوارها، ويقتدى بعلماتها ومنازلها، وينزل الله منها المطر والرحمة وأنواع الرزق.

﴿والبحر المسجور﴾ أي: المملوء

منهم أحد، ويعلم ما تنقص الأرض منهم، فسيحان القوي المتين.

﴿٥٩-٦٠﴾ ﴿فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون﴾ فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون﴾ أي: وإن للذين ظلموا وكذبوا^(٣) محمداً ﷺ من العذاب والنكال ﴿ذنوباً﴾ أي: نصيباً وقسطاً، مثل ما فعل بأصحابهم من أهل الظلم والتكذيب.

﴿فلا يستعجلون﴾ بالعذاب، فإن سنة الله في الأمم واحدة، فكل مكذب يدوم على تكذيبه من غير توبة وإنابة، فإنه لا بد أن يقح عليه العذاب، ولو تأخر عنه مدة، ولهذا توعدهم الله بيوم القيامة، فقال: ﴿فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون﴾ وهو يوم القيامة، الذي قد وعدوا فيه بأنواع العذاب والنكال والسلاسل والأغلال، فلا مغيث لهم، ولا منقذ من عذاب الله تعالى [نعوذ بالله منه].

تفسير سورة الطور، مكية

﴿١٦-١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والطور﴾ وكتاب مسطور ﴿في رق منشور﴾ والبيت المعمور والسقف المرفوع ﴿والبحر المسجور﴾ إن عذاب ربك لواقع ﴿ماله من دافع﴾ يوم غور السماء موراً ﴿وتسير الجبال سيراً﴾ فويل يومئذ للمكذبين ﴿الذين هم في خوض يلعبون﴾ يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾ أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ﴿اصلوها فاصبروا أو لا تبصروا سواء عليكم﴾ إنما تمحزون ما كنتم تعملون ﴿يقسم تعالى بهذه الأمور العظيمة، المشتمة على الحكم الجلية، على البعث والجزاء للمتقين والمكذبين، فأقسم بالطور الذي هو الجبل الذي

الأسقى﴾ وأما من ليس له معه إيمان ولا استعداد لقبول التذكير، فهذا لا ينفع تكبيره، بمنزلة الأرض السبخة التي لا يفيدها المطر شيئاً، وهؤلاء الصنف، لو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

﴿٥٦-٥٨﴾ ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ﴿إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾ هذه الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها، ويبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته المتضمنة لمعرفته ومحبه، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، وذلك يتضمن^(١) معرفته تعالى، فإن تمام العباداة، متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه، كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم.

فما يريد منهم من رزق وما يريد أن يطعموه، تعالى الله الغني المغني عن الحاجة إلى أحد بوجه من الوجوه، وإنما جميع الخلق فقراء إليه، في جميع حوائجهم ومطالبهم، الضرورية وغيرها، ولهذا قال: ﴿إن الله هو الرزاق﴾ أي: كثير الرزق، الذي ما من دابة في الأرض ولا في السماء إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، ﴿ذو القوة المتين﴾ أي: الذي له القوة والقدرة كلها، الذي أوجد بها الأجرام العظيمة، السفلية والعلوية، وبها تصرف في الظواهر والبواطن، ونفذت مشيئته في جميع البريات، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يعجزه هارب، ولا يخرج عن سلطانه أحد، ومن قوته أنه أوصل رزقه إلى جميع العالم، ومن قدرته وقوته أنه يعث الأموات بعدما مرقهم إلى، وعصفت بترابهم^(٢) الرياح، وابتلعتهن الطيور والسباع، وتفرقوا وتمزقوا في مهامه التفار، ولجج البحار، فلا يفوته

(١) في ب: وذلك متوقف.

(٣) في ب: بتكذيبهم.

(٢) في ب: عصفت بهم.

(٤) في ب: الكتب.

وأن حجة الله قامت عليهم^(٣).
﴿اصلوها﴾ أي: ادخلوا النار على وجه تحيط بكم، وتستوعب جميع أبدانكم^(٤)، وتطلع على أفئدتكم.

﴿فاصبروا أو لا تبصروا سواء عليكم﴾ أي: لا يفيدكم الصبر على النار شيئاً، ولا يتأسى بعضكم ببعض، ولا يخفف عنكم العذاب، وليست^(٥) من الأمور التي إذا صبر العبد عليها هانت مشقتها وزالت شدتها.

وإنما فعل بهم ذلك، بسبب أعمالهم الخبيثة وكسبهم، [ولهذا قال] ﴿إنما نخبروكم ما كنتم تعملون﴾.

﴿١٧ - ٢٠﴾ ﴿إن المتقين في جنات ونعيم﴾ فأكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم * كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون * متكئين على سُرر مصفوفة وزوجناهم بحور عین * لما ذكر تعالى عقوبة المكذبين، ذكر نعيم المتقين، ليجمع بين الترغيب والترهيب، فتكون القلوب بين الخوف والرجاء، فقال: ﴿إن المتقين﴾ لربهم، الذين اتقوا سخطه وعذابه، بفعل أسنابه من امتثال الأوامر واجتناب النواهي.

﴿في جنات﴾ أي: بساتين، قد اكتست رياضها من الأشجار المثمرة، والأنهار التدفقة، والقصور المحدقة، والمنازل المزخرفة، ﴿ونعيم﴾ [وهذا] شامل لنعيم القلب والروح والبدن، ﴿فأكهين بما آتاهم ربهم﴾ أي: معجبين به، متمتعين على وجه الفرح والسرور بما أعطاهم الله من النعيم الذي لا يمكن وصفه، ولا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين، ووقاهم عذاب الجحيم، فرزقهم المحبوب،

بالحق، والتصديق بالباطل، وأعمالهم أعمال أهل الجهل والسفه واللعب، بخلاف ما عليه أهل التصديق والإيمان من العلوم النافعة، والأعمال الصالحة.

﴿يوم يدعون إلى نار جهنم دعا﴾ أي: يوم يدفعون إليها دفعاً، ويساقون إليها سوقاً عنيفاً، ويجرون على وجوههم، ويقال لهم توبيخاً ولوماً: ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾ فالיום ذوقوا عذاب الخلد الذي لا يبلغ قدره، ولا يوصف أمره.

﴿أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون﴾ يحتمل أن الإشارة إلى النار والعذاب، كما يدل عليه سياق الآية أي: لما رأوا النار والعذاب قيل لهم من باب التقرير: «أهذا سحر لا حقيقة له، فقد رأيتموه، أم أنتم في الدنيا لا تبصرون» أي: لا بصيرة لكم ولا علم عندكم، بل كنتم جاهلين بهذا الأمر، لم تقم عليكم الحجة؟ والجواب انتفاء الأمرين:

أما كونه سحراً، فقد ظهر لهم أنه أحق الحق، وأصدق الصدق، المخالف^(٦) للسحر من جميع الوجوه، وأما كونهم لا يبصرون، فإن الأمر بخلاف ذلك، بل حجة الله قد قامت عليهم، ودعتهم الرسل إلى الإيمان بذلك، وأقامت من الأدلة والبراهين على ذلك، ما يجعله من أعظم الأمور المبرهنة الواضحة الخالية.

ويحتمل أن الإشارة [بقوله: ﴿أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون﴾] إلى ما جاء به الرسول ﷺ من الحق المبين، والصراط المستقيم أي: هذا الذي جاء به محمد ﷺ سحر أم عدم بصيرة بكم، حتى أشبه عليكم الأمر، وحقيقة الأمر أنه أوضح من كل شيء وأحق الحق،

ماء، قد سجره الله، ومنعه من أن يفيض على وجه الأرض، منع أن مقتضى الطبيعة، أن يغمر وجه الأرض، ولكن حكمته اقتضت أن يمنعه عن الجريان والفيضان، ليعيش من على وجه الأرض، من أنواع الحيوان وقيل: إن المراد بالمسجور، الموقد الذي يوقد [ناراً] يوم القيامة، فيصير ناراً تُلظي، تمتلئ على عظمتها وسعته من أصناف العذاب.

هذه الأشياء التي أقسم الله بها، مما يدل على أنها من آيات الله وأدلة توحيده، وبراهين قدرته، وبعثه الأموات، ولهذا قال: ﴿إن عذاب ربك لواقع﴾ أي: لا بد أن يقع، ولا يخلف الله وعده وقيله.

﴿ما له من دافع﴾ يدفعه، ولا مانع يمنعه، لأن قدرة الله تعالى لا يغالبها مغالب، ولا يفوتها هارب، ثم ذكر وصف ذلك اليوم، الذي يقع فيه^(٧) العذاب، فقال: ﴿يوم تمور السماء مورا﴾ أي: تدور السماء وتضطرب، وتدوم حركتها بالزعاج وعدم سكون، ﴿وتسير الجبال سيرا﴾ أي: تزول عن أماكنها، وتسير كسير السحاب، وتتلون كالعنقوش، وتبث بعد ذلك [حتى تبصر] مثل الهباء، وذلك كله لعظم هول يوم القيامة، وفظاعة ما فيه من الأمور المزعجة، والزلازل المقلقة، التي أزعجت هذه الأجرام العظيمة، فكيف بالآدمي الضعيف؟! ﴿فويل يومئذ للمكذبين﴾ والويل كلمة جامعة لكل عقوبة وحزن وعذاب وخوف، ثم ذكر وصف المكذبين الذين استحقوا به الويل، فقال: ﴿الذين هم في خوض يلعمون﴾ أي: خوض في الباطل ولعب به. فعلوهم وخبوهم بالعلوم الضارة المتضمنة للتكذيب

(١) كذا في ب، وفي أ: يقع به.

(٢) في ب: المنافي.

(٣) بعد قوله والصراط المستقيم جاءت العبارة في ب مختلفة عما في أ، وهذا نص في ب: (أي: أفتبصرون من له عقل أن يقول عنه: إنه سحر، وهو أعظم الحق وأجله، ولكن لعدم بصيرتهم قالوا فيه ما قالوا).

(٤) في ب: (وتشمل أبدانكم).

(٥) كذا في ب، وفي أ: وليس.

الأمر الثالث، وهو أن كلامهم فيها سلام طيب طاهر، مسر للنفوس، مفرح للقلوب، يتعاضدون أحسن عشرة، ويتنادمون أطيب النادمة، ولا يسمعون من ربه، إلا ما يقر أعينهم، ويدل على رضاه عنهم [ومحبته لهم].

﴿ويطوف عليهم غلمان لهم﴾ أي: خدم شباب ﴿كأنهم لؤلؤ مكنون﴾ من حسنهم وبهائهم، يدورون عليهم بالخدمة وقضاء ما يحتاجون إليه^(٥)، وهذا يدل على كثرة نعيمهم وسعته، وكمال راحتهم.

﴿وأقبل بعضهم على بعض يتسائلون﴾ عن أمور الدنيا وأحوالها. ﴿قالوا﴾ في ذكر بيان الذي أوصلهم إلى ما هم فيه من الحيرة والسرور: ﴿إننا كنا قبل﴾ أي: في دار الدنيا ﴿في أهلنا مشفقين﴾ أي: خائفين وجلين، فتركنا من خوفه الذنوب، وأصلحنا لذلك العيوب.

﴿فمن الله علينا﴾ بالهداية والتوفيق، ﴿ووقانا عذاب السموم﴾ أي: العذاب الحار الشديد حره.

﴿إننا كنا من قبل ندعوه﴾ أن يقينا عذاب السموم، ويوصلنا إلى النعيم، وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة أي: لم نزل نتقرب إليه بأنواع القربات^(٦)، وتدعوه في سائر الأوقات، ﴿إنه هو البز الرحيم﴾ فمن بزه بنا ورحمته إيانا، أنالنا رضاه والجنة، ووقانا سخطه والنار.

﴿٢٩-٤٣﴾ ﴿فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون﴾ أم يقولون شاعر نترصد به رب المنون ﴿قل تربصوا فإني معكم من المترصدين﴾ أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون ﴿أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون﴾ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾ أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون ﴿

ولا تأثيم﴾ ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتسائلون﴾ قالوا ﴿إننا كنا قبل في أهلنا مشفقين﴾ فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم ﴿إننا كنا من قبل ندعوه إنه هو البز الرحيم﴾ وهذا من تمام نعيم أهل الجنة، أن ألحق الله بهم ذريتهم الذين اتبعوهم بإيمان أي: الذين لحقوهم بالإيمان الصادر من آبائهم، فصارت الذرية تبعاً لهم بالإيمان، ومن باب أولى إذا تبعتهم ذريتهم بإيمانهم الصادر منهم أنفسهم، فهؤلاء المذكورون، يلحقهم الله بمنزل آبائهم في الجنة وإن لم يبلغوها، جزاء لأبائهم، وزيادة في ثوابهم، ومع ذلك، لا ينقص الله الآباء من أعمالهم شيئاً، ولما كان ربما توهم متوهم أن أهل النار كذلك، يلحق الله بهم أبناءهم وذريتهم، أخبر أنه ليس حكم الدارين حكماً واحداً، فإن النار دار العدل، ومن عدله تعالى أن لا يعذب أحداً إلا بذنب، ولهذا قال: ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾ أي: مرتب بعمله، فلا تزر وازرة وزر أخرى، ولا يحمل على أحد ذنب أحد. هذا اعتراض من فوائده إزالة الوهم المذكور.

وقوله: ﴿وأمددناهم﴾ أي: أمددنا أهل الجنة من فضلنا الواسع ورزقنا العليم، ﴿بفاكهة﴾ من العنب والرمان والتفاح، وأصناف الفواكه اللذيذة الزائدة على ما به يتقوتون، ﴿ولحم مما يشتهون﴾ من كل ما طلبوه واشتهته أنفسهم، من لحم الطير وغيرها. ﴿يتنازعون فيها كأساً﴾ أي: تدور كأسات الرحيق والخمر عليهم، ويتعاطونها فيما بينهم، وتطوف عليهم الولدان المخلدون بأكراب وأباريق وكأس ﴿لا لغو فيها ولا تأثيم﴾ أي: ليس في الجنة كلام لغو، وهو الذي لا فائدة فيه ولا تأثيم، وهو الذي فيه إثم ومعصية، وإذا انتفى الأمران، ثبت

ونجاهم من المهوب، لما فعلوا ما أحبه الله، وجانبوا ما يسخطه وبأباه.

﴿كلوا واشربوا﴾ أي: مما تشتهي أنفسكم، من [أصناف] المأكول والمشرب اللذيذة، ﴿هنيئاً﴾ أي: متهئين بتلك المأكول والمشرب^(١) على وجه الفرح والسرور والبهجة والخيور. ﴿بما كنتم تعملون﴾ أي: نلتكم ما نلتكم بسبب أعمالكم الحسنة، وأقول لكم المستحسنة، ﴿متكئين على سرر مصفوفة﴾ الاتكاء: هو الجلوس على وجه التمكن والراحة والاستقرار، والسرر: هي الأرائك المزينة بأنواع الزينة من اللباس الفاخر والفرش الزاهية.

ووصف الله السرر بأنها مصفوفة، ليدل ذلك على كثرتها، وحسن تنظيمها، واجتماع أهلها وسرورهم، بحسن معاشرتهم، ولطف كلام بعضهم لبعض^(٢)، فلما اجتمع لهم من نعيم القلب والروح والبدن ما لا يحظر بالبال، ولا يدور في الخيال، من المأكول والمشرب [اللذيذة]، والمجالس الحسنة الآتية، لم يبق إلا التمتع بالنساء اللاتي لا يتم سرور بدونهن^(٣)، فذكر الله أن لهم من الأزواج أكمل النساء أوصافاً وخلقاً وأخلاقاً، ولهذا قال: ﴿وزوجناهم بحور عين﴾ وهن النساء اللواتي قد جمعن من جمال الصورة الظاهرة وبهائنها، ومن الأخلاق الفاضلة، ما يوجب أن يحيرن بحسبهن الناظرين، ويسلبن عقول العالمين، وتكاد الأفئدة أن تطيش^(٤) شوقاً إليهن، ورغبة في وصالهن، والعين: حسان الأعين مليحاتها، التي صفا بياضها وسوادها.

﴿٢٨-٢١﴾ ﴿والذين آمنوا واتبعتمهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين﴾ وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون ﴿يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها

(٥) في ب: وقضاء أشغالهم.

(٦) في ب: العبادات.

(٣) في ب: إلا بهن.

(٤) في ب: تطير.

(١) في ب: متهئين بذلك على وجه.

(٢) في ب: وملاطفه بعضهم بعضاً.

أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون * أم لهم سلم يستمعون فيه فليات مستمعهم سلطان مبین * أم له البنات ولكم البنون * أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون * أم عندهم الغيب فهم يكتبون * أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون * أم لهم إله غير الله سبحانه الله عما يشركون * يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يذكر الناس، مسلمهم وكافرهم، لتقوم حجة الله على الظالمين، ويهتدي بتذكيره الموفقون، وأنه لا يبالي بقول المشركين المكذابين وأذيتهم وأقوالهم التي يصدون بها الناس عن اتباعه، مع علمهم أنه أبعد الناس عنها، ولهذا نفى عنه كل نقص رموه به، فقال: ﴿فما أنت بتعمه ربك﴾ أي: منه ولطفه، ﴿بكاهن﴾ أي: له رأي من الجن، يأتيه بأخبار بعض الغيوب، التي يضم إليها مئة كذبة، ﴿ولا مجنون﴾ فاقد للعقل، بل أنت أكمل الناس عقلاً، وأبعدهم عن الشياطين، وأعظمهم صدقاً، وأجلهم وأكملهم، وتارة ﴿يقولون﴾ فيه: إنه ﴿شاعر﴾ يقول الشعر، والذي جاء به شعر، والله يقول: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾.

﴿أم يقولون تقوله﴾ أي: تقول عمداً القرآن، وقاله من تلقاء نفسه؟ ﴿بل لا يؤمنون﴾ فلو آمنوا، لم يقولوا ما قالوا.

﴿٣٤﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أنه تقوله، فإنكم العرب الفصحاء، والفحول البلغاء، وقد تحداكم أن تأتوا بمثله، فتصدق معارضتكم أو تقرروا بصدقه، وأنكم لو اجتمعتم، أنتم والإنس والجن، لم تقدروا على معارضته والإتيان بمثله، فحيث أنتم بين أمرين: إما مؤمنون به، مهتدون بهديه، وإما معاندون متبعون لما علمتم من الباطل.

﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾ وهذا استدلال عليهم، بأمر لا يمكنهم فيه إلا التسليم للحق، أو الخروج عن موجب العقل والدين، وبين ذلك: أنهم منكرون لتوحيد الله، مكذبون لرسوله، وذلك مستلزم لإنكار أن الله خلقهم.

وقد تقرر في العقل مع الشرع، أن الأمور لا تخلو من أحد ثلاثة أمور: إما أنهم خلقوا من غير شيء أي: لا خالق خلقهم، بل وجدوا من غير إيجاد ولا موجد، وهذا عين المحال.

أم هم الخالقون لأنفسهم، وهذا أيضاً محال، فإنه لا يتصور أن يوجدوا أنفسهم^(٥).

فإذا بطل [هذان] الأمران، وبان أثرهما عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون؟ أي: أعند هؤلاء المكذابين خزائن رحمة ربك، فيعطون من يشاؤون ويمنعون من يريدون؟ أي: فلذلك حجروا على الله أن يعطي النبوة عبده ورسوله محمداً ﷺ، وكأنهم الوكلاء المفوضون على خزائن رحمة الله، وهم أحقر وأذل من ذلك، فليس في أيديهم لأنفسهم نفع ولا ضرر، ولا موت ولا حياة ولا نشور.

(١) كذا في ب، وفي أ: تريض به الموت، وانتظره فيه.

(٢) في ب: التي هذه نتائجها، وهذه ثمراتها.

(٣) في ب: وجعلت أصدق الصدق.

(٤) كذا في ب، وفي أ: لا حد له.

(٥) في ب: أن يوجد أحد نفسه.



استحالتهما، تعين [القسم الثالث] أن الله الذي خلقهم، وإذا تعين ذلك، علم أن الله تعالى هو المعبود وحده، الذي لا تنبغي العبادة ولا تصلح إلا له تعالى.

وقوله: ﴿أم خلقوا السماوات والأرض﴾ وهذا استفهام يدل على تقرير النفي أي: ما خلقوا السماوات والأرض، فيكونوا شركاء الله، وهذا أمر واضح جداً.

ولكن المكذبين ﴿لا يوقنون﴾ أي: ليس عندهم علم تام، ويقين يوجب لهم الانتفاع بالأدلة الشرعية والعقلية.

﴿أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون﴾ أي: أعند هؤلاء المكذابين خزائن رحمة ربك، فيعطون من يشاؤون ويمنعون من يريدون؟ أي: فلذلك حجروا على الله أن يعطي النبوة عبده ورسوله محمداً ﷺ، وكأنهم الوكلاء المفوضون على خزائن رحمة الله، وهم أحقر وأذل من ذلك، فليس في أيديهم لأنفسهم نفع ولا ضرر، ولا موت ولا حياة ولا نشور.



﴿أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾.

﴿أهم هم المصيطرون﴾ أي: المتسلطون على خلق الله وملكه، بالقهر والغلبة؟ ليس الأمر كذلك، بل هم العاجزون الفقراء، ﴿أهم لهم سلم يستمعون فيه﴾ أي: ألهم اطلاع على الغيب، واستماع له بين الملأ الأعلى، فيخبرون عن أمور لا يعلمها غيرهم؟

﴿فليات مستمعهم﴾ المدعي لذلك ﴿بسلطان مبين﴾ وأتى له ذلك؟

والله تعالى عالم الغيب والشهادة، فلا يظهر على غيبه [أحدًا] (١) إلا من ارتضى من رسول يخبره بما أراد من علمه.

وإذا كان محمد ﷺ أفضل الرسل وأعلمهم وإمامهم، وهو المخبر بما أخبر به، من توحيد الله، ووعد، ووعيده، وغير ذلك من أخباره الصادقة، والمكذبون هم أهل الجهل والضلال والغي والعناد، فأئي المخبرين أحق بقبول خبره؟ خصوصاً

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) في ب: ما يوجب أن يكون ذلك عين اليقين.

(٣) في ب: فنصر الله نبيه عليهم، وأظهر دينه، وخذلهم.

والرسول ﷺ قد أقام من الأدلة والبراهين على ما أخبر به، ما يوجب أن يكون خبره (٢) عين اليقين وأكمل الصدق، وهم لم يقيموا على ما ادعوه شبهة، فضلاً عن إقامة حجة منهم.

وقوله: ﴿أهم له البنات﴾ كما زعمتم ﴿ولكم البنون﴾ فتجمعون بين المحذورين؟ جعلكم له الولد، واختياركم له أنقص الصنفين؟ فهل بعد هذا التنقص لزب العالمين غاية أو دونه نهاية؟

﴿أهم تسألهم﴾ يا أيها الرسول ﴿أجراً﴾ على تبليغ الرسالة، ﴿فهم من مغرم مثقلون﴾ ليس الأمر كذلك، بل أنت الحريص على تعليمهم، تبرعاً من غير شيء، بل تبذل لهم الأموال الجزيلة، على قبول رسالتك، والاستجابة للأمرك و[دعوتك، وتعطي المؤلفة قلوبهم] ليتمكن العلم والإيمان من قلوبهم.

﴿أهم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾ ما كانوا يعلمونه من الغيوب، فيكونون قد اطلعوا على ما لم يطلع عليه رسول الله، فعارضوه وعاندوه بما عندهم من علم الغيب؟ وقد علم أنهم الأمة الأمية، الجهال الضالون، ورسول الله ﷺ هو الذي عنده من العلم أعظم من غيره، وأنبياء الله من علم الغيب على ما لم يُطْلَغ عليه أحدًا من الخلق، وهذا كله إلزام لهم بالطرق العقلية والنقلية على فساد قولهم، وتصوير بطلانه بأحسن الطرق وأوضحها وأسلمها من الاعتراض، وقوله: ﴿أهم يريدون﴾ بقدهم فيك وفيما جئتهم به ﴿كيداً﴾ يبطلون به دينك، ويفسدون به أمرك؟

﴿فالذين كفروا هم المكيدون﴾ أي: كيدهم في تحورهم، ومضرتهم عائدة

﴿أهم لهم إله غير الله﴾ أي: ألهم إله يدعى ويرجى نفعه، ويخاف من ضره، غير الله تعالى؟ ﴿سبحان الله عما يشركون﴾ فليس له شريك في الملك، ولا شريك في الوجدانية والعبادة، وهذا هو المقصود من الكلام الذي سبق لأجله، وهو بطلان عبادة ما سوى الله وبيان فسادها بتلك الأدلة القاطعة، وأن ما عليه المشركون هو الباطل، وأن الذي ينبغي أن يعبد ويُصَلَّى له ويسجد ويخلص له دعاء العبادة ودعاء المسألة، هو الله المألوه المعبود، كامل الأسماء والصفات، كثير النعوت الحسنة، والأفعال الجميلة، ذو الجلال والإكرام، والعز الذي لا يرام، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الكبير الحميد المجيد.

﴿٤٤ - ٤٦﴾ ﴿وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم﴾ فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون ﴿يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون﴾ يقول تعالى في ذكر [بيان أن المشركين المكذبين بالحق الواضح، قد عتوا [عن الحق] وعسوا على الباطل، وأنه لو قام على الحق كل دليل لما اتبعوه، ولخالفوه وعاندوه، ﴿وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً﴾ أي: لو سقط عليهم من السماء من الآيات الباهرة كسف أي: قطع كبار من العذاب ﴿يقولوا سحاب مركوم﴾ أي: هذا سحاب متراكم على العادة أي: فلا يبالون بما رأوا من الآيات ولا يعتبرون بها، وهؤلاء لا دواء لهم إلا العذاب والنكال، ولهذا قال: ﴿فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه

تفسير سورة النجم [وهي] مكية

﴿١٨-١﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ والنجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى * علمه شديد القوى * ذو مرة فاستوى * وهو بالأفق الأعلى * ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى * فأوحى إلى عبده ما أوحى * ما كذب الفؤاد ما رأى * أفتمارونه على ما يرى * ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى * إذ يغشى السدرة ما يغشى * ما زاغ البصر وما طغى * لقد رأى من آيات ربه الكبرى * يقسم تعالى بالنجم عند هويته أي: سقوطه في الأفق في آخر الليل عند إدبار الليل وإقبال النهار، لأن في ذلك من آيات الله العظيمة، ما أوجب أن أقسم به، والصحيح أن النجم، اسم جنس شامل للنجوم كلها، وأقسم بالنجوم على صحة ما جاء به الرسول ﷺ من الوحي الإلهي، لأن في ذلك مناسبة عجيبة، فإن الله تعالى جعل النجوم زينة للسماء، فكذلك الوحي وآثاره زينة للأرض، فلولا العلم الموروث عن الأنبياء، لكان الناس في ظلمة أشد من الليل البهيم.

والمقسم عليه، تنزيه الرسول ﷺ عن الضلال في علمه، والنغي في قصده، ويلزم من ذلك أن يكون مهتدياً في علمه، هادياً، حسن القصد، ناصحاً للأمة^(٢)، بعكس ما عليه أهل الضلال من فساد العلم، وفساد القصد^(٣)، وقال ﴿صاحبكم﴾ لينبهم على ما يعرفونه منه، من الصدق والهداية، وأنه لا يخفى عليهم أمره، ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ أي: ليس نطقه صادراً عن هوى نفسه، ﴿إن هو

يصعقون﴾ وهو يوم القيامة الذي يصيبهم [فيه] من العذاب والنكال، ما لا يقادر قدره، ولا يوصف أمره.

﴿يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً﴾ أي: لا قليلاً ولا كثيراً، وإن كان في الدنيا قد يوجد منهم كيد يعيشتون به زمناً قليلاً، فيوم القيامة يضمحل كيدهم، وتبطل مناعيتهم، ولا ينتصرون من عذاب الله ﴿ولا هم ينصرون﴾

﴿٤٧-٤٩﴾ ﴿وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ وأصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم * ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم * ذكر [الله] عذاب الظالمين في القيامة، أخبر أن لهم عذاباً دون عذاب يوم القيامة^(١)، وذلك شامل لعذاب الدنيا، بالقتل والسبي والإخراج من الديار، ولعذاب البرزخ والقبر، ولكن أكثرهم لا يعلمون * أي: فلذلك أقاموا على ما يوجب العذاب، وشدة العقاب.

ولما بين تعالى الحجة والبراهين على بطلان أقوال المكذبين، أمر رسوله ﷺ أن لا يعياهم شيئاً، وأن يصبر لحكم ربه القدرى والشرعى بلزومه والاستقامة عليه، ووعد الله بالكفاية بقوله: ﴿فإنك بأعيننا﴾ أي: بمرأى منا وحفظ، واعتناء بأمرك، وأمره أن يستعين على الصبر بالذكر والعبادة، فقال: ﴿وسبح بحمد ربك حين تقوم﴾ أي: من الليل.

ففيه الأمر بقيام الليل، أو حين تقوم إلى الصلوات الخمس، بدليل قوله: ﴿ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم﴾ أي: آخر الليل، ويدخل فيه صلاة الفجر، والله أعلم.

تم تفسير سورة والطور والحمد لله

(١) في ب: في الآخرة أخبر أن لهم عذاباً قبل عذاب...

(٢) في ب: للخلق.

(٣) في ب: وسوء.



إلا وحي يوحى * أي: لا يتبع إلا ما أوحى الله إليه من الهدى والتقوى، في نفسه وفي غيره.

ودل هذا على أن السنة وحي من الله لرسوله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ﴾ وأنه معصوم فيما يخبر به عن الله تعالى وعن شريعته، لأن كلامه لا يصدر عن هوى، وإنما يصدر عن وحي يوحى، ثم ذكر العلم للرسول ﷺ، وهو جبريل [عليه السلام]، أفضل الملائكة [الكرام] وأقواهم وأكملهم، فقال: ﴿علمه [شديد القوى]﴾ أي: نزل بالوحي على الرسول ﷺ جبريل عليه السلام، ﴿شديد القوى﴾ أي: شديد القوة الظاهرة والباطنة، قوي على تنفيذ ما أمره الله بتنفيذه، قوي على إيصال الوحي إلى الرسول ﷺ، ومنعه من اختلاس الشياطين له، أو إدخالهم فيه ما ليس منه، وهذا من حفظ الله لوجيه، أن أرسله مع هذا الرسول القوي الأمين.

﴿ذو مرة﴾ أي: قوة، وخلق حسن، وجمال ظاهر وباطن.

﴿فاستوى﴾ جبريل عليه السلام

طغى ﴿١﴾ أي: وما تجاوز البصر، وهذا كمال الأدب منه صلوات الله وسلامه عليه، أن قام مقاماً أقامه الله فيه، ولم يقصر عنه ولا تجاوزه ولا حاد عنه، وهذا أكمل ما يكون من الأدب العظيم، الذي فاق فيه الأولين والآخرين، فإن الإخلال يكون بأحد هذه الأمور: إما أن لا يقوم العبد بما أمر به، أو يقوم به على وجه التفریط، أو على وجه الإفراط، أو على وجه الحيدة يميناً وشمالاً، وهذه الأمور كلها متفية عنه ﴿٢﴾.

﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ من الجنة والنار، وغير ذلك من الأمور التي رآها ﴿٣﴾ ليلة أسري به.

﴿١٩ - ٢٥﴾ ﴿أفرايتم اللات والعزى﴾ ومناة الثالثة الأخرى * ألكم الذكر وله الأنثى * تلك إذا قسمة ضيزى * إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباءكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى * أم للإنسان ما تمنى * فليله الآخرة والأولى﴾ لما زكى تعالى ما جاء به محمد ﴿٤﴾ من الهدى ودين الحق، والأمر بعبادة الله وتوحيده، ذكر بطلان ما عليه المشركون من عبادة من ليس له من أوصاف الكمال شيء، ولا تنفع ولا تضر، وإنما هي أسماء فارغة عن المعنى، سماها المشركون هم وآباؤهم الجهال الضلال، ابتدعوا لها من الأسماء الباطلة التي لا تستحقها، فخدعوا بها أنفسهم وغيرهم من الضلال، فالآلهة التي بهذه الحال، لا تستحق مشقال ذرة من العبادة، وهذه الأنداد التي سموها بهذه الأسماء، زعموا أنها مشتقة من أوصاف هي متصفة بها، فسموا «اللات» من «الإله» المستحق للعبادة، و «العزى» من «العزیز»، و «مناة» من «المنان»، إلخاداً في أسماء الله وتجريباً على الشرك به، وهذه أسماء متجردة

أسري به، من آيات الله العظيمة، وأنه تيقنه حقاً بقلبه ورؤيته، هذا [هو] الصحيح في تأويل الآية الكريمة، وقيل: إن المراد بذلك رؤية الرسول ﴿٥﴾ لربه ليلة الإسراء، وتكليمه إياه، وهذا اختيار كثير من العلماء رحمهم الله، فأثبتوا هذه رؤية الرسول ﴿٦﴾ لربه في الدنيا، ولكن الصحيح القول الأول، وأن المراد به جبريل عليه السلام، كما يدل عليه السياق، وأن محمداً ﴿٧﴾ رأى جبريل في صورته الأصلية [التي هو عليها] مرتين، مرة في الأفق الأعلى، تحت السماء الدنيا كما تقدم، والمرة الثانية فوق السماء السابعة ليلة أسري برسول الله ﴿٨﴾، ولهذا قال: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ أي: رأى محمد جبريل مرة أخرى، نازلاً إليه.

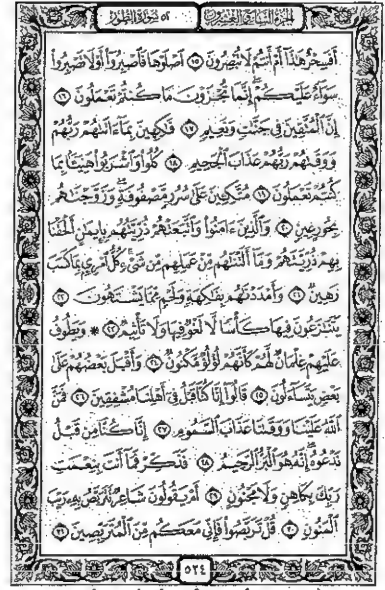
﴿عند سدرة المنتهى﴾ وهي شجرة عظيمة جداً، فوق السماء السابعة، سميت سدرة المنتهى، لأنه ينتهي إليها ما يعرج من الأرض، وينزل إليها ما ينزل من الله، من الوحي وغيره، أو لانتهاء علم الخلق ﴿٩﴾ إليها أي: لكونها فوق السماوات والأرض، فهي المنتهى في علوها ﴿١٠﴾، أو لغير ذلك، والله أعلم.

فرأى محمد ﴿١١﴾ جبريل في ذلك المكان، الذي هو محل الأرواح العلوية الزاكية الجميلة، التي لا يقربها شيطان ولا غيره من الأرواح الخبيثة.

عند تلك الشجرة ﴿جنة المأوى﴾ أي: الجنة الجامعة لكل نعيم، بحيث كانت محلاً تنتهي إليه ﴿١٢﴾ الأمان، وترغب فيه الإرادات، وتأوي إليها الرغبات، وهذا دليل على أن الجنة في أعلى الأماكن، وفوق السماء السابعة.

﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾ أي: يغشاها من أمر الله، شيء عظيم لا يعلم وصفه إلا الله عز وجل.

﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ أي: ما زاغ يمنية ولا يسرة عن مقصوده ﴿وما



﴿وهو بالأفق الأعلى﴾ أي: أفق السماء الذي هو أعلى من ﴿١﴾ الأرض، فهو من الأرواح العلوية، التي لا تنالها الشياطين ولا يتمكنون من الوصول إليها.

﴿ثم دنا﴾ جبريل من النبي ﴿٢﴾، لإيصال الوحي إليه.

﴿فتدلى﴾ عليه من الأفق الأعلى ﴿فكان﴾ في قربه منه ﴿قاب قوسين﴾ أي: قدر قوسين، والقوس معروف، ﴿أو أدنى﴾ أي: أقرب من القوسين، وهذا يدل على كمال المباشرة ﴿٣﴾ للرسول ﴿٤﴾ بالرسالة، وأنه لا واسطة بينه وبين جبريل عليه السلام.

﴿فأوحى﴾ الله بواسطة جبريل عليه السلام ﴿إلى عبده﴾ محمد ﴿٥﴾ ما أوحى ﴿٦﴾ أي: الذي أوحاه إليه من الشرع العظيم، والنبأ المستقيم.

﴿ما كذب الشؤاد ما رأى﴾ أي: اتفق فؤاد الرسول ﴿٧﴾ ورؤيته على الوحي الذي أوحاه الله إليه، وتواطأ عليه سمعه وقلبه وبصره، وهذا دليل على كمال الرحي الذي أوحاه الله إليه، وأنه تلقاه منه تلقياً لا شك فيه ولا شبهة ولا ريب، فلم يكذب فؤاده ما رأى بصره، ولم يشك بذلك. ويحتمل أن المراد بذلك ما رأى ﴿٨﴾ ليلة

(٥) كذا في ب، وفي أ: إليها.

(٣) في ب: علم المخلوقات.

(٤) كذا في ب، وفي أ: علوها.

(١) كذا في ب، وفي أ: الأعلى على.

(٢) في ب: مباشرته.

عن المعاني، فكل من له أدنى مسكة من عقل، يعلم بطلان هذه الأوصاف فيها.

﴿الكم الذكر وله الأنثى﴾ أي: أتجعلون لله البنات بزعمكم، ولكم البنون؟

﴿تلك إذا قسمة ضيزى﴾ أي: ظالة جائزة، [وأي ظلم أعظم من قسمة] تقتضي تفضيل العبد المخلوق على الخالق؟ [تعالى عن قولهم علواً كبيراً].

وقوله: ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ أي: من حجة وبرهان على صحة مذهبكم، وكل أمر ما أنزل الله به من سلطان، فهو باطل فاسد، لا يتخذ ديناً، وهم - في أنفسهم - ليسوا بمتبعين لبرهان، يتيقنون به ما ذهبوا إليه، وإنما دلهم على قولهم، الظن الفاسد، والجهل الكاسد، وما تهواه أنفسهم من الشرك والبدع الموافقة لأهويتهم، والحال أنه لا موجب لهم يقتضي اتباعهم الظن، من فقد العلم والهدى، ولهذا قال تعالى: ﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ أي: الذي يرشدكم في باب التوحيد والنبوة، وجميع المطالب التي يحتاج إليها العباد، فكلها قد بيها الله أكمل بيان وأوضحه، وأدله على المقصود، وأقام عليه من الأدلة والبراهين، ما يوجب لهم ولغيرهم اتباعه، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة من بعد البيان والبرهان، وإذا كان ما هم عليه، غايته اتباع الظن، ونهايته الشقاء الأبدى والعذاب السرمدي، فالبقاء على هذه الحال، من أسفه السفه، وأظلم الظلم، ومع ذلك يمتنون الأمانى، ويغترون بأنفسهم.

ولهذا أنكر تعالى على من زعم أنه يحصل له ما تمنى وهو كاذب في ذلك، فقال: ﴿أم للإنسان ما تمنى﴾ قلله الآخرة والأولى، فيعطي منهما من يشاء، ويمنع من يشاء، فليس الأمر تابعاً لأمانيتهم، ولا موافقاً لأهوائهم.

﴿٢٦﴾ ﴿وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ يقول تعالى منكراً على من عبد غيره من الملائكة وغيرهم، وزعم أنها تنفعه وتشفع له عند الله يوم القيامة: ﴿وكم من ملك في السماوات﴾ من الملائكة المقربين، وكرام الملائكة: ﴿لا تغني شفاعتهم شيئاً﴾ أي: لا تفيد من دعاها وتعلق بها ورجاها، ﴿إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ أي: لا بد من اجتماع الشرطين: إذنه تعالى في الشفاعة، ورضاه عن المشفوع له. ومن العلوم المقررة، أنه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجه الله، موافقاً فيه صاحبه الشريعة، فالمشركون إذاً لا نصيب لهم من شفاععة الشافعين، وقد سدوا على أنفسهم رحمة أرحم الراحمين.

﴿٢٧ - ٣٠﴾ ﴿إن النذيرين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى﴾ وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يثبت في الحق شيئاً * فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا * ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن اهتدى * ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى * يعني أن المشركين بالله المكذبين لرسله، الذين لا يؤمنون بالآخرة، وبسبب عدم إيمانهم بالآخرة تجرؤوا على ما تجرؤوا عليه، من الأقوال، والأفعال المحادة لله ولرسوله، من قولهم: «الملائكة بنات الله»، فلم ينزهوا ربهم عن الولادة، ولم يكرموا الملائكة ويحلوهن عن تسميتهم إياهن إنثاء، والحال أنه ليس لهم بذلك علم، لا عن الله، ولا عن رسله، ولا دلت على ذلك الفطر والعقول، بل العلم كله دال على نقيض قولهم، وأن الله منزّه عن الأولاد والصاحبة، لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وأن الملائكة كرام مقربون



إلى الله، قائمون بخدمة الله، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون * والمشركون ^(١) إنما يتبعون في ذلك القول القبيح، وهو ^(٢) الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً، فإن الحق لا بد فيه من اليقين المستفاد من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة.

ولما كان هذا دأب هؤلاء المذكورين أنهم ^(٣) لا غرض لهم في اتباع الحق، وإنما غرضهم ومقصودهم، ما تهواه نفوسهم، أمر الله رسوله بالإعراض عما تولى عن ذكره، الذي هو الذكر الحكيم، والقرآن العظيم، والنبا الكريم، فأعرض عن العلوم النافعة، ولم يرد إلا الحياة الدنيا، فهذا منتهى إرادته، ومن العلوم أن العبد لا يعمل إلا للشيء الذي يريده، فسعيهم مقصور على الدنيا ولذاتها وشهواتها، كيف حصلت حصلوها، وبأي طريق سحت ابتدروها، ذلك مبلغهم من العلم * أي: هذا منتهى علمهم وغايته، وأما المؤمنون بالآخرة، المصدقون بها، أولو الألباب والعقول، فهمتهم وإرادتهم للدار الآخرة، وعلومهم أفضل العلوم وأجلها، وهو العلم المأخوذ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والله تعالى أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، بمن لا يستحق

(٣) كذا في ب، وفي أ: أنه.

(٢) كذا في ب، وفي أ: إلا.

(١) كذا في ب، وفي أ: وهم.

موجود مشاهد منكم حين أنشاكم^(٤) الله من الأرض، وإذا كنتم في بطون أمهاتكم، ولم يزل موجوداً فيكم، وإن كان الله تعالى قد أوجد فيكم قوة على ما أمركم به، ولكن الضعف لم يزل، فلعلكم تتعالى بأحوالكم هذه، ناسبت الحكمة الإلهية

والجود الرباني، أن يتغمدكم برحمته ومغفرته وعفوه، ويغمركم بإحسانه، ويزيل عنكم الجرائم والمآثم، خصوصاً إذا كان العبد مقصوده مرضاة ربه في جميع الأوقات، وسعيه فيما يقرب إليه في أكثر الآتات، وفراره من الذنوب التي يتمت بها عند مولده، ثم تقع منه الفلته بعد الفلته، فإن الله تعالى أكرم الأكرمين وأرجم الراجحين^(٥)، أرحم عباده من الوالدة بولدها، فلا بد لمثل هذا أن يكون من مغفرة ربه قريباً وأن يكون الله له في جميع أحواله مجيباً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تخبرون الناس بطهارتها على وجه التمدح^(٦)

﴿هو أعلم بمن اتقى﴾ أي: إن التقوى، محلها القلب، والله هو المطع عليه، المجازي على ما فيه من بر وتقوى، وأما الناس، فلا ينعون عنكم من الله شيئاً.

﴿٣٣ - ٦٢﴾ ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى﴾ وأعطى قليلاً وأكدى * أعنده علم الغيب فهو يرى * أم لم يتبأ بما في صحف موسى * وإبراهيم الذي وفى * ألا تزر وازرة وزر أخرى * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى * وأن إلى ربك المنتهى * وأنه هو أضحك وأبكى * وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى * وأن

من أعمال الشر بالعقوبة البليغة^(١).
﴿وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ في عبادة الله تعالى، وأحسنوا إلى خلق الله، بأنواع المنافع ﴿بِالْحَسَنَى﴾ أي: بالحالة الحسنة في الدنيا والآخرة، وأكبر ذلك وأجله رضا ربهم، والفوز بنعيم الجنة^(٢).

ثم ذكر وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَائرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ﴾ أي: يفعلون ما أمرهم الله به من الواجبات، التي يكون تركها من كِبائر الذنوب، ويتركون المحرمات الكبار، كالزنا، وشرب الخمر، وأكل الربا، والقتل، ونحو ذلك من الذنوب العظيمة، ﴿إِلَّا اللَّيْمَ﴾ وهي الذنوب الصغار، التي لا يصير صاحبها عليها، أو التي يلم بها العبد، المرة بعد المرة، على وجه الندرة والقلّة، فهذه ليس مجرد الإقدام عليها خرجاً للعبد من أن يكون من المحسنين، فإن هذه مع الإتيان بالواجبات وترك المحرمات، تدخل تحت مغفرة الله التي وسعت كل شيء، ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ فلولا مغفرته لهلك البلاد والعباد، ولولا عفوه وحلمه لسقطت السماء على الأرض، ولما ترك على ظهرها من دابة. ولهذا قال النبي ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن، ما اجتنبت الكبائر»، [وقوله]: ﴿هو أعلم بكم إذ أنشاكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم﴾ أي: هو تعالى أعلم بأحوالكم كلها، وما جبلكم عليه، من الضعف والخور، عن كثير مما أمركم الله به، ومن كثرة الدواعي إلى بعض^(٣) المحرمات، وكثرة الجواذب إليها، وعدم الموانع القوية، والضعف



ذلك فيكمله إلى نفسه، ويحذله، فيضل عن سبيل الله، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ وهو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو يعلم المحل اللائق به.

﴿٣٢ - ٣١﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَى﴾ الذين يمتنعون كِبائر الإثم والفواحش إلا اللَّيْمَ إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشاكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى * يخبر تعالى أنه مالك الملك، المتفرد بملك الدنيا والآخرة، وأن جميع من في السماوات والأرض ملك لله، يتصرف فيهم تصرف الملك العظيم، في عبده ومماليكه، ينفذ فيهم قدره، ويجزي عليهم شرعه، ويأمرهم وينهاهم، ويجزيهم على ما أمرهم به ونهاهم [عنه]، فيثبت المطيع، ويعاقب العاصي، ليجزى الذين أساءوا العمل السيئات من الكفر فما دونه بما عملوا

(١) في ب: الفطية.

(٢) في ب: والفوز بالجنة وما فيها من النعيم.

(٣) في ب: إلى فعل.

(٤) في ب: حين أخرجكم.

(٥) في ب: وأجود الأجودين.

(٦) كذا في ب، وفي أ: تظهرونها، وتخبرون الناس بذلك على وجه التمدح.

﴿وأنه خلق الزوجين﴾ فسر الزوجين^(٦) بقوله: ﴿الذكر والأنثى﴾ وهذا اسم جنس شامل لجميع الحيوانات، ناطقها وبهيمها، فهو المنفرد بخلقها، ﴿من نقطة إذا متنى﴾ وهذا من أعظم الأدلة على كمال قدرته وانفراده بالعزة العظيمة، حيث أوجد تلك الحيوانات، صغيرها كبيرها من نقطة ضعيفة^(٧) من ماء مهين، ثم نماها وكملها، حتى بلغت ما بلغت، ثم صار الأدمي منها إما إلى أرفع المقامات في أعلى عِلين، وإما إلى أدنى الحالات في أسفل سافلين، ولهذا استدل بالبنداء على الإعادة، فقال: ﴿وأن عليه النشأة الأخرى﴾ فيعيد العباد من الأجداث، ويمتعهم ليوم الميقات، ويجازيهم على الحسنات والسيئات، ﴿وأنه هو أغنى وأغنى﴾ أي: أغنى العباد بتيسير أمر معاشهم من التجارات وأنواع المكاسب، من الحرف وغيرها، وأغنى أي: أفاد عباده من الأموال بجميع أنواعها، ما يضيرون به مقتنين لها، ومالكين لكثير من الأعيان، وهذا من نعمه على عباده أن جميع النعم منه تعالى^(٨)، وهذا يوجب للعباد أن يشكروه، ويعبدوه وحده لا شريك له، ﴿وأنه هو رب الشعري﴾ وهي النجم المعروف بالشعري العبور، المسماة بالمرزم، وخصها الله بالذكر، وإن كان رب كل شيء، لأن هذا النجم مما عُبد في الجاهلية، فأخبر تعالى أن جنس ما يعبد المشركون مريبوب مدبر مخلوق، فكيف تتخذ إلهاً مع الله^(٩)، ﴿وأنه أهلك عاداً الأولى﴾ وهم قوم هود عليه السلام، حين كذبوا

وإحسانه الخليفة كلها، وتحمد الله عليه، حتى إن أهل النار ليدخلون النار، وإن قلوبهم مملوءة من حمد ربهم، والإقرار له بكمال الحكمة ومقت أنفسهم، وأنهم الذين أوصلوا أنفسهم وأوردوها شر الموارد، وقد استدل بقوله تعالى: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ من يرى أن القرب لا يفيد^(١٠) إهداؤها للأحياء ولا للأموات قالوا لأن الله قال: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ فوصول سعي غيره إليه مناف لذلك، وفي هذا الاستدلال نظر، فإن الآية إنما تدل على أنه ليس للإنسان إلا ما سعى بنفسه، وهذا حق لا خلاف فيه، وليس فيها ما يدل على أنه لا ينتفع بسعي غيره، إذا أهدها ذلك الغير له، كما أنه ليس للإنسان من المال إلا ما هو في ملكه وتحت يده، ولا يلزم من ذلك، أن لا يملك ما وهبه له الغير من ماله الذي يملكه.

وقوله: ﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾ أي: إليه تنتهي الأمور، وإليه تصير الأشياء والخلائق بالبعث والنشور، وإلى الله المنتهى في كل حال، فإليه ينتهي العلم والحكم، والرحمة وسائر الكمالات، ﴿وأنه هو أضحك وأبكى﴾ أي: هو الذي أوجد أسباب الضحك والبكاء، وهو الخير والشر، والفرح والسرور والهم والحزن، وهو سبحانه له الحكمة البالغة في ذلك، ﴿وأنه هو أمات وأحيا﴾ أي: هو المنفرد بالإيجاد والإعدام، والذي أوجد الخلق وأمرهم ونهاهم، سيعيدهم بعد موتهم، ويجازيهم بتلك الأعمال التي عملوها في دار الدنيا،

عليه النشأة الأخرى﴾ إلى آخر السورة يقول تعالى: ﴿أفأريت﴾ قبح حالة من أمر بعبادة ربه وتوحيده، فتولى عن ذلك وأعرض عنه؟

فإن سمحت نفسه ببعض الشيء، القليل، فإنه لا يستمر عليه، بل يبخل ويكدى ويمتنع.

فإن المعروف ليس سجية له وطبيعة^(١١)، بل طبعه التولي عن الطاعة، وعدم الثبوت على فعل المعروف، ومع هذا، فهو يزكي نفسه، وينزلها غير منزلتها التي أنزلها الله بها.

﴿أعنده علم الغيب فهو يرى﴾ الغيب ويخبر به، أم هو متقول على الله، متجريء على الجمع بين الإساءة والتزكية^(١٢)، كما هو الواقع، لأنه قد علم أنه ليس عنده علم من الغيب، وأنه لو قدر أنه ادعى ذلك فالإخبارات القاطعة عن علم الغيب التي على يد النبي المعصوم، تدل على نقيض قوله، وذلك دليل على بطلانه.

﴿أم لم يثبأ﴾ هذا المدعي ﴿بما في صحف موسى﴾ وإبراهيم الذي وفي أي: قام بجميع ما ابتلاه الله به، وأمره به من الشرائع وأصول الدين وفروعه، وفي تلك الصحف أحكام كثيرة من أهمها ما ذكره الله بقوله: ﴿الأتزر وازرة وزر أخرى﴾ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ أي: كل عامل له عمله الحسن والسيئ، فليس له من عمل غيره وسعيهم شيء، ولا يتحمل أحد عن أحد ذنباً، ﴿وأن سعيه سوف يرى﴾ في الآخرة فيميز حسنته من سيئته، ﴿ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾ أي: المستكمل لجميع العمل الحسن الخالص بالحسنى، والسيئ الخالص بالسوأى، والمشرب بحسبه، جزاء تقرر بعدله

(١) في ب: فإن الإحسان ليس سجية له وطبعاً.

(٢) فتجريء عليه جامع بين المحذورين الإساءة والتزكية.

(٣) في ب: لا يجوز.

(٤) في ب: فسرهما.

(٥) كذا في ب، وفي أ: قليلة.

(٦) في ب: وهذا من نعمه تعالى أن أخبرهم أن جميع النعم منه.

(٧) في ب: فكيف تتخذ مع الله آلهة.

غافلون عنه، لاهون عن تدبيره، وهذا من قلة عقولكم وأبائكم، فلو عبدتم الله وطلبتم رضاه في جميع الأحوال لما كنتم بهذه المثابة التي يأنف منها أولو الألباب، ولهذا قال تعالى: ﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾ الأمر بالسجود لله خصوصاً، ليدل ذلك على فضله^(٦)، وأنه سر العبادة ولبها، فإن لبها الخشوع لله^(٧) والخضوع له، والسجود هو أعظم حالة يخضع بها العبد^(٨)، فإنه يخضع قلبه وبدنه، ويجعل أشرف أعضائه على الأرض الهينة موضع وطء الأقدام.

ثم أمر بالعبادة عموماً، الشاملة لجميع ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

ثم تفسير سورة النجم، والحمد لله الذي لا تحصى ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يشي عليه عباده، وصلى الله على محمد وسلم تسليماً كثيراً.

تفسير سورة اقتربت مكية

﴿١٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم اقتربت الساعة وانشق القمر * وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر * وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر * ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر * حكمة بالغة فما تغني النذر * يخبر تعالى أن الساعة وهي القيامة اقتربت وأن أوانها، وحين وقت مجيئها، ومع ذلك، فهؤلاء المكذبون لم يزالوا مكذبين بها، غير مستعدين لنزولها، ويرسم الله من الآيات العظيمة الدالة على وقوعها ما يؤمن على

ألم يأت بالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد؟ ألم يهلك الله من كذب من قبله من الرسل الكرام؟ فما الذي يمنع العذاب عن المكذبين لمحمد سيد المرسلين، وإمام المتقين، وقائد الغز المحجلين؟

﴿أزفت الآزفة﴾ أي: قربت القيامة، ودنا وقتها، وبانت علاماتها، ﴿ليس لها من دون الله كاشفة﴾ أي: إذا أتت القيامة وجاءهم العذاب الموعود به.

ثم توعّد المنكرين لرسالة الرسول محمد ﷺ، المكذبين لما جاء به من القرآن الكريم، فقال: ﴿أفمن هذا الحديث تعجبون﴾؟ أي: أفمن هذا الحديث الذي هو خير الكلام وأفضله وأشرفه تعجبون منه، وتجعلونه من الأمور المخالفة للعادة الخارقة للأمور [والحقائق] المعروفة؟ هذا من جهلهم وضلالهم وعنادهم، وإلا فهو الحديث الذي إذا حدث صدق، وإذا قال قولاً فهو القول الفصل الذي ليس بالهزل، وهو القرآن^(٩) العظيم، الذي لو أنزل على جبل لرأته خاشعاً متصدعاً من خشية الله، الذي يزيد ذوي الأحلام رأياً وعقلاً، وتسديداً وثباتاً، وإيماناً وبقيناً والذي^(١٠) ينبغي العجب من عقل من تعجب منه، وسفهة وضلاله.

﴿وتضحكون ولا تبكون﴾ أي: تستعملون الضحك والاستهزاء به، مع أن الذي ينبغي أن تتأثر منه النفوس، وتلين له القلوب، وتبكي له العيون، سماعاً لأمره ونهيهِ، وإصغاءً لوعده ووعيدهِ، والتفاتاً لأخباره الحسنة الصادقة، ﴿وأنتم سامدون﴾ أي:

هوداً، فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية، ﴿وثمود﴾ قوم صالح عليه السلام، أرسله الله إلى ثمود فكذبوه، فبعث الله إليهم^(١١) الناقة آية، ففعلوها وكذبوه، فأهلكهم الله تعالى، ﴿فما أبقى﴾ منهم أحداً، بل أهلكهم الله عن آخرهم^(١٢)، ﴿وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى﴾ من هؤلاء الأمم، فأهلكهم الله وأغرقهم في اليم، ﴿والمؤتفة﴾ وهم قوم لوط عليه السلام ﴿أموى﴾ أي: أصابهم الله بعذاب ما عذب به أحداً من العالمين، قلب أسفل ديارهم أعلاها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل، ولهذا قال: ﴿فغشاهما ما غشى﴾ أي: غشيهما من العذاب الأليم الرخيص ما غشى أي: شيء عظيم لا يمكن وصفه، ﴿فبأي: آلاء ربك تتماوى﴾ أي: فبأي: نعم الله وفضله تشك أيها الإنسان؟ فإن نعم الله ظاهرة لا تقبل الشك بوجه من الوجوه، فما بالعباد من نعمة إلا منه تعالى، ولا يدفع النقم إلا هو.

﴿هذا نذير من النذر الأولى﴾ أي: هذا الرسول القرشي الهاشمي محمد بن عبد الله، ليس ببدع من الرسل، بل قد تقدمه من الرسل السابقين، ودعوا إلى ما دعا إليه، فلا شيء تنكر رسالته؟ وبأي: حجة تبطل دعوته؟

أليست أخلاقه [أعلا] أخلاق الرسل الكرام، أليست دعوته إلى كل خير والنهي عن كل شر؟^(١٣)

(١) في ب: لهم.

(٢) في ب: بل أبادهم عن آخرهم.

(٣) في ب: أليس يدعو إلى كل خير، وينهي عن كل شر.

(٤) في ب: القرآن.

(٥) في ب: بل الذي.

(٦) في ب: يدل على فضله.

(٧) في ب: فإن روحها الخشوع لله.

(٨) في أ: القلب، وفي ب: الكلمة غير واضحة، وقد جعلتها العبد لمناسبة الكلمة للسبب لقلوله فيما بعد: (قلبه وبدنه).

مثله البشر، فمن أعظم الآيات الدالة على صحة ما جاء به محمد بن عبد الله ﷺ، أنه لما طلب منه المكذبون أن يريهم من خوارق العادات ما يدل على [صحة ما جاء به] وصدقته، أشار ﷺ إلى القمر بإذن الله تعالى، فانشق فلقطين، فلقعة على جبل أبي قبيس، وفلقعة على جبل قيعيقان، والمشركون وغيرهم يشاهدون هذه الآية الكبرى^(١) الكائنة في العالم العلوي، التي لا يقدر الخلق على التمويه بها والتخيل، فشاهدوا أمراً ما رأوا مثله، بل ولم يستوعبوا أنه جرى لأحد من المرسلين قبله نظيره، فانبهروا لذلك، ولم يدخل الإيمان في قلوبهم، ولم يرد الله بهم خيراً، ففزعوا إلى بهتهم وطغيانهم، وقالوا: سحرنا محمد، ولكن علامة ذلك أنكم تسألون من قدم^(٢) إليكم من السفر، فإنه وإن قدر على سحرهم، لا^(٣) يقدر أن يسحر من ليس مشاهداً مثلكم، فسألوا كل من قدم، فأخبرهم بوقوع ذلك، فقالوا: «سحر مستمر» سحرنا محمد وسحر غيرنا، وهذا من البهت الذي لا يروج إلا على أسفه الخلق وأضلهم عن الهدى والعقل، وهذا ليس إنكاراً منهم لهذه الآية وحدها، بل كل آية تأتيهم، فإنهم مستعدون لمقابلتها بالباطل^(٤) والرد لها، ولهذا قال: «وإن يروا آية يعرضوا» ولم يعد الضمير على انشقاق القمر فلم يقل: «وإن يروا بل قال: «وإن يروا آية يعرضوا» وليس قصدهم اتباع الحق والهدى، وإنما قصدهم اتباع الهوى، ولهذا قال: «وكذبوا واتبعوا أهواءهم» كقوله تعالى: «فإن لم

يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم» فإنه لو كان قصدهم اتباع الهدى، لأمنوا قطعاً، واتبعوا محمداً ﷺ، لأنه أراهم الله على يديه^(٥) من البينات والبراهين والحجج القواطع، ما دل على جميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، «وكل أمر مستقر» أي: إلى الآن، لم يبلغ الأمر غايته ومنتهاه، وسيصير الأمر إلى آخره، فالصدق يتقلب في جنات النعيم، ومغفرة الله ورضوانه، والمكذب يتقلب في سخط الله وعذابه، خالداً مخلداً أبداً.

وقال تعالى: «مبيناً أنهم ليس لهم قصد صحيح، ولا اتباع للهدى: «ولقد جاءهم من الأنبياء» أي: الأخبار السابقة واللاحقة والمعجزات الظاهرة «ما فيه مزدجر» أي: زاجر يزجرهم عن غيهم وضلالهم، وذلك «حكمة» منه تعالى «بالغة» أي: لتقوم حجته على المخالفين^(٦)، ولا يبقى لأحد على الله حجة بعد الرسل، «فما تغن النذر» كقوله تعالى: «ولو جاءهم كل آية لا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم».

٦- ٨ «فتول عنهم يوم يدعو الداع إلى شيء نكر» خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر» مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر» يقول تعالى لرسوله ﷺ: «قد بان أن المكذبين لا حيلة في هداهم، فلم يبق إلا الإعراض عنهم والتولي عنهم، [فقال: «فتول عنهم» وانتظر بهم يوماً عظيماً وهو لا جسيماً، وذلك حين

(١) في ب: العظيمة.

(٢) في ب: من ورد.

(٣) في ب: لم.

(٤) في ب: بالتكذيب.

(٥) كذا في النسختين والمراد ظاهر وهو أن الله أراهم على يديه.

(٦) في ب: العالمين.

(٧) كذا في ب، وفي أ: مسرعين لنداء الداعي.



يدعو الداع» إسرافيل عليه السلام إلى شيء نكر» أي: إلى أمر فطع تنكره الخليفة، فلم تر منظرأ أفطع ولا أوجع منه، فيفخ إسرافيل نفخة، يخرج بها الأموات من قبورهم لموقف القيامة، «خشعاً أبصارهم» أي: من الهول والفرع الذي وصل إلى قلوبهم، فخضعت وذلت، وخشعت لذلك أبصارهم.

يخرجون من الأجداث» وهي القبور، «كأنهم» من كثرتهم، وروجان بعضهم ببعض «جراد منتشر» أي: مبثوث في الأرض، متكاثراً جداً، «مهطعين إلى الداع» أي: مسرعين لإجابة النداء الداعي^(٧)، وهذا يدل على أن الداعي يدعوهم ويأمرهم بالحضور لموقف القيامة، فيلبون دعوته، ويسرعون إلى إجابته، «يقول الكافرون» الذين قد حضر عذابهم: «هذا يوم عسر» كما قال تعالى «على الكافرين غير يسير»



[مفهوم ذلك أنه يسير سهل على المؤمنين]^(١)

٩٦ - ١٧ ﴿كَذِبْتَ قَبْلَهُمْ قَوْمَ نوح فكَذَّبُوا عِبْدَنَا وَقَالُوا لِمَ نَجُنُّ وَازْدَجَر * فندعاه ربه أي مغلوب فانتصر * ففتحت أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيوناً فالنقى الماء على أمر قد قدر * وحملناه على ذات ألواح ودسر * تجري بأعيننا جزء لمن كان كفر * ولقد تركناها آية فهل من مدكر * فكيف كان عذابي ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر * لما ذكر تبارك وتعالى حال المكذبين لرسوله، وأن الآيات لا تنفع فيهم، ولا تجدي عليهم شيئاً، أنذرهم وخوفهم بعقوبات الأمم الماضية المكذبة للرسول، وكيف أهلكهم الله وأحل بهم عقابه.

فذكر قوم نوح، أول رسول بعثه الله إلى قوم يعبدون الأصنام، فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فامتنعوا من ترك الشرك وقالوا: ﴿لا تذرنا ألهتكم ولا تذرنا وداً ولا سواعاً﴾ ولا يغوث ويغوث ونسراً. ولم يزل نوح يدعوه إلى الله ليلاً

ونهاراً، وسراً وجهاراً، فلم يزداهم ذلك إلا عناداً وطغياناً، وقدحاً في نبيهم، ولهذا قال هنا: ﴿فكذبوا عبيدنا وقالوا لعجنون﴾ لزعمهم أن ما هم عليه وأبائهم من الشرك والضلال هو الذي يدل عليه العقل، وأن ما جاء به نوح عليه الصلاة والسلام جهل وضلال، لا يصدر إلا من المجانين، وكذبوا في ذلك، وقلبوا الحقائق الثابتة شرعاً وعقلاً، فإن ما جاء به هو الحق الثابت، الذي يرشد العقول النيرة المستقيمة، إلى الهدى والنور والرشد، وما هم عليه جهل وضلال مبين، [وقوله]: ﴿وازدجر﴾ أي: زجره قومه وعنفوه عندما دعاهم إلى الله تعالى، فلم يكفهم - قبحهم الله - عدم الإيمان به، ولا تكذيبهم إياه، حتى أوصلوا إليه من أذيتهم ما قدروا عليه، وهكذا جميع أعداء الرسل، هذه حالهم مع أنبيائهم، فعند ذلك دعا نوح ربه [فقال]: ﴿أي مغلوب﴾ لا قدرة لي على الانتصار منهم، لأنه لم يؤمن من قومه إلا القليل النادر، ولا قدرة لهم على مقاومة قومهم، ﴿فانتصر﴾ اللهم لي منهم، وقال في الآية الأخرى: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ الآيات، فأجاب الله سؤاله، وانتصر له من قومه، قال تعالى: ﴿ففتحت أبواب السماء بماء منهمر﴾ أي: كثير جداً متتابع، ﴿وفجرنا الأرض عيوناً﴾ فجعلت السماء يتزل منها من الماء شيء خارق للعادة، وفجرت الأرض كلها، حتى التنور الذي لم تجر العادة بوجود الماء فيه، فضلاً عن كونه منبعاً للماء، لأنه موضع النار.

﴿فالتقى الماء﴾ أي: ماء السماء والأرض ﴿على أمر﴾ من الله له بذلك، ﴿قد قدر﴾ أي: قد كتبه الله في الأزل وقضاه، عقوبة لهؤلاء الظالمين الطاغين، ﴿وحملناه على ذات

ألواح ودسر﴾ أي: ونجيناً عبيدنا نوحاً على السفينة ذات الألواح والدسر أي: المسامير [التي] قد سميرت [بها] ألواحها وشدها أسيرها^(٢)، ﴿تجري بأعيننا﴾ أي: تجري بنوح ومن آمن معه، ومن حمله من أصناف المخلوقات برعاية من الله، وحفظ [منه] لها عن الغرق [ونظر]، وكلاهما منه تعالى، وهو نعم الحافظ الوكيل، ﴿جزء لمن كان كفر﴾ أي: فعلنا بنوح ما فعلنا من النجاة من الغرق العام، جزء له حيث كذبه قومه وكفروا به فصبر على دعوتهم، واستمر على أمر الله، فلم يرد عنه راد، ولا صده عنه^(٣)، صاده، كما قال [تعالى] عنه في الآية الأخرى: ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك﴾ الآية.

ويحتمل أن المراد: أنا أهلكتنا قوم نوح، وفعلنا بهم ما فعلنا من العذاب والحزى، جزاء لهم على كفرهم وعنادهم، وهذا متوجه على قراءة من قرأها بفتح الكاف، ﴿ولقد تركناها آية فهل من مدكر﴾ أي: ولقد تركنا قصة نوح مع قومه آية يتذكر بها المذكرون، على أن من عصى الرسل وعاندهم أهلكه الله بعقاب عام شديد، أو أن الضمير يعود إلى السفينة وجنسها، وأن أصل صنعتها تعليم من الله لعبده^(٤) نوح عليه السلام، ثم أبقي الله تعالى صنعتها وجنسها بين الناس ليدل ذلك على رحمة بخلقه وعنايته، وكمال قدرته، ويديع صنعته، ﴿فهل من مدكر﴾ أي: فهل متذكر^(٥) للآيات، ملئ ذهنه وفكرته لما يأتيه منها، فإنها في غاية البيان واليسر؟ ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ أي: فكيف رأيت أيها المخاطب عذاب الله الأليم وإنذاره الذي لا يئقي لأحد عليه حجة.

﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ أي: ولقد يسرنا وسهلنا هذا

(٣) في ب: ولا صده عن ذلك صاده.

(٤) في ب: لرسوله.

(٥) في ب: فهل من متذكر.

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: وشدت أسرها.

القرآن الكريم، الفاظه للحفظ والأداء، ومعانيه للفهم والعلم، لأنه أحسن الكلام لفظاً، وأصدق معنى، وأبينه تفسيراً، فكل من أقبل عليه يسر الله عليه مطلوبه غاية التيسير، وسهله عليه، والذكر شامل لكل ما يتذكر به العالمون من الحلال والحرام، وأحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء والمواظ والعبير، والعقائد النافعة والأخبار الصادقة، ولهذا كان علم القرآن حفظاً وتفسيراً، أسهل العلوم، وأجلها على الإطلاق، وهو العلم النافع الذي إذا طلبه العبد أعين عليه، قال بعض السلف عند هذه الآية: هل من طالب علم فينجان [عليه]؟ ولهذا يدعوا الله عباده إلى الإقبال عليه والتذكر بقوله: ﴿فهل من مذكر﴾.

﴿٢٢ - ١٨﴾ كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر ﴿إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر﴾ تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴿وعاد﴾ هي القبيلة المعروفة باليمن، أرسل الله إليهم هوداً عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته، فكذبوه، فأرسل الله عليهم ﴿ريحاً صرصراً﴾ أي: شديدة جداً، ﴿في يوم نحس﴾ أي: شديد العذاب والشقاء عليهم، ﴿مستمراً﴾ عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، ﴿تنزع الناس﴾ من شدتها، فترفعهم إلى جو السماء، ثم تدفعهم بالأرض فتهلكهم، فيصبحون ﴿كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾ أي: كأن جثثهم بعد هلاكهم مثل جذوع النخل الخاوي الذي أصابته ^(١) الريح فسقط على الأرض، فما أهون الخلق على الله إذا عصوا أمره، ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ كان [والله] العذاب الأليم، والنذارة التي ما أبقت لأحد عليه حجة، ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ كرر تعالى ذلك رجة بعباده

وعناية بهم، حيث دعاهم إلى ما يصلح ديناهم وأخراهم.

﴿٢٣ - ٣٢﴾ كذبت ثمود بالنذر ﴿فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر﴾ ألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر ﴿سيعلمون غداً من الكذاب الأشر﴾ إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ﴿ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر﴾ فنادوا صاحبهم فتعاطى فقعر ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ أي:

كذبت ثمود وهم القبيلة المعروفة المشهورة في أرض الحجر، نبئهم صالحاً عليه السلام، حين دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأنذرهم العقاب إن هم خالفوه، فكذبوه واستكبروا عليه، وقالوا - كثيراً وتبهاً -: ﴿أبشراً منا واحداً نتبعه﴾ أي: كيف نتبع بشراً، لا ملكاً منا، لا من غيرنا، ممن هو أكبر عند الناس منا، ومع ذلك فهو شخص واحد ﴿إنا إذا﴾ أي: إن اتبعناه وهو بهذه الحال ﴿لفي ضلال وسعر﴾ أي: إننا الضالون أشقياء، وهذا الكلام من ضلالهم وشقائهم، فإنهم أنفوا أن يتبعوا رسولا من البشر، ولم يأنفوا أن يكونوا عابدين للشجر والحجر والصور ﴿ألقى الذكر عليه من بيننا﴾ أي: كيف يخصه الله من بيننا وينزل عليه الذكر؟ فأي مزية خصه من بيننا؟ وهذا اعتراض من المكذبين على الله، لم يزالوا يدلون به، ويصولون ويجولون ويردون به دعوة الرسل، وقد أجاب الله عن هذه الشبهة بقول الرسل لأمهم: ﴿قالت رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده﴾ فالرسل من الله عليهم بصفات وأخلاق وكمالات، بها صلحوا لرسالات ربهم والاختصاص بوحية،

﴿١﴾ خَصَّنا الصِّرَاطَ بِمَنْ نَحْنُ مِنَ الْإِنْسَانِ كَأَنَّهُمْ جَرَسٌ مَنِينٌ ﴿٢﴾ مُتَّبِعِينَ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ وَقُلْ هَذَا يَوْمُ نَسْفِ * كَذِبَتْ قُلُوبُهُمْ فَمِنْ مَوْجٍ مَكْرُوحًا عَنَّا وَقَالُوا نَحْنُ وَزُجَرَ ﴿٣﴾ قَدَمًا رَهَةً أَيْ مَقْلُوبَةً نَحْنُ ﴿٤﴾ فَتَنَّا آلَ الْاِسْمَاءِ وَالْمَوَاقِعِ ﴿٥﴾ وَنَحْنُ الْاِسْمَاءُ وَالْمَوَاقِعُ عَلَى أَرْضِ قَوْمٍ قَدِيمَةٍ ﴿٦﴾ عَلَى أَنْ تَأْتِيَ مِنْهُمْ نَذِيرٌ ﴿٧﴾ نَحْنُ يَا أَيُّهَا الْحَرَامُ كَانُوا كَذِبًا ﴿٨﴾ وَلَقَدْ رَكَنَّا إِلَيْهِمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِي ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ رَكَنَّا إِلَيْهِمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١١﴾ كَذِبَتْ عَادٌ كَذِبًا كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِي ﴿١٢﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ضَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَنَحْنُ الْاِسْمَاءُ وَالْمَوَاقِعُ عَلَى أَرْضِ قَوْمٍ قَدِيمَةٍ ﴿١٤﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِي ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ رَكَنَّا إِلَيْهِمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٦﴾ كَذِبَتْ ثَمُودُ كَذِبًا كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِي ﴿١٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمٍ مُنْتَصِرٍ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٩﴾ أَيْ:

ومن رحمته وحكمته أن كانوا من البشر، فلو كانوا من الملائكة لم يمكن البشر أن يتلقوا عنهم، ولو جعلهم من الملائكة لعاجل الله المكذبين لهم بالعقاب العاجل.

والمقصود بهذا الكلام الصادر من ثمود لنبئهم صالح، تكذيبه، ولهذا حكموا عليه بهذا الحكم الجائر، فقالوا: ﴿بل هو كذاب أشر﴾ أي: كثير الكذب والشر، فقبحهم الله ما أسفه أحلامهم وأظلمهم، وأشدهم مقابلة للصادقين الناصحين بالخطاب الشنيع، لا جرم عاقبهم الله حين اشتد طغيانهم، فأرسل الله الناقة التي هي من أكبر النعم عليهم، آية من آيات الله، ونعمة يحتسبون من ضرعها ^(٢) ما يكفيهم أجمعين، ﴿فتنة لهم﴾ أي: اختباراً منه لهم وامتحاناً ﴿فارتقبهم واصطبر﴾ أي: اصبر على دعوتك إياهم، وارتقب ما يحل بهم، أو ارتقب هل يؤمنون أو يكفرون؟ ﴿ونبئهم أن الماء قسمة بينهم﴾ أي: أخبرهم أن الماء أي: مورد لهم الذي يستعذبونه، قسمة بينهم وبين الناقة، لها شرب يوم ولهم شرب يوم آخر معلوم، ﴿كل شرب محتضر﴾ أي: يحضره من كان قسمته، ويحظر على من

(١) في ب: اقتلعت.

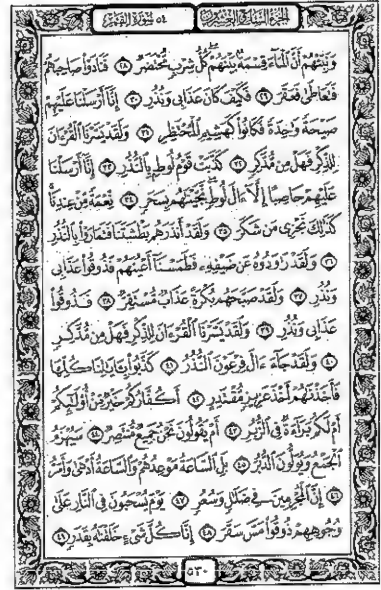
(٢) في ب: درها.

من العير ما لم يشهد عليه أحدًا غيرهم^(٣)، فكذبوا بآيات الله كلها، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر، فأغرقهم في البم هو وجنوده^(٤).

والمراد من ذكر هذه القصص تحذير [الناس] والمكذبين لمحمد ﷺ، ولهذا قال: ﴿أَكْفَارَكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيكُمْ﴾ أي: هؤلاء الذين كذبوا أفضل الرسل، خير من أولئك المكذبين، الذين ذكر الله هلاكهم وما جرى عليهم؟ فإن كانوا خيراً منهم، أمكن أن ينجوا من العذاب، ولم يصيبهم ما أصاب أولئك الأشرار، وليس الأمر كذلك، فإنهم لم يكونوا شراً منهم، فليسوا بخير منهم، ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أي: أم أعطانكم الله عهداً وميثاقاً في الكتب التي أنزلها على الأنبياء، فتعتقدون حينئذ أنكم الناجون بإخبار الله ووعده؟ وهذا غير واقع، بل غير ممكن عقلاً وشرعاً، أن تكتب براءتهم في الكتب الإلهية المتضمنة للعدل والحكمة، فليس من الحكمة نجاة أمثال هؤلاء المعاندين المكذبين، لأفضل الرسل وأكرمهم على الله، فلم يبق إلا أن يكون بهم قوة ينتصرون بها، فأخبر تعالى أنهم يقولون: ﴿لَنَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ﴾ قال تعالى: ﴿لَنَبْلُوَنَّكُمْ وَلَنُبَيِّنَنَّ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ وأنهم مهزومون: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾. فوقع كما أخبر، هزم الله جميعهم الأكبر يومئذ، وقتل من^(٥) صناديدهم وكبرائهم ما ذلوا به^(٦)، ونصر الله دينه وتبته وحزبه المؤمنين. ومع ذلك، فلهم موعد يجمع به أولهم وآخرهم، ومن أصيب في الدنيا منهم، ومن متع ببلذاته، ولهذا قال: ﴿بَلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ﴾ الذي يجازون به، ويؤخذ منهم الحق بالقسط، ﴿وَالسَّاعَةِ أَهْوَىٰ﴾ أي:

عن الشرك والفاحشة التي ما سبقهم بها أحد من العالمين، فكذبوه واستمروا على شركهم وقبائحهم، حتى إن الملائكة الذين جاؤوه بصورة أضياف حين سمع بهم قوم لوط، جاؤهم^(١) مسرعين، يريدون إيقاع الفاحشة فيهم، لعنهم الله وقبحهم، وراودوه عنهم، فأمر الله جبريل عليه السلام، فطمس أعينهم بجناحه، وأنذرهم نبههم بطشة الله وعقوبته ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ ولقد صيحبهم بكرة عذاب مستقر ﴿قَلْبَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ دِيَارَهُمْ، وَجَعَلَ أَسْفَلَها أَعْلَاهَا، وَتَتَّبِعَهُمْ جَحَاةٌ مِنْ سَجِيلٍ مُنْضَوْدٍ، مَسْمُومَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ، وَنَجَّى اللَّهُ لُوطًا وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ، جَزَاءَ لَهُمْ عَلَىٰ شُكْرِهِمْ لِرَبِّهِمْ، وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

﴿٤١-٥٥﴾ ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ﴾ كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴿أَكْفَارَكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أم يقولون نحن جميع منتصر ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسَعَرَ﴾ يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَدَكِرٍ﴾ وكل شيء فعلوه في الزبر ﴿وَكُلَّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٍ﴾ إن المتقين في جنات ونهر ﴿فِي مَقْعَدٍ صَدُوقٍ عِنْدَ مُلِكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ أي: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: فرعون وقومه ﴿النُّذُرُ﴾ فأرسل الله إليهم موسى الكليم، وأيده بالآيات الباهرات، والمعجزات القاهرة^(٢)، وأشهدهم



ليس بقسمة له.

﴿فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ﴾ الذي باشر عقرها، الذي هو أشقى القبيلة ﴿فَتَعَاطَى﴾ أي: انقاد لما أمره به من عقرها ﴿فَعَقَرُهَا﴾ فكيف كان عذابي ونذر ﴿كَانَ أَشَدَّ عَذَابٍ، أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَرَجْفَةً أَهْلَكْتَهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ، وَنَجَّى اللَّهُ صَالِحًا وَمِنْ آمَنَ مَعَهُ، وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مَدَكِرٍ﴾.

﴿٣٣-٤٠﴾ ﴿كَذَبْتَ قَوْمَ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجيناهم بسحر ﴿نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ ولقد أنذرهم بطشنا فتماروا بالنذر ﴿وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِرُ﴾ ولقد صيحبهم بكرة عذاب مستقر ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِرُ﴾ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴿أَي: كَذَبْتَ قَوْمَ لُوطٍ لُوطاً عَلَيْهِ السَّلَامُ، حِينَ دَعَاهُمْ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَنَهَاهُمْ

(١) في ب: جاءوا.

(٢) في ب: بالآيات البينات، والمعجزات الباهرات.

(٣) في ب: ما لم يشهد غيرهم.

(٤) في ب: فأغرقه وجنوده في البم.

(٥) في ب: وقتلت.

(٦) في ب: فأذلوا.



﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: اجعلوه قائماً بالعدل، الذي تصل إليه مقدرتكم وإمكانكم، ﴿وَلَا تَحْسُرُوا الْمِيزَانَ﴾ أي: لا تنقصوه وتعملوا بضده، وهو الجور والظلم والطغيان، ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ الله على ما كانت عليه من الكثافة والاستقرار واختلاف [أوصافها و] أحوالها ﴿لِلْأَنَامِ﴾ أي: للخلق، لكي يستقروا عليها، وتكون لهم مهاداً وفرشاً يبنون بها، ويعرثون ويغرسون ويحفرّون ويسلكون سبلها فجاجاً، ويتنفعون بمعادنها وجميع ما فيها، مما تدعو إليه حاجتهم، بل ضرورتهم.

وتشرح لها النفوس: ولما ذكر جملة كثيرة من نعمه التي تشاهد بالأبصار والبصائر، وكان الخطاب للثقلين، الإنس والجن، قررهم تعالى بنعمه، فقال: ﴿فَبَإِي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: فبأي نعم الله الدينية والدنيوية تكذبان؟ وما أحسن جواب الجن حين تلا عليهم النبي ﷺ هذه السورة، فما مر بقوله: ﴿فَبَإِي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا قالوا^(٢): ولا شيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد، فهذا الذي ينبغي^(٣) للبعد إذا تليت عليه نعم الله وآلؤه، أن يقر بها ويشكر، ويحمد الله عليها.

﴿١٤ - ١٦﴾ ثم قال تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ وخلق الجن من مارج من نار ﴿فَبَإِي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وهذا من نعمه تعالى على عباده، حيث أراهم [من] آثار قدرته وبديع صنعته، أن ﴿خُلِقَ﴾ أبأ الإنسان وهو آدم عليه السلام ﴿من صلصال كالفخار﴾ أي: من طين مبلول، قد أحكم بله وأتقن، حتى جف، فصار له صلصلة وصوت يشبه صوت الفخار الذي طبخ على النار^(٤)، ﴿وَخُلِقَ الْجَانُ﴾ أي: أبأ الجن، وهنأ إبليس اللعين^(٥) ﴿من مارج من نار﴾ أي: من لهب النار الصافي، أو الذي قد خالطه الدخان. وهذا يدل على شرف عنصر الآدمي المخلوق من الطين والتراب، الذي هو محل الرزاة والثقل والمنافع، بخلاف عنصر الجن وهو النار، التي هي محل الخفة والطيش والشر والفساد.

ولما بين خلق الثقلين ومادة ذلك^(٦)، وكان ذلك منته منته [تعالى]

ثم ذكر ما فيها من الأقوات الضرورية، فقال: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ وهي جميع الأشجار التي تثمر الثمرات التي يتفكه بها العباد، من العنب والتين والرمان والتفاح، وغير ذلك، ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ أي: ذات الوعاء الذي يتفلق عن القنوان التي تخرج شيئاً فشيئاً حتى تتم، فتكون قوتاً يؤكل ويدخر، يتزود منه المقيم والمسافر، وفاكهة لذيدة من أحسن الفواكه، ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ أي: ذو الساق الذي يداس، فيتفقع بتينه للأنعام وغيرها، ويدخل في ذلك حب البر والشعير والذرة [والأرز] والدخن، وغير ذلك، ﴿وَالرِّيحَانُ﴾ يحتمل أن المراد بذلك جميع الأزراق التي يأكلها الآدميون، فيكون هذا من نبات عطف العمام على الخاض، ويكون الله قد امتن على عباده بالقوت والرزق، عموماً وخصوصاً، ويحتمل أن المراد بالريحان، الريحان المعروف، وأن الله امتن على عباده بما يسره في الأرض من أنواع الروائح الطيبة، والمشام الفاخرة، التي تسر الأرواح،

رحمة بالعباد، وعناية بهم، وليقوم بذلك من مصالحهم ما يقوم، وليعرف العباد عدد السنين والحساب، ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ أي: نجوم السماء، وأشجار الأرض، تعرف ربهما وتسجد له، وتطيع وتخضع^(١)، وتنفذ لما سخرها له من مصالح عباده ومنافعهم، ﴿وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا﴾ سقفيها للمخلوقات الأرضية، ووضع الله الميزان أي: العدل بين العباد، في الأقوال والأفعال، وليس المراد به الميزان المعروف وحده، بل هو كما ذكرنا، يدخل فيه الميزان المعروف، والمكيال الذي تكال به الأشياء والمقادير، والمساحات التي تضبط بها المجهولات، والحقائق التي يفصل بها بين المخلوقات، ويقام بها العدل بينهم، ولهذا قال: ﴿الَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ أي: أنزل الله الميزان، لئلا تتجاوزوا الحد في الميزان، فإن الأمر لو كان يرجع إلى عقولكم وآرائكم، لحصل من الخلل ما الله به عليم، ولفسدت السماوات والأرض.

(١) في ب: وتخضع.

(٢) في ب: فكلما مر بقوله: ﴿فَبَإِي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا.

(٣) في ب: فهكذا ينبغي.

(٤) في ب: وهو الطين المشوي.

(٥) في ب: لعنه الله.

(٦) كذا في ب، وفي أ: مادة الثقلين.

في الأزل وقضاها، لا يزال تعالى يمضيها وينفدها في أوقاتها التي اقتضته حكمته، وهي أحكامه الدينية التي هي الأمر والنهي، والقدرة التي يجريها على عبادته مدة مقامهم في هذه الدار، حتى إذا تمت [هذه] الخليفة وأفناهم الله تعالى^(٤)، وأراد تعالى أن ينفذ فيهم أحكام الجزاء، ويريمهم من عدله وفضله وكثرة إحسانه، ما به يعترفونه ويوحّدونه، نقل المكلفين من دار الابتلاء والامتحان إلى دار الحيوان.

وفرح حينئذ لتنفيذ هذه الأحكام، التي جاء وقتها، وهو المراد بقوله: ﴿٣١-٣٢﴾ **سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** أي: سنفرغ لحسابكم ومجازاتكم بأعمالكم التي عملتموها في دار الدنيا.

﴿٣٣﴾ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ** أي: إذا جمعهم الله في موقف القيامة، أخبرهم بعجزهم وضعفهم، وكمال سلطانه، ونفوذ مشيئته وقدرته، فقال معجزاً لهم: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: تجدون منفذاً مسلماً تخرجون به عن ملك الله وسلطانه، ﴿فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أي: لا تخرجون عنه إلا بقوة وتسلط منكم، وكمال قدرته، وأنى لهم ذلك، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً؟! ففي ذلك الموقف لا يتكلم أحد إلا بإذنه، ولا تسمع إلا همساً، وفي ذلك الموقف يستوي الملوك والمماليك، والرؤساء والمزؤوسون، والأغنياء والفقراء.

﴿٢٦-٢٨﴾ **كُلٌّ مِنْ عَلَيْهَا فَإِنْ * وَبَقِيَ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** أي: كل من على الأرض، من إنس وجن، ودواب، وسائر المخلوقات، يفنى ويموت ويبعد ويبقى الحي الذي لا يموت ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أي: ذو العظمة والكبرياء والمجد، الذي يعظم ويبجل ويجل لأجله، والإكرام الذي هو سعة الفضل والجلود، والداعي لأن يكرم أوليائه وخواص خلقه بأنواع الإكرام، الذي يكرمه أوليائه ويحبلونه، [ويعظمونه] ويحبونه، وينيبون إليه ويعبدونه، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ

﴿٢٩-٣٠﴾ **يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** أي: هو الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، وهو واسع الجود والكرم، فكل الخلق مفتقرون إليه، يسألونه جميع خرائجهم، بحالهم ومقالتهم، ولا يستغنون عنه طرفة عين ولا أقل من ذلك، وهو تعالى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ يغني فقيراً، ويجبر كسيراً، ويعطي قوماً، ويمنع آخرين، ويميت ويحيي، ويرفع ويخفض، لا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلظه المسائل، ولا يبرمه إلهاج الملحّين، ولا طول مسألة السائلين، فسيحان الكريم الوهاب، الذي عمت مواهبه أهل الأرض والسماوات، وعمّ لطفه جميع الخلق في كل الأنات واللحظات، وتعالى الذي لا يمنعه من الإعطاء معصية العاصين، ولا استغناء الفقراء الجاهلين به وبكرمه، وهذه الشؤون التي أخبر أنه تعالى كل يوم هو في شأن، هي تقاديره وتدبيره التي قدرها

على عباده^(١)، قال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ

﴿١٧-١٨﴾ **رَبِّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبِّ الْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** أي: هو تعالى رب كل ما أشرق عليه الشمس والقمر، والكواكب النيرة، وكل ما غربت عليه، [وكل ما كان فيه] فهي تحت^(٢) تدبيره وربوبيته، وثناها هنا لإرادة العموم مشرقى الشمس شتاءً وصيفاً، ومغربها كذلك^(٣).

﴿١٩-٢١﴾ **مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** المراد بالبحرين: البحر العذب، والبحر المالح، فهما يلتقيان كلاهما، فيصيب العذب في البحر المالح، ويختلطان ويمتزجان، ولكن الله تعالى جعل بينهما برزخاً من الأرض، حتى لا يبغي أحدهما على الآخر، ويحصل النفع بكل منهما، فالعذب منه يشربون وتشرب أشجارهم وزروعهم، والمالح به يطيب الهواء ويتولد الخوت والسماك، واللؤلؤ والمرجان، ويكون مستقراً مسخراً للسفن والمراكب، ولهذا قال:

﴿٢٤-٢٥﴾ **وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**

أي: وسخر تعالى لعباده السفن الجوارى، التي تمخر البحر وتشقه بإذن الله، التي ينشئها آدميون، فتكون من كبرها وعظمتها كالأعلام، وهي الجبال العظيمة، فيركبها الناس، ويحملون عليها أمتعتهم وأنواع تجارتهم، وغير ذلك مما تدعو إليه حاجتهم وضرورتهم، وقد حفظها حافظ السماوات والأرض، وهذه من نعم الله الجليلة، فلذلك قال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ

(١) في ب: عليهم.

(٢) فالجميع تحت..

(٣) في ب: وثناها هنا باعتبار مشارقتها شتاءً وصيفاً والله أعلم.

(٤) كذا في ب، وفي أ: وأنى الله الخلق.

أهل الجنة وجلسهم عليها، وأنهم متكئون عليها، [أي:] جلوس تمكن واستقرار [وزاحة]، كجلوس من الملوك على الأسرة، وتلك الفرش، لا يعلم وصفها وحسنها إلا الله عز وجل، حتى إن بطائنها التي تلي الأرض منها، من إستبرق، وهو أحسن الحرير، وأفخره، فكيف بظواهرها التي تلي بشرتهم؟! (٦)

﴿وجنى الجنتين دان﴾ الجنى هو الثمر المستوي أي: وثمر هاتين الجنتين قريب التناول، يتاله القائم والقاعد والمضطجع.

﴿فيهن قاصرات الطرف﴾ أي: قد قصرن طرفهن على أزواجهن، من حسنهن وجمالهن، وكما يحبتهن لهم، وقصرن أيضاً طرف أزواجهن عليهن، من حسنهن وجمالهن ولذة وصلهن، ﴿لم ينطمهن إنس قبلهم ولا جان﴾ أي: لم ينلهن قبلهن أحد من الإنس والجن، بل هن أبكار عرب، متحبيات إلى أزواجهن، بحسن التبعل والتغنج والملاحة والدلال، ولهذا قال: ﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾ وذلك لصفائهن وجمال منظرهن وبهائهن، ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ أي: هل جزاء من أحسن في عبادة الخالق ونفع عبده، إلا أن يحسن إليه بالشواب الجزيل، والفوز الكبير، والنعيم المقيم، والعيش السليم، فهاتان الجنتان العاليتان للمقربين، ﴿ومن دونهما جنتان﴾ من فضة بنيانهما وأنيتهما وحليتهما وما فيهما لأصحاب اليمين، وتلك الجنتان ﴿مدهامتان﴾ أي: سوداوان من شدة الخضرة التي هي أثر الري.

﴿٦٦﴾ ﴿فيهما عينان نضاختان﴾ أي: فوارتان، ﴿فيهما فاكهة﴾ من جميع أصناف الفواكه، وأخصها النخل والرمان، اللذان فيهما من المنافع ما فيهما، ﴿فيهن﴾ أي: في الجنات كلها ﴿خيرات حسان﴾ أي: خيرات

أن تظهر للخلق حجته البالغة، وحكمته الجليلة.

﴿٤٣-٤٥﴾ ﴿هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون﴾ يطوفون بينها وبين حميم أن ﴿فبأي: الآء ربكما تكذبان﴾ أي: يقال للمكذبين بالوعد والوعيد حين تسخر الجحيم: ﴿هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون﴾ فليهنهم تكذيبهم بها، وليذوقوا من عذابها ونكالها وسعيرها وأغلالها، ما هو جزاء لتكذيبهم (٣)، ﴿يطوفون بينها﴾ أي: بين أطباق الجحيم ولهيها ﴿وبين حميم أن﴾ أي: ماء خار جداً قد انتهى حره، وزمهرير قد اشتد برده وقره، ﴿فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾ ولما ذكر ما يفعل بالمجرمين، ذكر جزاء المتقين الخائفين، فقال:

﴿٤٦-٤٦﴾ ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ فبأي: الآء ربكما تكذبان إلى آخر السورة. أي: وللذي خاف ربه وقيامه عليه، فترك ما نهى عنه، وفعل ما أمره به، له جنتان من ذهب آتيتهما وحليتهما وبنيانهما وما فيهما، إحدى الجنتين جزاء على ترك المنهيات، والأخرى على فعل الطاعات، ومن أوصاف تلك الجنتين أنهما ﴿ذواتا أفنان﴾ [أي: فيهما من ألوان النعيم المتنوعة نعيم الظاهر والباطن ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر] (٤) أن (٥) فيهما الأشجار الكثيرة الزاهرة ذوات الغصون الناعمة، التي فيها الثمار اللذيذة الكثيرة، أو ذوات أنواع وأصناف من جميع أصناف النعيم وأنواعه جمع فن، أي: صنف. وفي تلك الجنتين ﴿عينان تجريان﴾ يفجرونها على ما يريدون ويشتهون، ﴿فيهما من كل فاكهة﴾ من جميع أصناف الفواكه ﴿وزوجان﴾ أي: صنفان، كل صنف له لذة ولون، ليس للنبوع الآخر، ﴿متكئين على فرش بطائنها من إستبرق﴾ هذه صفة فرش

﴿٣٥-٣٦﴾ ثم ذكر ما أعد لهم في ذلك الموقف العظيم (١)، فقال: ﴿يرسل عليكم شواظ من نار﴾ ونحاس فلا تنظران فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾ أي: يرسل عليكم﴾ لهاب صاف من النار.

﴿ونحاس﴾ وهو اللهب، الذي قد خالطه الدخان، والمعنى أن هذين الأمرين الفظيعين يرسلان عليكم يا معشر الجن والإنس، ويحيطان بكما فلا تنتصران، لا بتناصر من أنفسكم، ولا بأحد ينصركم من دون الله.

ولما كان تخويفه لعباده نعمة منه عليهم، وسوطاً يسوقهم به إلى أعلى المطالب وأشرف المواهب، امتن عليهم (٢)، فقال: ﴿فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾.

﴿٣٧﴾ ﴿فإذا انشقت السماء﴾ [أي] يوم القيامة من شدة الأهوال، وكثرة البلبال، وترادف الأوجال، فانخسفت شمسها وقمرها، وانثرت نجومها، ﴿فكانت﴾ من شدة الخوف والانزعاج ﴿وردة كالدهان﴾ أي: كانت كالمهل والرصاص المذاب ونحوه ﴿فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ أي: سؤال استعمال بما وقع، لأنه تعالى عالم الغيب والشهادة والماضي والمستقبل، ويريد أن يجازي العباد بما علمه من أحوالهم، وقد جعل لأهل الخير والشر يوم القيامة علامات يعرفون بها، كما قال تعالى: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾.

﴿٤١﴾ وقال هنا: ﴿يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ أي: فيؤخذ بنواصي المجرمين وأقدامهم، فيلقون في النار ويسحبون فيها، وإنما يسألهم تعالى سؤال توبيخ وتقرير بما وقع منهم، وهو أعلم به منهم، ولكنه تعالى يريد

(١) في ب: في ذلك اليوم.

(٢) في ب: ذكر منه بذلك.

(٣) في ب: جزاء لهم على تكذيبهم.

(٤) زيادة من هامش: ب.

(٥) كذا في ب، وفي أ: أي.

(٦) في ب: التي يباشرون.

الأخلاق حسان الأوجه، فجمع بين جمال الظاهر والباطن، وحسن الخلق والخلق، ﴿حور مقصورات في الخيام﴾ أي: محبوسات في خيام اللؤلؤ، قد تبيان وأعددن أنفسهن لأزواجهن، ولا ينفي ذلك خروجهن في البساتين ورياض الجنة، كما جرت العادة لبناث الملوك ونحوهن [المخدرات] الحفريات،

﴿لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان﴾ فبأي آلاء ربكما تكذبان * متكئين على رفرف خضر، أي: أصحاب هاتين الجنة، متكأهم على الرفرف الأخضر، وهي الفرش التي فوق المجالس العالية، التي قد زادت على مجالسهم، فصار لها رفرفة من وراء مجالسهم، لزيادة البهاء وحسن المنظر، ﴿وعبقري حسان﴾ العبقري: نسبة لكل منسوج نسجاً حسناً فاخراً، ولهذا وصفها بالحسن الشامل، لحسن الصنعة وحسن المنظر، ونعمومة الملمس، وهاتان الجنةان دون الجنةين الأوليين، كما نص الله على ذلك بقوله: ﴿ومن دونهما جنتان﴾ وكما وصف الأوليين بعدة أوصاف لم يصف بها الآخرين، فقال في الأوليين: ﴿فيهما عيتان تجريان﴾ وفي الآخرين: ﴿عيتان نضاختان﴾. ومن العلوم الفرق بين الجارية والنضاجة.

وقال في الأوليين: ﴿ذواتا أفنان﴾ ولم يقل ذلك في الآخرين.

وقال في الأوليين: ﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾ وفي الآخرين: ﴿فيهما فاكهة ونخل ورمان﴾ وقد علم ما بين الوصفين من التفاوت.

وقال في الأوليين: ﴿متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنة﴾ بل قال: ﴿متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان﴾.

وقال في الأوليين، في وصف نسائهم وأزواجهم: ﴿فيهن قاصرات

الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان﴾ وقال في الآخرين: ﴿حور مقصورات في الخيام﴾ وقد علم التفاوت بين ذلك.

وقال في الأوليين^(١): ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ فدل ذلك أن الأوليين جزاء المحسنين، ولم يقل ذلك في الآخرين.

ومجرد تقديم الأوليين على الآخرين، يدل على فضلها.

فهذه الأوجه يعرف فضل الأوليين على الآخرين، وأنها معدتان للمقربين من الأنبياء، والصديقين، وخوادم عباد الله الصالحين، وأن الآخرين معدتان لعموم المؤمنين، وفي كل من الجنات [المذكورات] ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وفيهن ما تشبهه الأنفس وتلذ الأعين، وأهلها في غاية الراحة والرضا والطمانينة وحسن المأوى، حتى إن كلاً^(٢) منهم لا يرى أحداً أحسن حالاً منه، ولا أعلى من نعيمه [الذي هو فيه]. ولما ذكر سعة فضله وإحسانه، قال: ﴿تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام﴾ أي: تعظم وكثر خيره، الذي له الجلال الباهر، والمجد الكامل، والإكرام لأوليائه.

تم تفسير سورة الرحمن

والله الحمد والشكر والثناء الحسن

تفسير سورة الواقعة [وهي] مكية

﴿١- ١٢﴾. ﴿بسم الله الرحمن

الرحيم إذا وقعت الواقعة * ليس لوقعتها كاذبة * خافضة رافعة * إذا رجت الأرض رجاً * وبست الجبال بساً * فكانت هباء منبثاً * وكنتم أزواجاً ثلاثة * فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة * وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة * والسابقون

﴿السابقون﴾ أولئك المقربون * في جنات النعيم﴾. ﴿غير تعالي بحال الواقعة التي لا بد من وقوعها، وهي القيامة التي لا شك فيها، لأنها قد تظاهرت عليها الأدلة العقلية والسعوية، ودلت عليها حكمته تعالى، ﴿خافضة رافعة﴾ أي: خافضة لأبأس في أسفل سافلين، رافعة لأناس في أعلى عِلين، أو خفضت بصوتها فأسمعت القريب، ورفعت فأسمعت البعيد. ﴿إذا رجت الأرض رجاً﴾ أي: اضطربت، وبُست الجبال بساً * أي: فتنت، فكانت هباء منبثاً * فأصبحت الأرض ليس عليها جبل ولا معلم، قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عرجاً ولا أمناً، وكنتم * أي: انقسمتم ثلاث فرق بحسب أعمالكم الحسنة والسيئة، ثم فصل أحوال الأزواج الثلاثة، فقال: ﴿فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة﴾ تعظيم لشأنهم، وتفخيم لأحوالهم، ﴿وأصحاب المشأمة﴾ أي: الشمال، ﴿وما أصحاب المشأمة﴾ تهويل لحالهم.

﴿والسابقون السابقون﴾ أولئك المقربون * في جنات النعيم﴾. ﴿غير تعالي بحال الواقعة التي لا بد من وقوعها، وهي القيامة التي لا شك فيها، لأنها قد تظاهرت عليها الأدلة العقلية والسعوية، ودلت عليها حكمته تعالى، ﴿خافضة رافعة﴾ أي: خافضة لأبأس في أسفل سافلين، رافعة لأناس في أعلى عِلين، أو خفضت بصوتها فأسمعت القريب، ورفعت فأسمعت البعيد. ﴿إذا رجت الأرض رجاً﴾ أي: اضطربت، وبُست الجبال بساً * أي: فتنت، فكانت هباء منبثاً * فأصبحت الأرض ليس عليها جبل ولا معلم، قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عرجاً ولا أمناً، وكنتم * أي: انقسمتم ثلاث فرق بحسب أعمالكم الحسنة والسيئة، ثم فصل أحوال الأزواج الثلاثة، فقال: ﴿فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة﴾ تعظيم لشأنهم، وتفخيم لأحوالهم، ﴿وأصحاب المشأمة﴾ أي: الشمال، ﴿وما أصحاب المشأمة﴾ تهويل لحالهم.

﴿والسابقون السابقون﴾ أولئك

(٣) في ب: كل واحد منهم.

(١) في ب: تحت.

(٢) كذا في ب، وفي أ: الأخيرتين ويبدو أنه سبق قلم.

العين في الأثني، من أعظم الأدلة على حسنها وجمالها.

﴿كأشمال اللؤلؤ المكنون﴾ أي: كأنهن اللؤلؤ الأبيض الرطب الصافي البهي، المستور عن الأعين والريح والشمس، الذي يكون لونه من أحسن الألوان، الذي لا عيب فيه بوجه من الوجوه، ف كذلك الحور العين، لا عيب فيهن [بوجه]، بل هن كأمثال الأوصاف، جميلات النعوت، فكل ما تأملته منها لم تجد فيه إلا ما يسر الخاطر^(٣) ويروق الناظر، وذلك النعيم المعد لهم ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ فكما حسنت منهم الأعمال، أحسن الله لهم الجزاء، ووفر لهم الفوز والنعيم.

﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً﴾ أي: لا يسمعون في جنات النعيم كلاماً يلغي، ولا يكون فيه فائدة، ولا كلاماً يؤثم صاحبه، ﴿إلا قِيلاً سلاماً سلاماً﴾ أي: إلا كلاماً طيباً، وذلك لأنها دار الطيبين، ولا يكون فيها إلا كل طيب، وهذا دليل على حسن أدب أهل الجنة في خطابهم فيما بينهم، وأنه أطيب كلام، وأسره للنفوس^(٤)، وأسلمه من كل لغو وإثم، نسأل الله من فضله.

﴿٢٧﴾ ثم ذكر نعيم أصحاب اليمين^(٥)، فقال: ﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين﴾ أي: شأنهم عظيم، وحالهم جسيم، ﴿في سدر مخضود﴾ أي: مقطوع ما فيه من الشوك والأغصان [الرديئة] المضرة، يجعلون مكان ذلك الثمر الطيب، وللسدر من الخواص، الظل الظليل، وراحة الجسم فيه، ﴿وطلح منضود﴾. والطلح معروف، وهو شجر [كبار] يكون بالبادية، تنضد أغصانه من الثمر اللذيذ الشهي، ﴿وماء مسكوب﴾ أي: كثير

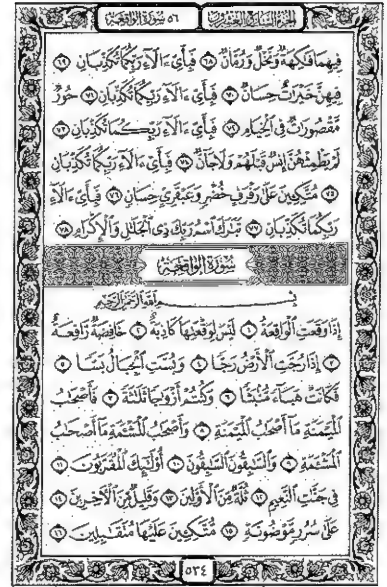
مخلدون﴾ أي: يدور على أهل الجنة للخدمة وقضاء حوائجهم، ولدان صغار الأسنان، في غاية الحسن والبهاء، ﴿كانهم لؤلؤ مكنون﴾ أي: مستور، لا يناله ما غيره، مخلوقون للبقاء والخلد، لا يهرمون ولا يتغيرون، ولا يزيدون على أستانهم، ويدورون عليهم بأنية شراهم ﴿بأكواب﴾ وهي التي لا عرى لها، ﴿وأباريق﴾: الأواني التي لها عرى، ﴿وكأس من معين﴾ أي: من خمر لذيذ المشرب، لا أفة فيها، ﴿لا يصدعون عنها﴾ أي: لا تصدعهم رؤوسهم كما تصدع خمرة الدنيا رأس شاربها.

ولاهم عنها ينزفون، أي: لا تنزف عقولهم، ولا تذهب أحلامهم منها، كما يكون لخم الدنيا.

والحاصل: أن جميع^(١) ما في الجنة من أنواع النعيم الموجود جنسه في الدنيا، لا يوجد في الجنة فيه أفة، كما قال تعالى: ﴿فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى﴾ وذكر هنا خمر الجنة، ونفى عنها كل أفة توجد في الدنيا.

﴿وفاكهة مما يتخيرون﴾ أي: مهما تخيروا، وراق في أعينهم، واشتهته نفوسهم، من أنواع الفواكه الشهية، والجنى اللذيذ، حصل لهم على أكمل وجه وأحسنه، ﴿ولحم طير مما يشتهون﴾ أي: من كل صنف من الطيور يشتهونه، ومن أي: جنس من لحمه أرادوا، وإن شاقوا مشوياً، أو طيبخاً، أو غير ذلك.

﴿وحور عين﴾ كأشمال اللؤلؤ المكنون﴾ أي: ولهم حور عين، والحوراء: التي في عينها كحل وملاحة، وحسن وبهاء، والعين: حسان الأعين وضخامها^(٢)، وحسن



المقربين﴾ أي: السابقون في الدنيا إلى الخيرات، هم السابقون في الآخرة لدخول الجنات.

أولئك الذين هذا وصفهم، المقربون عند الله، في جنات النعيم، في أعلى عليين، في المنازل العاليات، التي لا منزلة فوقها، وهؤلاء المذكورون ﴿ثلة من الأولين﴾ أي: جماعة كثيرون من المتقدمين من هذه الأمة وغيرهم.

﴿١٤﴾ ﴿وقليل من الآخرين﴾ وهذا يدل على فضل صدر هذه الأمة في الجملة على متآخريها، لكون المقربين من الأولين أكثر من المتأخرين، والمقربون هم خواص الخلق، ﴿على سرر موضونة﴾ أي: مرمولة بالذهب والفضة، واللؤلؤ والجوهر، وغير ذلك من [الخلي] الزينة، التي لا يعلمها إلا الله تعالى، ﴿مكتئين عليها﴾ أي: على تلك السرر، جلوس تمكن وطمأنينة وراحة واستقرار. ﴿مقابلين﴾ وجه كل منهم إلى وجه صاحبه، من صفاء قلوبهم، وحسن أدبهم، وتقابل قلوبهم.

﴿١٧﴾ ﴿يطوف عليهم ولدان

(١) في ب: كل.

(٢) كلما في ب، وفي أ: ضخام الأعين.

(٣) في ب: القلب.

(٤) في ب: للقلوب.

(٥) في ب: ثم ذكر ما أعد لأصحاب اليمين.

وعدد كثير من الآخرين.

﴿٤١-٤٨﴾ «وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال * في سموم وحيم * وظل من محموم * لا بارد ولا كريم * إنهم كانوا قبل ذلك مترفين * وكانوا يصرون على الحنث العظيم * وكانوا يقولون إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون * أو أباؤنا الأولون».

المراد بأصحاب الشمال [هم:] أصحاب النار، والأعمال المشؤومة، فذكر [الله] لهم من العقاب، ما هم حقيقون به، فأخبر أنهم «في سموم» أي: ريح حارة من خر ناز جهنم، يأخذ بأنفاسهم، وتقلقهم أشد القلق، «وحيم» أي: ماء حار يقطع أمعاءهم، «وظل من محموم» أي: لهب نار يختلط بدخان، «لا بارد ولا كريم» أي: لا برد فيه ولا كرم، والمقصود أن هناك الهم والغم، والحزن والشر، الذي لا خير فيه، لأن نفي الضد إثبات لضده. ثم ذكر أعمالهم التي أوصلتهم إلى هذا الجزاء، فقال: «إنهم كانوا قبل ذلك مترفين» أي: قد ألهمهم دنياهم، وعملوا لها، وتنعموا وتمتعوا بها، فآلهاهم الأمل عن إحسان العمل، فهذا العرف الذي ذمهم الله عليه، «وكانوا يصرون على الحنث العظيم» أي: وكانوا يفعلون الذنوب الكبار ولا يتوبون منها، ولا يندمون عليها، بل يصرون على ما يسخط مولاهم، فقدموا عليه بأوزار كثيرة [غير مغفورة].

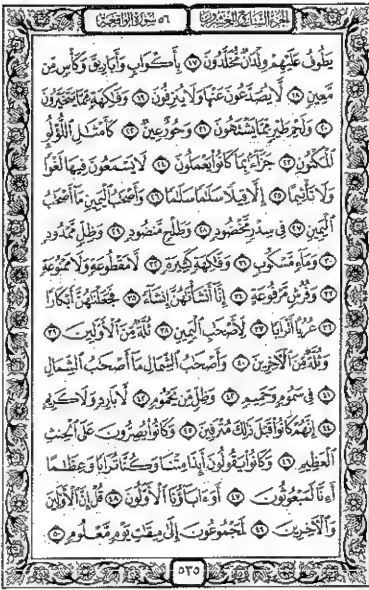
وكانوا ينكرون البعث، فيقولون استبعاداً لوقوعه: «إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون» أو أباؤنا الأولون» أي: كيف نبعث بعد موتنا وقد بلينا، فكنا تراباً وعظاماً؟ [هذا من المحال] «أئنا لمبعوثون أو أباؤنا الأولون» قال تعالى جواباً لهم ورداً عليهم^(١): «قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم»، أي: قل إن مقدم الخلق ومتأخرهم،

من العيون والأنهار السارحة، والمياه المتدفقة، «وفاكهة كثيرة» لا مقطوعة ولا ممنوعة» أي: ليست بمنزلة فاكهة الدنيا تقطع في وقت من الأوقات، وتكون ممنوعة [أي: متعسرة] على مبتغيها، بل هي على الدوام موجودة، وجناها قريب يتناوله العبد على أي: حال يكون، «وفرش مرفوعة» أي: مرفوعة فوق الأسرة ارتفاعاً عظيماً، وتلك الفرش من الحرير والذهب واللؤلؤ وما لا يعلمه إلا الله. «إنا أنشأناهم إنشاء» أي: إنا أنشأنا نساء أهل الجنة نشأة غير النشأة التي كانت في الدنيا، نشأة كاملة لا تقبل الفناء، «فجعلناهم أبكاراً» صغارهم وكبارهم، وعموم ذلك يشمل الحور العين ونساء أهل الدنيا، وأن هذا الوصف - وهو البكارة - ملازم لهن في جميع الأحوال، كما أن كونهن «عرباً أثرباً» ملازم لهن في كل حال، والعروب: هي المرأة المتحبة إلى بعلها بحسن لفظها، وحسن هيئتها ودلالها وجهالها [ومحبتها]، فهي التي إن تكلمت سبت العقول، وود السامع أن كلامها لا ينقضي، خصوصاً عند غنائهن بتلك الأصوات الرخيمة والنعيمات المطربة، وإن نظر إلى أدبها وسمتها ودلها ملأت قلب بعلها فرحاً وسروراً، وإن برزت^(٢) من محل إلى آخر، امتلاً ذلك الموضع منها ريحاً طيباً ونوراً، ويدخل في ذلك الغنجة عند الجماع.

والأثراب اللاتي على سن واحدة، ثلاث وثلاثين سنة، التي هي غاية ما يتمنى ونهاية سن الشباب، فنبأهم عرب أثراب، متفقات مؤلفات، راضيات مرضيات، لا يحزن ولا يحزن، بل هن أفراح النفوس، وقررة العيون، وجلاء الأبصار، «لأصحاب اليمين» أي: معدات لهم مهينات، «ثلة من الأولين» وثلة من الآخرين» أي: هذا القسم من أصحاب اليمين عدد كثير من الأولين،

(١) في ب: وإن انتقلت.

(٢) في ب: قال تعالى في جوابهم.



الجميع سبيعتهم الله ويجمعهم لميقات يوم معلوم، قدره الله لعباده، حين تنقضي الخليفة، ويريد الله تعالى جزاءهم على أعمالهم التي عملوها في دار التكليف.

«ثم إنكم أيها الضالون» عن طريق الهدى، التابعون لطريق الردى، «المكذوبون» بالرسول ﷺ وما جاء به من الحق والوعد والوعيد، «لا تكون من شجر من زقوم» وهو أقيح الأشجار وأخسها، وأنتنها ريحاً، وأبشعها منظرأ، «فمالمثلونها منها البطون» والذي أوجب لهم أكلها - مع ما هي عليه من الشناعة - الجوع المفرط، الذي يلتهب في أكبادهم وتكاد تقطع منه أفئدتهم.

هذا الطعام الذي يدفعون به الجوع، وهو الذي لا يسمن ولا يغني من جوع.

وأما شرابهم، فهو بشس الشراب، وهو أنهم يشربون على هذا الطعام من الماء الحميم الذي يغلي في البطون شرب الإبل الهيم أي: العطاش، التي قد اشتد عطشها، أو [أن الهيم] داء يصيب الإبل، لا تروى معه من شراب الماء.

«هذا» الطعام والشراب «نزلهم» أي: ضيافتهم «يوم الدين» وهي

وبأي: سبب دهيتهم، فتقولون: ﴿بل نحن محرومون﴾ فاحدوا الله تعالى حيث زرعه الله لكم، ثم أبقاه وكملة لكم، ولم يرسل عليه من الآفات ما به تحرمون نفعه وخيره.

﴿٦٨ - ٧٠﴾ ﴿أفرايتم الماء الذي تشربون﴾ أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ﴿لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون﴾ لما ذكر تعالى نعمته على عباده بالطعام، ذكر نعمته عليهم بالشراب العذب الذي منه يشربون، وأنهم لولا أن الله يسره وسهله، لما كان لكم سبيل إليه، وأنه الذي أنزله من المزن، وهو السحاب والمطر، ينزله الله تعالى فيكون منه الأنهار الجارية على وجه الأرض وفي بطنها، ويكون منه الغدران المتدفقة، ومن نعمته أن جعله عذياً فرائاً تسيغه النفوس، ولو شاء لجعله ملحاً أجاجاً مكروهاً للنفوس. لا ينفع به ﴿فلولا تشكرون﴾ الله تعالى على ما أنعم به عليكم.

﴿٧١ - ٧٤﴾ ﴿أفرايتم النار التي توروون﴾ أنتم أنشأتم شجرها أم نحن المنشؤون ﴿نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين﴾ فسيح باسم ربك العظيم. وهذه نعمة تدخل في الضروريات التي لا غنى للخلق عنها، فإن الناس محتاجون إليها في كثير من أمورهم وحوائجهم، فقرهم تعالى بالنار التي أوجدها في الأشجار، وأن الخلق لا يقدرون أن ينشؤوا شجرها، وإنما الله تعالى الذي أنشأها من الشجر الأخضر، فإذا هي نار توقد بقدر حاجة العباد، فإذا فرغوا من حاجتهم، أطفئوها وأخذوها.

﴿نحن جعلناها تذكرة للعباد بنعمة ربهم، وتذكرة بنار جهنم التي أعدها الله للعاصين، وجعلها سوطاً يسوق به عباده إلى دار البئيم، ﴿ومتاعاً للمقوين﴾ أي: [المتتبعين أو] المسافرين وخص الله المسافرين لأن نفع المسافرين بذلك أعظم من غيره، ولعل

للتناسل، ولهذا أحالهم الله تعالى على الاستدلال^(١) بالنشأة الأولى على النشأة الأخرى، فقال: ﴿ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون﴾ أن القادر على ابتداء خلقكم، قادر على إعادتكم.

﴿٦٣ - ٦٧﴾ ﴿أفرايتم ما تَحْرَثُونَ﴾ أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴿لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلمتم تفكهون﴾ إنا لغرمون ﴿بل نحن محرومون﴾ وهذا امتنان منه على عباده، يدعوهم به إلى توحيده وعبادته والإنابة إليه، حيث أنعم عليهم بما يسره لهم من الحرث للزروع والثمار، فتخرج من ذلك من الأقوات والأرزاق والفواكه، ما هو من ضروراتهم وحاجاتهم ومصلحتهم، التي لا يقدرون أن يحصوها، فضلاً عن شكرها وأداء حقها، فقرهم بمنته، فقال: ﴿أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾ أي: أنتم أخرجتموه نباتاً من الأرض؟ أم أنتم الذين نميتموه؟ أم أنتم الذين أخرجتم سنبله وثمره حتى صار حباً حصيداً وثماراً نضجاً؟ أم الله الذي انفرد بذلك وحده، وأنعم به عليكم؟ وأنتم غاية ما تفعلون أن تحرثوا الأرض وتشقوها وتلقوا فيها البذر، ثم بعد ذلك لا علم عندكم بما يكون بعد ذلك، ولا قدرة لكم على أكثر من ذلك ومع ذلك، فنبههم على أن ذلك الحرث معرض للأخطار لولا حفظ الله وإبقاؤه لكم بلغة ومتاعاً إلى حين، فقال: ﴿لو نشاء لجعلناه﴾ أي: الزرع المحرث وما فيه من الثمار ﴿حطاماً﴾ أي: فتاتاً متحطماً، لا نفع فيه ولا رزق، ﴿فظلمتم﴾ أي: فضررتم بسبب جعله حطاماً، بعد أن تعبت فيه وأنفقتم النفقات الكثيرة ﴿تفكهون﴾ أي: تندمون وتحسرون على ما أصابكم، ويزول بذلك فرحكم وسروركم وتفكهكم، فتقولون: ﴿إنا لغرمون﴾ أي: إنا قد نقصنا وأصابنا مصيبة اجتاحتنا.

ثم تعرفون بعد ذلك من أين أنتم،



الضيافة التي قدموها لأنفسهم، وأزروها على ضيافة الله - لا وليائه.

قال تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً﴾ خالدون فيها لا يبعثون عنها حولا.

ثم ذكر الدليل العقلي على البعث، فقال: ﴿نحن خلقناكم فلولا تصدقون﴾ أي: نحن الذين أوجدناكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، من غير عجز ولا تعب، أفليس القادر على ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ بل إنه على كل شيء قدير، ولهذا ويخهم على عدم تصديقهم بالبعث، وهم يشاهدون ما هو أعظم منه وأبلغ.

﴿٥٨ - ٦٢﴾ ﴿أفرايتم ما تمنون﴾ أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴿نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين﴾ على أن نبذل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون ﴿ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون﴾ أي: أفرايتم ابتداء خلقكم من المني الذي تمنون، فهل أنتم خالقون ذلك المني وما ينشأ منه؟ أم الله تعالى الخالق الذي خلق فيكم من الشهوة وآلتها من الذكر والأنثى، وهدي كلا منهما لما هنالك، وحبيب بين الزوجين، وجعل بينهما من المودة والرحمة ما هو سبب

ولا يخفى، بل يصعد به ويعلن.

وقوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ﴾ أي: تجعلون مقابلة مئة الله عليكم بالرزق التكذيب والكفر لنعمة الله، فتقولون: مطرنا بئس كذا وكذا، وتضيفون النعمة لغير مسديها وموليها، فهلا شكرتم الله تعالى على إحسانه، إذ أنزله الله إليكم ليزيدكم من فضله، فإن التكذيب والكفر داع لرفع النعم وحلول النقم.

﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حيثئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون﴾ أي: فهلا إذا بلغت الروح الحلقوم، وأنتم تنظرون المحتضر في هذه الحالة، والحال أنا نحن أقرب إليه منكم، بعلمنا وملائكتنا، ولكن لا تبصرون، ﴿فلولا إن كنتم غير مدينين﴾ أي: فهلا إذا كنتم تزعمون، أنكم غير مبعوثين ولا محاسبين ومجازين، ترجعون الروح إلى بدنها ﴿إن كنتم صادقين﴾ وأنتم تقولون أنكم عاجزون عن ردها إلى موضعها، فحيثئذ إما أن تقرروا بالحق الذي جاءكم به محمد ﷺ، وإما أن تعاندوا وتعلم حالكم وسوء مآلكم.

﴿٨٨-٩٦﴾ ﴿فأما إن كان من المقربين * فروح وريحان وجنة نعيم * وأما إن كان من أصحاب اليمين * فسلام لك من أصحاب اليمين * وأما إن كان من المكذبين الضالين * فنزل من حميم * وتصلية جحيم * إن هذا لهو حق اليقين * فسبح باسم ربك العظيم﴾ ذكر الله تعالى أحوال الطوائف الثلاث: المقربين، وأصحاب اليمين، والمكذبين الضالين، في أول السورة في دار القرار.

ثم ذكر أحوالهم في آخرها عند الاحتضار والموت، فقال: ﴿فأما إن كان﴾ الميت ﴿من المقربين﴾ وهم الذين أدوا الواجبات والمستحبات، وتركوا

مكتوب في اللوح المحفوظ، معظم عند الله وعند ملائكته في الملأ الأعلى.

ويحتمل أن المراد بالكتاب المكتون، هو الكتاب الذي بأيدي الملائكة الذين ينزلهم الله بوحيه وتنزيله^(٢)، وأن المراد بذلك أنه مستور عن الشياطين، لا قدرة لهم^(٣) على تغييره، ولا الزيادة والنقص منه واستراقه، ﴿لا يمسسه إلا المطهرون﴾ أي: لا يمس القرآن إلا الملائكة الكرام، الذين طهرهم الله تعالى من الآفات والذنوب والعيوب، وإذا كان لا يمس إلا المطهرون، وأن أهل الخبيث والشياطين، لا استطاعة لهم، ولا يدان إلى مسه، دلت الآية بتبيينها^(٤)، على أنه لا يجوز أن يمس القرآن إلا طاهر، كما ورد بذلك الحديث، ولهذا قيل أن الآية خير بعمى النهي أي: لا يمس القرآن إلا طاهر.

﴿تنزيل من رب العالمين﴾ أي: إن هذا القرآن الموصوف بتلك الصفات الجليلة هو تنزيل رب العالمين، الذي يربي عباده بنعمه الدينية والدنيوية، ومن أجل تربية ربي بها عباده، أنزله هذا القرآن، الذي قد اشتمل على مصالح الدارين، ورحم الله به العباد رحمة لا يقدرون لها شكوراً، وما يجب عليهم أن يقوموا به^(٥)، ويعلموه ويدعوا إليه ويصدقوا به، ولهذا قال: ﴿أفبهذا الحديث أنتم مدهنون﴾ أي: أفبهذا الكتاب العظيم والذكر الحكيم أنتم تدهنون أي: تحتفون وتدلسون خوفاً من الخلق وعارهم وألسنتهم؟ هذا لا ينبغي ولا يليق، إنما يليق أن يداهن بالحديث الذي لا يثق صاحبه منه.

وأما القرآن الكريم، فهو الحق الذي لا يغالب به مغالب إلا غلب، ولا يصول به صائل إلا كان العالي على غيره، وهو الذي لا يداهن به

السبب في ذلك، لأن الدنيا كلها دار سفر، والعبد من حين ولد فهو مسافر إلى ربه، فهذه النار، جعلها الله متاعاً للمسافرين في هذه الدار، وتذكراً لهم بدار القرار، فلما بين من نعمه ما يوجب الشناء عليه من عباده وشكره وعبادته، أمر بتسبيحه وتحميده^(١)، فقال: ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ أي: نزه ربك العظيم، كامل الأسماء والصفات، كثير الإحسان والخيرات، واحده بقلبك ولسانك وجوارحك، لأنه أهل لذلك، وهو المستحق لأن يُشكر فلا يكفر، ويُذكر فلا يُنسى، ويُطاع فلا يُعصى.

﴿٧٥-٨٧﴾ ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم * وإنه لقسـم لو تعلمون عظيم﴾ إنه لقرآن كريم * في كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون * تنزيل من رب العالمين * أفبهذا الحديث أنتم مدهنون * فلولا إذا رزقكم أنكم تكذبون * فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حيثئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون * فلولا إن كنتم غير مدينين * ترجعونها إن كنتم صادقين﴾ أقسم تعالى بالنجوم ومواقعها أي: مناقظها في مغاربها، وما يحدث الله في تلك الأوقات، من الجواهر الدالة على عظيمته وكبريائه وتوحيده، ثم عظم هذا القسم به، فقال: ﴿وإنه لقسـم لو تعلمون عظيم﴾ وإنما كان القسم عظيماً، لأن في النجوم وجريانها، وسقوطها عند مغاربها، آيات وعبراً لا يمكن حضرها، وأما القسم عليه، فهو إثبات القرآن، وأنه حق لا ريب فيه، ولا شك يعتريه، وأنه كريم أي: كثير الخير، عزيز العلم، فكل خير وعلم، فإنما يستفاد من كتاب الله ويستنبط منه، ﴿في كتاب مكنون﴾ أي: مستور عن أعين الخلق، وهذا الكتاب المكتون هو اللوح المحفوظ أي: إن هذا القرآن

(١) في ب: وتعظيمه.

(٢) في ب: لوجيه ورسائله.

(٣) كذا في ب، وفي أ: لها.

(٤) في ب: تنبيهاً.

(٥) كذا في ب، وفي أ: عليهم به أن

يقوموا به.

المحرمات والمكروهات^(١) وفضول المباحات، ﴿فَذِهِ لَهُمْ رُوحٌ﴾ أي: راحة وطمأنينة، وسرور وبهجة، ونعيم القلب والروح، ﴿وَرِيحَانٌ﴾ وهو اسم جامع لكل لذة بدنية، من أنواع المأكول والمشرب وغيرهما، وقيل: الريحان هو الطيب المعزوف، فيكون تعبيراً بنوع الشيء عن جنسه العام^(٢).

﴿وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ﴾ جامعة للأمرين كليهما، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيبشر المقربون عند الاحتضار بهذه البشارة، التي تكاد تطير منها الأرواح من الفرح والسرور.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشَرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ﴿نزلاً من غفور رحيم﴾.

وقد أول قوله^(٣) تبارك تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أن هذه البشارة المذكورة، هي البُشْرَى في الحياة الدنيا.

[وقوله]: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ وهم الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات، و [إن] حصل منهم التقصير في بعض الحقوق التي لا تحل بتوحيدهم وإيمانهم، ﴿فَذِهِ يَأْتِيهِمْ أَمْثَلُ الَّذِي أَتَا نَارُ الْإِبْرِيمَ﴾ أي: سلام لك من إخوانك أصحاب اليمين أي: يسلمون عليه ويحيونه عند وصوله إليهم ولقائهم له، أو يقال له: سلام لك من الآفات والبليات والعذاب، لأنك من أصحاب اليمين، الذين

سلموا من الذنوب الموبقات.

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الضَّالِّينَ﴾ أي: الذين كذبوا بالحق وضلوا عن الهدى، ﴿فَنُزِّلُ مِنْ هَيْمٍ﴾ وتصلية جحيم أي: ضيافتهم يوم قدومهم على ربهم تصلية الجحيم التي تحيط بهم، وتصل إلى أفئدتهم، وإذا استغاثوا من شدة العطش والظما ﴿يَغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِشَرِّ الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي ذكره الله تعالى، من جزاء العباد بأعمالهم، خيرها وشرها، وتفاصيل ذلك ﴿لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ أي: الذي لا شك فيه ولا مرية، بل هو الحق الثابت الذي لا بد من وقوعه، وقد أشهد الله عباده الأدلة القواطع على ذلك، حتى صار عند أولي الألباب كأنهم ذائقون له مشاهدون له^(٤)، فحمدوا الله تعالى على ما خصهم به من هذه النعمة العظيمة والمنحة الجسيمة.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ فسبحان ربنا العظيم، وتعالى وتنزه عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً. والحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه.

[تم تفسير سورة الواقعة]

تفسير سورة الحديد [وهي] مدنية

﴿١-٦﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ

السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير ﴿٤﴾ لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾ يُخَبِّرُ تَعَالَى عَنْ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَسَعَةِ سُلْطَانِهِ، أَنْ جَمِيعَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ النَّاطِقَةِ وَالصَّامِتَةِ وَغَيْرِهَا، [وَالْجَوَامِدِ] تَسْبِّحُ بِحَمْدِ رَبِّهَا، وَتَنْتَهِزُهُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، وَأَنَّهَا قَابِتَةٌ لِرَبِّهَا، مُنْقَادَةٌ لِعِزَّتِهِ، قَدْ ظَهَرَتْ فِيهَا آثَارُ حِكْمَتِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فهذا فيه بيان عموم اقتدار المخلوقات العلوية والسفلية لربها، في جميع أحوالها، وعموم عزته وقهره للأشياء كلها، وعموم حكمته في خلقه وأمره، ثم أخبر عن عموم ملكه، فقال: ﴿لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: هو الخالق لذلك، الرازق المدبر لها بقدرته ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ الذي ليس قبله شيء، ﴿وَالْآخِرُ﴾ الذي ليس بعده شيء، ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ الذي ليس فوقه شيء، ﴿وَالْبَاطِنُ﴾ الذي ليس دونه شيء.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ قد أحاط علمه بالظواهر والباطن، والسرائر والخفايا، والأمور المتقدمة والمتأخرة.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ استواء يليق بجلاله، فوق جميع خلقه، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ﴾ من حب وحيوان ومطر،

(١) في ب: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: إن كان الميت من المقربين إلى الله المتقربين إليه بأداء الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات.

(٢) في ب: فيكون من باب التعبير بنوع الشيء عن جنسه.

(٣) في ب: فسر.

(٤) في ب: مشاهدون لحقيقته.

وغير ذلك.

﴿وما يخرج منها﴾ من نبات وشجر وحيوان وغير ذلك، ﴿وما ينزل من السماء﴾ من الملائكة والأقمار والأرزاق.

﴿وما يعرج فيها﴾ من الملائكة والأرواح، والأدعية والأعمال، وغير ذلك.

﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ كقوله: ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا﴾.

وهذه المعية، معية العلم والاطلاع، ولهذا تواعد ووعد على المجازاة بالأعمال بقوله: ﴿والله بما تعملون بصير﴾ أي: هو تعالى بصير بما يصدر منكم من الأعمال، وما صدرت عنه تلك الأعمال، من بر وفجور، فمجازيكم عليها، وحافظها عليكم، ﴿له ملك السماوات والأرض﴾ ملكاً وخلقاً وعيلاً، يتصرف فيهم بما شاء من أواصره القدرية والشرعية، الجارية على الحكمة الربانية، ﴿والى الله ترجع الأمور﴾ من الأعمال والععمال، فيعرض عليه العباد، فيميز الخبيث من الطيب، ويمجزي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

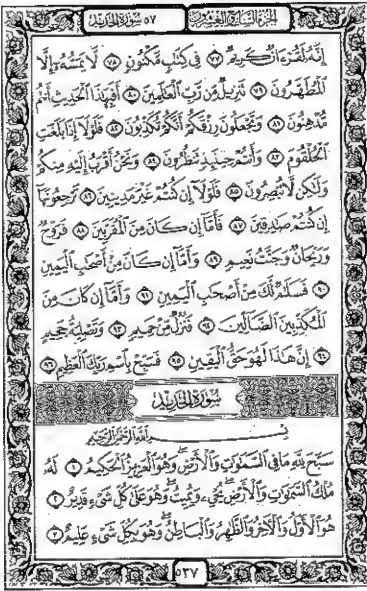
﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ أي: يدخل الليل على النهار، فيغشيهم الليل بظلامه، فيسكنون ويهدؤون، ثم يدخل النهار على الليل، فيزول ما على الأرض من الظلام، ويضيء الكون، فيتحرك العباد، ويقومون إلى مصالحهم ومعاشهم، ولا يزال الله يكور الليل على النهار، والنهار على الليل، ويداول بينهما، في الزيادة والنقص، والطول والقصر، حتى تقوم بذلك الفصول، وتستقيم الأزمنة، ويحصل من المصالح ما يحصل بذلك، فتبارك الله رب العالمين، وتعالى الكريم الجواد، الذي

أنعم على عباده بالنعم الظاهرة والباطنة، ﴿وهو عليم بذات الصدور﴾ أي: بما يكون في صدور العالمين، فيفوق من يعلم أنه أهل لذلك، ويخذل من يعلم أنه لا يصلح لهدايته^(١).

﴿٧-١١﴾ ﴿آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير﴾ وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين * هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم * وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله والله ميراث السماوات والأرض لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير * من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم * يأمر تعالى عباده بالإيمان به وبرسوله وبما جاء به، وبالنفقة في سبيله، من الأموال التي جعلها الله في أيديهم واستخلفهم عليها، لينظر كيف يعملون، ثم لما أمرهم بذلك، رغبهم وحشهم عليه بذكر ما رتب عليه من الثواب، فقال: ﴿فالذين آمنوا منكم وأنفقوا﴾ أي: جمعوا بين الإيمان بالله ورسوله، والنفقة في سبيله، لهم أجر كبير، أعظمه [وأجله] رضا ربهم، والفوز بدار كرامته، وما فيها من النعيم المقيم، الذي أعدّه الله للمؤمنين والمجاهدين، ثم ذكر [السبب] الداعي لهم إلى الإيمان، وعدم المانع منه، فقال: ﴿وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين﴾ أي: وما الذي يمنعكم من الإيمان، والحال أن الرسول محمداً ﷺ أفضل الرسل وأكرم دأغ دعا إلى الله يدعوكم، فهذا مما يوجب المبادرة إلى إجابة دعوته،

(١) كذا في ب، وفي أ ونخذل من يعلمه لا يصلح.

(٢) في ب: على صحة جميع ما جاء به.



والنبيه والإجابة للحق الذي جاء به، وقد أخذ عليكم العهد والميثاق بالإيمان إن كنتم مؤمنين، ومع ذلك، من لطفه وعنايته بكم، أنه لم يكف بمجرد دعوة الرسول الذي هو أشرف العالم، بل أيده بالمعجزات، ودلكم على صدق ما جاء به بالآيات البينات، فهذا قال: ﴿هو الذي ينزل على عبده آيات بينات﴾ أي: ظاهرات تدل أهل العقول على صدق كل ما جاء به^(٢)، وأنه حق اليقين، ﴿ليخرجكم﴾ بإرسال الرسول إليكم، وما أنزله الله على يده من الكتاب والحكمة.

﴿من الظلمات إلى النور﴾ أي: من ظلمات الجهل والكفر، إلى نور العلم والإيمان، وهذا من رحمة بكم ورأفته، حيث كان أرحم بعباده من الوالدة بولدها ﴿وإن الله بكم لرؤوف رحيم﴾.

﴿١٠﴾ ﴿وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله والله ميراث السماوات والأرض﴾ أي: وما الذي يمنعكم من النفقة في سبيل الله، وهو طرق الخير كلها، ويوجب لكم أن تبخلوا، ﴿و﴾ الحال أنه ليس لكم شيء، بل ﴿الله ميراث السماوات والأرض﴾ فجميع الأموال تستنقل من أيديكم أو تنقلون



٥٧٨

يتوهم منه نقص وقبح في المفضول، احترز تعالى من هذا بقوله: ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ أَي: الذين أسلموا وقاتلوا وأنفقوا من قبل الفتح وبعده، كلهم وعده الله الجنة، وهذا يدل على فضل الصحابة [كلهم]، رضي الله عنهم، حيث شهد الله لهم بالإيمان، ووعدهم الجنة، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازي كلًّا منكم على ما يعلمه من عمله، ثم حث على النفقة في سبيله، لأن الجهاد متوقف على النفقة فيه، وبذل الأموال في التجهيز له، فقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله قرضًا حسنًا﴾ وهي النفقة [الطيبة] التي تكون خاصة لوجه الله، موافقة لمرضاة الله، من مال حلال طيب، طيبة به نفسه، وهذا من كرم الله تعالى [حيث] سماه قرضًا، والمال ماله، والعبد عبده، ووعد بالمضاعفة عليه أضعافًا كثيرة، وهو الكريم الوهاب، وتلك المضاعفة عجلها وموضعها يوم القيامة، يوم كل يتبين فقره، ويحتاج إلى أقل شيء من الجزء الحسن، ولذلك قال:

﴿١٢ - ١٥﴾ ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بِشْرَاكِهِمْ يَوْمَ تَجْنُزُ الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ * ينادونهم أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ * فالיום لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ماؤاكم النار هي مولاكم وبئس المصير﴾ يقول تعالى - مبيّنًا لفضل الإيمان واغتياب أهله به يوم القيامة - : ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ أي: إذا

كان يوم القيامة، وكورت الشمس، وخسف القمر، وصار الناس في الظلمة، ونصب الصراط على متن جهنم، فحيثئذ ترى المؤمنين والمؤمنات، يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، فيمشون بأيمانهم ونورهم في ذلك الموقف الهائل الصعب، كل على قدر إيمانه، ويبشرون عند ذلك بأعظم بشارة، فيقال: ﴿بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم﴾ فله ما أحلى هذه البشارة بقلوبهم، وألذها لنفوسهم، حيث حصل لهم كل مطلوب [محبوب]، ونجوا من كل شر ومرهوب، فإذا رأى المنافقون نور المؤمنين يمشون به^(١)، وهم قد طغىء نورهم وبقوا في الظلمات حائرين، قالوا للمؤمنين: ﴿انظرونا نقْتِسِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ أي: أمهلونا لننال من نوركم ما نعيشي به، لننجو من العذاب، فـ ﴿قِيلَ لَهُمْ: ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ أي: إن كان ذلك ممكنًا، والحال أن ذلك غير ممكن، بل هو من المحالات، ﴿فَضُرِبَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ ﴿بِسُورٍ﴾ أي: حائط منيع، وحصن حصين، ﴿لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ وهو الذي يلي المؤمنين، ﴿وَوَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ وهو الذي يلي المنافقين، فينادي المنافقون المؤمنين، فيقولون لهم تضرعًا وترجًا: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ في الدنيا نقول: «لا إله إلا الله»، ونصلي ونصوم ونجاهد، ونعمل مثل عملكم؟

﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ كنتم معنا في الدنيا، وعملتم [في الظاهر] مثل عملنا، ولكن أعمالكم أعمال المنافقين، من غير إيمان ولا نية [صادقة] صالحة، بل ﴿فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ﴾ أي: شككتهم في خبر الله الذي لا يقبل شكًا، ﴿وَوَغَرَّتْكُمْ الْأَمَانِيُّ﴾ الباطلة، حيث^(٢) تمنيت أن تنالوا مثال المؤمنين، وأنتم غير موقنين، ﴿حَتَّىٰ

عنها، ثم يعود الملك إلى ملكه تبارك وتعالى، فاغتنموا الإنفاق ما دامت الأموال في أيديكم، وانتهزوا الفرصة، ثم ذكر تعالى تفاضل الأعمال بحسب الأحوال والحكمة الإلهية، فقال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ، أُولَٰئِكَ أَصْطَفَىٰ أَكْثَرُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا﴾ المراد بالفتح هنا هو فتح الحديبية، حين جرى من الصلح بين الرسول وبين قريش مما هو أعظم الفتوحات التي حصل بها نشر الإسلام، واختلاط المسلمين بالكافرين، والدعوة إلى الدين من غير معارض، فدخل الناس من ذلك الوقت في دين الله أفواجًا، واعتز الإسلام عزًا عظيمًا، وكان المسلمون قبل هذا الفتح لا يقدرّون على الدعوة إلى الدين في غير البقعة التي أسلم أهلها، كالمدينة وتوابعها، وكان من أسلم من أهل مكة وغيرها من ديار المشركين يؤذى ويخاف، فلذلك كان من أسلم قبل الفتح وأنفق وقاتل، أعظم درجة وأجرًا وثوابًا من لم يسلم ويقاتل وينفق إلا بعد ذلك، كما هو مقتضى الحكمة، ولذلك كان السابقون وفضلاء الصحابة، غالبهم أسلم قبل الفتح، ولما كان التفضيل بين الأمور قد

(١) في ب: يمشون بنورهم.

(٢) كذا في ب، وفي أ: التي.

جاء أمر الله ﷻ أي: حتى جاءكم الموت وأنتم بتلك الحال الذميمة.

﴿وغيركم بالله الغرور﴾ وهو الشيطان، الذي زين لكم الكفر والريب، فاطمأنتم به، ووثقت بوعده، وصدقت خبره، ﴿فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا﴾ فلو افتديتم بمثل الأرض ذهباً ومثله معه، لما تقبل منكم، ﴿وما أاكم النار﴾ أي: مستقركم، ﴿هي مولاكم﴾ التي تتولاكم وتضمكم إليها، ﴿وبئس المصير النار﴾.

[قال تعالى:] ﴿وأما من خفت موازينه﴾ فأمه هابية * وما أدراك ما هية * نار حامية﴾.

﴿١٦ - ١٧﴾ ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾ * أعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قدينا لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾ لما ذكر حال المؤمنين والمؤمنات، والمنافقين والمنافقات في الدار الآخرة، كان ذلك مما يدعو القلوب إلى الخشوع لربها، والاستكانة لعظمته، فعاتب الله المؤمنين [على عدم ذلك]، فقال: ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق﴾.

أي: ألم يحى^(١) الوقت الذي تلين به قلوبهم^(٢) وتخشع لذكر الله، الذي هو القرآن، وتنقاد لأوامره وزواجره، وما نزل من الحق الذي جاء به محمد ﷺ وهذا فيه الخث على الاجتهاد على خشوع القلب لله تعالى، ولما أنزله من الكتاب والحكمة، وأن يتذكر المؤمنون المواعظ الإلهية والأحكام الشرعية كل وقت، ويحاسبوا أنفسهم على ذلك، ﴿ولا

يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد﴾ أي: ولا يكونوا كالذين أنزل الله عليهم الكتاب الموجب لخشوع القلب والانقياد التام، ثم لم يدوموا عليه، ولا ثبتوا، بل طال عليهم الزمان واستمرت بهم الغفلة، فاضمحل إيمانهم وزال إيقانهم، ﴿فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾ فالقلوب تحتاج في كل وقت إلى أن تذكر بما أنزله الله، وتناطق بالحكمة، ولا ينبغي الغفلة عن ذلك، فإن ذلك^(٣) سبب لقسوة القلب وجود العين.

﴿اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾ فإن الآيات تدل العقول على العلم بالمطالب الإلهية، والذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على أن يحيي الأموات بعد موتهم، فيجازيهم بأعمالهم، والذي أحيا الأرض بعد موتها بماء المطر قادر على أن يحيي القلوب الميتة بما أنزله من الحق على رسوله، وهذه الآية تدل على أنه لا عقل لمن لم يهتد بآيات الله ولم ينقد لشرائع الله.

﴿١٨ - ١٩﴾ ﴿إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم﴾ * والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ ﴿إن المصدقين والمصدقات﴾ بالتشديد أي: الذين أكثروا من الصدقات الشرعية، والنفقات المرضية، ﴿وأقرضوا الله قرضاً حسناً﴾ بأن قدموا من أموالهم في طرق الخيرات ما يكون مذكراً لهم^(٤) عند ربهم، ﴿يضاعف لهم﴾ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، ﴿ولهم

(٤) في ب: ذخراً.

(٥) في ب: ما بين كل درجتين.

(١) في ب: أتم يأت.

(٢) في ب: الذي به تلين قلوبكم.

(٣) في ب: فإنه.



أجر كريم﴾ وهو ما أعده الله لهم في الجنة، مما لا تعلمه النفوس.

﴿والذين آمنوا بالله ورسله﴾ والإيمان عند أهل السنة: هو ما دل عليه الكتاب والسنة، هو قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، فيشمل ذلك جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة، فالذين جمعوا بين هذه الأمور هم الصديقون أي: الذين مرتبتهم فوق مرتبة عموم المؤمنين، ودون مرتبة الأنبياء.

[وقوله:] ﴿والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم﴾ كما ورد في الحديث الصحيح: ﴿إن في الجنة مئة درجة، ما بين الدرجتين^(٥)﴾ كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله، وهذا يقتضي شدة علوهم ورفعتهم، وقرهم إلى الله تعالى.

﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ فهذه الآيات جمعت أصناف الخلق، المتصدقين، والصديقين، والشهداء، وأصحاب الجحيم، فالتصدقون الذين كان جل عملهم الإحسان إلى الخلق، وبذل النفع إليهم بغاية ما يمكنهم، خصوصاً

أذهبها^(٤) من يده، وأزال تسلطه عليها، أو دُهب به عنها، فرحل منها صفر اليدين، لم يتزود منها سوى الكفن، فتباً لمن أضحت هي غاية أميته ولها عمله وسعيه.

وأما العمل للآخرة فهو الذي ينفع، ويدخر لصاحبه، ويصحب العبد على الأبد، ولهذا قال تعالى: ﴿وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان﴾ أي: حال الآخرة، ما يخلو من هذين الأمرين: إما العذاب الشديد في نار جهنم، وأغللالها وسلاسلها وأموالها لمن كانت الدنيا هي غايته ومنتهى مطلبه، فتجراً على معاصي الله، وكذب بآيات الله، وكفر بأنعم الله.

وإما مغفرة من الله للسيئات، وإزالة للعقوبات، ورضوان من الله، يحل من أحله^(٥) به دار الرضوان لمن عرف الدنيا، وسعى للآخرة سعيها.

فهذا كله مما يدعو إلى الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ أي: إلا متاع يتمتع به ويتنفع به، ويستدفع به الحاجات، لا يغتر به ويطمئن إليه إلا أهل العقول الضعيفة الذين يغره بالله الغرور.

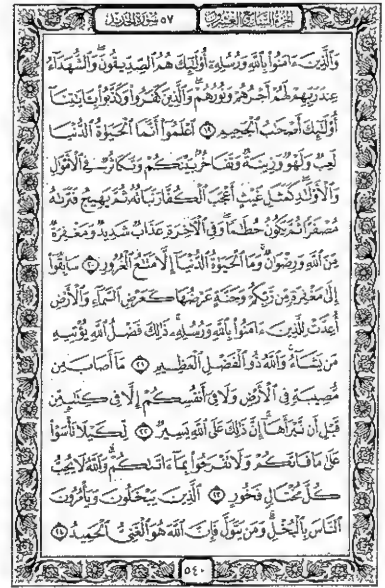
ثم أمر بالمسابقة إلى مغفرة الله ورضوانه وجنته، وذلك يكون بالسعي بأسباب المغفرة، من التوبة النصوح، والاستغفار النافع، والبعد عن الذنوب ومطائنها، والمسابقة إلى رضوان الله بالعمل الصالح، والحرص على ما يرضي الله على الدوام، من الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى الخلق بجميع وجوه النفع، ولهذا ذكر الله الأعمال الموجبة لذلك، فقال: ﴿وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله﴾ والإيمان بالله ورسوله^(٦)، يدخل فيه أصول الدين وفروعه، ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾ أي: هذا

أهلها، بأنها لعب ولهو، تلعب بها الأبدان، وتلهم بها القلوب، وهذا مصداقه ما هو موجود وواقع من أبناء الدنيا، فإنك تجدهم قد قطعوا أوقات أعمارهم بلهو القلوب، والغفلة عن ذكر الله^(١)، وعما أمامهم من الوعد والوعيد، وتراهم قد اتخذوا دينهم لعباً ولهواً، بخلاف أهل اليقظة وعُمّال الآخرة، فإن قلوبهم معمورة بذكر الله، ومعرفته ومحبته، وقد أشغلوا أوقاتهم بالأعمال التي تقربهم إلى الله، من النفع القاصر والمتعدي.

[وقوله]: ﴿وزينة﴾ أي: ترتين في اللباس والطعام والشراب، والمراكب والدور والقصور والجاه. [وغير ذلك] ﴿وتفاخر بينكم﴾ أي: كل واحد من أهلها يريد مفاخرة الآخر، وأن يكون هو الغالب في أمورها، والذي له الشهرة في أحوالها، ﴿وتكاثر في الأموال والأولاد﴾ أي: كل يريد أن يكون هو الكاثر لغيره في المال والولود، وهذا مصداقه، وقوعه من محبي الدنيا والمطمئنين إليها.

بخلاف من عرف الدنيا وحقيقتها، فجعلها معبراً ولم يجعلها مستقراً، فنافس فيما يقربه إلى الله، واتخذ الوسائل التي توصله إلى الله^(٢)، وإذا رأى من يكاثره وينافسه بالأموال والأولاد، نافسه بالأعمال الصالحة.

ثم ضرب للدنيا مثلاً يغيث نزل على الأرض، فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها، وأعجب نباته الكفار، الذين قصروا همهم ونظرهم إلى الدنيا^(٣) جاءها من أمر الله [ما أتلفها] فهاجت وبست، فعادت على حالها الأولى، كأنه لم ينبت فيها خضراء، ولا زُي لها مرأى أنيق، كذلك الدنيا، بينما هي زاهية لصاحبها زاهرة، مهما أراد من مطالبها حصل، ومهما توجه لأمر من أمورها وجد أبوابها مفتحة، إذ أصابها القدر بما



بالنفع بالمال في سبيل الله.

والصديقون هم الذين كملوا مراتب الإيمان والعمل الصالح، والعلم النافع، واليقين الصادق، والشهداء هم الذين قاتلوا في سبيل الله [الإعلاء كلمة الله، وبذلوا أنفسهم وأموالهم] فقتلوا، وأصحاب الجحيم هم الكفار الذين كذبوا بآيات الله.

وبقي قسم ذكرهم الله في سورة فاطر، وهم المقتصدون الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات، إلا أنهم حصل منهم تقصير ببعض حقوق الله وحقوق عباده، فهو لاء مآلهم الجنة، وإن حصل لهم عقوبة ببعض ما فعل.

﴿٢٠ - ٢١﴾ ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ يخبر تعالى عن حقيقة الدنيا وما هي عليه، ويبين غايتها وغاية

(١) في ب: بلهو قلوبهم وغفلتهم.

(٢) في ب: إلى ذلك.

(٣) في ب: همهم ونظرهم.

(٤) في ب: فأذهبها.

(٥) في ب: من أحله عليه.

(٦) كذا في ب، وفي أ: ورسوله.

﴿والميزان﴾ وهو العدل في الأقوال والأفعال، والذين الذي جاءت به الرسل، كله عدل وقسط في الأوامر والنواهي وفي معاملات الخلق، وفي الجنايات والقصاص والحدود [والمواريث وغير ذلك]، وذلك ﴿ليقوم الناس بالقسط﴾ قياماً بدين الله، وتحصيلاً لمصالحهم التي لا يمكن حصرها وعددها، وهذا دليل على أن الرسل متفقون في قاعدة الشرع، وهو القيام بالقسط، وإن اختلفت أنواع العدل، بحسب الأزمنة والأحوال، ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾ من آلات الحرب، كالسلاح والدرع وغير ذلك.

﴿ومنافع للناس﴾ وهو ما يشاهد من نفعه في أنواع الصناعات والحرف، والآواني وآلات الحرث، حتى إنه قلَّ أن يوجد شيء إلا وهو يحتاج إلى الحديد.

﴿وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب﴾ أي: ليقيم تعالى سوق الامتحان بما أنزله من الكتاب والحديد، فيتبين من ينصره وينصر رسله في حال الغيب، التي ينفع فيها الإيمان قبل الشهادة، التي لا فائدة بوجود الإيمان فيها، لأنه حينئذ يكون ضرورياً.

﴿إن الله قسوي عزيز﴾ أي: لا يعجزه شيء، ولا يقوته هارب، ومن قوته وعزته أن أنزل الحديد الذي منه الآلات القوية، ومن قوته وعزته أنه قادر على الانتصار من أعدائه، ولكنه يبذل أوليائه بأعدائه، ليعلم من ينصره بالغيب، وقرن تعالى في هذا (٣) الموضع بين الكتاب والحديد، لأن بهذين الأمرين ينصر الله دينه، ويعلي كلمته بالكتاب الذي فيه الحجة والبرهان والسيف الناصر بإذن الله، وكلاهما قيامه بالعدل والقسط، الذي يستدل به على حكمة الباري وكماله،

إذا حولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة.

﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل﴾ أي: يجمعون بين الأمرين الذميين، اللذين كل منهما كاف في الشر البخل: وهو منع الحقوق الواجبة، ويأمرون الناس بذلك، فلم يكفهم بخلهم، حتى أمروا الناس بذلك، وحثوهم على هذا الخلق الذميم بقولهم وفعلهم، وهذا من إعراضهم عن طاعة ربهم وتوليهم عنها، ﴿ومن يتول﴾ عن طاعة الله فلا يضر إلا نفسه، ولن يضر الله شيئاً، ﴿فإن الله هو الغني الحميد﴾ الذي غناه من لوازم ذاته، الذي له ملك السماوات والأرض، وهو الذي أغنى عباده وأقنأهم، الحميد الذي له كل اسم حسن، ووصف كامل، وفعل جميل، يستحق أن يحمد عليه ويثنى ويعظم.

﴿٢٥ - ٢٧﴾ ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز﴾ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ﴿ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة وربانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فاتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون﴾ يقول تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات﴾ وهي الأدلة والشواهد والعلامات الدالة على صدق ما جاؤوا به وحقيقته.

﴿وأنزلنا معهم الكتاب﴾ وهو اسم جنس يشمل سائر الكتب التي أنزلها الله لهداية الخلق وإرشادهم، ما ينفعهم في دينهم ودنياهم،

الذي بيناه لكم، وذكرنا لكم فيه الطرق الموصلة إلى الجنة، والطرق الموصلة إلى النار، وأن فضل الله بالثواب الجزيل والأجر العظيم (١)، من أعظم منته على عباده وفضله. ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ الذي لا يحصى ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده (٢).

﴿٢٢ - ٢٤﴾ ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير﴾ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور ﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويقولون إننا لن خيراً من عموم قضائه وقدره: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم﴾ وهذا شامل لعموم المصائب التي تصيب الخلق، من خير وشر، فكلها قد كتبت في اللوح المحفوظ، صغيرها وكبيرها، وهذا أمر عظيم لا تحيط به العقول، بل تذهل عنه أفئدة أولي الألباب، ولكنه على الله يسير، وأخبر الله عباده بذلك لأجل أن تتقرر هذه القاعدة عندهم، ويبتوا عليها ما أصابهم من الخير والشر، فلا يأسوا ويحزنوا على ما فاتهم، مما طمخت له أنفسهم وتشوفوا إليه، لعلهم أن يكون ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ، لا بد من نقوده ووقوعه، فلا سبيل إلى دفعه، ولا يفرحوا بما آتاهم الله فرح بظر وأشر، لعلهم أنهم ما أدركوه بحولهم وقوتهم، وإنما أدركوه بفضل الله ومثته، فيشتغلوا بشكر من أولى النعم ودفع النقم، ولهذا قال: ﴿والله لا يحب كل مختال فخور﴾ أي: متكبر فظ غليظ، معجب بنفسه، فخور بنعم الله، ينسبها إلى نفسه، وتطغيه وتلهيه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ثم

(١) في ب: وأن ثواب الله بالأجر الجزيل، والثواب الجميل.

(٢) في ب: أحد من خلقه.

(٣) في ب: بهذا.

وكمال شريعته التي شرعها على السنة رسله .

ولما ذكر نبوة الأنبياء عموماً، ذكر من خواصهم النبيين الكريمين نوحاً وإبراهيم اللذين جعل الله النبوة والكتاب في ذريتهما، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ أي: الأنبياء المتقدمين والمتأخرين كلهم من ذرية نوح وإبراهيم عليهما السلام، وكذلك الكتب كلها نزلت على ذرية هذين النبيين الكريمين، ﴿فَمِنْهُمْ﴾ أي: ممن أرسلنا إليهم الرسل ﴿مُهْتَدٍ﴾ بدعوتهم، منقاد لأمرهم، مسترشد بهداهم .

﴿وَكثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي: خارجون عن [طاعة الله و] طاعة الرسل والأنبياء^(١)، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسَ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ .

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا﴾ أي: أتبعنا ﴿عَلَى آثَارِهِمْ بَرَسْنَا وَقَفَّيْنَا بَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ خصص الله عيسى عليه السلام؛ لأن السياق مع النصارى، الذين يزعمون اتباع عيسى عليه السلام، ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ الذي هو من كتب الله الفاضلة، ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسَ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾ الآيات .

ولهذا كان النصارى ألين من غيرهم قلوباً، حين كانوا على شريعة عيسى عليه السلام .

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ والرهبانية: العبادة، فهم ابتدعوا من عند أنفسهم عبادة، ووظفوها على أنفسهم، والتزموا لوازم ما كتبها الله عليهم ولا فرضها، بل هم الذين يتزعمون بها من تلقاء أنفسهم، قصدهم بذلك رضا الله

تعالى، ومع ذلك ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي: ما قاموا بها ولا أدوا حقوقها، فقصروا من وجهين: من جهة ابتداعهم، ومن جهة عدم قيامهم بما فرضوه على أنفسهم .

فهذه الحال هي الغالب من أحوالهم .

ومنهم من هو مستقيم على أمر الله، ولهذا قال: ﴿فَأَتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي: الذين آمنوا آمنوا بمحمد ﷺ، مع إيمانهم بعيسى، كل أعطاه الله على حسب إيمانه ﴿وَكثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ .

﴿٢٨ - ٢٩﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لثلاث يعلم أهل الكتاب ألا يقدرُونَ على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ وهذا الخطاب، يحتمل أنه [خطاب] لأهل الكتاب الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام، يأمرهم أن يعملوا بمقتضى إيمانهم، بأن يتقوا الله فيتركوا معاصيه، ويؤمنوا برسوله محمد ﷺ، وأنهم إن فعلوا ذلك أعطاهم الله ﴿كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: نصيبين من الأجر نصيب على إيمانهم بالأنبياء الأقدمين، ونصيب على إيمانهم بمحمد ﷺ .

ويحتمل أن يكون الأمر عاماً يدخل فيه أهل الكتاب وغيرهم، وهذا الظاهر، وأن الله أمرهم بالإيمان والتقوى الذي يدخل فيه جميع الدين، ظاهره وباطنه، أصوله وفروعه، وأنهم إن امتثلوا هذا الأمر العظيم، أعطاهم الله ﴿كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ لا يعلم وصفهما وقدرهما إلا الله تعالى أجر على الإيمان، وأجر على التقوى، أو أجر على امتثال الأوامر، وأجر على اجتناب النواهي، أو أن الثنية المراد بها تكرار الإتياء مرة بعد أخرى .

﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ أي: يعطيكم علماً وهدياً ونوراً تمشون به في ظلمات الجهل، ويغفر لكم السيئات .

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ فلا يستكثر^(٢) هذا الثواب على فضل ذي الفضل العظيم، الذي عم فضله أهل السماوات والأرض، فلا يغلو مخلوق من فضله طرفة عين ولا أقل من ذلك . [وقوله] ﴿لَثَلَا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي: بينا لكم فضلنا وإحساننا لمن آمن إيماناً عاماً، واتقى الله، وآمن برسوله، لأجل أن أهل الكتاب يكون لديهم علم^(٣) بأنهم لا يقدرُونَ على شيء من فضل الله أي: لا يجحرون على الله بحسب أهوائهم وعقولهم الفاسدة، فيقولون: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ ويتمنون على الله الأماني الفاسدة، فأخبر الله تعالى أن المؤمنين برسوله محمد ﷺ، المتقين لله، لهم كفلان من رحمته، ونور، ومغفرة، رغباً على أنوف أهل الكتاب، وليعلموا ﴿أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ عن اقتضت حكمته تعالى أن يؤتيه من فضله، ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الذي لا يقادر قدره] .

ثم تفسير سورة الحديد،
والله الحمد والمنة، والحمد لله

تفسير سورة قد سمع الله وهي مدنية

﴿١ - ٤﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير * الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وإن الله لعفو غفور * الذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير

(٣) في ب: لأجل أن يكون عند أهل

الكتاب علم .

(١) في ب: طاعة رسله .

(٢) في ب: فلا يستغرب كثرة .



﴿الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم﴾ أي: كيف يتكلمون بهذا الكلام الذي يعلم^(٣) أنه لا حقيقة له، فيشبهون أزواجهم بأمهاتهم اللاتي ولدنهم؟ ولهذا عظم الله أمره وقبحه، فقال: ﴿وانهم ليقولون منكراً من القول وزوراً﴾ أي: قولاً شنيعاً، ﴿وزوراً﴾ أي: كذباً.

﴿وان الله لعفو غفور﴾ عمن صدر منه بعض المخالفات، فتداركها بالتوبة النصوح.

﴿والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا﴾ اختلف العلماء في معنى العود، فقيل: معناه العزم على جماع من ظاهر منها، وأنه بمجرد عزمه تحب عليه الكفارة المذكورة، ويدل على هذا أن الله تعالى ذكر في الكفارة أنها تكون قبل المسيس، وذلك إنما يكون بمجرد العزم، وقيل: معناه حقيقة الوطء، ويدل على ذلك أن الله قال: ﴿ثم يعودون لما قالوا﴾ والذي قالوا إنما هو الوطء.

وعلى كل من القولين ﴿ف﴾ إذا وجد العود، صار كفارة هذا التحريم ﴿تحرير رقبة﴾ مؤمنة كما قيدت في آية أخرى^(٥)، ذكر أو أنثى، بشرط أن تكون سالمة من العيوب المضرة^(٦) بالعمل.

﴿من قبل أن يتماسا﴾ أي: يلزم الزوج أن يترك وطء زوجته التي ظاهر منها حتى يكفر برقة.

﴿ذلكم﴾ الحكم الذي ذكرناه لكم، ﴿توعظون به﴾ أي: يبين لكم حكمه مع الترهيب المقرون به، لأن معنى الرعظ ذكر الحكم مع الترغيب والترهيب، فالذي يريد أن يظهر، إذا

رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير * فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم ﴿ نزلت هذه الآيات الكريمات في رجل من الأنصار اشتكت زوجته إلى الله، وجادلته^(١) إلى رسول الله ﷺ لما حرمها على نفسه، بعد الصحة الطويلة، والأولاد، وكان هو رجلاً شيخاً كبيراً، فشكت حالها وحاله إلى الله وإلى رسول الله ﷺ، وكررت ذلك، وأبدت فيه وأعادت.

فقال تعالى: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما﴾ أي: تخاطبكما فيما بينكما، ﴿إن الله سميع﴾ لجميع الأصوات، في جميع الأوقات، على تفنن الحاجات.

﴿بصير﴾ يبصر ديب النملة السوداء، على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وهذا إخبار عن كمال سمعه وبصره، وإحاطتهما بالأمور الدقيقة والجليلة، وفي ضمن ذلك الإشارة بأن الله تعالى سيزيل شكواها، ويرفع بلواها، ولهذا ذكر حكمها، وحكم غيرها^(٢) على وجه العموم، فقال: ﴿الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللاتي ولدنهم﴾.. المظاهرة من الزوجة: أن يقول الرجل لزوجته: «أنت علي كظهر أمي»، أو غيرها من محارمه، أو: «أنت علي حرام»، وكان المعتاد عندهم في هذا لفظ «الظهر» ولهذا سماه الله «ظهراً» فقال:

ذكر أنه يجب عليه عتق رقبة كف نفسه عنه، ﴿والله بما تعملون خبير﴾ فيجازي كل عامل بعمله.

﴿فمن لم يجد﴾ رقبة يعتقها، بأن لم يجدها أو لم يجد ثمنها ﴿ف﴾ عليه صيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ﴿فمن لم يستطع﴾ الصيام فإطعام ستين مسكيناً إما بأن يطعمهم من قوت بلده ما يكفيهم، كما هو قول كثير من المفسرين، وإما بأن يطعم كل مسكين مدية أو نصف صاع من غيره مما يجزي في الفطرة، كما هو قول طائفة أخرى.

ذلك الحكم الذي بيناه لكم، ووضحناه لكم ﴿لتؤمنوا بالله ورسوله﴾ وذلك بالتزام هذا الحكم وغيره من الأحكام والعمل به، فإن التزام أحكام الله والعمل بها من الإيمان، [بل هي المقصودة] ومما يزيد به الإيمان^(٧) ويكمل وينمو.

﴿وتلك حدود الله﴾ التي تمنع من

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ذكر حكم هذا الحكم وحكم غيره.

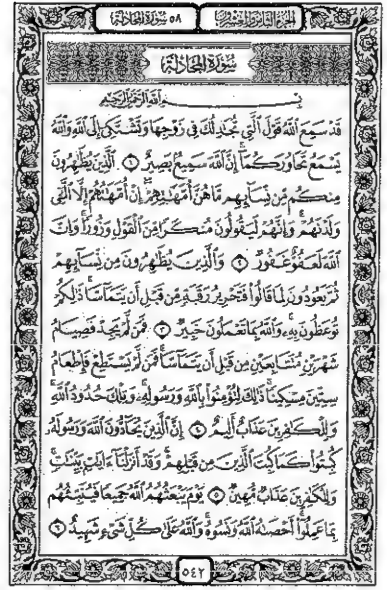
(٣) في ب: يعملون.

(٤) كذا في ب، وفي أ: أن.

(٥) في ب: آية القتال.

(٦) في ب: الضارة.

(٧) في ب: ويزداد به الإيمان.



الوقوف فيها، فيجب أن لا تتعدى ولا يقصر عنها.

﴿وللكافرين عذاب اليم﴾.

وفي هذه الآيات عدة أحكام:

منها: لطف الله بعباده واعتناؤه بهم، حيث ذكر شكوى هذه المرأة المصابة، وأزالها ورفع عنها البلوى، بل رفع البلوى بحكمه العام لكل من ابتلي بمثل هذه القضية.

ومنها: أن الظهار مختص بتحريم الزوجة، لأن الله قال: ﴿من نسأهم﴾ فلو حرم أمته، لم يكن [ذلك] ظهاراً، بل هو من جنس تحریم الطعام والشراب، تجب فيه كفارة اليمين فقط.

ومنها: أنه لا يصح الظهار من امرأة قبل أن يتزوجها، لأنها لا تدخل في نسائه وقت الظهار، كما لا يصح طلاقها، سواء نجز ذلك أو علّقه.

ومنها: أن الظهار محرم، لأن الله سمّاه منكراً [من القول] وزوراً.

ومنها: تنبيه الله على وجه الحكم وحكمته، لأن الله تعالى قال: ﴿ما هن أمهاتهم﴾.

ومنها: أنه يكره للرجل أن ينادي زوجته ويسمّيها^(١) باسم محارمه،

كقوله: «يا أمي»، «يا أختي» ونحوه، لأن ذلك يشبه المحرم.

ومنها: أن الكفارة إنما تجب بالعود لما قال المظاهر، على اختلاف القولين السابقين، لا بمجرد الظهار.

ومنها: أنه يجرى في كفارة الرقة، الصغير والكبير، والذكر والأنثى، لإطلاق الآية في ذلك.

ومنها: أنه يجب إخراجها إن^(٢) كانت عتقاً أو صياماً قبل المسيس، كما قيده الله، بخلاف كفارة الإطعام، فإنه يجوز المسيس والوطء في أثناءها.

ومنها: أنه لعل الحكمة في وجوب الكفارة قبل المسيس، أن ذلك أدهى لإخراجها، فإنه إذا اشتاق إلى الجماع، وعلم أنه لا يمكن من ذلك إلا بعد الكفارة، بادر لإخراجها.

ومنها: أنه لا بد من إطعام ستين مسكيناً، فلو جمع طعام ستين مسكيناً، ودفعها لواحد أو أكثر من ذلك، دون الستين لم يجز ذلك، لأن الله قال: ﴿إطعام ستين مسكيناً﴾.

﴿٥٥﴾ ﴿إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين﴾ مخادة الله ورسوله: مخالفتها ومعصيتها خصوصاً في الأمور الفظيعة، كمخادة الله ورسوله بالكفر، ومعاداة أولياء الله.

وقوله: ﴿كبتوا كما كبت الذين من قبلهم﴾ أي: أذلوا وأهينوا كما فعل بمن قبلهم، جزاء وفاقاً.

وليس لهم حجة على الله، فإن الله قد قامت حجته البالغة على الخلق، وقد أنزل من الآيات البينات والبراهين ما يبين الحقائق ويوضح المقاصد، فمن اتبعها وعمل عليها، فهو من المهتدين الفائزين، ﴿وللكافرين﴾ بها ﴿عذاب مهين﴾ أي: يهينهم ويذلهم، كما تكبروا عن آيات الله، أهانهم وأذلهم. ﴿٦٧-٦٨﴾ ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً﴾

فينبئهم بما علموا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد * ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴿يقول الله تعالى: يوم يبعث الله الخلق جميعاً﴾ فيقومون من أجدالهم سريعاً فيجازيهم بأعمالهم ﴿فينبئهم بما عملوا﴾ من خير وشر، لأنه علم ذلك وكتبه في السوح المحفوظ، وأمر الملائكة الكرام الحفظة بكتابته، هذا ﴿و﴾ العاملون قد نسوا ما عملوه، والله أحصى ذلك.

﴿والله على كل شيء شهيد﴾ بالظواهر^(٣) والسرائر، والخبائيا والحقايا، ولهذا أخبر عن سعة علمه وإحاطته بما في السماوات والأرض من دقيق وجليل.

وأنه ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا﴾ والمراد بهذه المعية معية العلم والإحاطة بما تناجوا به وأسروه فيما بينهم، ولهذا قال: ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ ثم قال تعالى:

﴿٨-٩﴾ ﴿ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير * يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتهم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي إليه تحشرون﴾ النجوى هي التناجى بين اثنين فأكثر، وقد تكون في الخير، وتكون في الشر.

فأمر تعالى المؤمنين أن يتناجوا بالبر، وهو اسم جامع لكل خير وطاعة،

(٣) في ب: على الظواهر.

(٢) في ب: إذا.

(١) في ب: ويدعوها.



استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم
ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن
حزب الشيطان هم الخاسرون ﴿يخبر
تعالى عن شناعة حال المنافقين الذين
يتولون الكافرين، من اليهود
والنصارى وغيرهم ممن غضب الله
عليهم، ونالوا من لعنة الله أوفى
نصيب، وأنهم ليسوا من المؤمنين ولا
من الكافرين، ﴿مذبذبين بين ذلك
لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾.

فليسوا مؤمنين ظاهراً وباطناً لأن
باطنهم مع الكفار، ولا مع الكفار
ظاهراً وباطناً، لأن ظاهرهم مع
المؤمنين، وهذا وصفهم الذي
نعتهم الله به، والحال أنهم يحلفون على
ضده الذي هو الكذب، فيحلفون أنهم
مؤمنون، وهم يعلمون ^(٢) أنهم ليسوا
مؤمنين، فجزاء هؤلاء الخونة الفجرة
الكذبة، أن الله أعد لهم عذاباً شديداً،
لا يقادر قدره، ولا يعلم وصفه، إنهم
سواء ما كانوا يعملون، حيث عملوا بما
يسخط الله ^(٣)، ويوجب عليهم العقوبة
واللعنة، ﴿اتخذوا أيمانهم جنة﴾ أي:
ترساً ووقاية، يتقون بها من لوم الله
ورسوله والمؤمنين، فيسبب ذلك صدوا
أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، وهي
الصرط الذي من سلوكه أفضى به إلى
جنات النعيم، ومن صد عنه فليس إلا
الصرط الموصل إلى الجحيم، ﴿فلهم
عذاب مهين﴾ حيث استكبروا عن
الإيمان بالله والانقياد لأياته، أهانهم
بالعذاب السرمدى، الذي لا يفتّر عنهم
ساعة ولا هم يُنظرون، ﴿لن تغني
عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله
شيئاً﴾ فلا تدفع ^(٤) عنهم شيئاً من
العذاب، ولا تحصل لهم قسطاً من
الشواب، ﴿أولئك أصحاب النار﴾
المازموں لها، الذين لا يخرجون
عنها، و﴿هم فيها خالدون﴾ ومن
عاش على شيء مات عليه، فكما أن
المنافقين في الدنيا يموهون على

الأدب مع الرسول والإكرام له،
وأمرهم تعالى أن يقوموا بالأمورات
الكبار المقصودة بنفسها، فقال: ﴿فإذا لم
تفعلوا﴾ أي: لم يهن عليكم تقديم
الصدقة، ولا يكفي هذا، فإنه ليس من
شرط الأمر أن يكون هيناً على العبد،
ولهذا قيده بقوله: ﴿وتاب الله
عليكم﴾ أي: عفا لكم عن ذلك،
﴿فأقيموا الصلاة﴾ بأركانها وشروطها،
وجميع حدودها ولوازمها، ﴿وآتوا
الزكاة﴾ المفروضة [في أموالكم] إلى
مستحقها.

وهاتان العبادتان هما أم العبادات
البدنية والمالية، فمن قام بهما على الوجه
الشرعي، فقد قام بحقوق الله وحقوق
عباده، [ولهذا قال بعده:]
﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ وهذا أشمل
ما يكون من الأوامر.

ويدخل في ذلك طاعة الله
[وطاعة] رسوله بامتثال أوامرهما
واجتناب نواهيهما، وتصدق ما أخبرا
به، والوقوف عند حدود الله ^(١).

والعبرة في ذلك على الإخلاص
والإحسان، ولهذا قال: ﴿والله خبير
بما تعملون﴾ فيعلم تعالى أعمالهم،
وعلى أي: وجه صدرت، فيجازيهم
على حسب علمه بما في صدورهم.

﴿١٤ - ١٩﴾ ﴿لم تر إلى الذين
تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم
منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب
وهم يعلمون﴾ * أعد الله لهم عذاباً
شديداً إنهم سواء ما كانوا يعملون *
اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن
سبيل الله فلهم عذاب مهين * لن
تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم
من الله شيئاً أولئك أصحاب النار هم
فيها خالدون * يوم يبعثهم الله جميعاً
فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون
أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون *

تعملون، يأمر تعالى المؤمنين بالصدقة،
أمام مناجاة رسوله محمد ﷺ تأديباً لهم
وتعليماً، وتعظيماً للرسول ﷺ، فإن
هذا التعظيم خير للمؤمنين وأظهر أي:
بذلك يكثر خيركم وأجركم، وتحصل
لكم الطهارة من الأدناس، التي من
جملتها ترك احترام الرسول ﷺ
والأدب معه بكثرة المناجاة التي لا ثمرة
تحتها، فإنه إذا أمر بالصدقة بين يدي
مناجاته صار هذا ميزاناً لمن كان حريصاً
على الخير والعلم، فلا يباي بالصدقة،
ومن لم يكن له حرص ولا رغبة في
الخير، وإنما مقصوده مجرد كثرة
الكلام، فينكف بذلك عن الذي يشق
على الرسول، هذا في الواجد
للصدقة، وأما الذي لا يجد الصدقة،
فإن الله لم يضيّق عليه الأمر، بل عفا
عنه وسأخه، وأباح له المناجاة بدون
تقديم صدقة لا يقدر عليها.

ثم لما رأى تبارك وتعالى شفقة
المؤمنين ومشقة الصدقات عليهم عند
كل مناجاة، سهل الأمر عليهم، ولم
يؤاخذهم بترك الصدقة بين يدي
المناجاة، وبقي التعظيم للرسول
والاحترام بحاله لم ينسخ، لأن هذا
الحكم من باب المشروع لغيره، ليس
مقصوداً لنفسه، وإنما المقصود هو

(٣) كذا في ب، وفي أ: يَسْخَطُهُ.

(٤) في ب: أي لا تدفع.

(١) في ب: حدود الشرع.

(٢) في ب: والحال.

المؤمنين، ويحلفون لهم أنهم مؤمنون، فإذا كان يوم القيامة وبعثهم الله جميعاً، حلفوا الله كما حلفوا للمؤمنين، ويحسبون في حلفهم هذا أنهم على شيء، لأن كفرهم ونفاقهم وعقائدهم الباطلة، لم تزل ترسخ في أذهانهم شيئاً فشيئاً، حتى غرتهم وظنوا أنهم على شيء، يعتد به، ويعلق عليه الثواب، وهم كاذبون في ذلك، ومن المعلوم أن الكذب لا يروج على عالم الغيب والشهادة، وهذا الذي جرى عليهم من استحواذ الشيطان الذي استولى عليهم، وزين لهم أعمالهم، وأنساهم ذكر الله، وهو العدو المبين، الذي لا يريد بهم إلا الشر، «إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير».

﴿أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾ الذين خسروا دينهم وديارهم وأنفسهم وأهلهم.

﴿٢٠-٢١﴾ «إن الذين يهادون الله ورسوله أولئك في الأذلين» * كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز. هذا وعد ووعد، وعيد لمن حاد الله ورسوله بالكفر والمعاصي، أنه مخذول مذلول، لا عاقبة له حيدة، ولا راية له منصوره.

ووعد لمن آمن به وبرسله، وأتبع ما جاء به المرسلون، فصار من حزب الله المفلحين، أن لهم الفتح والنصر والغلبة في الدنيا والآخرة، وهذا وعد لا يخلف ولا يغير، فإنه من الصادق القوي العزيز الذي لا يعجزه شيء يريد.

﴿٢٢﴾ «لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا

عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون» يقول تعالى: «لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله أي: لا يجتمع هذا وهذا، فلا يكون العبد مؤمناً بالله واليوم الآخر حقيقة، إلا كان عاملاً على مقتضى الإيمان^(١) ولو أزمه، من حبة من قام بالإيمان وموالاته، وبغض من لم يقم به ومعاداته، ولو كان أقرب الناس إليه.

وهذا هو الإيمان على الحقيقة، الذي وجدت ثمرته والمقصود منه، وأهل هذا الوصف هم الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان أي: رسمه وثبته وغرسه غرساً، لا يتزلزل ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك:

وهم الذين قواهم الله بروح منه أي: بوحيه ومعونته، ومدده الإلهي وإحسانه الرباني.

وهم الذين لهم الحياة الطيبة في هذه الدار، ولهم جنات النعيم في دار القرار، التي فيها من كل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وتختار، ولهم أكبر النعيم وأفضله، وهو أن الله يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبداً، ويرضون عن ربهم بما يعطيهم من أنواع الكرامات، ووافر المثوبات، وجزيل البهيات، ورفيع الدرجات بحيث لا يرون فوق ما أعطاهم مولاهم غاية، ولا فوقه نهاية^(٢).

وأما من يزعم أنه يؤمن بالله واليوم الآخر، وهو مع ذلك مُرَادٍ لأعداء الله، محب لمن ترك الإيمان^(٣) وراء ظهره، فإن هذا إيمان زعمي لا حقيقة له، فإن كل أمر لا بد له من برهان يصدقه، فمجرد الدعوى لا تفيد شيئاً ولا يصدق صاحبها.

تم تفسير قد سمع الله، بحمد الله وعونه وتسديده، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وسلم تسليماً

(٢) في ب: ولا وراء.

(٣) في ب: لمن نبذ.

تفسير سورة العنكبوت [وهي مدنية]

﴿١-٧﴾ «بسم الله الرحمن الرحيم سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم» * هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار» إلى آخر القصة.

هذه السورة تسمى «سورة بني النضير» وهم طائفة كبيرة من اليهود في جانب المدينة، وقت بعثة النبي ﷺ فلما بعث النبي ﷺ وهاجر إلى المدينة، كفروا به في جملة من كفر من اليهود، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة هادن سائر طوائف اليهود الذين هم جيرانه في المدينة، فلما كان بعد [وقعة] بدر بستة أشهر أو نحوها، خرج إليهم النبي ﷺ وكلمهم أن يعينوه في دية الكلابيين الذين قتلهم عمرو بن أمية الضمري، فقالوا: نفعل يا أبا القاسم، اجلس هاهنا حتى نقضي حاجتك، فخلا بعضهم ببعض،



وسؤل لهم الشيطان الذي كتب عليهم، فاتمروا بقتله ﷺ، وقالوا: أيكم يأخذ هذه الرحى فيصعد فيلقها على رأسه يشدخه بها؟ فقال أشقاهم عسرو بن جبحاش: أنا، فقال لهم سلام بن مشكم: لا تفعلوا، فوالله ليخبرن بما همتم به، وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه، وجاء الوحي على الغفور إليه من ربه بما هموا به، فنقض مبرعاً، فتوجه إلى المدينة، ولحقه أصحابه، فقالوا: نهضت ولم تشعر بك، فأخبرهم بما همتم به.

وبعث إليهم رسول الله ﷺ: «أن أخرجوا من المدينة ولا تسانكني بها، وقد أجلتكم عشراً، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه».

فأقاموا أياماً يتجهزون، وأرسل إليهم المنافق عبد الله بن أبي لبيس سلولاً: «أن لا تخرجوا من دياركم، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم، فيموتون دونكم، وتتصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان».

وطمع رئيسهم حبي بن أخطب فيما قال له، وبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك.

فكبر رسول الله ﷺ وأصحابه،

ونهبوا إليهم، وعلي بن أبي طالب يحمل اللواء.

فأقاموا على حصونهم يرمون بالنبل والحجارة، واعتزلتهم قريظة، وخانهم ابن أبي وحلفاؤهم من غطفان، فحاصروهم رسول الله ﷺ، وقطع نخلهم وحرق، فأرسلوا إليه: نحن نخرج من المدينة، فأنزلهم على أن يخرجوا منها بنفوسهم وذرائعهم، وأن لهم ما حلت إيلهم إلا السلاح، وقبض رسول الله ﷺ الأموال والسلاح.

وكانت بنو النضير خالصة لرسول الله ﷺ لنوائبه ومصالح المسلمين، ولم يمسها، لأن الله أفاءها عليه، ولم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب، وأجلهم إلى خير وفيهم حبي بن أخطب كبيرهم، واستولى على أرضهم وديارهم، وقبض السلاح، فوجد من السلاح خمسين درعاً، وخمسين بيضة، وثلاثمائة وأربعين سيفاً، هذا حاصل قصتهم كما ذكرها أهل السير.

فافتتح تعالى هذه السورة بالإخبار أن جميع من في السماوات والأرض تسبح بحمد ربها، وتذره عما لا يليق بجلاله، وتعبده وتخضع لجلاله^(١)، لأنه العزيز الذي قد قهر كل شيء، فلا يمتنع عليه شيء، ولا يستعصي عليه مستعصي^(٢)، الحكيم في خلقه وأمره، فلا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يشرع ما لا مصلحة فيه، ولا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته، ومن ذلك نصر الله لرسوله ﷺ على الذين كفروا من أهل الكتاب من بني النضير حين غدروا برسوله، فأخرجهم من ديارهم وأوطانهم التي ألفوها وأحبوها.

وكان إخراجهم منها أول حشر وجلاء كتبه الله عليهم على يد رسوله محمد ﷺ، فجلوا إلى خيبر، ودلت الآية الكريمة أن لهم حشراً وجلاء غير هذا، فقد وقع حين أجلهم النبي ﷺ

من خير، ثم عمر رضي الله عنه، [أخرج بقيتهم منها].

﴿ما ظننتم﴾ أيها المسلمون ﴿أن يخرجوا﴾ من ديارهم، لحصانتها ومنعتها وعزمهم فيها.

﴿وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله﴾ فأعجبوا بها وعزيمتهم، وحسبوا أنهم لا يُنالون بها، ولا يقدر عليها أحد، وقد رآه تعالى وراء ذلك كله، لا تغني عنه الحصون والقلاع، ولا تجدي فيهم القوة والدفاع.

ولهذا قال: ﴿فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا﴾ أي: من الأمر والباب، الذي لم^(٣) يخطر ببالهم أن يؤتوا منه، وهو أنه تعالى ﴿قذف في قلوبهم الرعب﴾ وهو الخوف الشديد، الذي هو جند الله الأكبر، الذي لا ينفع معه عُدَّة ولا عُدة، ولا قوة ولا شدة، فالأمر الذي يحسبونه ويظنون أن الخلل يدخل عليهم منه إن دخل هو الحصون التي تحصنوا بها، وأطمأنت نفوسهم إليها، ومن وثق بغير الله فهو غدول، ومن ركن إلى غير الله فهو عليه وبال^(٤)، فأتاهم أمر ساقوي نزل على قلوبهم، التي هي محل الثبات والصبر، أو الخور والضعف، فآزال الله قوتها وشدتها، وأورثها ضعفاً وخوراً وجبناً، لا حيلة لهم ولا منعة معه^(٥)، فصار ذلك عوناً عليهم، ولهذا قال: ﴿يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين﴾ وذلك أنهم صالحوا النبي ﷺ على أن لهم ما حلت الإبل.

فنقضوا لذلك كثيراً من سقوفهم التي استحسوها، وسلطوا المؤمنين بسبب بغيمهم على إخراج ديارهم وهدم حصونهم، فهم الذين جنوا على أنفسهم، وضاروا من أكبر عون عليها، ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ أي: البصائر النافذة، والعقول الكاملة، فإن في هذا معبراً يعرف به صنع الله تعالى في المعاندين للحق، المتبعين لأهوائهم، الذين لم تنفعهم

(٥) في ب: لا حيلة لهم في دفعه فصار.

(٣) كذا في ب، وفي أ: لا.

(٤) في ب: كان وبالأعلى عليه.

(١) في ب: لعظمته.

(٢) في ب: عسير.



عزتهم، ولا منعتهم قوتهم، ولا حصنتهم حصونهم، حين جاءهم أمر الله، ووصل إليهم النكال بذنوبهم، والعبرة بعموم اللفظ^(١) لا بخصوص السبب، فإن هذه الآية تدل على الأمر بالاعتبار، وهو اعتبار النظر بنظيره، وقياس الشيء على مثله، والتفكير فيما تضمنته الأحكام من المعاني والحكم التي هي محل العقل والفكرة، وبذلك يرداد^(٢) العقل، وتتنور البصيرة ويزداد الإيمان، ويحصل الفهم الحقيقي، ثم أخبر تعالى أن هؤلاء اليهود لم يصبهم جميع ما يستحقون من العقوبة، وأن الله خفف عنهم، فلولا أنه كتب عليهم الجلاء الذي أصابهم وقضاه عليهم وقدره بقدره الذي لا يبدل ولا يغير، لكان لهم شأن آخر من عذاب الدنيا ونكالها، ولكنهم - وإن فاتهم العذاب الشديد الدنيوي - فإن لهم في الآخرة عذاب النار، الذي لا يمكن أن يعلم شدته إلا الله تعالى، فلا يخطر ببالهم أن عقوبتهم قد انقضت وفرغت ولم يبق لهم منها بقية، فما أعد الله لهم من العذاب في الآخرة أعظم وأظم، وذلك لأنهم شاقوا الله ورسوله وعادوهما وجاربهوهما وسعوا في معصيتهما، وهذه عادته وسنته فيمن شاقه «ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب».

ولما لام بنو النضير رسول الله ﷺ والمسلمين في قطع النخيل والأشجار، وزعموا أن ذلك من الفساد، وتوصلوا بذلك^(٣) إلى الطعن بالمسلمين، أخبر تعالى أن قطع النخيل إن قطعوه أو إبقاءهم إياه إن أبقوه، إنه بإذنه تعالى، وأمره «وليخزي الفاسقين» حيث

سلطكم على قطع نخيلهم وتحريقها، ليكون ذلك نكالا لهم، وخزيا في الدنيا، وذلا يعرف به عجزهم التام، الذي ما قدروا على استنقاذ نخيلهم الذي هو مادة قوتهم. واللينة: اسم يشمل سائر النخيل على أصح الاحتمالات وأولاها، فهذه حال بني النضير، وكيف عاقبهم الله في الدنيا، ثم ذكر من انتقلت إليه أموالهم وأمتعتهم، فقال: «وما أفاء الله على رسوله منهم» أي: من أهل هذه القرية، وهم بنو النضير. «ف» إنكم يا معشر المسلمين «أو جفتم» أي: أجلبتم وأسرعتم وحشدتم، «عليه من خيل ولا ركاب» أي: لم تتعبوا بتحصيلها، لا بأنفسكم ولا بمواشيكم، بل قذف الله في قلوبهم الرعب، فأنتكم صَفَوْا عَفْوًا، ولهذا قال: «ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير» من تمام قدرته أنه لا يمتنع منه^(٤) تمتنع، ولا يتعزز من دونه قوًى. وتعريف الفيء في اصطلاح الفقهاء: هو ما أخذ من مال الكفار بحق، من غير قتال، كهذا المال الذي قُبِرُوا وتركوه خوفاً من المسلمين، وسمي فيئاً، لأنه رجع من الكفار الذين هم غير مستحقين له، إلى المسلمين الذي لهم الحق الأوفر فيه، وحكمه العام، كما ذكره الله في قوله: «وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى» عموماً، سواء أفاء الله في وقت رسوله أو بعده، لمن يتولى من بعده أمة^(٥).

«قلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل» وهذه الآية نظير الآية التي في سورة الأنفال،

في^(٦) قوله: «واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن الله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل».

فهذا الفيء يقسم خمسة أقسام: خمس لله وللرسول يصرف في مصالح المسلمين [العامه]، وخمس لذوي القربى، وهم بنو هاشم وبنو المطلب، حيث كانوا يُسمَوْنَ [فيه] بين ذكورهم وإناثهم، وإنما دخل بنو المطلب في خمس الخمس مع بني هاشم، ولم يدخل بقية بني عبد مناف، لأنهم شاركوا بني هاشم في دخولهم الشعب، حين تعاقدت قريش على هجرهم وعداوتهم^(٧)، فنصروا رسول الله ﷺ بخلاف غيرهم، ولهذا قال النبي ﷺ: «في بني عبد المطلب: [إنهم] لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام».

وخمسة لفقراء اليتامى، وهم من لا أب له ولم يبلغ، وخمسة للمساكين، وسهم لأبناء السبيل، وهم الغرباء

(١) في ب: العبرة بعموم المعنى.

(٢) في ب: يكمل العقل.

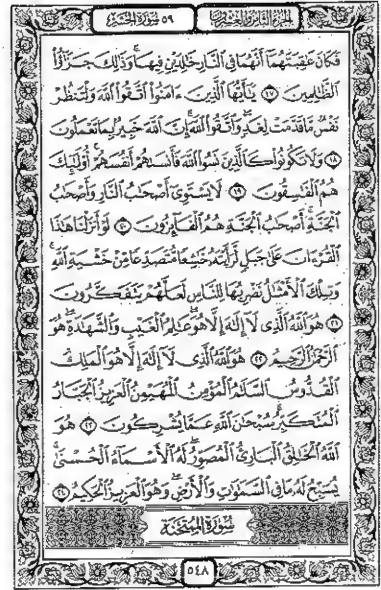
(٣) كذا في ب، وفي آ: به.

(٤) في ب: عليه.

(٥) في ب: سواء كان في وقت الرسول أو بعده على من تولى من بعده من أمة.

(٦) في ب: وهي.

(٧) كذا في ب، وفي آ: حين تعاقدت قريش وعداوتهم.



المقطع بهم في غير أوطانهم.

ولنما قدر الله هذا التقدير، وحصر
الفيء في هؤلاء المعينين كـ «كي
لا يكون دولة» أي: مدوالة
واختصاصاً «بين الأغنياء منكم» فإنه
لو لم يقدره، لتداولته الأغنياء الأقوياء،
ولما حصل لغيرهم من العاجزين منه
شيء، وفي ذلك من الفساد ما
لا يعلمه إلا الله، كما أن في اتباع
أمر الله وشرعه من المصالح ما لا يدخل
تحت الحصر، ولذلك أمر الله بالقاعدة
الكلية والأصل العام، فقال: «وما
أناكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه
فانتهوا» وهذا شامل لأصول الدين
وفروعه، ظاهره وباطنه، وأن ما جاء
به الرسول يتعين على العباد الأخذ به
واتباعه، ولا تحل مخالفته، وأن نص
الرسول على حكم الشيء كنص الله
تعالى، لا رخصة لأحد ولا عذر له
في تركه، ولا يجوز تقديم قول أحد
على قوله، ثم أمر بتقواه التي بها غمارة
القلوب والأرواح [والدنيا والآخرة]،
وبها السعادة الدائمة والفوز العظيم،
وبإضاعتها الشقاء الأبدي والعذاب
السرمدى، فقال: «واتقوا الله إن الله
شديد العقاب» على من ترك التقوى،
وآثر اتباع الهوى.

﴿٨﴾ ثم ذكر تعالى الحكمة والسبب

والهجرة.

وقوله: «ويؤثرون على أنفسهم ولو
كان بهم خصاصة» أي: ومن أوصاف
الأنصار التي فاقوا بها غيرهم، وتميزوا
بها على من سواهم، الإيثار، وهو
أكمل أنواع الجود، وهو الإيثار
بمحاب النفس من الأموال وغيرها،
وبذلها للغير مع الحاجة إليها، بل مع
الضرورة والخصاصة، وهذا لا يكون
إلا من خلق زكي، ومحبة لله تعالى
مقدمة على محبة شهوات النفس
ولذاتها، ومن ذلك قصة الأنصاري
الذي نزلت الآية بسببه، حين أثر ضيفه
بطعامه وطعام أهله وأولاده وباتوا
جوعاً، والإيثار عكس الأثرة، فالإيثار
محمود، والأثرة مذمومة، لأنها من
خصال البخل والشح، ومن رُزق
الإيثار فقد وقى شح نفسه «ومن يوق
شح نفسه فأولئك هم المفلحون»
وقاية شح النفس، يشمل وقايتها
الشح في جميع ما أمر به، فإنه إذا وقى
العبد شح نفسه، منحت نفسه
بأوامر الله ورسوله، ففعلها طائعاً
مقادراً، منشراحاً بها صدره، وسمحت
نفسه بتركه ما نهى الله عنه، وإن كان
محبوباً للنفس، تدعو إليه وتطلع إليه،
وسمحت نفسه ببذل الأموال في
سبيل الله وابتغاء مرضاته، وبذلك
يحصل الفلاح والفوز، بخلاف من لم
يوق شح نفسه، بل ابتلي بالشح بالخير،
الذي هو أصل الشر ومادته، فهذان^(١)
الصنفان الفاضلان الزكيان هم
الصحابة الكرام والأئمة الأعلام،
الذين حازوا من السوابق والفضائل
والمناقب ما سبقوا به من بعدهم،
وأدركوا به من قبلهم، فصاروا أعيان
المؤمنين، وسادات المسلمين، وقادات
المتقين^(٢).

وحسب من بعدهم من الفضل أن
يسير خلفهم، ويأتهم بهداهم، ولهذا
ذكر الله من اللاحقين من هو مؤتم بهم
وسائر خلفهم فقال: «والذين جاؤوا
من بعدهم» أي: من بعد المهاجرين

الموجب لجعله تعالى الأموال أموال
الفيء لمن قدرها له، وأنهم حقيقون
بالإعانة، مستحقون لأن تجعل لهم،
وأنهم ما بين مهاجرين قد هجروا
المحبيات والمألوفات، من الديار
والأوطان والأحباب والخللان
والأموال، رغبة في الله ونصرة
لدين الله، ومحبة لرسول الله، فهؤلاء
هم الصادقون الذين عملوا بمقتضى
إيمانهم، وصدقوا إيمانهم بأعمالهم
الصالحة والعبادات الشاقة، بخلاف من
ادعى الإيمان وهو لم يصدق بالجهد
والهجرة وغيرهما من العبادات، وبين
أنصار وهم الأوس والخزرج الذين
آمنوا بالله ورسوله طوعاً ومحبة
واختياراً، وأووا رسول الله ﷺ،
ومنعوه من الأحر والأسود، وتبوؤوا
دار الهجرة والإيمان حتى صارت
موثلاً ومرجعاً يرجع إليه المؤمنون،
ويلجأ إليه المهاجرون، ويسكن بحماه
المسلمون إذ كانت البلدان كلها بلدان
حرب وشرك وشر، فلم يزل أنصار
الدين تأوي إلى الأنصار، حتى انتشر
الإسلام وقوي، وجعل يزيد شيئاً
فشيئاً، وينمو قليلاً قليلاً، حتى فتحو
القلوب بالعلم والإيمان والقرآن،
والبلدان بالسيف والسنان.

الذين من جملة أوصافهم الجميلة
أنهم «يحبون من هاجر إليهم» وهذا
لمحبتهم لله ولرسوله، أحبوا أحبابه،
وأحبوا من نصر دينه.

«ولا يجدون في صدورهم حاجة
مما أوتوا» أي: لا يجدون المهاجرين
على ما آتاهم الله من فضله وخصمهم به
من الفضائل والمناقب التي هم أهلها،
وهذا يدل على سلامة صدورهم،
وانتفاء الغل والحقد والحسد عنها.

ويدل ذلك على أن المهاجرين أفضل
من الأنصار، لأن الله قدمهم بالذكر،
وأخبر أن الأنصار لا يجدون في
صدورهم حاجة مما أوتوا، فدل على
أن الله تعالى آتاهم ما لم يؤت الأنصار
ولا غيرهم، ولأنهم جمعوا بين النصرة

(٢) كذا في ب، وفي أ: المؤمنين.

(١) كذا في ب، وفي أ: فهؤلاء.

الإدبار عن القتال والنصرة، ولا يحصل لهم نصر من الله.

والسبب الذي أوجب لهم ذلك ^(١)، أنكم - أيها المؤمنون - «أشد رهبة في صدورهم من الله» فخافوا منكم أعظم مما يخافون الله، وقدموا مخافة المخلوق الذي لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا، على مخافة الخالق، الذي بيده الضر والنفع، والعطاء والمنع.

«ذلك بأنهم قوم لا يفقهون» مراتب الأمور، ولا يعرفون حقائق الأشياء، ولا يتصورون العواقب، وإنما الفقه كل الفقه، أن يكون خوف الخالق ورجاؤه ومحبته مقدمة على غيرها، وغيرها تبعاً لها.

«١٤» «لا يقاتلونكم جميعاً» أي: في حال الاجتماع «إلا في قري محصنة أو من وراء جدر» أي: لا يشنون لقتالكم ^(٢) ولا يعزمون عليه، إلا إذا كانوا متحصنين في القري، أو من وراء الجدر والأسوار.

فإنهم إذا ذلك ربما يحصل منهم امتناع، اعتماداً [على] حصونهم وجدرهم، لا شجاعة بأنفسهم، وهذا من أعظم الذم، «بأسهم بينهم شديد» أي: بأسهم فيما بينهم شديد، لا أفة في أبدانهم ولا في قوتهم، وإنما الأفة في ضعف إيمانهم وعدم اجتماع كلمتهم، ولهذا قال: «تحسبهم جميعاً» حين تراهم مجتمعين ومظاهرين.

«و» لكن «قلوبهم شتى» أي: متباغضة متفرقة متشتة.

«ذلك» الذي أوجب لهم اتصافهم بما ذكر «بأنهم قوم لا يعقلون» أي: لا عقل عندهم، ولا لب، فإنهم لو

كمال رحمة الله وشدة رأفته وإحسانه بهم، الذي من جملته، بل من أجله، توفيقهم للقيام بحقوق الله وحقوق عباده.

فهؤلاء الأصناف الثلاثة هم أصناف هذه الأمة، وهم المستحقون للفيء الذي مصرفه راجع إلى مصالح الإسلام.

وهؤلاء أهله الذين هم أهله، جعلنا الله منهم، بمنه وكرمه.

ثم تعجب تعالى من حال المنافقين الذين طمّعوا إخوانهم من أهل الكتاب، في نصرتهم وموالائهم على المؤمنين، وأنهم يقولون لهم: «لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً» أي: لا نطيع في عدم نصرتكم أحداً يعذلنا أو يخوفنا، «وإن قوتكم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون» في هذا الوعد الذي غروا به إخوانهم، ولا يستكثر هذا عليهم، فإن الكذب وصفهم، والغرور والخداع مقارنهم، والنفاق والجبن يصحبهم، ولهذا كذبهم الله بقوله، الذي وجد خبره كما أخبر الله به، ووقع طبق ما قال، فقال: «لئن أخرجوا» من ديارهم جلاء ونفياً «لا يخرجون معهم» لمحبتهم للأوطان، وعدم صبرهم على القتال، وعدم وفائهم بوعدهم.

«ولئن قوتلوا لا ينصرونهم» بل يستولي عليهم الحين، ويملكهم الفشل، ويخذلون إخوانهم، أخرج ما كانوا إليهم.

«ولئن نصرهم» على الفرض والتقدير ^(٣) «ليولن الأدبار ثم لا ينصرون» أي: ليحصل منهم

والأنصار «يقولون» على وجه النصح لأنفسهم ولسائر المؤمنين «ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان»

وهذا دعاء شامل لجميع المؤمنين، السابقين من الصحابة، ومن قبلهم ومن بعدهم، وهذا من فضائل الإيمان أن المؤمنين ينتفع بعضهم ببعض، ويدعو بعضهم لبعض، بسبب المشاركة في الإيمان المقتضي لعقد الأخوة بين المؤمنين ^(٤)، التي من فروعها أن يدعو بعضهم لبعض، وأن يحب بعضهم بعضاً.

ولهذا ذكر الله في الدعاء نفي الغل عن القلب، الشامل لقليل الغل وكثيره ^(٥)، الذي إذا انتفى ثبت ضده، وهو المحبة بين المؤمنين والموالة والنصح، ونحو ذلك مما هو من حقوق المؤمنين.

فوصف الله من بعد الصحابة بالإيمان، لأن قولهم: «سبقونا بالإيمان» دليل على المشاركة في الإيمان ^(٦)، وأنهم تابعون للصحابة في عقائد الإيمان وأصوله، وهم أهل السنة والجماعة، الذين لا يصدق هذا الوصف التام إلا عليهم، ووصفهم بالإقرار بالذنوب والاستغفار منها، واستغفار بعضهم لبعض، واجتهادهم في إزالة الغل والخقد عن قلوبهم لإخوانهم المؤمنين، لأن دعاءهم بذلك مستلزم لما ذكرنا، ومتضمن لمحبة بعضهم بعضاً، وأن يجب أحدهم لأخيه ما يجب لنفسه، وأن ينصح له حاضراً وغائباً، حياً وميتاً، ودلت الآية الكريمة [على] أن هذا من جملة حقوق المؤمنين بعضهم لبعض، ثم ختموا دعاءهم باسمين كريمين، دالين على

(١) كذا في ب، وفي أ: للمؤمنين.

(٢) في ب: لقليله وكثيره.

(٣) في ب: المشاركة فيه.

(٤) في ب: بالوعد.

(٥) كذا في ب، وفي أ: على ضرب المثل.

(٦) في ب: حملهم على ذلك.

(٧) في ب: على قتالكم.

كانت لهم عقول، لآثروا الفاضل على المفضول، ولما رضوا لأنفسهم بأبجس الخطتين، ولكانت كلمتهم مجتمعة، وقلوبهم مؤتلفة، فبذلك يتناصرون ويتعاضدون، ويتعاونون على مصالحهم ومنافعهم الدينية والدنيوية.

مثل هؤلاء المخذولين من أهل الكتاب، الذين انتصر الله لرسوله منهم، وأذاقهم الخزي في الحياة الدنيا، وعدم نصر من وعدهم بالمعاونة ﴿كمثل الذين من قبلهم قريباً﴾ وهم كفار قريش الذين زين لهم الشيطان أعمالهم، وقال: ﴿لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه﴾ [وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون] ﴿الآية

فغرتهم أنفسهم، وغرهم من غرهم، الذين لم يتفعوهم ولم يدفعوا عنهم العذاب، حتى أتوا «بذراً» بفخرهم وخيلائهم، ظانين أنهم مدركون برسول الله والمؤمنين أمانيهم.

فنصر الله رسوله والمؤمنين عليهم، فقتلوا كبارهم وصناديدهم، وأسروا من أسروا منهم، وفر من فر، وذاقوا بذلك وبال أمرهم وعاقبة شركهم وبغيهم، هذا في الدنيا، ﴿ولهم﴾ في الآخرة عذاب النار، ومثل هؤلاء المنافقين الذين غروا إخوانهم من أهل الكتاب ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر﴾ أي: زين له الكفر وحسنه ودغاه إليه، فلما اغتر به وكفر، وحصل له الشقاء، لم ينفعه الشيطان الذي تولاها ودعاه إلى ما دعاه إليه، بل تبرأ منه و ﴿قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين﴾ أي: ليس لي قدرة على دفع العذاب عنك، ولست بمغفر عنك مثقال ذرة من الخير، ﴿فكان عاقبتهم﴾ أي: الداعي الذي هو الشيطان، والمدعو الذي هو الإنسان حين أطاعه ﴿أنهما في النار

خالدين فيها﴾ كما قال تعالى: ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ ﴿وذلك جزاء الظالمين﴾ الذين اشتروا في الظلم والكفر، وإن اختلفوا في شدة العذاب وقوته، وهذا دأب الشيطان مع كل أوليائه، فإنه يدعوهم ويدلهم إلى ما يضرهم بغرور، حتى إذا وقعوا في الشباك، وحاقت بهم أسباب الهلاك، تبرأ منهم وتخل عنهم.

واللوم كل اللوم على من أطاعه، فإن الله قد حذر منه وأنذر، وأخبر بمقاصده وغايته ونهايته، فالتقدم على طاعته عاص على بصيرة لا عذر له.

﴿١٨ - ٢١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لقد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾ ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يوجه الإيمان ويقتضيه من لزوم تقواه، سرّاً وعلانية، في جميع الأحوال، وأن يراعوا ما أمرهم الله به من أوامره وشرائعه وحدوده، ويظروا ما لهم وما عليهم، وماذا حصلوا عليه من الأعمال التي تنفعهم أو تضرهم في يوم القيامة، فإنهم إذا جعلوا الآخرة نصب أعينهم وقبلة قلوبهم، واهتموا بالمقام بها، اجتهدوا في كثرة الأعمال الموصلة إليها، وتصفيتها من القواطع والعوائق التي توقفهم عن السير أو تعوقهم أو تصرفهم، وإذا علموا أيضاً أن الله خبير بما يعملون، لا تخفى عليه أعمالهم، ولا تضيع لديه ولا يهملها، أوجب لهم الجنة والاجتهاد.

وهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة

العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدوها، فإن رأى زللاً تداركه بالإقلاع عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصراً في أمر من أوامر الله، بذل جهده واستعان بربه في تكميله وتتميمه، وإتقانه، ويقايس بين ممن الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياء بلا محالة.

والحرمان كل الحرمان، أن يغفل العبد عن هذا الأمر، ويشابه قوماً نسوا الله وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه، وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها، فلم ينخسوا، ولم يحصلوا على طائل، بل أنساهم الله مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن منافعها وفوائدها، فصار أمرهم فرطاً، فرجعوا بخسارة الدارين، وغبنوا غبناً لا يمكنهم تداركه، ولا ينجيهم كسره، لأنهم هم الفاسقون، الذين خرجوا عن طاعة ربهم وأوضاعوا في معاصيه، فهل يستوي من حافظ على تقوى الله ونظر لما قدم لغده، فاستحق جنات النعيم، والغيش السليم - مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين - ومن غفل عن ذكر الله، ونسي حقوقه، فشقي في الدنيا، واستحق العذاب في الآخرة، فالأولون هم الفائزون، والآخرون هم الخاسرون.

ولما بين تعالى لعباده ما بين، وأمرهم^(١) ونهاهم في كتابه العزيز، كان هذا موجباً لأن يبادروا إلى ما دعاهم إليه وحثهم عليه، ولو كانوا في القسوة وصلابة القلوب كالجبال الرواسي، فإن هذا القرآن لو أنزل على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله أي: لكمال تأثيره في القلوب، فإن مواضع القرآن أعظم الموعظ على الإطلاق، وأوامره ونواهيه محتوية على الحكم والمصالح المقرونة بها، وهي من أسهل شيء على

(١) في ب: وأمر عباده ونهاهم.

النفوس، وأيسرها على الأبدان، خالية من التكلف^(١) لا تناقض فيها ولا اختلاف، ولا صعوبة فيها ولا اعتساف، تصلح لكل زمان ومكان، وتليق لكل أحد.

﴿المؤمن﴾ أي: المصدق لرسوله وأنبيائه بما جاؤوا به، بالآيات البينات، والبراهين القاطعات، والحجج الواضحات.

﴿العزیز﴾ الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قد قهر كل شيء، وخضع له كل شيء، ﴿الحبار﴾ الذي قهر جميع العباد، وأذن له سائر الخلق، الذي يجبر الكسير، ويغني الفقير، ﴿التكبر﴾ الذي له الكبرياء والعظمة، المنتزه عن جميع العيوب والظلم والجور.

﴿سبحان الله عما يشركون﴾ وهذا تنزيه عام عن كل ما وصفه به من أشرك به وعانده، ﴿هو الله الخالق﴾ لجميع المخلوقات ﴿البارئ﴾ للمبرورات ﴿المصور﴾ للمصنورات، وهذه الأسماء متعلقة بالخلق والتدبير والتقدير، وأن ذلك كله قد انفرد الله به، لم يشاركه فيه مشارك.

﴿له الأسماء الحسنى﴾ أي: له الأسماء الكثيرة جداً، التي لا يحصيها ولا يعلمها أحد إلا الله هو، ومع ذلك، فكلها حسنى أي: صفات كمال، بل تدل على أكمل الصفات وأعظمها، لا نقص في شيء منها بوجه من الوجوه، ومن حسناتها أن الله يحبها، ويحب من يحبها، ويحب من عباده أن يدعوه ويسألوه بها.

ومن كماله، وأن له الأسماء الحسنى والصفات العليا، أن جميع من في السماوات والأرض مفتقرون إليه على الدوام، يسبحون بحمده، ويسألونه حوائجهم، فيعطيهم من فضله وكرمه ما تقتضيه رحمته وحكمته، ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ الذي لا يريد شيئاً إلا ويكون،

ثم أخبر تعالى أنه يضرب للناس الأمثال، ويوضح لعباده في كتابه الحلال والحرام، لأجل أن يتفكروا في آياته ويتدبروها، فإن التفكير فيها يفتح للعبد خزائن العلم، ويبين له طرق الخير والشر، ويحبه على مكارم الأخلاق، ويحاسب الشيم، ويزجره عن مساوئ الأخلاق، فلا أنفع للعبد من التفكير في القرآن والتدبر لمعانيه.

﴿٢٢-٢٤﴾ ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم﴾ هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ﴿هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ هذه الآيات الكريمات قد اشتملت على كثير من أسماء الله الحسنى وأوصافه العللى، عظيمة الشأن، وبديعة البرهان، فأخبر أنه الله المألوه المعبود، الذي لا إله إلا هو، وذلك لكمالته العظيم، وإحسانه الشامل، وتدبيره العام، وكل إله سواه^(٢) فإنه باطل لا يستحق من العبادة مثقال ذرة، لأنه فقير عاجز ناقص، لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً، ثم وصف نفسه بعموم العلم الشامل، لما غاب عن الخلق وما يشاهدونه، ويعوم رحمته التي وسعت كل شيء ووصلت إلى كل حي، ثم كرر [ذكر] عموم إلهيته وانفراده بها، وأنه المالك لجميع الممالك، فالعالم العلوي والسفلي وأهله، الجميع ممالك لله، فقراء مديرون.

﴿القدوس السلام﴾ أي: المقدس

(١) كذا في ب وفي أ: وألها تكلفاً.

(٢) في ب: غيره.



ولا يكون شيئاً إلا لحكمة ومصلحة.

تم تفسير سورة الحشر،
فله الحمد على ذلك،
والثقة والإحسان

تفسير سورة الممتحنة [وهي] مدنية

﴿١-٩﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل﴾ إن يتفقوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وأستنتهم بالسوء وودوا لو تكفروا ﴿لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير﴾ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم وما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله



﴿يُخْرِجُونَ الرِّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ أيها المؤمنون من دياركم، ويشردونكم من أوطانكم، ولا ذنب لكم في ذلك عندهم، إلا أنكم تؤمنون بالله ربكم الذي يتعين على الخلق كله القيام بعبوديته، لأنه رباهم، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة، وهو الله تعالى.

فلما عرضوا عن هذا الأمر، الذي هو أوجب الواجبات، وقسمت به، عادوكم، وأخرجوكم من أجله - من دياركم، فأثي دين، وأثي مروءة وعقل، يبقى مع العبد إذا والى الكفار الذين هذا وصفهم في كل زمان أو مكان؟! ولا يمنعهم منه إلا خوف، أو مانع قوي.

﴿إِنْ كُنْتُمْ خُرِجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ أي: إن كان خروجكم مقصودكم به الجهاد في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله، وابتغاء مرضاة الله^(٣)، فاعملوا بمقتضى هذا، من موالة أولياء الله ومعاداة أعدائه، فإن هذا هو الجهاد في سبيله^(٤)، وهو من أعظم ما يتقرب به المتقربون إلى ربهم ويتغنون به رضاه.

﴿تَسْرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ أي: كيف تسرون المودة للكافرين وتخفونها، مع علمكم أن الله عالم بما تخفون وما تعلنون؟!، فهو وإن خفي على المؤمنين، فلا يخفى على الله تعالى، وسيجازي العباد بما يعلمه منهم من الخير والشر، ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ﴾ أي: موالة الكافرين بعدما حذركم الله منها ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ لأنه سلك مسلكاً مخالفاً للشرع وللعقل والمروءة الإنسانية.

ثم بين تعالى شدة عداوتهم، تبيهاً للمؤمنين على عداوتهم، ﴿إِنْ يَتَّقُواكُمْ﴾ أي: يجودوكم، وتسنع لهم الفرصة في أذاكم، ﴿يَكُونُوا لَكُمْ

النبي ﷺ بشأنه، فأرسل إلى المرأة قبل وصولها وأخذ منها الكتاب.

وعاتب حاطباً، فاعتذر رضي الله عنه بعذر قبله النبي ﷺ، وهذه الآيات فيها النهي الشديد عن موالة الكفار من المشركين وغيرهم، وإلقاء المودة إليهم، وأن ذلك مناف للإيمان، ومخالف لمة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ومنافض للعقل الذي يوجب الحذر كل الحذر من العدو، الذي لا يبقى من مجهوده في العداوة شيئاً، وينتهز الفرصة في إيصال الضرر إلى عدوه، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ اعملوا بمقتضى إيمانكم، من ولاية من قام بالإيمان، ومعاداة من عاداه، فإنه عدو الله وعدو للمؤمنين.

فلا تتخذوا عدو الله ﴿وَعَدُوَكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ﴾ أي: تسارعون في مودتهم وفي السعي بأسبابها، فإن المودة إذا حصلت، تبعها النصر والموالة، فخرج العبد من الإيمان، وصار من جملة أهل الكفران، وانفصل عن أهل الإيمان.

وهذا المتخذ للكافر ولياً، عادم المروءة أيضاً، فإنه كيف يوالي أعدى أعدائه الذي لا يريد له إلا الشر، ويخالف ربه ووليه الذي يزيد به الخير، ويأمره به، ويحث عليه؟! وما يدعو المؤمن أيضاً إلى معاداة الكفار، أنهم قد كفروا بما جاء المؤمنين من الحق، ولا أعظم من هذه المخالفة والمشاقة، فإنهم قد كفروا بأصل دينكم، وزعموا أنكم ضلال على غير هدى.

والحال أنهم كفروا بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية، ومن رد الحق فمحال أن يوجد له دليل أو حجة تدل على صحة قوله، بل مجرد العلم بالحق^(٢)، يدل على بطلان قول من رده وفساده.

ومن عداوتهم البليغة أنهم

من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير * ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم * لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد * عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم * لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين * إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون * ذكر كثير من المفسرين، [رحمهم الله]، أن سبب نزول هذه الآيات الكريمات في قصة حاطب بن أبي بلتعة، حين غزا النبي ﷺ غزوة الفتح، فكتب حاطب إلى قریش^(١) يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، ليتخذ بذلك يداً عندهم لا [شكاً و] نفاقاً، وأرسله مع امرأة، فأخبر

(١) في ب: إلى المشركين من أهل مكة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: مجرد رد الحق.

(٣) في ب: وابتغاء رضاه.

(٤) في ب: هذا من أعظم الجهاد في سبيله.

كل كثير، ويوجب له الاكثار من الاقتداء بعباد الله الصالحين، والأنبياء والمرسلين، فإنه يرى نفسه مفتقراً ومضطرباً إلى ذلك غاية الاضطراب.

﴿ومن يتول﴾ عن طاعة الله والتأسي برسول الله، فلن يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئاً، ﴿فإن الله هو الغني﴾ الذي له الغنى التام [المطلق] من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلى أحد من خلقه [بوجه]، ﴿الحميد﴾ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فإنه محمود على ذلك كله.

ثم أخبر تعالى أن هذه العداوة التي أمر الله بها المؤمنين للمشركين، ووصفهم بالقيام بها أنهم ما داموا على شركهم وكفرهم، وأنهم إن انتقلوا إلى الإيمان، فإن الحكم يدور مع علته، فإن المودة^(٣) الإنسانية ترجع، فلا تياسوا أيها المؤمنون من رجوعهم إلى الإيمان، ف ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة﴾ سببها رجوعهم إلى الإيمان، ﴿والله قدير﴾ على كل شيء، ومن ذلك هداية القلوب وتقليبها من حال إلى حال، ﴿والله غفور رحيم﴾ لا يتعاضمه ذنب أن يغفره، ولا يكبر عليه عيب أن يستره، ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾ وفي هذه الآية إشارة وبشارة إلى إسلام بعض المشركين، الذين كانوا إذ ذاك أعداء للمؤمنين، وقد وقع ذلك، والله الحمد والمنة.

ولما نزلت هذه الآيات الكريمات، المهيجة على عداوة الكافرين، وقعت من المؤمنين كل موقع، وقاموا بها أتم القيام، وتأثموا من صلة بعض أقاربهم المشركين، وظنوا أن ذلك داخل فيما نهى الله عنه، فأخبرهم الله أن ذلك لا يدخل في المحرم، فقال: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب

بدعاء ربي شقياً، فليس لكم أن تقتدوا بإبراهيم في هذه الحالة التي دعا بها للمشرك، فليس لكم أن تدعوا للمشركين، وتقولوا: إنا في ذلك متبعون لملة إبراهيم، فإن الله ذكر عذر إبراهيم في ذلك بقوله: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم﴾.

ولكم أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه، حين دعوا الله وتوكلوا عليه وأنابوا إليه، واعترفوا بالعجز والتقصير، فقالوا: ﴿ربنا عليك توكلنا﴾ أي: اعتمدنا عليك في جلب ما ينقنا ودفع ما يضرنا، ووثقنا بك يا ربنا في ذلك.

﴿واليك أنبنا﴾ أي: رجعنا إلى طاعتك ومرضاتك وجميع ما يقرب إليك، فنحن في ذلك ساعون، وفعل الخيرات مجتهدون، ونعلم أنا إليك نصير، فنبتستعد للقدوم عليك، ونعمل ما يقربنا الزلفى إليك^(١)، ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا﴾ أي: لا تسلطهم علينا بذنوبنا، فيفتنونا ويمنعونا مما يقدر عليهم من أمور الإيمان، ويبتنون أيضاً بأنفسهم، فإنهم إذا رأوا لهم الغلبة، ظنوا أنهم على الحق وأنا على الباطل، فازدادوا كفراً وطغياناً، ﴿واغفر لنا﴾ ما اقترفنا من الذنوب والسيئات، وما قصرنا به من الأمور، ﴿ربنا إنك أنت العزيز﴾ القاهر لكل شيء، ﴿الحكيم﴾ الذي يضح الأشياء مواضعها، فيعزتك^(٢) وحكمتك انتصرتنا على أعدائنا، واغفر لنا ذنوبنا، وأصلح عيوبنا.

ثم كرر الخث [لهم] على الاقتداء بهم، فقال: ﴿لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة﴾ وليس كل أحد تسهل عليه هذه الأسوة، وإنما تسهل على من ﴿كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ فإن الإيمان واحتساب الأجر والثواب، يسهل على العبد كل عسير، ويقلل لديه

أعداء ظاهرين وبسوطا إليكم أيديهم بالقتل والضرب، ونحو ذلك.

﴿والستهم بالسوء﴾ أي: بالقول الذي يسوء، من شتم وغيره، ﴿وودوا لو تكفرون﴾ فإن هذا غاية ما يزيدون منكم.

فإن احتججتهم وقلتم: نوال الكفار لأجل القرابة والأموال، فلن تغني عنكم أموالكم ولا أولادكم من الله شيئاً، ﴿والله بما تعملون بصير﴾ فلذلك حذرهم من موالاة الكافرين الذين تضرهم موالاتهم، قد كان لكم يا معشر المؤمنين أسوة حسنة أي: قدوة صالحة وائتمام بفتحكم، ﴿في إبراهيم والذين معه﴾ من المؤمنين، لأنكم قد أمرتم أن تتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً، ﴿إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم وما تعبدون من دون الله﴾ أي: إذ تبرأ إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين، من قومهم المشركين ومما يعبدون من دون الله.

ثم صرحوا بعداوتهم غاية التصريح، فقالوا: ﴿كفرنا بكم وبلاد﴾ أي: ظهر وبان بيننا وبينكم العداوة والبغضاء، أي: البغض بالقلوب، وزوال مودتها، والعداوة بالأبدان، وليس لتلك العداوة والبغضاء وقت ولا حد، بل ذلك ﴿أبداً﴾ ما دمت مستمزين على كفركم ﴿حتى تؤمنوا بالله وحده﴾ أي: فإذا آمنتم بالله وحده، زالت العداوة والبغضاء، وانتقلت مودة وولاية، فلكم أيها المؤمنون أسوة [حسنة] في إبراهيم ومن معه في القيام بالإيمان والتوحيد، والقيام ببلوازم ذلك ومقتضياته، وفي كل شيء تعبدوا به لله وحده، ﴿إلا﴾ في خصلة واحدة وهي ﴿قول إبراهيم لأبيه﴾ آزر المشرك، الكافر المعاند، حين دعاه إلى الإيمان والتوحيد، فامتنع، فقال إبراهيم: ﴿لا أستغفرن لك و﴾ الحال أي لا أملك لك من الله من شيء، لكنني أدعو ربي عسى أن لا أكون

(٣) في ب: والمودة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: فمن عزتك.

(١) في ب: ما يزلنا إليك.

المقسطين ﴿أَي: لَا يَهْأَكُمُ اللَّهُ عَنِ الْبِرِّ وَالصَّلَةِ، وَالْمَكَافَأَةِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالْقِسْطِ لِلْمُشْرِكِينَ، مِنْ أَقَارِبِكُمْ وَغَيْرِهِمْ، حَيْثُ كَانُوا بِحَالٍ لَمْ يَنْتَصِبُوا لِقِتَالِكُمْ فِي الدِّينِ وَالْإِخْرَاجِ مِنْ دِيَارِكُمْ، فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَصْلُوهُمْ، فَإِنْ صَلَّيْتُمْ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ، لَا مَحْذُورُ فِيهَا وَلَا مَفْسَدَةٌ^(١)﴾، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ الْأَبْوِينِ الْمُشْرِكِينَ إِذَا كَانَ وَلَدُهُمَا مُسْلِمًا: ﴿وَأَنْ جَاهِدَكَ عَلَى أَنْ تَشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعِمَهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾.

[وَقَوْلُهُ:] ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أَي: لِأَجْلِ دِينِكُمْ، عِدَاوَةِ لِدِينِ اللَّهِ وَلَمَّا قَامَ بِهِ، ﴿وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا بِغَيْرِكُمْ﴾ أَي: عَاوَنُوا غَيْرَهُمْ ﴿عَلَى إِخْرَاجِكُمْ﴾ نَهَاكُمُ اللَّهُ ﴿أَنْ تَتَوَلَّوْهُمْ﴾ بِالْمُودَةِ وَالتَّصَرُّعِ، بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، وَأَمَّا بِرُكْمِ وَإِحْسَانِكُمْ، الَّذِي لَيْسَ بِتَوَلٍّ لِلْمُشْرِكِينَ، فَلَمْ يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنْهُ، بَلْ ذَلِكَ دَاخِلٌ فِي عَمُومِ الْأَمْرِ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْأَقَارِبِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأَدَمِيِّينَ، وَغَيْرِهِمْ.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَاوْلَعُوكُمْ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وَذَلِكَ الظُّلْمُ يَكُونُ بِحَسَبِ التَّوَلَّى، فَإِنْ كَانَ تَوَلًيًا تَامًا، صَارَ^(٢) ذَلِكَ كُفْرًا مُخْرَجًا عَنْ دَائِرَةِ الْإِسْلَامِ، وَتَحْتَ ذَلِكَ مِنَ الْمَرَاتِبِ مَا هُوَ غَلِيظٌ، وَمَا هُوَ دُونَ ذَلِكَ.

﴿١١-١٠﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٌ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٌ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا مِنْ حُلٍّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَأَتَوْهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تُنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ أَلَا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكَ كَحُكْمِ اللَّهِ بِحُكْمِ بَيْنِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ * وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَايِبْتُمْ فَأَتَاوُا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ لَمَّا كَانَ صَلَاحُ الْحَدِيثِيَّةِ، صَالِحُ النَّبِيِّ ﷺ الْمُشْرِكِينَ، عَلَى أَنْ مِنْ جَاءَ مِنْهُمْ إِلَى الْمُسْلِمِينَ مُسْلِمًا، أَنَّهُ يَزِدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، وَكَانَ هَذَا لِقَظًا عَامًّا، [مُطْلَقًا] يَدْخُلُ فِي عَمُومَةِ النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ، فَأَمَّا الرِّجَالُ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَنْهَ رَسُولَهُ عَنْ رَدِّهِمْ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَفَاءَ بِالشَّرْطِ وَتَمِيمًا لِلصَّلَاحِ الَّذِي هُوَ مِنْ أَكْبَرِ الْمَصَالِحِ، وَأَمَّا النِّسَاءُ، فَلَمَّا كَانَ رَدُّهُنَّ فِيهِ مَفَاسِدُ كَثِيرَةٌ، أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا جَاءَهُنَّ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ، وَشَكُوهُنَّ فِي صَدَقِ إِيمَانِهِنَّ، أَنْ يَمْتَحِنُوهُنَّ وَيَحْتَبِرُوهُنَّ، بِمَا يَظْهَرُ بِهِ صِدْقُهُنَّ، مِنْ إِيْمَانٍ مَغْلُظَةٍ وَغَيْرِهَا، فَإِنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ إِيْمَانُهَا غَيْرَ صَادِقٍ بَلْ رَغْبَةٌ فِي زَوْجٍ أَوْ بَلَدٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الدُّنْيَوِيَّةِ.

فَإِنْ كُنْ بِهَذَا الْوَصْفِ، تَعَيَّنَ رَدُّهُنَّ وَفَاءَ بِالشَّرْطِ، مِنْ غَيْرِ حَصُولِ مَفْسَدَةٍ، وَإِنْ امْتَحَنُوهُنَّ فَوُجِدْنَ صَادِقَاتٍ، أَوْ عَلِمُوا ذَلِكَ مِنْهُنَّ مِنْ غَيْرِ امْتِحَانٍ، فَلَا يَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ، ﴿لَا مِنْ حُلٍّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ فَهَذِهِ مَفْسَدَةٌ كَبِيرَةٌ فِي رَدِّهِنَّ رَاعَاهَا الشَّارِعُ، وَرَاعَى أَيْضًا الْوَفَاءَ بِالشَّرْطِ، بِأَنْ يَعْطُوا الْكُفَّارَ أَزْوَاجَهُنَّ مَا أَنْفَقُوا عَلَيْهِنَّ مِنَ الْمَهْرِ وَتَوَابِعِهِ عَرْضًا عَنْهُنَّ، وَلَا جُنَاحَ خَيْشِيشٍ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَنْكِحُوهُنَّ وَلَوْ كَانَ لَهُنَّ أَزْوَاجٌ فِي دَارِ الشَّرْكِ، وَلَكِنْ بِشَّرْطِ أَنْ يُؤْتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مِنَ الْمَهْرِ وَالتَّنْفِقَةِ، وَكَمَا أَنَّ الْمُسْلِمَةَ لَا تَحِلُّ لِلْكَافِرِ، فَكَذَلِكَ الْكَافِرَةُ لَا تَحِلُّ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يُمْسِكَهَا مَا دَامَتْ عَلَى كُفْرِهَا، غَيْرَ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ﴾ وَإِذَا نَهَى عَنِ الْإِمْسَاكِ

بِعَصَمَتِهَا^(٣)، فَالْتِهَى عَنْ ابْتِدَاءِ تَزْوِيجِهَا أَوَّلَى، ﴿وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، حِينَ تَرْجِعُ زَوْجَاتِكُمْ مَرْتَدَاتٍ إِلَى الْكُفَّارِ، فَإِذَا كَانَ الْكُفَّارُ يَأْخُذُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ نَفَقَةً مِنْ أَسْلَمْتِ مِنْ نِسَائِهِمْ، اسْتَحَقَّ الْمُسْلِمُونَ أَنْ يَأْخُذُوا مُقَابَلَةً مَا ذَهَبَ مِنْ نِسَائِهِمْ^(٤) إِلَى الْكُفَّارِ، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنْ خُرُوجَ الْبِضْعِ مِنَ الزَّوْجِ مُتَقَوْمٌ، فَإِذَا أَفْسَدَ مَفْسَدَ نِكَاحِ امْرَأَةِ رَجُلٍ، بِرِضَاعٍ أَوْ غَيْرِهِ، كَانَ عَلَيْهِ ضَمَانُ الْمَهْرِ، وَقَوْلُهُ: ذَلِكُمْ الْحُكْمُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ وَبَيْنَهُ لَكُمْ بِحُكْمِهِ بَيْنَكُمْ^(٥)، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فَيَعْلَمُ تَعَالَى، مَا يَصْلُحُ لَكُمْ مِنَ الْأَحْكَامِ، وَيُشْرِعُ لَكُمْ مَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ^(٦).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ بِأَنْ ذَهَبْنَ مَرْتَدَاتٍ ﴿فَعَايِبْتُمْ فَأَتَاوُا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ كَمَا تَقَدَّمَ أَنَّ الْكُفَّارَ إِذَا كَانُوا يَأْخُذُونَ بِدَلٍّ مَا يَفُوتُ مِنْ أَزْوَاجِهِمْ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، فَمَنْ ذَهَبَتْ زَوْجَتُهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْكُفَّارِ وَفَاتَتْ عَلَيْهِ، لَزِمَ أَنْ يَعْطِيَهُ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِدَلٍّ مَا أَنْفَقَ^(٧).

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ فَيَايْمَانَكُمْ بِاللَّهِ يَقْتَضِي مِنْكُمْ أَنْ تَكُونُوا مُلَازِمِينَ لِلتَّقْوَى عَلَى الدَّوَامِ. ﴿١٢﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايِعُكَ عَلَى أَنْ لَا يَشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعَصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هَذِهِ الشُّرُوطُ الْمَذْكُورَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَسْمَى «بَابِيعَةِ النِّسَاءِ» اللَّاتِي [كُنْ] يَبَايِعُنَّ عَلَى إِقَامَةِ الْوَاجِبَاتِ الْمُشْتَرَكَةِ، الَّتِي تَجِبُ عَلَى الذَّكَورِ وَالنِّسَاءِ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ.

(١) فِي ب: وَلَا تَبْعَةٌ. (٥) فِي ب: وَبَيْنَهُ لَكُمْ حُكْمُ اللَّهِ بَيْنَهُ لَكُمْ وَوَضَحَهُ.

(٢) فِي ب: كَانَ ذَلِكَ. (٦) فِي ب: فَيُشْرِعُهُ بِحَسَبِ حِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ.

(٣) كَذَا فِي ب، وَفِي أ: بِعَصَمَتِهَا. (٧) فِي ب: زَوْجَاتِهِمْ.

بحمد الله ويعبدونه ويسألونه حوائجهم، ﴿وهو العزيز﴾ الذي فهر الأشياء بعزته وسلطانه، ﴿الحكيم﴾ في خلقه وأمره، ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ لم تقولون ما لا تفعلون ﴿أي: لم تقولون الخير وتحثون عليه، وربما تمدحتم به وأنتم لا تفعلونه، وتنهون عن الشر وربما نزهتم أنفسكم عنه، وأنتم مثلون به ومتصفون به، فهل تليق بالمؤمنين هذه الحالة الذميمة؟ أم من أكبر المقت عند الله أن يقول العبد ما لا يفعل؟ ولهذا ينبغي للأمر بالخير أن يكون أول الناس إليه مبادرة، وللنهاي عن الشر أن يكون أبعد الناس منه، قال تعالى: ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾ وقال شعيب عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾.

﴿٤﴾ ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص﴾ هذا حث من الله لعباده على الجهاد في سبيله وتعليم لهم كيف يصنعون وأنه ينبغي لهم أن يصفوا في الجهاد صفاً متراصاً متساوياً، من غير خلل يقع (٨) في الصفوف، وتكون صفوفهم على نظام وترتيب به تحصل المساواة بين المجاهدين والتعاضد وإزهاق العدو وتنشيط بعضهم بعضاً، ولهذا كان النبي ﷺ إذا حضر القتال، صف أصحابه، ورتبهم في مواقفهم، بحيث لا يحصل اتكال بعضهم على بعض، بل تكون كل طائفة منهم مهمة بمركزها وقائمة بوظيفتها، وبهذه الطريقة تتم الأعمال ويحصل الكمال.

﴿٥﴾ ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم

أصحاب القبور﴾ أي: يا أيها المؤمنون، إن كنتم مؤمنين بربكم، ومتبعين لرضاه ومجانين لسخطه، ﴿لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم﴾ وإنما غضب عليهم لكفرهم، وهذا شامل لجميع أصناف الكفار. ﴿قد يشسوا من الآخرة﴾ أي: قد حرموا من خير الآخرة، فليس لهم منها نصيب، فاحذروا أن تولوهم فتوافقوهم على شرهم وكفرهم (٥)، فتحرزوا خير الآخرة كما حرموا.

[وقوله: ﴿كما يشس الكفار من أصحاب القبور﴾ حين أفضوا إلى الدار الآخرة، ووقفوا على حقيقة الأمر (٦)، وعلموا علم اليقين أنهم لا نصيب لهم منها. ويحتمل أن المعنى: قد يشسوا من الآخرة أي: قد أنكروها وكفروا بها، فلا يستغرب حينئذ منهم الإقدام على مسأخط الله وموجبات عذابه وإياسهم من الآخرة، كما يشس الكفار المنكرون للبعث في الدنيا من رجوع أصحاب القبور إلى الله تعالى.

تم تفسير سورة الممتحنة،
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الصف [وهي] مدنية

﴿١-٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ سبحانه الله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ لم تقولون ما لا تفعلون ﴿كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ وهذا بيان لعظمته تعالى وقهره، وذلل جميع الخلق (٧) له تبارك وتعالى، وأن جميع من في السماوات والأرض يسبحون

وأما الرجال، فيتفاوت ما يلزمهم بحسب أحوالهم ومراتبهم وما يتعين عليهم، فكان النبي ﷺ يمثل ما أمره الله به، فكان إذا جاءته النساء يبایعنه، والترنن بهذه الشروط بايعهن، وجبر قلوبهن، واستغفر لهن الله، فيما يحصل منهن من التقصير (١)، وأدخلهن في جملة المؤمنين بأن ﴿لا يشركن بالله شيئاً﴾ بأن (٢) يفرذن الله [وحده] بالعبادة.

﴿ولا يقتلن أولادهن﴾ كما يجري لنساء الجاهلية الجلاء.

﴿ولا يزنین﴾ كما كان ذلك موجوداً كثيراً في البغايا وذوات الأخدان، ﴿ولا يأتين بهتاناً يقترنه بين أيديهن وأرجلهن﴾ والبهتان: الافتراء على الغير أي: لا يقترن بكل حالة، سواء تعلقت بهن وأزواجهن (٣)، أو سواء تعلق ذلك بغيرهم، ﴿ولا يعصينك في معروف﴾ أي: لا يعصينك في كل أمر تأمرهن به، لأن أمرك لا يكون إلا بمعروف، ومن ذلك طاعتهن [لك] في النهي عن النباحة، وشق الثياب، وخش الوجوه، والدعاء بدعاء (٤) الجاهلية. ﴿فبايعهن﴾ إذا التزمين بجميع ما ذكر.

﴿واستغفر لهن الله﴾ عن تقصيرهن، وتطيباً لحواظرهن، ﴿إن الله غفور﴾ أي: كثير المغفرة للعاصين، والإحسان إلى المذنبين التائبين، ﴿رحيم﴾ وسعت رحمته كل شيء، وعم إحسانه البرايا.

﴿١٣﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم قد يشسوا من الآخرة كما يشس الكفار من

(١) كذا في ب، وفي أ: يحصل من التقصير منهن.

(٢) في ب: بل.

(٣) في ب: مع أزواجهن.

(٤) في ب: بدعوى.

(٥) في ب: وشركهم.

(٦) في ب: وشاهدوا.

(٧) في ب: الخلق له.

(٨) في ب: يحصل.

الدالة على أنه هو، وأنه رسول الله [حقاً].

﴿قالوا﴾ معاندين للحق مكذبين له ﴿هذا سحر مبين﴾ وهذا من أعجب العجائب، الرسول الذي [قد] وضحت رسالته، وصارت أثبت من شمس النهار، يجعل ساحراً بيتاً سحره، فهل في الخذلان أعظم من هذا؟ وهل في الافتراء أعظم^(٥) من هذا الافتراء، الذي نفى عنه ما كان معلوماً من رسالته، وأثبت له ما كان أبعد الناس منه؟

﴿ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب﴾ بهذا وغيره، والحال أنه لا عذر له، وقد انقطعت حجته، لأنه ﴿يدعى إلى الإسلام﴾ ويبين له ببراهينه وبيئاته، ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ الذين لا يزالون على ظلمهم مستقيمين، لا تردهم عنه موعظة، ولا يزرهم بيان ولا برهان، خصوصاً هؤلاء الظلمة القائمين بمقابلة الحق ليردوه، ولينصروا الباطل، ولهذا قال الله عنهم: ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم﴾ أي: بما يصدر منهم من المقالات الفاسدة، التي يرذون بها الحق، وهي^(٦) لا حقيقة لها، بل تزيد البصير معرفة بما هم عليه من الباطل، ﴿والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾ أي: قد تكفل الله بنصر دينه، وإتمام الحق الذي أرسل به رسله، وإشاعة^(٧) نوره على سائر الأقطار، ولو كره الكافرون، وبذلوا بسبب كراحتهم كل سبب يتوصلون^(٨) به إلى إطفاء نور الله فإنهم مغلوبون.

وصاروا بمنزله من ينفخ عين

مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصداقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين * ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين * يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون * هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون * يقول تعالى خيراً عن عناد بني إسرائيل المتقدمين، الذين دعاهم عيسى ابن مريم، وقال لهم: ﴿يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم﴾ أي: أرسلني الله لأدعوكم إلى الخير وأنهاكم عن الشر، [وأيدني بالبراهين الظاهرة]، وما يدل على صدقي، كوني ﴿مصدقاً لما بين يدي من التوراة﴾ أي: جئت بما جاء به موسى من التوراة والشرائع السماوية، ولو كنت مدعياً للنبوّة، لجئت بغير ما جاءت به المرسلون، ومصدقاً لما بين يدي من التوراة أيضاً، أنها أخبرت بي وبشرت، فجئت وبعثت مصداقاً لها ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ وهو: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب النبي الهاشمي.

فعيسى عليه الصلاة والسلام كالأنبياء^(٩)، يصدق بالنبي السابق، ويمبشّر بالنبي اللاحق، بخلاف الكذابين، فإنهم يناقضون الأنبياء أشد مناقضة، ويخالفونهم في الأوصاف والأخلاق، والأمر والنهي ﴿فلما جاءهم﴾ محمد ﷺ الذي بشر به عيسى ﴿البينات﴾ أي: الأدلة الواضحة،

لم تؤذوني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ [أي: وإذا قال موسى لقومه: موبخاً لهم على صنيعهم، ومقرعاً لهم على أذيتهم، وهم يعلمون أنه رسول الله: ﴿لم تؤذوني﴾ بالاقوال والأفعال ﴿وقد تعلمون أني رسول الله إليكم﴾

والرسول من حقه الإكرام والإعظام، والانقياد^(١٠) بأوامره، والابتدار لحكمه.

وأما أذية الرسول الذي إحسانه إلى الخلق فوق كل إحسان بعد إحسان الله، ففي غاية الوقاحة والجرأة والزيف عن الصراط المستقيم، الذي قد علموه وتركوه، ولهذا قال: ﴿فلما زاغوا﴾ أي: انصرفوا عن الحق بقصدهم ﴿أزاغ الله قلوبهم﴾ عقوبة لهم على زيفهم الذي اختاروه لأنفسهم ورضوه لها، ولم يوفقهم الله للهدى، لأنهم لا يخلق بهم الخير، ولا يصلحون إلا للشر، ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي: الذين لم يزل الفسق وصفاً لهم، لا^(١١) لهم قصد في الهدى، وهذه الآية الكريمة تفيد أن إضلال الله لعباده، ليس ظمناً منه، ولا حجة لهم عليه، وإنما ذلك بسبب منهم، فإنهم الذين أغلقوا على أنفسهم باب الهدى بعدما عرفوه، فيجازيهم بعد ذلك بالإضلال^(١٢) والزيف الذي لا حيلة لهم في دفعه وتقليب القلوب [عقوبة لهم وعدلاً منه بهم] كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾.

﴿٦-٩﴾ ﴿وإذ قال عيسى ابن

(١) في ب: والقيام.

(٢) في ب: ليس.

(٣) كذا في ب، وفي أ: بالضلال.

(٤) في ب: كسائر الأنبياء.

(٥) في ب: أبلغ.

(٦) كذا في ب، وفي أ: التي.

(٧) في ب: وإظهار.

(٨) في ب: كل ما قدروا عليه مما يتوصلون.

الشمس بفيه^(١) ليظفئها، فلا على مرادهم حصلوا، ولا سلمت عقولهم من النقص والقدح فيها.

ثم ذكر سبب الظهور والانتصار للمدين الإسلامي، الحسي والمعنوي، فقال، «هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق» أي: بالعلم النافع والعمل الصالح.

بالعلم الذي يهدي إلى الله وإلى دار كرامته، ويهدي لأحسن الأعمال والأخلاق، ويهدي إلى مصالح الدنيا والآخرة.

«ودين الحق» أي: الدين الذي يدان به، ويتعبد لرب العالمين الذي هو حق وصدق، لا نقص فيه، ولا خلل يعتريه، بل أوامره غذاء القلوب والأرواح، وراحة الأبدان، وترك نواهي سلامة من الشر والفساد^(٢) فما بعث به النبي ﷺ من الهدى ودين الحق، أكبر دليل وبرهان على صدقه، وهو برهان باق ما بقي الدهر، كلما ازداد به العاقل تفكراً، ازداد به فرحاً وتبصراً.

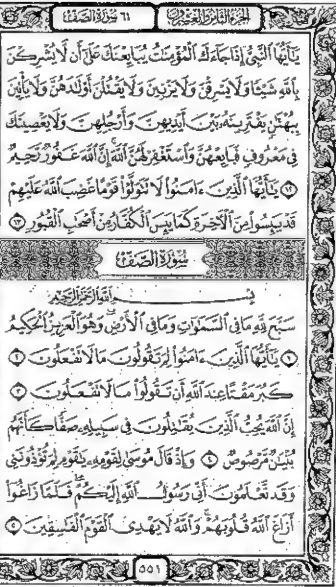
«ليظهره على الدين كله» أي:

ليعليه على سائر الأديان، بالحجة والبرهان، ويظهر أهله القائمين به بالسيف والسنان، فأما نفس الدين، فهذا الوصف ملازم له في كل وقت، فلا يمكن أن يغالبه مغالب، أو يخاصمه مخاصم إلا فلجه ويلسه، وصار له الظهور والقهر، وأما المنتسبون إليه، فإنهم إذا قاموا به، واستناروا بنوره، واهتدوا بهديه، في مصالح دينهم ودنياهم، فكذلك لا يقرم لهم أحد، ولا بد أن يظهروا على أهل الأديان، وإذا ضيعوه واكتفوا منه بمجرد الانتساب إليه، لم ينفعهم

ذلك، وصار إهمالهم له سبب تسليط الأعداء عليهم، ويعرف هذا، من استقرأ الأحوال ونظر في أول المسلمين وآخرهم.

﴿١٠-١٤﴾ «يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم * وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين * يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فأمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأبدينا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين» هذه وصية ودلالة وإرشاد من أرحم الراحمين لعباده المؤمنين، لأعظم تجارة، وأجل مطلوب، وأعلى مرغوب، يحصل بها النجاة من العذاب الأليم، والفوز بالنعيم المقيم، وأتى بأداة العرض الدالة على أن هذا أمر يرغب فيه كل متبصر، ويسمو إليه كل لبيب، فكأنه قيل: ما هذه التجارة التي هذا قدرها؟ فقال «تؤمنون بالله ورسوله»

ومن المعلوم أن الإيمان التام هو التصديق الجازم بما أمر الله بالتصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح، ومن أجل أعمال الجوارح الجهاد في سبيل الله^(٣)، فلهذا قال: «وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم» بأن تبدلوا نفوسكم ومهجكم لمصادمة أعداء الإسلام، والقصد نصر دين الله وإعلاء كلمته، وتنفقوا ما تيسر من



أموالكم في ذلك المطلوب، فإن ذلك، ولو^(٤) كان كريهاً للنفوس شاقاً عليها، فإنه «خير لكم إن كنتم تعلمون» فإن فيه الخير الدنيوي، من النصر على الأعداء، والعز المنافي للذل والرزق الواسع، وسعة الصدر وانسراحه.

وفي الآخرة الفوز^(٥) بشواب الله والنجاة من عقابه، ولهذا ذكر الجزاء في الآخرة، فقال: «يغفر لكم ذنوبكم» وهذا شامل للمصغائر والكبائر، فإن الإيمان بالله والجهاد في سبيله، مكفر للذنوب، ولو كانت كبائر.

«ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار» أي: من تحت مساكنها [أو قصورها] وغرفها وأشجارها، أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كل الثمرات، «ومساكن طيبة في جنات عدن» أي: جمعت كل طيب، من علو وارتفاع، وخسنت بناء وزخرفة، حتى إن أهل الغرف من أهل

(١) في ب: ومثلهم كمثل من يفتح عين الشمس.

(٢) كذا في ب، وفي أ: وترك للنواهي التي تعاطيها سبب الشر والفساد.

(٣) في ب: التي من أجلها الجهاد في سبيله.

(٤) في ب: وإن كان.

(٥) في ب: والخير الأخروي بالفوز.

في الجنة مئة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، أعدّها الله للمجاهدين في سبيله»^(٥)

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ [أي: بالآقوال والأفعال، وذلك بالقيام بدين الله، والحرص على إقامته]^(٦) تنفيذه على الغير، ونجهاً من عانده ونايذه بالأبدان والأموال، ومن نصر الباطل بما يزعمه من العلم ورد الحق، بدحض حجته، وإقامة الحجة عليه، والتحذير منه:

ومن نصر دين الله، تعلّم كتاب الله وسنة رسوله، والحث على ذلك، [والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر]. ثم هيج الله المؤمنين بالاقتراء بمن قبلهم من الصالحين بقوله: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مِنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: قال لهم عارضاً ومنهضاً^(٧)، من يعاونني ويقوم معي في نصرتي لدين الله، ويدخل مدخلي ويخرج مخرجي؟

فابتدروا الحواريون، فقالوا: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ فمضى عيسى عليه السلام على أمر الله ونصر دينه، هو ومن معه من الحواريين، ﴿فَأَمَسَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بسبب دعوة عيسى والحواريين، ﴿وَكُفِرَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ فلم يتقادوا لدعوتهم، فجاهد المؤمنون الكافرين، ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ﴾ أي: قويناهم ونصرتناهم عليهم.

﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ عليهم وقاهرين [لهم]، فأنتم يا أمة محمد

الجليل الجميل، الذي أنشأ دار النعيم، وجعل فيها من الجلال والجمال ما يبهّر عقول الخلق ويأخذ بأفئدتهم.

وتعالى من له الحكمة التامة، التي من جعلتها، أن الله لو أرى الخلائق الجنة حين خلقها^(٨)، ونظر إلى ما فيها من النعيم لما تخلف عنها أحد، ولما هنامهم العيش في هذه الدار المنغصة، المشوب نعيمها بالملها، وسرورها^(٩) بترحها.

وسميت الجنة جنة عدن، لأن أهلها مقيمون فيها، لا يخرجون منها أبداً، ولا يبغون عنها حولاً، ذلك الثواب الجزيل، والأجر الجميل، الفوز العظيم، الذي لا فوز مثله، فهذا الثواب الأخروي.

وأما الثواب الدنيوي لهذه التجارة، فذكره بقوله: ﴿وَأُخْرَى تَحِبُّونَهَا﴾ أي: ويحصل لكم خصلة أخرى تحبونها، وهي: ﴿نَصْرُ مِنَ اللَّهِ﴾ [لكم] على الأعداء، يحصل به العز والفرح، ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ تتسع به دائرة الإسلام، ويحصل به الرزق الواسع، فهذا جزاء المؤمنين المجاهدين، وأما المؤمنون من غير أهل الجهاد، إذا قام غيرهم بالجهاد^(١٠) فلم يؤيسهم الله تعالى من فضله وإحسانه، بل قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بالثواب العاجل والآجل، كل على حسب إيمانه، وإن كانوا لا يبلغون مبلغ المجاهدين في سبيل الله، كما قال النبي ﷺ: «إِنْ



عليين، يترءأهم أهل الجنة كما يترءى الكوكب الدرّي في الأفق الشرقي أو الغربي، وحتى إن بناء الجنة بعضه من لبن ذهب [وبعضه من] لبن فضة، وخيامها من اللؤلؤ والمرجان، وبعض المنازل من الزمرد والجواهر الملونة بأحسن الألوان، حتى إنها من صفائها يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، وفيها من الطيب والحسن ما لا يأتي عليه وصف الواسفين، ولا خطر على قلب أحد من العالمين، لا يمكن أن يلدركوه حتى يزروه، ويتمتعوا بحسنه وتقر أعينهم به، ففي تلك الحالة، لولا أن الله خلق أهل الجنة، وأنشأهم نشأة كاملة لا تقبل العدم، لأوشك أن يموتوا من الفرح، فسبحان من لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه عباده^(١١)، وتبارك

(١) في ب: أحد من خلقه.

(٢) في ب: أنه لو رأى العباد الجنة.

(٣) في ب: وفرحها.

(٤) زيادة من هامش ب.

(٥) في ب جاء بدلاً من هذا الحديث ما يلي: [كما قال النبي ﷺ: (من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً، وجبت له الجنة) فعجب لها أبو سعيد الخدري - راوي الحديث - فقال: أعدّها عليّ يا رسول الله، فأعدّها عليه ثم قال: (وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض) فقال: وما هي يا رسول الله قال: (الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله) رواه مسلم.

(٦) في ب: تنفيذه.

(٧) في ب: قال لهم منبهاً.



﴿٥-٨﴾ * مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين * قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء الله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين * ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين * قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون * لما ذكر الله مشته على هذه الأمة، الذين ابتهت فيهم النبي الأمي، وما خصهم الله به من المزايا والمناقب، التي لا يلحقهم فيها أحد وهم الأمة الأمية الذين فاخروا الأولين والآخرين، حتى أهل الكتاب، الذين يزعمون أنهم العلماء الربانيون والأحبار المتقدمون، ذكر أن الذين جملهم الله التوراة من اليهود وكذا النصارى، وأمرهم أن يتعلموها ويعملوا بما فيها^(٥)، وأنهم لم يحملوها ولم يقوموا بما حملوا به، أنهم لا فضيلة لهم، وأن مثلهم كمثل الحمار الذي يحمل فوق ظهره أسفارا

فبعث الله فيهم رسولا منهم، يعرفون نبيه وأوصافه الجميلة وصدقه، وأنزل عليه كتابه، ﴿يتلو عليهم آياته﴾ القاطعة الموجبة للإيمان واليقين، ﴿ويزكيهم﴾ بأن يحثهم على الأخلاق الفاضلة، ويفصلها لهم، ويزجرهم عن الأخلاق الرذيلة، ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ أي: علم القرآن^(٦) وعلم السنة، المشتمل ذلك علوم الأولين والآخرين، فكانوا بعد هذا التعليم والتزكية منه أعلم الخلق، بل كانوا أئمة أهل العلم والدين، وأكمل الخلق أخلاقا، وأحسنهم هديا وسمتا، اهتدوا بأنفسهم، وهدوا غيرهم، فصاروا أئمة المهتدين، وهذه المؤمنين^(٧)، فله عليهم بعثه هذا الرسول ﷺ أكمل نعمة، وأجل منحة، وقوله: ﴿وآخرين منهم﴾ لما يلحقوا بهم: أي: وامتن على آخرين من غيرهم أي: من غير الأميين، ممن يأتي بعدهم، ومن أهل الكتاب، لما يلحقوا بهم أي: فيمن باشر^(٨) دعوة الرسول، ويحتمل أنهم لما يلحقوا بهم في الفضل، ويحتمل أن يكونوا لما يلحقوا بهم في الزمان، وعلى كل، فكل المعنيين صحيح، فإن الذين بعث الله فيهم رسوله وشاهدوه وباشروا دعوته، حصل لهم من الخصائص والفضائل ما لا يمكن أحدا أن يلحقهم فيها، وهذا من عزته وحكمته، حيث لم يترك عباده هملا ولا سدى، بل ابتهت فيهم الرسل، وأمرهم ونهاهم، وذلك من فضل الله العظيم، الذي يؤتبه من يشاء من عباده، وهو أفضل من نعمته عليهم بعافية البدن وسعة الرزق، وغير ذلك من النعم الدنيوية، فلا أعظم من نعمة الدين التي هي مادة الفوز والسعادة الأبدية.

تفسير سورة الجمعة [وهي] مدنية

﴿١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم يسبح الله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم﴾ أي: يسبح الله وينقاد لأمره، ويتألهه ويعبده، جميع ما في السماوات والأرض، لأنه الكامل الملك، الذي له ملك العالم العلوي والسفلي، فالجميع ممالكه وتحت تدبيره، ﴿القدوس﴾ المعظم، المنزه عن كل آفة ونقص، ﴿العزيز﴾ القاهر للأشياء كلها، ﴿الحكيم﴾ في خلقه وأمره.

فهذه الأوصاف العظيمة مما تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

﴿٢-٤﴾ ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم * ذلك فضل الله يؤتبه من يشاء والله ذو الفضل العظيم * المراد بالأميين: الذين لا كتاب عندهم، ولا أثر رسالة من العرب وغيرهم، ممن ليسوا من أهل الكتاب، فامتن الله تعالى عليهم منة عظيمة أعظم من منته على غيرهم، لأنهم عادمون للعلم والخير، وكانوا في ضلال مبين، يتعبدون للأشجار والأصنام والأحجار، ويتخلقون بأخلاق السباع الضارية، يأكل قويمهم ضعيفهم، وقد كانوا في غاية الجهل بعلوم الأنبياء،

- (١) في ب: تم تفسيرها والحمد لله رب العالمين.
- (٢) في ب: علم الكتاب.
- (٣) في ب: وقادة المتقين.
- (٤) كذا في ب، وفي أ: باشروا.
- (٥) في ب: ويعملوا بها.



من كتب العلم، فهل يستفيد ذلك الحمار من تلك الكتب التي فوق ظهره؟ وهل يلحق به فضيلة بسبب ذلك؟ أم حظه منها حملها فقط؟ فهذا مثل علماء اليهود^(١)، الذين لم يعملوا بما في التوراة، الذي من أجله وأعظمه الأمر باتباع محمد ﷺ، والبشارة به، والإيمان بما جاء به من القرآن، فهل استفاد من هذا وصفه من التوراة إلا الخيبة والخسار وإقامة الحجة عليه؟ فهذا المثل مطابق لأحوالهم.

بنس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله الدالة على صدق رسولنا وصدق ما جاء به.

«والله لا يهدي القوم الظالمين» أي: لا يرشدكم إلى مصالحهم ما دام الظلم لهم وصفاً والعناد لهم نعتاً، ومن ظلم اليهود وعنادهم، أنهم يعلمون أنهم على باطل، ويزعمون أنهم على حق، وأنهم أولياء الله من دون الناس.

ولهذا أمر الله رسوله، أن يقول لهم: إن كنتم صادقين في زعمكم أنكم على الحق، وأولياء الله: «فتمنوا الموت» وهذا أمر خفيف، فإنهم لو علموا أنهم على حق لما توقفوا عن هذا

التحدي الذي جعله الله دليلاً على صدقهم إن آمنوه، وكذبهم^(٢) إن لم يتمنوه، ولما لم يقع منهم مع الإعلان لهم بذلك، علم أنهم عالمون ببطان ما هم عليه وفساد، ولهذا قال: «ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم» من الذنوب والمعاصي التي يسترحشون من الموت من أجلها، «والله عليم بالظالمين» فلا يمكن أن يخفى عليه من ظلمهم شيء، هذا وإن كانوا لا يتمنون الموت بما قدمت أيديهم، ويفرون^(٣) منه [غاية الفرار]، فإن ذلك لا ينجيهم، بل لا بد أن يلاقيهم الموت الذي قد حتمه الله على العباد وكتبه عليهم.

ثم بعد الموت واستكمال الآجال، يرد الخلق كلهم يوم القيامة إلى عالم الغيب والشهادة، فينبئهم بما كانوا يعملون، من خير وشر، قليل وكثير.

«٩ - ١١» يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون * وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين * يأمر تعالى عبادة المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة والمبادرة إليها، من حين ينادى لها والسعي إليها، والمراد بالسعي هنا: المبادرة إليها والاهتمام لها، وجعلها أهم الأشغال، لا العبدو الذي قد نهى عنه عند المضي إلى الصلاة، وقوله: «وذروا البيع» أي: اتركوا البيع، إذا نودي للصلاة، وامضوا إليها.

فإن ذلكم خير لكم من اشتغالكم بالبيع، وتفويتكم الصلاة الفريضة التي هي من أكد الفروض. «إن كنتم تعلمون» أن ما عند الله خير وأبقى، وأن من آثر الدنيا على

الدين، فقد خسر الخسارة الحقيقية، من حيث ظن أنه يربح، وهذا الأمر بترك البيع مؤقت مدة الصلاة، «فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض» لطلب المكاسب والتجارات، ولما كان الاشتغال في التجارة مظنة الغفلة عن ذكر الله، أمر الله بالإكثار من ذكره، فقال: «واذكروا الله كثيراً» أي: في حال قيامكم وقعودكم وعلى جنوبكم، «لعلكم تفلحون» فإن الإكثار من ذكر الله أكبر أسباب الفلاح.

«وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها» أي: خرجوا من المسجد حرصاً على ذلك اللهو و [تلك] التجارة، وتركوا الخير، وتركوك قائماً * تحط بالناس، وذلك: [في] يوم جمعة بينما النبي ﷺ يخطب الناس، إذ قدم المدينة غير تحمل تجارة، فلما سمع الناس بها وهم في المسجد، انفضوا من المسجد، وتركوا النبي ﷺ يخطب استعجالاً لما لا ينبغي أن يستعجل له، وترك أدب، «قل ما عند الله» من الأجر والثواب، لمن لازم الخير وصبر نفسه على عبادة ربه.

«خير من اللهو ومن التجارة» التي، وإن حصل منها بعض المقاصد، فإن ذلك قليل منغص، مفوت خير الآخرة، وليس الصبر على طاعة الله مفوتاً للرزق، فإن الله خير الرازقين، فمن اتقى الله رزقه من حيث لا يحتسب.

وفي هذه الآيات فوائد عديدة: منها: أن الجمعة فريضة على جميع المؤمنين، يجب عليهم السعي لها، والمبادرة والاهتمام بشأنها. ومنها: أن الخطبتين يوم الجمعة فريضتان^(٤) يجب حضورهما، لأنه فسر الذكر هنا بالخطبتين، فأمر الله بالمضي إليه والسعي له. ومنها: مشروعية النداء ليوم الجمعة والأمر به. ومنها: النهي عن البيع والشراء بعد

(٣) في ب: بل يفرون.

(٤) في ب: فريضة.

(١) في ب: علماء أهل الكتاب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: أو كذبهم.



خذلان الدين، وأذية المسلمين، مثل هذه الدعوى، التي لا تروج إلا على من لا علم له بحقائق الأمور^(١)، ولهذا قال الله رداً لقولهم: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فيؤتي الرزق من يشاء، ويمنعه من يشاء، ويسر الأسباب لمن يشاء، ويعسرها على من يشاء، ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ فلذلك قالوا تلك المقالة، التي مضمونها أن خزان الرزق في أيديهم، وتحت مشيتهم.

﴿يَقُولُونَ لَنْ رَجِعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْزَ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ وذلك في غزوة المريسيع، حين صار بين بعض المهاجرين والأنصار بعض كلام كثر الخواطر، ظهر حينئذ نفاق المنافقين، وأظهروا ما في نفوسهم^(٢) وقال كبيرهم عبد الله بن أبي ابن سلول: ما مثلنا ومثل هؤلاء - يعني المهاجرين - إلا كما قال القائل: «غذ كلبك يأكلك»^(٣)

وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ﴿لِيُخْرِجَنَا الْأَعْزَ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ بزعمه أنه هو وإخوانه من المنافقين الأعزون، وأن رسول الله ومن معه^(٤) هم الأذلون، والأمر بعكس ما قال هذا النافق، فلهاذا قال [تعالى]: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فهم الأعزاء، والمنافقون وإخوانهم من الكفار [هم] الأذلاء. ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [ذلك] فلذلك زعموا أنهم الأعزاء، اغتراراً بما هم عليه من الباطل، ثم قال تعالى:

﴿٩-١١﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين * ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خير

بما تعملون﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإكثار من ذكره، فإن في ذلك الربح والفلاح، والخيرات الكثيرة، وينهاهم أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن ذكره، فإن حبة المال والأولاد مجبولة عليها أكثر النفوس، فتقدمها على حبة الله، وفي ذلك الخسارة العظيمة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أي: يلتهه ماله ولده، عن ذكر الله ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ للسعادة الأبدية، والتعظيم المقيم، لأنهم آثروا ما يفنى على ما يبقى، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وقوله: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ يدخل في هذا، النفقات الواجبة، من الزكاة والكفارات^(٥)، ونفقة الزوجات، والمماليك، ونحو ذلك، والنفقات المستحبة، كبدل المال في جميع المصالح، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ليدل ذلك على أنه تعالى، لم يكلف العباد من النفقة ما يعتهم ويشق عليهم، بل أمرهم بإخراج جزء^(٦) مما رزقهم الله الذي يسره لهم^(٧) ويسر لهم أسبابه.

فليشكروا الذي أعطاهم، بمواساة إخوانهم المحتاجين، وليبادروا بذلك، الموت الذي إذا جاء، لم يمكن العبد أن يأتي بمثقال ذرة من الخير، ولهذا قال: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِي أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ﴾ فيقول متحسراً على ما فرط في وقت الإمكان، سائلاً الرجعة التي هي بحال: ﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: لا تدارك ما فرطت فيه، ﴿فَأَصْدُقْ﴾ من مالي، ما به أنجو من العذاب، وأستحق به جزيل الثواب، ﴿وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بأداء المأمورات كلها، واجتناب المنهيات، ويدخل في هذا، الحج وغيره، وهذا السؤال والتحني، قد فات وقته، ولا يمكن تداركه، ولهذا قال: ﴿وَلَنْ يُوَخِّرَ اللَّهُ﴾ نفساً إذا جاء أجلها، المحترمة لها، والله

سواء استغفر لهم أم لم يستغفر لهم قلن يغفر الله لهم، وذلك لأنهم قوم فاسقون، خارجون عن طاعة الله، مؤثرون للكفر على الإيمان، فلذلك لا ينفع فيهم استغفار الرسول، لو استغفر لهم كما قال تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ إن الله لا يهدي القوم الفاسقين.

﴿٧-٨﴾ ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تَنْفِقُوا عَلَىٰ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجننا الأعز منها الأذل والله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون وهذا من شدة عداوتهم للنبي ﷺ والمسلمين، لما رأوا اجتماع أصحابه وأئسادهم، ومساعدتهم في عزيمة الرسول ﷺ، قالوا بزعيمهم الفاسد:

﴿لَا تَنْفِقُوا عَلَىٰ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا﴾ فأنهم - بزعمهم - لولا أموال المنافقين ونفقاتهم عليهم، لما اجتمعوا في نصرة دين الله، وهذا من أعجب العجائب، أن يدعي هؤلاء المنافقون الذين هم أحرص الناس على

(٧) في ب، مما رزقهم. ويسره ويسر أسبابه.....

(٤) في ب: ومن اتبعه.

(٥) كذا في ب، وفي أ: الكفارة.

(٦) كذا في ب، وفي أ: أمرهم بجزء.

(١) في ب: بالحقائق.

(٢) في ب: وتبين ما في قلوبهم.

(٣) في ب: سمّن كلبك.

خبير بما تعملون» من خير وشر، فيجازيكم على ما علمه منكم، من النيات والأعمال.

تم تفسير سورة المنافقين،
ولله الحمد

تفسير سورة التغابن [وهي] مكية

﴿١-٤﴾ «بسم الله الرحمن الرحيم يسبح الله ما في السماوات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير» خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير» يعلم ما في السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور» هذه الآيات [الكريمات]، مشتملات على جملة كثيرة واسعة، من أوصاف الباري العظيمة، فذكر كمال ألوهيته تعالى، وسعة غناه، وافتقار جميع الخلائق إليه، وتسبيح من في السماوات والأرض بحمدها، وأن الملك كله لله، فلا يخرج مخلوق عن ملكه، والحمد كله له، حمد على ما له من صفات الكمال، وحمد على ما أوجده من الأشياء، وحمد على ما شرعه من الأحكام، وأسده من النعم.

وقدرته شاملة، لا يخرج عنها موجود، فلا يعجزه شيء يريد، وذكر أنه خلق العباد، وجعل منهم المؤمن والكافر، فإيمانهم وكفرهم كله بقضاء الله وقدره، وهو الذي شاء ذلك منهم، بأن جعل لهم قدرة وإرادة، بها يتمكنون من كل ما يريدون من الأمر والنهي، «والله بما تعملون بصير» فلما ذكر خلق الإنسان المكلف المأمور المنهي، ذكر خلق باقي المخلوقات، فقال: «خلق السماوات

والأرض» أي: أجرامهما، [وجميع] ما فيهما فأحسن خلقهما، «بالحق» أي: بالحكمة والغاية المقصودة له تعالى، «وصوركم فأحسن صوركم» كما قال تعالى: «لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم» فالإنسان أحسن المخلوقات صورة، وأبهاها منظرًا. «وإليه المصير» أي: المرجع يوم القيامة، فيجازيكم على إيمانكم وكفركم، ويسألكم عن النعم والنعيم، الذي أولاكموه^(١)، هل قمتم بشكره، أم لم تقوموا بشكره؟ ثم ذكر عموم علمه، فقال: «يعلم ما في السماوات والأرض» أي: من السرائر والظواهر، والغيب والشهادة. «ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور» أي: بما فيها من الأسرار الطبية، والخبائيا الخبيثة، والنيات الصالحة، والمقاصد الفاسدة، فإذا كان عليمًا بذات الصدور، تعين على العاقل البصير، أن يحرص ويجهد في حفظ باطنه، من الأخلاق الرذيلة، واتصافه بالأخلاق الجميلة.

﴿٥-٦﴾ «ألم يأتكم نبي الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم» ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدونا وكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد» لما ذكر تعالى من أوصافه الكاملة العظيمة، ما به يعرف ويعبد، وينبذل الجهد في مرضاته، وتحتب مساحطه، أخبر بما فعل بالأمم السابقين، والقرون الماضية، الذين لم تزل أنباؤهم يتحدث بها المتأخرون، ويخبر بها الصادقون، وأنهم حين جاءتهم الرسل^(٢) بالحق، كذبوهم وعاندوهم، فأذاقهم الله وبال أمرهم في الدنيا، وأخزاهم فيها، «ولهم عذاب أليم» في [الدار] الآخرة، ولهذا ذكر السبب في هذه العقوبة، فقال: «ذلك» النكال والوبال، الذي أحللتنا بهم

بأنهم «كانت تأتيهم رسلهم بالبينات» أي: بالآيات الواضحات، الدالة على الحق والباطل، فاشمأزوا واستكبروا على رسلهم، فقالوا: «أبشر يهدونا» أي: فليس لهم فضل علينا، ولاي شيء خصهم الله دوننا، كما قال في الآية الأخرى: «قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده» فهم حججروا فضل الله ومنته على أنبيائه أن يكونوا رسلًا للمخلق، واستكبروا عن الانقياد لهم، فابتلوا بعبادة الأحجار والأشجار ونحوها «فكفروا» بالله «وتولوا» عن طاعة الله، «واستغنى الله» عنهم، فلا يبالي بهم، ولا يضره ضيالهم شيئًا، «والله غني حميد» أي: هو الغني، الذي له الغنى التام المطلق، من جميع الرجوه، الحميد في أقواله وأفعاله وأوصافه.

﴿٧﴾ «زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير» يخبر تعالى عن عناد الكافرين، وزعمهم الباطل، وتكذيبهم بالبعث بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، فأمر أشرف خلقه أن يقسم بربه على بعثهم، وجزأهم بأعمالهم الخبيثة، وتكذيبهم بالحق، «وذلك على الله يسير» فإنه وإن كان عسيرًا، بل متعذرًا بالنسبة إلى الخلق، فإن قواهم كلهم لو اجتمعت^(٣) على إحياء ميت [واحد]، ما قدروا على ذلك.

وأما الله تعالى، فإنه إذا أراد أمرًا فإنما يقول له كن فيكون، قال تعالى: «ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون».

﴿٨﴾ «فأمّنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير» لما ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث، وأن ذلك [منهم] موجب كفرهم بالله وآياته، أمر بما يعصم من الهلكة

(٣) كذا في ب، وفي أ: اجتمعوا.

(٢) في ب: رسلهم.

(١) في ب: أولاكم.

والشقاء، وهو الإيمان بالله ورسوله وكتابه^(١)، وسماء الله نوراً، فإن النور^(٢) ضد الظلمة، وما في الكتاب الذي أنزله الله من الأحكام والشرائع والأخبار، أنوار يتهدى بها في ظلمات الجهل المدلهم، ويمشى بها في حندس الليل البهيم، وما سوى الاهتداء بكتاب الله، فهي علوم ضررها أكثر من نفعها، وشرها أكثر من خيرها، بل لا خير فيها ولا نفع، إلا ما وافق ما جاءت به الرسل، والإيمان بالله ورسوله وكتابه، يقتضي الجزم التام، واليقين الصادق بها، والعمل بمقتضى ذلك التصديق، من امتثال الأوامر، واجتناب المناهي^(٣)، «والله بما تعملون خبير» فيجازيكم بأعمالكم الصالحة والسئبة.

﴿٩ - ١٠﴾ «يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم» * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير»
يعني: اذكروا يوم الجمع الذي يجمع الله به الأولين والآخرين، ويقفهم موقفاً هائلاً عظيماً، وينتهم بما عملوا، فحينئذ يظهر الفرق والتفاوت بين الخلاق، ويؤفغ أقوام إلى أعلى عليين، في الغرف العاليات، والمنازل المرتفعات، المشتعلة على جميع اللذات والشهوات، ويخفف أقوام إلى أسفل سافلين، محل الهم والغم، والحزن، والعذاب الشديد، وذلك نتيجة ما قدموه لأنفسهم، وأسلفوه أيام حياتهم، ولهذا قال: «ذلك يوم التغابن».

أي: يظهر فيه التغابن والتفاوت بين الخلاق، ويغيب المؤمنون الفاسقين، ويعرف المجرمون أنهم على غير شيء،

وأهمهم الخاسرون، فكانه قيل: بأي شيء يحصل الفلاح والشقاء والنعيم والعذاب؟

فذكر تعالى أسباب ذلك بقوله: «ومن يؤمن بالله» [أي: إيماناً تاماً شاملاً لجميع ما أمر الله بالإيمان به، ويعمل صالحاً] من الفرائض والتوافل، من أداء حقوق الله وحقوق عباده. «يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار» فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، وتختاره الأرواح، وتحن إليه القلوب، ويكون نهاية كل مرغوب، «خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم» * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا: أي: كفروا [بها] من غير مستند شرعي ولا عقلي، بل جاءتهم الأدلة والبيّنات، فكذبوا بها، وعاندوا ما دلت عليه.

«أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير» لأنها جمعت كل بؤس وشدة، وشقاء وعذاب.

﴿١١ - ١٣﴾ «ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم» * وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين * الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون»
يقول تعالى: «ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله» وهذا عام لجميع المصائب، في النفس، والمال، والولد، والأحباب، ونحوهم، فجميع ما أصاب العباد في قضاء الله وقدره، قد سبق بذلك علم الله [تعالى]، وجرى به قلمه، ونفذت به مشيئته، واقتضته حكمته، والشأن كل الشأن، هل يقوم العبد بالوظيفة التي عليه في هذا المقام، أم لا يقوم بها؟ فإن قام بها، فله الثواب الجزيل، والأجر الجميل، في الدنيا والآخرة، فإذا آمن أنها من عند الله، فرضي بذلك، وسلم لأمره، هدى الله

قلبه، فاطمأن ولم يتزعج عند المصائب، كما يجري لمن^(٤) لم يهد الله قلبه، بل يرزقه الله الثبات عند ورودها^(٥)، والقيام بموجب الصبر، فيحصل له بذلك ثواب عاجل، مع ما يدره الله له يوم الجزاء من الثواب^(٦)، كما قال تعالى: «إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب» * وعلم من هذا أن من لم يؤمن بالله عند ورود المصائب، بأن لم يلحظ قضاء الله وقدره، بل وقف مع مجرد الأسباب، أنه يخذل، ويكله الله إلى نفسه، وإذا وكل العبد إلى نفسه، فالنفس ليس عندها إلا الجزع والهلع، الذي هو عقوبة عاجلة على العبد، قبل عقوبة الآخرة، على ما فرط في واجب الصبر. هذا ما يتعلق بقوله: «ومن يؤمن بالله يهد قلبه» في مقام المصائب الخاص، وأما ما يتعلق بها من حيث العموم اللفظي، فإن الله أخبر أن كل من آمن أي: الإيمان المأمور به من^(٧) الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وصدق إيمانه بما يقتضيه الإيمان من القيام ببلوازمه وواجباته، أن هذا السبب الذي قام به العبد أكبر سبب لهداية الله له في أحواله وأقواله وأفعاله^(٨)، وفي علمه وعمله.

وهذا أفضل جزاء يعطيه الله لأهل الإيمان، كما قال تعالى في الأخبار: أن المؤمنين يشبههم الله^(٩) في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

وأصل الثبات: ثبات القلب وصبره، وبقائه عند ورود كل فتنة، فقال: «ثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة» فأهل الإيمان أهدى الناس قلوباً، وأثبتهم عند المزعجات والمقلقات، وذلك لما معهم من الإيمان.

[وقوله: «وأطيعوا الله وأطيعوا

(٨) في ب: في أقواله وأفعاله وجميع أحواله.

(٩) في ب: كما قال تعالى مخبراً أنه ثبت المؤمنين.

(٤) في ب: ممن.

(٥) كذا في ب، وفي أ: عندها.

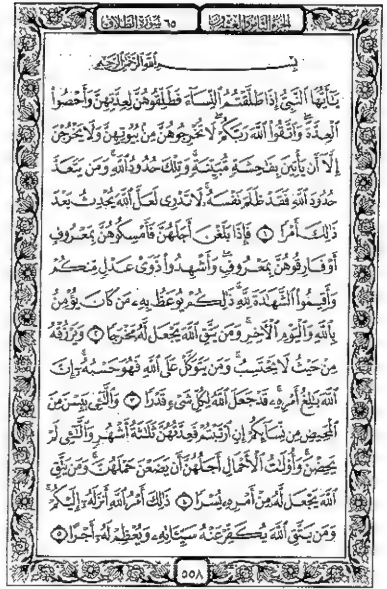
(٦) في ب: من الأجر العظيم.

(٧) في ب: وهو.

(١) في ب: الإيمان به، ورسوله، وكتابه.

(٢) في ب: لأن النور.

(٣) في ب: التواهي.



تعالى، وبذلك تفلح وتنجح وتفوز كل الفوز.

ثم رغب تعالى في النفقة، فقال: ﴿إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وهو كل نفقة كانت من الحلال، إذا قصد بها العبد وجه الله تعالى وطلب مرضاته، ووضعها في موضعها ﴿يُضَاعَفْ لَكُمْ﴾ النفقة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

﴿وَمَعَ الْمُضَاعَفَةِ﴾ أيضاً «يُغْفَرُ لَكُمْ» بسبب الإنفاق والصدقة ذنوبكم، فإن الذنوب يكفرها الله بالصدقات والحسنات: ﴿إِنْ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾.

﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ حليم لا يعاجل من عذابه، بل يمهله ولا يمهله، ﴿وَلَوْ يَؤْخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظُهُرِهَا مِنْ دَابَّةٍ، وَلَكِنْ يُؤْخِرُهمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾. والله تعالى شكور يقبل من عباده اليسير من العمل، ويمحاهم عليه الكثير من الأجر، ويشكر تعالى لمن تحمل من أجله المشاق والأثقال، ونساء^(١) بالتكاليف الثقيل، ومن ترك شيئاً لله، عوضه الله خيراً منه.

﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أي: ما غاب عن العباد من الجنود التي لا يعلمها إلا هو، وما يشاهدونه من المخلوقات، ﴿العزیز﴾ الذي لا يغالب ولا يمانع، الذي قهر كل الأشياء، ﴿الحكيم﴾ في خلقه وأمره، الذي يضع الأشياء مواضعها.

تم تفسير التغابن [والله الحمد]

تفسير سورة الطلاق [وهي] مدنية

﴿١-٣﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً * فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجاً * ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً * يقول تعالى غاطباً لنبيه ﷺ وللمؤمنين:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ أي: أردتم طلاقهن ﴿فَ﴾ التمسوا لطلاقهن الأمر المشروع، ولا تبادروا بالطلاق من حين يوجد سببه، من غير مراعاة لأمر الله.

بل ﴿طَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ أي: لأجل عدتهن، بأن يطلقها زوجها وهي طاهر، في طهر لم يجامعها فيه، فهذا الطلاق هو الذي تكون العدة فيه واضحة بينة، بخلاف ما لو طلقها وهي حائض، فإنها لا تحتسب بتلك الحيضة التي وقع فيها الطلاق، وتطول عليها العدة بسبب ذلك، وكذلك لو

طلقها في طهر وطىء فيه، فإنه لا يؤمن حلها، فلا يتبين و [لا] يتضح بأي: عدة تعدت، وأمر تعالى بإحصاء العدة، أي: ضبطها بالحيض إن كانت تحيض، أو بالأشهر إن لم تكن تحيض، وليست حاملاً، فإن في إحصائها أداء لحق الله، وحق الزوج المطلق، وحق من سيتزوجها بعد، [وحقها في النفقة ونحوها]. فإذا ضبطت عدتها، علمت حالها على بصيرة، وعلم ما يترتب عليها من الحقوق، وما لها منها، وهذا الأمر بإحصاء العدة، يتوجه [للزواج]^(٢)، وللمرأة، إن كانت مكلفة، وإلا فلوليها، وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ أي: في جميع أموركم، وخافوه في حق الزوجات المطلقات، ف ﴿لا تخرجوهن من بيوتهن﴾ مدة العدة، بل يلزم من بيوتهن^(٣) الذي طلقها زوجها وهي فيها.

﴿ولا يخرجن﴾ أي: لا يجوز لهن الخروج منها، أما النهي عن إخراجها، فلأن^(٤) المسكن يجب على الزوج للزوجة^(٥)، لتكمل فيه عدتها التي هي حق من حقوقه.

وأما النهي عن خروجها، فلما في خروجها من إضاعة حق الزوج وعدم صونه.

ويستمر هذا النهي عن الخروج من البيوت والإخراج إلى تمام العدة. ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ﴾ أي: بأمر قبيح واضح، موجب لإخراجها، بحيث يدخل على أهل البيت الضرر من عدم إخراجها، كالأذى بالأقوال والأفعال الفاحشة، ففي هذه الحال يجوز لهم إخراجها، لأنها هي التي تسببت لإخراج نفسها، والإسكان فيه جبر لحاظها، ورفق بها، فهي التي أدخلت الضرر على نفسها^(٦)، وهذا في المعتدة الرجعية، وأما البائن، فليس لها سكنى واجبة، لأن السكن تبع

(٦) في ب: عليها.

(٤) كذا في ب، وفي أ: فإن.

(٥) كذا في ب، وفي أ: يجب للزوجة عليه.

(١) في ب: وأنواع التكاليف.

(٢) زيادة من هامش: ب.

(٣) في ب: بل تلزم بيتها.

للفتنة، والنفقة تجب للرجعية دون البائن، ﴿وتلك حدود الله﴾ [أي: التي حددها لعباده وشرعها لهم، وأمرهم بلزومها والوقوف معها، ومن يتعد حدود الله بأن لم يقف معها، بل تجاوزها، أو قصر عنها، فقد ظلم نفسه] أي: بخسها حظها، وأضاع نصيبه من اتباع حدود الله التي هي الصلاح في الدنيا والآخرة. فلا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً أي: شرع الله العدة، وحدد الطلاق بها، لحكم عظيمة: فمنها: أنه لعل الله يحدث في قلب المطلق الرحمة والمودة، فيراجع من طلقها، ويستأنف عشرتها، فيتمكن من ذلك مدة العدة، أو لعله يطلقها لسبب منها، فيزول ذلك السبب في مدة العدة، فيراجعها لانتفاء سبب الطلاق.

ومن الحكم: أنها مدة التريص، يعلم براءة زوجها من زوجها. وقوله: ﴿فإذا بلغن أجلهن﴾ أي: إذا قاربن انقضاء العدة، لأنهن لو خرجن من العدة، لم يكن الزوج خيراً بين الإمساك والفراق. ﴿فأمسكوهن بمعروف﴾ أي: على وجه المعاشرة [الحسنة]، والصحية الجميلة، لا على وجه الضرر، وإرادة الشر والחס، فإن إمساكها على هذا الوجه لا يجوز، ﴿أو فارقوهن بمعروف﴾ أي: فراقاً لا محذور فيه، من غير تشاتم ولا تخاصم، ولا قهر لها على أخذ شيء من مالها.

﴿وأشهدوا﴾ على طلاقها ورجعتها

﴿ذوي عدل منكم﴾ أي: رجلين مسلمين عدلين، لأن في الإشهاد المذكور، سداً لباب المخاصمة، وكتمان كل منهما ما يلزمه بيانه.

﴿وأقيموا﴾ أيها الشهداء

(١) في ب: وجه الله تعالى.

(٢) في ب: فإن الإيمان بالله، واليوم الآخر يوجب لصاحبه.

(٣) في ب: ووعد من.

(٤) في ب: ولا طهر أصابها فيه.

(٥) في ب: يتمكن بها من الرجوع إلى النكاح.

(٦) في ب: لا يتمكن من استداركها.



المحرم، كالثلاث ونحوها، فإنه لا بد أن يندم ندامة لا يمكنه استداركها^(٦) والخروج منها.

وقوله: ﴿ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ أي: يسوق الله الرزق للمتقي، من وجه لا يحتسبه ولا يشعر به.

﴿ومن يتوكل على الله﴾ أي: في أمر دينه ودنياه، بأن يعتمد على الله في جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، ويشق به في تسهيل ذلك ﴿فهو حسبه﴾ أي: كافيه الأمر الذي توكل عليه به، وإذا كان الأمر في كفالة الغني القوي [العزیز] الرحيم، فهو أقرب إلى العبد من كل شيء، ولكن ربما أن الحكمة الإلهية اقتضت تأخيرها إلى الوقت المناسب له، فلهذا قال تعالى: ﴿إن الله بالغ أمره﴾ أي: لا بد من نفوذ قضائه وقدره، ولكنه ﴿قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾ أي: وقتاً ومقداراً، لا يتعداه ولا يقصر عنه.

﴿٤٥﴾ ﴿واللاني يثن من المحيض من نساكم إن ارتبتم فعدتم

فإذا أراد العبد الطلاق، ففعله على الوجه الشرعي، بأن أوقعه طليقة واحدة، في غير حيض ولا طهر قد وطئ فيه^(٤)، فإنه لا يضيق عليه الأمر، بل جعل الله له فرجاً وسعة يتمكن فيها من مراجعة النكاح^(٥)، إذا ندم على الطلاق، والآية، وإن كانت في سياق الطلاق والرجعة، فإن العبرة بعموم اللفظ، فكل من اتقى الله تعالى، ولازم مرضاة الله في جميع أحواله، فإن الله يثيبه في الدنيا والآخرة.

ومن جملة ثوابه أن يجعل له فرجاً ومخرجاً من كل شدة ومشقة، وكما أن من اتقى الله جعل له فرجاً ومخرجاً، فمن لم يتق الله، وقع في الشدائد والأصار والأغلال، التي لا يقدر على التخلص منها والخروج من تبعاتها، واعتبر ذلك بالطلاق، فإن العبد إذا لم يتق الله فيه، بل أوقعه على الوجه



أجلهن ﴿أي: عدتهن﴾ أن يضعن حملهن ﴿أي: جميع ما في بطونهن، من واحد، ومتعدد، ولا عبءة حيثئذ بالأشهر ولا غيرها﴾ ﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً﴾ ﴿أي: من اتقى الله تعالى، يسر له الأمور، وسهل عليه كل عسير﴾. ﴿ذلك﴾ ﴿أي: الحكيم الذي بينه الله لكم﴾ أمر الله أنزله إليكم ﴿لتمشوا عليه﴾. [وتأتمروا] وتقوموا به وتعظموه.

﴿ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً﴾ ﴿أي: يندفع عنه المحذور، ويحصل له المطلوب﴾.

﴿٦٧ - ٦٨﴾ ﴿اسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضييقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن فإن أرضعن لكم فأتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى﴾ ﴿لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها﴾ ﴿سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ ﴿تقدم أن الله نهى عن إخراج المطلقات عن البيوت، وهنا أمر بإسكانهن، وقدر الإسكان﴾ ﴿بالمعروف، وهو البيت الذي يسكنه مثله ومثلها، بحسب وجد الزوج وعسره﴾. ﴿ولا تضاروهن لتضييقوا عليهن﴾ ﴿أي: لا تضاروهن عند سكناهن بالقول أو الفعل، لأجل أن يملن، فيخرجن من البيوت قبل تمام العدة، فتكونوا أنتم المخرجين لهن، وحاصل هذا أنه نهى عن إخراجهن، ونهاهن عن الخروج، وأمر بسكناهن، على وجه لا يحصل عليهن

ضرر ولا مشقة، وذلك راجع إلى العرف، ﴿وإن كن﴾ ﴿أي: المطلقات أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن﴾ وذلك لأجل الحمل الذي في بطنها، إن كانت بانناً، ولها ولحملها إن كانت رجعية، ومنتهى النفقة حتى يضعن حملهن^(٣)، فإذا وضعن حملهن، فلما أن يرضعن أولادهن أو لا، ﴿فإن أرضعن لكم فأتوهن أجورهن﴾ المسماة لهن، إن كان مسمى، وإلا فأجر المثل، ﴿واتمروا بينكم بمعروف﴾ ﴿أي: ليأمر كل واحد من الزوجين ومن غيرهما الآخر بالمعروف، وهو كل ما فيه منفعة ومصلحة في الدنيا والآخرة، فإن الغفلة عن الاعتبار بالمعروف، يحصل فيه^(٤) من الشر والضرر، ما لا يعلمه إلا الله، وفي الائتمار تعاون على البر والتقوى، وما يناسب هذا المقام، أن الزوجين عند الفراق وقت العدة، خصوصاً إذا ولد لهما^(٥)، ولد في الغالب يحصل من التنازع والتشاجر لأجل النفقة عليها وعلى الولد مع الفراق، الذي في الغالب ما يصدر إلا عن بغض، ويتأثر منه البغض شيء كثير^(٦).

فكل منهما يؤمر بالمعروف، والمعاشرة الحسنة، وعدم المشاقة والمخاصمة^(٧)، وينصح على ذلك.

﴿وإن تعاسرتم﴾ ﴿بأن لم تتفقوا^(٨) على إرضاعها لولدها، فلترضع^(٩) له أخرى غيرها﴾ ﴿فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف﴾ وهذا حيث كان الولد يقبل لثدي غير أمه، فإن لم يقبل إلا لثدي أمه، تعينت لإرضاعه،

ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً * ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً * تعالى أن الطلاق المأمور به يكون لعدة النساء، ذكر تعالى العدة، فقال:

﴿واللائي يئسن من المحيض من نسائكم﴾ ﴿بأن كن يحضن، ثم ارتفع حيضهن، لكبر أو غيره، ولم يزوج رجوعه، فإن عدتها ثلاثة أشهر، جعل لكل شهر، مقابلة حيضة.

﴿واللائي لم يحضن﴾ ﴿أي: الصغار اللائي لم يأتين الحيض بعد، والبالغات^(١) اللائي لم يأتين حيض بالكلية، فإنهن كالأيسات، عدتهن ثلاثة أشهر، وأما اللائي يحضن، فذكر الله عدتهن في قوله: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾. [وقوله]: ﴿وأولات الأحمال

- (١) في ب: أو البالغات.
- (٢) في ب: إسكانهن.
- (٣) في ب: إلى وضع الحمل.
- (٤) في ب: فيها.
- (٥) في ب: بينهما.
- (٦) في ب: الذي لا يحصل في الغالب إلا مقروناً بالبغض فيتأثر من ذلك شيء كثير.
- (٧) في ب: والمنازعة.
- (٨) في ب: بأن لم يتفق الزوجان.
- (٩) في ب: فترضع له أخرى.

العذاب ما هو موجب أعمالهم السيئة، ومع عذاب الدنيا، فإن الله أعد لهم في الآخرة عذاباً شديداً، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: يا ذوي العقول، التي تفهم عن الله آياته وعبره، وأن الذي أهلك القرون الماضية بتكذيبهم، أن من بعدهم مثلهم، لا فرق بين الطائفتين، ثم ذكر عباده المؤمنين بما أنزل عليهم من كتابه، الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ، ليخرج الخلق من ظلمات الكفر والجهل والمعضية، إلى نور العلم والإيمان والطاعة، فمن الناس من آمن به، ومنهم من لم يؤمن [به]، ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً﴾ من الواجبات والمستحبات.

﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فيها من النعيم المقيم، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿وَخَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً﴾ [أي: ومن لم يؤمن بالله ورسوله، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون].

﴿١٢﴾ ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ [ثم أخبر تعالى أنه خلق الخلق من السماوات السبع ومن فيهن والأرضين السبع ومن فيهن، وما بينهن، وأنزل الأمر، وهو الشرائع والأحكام الدينية التي أوحاها إلى رسله لتذكير العباد وعظهم، وكذلك الأوامر الكونية والقدرية التي يدير بها الخلق، كل ذلك لأجل أن يعرفه العباد ويعلموا إحاطة قدرته بالأشياء كلها، وإحاطة علمه بجميع الأشياء فإذا عرفوه بأوصافه المقدسة وأسمائه الحسنى، وعبودوه وأحبوه وقاموا بحقه، فهذه الغاية المقصودة من الخلق والأمر معرفة الله وعبادته، فقام بذلك الموفقون من عباد الله الصالحين، وأعرض عن ذلك الظالمون المعرضون] [تم تفسيرها والحمد لله]

ووجب عليها، وأجبرت إن امتنعت، وكان لها أجرة المثل إن لم يتفقا على مسمى، وهذا مأخوذ من الآية الكريمة من حيث المعنى، فإن الولد لما كان في بطن أمه مدة الحمل، ليس له خروج منه ^(١)، عين تعالى على وليه النفقة، فلما ولد، وكان يمكن ^(٢) أن يتقوت من أمه ومن غيرها، أباح تعالى الأمرين، فإذا كان بحالة لا يمكن أن يتقوت إلا من أمه كان بمنزلة الحمل، وتعنت أمه طريقاً لقوته، ثم قدر تعالى النفقة، بحسب حال الزوج، فقال: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ﴾ أي: لينفق الغني من غناه، فلا ينفق نفقة الفقراء. ﴿وَمَنْ قَدَرُ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ أي: ضيق عليه ﴿فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ من الرزق. ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ وهذا مناسب للحكمة والرحمة الإلهية حيث جعل كلاً بحسبه، وخفف عن المعسر، وأنه لا يكلفه إلا ما آتاه، فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، في باب النفقة وغيرها. ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يسراً﴾ وهذه بشارة للمعسرين، أن الله تعالى سيزيل عنهم الشدة، ويرفع عنهم المشقة، ﴿فَإِنْ مَعَ الْعُسْرِ يسراً﴾ [إن مع العسر يسراً].

﴿٨-١١﴾ ﴿وَكَايُنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَثَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرَسُولِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَبْنَاهَا عَذَاباً نَكِراً﴾ فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً﴾ رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً ﴿يُخَيِّرُ تَعَالَى عَنْ إِهْلَاكِه الْأُمَمِ الْعَاتِيَةِ، وَالْقُرُونِ الْمَكْبُوتَةِ لِلرَّسُولِ أَنْ كَثُرَتْهُمْ وَقُوَّتُهُمْ، لَمْ تَنْفَعَهُمْ ^(٣) شَيْئاً، حِينَ جَاءَهُمُ الْحِسَابُ الشَّدِيدُ، وَالْعَذَابُ الْأَلِيمُ، وَأَنَّ اللَّهَ أَذَاهُمْ مِنْ

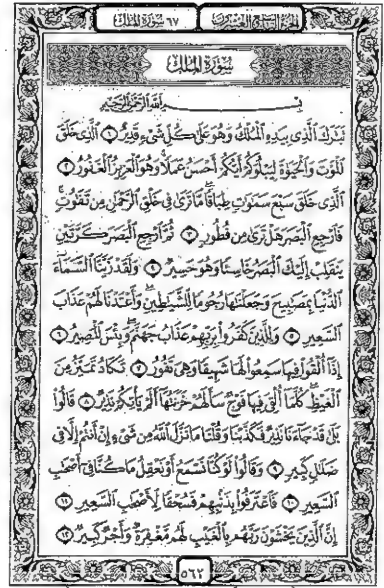
(١) في ب: لا خروج له منه.

(٢) في ب: يتمكن.

(٣) في ب: تغن عنهم.

تفسير سورة التحريم [وهي] مدنية

﴿١-٥﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَ لَكَ تَبَيَّنَ مَرْضَاتُ أَرْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قد فرض الله لكم تحلة إيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم ﴿وَإِذَا أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَأَ بِهِ وَأَخْبَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مِنْ أَنْبَاكَ هَذَا قَالَ نَبَأَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ إن تتوبا إلى الله فقد صفت قلوبكم وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ﴿عَسَى رَبِّهِ أَنْ يَبْلُغَكَ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكَ مَسْلُماً مُؤْمِناً قَانِنَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثِيَابٍ وَأُكْبَاراً﴾ هذا عتاب من الله لنبيه محمد ﷺ، حين حرم على نفسه سرية «مارية» أو شرب العسل، مراعاة لحاظ بعض زوجاته، في قصة معروفة، فأنزل الله [تعالى] هذه الآيات ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ أي: يا أيها الذي أنعم الله عليه بالنبوة والوحي والزسالة ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ من الطيبات التي أنعم الله بها عليك وعلى أمتك.



﴿فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير﴾ أي: الجميع أعوان للرسول، مظاهرون، ومن كان هؤلاء أعوانه^(٥)، فهو المنصور، وغيره ممن يناوئه مخذول^(٦)، وفي هذا أكبر فضيلة وشرف لسيد المرسلين، حيث جعل الباري نفسه [الكريمة]، وخواص خلقه، أعواناً لهذا الرسول الكريم.

وهذا فيه من التحذير للزوجتين الكريمتين ما لا يخفى، ثم خوفهما أيضاً بحالة تشق على النساء غاية المشقة، وهو الطلاق، الذي هو أكبر شيء عليهن، فقال: ﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن﴾ أي: فلا ترفعن عليه، فإنه لو طلقكن، لم يبق^(٧) عليه الأمر، ولم يكن مضطراً إليكن، فإنه سيلقى^(٨)، ويبدله الله أزواجاً خيراً منكن، ديناً وجمالاً، وهذا من باب التعليق الذي لم يوجد، ولا يلزم وجوده، فإنه ما طلقهن، ولو طلقهن، لكان ما ذكره الله من هذه الأزواج الفاضلات، الجامعات بين الإسلام، وهو القيام بالشرائع الظاهرة، والإيمان، وهو: القيام بالشرائع الباطنة، من العقائد وأعمال القلوب.

القنوت هو دوام الطاعة واستمرارها، ﴿نائبات﴾ عما يكرهه الله، فوصفهن بالقيام بما يحبه الله، والتوبة عما يكرهه الله، ﴿ثيبات وأبكاراً﴾ أي: بعضهن ثيب، وبعضهن أبكار، ليتنوع ﴿فيما يحب﴾، فلما سمعن رضي الله عنهن هذا التخويف والتأديب، بادرن إلى رضا رسول الله ﷺ، فكان هذا

أو أراد الحنث، فعليه هذه الكفارة المذكورة، وقوله: ﴿والله مولاكم﴾ أي: متولي أموركم، ومزبيكم أحسن تربية، في أمور دينكم ودنياكم، وما به يندفع عنكم الشر، فلذلك فرض لكم تحلة إيمانكم، لتبرا ذممكم، ﴿وهو العليم الحكيم﴾ الذي أحاط بعلمه بظواهركم وبواطنكم، وهو الحكيم في جميع ما خلقه وحكم به، فلذلك شرع لكم من الأحكام، ما يعلم أنه موافق لمصالحكم، ومناسب لأحوالكم.

[وقوله]: ﴿وإذا أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً﴾ قال كثير من المفسرين: هي حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، أسر لها النبي ﷺ حديثاً، وأمر أن لا تخبر به أحداً، فحدثت به عائشة رضي الله عنهما، وأخبره الله بذلك الخبر الذي أذاعته، فعرفها ﷺ ببعض ما قالت، وأعرض عن بعضه، كرمأ منه ﷺ وحلمأ، ف ﴿قالت﴾ له: ﴿من أنبأك هذا﴾ الخبر الذي لم يخرج من؟ ﴿قال نبأني العليم الخبير﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، يعلم السر وأخفى، [وقوله]: ﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما﴾ الخطاب للزوجتين الكريمتين من أزواجه ﷺ عائشة وحفصة رضي الله عنهما، كانتا سبباً لتحريم النبي ﷺ على نفسه ما يحبه، فعرض الله عليهما التوبة، وعاتبهما على ذلك، وأخبرهما أن قلوبهما^(٩) قد صغت أي: مالت وانحرفت عما ينبغي لهن، من الورع والأدب مع الرسول ﷺ واحترامه، وأن لا يشققن عليه، ﴿وإن تظاهرا عليه﴾ أي: تعاونا^(١٠) على ما يشق عليه، ويستمر هذا الأمر منكن،

﴿تبتغي﴾ بذلك التحريم مرضاة أزواجك والله غفور رحيم ﴿هذا تصريح بأن الله قد غفر لرسوله، ورفع عنه اللوم، ورحمه، وصار ذلك التحريم الصادر منه سبباً لشرع حكم عام لجميع الأمة، فقال تعالى حاكماً حكماً عاماً في جميع الأيمان: ﴿قد فرض الله لكم تحلة إيمانكم﴾^(١١) أي: قد شرع لكم، وقدر ما به تنحل إيمانكم قبل الحنث، وما به الكفارة^(١٢) بعد الحنث، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طبابت ما أحل الله لكم ولا تعتدوا﴾ إلى أن قال: ﴿فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، ذلك كفارة إيمانكم إذا حلقتن﴾.

فكل من حرم حلالاً عليه، من طعام أو شراب أو سرية، أو حلف يميناً بالله، على فعل أو ترك، ثم حنث

(١) في ب: فقال تعالى ﴿قد فرض الله لكم تحلة إيمانكم﴾ وهذا عام في جميع إيمان المؤمنين.

(٢) في ب: وما به تتكفر.

(٣) في ب: أن قلوبكما.

(٤) في ب: تتعاون.

(٥) في ب: أنصاره.

(٦) في ب: وغيره أن يناوئه فهو مخذول.

(٧) في ب: لا يضيّق.

(٨) في ب: سيجد.

الوصف منطبقاً عليهن، فصرن أفضل نساء المؤمنين، وفي هذا دليل على أن الله لا يختار لرسوله ﷺ إلا أكمل الأحوال وأعلى الأمور، فلما اختار الله لرسوله بقاء نسائه المذكورات معه دل على أنهن خير النساء وأكملهن.

﴿٦٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿أَيُّ: يَا مَنْ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِم بِالْإِيمَانِ، قَوْمُوا بِلَوَازِمِهِ وَشُرُوطِهِ.

ف «قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا»
 موصوفة بهذه الأوصاف الفظيعة،
 ووقاية الأنفس بالزماها أمر الله،
 والقيام بأمره امتثالاً، ونهيه اجتناباً،
 والتوبة عما يسخط الله ويوجب
 العذاب، ووقاية الأهل [والأولاد]،
 بتأديبهم وتحليمهم، وإجبارهم على
 أمر الله، فلا يسلم العبد إلا إذا قام بما
 أمر الله به في نفسه، وفيما يدخل (١)
 تحت ولايته من الزوجات والأولاد
 وغيرهم من هو تحت ولايته ونصرته.

ووصف الله النار بهذه الأوصاف،
ليزجر عباده عن التهاون بأمره، فقال:
﴿وقودها الناس والحجارة﴾ كما قال
تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله
حصب جهنم أنتم لها واردون﴾.
﴿عليها ملائكة غلاظ شداد﴾ أي:

غليظة أخلاقهم، عظيم^(٢) انتصارهم،
يفزعون بأصواتهم، ويخيفون^(٣)
بمراهم، ويهينون أصحاب النار
بقوتهم، ويمحتلون^(٤) فيهم أمر الله،
الذي حُتم عليهم العذاب^(٥) وأوجب
عليهم شدة العقاب، ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ
مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وهذا
فيه أيضاً مدح للملائكة الكرام،
وانقيادهم لأمر الله، وطاعتهم له في
كل ما أمرهم به.

﴿٧﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا

لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴿١﴾ أي: يوبخ أهل النار يوم القيامة بهذا التوبخ، فيقال لهم: «يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم» ﴿٢﴾ [أي:] فإنه ذهب وقت الاعتذار، وزال نفعه، فلم يبق الآن إلا الجزاء على الأعمال، وأنتم لم تقدموا إلا الكفر بالله، والتكذيب بآياته، ومحاربة رسله وأوليائه.

﴿٨٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوَنُّوْا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُم سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قد أمر الله بالتوبة النصوح في هذه الآية، ووعد عليها بتكفير السيئات، ودخول الجنات، والفوز والصلاح، حين يسعى المؤمنون يوم القيامة بنور إيمانهم، ويمشون بضيايته، ويتمتعون بروحه وراحته، ويشفقون إذا طفت الأنوار، التي تعطي المنافقين، ويسألون الله، أن يتم^(١) لهم نورهم، فيستجيب الله دعوتهم، ويوصلهم ما^(٢) معهم من النور واليقين، إلى جنات النعيم، وجوار الرب الكريم، وكل هذا من آثار التوبة النصوح.

والمزاد بها: التوبة العامة الشاملة للذنوب كلها، التي عقدها العبد لله، لا يريد بها إلا وجهه ^(٨) والقرب منه، ويستمر عليها في جميع أحواله.

﴿٩٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفْرَ
وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ
وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿يَأْمُرُ اللَّهُ﴾ تَعَالَى
نَبِيهِ ﷺ بِجِهَادِ الْكُفْرَ وَالْمُنَافِقِينَ،
وَالْإِغْلَاطِ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ، وَهَذَا
شَامِلٌ لْجِهَادِهِمْ بِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ
وَدَعْوَتِهِمْ بِالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ^(٩٩)، وَإِبْطَالِ

ما هم عليه من أنواع الضلال،
وجهادهم بالسلاح والقتال لمن أبى أن
يجيب دعوة الله وينقاد لحكمه، فإن هذا
يجاهد ويغلظ له، وأما المرتبة الأولى،
فتكون بالتي هي أحسن، فالكفار
والمنافقون لهم عذاب في الدنيا،
بتسليط الله لرسوله وحزبه [عليهم و]
على جهادهم وقتالهم، وعذاب النار
في الآخرة وبئس المصير، الذي يصير
إليها كل شقي خاسر.

﴿١٠-١٢﴾ ﴿ضرب الله مثلاً
للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط
كانتا تحت عبيدين من عبادنا صالحين
فلحقتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً
وقيل ادخلا النار مع الداخلين *
وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة
فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً
في الجنة وتجنني من فرعون وعمله
وتجنني من القوم الظالمين * ومريم ابنة
عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه
من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه
وكانت من القانتين﴾ ﴿هذان المثالان
الليذان ضربهما الله للمؤمنين
والكافرين، ليبين لهم أن اتصال الكافر
بالمؤمن وقربه منه لا يفيد شيئاً، وأن
اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئاً مع
قيامه بالواجب عليه.

فكان في ذلك إشارة وتحذيراً
لزوجات النبي ﷺ عن المعصية، وأن
اتصالهن به ﷺ لا ينفعهن شيئاً مع
الإساءة، فقال:

﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا في المرتأتين﴾
﴿تحت عبدين من عبادنا صالحين﴾
وهما نوح ولوط عليهما السلام.

﴿فخاتما﴾ في الذين، بأن كانتا على غير دين زوجيهما، وهذا هو المراد بالخيانة، لا خيانة النسب والفراش، فإنه ما بغت امرأة نبي قط، وما كان الله ليجعل امرأة أحد من أنبيائه

(۶) فی ب: وفیمن یدخل.

(۲) فی ب: شدید.

(۳) فی ب: ویزعجون.

(٤) في ب: ويشغنون.

(۵) فی ب: بالعذاب.

(۶) فی ب: یتیم۔

(٧) في ب: يما.

(٨) في ب: إلا وجه الله:

(٩) كذا في ب، وفي أ: بإقامة الحجّة والموعظة الحسنة.

ملء الدنيا، ﴿الذي خلق سبع سماوات طباقاً﴾ أي: كل واحدة فوق الأخرى، وليس طبقة واحدة، وخلقها في غاية الحسن والإتقان، ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ أي: خلل ونقص.

وإذا انتفى النقص من كل وجه، صارت حسنة كاملة، متناسبة من كل وجه، في لوها وهيئتها وارتفاعها، وما فيها من الشمس والقمر والكواكب النيرات، الثوابت منهن والسيارات.

ولما كان كمالها معلوماً، أمر [الله] تعالى بتكرار النظر إليها والتأمل في أرجائها، قال:

﴿فارجع البصر﴾ أي: أعددها، ناظراً معتبراً ﴿هل ترى من فطور﴾ أي: نقص واختلال، ﴿ثم ارجع البصر كرتين﴾ والمراد بذلك: كثرة التكرار ﴿ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾ أي: عاجزاً عن أن يرى خللاً أو فطوراً، ولو حرص غاية الحرص.

ثم صرح بذكر حسناتها، فقال:

﴿٥٠-١٠﴾ ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير﴾ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ﴿إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور﴾ تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ﴿قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير﴾ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير.

أي: ولقد جملنا ﴿السماء الدنيا﴾ التي ترونها وتليكم، ﴿بمصابيح﴾ وهي النجوم، على اختلافها في النور والضياء، فإنه لو لا ما فيها من النجوم، لكان سقفاً مظلماً، لا حسن فيه ولا جمال.

ولكن جعل الله هذه النجوم زينة

هي كمال العلم والعمل .
تمت والله الحمد

تفسير سورة الملك [وهي] مكية

﴿١-٤﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير﴾ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور ﴿الذي خلق سبع سماوات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور﴾ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾ أي: تغاظم وتعالى، وكثر خيره، وعم إحسانه، من عظمته أن بيده ملك العالم العلوي والسفلي، فهو الذي خلقه، ويتصرف فيه بما شاء، من الأحكام القدرية، والأحكام الدينية، التابعة لحكمته، ومن عظمته، كمال قدرته التي يقدر بها على كل شيء، وبها أوجد ما أوجد من المخلوقات العظيمة، كالسماوات والأرض.

وخلق الموت والحياة أي: قدر لعباده أن يحييهم ثم يميتهم؛ ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ أي: أخلصه وأصوبه، فإن ^(١) الله خلق عباده، وأخرجهم لهذه الدار، وأخبرهم أنهم سيتقلون منها، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالشهوات المعارضة لأمره، فمن اتقاد لأمر الله وأحسن العمل، أحسن الله له الجزاء في الدارين، ومن مال مع شهوات النفس، ونبذ أمر الله، فله شر الجزاء.

﴿وهو العزيز﴾ الذي له العزة كلها، التي قهر بها جميع الأشياء، وانقادت له المخلوقات.

﴿الغفور﴾ عن المسيئين والمقصرين والمذنبين، خصوصاً إذا تابوا وأنبأوا، فإنه يغفر ذنوبهم، ولو بلغت عنان السماء، ويستر عيوبهم، ولو كانت

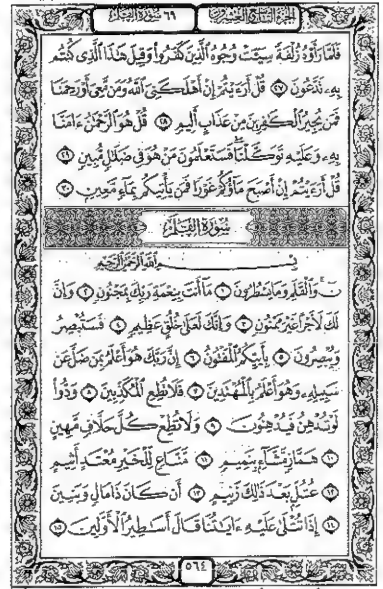
بغياً، ﴿فلم يغنيا﴾ أي: نوح ولوط ﴿عنهما﴾ أي: عن أمرأتيهما ﴿من الله شيئاً وقيل﴾ لهما ﴿ادخلا النار مع الداخلين﴾.

﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون﴾ وهي آسية بنت مزاحم رضي الله عنها، ﴿إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين﴾ فوصفها الله بالإيمان والتضرع لربها، وسؤالها لربها أجل المطالب، وهو دخول الجنة، ومجاورة الرب الكريم، وسؤالها أن ينجيها الله من فتنة فرعون وأعماله الخبيثة، ومن فتنة كل ظالم، فاستجاب الله لها، فعاشت في إيمان كامل، وثبات تام، ونجاة من الفتنة، ولهذا قال النبي ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام». [وقوله: ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها﴾ أي: صانته وحفظته عن الفاحشة، لكمال ديانتها، وعفتها، ونزاهتها.

﴿ففنفخنا فيه من روحنا﴾ بأن نفخ جبريل عليه السلام في جيب درعها، فوصلت نفخته إلى مريم، فجاء منها عيسى ابن مريم عليه السلام، الرسول الكريم والسيد العظيم.

﴿وصدقت بكلمات ربها وكتبه﴾ وهذا وصف لها بالعلم والمعرفة، فإن التصديق بكلمات الله، يشمل كلماته الدينية والقدرية، والتصديق بكتبه، يقتضي معرفة ما به يحصل التصديق، ولا يكون ذلك إلا بالعلم والعمل، ولهذا قال ﴿وكانت من القانتين﴾ أي: الطائعتين لله، المداومين على طاعته ^(١) بخشية وخشوع، وهذا وصف لها بكمال الحمل، فإنها رضي الله عنها صديقة، والصدقية:

(١) في ب: أي المداومين على



نذير * ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير * هذا تهديد ووعد لمن استمر في طغيانه وتعديه، وعصيانه الموجب للنكال وحلول العقوبة، فقال: ﴿أمنتكم من في السماء﴾ وهو الله تعالى، العلي على خلقه.

﴿أن يحسف بكم الأرض فإذا هي تمور﴾ بكم وتضطرب، حتى تهلككم وتهلككم (١)

﴿أم أمتكم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً﴾ أي: عذاباً من السماء يحصبكم، وينتقم الله منكم ﴿فستعلمون كيف نذير﴾ أي: كيف يأتيكم ما أنذرتم به الرسل والكتب، فلا تحسبوا أن أمتكم من الله أن يعاقبكم بعقاب من الأرض ومن السماء ينفعكم، فستجدون عاقبة أمركم، سواء طال عليكم الزمان (٢) أو قصر، فإن من قبلكم، كذبوا كما كذبتهم، فأهلكهم الله تعالى، فانظروا كيف إنكار الله عليهم، عاجلهم بالعقوبة الدنيوية قبل عقوبة الآخرة، فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم.

﴿١٩﴾ ﴿أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير﴾ وهذا عتاب وحث على النظر إلى حالة الطير التي سخرها الله، وسخر لها الجو والهواء، تصف فيه أجنحتها للطيران، وتقبضها للوقوع، فتظل سابحة في الجو، مترددة فيه بحسب إرادتها وحاجتها.

﴿ما يمسكهن إلا الرحمن﴾ فإنه الذي سخر لهن الجو، وجعل أجسادهن وخلقتهن (٣) في حالة مستعدة للطيران، فمن نظر في حالة الطير واعتبر فيها، دلته على قدرة الباري وعنايته الربانية، وأنه الواحد الأحد، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ﴿إنه بكل شيء بصير﴾ فهو المدبر لعباده بما يليق بهم، وتقضيه حكمته.

﴿٢٠ - ٢١﴾ ﴿أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور﴾ * أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو وتفور﴾ يقول تعالى للعتاة النافرين عن أمره، المعرضين عن الحق:

﴿أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن﴾ أي: ينصركم إذا أراد بكم الرحمن سوءاً، فيدفعه عنكم؟ أي: من الذي ينصركم على أعدائكم غير الرحمن؟ فإنه تعالى هو الناصر المعز المذل، وغيره من الخلق لو اجتمعوا على نصر عبده، لم يتفعوه مثقال ذرة، على أي عدو كان، فاستمرار الكافرين على كفرهم، بعد أن علموا أنه لا ينصرهم أحد من دون الرحمن، غرور وسفه.

﴿أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه﴾ أي: الرزق كله من الله، فلو أمسك عنكم رزقه، فمن الذي يرسله لكم؟ فإن الخلق لا يقدرون على رزق أنفسهم، فكيف بغيرهم؟ فالرازق النعم، الذي لا يصيب العباد نعمة إلا بمئه، هو الذي يستحق أن يفرد بالعبادة، ولكن الكافرون ﴿لجوا﴾ أي: استمروا في عتوكم؟ أي: قسوة وعدم لين للحق ﴿وتفور﴾ أي: شرود عن الحق.

﴿٢٢﴾ ﴿أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم﴾ أي: أي الرجلين أهدى؟ من كان تائهاً في الضلال، غارقاً في الكفر قد انتكس قلبه، فصار الحق عنده باطلاً، والباطل حقاً؟ ومن كان عالماً بالحق، مؤثراً له، عاملاً به، يمشي على الصراط المستقيم في أقواله وأعماله وجميع أحواله؟ فبمجرد النظر إلى حال هذين الرجلين، يعلم الفرق بينهما، والمهتدي من الضال منهما، والأحوال أكبر شاهد من الأقوال.

﴿٢٣ - ٢٦﴾ ﴿قل هو السدي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾ قل هو

وأخفى، ومن معاني اللطيف، أنه الذي يلطف بعبدته ووليه، فيسوق إليه البر والإحسان من حيث لا يشعر، ويعصمه من الشر من حيث لا يحتسب، ويرقيه إلى أعلى المراتب بأسباب لا تكون من [العبد] على بال، حتى إنه يذيقه المكاره، ليتوصل بها إلى المحاب الجلية، والمقامات النبيلة.

﴿١٥﴾ ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾ أي: هو الذي سخر لكم الأرض وذللها، لتدركوا منها كل ما تعلقت به حاجتكم، من غرس وبناء وحرث، وطريق يتوصل بها إلى الأقطار النائية والبلدان الشاسعة، فامشوا في مناكبها﴾ أي: لطلب الرزق والمكاسب.

﴿وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾ أي: بعد أن تنتقلوا من هذه الدار التي جعلها الله امتحاناً، وبلغة يتبلغ بها إلى الدار الآخرة، تبعثون بعد موتكم، وتحشرون إلى الله، ليجازيكم بأعمالكم الحسنة والسيئة.

﴿١٦ - ١٨﴾ ﴿أمنتكم من في السماء أن يحسف بكم الأرض فإذا هي تمور﴾ * أم أمتكم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف

(٣) في ب: وجعل أجسادها وخلقتها.

(٢) في ب: الأمد.

(١) في ب: حتى تهلكوا وتلفوا.

كان يوم الجزاء، ورأوا العذاب منهم **﴿زلفة﴾** أي: قريباً، ساءهم ذلك وأفطعهم، وقلقل أفئدتهم، فتغيرت لذلك وجوههم، ووبخوا على تكذيبهم، وقيل لهم هذا الذي كنتم به تكذبون، فاليوم رأيتموه عياناً، وانجلي لكم الأمر، وتقطعت بكم الأسباب ولم يبق إلا مباشرة العذاب.

ولما كان المكذبون للرسول **﴿الذين﴾** [الذين] يردون دعوته، ينتظرون هلاكه، ويرتصبون به ريب المنون، أمره الله أن يقول لهم: أنتم ^(٤) وإن حصلت لكم أمانيتكم ^(٥)، وأهلكني الله ومن معي، فليس ذلك بنافع لكم شيئاً، لأنكم كفرتم بآيات الله، واستحققت العذاب، فمن يجيركم من عذاب أليم قد تحتم وقوعه بكم؟ فإذا، تعبكم وحرقكم على هلاكي غير مفيد، ولا تجدد عنكم شيئاً.

ومن قولهم، إنهم على هدى، والرسول على ضلال، أعادوا في ذلك وأبدوا، وجادلوا عليه وقتلوا، فأمر الله نبيه أن يجبر عن حاله وحال أتباعه، ما به يتبين لكل أحد هداهم وتقواهم، وهو أن يقولوا: **﴿أمانا به وعليه توكلنا﴾** والإيمان يشمل التصديق الباطن، والأعمال الباطنة والظاهرة، ولما كانت الأعمال، وجودها وكمالها، متوقفة على التوكل، خص الله التوكل من بين سائر الأعمال، وإلا فهو داخل في الإيمان، ومن جملة لوازمه كما قال تعالى: **﴿وعلى الله فتوكلوا﴾** إن كنتم مؤمنين ^(٦) فإذا كانت هذه حال الرسول وحال من اتبعه، وهي الحال التي تتعين للفلاح، وتتوقف عليها السعادة، وحالة أعدائه بضدها، فلا إيمان [لهم] ولا توكل، علم بذلك من هو على هدى، ومن هو في ضلال مبین.

السذي ذرأكم فسي الأرض وإليه تحشرون * ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين * يقول تعالى - مبيناً أنه المعبود وحده، وداعياً عباده إلى شكره، وإفراده بالعبادة -: **﴿قل هو الذي أنشأكم﴾** أي: أوجدكم من العدم، من غير معاون له ولا مظهر، ولما أنشأكم، كمل لكم الوجود بالسمع والأبصار والأفئدة، التي هي أنفع أعضاء البدن ^(١)، وأكمل القوى الجسمانية، ولكنه ^(٢) مع هذا الإنعام **﴿قليلاً ما تشكرون﴾** الله، قليل منكم الشاكر، وقليل منكم الشكر.

﴿قل هو الذي ذرأكم في الأرض﴾ أي: بئكم في أقطارها، وأسكنكم في أرجائها، وأمركم، ونهاكم، وأسدى عليكم من النعم، ما به تنتفعون، ثم بعد ذلك يحشركم ليوم القيامة، ولكن هذا الوعد بالجزاء، ينكره هؤلاء المعاندون **﴿ويقولون﴾** تكذيباً.

﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ جعلوا علامة صدقهم أن يخبروا ^(٣) بوقت مجيئه، وهذا ظلم وعناد، فإنما العلم عند الله لا عند أحد من الخلق، ولا ملازمة بين صدق هذا الخبر وبين الإخبار بوقته، فإن الصدق يعرف بأدلتها، وقد أقام الله من الأدلة والبراهين على صحته ما لا يبقى معه أدنى شك لمن ألقى السمع وهو شهيد.

﴿٢٧ - ٣٠﴾ **﴿فلما رأوه زلفة﴾** سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذي كنتم به تدعون * قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمتنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم * قل هو الرحمن أمانا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين * قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين * يعني أن محل تكذيب الكفار وغرورهم به حين كانوا في الدنيا، فإذا

(١) في ب: وهذه الثلاثة هي أفضل أعضاء البدن.

(٢) في ب: ولكنكم.

(٣) في ب: أن يخبروهم.

(٤) في ب: إنكم.

(٥) في ب: أمانيتكم.

(٦) في ب: تم تفسير سورة الملك والحمد لله.

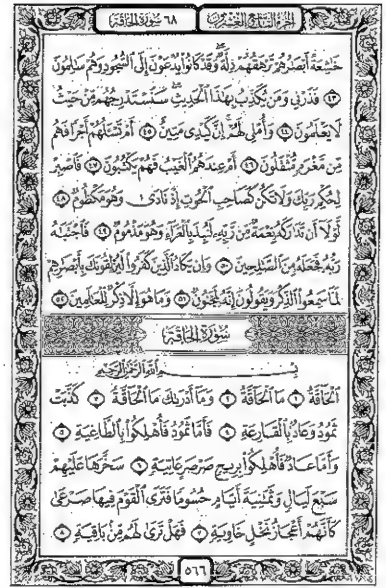


ثم أخبر عن انفرادهم بالنعم، خصوصاً بالماء الذي جعل الله منه كل شيء حي، فقال: **﴿قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً﴾** أي: غائراً ^(٦) فمن يأتيكم بماء معين * تشربون منه، وتسقون أنعامكم وأشجاركم وزروعكم؟ وهذا استفهام بمعنى النفي أي: لا يقدر أحد على ذلك غير الله تعالى.

تمت والله الحمد ^(٦)

تفسير سورة ن وهي مكية

﴿١ - ٧﴾ **﴿يسمى الله الرحمن الرحيم﴾** والقلم وما يسطرون * أنت بنعمة ربك بمجنون * وإن لك لأجراً غير محنون * وإنك لعلی خلق عظيم * فستبصر ويبصرون * بأيكم الفتون * إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين * يقسم تعالى بالقلم، وهو اسم جنس شامل للأقلام، التي تكتب بها [أنواع] العلوم، ويسطر بها المنثور والمنظوم، وذلك أن القلم وما يسطرون به من أنواع الكلام، من آيات الله العظيمة، التي تستحق أن يقسم الله بها، على



براءة نبيه محمد ﷺ عما نسب إليه أعداؤه من الجنون، فنفى عنه الجنون^(١)، بنعمة ربه عليه وإحسانه، حيث منّ عليه بالعقل الكامل، والرأي: الجزل، والكلام الفصل، الذي هو أحسن ما جرت به الأفلام، وسطره الأنام، وهذا هو السعادة في الدنيا، ثم ذكر سعادته في الآخرة، فقال: ﴿وإن لك لأجراً﴾ أي: عظيماً، كما يفيد التنكير، ﴿غير ممنون﴾ أي: [غير] مقطوع، بل هو دائم مستمر، وذلك لما أسلفه النبي ﷺ من الأعمال الصالحة، والأخلاق الكاملة، ولهذا قال: ﴿وإنك لعلی خلق عظیم﴾ أي: عالياً به، مستعالياً بخلقك الذي منّ الله عليك به، وحاصل خلقه العظيم، ما فسرته به أم المؤمنين [عائشة - رضي الله عنها -] لمن سألها عنه، فقالت: «كان خلقه القرآن»، وذلك نحو قوله تعالى له: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین﴾ ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ [الآية]، ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ وما أشبه ذلك من الآيات الدالات على اتصافه ﷺ بمكارم

الأخلاق، و [الآيات] الحائثات على الخلق العظيم^(٢)، فكان له منها أكملها وأجلها، وهو في كل خصلة منها، في الذروة العليا، فكان ﷺ سهلاً لنا، قريباً من الناس، مجبياً لدعوة من دعاه، قاضياً لحاجة من استقصاه، جابراً لقلب من سأل، لا يجرمه، ولا يرده خائباً، وإذا أراد أصحابه منه أمراً وافقهم عليه، وتابعهم فيه إذا لم يكن فيه محذور، وإن عزم على أمر لم يستبد به دونهم، بل يشاورهم ويؤامرهم، وكان يقبل من محسنهم، ويعفو عن مسيئهم، ولم يكن يعاشر جليساً له إلا أتم عشرة وأحسنها، فكان لا يعبس في وجهه، ولا يغلظ عليه في مقاله، ولا يطوي عنه بشرته، ولا يمسك عليه فلتات لسانه، ولا يؤاخذ بما يصدر منه من جفوة، بل يحسن إلى عشيره غاية الإحسان، ويحتمله غاية الاحتمال.

فلما أنزله الله في أعل المنازل من جميع الوجوه، وكان أعداؤه ينسبون إليه أنه مجنون مفتون، قال: ﴿فستبصر ويبصرون﴾ * بآبكم المفتون﴾ وقد تبين أنه أهلى الناس، وأكملهم لنفسه ولغيره، وأن أعداءه أضل الناس [وشر الناس]^(٣) للناس، وأنهم هم الذين فتنوا عباد الله، وأضلواهم عن سبيله، وكفى بعلم الله بذلك، فإنه هو المحاسب المجازي.

و ﴿هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ وهذا فيه تهديد للضالين، ووعد للمهتدين، وبيان لحكمة الله، حيث كان يهدي من يصلح للهداية، دون غيره.

﴿٨-١٦﴾ * ﴿فلا تطع المكذبين﴾ * ودوا لو تدهن فيدهنون﴾ * ولا تطع كل حلاف مهين﴾ * ههنا مشاء بنميم﴾ * مناع للخير معتد أثيم﴾ * عتل بعد ذلك زنيم﴾ * أن كان ذا مال وين﴾ * إذا تلى عليه آياتنا قال أساطير

الأولين﴾ * سنسمه على الخرطوم﴾ يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فلا تطع المكذبين﴾ الذين كذبوك وعاندوا الحق، فإنهم ليسوا أهلاً لأن يطاعوا، لأنهم لا يأمرون إلا بما يوافق أهواءهم، وهم لا يريدون إلا الباطل، فالطبع لهم مُقَدَّم على ما يضره، وهذا عام في كل مكذب، وفي كل طاعة ناشئة عن التكذيب، وإن كان السياق في شيء خاص، وهو أن المشركين طلبوا من النبي ﷺ أن يسكت عن عيب آلهم ودينهم، ويسكتوا عنه، ولهذا قال: ﴿ودوا﴾ أي: المشركون ﴿لو تدهن﴾ أي: توافقهم على بعض ما هم عليه، إما بالقول أو بالفعل أو بالسكوت عما يتعين الكلام فيه، ﴿فيدهنون﴾ ولكن اصدر بأمر الله، وأظهر دين الإسلام، فإن تمام إظهاره بنقض ما يصاده، وعيب ما يناقضه، ﴿ولا تطع كل حلاف﴾ أي: كثير الخلف، فإنه لا يكون كذلك إلا وهو كذاب، ولا يكون كذاباً إلا وهو مهين﴾ أي: خسين النفس، ناقص الهمة، ليس له همة^(٤) في الخير، بل إرادته في شهوات نفسه الخسية. ﴿ههنا﴾ أي: كثير العيب [للناس] والطعن فيهم^(٥)، بالغية والاستهزاء، وغير ذلك.

﴿مشاء بنميم﴾ أي: يمشي بين الناس بالتمنيعة، وهي: نقل كلام بعض الناس لبعض، لقصد الإفساد بينهم، وإلقاء العداوة والبغضاء، ﴿مناع للخير﴾ الذي يلزمه القيام به من النفقات الواجبة والكفارات والزكوات وغير ذلك، ﴿معتد﴾ على الخلق في ظلمهم، في الدماء والأموال والأعراض^(٦) ﴿أثيم﴾ أي: كثير الإثم والذنوب المتعلقة في حق الله تعالى ﴿عتل بعد ذلك﴾ أي: غليظ شرس الخلق قاس غير منقاد للحق ﴿زنيم﴾ أي: دعي، ليس له أصل و [لا] مادة

(١) في ب: عنه ذلك.

(٢) في ب: على كل خلق جميل.

(٣) زيادة من هامش ب.

(٤) في ب: ليس له رغبة.

(٥) كذا في ب، وفي أ: في الناس.

(٦) في ب: يظلمهم في دماءهم

وأموالهم وأعراضهم.

ينتج منها الخير، بل أخلاقه أقيح الأخلاق، ولا يرجى منه فلاح، له زنة أي: علامة في الشر يعرف بها. وحاصل هذا، أن الله تعالى نهي عن طاعة كل خلاف كذاب، خسيس النفس، سيئ الأخلاق، خصوصاً الأخلاق المتضمنة للإعجاب بالنفس، والتكبر عن الحق وعلى الخلق، والاحتقار للناس، كالغيبة والنميمة، والطعن فيهم، وكثرة المعاصي.

وهذه الآيات - وإن كانت نزلت في بعض المشركين، كالوليد بن المغيرة أو غيره، لقوله عنه: «أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَيْنَ إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ» أي: لأجل كثرة مثاله وولده، طغى واستكبر عن الحق، ودفعه حين جاءه، وجعله من جملة أساطير الأولين، التي يمكن صدقها وكذبها - فإنها عامة في كل من اتصف بهذا الوصف، لأن القرآن نزل لهداية الخلق كلهم، ويدخل فيه أول الأمة وآخرهم، وربما نزل بعض الآيات في سبب أو في شخص من الأشخاص، لتتضح به القاعدة العامة، ويعرف به أمثال الجزئيات الداخلة في القضايا العامة.

ثم تواعد تعالى من جرى منه ما وصف الله، بأن الله سينميه على خرطوم^(١) في العذاب، وليعذبه عذاباً ظاهراً، يكون عليه سمة وعلامة، في أشق الأشياء عليه، وهو وجهه.

﴿١٧ - ٣٣﴾ «إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتُنْثَوْنَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ» إلى آخر القصة يقول تعالى: «إِنَّا بَلَوْنَا هَؤُلَاءِ الْمَكْدُونِينَ بِالْخَيْرِ وَأَمْهَلْنَاهُمْ، وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِمَا شِئْنَا مِنْ مَالٍ وَوَلَدٍ، وَطُولِ عَمَرٍ، وَنَحْوُ ذَلِكَ، مِمَّا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ، لَا لِكِرَامَتِهِمْ عَلَيْنَا، بَلْ رُبَّمَا يَكُونُ اسْتِدْرَاجاً لَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ»^(٢)، فاعتراهم بذلك نظير

اعتراهم أصحاب الجنة، الذين هم فيها شركاء، حين زهت ثمارها وأنبعت أشجارها، وأن وقت صرامها، وجزموا أنها في أيديهم وطوع أمرهم، [وأنه] ليس ثم مانع يمنعه منها، ولهذا أقسموا وحلفوا من غير استثناء، أنهم سيصرمون^(٣) أي: يجذونها مصبحين، ولم يدروا أن الله بالمرصاد، وأن العذاب سيخلفهم عليها، ويبادرهم إليها.

﴿٣٤﴾ «فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ» أي: عذاب نزل عليها ليلاً «وَهُمْ نَائِمُونَ» فأبادهما وأتلفها «فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ» أي: كالليل المظلم، ذهبت الأشجار والثمار، وهذا وهم لا يشعرون بهذا الواقع الملم، ولهذا تنادوا فيما بينهم لما أصبحوا يقول بعضهم لبعض: «اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَارِمِينَ» فانطلقوا قاصدين له^(٤) «وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ» فيما بينهم، ولكن بمنع حق الله، ويقولون: «لَا يَدْخُلُهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ» أي: يكرروا قبل انتشار الناس، وتواصوا مع ذلك، بمنع الفقراء والمساكين، ومن شدة حرصهم وبخلهم، أنهم يتخافتون بهذا الكلام مخافة، خوفاً أن يسمعهم أحد، فيخبر الفقراء. «وَعُدُّوا» في هذه الحالة الشنيعة، والقسوة، وعدم الرحمة «عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ» أي: على إمساك ومنع لحق الله، جازمين بقدرتهم عليها، فلما رأوها «عَلَى الْوَصْفِ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ كَالصَّرِيمِ» قالوا: «مِنْ الْحِيْزَةِ وَالْأَنْزَعِاجِ» «إِنَّا لَضَالُّونَ» [أي: تائهون] عنها، لعلها غيرها، فلما تحققوا، ورجعت إليهم عقولهم، قالوا: «بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ» منها، فعرفوا حينئذ أنه عقوبة، ف «قَالَ أَوْسَطُهُمْ» أي: أعدلهم وأحسنهم طريقة: «أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ» أي: تنزهون الله عما لا يليق به، ومن ذلك، ظنكم أن قدرتكم مستقلة،

فلولا استئنيتم قلتم: «إِنْ شَاءَ اللَّهُ»، وجعلتم مشيتكم تابعة لمشيئة الله، لما جرى عليكم ما جرى، فقالوا «سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ» أي: استدركوا بعد ذلك، ولكن بعدما وقع العذاب على جنتهم، الذي لا يرفع، ولكن لعل تسبيحهم هذا، وإقرارهم على أنفسهم بالظلم، ينفعهم في تخفيف الإثم ويكون توبة، ولهذا ندموا ندامة عظيمة، «فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَامِؤْنَ» فيما أجروه وفعلوه، «قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ» أي:

متجاوزين للحد في حق الله وحق عباده، «عَسَى رَبَّنَا أَنْ يَبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ» فهم رجوا الله أن يبدلهم خيراً منها، ووعدوا أنهم سيرغبون إلى الله، ويلحون عليه في الدنيا، فإن كانوا كما قالوا، فالظاهر أن الله أبدلهم في الدنيا خيراً منها، لأن من دعا الله صادقاً، ورغب إليه ورجاه، أعطاه سؤلَه.

قال تعالى مبيناً^(٥) ما وقع: «كَذَلِكَ الْعَذَابُ» [أي:] الدنيوي لمن أتى بأسباب العذاب أن يسلب الله العبد الشيء الذي طغى به وبغى، وأثر الحياة الدنيا، وأن يزيله عنه، أحوج ما يكون إليه.

﴿٣٥﴾ «وَلِلْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ» من عذاب الدنيا «لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» فإن من علم ذلك، أوجب له الانزعاج عن كل سبب يوجب العذاب ويحل العقاب^(٥).

﴿٣٤ - ٤١﴾ «إِنْ لِّلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ * أَفْنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَحْفَرُونَ * أَمْ لَكُمْ آيْمَانُ عَلَيْنَا بِالْعَاقِبَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنْ لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ * سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ * أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ» يخبر تعالى بما أعدّه للمتقين للكفر والمعاصي، من أنواع

(٥) في ب: كل سبب يوجب العقاب ويحرم الثواب.

(٣) في ب: لها.

(٤) في ب: معظماً.

(١) في ب: على الخرطوم.

(٢) في ب: من حيث لا يعلمون.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ أي: ليس لنفوسهم عنك، وعدم تصديقهم لما جئت به، سبب يوجب لهم ذلك، فإنك تعلمهم، وتدعوهم إلى الله، لمحض مصلحتهم، من غير أن تطلبهم من أموالهم مغرمًا يثقل عليهم.

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ ما كان عندهم من الغيوب، وقد جدوا فيها أنهم على حق، وأن لهم الثواب عند الله، فهذا أمر ما كان، وإنما كانت حالهم خال معاند ظالم، فلم يبق إلا الصبر لأذاهم، والتحمل لما يصدر منهم، والاستمرار على دعوتهم، ولهذا قال: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: لما حكم به شرعًا وقدرًا، فالحكم القدري، يصبر على المؤذي منه، ولا يتلقى بالسخط والخزع، والحكم الشرعي، يُقابل بالقبول والتسليم، والالتقياد التام لأمره.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ وهو يونس بن متى، عليه الصلاة والسلام أي: ولا تشابهه في الحال التي أوصلته، وأوجبت له الانحباس في بطن الحوت، وهو عدم صبره على قومه الصبر المطلوب منه، وذهابه مغاضبًا لربه، حتى ركب في البحر، فاقترع أهل السفينة حين ثقلت بأهلها أيم يلقون لكي تخف بهم، فوقع القرعة عليه، فالتقه الحوت وهو مليم، [وقوله] ﴿إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي: وهو في بطنها قد كظمت عليه، أو نادى وهو مغتم مهتم، بأن قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. فاستجاب الله له، وقذفه الحوت من بطنها بالعراء وهو سقيم، وأثبت الله عليه شجرة من يقطين، ولهذا قال هنا: ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَ نِعْمَةً مِنْ رَبِّهِ لَئِذَا

يَسْجُدُونَ لِلَّهِ، طوعاً واختياراً، ويذهب الفجار والمنافقون ليسجدوا فلا يقدرون على السجود، وتكون ظهورهم كصياصي البقر، لا يستطيعون الانحناء، وهذا الجزاء من جنس عملهم، فإنهم كانوا يدعون في الدنيا إلى السجود لله وتوحيده، وعبادته وهم سالون، لا علة فيهم، فيستكبرون عن ذلك ويأبون، فلا تسأل يومئذ عن حالهم وسوء مآلهم، فإن الله قد سخط عليهم، وحقت عليهم كلحة العذاب، وتقطعت أسبابهم، ولم تنفعهم الندامة ولا الاعتذار يوم القيامة، ففي هذا ما يزج القلوب عن المقام على المعاصي، و [يجب] التدارك مدة الإمكان.

ولهذا قال تعالى ﴿٤٤-٥٢﴾ ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ * أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَ نِعْمَةً مِنْ رَبِّهِ لَئِذَا بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: دعني والمكذبين بالقرآن العظيم، فإن علي جزاءهم، ولا تستعجل لهم، ف ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فنمدهم بالأموال والأولاد، ونمدهم في الأرزاق والأعمال، ليغترون ويستمروا على ما يضرهم، فإن هذا من كيد الله لهم، وكيد الله لأعدائه، متين قوي، يبلغ من ضررهم وعذابهم فوق كل مبلغ^(٤).

التعظيم والعيش السليم في جوار أكرم الأكرمين، وأن حكمته تعال لا تقتضي أن يجعل المسلمين^(١) القانتين لربهم، المتقادين لأوامره، المتبعين لمراضيه كالمجرمين الذين أوضاعوا في معاصيه، والكفر بآياته، ومعاندة رسله، ومحاربة أوليائه، وأن من ظن أنه يسويهم في الثواب، فإنه قد أساء الحكم، وأن حكمه حكم باطل، ورأيه^(٢) فاسد، وأن المجرمين إذا ادعوا ذلك، فليس لهم مستند، لا كتاب فيه يدرسون [ويتلون] أنهم من أهل الجنة، وأن لهم ما طلبوا وتحيروا.

وليس لهم عند الله عهد ويمين بالغة إلى يوم القيامة أن لهم ما يحكمون، وليس لهم شركاء وأعوان على إدراك ما طلبوا، فإن كان لهم شركاء وأعوان فليأتوا بهم إن كانوا صادقين، ومن المعلوم أن جميع ذلك منتف، فليس لهم كتاب، ولا لهم عهد عند الله في النجاة، ولا لهم شركاء يعينونهم، فعلم أن دعواهم باطلة فاسدة، وقوله: ﴿سَلِّمُوا بِهِمْ بِذَلِكَ زُجْجِمُ﴾ أي: أيم الكفيل بهذه الدعوى الفاسدة، فإنه لا يمكن التصدر بها ولا الزعامة فيها^(٣).

﴿٤٣-٤٢﴾ ﴿يَوْمَ يَكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السَّجْدِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْمَقُهم ذُلٌّ وَقَدْ كَانُوا يَدْعَوْنَ إِلَى السَّجْدِ وَهُمْ سَالُونَ﴾ أي: إذا كان يوم القيامة، وانكشف فيه من الغلاقل [والزلازل] والأحوال ما لا يدخل تحت الرهم، وأتى الباري لفصل القضاء بين عباده ومجازاتهم، فكشف عن ساقه الكريمة التي لا يشبهها شيء، ورأى الخلائق من جلال الله وعظمته ما لا يمكن التعبير عنه، فحيث يدعون إلى السجود لله، فيسجد المؤمنون الذين كانوا

(١) في ب: المتقين.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ورأي.

(٣) في ب: بهذه الدعوى التي تبين بطلانها فإنه لا يمكن أحداً أن يتصدر بها، ولا يكون زعيماً فيها.

(٤) في ب: وعقوبتهم كل مبلغ.

صرعى ﴿أي: هلكني موتى﴾، ﴿كانهم أعجاز نخل خاوية﴾ ﴿أي: كأنهم جذوع النخل التي قد قطعت رؤوسها الخاوية، الساقط بعضها على بعض،﴾ ﴿فهل ترى لهم من باقية﴾ وهذا استفهام بمعنى النفي المتقرر.

﴿٩-١٢﴾ ﴿وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة﴾ ﴿فعضوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية﴾ ﴿إنا لما طغيا الماء حملناكم في الجارية﴾ ﴿لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية﴾ ﴿أي: وكذلك غير هاتين الأمتين الطاغيتين، عاد وثمود، جاء غيرهم من الطغاة العتاة، كفرعون مصر، الذي أرسل الله إليه عبده ورسوله موسى [ابن عمران] عليه الصلاة والسلام، وأراه من الآيات البيّنات، ما يتقنوا بها الحق، ولكن جحدوا وكفروا، ظلموا وعلوا، وجاء من قبله من المكذبين، ﴿والمؤتفكات﴾ ﴿أي: قرى قوم لوط، الجميع جاؤوا ﴿بالخاطئة﴾ ﴿أي: بالفعلة الطاغية، وهي الكفر والتكذيب، والظلم والمعاندة، وما انضم إلى ذلك من أنواع الفواحش (٨) والفسوق،﴾ ﴿فعضوا رسول ربهم﴾ وهذا اسم جنس أي: كل من هؤلاء كذب (٩) الرسول الذي أرسله الله إليهم. فأخذ الله الجميع ﴿أخذة رابية﴾ ﴿أي: زائدة على الحد والمقدار، الذي يحصل به هلاكهم، ومن جملة أولئك، قوم نوح، أغرقهم الله في اليم حين طغى [الماء على وجهه] الأرض، وعلا على مواضعها الرفيعة.

وامتن الله على الخلق الموجودين بعدهم أن الله حملهم ﴿في الجارية﴾ وهي السفينة في أضلاب آبائهم وأمهاتهم، الذين نجاهم الله، فاحدوا الله واشكروا الذي نجاهم

خاوية ﴿فهل ترى لهم من باقية﴾ ﴿الحاقة﴾ من أسماء يوم القيامة، لأنها تحق وتنزل بالخلق، وتظهر فيها حقائق الأمور، وغبآت الصدور، فعظم تعالى شأنها وفخمه، بما كرّره من قوله: ﴿الحاقة﴾ ﴿ما الحاقة﴾ ﴿وما أدراك ما الحاقة﴾ ﴿إن لها شأنًا عظيمًا، وهو لا جسيمًا، [ومن عظمتها أن الله أهلك الأمم المكذبة بها بالعذاب العاجل] (٣)، ثم ذكر نموذجًا من أحوالها الموجودة في الدنيا المشاهدة فيها، وهو ما (٤) أحله من العقوبات البليغة بالأمم العاتية، فقال: ﴿كذبت ثمود﴾ وهم القبيلة المشهورة، سكان الحجر، الذين أرسل الله إليهم رسوله صالحاً عليه السلام، ينهاهم عما هم عليه من الشرك، ويأمرهم بالتوحيد، فردوا دعوته وكذبوه، وكذبوا ما أخبرهم به من يوم القيامة، وهي القارعة التي تقرع الخلق بأحوالها، وكذلك عاد الأولى، سكان حضرموت، حين بعث الله إليهم رسوله هوداً عليه الصلاة والسلام، يدعوه إلى عبادة الله [ووحده]، فكذبوه، وكذبوا بما أخبر (٥) به من البعث، فأهلك الله الطائفتين بالهلاك المعجل (٦). ﴿فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾ وهي الصبيحة العظيمة الفظيعة، التي انصدعت منها قلوبهم، وزهقت لها أرواحهم فأصبحوا موتى لا يرى إلا مساكنهم وجثثهم، ﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر﴾ ﴿أي: قوية شديدة الهبوب، لها صوت أبلغ من صوت الرعد [القاصف]، ﴿عاتية﴾ [أي: عتت على خزائنا، على قول كثير من المفسرين، أو عتت على عاد، وزادت على الحد كما هو الصحيح، ﴿سخرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوما﴾ ﴿أي: نخسنا وشرأ فظيعة عليهم، فدمرتهم وأهلكتهم،﴾ ﴿فترى القوم فيها

بالعراء﴾ ﴿أي: لطرخ في العراء، وهي الأرض الخالية﴾ ﴿وهو مذموم﴾ ولكن الله (١) تغمذه برحمته، فنبذ وهو مدح، وصارت حاله أحسن من حاله الأولى، ولهذا قال: ﴿فاجتباه ربه﴾ ﴿أي: اختاره واصطفاه ونقاه من كل كدر،﴾ ﴿فجعل من الصالحين﴾ ﴿أي: الذين صلحت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم،﴾ [وأحوالهم] فامتثل نبينا محمد ﷺ أمر ربه، فصبر لحكم ربه صبراً لا يدركه فيه أحد من العالمين.

فجعل الله له العاقبة ﴿والعاقبة للمتقين﴾ ولم يدرك أعداؤه فيه إلا ما يسوؤهم، حتى إنهم حرصوا على أن يزلقوه بأبصارهم أي: يصيبوه (٢) بأعينهم، من حسدهم وغيظهم وحقهم، هذا منتهى ما قدروا عليه من الأذى الفعلي، والله حافظه وناصره، وأما الأذى القولي، فيقولون فيه أفراً، بحسب ما تروحي إليهم قلوبهم، فيقولون تارة «مجنون»، وتارة «ساحر»، وتارة «شاعر».

قال تعالى: ﴿وما هو إلا ذكر للعالمين﴾ ﴿أي: وما هذا القرآن الكريم، والذكر الحكيم، إلا ذكر للعالمين، يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم. تم تفسير سورة القلم، والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الحاقة وهي مكية

﴿١-٨﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الحاقة﴾ ﴿ما الحاقة﴾ ﴿وما أدراك ما الحاقة﴾ ﴿كذبت ثمود وعاد بالقارعة﴾ ﴿فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾ ﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية﴾ ﴿سخرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوما﴾ ﴿فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل

(٧) في ب: هو.

(٨) في ب: المعاصي.

(٩) في ب: كذبوا.

(٤) كذا في ب، وفي أ: ومما.

(٥) في ب وأنكروا ما أخبر به.

(٦) في ب: العاجل.

(١) كذا في ب، وفي أ: ولكنه.

(٢) كذا في ب، وفي أ: أي: يصيبوهم.

(٣) من هامش أ.

حين أهلك الطاغين، واعتبروا بآياته الدالة على توحيده، ولهذا قال: ﴿لَنَجْجِلَهَا﴾ أي: الجارية، والمراد جنسها، لكم تذكرة تذكركم أول سفينة صنعت، وما قصتها، وكيف نجى الله عليها من آمن به واتبع رسوله، وأهلك أهل الأرض كلهم، فإن جنس الشيء مذكر بأصله.

وقوله: ﴿وَتَعْمِيها أذن واعي﴾ أي: تعقلها أولو الألباب، ويعرفون المقصود منها ووجه الآية بها.

وهذا بخلاف أهل الإعراض والغفلة، وأهل البلاة وعدم الفطنة، فإنهم ليس لهم انتفاع بآيات الله، لعدم وعيهم عن الله، وفكرهم بآيات الله^(١).

﴿١٣ - ١٨﴾ وقوله: ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةً وَاحِدَةً﴾ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة، وانشقت السماء فهي يومئذ واهية، والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية، لما ذكر ما فعله تعالى بالكاذبين لرسله، وكيف جازاهم وعجل لهم العقوبة في الدنيا، وأن الله نجي الرسل وأتباعهم، كان هذا مقدمة لذكر الجزاء الأخروي، وتوفية الأعمال كاملة يوم القيامة، فذكر الأمور الهائلة التي تقع أمام القيامة، وأن أول ذلك أنه ينفخ إسرافيل ﴿فِي الصُّورِ﴾ إذا تكاملت الأجساد ثابتة، ﴿نَفْخَةً وَاحِدَةً﴾ فتخرج الأرواح، فتدخل كل روح في جسدها، فإذا الناس قيام لرب العالمين.

﴿وَحَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: فتنت الجبال

واضمحلت، وخلطت بالأرض، ونسفت على الأرض، فكان الجميع قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عرجاً ولا أمتاً، هذا ما يصنع بالأرض وما عليها، وأما ما يصنع بالسماء، فإنها تضطرب وتمور وتشقق ويتغير لونها، وتتهي بعد تلك الصلابة والقوة العظيمة، وما ذاك إلا لأمر عظيم أزعجها، وكرب جسيم هائل أوهاما وأضعفها.

﴿وَالْمَلِكُ﴾ أي: الملائكة الكرام ﴿عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ أي: على جوانب السماء وأركانها، خاضعين لربهم، مستكينين لعظمته.

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ أملاك في غاية القوة، إذا أتى للفصل بين العباد، والقضاء بينهم بعدله وقسطه وفضله، ولهذا قال: ﴿يَوْمَئِذٍ تَعْرَضُونَ﴾ على الله لا تخفى منكم خافية، لا من أجسادكم وأجسادكم^(٢)، ولا من أعمالكم [وصفاتكم]، فإن الله تعالى عالم الغيب والشهادة.

ويحشر العباد حفاة عراة غرلاً، في أرض مستوية، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، فحينئذ يجازيهم بما عملوا، ولهذا ذكر كيفية الجزاء، فقال:

﴿١٩ - ٢٤﴾ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مَلَأْتُ حِسَابِي﴾ فهو في عيشة راضية ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ قطوفها دانية ﴿كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴿وَهُؤُلَاءِ هُمْ أَهْلُ السَّعَادَةِ﴾ يُعْطَوْنَ كِتَابَهُمُ الَّتِي فِيهَا أَعْمَالُهُمُ الصَّالِحَةُ بِأَيْمَانِهِمْ، تمييزاً لهم، وتنوياً بشأنهم، ورفعاً لمقدارهم،

ويقول أحدهم عند ذلك من الفرح والسرور، ومحة أن يطعم الخلق على ما مَنَّ الله عليه به من الكرامة: ﴿هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِي﴾ أي: دونكم كتابي فاقرؤوه، فإنه يبشر بالجنات، وأنواع الكرامات، ومغفرة الذنوب، وستر العيوب، والذي أوصلني إلى هذه الحال، ما مَنَّ الله به علي من الإيمان بالبعث والحساب، والاستعداد له، بالممكن من العمل، ولهذا قال: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مَلَأْتُ حِسَابِي﴾ أي: أيقنت، فالظن - هنا - [بمعنى] اليقين، ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ أي: جامعة لما تشتهيهِ الأنفس، وتلد الأعين، وقد رضوها، ولم يختاروا عليها غيرها. ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ المنازل والقصور، عالية المحل. ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ أي: ثمرها وجنائها، من أنواع الفواكه، قريبة، سهلة التناول على أهلها، ينالها أهلها، قياماً وقعوداً ومتكئين، ويقال لهم إكراماً: ﴿كَلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أي: من كل طعام لذيق، وشراب شهيق، ﴿هَنِيئًا﴾ أي: تاماً كاملاً، من غير مكدر ولا منغص.

وذلك الجزاء حصل لكم ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ من الأعمال الصالحة - وترك الأعمال السيئة^(٣) - من صلاة، وصيام، وصدقة، وحج، وإحسان إلى الخلق، وذكر الله، وإنابة إليه.

فالأعمال جعلها الله سبباً لدخول الجنة، ومادة لتعيمها، وأصلاً لسعادتها.

﴿٢٥ - ٣٧﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه ﴿وَلَمْ أَدْر مَا حِسَابِي﴾ يا ليتها كانت القاضية ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِي﴾ هلك عني سلطانيه ﴿خَذَوهُ فَقُلُوهُ﴾ ثم

(١) في ب: وتفكرهم بآياته.

(٢) في ب: لا من أجسادكم وذواتكم.

(٣) هكذا في المخطوطتين وقد جاءت جملة: (وترك الأعمال السيئة) بين جملة (الأعمال الصالحة). وتفصيل تلك الأعمال فصار في الكلام نوع إيهام مما دفع إلى تأخير جملة: وترك. في الطبقات السابقة، وقد جعلت الكلام كما هو مع الإشارة إلى أنها جملة معترضة.



الضعيف الذي قد أثقل ظهره بالذنوب والأوزار؟

أليس حقيقاً، أن ينخلع قلبه ويتزعج لبه، ويذهل عن كل أحد؟ ولهذا قال: ﴿ولا يسأل حميم حميماً﴾ يصرونهم أي: يشاهد الحميم، وهو القريب حميمه، فلا يبقى في قلبه متسع لسؤال حميمه عن حاله، ولا فيما يتعلق بعشرتهم ومودتهم، ولا يهيم إلا نفسه، ﴿يود المجرم﴾ الذي حق عليه العذاب ﴿لو يفتدي من عذاب يومئذ بنسبه﴾ وصاحبته أي: زوجته ﴿وأخيه﴾ وفصيلته أي: قرابته ﴿التي تؤويه﴾ أي: التي جرت عاداتها في الدنيا أن تتناصر ويعين بعضها بعضاً، ففي يوم القيامة، لا ينفع أحد أحداً، ولا يشفع أحد إلا بإذن الله.

بل لو يفتدي [المجرم المستحق للعذاب] بجميع ما في الأرض ثم يتجنه لم ينفعه ذلك.

﴿كلاً﴾ أي: لا حيلة ولا مناص لهم، قد حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون^(٤)، وذهب نفع الأقارب والأصدقاء.

بالتدابير الإلهية، والشؤون في الخليفة^(٣) في ذلك اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة من طوله وشدته، لكن الله تعالى يخففه على المؤمن.

وقوله: ﴿فاصبر صبراً جليلاً﴾ أي: اصبر على دعوتك لقومك صبراً جليلاً، لا تضجر فيه ولا ملل، بل استمر على أمر الله، وادع عباده إلى توحيده، ولا يمنعك عنهم ما ترى من عدم انقيادهم، وعدم رغبتهم، فإن في الصبر على ذلك خيراً كثيراً، إنهم يرونه بعيداً * وتراه قريباً * الضمير يعود إلى البعث، الذي يقع فيه عذاب السائلين بالعذاب أي: إن حالهم حال المنكر له، أو الذي غلبت عليه الشقوة والسكره، حتى تباعد جميع ما أمامه من البعث والنشور، والله يراه قريباً، لأنه رفيق جليل لا يعجل، ويعلم أنه لا بد أن يكون، وكل ما هو آت فهو قريب. ثم ذكر أهوال ذلك اليوم وما يكون فيه، فقال:

﴿٨ - ١٨﴾ يوم تكون السماء كالمهل * وتكون الجبال كالعهن * ولا يسأل حميم حميماً * يصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ بنسبه * وصاحبته وأخيه * وفصيلته التي تؤويه * ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيهم * كلاً إنهما لظى * نزاعة للشوى * تدعو من أدبر وتولى * وجمع فأوعى

أي: ﴿يوم﴾ القيامة، تقع فيه هذه الأمور العظيمة في ﴿تكون السماء كالمهل﴾ وهو الرصاص المذاب، من تشققها، وبلوغ الهول منها كل مبلغ. ﴿٩﴾ وتكون الجبال كالعهن

وهو الصوف المنفوش، ثم تكون بعد ذلك هباء منثوراً، فتضمحل، فإذا كان هذا القلق والانزعاج لهذه الأجرام الكبيرة الشديدة، فما ظنك بالبعد

إلى سماء، حتى تنتهي إلى السماء التي فيها الله عز وجل، فتحيي ربها وتسلم عليه، وتحظى بقربه، وتبتهج بالدنو منه، ويحصل لها منه الشاء والإكرام، والبر والإعظام. وأما أرواح الفجار، فتعرج، فإذا وصلت إلى السماء استأذنت فلم يؤذن لها، وأعيدت إلى الأرض.

ثم ذكر المسافة التي تعرج إلى الله فيها الملائكة والأرواح^(١)، وأنها تعرج في يوم بما يسر لها من الأسباب، وأعانتها عليه من اللطافة والخفة وسرعة السير، مع أن تلك المسافة على السير المعتاد مقدار خمسين ألف سنة، من ابتداء العروج إلى وصولها، ما حُد لها، وما تنتهي إليه من الملاء الأعلى، فهذا الملك العظيم، والعالم الكبير، علويه وسفليه، جميعه قد تولى خلقه وتدابيره، العلي الأعلى، فعلم أحوالهم الظاهرة والباطنة، وعلم مستقرهم ومستودعهم، وأوصلهم من رحمة وبره ورزقه^(٢)، ما عمهم وشملهم، وأجرى عليهم حكمه القدري، وحكمه الشرعي، وحكمه الجزائي.

فيؤسأ لأقوام جهلوا عظمته، ولم يقدره حق قدره، فاستعجلوا بالعذاب على وجه التعجيز والامتحان، وسبحان الخليم الذي أمهلهم وما أمهلهم، وأدوه فصبر عليهم، وعافاهم ورزقهم.

هذا أحد الاحتمالات في تفسير هذه الآية [الكريمة]، فيكون هذا العروج والصعود في الدنيا، لأن السياق الأول يدل على هذا.

ويحتمل أن هذا في يوم القيامة، وأن الله تبارك وتعالى يظهر لعباده في يوم القيامة، من عظمته وجلاله وكبريائه، ما هو أكبر دليل على معرفته، مما يشاهدونه من عروج الأملاك والأرواح، صاعدة ونازلة،

(١) في ب: تعرج فيها الملائكة والروح إلى الله.

(٢) في ب: وإحسانه.

(٣) في ب: والشؤون الربانية.

(٤) في ب: قد حقت عليهم كلمة ربك.



﴿إنها لظى * نزاعة للشوى﴾ أي : للأعضاء الظاهرة والباطنة من شدة عذابها^(١).

﴿تدعوا﴾ إليها^(٢) * من أدير وتولى * وجع فأوعى﴾ أي : أذبر عن اتباع الحق وأعرض عنه ، فليس له فيه غرض ، وجع الأموال بعضها فوق بعض وأوعاها ، فلم ينفق منها فإن النار تدعوهم إلى نفسها ، وتستعد للالتهاب^(٣).

﴿١٩ - ٣٥﴾ إن الإنسان خلق هلوعاً * إذا مسه الشر جزوعاً * وإذا مسه الخير متوعاً * إلا المصلين * الذين هم على صلاتهم دائمون * والذين في أموالهم حق معلوم * للسانل والمحروم * والذين يصدقون بيوم الدين * والذين هم من عذاب ربهم مشفقون * إن عذاب ربهم غير مأمون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم بشهاداتهم قانمون * والذين هم على صلاتهم يحافظون * أولئك في جئات

مكرمون * وهذا الوصف للإنسان من حيث هو وصف طبيعته الأصلية ، أنه هلوع . وفسر الهلوع بأنه : ﴿إذا مسه الشر جزوعاً﴾ فيجزع إن أصابه فقر أو مرض ، أو ذهاب محبوب له ، من مال أو أهل أو ولد ، ولا يستعمل في ذلك الصبر والرضا بما قضى الله ، ﴿وإذا مسه الخير متوعاً﴾ فلا ينفق مما آتاه الله ، ولا يشكر الله على نعمته وبره ، فيجزع في الضراء ، وينتفع في السراء . ﴿إلا المصلين﴾ الموصوفين بتلك الأوصاف ، فإنهم إذا مسهم الخير شكروا الله ، وأنفقوا مما خولهم الله ، وإذا مسهم الشر صبروا واحتسبوا .

وقوله : ﴿في وصفهم﴾ الذين هم على صلاتهم دائمون﴾ أي : مداومون عليها في أوقاتها بشروطها ومكملاتها . وليسوا كمن لا يفعلها ، أو يفعلها وقتاً دون وقت ، أو يفعلها على وجه ناقص . ﴿والذين في أموالهم حق معلوم﴾ من زكاة وصدقة ﴿للسائل﴾ الذي يتعرض للسؤال ، والمحروم وهو المسكين الذي لا يسأل الناس فيعطوه ، ولا يفتن له ، فيتصدق عليه . ﴿والذين يصدقون بيوم الدين﴾ أي : يؤمنون بما أخبر الله به ، وأخبرت به رسله ، من الجزاء والبعث ، ويتيقنون ذلك ، فيستعدون للآخرة ، ويسعون لها سعيها . والتصديق بيوم الدين ، يلزم منه التصديق بالرسول ، وبما جاؤوا به من الكتب .

﴿والذين هم من عذاب ربهم مشفقون﴾ أي : خائفون وجلون ، فيتركون لذلك كل ما يقرهم من عذاب الله . ﴿إن عذاب ربهم غير مأمون﴾ أي : هو العذاب الذي يخشى ويجذر .

﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾ فلا يطؤون بها وطأ محرماً ، من زنى ، أو لواط ، أو وطء في دبر ، أو حيض ، ونحو ذلك ، ويحفظونها أيضاً من النظر

إليها ومسها ، من لا يجوز له ذلك ، ويتركون أيضاً ، وسائل المحرمات الداعية لفعل الفاحشة .

﴿إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم﴾ أي : سرياتهم ﴿فإنهم غير ملومين﴾ في وطئهن ، في المحل الذي هو محل الحزث ، ﴿فمن ابتغى وراء ذلك﴾ أي : غير الزوجة وملك اليمين ، ﴿فأولئك هم العادون﴾ أي : المتجاوزون لما أحل الله إلى ما حرم الله ، ودلت هذه الآية على تحريم [نكاح] المتعة ، لكونها غير زوجة مقصودة ، ولا ملك يمين .

﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ أي : مراعون لها ، حافظون مجتهدون على أدائها والوفاء بها ، وهذا شامل لجميع الأمانات التي بين العبد وبين ربه ، كالتكاليف السرية ، التي لا يطلع عليها إلا الله ، والأمانات التي بين العبد وبين الخلق ، في الأموال والأسرار ، وكذلك العهد ، شامل للعهد الذي عاهد عليه الله ، والعهد الذي عاهد عليه الخلق ، فإن العهد يسأل عنه العبد ، هل قام به ووفاه ، أم رفضه وخانه فلم يقم به؟

﴿والذين هم بشهاداتهم قانمون﴾ أي : لا يشهدون إلا بما يعلمونه ، من غير زيادة ولا نقص ولا كتمان ، ولا مجابي فيها قريباً ولا صديقاً ونحوه ، ويكون القصد بها^(٣) وجه الله .

قال تعالى : ﴿وأقيموا الشهادة لله﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾ .

﴿والذين هم على صلاتهم يحافظون﴾ بمدادومتها على أكمل وجوها ، ﴿أولئك﴾ أي : الموصوفون بتلك الصفات ﴿في جئات مكرمون﴾ أي : قد أوصل الله لهم من الكرامة والتعظيم المقيم ما تشتهي الأنفس ، وتلذ الأعين ، وهم فيها خالدون .

(٢) في ب : تدعو إلى نفسها .

(٣) في ب : القصد بإقامتها .

(١) في ب : أي : النار التي تلتظي تنزع

من شدتها للأعضاء الظاهرة والباطنة .

تعالى أنه أرسله^(٥) إلى قومه، رحمة بهم وإنذاراً لهم من عذاب الله الأليم، خوفاً من استمرارهم على كفرهم، فيهلكهم الله هلاكاً أبدياً، ويعذبهم عذاباً سرمدياً، فامتثل نوح عليه السلام لذلك، وابتدأ لأمر الله، فقال: **﴿يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾** أي: واضح النذارة بينها، وذلك لتوضيحه ما أنذر به وما أنذر عنه، وبأي شيء تحصل النجاة، بين جميع ذلك بياناً شافياً، فأخبرهم وأمرهم بزيادة ما يأمرهم به^(٦)، فقال: **﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾** وذلك بإفراده تعالى بالتحديد والعبادة، والبعد عن الشرك وطرقه ووسائله، فإنهم إذا اتقوا الله غفر ذنوبهم، وإذا غفر ذنوبهم، حصل لهم النجاة من العذاب، والنفوذ بالشواب، **﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾** أي: يمتنعكم في هذه الدار، ويدفع عنكم الهلاك إلى أجل مسمى أي: مقدر [البقاء في الدنيا] بقضاء الله وقدره [إلى وقت محدود]، وليس المتأخر أبداً، فإن الموت لا بد منه، ولهذا قال: **﴿إِنْ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُونَ﴾** كنتم تعلمون^(٧) لما كفرتم بالله، وعاندتم الحق، فلم يجيبوا لدعوته، ولا اتقوا أمره، فقال شاكياً لربه: **﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لِيَلْأَوْهَنَاءَ﴾** فلم يزدتهم دعائي إلا فراراً^(٨) أي: نفوراً عن الحق وإعراضاً، فلم يبق لذلك فائدة، لأن فائدة الدعوة أن يحصل جميع المقصود أو بعضه، **﴿وَإِنِّي كَلِمَةٌ لِّتُغْفَرَ لِهَؤُلَاءِ أَسْوَءُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** أي: لأجل أن يستجيبوا، فإذا استجابوا، غفرت لهم، فكان هذا محض مصلحتهم، ولكنهم أبوا إلا تمادياً على باطلهم، ونفورا عن الحق، **﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾** حذر سماع ما يقول لهم نبيهم نوح عليه السلام، **﴿وَاسْتَسْقُوا لُيَاهِهِمْ﴾** أي: تغطوا بها غطاء يغشاهم، بعداً عن الحق وبغضاً له، **﴿وَاصْرُؤْ﴾** على كفرهم وشركهم، **﴿وَاسْتَكْبَرُوا﴾** على

والكواكب، لما فيها من الآيات الباهرات على البعث، وقدرته على تبديل أمثالهم، وهم بأعيانهم، كما قال تعالى: **﴿وَنَنْشُوكُمْ فِيمَا لَّا تَعْلَمُونَ﴾** **﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾** أي: ما أحد سبقنا ويفوتنا ويعجزنا إذا أردنا أن نعيده، فإذا تقرر البعث والجزاء، واستمروا على تكذيبهم، وعدم انقيادهم لآيات الله **﴿فَذَرَهُمْ مَخُوضًا وَيَلْعَبُوا﴾** أي: يخوضوا بالأقوال الباطلة، والعقائد الفاسدة، ويلعبوا بدينهم، ويأكلوا ويشربوا، ويتمتعوا **﴿حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوعَدُونَ﴾** فإن الله قد أعد لهم فيه من النكال والوبال ما هو عاقبة خوضهم ولعبهم. ثم ذكر حال الخلق حين يلاقون يومهم^(٩) الذي يوعدون، فقال: **﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾** أي: القبور، **﴿سُرَاعًا﴾** مجيبين لدعوة الداعي، مهطعين إليها **﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نَصَبٍ يَوْفُضُونَ﴾** أي: [كأنهم إلى علم] يؤمون ويسرعون^(١٠) أي: فلا يتمكنون من الاستعصاء للداعي، والالتواء لنداء النادي، بل يأتون أذلاء مقهورين للقيام، بين يدي رب العالمين. **﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُقُهُمْ ذُلَّةٌ﴾** وذلك أن الذلة والقلق قد ملك قلوبهم، واستولى على أشدبتهم، فخشعت منهم الأبصار، وسكنت منهم الحركات، وانقطعت الأصوات. فهذه الحال والمآل، هو يومهم **﴿الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾** ولا بد من الوفاء بوعد الله [تمت والحمد لله].

تفسير سورة نوح عليه السلام وهي مكية

﴿١-٢٨﴾ **﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾** **﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ﴾** إلى آخر السورة لم يذكر الله في هذه السورة سوى قصة نوح وحدها لطول لبثه في قومه، وتكرار دعوته إلى التوحيد، ونهيه عن الشرك، فأخبر

وحاصل هذا، أن الله وصف أهل السعادة والخير بهذه الأوصاف الكاملة، والأخلاق الفاضلة، من العبادات البدنية، كالصلاة، والمداومة عليها، والأعمال القلبية، كخشية الله الداعية لكل خير، والعبادات المالية، والعقائد النافعة، والأخلاق الفاضلة، ومعاملة الله، ومعاملة خلقه، أحسن معاملة من إنصافهم، وحفظ عهودهم وأسرارهم^(١١)، والعفة التامة بحفظ الفروج عما يكره الله تعالى.

﴿٣٦-٣٩﴾ **﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلِكُ مِهْطَعِينَ﴾** عن اليمين وعن الشمال عزين **﴿أَيُطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾** كلا إنا خلقناهم مما يعلمون^(١٢) يقول تعالى، مبيناً اغترار الكافرين: **﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلِكُ مِهْطَعِينَ﴾** أي: مسرعين **﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾** أي: قطعاً متفرقة، وجماعات متوزعة^(١٣)، كل منهم بما لديه فرح.

﴿أَيُطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ بأي: سبب أطمعهم، وهم لم يقدموا سوى الكفر، والجحود برب العالمين، ولهذا قال: **﴿كَلَّا﴾** [أي: ليس الأمر بأمانيتهم، ولا إدراك ما يشتهون بقوتهم].

﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب، فهم ضعفاء، لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرأ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

﴿٤٠-٤٤﴾ **﴿فَلَا أَقْسَمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾** على أن تبدل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين **﴿فَذَرَهُمْ مَخُوضًا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوعَدُونَ﴾** يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون **﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُقُهُمْ ذُلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾** هذا إقسام منه تعالى بالمشارك والمغارب، للشمس والقمر

(٥) في ب: أنه أرسل نوحاً.

(٦) في ب: وأمرهم بأصل ذلك.

(٣) في ب: اليوم.

(٤) في ب: ويقصدون.

(١) في ب: وحفظ حقوقهم وأماناتهم.

(٢) في ب: متنوعة.

الحق ﴿استكباراً﴾ فشرهم ازداد، وخيرهم بعد.

﴿ثم إنى دعوتهم جهاراً﴾ أي: بمسمع منهم كلهم، ﴿ثم إنى أعلنت لهم وأسرت لهم إسراراً﴾ كل هذا حرص ونصح، وإيتائهم بكل باب يظن أن يحصل منه المقصود^(١)، ﴿فقلت استغفروا ربكم﴾ أي: اتركوا ما أنتم عليه من الذنوب، واستغفروا الله منها.

﴿إنه كان غفراً﴾ كثير المغفرة لمن تاب واستغفر، فرغبهم بمغفرة الذنوب، وما يترتب عليها من حصول الثواب، وإنقاذ العقاب.

ورغبهم أيضاً بخير الدنيا العاجل، فقال: ﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ أي: مطراً متتابعاً، يروي الشعاب والبهاد، ويحيي البلاد والعباد.

﴿ويصدكم بأموال وبنين﴾ أي: يكثر أموالكم التي تذكرون بها ما تطلبون من الدنيا وأولادكم، ﴿ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾ وهذا من أبلغ ما يكون من لذات الدنيا ومطالبها.

﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً﴾ أي: لا تحافون لله عظمة، وليس الله عندكم قدر، ﴿وقد خلقكم أطواراً﴾ أي: خلقاً [من] بعد خلق، في بطن الأم، ثم في الرضاع، ثم في سن الطفولية، ثم التمييز، ثم الشباب، إلى آخر ما وصل إليه الخلق^(٢)، فالذي انفرد بالخلق والتدبير البديع، متعين أن يفرد بالعبادة والتوحيد، وفي ذكر ابتداء خلقهم تنبيه لهم على الإقرار بالمعاد، وأن الذي أنشأهم من العدم قادر على أن يعيدهم بعد موتهم.

واستدل أيضاً عليهم بخلق السماوات التي هي أكبر من خلق الناس، فقال: ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً﴾ أي:

كل سماء فوق الأخرى، ﴿وجعل القمر فيهن نوراً﴾ لأهل الأرض ﴿وجعل الشمس سراجاً﴾.

ففيه تنبيه على عظم خلق هذه الأشياء، وكثرة المنافع في الشمس والقمر الدالة على رحمته وسعة إحسانه، فالعظيم الرحيم، يستحق أن يعظم ويحب ويعبد ويخاف ويرجى، ﴿والله أنبتكم من الأرض نباتاً﴾ حين خلق أبائكم آدم وأنتم في صلبه، ﴿ثم يعيدكم فيها﴾ عند الموت ﴿ويخرجكم إخراجاً﴾ للبعث والنشور، فهو الذي يملك الحياة والموت والنشور، ﴿والله جعل لكم الأرض بساطاً﴾ أي: مبسطة مهية للارتفاع بها، ﴿لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً﴾ فلولاً أنه بسطها، لما أمكن ذلك، بل ولا أمكنهم حرثها وغرسها وزرعها، والبناء، والسكون على ظهرها.

﴿قال نوح﴾ شاكياً لربه: إن هذا الكلام والوعظ والتذكير ما نجع فيهم ولا أفاد: ﴿إنهم عصوني﴾ فيما أمرتهم به ﴿واتبعوا من لم يزدده ماله ولولده إلا خساراً﴾ أي: عصوا الرسول الناصح الدال على الخير، واتبعوا الملال والأشراف الذين لم تزددهم أموالهم ولا أولادهم إلا خساراً أي: هلاكاً وتقويتاً للأرباح، فكيف بمن انقاد لهم وأطاعهم؟! ﴿ومكروا مكراً كُبَيراً﴾ أي: مكراً كبيراً بليغاً في معاندة الحق.

﴿وقالوا﴾ لهم داعين إلى الشرك مزينين له: ﴿لا تذرنا آلِهتكم﴾ فدعوههم إلى التعصب على ما هم عليه من الشرك، وأن لا يدعوا ما عليه آبائهم الأقدمون، ثم عينوا آلِهتهم، فقالوا: ﴿ولا تذرنا وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً﴾ وهذه أسماء رجال صالحين، لما ماتوا، زين الشيطان لقومهم أن يصوروا صورهم، لينشطوا - بزعمهم - على الطاعة إذا

رأوها، ثم طال الأمد، وجاء غير أولئك فقال لهم الشيطان: إن أسلافكم يعبدونهم، ويتوسلون بهم، وبهم يسقون المطر، فعبدوهم، ولهذا أوصى رؤسائهم للتابعين لهم، أن لا يدعوا عبادة هذه الآلهة^(٣).

﴿وقد أضلوا كثيراً﴾ أي: وقد أضل الكبار والرؤساء بدعوتهم كثيراً من الخلق، ﴿ولا تزد الظالمين إلا ضللاً﴾ أي: لو كان ضلالهم عند دعوتهم إياهم بحق، لكان مصلحة، ولكن لا يزيدون بدعوة الرؤساء إلا ضللاً أي: فلم يبق محل لنجاحهم ولا لمصلحتهم، ولهذا ذكر الله عذابهم وعقوبتهم الدنيوية والأخروية، فقال:

﴿عما خطيئاتهم أغرقوا﴾ في اليوم الذي أحاط بهم ﴿فأدخلوا ناراً﴾ فذهبت أجسادهم في الغرق، وأرواحهم للنار والحرق، وهذا كله بسبب خطيئتهم، التي أتاهم نبيهم نوح ينذرهم عنها، ويخبرهم بشؤمها ومغبتها، فرفضوا ما قال، حتى حل بهم النكال، ﴿فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً﴾ ينصرونهم حين نزل بهم الأمر الأمير، ولا أحد يقدر يعارض القضاء والقدر.

﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ يدور على وجه الأرض، وذكر السبب في ذلك، فقال: ﴿إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾ أي: بقاؤهم مفسدة محضة، لهم ولغيرهم، وإنما قال نوح - عليه السلام - ذلك، لأنه مع كثرة مخالطته إياهم، ومزاولته لأخلاقهم، علم بذلك نتيجة أعمالهم، لا جزم أن الله استجاب لدعوته^(٤)، فأغرقهم أجمعين، ونجى نوحاً ومن معه من المؤمنين.

﴿رب اغفر لي ولوالدي ولن دخل

(١) في ب: بكل طريق يظن به حصول المقصود.

(٢) في ب: ثم إلى آخر ما يصل إليه الخلق.

(٣) في ب: هذه الأصنام.

(٤) في ب: فلهذا استجاب الله له دعوته.

بيتي مؤمناً^(١) خص المذكورين لتأكد حقهم وتقدير برهم، ثم عمم الدعاء، فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، ولا ترد الظالمين إلا تباراً أي: خساراً ودماراً وهلاكاً.

تم تفسير سورة نوح عليه السلام [والحمد لله]

تفسير سورة قل أوحى إلي [وهي] مكية

﴿١ - ٢﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قل أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجياً * يهدي إلى الرشد فأمتنا به ولن نشرك بربنا أحداً^(٢) أي: ﴿قل﴾ يا أيها الرسول للناس ﴿أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن﴾ صرفهم الله [إلى رسوله] لسماع آياته، لتقوم عليهم الحجة، [وتتم عليهم النعمة] ويكونوا نذراً^(٣) لقومهم.

وأمر الله رسوله، أن يقص نبأهم على الناس، وذلك أنهم لما حضروه، قالوا: أنصتوا، فلما أنصتوا، فهموا معانيه، ووصلت حقائقه إلى قلوبهم، ﴿فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجياً﴾ أي: من العجائب الغالية، والمطالب العالية.

﴿٢﴾ ﴿يهدي إلى الرشد﴾ والرشد: اسم جامع لكل ما يرشد الناس إلى مصالح دينهم ودنياهم، ﴿فأمتنا به ولن نشرك بربنا أحداً﴾ فجمعوا بين الإيمان الذي يدخل فيه جميع أعمال الخير، وبين التقوى، [المتضمنة لترك الشر] وجعلوا السبب الداعي لهم إلى الإيمان وتوابعه، ما علموه من إرشادات القرآن، وما اشتمل عليه من المصالح والفوائد

واجتناب المضار، فإن ذلك آية عظيمة، وحجة قاطعة، لمن استنار به، واهتدى بهديه، وهذا الإيمان النافع، المثمر لكل خير، المبني على هداية القرآن، بخلاف إيمان العوائد، والمربى والإلف ونحو ذلك، فإنه إيمان تقليد تحت خطر الشبهات والعوارض الكثيرة، ﴿وأنه تعالى جد ربنا﴾ أي: تعالت عظمته وتقدست أسماؤه، ﴿وما اتخذ صاحبة ولا ولداً﴾ فعلموا من جد الله وعظمته، ما دلهم على بطلان من يزعم أن له صاحبة أو ولداً، لأن له العظمة الكمال^(٤) في كل صفة كمال، واتخاذ صاحبة والولد ينافي ذلك، لأنه يضاد كمال الغنى.

﴿وأنه كان يقول سفيهاً على الله شططاً﴾ أي: قولاً جائراً عن الصواب، متعدياً للحد، وما حمله على ذلك إلا سفهو وضعف عقله، وإلا فلو كان رزينا مطمئناً لعرف كيف يقول.

﴿٥﴾ ﴿وأنا ظننا أن لن نقول الإنس والجن على الله كذباً﴾ أي: كنا مغترين قبل ذلك، وغرنا القادة^(٥) والرؤساء من الجن والإنس، فأحسننا بهم الظن، وظنناهم^(٦) لا يتجربون على الكذب على الله، فلذلك كنا قبل هذا على طريقهم، فاليوم إذ بان لنا الحق، رجعنا إليه^(٥)، وانقذنا له، ولم نبال بقول أحد من الناس^(٦) يعارض الهدى.

﴿٦﴾ ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادهم رهقاً﴾ أي: كان الإنس يعبدون الجن ويستعيذون بهم عند المخاوف والأفزع^(٧)، فزاد الإنس الجن رهقاً أي: طغياناً وتكبراً، لما رأوا الإنس

يُعبدونهم، ويستعيذون بهم، ويحتمل أن الضمير في زادهم يرجع إلى الجن ضمير الواو^(٨) أي: زاد الجن الإنس ذعراً وتخويفاً لما رأوهم يستعيذون بهم، ليلجئوهم إلى الاستعاذة بهم، فكان الإنسي إذا نزل بواد يخوف، قال: «أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه».

﴿وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً﴾ أي: فلما أنكروا البعث، أقدموا على الشرك والظناني.

﴿وأننا لسننا السماء﴾ أي: آتيناها واختبرناها، ﴿فوجدناها ملئت حرساً شديداً﴾ عن الوصول إلى أرجائها [والدنو منها]، ﴿وشهباً﴾ يرمى بها من استرق السمع، وهذا بخلاف عادتنا الأولى، فإننا كنا نتمكن من الوصول إلى خير السماء.

﴿وأننا كنا نقعد منها مقاعد للسمع﴾ فتتلف من أخبار السماء ما شاء الله، ﴿فمن يستمع الآن يجده له شهاباً

(١) في ب: منذرين لقومهم.

(٢) في ب: والجلال.

(٣) في ب: عزتنا السادة والرؤساء.

(٤) في ب: وحسبناهم.

(٥) في ب: سلكتنا طريقه.

(٦) في ب: من الخلق.

(٧) في ب: كان الإنس يعوذون بالجن عند المخاوف والأفزع، ويعبدونهم.

(٨) في ب: ويحتمل أن الضمير وهي الواو يرجع إلى الجن.



وعرفنا هدايته وإرشاده، أثر في قلوبنا فـ ﴿أماناً به﴾.

ثم ذكروا ما يرغب المؤمن فقالوا: ﴿فمن يؤمن بربه﴾ إيماناً صادقاً ﴿فلا يخاف بخساً ولا رهقاً﴾ أي: لا نقصاً ولا طغياناً ولا أذى يلحقه^(١)، وإذا سلم من الشر حصل له الخير، فالإيمان سبب دافع إلى حصول كل خير وانتفاء كل شر.

﴿وأنا من المسلمين ومنا القاسطون﴾ أي: الجاثرون، العادلون عن الصراط المستقيم.

﴿فمن أسلم فالولك محروا ورشدا﴾ أي: أصابوا طريق الرشد، الموصل لهم إلى الجنة ونعيمها، ﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً﴾ وذلك جزاء على أعمالهم، لا ظلم من الله لهم، فإنهم ﴿لو استقاموا على الطريقة﴾ المثل ﴿لأسقيناهم ماء غدقاً﴾ أي: هنيئاً مريئاً، ولم يمنهم ذلك إلا ظلمهم وعدوانهم. ﴿لنفقتهم فيه﴾ أي: لنتخبرهم فيه ونمتحنهم، ليظهر الصادق من الكاذب.

﴿ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعباً﴾ أي: من أعرض عن ذكر الله، الذي هو كتابه، فلم يتبعه ويتقّد له، بل غفل عنه ولهي، يسلكه عذاباً صعباً أي: شديداً بليغاً.

﴿وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً﴾ أي: لا دعاء عبادة، ولا دعاء مسألة، فإن المساجد التي هي أعظم محال العبادة، مبنية على الإخلاص لله، والخضوع لعظمته، والاستكانة لعزته، ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه﴾ أي: يسأله ويتعبد له ويقرأ القرآن كاد الجن من تكاثرهم عليه أن يكونوا عليه لبيداً أي: متلبدين متراكمين، حرصاً على سماع ما جاء به من الهدى.

﴿قل﴾ لهم يا أيها الرسول، مبيناً حقيقة ما تدعو إليه:

﴿إنما أدعوا ربّي ولا أشرك به أحداً﴾ أي: أوحده وحده لا شريك له، وأخلع ما دونه من الأنداد والأوثان، وكل ما يتخذ المشركون من دونه.

﴿قل إنّي لأملك لكم ضرراً ولا رشداً﴾ فإني عبد ليس لي من الأمر ولا من التصرف شيء.

﴿٢٢﴾ ﴿قل إنّي لن يغيّرني أحد﴾ أي: لا أحد أستجير به يتقذني من عذاب الله، وإذا كان الرسول الذي هو أكمل الخلق، لا يملك ضرراً ولا رشداً، ولا يمنع نفسه من الله شيئاً [إن أراد به سوء، فغيره من الخلق من باب أولى وأحرى، ﴿ولن أجد من دونه ملتحداً﴾ أي: ملجأ ومنتصراً] إلا بلاغاً من الله ورسالته﴾ أي: ليس لي منزلة على الناس، إلا أن الله خصني بإبلاغ رسالاته ودعوة الخلق إلى الله، وبهذا^(٢) تقوم الحجة على الناس.

﴿ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً﴾ وهذا المراد به المعصية الكفرية، كما قيدتها التصوص الآخر المحكمة.

وأما مجرد المعصية، فإنه لا يوجب الخلود في النار، كما دلت على ذلك آيات القرآن، والأحاديث عن النبي ﷺ، وأجمع عليه سلف الأمة وأئمة هذه الأمة.

﴿حتى إذا رآوا ما يوعدون﴾ أي: شاهدهو عياناً، وجزموا أنه واقع بهم، ﴿فسيعلمون﴾ في ذلك الوقت حقيقة المعرفة ﴿من أضعف ناصراً وأقل عدداً﴾ حين لا ينصرهم غيرهم ولا أنفسهم ينتصرون، وإذا يحشرون فرادى كما خلقوا أول مرة، ﴿قل﴾ لهم إن سألوكم [فقالوا] «متى هذا الوعد؟»: ﴿إن أدري أقرب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً﴾ أي: غاية طويلة، فعلم ذلك عند الله، ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً﴾ من الخلق، بل انفرد بعلم الضمائر والأسرار والغيبي، ﴿إلا

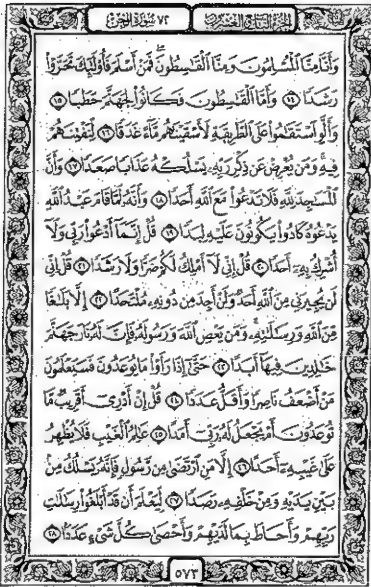
رصداء﴾ أي: مرصداً له، معدداً لإتلافه وإحراقه أي: وهذا له شأن عظيم، ونبأ جسيم، وجزموا أن الله تعالى أراد أن يحدث في الأرض حادثاً كبيراً، من خير أو شر، فلهذا قالوا: ﴿وأننا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً﴾ أي: لا بد من هذا أو هذا، لأنهم رأوا الأمر تغير عليهم تغيراً أنكروه، فعرفوا بفطنتهم، أن هذا الأمر يريد به الله، ويحدثه في الأرض، وفي هذا بيان لأدبهم، إذ أضافوا الخير إلى الله تعالى، والشر حذفوا فاعله تأدباً مع الله.

﴿وأنا من الصالحون ومنا دون ذلك﴾ أي: فساق وفجار وكفار، ﴿كنّا طرائق قداماً﴾ أي: فرقاً متنوعة، وأهواء متفرقة، كل حزب بما لديهم فرحون.

﴿وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً﴾ أي: وأنا في وقتنا الآن تبين لنا كمال قدرة الله وكمال عجزنا، وأن نواصينا بيد الله، فلن نعجزه في الأرض ولن نعجزه إن هربنا وسعينا بأسباب الفرار والخروج عن قدرته، لا ملجأ منه إلا إليه، ﴿وأننا لما سمعنا الهدى﴾ وهو القرآن الكريم، الهادي إلى الصراط المستقيم،

(١) في ب: فقالوا: ﴿فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً﴾ أي: من آمن به إيماناً صادقاً فلا عليه نقص ولا أذى يلحقه.

(٢) في ب: ودعوة خلقه إليه وبذلك.



له القلوب، وتفرح به أولو الألباب، وتظهر به شعائر الإسلام، وينقمع به أهل الأوثان والأصنام.

ومنها: شدة حرص الجن لاستماع الرسول ﷺ، وتراكمهم عليه.

ومنها: أن هذه السورة، قد اشتملت على الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، وبينت حالة الخلق، وأن كل أحد منهم لا يستحق من العبادة مثقال ذرة، لأن الرسول محمد ﷺ، إذا كان لا يملك لأحد نفعاً ولا ضرراً، بل ولا يملك لنفسه، علم أن الخلق كلهم كذلك، فمن الخطأ والغلط^(٣) اتخاذ من هذا وصفه إلهاً [آخر] مع الله.

ومنها: أن علوم الغيب قد انفراد الله بعلمها، فلا يعلمها أحد من الخلق، إلا من ارتضاه الله وخصه^(٤) بعلم شيء منها.

تم تفسير سورة قل أوحى إلي،
والله الحمد^(٥)

تفسير سورة المزمل [وهي] مكية

﴿١-١١﴾ «بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها المزمل * قم الليل إلا قليلاً * نصفه أو انقص منه قليلاً * أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً * إنا سنلقي عليك قولاً ثقیلاً * إن ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأقوم قيلاً * إن لك في النهار سبحاً طويلاً * واذكر اسم ربك وتبطل إليه تبتيلاً * رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً * واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرأً جميلاً * وذكري والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً * المزمل: المتغطي بشيابه كالمدثر، وهذا

من ارتضى من رسول ﷺ أي: فإنه يخبره بما اقتضت حكمته أن يخبره به، وذلك لأن الرسل ليسوا كغيرهم، فإن الله أيدهم بتأييد ما أيده أحداً من الخلق، وحفظ ما أوحاه إليهم حتى يبلغوه على حقيقته، من غير أن تتخبطهم الشياطين، ولا^(١) يزيّدوا فيه أو ينقصوا، ولهذا قال: ﴿فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً﴾ أي: يحفظونه بأمر الله؛ ﴿ليعلم﴾ بذلك أن قد أبلغوا رسالات ربهم﴾ بما جعله لهم من الأسباب، ﴿وأحاط بما لديهم﴾ أي: بما عندهم، وما أسروه وأعلنوه، ﴿وأحصى كل شيء عدداً﴾.

وفي هذه السورة فوائد كثيرة: منها: وجود الجن، وأنهم مكلفون مأمورون مكلفون منهيون، مجازون بأعمالهم، كما هو ضريح في هذه السورة.

ومنها: أن رسول الله ﷺ رسول إلى الجن، كما هو رسول إلى الإنس^(٢)، فإن الله صرف نفر الجن ليستمعوا ما يوحى إليه ويبلغوا قومهم.

ومنها: ذكاء الجن ومعرفتهم بالحق، وأن الذي ساقهم إلى الإيمان هو ما تحقوه من هداية القرآن، وحسن أدبهم في خطابهم. ومنها: اعتناء الله برسوله، وحفظه لما جاء به، فحين ابتدأت بشائر نبوته، والسماء محروسة بالنجوم، والشياطين قد هربت عن أماكنها، وأزعجت عن مراصدها، وأن الله رحم به الأرض وأهلها رحمة ما يقدر لها قدر، وأراد بهم ربهم رشداً، فأراد أن يظهر من دينه وشرعه ومعرفته في الأرض، ما تبهج

الوصف حصل من رسول الله ﷺ حين أكرمه الله برسالته، وابتدأه بانزال الوحيه بإرسال جبريل إليه، فرأى أمراً لم ير مثله، ولا يقدر على الثبات له إلا المرسلون، فاعتراه في ابتداء ذلك^(٦) انزعاج حين رأى جبريل عليه السلام، فأتى إلى أهله، فقال: «زملوني زملوني» وهو ترعد فرائضه، ثم جاءه جبريل، فقال: «اقرأ»، فقال: «أنا بقارئ»، فغطه حتى بلغ منه الجهد، وهو يعالجه على القراءة، فقرأ ﷺ، ثملقى عليه اللوح، وتابع عليه الوحي، حتى بلغ مبلغاً ما بلغه أحد من المرسلين.

فسبحان الله، ما أعظم التفاوت بين ابتداء نبوته ونهايتها. ولهذا خاطبه الله بهذا الوصف الذي وجد منه في أول أمره.

فأمره هنا بالعبادات المتعلقة به، ثم أمره بالصبر على أذية أعدائه^(٧)، ثم أمره بالصدع بأمره، وإعلان دعوتهم إلى الله، فأمره هنا بأشرف العبادات، وهي الصلاة، وبأكد الأوقات

(١) في ب: من غير أن تقر به الشياطين فلا.

(٢) في ب: مبعوث إلى الجن كما هو مبعوث إلى الإنس.

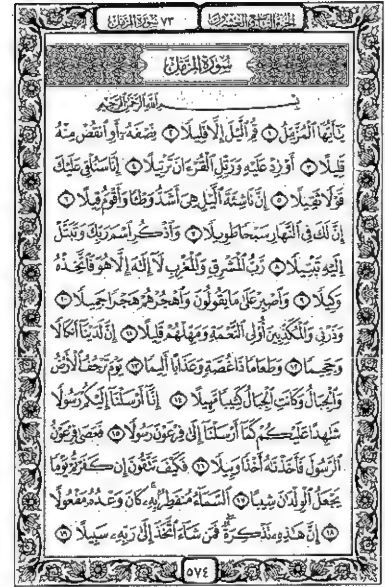
(٣) في ب: من الخطأ والظلم.

(٤) في ب: واختصه.

(٥) في ب: تم تفسيرها والحمد لله رب العالمين.

(٦) في ب: فاعتراه عند ذلك.

(٧) في ب: على أذية قومه.



وأفضلها، وهو قيام الليل.

ومن رحمته تعالى، أنه لم يأمره بقيام الليل كله، بل قال: ﴿تَمَّ اللَّيْلُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ثم قدر ذلك، فقال: ﴿نُصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ﴾ أي: من النصف ﴿قَلِيلًا﴾ بأن يكون الثلث ونحوه ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أي: على النصف، فيكون الثلثين ونحوها.

﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ ثَرِيلاً﴾ فإن ترتيل القرآن به يحصل التدبر والتفكير، وتحريك القلوب به، والتعبد بآياته، والتهيؤ والاستعداد التام له، فإنه قال: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ أي: نوحى إليك هذا القرآن الثقيل أي: العظيمة معانيه، الجليلة أوصافه، وما كان بهذا الوصف، حقيق أن يتهيا له، ويرتل، ويفكر فيما يشتمل عليه. ثم ذكر الحكمة في أمره بقيام الليل، فقال: ﴿إِنْ نَاشَأَ اللَّيْلُ﴾ أي: الصلاة فيه بعد النوم ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي: أقرب إلى تحصيل مقصود القرآن، يتواطأ على القرآن^(١) القلب واللسان، وتقل الشواغل،

ويفهم ما يقول، ويستقيم له أمره، وهذا بخلاف النهار، فإنه لا يحصل به هذا المقصود^(٢)، ولهذا قال: ﴿إِنْ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ أي: تردداً على حوائجك ومعاشك، يوجب اشتغال القلب، وعدم تفرغه التفرغ التام، ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ شامل لأنواع الذكر كلها ﴿وَتَبَيَّنْ لَهُ تَبَيُّلًا﴾ أي: انقطع إلى الله تعالى، فإن الانقطاع إلى الله والإنابة إليه، هو الانفصال بالقلب عن الخلق، والاتصاف بمحبة الله، وكل ما يقرب إليه، ويدي من رضاه.

﴿وَبِالشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ وهذا اسم جنس يشمل المشرق والمغرب لكلهما، فهو تعالى رب المشرق والمغرب، وما يكون فيها من الأنوار، وما هي مصلحة له من العالم العلوي والسفلي، فهو رب كل شيء وخالقه ومديره.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود إلا وجهه الأعلى، الذي يستحق أن يخص بالحببة والتعظيم، والإجلال والتكريم، ولهذا قال: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ أي: حافظاً ومديراً لأمورك كلها.

فلما أمره الله بالصلاة خصوصاً، وبالذكر عموماً، وذلك يحصل للعبد ملكة قوية في تحمل الأثقال، وفعل الثقيل^(٣) من الأعمال، أمره بالصبر على ما يقول فيه المعاندون له ويسبون ويُسبون ما جاء به، وأن يحضي على أمر الله، لا يصده عنه صداد، ولا يردده راد، وأن يهجرهم هجراً جيلاً، وهو الهجر حيث اقتضت المصلحة الهجر الذي لا أذية فيه، فيقابلهم^(٤) بالهجر والإعراض عنهم وعن أقوالهم التي تؤذيه، وأمره

بجدالهم بالتي هي أحسن. ﴿وَذُرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: اتركني وإياهم، فسأنتقم منهم، وإن أمهلتهم فلا أمهلتهم، وقوله: ﴿أُولِي النِّعْمَةِ﴾ أي: أصحاب النعمة والغنى، الذين طغوا حين وسع الله عليهم من رزقه، وأمدهم من فضله كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا غَافِلٌ﴾ ثم توعدهم بما عنده من العقاب، فقال:

﴿١٢ - ١٤﴾ ﴿إِنْ لَدَيْنَا أَنْكَالٌ وَجَحِيمٌ﴾ وطمعاً ذا غصة وعذاباً أليماً ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً﴾ أي: إن عندنا أنكالا، أي: عذاباً شديداً، جعلناه تنكياً للذي لا يزال مستمراً على الذنوب^(٥)، ﴿وَجَحِيمًا﴾ أي: ناراً حامية وطمعاً ذا غصة، وذلك لمرارته وبشاعته، وكرهية طعمه وريحه الخبيث المبتسن، ﴿وَعَذَابًا أَلِيماً﴾ أي: موجعاً مفزعاً، وذلك ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ من الهول العظيم، ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ الرَّاسِيَاتِ﴾ الصم الصلاب ﴿كَثِيبًا مَهِيلاً﴾ أي: بمنزلة الرمل المنهال المنتثر، ثم إنها تيس بعد ذلك، فتكون كالهباء المشور.

﴿١٥ - ١٦﴾ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ فمحصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً يقول تعالى: أهدوا ربكم على إرسال هذا النبي الأمي العربي البشير النذير، الشاهد على الأمة بأعمالهم، واشكروه وقوموا بهذه النعمة الجليلة، وإياكم أن تكفروها، فتعصوا رسولكم، فتكونوا كفراعون حين أرسل الله إليه موسى بن عمران، فدعاه إلى الله، وأمره بالتوحيد، فلم يصدقه، بل عصاه،

(١) في ب: حصول.

(٢) في ب: عليه.

(٣) في ب: فإنه لا تحصل به هذه المقاصد.

(٤) في ب: وفعل المشق.

(٥) في ب: بل يعاملهم.

(٦) في ب: على ما يغضب الله.

فأخذه الله أخذاً وبيلاً أي: شديداً بليغاً.

هذا الموضع، أنه امتثل ذلك هو وطائفة معه من المؤمنين.

﴿١٧- ١٨﴾ فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً * السماء منفطر به كان وعده مفعولاً أي: فكيف يحصل لكم الفكك والنجاة من يوم القيامة، اليوم المهيل أمرة، العظيم قدره ^(١)، الذي شيب الولدان، وتذوب له الجمادات العظام، فتتفطر به السماء وتنتثر به نجومها * كان وعده مفعولاً أي: لا بد من وقوعه، ولا حائل دونه.

ولما كان تحرير الوقت المأمور به مشقة على الناس، أخبر أنه سهل عليهم في ذلك غاية التسهيل، فقال: ﴿والله يقدر الليل والنهار﴾ أي: يعلم بمقاديرهما وما يمضي منهما ويبقى.

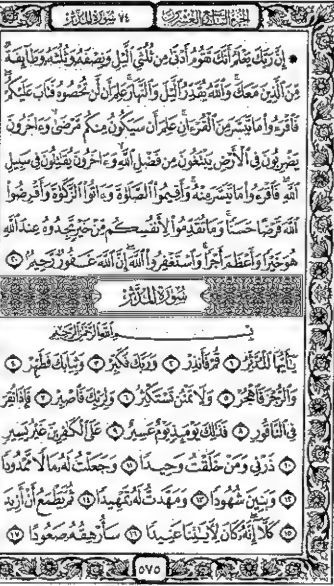
﴿علم أن لن محصوا﴾ أي: [لن] تعرفوا مقداره من غير زيادة ولا نقص، لكون ذلك يستدعي انتباهاً وغناء زائداً أي: فخفف عنكم، وأمركم بما تيسر عليكم، سواء زاد على المقدر أو نقص، ﴿فاقرؤوا ما تيسر من القرآن﴾ أي: مما تعرفون ومما لا يشق عليكم، ولهذا كان المصلي بالليل مأموراً بالصلاة ما دام نشيطاً، فإذا فتر أو كسل أو نعنس، فليستريح، ليأتي الصلاة بطمأنينة وراحة.

﴿١٩﴾ إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً [أي: إن هذه الموعظة التي نبا الله بها من أحوال يوم القيامة وأحواله ^(٢)، تذكرة يتذكر بها المتقون، وينجز بها المؤمنون، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً] أي: طريقاً موثقاً إليه، وذلك باتباع شرعه، فإنه قد أبانه كل البيان، وأوضحه غاية الإيضاح، وفي هذا دليل على أن الله تعالى أقدر العباد على أفعالهم، ومكنهم منها، لا كما يقوله الجبرية: إن أفعالهم تقع بغير مشيئتهم، فإن هذا خلاف النقل والعقل.

ثم ذكر بعض الأسباب المناسبة للتخفيف، فقال: ﴿علم أن سيكون منكم مرضى﴾ يشق عليهم صلاة ثلاثي الليل أو نصفه أو ثلثه، فليصل المريض التسهيل عليه ^(٣)، ولا يكون أيضاً مأموراً بالصلاة قائماً عند مشقة ذلك، بل لو شقت عليه الصلاة النافلة، فله تركها [وله أجر ما كان يعمل صحيحاً]. ﴿وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله﴾ أي: وعلم أن منكم مسافرين يسافرون للتجارة، ليستغنوا عن الخلق، ويتكفوا عن الناس ^(٤) أي: فالمسافر، حاله تناسب التخفيف، ولهذا خفف عنه في صلاة الفرض، فأبيح له جمع الصلاتين في وقت واحد، وقصر الصلاة الرباعية.

﴿٢٠﴾ إن ربيك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن محصوه فتاب عليكم فاقروا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقروا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ ذكر الله في أول هذه السورة أنه أمر رسوله بقيام نصف الليل، أو ثلثه أو ثلثيه، والأصل أن أمته أسوة له في الأحكام، وذكر في

وكذلك ﴿آخرون يقاتلون في سبيل الله فاقروا ما تيسر منه﴾ فذكر تعالى تخفيفين، تخفيفاً للصحيح المقيم يراعي فيه نشاطه، من غير أن يكلف عليه تحرير الوقت، بل يتحرى الصلاة الفاضلة، وهي ثلث الليل بعد نصفه



الأول.

وتخفيفاً للمريض أو المسافر، سواء كان سفره للتجارة، أو لعبادة، من قتال أو جهاد، أو حج، أو عمرة، ونحو ذلك ^(٥)، فإنه أيضاً يراعي ما لا يكلفه، فله الحمد والثناء، الذي ما جعل على الأمة في الدين ^(٦) من حرج، بل سهل شرعه، وراعى أحوال عباده ومصالح دينهم وأبدانهم ودينامهم.

ثم أمر العباد بعبادتين، هما أم العبادات وعمادها: إقامة الصلاة، التي لا يستقيم الدين إلا بها، وإيتاء الزكاة التي هي برهان الإيمان، وبها تحصل المواساة للفقراء والمساكين، ولهذا قال:

﴿وأقيموا الصلاة﴾ بأركانها، وشروطها، ومكملاتها، ﴿وأقرضوا الله قرضاً حسناً﴾ أي: خالصاً لوجه الله، من نية صادقة، وتشبهاً من النفس، ومال طيب، ويدخل في هذا، الصدقة الواجبة والمستحبة، ثم حث على عموم الخير وأفعاله، فقال: ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً﴾ الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

(٦) في ب: حيث لم يجعل علينا في الدين.

(٤) في ب: ويتكفوا عنهم.

(٥) في ب: أو لعبادة من جهاد أو حج أو غيره.

(١) في ب: خطره.

(٢) في ب: وأحوالها.

(٣) في ب: ما يسهل عليه.

المعروفة، وأنه مأمور بتطهيرها عن [جميع] النجاسات، في جميع الأوقات، خصوصاً في الدخول في الصلوات، وإذا كان مأموراً بتطهير الظاهر، فإن طهارة الظاهر من تمام طهارة الباطن.

﴿والرجز فاهجر﴾ يحتمل أن المراد بالرجز الأصنام والأوثان، التي عبدت مع الله، فأمره بتركها، والبراءة منها وما نسب إليها من قول أو عمل... ويحتمل أن المراد بالرجز أعمال الشر كلها وأقواله، فيكون أمراً له بترك الذنوب، صغيرها وكبيرها^(٤)، ظاهرها وباطنها، فيدخل في ذلك الشرك وما دونه.

﴿ولا تمنن تستكثر﴾ أي: لا تمنن على الناس بما أسديت إليهم من النعم الدينية والدنيوية، فتكثر^(٥) بتلك المنّة، وترى لك [الفضل] عليهم بإحسانك المنّة، بل أحسن إلى الناس مهما أمكنك، وأنس [عندهم] إحسانك، ولا تطلب أجره إلا من الله تعالى، واجعل من أحسنت إليه وغيره على حد سواء.

وقد قيل: إن معنى هذا، لا تعطي أحداً شيئاً، وأنت تريد أن يكافئك عليه بأكثر منه، فيكون هذا خاصاً بالنبي ﷺ.

﴿ولربك فاصبر﴾ أي: احتسب بصبرك، واقصديه وجه الله تعالى، فامتثل رسول الله ﷺ لأمره، وبادر إليه، فأنذر الناس، وأوضح لهم بالآيات البينات جميع المطالب الإلهية، وعظم الله تعالى، ودعا الخلق إلى تعظيمه، وطهر أعماله الظاهرة والباطنة من كل سوء، وهجر كل ما يبعد عن الله^(٦) من الأصنام وأهلها، والشر وأهله، وله المنّة على الناس - بعد منّة الله - من غير أن يطلب منهم

يتغمده الله برحمته ومغفرته، فإنه هالك.

تم تفسير سورة المزمل^(٧)

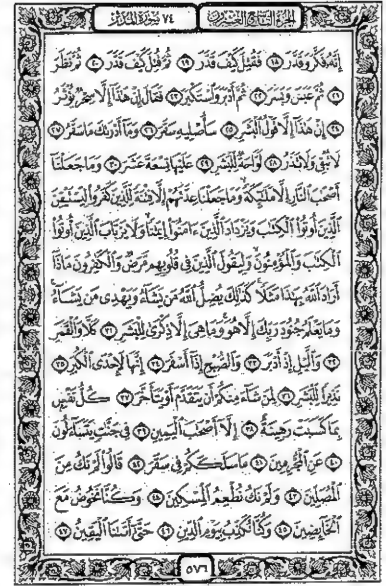
تفسير سورة المدثر [وهي] مكية

﴿١-٧﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبِّكَ فَكْبِرْ * وَثِيَابِكَ فَطَهِّرْ * وَالرَّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ * تقدم أن المزمل والمدثر بمعنى واحد، وأن الله أمر رسوله ﷺ، بالاجتهاد في عبادة الله القاصرة والمتعدية، فتقدم هناك الأمر له بالعبادات الفاضلة القاصرة، والصبر على أذى قومه، وأمره هنا بإعلان الدعوة^(٨)، والصدع بالإنذار، فقال: ﴿قُمْ﴾ [أي] بجد ونشاط ﴿فأَنْذِرْ﴾ الناس بالأقوال والأفعال، التي يحصل بها المقصود، وبيان حال المنذر عنه، ليكون ذلك أدعى لتركه، ﴿وربك فكبر﴾ أي: عظمه بالتوحيد، واجعل قصيدك في إنذارك وجه الله، وأن يعظمه العباد ويقوموا بعبادته.

﴿وثيابك فطهر﴾ يحتمل أن المراد بثيابه، أعماله كلها، وبطهيرها تخليصها والنصح بها، وإيقاعها على أكمل الوجوه، وتنقيتها عن المبطلات والمفسدات، والمنقصات من شرك ورياء، [ونفاق]، وعجب، وتكبر، وغفلة، وغير ذلك، مما يؤمر العبد باجتنابه في عبادته.

ويدخل في ذلك تطهير الثياب من النجاسة، فإن ذلك من تمام التطهير للأعمال خصوصاً في الصلاة، التي قال كثير من العلماء: إن إزالة النجاسة عنها شرط من شروط الصلاة.

ويحتمل أن المراد بثيابه، الثياب



وليعلم أن مثقال ذرة من الخير في هذه الدار، يقابله أضعاف أضعاف الدنيا، وما عليها في دار النعيم المقيم، من اللذات والشهوات، وأن الخير والبر في هذه الدنيا، مادة الخير والبر في دار القرار، وبذره وأصله وأساسه، فوا أسفاه على أوقات مضت في الغفلات، ووا حسرتاه على أزمان تقضت بغير الأعمال الصالحات، ووا غوثاه من قلوب لم يؤثر فيها وعظ بارئها، ولم ينتجع فيها تشويق من هو أرحم بها منها^(٩).

فلك اللهم الحمد، وإليك المشتكى، وربك المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا بك..

﴿واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ وفي الأمر بالاستغفار بعد الحث على أفعال الطاعة والخير، فائدة كبيرة، وذلك أن العبد بما يخلو من التقصير فيما أمر به، إما أن لا يفعله أصلاً أو يفعله على وجه ناقص، فأمر بترقيع ذلك بالاستغفار، فإن العبد يذنب أثناء الليل والنهار، فمتى لم

(١) في ب: أرحم بها من نفسها.

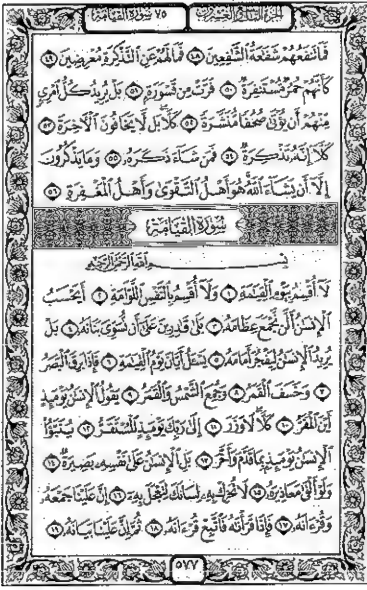
(٢) في ب: تم تفسيرها والحمد لله.

(٣) في ب: بالإعلان بالدعوة.

(٤) في ب: صغارها وكبارها.

(٥) في ب: فتستكثر.

(٦) في ب: وهجر كل ما يبعد من دون الله وما يبعد منه.



على ذلك^(١) جزاء ولا شكوراً، وصبر لله أكمل صبر، فصبر على طاعة الله، وعن معاصي الله، وعلى أقدار الله المؤلمة^(٢)، حتى فاق أولي العزم من المرسلين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

﴿٨-١٠﴾ فإذا نقر في الناقور * فذلك يومئذ يوم عسير * على الكافرين غير يسير * أي: فإذا نفخ في الصور للقيام من القبور، وجمع الخلق^(٣) للبعث والنشور. فذلك يومئذ يوم عسير * لكثرة أهواله وشدائده * على الكافرين غير يسير * لأنهم قد أيسوا من كل خير، وأيقنوا بالهلاك والوزار.

ومفهوم ذلك أنه على المؤمنين يسير، كما قال تعالى: ﴿يقول الكافرون هذا يوم عسير﴾.

﴿١١-٣١﴾ ذرني ومن خلقت وحيداً * وجعلت له مالا ممدوداً * وبين شهوداً * ومهدت له تمهيداً * ثم يطعم أن أزيد * كلا إنه كان لآياتنا عنيداً * سأرققه صعوداً * إنه فكر وقدر * فقتل كيف قدر * ثم قتل كيف قدر * ثم نظر * ثم عبس وبسر * ثم أدبر واستكبر * فقال إن هذا إلا سحر يؤثر * إن هذا إلا قول البشر * سأصليه سقر * وما أدراك ما سقر * لا تبقي ولا تذر * لواحة للبشر * عليها تسعة عشر * وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً كذلك يضل الله من

عيس وبسر * في وجهه، وظهره نفرة عن الحق وبغضاً له، ﴿ثم أدبر﴾ أي: تولى ﴿واستكبر﴾ نتيجة سعيه الفكري والعقلي والقولي، أن قال: ﴿إن هذا إلا سحر يؤثر﴾ * إن هذا إلا قول البشر * أي: ما هذا كلام الله، بل كلام البشر، وليس أيضاً كلام البشر الأخيار، بل كلام الفجار منهم والأشرار، من كل كاذب سخار، فتباً له، ما أبعد من الصواب، وأخراه بالحضارة والتباب!

كيف يدور في الأذهان، أو يتصوره ضمير كل إنسان، أن يكون أعلى الكلام وأعظمه، كلام الرب العظيم، الماجد الكريم، يشبه كلام المخلوقين الفقراء الناقصين!

أم كيف يتجرأ هذا الكاذب العنيد، على وصفه كلام المبدئ المعيد^(٧). فما حقه إلا العذاب الشديد والنكال، ولهذا قال تعالى: ﴿سأصليه سقر﴾ * وما أدراك ما سقر * لا تبقي ولا تذر * أي:

﴿ومهدت له تمهيداً﴾ أي: مكنته من الدنيا وأسبابها، حتى انقادت له مطالبه، وحصل على^(٤) ما يشتهي ويريد، ﴿ثم﴾ مع هذه النعم والإمدادات ﴿يطعم أن أزيد﴾ أي: يطعم أن ينال نعيم الآخرة كما نال نعيم الدنيا. ﴿كلا﴾ أي: ليس الأمر كما طمع، بل هو بخلاف مقصوده ومطلوبه، وذلك لأنه ﴿كان لآياتنا عنيداً﴾ أي: معانداً، عرفها ثم أنكرها، ودعته إلى الحق فلم يتقبلها ولم يكفه أنه أعرض وتولى عنها، بل جعل يحاربها ويسعى في إبطالها، ولهذا قال عنه: ﴿إنه فكر﴾ [أي: في نفسه، وقدر] ما فكر فيه، ليقول قولاً يبطل به القرآن.

﴿فقتل كيف قدر﴾ * ثم قتل كيف قدر * لأنه قدر أمراً ليس في طوره، وتصور على ما لا يناله هو [لا أمثاله، ﴿ثم نظر﴾ ما يقول، ﴿ثم

﴿فقتل كيف قدر﴾ * ثم قتل كيف قدر * لأنه قدر أمراً ليس في طوره، وتصور على ما لا يناله هو [لا أمثاله، ﴿ثم نظر﴾ ما يقول، ﴿ثم

(١) في ب: أن يطلب عليهم بذلك.

(٢) في ب: وصبر لربه أكمل صبر، فصبر على طاعة الله وعن معاصيه، وصبر على أقداره المؤلمة.

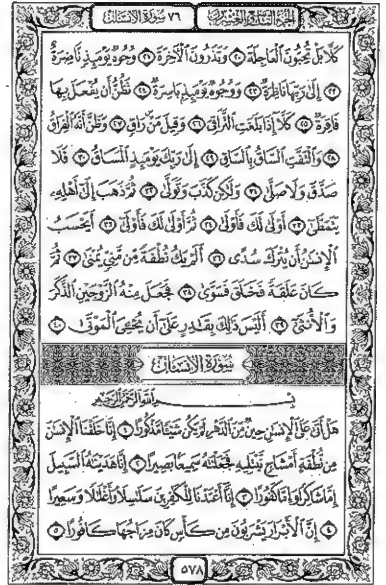
(٣) في ب: الخلائق.

(٤) في ب: لم يذم به غيره.

(٥) في ب: أريبه، وأعطيه.

(٦) في ب: وحصل له.

(٧) في ب: على وصفه بهذا الوصف لكلام الله تعالى.



لا تبقي من الشدة، ولا على المعبذ شيئاً إلا وبلغته، ﴿لَوْاحَةٌ لِلْبُشْرِ﴾ أي: تلوحهم [وتصليهم] في عذابها، وتقلقهم بشدة حرها وقَرَمها.

﴿عليها تسعة عشر﴾ من الملائكة، خزنة لها، غلاظ شداد، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة﴾ وذلك لشديتهم وقوتهم.

﴿وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا﴾ يحتمل أن المراد: إلا لعدائهم وعقابهم في الآخرة، ولزيادة تكاليفهم فيها، والعذاب يسمى فتنة، [كما قال تعالى: ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾] ويحتمل أن المراد: أننا أخبرناكم بعدتهم، إلا لنعلم من يصدق ومن يكذب، ويدل على هذا، ما ذكر بغده في قوله: ﴿ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً﴾ فإن أهل الكتاب، إذا وافق ما عندهم وطابقه، ازداد يقينهم بالحق، والمؤمنون كلما أنزل الله آية، فآمنوا بها وصدقوا، ازداد إيمانهم، ﴿ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون﴾ أي: ليزول عنهم الريب والشك، وهذه مقاصد جليلة، يعتني بها أولو الألباب، وهي السعي في اليقين، وزيادة الإيمان في

كل وقت، وكل مسألة من مسائل الدين، ودفع الشكوك والأروهام التي تعرض في مقابلة الحق، فجعل ما أنزله الله على رسوله محصلاً لهذه الفوائد^(١) الجليلة، ويميزاً للكاذبين من الصادقين، ولهذا قال: ﴿وليقول الذين في قلوبهم مرض﴾ أي: شك وشبهة ونفاق. ﴿والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ وهذا على وجه الحيرة والشك، والكفر منهم بآيات الله، وهذا وذاك من هداية الله لمن يهديه، وإضلاله لمن يضل، ولهذا قال:

﴿كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾ فمن هده الله، جعل ما أنزله الله على رسوله رحمة في حقه، وزيادة في إيمانه ودينه، ومن أضله، جعل ما أنزله على رسوله زيادة شقاء عليه وحيرة، وظلمه في حقه، والواجب أن يتلقى ما أخبر الله به ورسوله بالتسليم، فإنه لا يعلم جنود ربك من الملائكة وغيرهم ﴿إلا هو﴾ فإذا كنتم جاهلين بجنوده، وأخبركم بها العليم الخبير، فعليكم أن تصدقوا خبره، من غير شك ولا ارتياب، ﴿وما هي إلا ذكرى للبشر﴾ أي: وما هذه الموعظة والتذكير مقصوداً به العتب واللعب، وإنما المقصود به، أن يتذكر [به] البشر ما ينفعهم في فعلونه، وما يضرهم في تركونه.

﴿٣٢-٥٦﴾ ﴿كلا والقمر﴾ والليل إذا أدبر. ﴿والصبح إذا أسفر﴾ إنها لإحدى الكبر. ﴿نذيراً للبشر﴾ لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ إلا أصحاب اليمين. ﴿في جنات يتساءلون﴾ عن المجرمين. ﴿ما سلككم في سقر﴾ قالوا لم نك من المصلين. ﴿ولم نك نطعم المسكين﴾ وكنا نخوض مع الخائضين. ﴿وكنا نكذب بيوم الدين﴾ حتى أتانا اليقين. ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ فما لهم عن التذكرة معرضين. ﴿كانهم هم مستنفرة﴾

فرت من قسورة. ﴿بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشرة﴾ كلاً بل لا يخافون الآخرة. ﴿كلاً إنه تذكرة﴾ فمن شاء ذكره. ﴿وما يذكرون﴾ إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة. ﴿كلاً﴾ هنا بمعنى: حقاً، أو بمعنى «ألا» الاستفاحية، فأقسم تعالى بالقمر، وبالليل وقت إداره، والنهار وقت إسفاره، لاشتمال المذكورات على آيات الله العظيمة، الدالة على كمال قدرة الله وحكمته، وسعة سلطانه، وعموم رحمته، وإحاطة علمه والمقسم عليه قوله: ﴿إنها﴾ أي: النار. ﴿لإحدى الكبر﴾ أي: لإحدى العظائم الطامة والأمور الهامة، فإذا أعلمناكم بها، وكنتم على بصيرة من أمرها، فمن شاء متاكم أن يتقدم، فيعمل بما يقربه من ربه، ويدينه من رضاه، وبزلفه من دار كرامته، أو يتأخر [عما خلق له] عما يحبه الله [ويرضاه]، فيعمل بالمعاصي، ويتقرب إلى نار جهنم، كما قال تعالى: ﴿وقل الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر﴾ الآية.

﴿كل نفس بما كسبت﴾ من أعمال السوء وأفعال الشر، ﴿رهينة﴾ بها موقوفة بسنتيها، قد ألزم عتقها، وغل في رقيتها، واستوجبت به العذاب، ﴿إلا أصحاب اليمين﴾ فإنهم لم يرتكبوا، بل أطلقوا وفرحوا. ﴿في جنات يتساءلون﴾ عن المجرمين. أي: في جنات قد حصل لهم بها جميع مطلوباتهم، وتمت لهم الراحة والطمأنينة، حتى أقبلوا يتساءلون، فأفضت بهم المحادثة، أن سألوا عن المجرمين، أي: حال وصلوا إليها، وهل وجدوا ما وعدهم الله تعالى؟

فقال بعضهم لبعض: «هل أنتم مطلعون عليهم»، فاطلعوا عليهم في وسط الجحيم يعذبون، فقالوا لهم: ﴿ما سلككم في سقر﴾ أي: أي شيء أدخلكم فيها؟ وبأي: ذنب استحققتموها؟ فـ ﴿قالوا لم نك من

المصلين * ولم نك نطعم المسكين* فلا إخلاص للمعبود، [ولا إحسان] ولا نفع للخلق المحتاجين.

«وكنّا نخوض مع الخافضين» أي: نخوض بالباطل، ونجادل به الحق، «وكنّا نكذب بيوم الدين» هذا آثار الخوض بالباطل، [وهو] التكذيب بالحق، ومن أحق الحق، يوم الدين، الذي هو محل الجزاء على الأعمال، وظهور ملك الله وحكمه العدل لسائر الخلق.

فاستمرينا على هذا المذهب الفاسد^(١) «حتى أتانا اليقين» أي: الموت، فلما ماتوا على الكفر تعذرت حينئذ عليهم الخيل، وأنسد في وجوههم باب الأمل، «فما تتفهمهم شفاعة الشافعين» لأنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى، وهؤلاء لا يرضى الله أعمالهم^(٢).

فلما بين الله مآل المخالفين، ورهب مما^(٣) يفعل بهم، عطف على الموجودين بالعتاب واللوم، فقال: «فما لهم عن التذكرة معرضين» أي: صادين غافلين عنها.

«كأنهم» في نفرتهم الشديدة منها «همز مستنفرة» أي: كأنهم همز وحش نفرت فنفر بعضها بعضاً، فزاد عدوها، «فرت من قسورة» أي: من صائد ورام يريد بها، أو من أسد ونحوه، وهذا من أعظم ما يكون من النفور عن الحق، ومع هذا الإعراض وهذا النفور، يدعون الدعاوى الكبار. في «يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً متشرة» نازلة عليه من السماء، يزعم أنه لا ينقاد للحق إلا بذلك، وقد كذبوا، فإنهم لو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، فإنهم

جاءتهم الآيات البينات التي تبين الحق وتوضحه، فلو كان فيهم خير لآمنوا، ولهذا قال: «كلا» أن نعطيهم ما طلبوا، وهم ما قصدوا بذلك إلا التعجيز، «بل لا يخافون الآخرة» فلو كانوا يخافونها، لما جرى منهم ما جرى.

«كلا إنه تذكرة» الضمير إما أن يعود على هذه السورة، أو على ما اشتملت عليه [من] هذه الموعظة، «فمن شاء ذكره» لأنه قد بين له السبل، ووضح له الدليل.

«وما يذكرون إلا أن يشاء الله» فإن مشيئته^(٤) نافذة عامة، لا يخرج عنها حادث قليل ولا كثير، ففيها رد على القدرة، الذين لا يدخلون أفعال العباد تحت مشيئة الله، والجبرية، الذين يزعمون أنه ليس للعبد مشيئة، ولا فعل حقيقة، وإنما هو مجبور على أفعاله، فأثبت تعالى للعباد مشيئة حقيقة وفعلاً، وجعل ذلك تابعاً لمشيئته، «هو أهل التقوى وأهل المغفرة» أي: هو أهل أن يتقى ويعبد، لأنه الإله الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وأهل أن يغفر لمن اتقاه واتبع رضاه.

تم تفسير سورة المدثر،
ولله الحمد^(٥)

تفسير سورة القيامة [وهي] مكية

﴿١-٦﴾ «بسم الله الرحمن الرحيم لا أقسم بيوم القيامة * ولا أقسم بالنفس اللوامة * أيعسى الإنسان أن لن نجتمع عظامه * بل قادرين على أن نسوي بنانه * بل يريد الإنسان ليفجر أمامه * يسأل أيان يوم القيامة» ليست «لا» [ها] هنا نافية،

[ولا زائدة] وإنما أتى بها للاستفتاح والاهتمام بما بعدها، ولكثرة الإتيان بها مع اليمين، لا يستغرب الاستفتاح بها، وإن لم تكن في الأصل موضوعة للاستفتاح.

فالقسم به في هذا الموضع، هو المقسم عليه، وهو البعث بعد الموت، وقيام الناس من قبورهم، ثم وقوفهم ينتظرون ما يحكم به الرب عليهم، «ولا أقسم بالنفس اللوامة» وهي جميع النفوس الخيرة والفاجرة، سُميت «لوامة» لكثرة ترددها وتلومها، وعدم ثبوتها على حالة من أحوالها، ولأنها عند الموت تلوم صاحبها على ما عملت^(٦)، بل نفس المؤمن تلوم صاحبها في الدنيا على ما حصل منه، من تفريط أو تقصير في حق من الحقوق، أو غفلة، فجمع بين الإقسام بالجزاء، وعلى الجزاء، وبين مستحق الجزاء.

ثم أخبر مع هذا، أن بعض المعاندين يكذب بيوم القيامة، فقال: «أيعسى الإنسان أن لن نجتمع عظامه» بعد الموت، كما قال في الآية الأخرى: «قال من يحيي العظام وهي رميم»؟ فاستبعد من جهله وعدوانه قدرة الله على خلق عظامه التي هي عماد البدن، فرد عليه بقوله: «بلى قادرين على أن نسوي بنانه» أي: أطراف أصابعه وعظامه، المستلزم ذلك لخلق جميع أجزاء البدن، لأنها إذا وجدت الأنامل والبنان، فقد تمت خلقة الجسد، وليس إنكاره لقدرة الله تعالى قصوراً بالدليل الدال على ذلك، وإنما [وقع] ذلك منه أن قصده وإرادته أن يكذب^(٧) بما أمامه من البعث. والفجور: الكذب مع التعمد.

(١) في ب: الباطل.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ولا يرضى أعمالهم.

(٣) في ب: وبين ما يفعل بهم.

(٤) في ب: فإن مشيئة الله.

(٥) في ب: تمت والله الحمد والمنة.

(٦) في ب: على ما فعلت.

(٧) في ب: لأن إرادته وقصده التكذيب.

ثم ذكر أحوال القيامة فقال :

﴿٧-١٥﴾ ﴿فإذا برق البصر﴾

وخسف القمر * وجمع الشمس والقمر * يقول الإنسان يومئذ أين المفر * كلا لا وزر * إلى ربك يومئذ المستقر * ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر * بل الإنسان على نفسه بصيرة * ولو ألقى معاذيره.

أي : إذا كانت القيامة برقت الأبصار من الهول العظيم ، وشخصت فلا تطرف كما قال تعالى : ﴿إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ مهطعين مقتعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء * وخسف القمر * أي : ذهب نوره وسلطانه ، وجمع الشمس والقمر * وهما لم يجتمعا منذ خلقهما الله تعالى ، فيجمع الله بينهما يوم القيامة ، ويخسف القمر ، وتكور الشمس ، ثم يقذفان في النار ، ليرى العباد أنهما عبدان مسخران ، ليرى من عبدهما أنهم كانوا كاذبين .

﴿يقول الإنسان﴾ حين يرى تلك القلائل المزعجات : ﴿أين المفر؟﴾ أي : أين الخلاص والفرار مما طرقتنا وأصابنا^(١) ؟

﴿كلا لا وزر﴾ أي : لا متلجأ لأحد دون الله ، ﴿إلى ربك يومئذ المستقر﴾ لسائر العباد ، فليس في إمكان أحد أن يستتر أو يهرب عن ذلك الموضع ، بل لا بد من إيقافه ليجزى بعمله ، ولهذا قال : ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾ أي : بجميع عمله الحسن والسيئ ، في أول وقته وآخره ، وينبأ بخبر لا ينكره ، ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾ أي : شاهدا ومحاسباً ، ﴿ولو ألقى معاذيره﴾ فإنها معاذير لا تقبل ، ولا تقابل ما يقرر به العبد^(٢) ، فيقرر به ، كما قال تعالى :

﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ .

فالعبد وإن أنكر ، أو اعتذر عما عمله ، فإنكاره واعتذاره يقيدانه شيئاً ، لأنه يشهد عليه سمعه وبصره وجميع جوارحه بما كان يعمل ، ولأن استعتابه قد ذهب وقته وزال نفعه : ﴿فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون﴾ .

﴿١٦-١٩﴾ ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾ * ﴿إن علينا جمعه وقرآنه﴾ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه﴾ كان النبي ﷺ إذا جاءه جبريل بالوحي ، وشرع في تلاوته عليه ، بادره النبي ﷺ من الحرص قبل أن يفرغ ، وتلاه مع تلاوة جبريل إياه ، فنهاه الله عن هذا ، وقال : ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه﴾ .

وقال هنا : ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾ * ثم ضمن له تعالى أنه لا بد أن يحفظه ويقرأه ، ويجمعه الله في صدره ، فقال : ﴿إن علينا جمعه وقرآنه﴾ فاحرص الذي في خاطرك ، إنما الداعي له حذر القوات والنسيان ، فإذا ضمنه الله لك ، فلا موجب لذلك .

﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾ أي : إذا كمل جبريل قراءة ما أوحى الله^(٣) إليك ، فحينئذ اتبع ما قرأه وأقرأه . ﴿ثم إن علينا بيانه﴾ أي : بيان معانيه ، فوعده بحفظ لفظه وحفظ معانيه ، وهذا أعلى ما يكون ، فامتثل ﷺ لأدب ربه ، فكان إذا تلا عليه جبريل القرآن بعد هذا ، أنصت له ، فإذا فرغ قرأه .

وفي هذه الآية أدب لأخذ العلم ، أن لا يبادر المتعلم العلم قبل أن يفرغ من^(٤) المسألة التي شرع فيها ، فإذا فرغ منها سأل عما أشكل عليه ، وكذلك إذا

كان في أول الكلام ما يوجب الرد أو الاستحسان ، أن لا يبادر برده أو قبوله ، حتى يفرغ من ذلك الكلام ، ليتبين ما فيه من حق أو باطل ، وليفهمه فهماً يتمكن به من الكلام عليه .

وفيها : أن النبي ﷺ كما بين للأمة الفاظ الوحي ، فإنه قد بين لهم معانيه .

﴿٢٠-٢٥﴾ ﴿كلا بل تحبون العاجلة﴾ * وتذرون الآخرة * وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة * وجوه يومئذ باسرة * تظن أن يفعل بها فاقرة﴾ أي : هذا الذي أوجب لكم الغفلة والإعراض عن وعظ الله وتذكيره أنكم ﴿تحبون العاجلة﴾ وتسعون فيما يحصلها ، وفي لذاتها وشهواتها ، وتؤثرونها على الآخرة ، فتذرون العمل لها ، لأن الدنيا نعيمها ولذاتها عاجلة ، والإنسان مولع بحب العاجل ، والآخرة متأخر ما فيها من النعيم المقيم ، فلذلك غفلتم عنها وتركتموها ، كأنكم لم تخلقوا لها ، وكان هذه الدار هي دار القرار ، التي تبذل فيها نفائس الأعمار ، ويسعى لها آتاء الليل والنهار ، وبهذا انقلبت عليكم الحقيقة ، وحصل من الخسار ما حصل .

فلو أثرتم الآخرة على الدنيا ، ونظرتهم للعواقب نظر البصير العاقل لأنجحتهم ، وربحتهم ربحاً لا خسارة معه ، وفزتم فوزاً لا شقاء يصحبه .

ثم ذكر ما يدعو إلى إشار الآخرة ، ببيان حال أهلها وتفاوتهم فيها ، فقال في جزاء المؤثرين للآخرة على الدنيا : ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ أي : حسنة بهية ، لها رونق وتور ، مما هم فيه من نعيم القلوب ، وبهجة النفوس ، ولذة الأرواح ، ﴿إلى ربها ناظرة﴾ أي : تنظر إلى ربها^(٥) على حسب مراتبهم : منهم

(١) في ب : والفكاك مما طرقتنا وألم بنا .

(٢) في ب : بل يقرر بعمله .

(٣) في ب : إذا أكمل جبريل ما يوحى إليك .

(٤) في ب : أن لا يبادر المتعلم للعلم قبل أن يفرغ المعلم .

(٥) في ب : أي ينظرون إلى ربهم .

خلق الإنسان هذه [وطوره إلى] الأطوار المختلفة [بقادر على أن يحيي الموتى] بلى إنه على كل شيء قدير .

تم تفسير سورة القيامة ، والله الحمد والمنة ، وذلك في ١٦ صفر سنة ١٣٤٤ هـ .

المجلد التاسع من تيسير الكريم الرحمن في تفسير القرآن لجامعه الفقير إلى الله: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي غفر الله له ولوالديه وللمسلمين آمين .

تفسير سورة هل أتى على الإنسان وهي مكية

﴿١ - ٣﴾ «بسم الله الرحمن الرحيم هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً * إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً * إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً» ذكر الله في هذه السورة الكريمة أول حالة الإنسان ومبتدأها ومتوسطها ومنتهاها .

فذكر أنه مر عليه دهرٌ طويل ، وهو الذي قبل وجوده ، وهو معدوم بل ليس مذكوراً .

ثم لما أراد الله تعالى خلقه ، خلق [أباه] آدم من طين ، ثم جعل نسله متسلسلاً «من نطفة أمشاج» أي : ماء مهين مستقذر «نبتليه» بذلك ، لنعلم هل يرى حاله الأولى ، ويتفطن لها أم ينساها وتغره نفسه ؟

فأنشأ الله ، وخلق له القوى الباطنة والظاهرة ، كالسمع والبصر ، وسائر الأعضاء ، فأتمها له وجعلها سالمة يتمكن بها من تحصيل مقاصده .

ثم أرسل إليه الرسل ، وأنزل عليه الكتب ، وهدهد الطريق الموصلة

ولكن القضاء والقدر ، إذا حتم وجاء فلا مرد له ، «وظن أنه الفراق» للدنيا .

«والتفت الساق بالساق» أي : اجتمعت الشدائد والتفت ، وعظم الأمر وصعب الكرب ، وأريد أن تخرج الروح التي ألقت البدن^(٤) ولم تزل معه ، فتساق إلى الله تعالى ، حتى يجازيها بأعمالها ، ويقررها بفعالها .

فهذا الزجر ، [الذي ذكره الله] يسوق القلوب إلى ما فيه نجاتها ، ويزجرها عما فيه هلاكها .

ولكن المعاند الذي^(٥) لا تنفع فيه الآيات ، لا يزال مستمراً على بغيه وكفره وعناده .

«فلا صدق» أي : لا آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره «ولا صلى» ولكن كذب «بالحق في مقابلة التصديق» «وتولى» عن الأمر والنهي ، هذا وهو مطمئن قلبه ، غير خائف من ربه ، بل يذهب «إلى أهله يتمطى» أي : ليس على باله شيء ، توعده بقوله : «أولى لك فأولى» ثم أولى لك فأولى» وهذه كلمات وعيد ، كررها لتكرير وعيده ، ثم ذكر الإنسان بخلقه الأول ، فقال : «أحسب الإنسان أن يترك سدى» أي : معطلاً^(٦) ، لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يُشأب ولا يُعاقب؟ هذا حسان باطل ، وظن بالله غير ما يليق بحكمته .

«ألم يك نطفة من مني يمى» ثم كان «بعد المنى» «علقة» أي : دماً ، «فخلق» الله منها الحيوان وسواه أي : أتقنه وأحكمه ، «فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى» «أليس ذلك» الذي

من ينظره كل يوم بكرة وعشيا ، ومنهم من ينظره كل جمعة مرة واحدة ، فيتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم ، وجماله الباهر ، الذي ليس كمثل شيء ، فإذا رأوه نسوا ما هم فيه من النعيم وحصل لهم من البذة والسرور ما لا يمكن التعبير عنه ، ونضرت وجوههم ، وازدادوا جمالاً إلى جمالهم ، فنسأل الله الكريم أن يجعلنا معهم .

وقال في المؤثرين العاجلة على الآجلة : «وجوه يومئذ باسرة» أي : معبسة ومكدرة^(١) ، خاشعة ذليلة «تظن أن يفعل بها فاقرة» أي : عقوبة شديدة ، وعذاب أليم ، فلذلك تغيرت وجوههم وعيست .

﴿٢٦ - ٤٠﴾ «كلا إذا نسفنت التراقي» وقيل من راق * «وطني أنه الفراق» والتفت الساق بالساق * إلى ربك يومئذ المساق * فلا صدق ولا صلى * ولكن كذب وتولى * ثم ذهب إلى أهله يتمطى * أولى لك فأولى * ثم أولى لك فأولى * ألم يك نطفة من مني يمى * ثم كان علقه فخلق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى» يعظ تعالى عباده ، بذكر حال المحتضر عند السياق^(٢) ، وأنه إذا بلغت روحه التراقي ، وهي العظام المكتنفة لشجرة النجر ، فحيث يشد الكرب ، ويطلب كل وسيلة وسبب ، يظن أن يحصل به الشفاء والراحة ، ولهذا قال : «وقيل من راق» أي : من يرقيه ، من الرقية ، لأنهم انقطععت آمالهم من الأسباب العادية ، فلم يبق إلا الأسباب الإلهية^(٣) .

(١) في ب : كدرة .

(٢) في ب : بذكر المحتضر حال السياق .

(٣) في ب : فتعلقوا بالأسباب الإلهية .

(٤) في ب : أن تخرج الروح من البدن الذي ألفته .

(٥) كذا في ب ، وفي أ : التي .

(٦) في ب : أي مهملاً .

(٧) في ب : والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وسلم .

إلى الله^(١)، ورغبه فيها، وأخبره بما له عند الوصول إلى الله.

ثم أخبره بالطريق الموصلة إلى الهلاك، ورهبه منها، وأخبره بما له إذا سلكتها، وابتلاء بذلك، فانقسم الناس إلى شاكركم لنعمة الله عليه، قائم بما حملة الله من حقوقه، وإلى كفور لنعمة الله عليه، أنعم الله عليه بالنعم الدينية والدنيوية، فردّها، وكفر بربه، وسلك الطريق الموصلة إلى الهلاك.

ثم ذكر تعالى حال الفريقين عند الجزاء فقال:

﴿٤ - ٢٢﴾ **﴿إنا أعددنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً﴾** * **﴿إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً﴾** إلى آخر الثواب أي: إنا هيئنا وأرصدنا لمن كفر بالله، وكذب رسله، وتحزأ على المعاصي **﴿سلاسل﴾** في نار جهنم، كما قال تعالى: **﴿ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوها﴾**.

﴿وأغلالاً﴾ تغل بها أيديهم إلى أعناقهم ويوثقون بها.

﴿وسعيراً﴾ أي: ناراً تستعر بها أجسامهم، وتحرق بها أبدانهم، **﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها، ليذوقوا العذاب﴾**، وهذا العذاب دائم لهم أبداً، يخلدون فيه سرمداً.

وأما **﴿الأبرار﴾** وهم الذين برت قلوبهم بما فيها من محبة الله ومعرفته، والأخلاق الجميلة، فبرت جوارحهم^(٢)، واستعملوها بأعمال البر، أخبر أنهم **﴿يشربون من كأس﴾** أي: شراب لذيذ من خمر قد مزج بكافور أي: خلط بكافور، ليبرده ويكسر حدة، وهذا الكافور [في غاية اللذة]، قد سلم من كل مكدر ومنغص، موجود في كافور الدنيا،

فإن الآفة الموجودة في الأسماء التي ذكر الله أيها في الجنة وهي في الدنيا تعدم في الآخرة^(٣).

كما قال تعالى: **﴿في سدر مخضود وطلح منضود﴾**، وأزواج مطهرة **﴿لهم دار السلام عند ربهم﴾** وفيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلد الأعين.

﴿هيناً يشرب بها عباد الله﴾ أي: ذلك الكأس اللذيذ الذي يشربون به، لا يخافون نفاذه، بل له مادة لا تنقطع، وهي عين دائمة الفيضان والجريان، يفجرها عباد الله تفجيراً، أنى شأؤوا، وكيف أرادوا، فإن شأؤوا صرفوها إلى البساتين الزاهرات، أو إلى الرياض الناضرات، أو بين جوانب القصور والمساكن المزخرفات، أو إلى أي: جهة يرونها من الجهات الموقفات.

وقد ذكر^(٤) جملة من أعمالهم في أول هذه السورة، فقال: **﴿يوفون بالندى﴾** أي: بما ألزموا به أنفسهم الله من النذور والمعاهدات، وإذا كانوا يوفون بالندى، وهو لم يجب^(٥) عليهم، إلا بإيجابهم على أنفسهم، كان فعلهم وقيامهم بالفروض الأصلية، من باب أولى وأحرى، **﴿ويخافون يوماً كان شره مستطيراً﴾** أي: منتشرأفاشياً، فخافوا أن ينالهم شره، فتركوا كل سبب موجب لذلك، **﴿ويطعمون الطعام على حبه﴾** أي: وهم في حال يجبون فيها المال والطعام، لكنهم قدموا محبة الله على محبة نفوسهم، ويتحرون في إطعامهم أولى الناس وأحوجهم، **﴿مسكيناً وييتماً وأسيراً﴾**.

ويقصدون بإنفاقهم وإطعامهم وجه الله تعالى، ويقولون بلسان الحال: **﴿إنما نطعمكم لوجه الله﴾** لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً^(٦) أي:

لا جزاء مالياً، ولا ثناء قولياً.

﴿إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً﴾ أي: شديد الجهمة والشر **﴿قمطيراً﴾** أي: ضنكاً ضيقاً، **﴿فوقاهم الله شر ذلك اليوم﴾** فلا يجزئهم الفزع الأكبر، وتلقاهم الملائكة [هكذا يومكم الذي كنتم توعدون].

﴿ولقاهم﴾ أي: أكرمهم وأعطاهم **﴿نضرة﴾** في وجوههم **﴿وسروراً﴾** في قلوبهم، فجمع لهم بين نعيم الظاهر والباطن، **﴿وجزاهم بما صبروا﴾** على طاعة الله، فعملوا ما أمكنهم منها، وعن معاصي الله، فتركوها، وعلى أقدار الله المؤلة، فلم يتسخطوها، **﴿جنة﴾** جامعة لكل نعيم، سالمة من كل مكدر ومنغص، **﴿وحريراً﴾** كما قال [تعالى]: **﴿وليأسهم فيها حريراً﴾** ولعل الله إنما خص الحرير، لأنه لباسهم الظاهر، الدال على حال صاحبه.

﴿متكئين فيها على الأرائك﴾ الاتكاء: التمكن من الجلوس، في حال الرفاهية والطمأنينة [الراحة]، والأرائك هي السرر التي عليها اللباس المزين، **﴿لا يرون فيها﴾** أي: في الجنة **﴿شمساً﴾** يضربهم حرها، **﴿ولا زمهريراً﴾** أي: بزداً شديداً، بل جميع أوقاتهم في ظل ظليل، لا حر ولا برد، بحيث تلذذ به الأجساد، ولا تألم من حر ولا برد.

﴿ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلًا﴾ أي: قربت ثمراتها من مريدها تقريباً ينالها، وهو قائم، أو قاعد، أو مضطجع.

ويطاف على أهل الجنة أي: يدور [عليهم] الخدم والولدان^(٦) **﴿بآنية من فضة﴾** وأكواب كانت قواريراً * قوارير من فضة^(٦) أي: مادتها من فضة،

(١) في ب: الطريق الموصلة إليه وبينها.

(٢) في ب: أعمالهم.

(٣) في ب: الموجودة في الدنيا تنعدم من الأسماء التي ذكرها الله في الجنة.

(٤) في ب: ثم ذكر.

(٥) في ب: الذي هو غير واجب.

(٦) في ب: **﴿ويطاف عليهم﴾** أي: يدور الولدان والخدم على أهل الجنة.

الجارية، والرياض المعجبة، والطيور المطربة [المشجبة]، ما يأخذ بالقلوب، ويفرح النفوس.

وعنده من الزوجات، اللاتي هن في غاية الحسن والإحسان، الجامعات لجمال الظاهر والباطن، الخيرات الحسان، ما يملأ القلب سروراً، ولذة وحبوراً، وحوله من الولدان المخلدين، والخدم المؤيدين، ما به تحصل الراحة والطمأنينة، وتتم لذة العيش، وتكمل الغبطة.

ثم علاوة ذلك ومعظمه، الفوز برؤية (٣) الرب الرحيم، وسماع خطابه، ولذة قربه، والابتهاج برضاه، والخلود الدائم، وتزايد ما هم فيه من النعيم كل وقت وحين، فسبحان الملك

المالك، الحق المبين، الذي لا تنفذ خزائنه، ولا يقل خيره، فكما لا نهاية لأوصافه، فلا نهاية لبره وإحسانه، **﴿عليهم ثياب سندس خضر﴾** أي: قد جللتهم ثياب السندس والاستبرق الأخضران، اللذان هما أجل أنواع الحرير، فالسندس: ما غلظ من الديباج (٤)، والاستبرق: ما رق منه.

﴿وحلوا أساور من فضة﴾ أي: حلوا في أيديهم أساور الفضة، ذكورهم وإناثهم، وهذا وعد وعدهم الله، وكان وعده مفعولاً، لأنه لا أصدق منه قليلاً ولا حديثاً.

وقوله: **﴿وسقاهم ربهم شرباً طهوراً﴾** أي: لا كدر فيه بوجه من الوجوه، مطهراً لما في بطونهم من كل أذى وقذى.

﴿إن هذا﴾ الجزء الجزيل والعطاء الجميل **﴿كان لكم جزاء﴾** على ما أسلفتموه من الأعمال، **﴿وكان سعيكم مشكوراً﴾** أي: القليل منه، يجعل الله لكم به من النعيم المقيم ما لا يمكن

[وهي] على صفاء القوارير، وهذا من أعجب الأشياء، أن تكون الفضة الكثيفة، من صفاء جوهرها، وطيب معدنها، على صفاء القوارير.

﴿قدروها تقدير﴾ أي: قدروا الأواني المذكورة على قدر ربيهم، لا تزيد ولا تنقص، لأنها لو زادت نقصت لذتها، ولو نقصت لم تف برهم (١).

ويحتمل أن المراد: قدرها أهل الجنة بنفوسهم بمقدار يوافق لذتهم، فأتتهم على ما قدروا في خواطرهم، **﴿ويسقون فيها﴾** أي: في الجنة، من كأس، وهو الإناء المملوء من خمر ورحيق، **﴿كان مزاجها﴾** أي: خلطها **﴿زنجبيل﴾** ليطيب طعمه وريحه.

﴿عينا فيها﴾ أي: في الجنة، **﴿تسمى سلسبيل﴾** سميت بذلك لسلاستها ولذتها وحسنها.

﴿ويطوف﴾ على أهل الجنة، في طعامهم وشراهم وخدمتهم.

﴿ولدان مخلدون﴾ أي: خلقوا من الجنة للبقاء، لا يتغيرون ولا يكبرون، وهم في غاية الحسن، **﴿إذا رأيتم﴾**

منتشرين في خدمتهم **﴿حسبتم﴾** من حسنهم **﴿لؤلؤا منتورا﴾** وهذا من تمام لذة أهل الجنة، أن يكون خدماتهم الولدان المخلدون، الذين تسر رؤيتهم، ويدخلون على مساكنهم، آمنين من تبعتهم، ويأتونهم بما يدعون وتطلبه نفوسهم، **﴿وإذا رأيتم﴾** أي: هناك في الجنة، ورمقت ما هم فيه من النعيم (٢). **﴿رأيتم نعيماً وملكاً كبيراً﴾** فتجد الواحد منهم، عنده من القصور والمساكن والغرف المزينة المزخرفة، ما لا يدركه الوصف، ولديه من البساتين الزاهرة، والثمار الدانية، والفواكه اللذيذة، والأنهار

(١) في ب: لم تكفهم لربهم.

(٢) في ب: أي رمقت ما أهل الجنة عليه من النعيم الكامل.

(٣) في ب: برضا.

(٤) في ب: ما غلظ الحرير.

(٥) في ب: لا بد أن تكون معصية الله لأنهم لا يأمرن.

(٦) في ب: يستمد من القيام بطاعة الله.



حصره.

وقوله تعالى لما ذكر نعيم الجنة **﴿إننا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً﴾** فيه الوعد والوعيد، وبيان كل ما يحتاجه العباد، وفيه الأمر بالقيام بأوامره وشرائعه أتم القيام، والسعي في تنفيذها، والصبر على ذلك.

ولهذا قال: **﴿فاصبر لحكم ربك﴾** ولا تطع منهم أثماً أو كفوراً (١) أي: اصبر لحكمه القدري، فلا تسخطه، ولحكمه الديني، فامض عليه، ولا يعوقك عنه عائق.

﴿ولا تطع﴾ من المعاندين، الذين يريدون أن يصدوك **﴿أثماً﴾** أي: فاعلاً إثماً ومعصية ولا **﴿كفوراً﴾** فإن طاعة الكفار والفجار والفاسق، لا بد أن تكون في المعاصي، فلا يأمرن (٥) إلا بما تنهوا أنفسهم.

ولما كان الصبر يساعده القيام بعبادة الله (٦)، والإكثار من ذكره، أمره الله بذلك، فقال: **﴿واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً﴾** أي: أول النهار وآخره، فدخل في ذلك، الصلوات

على الهدى ﴿أعد لهم عذاباً أليماً﴾^(١) [بظلمهم وعدوانهم].

تم تفسير سورة الإنسان،
ولله الحمد والمنة^(٢)

تفسير سورة المرسلات وهي مكية

﴿١٥ - ١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والمرسلات عرفاً﴾ فالعاصفات عصفاً * والناشرات نشرأ * فالفارقات فرقأ * فالملقيات ذكراً * عذراً أو نذراً * إنما توعدون لواقع * فإذا التجوم طمست * وإذا السماء فرجت * وإذا الجبال نسفت * وإذا الرسل أقتت * لأي: يوم أجلت * ليوم الفصل * وما أدراك ما يوم الفصل * ويل يومئذ للمكذبين﴾ أقسم تعالى على البيعة والجزاء بالأعمال^(٣)، بالمرسلات عرفاً، وهي الملائكة التي يرسلها الله تعالى بشئونه القدريّة وتبدير العالم، وبشؤونه الشرعيّة ووجهه إلى رسله.

و ﴿عرفاً﴾ حال من المرسلات أي: أرسلت بالعرف والحكمة والمصلحة، لا بالنكر والعبث.

﴿فالعاصفات عصفاً﴾ وهي [أيضاً] الملائكة التي يرسلها الله تعالى، وصفها بالمبادرة لأمره، وسرعة تنفيذ أوامره، كالريح العاصف، أو: أن العاصفات، الرياح الشديدة، التي يسرع هبوبها، ﴿والناشرات نشرأ﴾ يحتمل أنها الملائكة^(٤)، تنشر ما دبرت على نشره، أو أنها السحاب التي يُنشر بها الله الأرض، فيحييها بعد موتها، ﴿فالملقيات ذكراً﴾ هي الملائكة، تلقي أشرف الأوامر، وهو الذكر الذي

﴿٢٨﴾ ثم استدلل عليهم وعلى بعثهم بدليل عقلي، وهو دليل الابتداء، فقال: ﴿نحن خلقناهم﴾ أي: أوجدناهم من العدم، ﴿وشددنا أسرهم﴾ أي: أحكمنا خلقتهم بالأعصاب، والعروق، والأوتار، والقوى الظاهرة والباطنة، حتى تم الجسم واستكمل، وتمكن من كل ما يريده، فالذي أوجدهم على هذه الحالة، قادر على أن يعيدهم بعد موتهم لجزائهم، والذي نقلهم في هذه الدار إلى هذه الأطوار، لا يليق به أن يتركهم سدى، لا يؤمرون، ولا ينهون، ولا يثابون، ولا يعاقبون، ولهذا قال:

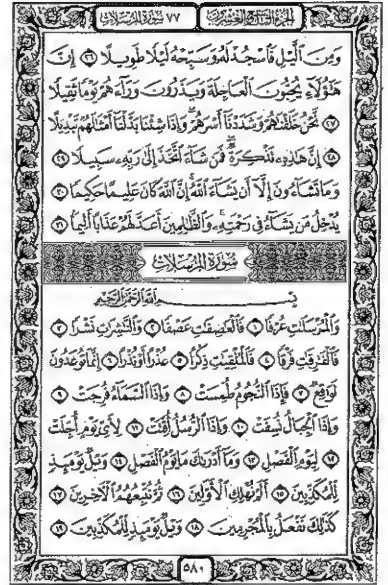
﴿بدلنا أمثالهم تبديلاً﴾ أي: أنشأناكم للبعث نشأة أخرى، وأعدناكم بأعيانكم، وهم بأنفسهم أمثالهم.

﴿إن هذه تذكرة﴾ أي: يتذكر بها المؤمن، فيستفع بما فيها من التخويف والترغيب.

﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ أي: طريقاً موصلاً إليه، فالله يبين الحق والهدى، ثم يخير الناس بين الاهتداء بها أو النفور عنها، مع قيام الحجة عليهم^(٥)، ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾ فإن مشيئة الله نافذة، ﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾ فله الحكمة في هداية المهتدي، وإضلال الضال.

﴿يدخل من يشاء في رحمته﴾ فيختصه بعنايته، ويوفقه لأسباب السعادة ويهديه لطرقها.

﴿والظالمين﴾ الذين اختاروا الشقاء



المكتوبات وما يتبعها من النوافل، والذكر، والتسبيح، والتهليل، والتكبير في هذه الأوقات.

﴿ومن الليل فاسجد له﴾ أي: أكثر [له] من السجود، ولا يكون ذلك إلا بالإكثار من الصلاة^(٦).

﴿وسبحه ليلاً طويلاً﴾ وقد تقدم تقييد هذا المطلق بقوله: ﴿يا أيها المزمل﴾ قم الليل إلا قليلاً الآية^(٧). [وقوله] ﴿إن هؤلاء﴾ أي: المكذبين لك أيها الرسول بعدما بينت لهم الآيات، وورعوا ورهبوا، ومع ذلك، لم ينفذ فيهم ذلك شيئاً، بل لا يزالون يؤثرون ﴿العاجلة﴾ ويطمئننون إليها، ﴿ويسدرون﴾ أي: يتركون العمل ويملئون ﴿وراءهم﴾ أي: أمامهم ﴿يوماً ثقيلاً﴾ وهو يوم القيامة، الذي مقداره خمسون ألف سنة مما تعدون، وقال تعالى: ﴿يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾.

فكانهم ما خلقوا إلا للدنيا والإقامة فيها.

(١) في ب: وذلك متضمنٌ لكثرة الصلاة.

(٢) في ب: أكمل الآيات «نصفه» أو انقص منه قليلاً أو زد عليه.

(٣) في ب: إقامة للحجة ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

(٤) في ب: تمت ولله الحمد.

(٥) في ب: على الأعمال.

(٦) في ب: يحتمل أن المراد بها الملائكة.

يرحم الله به عباده، ويذكرهم فيه منافعهم ومصالحهم، تلقية إلى الرسل، **﴿عذراً أو نذاراً﴾** أي: إعداراً وإنذاراً للناس، تنذر الناس ما أمامهم من المخاوف، وتقطع معذرتهم^(١)، فلا يكون لهم حجة على الله.

﴿إنما توعدون﴾ من البعث والجزاء على الأعمال **﴿لواقع﴾** أي: محتتم وقوعه، من غير شك ولا ارتياب.

فيذا وقع حصل من التغيير للعالم والأحوال الشديدة ما يزعج القلوب، وتشدله الكروب، فتطمس النجوم أي: تتناثر وتزول عن أماكنها وتنسف الجبال، فتكون كالهباء المنثور، وتكون هي والأرض قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً، وذلك اليوم هو اليوم الذي أقتت فيه الرسل، وأجلت للحكم بينها وبين أممها، ولهذا قال:

﴿لأي: يوم أُجِلَّت﴾ استفهام للتعظيم والتفخيم والتوهيل.

ثم أجاب بقوله: **﴿ليوم الفصل﴾** [أي: بين الخلائق، بعضهم لبعض، وحساب كل منهم منفرداً، ثم توعده المكذب بهذا اليوم، فقال: **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** أي: يا حسرتهم، وشدة عذابهم، وسوء منقلبهم، أخبرهم الله، وأقسم لهم، فلم يصدقوه، فاستحقوا^(٢) العقوبة البليغة.

﴿١٦-١٩﴾ **﴿ألم نهلك﴾** الأولين * ثم تتبعهم الآخرين * كذلك تفعل بالمجرمين * ويل يومئذ للمكذبين * أي: أما أهلكننا المكذبين السابقين، ثم تتبعهم بإهلاكنا من كذب من الآخرين، وهذه سنته السابقة واللاحقة في كل مجرم لا بد من عذابه^(٣)، فلم لا تعتبرون بما ترون

وتسمعون؟ **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** بعدما شاهدوا من الآيات البينات، والعقوبات والمثالات.

﴿٢٠-٢٤﴾ **﴿ألم نخلقكم من ماء مهين﴾** فجعلناه في قرار مكين * إلى قدر معلوم * فقدرنا نعم القادرون * **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** أي: أما خلقناكم أيها الأدميون * من ماء مهين * أي: في غاية الحقارة، خرج من بين الصلب والترائب، حتى جعله الله **﴿في قرار مكين﴾** وهو الرحم، به يستقر وينمو **﴿إلى قدر معلوم﴾** ووقت مقدر، **﴿فقدرنا﴾** أي: قدرنا وذبرنا ذلك الجنين، في تلك الظلمات، ونقلناه من النطفة إلى العلقة، إلى المضغة، إلى أن جعله الله جسداً، ثم نفخ فيه الروح، ومنهم من يموت قبل ذلك.

﴿فنعم القادرون﴾ [يعني بذلك نفسه المقدسة] حيث كان قدراً تابعاً للحكمة، موافقاً للحمد^(٤).

﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ بعدما بين الله لهم الآيات، وأراهم العبر والبيانات.

﴿٢٥-٢٨﴾ **﴿ألم نجعل الأرض كفافاً﴾** أحياء وأمواتاً * وجعلنا فيها رواسي شاخات وأسقيناكم ماءً فراتاً * **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** أي: أما امتننا^(٥) عليكم وأنعمنا، بتسخير الأرض لمصالحكم، فجعلناها **﴿كفافاً﴾** لكم، **﴿أحياء﴾** في الدور، **﴿ وأمواتاً﴾** في القبور، فكما أن الدور والقصور من نعم الله على عباده ومتمته، فكذلك القبور، رحمة في حقهم، وسترأ لهم، عن كون أجسادهم بادية للسباع وغيرها.

﴿وجعلنا فيها رواسي﴾ أي: جبالاً

التي خلقنا من قلوبهم، فجعلنا في قرار مكين * إلى قدر معلوم * فقدرنا نعم القادرون * **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** **﴿ألم نجعل الأرض كفافاً﴾** أحياء وأمواتاً * وجعلنا فيها رواسي شاخات وأسقيناكم ماءً فراتاً * **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** أي: أما خلقناكم أيها الأدميون * من ماء مهين * أي: في غاية الحقارة، خرج من بين الصلب والترائب، حتى جعله الله **﴿في قرار مكين﴾** وهو الرحم، به يستقر وينمو **﴿إلى قدر معلوم﴾** ووقت مقدر، **﴿فقدرنا﴾** أي: قدرنا وذبرنا ذلك الجنين، في تلك الظلمات، ونقلناه من النطفة إلى العلقة، إلى المضغة، إلى أن جعله الله جسداً، ثم نفخ فيه الروح، ومنهم من يموت قبل ذلك.

ترسي الأرض، لثلا تميد بأهلها، فبشيتها الله بالجبال الراسيات الشاخات أي: الطوال العراض، **﴿وأسقيناكم ماء فراتاً﴾** أي: عذباً زلالاً، قال تعالى: **﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون﴾** أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون * لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون.

﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ مع ما أراهم الله من النعم، التي انفراد الله بها، واختصهم بها، فقابلوها بالكذب.

﴿٢٩-٣٣﴾ **﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون﴾** انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب * لا ظليل ولا يغني من اللهب * إنها ترمي بشرراً كالقصر * كأنه جمالة صفر * **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** هذا من الويل الذي أعد [للمجرمين] للمكذبين، أن يقال لهم يوم القيامة: **﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون﴾** ثم فسر ذلك بقوله: **﴿انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب﴾** أي: إلى ظل نار جهنم، التي تتمايز في

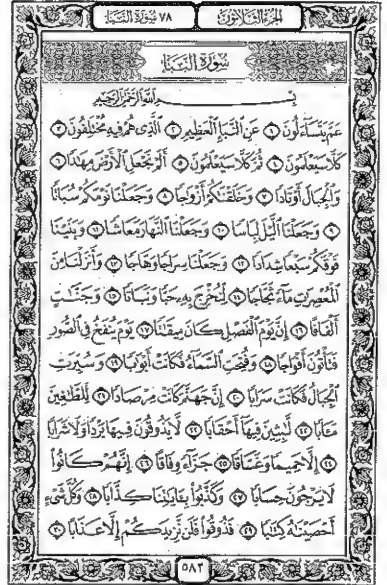
(١) في ب: أعذارهم.

(٢) في ب: فلذلك استحقوا.

(٣) في ب: عقابه.

(٤) في ب: لأن قدره تابع لحكمته موافق للحمد.

(٥) في ب: أمانتنا.



خلاله ثلاث شعب أي: قطع من النار
أي: تتعاوره وتتناوبه وتجتمع به.

﴿لا ظليل﴾ ذلك الظل أي:
لا راحة فيه ولا طمأنينة،
﴿ولا يغني﴾ من مكث فيه ﴿من
اللهب﴾ بل اللهب قد أحاط به، يمتنة
ويسرة ومن كل جانب، كما قال
تعالى: ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار
ومن تحتهم ظلل﴾.

﴿لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم
غواش وكذلك نجزي الظالمين﴾.

ثم ذكر عظم شر النار، الدال على
عظمتها وفظاعتها وسوء منظرها،
فقال:

﴿إنها ترمي بشر كالقصر﴾ كأنه
جملة صفر، وهي السود التي تضرب
إلى لون فيه صفرة، وهذا يدل على أن
النار مظلمة، لهبها وجزها وشرها،
وأنها سوداء، كريمة المأوى^(١)، شديدة
الحرارة، نسأل الله العافية منها [من
الأعمال المقربة منها].

﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾

﴿٣٥ - ٤٠﴾ هذا يوم
لا ينطقون * ولا يؤذن لهم
فيعتدرون * ويل يومئذ للمكذبين *

(١) في ب: كريمة المنظر.

(٢) في ب: ثواب.

هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين *
فإن كان لكم كيد فكيّدون * ويل
يومئذ للمكذبين * أي: هذا اليوم
العظيم الشديد على المكذبين،
لا ينطقون فيه من الخوف والوجل
الشديد، ﴿ولا يؤذن لهم فيعتدرون﴾
أي: لا تقبل معذرتهم، ولو اعتذروا:
﴿فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا
معذرتهم ولا هم يستعتبون﴾.

﴿هذا يوم الفصل جمعناكم
والأولين﴾ لفصل بينكم، ونحكم بين
الخلافتي، ﴿فإن كان لكم كيد﴾
تقدرون على الخروج من ملكي،
وتنجون به من عذابي، ﴿فكيّدون﴾
أي: ليس لكم قدرة ولا سلطان، كما
قال تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس إن
استطعتم أن تنفذوا من أقطار
السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون
إلا بسلطان﴾.

ففي ذلك اليوم، تبطل حيل
الظالمين، ويضمحل مكرهم وكيدهم،
ويستسلمون لعذاب الله، ويبين لهم
كذبهم في تكذيبهم ﴿ويل يومئذ
للمكذبين﴾

﴿٤١ - ٤٥﴾ ﴿إن المتقين في ظلال
وعيون * وفواكه مما يشتهون * كلوا
واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون * إنا
كذلك نجزي المحسنين * ويل يومئذ
للمكذبين﴾ لما ذكر عقوبة المكذبين،
ذكر ثواب^(٢) المحسنين، فقال: ﴿إن
المتقين﴾ [أي: للتكذيب، المتصفين
بالتصديق في أقوالهم وأفعالهم
وأعمالهم، ولا يكونون كذلك إلا
بأدائهم الواجبات، وتركهم
المحرمات].

﴿في ظلال﴾ من كثرة الأشجار
المتنوعة، الزاهية البهية. ﴿وعيون﴾
جارية من السلسبيل، والرحيق
وغيرهما، ﴿وفواكه مما يشتهون﴾ أي:
من خيار الفواكه وطيبها، ويقال لهم:
﴿كلوا واشربوا﴾ من المأكّل الشهية،

والأشربة اللذيذة، ﴿هنيئاً﴾ أي: من
غير منغص ولا مكدر، ولا يتم
هناؤه، حتى يسلم الطعام والشراب
من كل آفة ونقص، وحتى يجزوا أنه
غير منقطع ولا زائل، ﴿بما كنتم
تعملون﴾ فأعمالكم هي السبب
الموصل لكم إلى هذا النعيم^(٣) المقيم،
وهكذا كل من أحسن في عبادة الله
وأحسن إلى عباد الله، ولهذا قال: ﴿إنا
كذلك نجزي المحسنين * ويل يومئذ
للمكذبين﴾ ولو لم يكن لهم من هذا
الويل إلا قوات هذا النعيم، لكفى به
حرماناً وخساراً^(٤).

﴿٤٦ - ٥٠﴾ ﴿كلوا وتمتعوا قليلاً
إنكم مجرمون * ويل يومئذ
للمكذبين * وإذا قيل لهم اركعوا
لا يركعون * ويل يومئذ للمكذبين *
فبأي: حديث بعده يؤمنون﴾ هذا
تهديد ووعد للمكذبين، أنهم وإن
أكلوا في الدنيا وشربوا وتمتعوا
باللذات، وغفلوا عن القربات، فإنهم
مجرمون، يستحقون ما يستحقه
المجرمون، فستقطع عنهم اللذات،
وتبقى عليهم التبعات، ومن إجرامهم
أنهم إذا أمروا بالصلاة التي هي أشرف
العبادات، وقيل لهم: ﴿اركعوا﴾
امتنعوا من ذلك.

فأي إجرام فوق هذا؟ وأي تكذيب
يزيد على هذا؟!!

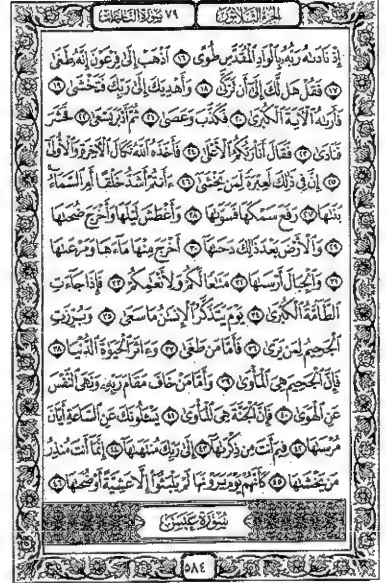
﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ ومن
الويل عليهم أنهم تنسد عليهم أبواب
التوفيق، ويحرمون كل خير، فإنهم إذا
كذبوا هذا القرآن الكريم، الذي هو
أعلى مراتب الصدق واليقين على
الإطلاق.

﴿فبأي: حديث بعده يؤمنون﴾
أبالباطل الذي هو كاسمه، لا يقوم
عليه شبهة فضلاً عن الدليل؟ أم بكلام
كل مشرك كذاب أفاك مبین؟

فليس بعد النور المبين إلا دياجي

(٤) في ب: حزناً وحرماناً.

(٣) في ب: إلى جنات النعيم.



جلودهم، ولا ما يدفع ظلمهم.
﴿إلا حيماً﴾ أي: ماء خاراً، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم، **﴿وغساقاً﴾** وهو صديد أهل النار، الذي هو في غاية البنتن، وكرهة المذاق، وإنما استحقوا هذه العقوبات الفظيعة جزاء لهم وفاقاً على ما عملوا من الأعمال الموصلة إليهم، لم يظلمهم الله، ولكن ظلّموا أنفسهم، ولهذا ذكر أعمالهم، التي استحقوا بها هذا الجزاء، فقال: **﴿إنهم كانوا لا يرجون حساباً﴾** أي: لا يؤمنون بالبعث، ولا أن الله يجازي الخلق بالخير والشر، فلذلك أهملوا العمل للأخرة.

﴿وكذبوا بآياتنا كذاباً﴾ أي: كذبوا بها تكديباً واضحاً صريحاً وجاءتهم البينات فعاندوها.

﴿وكل شيء﴾ من قليل وكثير، وخير وشر **﴿أحصيناه كتاباً﴾** أي: كتبناه ^(٣) في اللوح المحفوظ، فلا يخشى المجرمون أننا عذبناهم بذنوب لم يعملوها، ولا يحسبوا أنه يضيع من أعمالهم شيء، أو ينسى منها مثقال ذرة، كما قال تعالى: **﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾**.

﴿فذوقوا﴾ أيها المكذبون هذا العذاب الأليم والحزني الدائم **﴿فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾** وكل وقت وحين يزداد عذابهم [وهذه الآية أشد الآيات في شدة عذاب أهل النار أجارتنا الله منها].

حيماً وغساقاً * جزاء وفاقاً * إنهم كانوا لا يرجون حساباً * وكذبوا بآياتنا كذاباً * وكل شيء أحصيناه كتاباً * فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً * ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة الذي يتساءل عنه المكذبون، ويحجده المعاندون، أنه يوم عظيم، وأن الله جعله **﴿ميقاناً﴾** للخلق **﴿ينفخ في الصور فتأتون أفواجا﴾** ويجري فيه من الزعازع والقلال ما يشيب له الوليد، وتزعج له القلوب، فبشير الجبال، حتى تكون كالهباء المبثوث، وتشق ^(١) السماء حتى تكون أبواباً، ويفصل الله بين الخلائق بحكمه الذي لا يبور، وتوقد نار جهنم التي أرصدها الله وأعدها للطاغين، وجعلها مشوى لهم ومأبأ، وأنهم يلبثون فيها أحقاباً كثيرة، و **﴿الحق﴾** على ما قاله كثير من المفسرين: ثمانون سنة.

وهم إذا وردوها ^(٢) **﴿لا يذوقون فيها برداً ولا شرباً﴾** أي: لا ما يبرد

﴿٣١-٣٦﴾ **﴿إن للمتقين مفازاً﴾** * حدائق وأعناباً * وكواعب أتراباً * وكأساً دهاقاً * لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً * جزاء من ربك عطاء حساباً * لما ذكر حال المجرمين، ذكر مآل المتقين، فقال: **﴿إن المتقين مفازاً﴾** أي ^(٤): الذين اتقوا سخط ربهم، بالتمسك بطاعته، والانكفاف عما يكرهه ^(٥) فلهم مفاز ومنجى، وبُعِدَ عن النار، وفي ذلك المفاز لهم **﴿حدائق﴾** وهي البساتين الجامعة لأصناف الأشجار الزاهية، في الشار التي تتفجر بين خلالها الأنهار، وخص الأعناب لشرفه وكثرته في تلك الحدائق.

ولهم فيها زوجات على مطالب النفوس **﴿كواعب﴾**: وهي: النواهد اللاتي لم تنكسر ثديين من شبابهن، وقوتهن، ونضارتهن ^(٦).

﴿والأتراب﴾: اللاتي على سن واحد مقارب، ومن عادة الأتراب أن يكنّ متآلفات متعاشرات، وذلك السن الذي هن فيه ثلاث وثلاثون سنة، في أعدل سن الشباب ^(٧).

﴿وكأساً دهاقاً﴾ أي: مملوءة من رحيق، لذة للشاربين، **﴿لا يسمعون فيها لغواً﴾** أي: كلاماً لا فائدة فيه **﴿ولا كذاباً﴾** أي: إثماً.

كما قال تعالى: **﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً﴾** إلا قبيلاً سلاماً سلاماً.

وإنما أعطاهم الله هذا الثواب الجزيل [من فضله وإحسانه] **﴿جزاء من ربك﴾** لهم **﴿عطاء حساباً﴾** أي: بسبب أعمالهم التي وفقهم الله لها، وجعلها ثمناً لجنته ونعيمها ^(٨).

(١) في ب: وتنشق.

(٢) في ب: فإذا وردوها.

(٣) في ب: أثبتناه.

(٤) كذا في ب، وفي أ: فقال: إن المتقين.

(٥) في ب: عن معصيته.

(٦) كذا في ب، وفي أ: وهي الناهد التي لم ينكسر ثديها ونضارتها وقوتها.

(٧) في ب: أعدل ما يكون من الشباب.

(٨) في ب: وجعلها سبباً للوصول إلى كرامته.

يخشى الله، هو الذي ينتفع بالآيات والعبر، فإذا رأى عقوبة فرعون، عرف أن كل من تكبر وعصى، وبارز الملك الأعلى، عاقبه في الدنيا والآخرة، وأما من ترحلت خشية الله من قلبه، فلو جاءته كل آية لم يؤمن [بها].

﴿٢٧ - ٣٣﴾ «أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحاهها * أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها * متاعاً لكم ولأنعامكم» يقول تعالى مبيناً دليلاً واضحاً لمنكري البعث ومستعدي إعادة الله للأجساد:

﴿أنتم﴾ أي البشر «أشد خلقاً أم السماء» ذات الجرم العظيم، والخلق القوي، والارتفاع الباهر «بناها» الله، «رفع سمكها» أي: جرمها وصورتها، «فسواها» بإحكام وإتقان يحير العقول، ويذهل الألباب، «وأغطش ليلها» أي: أظلمه، فعمت الظلمة [جميع] أرجاء السماء، فأظلم وجه الأرض، «وأخرج ضحاها» أي: أظهر فيه النور العظيم، حين أتى بالشمس، فامتد^(٣) الناس في مصالح دينهم ودنياهم.

﴿والأرض بعد ذلك﴾ أي: بعد خلق السماء «دحاهها» أي: أودع فيها منافعها.

وفسر ذلك بقوله: «أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها» أي: ثبتها في الأرض.

فدّخى الأرض بعد خلق السماء، كما هو نص هذه الآيات [الكريمة].

وأما خلق نفس الأرض، فمقدم على خلق السماء كما قال تعالى: ﴿قل إنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين﴾ إلى أن قال: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا

والأولى * إن في ذلك لعلبرة لمن يخشى﴾ يقول [الله] تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿هل أتاك حديث موسى﴾ وهذا الاستفهام عن أمر عظيم متحقق وقوعه.

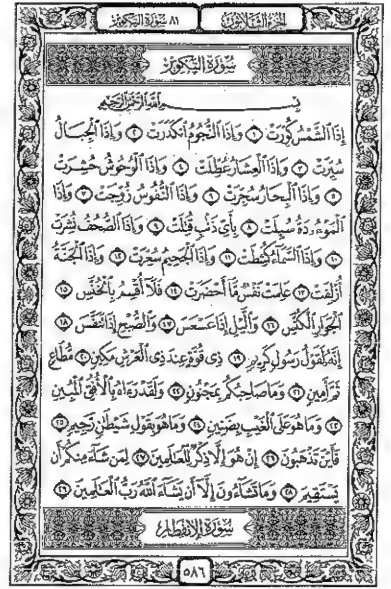
أي: هل أتاك حديثه ﴿إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى﴾ وهو المحل الذي كلمه الله فيه، وامتن عليه بالرسالة، واختصه بالوحي والاجتباء^(١) فقال له: «أذهب إلى فرعون إنه طغى» أي: فانه عن طغيانه وشره وغصيانه، يقول لين، وخطاب لطيف، لعله ﴿يتذكر أو يخشى﴾

﴿فقل له:﴾ «هل لك إلى أن تزكى» أي: هل لك في خصلة حميدة، ومحمدة جميلة، يتنافس فيها أولو الألباب، وهي أن تزكي نفسك وتطهرها من دنس الكفر والطغيان، إلى الإيمان والعمل الصالح؟

﴿وأهديك إلى ربك﴾ أي: أدلك عليه، وأبين لك مواقع رضاه، من مواقع سخطه.

﴿فتخشى﴾ الله إذا علمت الصراط المستقيم، فامتنع فرعون مما دعاه إليه موسى.

﴿فأراه الآية الكبرى﴾ أي: جنس الآية الكبرى، فلا ينافي بتعديدها ﴿فألقي عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾ ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين. ﴿فكذب بالحق﴾ وعصى الأمر، ﴿ثم أدبر يسمي﴾ أي: يمتهد في مبارزة الحق ومحاربته، ﴿فحشر﴾ جنوده أي: جمعهم ﴿فنادى﴾ فقال لهم: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ فاذعنوا له، وأقروا بباطله حين استخفهم، ﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾ أي: صارت عقوبته^(٢) دليلاً وزاجراً، ومبينة لعقوبة الدنيا والآخرة، ﴿إن في ذلك لعلبرة لمن يخشى﴾ فإن من



وأدخل أفئدتهم الفزع، وغلب عليهم التأسف [واستولت عليهم] الحسرة.

يقولون أي: الكفار في الدنيا، على وجه التكذيب: ﴿أإذا كنا عظاماً نخرة﴾ أي: بالية فنانا.

﴿قالوا تلك إذا كرة خاسرة﴾ أي: استبعدوا أن يعيظهم الله ويعيدهم بعدما كانوا عظاماً نخرة، جهلاً [منهم] بقدرة الله، وتحزوا عليه.

قال الله في بيان سهولة هذا الأمر عليه: ﴿فإنما هي زجرة واحدة﴾ ينفخ فيها في الصور.

فإذا الخلائق كلهم «بالساهرة» أي: على وجه الأرض، قيام ينظرون، فيجمعهم الله ويقضي بينهم بحكمه العدل ويميزهم.

﴿١٥ - ٢٦﴾ «هل أتاك حديث موسى * إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى * أذهب إلى فرعون إنه طغى * فقل هل لك إلى أن تزكى * وأهديك إلى ربك فتخشى * فأراه الآية الكبرى * فكذب وعصى * ثم أدبر يسمي * فحشر فننادى * فقال أنا ربكم الأعلى * فأخذه الله نكال الآخرة

(١) في ب: وابتعثه بالوحي واجتباء.

(٢) في ب: أي جعل الله عقوبته.

(٣) في ب: فانتشر.

طائعين^(١).

إنما نذراتك [نفعها] لمن يخشى محيى الساعة، ويخاف الوقوف بين يديه، فهم الذين لا يهمهم سوى الاستعداد لها والعمل لأجلها.

وأما من لا يؤمن بها، فلا يبالي به ولا بتعنته، لأنه تعنت مبني على العناد والتكذيب، وإذا وصل إلى هذه الحال، كان الإجابة عنه عبثاً، ينزه الحكيم عنه [عنت] والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة عبس وهي مكية

﴿١ - ١٠﴾ «بسم الله الرحمن الرحيم عبس وتولى * أن جاءه الأعمى * وما يدريك لعله يزكى * أو يذكر فتنفعه الذكرى * أما من استغنى * فأنت له تصدى * وما عليك ألا يزكى * وأما من جاءك يسعى * وهو يخشى * فأنت عنه تلهى *» وسبب نزول هذه الآيات الكريمات، أنه جاء رجل من المؤمنين أعمى يسأل النبي ﷺ ويتعلم منه.

وجاءه رجل من الأغنياء، وكان ﷺ حريصاً على هداية الخلق، فمال ﷺ [وأصغى] إلى الغني، وصد عن الأعمى الفقير، رجاء لهداية ذلك الغني، وطمعاً في تزكيته، فعاتبه الله بهذا العتاب اللطيف، فقال: «عبس» [أي: في وجهه] «وتولى» في بدنه، لأجل محيى الأعمى له، ثم ذكر الفائدة في الإقبال عليه، فقال: «وما يدريك لعله» أي: الأعمى «يزكى؟ أي: يتطهر عن الأخلاق الرذيلة، ويتصف بالأخلاق الجميلة؟

«أو يذكر فتنفعه الذكرى؟ أي: يتذكر ما ينفعه، فيعمل^(٢) بتلك الذكرى.

فصار سعيه لها، ووقته مستغرقاً في حظوظها وشهواتها، ونسي الآخرة وترك العمل لها.

﴿٤٦ - ٤٧﴾ «فإن الجحيم هي المأوى» [له] أي: المقر والمسكن لمن هذه حاله، «وأما من خاف مقام ربه» أي: خاف القيام عليه ومجازاته بالعدل، فأثر هذا الخوف في قلبه. فنهى نفسه عن هواها الذي يقيد^(٣)ها عن طاعة الله، وصار هواه تبعاً لما جاء به الرسول، وجاهد الهوى والشهوة الصاذين عن الخير، «فإن الجنة» [المشتملة على كل خير وسرور ونعيم] «هي المأوى» لمن هذا وصفه.

﴿٤٦ - ٤٧﴾ «يسألونك عن الساعة أتدري ما هي» قيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها * إنما أنت منذر من يخشاها * كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها» أي: يسألك المعتنون المكذبون بالبعث عن الساعة متى وقوعها و «إيان مرساها» فأجابهم الله بقوله: «فيم أنت من ذكراها» أي: ما الفائدة لك ولهم في ذكرها ومعرفة وقت مجيئها؟ فليس تحت ذلك نتيجة، ولهذا لما كان علم العباد للساعة ليس لهم فيه مصلحة دينية ولا دنيوية، بل المصلحة في خفائه عليهم، طوى علم ذلك عن جميع الخلق، واستأثر بعلمه فقال: «إلى ربك منتهاها» أي: إليه ينتهي علمها، كما قال في الآية الأخرى: «يسألونك عن الساعة إيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يحيطها لوقتها إلا هو ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغته يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون»^(٥).

﴿٤٧﴾ «إنما أنت منذر من يخشاها» أي:

فالذي خلق السماوات العظام وما فيها من الأنوار والأجرام، والأرض الكثيفة الغبراء، وما فيها من ضروريات الخلق ومنافعهم، لا بد أن يبعث الخلق المكلفين، فيجازيهم على أعمالهم، فمن أحسن فله الحسن، ومن أساء فلا يلومن إلا نفسه، ولهذا ذكر بعد هذا القيام الجزاء^(٦)، فقال:

﴿٣٤ - ٤١﴾ «فإذا جاءت الطامة الكبرى * يوم يتذكر الإنسان ما سعى * وبرزت الجحيم لمن يرى * فأما من طفئ * وأثر الحياة الدنيا * فإن الجحيم هي المأوى * وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى * فإن الجنة هي المأوى» أي: إذا جاءت القيامة الكبرى، والشدة العظمى، التي يهون عندها كل شدة، فحيث يذهل الوالد عن ولده، والصاحب عن صاحبه [وكل يحب عن حبيبه]. و «يتذكر الإنسان ما سعى» في الدنيا، من خير وشر، فيتمنى زيادة مثقال ذرة في حسناته، ويغمه ويحزن لزيادة مثقال ذرة في سيئاته.

ويعلم إذ ذاك أن مادة ربحه وخسرانه ما سعه في الدنيا، وينقطع كل سبب ووصلة كانت في الدنيا، سوى الأعمال.

﴿٤١﴾ «وبرزت الجحيم لمن يرى» أي: جعلت في البراز، ظاهرة لكل أحد، قد برزت^(٣) لأهلها، واستعدت لأخذهم، منتظرة لأمر ربها.

﴿٤٢﴾ «فأما من طفئ» أي: جاوز الحد، بأن تجرأ على المعاصي الكبار، ولم يقتصر على ما حده الله.

﴿٤٣﴾ «وأثر الحياة الدنيا» على الآخرة،

(١) وقع هنا سبق قلم من الشيخ - رحمه الله - فقال: إلى أن قال «ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات» وصواب ذلك ما أثبتته.

(٢) في ب: ذكر بعد هذا قيام الساعة ثم الجزاء.

(٣) في ب: هيئت.

(٤) في ب: الذي يصدها.

(٥) وردت الآية ناقصة في وسطها من نسخة (أ) ووردت ناقصة من آخرها من نسخة ب فأمتمتها.

(٦) في ب: فينتفع.

الأشجار الكثيرة الملتفة، **﴿وفاكهة وأباً﴾** الفاكهة: ما يتفكه فيه الإنسان، من تين وعنب وخوخ ورمان، وغير ذلك.

والأب: ما تأكله البهائم والأنعام، ولهذا قال: **﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾** التي خلقها الله وسخرها لكم، فمن نظر في هذه النعم، أوجب له ذلك شكر ربه، وبذل الجهد في الإجابة إليه، والإقبال على طاعته، والتصديق بأخباره.

﴿٣٣-٤٢﴾ **﴿فإذا جاءت الصاخة﴾** يوم يقر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبه وبنيه * لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه * وجوه يومئذ مسفرة * ضاحكة مستبشرة * ووجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها قفرة * أولئك هم الكفرة الفجرة * أي: إذا جاءت صيحة القيامة، التي تصخ لهولها الأسماخ، وتنزع لها الأفتدة يومئذ، مما يرى الناس من الأحوال وشدة الحاجة لسالف الأعمال، **﴿يفر المرء﴾** من أعز الناس إليه، وأشفقهم لديه، **﴿من أخيه﴾** وأمه وأبيه * **﴿وصاحبه﴾** أي: زوجته **﴿وبنيه﴾** وذلك لأنه **﴿لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾** أي: قد أشغلته نفسه، واهتم لفكاكها، ولم يكن له التفات إلى غيرها، فحينئذ ينقسم الخلق إلى فريقين: سعداء وأشقياء، فأما السعداء، فوجوههم [يومئذ] **﴿مسفرة﴾** أي: قد ظهر فيها السرور والبهجة، من ما عرفوا من نجاتهم، وفوزهم بالنعيم، **﴿ضاحكة مستبشرة﴾** ووجوه **﴿الأشقياء﴾** يومئذ عليها غبرة * **﴿ترهقها﴾** أي: تغشاها **﴿قفرة﴾** فهي سوداء مظلمة مدلهمة، قد أيست من كل خبز، وعرفت شقاءها وهلاكها.

﴿أولئك﴾ الذين بهذا الوصف **﴿هم الكفرة الفجرة﴾** أي: الذين كفروا بنعمة الله، وكذبوا بآيات الله، وتجروا على محارمه.

﴿بأيدي سفرة﴾: وهم الملائكة [الذين هم] السفراء بين الله وبين عباده، **﴿كرام﴾** أي: كثيري الخير والبركة، **﴿بررة﴾** قلوبهم وأعمالهم.

وذلك كله حفظ من الله لكتابه، أن جعل السفراء فيه إلى الرسل الملائكة الكرام الأقوياء الأتقياء، ولم يجعل للشياطين عليه سبيلاً، وهذا مما يوجب الإيمان به وتلقيه بالقبول، ولكن مع هذا أبى الإنسان إلا كفوراً، ولهذا قال تعالى: **﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾** لنعمة الله، وما أشد معاندته للحق بعدما تبين، وهو ما هو؟ هو من أضعف الأشياء، خلقه الله من ماء مهين، ثم قدر خلقه، وسواه بشراً سوياً، وأتقن قواه الظاهرة والباطنة.

﴿ثم السبيل يسره﴾ أي: يسر له الأسباب الدينية والدنيوية، وهذه السبيل، [وبينه] وامتنحه بالأمر والنهي، **﴿ثم أماته فأقبره﴾** أي: أكرمه بالدفن، ولم يجعله كسائر الحيوانات التي تكون جيفها على وجه الأرض، **﴿ثم إذا شاء أنشره﴾** أي: بعثه بعد موته للجزاء، فالله هو المنفرد بتدبير الإنسان وتصريفه هذه التصاريف، لم يشاركه فيه مشارك، وهن - مع هذا - لا يقوم بمنا أمره الله، ولم يقض ما فرضه عليه، بل لا يزال مقصراً تحت الطلب.

ثم أرشده تعالى إلى النظر والتفكير في طعامه، وكيف وصل إليه بعدما تكررت عليه طبقات عديدة، ويسره له، فقال: **﴿فليتنظر الإنسان إلى طعامه﴾** أنا صبينا الماء صباً * أي: أنزلنا المطر على الأرض بكثرة، **﴿ثم شققنا الأرض﴾** للنبات **﴿شقاً﴾** فأنبتنا فيها أصنافاً مصنفة من أنواع الأطعمة اللذيذة، والأقوات الشهية **﴿حياً﴾** وهذا شامل لسائر الحبوب على اختلاف أصنافها، **﴿وعنباً وقضباً﴾** وهو القث، **﴿وزيتوناً ونخلاً﴾** وخض هذه الأربعة لكثرة فوائدها ومنافعها، **﴿وحداثاً غلباً﴾** أي: بساتين فيها

وهذه فائدة كبيرة، هي المقصودة من بعثة الرسل، ووعظ الوعاظ، وتذكير المذكرين، فأقبالك على من جاء بنفسه مفتقراً لذلك منك^(١)، هو الأليق الواجب، وأما تصديقك وتعرضك للغني المستغني الذي لا يسأل ولا يستفتي لعدم رغبته في الخير، مع تركك من هو أهم منه، فإنه لا ينبغي لك، فإنه ليس عليك أن لا يزكى، فلو لم يتزك، فلست بمحاسب على ما عمله من الشر.

فدل هذا على القاعدة المشهورة، أنه: **﴿لا يترك أمر معلوم لأمر موهوم، ولا مصلحة متحققة لمصلحة متوهمة﴾** وأنه ينبغي الإقبال على طالب العلم، المفتقر إليه، الحريص عليه أزيد من غيره.

﴿١١-٣٢﴾ **﴿كلا إنها تذكرة﴾** فمن شاء ذكره * في صحف مكرمة * مرفوعة مطهرة * بأيدي سفرة * كرام برة * قتل الإنسان ما أكفره * من أي: شيء خلقه * من نطفة خلقه فقدره * ثم السبيل يسره * ثم أماته فأقبره * ثم إذا شاء أنشره * كلا لما يقض ما أمره * فليتنظر الإنسان إلى طعامه * أنا صبينا الماء صباً * ثم شققنا الأرض شقاً * فأنبتنا فيها حباً * وعنباً وقضباً * وزيتوناً ونخلاً * وحداثاً غلباً * وفاكهة وأباً * متاعاً لكم ولأنعامكم * يقول تعالى: **﴿كلا إنها تذكرة﴾** أي: حقاً إن هذه الموعظة تذكرة من الله، يذكر بها عباده، ويبين لهم في كتابه ما يحتاجون إليه، ويبين الرشد من الغي، فإذا تبين ذلك **﴿فمن شاء ذكره﴾** أي: عمل به، كقوله تعالى: **﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾**.

ثم ذكر محل هذه التذكرة وعظمها ورفع قدرها، فقال: **﴿في صحف مكرمة﴾** مرفوعة القدر والرتبة **﴿مطهرة﴾** [من الآفاق] عن أن تنالها أيدي الشياطين أو يسترقوها، بل هي

(١) في ب: مفتقراً لذلك مقبلاً.

أوقدت فصار - على عظمها - ناراً تتوقد.

﴿وإذا النفوس زوجت﴾ أي: قرن كل صاحب عمل مع نظيره، فجمع الأبرار مع الأبرار، والفجار مع الفجار، وزوج المؤمنون بالخور العين، والكافرون بالشياطين، وهذا كقوله تعالى: ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً﴾ ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً﴾ ﴿أحشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾.

﴿وإذا المؤودة سُئلت﴾ وهي التي كانت الجاهلية الجهلاء تفعله من دفن البنات وهن أحياء من غير سبب، إلا خشية الفقر، فتسأل: ﴿بأي: ذنب قتلت﴾ ومن المعلوم أنها ليس لها ذنب، ففي هذا توبيخ وتقريع لقاتليها^(٣).

﴿وإذا الصحفُ﴾ المشتملة على ما عمله العاملون من خير وشر ﴿نُشرت﴾ وقرئت على أهلها، فأخذ كتابه بيمينه، وأخذ كتابه بشماله، أو من وراء ظهره.

﴿وإذا السماء كُشطت﴾ أي: أزيلت، كما قال تعالى: ﴿يوم تشقق السماء بالغمام﴾ ﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب﴾ ﴿والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه﴾.

﴿وإذا الجحيم سعرت﴾ أي: أوقد عليها فاستعرت، والتهبت التهاباً لم يكن لها قبل ذلك، ﴿وإذا الجنة أزلقت﴾ أي: قُرِبت للمتقين، ﴿علمت نفس﴾ أي: كل نفس، لإتيانها في سياق الشرط.

﴿ما أحضرت﴾ أي: ما حضر لديها من الأعمال [التي قدمتها] كما قال تعالى: ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾. وهذه الأوصاف التي وصف الله بها يوم القيامة، من الأوصاف التي تنزع لها القلوب، وتشتد من أجلها

نسأل الله العفو والعافية، إنه جواد كريم [والحمد لله رب العالمين].

تفسير سورة التكويد [وهي] مكية

﴿١ - ١٤﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم إذا الشمس كورت﴾ * وإذا النجوم انكدرت * وإذا الجبال سيرت * وإذا العشار عطلت * وإذا الوحوش حشرت * وإذا النفوس زوجت * وإذا المؤودة سُئلت * بأي: ذنب قتلت * وإذا الصحف نُشرت * وإذا السماء كُشطت * وإذا الجنة أزلقت * علمت نفس ما أحضرت * أي: إذا حصلت هذه الأمور الهائلة، غمز الخلق، وعلم كل أحد ما قدمه لآخرته، وما أحضره فيها من خير وشر، وذلك إذا كان يوم القيامة تكور الشمس أي: تجتمع وتلف، ويخسف القمر، ويلقيان في النار، ﴿وإذا النجوم انكدرت﴾ أي: تغيرت، وتساقطت^(١) من أفلاكها، ﴿وإذا الجبال سيرت﴾ أي: صارت كشيء مهيلاً، ثم صارت كالعهن المنفوش، ثم تغيرت وصارت هباء منبثاً، وسيرت عن أماكنها، ﴿وإذا العشار عطلت﴾ أي: عطل الناس حيثئذ نفائس أموالهم التي كانوا يمتنون لها ويراعونها في جميع الأوقات، فجاءهم ما يذهلهم عنها، فنهبه بالعشار، وهي النوق التي تتبعها أولادها، وهي أنفس أموال العرب إذ ذاك عندهم، على ما هو في معناها من كل نفيس.

﴿وإذا الوحوش حشرت﴾ أي: جمعت ليوم القيامة، ليقص الله من بعضها لبعض، ويرى العباد كمال عدله، حتى إنه ليقص من القرناء للجماء^(٢)، ثم يقول لها: كوني تراباً. ﴿وإذا البحار سجرت﴾ أي:

(١) في ب: وتناثرت.

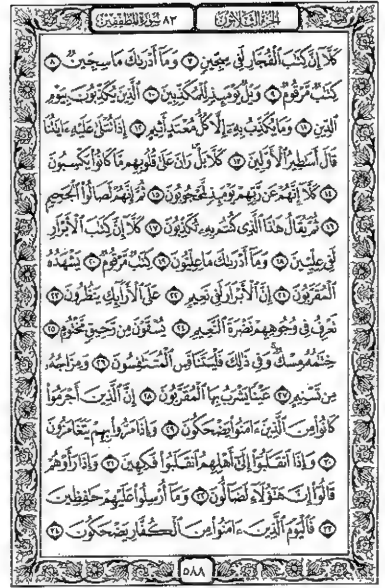
(٢) في ب: حتى إنه يقتص للشاء الجماء من الشاة القرناء.

(٣) في ب: ولكن هذا فيه توبيخ وتقريع لقاتليها.



الكروب، وترتعد الفرائص، وتعم المخاوف، وتحث أولي الألباب للاستعداد لذلك اليوم، وترجرهم عن كل ما يوجب الهم، ولهذا قال بعض السلف: من أراد أن ينظر ليوم القيامة كأنه رأي عين، فليتدبر سورة ﴿إذا الشمس كورت﴾.

﴿١٥ - ٢٩﴾ ﴿فلا أقسم بالخنس﴾ الجوار الكنس * والليل إذا عسعس * والصبح إذا تنفس * إنه لقول رسول كريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين * مطاع ثم أمين * وما صاحبكم بمجنون * ولقد رآه بالأفق المبين * وما هو على الغيب بضنين * وما هو بقول شيطان رجيم * فإين تذهبون * إن هو إلا ذكر للعالمين * لمن شاء منكم أن يستقيم * وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين * أقسم تعالى بالخنس﴾ وهي الكواكب التي تخنس أي: تتأخر عن سير الكواكب المعتاد إلى جهة المشرق، وهي النجوم السبعة السيارة: «الشمس»، و«القمر»، و«الزهرة»، و«المشتري»، و«المريخ»، و«زحل»، و«عطارد»، فهذه السبعة



لها سيران:

سير إلى جهة المغرب مع باقي الكواكب والأفلاك^(١)، وسير معاكس لهذا من جهة المشرق تختص به هذه السبعة دون غيرها.

فأقسم الله بها في حال خنوسها أي: تأخرها، وفي حال جريانها، وفي حال كنوسها أي: استتارها بالنهار، ويحتمل أن المراد بها جميع النجوم^(٢) الكواكب السيارة وغيرها.

«والليل إذا سمس» أي: أدبر، وقيل: أقبل، «والصبح إذا تنفس» أي: بانت^(٣) علائم الصبح، وانشق النور شيئاً فشيئاً حتى يستكمل وتطلع الشمس، وهذه آيات عظام، أقسم الله بها على علو سند القرآن^(٤) وجلالته، وحفظه من كل شيطان رجيم، فقال: «إنه لقول رسول كريم» وهو جبريل عليه السلام، نزل به من الله تعالى، كما قال تعالى: «وإنه لتنزيل رب العالمين» نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين»

ووصفه الله بالكريم لكرم أخلاقه،

وكثرة خصاله الحميدة، فإنه أفضل الملائكة، وأعظمهم رتبة عند ربه، «ذي قوة» على ما أمره الله به.

ومن قوته أنه قلب ديار قوم لوط بهم فاهلكهم.

«عند ذي العرش» أي: جبريل مقرب عند الله، له منزلة رفيعة، وخصيصة من الله اختصه بها، «مكين» أي: له مكانة ومنزلة فوق منازل الملائكة كلهم.

«مطاع ثم» أي: جبريل مطاع في المألا الأعلى، لديه^(٥) من الملائكة المقربين جنود، نافذ فيهم أمره، مطاع رأيه، «أمين» أي: ذو أمانة وقيام بما أمر به، لا يزيد ولا ينقص، ولا يتعدى ما حُدَّ له، وهذا [كله] يدل على شرف القرآن عند الله تعالى، فإنه بعث به هذا الملك الكريم، الموصوف بتلك الصفات الكاملة. والعادة أن الملوك لا ترسل الكريم عليها إلا في أهم المهمات، وأشرف الرسائل.

ولما ذكر فضل الرسول الملكي الذي جاء بالقرآن، ذكر فضل الرسول البشري الذي نزل عليه القرآن، ودعا إليه الناس، فقال: «وما صاحبكم» وهو محمد ﷺ «يمجنون» كما يقوله أعداؤه المكذبون برسالته، المنتقلون عليه من الأقوال، التي يريدون أن يطفؤوا بها ما جاء به ما شاؤوا وقدروا عليه، بل هو أكمل الناس عقلاً، وأجزلهم رأياً، وأصدقهم لهجة.

«ولقد رآه بالأفق المبين» أي: رأى محمد ﷺ جبريل عليه السلام بالأفق البين، الذي هو أعلى ما يلوح للبصر.

«وما هو على الغيب بضئ» أي: وما هو على ما أوحاه الله إليه بمتهم

يزيد فيه أو يقص أو يكتم بعضه، بل هو ﷺ أمين أهل السماء وأهل الأرض، الذي بلغ رسالات ربه البلاغ المبين، فلم يشخ بشيء منه، عن غني ولا فقير، ولا رئيس ولا مرؤوس، ولا ذكر ولا أنثى، ولا حضري ولا بدوي، ولذلك بعثه الله في أمة أمية، جاهلة جهلاء، فلم يمت ﷺ حتى كانوا علماء ربانيين، وأجباراً متفرسين، إليهم الغاية في العلوم، وإليهم المنتهى في استخراج الدقائق والشهوم، وهم الأساتذة وغيرهم قصاره أن يكون من تلاميذهم.

«وما هو بقول شيطان رجيم» لما ذكر جلاله كتابه^(٦) وفضله بذكر الرسولين الكريمين، اللذين وصل إلى الناس على أيديهما، وأثنى الله عليهما بما أثنى، دفع عنه كل آفة ونقص مما يقدح في صدقه، فقال: «وما هو بقول شيطان رجيم» أي: في غاية البعد عن الله وعن قربه، «فأين تذهبون» أي: كيف يخطر هذا ببالكم، وأين عزبت عنكم أذهانكم؟ حتى جعلتم الحق الذي هو في أعلى درجات الصدق بمنزلة الكذب، الذي هو أنزل ما يكون [وأرذل] وأسفل الباطل؟ هل هذا إلا من انقلاب الحقائق.

«إن هو إلا ذكر للعالمين» يتذكرون به زهم، وما له من صفات الكمال، وما ينزه عنه من النقائص والردائل [والأمثال]، ويتذكرون به الأوامر والنواهي وحكمها، ويتذكرون به الأحكام القدرية والشرعية والجزائية، وبالجملة، يتذكرون به مصالح الدارين، وينالون بالعمل به السعادتين.

«لمن شاء منكم أن يستقيم» بعدما

(١) في ب: مع سائر الكواكب والفلك.

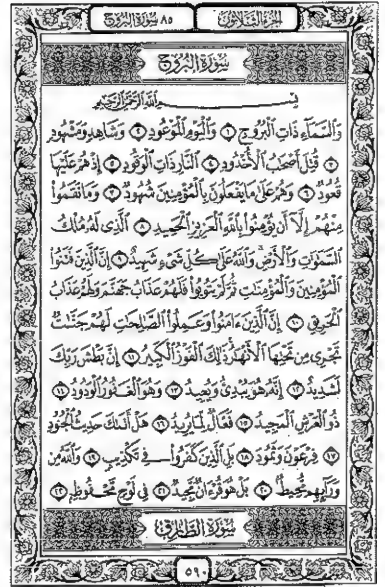
(٢) في ب: الكواكب.

(٣) في ب: بدت.

(٤) في ب: أقسم الله عليها لقوة سند القرآن.

(٥) في ب: لأنه.

(٦) كذا في ب، وفي أ: جلالته.



تفسير سورة المطففين وهي مكية (١)

١ - ٦ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾
ويل للمطففين * الذين إذا اكتالوا على
الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو
وزنوهم يخسرون * ألا يظن أولئك
أنهم مبعوثون * ليوم عظيم * يوم
يقوم الناس لرب العالمين ﴿ويل﴾
كلمة عذاب، ووعيد (٢) ﴿للمطففين﴾
وفسر الله المطففين بقوله (٣) ﴿الذين إذا
اكتالوا على الناس﴾ أي: أخذوا منهم
وفاء عما ثبت لهم قبلهم يستوفونه
كاملاً من غير نقص.
﴿وإذا كالوهم أو وزنوههم﴾ أي:
إذا أعطوا الناس حقهم، الذي
لنناس (٤) عليهم بكيل أو وزن،
﴿بخسرون﴾ أي: ينقصونهم ذلك، إما
بمكيال وميزان ناقصين، أو بعدم ملء
المكيال والميزان، أو نحو ذلك، فهذا
سرقة [لأموال] الناس (٥)، وعدم
إنصاف [لهم] منهم.

وإذا كان هذا الوعيد (٦) على الذين
يبخسون الناس بالمكيال والميزان،
فالذي يأخذ أموالهم قهراً أو سرقة،

أولى بهذا الوعيد من المطففين.
ودلت الآية الكريمة، على أن
الإنسان كما يأخذ من الناس الذي له،
يجب عليه أن يعطيهم كل ما لهم من
الأموال والمعاملات، بل يدخل في
[عموم هذا] (٧) الحجج والمقالات، فإنه
كما أن المتناظرين قد جرت العادة أن
كل واحد [منهما] يحرص على ما له من
الحجج، فيجب عليه أيضاً أن يبين ما
لخصمه من الحجج (٨) [النسي
لا يعلمها]، وأن ينظر في أدلة خصمه
كما ينظر في أدلته هو، وفي هذا
الموضع يعرف إنصاف الإنسان من
تعصبه واعتسائه، وتواضعه من كبره،
وعقله من سفهه، نسأل الله التوفيق
لكل خير.

ثم توعّد تعالى المطففين، وتعجب
من حالهم وإقامتهم على ما هم عليه،
فقال: ﴿ألا يظن أولئك أنهم
مبعوثون * ليوم عظيم * يوم يقوم
الناس لرب العالمين﴾ فالذي جزأهم
على التطفيف عدم إيمانهم باليوم
الآخر، وإلا فلو آمنوا به، وعرفوا أنهم
يقومون بين يدي الله، يحاسبهم (٩) على
القليل والكثير، لأقلعوا عن ذلك
وتابوا منه.

٧ - ١٧ ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ
لَفِي سَجِينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ *
كِتَابٌ مَرْقُومٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ يَكْذِبُونَ بَيُّومِ
الدين * وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ
أَثِيمٍ * إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ
الْأُولَيْنِ * كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا
كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ
يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا
الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ
تَكْذِبُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ
الْفَجَارِ﴾ [وهذا شامل لكل فاجر] من
أنواع الكفرة والمنافقين، والفساقين

﴿لَفِي سَجِينٍ﴾ ثم فسر ذلك بقوله:
﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ﴾ * كتاب
مرقوم * أي: كتاب مذكور فيه
أعمالهم الخبيثة، والسجّين: المحل
الضيق الضنك، و «سجين» ضد
«عليين» الذي هو محل كتاب الأبرار،
كما سيأتي.

وقد قيل: إن «سجين» هو أسفل
الأرض السابعة، مأوى الفجار
ومستقرهم في معادهم.

﴿ويل يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ثم بين
المكذّبين بأنهم (١٠) ﴿الذين يَكْذِبُونَ
بَيُّومِ الدين﴾ أي: يوم الجزاء، يوم
يدين الله فيه الناس بأعمالهم.

﴿وما يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ عَلَى
مَحْرَمٍ﴾ الله، متعد من الحلال إلى الحرام.

﴿أثيم﴾ أي: كثير الإثم، فهذا
الذي يحمله عدوانه على التكذيب،
ويحمله [عدوانه على التكذيب ويوجب
له] كبره رد الحق، ولهذا ﴿إذا تَتْلَى عَلَيْهِ
آيَاتُنَا﴾ الدالة على الحق، و [على]
صدق ما جاءت به رسله، كذّبا
وعاندها، ﴿وقال﴾: هذا أساطير
الأولين * أي: من ترهات المتقدمين،
وأخبار الأمم الغابرين، ليس من
عند الله تكبراً وعناداً.

وأما من أنصف، وكان مقصوده
الحق المبين، فإنه لا يكذب بيوم
الدين، لأن الله قد أقام عليه من الأدلة
القاطعة، والبراهين الساطعة، ما يجعله
حق اليقين، وصار لقلوبهم مثل
الشمس للأبصار (١١)، بخلاف من ران
على قلبه كسبه، وغطته مغاضيه، فإنه
محجوب عن الحق، ولهذا جوزي على
ذلك، بأن حجب عن الله، كما
حجب قلبه في الدنيا عن آيات الله،
﴿ثم إنهم﴾ مع هذه العقوبة البليغة
﴿لصالوا الجحيم﴾ ثم يقال لهم توبيخاً

(١٠) في ب: ثم يبينهم بقوله.

(١١) في ب: وصار لبصائرهم بمنزلة
الشمس للأبصار.

(٦) في ب: وعيداً.

(٧) في ب: يدخل في ذلك.

(٨) في ب: الحجة.

(٩) في ب: أنهم سيقومون بين يدي الله
فيحاسبهم.

(١) في ب: وهي مدنية.

(٢) في ب: وعقاب.

(٣) في ب: بأنهم.

(٤) في ب: لهم.

(٥) كذا في ب، وفي أ: سرقة للناس.

وجزاء المؤمنين^(٤)، و [ذكر] ما ينهمل من التفاوت العظيم، أخبر أن المجرمين كانوا في الدنيا يسخرون بالمؤمنين، ويستهزؤون بهم، ويضحكون منهم، ويتغامزون بهم عند مرورهم عليهم، اختقاراً لهم وازدراء، ومع هذا تراهم مطمئنين، لا يخطر الخوف على بالهم، **﴿وإذا انقلبوا إلى أهلهم﴾** صباحاً أو مساءً **﴿انقلبوا فكهي﴾** أي: مسرورين معتبطين^(٥)، وهذا من أعظم^(٦) ما يكون من الاغترار، أنهم جمعوا بين غاية الإساءة والأمن^(٧) في الدنيا، حتى كأنهم قد جاءهم كتاب من الله وعهد، أنهم من أهل السعادة، وقد حكموا لأنفسهم أنهم أهل الهدى، وأن المؤمنين ضالون، افترأ على الله، وتحرواً على القول عليه بلا علم.

قال تعالى: **﴿وما أرسلوا عليهم حافظين﴾** أي: وما أرسلوا وكلاء على المؤمنين بلزمين بحفظ أعمالهم، حتى يحرصوا على ريمهم بالضلال، وما هذا منهم إلا تعنت وعناد وتلاعب، ليس له مستند ولا برهان، ولهذا كان جزاؤهم في الآخرة من جنس عملهم، قال تعالى: **﴿فاليوم﴾** أي: يوم القيامة، **﴿الذين آمنوا من الكفار يضحكون﴾** حين يزوهم في غمرات العذاب يتقلبون، وقد ذهب عنهم ما كانوا يفترضون، والمؤمنون في غاية الراحة والطمانية **﴿على الأرائك﴾** وهي السرر المزينة، **﴿ينظرون﴾** إلى ما أعد الله لهم من النعيم، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم.

﴿هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون﴾ أي: هل جوزوا من جنس عملهم؟

فكما ضحكوا في الدنيا من المؤمنين ورموهم بالضلال، ضحك المؤمنون منهم في الآخرة، وراوهم^(٨) في العذاب والتكال، الذي هو عقوبة الغي والضلال.

النعيم، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم، **﴿تعرف﴾** أيها الناظر إليهم **﴿في وجوههم نضرة النعيم﴾** أي: بهاء النعيم^(٩) ونضارته ورونقه، فإن توالي اللذة والسرور^(١٠)، يكسب الوجه نوراً وحسناً وبهجة.

﴿يسقون من رحيق﴾ وهو من أطيب ما يكون من الأشربة والأذها، **﴿مختوم﴾** ذلك الشراب، **﴿ختامه مسك﴾** يحتمل أن المراد مختوم عن أن يداخله شيء ينقص لذته، أو يفسد طعمه، وذلك الختام الذي ختم به مسك.

ويحتمل أن المراد أنه [الذي] يكون في آخر الإناء، الذي يشربون منه الرحيق حثالة، وهي المسك الأذفر، فهذا الكدر منه، الذي جرت العادة في الدنيا أنه يراق، يكون في الجنة بهذه المثابة، **﴿وفي ذلك﴾** النعيم المقيم، الذي لا يعلم مقداره وحسنه إلا الله، **﴿فليتنافس المتنافسون﴾** أي: يتسابقوا في المبادرة إليه والأعمال الموصلة إليه، فهذا أولى ما بذلت فيه نفائس الأنفاس، وأحرى ما تراجعت للوصول إليه فحول الرجال.

﴿٢٧-٢٨﴾ ومزاج هذا الشراب من تسنيم، وهي عين **﴿يشرب بها المقربون﴾** صرفاً، وهي أعلى أشربة الجنة على الإطلاق، فلذلك كانت خالصة للمقربين، الذين هم أعلى الخلق منزلة، ومعموجة لأصحاب اليمين أي: مخلوطة بالرحيق وغيره من الأشربة اللذيذة.

﴿٢٩-٣٦﴾ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون * وإذا مروا بهم يتغامزون * وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهي * وإذا راوهم قالوا إن هؤلاء لضالون * وما أرسلوا عليهم حافظين * فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون * على الأرائك ينظرون * هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون * لما ذكر تعالى جزاء المجرمين

وتقريباً: **﴿هذا الذي كتتم به تكذبون﴾** فذكر لهم ثلاثة أنواع من العذاب: عذاب الجحيم، وعذاب التوبيخ، واللوم.

وعذاب الحجاب من رب العالمين، المتضمن لسخطه وغضبه عليهم، وهو أعظم عليهم من عذاب النار، ودل مفهوم الآية، على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وفي الجنة، ويتلذذون بالنظر إليه أعظم من سائر اللذات، ويتهجون بخطابه، ويفرحون بقربه، كما ذكر الله ذلك في عدة آيات من القرآن، وتواتر فيه النقل عن رسول الله.

وفي هذه الآيات، التحذير من الذنوب، فإنها ترين على القلب وتغويه شيئاً فشيئاً، حتى ينطمس نوره، وتموت بصيرته، فتقلب عليه الحقائق، فيرى الباطل حقاً، والحق باطلاً، وهذا من بعض^(١١) عقوبات الذنوب.

﴿١٨-٢٧﴾ **﴿كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين﴾** وما أدراك ما عليون * كتاب مرقوم * يشهده المقربون * إن الأبرار لفي نعيم * على الأرائك ينظرون * تعرف في وجوههم نضرة النعيم * يسقون من رحيق مختوم * ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون * ومزاجه من تسنيم * لما ذكر أن كتاب الفجار في أسفل الأمكنة وأضيقيها، ذكر أن كتاب الأبرار في أعلاها وأوسعها، وأفسحها وأن كتابهم المرقوم **﴿يشهده المقربون﴾** من الملائكة الكرام، وأرواح الأنبياء، والصديقين والشهداء، ويُنوّه الله بذكرهم في الملأ الأعلى، و «عليون» اسم لأهل الجنة، فلما ذكر كتابهم، ذكر أنهم في نعيم، وهو اسم جامع لنعيم القلب والروح والبدن، **﴿على الأرائك﴾** أي: [على] السرر المزينة بالفرش الحسن.

﴿ينظرون﴾ إلى ما أعد الله لهم من

(٦) في ب: وهذا أشد.

(٧) في ب: مع الأمن.

(٨) في ب: حين راوهم.

والمسرات والأفراح.

(٤) في ب: المحسنين.

(٥) كذا في ب، وفي أ: مغبوطين.

(١) في ب: من أعظم.

(٢) في ب: أي بهاء.

(٣) في ب: فإن توالي اللذات

نعم، ثوبوا ما كانوا يفعلون، عدلاً من الله وحكمة، والله عليم حكيم.

تفسير سورة الانشقاق وهي مكية

﴿١٥-١٦﴾ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** إذا السماء انشقت * وأدنت لربها وحقت * وإذا الأرض مدت * وألقت ما فيها وتخلت * وأدنت لربها وحقت * يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه * فأما من أوتي كتابه بيمينه * فسوف يحاسب حساباً يسيراً * وينقلب إلى أهله مسروراً * وأما من أوتي كتابه وراء ظهره * فسوف يدعو ثوراً * ويصلى سعيراً * إنه كان في أهله مسروراً * إنه ظن أن لن يحور * بلى إن ربه كان به بصيراً * يقول تعالى مبيناً لما يكون في يوم القيامة من تغير الأجرام العظام: ﴿إذا السماء انشقت﴾ أي: انفتحت وتمايز بعضها من بعض، وانتشرت نجومها، وخسف بشمسها وقمرها.

﴿وأدنت لربها﴾ أي: استمعت لأمره، وألقت سمعها، وأصاحت لخطابه، وحق لها ذلك، فإنها مسخرة مدبرة تحت مسخر ملك عظيم، لا يعصى أمره، ولا يخالف حكمه.

﴿وإذا الأرض مدت﴾ أي: رجفت وارتجت، ونسفت عليها جبالها، ودك ما عليها من بناء ومعلم، فسويت، ومدّها الله تعالى مد الأديم، حتى صارت واسعة جداً، تسع أهل الموقف على كثرتهم، فتصير قاعاً صافياً لا ترى فيه عوجاً ولا أمثاً.

﴿وألقت ما فيها﴾ من الأموات والكنوز.

﴿وتخلت﴾ منهم، فإنه ينفخ في الصور، فتخرج الأموات من الأجداث إلى وجه الأرض، وتخرج الأرض كنوزها، حتى تكون كالأسطوان العظيم، يشاهده الخلق، ويتحسرون

على ما هم فيه يتنافسون، ﴿وأدنت لربها وحقت﴾ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه * أي: إنك ساع إلى الله، وعامل بأوامره ونواهيه، ومتقرب إليه إما بالخير وإما بالشر، ثم تلاقي الله يوم القيامة، فلا تعدم منه جزاء بالفضل إن كنت سعيداً، أو بالعدل إن كنت شقيماً^(١).

ولهذا ذكر تفصيل الجزاء، فقال: ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه﴾ وهم أهل السعادة.

﴿٨﴾ **فَسَوْفَ يَحْسَبُ حَسَاباً** يسيراً * وهو العرض اليسير على الله، فيقرره الله بذنوبه، حتى إذا ظن العبد أنه قد هلك، قال الله [تعالى] له: ﴿إني قد سترتها عليك في الدنيا، فأنا سترها لك اليوم﴾.

﴿وينقلب إلى أهله﴾ في الجنة **ميسروراً** * لأنه نجا من العذاب وفاز بالشواب، ﴿وأما من أوتي كتابه وراء ظهره﴾ أي: بشماله من خلفه^(٢).

﴿فسوف يدعو ثوراً﴾ من الحزني والفضيحة، وما يجد في كتابه من الأعمال التي قدمها ولم يتب منها، ﴿ويصلى سعيراً﴾ أي: تحيط به السعير من كل جانب، ويقلب على عذابها، وذلك لأنه في الدنيا كان في أهله مسروراً لا يخطر البعث على باله، وقد أساء، ولم^(٣) يظن أنه راجع إلى ربه وموقوف بين يديه.

﴿بلى إن ربه كان به بصيراً﴾ فلا يحسن أن يتركه سدى، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب ولا يعاقب.

﴿٢٥-٢٦﴾ **فَلَا أَقْسَمُ** بالشفق * والليل وما وسق * والقمر إذا اتسق * لتركبن طبقاً عن طبق * فما لهم لا يؤمنون * وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون * بل الذين كفروا يكتفون * والله أعلم بما يوعون * فبشرهم بعذاب أليم * إلا

الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون * أقسم في هذا الموضع بآيات الليل، فأقسم بالشفق الذي هو بقية نور الشمس، الذي هو مفتتح الليل، ﴿والليل وما وسق﴾ أي: احتوى عليه من حيوانات وغيرها، ﴿والقمر إذا اتسق﴾ أي: امتلاً نوراً بإبداره، وذلك أحسن ما يكون وأكثر منافع، والمقسم عليه قوله: ﴿لتركبن﴾ [أي: أيها الناس] طبقاً عن طبق * أي: أطواراً متعددة وأحوالاً متباينة، من النطفة إلى العلقة، إلى المضغة، إلى نفخ الروح، ثم يكون وليداً وطفلاً، ثم مميزاً، ثم يجرى عليه قلم التكليف، والأمر والنهي، ثم يموت بعد ذلك، ثم يبعث ويجازى بأعماله، فهذه الطبقات المختلفة الجارية على العبد، دالة على أن الله وحده هو المعبود، الموحد، المدبر لعباده بحكمته ورحمته، وأن العبد فقير عاجز، تحت تدبير العزيز الرحيم، ومع هذا، فكثير من الناس لا يؤمنون ﴿وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون﴾ أي: لا يخضعون للقرآن، ولا يتقادون لأوامره ونواهيه، ﴿بل الذين كفروا يكتفون﴾ أي: يعاندون الحق بعدما تين، فلا يستغرب عدم إيمانهم وعدم انقيادهم للقرآن، فإن المكذب بالحق عناداً، لا حيلة فيه، ﴿والله أعلم بما يوعون﴾ أي: بما يعملونه وينوونه سراً، فالله يعلم سرهم وجهرهم، وسيجازيهم بأعمالهم، ولهذا قال: ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ وسميت البشارة بشارة، لأنها تؤثر في البشرية سروراً أو غماً.

فهذه حال أكثر الناس، التكذيب بالقرآن، وعدم الإيمان [به].

ومن الناس فريق هداهم الله، فأمنوا بالله، وقبلوا ما جاءهم به الرسل، فأمنوا وعملوا الصالحات.

فهؤلاء لهم أجر غير ممنون أي: غير

(١) في ب: جزاء بالفضل أو العدل، بالفضل إن كنت سعيداً، وبالعقوبة إن كنت شقيماً.

(٢) في ب: من وراء ظهره.

(٣) في ب: ولا.

مقطوع، بل هو أجر دائم مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر..

تم تفسير السورة ولله الحمد

تفسير سورة البروج وهي مكية

﴿١- ٢٢﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْذُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُعُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ * إِنْ يَبْطِشْ رِبْكَ لِشَدِيدٍ * إِنَّهُ هُوَ بِيدِيءٌ وَيُعِيدُ * وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ * ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَالٍ لَمَّا يَرِيدُ * هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ * فِرْعَوْنُ وَثَمُودُ * بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبِ * وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ * بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ * وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * أَيْ: [ذَاتِ] المنازل المشتملة على منازل الشمس والقمر، والكواكب المنتظمة في سيرها، على أكمل ترتيب ونظام دال على كمال قدرة الله تعالى ورحمته، وسعة علمه وحكمته.

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ وهو يوم القيامة، الذي وعده الله الخلق أن يجمعهم فيه، ويضم فيه أولهم وآخرهم، وقاصيهم ودانيهم، الذي

لا يمكن أن يتغير، ولا يخلف الله الميعاد.

﴿وشاهد ومشهود﴾ وشمل هذا كل من اتصف بهذا الوصف أي: مُبْصِر ومُبْصَر، وحاضر ومحضور، وراء ومزني.

والمقسم عليه، ما تضمنه هذا القسم من آيات الله الباهرة، وحكمه الظاهرة، ورحمته الواسعة، وقيل: إن المقسم عليه قوله: ﴿قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْذُودِ﴾ وهذا دعاء عليهم بالهلاك.

و «الأخذود»: الحفر التي تحفر في الأرض.

وكان أصحاب الأخدود هؤلاء قوما كافرين، ولديهم قوم مؤمنون، فراودوهم للدخول^(١) في دينهم، فامتنع المؤمنون من ذلك، فشق الكافرون أخذوداً [في الأرض]، وقذفوا فيها النار، وقعدوا حولها، وفتنوا المؤمنين، وعرضوهم عليها، فمن استجاب لهم أطلقوه، ومن استمر على الإيمان قذفوه في النار، وهذا في غاية المحاربة لله ولحزبه المؤمنين، ولهذا لعنهم الله وأهلكهم وتوعدهم فقال: ﴿قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْذُودِ﴾ ثم فسر الأخدود بقوله: ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ إذ هم عليها قعود * وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود * وهذا من أعظم ما يكون من التجبر وقساوة القلب، لأنهم جمعوا بين الكفر بآيات الله ومعاندتها، ومحاربة أهلها وتعذيبهم بهذا العذاب، الذي تنفطر منه القلوب، وحضورهم إياهم عند إلقاءهم فيها، والحال أنهم ما تقموا من المؤمنين إلا خصلة^(٢) يمدحون عليها، وبها سعادتهم، وهي أنهم كانوا يؤمنون بالله العزيز الحميد أي: الذي له

(١) في ب: على الدخول.

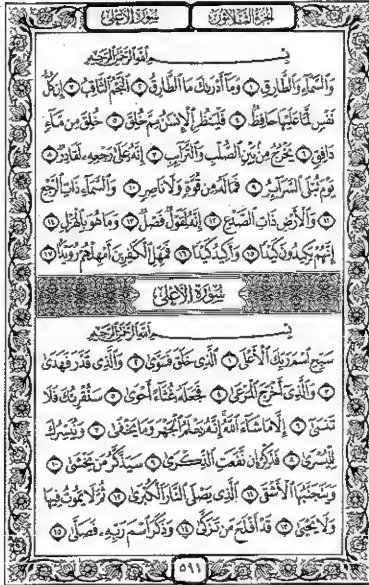
(٢) في ب: حالة.

(٣) في ب: يتصرف فيهم بما يشاء.

(٤) في ب: أفلا خاف هؤلاء المتمردون عليه أن يأخذهم العزيز المقتدر، أو ما علموا كلهم أنهم ممالك لله.

(٥) في ب: مجازيهم عليها.

(٦) في ب: والجاهل في عمى وضلال.



العزة التي فخر بها كل شيء، وهو حيد في أقواله وأوصافه وأفعاله.

﴿الذي له ملك السماوات والأرض﴾ خلقاً وعبيداً، يتصرف فيهم تصرف المالك بملكه^(٣)، ﴿والله على كل شيء شهيد﴾ علماً وسمعاً وبصراً، أفلا خاف هؤلاء المتمردون على الله، أن يبطش بهم العزيز المقتدر، أو ما علموا أنهم جميعهم ممالك لله^(٤)، ليس لأحد على أحد سلطة، من دون إذن المالك؟ أو خفي عليهم أن الله محيط بأعمالهم، مجاز لهم على فعالهم^(٥)؟ كلا إن الكافر في غرور، والظالم في جهل وعمى^(٦) عن سواء السبيل.

ثم وعدهم وأوعدهم، وعرض عليهم التوبة، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ أي: العذاب الشديد المحرق.

قال الحسن رحمه الله: انظروا إلى هذا الكرم والجود، هم قتلوا أوليائه

والله لا معاون لإرادته، ولا مانع له مما أراد.

ثم ذكر من أفعاله الدالة على صدق ما جاءت به رسله، فقال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ وكيف كذبوا المرسلين، فجعلهم الله من المهلكين، ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ أي: لا يزالون مستمرين على التكذيب والعناد، لا تنفع فيهم الآيات، ولا تُجدي لديهم العظات، ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ أي: قد أحاط بهم علماً وقدره، كقوله: ﴿إِنْ رِبْكَ لِلْمَرْتَدِّ فِيهِ الْوَعْدُ الشَّدِيدُ لِلْكَافِرِينَ، مِنْ عِقَابِهِ مَنْ هُمْ فِي قَبْضَتِهِ، وَتَحْتَ تَدْبِيرِهِ.﴾ بل هو قرآن مجيد، أي: وسيع المعاني عظيمها، كثير الخير والعلم، ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ من التغيير والزيادة والنقص، ومحفوظ من الشياطين، وهو اللوح المحفوظ الذي قد أثبت الله فيه كل شيء.

وهذا يدل على جلالة القرآن وجزالته، ورفعة قدره عند الله تعالى، والله أعلم.

تم تفسير السورة

تفسير سورة الطارق وهي مكية

﴿١- ١٧﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النُّجُومُ الثَّاقِبُ * إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ * فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ * وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصُّدُوعِ * إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ * إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَهْلُهُمْ رَوِيدًا﴾ يقول [الله] تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾.

ثم فسر الطارق بقوله: ﴿النُّجُومِ﴾

ولهذا كانت محبته أصل العبودية، وهي المحبة التي تتقدم جميع المحاب وتغلبها، وإن لم يكن غيرها تبعاً لها، كانت عذاباً على أهلها، وهو تعالى الودود، الواؤد لأحبابه، كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ والمودة هي المحبة الصافية، وفي هذا سر لطيف، حيث قرن «الودود» بالغفور، ليدل ذلك على أن أهل الذنوب إذا تابوا إلى الله وأنابوا، غفر لهم ذنوبهم وأحبهم، فلا يقال: بل تغفر ذنوبهم، ولا يرجع إليهم الود، كما قاله بعض الغالطين.

بل الله أفرح بتوبة عبده حين يتوب، من رجل له راحلة، عليها طعامه وشرابه وما يصلحه، فأضلها في أرض فلاة مهلكة، فأيس منها، فاضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت، فبينما هو على تلك الحال، إذا راحلته على رأسه، فأخذ بخطامها، فالله أعظم فرحاً بتوبة العبد من هذا براحلته، وهذا أعظم فرح يقدر.

فله الحمد والثناء، وصفو الوداد، ما أعظم بره، وأكثر خيره، وأغزر إحسانه، وأوسع امتنانه! ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ أي: صاحب العرش العظيم، الذي من عظمته، أنه وسع السماوات والأرض والكرسي، فهي بالنسبة إلى العرش كحلقة ملقاة في فلاة، بالنسبة لسائر الأرض، وخص الله العرش بالذكر، لعظمته، ولأنه أخص المخلوقات بالقرب منه تعالى، وهذا على قراءة الجر، يكون «المجيد» نعتاً للعرش، وأما على قراءة الرفع، فإن «المجيد» نعت لله (٣)، والمجد سعة الأوصاف وعظمتها.

﴿فَعَالٌ لَمَّا يَرْيَدُ﴾ أي: مهما أراد شيئاً فعله، إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، وليس أحد فعلاً لما يريد إلا الله.

فإن المخلوقات، ولو أرادت شيئاً، فإنه لا بد لإرادتها من معاون وممانع،



وأهل طاعته، وهو يدعوهم إلى التوبة. ولما ذكر عقوبة الظالمين، ذكر ثواب المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بجوارحهم ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ الذي حصل به الفوز (١) برضا الله ودار كرامته.

﴿إِنْ يَبْطِشْ رِبْكَ لِشَدِيدٍ﴾ أي: إن عقوبته لأهل الجرائم والذنوب العظام [لقوية] شديدة، وهو بالمرصاد للظالمين، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخْذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

﴿إِنَّهُ هُوَ يَدْعُو وَيُعِيدُ﴾ أي: هو المنفرد بإبداء الخلق وإعادته، فلا مشارك له في ذلك (٢)، ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ الذي يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب، ويعفو عن السيئات لمن استغفروه وأناب.

﴿الْوَدُودُ﴾ الذي يحبه أحبابه محبة لا يشبهها شيء فكما أنه لا يشابهه شيء في صفات الجلال والجمال، والمعاني والأفعال، فمحبته في قلوب خواص خلقه، التابعة لذلك، لا يشبهها شيء من أنواع المحاب،

(١) في ب: حصل لهم الفوز.

(٢) في ب: فلا يشاركه في ذلك مشارك.

(٣) في ب: فإنه يكون نعتاً لله.



وتصير الأمور علانية، ﴿فمأله من قوة﴾ يدفع بها عن نفسه^(٢)، ﴿ولا ناصر﴾ خارجي^(٣) ينتصر به، فهذا القسم على حالة العاملين وقت عملهم وعند جزائهم.

ثم أقسم قسمًا ثانيًا على صحة القرآن، فقال: ﴿والسماوات ذات الرجوع﴾ * والأرض ذات الصدع﴾ أي: ترجع السماء بالمطر كل عام، وتنصدع الأرض للنبات، فيعيش بذلك الأدميون والبهائم، وترجع السماء أيضاً بالأقذار والشؤون الإلهية كل وقت، وتنصدع الأرض عن الأموات، ﴿إنه﴾ أي: القرآن ﴿لقول فصل﴾ أي: حق وصدق، بين واضح.

﴿وما هو بالهزل﴾ أي: جد ليس بالهزل، وهو القول الذي يفضل بين الطوائف والمقاتلات، وتنفصل به الخصومات.

﴿إنهم﴾ أي: المكذابين للرسول ﷺ، وللقرآن ﴿يكيدون كيدا﴾ ليندفعوا بكيدهم الحق، ويؤيدوا الباطل، ﴿وأكيد كيدا﴾ لإظهار الحق، ولو كره الكافرون، ولدفع ما جاؤوا به من الباطل، ويعلم بهذا من الغالب، فإن الأدمي أضعف وأحقر من أن يغالب القوي العليم في كيده، ﴿فمهمل الكافرين أمهلهم رويدا﴾ أي: قليلاً، فسيعلمون عاقبة أمرهم، حين ينزل بهم العقاب.

تم تفسير سورة الطارق،
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة سبح وهي مكية

﴿١- ١٩﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم سبح اسم ربك الأعلى﴾ الذي خلق فسوى * والذي قدر فهدى * والذي أخرج المرعى * فجعله غثاء أحوى * ستقرئك فلا تنسى * إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى *

الشاقب﴾ أي: المضيء، الذي يثقب نوره، فيخرق السماوات [يفنذ حتى يرى في الأرض]، والصحيح أنه اسم جنس يشمل سائر النجوم الثواقب.

وقد قيل: إنه «زحل» الذي يخرق السماوات السبع ويفنذ فيها^(١)، فيرى منها.

وسمي طارقاً، لأنه يطرق ليلاً، والمقسم عليه قوله: ﴿إن كل نفس لما عليها حافظ﴾ يحفظ عليها أعمالها الصالحة والسيئة، وستجازى بعملها المحفوظ عليها، ﴿فلينظر الإنسان مم خلق﴾ أي: فليتدبر خلقته ومبدأه، فإنه مخلوق ﴿من ماء دافق﴾ وهو المني الذي يخرج من بين الصلب والترائب. يحتمل أنه من بين صلب الرجل وترائب المرأة، وهي ثدياها.

ويحتمل أن المراد المني الدافق، وهو مني الرجل، وأن محله الذي يخرج منه ما بين صلبه وترائبه، ولعل هذا أولى، فإنه إنما وصف الله به الماء الدافق، والذي يحس [به] ويشاهد دفقته، هو مني الرجل، وكذلك لفظ الترائب فإنها تستعمل في الرجل، فإن الترائب للرجل، بمنزلة الثديين للأنثى، فلو أردت الأنثى، لقال: ﴿من بين الصلب والثديين﴾، ونحو ذلك، والله أعلم.

فالذي أوجد الإنسان من ماء دافق، يخرج من هذا الموضع الصعب، قادر على رجعه في الآخرة، وإعادته للبعث والنشور [والجزاء]، وقد قيل: إن معناه، أن الله على رجح الماء المندفوق في الصلب لقادر، وهذا - وإن كان المعنى صحيحاً - فليس هو المراد من الآية، ولهذا قال بعده: ﴿يوم تبلى السرائر﴾ أي: تختبر سرائر الصدور، ويظهر ما كان في القلوب من خير وشر على صفحات الوجه قال تعالى: ﴿يوم تبيضُ وجوه وتسودُ وجوه﴾ ففي الدنيا، تنكتم كثير من الأمور، ولا تظهر عياناً للناس، وأما في القيامة، فيظهر برُّ الأبرار، وفجور الفجار،

ونيسرك لليسرى * فذكر إن نفعت الذكرى * سيذكر من يخشى * ويتجنها الأشقى * الذي يصلى النار الكبرى * ثم لا يموت فيها ولا يحى * قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصل * بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خير وأبقى * إن هذا لفي الصحف الأولى * صحف إبراهيم وموسى * يأمر تعالى بتسبيحه المتضمن لذكره وعبادته، والخضوع لجلاله، والاستكانة لعظمته، وأن يكون تسبيحاً، يليق بعظمة الله تعالى، بأن تذكر أسماؤه الحسنى العالية على كل اسم بمعناها الحسن العظيم^(٤)، وتذكر أفعاله التي منها أنه خلق المخلوقات فسواها، أي: أتقنها وأحسن خلقها، ﴿والذي قدر﴾ تقديرًا، تتبعه جميع المقدرات ﴿فهدى﴾ إلى ذلك جميع المخلوقات.

وهذه الهداية العامة، التي مضمونها أنه هدى كل مخلوق لمصلحته، وتذكر فيها نعمه الدنيوية، ولهذا قال فيها: ﴿والذي أخرج المرعى﴾ أي: أنزل من السماء ماء فأنبث به أنواع^(٥) النبات والعشب الكثير، فرتع فيها الناس والبهائم وكل حيوان^(٦)، ثم بعد أن

(١) في ب: ويفنذها.

(٣) في ب: من خارج.

(٥) في ب: أصناف.

(٢) في ب: أي من نفسه يدفع بها

(٤) في ب: بمعناها العظيم الجليل.

(٦) في ب: وجميع الحيوانات.



المنقص المكدر الترائل على الآخرة،
[والآخرة خير وأبقى] وللاخرة

خير من الدنيا في كل وصف مطلوب،
وأبقى لكونها دار خلد وبقاء وصفاء،
والدنيا دار فناء، فالؤمن العاقل
لا يختار الأردأ على الأجود، ولا يبيع
لذة ساعة، بترحة الأبد، فحب الدنيا
وإثارها على الآخرة رأس كل خطيئة،

﴿إن هذا﴾ المذكور لكم في هذه السورة
المباركة، من الأوامر الحسنة، والأخبار
المستحسنة ﴿لפי الصحف الأولى﴾
صحف إبراهيم وموسى اللذين هما
أشرف المرسلين، سوى النبي محمد
صلى الله عليه وسلم.

فهذه أوامر في كل شريعة، لكونها
عائدة إلى مصالح الدارين، وهي
مصالح في كل زمان ومكان.

تم تفسير سورة سحر، والله الحمد

تفسير سورة الغاشية وهي مكية

﴿١٦-١٧﴾ ﴿بسم الله الرحمن
الرحيم هل أتاك حديث الغاشية *
وجوه يومئذ خاشعة * عاملة ناصبة *
تصلي نارا حامية * تسقى من عين
آنية * ليس لهم طعام إلا من ضريع *
لا يسمن ولا يغني من جوع * وجوه
يومئذ ناعمة * لسعياها راضية * في
جنة عالية * لا تسمع فيها لاغية *
فيها عين جارية * فيها سرر
مرفوعة * وأكواب موضوعة *
ونمارق مصفوفة * وزرابي مشوطة *
يذكر تعالى أحوال يوم القيامة وما فيها
من الأحوال الطائفة، وأنها تغشى
الخلائق بشدائدها، فيجازون
بأعمالهم، ويتميزون [إلى] فريقين:
فريقاً في الجنة، وفريقاً في السعير.

حصل من الذكرى جميع المقصود أو
بعضه.

ومفهوم الآية أنه إن لم تنفع
الذكرى، بأن كان التذكير يزيد في
الشر، أو ينقص من الخير، لم تكن
الذكرى مأموراً بها، بل منهاياً عنها،
فالذكرى ينقسم الناس فيها قسمين:
منتفعون وغير منتفعين.

فأما المنتفعون، فقد ذكرهم بقوله:
﴿سيدذكر من يخشى﴾ الله تعالى، فإن
خشية الله تعالى، وعلمه بأن سيجازيه
على أعماله^(٥)، توجب للعبد الانكفاف
عن المعاصي^(٦) والسعي في الخيرات.

وأما غير المنتفعين، فذكرهم بقوله:
﴿وتجنبها الأشقى﴾ الذي يصلي النار
الكبرى، وهي النار الموقدة، التي تطلع
على الأفتدة، ﴿ثم لا يموت فيها
ولا يحيى﴾ أي: يعذب عذاباً ألماً،
من غير راحة ولا استراحة، حتى إنهم
يتمنون الموت فلا يحصل لهم، كما قال
تعالى: ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا
ولا يخفف عنهم من عذابها﴾.

﴿قد أفلح من تزكى﴾ أي: قد فاز
وربح من طهر نفسه ونقاها من الشر
والظلم ومساوئ الأخلاق، ﴿وذكر
اسم ربه فصلي﴾ أي: اتصف
بذكر الله، وانصبغ به قلبه، فأوجب له
ذلك العمل بما يرضي الله، خصوصاً
الصلاة، التي هي ميزان الإيمان، فهذا
معنى الآية الكريمة، وأما من فسر
قوله: ﴿تزكى﴾ بمعنى أخرج زكاة
الفطر، وذكر اسم ربه فصلي، أنه صلاة
العبد، فإنه وإن كان داخلاً في اللفظ
وبعض جزئياته، فليس هو المعنى
وحده.

﴿بل تؤثر الحياة الدنيا﴾ أي:
تقدمونها على الآخرة، وتختارون نعيمها

استكمل ما قدر له من الشباب، ألوى
نباته، ووضوح عشبته، ﴿فجعلها غشاء
أحوى﴾ أي: أسود أي: جعله هشياً
رميماً، ويذكر فيها نعمه الدينية، ولهذا
امتن الله بأصلها ومنشأها^(١)، وهو
القرآن، فقال: ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾
أي: سنحفظ ما أوحينا إليك من
الكتاب، ونوعيه قلبك، فلا تنسى منه
شيئاً، وهذه بشارة كبيرة من الله لعبده
ورسوله محمد ﷺ، أن الله سيعلمه
علماً لا ينساه، ﴿إلا ما شاء الله﴾ مما
اقتضت حكمته أن ينسكه لمصلحة
بالغة، ﴿إنه يعلم الجهر وما يخفى﴾
ومن ذلك أنه يعلم ما يصلح عباده أي:
فلذلك يُشرع ما أراد، ويحكم بما
يريد^(٢)، ﴿ونيسرك لليسرى﴾ وهذه
أيضاً بشارة كبيرة^(٣)، أن الله ييسر
رسوله ﷺ لليسرى في جميع أموره،
ويجعل شرعه ودينه يسراً^(٤).

﴿فذكر﴾ بشرع الله وآياته ﴿إن
نفعت الذكرى﴾ أي: ما دامت الذكرى
مقبولة، والموعظة مسموعة، سواء

(١) في ب: ومادتها.

(٢) كذا في ب، وفي أ: يحكم بما أراد، ويحكم بما يريد.

(٣) في ب: أخرى.

(٤) كذا في ب، وفي أ: يسيراً.

(٥) في ب: والعلم بمجازاته على الأعمال.

(٦) في ب: الانكفاف عما يكرهه الله.

(٧) في ب: بعد.

فأخبر عن وصف كلا الفريقين، فقال في [وصف] أهل النار: ﴿وَجْوهُ يَوْمَئِذٍ أَشْجَعٌ أَي: يوم القيامة﴾ خاشعة ﴿من الذل والفضيحة والحزي﴾.

﴿عاملة ناصبة﴾ أي: تابعة في العذاب، تجرُّ على وجوهها، وتغشى وجوههم النار.

ويحتمل أن المراد [بقوله]: ﴿وَجْوهُ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ عاملة ناصبة في الدنيا لكونهم في الدنيا أهل عبادات وعمل، ولكنه لما عدم شرطه وهو الإيمان، صار يوم القيامة هباءً منثوراً، وهذا الاحتمال وإن كان صحيحاً من حيث المعنى، فلا يدل عليه سياق الكلام، بل الصواب المقطوع به هو الاحتمال الأول، لأنه قيده بالظرف، وهو يوم القيامة، ولأن المقصود هنا بيان وصف أهل النار عموماً، وذلك الاحتمال جزء قليل من أهل النار بالنسبة إلى أهلها^(١)، ولأن الكلام في بيان حال الناس عند غشيان الغاشية، فليس فيه تعرض لأحوالهم في الدنيا.

وقوله: ﴿تَصْلِي نَارًا حَامِيَةً﴾ أي: شديداً حرها، تحيط بهم من كل مكان، ﴿تَسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ أي: حارة شديدة الحرارة ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه﴾ فهذا شراهم.

وأما طعامهم، فـ ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾ لا يسمن ولا يغني من جوع، وذلك أن المقصود من الطعام أحد أمرين: إما أن يسد جوع صاحبه ويزيل عنه ألمه، وإما أن يسمن بدنه من الهزال، وهذا الطعام ليس فيه شيء من هذين الأمرين، بل هو طعام في غاية المرارة والنتن والخساسة، نسأل الله العافية.

وأما أهل الخير، فوجوههم يوم

القيامة ﴿نَاعِمَةٌ﴾ أي: قد جرت عليهم نضرة النعيم، فنضرت أبدانهم، واستنارت وجوههم، وسروا غاية السرور، ﴿لسعيها﴾ الذي قدمته في الدنيا من الأعمال الصالحة، والإحسان إلى عباد الله، ﴿راضية﴾ إذ وجدت ثوابه مدخراً مضاعفاً، فحمدت عقياه، وحصل لها كل ما تتمناه، وذلك أنها ﴿في جنة﴾ جامعة لأنواع النعيم كلها، ﴿عالية﴾ في محلها ومنزلها، فمحلها في أعلى عليين، ومنزلها مساكن عالية، لها غرف ومن فوق الغرف غرف مبنية يشرفون منها على ما أعد الله لهم من الكرامة.

﴿تطوفها دانية﴾ أي: كثيرة الفواكه اللذيذة، المثمرة بالثمار الحسنة، السهلة التناول، بحيث ينالونها على أي حال كانوا، لا يحتاجون أن يصعدوا شجرة، أو يستعصي عليهم منها ثمرة.

﴿لا تسمع فيها﴾ أي: الجنة ﴿لاغية﴾ أي: كلمة لغو وباطل، فضلاً عن الكلام المحرم، بل كلامهم كلام حسن [نافع] مشتمل على ذكر الله تعالى، وذكر نعمه المتواترة عليهم، و [على] الآداب المستحسنة^(٢) بين المتعاشرين، الذي يسر القلوب، ويشرح الصدور.

﴿فيها عين جارية﴾ وهذا اسم جنس أي: فيها العيون الجارية التي يفجرونها ويصرفونها كيف شاؤوا، وأتى أرادوا.

﴿فيها سرور مرفوعة﴾ و «السرور» جمع «سرير»، وهي المجالس المرتفعة في ذاتها، وبما عليها من الفرش اللينة الوطيفة.

﴿وأكواب موضوعة﴾ أي: أوإن ممثلة من أنواع الأشربة اللذيذة، قد وضعت بين أيديهم، وأعدت لهم، وصارت تحت طلبهم واختيارهم،

يطوف بها عليهم الولدان المخلدون. ﴿ونمارق مصفوفة﴾ أي: وسائد من الحرير والاستبرق وغيرهما لا يعلمه إلا الله، قد صفت للجلوس والالتكاء عليها، وقد أريحوا عن أن يضعوها، ويصقوها بأنفسهم.

﴿١٦﴾ ﴿وزرائي مبثوثة﴾ والزراي [هي]: البسط الحسنان، مبثوثة أي: مملوءة بها بمجالسهم من كل جانب.

﴿١٧ - ٢٦﴾ ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾ وإلى السماء كيف رفعت ﴿وإلى الجبال كيف نصبت﴾ وإلى الأرض كيف سطحت ﴿فذكر إنما أنت مذكر﴾ لست عليهم بمضطر ﴿إلا من تولى وكفر﴾ فيعذبه الله العذاب الأكبر ﴿إن إلنا إياهم﴾ ثم إن علينا حسابهم ﴿يقول تعالى حقاً للذين لا يصدقون الرسول ﷺ، ولغيرهم من الناس، أن يتفكروا في مخلوقات الله الدالة على توحده: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾ أي: [ألا] ينظرون إلى خلقها البديع، وكيف سخرها الله للعباد، وذلكلها لمنافعهم الكثيرة التي يضطرون إليها.

﴿وإلى الجبال كيف نصبت﴾ بهيئة باهرة، حصل بها استقرار الأرض^(٣) وثباتها عن الاضطراب، وأودع الله فيها من المنافع [الجليلة] ما أودع.

﴿وإلى الأرض كيف سطحت﴾ أي: مدت مداً واسعاً، وسهلت غاية التسهيل، ليستقر الخلاق^(٤) على ظهرها، ويتمكنوا من حرثها وغراسها، والبتينان فيها، وسلوك الطرق الموصلة^(٥) إلى أنواع المقاصد فيها.

واعلم أن تسطيحها لا ينافي أنها كرة مستديرة، قد أحاطت الأفلاك فيها من جميع جوانبها، كما دل على ذلك

(١) في ب: جزء قليل بالنسبة إلى أهل النار.

(٢) في ب: الحسنة.

(٣) في ب: الاستقرار للأرض.

(٤) في ب: العباد.

(٥) في ب: طرقها.

الشديدة، والعتو والتجبر، ﴿التي لم يخلق مثلها﴾ أي: مثل عاد ﴿في البلاد﴾ أي: في جميع البلدان ﴿في القوة والشدة﴾، كما قال لهم نبيهم هود عليه السلام: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون﴾.

﴿وتمود الذين جابوا الصخر بالواد﴾ أي: وادي القري، نحنوا بقتوهم الصخور، فاتخذوها مساكن، ﴿وفرعون ذي الأوتاد﴾ أي: [ذي] الجنود الذين ثبتوا ملكه، كما ثبتت الأوتاد ما يراد إمساكه بها، ﴿الذين طغوا في البلاد﴾ هذا الوصف عائد إلى عاد وتمرود وفرعون ومن تبعهم، فإنهم طغوا في بلاد الله، وأذا عباده الله، في دينهم ودنياهم، ولهذا قال: ﴿فأكثروا فيها الفساد﴾ وهو العمل بالكفر وشعبه، من جميع أجناس المعاصي، وسعوا في محاربة الرسل وصد الناس عن سبيل الله، فلما بلغوا من العتو ما هو موجب لهلاكهم، أرسل الله عليهم من عذابه ذنوباً وسوط عذاب، ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ لمن عصاه (٥) يمهله قليلاً، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

﴿١٥ - ٢٠﴾ ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن﴾ وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن ﴿كلا بل لا تكرمون اليتم﴾ ولا تحاضون على طعام المسكين ﴿وتأكلون الثراث أكلاً لماً﴾ وتحبون المال حباً جماً ﴿يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنه جاهل ظالم، لا علم له بالعواقب، يظن الحالة التي تقع فيه تستمر ولا تزول، ويظن أن إكرام الله في الدنيا وإنعامه عليه يدل على كرامته عنده وقربه منه، وأنه إذا ﴿قدر عليه رزقه﴾ أي: ضيقه، فصار بقدر قوته لا يفضل منه، أن هذا إهانة من الله

واقبال النهار، من الآيات الدالة على كمال قدرة الله تعالى، وأنه وحده المدبر (٤) لجميع الأمور، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ويقع في الفجر صلاة فاضلة معظمة، يحسن أن يقسم الله بها، ولهذا أقسم بعده بالليالي العشر، وهي على الصحيح: ليالي عشر رمضان، أو [عشر] ذي الحجة، فإنها ليال مشتملة على أيام فاضلة، ويقع فيها من العبادات والقربات ما لا يقع في غيرها.

وفي ليالي عشر رمضان ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر، وفي نهارها، صيام آخر رمضان الذي هو ركن من أركان الإسلام. وفي أيام عشر ذي الحجة، الوقوف بعرفة، الذي يغفر الله فيه لعباده مغفرة يحزن لها الشيطان، فما رزى الشيطان أحقر ولا أدر منه في يوم عرفة، لما يرى من تنزل الأملاك والرحمة من الله لعباده، ويقع فيها كثير من أفعال الحج والعمرة، وهذه أشياء معظمة، مستحقة لأن يقسم الله بها. ﴿والليل إذا يسر﴾ أي: وقت سريانه وإرخائه ظلامه على العباد، فيسكنون ويستريحون ويطمثون، رحمة منه تعالى وحكمة.

﴿هل في ذلك﴾ المذكور ﴿قسم لذي حجر﴾ أي: [لذي] عقل؟ نعم، بعض ذلك يكفي، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

﴿٦ - ١٤﴾ ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد﴾ إرم ذات العماد ﴿التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾. وتمرود الذين جابوا الصخر بالواد ﴿وفرعون ذي الأوتاد﴾ الذين طغوا في البلاد ﴿فأكثروا فيها الفساد﴾ فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ يقول تعالى: ﴿ألم تر﴾ بقلبك وبصيرتك كيف فعل بهذه الأمم الطاغية، وهي ﴿إرم﴾ القبيلة المعروفة في اليمن ﴿ذات العماد﴾ أي: القوة

النقل والعقل والحس والمشاهدة، كما هو مذكور معروف عند أكثر الناس، خصوصاً في هذه الأزمنة، التي وقف الناس على أكثر أرجائها بما أعطاهم الله من الأسباب المقربة للبعيد، فإن التسطيع إنما ينافي كروية الجسم الصغير جداً، الذي لو سطح لم يبق له استدارة تذكر.

وأما جسم الأرض الذي هو في غاية الكبر والسعة (٢)، فيكون كروياً مسطحاً، ولا يتناقض الأمران، كما يعرف ذلك أرباب الخبرة. ﴿فذكر إنما أنت مذكر﴾ أي: ذكر الناس وعظهم، وأنذرهم وبشّرهم، فإنك مبعوث لدعوة الخلق إلى الله وتذكيرهم، ولم تبعث مسيطراً عليهم، مسلطاً موكلاً بأعمالهم، فإذا قمت بما عليك، فلا عليك بعد ذلك لوم، كقوله تعالى: ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾ فذكر القرآن من يخاف وعيد. وقوله: ﴿إلا من تولى وكفر﴾ أي: لكن من تولى عن الطاعة وكفر بالله ﴿فيعذبه الله العذاب الأكبر﴾ أي: الشديد الدائم، ﴿إن إلينا إيابهم﴾ أي: رجوع الخلق (٣) وجمعهم في يوم القيامة.

﴿ثم إن علينا حسابهم﴾ فنحاسبهم على ما عملوا من خير وشر. آخر تفسير سورة الغاشية، والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الفجر وهي مكية

﴿١ - ٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والفجر﴾ وليال عشر ﴿والشفع والوتر﴾ والليل إذا يسر ﴿هل في ذلك قسم لذي حجر﴾ الظاهر أن المقسم به هو المقسم عليه، وذلك جائز مستعمل، إذا كان أمراً ظاهراً مهُمّاً، وهو كذلك في هذا الموضع. فأقسم تعالى بالفجر، الذي هو آخر الليل ومقدمة النهار، لما في إدبار الليل

(١) في ب: كثير.

(٢) في ب: الخلاق.

(٥) في ب: لمن يعصيه.

(٢) في ب: الذي هو كبير جداً واسع.

(٤) في ب: وأنه تعالى هو المدبر.

له، فرد الله عليه هذا الحساب: بقوله ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس كل من نَعَّمْتُهُ في الدنيا فهو كريم علي، ولا كل من قدرت عليه رزقه فهو مهان لدي، وإنما الغنى والفقر، والسعة والضيق، ابتلاء من الله، وامتحان يمتحن به العباد، ليري من يقوم له بالشكر والصبر، فيثيبه على ذلك الثواب الجزيل، ممن ليس كذلك فينقله إلى العذاب الويل.

وأيضاً، فإن وقوف همة العبد عند مراد نفسه فقط، من ضعف الهمة، ولهذا لا مهم الله على عدم اهتمامهم بأحوال الخلق المحتاجين، فقال: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ﴾ الذي فقد أباه وكاسبه، واحتاج إلى جبر خاطره والإحسان إليه. فأنتم لا تكرمونه بل تهينونه، وهذا يدل على عدم الرحمة في قلوبكم، وعدم الرغبة في الخير.

﴿وَلَا تَحَاضِرُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ أي: لا يحضر بعضكم بعضاً على إطعام المحاويج من المساكين والفقراء، وذلك لأجل الشح على الدنيا ومحبتها الشديدة المتمكنة من القلوب، ولهذا قال: ﴿وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثُ﴾ أي: المال المخلف ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ أي: ذريعاً، لا تقون على شيء منه.

﴿وَتَحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي: كثيراً شديداً، وهذا كقوله تعالى: ﴿بَلْ تَوَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ خَيْرَ وَأَبْقَى﴾ ﴿كَلَّا بَلْ تَحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾.

﴿٢١ - ٣٠﴾ ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ يقول يا ليتني قدمت لحياتي ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَعْدُبُ عَذَابُهُ أَحَدًا﴾ ولا يوثق وثاقه أحد ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ﴾ ارجعي إلى ربك واضية مرضية ﴿فَادْخُلِي فِي

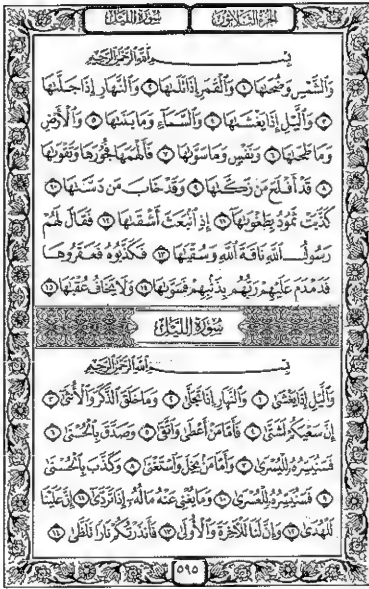
عبادي * وادخلي جنتي﴾ ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس [كل] ما أحببتم من الأموال، وتنافستم فيه من اللذات، بياق لكم، بل أمامكم يوم عظيم، وهول جسيم، تدك فيه الأرض والجبال وما عليها حتى تجعل قاعاً صافصفاً لا عوج فيه ولا أمت.

ويجيء الله تعالى لفصل القضاء بين عباده في ظلل من الغمام، وتجيء الملائكة الكرام، أهل السماوات كلهم، صفاً صفاً أي: صفاً بعد صف، كل سماء يجيء ملائكتها صفاً، يحيطون بمن دونهم من الخلق، وهذه الصفوف صفوف خضوع وذل للملك الجبار، ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ تقودها الملائكة بالسلاسل.

فإذا وقعت هذه الأمور ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾ ما قدمه من خير وشر.

﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ فقد فات أوانها، وذهب زمانها، يقول متحسراً على ما فرط في جنب الله: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدِمْتُ لِحَيَاتِي﴾ الدائمة الباقية، عملاً صالحاً، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ يا ويلتي ليتني لم آخذ فلاناً خليلاً.

وفي الآية دليل على أن الحياة التي ينبغي السعي في أصلها وكمالها^(١)، وفي تميم لذاتها، هي الحياة في دار القرار، فإنها دار الخلد والبقاء، ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَعْدُبُ عَذَابُهُ أَحَدًا﴾ لمن أهمل ذلك اليوم ونسي العمل له، ﴿وَلَا يُوَثَّقُ وَثَاقُهُ أَحَدًا﴾ فإنهم يقرنون بسلاسل من نار، ويسحبون على وجوههم في الحميم، ثم في النار يسجرون، فهذا جزاء المجرمين، وأما من اطمأن إلى الله وآمن به وصدق رسله، فيقال له: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ﴾ إلى ذكر الله، الساكنة [إلى] حبه، التي قرت عينها بالله. ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكَ﴾ الذي رباك بتعمته، وأسدى عليك من إحسانه ما صرت به من



أوليائه وأحبابه ﴿واضية مرضية﴾ أي: راضية عن الله، وعن ما أكرمها به من الثواب، والله قد رضي عنها.

﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وادخلي جنتي﴾ وهذا مخاطب به الروح يوم القيامة، وتخطب به في حال الموت^(٢) [والحمد لله رب العالمين].

تفسير سورة لا أقسم بهذا البلد^(٣) مكية

﴿١ - ٢٠﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ لا أقسم بهذا البلد * وأنت حل بهذا البلد * ووالد وما ولد * لقد خلقنا الإنسان في كبد * ألمحسب أن لن يقدر عليه أحد * يقول أهلكت ما لا ليبدأ * ألمحسب أن لم يره أحد * ألم نجعل له عينين * ولساناً وشفتين * وهديناه النجدين * فلا اقتحم العقبة * وما أدراك ما العقبة * فك رقبة * أو إطعام في يوم ذي مسغبة * يتيماً ذا مقربة * أو مسكيناً ذا متربة * ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالرحمة * أولئك أصحاب اليمنة * والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة * عليهم ناز مؤصدة * يقسم تعالى ﴿هذا البلد﴾

(٣) في ب: سورة البلد.

(٢) في ب: وقت السياق والموت.

(١) في ب: السعي في كمالها

فكها من الرق، بعثتها أو مساعدتها على أداء كتابتها، ومن باب أولى فكك الأسير المسلم عند الكفار.

﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ أي: مجاعة شديدة، بأن يطعم وقت الحاجة أشد الناس حاجة، ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أي: جامعاً بين كونه يتيمًا، فقيراً ذا قرابة، ﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أي: قد لزق بالتراب من الحاجة والضرورة، ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(٥) أي: آمنوا بقلوبهم بما يجب الإيمان به، وعملوا الصالحات بجوارحهم من كل قول^(٦) وفعل واجب أو مستحب، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ على طاعة الله وعن معصيته، وعلى أقدار الله المؤلفة بأن يبحث بعضهم بعضاً على الانقياد لذلك، والإتيان به كاملاً متشراحاً به الصدر، مطمئنة به النفس.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾ للخلق، من إعطاء محتاجهم، وتعليم جاهلهم، والقيام بما يحتاجون إليه من جميع الوجوه، ومساعدتهم على المصالح الدينية والدنيوية، وأن يجب لهم ما يحب لأنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، أولئك الذين قاموا بهذه الأوصاف، الذين وفقهم الله لاقتحام هذه العقبة ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمِثْمَةِ﴾ لأنهم أدوا ما أمر الله به من حقوقه وحقوق عباده، وتركوا ما نهوا عنه، وهذا عنوان السعادة وعلامتها.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ بأن نذروا هذه الأمور وراء ظهورهم، فلم يصدقوا بالله، [ولا آمنوا به]، ولا عملوا صالحاً، ولا رحموا عباد الله، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ عليهم ناز مؤصدة ﴿أي: منقلبة، في عمد ممددة،

أن لن يقدر عليه أحد﴾ ويطغى ويفتخر بما أنفق من الأموال على شهوات نفسه، ف ﴿يقول أهلكم ما لا لبدا﴾ أي: كثيراً، بعضه فوق بعض.

وسمى الله تعالى الإنفاق في الشهوات والمعاصي إهلاكاً، لأنه لا ينتفع المنفق بما أنفق، ولا يعود عليه من إنفاقه إلا الندم والخسار والتعب والقلّة، لا كمن أنفق في مرضاة الله في سبيل الخير، فإن هذا قد تاجر مع الله، وريح أضعاف أضعاف ما أنفق.

قال الله متوعداً هذا الذي يفتر بما أنفق في الشهوات: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ أي: يحسب^(٦) في فعله هذا، أن الله لا يراه ويحاسبه على الصغير والكبير؟

بل قد رآه الله، وحفظ عليه أعماله، ووكل به الكرام الكاتبين، لكل ما عمله من خير وشر.

ثم قرره بنعمه، فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ ولساناً وشفقتين للجمال والبصر والنطق، وغير ذلك من المنافع الضرورية فيها، فهذه نعم الدنيا، ثم قال في نعم الدين: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ أي: طريقي الخير والشر، بينا له الهدى من الضلال، والرشد من الغي.

فهذه المنن الجزيلة، تقتضي من العبد أن يقوم بحقوق الله، ويشكر الله على نعمه، وأن لا يستعين بها على معاصيه^(٣)، ولكن هذا الإنسان لم يفعل ذلك.

﴿١١﴾ ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ أي: لم يقتحمها ويعبر عليها، لأنه متبع لشهواته^(٤).

وهذه العقبة شديدة عليه، ثم فسر [هذه] العقبة بقوله: ﴿فَكَ رَقِبَةً﴾ أي:



الأمين، الذي هو مكة المكرمة، أفضل البلدان على الإطلاق، خصوصاً وقت حلول الرسول ﷺ فيها، ﴿ووالد وما ولد﴾ أي: آدم وذريته.

والمقسم عليه قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ يحتمل أن المراد بذلك ما يكابده ويقاسيه من الشدائد في الدنيا، وفي البرزخ، ويوم يقوم الأشهاد، وأنه ينبغي له أن يسعى في عمل يريحه من هذه الشدائد، ويوجب له الفرح والسرور الدائم.

وإن لم يفعل، فإنه لا يزال يكابد العذاب الشديد أبد الآباد.

ويحتمل أن المعنى: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، وأقوم خلقه، مقدر^(١) على التصرف والأعمال الشديدة، ومع ذلك، [فإنه] لم يشكر الله على هذه النعمة [العظيمة]، بل بطر بالعافية وتحير على خالقه، فحسب بجهله وظلمه أن هذه الحال ستدوم له، وأن سلطان تصرفه لا ينزعزل، ولهذا قال تعالى: ﴿يَحْسَبُ

(١) في ب: يقدر.

(٢) في ب: أبطن.

(٣) في ب: على معاصي الله.

(٤) في ب: لهواه.

(٥) سبق قلم الشيخ فزاد في الآية ﴿وعملوا الصالحات﴾ فحذفت الزيادة في الآية وأبقيت التفسير.

(٦) في ب: فدخل في هذا كل قول.



فوقهم، والرجفة من تحتهم، فأصبحوا جاثمين على ركبهم، لا تجد منهم داعياً ولا مجيباً.

﴿فسواها﴾ عليهم أي: سوى بينهم بالعقوبة^(٦) «ولا يخاف عقباها» أي: تبعها.

وكيف يخاف من هو قاهر، لا يخرج عن قهره وتصرفه مخلوق، الحكيم في كل ما قضاه وشرعه؟

تمت لله الحمد

تفسير سورة الليل وهي مكية

﴿١- ٢١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى إن سعيكم لشتى فأما من أعطى واتقى وصديق بالحسن فستيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فستيسره لليسرى إن علينا للمهدي وإن لنا للأخرة والأولى فأنذرتكم نارا تلظى لا يصالها إلا الأشقى الذي كذب وتولى وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزي إلا ابتغاء

الخلق حينئذ من الانتفاع بها، بجميع وجوه^(٣) الانتفاع.

﴿ونفس وما سواها﴾ يحتمل أن المراد نفس سائر المخلوقات الحيوانية، كما يؤيد هذا العموم، ويحتمل أن المراد بالإقسام بنفس الإنسان المكلف، بدليل ما يأتي بعده.

وعلى كل، فالنفس آية كبيرة من آياته التي حقيقة بالإقسام بها^(٣)، فإنها في غاية اللطف والخلقة، سريعة التنقل [والحركة] والتغير والتأثر والانفعالات النفسية، من الهم، والإرادة، والقصد، والحب، والبغض، وهي التي لولاها لكان البدن مجرد تمثال لا فائدة فيه، وتسويتها على هذا الوجه^(٤) آية من آيات الله العظيمة.

وقوله: ﴿قد أفلح من زكاها﴾ أي: طهر نفسه من الذنوب، ونقاها من العيوب، ورقاها بطاعة الله، وعلاها بالعلم النافع والعمل الصالح.

﴿وقد خاب من دساها﴾ أي: أخفى نفسه الكريمة، التي ليست حقيقة بقمعها وإخفائها، بالتدنس بالردائل، والدنو من العيوب والافتراق للذنوب، وترك ما يكملها وينميها، واستعمال ما يشينها ويدسها.

﴿كذبت ثمود بطغواها﴾ أي: بسبب طغيانها وترفعها عن الحق، وعتوها على رسل الله^(٥)، «إذ اتبعث أشقاها» أي: أشقى القبيلة، [وهو] «قدار بن سالف» لعقرها حين اتفقوا على ذلك، وأمره فأقمر لهم.

﴿فقال لهم رسول الله﴾ صالح عليه السلام مخذراً: «ناقة الله وسقياها» أي: احذروا عقر ناقة الله، التي جعلها لكم آية عظيمة، ولا تقابلوا نعمة الله عليكم بسقي لبنا أن تعقروها، فكذبوا نبيهم صالحاً فعقروها، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم^(٦) أي: دمر عليهم وعصم عقابها، وأرسل عليهم الصيحة من

قد مدت من ورائها، لثلاث تنفتح أبوابها، حتى يكونوا في ضيق وهم وشدة [والحمد لله].

تفسير سورة الشمس وضحاها وهي مكية

﴿١- ١٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها والسماء وما بناها والأرض وما طحاها ونفس وما سواها فالهيمها فنجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها كذبت ثمود بطغواها إذ اتبعث أشقاها فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها أقسم تعالى بهذه الآيات العظيمة، على النفس المفلحة، وغيرها من النفوس الفاجرة، فقال:

﴿والشمس وضحاها﴾ أي: نورها، ونفعا الصادر منها، ﴿والقمر إذا تلاها﴾ أي: تبعها في المنازل والنور، ﴿والنهار إذا جلاها﴾ أي: جل ما على وجه الأرض وأوضحه، ﴿والليل إذا يغشاها﴾ أي: يغشى وجه الأرض، فيكون ما عليها مظلماً.

فتعاقب الظلمة والضياء، والشمس والقمر، على هذا العالم، بانتظام وإتقان، وقيام^(١) لمصالح العباد، أكبر دليل على أن الله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه المعبود وحده، الذي كل معبود سواه قباطل.

﴿والسماء وما بناها﴾ يحتمل أن «ما» موصولة، فيكون الإقسام بالسماء وبانيها، الذي هو الله تبارك وتعالى، ويحتمل أنها مصدرية، فيكون الإقسام بالسماء وبانيها، الذي هو غاية ما يقدر من الأحكام والإتقان والإحسان، ونحو ذلك قوله: ﴿والأرض وما طحاها﴾ أي: مدها ووسعها، فتمكن

(١) كذا في ب، وفي أ: وانتظام.

(٢) في ب: أوجه.

(٣) في ب: يحق الإقسام بها.

(٤) في ب: على ما هي عليه.

(٥) في ب: على رسولهم.

(٦) في ب: في العقوبة.

العقائد الحسنة، ﴿فستيسره للعسرى﴾ أي: للحالة العسرة، والخصال الذميمة، بأن يكون ميسراً للشر أينما كان، ومقيضاً له أفعال المعاصي، نسأل الله العافية.

﴿وما يغني عنه ماله﴾ الذي أطغاه واستغنى به، وبخل به إذا هلك ومات، فإنه لا يصحبه إلا عمله الصالح^(٤).

وأما ماله [الذي لم يخرج منه الواجب] فإنه يكون وبلاً عليه، إذ لم يقدم منه لآخرته شيئاً.

﴿إن علينا للهدى﴾ أي: إن الهدى المستقيم طريقه، يوصل إلى الله، ويؤدي من رضاه، وأما الضلال، فطرق مسدودة عن الله، لا توصل صاحبها إلا للعذاب الشديد.

﴿وإن لنا للآخرة والأولى﴾ ملكاً وتصرفاً، ليس له فيهما مشاركون، فليزغ الراغبون إليه في الطلب، ولينقطع رجاؤهم عن المخلوقين، ﴿فأنذرتكم ناراً تلظى﴾ أي: تستعر وتتوقد، ﴿لا يصلاحها إلا الأشقي﴾ الذي كذب بالخبر ﴿وتولى﴾ عن الأمر.

﴿وسيجزيها الأتقى﴾ الذي يؤتي ماله يتزكى، بأن يكون قصده به تزكية نفسه، وتطهيرها من الذنوب والعيوب^(٥)، قاصداً به وجه الله تعالى، فدل هذا على أنه إذا تضمن الإنفاق المستحب ترك واجب، كدين ونفقة ونحوهما، فإنه غير مشروع، بل تكون عطيته مردودة عند كثير من العلماء، لأنه لا يتزكى بفعل مستحب يفوت عليه الواجب.

﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى﴾ أي: ليس لأحد من الخلق على هذا الأتقى نعمة تجزي إلا وقد كافأها،

بحسب تفاوت نفس الأعمال ومقدارها والنشاط فيها، وبحسب الغاية المقصودة بتلك الأعمال، هل هو وجه الله الأعلى الباقي؟ فيبقى السعي له^(٦) ببقائه، ويتنفع به صاحبه، أم هي غاية مضمحلة فانية، فيبطل السعي ببطلانها، ويضمحل باضمحلها؟

وهذا كل عمل يقصد به غير وجه الله تعالى، بهذا الوصف، ولهذا فصل الله تعالى العاملين، ووصف أعمالهم، فقال: ﴿فأما من أعطى﴾ [أي] ما أمر به من العبادات المالية، كالزكوات، والكفارات، والنفقات، والصدقات، والإنفاق في وجوه الخير، والعبادات البدنية كالصلاة، والصوم ونحوهما.

والركبة منهما، كالحج والعمرة، [ونحوهما] ﴿وأتقى﴾ ما نهي عنه، من المحرمات والمعاصي، على اختلاف أجناسها.

﴿وصدق بالحسنى﴾ أي: صدق بـ «لا إله إلا الله» وما دلت عليه، من جميع العقائد الدينية، وما ترتب عليها من الجزاء الأخروي.

﴿فستيسره للعسرى﴾ أي: تسهل عليه أمره، ونجعله ميسراً له^(٣) كل خير، ميسراً له ترك كل شر، لأنه أتى بأسباب التيسير، فيسر الله له ذلك.

﴿وأما من بخل﴾ بما أمر به، فترك الإنفاق الواجب والمستحب، ولم تسمح نفسه بأداء ما وجب لله، ﴿واستغنى﴾ عن الله، فترك عباديته جانباً، ولم ير نفسه مفتقرة غاية الافتقار إلى ربه، الذي لا نجاة لها ولا فوز ولا فلاح، إلا بأن يكون هو محبوبها ومعبودها، الذي تقصده وتتوجه إليه، ﴿وكذب بالحسنى﴾ أي: بما أوجب الله على العباد التصديق به من



وجه ربه الأعلى * ولسوف يرضى وهذا قسم من الله بالزمان الذي تقع فيه أفعال العباد على تفاوت أحوالهم، فقال: ﴿والليل إذا يغشى﴾ [أي: يعم] الخلق بظلامه، فيسكن كل إلى مأواه ومسكنه، ويستريح العباد من الكد والتعب، ﴿والنهار إذا تجلى﴾ للخلق، فاستضاءوا بنوره، وانتشروا في مصالحهم، ﴿وما خلق الذكر والأنثى﴾ إن كانت «ما» موصولة، كان إقساماً بنفسه الكريمة الموصوفة، بأنه^(١) خالق الذكور والإناث، وإن كانت مضمرية، كان قسمًا بخلقها للذكر والأنثى، وكمال حكمته في ذلك أن خلق من كل صنف من الحيوانات التي يريد بقاءها ذكراً وأنثى، ليبقى النوع ولا يضمحل، وقاد كلا منهما إلى الآخر بسلسلة الشهوة، وجعل كلا منهما مناسباً للآخر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقوله: ﴿إن سعيكم لشتى﴾ هذا [هو] المقسم عليه أي: إن سعيكم أيها المكلفون لتفاوت تفاوتاً كثيراً، وذلك

(١) في ب: بكونه.

(٢) في ب: العمل له.

(٣) في ب: أي يسر له أمره، ونجعله سهلاً عليه.

(٤) في ب: فإنه لا يصحب الإنسان إلا عمله الصالح.

(٥) في ب: والأدناس..



رباك ورعاك، بل لم يزل يربيك أحسن تربية، ويعليك درجة بعد درجة.

﴿وما قلا﴾ ك الله أي: ما أبغضك منذ أحبك، فإن نفى الضد دليل على ثبوت ضده، والنفي المحض لا يكون مدحاً، إلا إذا تضمن ثبوت كمال، فهذه حال الرسول ﷺ الماضية والحاضرة، أكمل حال وأتمها، محبة الله له واستمرارها، وترقيته في درج (٢) الكمال، ودوام اعتناء الله به.

وأما حاله المستقبل، فقال: ﴿وللاخرة خير لك من الأولى﴾ أي: كل حالة متأخرة من أحوالك، فإن لها الفضل على الحالة السابقة.

فلم يزل ﷺ يصعد في درج المعالي (٣)، ويمكن له الله دينه، وينصره على أعدائه، ويسدد له أحواله، حتى مات، وقد وصل إلى حال لا يصل (٤) إليها الأولون والآخرون، من الفضائل والنعم، وقرة العين، وسرور القلب.

ثم بعد ذلك، لا تسأل عن حاله في الآخرة، من تفاصيل الإكرام، وأنواع الإنعام، ولهذا قال: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ وهذا أمر لا يمكن التعبير عنه بغير هذه العبارة الجامعة الشاملة.

ثم امتن عليه بما يعلمه من أحواله (٥) [الخاصة] فقال: ﴿لم يحدك يتيماً فأوى﴾ أي: وجدك لا أم لك، ولا أب، بل قد مات أبوه وأمه وهو لا يدبر نفسه، فأواه الله، وكفله جده عبد المطلب، ثم لما مات جده كفله الله عمه أبا طالب، حتى أيده الله بنصره وبالمؤمنين.

﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ أي: وجدك لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان، فعلمك ما لم تكن تعلم، ووقفك لأحسن الأعمال والأخلاق.

وربما بقي له الفضل والمنة على الناس، فتمحض عبداً لله، لأنه رقيق إحسانه وحده، وأما من بقي (١) عليه نعمة للناس لم يجزها ويكافئها، فإنه لا بد أن يترك للناس، ويفعل لهم ما ينقص [إخلاصه].

وهذه الآية، وإن كانت متناولة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، بل قد قيل إنها نزلت في سببه، فإنه - رضي الله عنه - ما لأحد عنده من نعمة تجزى، حتى ولا رسول الله ﷺ، إلا نعمة الرسول التي لا يمكن جزاؤها، وهي [نعمة] الدعوة إلى دين الإسلام، وتعليم الهدى ودين الحق، فإن الله ورسوله المنة على كل أحد، منه لا يمكن لها جزاء ولا مقابلة، فإنها متناولة لكل من اتصف بهذا الوصف الفاضل، فلم يبق لأحد عليه من الخلق نعمة تجزى، فبقيت أعماله خالصة لوجه الله تعالى.

ولهذا قال: ﴿إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى﴾ * ولسوف يرضى * هذا الأتقى بما يعطيه الله من أنواع الكرامات والثوبات، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الضحى وهي مكية

﴿١- ١١﴾ * بسم الله الرحمن الرحيم والضحى * والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى * وللاخرة خير لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى * ألم يجدك يتيماً فأوى * ووجدك ضالاً فهدى * ووجدك عائلاً فأغنى * فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر * وأما بنعمة ربك فحدث * أقسم تعالى بالنهار إذا انتشر ضياؤه بالضحى، وبالليل إذا سجد وادلهمت ظلمته، على اعتناء الله برسوله ﷺ فقال: ﴿ما ودعك ربك﴾ أي: ما تركك منذ اعتنى بك، ولا أهملك منذ

﴿ووجدك عائلاً﴾ أي: فقيراً ﴿فأغنى﴾ بما فتح الله عليك (١) من البلدان، التي جبيت لك أموالها وخراجها.

فالذي أزال عنك هذه النقائص، سيزيل عنك كل نقص، والذي أوصلك إلى الغنى، وأواك ونصرك وهذاك، قابل نعمته بالشكران.

[ولهذا قال:] ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾ أي: لا تسيء معاملة اليتيم، ولا يضق صدرك عليه، ولا تنهره، بل أكرمه، وأعطه ما تيسر، وأصنع به كما تحب أن يصنع بولدك من بعدك.

﴿وأما السائل فلا تنهر﴾ أي: لا يصدر منك إلى السائل كلام (٧) يقتضي رده عن مطلوبه، بنهر وشراسة خلق، بل أعطه ما تيسر عندك أو رده بمعروف [وإحسان].

وهذا يدخل فيه السائل للمال، والسائل للعلم، ولهذا كان المعلم مأموراً بحسن الخلق مع المتعلم، ومباشرته بالإكرام والتحنن عليه، فإن في ذلك معونة له على مقصده، وإكراماً لمن كان يسعى في نفع العباد والبلاد.

(٧) في ب: لا يصدر منك كلام للسائل.

(٤) في ب: ما وصل.

(٥) كذا في ب، وفي أ: الأحوال.

(٦) في ب: فأغناك الله بما فتح عليك.

(١) في ب: بقيت.

(٢) في ب: درجات.

(٣) في ب: درجات.

فرغت من الصلاة وأكملتها، فانصب في الدعاء، وإلى ربك فارغب في سؤال مطالبك.

واستدل من قال بهذا القول، على مشروعية الدعاء والذكر عقب الصلوات المكتوبات، والله أعلم بذلك تمت والله الحمد.

تفسير سورة التين وهي مكية

﴿١-٨﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ والتين والزيتون * وطور سينين * وهذا البلد الأمين * لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون * فما يكذبك بعد بالدين * أليس الله بأحكم الحاكمين * ﴿التين﴾ هو التين المعروف، وكذلك ﴿الزيتون﴾ أقسم بهاتين الشجرتين، لكثرة منافع شجرهما وثمرهما، ولأن سلطانهما في أرض الشام، محل نبوة عيسى ابن مريم عليه السلام.

﴿وطور سينين﴾ أي: طور سيناء، محل نبوة موسى ﷺ، وهذا البلد الأمين * وهي مكة المكرمة، محل نبوة محمد ﷺ. فأقسم تعالى بهذه المواضع المقدسة، التي اختارها وابتعث منها أفضل النبوات (١) وأشرفها.

والمقسم عليه قوله: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ أي: تام الخلق، متناسب الأعضاء، منتصب القامة، لم يفقد مما يحتاج إليه ظاهر أو باطناً شيئاً، ومع هذه النعم العظيمة، التي ينبغي منه القيام بشكرها، فأكثر الخلق منحرفون عن شكر المنعم، مشتغلون باللهو واللعب، قد رضوا لأنفسهم بأسفل الأمور، وسفاسف الأخلاق، فردهم الله في أسفل سافلين أي: أسفل النار، موضع العصاة المتمردين على ربهم، إلا من الله عليه بالإيمان والعمل الصالح، والأخلاق الفاضلة العالية، ﴿فلهم

﴿الذي أنقض﴾ أي: أنقل ﴿ظهيرك﴾ كما قال تعالى: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾. ورفعنا لك ذكرك * أي: أعلينا قدرك، وجعلنا لك الثناء الحسن العالي، الذي لم يصل إليه أحد من الخلق، فلا يذكر الله إلا ذكر معه رسوله ﷺ، كما في الدخول في الإسلام، وفي الأذان والإقامة والخطب، وغير ذلك من الأمور التي أعلی الله بها ذكر رسوله محمد ﷺ.

وله في قلوب أمته من المحبة والإجلال والتعظيم ما ليس لأحد غيره، بعد الله تعالى، فجزاه الله عن أمته أفضل ما جرى نبياً عن أمته.

وقوله: ﴿فإن مع العسر يسراً﴾ إن مع العسر يسراً * بشارة عظيمة، أنه كلما وجد عسر وصعوبة، فإن اليسر يقارنه ويصاحبه، حتى لو دخل العسر جحر ضب لدخل عليه اليسر فأخرجه، كما قال تعالى: ﴿سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ وكما قال النبي ﷺ: «وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسراً».

وتعريف «العسر» في الآيتين، يدل على أنه واحد، وتشكيل «اليسر» يدل على تكراره، فلن يغلب عسر يسرين.

وفي تعريفه بالألف واللام، الدالة على الاستغراق والعموم يدل على أن كل عسر - وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ - فإنه في آخره التيسير ملازم له.

ثم أمر الله رسوله أصلاً، والمؤمنين تبعاً، بشكره والقيام بواجب نعمه، فقال: ﴿فإذا فرغت فانصب﴾ أي: إذا فرغت من أشغالك، ولم يبق في قلبك ما يعوق، فاجتهد في العبادة والدعاء.

﴿وإلى ربك﴾ وحده ﴿فارغب﴾ أي: أعظم الرغبة في إجابة دعائك وقبول عبادتك (١).

ولا تكن ممن إذا فرغوا وتفرغوا لعبوا وأعرضوا عن ربهم وعن ذكره، فتكون من الخاسرين.

وقد قيل: إن معنى قوله: فإذا

(٢) في ب: أفضل الأنبياء وأشرفهم.



﴿وأما بنعمة ربك﴾ [وهذا يشمل] النعم الدينية والدنيوية ﴿فحدث﴾ أي: أثن على الله بها، وخصصها بالذكر إن كان هناك مصلحة.

وإلا فحدث بنعم الله على الإطلاق، فإن التحدث بنعمة الله داع لشكرها، وموجب لتحبيب القلوب إلى من أنعم بها، فإن القلوب مجبولة على محبة المحسن.

تفسير سورة ألم نشرح لك صدرك وهي مكية

﴿١-٨﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ألم نشرح لك صدرك * ووضعنا عنك وزرك * الذي أنقض ظهيرك * ورفعنا لك ذكرك * فإن مع العسر يسراً * إن مع العسر يسراً * فإذا فرغت فانصب * وإلى ربك فارغب * يقول تعالى - مختصراً على رسوله -: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ أي: توسع له لشرائع الدين والدعوة إلى الله، والاتصاف بمكارم الأخلاق، والإقبال على الآخرة، وتسهيل الخيرات، فلم يكن ضيقاً حرجياً، لا يكاد ينقاد لخير، ولا تكاد تجده منبسطاً.

﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ أي: ذنبك

(١) في ب: دعواتك.



﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ﴾ الناهي بالحق،
﴿وتولى﴾ عن الأمر، أما يخاف الله
ويخشى عقابه؟ ﴿ألم يعلم بأن الله
يرى﴾ ما يعمل ويفعل؟

ثم توعده إن استمر على حاله،
فقال: ﴿كلا لئن لم ينته﴾ عما يقول
وفيعمل ﴿لنسفعن بالناصية﴾ أي:
لنأخذن بناصيته، أخذاً عنيفاً، وهي
حقيقة بذلك، فإنها ﴿ناصية كاذبة
خاطئة﴾ أي: كاذبة في قولها، خاطئة
في فعلها.

﴿فليدع﴾ هذا الذي حَقَّ عليه
العقاب^(٥) ﴿ناديه﴾ أي: أهل مجلسه
وأصحابه ومن حوله، ليعينه على ما
نزل به، ﴿سندعوا الزانية﴾ أي: خزنة
جهنم، لأخذه وعقوبته، فلينظر أي:
الفريقين أقوى وأقدر؟ فهذه حالة
الناهي وما توعده به من العقوبة، وأما
حالة المنهي، فأمره الله أن لا يصغي
إلى هذا الناهي ولا يتقاد لنهيهِ، فقال:
﴿كلا لا تطعه﴾ [أي:] فإنه لا يأمر
إلا بما فيه خسارة الدارين،
﴿واسجد﴾ لربك ﴿واقرب﴾ منه في
السجود وغيره من أنواع الطاعات
والقربات، فإنها كلها تُدني من رضاه
وتقرب منه.

وهذا عام لكل ناهٍ عن الخير ومنهي

فامتنع، وقال: «ما أنا بقاريء» فلم
ينزل به حتى قرأ. فأنزل الله عليه:
﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ عموم
الخلق، ثم خص الإنسان، وذكر ابتداء
خلقه ﴿من علق﴾ فالذي خلق الإنسان
واعتنى بتدبيره، لا بد أن يدبره بالأمر
والنهي، وذلك بإرسال الرسول
إليهم^(١)، وإنزال الكتب عليهم، ولهذا
ذكر^(٢) بعد الأمر بالقراءة، خلقه^(٣)
للإنسان.

ثم قال: ﴿اقرأ وربك الأكرم﴾
أي: كثير الصفات واسعها، كثير
الكرم والإحسان، واسع الجود، الذي
من كرمه أن علم بالعلم^(٤). و ﴿علم
بالقلم﴾ علم الإنسان ما لم يعلم، فإنه
تعالى أخرجه من بطن أمه لا يعلم
شيئاً، وجعل له السمع والبصر
والفؤاد، وسير له أسباب العلم.

فعلمه القرآن، وعلمه الحكمة،
وعلمه بالقلم، الذي به تحفظ العلوم،
وتضبط الحقوق، وتكون رسلاً للناس
تنوب مناب خطابهم، فبلله الحمد
والمنة، الذي أنعم على عباده بهذه النعم
التي لا يقدرُونَ لها على جزاء ولا
شكور، ثم من عليهم بالغنى وسعة
الرزق، ولكن الإنسان - لجهله
وظلمه - إذا رأى نفسه غنياً، طغى
وبغى، وتحير عن الهدى، ونسى أن إلى
ربه الرجعى، ولم يخف الجزاء، بل ربما
وصلت به الحال أنه يترك الهدى
بنفسه، ويدعو [غيره] إلى تركه، فينهى
عن الصلاة التي هي أفضل أعمال
الإيمان. يقول الله لهذا المتمرّد العاني:
﴿أرأيت﴾ أيها الناهي للعبد إذا صلى
﴿إن كان﴾ العبد المصلي ﴿على الهدى﴾
العلم بالحق والعمل به، ﴿أو أسر﴾
غيره ﴿بالتقوى﴾.

فهل يحسن أن ينهى من هذا وصفه؟
أليس نهيه من أعظم المحادّة لله
والمحاربة للحق؟ فإن النهي لا يتوجه
إلا لمن هو في نفسه على غير الهدى، أو
كان يأمر غيره بخلاف التقوى.

بذلك المنازل العالية، و ﴿أجر غير
ممنون﴾ أي: غير مقطوع، بل لذات
متوافرة، وأفراح متواترة، ونعم متكاثرة،
في أبد لا يزول، ونعيم لا يحول، أكلها دائمة
وظلها، ﴿فما يكذبك بعد بالدين﴾ أي:
أي: شيء يكذبك أيها الإنسان بيوم الجزاء
على الأعمال، وقد رأيت من آيات الله
الكثيرة ما به يحصل لك اليقين، ومن نعمه ما
يوجب عليك أن لا تكفري شيء مما أخبرك
به، ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ فهل
تقتضي حكمته أن يترك الخلق سدى
لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون ولا
يعاقبون؟

أم الذي خلق الإنسان أطواراً بعد
أطوار، وأوصل إليهم من النعم والخير
والبر ما لا يحصونه، ورباهم التربية
الحسنة، لا بد أن يعيدهم إلى دار هي
مستقرهم وغايتهم، التي إليها
يقصدون، ونحوها يؤمّنون. تمت والله
الحمد.

تفسير سورة اقرأ [وهي] مكية

﴿١-١٩﴾ ﴿بسم الله الرحمن
الرحيم اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾
خلق الإنسان من علق ﴿اقرأ وربك
الأكرم﴾ الذي علم بالقلم ﴿علم
الإنسان ما لم يعلم﴾ كلا إن الإنسان
ليطغى ﴿أن رآه استغنى﴾ إن إلى ربك
الرجعى ﴿أرأيت الذي ينهى﴾ عبداً
إذا صلى ﴿أرأيت إن كان على
الهدى﴾ أو أمر بالتقوى ﴿أرأيت إن
كذب وتولى﴾ ألم يعلم بأن الله يرى
﴿كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية﴾
ناصية كاذبة خاطئة ﴿فليدع ناديه﴾
سندع الزانية ﴿كلا لا تطعه واسجد
واقرب﴾ هذه السورة أول السور
القرآنية نزولاً على رسول الله ﷺ.

فإنها نزلت عليه في مبادئ النبوة،
إذ كان لا يدري ما الكتاب ولا
الإيمان، فجاءه جبريل عليه الصلاة
السلام بالرسالة، وأمره أن يقرأ،

(١) في ب: بإرسال الرسل.

(٢) في ب: ولهذا أتى.

(٣) في ب: بخلقه.

(٤) في ب: بأنواع العلوم.

(٥) في ب: العذاب.

هم خير البرية * جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه * يقول تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي: [أمن] اليهود والنصارى ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ من سائر أصناف الأمم.

﴿مُنْفَكِينَ﴾ عن كفرهم وضلالهم الذي هم عليه أي: لا يزالون في غيهم وضلالهم، لا يزيدهم مرور السنين إلا كفراً.

﴿حتى تأتيهم البينة﴾ الواضحة، والبرهان الساطع، ثم فسر تلك البينة فقال: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: أرسله الله، يدعو الناس إلى الحق، وأنزل عليه كتاباً يتلوه، ليعلم الناس الحكمة ويذكهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ولهذا قال: ﴿يَتْلُو صُحُفًا مَطْهُرَةً﴾ أي: محفوظة عن قربان الشياطين، لا يمسها إلا المطهرون، لأنها في أعلى ما يكون من الكلام.

ولهذا قال عنها: ﴿فِيهَا﴾ أي: في تلك الصحف ﴿كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ أي: أخبار صادقة، وأوامر عادلة تهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، فإذا جاءتهم هذه البينة، فحينئذ يتبين طالب الحق ممن ليس له مقصد في طلبه، فيهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

وإذا لم يؤمن أهل الكتاب لهذا الرسول وينقادوا له، فليس ذلك بيد من ضلّاهم وعنادهم، فإنهم ما تفرّقوا واختلفوا وصاروا أحزاباً ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبينة﴾ التي توجب لأهلها الاجتماع والاتفاق، ولكنهم لرداءتهم ونذالتهن، لم يزدن الهدى إلا ضلالاً، ولا البصيرة إلا عمى، مع أن الكتب كلها جاءت بأصل واحد ودين واحد، فما أمروا في سائر الشرائع إلا أن يعبدوا ﴿اللَّهُ خَلِّصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي:

﴿ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ أي: تعادل من فضلها ألف شهر، فالعمل الذي يقع فيها، خير من العمل في ألف شهر [خالية منها]، وهذا مما تتحير فيه ^(٣) الألباب، وتندش له العقول، حيث من تبارك وتعالى على هذه الأمة الضعيفة القوة والقوى، بليلة يكون العمل فيها يقابل ويزيد على ألف شهر، عمر رجل معمر عمراً طويلاً، نيفاً وثمانين سنة.

﴿تنزل الملائكة والروح فيها﴾ أي: يكثّر نزولهم فيها ﴿من كل أمر﴾ سلام هي ﴿أي: سائلة من كل أفة وشر، وذلك لكثرة خيرها،﴾ حتى مطلع الفجر ﴿أي: مبتدأها من غروب الشمس ومنتهاها طلع الفجر﴾ ^(٤)

وقد تواترت الأحاديث في فضلها، وأنها في رمضان، وفي العشر الأواخر منه، خصوصاً في أوتاره، وهي باقية في كل سنة إلى قيام الساعة.

ولهذا كان النبي ﷺ يعتكف ويكثر من التعبد في العشر الأواخر من رمضان، رجاء ليلية القدر [والله أعلم].

تفسير سورة لم يكن وهي مدنية

﴿١-٨﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة ﴿رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة﴾ فيها كتب قيمة ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة﴾ ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك

(٤) كذا في ب، وفي أ: تنتهي من غروب الشمس إلى طلع الفجر.

(٥) في ب: الأوقات.



عنه، وإن كانت نازلة في شأن أبي جهل حين نهي رسول الله ﷺ عن الصلاة، وعبت به ^(١) وآذاه. تمت والله الحمد

تفسير سورة القدر وهي مكية

﴿١-٥﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ إنا أنزلناه في ليلة القدر * أدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر * تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر * سلام هي حتى مطلع الفجر ﴿يقول تعالى مبيناً لفضل القرآن وعلو قدره﴾ ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ كما قال تعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ وذلك أن الله [تعالى]، ابتداءً بإنزاله ^(٢) في رمضان [في] ليلة القدر، ورحم الله بها العباد رحمة عامة، لا يقدر العباد لها شكراً.

وسميت ليلة القدر، لعظم قدرها وفضلها عند الله، ولأنه يقدر فيها ما يكون في العام من الآجال والأرزاق والمقادير القدريّة.

ثم فتح شأنها، وعظم مقدارها، فقال: ﴿وما أدراك ما ليلة القدر﴾ أي: فإن شأنها جليل، وخطرها عظيم،

(١) في ب: وعذبه.

(٢) في ب: ابتداءً بإنزال القرآن.

(٣) كذا في ب، وفي أ: به.

الاشياء، [وجوزي عليها] فما فوق ذلك من باب أولى وأحرى، كما قال تعالى: ﴿يوم تحذ كل نفس ما عملت من خير محضراً، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً﴾ [ووجدوا ما عملوا حاضراً].

وهذه الآية فيها غاية الترغيب في فعل الخير ولو قليلاً، والترهيب من فعل الشر ولو حقيراً.

تفسير سورة العاديات وهي مكية

﴿١- ١١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. والعاديات ضبحاً﴾ فالمراتبة قدحاً. ﴿فالمغيرات صبحاً﴾ فائرن به نفعاً. ﴿فوسطن به جمعاً﴾ إن الإنسان لربه لكنود. ﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾ وإنه لحب الخير لشديد. ﴿أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور﴾ وحصل ما في الصدور. ﴿إن ربهم بهم يومئذ لخبير﴾ أقسم الله تبارك وتعالى بالخليل، لما فيها من آيات الله الباهرة، ونعمه الظاهرة، ما هو معلوم للخلق.

وأقسم [تعالى] بها في الحال التي لا يشاركها [فيه] غيرها من أنواع الحيوانات، فقال: ﴿والعاديات ضبحاً﴾ أي: العاديات عدواً بليفاً قوياً، يصدر عنه الضبح، وهو صوت نفسها في صدرها عند اشتداد العدو^(٥). ﴿فالمغيرات﴾ يحوافرن ما يطأن عليه من الأحجار ﴿قدحاً﴾ أي: تقدح^(٦) النار من صلابة حوافرن [وقوتهن] إذا عدون، ﴿فالمغيرات﴾ على الأعداء ﴿صبحاً﴾ وهذا أمر أغلبي، أن الغارة تكون صباحاً، ﴿فائرن به﴾ أي: بعدونهم وغارتهم ﴿نفعاً﴾ أي: غباراً، ﴿فوسطن به﴾ أي: براكبهم ﴿جمعاً﴾ أي: توسطن به جموع الأعداء، الذين أغار عليهم. والمقسم عليه قوله: ﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾ أي: لنوع للخير الذي

تفسير سورة إذا زلزلت^(٢) وهي مدنية

﴿١- ٨﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾ وأخرجت الأرض أثقالها ﴿وقال الإنسان ما لها﴾ يومئذ تحدث أخبارها ﴿بأن ربك أوحى لها﴾ يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴿يغير تعالى عما يكون يوم القيامة، وأن الأرض تتزلزل وترجف وترتج، حتى يسقط ما عليها من بناء وعلم^(٣)﴾.

فتندك جنباتها، وتُسوى تلالها، وتكون قاعاً صاففاً لا عوج فيه ولا أمّ.

﴿وأخرجت الأرض أثقالها﴾ أي: ما في بطنها، من الأموات والكثور، ﴿وقال الإنسان﴾ إذا رأى ما عراها من الأمر العظيم مستعظماً لذلك: ﴿ما لها؟ أي: أي شيء عرض لها؟﴾

﴿يومئذ تحدث الأرض أخبارها﴾ أي: تشهد على العاملين بما عملوا على ظهرها من خير وشر، فإن الأرض من جملة الشهود الذين يشهدون على العباد بأعمالهم، ذلك ﴿بأن ربك أوحى لها﴾ [أي] وأمرها أن تخبر بما عمل عليها، فلا تعصي لأمره^(٤).

﴿يومئذ يصدر الناس﴾ من موقف القيامة، حين يقضي الله بينهم ﴿أشتاتاً﴾ أي: فرقاً متفاوتين. ﴿ليروا أعمالهم﴾ أي: ليرى الله ما عملوا من الحسنات والسيئات، ويرى جزاءهم موفراً.

﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴿وهذا شامل عام للخير والشر كله، لأنه إذا رأى مثقال الذرة، التي هي أحقر

قاصدين بجميع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه الله، وطلب الزلفى لديه، ﴿حنفاء﴾ أي: معرضين [مائلين] عن سائر الأديان المخالفة لدين التوحيد. وخص الصلاة والزكاة، [بالذكر] مع أنهما داخلان في قوله: ﴿ليعبدوا الله مخلصين﴾ لفضلهما وشرفهما، وكونهما العبادتين اللتين من قام بهما قام بجميع شرائع الدين.

﴿وذلك﴾ أي: التوحيد والإخلاص في الدين، هو ﴿دين القيمة﴾ أي: الدين المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، وما سواه فطريق موصلة إلى الجحيم.

ثم ذكر جزاء الكافرين بعدما جاءتهم البينة، فقال: ﴿إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم﴾ قد أحاط بهم عذابها، واشتد عليهم عقابها، ﴿خالدين فيها﴾ لا يفتر عنهم العذاب، وهم فيها مبلسون، ﴿أولئك هم شر البرية﴾ لأنهم عرفوا الحق وتركوه، وخسروا الدنيا والآخرة.

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية﴾ لأنهم عبدوا الله وعرفوه، وفازوا بنعيم الدنيا والآخرة، ﴿جزاؤهم عند ربهم جنات عدن﴾ أي: جنات إقامة، لا ظعن فيها ولا رحيل، ولا طلب لغاية فوقها، ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴿فرضي عنهم بما قاموا به من مرضيه، ورضوا عنه، بما أعد لهم من أنواع الكرامات وجزيل المثوبات﴾ ذلك الجزاء الحسن ﴿لمن خشى ربه﴾ أي: لمن خاف الله، فأحجم عن معاصيه، وقام بواجباته^(١).

[تمت والحمد لله]

(٥) في ب: عذوها.

(٦) في ب: تنقدح.

(٣) في ب: ومعلم.

(٤) كذا في ب، وفي أ: ولا ستعصي.

(١) في ب: بما أوجب عليه.

(٢) في ب: الزلزلة.

تكن له حسنات تقاوم سيئاته، ﴿فأما هاروة﴾ أي: مأواه ومسكنه النار، التي من أسمائها الهاروة، تكون له بمنزلة الأم الملازمة كما قال تعالى: ﴿إن عذابها كان غراماً﴾.

وقيل: إن معنى ذلك، فأمر دماغه هاروة في النار أي: يلقي في النار على رأسه.

﴿وما أدراك ما هي﴾ وهذا تعظيم لأمرها، ثم فسرها بقوله هي: ﴿نار حامية﴾ أي: شديدة الحرارة، قد زادت حرارتها على حرارة نار الدنيا سبعين ضعفاً. نستجير بالله منها.

تفسير سورة الهالك المتكاثر وهي مكية

﴿١-٨﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الهالك المتكاثر﴾ حتى زرت المقابر ﴿كلا سوف تعلمون﴾ ثم كلا سوف تعلمون ﴿كلا لو تعلمون علم اليقين﴾ لترون الجحيم ﴿ثم لترونها عين اليقين﴾ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴿يقول تعالى موبخاً عباده عن اشتغالهم عما خلقوا له من عبادته وحده لا شريك له، ومعرفته، والإنابة إليه، وتقديم محبته على كل شيء: ﴿الهالك﴾ عن ذلك المذكور ﴿التكاثر﴾ ولم يذكر المتكاثر به، ليشمل ذلك كل ما يتكاثر به المتكاثرون، ويفتخر به المفتخرون، من التكاثر في الأموال، والأولاد، والأنصار، والجنود، والخدم، والجاه، وغير ذلك مما يقصد منه مكاثرة كل واحد للآخر، وليس المقصود به الإخلاص لله تعالى^(٥).

فاستمرت غفلتكم ولهوتكم [وتشاغلكم] حتى زرت المقابر ﴿فانكشف لكم حيلكم الغطاء، ولكن

بذلك، الجزاء بالأعمال^(٤)، الناشئ عن علم الله وإطلاعه.

تفسير سورة القارعة وهي مكية

﴿١-١١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم القارعة﴾ ما القارعة ﴿وما أدراك ما القارعة﴾ يوم يكون الناس كالفرش المنفوش ﴿فأما من ثقلت موازينه﴾ فهو في عيشة راضية ﴿وأما من خفت موازينه﴾ فأما هاروة ﴿وما أدراك ما هي﴾ نار حامية ﴿القارعة﴾ من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك، لأنها تقرع الناس وترزعجهم بأهوالها، ولهذا عظم أمرها وفخمه بقوله: ﴿القارعة﴾ ما القارعة ﴿وما أدراك ما القارعة﴾ يوم يكون الناس ﴿من شدة الفزع والهول، كالفرش المنفوش﴾ أي: كالجراد المنتشر، الذي يمزج بعضه في بعض، والفرش: هي الحيوانات التي تكون في الليل، يمزج بعضها ببعض لا تدري أين توجه، فإذا أوقد لها نار تهافتت إليها لضعف إدراكها، فهذه حال الناس أهل العقول، وأما الجبال الصم الصلاب، فتكون ﴿كالهين المنفوش﴾ أي: كالصوف المنفوش، الذي بقي ضعيفاً جداً، تطير به أدنى ريح، قال تعالى: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾ ثم بعد ذلك تكون هباء منسوراً، فتضمحل ولا يبقى منها شيء يشاهد، فحينئذ تنصب الموازين، وينقسم الناس قسمين: سعداء وأشقياء، ﴿فأما من ثقلت موازينه﴾ أي: رجحت حسناته على سيئاته ﴿فهو في عيشة راضية﴾ في جنات النعيم. ﴿وأما من خفت موازينه﴾ بأن لم

عليه لربه^(١) فطبيعة [الإنسان] وجيلته، أن نفسه لا تسمح بما عليه من الحقوق، فتؤديها كاملة موفرة، بل طبيعتها الكسل والمنع لما عليه من الحقوق المالية والبدنية، إلا من هداه الله وخرج عن هذا الوصف إلى وصف السماح بإداء الحقوق، ﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾ أي: إن الإنسان على ما يعرف من نفسه من المنع والكند لشاهد بذلك، لا يحجده ولا ينكره، لأن ذلك أمرٌ بين واضح. ويحتمل أن الضمير عائد إلى الله تعالى أي: إن العبد لربه لكنود، والله شهيد على ذلك، ففيه الوعيد، والتهديد الشديد، لمن هو لربه كنود، بأن الله عليه شهيد.

﴿وإنه﴾ أي: الإنسان ﴿الحب الخير﴾ أي: المال ﴿لشديد﴾ أي: كثير الحب للمال.

وحبه لذلك، هو الذي أوجب له ترك الحقوق الواجبة عليه، قدم شهوة نفسه على حق^(٢) ربه، وكل هذا لأنه قصر نظره على هذه الدار، وغفل عن الآخرة، ولهذا قال حاثاً له على خوف يوم الوعيد:

﴿أفلا يعلم﴾ أي: هلاً يعلم هذا المغتر ﴿إذا بعثر ما في القبور﴾ أي: أخرج الله الأموات من قبورهم، لحشرهم ونشورهم.

﴿وحصل ما في الصدور﴾ أي: ظهر وبان [ما فيها] ما استتر في الصدور من كمان الخير والشر، فصار السر علانية، والباطن ظاهراً، وبان على وجوه الخلق نتيجة أعمالهم.

﴿إن رهم بهم يومئذ خبير﴾ أي: مطلع على أعمالهم الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية، ومجازيهم عليها. وخص خبره^(٣) بذلك اليوم، مع أنه خبير بهم في كل وقت، لأن المراد

(١) في ب: الله عليه.

(٢) في ب: على رضا ربه.

(٣) في ب: خبرهم.

(٤) في ب: المراد بهذا الجزاء على الأعمال.

(٥) في ب: وليس المقصود منه وجه الله.

في عميد ممددة ﴿ويل﴾ أي: وعيد، وويل، وشدة عذاب ﴿لكل همزة لمزة﴾ الذي يهزم الناس بفعله، ويلمزمهم بقوله، فالهماز: الذي يغيب الناس، ويظعن عليهم بالإشارة والفعل، واللماز: الذي يعينهم بقوله.

ومن صفة هذا الهماز للماز، أنه لا هم له سوى جمع المال وتعديده والقبطة به، وليس له رغبة في إنفاقه في طرق الخيرات وصلة الأرحام، ونحو ذلك، ﴿بحسب﴾ بجعله ﴿أن ماله أخلده﴾ في الدنيا، فلذلك كان كده وسعيه كله في تنمية ماله، الذي يظن أنه ينمي عمره، ولم يدرك أن البخل يقصف الأعمار، ويحرب الديار، وأن البر يزيد في العمر.

﴿كلا لينبذن﴾ أي: ليطرحن ﴿في الحطمة﴾ وما أدراك ما الحطمة تعظيم لها، وتهويل لشأنها.

ثم فسرها بقوله: ﴿نار الله الموقدة﴾ التي وقودها الناس والحجارة ﴿التي﴾ من شدتها ﴿تطلع على الأفئدة﴾ أي: تنفذ من الأجسام إلى القلوب.

ومع هذه الحرارة البليغة هم عيونون فيها، قد أسوا من الخروج منها، ولهذا قال: ﴿إنها عليهم مؤصدة﴾ أي: مغلقة، ﴿في عميد﴾ من خلف الأبواب ﴿ممددة﴾ لئلا يخرجوا منها ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا﴾ منها أعيدوا فيها.

نعوذ بالله من ذلك ونسأله العفو والعافية.

تفسير سورة الفيل وهي مكية

﴿١-٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ﴿١﴾ ألم يجعل كيدهم في تضليل ﴿٢﴾ وأرسل عليهم طيراً أبابيل ﴿٣﴾ فجعلهم بحجارة من سجيل ﴿٤﴾

بالصبر ﴿٥﴾ أقسم تعالى بالعصر، الذي هو الليل والنهار، محل أفعال العباد وأعمالهم أن كل إنسان خاسر، والخاسر ضد الرابح.

والخاسر مراتب متعددة متفاوتة:

قد يكون خساراً مطلقاً، كحال من خسر الدنيا والآخرة، وفاته النعيم، واستحق الجحيم.

وقد يكون خاسراً من بعض الوجوه دون بعض، ولهذا عمم الله الخسار لكل إنسان، إلا من اتصف بأربع صفات:

الإيمان بما أمر الله بالإيمان به، ولا يكون الإيمان بدون العلم، فهو فرع عنه لا يتم إلا به.

والعمل الصالح، وهذا شامل لأفعال الخير كلها، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله وحق عباده (٣)، الواجبة والمستحبة.

والتواصي بالحق، الذي هو الإيمان والعمل الصالح أي: يوصي بعضهم بعضاً بذلك، ويحثه عليه، ويرغبه فيه.

والتواصي بالصبر على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله المؤلمة.

فبالأمرين الأولين يكمل الإنسان (٤) نفسه، وبالأمرين الآخرين يكمل غيره، ويتكامل الأمور الأربعة، يكون الإنسان قد سلم من الخسار، وفاز بالريح [العظيم].

تفسير سورة الهمزة وهي مكية

﴿١-٩﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ويل لكل همزة لمزة ﴿١﴾ الذي جمع مالا وعنده ﴿٢﴾ يحسب أن ماله أخلده ﴿٣﴾ كلا لينبذن في الحطمة ﴿٤﴾ وما أدراك ما الحطمة ﴿٥﴾ نار الله الموقدة ﴿٦﴾ التي تطلع على الأفئدة ﴿٧﴾ إنها عليهم مؤصدة ﴿٨﴾

بعدما تعذر عليكم استثنائه.

ودل قوله: ﴿حتى زرم المقابر﴾ أن البرزخ دار مقصود منها النفوذ إلى الدار الباقية (١)، لأن الله سماهم زائرين، ولم يسمهم مقيمين.

فدل ذلك على البعث والجزاء بالأعمال (٢)، في دار باقية غير فانية، ولهذا توعدهم بقوله: ﴿كلا سوف تعلمون﴾ ثم كلا سوف تعلمون ﴿٣﴾ كلا لو تعلمون علم اليقين ﴿٤﴾ أي: لو تعلمون ما أمامكم علماً يصل إلى القلوب، لما ألهاكم التكاثر، ولبادرتم إلى الأعمال الصالحة.

ولكن عدم العلم الحقيقي، صبركم إلى ما ترون، ﴿لترون الجحيم﴾ أي: لتردن القيامة، فلترون الجحيم التي أعدها الله للكافرين.

﴿ثم لترونها عين اليقين﴾ أي: رؤية بصرية، كما قال تعالى: ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً﴾.

﴿ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾ الذي تنعمتم به في دار الدنيا، هل قمتم بشكره، وأديتم حق الله فيه، ولم تستعينوا به على معاصيه، فينعمكم نعيماً أعلى منه وأفضل.

أم اغتررتكم به، ولم تقوموا بشكره؟ بل ربما استعنتم به على معاصي الله، فيعاقبكم على ذلك، قال تعالى: ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون﴾ الآية.

تفسير سورة العصر وهي مكية

﴿١-٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والعصر﴾ إن الإنسان لفي خسر ﴿١﴾ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا

(١) في ب: الآخرة.

(٢) في ب: على الأعمال.

(٣) في ب: بحقوق الله وحقوق عباده.

(٤) في ب: العبد.

الصلاة، فهذا يقع من كل أحد، حتى من النبي ﷺ

ولهذا وصف الله هؤلاء بالبرياء والقسوة وعدم الرحمة، فقال: ﴿الَّذِينَ هُمْ يَرَاوُنَ﴾ أي: يعملون الأعمال لأجل رضاء الناس.

﴿٧﴾ ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ أي:

يمنعون إعطاء الشيء، الذي لا يضر إعطاؤه على وجه العارية، أو الهبة، كالإناء، والدلو، والفأس، ونحو ذلك، مما جرت العادة ببذلها والسماحة به^(٧).

فهؤلاء - لشدة حرصهم - يمنعون الماعون، فكيف بما هو أكثر منه.

وفي هذه السورة، الخث على إكرام^(٨) اليتيم، والمساكين، والتحضيض على ذلك، ومراعاة الصلاة، والمحافظة عليها، وعلى الإخلاص [فيها] في جميع الأعمال. والخث على [فعل] المعروف وبذل الأمور الخفيفة، كعارية الإناء والدلو والكتاب، ونحو ذلك، لأن الله ذم من لم يفعل ذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الكوثر وهي مكية

﴿١-٣﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ممتناً عليه: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ أي: الخير الكثير، والفضل الغزير، الذي من جملته، ما يعطيه الله لنبيه ﷺ يوم القيامة، من النهر الذي يقال له «الكوثر»، ومن الحوض^(٩).

طوله شهر، وعرضه شهر، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، أنيته كنجوم^(١٠) السماء في

ولهذا أمرهم الله بالشكر، فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ أي: ليوحده ويخلصوا له العبادة، ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ فرغد الرزق والأمن من المخاوف، من أكبر النعم الدنيوية، الموجبة لشكر الله تعالى.

فلك اللهم الحمد والشكر على نعمك الظاهرة والباطنة، وخص الله بالربوبية البيت^(١١)، لفضله وشرفه، وإلا فهو رب كل شيء.

تفسير سورة الماعون [وهي] مكية

﴿١-٧﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْذِبُ بِالذِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يَرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ يقول تعالى ذاماً لمن ترك حقوقه وحقوق عباده: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْذِبُ بِالذِّينِ﴾ أي: بالبعث والجزاء، فلا يؤمن بما جاءت به الرسل.

﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ أي: يدفعه بعنف وشدة، ولا يرحمه لقساوة قلبه، ولأنه لا يرجو ثواباً، ولا يخشى^(١٢) عقاباً.

﴿وَلَا يَحْضُ غَيْرُهُ﴾ على طعام المسكين، ومن باب أولى أنه بنفسه لا يطعم المسكين، ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ أي: الملتزمون^(١٣) لإقامة الصلاة، ولكنهم ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ أي: مضيعون لها، تاركون لوقتها، مفوتون لأركانها^(١٤)، وهذا لعدم اهتمامهم بأمر الله حيث ضيعوا الصلاة، التي هي أهم الطاعات وأفضل القربات، والسهو عن الصلاة، هو الذي يستحق صاحبه الذم واللوم^(١٥)، وأما السهو في

كعصف مأكول: أي: أما رأيت من قدرة الله وعظيم شأنه، ورحمته بعباده، وأدلة توحيده، وصدق رسوله محمد ﷺ، ما فعله الله بأصحاب القيل، الذين كادوا بيته الحرام وأرادوا إخراجه، فتجهزوا لأجل ذلك، واستصحبوا معهم الفيلة لهدمه، وجاؤوا بجمع لا قبل للعرب به، من الحشة واليمن، فلما انتهوا إلى قرب مكة، ولم يكن بالعرب مدافعة، وخرج أهل مكة من مكة خوفاً على أنفسهم منهم، أرسل الله عليهم طيراً أبابيل أي: متفرقة، تحمل حجارة حممة من سجيل، فرمتهم بها، وتتبع قاصيهم ودانيهم، فخمدوا وهمدوا، وصاروا كعصف مأكول، وكفى الله شرهم، ورد كيدهم في نحورهم، [وقصتهم معروفة مشهورة] وكانت تلك السنة التي ولد فيها رسول الله ﷺ، فصارت من جملة إرهابات دعوته، ومقدمات^(١٦) رسالته، فلهذا الحمد والشكر.

تفسير سورة لإيلاف قريش وهي مكية

﴿١-٤﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لإيلاف قريش * لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف * فليعبدوا رب هذا البيت * الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ قال كثير من المفسرين: إن الجار والمجرور متعلق بالسورة التي قبلها أي: فعلنا ما فعلنا بأصحاب القيل لأجل قريش وآمنهم، واستقامة مصالحهم، وانتظام رحلتهم في الشتاء لليمن، والصيف للشام، لأجل التجارة والمكاسب.

فأهلك الله من أرادهم بسوء، وعظم أمر الحرم وأهله في قلوب العرب، حتى احترموهم، ولم يعترضوا لهم في أي: سفر أرادوا،

(٩) كذا في ب، وفي أ: ومن الحوض

الذي يقال له: الكوثر.

(١٠) في ب: عدد نجوم السماء.

(٥) في ب: مخلون بأركانها.

(٦) في ب: الذم والوعيد.

(٧) في ب: يبذل والسماح به.

(٨) في ب: إعطام.

(١) في ب: أدلة.

(٢) في ب: الربوبية بالبيت.

(٣) في ب: يخاف.

(٤) كذا في ب، وفي أ: الذين ملتزمون.

دين ﴿ كما قال تعالى ﴾: ﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾. أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴾.

تفسير سورة النصر وهي مدنية (٢)

﴿ ١ - ٣ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ * ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ﴾ * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾. في هذه السورة الكريمة، بشارة وأمر لرسوله عند حصولها، وإشارة وتنبية على ما يترتب على ذلك.

فالبشارة هي البشارة بنصر الله لرسوله، وفتحه مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجا، بحيث يكون كثير منهم من أهله وأنصاره، بعد أن كانوا من أعدائه، وقد وقع هذا المبشر به، وأما الأمر بعد حصول النصر والفتح، فأمر الله رسوله أن يشكر ربه على ذلك، ويسبح بحمده ويستغفره، وأما الإشارة، فإن في ذلك إشارتين: إشارة لأن يستمر النصر لهذا الدين (٣)، ويزداد عند حصول التيسيع بحمد الله واستغفاره من رسوله، فإن هذا من الشكر، والله يقول: ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾. وقد وجد ذلك في زمن الخلفاء الراشدين وبعدهم في هذه الأمة لم يزل نصر الله مستمرا، حتى وصل الإسلام إلى ما لم يصل إليه دين من الأديان، ودخل فيه ما لم يدخل في غيره، حتى حدثت من الأمة من مخالفة أمر الله ما حدثت، فابتلاههم الله (٤) بتفرق الكلمة، وتشتت الأمر، فحصل ما حصل.

[ومع هذا] فلهذه الأمة، وهذا الدين، من رحمة الله ولطفه، ما لا

كثرتها واستنارتها، من شرب منه شربة لم يظما بعدها أبدا.

ولما ذكر منته عليه، أمره بشكرها فقال: ﴿ فصل لربك واتحر ﴾. خص هاتين العبادتين بالذكر، لأنهما من أفضل العبادات وأجل القربات.

ولأن الصلاة تتضمن الخضوع [في] القلب والجوارح لله، وتنقلها في أنواع العبودية، وفي التحرك تقرب إلى الله بأفضل ما عند العبد من النحائر، وإخراج للمال الذي جبلت النفوس على محبته والشح به.

﴿ إن شأناك ﴾ أي: مبغضك وذامك ومتنقصك ﴿ هو الأبر ﴾ أي: المقطوع من كل خير، مقطوع العمل، مقطوع الذكر.

وأما محمد ﷺ، فهو الكامل حقاً، الذي له الكمال الممكن في حق المخلوق، من رفع الذكر، وكثرة الأنصار والأتباع ﷺ.

تفسير سورة الكافرون

﴿ ١ - ٦ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم قل يا أيها الكافرون ﴾ * لا أعبد ما تعبدون ﴾ * ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ * ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ * ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ * لكم دينكم ولي دين ﴾. أي: قل للكافرين معلنا ومصرحاً ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ أي: تبرأ مما كانوا يعبدون من دون الله، ظاهراً وباطناً.

﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ لعدم إخلاصكم لله في عبادته (١)، فعبادتكم له المقترنة بالشرك لا تسمى عبادة، ثم كرر ذلك ليدل الأول على عدم وجود الفعل، والثاني على أن ذلك قد صار وصفاً لازماً.

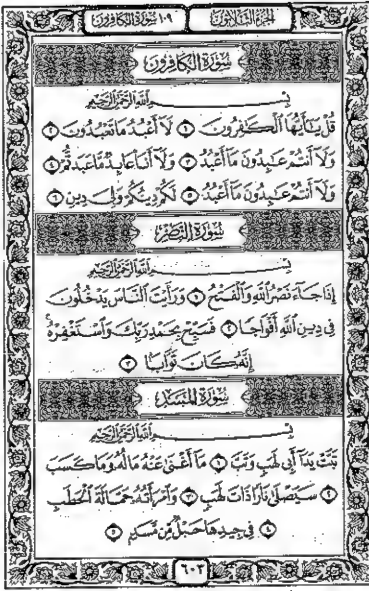
ولهذا ميز بين الفريقين، وفصل بين الطائفتين، فقال: ﴿ لكم دينكم ولي

(١) في ب: إخلاصكم في عبادتكم لله.

(٢) في ب: وهي مكة.

(٣) في ب: إشارة أن النصر يستمر للدين.

(٤) في ب: فابتلوا.



يخطر بالبال، أو يدور في الخيال. وأما الإشارة الثانية، فهي الإشارة إلى أن أجل رسول الله ﷺ قد قرب ودنا، ووجه ذلك أن عمره عمر فاضل أقسم الله به.

وقد عهد أن الأمور الفاضلة تحتم بالاستغفار، كالصلاة والحج، وغير ذلك.

فأمر الله لرسوله بالحمد والاستغفار في هذه الحال، إشارة إلى أن أجله قد انتهى، فليستعد ويتهيأ للقاء ربه، ويختم عمره بأفضل ما يجده صلوات الله وسلامه عليه.

فكان ﷺ يتأول القرآن، ويقول ذلك في صلاته، يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي».

تفسير سورة تبت [وهي] مكية

﴿ ١ - ٣ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم تبت يدا أبي لهب وتب ﴾ * ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾. سيصلي

زوجها، متقلدة في عنقها حبلاً من مسد، وعلى كل، ففي هذه السورة، آية باهرة من آيات الله، فإن الله أنزل هذه السورة، وأبو لهب وامراته لم يهلكا، وأخبر أنهما سيعذبان في النار ولا يبد، ومن لازم ذلك أنهما لا يسلمان، فوقع كما أخبر عالم الغيب والشهادة.

تفسير سورة الإخلاص [وهي] مكية

﴿١-٤﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد * أي: قلوا جازماً به، معتقداً له، عارفاً بمعناه، ﴿هو الله أحد﴾ أي: قد انحصرت فيه الأحدية، فهو الأحد المنفرد بالكمال، الذي له الأسماء الحسنی، والصفات الكاملة العليا، والأفعال المقدسة، الذي لا نظير له ولا مثيل.

﴿الله الصمد﴾ أي: المقصود في جميع الخوائج. فأهل العالم العلوي والسفلي مفتقرون إليه غاية الافتقار، يسألونه حوائجهم، ويرغبون إليه في مهماتهم، لأنه الكامل في أوصافه، العليم الذي قد كمل في علمه، الخليم الذي قد كمل في حلمه، الرحيم الذي [كمل في رحمته الذي] وسعت رحمته كل شيء، وهكذا سائر أوصافه، ومن كماله أنه ﴿لم يلد ولم يولد﴾ لكمال غناه، ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ لا في أسمائه ولا في أوصافه، ولا في أفعاله، تبارك وتعالى.

تفسير سورة الناس وهي مدنية (١)

﴿١-٦﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قل أعوذ برب الناس * ملك الناس * إله الناس * من شر الوسواس الخناس * الذي يوسوس في صدور الناس * من الجنة والناس * وهذه السورة مشتملة على الاستعاذة برب الناس ومالكهم وإلههم، من الشيطان الذي هو أصل الشرور كلها وما داتها، الذي من فتنته وشره، أنه

ناراً ذات لهب * وامراته حمالة الخطب * في جديها حبل من مسد * أبو لهب هو عم النبي ﷺ، وكان شديد العداوة [والأذية] للنبي ﷺ، فلا فيه دين، ولا حية للقرابة - قبَّحه الله - فذمه الله بهذا الذم العظيم، الذي هو خزي عليه إلى يوم القيامة، فقال:

﴿تبت يدا أبي لهب﴾ أي: خسرت يداه، وشقي ﴿وتب﴾ فلم يربح، ﴿ما أغنى عنه ماله﴾ الذي كان عنده وأطغاه، ولا ما كسبه فلم يرد عنه شيئاً من عذاب الله إذ نزل به، ﴿سيصلى ناراً ذات لهب﴾ أي: ستحيط به النار من كل جانب، هو ﴿وامراته حمالة الخطب﴾.

وكانت أيضاً شديدة الأذية لرسول الله ﷺ تتعاون هي وزوجها على الإثم والعدوان، وتلقي الشر، وتسعى غاية ما تقدر عليه في أذية الرسول ﷺ وتجمع على ظهرها من الأوزار بمنزلة من يجمع حطباً، قد أعد له في عنقه حبلاً ﴿من مسد﴾ أي: من ليف.

أو أنها تحمل في النار الخطب على



يقط من رحمته إلا القوم الضالون .
وصلى الله وسلم على رسوله محمد
وعلى آله وصحبه أجمعين ، صلاة
وسلاماً دائماً متواصلين أبداً
الأوقات ، والحمد لله الذي بنعمته تتم
الصالحات .

تم تفسير كتاب الله بغونه وحسن
توقيقه ، على يد جامعته وكتابه ،
عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله
المعروف بابن سعدي ، غفر الله له
ولوآديه وجميع المسلمين ، وذلك في
غرة ربيع الأول من سنة أربع وأربعين
وثلاثمائة وألف من هجرة محمد ﷺ

وبينها ، ويريد أن يجعلهم من حزبه
ليكونوا من أصحاب السعير ،
والوسواس كما يكون من الجن يكون
من الإنس ، ولهذا قال : ﴿ من الجنة
والناس ﴾ .

والحمد لله رب العالمين أولاً
وآخرأ ، وظاهراً وباطناً .

ونسأله تعالى أن يتم نعمته ، وأن
يعفو عنا ذنوباً لنا حالت ^(١) بيننا وبين
كثير من بركاته ، وخطايا وشهوات
ذهبت بقلوبنا عن تدبر آياته .

ونرجوه ونأمل منه أن لا يحرمنا خير
ما عنده بشر ما عندنا ، فإنه لا يأس
من روح الله إلا القوم الكافرون ، ولا

يوسوس في صدور الناس ، فيحسن
[لهم] الشر ، ويريم إياه في صورة
حسنة ، وينشط إراداتهم لفعله ، ويقبح
لهم الخيز ويشطهم عنه ، ويريم إياه في
صورة غير صورته ، وهو دائماً بهذه
الحال يوسوس ويخنس أي : يتأخر إذا
ذكر العبد ربه واستعان به على دفعه .

فينبغي له أن [يستعين و] يستعيد
ويعتصم بربوبية الله للناس كلهم .

وأن الخلق كلهم داخلون تحت
الربوبية والملك ، فكل دابة هو أخذ
بناصيتها .

وبألوهيته التي خلقهم لأجلها ، فلا
تتم لهم إلا بدفع شر عدوهم ، الذي
يريد أن يقطعهم عنها ويحول بينهم

وأن يقطعهم عنها ويحول بينهم

وأن يقطعهم عنها ويحول بينهم

وأن يقطعهم عنها ويحول بينهم

وأن يقطعهم عنها ويحول بينهم

وأن يقطعهم عنها ويحول بينهم

وأن يقطعهم عنها ويحول بينهم

وأن يقطعهم عنها ويحول بينهم

وأن يقطعهم عنها ويحول بينهم

وأن يقطعهم عنها ويحول بينهم

وأن يقطعهم عنها ويحول بينهم

وأن يقطعهم عنها ويحول بينهم

وأن يقطعهم عنها ويحول بينهم

وأن يقطعهم عنها ويحول بينهم

وأن يقطعهم عنها ويحول بينهم

وأن يقطعهم عنها ويحول بينهم

وأن يقطعهم عنها ويحول بينهم

وأن يقطعهم عنها ويحول بينهم

وأن يقطعهم عنها ويحول بينهم

وأن يقطعهم عنها ويحول بينهم

وأن يقطعهم عنها ويحول بينهم

وأن يقطعهم عنها ويحول بينهم

(١) في ب : ذنوبنا التي حالت .

(٢) في ب : وقع القتل في شعبان ١٣٤٥ ربتا تقبل منا واعف إنك أنت الغفور الرحيم .

الملاحق

١- أصول وكمليات من أصول التفسير وكملياته لا يستغني عنها المفسر للقرآن.

٢- تفسير الآيات التي اختلفت فيها النسختان.

1. *Chlorophyll a* (Chl a)

2. *Chlorophyll b* (Chl b)

3. *Chlorophyll c* (Chl c)

أصول وكتابات

من أصول التفسير وكتابه لا يستغني عنها المفسر للقرآن^(١)

النكرة في سياق النفي، أو سياق النهي، أو الاستفهام، أو سياق الشرط، تعم، وكذلك المفرد المضاف يعم، وأمثلة ذلك كثيرة.

فمتى وجدت نكرة واقعة بعد المذكورات، أو وجدت مفرداً مضافاً إلى معرفة، فأثبت جميع ما دخل في ذلك اللفظ، ولا تعتبر سبب النزول وحده، فإن «العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب». وينبغي أن تنزل جميع الحوادث والأفعال الواقعة، والتي لاتزال تحدث، على العمومات القرآنية، فبذلك تعرف أن القرآن تبيان لكل شيء، وأنه لا يحدث حادث، ولا يستجد أمر من الأمور، إلا وفي القرآن بيانه وتوضيحه.

ومن أصوله أن الألف واللام الداخلة على الأوصاف، وعلى أسماء الأجناس، تُفيد استغراق جميع ما دخلت عليه من المعاني.

ومن كليات القرآن، أنه يدعوا إلى توحيد الله ومعرفته، بذكر أسماء الله، وأوصافه، وأفعاله الدالة على تفرده بالوحدانية، وأوصاف الكمال، وإلى أنه الحق، وعبادته هي الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل، ويبين نقص كل ما عُبد من دون الله من جميع الوجوه.

ويدعو إلى صحة ما جاء به الرسول محمد ﷺ وصدقه، ببيان إحكامه، وتمامه، وصدق إخباراته كلها، وحسن أحكامه. ويبين ما كان عليه الرسول ﷺ، من الكمال البشري الذي لا يلحقه فيه أحد من الأولين والآخرين، ويتحداهم بأن يأتوا بمثل ما جاء به إن كانوا صادقين.

ويقرر ذلك بشهادته تعالى بقوله وفعله وإقراره إياه، وتصديقه له بالحجة والبرهان، والنصر والظهور، وبشهادة أهل العلم المنصفين. ويقابل بين ما جاء به من الحق في أخباره وأحكامه، وبين ما كان عليه أعداؤه، والمكذبون به، من الكذب في أخبارهم، والباطل في أحكامهم، كما يقرر ذلك بالمعجزات المتنوعة.

ويقرر الله المعاد بذكر كمال قدرته، وخلقِه للسموات والأرض، اللتين هما أكبر من خلق الناس، وبأن الذي بدأ الخلق قادر على إعادته من باب أولى، وبأن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى. ويذكر أيضاً أيامه في الأمم، ووقوع المثالات التي شاهدها الناس في الدنيا، وأنها نموذج من جزاء الآخرة.

ويدعو جميع المبطلين من الكفار والمشركين والملحدين بذكر محاسن الدين، وأنه يهدي للتي هي أقوم، في عقائده وأخلاقه وأعماله، وبيان ما لله من العظمة والربوبية، والنعم العظيمة. وأن من تفرد بالكمال المطلق، والنعم كلها، هو الذي لاتصلح العبادة إلا له، وأن ما عليه المبطلون، إذا مُيزَ وحقق وُجد شراً وباطلاً، وعواقبه وخيمة.

ومن أصول التفسير، إذا فهمت ما دلّت عليه الآيات الكريمة من المعاني مطابقة وتضمناً، فاعلم أن لوازم هذه المعاني، وما لاتتم إلا به، وشروطها وتوابعها، تابعة لذلك المعنى، فما لا يتم الخبر إلا به،

(١) هذه الخاتمة جعلها الشيخ - رحمه الله - في آخر الجزء الخامس لما طبع في حياته، وقد جعلتها في خاتمة التفسير.

فهو تابعٌ للخبر، وما لا يتم الحكم إلا به، فهو تابعٌ للحكم، وأن الآيات التي يفهم منها التعارض والتناقض، ليس فيها تناقض ولا تعارض، بل يجب حمل كل منها على الحالة المناسبة للاتقة بها. وأن حذف المتعلقات، من مفعولات وغيرها، يدل على تعميم المعنى، لأن هذا من أعظم فوائد الحذف، وأنه لا يجوز حذف ما لا يدل عليه السياق اللفظي، والقرينة الحالية، كما أن الأحكام المقيدة بشروط أو صفات تدل على أن تلك القيود، لا بد منها في ثبوت الحكم.

إذا أمر الله بشيء كان ناهياً عن ضده، وإذا نهى عن شيء كان أمراً بضده، وإذا أثنى على نفسه بنفي شيء من النقائص؛ كان إثباتاً للكمال المنافي لذلك النقص. وكذلك إذا أثنى على رسله وأوليائه ونزههم عن شيء من النقائص، فهو مدح لهم بما يصاد ذلك النقص، ومثله نفي النقائص عن دار النعيم، يدل على إثبات ضد ذلك.

ومن الكليات؛ أنه إذا وضح الحق وظهر ظهوراً جلياً، لم يبق للمجادلات العلمية والمعارضات العملية محل، بل تبطل المعارضات، وتضمحل المجادلات.

ما نفاه القرآن؛ فإما أن يكون غير موجود، أو أنه موجود، ولكنه غير مفيد ولا نافع.

الموهوم لا يدفع المعلوم، والمجهول لا يعارض المحقق، وما بعد الحق إلا الضلال.

ذكر الله في القرآن الإيمان والعمل الصالح في مواضع كثيرة رتب عليهما من الجزاء العاجل والآجل والآثار الحميدة شيئاً كثيراً، فالإيمان هو: التصديق الجازم، بما أمر الله ورسوله بالتصديق به، المتضمن لأعمال الجوارح.

والعمل الصالح هو: القيام بحقوق الله، وحقوق عباده، وكذلك أمر الله بالتقوى، ومدح المتقين، ورتب على التقوى حصول الخيرات، وزوال المكروهات. والتقوى الكاملة: امتثال أمر الله وأمر رسوله، واجتناب نهيهما. وتصديق خبرهما.

وإذا جمع الله بين التقوى والبر ونحوه، كانت التقوى اسماً لتوقي جميع المعاصي، والبر اسماً لفعل الخيرات، وإذا أفرد أحدهما، دخل فيه الآخر.

وذكر الله الهدى المطلوب في مواضع كثيرة، وأثنى على المهتدي، وأخبر أن الهدى بيده، وأمرنا بطلبه منه، وبالسعي في كل سبب يحصل الهدى، وذلك شامل لهداية العلم والعمل.

فالمهتدي: من عرف الحق، وعمل به، وضده الغي والضلال، فمن عرف الحق ولم يعمل به فهو الغاوي، ومن جهل الحق فهو الضال.

أمر الله بالإحسان، وأثنى على المحسنين، وذكر ثوابهم المتنوع في آيات كثيرة. وحقيقة الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وأن تبذل ما تستطيعه من النفع المالي والبدني والقولي إلى المخلوقين.

وأمر بالإصلاح وأثنى على المصلحين، وأخبر أنه لا يضيع ثوابهم وأجرهم.

والإصلاح هو: أن تسعى في إصلاح عقائد الناس وأخلاقهم. وجميع أحوالهم، بحيث تكون على غاية ما يمكن من الصلاح، وأيضاً يشمل إصلاح الأمور الدينية، والأمور الدنيوية، وإصلاح الأفراد والجماعات، وضد هذا الفساد.

والإفساد، قد نهى عنه، وذم المفسدين، وذكر عقوباتهم المتعددة، وأخبر أنه لا يصلح أعمالهم الدينية والدنيوية.

أثنى الله على اليقين، وعلى الموقنين، وأنهم هم المنتفعون بالآيات القرآنية، والآيات الأفقية.

واليقين أخص من العلم، فهو: العلم الراسخ، المثمر للعمل والطمأنينة.

أمر الله بالصبر، وأثنى على الصابرين، وذكر جزاءهم العاجل والآجل في عدة آيات، نحو تسعين موضعاً، وهو يشمل أنواعه الثلاثة: الصبر على طاعة الله، حتى يؤديها كاملة من جميع الوجوه، والصبر عن محارم الله حتى ينهى نفسه الأمانة بالسوء عنها. والصبر على أقدار الله المؤلمة، فيتلقاها بصبر وتسليم، غير متسخط في قلبه ولا بدنه ولا لسانه.

وكذلك أثنى الله على الشكر، وذكر ثواب الشاكرين، وأخبر أنهم أرفع الخلق في الدنيا والآخرة. وحقيقة الشكر هو: الاعتراف بجميع نعم الله، والثناء على الله بها، والاستعانة بها على طاعة المنعم.

وذكر الله الخوف والخشية، في مواضع كثيرة. وأثنى على أهله، وذكر ثوابهم، وأنها المتفعون بالآيات، التاركون للمحرمات.

وحقيقة الخوف والخشية: أن يخاف العبد مقامه بين يدي الله، ومقامه عليه، فينهي نفسه بهذا الخوف عن كل ما حرم الله.

والرجاء: أن يرجو العبد رحمة الله العامة، ورحمته الخاصة به. فيرجو قبول ما تفضل الله عليه به من الطاعات، وغفران ما تاب منه من الزلات، ويعلق رجاءه بربه في كل حال من أحواله.

وذكر الله الإنابة في مواضع كثيرة، وأثنى على المنيبين، وأمر بالإنابة إليه. وحقيقة الإنابة: انجذاب القلب إلى الله، في كل حالة من أحواله، ينب إلى ربه عند النعماء بشكره، وعند الضراء بالتضرع إليه، وعند مطالب النفوس الكثيرة بكثرة دعائه في جميع مهماته، وينيب إلى ربه، باللهج يذكره في كل وقت.

[والإنابة أيضاً: الرجوع إلى الله، بالتوبة من جميع المعاصي، والرجوع إليه في جميع أعماله وأقواله، فيعرضها على كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، فتكون الأعمال والأقوال، موزونة بميزان الشرع^(١)].

أمر تعالى بالإخلاص، وأثنى على المخلصين، وأخبر أنه لا يقبل إلا العمل الخالص. وحقيقة الإخلاص: أن يقصد العامل بعمله وجه الله وحده وثوابه. وضده: الرياء، والعمل للأغراض النفسية.

نهى الله عن التكبر، وذم الكبر والمتكبرين، وأخبر عن عقوباتهم العاجلة والآجلة. والتكبر هو: رد الحق، واحتقار الخلق، وضد ذلك التواضع، فقد أمر به، وأثنى على أهله، وذكر ثوابهم، فهو قبول الحق ممن قاله، وأن لا يحتقر الخلق، بل يرى فضلهم، ويحب لهم ما يحب لنفسه. العدل، هو: أداء حقوق الله، وحقوق العباد.

والظلم: عكسه، فهو يشمل ظلم العبد لنفسه بالمعاصي والشرك وظلم العباد في دماهم وأموالهم وأعراضهم.

الصدق، هو: استواء الظاهر والباطن في الاستقامة على الصراط المستقيم، والكذب بخلاف ذلك. حدود الله هي: محارمه، وهي التي يقول فيها ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾، ويراد بها ما أباحه الله وحلله، وقدره، وفرضه، فيقول فيها ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها﴾.

الأمانة هي: الأمور التي يؤتمن عليها العبد. فيشمل ذلك أداء حقوق الله، وخصوصاً الخفية، وحقوق خلقه كذلك.

العهود والعقود، يدخل فيها التي بينه وبين الله، وهو: القيام بعبادة الله مخلصاً له الدين، والتي بينه وبين العباد من المعاملات ونحوها.

(١) ما بين القوسين في هامش النسخة بخط مغاير لخط الشيخ - رحمه الله -

الحكمة والقوام فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي .
 والإسراف والتبذير، مجاوزة الحد في الإنفاق . والتقتير والبخل عكسه: التقصير في النفقات الواجبة .
 المعروف: اسم جامع لكل ما عرف حسنه ونفقه شرعاً وعقلاً، والمنكر عكسه .
 الاستقامة: لزوم طاعة الله، وطاعة رسوله على الدوام .
 مرض القلب هو: اعتلاله، وهو نوعان: مرض شكوك في الحق، ومرض شهوة للأموال المحرمة .
 النفاق: إظهار الخير، وإبطان الشر، فيدخل فيه النفاق الاعتقادي والنفاق العملي .
 القرآن، كله مُحكمٌ، وأُحكمت آياته من جهة موافقتها للحكمة، وأن أخباره أعلى درجات الصدق،
 وأحكامه في غاية الحسن . وكله متشابه، من جهة اتفائه في البلاغة والحسن، وتصديق بعضه لبعض وكمال
 اتفائه .

ومنه محكم ومتشابه، من جهة أن متشابهه ما كان فيه إجمال أو احتمال لبعض المعاني . ومحكمه،
 واضح مبين صريح في معناه، إذا رُدَّ إليه المتشابه، اتفق الجميع، واستقامت معانيه .
 معية الله التي ذكرها في كتابه، نوعان:

معية العلم والإحاطة، وهي: المعية العامة، فإنه مع عباده أينما كانوا .
 ومعية خاصة، وهي: معيته مع خواص خلقه بالنصرة، واللفظ، والتأييد .
 الدعاء والدعوة، يشمل دعاء العباد، فيدخل فيه كل عبادة أمر الله بها ورسوله .
 ودعاء المسألة، وهو: سؤال الله جلب المنافع، ودفع المضار .
 الطيبات: اسم جامع لكل طيب نافع، من العقائد، والأخلاق، والأعمال، والمآكل، والمشارب
 والمكاسب . والخبيث ضد ذلك .

وقد يراد بالخبيث: الرديء، وبالطيب: الخيار كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا
 كَسَبْتُمْ، وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾^(١) .

النفقة، تشمل النفقة الواجبة: كالزكاة، والكفارة، ونفقة النفس، والعائلة، والمماليك، والنفقة
 المستحبة: كالنفقة في جميع طرق الخير .

التوكل على الله والاستعانة به، قد أمر الله بها، وأثنى على المتوكلين في آيات كثيرة .
 وحقيقة ذلك: قوة اعتماد القلب على الله في جلب المصالح، ودفع المضار الدينية والدنيوية، مع
 الثقة به في حصول ذلك .

العقل الذي مدحه الله وأثنى على أهله، وأخبر أنهم هم المتفكرون بالآيات . هو: الذي يفهم، ويعقل
 الحقائق النافعة، ويعمل بها، ويعقل صاحبه عن الأمور الضارة، ولذلك قيل له: حَجَرٌ، وَلُبٌّ، ونُهي، لأنه
 يحجر صاحبه وينهاه عما يضره .

العلم هو: معرفة الهدى بدليله، فهو معرفة المسائل النافعة المطلوبة، ومعرفة أدلتها وطرقها، التي
 تهدي إليها .

والعلم النافع هو: العلم بالحق والعمل به، وضده الجهل .
 لفظ «الأمة» في القرآن على أربعة أوجه: يراد به «الطائفة من الناس» وهو الغالب . ويراد به «المدّة»،

(١) لم يتم الشيخ - رحمه الله - الآية، وبتمامها يتضح مراده، وتمامها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَيْثَ مِنْهُ تَنَفَّقُوا وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ
 تَغْمُضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ .

ويراد به «الدين» و«الملة»، ويراد به «الإمام» في الخير.

لفظ «استوى» في القرآن على ثلاثة أوجه: إن عُذِّيَ بِ«على» كان معناه العلو والارتفاع، «ثم استوى على العرش».

وإن عُذِّيَ بِ«إلى» فمعناه قصد، كقوله: «ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات».

وإن لم يُعَدَّ بشيء، فمعناه «كَمُلَ»، كقوله تعالى «ولما بلغ أشده واستوى».

«التوبة» ورد في آيات كثيرة الأمر بها، ومدح التائبين وثوابهم، وهي: الرجوع عما يكرهه الله ظاهراً وباطناً، إلى ما يحبه الله ظاهراً وباطناً.

الصراط المستقيم، الذي أمر الله بلزومه وأثنى على المستقيمين عليه، هو: الطريق المعتدل الموصل إلى رضوان الله وثوابه، وهو متابعة النبي ﷺ في أقواله وأفعاله وكل أحواله.

الذكر لله الذي أمر به، وأثنى على الذاكرين، وذكر جزاءهم العاجل والآجل هو: عند الإطلاق، يشمل جميع ما يقرب إلى الله: من عقيدة، أو فكر نافع، أو خلق جميل، أو عمل قلبي أو بدني، أو ثناء على الله، أو تسبيح ونحوه، أو تعلم أحكام الشرع الأصولية والفروعية، أو ما يعين على ذلك، فكله داخل في ذكر الله.

فصل

وقد تكرر كثير من أسماء الله الحسنى في القرآن بحسب المناسبات، والحاجة داعية إلى التنبيه إلى معانيها الجامعة، فنقول:

قد تكرر اسم «الرب» في آيات كثيرة.

و«الرب»: هو المربي جميع عباده بالتدبير وأصناف النعم. وأخص من هذا تربيته لأصفياه بإصلاح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم. ولهذا كثر دعاؤهم له بهذا الاسم الجليل، لأنهم يطلبون منه هذه التربية الخاصة.

«الله»: هو المألوه المعبود، ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، لما اتصف به من صفات الألوهية التي هي صفات الكمال.

«المملك، المالك»: الذي له المملك فهو الموصوف بصفة الملك، وهي صفات العظمة والكبرياء، والقهر والتدبير، الذي له التصرف المطلق في الخلق والأمر والجزاء، وله جميع العالم العلوي والسفلي، كلهم عبيد ومماليك، ومضطرون إليه.

«الواحد، الأحد»: وهو الذي توحد بجميع الكمالات، بحيث لا يشاركه فيها مشارك. ويجب على العبيد توحيده، عقلاً، وقولاً، وعملاً، بأن يعترفوا بكماله المطلق، وتفردته بالوحدانية، ويفردوه بأنواع العبادة.

«الصمد»: وهو الذي تقصده الخلائق كلها في جميع حاجاتها، وضرورتها وأحوالها، لما له من الكمال المطلق في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله.

«العليم، الخبير»: وهو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والأسرار والإعلان، وبالواجبات والمستحيلات والممكنات، وبالعالم العلوي والسفلي، وبالماضي والحاضر والمستقبل، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء.

«الحكيم»: وهو الذي له الحكمة العليا في خلقه وأمره، الذي أحسن كل شيء خلقه «ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون». فلا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يشرع شيئاً سدى، الذي له الحكم في الأولى والآخرة، وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك، فيحكم بين عباده، في شرعه، وفي قدره وجزائه.

والحكمة: وضع الأشياء مواضعها، وتنزيلها منازلها.

«الرحمن، الرحيم، البر، الكريم، الجواد، الرؤوف، الوهاب».

هذه الأسماء تتقارب معانيها، وتدل كلها على اتصاف الرب بالرحمة، والبر، والجود، والكرم، وعلى سعة رحمته ومواهبه، التي عم بها جميع الوجود، بحسب ما تقتضيه حكمته، وخص المؤمنين منها بالنصيب الأوفر، والحظ الأكمل، قال تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون﴾ الآية. والنعم والإحسان، كله من آثار رحمته، وجوده، وكرمه. وخيرات الدنيا والآخرة، كلها من آثار رحمته.

«السميع» لجميع الأصوات، باختلاف اللغات على تفنن الحاجات.

«البصير» الذي يُبصر كل شيء وإن دقَّ وصغر، فيبصر ديبب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء. ويُبصر ما تحت الأرضين السبع، كما يبصر ما فوق السموات السبع. وأيضاً سميع بصير بمن يستحق الجزاء بحسب حكمته، والمعنى الأخير يرجع إلى الحكمة.

«الحميد» في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، فله من الأسماء أحسنها، ومن الصفات أكملها، ومن الأفعال أتمها وأحسنها، فإن أفعاله تعالى دائرة بين الفضل والعدل.

«المجيد، الكبير، العظيم، الجليل» وهو الموصوف بصفات المجد، والكبرياء، والعظمة، والجلال، الذي هو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأجل وأعلى. وله التعظيم والإجلال في قلوب أوليائه وأصفيائه، قد ملئت قلوبهم من تعظيمه وإجلاله، والخضوع له والتذلل لكبريائه.

«العفو، الغفور، الغفار» الذي لم يزل، ولا يزال بالعفو معروفاً، وبالعفوان والصفح عن عباده موصوفاً، كل أحد مضطر إلى عفوهِ ومغفرته، كما هو مضطر إلى رحمته وكرمه، وقد وعد بالمغفرة والعفو لمن أتى بأسبابها، قال تعالى: ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾.

«التواب» الذي لم يزل يتوب على التائبين، ويغفر ذنوب المنيبين، فكل من تاب إلى الله توبة نصوحاً، تاب الله عليه، فهو التائب على التائبين أولاً بتوفيقهم للتوبة والإقبال بقلوبهم إليه، وهو التائب عليهم بعد توبتهم قبولاً لها، وعفواً عن خطاياهم.

«القدوس، السلام» أي: المعظم المنزه عن صفات النقص كلها، وأن يماثله أحد من الخلق، فهو المنزه عن جميع العيوب، والمنزه عن أن يقاربه أو يماثله أحد في شيء من الكمال «ليس كمثله شيء» «ولم يكن له كفواً أحد» «هل تعلم له سمياً» «فلا تجعلوا لله أنداداً».

فالقدوس كالسلام، ينفيان كل نقص من جميع الوجوه، ويتضمنان الكمال المطلق من جميع الوجوه، لأن النقص إذا انتهى ثبت الكمال كله.

«العلي الأعلى» وهو الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه، علو الذات، وعلو القدر والصفات، وعلو القهر. فهو الذي على العرش استوى، وعلى الملك احتوى. وبجميع صفات العظمة والكبرياء والجلال والجمال وغاية الكمال اتصف، وإليه فيها المنتهى.

«العزیز» الذي له العزة كلها: عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع. فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات، وقهر جميع الموجودات، ودانت له الخليقة وخضعت لعظمته.

«القوي، المتين» هو في معنى العزيز.

«الجبار» هو بمعنى العلي الأعلى، وبمعنى القهار، وبمعنى «الرؤوف» الجابر للقلوب المنكسرة، وللضعيف العاجز، ولمن لا ذ به ولجأ إليه.

«المتكبر» عن السوء والنقص والعيوب، لعظمته وكبريائه.

«الخالق، الباري، المصور» الذي خلق جميع الموجودات وبرأها وسواها بحكمته، وصورها بحمده وحكمته، وهو لم يزل ولا يزال على هذا الوصف العظيم.

«المؤمن» الذي أثنى على نفسه بصفات الكمال، وبكمال الجلال والجمال، الذي أرسل رسله وأنزل كتبه بالآيات والبراهين، وصدق رسله بكل آية وبرهان، يدل على صدقهم وصحة ما جاءوا به.

«المهيمن»: المطلع على خفايا الأمور وخبايا الصدور، الذي أحاط بكل شيء علماً.

«القدير» كامل القدرة، بقدرته أوجد الموجودات، وبقدرته دبرها، وبقدرته سواها وأحكمها، وبقدرته يحيي ويميت، ويبعث العباد للجزاء، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، الذي إذا أراد شيئاً قال له «كن فيكون»، وبقدرته يقلب القلوب، ويصرفها على ما يشاء ويريد.

«اللطيف» الذي أحاط علمه بالسرائر والخفايا، وأدرك الخبايا واليوطن والأمور الدقيقة، اللطيف بعباده المؤمنين، الموصل إليهم مصالحهم بلطفه وإحسانه، من طرق لا يشعرون بها، فهو بمعنى «الخبير» وبمعنى «الرؤوف».

«الحسيب» هو العليم بعباده، كافي المتوكلين، المجازي لعباده بالخير والشر، بحسب حكمته وعلمه بدقيق أعمالهم وجليها.

«الرقيب» المطلع على ما أكتنه الصدور، القائم على كل نفس بما كسبت، الذي حفظ المخلوقات وأجراها على أحسن نظام وأكمل تدبير.

«الحفيظ» الذي حفظ ما خلقه، وأحاط علمه بما أوجده، وحفظ أوليائه من وقوعهم في الذنوب والهلكات، ولطف بهم في الحركات والسكنات، وأحصى على العباد أعمالهم وجزاءها.

«المحيط» بكل شيء علماً، وقدرة، ورحمة، وقهراً.

«القهار» لكل شيء، الذي خضعت له المخلوقات، وذلت لعزته وقوته وكمال اقتداره.

«المُقيت» الذي أوصل إلى كل موجود ما به يقتات، وأوصل إليها أرزاقها وصرفها كيف يشاء بحكمته وحمده.

«الوكيل» المتولي لتدبير خلقه بعلمه وكمال قدرته وشمول حكمته، الذي تولى أوليائه، ففسرهم لليسرى، وجنبهم العسرى، وكفاهم الأمور. فمن اتخذه وكيلاً كفاه «الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور».

«ذو الجلال والإكرام» أي: ذو العظمة والكبرياء، وذو الرحمة والجلود، والإحسان العام والخاص، المكرم لأوليائه وأصفياه، الذين يجلوته ويعظمونه ويحبونه.

«الودود» الذي يحب أنبياءه ورسله وأتباعهم، ويحبونه، فهو أحب إليهم من كل شيء، قد امتلأت قلوبهم من محبته، ولهجت ألسنتهم بالثناء عليه، وانجذبت أفئدتهم إليه ودأ وإخلاصاً وإنابة من جميع الوجوه.

«الفتاح» الذي يحكم بين عباده بأحكامه الشرعية، وأحكامه القدريّة، وأحكام الجزاء، الذي فتح بلطفه بصائر الصادقين، وفتح قلوبهم لمعرفة ومحبته والإنابة إليه، وفتح لعباده أبواب الرحمة والأرزاق المتنوعة، وسبب لهم الأسباب التي يتألون بها خير الدنيا والآخرة «ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده».

«الرزاق» لجميع عباده، فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها. ورزقه لعباده نوعان:

رزق عام، شمل البرّ والفاجر، والأولين والآخرين، وهو رزق الأبدان.

ورزق خاص وهو رزق القلوب، وتغذيتها بالعلم والإيمان.

والرزق الحلال الذي يعين على صلاح الدين، وهذا خاض بالمؤمنين، على مراتبهم منه، بحسب ما تقتضيه حكمته ورحمته.

«الحكم، العدل» الذي يحكم بين عباده في الدنيا والآخرة بعدله وقسطه. فلا يظلم مثقال ذرة، ولا يحمل أحداً وزر أحد، ولا يجازي العبد بأكثر من ذنبه ويؤدي الحقوق إلى أهلها، فلا يدع صاحب حق إلا أوصل إليه حقه، وهو العدل في تدبيره وتقديره «إن ربي على صراط مستقيم».

«جامع الناس» ليوم لاريب فيه، وجامع أعمالهم وأرزاقهم، فلا يترك منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وجامع ما تفرّق واستحال من الأموات الأولين والآخرين، بكمال قدرته، وسعة علمه.

«الحي القيوم» كامل الحياة والقائم بنفسه، القيوم لأهل السموات والأرض، القائم بتدبيرهم وأرزاقهم، وجميع أحوالهم، «الحي»: الجامع لصفات الذات، و«القيوم» الجامع لصفات الأفعال.

«النور» نور السموات والأرض، الذي نور قلوب العارفين بمعرفته والإيمان به، ونور أفئدتهم بهدأته، وهو الذي أثار السموات والأرض بالأنوار التي وضعها، وحجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

«بديع السموات والأرض» أي: خالقهما ومبدعهما، في غاية ما يكون من الحسن والخلق البديع، والنظام العجيب المحكم.

«القباض الباسط» يقبض الأرزاق والأرواح، ويسط الأرزاق والقلوب، وذلك تبع لحكمته ورحمته.

«المعطي، المانع» لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، فجميع المصالح والمنافع منه تطلب، وإليه يرغب فيها، وهو الذي يعطيها لمن يشاء، ويمنعها من يشاء بحكمته ورحمته.

«الشهيد» أي: المطلع على جميع الأشياء. سمع جميع الأصوات خفيها وجليها، وأبصر جميع الموجودات دقيقها وجليلها صغيرها وكبيرها، وأحاط علمه بكل شيء، الذي شهد لعباده وعلى عباده بما عملوه.

«المبدئ، المعيد» قال تعالى: «وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده»، ابتداء خلقهم ليلوهم أيهم أحسن عملاً، ثم يعيدهم ليجزى الذين أحسنوا بالحسن، ويجزي المسيئين بإساءتهم. وكذلك هو الذي يبدأ إيجاد المخلوقات شيئاً فشيئاً، ثم يعيدها كل وقت.

«الفعال لما يريد» وهذا من كمال قوته ونفوذ مشيئته وقدرته، أن كل أمر يريده يفعلُه بلامانع ولا معارض، وليس له ظهير ولا عوين، على أي أمر يكون، بل إذا أراد شيئاً قال له «كن فيكون». ومع أنه الفعال لما يريد، فأرادته تابعة لحكمته وحمده، فهو موصوف بكمال القدرة، ونفوذ المشيئة، وموصوف بشمول الحكمة، لكل ما فعله ويفعله.

«الغني، المقتني» فهو الغني بذاته، الذي له الغنى التام المطلق، من جميع الوجوه والاعتبارات لكماله، وكمال صفاته، فلا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولا يمكن أن يكون إلا غنياً، لأن غناه من لوازم ذاته، كما لا يكون إلا خالقاً، قادراً، رازقاً، محسناً، فلا يحتاج إلى أحد بوجه من الوجوه، فهو الغني، الذي بيده خزائن السموات والأرض، وخزائن الدنيا والآخرة. المغني جميع خلقه غنى عاماً، والمغني لخواص خلقه بما أفاض على قلوبهم من المعارف الربانية والحقائق الإيمانية.

«الحليم» الذي يدرُّ على خلقه النعم الظاهرة والباطنة، مع معاصيهم وكثرة زلاتهم، فيحلم عن مقابلة العاصين بعصيانهم، ويستعذبهم كي يثوبوا، ويمهلهم كي ينيبوا.

«الشاكر، الشكور» الذي يشكر القليل من العمل، ويغفر الكثير من الزلل. ويضاعف للمخلصين أعمالهم بغير حساب، ويشكر الشاكرين، ويذكر من ذكره، ومن تقرب إليه بشيء من الأعمال الصالحة،

تقرب الله منه أكثر.

«القريب، المجيب» أي: هو تعالى القريب من كل أحد، وقربه تعالى نوعان: قرب عام من كل أحد، بعلمه، وخبرته، ومراقبته، ومشاهدته، وإحاطته. وقرب خاص، من عابديه، وسائله، ومحبيه، وهو قرب لا تدرك له حقيقة، وإنما تعلم آثاره، من لطفه بعبده، وعنايته به، وتوفيقه وتسديده. ومن آثاره الإجابة للداعين، والإنابة^(١) للعبدين، فهو المجيب إجابة عامة للداعين مهما كانوا، وأين كانوا، وعلى أي حال كانوا كما وعدهم بهذا الوعد المطلق، وهو المجيب إجابة خاصة للمستجيبين له المنقادين لشريعته، وهو المجيب أيضاً للمضطرين، ومن انقطع رجاؤهم من المخلوقين وقوي تعلقهم به طمعاً ورجاء وخوفاً.

«الكافي» عباده جميع ما يحتاجون ويضطرون إليه، الكافي كفاية خاصة من آمن به، وتوكل عليه، واستمد منه حوائج دينه ودنياه.

«الأول، والآخر، والظاهر، والباطن».

قد فسرنا النبي ﷺ تفسيراً جامعاً واضحاً، فقال: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء».

«الواسع» الصفات والنعوت ومتعلقاتها، بحيث لا يُخصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه. واسع العظمة والسلطان والملك، واسع الفضل والإحسان، عظيم الجود والكرم.

«الهادي، الرشيد» أي: الذي يهدي ويرشد عباده إلى جميع المنافع، وإلى دفع المضار، ويعلمهم ما لا يعلمون، ويهديهم لهداية التوفيق والتسديد، ويُلهمهم التقوى، ويجعل قلوبهم منية إليه متقدة لأمره. وللرشيد معنى بمعنى الحكيم، فهو الرشيد في أقواله وأفعاله، وشرائعه كلها خير ورشد وحكمة، ومخلوقاته مشتملة على الرشد.

«الحق» في ذاته وصفاته، فهو واجب الوجود، كامل الصفات والنعوت، وجوده من لوازم ذاته، ولا وجود لشيء من الأشياء إلا به. فهو الذي لم يزل ولا يزال بالجلال والجمال والكمال موصوفاً، ولم يزل ولا يزال بالإحسان معروفاً.

فقوله حق، وفعله حق، ولقاؤه حق، ورسله حق، وكتبه حق، ودينه هو الحق، وعبادته وحده لا شريك له هي الحق، وكل شيء ينسب إليه فهو حق. ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير﴾.

﴿وقل الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾. ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ ﴿قل جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً﴾.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم إلى يوم الدين.

قال ذلك وكتبه العبد الفقير إلى ربه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر السعدي غفر الله له ولوالديه، ومشايخه، وأحبابه، وجميع المسلمين آمين.

(١) كذا في الأصل ولعلها: (الإنابة) والله أعلم.

فلما بين تعالى هذه الأحكام الجليلة بين الزوجين، أثنى على أحكامه وعلى بيانه لها وتوضيحه، وموافقتها للعقول السليمة، وأن القصد من بيانه لعباده، أن يعقلوا عنه ما بينه، فيعقلونها حفظاً، وقهماً، وعملاً بها، فإن ذلك من تمام عقلها.

﴿٢٤٣﴾ «ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون» أي: ألم تسمع بهذه القصة العجيبة المجارية على من قبلكم من بني إسرائيل، حيث حل الوفاء بديارهم، فخرجوا بهذه الكثرة، فراراً من الموت، فلم ينتجهم الفرار، ولا أغنى عنهم من وقوع ما كانوا يحذرون، فعاملهم بنقيض مقصودهم، وأماتهم الله عن آخرهم، ثم تفضل عليهم، فأحياهم، إما بدعوة نبي، كما قاله كثير من المفسرين، وإما بغير ذلك.

ولكن ذلك، بفضلته وإحسانه، وهو لا زال فضلته على الناس، وذلك موجب لشكرهم. نعم الله بالاعتراف بها وصرافها في مرضاة الله، ومع ذلك فأكثر الناس قد قصبوا بواجب الشكر.

وفي هذه القصة، عبرة بأنه على كل شيء قدير، وذلك آية محسوسة على البعث، فإن هذه القصة معروفة منقولة، نقلًا متواتراً عند بني إسرائيل ومن اتصل بهم، ولهذا أتى بها تعالى، بأسلوب الأمر الذي قد تقرر عند المخاطبين.

ويحتمل أن هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم خوفاً من الأعداء، وجبناً عن لقائهم، ويؤيد هذا أن الله ذكر بعدها الأمر بالقتال وأخبر عن بني إسرائيل أنهم كانوا مخرجين من ديارهم وأبنائهم.

وعلى الاحتمالين فإن فيها ترغيباً في الجهاد، وترهيباً من التقاعد عنه، وأن ذلك لا يغني عن الموت شيئاً. «قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم».

﴿٢٤٤-٢٤٥﴾ «وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم» من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون» جمع الله بين الأمر بالقتال في سبيله بالمال والبدن لأن الجهاد لا يقوم إلا بالأمرين، وبحث على الإخلاص فيه، بأن يقاتل العبد، لتكون كلمة الله هي العليا، فإن الله

كان على الزوجة، أن تربص حولاً كاملاً، ثم نسخ بأربعة أشهر وعشر.

ويجيبون عن تقدم الآية الناسخة، أن ذلك تقدم في الوضع، لا في النزول، لأن شرط الناسخ أن يتأخر عن المنسوخ، وهذا القول لا دليل عليه.

ومن تأمل الآيتين، اتضح له أن القول الآخر في الآية، هو الصواب، وأن الآية الأولى في وجوب التربص أربعة أشهر وعشر، على وجه التحتم على المرأة، وأما في هذه الآية فإنها وصية لأهل الميت، أن يبقوا زوجة ميتهم عندهم، حولاً كاملاً، جبراً لخطأها، وبراً بميتهم، ولهذا قال: «وصية لأزواجهم»، أي: وصية من الله لأهل الميت، أن يتوصوا بزوجه، ويمتعوها ولا يخرجوها.

فإن رغبت أقامت في وصيتها، وإن أحببت الخروج فلا خرج عليها، ولهذا قال: «فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن»، أي: من التجميل والتلباس. لكن الشرط، أن يكون بالمعروف، الذي لا يخرجها عن حدود الدين والاعتبار، وختم الآية بهذين الاسمين العظميين، الدالين على كمال العزة، وكمال الحكمة، لأن هذه أحكام صدرت عن عزته، ودلت على كمال حكمته، حيث وضعها في مواضعها اللائقة بها.

﴿٢٤٢-٢٤١﴾ «وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين» كذلك بين الله لكم آياته لعلكم تعقلون» لما بين في الآية السابقة، إمتاع المفاارقة بالموت، ذكر هنا أن كل مطلقة، فلها على زوجها، أن يمتعها ويعطيها ما يناسب حاله وحالتها، وأنه حق، إنما يقوم به المتقون، فهو من خصال التقوى الواجبة أو المستحبة.

فإن كانت المرأة لم ينم لها صداق، وطلقها قبل الدخول، فتقدم أنه يجب عليه بحسب يساره وإيساره. وإن كان مسمى لها، فمتاعها نصف المسمى.

وإن كانت مدخولاً بها، صارت المتعة مستحبة، في قول جمهور العلماء. ومن العلماء من أوجب ذلك، استدلالاً بقوله: «حقاً على المتقين»، والأصل في «الحق» أنه واجب، خصوصاً وقد أضافه إلى المتقين، وأصل التقوى واجبة.

﴿٢٣٨-٢٣٩﴾ ثم قال تعالى: «حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى وقوموا لله قانتين» فإن خفتم فرجالاً أو ركبانا فإذا أمتتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون» يأمر تعالى بالمحافظة «على الصلوات» عموماً، وعلى «الصلوة الوسطى» وهي العصر خصوصاً.

والمحافظة عليها: أدائها بوقتها، وشروطها، وأركانها، وخشوعها، وجميع ما لها، من واجب ومستحب.

وبالمحافظة على الصلوات، تحصل المحافظة على سائر العبادات، وتفيد النهي عن الفحشاء والمنكر، خصوصاً إذا أكملها كما أمر بقوله: «وقوموا لله قانتين»، أي: ذليلين مخلصين خاشعين، فإن القنوت دوام الطاعة مع الخشوع.

﴿٢٣٩﴾ وقوله: «فإن خفتم» حذف المتعلق، ليعم الخوف من العدو، والسيح، وفوات ما يتضرر العيد بفوته فصولاً، «رجالاً» ماشين على أرجلكم.

«أو ركبانا» على الخيل والإبل، وسائر المركوبات، وفي هذه الحال، لا يلزمه الاستقبال، فهذه صفة صلاة المعذور بالخوف، فإذا حصل الأمن، صلى صلاة كاملة.

ويدخل في قوله: «فإذا أمتتم فاذكروا الله» تكميل الصلوات، ويدخل فيه أيضاً، الإكثار من ذكر الله، شكره له على نعمة الأمن وعلى نعمة التعليم، لما فيه سعادة العبد.

وفي الآية الكريمة، فضيلة العلم، وأن على من علمه الله ما لم يكن يعلم الإكثار من ذكر الله.

وفيه الإشعار أيضاً أن الإكثار من ذكره، سبب لتعليم علوم آخر، لأن الشكر مقرون بالمزيد.

ثم قال تعالى: «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم».

﴿٢٤٠﴾ اشتهر عند كثير من المفسرين، أن هذه الآية الكريمة، نسختها الآية التي قبلها وهي قوله تعالى: «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً»، وأن الأمر

﴿سميع﴾ للأقوال، وإن خفيت، ﴿عليهم﴾ بما تحتوي عليه القلوب من النيات الصالحة وضدها.

وأيضاً، فإنه إذا علم المجاهد في سبيله، أن الله سميع عليهم، هان عليه ذلك، وعلم أنه بعينه ما يتحمل المتحملون من أجله، وأنه لا بد أن يمددهم بمعونه ولطفه.

وتأمل هذا الحث اللطيف على النفقة، وأن المنفق قد أقرض الله المليء الكريم، ووعدته المضاعفة الكثيرة، كما قال تعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾.

ولما كان المانع الأكبر من الإنفاق خوف الإملاق، أخبر تعالى أن الغنى والفقر بيد الله، وأنه يقبض الرزق على من يشاء، ويبسطه على من يشاء، فلا يتأخر من يريد الإنفاق خوف الفقر، ولا يظن أنه ضائع، بل مرجع العباد كلهم إلى الله، فيجد المنفقون والعاملون أجرهم عنده مدخراً، أحوج ما يكونون إليه، ويكون له من الوقع العظيم، ما لا يمكن التعبير عنه.

والمراد بالقرض الحسن: هو ما جمع أوصاف الحسن، من النية الصالحة، وسماحة النفس، بالشفقة، ووقوعها في محلها وأن لا يتبعها المنفق مناً ولا أذى، ولا مبطلاً ومقسطاً.

﴿٢٤٦﴾ ﴿ألم تر إلى الملا من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعت لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله﴾ إلى آخر القصة. يقصن الله تعالى هذه القصة على الأمة، ليعتبروا وليزغبوا في الجهاد، ولا ينكلوا عنه، فإن الصابرين صارت لهم العواقب الحميدة في الدنيا والآخرة، والتاكليين خسروا الأمرين.

فأخبر تعالى أن أهل الرأي من بني إسرائيل وأصحاب الكلمة النافذة: تراودوا في شأن الجهاد، واتفقوا على أن يظليوا من نبينهم أن يعين لهم ملكاً؛ لينقطع النزاع بتعيينه، وتحصل الطاعة التامة، ولا يبقى لقاتل مقال.

وأن نبينهم خشي أن طلبهم هذا، مجرد كلام لا فعل معه، فأجابوا نبينهم بالعزم

الجازم، وأنهم التزموا ذلك التزاماً تاماً، وأن القتال متعين عليهم، حيث كان وسيلة لاسترجاع ديارهم؛ ورجوعهم إلى مقرهم ووطنهم.

﴿٢٤٧﴾ ﴿وأنه عيّن لهم نبينهم طالوت ملكاً، يقودهم في هذا الأمر الذي لا بد له من قائد يحسن القيادة، وأنهم استغربوا تعيينه لطالوت، وثم من هو أحق منه بيتاً وأكثر مالاً.

فأجابهم نبينهم: إن الله اختاره عليكم؛ بما آتاه الله من قوة العلم بالسياسة؛ وقوة الجسم، اللذين هما آلة الشجاعة والتجدة، وحسن التدبير، وأن الملك ليس بكثرة المال؛ ولا يكون صاحبه ممن كان الملك والسيادة في بيوتهم، فالله يؤتي ملكه من يشاء.

﴿٢٤٨﴾ ثم لم يكتف ذلك النبي الكريم بإقناعهم بما ذكره؛ من كفاءة طالوت؛ واجتماع الصفات المطلوبة فيه حتى قال لهم: ﴿إن آية ملكه أن يأتيتكم التابوت فيه سكية من ربكم ببقية مما ترك آل موسى وآل هارون﴾، وكان هذا التابوت قد استولت عليه الأعداء.

فلم يكتفوا بالصفات المعنوية في طالوت، ولا بتعيين الله له على لسان نبينهم، حتى يؤيد ذلك هذه المعجزة، ولهذا قال: ﴿إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾، فحينئذ سلموا واتفقوا.

﴿٢٤٩﴾ فلما ترأس فيهم طالوت، وجندهم، ورتبهم، وفصل بهم إلى قتال عدوهم، وكان قد رأى منهم من ضعف العزائم والههم، ما يحتاج إلى تمييز الضاير من الناكل، فقال: ﴿إن الله مبتليكم بنهر﴾ تمرّون عليه وقت حاجة إلى الماء.

﴿فمن شرب منه فليس مني﴾، أي: لا يتبعني؛ لأن ذلك برهان على قلة صبره، وفوق جزعه، ﴿ومن لم يطعمه فإنه مني﴾ لصدقه وصبره، ﴿إلا من اغترف غرفة بيده﴾، أي: فإنه مسامح فيها.

فلما وصلوا إلى ذلك النهر وكانوا محتاجين إلى الماء، شربوا كلهم منه ﴿إلا قليلاً منهم﴾ فإنهم صبروا ولم يشربوا.

﴿فلما جاوزوه هو والذين آمنوا معه قالوا﴾ أي: التاكليون أو الذين عبروا:

﴿لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾.

فإن كان القاتلون هم التاكليين، فهذا قول يبررون به نكولهم، وإن كان القاتلون هم الذين عبروا مع طالوت، فإنه حصل معهم نوع استضعاف لأنفسهم، ولكن شجعهم على الثبات والإقدام أهل الإيمان الكامل حيث قالوا: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾ بمعونه وتأييده، ونصره، فثبتوا، وصبروا لقتال عدوهم جالوت وجنوده.

﴿٢٥٠﴾ ﴿وقتل داود﴾ ﴿جالوت﴾ وحصل بذلك الفتح والنصر على عدوهم.

﴿وآتاه الله﴾، أي: داود ﴿الملِك﴾ والحكمة ﴿النيرة والعلوم النافعة، وآتاه الله الحكمة وفصل الخطاب.

﴿٢٥١﴾ ثم بين تعالى، فائدة الجهاد فقال: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ باستيلاء الكفرة والفجار، وأهل الشر والفساد.

﴿ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ حيث لطف بالمؤمنين، ودافع عنهم وعن دينهم، بما شرعه وبما قدره.

﴿٢٥٢﴾ فلما بين هذه القصة قال لرسوله ﷺ: ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين﴾.

ومن جملة الأدلة على رسالته، هذه القصة، حيث أخبر بها وحياً من الله، مطابقاً للواقع، وفي هذه القصة عبر كثيرة للأمة.

منها: فضيلة الجهاد في سبيله، وفوائده، وثمراته، وأنه السبب الوحيد في حفظ الدين، وحفظ الأوطان، وحفظ الأبدان والأموال، وأن المجاهدين، ولو شقت عليهم الأمور، فإن عواقبهم حميدة كما أن التاكليين، ولو استراحوا قليلاً، فإنهم سيتعبون طويلاً.

ومنها: الانتداب لرياسة من فيه كفاءة، وأن الكفاءة ترجع إلى أمرين: إلى العلم الذي هو علم السياسة والتدبير، وإلى القوة التي ينفذ بها الحق، وأن من اجتمع فيه الأمران فهو أحق من غيره.

ومنها: الاستدلال بهذه القصة على ما قاله العلماء، أنه ينبغي للأمير للجيوش،

المهد صبيّاً، وأيده بروح القدس، أي: بروح الإيمان.

فجعل روحانيته فائقة روحانية غيره، فحصل له بذلك القوة والتأييد، وإن كان أصل التأييد بهذه الروح عاماً لكل مؤمن، بحسب إيمانه، كما قال: ﴿وأيدهم بروح منه﴾، لكن ما لعيسى أعظم مما لغيره، لهذا خصه الله بالذكر.

وقيل: إن روح القدس - هنا - جبريل، أيده الله بإعانه ومؤازرته، لكن المعنى هو الأول.

ولما أخير عن كمال الرسل، وما أعطاهم من الفضل والخصائص، وأن دينهم واحد، ودعوتهم إلى الخير واحدة، وكان موجب ذلك ومقتضاه، أن تجتمع الأمم على تصديقهم، والالتحاق بهم، لما آتاهم من البينات التي على مثلها يؤمن البشر، لكن أكثرهم اتحرفوا عن الصراط المستقيم، ووقع الاختلاف بين الأمم.

فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، ووقع لأجل ذلك الاقتتال الذي هو موجب الاختلاف والتعادي، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى، فما اختلفوا، ولو شاء الله أيضاً - بعدما وقع الاختلاف الموجب للاقتتال - ما اقتتلوا.

ولكن حكمته، اقتضت جريان الأمور على هذا النظام بحسب الأسباب، ففي هذه الآية أكبر شاهد على أنه تعالى، يتصرف في جميع الأسباب المقتضية لمسبباتها، وأنه إن شاء أبقاها، وإن شاء منعها، وكل ذلك تبع لحكمته وحده، فإنه فعال لما يريد، فليس لإرادته ومشيتته منافع ولا معارض ولا معاون.

﴿٢٥٤﴾ «يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون» يحث الله المؤمنين على النفقات، في جميع طرق الخير؛ لأن حذف المعمول، يفيد التعميم، ويذكرهم نعمته عليهم، بأنه هو الذي رزقهم، ونوع عليهم النعم، وأنه لم يأمرهم بإخراج جميع ما في أيديهم، بل أتى بـ «من» الدالة على التبعية، فهذا مما يدعوه إلى الإنفاق.

ومما يدعوه أيضاً إخبارهم أن هذه النفقات، مدخرة عند الله في يوم لا تفيد

أن يتفقدوها عند فصولها، فيمنع من لا يصلح للقتال، من رجال وخيل وركاب، لضعفه، أو ضعف صبره، أو لتخذيذه، أو خوف الضرر بصحته، فإن هذا القسم ضرر محض على الناس.

ومنها: أنه ينبغي عند حضور البأس، تقوية المجاهدين، وتشجيعهم، وحثهم على القوة الإيمانية، والاتكال الكامل على الله، والاعتماد عليه، وسؤال الله الثبوت، والإعانة على الصبر والنصر على الأعداء.

ومنها: أن العزم على القتال والجهاد غير حقيقته، فقد يعزم الإنسان، ولكن عند حضوره، تنحل عزيمته، ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ: «أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد».

فهؤلاء الذين عزموا على القتال، وأتوا بكلام يدل على العزم المصمم، لما جاء الوقت، نكص أكثرهم، وبشبهه هذا قوله ﷺ: «أسألك الرضا بعد القضاء»؛ لأن الرضا بعد وقوع القضاء المكروه للنفوس، هو الرضا الحقيقي.

﴿٢٥٣﴾ وقوله تعالى ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾ يخبر الباري أنه قاوت بين الرسل في الفضائل الجليلة، والتخصيصات الجميلة، بحسب ما من الله به عليهم، وقاموا به من الإيمان الكامل، واليقين الراسخ، والأخلاق العالية، والآداب السامية، والدعوة، والتعليم، والنفع العميم.

فمنهم من اتخذه خليلاً، ومنهم من كلمه تكليماً، ومنهم من رفعه فوق الخلائق درجات.

وجميعهم لا سبيل لأحد من البشر إلى الوصول إلى فضلهم الشامخ.

وخصّ عيسى ابن مريم أنه آتاه البينات الدالة على أنه رسول الله حقاً، وعبيده صدقاً، وأن ما جاء به من عند الله كله حق، فجعله يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله، وكلم الناس في

فيه المناوضات بالبيع ونحوه، ولا التبرعات، ولا الشفاعات، فكل أحد يقول: ما قدمت لحياتي.

فتنقطع الأسباب كلها، إلا الأسباب المتعلقة بطاعة الله والإيمان به، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا، وهم في الغرفات آمنون﴾، ﴿وما تقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً﴾.

ثم قال تعالى: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾، وذلك لأن الله خلقهم لعبادته، ورزقهم وعافاهم، ليستعينوا بذلك على طاعته، فيخرجوا عما خلقهم الله له، وأشركوا بالله، ما لم ينزل به سلطاناً، واستعانوا بنعمه على الكفر، والفسوق، والمصيان، فلم يبقوا للعدل موضعاً، فلهذا حصر الظلم المطلق فيهم.

﴿٢٥٥﴾ «الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم» أخبر ﷺ أن هذه الآية أعظم آيات القرآن، لما احتوت عليه من معاني التوحيد والعظمة، وسعة الصفات للباري تعالى.

فأخبر أنه «الله» الذي له جميع معاني الألوهية، وأنه لا يستحق الألوهية والعبودية إلا هو، فالهوية غيره، وعبادة غيره باطلة.

وأنه «الحي» الذي له جميع معاني الحياة الكاملة، من السمع والبصر، والقدرة، والإرادة، وغيرها، والصفات الذاتية.

كما أن «القيوم» تدخل فيه جميع صفات الأفعال، لأنه القيوم الذي قام بنفسه، واستغنى عن جميع مخلوقاته، وقام بجميع الموجودات، فأوجدتها وأبقاها، وأمدّها بجميع ما تحتاج إليه في وجودها وبقاها.

ومن كمال حياته وقيوميته، أنه

﴿لَا تَأْخُذْهُ سَنَةٌ﴾، أي: نَعَسَاسٌ ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾؛ لأن السنة والنوم، إنما يعرضان للمخلوق، الذي يعتريه الضعف، والعجز، والانحلال، ولا يعرضان لذي العظمة والكبرياء والجلال.

وأخبر أنه مالك جميع ما في السماوات والأرض، فكلهم عبيد لله متساوون، لا يخرج أحد منهم عن هذا الطور، ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾، فهو المالك لجميع الممالك، وهو الذي له صفات الملك والتصرف، والسلطان، والكبرياء.

ومن تمام ملكه أنه لا يشفع عنده أحد ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، فكل الوجهاء والشعفاء عبيد له ممالك، لا يقدمون على شفاعة حتى يأذن لهم. ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾، له ملك السماوات والأرض، والله لا يأذن لأحد أن يشفع إلا فيمن ارتضى، ولا يرتضى إلا توحيده، وأتباع رسله، فمن لم يتصف بهذا، فليس له في الشفاعة نصيب.

ثم أخبر عن علمه الواسع المحيط، وأنه يعلم ما بين أيدي الخلائق، من الأمور المستقبلية، التي لا نهاية لها ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من الأمور الماضية التي لا حد لها، وأنه لا تخفى عليه خافية ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾.

وأن الخلق لا يحيط أحد بشيء من علم الله ومعلوماته ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ منها وهو ما أطلعهم عليه من الأمور الشرعية والقدرية، وهو جزء يسير جداً مضمحل في علوم الباري ومعلوماته، كما قال أعلم الخلق به، وهم الرسل والملائكة: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾.

ثم أخبر عن عظمته وجلاله، وأن كبريه، وسع السماوات والأرض، وأنه قد حفظهما ومن فيهما من العوالم بالأسباب والنظامات، التي جعلها الله في المخلوقات.

ومع ذلك ف ﴿لَا يُؤْودُهُ﴾، أي: يثقله حفظهما، لكمال عظمته، واقتداره، وسعة حكمته في أحكامه.

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ بذاته، على جميع مخلوقاته، وهو العلي بعظمة صفاته، وهو العلي الذي قهر المخلوقات، ودانت له الموجودات، وخضعت له الصعاب،

وذلت له الرقاب.

﴿الْعَظِيمُ﴾ الجامع، لجميع صفات العظمة والكبرياء، والمجد والبهاء، الذي تحته القلوب، وتعظمه الأرواح، ويعرف العارفون أن عظمة كل شيء، وإن جلت عن الصفة، فإنها مضمحلة في جانب عظمة العلي العظيم.

فآية احتوت على هذه المعاني التي هي أجل المعاني، يحق أن تكون أعظم آيات القرآن، ويحق لمن قرأها، متدبراً متفهماً، أن يستلئ قلبه من اليقين والعرفان والإيمان، وأن يكون محفوظاً بذلك من شرور الشيطان.

﴿٢٥٦﴾ ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنَ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ هذا بيان لكمال هذا الدين الإسلامي، وأنه لكمال براهينه، واتضاح آياته، وكونه هو دين العقل والعلم، ودين الفطرة والحكمة، ودين الصلاح والإصلاح، ودين الحق والرشد، فلكناله وقبول الفطرة له، لا يحتاج إلى الإكراه عليه؛ لأن الإكراه إنما يقع على ما تنفر عنه القلوب، ويتنافى مع الحقيقة والحق، أو لما تخفى براهينه وآياته، وإلا فمن جاءه هذا الدين، ورده ولم يقبله، فإنه لعاده.

فإنه قد تبين الرشد من الغي، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة، إذا رده ولم يقبله، ولا منافاة بين هذا المعنى، وبين الآيات الكثيرة الموجبة للجهاد، فإن الله أمر بالقتال ليكون الدين كله لله، ولدفع اعتداء المعتدين على الدين.

وأجمع المسلمون على أن الجهاد ماض مع النبز والفاسق، وأنه من الفروض المستمرة الجهاد القولي والجهاد الفعلي. فمن ظن من المفسرين أن هذه الآية تنافي آيات الجهاد، فجزم بأنها منسوخة فقبوله ضعيف، لفظاً ومعنى، كما هو واضح بين لمن تدبر الآية الكريمة، كما نهينا عليه.

ثم ذكر الله انقسام الناس إلى قسمين: قسم آمن بالله وحده لا شريك له، وكفر بالطاغوت - وهو كل ما ينافي الإيمان بالله من الشرك وغيره -، فهذا قد استمسك بالعروة الوثقى، التي لا انفصام لها، بل هو مستقيم على الدين الصحيح،

حتى يصل به إلى الله؛ وإلى دار كرامته. ويؤخذ القسم الثاني، من مفهوم الآية، أن من لم يؤمن بالله، بل كفر به، وأمن بالطاغوت، فإنه هالك هلاكاً أبدياً، ومعذب عذاباً سرمدياً.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾، أي: لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، وسميع لدعاء الداعين، وخضوع المتضرعين.

﴿عَلِيمٌ﴾ بما أكتنه الصدور، وما خفي من خفايا الأمور، فيجازي كل أحد بحسب ما يعلمه، من نياته وعمله.

﴿٢٥٧﴾ ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظُّلُمَاتُ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ هذه الآية مترتبة على الآية التي قبلها، فالسابقة هي الأساس، وهذه هي الثمرة.

فأخبر تعالى أن الذين آمنوا بالله، وصدقوا إيمانهم، بالقيام بواجبات الإيمان، وترك كل ما ينافية، أنه وليهم، يتولاهم بولايته الخاصة، ويتولى تربيتهم، فيخرجهم من ظلمات الجهل والكفر والنحاصي والغفلة والإعراض، إلى نور العلم واليقين والإيمان، والطاعة والإقبال الكامل على ربهم، وينور قلوبهم بما يقذفه فيها من نور الوحي والإيمان، ويسرهم ليسرى، ويجنبهم المعسر.

وأما الذين كفروا، فإنهم لما تولوا غير وليهم، ولأهم الله ما تولوا لأنفسهم، وخذلهم، ووكّلهم إلى رعاية من تولاهم، ممن ليس عنده نفع ولا ضرر، فأضلّوهم وأشقّوهم، وحرّموهم هداية العلم النافع والعمل الصالح، وحرّموهم السعادة، وصارت النار مشواهم، خالدين فيها مخلدين.

اللهم تولنا فيمن توليت.

﴿٢٥٨﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يقص الله علينا من أنباء الرسل والسالفين، ما به تتبين الحقائق، وتقوم البراهين المتنوعة على التوحيد.

فأخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام، حيث حاش هذا الملك الجبار، وهو نمرود^(١) البابلي، المعطل المنكر لرب العالمين، وانتدب لمقاومة إبراهيم الخليل ومحاجته في هذا الأمر، الذي لا يقبل شكاً، ولا إشكالاً، ولا ريباً، وهو توحيد الله وربوبيته، الذي هو أجلى الأمور وأوضحها.

ولكن هذا الجبار، غره ملكه وأطغاه، حتى وصلت به الحال إلى أن نفاه، وحاج إبراهيم الرسول العظيم، الذي أعطاه الله من العلم واليقين، ما لم يعط أحداً من الرسل، سوى محمد صلى الله عليه وسلم.

فقال إبراهيم مناظراً له: ﴿ربي الذي يحيي ويميت﴾، أي: هو المنفرد بالخلق والتدبير، والإحياء والإماتة، فذكر من هذا الجنس أظهرها، وهو الإحياء والإماتة، فقال ذلك الجبار مباهتاً: ﴿إنا أحيي وأميت﴾، وعنى بذلك أنني أقتل من أردت قتله، وأستقي من أردت استبقاه.

ومن المعلوم أن هذا تمويه وتزوير، وخدعة عن المقصود، وأن المقصود أن الله تعالى هو الذي تفرد بإيجاد الحياة في المعدومات، وردّها على الأموات، وأنه هو الذي يميّز العباد والحيوانات بأجلها، بأسباب رطبها ويغير أسباب.

فلما رآه الخليل موهماً تمويهاً، ربما راج على الهمج الرعاع، قال إبراهيم - ملزماً له بتصديق قوله إن كان كما يزعم: ﴿فإن الله يأتي بالشمس من المشرق، فأت بها من المغرب، فبهت الذي كفر﴾، أي: وقف، وانقطعت حجته، واضمحلت شبهته.

وليس هذا من الخليل انتقلاً من دليل إلى آخر، وإنما هو إلزام لنمرود، بطرد دليله إن كان صادقاً، وأتى بهذا الذي لا يقبل الترويج والتزوير والتمويه.

فجميع الأدلة: السمعية، والعقلية، والفطرية، قد قامت شاهدة بتوحيد الله، معترفة بانفراده بالخلق والتدبير، وأن من هذا شأنه، لا يستحق العبادة إلا هو، وجميع الرسل متفقون على هذا الأصل العظيم، ولم ينكره إلا معاند مكابر، مماثل لهذا الجبار العنيد، فهذا من أدلة التوحيد.

﴿٢٥٩-٢٦٠﴾ ثم ذكر أدلة كمال القدرة والبعث والجزاء. فقال: ﴿أو كالذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبث مائة عام فانظر إلى طعمائك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى خمارك ولتجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم تكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطشّن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيّاً وإعلم أن الله عزيز حكيم.

هذان دليان عظيمان، محسوسان في الدنيا قبل الآخرة، على البعث والجزاء، واحداً أجراه الله على يد رجل شك في البعث على الصحيح، كما تدل عليه الآية الكريمة، والآخر على يد خليله إبراهيم.

كما أجرى دليل التوحيد السابق على يده، فهذا الرجل مرّ على قرية قد دمرت تدميراً، وخوت على عروشها، قد مات أهلها وخربت عمارتها، فقال - على وجه الشك والاستبعاد -: ﴿أنى يحيي هذه الله بعد موتها؟﴾، أي: ذلك بعيد، وهي في هذه الحال، يعني: وغيرها مثلها، بحسب ما قام بقلبه تلك الساعة.

فأراد الله رحمته ورحمة الناس، حيث أماته الله مائة عام، وكان معه حمار، فأماته معه، ومعه طعام وشراب، فأبقاهما الله بحالهما كل هذه المدد الطويلة، فلما مضت الأعوام المائة، بعثه الله، فقال: ﴿كم لبثت؟ قال: لبثت يوماً أو بعض يوم﴾ وذلك بحسب ما ظنه، فقال الله: ﴿بل لبث مائة عام﴾، والظاهر أن هذه المجاورة على يد بعض الأنبياء الكرام.

ومن تمام رحمة الله به وبالناس، أنه أراه الآية عياناً، ليقتنع بها، فيعدما عرف أنه ميت قد أحياه الله، قيل له: ﴿فانظر إلى طعمائك وشرابك لم يتسنه﴾، أي: لم يتغير في هذه المدد الطويلة، وذلك من آيات قدرة الله، فإن الطعام والشراب -

خصوصاً ما ذكره المفسرون: أنه فاكهة وعصير - لا يلبث أن يتغير، وهذا قد حفظه الله، مائة عام، وقيل له: ﴿انظر إلى خمارك﴾، فإذا هو قد تميز وتفرق، وصار عظاماً نخرة.

﴿وانظر إلى العظام كيف ننشزها﴾، أي: نرفع بعضها إلى بعض، ونصل بعضها ببعض، بعدما تفرقت وتمزقت، ﴿ثم تكسوها﴾ بعد الالتئام ﴿لحماً﴾، ثم تعيد فيه الحياة.

﴿فلما تبين له﴾ رأي عين لا يقبل الريب بوجه من الوجوه، ﴿قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾.

فاعترف بقدرة الله على كل شيء، وصار آية للناس، لأنهم قد عرفوا موته وموت حماره، وعرفوا قضيته، ثم شاهدوا هذه الآية الكبرى، هذا هو الصواب في هذا الرجل.

وأما قول كثير من المفسرين: إن هذا الرجل، مؤمن أو نبي من الأنبياء، إما عزيز أو غيره، وأن قوله: ﴿أنى يحيي هذه الله بعد موتها؟﴾، يعني: كيف تعمر هذه القرية بعد أن كانت خراباً، وأن الله أماته، ليبريه ما يعيد لهذه القرية من عمارتها بالخلق، وأنها عمرت في هذه المدة، وتراجع الناس إليها، وصارت عامرة، بعد أن كانت دامية - فهذا لا يدل عليه اللفظ، بل يتأني، ولا يدل عليه المعنى.

فأي آية وبرهان، يرجع البليدان الدامرة إلى العمارة، وهذه لم تزل تشاهد، تعمر قرى ومساكن، وتخرّب أخرى، وإنما الآية العظيمة في إحيائه بعد موته، وإحياء حماره، وإبقاء طعامه وشرابه، لم يتعفن ولم يتغير.

ثم قوله: ﴿فلما تبين له﴾ صريح في أنه لم يتبين له إلا بعدما شاهد هذه الحال الدالة على كمال قدرته عياناً.

﴿٢٦٠﴾ وأما البرهان الآخر، فإن إبراهيم قال طالباً من الله، أن يريه كيف يحيي الموتى، فقال الله له: ﴿أولم تؤمن﴾ ليزيل الشبهة عن خليله.

﴿قال﴾ إبراهيم: ﴿بلى﴾، يا رب، قد آمنت أنك على كل شيء قدير، وأنتك تحيي الموتى، وتجازي العباد، ولكن أريد

أن يطمئن قلبي، وأصل إلى درجة عين اليقين.

فأجاب الله دعوته، كرامة له، ورحمة بالعباد، ﴿قال: فخذ أربعة من الطير﴾ ولم يبين أي الطيور هي، فالآية حاصلة بأي نوع منها، وهو المقصود، ﴿فصرهن إليك﴾ أي: ضمنهن، واذبحهن، ومزقهن. ﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً، ثم ادعهن، يأتينك سعيًا واعلم أن الله عزيز حكيم﴾.

ففعل ذلك، وفزق أجزاءهن على الجبال، التي حوله، ودعاهن بأسمائهن، فأقبلن إليه، أي: سريعات، لأن السعي: السرعة، وليس المراد أنهن جئن على قوائمه، وإنما جئن طائرات، على أكمل ما يكون من الحياة. وخض الطيور بذلك، لأن إحياءهن أكمل وأوضح من غيرهن.

وأيضاً أزال في هذا كل وهم، ربما يعرض للنفس المبطله، فجعلنهن متعدذات أربعة، ومزقهن جميعاً، وجعلنهن على رؤوس الجبال، ليكون ذلك ظاهراً علناً، يشاهد من قرب ومن بعد، وأنه نجاهن عنه كثيراً، لئلا يظن أن يكون عاملاً حيلة من الخيل، وأيضاً أمره أن يدعوهن فجئن مسرعات.

فصارت هذه الآية أكبر برهان على كمال عزة الله وحكمته. وفيه تنبيه على أن البعث فيه يظهر للعباد كمال عزة الله وحكمته وعظمته وسعته سلطانه، وتمايم عدله وفضله.

﴿٢٦٦-٢٦٢﴾ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أدى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ هذا حث عظيم من الله لعباده في إنفاق أموالهم في سبيله، وهو طريقه الموصول إليه، فيدخل في هذا إنفاقه في ترقية العلوم النافعة، وفي الاستعداد للجهاد في سبيله، وفي تجهيز المجاهدين وتجهيزهم، وفي جميع المشاريع الخيرية النافعة للمسلمين. وبلي ذلك الإنفاق على المحتاجين، والفقراء والمساكين. وقد يجتمع الأمران، فيكون في النفقة

دفع الحاجات، والإعانة على الخير والطاعات، فهذه النفقات مضاعفة، هذه المضاعفة بسبعمائة إلى أضعاف أكثر من ذلك، ولهذا قال: ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾، وذلك بحسب ما يقوم بقلب المنفق، من الإيمان، والإخلاص التام، وفي ثمرات نفقته ونفعها، فإن بعض طرق الخيرات يترتب على الإنفاق فيها منافع متسلسلة، ومضالغ متنوعة، فكان الجزء من جنس العمل.

ثم أيضاً ذكر ثواباً آخر للمنفقين أموالهم في سبيله، نفقة صادرة، مستوفية لشروطها، منتفية مروانها، فلا يتبعون المنفق عليه مئاً منهم عليه، وتعداداً للنعم، وأذية له، قولية أو فعلية. فهؤلاء ﴿لهم أجرهم عند ربهم﴾ بحسب ما يعلمه منهم، وبحسب نفقاتهم ونفعها، وبفضله الذي لا تتاله، ولا تصل إليه صدقاتهم.

﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾، فنفس عنهم المكروه الماضي، ونفي الحزن، والمستقبل بنفي الخوف عليهم، فقد حصل لهم المحبوب، واندفع عنهم المكروه.

﴿٢٦٣﴾ قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني غني حليم﴾ ذكر الله أربع مراتب للإحسان: المرتبة العليا: النفقة الصادرة عن نية صالحة، ولم يتبعها المنفق مئاً ولا أذى.

ثم يليها قول المعروف، وهو: الإحسان القولي بجميع وجوهه، الذي فيه سرور المسلم، والاعتبار من السائل إذا لم يوافق عنده شيئاً، وغير ذلك من أقوال المعروف.

والثالثة: الإحسان بالعفو والمغفرة، عن أساء إليك، بقول أو فعل.

وهذان أفضل من الرابعة، وخير منها وهي التي يتبعها المتصدق الأذى للمعطى، لأنه كدر إحسانه وفعل خيراً وشرّاً. فالخير المحض - وإن كان مفضولاً - خير من الخير الذي يخالطه شر، وإن كان فاضلاً، وفي هذا التحذير العظيم لمن يؤدي من تصدق عليه، كما فعله أهل اللؤم والحق والجهل.

﴿والله﴾ تعالى ﴿غني﴾ عن صدقاتهم، وعن جميع عبادته.

﴿حليم﴾ مع كمال غناه، وسعة عطايه، يحلم عن العاصين، ولا يعاجلهم بالعقوبة، بل يعافيههم ويرزقهم، ويدبر عليهم خيره، وهم يبارزون له بالمعاصي.

﴿٢٦٤-٢٦٦﴾ ثم نهى أشد النهي عن المن والأذى، وضرب لذلك مثلاً، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقهرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فأنت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير ﴿أورد أحذكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾ ضرب الله في هذه الآيات ثلاثة أمثلة: للمنفق ابتغاء وجهه، ولم يتبع نفقته مئاً ولا أذى، وللمن أتبعها مئاً وأذى، وللزاني.

﴿٢٦٥﴾ فأما الأول، فإنه لما كانت نفقته مقبولة مضاعفة، لصدورها عن الإيمان والإخلاص التام ﴿ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم﴾، أي: ينفقون، وهم ثابتون على وجه السماحة والصدق، فمثل هذا العمل ﴿كمثل جنة بربوة﴾، وهو المكان المرتفع، لأنه يتبين للرياح والشمس، والماء فيها عزيز.

فإن لم يصبها ذلك الوابل الغزير، حصل ظل كاف، لطيب منبتها، وحسن أرضها، وحصول جميع الأسباب الموفرة لتموها وازدهارها وإثمارها. ولهذا ﴿أنت أكلها ضعفين﴾، أي: متضاعفاً.

وهذه الجنة التي على هذا الوصف، هي أعلى ما يطلبه الناس، فهذا العمل القابل بأعلى المنازل.

﴿٢٦٦﴾ وأما من أنفق لله، ثم أتبع نفقته مئاً وأذى، أو عمل عملاً، يأتي بمبطل لذلك العمل، فهذا مثله مثال صاحب هذه الجنة، لكن سلب عليها فاحترقت، وهو الريح الشديدة ﴿فيه نار

ضعيف قد أصابه الكبر.

فهذه الحال من أفضح الأحوال، ولهذا صدر هذا المثل بقوله: ﴿أيود أحدكم﴾، إلى آخرها بالاستفهام المستقر عند المخاطبين فظاعته، فإن تلفها دفعة واحدة، بعد زهاء أشجارها، وإيناع ثمارها، مصيبة كبرى.

ثم حصول هذه الفاجعة - وصاحبها كبير قد ضعف عن العمل، وله ذرية ضعفاء، لا مساعدة منهم له، ومؤنتهم عليه - فاجعة أخرى، فصار صاحب هذا المثل، الذي عمل لله، ثم أبطل عمله بمناف له، يشبه حال صاحب الجنة، التي جرى عليها ما جرى، حين اشتدت ضرورته إليها.

المثل الثالث: الذي يراعي الناس، وليس معه إيمان بالله، ولا احتساب لثوابه، حيث شبه قلبه بالصفوان، وهو الحجر الأملس، عليه تراب يظن الرائي أنه إذا أصابه المطر، أثبت كما تثبت الأراضي الطيبة، ولكنه كالبحر، الذي أصابه الوبال الشديد، فذهب ما عليه من التراب، وتركه صلباً.

وهذا مثل مطابق لقلب المرابي، الذي ليس فيه إيمان، بل هو قاس لا يلين ولا يخشع.

فهذا أعماله ونفقاته لا أصل لها، تؤسس عليه، ولا غاية لها، تنتهي إليها، بل ما عمله، فهو باطل، لعدم شرطه.

والذي قبله بطل بعد وجود الشرط، لوجود المانع، والأول مقبول مضاعف، لوجود شرطه الذي هو الإيمان والإخلاص والثبات، وانتفاء الموانع المفسدة.

وهذه الأمثال الثلاثة، تنطبق على جميع العاملين، فليزن العبد نفسه وغيره بهذه الموازين العادلة، والأمثال المطابقة.

﴿وتلك الأمثال نضربها للناس، وما يعقلها إلا العالمون﴾.

﴿٢٦٧-٢٦٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمسوا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيها إلا أن تغمضوها فيه واعلموا أن الله غني حميد﴾ * الشيطان يندكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يندكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم﴾ يحث الباري عباده على الإنفاق مما كسبوا في التجارات، ومما أخرج لهم من الأرض،

من الحبوب والثمار، وهذا يشمل زكاة التقدين، والعروض كلها، المعدة للبيع والشراء، والخارج من الأرض، من الحبوب والثمار، ويدخل في عمومها القرض والنفل.

وأمر تعالى أن يقصدوا الطيب منها، ولا يقصدوا الخبيث، وهو الرديء البدون، يجعلونه لله، ولو بذله لهم من لهم حق عليه، لم يرتضوه ولم يقبلوه إلا على وجه المغاضاة والإغماض.

فالواجب إخراج الوسط من هذه الأشياء، والكمال إخراج العالي، والممتنع إخراج الرديء، فإن هذا لا يجزى عن الواجب، ولا يحصل فيه الثواب التام في المندوب.

﴿واعلموا أن الله غني حميد﴾، فهو غني عن جميع المخلوقين، وهو الغني عن نفقات المتفقين، وعن طاعات الطائعين، وإنما أمرهم بها، وحثهم عليها، لتفهمهم، ومخض فضله وكرمه عليهم.

ومع كمال غناه، وسعة عطاياه، فهو الحميد فيما يشعره لعباده من الأحكام الموصلة لهم إلى دار السلام.

وحميد في أفعاله، التي لا تخرج عن الفضل والعدل والحكمة، وحميد الأوصاف، لأن أوصافه كلها محاسن وكمالات، لا يبلغ العباد كنهها، ولا يدركون وصفها.

﴿٢٦٨﴾ فلما حثهم على الإنفاق النافع، ونهاهم عن الإمساك الضار، بين لهم أنهم بين داعيين:

داعي الرحمن، يدعوهم إلى الخير، ويعدهم عليه الخير، والفضل والثواب العاجل والآجل، وإخلاف ما أنفقوا.

وداعي الشيطان، الذي يحثهم على الإمساك ويخوفهم، إن أنفقوا أن يفتقروا، فمن كان مجيباً لداعي الرحمن، وأنفق مما رزقه الله، فليبشر بمغفرة الذنوب، وحصول كل مطلوب، ومن كان مجيباً لداعي الشيطان، فإنه إنما يدعو حزبه، ليكونوا من أصحاب السعير، فليختر العبد أي الأمرين أليق به.

وختم الآية بأنه ﴿واسع عليم﴾، أي: واسع الصفات، كثير الهيات، عليم بمن يستحق المضاعفة من العاملين، وعليم بمن هو أهل، فيوفقه لفعل الخيرات، وترك المنكرات.

﴿٢٦٩﴾ ﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾ لما ذكر أحوال المتفقين للأموال، وأن الله أعطاهم، ومن عليهم بالأموال التي يدركون بها النفقات في الطرق الخيرية، وينالون بها المقامات السنية، ذكر ما هو أفضل من ذلك، وهو أنه يعطي الحكمة من يشاء من عباده، ومن أراد بهم خيراً من خلقه.

والحكمة هي العلوم النافعة، والمعارف الصائبة، والعقول المسددة، والألباب الرزينة، وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال.

وهذا أفضل العطايا، وأجل الهبات، ولهذا قال: ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾، لأنه خرج من ظلمة الجهالات إلى نور الهدى، ومن حمق الانحراف في الأقوال والأفعال، إلى إصابة الصواب فيها، وحصول السداد، ولأنه كمل نفسه بهذا الخير العظيم، واستعد لنفع الخلق أعظم نفع، في دينهم ودنياهم.

وجميع الأمور لا تصلح إلا بالحكمة، التي هي وضع الأشياء مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها، والإقدام في محل الإقدام والإحجام في موضع الإحجام.

ولكن ما يتذكر هذا الأمر العظيم، وما يعرف قدر هذا العطاء الجسيم. ﴿إلا أولو الألباب﴾ وهم أهل العقول الوافية، والأحلام الكاملة، فهم الذين يعرفون النافع فيعملونه، والضرار فيتركونه.

وهذان الأمران، وهما بذل النفقات المالية، وبذل الحكمة العلمية، أفضل ما تقرب به المتقربون إلى الله، وأعلى ما وصلوا به إلى أجل الكرامات.

وهما اللذان ذكرهما النبي ﷺ بقوله: «لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يعلمها للناس».

﴿٢٧٠-٢٧١﴾ ﴿وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار﴾ * إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم، ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير﴾ يخبر تعالى، أنه مهما أنفق المتفقون أو تصدق المعتصدون، أو نذر الناذرون، فإن الله يعلم ذلك.

ومضمون الأخبار بعلمه، يدل على الجزاء، وأن الله لا يضيع عنده مثقال ذرة، ويعلم ما صدرت عنه، من نيات صالحة، أو سيئة، وأن الظالمين الذين يمتنعون ما أوجب الله عليهم، أو يقتحمون ما حرم عليهم، ليس لهم من دونه أنصار، ينصرونهم ويمنعونهم، وأنه لا بد أن تقع بهم العقوبات.

﴿٢٧١﴾ وأخبر أن الصدقة إن أبداها المتصدق، فهي خير، وإن أخفاها، وسلمها للفقير، كان أفضل، لأن الإخفاء على الفقير، إحسان آخر.

وأيضاً فإنه يدل على قوة الإخلاص، وأحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله: «من تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

وفي قوله: ﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ فائدة لطيفة، وهي أن إخفاءها خير من إظهارها، إذا أعطيت للفقير.

فأما إذا صرفت في مشروع خيري، لم يكن في الآية، ما يدل على فضيلة إخفائها، بل هنا قواعد الشرع، تدل على مراعاة المصلحة، فزبما كان الإظهار خيراً، لحصول الأمانة والافتقار، وتنشيط النفوس على أعمال الخير.

وقوله: ﴿ويكفر عنكم سيئاتكم﴾ في هذا: أن الصدقات يجتمع فيها الأمران:

حصول الخير، وهو: كثرة الحسنات والشواب والأجر، ودفع الشر والبلاء الدنيوي والأخروي، بتكفير السيئات.

﴿والله بما تعملون خبير﴾، فيجازي كلاً بعمله، بحسب حكمته.

﴿٢٧٢﴾ «ليس عليك هدام ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلا أنفسكم وما تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقون من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون» أي: إنما عليك - أيها الرسول - البلاغ، وحث الناس على الخير، وزجرهم عن الشر، وأما الهداية، فيبد الله تعالى.

ويخبرهم عن المؤمنين حقاً، أنهم لا ينفقون إلا لطلب مرضاهم، واحساب ثوابه، لأن إيمانهم يدعوهم إلى ذلك، فهذا خير وتركية للمؤمنين،

ويتضمن التذكير لهم بالإخلاص. وكرر علمه - تعالى - بنفقاتهم، لإعلامهم أنه لا يضيع عنده مثقال ذرة: ﴿وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾.

﴿٢٧٣-٢٧٤﴾ «للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم» الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون يعني أنه ينبغي أن تتحروا بصدقاتكم الفقراء، الذين حبسوا أنفسهم في سبيل الله، وعلى طاعته، وليس لهم إرادة في الاكتساب، أو ليس لهم قدرة عليه، وهم يتعففون، إذا رأهم الجاهل ظن أنهم أغنياء ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾، فهم لا يسألون بالكلية، وإن سألوا اضطراباً، لم يلحقوا في السؤال.

فهذا الصنف من الفقراء، أفضل ما وضعت فيهم النفقات لدفع حاجتهم، وإعانة لهم على مقصدهم وطريق الخير، وشكراً لهم على ما اتصفوا به من الصبر، والنظر إلى الخالق، لا إلى الخلق.

﴿٢٧٤﴾ ومع ذلك، فالإتفاق في طرق الإحسان وعلى المحابيح حيثما كانوا، فإنه خير وأجر، وثواب عند الله، ولهذا قال تعالى: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

فإن الله يظلهم بظله يوم لا ظل إلا ظله، وإن الله ينيلهم الخيرات ويدفع عنهم الأحزان والمخاوف والكربات.

وقوله: ﴿فلهم أجرهم عند ربهم﴾، أي: كل أحد منهم بحسب حاله.

وتخصيص ذلك، بأنه عند ربهم، يدل على شرف هذه الحال، ووقعها في الموقع الأكبر، كما في الحديث الصحيح: «إن العبد ليتصدق بالتمرة من كسب طيب فيقبلها الجبار بيده، فيريها لأحدكم كما يريي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل العظيم».

﴿٢٧٥-٢٨١﴾ «الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما

البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» يمحى الله الربا ويبري الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون * يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فذنوا بخرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون * وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون * واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون * لما ذكر الله حالة المنفقين وما لهم من الله، من الخيرات، وما يكفر عنهم، من الذنوب والخطيئات، ذكر الظالمين أهل الربا والمعاملات الخبيثة، وأخبر أنهم يجازون بحسب أعمالهم، فكما كانوا في الدنيا، في طلب المكاسب الخبيثة كالمجانين، عوقبوا في البرزخ والقيامة، أنهم لا يقومون من قبرهم، إلى يوم بعثهم ونشورهم. ﴿إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾، أي: من الجنون والصرع.

وذلك عقوبة، وخزي وفضيحة لهم، وجزاء لهم على مراتبهم ومجاهرتهم بقولهم: ﴿إنما البيع مثل الربا﴾، فجمعوا - بجزائهم - بين ما أحل الله، وبين ما حرم الله، واستباحوا بذلك الربا.

ثم عرض تعالى العقوبة على المرابين وغيرهم، فقال: ﴿فمن جاءه موعظة من ربه﴾، بيان مقرون به الوعد والوعيد.

﴿فانتهى﴾ عما كان يتعاطاه من الربا ﴿فله ما سلف﴾ مما تجرأ عليه وتاب منه.

﴿وأمره إلى الله﴾ فيما يستقبل من زمانه، فإن استمر على توبته، فإله لا يضيع أجر المحسنين.

﴿ومن عاد﴾ بعد بيان الله وتذكيره وتوعده لآكل الربا ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ في هذا أن الربا موجب لدخول النار والخلود فيها، وذلك لشناعته، ما لم يمنع من الخلود مانع الإيمان.

عليهم * وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة ومن يكتنمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم»

احتوت هاتان الآيتان، على إرشاد الباري عباده في معاملاتهم إلى حفظ حقوقهم بالطرق النافعة والإصلاحات التي لا يقتصر العقلاء أعلى ولا أكمل منها، فإن فيها فوائد كثيرة.

منها: جواز المعاملات في الديون، سواء كانت ديون سلم أو شراء مؤجلاً ثمته، فكله جائز؛ لأن الله أخبر به عن المؤمنين، وما أخبر به عن المؤمنين، فإنه من مقتضيات الإيمان وقد أقرهم عليه الملك الديان.

ومنها: وجوب تسمية الأجل في جميع المعاملات وخلول الإجازات. ومنها: أنه إذا كان الأجل مجهولاً، فإنه لا يحل، لأنه غرر وخطر، فيدخل في الميسر.

ومنها: أمره تعالى بكتابة الديون. وهذا الأمر قد يجب، إذا وجب حفظ الحق، كالذي للعبد عليه ولاية، كأموال اليتامى، والأرقال، والوكلاء، والأمناء، وقد يقارب الوجوب، كما إذا كان الحق متمحضاً للعبد، فقد يقوى الوجوب وقد يقوى الاستحباب، بحسب الأحوال والمقتضية لذلك.

وعلى كل حال، فالكتابة من أعظم ما تحفظ بها هذه المعاملات المؤجلة، لكثرة النسيان، ولوقوع المغالطات، وللاحتراز من الخوة الذين لا يخشون الله تعالى. ومنها: أمره تعالى للكاتب أن يكتب بين المتعاملين بالعدل، فلا يخيل مع أحدهما لقرابة ولا غيرها، ولا على أحدهما لعداوة ونحوها.

ومنها: أن الكتابة بين المتعاملين من أفضل الأعمال، ومن الإحسان إليهما، وفيها حفظ حقوقهما، وبراءة ذمهما كما أمره الله بذلك، فليحسب الكاتب بين الناس هذه الأمور، ليحظى بثوابها.

ومنها: أن الكاتب لا بد أن يكون عارفاً بالعدل، معروفاً بالعدل، لأنه إذا لم يكن عارفاً بالعدل لم يتمكن منه، وإذا لم يكن معترفاً عدلاً عند الناس رضى، لم تكن كتابته معتبرة، ولا حاصلاً بها المقصود، الذي هو حفظ الحقوق.

الناس بأخذ الربا «ولا تظلمون» ببخسكم رؤوس أموالكم.

فكل من تاب من الربا، فإن كانت معاملاته سائلة، قلته ما سلف، وأمره منظور فيه، وإن كانت معاملاته موجودة، وجب عليه أن يقتصر على رأس ماله، فإن أخذ زيادة، فقد تجرأ على الربا.

وفي هذه الآية، بيان لحكمة الربا، وأنه يتضمن الظلم للمحتاجين بأخذ الزيادة، وتضاعف الربا عليهم، وهو واجب إنظارهم.

«٢٨٠» ولهذا قال: «وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة»، أي: وإن كان الذي عليه الدين معسراً، لا يقدر على الوفاء، وجب على غريمه أن ينظرة إلى ميسرة.

وهو يجب عليه إذا حصل له وفاء بأي طريق مباح، أن يوفي ما عليه.

وإن تصدق عليه غريمه - بإسقاط الدين كله أو بعضه - فهو خير له، ويهون على الغد، التزام الأمور الشرعية، واجتناب المعاملات الربوية، والإحسان إلى المعسرين، علمه بأن له يوماً يرجع فيه إلى الله، ويوفيه عمله، ولا يظلمه مثقال ذرة، كما ختم هذه الآية بقوله:

«٢٨١» «واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله، ثم توفى كل نفس ما كسبت، وهم لا يظلمون».

«٢٨٢-٢٨٣» ثم قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إذا تدانيتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يخس منه شيئاً فإن كان الذي عليه الحق سقيماً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونوا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تساموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجل ذلك أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء

وهذا من جملة الأحكام التي تتوقف على وجود شروطها، وانتفاء موانعها، وليس فيها حجة للخوارج، تغيرها من آيات الوعيد.

فالواجب أن تصدق جميع نصوص الكتاب والسنة، فيؤمن العبد بما تواترت به النصوص، من خروج من في قلبه أدنى مثقال حبة خردل من الإيمان، من النار. ومن استحقات هذه الموبيقات لدخول النار، إن لم يتب منها.

«٢٧٦» ثم أخبر تعالى أنه يمحى مكاسب المرابين، ويربي صدقات المنفقين، عكس ما يتبادر لأذهان كثير من الخلق، أن الإنفاق ينقص المال وأن الربا يزيد، فإن مادة الرزق وحصول ثمراته من الله تعالى، وما عند الله لا ينال إلا بطاعته وامتنال أمره.

فالمتجرىء على الربا، يعاقبه بنقص مقصوده، وهذا مشاهد بالتجربة، «ومن أصدق من الله قيلاً».

«والله لا يحب كل كفار أثيم»، وهو الذي كفر نعمة الله، وجحد مئة ربه، وأثم بإصراره على معاصيه.

ومفهوم الآية، أن الله يحب من كان شكوراً على النعماء، ثانياً من المآثم والذنوب.

«٢٧٧» ثم أدخل هذه الآية بين آيات الربا، وهي قوله: «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة»، الآية، لبيان أن أكبر الأسباب لاجتناب ما حرم الله من المكاسب الربوية تكميل الإيمان وحقوقه، خصوصاً إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وإن الزكاة إحسان إلى الخلق، ينافي تعاطي الربا، الذي هو ظلم لهم، وإساءة عليهم.

«٢٧٨» ثم وجه الخطاب للمؤمنين، وأمرهم أن يتقوه، ويدروا ما بقي من معاملات الربا، التي كانوا يتعاطونها قبل ذلك، وأنهم إن لم يفعلوا ذلك، فإنهم محاربون لله ورسوله، وهذا من أعظم ما يدل على شناعة الربا، حيث جعل المصّر عليه، من حرباً لله ورسوله.

«٢٧٩» ثم قال: «وإن تبتم» يعني من المعاملات الربوية.

«فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون»

للأداء، وأن القيام بالشهادة من أفضل الأعمال الصالحة، كما أمر الله بها، وأخبر عن نفعها ومصلحتها.

ومنها: أنه لا يحل الإضرار بالكاتب، ولا بالشهيد، بأن يدعى في وقت أو حالة، تضرهما.

وكما أنه نهى لأهل الحقوق والمعاملين، وأن يضار الشهود والكاتب، فإنه أيضاً نهى للكاتب والشهيد، أن يضار المتعاملين أو أحدهما.

وفي هذا أيضاً أن الشاهد والكاتب - إذا حصل عليهما ضرر في الكتابة والشهادة - أنه يسقط عنهما الوجوب.

وفيها التنبيه على أن جميع المحسنين الفاعلين للمعروف، لا يحل إضرارهم، وتحميلهم ما لا يطيقون، ف «هل جزء الإحسان إلا الإحسان؟»

وكذلك على من أحسن وفعل معروفاً، أن يتمم إحسانه بترك الإضرار القولي والفعلية بمن أوقع به المعروف، فإن الإحسان لا يتم إلا بذلك.

ومنها: أنه لا يجوز أخذ الأجرة على الكتابة والشهادة، حيث وجبت، لأنه حق أوجه الله على الكاتب والشهيد، ولأنه من مضارة المتعاملين.

ومنها: التنبيه على المصالح والفوائد المترتبة على العمل بهذه الإرشادات الجليلة، وأن فيها حفظ الحقوق والعدل، وقطع النزاع والسلامة من النسيان والذهول، ولهذا قال: «ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا»، وهذه مصالح ضرورية للعباد.

ومنها: أن تعلم الكتابة من الأمور الدينية، لأنها وسيلة إلى حفظ الدين والدنيا وسبب للإحسان.

ومنها: أن من خصه الله بنعمة من النعم، يحتاج الناس إليها، فمن تمام شكر هذه النعمة، أن يعود بها على عباد الله، وأن يقضي بها حاجتهم، لتعليل الله النهي عن الامتناع عن الكتابة، بتذكير الكاتب بقوله: «كما علمه الله»، ومع هذا: «فمن كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته».

ومنها: أن الإضرار بالشهود والكاتب، فسوق بالإنسان، فإن السوق هو الخروج عن طاعة الله إلى معصيته، وهو يزيد وينقص، ويتبعض، ولهذا لم يقل: «فأنتم فساق» أو «فاسقون»، بل قال: «فإنه

ومنها: الإرشاد إلى الإشهاد في البيع، فإن كانت في المديونات، فحكمها حكم الكتابة كما تقدم، لأن الكتابة هي كتابة الشهادة، وإن كان البيع بيعاً حاضراً، فينبغي الإشهاد فيه، ولا حرج فيه بترك الكتابة، لكثرة وحصول المشقة فيه.

ومنها: الإرشاد إلى إشهاد رجلين عدلين، فإن لم يمكن، أو تعذر، أو تعسر، فرجل وامرأتان، وذلك شامل لجميع المعاملات، بيوع الإدارة، وبيع الدين، وتوابعها من الشروط والوثائق وغيرها.

وإذا قيل: قد ثبت أنه ﷺ قضى بالشاهد الواحد مع اليمين، والآية الكريمة ليس فيها إلا شهادة رجلين، أو رجل وامرأتين، قيل: الآية الكريمة، فيها إرشاد الباري عباده إلى حفظ حقوقهم، ولهذا أتى فيها بأكمل الطرق، وأقواها، وليس فيها ما يتأني ما ذكره النبي ﷺ من الحكم بالشاهد واليمين.

فباب حفظ الحقوق في ابتداء الأمر، يرشد فيه العبد إلى الاحتراز والتحفظ التام، وباب الحكم بين المتنازعين، ينظر فيه إلى المرجحات والبيّنات، بحسب حالها.

ومنها: أن شهادة المرأتين، قائمة مقام الرجل الواحد، في الحقوق الدينية، وأما في الأمور الدينية - كالرواية والفتوى - فإن المرأة فيه، تقوم مقام الرجل، والفرق ظاهر بين البابين.

ومنها: الإرشاد إلى الحكمة في كون شهادة المرأتين عن شهادة الرجل، وأنه لضعف ذاكرة المرأة غالباً، وقوة خافضة الرجل.

ومنها: أن الشاهد لو نسي شهادته، فذكره الشاهد الآخر، فذكر أنه لا يضّر ذلك النسيان، إذا زال بالتذكير لقوله: «أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى»، ومن باب أولى، إذا نسي الشاهد، لم ذكر من دون تذكير، فإن الشهادة مدارها على العلم واليقين.

ومنها: أن الشهادة لا بد أن تكون عن علم ويقين، لا عن شك، فمضى صار عند الشاهد ريب في شهادته - ولو غلب على ظنه - لم يحل له أن يشهد إلا بما يعلم.

ومنها: أن الشاهد ليس له أن يمتنع، إذا دعي للشهادة، سواء دعي للتحمل أو

ومنها: أن من تمام الكتابة والعدل فيها، أن يحسن الكاتب الإنشاء، والألفاظ المعتبرة في كل معاملة بحسبها، وللعرف في هذا المقام، اعتبار عظيم.

ومنها: أن الكتابة من نعم الله على العباد التي لا تستقيم أمورهم الدينية ولا الدنيوية إلا بها، وأن من علمه الله الكتابة، فقد تفضل عليه بفضل عظيم، فمن تمام شكره لنعمة الله تعالى، أن يقضي بكتابه حاجات العباد، ولا يمتنع من الكتابة، ولهذا قال: «ولا ياب كاتب أن يكتب كما علمه الله».

ومنها: أن الذي يكتبه الكاتب، هو اعتراف من عليه الحق، إذا كان يحسن التعبير عن الحق الذي عليه، فإن كان لا يحسن ذلك - لصغره، أو سفيه، أو جنونه، أو خرسه، أو عدم استطاعته - أملى عنه وليه، وقام وليه في ذلك مقامه. ومنها: أن الاعتراف من أعظم الطرق، التي تثبت بها الحقوق، حيث أمر الله تعالى أن يكتب الكاتب، ما أملى عليه من عليه الحق.

ومنها: ثبوت الولاية على القاصرين، من الصغار والمجانين، والسفهاء ونحوهم.

ومنها: أن الولي يقوم مقام موليه، في جميع اعترافاته المتعلقة بحقوقه.

ومنها: أن من أمنتته في معاملة، وفوّضته فيها، فقله في ذلك مقبول، وهو نائب متباين، لأنه إذا كان الولي على القاصرين ينوب متباينهم، فالذي وليته باختيارك وفوضت إليه الأمر، أولى بالقبول، واعتبار قوله وتقديمه على قولك عند الاختلاف.

ومنها: أنه يجب على الذي عليه الحق - إذا أملى على الكاتب - أن يتقي الله، ولا يبخص الحق الذي عليه، فلا ينقصه في قدره، ولا في وصفه، ولا في شرط من شروطه، أو قيد من قيوده، بل عليه أن يعترف بكل ما عليه من متعلقات الحق، كما يجب ذلك إذا كان الحق على غيره له، فمن لم يفعل ذلك، فهو من المطففين الباطنين.

ومنها: وجوب الاعتراف بالحقوق الجليلة والحقوق الخفية، وأن ذلك من أعظم خصال التقوى، كما أن ترك الاعتراف بها من نواقض التقوى ونواقضها.

فسوق بكم﴾ فبقدر خروج العبد عن طاعة ربه، فإنه يحصل به من الفسوق، بحسب ذلك.

واستدل بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ﴾ أن تقوى الله، وسيلة إلى حصول العلم، وأوضح من هذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَتَّقُوا اللَّهَ يجعل لكم فرقاناً﴾، أي: علماً تفرقون به بين الحقائق، والحق والباطل.

ومنها: أنه كما أنه من العلم النافع، تعليم الأمور الدينية المتعلقة بالعبادات، فمته أيضاً، تعليم الأمور الدنيوية المتعلقة بالمعاملات، فإن الله تعالى، حفظ على العباد أمور دينهم ودنياهم، وكتابه العظيم فيه تبيان كل شيء.

﴿٢٨٣﴾ ومنها: مشروعية الوثيقة بالحق، وهي الرهن والضمانات، التي تكفل للعبد حصوله حقه، سواء عامل براً أو فاجراً، أميناً أو خائناً، فكم في الوثائق من حفظ حقوق، وإنقطاع منازعات.

ومنها: أن تمام الوثيقة في الرهن، أن يكون مقبوضاً، ولا يدل ذلك على أنه لا يصح الرهن إلا بالقبض، بل التقييد بكون الرهن مقبوضاً، يدل على أنه قد يكون مقبوضاً، تحصل به الثقة التامة، وقد لا يكون مقبوضاً، فيكون ناقصاً.

ومنها: أنه يستدل بقوله: ﴿فرهان مقبوضة﴾ أنه إذا اختلف الراهن والمרתن في مقدار الدين الذي به الرهن، أن القول قول المרתن، صاحب الحق، لأن الله جعل الرهن وثيقة به، فلولا أنه يقل قوله في ذلك، لم تحصل به الوثيقة لعدم الكتابة والشهود.

ومنها: أنه يجوز التعامل بغير وثيقة، ولا شهود، لقوله: ﴿فإن آمن بعضكم بعضاً، فليؤد الذي اتّمن أمانته﴾، ولكن في هذه الحال يحتاج إلى التقوى والخوف من الله، وإلا فصاحب الحق مخاطر في حقه، ولهذا أمر الله في هذه الحال، من عليه الحق، أن يتقي الله ويؤدي أمانته.

ومنها: أن من اتّمنه معاملته، فقد عمل معه معروفاً عظيماً، ورضي بدينه وأمانته، فيتأكد على من عليه الحق، أداء الأمانة من الجهتين: أداء لحق الله، وامثالاً لأمره، ووفاء بحق صاحبه، الذي رضي بأمانته، ووثق به.

ومنها: تحريم كتم الشهادة، وأن كاتمها قد أثم قلبه، الذي هو ملك الأعضاء، وذلك لأن كتمها، كالشهادة بالباطل والزور، فيها ضياع الحقوق، وفساد المعاملات، والإثم المتكرر في حقه، وحق من عليه الحق.

وأما تقييد الرهن بالسفر - مع أنه يجوز حضراً وسفراً - فللحاجة إليه لعدم الكاتب والشهيد.

وختم الآية بأنه ﴿عليم﴾ بكل ما يعمله العباد، كالترغيب لهم في المعاملات الحسنة، والترهيب من المعاملات السيئة.

﴿٢٨٤﴾ ﴿لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ يخبر تعالى، بمحوم ملكه لأهل السماء والأرض، وإحاطة علمه بما أبداه العباد، وما أخفوه في أنفسهم، وأنه سيحاسبهم به، فيغفر لمن يشاء، وهو المنيب إلى ربه، الأبواب إليه ﴿إنه كان للآوابين غفوراً﴾.

ويعذب من يشاء، وهو المصّر على المعاصي، في باطنه وظاهره.

وهذه الآية لا تنافي الأحاديث الواردة في العفو، عما حدث به العبد نفسه، ما لم يعمل أو يتكلم، فتلك الخطرات التي تحدث بها النفوس، التي لا يتصف بها العبد ولا يصمم عليها، وأما هنا فهي العزائم المصممة، والأوصاف الثابتة في النفوس، أوصاف الخير، وأوصاف الشر، ولهذا قال: ﴿ما في أنفسكم﴾، أي: استقر فيها وثبت، من العزائم والأوصاف.

وأخبر أنه ﴿على كل شيء قدير﴾، فمن تمام قدرته، محاسبة الخلائق، وإيصال ما يستحقونه من الثواب والعقاب.

﴿٢٨٥ - ٢٨٦﴾ ﴿امن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أخذ من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرنا ربنا وإليك المصير﴾ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ ثبت عنه ﷺ

أن من قرأ هاتين الآيتين في ليلته كفتهما، أي: من جميع الشرور، وذلك لما احتوتا عليه من المعاني الجليلة، فإن الله أمر في أول هذه السورة الناس بالإيمان، بجميع أصوله في قوله: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا﴾، الآية.

وأخبر في هذه الآية، أن الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين، آمنوا بهذه الأصول العظيمة، وجميع الرسل، وجميع الكتب، ولم يصنعوا صنع من آمن ببعض، وكفر ببعض، كحالة المنحرفين من أهل الأديان المنحرفة.

وفي قرآن المؤمنين بالرسول ﷺ، والإخبار عنهم جميعاً بخبر واحد، شرف عظيم للمؤمنين.

وفيه أنه ﷺ مشارك للأمة في توجه الخطاب الشرعي له، وقيامه التام به، وأنه فاق المؤمنين، بل فاق جميع المرسلين في القيام بالإيمان وحقوقه.

وقوله: ﴿وقالوا سمعنا وأطعنا﴾، هذا التزام من المؤمنين، عام لجميع ما جاء به النبي ﷺ من الكتاب والسنة، وأنهم سمعوه سماع قبول وإذعان وانقياد، ومضمون ذلك تضرعهم إلى الله في طلب الإعانة على القيام به، وأن الله يغفر لهم ما قصروا فيه من الواجبات، وما ارتكبه من المحرمات، وكذلك تضرعوا إلى الله في هذه الأدعية النافعة، والله تعالى قد أجاب دعاءهم على لسان نبيه ﷺ فقال: «قد فعلت».

فهذه الدعوات مقبولة من مجموع المؤمنين قطعاً، ومن أفرادهم، إذا لم يمنع من ذلك مانع في الأفراد، وذلك أن الله رفع عنهم المؤاخاة في الخطأ والنسيان، وأن الله سهل عليهم شرعه غاية التسهيل، ولم يحميلهم من المشاق، والآصار، والأغلال، ما حمله على من قبلهم، ولم يحميلهم فوق طاقتهم، وقد غفر لهم ورحمهم، ونصرهم على القوم الكافرين.

فتسأل الله تعالى، بأسمائه وصفاته، وبما من به علينا من التزام دينه، أن يحقق لنا ذلك، وأن ينجز لنا ما وعدنا على لسان نبيه، وأن يصلح أحوال المؤمنين.

ويؤخذ من هنا قاعدة التيسير، ونفي الحرج في أمور الدين كلها.

وقاعدة العفو عن النسيان والخطأ، في

غاية الصراحة والبيان، يردون إليها المشتبه، الذي تحصل فيه الحيرة لنقص العلم، ونقص المعرفة.

فيردون المتشابه إلى المحكم، فيعود كله محكماً، ويقولون: «أما به كل من عند ربنا وما يذكر» للأمور النافعة، والعلوم الصائبة «إلا أولوا الألباب»، أي: أهل العقول الرزينة.

ففي هذا دليل على أن هذا، من غلامه أولي الألباب، وأن اتباع المتشابه، من أوصاف أهل الآراء السقيمة، والعقول الواهية، والقصود السيئة.

وقوله: «وما يعلم تأويله إلا الله»: إن أريد بالتأويل معرفة عاقبة الأمور، وما تنتهي وتؤول إليه، تعين الوقوف على «إلا الله» حيث هو تعالى المتفرد بالتأويل بهذا المعنى، وإن أريد بالتأويل معنى التفسير، ومعرفة معنى الكلام، كان العطف أولى، فيكون هذا مدحاً للراشخين في العلم، أنهم يعلمون كيف ينزلون نصوص الكتاب والسنة، محكمها ومتشابهها.

ولما كان المقام مقام انقسام إلى متحررين ومستقيمين، دعوا الله تعالى أن يثبتهم على الإيمان، فقالوا: «ربنا لا تزغ قلوبنا»، أي: لا تملأها عن الحق إلى الباطل.

«بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة»، تصلح بها أحوالنا «إنيك أنت الوهاب»، أي: كثير الفضل والهبات.

وذلك أن الله تعالى ذكر عن الراشخين، أنهم يسألونه أن لا يزغ قلوبهم، بعد إذ هداهم، وقد أخبر في آيات آخر الأسباب التي بها تزغ قلوب أهل الانحراف، وأن ذلك بسبب كسبهم، كقوله: «فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم»، «ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم».

«ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة».

فالمعبد إذا تولى عن ربه، ووالى عدوه، ورأى الحق، فصدف عنه، ورأى الباطل فاختاره، ولاه الله ما تولى لنفسه، وأزاغ قلبه، عقوبة له على زغعه، وما ظلمه الله، ولكنه ظلم نفسه، فلا يلم إلا نفسه الأثارة بالسوء، والله أعلم.

«ربنا إنيك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد» هذا

«ومن تمام قيوميته تعالى، أن علمه محيط بالخلقات» لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء» حتى ما في بطون الحوامل.

«٦» فهو «الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء» من ذكر وأنثى، وكامل الخلق وناقصه، متنقلين في أطوار خلقته وبديع حكمته، فمن هذا شأنه مع عباده، واعتناؤه العظيم بأحوالهم، من حين أنشأهم إلى منتهى أمورهم لا مشارك له في ذلك - فيتعين أنه لا يستحق العبادة إلا هو.

«لا إله إلا هو العزيز» الذي قهر الخلائق بقوته، واعتز عن أن يوصف بنقص أو ينعت بدم «الحكيم» في خلقه وشرعه.

«٧ - ٨» «هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون أماناً به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب» ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب» يخبر تعالى عن عظمتهم، وكمال قيوميته، أنه هو الذي تفرد بإنزال هذا الكتاب العظيم، الذي لم يوجد - ولن يوجد - له نظير أو مقارب في هدايته، وبلاغته وإعجازه، وإصلاحه للخلق، وأن هذا الكتاب يحتوي على المحكم التواضع المعاني البين، الذي لا يشتبه بغيره، ومنه آيات متشابهات، تحتمل بعض المعاني، ولا يتعين منها واحد من الاحتمالين بمجردا، حتى تضم إلى المحكم.

فالذين في قلوبهم مرض وزيف، وانحراف، لسوء قصدهم، يتبعون المتشابه منه، فيستدلون به على مقالاتهم الباطلة، وآرائهم الزائفة، طلباً للفتنة، وتحريفاً لكتابه، وتأويلاً له على مشاربهم ومذاهبهم ليضلوا ويضلوا.

وأما أهل العلم والراسخون فيه، الذين وصل العلم واليقين إلى أفئدتهم، فأثمر لهم العمل والمعارف - فيعلمون أن القرآن كله من عند الله، وأنه كله حق، محكمه ومتشابهه، وأن الحق لا يتناقض ولا يختلف.

فلعلمهم أن المحكمات، معناها في

العبادات، وفي حقوق الله تعالى. وكذلك في حقوق الخلق من جهة رفع المأثم، وتوجه النعم.

وأما وجوب ضمان المتلفات، خطأ أو نسياناً، في النفوس والأموال، فإنه مرتب على الإتيان بغير حق، وذلك شامل لحالة الخطأ والنسيان، والعمد.

تم تفسير سورة البقرة، والله الحمد والثناء، وصلى الله على محمد وسلم.

تفسير سورة آل عمران وهي مدنية

«١ - ٦» «بسم الله الرحمن الرحيم ألم الله لا إله إلا هو الحي القيوم» نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام» إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء» هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم» «آلم» من الحروف التي لا يعلم معناها إلا الله.

«٢ - ٣» فأخبر تعالى أنه «الحي» كامل الحياة، «القيوم» القائم بنفسه، المقيم لأحوال خلقه، وقد أقام أحوالهم الدينية، وأحوالهم الدنيوية والقدرية، فأنزل على رسوله محمد ﷺ الكتاب بالحق، الذي لا ريب فيه، وهو مشتمل على الحق «مصدقاً لما بين يديه» من الكتب، أي: شهد بما شهدت به، ووافقها، وصدق من جاء بها من المرسلين.

وكذلك «أنزل التوراة والإنجيل».

«٤» «من قبل» هذا الكتاب «هدى للناس».

وأكمل الرسالة وختمها بمحمد ﷺ، وكتابه العظيم الذي هدى الله به الخلق، من الضلالات، واستنقذهم به من الجهالات، وفرق به بين الحق والباطل، والسعادة والشقاوة، والصراط المستقيم، وطرق الجحيم، فالذين آمنوا به واهتدوا، حصل لهم به الخير الكثير، والشواب العاجل والآجل.

«وإن الذين كفروا بآيات الله» التي بينها في كتابه وعلى لسان رسوله «لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام» ممن عصاه.

الراستخون في العلم، أهل العلم. والإيمان، يتوسلون إلى ربهم بإيمانهم، لمغفرة ذنوبهم، ووقايتهم عذاب النار، وهذا من الوسائل التي يحبها الله، أن يتوسل العبد إلى ربه، بما من به عليه من الإيمان والأعمال الصالحة، إلى تكميل نعم الله عليه، بحصول الثواب الكامل، واندفاع العقاب.

﴿١٧﴾ ثم وصفهم بأجمل الصفات: بالصبر الذي هو حبس النفوس على ما يحبه الله، طلباً لمرضاته، يصبرون على طاعة الله، ويصبرون عن معاصيه، ويصبرون على أقداره المؤلمة.

وبالصدق بالأقوال والأحوال، وهو استواء الظاهر والباطن، وصدق العزيمة على سلوك الصراط المستقيم، وبالقنوت الذي هو دوام الطاعة، مع مصاحبة الخشوع والخضوع، وبالنفقات في سبيل الخيرات، وعلى الفقراء، وأهل الحاجات، وبالإستغفار، خصوصاً وقت الأسحار، فإنهم مدوا الصلاة إلى وقت السحر، فجلسوا يستغفرون الله تعالى.

﴿١٨﴾ «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم» هذه أجمل الشهادات الصادرة من الملك العظيم، ومن الملائكة، وأهل العلم، على أجل مشهود عليه، وهو توحيد الله، وقيامه بالقسط، وذلك يتضمن الشهادة على جميع الشرع، وجميع أحكام الجزاء.

فإن الشرع والدين، أصله وقاعدته، توحيد الله وإفراده بالعبودية، والاعتراف بانفراده، بصفات العظمة والكبرياء، والمجد، والعز، والقدرة، والجلال، وتنوعت الجود، والبر والرحمة، والإحسان، والجمال، وبكمال المطلق الذي لا يحصي أحد من الخلق، أن يحيطوا بشيء منه، أو يبلغوه، أو يصلوا إلى الثناء عليه، والعبادات الشرعية، والمعاملات وتوابعها، والأمر والنهي، كله عدل وقسط، لا ظلم فيه ولا جور، بوجه من الوجوه، بل هو في غاية الحكمة والإحكام، والجزاء على الأعمال الصالحة والسنية، كله قسط وعدل.

«قل أي شيء أكبر شهادة؟ قل الله، فتوحيد الله، ودينه، وجزاؤه، قد ثبت

بحسب الأنساب الحسنة - الأمر بالعكس. ﴿١٤ - ١٥﴾ «وَرَبَّنَا لِنَاسٍ حَبِيبُونَ» الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب * قل أوتيتكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار

خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد» أخبر تعالى في هاتين الآيتين، عن حالة الناس في إيتار الدنيا على الآخرة، وبين التفاوت العظيم، والفرق الجسيم بين الدارين، فأخبر أن الناس رُتبت لهم هذه الأمور، فرمقوها بالأبصار، واستحلوها بالقلوب، وعكفت على لذاتها النفوس، كل طائفة من الناس تميل إلى نوع من هذه الأنواع، قد جعلوها هي أكبر همهم، ومبلغ علمهم، وهي - مع هذا - متاع قليل، منقض في مدة يسيرة.

فهذا «متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب».

﴿١٥﴾ ثم أخبر عن ذلك بأن المتقين لله، القائمين بعبوديته، لهم خير من هذه اللذات، فلهم أصناف الخيرات، والنعيم المقيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولهم رضوان الله الذي هو أكبر من كل شيء.

ولهم الأزواج المطهرة، من كل أفة ونقص، جميلات الأخلاق، كمالات الخلائق، لأن الشقي يستلزم ضده، فتطهيرها من الآفات، مستلزم لوضفها بالكمالات.

«والله بصير بالعباد» فيسر كل منهم لما خلق له، أما أهل السعادة، فييسرهم للعمل لهذه الدار الباقية، ويأخذون من هذه الحياة الدنيا، ما يعينهم على عبادة الله وطاعته، وأما أهل الشقاوة والإعراض، فيقيضهم لعمل أهل الشقاوة، ويرضون بالحياة الدنيا، ويطمثون بها، ويتخذونها قراراً.

﴿١٦ - ١٧﴾ «الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْنَا فَأَغْر لنا ذُنُوبَنَا وَنَنَا عَذَابُ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ * أَيُّ هَؤُلَاءِ

من تتمتع كلام الراستخين في العلم، وهو يتضمن الإقرار بالبعث والجزاء، واليقين التام، وأن الله لا بد أن يوقع ما وعده به، وذلك يستلزم موجه ومقتضاه، من العمل والاستعداد لذلك اليوم، فإن الإيمان بالبعث والجزاء، أصل صلاح القلوب، وأصل الرغبة في الخير، والرغبة من الشر، للذين هما أساس الخيرات.

﴿١٧ - ١٨﴾ «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ * كَذَابُ آلِ فِرْعَوْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ * لَمَّا ذَكَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ذَكَرَ أَنْ جَمِيعَ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، وَكَذَّبَ رَسُولَ اللَّهِ، لَا بَدَّ أَنْ يَدْخُلُوا النَّارَ وَيَصْلُوهَا، وَأَنْ أَمْوَالَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ، لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ شَيْئاً مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ سَيَجْرِي عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَخْذَاتِ وَالْعُقُوبَاتِ، مَا جَرَى عَلَى فِرْعَوْنَ وَسَائِرِ الْأُمَمِ الْمَكْذِبَةِ بِآيَاتِ اللَّهِ * فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ * وَعَجَّلَ لَهُمُ الْعُقُوبَاتِ الدُّنْيَوِيَّةَ، مُتَّصِلَةً بِالْعُقُوبَاتِ الْآخِرِيَّةِ.

«والله شديد العقاب»، فإياكم أن تستهينوا بعقابه، فيهن عليكم الإقامة على الكفر والتكذيب.

﴿١٢ - ١٣﴾ «قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلِبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فُتُتَيْهِمَا الثَّقَاتِ فُتَةٌ تَقَاتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصْرَهُ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ * وَهَذَا خَيْرٌ وَيُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ، وَتَخْوِيفٌ لِلْكَافِرِينَ، أَنَّهُمْ لَا يَدْرُونَ أَنَّهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَقَدْ وَقَعَ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ، فَغَلَبُوا غَلَبَةً لَمْ يَكُنْ لَهَا مِثْلٌ وَلَا نَظِيرٌ.

وجعل الله تعالى ما وقع في «بدر» من آياته الدالة على صدق رسوله، وأنه على الحق، وأعداءه على الباطل، حيث التقت فئتان، فئة المؤمنين لا يبلغون إلا ثلاث مئة وبضعة عشر رجلاً مع قلة عددهم، وفئة الكافرين، ينهزون الألف، مع استعدادهم التام في السلاح وغيره، فأيد الله المؤمنين بخصمه، فهزمهم بإذن الله، ففي هذا عبرة لأهل البصائر.

فلولا أن هذا هو الحق الذي إذا قابل الباطل أزهقه واضمحل الباطل لكان -

معدودة حدودها بحسب أهوائهم الفاسدة، كأن تدبير الملك راجع إليهم، حيث قالوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هَوًى أَوْ نَصَارَى﴾، ومن المعلوم أن هذه أمانتي باطلة، شرعاً وعقلاً.

والسبب الثاني: أنهم لما كذبوا بآيات الله وافتروا عليه، زين لهم الشيطان سوء عملهم، واغترروا بذلك، وترأى لهم أنه الحق، فعقوبة لهم على إعراضهم عن الحق، فهؤلاء كيف يكون حالهم - إذا جمعهم الله يوم القيامة، ووفى العاملين ما عملوا، وجرى عدل الله في عباده، فهناك لا تسأل عما يصلون إليه من العقاب، وما يفوتهم من الخير والثواب، وذلك بما كسبت أيديهم: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

﴿٢٦٦-٢٧﴾ ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يأمر تعالى نبيه ﷺ أصلاً، وغيره تبعاً - أن يقول عن ربه، معلناً بفرده بتصريف الأمور، وتدبير العالم العلوي والسفلي، واستحقاقه باختصاصه بالملك المطلق، والتصريف المحكم، وأنه يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء.

فليس الأمر بأمانتي أهل الكتاب، ولا غيرهم، بل الأمر أمر الله، والتدبير له، فليس له معارض في تدبيره، ولا معاون في تقديره، وأنه كما أنه المتصرف بمدولة الأيام بين الناس، فهو المتصرف بنفس الزمان.

﴿٢٧﴾ ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي: يدخل هذا على هذا، ويحل هذا محل هذا، ويزيد في هذا، ما ينقص من هذا، ليقيم بذلك مصالح خلقه.

ويخرج الحي من الميت، كما يخرج الزروع والأشجار المتنوعة من بذورها، والمؤمن من الكافر، والميت من الحي.

كما يخرج الحبوب والنوى، والزروع والأشجار، والبيضة من الطائر، فهو الذي

شافهوا النبي ﷺ بالمجادلة، وقامت عليهم الحجة، فعاندوها، أمره الله تعالى عند ذلك، أن يقول ويعلمن: أنه قد أسلم وجهه، أي: ظاهره وباطنه، لله، وأن من اتبعه كذلك، قد وافقوه على هذا الإذعان الخالص.

وأن يقول للناس كلهم، من أهل الكتاب، والأميين، أي: الذين ليس لهم كتاب، من العرب وغيرهم: إن أسلمتم فأنتم على الطريق المستقيم، والهدى والحق، وإن توليتم فحسابكم على الله، وأنا ليس علي إلا البلاغ، وقد أبلغتكم وأقمت عليكم الحجة.

﴿٢١-٢٢﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ يَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَيَكْتُمُونَ بَعْدَ ظَنِّهِمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ أي الذين جمعوا بين هذه الشرور: الكفر بآيات الله، وتكذيب رسل الله، والجنابة العظيمة على أعظم الخلق حقاً على الخلق وهم الرسل، وأئمة الهدى، الذين يأمرهم الناس بالقسط، الذي اتفقت عليه الأديان والعقول.

﴿٢٢﴾ ﴿فَهَؤُلَاءِ قَدْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، واستحقوا العذاب الأليم، وليس لهم ناصر من عذاب الله، ولا منقذ من عقوبته.

﴿٢٣-٢٥﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يَدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مَعْرُضُونَ﴾ ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون * فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون * أي: ألا تنظر وتعجب من هؤلاء الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، و يدعون إلى كتاب الله الذي يصدق ما أنزله على رسله.

﴿ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون﴾ عن اتباع الحق، فكانه قيل: أي داع دعاهم إلى هذا الإعراض، وهم أحق بالاتباع، وأعرفهم بحقيقة ما جاء به محمد ﷺ؟ فذكر لذلك سببين:

أمنهم، وشهادتهم الباطلة لأنفسهم بالنجاة، وأن النار لا تمسهم إلا أياماً

ثبوتاً لا ريب فيه، وهو أعظم الحقائق وأوضحها، وقد أقام الله على ذلك من البراهين، والأدلة ما لا يمكن إحصاؤه وعده.

وفي هذه الآية فضيلة العلم والعلماء؛ لأن الله خصهم بالذكر، من دون البشر، وقرن شهادتهم بشهادته، وشهادة ملائكته، وجعل شهادتهم من أكبر الأدلة والبراهين على توحيده ودينه وجزائه، وأنه يجب على المكلفين قبول هذه الشهادة العادلة الصادقة.

وفي ضمن ذلك: تعديلهم، وأن الخلق تبع لهم، وأنهم هم الأئمة المتبعون، وفي هذا من الفضل والشرف، وعلو المكانة، ما لا يقادر قدره.

﴿١٩﴾ ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يخبر تعالى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ﴾، أي: الدين الذي لا دين له سواه، ولا مقبول غيره، هو ﴿الإسلام﴾، وهو الانقياد لله وحده، ظاهراً وباطناً بما شرعه على السنة رسله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، فمن دان بغير دين الإسلام، فهو لم يدين الله حقيقة، لأنه لم يسلك الطريق الذي شرعه على السنة رسله.

ثم أخبر تعالى، أن أهل الكتاب يعلمون ذلك، وإنما اختلفوا، فابتغوا عنه عناداً وبغياً، وإلا فقد جاءهم العلم بالمقتضي لعدم الاختلاف، الموجب للزوم الدين الحقيقي.

ثم لما جاءهم محمد ﷺ عرفوه حق المعرفة، ولكن الحسد والبغى والكفر بآيات الله، هي التي صدتهم عن اتباع الحق.

﴿ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾، أي: فلينتظروا ذلك فإنه آت، وسيجزئهم الله بما كانوا يعملون.

﴿٢٠﴾ ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ لما بين أن الدين الحقيقي عنده الإسلام، وكان أهل الكتاب قد

يخرج المتضادات، بعضها من بعض، وقد انتقدت له جميع العناصر^(١).

وقوله ﴿بيدك الخير﴾، أي: الخير كله منك، ولا يأتي بالحسنات والخيرات إلا الله، وأما الشر، فإنه لا يضاف إلى الله تعالى، لا وصفاً، ولا اسماً، ولا فعلاً، ولكنه يدخل في مفعولاته، ويندرج في قضائه وقدره.

فالخير والشر، كله داخل في القضاء والقدرة، فلا يقع في ملكه إلا ما شاء، ولكن الشر لا يضاف إلى الله، فلا يقال: ﴿بيدك الخير والشر﴾، بل يقال: ﴿بيدك الخير﴾ كما قاله الله، وقاله رسوله.

وأما استدراك بعض المفسرين حيث قال: ﴿وكذلك الشر بيد الله﴾ فإنه وهم محض، ملحظهم، حيث ظنوا أن تخصيص الخير بالذكر، ينافي قضاءه وقدره العام، وجوابه ما فصلنا.

وقوله: ﴿وترزق ممن تشاء بغير حساب﴾، وقد ذكر الله في غير هذه الآية الأسباب التي يُنال بها رزقه كقوله: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾.

فعلى العباد أن لا يطلبوا الرزق، إلا من الله، ويسعوا فيه بالأسباب التي يسرها الله وأباحها.

﴿٢٨﴾ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير هذا نهي من الله، وتحذير للمؤمنين، أن يتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فإن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، والله وليهم.

﴿ومن يفعل ذلك﴾ التولي، ﴿فليس من الله في شيء﴾، أي: فهو بريء من الله، والله بريء منه، كقوله تعالى: ﴿ومن يتولهم منهم فإنه منهم﴾.

وقوله: ﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾، أي: إلا أن تخافوا على أنفسكم في إبداء العداوة للكافرين، فلکم - في هذه الحال - الرخصة في المسالمة والمهادنة، لا في التولي الذي هو محبة القلب، الذي

تتبعه النصرة.

﴿ويحذركم الله نفسه﴾، أي: فخافوه واخشوه، وقدموا خشيته على خشية الناس، فإنه هو الذي يتولى شؤون العباد، وقد أخذ بتواصيهم، وإليه يرجعون وسيصيرون إليه، فيجازي من قدم خوفه ورجاءه، على غيره بالشواب الجزيل، ويعاقب الكافرين، ومن تولاهم بالعذاب الويل.

﴿٢٩ - ٣٠﴾ ﴿قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض والله على كل شيء قدير﴾ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد يخبر تعالى بإحاطة علمه بما في الصدور، سواء أخفاه العباد، أو أبدوه، كما أن علمه محيط بكل شيء، في السماء والأرض، فلا تخفى عليه خافية.

ومع إحاطة علمه، فهو العظيم القدير على كل شيء، الذي لا يمتنع عن إرادته موجود.

﴿٣٠﴾ ولما ذكر لهم من عظمتهم وسعة أوصافه، ما يوجب للعباد أن يراقبوه في كل أحوالهم، ذكر لهم أيضاً، داعياً آخر إلى مراقبته وتقواه، وهو أنهم كلهم صابرون إليه، وأعمالهم - حينئذ - من خير وشر - محضرة.

فحينئذ يغطى أهل الخير، بما قدموا لأنفسهم، ويخسر أهل الشر إذا وجدوا ما عملوه محضراً ويودون أن بينهم وبينه أمداً بعيداً.

فيذا عرف العبد أنه ساع إلى ربه، وكادح في هذه الحياة، وأنه لا بد أن يلاقي ربه، ويلاقى سعيه، أوجب له أخذ الحذر، والتوقي من الأعمال التي توجب الفضيحة والعقوبة، والاستعداد بالأعمال الصالحة، التي توجب السعادة والمثوبة، ولهذا قال تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾، وذلك بما بيدي لكم من أوصاف عظمته، وكمال عذابه وشدة نكاله، ومع شدة عقابه، فإنه رؤوف رحيم.

ومن رافقه ورحمته، أنه خوف العباد،

وزجرهم عن الغي والفساد، كما قال تعالى - لما ذكر العقوبات -: ﴿ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون﴾، فرأفته ورحمته، سهلت لهم الطرق، التي ينالون بها الخيرات، ورأفته ورحمته، حذرتهم من الطرق التي تقضي بهم إلى المكروهات.

فنسأله تعالى أن يتمم علينا إحسانه بسلوك الصراط المستقيم، والسلامة من الطرق، التي تقضي بسالكها إلى الجحيم.

﴿٣١ - ٣٢﴾ ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم﴾ قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين هذه الآية هي الميزان، التي يعرف بها من أحب الله حقيقة، ومن ادعى ذلك دعوى مجردة، فعلمة محبة الله، اتباع محمد ﷺ، الذي جعل متابعتها وجميع ما يدعو إليه، طريقاً إلى منجته ورضوانه، فلا تنال محبة الله ورضوانه وثوابه، إلا بتصديق ما جاء به الرسول من الكتاب والسنة وامتنال أمرهما، واجتناب نهيهما.

فمن فعل ذلك، أحبه الله، وجازاه جزاء المحبين، وغفر له ذنوبه، وستر عليه عيبه، فكانه قيل: ومع ذلك، فما حقيقة اتباع الرسول وصفتهما؟

﴿٣٢﴾ فأجاب بقوله: ﴿قل أطيعوا الله والرسول﴾ بامتثال الأمر، واجتناب النهي، وتصديق الخير، ﴿فإن تولوا﴾ عن ذلك، فهذا هو الكفر، والله لا يحب الكافرين.

﴿٣٣ - ٣٤﴾ ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾ ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم إلى آخر القصة.

الله تعالى من عباده أصفاء، يصطفاهم ويختارهم، ويضع عليهم بالفضائل العالية، والتعوت السامية، والعلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والخصائص المتنوعة، فذكر هذه البيوت الكبار، وما احتوت عليه من كمال الرجال، الذين حازوا أوصاف الكمال، وأن الفضل والخير، تسلسل في ذرائعهم وشمل ذكورهم ونساءهم، وهذا

(١) قدم الشيخ - رحمه الله - هذا الجزء من الآية، وقد آثرت إبقائه على ما هو عليه، مع التنبيه إلى هذا التقديم.

من أجل منته وأفضل مواقع جوده وكرمه. ﴿والله سميع عليم﴾ يعلم من يستحق الفضل والتفضيل، فيضع فضله حيث اقتضت حكمته.

﴿٣٤ - ٣٦﴾ فلما قرر عظمة هذه البيوت، ذكر قصة مريم وابنها عيسى ﷺ، وكيف تسلسلا من هذه البيوت الفاضلة، وكيف تنقلت بهما الأحوال، من ابتداء أمرهما إلى آخره، وأن امرأة عمران، قالت - متضرعة إلى ربها، متقربة إليه بهذه القرية التي يحبها، التي فيها تعظيم بيته وملازمة طاعته -: ﴿إني نذرت لك ما في بطني محرراً﴾، أي: خادماً لبيت العباد، المشحون بالمعبدنين.

﴿فتقبل مني﴾ هذا العمل، أي: اجعله مؤسساً على الإيمان والإخلاص، مشيراً للخير والثواب، ﴿إنك أنت السميع العليم﴾ فلما وضعتها قالت رب إنني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى.

كان في هذا الكلام، نوع تضرع منها، وانكسار نفس حيث كان نذرنا بناء على أنه يكون ذكراً، يحصل منه من القوة والخدمة والقيام بذلك، ما يحصل من أهل القوة، والأنثى بخلاف ذلك، فنجبر الله قلبها، وتقبل الله نذرنا، وصارت هذه الأنثى، أكمل وأتم من كثير من الذكور، بل من أكثرهم، وحصل بها من المقاصد، أعظم مما يحصل بالذكر، ولهذا قال:

﴿فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبأها نبأاً حسناً﴾، أي: ربيت تربية عجيبة، دينية، أخلاقية، أدبية، كملت بها أحوالها، وصلحت بها أقوالها وأفعالها، ونما فيها كمالها، ويسر الله لها زكريا كافلاً.

وهذا من منة الله على العبد، أن يجعل من يتولى تربيته من الكاملين المصلحين. ﴿٣٧ - ٣٩﴾ ثم إن الله تعالى أكرم مريم وزكريا، حيث يسر لمريم من الرزق الحاصل بلاكد ولا تعب، وإنما هو كرامة أكرمها الله به.

إذ ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب﴾ وهو محل العبادة، وفيه إشارة إلى كثرة صلاتها وملازمتها لمحرابها، ﴿وجد عندها رزقاً﴾، هيئاً معداً.

﴿قال يا مريم أنى لك هذا؟ قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير

حساب﴾.

فلما رأى زكريا هذه الحال، وألبر واللفظ من الله بها، ذكره أن يسأل الله تعالى حصول الولد، على حين اليأس منه، فقال: ﴿رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء﴾ فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يشوك بيبحي مصداقاً بكلمة من الله، اسمه أي: الكلمة التي من الله (عيسى ابن مريم).

فكانت بشارته بهذا النبي الكريم، تتضمن البشارة بـ «عيسى» ابن مريم، والتصديق له، والشهادة له بالرسالة. فهذه الكلمة من الله، كلمة شريفة، اختص الله بها عيسى ابن مريم، وإلا فهي من جملة كلماته التي أوجد بها المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب، ثم قال له كن فيكون﴾.

وقوله: ﴿وسيداً وحسوراً﴾، أي: هذا المبشر به وهو يحيى، سيد من فضلاء الرسل وكرامهم: «والحضور»، قيل: هو الذي لا يولد له، ولا شهوة له في النساء، وقيل: هو الذي عصم وحفظ من الذنوب والشهوات الضارة، وهذا أليق المعنيين.

﴿ونبياً من الصالحين﴾، الذين يلغوا في الصلاح ذروته العالية.

﴿٤٠﴾ قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامراتي عاقر؟ ﴿٤١﴾ فهذان مانعان، فمن أي طريق - يا رب - يحصل لي ذلك، مع ما يتنافى ذلك؟!.

﴿قال كذلك الله يفعل ما يشاء﴾، فإنه - كما اقتضت حكمته جريان الأمور بأسبابها المعروفة، فإنه قد يخرق ذلك، لأنه الفعال لما يريد، الذي قد انقادت الأسباب لقدرته، ونفذت فيها مشيئته وإرادته، فلا يتعاضى على قدرته شيء من الأسباب، ولو بلغت في القوة، ما بلغت.

﴿٤١﴾ قال رب اجعل لي آية﴾ ليحصل السرور والاستبشار، وإن كنت - يا رب - متيقناً مما أخبرتني به، ولكن النفس تفرح، ويطمئن القلب إلى مقدمات الرحمة واللطيف.

﴿قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا﴾، ﴿و﴾ في هذه المدة «اذكر ربك كثيراً ونسج بالعشي والإبكار»، أول النهار

وآخره، فمنع من الكلام في هذه المدة، فكان في هذا، مناسبة لحصول الولد من بين الشيخ الكبير، والمرأة العاقر.

وكونه لا يقدر على مخاطبة الآمين، ولسانه منطلق بذكر الله، وتسبيحه، آية أخرى.

فحينئذ حصل له الفرح والاستبشار، وشكر الله، وأكثر من الذكر والتسبيح بالشايات والإبكار.

وكان هذا المولود من بركات مريم بنت عمران، على زكريا، فإن ما من الله به عليها، من ذلك الرزق الهنيء، الذي يحصل بغير حساب، ذكره وهينه على التضرع والسؤال، والله تعالى هو المتفضل بالسبب والمسبب، ولكنه يقدر أموراً محبوبة على يد من يحبه، ليرفع الله قدره، ويعظم أجره.

﴿٤٢﴾ ثم عاد تعالى إلى ذكر مريم، وأنها بلغت في العبادة والكمال، ميلغاً عظيماً، فقال تعالى: ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك﴾، أي: اختارك، ووهب لك من الصفات الجليلية، والأخلاق الجميلة.

﴿وطهرتك﴾ من الأخلاق الرذيلة، ﴿واصطفاك على نساء العالمين﴾، ولهذا قال ﷺ: «كامل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء، كفضل الثريد على سائر الطعام».

﴿٤٣﴾ فنادتها الملائكة عن أمر الله لها بذلك، لتغتبط بنعم الله، وتشكر الله، وتقوم بحقوقه، وتشتغل بخدمته، ولهذا قالت الملائكة: ﴿يا مريم انتني لربك﴾، أي: أكثرني من الطاعة، والخصوع والخشوع لربك، وأديمي ذلك «واسجدي واركعي مع الراكعين»، أي: صلي مع المصلين، فقامت بكل ما أمرت به، وبرزت، وفاق في كمالها.

ولما كانت هذه القصة وغيرها من أكبر الأدلة على رسالة محمد ﷺ، حيث أخبر بها مفصلة محققة، لا زيادة فيها ولا نقص، وما ذاك إلا لأنه وحي من الله العزيز الحكيم، لا يتعلم من الناس - قال تعالى -: ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم﴾، حيث جاءت بها أمها،

ويعطيه النبوة.

﴿٤٩﴾ ﴿و﴾ يجعله ﴿رسولاً﴾ إلى بني إسرائيل، ويؤيده بالآيات العينية، والأدلة القاهرة حيث قال: ﴿أنّي قد جئتكم بآية من ربكم﴾ تدلّكم أنّي رسول الله حقاً.

وذلك ﴿أنّي أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وأبرئ الأكمه﴾، وهو ممسوح العينين، الذي فقد بصره وعينيه، ﴿والأبرص﴾، وأحيي الموتى بإذن الله، وأنشئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن كنتم ذلك ﴿المذكور﴾ الآية لكم إن كنتم مؤمنين. ومصداقاً لما بين يدي من التوراة، فأئده الله بجنتين من الآيات والبراهين الخوارق المستغربة التي لا يمكن لغير الأنبياء الإتيان بها، والرسالة والدعوة، والذين الذي جاء به، وأنه دين التوراة، ودين الأنبياء السابقين، وهذا أكبر الأدلة على صدق الصادقين.

فإنه لو كان من الكاذبين، لخالف ما جاء به الرسل، ولناقضهم في أصولهم وفروعهم، فعلم بذلك أنه رسول الله، وأن ما جاء به حق لا ريب فيه.

وأيضاً فقلوه: ﴿ولاحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾، أي: ولأخفف عنكم بعض الأصناف، والأغلال.

﴿٥١﴾ ﴿فأتقوا الله وأطيعوا﴾: إن الله ربي وربكم فاعبدوه، وهذا ما يدعو إليه جميع الرسل، عبادة الله وحده لا شريك له، وطاعتهم.

وهذا هو الصراط المستقيم الذي من يسلكه أوصله إلى جنات النعيم، فحينئذ اختلفت أحزاب بني إسرائيل في عيسى، فمنهم من آمن به واتبع، ومنهم من كفر به وكذبه، ورمى أمه بالفاحشة كاليهود.

﴿٥٢﴾ ﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر﴾ والاتفاق على رد دعوته، ﴿قال﴾: نادياً لبني إسرائيل على مؤازرته ﴿من أنصاري إلى الله﴾، قال الحواريون، أي: الأنصار.

﴿نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأننا مسلمون﴾، وهذا من مئة الله عليهم، وعلى عيسى، حيث ألهم هؤلاء الحواريين، الإيمان به، والالتقاء لطاعته،

فاختصموا إليهم بكلها، لأنها بنت إمامهم ومقدمهم، وكلهم يريد الخير والأجر من الله، حتى وصلت بهم الخصومة إلى أن اقترعوا عليها، فألقوا أقلامهم مقترعين، فأصاب القرعة زكريا، رحمة من الله به وبها.

فأنت - يا أيها الرسول - لم تحضر تلك الحالة لتعرفها، فتقصها على الناس، وإنما الله نباك بها، وهذا هو المقصود الأعظم من سياق القصص أنه يحصل بها العبرة، وأعظم العبر، الاستدلال بها على التوحيد والرسالة، والبعث وغيرها من الأصول الكبار.

﴿٥٥﴾ ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين﴾، أي: له الوجاهة، والجاه العظيم في الدنيا والآخرة عند الخلق.

ومع ذلك فهو - عند الله - من المقربين، الذين هم أقرب الخلائق إلى الله، وأعلاهم درجة، وهذه بشارة لا يشبهها شيء من البشارات.

ومن تمام هذه البشارة أنه: ﴿يكلم الناس في المهدي﴾، فيكون تكليمه آية من آيات الله، ورحمة منه بأمه وبالمخلوق، ﴿و﴾ كذلك يكلمهم ﴿كهالاً﴾، أي: في حال كهولة، وهذا تكليم النبوة والدعوة والإرشاد.

فكلامه في المهدي، فيه آيات وبراهين على صدقه ونبوته، وبراهنه أمه مما يظن بها من الظنون السيئة، وكلامه في كهولته، فيه نفعه العظيم للمخلوق، وكونه واسطة بينهم وبين ربهم، في وحيه، وتبليغ دينه وشرعه.

ومع ذلك فهو ﴿من الصالحين﴾ الذين أصلح الله قلوبهم بمعرفته وحيه، وألستهم بالثناء عليه وذكره، وجوارحهم بطاعته وخدمته.

﴿٤٧﴾ ﴿قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسنني بشر﴾، وهذا من الأمور المستغربة ﴿قال كذلك الله يخلق ما يشاء﴾ ليعلم العباد أنه على كل شيء قدير، وأنه لا ممانع لإرادته.

﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ ويعلمه الكتاب، أي: جنس الكتب السابقة، والحكم بين الناس،

والنصرة لرسوله.

﴿٥٣﴾ ﴿ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول﴾، وهذا التزام تام للإيمان، بكل ما أنزل الله، ولطاعة رسوله.

﴿فأكتنا مع الشاهدين﴾ لك بالوحدانية، ولنبيك بالرسالة، ولدينك بالحق والصدق.

﴿٥٤﴾ ﴿أما من أحس عيسى منهم الكفر وهم جمهور بني إسرائيل، فإنهم ﴿مكروا﴾ بعيسى ﴿ومكروا الله﴾ بهم، ﴿والله خير الماكرين﴾، فاتفقوا على قتله وصلبه، وشبه لهم شبه عيسى.

﴿٥٥﴾ ﴿فقبضوا على من شبه لهم به، وقال الله لعيسى: ﴿إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا﴾، فرفعه الله إليه، وطهره من الذين كفروا، وصلبوا من قتلوه، طائفتين أنه عيسى، وبأوا بالاثم العظيم.

وسينزل عيسى ابن مريم، في آخر هذه الأمة حكماً عادلاً، يقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويتبع ما جاء به محمد ﷺ، ويعلم الكاذبون غرورهم وخداعهم، وأنهم مغرورون مخدوعون.

وقوله: ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾، المراد بمن اتبعه: الطائفة التي آمنت به، ونصرهم الله على من انجرف عن دينه.

ثم لما جاءت أمة محمد ﷺ، فكانوا هم أتباعه حقاً، فأيدهم الله ونصرهم على الكفار كلهم، وأظهرهم بالدين الذي جاءهم به محمد ﷺ، ﴿وعاد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض﴾، الآية.

ولكن حكمه الله عادلة، فإنها اقتضت أن من تمسك بالدين، نصره الله النصر المبين، وأن من ترك أمره ونهيه، ونبذ شرعه، وتجرأ على معاصيه، إنه يعاقبه ويسلط عليه الأعداء، ﴿والله عزيز حكيم﴾.

وقوله: ﴿ثم إلي مرجعكم، فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾.

﴿٥٦-٥٧﴾ فقد بين ما يفعله بهم، فقال: ﴿فأما الذين كفروا فاعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين﴾: وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفهم أجورهم والله لا يحب

الظالمين.

اتضح لهم الحق، ولكن العناد والتعصب منعهم منه.

مسلمون، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ إلى آخرها.

وهذا الجزء عام لكل من اتصف بهذه الأوصاف، من جميع أهل الأديان السابقة. ثم لما بعث سيد المرسلين، وخاتم النبيين، ونسخت رسالته، الرسالات كلها، ونسخ دينه، جميع الأديان، صار المتمسك بغير هذا الدين، من الهالكين.

﴿٥٨﴾ وقوله تعالى: ﴿ذلك نلوه عليكم من الآيات والذكر الحكيم﴾. أي: هذا القرآن العظيم، الذي فيه نبأ الأولين والآخرين، والأنبياء والمرسلين - هو آيات الله البينات، وهو الذي يذكر العباد كل ما يحتاجونه، وهو الحكيم المحكم، صادق الأخبار، حسن الأحكام.

﴿٥٩-٦٢﴾ وإن مثل عيسى عند الله كممثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون * الحق من ربك فلا تكن من الممترين * فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين * إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم * لما ذكر قصة مريم وعيسى وأيهما الحق، وأنه عبد أنعم الله عليه، وأن من زعم أن فيه شيئاً من الإلهية، فقد كذب على الله، وكذب جميع أنبيائه، وكذب عيسى عليه السلام، فإنه الشبهة التي عرضت لمن اتخذها إلهاً، شبهة باطلة، فلو كان لها وجه صحيح، لكان آدم أحق منه، فإن خلق من دون أم ولا أب، ومع ذلك، فاتفق البشر كلهم، على أنه عبد من عباد الله، فدعوى إلهية عيسى، بكونه خلق من أم بلا أب، دعوى من أبطل دعاوى.

﴿٦٠﴾ وهذا هو الحق الذي لا ريب فيه، أن عيسى - كما قال عن نفسه: ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن أعبدوا الله ربي وربكم﴾، وكان قد قدم على النبي ﷺ وقد نصارى نجران، وقد تصلبوا على باطلهم، بعدما أقام عليهم النبي ﷺ البراهين بأن عيسى عبد الله ورسوله، حيث زعموا إلهيته.

﴿٦١﴾ فوصلت به وبهم الحال، إلى أن أمره الله تعالى أن يباهلهم، فإنه قد

فدعاهم رسول الله ﷺ إلى المباحلة، بأن يحضر هو وأهله وأبنائه، وهم يحضرون بأهلهم وأبنائهم، ثم يدعون الله تعالى، أن ينزل عقوبته ولعنته على الكاذبين، فتشاوروا هل يجيئون إلى ذلك؟

فاتفق رأيهم أن لا يجيئوه، لأنهم عرفوا أنه نبي الله حقاً، وأنهم - إن يباهلوه - هلكوا، هم وأولادهم وأهلهم، فصالحوه ويدلوا له الجزية، وطلبوا منه المودة والمهادنة.

فأجابهم ﷺ ولم يرحجهم، لأنه حصل المقصود من وضوح الحق، وتبين عنادهم حيث صمموا على الامتناع عن المباحلة، وذلك يبرهن على أنهم كانوا ظالمين.

﴿٦٢﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿إن هذا لهو القصص الحق﴾، أي: الذي لا ريب فيه، ﴿وإن الله لهو العزيز﴾، الذي قهر بقدرته وقوته جميع الموجدات، وأذعنت له سكان الأرض والسموات.

ومع ذلك فهو ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها^(١).

﴿٦٤﴾ ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ هذه الآية الكريمة، كان النبي ﷺ يكتب بها إلى ملوك أهل الكتاب، وكان يقرأ أحياناً في الركعة الأولى من سنة الفجر: ﴿قولوا آمنا بالله﴾، الآية.

ويقرأ بها في الركعة الأخيرة من سنة الصبح، لاشتمالها على الدعوة إلى دين واحد، قد اتفق عليه الأنبياء والمرسلون، واحتوت على توحيد الإلهية المبنية على عبادة الله وحده، لا شريك له، وأن يعتقد أن البشر وجميع الخلق كلهم في طور البشرية، لا يستحق منهم أحد شيئاً من خصائص الربوبية، ولا من نعوت الإلهية.

فإن انقاد أهل الكتاب وغيرهم إلى هذا فقد اهتدوا.

و ﴿إِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا

﴿٦٥-٦٨﴾ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ مَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجِّجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين * إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين * كانت الأديان كلها، اليهود والنصارى، والمشركون، وكذلك المسلمون كلهم، يدعون أنهم على ملة إبراهيم.

فأخبر الله تعالى أن أولى الناس به، محمد ﷺ وأتباعه، وأتباع الخليل، قبل محمد ﷺ.

وأما اليهود والنصارى، والمشركون فإبراهيم بريء منهم، ومن ولايتهم، لأن دينه، الحنيفية السمحة، التي فيها الإيمان بجميع الرسل، وجميع الكتب، وهذه خصيصة المسلمين.

وأما دعوى اليهود والنصارى، أنهم على ملة إبراهيم، فقد علم أن اليهودية والنصرانية، التي هم يدعون أنهم عليها، لم تؤسس إلا بعد الخليل.

فكيف يحاجون في هذا الأمر، الذي يعلم به كذبهم واقتراؤهم؟! فهب أنهم حاجوا فيما لهم به علم، فكيف يحاجون في هذه الحالة؟ فهذا قبل أن ينظر ما احتوى عليه قولهم من البطلان، يعلم فساد دعواهم.

وفي هذه الآية دليل على أنه لا يحل للإنسان أن يقول أو يجادل فيما لا علم له به.

وقوله: ﴿والله ولي المؤمنين﴾، فكلما قوي إيمان العبد، تولاها الله بلطفه، ويسره ليسرى، وجنبه العسرى.

﴿٦٩-٧٤﴾ ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يا أهل الكتاب لم تكفروا بآيات الله وأنتم تشهدون * يا أهل الكتاب لم تلبسوا الحق بالباطل

(١) لم يفسر - رحمه الله - الآية الثالثة والستين، وقد قام النجار بإضافة تفسيرها من عنده.

ذلك، ويصرحون بالكذب على الله، وهم يعلمون حالهم وسوء مغيبهم.

﴿٧٩-٨٠﴾ «ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدبسون» ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً يأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴿أي: يمنع ويستحيل كل الاستحالة لبشر من الله عليه بالوحي والكتاب والنبوة، وأعطاه الحكم الشرعي - أن يأمر الناس بعبادته، ولا بعبادة النبيين والملائكة واتخاذهم أرباباً، لأن هذا هو الكفر، فكيف، وقد بعث بالإسلام المنافي للكفر من كل وجه، فكيف يأمر بضده؟!﴾

هذا من الممتنع، لأن حاله وما هو عليه، وما بين الله به عليه من الفضائل والخصائص، تقتضي العبودية الكاملة، والخضوع التام لله الواحد القهار.

وهذا جواب لوفد نجران، حين تبادى بهم الغرور، ووصلت بهم الحال والكبر، أن قالوا: أئامرنا - يا محمد - أن نعبدك؟ حين أمرهم بعبادة الله وطاعته، فينب البارئ انتفاء ما قالوا، وأن كلامهم وكلام أمثالهم في هذا ظاهر البطلان.

﴿٨١-٨٢﴾ «وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين» فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴿هذا إخبار منه تعالى أنه أخذ عهد النبيين وميثاقهم كلهم، بسبب ما أعطاهم ومن به عليهم، من الكتاب والحكمة، المقتضي للقيام التام، بحق الله وتوفيقه، أنه إن جاءهم رسول مصدق لما معهم، بعث بما بعثوا به من التوحيد والحق والقسط والأصول التي اتفقت عليها الشرائع، أنهم يؤمنون به، وينصرونه.

فأقرروا على ذلك، واعترفوا، والتزموا وأشهدهم، وشهد عليهم، وتوعد من خالف هذا الميثاق.

وهذا أمر عام بين الأنبياء أن جميعهم طريقهم واحد، وأن دعوة كل واحد منهم، قد اتفقت وتعاهدوا عليها، وعموم ذلك أنه أخذ على جميعهم الميثاق، بالإيمان،

الكثير، يؤده إليك، ومنهم طائفة خونة، يخونك في أقل القليل، ومع هذه الخيانة الشنيعة، فإنهم يتأولون بالأعذار الباطلة فيقولون: «ليس علينا في الأميين سبيل»، أي: ليس علينا جناح إذا خناهم واستبحنا أموالهم، لأنهم لا حرمة لهم.

قال تعالى: «ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون» أن عليهم أشد الحرج، فجمعوا بين الخيانة وبين احتقار العرب، وبين الكذب على الله، وهم يعلمون ذلك، ليسوا كمن فعل ذلك جهلاً وضلالاً.

ثم قال تعالى: «بلى»، أي: ليس الأمر كما قالوا.

فإنه «من أوفى بعهد واتقى»، أي: قام بحقوق الله، وحقوق خلقه، فإن هذا هو المتقى، والله يحبه.

أي: ومن كان بخلاف ذلك، فلم يف بعهد وعقوده، التي بينه وبين الخلق، ولا قام بتقوى الله، فإن الله يمقته، وسيجازيه على ذلك أعظم النكال.

﴿٧٧﴾ «إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم» أي: إن الذين يشترون الدنيا بالدين، فيختارون الحظاظ القليل من الدنيا، ويتوسلون إليها بالإيمان الكاذبة، والعهود المتكثرة، فهؤلاء «لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم»، أي: قد حق عليهم سحق الله، ووجب عليهم عقابه، وحرماً ثوابه، ومنعوا من التزكية، وهي التطهير.

بل يردون القيامة، وهم متلبثون بالجرائم، متدنسون بالذنوب العظام.

﴿٧٨﴾ «وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون» أي: وإن من أهل الكتاب فريقاً هم محرفون لكتاب الله، «يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب»، وهذا يشمل التحريف اللفظي، والتحريف المعنوي.

ثم هم - مع هذا التحريف الشنيع - يوهمون أنه من الكتاب، وهم كذبة في

وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النار واكفروا. آخره لعلمهم يرجعون﴾ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله أن يوتي أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴿يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ هذا من منة الله على هذه الأمة، حيث أخبرهم بمكر أعدائهم من أهل الكتاب، وأنهم - من حرصهم على إضلال المؤمنين - ينسعون المكورات الخبيثة.

فقال طائفة منهم: «آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار»، أي: أوله، وأرجعوا عن دينهم آخر النهار، فإنهم - إذا رأوكم راجعين، وهم يعتقدون فيكم العلم استرابوا بدينهم، وقالوا: لولا أنهم رأوا فيه ما لا يحببهم، ولا يوافق الكتب السابقة، لم يرجعوا.

هذا مكرهم، والله تعالى هو الذي يهدي من يشاء، وهو الذي بيده الفضل، يختص به من يشاء، فخصكم - يا هذه الأمة - بما لم يخص به غيركم. ولم يدر هؤلاء الماكرون أن دين الله حق، إذا وصلت حقيقته إلى القلوب، لم يزد صاحبها - على طول السدى - إلا إيماناً و يقيناً.

ولم تزد الشبهة، إلا تمسكاً بدينه، وحمداً لله، وثناء عليه حيث من به عليه. وقولهم: «أن يوتي أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم»، يعني: أن الذي حملهم على هذه الأعمال المنكرة، الحسد والبغي، وخشية الاحتجاج عليهم.

كما قال تعالى: «وإذا كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً، حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق»، الآية.

﴿٧٥-٧٦﴾ «ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون» بلى من أوفى بعهد واتقى فإن الله يحب المتقين ﴿يخبر تعالى عن أهل الكتاب، أن منهم طائفة أمناة، بحيث لو أمنته على قناطير من النقود، وهي المال

الوجه، كان قيامه ببقية الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة، من طريق الأولى والأخرى، ومع أن النفقة من الطيبات، هي أكمل الحالات، فمهما أنفق العبد من نفقة قليلة أو كثيرة من طيب أو غيره، فإن الله به عليم.

وسيجزي كل متفق، بحسب عمله، سيجزيه في الدنيا بالخلف العاجل، وفي الآخرة بالنعيم الآجل.

﴿٩٣-٩٤﴾ «كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين» فمن افتري على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون من جملة الأمور التي قدح فيها اليهود بنسبة عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم، أنهم زعموا أن النسخ باطل، وأنه لا يمكن أن يأتي نبي يخالف النبي الذي قبله.

فكذبهم الله بأمر يعرفونه، فإنهم يعترفون بأن جميع الطعام - قبل نزول التوراة - كان حلالاً لبني إسرائيل، إلا أشياء يسيرة جرمها إسرائيل، وهو يعقوب عليه السلام - على نفسه ومنعها إياه لمرض أصابه.

ثم إن التوراة، فيها من التحريمات التي نسخت، ما كان حلاً قبل ذلك شيء كثير.

قل لهم - إن أنكروا ذلك - «فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين» بزعمكم أنه لا نسخ ولا تحليل ولا تحريم.

وهذا من أبلغ الحجج، أن يحتج على الإنسان بأمر يقوله ويعترف به ولا ينكره، فإن انقاد للنق، فهو الواجب، وإن أبى ولم يشق بعد هذا البيان، تبين كذبه واقتراؤه، وظلمه ويطلان ما هو عليه، وهو الواقع من اليهود.

﴿٩٥﴾ «قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين» أي: قل صدق الله في كل ما قاله، ومن أصدق من الله قبلاً وحديثاً، وقد بين في هذه الآيات، من الأدلة على صحة رسالية محمد ﷺ، وإبراهيم دعوته، ويطلان ما عليه المتحرفون من أهل الكتاب، الذين كذبوا برسوله، وردوا دعوته، فقد صدق الله في ذلك، وأقنع عباده على ذلك، بإبراهيم وحجج، تتصنع لها الجبال، وتخضع لها الرجال.

أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين يعني: أنه يبعد كل البعد، أن يهدي الله قوماً عرفوا الإيمان، ودخلوا فيه، وشهدوا أن الرسول حق، ثم ارتدوا على أعقابهم، ناكسين ناكسين؛ لأنهم عرفوا الحق فرفضوه.

ولأن من هذه الحالة وصفه، فإن الله يعاقبه بالانتكاس، وانقلاب القلب جزاء له، إذ عرف الحق فكرهه، والباطل فأثره، فوالله ما تولى لنفسه.

فهؤلاء «عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» خالدين في اللعنة والعذاب «لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون» إذا جاءهم أمر الله لأن الله، عمرهم ما يتذكر فيه من تذكر، وجاءهم النذير.

ثم إنه تعالى استثنى من هذا الوعيد، التائبين من كفرهم وذنوبهم، المصلحين لعيوبهم، فإن الله يعفو لهم ما قدموه، ويعفو عنهم ما أسلفوه.

﴿٩١﴾ ولكن من كفر وأصر على كفره، ولم يزد إلا كفراً حتى مات على كفره، فهؤلاء هم البضالون عن طريق الهدى، السالكون لطريق الشقاء، وقد استحقوا بهذا العذاب الأليم، فليس لهم ناصر من عذاب الله، ولرب يذلوا ملء الأرض ذهباً ليفتدوا به، ليم يفتعهم شيئاً، فعياً بالله من الكفر وفروعه.

﴿٩٢﴾ «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم» يعني: لن تنالوا وتدركو البر، الذي هو اسم جامع للخيرات، وهو الطريق الموصل إلى الجنة، حتى تنفقوا مما تحبون، من أطيب أموالكم وأزكاها.

فإن النفقة من الطيب المحبوب للنفوس، من أكبر الأدلة على سماحة النفس، واتصافها بمكارم الأخلاق، وزحمتها ورقتها.

ومن أدل الدلائل على محبة الله، وتقديم محبته على محبة الأموال، التي جبلت النفوس على قوة التعلق بها، فمن أثر محبة الله على محبة نفسه، فقد بلغ الذروة العليا من الكمال، وكذلك من أنفق الطيبات، وأحسن إلى عباد الله، أحسن الله إليه ووقعه أعمالاً وأخلاقاً، لا تحصل بدون هذه الحالة.

وأيضاً فمن قام بهذه النفقة على هذا

والنصرة لمحمد ﷺ.

فمن ادعى أنه من أتباعهم، فهذا دينهم الذي أخذ الله عليهم، وأقرؤا به واعترفوا.

فمن تولى عن اتباع محمد، ممن يزعم أنه من أتباعهم، فإنه فاسق خارج عن طاعة الله، مكذب للرسول الذي يزعم أنه من أتباعه، مخالف لطريقه.

وفي هذا إقامة الحججة والبرهان، على كل من لم يؤمن بمحمد ﷺ من أهل الكتب والأديان، وأنه لا يمكنهم الإيمان برسولهم، الذين يزعمون أنهم أتباعهم، حتى يؤمنوا بإمامهم وخاتمهم.

﴿٨٣-٨٥﴾ «أنغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون» قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والتبیین من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون» ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين» قد تقدم في سورة البقرة أن هذه الأصول التي هي أصول الإيمان التي أمر الله بها هذه الأمة، قد اتفقت عليها الكتب والرسول، وأنها هي الفرض الموجه لكل أحد، وأنها هي الدين والإسلام الحقيقي، وأن من ابتغى غيرها، فعمله مردود، وليس له دين يعول عليه.

فمن زهد عنه، ورغب عنه، فأين يذهب؟ إلى عبادة الأشجار والأحجار والنيران؟ أو إلى اتخاذ الأبحار والرهبان والصنبيان، أو إلى التعطيل لرب العالمين؟ أو إلى الأديان الباطلة، التي هي من وحي الشياطين؟ وهؤلاء كلهم - في الآخرة - من الخاسرين.

﴿٨٦-٩١﴾ «كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين» أولئك جزأؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون» إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم» إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون» إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدي به

عظيم ﴿ هذه الآيات فيها حث الله عباده المؤمنين أن يقوموا بشكر نعمه العظيمة، بأن يتقوه حق تقواه، وأن يقوموا بطاعته، وترك معصيته، مخلصين له بذلك، وأن يقيموا دينهم، ويستمسكوا بحبله الذي أوصله إليهم، وجعله النسب بينهم وبينه، وهو دينه، وكتابه، والاجتماع على ذلك وعدم التفرق، وأن يستديموا ذلك إلى الممات.

وذكرهم ما هم عليه قبل هذه النعمة، وهو: أنهم كانوا أعداء متفرقين، فجمعهم بهذا الدين، وألف بين قلوبهم، وجعلهم إخواناً، وكانوا على شفا حفرة من النار، فأنقذهم من الشقاء، ونهج بهم طريق السعادة.

﴿ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ إلى شكر الله والتمسك بحبله، وأمرهم بتتميم هذه الحالة، والسبب الأخرى الذي يتمكنون به من إقامة دينهم، بأن يتصدى منهم طائفة يحصل فيها الكفاية.

﴿ يدعون إلى الخير ﴾ وهو الذين، أصوله، وفروعه وشرائعه.

﴿ ويأمرون بالمعروف ﴾ وهو ما عرف حسنه شرعاً وعقلاً.

﴿ وينهون عن المنكر ﴾ وهو ما عرف قبحه شرعاً وعقلاً.

﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ المدركون لكل مطلوب، الناجون من كل مرهوب.

ويدخل في هذه الطائفة أهل العلم والتعليم، والمتصدون للخطابة ووعظ الناس، عموماً وخصوصاً، والمحتسبون الذين يقومون بإلزام الناس بإقامة الصلوات، وإيتاء الزكاة، والقيام بشرائع الدين، وينهونهم عن المنكرات.

فكل من دعا الناس إلى خير على وجه العموم، أو على وجه الخصوص، أو قام بنصيحة عامة أو خاصة، فإنه داخل في هذه الآية الكريمة.

ثم نهاهم عن سلوك مسلك المتفرقين، الذين جاءهم الدين والبيئات، الموجب لقيامهم به، واجتماعهم، فتفرقوا واختلّفوا وصاروا شيعاً، ولم يصدر ذلك عن جهل

النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم - ويخ المعاندين منهم بكفرهم بآيات الله، وصددهم الخلق عن سبيل الله، لأن عوامهم تبع لعلمائهم، والله تعالى يعلم أحوالهم وسيجازيهم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

﴿ ١٠٠ - ١٠١ ﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾ وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ﴿ لما أقام الحجج على أهل الكتاب، ووبخهم بكفرهم وعنادهم، حذر عباده المؤمنين عن الاغترار بهم، وبين لهم أن هذا الفريق منهم، خريصون على إضراركم وردكم إلى الكفر بعد الإيمان.

ولكن - والله الحمد - أنتم - يا معشر المؤمنين - بعد ما من الله عليكم بالدين، ورأيتم آياته ومحاسنه ومناقبه وفضائله، وفيكم رسول الله الذي أرشدكم إلى جميع مصالحكم، واعتصمتم بالله وبحبله، الذي هو دينه - يستحيل أن يردوكم عن دينكم، لأن الدين الذي بني على هذه الأصول والدعائم الثابتة الأساس، المشرقة الأنوار، تنجذب إليه الأفئدة، ويأخذ بنجامع القلوب، ويوصل العباد إلى أجل غاية، وأفضل مطلوب.

﴿ ومن يعتصم بالله ﴾، أي: يتوكل عليه، ويحتمي بحماه، ﴿ فقد هدى إلى صراط مستقيم ﴾، وهذا فيه الحث على الاعتصام به، وأنه السبيل إلى السلامة والهداية.

﴿ ١٠٢ - ١٠٥ ﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴿ ولكن منكم أمة بدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب

فنعين عند ذلك على الناس كلهم، اتباع ملة إبراهيم، من توحيد الله وحده لا شريك له، وتصديق كل رسول أرسله الله، وكل كتاب أنزله، والإعراض عن الأديان الباطلة المنحرفة.

فإن إبراهيم كان معرضاً عن كل ما يخالف التوحيد، متبرئاً من الشرك وأهله.

﴿ ٩٦ - ٩٧ ﴾ ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ﴾ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴿ يخبر تعالى بعظمة بيته الحرام، وأنه أول البيوت التي وضعها الله في الأرض لعبادته، وإقامة ذكره، وأن فيه من البركات، وأنواع الهدايات، وتوسع المصالح والمنافع للعالمين - شيء كثير، وفضل غزير، وأن فيه آيات بينات، تذكر بمقامات إبراهيم الخليل، وتنتقلاته في الحج، ومن بعده تذكر بمقامات سيد الرسل وإمامهم.

وفيه الأمن^(١) الذي من دخله كان آمناً قدراً، مؤمناً شرعاً ودينياً.

فلما احتوى على هذه الأمور التي هذه مجملاتها، وتكثر تفصيلاتها - أوجب الله حجه على المكلفين المستطيعين إليه سبيلاً، وهو الذي يقدر على الوصول إليه بأي مركوب يناسبه، وزاد يتزوده، ولهذا أتى بهذا اللفظ الذي يمكنه تطبيقه على جميع المركوبات الحادثة، والتي ستحدث.

وهذا من آيات القرآن، حيث كانت أحكامه صالحة لكل زمان وكل حال، ولا يمكن الصلاح التام بدونها، فمن أذعن لذلك وقام به، فهو من المهتدين المؤمنين، ومن كفر، فلم يلتزم حج بيته، فهو خارج عن الدين، ومن كفر، فإن الله غني عن العالمين.

﴿ ٩٨ - ٩٩ ﴾ ﴿ قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون ﴾ قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله غافل عما تعملون ﴿ لما أقام، فيما تقدم، الحجج على أهل الكتاب - مع أنهم قبل ذلك، يعرفون

(١). مراد المؤلف - رحمه الله - في أي من الحرم: الأمين وقد غيّرت الكلمة في المطبوع إلى: وفيه الحرم الذي من دخله.

وضلال، وإنما صدر عن علم وقصد سييء، وبغى من بعضهم على بعض، ولهذا قال: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿١٠٦-١٠٧﴾ ثم بيّن متى يكون هذا العذاب العظيم، ويسمى هذا العذاب الأليم، فقال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾. وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون.

يعبر تعالى، بتفاوت الخلق يوم القيامة، في السعادة والشقاوة، وأنه تبيض وجوه أهل السعادة، الذين آمنوا بالله، وصدقوا رسله، وامتلأوا أمره، واجتنبوا نهيه، وأن الله تعالى، يدخلهم الجنة ويفيض عليهم أنوار الكرامات، وهم فيها خالدون.

وتسود وجوه أهل الشقاوة، الذين كذبوا رسله، وعصوا أمره، وفرقوا دينهم شيعاً وأنهم يويخون، فيقال لهم: ﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾، فكيف اخترتم الكفر على الإيمان؟

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

﴿١٠٨-١٠٩﴾ ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْتَلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾. والله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور، يشني تعالى، على ما قصه على نبيه من آياته، التي حصل بها الفرقان بين الحق والباطل، وبين أولياء الله وأعدائه، وما أعد لهؤلاء من الثواب، وللآخرين من العقاب، وأن ذلك مقتضى فضله وعدله، وحكمته، وأنه لم يظلم عباده، ولم ينقصهم من أعمالهم، أو يعذب أحداً بغير ذنبه، أو يحمل عليه وزر غيره.

ولما ذكر أنه له الأمر والشرع، ذكر أن له تمام الملك والتصرف والسلطان، فقال: ﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورَ﴾، فيجازي المحسنين بإحسانهم، والمسيئين بعصيانهم.

وكثيراً ما يذكر الله أحكامه الثلاثة مجتمعة ببيان لعباده أنه الحاكم المطلق، فله الأحكام القدوة والأحكام الشرعية،

والأحكام الجزائية، فهو الحاكم بين عباده في الدنيا والآخرة.

ومن سواه من المخلوقات، محكوم عليها ليس لها من الأمر شيء.

﴿١١٠-١١١﴾ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينتصرون. هذا تفضيل من الله لهذه الأمة بهذه الأسباب، التي تميزوا بها وفاقوا بها سائر الأمم، وأنهم خير الناس للناس، نصحاء، ومحبة للخير، ودعوة، وتعليماً، وإرشاداً، وأمرأ بالمعروف، ونهيأ عن المنكر، وجمعاً بين تكميل الخلق، والسعي في منافعهم، بحسب الإمكان، وبين تكميل النفس بالإيمان بالله، والقيام بحقوق الإيمان.

وأن أهل الكتاب، لو آمنوا بسبل ما آمنتم به، لاهتدوا وكان خيراً لهم، ولكن لم يؤمن منهم إلا القليل، وأما الكثير، فهم فاسقون، خارجون عن طاعة الله، وطاعة رسوله، محاربون للمؤمنين، ساعون في إضرارهم بكل مقدورهم، ومع ذلك، فلن يضروا المؤمنين إلا أذى باللسان، ولا قلوباً قاتلوهم، لولوا الأدبار، ثم لا ينصرون.

وقد وقع ما أخبر الله به، فإنهم لما قاتلوا المسلمين، ولوا الأدبار، ونصر الله المسلمين عليهم.

﴿١١٢﴾ ﴿ضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ أَيْنَ مَا ثَقَفُوا إِلَّا يَحْبِلُ مِنَ اللَّهِ وَحَبِلَ مِنَ النَّاسِ وَيَأْؤُوهُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةَ ذَلِكَ بَأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾. هذا إخبار من الله تعالى أن اليهود ضربت عليهم الدلة، فهم خائفون أينما ثقفوا، ولا يؤمنهم شيء إلا معاهدة، وسبب يأمنون به، يرضخون لأحكام الإسلام، ويعترفون بالجزية.

أو ﴿يَحْبِلُ مِنَ النَّاسِ﴾، أي: إذا كانوا تحت ولاية غيرهم ونظارتهم، كما شوهد

خالهم سابقاً ولاحقاً، فإنهم لم يتمكنوا في الوقت الأخير من الملك المؤقت في فلسطين، إلا بنصر الدول الكبرى، وتمييدهم لهم كل سبباً^(١).

﴿وَيَأْؤُوهُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾، أي: قد غضب الله عليهم، وعاقبهم بالدلة والمسكنة، والسبب في ذلك كفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق، أي ليس ذلك عن جهل، وإنما هو بغى وعناد.

تلك العقوبات المتنوعة عليهم ﴿بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾، فالله تعالى لم يظلمهم ويعاقبهم بغير ذنب، وإنما الذي أجراه عليهم بسبب بغيتهم وعدوانهم، وكفرهم وتكذيبهم للرسل، وجناباتهم الفظيعة.

﴿١١٣-١١٥﴾ ﴿لَيْسَ سَوَاءَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾. يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات. وأولئك من الصالحين ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾. لما ذكر الله المنحرفين من أهل الكتاب، بيّن حالة المستقيمين منهم، وأن منهم أمة مقيمين لأصول الدين وفروعه.

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾، وهو الخير كله، وينهون عن المنكر وهو جميع الشر. كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ قَوْمُ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾.

﴿وَيَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾. والمسارة إلى الخيرات، قدر زائد على مجرد فعلها، فهو وصف لهم بفعل الخيرات، والمبادرة إليها، وتكميلها بكل ما تتم به من واجب ومستحب.

ثم بين تعالى أن كل ما فعلوه، من خير قليل أو كثير، فإن الله تعالى سيقبله، حيث كان صادراً عن إيمان وإخلاص، ﴿فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾، يعني: لن يتكر ما عملوه، ولن يهدر.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾، وهم الذين قاموا بالخيرات، وتركوا المحرمات،

(١) قد يشكل - على القارئ - هذا التوضيح إذ هو عن ملك اليهود لفلسطين مع أن الشيخ ألف التفسير قبل ذلك، ولكن هذه الجملة الموضوعية بين القوسين المركبتين زيادة من هامش النسخة، لعل الشيخ كتبها بعد سنين من كتابته التفسير، والله أعلم.

لقصد رضا الله، وطلب ثوابه.

﴿١١٦-١١٧﴾ «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا. كمثل ربح فيها صر أصابته حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون» بَيَّنَّ تَعَالَى: أَنَّ الْكَافِرَ، الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ، وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ، أَنَّهُ لَا يَنْقُذُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مَنَقَذٌ، وَلَا يَنْفَعُهُمْ نَافِعٌ، وَلَا يَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ شَافِعٌ، وَأَنَّ أَمْوَالَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ، الَّتِي كَانُوا يِعْدُونَهَا لِلشَّدَائِدِ وَالْمَكَارِهِ، لَا تَفِيدُهُمْ شَيْئاً، وَأَنَّ نَفَقَاتِهِمُ الَّتِي أَنْفَقُوهَا فِي الدُّنْيَا، لَنْصَرٍ بِاطْلَمِهِمْ، سَتَضْمَحَلُّ.

وَأَنَّ مِثْلَهَا «كَمِثْلٍ» حَرِثَ أَصَابَتْهُ «رِيحٌ» شَدِيدَةٌ «فِيهَا صَرْ» أَي: بَرْدٌ شَدِيدٌ، أَوْ نَارٌ مُحَرِّقَةٌ، فَأَهْلَكَتْ ذَلِكَ الْحَرِثَ، وَذَلِكَ بِظُلْمِهِمْ فَلَمْ يَظْلَمَهُمُ اللَّهُ وَيُعَاقِبُهُمْ بِغَيْرِ ذَنْبٍ، وَإِنَّمَا ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ.

وهذه كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، فَسَيَنْفَقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾.

﴿١١٨-١١٩﴾ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدَوَا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخْنِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ» هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تَحِبُّونَهُمْ وَلَا يَحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقَاكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا عَضُوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلُ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ إِنْ تُمْسِكُمْ حَسَنَةً تَسْؤُوكُمْ وَإِنْ تَصْبِكُمْ سَيِّئَةً يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ» هذا تحذير من الله لعباده عن ولاية الكفار، واتخاذهم بطانة، أو خصيصة وأصدقاء، يسرون إليهم، ويفضون لهم بأسرار المؤمنين، فوضح لعباده المؤمنين، الأمور الموجبة للبراءة من اتخاذهم بطانة بأنهم لا يألوكم خبالاً، أي: هم حريصون غير مقصرين، في إيصال الضرر بكم، وقد بدت البغضاء من كلامهم، وقللت السننهم، وما تخفيه صدورهم، من البغضاء والعداوة، أكبر مما ظهر لكم من أقوالهم وأفعالهم.

فإن كانت لكم فهم وعقول، فقد وضح الله لكم أمرهم.

وأيضاً، فما المزعج لمحببتهم واتخاذهم أولياء وبطانة، وقد تعلمون منهم الانحراف العظيم في الدين وفي مقابلة إحسانكم؟

فأنتم مستقيمون على أديان الرسل، تؤمنون بكل رسول أرسله الله، وبكل كتاب أنزله الله، وهم يكفرون بأجل الكتب، وأشرف الرسل، وأنتم تبدلون لهم من الشفقة والمحبة، ما لا يكافئونكم على أقل القليل منه. فكيف تحبونهم، وهم لا يحبونكم، وهم يذاهبونكم وينفقونكم، فإذا لقوكم قالوا آمنا، وإذا خلوا مع بني جنسهم، عضوا عليكم الأنامل، من شدة الغيظ والبغض لكم ولدينكم.

قال تعالى: «قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ»، أي: سترون من عز الإسلام وذل الكفر ما يسوؤكم، وتموتون بغضكم، فلن تدرؤا شفاء ذلك بما تقصدون.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، فلذلك بيّن لعباده المؤمنين، ما تطوي عليه صدور أعداء الدين من الكفار والمنافقين.

﴿إِنْ تُمْسِكُمْ حَسَنَةً﴾ عز ونصر وعافية وخير «تَسْؤُوكُمْ، وَإِنْ تَصْبِكُمْ سَيِّئَةً» من إدالة العدو، أو حصول بعض المصائب الدنيوية «يفرحوا بها»، وهذا وصف العدو الشديد عداوته.

لَمَّا بَيَّنَّ تَعَالَى شِدَّةَ عِدَاوَتِهِمْ، وَشَرَحَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الصِّفَاتِ الْخَبِيْثَةِ، أَمَرَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّبْرِ، وَلِزُومِ التَّقْوَى، وَأَنَّهُمْ إِذَا قَامُوا بِذَلِكَ، فَلَنْ يَضُرَّهُمْ كَيْدُ أَعْدَائِهِمْ شَيْئاً، فَإِنَّ اللَّهَ مُحِيطٌ بِهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ وَبِمَكَائِلِهِمْ، الَّتِي يَكِيدُونَكُمْ فِيهَا.

وقد وعدكم عند القيام بالتقوى، أنهم لا يضرؤنكم شيئاً، فلا تشكوا في حصول ذلك.

﴿١٢١-١٢٢﴾ «وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ، إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ. وَذَلِكَ يَوْمَ «أَحَدٍ» حِينَ خَرَجَ ﷺ بِالْمُسْلِمِينَ، حِينَ وَصَلَ الْمُشْرِكُونَ - بِجَمْعِهِمْ - إِلَى قَرِيبٍ مِنْ «أَحَدٍ». فَتَرَّلَهُمْ ﷺ سَنَازِلَهُمْ، وَرَتَّبَهُمْ فِي مَقَاعِدِهِمْ، وَنَظَّمَهُمْ تَنْظِيماً عَجَبِيّاً، يَدُلُّ عَلَى كِمَالِ رَأْيِهِ وَبِرَاعَتِهِ الْكَامِلَةِ فِي فَنُونِ السِّيَاسَةِ وَالْحَرْبِ، كَمَا كَانَ كَامِلاً فِي كُلِّ الْمَقَامَاتِ.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَمُورِكُمْ.

﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ وَهُم بَنُو سُلَيْمَةَ وَبَنُو حَارِثَةَ، لَكِنْ تَوَلَّاهُمَا الْبَارِي بِلُطْفِهِ وَرِعَايَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فليتوكل المؤمنون﴾ فإنهم إذا توكلوا عليه، كفاهم وأعانهم، وعصمهم من وقوع ما يضرهم، في دينهم ودنياهم.

وفي هذه الآية ونحوها، وجوب التوكل وأنه على حسب إيمان العبد، يكون توكله، والتوكل هو اعتماد العبد على ربه في حصول منافعه، ودفع مضاره، فلما ذكر حالهم في «أحد» وما جرى عليهم من المصيبة، أدخل فيها تذكيرهم بنصره، ونعمته عليهم يوم «بدر» ليكونوا شاكرين لربه، وليخفف هذا هذا، فقال: «ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة» في عددكم وعددكم، فكانوا ثلاثمائة، وبضعة عشر، في قلة ظهر، ورثائة سلاح، وأعداؤهم يناهزون الألف، في كمال العدة والسلاح.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكِرُونَ﴾ الذي أنعم عليكم بنصره.

﴿إِذْ تَقُولُ﴾ مبشراً «لِلْمُؤْمِنِينَ» مِثْبَئاً لِحُجَّتِهِمْ: «أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ» بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا، أَي: مِنْ حِمْلَتِهِمْ هَذِهِ بِهَذَا الْوَجْهِ.

﴿يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾، أَي: مُعَلِّمِينَ عِلْمَةَ الشُّجْعَانِ.

واختلف الناس، هل كان هذا الإمداد حصل فيه من الملائكة، مباشرة للقتال، كما قاله بعضهم، أو أن ذلك تثبيت من الله لعباده المؤمنين، وإلقاء الرعب في قلوب المشركين كما قاله كثير من المفسرين.

ويدل عليه قوله: «وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ»، وفي هذا أن الأسباب لا يعتمد عليها العبد، بل يعتمد على الله.

وإنما الأسباب وتوفرها، فيها طمأنينة للقلوب، وثبات على الخير.

﴿ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكتبهم فينقلبوا خائبين﴾، أَي: نصر الله لعباده المؤمنين، لَا يَعْدُو أَنْ يَكُونَ قِطْعاً لَطَرْفِ

اللازمة، كمال المغفرة والرحمة، ووجود مقتضياتهما في الخلق والأمر، يغفر للتائبين، ويرحم من قام بالأسباب الموجبة للرحمة، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

تم الجزء المجلد الأول من تيسير الرحيم الرحمن في تفسير القرآن بخط مؤلفه عبد الرحمن الناصر بن سعدي ربيع أول ١٣٤٣. غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم وولييه المجلد الثاني أوله يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا.

وهؤلاء الذين دعوت عليهم، أيها الرسول، أو استعبدت فلاحهم وهدايتهم، إن شاء الله تاب عليهم، ووقفهم للدخول في الإسلام، وقد فعل، فإن أكثر أولئك هدامهم الله فأسلموا.

وإن شاء عذبهم، فإنهم ظالمون، مستحقون لعقوبات الله وعذابه.

﴿١٢٩﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يخبر تعالى، أنه هو المتصرف في العالم العلوي والسفلي، وأنه يتوب على من يشاء، فيغفر له، ويخذل من يشاء، فيعذبه.

﴿والله غفور رحيم﴾ فمن صفة

من الكفار، أو ينقلبوا بغيتهم، لم ينالوا خيراً، كما أرجعهم يوم الخندق، بعدما كانوا قد أتوا على حرد قادرين، أرجعهم الله بغيتهم خائنين.

﴿١٢٨﴾ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ لما أصيب ﷺ يوم «أحد» وكسرت ربابيته، وشج في رأسه، جعل يقول: «كيف يفلح قوم، شجوا وجه نبيهم، وكسروا ربابيته»، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وبين أن الأمر كله لله، وأن الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء، لأنه عبد من عبيد الله، والجميع تحت عبودية ربه، مديرون لا مديرون.

﴿١٢٩﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يخبر تعالى، أنه هو المتصرف في العالم العلوي والسفلي، وأنه يتوب على من يشاء، فيغفر له، ويخذل من يشاء، فيعذبه.

﴿١٢٨﴾ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ لما أصيب ﷺ يوم «أحد» وكسرت ربابيته، وشج في رأسه، جعل يقول: «كيف يفلح قوم، شجوا وجه نبيهم، وكسروا ربابيته»، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وبين أن الأمر كله لله، وأن الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء، لأنه عبد من عبيد الله، والجميع تحت عبودية ربه، مديرون لا مديرون.

﴿١٢٩﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يخبر تعالى، أنه هو المتصرف في العالم العلوي والسفلي، وأنه يتوب على من يشاء، فيغفر له، ويخذل من يشاء، فيعذبه.

﴿١٢٨﴾ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ لما أصيب ﷺ يوم «أحد» وكسرت ربابيته، وشج في رأسه، جعل يقول: «كيف يفلح قوم، شجوا وجه نبيهم، وكسروا ربابيته»، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وبين أن الأمر كله لله، وأن الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء، لأنه عبد من عبيد الله، والجميع تحت عبودية ربه، مديرون لا مديرون.

فهرس أسماء السور

٦٩٢	تفسير سورة يس	٣٩	تفسير سورة الفاتحة
٧٠٠	تفسير سورة الصافات	٤٠	تفسير سورة البقرة
٧٠٩	تفسير سورة ص	١٢١	تفسير سورة آل عمران
٧١٧	تفسير سورة الزمر	١٦٣	تفسير سورة النساء
٧٣١	تفسير سورة المؤمن (غافر)	٢١٨	تفسير سورة المائدة
٧٤٤	تفسير سورة فصلت	٢٥٠	تفسير سورة الأنعام
٧٥٢	تفسير سورة الشورى	٢٨٣	تفسير سورة الأعراف
٧٦٢	تفسير سورة الزخرف	٣١٥	تفسير سورة الأنفال
٧٧١	تفسير سورة الدخان	٣٢٨	تفسير سورة براءة (التوبة)
٧٧٥	تفسير سورة الجاثية	٣٥٧	تفسير سورة يونس
٧٧٩	تفسير سورة الأحقاف	٣٧٦	تفسير سورة هود
٧٨٤	تفسير سورة القتال (محمد ﷺ)	٣٩٣	تفسير سورة يوسف
٧٩١	تفسير سورة الفتح	٤١٢	تفسير سورة الرعد
٧٩٩	تفسير سورة الحجرات	٤٢١	تفسير سورة إبراهيم
٨٠٣	تفسير سورة ق	٤٢٩	تفسير سورة الحجر
٨٠٨	تفسير سورة الذاريات	٤٣٥	تفسير سورة النحل
٨١٣	تفسير سورة الطور	٤٥٣	تفسير سورة بني إسرائيل (الإسراء)
٨١٨	تفسير سورة النجم	٤٦٩	تفسير سورة الكهف
٨٢٣	تفسير سورة اقترت (الانشقاق)	٤٨٩	تفسير سورة مريم
٨٢٨	تفسير سورة الرحمن	٥٠١	تفسير سورة طه
٨٣٢	تفسير سورة الواقعة	٥١٨	تفسير سورة الأنبياء
٨٣٧	تفسير سورة الحديد	٥٣٢	تفسير سورة الحج
٨٤٣	تفسير سورة قد سمع الله (المجادلة)	٥٤٧	تفسير سورة المؤمنون
٨٤٨	تفسير سورة الحشر	٥٦١	تفسير سورة النور
٨٥٤	تفسير سورة الممتحنة	٥٧٧	تفسير سورة الفرقان
٨٥٨	تفسير سورة الصف	٥٨٩	تفسير سورة الشعراء
٨٦٢	تفسير سورة الجمعة	٦٠٠	تفسير سورة النمل
٨٦٤	تفسير سورة المنافقون	٦١١	تفسير سورة القصص
٨٦٦	تفسير سورة التغابن	٦٢٦	تفسير سورة العنكبوت
٨٦٩	تفسير سورة الطلاق	٦٣٦	تفسير سورة الروم
٨٧٢	تفسير سورة التحريم	٦٤٦	تفسير سورة لقمان
٨٧٥	تفسير سورة الملك (تبارك)	٦٥٣	تفسير سورة السجدة
٨٧٨	تفسير سورة ن (القلم)	٦٥٧	تفسير سورة الأحزاب
٨٨٢	تفسير سورة الحاقة	٦٧٤	تفسير سورة سبأ
٨٨٥	تفسير سورة سأل سائل (المعارج)	٦٨٤	تفسير سورة فاطر

٩٢٩	تفسير سورة ألم نشرح لك صدرك (الشرح)
٩٢٩	تفسير سورة التين
٩٣٠	تفسير سورة اقرأ (العلق)
٩٣١	تفسير سورة القدر
٩٣١	تفسير سورة لم يكن (البيئة)
٩٣٢	تفسير سورة إذا زلزلت (الزلزلة)
٩٣٢	تفسير سورة العاديات
٩٣٣	تفسير سورة القارعة
٩٣٣	تفسير سورة الهاكم التكاثر (التكاثر)
٩٣٤	تفسير سورة العصر
٩٣٤	تفسير سورة الهمزة
٩٣٤	تفسير سورة الفيل
٩٣٥	تفسير سورة لا يلاف قريش (قريش)
٩٣٥	تفسير سورة الماعون
٩٣٥	تفسير سورة الكوثر
٩٣٦	تفسير سورة الكافرون
٩٣٦	تفسير سورة النصر
٩٣٦	تفسير سورة تبت (اللهب)
٩٣٧	تفسير سورة الإخلاص
٩٣٧	تفسير سورة الفلق
٩٣٧	تفسير سورة الناس

٨٨٨	تفسير سورة نوح
٨٩٠	تفسير سورة قل أوحى إلي (الجن)
٨٩٢	تفسير سورة المزمل
٨٩٥	تفسير سورة المدثر
٨٩٨	تفسير سورة القيامة
٩٠٠	تفسير سورة الإنسان (الدهر)
٩٠٣	تفسير سورة المرسلات
٩٠٦	تفسير سورة عم (النبا)
٩٠٨	تفسير سورة عبس
٩١٠	تفسير سورة التكويد
٩١٢	تفسير سورة الانفطار
٩١٤	تفسير سورة المعطفين
٩١٥	تفسير سورة الانشقاق
٩١٨	تفسير سورة البروج
٩١٩	تفسير سورة الطارق
٩٢٠	تفسير سورة سبح (الأعلى)
٩٢١	تفسير سورة الغاشية
٩٢٣	تفسير سورة الفجر
٩٢٤	تفسير سورة لا أقسم بهذا البلد (البلد)
٩٢٦	تفسير سورة والشمس وضحاها (الشمس)
٩٢٦	تفسير سورة الليل
٩٢٨	تفسير سورة الضحى